

العقد الفريد

ابن عبد ربه الأندلسي

To PDF: www.al-mostafa.com

كتاب اللؤلؤة في السلطان

السلطان زمام الأمور، ونظام الحقوق، وقوام الحدود، والقطب الذي عليه مدار الدنيا؛ وهو حمى الله في بلاده، وظله الممدود على عبادته؛ به يمتنع حريمهم، وينتصر مظلومهم، وينقمع ظالمهم، ويأمن خائفهم.

قالت الحكماء: إمام عادل، خير من مطر وابل؛ وإمام غشوم، خير من فتنة تدوم؛ ولما يزع الله بالسلطان أكثر ما يزع بالقرآن. وقال وهب بن منبه: فيما أنزل الله على نبيه داود عليه السلام: إني أنا الله مالك الملوك، قلوب الملوك بيدي، فمن كان لي على طاعة جعلت الملوك عليهم نعمة، ومن كان لي على معصية جعلت الملوك عليهم نقمة. فحق على من قلده الله أزمة حكمه، وملكه أمور خلقه؛ واختصه بإحسانه، ومكن له في سلطانه، أن يكون من الاهتمام بمصالح رعيته، والاعتناء بمراق أهل طاعته؛ بحيث وضعه الله عز وجل من الكرامة، وأجرى له من أسباب السعادة. قال الله عز وجل: "الذين إن مكناهم في الأرض أقاموا الصلاة وآتوا الزكاة وأمروا بالمعروف ونهوا عن المنكر والله عاقبة الأمور". وقال حذيفة بن اليمان: ما مشى قوم قط إلى سلطان الله في الأرض ليدلوه إلا أذهم الله قبل موتهم. وقال النبي صلى الله عليه وسلم: عدل ساعة في حكومة خير من عبادة ستين سنة. وقال صلى الله عليه وسلم: كلكم راع وكل راع مسئول عن رعيته. وقال الشاعر:

وكل سيلقى ربه فيحاسبه

فكلكم راع ونحن رعية

ومن شأن الرعية قلة الرضا عن الأئمة، وتحجر العذر عليهم، وإلزام اللائمة لهم؛ ورب ملوم لا ذنب له. ولا سبيل إلى السلامة من ألسنة العامة، إذ كان رضا جملتها، وموافقة جماعتها؛ من المعجز الذي لا يدرك، والمنتع الذي لا يملك؛ ولكل حصته من العدل، ومترلته من الحكم. فمن حق الإمام على رعيته أن تقضي عليه بالأغلب من فعله، والأعم من حكمه. ومن حق الرعية على إمامها حسن القبول لظاهر طاعتها، وإضراجه صفحاً عن مكاشفتها، كما قال زياد لما قدم العراق والياً عليها: أيها الناس، قد كانت بيني وبينكم إحن، فجعلت ذلك دبر أذني، وتحت قدمي، فمن كان محسناً فليزد في إحسانه، ومن كان مسيئاً فليترع عن إساءته. إني والله لو علمت أن أحدكم قد قتل السل من بغضي لم أكشف له قناعاً، ولم أهتك له سترأ، حتى يبدي صفحته لي.

وقال عبد الله بن عمر: إذا كان الإمام عادلاً فله الأجر وعليك الشكر، وإذا كان الإمام جائراً فعليه الوزر وعليك الصبر.

وقال كعب الأحبار: مثل الإسلام والسلطان والناس مثل الفسطاط والعمود والأطناب والأوتاد، فالفسطاط الإسلام؛ والعمود السلطان؛ والأطناب والأوتاد الناس. ولا يصلح بعضها إلا ببعض.

وقال الأفوه الأودي:

ولا سراة إذا جهالهم سادوا

لا يصلح الناس فوضى لا سراة لهم

ولا عماد إلا لم ترس أوتاد

والبيت لا يبتنى إلا له عمد

يوماً فقد بلغوا الأمر الذي كادوا

فإن تجمع أوتاد وأعمدة

نصيحة السلطان ولزوم طاعته

قال الله تبارك وتعالى: "يا أيها الذين آمنوا أطيعوا الله وأطيعوا الرسول وأولي الأمر منكم". وقال أبو هريرة: لما نزلت هذه الآية أمرنا بطاعة الأئمة. وطاعتهم من طاعة الله، وعصيانهم من عصيان الله. وقال النبي صلى الله عليه وسلم: من فارق الجماعة، أو خلع يداً من طاعة، مات ميتة جاهلية. وقال صلى الله عليه وسلم: الدين النصيحة، الدين النصيحة، الدين النصيحة. قالوا لمن يا رسول الله؟ قال: لله ولرسوله ولأولي الأمر منكم. فنصح الإمام ولزوم طاعته وإتباع أمره ونهيه في السر والظهر فرض واجب، وأمر لازم، ولا يتم إيمان إلا به، ولا يثبت إسلام إلا عليه. الشعبي عن ابن عباس رضي الله عنهما، قال لي أبي: أرى هذا الرجل -يعني عمر بن الخطاب- يستفهمك ويقدمك على الأكابر من أصحاب محمد صلى الله عليه وسلم، وإني موصيك بخلال أربع: لا تفشين له سراً، ولا يجربن عليك كذباً، ولا تطو عنه نصيحة، ولا تغتابن عنده أحداً. قال الشعبي: فقلت لابن عباس: كل واحد خير من ألف. قال: إي والله، ومن عشرة آلاف.

وفي كتاب للهندي: أن رجلاً دخل على بعض ملوكهم، فقال أيها الملك، إن نصيحتك واجبة في الصغير الحقيق، والكبير الخطير. ولولا الثقة بفضيلة رأيك، واحتمالك ما يسوء موقعه من الأسماع والقلوب في جنب صلاح العامة وتألف الخاصة، لكان حرقاً مني أن أقول. ولكننا إذا رجعنا إلى أن بقاءنا موصول ببقائك، وأنفسنا متعلقة بنفسك، لم نجد بداً من أداء الحق إليك، وإن أنت لم تسليني ذلك؛ فإنه يقال: من كتم السلطان نصيحتة، والأطباء مرضه، والإخوان بئته، فقد أخل بنفسه. وأنا أعلم أن كل ما كان من كلام يكرهه سامعه لا يتشجع عليه قائله، إلا أن يثق بعقل المقول له ذلك. فإنه إذا كان عاقلاً احتمل ذلك، لأن ما كان فيه من نفع فهو للسامع دون القائل. وإنك أيها الملك ذو فضيلة في الرأي، وتصرف في العلم، ويشجعني ذلك على أن أخبرك بما تكره، واثقاً بمعرفتكم نصيحتي لك وإيثاري إياك على نفسي. وقال عمرو بن عتبة للوليد، حين تغير الناس عليه: يا أمير المؤمنين، إنه ينطقني الأوس بك، وتسكتني الهيبة لك، وأراك تأمن أشياء أحافها عليك؛ أفأسكت مطيعاً أم أقول مشفقاً؟ قال: كل مقبول منك، والله فينا علم غيب نحن صائرون إليه. فقتل بعد ذلك بأيام. وقال خالد بن صفوان: من صحب السلطان بالصحة والنصيحة كان أكثر عدواً من صحبه بالغش والخيانة؛ لأنه يجتمع على الناصح عدو السلطان وصديقه بالعداوة والحسد، فصديق السلطان ينافسه في مرتبته، وعدوه يبغضه لنصيحته.

ما يصحب به السلطان

قال ابن المقفع: ينبغي لمن خدم السلطان أن لا يغتر به إذا رضي، ولا يتغير له إذا سخط، ولا يستقل ما حملة، ولا يلحف في مسألته. وقال أيضاً: لا تكن صحبتك للسلطان إلا بعد رياضة منك لنفسك على طاعتهم؛ فإن كنت حافظاً إذا أولوك، حذراً إذا قربوك، أميناً إذا ائتمنوك، ذليلاً إذا صرموك، راضياً إذا أسخطوك؛ تعلمهم وكانك تتعلم منهم، وتؤدبهم وكانك تتأدب بهم، وتشكرهم ولا تكلفهم الشكر، وإلا فالبعد منهم كل البعد، والحذر منهم كل الحذر. وقال المأمون: الملوك تتحمل كل شيء إلا ثلاثة أشياء: القدر في الملك، وإفشاء السر، والتعرض للحرم. وقال ابن المقفع: إذا نزلت من السلطان بمنزلة الثقة فلا تلزم الدعاء له في كل كلمة، فإن ذلك يوجب الوحشة ويلزم الانقباض. وقال الأصمعي: توصلت بالملح، وأدركت بالغريب.

وقال أبو حازم الأعرج لسليمان بن عبد الملك: إنما السلطان سوق، فما نفق عند حمل إليه. ولما قدم معاوية من الشام - وكان عمر قد استعمله عليها - دخل على أمه هند، فقالت له: يا بني، إنه قلما ولدت حرة مثلك، وقد استعملك هذا الرجل، فاعمل بما وافقه، أحببت ذلك أم كرهته. ثم دخل على أبيه أبي سفيان، فقال له: يا بني، إن هؤلاء الرهط من المهاجرين سبقونا وتأخرنا عنهم،

فرفعهم سبقهم وقصر بنا تأخرنا. فصرنا أتباعاً وصاروا قادة. وقد قلدوك جسيماً من أمرهم، فلا تخالفن أمرهم، فإنك تجري إلى أمد لم تبلغه ولو قد بلغته لنوفست فيه.

قال معاوية: فعجبت من اتفاقهما في المعنى على اختلافهما في اللفظ.

وقال أبو ريز لصاحب بيت المال: إني لا أعذرک في خيانة درهم ولا أحمدک على صيانة ألف ألف: لأنک إنما تحقن بذلك دمک وتقيم أمانتک، فإن خنت قليلاً خنت كثيراً. واحترس من حصلتين: النقصان فيما تأخذ، والزيادة فيما تعطى. واعلم أي لم أجعلک على ذخائر الملك وعمارة المملكة والقوة على العدو، إلا وأنت عندي آمن من موضعه الذي هو فيه، وحوادثه التي هي عليه، فحقق ظني باختياری إياک أحقق ظنک في رجائك إياي: ولا تتعوض بخير شراً، ولا برفعة ضعة، ولا بسلامة ندامة، ولا بأمانة خيانة.

ولما ولي يزيد بن معاوية سلم بن زياد خراسان، قال له: إن أباک كفى أحاه عظيمًا، وقد استكفيتک صغيرًا، فلا تتکلن على عذر مني، فقد اتكلت على كفاية منک. وإياک مني قبل أن أقول إياي منک، فإن الظن إذا أخلف مني فيک أخلف منک في. وأنت في أدنى حظک فاطلب أقصاه، وقد أتعبک أبوک فلا تريجن نفسك.

وقال يزيد: حدثني أبي: أن عمر بن الخطاب لما قدم الشام قدم على حمار، ومعه عبد الرحمن بن عوف على حمار، فتلقاهما معاوية في موكب ثقيل، فجاوز عمر معاوية حتى أخبر به، فرجع إليه. فلما قرب منه نزل إليه، فأعرض عنه، فجعل يمشي إلى جنبه راجلاً، فقال له عبد الرحمن بن عوف: أتعبت الرجل. فأقبل عليه عمر، فقال: يا معاوية، أنت صاحب الموكل أنفأ مع ما بلغني من وقوف ذوي الحاجات ببابك؟ قال: نعم يا أمير المؤمنين. قال: ولم ذاك؟ قال: لأنا في بلاد لا تمتنع فيها من حواسيس العدو، ولا بد لهم مما يرهتهم من هيبه السلطان، فإن أمرتني بذلك أقمت عليه، وإن نهيتني عنه انتهيت. فقال لئن كان الذي تقول حقاً فإنه رأي أريب، وإن كان باطلاً إنها خدعة أديب، وما أمرک به ولا أهلكك عنه. فقال عبد الرحمن بن عوف: لحسن ما صدر هذا الفتى عما أوردته فيه! فقال: لحسن مصادره و موارد جشمناه ما جشمناه.

وقال الربيع بن زياد الحارثي: كنت عاملاً لأبي موسى الأشعري على البحرين، فكتب إليه عمر بن الخطاب رضي الله عنه يأمره بالقدم عليه هو وعماله، وأن يستخلفوا من هو من ثقافتهم حتى يرجعوا. فلما قدمنا أتيت يرفأ، فقلت: يا يرفأ، أي سائل مسترشد، أخبرني أي الهيئات أحب إلى أمير المؤمنين أن يرى فيها عماله؟ فأوماً إلى الخشونة. فاتخذت خفين مطارقين، ولبست حبة صوف، ولثت رأسي بعمامة دكنا. ثم دخلنا على عمر، فصفنا بين يديه وصعد فينا نظره و صوب، فلم تأخذ عينه أحداً غيري، فدعاني فقال: من أنت؟ قلت: الربيع بن زياد الحارثي. قال: وما تتولى من أعمالنا؟ قلت: البحرين. قال: فكم ترزق؟ قلت: خمسة دراهم في كل يوم، قال كثير؛ فما تصنع بها؟ قلت: أتقوت منها شيئاً وأعود بباقيها على أقارب لي، فما فضل منها فعلى فقراء المسلمين. فقال: لا بأس، ارجع إلى موضعك. فرجعت إلى موضعي من الصف. ثم صعد فينا و صوب، فلم تقع عينه إلا علي، فدعاني فقال: كم سنوك؟ فقلت: ثلاث وأربعون سنة. قال: الآن حين استحكمت. ثم دعا بالطعام، وأصحابي حديثو عهد بلين العين، وقد تجوعت له، فأتى بخبز يابس وأكسار بغير. فجعل أصحابي يعافون ذلك، وجعلت أكل فأجيد الأكل فنظرت فإذا به يلحظني من بينهم. ثم سبقت مني كلمة تمنيت أن سخت في الأرض ولم ألفظ بها، فقلت: يا أمير المؤمنين، إن الناس يحتاجون إلى صلاحك، فلو عمدت إلى طعام هو ألين من هذا؟ فرجرتي وقال: كيف قلت؟ قلت: أقول: لو نظرت يا أمير المؤمنين إلى قوتك من الطحين فيخبز لك قبل إرادتك إياه بيوم، ويطبخ لكم اللحم كذلك، فتؤتى بالخبر لينا وباللحم غريضا. فسكن عن غربه، وقال: هذا قصدت؟ قلت: نعم. قال: يا ربيع، إنا لو نشاء لمألنا هذه الرحاب من صلاتك وسبائك و صناب، ولكني رأيت الله تعالى نعى على قوم شهواتهم، فقال: "أذهبتم طبيباتكم في حياتكم الدنيا واستمتعتم بها" ثم أمر أبا موسى أن يقربني على عملي وأن يستبدل بأصحابي.

قوله: لتتها على رأسي؛ يقال: رجل ألوث، إذا كان شديداً، وذلك من اللوث، ورجل ألوث، إذا كان أهوج، وهو مأخوذ من اللوثة؛ يقال: لثت عمامة على رأسي؛ يقول: أدركها بعضها على بعض على غير استواء.

وقول: صلاتق، هو شيء يعمل من اللحم، فمنها ما يطبخ ومنها ما يشوى. يقال: صلقت اللحم، إذا طبخته؛ وصلقته، إذا شويته.
وقوله: غريضاً، يقول: طرياً؛ يقال: لحم غريض، تراد به: الطرأة. قال العنابي:

إذا ما فاتني لحم غريض

ضربت ذراع بكري فاشتويت

وقوله: سبائك، يريد الحواري من الخبز، وذلك أنه يسبك فيؤخذ خالصه، والعرب تسمى الرقاق: السبائك.
الصناب: صباغ يتخذ من الزبيب والخردل؛ ومنها قيل للفرس: صنابي، إذا كان ذلك اللون.
قال جرير:

تكلفني معيشة آل زيد

ومن لي بالمرقق والصناب

وقوله: أكسار بعير، فالكسر والعصل والجزل: العظم يفصل ما عليه من اللحم.
وقول: نعى على قوم شهواتهم، أي عابهم بها ووبخهم.

ومما يصحب به السلطان: أن لا يسلم على قادم بين يديه، وإنما استن ذلك زياد، وذلك أن عبد الله بن عباس قدم على معاوية وعنده زياد، فرحب به معاوية وألطفه وقرب مجلس، ولم يكلمه زياد شيئاً فابتدأه ابن عباس وقال: ما حالك أبا المغيرة؟ كأنك أردت أن تحدث بيننا وبينك هجراً! قال: لا، ولكنه لا يسلم على قادم بين يدي أمير المؤمنين؛ فقال له ابن عباس: ما ترك الناس التحية بينهم بين يدي أمرائهم. فقال له معاوية: كف عنه يا بن عباس فإنك لا تشاء أن تغلب إلا غلبت.

دخل أبو سلم على أبي العباس وعنده المنصور فسلم على أبي العباس؛ فقال له: يا أبا مسلم، هذا أبو جعفر! فقال له: يا أمير المؤمنين، هذا موضع لا يقضى فيه إلا حقتك.

أبو حاتم عن العتي قال: قدم معاوية من الشام، وعمرو بن العاص من مصر، على عمر بن الخطاب رضي الله عنه، فأقعدهما بين يديه، وجعل يسألتهما عن أعمالهما، إلى أن اعترض عمرو في حديث معاوية، فقال له معاوية: أعملي تعيب وإلي تقصد؟ هلم تخبر أمير المؤمنين عن عملي وأخبره عن عملك. قال عمرو: فعلت أنه بعملني أبصر مني بعمله، وأن عمر لا يدع أول هذا الحديث حتى يصير إلى آخره، فأردت أن أفعل شيئاً أشغل به عمر عن ذلك، فرفعت يدي فلطمت معاوية. فقال عمر: تالله ما رأيت رجلاً أسفه منك، قم يا معاوية فاقتص منه. قال معاوية: إن أبي أمرني أن لا أقضي أمراً دونه. فأرسل عمر إلى أبي سفيان، فلما أتاه ألقى له وسادة، وقال: قال رسول الله صلى الله عليه وسلم، إذا أتاكم كريم قوم فأكرموا. ثم قص عليه ما جرى بين عمرو ومعاوية. فقال: لهذا بعثت إلي! أخوه وابنه عمه، وقد أتى غير كبير، وقد وهبت ذلك له؛ وقالوا: ينبغي لمن صحب السلطان أن لا يكتم عنه نصيحة وإن استثقلها وليكن كلامه له كلام رفق لا كلام خرق، حتى يخبره بعيبه من غير أن يواجهه بذلك، ولكن يضرب له الأمثال ويخبره بعيب غيره ليعرف عيب نفسه.

وقالوا: من تعرض للسلطان أوداه، ومن تطامن له تخطاه فشبهوا السلطان في ذلك بالريح الشديدة التي لا تضر بما لان لها وتمائل معها من الحشيش والشجر، وما استهدف لها قصمته. قال الشاعر:

إن الرياح إذا ما عصفت قصفت

عيدان نبع ولا يعبان بالرتم

وقالوا: إذا زادك السلطان إكراماً فزده إعظاماً، وإذا جعلك عبد فاجعله ربا.

وقال شبيب بن شيبه: ينبغي لمن سائر خليفة أن يكون بالموضع الذي أراد الخليفة أن يسأله عن شيء لم يحتج إلى أن يلتفت، ويكون من ناحية إذا التفت لم تستقبله الشمس.

وقرأت في كتاب للهند: أنه أهدى لملك ثياب وحلى، فدعا بامرأتين له، وخير أحظاهما عنده بين اللباس والحلى، وكان وزيره حاضراً، فنظرت المرأة

إليه كالمستشير له. فغمزها باللباس تغضينا بعينه، فلحظه الملك، فاختارت الحلية لئلا يفطن للغمزة، وصار اللباس للأخرى. فأقام الوزير أربعين سنة كاسرا عينه لئلا تفر في نفس الملك، وليظن أنها عادة وحلقة.

اختيار السلطان لأهل عمله

لما وجه عمر بن هبيرة مسلم بن سعيد إلى خراسان، قال له: أوصيك بثلاثة: حاجبك، فإنه وجهك الذي به تلقى الناس، إن أحسن فأنت المحسن، وإن أساء فأنت المسيء، وصاحب شرطتك، فإنه سوطك وسيفك، حيث وضعتهما فقدر ضعتهما. عمال القدر. قال: وما عمال القدر؟ قال أن نختار من كل كورة رجلا لعملك فإن أصابوا فهو الذي أردت، وإن أخطأوا فهم المخطئون وأنت المصيب.

وكتب عمر بن عبد العزيز رحمه الله إلى عدي بن أرطاة: أن أجمع بين إياس بن معاوية والقاسم بن ربيعة الجوشني، فول القضاء أنفذهما فجمع بينهما، فقال له إياس: أيها الرجل، سل عني وعن القاسم فقيهي البصرة: الحسن البصري وابن سيرين - وكان القاسم يأتي الحسن وابن سيرين، وكان إياس لا يأتيهما - فعلم القاسم أنه إن سألهما عنه أشارا به. فقال القاسم: لا تسأل عني ولا عنه، فوالله الذي لا إله إلا هو، إن إياس بن معاوية أفقه مني وأعلم بالقضاء، فإن كنت كاذبا فما ينبغي أن توليني، وإن كنت صادقا، فينبغي لك أن تقبل قولي، فقال له إياس: إنك جئت برجل فوقفته على شفير جهنم فنجى نفسه منها يمين كاذبة، يستغفر الله منها وينجو مما يخاف. فقال له عدي: أما إذا فهمتها فأنت لها، فاستقضاه.

قال عدي بن أرطاة لإياس بن معاوية دلني على قوم من القراء أولهم فقال له: القراء ضربان: ضرب يعملون للأخرة ولا يعملون لك، وضرب يعملون للدنيا، فما ظنك بهم إذا أمكنتهم منها؟ ولكن عليك بأهل البيوتات الذين يستحيون لأحسابهم فولهم.

أيوب السخيتاني، قال: طلب أبو قلابة لقضاء البصرة، فهرب إلى الشام، فأقام حيناً ثم رجع. قال أيوب: فقلت له: لو وليت القضاء وعدلت كان لك أجران. قال: يا أيوب، إذا وقع السابح في البحر كم عسى أن يسبح! وقال عبد الملك بن مروان لجلسائه: دلوني على رجل أستعمله. فقال له روح بن زنباع: أدلك يا أمير المؤمنين على رجل إن دعوتوه أحابكم، وإن تركتموه لم يأتكم؛ ليس بالملحف طلبا، ولا بالمعن هربا: عامر الشعبي. فولاه قضاء البصرة.

وسأل عمر بن عبد العزيز رحمه الله أبا مجلز عن رجل يوليه خراسان. فقال له: ما تقول في فلان؟ قال: مصنوع له وليس بصاحبها. قال: فلان؟ قال: سريع الغضب بعيد الرضا، يسأل الكثير ويمنع القليل، ويحسد أمه، وينافس أباه، ويحقر مولاه. قال: فلان؟ قال: يكافئ الأكتفاء، ويعادي الأعداء، ويفعل ما يشاء. قال: ما في واحد من هؤلاء خير.

وأراد عمر بن عبد الخطاب رضي الله عنه أن يستعمل رجلا. فبدر الرجل فطلب منه العمل. فقال عمر: والله لقد كنت أردتك لذلك، ولكن من طلب هذا الأمر لم يعن عليه.

وطلب رجل إلى النبي صلى الله عليه وسلم أن يستعمله، فقال له: إنا لا نستعمل على عملنا من يريده.

وطلب العباس عم النبي صلى الله عليه وسلم إلى النبي ولاية. فقال: يا عم، نفس تحببها، خير من ولاية لا تحببها.

وقال أبو بكر الصديق رضي الله عنه لخالد بن الوليد: فر من الشرف يتبعك الشرف، واحرص على الموت توهب لك الحياة.

وتقول النصارى: لا يختار للجنثقة إلا زاهد غير طالب لها.

وقال إياس بن معاوية: أرسل إلى إلي عمر بن هبيرة فأتيته، فساكتني فسكت، فلما أطلت قال: هيه. قلت: سل ما بدا لك. قال: أتقرأ القرآن؟ قلت:

نعم. قال أتقرض الفرائض؟ قلت: نعم. قال: أتعرف من أيام العرب شيئا؟ قلت: نعم. قال: أتعرف من أيام العجم شيئا؟ قلت: أنا بما أعرف. قال: إني

أريد أن أستعين بك على عملي. قلت: إن خلافاً ثلاثاً لا أصلح معها الليل. قال: وما هي؟ قلت: دميمة كما ترى، وأنا حديد، وأنا عي. قال: أما

دمامتك فإني لا أريد أن أحاسن الناس بك، وأما العي فإني أراك تعرب عن نفسك، وأما الحدة فإن السوط يقومك. قم قد وليتك. قال: فولاني

وأعطاني مائة درهم. فهي أول مال تمولته.

وقال الأصمعي: ولي سليمان بن حبيب الحاربي قضاء دمشق لعبد الملك والوليد وسليمان وعمر بن عبد العزيز رحمه الله ويزيد وهشام. وأراد عمر بن عبد العزيز رحمه الله مكحولاً على القضاء، فأبى عليه. قال له: وما يمنعك؟ قال مكحول: قال رسول الله صلى الله عليه وسلم: لا يقض بين الناس إلا ذو شرف في قومه، وأنا مولى.

ولما قدم رجال من الكوفة على عمر بن الخطاب رضي الله عنه يشكون سعد بن أبي وقاص، قال: من يعذري من أهل الكوفة؟ إن وليت عليهم التقى ضعفوه، وإن وليت عليهم القوي فجروه. فقال له المغيرة: يا أمير المؤمنين، إن التقى الضعيف له تقواه وعليك ضعفه. والقوي الفاجر لك قوته وعليه فجوره. قال: صدقت، فأنت القوي الفاجر، فأخرج إليهم. فخرج إليهم، فلم يزل عليهم أيام عمر وصدرا من أيام عثمان وأيام معاوية حتى مات المغيرة.

حسن السياسة وإقامة المملكة

كتب الوليد بن عبد الملك إلى الحجاج بن يوسف يأمره أن يكتب إليه بسيرته. فكتب إليه: إني أيقظت رأبي وأتمت هواي، فأدريت السيد المطاع في قومه، ووليت الحرب الحازم في أمره، وقلدت الخراج الموفر لأمانته. وقسمت لكل خصم من نفسي قسماً، أعطيه حظاً من لطيف عنايتي ونظري. وصرفت السيف إلى النطف المسيء، والثواب إلى المحسن البريء، فخاف المريب صولة العقاب، وتمسك المحسن بحظه من الثواب. وقال أردشير لابنه: يا بني: إن الملك والعدل أخوان لا غنى بأحدهما عن الآخر، فالملك أس والعدل حارس. والبناء ما لم يكن له أس فمهذوم، والملك ما لم يكن له حارس فضائع. يا بني، اجعل حديثك مع أهل المراتب، وعطيتك لأهل الجهاد، وبشرك لأهل الدين، وسرك لمن عناه ما عناك من ذوي العقول.

وقالت الحكماء: مما يجب على السلطان أن يلتزمه العدل في ظاهر أفعاله لإقامته أمر سلطانه، وفي ضميره لإقامة أمر دينه. فإذا فسدت السياسة ذهب السلطان ومدار السياسة كلها على العدل والإنصاف، لا يقوم سلطان لأهل الكفر والإيمان إلا بهما، ولا يدور إلا عليهما، مع ترتيب الأمور مراتبها وإنزالها منازلها. وينبغي لمن كان سلطاناً أن يقيم على نفسه حجة الرعية، ومن كان رعية أن يقيم على نفسه حجة السلطان. وليكن حكمه على غيره مثل حكمه على نفسه. وإنما يعرف حقوق الأشياء من يعرف مبلغ حدودها ومواقع أقدارها. ولا يكون أحد سلطان حتى يكون قبل ذلك رعية. وقال عبد الملك بن مروان لابنيه: كلكم يترشح لهذا الأمر، ولا يصلح له منكم إلا من كان له سيف مسلول، ومال مبدول، وعدل تطمئن إليه القلوب. ووصف بعض الملوك سياسته فقال: لم أهزل في وعد ولا وعيد، ولا أمر ولا نهي، ولا عاقبت للغضب، واستكفيت، وأثبت على الغناء لا للهوى، وأودعت القلوب هيبة لم يشبها مقت، ووداً لم تشبه جرأة، وعممت بالقوت، ومنعت الفضول. وذكر أعرابي أمير فقال: كان إذا ولي لم يطابق بين جفونه، وأرسل العيون على عيونه، فهو غائب عنهم شاهد معهم، فالحسن راج والمسيء خائف. وقال عمر بن الخطاب رضي الله عنه: لا يصلح لهذا الأمر إلا اللين من غير ضعف، القوي من غير عنف. وقال الوليد بن عبد الملك لأبيه: يا أبت ما السياسة؟ قال: هيبة الخاصة مع صدق مودتها، واقتياد قلوب العامة بالإنصاف لها، واحتمال هفوات الصنائع.

وكتب أرسطوطاليس إلى الإسكندر: أن املك الرعية بالإحسان إليها تظفر بالحببة منها، فإن طلبك ذلك منها بإحسانك هو أدوم بقاء منه باعتسافك. وأعلم أن تقول قدرت على أن تفعل، فاجتهد ألا تقول تسلم من أن تفعل.

وقال أردشير لأصحابه: إني إنما أملك الأجساد لا النيات، وأحكم بالعدل لا بالرضا، وأفحص عن الأعمال لا عن السرائر. وكان عمرو بن العاص يقول في معاوية: اتقوا أكرم قريش وابن كريمها، من يضحك في الغضب، ولا ينام إلا على الرضا، ويتناول ما فوّه من تحتته. وقال معاوية: إني لا أضع سيفي حيث يكفيني سوطي، ولا أضع سوطي حيث يكفيني لساني، ولو أن بيني وبين الناس شعرة ما انقطعت أبداً. فقيل له: وكيف ذلك؟ قال: كنت إذا مدوها أرخيتها، وإذا أرخوها مددتها.

وقال عمرو بن العاص رأيت معاوية في بعض أيامنا بصفين خرج في عدة لم أره خرج في مثلها، فوقف في قلب عسكره، فجعل يلحظ ميمينته فيرى فيها الخلل، فيبدر إليه من يسده؛ ثم يفعل ذلك بميسرته، فتغنيه اللحظة على الإشارة. فدخله زهو مما رأى، فقال: يا ابن العاص، كيف ترى هؤلاء وما هم عليه؟ فقلت: والله يا أمير المؤمنين، لقد رأيت من يسوس الناس بالدين والدنيا، فما رأيت أحد تأتي له من طاعة رعيته ما تأتي لك من هؤلاء. فقال: أفندري متى يفسد هذا؟ وفي كم ينتقض جميعه؟ قلت: لا. قال: في يوم واحد. قال: فأكثر التتعجب. قال: إي والله، وفي بعض يوم، قلت: وكيف ذلك يا أمير المؤمنين؟ قال: إذا كذبوا في الوعد والوعيد، وأعطوا على الهوى لا على الغناء، فسد جميع ما ترى. وكتب عبد الله بن عباس إلى الحسن بن علي إذ ولاه الناس أمرهم بعد علي رضي الله عنه: أن شمر للحرب، وجاهد عدوك، واشتر من الظنين دينه بما لا يثلم دينك، وول أهل البيوتات تستصلح بهم عشائريهم.

وقالت الحكماء: أسوس الناس لرعيته، من قاد أبادها بقلوبها وقلوبها بخواطرها، وخواطرها بأسبابها من الرغبة والرغبة.

وقال أبو ريز لابنه شيرويه: لا توسع على جندك سعة يستغنون بها عنك، ولا تضيق عليهم ضيقاً يضحون به منه، ولكن أعطهم عطاء قصداً، وامنعهم منعاً جميلاً، وابسط لهم في الرجاء، ولا تبسط لهم في العطاء.

ونحو هذا قول المنصور لبعض قواده: صدق الذي قال: أجمع كلبك يتبعك، وسمنه يأكلك. فقال له أبو العباس الطوسي: أما تخشى يا أمير المؤمنين إن أجمعه أن يلوح له غيرك برغيف فيتبعه ويدعك.

وكتب أبو ريز إلى ابنه شيرويه من الحبس: اعلم أن كلمة منك تسفك دماً، وأخرى منك تحقن دماً، وأن سخطك سيف مسلول على من سخطت عليه، وأن رضاك بركة مستفيضة على من رضيت عنه، وأن نفاذ أمرك مع ظهور كلامك. فاحترس في غضبك من قولك أن يخطئ، ومن لونك أن يتغير، ومن جسدك أن يخف؛ فإن الملوك تعاقب حزمًا وتعفو حلمًا. واعلم أنك تجل من الغضب، وأن ملكك يصغر عن رضاك، فقد رست لسخطك من العقاب، كما تقدر لرضاك من الثواب.

وخطب سعيد بن سويد بحمص، فحمد الله وأثنى عليه، ثم قال: أيها الناس إن للإسلام حائطاً منيعاً وباباً وثيقاً، فحائط الإسلام الحق وبابه العدل. ولا يزال الإسلام منيعاً ما اشدت السلطان. وليست شدة السلطان قتلاً بالسيف ولا ضرباً بالسوط، ولكن قضاء بالحق وأخذاً بالعدل.

وقال عبد الله بن الحكم: إنه قد يضطغن على السلطان رجلان: رجل أحسن في محسنين فأثيبوا وحرّم، ورجل أساء في مسيئين فعوقب وعفي عنهم. فينبغي للسلطان أن يجترس منهما.

وفي كتاب التاج: أن أبو ريز كتب لابنه شيرويه يوصيه بالرعية: وليكن من تختاره لولايتك امرأ كان في ضعة فرفته، أو ذا شرف كان مهملاً فاصطنعته. ولا تجعله امرأ أصبته بعقوبة فاتضع لها، ولا امرأ أطاعك بعد ما أذلتته، ولا أحداً ممن يقع في قلبك أن إزالة سلطانتك أحب إليه من ثبوته. وإياك أن تستعمله ضرعاً غمراً كثيراً إعجاب به بنفسه، قليلاً تجرته في غيره؛ ولا كبيراً مدبراً قد أخذ الدهر من عقله، كما أخذت السن من جسمه.

بسط المعدلة ورد المظالم

الشيبياني قال: حدثنا محمد بن زكريا عن عباس بن الفضل الهاشمي عن قحطبة بن حميد قال: إني لواقف على رأس المأمون يوماً وقد جلس للمظالم، فكان آخر من تقدم إليه - وقد هم بالقيام - امرأة عليها هيئة السفر، وعليها ثياب رثة، فوقف بين يديه فقالت: السلام عليك يا أمير المؤمنين ورحمة الله وبركاته. فنظر المأمون إلى يحيى بن أكنم. فقال لها يحيى: وعليك السلام يا أمة الله، تكلمي بحاجتك. فقالت:

ويا إماماً به قد أشرق البلد

عدى عليها فلم يترك لها سبب

ظلما وفرق مني الأهل والولد

يا خير منتصف يهدى له الرشد

تشكو إليك عميد القوم أرملة

وابتز مني ضياعي بعد منعته

فأطرق المأمون حيناً، ثم رفع رأسه إليها وهو يقول:

عني وأقرح مني القلب والكبد

في دون ما قلت زال الصبر والجلد

وأحضري الخصم في اليوم الذي أعد

هذا أذان صلاة العصر فانصرفي

وإلا المجلس الأحد انتصفك منه

فالمجلس السبت إن يقض الجلوس لن

قال: فلما كان يوم الأحد جلس، فكان أول من تقدم إليه تلك المرأة، فقالت: السلام عليك يا أمير المؤمنين ورحمة الله وبركاته. فقال: وعليك السلام ثم قال: أين الخصم؟ فقالت: الواقف على رأسك يا أمير المؤمنين - وأومات إلى العباس ابنه - فقال: يا أحمد بن أبي خالد، خذ بيده فأجلسه معها مجلس الخصوم. فجعل كلامها يعلو كلام العباس. فقال لها أحمد بن أبي خالد: يا أمة الله، إنك بين يدي أمير المؤمنين، وإنك تكلمين الأمير، فاحفظي من صوتك. فقال المأمون: دعها يا أحمد، فإن الحق أنطقها والباطل أحرسه. ثم قضى لها برد ضيعتها إليها، وظلم العباس بظلمه لها، وأمر بالكتاب لها إلى العامل الذي يبلدها أن يوغر لها ضيعتها ويحسن معاونتها، وأمر لها بنفقة.

العتيبي قال: إني لقاعد عند قاضي هشام بن عبد الملك إذ أقبل إبراهيم ابن محمد بن طلحة وصاحب حرس هشام حتى قعدا بين يديه، فقال: إن أمير المؤمنين جرائي في خصومة بينه وبين إبراهيم. فقال القاضي شاهديك على الجراية. فقال: أتراني قلت على أمير المؤمنين ما لم يقل، وليس بيني وبينه إلا هذه السترة! قال: لا، ولكنه لا يثبت الحق لك ولا عليك إلا ببينة. قال: فقام الحرسى فدخل على هشام فأخبره. فلم نلبث أن تقعقت الأبواب وخرج الحرسى، وقال: هذا أمير المؤمنين. وخرج هشام، فلما نظر إليه القاضي قام، فأشار إليه وبسط له مصلى، فقعد عليه وإبراهيم بين يديه. وكنا حيث نسمع بعض كلامهم ويخفى عنا بعضه قال: فتكلمنا وأحضرا البينة، فقضى القاضي على هشام بن عبد الملك. فتكلم إبراهيم بكلمة فيها بعض الخرق فقال: الحمد لله الذي أبان للناس ظلمك. فقال له هشام: هممت أن أضربك ضربة ينثر منها لحمك عن عظمك. قال: أما والله لئن فعلت لتفعلن بشيخ كبير السن قريب القرابة واجب الحق. فقال هشام: يا إبراهيم، استرها علي. قال: لا ستر الله علي إذا ذنبي يوم القيامة إن سترتها. قال: فإني معطيك عليها مائة ألف. قال إبراهيم: فسترتها عليه أيام حياته ثمناً لما أخذت منه، وأذعتها بعد مماته تزيينا له. قال: وورد على الحجاج بن يوسف سليمان بن سلكة، فقال: أصلح الله الأمير، أرعني سمعك، واغضض عني بصرك، واكفف عني غريك. فإن سمعت خطأ أو زللا فدونك والعقوبة. قال: قل. فقال: عصى عاص من عرض العشيرة فحلق على اسمي، وهدم متزلي وحرمت عطائي. قال: هيهات! أو ما سمعت قول الشاعر:

تعدي الصحاح مبارك الجرب

جانيك من يجني عليك وقد

ونجا المقارف صاحب الذنب

ولرب مأخوذ بذنب عشيرة

فقال: أصلح الله الأمير، إني سمعت الله عز وجل يقول غير هذا. قال: وما ذاك؟ قال: قال الله تعالى: "يا أيها العزيز إن له أباً شيخاً كبيراً فخذ أحدنا مكانه إنا نراك من المحسنين. قال معاذ الله أن نأخذ إلا من وجدنا متاعنا عنده إنا إذا لظالمون". قال الحجاج: علي يزيد بن أبي مسلم. فمثل بين يديه. فقال: افكك لهذا عن اسمه، واصكك له بعبطائه، وابن له متزل، ومر مناديا ينادي: صدق الله وكذب الشاعر. وقال معاوية: إني لأستحي أن أظلم من لا يجد علي ناصراً إلا الله.

وكتب إلى عمر بن عبد العزيز رحمه الله بعض عماله يستأذنه في تحصين مدينته. فكتب إليه: حصنها بالعدل، ونق طرفها من الظلم. وقال المهدي للربيع بن أبي الجهم، وهو والي أرض فارس: ياربيع، آثر الحق، والزم القصد، وابسط العدل، وارفق بالرعية، واعلم أن أعدل الناس من أنصف من نفسه، وأظلمهم من ظلم الناس لغيره.

وقال ابن أبي الزناد عن هشام بن عروة قال: استعمل ابن عمرو بن أصبغ على الأهواز، فلما عزله، قال له: ما جئت به؟ قال له: ما معي إلا مائة درهم وأتواب. قال: كيف ذلك؟ قال: أرسلتني إلى بلد أهله رجلاً من رجل مسلم له ما لي وعليه ما علي، ورجل له ذمة الله ورسوله، فوالله ما دريت

أين أضع يدي. قال: فأعطاه عشرين ألفاً.
وقال جعفر بن يحيى: الخراج عمود الملك، وما استغزر بمثل العدل، وما استغزر بمثل الظلم.
وقال النبي صلى الله عليه وسلم: الظلم ظلمات يوم القيامة.

صلاح الرعية بصلاح الإمام

قالت الحكماء: الناس تبع لإمامهم في الخير والشر.
وقال أبو حازم الأعرج: الإمام سوق، فما نفق عنده جلب إليه.
ولما أتى عمر بن الخطاب رضي الله عنه بتاج كسرى وسواريه، قال: إن الذي أدى هذا لأمين! قال له رجل: يا أمير المؤمنين، أنت أمين الله يؤدون إليك ما أديت إلى الله تعالى، فإذا رتعت رتعا.
ومن أمثالهم في هذا قولهم: إذا صلحت العين صلحت سواقيها.
الأصمعي قال: كان يقال: صنفان إذا صلحا صلح الناس: الأمراء، والفقهاء.
واطلع مروان بن الحكم على ضيعة له بالغوطة فأنكر شيئاً، فقال لو كيله: ويحك! إن لأظنك تخونني. قال: أفتظن ذلك ولا تستيقنه؟ قال: وتفعله؟ قال: نعم، والله إنني لأخونك، وإنك لتخون أمير المؤمنين، وإن أمير المؤمنين ليخون الله، فلعن الله شر الثلاثة.

قولهم في الملك وجلسائه ووزرائه

قالت الحكماء لا ينفع الملك إلا بوزرائه وأعدائه، ولا ينفع الوزراء والأعدان إلا بالمودة والنصيحة، ولا تنفع المودة والنصيحة إلا مع الرأي والعفاف. ثم على الملوك بعد ذلك ألا يتركوا محسناً ولا مسيئاً ما دون جزاء؛ فإنهم إذا تركوا ذلك تهاون المحسن، واجترأ المسيء، وفسد الأمر، وبطل العمل.
وقال الأحنف بن قيس. من فسدت بطانته كان كمن غص بالماء، ومن غص بالماء فلا مساغ له، ومن خانته ثقافته فقد أتى من مأمته.
وقال العباس بن الأحنف:

يكثر أحزاني وأوجاعي

كان عدوي بين أضلاعي

فهم كربتي فأين الفرار

كنت كالغصان بالماء اعتصاري

فقل أين يسعى من يغص بماء

قلبي إلى ما ضرني داعي

كيف احتراسي من عدوي إذا

كنت من كربتي أفر إليهم

لو بغير الماء حلقي شرق

إلى الماء يسعى من يغص بريقه

وقال آخر:

وأول من سبق إلى هذا المعنى عددي بن زيد في قوله للنعمان بن المنذر:

وقال آخر:

وقال عمرو بن العاص: لا سلطان إلا بالرجال، ولا رجال إلا بمال، ولا مال إلا بعمارة، ولا عمارة إلا بعدل.
وقالوا: إنما السلطان بأصحابه كالبحر بأمواله.
وقالوا: ليس شيء أضر بالسلطان من صاحب يحسن القول، ولا يحسن الفعل. ولا خير في القول إلا مع الفعل، ولا في المال إلا مع الجود، ولا في

الصلق إلا مع الوفاء، ولا في الفقه إلا مع الورع، ولا في الصدقة إلا مع حسن النية، ولا في الحياة إلا مع الصحة. وقالوا: إن السلطان إذا كان صالحاً ووزراؤه وزراء سواء امتنع خيره من الناس، ولم ينتفع منه بمنفعة، وشبهوا ذلك بالماء الصافي يكون فيه التماسح، فلا يستطيع أحد أن يدخله، وإن كان محتاجاً إليه.

صفة الإمام العادل

كتب عمر بن عبد العزيز رضي الله عنه لما ولي الخلافة إلى الحسن بن أبي الحسن البصري أن يكتب إليه بصفة الإمام العادل، فكتب إليه الحسن رحمه الله: اعلم يا أمير المؤمنين، أن الله جعل الإمام العادل قوام كل مائل، وقصد كل جائر، وصلاح كل فاسد، وقوة كل ضعيف، ونصفة كل مظلوم، ومفزع كل ملهوف والإمام العدل يا أمير المؤمنين كالراعي الشفيق على إبله، الرفيق بما، الذي يرتاد لها أطيب المراعي، ويدودها عن مراتع الهلكة، ويحميها من السباع، ويكنها من أذى الحر والقر. والإمام العدل يا أمير المؤمنين كالأب الحاني على ولده، يسعى لهم صغاراً، ويعلمهم كباراً؛ يكتسب لهم في حياته، ويدخر لهم بعد مماته. والإمام العدل يا أمير المؤمنين كالأم الشفيقة اليرة الرفيقة بولدها، حملته كرها، ووضعته كرها، وربته طفلاً تسهر بسهره، وتسكن بسكونه، ترضعه تارة وتقطمه أخرى، وتفرح بعافيته، وتغتم بشكايته. والإمام العدل يا أمير المؤمنين وصي اليتامى، وخازن المساكين، يربي صغيرهم، ويمون كبيرهم. والإمام العدل يا أمير المؤمنين كالقلب بين الجوارح، تصلح الجوارح بصلاحه، وتفسد بفساده والإمام العدل يا أمير المؤمنين هو القائم بين الله وبين عباده، يسمع كلام الله ويسمعهم، وينظر إلى الله ويريهم، وينقاد إلى الله ويقودهم. فلا تكن يا أمير المؤمنين فيما ملكك الله عز وجل كعبد ائتمنه سيده، واستحفظه ماله وعياله، فبدد المال وشرد العيال، فأفقر أهله وفرق ماله. واعلم يا أمير المؤمنين أن الله أنزل الحدود ليزجر بها عن الخبائث والفواحش، فكيف إذا أتاه من يلبها! وأن الله أنزل القصاص حياة لعباده، فكيف إذا قتلهم من يقتص لهم! واذكر يا أمير المؤمنين الموت وما بعده، وقلة أشياعك عنده، وأنصارك عليه، فتزود له ولما بعده من الفرع الأكبر.

واعلم يا أمير المؤمنين أن لك منزلاً غير منزلك الذي أنت فيه، يطول فيه ثاؤك، ويفارقك أحباؤك، يسلمونك في قعره فريداً وحيداً. فتزود له ما يصحبك يوم يفر المرء من أخيه. وأمّه وأبيه وصاحبه وبنه واذكر يا أمير المؤمنين "إذا بعث ما في القبور. وحصل ما في الصدور"، فالأسرار ظاهرة، والكتاب لا يغادر صغيرة ولا كبيرة إلا أحصاها. فالآن يا أمير المؤمنين وأنت مهل قبل حلول الأجل، وانقطع الأمل. لا تحكم يا أمير المؤمنين في عباد الله بحكم الجاهلين، ولا تسلك بهم سبيل الظالمين، ولا تسلط المستكبرين على المستضعفين؛ فإنهم لا يرقبون في مؤمن إلا ولا ذمة، فتبوء بأوزارك مع أوزارك، وتحمل أثقالك مع أثقالك. ولا يغرنك الذين يتنعمون بما فيه بؤسك، ويأكلون الطيبات في دنياهم بإذهاب طيباتك في آخرتك. ولا تنظر إلى قدرتك اليوم، ولكن انظر إلى قدرتك غداً وأنت مأسور في حبال الموت، وموقوف بين يدي الله في مجمع من الملائكة والنبیین والمرسلين، وقد عنت الوجوه للحق القيوم. إني يا أمير المؤمنين، وإن لم أبلغ بعضي ما بلغه أولو النهي من قبلي، فلم ألك شفقة ونصحاً، فأنزل كتابي إليك كمدأوي حبيبه يسقيه الأدوية الكريهة لما يرجو له في ذلك من العافية والصحة. والسلام عليك يا أمير المؤمنين ورحمة الله وبركاته.

هيبه الإمام في تواضعه

قال ابن السماك لعيسى بن موسى: تواضعك في شرفك أكبر من شرفك.

وقال عبد الملك بن مروان: إن أفضل الرجال من تواضع عن رفعة، وزهد عن قدرة، وأنصف عن قوة.

وذكر عن النجاشي أمير الحبشة: أنه أصبح يوماً جالساً على الأرض والتاج على رأسه، فأعظم ذلك أساقفته، فقال لهم: إني وجدت فيما أنزل الله تعالى على المسيح عليه السلام، يقول له: "إذا أنعمت على عبدي نعمة فتواضع لها أتممتها عليه". وإني ولد لي الليلة غلام فتواضعت لذلك شكراً لله تعالى.

وقال ابن قتيبة: لم يقل في الهيبه مع التواضع بيت أبدع من قول الشاعر في بعض خلفاء بني أمية:

يغضي حياء ويغضى من مهابته

وأحسن منه عندي قول الآخر.

فتى زاده عز المهابة ذلة

وقال أبو العتاهية:

يا من تشرف بالدنيا وطينتها

إذا أردت شريف الناس كلهم

ذاك الذي عظمت في الله نعمته

وقال الحسن بن هانئ في هيبة السلطان مع محبة الرعية:

إمام عليه هيبة ومحبة

وقال آخر في الهيبة، وإن لم تكن في طريق السلطان:

بنفس من لو مر برد بنانه

ومن هابني في كل شيء وهبته

ولابن هرمة في المنصور:

له لحظات عن حفاقي سريره

كريم له وجهان وجه لدى الرضا

فأم الذي آمنت آمنة الردى

وليس بمعطى العفو من غير قدرة

وقال آخر في الهيبة:

أهاشم يا فتى دين ودنيا

أهابك أن أبوح بذات نفسي

وقال أشجع بن عمرو في هيبة السلطان:

منعت مهابتك النفوس حديثها

ومن الولاة مفخم لا يتقى

وقال أيضا لهارون الرشيد:

وعلى عدوك يا ابن عم محمد

فإذا تنبه رعته وإذا غفا

وقال الحسن بن هانئ في الهيبة فأفرط:

ملك تصور في القلوب مثاله

العقد الفريد-ابن عبد ربه الأندلسي

فما يكلم إلا حين يبتسم

فكل عزيز عنده متواضع

ليس التشرف رفع الطين بالطين

فانظر إلى ملك في زي مسكين

وذاك يصلح للدنيا وللدين

ألا حبذا ذاك المهيب المحبب

على كبدي كانت شفاء أنامله

فلا هو يعطيني ولا أنا سائله

إذا كرها فيها عقاب ونائل

أسيل ووجه في الكريهة باسل

وأم الذي أوعدت بالثكل تاكل

ويعفو إذا ما مكنته المقاتل

ومن هوى في اللباب من اللباب

وتركي للعتاب من العتاب

بالشيء تكرهه وإن لم تعلم

والسيف تقطر شفرتاه من الدم

رصدان ضوء الصبح والإظلام

سلت عليه سيوفك الأحلام

فكأنه لم يخل منه مكان

ما تنطوي عنه القلوب بفجرة

إلا يكلمه بها اللحظان

حتى الذي في الرحم لم يك صورة

لفؤاده من خوفه خفقان

فمجاز هذا البيت في إفراطه أن الرجل إذا خاف شيئاً وأحبه أحبه بسمعه وبصره وشعره وبشره ولحمه ودمه وجميع أعضائه، فالنطف التي في الأصلاب داخله في هذه الجملة. قال الشاعر:

الأترثي لمكتئب

يجبك لحمه ودمه

وقال المكفوف في آل محمد عليه السلام:

أحبكم حباً على الله أجره

تضمنه الأحشاء واللحم والدم

وفي مثل هذا قول الحسن بن هانئ:

وأخفت أهل الشرك حتى إنه

لتخافك النطف التي لم تخلق

فإذا خافه أهل الشرك خافته النطف التي في أصلابهم، على المجاز الذي ذكرناه.

ومجاز آخر: أن النطف التي أخذ الله عليها ميثاقها يجوز أن يضاف إليها ما هي لا بد فاعلة من قبل أن تفعله، كما جاء في الأثر: إن الله عز وجل عرض على آدم ذريته، فقال: هؤلاء أهل الجنة، ويعمل أهل الجنة يعملون، وهؤلاء أهل النار، ويعمل أهل النار يعملون. ومن قولنا في الهيبة:

يا من يجرد من بصيرته

تحت الحوادث صارم العزم

رعت العدو فما مثلت له

إلا تفزع منك في اللحم

أضحى لك التدبير مطرداً

مثل اطراد الفعل للاسم

رفع الحسود إليك ناظره

فرآك مطلعاً مع النجم

أبو حاتم سهل بن محمد، قال: أنشدني العتي للأخطل في معاوية:

تسمو العيون إلى إمام عادل

معطى المهابة نافع ضرار

ونرى عليه إذا العيون لمحنه

سيما الحلیم وهيبة الجبار

حسن السيرة والرفق بالرعية

قال الله تعالى لنبيه محمد صلى الله عليه وسلم فيما أوصاه به من الرفق بالرعية: "ولو كنت فظاً غليظاً لانفضوا من حولك".

وقال النبي صلى الله عليه وسلم: من أعطى حظه من الرفق فقد أعطى حظه من الخير كله، ومن حرم حظه من الرفق حرم حظه من الخير كله.

ولما استخلف عمر بن عبد العزيز رحمه الله أرسل إلى سالم بن عبد الله ومحمد بن كعب، فقال لهما: أشيرا علي. فقال له سالم: اجعل الناس أباً وأخاً وابتناً، فبر أباك، واحفظ أخاك، وارحم ابنك. وقال له محمد بن كعب: أحب للناس ما تحب لنفسك، واکره لهم ما تكره لنفسك، واعلم أنك لست أول خليفة.

وقال عبد الملك بن عمر بن عبد العزيز لأبيه عمر: يا أبت؛ ما لك لا تنفذ في الأمور؟ فوالله لا أبالي في الحق لو غلت بي وبك القدور. فقال له عمر:

لا تعجل يا بني، فإن الله تعالى ذم الخمر في القرآن مرتين وحرمها في الثالثة، وأنا أخاف أن أحمل الناس على الحق جملة فيدعوه وتكون فتنة.

وكتب عمر بن عبد العزيز إلى عدي بن أرطاة، أما بعد، فإن أمكنتك القدرة على المخلوق فاذا ذكر قدرة الخالق عليك، واعلم أن ما لك عند الله مثل ما للرية عندك.

وقال المنصور لولده عبد الله المهدي: لا تبرم أمراً حتى تفكر فيه، فإن فكرة العاقل مرآة تراه حسناته وسيئاته. واعلم أن الخليفة لا تصلحه إلا التقوى، والسلطان لا تصلحه إلا الطاعة، والرية لا يصلحها إلا العدل. وأولى الناس بالعمو أقدرهم على العقوبة، وانقص الناس عقلاً من ظلم من هو دونه. وقال خالد بن عبد الله القسري لبلال بن أبي بردة: لا يحملنك فضل المقدرة على شدة السطوة، ولا تطلب من ريعتك إلا ما تبذله لها، فإن الله مع الذين اتقوا والذين هم محسنون.

وقال أبو عبيد الله كاتب المهدي: ما أحوج ذا القدرة والسلطان إلى دين يحجزه، وحياء يكفه، وعقل يعقله، وإلى تجربة طويلة، وعين حفيظة؛ وأعراق تسري إليه، وأخلاق تسهل الأمور عليه؛ وإلى جليس شفيق، وصاحب رقيق؛ وإلى عين تبصر العواقب وقلب يخاف الغير. ومن لم يعرف لؤم الكير لم يسلم من فلتات اللسان، ولم يتعاطم ذنباً وإن عظم، ولا ثناء وإن سمح.

وكتب أردشير إلى رعيته: من أردشير المؤيد ملك الملوك ووارث العظماء إلى الفقهاء الذين هم حملة الدين، والأساورة الذين هم حفظة البيضة، والكتاب الذين هم زينة المملكة، وذوي الحرث الذين هم عماد البلاد: السلام عليكم، فإننا بحمد الله إليكم سالمون. فقد وضعنا عن ريعتنا بفضل رأفتنا بما إتوتها الوظيفة عليها، ونحن مع ذلك كاتبون بوصية فاحفظوها: لا تستشعروا الحقد فيدهمكم العدو، ولا تحتكروا فيشملمكم القحط، وتزوجوا في الأقارب فإنه أفسد للرحم وأثبت للنسب، ولا تعدوا هذه الدنيا شيئاً فإنها لا تبقى على أحد، ولا ترفضوها فإن الآخرة لا تدرك إلا بها. ولما انصرف مروان بن الحكم من مصر إلى الشام استعمل عبد العزيز ابنه على مصر، وقال له حين ودعه: أرسل حكيماً ولا توصه. أي بني، انظر إلى عمالك، فإن كان لهم عندكم حق غدوة فلا تؤخره إلى عشية، وإن كان لهم عشية فلا تؤخره إلى غدوة، وأعطيهم حقوقهم عند محلها، تستوجب بذلك الطاعة منهم. وإياك أن يظهر لرعيته منك كذب فإنهم إن ظهر لهم منك كذب لم يصدقوك في الحق. واستشير جلساءك وأهل العلم، فإن لم يستب لي فاكذب لي يأتك رأيي فيه إن شاء الله تعالى. وإن كان بك غضب على أحد من ريعتك فلا تؤاخذ به عند سورة الغضب، واحبس عنه عقوبتك حتى يسكن غضبك، ثم يكون منك ما يكون وأنت ساكن الغضب منطفيء الجمرة؛ فإن أول من جعل السجن كان حليماً ذا أناة. ثم انظر إلى أهل الحسب والدين والمروءة، فليكونوا أصحابك وجلساءك، ثم اعرف منازلهم منك على غير استرسال ولا انقباض. أقول هذا واستخلف الله عليك. أبو بكر بن أبي شيبة عن عبد الله بن مجالد عن الشعبي، قال: قال زياد: ما غلبني أمير المؤمنين معاوية في شيء من السياسة إلا مرة واحدة، استعملت رجلاً فكسر خراجه، فخشي أن أعاقبه ففر إليه واستجار به فأمنه. فكتبت إليه: إن هذا أدب سوء من قبلي. فكتب إلي: إنه لا ينبغي أن نسوس الناس سياسة واحدة، لا نلين جميعاً فتمرح الناس في المعصية، ولا نشدد جميعاً فنحمل الناس على المهالك، ولكن تكون أنت للشددة والغلظة، وأكون أنا للرافة والرحمة.

ما يأخذ به السلطان من الحزم والعزم

قالت الحكماء: أحزم الملوك من قهر جده هزله، وغلب رأيه هواه، وجعل له الفكر صاحباً يحسن له العواقب، وأعرب عن ضميره فعله ولم يخدعه رضاه عن سخطه، ولا غضبه عن كيده. وقال عبد الملك بن مروان لابنه الوليد، وكان ولي عهده: يا بني، اعلم أنه ليس بين السلطان وبين أن يملك الرعية أو تملكه الرعية إلا حزم أو توازن. وقالوا: لا ينبغي للعاقل أن يستصغر شيئاً من الخطأ أو الزلل، فإنه متى ما استصغر الصغير يوشك أن يقع الكبير؛ فقد رأينا الملوك توتى من العدو المحتقر، ورأينا الصحة توتى من الداء اليسير، ورأينا الأعمار تتدفق من الجداول الصغار. وقالوا: لا يكون الذم من الرعية لراعيها إلا لإحدى ثلاث: كريم قصر به عن قدره فاحتمل لذلك ضعفاً، أو لئيم بلغ به إلى ما لا يستحق فأورثه ذلك بطراً، أو رجل منع حظه من الإنصاف فشكا تفريطاً.

ومن كتاب للهند: خير الملوك من أشبه النسر حوله الجيف، لا من أشبه الجيف حولها النسر.
وقيل لملك سلب ملكه: ما الذي سلبك ملكك؟ فقال: دفع شغل اليوم إلى غد، والتماس عدة بتضييع عدد، واستكفاء كل مخدوع عن عقله.
والمخدوع عن عقله من بلغ قدراً لا يستحقه، أو أثيب ثواباً لا يستوجه.
وقال علي بن أبي طالب رضي الله عنه: انتهزوا هذه الفرص فإنها تمر مر السحاب، ولا تطلبوا أثراً بعد عين.
وكان عمر بن الخطاب رضي الله عنه أحزم الخلفاء. كانت عائشة رضي الله عنها إذا ذكر عمر قالت: كان والله أحوزياً نسيج وحده، وقد أعد للأمر أفرانها.
وقال المغيرة بن شعبه: ما رأيت أحداً هو أحزم من عمر، كان والله له فضل يمنعه أن يخدع، وعقل يمنعه أن يخدع.
وقال عمر: لست بحب، والخب لا يخدعني.
ومر عمر رضي الله عنه ببنيان يبني بأجر وحص فقال: لمن هذا؟ قيل: لعاملك على البحرين. فقال: أبت الدراهم إلا أن تخرج أعناقها. فأرسل فشاطره ماله.
وكان سعد بن أبي وقاص يقال له: المستجاب، لقول النبي صلى الله عليه وسلم: اتقوا دعوة سعد. فلما شاطره عمر ماله، قال له سعد: لقد هممت. قال له عمر: بأن تدعو علي؟ قال: نعم. قال: إذا لا تجدي بدعاء ربي شقياً.

وهجا رجل الشعراء سعد بن أبي وقاص يوم القادسية، فقال:

وسعد بباب القادسية معصم

ونسوة سعد ليس فيهن أيم

ألم تر أن الله اظهر دينه

فأبنا وقد آمت نساء كثيرة

فقال سعد: اللهم اكفني يده ولسانه، فقطعت يده وبكم لسانه.

ولما عزل عمر أبا موسى الأشعري عن البصرة وشاطره ماله، وعزل أبا هريرة عن البحرين وشاطره ماله، وعزل الحارث بن كعب بن وهب وشاطره ماله، دعا أبا موسى فقال له: ما جاريتان بلغني أنهما عندك، إحداهما عقيلة، والأخرى من بنات الملوك؟ قال: أما عقيلة فإنها جارية بيني وبين الناس، وأما التي هي من بنات الملوك فإني أردت بها غلاء الفداء. قال: فما جفتان تعملان عندك؟ قال: رزقتني شاة في كل يوم، فيعمل نصفها غدوة ونصفها عشية. قال: فما مكيا لان بلغني أنهما عندك؟ قال: أما أحدهما فأوفي به أهلي وديني. وأما الآخر فيتعامل الناس به. فقال: ادفع إلينا عقيلة، والله إنك لمؤمن لا تغل، أو فاجر مبل، أرجع إلى عملك عاقصاً بقرنك، مكتسماً بذنبك. والله إن بلغني عنك أمر لم أصدق.
ثم دعا أبا هريرة فقال له: هل علمت من حين أبي استعملتك على البحرين، وأنت بلا نعلين، ثم بلغني أنك ابتعت أفراساً بألف دينار وستمائة دينار؟ قال: كانت لنا أفراس تنتاجت، وعطايا تلاحقت. قال: قد حسبت لك رزقك ومؤنتك وهذا فضل فأده. قال: ليس لك ذلك. قال بلى والله وأوجع ظهرك. ثم قام إليه بالدرة فضربه حتى أدماه، ثم قال: إيت بما. قال: احتسبتها عند الله. قال: ذلك لو أخذتها من حلال وأديتها طائعاً. أجتت من أقصى حجر البحرين يجي الناس لك لا لله ولا للمسلمين! ما رجعت بك أميمة إلا لرعية الحمر. وأميمة أم أبي هريرة.
وفي حديث أبي هريرة، قال: لما عزلني عمر عن البحرين قال لي: يا عدو الله وعدو كتابه، سرقت مال الله؟ قال: فقلت: ما أنا عدو الله ولا عدو كتابه، ولكني عدو من عاداهما، ما سرقت مال الله. قال: فمن أين لك عشرة آلاف؟ قلت: خيل تنتاجت، وعطايا تلاحقت، وسهام تتابعت. قال: فقبضها مني. فلما صليت الصبح استغفرت لأمر المؤمنين. فقال لي بعد ذلك: ألا تعمل؟ قلت: لا. قال: قد عمل من هو خير منك، يوسف صلوات الله عليه. قلت: إن يوسف نبي وابن نبي وأنا ابن أميمة، أخشى أن يشتم عرضي ويضرب ظهري ويترع مالي.
قال: ثم دعا الحارث بن كعب بن وهب فقال: ما قلاص وأعبد بعثها بمائتي دينار؟ قال: خرجت بنفقة معي فتجرت فيها. فقال: أما والله ما بعثناكم لتتجروا في أموال المسلمين! أدها. فقال: أما والله لا عملت عملاً بعدها أبداً. قال: انتظر حتى استعملك.

وكتب عمر بن الخطاب رضي الله عنه إلى عمرو بن العاص، وكان عامله على مصر: من عبد الله عمر بن الخطاب إلى عمرو بن العاص، سلام عليك، أما بعد، فإنه بلغني أنك فشت لك فاشية من خيل وإبل وغنم وبقر وعبيد. وعهدي بك قبل ذلك أن لا مال لك، فاكتب إلي من أين أصل هذا المال ولا تكتمه.

فكتب إليه: من عمرو بن العاص إلى عبد الله عمر بن الخطاب أمير المؤمنين. سلام عليك. فإني أحمد إليك الله الذي لا إله إلا هو، أما بعد. فإنه أتاني كتاب أمير المؤمنين يذكر فيه ما فشا لي، وأنه يعرفني قبل ذلك ولا مال لي. وإني اعلم أمير المؤمنين أني ببلد السعر به رخيص، وأني من الحرفة والزراعة ما يعالجه أهله، وليس في رزق أمير المؤمنين سعة. وبالله لو رأيت خيانتك حلالاً ما خنتك، فأقصر أيها الرجل، فإن لنا أحساباً هي خير من العمل لك، إن رجعنا إليها عشنا بها. ولعمري إن عندك من لا يذم معيشته ولا تدم له. وذكرت أن عنك من المهاجرين الأولين من هو خير مني، فأني كان ذلك ولم نفتح قفلك، ولم نشرحك في عملك.

فكتب إليه عمر: أما بعد، فإني والله ما أنا من أساطيرك التي تسطر، ونسقت الكلام في غير مرجع! وما يعني عنك أن تزكي نفسك، وقد بعثت إليك محمد بن مسلمة فشاطره مالك. فإنكم أيها الرهط الأمراء جلستم على عيون المال ثم لم يعوزكم عذر، تجمعون لأبنائكم، وتمهدون لأنفسكم. أما تجمعون العار، وتورثون النار، والسلام.

فلما قدم عليه محمد بن مسلمة صنع له عمرو طعاماً كثيراً. فأبى محمد بن مسلمة أن يأكل منه شيئاً. فقال له عمر: أتحرمون طعامنا؟ فقال: لو قدمت إلي طعام الضيف أكلته، ولكنك قدمت إلي طعاماً هو مقدمة شر. والله لا أشرب عندك الماء، فاكتب لي كل شيء هو لك ولا تكتمه. فشاطره ماله بأجمعه، حتى بقيت نعلاه. فأخذ إحداهما وترك الأخرى. فغضب عمرو بن العاص فقال: يا محمد بن مسلمة قبح الله زماناً عمرو بن العاص لعمر بن الخطاب فيه عامل. والله إني لأعرف الخطاب يحمل فوق رأسه حزمة من الحطب وعلى ابنه مثلها، وما منهما إلا في نمرة لا تبلغ رسغيه، والله ما كان العاص بن وائل يرضى أن يلبس الديباج مزوراً بالذهب والفضة. قال له محمد بن مسلمة: اسكت، والله عمر خير منك، وأما أبوك وأبوه ففي النار. والله لولا الزمان الذي سبقك فيه لألفيت مقتعد شاة يسرك غزرها ويسوءك بكؤها. فقال عمرو: هي عندك بأمانة الله. فلم يخبر بها عمر.

ومن حديث زيد بن أسلم عن أبيه قال: بعث معاوية إلى عمر بن الخطاب رضي الله عنه وهو على الشام بمال وأدهم، وكتب إلى أبي سفيان أن يدفع ذلك إلى عمر - يعني بالأدهم القيد - وكتب إلى عمر يقول: إني وجدت في حصون الروم جماعة من أسارى المسلمين مقيدين بقيود حديد، أنفذت منها هذا ليراه أمير المؤمنين - وكانت العرب قبل ذلك تقيد بالقيد. قال الفرزدق: أو لجلد الأدهم - فخرج الرسول حتى قدم على سفيان بالمال والأدهم قال: فذهب أبو سفيان بالأدهم والكتاب إلى عمر واحتبس المال لنفسه. فلما قرأ عمر الكتاب، قال له: فأين المال يا أبا سفيان؟ قال: كان علينا دين ومعوثة، ولنا في بيت المال حق، فإذا أخرجت لنا شيئاً قاصصتنا به. فقال عمر: اطرحوه في الأدهم حتى يأتي بالمال. قال: فأرسل أبو سفيان من أتاه بالمال. فأمر عمر بإطلاقه من الأدهم. فلما قدم الرسول على معاوية، قال له: رأيت أمير المؤمنين اعجب بالأدهم؟ قال: نعم، وطرح فيه أباك. قال: ولم؟ قال جاءه بالأدهم وحبس المال؛ قال: إي والله، والخطاب لو كان لطرحة فيه.

زار أبو سفيان معاوية بالشام، فلما رجع من عنده دخل على عمر. فقال: أجزنا أبا سفيان. قال: ما أصبنا شيئاً فنجزك منه. فأخذ عمر خاتمه، فبعث به إلى هند، وقال للرسول: قل لها: يقول لك أبو سفيان: انظري إلى الخرجين اللذين جئت بهما فأحضرهما. فما لبث عمر أن أتى بخرجين فيهما عشرة آلاف درهم. فطرحهما عمر في بيت المال. فلما ولي عثمان ردهماً عليه. فقال أبو سفيان: ما كنت لأخذ مالا عابه علي عمر. ولما ولي عمر بن الخطاب رضي الله عنه عتبة بن أبي سفيان الطائف وصدقها ثم عزله، تلقاه في بعض الطريق، فوجد معه ثلاثين ألفاً، فقال: أني لك هذا؟ قال: والله ما هو لك ولا للمسلمين، ولكنه مال خرجت به لضيعة اشتريها. فقال عمر: عاملنا وجدنا معه مالا، ما سبيله إلا بيت المال، ورفعها. فلما ولي عثمان قال لعتبة: هل لك في هذا المال فإني لم أر لأخذ ابن الخطاب فيه وجهاً؟ قال: والله إن بنا إليه حاجة، ولكن لا ترد على من قبلك فيرد عليك من بعدك.

القحذمي قال: ضرب عمر رجلاً بالدرة فنادى: يا لقصي. فقال أبو سفيان: يا بن أخي، لو قبل اليوم تنادي قصياً لأنتك منها الغطاريف. فقال له

عمر: اسكت لا أبالك. قال أبو سفيان: ها، ووضع سبائته على فيه.

خليفة بن خياط قال: كتب يزيد بن الوليد، المعروف بالناقص - وإنما قيل له الناقص لفطر كماله - إلى مروان بن محمد - وبلغه عنه تلكم في بيعته -: أما بعد، فإن أراك تقدم رجلاً وتؤخر أخرى، فإذا أتاك كتابي هذا فاعتمد على أيهما شئت والسلام. فأنته بيعته.

ولما منع أهل مروأبا غسان الماء وزجته إلى الصحارى، كتب إليهم أبو غسان: إلى بني الأستاه من أهل مرو، ليمسني الماء أو لتصبحنكم الخيل. فما أمسى حتى أتاه الماء. فقال: الصدق ينبي عنك لا الوعيد.

وكتب عبد الله بن طاهر الخراساني إلى الحسن بن عمر التغلبي: أما بعد، فقد بلغني ما كان من قطع الفسقة الطريق ما بلغ، فلا الطريق تحمي، ولا اللصوص تكفي، ولا الرعية ترضي، وتطمع بعد هذا في الزيادة! إنك لمنفسح الأمل! وأتم الله لتكفي من قبلك أو لأوجهن إليك رجلاً لا تعرف مرة من جهم، ولا عدي من رهم، ولا حول ولا قوة إلا بالله.

وكتب الحجاج بن يوسف إلى قتيبة بن مسلم، واليه بخراسان: أما بعد، فإن وكيع بن حسان كان بالبصرة منه ما كان، ثم صار لصاً بسجستان، ثم صار إلى خراسان، فإذا أتاك كتابي هذا فاهدم بناءه واحلل لواءه. وكان على شرطة قتيبة فعزله، وولى الضبي عم مسعود بن الخطاب.

وبلغ الحجاج أن قوماً من الأعراب يفسدون الطريق، فكتب إليهم: أما بعد، فإنكم قد استخفتكم الفتنة، فلا عن حق تقاتلون، ولا عن منكر تنهون، وإني أهم أن ترد عليكم مني خيل تنسف الطارف والتالد، وتدع النساء أيامي، والأبناء يتامى، والديار خراباً.

فلما أتاهم كتابه كفوا عن الطريق.

التعرض للسلطان والرد عليه

قالت الحكماء: من تعرض للسلطان أرداه، ومن تطامن له تحطاه، وشبهوه في ذلك بالريح العاصفة التي لا تضر بما لان له من الشجر ومال معها من الحشيش، وما استهدف لها من الدواح العظام قصفته. قال الشاعر:

عيدان نبع ولا يعبان بالرتم

إن الرياح إذا ما أعصفت قصفت

وقال حبيب بن أوس - وهو أحسن مل قيل في السلطان -:

ونقتاده من جانبه فيتبع

هو السيل إن واجهته انقدت طوعه

وقال آخر:

وحده إن خاشنته خشان

هو السيف إن لاينته لان متته

وقال معاوية لأبي الجهم العدوي: أنا أكبر أم أنت؟ فقال: لقد أكلت في عرس أمك يا أمير المؤمنين. قال: عند أي أزواجها؟ قال: عند حفص ابن المغيرة. قال: يا أبا الجهم، إياك والسلطان، فإنه يغضب غضب العصي، ويأخذ أخذ الأسد.

وأبو الجهم هذا هو القائل في معاوية بن أبي سفيان:

فخبر منهما كرمًا ولينا

ونغضبه لنخبر حالتيه

نميل إذا نميل على أينا

نميل على جوانبه كأننا

وقدم عقبية الأسدي على معاوية، ورفع إليه رقعة فيها هذه الأبيات:

فلنسنا بالجبال ولا الحديد

معاوي إننا بشر فأسجج

فهل من قائم أو من حصيد

أكلتم أرضنا فجردتمونا

أطمع بالخلود إذا هلكتنا

فهبتنا أمة هلكت ضياعا

وليس لنا ولا لك من خلود

يزيد أميرها وأبو يزيد

فدعا به معاوية، فقال: ما جرأك علي؟ قال: نصحتك إذ غشوك، وصدقتك إذ كذبوك. فقال: ما أظنك إلا صادقاً، وقضى حوائجه. ومن حديث زياد عن مالك بن أنس قال: خطب أبو جعفر المنصور، فحمد الله تعالى وأثنى عليه، ثم قال: أيها الناس اتقوا الله. فقام إليه رجل من عرض الناس، فقال: أذكرك الله الذي ذكرتنا به يا أمير المؤمنين. فأجابه أبو جعفر بلا فكرة ولا روية: سمعاً وطاعة لمن ذكر بالله، وأعوذ بالله أن أذكر به وأنساه فتأخذني العزة بالإثم، فقد ضللت إذا وما أنا من المهتدين وأما أنت، فوالله ما الله أردت بها، ولكن ليقال: قال فعوقب فصير، وأهون بها لو كانت، وأنا أحذركم أيها الناس أختها، فإن الموعدة علينا نزلت، ومنا أخذت. ثم رجع إلى موضعه من الخطبة. وقام رجل إلى هارون الرشيد، وهو يخطب بمكة، فقال: "كبر مقتا عند الله أن تقولوا ما لا تفعلون". فأمر به فضرب مائة سوط. فكان يئن الليل كله ويقول: الموت! الموت! فأخبر هارون الرشيد أنه رجل صالح، فأرسل إليه فاستحله فأحله. المدائني قال: جلس الوليد بن عبد الملك على المنبر يوم الجمعة حتى اصفرت الشمس، فقام إليه رجل فقال: يا أمير المؤمنين، إن الوقت لا ينتظرك، وإن الرب لا يعذرك. قال صدقت: ومن قال مثل مقاتلك، فلا ينبغي له أن يقوم مثل مقامك. من ها هنا من أقرب الحرس يقوم إليه فيضرب عنقه؟ الرياشي عن الأصمعي قال: خاطر رجل رجلاً أن يقوم إلى معاوية إذا سجد فيضع يده على كفله ويقول: سبحان الله يا أمير المؤمنين! ما أشبه عجيزتك بعجيزة أمك هند! ففعل ذلك. فلما انفتل معاوية عن صلاته قال: لا يا بن أخي، إن أبا سفيان كان إلى ذلك منها أميل، فخذ ما جعلوا لك، فأخذه. ثم خاطر أيضاً أن يقوم إلى زياد وهو في الخطبة فيقول له: أيها أمير، من أبوك؟ ففعل. فقال له زياد: هذا يخبرك، وأشار إلى صاحب الشرطة، فقدمه فضرب عنقه. فلما بلغ معاوية، قال: ما قتله غيري، ولو أدبته على الأولى ما عاد إلى الثانية.

وخاطر رجل إلى أن يقوم إلى عمرو بن العاص وهو في الخطبة فيقول: أيها الأمير من أمك؟ ففعل. فقال له: النابغة بنت عبد الله، أصابتها رماح العرب، فبيعت بعكاظ، فاشترها عبد الله بن جدعان للعاص بن وائل، فولدت فأنجبت فإن كانوا جعلوا شيئاً فخذ. دخل حريم الناعم على معاوية بن أبي سفيان، فنظر معاوية إلى ساقيه، فقال: أي ساقين، لو أنهما على جارية! فقال له حريم: في مثل عجيزتك يا أمير المؤمنين. قال: واحدة بأحرى والبادئ أظلم.

تحلم السلطان على أهل الدين

والفضل إذا اجترعوا عليه

زياد عن مالك بن أنس قال: بعث أبو جعفر المنصور إلي وإلى ابن طاوس، فأتينا فدخلنا عليه، فإذا هو جالس على فرش قد نضدت، وبين يديه أنطاع قد بسطت، وجلالوزة بأيديهم السيوف يضربون الأعناق. فأموا إلينا: أن اجلسا. فجلسنا. فأطرق عنا طويلاً، ثم رفع رأسه والتفت إلى ابن طاوس، فقال له: حدثني عن أبيك. قال: نعم، سمعت أبي يقول: قال رسول الله صلى الله عليه وسلم: إن أشد الناس عذاباً يوم القيامة رجل أشركه الله في حكمه فأدخل عليه الجور في عدله. فأمسك ساعة. قال مالك: فضممت ثيابي من ثيابه مخافة أن يملأني من دمه. ثم التفت إليه أبو جعفر فقال: عطني يا ابن طاوس. قال: نعم يا أمير المؤمنين، إن الله تعالى يقول: "ألم تر كيف فعل ربك بعاد. إرم ذات العماد. التي لم يخلق مثلها في البلاد. وثمود الذين جابوا الصخر بالواد. وفرعون ذي الأوتاد. الذين طغوا في البلاد. فأكثروا فيها الفساد فصب عليهم ربك سوط عذاب إن ربك لبالمرصاد". قال مالك: فضممت ثيابي مخافة أن يملأ ثيابي من دمه. فأمسك ساعة حتى اسود ما بيننا وبينه. ثم قال: يا ابن طاوس، ناولني هذه الدواة. فأمسك عنه، ثم قال: ناولني هذه الدواة: فأمسك عنه. فأمسك عنه. فقال: ما يمنعك أن تناولنيها؟ قال: أخشى أن تكتب بها معصية الله فأكون شريكك فيها. فلما سمع ذلك

قال: قوماً عني قال ابن طاوس: ذلك ما كنا نبغي منذ اليوم.

قال مالك: فما زلت أعرف لا بن طاوس فضله.

أبو بكر بن أبي شيبه قال: قام أبو هريرة إلى مروان بن الحكم وقد أبطأ بالجمعة، فقال له: أتظل عن ابنة فلان تروحك بالمراوح وتسقيك الماء البارد، وأبناء المهاجرين والأنصار يصهرون من الحر! لقد هممت أن أفعل وأفعل، ثم قال: اسمعوا من أميركم.

فرج بن سلام بن أبي حاتم عن الأصمعي، قال: حدثني رجل من أهل المدينة، كان يتزل بشق بني زريق، قال: سمعت محمد بن إبراهيم يحدث قال: سمعت أبا جعفر بالمدينة وهو بنظر فيما بين رجل من قريش وأهل بيت من المهاجرين بالمدينة ليسوا من قريش، فقالوا لأبي جعفر: اجعل بيننا وبينه ابن أبي ذئب. فقال أبو جعفر لابن أبي ذئب: ما تقول في بني فلان؟ قال أشرار من أهل بيت أشرار. قالوا: أسأله يا أمير المؤمنين عن الحسن بن زيد وكان عامله على المدينة - قال: ما تقول في الحسن بن زيد؟ قال: يأخذ بالإحنة، ويقضي بالهوى. فقال الحسن: يا أمير المؤمنين، والله لو سألته عن نفسك لرماك بداهية أو وصفك بشر. قال: ما تقول في؟ قال: اعفني. قال: لا بد أن تقول. قال: لا تعدل في الرعية، ولا تقسم بالسوية. قال: فتغير وجه أي جعفر. فقال إبراهيم بن يحيى بن محمد بن علي صاحب الموصل: طهرني بدمه يا أمير المؤمنين. قال: اقعد يا بني، فليس في دم رجل يشهد أن لا إله إلا الله طهور. قال: ثم تدارك ابن أبي ذئب الكلام، فقال: يا أمير المؤمنين، دعنا مما نحن فيه، بلغني أن لك ابناً صالحاً بالعراق، يعني المهدي. قال: أما إنك قلت ذلك، إنه الصوام القوام البعيد ما بين الطرفين. قال ثم قام ابن أبي ذئب فخرج. فقال أبو جعفر: أما والله ما هو بمستوثق العقل، ولقد قال بذات نفسه.

قال الأصمعي: ابن أبي ذئب، من بني عامر بن لؤي، من أنفسهم.

قال: ودخل الحارث بن مسكين على المأمون فسأله عن مسألة، فقال: أقول فيها كما قال مالك بن أنس لأبيك هارون الرشيد؟ - وذكر قوله فلم يعجب المأمون - فقال: لقد تيسرت فيها وتيس مالك. قال الحارث بن مسكين: فالسامع يا أمير المؤمنين، من التيسين أتيس. فتغير وجه المأمون. وقام الحارث بن مسكين فخرج، وتقدم على ما كان من قوله. فلم يستقر منزله حتى أتاه رسول المأمون؛ فأيقن بالشر، وليس ثياب أكفانه، ثم أقبل حتى دخل عليه فقربه المأمون من نفسه، ثم أقبل عليه بوجهه فقال له: يا هذا، إن الله تبارك وتعالى قد أمر من هو خير منك بإلانة القول لمن هو شر مني، فقال لنبيه موسى صلى الله عليه وسلم إذ أرسله إلى فرعون: "فقولاً له قولاً لنا لعله يتذكر أو يخشى". فقال: يا أمير المؤمنين، أبوء بالذنب وأستغفر الرب. قال: عفا الله عنك، انصرف إذا شئت.

وأرسل أبو جعفر إلى سفیان الثوري، فلما دخل عليه قال: عظمي أبا عبد الله قال: وما عملت يا أمير المؤمنين فيما علمت فأعظك فيما جهلت؟ فما وجد له المنصور جواباً.

ودخل أبو النضر سالم مولى عمر بن عبد الله على عامل للخليفة فقال له: أبا النضر، إنا تأتينا كتب من عند الخليفة فيها وفيها، ولا نجد بداً من إنفاذها، فما ترى؟ قال له أبو النضر: قد أتاك كتاب الله تعالى قبل كتاب الخليفة، فأيهما اتبعت كنت من أهله.

ونظير هذا القول ما رواه الأعمش عن الشعبي: أن زياداً كتب إلى الحكم بن عمرو الغفاري، وكان على الصائفة: إن أمير المؤمنين معاوية كتب إلي يأمرني أن أصطفي له الصفراء والبيضاء، فلا تقسم بين الناس ذهباً ولا فضة واقسم ما سوى ذلك. فكتب إليه: إني وجدت كتاب الله قبل كتاب أمير المؤمنين، والله لو أن السموات والأرض كانتا رتقاً على عبد فاتقى الله لجعل له منهما مخرجاً. ثم نادى في الناس، فقسم فيهم ما اجتمع له من الفيء. ومثله قول الحسن حين أرسل إليه ابن هبيرة وإلى الشعبي، فقال له: ما ترى أبا سعيد في كتب تأتينا من عند يزيد بن عبد الملك فيها بعض ما فيها، فإن أنفذتها وافقت سخط الله، وإن لم أنفذها خشيت على دمي؟ فقال له الحسن: هذا عندك الشعبي فقيه أهل الحجاز. فرقق له الشعبي وقال له: قارب وسدد، فإنما أنت عبد مأمور. ثم التفت ابن هبيرة إلى الحسن وقال: ما تقول يا أبا سعيد؟ فقال الحسن: يا ابن هبيرة، خف الله في يزيد ولا تخف يزيد في الله. يا ابن هبيرة، إن الله مانعك من يزيد وإن يزيد لا يمنعك من الله. يا ابن هبيرة لا طاعة لمخلوق في معصية الخالق، فانظر ما كتب إليك فيه يزيد فأعرضه على كتاب الله تعالى، فما وافق كتاب الله تعالى فأنفذه، وما خالف كتاب الله فلا تنفذه، فإن الله أولى بك من يزيد، وكتاب الله أولى بك من

كتابه. فضرب ابن هبيرة بيده على كتف الحسن وقال: هذا الشيخ صدقني ورب الكعبة. وأمر للحسن بأربعة آلاف درهم، وأمر للشعبي بألفين. فقال الشعبي: رفقنا فرفق لنا. فأما الحسن فأرسل إلى المساكين، فلما اجتمعوا فرقها. وأما الشعبي فإنه قبلها وشكر عليها. ونظير هذا قول الأحنف بن قيس لمعاوية حين شاوره في استخلاف يزيد، فسكت عنه. فقال: ما لك لا تقول؟ فقال: إن صدقناك أسخطناك، وإن كذبناك أسخطنا الله، فسخط أمير المؤمنين أهون علينا من سخط الله. فقال له: صدقت. وكتب أبو الدرداء إلى معاوية، أما بعد: فإنه من يلتبس رضا الله بسخط الناس، ومن التمس رضا الناس بسخط الله وكله الله إلى الناس.

وكتبت عائشة رضي الله عنها إلى معاوية: أما بعد، فإنه من يعمل بمساخت الله يصير حامده من الناس ذاماً له، والسلام.

أبو الحسن المدائني قال: خرج الزهري يوماً من عند هشام فقال: ما رأيت مثل أربع كلمات تكلم به اليوم إنسان عند هشام. قيل له: و ما هن؟ قال: دخل رجل على هشام فقال: يا أمير المؤمنين، احفظ عني أربع كلمات فيهن صلاح ملكك، واستقامة رعيتك فقال هاتهن. فقال: لا تعدن عدة لا تثق من نفسك بإنجازها. قال: هذه واحدة فهات الثانية. قال: لا يغرنك المرتقى وإن كان سهلاً إذا كان المنحدر وعرأ. قال: هات الثالثة. قال: إن للأعمال جزاء فاتق العواقب. قال هات الرابعة. قال: واعلم أن للأمر بغتات فكن على حذر.

قعد معاوية بالكوفة يبائع الناس على البراءة من علي بن أبي طالب رضي الله عنه، فقال له رجل: يا أمير المؤمنين، نطيع أحياءكم ولا نتبرأ من موتاكم فالتفت إلى المغيرة فقال له: هذا رجل فاستوص به خيراً.

وقال عبد الملك بن مروان للحارث بن عبد الله بن أبي ربيعة: ما كان يقول الكذاب في كذا وكذا؟ - يعني ابن الزبير - فقال: ما كان كذاباً. فقال له يحيى بن الحكم: من أمك يا حار؟ قال: هي التي تعلم. قال له عبد الملك: اسكت فهي أنجب من أمك.

دخل الزهري على الوليد بن عبد الملك، فقال له: ما حديث يحدثنا به أهل الشام؟ قال: يحدثوننا أن الله إذا استرعى عبداً رعيته كتب له الحسنات ولم يكتب له السيئات. قال: باطل يا أمير المؤمنين، أني خليفة أكرم على الله أم خليعة غير نبي؟ قل: بل نبي خليفة. قال: فإن الله تعالى يقول لنبيه داور عليه السلام: "يا داوود إنا جعلناك خليفة في الأرض فاحكم بين الناس بالحق ولا تتبع الهوى فيضلك عن سبيل الله. إن الذين يضلون عن سبيل الله لهم عذاب شديد بما نسوا يوم الحساب". فهذا وعيد يا أمير المؤمنين لنبي خليفة، فما ظنك بخليفة غير نبي؟ قال: إن الناس ليغفوننا عن ديننا.

الأصمعي عن إسحاق بن يحيى عن عطاء بن يسار، قال: قلت للوليد بن عبد الملك: قال عمر بن الخطاب: وددت أني خرجت من هذا الأمر كفافاً لا علي ولا لي. فقال: كذبت. فقلت: أو كذبت؟ فما أفلت بجريعة الذقن.

المشورة

قال النبي صلى الله عليه وسلم: ما ندم من استشار، ولا خاب من استخار. وقدر أمر الله تبارك وتعالى نبيه عليه الصلاة والسلام بمشاورة من هو دونه في الرأي والحزم، فقال: "وشاورهم في الأمر فإذا عزم فتوكل على الله".

ولما هممت ثقيف بالارتداد بعد موت النبي صلى الله عليه وسلم استشاروا عثمان بن أبي العاص، وكان مطاعاً فيهم، فقال لهم: لا تكونوا آخر العرب إسلاماً، وأولهم ارتداداً. فنفعهم الله برأيه.

وسئل بعض الحكماء: أي الأمور أشد تأييداً للفتى وأيتها أشد إضراراً به؟ فقال: أشدها تأييداً له ثلاثة: مشاورة العلماء، وتجربة الأمور، وحسن الثبوت. وأشدها إضراراً به ثلاثة أشياء: الاستبداد والتهاون والعجلة.

وأشار حكيم على حكيم برأي فقبله منه. فقال له: لقد قلت بما يقول به الناصح الشفيق الذي يخلط حلو كلامه بمره، وسهله بوعره، ويحرك الإشفاق منه ما هو ساكن من غيره. وقد وعيت النصيح وقبلته، إذ كان مصدره من عند من لا يشك في مودته وصفاء غيبه، ونصح جيبه؛ وما زلت بحمد الله إلى الخير طريقاً واضحاً، ومناراً بيناً.

وكان عبد الله بن وهب الراسي يقول: إياكم والرأي الفطير. وكان يستعيز بالله من الرأي الدبري.
 وكان علي بن أبي طالب رضي الله عنه يقول: رأي الشيخ خير من مشهد الغلام.
 وأوصى ابن هبيرة ولده فقال: لا تكن أول مشير، وإياك والهوى والرأي الفطير؛ ولا تشيرن على مستبد ولا على وغد ولا على متلون ولا لجوج وخف
 الله في موافقة هوى المستشير. فإن النماس موافقته لؤم، وسوء الاستماع منه خيانة.
 وكان عامر بن الظرب حاكم العرب يقول: دعوا الرأي يغب حتى يختمر، وإياكم والرأي الفطير. يريد الأناة في الرأي والتثبت فيه. ومن أمثالهم في هذا
 قولهم: لا رأي لمن لا يطاع.
 وكان المهلب يقول: إن من البلية أن يكون الرأي بيد من يملكه دون من يبصره.
 العتي: قال: قيل لرجل من عبس: ما أكثر صوابكم! قال نحن ألف رجل وفينا حازم واحد، فنحن نشاوره، فكأننا ألف حازم.
 قال الشاعر:

والليل لا ينجلي إلا بإصباح

مصباح رأيك تزدد ضوء مصباح

الرأي كالليل مسود جوانبه

فاضمم مصابيح آراء الرجال إلى

العتي قال: أخبرني من رأى عبد الله بن عبد الأعلى، وهو أول داخل على الخليفة وآخر خارج من عنده. قال: ثم رأيته وإنه ليتقى كما يتقى البعير
 الأجر فقل لي: يا أبا العرق، أهمننا القوم في سريرتنا، ولم يقبلوا منا علانيتنا، ومن ورائهم وورائنا حكم عدل.

ومن أحسن ما قيل فيمن أشير عليه فلم يقبل قول سبيع لأهل اليمامة بعد إيقاع خالد بهم: يا بني حنيفة بعدا لكم كما بعدت عاد وحمود. أما والله لقد
 أنبأتكم بالأمر قبل وقوعه، كأني أسمع جرسه وأبصر غيبه، ولكنكم أبيتم النصيحة فاجتنيتم الندامة، وإني لما رأيتم تهيمون النصيح وتسفهون الحليم،
 استشعرت منكم اليأس وخفت عليكم البلاء. والله ما منعكم الله التوبة، ولا أخذكم على غرة، ولقد أمهلكم حتى مل الواعظ، ووهن الموغوظ. وكنتم
 كأئما يعني بما أتم فيه غيركم، فأصبحتم وفي أيديكم من تكذيبي التصديق. ومن نصيحتي الندامة، وأصبح في يدي من هلاككم البكاء، ومن ذلكم
 الجزع، وأصبح ما فات غير مردود، وما بقي غير مأمون.
 وقال القطامي في هذا المعنى:

تزيدك مرة منه استماعا

وليس بأن تتبعه اتباعا

إلى ما جر غاويهم سراعا

ويجتمبون من صدق المصاعا

ومعصية الشفيق عليك مما

وخير الأمر ما استقبلت منه

كذلك وما رأيت الناس إلا

تراهم يغمزون من استركوا

وكان يقال: لا تستشر معلماً ولا حاكماً ولا راعي غنم ولا كثير القعود مع النساء.
 وأنشد في المعلمين:

يروح إلى أنثى ويغدو إلى طفل

وكيف يرجي العقل والرأي عند من

وكان يقال: لا تشاور صاحب حاجة يريد قضاءها.

وكان يقال: لا رأي لحاقن، ولا حازق، وهو الذي ضغطه الخف ولا لحاقب وهو الذي يجد رزا في بطنه.

وينشد في الرأي بعد فوته:

حتى إذا فات أمر عاتب القدرا

وعاجز الرأي مضياع لفرصته

ومن قولنا في هذا المعنى:

ما كنت أول ناصح معصي

فلئن سمعت نصيحتي وعصيتها

وقال حبيب في بني تغلب عند إيقاع مالك بن طوق بهم:

ولو ينفخ قين الحي في فحم

لم يألَمك مالك صفحاً ومغفرةً

حفظ الأسرار

قالت الحكماء: صدرك أوسع لسرك من صدر غيرك.

وقالوا: سرك من دمك فانظر أين تريقه. يعنون أنه ربما كان في إفشائه سفك دمك.

وكتب عبد الملك بن مروان إلى الحجاج بن يوسف:

فإن لكل نصيح نصيحا

ولا تفش سرك إلا إليك

ل لا يتركون أديماً صحيحا

فإني رأيت غواة الرجا

وقالت الحكماء: ما كنت كاتم من عدوك فلا تطلع عليه صديقك.

وقال عمرو بن العاص: ما استودعت رجلاً سراً فأفشاه فلمته، لأني كنت أضيق صدراً منه حين استودعته إياه حتى أفشاه.

وقال الشاعر:

فصدر الذي يستودع السر أضيق

إذا ضاق صدر المرء عن سر نفسه

قيل لأعرابي: كيف كتمانك للسر؟ أجحد المخبر وأحلف للمستخبر.

وقيل لآخر: كيف كتمانك للسر؟ قال: ما قلبي له إلا قبر.

وقال المأمون: الملوك تحتمل كل شيء إلا ثلاثة أشياء: القدح في الملوك، وإفشاء السر، والتعرض للحرم.

وقال الوليد بن عتبة لأبيه: إن أمير المؤمنين أسر إلي حديثاً ولا أراه يطوي عنك، أفلا أحدثك به؟ قال: لا يا بني، إنه من كنتم سره كان الخيار له، ومن

أفشاه كان الخيار عليه، فلا تكن مملوكاً بعد أن كنت مالكاً.

وفي كتاب التاج. أن بعض ملوك العجم استشار وزيره فقال أحدهما: لا ينبغي للملك أن يستشير منا أحد إلا خالياً به، فإنه أموت للسر، وأحزم

للرأي، وأجدر بالسلامة، وأعفى لبعضنا من غائلة بعض. فإن إفشاء السر إلى رجل واحد أوثق من إفشائه إلى اثنين، وإفشائه إلى ثلاثة كإفشائه إلى

جماعة؛ لأن الواحد رهن بما أفشي، والثاني مطلق عنه بذلك الرهن، والثالث علاوة فيه فإذا كان السر عند واحد كان أحرى أن لا يظهره رغبة ورهبة

وإن كان اثنين دخلت على الملك الشبهة. واتسعت على الرجلين المعارض، فإن عاقبهما عاقب اثنين بذنوب واحد، وإن اتهمهما اتهم بريئاً بجناية مجرم،

وإن عفا عنهما كان العفو عن أحدهما ولا ذنب له، وعن الآخر ولا حجة معه.

ومن أحسن ما قالت الشعراء في السر قول عمر بن أبي ربيعة:

معي فتحدث غير ذي رقبة أهلي

فقال وأرخت جانب الستر إنما

ولكن سرى ليس يحمله مثلي

فقلت لها ما بي لهم من ترقب

وقال أبو محجن الثقفي:

وسائلي الناس عن بأسني وعن خلقي

لا تسألني الناس عن مالي وكثرته

قد أطعن الطعنة النجلاء عن عرض

وأكتم السر فيه ضربة العنق

وقال الخطيئة يهجو:

أغربالاً إذا استودعت سراً

وكانونا على المتحدثينا

الإذن

قال زياد لحاجبه عجلان: كيف تأذن للناس؟ قال: على البيوتات، ثم على الأسنان، ثم على الآداب. قال فمن تؤخر؟ قال: من لا يعبأ الله بهم. قال: ومن هم؟ قال: الذين يلبسون كسوة الشتاء في الصيف وكسوة الصيف في الشتاء. وكان سعيد بن عتبة بن حصين إذا حضر باب أحد من السلاطين جلس جانباً، فقيل له: إنك لتباعد من الآذن جهدك. قال: لأن أدعى من بعيد خير من أن أقصى من قريب، ثم قال:

هو المنزل الأقصى إذا لم أقرب

وإن مسيري في البلاد ومنزلي

خلاقني ولا ديني ابتغاء التحبب

ولست وإن أدنيت يوماً ببائع

ويمنعني من ذلك ديني ومنصبي

وقد عده قوم تجارة رابح

وقال آخر:

إذا فتح البواب بابك إصبعا

رأيت أناساً يسرعون تبادراً

وحلما إلى أن يفتح الباب أجمعا

ونحن جلوس ساكنون رزانة

وقف الأحنف بن قيس ومحمد بن الأشعث بباب معاوية، فأذن للأحنف ثم أذن لابن الأشعث، فأسرع في مشيته حتى تقدم الأحنف ودخل قبله. فلما رآه معاوية غمه ذلك وأحقره، فالتفت إليه، فقال: والله إني ما أذنت له قبلك وأنا أريد أن تدخل قبله. وأنا كما نلي أموركم كذلك نلي آدابكم، ولا يزيد متزيد في خطوه إلا لتقص يجره من نفسه.

وقال هشام الرقاشي:

وفي العتاب حياة بين أقوام

أبلغ أبا مسمع عني مغلطة

في الحق أن يلجوا الأبواب قدامي

قدمت قبلي رجالاً ما يكون لهم

قربى وأبعدهم من منزل الذام

لو عد قوم وقوم كنت أقربهم

بباب قصرك أدلوها بأقوام

حتى جعلت إذا ما حاجة عرضت

قيل لمعاوية: إن آذنتك يقدم معارفه في الإذن على وجوه الناس. قال: وما عليه؟ إن المعرفة لتتفع في الكلب العقور والسبع الهصور والجمال الصؤول، فكيف في رجل حسيب ذي كرم ودين؟ وقالت الحكماء: لا يواظب أحد على باب السلطان فيلقي عن نفسه الأنفة ويحمل الأذى ويكظم الغيظ إلا وصل إلى حاجته.

وقالوا: من أدمن قرع الباب يوشك أن يفتح له.

وقال الشاعر:

أصبته بسهام الرزق قد فلجا

كم من فتى قصر في الرزق خطوته

إن الأمور إذا انسدت مسالكها

فالصبر يفتق منها كل ما ارتتجا

لا تياسن وإن طالت مطالبة

أن ترى فرجا إذا استعنت بصبر

أخلق بذى الصبر أن يحظى بحاجته

ومدمن القرع للأبواب أن يلجا

ونظر رجل إلى روح بن حاتم واقفاً في الشمس عند باب المنصور؛ فقال له: قد طال وقوفك في الشمس فقال: ليطول وقوفي في الظل.

ونظر آخر إلى الحسن بن عبد الحميد يزاحم الناس على باب محمد بن سليمان فقال له: أمثلك يرضى بهذا؟ فقال:

أهين لهم نفسي لأكرمها بهم

ولا يكرم النفس الذي لا يهينها

وفي كتاب للهند: إن السلطان لا يقرب الناس لقرب آباءهم ولا يبعدهم لبعدهم، ولكن ينظر ما عند كل رجل منهم، فيقرب البعيد لنفعه ويبعد

القريب لضره وشبهوا ذلك بالجرذ الذي هو في البيت مجاور، فمن أجل ضره نفي، والبازي الذي هو وحشي، فمن أجل نفعه اقتني.

استأذن رجل على النبي صلى الله عليه وسلم وهو في بيت، فقال: أألج؟ فقال النبي صلى الله عليه وسلم لخادمه: اخرج إلى هذا فعلمه الاستئذان، وقل

له يقول: السلام عليكم، أدخل.

وقال النبي صلى الله عليه وسلم: الاستئذان ثلاث، فإن أذن لك وإلا فارجع.

وقال النبي صلى الله عليه وسلم: الثانية مؤامرة، والثالثة عزمة، إما أن يأذنوا وإما أن يرجع.

الحجاب

قال زياد لحاجبه: يا عجلان إني وليتك حجابي وعزلتك عن أربع: هذا المنادى إلى الله في الصلاة والفلاح لا تحجبه عني، فلا سلطان لك عليه؛ وطارق

الليل لا تحجبه، فشر ما جاء به، ولو كان في تلك الساعة؛ ورسول الثغر، فإنه إن أبطأ ساعة أفسد عمل سنة، فأدخله علي وإن كنت في الحاي؛

وصاحب الطعام، فإن الطعام إذا أعيد تسخينه فسد.

ووقف أبو سفيان بباب عثمان بن عفان، وقد اشتغل ببعض مصالح المسلمين فحجبه. فقال له رجل، وأراد أن يغريه: يا أبا سفيان، ما كنت أرى أن

تقف بباب مضري فيحجبك. فقال أبو سفيان: لا عدمت من قومي من أقف ببابه فيحجبي.

استأذن أبو الدرداء على معاوية فحجبه، فقال: من يغش أبواب الملوك يقم ويقعد، ومن يجد باباً مغلقاً يجد إلى جانبه باباً مفتوحاً، إن دعا أجيبي وإن

سأل أعطي.

وقال محمود الوراق:

شاد الملوك قصورهم فتحصنوا

من كل طالب حاجة أو راغب

غالوا بأبواب الحديد لعزها

وتتوقوا في قبج وجه الحاجب

فإذا تطف للدخول عليهم

راج تلقوه بوعد كاذب

فاطلب إلى ملك الملوك ولا تكن

بادي الضراعة طالباً من طالب

سعيد بن مسلم قال: كنت واليا بإرمينية فغير أبو هفان أياما بباي ولا أعلم به، فلما وصل إلي مثل قائماً بين السماطين وقال: والله إني لأعرف أقواماً

لو علموا أن سف التراب يقيم من أود أصلاهم لجعلوه مسكة لأرماقهم إيثاراً للنتزه عن عيش رقيق الحواشي. أما والله إني لبعيد الوثبة بطيء العطفة.

إن الله ما يثني عنك إلا ما يصرفك عني، ولأن أكون مقلاً مقرباً أحب إلي من أكون مكثراً مبعداً. والله ما نسأل عملاً لا نضبطه، ولا مالاً ونحن أكثر

منه. وهذت الأمر الذي قد صار إليك وفي يديك كان في يد غيرك قبلك فأمسوا والله حديثاً، إن خيراً فخير وإن شراً فشر. فتجنب إلى عباد الله،

وبعضهم موصول ببغضه، لأنهم شهداء الله على خلقه، وبقاؤه على من اعوج عن سبيله.
أبو مسهر قال: أتيت أبا جعفر محمد بن عبد الله بن عبد كان فحجبت، فكتبت إليه:

تأذن عليك لي الأستار والحجب
ما رد إلا العلم والأدب والله

إني أتيتك للتسليم أمس فلم
وقد علمت بأني لم أرد ولا

فأجابني محمد بن عبد الله بن عبد كان فقال:

قال ابن أوس وفيما قاله أدب:
إن السماء ترجى حين تحتجب

لو كنت كافات بالحسنى لقلت كما
ليس الحجاب بمقص عنك أي أملاً

وقف بياب محمد بن منصور رجل من خاصته فحجب عنه، فكتب إليه:

حجبت عن الباب الذي أنا حاجبه

علي أي باب أطلب الإذن بعد ما

وقف أبو العتاهية إلى باب بعض الهاشميين فطلب الإذن؛ ف قيل له: تكون لك عودة فقال:

سأصرف وجهي حيث تبغى المكارم
ونصفك محجوب ونصفك نائم

لئن عدت بعد اليوم إني لظالم
متى يظفر الغادي إليك بحاجة

ونظير هذا المعنى للعتابي، حيث يقول:

غير من منا بذاك المزار
ل على مثل حالنا بالنهار

قد أتيناك للسلام مراراً
فاذا أنت في استتارك باللي

وقف رجل بياب أبي دلف، فأقام حيناً لا يصل إليه، فتلطف برقعة أوصلها إليه، وكتب فيها:

فما فضل الكريم على اللئيم

إذا كان الكريم له حجاب

فأجابه أبو دلف:

ولم يعذر تغلل بالحجاب
فلا تستعظم حجاب بابي

إذا كان الكريم قليل مال
وأبواب الملوك محجبات

وقال حبيب الطائي في الحجاب:

على ما أرى حتى يلين قليلاً
ولا فاز من قد نال منه وصولاً
حمى بابه من أن ينال دخولا
وجدنا إلى ترك المجيء سبيلاً

سأترك هذا الباب ما دام إذنه
فما خاب من لم يأتته متعمداً
ولا جعلت أرزاقنا بيد امرئ
إذا لم نجد للإذن عندك موضعاً

وأنشد أبو بكر بن العطار:

تبدلت يا عمرو شيمة كدره
يوم تكون السماء منفطره

مالك قد حلت عن وفائك واس
لستم ترجون للحساب ولا

قد كان وجهي لديك معرفة

وقال غيره:

أنتيك للتسليم لا أنني امرؤ

فألفيت بواباً ببابك مغرماً

وقد قال قوم حاجب المرء عامل

وقال أبو نواس الحسن بن هانئ:

أيها الراكب المغذ إلى الفض

ونعم هبك قد وصلت إلى الفض

وقال آخر، وهو محمد البغدادي:

حجابك من مهابتة عسير

خرجت كما دخلت إليك إلا

وقال آخر، وهو العتاي:

حجابك ليس يشبهه حجاب

ونومك نوم من ورد المنايا

وقال غيره:

أنا بالباب واقف منذ أصبح

وبعين البواب كل الذي بي

وقال غيره:

إذا ما أتيناها في حاجة

له حاجب دونه حاجب

وقال أبو بشير: حجيتي بعض كتاب العسكر، فكتبت إليه: إن من لم يرفعه الإذن لم يضعه الحجاب. وأنا أرفعك عن هذه المتزلة، وأرغب بقدرك عن هذه الخليفة، وكل من قام متزلك عظم قدره أو صغر، وحاول حجاب الخليفة، أمكنه. فتأمل هذه الحال وانظر إليها بعين الفهم ترها في أفصح صورة وأدنى متزلة.

وقد قلت في ذلك:

إذا كنت تأتي المرء تعظم حقه

وفي الناس أبدال وفي الهجر راحة

وإن امرأ يرضى الهوان لنفسه

وقال آخر:

فاليوم أضحي بابا من النكرة

أردت بإتيانك أسباب نائك

يهدم ما وطدته من فضائك

على عرضه فاحذر خيانة عاملك

ل ترفق فدون فضل حجاب

ل فهل في يدك إلا التراب

وخيرك في تزیده يسير

غبار طار في خفي كثير

وخيرك دون مطلبه السحاب

فليس له إلى الدنيا إياب

ت على السرج ممسكاً بعناني

ويراني كأنه لا يراني

رفعنا الرقاع له بالقصب

وحاجب حاجبه محتجب

ويجهل منك الحق فالهجر أوسع

وفي الناس عمن لا يواتيك مقنع

حري بجذع الأنف والأنف أسنع

يا أبا موسى وأنت فتى

كن على منهاج معرفة

فيه تبدو محاسنه

ماجد حلو ضرائبه

إن وجه المرء حاجبه

وبه تبدو معايبه

وأنشد حسين الجمل -ويكر إلى باب سليمان بن وهب فحجبه الحاجب وأدخل ابن سعوة وحمدويه - قال:

ولعمري لئن حجبتنا عن الشئ

لا ولا عن طعامه التافه النز

بل حجبتنا به عن الخسف والمس

فجزى الله حاجباً لك فظاً

فلقد سرنى دخول أبي سع

إن ذبحى نذالة قد تأتى

خ فلا عن وجه هناك وجيه

ر الذي حوله لطام بنيه

خ وذاك التبريق والتمويه

كل خير عنا إذا يجزيه

وة دونى وبعده حمدويه

من صباحى بقبح تلك الوجوه

وقال أحمد بن محمد البغدادي في الحسن بن وهب الكاتب:

ومستتب عن الحسن بن وهب

أتانى كي أخبره بعلمي

هو الرجل المهذب غير أنى

وأكثر ما يغنيه فتاه

ولولا الريح أسمع أهل حجر

ومن قولنا في هذا المعنى:

وعما فيه من كرم وخير

فقلت له سقطت على الخبير

أراه كثير إرخاء الستور

حسين حين يخلو للسرور:

صليل البيض تفرع بالذكر

ما بال بابك محروساً ببواب

لا يحتجب وجهك الممقوت عن أحد

فاعزل عن الباب من قد ظل يحجبه

ووقف حبيب بن أوس الطائي بباب مالك بن طوق فحجب عنه. فكتب إليه يقول:

يحميه من طارق يأتي ومنتاب

فالمقت يحجبه من غير حجاب

فإن وجهك طلسم على الباب

قل لا بن طوق رحي سعد إذ طحنت

أصبحت حاتمها جوداً وأحنفها

مالي أرى القتبة البيضاء مقفلة

أظنها جنة الفردوس معرضة

نوائب الدهر أعلاها وأسفلها:

حلماً وكيسها علماً ودغفلها

دونى وقد طالما استفتحت مقفلها

وليس لي عمل زاك فأدخلها

باب من الوفاء والغدر

قال مروان بن محمد لعبد الحميد الكاتب حين أيقن بزوال ملكه: قد احتجت إلى أن تصير مع عدوي وتظهر الغدر بي؛ فإن إعجابهم بأدبك وحاجتهم إلى كتابك تدعوهم إلى حسن الظن بك، فإن استطعت أن تنفعني في حياتي وإلا لم تعجز عن نفع حرمي بعد موتي. فقال عبد الحميد: إن الذي أمرت به أنفع الأشياء لك وأقبحها بي، وما عندي غير الصبر معك، حتى يفتح الله عليك أو أقتل معك. وأنشأ يقول:

أسر وفاء ثم أظهر غدره

فمن لي بعذر يوسع الناس ظاهره

أبو الحسن المدائني قال: لما قتل عبد الملك بن مروان عمرو بن سعيد بعد ما صالحه وكتب إليه أماناً وأشهد شهوداً، قال عبد الملك بن مروان لرجل كان يستشيريه ويصدر عن رأيه إذا ضاق به الأمر: ما رأيك في الذي كان مني؟ قال: أمر قد فات دركه. قال: لتقولن. قال: حزم لو قتلته وحييت. قال: أو لست بجي؟ فقال: ليس بجي من أوقف نفسه موقفاً لا يوثق له بعهد ولا يعقد. قال عبد الملك: كلام لو سبق سماعه فعلى لأمسكت. المدائني قال: لما كتب أبو جعفر أمان ابن هبيرة واختلف فيه الشهود أربعين يوماً، ركب في رجال معه حتى دخل على المنصور، فقال له: يا أمير المؤمنين إن دولتكم هذه جديدة فأذيقوا الناس حلاوتها وجنبوهم مرارتها، لتسرع محبتكم إلى قلوبهم، ويعذب ذكركم على ألسنتهم، وما زلت منتظراً لهذه الدعوة. فأمر أبو جعفر برفع الستر بينه وبينه، فنظر إلى وجهه وباسطه بالقول حتى اطمأن قلبه. فلما خرج قال أبو جعفر لأصحابه. عجباً لمن يأمرني بقتل مثل هذا! ثم قتله بعد ذلك غدرًا.

وقال أبو جعفر لسلم بن قتيبة: ما ترى في قتل أبي مسلم؟ قال سلم: "لو كان فيهما آلهة إلا الله لفسدتا"؛ قال حسبك الله أبا أمية. قال أبو عمرو بن العلاء: كان بنو سعد بن تميم أغدر العرب، وكانوا يسمون الغدر في الجاهلية: كيسان فقال فيهم الشاعر:

إذا كنت في سعد وخالك منهم

غريباً فلا يغررك خالك من سعد

إذا ما دعوا كيسان كانت كهولهم

إلى الغدر أدنى من شبابهم المرد

الولاية والعزل

قال النبي صلى الله عليه وسلم: ستحرصون على الإمارة، ثم تكون حسرة وندامة، فنعمت المرضعة، وبئست الفاطمة. وقال المغيرة بن شعبة: أحب الإمارة لثلاث وأكرهها لثلاث أحبها لرفع الأولياء، ووضع الأعداء، واسترخاص الأشياء. وأكرهها لروعة البريد، وموت العزل، وشماتة الأعداء. وقال ولد ابن شيرمة القاضي: كنت جالساً مع أبي قبل أن يلي القضاء، فمر به طارق بن أبي زياد في موكب نبيل، وهو وإلى البصرة، فلما رآه أبي تنفس الصعداء وقال:

أراها وإن كانت تحب كأنها

سحابة صيف عن قريب تقشع

ثم قال: اللهم لي ديني ولهم دنياهم. فلما ابتلى بالقضاء، قلت له يا أبت أتذكر يوم طارق؟ قال: يا بني، إنهم يجدون خلفاً من أبيك، وإن أباك حط في أهوائهم، وأكل من حلوائهم.

قيل لعبد الله بن الحسن: إن فلاناً غيرته الولاية قال: من ولي ولاية يراها أكبر منه تغير لها، ومن ولي ولاية يرى نفسه أكبر منها لم يتغير لها. ولما عزل عمر بن الخطاب رضي الله عنه المغيرة بن شعبة عن كتابة أبي موسى، قال له: أعن عجز أم خيانة يا أمير المؤمنين؟ قال: لا عن واحدة منهما، ولكني أكره أن أحمل فضل عقلك على العامة.

وكتب زياد إلى معاوية: قد أخذت العراق بيميني وبقيت شمالي فارغة يعرض له بالحجاز - فبلغ ذلك عبد الله بن عمر، فرفع يده إلى السماء وقال: اللهم اكفنا شمال زياد. فخرجت في شماله قرحة فقتلته.

ولقي عمر بن الخطاب أبا هريرة، فقال له: ألا تعمل؟ قال: لا أريد العمل. قال: قد طلب العمل من هو خير منك، يوسف عليه الصلاة والسلام. قال: اجعلني على خزائن الأرض إني حفيظ عليم.

المدائي قال: كان بلال بن أبي بردة ملازماً لباب خالد بن عبد الله القسري، فكان لا يركب خالد إلا رآه في موكب، فبرم به، فقال لرجل من الشرط: إئت ذلك الرجل صاحب العمامة السوداء فقل له: يقول لك الأمير: ما لزومك باي وموكبي! إني لا أوليك ولاية أبداً. فأتاه الرسول فأبلغه. فقال له بلال: هل أنت مبلغ عني الأمير كما بلغتني عنه؟ قال: نعم. قال: قل له: والله لئن وليتني لا عزلتني. فأبلغه ذلك. فقال خالد: قاتله الله! إنه ليعد من نفسه بكفاية. فدعاه فولاه.

وأراد عمر ابن الخطاب أن يستعمل رجلاً، فبادر الرجل فطلب منه العمل. فقال له عمر: والله لقد كنت أردت لك ذلك، ولكن من طلب هذا الأمر لم يعن عليه.

وطلب العباس عم النبي صلى الله عليه وسلم من النبي ولاية، فقال له: يا عم نفس تحييها خير من ولاية لا تحييها. وطلب رجل من أصحاب النبي صلى الله عليه وسلم، فقال له: إنا لا نستعين على عملنا بمن يريد.

وتقول النصارى: لا نختار للجنلة إلا زاهداً فيها هارياً منها غير طالب لها.

وقال زياد لأصحابه: من أغبط الناس عيشاً؟ قالوا: الأمير وأصحابه. قال: كلا، إن لأعواد المنبر لهيبة، ولقرع لجام البريد لفرعة. ولكن أغبط الناس عيشاً رجل له دار يجري عليه كراؤها، وزوجة قد وافقته في كفاف من عيشه، لا يعرفنا ولا نعرفه، فإن عرفنا وعرفناه، أفسدنا عليه آخرته ودينه. وكتب المغيرة بن معاوية، حين كبر وخاف أن يستبدل به: أما بعد، فقد كبرت سني، ورق عظمي، واقترب أجلي، وسفهني سفهاء قريش، فرأى أمير المؤمنين في عمله موفق.

فكتب إليه معاوية: أما ما ذكرت من كبر سنك، فأنت أكلت شبابك؛ وأما ما ذكرت من اقتراب أحلك، فإني لو أستطيع دفع المنية لدفعتها عن آل أبي سفيان؛ وأما ما ذكرت من سفهاء قريش، فحلماؤها أحلوك ذاك المحل؛ وأما ما ذكرت من أمر العمل، فضح رويداً يدرك الهيجا حمل وهذا مثل للعرب وقد وقع تفسيره في كتاب الأمثال.

فلما انتهى الكتاب إلى المغيرة، كتب إليه يستأذنه في القدوم عليه، فأذن له، فخرج وخرجنا معه. فلما دخل عليه قال له: يا مغيرة، كبرت سنك، ورق عظمك، ولم يبق منك شيء، ولا أراي إلا مستبدلاً بك. قال المحدث عنه: فانصرف إلينا ونحن نرى الكأبة في وجهه، فأخبرنا بما كان من أمره قلنا له: فما تريد أن تصنع؟ قال: ستعلمون ذلك. فأتى معاوية فقال له: يا أمير المؤمنين، إن الأنفس ليغدى عليها ويراح، ولست في زمن أبي بكر ولا عمر، فلو نصبت لنا علماً من بعدك نصير إليه، فإني قد كنت دعوت أهل العراق إلى بيعة يزيد. فقال: يا أبا محمد، انصرف إلى عملك ورم هذا الأمر لابن أخيك. فأقبلنا تركض على النجب، فالتفت فقال: والله لقد وضعت رجله في ركاب طويل، ألقى عليه أمة محمد صلى الله عليه وسلم.

باب من أحكام القضاء

قال عمر بن عبد العزيز رحمه الله: إذا كان في القضاء خمس خصال فقد كمل: علم بما كان قبله، ونزاهة عن الطمع، وحلم على الخصم، واقتداء بالأئمة، ومشاورة أهل العلم والرأي.

وقال عمر بن عبد العزيز: إذا أتاك الخصم وقد فقئت عينه، فلا تحكم له حتى يأتي خصمه، فلعله قد فقئت عينه جميعاً. وكتب عمر بن الخطاب رضي الله عنه إلى معاوية كتاباً في القضاء يقول فيه: إذ تقدم إليك الخصمان فعليك بالبينة العادلة، أو اليمين القاطعة، وإدناء الضعيف حتى يشتد قلبه؛ وينبسط لسانه. وتعاهد الغريب، فإنك إن لم تعاهده ترك حقه، ورجع إلى أهله، وإنما ضيع حقه من لم يفرق به. وآس بين الناس في لحظك وطرفك، وعليك بالصلح بين الناس ما لم يتبين لك فصل القضاء.

العتبي قال: تنازع إبراهيم بن المهدي هو وبختيشوع الطيب بين يدي أحمد بن أبي داود القاضي في مجلس الحكم في عقار بناحية السواد، فررى عليه ابن المهدي وأغلظ له بين يدي أحمد بن أبي داود. فأحفظه ذلك، فقال: بإبراهيم، إذا نازعت أحداً في مجلس الحكم فلا أعلن أنك رفعت عليه صوتاً، ولا أشرت إليه بيد؛ وليكن قصدك أمماً، وطريقك نهجاً، وريحك ساكنة. ووف مجالس الحكومة حقوقها من التوقير والتعظيم والتوجه إلى الواجب، فإن

ذلك أشبه بك، وأشكل لمذهبك في محنتك وعظم خاطرك. ولا تعجل، فرب عجلة قلب ريثاً، والله يعصمك من الزلل، وخطل القول والعمل، ويتم نعمته عليك ما أتمها على أبوك من قبل، إن ربك حكيم عليم. قال إبراهيم: أصلحك الله، أمرت بسداد، وحضضت على رشاد، ولست بعائد إلى ما يلثم مروعتي عندك، ويسقطني من عينك، ويخرجني عن مقدار الواجب إلى الاعتذار، فهذا أنذا معتذر إليك من هذه البادرة اعتذار مقرر بذنبه، باخع بجرمه؛ فإن الغضب لا يزال يستفز بمودة فيردني مثلك بجلمه، وقد رهبت حقي من هذا العقار لبختيشوع، فليت ذلك يقوم بأرش الحناية، ولن يتلف مال أفاد موعظة. وبالله التوفيق.

وكتب عمر بن الخطاب رضي الله عنه إلى أبي موسى الأشعري - رواها ابن عيينة -:

أما بعد، فإن القضاء فريضة محكمة، وسنة متبعة، فافهم إذا أدلى إليك الخصم، فإنه لا ينفع تكلم بحق لا نفاذ له. آس بين الناس في مجلسك ووجهك، حتى لا يطمع شريف في حيفك، ولا يخاف ضعيف من جورك البينة على من ادعى، واليمين على من أنكروا، والصلح جائز بين المسلمين إلا صلحاً أحل حراماً أو حرم حلالاً. ولا يمنعك قضاء قضيتته بالأمس ثم راجعت فيه نفسك، وهديت فيه لرشدك أن ترجع عنه، فإن الحق قد قدم، والرجوع إليه خير من التماذي على الباطل. الفهم الفهم فيما يتلجلج في صدرك مما لم يبلغك به كتاب الله ولا سنة نبيه صلى الله عليه وسلم واعرف الأمثال والأشباه وقس الأمور عند ذلك، ثم اعمد إلى أحبها عند الله ورسوله وأشبهها بالحق، واجعل للمدعي أمداً ينتهي إليه، فإن أحضر بينة أخذت له بحقه، وإلا وجهت عليه القضاء، فإن ذلك أحلى للعمى وأبلغ في العذر. والمسلمون عدول بعضهم على بعض، إلا مجلوداً في حد، أو مجرباً عليه شهادة زور، أو ظنيماً في ولاء أو قرابة أو نسب، فإن الله عز وجل ولى منكم السرائر ودرأ عنكم البيئات والأيمان. ثم إياك والتأذي بالناس والتنكر للخصوم في مواطن الحقوق التي يوجب الله عز وجل بها الأجر، ويحسن بها الذخر، فإنه من تخلص نيته فيما بينه وبين الله ولو على نفسه يكفيه الله ما بينه وبين الناس، ومن تزين للناس بما يعلم الله خلافه منه هتك الله ستره.

وكتب عمر بن الخطاب رضي الله عنه إلى أبي موسى الأشعري: أما بعد فإن للناس نفرة عن سلطاهم، فاحذر أن تدركني وإياك عمياء مجهولة، وضغائن محمولة، وأهواء متبعة، ودنيا مؤثرة. أقم الحدود واجلس للمظالم ولو ساعة من النهار، وأخف الفساد واجعلهم يداً يداً، ورجلاً رجلاً وإذا كانت بين القبائل ثائرة فنادوا: يا لفلان، فإنما تلك نجوى من الشيطان فاضربهم بالسيف حتى يفيئوا إلى أمر الله عز وجل، وتكون دعواتهم إلى الله والإسلام. واستمد النعمة بالشكر، والطاعة بالتألف، والمقدرة بالعفو، والنصرة بالتواضع والمحبة للناس، وبلغني أن ضبة تنادي: يا لضبة. وإني والله ما أعلم أن ضبة ساق الله بها خيراً قط، ولا صرف بها شراً. فإذا جاءك كتابي هذا، فأهكهم عقوبة حتى يفرقوا إن لم يفرقوا، وألصق بغيلان بن خرشة من بينهم. وعد مرضى المسلمين، واشهد جنازتهم، وباشر أمورهم بنفسك، وافتح لهم بابك؛ فإنما أنت رجل منهم، غير أن الله قد جعلك أثقلهم حملاً. وقد بلغ أمير المؤمنين أنه فشت لك ولأهل بيتك هيئة في لباسك ومطعمك ومركبك ليس للمسلمين مثلها، فإياك يا عبد الله أن تكون كالبهيمة همها في السمن والسمن حتفها. واعلم أن العامل إذا زاغ زاغت رعيته، وأشقى الناس من يشقى به الناس، والسلام.

أراد عمر بن الخطاب رضي الله عنه أن يغزو قوماً في البحر، فكتب إليه عمرو بن العاص، وهو عامله على مصر: يا أمير المؤمنين، إن البحر خلق عظيم يركبه خلق صغير، دود على عود. فقال عمر: لا سألني الله عن أحد أحمله فيه.

الشعبي قال: كنت جالساً عند شريح إذ دخلت عليه امرأة تشتكي زوجها وهو غائب، وتبكي بكاء شديداً. فقلت: أصلحك الله، ما أراها إلا مظلومة. قال: وما علمك؟ قلت: لبكائها. قال: لا تفعل، فإن أخوة يوسف جاءوا آباءهم عشاء يبكون وهم له ظالمون.

وكان الحسن بن أبي الحسن لا يرى أن يرد شهادة رجل مسلم إلا أن يجره المشهود عليه. فأقبل إليه رجل، فقال: يا أبا سعيد، إن إياساً رد شهادتي. فقام معه الحسن إليه فقال: يا أبا وائلة، لم رددت شهادة هذا المسلم، وقد قال رسول الله صلى الله عليه وسلم، من صلى صلاتنا واستقبل قبلتنا فهو مسلم، له ما لنا وعليه ما علينا؟ فقال: يا أبا سعيد، إن الله عز وجل يقول: "من ترضون من الشهداء" وهذا ممن لا يرضى.

ودخل الأشعث بن قيس على شريح القاضي في مجلس الحكومة فقال: مرحباً وأهلاً بشيخنا وسيدنا، وأجلسه معه. فبينما هو جالس عنده إذ دخل رجل يتظلم من الأشعث، فقال له شريح: قم فاجلس مجلس الخصم وكلم صاحبك. قال: بل أكلمه من مجلسي. فقال له: لتقومن أو لآمرن من يقيمك. فقال له الأشعث: لشد ما ارتفعت! قال: فهل رأيت ذلك ضرك؟ قال: لا. قال: فأراك تعرف نعمة الله على غيرك وتجهلها على نفسك.

وأقبل وكيع بن أبي سعود صاحب خراسان ليشهد عند إياس بشهادة، فقال: مرحباً وأهلاً بأبي مطرف وأجلسه معه، ثم قال له: ما جاء بك؟ قال: لأشهد لفلان. فقال: مالك وللشهادة، إنما يشهد الموالي والتجار والسوقة. قال: صدقت، وانصرف من عنده. فقيل له: خدعك، إنه لا يقبل شهادتك. قال: لو علمت ذلك لعلوته بالقضيب.

دخل عدي بن أرطاة على شريح، فقال: أين أنت أصلحك الله؟ قال: بينك وبين الحائط. قال: إني رجل من أهل الشام. قال: نائي الدار سحيق المزار. قال: قد تزوجت عندكم. قال: بالرفاء والبنين قال: وولد لي غلام. قال: ليهنك الفارس. قال: وأردت أن أرحلها. قال: الرجل أحق بأهله قال: وشرطت لها دارها، قال: الشرط أملك. قال فاحكم الآن بيننا. قال: قد فعلت قال: على من قضيت؟ قال: على ابن أمك. قال: بشهادة من؟ قال: بشهادة ابن أخت حالتك. يريد إقراره على نفسه.

سفيان الثوري قال: جاء رجل يخاصم إلى شريح في سنور، قال: بينتك. قال: ما أجد بينة في سنور ولدت عندنا. قال شريح: فاذهبوا بها إلى أمها فأرسلوها، فإن استقرت واستمرت ودرت فهي سنورك، وإن هي اقشعرت وازبأرت وهرت فليست بسنورك. سفيان الثوري قال: جاء رجل إلى شريح فقال: ما تقول في شاة تأكل الدب؟ قال: لبن طيب وعلف مجان. وقيل لشريح: أيهما أطيب: الجوزينق أو اللوزينق؟ قال: لست أحكم على غائب. ودخل رجل على الشعبي في مجلس القضاء ومعه امرأته، وهي من أجمل النساء، فاختصما إليه، فأدلت المرأة بحجتها وقربت بينتها. فقال الشعبي للزوج: هل عندك من مدفع؟ فأنشأ يقول:

رفع الطرف إليها

فتن الشعبي لما

وبخطي حاجبها

فتنته بدلال

ها وأحضر شاهديها

قال للجلواز قرب

م ولم يقض عليها

فقضى جوراً على الخص

قال الشعبي: فدخلت على عبد الملك بن مروان، فلما نظر إلي تبسم وقال:

رفع الطرف إليها

فتن الشعبي لم

ثم قال: ما فعلت بقائل هذه الأبيات؟ قلت: أوجعته ضرباً يا أمير المؤمنين بما انتهك من حرمتي في مجلس الحكومة، وبما افتري به علي. قال: أحسنت.

كتاب الفريدة في الحروب ومدار أمرها

قال أبو عمر أحمد بن محمد بن عبد ربه رحمه الله قد مضى قولنا في السلطان وتعظيمه، وما على الرعية من لزوم طاعته، وإدامة نصيحته؛ وما على السلطان من العدل في رعيته، والرفق بأهل مملكته. ونحن قائلون بعون الله وتوفيقه في الحروب ومدار أمرها، وقود الجيوش وتديبيرها، وما على المدبر لها من إعمال الخدعة، وانتهاز الفرصة، والتماس الغرة وإذكاء العيون، وإفشاء الطلائع، واجتناب المضايق، وطول تجربته لها و لمقاساة الحروب ومعاناة الجيوش، وعلمه أن لا درع كالصير، ولا حصن كاليقين. ثم نذكر كرم الإقدام، ومحمود عاقبته، ولؤم الفرار، ومذموم مغبته. والله المعين.

صفة الحرب

الحرب رحي ثقالها الصبر، وقطبها المكر، ومدارها الاجتهاد، وثقافها الأناة، وزمامها الحذر، ولكل شيء من هذه ثمرة، فثمره الصبر التأيد، وثمره المكر الظفر، وثمره الاجتهاد والتوفيق، وثمره الأناة اليمن، وثمره الحذر السلامة. ولكل مقام مقال، ولكل زمان رجال، والحرب بين الناس سجال، والرأي فيها أبلغ من القتال.

قال عمرو بن الخطاب رضي الله عنه لعمرو بن معد يكرب: صف لنا الحرب، قال: مرة المذاق، إذا كشفت عن ساق، من صبر فيها عرف، ومن نكل عنها تلف ثم أنشأ يقول:

تسعى بزيتها لكل جهول

عادت عجوزاً ذات خليل

مكروهة للثم والتقبيل

الحرب أول ما تكون فتية

حتى إذا حميت وشب ضرامها

شمطاء جزت رأسها وتكرت

وقيل لعنرة الفوارس: صف لنا الحرب. فقال: أولها شكوى، وأوسطها نجوى، وآخرها بلوى.
وقال الكميت:

ويستون إذا ما أدبر القبل

والعاملون بذئ غدويها قتل

فيوشك أن يكون له ضرام

وإن الحرب أولها الكلام

والناس في الحرب شتى وهي مقبلة

كل بأسيها طب مولية

وقال نصر بن سياد صاحب خراسان يصف الحرب ومبتدا أمرها:

أرى خلل الرماد جمر

فإذا النار بالعودين تذكى

يكون وقودها جثث وهام

أيقاظ أمية أم نيام

عدل السفية به بألف حلیم

وهو الحكيم لكان غير حكيم

فإن لم يطفها عقلاء قوم

فقلت من التعجب لبيت شعري

وفي حكمة سليمان بن داود عليهما السلام: الشر حلو أوله: مر آخره.

والعرب تقول: الحرب غشوم، لأنها تنال غير الجاني وقال حبيب:

والحرب تركب رأسها في مشهد

في ساعة لو أن لقماناً بها

وقال أكثم بن صيفي حكيم العرب: لا حلم لمن لا سفية له.

ونحو هذا قول الأحنف بن قيس: ما قل سفهاء قوم قط إلا ذلوا.

وقال: لأن يطيعني سفهاء قومي، أحب إلي من أن يطيعني حلماءهم.

وقال: أكرموا سفهاءكم، فإنهم يكفونكم النار والعار.

وقال النابغة الجعدي:

بوادر تحمي صفوه أن يكدرها

ولا خير في حلم إذا لم تكن له

وأشده هذا الشعر للنبي صلى الله عليه وسلم، فلما انتهى إلى هذا البيت، قال له النبي صلى الله عليه وسلم: لا يفضض الله فاك. فعاش ثلاثين ومائة سنة لم تسقط له ثنية.

وقال النابغة الذبياني يصف الحرب:

لا النور نور ولا الإظلام إظلام

تبدو كواكبه والشمس طالعة

يريد بقوله: "تبدو كواكبه والشمس طالعة" شدة الهول والكرب، كما تقول العامة: أريته النجوم وسط النهار.

قال الفرزدق: "أريك نجوم الليل والشمس حية" وقال طرفة بن العبد: "وتريك النجم يجري بالظهر" وإليه ذهب جرير في قوله:

تبكي عليك نجوم الليل والقمر

والشمس طالعة ليست بكاسفة

يقول: الشمس طالعة وليست بكاسفة نجوم الليل، لشدة الغم والكرب الذي فيه الناس.

ومن قولنا في صفة الحرب:

يغادر أرضه كالأرجوان

ومغرب السماء إذا تجلى

بكل مذلق سلب السنان

سموت له سمو النقع فيه

كلون الملح منصلت يماني

وكل مشطب المتنين صاف

كواكبه من السمر اللذان

كأن نهاره ظلما ليل

وفي صفة المعترك:

ذكور الهند في أيدي ذكور

ومعترك تهز به المنايا

ويعمي دونها طرف البصير

لوامع يبصر الأعمى سناها

على حمراء ذات شبا طيرير

وخافقة الذرائب قد أنافت

تخطفت القلوب من الصدور

تحوم حولها عقبان موت

فما عرف الأصيل من البكور

ببوم راح في سربال ليل

رنو البكر من بين الستور

وعين الشمس ترنو في قتام

به وأطلت من عمر قصير

فكم قصرت من عمر طويل

العمل في الحرب

قيل لأكثم بن صيفي: صف لنا العمل في الحرب. قال: أقفوا الخلاف على أمرائكم، فلا جماعة لمن اختلف عليه. واعلموا أن كثرة الصباح من الفشل،

فتثبتوا، فإن أحزم الفريقين الركين، ورب عجلة تعقب ريثاً. وادرعوا الليل، فإنه أخفى للويل، وتحفظوا من البيات.

وقال شبيب الحروري: الليل يكفيك الجبان ونصف الشجاع.

وكان إذا أمسى يقول لأصحابه: أتاكم المدد يعني الليل.

وقالت عائشة رضي الله تعالى عنها يوم الجمل، وسمعت منازعة أصحابها وكثرة صياحهم: المنازعة في الحرب حور، والصياح فيها فشل، وما برأيي

خرجت مع هؤلاء.

وقال عتبة بن ربيعة لأصحابه يوم بدر لما رأى عسكر رسول الله صلى الله عليه وسلم: أما تروهم حرساً لا يتكلمون، يتلمظون تلمظ الحيات. وقال علي بن أبي طالب رضي الله عنه: من أكثر النظر في العواقب، لم يشجع. وقال النعمان بن مقرن لأصحابه عند لقاء العدو: إني هاز لكم الراية، فليصلح كل رجل منكم من شأنه، وليشد على نفسه وفرسه؛ ثم إني هازها لكم الثانية، فلينظر كل رجل منكم موقع سهمه، وموضع عدوه، ومكان فرصته ثم إني هازها لكم الثالثة وحامل، فاحملوا على اسم الله. وللنعمان بن مقرن هذا يقول عمر بن الخطاب رضي الله عنه - إذ تكاملت عنده الحشود وتطلع الصحابة إلى التقدم عليها -: لأقلدن أعتتها رجلاً يكون عداً لأول أسنة يلقاها. فقلدها النعمان بن مقرن. وقال علي بن أبي طالب رضي الله عنه: انتهزوا الفرصة، فإنها تمر مر السحاب، ولا تطلبوا أثراً بعد عين.

وقال بعض الحكماء: انتهز الفرصة، فإنها خلصة؛ وثب عند رأس الأمر، ولا تثب عند ذنبه. وإياك والعجز، فإنه أذل مركب؛ والشفيع المهين، فإنه والله أضعف وسيلة. وخرجت خارحة بخراسان على قتيبة بن مسلم فأهمه ذلك، فقيل له: ما يهملك منهم! وجه إليهم وكيع بن أبي سود فإنه يكفيكم. فقال: لا، إن وكيعاً رجل به كبر يختقر أعداءه، ومن كان هكذا قلت مبالاته بأعدائه فلم يحترس منهم، فيجد عدوه غرة منه. وسئل بعض الملوك عن وثائق الحزم في القتال فقال: مخالطة العدو عن الريف، وإعداد العيون على الرصد، وإعطاء المبلغين أماناً على مستأمن، ولا تشدهنك الغنيمة عن المحاذرة. وفي بعض كتب العجم: أن حكيماً سئل أشد الأمور تدريباً للجنود وشحذاً لها، فقال: تعود القتال وكثرته، وأن يكون لها مواد من ورائها. وقال عمرو بن العاص لمعاوية: والله ما أدري يا أمير المؤمنين أشجاع أنت أم جبان؟ فقال معاوية:

وإن لم تكن لي فرصة فجبان

شجاع إذا ما أمكنتني فرصة

وقال الأحنف بن قيس: إن رأيت الشر يتركك إن تركته فاتركه. قال هدية العذري:

ولكن متى أحمل على الشر أركب

ولا أتمنى الشر والشر تاركي

ولا جازع من صرفه المتقلب

ولست بمفراح إذا الدهر سرنى

الصبر والإقدام في الحرب

جمعت الله تبارك وتعالى تدبير الحرب كلها في آيتين من كتابه فقال: "يا أيها الذين آمنوا إذا لقيتم فئة فاثبتوا واذكروا الله كثيراً لعلكم تفلحون. وأطيعوا الله ورسوله ولا تنازعوا فتفشلوا وتذهب ريحكم واصبروا إن الله مع الصابرين". وتقول العرب: إن الشجاعة وقاية، والجن مقتلة. واعتبر من ذلك، أن من يقتل مدبراً أكثر ممن يقتل مقبلاً؟ ولذلك قال أبو بكر رضي الله تعالى عنه لخالد بن الوليد: احرص على الموت توهب لك الحياة. والعرب تقول: الشجاع موقى، والجبان ملقى. وقال أعرابي: الله نخلف ما أتلّف الناس، والدهر متلف ما جمعوا؛ وكم من منية علتها طلب الحياة، وحياة سببها التعرض للموت. وكان خالد بن الوليد يسير في الصفوف يذمر الناس ويقول: يا أهل الإسلام، إن الصبر عز، وإن الفشل عجز، وإن مع الصبر النصر. وكتب أنو شروان إلى مرزبته، عليكم بأهل الشجاعة والسخاء، فإنهم أهل حسن الظن بالله.

وقالت الحكماء: استقبال الموت خير من استدباره.

وقال حسان بن ثابت:

ولكن على أقدامنا تقطر الدما

ولسنا على الأعقاب تدمى كلومنا

وقال العلوي في هذا المعنى:

ودامية لباتها ونحورها

محرمة أكفال خيلي على القنا

وتغرق منها في الصدور صدورها

حرام على أرماحنا طعن مدبر

وكانوا يتمادحون بالموت قعصاً، ويتهاجون بالموت على الفراش، ويقولون فيه: مات فلان حتف أنفه وأول من قال ذلك النبي عليه الصلاة والسلام. وخطب عبد الله بن الزبير الناس لما بلغه قتل مصعب أخيه فقال: إن يقتل فقد قتل أبوه وأخوه وعمه. إنا والله لا نموت حتفاً، ولكن نموت قعصاً بأطراف الرماح، وموتاً تحت ظلال السيوف. وإن يقتل مصعب فإن في آل الزبير خلفاً منه.

وقال السموأل بن عدياء:

ولا طل منا حيث كان قتيل

ما مات منا سيد حتف أنفه

وليس على غير السيوف تسيل

تسيل على حد الطبات نفوسنا

وقال آخر:

ونترك أخرى مرة ما ندوقها

وإن لتستحلي المنايا نفوسنا

وقال الشنفرى:

عليكم ولكن خامري أم عامر

فلا تدفنوني إن دفني محرم

وغودر عند الملتقى ثم سائري

إذا حملت رأسي وفي الرأس أكثرني

سحبس الليالي مبسلاً بالجرائر

هنالك لا أبغي حياة تسرني

قوله: خامري أم عامر، هي الضبع. يعني بقوله: إذا قتلتموني فلا تدفنوني ولكن القوي إلى التي يقال لها: خامري أم عامر، وهي الضبع وهذا اللفظ بعيد من المعنى.

وقال أمير المؤمنين علي بن أبي طالب عليه السلام -وقيل له: أتقتل أهل الشام بالغداة وتظهر بالعشي في إزار ورداء؟- فقال: أبلوت تخوفوني! فوالله ما أبالي أسقطت على الموت أم سقط علي.

وقال لابنه الحسن عليهما السلام: لا تدعون أحداً إلى المبارزة، وإن دعيت إليها فأجب، فإن الداعي إليها باغ، والباغي مصروع.

وقال علي بن أبي طالب رضي الله تعالى عنه: بقية السيف أئمة عدداء، وأطيب ولداء. يريد أن السيف إذا أسرع في أهل بيت أكثر عددهم، ونمى ولدهم. ومما يستدل به على صدق قوله: ما عمل السيف في آل الزبير، وآل أبي طالب، وما أكثر من عددهم.

وقال أبو دلف العجلي:

مهري ركوب الغلس

إني امرؤ عودني

يحمد كرى فرسي

يحمدني سيفي كما

وفي نهاري أنسى

سيفي بليلي قبسي

وقال محمد بن عبد الله بن طاهر صاحب خراسان:

ولا على الجار بنباح
فبين أسياف وأرماع
يقبض أرواحاً بأرواح

لست لربحان ولا راح
فإن أردت الآن موقفاً
ترى فتى تحت ظلال القنا

وقال أشهب بن رميلة:

تساقوا على حرد دماء الأسود
مقارعتي الأبطال طال نحبها
يجود بنفس أنقلتها ذنوبها

أسود شرى لاقت أسود خفية
وسائلة بالغيب عني ولو درت
إذا ما التقينا كنت أول فارس

ثم يحمل فلا يقوم له شيء إلا أقعده. فإذا كان من الغد عاد لمثل ذلك.

وقال هشام بن عبد الملك لأخيه مسلمة: يا أبا سعيد، هل دخلك زعر قط لحرب أو عدو؟ قال: ما سلمت في ذلك من زعر ينه علي حيلي، ولم يغشني زعر قط سلبني رأيي. قال هشام: صدقت، هذه والله البسالة. وقيل لعنترة: كم كنتم يوم الفروق؟ قال: كنا مائة، لم نكثر فنتكل، ولم نقل فنذل. وكان يزيد بن المهلب يتمثل كثيراً في الحرب بقول حصين بن الحمام:

لنفسى حياة مثل أن أتقدما

تأخرت أستبقي الحياة فلم أجد

وقالت الخنساء:

س يوم الكريهة أبقى لها

نهين النفوس وبذل النفو

وقيل لعباد بن الحصين - وكان من أشد أهل البصرة - في أي عدة كنت تريد أن تلقى عدوك؟ قال: في أجل مستأخر: وكان مما يتمثل به معاوية رضي الله عنه يوم صفين.

وأخذي الحمد بالثمن الربيع
وضربي هامة البطل المشيح
مكانك تحمدي أو تستريحي
وأحمي بعد عن عرض صحيح

أبت لي شيمتي وأبى بلائي
وإقدامي على المكروه نفسي
وقولي كلما جشأت وجاشت
لأدفع عن مآثر صالحات

ونظير هذا قول قطري بن الفجاءة:

من الأبطال ويحك لا تراعي
سوى الأجل الذي لك لم تطاعي

وقولي كلما جشأت لنفسي
فإنك لو سألت حياة يوم

وكان علي بن أبي طالب رضي الله عنه يخرج كل يوم بصفين حتى يقف بين الصفين ويقول:

يوم لا يقدر أو يوم قدر

أي يومي من الموت أفر

يوم لا يقدر لا أرهبه

ومن المقدور لا ينجي الحذر

ومثله قول جرير:

قل للجبان إذا تأخر سرجه

هل أنت من شرك المنية ناجي

وهذا البيت في شعره الذي أوله: "هاج الهوى لفؤادك المهتاج" ومدح فيه الحجاج، فلما أنشده: "قل للجبان إذا تأخر سرجه" قال: جرأت علي الناس يا بن اللخناء. قال: والله ما ألقيت لها بالاً أيها الأمير إلا وقتي هذا. وكان عاصم بن الحذثان عالماً ذكياً وكان رأس الخوارج بالبصرة وربما جاءه الرسول منهم من الجزيرة يسأله عن الأمر يختصمون فيه، فمر به الفرزدق، فقال لابنه: أنشد أبا فراس، فأنشد:

وهم إذا كسروا الجفون أكارم

صبر وحين تحلل الأزرار

يغشون حومات المنون وإنها

في الله عند نفوسهم لصغار

يمشون بالخطي لا يثنيهم

والقوم إذ ركبوا الرماح تجار

فقال له الفرزدق: ويحك! اكتم هذا لا يسمعه النساخون فيخرجوا علينا بحقوقهم. فقال أبوه: يا فرزدق، هو شاعر المؤمنين وأنت شاعر الكافرين. ونظير هذا مما يشجع الجبان قول عنترة الفوارس:

بكرت تخوفني الحتوف كأنني

أصبحت عن غرض الحتوف بمعزل

فأجبتها إن المنية منهل

لا بد أن أسقى بكأس المنهل

فاقني حياك لا أبالك واعلمي

أني امرؤ سأموت إن لم أقتل

Binary file 30_1 matches

إذا ما التقوا في مآزق وتعانقوا

فلقياهم طعن وتقبيلهم ضرب

ومن قولنا في رجال الحرب، وأن الوغى قد أخذت من أجسامهم فهي مثل السيوف في رقتها وصلابتها:

سيف تقلد مثله

عطف القضيب على القضيب

هذا تجز به الرقا

ب وذا تجز به الخطوب

ومن قولنا أيضاً:

تراه في الوغى سيفاً صقيلاً

يقلب صفحتي سيف صقيل

ومن قولنا أيضاً:

سيف عليه نجاد سيف مثله

في حده للمفسدين صلاح

ومن قولنا أيضاً في الحرب وذكر القائد:

مقيلك تحت أظلال العوالي

وبيتك فوق سهوات الجياد

تبخرت في قميص من دلاص

وترفل في رداء من نجاد

كأنك للحرب رضيع ثدى

غذتك بكل داهية نأد

فكم هذا التمني للمنايا

لئن عرف الجهاد بكل عام

وإنك حين أبت بكل سعد

رأينا السيف مرتدياً بسيف

وقد وصفن الحرب بتشبيه عجيب لم يتقدم إليه، ومعنى بديع لا نظير له، وذلك قولنا:

وجيش كظهر اليم تنفحه الصبا

فتنزل أولاه وأليس بنازل

ومعترك ضنك تعاطت كماته

يديرونها راحاً مني الروح بينهم

وتسمعهم أم المنية وسطها

ومن قولنا في هذا:

سيف من الحنف تردى به

مواصلاً أعداءه عن قلبي

وصل يحن الإلف من بغضه

حتى إذا نادهم سيفه

ترى حمياها بهاماتهم

على أهازيج ظبا بينها

طاعوا له من بعد عصيانهم

وكم أعدوا واستعدوا له

ومن قولنا في شبهه:

كم ألحم في أبناء ملحمة

وأورد النار من أرواح مارقة

كأنما صال في ثنبي مفاضته

لما رأى الفتنة العمياء قد رحبت

وأطبقت ظلم من فوقها ظلم

قاد الجياد إلى الأعداء سارية

ملمومة تتبارى في ملممة

العقد الفريد-ابن عبد ربه الأندلسي

وكم هذا التجلد للجلاد

فإنك طول دهرك في جهاد

كمثل الروح آب إلى الفوائد

وعاينا الجواد على الجواد

يعب عبوباً من قنا وقنابل

وترحل أخراه وليس براحل

كؤوس دماء من كلى ومفاصل

ببيض رفاق أو بسمر ذوابل

غناء صليل البيض تحت المناصل

يوم الوغى سيف من الحزم

لا صلة القربى ولا الرحم

شوقاً إلى الهجران والصرم

بكل كأس مرة الطعم

تغور بين الجلد والعظم

ما شئت من حذف ومن خرم

وطاعة الأعداء عن رغم

هيهات ليس الخضم كالقضم

ما منهم فوق متن الأرض ديار

كادت تميز من غيظ لها النار

مستأسد حنق الأحشاء هدار

منها على الناس آفاق وأقطار

ما يستضاء بها نور ولا نار

قباً طواها كطي العصب إضمار

كأنها لا اعتدال الخلق أفهار

تزور عند احتماس الطعن أعينها
تقوت بالثأر أقواماً وتدركه
فانساب ناصر دين الله يقدمهم
كتائب تتبارى حول رايته
قوم لهم في مكر الليل غممة
يستقدمون كراديساً مكرسة
من كل أروع لا يرعى لها جسة
في قسطل من عجاج الحرب مد له
فكم بساحتهم من شلو مصرح
كأنما رأسه أفلاق حنظلة
وكم على النهر أوصالاً مقسمة

قد فلقنت بصفيح الهند هامهم

ومن قولنا في الحروب:

وحومة غادرت فرسانها
مستلحم بالموت مستشعر
وبلدة صحصحت منها الربا
كأنما باضت نعام الفلا
تراهم عند احتماس الوغى
بكل مأثور على منته
يرتد طرف العين من حده

ومن قولنا في الحرب:

ورب ملتفة العوالي
إذا توطت حزون أرض
يقودها منه ليث غاب
تمضي بأرائه سيوف
بيض تحل القلوب سوداً

وهن من فرجات النقع نظار
من آخرين إذ لم يدرك الثار
وحوله من جنود الله أنصار
وجحفل كسواد الليل جرار
تحت العجاج وإقبال وإدبار
كما تدفع بالتيار تيار
كأنه مخدر في الغيل هصار
بين السماء وبين الأرض أستار
كأنه فوق ظهر الأرض إجار
وساعدها إلى الزندين جمار
تقسمتها المنايا فهي أشرطة

فهن حوامى الخيل أعشار

في مبرك للحرب جعجاج
مفرق للشمل جماع
بفيلق كالسيل دفاع
منهم بهام فوق أذراع
كأنهم جن بأجراع
مثل مدب النمل في القاع
عن عكوكب للموت لماع

يلتمع الموت في ذراها
طحطحت الشم من رباها
إذا رأى فرصة قضاها
يستبق الموت في ظباها
إذا انتضى عزمه انتضاها

تتبعه الطير في الأعادي

أقدم إذ كاع كل ليث

فأفحم الخيل في غمار

عنت له أوجه المنايا

تجنى كلا العشب من كلاها

عن حومة الموت إذ رآها

تفغر بالموت لهوتها

فعاها القوم واشتهاها

فرسان العرب في الجاهلية والإسلام

كان فارس العرب في الجاهلية ربيعة بن مكرم؛ من بني فراس بن غنم ابن مالك بن كنانة، وكان يعقر على قبره في الجاهلية، ولم يعقر على قبر أحد غيره.

وقال حسان بن ثابت وقد مر على قبره:

نفرت قلوصي من حجارة حرة

لا تنفري يا ناق منه فإنه

لولا السفار وطول قفر مهمه

بنيت على طلق اليبدين وهوب

شريب خمر مسعر لحروب

لتركتها تحبو على العرقوب

وكان بنو فراس بن غنم بن كنانة أنجد العرب، كان الرجل منهم يعدل بعشرة من غيرهم. وفيهم يقول علي بن أبي طالب رضي الله عنه لأهل الكوفة: من فاز بكم فقد فاز بالسهم الأخيب. أبدلكم الله بي من هو شر لكم، وأبدلني بكم من هو خير منكم. وددت والله أن لي بجميكم - وأنتم مائة ألف - ثلثمائة من بني فراس بن غنم.

ومن فرسان العرب في الجاهلية: عنتره الفوارس، وعتيبة بن الحارث ابن شهاب، وأبو براء عامر بن مالك ملاعب الأسنه، وزيد الخيل، وبسطام بن قيس، والأحيمر السعدي، وعامر بن الطفيل، وعمرو بن عبد ود، وعمرو ابن معد يكر.

وفي الإسلام: أمير المؤمنين علي بن أبي طالب عليه السلام، والزبير وطلحة، ورجال الأنصار، وعبد الله بن خازم السلمى، وعباد بن الحصين، وعمير بن الحباب، وقطري بن الفجاءة، والحريش بن هلال السعدي، وشبيب الحروري.

وقالوا: ما استحيا شجاع قط أن يفر من عبد الله بن حازم، وقطري بن الفجاءة صاحب الأزارقة.

وقالوا: ذهب حاتم بالسخاء، والأحنف بن قيس بالحلم، وخريم بالنعمة، وعمير بن الحباب بالشدة.

وبينما عبد الله بن خازم عند عبيد الله بن زياد إذ دخل عليه بجرذ أبيض. فعجب منه عبيد الله وقال: هل رأيت يا أبا صالح أعجب من هذا؟ ونظر إليه. فإذا عبد الله قد تضاءل حتى صار كأنه فرخ، واصفر كأنه جرادة ذكر. فقال عبيد الله: أبو صالح يعصى الرحمن، ويتهاون بالسلطان، ويقبض على الثعبان، ويمشي على الليث الورد، ويلقى الرماح بنحره، وقد اعتراه من جرذ ما ترون، أشهد أن الله على كل شيء قدير.

وكان شبيب الحروري يصيح في جنات الجيش، فلا يلوي أحد على أحد. وفيه يقول الشاعر:

إن صاح يوماً حسبت الصخر منحدرًا

والريخ عاصفة والموج يلتطم

ولما قتل أمر الحجاج بشق صدره، فإذا له فؤاد مثل فؤاد الجمل. فكانوا إذا ضربوا به الأرض يترو كما تترو المئانة المنوخة.

ورجال الأنصار أشجع الناس. قال عبد الله بن عباس: ما استلت السيوف، ولا زحفت الزحوف، ولا أقيمت الصفوف، حتى أسلم ابنا قبيلة. يعني

الأوس والخزرج. وهما الأنصار من بني عمرو بن عامر، من الأزدي.

العتبي قال: لما أسن أبو براء عامر بن مالك، وضعفه بنو أخيه وخرفوه، ولم يكن له ولد يحميه، أنشأ يقول:

دفعنكم عني وما دفع راحة

يضعفني حلمي وكثرة جهلكم

وقال علي بن أبي طالب رضي الله عنه، إذ رأى همدان وغناءها في الحرب يوم صفين:

ناديت همدان والأبواب مغلقة

كالهندواني لم تقلل مضاربه

وقال ابن بركة الهمداني:

كذبتم وبيت الله لا تأخذونها

متى تجمع القلب الذكي وصارما

وكنت إذا قوم غزوني غزوتهم

وقال تأبط شراً:

قليل التشكي للمهم يصيبه

يبيت بمومة ويضحى بغيرها

إذا حاص عينيه كعري النوم لم يزل

ويجعل عينيه ربيبة قلبه

إذا هزه في عظم قرن تهلت

وقال أبو سعيد المخزومي، وكان شجاعاً:

وما يرى بنو الأغبار من رحل

لا يشرب الماء إلا من قليب دم

ونظير هذا قول بشار العقيلي:

فتى لا يبيت على دمنة

وقال عبد الله بن الزبير: التقيت بالأشتر النخعي يوم الجمل فيما ضربته ضربة حتى ضربني حمساً أو ستاً، ثم أخذ برجلي فألقاني في الخندق وقال: والله لولا قرابتك من رسول الله صلى الله عليه وسلم ما اجتمع منك عضو إلى آخر.

وقال أبو بكر بن أبي شيبة: أعطت عائشة رضي الله عنها الذي بشرها بحياة ابن الزبير، إذ التقى مع الأشتر، عشرة آلاف درهم.

وذكر متمم بن نويرة أخاه مالكاً وجلده، فقال: كان يخرج في الليلة الصنبر، عليه الشملة الفلوت، بين المزدتين على الجمل الثفال. معتقل الرمح الخطي. قالوا: وأبيك إن هذا هو اجلد.

وكتب عمر بن الخطاب إلى النعمان بن مقرن وهو على الصائفة: أن استعن في حربك بعمر بن معد يكرب، وطليحة الأزدي، ولا تولهما من الأمر شيئاً، فإن كل صانع أعلم بصناعته.

وقال عمر بن معد يكرب يصف صبره وجلده في الحرب:

أعاذل عدني بزي ورمحي

العقد الفريد-ابن عبد ربه الأندلسي

بشيء إذا لم تستعن بالأنامل

علي وأني لا أصول بجاهل

ومثل همدان سنى فتحة الباب

وجه جميل وقلب غير وجاب

مراغمة ما دام للسيف قائم

وأناً حمياً تجتنبك المظالم

فهل أنا في ذا يا لهمدان ظالم

كثير الهوى شتى النوى والمسالك

جحيشا ويعروري ظهور المهالك

له كالي من قلب شيحان فاتك

إلى سلة من حد أخلق باتك

نواجذ أفواه المنايا الضواحك

بالجمر مكتحل بالنبل مشتمل

ولا يبيت له جار على وجل

ولا يشرب الماء إلا بدم

وكل مقلص سلس القيادة

إجابتي الصريخ إلى المنادي
وأفرح عاتقي حمل النجاد
ويبنى قبل زاد القوم زادي
بديع ليس من بدع السداد
وددت وأينما مني ودادي
كأن قتيها حدق الجراد
تخير نصله من عهد عاد
هصوراً ذا ظباً وشباً حداد
وصرح شحم قلبك عن سواد
عذيرك من خليلك من مراد

عليه جالساً أسده
ي أخلص ماءه جدده
ت لبيئاً فوقه لبدده
صلخدأ ناشراً كتده
تيممه فيعتضده
فيخفضه فيقتصدده
فيخضمه فيزدرده

أعادل إنما أفنى شبابي
مع الأبطال حتى سل جسمي
ويبقى بعد حلم القوم حلمي
ومن عجب عجبت له حديث
تمنى أن يلاقيني أبي
تمناني وسابغتي قميصي
وسيف من لدن كنعان عندي
فلو لاقيتي للقيت لبيئاً
ولاستيقنت أن الموت حق
أريد حياته ويريد قتلي

ومن قوله في قيس بن مكشوح المرادي:

تمناني على فرس
علي مفاضة كانه
فلو لاقيتي للقي
سبنتي ضيغماً هصرأ
يسامي القرن إن قرن
فيأخذه فيرديه
فيدمغه فيحطمه

المكيدة في الحرب

قال النبي صلى الله عليه وسلم: الحرب خدعة.

وقال المهلب لبنيه: عليكم بالمكيدة في الحرب، فإنها خير من النجاة.

وكان المهلب يقول: أناة في عواقبها فوت، خير من عجلة في عواقبها درك.

وقال مسلمة بن عبد الملك: ما أخذت أمراً قط بحزم قط فظلمت نفسي فيه وإن كانت العاقبة علي، ولا أخذت أمراً قط وضيعت الحزم فيه إلا لمت نفسي عليه وإن كانت العاقبة لي.

وسئل بعض أهل التمرس بالحرب: أي المكاييد فيها أحزم؟ قال: إذكاء العيون، وإفشاء الغلبة، واستطلاع الأخبار، وإظهار السرور، وإماتة الفرق، والاحتراس من البطانة، من غير إقصاء لمن يستنصح، ولا استنصاح لمن يستغش، واشتغال الناس عما هم فيه من الحرب بغيره.

وفي كتاب للهند: الحازم يحذر عدوه على كل حال، يحذر المواثبة إن قرب، والغارة إن بعد، والكمين إن انكشف، والاستطراد إن ولى.

وقال المأمون للفضل بن سهل. قد كان لأخي رأى لو عمل به لظفر. فقال له الفضل: ما هو يا أمير المؤمنين؟ قال: لو كتب إلى أهل خراسان وطبرستان والري وديباوند أنه قد وهب لهم الخراج لسنة لم نخل نحن من إحدى حصلتين، إما رددنا فعله ولم نلتفت إليه، فعضانا أهل هذه البلدان وفسدت نياتهم فانقطعوا عن معاونتنا، وإما قبلناه وأمضيناه فلا نجد ما نعطي منه من معنا وتفرق جندنا ووهي أمرنا. فقال الفضل: الحمد الذي ستر هذا الرأي عنه وعن أصحابه.

وكتب الحجاج إلى المهلب يستعجله في حرب الأزارقة فكتب إليه: إن من البلية أن يكون الرأي بيد من يملكه دون أن يبصره.

وكان بعض أهل التمرس يقول لأصحابه: شاوروا في حربكم الشجعان من أولي العزم، والجبناء من أولي الحزم فإن الجبان لا يألوا برأيه ما بقي مهجكم، والشجاع لا يعدو ما يشد بصيرتكم. ثم خلصوا من بين الرأيين نتيجة تحمل عنكم معرفة الجبان، وتهور الشجعان، فتكون أنفذ من السهم الزالج، والحسام الواالج.

وكان الإسكندر لا يدخل مدينة إلا هدمها وقتل أهلها، حتى مر بمدينة كان مؤدبه فيها. فخرج إليه، فألطفه الإسكندر وأعظمه. فقال له: أصلح الله الملك، إن أحق من زين لك أمرك، وأعانك على كل ما هويت لأنا. وإن أهل هذه المدينة قد طمعوا فيك لمكابي منك، فأحب أن تشفني فيهم، وأن لا تخالفني في كل ما سألتك لهم. فأعطاه من العهود والمواثيق على ذلك ما لا يقدر على الرجوع عنه. فلما توثق منه قال: فإن حاجتي إليك أن تهدمها وتقتل أهلها. قال: ليس إلى ذلك سبيل، ولا بد من مخالفتك. فقال له: إرحل عنا.

وقيل: صالح سعيد بن العاص حصناً من حصون فارس على أن لا يقتل منهم رجلاً واحداً، فقتلهم كلهم إلا رجلاً واحداً.

ابن الكلبي قال: لما فتح عمرو بن العاص قيسارية سار حتى نزل غزة، فبعث إليه عالجها: أن أبعث إلي رجلاً من أصحابك أكلمه. ففكر عمرو وقال: ما لهذا أحد غيري. قال: فخرج حتى دخل على العالج فكلمه، فسمع كلاماً لم يسمع قط مثله. فقال العالج: حدثني: هل في أصحابك أحد مثلك؟ قال: لا تسأل عن هذا، إني هين عليهم إذ بعثوا بي إليك وعرضوني لما عرضوني له، ولا يدرون ما تصنع بي؟ قال: فأمر له بجائزة وكسوة، وبعث إلى البواب: إذ مر بك فاضرب عنقه وخذ ما معه. فخرج من عنده فمر من رجل من نصارى غسان فعرفه فقال: يا عمرو، قد أحسنت الدخول فأحسن الخروج. ففطن عمرو لما أراه، فرجع. فقال له الملك: ما ردك إلينا؟ قال: نظرت فيما أعطيتني فلم أجد ذلك يسع بني عمي، فأردت أن آتيك بعشرة منهم تعطيهم هذه العطية، فيكون معروفك عند عشرة خيراً من أن يكون عند واحد. فقال: صدقت، أعجل بهم. وبعث إلى البواب أن خل سبيله. فخرج عمرو وهو يلتفت، حتى إذا أمن، قال: لا عدت لمثلها أبداً. فلما صالحه عمرو ودخل عليه العالج، قال له: أنت هو! قال: نعم، على ما كان من غدرك.

وقال: ولما أتى بالهرمزان أسيراً إلى عمر بن الخطاب رضي الله عنه قيل له: يا أمير المؤمنين، هذا زعيم العجم وصاحب رستم. فقال له عمر: أعرض عليك الإسلام نصحاً لك في عاجلك وآجلك. قال: يا أمير المؤمنين، إنما أعتقد ما أنا عليه ولا أرغب في الإسلام رهبة. فدعا له عمر بالسيف. فلما هم بقتله، قال: يا أمير المؤمنين، شربة ماء أفضل من قتلى على ظمأ. فأمر له عمر بشربة ماء. فلما أخذها قال له: أنا آمن حتى أشربها؟ قال: نعم. فرمى بها وقال: الوفاء يا أمير المؤمنين نور أبلج. قال: صدقت، لك التوقف عنك وأنظر في أمرك، ارفعوا عنه السيف. فلما رفع عنه قال: الآن يا أمير المؤمنين أشهد أن لا إله إلا الله وأن محمداً عبده ورسوله وما جاء به حق من عنده. قال عمر: أسلمت خير إسلام، فما أحرك؟ قال: كرهت أن يظن أي إنما أسلمت جزعاً من السيف، وإيثاراً لدينه بالرهبة. فقال عمر: إن لأهل فارس عقولاً بما استحقوا ما كانوا فيه من الملك؛ ثم أمر به أن يبر ويكرم. فكان عمر يشاوره في توجيه العساكر والجيوش لأهل فارس.

وهذا نظير فعل الأسير الذي أتى به معن بن زائدة في جملة الأسرى فأمر بقتلهم، فقال له أقتل الأسرى عطاشاً يا معن؟ فأمر بهم فسقوا. فلما شربوا قال: أقتل أضيافك يا معن؟ فخلى سبيلهم.

وذكروا أن ملك من ملوك العجم كان معروفاً ببعده الغور ويقظة الفطنة وحسن السياسة، وكان إذا أراد محاربة ملك من الملوك وجه إليه من يبحث عن أخباره وأخبار رعيته قبل أن يظهر إلى محاربتة، فيكشف عن ثلاث حصال من حاله، فكان يقول لعيونه: انظروا هل ترد على الملك أخبار رعيته

على حقائقها أم يحدده عنها المنهي ذلك إليه؟ وانظروا إلى الغنى في أي صنف هو من رعيته، أفيمن اشتد أنفه وقل شرهه؟ أم فيمن قل أنفه واشتد شرهه؟ وانظروا في أي صنفي رعيته القوام بأمره؟ أفيمن نظر ليومه وغده؟ أم من شغله يومه عن غده؟ فإن قيل له لا يحد عن أخبار رعيته، والغنى فيمن قل شرهه واشتد أنفه، والقوام بأمره من نظر ليومه وغده؛ قال: اشتغلوا عنه بغيره. وإن قيل له ضد ذلك؛ قال: نار كامنة تنتظر موقد، وأضغان مزمنة تنتظر مخرجاً، اقصدا له فلا حين أحين من سلامة مع تضييع، ولا عدو أعدى من أمن أدى إلى اغترار.

وكانت ملوك العجم قبل ملوك الطوائف تزل بلخ، ثم نزلت بابل، ثم نزل أردشير بن بابك فارس، فصارت دار مملكتهم، وصار بخراسان ملوك الهياطلة، وهم الذين قتلوا فيروز بن يزدجرد بن بهرام ملك الفرس، وكان غزاهم. فكاده ملك الهياطلة بأن عمد إلى رجل ممن عرفه بالمكابدة وحسن الإدارة، فأظهر السخط عليه، ووقع به على أعين الناس توقيحاً قبيحاً، ونكل به تنكياً شديداً، ثم أرسله وقد واطأه على أمر أبطنه معه وظاهره عليه. فخرج حتى أتى فيروز في طريقه، فأظهر له التروع إليه والاستنصار به من عظيم ما يناله. فلما رأى فيروز ما به من التوقيع والنكايه فيه، وثق به واستنار إليه. فقال له: أنا أدلك أيها الملك على غرة القوم وعورتهم، وأعلمك مكان غفلتهم. فسلك به سبيل مهلكة معطشة. ثم خرج إليه ملك الهياطلة فأسره وأكثر أصحابه. فسألهم أن يمينوا عليه وعلى من معه، وأعطاهم موثقاً لا يغزوهم أبداً، ونصب لهم حجراً جعله حداً بينه وبينهم، وحلف لهم أن لا يجاوزه هو ولا جنوده، وأشهد الله عليه وعلى من حضر من قرابته وأساورته. فمنا عليه وأطلقوه ومن معه. فلما عاد إلى مملكته أخذته الأنفة مما أصابه، فعاد إلى غزوه ناكثاً لعهد، غادراً بدمته إلا أنه لطف في ذلك بحيلة ظنها مجزية في أمانه، فجعل الحجر الذي نصبه لهم على فيل في مقدمة عسكره، وتأول في ذلك أنه لا يجاوزه. فلما صار إليهم ناشدوه الله وذكره الأيمان به، وما جعل على نفسه من عهده وذمته. فأبى إلا لجأً ونكثاً. فواقوه فضفروا به، فقتلوه وقتلوا حماته، واستباحوا عسكره.

أسامة بن زيد الليثي: قال: كان النبي صلى الله عليه وسلم إذا غزا أخذ طريقاً وهو يريد أخرى، ويقول: الحرب خدعة. زياد عن مالك بن أنس: كان مالك عبد الله الخثعمي، وهو على الصائفة يقوم في الناس كلما أراد أن يرحل، فيحمد الله تعالى ويثني عليه، ثم يقول: إني دارب بالعادة إن شاء الله تعالى درب كذا. فتتفرق الجواسيس عنه بذلك. فإذا أصبح الناس سلك بهم طريقاً أخرى. فكانت الروم تسميه الثعلب.

وصايا أمراء الجيوش

كتب عمر بن عبد العزيز رحمه الله إلى الجراح: إنه بلغني أن رسول الله صلى الله عليه وسلم كان إذا بعث جيشاً أو سرية قال: اغزوا بسم الله، وفي سبيل الله، تقاتلون من كفر بالله، لا تغلوا، ولا تغدروا، ولا تثلوا، ولا تقتلوا امرأة ولا وليداً. فإذا بعثت جيشاً أو سرية فمرهم بذلك. وكان عمر بن الخطاب رضي الله عنه يقول عند عقد الألوية: بسم الله وبالله وعلى عون الله، امضوا بتأييد الله والنصر، ولزوم الحق والصبر، فقاتلوا في سبيل الله لا من كفر بالله، ولا تعتدوا إن الله لا يحب المعتدين، ولا تجبنوا عند اللقاء، ولا تثلوا عند القدرة، ولا تسرفوا عند الظهور، ولا تقتلوا هراً ولا امرأة ولا وليداً، وتوقوا قتلهم إذا التقى الزحفان، وعند حمة النهضات، وفي شن الغارات ولما وجه أبو بكر رضي الله عنه يزيد بن أبي سفيان إلى الشام شيعه راجلاً. فقال له يزيد: إما أن تتركب وإما أن أنزل. فقال: ما أنت بنازل وما أنا براكب، إني أحتسب خطاي هذه في سبيل الله، ثم قال: إنك ستجد قوماً حبسوا أنفسهم لله، فذرهم وما حبسوا أنفسهم له - يعني الرهبان - وستجد قوماً فحصوا عن أوساط رؤسهم الشعر، فاضرب ما فحصوا عنه بالسيف. ثم قال له: إني موصيك بعشر: لا تغدر، ولا تثل، ولا تقتل هراً ولا امرأة ولا وليداً، ولا تقرن شاة ولا بعيراً إلا ما أكلتم، ولا تحرقن نخلاً، ولا تخربن عامر، ولا تغل، ولا تبخس.

وقال أبو بكر رضي الله عنه لخالد بن الوليد حين وجهه لقتال أهل الردة: سر على بركة الله، فإذا دخلت أرض العدو فكن بعيداً من الحملة، فإني لا آمن عليك الجولة. واستظهر بالزاد، وسر بالأدلاء، ولا تقاتل مجروح فإن بعضه ليس منه، واحترس من البيات فإن في العرب غرة: وأقل من الكلام فإنما لك ما وعي عنك. واقبل من الناس علانيتهم، وكلهم إلى الله في سرائرهم وأستودعك الله الذي لا تضيع ودائعه.

كتب خالد بن الوليد إلى مرزبة فارس مع ابن نفيلة الغساني: الحمد لله الذي فض حرمتكم، وفرق جمعكم، وأوهن بأسكم، وسلب ملككم، وأذل

عزكم. فإذا أتاكم كتابي هذا فابعثوا إلي بالرهن، واعتقدوا منا الذمة، وأجيبوا إلى الجزية، وإلا والله الذي لا إله إلا هو، لأسيرن إليكم بقوم تحبون الموت كما تحبون الحياة، ويرغبون في الآخرة كما ترغبون في الدنيا.

كتب عمر بن الخطاب إلى سعد بن أبي وقاص رضي الله عنهما ومن معه من الأحناد: أما بعد، فإني أمرت ومن معك من الأحناد بتقوى الله على كل حال، فإن تقوى الله أفضل العدة على العدو، وأقوى المكيذة في الحرب. وأمرت ومن معك أن تكونوا أشد احتراساً من المعاصي منكم من عدوكم، فإن ذنوب الجيش أخوف عليهم من عدوهم. وإنما ينصر المسلمون بمعصية عدوهم لله، ولولا ذلك لم تكن لنا بهم قوة؛ لأن عددنا ليس كعددهم، ولا عدتنا كعدتهم، فإن استوتينا في المعصية كان لهم الفضل علينا في القوة، وإلا ننصر عليهم بفضلنا لم نغلبهم بقوتنا. واعلموا أن عليكم في مسيركم حفظة من الله يعلمون ما تفعلون، فاستحيوا منهم، ولا تعملوا بمعاصي الله وأنتم في سبيل الله، ولا تقولوا إن عدونا شر منا فلن يسלט علينا وإن أسأنا، فرب قوم قد سلط عليهم شر منهم كما سلط على بني إسرائيل، لما عملوا بمساخت الله، كفار الجوس فجاسوا خلال الديار وكان وعداً مفعولاً. واسألوا الله العون على أنفسكم، كما تسألونه النصر على عدوكم. أسأل الله ذلك لنا ولكم. وترفق بالمسلمين في مسيرهم ولا تجشمهم مسيراً يتعبهم، ولا تقصر بهم على منزل يرفق بهم، حتى يبلغوا عدوهم والسفر لم ينقص قوتهم، فإهم سائرون إلى عدو مقيم حامي الأنفس والكراع. وأقم ومن معك في كل جمعة يوم وليلة، حتى تكون لهم راحة يجيئون فيها أنفسهم، ويرمون أسلحتهم وأمتعتهم ونح منازلهم عن قرى أهل الصلح والذمة، فلا يدخلها من أصحابك إلا من تق بدينه، ولا يرزأ أحداً أهلها شيئاً، فإن لهم حرمة وذمة ابتليتم بالوفاء بها كما ابتلوا بالصبر عليها، فما صبروا لكم فتولوهم خيراً. ولا تستنصروا على أهل الحرب بظلم أهل الصلح. وإذا وطئت لأرض العدو فأذك العيون بينك وبينهم، ولا يخف عليك أمرهم. وليكن عندك العرب أو من أهل الأرض من تطمئن إلى نصحه وصدقته، فإن الكذب لا ينفك خيره، وإن صدقت في بعضه، والغاش عين عليك وليس عيناً لك. وليكن منك عند دنوك من أرض العدو أن تكثر الطلائع وتبث السرايا بينك وبينهم، فتقطع السرايا أمدادهم وموافقهم، وتتبع الطلائع عورتهم. وانتق للطلائع أهل الرأي والبأس من أصحابك، وتخير لهم سوابق الخيل. فإن لقوا عدواً كان أول ما تلقاهم القوة من رأيك، واجعل أمر السرايا إلى أهل الجهاد والصبر على الجلال، لا تختص بها أحداً يهوى، فيضيع من أمرك ورأيك أكثر مما حاييت به أهل خاصتك. ولا تبعثن طليعة ولا سرية في وجه تتخوف عليها فيه غلبة أو ضيعة ونكاية. فإذا عاينت العدو فاضم إليك أقاصيك وطلائعك وسراياك، واجمع إليك مكيدتك وقوتك، ثم لا تعاجلهم المناجزة، ما لم يستكرهك قتال، حتى تبصر عورة عدوك ومقاتلته، وتعرف الأرض كلها كمعرفة أهلها بها، فتصنع بعدوك كصنعه بك. ثم أذك أحراسك على عسكرك، وتيقظ من البيات جهدك. ولا تقوي بأسير ليس له عقد إلا ضربت عنقه، لترهب بذلك عدو الله وعدوك. والله ولي أمرك ومن معك، وولي النصر لكم على عدوكم، والله المستعان.

وأوصى عبد الملك بن مروان أميراً سيره إلى أرض الروم فقال: أنت تاجر الله لعباده، فكن كالمضارب الكيس الذي إن وجد ربحاً تجر، وإلا تحفظ برأس المال. ولا تطلب الغنيمة حتى تحرز السلامة، وكن من احتيالك على عدوك أشد حذراً من احتيال عدوك عليك.

وكان زياد يقول لقواده: تجنبوا اثنين لا تقاتلوا فيهما العدو: الشتاء وبطون الأودية.

وأغزى الوليد بن عبد الملك جيشاً في الشتاء، فغنموا وسلموا، فقال لعباد: يا أبا حرب، أين رأى زياد من رأينا؟ فقال: يا أمير المؤمنين، قد أخطأت، وليس كل عورة تصاب.

العتي قال: جاشت الروم وغزوا المسلمين براً وبحراً، فاستعمل معاوية على الصائفة عبد الرحمن بن خالد بن الوليد، فلما كتب له عهده قال: ما أنت صانع بعهدي؟ قال: أتخذة إماماً لا أعصيه. قال: اردد علي عهدي. ثم بعث إلى سفيان بن عوف الغامدي فكتب له عهده، ثم قال له: ما أنت صانع بعهدي؟ قال: أتخذة إماماً أمام الحزم، فإن خالفه خالفته. فقال معاوية: هذا الذي لا يكفكف من عجلة، ولا يدفع في ظهره من خور، ولا يضرب على الأمور ضرب الجمل الثقال.

وقال دريد الصمة لمالك بن عوف النصرى قائد هوازن يوم حنين: يا مالك، إنك قد أصبحت رئيس قومك، وإن هذا يوم له ما بعده من الأيام. مالي

أسمع رغاء البعير، ونهاق الحمير، وبكاء الصغير، ويعار النشاء؟ قال: سقت مع الناس أبناءهم ونساءهم وأموالهم. قال: ولم ذاك؟ قال: أردت أن أجعل خلف كل رجل أهله وماله ليقاتل عنهم. فأنتقض به وقال: راعى ضأن والله؟ وهل يرد المهزم شيء؟ إنها إن كانت لك لم ينفعك إلا رجل بسيفه ورمحه، وإن كانت عليك فضحت في أهلك ومالك. ويحك إنك لم تصنع بتقدم البيضة بيضة هوزان إلى نخور الخيل شيئاً، ارفعهم إلى متمنع بلادهم، وعلياً قومهم، ثم الق الصباء على متون الخيل. فإن كانت لك لحق بك من وراءك، وإن كانت عليك كنت قد أحرزت أهلك ومالك. قال: لا والله لا أفعل ذلك، إنك قد كبرت وذهل عقلك. قال: دريد: هذا يوم لم أشهده ولم يفتني، ثم أنشأ يقول:

أخْبِ فِيهَا وَأَضِعْ

كَأَنَّهَا شَاةٌ صَدَعَتْ

يَا لَيْتَنِي فِيهَا جَذَعٌ

أَقْوَدُ وَطَفَاءُ الزَّمْعِ

وكان قتيبة بن مسلم يقول لأصحابه: إذ غزوتهم فأطيلوا الأظفار وقصروا الشعور، والحظوا الناس شرراً، وكلموهم رمزاً، واطعنوهم وخزراً. وكان أبو مسلم يقول لقواده: أشعروا قلوبكم الجرأة فإنها من أسباب الظفر، وأكثروا ذكر الضغائن فإنها تبعث على الإقدام، والزموا الطاعة فإنها حصن المحارب.

وكان سعيد بن زيد يقول لبنيه: قصروا الأعنة واشحذوا الأسنة، تأكلوا القريب، ويرهبكم البعيد.

وقال عيسى بن موسى: لما وجهني المنصور إلى المدينة لمحاربة ابني عبد الله بن الحسن، وجعل يوصيني ويكثر، قلت: يا أمير المؤمنين؛ إلى متى توصيني:

أَكَلْتُ جَفْنِي وَفَرِيْتَ غَمْدِي

إِنِّي أَنَا ذَاكَ الْحَسَامُ الْهِنْدِي

فَكُلْ مَا تَطْلُبُ عِنْدِي عِنْدِي

المحاماة عن العشيرة ومنع المستجير

قال عبد الملك بن مروان لجعيل بن علقمة الثعلبي: ما مبلغ عزكم؟ قال: لم يطمع فينا ولم يؤمن منا. قال: فما مبلغ حفظكم؟ قال: يدفع الرجل منا عمن استجار به من غير قومه كدفاعه عن نفسه. قال عبد الملك: مثلك من يصف قومه.

وقال عبد الملك بن مروان لابن مطاع الغتري: أخبرني عن مالك بن مسمع. قال له: لو غضب مالك لغضب معه مائة ألف سيف لا يسألونه في أي شيء غضب. قال عبد الملك: هذا والله السؤدد.

قال: ولم يل قط مالك بن مسمع ولا أسماء بن خارجة شيئاً للسلطان.

وكانت العرب تمتدح بالذب عن الجار فيقولون: فلان منيع الجار، حامى الذمار. نعم، حتى كان فيهم من يحمي الجراد إذا نزل في حواره، فسمي مجير الجراد.

وقال مروان بن أبي حفصة يمدح معن بن زائدة ويصف مفاخر بني شيبان ومنعهم لمن استجار بهم:

أَجَابُوا وَإِنْ أَعْطَا أَطَابُوا وَأَجْزَلُوا

هَمُّ الْقَوْمِ إِنْ قَالُوا أَصَابُوا وَإِنْ دَعَا

لِجَارِهِمْ بَيْنَ السَّمَاكِينَ مَنْزِلُ

هَمُّ يَمْنَعُونَ الْجَارَ حَتَّى كَأَنَّمَا

وقال آخر:

كَثِيْبَةُ زُورٍ بَيْنَ خَافِيَتِي نَسْرٍ

هَمُّ يَمْنَعُونَ الْجَارَ حَتَّى كَأَنَّهُ

وذكر أن معاوية ولى كثير بن شهاب المدحجي خراسان، فاختان مالا كثيراً ثم هرب فاستتر عند هانئ بن عروة المرادي: فبلغ ذلك معاوية، فهدر دم هانئ. فخرج إلى معاوية فكان في حواره، ثم حضر مجلسه وهو لا يعرفه، فلما نهض الناس ثبت مكانه. فسأله معاوية عن أمره فقال: أنا هانئ بن عروة. فقال: إن هذا اليوم ليس باليوم الذي يقول فيه أبوك:

أرجل جمتي وأجر ذيلي

وأمشي في سراة بني غطيف

قال: أنا والله يا أمير المؤمنين اليوم أعز مني ذلك اليوم. فقال: بم ذلك؟ قال: بالإسلام. قال: أين كثير بن شهاب؟ قال: عندي وعندك يا أمير المؤمنين. قال: انظر إلى ما اختانته، فخذ منه بعضاً، وسوغه بعضاً، وقد أمناه ووهبناه لك. الشيباني قال: لما نزل محمد بن أبي بكر مصر وصير إليه معاوية معاوية بن حديج الكندي، تفرق عن محمد من كان معه، فتغيب. فآخذه وضرب عنقه وبعث برأسه إلى معاوية. وكان أول رأس طيف به في الإسلام.

وكان محمد بن جعفر بن أبي طالب معه، فاستجار بأحواله من خثعم فغيبوه. وكان سيد خثعم يومئذ رجلاً في ظهره بزخ من كسر أصابه، فكان إذا مشى ظن الجاهل أنه يتبختر في مشيته، فذكر لمعاوية أنه عنده، فقال له: أسلم إلينا هذا الرجل: فقال: ابن اختنا لجأ إلينا لنحقن دمه، عنك يا أمير المؤمنين. قال: والله لا أدعه حتى تأتيني به. قال لا والله لا أتيك به. قال: كذبت. والله لتأتيني به، إنك ما علمت لأوره. قال: أجل، إني لأوره حين أقاتلك على ابن عمك لأحقن دمه، وأقدم ابن عمي دونه تسفك دمه. فسكت عنه معاوية وخلقى بينه وبينه.

الشيباني قال: قال سعيد بن سلم: أهدر المهدي دم رجل من أهل الكوفة كان يسعى في فساد دولته وجعل لمن دله عليه أو جاءه به مائة ألف درهم. قال: فأقام الرجل حيناً متوارياً ثم إنه ظهر بمدينة السلام، فكان ظاهراً كغائب، خائفاً مترقباً. فبينما هو يمشي في بعض نواحيها إذ بصر به رجل من أهل الكوفة فعرفه، فأهوى إلى مجامع ثوبه، وقال: هذا بغية أمير المؤمنين؛ فأمكن الرجل من قياده، ونظر إلى الموت أمامه. فبينما هو على الحالة إذ سمع وقع الحوافر من وراء ظهره، فالتفت فإذا معن بن زائدة، فقال: يا أبا الوليد، أجري أحوالك الله؛ فوقف وقال للرجل الذي تعلق به: ما شأنك؟ قال: بغية أمير المؤمنين، الذي أهدر دمه وأعطى لمن دل عليه مائة ألف. فقال: يا غلام، انزل عن دابتك، واحمل أخانا. فصاح الرجل: يا معشر الناس، يحال بيني وبين من طلبه أمير المؤمنين! قال له معن: اذهب فأخبره أنه عندي. فانطلق إلى باب أمير المؤمنين فأخبر الحاجب، فدخل إلى المهدي فأخبره، فأمر بحبس الرجل، ووجه إلى معن من يحضر به. فأنته رسل أمير المؤمنين وقد لبس ثيابه، وقربت إليه دابته، فدعا أهل بيته ومواليه فقال: لا يخلصن إلى هذا الرجل وفيكم عين تطرف. ثم ركب ودخل حتى سلم على المهدي، فلم يرد عليه. فقال: يا معن، أتجبر علي؟ قال: نعم يا أمير المؤمنين. قال: ونعم أيضاً! واشتد غضبه. فقال معن: يا أمير المؤمنين، قتلت في طاعتكم باليمن في يوم واحد خمسة عشر ألفاً، ولي أيام كثيرة قد تقدم فيها بلائي، وحسن غنائي، فما رأيتموني أهلاً أن تمبوا لي رجلاً واحداً استجار بي؟ فأطرق المهدي طويلاً، ثم رفع رأسه وقد سري عنه، فقال: قد أجرنا من أجرت. قال معن: فإن رأى أمير المؤمنين أن يصله فيكون قد أحياه وأغناه فعل. قال: قد أمرنا له بخمسين ألف. قال: يا أمير المؤمنين، إن صلوات الخلفاء تكون على قدر جنائيات الرعية، وإن ذنب الرجل عظيم، فأجزل له الصلة. قال: قد أمرنا له بمائة ألف. قال: فتعجلها يا أمير المؤمنين فإن خير البر عاجله. فأمر بتعجيلها. فدعا لأمير المؤمنين بأفضل دعاء، ثم انصرف ولحقه المال. فدعا الرجل، فقال له: خذ صلتك، والحق بأهلك، وإياك ومخالفة خلفاء الله تعالى.

الجبن والفرار

قال عمرو بن معد يكرب: الفرعات ثلاث: فمن فرغته في رجله، فذلك الذي لا تقله رجلاه؛ ومن كانت فرغته في رأسه، فذلك الذي يفر عن أبويه، ومن كانت فرغته في قلبه، فذلك الذي يقاتل. وقال الأحنف بن قيس: أسرع إلى الفتنة أقلهم حياء من الفرار. وقامت عائشة أم المؤمنين رضي الله عنها: إن الله خلقاً قلوبهم كقلوب الطير، كلما خفت الريح خفت معها، فأف للجبناء! أف للجبناء! وقال الشاعر:

ويحمي شجاع القوم من لا يناسبه

يفر الجبان عن أبيه وأمه

ويرزق معروف الجواد عدوه

وقال خالد بن الوليد عند موته. لقد لقيت كذا وكذا زحفاً، وما في جسيمي موضع شبر إلا وفيه ضربة أو طعنة أو رمية، ثم هأنذا أموت حتف أنفى كما يموت العير، فلا نامت أعين الجبناء.
ومن أشعار الفرارين الذين حسنوا فيها الفرار على قبحة حتى حسن، قول الفرار السلمي:

وكتيبة لبستها بكتيبة

وتركتهم تقص الرماح ظهورهم

هل ينفعنني أن تقول نساؤهم

وقال أبو عبيدة معمر بن المثنى: ما اعتذر أحد من الفرارين بأحسن مما اعتذر به الحارث بن هشام حيث يقول:

الله يعلم ما تركت قتالهم

وعلمت أنني إن أقاتل واحداً

فصدفت عنهم والأحبة فيهم

وهذا الذي سمعه رتبيل فقال: يا معشر العرب، حسنتم كل شيء فحسن حتى الفرار.
وبعد هذا يأتي قول حسان في ذلك.

وأسلم الحارث يوم فتح مكة وحسن إسلامه، وخرج في زمن عمر إلى الشام من مكة بأهله وماله مجاهداً فأتبعه أهل مكة ليكون، فرق وبكى وقال: أما لو كنا نستبدل داراً بدارنا، أو حاراً بجارنا، ما رأينا بكم بدلاً، ولكنها النقلة إلى الله. فلم يزل هنالك مجاهداً حتى مات.
وقال آخر:

قامت تشجعني هند وقد علمت

لا والذي منع الأبصار رؤيته

للحرب قوم أضل الله سعيهم

ولست منهم ولا أبغي فعالهم

وقال محمود الوراق:

أبها الفارس المشيخ المغير

ليس لي قوة على رهج

واستدارت رحى الحروب بقوم

حيث لا ينطق الجبان من

أنا في مثل ذا وهذا بليد

وقال أيمن بن حريم:

إن للفتنة ميظاً بيناً

فإذا كان عطاء فاتهم

إنما يوقدها جهالها

فرويد الميظ منها يعتدل

وإذا كان قتال فاعتزل

حطب النار فدعها تشتعل

ومما يحتج به الفرارون ما قاله صاحب كليله ودمنة: إن الحازم يكره القتال ما وجد بداً منه، لأن النفقة فيه من النفس، والنفقة في غيره من المال. أخذ هذا المعنى حبيب الطائي فنظمه في شعره حيث يقول:

كم بين قوم إنما نفقاتهم

ومن الفرارين: عبد الرحمن بن محمد بن الأشعث، فر من الأزارقة وكان في عشرة آلاف، وكان قد بعث إليه المهلب: يا بن أخي، خندق على نفسك وعلى أصحابك فيني عالم بأمر الخوارج ولا تغتر. فبعث إليه: أنا أعلم بهم منك، وهم أهون علي من ضربة الجمل. فبيته قطري صاحب الأزارقة، فقتل من أصحابه خمسمائة وفر لا يلو على أحد. فقال فيه الشاعر:

مال وقوم ينفقون نفوسا

تركت ولداننا تدمي نحورهم

ومن الفرارين: أمية بن عبد الله بن خالد بن أسيد. فر يوم مرداء هجر من أبي فديك. فسار من البحرين إلى البصرة في ثلاثة أيام، فجلس يوماً بالبصرة فقال: سرت على فرسي المهرجان من البحرين إلى البصرة في ثلاثة أيام. فقال له بعض جلسائه: أصلح الله الأمير، فلو ركبت النيروز لسرت إليها في يوم واحد. فلما دخل عليه أهل البصرة لم يروا كيف يكلمونه ولا ما يلقونه من القول، أبيهثونه أم يعزونه، حتى دخل عليه عبد الله بن الأهمتم فاستشرف الناس له وقالوا: ما عسى أن يقال للمنهزم؟ فسلم ثم قال: مرحباً بالصابر المخدول، الذي خذله قومه الحمد لله الذي نظر لنا عليك ولم ينظر لك علينا، فقد تعرضت للشهادة جهديك، ولكن علم الله تعالى حاجة أهل الإسلام إليك فأبقاك لهم بخذلان من معك لك. فقال أمية بن عبد الله: ما وجدت أحداً أخبرني عن نفسي غيرك. وفيه يقول الشاعر:

وجئت منهزماً يا ضرورة الجمل

إذا صوت العصفور طار فؤاده

أتي الحجاج بدواب أمية قد وسم على أفخاذها عدة فأمر الحجاج أن يكتب تحت ذلك: للفرار. وقال أبو دلالة: كنت مع مروان أيام الضحاك الحروري، فخرج فارس منهم فدعا إلى البراز، فخرج إليه رجل فقتله، ثم ثان فقتله، ثم ثالث فقتله فانقبض الناس عنه وجعل يدنو ويهدر كالفحل المغتلم. فقال مروان: من يخرج إليه وله عشرة آلاف؟ قال: فلما سمعت عشرة آلاف هانت علي الدنيا وسخوت بنفسي في سبيل عشرة آلاف وبرزت إليه، فإذا عليه فرو قد أصابه المطر فارمعل، ثم أصابته الشمس فافعل، وله عينان تتقدان كأنهما جمرتان. فلما رأي فهم الذي أخرجني، فأقبل نحوي وهو يرتجز ويقول:

وليث حديد الناب عند الثرائد

وخارج أخرج به حب الطمع

"من كان ينوي أهله فلا رجع"
فلما رأته قنعت رأسي، ووليت هارباً، ومروان يقول: من هذا الفاضح؟ لا يفتكم، فدخلت في غمار الناس.
وقيل لأعرابي: ألا تغزو العدو؟ قال: وكيف يكونون لي عدواً وما أعرفهم ولا يعرفوني؟ وقيل لآخر: ألا تغزو العدو؟ قال: والله إني لأبغض الموت على فراشي، فكيف أحب إليه راكضاً.

ومما قيل في الفرارين والجناء من الشعر قول حسان بن ثابت يعير الحارث بن هشام بفراره يوم بدر، وقد تقدم ذكر ذلك:

فنجوت منجي الحارث هشام

إن كنت كاذبة الذي حدثتني

ترك الأحبة لم يقائل دونهم

ونجا برأس طمرة ولجام

ملأت به الفرجين فارمدت به

وثوى أحبته بشر مقام

وقال بعض العراقيين في رجل أكل جبان:

إذا صوت العصفور طار فؤاده

وليث حديد الناب عند الثرائد

وقال فيه:

ضعيف القلب رعديد

عظيم الخلق والمنظر

رأى في النوم عصفوراً

فوارى نفسه أشهر

وقال آخر:

لو جرت خيل نكوصاً لجرت خيل ذفافه

لا ولا خيل مخافه

هي لا خيل رجاء

وقال آخر:

خرجنا نريد مغاراً لنا

وفينا زياد أبو صعصعة

فستة رهط به خمسة

وخمسة رهط به أربعة

ولم يقل أحد في وصف الجين والفرار مثل قول الطرماح في بني تميم:

تميم بطرق اللؤم أهدى من القطا

ولو سلكت طرق المكارم ضلت

ولو أن برغوثاً على ظهر قملة

رأته تميم يوم زحف لولت

ولو جمعت يوماً تميم جموعها

على ذرة معقولة لاشمعلت

وليس يعاب الشجاع والبهمة البطل بالفرّة الواحدة تكون منه خاصة لا عامة، وقليلة لا عادة، كما قال زفر بن الحارث، وفر يوم مرج راهط عن أبيه وأخيه فقال:

أيذهب يوم واحد إن أسأته

بصالح أيامي وحسن بلائيا

ولم تر مني زلة قبل هذه

فراري وتركي صاحبي ورائيا

وفر عمر بن معد يكرب من عباس بن مرداس السلمي، وأسر أخته ریحانة. وفيها يقول عمرو:

أمن ریحانة الداعي السميع

يؤرقني وأصحابي هجوع

وفر عن بني عبس، وفيهم زهير بن جذيمة العبسي، وولده شأس بن زهير، وقيس بن زهير، ومالك بن زهير فقال فيهم:

أجاعلة أم الثوير خزاية

علي فراري إذ لقيت بني عبس

لقيت أبا شأس وشأساً ومالكاً

وقيساً فجانثت من لقائهم نفسي

لقونا فضموا جانبينا بصادق

من الطعن مثل النار في الحطب اليبس

ولما دخلنا تحت فيء رماحهم

خبطت بكفي أطلب الأرض باللمس

وليس يعاب المرء من جبن يومه

وقال أيضاً:

إذا عرفت منه الشجاعة بالأمس

ولقد أجمع رجلي بها

حذر الموت وإني لفرور

ولقد أعطفها كارهة

حين للنفس من الموت هرير

كل ما ذلك مني خلق

وبكل أنا في الروع جدير

وابن صبح سادراً يوعدني

ما له في الناس ما عشت مجير

وقال الحارث لامرأته، وذلك أنها نظرت إليه وهو يجد حربة يوم فتح مكة، فقالت له: ما تصنع بهذه؟ قال: أعددتها لحمد وأصحابه. فقالت: ما أرى يقوم لحمد وأصحابه شيء! قال: والله إني لأرجو أن أحدمك بعضهم، قم أنشأ يقول:

إن يقبلوا اليوم فيما بي علة

هذا سلاح كامل وأله

وذو غرارين سريع السلة

فلما لقيهم خالد بن الوليد يوم الخندمة انهزم الرجل، فلامته امرأته فقال:

إنك لو شهدت يوم الخندمة

إذ فر صفوان وفر عكرمة

وأبو يزيد قائم كالموتمة

ولحقتنا بالسيوف المسلمة

يفلقن كل ساعد وجمجمة

ضرباً فلا تسمع إلا غمجمة

لهم نهيت خلفنا وهممة

لم تنطقي في اللوم أدنى كلمة

وكان أسلم بن زرعة وجهه عبيد الله بن زياد لحرب أبي بلال الخارجي في ألفين، وأبو بلال في أربعين رجلاً، فشدوا عليه شدة رجل واحد فانهزم هو وأصحابه؛ فما دخل على ابن زياد عنقه في ذلك وقال: أتمضي في ألفين وتنهزم.

عن أربعين! فخرج عنه وهو يقول لأن يذمني ابن زياد حياً، خير من أن يمدحني ميتاً. وفي رواية أخرى: أن يشتمني الأمير وأنا حي، أحب إلي من أن يدعو لي وأنا ميت.

فقال شاعر الخوارج:

ألأفا مؤمن؟ لستم كذاكم

ولكن الخوارج مؤمنونا

هم الفئة القليلة قد علمتم

على الفئة الكثيرة ينصرونا

ومثل ذلك قول عبد الله بن مطيع بن الأسود العدوي وكان فر يوم الحرة من جيش مسلم بن عقبة، فلما كان أيام حصار الحجاج بمكة لعبد الله بن الزبير جعل يقاتل أهل الشام ويقول:

أنا الذي فررت يوم الحرة

والشيخ لا يفر إلا مرة

فاليوم أجزى فرة بكره

لا بأس بالكرة بعد الفره

فلم يزل يقاتل حتى قتل.

وأحسن ما قيل في الفرار كله ما قال قيس بن الخطيم:

إذا ما فررنا كان أسوا فرارنا
أجالدهم يوم الحديقة حاسراً
وقر عتيبة بن الحارث بن شهاب
يا حسرتا لقد لقيت حسرة
نعم الفتى غادرته بثيرة
هل يترك الحر الكريم بكره

و فر أبو خراش الهذلي من فائد وأصحابه ورصدوه بعرفات، فقال:

رفوني وقالوا يا خويلد لا ترع

وقلت وقد جاوزت أصحاب فائد

فلولا أدراك الشد قامت حيلتي

ولولا أرداك الشر أتلفت مهجتي

و فر حبيب بن عوف يوم مرداء هجر من أبي فديك فقال:

بذلت لهم يا قوم حولي وقوتي

فلما تناهى الأمر بي من عدوكم

وطرت ولم أحفل ملامة عاجز

فلو كان لي روحان عرضت واحداً

رجع بنا القول إلى الفرارين والجنباء وما قيل فيهم.

فر خالد بن عبد الله بن خالد بن أسيد عن مصعب بن الزبير يوم الجفرة بالبصرة، فقال فيه الفرزدق:

وكل بني السوداء قد فر فرة

فضحتم أمير المؤمنين وأنتم

وقيل لرجل جبان في بعض الوقائع: تقدم. فأنشأ يقول:

وقالوا تقدم قلت لست بفاعل

فلو كان لي رأسان أتلفت واحداً

ولو كان مبتاعاً لدى السوق مثله

فأوتم أولاداً وأرمل نسوة

صدود الخدود وازورار المناكب
كأن يدي بالسيف مخراق لاعب
يوم ثبرة عن ابنه حزوة وقال:
يالتميم غشيتني غمره
نجيت نفسي وتركت حزرة

فقلت وأنكرت الوجوه هم هم

أعجزت أولى الخيل أم أنا أحلم

تخير من خطابها وهي أيم

وكاد خراش يوم ذلك ييتم

ونصحي وما ضمت يداي من التبر

إلى مهجتي وليت أعداءكم ظهري

يقيم لأطراف الردينية السمر

لكل رديني وأبيض ذي أثر

فلم يبق إلا فرة في است خالد

تمرون سودانا غلاظ السواعد

أخاف على فخارتي أن تحطما

ولكنه رأس إذا راح أعقما

فعلت ولم أحفل بأن أتقدما

فكيف على هذا ترون التقدما

وقالت هند بنت النعمان بن بشير لزوجها روح بن زنباع الجذامي: عجباً منك! كيف سودك قومك وأنت جبان غيور؟ قال: أما الجبن، فإن لي نفساً واحدة فأنا أحوطها؛ وأما الغيرة، فما أحق بها من كانت له امرأة حمقاء مثلك، مخافة أن تأتيه بولد من غيره فترمي به في حجره.

وقال كعب بن زهير:

فضائل الخيل

قال النبي صلى الله عليه وسلم في صفة الخيل: أعرفها أذفاؤها، وأذناها مذاهبها، والخيل معقود في نواصيها الخير إلى يوم القيامة. وقال النبي صلى الله عليه وسلم: عليكم بإناث الخيل، فإن بطونها كتر، وظهورها حرز، وأصحابها معانون عليها. وسأل رجل النبي صلى الله عليه وسلم فقال: إني أريد أن اشتري فرساً أعده في سبيل الله. فقال له: اشتره أدهم؛ أو كميثاً أقرح أرثم، أو محجلاً مطلق اليمين، فإنها ميامن الخيل. وقيل لبعض الحكماء: أي الأموال أشرف؟ قال فرس يتبعها فرس في بطنها فرس.

صفة جياذ الخيل

كان رسول الله صلى الله عليه وسلم يستحب من الخيل الشقر. وقال: لو جمعت خيل العرب في صعيد واحد ما سبقها إلا أشقر. وسأله رجل: أي المال خير؟ قال: سكة مأبورة، ومهرة مأمورة. وكان عليه الصلاة والسلام يكره الشكال في الخيل. وقالوا: إنما سميت خيلاً لاختيائها. ووصف أعرابي فرساً فقال: إذا تركته نعس، وإذا حركته طار. وأرسل مسلم بن عمرو لابن عم له بالشام يشتري له خيلاً. فقال له: لا علم لي بالخيل. فقال: ألسنت صاحب قنص؟ قال: بلى. قال: انظر كل شيء تستحسنه في الكلب في الفرس. فأتى بخيل لم يكن في العرب مثلها. وقال بعض الضبيين في وصف فرس:

سباق أندية الجياذ عميثل

أعطاك نائله ولم يتعلل

مقاذف عبل الشوى شنج النسا

وإذا تعلل بالسياط جياذا

سأل المهدي مطر بن دراج عن أي الخيل أفضل؟ قال: الذي إذا استقبلته قلت نافر، وإذا استدبرته قلت زاجر، وإذا استعرضته قلت زافر. قال: فأأي هذه أفضل؟ قال: الذي طرفه إمامه، وسوطه عنانه. وقال آخر: الذي إذا مشى ردى، وإذا عدا دحا، وإذا استقبل ألقى، وإذا استدبر جحى، وإذا استعرض استوى. وسأل معاوية بن أبي سفيان صعصعة بن صوحان: أي الخيل أفضل! قال: الطويل الثلاث، القصير الثلاث، العريض الثلاث، الصافي الثلاث. قال: فسره لنا. قال: أما الطويل الثلاث، فالأذن والعنق والحزام. وأما القصير الثلاث، فالصلب والعسيب والقضيب. وأما العريض الثلاث، فالجبهة والمنخر والورك؛ وأما الصافي الثلاث، فالأديم والعين والحافر. وقال عمر بن الخطاب لعمر بن معد يكرب: كيف معرفتك بعراق الخيل؟ قال: معرفة الإنسان بنفسه وأهله وولده. فأمر بأفراس فعرضت عليه. فقال: قدموا إليها الماء في التراس، فما شرب ولم يكتف فهو من العراب، وما ثنى سنبكه فليس منها. قلت: إنما المحفوظ أن عمر شك في العتاق والمهجن، فدعا سلمان بن ربيعة الباهلي فأخبره. فأمر سلمان بطست من ماء فوضع بالأرض، ثم قدم إليه

الخيال فرساً فرساً، فما ثنى سنبكه وشرب هجته، وما شرب ولم يشن سنبكه عربيه.
وقال حسان بن ثابت يصف طول عنق الفرس:

بكل كميت جوزة نصف خلقه

وقال زهير:

أقب طوال مشرف في الحوارك

وملجمنا ما أن ينال قذاله

وقال آخر:

ولا قدماه الأرض إلا أنامله

له ساقا ظليم خا

ضب فوجئ بالرعب

حديد الطرف والمنكب

والعرقوب والقلب

وقال آخر:

هربت قصير عذاب اللجام

أسيل طويل عذار الرسن

لم يرد بقوله. قصير عذار اللجام قصر خده، وإنما أراد طول شق الفم. وأراد بطول عذار الرسن: طول الخد.

وقال آخر:

بكل هربت نقي الأديم

طويل الحزام قصير اللب

وقال أبو عبيدة يستدل على عنق الفرس برقة جحافله وأرنبته، وسعة منخريه، وعري نواهقه، ودقة حقويه وما ظهر من أعالي أذنيه، ورقة سالفته وأديمه، ولين شعره. وأبين من ذلك كله لين شكير ناصيته وعرفه. وكانوا يقولون. إذا اشتد نفه، ورحب متنفسه، وطال عنقه، واشتد حقوه، وانحرت شدقه، وعظمت فخذه، وانشبت أنساؤه، وعظمت فصوصه، وصلبت حوافره ووقحت، ألحق بجياد الخيل.
قيل لرجل من بني أسد: أتعرف الفرس الكريم من المقر؟ قال: نعم؛ أما الكريم، فالجواد الجيد الذي نهنز العير، وأنف تأنيف السير، الذي إذا عدا اسلهب، وإذا أقبل أجلب، وإذا انتصب اتلأب.

وأما المقر: فإنه الذلول الحجة، الضخم الأرنبة، الغليظ الرقبة، الكثير الجلبة، الذي إذا أرسلته قال: أمسكني، وإذا أمسكته قال: أرسلني.

وكان محمد بن السائب الكلبي يحدث: أن الصافنات الجياد المعروضة على سليمان بن داود عليهما السلام كانت ألف فرس ورثها عن أبيه، فلما عرضت أهته عن صلاة العصر حتى توارت الشمس بالحجاب، فعربها إلا أفراساً لم تعرض عليه. فوفد عليه أقوام من الأزدي وكانوا أصهاره، فلما فرغوا من حوائجهم قالوا: يا نبي الله، إن أرضنا شاسعة فزودنا زاداً يبلغنا. فأعطاهم فرساً من تلك الخيل وقال: إذا نزلتم منزلاً فاحملوا عليه غلاماً واحتطبوا، فإنكم لا ترون ناركم حتى يأتبكم بطعامكم، فساروا بالفرس، فكانوا لا يتزلون منزلاً إلا ركبهم أحدهم للقنص، فلا يفلته شيء وقعت عينه عليه من ظبي أو بقر أو حمار، إلى أن قدموا إلى بلادهم، فقالوا. ما لفرسنا هذا اسم إلا زاد الراكب. فسموه زاد الراكب. فأصل فحول العرب من نتاجه.

ويقال إن أعوج كان منها، وكان فحلاً للال بن عامر أنتجت أمه ببعض بيوت الحي، فنظروا إلى طرف يضع جحفلته على كاذقها على الفخذ مما يلي الحياء فقالوا: أدر كوا ذلك الفرس لا يتزو على فرسكم، لعظم أعوج وطول قوائمه. فقاموا إليه فوجدوا المهر، فسموه أعوج.

وأخبرنا فرج بن سلام عن أبي حاتم عن الأصمعي قال: أغير على أهل النصار، وأعوج موثق بثمامة، فجال صاحبه في منته، ثم زجره فاقطلع الثمامة، فخرجت تحف في منته كالخدر وف وراءه. فغدا بياض يومه وأمسى يتعشى من جميم قباء.

وقال الشاعر في وصف فرس:

وأحمر كالديباج أما سماؤه

فريا وأما أرضه فمحول

قوله سماؤه: أعلاه؛ وأرضه: أسفله. يريد قوائمه.

وللطائي نظير هذا حيث يقول:

حوافر صلبة له ملس
أعلى مندى وأسفل يبس
كأنه قطعة من الغلس
أشرج حلقومه على جرس

مبئل متن وصهوتين إلى
فهو لدى الروع والحلائب ذو
أو أدهم فيه كمتة أمم
صهصلق في الصهيل تحسبه

وقال حبيب أيضاً يصف فرساً أهداه إليه الحسن بن وهب الكاتب:

ملآن من صلف به وتلهوق
وأشاعر شعر وحلق ألق
في صهوتيه بدو شيب المفرق
من صحة إفراط ذاك الأولق
في نعته عفواً وليس بمفلق
ومجمع في خلقه ومفرق
فيه فمفترق عليه وملتقى
من سندس ثوباً ومن إستبرق
مبيض شطر كابيضاض المهرق
في متنه ابنا للصباح الأبلق
في صهوتيه الصين لم تتعلق
دون السلاح سلاح أروع مملق

ما مقرب يختال في أشطانه
بحوافر حفر وصلب صلب
وبشعلة تبدو كأن حلولها
ذو ألق تحت العجاج وإنما
تغرى العيون به ويفلق شاعر
بمصعد من حسنه ومصوب
قد سألت الأوضاح سيل قرارة
صافي الأديم كأنما ألبسته
مسود شطر مثل ما اسود الدجى
فكأن فارسه يصرف إذ بدا
إملسه إمليده لو علفت
يرقى وما هو بالسليم ويغتدي

وقال أبو سويد: شهد أبو دلف وقعة البذ وتحتة فرس أدهم، وعليه نضح الدم. فاستوقفه رجل من الشعراء، وأنشد:

لو يستطيع شكا إليك الأدهم
نمق ينمقه الحسام المخدم
وكأنه بعري المجرة ملجم
شقراء كاسرة طوت ما تطعم
لا بل يفوت الريح فهو مقدم
واللون أدهم حين ضرجه الدم

كم ذا تجرعه المنون ويسلم
في كل منبت شعرة من جلده
وكأنما عقد النجوم بطرفه
وكأنه بين البوارق لقوة
ما تدرك الأرواح أدنى سيره
رجعته أطراف الأسنة أشقراً

قال: فأمر له بعشرة ألف درهم.

ومن قولنا في وصف الفرس:

ويخضر حيناً كلما بلها الرشح
وتسبح في البر الذي ما به سبح

ومقربة يشقر في النقع كمتها
تطير بلا ريش إلى كل صيحة

وقال عدى بن الرقاع:

كأن آذانها أطراف أقلام

يخرجن من فرجات النقع دامية

وطلب البحري الشاعر من محمد بن حميد بن عبد الحميد الكاتب فرساً، ووصف له أنواعاً من الخيل في شعره فقال:

يجري إليها خائف أو مرتجى
أمسوا كواكب أشرقت في مذبح
تعلو البيوت بفضلها لم يحجج
أحشاؤه طي الرداء المدرج
منه بمثل الكوكب المتأجج
بدم فما تلقاه غير مخرج
تحت الكمي مظهر بيرندج
هيج الجنائب من حريق العرفج
يجري برملة عالج لم يرهج

لآكلفن العيس أبعد هممة
وإلى سراة بني حميد إنهم
والبيت لولا أن فيه فضيلة
فأعن على غزو العدو بمنطو
إما بأشقر ساطع أغشى الوغى
متسربل شية طلت أعطافه
أو أدهم صافي الأديم كأنه
ضرم يهيج السوط من شؤبوبة
خفت مواقع وطنه فلو أنه

متن كمتن اللجة المترجرج
في أبيض متألق كالدملج
فيما يليه وحافر فيروزجي
من كل لون معجب بنموذج
عناقاً بأحسن حلة لم تتسج
بالزئبق المنهال لم يترجرج
أمواج تحنيب بهن مدرج
من أن تضن بموكف أو مسرج

أو أشهب يقق يضى وراءه
تخفى الحبول ولو بلغن لبانه
أوفى بعرف أسود متفرد
أو أبلق ملأ العيون إذا بدا
جدلان تحسده الجياد إذا مشى
وعريض أعلى المتن لو عليته
خاضت قوائمه الوثيق بناؤها
ولأنت أبعد في السماحة هممة

وأول من شبه الخيل بالظبي والسرطان والنعامه وتبعه الشعراء وخذوا حذوه وعلى مثاله، امرؤ القيس بن حجر، فقال في الفرس:

وإرخاء سرحان وتقريب تتفل

له أيطلا ظبي وساقا نعامه

كأن على المتنين منه إذا انتحى

مكر مفر مقبل مدبر معاً

درير كخذروف الوليد أمره

كميت يزل اللبد عن حال متنه

فأخذت الشعراء هذا التشبيه من امرئ القيس فحذوا عليه، فقال طفيل الخيل:

إني وإن قل مالي لا يفارقني

تقريبها المرطى والجوز معتدل

أو ساهم الوجه لم تقطع أباجله

مداك عروس أو صلاية حنظل

كجلمود صخر حطه السيل من عل

تتابع كفيه بخيط موصل

كما زلت الصفواء بالمتنزل

مثل النعامة في أوصالها طول

كأنه سبد بالماء مغسول

يصان وهو ليوم الروع مبذول

وقال عبد الملك بن مروان لأصحابه: أي المناديل أفضل؟ فقال: بعضهم: مناديل مصر التي كأنها غرقى البيض، وقال بعضهم: مناديل اليمن التي كأنها أنوار الربيع. فقال: ما صنعتهم شيئاً، أفضل المناديل مناديل عبدة ابن الطبيب حيث يقول:

لما نزلنا ضربنا ظل أخبية

ورداءً وأشقر لم ينهته طابخه

وقد وثبنا على عوج مسومة

وفار باللحم للقوم المراجيل

ما قارب النضج منها فهو مأكول

أعرفهن لأيدينا مناديل

سوابق الخيل

وقال الأصمعي: ما سبق في الرهان فرس أهضم قط. وأنشد لأبي النجم:

منتفج الجوف عريض كلكله

قال: وكان هشام بن عبد الملك رجلاً مسبقاً لا يكاد يسبق، فسبقت له فرس أنثى وصلت أختها، ففرح لذلك فرحاً شديداً وقال: علي بالشعراء. قال أبو النجم: فدعينا فليل لنا: قولوا في هذه الفرس وأختها. فسأل أصحاب النشيد النظرة حتى يقولوا فقلت له: هل لك في رجل ينفذك إذا استنسوك؟ قال: هات. فقلت من ساعتي:

أشاع للغراء فينا ذكرها

وما نسينا بالطريق مهرها

وصبره إذا عدا وصبرها

ملمومة شد المليك أسرها

قد كاد هاديتها يكون شطرها

قوائم عوج أطعن أمرها

حين نقيس قدره وقدرها

والماء يعلو نحره ونحرها

أسفلها وبطنها وظهرها

قال أبو النجم: فأمر لي بجائزة وانصرفت.

أبو القاسم جعفر بن أحمد بن محمد وأبو الحسن علي بن جعفر البصري قالوا: حدثنا أبو سعيد عبد الملك بن قريب الأصمعي: أن هارون الرشيد ركب في سنة خمس وثمانين ومائة إلى الميدان لشهود الحلبة. قال الأصمعي: فدخلت الميدان لشهودها فيمن شهد من خواص أمير المؤمنين، والحلبة يومئذ أفراس للرشيد ولولديه الأمين والمأمون ولسليمان بن أبي جعفر المنصور ولعيسى بن جعفر. فجاء فرس أدهم، يقال له الربد لهارون الرشيد، سابقاً.

فابتهج لذلك ابتهاجاً علم ذلك في وجهه وقال: علي بالأصمعي. فنوديت له من كل جانب. فأقبلت سريعاً حتى مثلت بين يديه. فقال: يا أصمعي، خذ بناحية الربد ثم صفه من قونسه إلى سنبكه، فإنه يقال: إن فيه عشرين اسماً ومن أسماء الطير. قلت: نعم يا أمير المؤمنين، وأنشذك شعراً جامعاً لها من قول أبي حزررة. قال: فأنشدنا الله أبوك. قال: فأنشدته:

وأقب كالسرحان تم له

ما بين هامته إلى النسر

الأقب: اللاحق المخطف البطن، وذلك يكون من حلقة، وربما حدث من هزال أو بعد قود، والأثني قباء، والجمع: قب، والمصدر: القبب. والسرحان: الذئب، شبهه في ضموه وعدوه به، وجمعه سراحين، وقد قالوا: سراح. والهامة: أعلى الرأس، وهي أم الدماغ؛ وهي من أسماء الطير. والنسر: هو ما ارتفع من بطن الحافر من أعلاه، كأنه النوى والحصى، وهو من أسماء الطير، وجمعه نسور.

رحبت نعامتة ووفر فرخه

وتمكن الصردان في النحر

رحبت: اتسعت. ونعامته: جلدة رأسه التي تغطي الدماغ، وهي من أسماء الطير. وقوله: ووفرة فرخه. الفرخ: هو الدماغ، وهو من أسماء الطيور. ووفر: أي تم؛ يقال: وفرت الشيء ووفرت بالتحفيف فهو موفور. والصردان: عرقان في أصل اللسان، يجري منهما الريق ونفس الرئة، وهما من أسماء الطير. وفي الظهر صرد أيضاً، وهو بياض يكون في موضع السرج من أثر الدبر؛ يقال: فرس صرد، إذا كان ذلك به، والنحر: موضع القلادة من الصدر، وهو البرك.

وأنف بالعصفور من سعف

هام أشم موثق الجذر

أناف: أشرف. والعصفور: أصل منبت الناصية والعصفور أيضاً: عظم ناتئ في كل جبين والعصفور: من الغرر أيضاً، وهي التي سالت ودقت ولم تتجاوز إلى العينين ولم تستدر كالحقيرة، وهو من أسماء الطير والسعف، يقال: فرس بين السعف، وهو الذي سالت ناصيته. وهام، أي سائل منتشر. وأشم: مرتفع. والشمم في الأنف: ارتفاع قصبته. ويروى: هاد أشم يريد عنقاً مرتفعاً، وجمعه: هواد، وقوله: موثق، أي شديد قوي. والجذر: الأصل من كل شيء. قال الأصمعي وغيره: هو بالفتح؛ وقال أبو عمرو بن العلاء: هو بالكسر.

وازدان بالديكين صلصله

ونبت دجاجته عن الصدر

ازدان: افتعل، من قولك زان يزين، وكان الأصل ازتان، فقلبت التاء دالا، لقرب نخرجها من مخرج الزاي، وكذلك ازداد، من زاد يزيد. والديكان واحدهما ديك، وهو العظم الناتئ خلف الأذن، وهو الذي يقال له الخششاء والخشاء. والصلصل: بياض في طرف الناصية، ويقال: هو أصل الناصية. والدجاجة: اللحم الذي على زوره بين يديه. والديك والصلصل والدجاجة، من أسماء الطير.

والناهضان أمر جلهما

فكأنما عثما على كسر

الناهضان: واحدهما ناهض، وهو لحم المنكبين؛ ويقال: هو اللحم الذي يلي العضدين من أعلاهما، والجمع: نواهض، ويقال في الجمع: أنهض، على غير قياس. والناهض: فرخ القطا، وهو من أسماء الطير. وقوله: أمر جلهما، أي قتل وأحكم؛ يقال: أمرت الحبل فهو ممر، أي قتلته. والجلز: الشد. وقوله: "فكأنما عثما على كسر" أي كأنهما كسراً ثم جبراً. يقال: عثمت يده. العثم: الجبر على عقدة وعوج؛ وعثمان، فعلان منه.

مسحنفر الجنيين ملتئم

ما بين شيمته إلى الغر

مسحنفر الجنيين: أي منتفخهما. ملتئم، أي معتدل. وشيمته: نخره. والشيمة، أيضاً: من قولك: فرس أشيم، بين الشيمة، وهي بياض فيه؛ ويقال: أن تكون شامة أو شام في جسده. والغر في الطير يسمى الرحمة، وهي عضلة الساق.

وصفت سماناه وحافزه

وأديمه ومنابت الشعر

السمان: طائر، وهو موضع من الفرس لا أحفظه، إلا أن يكون أراد السمامة، وهي دائرة تكون في سالفة الفرس، وهي عنقه، والسمامة، من الطير أيضاً. والأديم: الجلد.

وسما الغراب لموقعيه معاً

فأبين بينهما على قدر

سما الغراب، أي ارتفع، والغراب: رأس الورك. ويقال للصلوين: الغرابان، وهما مكتنفا عجب الذنب. ويقال: هما ملتقى أعالي الوركين. والموقعان، منه في أعالي الخاصرتين، فأبين، أي فرق بينهما، على قدر، أي على استواء واعتدال.

واكتن دون قبيحه خطافه

ونأت سمامته عن الصقر

اكتن: أي استتر. والقبيح: ملتقى الساقين، ويقال أنه مركب الذراعين في العضدين. والخطاف: من أسماء الطير، وهو حيث أدركت عقب الفرس إذا حرك رجليه. ويقال لهذين الموضعين من الفرس: المركلان. ونأت، أي بعدت. والسمامة: دائرة تكون في عنق الفرس، وقد ذكرناها، وهي من أسماء الطير. والصقر: أحسبها دائرة في الرأس، وما وقفت عليها، وهي من أسماء الطير.

وتقدمت عنه القطاة له

فنأت بموقعها عن الحر

القطاة: مقعد الردف، وهي من أسماء الطير، والحر: من الطير، يقال إنه ذكر الحمام، وهو من الفرس، سواد يكون في ظاهر أذنيه.

وسما على تقويه دون حداته

خربان بينهما مدى الشبر

النقوان: واحدهما نقو، والجمع. أنقاء، وهو عظم ذو مخ، وإنما عنى هاهنا عظام الوركين، لأن الخرب هو الذي تراه مثل المدهن في ورك الفرس. وهو من الطير: ذكر الحبارى. والحدأة: من الطير، وأصله الهمز، ولكنه خفف، وهي سالفة الفرس، وجمعها حداء، على وزن فعال، كما تقول: عطاء عطاء، ويقال: عطاية. وإذا فتحت الفاء قلت: حدأة، وهي الفأس ذات الرأسين، وجمعها: حدأ، مثل نواة ونوى، وقطاة وقطا.

يدع الرضيم إذا جرى فلقاً

بتوائم كمواسم سمر

الرضيم: الحجارة. والفلق: المكسورة فلقاً. بتوائم: جمع توأم، وقد قالوا. توأم، على وزن فعال، جمع توأم، وهي على غير قياس. يقول: هي مثنى مثنى، يعني حوافره.

والمواسم: جمع ميسم الحديد، من وسمت، أي إنها كمواسم الحديد في صلابتها. وقوله: سمر، أي لون الحافر، وهو أصلب الحوافر.

ركبن في محص الشوى سبط

كفت الوثوب مشدد الأسر

الشوى، هاهنا: القوائم، والواحدة: شواة. ويقال: فرس محص الشوى، إذا كانت قوائمه معصوبة. سبط: سهل. كفت الوثوب، أي مجتمع، من قولك: كفت الشيء، إذا جمعته وتممته. مشدد الأسر، أي الخلق. قال الأصمعي: فأمر لي بعشرة آلاف درهم.

وسبق يوماً فرس للرشيد يسمى المشمر، وكان أجراه مع أفراس للفضل وجعفر بن يحيى بن خالد البرمكي، فقال أبو العتاهية:

جاء المشمر والأفراس يقدمها

هوناً على سرعة منها وما انتهرا

وخلق الريح حسرى وهي تتبعه

ومر يختطف الأبصار والنظرا

وقال أبو النجم في شعر يصف الفرس، وهو أجود شعر يصف الحلبة:

ثم سمعنا برهان نأمله

قيد له من كل أفق جفله

فقلت للسائس قده أعجله

وأغد لعنا في الرهان نرسله

فظل مجنوناً وظل جملة
نعلو به الحزن ولا نسهله
ترنم النوح تبكي مثكله
زمام دف يتغنى جلجله
طي التجار العصب إذ تتخله
نطويه والطي الرقيق يجدله
حتى إذا الليل تولى أتله
قمنا على هول شديد وجله
نقوم قدم ذا وهذا أدخله
فوق الخماسي قليلاً يفضله
حتى إذا أدرك خيلاً مرسله
تنفث منه الخيل ما لا تغزله
مر القطا انصب عليه أجده
قدمه مثلاً لمن يتمثله
تسبح أخراه ويطفو أوله
يعطيه ما شاء وليس يسأله
في كرسف النداف لولا بلله
ثم تناولنا الغلام ننزله
منتفج الجوف عريض كلكله
والجن عكاف به تقبله

وقال آخر في فرس أبي الأعور السلمي:

مر كلمع البرق سام ناظره

بين شعيبين وزاد يزمله
إذا علا الأخشب صاح جندله
كأن في الصوت الذي يفصله
حتى وردنا المصر يطوى قنبله
وقد رأينا فعلهم فنفعله
نضمم الشحم ولسنا نهزله
وأتابع الأيدي منه أرجله
نمد حبلاً فوق خط نعدله
وقام مشقوق القميص يعجله
أدرك عقلاً والرهان عمله
ثار عجاج مستطير قسطله
مراً يغطيها ومراً تتعله
وهو رخي البال ساج وهله
تطيره الجن وحيناً ترجله
ترى الغلام ساجياً ما يركله
كأنه من زبد يسربله
تخال مسكاً عله معلله
عن مفرع الكتفين حلو عطله
فوافت الخيل ونحن نشكله

تسبح أولاه ويطفو آخره

"فما يمس الأرض منه حافره" وقول هذا أشبه من قول أبي نجم، لأنه يقول: "تسبح أخراه ويطفو أوله" وقال الأصمعي: إذا كان الفرس كما قال أبو النجم فحمار الكساح أسرع منه، لأن اضطراب مؤخره قبيح.
وقال الأصمعي كان أبو النجم وصافاً للخيل إلا أنه غلط في هذا البيت. وقد غلط رؤبة أيضاً في الفرس، فقال يصف قوائمه: "يهوين شتى ويقعن وفقا
"

ولما أنشده مسلم بن قتيبة. قال له: أخطأت في هذا يا أبا الجحاف، جعلته مقيداً. فقال: قريبي من ذنب البعير.
وأنشد الأصمعي:

قد أطرق الحي على سابح

لما أتيت الحي في متته

أقبل يختال على شأوه

كأنه سكران أو عابس

وقال غيره:

أما إذا استقبلته فكأنه

وإذا اعترضت له استوت أقطاره

وقال ابن المعتز:

وقد يحضر الهيجاء بي شنج النسا

له عنق يغتال طول عنانه

إذا مال عن أعطافه قلت شارب

وقال أيضاً:

ولقد وطئت الغيث يحملني

يمشي فيعرض في العنان كما

طارت به رجل مرصعة

فكأنه موج يسيل إذا

أسطع مثل الصدع الأجرد

كأن عرجوناً بمتى يدي

يضرب في الأقرب والأبعد

أو ابن رب حدث المولد

جذع سما فوق النخيل مشذب

متصوب مستدبراً وكأنه

تكامل في أسنانه فهو قارح

وصدر إذا أعطيته الجري سابح

عناه بتصرف المدامة طافح

طرف كلون الصبح حين وقد

صدف المعشوق ذو الدلال وصد

رجامة لحصى الطريق ويد

أطلقته وإذا حبست جمد

الحلبة والرهان

والحلبة: مجمع الخيل. ويقال: مجتمع الخيل. ويقال: مجتمع الناس للرهان. وهو من قولك: حلب بنو فلان على بني فلان وأحلبوا، إذا اجتمعوا. ويقال منه: حلب الحالب اللبن في القدح، أي جمعه فيه. والمقوس: الحبل الذي يمد في صدور الخيل عند الإرسال للسباق. والمنصبة: الخيل حين تنصب للإرسال.

وأصل الرهان من الرهن؛ لأن الرجل يراهن يصاحبه في المسابقة، يضع هذا رهناً وهذا رهناً، فأيهما سبق فرسه أخذ رهنه ورهن صاحبه. والرهان: مصدر راهنته مراهنه ورهاناً، كما تقول: قاتلته مقاتلة وقتالاً. وهذا كان من أمر الجاهلية، وهو القمار المنهي عنه، فإن كان الرهن من أحدهما بشيء مسمى، على أنه إن سبق لم يكن له شيء، وإن سبقه صاحبه أخذ الرهن، فهذا حلال، لأن الرهن إنما هو من أحدهما دون الآخر. وكذلك إن جعل كل واحد منهما رهناً وأدخلا بينهما محلاً، وهو فرس ثالث يكون مع الأولين، ويسمى أيضاً الدخيل، ولا يجعل لصاحب الثالث شيء، ثم يرسلون الأفراس الثلاثة، فإن سبق أحد الأولين أخذ رهنه ورهن صاحبه، فكان له طيباً، وإن سبق الدخيل أخذ الرهين معاً، وإن سبق هو لم يكن عليه شيء. ولا يكون الدخيل إلا رائعاً جواداً، لا يأمنان أن يسبقهما، وإلا فهذا قمار لأتباعهما لم يدخلا بينهما محلاً.

قال الأصمعي: السابق من الخيل: الأول، والمصلي: الثاني الذي يتلوه. قال: وإنما قيل له مصلي، لأنه يكون عند صلوي السابق، وهما جانباً ذنبه عن يمينه وشماله. ثم الثالث والرابع لا اسم لواحد منهما إلى العاشر، فإنه يسمى سكتياً. قال أبو عبيدة: لم نسمع في سوابق الخيل ممن يوثق بعلمه اسماً لشيء منها

إلا الثاني والعاشر، فإن الثاني اسمه المصلي، والعاشر السكيت، وما سوى ذينك يقال: الثالث والرابع، وكذلك إلى التاسع، ثم السكيت. ويقال السكيت بالتشديد والتخفيف. فما جاء بعد ذلك لم يعتد به. والفسكل، بالكسر: الذي يجيء آخر الليل، والعامّة تسميه الفسكل، بالضم. وقال أبو عبيدة: القاشور: الذي يجيء في الحلبة آخر الخيل، وهو الفسكل، وإنما قيل للسكيت سكيت، لأنه آخر العدد الذي يقف العاد عليه. والسكت: الوقوف. هكذا كانوا يقولون، فأما اليوم فقد غيروا. وكان من شأنهم أن يمسحوا على وجه السابق قال جرير:

إذا شئتُم أن تمسحوا وجه سابق

ومن قولنا في هذا المعنى:

إذا جياذ الخيل ماطلها المدى

خلوا عناني في الرهان ومسحوا

جواد فمدوا في الرهان عنانيا

ونقطعت في شأوها المبهور

مني بغرة أبلق مشهور

وصف السلاح

كانت درع علي صدرًا لا ظهر لها. فقيل له في ذلك. فقال: إذا استمكن دعوي من ظهري فلا يبقى. ورئي الجراح بن عبد الله قد ظاهر بين درعين. فقيل له في ذلك. فقال: لست أقي بدني وإنما أقي صبري. واشترى زيد بن حاتم أدرعًا وقال: إني لست أشترى أدرعًا وإنما أشترى أعمارًا.

وقال حبيب بن المهلب لبنيه لا يقعدن أحدكم في السوق، فإن كنتم لا بد فاعلين فإلى زراد، أو سراج، أو وراق.

العتبي قال: بعث عمر بن الخطاب إلى عمرو بن معد يكرب أن يبعث إليه بسيفه المعروف بالصمصامة. فبعث به إليه. فلما ضرب به وجدته دون ما كان يبلغه عنه، فكتب إليه في ذلك. فرد عليه: إنما بعثت إلى أمير المؤمنين بالسيف، ولم أبعث إليه بالساعد الذي يضرب به. وسأله عمر بن الخطاب رضي الله عنه يوماً عن السلام: فقال: يسأل أمير المؤمنين عما بدا له قال: ما تقول في الترس؟ قال: هو الجن الدائر. وعليه تدور الدوائر. قال: فما تقول في الرمح؟ قال: أخوك وربما خانك فانقصف. قال: فالنبل؟ قال: منايا تخطى وتصيب. قال: فما تقول في الدرع؟ قال: مثقلة للراجل، متعبة للفراس، وإنما الحصن الحصين. قال فما تقول في السيف؟ قال: هناك لا أم لك يا أمير المؤمنين. فضربه عمر بالدرة، وقال: بل لا أم لك. قال: الحمى أضرعتني لك.

الهيثم بن عدي قال: وصف سيف عمرو بن معد يكرب، الذي يقال له الصمصامة، لموسى الهادي. فدعا به، فوضع بين يديه مجرداً ثم قال لحاجبه: إيدن للشعراء. فلما دخلوا، أمرهم أن يقولوا فيه. فبدرهم ابن يامين فقال:

حاز صمصامة الزبيدي عمرو

سيف عمرو وكان فيما سمعنا

أخضر المتن بين حديه نور

أوقدت فوقه الصواعق ناراً

فإذا ما سللته بهر الشم

فكائن الفرند والرونق الجا

من جميع الأنام مواسي الأمين

خبر ما أغمدت عليه الجفون

من فرند تمتد فيه العيون

ثم شاببت به الذعاف القيون

س فلم تكذ تستبين

ري في صفحتيه ماء معين

وكان المنون نيطت إليه

فهو من كل جانبيه منون

نعم مخراق ذي الحفيظة في الهي

جاء يسطو به أم يمين

فأمر له ببدرة وخرجوا.

وضرب الزبير بن العوام يوم الخندق عثمان بن عبد الله بن المغيرة فقطه إلى القربوس. فقالوا: ما أجود سيفك! فغضب. يريد أن العمل ليده لا لسيفه. وقال:

متى تلقني يعدو ببزي مقلص

كميت بهيم أو أغر محجل

تلاق أمراً إن تلقه فبسيفه

تعلمك الأيام ما كنت تجهل

وقال أبو الشيص:

ختلته المنون بعد اختيال

بين صفين من قنأ ونصال

في رداء من الصفيح صقيل

وقميص من الحديد مذال

وبلغ أبا الأغر التميمي أن أصحابه بالبادية قد وقع بينهم شر، فوجه إليهم ابنه الأغر، وقال: يا بني، كن يداً لأصحابك على من قاتلهم؛ وإياك والسيف، فإنه ظل الموت؛ وائق الرمح، فإنه رشاء المنية؛ ولا تقرب السهام، فإنها رسل لا توامر مرسلها. قال: فيماذا أقاتل؛ قال: بما قال الشاعر:

جلاميد يملأن الأكف كأنها

رعوس رجال حلقت في المواسم

وذكر أعرابي قوماً تحاربوا فقال: أقبلت الفحول تمشي مشي الوعول، فلما تصافحوا بالسيف، فغرت المنايا أفواهاها.

وقال آخر يذكر قوماً أسروا: استترلوه من الجياد بلينة الخرصان، ونزعوهم نزع الدلاء بالاشيطان.

وقال أعرابي في آخرين ابتغوا قوماً أغاروا عليهم: احتشوا كل جمالية عيرانة، كيما يخصفون أخفاف المطي بحوافر الخيل. حتى أدركوهم بعد ثلاثة، فجعلوا المران أرشية المنايا، فاستقوا بها أرواحهم.

ومن أحسن ما قيل في السيف قول حبيب:

ونبهن مثل السيف لو لم تسله

يدان لسلته ظباه من الغمد

وقال في صفة الرماح:

متثقات سلبن الروم زرقنتها

والعرب سمرتها والعاشق القضا

ومن الإفراط القبيح قول النابغة في وصف السيف:

يقد السلوقي المضاعف نسجه

ويوقد في الصفاح نار الحباب

فذكر أنه يقد الدرع المضاعف نسجها، والفارس والفرس، ويقع بها في الأرض فيقده النار من الحجارة.

وأقبح منه في الإفراط قول الآخر:

تظل تحفر عنه إن ضرب به

بعد الزراعين والساقين والهادي

وقد جمع العلوي وصف الخيل والسلاح كله، فأحسن وجود حيث يقول:

بحسبي من مالي من الخيل أعيط

سليم الشطي عاري النواهق أمعط

وأبيض من ماء الحديد مهند

وأسمر عسال الكعوب عنطنط

وبيضاء كالضحضاح زعف مفاضة

ومعطوفة الأطراف كبداء سمحة

فيا ليت مالي غير ما قد جمعته

ويا ليتني أمسي على الدهر ليلة

ومن قولنا في وصف الرمح والسيف:

بكل رديني كأن سنانه

تقاصرت الأجال في طول متته

وساءت ظنون الحرب في حسن ظنه

وذي شطب تقضي المنايا بحكمه

فرند إذا ما اعتن للعين راكد

يسلل أرواح الكماة انساله

إذا ما التقت أمثاله في وقبعة

ومن قولنا في وصف السياف:

بكل مأثور على متته

يرتد طرف العين من حده

وقال إسحاق بن خلف البهراني في صفة السياف:

ألقى بجانب خصره

وكأنما ذر الهبا

ومن جيد صفات السياف قول الغنوي:

حسام غداة الروع ماض كأنه

كأن على إفرنده موج لجة

كأن جيوش الذركسرن فوقه

يكفتها عني نجاد مخطط

منفجة الأعضاء صفراء شوحط

على لجة تيارها يتغطط

وليس على نفسي أمير مسلط

شهاب بدا في ظلمة الليل ساطع

وعادت به الآمال وهي فجائع

فهن ظبات للقلوب قوارع

وليس لما تقضي المنية دافع

وبرق إذا ما اهتز بالكف لامع

ويرتاع منه الموت والموت رائع

هنالك ظن النفس بالنفس واقع

مثل مدب النمل بالقاع

عن كوكب للموت لامع

أمضى من الأجل المتاح

ء عليه أنفاس الرياح

من الله في قبض النفوس رسول

تقاصر في ضحضاحه وتطول

قرون جراد بينهن ذحول

النزع بالقوس

إبراهيم الشيباني قال: كان رجل من أهل الكوفة قد بلغه عن رجل من أهل السلطان أنه يعرض ضيعة له بواسط في مغرم لزمه للخليفة، فحمل وكيلاً له على بغل وأترع له خرجاً بدنانيير، وقال له: اذهب إلى واسط فاشتر هذه الضيعة المعروضة، فإن كفاك ما في هذا الخرج وإلا فاكتب إلي أمدك بالمال. فخرج، فلما أصحّر عن البيوت، لحق به أعراي ركب على حمار معه قوس وكنانة، فقال له: إلى أين تتوجه؟ فقال: إلى واسط. قال: فهل لك

في الصحبة؟ قال: نعم. فسارا حتى فوزا فعنت لهما طباء، فقال له الأعراي: أي هذه الطباء أحب إليك، المتقدم منها أم المتأخر فأزكيه لك؟ قال له: المتقدم. فرماه فخرمه بالسهم فاقتنصه فاشتويا وأكلا. فاغتبط الرجل بصحبة الأعراي. ثم عنت لهما زفة قطا، فقال: أيها تريد فأصرعها لك؟ فأشار إلى واحدة منها. فرماها فأقصدتها، ثم اشتويا وأكلا. فلما انقضى طعامهما فوق له الأعراي سهماً ثم قال له: أين تريد أن أصيبك؟ فقال له: اتق الله عز وجل واحفظ زمام الصحبة. قال: لا بد منه. قال: اتق الله ربك واستبقني، ودونك البغل والخرج فإنه مترع مالا. قال: فاحلح ثيابك. فانسلخ من ثيابه ثوباً ثوباً حتى بقي مجرداً. قال له: احلح أمواقك، وكان لابساً خفين مطابقين. فقال له: اتق الله في ودع الخفين أتبلغ بهما من الحر، فإن الرمضاء تحرق قدمي. قال: لا بد منه. قال: فدونك الخف، فأحلعه. فلما تناول الخف، ذكر الرجل خنجراً كان معه في الخف، فاستخرجه ثم ضرب به صدره فشقه إلى عاتقه وقال له: الاستقصاء فرقة: فذهبت مثلاً. وكان هذا الأعراي من رماة الحدق.

وحدث العتي عن بعض أشياخه قال: كنت عند المهاجر بن عبد الله والي اليمامة. فأتي بأعراي كان معروفاً بالسرق فقال له: أخبرني عن بعض عجائبك. قال: عجائبي كثيرة. ومن أعجبها، أنه كان لي بعير لا يسبق، وكانت لي خيل لا تلحق، فكنت أخرج فلا أرجع حائباً، فخرجت يوماً فاحترشت ضبا، فعلقته على قتي، ثم مررت بجباء ليس فيه إلا عجوز ليس معها غيرها، فقلت: يجب أن يكون لهذه رائحة من غنم وإبل. فلما أمسيت إذا بإبل وإذا شيخ عظيم البطن شثن الكفين ومعه عبد أسود وغد. فلما رأي رحب بي، ثم قام إلى ناقة فاحتلبها، وناولني العلبة، فشربت ما يشرب الرجل، فتناول الباقي فضرب بها جهته، ثم احتلب تسع أئيق، فشرب ألباهن، ثم نحر حواراً فطبخه، فأكلت شيئاً، وأكل الجميع حتى ألقى عظامه بيضاً. وجثا على كومة من البطحاء وتوسدها، ثم غط غطيط البكر. فقلت: هذه والله الغنيمة، ثم قمت إلى فحل إبله فخطمته، ثم قرنته ببعيري وصحت به، فاتبعني الفحل واتبعته الإبل إرباباً به في قطار، فصارت خلفي كأنها جبل ممدود. فمضيت أبادر ثنية بيني وبينها مسيرة ليلة للمسرع، ولم أزل أضرب بعيري مرة بيدي ومرة برجلي حتى طلع الفجر، فأبصرت الثنية وإذا عليها سواد، فلما دنوت منه، إذا الشيخ قاعد وقوسه في حجره. فقال: أضيفنا؟ قلت: نعم. قال: أتسخو نفسك عن هذه الإبل؟ قلت: لا. فأخرج سهماً كأنه لسان كلب، ثم قال: انظره بين أذني الضب المعلق في القتب، ثم رماه، فصدع عظمه عن دماغه، فقال لي: ما تقول؟ قلت: أنا على رأيي الأول قال: انظر هذا السهم الثاني في فقرة ظهره الوسطى، ثم رمى به فكأنما قدره بيده ثم وضعه بإصبعه. ثم قال: رأيك؟ فقلت: إني أحب أن أستثبت. قال: انظر هذا السهم الثالث في عكوة. ذنبه، والرابع والله في بطنك. ثم رماه فلم يخطئ العكوة. قلت: أنزل أمناً؟ قال: نعم. فدفعت إليه خطام فحله وقلت: هذه إبلك لم يذهب منها وبرة، وأنا متى يرميني بسهم يقصد به قلبي. فلما تباعدت، قال: أقبل؛ فأقبلت والله فرقاً من شره لا طمعاً في خيره. فقال: ما أحسبك تجشمت الليلة ما تجشمت إلا من حاجة. قلت نعم. قال فاقرن من هذه الإبل بعيرين وامض لطبتك. قال: قلت: أما والله لا أمضي حتى أخبرك عن نفسك، فلا والله ما رأيت أعراياً قط أشد ضرراً، ولا أعدى رجلاً، ولا أرمى يداً، ولا أكرم عفواً، ولا أسخى نفساً منك. فصرف وجهه عني حياءً، وقال: خذ الإبل برمتها مباركاً لك فيها. وقال النبي صلى الله عليه وسلم: اركبوا وارموا. وأن ترموا أحب إلى من أن تركبوا.

وقال: كل هو المؤمن باطل إلا ثلاث: تأديبه فرسه، ورميه عن كبد قوسه، وملاعبته امرأته، فإنه حق. إن الله ليدخل الجنة بالسهم الواحد: عامله المحتسب، والقوي به سبيل الله، أي والرامي به في سبيل الله.

وروي عن عقبة بن عامر قال: سمعت رسول الله صلى الله عليه وسلم يقول وهو قائم على المنبر: وأعدوا لهم ما استطعتم من قوة، ألا إن القوة الرمي، ألا إن القوة الرمي.

وكان أرمى أصحاب رسول الله صلى الله عليه وسلم سعد بن أبي وقاص، لأن رسول الله صلى الله عليه وسلم دعا له، فقال "اللهم سدد رميته، وأجب دعوته" فكان لا يرد له دعاء، ولا يجيب له سهم.

وذكر أسامة بن زيد أن شيوخاً من أسلم حدثوه: أن رسول الله صلى الله عليه وسلم جاءهم وهم يرمون ببطحان. فقال رسول الله صلى الله عليه وسلم: ارموا يا بني إسماعيل، فقد كان أبوكم رامياً، وأنا مع ابن الأدرع. فتعدى القوم فقالوا: يا رسول الله، من كنت معه فقد نضل. قال رسول الله صلى الله عليه وسلم: ارموا وأنا معكم كلكم. فانتضلوا ذلك اليوم، ثم رجعوا بالسواء ليس لأحد على أحد منهم فضل.

وقال عمر: اثترروا وارتدوا، وانتعلوا واحتفوا، وارموا الأغراض، وألقوا الركب، وانزوا على الخيل نزوا، وعليكم بالمعدية -أو قال بالعربية- ودعوا
التنعم وزى العجم.

وقال أيضاً: لن تخور قواكم ما نزوتم ونزعتم. يعني نزوتم على ظهور الخيل، ونزعتم بالقسي.

وجنى قوم من أهل اليمامة جناية، فأرسل السلطان إليهم جنداً من محاربة ابن زياد. فقام رجل من أهل البادية يذمر أصحابه، فقال: يا معشر العرب،
ويا بني الحصنات. قاتلوا عن أحسابكم وأنسابكم، فوالله إن ظهر هؤلاء عليكم لا يدعون بها لبنة حمراء، ولا نخلة حضراء إلا وضعوها بالأرض،
ولا اعتراضاً من نشاب معهم في جعاب كأنها أيور الفيلة، يتزعون في قسي كأنها الغبط، تنط إحداهن أطيط الزرنوق، يمعت أحدهم فيها حتى يتفرق
شعر إبطينه، ثم يرسل نشابة كأنها رشاء منقطع فما بين أحدكم وبين أن تنفض عينه أو ينصدع قلبه منزلة. فخلع قلوبهم، فطاروا رعباً.

مشاورة المهدي لأهل بيته

في حرب خراسان

هذا ما تراجع فيه المهدي ووزراؤه، وما دار بينهم من تدبير الرأي في حرب خراسان، أيام تحاملت عليهم العمال وأعنفت، فحملتهم الدالة وما تقدم
لهم من المكائنة، على أن نكثوا ببيعتهم ونقضوا موثقتهم، وطرودوا العمال، والتواوا بما عليهم من الخراج وحمل المهدي ما يجب من مصلحتهم، ويكره من
عنتهم، على أن أقال عثرهم، واغتفر زلتهم، واحتمل دلتهم؛ تطولاً بالفضل، واتساعاً بالعفو، وأخذاً بالحجة، ورفقاً بالسياسة. ولذلك لم يزل، منذ
حملة الله أعباء الخلافة، وقلده أمور الرعية، رفيقاً بمدار سلطانه، بصيراً بأهل زمانه؛ باسطاً للمعدلة في رعيته، تسكن إلى كنفه، وتأنس بعفوه، وتتق
بحلمه. فإذا وقعت الأفضية اللازمة، والحقوق الواجبة، فليس عنده هواده ولا إغضاء ولا مدهانة، أثرة للحق، وقياماً بالعدل، وأخذاً بالحرم. فدعا أهل
خراسان الاغترار بحلمه، والثقة بعفوه، أن كسروا الخراج، وطرودوا العمال، وسألوا ما ليس لهم من الحق. ثم خلطوا احتجاجاً باعتذار، وخصومه
بإقرار، وتنصلاً باعتلال. فلما انتهى ذلك إلى المهدي خرج إلى مجلس خلافته، وبعث إلى نفر من لحمته ووزرائه، فأعلمهم الحال، واستنصحهم للرعية،
ثم أمر الموالي بالابتداء، وقال للعباس بن محمد أي عم؛ تعقب قولنا، وكن حكماً بيننا. وأرسل إلى ولديه موسى وهارون فأحضرهما الأمر، وشاركهما
في الرأي، وأمر محمد بن الليث بحفظ مراجعتهم، وإثبات مقالتهم في كتاب.

فقال سلام صاحب دار المظالم: أيها المهدي: إن في كل أمر غاية ولكل قوم صناعة، استفرغت رأيهم، واستغرقت أشغالهم، واستنفذت أعمارهم،
وذهبوا بما معونتنا عليها، أقوام من أبناء الحرب، وساسة الأمور، وقادة الجنود، وفرسان الهزاهز، وإخوان التجارب، وأبطال الوقائع، الذين رشحتهم
سحالها، وفيأثم ظلالها، وعضتهم شدائدتها، وقرمتهم نواجذها. فلو عجمت ما قبلهم، وكشعت ما عندهم، لوجدت نظائر تؤيد أمرك، وتجارب توافق
نظرك، وأحاديث تقوي قلبك. فأما نحن، معاشر عمالك، وأصحاب دواوينك، فحسن بنا وكثير منا أن نقوم بنقل ما حملتنا من عملك، واستودعنا
من أمانتك، وشغلنا به من إمضاء عدلك، وإنفاذ حكمك، وإظهار حقك.

فأجابه المهدي: إن في كل قوم حكمة، ولكل زمان سياسة، وفي كل حال تدبيراً، يبطل الآخر الأول، ونحن أعلم بزماننا وتدبير سلطانتنا.
قال: نعم، أيها المهدي، أنت متسع الرأي، وثيق العقدة، قوي المنة، بليغ الفطنة، معصوم النية، محذور الروية، مؤيد البدئية موفق العزيمة، معان بالظفر،
مهدي إلى الخير. إن هممت ففي عزمك مواقع الظن، وإن أجمعت صدع فعلك ملتبس الشك. فاعزم يهد الله إلى الصواب قلبك، وقل ينطق الله بالحق
لسانك؛ فإن جنودك حجة، وخزائنك عامرة، ونفسك سخية، وأمرك نافذ.
فأجابه المهدي: إن المشاورة والمناظرة باباً رحمة، ومفتاحاً بركة، لا يهلك عليهما رأي، ولا يتفيل معهما حزم، فأشيروا برأيكم، وقولوا بما يحضركم،
فإني من ورائكم، وتوفيق الله من وراء ذلك.

قال الربيع: أيها المهدي، أن تصاريف وجوه الرأي كثيرة وإن الإشارة ببعض معاريف القول يسيرة. ولكن خراسان أرض بعيدة المسافة، متراحية

الشقة، متفاوتة السبل. فإذا ارتأيت من محكم التدبير، ومبرم التقدير، ولباب الصواب، رأياً قد احكمه نظرك، وقلبه تدبيرك، فليس وراءه مذهب الحجة طاعن، ولا دونه معلق لخصومة عائب؛ ثم خبت البرد به، وانطوت الرسل عليه، كان بالحري أن لا يصل إليهم محكمه، إلا وقد حدث منهم ما ينقضه. فما أيسر أن ترجع إليك الرسل، وترد عليك الكتب، بمخاتق أخبارهم، وشوارد آثارهم، ومصادره أمورهم، فتحدث رأياً غيره، وتبتدع تدبيراً سواه، وقد انفرجت الخلق، وتحللت العقد، واسترخى الحقاب، وامتد الزمان. ثم لعلمنا موقع الآخرة كمصدر الأولى. ولكن الرأي لك أيها المهدي - وفقك الله - أن تصرف إجمالة النظر وتقليب الفطر، فيما جمعنا له، واستشرتنا فيه، من التدبير لحرهم، والحيل في أمرهم، إلى الطلب لرجل ذي دين فاضل، وعقل كامل، وورع واسع، ليس موصوفاً بهوى في سواك، ولا متهماً في أثره عليك، ولا ظنياً على دخلة مكروهة، ولا منسوباً إلى بدعة محظورة، فيقبح في ملكك، ويربض الأمور لغيرك، ثم تسند إليه أمورهم، وتقوض إليه حرهم، وتأمره في عهدك ووصيتك إياه، بلزوم أمرك ما لزمه الحزم؛ وخلاف نهيك إذا خالفه الرأي، عند استحالة الأمور، واستدارة الأحوال، التي ينقض أمر الغائب عنها، ويثبت رأي الشاهد لها، فإنه إذا فعل ذلك فوائب أمرهم من قريب، وسقط عنه ما يأتي من بعيد، تمت الحيلة، وقويت المكيدة، ونفذ العمل وأحد النظر. إن شاء الله.

قال الفضل بن العباس: أيها المهدي، إن ولي الأمور وسائس الحروب، ربما جند جنوده، وفرق أمواله في غير ما ضيق أمر حزبه، ولا ضغطة حال اضطرتة، فيقعد عند الحاجة إليها، وبعد التفرقة لها، عديماً منها، فاقداً لها، لا يثق بقوة، ولا يصول بعدة، ولا يفزع إلى ثقة. فالرأي لك أيها المهدي - وفقك الله - أن تعفى خزائنك من الإنفاق للأموال، وجنودك من مكابدة الأسفار، ومقارعة الأخطار، وتغيير القتال، ولا تسرع للقوم في الإجابة إلى ما يطلبون، والإعطاء لما يسألون، فيفسد عليك أدهم، وتجري من رعييتك غيرهم. ولكن اغزهم بالحيلة، وقتلهم بالمكيدة، وصارعهم باللين وخاتلهم بالرفق، وأبرق لهم، وأرعدهم نحوهم بالفعل وابعث البعوث، وجند الجنود، وكتب الكتائب، واعقد الألوية، وانصب الرايات وأظهر أنك موجه إليهم الجيوش، مع أحنق قوادك عليهم، وأسوئهم أثراً فيهم. ثم ادسس الرسل وابتث الكتب، وضع بعضهم على طمع من وعدك، وبعضاً على خوف من وعيدك. وأوقد بذلك وأشباهه نيران التحاسد فيهم، وأعرض أشجار التنافس بينهم، حتى تملأ القلوب من الوحشة، وتنطوي الصدور على البغضة، ويدخل كلا من كل الخذر والهيبه، فإن مرام الظفر بالغيلة، والقتال بالحيلة، والمناسبة بالكتب والمكيدة بالرسل، والمقارعة بالكلام اللطيف المدخل في القلوب، القوي الموقع من النفوس، المعقود بالحجج، الموصول بالحيل، المبني على اللين، الذي يستلب العقول، ويسترق القلوب؛ ويسبي الآراء، ويستميل الأهواء، ويستدعي المواتاة، أنفذ من القتال بطبات السيوف وأسنه الرماح. كما أن الوالي الذي يستزل طاعة رعيته بالحيل، ويفرق كلمة عدوه بالمكيدة، أحكم عملاً، وألطف نظراً، وأحسن سياسة من الذي لا ينال ذلك إلا بالقتال، وإتلاف الأموال، والتغيير والخطار. وليعلم المهدي - وفقه الله - أنه إن وجه لقتالهم رجلاً، لم يسر لقتالهم إلا بجنود كثيفة تخرج عن حال شديدة، وتقدم على أسفار صعبة، وأموال متفرقة، وقواد غششة، إن ائتمنهم استنفذوا ماله، وإن استنصحتهم كانوا عليه لا له.

قال المهدي: هذا رأي قد أسفر نوره، وبرق ضوؤه، وتمثل صوابه للعيون، وتجسد حقه في القلوب. ولكن فوق كل ذي علم عليم. ثم نظر إلى ابنه علي فقال: ما تقول؟

قال علي: أيها المهدي، إن أهل خراسان لم يخلعوا من طاعتك يداً، ولم ينصبوا من دونك أحداً يكدر في تغيير ملكك، ويربض الأمور لفساد دولتك، ولو فعلوا لكان الخطب أيسر، والشأن أصغر، والحال أذل؛ لأن الله مع حقه الذي لا يخذه، وعند مواعده الذي لا يخلفه. ولكنه قوم من رعييتك، وطائفة من شيعتك، الذين جعلك الله عليهم والياً، وجعل العدل بينك وبينهم حاكماً. طلبوا حقاً، وسألوا إنصافاً، فإن أحببت إلى دعوتهم، ونفست عنهم قبل أن تتلاحم منهم حالاً، أو يحدث من عندهم فتق، أطعت أمر الرب، وأطفأت نائرة الحرب، ووفرت خزائن المال، وطرحت تغيير القتال، وحمل الناس محمل ذلك على طبيعة جودك، وسجية حلمك، وإسجاج خليقتك، ومعدلة نظرك. فأمنت أن تنسب إلى ضعف. وأن يكون ذلك لهم فيما بقي درية. وإن منعته ما طلبوا، ولم تجبههم إلى ما سألوا، اعتدلت بك وبهم الحال، وساويتهم في ميدان الخطاب. فما أرب المهدي أن يعمد إلى طائفة من رعيته، مقرين بمملكته، مذعنين لطاعته، لا يخرجون أنفسهم عن قدرته، ولا يبرئونها من عبوديته، فيملكهم أنفسهم، ويخلع نفسه عنهم، ويقف على الجدل معهم، ثم يجازيهم السوء في جد المقارعة، ومضمار المخاطرة؟ أيريد المهدي - وفقه الله - الأموال؟ فلعمري لا ينالها ولا يظفر بها إلا بإنفاق أكثر مما يطلب منهم، وأضعاف ما يدعي قبلهم. ولو نالها فحملت إليه، ووضعت بخراطةها بين يديه، ثم تجافى لهم عنها، وطال عليهم بها، لكان ذلك مما إليه

ينسب، وبه يعرف، من الجود الذي طبعه الله عليه؛ وجعل قرّة عينه ونهمة نفسه فيه فإن قال المهدي: هذا رأي مستقيم سديد في أهل الخراج الذين شكوا ظلم عاملنا، وتحامل ولاتنا؛ فأما الجنود الذين نقضوا موثيق العهود، وأنطقوا لسان الإرجاف وفتحوا باب المعصية، وكسروا قيد الفتنة، فقد ينبغي لهم أن أجعلهم نكالاً لغيرهم وعظة لسواهم، فيعلم المهدي أنه لو أتى بهم مغلولين في الحديد، مقرنين في الأصفاد، ثم اتسع لحقن دمائهم عفوه، وإقامة عثرهم صفحه، واستقبالهم لما هم فيه من حربته، أو لمن يازأهم من عدوه لما كان بدعاً من رأيه، ولا مستنكراً من نظره. لقد علمت العرب أنه أعظم الخلفاء والملوك عفواً، وأشدّها وقعاً، وأصدقها صولة، وأنه لا يتعاضمه عفوه، ولا يتكأده صفح، وإن عظم الذنب، وجل الخطب. فالرأي للمهدي -وفقه الله تعالى- أن يحل عقدة الغيظ بالرجاء لحسن ثواب الله في العفو عنهم، وأن يذكر أولى حالاتهم، وضیعة عيالاتهم، برأ بهم وتوسعاً لهم؛ فإنهم إخوان دولته، وأركان دعوته، وأساس حقه الذين بعزتهم يصلون، وبجحتهم يقول. إنما مثلهم فيما دخلوا فيه من مسأخله، وتعرضوا له من معاصيه، وانطوا فيه عن إجابته، ومثله في قلة ما غير ذلك من رأيه فيهم، أو نقل من حاله لهم، أو تغير من نعمته عليهم، كمثّل رجلين أخوين متناصرين متوازرين، أصاب أحدهما خبل عارض، ولم يحدث، فهض إلى أخيه بالأذى، وتحامل عليه بالمكروه، فلم يزد ذلك أحاه إلا رقة له، ولطفاً به، واحتيالاً لمداواة مرضه، ومراجعة حاله، عطفاً عليه، وبراً به، ومرحمة له.

فقال المهدي: أما علي فقد نوى سمّ اللیان، وفض القلوب عن أهل خراسان، ولكل نبأ مستقر وسوف تعلمون. ثم قال: ما ترى يا أبا محمد؟ يعني موسى ابنه.

فقال موسى: أيها المهدي، لا تسكن إلى حلاوة ما يجري من القول على ألسنتهم، وأنت ترى الدماء تسيل من خلل فعلهم. الحال من القوم تنادي بمضرة شر، وخفية حقد، قد جعلوا المعاذير عليه سترًا، واتخذوا العلل من دونها حجاباً، رجاء أن يدافعوا الأيام بالتأخير، والأمور بالتطويل، فيكسروا حيل المهدي فيهم، ويثبوا جنوده عنهم، حتى يتلاحم أمرهم، وتلاحق مادتهم، وتستفحل حربهم، وتستمر الأمور بهم. والمهدي من قولهم في حال غرة ولباس أمنة قد فتر لها، وأنس بها، وسكن إليها. ولولا ما اجتمعت به قلوبهم، وبردت عليه جلودهم، من المناصب بالقتال، والإضمار للقراع، عن داعية ضلال، أو شيطان فساد، لرهبوا عواقب أحوال الولاة، وغب سكون الأمور. فليشدد المهدي -وفقه الله- أزره لهم، ويكتب كتابه نحوهم، وليضع الأمر على أشد ما يحضره فيهم، وليوقن أنه لا يعطيهم خطة يريد بها صلاحهم، إلا كانت دربة لفسادهم، وقوة على معصيتهم، وداعية إلى عودتهم، وسببا لفساد من بحضرته من الجنود، ومن ببابه من الوفود، الذين أقرهم على تلك العادة، وأجراهم على ذلك الأدب، لم يبرح في فتق حادث، وخلاف حاضر، لا يصلح عليه دين، ولا تستقيم به دنيا. وإن طلب تغييره بعد استحكام العادة، واستمرار الدربة، لم يصل إلى ذلك إلا بالعقوبة المفرطة، والمؤونة الشديدة. والرأي للمهدي -وفقه الله- أن لا يقبل عثرهم، ولا يقبل معذرتهم، حتى تطأهم الجيوش، وتأخذهم السيوف، ويستحربهم القتل، ويحرق بهم الموت، ويحيط بهم البلاء، ويطبق عليهم الذل. فإن فعل المهدي بهم ذلك، كان مقطعة لكل عادة سوء فيهم، وهزيمة لكل بادرة شر منهم. واحتمال المهدي مؤونة غزوتهم هذه يضع عنه مؤونة غزوات كثيرة، ونفقات عظيمة.

قال المهدي: قد قال القوم، فاحكم يا أبا الفضل.

فقال العباس بن محمد: أيها المهدي، أما الموالى فأخذوا بفروع الرأي، وسلكوا جنبات الصواب، وتعدوا أموراً قصر نظرهم عنها، لأنه لم تأت تجاريم عليها.

وأما الفضل فأشار بالأموال أن لا تنفق، والجنود أن لا تفرق، وبأن لا يعطى القوم ما طلبوا، ولا يبذل لهم ما سألوا، وجاء بأمر بين ذلك، استصغاراً لأمرهم، واستهانة بجريمهم، وإنما يهيج جسيمات الأمور صغارها.

وأما علي فأشار باللين وإفراط الرفق. وإذا جرد الوالي لمن غمط أمره، وسيفه حقه، اللين بحتاً، والخير محضاً، لم يخلطهما بشدة تعطف القلوب على لينه ولا بشر يحيشهم إلى خيره؛ فقد ملكهم الخلع لعذرهم، ووسع لهم الفرجة لثني أعناقهم. فإن أحابوا دعوته، وقبلوا لينه من غير ما خوف اضطربهم، ولا شدة حال أخرجتهم، لم يزل ذلك يهيج عزة في نفوسهم، ونزوة في رؤوسهم، يستعدون بها البلاء إلى أنفسهم، ويصرفون بها رأي المهدي فيهم. وإن لم يقبلوا دعوته، ويسرعوا لإجابته باللين المحض، والخير الصراح، فذلك ما عليه الظن بهم، والرأي فيهم، وما قد يشبه أن يكون من مثلهم؛ لأن الله

تعالى خلق الجنة وجعل فيها من النعيم المقيم، والملك الكبير، ما لا يخطر على قلب بشر، ولا تدركه الفكر ولا تعلمه النفوس، ثم دعا الناس إليها، ورغيبهم فيها. فلولا أنه خلق ناراً لهم رحمة يسوقهم بها إلى الجنة، لما أحابوا ولا قبلوا.

وأما موسى فأشار بأن يعصبوا بشدة لا لين فيها، وأن يرموا بشر لا خير معه. وإذا أضمر الوالي لما فارق طاعته، وخالف جماعته، الخوف مفرداً، والشر مجرداً؛ ليس معهما طمع يكسرهم، ولا لين يثنيهم، امتدت الأمور بهم، وانقطعت الحال منهم إلى أحد أمرين: إما أن تدخلهم الحماية من الشدة، والأنفة من الذلة، والامتعاض من القهر، فيدعوهم ذلك إلى التمادي في الخلاف، الاستيسال في القتال، والاستسلام للموت؛ وإما أن ينقادوا بالكره، ويدعونا بالقهر، على بغضة لازمة، وعداوة باقية، تورث النفاق، وتعقب الشقاق، فإذا أمكنتهم فرصة، أو ثابت لهم قدرة، أو قويت لهم حال، عاد أمرهم إلى أصعب وأغلظ وأشد مما كان.

وقال: في قول الفضل أيها المهدي، أكفى دليل، وأوضح برهان، وأبين خبر بان؛ قد اجتمع رأي، وحزم نظره على الإرشاد ببعثة الجيوش إليهم، وتوجيه البعوث نحوهم، مع إعطائهم ما سألوا من الحق، وإجابتهم إلى ما سألوا من العدل.

قال المهدي: ذلك رأى.

قال هارون: خلطت الشدة أيها المهدي باللين، فصارت الشدة أمر فظام لما تكره وعاد اللين أهدى قائد إلى ما تحب، ولكن أرى غير ذلك.

قال المهدي: لقد قلت قولاً بديعاً، خالفت به أهل بيتك جميعاً، والمرء متهم بما قال، وظنين بما ادعى، حتى يأتي بينة عادلة، وحجة ظاهرة؛ فأخرج عما قلت.

قال هارون: أيها المهدي، إن الحرب خدعة، والأعاجم قوم مكرة، وربما اعتدلت الحال بهم، واتفقت الأهواء منهم، فكان باطن ما يسرون على ظاهر ما يعلنون؛ وربما افترقت الحالان، وخالف القلب اللسان، فانطوى القلب على محجوبة تبطن، واستسر بمدخوله لا تعلن. والطبيب الرفيق بطبه، البصير بأمره، العالم بمقدم يده، وموضع ميسمه، لا يتعجل بالدواء، حتى يقع على معرفة الداء. فالرأي للمهدي -وفقه الله- أن يفر باطن أمرهم فر المسنة، ويمخض ظاهر حالهم مخض السقاء، بمتابعة الكتب، ومظاهرة الرسل، وموالاته العيون، حتى تهتك حجب غيوبهم، وتكشف أعطية أمورهم، فإن انكشفت الحال له، وأفضت الأمور به، إلى تغيير حال، أو داعية ضلال، اشتملت الأهواء عليه، وانقاد الرجال إليه، وامتدت الأعناق نحوه، بدين يعتقدونه، وإثم يستحلونه، عصبهم بشدة لا لين فيها، ورامهم بعقوبة لا عفو معها. وإن انفرجت الغيوب واهتصرت الستور، ورفعت الحجب، والحال فيهم مريعة، والأمور بهم معتدلة، عن أرزاق يطلبونها، وأعمال ينكرونها، وظلامات يدعونها، وحقوق يسألونها، بمائة سابقتهم، ودالة مناصحتهم، فالرأي للمهدي -وفقه الله- أن يتسع لهم بما طلبوا، ويتجافى لهم عما كرهوا، ويشعب من أمرهم ما صدعوا، ويرتق من فتقهم ما فتقوا، ويولي عليهم من أحبوا، ويداوي بذلك مرض قلوبهم، وفساد أمورهم، فإنما المهدي وأمته وسواد أهل مملكته، بمتزلة الطبيب الرفيق، والوالد الشفيق، والراعي الحذب، الذي يجتال لمرايض غنمه، وضوال رعيته. حتى يرى المريضة من داء علتها، ويرد الضالة إلى أنس جماعتها. ثم إن خراسان بخاصة لهم دالة محمولة، ومائة مقبولة، ووسيلة معروفة، وحقوق واجبة، لأنهم أيدي دولته، وسيوف دعوته، وأنصار حقه، وأعوان عدله؛ فليس من شأن المهدي الاضطغان عليهم، ولا المؤاخذة لهم، ولا التوعر بهم، ولا المكافأة بإساءتهم، لأن مبادرة حسم الأمور ضعيفة قبل أن تقوى، ومحاولة قطع الأصول ضئيلة قبل أن تغلظ، أحزم في الرأي. وأصح في التدبير، من التأخير لها، والتهاون بها، حتى يلتئم قليلها بكثيرها، وتجتمع أطرافها إلى جمهورها.

قال المهدي: ما زال هارون يقع وقع الحيا، حتى خرج خروج القدر مما قال، وانسل انسلال السيف فيما ادعى. فدعوا ما قد سبق موسى فيه أنه هو الرأي، وثني بعده هارون. ولكن من لأعنه الخيل، وسياسة الحرب، وقادة الناس، إن أمن بهم اللجاج، وأفرطت بهم الدالة؟ قال الصالح: لسنا نبلغ أيها المهدي بدوام البحث، وطول الفكر، أدنى فراسة رأيك، وبعض لحظات نظرك، وليس ينفذ عنك من بيوتات العرب ورجالات العجم ذو دين فاضل، ورأي كامل، وتدبير قوي، تقلده حربك، وتستودعه جندك، ممن يحتمل الأمانة العظيمة، ويضطلع بالأعباء الثقيلة. وأنت بحمد الله ميمون النقيبة مبارك العزيمة، مخبور التجارب، محمود العواقب، معصوم العزم، فليس يقع اختيارك، ولا يقف نظرك، على أحد توليه أمرك، وتسند إليه ثغرك، إلا أراك الله منه ما تحب، وجمع لك منه ما تريد.

قال المهدي: إني لأرجو ذلك لقديم عادة الله فيه، وحسن معونته عليه. ولكن أحب الموافقة على الرأي، والاعتبار بالمشاورة في الأمر المهيم.

قال محمد بن الليث: أهل خراسان، أيها المهدي، قوم ذو عزة ومنعة، وشياطين خدعة زروع الحمية فيهم نابتة، وملابس الأنفة عليهم ظاهرة. فالروية

عنهم عازبة، والعجلة فيهم حاضرة، تسبق سيولهم مطرهم، وسيوفهم عذهم، لأنهم بين سفلة لا يعدو مبلغ عقولهم منظر عيونهم، وبين رؤساء لا يلحمون إلا بالشدّة، ولا يفظمون إلا بالقهر. وإن ولي المهدي عليهم وضيعاً لم تنقل له العظما، وإن ولي أمرهم شريفاً تحامل على الضعفاء. وإن أحر

المهدي أمرهم، ودافع حرمهم، حتى يصيب لنفسه من حشمة ومواليه، أو بني عمه أو بني أبيه، ناصحاً يتفق عليه أمرهم، وثقة تجتمع له أملاؤهم، بلا

أنفة تلزمهم، ولا حمية تدخلهم، ولا عصبية تنفرهم، تنفست الأيام بهم، وتراخت الحال بأمرهم، فدخل بذلك من الفساد الكبير، والضياغ العظيم، ما

لا يتلافاه صاحب هذه الصفة وإن جد، ولا يستصلحه، وإن جهد، إلا بعد دهر طويل، وشر كبير. وليس المهدي -وفقه الله- فاطماً عاداهم، ولا

قارحاً صفاتهم، يمثل أحد رجلين لا ثالث لهما، ولا عدل في ذلك بهما: أحدهما لسان ناطق، موصول بسمعك، ويد ممثلة لعينك، وصخرة لا تززع،

وبهمة لا يثنى، وبازل لا يفزعه صوت الجللج؛ تقي العرض، نزيه النفس، جليل الخطر، قد اتضعت الدنيا عن قدره، وسما نحو الآخرة بهمته؛ فجعل

الغرض الأقصى لعينه نصباً، والغرض الأدنى لقدمه موطئاً، فليس يغفل عملاً، ولا يتعدى أملاً، وهو رأس مواليك، وأنصح بني أبيك، رجل قد غذي

بلطف كرامتك، ونبت في ظل دولتك، ونشأ على قويم أدبك. فإن قلده أمرهم، وحملته ثقلهم، وأسندت إليه ثغرهم، كان قفلاً فتحه أمرك، وباباً

أغلقه نيك، فجعل العدل عليه وعليهم أميراً، والإنصاف بينه وبينهم حاكماً، فأعطاهم ما لهم، وأخذ منهم ما عليهم، غرس لك في الذي بين

صدورهم، وأسكن لك في السويداء داخل قلوبهم، طاعة راسخة العروق، باسقة الفروع، متمثلة في حواشي عوامهم، متمكنة من قلوب حواضهم، فلا

يبقى فيهم ريب إلا نفوه، ولا يلزمهم حق إلا أدوه، وهذا أحدهم. والآخر عود من غيضتك، ونبعة من أرومتك، فتي السن، كهل الحلم، راجح العقل،

محمود الصرامة، مأمون الخلاف، يجرد فيهم سيفه، ويسيطر عليهم خيره، بقدر ما يستحقون، وعلى حسب ما يستوجبون، وهو فلان أيها المهدي.

فسلطه -أعزك الله- عليهم، ووجهه بالجيش إليهم، ولا تمنعك ضراعة سنه، وحادثة مولده؛ فإن الحلم والثقة مع الحداثة، خير من الشك والجهل مع

الكهولة وإنما أحداثكم أهل البيت فيما طبعكم الله عليه، واختصكم به، من مكارم الأخلاق، ومحامد الفعال، ومحاسن الأمور، وصواب التدبير،

وصرامة الأنفس، كفراخ عتاق الطير المحكمة لأخذ الصيد بلا تدريب، والعارفة لوجوه النفع بلا تأديب، فالحلم والعلم والعزم والحزم والجدود والتؤدة

والرفق ثابت في صدوركم، مزروع في قلوبكم مستحكم لكم، متكامل عندكم، بطباع لازمة، وغرائر ثابتة.

قال معاوية بن عبد الله: أفتاء أهل بيتك أيها المهدي في الحلم على ما ذكر، وأهل خراسان في حال عز على ما وصف، ولكن إن ولي المهدي عليهم

رجلاً ليس بقدم الذكر في الجنود، ولا بنبية الصوت في الحروب، ولا بطويل التجربة للأمر ولا بمعروف السياسة للجيش والهيبة في الأعداء، دخل

ذلك أمران عظيمان، وخطران مهولان، أحدهما: أن الأعداء يغتمزونها منه، ويحتقرونها فيه، ويحتثرون بها عليه، في النهوض به والمقارعة له، والخلاف

عليه، قبل الاختبار لأمره، والتكشيف لحاله، والعلم بطباعه. والأمر الآخر: أن الجنود التي يقود، والجيش التي يسوس، إذا لم يحتثروا منه البأس والنجدة،

ولم يعرفوه بالصوت والهيبة، انكسرت شجاعتهم، وماتت نجدهم، واستأخرت طاعتهم إلى حين اختبارهم، ووقع معرفتهم، وربما وقع البوار قبل

الاختبار. وباب المهدي -وفقه الله- رجل مهيب، نبيه حنيك صبت، له نسب زاك، وصوت عال، قد قاد الجيش، وساس الحروب، وتآلف أهل

خراسان، واجتمعوا عليه بالمقة، ووثقوا به كل الثقة، فلو ولاه المهدي أمرهم، لكفاه الله شرهم.

قال المهدي: جانيت قصد الرمية، وأبيت إلا عصبية، إذ رأي الحدث من أهل بيتنا، كراي عشرة حلماء من غيرنا. ولكن أين تركتم ولي العهد؟ قالوا:

لم يمنعنا من ذكره إلا كونه شبيه جده، ونسيج وحده، ومن الدين وأهله بحيث يقصر القول عن أدنى فضله، ولكن وجدنا الله عز وجل قد حجب عن

خلفه، وستر من دون عبادته، علم ما تختلف به الأيام، ومعرفة ما تجري به المقادير، من حوادث الأمور، وريب المنون، المحترمة لخوالي القرون،

ومواضي الملوك، فكرهنا شسوعه عن محلة الملك، ودار السلطان، ومقر الإمامة والولاية، وموضع المدائن والخزائن، ومستقر الجنود، وموضع الوجوه،

ومجمع الأموال، التي جعلها الله عز وجل قطباً لمدار الملك، ومصيدة لقلوب الناس، ومثابة لإخوان الطمع، وثوار الفتن، ودواعي البدع، وفرسان

الضلال، وأبناء المروق. وقلنا إن وجه المهدي ولي عهده، فحدث في جيوشه وجنوده ما قد حدث بجنود الرسل من قبله، لم يستطع المهدي أن يعقبه غيره، إلا أن ينهض إليهم بنفسه، وهذا خطر عظيم، وهول شديد، إن تنفست الأيام بمقامه، واستدامت الحال بأيامه، حتى يقع عرض لا يستغنى فيه، أو يحدث أمر لا بد فيه منه، صار ما بعده، مما هو أعظم هولاً وأجل خطراً، له تبعاً وبه متصلاً.

قال المهدي: الخطب أيسر مما تذهبون إليه، وعلى غير ما تصفون الأمر عليه. نحن -أهل البيت- نحري من أسباب القضايا، ومواقع الأمور، على سابق من العلم، ومحتوم من الأمر، قد أنبأت به الكتب، وتتابع عليه الرسل، وقد تناهى ذلك بأجمعه إلينا، وتكامل بمخافيره عندنا، فيه ندبر، وعلى الله نتوكل. إنه لا بد لولي عهدي، عقي من بعدي، أن يقود إلى خراسان البعوث، ويتوجه نحوها بالجنود.

أما الأول فإنه يقدم إليهم رسله، ويعمل فيهم حيله ثم يخرج نشاطاً إليهم حقناً عليهم يريد أن لا يدع أحد من إخوان الفتن، ودواعي البدع، وفرسان الضلال، إلا توطأه بحر القتل، وألسه قناع القهر، وطوقه طوق الذل؛ ولا أحداً من الذين عملوا في قص جناح الفتنة، وإخماد نار البدعة، ونصرة ولاة الحق، إلا أجرى عليهم دمه فضله، وجداول بذله. فإذا خرج مزماً له مجماً عليه، لم يسر إلا قليلاً حتى يأتيه أن قد عملت حيله. وكذحت كتبه، ونفذت مكابده؛ فهذأت نافرة القلوب، ووقعت طائرة الأهواء، واجتمع عليه المختلفون بالرضا، فيميل نظراً لهم، وبراً بهم، وتعطفاً عليهم، إلى عدو قد أخاف سبيلهم، وقطع طريقهم، ومنع حجاجهم بيت الله الحرام، وسلب تجارهم رزق الله الحلال.

وأما الآخر فإنه يوجه إليهم من يعتقد له الحجة بإعطاء ما يطلبون، وبذل ما يسألون، فإذا سميت الفرق بقراها له، وجنح أهل النواحي بأعناقهم نحوه، فأصغت إليه الأفئدة، واجتمعت له الكلمة، وقدمت عليه الوفود، قصد لأول ناحية بجعت بطاعتها، وألقت بأزمته، فألبسها جناح نعمته، وأنزله ظل كرامته وخصها بعظيم حباه، ثم عم الجماعة بالمعدلة، وتعطف عليهم بالرحمة. فلا تبقى فيهم ناحية دانية، ولا فرقة قاصية، إلا دخلت عليها بركته، ووصلت إليها منفعتة، فأغنى فقيرها، وجبر كسيرها، ورفع ضيعتها، وزاد رفيعها، ما خلا ناحيتين: ناحية يغلب عليهم الشقاء، وتستميلهم الأهواء، فتستخف بدعوتها، وتبطل عن إجابته، وتتناقل عن حقه، فتكون آخر من يبعث، وأبطأ من يوجه، فيضطمر عليها موجدة، ويتبغى لها علة، لا يلبث أن يجدها بحق يلزمهم، وأمر يجب عليهم، فتستلحمهم الجيوش، وتأكلهم السيوف، ويسترحر فيهم القتل، ويحيط بهم الأسر، ويفنيهم التتبع، حتى يخرب البلاد، ويوتم الأولاد. وناحية لا يبسط لهم أماناً، ولا يقبل لهم عهداً، ولا يجعل لهم ذمة، لأنهم أول من فتح باب الفرقة، وتدرع جلباب الفتنة، وريض في شق العصا. ولكنه يقتل أعلامهم، ويأسر قوادهم، ويطلب هراهم، في لجج البحار، وقلل الجبال، وخرم الأردية، وبطون الأرض، تقتيلاً وتغليلاً وتنكيلاً، حتى يدع الديار خراباً، والنساء أيامى. وهذا أمر لا نعرف في كتبنا وقتاً، ولا نصحح منع غير ما قلنا تفسيراً.

وأما موسى ولي عهدي، فهذا أو ان توجهه إلى خراسان، وحلوله بجرجان، وما قضى الله له من الشخوص إليها، والمقام فيها، خير للمسلمين مغبة، وله بإذن الله عاقبة من المقام بحيث يغمر في لجج بحورنا، ومدافع سيولنا ومجامع أمواجنا، فيتصاغر عظيم فضله، ويتذأب مشرق نوره، ويتقلل كثير ما هو كائن منه. فمن يصحبه من الوزراء، ومن يختار له من الناس؟ قال محمد بن الليث: أيها المهدي، إن ولي عهدك أصبح لأمتك وأهل ملتك علماً قد تثنت نحوه أعناقها، ومدت سمته أبصارها. وقد كان لقرب داره منك، ومحل جواره لك: عطل الحال، غفل الأمر، واسع العذر. فأما إذا انفرد بنفسه، وخلا بنظره، وصار إلى تدبيره، فإن من شأن العامة، وأمراء الأمة، أن تتفقد مخارج رأيه، وتستنتصت لمواقع آثاره، وتسأل عن حوادث أحواله، في بره ومرحمته، وإقساطه ومعدلته، وتدبيره، وسياسته، ووزرائه وأصحابه، ثم يكون ما سبق إليهم، أغلب الأشياء عليهم، فلا يفتأ المهدي -وفقه الله- ناظراً له فيما يقوي عمد مملكته ويسدد أركان ولايته، ويستجمع رضا أمته، بأمر هو أزين لحاله، وأظهر لجماله، وأفضل مغبة لأمره، وأجل موقعاً في قلوب رعيته، وأحمد حالاً في نفوس أهل ملته. ولا أوقع مع ذلك باستجماع الأهواء له، وأبلغ في استعطاف القلوب عليه، من مرحلة تظهر من فعله؛ ومعدلة تنتشر من أثره، ومحبة للخير وأهله. وإن يختار المهدي -وفقه الله- من خيار أهل كل بلدة، وفقهاء أهل كل مصر، أقواماً تسكن العامة إليهم إذا ذكروا، وتأنس الرعية بهم إذا وصفوا، ثم تسهل لهم عمارة سبل الإحسان، وفتح باب المعروف، كما قد كان فتح له وسهل عليه.

قال المهدي: صدقت ونصحت. ثم بعث في ابنه موسى، فقال: أي بني، إنك قد أصبحت لسمت عيون العامة نصباً، ولمشي أعطاف الرعية غاية، فحسنتك شاملة، وإساءتك نامية وأمرك ظاهر. فعليك بتقوى الله عز وجل وطاعته، فاحتمل سخط الناس فيهما، ولا تطلب رضاهم بخلافهما، فإن الله

عز وجل كافيك من أسخطه إيثارك رضاه، وليس بكافيك من يسخطه عليك إيثارك رضا من سواه. ثم اعلم أن الله تعالى في كل زمن عترة من رسله، وبقايا من صفوة خلقه، وخبيايا لنصرة حقه؛ يجدد حبل الإسلام بدعواهم، ويشيد أركان الدين بنصرتهم، ويتخذهم لأولياء دينه أنصاراً، وعلى إقامة عدله أعوانا يسدون الخلل، ويقومون الميل، ويدفعون عن الأرض الفساد. وإن أهل خراسان أصبحوا أيدي دولتنا، وسيوف دعوتنا، الذين نستدفع المكاره بطاعتهم، ونصرف نزول العظائم بمناصحتهم، وندافع ريب الزمان بعزائمهم، ونزاحم ركن الدهر ببصائرهم. فهم عماد الأرض إذا أرحفت كنفها، وحتوف الأعداء إذا برزت صفحتها، وحصون الرعية إذا تضايقت الحال بها. قد مضت لهم وقائع صادقات، ومواطن صالحات، أخذت نيران الفتن، وقصمت دواعي البدع، وأذلت رقاب الجبارين، ولم ينفكوا كذلك ما جروا مع ريح دولتنا، وأقاموا في ظل دعوتنا، واعتصموا بحبل طاعتنا التي أعز الله بها ذلتهم، ورفع بها ضعفهم، وجعلهم بما أرباباً في أقطار الأرضين، وملوكاً على رقاب العالمين، بعد لباس الذل، وقناع الخوف، وإطباق البلاء، ومحالفة الأسى، وجهد البأس والضر. فظاهر عليهم لباس كرامتك، وأنزلهم في حدائق نعمتك ثم اعرف لهم حتى طاعتهم، ووسيلة دالتهم، وماتة سابقتهم، وحرمة مناصحتهم بالإحسان إليهم، والتوسعة عليهم، والإثابة لمحسنهم، والإقالة لمسيئهم.

أي بني: ثم عليك العامة، فاستدع رضاها بالعدل عليها، واستحلب مودتها بالإنصاف لها، وتحسن بذلك لربك، وتزين به في عين رعيتك، واجعل عمال القدر، وولاة الحجج مقدمة بين يدي عملك، ونصفة منك لرعيتك؛ وذلك أن تأمر قاضي كل بلد، وخيار أهل كل مصر، أن يختاروا لأنفسهم رجلاً توليه أمرهم، وتجعل العدل حاكماً بينه وبينهم، فإن أحسن حمدت، وإن أساء عذرت، هؤلاء عمال القدر وولاة الحجج. فلا يضيعن عليك ما في ذلك -إذا انتشر في الآفاق، وسبق إلى الأسماع- من انعقاد ألسنة المرجفين، وكبت قلوب الحاسدين، وإطفاء نيران الحروب، وسلامة عواقب الأمور. ولا ينفكن في ظل كرامتك نازلاً، وبعراً حبلك متعلقاً رجلاً: أحدهما كريمة من كرائم رجالات العرب، وأعلام بيوتات الشرف، له أدب فاضل، وحلم راجح، ودين صحيح. والآخر له دين غير مغمور، وموضع مدخول، بصير بتقلب الكلام، وتصريف الرأي، وإيجاء الأدب، ووضع الكتب عالم بحالات الحروب، وتصاريف الخطوب، يضع آداباً نافعة، وآثاراً باقية؛ من تحميل محاسنك، وتحسين أمرك، وتحلية ذكرك، فتستشيره في حربك، وتدخله في أمرك؛ فرجل أصبته كذلك فهو يأوي إلى محلي، ويرعى في حضرة جناني: ولا تدع أن تختار لك من فقهاء البلدان، وخيار الأمصار، أقواماً يكونون جيرانك وسمارك، وأهل مشاورتك فيما تورده، وأصحاب مناظرتك فيما تصدر. فسر على بركة الله، أصحبك الله من عونه وتوفيقه دليلاً يهدي إلى الصواب قلبك؛ وهادياً ينطق بالحق لسانك. وكتب في شهر ربيع الآخرة سنة سبعين ومائة ببغداد.

باب في مداراة العدو

في كتاب للهند: إن العدو الشديد الذي لا تقوى له لا ترد بأسه عنك. يمثل الخشوع والخضوع له، كما أن الحشيش إنما يسلم من الريح العاصفة بليته وانثائه معها.

وقالوا: أرفن للقرد في دولته.

أخذ الشاعر فقال:

وازفن بلا حرج للقرد في زمنه

لا تعبدن صنماً في فاقة نزلت

وقال أحمد بن يوسف الكاتب: إذا لم تقدر أن تعض يد عدوك فقبلها.

وقال سابق البلوي:

عليك ولن يحتال من لا يداهن

وداهن إذا ما خفت يوماً مسلطاً

وقالت الحكماء: رأس العقل مغافصة الفرصة عند إمكانها، والانصراف عما لا سبيل إليه.
وقال الشاعر:

عداوة غير ذي حسب ودين
ويرتج منك في عرض مصون

بلاء ليس يشبهه بلاء
يبيحك منه عرضاً لم يصنه

التحفظ من العدو إن أبدى لك المودة

قالت الحكماء: احذر الموتور ولا تطمئن إليه، وكن أشد ما تكون حذراً منه ألطف ما يكون مداخله لك. فإما السلامة من العدو بتباعدك منه، وانقباضك عنه؛ وعند الأُنس إليه والثقة به تمكنه من مقاتلك.
وقالوا: لا تطمئن إلى العدو إن أبدى لك المقاربة، وإن بسط لك وجهه وخفض لك جناحه، فإنه يترصد بك الدوائر، ويضمر لك الغوائل، ولا يرتجى صلاحاً إلا في فسادك، ولا رفعة إلا بسقوط جاهك.
كما قال الأخطل:

فلا يبيتن فيكم أمناً زفر
وما تغيب من أخلاقه دعر
كالعر يكمن حيناً ثم ينتشر

بني أمية إنني ناصح لكم
واتخذوه عدواً إن شاهدته
إن الضغينة تلقاها وإن قدمت

وفي كتاب الهند: الحازم يحذر عدوه على كل حال، يحذر المواثبة إن قرب، والمعاودة إن بعد، والكمين إن انكشف، والاستطراد إن ولي، والكرة إن فر.

وأوصى بعض الحكماء ملكاً فقال: لا يكون العدو الذي كشف لك عن عداوته بأخوف عندك من الظنين الذي يستتر لك بمخاتلته، فإنه ربما تخوف الرجل السم الذي هو أقتل الأشياء، وقتله الماء الذي هو محبي الأشياء؛ وربما تخوف أن تقتله الملوك التي تملكه، ثم تقتله العبيد التي يملكها. ولم يقل أحد في العدو المندمل على العداوة؛ مثل قول الأخطل:

كالعرق يكمن حيناً ثم ينتشر

إن الضغينة تلقاها وإن قدمت

وقد أشار الحسن بن هانئ إلى هذا المعنى فأجاده حيث يقول:

قد لبسناه على غمره
ككمون النار في حجره

وابن عم لا يكاشفنا
كمن الشنان فيه لنا

وشبهوا العدو إذا كان هذا فعله بالحية المطرقة. قال ابن أخت تأبط شراً:

أطرق أفعى ينفث السم صل

مطرق يرشح موتاً كما

وقال عبد الله بن الزبير لمعاوية -ويقال: بل معاوية قالها لعبد الله بن الزبير-: مالي أراك تطرق إطراق الأفعوان في أصول السخبر؟ وفي كتاب الهند: إذا أحدث لك العدو صداقة لعله ألقأته إليك فمع ذهاب العلة رجوع العداوة، كالماء تسخنه فإذا أمسكت عنه عاد إلى أصله بارداً: والشجرة المرة لو طليتها بالعسل لم تنمر إلا مرأً.

وقال دريد بن الصمة:

وقال زهير:

وما يك في صديق أو عدو

تخبرك العيون عن القلوب

وقيل لزياد: ما السرور؟ قال: من طال في العافية والكفاية عمره، حتى يرى في عدوه ما يسره.

باب من أخبار الأزارقة

كان أول من خرج من الخوارج بعد قتل علي رضي الله عنه: حوثة الأقطع، فإنه كان خرج إلى النخيلة واجتمع إليه جماعة من الخوارج؛ ومعاوية بالكوفة، وقد بايعه الحسن والحسين وقيس بن سعد بن عباد. ثم خرج الحسن يريد المدينة، فوجه إليه معاوية وقد تجاوز في طريقه يسأله أن يكون المتولي لمحاربتهم. فقال الحسن عليه السلام: والله لقد كففت عنك لحقن دماء المسلمين، وما أحسب ذلك يسعني، فكيف أن أقاتل قوماً أنت أولى بالقتال منهم؟ فلما رجع الجواب إليه، وجه إليهم جيشاً أكثره من أهل الكوفة، ثم قال لأبي حوثة: تقدم فاكفني أمر ابنك. فسار إليه أبوه، فدعاه إلى الرجوع، فأبى، فداوره فصم. فقال له: أي بني، أحييتك بابنك لعلك تراه فتحن إليه؟ فقال له: يا أبت، أنا والله إلى طعنة نافذة أتقلب فيها على كعوب الرمح أشوق مني إلى ابني. فرجع إلى معاوية فأخبره. فقال: يا أبا حوثة، عتا هذا جداً. فلما نظر حوثة إلى أهل الكوفة، قال: يا أعداء الله، أنتم بالأمس تقاتلون معاوية لتهدوا سلطانه، واليوم تقاتلون معه لتشدوا سلطانه. ثم جعل يشد عليهم ويقول:

احمل على هذي الجموع حوثة

فغن قريب سنتال المغفره

فحمل عليه رجل من طيء فقتله، فرأى أثر السجود قد لوح جبهته، فندم على قتله.

وكان مرداس أبو بلال قد شهد صفين مع علي بن أبي طالب رضي الله عنه، وأنكر التحكيم، وشهد النهروان ونجا فيمن نجا؛ فلما خرج من حبس ابن زياد، ورأى شدة الطلب للشراة لعزم على الخروج، فقال لأصحابه: إنه والله ما يسعنا المقام مع هؤلاء الظالمين، تجرى علينا أحكامهم، مجانين للعدل، مفارقين للفصل. والله إن الصبر على هذا لعظيم، وإن تجريد السيف وإخافة السبيل لشديد، ولكننا نتبذ عنهم ولا نجرد سيفاً ولا نقاتل إلا من قاتلنا. فاجتمع إليه أصحابه زهاء ثلاثين رجلاً؛ منهم: حريث بن حجل، وكهمس ابن طلق الصرمي فأرادوا أن يولوا أمرهم حريثاً فأبى. فولوا أمرهم مرداساً. فلما مضى بأصحابه لقيهم عبد الله بن رباح الأنصاري، وكان له صديقاً، فقال له: يا ابن أخي، أين تريد؟ فقال: أريد أن أهرب بديني ودين أصحابي من أحكام هؤلاء الجورة. قال له: أعلم أحد بكم؟ قال: لا، قال: فارجع. قال: أو تخاف علي مكرها؟ قال: نعم، وأن يؤتى بك. قال: فلا تخف فإني لا أجرد سيفاً ولا أخيف أحداً، ولا أقاتل إلا من قاتلني. ثم مضى حتى نزل آسك. فمر به مال يحمل إلى ابن زياد، وقد بلغ أصحابه الأربعين: فحط ذلك المال فأخذ منه عطاءه وأعطيات أصحابه وترك ما بقي، وقال: قولوا لصاحبكم: إنما أخذنا أعطياتنا. فقال له أصحابه: لماذا تترك الباقي؟ قال: إنهم يقسمون هذا الفيء كما يقيمون الصلاة، فلا تقاتلوهم ما داموا على الصلاة.

فوجه إليهم ابن زياد أسلم بن زرعة الكلابي في ألفين. فلما وصل إليهم، قال له مرداس: اتق الله يا أسلم، فإننا لا نريد قتالاً ولا نروع أحداً، وإنما هربنا من الظلم، ولا نأخذ من الفيء إلا أعطياتنا، ولا نقاتل إلا من قاتلنا. قال: لا بد من ردكم إلى ابن زياد. قال: وإن أراد قتلنا. قال: وإن أراد قتلكم! قال: فتشرك في دماننا. قال: نعم. فشدوا عليه شدة رجل واحد فهزموه وقتلوا أصحابه.

ثم وجه إليهم ابن زياد عبداً. فقاتلهم يوم الجمعة حتى كان وقت الصلاة، فناداهم أبو بلال: يا قوم، هذا وقت الصلاة فوادعونا حتى نصلي. فوادعوه، فلما دخلوا في الصلاة شدوا عليهم فقتلوهم، وهم بين راعع وساجد وقائم في الصلاة وقاعد. فقال عمران بن حطان يرثي أبا بلال:

يا عين بكى لمرداس ومصرعه

يا رب مرداس اجعلني كمرداس

أبقيتني هائماً أبكي لمرزنتي

في منزل موحش من بعد إيناس

أنكرت بعدك ما قد كنت أعرفه

ما الناس بعدك يا مرداس بالناس

إما شربت بكأس دار أولها

على القرون فذاقوا جرعة الكاس

فكل من لم يذقها شارب عاجلاً

منها بأنفاس ورد بعد أنفاس

وليس في الفرق كلها وأهل البدع أشد بصائر من الخوارج ولا أكثر اجتهاداً، ولا أوطن أنفاساً على الموت، فمنهم الذي طعن فأنفذه الرمح فجعل يسعى إلى قاتله ويقول: عجلت إليك رب لترضى.

ولما مالت الخوارج إلى أصبهان حاصرت بها عتاب بن ورقاء سبعة أشهر يقاتلهم في كل يوم، وكان من عتاب بن ورقاء رجل يقال له شريح ويكنى أبا هريرة، فكان يخرج إليهم في كل يوم فيناديهم:

يا بن أبي الماحوز والأشرار

كيف ترون يا كلاب النار

شد أبي هريرة الهرار

يعروكم بالليل والنهار

وهو من الرحمن في جوار

فتعاضمهم ذلك. فكمن له عبيدة بن هلال فضربه، واحتمله أصحابه، فظنت الخوارج أنه قد قتل، فكانوا إذا توافقوا ينادونهم: ما فعل الهرار؟ فيقولون: ما به من بأس. حتى أبل من عنته، فخرج إليهم، فقال: يا أعداء الله. أترون بي بأساً؟ فصاحوا به: قد كنا نرى أنك لحقت بأملك الهاوية في النار الحامية.

فلما طال الحصار على عتاب، قال لأصحابه: ما تنتظرون: إنكم والله ما تؤتون من قلة، وإنكم فرسان عشائركم، ولقد حاربتموها مراراً فانتصفتم منهم، وما بقي من هذا الحصار إلا أن تفنى ذخائركم، فيموت أحدكم فيدفنه صاحبه، ثم يموت هو فلا يجد من يدفنه، فقاتلوا القوم وبكم قوة من قبل أن يضعف أحدكم عن أن يمشي إلى قرنه. فلما أصبح بهم الصبح، ثم خرج إلى الخوارج وهم غارون، وقد نصب لواء لجارية يقال لها ياسمين، فقال: من أراد البقاء فليلحق بلواء ياسمين، ومن أراد الجهاد فليلحق بلوائي. قال: فخرج في ألفين وسبعمئة فارس، فلم تشعر بهم الخوارج حتى غشواهم، فقاتلوهم بجد لم تر الخوارج مثله، فقتلوا أميرهم الزبير بن علي واهزمت الخوارج فلم يتبعهم عتاب بن ورقاء.

وخرج قريب بن مرة الأزدي وزحاف الطائي. كانا مجتهدين بالصرّة في أيام زياد، فاعترضا الناس، فلحقيا شيخاً ناسكاً من بني ضبيعة بن ربيعة بن نزار فقتلاه، وتنادى الناس، فخرج رجل من بني قطيعة من الأزدي بالسيف. فناداه الناس من بعض البيوت: الحرورية، انج بنفسك. فنادوه: لسنا حرورية، نحن الشرط فوقك فقتلوه.

وبلغ أبا بلال خبرهما، وكان على دين الخوارج، إلا أنه كان لا يرى اعتراض الناس، فقال قريب، لا قربه الله من الخير؛ وزحاف، لا عفا الله عنه، فلقد ركباها عشواء مظلمة.

ثم جعل لا يبران بقبيلة إلا قتلا من وجدا فيها، حتى مرا بني علي ابن سود، من الأزدي. وكانوا رماة، وكان فيهم مائة يجيدون الرمي. فرموهم رمياً شديداً، فصاحوا: يا بني علي، البقاء، لا رماء بيننا. فقال رجل منهم:

لا شيء للقوم سوى السهام

مشحوزة في غلس الظلام

فهربت عنهم الخوارج. فاشتقوا مقبرة بني يشكر حتى خرجوا إلى مزينة. واستقبلهم الناس فقتلوا عن آخرهم. ثم عاد الناس إلى زياد، فقال: ألا ينهي كل قوم سفهاءهم. فكانت القبائل إذا أحست بخارجي فيهم أوثقوه وأتوا به زياداً، فمنهم من يجسه ومنهم من يقتله.

ولزياد أخرى في الخوارج أنه أتى بامرأة منهم فقتلها، ثم عراها، فلم تخرج النساء إلا بعد زياد، وكن إذا أرغمن على الخروج قلن: لولا التعرية لسارعنا. ومن مشاهير فرسان الخوارج: عمرو القنا، من بني سعد بن زيد مناة، وعبيدة بن هلال، من بني يشكر بن بكر بن وائل، وهو الذي طعن صاحب

المهلب في فخذة؛ فشكها مع السرج وهما اللذان يقول فيهما ابن المنجب السدوسي من فرسان المهلب، وكان قال له مولاه خلاج: وددت أنا فضضنا
عسكرهم، فأستلب منه جاريتين إحداهما لك وأخرى لي:-

شرقاً بها الجادي كالتمثال

عمرو القنا وعبيدة بن هلال

في عصابة قسطوا مع الضلال

أخلاج إنك لن تعانق طفلة

حتى تعانق في الكتبية معلماً

وترى المقعطر في الكتبية مقدماً

والمقعطر: من مشاهير فرسانهم. وقطري: أنجدهم قاطبة. وصالح بن مخراق: من بهمهم، وكذلك سعد الطلائع.
ولما اختلف أمر الخوارج وانحاز قطري فيمن معه وبقي عبد ربه، قال المهلب لأصحابه. إن الله قد أراحكم من أقران أربعة: قطري بن الفجاءة، واصلح
بن مخراق. وعبيدة بن هلال، وسعد الطلائع، وإنما بين أيديكم عبد ربه في حشار من حشار الشيطان.
وكانت الخوارج تقاتل على الفدح يؤخذ منها والسوط والعلق الخسيس أشد قتال، وسقط في بعض أيامهم رمح لرجل من مراد من الخوارج فقاتلوا
عليه حتى كثر الجراح والقتل، وذلك مع المغرب، والمرادي يرتجز:

وسال بالقوم الشراة السيل

الليل ليل فيه ويل ويل

إن جاز للأعداء فينا قول

وتعرفت مقالة الخوارج على أربعة أضرب فقال نافع بن الزرق باستعراض الناس، والبراءة من عثمان وعلي وطلحة والزبير، واستحلال الأمانة، وقتل
الأطفال. وقال أبو بيهس هيصم بن جابر الضبيعي: إن أعداءنا كأعداء الرسول صلى الله عليه وسلم يحل لنا المقام فيهم كما أقام رسول الله صلى الله
عليه وسلم وأقام المسلمون بين المشركين، وأقول: إن مناكحتهم ومواريتهم تجوز، لأنهم منافقون يظهر الإسلام، وأن حكمهم عند الله حكم
المشركين. وقال عبد الله بن إياض: لا نقول فيمن خالفنا، إنه مشرك لأن معهم التوحيد والإقرار بالكتاب المقدس والرسول، وإنما هم كفار للنعم،
ومواريتهم ومناكيحهم والإقامة معهم حل، ودعوة الإسلام تجمعهم.
وقالت الصفرية بقول عبد الله بن إياض، ورأت القعود، حتى صارت عامتهم قعداً. وإنما سموا صفرية لإصفرار وجوههم، وقيل لأنهم أصحاب ابن
الصفار.

كتاب الزبرجدة في الأجواد والأصفاد

قال الفقيه أبو عمرو أحمد بن محمد بن عبد ربه، تغمده الله برحمته: قد مضى قولنا في الحروب وما يدخلها من النقص والكمال، وتقدم الرجال على منازلهم من الصبر والجلد، والعدة والعدد. ونحن قائلون بعون الله وتوفيقه في الأجواد والأصفاد، إذ كان أشرف ملابس الدنيا، وأزين حللها، وأجلها لحمد، وأدفعها لدم، وأسترها لعيب، كرم طبيعة يتحلى بها السمح السري، والجواد السخي. ولو لم يكن في الكرم إلا أنه صفة من صفات الله تعالى تسمى بها، فهو الكريم عز وجل. ومن كان كريماً من خلقه، فقد تسمى باسمه، واحتذى على صفة. وقال النبي صلى الله عليه وسلم: إذا أتاكم كريم قوم فأكرموا. وفي الحديث المأثور: الخلق عيال الله، فأحب الخلق إلى الله أنفعهم لعياله. وفي الحسن والحسين عليهما السلام لعبد الله بن جعفر: إنك قد أسرفت في بذل المال. قال: بأبي وأمي أنتما، إن الله قد عودني أن يتفضل علي، وعودته أن أتفضل على عباده، فأخاف أن أقطع العادة فيقطع عني. وقال المأمون لحمد بن عباد المهلي: أنت متلاف. قال: منع الجود سوء ظن بالمعبود. يقول الله عز وجل: "وما أنفقتم من شيء فهو يخلفه وهو خير الرازيين". وقال النبي صلى الله عليه وسلم: أنفق بلال ولا تخش من ذي العرش إقلالاً.

مدح الكرم وذم البخل

قال النبي صلى الله عليه وسلم: اصطناع المعروف بقي مصارع السوء. وقال عليه الصلاة والسلام: إن الله يحب الجود ومكارم الأخلاق، ويبغض سفاسفها. وقال النبي صلى الله عليه وسلم لقوم من العرب: من سيدكم؟ قالوا: الجد ابن قيس على بخل فيه. فقال صلى الله عليه وسلم: وأي داء أدوى من البخل؟ يقول الله تعالى: "ومن يوق شح نفسه فأولئك هم المفلحون". وقال أكثم بن صيفي حكيم العرب: ذلوا أخلاقكم للمطالب، وقودوها إلى المحامد، وعلموها المكارم، ولا تقيموا على خلق تدموه من غيركم، وصلوا من رغب إليكم، وتحلوا بالجود يكسبكم المحبة، ولا تقتعدوا البخل فتتعجلوا الفقر. أخذه الشاعر فقال:

وأخرت إنفاق ما تجمع

وما كنت تعدو الذي تصنع

أمن خوف فقر تعجلته

فصرت الفقير وأنت الغني

وكتب رجل من البخلاء إلى رجل من الأسخياء يأمره بالإبقاء على نفسه ويخوفه بالفقر. فرد عليه: "الشیطان يعدكم الفقر ويأمركم الفحشاء والله يعدكم مغفرة منه وفضلاً" وإني أكره أن أترك أمراً قد وقع لأمر لعله لا يقع.

وكان خالد بن عبد الله القسري يقول على المنبر: أيها الناس، عليكم بالمعروف فإن الله لا يعدم فاعله جوازيه. وما ضعفت الناس عن أدائه، قوي الله على جزائه.

وأخذه من قول الحطيئة:

لا يذهب العرف بين الله والناس

من يفعل الخير لا يعدم جوازيه

وأخذه الحطيئة من بعض الكتب القديمة. يقول الله تعالى فيما أنزله على داود عليه السلام: من يفعل الخير يجده عندي، لا يذهب العرف بيني وبين عبيدي.

وكان سعيد بن العاص يقول على المنبر: من رزقه الله رزقاً حسناً فلينفق منه سراً وجهراً، حتى يكون أسعد الناس به، فإنما يترك ما يترك لأحد رجلين: إما لمصلح فلا يقل عليه شيء، وإما لمفسد فلا يبقى له شيء. وأخذ الشاعر فقال:

يبقى خلافك مصلح أو مفسد

أسعد بمالك في الحياة فإنما

وأخو الصلاح قليله يتزيد

فإذا جمعت لمفسد لم يغبه

وقال أبو ذر رضي الله عنه: إن لك في مالك شريكين: الحدثن والوارث، فإن استطعت ألا تكون أبخس الشركاء حظاً فافعل.

وقال بزجمهر الفارسي: إذا أقبلت عليك الدنيا فأنفق منها فإنها لا تفي، وإذا أدبرت عنك فأنفق منها فإنها لا تبقى: أخذ الشاعر هذا المعنى فقال:

فليس ينقصها التبذير والسرف

لا تبخلن بدنيا وهي مقبلة

فالحمد منها إذا ما أدبرت خلف

وإن تولت فأحرى أن تجود بها

وكان كسرى يقول: عليكم بأهل السخاء والشجاعة، فإنهم أهل حسن الظن بالله تعالى، ولو أن أهل البخل لم يدخل عليهم من ضرر بخلهم، ومذمة الناس لهم، وإطباق القلوب على بغضهم، إلا سوء ظنهم برهم في الخلف لكان عظيماً. وأخذ هذا المعنى محمود الوراق فقال:

والبخل من سوء ظن المرء بالله

من ظن بالله خيراً جاد مبتدئاً

محمد بن يزيد بن عمر بن عبد العزيز قال: خرجت مع موسى الهادي أمير المؤمنين من جرجان، فقال لي: إما أن تحملني وإما أن أحملك. ففهمت ما أراد، فأنشدته أبيات ابن صرمة الأنصاري:

وأحسابكم، والبر بالله أول

فأوصيكم بالله أول وهلة

وإن كنتم أهل السيادة فاعدلوا

وإن قومكم سادوا فلا تحسدوهم

وإن كان فضل المال فيكم فأفضلوا

وإن أنتم أعوزتم فتعففوا

فأمر لي بعشرين ألفاً.

وقال عبد الله بن عباس: سادات الناس في الدنيا الأسخياء، وفي الآخرة الأتقياء.

وقال أبو مسلم الخولاني: ما شيء أحسن من المعروف إلا ثوابه. وما كل من قدر على المعروف كانت له نية. فإذا اجتمعت القدرة والنية تمت السعادة، وأنشد:

والبذل أحسن ذلك الحسن

إن المكارم كلها حسن

ومخبر عني ولم يرني

كم عارف بي لست أعرفه

داري وبوعدهم وطني

يأتيهم خبري وإن بعدت

ولحر عرضي غير ممتن

إني لحر المال ممتن

وقال خالد بن عبد الله القسري: من أصابه غبار مركبي فقد وجب علي شكره.

وقال عمرو بن العاص: والله لرجل ذكرني، ينام على شقة مرة وعلى شقة أخرى، يراني موضعاً لحاجته، لأوجب علي حقاً إذا سألتها مني إذا قضيتها

وقال عبد العزيز بن مروان: إذا أمكنتني الرجل من نفسه حتى أضع معروف في عنده، يده عندي أعظم من يدي عنده، وأنشد لابن عباس رضي الله تعالى عنهما:

وأعمل فكر الليل والليل عاكر

سواي ولا من نكبة الدهر ناصر

وزايله الهم الطروق المساور

بي الخير إني للذي ظن شاكر

إذا طارقات الهم ضاجعت الفتى

وباكرني في حاجة لم يكن لها

فرجت بمالي همه عن خناقه

وكان له فضل علي بظنه

وقيل لأبي عقيل البلغي العراقي: كيف رأيت مروان بن الحكم عند طلب الحاجة إليه؟ قال: رأيت رغبته في الشكر، وحاجته إلى القضاء أشد من حاجة صاحب الحاجة.

أخذه بشار فنظمه فقال:

ب كما انشقت الدجى عن ضياء

ف ولكن يلذ طعم العطاء

مالكي ينشق عن وجهه الجد

ليس يعطيك للرجاء ولا الخو

وقال زياد: كفى بالبخل عاراً اسمه لم يقع في حمد قط، وكفى بالجود فخراً أن اسمه لم يقع في ذم قط.

وقال آخر:

ماذا من الفضل بين البخل والجود

للخابطين فإنني لين العود

إما نوالاً وإما حسن مردود

لقد علمت وقد قطعنتي عدلاً

إلا يكن ورق يوماً أروح به

لا يعدم السائلون الخير أفعله

قوله: إلا يكن ورق يريد المال، وضربه مثلاً. ويقال: أتى فلان فلاناً يختبئ ما عنده. والاختباط: ضرب الشجر ليسقط الورق لتأكله السائمة، فجعل طالب الرزق مثل الخابط.

وقال أسماء بن خارجة: ما أحب أن أرد أحداً عن حاجة طلبها. لأنه لا يخلو أن يكون كريماً فأصون له عرضه، أو لئيماً فأصون عرضي منه.

وقال أرسطو طاليس: من انتجعك من بلاده فقد ابتدأك بحسن الظن بك والثقة بما عندك.

الترغيب في حسن الثناء

واصطناع المعروف

قال النبي صلى الله عليه وسلم: إذا أردتم أن تعلموا ما للعبد عند ربه، فانظروا ما يتبعه من حسن الثناء.

وكتب عمر بن الخطاب رضي الله عنه إلى أبي موسى الأشعري: اعتبر منزلتك من الله بمنزلتك من الناس، واعلم أن مالك عند الله مثل ما للناس عندك.

وقيل لبعض الحكماء: ما أفادك الدهر؟ قال العلم به. قيل: فما أحمد الأشياء؟ قال: أن تبقى للإنسان أحدى حسنة.

وقال بعض أهل التفسير في قول الله تعالى: "واجعل لي لسان صدق في الآخرين". إنه أراد حسن الثناء من بعده.

وقال أكثم بن صيفي: إنما أنتم أخبار، فطيبوا أخباركم.

أخذ هذا المعنى حبيب الطائي فقال:

وما ابن آدم إلا ذكر صالحه

أما سمعت بدهر باد أمته

وقال أبو بكر محمد بن دريد:

وإنما المرء حديث بعده

وقالوا: الأيام مزارع فما زرعت فيها حصده.

ومن قولنا في هذا المعنى وغيره من مكارم الأخلاق:

يا من تجلد للزما

سلط نهاك على هوا

إن الحياة مزارع

والناس لا يبقى سوى

أو ما سمعت بمن مضى

والمال إن أصلحته

والعلم ما وعت الصدو

أو ذكر سيئة يسري بها الكلم

جاءت بأخبارها من بعدها أمم

فكن حديثاً حسناً لمن وعى

ن أما زمانك منك أجد

ك وعد يومك ليس من غد

فازرع بها ما شئت تحصد

آثارهم والعين تفقد

هذا يذم وذلك يحمد

يصلح وإن أفسدت يفسد

ر وليس ما في الكتب يخلد

وقال الأحنف بن قيس: ما أدرخت الآباء للأبناء، ولا أبقث الموتى للأحياء، شيئاً أفضل من اصطناع المعروف عند ذوي الأحساب والآداب.

وقالوا: تريبب المعروف أولى من اصطناعه، لأن اصطناعه نافله، وتريببيه فريضة.

وقالوا: أحي معروفك بإماتة ذكره، وعظمه بالتصغير له.

وقالت الحكماء: من تمام كرم النعم التغافل عن حجته، والإقرار بالفضيلة لشاكر نعمته.

وقالوا: للمعروف خصال ثلاث: تعجيله وستره وتيسيره، فمن أدخل بواحدة منها فقد نجس المعروف حقه، وسقط عنه الشكر.

وقيل لمعاوية: أي الناس أحب إليك؟ فقال: من كانت له عندي يد صالحه. قيل: فإن لم تكن له؟ فقال: فمن كانت لي عنده يد صالحه.

وقال النبي صلى الله عليه وسلم: من عظمت نعمة الله عنده عظمت مؤونة الناس عليه، فإن لم يقم بتلك المؤونة عرض النعمة للزاول.

أبو اليقظان قال: أخذ عبيد الله بن زياد عروة بن أدية، أحمأ أي بلال، وقطع يده ورجله وصلبه على باب داره. فقال لأهله وهو مصلوب: انظروا إلى

هؤلاء الموكلين بي فأحسنوا إليهم فإنهم أضيافكم.

ابن المبارك عن حميد عن الحسن قال: لأن أفضي حاجة لأخ لي أحب إلي من عبادة سنة.

وقال إبراهيم بن السندي: قلت لرجل من أهل الكوفة، من وجوه أهلها، كان لا يجف لبدته، ولا يستريح قلبه، ولا تسكن حركته في طلب حوائج

الرجال، وإدخال المرافق على الضعفاء، وكان رجلاً مفوهاً، فقلت له: أخبرني عن الحالة التي خفت عنك النصب، وهونت عليك التعب في القيام

بحوائج الناس، ما هي؟ قال: قد والله سمعت تغريد الطير بالأسحار؛ في فروع الأشجار؛ وسمعت خفق أوتار العيدين، وترجيع أصوات القيان، فما

طربت من صوت قط طربي من ثناء حسن بلسان حسن على رجل قد أحسن؛ ومن شكر حر لمنعم حر، ومن شفاعة محتسب لطالب شاكر. قال

إبراهيم: فقلت له: لله أبوك! لقد حشيت كرمًا.

إسماعيل بن مسرور عن جعفر بن محمد عليه السلام قال: إن الله خلق خلقاً من رحمته برحمته لرحمته، وهم الذين يقضون الحوائج للناس، فمن استطاع منكم أن يكون منهم فليكن.

الجود مع الإقلال

قال الله تبارك وتعالى فيما حكاه عن الأنصار: "ويؤثرون على أنفسهم ولو كان بهم خصاصة، ومن يوق شح نفسه فأولئك هم المفلحون". وقال النبي صلى الله عليه وسلم: أفضل العطية ما كان من معسر إلى معسر. وقال عليه الصلاة والسلام: أفضل العطية جهد المقل. وقالت الحكماء: القليل من القليل أحمد من الكثير من الكثير. أخذ هذا المعنى حبيب فنظمه في أبيات كتب بها إلى الحسن بن وهب الكاتب وأهدى إليه قلماً:

ه بشيء فكأن له ذا قبول

ر ولا نيلك الكثير الجزيل

إن جهد المقل غير قليل

قد بعثنا إليك أكرمك الل

لا تقسه إلى ندى كفك الغم

واستجز قلة الهدية مني

وقالوا: جهد المقل أفضل من غنى الكثير.

وقال صريع الغواني:

لكن لمقتدر قومه المتحمم

ليس السماح لمكثر في قومه

وقال أبو هريرة: ما وددت أن أحداً ولدني أمه إلا أم جعفر بن أبي طالب عليه السلام، تبعته ذات يوم وأنا جائع، فلما بلغ الباب التفت فرآني فقال لي: أدخل، فدخلت. ففكر حيناً فما وجد في بيته إلا نخياً كان فيه سمن مر، فأنزله من رف لهم، فشقه بين أيدينا، فجعلنا نلحق ما كان فيه من السمن والرب، وهو يقول:

ولا تجود يد إلا بما تجد

ما كلف الله نفساً فوق طاقتها

وقيل لبعض الحكماء: من أجود الناس؟ قال: من جاد من قلة، وصان وجه السائل عن المذلة.

وقال حماد عجرد:

ترجى الثمار إذا لم يورق العود

حتى تراه غنياً وهو مجهود

زرق العيون عليها أوجه سود

فكل ما سد فقراً فهو محمود

أروق بخير تؤمل للجزيل فما

إن الكريم ليخفي عنك عسرتة

وللبخيل على أمواله علل

بث النوال ولا نمنعك قلته

وقال حاتم:

ويخصب عندي والمحل جديب

ولكنما وجه الكريم خصيب

أضحك ضيفي قبل إنزال رحله

وما الخصب للأضياف أن يكثر القرى

وقال عبد الملك بن مروان: ما كنت أحب أن أحداً ولدي من العرب إلا عروة بن الورد لقوله:

بجسمي مس الجوع والجوع جاهد

أتهزأ مني أن سمنت وأن ترى

العقد الفريد-ابن عبد ربه الأندلسي

لأنني أمرؤ عافي إنائي شركة

أقسم جسيمي في جسوم كثيرة

ومن أحسن ما قيل في الجود والإقلال، قول أبي تمام حبيب:

فلو لم يكن في كفه غير روحه

ومن أفرط ما قيل في الجود، قول بكر بن النطاح:

أقول لمرتاد الندى عند مالك

فتى جعل الدنيا وقاء لعرضه

فلو خذلت أمواله جود كفه

وإن لم يجز في العمر قسم لمالك

وجاد بها من غير كفر بربه

وقال آخر في هذا المعنى وأحسن:

ملأت يدي من الدنيا مراراً

ولا وجبت علي زكاة مال

وأنت أمرؤ عافي أنائك واحد

وأحسو قراح الماء بارد

لجاد بها فليتق الله سائله

تمسك بجدوى مالك وصلاته

فأسدى بها المعروف قبل عاداته

لقاسم من يرجوه شطر حياته

وجاز له أعطاه من حسناته

وأشركه في صومه وصلاته

وما طمع العواذل في اقتصادي

وهل تجب الزكاة على الجواد

العطية قبل السؤال

قال سعيد بن العاصي: قبح الله المعروف إن لم يكن ابتدئ من غير مسألة، فالمعروف عوض عن مسألة الرجل إذ بذل وجهه، فقلبه خائف، وفراسه ترتعد، وجبينه يرشح؛ لا يدري أيرجع بنجح الطلب، أم بسوء المنقلب، قد انتفع لونه، وذهب دم وجهه. اللهم فإن كانت الدنيا لها عندي حظاً فلا تجعل لي حظاً في الآخرة.

وقال أكثم بن صيفي: كل سؤال وإن قل أكثر من كل نوال وإن جل.

وقال علي بن أبي طالب رضي الله عنه لأصحابه: من كانت له إلي منكم حاجة فليرفعها في كتاب لأصون وجوهكم عن المسألة.

حبيب قال:

عطاؤك لا يفنى ويستغرق المني

وقال حبيب أيضاً:

ذل السؤال شجاً في الحلق معترض

ما ماء كفك إن جادت وإن بخلت

إني بأيسر ما أدنيت منبسط

وتبقى وجوه الراغبين بمائها

من دونه شرق من خلفه جرض

من ماء وجهي إذا أفنيت عوض

كما بأكثر ما أقصيت منقبض

وقالوا: من بذل إليك وجهه فقد وفاك حق نعمتك وقالوا: أكمل الخصال ثلاث: وقار بلا مهابة، وسماح بلا طلب مكافأة، وحلم بغير ذل.

وقالوا: السخي من كان مسروراً ببذله، متبرعاً بعطائه، لا يلتمس عرض دنيا فيحبط عمله، ولا طلب مكافأة فيسقط شكره، ولا يكون مثله فيما

أعطى مثل الصائد الذي يلقي الحب للطائر، لا يريد نفعها ولكن نفع نفسه.

نظر المنذر بن أبي سيرة إلى أبي الأسود الدؤلي وعليه قميص مرقوع، فقال له: ما أصبرك على هذا القميص؟ فقال له: رب مملوك لا يستطيع فراقه. فبعث إليه بتخت من ثياب. فقال أبو الأسود:

كساني ولم أستكسه فحمدته
وإن أحق الناس إن كنت شاكرًا
أخ لك يعطيك الجزيل وناصر
بشكرك من أعطاك والعرض وافر

وسأل معاوية صعصعة بن صوحان: ما الجود؟ فقال: التبرع بالمال، والعطية قبل السؤال: ومن قولنا في هذا المعنى:

كريم على العلات جزل عطاؤه
وما الجود من يعطى إذا ما سألته
ينيل وإن لم يعتمد لنوال
ولكن من يعطى بغير سؤال
وقال بشار العقيلي:

مالكي ينشق عن وجهه الجد
فثجوج السماء فيض يديه
ليس يعطيك للرجاء ولا الخو
لا ولا أن يقال شيمته الجو
ب كما انشقت الدجى عن ضياء
لقريب ونازح الدار نائي
ف ولكن يلذ طعم العطاء
د ولكن طبائع الآباء

وقال آخر:

إن بين السؤال والإعتذار
خطة صعبة على الأحرار
وقال حبيب بن أوس

لئن جددت ما أوليت من نعم
أنسى ابتسامك والألوان كاسفة
رددت رونق وجهي في صحيفته
وما أبالي وخير القول أصدقه
إني لفي اللؤم أمضى منك في الكرم
تيسم الصبح في داج من الظلم
رد الصقال بهاء الصارم الخدم
حقنت لي ماء وجهي أو حقنت دمي

استنجاح الحوائج

كانوا يستفتحون حوائجهم بركعتين يقولون فيهما: اللهم بك أستنجح وباسمك أستفتح، وبمحمد نبيك إليك أتوجه. اللهم ذل لي صعوبته، وسهل لي حزونه، وارزقني من الخير أكثر مما أرجو، وأصرف عني من الشر أكثر مما أخاف. وقال النبي صلى الله عليه وسلم: استعينوا على حوائجكم بالكتمان لها، فإن كل ذي نعمة محسود. وقال خالد بن صفوان: لا تطلبوا الحوائج في غير حينها، ولا تطلبوها من غير أهلها؛ فإن الحوائج تطلب بالرجاء، وتدرك بالقضاء. وقال: مفتاح نجح الحاجة الصبر على طول المدة، ومغلاقها اعتراض الكسل دونها. قال الشاعر:

إني رأيت وفي الأيام تجربة
وقل من جد في أمر يحاوله
للصبر عاقبة محمودة الأثر
فاستصحب الصبر إلا فاز بالظفر

ومن أمثال العرب في هذا: من أدمن قرع الباب يوشك أن يفتح له.
أخذ الشاعر هذا المعنى فقال:

فالصبر يفتق منها كل ما ارتتجا
إذ تضايق أمر أن ترى فرجا
ومدمن القرع للأبواب أن يلجا

إن الأمور إذا انسدت مسالكها
لا تيأسن وإن طالت مطالبة
أخلق بذي الصبر أن يحظى بحاجته

وقال خالد بن صفوان: فوت الحاجة خير من طلبها إلى غير أهلها، وأشد من المصيبة سوء الخلف منها.
وقالوا: صاحب الحاجة مبهوت، وطلب الحوائج كلها تعزير.
وقالت الحكماء: لا تطلب حاجتك من كذاب، فإنه يقر بما بالقول، ويوعدها بالفعل؛ ولا من أحمق، فإنه يريد نفعك فيضرك، ولا من رجل له آكلة من جهة رجل، فإنه لا يؤثر حاجتك على أكلته.
وقال دعبل بن علي الخزاعي:

إليك إلا بحرمة الأدب
غير ملح عليك في الطلب

جئتك مسترفداً بلا سبب
فاقض ذمامي فإنني رجل

وقال شبيب بن شيبه: إني لأعرف أمراً لا يتلاقى به اثنان إلا وجب النجاح بينهما. قيل له: وما ذاك؟ قال: العقل، فإن العاقل لا يسأل ما لا يمكن ولا يرد عما يمكن.
وقال الشاعر:

إليك سوى أني بجودك واثق
وإن قلت لي عذراً أقل أنت صادق

أتيتك لا أدلي بقربى ولا يد
فإن تولني عرفاً أكن لك شاكراً

وقال الحسن بن هانئ:

وإلا فإنني عاذر وشكور

فإن تولني منك الجميل فأهله

وقال آخر:

إليك ولا عرضته للمعايير
عليه وقلت ماله غير وافر

لعمرك ما أخلقت وجهاً بذلته
فتى وفرت أيدي المكارم عرضه

ودخل محمد بن واسع على بعض الأمراء، فقال: أتيتك في حاجة فإن شئت قضيتها وكنا كريمين، وإن شئت لم تقضها وكنا لئيمين.
أراد إن قضيتها كنت أنت كريماً بقضائها، وكنت أنا كريماً بسؤالك إياها، لأني وضعت الطلبة في موضعها. فإن لم تقضها كنت أنت لئيماً بمنعك، وكنت أنا لئيماً بسوء اختياري لك.
وسرق حبيب هذا المعنى فقال:

إذ صرت موضع طلبي للئيم

عياش إنك للئيم وإنني

ودخل سوار القاضي على عبد الله بن طاهر صاحب خراسان، فقال: أصلح الله الأمير:

خفيف معناها مضاعفة الأجر

لنا حاجة والعذر فيها مقدم

فإن تقضها فالحمد لله وحده

قال له: ما حاجتك أبا عبد الله؟ قال: كتاب لي إن رأى الأمير -أكرمه الله- أن ينفذه في خاصته، كتبه إلى موسى بن عبد الملك في تعجيل أرزاقه. قال: أو غير ذلك أبا عبد الله نعملها لك من مالنا؟ وإذا وددت كنت مخيراً بين أن تأخذ أو ترد. فأنشد سوار يقول:

ودارك مأهولة عامرة

ن أندی من الليلة الماطرة

من الأم بابنتها الزائرة

فبابك أيمن أبوابهم

وكفك حين ترى المجتدي

وكلبك أنس بالمعتفين

ودخل أبو حازم الأعرج على بعض أهل السلطان، فقال: أتيتك في حاجة رفعتها إلى الله فبلك، فإن يأذن الله لك في قضائها قضيتها وحمدناك، وإن لم يأذن في قضائها لم تقضها وعذرناك.

وفي بعض الحديث: اطلبوا الحوائج عن حسان الوجوه.

أخذه الطائي فنظمه في شعره فقال:

له إذا قال مفصلاً إفصاحاً

فتتقوا لها الوجوه الصباحا

ما به خاب من أراد النجاحا

قد تأولت فيك قول رسول ال

إن طلبتم حوائجاً عند قوم

فلعمري لقد تنقيت وجهاً

قال المنصور لرجل دخل عليه: سل حاجتك؛ قال: يبيك الله يا أمير المؤمنين. قال: سل حاجتك فإنك لست تقدر على مثل هذا المقام في كل حين.

قال: والله يا أمير المؤمنين، ما أستقصر عمرك، ولا أخاف بخلك، ولا أعتنم مالك، وإن عطائك لشرف، وإن سؤالك لزين، وما بامرئ بذل إليك وجهه نقض ولا شين، فوصله وأحسن إليه.

استتجاز المواعيد

من أمثالهم في هذا: أنجز حر ما وعد.

وقالوا: وعد الكريم نقد، ووعد اللئيم تسويق.

وقال الزهري: حقيق على من أورد بوعده أن يثمر بفعل.

وقال المغيرة: من أحر حاجة فقد ضمنها.

وقال الموبدان الفارسي: الوعد السحابة، والإنجاز المطر.

وقال غيره: المواعيد رؤوس الحوائج، والإنجاز أبدانها.

وقال عبد الله بن عمر رحمه الله: خلف الوعد ثلث النفاق، وصدق الوعد ثلث الإيمان، وما ظنك بشيء جعله الله تعالى مدحة في كتابه، وفخراً لأتبيائه، فقال تعالى: "وذاكر في الكتاب إسماعيل إنه كان صادق الوعد".

وذكر جبار بن سلمى عامر بن الطفيل، فقال: كان والله إذا وعد الخير وفي، وإذا أوعده بالشر أحلف، وهو القائل:

ويأمن مني صولة المتهدد

ليكذب إيعادي ويصدق مواعيدي

ولا يرهب ابن العم ما عشت صولتي

وإني وإن أوعده أو وعدته

وقال ابن أبي حازم:

إذا قلت في شيء نعم فأتممه

فإن نعم دين على الحر واجب

وإلا فقل لا تسترح وترح بها

لئلا يقول الناس إنك كاذب

ولو لم يكن في خلف الوعد إلا قول الله عز وجل: "يا أيها الذين آمنوا لم تقولون ما لا تفعلون. كبر مقتاً عند الله أن تقولوا ما لا تفعلون" لكفى.

وقال عمر بن الخطاب: كانوا يفعلون ولا يقولون، ثم صاروا يقولون ويفعلون، ثم صاروا يقولون ولا يفعلون، ثم صاروا لا يقولون ولا يفعلون: فزعم أنهم ضنوا بالكذب فضلاً عن الصدق. وفي هذا المعنى يقول الحسن بن هانئ:

قال لي ترضى بوعد كاذب

قلت إن لم يك شحم فنفس

ومثله قول عباس بن الأحنف، ويقال إنه لمسلم بن الوليد، صريع الغواني:

ما ضر من شغل الفؤاد ببخله

لو كان علني بوعد كاذب

صبراً عليك فما أرى لي حيلة

إلا التمسك بالرجاء الخائب

سأموت من كمد وتبقى حاجتي

فيما لديك وما لها من طالب

قال عبد الرحمن بن أم الحكم لعبد الملك بن مروان في مواعيد وعدها إياه فمطله بما: نحن إلى الفعل أحوج منا إلى القول، وأنت بالإيجاز أولى منك بالمطل. واعلم أنك لا تستحق الشكر إلا بإيجازك الوعد، واستتمامك المعروف.

القاسم بن معن المسعودي قال: قلت لعيسى بن موسى، أيها الأمير، ما انتفعت بك مذ عرفتك، ولا أوصلت لي خيراً مذ صحبتك. قال: ألم أكلم لك أمير المؤمنين في كذا وسألته لك كذا؟ قال: قلت: بلى، فهل استنجرت ما وعدت، واستتممت ما بدأت؟ قال: حال من دون ذلك أمور قاطعة، وأحوال عاذرة. قلت: أيها الأمير، فما زدت على أنها نبهت العجز من رقدته، وأثرت الحزن من ربضته، إن الوعد إذا لم يشفه إيجاز يحققه، كان كلفظ لا معنى له، وجسم لا روح فيه.

وقال عبد الصمد بن الفضل الرقاشي لخالد بن ديسم، عامل الري.

أخالد إن الري قد أجمعت بنا

وضاق علينا رحبها ومعاشها

وقد أطعمتنا منك يوماً سحابة

أضاعت لنا برقاً وأبطأ رشاشها

فلا غيمها يصحو فيبئس طامعاً

ولا ماؤها يأتي فتروى عطاشها

وقال سعيد بن سلم: وعد أبي بشاراً العقيلي حين مدحه بالقصيدة التي يقول فيها:

صدت بخد وجلت عن خد

ثم انتنت كالنفس المرتد

فكتب إليه بشار بالغد:

ما زال ما منيتني من همي

والوعد غم فأرح من غمي

إن لم ترد حمدي فراقب ذمي

فقال له أبي: يا أبا معاذ، هلا استنجحت الحاجة بدون الوعد؟ فإذا لم تفعل فتريص ثلاثاً وثلاثاً، فإني والله ما رضيت بالوعد حتى سمعت الأبرش الكلبي يقول لهشام: يا أمير المؤمنين، لا تصنع إلي معروفاً حتى تعدي، فإنه لم يأتي منك سيب على غير وعد وإلا هان علي قدره، وقل مني شكره. قال له هشام: لئن قلت ذلك لقد قاله سيد أهلك أبو مسلم الخولاني: إن أوقع المعروف في القلوب، وأبرده على الأكباد معروف منتظر بوعده لا يكدره المظل.

وكان يحيى بن خالد بن برمك لا يقضي حاجة إلا بوعده، ويقول: من لم يبت على سرور لم يجد للصنعة طعاماً.
وقالوا: الخلف ألام من البخل، لأنه من لم يفعل المعروف لزمه ذم اللؤم وحده، ومن وعد وأخلف لزمه ثلاث مذمات: ذم اللؤم، وذم الخلف، وذم الكذب.
قال زياد الأعجم:

ولو كنت تفعل ما تقول

لله درك من فتى

د وحبذا صدق البخيل

لا خير في كذب الجوا

استبطاً حبيب الطائي الحسن بن عيب في عدة وعدها إياه، فكتب إليه أبياتاً يستعجله بها. فبعث إليه بألف درهم، وكتب إليه:

قللاً ولو أخرته لم يقلل

أعجلتنا فأتاك عاجل برنا

ونكون نحن كأننا لم نفعل

فخذ القليل وكن كمن لم يسأل

وقال عبد الله بن مالك الخزاعي: دخلت على أمير المؤمنين المهدي وعنده ابن دأب وهو ينشد قول الشماخ:

يجر شواء بالعصا غير منضج

وأشعث قد قد السفار قميصه

كريم من الفتیان غير مزج

دعوت إلى ما نابني فأجابني

ويضرب في رأس الكمي المدجج

فتى يملأ الشيزي ويروي سنانه

ولا في بيوت الحي بالمتولج

فتي ليس بالراضي بأدنى معيشة

فرغ رأس إلي المهدي وقال: هذه صفتك أبا العباس فقلت: بك نلتها يا أمير المؤمنين. فضحك إلي وقال: هل تشد من الشعر شيئاً؟ قلت: نعم يا أمير المؤمنين. قال: فأنشدي. فأنشده قول السموأل:

فليس إلى حسن الثناء سبيل

وإن هو لم يحمل على النفس ضيمها

فمطلبها كهلاً عليه تقيل

إذا المرء أعيته المروءة يافعاً

فقلت لها إن الكرام قليل

تعيرنا أنا قليل عدينا

عزيز وجار الأكثرين دليل

وما ضرنا أنا قليل وجارنا

إذا ما رأته عامر وسلول

ونحن أناس لا نرى القتل سبة

وتكرهه آجالهم فتطول

يقرب حب الموت آجالنا لنا

ولا ظل منا حيث كان قتيل

وما مات منا سيد حتف أنفه

وليست على غير السيوف تسيل

تسيل على حد السيوف نفوسنا

ولا ينكرون القول حين نقول

وننكر إن سئنا على الناس قولهم

كهام ولا فينا يعد بخيل

فنحن كماء المزن ما في نصابنا

بها من قراع الدارين فلول

وأسيافنا في كل شرق ومغرب

فقال: أحسنت! اجلس، بهذا بلغتكم، سل حاجتك؟ فقلت: يا أمير المؤمنين، تكتب لي في العطاء ثلاثين رجلاً من أهلي؟ قال: نعم، فرض علي إذا وعدت. فقلت يا أمير المؤمنين، إنك متمكن من القدرة وليس دونك حاجز عن الفعل، فما معنى العدة؟ فنظر إلى بن دأب كأنه يريد منه كلاماً في فضل الموعد. فقال ابن دأب:

حلاوة الفعل بوعد ينجز

فضحك المهدي وقال:

لا خير في العرف كنهب ينهز

الفعل أحسن ما يكو

وقال المهلب بن أبي صفرة لبنيه: يا بني، إذ غدا عليكم الرجل وراح مسلماً، فكفى بذلك تقاضياً. وقال الشاعر:

ن إذا تقدمه ضمان

أروح بتسليمي عليك وأغتدي

وحسبك بالتسليم مني تقاضياً

وقال آخر:

كفالك مخبراً وجهي بشأني

وحسبك أن أراك وأن تراني

وما ظني بمن يعنيه أمري

ويعلم حاجتي ويرى مكاني

كتب العتابي إلى بعض أهل السلطان: أما بعد، فإن سحائب وعدك قد أبرقت، فليكن وبلها سالماً من علل المثل، والسلام. وكتب الجاحظ إلى رجل وعده: أما بعد، فإن شجرة وعدك قد أورقت، فليكن ثمرها سالماً من جوائح المثل، والسلام. ووعد عبد الله بن طاهر دعبللاً بسلام، فلما طال عليه تصدى له يوماً، وقد ركب إلى باب الخاضة، فلما رآه قال: أسأت الافتضاء، وجهلت المأخذ، ولم تحسن النظر، ونحن أولى بالفضل، فلك الغلام والدابة لما نزل إن شاء الله تعالى. فأخذ دعبل بعنانه وأنشده:

يا جواد اللسان من غير فعل

ليت في راحتك جود اللسان

عين مهرا ن قد لطمت مراراً

فاتقي ذا الجلال في مهرا ن

عرت عيناً فدع لمهرا ن عيناً

لا تدعه يطوف في العميان

قال: فتزل له عن دابته، وأمر له بالسلام.

وسأل خلف بن خليفة أبان بن الوليد جارية فوعده بها، وأبطأت عليه، فكتب إليه:

أرى حاجتي عند الأمير كأنها

تهم زماناً عنده بمقام

وأحصر عن إذكاره إن لقيته

وصدق الحياء ملجم بلجام

أراها إذا كان النهار نسيئة

وبالليل تقضى عند كل منام

فيا رب أخرجها فإنك مخرج

من الميت حياً مفصلاً بكلام

فتعلم ما شكري إذا ما قضيتها

وكيف صلاتي عندها وصيامي

وكتب أبو العتاهية إلى رجل وعده وعداً وأخلفه:

أحسبت أرض الله ضيقة

عني فأرض الله لم تضيق

وجعلتني فقراً بقرقرة

فوطئتني وطئاً على حنق

فإذا سألتك حاجة أبداً

فاضرب لها قفلاً على غلق

وأعد لي غلاً وجامعة

ما أطول الدنيا وأوسعها

ومن قولنا في رجل كتب إلى بعة في صحيفة ومطلني بما:

صحيفة طابعها اللوم

يهدى لها والخلف في طيها

من وجهه نحس ومن قربه

لا تهتضم إن بت ضيفاً له

تكلمه الألاحظ من رقة

فاجمع يدي بها إلى عنقي

وأدني بمسالك الطرق

عنوانها بالجهل مختوم

والمطل والتسويق واللوم

رجس ومن عرفانه شوم

فخبزه في الجوف هاضوم

فهو بلحظ العين مكلوم

ولا تأتدم على أكله

فإنه بالجوع مأدوم

وقلت فيه:

صحيفة كتبت لبيت بها وعسى

وعد له هاجس في القلب وقد برمت

يراعة غرني منها وميض سني

فصادفت حجراً لو كنت تضربه

كأنما صيغ من بخل ومن كذب

عنوانها راحة الراجي إذا ينسا

أحشاء صدري به من طول ما هجسا

حتى مددت إليها الكف مقتبسا

من لؤمه بعضا موسى لما انبجسا

فكان ذاك له روحاً وذا نفسا

وقلت فيه:

رجاء دون أقربه السحاب

وتسويق يكل الصبر عنه

وأيام خلت من كل خير

ووعد مثل ما لمع السراب

ومطل ما يقوم له حساب

ودنيا قد توزعها الكلاب

لطيف الاستمناح

قال الحكماء: لطيف الاستمناح سبب النجاح، والأنفس ربما انطلقت وانشرحت بلطيف السؤال، وانقبضت وامتنعت بجفاء السائل؛ كما قال الشاعر:

كالدرا يقطعه جفاء الحالب

وجفوتني فقطعت عنك فوائدي

وقال العتاي: إن طلب حاجة إلى ذي سلطان فأجمل في الطلب إليه، وإياك والإلحاح علي، فإن إلحاحك يكلم عرضك، ويريق ماء وجهك، فلا تأخذ منه عوضاً لما يأخذ منك؛ ولعل الإلحاح يجمع عليك إخلاق الوجه، وحرمان النجاح؛ فإنه ربما مل المطلوب إليه حتى يستخف بالطالب.

وقال الحسن بن هانئ:

حملت من الإلحاح سمحاً على بخل

تأن مواعيد الكرام فربما

إن كنت طالب حاجة فتجمل

إن الكريم أخا المروءة والنهي

فيها بأحسن ما طلب وأجمل

من ليس في حاجاته بمثقل

وقال مروان بن أبي حفصة: لقيت يزيد بن يزيد وهو خارج من عند المهدي، فأخذ بعنان دابته وقلت له: إني قلت فيك ثلاثة أبيات أريد لكل بيت منها مائة ألف. قال: هات، لله أبوك! فأنشأت أقول:

يا أكرم الناس من عجم ومن عرب

أفنييت مالك تعطيه وتنهبه

بعد الخليفة يا ضرغامه العرب

يا آفة الفضة البيضاء والذهب

لا خبراً عنك في الهيجاء بالعجب

إن السنان وحد السيف لو نطقا

فأمر لي بما.

المدائني قال: قدم قوم من بني أمية على عبد الملك بن مروان، فقالوا: يا أمير المؤمنين، نحن ممن تعرف، وحقنا لا ينكر، وجئناك من بعيد، ونمت بقريب، وهما تعطينا فنحن أهلهم.

دخل عبد الملك بن صالح على الرشيد فقال: أسألك بالقرابة والخاصة، أم بالخلافة والعامية؟ قال: بل بالقرابة والخاصة. قال: يداك يا أمير المؤمنين بالعطية أطلق من لساني بالمسألة. فأعطاه وأجزل له.

ودخل أبو الريان على عبد الملك بن مروان، وكان عنده أنيراً، فرآه خائراً، فقال: يا أبا الريان، مالك خائراً؟ قال: أشكو إليك الشرف يا أمير المؤمنين. قال: وكيف ذلك؟ قال: نسأل ما لا نقدر عليه ونعذر فلا نعذر. قال عبد الملك: ما أحسن ما استمنحت، واعتزرت يا أبا الريان! أعطوه كذا وكذا. العتايي قال: كتب الشعبي إلى الحجاج يسأله حاجة، فاعتل عليه. فكتب إليه الشعبي: والله لا عذرتك وأنت والي العراقين، وابن عظيم القرينين، فقضى حاجته.

وكان جد الحجاج لأمه عروة بن مسعود الثقفي.

العتبي قال: قدم عبد العزيز بن زرارة الكلابي على أمير المؤمنين معاوية، فقال: إني لم أزل أهرز ذئاب الرجال إليك، فلم أجد معولاً إلا عليك؛ امتطى الليل بعد النهار، وأسم المجاهل بالآثار؛ يقودني إليك أمل، وتسوقني بلوى، المجتهد يعذر، وإذا بلغتك فقطني. فقال: احطط عن رحلتك رحلها. ودخل كريب بن زفر بن الحارث على يزيد بن المهلب فقال: أصلح الله الأمير، أنت أعظم من أن يستعان بك ويستعان عليك، ولست تفعل من الخير شيئاً إلا وهو يصغر عنك وأنت أكبر منه، وليس العجب أن تفعل، ولكن العجب أن لا تفعل قال: سل حاجتك. قال: قد حملت عن عشريني عشر ديات. قال: قد أمرت لك بما وشفعتها بمثلها.

العتبي عن أبيه قال: أتى رجل إلى حاتم الطائي فقال: إنها وقعت بيني وبين قومي ديات فاحتملتها في مالي وأملي، فعدمت مالي وكنت أملي، فإن تحملها عني فرب هم فرجته، وغم كفيته، ودين قضيته؛ وإن حال دون ذلك حائل لم أدم يومك، ولم أياس من غدك. فحملها عنه. المدائني قال:

سأل رجل خالداً القسري حاجة، فاعتل عليه. فقال له: لقد سألت الأمير من غير حاجة. قال وما دعاك إلى ذلك؟ قال رأيتك تحب من لك عنده حسن بلاء، فأردت أن أتعلق منك بجبل مودة. فوصله وحياه وأدى مكانه.

والأصمعي قال: دخل أبو بكر الهجري على المنصور، فقال: يا أمير المؤمنين، نغض فمي، وأنتم أهل البيت بركة، فلو أذنت لي فقبلت رأسك لعل الله يشدد لي منه. قال: اختر منها ومن الجائزة. فقال: يا أمير المؤمنين أهون علي من ذهاب درهم من الجائزة ألا تبقى حاكة في فمي. فضحك المنصور وأمر له بجائزة.

وذكروا أن جارا لأبي دلف ببغداد لزمه كبير دين فادح حتى احتاج إلى بيع داره. فساوموه بما، فسألهم ألف دينار، فقالوا له: إن دارك تساوي

خمسمائة دينار. قال: وجواري من أبي دلف بألف وخمسمائة دينار. فبلغ أبا دلف، فأمر بقضاء دينه، وقال له لا تبع دارك ولا تنتقل من جوارنا. ووقفت امرأة على قيس بن سعد بن عباد، فقالت: أشكو إليك قلة الجرذان، قال: ما أحسن هذه الكناية! املنوا لها بيتاً حيزاً ولحماً وسمناً وتمرّاً. إبراهيم بن أحمد عن الشيباني قال: كان أبو جعفر المنصور أيام بني أمية إذا دخل البصرة دخل مستتراً، فكان يجلس في حلقة أزهر السمان المحدث. فلما أفضت الخلافة إليه، قدم عليه أزهر، فرحب به وقربه، وقال له ما حاجتك يا أزهر؟ قال: داري متهدمة، وعلي أربعة آلاف درهم، وأريد أن يبني محمد ابني بعياله، فوصله باثني عشر ألفاً، وقال: قد قضينا حاجتك يا أزهر، فلا تأتنا طالباً: فأخذها وارتحل. فلما كان بعد سنة أتاه. فلما رآه أبو جعفر، قال: ما جاء بك يا أزهر؟ قال جئتك مسلماً. قال: إنه يقع في خلد أمير المؤمنين أنك جئت طالباً. قال: ما جئت إلا مسلماً. قال: قد أمرنا لك باثني عشر ألفاً، واذهب فلا تأتنا طالباً ولا مسلماً. فأخذها ومضى. فلما كان بعد سنة أتاه، فقال: ما جاء بك يا أزهر؟ قال: أتيت عائداً. قال: إنه يقع في خلد أمير المؤمنين أنك جئت طالباً. قال: ما جئت إلا عائداً قال أمرنا لك باثني عشر ألفاً فاذهب ولا تأتنا لا طالباً ولا مسلماً ولا عائداً، فأخذها وانصرف. فلما مضت السنة أقبل، فقال له: ما جاء بك يا أزهر؟ قال: دعاء كنت أسمعك تدعو به يا أمير المؤمنين، جئت لأكتبه. فضحك أبو جعفر وقال: إنه دعاء غير مستجاب، وذلك أبي قد دعوت الله تعالى به أن لا أراك، فلم يستجب لي، وقد أمرنا لك باثني عشر ألفاً، فاذهب وتعال متى شئت، فقد أعيتني فيك الحيلة.

أقبل أعرابي إلى داود بن المهلب فقال له: إني مدحتك فاستمع. قال: على رسلك، ثم دخل بيته وقلد سيفه وخرج، فقال: فإن أحسنت حكمناك، وإن أسأت قتلناك. فأنشأ يقول:

من الحدث المخشي والبؤس والفقر

من الحدثان إذ شددت به أزرى

وملك سليمان وعدل أبي بكر

كما يفرق الشيطان من ليلة القدر

أمنت بداود وجود يمينه

فأصبحت لا أخشى بداود نبوة

له حكم لقمان وصورة يوسف

فتى تفرق الأموال من جود كفه

فقال: قد حكمناك، فإن شئت على قدرك وإن شئت على قدري. قال: بل على قدري، فأعطاه خمسين ألفاً. فقال له جلساؤه: هلا احتكمت على قدر الأمير! قال: لم يك في ماله ما يفني بقدره. قال له داود: أنت في هذه أشعر منك في شعرك، وأمر بمثل ما أعطاه.

الأصمعي قال: كنت عند الرشيد إذ دخل عليه إسحاق بن إبراهيم الموصلي فأنشده:

فليس إلى ما تأمرين سبيل

ومالي كما قد تعلمين قليل

ورأي أمير المؤمنين جميل

وأمره بالبخل قلت لها اقصري

فعالى فعال المكثرين تجملاً

فكيف أخاف الفقر أو أحرم الغنى

فقال له الرشيد: لله در أبيات تأتينا بها! ما أحسن أصولها، وأبين فصولها، وأقل فضولها! يا غلام، أعطه عشرين ألفاً. قال: والله لا أخذت منها درهماً واحداً. قال: ولم؟ قال: لأن كلامك والله يا أمير المؤمنين خير من شعري. قال: أعطوه أربعين ألفاً. قال الأصمعي: فعلمت والله أنه أصيد لدرهم الملوک مي.

العتبي عن أبيه قال:

قدم زيد بن منية من البصرة على معاوية - وهو أخو يعلى بن منية صاحب جمل عائشة رضي الله عنها ومتولي تلك الحروب ورأس أهل البصرة، وكانت ابنة يعلى عند عتيبة بن أبي سفيان - فلما دخل على معاوية شكاه دينه، فقال: يا كعب، أعطه ثلاثين ألفاً. فلما ولى قال: وليوم الحمل ثلاثين ألفاً أخرى. ثم قال له: الحق بصهرك - يعني عتبة - فقدم عليه مصر، فقال: إني سرت إليك شهرين، أخوض فيهما المتالف، ألبس أردية الليل مرة، وأخوض في لجج السراب أخرى، موقراً من حسن الظن بك، وهارباً من دهر قطع، ومن دين لزم. بعد غنى جدعنا به أنوف الحاسدين. فقال عتبة: إن

الدهر أعاركم غني، واخلطكم بنا، ثم استرد ما أمكنه أخذه، وقد أبقى لكم منا ما لا ضيعة معه، وأنا رافع يدي ويدك بيد الله. فأعطاه ستين ألفاً كما أعطاه معاوية.

إبراهيم الشيباني قال: قال عبد الله بن علي بن سويد بن منجوف: أعدم أبي إعدامه شديدة بالبصرة وأنفض، فخرج إلى خراسان، فلم يصب بها طائلاً، فبينما هو يشكو تعزر الأشياء عليه، إذ عدا غلامه على كسوته وبلغته فذهب بهما. فأتى أبا ساسان حزين بن المنذر الرقاشي فشكا إليه حاله. فقال له: والله يا بن أخي ما عمك ممن يحمل محاملك، ولكن لعلي أحتال لك: فدعا بكسوة حسنة فألبسني إياها، ثم قال. امض بنا. فأتى باب والي خراسان فدخل وتركني بالباب، فلم ألبث أن خرج الحاجب فقال: أين علي بن سويد؟ فدخلت إلى الوالي، فإذا حزين على فراش جانبه. فسلمت على الوالي، فرد علي، ثم أقبل عليه حزين فقال: أصلح الله الأمير، هذا علي بن سويد بن منجوف، سيد فتيان بكر بن وائل، وابن سيد كهولها، وأكثر الناس مالاً حاضراً بالبصرة، وفي كل موضع ملكت به بكر بن وائل مالاً، وقد تحمل بي إلى الأمير حاجة. قال: هي مقضية. قال: يسألك أن تمد يدك في ماله ومراكبه وسلاحه إلى ما أحببت. قال: لا والله لا أفعل ذلك به، نحب أولى بزيادته. قال: فقد أعفيناك من هذه إذ كرهتها، فهو يسألك أن تحمله حوائجك بالبصرة. قال: إن كانت حاجة فهو فيها ثقة، ولكن أسألك أن تكلمه في قبول معونة منا، فإننا نحب أن يرى على مثله من أئتنا. فأقبل علي أبو ساسان فقال: يا أبا الحسن، عزمت عليك أن لا ترد على عمك شيئاً أكرمك به. فسكت. فدعا لي بمال ودواب وكساو ورقيق. فلما خرجت قلت: أبا ساسان، لقد أوقفتني على خطة ما وقفت على مثلها قط. قال: اذهب إليك يا بن أخي، فعمك أعلم بالناس منك. إن الناس إن علموا لك غرارة من مال حشوا لك أخرى، وإن يعلموك فقيراً تعدوا عليك مع فقرك. إبراهيم الشيباني قال: ولدت لأبي دلامة ابنة ليلاً، فأوقد السراج وجعل يخيظ خريطة من شقق. فلما أصبح طواها بين أصابعه وغدا بها إلى المهدي فاستأذن عليه، وكان لا يحجب عنه. فأنشده:

قوم لقليل اقعديوا يا آل عباس

لو كان يقعد فوق الشمس من كرم

إلى السماء فأنتم أكرم الناس

ثم ارتقوا من شعاع الشمس في درج

قال له المهدي: أحسنت والله أبا دلامة! فما الذي غدا بك إلينا؟ قال: ولدت لي جارية يا أمير المؤمنين. قال: فهل قلت فيها شعراً؟ قال: نعم، قلت:

ولم يكفلك لقمان الحكيم

فما ولدتك مريم أم عيسى

إلى لباتها وأب لئيم

ولكن قد تضمك أم سوء

قال: فضحك المهدي. وقال: فما تريد أن أعينك به في تربيتها أبا دلامة؟ قال: تملأ هذه يا أمير المؤمنين، وأشار إليه بالخريطة بين إصبعيه. فقال المهدي: وما عسى أن تحمل هذه؟ قال: من لم يقنع بالقليل لم يقنع بالكثير. فأمر أن تملأ مالا. فلما نشرت أخذت عليهم صحن الدار، فدخل فيها أربعة آلاف درهم.

وكان المهدي قد كسا أبا دلامة ساجاً. فأخذ به وهو سكران، فأتي به إلى المهدي. فأمر بتمزيق الساج عليه، وأن يجلس في بيت الدجاج، فلما كان في بعض الليل وصحا أبو دلامة من سكره ورأى نفسه بين الدجاج، صاح: يا صاحب البيت.

فاستجاب له السجان؛ فقال: مالك يا عدو الله؟ قال له: ويلك! من أدخلني مع الدجاج؟ قال: أعمالك الخبيثة، أتى بك أمير المؤمنين وأنت سكران فأمر بتمزيق ساجك وحبسك مع الدجاج. قال له: ويلك! أو تقدر على أن توقد سراجاً، وتجيئي بدواة وورق ولك سلمي هذا. فأتاه بدواة وورق: فكتب أبو دلامة إلى المهدي:

كأن شعاعها لهب السراج

أمن صهباء صافية المزاج

إذا برزت ترقق في الزجاج

تهش لها النفوس وتشتتها

لقد صارت من النطف النضاج

وقد طبخت بنار الله حتى

دلامة؟ قال: بشر حال يا أمير المؤمنين. قال: كيف ذلك؟ وبلك! قال: وما ظنك يا أمير المؤمنين. من أصبح وجهه في وسطه، وسيفه في أسته، وقد نبد كتاب الله عز وجل وراء ظهره. قال: فضحك أبو جعفر، وأمر بتغيير ذلك، وأمر لأبي دلامة بصلة. وأوصل أبو دلامة إلى العباس بن المنصور رقعة فيها هذه الأبيات:

على منازل بين الظهر والنجف

لولا الذي استحدثت في قلبك الكلف

فلا وربك لا تشفيك من شغف

فهل لقلبك من صبر على الأسف

يهدى السلام إلى العباس في الصحف

قد طالما ضربت في اللام والألف

إلى معلمها باللوح والكتف

منها وخيفت على الإسراف والقرف

كما تصان ببحر درة الصدف

مبادراً لصلاة الصبح بالصدف

مطلة بين سجفيها من الغرف

أخر منكشفاً أم غير منكشف

لينضحوا الرجل المغشى بالنطف

خوفاً من الجن والإنسان لم يخف

أمسى وأصبح من موت على شرف

جنية أقصدتني من بني خلف

تطلعت من أعالي القصر ذي الشرف

يعير قوته مني إلى ضعفي

قد طالما خدع الأقوام بالحلف

بها إلي فألقاها على كتفي

طوراً ونفعل بعض الشيء في اللحف

يبغي الدنانير بالميزان ذي الكف

والحق في طرف والعين في طرف

قف بالديار وأي الدهر لم تقف

وما وقوفك في أطلال منزلة

إن كنت أصبحت مشغولاً بجارية

ولا تزيدك إلا العل من أسف

هذي مقالة شيخ من بني أسد

تخطها من جوارى المصر كاتبة

وطالما اختلفت صيفاً وشتاتية

حتى إذا ما استوى الثديان وامتألت

صينت ثلاث سنين ما ترى أحداً

بينما الفتى يتمشى نحو مسجده

حانت لن نظرة منها فأبصرها

فخر في الترب ما يدري غدائتذ

وجاءه القوم أفواجاً بمائهم

فوسوسوا بقران في مسامعه

شيباً ولكنه من حب جارية

قالوا: لك الخير ما أبصرت؟ قلت لهم

أبصرت جارية محجوبة لهم

فقلت من أيكم والله يأجره

فقام شيخ بهي من تجارهم

فابتاعها لي بألف أحمر فغدا

فبت ألثمها طوراً وتلثمني

بتنا كذلك حتى جاء صاحبها

وذاك حق على زند وكيف به

وبين ذلك شهود لم أبال بهم

فإن تصلني قضيت القوم حقهم

أكنت معترفاً أم غير معترف

وإن نقل لا فحق القوم في تلف

فلما قرأ العباس الأبيات أعجب بها واستظرفها، وقضى عنه ثمن الجارية. واسم أبي دلالة: زند.

إبراهيم بن المهدي قال: قال لي جعفر بن يحيى يوماً: إني استأذنت أمير المؤمنين في الحجامة وأردت أن أحلو وأفر من أشغال الناس وأتوحد. فهل أنت مساعدي قلت: جعلني الله فداك، أنا أسعد الناس بمساعدتك، وأنس بمخالاتك. قال: فكر إلي بكور الغراب. قال: فأتيت عند الفجر الثاني فوجدت الشمعة بين يديه، وهو قاعد ينتظرن للميعاد. قال: فصلينا ثم أفضنا في الحديث حتى جاء وقت الحجامة، فأتى بحجام وحجمنا في ساعة واحدة، ثم قدم إلينا طعام قطعنا. فلما غسلنا أيدينا خلع علينا ثياب المنادمة، وضمخنا بالخلوق، وظللنا بأسر يوم مر بنا. ثم إنه ذكر حاجة فدعا الحاجب، فقال: إذا جاء عبد الملك القهرماني فأذن له. فنسي الحاجب، وجاء عبد الملك بن صالح الهاشمي، على جلالته وسنه وقدره وأدبه، فإذن له الحاجب. فما راعنا إلا طلعة عبد الملك. فتغير لذلك جعفر بن يحيى وتنغص عليه ما كان فيه. فلما نظر عبد الملك إليه على تلك الحال دعا غلامه دفع إليه سيفه وسواده وعمامته، ثم جاء ووقف على باب المجلس، وقال: اصنعوا بي ما صنعتم بأنفسكم. قال: فجاء الغلام فطرح عليه ثياب المنادمة. ودعا بالطعام فطعم، ثم دعا بالشراب فشرب ثلاثاً، ثم قال: ليخفف عني، فإن شيء ما شربته قط. فتهلل وجه جعفر وفرح به، وكان الرشيد قد عتب على عبد الملك بن صالح ووجد عليه. فقال له جعفر بن يحيى: جعلني الله فداك، قد تفضلت وتولت وأسعدت، فهل من حاجة تبلغها مقدرتي، أو تحيط بها نعمتي فأقضيها لك مكافأة لما صنعت؟ قال: بلى، إن قلب أمير المؤمنين عاتب علي، فسله الرضا عني. قال: قد رضي عنك أمير المؤمنين. ثم قال: علي أربعة آلاف دينار. قال حاضرة، ولكن من مال أمير المؤمنين أحب إليك. قال: وابن إبراهيم أحب أن أشد ظهره بصهر من أولاد أمير المؤمنين. قال: قد زوجه أمير المؤمنين ابنته عائشة. قال: وأحب أن تخفق الألوية على رأسه. قال: قد ولاه أمير المؤمنين على مصر. قال: وانصرف عبد الملك، ونحن نعجب من إقدامه على قضاء الحوائج من غير استئذان أمير المؤمنين. فلما كان من الغد وقفنا على باب الرشيد ودخل جعفر، فلم نلبث أن دعني بأبي يوسف القاضي ومحمد بن الحسن وإبراهيم بن عبد الملك، ف عقد النكاح، وحملت البدر إلى منزل عبد الملك، وكتب سجل إبراهيم على مصر. وخرج جعفر فأشار إلينا. فلما صار إلى منزله ونحن خلفه، نزل ونزلنا بتزوله. فالتفت إلينا فقال: تعلق قلبكم بأول أمر عبد الملك فأحببتم معرفة آخره، وإني لما دخلت على أمير المؤمنين ومثلت بين يديه ابتدأت القصة من أولها كما كانت، فجعل يقول: أحسن والله! أحسن والله! فما صنعت؟ فأخبرته بما سأله وبما أجبته به. فجعل يقول في ذلك: أحسنت، أحسنت! وخرج إبراهيم والياً على مصر.

قدم رجل على ملك من ملوك الأكاسرة، فمكث ببابه حيناً لا يصل إليه، فتلطف في رقعة أوصلها إليه، وفيها أربعة أسطر: في السطر الأول: الضر والأمل أقدماني عليك.

والسطر الثاني: الفقر لا يكون معه صبر على المطالبة.

السطر الثالث: الانصراف بلا فائدة فتنة وشماتة للعدو.

والسطر الرابع: فإذا نعم مشمرة، وإما لا مريحة.

فلما قرأها وقع تحت كل سطر منها بألف مثقال وأمر له بها.

ودخل رجل من الشعراء على يحيى بن خالد بن برمك فأنشده:

سألت الندى هل أنت حر فقال لا

فقلت شراء قال لا بل وراثة

ولكنني عبد ليحيى بن خالد

توارثني عن والد بعد والد

فأمر له بعشر آلاف.

ودخل أعرابي على خالد بن عبد الله القسري فأنشده:

أخالد إن لم أزرك لخلّة

أخالد بين الحمد والأجر حاجتي

فأمر له بخمسة آلاف درهم.

ومن قولنا في هذا المعنى. ودخلت على أبي العباس القائد فأنشدته:

الله جرد للندى والباس

ملك إذا استقبلت غرة وجهه

وجه عليه من الحياء سكينّة

وإذا أحب الله يوماً عبده

سوى أنني عاف وأنت جواد

فأيهما تأتي فأنت عماد

سيفاً فقلده أبا العباس

قبض الرجاء إليك روح إلياس

ومحبة تجري مع الأنفاس

ألقي عليه محبة للناس

ثم سأله حاجة فيها بعض الغلظ. فتلكأ فيها علي، فأخذت سحاية من بين يديه فوكت فيها علي البديهة:

ما ضر عندك حاجتي ما ضرها

انظر إلى عرض البلاد وطولها

حاشى لجودك أن يوعر حاجتي

لا يجتني حلو المحامد ماجد

عذراً إذا أعطيت نفسك قدرها

أولست أكرم أهلها وأبرها

ثقتي سهلت لي وعرها

حتى يذوق من المطالب مرها

فقضى الحاجة وسارع إليها.

وأبطأ عبد الله بن يحيى عن الديوان، فأرسل إليه المتوكل يتعرف خبره، فكتب إليه:

عليل من مكانين

ففي هذين لي شغل

من الإفلاس والدين

وحسبي شغل هذين

فبعث إليه بألف دينار.

عبد الله بن منصور قال: كنت يوماً في مجلس الفضل بن يحيى. فأتاه الحاجب فقال: إن بالباب رجلاً قد أكثر في طلب الإذن وزعم أن له يدأ يمت بها. فقال: أدخله. فدخل رجل جميل الوجه رث الهيئة. فسلم فأحسن. فأوماً إليه بالجلوس، فجلس. فلما علم أنه قد انطلق وأمكنه الكلام قال له: ما حاجتك؟ قال له: قد أعربت بما رثائة هيئي وضعف طاقتي. قال: أجل، فما الذي تمت به؟ قال: ولادة تقرب من ولادتك، وجوار يدنو من جوارك، واسم مشتق من اسمك. قال: أما الجوار فقد يمكن أن يكون كما قلت، وقد يوافق الاسم الاسم، ولكن ما علمك بالولادة؟ قال: أعلمتني أمي أنها لما وضعتني، قيل: إنه ولد الليلة ليحيى بن خالد غلام وسمي الفضل، فسمتني فضيلاً، إعظاماً لاسمك أن تلحقني به. فتبسم الفضل وقال: كم أتى عليك من السنين؟ قال: خمس وثلاثون سنة. قال: صدقت، هذا المقدار الذي أتيت عليه، فما فعلت أمك؟ قال: توفيت رحمها الله. قال: فما منعك من اللحوق بنا فيما مضى؟ قال: لم ارض نفسي للفنائك لأنها كانت في عامية وحدائة تقعدني عن لقاء الملوك. قال: يا غلام، أعطه لكل عام مضى من سنه ألفاً، وأعطه من كسوتنا ومراكبنا ما يصلح له. فلم يخرج من الدار إلا وقد طاف به إخوانه وخاصة أهله.

وكتب حبيب بن أوس الطائي إلى أحمد بن أبي داود:

اعلم وأنت المرء غير معلموا

أن اصطناع العرف ما لم توله

فهم جعلت فداك غير مفهم

مستكماً كالثوب ما لم يعلم

والشكر ما لم يستتر بصنيعه

وتقنني في القول إكثار وقد

وقال دعبل بن علي الخزاعي في طاهر بن الحسين صاحب خراسان:

أيا ذا اليمينين والدعوتين

أترضى لمتلى أنى مقيم

رضيت من الود والعائدات

بتسليمة بين خمس وست

وما كنت أرى بذا من هسواك

وإن ناب شغل ففي دون ما

عليك السلام فإني امرؤ

الأصمعي قال: ونظر زياد إلى رجل من ضبة يأكل أكلاً قبيحاً، وهو أفيح الناس وجهاً، فقال: يا أبا ضبة، كم عيالك؟ قال: سبع بنات أنا أجمل منهن وجهاً، وهن آكل مني: فضحك زياد وقال: لله درك! ما أطف سؤالك! افرضوا له و لكل واحدة منهن مائة وخادماً، وعجلوا له و لهن أرزاقهم. فخرج الصبي وهو يقول:

إذا كنت مرتاد السماحة والندى

يجبك امرؤ يعطى على الحمد ما له

ومالي لا أتى عليك وإنما

ووقف دعبل ببعض أمراء الرقة، فلما مثل بين يديه قال: أصلح الله الأمير، إني لا أقول كما قال صاحب معن:

بأي الخلتين عليك أتني

أبالحسنى وليس لها ضياء

أم الأخرى ولست لها بأهل

ولكنني أقول:

ماذا أقول إذا أتيت معاشري

إن قلت أعطاني كذبت وإن أقل

ولأنت أعلم بالمكارم والعللا

فاختر لنفسك ما أقول فإني

كالخط تقرؤه وليس بمعجم

أسرجت في كرم الفعال فألجم.

ومن عنده العرف والنائل

ببابك مطرح خامل

ومن كل ما أمل الآمل

إذا ضمك المجلس الحافل

أيرضى بذا رجل عاقل

تدبره شغل شاغل

إذا ضاق بي بلد راحل

فناد زياداً أو أبا لزياد

إذا ضن بالمعروف كل جواد

طريقي من معروفكم وتلاذي

فإني عند منصرفي مسول

علي فمن يصدق ما أقول

وأنت لكل مكرمة فعول

صفرأ يداي من الجواد المجزل

ضن الأمير بماله لم يجمل

من أن أقول فعلت ما لم تفعل

لا بد مخبرهم وإن لم أسأل

قال له: قاتلك الله! وأمر له بعشرة آلاف درهم.

العتبي قال: دخل ابن عبدل على عبد الملك بن بشر بن مروان، لما ولي الكوفة فقعد بين السماطين، ثم قال: أيها الأمير، إني رأيت رؤيا فياذن لي في قصصها. فقال: قل. فقال:

أغفيت قبل الصبح يوم مسهد
فرأيت أنك رعتني بوليدة
وببدره حملت إلي وبغلة
في ساعة ما كنت قبل أنامها
مفلوجة حسن علي قيامها
شهباء ناجية يصير لجامها

قال له عبد الملك بن بشر بن مروان: كل شيء رأيت فهو عندي إلا البغلة، فإنها دهماء فارهة. امرأتى طالق ثلاثاً إن كنت رأيتها إلا دهماء. إلا أني غلظت.

الشيبياني عن البطين الشاعر قال: قدمت على علي بن يحيى الأرميني فكتبت إليه:

رأيت في النوم أني راكب فرساً
فقال قوم لهم حذق ومعرفة
رؤياك فسر غداً عند الأمير تجد
فجئت مستبشراً مستشعراً فرحاً
ولي وصيف وفي كفي دنانير
رأيت خيراً وللأحلام تعبير
تعبير ذلك وفي الفال التباشير
وعند مثلك لي بالفعل تيسير

قال: فوقع لي في أسفل كتابي: أضغاث أحلام، وما نحن بتأويل الأحلام بعالمين. ثم أمر لي بكل شيء ذكرته في أبياتي ورأيته في منامي. وقال بشار العقيلي:

حتى متى لبت شعري يا بن يقطين
أما علمت جزاك الله سالحة
أني أريدك للدنيا وزينتها
أنتي عليك بما لا منك توليني
عني وزادك خيراً يا بن يقطين
ولا أريدك يوم الدين للدين

وقال آخر في مثل هذا المعنى:

يا بن العلاء ويا بن القرم مرداس
أنتي عليك ولي حال تكذبني
حتى إذا قيل ما أعطاك من صفد
إني لأطريك في أهلي وجلاسي
فيما أقول فاستحيي من الناس
طأطأت من سوء حالي عندها رأسي

الأخذ من الأمراء

حدثنا جعفر بن محمد عن يزيد بن سمعان عن عبد الله بن ثور عن عبد الحميد ابن وهب عن أبي الخلال، قال: سألت عثمان بن عفان عن جائزة السلطان، فقال: لحم طري زكي.

جعفر بن محمد بن يحيى عن محمد العامري عن المعتمر عن عمران بن حدير، قال: انطلقت أنا ورجل إلى عكرمة، فرأى الرجل عليه عمامة متخرفة. فقال الرجل: عندنا عمام، ألا نبعث إليك بعمامة منها؟ قال عكرمة: إنا لا نقبل من الناس شيئاً، إنما نقبل من الأمراء. وقال هشام بن حسان: رأيت على الحسن البصري خميصة لها أعلام يصلي فيها، أهداها إليه مسلمة بن عبد الملك.

وكان النبي صلى الله عليه وسلم يلبس خفين أسودين أهداهما إليه النجاشي صاحب الحبشة.

وقال نافع: كان عبد الله بن عمر يقبل هدايا أهل الفتنة، مثل المختار وغيره.

ودخل مالك بن أنس على هارون الرشيد، فشكا إليه ديناً لزمه، فأمر له بألف دينار عين. فلما وضع يديه للقيام قال: يا أمير المؤمنين، وزوجت ابني

محمدًا فصار علي فيه ألف دينار. قال: ولائنه ألف دينار.

فلقد مات مالك وتركها زنته في مزوده.

وقال الأصمعي: حدثني إسحاق بن يحيى بن طلحة قال: كان الربيع بن خثيم في ألف ومائة من العطاء، فكلم فيه أبي معاوية فألحقه بألفين. فلما حضر

العطاء نودي الربيع بن خثيم، فقيل له: في ألفين، فقعد. فنظروا على اسمه مكتوباً: كلم فيه ابن يحيى بن طلحة أمير المؤمنين فألحقه بألفين.

وقال رجل لإبراهيم بن أدهم: يا أبا إسحاق، كنت أريد أن تقبل مني هذه الجبة كسوة. قال: إن كنت غنياً قبلتها منك، وإن كنت فقيراً لم أقبلها

منك. قال: فإن غني. قال: وكم مالك؟ قال: ألفا دينار. قال: فأنت تود أن تكون أربعة آلاف. قال: نعم. قال: فأنت فقير لا أقبلها منك.

وأمر إبراهيم بن الأغلب، المعروف بزيادة الله، بمال يقسم على الفقهاء، فكان منهم من قبل، ومنهم من لم يقبل. فكان أسد بن الفرات فيمن قبل،

فجعل زيادة الله يغمص على كل من قبل منهم: فبلغ ذلك أسد ابن الفرات، فقال: لا عليه، إنما أخذنا بعض حقوقنا والله سائله عما بقي.

وقد فخرت العرب بأخذ جوائز الملوك، وكان من أشرف ما يتمولونه، فقال ذو الرمة:

ولا دية كانت ولا كسب مأثم

وما كان مالي من تراث وورثته

إلى كل محجوب السرادق خضرم

ولكن عطاء الله من كل رحلة

وقال آخر: يهجو مروان بن أبي حفصة ويعيبه بأخذه من العامة، ويفخر بأنه لا يأخذ إلا من الملوك، فقال:

مقسمة من هؤلاء وأولئكا

عطايا أمير المؤمنين ولم تكن

تقوم بها مصرورة في رداككا

وما نلت حتى شبت إلا عطية

التفضيل في العطاء

تفضيل بعض الناس على بعض في العطاء

ذكر عمر بن الخطاب رضي الله عنه الفقراء، فقال: إن سعيد بن حذم منهم. فأعطاه ألف دينار، وقال: سمعت رسول الله صلى الله عليه وسلم يقول:

إذا أعطيت فأغن.

وقدم على رسول الله صلى الله عليه وسلم وفد من العرب فأعطاهم، وفضل رجلاً منهم. فقيل له في ذلك. كل القوم عيال عليه.

وأعطى النبي صلى الله عليه وسلم يوم حنين المؤلفة قلوبهم فأعطى الأفرع ابن حابس التيمي وعيينة بن حصن الفزاري مائة من الإبل، وأعطى العباس

ابن مرداس السلمي خمسين، فشق ذلك عليه، فقال أبياتاً، فأتاه بها وأنشده إياها، وهي:

بين عيينة والأقرع

أيذهب نهبي ونهب العبيد

يفوقان مرداس في مجمع

ولا كان حصن ولا حابس

ومن تضع اليوم لم يرفع

وما كنت غير امرئ منهم

فقال رسول الله صلى الله عليه وسلم لبلال: اقطع عني لسان العباس. فأعطاه حتى أراضاه.
وقال صفوان بن أمية: لقد غزوت مع رسول الله صلى الله عليه وسلم، وما خلق الله خلقاً أبعض إلي منه، فما زال يعطيني حتى ما خلق الله خلقاً أحب إلي منه. وكان صفوان بن أمية من المؤلفات قلوبهم.

شكر النعمة

سليمان التميمي قال: إن الله أنعم على عباده بقدر قدرته. وكلفهم من الشكر بقدر طاقتهم.
وقالوا: مكتوب في التوراة: اشكر لمن أنعم عليك وأنت على من شكرك.
وقالوا: كفر النعمة يوجب زوالها، وشكرها يوجب المزيد فيها.
وقالوا: من حمدك فقد وفك حق نعمتك.
وجاء في الحديث: من نشر معروفًا فقد شكره، ومن ستره فقد كفره.
وقال عبد الله بن عباس: لو أن فرعون مصر أسدى إلي يداً صالحة لشكرته عليها.
وقالوا: إذا قصرت يدك عن المكافأة. فليظل لسانك بالشكر.
وقالوا: ما نحل الله تعالى عباده شيئاً أقل من الشكر، واعتبر ذلك بقول الله عز وجل: "وقليل من عبادي الشكور".
محمد بن صالح بن الواقدي قال: دخلت على يحيى بن خالد البرمكي، فقلت: إن هاهنا قومًا جاءوا يشكرون لك معروفًا، فقال: يا محمد، هؤلاء يشكرون معروفًا، فكيف لنا بشكر شكرهم.
وقال النبي صلى الله عليه وسلم: ما أنعم الله على عبده نعمة فرأى عليه أثرها إلا كتب: حبيب الله شاكرًا لأنعمه، وما أنعم الله على عبده نعمة فلم ير أثرها عليه إلا كتب: بغيض الله كافرًا لأنعمه.
وكتب عدي بن أرطاة إلى عمر بن عبد العزيز: إني بأرض كثرت فيها النعم، وقد خفت على من قبلي من المسلمين قلة الشكر والضعف عنه. فكتب إليه عمر رضي الله عنه: إن الله تعالى لم ينعم على قوم نعمة فحمدوه عليها إلا كان ما أعطوه أكثر مما أخذوا. واعتبر ذلك لقول الله تعالى: "ولقد آتينا داود وسليمان علمًا وقالوا الحمد لله الذي فضلنا". فأى نعمة أفضل مما أوتي داود وسليمان.
وسمع النبي صلى الله عليه وسلم عائشة رضي الله عنها تنشد أبيات زهير بن جناب:

يوماً فتدركه عواقب ما جنى

أنتى عليك بما فعلت كمن جزى

ارفع ضعيفك لا يحر بك ضعفه

يجزيك أو يثني عليك فإن من

فقال النبي عليه الصلاة والسلام: صدق يا عائشة، لا شكر الله من لا يشكر الناس.
الحسن بن علي قال: أنشدني الرياشي:

ولم أذم الجبس اللئيم المذمما

وشق لي الله المسامع والفما

إذا أنا لم أشكر على الخير أهله

ففيهم عرفت الخير والشكر باسمه

وأنشدني في الشكر:

أيادي لم تمنن وإن هي جلت

ولا مظهر الشكوى إذا النعل زلت

فكانت قذى عينيه حتى تجلت

سأشكر عمراً ما تراخت منبتي

فتى غير محجوب الغنى عن صديقه

رأى خلتي من حيث يخفي مكانها

قلة الكرام في كثرة اللئام

قال النبي صلى الله عليه وسلم: الناس كإبل مائة لا تكاد تجد فيها راحلة.
وقالت الحكماء: الكرام في اللئام كالغرة في الفرس.
وقال الشاعر:

وقبلي والد الحجل الصقور
فإني في خياركم كثير
وأم الصقر مقلات نزور

تفاخرني بكثرتها قريظ
فإن أك في شراركم قليلاً
بغات الطير أكثرها فراخاً

وقال السموأل:

فقلت لها عن الكرام قليل
عزيز وجار الأكثرين ذليل

تعيرنا أنا قليل عديدنا
وما ضرنا أنا قليل وجارنا

وقال حبيب:

حتى نخوض إليه ألف لئيم

ولقد تكون ولا كريم نناله

قال ابن أبي حازم:

فقلت وكيف لي بفتى كريم
حسبك بالمجرب من عليم
ولا أحد يعود على عديم

وقالوا لو مدحت فتى كريماً
بلوت ومر بي خمسون حولاً
فلا أحد يعد ليوم خير

وقال دعبل:

والله يعلم أنني لم أقل فنذا
على كثير ولكن ما أرى أحد

ما أكثر الناس لا بل ما أقلهم
إن لأغلق عيني ثم أفتحها

وأحسن ما قيل في هذا المعنى قول حبيب الطائي:

قلوا كما غيرهم قل وإن كثروا
فإن جلهم أو كلهم بقر
هلكي تبين من أضحى له خطر

إن الجياد كثير في البلاد وإن
لا يدهمك من دهمائهم عجب
وكلما أضحت الأخطار بينهم

في الخيل لم تحمد الأوضاح والغرر

لو لم تصادف شيات البهم أكثر ما

الأصمعي قال: قال كسرى: أي شيء أضرب؟ فأجمعوا على الفقر. فقال كسرى: الشح أضرب منه، لأن الفقير يجد الفرحة فيوسع.

من جاد أولاً وضمن آخره

نزل أعرابي برجل من أهل البصرة، فأكرمه وأحسن إليه، ثم أمسك. فقال الأعرابي:

رأى أنه لا يستقر له السرو

تسرى فلما حاسب المرء نفسه

وكان يزيد بن منصور يجري لبشار العقيلي وظيفة في كل شهر، ثم قطعها عنه فقال:

صغيراً فلما شبت خيمت بالشاطئ

أبا خالد ما زلت سابح غمرة

تأخر حتى جئت تقطو مع القاطي

جريت زماناً سابقاً ثم لم تزل

صغيراً فلما شب بيع بقيراط

كسنور عبد الله بيع بدرهم

وقال مسلم بن الوليد صريع الغواني لمحمد بن منصور بن زياد:

وألحقت شكراً ثم أمسكت وانيا

أبا حسن قد كنت قدمت نعمة

أسأت بنا عوداً وأحسننت باديا

فلا ضير لم تلحقك مني ملامة

كفى بالذي جازيتني لك جازياً

فأقسم لا أجزيك بالسوء مثله

وقال سليمان الأعمى، وهو أخو صريع الغواني، في سليمان بن علي:

منها العجائب جاءت من سليمانا

يا سوءة يكبر الشيطان إن ذكرت

فالكوكب النحس يسقي الأرض أحيانا

لا تعجبين بخير زل عن يده

من صن أولاً ثم جاد آخراً

قدم الحارث بن خالد المخزومي على عبد الملك فلم يصله، فرجع وقال فيه:

فلما انجلت قطعت نفسي ألومها

صحبتك إذ عيني عليها غشاوة

بكفيك يجري بؤسها ونعيمها

حبست عليك النفس حتى كأنما

فبلغ قوله عبد الملك، فأرسل إليه فرده، وقال: رأيت عليك غضاضة من مقامك بياي؟ قال: لا، ولكنني اشتقت إلى أهلي ووطني، ووجدت فضلاً من القول فقلت، وعلي دين لزمي. قال: وكم دينك؟ قال: ثلاثون ألفاً. قال: فقضاء دينك أحب إليك أم ولاية مكة؟ قال: بل ولاية مكة. فولاه إياها. وقدم الحطيئة المدينة فوق إلى عتيبة بن النهراس العجلي فقال: أعطني. فقال: مالك عند فأعطيكه، وما في مالي فضل عن عيالي فأعود به عليك. فخرج عنه مغضباً. وعرفه به جلساؤه، فأمر برده، ثم قال له: يا هذا إنك وقفت إلينا فلم تستأنس ولم تسلم، وكتمتنا نفسك، كأنك الحطيئة؟ قال: هو ذلك. قال: اجلس، فلك عندما كل ما تحب. فجلس، فقال له: من أشعر الناس؟ قال: الذي يقول:

يفره ومن لا يتق الشتم يشتم

من يجعل المعروف من دون عرضه

يعني زهيراً: قال: ثم من؟ قال: الذي يقول:

وسائل الله لا يخيب

من يسأل الناس يحرموه

يعني عبيداً. قال: ثم من؟ قال: أنا.

فقال لوكيله: خذ بيد هذا فامض به إلى السوق، فلا يشيرن إلى شيء إلا اشتريته له. فمضى معه إلى السوق، فعرض عليه الخبز والقرز، فلم يتلفت إلى

شيء منه وأشار إلى الأكسية والكرايس الغلاظ والأقبية. فاشترى له منها حاجته، ثم قال: أمسك. قال: فإنه قد أمرني أن أبسط يدي بالنفقة قال: لا حاجة في أن يكون له على قومي يد أعظم من هذه، ثم أنشأ يقول:

فسيان لا ذم عليك ولا حمد

فتعطي وقد يعدي على النائل الوجد

سئلت فلم تبخل ولم تعط طائلاً

وأنت امرؤ لا الجود منك سجية

من مدح أميراً فخبه

قال سعيد بن سلم: مدحني أعرابي فأبلغ، فقال:

سعيد بن سلم نور كل بلاد

جواد حثا في وجه كل جواد

ألا قل لساري الليل لا تخش ضلة

لنا سيد أربى على كل سيد

قال: فتأخرت عنه قليلاً. فهجاني فأبلغ، فقال:

وليس لمدح الباهلي ثواب

فكان كصفوان عليه تراب

لكل أخي مدح ثواب علمته

مدحت سعيداً والمديح مهزة

ومدح الحسن بن رجاء أبا دلف فلم يعطه شيئاً، فقال:

سواي فإني في مديحك أكذب

أبا دلف ما أكذب الناس كلهم

وقال آخر في مثل هذا المعنى:

لما مدحتك ما يثاب الكاذب

إني مدحتك كاذباً فأثبتني

وقال آخر في مثل هذا المعنى:

ك ما أخطأت في منعي

بواد غير ذي زرع

لئن أخطأت في مدحي

لقد أحللت حاجاتي

ومدح حبيب الطائي عياش بن لبيعة، وقدم عليه بمصر، واستسلفه مائتي مثقال. فشاور فيها زوجته، فقالت له: هو شاعر يمدحك اليوم، ويهجوك غداً، فاعتل عليه واعتذر إليه ولم يقض حاجته. فقال فيه:

مذ صرت موضع مطلبي للنيم

ولا انقضت عثرتك العائرة

من بين فكي أسد القاصرة

بيرة الرمس ولا طاهره

عياش إنك للنيم وإنني

ثم هجاه حتى مات. وهجاه بعد موته، فقال فيه:

لا سقيت أطلالك الدائرة

يا أسد الموت تخلصته

ما حفرة وارك ملحودها

ومن قولنا في هذا المعنى، وسألت بعض موالي السلطان إطلاق محبوس فتلكأ فيه، فقلت:

أو أن يكون من الزمان مجيراً

حاشا لمتلك أن يفك أسيراً

سوداً وصكت أوجهاً وصدورا
ويلاً عليك مدائحي وثبورا
ما كان عندك حاتم مذكورا

لبست قوافي الشعر فيك مدارعاً
علا عطفك برحمة لما دعت
لو أن لؤمك عاد جوداً عشره

قال: ومدح ربيعة الرقي يزيد بن حاتم الأزدي، وهو والي مصر فاستبطأه ربيعة. فشخص عنه من مصر وقال:

أراني ولا كفران الله راجعاً
بخفي حنين من نوال ابن حاتم

فبلغ قوله يزيد بن حاتم. فأرسل في طلبه، فرد إليه. فلما دخل عليه قال له: أنت القائل:

أراني ولا كفران الله راجعاً

قال: نعم؛ قال: فهل قلت غير هذا؟ قال: لا والله؛ قال: لترجعن بخفي حنين مملوءة مالا. فأمر بخلع نعليه وملئت له مالا. فقال فيه لما عزل عن مصر وولي يزيد بن أسيد السلمى مكانه:

غداة غدا منها الأغر ابن حاتم

بكى أهل مصر بالدموع السواجم

وفيهما يقول:

يزيد سليم والأغر بن حاتم
وهم الفتى القيسي جمع الدراهم
ولكنني فضلت أهل المكارم

لشتان ما بين اليزيديين في الندى
فهم الفتى الأزدي إنفاق ماله
فلا يحسب التتمام أني هجوته

أجود أهل الجاهلية

الذين انتهي إليهم الجود في الجاهلية ثلاثة نفر: حاتم بن عبد الله بن سعد الطائي، وهرم بن سنان المري، وكعب بن مامة الإيادي. ولكن المضروب به المثل: حاتم وحده، وهو القائل لغلامه يسار، وكان إذا اشتد البرد وكلب الشتاء أمر غلامه فأوقد ناراً في يفاع من الأرض لينظر إليها من أضل الطريق ليلاً فيصمد نحوه، فقال في ذلك:

والريح ما موقد ريح صر
إن جلبت ضيفاً فأنت حر

أوقد فإن الليل ليل قر
عسى يرى نارك من يمر

ومر حاتم في سفره على عترة، وفيهم أسير. فاستغاث بحاتم ولم يحضره فكأكه، فاشتراه من العتريين وأطلقه، وأقام مكانه في القيد حتى أدى فداءه. وقالوا: لم يكن حاتم ممسكاً شيئاً ما عدا فرسه وسلاحه، فإن كان لا يوجد بهما. وقالت نوار امرأة حاتم: أصابتنا سنة اقشعرت لها الأرض واغبر أفق السماء، وراحت الإبل حدبا حدابير، وضنت المراضع على أولادها فما تبض بقطرة، وحلقت ألسنة المال وأيقنا بالهلاك. فوالله إنا لفي ليلة صنبر، بعيدة ما بين الطرفين، إذا تضاعى صبيتنا جوعاً، عبد الله وعدي وسفانة، فقام حاتم إلى الصبيين، وقمت أنا إلى لصبية، فوالله ما سكتوا إلا بعد هدأة من الليل، وأقبل يعللي بالحديث، فعرفت ما يريد فتناومت، فلما تهورت النجوم، إذا شيء قد رفع كسر البيت ثم عاد؛ فقال: من هذا؟ قالت: إلا عليك يا أبا عدي. فقال. أعجليهم فقد أشبعك الله وإياهم. فأقبلت المرأة تحمل اثنين ويمشي جانبها أربعة، كأنها نعامه حولها رثالها. فقام إلى فرسه فوجأ لبتة بمدية فخر، ثم كشطه عن جلده، ودفع المديية إلى المرأة، فقال لها: شأنك.

فاجتمعنا على اللحم نشوي بالنار، ثم جعل يمشي في الحى يأتيهم بيتاً بيتاً، فيقول: هبوا أيها القوم عليكم بالنار، فاجتمعوا والتفع في ثوبه ناحية ينظر إلينا، فلا والله إن ذاق منه مزعه، وإنه لأحوج إليه منا، فأصبحنا وما على الأرض من الفرس إلا عظم وحافر، فأنشأ حاتم يقول:

ولا تقولي لشيء فات ما فعلا

مهلاً وإن كنت أعطى الإنس والخبلا

إن الجواد يرى في ماله سبلا

ورثي حاتم يوماً يضرب ولده لما رآه يضرب كلبة كانت تدل عليه أضيافه، وهو يقول:

بكلبة لا يزال يلدها

عندي يداً لا أزال أحمدها

ليل إذا النار نام موقدها

مهلاً نوار أقل اللوم والعذلا

ولا تقولي لمال كنت مهلكه

يرى البخيل سبيل المال واحدة

أقول لابني وقد سطت يديه

أوصيك خيراً بها فإن لها

تدل ضيفي علي في غلس ال

ذكرت طيباً عند عدي بن حاتم: أن رجلاً يعرف بأبي الخيري مر بقبر حاتم فتزل به وجعل ينادي: أبا عدي، أقر أضيافك. قال: فيقال له: مهلاً ما تكلم من رمة بالية؟ فقال: إن طيباً يزعمون أنه لم يتزل به أحد إلا قرأه، كالمستهزئ. فلما كان في السحر وثب أبو خيري يصيح: وا راحلتاه! فقال له أصحابه: ما شأنك؟ قال: خرج والله حاتم بالسيف حتى عقر ناقتي وأنا أنظر إليها. فتأملوا راحلته فإذا هي لا تتبع، فقالوا: قد والله أقرأك. فنحروها وظلوا يأكلون من لحمها، ثم أردفوه وانطلقوا. فبينما هم في مسيرهم إذ طلع عليهم عدي بن حاتم ومعه جمل قد قرنه ببعيره، فقال: إن حاتمًا جاء في النوم فذكر لي قولك وأنه أقرأك وأصحابك راحلتك وقال لي أبياتاً ردها علي حتى حفظتها وهي:

حسود العشيرة شتامها

بدوية صخب هامها

وحولك غوث وأنعامها

من الكوم بالسيف نعامها

أبا الخيري وأنت امرؤ

فماذا أردت إلى رمة

أتبغي أذاها وإعسارها

وإننا لنطعم أضيافنا

وأمرني بدفع راحلة عوض راحلتك فخذها، فأخذها ولحاتم بن عبد الله أيضاً:

وقد عذرتنا عن طلابكم العذر

ويبقى من المال الأحاديث والذكر

وإما عطاء لا ينهنه الزجر

إذا جاء يوماً حل في مالي النذر

إذا حشرجت يوماً وضاق بها الصدر

من الأرض لا ماء لدي ولا خمر

وأن يدي مما بخلت به صفر

بمظلمة لج جوانبها غبر

يقولون قد أدمى أظافرنا الحفر

أماوي قد طال التجنب والهجر

أماوي إن المال غاد ورائح

أماوي إما مانع فمبين

أماوي إني لا أقول لسائل

أماوي ما يغني الثراء عن الفتى

أماوي إن يصبح صداي بفقرة

تري أن ما أنفقت لم يك ضرني

إذا أنا دلاني الذين يلونني

وراحوا سراعاً ينفضون أكفهم

أماوي إن المال مال بذلته

فأوله سكر وآخره ذكر

وقد يعلم الأرقام لو أن حاتماً
فإن وجدي رب واحد أمه
ولا أظلم بن العم إن كان إخوتي
غنينا زماناً بالتصعلك والغنى
فما زادنا بأواً على ذي قرابة
وأما هرم بن سنان فهو صاحب زهير الذي يقول فيه:

أراد ثراء المال كان له وفر
أجرت فلا قتل عليه ولا أسر
شهوداً وقد أودى بإخوته الدهر
وكلاً سقانا بكاسيهما الدهر
غنانا ولا أزرى بأحلامنا الفقر

متى تلاق على علاته هرماً

تلق السماحة في خلق وفي خلق

وكان سنان أبو هرم سيد غطفان، وماتت أمه وهي حامل به، وقالت: إذا أنا مت فشقوا بطني فإن سيد غطفان فيه. فلما ماتت شقوا بطنها فاستخرجوا منه سناناً.
وفي بني سنان يقول زهير:

قوم أبوهم سنان حين تنبسهم
لو كان يقعد فوق الشمس من كرم
جن إذا فزعوا إيس إذا أمنوا
محسدون على كان من نعم
وقال زهير في هرم بن سنان:

طابوا وطاب من الأولاد ما ولدوا
قوم بأولهم أو مجدهم قعدوا
مرزعون بهاليل إذا قصدوا
لا ينزع الله منهم ما له حسدوا

وأبيض فياض يده غمامة
تراه إذا ما جنته متهللاً
أخور ثقة لا تتلف الخمر ماله
أخذ الحسن بن هانئ هذا المعنى فقال:

على معتفيه ما تغب نوائله
كأنك تعطيه الذي أنت سائله
ولكنه قد يتلف المال نائله

فتى لا تغول الخمر شحمة ماله
وقال زهير في هرم بن سنان وأهل بيته:

ولكن أياد عود وبوادي

إليك أعملتها فتلاً مرافقها
حتى دفن إلى حلو شمائله

شهرين يجهض من أرحامها العلق
كالغيث ينبت في آثاره الورق
يبني لهم في جنان الخلد مرتفق
والطيبون ثياباً كلما عرقوا
إن الشمائل والأخلاق تتفق

من أهل بيت برى ذو العرش فضلهم
المطعمون إذا ما أزمة أزمت
كأن آخرهم في الجود أولهم
العقد الفريد-ابن عبد ربه الأندلسي

إن قامروا أو فاخروا فخروا

تتافس الأرض موتاهم إذا دفنوا

وقال فيهم أيضاً:

وفيهم مقامات حسان وجوههم

على مكثريهم حق من يعتقيهم

فما كان من خير ألوه فإنما

وهل ينبت الخطى إلا وشيجه

أو ناضلوا نضلوا أو سابقوا سبقوا

كما تتوفس عند الباعة الورق

وأندية ينتابها القول والفعل

وعند المقلين السماحة والبذل

توارثه آباء آبائهم قبل

وتغرس إلا في منابتها النخل

وأما كعب بن مامة الإيادي، فلم يأت عنه إلا ما ذكر من إثارة رفيقه النمري بالماء حتى مات عطشاً ونجا النمري، وهذا أكثر من كل ما أثنى لغيره. وله يقول حبيب:

يجود بالنفس إن ضن البخيل بها

وله ولحاتم الطائي يقول:

كعب وحاتم اللدان تقسما

هذا الذي خلف السجاب ومات ذا

إلا يكن فيها الشهيد فقومه

والجود بالنفس أقص غاية الجود

خطط العلا من طارف وتليد

في المجد ميتة خضرم صنديد

لا يسمحون به بألف شهيد

أجواد أهل الإسلام

وأما أجواد أهل الإسلام فأحد عشر رجلاً في عصر واحد لم يكن قبلهم ولا بعدهم مثلهم.

فأجواد الحجاز ثلاثة في عصر واحد: عبيد الله بن العباس، وعبد الله بن جعفر، وسعيد بن العاص.

وأجواد البصرة خمسة في عصر واحد، وهم: عبد الله بن عامر بن كرزب وعبيد الله بن أبي بكر، مولى رسول الله صلى الله عليه وسلم، ومسلم بن زيادة، وعبيد الله بن معمر القرشي، ثم التمي، وطلحة الطلحات، وهو طلحة بن عبد الله بن خلف الخزاعي، وله يقول الشاعر يرثيه، ومات بسجستان وهو وال عليها:

نصر الله أعظماً دفنوها

بسجستان طلحة الطلحات

وأجواد أهل الكوفة ثلاثة في عصر واحد، وهم: عتاب بن ورقاء الرياحي، وأسماء بن خازجة الفزاري، وعكرمة بن ربعي الفيض.

جود عبيد الله بن عباس

أنه أول من فطر جيرانه، وأول من وضع الموائد على الطرق، وأول من حيا على طعامه، وأول من أهدى، وفيه يقول شاعر المدينة:

وحلواً ولحماً تامكاً وممزعا

إذ المحل من جو السماء تطلعا

وفي السنة الشهباء أطعمت حامضاً

وأنت ربيع لليتامى وعصمة

ومن جوده: أنه أتاه رجل وهو بفناء داره، فقام بين يديه فقال: يا بن عباس، إن لي عندك يداً، وقد احتجت إليها. فصعد فيه بصره وصوبه، فلم يعرفه، ثم قال له: ما يدك عندنا؟ قال رأيتك واقفاً بززم وغلامك يمتح لك من مائها، والشمس قد صهرتك، فظلمت بك بطرف كسائي حتى شربت قال: إني لأذكر ذلك، وإنه يتردد بين خاطري وفكري، ثم قال لقيمه: ما عندك؟ قال: مائتا دينار وعشرة آلاف درهم؛ قال فادفعها إليه وما أراها تفي بحق يده عندنا. فقال له الرجل: والله لو لم يكن لإسماعيل ولد غيرك لكان فيه ما كفاه فكيف وقد ولد سيد الأولين والآخرين محمداً صلى الله عليه وسلم، ثم شفعه بك وبأبيك.

ومن جوده أيضاً: أن معاوية حبس عن الحسين بن علي صلواته حتى ضاقت عليه حاله. فقيل له: لو وجهت إلى ابن عمك عبيد الله، فإن قد قدم بنحو من ألف ألف درهم. فقال الحسين: وأين تقع ألف ألف من عبيد الله، فوالله هو أجود من الريح إذا عصفت، وأسخى من البحر إذا زخر. ثم وجه إليه مع رسوله بكتاب ذكر فيه حبس معاوية عنه صلواته وضيق حاله، وأنه يحتاج إلى مائة ألف درهم. فلما قرأ عبيد الله كتابه، وكان من أرق الناس قلباً وألينهم عطفاً، أهملت عيناه، ثم قال: ويلك يا معاوية مما احترحت يداك من الإثم أصبحت حين لين المهادر، رفيع العماد، والحسين يشكو ضيق الحال، وكثرة العيال، ثم قال لقهرمانه: احمل إلى الحسين نصف ما أملكه من فض وذهب وثوب ودابة، وأخبره أي شاطرته مالي، فإن أقنعه ذلك وإلا فارجع واحمل إليه الشطر الآخر؛ فقال له القيم: فهذه المون التي عليك من أين تقوم بها؟ قال: إذا بلغنا ذلك دلتك على أمر يقيم حالك. فلما أتى الرسول برسالته إلى الحسين، قال: إنا الله حملت والله على ابن عمي وما حسبته يتسع لنا بهذا كله؛ فأخذ الشطر من ماله. وهو أول من فعل ذلك في الإسلام. ومن جوده: أن معاوية بن أبي سفيان أهدى إليه وهو عنده بالشام من هدايا النيروز حللاً كثيرة ومسكاً وآنية من ذهب وفضة ووجهها مع حاجبه، فلما وضعها بين يديه نظر إلى الحاجب وهو ينظر إليها، فقال: هل في نفسك منها شيء؟ قال: نعم والله، إن في نفسي منها ما كان في نفس يعقوب من يوسف عليهما السلام؛ فضحك عبيد الله، وقال: فشأنك بما فهي لك. قال: جعلت فداك، أخاف أن يبلغ ذلك معاوية فيجد علي. قال: فاختمها بخاتمك وادفعها إلى الخازن فإذا حان خروجنا حملها إليك ليلاً. فقال الحاجب: والله لهذه الحيلة في الكرم أكثر من الكرم ولوددت أني لا أموت حتى أراك مكانه -يعني معاوية- فظن عبيد الله أنها مكيدة منه، قال: دع عنك هذا الكلام فإننا قوم نفي بما وعدنا، ولا ننقض ما أكدنا.

ومن جوده أيضاً: أنه أتاه سائل وهو لا يعرفه، فقال له: تصدق، فإني نبتت أن عبيد الله بن عباس أعطى سائلاً ألف درهم واعتذر إليه؟ فقال له: وأين أنا من عبيد الله؟ قال أين أنت منه في الحسب أم كثرة المال؟ قال: فيهما؛ قال: أما الحسب في الرجل، فمروءته وفعله، وإذا شئت فعلت، وإذا فعلت كنت حسيباً، فأعطاه ألفي درهم واعتذر له من ضيق الحال؛ فقال له السائل: إن لم تكن عبد الله بن عباس فأنت خير منه، وإن كنت هو فأنت اليوم خير منك أمس؛ فأعطاه ألفاً أخرى. فقال السائل: هذه هزة كريم حسيب، والله لقد نقرت حبة قلبي فأفرغتها في قلبك، فما أخطأت إلا باعتراض الشك بين جوانحي.

ومن جوده أيضاً: أنه جاءه رجل من الأنصار فقال: يا بن عمر رسول الله صلى الله عليه وسلم، إنه ولد لي في هذه الليلة مولود، وإني سميت به باسمك تبركاً مني به، وإن أمه ماتت.

فقال عبيد الله: بارك الله لك في الهبة وأجزل لك الأجر على المصيبة، ثم دعا بوكيله، فقال: انطلق الساعة فاشتر للمولود جارية تحضنه، وادفع إليه مائتي دينار للنفقة على تربيته، ثم قال للأنصاري: عد إلينا بعد أيام فإنك جئتنا وفي العيش ييس وفي المال قلة. قال الأنصاري: لو سبقت حاتماً بيوم واحد ما ذكرته العرب أبداً، ولكنه سبقك، فصرت له تالياً، وأنا أشهد أن عفوك أكثر من مجهوده، وكل كرمك أكثر من وابله.

جود عبد الله بن جعفر

ومن جود عبد الله بن جعفر أن عبد الرحمن بن أبي عمار دخل على نخاس يعرض فياناً له، فعلق واحدة منهن، فشهز بذكرها حتى مشى إليه عطاء وطاوس ومجاهد يعدلونه، فكان جوابه أن قال:

فانتهى خبره إلى عبد الله بن جعفر، فلم يكن له هم غيره، فحج فبعث إلى مولى الجارية، فاشترها منه بأربعين ألف درهم، وأمر قيمة حواريه أن تزينها وتحليها، ففعلت. وبلغ الناس قدمه فدخلوا عليه، فقال: مالي لا أرى ابن أبي عمار زارنا! فأخبر الشيخ، فأتاه مسلماً. فلما أراد أن ينهض استجلسه ثم قال: ما فعل حب فلانة؟ قال: في اللحم والدم والمخ والعصب. قال: أتعرفها لو رأيتها؟ قال: لو أدخلت الجنة لم أنكرها فأمر بما عبد الله أن تخرج إليه وقال له: إنما اشتريتها لك، ووالله ما دنوت منها، فشأنك بما، مباركاً لك فيها. فلما ولي، قال يا غلام، احمل معه مائة ألف درهم ينعم بما معها. قال: فيكى عبد الرحمن فرحاً، وقال: يا أهل البيت، لقد خصكم الله بشرف ما خص به أحداً قبلكم من صلب آدم، فتهنئكم هذه النعمة، وبورك لكم فيها. ومن جوده أيضاً: أنه أعطى امرأة سألته مالا عظيماً. فقيل له: إنما لا تعرفك. وكان يرضيها اليسير. قال: إن كان يرضيها اليسير فإني لا أرضى بالكثير، وإن كانت لا تعرفني فأنا أعرف نفسي.

جود سعيد بن العاص

ومن جود سعيد بن العاص: أنه مرض وهو بالشام، فعاده معاوية ومعه شرحبيل بن السمط ومسلم بن عقبة المري، ويزيد بن شجرة الرهاوي، فلما نظر سعيد معاوية وثب عن صدر مجلسه إعظماً لمعاوية، فقال له معاوية: أقسمت عليك أبا عثمان أن لا تتحرك، فقد ضعفت بالعلة. فسقط، فتبادر معاوية نحوه حتى حنا عليه وأخذ بيده، فأقعده على فراشه وقعد معه، وجعل يسأله عن علته ومناحه وغذائه، ويصف له ما ينبغي أن يتوقاه، وأطال القعود معه. فلما خرج التفت إلى شرحبيل بن السمط، ويزيد بن شجرة، فقال: هل رأيتم حلالاً في مال أبي عثمان؟ فقالوا: ما رأينا شيئاً ننكره. فقال لمسلم بن عقبة: ما تقول؟ قال: رأيت. قال: وما ذاك؟ قال: رأيت على حشمه ومواليه ثياباً وسخة ورأيت صحن داره غير مكنوس، ورأيت التجار يخاصمون قهرمانه. قال: صدقت، كل ذلك قد رأيته فوجه إليه مع مسلم بثلاثمائة ألف. فسبق رسول يبشره بما ويخبره بما كان، فغضب سعيد وقال للرسول: إن صاحبك ظن أنه أحسن فأساء، وتأول فأخطأ. فأما وسخ ثياب الحشم فمن كثرة حركته اتسخ ثوبه؛ وأما كنس الدار فليست أخلاقنا أخلاق من جعل داره مرآته، وتزينه لبسه، ومعروفه عطره، ثم لا يبالي بمن مات هزلاً من ذي لحمة أو حرمة. وأما منازعة التجارة قهرماني، فمن كثرة حوائجه وبيعه وشرائه لم يجد بداً من أن يكون ظالماً أو مظلوماً؛ وأما المال الذي أمر به أمير المؤمنين، فوصلته كل ذي رحم قاطعة، وهنأته كرامته المنعم بما عليه، وقد قبلناه وأمرنا لصاحبك منه بمائة ألف، ولشرحبيل بن السمط بمثلها، ويزيد بن شجرة بمثلها، وفي سعة الله وبسط يد أمير المؤمنين ما عليه معولنا.

فركب مسلم بن عقبة إلى معاوية فأعلمه. فقال: صدق ابن عمي فيما قال، وأخطأت فيما انتهيت إليه، فاجعل نصيبك من المال لروح بن زبناح عقوبة لك، فإنه من جن جنانية عوقب بمثلها، كما أنه فعل خيراً كوفى عليه.

ومن جوده أيضاً: أن معاوية كان يداول بينه وبين مروان بن الحكم في ولاية المدينة، فكان مروان يقارضه. فلما دخل على معاوية قال له: كيف تركت أبا عبد الملك؟ -يعني مروان- قال: تركته منفذاً لأمرك، مصلحاً لعملك. قال معاوية: إنه كصاحب الخيزرة كفى إنضاجها فأكلها. قال: كلا يا أمير المؤمنين، إنه من قوم لا يأكلون إلا ما حصدوا. ولا يحصدون إلى ما زرعوها. قال: فما الذي باعد بينك وبينه؟ قال: خفته على شرفي وخافني على مثله. قال: فأني شيء كان له عندك؟ قال: أسوءه حاراً وأسره غائباً. قال: يا أبا عثمان، تركتنا في هذه الحروب. قال: حملت الثقل وكفيت الحزم. قال: فما أبطأ بك؟ قال: غناك عني أبطأني عنك. وكنت قريباً، لو دعوت لأجبنك، ولو أمرت لأطعنك. قال: ذلك ظننا بك. فأقبل معاوية على أهل الشام، فقال يا أهل الشام هؤلاء قومي وهذا كلامهم. ثم قال: أخبرني عن مالك، فقد نبئت أنك تتجر فيه. قال: يا أمير المؤمنين، لنا مال يخرج لنا منه فضل، فإذا كان ما خرج قليلاً أنفقناه على قلته، وإن كان كثيراً فكذلك، غير أنا لا ندخر منه شيئاً عن معسر، ولا طالب، ولا مستحمل، ولا نستأثر منه بقلدة لحم، ولا مزعة شحم. قال: فكم يدوم لك هذا؟ قال: من السنة نصفها. قال: فما تصنع باقيها؟ قال: نجد من يسلفنا ويسارع إلى معاملتنا. قال: ما أحد أحوج إلى أن يصلح من شأنه منك. قال: إن شأننا لصالح يا أمير المؤمنين، ولو زدت في مالي مثله ما كنت إلا بمثل هذه الحال. فأمر له

معاوية بخمسين ألف درهم، وقال: اشتر بها ضيعة تعينك على مروءتك. فقال سعيد: بل أشتري بها حمداً وذكرًا باقياً، أطعم بها الجائع، وأزوج بها الأيم، وأنك بها العاني؛ وأواسي بها الصديق، وأصلح بها حال الجار. فلم تأت عليه ثلاثة أشهر وعنده منها درهم. فقال معاوية: ما فضيلة بعد الإيمان بالله هي أرفع في الذكر ولا أنبه في الشرف، من الجود، وحسبك أن الله تبارك وتعالى جعل الجود أحد صفاته. ومن جوده أيضاً ما حكاه الأصمعي، قال: كان سعيد بن العاص يسمر معه سماره إلى أن ينقضي حين من الليل، فانصرف عنه القوم ليلة ورجل قاعد لم يقم. فأمر سعيد بإطفاء الشمعة وقال: حاجتك يا فتى؟ فذكر أن عليه ديناً أربعة آلاف درهم، فأمر له بها. وكان إطفاءه للشمعة أكثر من عطائه.

جود عبید الله بن أبي بكر

ومن جود عبید الله بن أبي بكر: أنه أدلى إليه رجل بجرمة، فأمر له بمائة ألف درهم. فقال: أصلحك الله، ما وصلني أحد بمثلها قط. ولقد قطعت لساني عن شكر غيرك، وما رأيت الدنيا في يد أحد أحسن منها في يدك، ولولا أنت لم تبق لها بهجة إلا أظلمت ولا نور إلا انطمس.

جود عبید الله بن معمر القرشي التيمي

ومن جود عبید الله بن معمر القرشي: أن رجلاً أتاه من أهل البصرة كانت له جارية نفيسة قد أدها بأنواع الأدب حتى برعت وفاقته في جميع ذلك، ثم إن الدهر قعد بسيدها ومال عليه. وقدم عبید الله بن معمر البصرة من بعض وجوه فقالت لسيدها: إني أريد أن أذكر لك شيئاً أستحي منه، إذ فيه جفاء مني، غير أن يسهل ذلك علي ما أرى من ضيق حالك، وقلة مالك وزوال نعمتك، وما أخافه عليك من الاحتياج، وضيق الحال، وهذا عبید الله بن معمر قدم البصرة، وقد علمت شرفه وفضله وسعة كفه وجود نفسه، فلو أذنت لي فأصلحت من شأني، ثم تقدمت بي إليه وعرضتني عليه هدية، رجوت أن يأتيك من مكافأته ما يزيلك الله به وينهضك إن شاء الله. قال فبكى وحداً عليها وجزعاً لفراقها منه، ثم قال لها: لولا أنك نطقت بهذا ما ابتدأتك به أبداً. ثم هض بها حتى أوقفها بين يدي عبید الله، فقال: أعزك الله، هذه جارية ربيتها ورضيت بها لك فاقبلها مني هدية. فقال: مثلي لا يستهدي من ملك، فهل لك في بيعها، فأجزل لك الثمن عليها حتى ترضي؟ قال: الذي تراه. قال: يقنعك مني عشرة بدر، في كل بدرة عشرة آلاف درهم؟ قال: والله يا سيدي ما امتد أمني إلى عشر ما ذكرت، ولكن هذا فضلك المعروف، وجودك المشهور. فأمر عبید الله بإخراج المال حتى صار بين يدي الرجل وقبضه، وقال للجارية: ادخلي الحجاب. فقال سيدها: أعزك الله لو أذنت لي في وداعها؟ قال: نعم. فوافت وقام، وقال لها وعيناه تدمعان:

أقاسي به ليلاً يطيل تفكري

أبوح بحزن من فراقك موجه

يفرقنا شيء سوى الموت فاعذري

ولولا قعود الدهر بي عنك لم يكن

ولا وصل إلا أن يشاء ابن معمر

عليك سلام لا زيادة بيننا

قال عبید الله بن معمر: قد شئت ذلك، فخذ جاريتك، وبارك الله لك في المال. فذهب بجاريتته وماله، فعاد غنياً.

فهؤلاء أجواد الإسلام المشهورون في الجود المنسوبون إليه، وهم أحد عشر رجلاً كما ذكرنا وسميناً، وبعدهم طبقة أخرى من الأجواد، قد شهروا بالجود وعرفوا بالكرم، وحمدت أفعالهم. وسنذكر ما أمكننا ذكره منها إن شاء الله تعالى.

الطبقة الثانية من الأجواد

الحكم بن حنطب

قيل لنصيب بن رباح: خرف شعرك أبا محجن؛ قال: لا، ولكن خرف الكرم، لقد رأيتني ومدحت بن حنطب، فأعطاني ألف دينار ومائة ناقة وأربعمائة شاة.

وسأل أعرابي الحكم بن حنطب، فأعطاه خمسمائة دينار فبكى الأعرابي فقال: ما يبكيك يا أعرابي؟ لعلك استقللت ما أعطيناك؟ قال: لا والله، ولكني أبكي لما تأمل الأرض منك، ثم أنشأ يقول:

أوصاك وهو يجود بالحبوباء

وكان آدم حين حان وفاته

وكفيت آدم عيلة الأبناء

بينيه أن ترعاهم فرعيتهم

العتي قال: أخبرني رجل من أهل منبج، قال: قدم علينا الحكم بن حنطب، وهو مملق فأغنانا. قال: كيف أغناكم وهو مملق؟ قال: علمنا المكارم فعاد غنيا على فقيرنا.

معن بن زائدة

وكان يقال فيه: حدث عن البحر ولا حرج، وحدث عن معن ولا حرج. وأتاه رجل يسأله أن يحمله، فقال: يا غلام، أعطه فرساً وبرذوناً وبغلاً وبعيراً وبعيراً وجارية، وقال: لو عرفت مركوباً غير هؤلاء لأعطيتك.

العتي قال: لما قدم معن بن زائدة البصرة واجتمع إليه الناس، أتاه مروان بن أبي حفصة أخذ بعضادتي الباب، فأنشده شعره الذي قال فيه:

عليك ولكن لم يروا فيك مطمعا

فما أحجم الأعداء عنك بقية

أبى الله إلا أن يضر وينفعا

له راحتان الحتف والجود فيهما

يزيد بن المهلب

وكان هشام بن حسان إذ ذكره قال: والله إن كانت السفن لتجري في جوده.

وقيل ليزيد بن المهلب: مالك لا تبني داراً؟ قال: منزلي دار الإمارة أو الحبس.

ولما أتى يزيد بن عبد الملك برأس يزيد بن المهلب نال منه بعض جلسائه، فقال له: مه! إن يزيد بن المهلب طلب حسيماً، وركب عظيماً، ومات كريماً.

ودخل الفرزدق على يزيد بن المهلب في الحبس فأنشده:

د وفك العناة والإفضال

صح في قيدك السماحة والجو

قال: أتمدحني وأنا في هذه الحال؟ قال: أصبتك رخيصاً فاشتريتك. فأمر له بعشرة آلاف.

وقال سليمان بن عبد الملك لموسى بن نصير: اغرم ديتك خمسين مرة. قال: ليس عندي ما أغرم. قال: والله لتغر من ديتك مائة مرة. قال يزيد بن

المهلب: أنا أغرمها عنه يا أمير المؤمنين. قال: اغرم، فغرمها عنه مائة ألف.

العتي قال: أخبرني عوانة قال:

استعمل الوليد بن عبد الملك عثمان بن حيان المري على المدينة وأمره بالغلظة على أهل الظنة، فلما استخلف سليمان أحذه بألفي ألف درهم.

فاجتمعت القيسية في ذلك، فتحملوا شطرها وضاقوا ذرعاً بالشطر الثاني، ووافق ذلك استعمال سليمان يزيد بن المهلب على العراق. فقال عمر بن

هبيرة: عليكم بيزيد بن المهلب فما لها أحد غيره. فتحملوا إلى يزيد وفيهم عمر بن هبيرة، والققعاق بن حبيب، والهذيل بن زفر بن الحارث، وانتهوا إلى

رواق يزيد. قال يحيى بن أقتل - وكان حاجباً ليزيد بن المهلب، وكان رجلاً من الأزديين - فاستأذنت لهم، فخرج يزيد إلى الرواق فقرب ورحب، ثم

دعاء بالغداء، فأتوا بطعام، ما أنكروا منه أكثر مما عرفوا. فلما تغدوا، تكلم عثمان بن حيان وكان لساناً مفوهاً وقال: زادك الله في توفيقك أيها الأمير،

إن الوليد بن عبد الملك وجهني إلى المدينة عاملاً عليها، وأمرني بالغلظة على أهل الظنة وصخذ عليهم، وإن سليمان أغرمني غرمًا، والله ما يسعه مالي ولا تحمله طاقتي، فأثيناك لتحمل من هذا المال ما خف عليك، وما بقي والله ثقيل علي. ثم تكلم كل منهم بما حضره، وقد اختصرنا كلامهم، فقال يزيد بن المهلب: مرحباً بكم وأهلاً، إن خير المال ما قضيت فيه الحقوق، وحملت به المغارم. وإنما لي من المال ما فضل عن إخواني، وأتم الله، لو علمت أن أحداً أملاً بحاجتكم مني لهديتكم إليه، فاحتكموا وأكثروا. فقال عثمان بن حيان: النصف، أصلح الله الأمير. قال: نعم وكرامة، اغدوا على مالكم فخذوه. فشكروا له وقاموا فخرجوا. فلما صاروا على باب السرادق، قال عمر بن هبيرة: قبح الله رأيكم، والله ما يبالي يزيد أنصفها تحمل أم كلها، فمن لكم بالنصف الباقي؟ قال القوم: هذا والله لرأي. وسمع يزيد مناجاتهم، فقال لحاجبه: انظر يا يحيى إن كان بقي على القوم شيء فليرجعوا. فرجعوا إليه. وقالوا: أقلنا. قال: قد فعلت. قالوا: فإن رأيت أن تحملها كلها فأنت أهلها، وإن أبيت فما لها أحد غيرك. قال: قد فعلت. وغدا يزيد بن المهلب إلى سليمان. فقال: يا أمير المؤمنين أتاني عثمان بن حيان وأصحابه، قال: أمسك في المال؟ قال: نعم. قال سليمان: والله لأخذنه منهم. قال يزيد: إني قد حملته. قال: فأده. قال يزيد: والله ما حملته إلا لأؤديه، ثم قال: يا أمير المؤمنين، إن هذه الحمالة وإن عظم خطيئها، فحمدتها والله أعظم منها، ويدي مبسوطة بيدك. فابسطها لسؤلها. ثم غدا يزيد بالمال على الخزان فدفعه إليهم. فدخلوا على سليمان فأخبروه بقبض المال. فقال: وفت يعين سليمان، احملوا إلى أبي خالد ماله: فقال عدي ابن الرقاع العاملي:

تحملها كبش العراق يزيد

والله علينا من رأى كحمالة

الأصمعي قال: قدم على يزيد بن المهلب قوم من قضاة من بني ضنة، فقال رجل منهم:

طلب إليك من الذي نتطلب

والله ما ندري إذا ما فاتنا

أحدًا سواك إلى المكارم ينسب

ولقد ضربنا في البلاد فلم نجد

أو لا فأرشدنا إلى من نذهب

فاصبر لعادتنا التي عودتنا

فأمر له بألف دينار. فلما كان في العام المقبل وفد عليه فقال:

وكان بابك مجمع الأسواق

مالي أرى أبوابهم مهجورة

بيديك فاجتمعوا من الآفاق

حابوك أما هابوك أم شاموا الندى

والمكرمات قليلة العشاق

إني رأيته للمكارم عاشقاً

فأمر له بعشر آلاف درهم.

ومر يزيد بن المهلب في طريق البصرة بأعرابية فأهدت إليه عتراً فقبلها، وقال لابنه معاوية: معاوية: ما عندك من نفقة؟ قال: ثمانمائة درهم. قال: ادفعها إليها. قال: إنما لا تعرفك ويرضيها اليسير. قال: إن كانت لا تعرفني، فأنا أعرف نفسي، وإن كان يرضيها اليسير، فأنا لا أرضى إلا بالكثير.

يزيد بن حاتم

وكتب إليه رجل يستوصله، فبعث إليه ثلاثين ألف درهم، وكتب إليه: أما بعد، فقد بعثت إليك بثلاثين ألفاً لا أكثرها امتناناً، ولا أقلها تجراً، ولا أستثنيك عليها ثناءً، ولا أقطع لك بها رجاء، والسلام.

وكان ربيعة الرقي قد قدم مصر فأتى يزيد بن حاتم الأزدي، فلم يعطه شيئاً، فخرج وهو يقول:

أراني ولا كفر ان الله راجعا

بخفي حنين من نوال ابن حاتم

فسأل عنه يزيد، فأخبر أنه قد خرج، وقال كذا، وأنشد البيت؛ فأرسل في طلبه، فأُتي به فقال: كيف قلت؟ فأنشد البيت. فقال: شغلنا عنك. ثم أمر بخفيه فخلعتنا من رجليه وملثنا مالا، وقال: ارجع بما بدلاً من خفي حين. فقال فيه لما عزل عن مصر وولي مكانه يزيد بن أسيد.

غداة غدا منها الأغر ابن حاتم

بكي أهل مصر بالدموع السواجم

وفيها يقول:

يزيد سليم والأغر ابن حاتم
وهم الفتى القيسي جمع الدراهم
ولكنني فضلت أهل المكارم

لشتان ما بين اليزيديين في الندى
فهم الفتى الأزدي إتلاف ماله
فلا يحسب التتمام أني هجوته

وخرج إليه رجل من الشعراء بمدحه، فلما بلغ مصر وجدته قد مات، فقال فيه:

وأحلفني منها الذي كنت آمل
ولا كل ما يرجو الفتى هو نائل
وبين الغنى إلا ليال قلائل

لئن مصر فاتتني بما كنت أرتجي
فما كل ما يخشى الفتى بمصيبه
وما كان بيني لو لقيتك سالماً

أبو دلف

واسمه القاسم بن إسماعيل، وفيه يقول علي بن جبلة:

بين مبداه ومحتضره
ولت الدنيا على أثره

إنما الدنيا أبو دلف
فإذا ولي أبو دلف

وقال فيه رجل من شعراء الكوفة:

على العباد على كفى أبي دلف
حتى إذا وقفت أعطى ولم يقف
يوماً كما خط لا في سائر الصحف

الله أجرى من الأرزاق أكثرها
بارى الرياح فأعطى وهي جارية
ما خط لا كاتباه في صحيفته

فأعطاه ثلاثين ألفاً.

ومدحه آخر فقال له:

كأنه البرق إذا البرق خطل
تحمله إلى الوغى الخيل القطف
انظر بعينيك إلى أسنى الشرف
خلق من الناس سوى أبي دلف

يشبهه الرعد إذا الرعد رجع
كأنه الموت إذا الموت أزعف
إن سار سار المجد أو حل وقف
هل ناله بقدرة أو بكلف

فأعطاه خمسين ألفاً.

أخبار معن بن زائدة

قال شراحيل بن معن بن زائدة: حج هارون الرشيد وزميله أبو يوسف القاضي، وكنت كثيراً ما أسأيره، إذ عرض له أعرابي من بني أسد فأنشده شعراً مدحه فيه وأفرط؛ فقال له هارون: ألم أهلك عن مثل هذا في مدحك يا أبا بني أسد؟ إذا قلت فينا فقل كقول القائل في أب هذا:

بنو مطر يوم اللقاء كأنهم
هم يمنعون الجار حتى كأنما
أسود لها في غيل خفان أشبل
بهايل في الإسلام سادوا ولم يكن
لجارهم بين السماكين منزل
وما يستطيع الفاعلون فعالهم
كأولهم في الجاهلية أول
هم القوم إن قالوا أصابوا وإن دعوا
وإن أحسنوا في النائبات وأجملوا
هم القوم إن قالوا أصابوا وإن دعوا
أجابوا إن أعطوا أطابوا وأجزلوا
أجابوا وأن أعطوا أطابوا وأجزلوا

خالد بن عبد الله القسري

وهو الذي يقول فيه الشاعر:

إلى خالد حتى أنحن بخالد
بينما خالد بن عبد الله القسري جالس في مظلة له إذ نظر إلى أعرابي يحب به بعيره مقبلاً نحوه، فقال لحاجبه: إذا قدم فلا تحجبه. فلما قدم أدخله عليه فلم وقال:

فأصلحك الله قل ما بيدي
فما أطيق العيال إذ كثروا
أناخ دهر ألقى بكلك
فأرسلوني إليك وانتظروا
فقال خالد: أرسلوك وانتظروا؟ والله لا تنزل حتى تنصرف إليهم بما يسرهم، وأمر له بجائزة عظيمة وكسوة شريفة.

عدي بن حاتم

دخل عليه ابن دارة فقال: إني مدحتك؟ قال: أمسك حتى آتيك بمالي، ثم امدحني على حسبه، فإني أكره ألا أعطيك ثمن ما تقول، لي ألف شاة وألف درهم وثلاثة أعبد وثلاث إماء وفرسي هذا حبس في سبيل الله، فامدحني على حسب ما أخبرتك. فقال:

تحن قلوصى في معد وإنما
تلاقى الربيع في ديار بني ثعل
وأبقى الليالي من عدي بن حاتم
حساماً كنصل السيف سل من الخلل

أبوك جواد لا يشق غباره
وأنت جواد ما تعذر بالعلل
فإن تنقوا شراً فمثلكم اتقى
وإن تفعلوا خيراً فمثلكم فعل
قال له عدي: أمسك لا يبلغ مالي أكثر من هذا.

أصفاد الملوك على المدح

سعيد بن مسلم الباهلي قال: قدم على الرشيد أعرابي من باهلة وعليه حبة حبرة ورداء يمان، قد شده على وسطه، ثم ثناه على عاتقه، قد عصها على فوديه، وأرعى لها عذبة من خلفه. فمثل بين يدي الرشيد. فقال سعيد: يا أعرابي. خذ في شرف أمير المؤمنين. فاندفع في شعره. فقال الرشيد: يا أعرابي، أسمعك مستحسناً وأنكرك متهماً، فقل لنا بيتين في هذين -يعني محمداً الأمين وعبد الله المأمون ابنيه وهما عن حفافيه- فقال: يا أمير المؤمنين، حملتي على الوعر القرد، ورجعتني عن السهل الجدد، روعة الخلافة، وبهر الدرجة، ونفور القوافي على البديهة، فأرودي تتألف لي نوافرها، ويسكن روعي. قال: قد فعلت: وجعلت اعتذارك بدلاً من امتحانك. قال: يا أمير المؤمنين، نفست الخناق، وسهلت ميدان السباق؛ فأنشأ يقول:

ذرى قبة لإسلام فاخضر عودها

بنيت لعبد الله ثم محمد

وأنت أمير المؤمنين عمودها

هما طنباها بارك الله فيهما

فقال الرشيد: وأنت يا أعرابي، بارك الله فيك، فسل ولا تكن مسألتك دون إحسانك. قال: الهنيذة يا أمير المؤمنين. فأمر له بمائة ناقة وسبع خلع. وقال مروان بن أبي حفصة: دخلت على المهدي فاستنشدني؛ فأنشده الشعر الذي أقول فيه:

بيضاء تخلط بالحياء دلالتها

طرقتك زائرة فحي خيالها

قاد القلوب إلى الصبا فأمالها

قادت فؤادك فاستنقاد ومثلها

حتى انتهيت إلى قولي:

بترائهم فأردتم إبطالها

شهدت من الأنفال آخر آية

جبريل بلغها النبي فقالها

أوتجدون مقالة عن ربكم

بأكفكم أو تسترون هلالها

هل تظمسون من السماء نجومها

قال: وأنشدته أيضاً شعري الذي أقول فيه:

دون الأقارب من ذوي الأرحام

يا بن الذي ورث النبي محمداً

قطع الخصام فلات حين خصام

الوحي بين بنى البنات وبينكم

نزلت بذلك سورة الأنعام

ما للنساء مع الرجال فرضية

لبنى البنات وراثته الأعمام

إني يكون وليس ذاك بكائن

أن يشرعوا فيها بغير سهام

ألغى سهامهم الكتاب فحاولوا

وغررتهم بتوهم الأحلام

ظفرت بنو ساقى الحجيج بحقهم

قال مروان بن أبي حفصة: فلما أنشدت المهدي الشعرين، قال: وجب حقك على هؤلاء -وعنده جماعة من أهل البيت- قد أمرت لك بثلاثين ألفاً، وفرضت على موسى خمسة آلاف، وعلى هارون مثلها، وعلى علي أربعة آلاف، وعلى العباس كذا، وعلى فلان كذا. فحسبت سبعين ألفاً. قال: فأمر بالثلاثين ألفاً فأتي بها، ثم قال: اغد على هؤلاء، وخذ ما فرضت لك، فأتيت موسى، فأمر لي بخمسة آلاف، وأتيت هارون فأمر لي بمثلها، وأتيت علياً، قال: قصر بي دون إخوتي فلن أقصر بنفسي، فأمر لي بخمسة آلاف، فأخذت من الباقيين سبعين ألفاً. ودخل أعشى ربيعة على عبد الملك بن مروان وعن بيمينه الوليد، وعن يساره سليمان. فقال له عبد الملك: ماذا بقي يا أبا المغيرة؟ قال: مضى ما مضى وبقي ما بقي، وأنشأ يقول:

بمهتمم حقي ولا قارع سني

وما أنا في حقي ولا في خصومتي

ولا خائف مولاي من سوء ما أجني
أقول الذي أعني وأعرف ما أعني
بما أبصرت عيني وما سمعت أذني
على الناس قد فضلت خير أب وابن

ولا مسلم مولاي من سوء ما جني
وفضلي في الأقوال والشعر أنني
وأن فؤادي بين جنبي عالم
وإني وإن فضلت مروان وابنه

فضحك عبد الملك، وقال للوليد وسليمان: أتلوماني على هذا؟ وأمر له بعشرة آلاف.
العتبي قال: دخل الفرزدق على عبد الرحمن الثقفي بن أم الحكم، فقال له عبد الرحمن: أبا فراس، دعني من شعرك الذي لا يأتي آخره حتى ينسى أوله،
وقل في بيتين يعلقان أفواه الرواة، وأعطيكها عطية لم يعطكها أحد قبلي. فغدا عليه وهو يقول:

تكن في ثقيف سيل ذي حذب غمر
تلقت له الشمس المضيئة بالبدر

وأنت ابن بطحاوي قريش فإن تشأ
وأنت ابن فرع ماجد لعقبلة

قال: أحسنت. وأمر له بعشرة آلاف.

أبو سويد قال: أخبرني الكوفي قال: اعترض الفضل بن يحيى بن خالد في وقت خروجه إلى خراسان فتى من التجار كان شخص إلى الكوفة فقطع به
وأخذ جميع ما كان معه، فأخذ بعنان دابة الفضل وقال:

يقطع أعناق البيوت الشوارد
أقام به الفضل بن يحيى بن خالد

سأرسل بيتاً ليس في الشعر مثله
أقام الندى والبأس في كل منزل

قال فأمر له بمائة ألف درهم.

العتبي: قال أبو الجنوب مروان بن أبي حفصة أبيتاً ورفعها إلى زبيدة بنت جعفر بمتدح ابنها محمداً، وفيها يقول:

ماذا ولدت من العلا والسودد
للناظرين على جبين محمد

لله درك يا عقيلة جعفر
إن الخلافة قد تبين نورها

فأمرت أن يملأ فمه دراً.

وقال الحسن بن رجاء الكاتب: قدم علينا علي بن جبلة إلى عسكر الحسن ابن سهل والمأمون هناك بانياً على خديجة بنت الحسن بن سهل، المعروفة
بيوران، ونحن إذ ذاك نحري على نيف وسبعين ألف فلاح، وكان الحسن بن سهل مع المأمون يتصيح، فكان الحسن يجلس للناس إلى وقت انتباهه. فلما
قدم علي ابن جبلة نزل بي، فقلت له، قد قوي شغل الأمير. قال: إذا لا أضيع معك. قلت: أجل. فدخلت على الحسن بن سهل في وقت ظهوره
فأعلمته مكانه. فقال: ألا ترى ما نحن فيه؟ فقلت: لست بمشغول عن الأمر له. فقال: يعطى عشرة آلاف إلى أن تنفرغ له. فأعلمت علي بن جبلة.
فقال في كلمة له:

عطية كافأت حمدي ولم ترني
كأنما كنت بالجدوى تبادرني

أعطيتني يا ولي الحق مبتدئاً
ما شمت برقك حتى نلت ريقه

عرض رجل لابن طوق، وقد خرج متترهاً في الرحبة، فناوله رقعة فيها جميع حاجته، فأخذها فإذا فيها:

بخير وإلا فالسلام على الدنيا

جعلتك دنياي فإن أنت جدت لي

فقال: والله لأصدقن ظنك. فأعطاه حتى أغناه.

عرض دعبيل بن علي الشاعر لعبد الله بن طاهر الخراساني، وهو راكب في حراقة له في دجلة، فأشار إليه برقعة، فأمر بأخذها فإذا فيها:

كيف تسير ولا تغرق
واحد وآخر من فوقها مطبق
إذا مسها كيف لا تورق

عجبت لحراقة بن الحسين
وبحران: من تحتها
وأعجب من ذلك عيدانها

فأمر له بخمسة آلاف درهم وجارية وفرس.

وخرج عبد الله بن طاهر، فلتقاه دعبيل برقعة فيها:

معقودة بلواء ملك مقبل
تهفو يقص لها جناحاً أجدل
بندى يديك ووجهك المتهلل
ما فاض منه جدول في جدول

طلعت قناتك بالسعادة فوقها
تهتز فوق طريدتين كأنما
ربح البخيل على احتيال عرضه
لو كان يعلم أن نيلك عاجل

فأمر له بخمسة آلاف.

ووقف رجل من الشعراء إلى عبد الله بن طاهر فأنشده:

أهش إلى البأس والنائل
وأطعم في الزمن الماحل
إشارة غرقى إلى ساحل

إذا قيل أي فتى تعلمون
وأضرب للهام يوم الوغى
أشار إليك جميع الأنام

فأمر له بخمسين ألف درهم.

أحمد بن مطير قال: أنشدت عبد الله بن طاهر أبياتاً كنت مدحت بما بعض الولاة، وهي:

ويوم نعيم فيه للناس أنعم
ويقطر يوم البؤس من كفه الدم
عن الناس لم يصبح على الأرض محرم
لبذل الندى ما كان بالأرض معدم

له يوم بؤس فيه للناس أبؤس
فيقطر يوم الجود من كفه الندى
فلو أن يوم البؤس لم يثن كفه
ولو أن يوم الجود فرغ كفه

فقال لي عبد الله: كم أعطاك؟ قلت خمسة آلاف؛ قال: فقبلتها؟ قلت: نعم، قال لي: أخطأت، ما ثمن هذه إلا مائة ألف.

ودخل حماد عجرد على أبي جعفر بعد موت أبي العباس أخيه فأنشده:

يا أكرم الناس أعراقاً وعيدانا
لمج عودك فينا الشهد والباننا

أتوك بعد أبي العباس إذ باننا
لو مج عود على قوم عصارته

فأمر له بخمسة آلاف درهم.

القحذمي قال:

جاء موسى شهوات إلى سعيد بن خالد بن عمرو بن عثمان، فقال: إن هنا جارية تعشقتها، وأبوا أن ينقصوني عن مائتي دينار. فقال: بورك فيه.

فذهب إلى سعيد بن خالد بن أسيد، وأمه عائشة بنت طلحة الطلحات، فدعا بمطرف خز فبسطه وعقد في كل ركن من أركانه مائة دينار، وقال لموسى: خذ المطرف بما فيه، فأحذه، ثم غدا عليه فأنشده:

أخا العرف لا أعني ابن بنت سعيد

فإن مات لم يرض الندى بعميد

وما هو عن أحسابكم برقود

لكم يا آل مروان الفداء

وبعض إمارة الأقسام داء

وبعض القوم إن ملكوا أساءوا

وبينكم وبينهم الهواء

لأيديهم وأرجلهم سماء

أبا خالد أعني سعيد بن خالد

عميد الندى ما عاش يرضى به الندى

دعوه دعوه إنكم قد رقدتم

العتي: سمعت عمي ينشد لأبي العباس الزبيري:

وكل خليفة وولي عهد

إمارتكم شفاء حيث كانت

فأنتم تحسنون إذا ملكتم

أجعلكم وغيركم سواء

هم أرض لأرجلكم وأنتم

فقلت له: كم أعطي عليها؟ قال: عشرين ألفاً.

الأصمعي قال: حدثني رؤبة قال: دخلت على أبي مسلم صاحب الدعوة، فلما أبصرني نادى: يا رؤبة، فأجبتة:

أحمد رباً ساقني إليك

لبيك إذ دعوتني لبিকা

الحمد والنعمة في يدিকা

قال: بل في يدي الله تعالى. قلت له: وأنت إذا أنعمت أجدت. ثم قلت: يأذن لي الأمير في الإنشاد؟ قال: نعم، فأنشدته:

وعن يمينه وعن يساره

حتى أقر الملك في قراره

ما زال يأتي الملك من أقطاره

مشمراً لا يصطلى بناره

فقال: يا رؤبة، إنك أتيتنا وقد شف المال واستنفده الإنفاق، وقد أمرنا لك بجائزة وهي تافهة يسيرة، ومنك العود وعلينا المعول، والدهر أطرق مستتب

فلا تجعل بيننا وبينك الأسد. قال رؤبة: فقلت: الذي أفادني الأمير من كلامه أكثر من الذي أفادني من ماله.

ودخل نصيب بن رباح على هشام فأنشده:

يمينك عفواً ثم صلت شمالك

إذا استبق العلاء سبقتهم

فقال هشام: بلغت غاية المدح فسلي. فقال: يا أمير المؤمنين، يداك بالعطية أطلق من لساني بالمسألة؟ قال: لا بد أن تفعل؟ قال: لي ابنة نفضت عليها

من سوادى فكسدها فلو أنفقها أمير المؤمنين بشيء يجعله لها؟ قال: فأقطعها أرضاً، وأمر لها بحلي وكسوة فنفقت السوداء.

الرياشي عن الأصمعي، قال: مدح نصيب بن رباح عبد الله بن جعفر، فأمر له بمال كثير، وكسوة شريفة، ورواحل موقرة براً وتمرراً. فقيل له: أتفعل

هذا بمثل هذا العبد الأسود؟ قال: أما لئن كان عبداً إن شعره في الحر، ولئن كان أسود إن ثناءه لأبيض، وإنما أخذ مالاً يفنى، وثياباً تبلى، ورواحل

تنضى، وأعطى مديحاً يروى، وثناءً يبقى.

وذكروا عن أبي النجم العجلي أنه أنشد هشاماً شعره الذي يقول فيه:

الحمد لله الوهوب المجزل

وهو من أجود شعره، حتى انتهى إلى قوله:

والشمس في الجو كعين الأحول

وكان هشام أحول، فأغضبه ذلك، فأمر به فطرد. فأمل أبو النجم رجعته، فكان يأوي إلى المسجد. فأرق هشام ذات ليلة فقال لحاجبه: ابغني رجلاً عربياً فصيحاً يحدثني وينشدني. فطلب له ما سأل، فوجد أبا النجم، فأتى به. فلما دخل عليه قال: أين تكون منذ أقصيناك؟ قال: حيث ألفاني رسولك. قال: فمن كان أب النجم أبا مثواك؟ قال: رجلين أتعدى عند أحدهما وأتعشى عند الآخر. قال: فما لك من الولد؟ قال: ابنتان. قال: أزوجتهما؟ قال: زوجت إحداهما. قال: فبم أوصيتها ليلة أهديتها؟ قال: قلت لها:

وإن أبت فازدلفي إليها

وجددي الخلف به عليها

بالكلب خيراً والحماة شراً

والحي عميهم بشر طراً

حتى يروا حلو الحياة مرا

سببي الحماة وابهتي عليها

ثم اقرعي بالعود مرفقيها

قال: هل أوصيتها بعد هذا؟ قال: نعم:

أوصيت من برة قلباً برا

لا تسأمي خنقاً لها وجرا

وإن كسوك ذهباً ودرا

قال هشام: ما هكذا أوصى يعقوب ولده. قال أبو النجم: ولا أنا كيعقوب ولا ولدي كولده. قال: فما حال الأخرى؟ قال: هي ظلامه التي أقول فيها:

يتيمة ووالداها حيان

وليس في الرجلين إلا خطيان

كان ظلامه أخت شيبان

الرأس قمل كله وصئبان

فهي التي يذعر منها الشيطان

قال هشام لحاجبه: ما فعلت بالدنانير التي أمرتك بقبضها؟ قال: هي عندي، وهمس خمسمائة دينار. قال له: ادفعها لأبي النجم ليجعلها في رجلي ظلامه مكان الخيطين.

أبو عبيدة قال: حدثني يونس بن حبيب قال: لما استخلف مروان بن محمد دخل الشعراء يهنتونه بالخلافة، فتقدم إليه طريح بن إسماعيل الثقفي، خال الوليد بن يزيد، فقال: الحمد لله الذي أنعم بك على الإسلام إماماً، وجعلك لأحكام دينه قوماً، ولأمة محمد المصطفى جنة ونظاماً، ثم أنشده شعره الذي يقول فيه:

خلافتنا تسعين عاماً وأشهرها

تسوء عدالك في سداد ونعمة

فقال مروان: كم الأشهر؟ قال: وفاء المائة يا أمير المؤمنين، تبلغ فيها أعلى درجة وأسعد عاقبة في النصر والتمكين. فأمر له بمائة ألف درهم. ثم تقدم إليه ذو الرمة متحانياً كبيرة قد انحلت عمامته منحدره على وجهه، فوقف يسويها. فقيل له: تقدم. قال: إني أجل أمير المؤمنين أن أخطب بشرفه مادحاً بلوثة عمامتي فقال مروان: ما أملت أنه قد أبقت لنا منك مي ولا صيدح في كلامك إمتاعاً. قال: بلى والله يا أمير المؤمنين، أرد منه قراحاً، والأحسن امتداحاً. ثم تقدم فأنشد شعراً يقول فيه:

تفرع من مروان أو من محمد

فقلت لها سيرى أمامك سيد

فقال له: ما فعلت مي؟ فقال: طويت غدائرهما ببرد بلي، ومحا الترب محاسن الخد فالتفت مروان إلى العباس بن الوليد، فقال: أما ترى القوافي تنثال انثيالاً، يعطى بكل من سمى من آبائي ألف دينار. قال ذو الرمة: لو علمت لبلغت به عبد شمس.

الربيع حاجب المنصور قال: قلت يوماً للمنصور: إن الشعراء ببابك وهم كثيرون طالت أيامهم، ونفدت نفقاتهم. قال: أخرج إليهم فاقراً عليهم السلام وقل لهم: من مدحني منكم فلا يصغني بالأسد، وإنما هو كلب من الكلاب، ولا بالحية، وإنما هي دويبة منتنة تأكل التراب، ولا بالجلبل، وإنما هو حجر أصم، ولا بالبحر، وإنما هو غطامط لجب، ومن ليس في شعره هذا فليدخل ومن كان في شعره هذا فليتنصرف فانصرفوا كلهم إلا إبراهيم بن هرمة، فإنه قال له: أنا له يا ربيع، فأدخلني. فأدخله، فلما مثل بين يديه، قال المنصور يا ربيع، قد علمت أنه لا يجيبك أحد غيره، هات يا بن هرمة. فأنشده قصيدته التي يقول فيها:

إذا كرها فيها عذاب ونائل

له لحظات عن حفاقي سريره

إذا أسود من كوم التراب القبائل

لهم طينة بيضاء من آل هاشم

وإذا قال إني فاعل فهو فاعل

إذا ما أبي شيئاً مضى كالذي أبي

فقال: حسبك، هاهنا بلغت، هذا عين الشعر، قد أمرت لك بخمسة آلاف درهم. فقمت إليه وقبلت رأسه وأطرافه ثم خرجت؛ فلما كدت أن أخفي على عينيه سمعته يقول: يا إبراهيم. فأقبلت إليه فرعاً، فقلت: لبيك، فذاك أبي وأمي. قال: احتفظ بما فليس لك عندنا غيرها. فقلت: بأبي وأمي أنت، أحفظها حتى أوافيك بما على الصراط بخاتم الجهبذ. علي بن الحسين قال: أنشد علي بن الجهم جعفرأ المتوكل شعره الذي أوله:

هي النفس ما حملتها تتحمل

وكان في يد المتوكل جوهرتان. فأعطاه التي في يمينه، فأطرق متفكراً في شيء يقوله ليأخذ التي في يساره. فقال: مالك مفكراً؟ إنما تفكر فيما تأخذ به الأخرى خذها لا بورك لك فيها. فأنشأ يقول:

تغرف من بحره البحار

بسر من رى إمام عدل

كأنه جنة ونار

يرجى ويخشى لكل أمر

ما اختلف الليل والنهار

الملك فيه وفي بنيه

عليه كلتاها تغار

يداه في الجود ضرتان

إلا أنت مثله اليسار

لم تأت منه اليمين شيئاً

وقال آخر في الهول:

لم تلف نسبتها إلا إلى الهول

إذا سألت الندى عن كل مكرمة

أوزاحم الصم ألجاها إلى الميل

لو زاحم الشمس ألقى الشمس مظلمة

وعند أعدائه أمضى من السيل

أمضى من الدهر إن نابته نائبة

ودخل شاعر من أهل الري يقال له أبو يزيد علي بن طاهر صاحب خراسان فأنشده:

من شاذياخ ودع غمدان لليمن

اشرب هنياً عليك التاج مرتفقاً

فأنت أولى بتاج الملك تلبسه

فأمر له بعشر آلاف درهم.

ودخلت ليلي الأحيلىة على الحجاج فأنشدته:

إذا ورد الحجاج أرضاً مريضة

شفاها من الداء العضال الذي بها

من هوذة بن علي وابن ذي يزن

تتبع أقصى دائها فشفاها

غلام إذا هز القناة سقاها

فقال لها: لا تقولي غلام، ولكن قولي: همام. ثم قال: أي النساء أحب إليك أنزلك عندها؟ قال: ومن نساؤك أيها الأمير؟ قال أم الجلاس بنت المهلب بنت سعيد بن العاص الأموية، وهند بنت أسماء من خارجة الفزارية، وهند بنت المهلب بن أبي صفرة العتكية. قالت: القيسية أحب إلي. فلما كان من الغد دخلت عليه. قال: يا غلام، أعطها خمسمائة. قالت: أيها الأمير، أحسبها أدما. قال قائل: إنما أمر لك بشاء قالت: الأمير أكرم من ذلك. فجعلها إبلاً إنانا على استحياء، وإنما كان أمر لها بشاء أولاً.

كتاب الجمانة في الوفود

قال الفقيه أبو عمر أحمد بن عبد ربه: قد مضى قولنا في الأجواد والأصفاد على مراتبهم ومنازلهم، وما جروا عليه، وما ندبوا إليه، من الأخلاق الجميلة، والأفعال الجزيلة؛ ونحن قائلون بعون الله وتوفيقه في الوفود الذين وفدوا على النبي صلى الله عليه وسلم، وعلى الخلفاء والملوك، فإنها مقامات فضل، ومشاهد حفل يتخير لها الكلام، وتستهدب الألفاظ، وتستجزل المعاني. ولا بد للوفاد عن قومه أن يكون عميدهم وزعيمهم الذي عن قوته يترعون، وعن رأيه يصدرن؛ فهو واحد يعدل قبيلة، ولسان يعرب عن ألسنة. وما ظنك بوفاد قوم يتكلم بين يدي النبي صلى الله عليه وسلم أو خليفته، أو بين يدي ملك جبار في رغبة أو رهبة، فهو يوطد لقومه مرة، ويتحفظ ممن أمامه أخرى؛ أترأه مدحراً نتيجة من نتائج الحكمة، أو مستبقياً غريبة من غرائب الفطنة، أم تظن القوم قدموه لفضل هذه الخطة إلا وهو عندهم في غاية الخدقة واللسن، وجمع الشعر والخطابة. ألا ترى أن قيس بن عاصم المنقري لما وفد على النبي صلى الله عليه وسلم، بسط له رداءه وقال: هذا سيد الوير. ولما توفي قيس بن عاصم قال فيه الشاعر:

ورحمته ما شاء أن يترحمها

إذا زار عن شحط بلادك سلماً

ولكنه بنيان قوم تهدمها

عليك سلام الله قيس بن عاصم

تحية من ألبسته منك نعمة

وما كان قيس هللكه هلك واحد

وفود العرب على كسرى

ابن القطامي عن الكلبي قال:

قدم النعمان بن المنذر على كسرى وعنده وفود الروم والهند والصين، فذكروا من ملوكهم وبلادهم، فافتخر النعمان بالعرب وفضلهم على جميع الأمم، لا يستثنى فارس ولا غيرها. فقال كسرى -وأخذته عزة الملك- يا نعمان، لقد فكرت في أمر العرب وغيرهم من الأمم، ونظرت في حال من يقدم علي من وفود الأمم، فوجدت الروم لها حظ في اجتماع ألفتها، وعظم سلطاتها، وكثرة مدائنها، ووثيق بناياتها، وأن لها ديناً يبين حلالها وحرامها، ويرد سفهها، ويقيم جاهلها؛ ورأيت الهند نحواً من ذلك في حكمتها وطبها، مع كثرة أثمار بلادها وثمارها، وعجيب صناعاتها، وطيب أشجارها، ودقيق حسابها، وكثرة عددها؛ وكذلك الصين في اجتماعها، وكثرة صناعات أيديها في آلة الحرب وصناعة الحديد، وفروسيتها وهمتها، وأن لها ملكاً يجمعها، والترك والخزر على ما بهم من سوء الحال في المعاش، وقلة الريف والثمار والحصون، وما هو رأس عمارة الدنيا من المساكن والملابس، لهم ملوك تضم قواصيمهم، وتدبر أمرهم؛ ولم أر للعرب شيئاً من خصال الخير في أمر دين ولا دنيا، ولا حزم ولا قوة؛ مع أن مما يدل على مهانتها وذلتها وصغر همتها، ملحتهم التي هم بها مع الوحوش النافرة، والطيرة الحائرة؟ يقتلون أولادهم من الفاقة، ويأكل بعضهم بعضاً من الحاجة؟ قد خرجوا من مطاعم الدنيا وملابسها ولهوها ولذتها، فأفضل طعام ظفر به ناعمهم لحوم الإبل التي يعافها كثير من السباع، لثقلها وسوء طعمها وخوف دائها؛ وإن قرى أحدهم ضيفاً عدها مكرومة، وإن أطعم أكلة عدها غنيمة؛ تنطق بذلك أشعارهم، وتفتخر بذلك رجالهم، ما خلا هذه التنوخية التي أسس جدي اجتماعها، وشد مملكتها، ومنعها من عدوها، فجرى لها ذلك إلى يومنا هذا؛ وإن لها مع ذلك آثاراً ولبوساً، وقرى وحصوناً، وأموراً تشبه بعض أمور الناس -يعني اليمن. ثم لا أراكم تستكبنون على ما بكم من الذلة والقلة، والفاقة والبؤس، حتى تفتخروا وتريدوا أن تتزلوا فوق مراتب الناس.

قال النعمان: أصلح الله الملك، حق لأمة منها أن يسموا فضلها، ويعظم خطبها، وتعلو درجاتها، إلا أن عندي جواباً في كل ما نطق به الملك، وفي غير رد عليه ولا تكذيب له، فإن أمني من غضبه نطقت به. قال كسرى: قل، فأنت آمن.

قال النعمان: أما أمتك أيها الملك فليست تنازع في الفضل، لموضعها الذي هي به من عقولها وأحلامها، وبسطة محلها، وبجوحة عزها، وما أكرمها الله به من ولاية آباءك وولايتك. وأما الأمم التي ذكرت، فأبي أمة تقرها بالعرب إلا فضلها. قال كسرى: بماذا؟ قال النعمان: بعزها ومنعتها وحسن

رجوا وبأسها وسخائها وحكمة ألسنتها وشدة عقولها وأنفتها ووفائه.

فأما عزها ومنعتها، فإنها لم تزل مجاورة لآبائك الذين دوخوا البلاد، ووطدوا الملك، وقادوا الجند، لم يطمع فيهم طامع، ولم ينلهم نائل، حصونهم ظهور خيلهم، ومهادهم الأرض، وسقوفهم السماء، وجبتهم السيوف، وعدتهم الصبر؛ إذ غيرها من الأمم، إنما عزها الحجارة والطين وجزائر البحور. وأما حسن وجوهها وألوانها، فقد يعرف فضلهم في ذلك على غيرهم من الهند المنحرفة، والصين المنحفة، والترك المشوهة، والروم المقشرة. وأما أنسابها وأحسابها، فليست أمة من الأمم إلا وقد جهلت آباءها وأصولها وكثيراً من أولها، حتى إن أحدهم ليسأل عمن وراء أبيه دنياً، فلا ينسبه ولا يعرفه، وليس أحد من العرب إلا يسمي آباءه أباً فأباً، حاطوا بذلك أحسابهم، وحفظوا به أنسابهم، فلا يدخل رجل في غير قومه، ولا ينتسب إلى غير نسبه، ولا يدعى إلى غير أبيه.

وأما سخاؤها، فإن أدنانهم رجلاً الذي تكون عنده البكرة والناب، عليها بلاغه في حمولة وشبعه وريه، فيطرقة الطارق الذي يكتفي بالفلذة ويجتزئ بالشرية، فيعقرها له، ويرضى أن يخرج عن دنياه كلها فيما يكسبه حسن الأحداث وطيب الذكر. وأما حكمة ألسنتهم، فإن الله تعالى أعطاهم في أشعارهم ورونق كلامهم وحسنه ووزنه وقوافيه، مع معرفتهم بالأشياء، وضرهم للأمثال، وإبلاغهم في الصفات، ما ليس لشيء من ألسنة الأجناس. ثم خيلهم أفضل الخيل، ونساؤهم أعف النساء، ولباسهم أفضل اللباس، ومعادنهم الذهب والفضة، وحجارة جبلهم الجزع، ومطايهم التي لا يبلغ على مثلها سفر ولا يقطع بمثلها بلد فقر.

وأما دينها وشريعتها، فإنهم متمسكون به، حتى يبلغ أحدهم من نسكه بدينه أن لهم أشهراً حرماً، وبلداً محرماً، وبيتاً محجوجاً، ينسكون فيه مناسكهم، ويذبحون فيه ذبائحهم، فيلقى الرجل قاتل أبيه أو أخيه، وهو قادر على أخذ ثأره وإدراك رغبته منه، فيحجزه كرمه، ويمنعه دينه عن تناوله بأذى. وأما وفاؤها، فإن أحدهم يلحظ اللحظة ويومئ الإجماع فهي ولث وعقدة لا يجلها إلى خروج نفسه. وإن أحدهم ليرفع عوداً من الأرض فيكون رهنأً بدينه، فلا يغلق رهنه، ولا تخفر ذمته؛ وإن أحدهم ليلبغ أن رجلاً استجار به، وعسى أن يكون نائياً عن داره، فيصاب، فلا يرضى حتى يفني تلك القبيلة التي أصابته أو تفنى قبيلته، لما خفر من حوارته؛ وإنه ليلجأ إليهم المجرم المحدث من غير معرفة ولا قرابة، فتكون أنفسهم دون نفسه، وأمواهم دون ماله.

وأما قولك أيها الملك: يتدون أولادهم؛ فإنما يفعله من يفعله منهم بالإناث أنفة من العار وغيره من الأزواج. أما قولك: إن أفضل طعامهم لحوم الإبل على ما وصفت منها؛ فما تركوا ما دونها إلا احتقاراً له، فعمدوا إلى أجلها وأفضلها، فكانت مراكبهم وطعامهم؛ مع أنها أكثر البهائم شحوماً، وأطيبها لحوماً، وأرقها ألباناً، وأقلها غائلة، وأحلاها مضغة؛ وإنه لا شيء من اللحمان يعالج ما يعالج به لحمها إلا استبان فضلها عليه.

وأما تحاربهم وأكل بعضهم بعضاً، وتركهم الانقياد لرجل يسوسهم ويجمعه؛ فإنما يفعل ذلك من يفعله من الأمم إذا أنست من نفسها ضعفاً، وتخوفت نموض عدوها إليها بالزحف، وإنه إنما يكون في المملكة العظيمة أهل بيت واحد يعرف فضلهم على سائر غيرهم، فيلقون إليهم أمورهم، وينقادون لهم بأزمتهم؛ وأما العرب، فإن ذلك كثير فيهم، حتى لقد حاولوا أن يكونوا ملوكاً أجمعين، مع أنفتهم من أداء الخراج والوظف بالعسف.

وأما اليمن التي وصفها الملك، فإنما أتى جد الملك الذي أتاه عند غلبة الحبش له، على ملك متسق، وأمر مجتمع، فأتاه مسلوباً طريداً مستصرخاً. قد تقاصر عن إيوائه، وصغر في عينه ما شيد من بناءه؛ ولولا ما وتر به من يليه من العرب، لمال إلى مجال، ولوجد من يجيد الطعان، ويغضب للأحرار، من غلبة العبيد الأشرار.

قال: فعجب كسرى لما أجابه النعمان به، وقال: إنك لأهل لموضعك من الرياسة في أهل إقليمك ولما هو أفضل. ثم كساه كسوته، وسرحه إلى موضعه من الخيرة.

فلما قدم النعمان الخيرة وفي نفسه ما فيهم مما سمع من كسرى من تنقص العرب وتمجيد أمرهم، بعث إلى أكنم بن صيفي وحاجب بن زرارة، التميميين وإلى الحارث بن عباد وقيس بن مسعود، البكرين، وإلى خالد بن جعفر وعلقمة ابن علاثة وعامر بن الطفيل، العامريين، وإلى عمرو بن

الشريد السلمي، وعمرو ابن معد يكره الزبيدي، والحارث بن ظالم المري. فلما قدموا عليه في الخورنق، قال لهم: قد عرفتم هذه الأعاجم وقرب جوار العرب منها، وقد سمعت من كسرى مقالات تخوفت أن يكون لها غور، أو يكون إنما أظهرها لأمر أراد أن يتخذ به العرب خولاً كبعض طماطمته في تأديتهم الخراج إليه، كما يفعل مملوك الأمم الذين حوله، فاقصص مقالات كسرى وما رد عليه. فقالوا: أيها الملك، وفقك الله، ما أحسن ما رددت، وأبلغ ما حججته به! فمرنا بأمرك، وادعنا إلى ما شئت. قال: إنما أنا رجل منكم، وإنما ملكت وعززت بمكانكم، وما يتخوف، من ناحيتكم، وليس شيء أحب إلي مما سدد الله أمركم، وأصلح به شأنكم، وأدام به عزكم؛ والرأي أن تسيروا بجماعتكم أيها الرهط وتطلقوا إلى كسرى، فإذا دخلتم نطق كل رجل منكم بما حضره، ليعلم أن العرب على غير ما ظن أو حدثه نفسه، ولا ينطق رجل منكم بما يغضبه، فإنه ملك عظيم السلطان، كثير الأعوان، مترف معجب بنفسه؛ ولا تنزلوا له الخزال الخاضع الذليل، وليكن أمر بين ذلك تظهر به وثاقة حلومكم، وفضل منزلتكم، وعظمة أخطاركم؛ وليكن أول من يبدأ منكم بالكلام أكثم بن صيفي، لسني محله، ثم تتابعوا على الأمر من منازلكم التي وضعتكم بها؛ وإنما دعاني إلى التقدم بينكم علمي بميل كل رجل منكم إلى التقدم قبل صاحبه فلا يكون ذلك منكم فيجد في آدابكم مطعناً، فإنه ملك مترف، وقادر مسلط. ثم دعا لهم بما في خزائنه من طرائف حلل الملوك، كل رجل منهم حلة، وعممه عمامة وختمه بياقوته، وأمر لكل رجل منهم بنجبية مهرية وفرس نجبية، وكتب معهم كتاباً:

أما بعد، فإن الملك ألقى إلي من أمر العرب ما قد علم، وأجبت به بما قد فهم، بما أحببت أن يكون منه على علم، ولا يتلجلج في نفسه أن أمة من الأمم التي احتجزت دونه بمملكته، وحثت ما يليها بفضل قوتها، تبلغها في شيء من الأمور التي يتعزز بها ذوو الخرم والقوة والتدبير والمكيدة، وقد أوفدت أيها الملك رهطاً من العرب لهم فضل في أحسابهم وأنسابهم، وعقولهم وآدابهم، فليسمع الملك، وليغضض عن جفاء إن ظهر من منطلقهم، وليكرمهم بكرامتهم، وتعجيل سراحهم، وقد نسبتهم في أسفل كتابي هذا إلى عشائرتهم.

فخرج القوم في أهبتهم، حتى وقفوا بباب كسرى بالمدائن، فدفعوا إليه كتاب النعمان، فقرأه وأمر بإنزالهم إلى أن يجلس لهم مجلساً يسمع منهم. فلما أن كان بعد ذلك بأيام، أمر مرزبته ووجوه أهل مملكته فحضرُوا وجلسوا على كراسي عن يمينه وشماله، ثم دعا بهم على الولاء والمراتب التي وصفهم النعمان بها في كتابه، وأقام الترجمان ليؤدي إليه كلامهم، ثم أذن لهم في الكلام.

فقام أكثم بن صيفي فقال: إن أفضل الأشياء أعاليها، وأعلى الرجال ملوكها، وأفضل الملوك أعمها نفعاً، وخير الأزمنة أخصبها، وأفضل الخطباء أصدقها. الصدق منجاة، والكذب مهوأة، والشرب لاجاة، والخزم مركب صعب، والعجز مركب وطيء آفة الرأي الهوى، والعجز مفتاح الفقر، وخير الأمور الصبر. حسن الظن ورطة، وسوء الظن عصمة. إصلاح فساد الرعية خير من إصلاح فساد الراعي. من فسدت بطانته كان الغاص بالماء. شر البلاد بلاد لا أمير بها. شر الملوك من خافه البريء. المرء يعجز لا الحالة. أفضل الأولاد البررة. خير الأعوان من لم يراء بالنصيحة. أحق الجنود بالنصر من حسنت سيرته. يكفيك من الزاد ما بلغك الخل. حسبك من شر سماعة. الصمت حكم وقليل فاعله. البلاغة الإيجاز. من شدد نفر، ومن تراخى تألف.

فتعجب كسرى من أكثم، ثم قال: ويحك يا أكثم! ما أحكمك وأوثق كلامك لولا وضعك كلامك في غير موضعه! قال أكثم: الصدق ينبي عند لا الوعيد؛ قال كسرى: لو لم يكن للعرب غيرك لكفى؛ قال أكثم: رب قول أنفذ من قول.

ثم قام حاجب بن زرارة التميمي فقال: وري زندك، وعلت يدك، وهيب سلطانك، إن العرب أمة قد غلظت أكبادها، واستحصدت مرثها، ومنعت درتها؛ وهي لك وامقة ما تألفتها، مسترسلة ما لا ينتها، سامعة ما ساحتها؛ وهي العلقم مرارة، والصاب غضاضة، والعسل حلاوة، والماء الزلال سلاسة؛ نحن وفودها إليك، وألستها لديك، ذمتنا محفوظة، وأحسابنا ممنوعة، وعشائرتنا فينا سامعة مطيعة، وإن نؤب لك حامدين خيراً فلك بذلك عموم محمدتنا، وإن نذم لم نختص بالذم دولها.

قال كسرى: يا حاجب، ما أشبه حجر التلال بألوان صخرها؛ قال حاجب: بل زئير الأسد بصولتها؛ قال كسرى: وذلك. ثم قام الحارث بن عباد البكري فقال: دامت لك المملكة باستكمال جزيل حظها، وعلو سنائها. من طال رشاؤه كثر متحه، ومن ذهب ماله قل منحه. تناقل الأقاويل يعرف به اللب، وهذا مقام سيوحف بما ينطق فيه الركب، وتعرف به كنه حالنا العجم والعرب؛ ونحن جيرانك الأدنون، وأعوانك

المعينون، خيولنا جمة، وجيوشنا فخمة؛ إن استنجدتنا فغير ريبض، وإن استطرقتنا فغير جهض، وإن طلبتنا فغير غمض، لا ننثني لذعر، ولا نتنكر لدهر؛ رمحنا طوال، وأعمارنا قصار.

قال كسرى: أنفـس عزيزة، وأمة والله ضعيفة.

قال الحارث: أيها الملك، وأن يكون لضعيف عزة، أو لصغير مرة.

قال كسرى: لو قصر عمرك لم تستول على لسانك نفسك.

قال الحارث: أيها الملك، إن الفارس إذا حمل نفسه على الكتيبة، مغرراً بنفسه على الموت، فهي منية استقبلها، وحياة استديرها؛ والعرب تعلم أي أبعث الحرب قدماً وأحسبها وهي تصرف بهم؛ حتى إذا جاشت نارها، وسعرت لظاها، وكشفت عن ساقها، جعلت مقادها رمحي، وبرقها سيفي، ورعدها زئيري، ولم أقصر عن خوض خضاحضها، حتى انغمس في غمرات لججها، وأكون فلماً لفرساني إلى بجوحة كبشها، فأستمطرها دماً، وأترك حماها جزر السباع، وكل نسر قشعم.

ثم قال كسرى لمن حضره من العرب: ألك ذلك هو؟ قالوا: فعاله أنطق من لسانه. قال كسرى: ما رأيت كاليوم وفداً أحشد، ولا شهوداً أوفد.

ثم قام عمرو بن الشريد السلمي فقال: أيها الملك، نعم بالك، ودام في السرور حالك؛ إن عاقبة الكلام متدبرة، وأشكال الأمور معتبرة، وفي كثير ثقلة، وفي قليل بلغة، وفي الملك سورة العز. وهذا موطن له ما بعده، شرف فيه من شرف، وخمل فيه من خمل. لم نأت لضيحك، ولم نغد لسخطك، ولم نتعرض لرفدك؛ إن في أموالنا مرتقداً، وعلى عزنا معتمداً؛ إن أورينا ناراً أتقينا، وإن أود دهر بنا اعتدلنا؛ إلا أنا مع هذا لجوارك حافظون، ولن رامك مكافحون؛ حتى يحمد الصدر، ويستطاب الخير.

قال كسرى: ما يقوم قصد منطقتك بإفراطك، ولا مدحك بدمك.

قال عمرو: كفى بقليل قصدي هادياً، وبأيسر إفراطي مخيراً. ولم يلم من عزفت نفسه عما يعلم، ورضي من القصد بما بلغ.

قال كسرى: ما كل ما يعرف المرء ينطق به، اجلس.

ثم قام خالد بن جعفر الكلابي فقال: أحضر الله الملك إسعاداً، وأرشدته إرشاداً؛ إن لكل منطلق فرصة، ولكل حابة غصة؛ وعي المنطق أشد عي السكوت، وعتار القول أنكى من عثار الوعث؛ وما فرصة المنطق عندنا إلا بما نهي، وغصة المنطق بما لا نهي غير مستساغة، وترك ما أعلم من نفسي ويعلم من سمعي أنني له مطيق أحب إلي من تكلفي ما أتخوف ويتخوف مني؛ وقد أوفدنا إليك ملكنا النعمان، وهو لك من خير الأعوان، ونعم حامل المعروف والإحسان أنفسنا بالطاقة لك باخعة، ورقابنا بالنصيحة خاضعة، وأيدنا لك بالوفاء رهينة.

قال له كسرى: نطقت بعقل، وسموت بفضل، وعلوت بنبل.

ثم قام علقمة بن علانة العامري فقال: أتهجت لك سبل الرشاد، وخضعت لك رقاب العباد؛ إن للأقويل مناهج، وللآراء موالج، وللعويص مخارج؛ وخير القول أصدقه، وأفضل الطلب أنجح؛ إنا وإن كانت الحبة أحضرتنا، والوفادة قربتنا، فليس من حضرك منا بأفضل ممن عزب عنك، بل لو قست كل رجل منهم، وعلمت منهم ما علمنا، لوجدت له في آبائه دنياً أنداداً وأكفاء، كلهم إلى الفضل منسوب، وبالشرف والسودد موصوف، وبالرأي الفاضل والأدب النافذ معروف؛ يحمي حماه، ويروي نداماه، ويذود أعداه؛ لا تخمد ناره، ولا يجترز منه جاره. أيها الملك، من يبيل العرب يعرف فضلهم فاصطنع العرب فإنها الجبال الرواسي عزاً، والبحور طمياً، والنجوم الزواهر شرفاً، والحصى عدداً؛ فإن تعرف لهم فضلهم يعزوك، وإن تستصرخهم لا يخذلوك.

قال كسرى -وخشي أن يأتي منه كلام يحملة على السخط عليه-: حسبك، أبلغت وأحسنت.

ثم قام قيس بن مسعود الشيباني فقال: أطاب الله بك المرشد، وجنبك المصائب، ووقاك مكروه الشصائب، ما أحقنا إذا أتيناك بإسماعك، ما لا يجنق صدرك، ولا يزرع لنا حقداً في قلبك. لم نقدم أيها الملك لمساماة، ولم ننتسب لمعاداة، ولكن لتعلم أنت ورعيتك ومن حضرك من وفود الأمم أنا في المنطق غير محجمين، وفي البأس غير مقصرين، إن جورينا فغير مسبوقين، وإن سومينا فغير مغلوبين.

قال كسرى: غير أنكم إذا عاهدتم غير وافين، وهو يعرض به في تركه الوفاء بضمانه السواد.

قال قيس: أيها الملك، ما كنت في ذلك إلا كواف غدر به، أو كخافر أخفر بدمته.

قال كسرى: ما يكون لضعيف ضمان، ولا للدليل خفارة.

قال قيس: أيها الملك، ما أنا فيها خفر من ذمتي، أحق بالزمامي العار منك فيما قتل من رعيتك، وانتهدك من حرمتك.

قال كسرى: ذلك لأن من اتتمن الخانة واستنجد الأئمة ناله من الخطأ ما نالني، وليس كل الناس سواء؛ كيف رأيت حاجب بن زرارة، لم يحكم قواه

فيبرم، ويعهد فيوفي، ويعد فينجز؟ قال: وما أحقه بذلك وما رأيتته إلا لي.

قال كسرى: القوم بزل، فأفضلها أشدها.

ثم قام عامر بن الطفيل العامري فقال: كثر فنون المنطق، وليس القول أعمى من حندس الظلماء؛ وإنما الفخر في الفعال، والعز في النجدة، والسود

مطاوعة القدرة، وما أعلمك بقدرنا، وأبصرك بفضلنا، وبالبحري، إن أدالت الأيام وثابت الأحلام، أن تحدث لنا أموراً لها أعلام.

قال كسرى: وما تلك الأعلام؟ قال: مجتمع الأحياء من ربعة ومضر، على أمر يذكر.

قال كسرى: وما الأمر الذي يذكر؟ قال: ما لي علم بأكثر مما خبرني به مخبر.

قال كسرى: متى تكاهنت يا بن الطفيل؟ قال: لست بكاهن، ولكني الرمح طاعن. قال كسرى: فإن أتاك آت من جهة عينك العوراء ما أنت صانع؟

قال ما هيبتي في قفاي بدون هيبتي في وجهي، وما أذهب عيني عيث، ولكن مطاوعة العيث.

ثم قام عمرو بن معد يكرب الزبيدي فقال: إنما المرء بأصغريه: قلبه ولسانه؛ فيبلاغ المنطق الصواب، وملاك النجعة الارتياح، وعفو الرأي خير من استكراه الفكرة، وتوقف الخيرة خير من اعتساف الخيرة؛ فاجتهد طاعتنا بلفظك، واكتظم بادرتنا بجملك، وألن لنا كنفك يسلس لك قيادنا، فإننا أناس لم يوقس صفاتنا قراع مناقير من أراد لنا قضماً، ولكن منعنا حمانا من كل من رام لنا هضماً.

ثم قام الحارث بن ظالم المري فقال: إن من آفة المنطق الكذب، ومن لؤم الأخلاق الملق، وانقيادنا لك عن تصاف؛ فما أنت لقبول ذلك منا بخليق، ولا للاعتماد عليه بحقيق؛ ولكن الوفاء بالعهود، وإحكام ولث العقود؛ والأمر بيننا وبينك معتدل، ما لم يأت من قبلك ميل أو زلل.

قال كسرى: من أنت؟ قال: الحارث بن ظالم؛ قال: إن في أسماء آبائك لدليلاً على قلة وفائك، وأن تكون أولى بالصدر، وأقرب من الوزر.

قال الحارث: إن في الحق مغضبة، والسرو التغافل، ولن يستوجب أحد الحلم إلا مع القدرة، فلتشبه أفعالك بمجلسك.

قال كسرى: هذا فتى قوم. ثم قال كسرى: قد فهمت ما نطقت به خطباؤكم وتفنن فيه متكلموكم، ولولا أنني أعلم أن الأدب لم يثقف فيه أودكم،

ولم يحكم أمركم، وأنه ليس لكم ملك يجمعكم فتنتطقون عنده منطق الرعية الخاضعة الباحعة، فنطقتم بما استولى على ألسنتكم، وغلب على طباعكم،

لم أجز لكم كثيراً مما تكلمتم به؛ وإني لأكره أن أجبه وفودي أو أحنق صدورهم، والذي أحب هو إصلاح مداركم، وتألف شواذكم، والإعذار إلى

الله فيما بيني وبينكم، وقد قبلت ما كان في منطقتهم من صواب، وصفحتم عما كان فيه من خلل، فانصرفوا إلى ملككم فأحسنوا موازرتهم، والتزموا

طاعته، واردعوا سفهاءكم، وأقيموا أودهم، وأحسنوا أدهم، فإن في ذلك صلاح العامة.

وفود حاجب بن زرارة على كسرى

العتي عن أبيه: إن حاجب بن زرارة وفد على كسرى لما منع تميمياً من ريف العراق، فاستأذن عليه، فأوصل إليه: أسيد العرب أنت؟ قال: لا؛ قال:

فسيد مضر؛ قال: لا؛ قال: فسيد بني أبيك أنت؟ قال: لا. ثم أذن له، فلما دخل عليه، قال له: من أنت؟ قال: سيد العرب؛ قال: أليس قد أوصلت

إليك، أسيد العرب؟ فقلت لا، حتى اقتصرت بك على بني أبيك فقلت لا؟ قال له: أيها الملك، لم أكن كذلك حتى دخلت عليك، فلما دخلت عليك

صرت سيد العرب؛ قال كسرى: آه، املثوا فاه دراً. ثم قال: إنكم معشر العرب غدر، فإن أذنت لكم أفسدتم البلاد، وأغرتم على العباد، وأذيتموني.

قال حاجب: فإني ضامن للملك أن لا يفعلوا؛ قال: فمن لي بأن تفي أنت؟ قال أرهنتك قوسي. فلما جاء بها ضحك من حوله وقالوا: لهذه العصا يفي!

قال كسرى: ما كان ليسلمها لي لشيء أبداً فقبضها منه، وأذن لهم أن يدخلوا الريف.

ومات حاجب بن زرارة، فارتحل عطارد بن حاجب إلى كسرى يطلب قوس أبيه؛ فقال له: وقد وفي له قومه ووفى هو للملك. فدرها عليه وكساه حلة.

فلما وفد إلى النبي صلى الله عليه وسلم عطارد بن حاجب وهو رئيس تميم، وأسلم على يديه، أهداها للنبي صلى الله عليه وسلم، فلم يقبلها، فقالوا: يا رسول الله، هلك قومك وأكلتهم الضبع، يريدون الجوع -والعرب يسمون السنة الضبع والذئب. قال جرير: من ساقه السنة الحصاء والذئب - فدعا لهم النبي صلى الله عليه وسلم، فأحيوا؛ وقد كان دعا عليهم، فقال: اللهم اشدد وطأتك على مضر، وابعث عليهم سنين كسني يوسف.

وفود أبي سفيان إلى كسرى

الأصمعي قال: حدثنا عبد الله بن دينار عن عبد الله بن بكر المري قال: قال أبو سفيان: أهديت لكسرى خيلاً وأدماً فقبل الخيل ورد الأدم، وأدخلت عليه، فكان وجهه وجهين من عظمه، فألقى إلي مخدة كانت عنده، فقلت: وا جوعاه! أهذه حظي من كسرى بن هرمز؟ قال: فخرجت من عنده، فما أمر على أحد من حشمة إلا أعظمها، حتى دفعت إلى خازن له، فأخذها وأعطاني ثمانمائة إناء من فضة وذهب.

قال الأصمعي: فحدثت بهذا الحديث النوشجان الفارسي، فقال: كانت وظيفة المخدة ألفاً أن الخازن اقتطع منها مائتين.

وفود حسان بن ثابت على النعمان بن المنذر

قال: وفد حسان بن ثابت على النعمان بن المنذر قال: فلقيت رجلاً ببعض الطريق، فقال لي: أين تريد؟ قلت: هذا الملك؛ قال: فإنك إذا جنته متروك شهراً ثم تترك شهراً آخراً، ثم عسى أن يأذن لك، فإن أنت خلوت به وأعجبته فأنت مصيب منه خيراً، وإن رأيت أبا أمامة النابغة فاظن، فإنه لا شيء لك. قال: فقدمت عليه ففعل بي ما قال: ثم خلوت به وأصبت مالا كثيراً ونادمته. فبينما أنا معه إذا رجل يرتجز حول القبة ويقول:

يا أوهب الناس لعنص صلبه

أنام أم يسمح رب القبة

ذات نجا في يديها جذبه

ضراية بالمشفر الأذبة

فقال النعمان: أبو أمامة! ائذنوا له. فدخل فحياه وشرب معه، ووردت النعم السود؛ ولم يكن لأحد من العرب بعير أسود غيره، ولا يفتحل أحد فحلاً أسود. فاستأذنه النابغة في الإنشاد فأذن له، فأنشده قصيدته التي يقول فيها:

إذا طلعت لم بيد منهن كوكب

فإنك شمس والملوك كواكب

فأمر له بمائة ناقة من الإبل السود برعاقها. فما حسدت أحداً قط حسدي له في شعره وجزيل عطائه.

وفود قريش على سيف بن ذي يزن بعد قتله الحبشة

نعيم بن حماد قال: أخبرنا عبد الله بن المبارك عن سفيان الثوري قال: قال ابن عباس: لما ظفر سيف بن ذي يزن بالحبشة، وذلك بعد مولد النبي صلى الله عليه وسلم، أتته وفود العرب وأشرفها وشعراؤها تهته وتمدحه وتذكر ما كان من بلائه وطلبه بثأر قومه. فأتاه وفد قريش، فيهم: عبد المطلب بن هاشم، وأميمة بن عبد شمس، وأسد بن عبد العزى، وعبد الله بن جدعان، فقدموا عليه وهو في قصر له يقال غمدان -وله يقول أبو الصلت، والد أمية بن أبي الصلت:

لجج في البحر للأعداء أحوالا

ليطلب الثأر، أمثال ابن ذي يزن

فلم يجد عنده القول الذي قالوا

من السنين لقد أبعدت إيغالا

إنك عمري لقد أسرعت إرقالا

ومثل وهرز يوم الجيش إذ جالا

ما إن رأينا لهم في الناس أمثالا

أسداً تربب في الغابات أشبالا

غادرت أوجههم في الأرض أفلالا

في رأس غمدان داراً منك محلالا

وأسبل اليوم في برديك إسبالا

شيبا بماء فعادا بعد أبوالا

أني هرقل وقد شالت نعمته

ثم انتنى نحو كسرى بعد تاسعة

حتى أتى ببني الأحرار يقدمهم

من مثل كسرى وبهرام الجنود له

لله درهم من عصبه خرجوا

صيداً جحاجة بيضاً خضارمة

أرسلت أسداً على سود الكلاب فقد

اشرب هنيئاً عليك التاج مرتفقاً

ثم اطل بالمسك إذ شالت نعمتهم

تلك المكارم لا قعبان من لبن

فطلبوا الإذن عليه، فإذا هم، فدخلوا فوجدوه متضمخاً، بالعنبر يلمع وبيص المسك في مفرق رأسه، وعليه بردان أخضران، قد ائثر بأحدهما وارتدى بالآخر، وسيفه بين يديه، والملوك عن يمينه وشماله، وأبناء الملوك والمقاول. فدنا عبد المطلب فاستأذنه في الكلام؛ فقال له: قل؛ فقال؛ إن الله تعالى أيها الملك أحلك محلاً رفيعاً، صعباً منيعاً، باذخاً شامخاً، وأنتك منبتاً طابت أرومته، وعزت جرثومته، ونبل أصله، وبسق فرعه، في أكرم معدن، وأطيب موطن، فأنت -أبيت اللعن- رأس العرب، وربيعها الذي به تخصب، وملكها الذي له تنقاد، وعمودها الذي عليه العماد، ومقلها الذي إليه يلجأ العباد؛ سلفك خير سلف، وأنت لنا بعدهم خير خلف؛ ولن يهلك من أنت خلفه، ولن يخمل من أنت سلفه. نحن أيها الملك أهل حرم الله وذمته وسدنة بيته، أشخصنا إليك الذي أمهجت لكشفك، الكرب الذي فدحنا، فنحن وفد التهنته لا وفود المرزئة. قال: من أنت أيها المتكلم؟ قال: أنا عبد المطلب بن هاشم؛ قال: ابن أختنا؟ قال: نعم. فأدناه وقربه، ثم أقبل عليه وعلى القوم وقال: مرحباً وأهلاً، وناقاً ورحلاً، ومستاخاً سهلاً، وملكاً رجلاً، يعطى عطاء جزلاً؛ فذهبت مثلاً. وكان أول ما تكلم به: قد سمع الملك مقالكم، وعرف قرابتكم، وقبل وسيلتكم، فأهل الشرف والنباهة أنتم، ولكم القربى ما أقمتم، والحباء إذا ظعنتم. قال: ثم استنهضوا إلى دار الضيافة والوفود، وأجريت عليهم الأنزال، فأقاموا بيابه شهراً لا يصلون إليه، ولا يأذن لهم في الانصراف. ثم انتبه إليهم انتباهة، فدعا بعبد المطلب من بينهم، فخلا به وأدى مجلسه، وقال: يا عبد المطلب، إني مفوض إليك من سر علمي أمراً لو غيرك كان لم أبح له به، ولكني رأيتك موضعه فأطلعتك عليه، فليكن مصوناً حتى يأذن الله فيه، فإن الله بالغ أمره: إني أجد في العلم المخزون، والكتاب المكتون؛ الذي ادخرناه لأنفسنا، واحتجبناه دون غيرنا؛ خيراً عظيماً وخطراً جسيماً؛ فيه شرف الحياة، وفضيلة الوفاة؛ للناس كافة، ولرهطك عامة، ولنفسك خاصة.

قال عبد المطلب: مثلك يا أيها الملك من بر وسر وبشر، ما هو؟ فذاك أهل الوبر، زمراً بعد زمر.

قال ابن ذي زين: إذا ولد مولود بتهمامة، بين كتفيه شامة، كانت له الإمامة إلى يوم القيامة.

قال عبد المطلب: أبيت اللعن. لقد أبت بحير ما أب به أحد فلولا إجلال الملك لسألته أن يزيدني في البشارة ما أزداد به سروراً.

قال ابن ذي زين: هذا حينه الذي يولد فيه أو قد ولد، يموت أبوه وأمه، ويكفله جده وعمه؛ قد ولدناه مراراً، والله باعته جهاراً، وجاعل له منا أنصاراً؛ يعز بهم أوليائه، ويذل بهم أعداءه، ويفتتح كرائم الأرض، ويضرب بهم الناس عن عرض؛ يخدم الأديان، ويدحر الشيطان، ويكسر الأوثان، ويعبد الرحمن؛ قوله حكم وفصل، وأمره حزم وعدل؛ يأمر بالمعروف ويفعله، وينهى عن المنكر ويبطله.

فقال عبد المطلب: طال عمرك، ودام جدك، وعز فخرك؛ فهل الملك يسري بأن يوضح فيه بعض الإيضاح؟ فقال ابن ذي يزن: والبيت ذي الطنب، والعلامات والنصب، إنك يا عبد المطلب، لجده من غير كذب. فخر عبد المطلب ساجداً.

قال ابن ذي يزن: ارفع رأسك، ثلج صدرك، وعلا أمرك، فهل أحسست شيئاً مما ذكرت لك؟ قال عبد المطلب: أيها الملك، كان لي ابن كنت له محباً وعليه حدياً مشفقاً، فزوجته كريمة من كرائم قومه، يقال لها آمنة بنت وهب بن عبد مناف، فجاءت بغلام بين كتفيه شامة، فيه كل ما ذكرت من علامة، مات أبوه وأمه، وكفلته أنا وعمه.

قال ابن ذي يزن: إن الذي قلت لك كما قلت، فاحفظ ابنك، واحذر عليه اليهود، فإنهم له أعداء، ولن يجعل الله لهم عليه سبيلاً؛ اطو ما ذكرت لك، دون هؤلاء الرهط الذين معك، فإنني لست آمن أن تدخلهم النفاسة، من أن تكون لكم الرياسة؛ فيبغون له الغوائل، وينصبون له الحبائل، وهم فاعلون وأبناؤهم. ولولا أني أعلم أن الموت محتاجي قبل مبعثه لسرت بخيلي ورجلي حتى أصير بيثرب دار مهاجر. فإنني أجد في الكتاب الناطق، والعلم السابق، أن يثرب دار هجرته، وبيت نصرته، ولولا أني أتوقى عليه الآفات، وأحذر عليه العاهات، لأعلنت على حداثة سنة أمره، وأوطأت أقدام العرب عقبه؛ ولكني صارف ذلك إليك عن غير تقصير مني بمن معك.

ثم أمر لكل رجل منهم بعشرة أعبد، وعشر إماء سود، وخمسة أرطال فضة، وحلتين من حلل اليمن، وكرش مملوءة عنبراً. وأمر لعبد المطلب بعشرة أضعاف ذلك، وقال: إذا حال الحول فأنبئي بما يكون من أمره.

فما حول الحول حتى مات ابن ذي يزن، فكان عبد المطلب بن هاشم يقول: يا معشر قريش، لا يغبطني رجل منكم بجزيل عطاء الملك فإنه إلى نفاذ، ولكن يغبطني بما يبقى لي ذكره وفخره لعقبتي؛ فإذا قالوا له: وما ذاك؟ قال سيظهر بعد حين.

وفود عبد المسيح على سطيح

جرير بن حازم عن عكرمة ابن عباس قال: لما كان ليلة ولد النبي صلى الله عليه وسلم ارتج إيوان كسرى، فسقطت منه أربع عشرة شرفة؛ فعظم ذلك على أهل مملكته، فما كان أوشك أن كتب إليه صاحب اليمن يخبره أن بحيرة ساوة غاضت تلك الليلة؛ وكتب إليه صاحب السماوة يخبره أن وادي السماوة انقطع تلك الليلة؛ وكتب إليه صاحب طبرية أن الماء لم يجر تلك الليلة في بحيرة طبرية؛ وكتب إليه صاحب فارس يخبره أن بيوت النيران خمدت تلك الليلة ولم تحمد قبل ذلك بألف سنة. فلما تواترت الكتب أبرز سريره وظهر لأهل مملكته، فأخبرهم الخبر؛ فقال الموبدان: أيها الملك، إني رأيت تلك الليلة رؤيا هالتي؛ قال له: وما رأيت؟ قال: رأيت إبلاً صعباً، تقوم خيلاً عرباً، قد اقتحمت دجلة وانتشرت في بلادنا؛ قال: رأيت عظيماً، فما عهدك في تأويلها؟ قال: ما عندي فيها ولا في تأويلها شيء، ولكن أرسل إلى عاملك بالبحيرة، يوجه إليك رجلاً من علمائهم، فإنهم أصحاب علم بالحدثان، فبعث إليه عبد المسيح بن نفيثة الغساني، فلما قدم عليه، أخبره كسرى الخبر؛ فقال له: أيها الملك، والله ما عندي فيها ولا في تأويلها شيء، ولكن جهز لي خال لي بالشام، يقال له سطيح؛ قال: جهزوه، فلما قدم على سطيح وجدته قد احتضر، فناداه فلم يجبه، وكلمه فلم يرد عليه، فقال عبد المسيح:

يا فاصل الخطة أعيت من ومن

أبيض فضفاض الرداء والبدن

لا يرب الوعد ولا ريب الزمن

أصم أم يسمع غطريف اليمن

أتاك شيخ الحي من آل سنن

رسول قيل العجم يهوي للوثن

فرجع إليه رأسه، وقال: عبد المسيح، على حمل مشيخ، إلى سطيح، وقد أوفى على الضريح؛ بعثك ملك بني ساسان، لارتجاج الإيوان، وخمود النيران، ورؤيا الموبدان؛ رأى إبلاً صعباً، تقود خيلاً عرباً؛ قد اقتحمت في الواد، وانتشرت في البلاد. يا عبد المسيح، إذا ظهرت التلاوة، وفاض وادي

السماوة، وغاضت بحيرة ساوة، وظهر صاحب المراوة، وخذت نار فارس؛ فليست بابل للفرس مقاماً، ولا الشام لسطيح شاما، يملك منهم ملوك وملكات، عدد سقوط الشرفات، وكل ما هو آت آت. ثم قال:

فإن ذا الدهر أطوار دهارير

والهرمزان وسابور وسابور

يهاب صولهم الأسد المهاصير

فما يقوم لهم سرح ولا كور

أن قد أقل فمحقور ومهجور

فالخير متبع والشر محذور

إن كان ملك بني ساسان أفرطهم

منهم بنوا الصرح بهرام وإخوته

فربما أصبحوا منهم بمنزلة

حنثا المطي وأدوا في رمالهم

والناس أولاد علات فمن علموا

والخير والشر مقرونان في قرن

ثم أتى كسرى فأخبره، فغمه ذلك. ثم تعزى فقال: إلى من يملك منا أربعة عشر ملكاً يدور الزمان. فهلكوا كلهم في أربعين سنة.

الوفود على رسول الله

وفود همدان على النبي صلى الله عليه وسلم

قدم مالك بن نمط في وفد همدان على رسول الله صلى الله عليه وسلم، فلقوه مقبلاً من تبوك، فقال مالك بن نمط: يا رسول الله، نصيبة من همدان، من كل حاضر وباد، أتوك على قلع نواج، متصلة بجبال الإسلام، لا تأخذهم في الله لومة لائم، من مخالف خارف ويام وشاكر. عهدهم لا ينقض. عن سنة ما حل ولا سوداء عنقفير، ما أقام لعلع، وما جرى اليعفور بصلع.

فكتب إليهم النبي صلى الله عليه وسلم: هذا كتاب من محمد رسول الله إلى مخالف خارف، وأهل جناب الهضب، وحفاف الرمل، مع وافدها ذي المشعار، مالك بن نمط، ومن أسلم من قومه أن لهم فراعها ووهاطها وعزازها ما أقاموا الصلاة وآتوا الزكاة، يأكلون علفها، ويرعون عفاها، لنا من دفنهم وصرامهم ما سلموا بالميثاق والأمانة، ولهم من الصدقة الثلب والنباب والفصيل والفارض الداجن والكبش الحوري، وعليهم الصالغ والقارح.

وفود النخع على النبي صلى الله عليه وسلم

قدم أبو عمرو النخعي على النبي صلى الله عليه وسلم فقال: يا رسول الله، إني رأيت في طريقي هذه رؤيا، رأيت أتاناً تركتها في الحي ولدت جدياً أسفع أحوى؛ فقال رسول الله صلى الله عليه وسلم: هل لك من أمة تركتها مصرّة حملاً؟ قال: نعم، تركت أمة لي أظنها قد حملت؛ قال: فقد ولدت غلاماً وهو ابنك؛ قال: فما له أسفع أحوى؟ قال: ادن مني؛ فدنا منه. فقال: هل بك برص تكتمه؟ قال: نعم، والذي بعثك بالحق نبياً ما رآه مخلوق ولا علم به؛ قال: فهو ذلك. قال: ورأيت النعمان بن المنذر عليه قرطان ودملجان ومسكتان؛ قال: ذلك ملك العرب عاد إلى أفضل زيه وبهجتته. قال: ورأيت عجوزاً شطاء تخرج من الأرض؛ قال: تلك بقية الدنيا. قال: ورأيت ناراً خرجت من الأرض فحالت بيني وبين ابن لي يقال له عمرو، ورأيتها تقول: لظي لظي، بصير وأعمى، أطعموني، آكلكم آكلكم، أهلككم وما لكم. فقال النبي صلى الله عليه وسلم: تلك فتنة في آخر الزمان: قال: وما الفتنة يا رسول الله؟ قال: يقتل الناس إمامهم ثم يشتجرون أطباق الرأس -وخالف رسول الله صلى الله عليه وسلم بين أصابعه- يحسب المسيء أنه محسن، ودم المؤمن عند المؤمن أحلى من شرب الماء.

وفود كلب على النبي صلى الله عليه وسلم قدم قطن بن حارثة العليمي في وفد كلب على النبي صلى الله عليه وسلم فذكر كلاماً، فكتب له رسول الله صلى الله عليه وسلم كتاباً نسخته: هذا كتاب من محمد رسول الله لعمائر طلب وأحلافها، ومن ظأره الإسلام من غيرها، مع قطن بن حارثة العليمي،

فإقامة الصلاة لوقتها، وإيتاء الزكاة لحقتها، في شدة عقدها، ووفاء عهدها؛ محضر شهود من المسلمين: سعد بن عباد، وعبد الله بن أنيس، ودحية بن خليفة الكلبي. عليهم في الحمولة الراعية البساط الظوار، في كل خمسين ناقة غير ذات عوار، والحمولة المائرة لهم لاغية؛ وفي الشوي الوري مسنة حامل أو حائل، وفيما سقى الجدول من العين المعين العشر من ثمرها مما أخرجت أرضها، وفي العذي شطره بقيمة الأمين، فلا تزداد عليهم وظيفة ولا يفرق، يشهد الله تعالى على ذلك ورسوله. وكتب ثابت بن قيس بن شماس.

وفود ثقيف على النبي صلى الله عليه وسلم

وفدت ثقيف على النبي صلى الله عليه وسلم فكتب لهم كتاباً حين أسلموا: إن لهم ذمة الله، وإن واديتهم حرام عضاهه وصيده وظلم فيه، وإن ما كان لهم من دين إلى أجل فبلغ أجله فإنه لياط مبرأ من الله ورسوله، وإن ما كان لهم من دين في رهن وراء عكاظ فإنه يقضى إلى رأسه ويلاط بعكاظ ولا يؤخر.

وفود مذحج على النبي صلى الله عليه وسلم

وفد ظبيان بن حداد في سراة مذحج على النبي صلى الله عليه وسلم، فقال: بعد السلام على رسول الله صلى الله عليه وسلم، والثناء على الله عز وجل بما هو أهله: الحمد لله الذي صدع الأرض بالنبات، وفتق السماء بالرجع. ثم قال: نحن قوم من سراة مذحج من يجابر بن مالك. ثم قال: فتوقلت بنا القلاص، من أعالي الحوف ورؤوس الهضاب، ترفعها عرر الربا، وتخفضها بطنان الرفاق، وتلحفها دياحي الدجى. ثم قال: وسروات الطائف كانت لبني مهلائيل بن قينان غرسوا وديانها، وذللو خشانها، ورعوا قريانها. ثم ذكر نوحاً حين خرج من السفينة بمن معه، قال: فكان أكثر بنيه نباتا، وأسرعهم نباتا، عاد وثمود، فرماهم الله بالدمالق، وهم الذي خطوا مشاربها، وأتوا جداولها، وأحيوا غراسها، ورفعوا عريشها. ثم قال: وإن حمير ملكوا معاقل الأرض وقرارها، وكهول الناس وأغامارها، ورؤوس الملوك وغرارها، فكان لهم البيضاء والسوداء، وفارس الحمراء، والجزية الصفراء؛ فبطروا النعم، واستحقوا النقم، فضرب الله بعضهم ببعض. ثم قال: وإن قبائل من الأزدي نزلوا على عهد عمرو بن عامر، ففتحوا فيها الشرائع، وبنوا فيها المصانع، واتخذوا الدسائع، ثم ترامت مذحج بأستنها، وتترت بأعتنتها، فغلب العزيز أذلها، وقتل الكثير أفلها. ثم قال: وكان بنو عمرو بن جذيمة يخطون عضيدها، ويأكلون حصيداها، ويرشحون حصيداها. فقال رسول الله صلى الله عليه وسلم: إن نعيم الدنيا أقل وأصغر عند الله من خرة بعيضة، ولو عدلت عند الله جناح ذباب لم يكن لكافر منها خلاق، ولا لمسلم منها لحاق.

وفود لقيط بن عامر بن المنتفق على النبي صلى الله عليه وسلم

وفد لقيط بن المنتفق على النبي صلى الله عليه وسلم ومعه صاحب له، يقال له هنيك بن عاصم بن مالك بن المنتفق. قال لقيط: فخرجت أنا وصاحبي حتى قدمنا لانسلاخ رجب، فأتينا رسول الله صلى الله عليه وسلم حين انصرف من صلاة الغداة، فقام في الناس خطيباً، فقال: أيها الناس، ألا إني قد خبأت لكم صوتي من أربعة أيام لتسمعوا الآن، ألا فهل من امرئ قد بعته قومه؟ -فقالوا: اعلم لنا ما يقول رسول الله صلى الله عليه وسلم- ألا، ثم لعله أن يلهبه حديث نفسه أو حديث صاحبه أو يلهيه ضال، ألا وإني مسئول هل بلغت، ألا اسمعوا، ألا اجلسوا. فجلس الناس: وقمت أنا وصاحبي، حتى إذا فرغ لنا فواده وبصره، قلت: يا رسول الله، ما عندك من علم الغيب؟ فضحك لعمر الله وهز رأسه، وعلم أني أبتغى سقطه؛ فقال: صن ربك عز وجل بمفاتيح خمس من الغيب لا يعلمهن إلا الله. وأشار بيده. قلت: وما هي؟ قال: علم المنية، قد علم متى منية أحدكم ولا تعلمونه؛ وعلم ما في غد، وما أنت طاعم غداً، ولا تعلمه وعلم النبي حين يكون في الرحم، قد علمه ولا تعلمونه؛ وعلم الغيث، يشرف عليكم آزليين مستئين فيظل يضحك، قد علم أن عونكم قريب -قال لقيط: قلت: لن نعدم من رب يضحك خيراً- وعلم يوم الساعة؛ قلت: يا رسول الله، إني أسألك عن حاجتي فلا تعجلني؛ قال: سل عما شئت؛ قال قلت: يا رسول الله، علمنا مما لا يعلم الناس ومما تعلم، فإننا من قبيل لا يصدقون تصديقنا أحداً، من مذحج التي

تدنو إليها وحشعهم التي توألتنا وعشيرتنا التي نحن منها. قال رسول الله صلى الله عليه وسلم: تلبثون ما لبثتم، ثم توفي نبيكم، ثم تلبثون حتى تبعث الصيحة، فلعمر إلهك ما تدع على ظهرها من شيء إلا مات والملائكة الذين عند ربك، فيصبح ربك يطوف في الأرض وقد حلت عليه البلاد، فيرسل ربك السماء بهضب من عند العرش، فلعمر إلهك ما تدع ظهرها من مصرع قتيل، ولا مدفن ميت إلا شقت القبر عنه حتى تخلقه من قبل رأسه، يستوي اليوم!. ولعهده بالحياة يحسبه حديث عهد بأهله. فقلت: يا رسول الله، كيف يجمعنا بعد ما قد تفرقنا الرياح والبلبل والسباع؟ قال: أنبتك بمثل ذلك في إلهك، أشرفت على الأرض وهي مدبرة يابسة، فقلت: لا تحيا هذه أبداً؛ ثم أرسل ربك عليها السماء فلم تلبث إلا أياماً حتى أشرفت عليها وهي شربة واحدة. ولعمر إلهك هو أقدر على أن يجمعكم من الماء على أن يجمع نبات الأرض، فتخرجون من الأصواء. -قال ابن إسحاق: الأصواء: أعلام القبور.

ومن مصارعكم، فتنتظرون إليه ساعة وينظر إليكم. قال: قلت: يا رسول الله، كيف ونحن ملء الأرض وهو شخص واحد ينظر إلينا وننظر إليه؟ قال: أنبتك بمثل ذلك في إلهك، الشمس والقمر آية منه صغيرة، تروهما ويريانكم ساعة واحدة. ولعمر إلهك هو أقدر على أن يراكم وترونه من أن تروهما ويريانكم لا تضارون في رؤيتهما. قال: قلت: يا رسول الله، فما يفعل بنا ربنا إذا لقيناه؟ قال: تعرضون عليه بادية له صفحاتكم لا تخفى منكم خافية، فيأخذ ربك عز وجل بيده غرفة من الماء فينضح بها قلبكم، فلعمر إلهك ما تخطئ وجه واحد منكم قطرة، فأما المسلم فتدع وجهه مثل الريطة البيضاء، وأما الكافر بتخطمه بمثل الحمم الأسود، ثم ينصرف نبيكم ويتفرق على أثره الصالحون؛ قال: فتسلكون جسراً من النار، فيطأ أحدكم الجمر، فيقول: حس؛ فيقول ربك عز وجل: أو إنه؟ فتطلعون على حوض الرسول لا يظلم الله ناهله، فلعمر إلهك ما ييسط أحد منكم يده إلا وقع عليها قرح يظهره من الطوف والبول والأذى، وتحبس الشمس والقمر فلا ترون منهما أحداً. قال: قلت: يا رسول الله، فبم نبصر يومئذ؟ قال: بمثل بصر ساعتك هذه، وذلك مع طلوع الشمس في يوم أشرقت الأرض وواجهته الجبال. قال: قلت: يا رسول الله، فبم نجزي من سيئاتنا وحسناتنا؟ قال: الحسنه بعشر أمثالها، والسيئة بمثلها أو يعفو. قال: قلت: يا رسول الله، فما الجنة وما النار؟ قال: لعمر إلهك، إن للنار سبعة أبواب ما منها بابان إلا يسير الراكب بينهما سبعين عاماً، وإن للجنة ثمانية أبواب، ما منها بابان إلا يسير الراكب بينهما سبعين عاماً. قال: قلت: يا رسول الله، فعلام نطلع من الجنة؟ قال: على ألها من عسل مصفى، وألها من كأس ما بها من صداع ولا ندامة، وألها من لبن لم يتغير طعمه، وماء غير آسن وفاكهة، لعمر إلهك ما تعلمون، وخير من مثله معه، وأزواج مطهرة. قال: قلت: يا رسول الله، أولنا فيها أزواج، أو منهن صالحات؟ قال: الصالحات للصالحين، تلذون بهن مثل لذاتكم في الدنيا ويلذدن بكم، غير أن لا توالد. قال لقيط: قلت: أقصى ما نحن بالعون ومنتنون إليه. فلم يجبه النبي صلى الله عليه وسلم. قال: قلت: يا رسول الله، علام أباعاك؟ قال: فبسط إلي يده وقال: على إقامة الصلاة، وإيتاء الزكاة، وزيال الشرك، فلا تشرك بالله إلهاً غيره. قال: قلت: وإن لنا ما بين المشرق والمغرب؟ فقبض النبي صلى الله عليه وسلم يده ووطن أن أشرط عليه شيئاً لا يعطينيه قال: قلت نحل منها حيث شئنا، ولا يجزي عن امرئ إلا نفسه؟ فبسط إلي يده وقال: ذلك لك: حل حيث شئت، ولا يجزي عنك إلا نفسك. قال: فانصرفنا عنه.

وفود قبيلة على النبي صلى الله عليه وسلم

خرجت قبيلة بنو مخزومة التميمية تبغي الصحبة إلى رسول الله صلى الله عليه وسلم، وكان عم بناهما، وهو أثوب بن أزره، قد انتزع منها بناهما، فبكت جويرية منهن حديباء قد أخذتها الفرصة، عليها سبيح من صوف، فرحمتها فذهبت بها. فبينما هما تتركان الجمل إذا انتفجت منه الأرنب. فقال الحديباء: الفضية، والله لا يزال كعبك أعلى من كعب أثوب، ثم سنع الثعب، فسمته اسماً غير الثعلب نسيه ناقل الحديث. ثم قالت فيه، مثل ما قالت في الأرنب، فبينما هما تتركان الجمل إذ برك الجمل وأخذته رعدة. فقالت الحديباء: أخذتك -والأمانة إخدة أثوب. قالت قبيلة: فقلت لها: فما أصنع؟ ويحك! قالت: قلبي ثيابك ظهورها لبطونها، وادحرجي ظهرك لبطنك، واقلي أحلاس جملك، ثم خلعت سبيجها فقلبت، ثم ادحرجت ظهرها لبطنها، فلما فعلت ما أمرتني به انتفض الجمل، ثم قام ففأج وبال. فقالت: أعيدي عليه أداتك. ففعلت، ثم خرجنا نرتك، فإذا أثوب يسعى وراءنا بالسيف

صلتنا، فوألنا إلى حواء ضخم فداراه، حتى ألقه الجمل إلى رواقه الأوسط وكان جملاً ذلولاً، واقتحمت داخله، وأدركني بالسيف، فأصابته ظنبته طائفة من قرون رأسيه، ثم قال: ألق إلي ابنة أخي يا دفار. فألقيتها إليه، فجعلها على منكبيه وذهب بها، وكنت أعلم به من أهل البيت. وخرجت إلى أخت لي ناكح في بني شيبان أبتغي الصحبة إلى رسول الله صلى الله عليه وسلم؛ فبينما أنا عندها تحسب أي نائمة، إذ جاء زوجها من السامر، فقال لها: وأبيك، لقد وجدت لقيلة صاحب صدق. قالت أختي: من هو؟ قال: حريث بن حسان الشيباني، وافد بكر بن وائل عاويماً ذا صياح. فقالت أختي: الويل لي! لا تخبرها، ففتبع أبا بكر بن وائل بين سمع الأرض وبصرها، ليس معها أحد من قومها؛ قال: لا ذكرته. قالت: وسمعت ما قالاً فغدوت إلى جملي فشددت عليه، ثم نشدت عنه فوجدته غير بعيد، فسألته الصحبة؛ فقال: نعم وكرامة، وركابه مناخ عنده. قالت: فسرت معه صاحب صدق، حتى قدمنا على رسول الله صلى الله عليه وسلم، وهو يصلي بالناس صلاة الغداة، قد أقيمت حين شق الفجر، والنجوم شابكة في السماء، والرجال لا تكاد تعارف من ظلمة الليل فصففت مع الرجال، وأنا امرأة قريبة عهد بجاهلية. فقال الرجل الذي يليني من الصف: امرأة أنت أم رجل؟ فقلت: لا، بل امرأة؛ فقال: أنك كدت تفتنيني، فصلي في النساء وراءك. فإذا صف من نساء قد حدثت عند الحجلات لم أكن رأيتك إذا دخلت، فكنت فيهن، حتى إذا طلعت الشمس دنوت، لجعلت إذا رأيت رجلاً ذا رواء وقشر طمخ إليه بصري لأرى رسول الله فوق الناس، حتى جاء رجل، فقال: السلام عليك يا رسول الله؛ فقال: وعليك السلام ورحمة الله؛ وعليه -تعني النبي صلى الله عليه وسلم أسماي مليونين، كانتا بزعران قد نفضتا، ومعه عسيب نخلة مقشو غير حوصتين من أعلاه، وهو قاعد القرفصاء، فلما رأيت رسول الله صلى الله عليه وسلم متخشعاً في الجلسة أرعدت من الفرق؛ فقال جليسه: يا رسول الله، أرعدت المسكينة. فقال رسول الله، ولم ينظر إلي وأنا عند ظهره: يا مسكينة عليك السكينة. قالت: فلما قالها صلى الله عليه وسلم أذهب الله ما كان دخل في قلبي من الرعب، وتقدم صاحب أول رجل فبايعه على الإسلام، عليه وعلى قومه، ثم قال: يا رسول الله، اكتب بيننا وبين تميم كتاباً بالدهناء لا يجاوزها إلينا منهم إلا مسافر أو مجاوز. قال: يا غلام، اكتب له بالدهناء. قالت: فلما رأيت أمر أن يكتب له، شخص بي، وهي وطني وداري، فقلت: يا رسول الله، إنه لم يسألك السوية من الأرض إذ سألتك، إنما هذه الدهناء مقيد الجمل ومرعى الغنم، ونساء بني تميم وأبنائها وراء ذلك؛ فقال: أمسك يا غلام، صدقت المسكينة: المسلم أحر المسلم، يسعهما الماء والشجر، ويتعاونان على الفتان. فلما رأى حريث أن قد حيل دون كتابه، قال: كنت أنا وأنت كما قال في المثل: حتفها تحمل ضأن بأظلافها؛ فقلت: أما والله ما علمت إن كنت لدليلاً في الظلماء، جواداً لدى الرجل، عفيفاً عن الرفيقة حتى قدمنا على رسول الله صلى الله عليه وسلم، ولكن لا تلمني أن أسأل حظي إذ سألت حظك؛ قال: وأي حظ لك في الدهناء لا أبالك؟ قلت: مقيد جملي تريده لجمل امرأتك؛ فقال: لا حرم، إني أشهد رسول الله أني لك أخ ما حييت إذ أثنت علي عنده؛ فقلت: إذ بدأها فلن أضيعها. فقال رسول الله صلى الله عليه وسلم: أيلام ابن هذه أن يفضل الخطة، وينتصر من وراء الحجرة؛ فبكيته ثم قلت: فقد والله ولدته يا رسول الله حراماً، فقاتل معك يوم الربرة، ثم ذهب يمتري خير، فأصابته حماها ومات، فقال: لو لم تكوني مسكينة لجررتك على وجهك. أيغلب أحميدكم على أن يصاحب صويجه في الدنيا معروفاً فإذا حال بينة وبينه من هو أولى بن استرجع ثم قال: رب آسني لما أمضيت، وأعني على ما أبقيت. فوالذي نفس محمد بيده إن أحدكم ليكي فيستعير له صويجه، فيا عباد الله لا تعذبوا إخوانكم. ثم كتب لها في قطعة آدم أحمر: لقيلة والنسوة من بنات قيلة أن لا يظلمن حقاً، ولا يكرهن على منكح، وكل مؤمن ومسلم لمن نصير، أحسن ولا تسئن.

كتاب رسول الله لأكيدر دومة صلى الله عليه وسلم لأكيدر دومة

من محمد رسول الله لأكيدر دومة حين أحاب إلى الإسلام، وخلع الأنداد والأصنام، مع خالد بن الوليد سيف الله في دومة الجندل وأكنافها: إن لنا الضاحية من الضحل والبور، والمعامي وأغفال الأرض، والحلقة، والسلاح والحافر والحصن؛ ولكم الضامنة من النخل والمعين من العمور، ولا تعدل سارحتكم ولا تعد فاردتكم، ولا يحظر عليكم النبات، تقيمون الصلاة لوقتها، وتؤتون الزكاة بحقها، عليكم بذلك عهد الله والميثاق، ولكم به الصدق والوفاء، شهد الله ومن حضر من المسلمين.

كتابه لوائيل بن حجر الحضرمي صلى الله عليه وسلم لوائيل بن حجر الحضرمي

من محمد رسول الله إلى الأقبال العباهلة والأرواح المشاييب من أهل حضرموت، بإقامة الصلاة، وإيتاء الزكاة، في التبعة شاة، لا مقورة الألباط ولا ضناك، وأنطوا الثبجة، والتيمة لصاحبها، وفي السيوب الخمس، لا خللاط ولا وراط، ولا شناق، ولا شغار، ومن أجى فقد أربى، وكل مسكر حرام.

حديث جرير بن عبد الله البجلي

قدم جرير بن عبد الله البجلي على رسول الله صلى الله عليه وسلم، فسأله عن منزله ببيشة، فقال: سهل ودكداك، وسلم وأراك، وحمض وعلاك، إلى نخلة ونخلة، ماؤها ينبوع، وجناها مريع، وشتاؤها ربيع. فقال رسول الله صلى الله عليه وسلم: إن خير الماء الشبم، وخير المال الغنم، وخير المرعى الأراك، والسلم إذا أحلف كان لجينا، وإذا سقط كان درينا، وإذا أكل كان لينا. وفي كلامه عليه السلام: إن الله خلق الأرض السفلى من الزبد الجفاء، والماء الكباء.

حديث عياش بن أبي ربيعة

بعث رسول الله صلى الله عليه وسلم عياش بن أبي ربيعة إلى بني عبد كلال، وقال له: خذ كتابي بيمينك وادفعه بيمينك في أيماهم، فهم قاتلون لك اقرأ، فأقرأ: "لم يكن الذين كفروا من أهل الكتاب والمشركين منفكين"، فإذا فرغت منها فقل: آمن محمد وأنا أول المؤمنين، فلن تأنيك حجة إلا وقد دحضت، ولا كتاب زحرف إلا وذهب نوره، ومح لونه، وهم قارئون، فإذا رطنوا فقد ترجموا، فقل: حسن، آمنت بالله وبما أنزل من كتاب الله، فإذا أسلموا، فسلهم قضبهم الثلاثة التي إذا تحصروا بها سجد لهم: وهي الأثل، قضيب ملمع بياض، وقضيب ذو عجر كأنه من خيزران، والأسود البهيم، كأنه من ساسم، اخرج بها فحرقها في سوقهم.

حديث راشد بن عبد ربه السلمي

عبد الله بن الحكم الواسطي عن بعض أشياخ أهل الشام قال قال: استعمل رسول الله صلى الله عليه وسلم أبا سفيان بن حرب على نجران، فولاه الصلاة والحرب، ووجه راشد بن عبد ربه أميراً على القضاء والمظالم. فقال راشد بن عبد ربه:

وردت عليه ما نفتته تماضر

وللشيب عن بعض الغواية زاجر

عن الجهل لما أبيض مني الغدائر

بمعرض ذي الآجام عيس بواكر

وحلت ولاقاها سليم وعامر

وبين قرى بصرى ونجران كافر

كما قر عيناً بالإياب المسافر

صحا القلب عن سلمى وأقصر شأوه

وحكمه شيب القذال عن الصبا

فأقصر جهلي اليوم وارتد باطلا

على أنه قد هاجه بعد صحوة

ولما دنت من جانب الغوط أخصبت

وخبرها الركبان أن ليس بينها

فألقت عصاها واستقرت بها النوى

وفود نابغة بني جعدة على النبي صلى الله عليه وسلم

وفد أبو ليلى نابعة بني جعدة على النبي صلى الله عليه وسلم، فأنشده شعره الذي يقول فيه:

وإننا لنبغي فوق ذلك مظهرا

بلغنا السماء مجدنا وسناؤنا

قال له النبي صلى الله عليه وسلم: إلى أين أبا ليلى؟ قال: إلى الجنة؛ قال النبي صلى الله عليه وسلم: إن شاء الله. فلما انتهى إلى قوله:

بوادر تحمي صفوه أن يكذرا

ولا خير في حلم إذا لم تكن له

فقال له النبي صلى الله عليه وسلم: لا يفضض الله فاك، فعاش مائة وثلاثين سنة لم تنفض له سن. وبقي حتى وفد على عبد الله بن الزبير في أيامه بمكة وامتدحه؛ فقال له: يا أبا ليلى، أن أدنى وسائلك عندنا الشعر، لك في مال الله حقان: حق برؤيتك رسول الله صلى الله عليه وسلم، وحق بشركتك أهل الإسلام في فيئهم، ثم أحسن صلته وأجازه.

وفود طهفة بن أبي زهير على رسول الله صلى الله عليه وسلم

لما قدمت وفود العرب على النبي صلى الله عليه وسلم، قام طهفة بن أبي زهير، فقال: يا رسول الله، أتيناك من غوري تامة بأكوار الميس، ترمي بنا العيس، نستحلب الصبير، ونستحلب الخبير، ونستعضد البرير؛ ونستحيل الرهام، ونستجبل الجهم؛ من أرض غائلة النطاء، غليظة الوطاء؛ قد نشف المدهن، وييس الجعثن؛ ومات العسلوج؛ وسقط الأملوج؛ وهلك الهدي، ومات الودي. برئنا يا رسول الله من الوثن والعنن، وما يحدث الزمن؛ لنا دعوة السلام، وشرعية الإسلام؛ ما طمى البحر وقام تعار؛ ولنا نعم همل أغفال، ما تبص ببال؛ ووقير كثير الرسل قليل الرسل أصابتها سنية حمراء، مؤزلة ليس بها علل ولا نهل.

فقال رسول الله صلى الله عليه وسلم: اللهم بارك لهم في محضها ومحضها ومذقها، وابعث راعيها في الدثر، بيانع الثمر؛ وافجر له الثمد، وبارك له في المال والولد؛ من أقام الصلاة كان مسلماً، ومن أتى الزكاة كان محسناً، ومن شهد أن لا إله إلا الله كان مخلصاً. لكم يا بني نهد، ودائع الشرك، ووضائع الملك؛ لا تلطط في الزكاة، ولا تلحد في الحياة، ولا تتافل عن الصلاة.

وكتب معه كتاباً على بني نهد: بسم الله الرحمن الرحيم، من محمد رسول الله إلى بني نهد بن زيد: السلام على من آمن بالله ورسوله، لكم يا بني نهد في الوظيفة الفريضة، ولكم الفارض والفريش، وذو العنان الركوب، والفلو الضبيس، لا يمنع سرحكم، ولا يعضد طلحكم، ولا يجبس دركم، ما لم تضمروا الإمآق، وتأكلوا الرباق، من أقر بما في هذه الكتاب، فله من رسول الله صلى الله عليه وسلم الوفاء بالعهد والذمة، ومن أبي عليه فعليه الربوة.

الوفود على عمر بن الخطاب

وفود جبلة بن الأيهم على عمر بن الخطاب رضي الله عنه

العجلي قال: حدثني أبو الحسن علي بن أحمد بن عمر بن الأجدع الكوفي بهيت، قال: حدثني إبراهيم بن علي مولى بني هاشم، قال: حدثنا ثقات شيوخنا: أن جبلة بن الأيهم بن أبي شمر الغساني لما أراد أن يسلم كتب إلى عمر بن الخطاب من الشام يعلمه بذلك يستأذنه في القدوم عليه، فسر بذلك عمر والمسلمون، فكتب إليه أن أقدم ولك ما لنا وعليك ما علينا: فخرج جبلة في خمسمائة فارس من عك وحفنة، فما دنا من المدينة ألبسهم ثياب الوشي المنسوج بالذهب والفضة، ولبس يومئذ جبلة تاجه وفيه قرط مارية، وهي جدته، فلم يبق يومئذ بالمدينة أحد إلا خرج ينظر إليه حتى النساء والصبيان، وفرح المسلمون بقدومه وإسلامه، حتى حضر الموسم من عامه ذلك مع عمر بن الخطاب، فبينما هو يطوف بالبيت إذ وطئ على إزاره رجل من بني فرارة فحله، فالتفت إليه جبلة مغضباً، فلطمه فهشم أنفه، فاستعدى عليه الفزاري عمر بن الخطاب، فبعث إليه فقال: ما دعاك يا جبلة إلى أن لطمت أحاك هذا الفزاري فهشمت أنفه؟ فقال: إنه وطئ أزارى فحله، ولولا حرمة هذا البيت لأخذت الذي في عيناه؛ فقال له عمر: أما أنت فقد أقررت، إما أن ترضيه وإلا أقدته منك؛ قال: أتقيده مني وأنا ملك وهو سوقة؟ قال: يا جبلة، إنه قد جمعك وإياه الإسلام، فما تفضله بشيء إلا

بالعافية؛ قال: والله لقد رجوت أن أكون في الإسلام أعز مني في الجاهلية؛ قال عمر: دع عنك ذلك؛ قال: إذن أنتصر؛ قال: إن تنصرت ضربت عنقك. قال: واجتمع قوم جبلة وبنو فزارة فكادت تكون فتنة؛ فقال جبلة: أخرجني إلى غد يا أمير المؤمنين؛ قال: ذلك لك. فلما كان جنح الليل خرج هو وأصحابه، فلم يبق حتى دخل القسطنطينية على هرقل فتنصر، وأقام عنده، وأعظم هرقل قدوم جبلة وسر بذلك، وأقطعته الأموال والأراضي والرباع. فلما بعث عمر بن الخطاب رسولاً إلى هرقل يدعوه إلى الإسلام أجابه إلى المصالحة على غير الإسلام، فلما أراد أن يكتب جواب عمر، قال للرسول: ألقيت ابن عمك هذا الذي ببلدنا - يعني جبلة - الذي أتانا راغباً في ديننا؟ قال: ما لقيته؛ قال: ألقه، ثم اتيتني أعطك جواب كتابك. وذهب الرسول إلى باب جبلة، فإذا عليه من القهارة والحجاب والبهجة وكثر الجمع مثل ما على باب هرقل. قال الرسول: فلم أزل أنلطف في الإذن، حتى أذن لي، فدخلت عليه، فرأيت رجلاً أصهب اللحية ذا سبال، وكان عهدي به أسمر أسود اللحية والرأس، فنظرت إليه فأنكرته، فإذا هو قد دعا بسحالة الذهب فذرهما في لحيته حتى عاد أصهب، وهو قاعد على سرير من قوارير، قوائمه أربعة أسود من ذهب، فلما عرفني رفعني معه في السرير، فجعل يسألني عن المسلمين، فذكرت خيراً وقلت: قد أضعفوا أضعافاً على ما تعرف؛ فقال: كيف تركت عمر ابن الخطاب؟ قلت: بخير، فرأيت الغم قد تبين فيه، لما ذكرت له من سلامة عمر؛ قال: فأنحدرت عن السرير؛ فقال: لم تأبى الكرامة التي أكرمناك بها؟ قلت: إن رسول الله صلى الله عليه وسلم نهي عن هذا؛ قال: نعم، صلى الله عليه وسلم، ولكن نق قلبك من الدنس، ولا تبال علام تعدت. لما سمعته يقول: صلى الله عليه وسلم، طمعت فيه؛ فقلت له: ويحك يا جبلة! ألا تسلم وقد عرفت الإسلام وفضله؟ قال: أبعدها ما كان مني؟ قلت: نعم، قد فعل رجل من بني فزارة أكثر مما فعلت، ارتد عن الإسلام وضرب وجوه المسلمين بالسيف، ثم رجع إلى الإسلام، وقبل ذلك منه، وخلفه بالمدينة مسلماً؛ قال: ذري من هذا، إن كنت تضمن لي أن يزوجني عمر ابنته ويوليبي الأمر من بعده رجعت إلى الإسلام؛ قال: ضمنت لك التزوج، ولم أضمن لك الإمرة؛ قال: فأوماً إلى خادم بين يديه، فذهب مسرعاً، فإذا خدم قد جاءوا يحملون الصناديق فيها الطعام، فوضعت ونصبت موائد الذهب وصحاف الفضة، وقال لي: كل، فقبضت يدي، وقلت: إن رسول الله صلى الله عليه وسلم نهي عن الأكل في آنية الذهب والفضة، فقال نعم، صلى الله عليه وسلم، ولك نق قلبك وكل فيما أحببت، قال: فأكل في الذهب والفضة وأكلت في الخليج، فلما رفع الطعام جيء بطساس الفضة وأباريق الذهب، وأوماً إلى خادم بين يديه، فمر مسرعاً، فسمعت حساً، فالتفت، فإذا خدم معهن الكراسي مرصعة بالجواهر، فوضعت عشرة عن يمينه وعشرة عن يساره، ثم سمعت حساً، فإذا عشر جوار قد أقبلن مطمومات الشعر متكسرات في الحلبي عليهن ثياب الديباج، فلم أر وجوها قط أحسن منهن، فأقعدهن على الكراسي عن يمينه ثم سمعت حساً، فإذا عشر جوار أخرى، فأجلسهن على الكراسي عن يساره، ثم سمعت حساً، فإذا جارية كأنها الشمس حسناً وعلى رأسها تاج، وعلى ذلك التاج طائر لم أر أحسن منه، وفي يدها اليمنى جام فيه مسك وعنبر، وفي يدها اليسرى جام فيه ماء ورد؛ فأومأت إلى الطائر، أو قال فصرفت بالطائر، فوقع في جام ماء الورد فاضطرب فيه، ثم أومأت إليه، أو قال فصرفت به، فطار حتى نزل على صليب في تاج جبلة، فلم يزل يرفرف حتى نفص ما ريشه عليه، وضحك جبلة من شدة السرور حتى بدت أنيابه، ثم التفت إلى الجواري اللواتي عن يمينه، فقال: بالله أظربنني. فاندفعن يتغنين يخفنن بعيداهن ويقلن:

يوماً بجلق في الزمان الأول

بردى يصفق بالرحيق السلسل

قبر ابن مارية الكريم المفضل

لا يسألون عن السواد المقبل

شم الأنوف من الطراز الأول

لله در عصابة نادمتهم

يسقون من وريد البريص، عليهم

أولاد جفنة حول قبر أبيهم

يغشون حتى ما تهر كلابهم

بيض الوجوه كريمة أحسابهم

قال: فضحك حتى بدت نواجذه، ثم قال: أتدري من قاتل هذا؟ قلت: لا، قال: قاتله حسان بن ثابت شاعر رسول الله صلى الله عليه وسلم، ثم التفت إلى الجواري اللاتي عن يساره، فقال: بالله أبكيننا، فاندفعن يتغنين يخفنن بعيداهن ويقلن:

لمن الدار أقفرت بمعان

ذاك مغنى لآل جفنة في الدهر

قد أراني هناك دهرًا مكيناً

ودنا الفصح فالولائد ينظمن

لم يعللن بالمغافير والسمع

بين أعلى اليرموك فالخمان

محلاً لحادث الأزمان

عند ذلك التاج مقعدي ومكاني

سراعاً أكلة المرجان

ولا نقف حنظل الشريان

قال: فبكي حتى جعلت الدموع تسيل على لحيتي، ثم قال: أتدري من قائل هذا؟ قلت لا أدري؛ قال: حسان بن ثابت. ثم أنشأ يقول:

وما كان فيها لو صبرت لها ضرر

وبعت لها العين الصحيحة بالعمور

رجعت إلى الأمر الذي قال لي عمر

وكننت أسيراً في ربيعة أو مضر

أجالس قومي ذاهب السمع والبصر

تنصرت الأشراف من عار لظمة

تكفني منها لجاج ونخوة

فيا ليت أمني لم تلدني ولتيتي

ويا ليتني أرعى المخاض بفقرة

ويا ليت لي بالشام أدنى معيشة

ثم سألتني عن حسان: أحي هو؟ قلت: نعم، تركته حياً. فأمر لي بكسوة ومال، ونوق موقرة برا، ثم قال لي: إن وجدته حياً، فادفع إليه الهدية وأقرته سلامي، وإن وجدته ميتاً فادفعها إلى أهله، وأنخر الجمال على قبره. فلما قدمت على عمر أخبرته خبر جبلة وما دعوته إليه من الإسلام، والشرط الذي شرطه، وأني ضمننت له التزوج، ولم أضمن له الإمرة. فقال: هلا ضمننت له الإمرة؟ فإذا أفاء الله به الإسلام قضى عليه بحكمه عز وجل. ثم ذكرت له الهدية التي أهداها إلى حسان بن ثابت. فبعث إليه، وقد كف بصره؛ فأتي به وقائد يقوده، فلما دخل، قال: يا أمير المؤمنين، إني لأجد رياح آل جفنة عندك؛ قال: نعم، هذا رجل أقبل من عنده؛ قال: هات يا بن أخي، إنه كريم من كرام مدحتهم في الجاهلية فحلف أن لا يلقى أحداً يعرفني إلا أهدى إلي معه شيئاً. فدفعت إليه الهدية: المال والثياب، وأخبرته بما كان أمر به في الإبل إن وجد ميتاً؛ فقال: وددت أني كنت ميتاً، فنحرت على قبري. قال الزبير: وانصرف حسان وهو يقول:

لم يغذهم أبأؤهم باللوم

مهلكاً ولا متصراً بالروم

إلا كيبعض عطية المذموم

إن ابن جفنة من بقية معشر

لم ينسني بالشام إذ هو ربها

يعطى الجزيل ولا يراه عنده

فقال له رجل كان في مجلس عمر: أتذكر ملوكاً كفرة أبادهم الله وأفناهم؟ قال: ممن الرجل؟ قال: مزني؛ قال: أما والله لولا سوابق قومك مع رسول الله صلى الله عليه وسلم لطوقت؛ طوق الحمامة. قال: ثم جهزني عمر إلى قيصر وأمرني أن أضمن لجبلة ما اشترط به، فلما قدمت القسطنطينية وجدت الناس منصرفين من جنازته، فعملت أن الشقاء غلب عليه في أم الكتاب.

وفود الأحنف على عمر بن الخطاب رضي الله عنه

المدائني قال: قدم الأحنف بن قيس التميمي على عمر بن الخطاب رضي الله عنه في أهل البصرة وأهل الكوفة، فتكلموا عنده في أنفسهم وما ينوب كل واحد منهم، وتكلم الأحنف فقال: يا أمير المؤمنين، إن مفاتيح الخير بيد الله، وقد أتتك وفود أهل العراق، وإن إخواننا من أهل الكوفة والشام ومصر

نزلوا منازل الأمم الخالية، والملوك الجبابرة، ومنازل كسرى وقيصر، وبنى الأصفر، فهم من المياه العذبة، والجنان المخصصة، في مثل حواء السلى وحدقة البعير؛ تأتيهم ثمارهم غضة لم تتغير، وإنا نزلنا أرضاً نشاشة، طرف في فلاة وطرف في ملح أحاج، جانب منها منابت القصب، وجانب سبخة نشاشة، لا يجف تراهما، ولا يئيب مرعاها، تأتينا منافعها في مثل مريء النعامة، يخرج الرجل الضعيف منا يستعذب الماء من فرسخين، وتخرج المرأة بمثل ذلك ترنق ولدها ترنيق العتر، تخاف عليه العدو والسبع، فيألا ترفع حسيستنا، وتنعش ركيستنا، وتجبر فاقتنا، وتزيد في عيالنا عيالاً، وفي رجالنا رجالاً، وتصفر درهمنا، وتكبر قفيزنا، وتأمّر لنا بحجر نهر نستعذب به الماء هلكننا.

قال عمر: هذا والله السيد! هذا والله السيد! قال الأحنف: فما زلت أسمعها بعدها.

فأراد زيد بن جبلة أن يضع منه، فقال: يا أمير المؤمنين، إنه ليس هناك، وأمه باهلية. قال عمر: هو خير منك إن كان صادقاً. يريد إن كانت له نية. فقال الأحنف:

أنا ابن الباهلية أروضعتني

بثدي لا أجد ولا وخيم

أغض على القذى أجفان عيني

إذا شر السفية إلى الحليم

قال: فرجع الوفد واحتبس الأحنف عنده حولاً وأشهرأ، ثم قال: إن رسول الله صلى الله عليه وسلم، حذرنا كل منافق صنع اللسان، وإني خفتك فاحتبستك، فلم يبلغني عنك إلا خير، رأيت لك حولاً ومعقولاً، فارجع إلى منزلك واتق الله ربك. وكتب إلى أبي موسى الأشعري: أن يحتفر لهم نهراً.

وفود الأحنف وعمرو بن الأهمم على عمر بن الخطاب رضي الله عنه

العتي عن أبيه قال: وفد الأحنف وعمرو بن الأهمم على عمر بن الخطاب رضي الله عنه، فأراد أن يقرع بينهما في الرياسة، فلما اجتمعت بنو تميم، قال الأحنف:

ثوى قدح عن قومه طالما ثوى

فلما أتاهم قال قوموا تتاجزوا

فقال عمرو بن الأهمم: إنا كنا وأنتم في دار جاهلية فكان الفضل فيها لمن جهل، فسفكنا دماءكم، وسبينا نساءكم، وإنا اليوم في دار الإسلام، والفضل فيها لمن حلم، فغفر الله لنا ولك. قال: فغلب يومئذ عمرو بن الأهمم على الأحنف ووقعت القرعة لآل الأهمم. فقال عمرو بن الأهمم:

لما دعنتي للرياسة منقر

لدى مجلس أضحي به النجم باديا

شددت لها أزري وقد كنت قبلها

لأمثالها مما أشد إزاريا

وعمر بن الأهمم: هو الذي تكلم بين يدي رسول الله صلى الله عليه وسلم، وسأله عن الزبرقان؛ فقال عمرو: مطاع في أدنيه، شديد العارضة، مانع لما وراء ظهره. فقال الزبرقان: والله يا رسول الله، إنه ليعلم مني أكثر مما قال، ولكن حسدي، قال: أما والله يا رسول الله، إنه لزم المرءة، ضيق العطن، أحق الولد، لثيم الحال، والله ما كذبت في الأولى، ولقد صدقت في الأخرى، رضيت عن ابن عمي فقلت أحسن ما علمت، ولم أكذب، وسخطت عليه فقلت أقبح ما علمت، ولم أكذب؛ فقال رسول الله صلى الله عليه وسلم: إن من البيان لسحراً.

وفود عمرو بن معد يكرب على عمر بن الخطاب رضي الله عنه

إذ أوفده سعد

لما فتحت القادسية على يدي سعد بن أبي وقاص، أبلى فيها عمرو بن معد يكرب بلاء حسناً، فأوفده سعد على عمر بن الخطاب رضي الله عنه، وكتب إليه معه بالفتح وأثنى في الكتاب على عمرو. فلما قدم على عمر بن الخطاب سأله عنه سعد؛ فقال: أعرابي في ثمرته، أسد في تأموره، نبطي في جبايته، يقسم بالسوية، ويعدل في القضية، وينفر في السرية، وينقل إلينا حقنا نقل الذرة. فقال عمر: لشد ما تقارضتما الثناء. وكان عمر قد كتب إلى

سعد يوم القادسية أن يعطي الناس على قدر ما معهم من القرآن. فقال سعد لعمر بن معد يكرب: ما معك من القرآن؟ قال: ما معي شيء؛ قال: إن أمير المؤمنين كتب إلي أن أعطي الناس على قدر ما معهم من القرآن؛ فقال عمرو:

قالت قريش ألا تلك المقادير

إذا قتلنا ولا يبكي لنا أحد

ولا سوية إذ نعطي الدنانير

نعطي السوية من طعن له نفذ

قال: فكتب سعد بأبياته إلى عمر. فكتب إليه أن يعطي على مقاماته في الحرب.

وفود أهل اليمامة على أبي بكر الصديق رضي الله عنه

وفد أهل اليمامة على أبي بكر الصديق رضي الله عنه، بعد إيقاع خالد بهم وقتله مسيلمة الكذاب؛ فقال لهم أبو بكر: ما كان يقول صاحبكم؟ قالوا: أعفنا يا خليفة رسول الله؛ قال: لا بد أن تقولوا؛ قالوا: كان يقول: يا ضفدع، كم تنقين، لا الشراب تمنعين، ولا الماء تكدرين، لنا نصف الأرض ولقريش نصفها، ولكن قريش قوم لا يعدلون. فقال لهم أبو بكر: وحيكم! ما خرج هذا من إل ولا بر، فأين ذهب بكم؟ قال أبو عبيد: الإل: الله تعالى. والبر: الرجل الصالح.

وفود عمرو بن معد يكرب على مجاشع بن مسعود

وفد عمرو بن معد يكرب الزبيدي على مجاشع بن مسعود السلمى - وكانت بين عمرو وبين سليم حروب في الجاهلية - فقدم عليه البصرة يسأله الصلة؛ فقال: اذكر حاجتك؛ فقال له: حاجتي صلة مثلي. فأعطاه عشرة آلاف درهم، وفرساً من بنات الغبراء، وسيفاً جرازاً، ودرعاً حصينة، وغلماً خبازاً. فلما خرج من عنده، قال له أهل المجلس: كيف وجدت صاحبك؟ قال: لله در بني سليم، ما أشد في الهيجاء لقاءها، وأكرم في الأواء عطاءها، وأثبت في المكرمات بناءها، والله يا بني سليم لقد قاتلناكم في الجاهلية فما أجبنناكم، ولقد هاجبناكم فما أقحمتناكم، وقد سألناكم فما أبخلناكم.

وصاحب هيج يوم هيج مجاشع

فله مسؤلاً نوالاً ونائلاً

الوفود على معاوية

وفود الحسن بن علي رضي الله عنهما على معاوية رضي الله عنه

أبو بكر بن أبي شيبة قال: وفد الحسن بن علي رضي الله عنهما على معاوية بعد عام الجماعة، فقال له معاوية، والله لأحبونك بجائزة ما أجزت بها أحداً قبلك، ولا أجزيت بها أحداً بعدك، فأمر بمائة ألف. وفي بعض الحديث أن النبي صلى الله عليه وسلم، دخل على ابنته فاطمة، فوجد الحسن طفلاً يلعب بين يديها، فقال لها: إن الله تعالى سيصلح على يدي ابنك هذا بين فتنين عظيمتين من المسلمين.

وفود زيد بن منية على معاوية رحمه الله

العتيبي قال: قدم زيد بن منية على معاوية من البصرة - وهو أخو يعلى بن منية صاحب حمل عائشة ومتولي تلك الحروب، ورأس أهل البصرة، وكان عتبة بن أبي سفيان قد تزوج يعلى بن منية - فلما دخل على معاوية، شكاً إليه ديناً لزمه؛ فقال: يا كعب، أعطه ثلاثين ألفاً، فلما ولى قال: وليوم الحمل ثلاثين ألفاً أخرى. ثم قال له: الحق بصهرك - يعني عتبة - فقدم عليه مصر، فقال: إن سرت إليك شهرين أخوض فيهما المتالف، ألبس أردية الليل مرة، وأخوض في لجج السراب أخرى، موقراً من حسن الظن بك، وهارباً من دهر قطم، ودين لزم، بعد غنى جدعنا به أنوف الحاسدين، فلم أجد إلا إليك

مهرباً، وعليك معولاً؛ فقال عتبة: مرحباً بك وأهلاً، إن الدهر أعاركم غنى، وخلطكم بنا، ثم استرد ما أمكنه أخذه، وقد أبقى لكم منا ما لا ضيعة معه، وأنا واضح يدي ويدك بيد الله. فأعطاه ستين ألفاً، كما أعطاه معاوية رحمه الله.

وفود عبد العزيز بن زرارة على معاوية رحمه الله

العتي عن أبيه قال:

وفد عبد العزيز بن زرارة على معاوية، وهو سيد أهل الكوفة، فلما أذن له وقف بين يديه، وقال: يا أمير المؤمنين، لم أزل أهر ذوائب الرحال إليك، إذ لم أجد معولاً إلا عليك؛ أمتطي الليل بعد النهار، وأسم الجاهل بالآثار، يقودني إليك أمل، وتسوقني بلوى؛ والمجتهد يعذر، وإذ بلغتك فقطني. فقال معاوية: احطط عن راحتك رحلها.

وخرج عبد العزيز بن زرارة مع يزيد بن معاوية إلى الصائفة فهلك هناك، فكتب به يزيد بن معاوية إلى معاوية، فقال لزرارة: أتاني اليوم نعي سيد شباب العرب؛ قال زرارة: يا أمير المؤمنين، هو ابني أو ابنك؟ قال: بل ابنك؟ قال: للموت ما تلد الوالدة. أخذ سابق البريري فقال:

كما لخراب الدار تبني المساكن

وللموت تغدو الوالدات سخالها

وقال آخر:

لا شيء يبقى ولا يفنى بوجود

للموت يولد منا كل مولود

وفود عبد الله جعفر على يزيد بن معاوية

المدائني قال: قدم عبد الله بن جعفر على يزيد بن معاوية. فقال له: كم كان عطاؤك؟ فقال له: ألف ألف، قال: قد أضعفناها لك؛ قال: فذاك أبي وأمي، وما قلتها لأحد قبلك؛ قال: أضعفناها لك ثانية. فقيل ليزيد: أتعطي رجلاً واحداً أربعة آلاف ألف! فقال: ويحكم! إنما أعطيتها أهل المدينة أجمعين، فما يده فيها إلا عارية. فلما كان في السنة الثانية قدم عبد الله بن جعفر، وقدم مولى له يقال له نافع، كانت له منزلة من يزيد بن معاوية. قال نافع: فلما قدمنا عليه أمر لعبد الله بن جعفر بألف ألف، وقضى عنه ألف ألف، ثم نظر إلي فتبسم؛ فقلت: هذه لتلك الليلة. وكنت سامرته ليلة في خلافة معاوية وأسمعتة فيها فذكرته بها. وقدمت عليه هدايا من مصر كثيرة، فأمر بها لعبد الله بن جعفر، وكان له مائة ناقة، فقلت لابن جعفر: لو سألته منها شيئاً نحتلبه في طريقنا؟ ففعل، فأمر بصرفها كلها إليه. فلما أراد الوداع أرسل إلي فدخلت عليه، فقال: ويلك! إنما أخترك لأتفرغ إليك، هات قول جميل:

قتيلاً بكى من حب قاتله قبلي

خليلي فيما عشتما هل رأيتما

قال: فأسمعتة! فقال: أحسنت والله؛ هات حاجتك. فما سألته شيئاً إلا أعطانيه؛ فقال: إن يصلح الله هذا الأمر من قبل ابن الزبير تلقنا بالمدينة، فإن هذا لا يحسن إلا هناك. فمنع والله من ذلك شؤم ابن الزبير.

الوفود على عبد الملك بن مروان

وفود عبد الله بن جعفر على عبد الملك بن مروان

قال بديح: وفد عبد الله بن جعفر على عبد الملك بن مروان، وكان زوج ابنته أم كلثوم من الحجاج على ألفي ألف في السر وخمسائة في العلانية، وحملها إليه إلى العراق، فمكثت عنده ثمانية أشهر. قال بديح: فلما خرج عبد الله بن جعفر إلى عبد الملك بن مروان، خرجنا معه حتى دخلنا دمشق،

فإننا لنحظ رحالنا إذ جاءنا الوليد بن عبد الملك على بغلة وردة ومعه الناس، فقلنا: جاء إلى ابن جعفر ليحييه ويدعوه إلى منزله. فاستقبله ابن جعفر بالترحيب؛ فقال له: لكن أنت لا مرحباً بك ولا أهلاً؛ مهلاً يا بن أخي، فلست أهلاً لهذه المقالة منك؛ قال: بلى ولشر منها؛ قال: وفيم ذلك؟ قال: إنك عمدت إلى عقيلة نساء العرب، وسيدة بني عبد مناف، ففرشتها عبد ثقيف يتفخذها؛ قال: وفي هذا عتب علي يا بن أخي؟ قال: وما أكثر من هذا؟ قال: والله إن أحق الناس أن لا يلومني في هذا لأنت وأبوك، إن كان من قبلكم من الولاة ليصلون رحمي، ويعرفون حقي، وإنك وأباك منعمائي ما عندكما حتى ركبني من الدين ما والله لو أن عبداً مجدعاً حبشياً أعطاني بها ما أعطاني عبد ثقيف لزوجتها، فإنما فديت بها رقبتي من النار. قال: فما راجعه كلمة حتى عطف عنانه، ومضى حتى دخل على عبد الملك - وكان الوليد إذا غضب عرف ذلك في وجهه - فلما رآه عبد الملك قال: مالك أبا العباس؟ قال: إنك سلطت عبد ثقيف وملكته ورفعته، حتى تفخذ نساء عبد مناف، وأدركنه الغير. فكتب عبد الملك إلى الحجاج يعزم عليه أن لا يضع كتابه من يده حتى يطلقها. فما قطع الحجاج عنها رزقاً ولا كرامة يجريها عليها حتى خرجت من الدنيا. قال: وما زال واصلاً لعبد الله بن جعفر حتى هلك.

قال بديح: فما كان يأتي علينا هلال إلا وعندنا غير مقبلة من الحجاج، عليها لطف وكسوة وميرة، حتى لحق عبد الله بن جعفر بالله.

ثم لستأذن ابن جعفر على عبد الملك، فلما دخل عليه استقبله عبد الملك بالترحيب، ثم أخذ بيده فأجلسه معه على سريره، ثم سأله فألطف المسألة، حتى سأله عن مطعمه ومشربه، فلما انقضت مسألته، قال له يحيى بن الحكم: أمن حبيثة كان وجهك أبا جعفر؟ قال: وما حبيثة؟ قال: أرضك التي جئت منها؛ قال: سبحان الله! رسول الله صلى الله عليه وسلم يسميها طيبة وتسميها حبيثة! لقد اختلفتما في الدنيا وأظنكما في الآخرة مختلفين. فلما خرج من عنده هياً له ابن جعفر هدايا وأطافاً. فقلت لبديح: ما قيمة ذلك؟ قال: قيمته مائة ألف، من صفاء ووصائف وكسوة وحرير ولطف من لطف الحجاز. قال: فبعثني بها، فدخلت عليه وليس عنده أحد، فجعلت أعرض عليه شيئاً شيئاً. قال: فما رأيت مثل إعظامه لكل ما عرضت عليه من ذلك، وجعل يقول كلما أريته شيئاً: عافى الله أبا جعفر، ما رأيت كاليوم، وما كنا نريد أن يتكلف لنا شيئاً من هذا، وإن كنا لمتذممين محتشمين. قال: فخرجت من عنده، وإذن لأصحابه، فوالله لبينا أنا أحدثه عن تعجب عبد الملك وإعظامه لما أهدى إليه، إذا بفارس قد أقبل علينا، فقال: أبا جعفر، إن أمير المؤمنين يقرأ السلام عليك، ويقول لك: جمعت لنا وخش رقيق الحجاز أباقهم، وحبست عنا فلانة، فابعث بها إلينا - وذلك أنه حين دخل عليه أصحابه جعل يحدثهم عن هدايا ابن جعفر ويعظمها عندهم؛ فقال له يحيى بن الحكم: وماذا أهدى إليك ابن جعفر؟ جمع لك وخش رقيق الحجاز وأباقهم وحبس عنك فلانة؛ قال: ويلك! وما فلانة هذه؟ قال: ما لم يسمع والله أحد بمثلها قط جمالاً وكمالاً وخلقاً وأدياً، لو أراد كرامتك بعث بها إليك؛ قال: وأين تراها، وأين تكون؟ قال: هي والله معه، وهي نفسه التي بين جنبيه - فلما قال الرسول ما قال، وكان ابن جعفر في أذنه بعض الوقر إذا سمع ما يكره تصام، فأقبل علي فقال: ما يقول بديح؟ قال: قلت: فإن أمير المؤمنين يقرأ السلام ويقول: إنه جاعني يريد من ثغر كذا يقول: إن الله نصر المسلمين وأعزهم؛ قال: اقرأ أمير المؤمنين السلام، وقل له: أعز الله نصرك، وكبت عدوك؛ فقال الرسول: يا أبا جعفر، إني لست أقول هذا، وأعاد مقالته الأولى. فسألني، فصرفته إلى وجه آخر؛ فأقبل علي الرسول، فقال: يا ماص أبرسل أمير المؤمنين تهكم؟ وعن أمير المؤمنين تجيب هذا الجواب؟ قال: والله لأظن دمك؛ فانصرف. وأقبل علي ابن جعفر فقال: من ترى صاحبنا؟ قال: صاحبك بالأمس؛ قال: أظنه، فما الرأي عندك؟ قلت: يا أبا جعفر، قد تكلفت له ما تكلفت فإن منعها إياه جعلتها سبباً لمنعك، ولو طلب أمير المؤمنين إحدى بناتك ما كنت أرى أن تمنعها إياه، قال: ادعها لي. فلما أقبلت رحب بها، ثم أجلسها إلى جنبه، ثم قال: أما والله ما كنت أظن أن يفرق بيني وبينك إلا الموت؛ قالت: وما ذاك؟ قال: إنه حدث أمر وليس والله كائناً فيه إلا ما أحببت، جاء الدهر فيه بما جاء؛ قالت: وما هو؟ قال: إن أمير المؤمنين بعث يطلبك، فإن تموين فذاك، وإلا والله لا يكون أبداً؛ قالت: ما شيء لك فيه هوى ولا أظن فيه فرجاً عنك إلا فديته بنفسي، وأرسلت عينيها بالبكاء؛ فقال لها: أما إذا فعلت فلا تترين مكروهاً، فمسحت عينيها، وأشار إلي فقال: ويحك يا بديح! استحثتها قبل أن تتقدم إلي من القوم بادرة. قال: ودعا بأربع وصائف ودعا من صاحب نفقته بخمسائة دينار، ودعا مولاة له كانت تلي طيبه، فدحست لها ربعة عظيمة مملوءة طيباً، ثم قال: عجلها ويلك! فخرجت أسوقها حتى انتهت إلى الباب، وإذا الفارس قد بلغ عني، فما تركني الحجاب أن تمس رجلاي الأرض حتى أدخلت على عبد الملك وهو يتلظى؛ فقال لي: يا ماص! وكذا أنت المحيب عن

أمير المؤمنين والمتهكم برسله؟ قلت: يا أمير المؤمنين، ائذن لي أتكلم؛ قال: وما تقول يا كذا وكذا؟ قلت: ائذن لي يجعلني الله فداك أتكلم؛ قال: تكلم؛ قلت: يا أمير المؤمنين، أنا أصغر شأنًا، وأقل خطراً من أن يبلغ كلامي من أمير المؤمنين ما أرى، وهل أنا إلا عبد من عبيد أمير المؤمنين، نعم قد قلت ما بلغك، وقد يعلم أمير المؤمنين أنا إنما نعيش في كنف هذا الشيخ، وأن الله لم يزل إليه محسناً، فجاءه من قبلك شيء ما أتاه قط مثله، إنما طلبت نفسه التي بين جنبيه، فأجبت بما بلغك لأسهل الأمر عليه، ثم سألتني فأخبرته، واستشارني فأشرت عليه، وها هي ذه قد جئتك بها؛ قال: أدخلها وبلغك!

فأدخلتها عليه، وعنده مسلمة ابنة غلام ما رأيت مثله ولا أجمل منه حين اخضر شاربه، فلما جلست وكلها أعجب بكلامها، فقال: لله أبوك! أمسكك لنفسي أحب إليك، أم أهبك لهذا الغلام؟ فإنه ابن أمير المؤمنين؛ قالت: يا أمير المؤمنين، لست لك بحقيقة، وعسى أن يكون هذا الغلام لي وجهاً؛ قال: فقام من مكانه ما راجعها؛ فدخل وأقبل عليها مسلمة، يالكاع، أعلى أمير المؤمنين تختارين؟ قالت: يا عدو نفسه، إنما تلومني أن احترتك! لعمر الله، لقد قال: رأي من احترتك. قال: فضيقت والله مجلسه؛ واطلع علينا عبد الملك، قد ادهن بدهن وارى الشيب، وعليه حلة تتلأأ كأها الذهب، بيده مخصرة يخطر بها، فجلس مجلسه على سريره، ثم قال: إيها! لله أبوك! أمسكك لنفسي أحب لك، أم أهبك لهذا الغلام؟ قالت: ومن أنت أصلحك الله؟ قال لها الخصي: هذا أمير المؤمنين؛ قالت: لست مختارة على أمير المؤمنين أحداً؛ قال: فأين قولك آنفاً؟ قالت: رأيت شيخاً كبيراً، وأرى أمير المؤمنين أشب الناس وأجملهم، ولست مختارة عليه أحداً، قال: دونكها يا مسلمة.

قال بديح: فنشرت عليه الكسوة والدنانير التي معي، وأريته الجوارى والطيب؛ قال: عافى الله ابن جعفر، أخشي أن لا يكون لها عندنا نفقة وطيب وكسوة؟ فقلت: بلى، ولكن أحب أن يكون معها ما تكفي به حتى تستأنس. قال: فقبضها مسلمة. فلم تلبث عنده إلا يسيراً حتى هلكت. قال بديح: فوالله الذي ذهب بنفس مسلمة، ما جلست معه مجلساً، ولا وقفت موقفاً أنازعه فيه الحديث إلا قال: أبغني مثل فلانة، فأقول: أبغني مثل ابن جعفر. قال: فقلت لبديح: وبلغك! فما أحازه به؟ قال: قال: حين دفع إليه حاجته ودينه، لأجيزتك جائزة، لو نشر لي مروان من قبره ما زدته عليها، فأمر له بمائة ألف، وأتم الله إني لا أحسبه أنفق في هديته ومسيره ذلك وجاريته التي كانت عدل نفسه مائتي ألف.

وفود الشعبي على عبد الملك بن مروان

كتب عبد الملك بن مروان إلى الحجاج بن يوسف: أن ابعث رجلاً يصلح للدين وللدنيا، أتخذه سميراً وجليساً وخلياً؛ فقال الحجاج: ما له إلا عامر الشعبي، وبعث به إليه. فلما دخل عليه وحده قد كبا مهتماً، فقال: ما بال أمير المؤمنين؟ قال: ذكرت قول زهير:

خلعت بها عذار لجامي

كأنني وقد جاوزت تسعين حجة

فكيف بمن يرمى وليس برامي

رمتني بنات الدهر من حيث لا أرى

ولكنني أرمى بغير سهام

فلو أنني أرمى بنبل رأيتها

أنوء ثلاثاً بعدهن قيامي

على الراحتين تارة وعلى العصا

قال له الشعبي: ليس كذلك يا أمير المؤمنين، ولكن كما قال لبيد بن ربيعة وقد بلغ سبعين حجة:

خلصت بها عن منكبي ردائياً

كأنني وقد جاوزت سبعين حجة

ولما بلغ سبعاً وسبعين سنة قال:

وقد حملتك سبعاً بعد سبعيناً

بانئت تشكي إلى النفس موهنة

وفي الثلاث وفاء للثمانيناً

فإن تزادي ثلاثاً تبليغي أملاً

ولما بلغ تسعين سنة قال:

وقد سئمت من الحياة وطولها

ولما بلغ عشرين ومائة قال:

أليس ورائي إن تراخت منيتي

أخبر أخبار القرون التي خلت

ولما بلغ ثلاثين ومائة وحضرته الوفاة قال:

تمنى ابنتاي أن يعيش أبوهما

فقوما فقولا بالذي تعلمانه

وقولا هو المرء الذي لا صديقه

إلى سنة ثم السلام عليكما

قال الشعبي: فلقد رأيت السرور في وجه عبد الملك طمعاً أن يعيشها.

وفود الحجاج بإبراهيم بن محمد بن طلحة على عبد الملك بن مروان

عمران بن عبد العزيز قال:

لما ولي الحجاج بن يوسف الحرمين بعد قتله ابن الزبير استخلص إبراهيم بن محمد بن طلحة فقربه وعظم منزلته، فلم تزل حاله عنده حتى خرج إلى عبد الملك بن مروان، فخرج معه معادلاً، لا يقصر له في بر ولا إعظام، حتى حضر به عبد الملك، فلما دخل عليه لم يبدأ بشيء بعد السلام إلا أن قال له: قدمت عليك أمير المؤمنين برجل الحجاز، لم أدع له بما نظيراً في الفضل والأدب والمروءة وحسن المذهب، مع قرابة الرحم ووجوب الحق وعظم قد الأبوة وما بلوت منه في الطاعة والنصيحة وحسن الموازنة، وهو إبراهيم بن محمد بن طلحة، وقد أحضرته بابك ليسهل عليه إذنك، وتعرف له ما عرفتك؛ فقال: أذكرتنا رحماً قريبة وحقاً واجباً، يا غلام، ائذن لإبراهيم بن محمد بن طلحة، فلما دخل عليه أدناه عبد الملك حتى أجلسه على فراشه، ثم قال له: يا بن طلحة، إن أبا محمد ذكرنا ما لم نزل نعرفك به في الفضل والأدب والمروءة وحسن المذهب، مع قرابة الرحم ووجوب الحق وعظم قدر الأبوة، وما بلاه منك في الطاعة والنصيحة وحسن الموازنة، فلا تدعن حاجة عن خاصة نفسك وعامتك إلا ذكرتها؛ فقال: يا أمير المؤمنين، إن أول الحوائج وأحق ما قدم بين يدي الأمور ما كان لله فيه رضا، ولحق نبيه صلى الله عليه وسلم أداء، ولك فيه وجماعة المسلمين نصيحة، وعندني نصيحة لا أجد بدأ من ذكرها، ولا أقدر على ذلك إلا وأنا حال، فأخطني يا أمير المؤمنين ترد عليك نصيحتي؛ قال: دون أبي محمد؟ قال: نعم، دون أبي محمد. قال عبد الملك للحجاج: قم. فلما خطر الستر أقبل علي، فقال: يا بن طلحة، قل نصيحتك؛ فقال: تالله يا أمير المؤمنين، لقد عمدت إلى الحجاج في تغطرسه، وتعجرفه، وبعده من الحق، وقربه من الباطل، فوليته الحرمين، وهما ما هما وبهما ما بهما من المهاجرين والأنصار والموالي الأخيار يطوهم بطغام أهل الشام ورعاع لا روية لهم في إقامة حق ولا في إزاحة باطل، ويسومهم الخسف ويحكم فيهم بغير السنة، بعد الذي كان من سفك دمايتهم، وما انتهك من حرمهم، ثم ظننت أن ذلك فيما بينك وبين الله زاهق، وفيما بينك وبين نبيك غداً إذا جاثاك للخصومة بين يدي الله في أمته، أما والله لا تنجو هنالك إلا بحجة، فأربع على نفسك أودع. فقال له عبد الملك: كذبت ومنت وطن بك الحجاج ما لم يجده فيك، وقد يظن الخير بغير أهله، قم فأنت الكاذب المائن. قال: فقمتم وما أعرف طريقاً، فلما خطر الستر لحقني لاحق، فقال: احبسوا هذا، وقال للحجاج: ادخل، فدخل، فمكث ملياً من النهار لا أشك أنهما في أمري، ثم خرج الأذن، فقال: ادخل يا بن طلحة، فلما كشف لي الستر لقيني الحجاج، وهو خارج وأنا داخل، فاعتنقني وقبل ما بين عيني، وقال: أما إذا جرى الله المتواخيين خيراً تواصلهم فجزاك الله عني أفضل الجزاء، فوالله لئن سلمت لك لأرفعن ناظرک، ولأعلن كعبك، ولأتبعن الرجال غبار قدميك؛ قال: قلت: يهزأ بي وحق الكعبة. فلما وصلت إلى عبد الملك أدناني حتى أدناني عن مجلسي الأول، ثم

قال: يا بن طلحة، لعل أحداً شاركك في نصيحتك هذه؟ قلت: والله يا أمير المؤمنين، ما أعلم أحداً أنصح عندي يداً ولا أعظم معروفاً من الحجاج، ولو كنت محايياً أحداً لغرض دنيا لحاييته، ولكني آثرت الله ورسوله وآثرتك والمؤمنين عليه؛ قال: قد علمت أنك لم ترد الدنيا، ولو أردتها لكنت لك في الحجاج، ولكن أردت الله والدار الآخرة، وقد عزلته عن الحرمين لما كرهت من ولايته عليهما، وأعلمته أنك استترتني له عنهما استقلالاً لهما، ووليته العراقيين، وما هنالك من الأمور التي لا يدحضها إلا مثله، وأعلمته أنك استدعيتني إلى ولايته عليهما استزادة له، لألزمه بذلك من حقه ما يؤدي إليك عني أجز نصيحتك، فأخرج معه فإنك غير ذام لصحبته. فخرجت مع الحجاج وأكرمني أضعاف إكرامه.

وفود رسول المهلب على الحجاج بقتل الأزارقة

أبو الحسن المدائني قال:
لما هزم المهلب بن أبي صفرة قطري بن الفجاءة صاحب الأزارقة، بعث إلى مالك بن بشير، فقال له: إني موفدك إلى الحجاج فسر، فإنما هو رجل مثل؛ وبعث إليه بجائزة، فردها وقال: إنما الجائزة بعد الاستحقاق، وتوجه. فلما دخل إلى الحجاج؛ قال له، ما اسمك؟ قال: مالك بن بشير؛ قال: ملك وبشارة؛ كيف تركت المهلب؟ قال: أدرك ما أمل وأمن من خاف؛ قال: كيف هو بجنده؟ قال: والد رءوف؛ قال: فكيف جنده له؟ قال أولاد بررة؛ قال: كيف رضاهم عنه؟ قال: وسعهم بالفضل وأقنعهم بالعدل؛ قال: فكيف تصنعون إذا لقيتم عدوكم؟ قال: نلقاهم بجدنا فنطمع فيهم، ويلقوننا بجدهم فيطمعون فينا؛ قال: كذلك الحد إذا لقي الحد؛ قال: فما حال قطري؟ قال: كادنا ببعض ما كدناه؛ قال: فما منعكم من إتباعه؟ قال: رأينا المقام من ورائه خيراً من إتباعه؛ قال: فأحبرني عن ولد المهلب؛ قال: أعباء القتال بالليل، حمأة السرح بالنهارة؛ قال: أيهما أفضل؟ قال: ذلك إلى أبيهم؛ قال: لتقولن؛ قال: هم كحلقة مضروبة لا يعرف طرفاها؛ قال: أقسمت عليك، هل رأت في هذا الكلام؟ قال: ما أطلع الله على غيبة أحداً؛ فقال الحجاج لجلسائه: هذا والله الكلام المطبوع، لا الكلام المصنوع.

وفود جرير على عبد الملك بن مروان

لما مدح جرير بن الخطفي الحجاج بن يوسف بشعره الذي يقول فيه:

أم من يصول كصوله الحجاج

إذ لا يتقن بغيرة الأزواج

من سد مطلع النفاق عليكم

أم من يغار على النساء حفيظة

وقوله:

فأسمع ذا المعارج فاستجابا

قال له الحجاج: إن الطاقة تعجز عن المكافأة، ولكني موفدك على أمير المؤمنين عبد الملك بن مروان، فسر إليه بكتابي هذا. فسار إليه، ثم استأذنه في الإنشاد، فأذن له، فقال:

دعا الحجاج مثل دعاء نوح

أتصحو بل فؤادك غير صاحي

قال له عبد الملك: بل فؤادك. فلما انتهى إلى قوله:

رأيت الواردين ذوي امتياح

ومن عند الخليفة بالنجاح

وأثبت القوادم في جناحي

وأندى العالمين بطون راح

تعزت أم حزره ثم قالت

ثقي بالله ليس له شريك

سأشكر إن رددت إلي ريشي

ألستم خير من ركب المطايا

ارتاح عبد الملك وكان متكئاً، فاستوى جالساً، ثم قال: من مدحنا منكم فليمدحنا. بمثل هذا أو ليسكت؛ ثم قال له: يا جرير، أتري أم حزره ترويهها مائة ناقة من نعم كلب؟ قال: إذا لم تروها يا أمير المؤمنين فلا أروها الله. فأمر له بمائة ناقة من نعم كلب كلها سود الحدقة؛ فقال: يا أمير المؤمنين، إنها أباق ونحن مشايخ، وليس بأحدنا فضل عن راحلته؛ فلو أمرت بالرعاء؛ فأمر له بثمانية من الرعاء. وكانت بين يدي عبد الملك صحاف من فضة يقرعها بقضيب في يده؛ فقال له جرير: والمحب يا أمير المؤمنين، وأشار إلى صحيفة منها، فنبذها إليه بالقضيب وقال: خذها لا نفعتك. ففي ذلك يقول جرير:

ما في عطائهم من ولا شرف

أعطوا هنيئة يحدوها ثمانية

الوفود على عمر بن عبد العزيز

وفود جرير عن أهل الحجاز على عمر بن عبد العزيز رضي الله عنه

قدم جرير بن الخطفي، على عمر بن عبد العزيز رضي الله عنه، عن أهل الحجاز فاستأذنه في الشعر، فقال: ما لي وللشعر يا جرير؟ إني لفي شغل عنه؛ قال: يا أمير المؤمنين، إنها رسالة عن أهل الحجاز؛ قال: فهاهما إذا؛ فقال:

أهل الحجاز دهاه البؤس والضرر

كم من ضرير أمير المؤمنين لدى

يمينه فحناء الجهد والكبر

أصابت السنة الشهباء ما ملكت

ما كانت الشمس تلقاها ولا القمر

ومن قطيع الحشا عاشت مخبأة

قامت تتادي بأعلى الصوت يا عمر

لما اجتلتها صروف الدهر كارهة

وفود دكين الراجز على عمر بن عبد العزيز رضي الله عنه

قال دكين بن رجاء الفقيمي الراجز: مدحت عمر بن عبد العزيز، وهو والي المدينة، فأمر لي بخمس عشرة ناقة كرائم صعباً، فكرهت أن أرمي بها الفجاج فتنشر علي، ولم تطب نفسي ببيعها، فقدمت علينا رفقة من مضر، فسألتهم الصحبة، فقالوا: إن خرجت الليلة؛ فقلت: إني لم أودع الأمير ولا بد من وداعه؛ قالوا: فإن الأمير لا يحجب عن طارق ليل؛ فاستأذنت عليه، فأذن لي وعنده شيخان لا أعرفهما؛ فقال لي: يا دكين، إن لي نفساً تواقفة، فإن أنا صرت إلى أكثر مما أنا في فبعين ما أرينك؛ قلت: أشهد لي بذلك أيها الأمير؛ قال: إني أشهد الله؛ قلت: ومن خلقه؟ قال: هذين الشيخين؛ قلت لأحدهما: من أنت يرحمك الله أعرفك؟ قال: سالم بن عبد الله؛ فقلت: لقد استسمنت الشاهد؛ وقلت للآخر: من أنت يرحمك الله؟ قال: أبو يحيى مولى الأمير، وكان مزاحم يكنى أبا يحيى. قال دكين: فخرجت بمن إلى بلدي فرمى الله في أذناهن بالبركة، حتى اتخذت منهن الضياع والربع والغلمان، فإني لبصحراء فلج إذا يريد يركض إلى الشام، فقلت له: هل من مغربة خير قال: مات سليمان بن عبد الملك؛ قلت: فمن القائم بعده؟ قال: عمر بن عبد العزيز. قال: فأنتخت قلوصي، فألقيت عليها أداتي وتوجهت عنده، فلقيت جريراً في الطريق جاتياً من عنده، فقلت: من أيا أبا حزره؟ قال: من عند أمير يعطي الفقراء ويمنع الشعراء؛ قلت: فما ترى، فإني خرجت إليه؟ قال: عول عليه في مال ابن السبيل، كما فعلت. فانطلقت فوجدته قاعداً على كرسي في عرصة داره قد أحاط الناس به، لم أجد إليه سبيلاً للوصول، فناديت بأعلى صوتي:

وعمر الدسائع العظائم

يا عمر الخيرات والمكارم

أطلب حاجي من أخي مكارم

إني امرؤ من قطن بن دارم

إذ ننتجي والله غير نائم

عند أبي يحيى وعند سالم

فقام أبو يحيى، ففرج لي وقال: يا أمير المؤمنين، إن لهذا البدوي عندي شهادة عليك؛ قال: أعرفها، ادن مني يا دكين، أنا كما ذكرت لك أن لي نفساً تواقه، وأن نفسي تآقت إلى أشرف منازل الدنيا؛ فلما أدركتها وجدتها تتوق إلى الآخرة، والله ما رزأت من أمور الناس شيئاً فأعطيك منه، وما عندي إلا ألفا درهم، أعطيك أحدهما؛ فأمر لي بألف درهم. فوالله ما رأيت ألفاً كانت أعظم بركة منها.

وفود كثير والأحوص على عمر بن العزيز رضي الله عنه

حماد الراوية قال:

قال لي كثير عزة: ألا أخبرك عما دعاني إلى ترك الشعر؟ قلت: نعم؛ قال: شخصت أنا والأحوص ونصيب إلى عمر بن عبد العزيز رضي الله عنه، وكل واحد منا يدل عليه بسابقة وإحساء قديم، ونحن لا نشك أنه سيسر كنا في خلافته، فلما رفعت لنا أعلام خصاصة، لقينا مسلمة بن عبد الملك، وهو يومئذ فتى العرب؛ فسلمنا، فرد، ثم قال: أما بلغكم أن إمامكم لا يقبل الشعر؟ قلنا ما توضح إلينا خبر حتى انتهينا إليك، ووجهنا وجهة عرف ذلك فينا؛ فقال: إن يك ذو دين بنى مروان قد ولي وحشيتهم حرمانه، فإن ذا دنياها قد بقي ولكم عندي ما تحبون، وما ألبث حتى أرجع إليكم وأمنحكم ما أنتم أهله. فلما قدم كانت رحالنا عنده بأكرم منزل وأكرم منزل عليه؛ فأقمنا عنده أربعة أشهر يطلب لنا الإذن هو وغيره فلا يؤذن لنا، إلى أن قلت في جمعة من تلك الجمع: لو أي دنوت من عمر فسمعت كلامه فحفظته كان ذلك رأياً، ففعلت. فكان مما حفظت من كلامه: لكل سفر زاد لا محالة، فتزودوا لسفركم من الدنيا إلى الآخرة بالتقوى، وكونوا كمن عاين ما أعد الله له من ثوابه أو عقابه، فترغبوا وترهبوا، ولا يطولن عليكم الأمد فتفسو قلوبكم وتنقادوا لعدوكم؛ في كلام كثير لا أحفظه. ثم قال: أعوذ بالله أن آمركم بما أمهى عنه نفسي فتخسر صفقتي، وتظهر عيبي، وتبدو مسكنتي، في يوم لا ينفع فيه إلا الحق والصدق. ثم بكى حتى ظننت أنه قاض نجه، وارتج المسجد وما حوله بالبكاء فانصرفت إلى صاحبي فقلت لهما: خذا في شرح من الشعر غير ما كنا نقول لعمر وآبائه، فإن الرجل آخري وليس بدنيوي. إلى أن استأذن لنا مسلمة في يوم جمعة ما أذن للعامه، فلما دخلت سلمت ثم قلت: يا أمير المؤمنين، طال الثواء وقلت الفائدة وتحدثت بجفائك إيانا وفود العرب؛ قال: يا كثير "إنما الصدقات للفقراء والمساكين والعاملين عليها والمؤلفة قلوبهم وفي الرقاب والغارمين وفي سبيل الله وابن السبيل" أفي واحد من هؤلاء أنت؟ قلت: بلى، ابن سبيل منقطع به، وأنا ضاحك؛ قال: ألسنت ضيف أبي سعيد؟ قلت: بلى؛ قال: ما أرى ضيف أبي سعيد منقطعاً به؛ قلت: يا أمير المؤمنين، أتأذن لي في الإنشاء؟ قال: نعم، ولا تقل إلا حقاً، فقلت:

بريا ولم تقبل إشارة مجرم

أتيت فأمسى راضياً كل مسلم

من الأود البادي ثقاف المقوم

ترأى لك الدنيا بكف ومعصم

وتبسّم عن مثل الجمان المنظم

سقتك مدوفاً من سمّام وعلقم

ومن بحرها في مزبد الموج مفعم

بلغت بها أعلى البناء المقوم

وليت فلم تشتم عليا ولم تخف

وصدقت بالفعل المقال مع الذي

ألا إنما الفتى بعد زيغة

وقد لبست لبس الهلوك ثيابها

وتومض أحياناً بعين مريضة

فأعرضت عنها مشمئزاً كأنما

وقد كنت من أجبالها في ممنع

وما زلت تواقاً إلى كل غاية

لطالب دنيا بعده من تكلم
وآثرت ما يبقى برأي مصمم
أمامك في يوم من الهول مظلم
سوى الله من مال رغيب ولا دم
بلغت به أعلى المعالي بسلم
مناد ينادي من فصيح وأعجم
بأخذ للدينار ولا أخذ درهم
ولا السفك منه ظالماً ملء محجم
لك الشطر من أعمارهم غير ندم
وأعظم بها أعظم بها ثم أعظم

قال: فأقبل علي وقال: إنك مسؤول عما قلت. ثم تقدم الأحوص فاستأذنه في الإنشاد؛ فقال: قل ولا تقل إلا حقاً؛ فقال:

بمنطق حق أو بمنطق باطل
ولا ترجعنا كالنساء الأرامل

ولا شامة فعل الظلوم المخاتل
وتقفو مثال الصالحين الأوائل
ومن ذا يرد الحق من قول قائل
على فوقه إذ عار من نزع نابل
غطاريف كانوا كالليوث البواسل
تقدمتون البيد بين الرواحل
حبينا زماناً من ذويك الأوائل
وإن كان مثل الدر من نظم قائل
سوى أنه يبني بناء المنازل
وميراث آباء مشوا بالمناصل
وأرسوا عمود الدين بعد التمايل
على الشعر كعباً من سديس وبازل
عليه سلام الضحى والأصائل

فلما أتاك الملك عفواً ولم يكن
تركت الذي يفنى وإن كان مونقا
وأضررت بالفاني وشمريت للذي
ومالك إذ كنت الخليفة مانع
سما لك هم في الفؤاد مؤرق
فما بين شرق الأرض والغرب كلها
يقول: أمير المؤمنين ظلمتني
ولا بسط كف لأمري غير مجرم
ولو يستطيع المسلمون لقسموا
فأريح بها من صفقة لمبايع

وما الشعر إلا حكمة من مؤلف
فلا تقبلن إلا الذي وافق الرضا

رأيناك تعدل عن الحق يمينا
ولكن أخذت الحق جهدك كله
فقلنا ولم نكذب بما قد بدا لنا
ومن ذا يرد السهم بعد مضائه
ولولا قد عودتنا خلائف
لما وخذت شهراً برحلى شملة
ولكن رجونا منك مثل الذي به
فإن لم يكن للشعر عندك موضع
وكان مصيباً صادقاً لا يعيبه
فإن لنا قربي ومحض مودة
فذاودوا عدو السلم عن عقر دارهم
وقبلك ما أعطى الهنيدة جلة
رسول الإله المستضاء بنوره
العقد الفريد-ابن عبد ربه الأندلسي

فقال: إنك مسؤول عما قلت. قم تقدم نصيب فاستأذنه في الإنشاد، فلم يأذن له، وأمره بالجزو إلى دابق، فخرج إليها وهو محموم. وأمر لي بثلاثمائة، وللأحوص بمثلها، ولنصيب بمائة وخمسين.

وفود الشعراء على عمر بن عبد العزيز رضي الله عنه

ابن الكي: لما استخلف عمر بن عبد العزيز رضي الله عنه وفدت إليه الشعراء كما كانت تفد إلى الخلفاء قبله، فأقاموا ببابه أياماً لا يأذن لهم بالدخول، حتى قدم عون بن عبد الله بن عتبة بن مسعود على عمر بن عبد العزيز، وعليه عمامة قد أرخى طرفيها، وكانت له منه مكانة، فصاح به جرير:

يا أيها الرجل المرخي عمامته
أبلغ خليفتنا إن كنت لأقيه
وحش المكانة من أهلي ومن لدى
هذا زمانك إني قد مضى زمني
أني لدى الباب كالمصفود في قرن
نائي المحلة عن داري وعن وطني

قال: نعم أبا حذرة ونعمي عين. فلما دخل على عمر، قال: يا أمير المؤمنين، إن الشعراء ببابك، وأقوالهم باقية وسناهم مسنونة؛ قال: يا عون: مالي وللشعراء؛ قال: يا أمير المؤمنين، إن النبي صلى الله عليه وسلم: قد مدح وأعطى، وفيه أسوة لكل مسلم؛ قال: ومن مدحه؟ قلت: عباس بن مرداس، فكساه حلة قطع بها لسانه؛ قال: وتروي قول؟ قلت: نعم:

رأيتك يا خير البرية كلها
ونورت بالبرهان أمراً مدمساً
فمن مبلغ عني النبي محمداً
تعالى علواً فوق عرش إلهنا
نشرت كتاباً جاء بالحق معلماً
وأطفأت بالبرهان ناراً مضرماً
وكل امرئ يجزى بما قد تكلم
وكان مكان الله أعلى وأعظماً

قال: صدقت، فم بالباب منهم؟ قلت: ابن عمك عمر بن أبي ربيعة؛ قال: لا قرب الله قرابته ولا حيا وجهه، أليس هو القائل:

ألا ليت أنني يوم حانت منيتي
وليت طهوري كان ريقك كله
ويا ليت سلمى في القبو ضجيعتي
شمت الذي ما بين عينيك والفم
وليت حنوطي من مشاشك والدم
هنالك أو في جنة أو جهنم

فليته والله تمنى لقاءها في الدنيا، ويعمل عملاً صالحاً، والله لا دخل علي أبداً؛ فمن بالباب غير من ذكرت؟ قلت: جميل بن معمر العذري؛ قال: هو الذي يقول:

ألا ليتنا نحيا جميعاً وإن نمت
فما أنا في طول الحياة براغب
أظل نهاري لا أراها ويلتقي
يوافي لدى الموتى ضريحي ضريحها
إذا قيل قد سوي عليها صفيحها
مع الليل روعي في المنام وروحها

اعزب به، فوالله لا دخل علي أبداً، فمن غير من ذكرت؟ قلت: كثير عزة؛ قال: هو الذي قال:

رهبان مدين والذين عهدتهم
لو يسمعون كما سمعت حديثها
يبكون من حذر العذاب قعودا
خرو العزة راكعين سجودا

اعزب به، فمن بالباب غير من ذكرت؟ قلت: الأحوص الأنصاري؛ قال: أبعد الله ومحقه، أليس هو القائل، وقد أفسد على أهل المدينة جارية عرب بها منه:

يفر عني بها وأتبع

الله بيني وبين سيدها

اعزب به، فمن بالباب غير من ذكرت؟ قلت: همام بن غالب الفرزدق؛ قال: أليس هو القائل يفخر بالزنى:

كما انقض باز أقتم الريش كاسره

هما دلتاني من ثمانين قامة

أحي يرجى أم قتيل نحاذره

فلما استوت رجلاي في الأرض قالتا

مغلقة دوني عليها دساكره

وأصبحت في القوم الجلوس وأصبحت

ووليت في أعقاب ليل أبادره

فقلت ارفعا الأسباب لا يشعروا بنا

اعزب به، فوالله لا دخل علي أبداً، فمن بالباب غير من ذكرت؟ قلت: الأخطل التغلبي؛ قال: أليس هو القائل:

ولست بأكل لهم الأضاحي

فلست بصائم رمضان عمري

إلى بطحاء مكة للنجاح

ولست بزاجر عنسا بكوراً

قبيل الصبح حي على الفلاح

ولست بقائم كالعير يدعو

وأسجد عند منبلج الصباح

ولكني سأشربها شمولاً

اعزب به، فوالله لا وطئ لي بساطاً أدياً وهو كافر، فمن الباب غير من ذكرت؟ قلت: حرير بن الخطفي؛ قال: أليس هو القائل:

مقل المها وسوالف الأرام

لولا مراقبة العيون أرينتنا

أو ما فعلن بعروة بن حزام

هل ينهينك أن تقتلن مرقشا

والعيش بعد أولئك الأقوام

ذم المنازل بعد منزلة اللوى

حين الزيارة فارجعي بسلام

طرفتك صائدة القول وليس ذا

فإن كان ولا بد فهذا، فأذن له فخرحت إليه، فقلت: ادخل أبا حزره؛ فدخل وهو يقول:

جعل الخلافة في إمام عادل

إن الذي بعث النبي محمداً

حتى أروعى وأقام ميل المائل

وسع الخلائق عدله ووفاءه

لابن السبيل وللفقير العائل

والله أنزل في القرآن فريضة

والنفس مولعة بحب العاجل

إني لأرجو منك خيراً عاجلاً

فلما مثل بين يديه، قال: اتق الله يا حرير، ولا تقل إلا حقاً؛ فأنشأ يقول:

ومن يتيم ضعيف الصوت والنظر

كم باليمامة من شعناء أرملة

كالفرخ في العش لم ينهض ولم يطر

ممن يعدك تكفي فقد والده

خبلا من الجن أو مسا من البشر

يدعوك دعوة ملهوف كأن به

خليفة الله ماذا تأمرن بنا

لنا إليكم ولا في دار منتظر

ما زلت بعدك في هم يؤرقني

قد طال في الحي إصعادي ومنحدري

لا ينفع الحاضر المجهود باديها

ولا يعود لنا باد على حضر

إنا لنرجو إذا ما الغيث أخلفنا

من الخليفة ما نرجو من المطر

نال الخلافة إذ كانت له قدراً

كما أتى ربه موسى على قدر

هذي الأرامل قد قضيت حاجتها

فمن لحاجة هذا الأرملة الذكر

فقال: يا حرير، والله لقد وليت هذا الأمر، وأملك إلا ثلثمائة، فمائة أخذها عبد الله، ومائة أخذتها أم عبد الله، يا غلام، أعطه المائة الباقية؛ فقال: والله يا أمير المؤمنين إنما لأحب مال إلي كسبته، ثم خرج؛ فقالوا له: ما وراءك؟ قال: ما يسوؤكم، خرجت من عند أمير المؤمنين يعطى الفقراء ويمنع الشعراء، وإني عنه لراض، ثم أنشأ يقول:

رأيت رقى الشيطان لا تستفزه

وقد كان شيطاني من الجن راقياً .

الوفود على ابن الزبير

وفود نابغة بني جعدة على ابن الزبير رحمه الله تعالى:

الزبير بن بكار قاضي الحرمين قال: أقحمت السنة نابغة بني جعدة، فوفد إلى ابن الزبير، فدخل عليه في المسجد الحرام، ثم أنشده:

حكيت لنا الصديق لما وليتنا

وعثمان والفاروق فارتاح معدم

وسويت بين الناس في الحق فاستتوا

فعاد صباحاً حالك اللون مظلم

أتاك أبو ليلى يجوب به الدجى

دجى الليل جواب الفلاة عثمتم

لتجبر منه جانباً زعزت به

صروف الليالي والزمان المصمم

فقال له ابن الزبير: هو عليك أبا ليلى، فالشعر أدنى وسائل عندنا، أما صفوة أموالنا فلأل الزبير، وأما عفوته فإن بيني أسد وتيمماً تشغلها عنك، ولكن لك في مال الله سهمان، سهم برؤيتك رسول الله صلى الله عليه وسلم، وسهم بشركتك أهل الإسلام في فيهم، ثم أخذ بيده ودخل به دار النعم فأعطاه قلائص سبعة، وجمالاً رحيلاً، وأوقر له الركاب براً وتمرراً وثياباً. فجعل النابغة يستعجل فيأكل الحب صرفاً؛ فقال ابن الزبير: ويح أبي ليلى! لقد بلغ به الجهد؛ قال النابغة: أشهد أبي سمعت رسول الله صلى الله عليه وسلم يقول: ما وليت قريش فعدلت، واسترحمت فرحمت، وحدثت فصدقت، ووعدت خيراً فأنجرت، فأنا والنبيون فراط القاصفين.

قال الزبير بن بكار: الفارط: الذي يتقدم إلى الماء يصلح الرشاء والدلاء. والقاصف: الذي يتقدم لشراء الطعام.

وفود أهل الكوفة على ابن الزبير رحمة الله تعالى

قال: لما قتل صعب بن الزبير المختار بن أبي عبيد خرج حاجاً، فقدم على أخيه عبد الله بن الزبير بمكة، ومعه وجوه أهل العراق، فقال له: يا أمير المؤمنين، جئت بك بوجوه أهل العراق، لم أدع لهم بها نظيراً، لتعطيهم من هذا المال؛ قال: جئتني بعبيد أهل العراق لأعطيهم مال الله! والله لا فعلت. فلما دخلوا عليه وأخذوا مجالسهم، قال لهم: يا أهل الكوفة، وددت والله أن لي بكم من أهل الشام صرف الدينار والدرهم، بل لكل عشرة رجلاً. قال عبيد

الله بن ظبيان: أتدري يا أمير المؤمنين ما مثلنا ومثلك فيما ذكرت؟ قال: وما ذلك؟ قال: فإن مثلنا ومثلك ومثل أهل الشام، كما قال أعشى بكر بن وائل:

علقتها عرضاً وعلقت رجلاً

غيري وعلق أخرى غيرها الرجل

أحببتك نحن، وأحببت أنت أهل الشام، وأحب أهل الشام عبد الملك. ثم انصرف القوم من عنده خائبين، فكاتبوا عبد الملك بن مروان وغدروا بمصعب بن الزبير.

وفود رؤية على أبي مسلم

الأصمعي قال: حدثنا رؤية قال: قدمت على أبي مسلم صاحب الدعوة، فأنشدته، فناداني: يا رؤية؛ فنوديت له من كل مكان: يا رؤية، فأجبت:

لبيك إذ دعوتني لبيكا

أحمد ربا ساقني إليكا

الحمد والنعمة في يديكا

قال: بل في يدي الله عز وجل؛ قلت: وأنت لما أنعمت حمدت. ثم استأذنت في الإنشاد، فأذن لي فأنشدته:

ما زال يأتي الملك من أقطاره

وعن يمينه وعن يساره

مشمراً لا يصطلي بناره

حتى أقر الملك في قراره

فقال: إنك أتيتنا وقد شف المال واستنفضه الإنفاق، وقد أمرنا لك بجائزة، وهي تافهة يسيرة، ومنك العود وعليك المعول، والدهر أطرق مستتب، فلا تجعل بجنيك الأسد؛ قال: فقلت: الذي أفادني الأمير من كلامه أحب إلي من الذي أفادني من ماله.

وفود العتابي على المأمون

الشيبياني قال: كان كلثوم العتابي أيام هارون الرشيد في ناحية المأمون، فلما خرج إلى خراسان شيعه إلى قومس حتى وقف على سندان كسرى، فلما حاول وداعه، قال له المأمون: لا تدع زيارتنا إن كان لنا من هذا الأمر شيء. فلما أفضت الخلافة إلى المأمون، وفد إليه العتابي زائراً، فحجب عنه، فتعرض ليحيى بن أكتهم، فقال: أيها القاضي، إن رأيت أن تذكر بي أمير المؤمنين؛ فقال له يحيى: ما أنا بالحاجب؛ قال له: قد علمت، ولكنك ذو فضل وذو الفضل معوان. فدخل على المأمون؛ فقال: يا أمير المؤمنين، أحرني من العتابي ولسانه، فلم يأذن له وشغل عنه، فلما رأى العتابي جفاه قد تهادى، كتب إليه:

ما على ذا كنا افترقنا بسندا

دولا هكذا رأينا الإخاء

لم أكن أحسب الخلافة يزدا

د بها ذو الصفاء إلا صفاء

تضرب الناس بالمتقفة السم

ر على غدرهم وتنسى الوفاء

فلما قرأ أبياته دعا به؛ فلما دنا منه سلم بالخلافة ووقف بين يديه؛ فقال: يا عتابي، بلغتنا وفاتك فغممتنا، ثم انتهت إلينا وفادتك فسرنا؛ فقال: يا أمير المؤمنين، لو قسم هذا البر على أهل منى وعرفات لوسعهم، فإنه لا دين إلا بك، ولا دنيا إلا معك؛ قال: سل حاجتك؛ قال: يدك بالعطية أطلق من لساني بالمسألة. فأحسن جائزته وانصرف

وفود أبي عثمان المازني على الواثق

أبو عثمان بكر بن محمد قال: وفدت على الواثق، فلما دخلت وسلمت قال: هل خلّيت وراءك أحداً يهملك أمره؟ قلت: أختي لي ربيتها فكأنها بنتي؛ قال: ليس شعري! ما قالت حين فارقتها؟ قلت: أنشدتني قول الأعشى:

أرانا سواء ومن قد يتم

فإننا نخاف بأن تخترم

د نجفى وتقطع منا الرحم

تقول ابنتي يوم جد الرحيل

أبانا فلا رمت من عندنا

أرانا إذا أضمرتك البلا

قال: ليت شعري! ما قلت لها؟ قال: أنشدتها أمير المؤمنين قول جرير:

تقي بالله ليس له شريك

ومن عنده الخليفة بالنجاح

قال: أتاك النجاح، وأمر له بعشرة آلاف درهم. ثم قال: حدثني حديثاً ترويه عن أبي مهدية مستظرفاً؛ قلت: يا أمير المؤمنين، حدثني الأصمعي قال: قال لي أبو مهدية: بلغني أن الأعراب والأعزاب سواء في الهجاء؛ قلت: نعم؛ قال: فاقراً: الأعراب أشد كفراً ونفاقاً ولا تقرأ الأعراب، ولا يغرنك العزب وإن صام وصلّى. فضحك الواثق حتى شغل رجله، وقال: لقد لقي أبو مهدية من العزبة شراً، وأمر له بخمسمائة دينار.

الوافدات على معاوية

وفود سودة بنت عمارة على معاوية

عامر الشعبي قال: وفدت سودة بنت عمارة بن الأشتر الهمدانية على معاوية بن أبي سفيان، فاستأذنت عليه، فأذن لها؛ فلما دخلت عليه سلمت؛ فقال لها: كيف أنت يا بنة الأشتر؟ قالت: بخير يا أمير المؤمنين؛ قال لها: أنت القائلة لأخيك:

يوم الطعان وملتقى الأقران

واقصد لهند وابنها بهوان

علم الهدى ومنارة الإيمان

قدماً بأبيض صارم وسنان

شمر كفعل أبيبك يا بن عمارة

وانصر عليا والحسين ورهطه

إن الإمام أخو النبي محمد

فقد الجيوش وسر أمام لوائه

قالت: يا أمير المؤمنين، مات الرأس وبتر الذنب، فذع عنك تذكاري ما قد نسي؛ قال: هيهات؛ ليس مثل مقام أخيك ينسى؛ قالت: صدقت والله يا أمير المؤمنين، ما كان أخي خفي المقام، ذليل المكان، ولكن كما قالت الخنساء:

كأنه علم في رأسه نار

وإن صخراً لتأتم الهداة به

وبالله أسأل أمير المؤمنين إعفائي مما استعفيت به؛ قال: قد فعلت: فقولي حاجتك؛ قالت: يا أمير المؤمنين، إنك للناس سيد، ولأمورهم مقلد، والله سائلك عما افترض عليك من حقنا، ولا تزال تقدم علينا من ينهض بعزك، ويسيطر سلطانك، فيحصدنا حصاد السنبل، ويدوسنا دياس البقر، ويسومنا الخسيس، ويسألنا الجلييلة، هذا ابن أرطاة قدم بلادك، وقتل رجالي، وأخذ مالي، ولولا الطاعة لكان فينا عز ومنعة، فإما عزلته فشكرناك، وإلا لا فعرناك؛ فقال معاوية: إياي تهددين بقومك! والله قد هممت أن أردك إليه على قتب أشرس، فينفذ حكمه فيك؛ فسكتت ثم قالت:

قبر فأصبح فيه العدل مدفونا

فصار بالحق والإيمان مقرونا

صلى الإله على روح تضمنه

قد حالف الحق لا يبغى به ثمناً

قال: ومن ذلك؟ قالت: علي بن أبي طالب رحمه الله تعالى؛ قالت: وما أرى عليك منه أثراً؛ قال: بلى، أتيتته يوماً في رجل ولاه صدقاتنا، فكان بيننا وبينه ما بين الغث والسمين، فوجدته قائماً يصلي، فانفتل من الصلاة، ثم قال برأفة وتعطف: ألك حاجة؟ فأخبرته خبر الرجل، فبكى ثم رفع يديه إلى السماء، فقال: اللهم إني لم أمرهم بظلم خلقك، ولا ترك حقتك؛ ثم أخرج من جيبه قطعة من جراب، فكتب فيها: بسم الله الرحمن الرحيم. قد جاءتكم بينة من ربكم، فأوفوا الكيل والميزان بالقسط ولا تبخسوا الناس أشياءهم، ولا تعثوا في الأرض مفسدين، بقية الله خير لكم إن كنتم مؤمنين وما أنا عليكم بحفيظ. إذا أتاك كتابي هذا فاحتفظ بما في يديك، حتى يأتي من يقبضه منك، والسلام.

فأخذته منه يا أمير المؤمنين ما خزمه بخزام، ولا ختمه بختام. فقال معاوية: اكتبوا لها الإنصاف لها والعدل عليها؛ فقالت: ألي خاصة، أم لقومي عامة؟ قال: وما أنت وغيرك؟ قال: هي والله إذا الفحشاء والوم إن لم يكن عدلاً شاملاً، وإلا يسعني ما يسع قوي؛ قال: هيهات، لمظكم ابن أبي طالب الجرأة على السلطان فبطيئاً ما تفضمون، وغركم قوله:

فلو كنت بواباً على باب جنة

لقلت لهمدان ادخلوا بسلام

وقوله:

ناديت همدان والأبواب مغلقة

ومثل همدان سنى فتحة الباب

كالهنداوي لم تقلل مضاربه

وجه جميل وقلب غير وجاب

اكتبوا لها بحاجتها

وفود بكارة الهلالية على معاوية

استأذنت بكارة الهلالية على معاوية بن أبي سفيان، فأذن لها، وهو يومئذ بالمدينة، فدخلت عليه، وكانت امرأة قد أسنت وعشي بصرها، وضعفت قوتها، ترعش بين خادمين لها، فسلمت وجلست، فرد عليها معاوية السلام، وقال: كيف أنت يا حالة؟ قالت: بخير يا أمير المؤمنين؛ قال: غيرك الدهر؛ قالت: كذلك هو ذو غير، من عاش كبير، ومن مات قبر. قال عمرو بن العاص: هي والله والقائلة يا أمير المؤمنين:

يا زيد دونك فاستشر من دارنا

سيفاً حساماً في التراب دفيناً

قد كنت أذخره ليوم كريمة

فاليوم أبرزه الزمان مصوناً

قال مروان: وهي والله القائلة يا أمير المؤمنين:

أترى ابن هند للخلافة مالكا

هيهات، ذاك وإن إراد بعيد

منتك نفسك في الخلاء ضلالة

أغراك عمرو للشقا وسعيد

قال سعيد بن العاصي: هي والله القائلة:

قد كنت أطمع أن موت ولا أرى

فوق المنابر من أمية خاطبة

فإنه آخر مدتي فتطاولت

حتى رأيت من الزمان عجائب

في كل يوم للزمان خطيبهم

بين الجميع لآل أحمد عائياً

ثم سكتوا. فقالت: يا معاوية، كلاك أعشى بصري وقصر حجتي، أنا والله قائلة ما قالوا، وما خفي عليك مي أكثر؛ فضحك وقال: ليس يمنعنا ذلك من برك، اذكرني حاجتك. قالت: الآن فلا.

وفود الزرقاء على معاوية

عبيد الله بن عمرو الغساني عن الشعبي قال: حدثني جماعة من بني أمية ممن كان يسمر مع معاوية قالوا: بينما معاوية ذات ليلة مع عمرو وسعيد وعتبة والوليد، إذ ذكروا الزرقاء بنت عدي بن غالب بن قيس الهمدانية، وكانت شهدت مع قومه صفين، فقال: أيحكم يحفظ كلامها؟ قال بعضهم: نحن نحفظه يا أمير المؤمنين؛ قال: فأشيروا علي في أمرها؛ فقال بعضهم: نشير عليك بقتلها؛ قال: بنس الرأي الذي أشرت به علي، أيحسن بمثلتي أن يتحدى عنه أنه قتل امرأة بعدما ظفر بها! فكتب إلى عامله بالكوفة أن يوفدها إليه ما ثقة من ذوي محارمها، وعدة من فرسان قومها، وأن يمهد لها وطاء لينا، ويسترها بستر خفيف، ويوسع لها في النفقة، فأرسل إليها فأقرأها الكتاب؛ فقالت: إن كان أمير المؤمنين جعل الخيار إلي فيني لا آتية، وإن كان حتم فالطاعة أولى. فحملها وأحسن جهازها علي ما أمر به، فلما دخلت على معاوية، قال: مرحباً وأهلاً، قدمت خير مقدم قدمه وافد، كيف حالك؟ قالت: بخير يا أمير المؤمنين. أدام الله لك النعمة؛ قال: كيف كنت في مسيرك؟ قالت: ربيبة بيت أو طفلاً ممهداً؛ قال: بذلك أمرناهم، أتدرين فيما بعثت إليكِ؟ قالت: أني لي بعلم ما لم أعلم؛ قال: أأستت الراكبة الجمل الأحمر، والوقوف بين الصفين يوم الصفين تحضين على القتال. وتوقدين الحرب، فما حملك على ذلك؟ قالت: يا أمير المؤمنين، مات الرأس، وبت الذنب، ولم يعد ما ذهب، والدهر ذو غير، ومن تفكر أبصر، والأمر يحدث بعد الأمر؛ قال لها معاوية: صدقت. أحفظين كلامك يوم صفين؟ قالت: لا والله لا أحفظه ولقد أنسيته؛ قال: لكني أحفظه، لله أبوك حين تقولين: أيها الناس، ارجعوا وارجعوا، إنكم قد أصبحتم في فتنة غشتكم جلايب الظلم، وجارت بكم عن قصد الحجّة، فيا لها فتنة عمياء، صماء بكماء؛ لا تسع لناعقها، ولا تنساق لقائدها. إن المصباح لا يضيء في الشمس، ولا تنير الكواكب مع القمر، ولا يقطع الحديد إلا الحديد. ألا من استرشدنا أرشدناه، ومن سألتنا أخبرناه. أيها الناس، إن الحق كان يطلب ضالته فأصابها، فصيراً يا معشر المهاجرين والأنصار على الغصص، فكأن قد اندمل شعب الشتات، والتأمت كلمة العدل، ودمغ الحق باطله، فلا يجهلن أحد، فيقول: كيف العدل وأني، ليقض الله أمراً كان مفعولاً. ألا وإن خضاب النساء الخناء وخضاب الرجال الدماء، ولهذا اليوم ما بعده.

والصبر خير في الأمور عواقباً

أيها، في الحرب قدماً غير ناكسين ولا متشاكسين.

ثم قال لها: والله يا زرقاء، لقد شركت علياً في كل دم سفكه؛ قالت: أحسن الله بشارتك، وأدام سلامتك، فمثلك بشر بخير وسر جليسه؛ قال: أو يسرك ذلك؟ قالت: نعم والله. لقد سررت بالخبر فأني لي بتصديق الفعل؛ فضحك معاوية وقال: والله لوفاءؤكم له بعد موته أعجب من حبكم له في حياته، اذكري حاجتك؛ قالت: يا أمير المؤمنين، آليت على نفسي أن لا أسأل أميراً أعنت عليه أبداً، ومثلك أعطى عن غير مسألة، وجاد من غير طلبه؛ قال: صدقت، وأمر لها وللذين جاؤوا معها بجوائز وكسا.

وفود أم سنان بنت خيثمة على معاوية رحمه الله

سعيد بن أبي حذافة قال: حبس مروان بن الحكم وهو والي المدينة غلاماً من بني ليث في جناية جناها، فاتته جدة الغلام أم أبيه، وهي أم سنان بنت خيثمة بن حرشة المذحجية، فكلمته في الغلام، فأغلظ مروان، فخرجت إلى معاوية، فدخلت عليه فانتسب، فعرفها؛ فقال لها: مرحباً يا بنة خيثمة، ما أقدمك أرضنا؟ وقد عهدتكم تشتمينا وتحضين علينا عدونا؛ قالت: إن لبني عبد مناف أخلاقاً طاهرة، وأحلاماً وافرة؛ لا يجهلون بعد علم، ولا يسفهون بعد حلم، ولا ينتقمون بعد عفو، وإن أولى الناس باتباع ما سن أبأؤه لأنت؛ قال: صدقت، نحن كذلك، فكيف قولك:

والليل يصدر بالهموم ويورد

إن العدو لآل أحمد يقصد

وسط السماء من الكواكب أسعد

عزب الرقاد فمقلتي لا ترقد

يا آل مذحج لا مقام فشمروا

هذا علي كالهلال تحفه

خير الخلائق وابن عم محمد

إن يهدكم بالنور منه تهتدوا

ما زال مذ شهد الحروب مظفراً

والنصر فوق لوائه ما يفقد

قالت: كان ذلك يا أمير المؤمنين، وأرجو أن تكون لنا خلفاً بعده. فقال رجل من جلسائه: كيف يا أمير المؤمنين وهي القائلة:

إما هلكت أبا الحسين فلم تنزل

بالحق تعرف هادياً مهدياً

فأذهب عليك صلاة ربك ما دعت

فوق الغصون حمامة قمرياً

قد كنت بعد محمد خلفاً كما

أوصى إليك بنا فكنت وفيها

فالبيوم لا خلف يؤمل بعده

هيهات نأمل بعده إنسيا

قالت: يا أمير المؤمنين، لسان نطق، وقول صدق، ولئن تحقق فيك ما ظننا فحظك الأوفر؛ والله ما ورثك الشنآن في قلوب المسلمين إلا هؤلاء، فأدحض مقاتلهم، وأبعد منزلتهم، فإنك إن فعلت ذلك تردد من الله قرباً، ومن المؤمنين حبا؛ قال: وإنك لتقولين ذلك؟ قالت: سبحان الله! والله ما مثلك مدح باطل، ولا اعتذر إليه بكذب، وإنك لتعلم ذلك من رأينا، وضمير قلوبنا؛ كان والله علي أحب إلينا منك، وأنت أحب إلينا من غيرك؛ قال: ممن؟ قالت: مروان بن الحكم وسعيد بن العاصي؛ قال: وبم استحققت ذلك عندك؟ قالت: بسعة حلمك وكريم عفوك؛ قال: فإنهما يطمعان في ذلك؛ قال: والله لقد قاربت، فما حاجتك؟ قالت: يا أمير المؤمنين، إن مروان تبنك بالمدينة تبنك من لا يريد منها البراح. لا حكم بعدل، ولا يقضي بسنة، يتتبع عثرات المسلمين، ويكشف عورات المؤمنين، حبس ابن ابني فأتيته، فقال: كيت وكيت، فألقمته أحشن من الحجر، وألقمته أمر من الصاب، ثم رجعت إلى نفس باللائمة، وقلت: لم لا أصرف ذلك إلى من هو أولى بالعمو منه، فأتيتك يا أمير المؤمنين لتكون في أمري ناظراً، وعليه معديا؛ قال: صدقت، لا أسألك عن ذنبه، ولا عن القيام بحجته، اكتبوا لها بإطلاقه؛ قالت: يا أمير المؤمنين، وأنى لي بالرجعة، وقد نفذ زادي، وكلت راحلي. فأمر لها براحلة موطأة وخمسة آلاف درهم.

وفود عكرشة بنت الأطرش على معاوية رحمه الله تعالى

أبو بكر الهذلي عن عكرمة قال:

دخلت عكرشة بنت الأطرش بن رواحة على معاوية متوكئة على عكاز لها، فلمت عليه بالخلافة، ثم جلست؛ فقال لها معاوية: الآن يا عكرشة صرت عندك أمير المؤمنين؟ قالت: نعم، إذ لا علي حي؛ قال: ألسنت المتقلدة حوامل السيف بصفين، وأنت واقفة بين الصغين تقولين: أيها الناس، عليكم أنفسكم لا يضركم من ضل إذا اهتديتم، إن الجنة لا يرحل عنها من قطنها، ولا يرههم من سكنها، ولا يموت من دخلها، فابتاعوها بدار لا يدوم نعيمها، ولا تنصرم هومها، وكونوا قوماً مستبصرين في دينهم، مستظهرين بالصبر على طلب حقهم؛ إن معاوية دلف إليكم بعجم العرب غلف القلوب، لا يفقهون الإيمان ولا يدرون ما الحكمة، دعاهم بالدنيا فأجابوه، واستدعاهم إلى الباطل فلبوه، فآله الله عباد الله في دين الله، وإياكم والتواكل، فإن ذلك ينقض عرى الإسلام، ويطفئ نور الحق، هذه بدر الصغرى، والعقبة الأخرى؛ يا معشر المهاجرين والأنصار، امضوا على بصيرتكم، واصبروا على عجزتكم، فكأنني بكم غداً، ولقد لقيتم أهل الشام كالحمر الناهقة تصقع صقع البقر وتروث روث العتاق. فكأنني أراك على عصاك هذه وقد انكفأ عليك العسكران، يقولون: هذه عكرشة بنت الأطرش بن رواحة، فإن كدت لتقتلين أهل الشام لولا قدر الله، وكان أمر الله قدراً مقدوراً، فما حملك على ذلك؟ قالت: يا أمير المؤمنين، قال الله تعالى: "يا أيها الذي آمنوا لا تستلوا عن أشياء إن تبد لكم تسؤكم" وإن اللبيب إذا كره أمراً لا يجب إعادته؛ قال: صدقت، فاذكري حاجتك؛ قالت: إنه كانت صدقاتنا تؤخذ من أغنيائنا فترد على فقرائنا، وإننا قد فقدنا ذلك فما يجبر لنا كسير، ولا ينعش لنا فقير، فإن كان ذلك عن رأيك، فمثلك من انتبه عن الغفلة، وراجع التوبة، وإن كان عن غير رأيك، فما مثلك من استعان الخونة، ولا استعمل الظلمة. قال معاوية: يا هذه، إنه ينبونا من أمور رعيتنا أمور تنبثق، وبجور تنفحق، قالت: يا سبحان الله، والله ما فرض الله لنا حقاً

فجعل فيه ضرراً على غيرنا وهو علام الغيوب؛ قال معاوية: هيهات يا أهل العراق، نهبكم علي بن أبي طالب فلن تطاقوا. ثم أمر برد صدقاتهم فيهم وإنصافها.

قصة دارمية الحجونية مع معاوية رحمه الله تعالى

سهل بن أبي سهل التميمي عن أبيه قال: حج معاوية، فسأل عن امرأة من بني كناية كانت تنزل بالحجون، يقال لها دارمية الحجونية، وكانت سوداء كثيرة اللحم، فأخبر بسلامتها، فبعث إليها فحجى بها، فقال: ما حالك يا بنة حام؟ فقالت: لست لحام إن عبتني، أنا امرأة من بني كنانة؛ قال: صدقت، أتدرين لم بعثت إليك؟ قالت: لا يعلم الغيب إلا الله؛ قال: بعثت إليك لأسألك علام أحببت علياً وأبعضتني، وواليتي وعاديتني؟ قالت: أوتعفيني يا أمير المؤمنين؟ قال: لا أعفيك؛ قالت: أما إذ أبيت، فأني أحببت علياً على عدله في الرعية، وقسمه بالسوية، وأبعضتك على قتالك من هو أولى منك بالأمر، وطلبتك ما ليس لك بحق؛ وواليت علياً على ما عقد له رسول الله صلى الله عليه وسلم من الولاء، وحبه المساكين، وإعظامه لأهل الدين؛ وعاديتك على سفكك الدماء، وجورك في القضاء، وحكمك بالهوى؛ قال: فلذلك انتفخ بطنك، وعظم ثديك، وربت عجيزتك؛ قالت: يا هذا، بهند والله كان يضرب المثل في ذلك لا بي، قال معاوية: يا هذه اربعي، فإننا لم نقل إلا خيراً، إنه إذا انتفخ بطن المرأة تم خلق ولدها، وإذا عظم ثديها تروى رضيعها، وإذا عظمت عجيزتها رزن مجلسها؛ فرجعت وسكنت. قال لها: يا هذه هل رأيت علياً؟ قالت: إي والله؛ قال: فكيف رأيت؟ قالت: رأيت والله لم يفتنه الملك الذي فتنك، ولم تشغله النعمة التي شغلتك؛ قال: فهل سمعت كلامه؟ قالت: نعم والله، فكان يجلو القلب من العمى، كما يجلو الزيت صدأ الطست؛ قال: صدقت، فهل لك من حاجة؟ قالت: أو تفعل إذا سألتك؟ قال: نعم، قالت: تعطيني مائة ناقة حمراء فحلها وراعيها؛ قال: تصنعين بما ماذا؟ قالت: أغدوا بألبانها الصغر، وأستحيي بها الكبار، وأكتسب بها المكارم، وأصلح بها بين العشائر؛ قال: فإن أعطيتك ذلك، فهل أحل عندك محل علي بن أبي طالب؟ قالت: ماء ولا كصداء، ومرعى ولا كالسعدان، وفتى ولا كمالك، يا: سبحان الله، أو دونه؟. فأنشأ معاوية يقول:

فمن ذا الذي بعدي يؤمل للحلم

إذ لم أعد بالحلم مني عليكم

جزاك على حرب العداوة بالسلم

خذيها هنيئاً واذكري فعل ماجد

ثم قال: أما والله لو كان علي حياً ما أعطاك منها شيئاً؛ قالت: لا والله، ولا وبرة واحدة من مال المسلمين.

وفود أم الخير بنت الحريش على معاوية

عبيد الله بن عمر الغساني عن الشعبي قال: كتب معاوية إلى واليه بالكوفة أن يحمل إليه أم الخير بنت الحريش بن سراقه البارقي برحلهما، وأعلمه أنه مجازيه بقولها فيه بالخير خيراً وبالشر شراً. فلما ورد عليه كتابه ركب إليها فأقرأها كتابه؛ فقالت: أما أنا فغير زائغة عن طاعة، ولا معتلة بكذب، ولقد كنت أحب لقاء أمير المؤمنين لأمر تحتلج في صدري. فلما شيعها وأراد مفارقتها، قال لها: يا أم الخير، إن أمير المؤمنين كتب إلي أنه مجازيني بالخير خيراً وبالشر شراً، فمالى عندك؟ يا هذا لا يطمعنك برك بي أن أسرك بباطل، ولا تؤيسك معرفتي بك أن يقول فيك غير الحق. فسارت خير مسير حتى قدمت على معاوية، فأنزلها مع الحرم، ثم أدخلها عليه في اليوم الرابع، وعنده جلساؤه؛ فقالت: السلام عليك يا أمير المؤمنين ورحمة الله وبركاته؛ فقال لها: وعليك السلام يا أم الخير، بحق ما دعوتني بهذا الاسم؟ قالت: يا أمير المؤمنين، مه، فإن بديهة السلطان مدحضة لما يجب علمه، و لكل أجل كتاب؛ قال: صدقت، فكيف حالك يا خالة؟ وكيف كنت في مسيرك؟ قالت: لم أزل يا أمير المؤمنين في خير وعافية حتى صرت إليك، فأنا في مجلس أتيق، عند ملك رفيق؛ قال معاوية: بحسن نيبي ظفرت بكم؛ قالت: يا أمير المؤمنين، يعيدك الله من دحض المقال وما تردي عاقبته؛ قال: ليس هذا أردنا، أخبرينا كيف كان كلامك إذ قتل عمار بن ياسر؟ قالت: لم أكن زورته قبل، ولا رويته بعد، وإنما كانت كلمات نفثها لساني عند الصدمة، فإن أحببت أن أحدث لك مقالاً عن ذلك فعلت؛ قال: لا أشاء ذلك. فالتفت معاوية إلى جلسائه، فقال: أيكم يحفظ كلامها؟ فقال رجل منهم: أنا أحفظ

بعض كلامها يا أمير المؤمنين؛ قال: هات؛ قال: كأي بها وعليها برد زيدي كثيف النسيج، وهي على جمل أرمك، وقد أحيط حولها، ويدها سوط منتشر الصغيرة، وهي كالفحل يهدر في شقشقته، تقول:

يا أيها الناس، اتقوا ربكم، إن زلزلة الساعة شيء عظيم، إن الله قد أوضح لكم الحق، وأبان الدليل، وبين السبيل، ورفع العلم، ولم يدعكم في عمياء مبهمة، ولا سوداء مدلّمة، فأين تريدون رحمكم الله، أفراراً عن أمير المؤمنين، أم فراراً من الزحف، أم رغبة عن الإسلام، أم ارتداداً عن الحق؟ أما سمعتم الله جل ثناؤه يقول: "وليلونكم حتى نعلم المجاهدين منكم والصابرين ونبلو أخباركم". ثم رفعت رأسها إلى السماء، وهي تقول: اللهم قد عيل الصبر، وضعف اليقين، وانتشرت الرغبة، ويديك يا رب أزمة القلوب، فاجمع اللهم بها الكلمة على التقوى، وألف القلوب على الهدى، واردد الحق إلى أهله، هلموا رحمكم الله إلى الإمام العادل، والرضي التقي؛ والصديق الأكبر، إنما إحن بدرية وأحقاد جاهلية، وضغائن أهدية، وثب بها واثب حين الغفلة، ليدرك ثارات بني عبد شمس. ثم قالت: قاتلوا أئمة الكفر إنهم لا إيمان لهم لعلهم ينتهون. صبراً يا معشر المهاجرين والأنصار، قاتلوا على بصيرة من ربكم وثبات من دينكم، فكأنني بكم غداً وقد لقيتم أهل الشام، كحمر مستنفرة، فرت من قسورة، لا تدري أين يسلك بها فجاج الأرض، باعوا الآخرة بالدنيا، واشتروا الضلالة بالهدى، وباعوا البصيرة بالعمى، وعموا قليل ليصبحن نادمين، حين تحل بهم الندامة، فيطلبون الإقالة ولات حين مناص، إنه من ضل الله عن الحق وقع في الباطل، ألا إن أولياء الله استصغروا عمر الدنيا فرفضوها، واستطابوا الآخرة فسعوا لها؛ فالله الله أيها الناس، قبل أن تبطل الحقوق، وتعطل الحدود، ويظهر الظالمون؛ وتقوى كلمة الشيطان، فيألى أين تريدون رحمكم الله؟ عن ابن عم رسول الله صلى الله عليه وسلم وصهره وأبي سبطيه؟ خلق من طيبته، وتفرغ من نبعته، وخصه بسره، وجعله باب مدينته، وأبان ببغضه المنافقين، وها هو ذا مغلق الهام، ومكسر الأصنام، صلى والناس مشركون. وأطاع والناس كارهون، فلم يزل في ذلك حتى قتل مبارزي بدر، وأفنى أهل أحد، وهزم الأحزاب، وقتل الله به أهل خيبر، وفرق بن جمع هوازن. فيالها من وقائع زرعت في قلوب نفاقاً، وردة وشقاقاً، وزادت المؤمنين أيماناً، قد اجتهدت في القول، وبالغت في النصيحة، وبالله التوفيق، والسلام عليكم ورحمة الله.

فقال معاوية: يا أم الخير، ما أردت بهذا الكلام إلا قتلي، ولو قتلتك ما حرجت في ذلك؛ قالت: والله ما يسوعني أن يجري قتلي على يدي من يسعدني الله بشقائقه؛ قال: هيهات يا كثيرة الفضول، ما تقولين في عثمان بن عفان رحمه الله؟ قالت: وما عسيت أن أقول في عثمان، استخلفه الناس وهم به راضون، وقتلوه وهم له كارهون، قال معاوية: يا أم الخير، هذا أصلك الذي تبينين عليه؟ قالت: لكن الله يشهد وكفى بالله شهيداً، ما أردت بعثمان نقصاً، ولكن كان سابقاً إلى الخير، وإنه لرفيع الدرجة غداً. قال: فما تقولين في طلحة بن عبيد الله؟ قالت: وما عسى أن أقول في طلحة، اغتيل من مأمته، وأتي من حيث لم يحذر، وقد وعده رسول الله صلى الله عليه وسلم الجنة. قال: فما تقولين في الزبير؟ قالت: وما أقول في ابن عم رسول الله صلى الله عليه وسلم وحواريه، وقد شهد له رسول الله صلى الله عليه وسلم بالجنة، ولقد كان سابقاً إلى كل مكرمة في الإسلام. وأنا أسألك بحق الله يا معاوية -فإن قريشاً تحدثت أنك أحلمها- أن تسعني بفضل حلمك، وأن تعفني من هذه المسائل وتسالني عما شئت من غيرها؛ قال: نعم ونعمة عين، قد أعفيتك منها، ثم أمر لها بجائزة رقيقة وردها مكرمة.

وفود أروى بنت عبد المطلب على معاوية رحمه الله

العباس بن مكار قال: حدثني عبد الله بن سليمان المدني وأبو بكر الهذلي: أن أروى بنت الحارث بن عبد المطلب دخلت على معاوية، وهي عجوز كبيرة، فلما رآها معاوية قال: مرحباً بك وأهلاً يا عمّة، فكيف كنت بعدنا؟ فقالت: يا بن أخي، لقد كفرت يد النعمة، وأسأت لابن عمك الصحبة، وتسميت بغير اسمك، وأخذت غير حقلك، من غير بلاء كان منك، ولا من آباءك، ولا سابقة في الإسلام، بعد أن كفرتم برسول الله صلى الله عليه وسلم، فأتعس الله منك الجدود، وأضرع منكم الحدود، ورد الحق إلى أهله، ولو كره المشركون، وكانت كلمتنا هي العليا، ونبينا صلى الله عليه وسلم هو المنصور، فوليتم علينا من بعده، تحتجون بقرايتكم من رسول الله صلى الله عليه وسلم، ونحن أقرب إليه منكم، وأولى بهذا الأمر، فكنا فيكم بمنزلة بني إسرائيل في آل فرعون، وكان علي بن أبي طالب رحمه الله بعد نبينا صلى الله عليه وسلم بمنزلة هارون من موسى، فغايتنا الجنة وغايتكم النار. فقال

لها عمرو بن العاص: كفى أيتها العجوز الضالة، وأقصري من قولك مع ذهاب عقلك، إذ لا تجوز شهادتك وحدك! فقالت له: وأنت يا بن النابغة، تتكلم وأمك كانت أشهر امرأة تعني بمكة وآخذهن لأجرة؛ ادعاك خمسة نفر من قريش، فسئلت أمك عنهم، فقالت: كلهم أتاني، فانظروا أشبههم به فألحقوه به، فغلب عليك شبه العاص بن وائل، فلحقت به. فقال مروان: كفى أيتها العجوز، واقصدي لما جئت له. فقالت: وأنت أيضاً يا بن الزرقاء تتكلم! ثم التفتت إلى معاوية، فقالت: والله ما جرأ علي هؤلاء غيرك، فإن أمك القائلة في قتل حمزة:

والحرب بعد الحرب ذات سعر

وشكر وحشى علي دهري

يا بنه جبار عظيم الكفر

نحن جزيناكم بيوم بدر

ما كان لي عن عتبة من صبر

حتى ترم أعظمي في قبري

فأجابتها بنت عمي، وهي تقول:

خزيت في بدر وبعد بدر

فقال معاوية: عفا الله عما سلف، يا عمه، هات حاجتك؛ قالت: مالي إليك حاجة؛ وخرجت عنه.

كتاب المرجانة في مخاطبة الملوك

قال أبو عمر أحمد بن محمد بن عبد ربه: قد مضى قولنا في الوفود والوفادات ومقاماتهم بين يدي نبي الله صلى الله عليه وسلم وبين يدي الخلفاء والملوك، ونحن قائلون بعون الله وتوفيقه وتأييده وتسديده في مخاطبة الملوك والتزلف إليهم بسحر البيان، الذي يمازج الروح لطافة، ويجري مع النفس رقة والكلام الرقيق مفايد القلوب، وإن منه لما يستعطف المستشيط غيظاً، والمندمل حقداً، حتى يطفى جمرة غيظه، ويسل دفائن حقه؛ وإن منه لما يستميل قلب اللئيم، ويأخذ بسمع الكريم وبصره؛ وقد جعله الله تعالى بينه وبين خلقه وسيلة نافعة، وشافعاً مقبولاً؛ قال تبارك وتعالى: "فتلقى آدم من ربه كلمات فتاب إنه هو التواب الرحيم".

وسنذكر في كتابنا هذا إن شاء الله تعالى من تخلص من أنشودة الهلاك وتفلت من حبال المنية، بحسن التفصل، ولطيف التوصل، ولين الجواب، ورقيق الاستعاب، حتى عادت سيئاته حسنات، وعيى بالثواب بدلاً من العقاب. وحفظ هذا الباب، أوجب على الإنسان من حفظ عرضه، وألزم له من قوام بدنه.

البيان

كل شيء كشف لك قناع المعنى الخفي حتى يتأدى إلى الفهم ويتقبله العقل، فذلك البيان الذي ذكره الله عز وجل في كتابه، ومن به على عباده، فقال تعالى: "الرحمن علم القرآن خلق الإنسان علمه البيان".

وسئل النبي صلى الله عليه وسلم: فيم الجمال؟ فقال: في اللسان، يريد البيان.

وقال صلى الله عليه وسلم: إن من البيان لسحراً.

وقالت العرب: أنفذ من الرمية كلمة فصيحة.

وقال الراجز:

راوية طوراً وطوراً شاعراً .

لقد خشيت أن تكون ساحراً

وقال سهل بن هارون: العقل رائد الروح، والعلم رائد العقل، والبيان ترجمان العلم.

وقالوا: البيان بصر، والعبي عمى؛ كما أن العلم بصر، والجهل عمى. والبيان من نتاج العلم، والعبي من نتاج الجهل.

وقالوا: ليس لمنقوص البيان بهاء، ولو حك بيافوخه عنان السماء.

وقال صاحب المنطق: حد الإنسان: الحي الناطق المبين. وقال: الروح عماد البدن والعلم عماد الروح، والبيان عماد العلم.

تبجيل الملوك وتعظيمهم

قال النبي صلى الله عليه وسلم: إذا أتاكم كريم قوم فأكرموه.

وقالت العلماء:

لا يؤم ذو سلطان في سلطانه، ولا يجلس على تكرمته إلا بإذنه.

وقال زياد ابن أبيه: لا يسلم على قادم بين يدي أمير المؤمنين.

وقال يحيى بن خالد بن برمك: مسألة الملوك عن حالها من سجية النوكى، فإذا أردت أن تقول: كيف أصبح الأمير؟ فقل: صبح الله الأمير بالنعمة والكرامة؛ وإذا كان عليلاً، فأردت أن تسأله عن حاله، فقل: أنزل الله على الأمير الشفاء والرحمة؛ فإن الملوك لا تسأل ولا تشمت ولا تكيف، وأنشد:

إن الملوك لا يخاطبونا

وفي المقال لا ينازعونا

وفي الخطاب لا يكيفونا

فافهم وصاتي لا تكن مجنوناً

ولا إذا ملوا يعاتبونا

وفي العطاس لا يشمتونا

ينثنى عليهم ويبجلونا

اعتل الفضل بن يحيى، فكان إسماعيل بن صبيح الكاتب إذا أتاه عائداً لم يزد على السلام عليه والدعاء له، ويخفف في الجلوس، ثم يلقي حاجبه فيسأله عن حاله ومأكله ومشربه ونومه، وكان غيره يطيل الجلوس. فلما أفاق من علقته قال: ما عادني في عليتي هذه إلا إسماعيل بن صبيح. وقال أصحاب معاوية له: إنا ربما جلسنا عندك فوق مقدار شهوتك، فنريد أن تجعل لنا علامة نعرف بها ذلك؛ فقال: علامة ذلك أن أقول: إذا شتمت. وقيل ذلك ليزيد، فقال: إذا قلت: على بركة الله. وقيل ذلك لعبد الملك بن مروان، فقال: إذا وضعت الخيزرانة من يدي. ومن تمام خدمة الملوك أن يقرب الخادم إليه نعليه، ولا يدعه بمشي إليهما، ويجعل النعل اليمنى مقابلة الرجل اليمنى، والبسرى مقابلة البسرى؛ وإذا رأى متكأ يحتاج إلى إصلاح أصلحه قبل أن يؤمر، فلا ينتظر في ذلك؛ ويتفقد الدواة قبل أن يأمره، وينفض عنها الغبار إذا قربها إليه؛ وإن رأى بين يديه قرطاساً قد تباعد عنه قربه ووضع بين يديه على كسره. ودخل الشعبي على الحجاج، فقال له: كم عطاك؟ قال: ألفين؛ قال: ويحك! كما عطاؤك؟ قال ألفان؛ قال: فلم لحننت فيما لا يلحن فيه مثلك؟ قال: لحن الأمير فلحننت، وأعرب الأمير فأعربت، ولم أكن ليلحن الأمير فأعرب أنا عليه، فأكون كالمقرع له بلحنه، والمستطيل عليه بفضل القول قبله. فأعجبه ذلك منه ووهبه مالاً.

قبلة اليد

ذكر عبد الرحمن بن أبي ليلى عن عبد الله بن عمر رضي الله عنهما، قال: كنا نقبل يد النبي صلى الله عليه وسلم. ومن حديث عبد الرحمن وكيع عن سفيان قال قال: قبل أبو عبيدة يد عمر بن الخطاب رضي الله عنهما. ومن حديث الشعبي قال: لقي النبي عليه الصلاة والسلام جعفر بن أبي طالب رضي الله عنه، فالتزمه وقبل ما بين عينيه. قال إياس بن دغفل: رأيت أبا نضرة يقبل خد الحسين. الشيباني عن أبي الحسن عن مصعب قال: رأيت رجلاً دخل على علي بن الحسين في المسجد فقبل يده ووضعها على عينيه فلم ينهه. العتيق قال: دخل رجل على عبد الملك بن مروان فقبل يده، وقال: يدك يا أمير المؤمنين أحق يد بالتقبيل، لعلوها في المكارم، وطهرها من المآثم؛ وإنك تقلل التشريب، وتصفح عن الذنوب، فمن أراد بك سوءاً جعله الله حصيد سيفك، وطريد خوفك. الأصمعي قال: دخل أبو بكر الهجري على المنصور، فقال: يا أمير المؤمنين، نغض فمي، وأنتم أهل البيت بركة، فلو أذنت فقبلت رأسك، لعل الله يمسك علي ما بقي من أسناني؛ قال: احتر بينها وبين الجائزة؛ فقال: يا أمير المؤمنين، أيسر علي من ذهاب الجائزة أن لا تبقى في فمي حاكة؛ فضحك المنصور وأمر له بجائزة. ودخل جعفر بن يحيى في زي العامة وكتمان النباهة على سليمان صاحب بيت الحكمة، معه ثمامة بن أشرس؛ فقال ثمامة: هذا أبو الفضل، فنهض إليه سليمان فقبل يده، وقال له: بأبي أنت، ما دعاك إلى أن تحمل عبدك ثقل هذه المنة التي لا أقوم بشكرها ولا أقدر أن أكافئ عليها. الشعبي قال: ركب زيد بن ثابت، فأخذ عبد الله بن عباس بركابه؛ فقال له: لا تفعل يا بن عم رسول الله صلى الله عليه وسلم؛ قال هكذا: أمرنا أن نفعل بلعمائنا؛ فقال له زيد: أربي يدك؛ فأخرج إليه يده، فأخذها وقبلها، وقال: هكذا أمرنا أن نفعل بأهل بيت نبينا. وقالوا: قبلة الإمام في اليد، وقبلة الأب في الرأس، وقبلة الأخ في الخد، وقبلة الأخت في الصدر، وقبلة الزوجة في الفم.

من كرهه من الملوك تقبيل اليد

العتي قال:

دخل رجل على هشام بن عبد الملك فقبل يده؛ فقال: أف له، إن العرب ما قبلت الأيدي إلا هلوغاً، ولا فعلته العجم إلا خضوعاً. واستأذن رجل المأمون في تقبيل يده، فقال له: إن قبلة اليد من المسلم ذلة، ومن الذمي خديعة، ولا حاجة بك أن تذلل، ولا بنا أن نخدع. واستأذن أبو دلامة الشاعر المهدي في تقبيل يده؛ فقال: أما هذه فدعها؛ قال: ما منعت عيالي شيئاً أيسر فقدأ عليهم من هذه.

حسن التوفيق في مخاطبة الملوك

قال هارون الرشيد لمعن بن زائدة: كيف زمانك يا معن؟ قال: يا أمير المؤمنين، أنت الزمان، فإن أصلحت صلح الزمان، وإن فسدت فسد الزمان. وهذا نظير قول سعيد بن سلم، وقد قال له أمير المؤمنين الرشيد: من بيت قيس في الجاهلية؟ قال: يا أمير المؤمنين، بنو فزارة؛ قال: فمن بيتهم في الإسلام؟ قال: يا أمير المؤمنين، الشريف من شرفتموه؛ قال: صدقت أنت وقومك. ودخل معن بن زائدة على أبي جعفر، فقال له: كبرت يا معن؛ قال: في طاعتك يا أمير المؤمنين؛ قال: وإنك لجلد؛ قال: على أعدائك يا أمير المؤمنين؛ قال: وإن فيك لقبية؛ قال: هي لك يا أمير المؤمنين؛ قال أي الدولتين أحب إليك أو أبغض، أدولتنا أم دولة بني أمية؟ قال: ذلك إليك يا أمير المؤمنين، وإن زاد برك على برهم كانت دولتك أحب إلي، وإن زاد برهم على برك كانت دولتهم أحب إلي؛ قال: صدقت. قال هارون الرشيد لعبد الملك بن صالح: أهذا منزلك؟ قال: هو لأمر المؤمنين ولي به؛ قال: كيف مأؤه؟ قال: أطيب ماء؛ قال: فكيف هواءه؟ قال: أصح هواء. وقال أبو جعفر المنصور لجرير بن يزيد: إنك أردتك لأمر؛ قال: يا أمير المؤمنين، قد أعد الله لك مني قلباً معقوداً بطاعتك، ورأياً موصولاً بنصيحتك، وسيفاً مشهوراً على عدوك، فإذا شئت فقل. وقال المأمون لظاهر بن الحسين: صف لي ابنك عبد الله؛ قال: يا أمير المؤمنين، إن مدحته عيبته، وإن ذمته اغتبتته، ولكنه قدح في كف مثقف ليوم نضال في خدمة أمير المؤمنين. وأمر بعض الخلفاء رجلاً بأمر؛ فقال: أنا أطوع من الرداء، وأذل لك من الخداء. وهذا قاله الحسن بن وهب لمحمد بن عبد الملك الزيات. وقال آخر: أطوع لك من يدك، وأذل لك من نعالك وقال المنصور لمسلم بن قتيبة: ما ترى في قتل أبي مسلم؟ قال: "لو كان فيهما آلهة إلا الله لفسدتا". قال: حسيك أبا أمية. وقال المأمون ليزيد بن يزيد: ما أكثر الخلفاء في ربيعة؟ قال: بلى، ولكن منا برهم الجذوع. وقال المنصور لإسحاق بن مسلم: أفرطت في وفائك لبني أمية؛ قال: يا أمير المؤمنين، إنه من وفي لمن لا يرجي كان لمن يرجي أوفى. وقال هارون لعبد الملك بن صالح: صف لي منبج؛ قال: رقيقة الهواء، لينة الوطاء؛ قال: فصف لي منزلك بها؛ قال: دون منازل أهلي، وفوق منازل أهلها؛ قال: ولم قدرك فوق أقدارهم؟ قال: ذلك خلق أمير المؤمنين أتأسى به وأقفو أثره وأخذو مثاله. ودخل المأمون يوماً بيت الديوان، فرأى غلاماً جميلاً على أذنه قلم، فقال: من أنت يا غلام؟ قال: أنا الناشئ في دولتك، والمتقلب في نعمتك، والمؤمل لخدمتك، الحسن بن رجاء؛ قال المأمون: بالإحسان في البدئية تفاضلت العقول، ارفعوا هذا الغلام فوق مرتبته. علي بن يحيى قال: إني عند المتوكل حين دخل عليه الرسول برأس إسحق بن إسماعيل، فقام علي بن الجهم يحظر بين يدي المتوكل، ويقول:

جئت بما يشفي من الغليل

أهلاً وسهلاً بك من رسول

برأس إسحق بن إسماعيل

فقال المتوكل: قوموا التقطوا هذا الجواهر لئلا يضيع.

ودخل عقال بن شبة على أبي عبيد الله كاتب المهدي، فقال: يا عقال، لم أرك منذ اليوم؛ قال: والله إني لألثاك بشوق، وأغيب عنك بتوق. وقال عبد العزيز بن مروان لنصيب بن رباح - وكان أسود - يا نصيب، هل لك فيما يثمر المحادثة؟ يريد المنادمة؛ فقال: أصلح الله الأمير، اللوم مرمد، والشعر مفلغل، ولم أقعد إليك بكريم عنصر، ولا بحسن منظر، وإنما هو عقلي ولساني، فإن رأيت أن لا تفرق بينهما فافعل. ولما ودع المأمون الحسن بن سهل عند مخرجه من مدينة السلام، وقال له: يا أبا محمد، ألك حاجة تعهد إلي فيها؟ قال: نعم يا أمير المؤمنين، أن تحفظ علي من قلبك ما لا أستعين على حفظه إلا بك.

وقال سعيد بن سلم بن قتيبة للمأمون: لو لم أشكر الله إلا على حسن ما أبلاني في أمير المؤمنين من قصده إلي بحديثه، وإشارته إلي بطرفه، لكان ذلك من أعظم ما توجهه النعمة، وتفرضه الصنيعة؛ قال المأمون: ذلك والله لأن الأمير يجد عندك من حسن الإفهام إذا حدثت، وحسن الفهم إذا حدثت، ما لا يجده عند غيرك.

مدح الملوك والتزلف إليهم

في سير العجم أن أردشير بن يزجرد لما استوثق له أمره، جمع الناس، فخطبهم خطبة حضمهم فيها على الألفة والطاعة، وحذرهم المعصية ومفارقة الجماعة، وصنف لهم الناس أربعة أصناف، فخرؤا له سجداً. وتكلم متكلمهم، فقال: لا زلت أيها الملك محبوباً من الله بعز النصر، ودرك الأمل، ودوام العافية، وتمام النعمة، وحسن المزيد؛ ولا زلت تتابع لديك المكرمات، وتشفع إليك الذمامات حتى تبلغ الغاية التي يؤمن زوالها، ولا تنقطع زهرتها، في دار القرار التي أعدها الله لنظرائك من أهل الزلفى عنده، والحظوة لديه؛ ولا زال ملكك وسلطانك باقيين بقاء الشمس والقمر، زائدين زيادة البحور والأهمار، حتى تستوي أقطار الأرض كلها في علوك عليها، ونفاذ أمرك فيها، فقد أشرق علينا من ضياء نورك ما عمنا عموم ضياء الصبح، ووصل إلينا من عظيم رأفتك ما اتصل بأنفسنا اتصال النسيم، فأصبحت قد جمع الله بك الأيادي بعد افتراقها، وألف بين القلوب بعد تباغضها، وأذهب عنا الإحن والحسائف بعد توقد نيرانها، بفضلك الذي لا يدرك بوصف، ولا يجد بنعت. فقال أردشير: طوبى للممدوح مستحقاً؛ وللداعي إذا كان للإجابة أهلاً. ودخل حسان بن ثابت على الحارث الجفني فقال: أنعم صباحاً أيها الملك، السماء غطاؤك، والأرض وطاؤك، ووالدي فداؤك، أنى يناوتك المنذر، فوالله لقدالك أحسن من وجهه، ولأملك أحسن من أبيه، ولظلك خير من شخصه، ولصمتك أبلغ من كلامه، ولشمالك خير من يمينه. ثم أنشأ يقول:

يساميك للحدث الأكبر

وأملك خير من المنذر

كيمنى يديه فلا تكثر

ونبتت أن أبا منذر

فذلك أحسن من وجهه

ويسرى يديك إذا أعسرت

ودخل خالد بن عبد الله القسري على عمر بن عبد العزيز لما ولي الخلافة، فقال: يا أمير المؤمنين، من تكون الخلافة قد زانته فأنت قد زانته، ومن تكون شرفته فأنت قد شرفتها، وأنت كما قال الشاعر:

كان للدر حسن وجهك زينا .

وإذا الدر زان حسن وجوه

فقال عمر بن عبد العزيز رحمه الله: أعطني صاحبكم مقولاً ولم يعط معقولاً.

ذكر بن أبي طاهر قال: دخل المأمون بغداد فتلقاه وجوه أهلها، فقال له رجل منهم: يا أمير المؤمنين بارك الله لك في مقدمك، وزادك في نعمتك، وشكرك على رعيتك، تقدمت من قبلك، وأتعبت من بعدك، وآيست أن يعاين مثلك؛ أما فيما مضى فلا نعرفه، وأما فيما بقي فلا نرجوه، فنحن جميعاً ندعو لك ونشني عليك؛ خصب لنا جنابك، وعذب شرابك، وحسنت نظرتك، وكرمت مقدرتك؛ جبرت الفقير، وفككت الأسير، فأنت يا أمير المؤمنين كما قال الأول:

ما زلت في البذل للنوال وإط

لاق لعان بجرمه علق

حتى تمنى البراء أنهم

عندك أسرى في القيد والحق

ودخل رجل على خالد بن عبد الله القسري فقال: أيها الأمير، إنك لتبذل ما جل، وتجبر ما اعتل، وتكثر ما قل؛ ففضلك بديع، ورأيك جميع. وقال رجل للحسن بن سهل: لقد صرت لا أستكثر كثير، ولا أستقل قليل؛ قال: وكيف ذلك؟ قال: لأنك أكثر من كثير، ولأن قليلك أكثر من كثير غيرك.

وقال خالد بن صفوان لوال دخل عليه: قدمت فأعطيت كلاً بقسطه من نظرك ومجلسك؛ وصلاتك وعداتك، حتى كأنك من كل أحد، وكأنك لست من أحد.

وقال الرشيد لبعض الشعراء: هل أحدثت فينا شيئاً؟ قال: يا أمير المؤمنين، المديح كله دون قدرك، والشعر فيك فوق قدرتي، ولكني أستحسن قول العتاي:

ماذا عسى مادح يثني عليك وقد

ناداك في الوحي تقديس وتطهير

فت الممدح إلا أن ألسنا

مستنطقات بما تخفي الضماير

مدح خالد بن صفوان رجلاً فقال: قريع المنطق، جزيل الألفاظ، عربي اللسان، قليل الحركات، حسن الإشارات، حلو الشمائل، كثيرة الطلاوة، صموتاً قوولاً، يهنأ الجرب، ويداوي الدبر، ويقل الحز، ويطبّق المفضل، لم يكن بالرم في مروءته، ولا بالهذر في منطقته، متبوعاً غير تابع. كأنه علم في رأسه نار دخل سهل بن هارون على الرشيد، فوجده يضاحك ابنه المأمون، فقال: اللهم زده من الخيرات، وابسط له في البركات، حتى يكون كل يوم من أيام موفياً على أمسه، مقصراً على غده؛ فقال له الرشيد: يا سهل، من روى من الشعر أحسن وأجوده، ومن الحديث أصحه وأبلغه، ومن البيان أفصحه وأوضحه، إذا رام أن يقول لم يعجزه؟ قال سهل: يا أمير المؤمنين، ما ظننت أن أحداً تقدمني سبقني إلى هذا المعنى؛ فقال: بل أعشى همدان حيث يقول:

وجدتك أمس خير بني لؤي

وأنت اليوم خير منك أمس

وأنت غداً تزيد الخير ضعفاً

كذاك تزيد سادة عبد شمس

وكان المأمون قد استثقل سهل بن هارون، فدخل عليه يوماً والناس عنده على منازلهم، فتكلم المأمون بكلام ذهب فيه كل مذهب؛ فلما فرغ أقبل سهل بن هارون على ذلك الجمع، فقال لهم: ما لك تسمعون ولا تعون، وتفهمون ولا تعجبون، وتعجبون ولا تصفون، أما والله إنه ليقول ويفعل في اليوم القصير، مثل ما قالت وفعلت بنو مروان في الدهر الطويل، عربكم كعجمهم، وعجمهم كعرب بني تميم، ولكن كيف يشعر بالدواء من لا يعرف الدواء؛ قال: فرجع له المأمون إلى رأيه الأول.

وكان الحجاج بن يوسف يستثقل زياد بن عمرو العتكي، فلما أثنى الوفد على الحجاج عند عبد الملك بن مروان، قال زياد: يا أمير المؤمنين، إن الحجاج سيفك الذي لا ينبو، وسهمك الذي لا يطيش، وخدامك الذي لا تأخذه فيك لومة لائم. فلم يكن بعد ذلك أحد أخف على الحجاج ولا أحب إليه منه.

حدث الشيباني قال: أقام المنصور صالحاً ابنه، فتكلم في أمر فأحسن، فقال شبيب بن شيبه: تالله ما رأيت كالיום أبين بياناً، ولا أعرب لساناً، ولا أربط جأشاً، ولا أبل ريقاً، ولا أحسن طريقاً، وحق لمن كان المنصور أباه، والمهدي أخاه، أن يكون كما قال زهير:

هو الجواد فإن يلحق بشأوهما

على تكاليفه فمثله لحقا

أو يسبقاه على ما كان من مهل

فمثل ما قدما من صالح سبقا

وخرج شبيب بن شيبه من دار الخلافة يوماً، فقيل له: كيف رأيت الناس؟ قال: رأيت الداخلة راجياً، والخارج راضياً. وقيل لبعض الخلفاء: إن شبيب بن شيبه يستعمل الكلام ويستعد له، فلو أمرته أن يصعد المنبر فجأة لافتضح. قال: فأمر رسولاً فأخذ بيده فصعد المنبر، فحمد الله وأثنى عليه، وصلى على النبي صلى الله عليه وسلم، ثم قال: ألا إن لأمر المؤمنين أشباهاً أربعة: فمنها الأسد الخادر، والبحر الزاخر، والقمر الباهر، والربيع الناضر؛ فأما الأسد الخادر، فأشبهه منه صولته ومضاءه، وأما البحر الزاخر فأشبهه منه جوده وعطاءه، وأما القمر الباهر فأشبهه منه نوره وضيائه، وأما الربيع الناضر فأشبهه منه حسنه وبهاءه، ثم نزل.

وقال عبد الملك بن مروان لرجل دخل عليه: تكلم بحاجتك قال: يا أمير المؤمنين، بمر الدرجة وهيبة الخلافة بمنعاني من ذلك؛ قال: فعلى رسلك، فإننا لا نحب مدح المشاهدة، ولا تزكية اللقاء؛ قال: يا أمير المؤمنين، لست أمدحك، ولكن أحمد الله على النعمة فيك، قال: حسبك فقد أبلغت.

ودخل رجل على المنصور، فقال له: تكلم بحاجتك؛ فقال: يبيحك الله يا أمير المؤمنين؛ قال: تكلم بحاجتك، فإنك لا تقدر على هذا المقام كل حين؛ قال: والله يا أمير المؤمنين، ما أستقصر أحلك، ولا أخاف بخلك، ولا أغتتم مالك، وإن عطائك لشرف، وإن سؤال لزين، وما لامرئ بذل وجهه إليك نقص ولا شين. قال: فاحسن جائزته وأكرمه.

حدث إبراهيم بن السندي قال:

دخل العماني على المأمون، وعليه قلنسوة طويلة وحف ساذج؛ فقال له: إياك أن تشدني إلا وعليك عمامة عظيمة الكور وخفان رائقان. قال: فغدا علي في زي الأعراب فأنشده، ثم دنا فقبل يده، وقال: قد والله يا أمير المؤمنين أنشدت يزيد بن الوليد، وإبراهيم بن الوليد، ورأيت وجوههما وقبلت أيديهما وأخذت جوائزهما، وأنشد مروان، وقبلت يده وأخذت جائزته؛ وأنشد المنصور، ورأيت وجهه وقبلت يده وأخذت جائزته؛ وأنشد المهدي، ورأيت وجهه وقبلت يده وأخذت جائزته؛ إلى كثير من أشباه الخلفاء، وكبراء الأمراء، والسادة الرؤساء، فلا والله يا أمير المؤمنين، ما رأيت فيهم أسمى منظراً، ولا أحسن وجهاً، ولا أنعم كفاً، ولا أندى راحة منك يا أمير المؤمنين. قال: فأعظم له الجائزة على شعره، وأضعف له على كلامه، وأقبل عليه بوجهه وبشره فبسطه، حتى تمنى جميع من حضره أنهم قاموا مقامه.

حدث العتيبي عن سفيان بن عيينة قال: قدم على عمر بن عبد العزيز ناس من أهل العراق، فنظر إلى شاب منهم يتحوش للكلام، فقال: أكبروا أكبروا؛ فقال: يا أمير المؤمنين، إنه ليس بالسن، ولو كان الأمر كله بالسن لكان في المسلمين من أحو أسن منك؛ فقال عمر: صدقت رحمك الله تكلم؛ فقال: يا أمير المؤمنين، إنا لم نأتك رغبة ولا رهبة، أما الرغبة فقد دخلت علينا منازلنا، وقدمت علينا بلادنا، وأما رهبة فقد أمننا الله بعدلك من جورك؛ قال: فما أأنتم؟ قال: وفد الشكر؛ قال: فنظر محمد بن كعب القرظي إلى وجه عمر يتهلل، فقال: يا أمير المؤمنين، لا يغلبن جهل القوم بك معرفتك بنفسك، فإن ناساً خدعهم الثناء، وغرهم شكر الناس فهلكوا، وأنا أعيذك بالله أن تكون منهم، فألقى عمر رأسه على صدره.

التنصل والاعتذار

قال النبي صلى الله عليه وسلم: من لم يقبل من متنصل عذراً صادقاً كان أو كاذباً لم يرد على الحوض. وقال صلى الله عليه وسلم: المعترف بالذنب كمن لا ذنب له.

وقال: الاعتراف يهدم الاعتراف.

وقال الشاعر:

إليك فلم تغفر له فلك الذنب

إذا ما امرؤ من ذنبه جاء تائباً

واعترز رجل إلى إبراهيم بن المهدي فقال: قد عذرتك غير معترز، إن المخاذير يشوبها الكذب.

واعترز رجل إلى جعفر بن يحيى، فقال: قد أغناك الله بالعذر عن الاعتذار، وأغنانا بحسن النية عن سوء الظن.

وقال إبراهيم الموصلي: سمعت جعفر بن يحيى يعتذر إلى رجل من تأخر حاجة ضمنها له وهو يقول: أحتج إليك بغالب القضاء، وأعتذر إليك بصادق النية.

وقال رجل لبعض الملوك: أنا من لا يحاجك عن نفسه، ولا يغالطك في جرمه، ولا يلتبس رضاك إلا من جهة عفوك، ولا يستعطفك إلا بالإقرار بالذنب، ولا يستميلك إلا بالاعتراف بالزلة.
وقال الحسن بن وهب:

لا سيما عن غير ذي ناصر

فماله غيرك من غافر

أن يفسد الأول بالآخر

ولا سيما عن قائل: ليس لي عذر

إن بر عندك فيما قال أو فجرا

وقد أجلك من يعصيك مستترا

ولو أراد انتصاراً من لانتصرا

فيما أتاك فلم تقبل ولم تلم

مقام شاهد عدل غير متهم

وكل امرئ لا يقبل العذر مذنب

وليس لمن لا يقبل العذر من عذر

فعفواً جميلاً كي يكون لك الفضل

أتيت به أهلاً فأنت له أهل

فإن أطراح العذر خير من العذر

ما أحسن العفو من القادر

إن كان لي ذنب ولا ذنب لي

أعوذ بالود الذي بيننا

وكتب الحسن بن وهب إلى محمد بن عبد الملك الزيات:

أبا جعفر ما أحسن العفو كله

وقال آخر:

اقبل معاذير من يأتيتك معتذراً

فقد أطاعك من أرضاك ظاهره

خير الخليطين من أغضى لصاحبه

وقالت الحكماء: ليس من العدل سرعة العذل.

وقال الأحنف بن قيس: رب ملوم لا ذنب له.

وقال آخر: لعل له عذراً وأنت تلوم وقال حبيب:

البر بي منك وطى العذر عندك لي

وقام علمك بي فاحتج عندك لي

وقال آخر:

إذا اعتذر الجاني محا العذر ذنبه

ومن قولنا في هذا المعنى:

عذيري من طول البكا لوعة الأسى

وقال آخر:

فهبني مسيئاً كالذي قلت ظالماً

فإن لم أكن للعفو عندك للذي

ومن الناس من لا يرى الاعتذار ويقول: إياك وما يعتذر منه.

وقالوا: ما اعتذر مذنب إلا ازداد ذنباً.

وقال الشاعر محمود الوراق:

إذا كان وجه العذر ليس ببين

قال ابن شهاب الزهري: دخلت على عبد الملك بن مروان في رجال من أهل المدينة، فرآني أحدثهم سناً، فقال لي: من أنت؟ فانتسبت له؛ فقال: لقد كان أبوك وعمك نعاقيين في فتنه ابن الأشعث؛ فقلت: يا أمير المؤمنين، إن مثلك إذا عفا لم يعدد، وإذا صفح لم يثرب. فأعجبه ذلك، وقال: أين نشأت؟ قلت: بالمدينة؛ قال: عند من طلبت؟ قلت: سعيد بن المسيب؛ وسليمان بن يسار، وقبيصة بن ذؤيب؛ قال: فأين أنت من عروة بن الزبير؟ فإنه بحر لا تكدره الدلاء. فلما انصرفت من عنده لم أبارح عروة بن الزبير حتى مات.

ودخل ابن السماك على محمد بن سليمان بن علي فرآه معرضاً عنه، فقال: مالي أرى الأمير كالعاتب علي؟ قال: ذلك لشيء بلغني عنك كرهته؛ قال: إذاً لا أبالي؛ قال: ولم؟ قال: لأنه إذا كان ذنباً غفرتة، وإن كان باطلاً لم تقبله.

ودخل جرير بن عبد الله على أبي جعفر المنصور، وكان واحداً عليه، فقال له: تكلم بحجتك؛ فقال: لو كان لي ذنب تكلمت بعذري، ولكن عفو أمير المؤمنين أحب إلي من براءتي.

وأبي موسى الهادي برجل، فجعل يقرعه بذنوبه؛ فقال: يا أمير المؤمنين إن اعتذاري مما تفرعني به رد عليك، وإقراري ذنباً لم أحنه، ولكني أقول:

فلا ترهدين عند المعافاة في الأجر

فإن كنت ترجو في العقوبة راحة

سعي بعبد الملك بن الفارسي إلى المأمون، فقال له المأمون: إن العدل من عدله أبو العباس، وقد كان وصفك بما وصفك به، ثم أتني الأخبار بخلاف ذلك؛ فقال: يا أمير المؤمنين، إن الذي بلغك عني تحمیل علي، ولو كان كذلك لقلت: نعم، كما بلغك، فأخذت بحظي من الله في الصدق، واتكلت على فضل أمير المؤمنين في سعة عفوهم؛ قال: صدقت.

محمد بن القاسم الهاشمي أبو العيناء قال: كان أحمد بن يوسف الكاتب قد تولى صدقات النصر، فجار فيها وظلم، فكثر الشاكي له والداعي عليه، ووافى باب أمير المؤمنين زهاء خمسين رجلاً من حلة البصريين، فعزله المأمون، وجلس لهم مجلساً خاصاً، وأقام أحمد بن يوسف لمناظرهم. فكان مما حفظ من كلامه، أن قال: يا أمير المؤمنين، لو أن أحداً ممن ولي الصدقات سلم من الناس لسلم رسول الله صلى الله عليه وسلم، قال الله عز وجل: "ومنهم من يلمزك فإن أعطوا منها رضوا وإن لم يعطوا منها إذا هم يسخطون" فأعجب المأمون جوابه، واستجزل مقاله، وخلق سبيله.

محمد بن القاسم الهاشمي أبو العيناء قال: قال لي أبو عبد الله أحمد بن أبي داود: دخلت على الواثق، فقال لي: ما زال قوم في ثلبك ونقصك؛ فقلت: يا أمير المؤمنين. "لكل امرئ منهم ما اكتسب من الإثم والذي تولى كبره منهم له عذاب عظيم"، والله ولي جزائه، وعقاب أمير المؤمنين من ورائه، وما ذل من كنت ناصره، ولا ضاع من كنت حافظه، فماذا قلت لهم يا أمير المؤمنين؟ قال: قلت أبا عبد الله:

جعل الإله خدودهن نعالها

وسعى إلي بعبيب عزة نسوة

قال أبو العيناء: قلت لأحمد بن أبي داود: إن قوماً تظافروا علي؛ قال: "يد الله فوق أيديهم". قلت: إهم عدد وأنا واحد؛ قال: "كم من فئة قليلة غلبت فئة كثيرة". قلت: إن للقوم مكرراً؛ قال: "ولا يحيق المكر السيئ إلا بأهله".

قال أبو العيناء: فحدثت بها الحديث أحمد بن يوسف الكاتب، فقال: ما يرى ابن أبي داود إلا أن القرآن أنزل عليه.

قال: وهجا نهار بن توسعة قتيبة بن مسلم، وكان ولي خراسان بعد يزيد بن المهلب، فقال:

وكل باب من الخيرات مفتوح

كانت خراسان أرضاً إذ يزيد بها

كأنما وجهه بالخل منضوح

فبدلت بعده قرداً نطوف به

فطلبه فهرب منه، ثم دخل عليه بكتاب أمه، فقال له: ويحك! بأي وجه تلقاني؟ قال: بالوجه الذي ألقى به ربي وذنوبي إليه أكثر من ذنوبي إليك. فقر به ووصله وأحسن إليه.

وأقبل المنصور يوماً ركباً والفرج بن فضالة جالس عند باب الذهب، فقام الناس إليه ولم يقم، فاستشاط المنصور غيظاً وغضباً ودعا به، فقال: ما منعك من القيام مع الناس حين رأيته؟ قال: خفت أن يسألني الله تعالى لم فعلت، ويسألك عنه لم رضيت، وقد كرهه رسول الله صلى الله عليه وسلم. فسكن غضبه وقر به وقضى حوائجه.

يحيى بن أكنم قال: إني عند المأمون يوماً، حتى أتى برجل ترعد فرائصه، فلما مثل بين يديه، قال له المأمون: كفرت نعمتي ولم تشكر معروفي؛ قال له: يا أمير المؤمنين، وأين يقع شكركي في جنب ما أنعم الله بك علي؟ فنظر المأمون إلي وقال متمثلاً:

لكثرة مال أو علو مكان

فلو كان يستغني عن الشكر ماجد

فقال اشكروا لي أيها النقلان

لما نذب الله العباد لشكره

ثم التفت إلى الرجل، فقال له: هلا قلت كما قال أصرم بن حميد:

كلي بكل ثناء فيك مشتغل

رشحت حمدي حتى إنني رجل

فحر شكري لما خولتني خول

خولت شكري ما خولت من نعم

الاستعطاف والاعتراف

لما سخط المهدي على يعقوب بن داود، قال له: يا يعقوب؛ قال: لبيك يا أمير المؤمنين، تلبية مكروب لموجدتك؛ قال: ألم أرفع من قدرك إذ كنت وضيعاً، وأبعد من ذكرك إذا كنت خاملاً، وألبسك من نعمتي ما لم أجد بها يدين من الشكر، فكيف رأيت الله أظهر عليك، ورد إليك مني؟ قال: إن كان ذلك بعلمك يا أمير المؤمنين فتصديق معترف منيب، وإن كان مما استخرجته دفائن الباغين فعائد بفضلك؛ فقال: والله لولا الحنث في دمك بما تقدم لك، لألبستك منه قميصاً لا تشد عليه زراً، ثم أمر به إلى الحبس. فتولى وهو يقول: الوفاء يا أمير المؤمنين كرم، والمودة رحم، وأنت بما جدير. أخذت الشعراء معنى قول المهدي: لألبستك منه قميصاً لا تشد عليه زراً، فقال معلي الطائي:

ما يستطيع عليه شد أزرار

طوقته بالحسام طوق ردى

وقال حبيب:

أغناه عن مس طوقه بيده

طوقته بالحسام طوق داهية

ومن قولنا:

آخر طوق يكون في عنقه

طوقته بالحسام منصلتا

ولما رضي الرشيد عن يزيد بن مزيد، أذن له بالدخول عليه، فلما مثل بين يديه، قال: الحمد لله الذي سهل لي سبيل الكرامة بلقائك، ورد على النعمة بوجه الرضا منك، وجزاك الله يا أمير المؤمنين في حال سخطك جزاء المحسنين المرغبين، وفي حال رضاك جزاء المنعمين المتطولين: فقد جعلك الله، وله الحمد، تثبت ترحماً عند الغضب، وتمتن تطولاً بالنعم، وتستبقي المعروف عند الصنائع تفضلاً بالعفو.

ولما ظفر المأمون بإبراهيم بن المهدي -وهو الذي يقال له ابن شكلة- أمر بإدخاله عليه، فلما مثل بين يديه، قال: ولي الثأر محكم في القصاص، والعفو للتعوى، وقد جعل الله كل ذنب دون عفوك، فإن صفحت فبكرمك، وإن أخذت فبحقك. قال المأمون: إني شاورت أبا إسحاق والعباس في قتلك، فأشارا علي به؛ قال: أما أن يكونا قد نصحاك في عظم قدر الملك، وما جرت عليه عادة السياسة فقد فعلا، ولكنك أبيت أن تستجلب النصر إلا من حيث عودك الله، ثم استعبر باكياً؛ قال له المأمون: ما يبكيك؟ قال: جذلاً إذ كان ذنبي إلى من هذه صفته؛ ثم قال: يا أمير المؤمنين، إنه وإن كان جرمي يبلغ سفك دمي، فحلتم أمير المؤمنين وتفضله يبلغاني عفوه، ولي بعدها شفاعة الإقرار بالذنب، وحرمة الأب بعد الأب، قال المأمون: لو لم يكن في حق نسبك ما يبلغ الصفح عن زلتك، لبلغك إليه حسن توصلك، ولطيف تنصلك.

وكان تصويب إبراهيم لرأي أبي إسحاق والعباس ألطف في طلب الرضا ودفع المكروه عن نفسه من تخطئتهما.

وقال المأمون لإسحاق بن العباس: لا تحسبن أغفلت إجلابك مع ابن المهلب وتأيدك لرأيه، وإيقادك لناره؛ قال: يا أمير المؤمنين، والله لإجرام قريش

إلى رسول الله صلى الله عليه وسلم أعظم من جرمي إليك، ولرحمي أمس من أرحامهم، وقد قال كما قال يوسف لإخوته: "لا تثريب عليكم اليوم يغفر الله لكم وهو أرحم الراحمين" وأنت يا أمير المؤمنين أحق وارث لهذه المنة وممتثل لها؛ قال: هيهات، تلك أجرام جاهلية عفا عنها الإسلام، وجرمك جرم في إسلامك وفي دار خلافتك؛ قال: يا أمير المؤمنين، فوالله لأسلم أحق بإقالة العثرة؛ وغفران الزلة من الكافر، هذا كتاب الله بيني وبينك، يقول الله تعالى: "وسارعوا إلى مغفرة من ربكم" إلى "والكاظمين الغيظ والعافين عن الناس والله يحب المحسنين". فهي للناس يا أمير المؤمنين سنة دخل فيها المسلم والكافر والشريف والمشروف؛ قال: صدقت، اجلس، وريت بك زنادي، فلا برح نادماً من القادرين من أهلك وأمثالك. العتيبي عن أبيه قال:

قبض مروان بن محمد من معاوية بن عمرو بن عتبة ماله بالفرسان، وقال: إني قد وجدت قطيعة عمك لأبيك: إني أقطعك بستاني، والبستان لا يكون إلا غامراً، وأنا مسلم إليك الغامر وقابض منك العامر؛ فقال: يا أمير المؤمنين، إن سلفك الصالح لو شهدوا مجلسنا هذا كانوا شهوداً على ما ادعيت، وشفعاء فيما طلبته، يسألونك بإحسانك إلي، مكافأة إحسان سلفي إليهم، فشفع فينا الأموات واحفظ منا القربات، واجعل مجلسك هذا مجلساً يلزم من بعدنا شكره؛ قال: لا والله إلا أن أجعلها طعمة مني لك، لا قطيعة من عمك لأبيك؛ قال: قد قبلت ذلك، ففعل.

العتبي قال: أمر عبد الملك بن مروان بقطع أرزاق آل أبي سفيان وجوائزهم لموجودة وجدها على خالد بن يزيد بن معاوية فدخل عليه عمر بن عتبة، فقال: يا أمير المؤمنين، إن أدنى حقدك معتب، وبعضه فادح لنا، ولنا من حقدك علينا حق عليك، بإكرام سلفنا لسلفك، فانظر إلينا بالعين التي نظروا بها إليهم، وضعنا بحيث وضعتنا الرحم منك؛ قال: عبد الملك: إنما ما يستحق عطيتي من استعطاها، فأما من ظن أنه يكتفي بنفسه، فسنكله إلى نفسه، ثم أمر له بعطيته.

فبلغ ذلك خالداً فقال: أبا حرمان يهددي! يد الله فوق يده باسطة، وعطاء الله دونه مبذول، فأما عمرو فقد أعطى من نفسه أكثر مما أخذ لها. العتيبي قال: حدثنا طارق بن المبارك عن عمرو بن معاوية بن عمرو بن عتبة قال: جاءت دولة المسودة، وأنا حديث السن كثير العيال متفرق المال، فجعلت لا أنزل قبيلة من قبائل العرب إلا شعرت فيها، فلما رأيت أمري لا يكتتم، أتيت سليمان بن علي، فاستأذنت عليه قرب المغرب، فأذن لي وهو لا يعرفني، فلما صرت إليه، قلت: أصلحك الله، لفظتني البلاد إليك، ودلني فضلك عليك، فإما قبلتني غائماً، وإما رددتني سالماً؛ قال: ومن أنت؟ فانتسبت له، فعرفني وقال: مرحباً، اقعد، فتكلم غائماً؛ قلت: أصلحك الله، إن الحرم اللاتي أنت أقرب الناس إليهن معنا، وأولى الناس بهن بعدنا، قد خفن بخوفنا، ومن خاف خيف عليه؛ قال: فاعتمد سليمان على يديه، وسالت دموعه على خديه، ثم قال: يا بن أخي، يحقن الله دمك، ويستر حرمك، ويسلم مالك إن شاء الله، ولو أمكنتني ذلك في جميع قومك لفعلت. فلم أزل في حوار سليمان آمناً.

وكتب سليمان إلى أبي العباس أمير المؤمنين: أما بعد، يا أمير المؤمنين، فإنما حاربنا بني أمية على عقوقهم، ولم نحاربهم على أرحامهم، وقد دفت إلي منهم دافعة. لم يشهروا سلاحاً، ولم يكتروا جمعاً، وقد أحسن الله إليك فأحسن، فإن رأى أمير المؤمنين أن يكتب لهم أماناً ويأمر بإنفاذه إلي فليفعل. فكتب لهم كتاباً منشوراً، وأنفذه إلى سليمان بن علي في كل من لجأ إليه من بني أمية، فكان يسميه أبو مسلم: كهف الأباقي. ودخل عبد الملك بن صالح يوماً على الرشيد، فلم يلبث في مجلسه أن التفت الرشيد، فقال متمثلاً:

عذيرك من خليلك من مراد

أريد حياته ويريد قتلي

ثم قال: أما والله لكأني أنظر إلى شؤبها قد همع، وعارضها قد لمع، وكأني بالوعيد قد وقع، فأقلع عن براجم بلا معاصم، وجماجم بلا غلاصم، فمهلاً مهلاً، في والله يسهل لكم الوعر. ويصفو لكم الكدر؛ وألقت إليكم الأمور مقاليد أزمتها، فالتدارك التدارك قبل حلول داهية خبوط باليد لبوط بالرجل. قال عبد الملك: أفذاً ما تكلمت أم توأمًا يا أمير المؤمنين؟ قال: بل فذاً؛ قال اتق الله في ذي رحمك، وفي رعيتك التي استرعاك الله، ولا تجعل الكفر مكان الشكر، ولا العقاب موضع الثواب، فقد محضت لك النصيحة، وأديت لك الطاعة، وشددت أواحي ملكك بأثقل من ركني يللم، وتركت عدوك سبيلاً تتعاوره الأقدام، فالله الله في ذي رحمك أن تقطعه بعد أن وصلته، إن الكتاب لنميمة واش وبغي باغ، ينهش اللحم، ويلغ في الدم، فكم ليل تمام فيك كابדתه، ومقام ضيق فرجته، وكنت كما قال الشاعر أخو بني كلاب:

فرضي عنه ورحب به، وقال: وريت بك زنادي.

والنتفت الرشيد يوماً إلى عبد الملك بن صالح، فقال: أكفراً بالنعمة، وغدراً بالإمام؟ قال: لقد بؤت إذاً بأعباء الندم، وسعيت في استجلاب النقم، وما ذلك يا أمير المؤمنين إلا بغني باغ نافسني فيك بقديم الولاية، وحق القرابة؛ يا أمير المؤمنين، إنك خليفة الله ورسوله صلى الله عليه وسلم في أمته، وأمينه على رعيته، لك عليها فرض الطاعة، وأداة النصيحة، ولها عليك التثبيت في حادثها، والعدل في حكمها. فقال له هارون: تضع لي من لسانك، وترفع علي من جنانك بحيث يحفظ الله لي عليك، هذا قمامة كاتبك يجربني بفعلك؛ فقال عبد الملك: أحقاً يا قمامة؟ قال: نعم، لقد أردت قتل أمير المؤمنين والغدر به فقال عبد الملك: كيف لا يكذب علي من خلفي من بهتني في وجهي! قال الرشيد: هذا ابنك عبد الرحمن شاهد عليك؛ قال: يا أمير المؤمنين، هو بين مأمور أو عاق، فإن كان مأموراً معذور، وإن كان عاقاً فما أخاف من عقوقه أكثر.

وقال له الرشيد يوماً، وكان معتلاً عليه: أتبقون بالرقعة؟ قال: نعم، ونبرغث؛ قال له: يا بن الفاعلة، ما حملك على أن سألتك عن مسألة، فرددت علي في مسألتين، وأمر به إلى الحبس. فلم يزل في حبسه حتى أطلقه الأمين.

إبراهيم بن السندي قال: سمعت عبد الملك بن صالح يقول بعد إخراج المخلوع له من الحبس، وذكر الرشيد وفعله به، فقال: والله إن الملك لشيء ما نويته ولا تمنيته، ولا نصبت له ولا أردته، ولو أردته لكان إلي أسرع من الماء إلى الحدور، ومن النار إلى بيس العرفج، وإني لمأخوذ بما لم أجن، ومسؤول عما لم أعرف؛ ولكن حين رأي للملك قميناً، وللخلافة خطيراً، ورأي لي يداً تنالها إذا مدت، وتبلغها إذا بسطت، ونفساً تكمل لخصالها، وتستحقها بفعالها - وإن كنت لم أجن تلك الخصال، ولم أصطنع تلك الفعال، ولم أترشح لها في السر، ولا أشرت إليها في الجهر - ورأها تحن الوالدة الوالدة، وتميل ميل المملوك، خاف أن ترغب إلى خير مرغب، وتترع إلى أخصب مترع، وعاقبني عقاب من سهر في طلبها، وجهد في التماسها؛ فإن كان إنما حسبني أبي أصلح لها وتصلح لي، وأليق بها وتليق لي، فليس ذلك بذنب جنيته فأتوب منه، ولا تطاولت له فأحط نفسي عنه؛ وإن زعم أن لا صرف لعقابه، ولا نجاة من عذابه، إلا أن أخرج له من حد العلم والحلم والحزم، فكما لا يستطيع المضياح أن يكون مصلحاً، كذلك لا يستطيع العاقل أن يكون جاهلاً، وسواء علي أعاقبني على علمي وحلمي أم عاقبني على نسي وسني، وسواء علي عاقبني على جمالي أو عاقبني على محبة الناس لي، ولو أردتها لأعجلته عن التفكير، وشغلته عن التدبير، ولما كان فيها من الخطب إلا اليسير.

إبراهيم بن السندي قال: كنت أساير سعيد بن سلم حين قيل له: إن أمير المؤمنين قد غضب على رجاء بن أبي الضحاك وأمر بأخذ ماله، فارتاع بذلك وجزع؛ فقيل له: ما يروعك منه؟ فوالله ما جعل الله بينكما نسباً ولا سبباً؛ فقال: بلى، النعمة نسب بين أهلها؛ والطاعة سبب مؤكد بين الأولياء. وبعث بعض الملوك إلى رجل وجد عليه، فلما مثل بين يديه قال: أيها الأمير، إن الغضب شيطان، فاستعد بالله منه، وإنما خلق العفو للمذنب، والتجاوز للمسيء، فلا تضق عما وسع الرعية من حلمك وعفوك. فعفا عنه، وأطلق سبيله.

ولما اتهم قتيبة بن مسلم أبا مجلز على بعض الأمر، قال: أصلح الله الأمير، تثبت فإن التثبت نصف العفو. قال الحجاج لرجل دخل عليه: أنت صاحب الكلمة؟ قال: أبوء بالذنب وأستغفر الرب، وأسأل العافية؛ قال: قد عفونا عنك. وأرسل بعض الملوك في رجل أراد عقوبته، فلما مثل بين يديه، قال: أسألك بالذي أنت بين يديه أذل مني بين يديك، وهو على عقابك أقدر منك على عقابي، إلا نظرت في أمري نظر من يرثي أحب إليه من سقمي، وبراعتي أحب إليه من جرمي.

وقال خالد بن عبد الله لسليمان بن عبد الملك حين وجد عليه: يا أمير المؤمنين، إن القدرة تذهب الحفيظة، وأنت تجل عن العقوبة، ونحن مقرون بالذنب، فإن تعف عني فأهل ذلك أنت، وإن تعاقبني فأهل ذلك أنا.

وأمر معاوية بن أبي سفيان بعقوبة روح بن زنباع، فقال: أنشدك الله يا أمير المؤمنين أن تضع مني خسيصة أنت رفعتها، أو تنقض مني مريرة أنت

أبرمتها، أو تشمت بي عدواً أنت وقرنته إلا أتى حلمك وصفحك عن خطئي وجهلي؛ فقال معاوية: خليا عنه، إذا أراد الله أمراً يسره.

وجد عبد الملك بن مروان على رجل فجفاه وأطرحه، ثم دعا به ليسأله عن شيء، فرآه شاحباً ناحلاً، فقال له: مذ متي اعتللت؟ فقال: ما مسني سقم، ولكنني جفوت نفسي إذ جفاني الأمير، وآليت أن لا أرضى عنها حتى يرضى عني أمير المؤمنين. فأعادته إلى حسن رأيه.

وقعد الحسن بن سهل لنعيم بن حازم، فأقبل إليه حافياً حاسراً، وهو يقول: ذنبي أعظم من السماء، ذنبي أعظم من الأرض؛ فقال الحسن: على رسلك أيها الرجل، لا بأس عليك، قد تقدمت لك طاعة، وحدثت لك توبة، وليس للذنب بينهما موضع، ولئن وجد موضعاً فما ذنبك في الذنوب بأعظم من عفو أمير المؤمنين في العفو.

أذنب رجل من بني هاشم ذنباً إلى المأمون، فعاتبه فيه، فقال يا أمير المؤمنين، من حمل مثل دالتي، ولبس ثوب حرمي، ومت بمثل قرابتي، اغتفر له فوق زلتي؛ قال: صدقت يا بن عمي، وصفح عنه.

واعتذر رجل إلى المأمون من ذنب، فقال: إني وإن كانت زلتي قد أحاطت بحرمي فإن فضلك محيط بها وكرمك موقوف عليها. أخذته صريع الغواني فقال:

فأحط بذنبي عفوك المأمولا

إن كان ذنبي قد أحاط بحرمتي

دخل يزيد بن عمر بن هبيرة على أبي جعفر المنصور بعدما كتب أمانه، فقال: يا أمير المؤمنين، إن إمارتكم بكر، ودولتكم جديدة، فأذيقوا الناس حلاوتها، وجنبوهم موارثها، تخف على قلوبهم طاعتكم، وتسرع إلى أنفسهم محبتكم، وما زلت مستبظاً لهذه الدعوة. فلما قام قال أبو جعفر: عجباً من كل من يأمر بقتل هذا! ثم قتله بعد ذلك غدراً.

الهيثم بن عدي قال: لما هزم عبد الله بن علي من الشام، قدم على المنصور وفد منهم، فتكلموا عنده، ثم قام الحارث فقال: يا أمير المؤمنين، إنا لسنا وفد مباهاة، وإنما نحن وفد توبة، ابتلينا بفتنة استخفت كريمنا، واستفزت حليمنا، ونحن بما قدمنا معترفون، وبما سلف منا معترفون، فإن تعاقبنا فقد أحرمتنا، وإن تعف عنه فطالما أحسنت إلى من أساء منا؛ فقال المنصور للحرس: هذا خطيبهم، وأمر برد ضياعه عليه بالغوطة.

قال أحمد بن أبي داود: ما رأينا رجلاً نزل به الموت فما شغله ذلك ولا أذهله عما كان يجب أن يفعله إلا تميم بن جميل، فإنه كان تغلب على شاطئ الفرات، وأوفى به الرسول باب أمير المؤمنين المعتصم في يوم الموكب حين يجلس للعامة، ودخل عليه، فلما مثل بين يديه، دعا بالنطع والسيف، فأحضر؛ يجعل تميم بن جميل ينظر إليهما ولا يقول شيئاً، وجعل المعتصم يصعد النظر فيه ويصوبه، وكان جسيماً وسيماً، ورأى أن يستنطقه لينظر أين جناحه ولسانه من منظره؛ فقال: يا تميم، إن كان لك عذر فأت به، أو حجة فأدل بها؛ فقال: أما إذ قد أذن لي أمير المؤمنين فياني أقول: الحمد لله الذي أحسن كل شيء خلقه، وبدأ خلق الإنسان من طين، ثم جعل نسله من سلالة من ماء مهين. يا أمير المؤمنين، إن الذنوب تحرس الألسنة، وتصدع الأفتدة، ولقد عظمت الجريرة، وكبر الذنب، وساء الظن، ولم يبق إلا عفوك أو انتقامك، وأرجو أن يكون أقربهما منك وأسرعهما إليك أو لاهما بإمامتك، وأشبههما بخلافتك، ثم أنشأ يقول:

يلاحظني من حيثما أتلفت

وأي امرئ مما قضى الله يفلت

وسيف المنايا بين عينيه وصلت

يسل علي السيف فيه وأسكت

لأعلم أن الموت شيء مؤقت

وأكبدهم من حسرة تنفتت

أرى الموت بين النطع كامناً

وأكبر ظني أنك اليوم قاتلي

ومن ذا الذي يدلى بعذر وحجة

يعز على الأوس بن تغلب موقف

وما جزعي من أن أموت وإنني

ولكن خلفي صبية قد تركتهم

كأنى أراهم حين أنعى إليهم

وقد خمشوا تلك الوجوه وصوتوا

فإن عشت عاشوا خافضين بغبطة

أذود الردى عنهم وإن مت موتوا

فكم من قائل: لا يبعد الله روحه

وأخر جذلان يسر ويشمت

قال: فتبسم المعتصم، وقال: كاد والله يا تميم أن يسبق السيف العدل، اذهب فقد غفرت لك الصبوة، وتركتك للصبية.

وحكى أن أمير المؤمنين المهدي قال لأبي عبيد الله لما قتل ابنه: إنه لو كان في صالح خدمتك، وما تعرفناه من طاعتك، وفاء يجب به الصفع عن ولدك، ما تجاوز أمير المؤمنين ذلك به إلى غيره، ولكنه نكص على عقبيه، وكفر بربه؛ قال أبو عبيد الله: رضانا عن أنفسنا وسخطنا عليها موصول برضاك وسخطك، ونحن خدم نعمتك؛ تئيبنا على الإحسان فنشكر، وتعاقبنا على الإساءة فنصير.

أبو الحسن المدائني قال: لما حج المنصور مر بالمدينة، فقال للربيع الحاجب: علي بن جعفر بن محمد؛ قتلني الله إن لم أقتله، فمطل به، ثم ألح عليه فحضر، فلما كشف الستر بينه وبينه ومثل بين يديه، همس جعفر بشفتيه؛ ثم تقرب وسلم؛ فقال: لا سلم الله عليك يا عدو الله، تعمل علي الغوائل في ملكي، قتلني الله إن لم أقتلك؛ قال: يا أمير المؤمنين، إن سليمان صلى الله على محمد وعليه، أعطى فشكر، وإن أيوب ابتلى فصبر، وإن يوسف ظلم فغفر، وأنت على إرث منهم، وأحق من تأسى بهم. فنكس أبو جعفر رأسه ملياً، وجعفر واقف، ثم رفع رأسه فقال: إني أبا عبد الله، فأنت القريب القرابة، وذو الرحم الواشحة، السليم الناحية، القليل الغائلة، ثم صافحه بيمينه، وعانقه بشماله، وأجلسه معه على فراشه، وانحرف له عن بعضه، وأقبل عليه بوجهه يحادثه ويسأله، ثم قال: يا ربيع، عجل لأبي عبد الله كسوته وجائزته وإذنه. قال الربيع: فلما حال الستر بيني وبينه أمسكت بثوبه؛ فقال: ما أرانا يا ربيع إلا وقد حبسنا؛ فقلت: لا عليك، هذه مني لا منه؛ فقال: هذه أيسر، سل حاجتك؛ فقلت له: إني منذ ثلاث أدفع عنك وأداري عليك، ورأيتك إذ دخلت همست بشفتيك، ثم رأيت الأمر انجلي عنك، وأنا خادم سلطان، ولا غنى لي عنه، فأحب منك أن تعلمينه؛ قال: نعم، قلت: اللهم احرسني بعينك التي لا تنام، واكفني بحفظك الذي لا يرام، ولا أهلك وأنت رجائي، فكم من نعمة أنعمتها علي قل لك عندها شكري فلم تحرمي، وكم من بلية ابتليت بها قل عندها صبري فلم تحذلني؛ اللهم بك أدراً في نحره، وأستعيذ بخبرك من شره، فإنك على كل شيء قدير، وصلى الله على سيدنا محمد وآله وسلم.

المدائني قال: كان يزيد بن راشد خطيباً، وكان فيمن دعا إلى خلع سليمان بن عبد الملك والبيعة لعبد العزيز بن الوليد، فنذر سليمان قطع لسانه. فلما أفضت الخلافة إليه دخل عليه يزيد بن راشد، فجلس على طرف البساط مفكراً، ثم قال: يا أمير المؤمنين، كن كنيي الله صلى الله عليه وسلم، ابتلي فصبر، وأعطى فشكر، وقدر فغفر؛ قال: ومن أنت؟ قال: يزيد بن راشد. فعفا عنه.

حبس الرشيد رجلاً، فلما طال حبسه كتب إليه: إن كل يوم يمضي من نعيمك يمضي من يؤسي مثله، والأمد قريب، والحكم لله. فأطلقه. ومر أسد بن عبد الله القسري، وهو والي خراسان بدار من دور الاستخراج ودهقان يعذب في حبسه، وحول أسد مساكين يستجدونه، فأمر لهم بدراهم تقسم فيهم؛ فقال الدهقان: يا أسد، إن كنت تعطى من يرحم فارحم من يظلم، فإن السموات تنفرج لدعوة المظلوم؛ يا أسد، احذر من ليس له ناصر إلا الله، واتق من لا جنة له إلا الابتهاج إليه، إن الظلم مصرعه وخيم، ولا تغتر بإبطاء الغيثات من ناصر متى شاء أن يجيب أحاب، وقد أملى لقوم ليزدادوا إثماً. فأمر أسد بالكف عنه.

عتب المأمون على رجل من خاصته، فقال: يا أمير المؤمنين، إن قدم الحرمة، وحديث التوبة، يمحو ما بينهما من الإساءة؛ فقال: صدقت، ورضي عنه.

وكان ملك من ملوك فارس عظيم المملكة شديد النعمة، وكان له صاحب مطبخ، فلما قرب إليه طعامه صاحب المطبخ سقطت نقطة من الطعام على يديه، فزوى لها الملك وجهه، وعلم صاحب المطبخ أنه قاتله، فكأ الصلحة على يديه؛ فقال الملك: علي به، فلما أتاه، قال له: قد علمت أن سقوط النقطة أخطأت بما يدك، فما عذرك في الثانية؟ قال: استحيت للملك أن يقتل مثلي في سني وقدم حرمي في نقطة، فأردت أن أعظم ذنبي ليحسن به

قتلي؛ فقال له الملك: لئن كان لطف الاعتذار ينحيك من القتل، ما هو بمنحيك من العقوبة، اجلدوه مائة جلدة وخلوه.

الشيبياني قال:

دخل محمد بن عبد الملك بن صالح على المأمون حين قبض ضياعهم، فقال: يا أمير المؤمنين، محمد بن عبد الملك بين يديك، ربيب دولتك، وسليل نعمتك، وغصن من أغصان دوحتك، أتأذن لي في الكلام؟ قال: نعم؛ قال: نستمتع الله حياة ديننا ودينانا ورعاية أدنانا وأقصانا ببقائك، ونسأله أن يزيد في عمرك من أعمارنا، وفي أثرك من آثارنا، ويقيك الأذى بأسماعنا وأبصارنا، هذا مقام العائد بفضلك، الهارب إلى كنفك وظلك، الفقير إلى رحمتك وعدلك؛ ثم تكلم في حاجته فقضاها.

وقال عبید بن أيوب، وكان يطالبه الحجاج لجنایة جناها، فهرب منه وكتب إليه:

أذقني طعم النوم أو سل حقيقة

خلعت فاستطار فأصبحت

علي فإن قامت ففصل بنانيا

ترامى به البيد الفقار تراميا

ولم يقل أحد في هذا المعنى أحسن من قول النابغة الذبياني للنعمان بن المنذر:

أتاني أبيت اللعن أنك لمتني

فبت كأني ساورتني ضئيلة

أكلفتي ذنب امرئ وتركته

فإنك كالليل الذي هو مدركي

وتلك التي تستك منها المسامع

من الرقش في أنيابها السم ناقع

كذي العر يكوى غيره وهو رانع

وإن خلعت أن المنتأى عنك واسع

وقال فيه أيضاً:

ولست بمستبق أخاً لا تلمه

فإن أك مظلوماً فعبد ظلمته

حلفت فلم أترك لنفسك ريبة

لئن كنت قد بلغت عني جنابة

ألم تر أن الله أعطاك سورة

فإنك شمس والملوك كواكب

على شعث أي الرجال المهذب

وإن تك ذا عتب فمئك يعتب

وليس وراء الله للمرء مذهب

لمبلغك الواشي أغش وأكذب

ترى كل ملك دونها يتذبذب

إذا طلعت لم يبد منهن كوكب

قال ابن الطثرية:

فهبني امرأ إما بريئاً علمته

وكنت كذي داء يبغي لذائه

وإما مسيئاً تاب منه وأعتبا

طبيباً فلما لم يجده تطببا

وقال الممزق لعمر بن هند:

تروح وتغدو ما يحل وضيئها

أحقاً أبيت اللعن أن ابن مزنا

فإن كنت مأكولاً فكن خير آكل

إليك ابن ماء المزن وابن محرق

على غير إجرام بريقي مشرقي

وإلا فادركني ولما أمزق

فأنت عميد الناس مهما تقل نقل

ومهما تضع من باطل لا يحقق

وتمثل بهذه الأبيات عثمان بن عفان في كتابه إلى علي بن أبي طالب يوم الدار.

وكتب محمد بن عبد الملك الزيات لما أحس بالموت وهو في حبس المتوكل بركة إلى المتوكل، فيها:

هي السبيل فمن يوم إلى يوم

كأنه ما تريك العين في النوم

لا تعجلن رويداً إنما دول

دنيا تنقل من قوم إلى قوم

إن المنايا وإن أصبحت ذا فرح

تحوم حولك حوماً أيما حوم

فلما وصلت إلى المتوكل وقرأها، أمر بإطلاقه، فوجدوه ميتاً.

وقال عمرو بن معاوية بن عمرو بن عتبة للمنصور وقد أراد عقوبة رجل: يا أمير المؤمنين، إن الانتقام عدل، والتجاوز فضل، والمتفضل قد جاوز حد المنصف، ونحن نعيذ أمير المؤمنين أن يرضى لنفسه أو كس النصيبين، دون أن يبلغ أرفع الدرجتين.

جرى بين أبي مسلم صاحب الدعوة وبين قائد من قواده يقال له شهرام كلام، فقال له قائده كلمة فيها بعض الغلظ، ثم ندم على ما كان منه، فجعل يتضرع ويتنصل إليه؛ فقال له أبو مسلم: لا عليك، لسان سبق، ووهم أخطأ، وإنما الغضب شيطان، وأنا جرأتك علي بطول احتمالي منك، فإن كنت للذنب متعمداً، فقد شاركك فيه، وإن كنت مغلوباً، فإن العذر يسعك، وقد عفونا على كل حال. فقال: أصلح الله الأمير، إن عفو مثلك لا يكون غروراً؛ قال: أجل؛ قال: فإن عظم الذنب لا يدع قلبي يسكن، وألح في الاعتذار؛ فقال له أبو مسلم: عجباً لك، إنك أسأت فأحسننت، فلما أحسننت أسسيء! دخل أبو دلف على المأمون، وقد كان عتب عليه ثم أقاله، فقال له وقد خلا مجلسه: قل أبا دلف، وما عسيت أن تقول وقد رضي عنك أمير المؤمنين وغفر لك ما فعلت؛ فقال يا أمير المؤمنين:

ليالي تدنو منك بالبشر مجلسي

ووجهك من ماء البشاشة يقطر

فمن لي بالعين التي كنت مرة

إلي بها في سالف الدهر تنظر

قال المأمون: لك بما رجوعك إلى المناصحة، وإقبالك على الطاعة، ثم عاد له إلى ما كان عليه.

وقال له المأمون يوماً: أنت الذي تقول:

إني امرؤ كسروي الفعال

أصيف الجبال وأشتوا العرافا

ما أراك قدمت لحق طاعة، ولا قضيت واجب حرمة؛ قال له: يا أمير المؤمنين، إنما هي نعمتك، ونحن فيها خدمك، وما هراقة دمي في طاعتك، إلا بعض ما يجب لك.

ودخل أبو دلف على المأمون، فقال: أنت الذي يقول فيك ابن جبلة:

إنما الدنيا أبو دلف

بين باديه ومحتضره

فإذا ولي أبو دلف

ولت الدنيا على أثره

فقال: يا أمير المؤمنين، شهادة زور، وكذب شاعر، وملق مستجد، وليكن الذي يقول فيه ابن أخيه:

ذريني أجوب الأرض في طلب الغنى

فما الكرج بالدنيا ولا الناس قاسم

الكرج: منزل أبي دلف، وكان اسمه القاسم بن عيسى.

وقال المنصور وجعل لعن بن زائدة: ما أظن ما قيل عنك من ظلمك أهل اليمن واعتسافك عليهم إلا حقاً؟ قال: كيف ذلك يا أمير المؤمنين؟ قال: بلغني عنك أنك أعطيت شاعراً بيتاً قاله ألف دينار، وأنشده البيت وهو:

معن بن زائدة الذي زيدت به

قال: نعم يا أمير المؤمنين، قد أعطيته ألف دينار، ليس على هذا البيت، ولكن على قوله:

ما زلت يوم الهاشمية معلماً

بالسيف دون خليفة الرحمن

فمنعت حوزته وكنت وقاءه

من وقع كل مهند وسانن

قال: فاستحيا المنصور وجعل ينكت بالمخصرة، ثم رفع رأسه وقال: اجلس أبا الوليد.

أبي عبد الملك بن مروان بأعرابي سرق، فأمر بقطع يده فأنشأ يقول:

يدي يا أمير المؤمنين أعيذها

بعفوك أن تلقى مكاناً يشينها

ولا خير في الدنيا وكانت حبيبة

إذا ما شمالي فارقتها يمينها

فأبى إلا قطعه؛ فقالت أمه: يا أمير المؤمنين، واحدي وكاسي؛ قال: بئس الكاسب كان لك، وهذا حد من حدود الله؛ قالت: يا أمير المؤمنين، اجعله من بعض ذنوبك التي تستغفر الله منها، فعفا عنه.

تذكير الملوك بدمام متقدم

قال ثمامة بن أشرس للمأمون لما صارت إليه الخلافة: إنه كان لي أملان: أمل لك وأمل بك، فأما أمني لك فقد بلغت، وأما أمني بك فلا أدري ما يكون منك فيه؛ قال: يكون أفضل ما رجوت وأملت، ففعله من سماره وخاصته.

الأصمعي قال: لما مات يزيد بن عبد الملك وصارت الخلافة إلى هشام بن عبد الملك، خر أصحابه سجوداً إلا الأبرش الكلبي؛ فقال له: يا أبرش، ما منعك أن تسجد كما سجدوا؟ قال: يا أمير المؤمنين، لأنك ذهبت عنا وتركتنا؛ قال: فإن ذهبت بك معي؟ قال: أو تفعل يا أمير المؤمنين؟ قال: نعم؛ قال: فالآن طاب السجود، ثم سجد.

ولما صارت الخلافة إلى أبي جعفر كتب إليه رجل من إخوانه:

إنا بطانتك الألى

كنا نكابد ما نكابد

ونرى فنعرف بالعدا

وة والبعاد لمن نباعد

ونبيت من شفق علي

ك ربيئة والليل هاجد

هذا أوان وفاء ما

سبقته به منك المواعد

فوقع أبو جعفر على كل بيت منها: صدقت صدقت، ثم دعاء به وألحقه بمخاصته.

وقال حبيب الشاعر في هذا المعنى:

وإن أولى الموالي أن تواسيه

عند السرور لمن واساك في الحزن

إن الكرام إذا ما أسهلوا ذكروا

من كان يألفهم في الموطن الخشن

حسن التخلص من السلطان

أبو الحسن المدائني قال: كان العباس بن سهل والي المدينة لعبد الله بن الزبير، فلما بايع الناس عبد الملك بن مروان، ولى عثمان بن حيان المري، وأمره بالغلظة على أهل الظنة، فعرض يوماً بذكر الفتنة وأهلها، فقال له قائل: هذا العباس بن سهل على ما فيه، كان مع ابن الزبير وعمل له؛ فقال عثمان بن حيان: ويلي عليه، والله لأقتلنه؛ قال العباس: فبلغني ذلك، فتغييت حتى أضرب بي التغيب، فأتييت ناساً من جلسائه فقلت لهم: ما لي أخاف وقد أمني عبد الملك بن مروان؟ فقالوا: والله ما يذكرك إلا تغيظ عليك، وقلما كلم على طعامه في ذنب إلا انبسط، فلو تنكرت وحضرت عشاءه وكلمته. قال: ففعلت، وقلت على طعامه وقد أتى بجفنة ضخمة ذات ثريد ولحم: والله لكأني أنظر إلى جفنة حيان بن معبد والناس يتكاسون عليها، وهو يطوف في حاشيته، يتفقد مصالحها، يسحب أردية الخبز، حتى إن الحسك ليتعلق به فما يميظه، ثم يوتى بجفنة تهادى بين أربعة، ما يستقلون بها إلا بمشقة وعناء، وهذا بعد ما يفرغ الناس من الطعام ويتنحون عنه، فيأتي الحاضر من أهله بالدنو والطارئ من أشرف قومه، وما بأكثرهم من حاجة إلى الطعام، وما هو إلا الفخر بالدنو من مائدته والمشاركة ليدته؛ قال: هيه، أنت رأيت ذلك؟ قلت: أجل والله؛ قال لي: ومن أنت؟ قلت: وأنا آمن؟ قال: نعم؛ قلت: العباس بن سهل بن سعد الأنصاري، قال: مرحباً وأهلاً، أهل الشرف والحق. قال: فلقد رأيتني بعد ذلك وما بالمدينة رجل أوجه مني عنده. فقيل له بعد ذلك: أنت رأيت ونزلنا ذلك الماء وغشينا وعليه عباءة ذكوانية، فلقد جعلنا ندوده عن رحلنا مخافة أن يسرقه.

أبو حاتم قال: حدثنا أبو عبيدة قال: أخذ سراقاً بن مرداس البارقي أسيراً يوم جبانة السبيح، فقدم في الأسرى إلى المختار، فقال سراقاً:

أمنن علي اليوم يا خير معد

وخير من لبي وصلى وسجد

فعفا عنه المختار وحلى سبيله. ثم خرج مع إسحاق بن الأشعث فأني به المختار أسيراً، فقال له: ألم أعف عنك وأمنن عليك؟ أما والله لأقتلنك؛ قال: لا والله لا تفعل إن شاء الله؛ قال: ولم؟ قال: لأن أبي أخبرني أنك تفتح الشام حتى تهدم مدينة دمشق حجراً حجراً وأنا معك، ثم أنشده:

ألا أبلغ أبا إسحاق أنا

حملنا حملة كانت علينا

خرجنا لا نرى الضعفاء شيئاً

وكان خروجنا بطراً وحيناً

تراهم في مصفهم قليلاً

وهم مثل الدبي لما التقينا

فأسجح إذا قدرت فلو قدرنا

لجرنا في الحكومة واعتدينا

تقبل توبة مني فإني

سأشكر إن جعلت النقد دينا

قال: فخلى سبيله. ثم خرج إسحاق بن الأشعث ومعه سراقاً، فأخذ أسيراً وأني به المختار؛ فقال: الحمد لله الذي أمكنني منك يا عدو الله، هذه ثالثة؛ فقال سراقاً: أما والله ما هؤلاء الذين أخذوني، فأين هم لا أراهم؟ إنا لما التقينا رأينا قوماً عليهم ثياب بيض، وتحتهم خيل بلق تطيق بين السماء والأرض؛ فقال المختار: خلوا سبيله ليخبر الناس. ثم دعا لقتاله فقال:

ألا أبلغ أبا إسحاق أني

رأيت البلق دهماً مصمات

أري عيني ما لم تر أياه

كلانا عالم بالترهات

كفرت بوحيكم وجعلت نذراً

علي قتالكم حتى الممات

كان معن بن زائدة قد أمر بقتل جماعة من الأسرى، فلما سقوا، قال: يا معن، أتقتل ضيفانك؟ فأمر معن بإطلاقهم. لما أتى عمر بن الخطاب بالهزم أسيراً دعاه إلى الإسلام، فأبى عليه، فأمر بقتله، فلما عرض عليه السيف، قال: لو أمرت يا أمير المؤمنين بشربة من ماء فهو خير من قتلي على الظم؛ فأمر له بها، فلما صار الإناء بيده قال: أنا آمن حتى أشرب؟ قال: نعم. فألقى الإناء من يده، وقال: الوفاء يا أمير المؤمنين

نور أبلج، قال: لك التوقف حتى أنظر في أمرك، ارفعا عنه السيف؛ فلما رفع عنه؛ قال: الآن أشهد أن لا إله إلا الله وحده لا شريك له، وأن محمداً عبده ورسوله؛ فقال له عمر: ويحك! أسلمت خير إسلام، فما أحررك؟ قال: خشيت يا أمير المؤمنين أن يقال أن إسلامي إنما كان جزعاً من الموت؛ فقال عمر: إن لفارس حلوماً بما استحققت ما كانت فيه من الملك. ثم كان عمر يشاوره بعد ذلك في إخراج الجيوش إلى أرض فارس ويعمل برأيه.

لما أتى الحجاج بالأسرى الذين خرجوا مع ابن الأشعث أمر بقتلهم؛ فقال رجل: أصلح الله الأمير، إن لي حرمة؛ قال: وما هي؟ قال: ذكرت في عسكر ابن الأشعث فشتت في أبيك، فعرضت دونهما، فقلت: لا والله ما في نسبه مطعن، فقولوا فيه ودعوا نسبه؛ قال: ومن يعلم ما ذكرت؟ فالتفت إلى أقرب الأسرى إلي، فقلت: هذا يعمل؛ قال له الحجاج: ما تقول فيما يقول؟ قال: صدق، أصلح الله الأمير، وبر. قال: خلياً عن هذا لنصرته وعن هذا لحفظ شهادته.

عمرو بن بحر الجاحظ قال: أتى روح بن حاتم برجل كان متلصصاً في طريق الرقاق فأمر بقتله؛ فقال: أصلح الله الأمير، لي عندك يد بيضاء؛ قال: وما هي؟ قال: إنك جئت يوماً إلى مجمع موالينا بني هاشم والجلس محتفل، فلم يتحضر لك أحد، فقامت من مكاني حتى جلست فيه، ولولا محض كرمك، وشرف قدرك، ونباهة أوليتك، ما ذكرتك هذه عند مثل هذا؛ قال ابن حاتم: صدق، وأمر بإطلاقه، وولاه تلك الناحية وضمنه إياها. ولما ظفر المأمون بأبي دلف، وكان يقطع في الجبال، أمر بضرب عنقه؛ فقال: يا أمير المؤمنين، دعني أركع ركعتين؛ قال: افعل. فركع وحرر أبياتاً، ثم وقف بين يديه فقال:

خلف ممن تبيع

قلصت عنه الدروع

فأنا السهم السريع

بع بي الناس فإني

واتخذني لك درعاً

وارم بي كل عدو

فأطلقه، وولاه تلك الناحية، فأصلحها.

أتى معاوية يوم صيفين بأسير من أهل العراق، فقال: الحمد لله الذي أمكنني منك؛ قال: لا تقل يا معاوية، فإنها مصيبة؛ قال: وأي نعمة أعظم من أن أمكنني الله عز وجل من رجل قتل جماعة من أصحابي في ساعة واحدة؟ اضرب عنقه يا غلام؛ فقال الأسير: اللهم اشهد أن معاوية لم يقتلني فيك، وأنت لا ترضى بقتلي، وإنما يقتلني في الغلبة على حطام هذه الدنيا، فإن فعل فافعل به ما هو أهله، وإن لم يفعل فافعل به ما أنت أهله؛ قال له: ويحك! لقد سببت فأبلغت، ودعوت فأحسننت، خلياً عنه.

وأمر مصعب بن الزبير برجل من أصحاب المختار أن يضرب عنقه؛ فقال: أيها الأمير، ما أقبح بك أن أقوم يوم القيامة إلى صورتك هذه الحسنة، ووجهك هذا الذي يستضاء به، فأتلق بأطرافك، وأقول: أي رب، سل هذا فيم قتلني؛ قال: أطلقوه فإني جاعل ما وهبت له من حياته في خفض، أعطوه مائة ألف؛ قال الأسير: بأبي أنت وأمي. أشهد أن لابن قيس الرقيات منها خمسين ألفاً؛ قال: ولم؟ قال: لقوله:

ه تجلت عن وجهه الظلماء

جبروت منه ولا كبرياء.

لح من كان همه الاتقاء

إنما مصعب شهاب من الل

ملكه ملك عزة ليس فيه

يتقي الله في الأمور وقد أف

أمر عبد الملك بقتل رجل؛ فقال: يا أمير المؤمنين، إنك أعز ما تكون أحوج ما تكون إلى الله؛ فعفا عنه.

أتى الحجاج بأسرى من الخوارج، فأمر بضرب أعناقهم، فقدم فيهم شاب، فقال: والله يا حجاج لئن كنا أسأنا في الذنب فما أحسننت في العفو؛ فقال: أف لهذه الجيف، ما كان فيهم من يقول مثل هذا! وأمسك عن القتل.

وأتى الحجاج بأسرى فأمر بقتلهم، فقال له رجل منهم: لا جزاك الله يا حجاج عن السنة خيراً، فإن الله تعالى يقول: "إذا لقيتم الذين كفروا فضرب

الرقاب حتى إذا أتختتموهم فشدوا الوثاق فإما منا بعد وإما فداء". فهذا قول الله في كتابه. وقد قال شاعركم فيما وصف به قومه من مكارم الأخلاق:

إذا أنقل الأعناق حمل القلائد

وما نقتل الأسرى ولكن نفكهم

فقال الحجاج: ويحكم! أعجزتم أن تخبروني بما أخبرني هذا المنافق! وأمسك عنم بقي.

الميثم بن عدي قال: أتى الحجاج بحرورية، فقال لأصحابه: ما تقولون في هذه؟ قالوا: اقتلها، أصلح الله الأمير، ونكل بما غيرها. فتبسمت الحرورية؛ فقال لها: لم تبسمت؟ فقالت: لقد كان وزراء أخيك فرعون خيراً من وزرائك يا حجاج، استشارهم في قتل موسى، فقالوا: أرجه وأحاه، وهؤلاء يأمرؤنك بتعجيل قتلي؛ فضحك الحجاج، وأمر بإطلاقها.

وقال معاوية ليونس الثقفي: اتق الله، لأطيرنك طيرة بطيئاً وقوعها؛ قال: أليس بي وبك المرجع إلى الله؟ قال: نعم؛ قال: فاستغفر الله.

ودخل رجل من بني مخزوم على عبد الملك بن مروان، وكان زبيرياً، فقال له عبد الملك: أليس الله قد ردك على عقبيك؟ قال: ومن رد إليك يا أمير المؤمنين فقد رد على عقبيه؟ فسكت عبد الملك وعلم أنها خطأ.

دخل يزيد بن أبي مسلم على سليمان بن عبد الملك، فقال له سليمان: على امرئ أمرك وجراك وسلطك على الأمة لعنة الله، أتظن الحجاج استقر في قعر جهنم أم هو يهوي فيها؟ قال: يا أمير المؤمنين، إن الحجاج يأتي يوم القيامة بين أخيك وأبيك، فضعه من النار حيث شئت. وقال عبيد الله بن زياد لقيس بن عباد: ما تقول في وفي الحسين؟ قال: أعفني عافاك الله؛ قال: لا بد أن تقول؛ قال: يجيء أبوه يوم القيامة فيشفع له ويجيء أبوك فيشفع لك؛ قال: قد علمت غشك وخبثك، لكن فارقتني يوماً لأضعن أكثرك شعراً بالأرض.

الأصمعي قال: بعث الحجاج إلى يحيى بن يعمر، فقال له: أنت الذي تقول: إن الحسين بن علي ابن عم رسول الله صلى الله عليه وسلم ابن رسول الله، لتأتيني بالمخرج مما قلت أو لأضربن عنقك؛ فقال له ابن يعمر: وإن جئت بالمخرج فأنا آمن؟ قال: نعم؛ قال: اقرأ: "وتلك حجتنا آتيناها إبراهيم على قومه" إلى قوله "ومن ذريته داود وسليمان وأيوب ويوسف وموسى" إلى قوله "وعيسى". فمن أقرب: عيسى من إبراهيم، وما هو ابن بنته، أو الحسين من محمد صلى الله عليه وسلم؟ فقال له الحجاج: والله لكأني ما قرأت هذه الآية قط، وولاه قضاء بلده، فلم يزل بها قاضياً حتى مات.

أبو بكر بن أبي شيبة بإسناده قال: دخل عبد الرحمن بن أبي ليلى على الحجاج، فقال لجلسائه: إن أردتم أن تنظروا إلى رجل يسب أمير المؤمنين عثمان ابن عفان فهذا عندكم، يعني عبد الرحمن؛ فقال عبد الرحمن: معاذ الله أيها الأمير أن أكون أسب أمير المؤمنين، إنه ليحجزني عن ذلك آيات في كتاب الله، قال الله تعالى: "للفقراء المهاجرين الذين أخرجوا من ديارهم وأموالهم يبتغون فضلاً من الله ورضواناً وينصرون الله ورسوله أولئك هم الصادقون".

فكان عثمان منهم. ثم قال: "والذين تبوءوا الدار والإيمان من قبلهم يحبون من هاجر إليهم ولا يجدون في صدورهم حاجة مما أوتوا ويؤثرون على

أنفسهم ولو كان بهم خصاصة ومن يوق شح نفسه فأولئك هم المفلحون". فكان أبي منهم. ثم قال: "والذين جاءوا من بعدهم يقولون ربنا اغفر لنا ولإخواننا الذين سبقونا بالإيمان ولا تجعل في قلوبنا غلا للذين آمنوا ربنا إنك رؤوف رحيم". فكانت أنا منهم. فقال: صدقت.

أبو عوانة عن عاصم بن أبي وائل قال: بعث إلي الحجاج فقال لي: ما اسمك؟ قال: ما أرسل إلي الأمير حتى عرف اسمي؛ قال: متى هبطت هذا البلد؟ قلت: حين هبط أهله؛ قال: ما تقرأ من القرآن؟ قلت: أقرأ منه ما لو تبعته كفاني؛ قال: إني أريد أن أستعين بك في عملي؛ قلت: إن تستعين بي تستعين بكبير أخرج ضعيف يخاف أعوان السوء، وإن تدعني فهو أحب إلي، وإن تقحمي أتقحم؛ قال: إن لم أجد غيرك أفحمتك، وإن وجدت غيرك لم أفحمتك؛ قلت: وأخرى، أكرم الله الأمير، إني ما علمت الناس هابوا أميراً قط هيبتهم لك، والله إني لأتعار من الليل فيما يأتيني النوم من ذكرك حتى أصبح، هذا ولست لك على عمل؛ قال: هيه، كيف قلت؟ فأعدت عليه؛ فقال: إني والله لا أعلم على وجه الأرض خلقاً هو أجراً على دم مني، قال:

فقتت فعدلت عن الطريق كأني لا أبصر؛ فقال: أرشدوا الشيخ.

لما أتى الحجاج بأسرى الجماجم أتى فيهم بعامر الشعبي، ومطرف بن عبد الله الشخمير، وسعيد بن جبير، وكان الشعبي ومطرف يريان التقية، وكان

سعيد بن جبير لا يراها، وكان قد تقدم كتاب عبد الملك بن مروان إلى الحجاج في أسرى الجماحم أن يعرضهم على السيف، فمن أقر منهم بالكفر في خروجهم علينا فيخلى سبيله، ومن زعم أنه مؤمن فيضرب عنقه؛ فقال الحجاج للشعبي: وأنت ممن ألب علينا مع ابن الأشعث؟ اشهد على نفسك بالكفر؛ فقال: أصلح الله الأمير، نبا بنا المتزل، وأحزن بنا الجناح، واستحلنا الخوف، واكتحلنا السهر، وخبطتنا فتنة لم نكن فيها بررة أتقياء، ولا فجرة أقوياء؛ قال: لله أبوك، لقد صدقت، ما بررتم بخروجكم علينا ولا قويتهم، خلوا سبيل الشيخ. ثم قال لمطرف: أتقر على نفسك بالكفر؟ قال: أصلح الله الأمير، إن من شق العصا، وسفك الدماء، ونكث البيعة، وفارق الجماعة، وأحاف المسلمين، لجدير بالكفر، فخلي سبيله. ثم قال لسعيد بن جبير: أتقر على نفسك بالكفر؟ قال: ما كفرت منذ آمنت بالله، فضرب عنقه، ثم استعرض الأسرى، فمن أقر بالكفر خلى سبيله، ومن أبي قتله، حتى أتى بشيخ وشاب، فقال للشاب: أكافر أنت؟ قال: نعم. قال: لكن الشيخ لا يرضى بالكفر؛ فقال له الشيخ: أعن نفسي تحادعني يا حجاج، والله لو علمت أعظم من الكفر لقتته؛ فضحك الحجاج وخلي سبيله.

فلما مات الحجاج، وقام سليمان، قال الفرزدق:

لقوا دولة كان العدو يدالها

لئن نفر الحجاج آل معتب

وموتاهم في النار كلحا سبالها

لقد أصبح الأحياء منهم أذلة

فصار عليهم بالعذاب انفتالها

وكانوا يرون الدائرات بغيرهم

به الهند ألواح عليها جلالها

ألكني إلى من كان بالصين أورمت

فقد مات عن أهل العراق خبالها

هلم إلى الإسلام والعدل عندنا

لما ولي سليمان بن عبد الملك كتب إلى عامله بالأردن: اجمع يدي عدي ابن الرقاع إلى عنقه وابعث به إلي على قتب بلا وطاء، ووكل به من ينخس به؛ ففعل ذلك؛ فلما انتهى إلى سليمان بن عبد الملك ألقى بين يديه وهو لقي لا حراك فيه ولا روح، فتركه حتى ارتد إليه روحه، ثم قال له: أنت أهل لما نزل بك، ألسنت القاتل في الوليد:

وأن نكون لراع بعدهم تبعا

معاذ ربي أن نبقي ونفقد

وقال: لا والله يا أمير المؤمنين، ما هكذا قلت، وإنما قلت:

وأن نكون لراع بعدهم تبعا

معاذ ربي أن نبقي ونفقد

فنظر إليه سليمان واستضحك، ثم أمر له بصلة وخلي سبيله.

العتي قال: كان بين شريك القاضي والربيع حاجب المهدي معارضة، فكان الربيع يحمل عليه المهدي، فلا يلتفت إليه، حتى رأى المهدي في منامه شريكاً القاضي مصروفاً وجهه عنه، فلما استيقظ من نومه دعا الربيع، وقص عليه رؤياه؛ فقال: يا أمير المؤمنين، إن شريكاً مخالفاً لك وإنه فاطمي محض؛ قال المهدي: علي به فلما دخل عليه، قال له: يا شريك، بلغني أنك فاطمي، قال له شريك: أعيذك بالله يا أمير المؤمنين أن تكون غير فاطمي، إلا أن تعني فاطمة بنت كسرى؛ قال: ولكنني أعني فاطمة بنت محمد صلى الله عليه وسلم. قال: أفتلعتها يا أمير المؤمنين؟ قال: معاذ الله؛ فماذا تقول فيما يلعتها؟ قال: عليه لعنة الله؛ قال: فالعن هذا -يعني الربيع- فإنه يلعتها، فعليه لعنة الله؛ قال الربيع: لا والله يا أمير المؤمنين ما ألعتها؛ قال له شريك: يا ماجن فما ذكرك لسيدة نساء العالمين، وابنة سيد المرسلين في مجالس الرجال؟ قال المهدي: دعني من هذا، فإني رأيتك في منامي كأن وجهك مصروف عني وقفك إلي، وما ذلك إلا بخلافك علي، ورأيت في منامي كأن أقتل زنديقاً؛ قال شريك: إن رؤياك يا أمير المؤمنين ليست برؤيا يوسف الصديق صلوات الله على محمد وعليه، وإن الدماء لا تستحل بالأحلام، وإن علامة الزندقة بينة؛ قال: وما هي؟ قال: شرب المر والرشا في الحكم ومهر البغي؛ قال: صدقت والله أبأ عبد الله، أنت والله خير من الذي حملني عليك.

ودخل شريك القاضي على المهدي فقال له الربيع: خنت مال الله ومال أمير المؤمنين؛ قال: لو كان ذلك لأتاك سهمك.

العتبي قال: دخل جامع المحاربي على الحجاج - وكان جامع شيخاً صالحاً خطيباً لبيباً جريئاً على السلطان، وهو الذي قال للحجاج إذ بنى مدينة واسط: بنيتها في غير بلدك، وتورثها غير ولدك - لجعل الحجاج يشكو سوء طاعة أهل العراق وقبح مذهبهم. فقال له جامع: أما إنه لو أحبوك لأطاعوك، على أنهم ما شئتوك لنسبك ولا لبلدك، ولا لذات نفسك، فدع عنك ما يبعدهم منك إلى ما يقرهم إليك، والتمس العافية ممن دونك تعطها ممن فوقك، وليكن إيقاعك بعد وعيدك، ووعيدك بعد وعدك. قال الحجاج: ما أرى أن أريد بني اللكيعة إلى طاعتي إلا بالسيف؛ قال: أيها الأمير، إن السيف إذ لاقى السيف ذهب الخيار؛ قال الحجاج: الخيار يومئذ لله؛ قال: أجل، ولكنك لا تدري لمن يجعله الله؛ فغضب وقال: يا هناء، إنك من محارب؛ فقال جامع:

وللحرب سميماً وكنا محارباً إذا ما القنا أمسى من الطعن أحمرأ

فقال الحجاج: والله لقد هممت بأن أخلع لسانك فأضرب به وجهك؛ قال جامع: إن صدقناك أغضبتناك، وإن غششناك أغضبتنا الله، فغضب الأمير أهون علينا من غضب الله؛ قال: أجل، وسكن. وشغل الحجاج ببعض الأمر، فانسل جامع، فمر بين الصفوف من أهل الشام حتى جاوزها إلى صفوف العراق، فأبصر ككبكية فيها جماعة من بكر العراق، وقيس العراق، وتميم العراق، وأزد العراق، فلما رأوه أشربوا إليه، وقالوا له: ما عندك؟ دفع الله عنك؛ قال: ويحكم؛ عموه بالخلع كما يعمكم بالعداوة، ودعوا التعادي ما عاداكم، فإذا ظفرتم تراجعتم وتعاديتهم، أيها التميمي، هو أعدى لك من الأزدي، وأبها القيسي هو أعدى لك من التغلبي، وهل ظفر بمن ناوأه منكم إلا بمن بقي معه منكم. وهرب جامع من فوره ذلك إلى الشام، واستجار بزفر بن الحارث فأجاره.

العتبي قال: كان هارون الرشيد يقتل أولاد فاطمة وشيعتهم، وكان مسلم ابن الوليد صريع الغواني؛ قد رمي عنده بالتشيع، فأمر بطلبه، فهرب منه، ثم أمر بكلب أنس بن أبي شيخ كاتب البرامكة، فهرب منه، ثم وجد هو ومسلم بن الوليد عند قينة بيغداد، فلما أتى بهما، قيل له: يا أمير المؤمنين، قد أتى بالرجلين؛ قال: أي الرجلين؟ قيل: أنس بن أبي شيخ، ومسلم ابن الوليد؛ فقال: الحمد لله الذي أظفرتني بهما، يا غلام، أحضرهما. فلما دخلا عليه، نظر إلى مسلم، وقد تغير لونه، فرق له وقال: إيه يا مسلم، أنت القائل:

وأراه يطمح عن بني العباس

أنس الهوى ببني علي في الحشا

قال: بل أنا الذي أقول يا أمير المؤمنين:

مستوحشاً من سائر الإيناس

أنس الهوى ببني العمومة في الحشا

أولى بذلك يا بني العباس

وإذا تكاملت الفضائل كنتم

قال: فعجب هارون من سرعة بديهته، وقال له بعض جلسائه: استبقه يا أمير المؤمنين، فإنه من أشعر الناس، وامتحنه فسترى منه عجباً؛ فقال له: قل شيئاً في أنس؛ فقال: يا أمير المؤمنين، أفرخ روعي، أفرخ الله روعك يوم الحاجة إلى ذلك، فإني لم أدخل على خليفة قط، ثم أنشأ يقول:

فالموت يلحظ والأقدار تنتظر

تلمظ السيف من شوق إلى أنس

حتى يؤامر فيه رأيك القدر

فليس يبلغ منه ما يؤمله

وليس للموت عفو حين يقتدر

أمضى من الموت عند قدرته

قال: فأجلسه هارون وراء ظهره، لئلا يرى ما هم به، حتى إذا فرغ من قتل أنس، قال له: أنشدني أشعر شعر لك، فكلما فرغ من قصيدة، قال له: التي تقول فيها الوحل، فإني رويتها وأنا صغير، فأنشده شعره الذي أوله:

ولا تطلبا من عند قاتلتي نحلي

أديرا علي الراح لا تشربا قبلي

حتى انتهى إلى قوله:

إذا ما علت منا ذؤابة شارب

تمشت به مشي المقيد في الوحل

فضحك هارون وقال: ويحك يا مسلم! أما رضيت أن قيدته، حتى جعلته يمشي في الوحل، ثم أمر له بجائزة وخلي سبيله.
قال كسرى ليوشن المغني: وقد قتل الفهليذ تلميذه، كت أستريح منك إليه ومنه إليك، فأذهب حسدك ونغل صدرك شكر تمتعي، وأمر أن يطرح تحت أرجل الفيلة. فقال: أيها الملك، إذا كنت أنا قد أهبت شطر تمتعك، وأذهبت أنت الشطر الآخر: أليس جنايتك على نفسك، مثل جنايتي عليك؟ قال كسرى: دعوه، فما دله على هذا الكلام إلا ما جعل من طول المدة.

يعقوب بن صالح بن علي بن عبد الله بن عباس قال: دخلت يوماً على الرشيد، أمير المؤمنين، وهو متغيظ متردد، فقدمت على دخولي عليه، وقد كنت أفهم غضبه في وجهه، فسلمت، فلم يرد؛ فقلت: داهية نأد، ثم أوماً إلي فجلست. فالتفت إلي وقال: لله عبد الله بن معاوية بن عبد الله بن جعفر بن أبي طالب، فلقد نطق بالحكمة حيث يقول:

عمداً عصيت مقال الزاجر الناهي

في اللؤم فافخر بهم ما شئت أو باهي

بالشعر يوماً وقد يزري بأفواه

ويصرف الرزق عن ذي الحيلة الداوي

أثروا وليسوا وإن أثروا بأشباهي

إلا وقولي عليه الحمد لله

يا أيها الزاجري عن شيمتي سفهاً

أقصر فإنك من قوم أرومتهم

يزين الشعر أفواهاً إذا نطقت

قد يرزق المر لا من فضل حيلته

لقد عجبت لقوم لا أصول لهم

ما نالني من غنى يوماً ولا عدم

فقلت: يا أمير المؤمنين، ومن ذا الذي بلغت به المقدرة أن يسامي مثلك أو يدانيه؟ قال: لعله من بني أيبك وأمك.
كان الكميت بن زيد يمدح بني هاشم ويعرض ببني أمية، فطلبه هشام، فهرب منه عشرين سنة، لا يستقر به القرار من خوف هشام، وكان مسلمة بن عبد الملك له على هشام يوماً إلى بعض صيوده، أتى الناس يسلمون عليه، وأتاه الكميت بن زيد فيمن أتى، فقال: السلام عليك أيها الأمير ورحمة الله وبركاته، أما بعد:

وتأن إنك غير صاغر

د لميت إن شئت ناشر

لك ذمة الجار المجاور

ة والأمور إلى المصاير

ب كمهتد بالأمس حائر

قف بالديار وقوف زائر

حتى انتهى إلى قوله:

يا مسلم بن أبي الولي

غلقت حبالني من حبا

فالآن صرت إلى أمني

والآن كنت به المصي

فقال مسلمة: سبحان الله، من هذا الهندكي الجلاحب الذي أقبل من أحريرات الناس فبدأ بالسلام ثم أما بعد ثم الشعر؟ قيل له: هذا الكميت بن زيد. فأعجب لفصاحته وبلاغته، فسأله مسلمة عن خبره، وما كان فيه طول غيبته، فذكر له سخط أمير المؤمنين عليه، فضمن له مسلمة أمانه، وتوجه به حتى أدخله على هشام، وهشام لا يعرفه. فقال الكميت: السلام عليك يا أمير المؤمنين ورحمة الله وبركاته، -الحمد لله- قال هشام: نعم، الحمد لله يا هذا - قال الكميت: مبتدئ الحمد ومبتدعه، والذي خص بالحمد نفسه، وأمر به ملائكته، وجعله فاتحة كتابه، ومنتهى شكره، وكلام أهل جنته، أحمده حمد من علم يقيناً، وأبصر مستبيناً، وأشهد له بما شهد به لنفسه قائماً بالقسط، وحده لا شريك له، وأشهد أن محمداً عبده العربي، ورسوله

الأمي، أرسله والناس في هبوات حيرة، ومدلهمات ظلمة، عند استمرار أجه الضلال، فبلغ عن الله ما أمر به، ونصح لأمته، وجاهد في سبيله، وعبد ربه حتى أتاه اليقين، صلى الله عليه وسلم. ثم إني يا أمير المؤمنين تمّت في حيرة وحرّت في سكرة، إدلّام بي خطرهما؛ وأهاب بي داعيها، وأجابني غاويها، فاقطوطيت إلى الضلالة، وتسكعت في الظلمة والجهالة، حائداً عن الحق، قائلاً بغير صدق، فهذا مقام العائذ، ومنطق التائب، ومبصر الهدى بعد طول العمي. ثم يا أمير المؤمنين، كم من عائر أقلّتم عثرته، ومجترم عفوتهم عن جرمه. فقال له هشام، وأيقن أنه الكميّ: ويحك! من سن لك الغواية، وأهاب بك في العمية؟ قال: الذي أخرج أبي آدم من الجنة ففسى ولم يجد له عزماً؛ وأمير المؤمنين كريح رحمة أثارت سحاباً متفرقاً فلفقت بعضه إلى بعض حتى التحم فاستحكم، وهدر رعد، وتألأ برقه، فتزل الأرض فرويت واحضلت واحضرت، وأسقيت، وفروي ظمأها، وامتلأ عطشاتها، فكذلك نعدك أنت يا أمير المؤمنين، أضاء الله بك الظلمة الداجية بعد العموس فيها، وحقن بك دماء قوم أشعر خوفك قلوبهم، فهم يبكون لما يعلمون من حزمك وبصيرتك، وقد علموا أنك الحرب وابن الحرب، إذا حمّرت الحدث، وعضت المغافر بالهام، عز بأسك، واستربط جأشك، مسعار هتاف، وكاف بصير بالأعداء، مغزي الخيل بالكرءاء، مستغن برأيه عن رأي ذوي الألباب، برأي أريب، وحلم مصيب، فأطال الله لأمر المؤمنين البقاء، وتم عليه النعماء، ودفع به الأعداء. فرضي عنه هشام وأمر له بجائزة.

العتبي قال: لما أتى بابين هبيرة إلى خالد بن عبد الله القسري وهو والي العراق، أتى به مغلولاً مقيداً في مدرعة، فلما صار بين يدي خالد ألقته الرجال إلى الأرض؛ فقال: أيها الأمير، إن القوم الذين أنعموا عليك بهذه النعمة قد أنعموا بما علي من قبلك، فأنشدك الله أن تستن في بسنة يستن بما فيك من بعدك. فأمر به إلى الحبس؛ فأمر ابن هبيرة غلمانته فحفروا له تحت الأرض سرداباً حتى خرج الحفر تحت سريره، ثم خرج منه ليلاً وقد أعدت له أفراس يداولها، حتى أتى مسلمة بن عبد الملك، فاستجار به فأجاره، واستوبه مسلمة من هشام ابن عبد الملك فوهبه إياه. فلما قدم خالد بن عبد الله القسري على هشام وجد عنده ابن هبيرة، فقال له: إياك العبد أبقّت؛ قال له: حين نمت نومة الأمة. فقال الفرزدق في ذلك:

فلم يبق إلا بطنها لك مخرجا

ثوى في ثلاث مظلمات ففرجا

وما سار سار مثلها حين أدلجا

سوى حتك التقريب من آل أعوجا

لما رأيت الأرض قد سد ظهرها

دعوت الذي ناداه يونس بعد ما

فأصبحت تحت الأرض قد سرت ليلة

خرجت ولم تمنن عليك شفاعا

ودخل الناس على ابن هبيرة بعدما آمنه هشام بن عبد الملك يهنئونه ويحمدون له رأيه، فقال متمثلاً:

ومن يغو لا يعدم على الغي لائما

من يلق خيراً يحمد الناس أمره

ثم قال لهم: ما كان وقلكم لو عرض لي أو أدركت في طريقي؟ ومثل هذا قول القطامي:

ما يشتهي ولأم المخطئ الهبل

والناس من يلق خيراً قائلون له

عبد الله بن سوار قال: قال لي ربيع الحاجب: أتجب أن تسمع حديث ابن هبيرة مع مسلمة؟ قلت: نعم؛ قال: فأرسل لخصي كان لمسلمة يقوم على وضوئه، فجاءه، فقال: حدثنا حديث ابن هبيرة مع مسلمة؛ قال: كان مسلمة بن عبد الملك يقوم من الليل فيتوضأ ويتنفل حتى يصبح فيدخل على أمير المؤمنين، فيأني لأصب الماء على يديه م آخر الليل وهو يتوضأ إذ صاح صائح من وراء الرواق: أنا بالله وبالأمر؛ فقال مسلمة: صوت ابن هبيرة، أخرج إليه. فخرجت إليه ورجعت فأخبرته؛ فقال: أدخله، فدخل؛ فإذا رجل يميد نعاساً، فقال: أنا بالله وبالأمر؛ قال: أنا بالله وأنت بالله؛ ثم قال: أنا بالله وبالأمر؛ قال: أنا بالله وأنت بالله، ثم اعرض عليه أحب الطعام إليه فأتته به وافرش له في تلك الصفة - بصفة بين يدي بيوت النساء - ولا توقظه حتى يقوم متى قام. فانطلقت به فتوضأ وصلى وعرضت عليه الطعام،

فقال: شربة سويق، فشرب، وفرشت له فنام؛ وحثت إلى مسلمة فأعلمته، فغدا إلى هشام، فجلس عنده حتى إذا حان قيامه، قال: يا أمير المؤمنين، لي حاجة؛ قال: قضيت إلا أن تكون في ابن هبيرة؛ قال: رضيت يا أمير المؤمنين، ثم قام منصرفاً، حتى إذا كان أن يخرج من الإيوان رجوع، فقال: يا أمير المؤمنين، عودتني أن تستثني في حاجة من حوائجي، وإني أكره أن يتحدث الناس أنك أحدثت على الاستثناء؛ قال: لا أستثني عليك؛ قال: فهو ابن هبيرة. فغدا عنه.

بلغ هشام بن عبد الملك عن رجل كلام غليظ، فأحضره. فلما وقف بين يديه جعل يتكلم؛ فقال له هشام: وتتكلم أيضاً؟ فقال الرجل: يقول الله عز وجل: "يوم تأتي كل نفس تجادل عن نفسها" فنجادل الله تعالى جدالاً ولا نكلمك كلاماً؟ فقال هشام بن عبد الملك: ويحك! تكلم بحاجتك.

فضيلة العفو والترغيب فيه

كان للمأمون خادم، وهو صاحب وضوئه، فبينما هو يصب الماء على يديه، إذ سقط الإناء من يده، فاغتاظ المأمون عليه، فقال: يا أمير المؤمنين، إن الله يقول: "والكاظمين الغيظ". قال: قد كظمت غيظي عنك. قال: "والعافين عن الناس". قال: قد عفوت عنك. قال: "والله يحب المحسنين". قال: اذهب فأنت حر.

أمر عمر عبد العزيز بعقوبة رجل، فقال له رجاء بن حيوة: يا أمير المؤمنين، إن الله قد فعل ما تحب من الظفر، فافعل ما يحبه من العفو.

الأصمعي قال: عزم عبد الله بن علي على قتل بني أمية بالحجاز، فقال له عبد الله بن حسن بن علي بن أبي طالب رضي الله عنهم: إذا أسرعت بالقتل في أكفائك، فمن تباهي بسططانك، فاعف يعف الله عنك.

دخل ابن خريم على المهدي، وقد عتب على بعض أهل الشام، وأراد أن يغزيهم جيشاً، فقال: يا أمير المؤمنين، عليك بالعفو عن الذنب، والتجاوز عن المسيء، فلأن تطيعك العرب طاعة محبة، خير لك من أن تطيعك طاعة خوف.

أمر المهدي بضرب عنق رجل، فقام إليه ابن السماك، فقال: إن هذا الرجل لا يجب عليه ضرب العنق؛ قال: فما يجب عليه؟ قال: تعفو عنه، فإن كان من أجر كان لك دوبي، وإن كان وزر كان علي دونك. فخلى سبيله.

كلم الشعبي ابن هبيرة في قوم حبسهم، فقال: إن كنت حبستهم بباطل فالحق يطلقهم، وإن كنت حبستهم بحق فالعفو يسعهم.

العتبي قال: وقعت دماء بين حيين من قريش، فأقبل أبو سفيان، فما بقي أحد واضح رأسه غلا رفعه، فقال: ما معشر قريش، هل لكم في الحق أو فيما هو أفضل من الحق؟ قالوا: وهل شيء أفضل من الحق؟ قال: نعم، العفو، فتهدان القوم واصطلحوا.

وقال هزيم بن أبي طحمة ليزيد بن عاتكة بعد ظفره بيزيد بن المهلب: ما ظلم أحد ظلمك، ولا نصر نصرك، فهل لك في الثالثة نقلها؟ قال: وما هي؟ قال ولا عفا عفوك.

وقال المبارك بن فضالة: كنت عند أبي جعفر جالساً في السماط، إذ أمر برجل أن يقتل، فقلت: يا أمير المؤمنين، قال رسول الله صلى الله عليه وسلم: "إذا كان يوم القيامة نادى مناد بين يدي الله: ألا من كانت له عند الله يد فليتقدم، فلا يتقدم إلا من عفا عن مذب. فأمر بإطلاقه.

وقال الأحنف بن قيس: أحق الناس بالعفو أقدروهم على العقوبة.

وقال النبي صلى الله عليه وسلم: "أقرب ما يكون العبد من غضب الله إذا غضب" وتقول العرب في أمثالها: ملكت فأسجح، وارحم ترحم، وكما تدين تدان، ومن بر يوماً بر به.

بعد الهمة وشرف النفس

دخل نافع بن جبيرة بن مطعم على الوليد، وعليه كساء غليظ، وخفان جاسيان، فسلم وجلس، فلم يعرفه الوليد، فقال لخادم بين يديه: سل هذا الشيخ من هو. فسأله، فقال له: اعزب؛ فعاد إلى الوليد فأخبره؛ فقال: عد إليه واسأله؛ فعاد إليه، فقال له مثل ذلك. فضحك الوليد، وقال له: من أنت؟ قال:

نافع بن جبير بن مطعم.

وقال زياد بن ظبيان لابنه عبيد الله؛ ألا أوصي بك الأمير زياداً؟ قال: يا أبت إذا لم يكن للحي إلا وصية فالحي هو الميت.
وقال معاوية لعمر بن سعيد: إلى من أوصى بك أبوك؟ قال: إن أبي أوصى إلي ولم يوص بي؛ قال وبما أوصى إليك؟ قال: أن لا يفقد إخوانه منه إلا وجهه.

وقال مالك بن مسمع لعبيد الله بن زياد بن ظبيان: ما في كنانتي سهم أنا به أوثق مني بك، قال: وإني لفي كنانتك! أما والله لئن كنت فيها قائماً لأطولنها، ولئن كنت فيها قاعداً لأحرقنها. قال: كثر الله مثلك في العشرة؛ قال: لقد سألت الله شططا.

وقال يزيد بن المهلب: ما رأيت أشرف نفساً من الفرزدق، هجاني ملكاً ومدحني سوقة.

وقدم عبيد الله بن زياد بن ظبيان على عتاب بن ورقاء الرياحي -وهو والي خراسان- فأعطاه عشرين ألفاً، فقال له: والله ما أحسنت فأحمدك، ولا أسأت فألومك، وإنك لأقرب البعداء، وأحب البغضاء.

وعبيد الله بن زياد بن ظبيان هذا هو القائل: والله ما ندمت على شيء قط ندمي على عبد الملك بن مروان، إذ أتيته برأس مصعب بن الزبير فخر الله ساجداً، أن لا أكون قد ضربت عنقه، فأكون قد قتلت ملكين من ملوك العرب في يوم واحد.

ومن أشرف الناس همة عقيل بن علفه المري. وكان أعرابياً يسكن البادية، وكان يصهر إليه الخلفاء، وخطب إليه عبد الملك بن مروان ابنته لأحد أولاده، فقال له: جنبني هجاء ولدك.

وقال عمر بن عبد العزيز لرجل من بني أمية كان له أخوال في بني مرة: قبح الله شبيهاً غلب عليك من بني مرة. فبلغ ذلك عقيل بن علفه، فأقبل إليه فقال له قبل أن يبتدئه بالسلام: بلغني يا أمير المؤمنين أنك غضبت على رجل من بني عمك له أخوال في بني مرة، فقلت: قبح الله شبيهاً غلب عليك من بني مرة، وأنا أقول قبح الله الأم الطرفين، ثم انصرف. فقال عمر بن عبد العزيز: من رأى أعجب من هذا الشيخ الذي أقبل من البادية ليست له حاجة إلا شتمنا ثم انصرف؟ فقال له رجل من بني مرة: والله يا أمير المؤمنين ما شتمك وما شتم إلا نفسه وقومه، نحن والله الأم الطرفين.

أبو حاتم السجستاني عن محمد بن عبد الله العتيبي قال: سمعت أبي يحدث عن أبي عمرو المري، قال: كان بنو عقيل بن علفه بن مرة بن غطفان يتناقلون وينتجعون الغيث، فسمع عقيل بن علفه بنتاً له ضحكت فشبهت في آخر ضحكها، فاخترط السيف وحمل عليها وهو يقول:

بضحكة آخرها شهيق

فرقت إني رجل فروق

وقال عقيل:

ألف وعبدان وذود عشر

إني وإن سيق إلي المهر

أحب أصهاري إلي القبر

وقال الأصمعي: كان عقيل بن علفه المري رجلاً غيوراً، وكان يصهر إليه الخلفاء، وإذا خرج بمتار خرج بابنته الجرباء معه. قال: فتزولوا ديراً من ديرة الشام يقال لها دير سعد، فلما ارتحلوا قال عقيل:

على عرض ناطحنه بالجماجم

قضت وطراً من دير سعد وطالماً

ثم قال لابنه: يا عملس أجز، فقال:

نشاوى من الإدلاج ميل العمائم

فأصبحن بالمومة يحملن فتية

ثم قال لابنته: يا جرباء، أحيزي، فقالت:

عقاراً تمشى في المطا والقوائم

كأن الكرى سقاها صرخدية

قال: وما يدريك أنت ما نعت الخمر! فأخذ السيف وهوى نحوها، فاستعانت بأخيها عملس، فحال بينه وبينها.
قال: فأراد أن يضربه. قال: فرماه بسهم فاحتل فخذه فبرك، ومضوا وتركوه، حتى إذا بلغوا أدنى ماء للأعراب، قالوا لهم: إنا أسقطنا جزروا فأدركوها
وخذوا معكم الماء، فإذا عقيل بارك وهو يقول:

شنشنة أعرافها من أخزم

إن بني زملوني بالدم

من يلق أبطال الرجال يكلم

والشنشنة: الطبيعة، وأخزم: فحل معروف، وهذا مثل للعرب ومن أعز الناس نفساً وأشرفهم همماً الأنصار، وهم الأوس والخزرج ابنا قبيلة، لم يؤدوا
إتاوة قط في الجاهلية إلى أحد من الملوك، وكتب إليهم تبع يدعوهم إلى طاعته، ويتوعددهم إن لم يفعلوا أن يغزوهم. فكتبوا إليه:

ومكانه بالمنزل المتذلل

العبد تبع كم يروم قتالنا

عض الرسول يبظر أم المرسل

إنا أناس لا ينام بأرضنا

فغزاهم تبع أبو كرب، فكانوا يقاتلونهم نهاراً ويخرجون إليه القرى ليلاً، فتدمم من قتالهم ورحل عنهم.
ودخل الفرزدق على سليمان بن عبد الملك، فقال له: من أنت؟ وتجهم له كأنه لا يعرفه: فقال له الفرزدق: وما تعرفني يا أمير المؤمنين؟ قال: لا؛ قال:
أنا من قوم منهم أوفى العرب، أسود العرب، وأجود العرب، وأحلم العرب، وأفرس العرب، وأشعر العرب: قال: والله لتبينن ما قلت أو لأوجعن
ظهرك؛ ولأهدمن دارك، قال: نعم يا أمير المؤمنين، أما أوفى العرب، فحاجب بن زرارة، الذي رهن قوسه عن جميع العرب فوقى بها؛ وأما أسود
العرب، فقيس بن عاصم، الذي وفد على رسول الله صلى الله عليه وسلم فبسط له رداءه، وقال: هذا سيد الوبى؛ وأما أحلم العرب، فعتاب بن ورقاء
الرياحي؛ وأما أفرس العرب، فالخريش بن هلال السعدي؛ أما أشعر العرب فأنذا بين يديك يا أمير المؤمنين، فاعتم سليمان مما سمع من فخره ولم ينكره،
وقال: ارجع على عقبيك، فما لك عندنا شيء من خير. فرجع الفرزدق وقال:

إليك ولا من قلة في مجاشع

أتيناك لا من حاجة عرضت لنا

وقال الفرزدق في الفخر:

عتاقاً حواشيها رفاقاً نعالها

بنو دارم قومي ترى حجاتهم

سيوف جلا الأطباع عنها صقالها

يجرون هدايب اليماني كأنهم

وقال الأحوص في الفخر، وهو أفخر بيت قائلته العرب:

ألا تشرفني وترفع شاني

ما من مصيبة نكبة أرمى بها

كالشمس لا تخفى بكل مكان

وإذا سألت عن الكرام وجدنتي

وقال أبو عبيدة: اجتمعت وفود العرب عند النعمان بن المنذر، فأخرج إليهم بردي محرق، وقال: ليقيم أعز العرب قبيلة فليلبسهما فقام عامر بن أحيمر
السعدي فاتزر بأحدهما وارتنى بالآخر؛ فقال له النعمان: بم أنت أعز العرب؟ قال: العز والعدد من العرب في معد، ثم في نزار، ثم في تميم، ثم في سعد،
ثم في كعب، ثم في عوف، ثم في بحدلة، فمن أنكر هذا من العرب فلينافرن؛ فسكت الناس. ثم قال النعمان: هذه حالك في قومك، فكيف أنت في
نفسك وأهل بيتك؟ قال: أنا أبو عشرة، وخال عشرة، وعم عشرة؛ وأما أنا في نفسي فهذا شاهدي ثم وضع قدمه في الأرض، ثم قال: من أزالها من
مكأها فله مائة من الإبل. فلم يقيم إليه أحد، فذهب بالبردين.

ففيه يقول الفرزدق:

فما ثم في سعد ولا آل مالك

غلام إذا ما سيل لم يتبهدل

لهم وهب النعمان بردي محرق

بمجد معد والعديد المحصل

وفي أهل هذا البيت من سعد بن زيد مناة كانت الإفاضة في الجاهلية. ومنهم بنو صفوان الذين يقول فيهم أوس بن مغراء السعدي:

ولا يريمون في التعريف موقفهم

حتى يقال أجزوا آل صفوانا

ما تطلع الشمس إلا عند أولنا

ولا تغيب إلا عند آخرانا

وقال الفرزدق في مثل هذا المعنى:

ترى الناس ما سرنا يسرون خلفنا

وإن نحن أوأمانا إلى الناس وقفوا

وكانت هنيذة بنت صعصعة عمه الفرزدق تقول: من جاءت من نساء العرب بأربعة كأربعتي يحل لها أن تضع خمارها عندهم فصرمت لها: أي صعصعة، وأخي غالب، وخالي الأقرع بن حابس، وزوجي الزبرقان بن بدر، فسميت ذات الخمار.

ومن شرفت نفسه، وبعدت همته: طاهر بن الحسين الخراساني، وذلك أنه لما قتل محمد بن زبيدة، وحاف المأمون أن يغدر به، امتنع عليه بخراسان ولم يظهره خلعه.

وقال دعبيل بن علي الخزاعي يفتخر بقتل طاهر بن الحسين محمداً، لأنه كان مولى خزاعة، ويقال إنه خزاعي:

أيسومني المأمون خطة عاجز

أوما رأى بالأمس رأس محمد

توفي على روس الخلائق مثل ما

توفي الجبال على رؤوس القرد

إني من القوم الذين هم هم

قتلوا أخاك وشرفوك بمقعد

رفعوا محلك بعد طول خموله

واستنقذك من الحضيض الأوهده

وقال طاهر بن الحسين:

غضبت على الدنيا فأنهب ما حوت

وأعنتها مني بإحدى المتالف

قتلت أمير المؤمنين وإنما

بقيت عناء بعده للخلائف

وأصبحت في دار مقيما كما ترى

كأنني فيها من ملوك الطوائف

وقد بقيت في أم رأس فتكة

فإما لرشد أو لرأي مخالف

فأجابه محمد بن يزيد بن مسلمة:

عتبت على الدنيا فلا كنت راضيا

فلا أعتبت إلا بإحدى المتالف

فمن أنت أو ما أنت يا فقح قرقر

إذا أنت منا لم تعلق بكائف

فنحن بأيدينا هرقنا دماءنا

كثول تهادى الموت عند التراحف

ستعلم ما تجني عليك وما جنت

يداك فلا تفخر بقتل الخلائف

وقد بقيت في أم رأسك فتكة

سنخرجها منه بأسمر راعف

وقال عبد الله بن طاهر:

ومديم العتب مملول
وغريم البيض ممطول
بهواه فهو مدخول
ففراغي عنك مشغول
قد يرد الخير مسؤل
سلفي الغر بالبهايل
مشرفيات مصاقيل
وغرار الحد مفلول
هاشم والأمر مجبول
بعده الحق مقبول
من يسامي مجده قولوا
رأيه القوم المحاصيل
دونه عز وتبجيل

أسكت الأنبياء مجهول
حوله الجرد الأبايل
نوطها أبيض مصقول
وحواليه المقاويل
غال منه ملكه غول
لا معازيل ولا ميل
ونداه الدهر مبذول
وهو مرهوب ومأمول
ودم يجنيه مطلول

فأجابه محمد بن يزيد بن مسلمة، وكان من أصحابه وآثرهم عنده، ثم اعتذر إليه وزعم أنه لم يدعه إلى إجابته إلا قوله:

كل ما بلغت تضليل

مدمن الإغضاء موصول
ومدين البيض في تعب
وأخو الوجهين حيث رمى
أقصري عما لهجت به
سائلي، عنن تسائلي
أنا من تعرف نسبته
سل بهم تنبيك نجدتهم
كل غضب مشرب علقا
مصعب جدي نقيب بني
وحسين رأس دعوتهم
وأبي من لا كفاء له
صاحب الرأي الذي حصلت
حل منهم بالذرى شرفاً

نفسح الأنبياء عنه إذا
سل به الجبار يوم غدا
إذ علت من فوقه يده
أبطن المخلوع كلكه
فتوى والترب مصرعه
وهبوا لله أنفسهم
ملك تجتاح صولته
نزعت منه تمانمه
وتره يسعى إليه به

من يسامي مجده قولوا

فأمر له بمائة ألف وزاده أثرة ومترلة:

لا يرعك القال والقيل

ما هوى لي كنت أعرفه
أيخون العهد ذو ثقة
حملتني كل لائمة
واحكمي ما شئت واحتكمي
أين لي عنك إلى بدل
ما لداري منك مقفرة
وبدت يوم الوداع لنا
تتعاطى شد مئزرها
شملنا إذ ذاك مجتمع
ثم ولت كي تودعنا
أيها البادي بطيته
قد تأولت على جهة
إن دليلاك يوم غدا
قاتل المخلوع مقتول
قد يخون الرمح عامله
وينال الوتر طالبه
بأخي المخلوع طلت يداً
وبنعماه التي كفرت
ويراع غير ذي شفق
يا بن بيت النار موقدها
من حسين وأبوه ومن
إن خير القول أصدقه

بهوى غيرك موصول
لا يخون العهد متبول
كل ما حملت محمول
فحرامي لك تحليل
لا بديل منك مقبول
وضميري منك مأهول
غادة كالشمس عطبول
ونطاق الخصر محلول
وجناح البين مشكول
كحلها بالدمع مغسول
ما لأغلاطك تحصيل
ولنا ويحك تأويل
بك في الحين لضليل
ودم القاتل مطلول
وسنان الرمح مصقول
بعد ما تسلو المثاكيل
لم يكن في باعها طول
جالت الخيل الأبايل
فعلت تلك الأفاعيل
ما لحاذيه سراويل
مصعب غالتهم غول
حين تصطك الأقاويل

مراسلات الملوك

العتبي عن أبيه قال: أهدى ملك اليمن عشر جزائر إلى مكة، وأمر أن ينحرها أعز قريشي. فقدمت وأبو سفيان عروس بمند بنت عتبة، فقال له: أيها الرجل، لا يشغلنك النساء عن هذه المكرمة التي لعلها أن تفوتك؛ فقال لها: يا هذه، دعي زوجك وما يختاره لنفسه، والله ما نحرها غيري إلا نحرته. فكانت في عقلها حتى خرج أبو سفيان في اليوم السابع فنحرها.

زهير عن أبي الجويرية الجرهمي قال: كتب قيصر إلى معاوية: أخبرني عما لا قبلة له، وعمن لا أب له، وعمن لا عشيرة له، وعمن سار به قبره، وعن ثلاثة أشياء لم تخلق في رحم، وعن شيء ونصف شيء ولا شيء، وبعث إلي في هذه القارورة بيزر كل شيء، فبعث معاوية بالكتاب والقارورة إلى ابن عباس. فقال ابن عباس: أما مالا قبلة قبله له فالكعبة؛ وأما من لا أب له فعيسى، وأما من لا عشيرة له فآدم، وأما من سار به قبره فيونس؛ وأما ثلاثة أشياء لم تخلق في رحم: فكبش إبراهيم، وناقاة ثمود، وحية موسى؛ وأما شيء، فالرجل له عقل يعمل بعقله؛ وأما نصف شيء، فالرجل ليس له عقل ويعمل برأي ذوي العقول؛ وأما لا شيء، فالذي ليس له عقل يعمل به ولا يستعين بعقل غيره؛ وملاً القارورة ماء، وقال: هذا بزر كل شيء: فبعث به إلى معاوية، فبعث به معاوية إلى قيصر. فلما وصل إليه الكتاب والقارورة، قال: ما خرج هذا إلا من أهل بيت النبوة.

نعيم بن حماد قال:

بعث ملك الهند إلى عمر بن عبد العزيز كتاباً فيه: من ملك الأملاك الذي هو ابن ألف ملك، والذي تحته ابنه ألف ملك، والذي مربطه ألف فيل، والذي له نهران ينبتان العود والألوة والجوز والكافور، والذي يوجد ريحه على مسيرة اثني عشر ميلاً، إلى ملك العرب الذي لا يشرك بالله شيئاً، أما بعد، فإني قد بعثت إليك هدية وما مهدية، ولكنها تحية، وأحببت أن تبعث إلي رجلاً يعلمني ويفهمني الإسلام، والسلام، يعني الهدية الكتاب.

الرياشي قال: لما هدم الوليد كنيسة دمشق كتب إليه ملك الروم: إنك هدمت الكنيسة التي رأى أبوك تركها، فإن كان صواباً فقد أخطأ أبوك، وإن كان خطأ فما عذرک؟ فكتب إليه: "وداود وسليمان إذ يحكمان في الحرث إذ نفشت فيه غنم القوم وكنا لحكمهم شاهدين، ففهمناها سليمان، وكلاً آتينا حكماً وعلماً".

وكتب ملك الروم إلى عبد الملك بن مروان: أكلت لحم الجمل الذي هرب عليه أبوك من المدينة لأغزيناك جنوداً مائة ألف ومائة ألف. فكتب عبد الملك إلى الحجاج أن يبعث إلى عبد الله بن الحسن ويتوعده ويكتب إليه بما يقول، ففعل، فقال عبد الله بن الحسن: إن الله عز وجل لوحاً محفوظاً، يلحظه كل يوم ثلاثمائة لحظة، ليس منها لحظة إلا يجي فيها ويميت ويعز ويذل ويفعل ما يشاء، وإني لأرجو أن يكفينيك منها بلحظة واحدة. فكتب به الحجاج إلى عبد الملك بن مروان، وكتب به عبد الملك إلى ملك الروم، فلما قرأه قال: ما خرج هذا إلا من كلام النبوة.

بعث ملك الهند إلى هارون الرشيد بسيف قلعية، وكلاب سيورية، وثياب من ثياب الهند؛ فلما أتته الرسل بالهدية أمر الأتراك فصفوا صفين، ولبسوا الحديد حتى لا يرى منهم إلا الحدق، وأذن للرسل فدخلوا عليه، فقال لهم: ما جئتم به؟ قالوا: هذه أشرف كسوة بلدنا، فأمر هارون القطاع بأن يقطع منها جلالاً وبراقع كثيرة لخيله، فصلب الرسل على وجوههم، وتذموا من ذلك ونكسوا رؤوسهم؛ ثم قال لهم الحاجب: ما عندكم غير هذا؟ قالوا له: هذه سيوف قلعية لا نظير لها. فدعا هارون بالصمصامة سيف عمرو بن معد يكرب، فقطعت به السيوف بين يديه سيفاً سيفاً، كما يقط الفجل، من غير أن تنثني له شفرة، ثم عرض عليهم حد السيف فإذا لا فل فيه، فصلب القوم على وجوههم؛ ثم قيل لهم: ما عندكم غير هذا؟ قالوا: هذه كلاب سيورية لا يلقاها سبع إلا عقرته؛ فقال لهم هارون: فإن عند سبعا فإن عقرته فهي كما ذكرتم؛ ثم أمر بالأسد فأخرج إليهم: فلما نظروا إليه هالهم، وقالوا: فترسلها عليه، وكانت الأكلب ثلاثة، فأرسلت عليه فمزقته، فأعجب بها هارون، وقال لهم: تمنوا في هذه الكلاب ما شئتم من طرائف بلدنا؛ قالوا: ما نتمنى إلا السيف الذي قطعت به سيوفنا؛ قال لهم: ما كنا لنبخل عليكم، ولكنه لا يجوز في ديننا أن نماديكم بالسلاح، ولكن تمنوا غير ذلك ما شئتم؛ قالوا: ما نتمنى إلا السيف؛ قال: لا سبيل إليه، ثم أمر لهم بتحف كثيرة وأحسن جائزتهم.

أبو جعفر البغدادي قال:

لما انقبض طاهر بن الحسين بخراسان عن المأمون وأخذ حذره، أدب له المأمون وصيفاً بأحسن الآداب وعلمه فنون العلم، ثم أهدها إليه مع ألطاف كثيرة من طرائف العراق، وقد واطأه على أن يسمه، وأعطاه سم ساعة، ووعدته على ذلك بأموال كثيرة. فلما انتهى إلى خراسان وأوصل إلى طاهر الهدية، قبل الهدية، وأمر بإنزال الوصيف في دار، وأجرى عليه ما يحتاج إليه من التوسعة في التزلة وتركه أشهراً. فلما برم الوصيف بمكانه كتب إليه: يا سيدي، إن كنت تقبلني فاقبلني وإلا فردني إلى أمير المؤمنين؛ فأرسل إليه وأوصله إلى نفسه. فلما انتهى إلى باب المجلس الذي كان فيه، أمره بالوقوف عند باب المجلس، وقد جلس على لبد أبيض وقرع رأسه، وبين يديه مصحف منشور وسيف مسلول، فقال: قد قبلنا ما بعث به أمير المؤمنين غيرك فإننا لا نقبلك، وقد صرفناك إلى أمير المؤمنين، ولي عندي جواب أكتبه، إلا ما ترى من حالي، فأبلغ أمير المؤمنين السلام، وأعلمه بالحال التي رأيتني فيها.

فلما قدم الوصيف على المأمون، وكلمه بما كان من أميره، ووصف له الحال التي رآه فيها؛ شاور وزراءه في ذلك وسألهم عن معناه، فلم يعلمه واحد منهم؛ فقال المأمون: لكني قد فهمت معناه: أما تقرّيعه رأسه وجلوس على اللبد الأبيض، فهو يخرنا أنه عبد ذليل؛ وأما المصحف المنشور؛ فإنه يذكرنا بالعهود التي له علينا؛ وأما السيف المسلول، فإنه يقول: إن نكثت تلك العهود فهذا يحكم بيني وبينك، أغلقوا عنا باب ذكره، ولا تهيجوه في شيء مما هو فيه. فلم يهجه المأمون حتى مات طاهر بن الحسين، وقام عبد الله بن طاهر بن الحسين مكانه، فكان أخف الناس على المأمون.

وكتب طاهر بن الحسين إلى المأمون في إطلاق بن السندي من حبسه، وكان عامله على مصر فعزله عنها وحبسه، فأطلقه له وكتب إليه:

فما ترضاه أَرْضاه

فإني أنا أهواه

لك الله لك الله

أخي أنت ومولاي

وما تهوى من الأمر

لك الله على ذاك

٨/ كتاب الياقوتة في العلم والأدب قال أبو عمر أحمد بن محمد بن عبد ربّه: قد مضى قولنا في مخاطبة الملوك ومقاماتهم، وما تفنّنوا فيه من بديع حكمهم، والتزلف إليهم بحسن التوصل ولطيف المعاني، وبارع منطقتهم، واختلاف مذاهبهم، ونحن قائلون بحمد الله وتوفيقه في العلم والأدب، فإنهما القُطبان اللذان عليهما مدار الدين والدنيا، وفرق ما بين الإنسان وسائر الحيوان، وما بين الطبيعة المَلَكِيَّة، والطبيعة البهيمية. وهما مادّة العقل وسراج البدن ونور القلب وعماد الروح، وقد جعل الله بلطف قدرته، وعظيم سلطانه، بعض الأشياء عمداً لبعض ومثولداً من بعض، فإحالة الوهم فيما تُدرّكه الحواسّ تبعث خواطر الذكّر، وخواطر الذكّر تنبه رؤية الفِكْر، وروية الفِكْر تثير مكامن الإرادة، والإرادة تُحكّم أسباب العمل، فكلُّ شيء يقوم في العقل ويُمثل في الوهم يكون ذكراً، ثم فِكراً، ثم إرادة، ثم عملاً. والعقل متقبل للعلم لا يعمل في غير ذلك شيئاً. والعلم علمان: علم حُمِل، وعلم استعمل فما حُمِل منه ضررٌ، وما استعمل نفع. والدليل على أن العقل إنما يعمل في تقبل العلوم كالبصر في تقبل الألوان، والسمع في تقبل الأصوات، أن العاقل إذا لم يُعلم شيئاً كان كمن لا عقل له، والطفل الصغير لو لم تعرّفه أدبا وثلقته كتابا كان كأبله البهائم وأضلّ الدواب، فإن زعم زاعم فقال: إنا نجد عاقلاً قليل العلم؛ فهو يستعمل عقله في قلة علمه، فيكون أشدّ رأياً، وأنبه فطنةً، وأحسن مواردٍ ومصادرٍ من الكثير العلم مع قلة العقل، فإن حُجّتنا عليه ما قد ذكرناه من حَمَل العلم واستعماله، فقليل العلم يستعمله العقل خيراً من كثيره يحفظه القلب. قيل للمهلّب: بم أدركت ما أدركت؟ قال: بالعلم، قيل له: فإن غيرك قد علم أكثر مما علمت، ولم يدرك ما أدركت، قال: ذلك علم حُمِل، وهذا علم استعمل.

وقد قالت الحكماء: العلم قائد، والعقل سائق، والنفس ذود، فإذا كان قائد بلا سائق هلكت "الماشية"، وإن كان سائق بلا قائد أخذت يميناً وشمالاً، وإذا اجتمعا أنابت طوعاً أو كرهاً.

فنون العلم

قال سهل بن هارون يوماً وهو عند المأمون: من أصناف العلم ما لا ينبغي للمسلمين أن يرغبوا فيه، وقد يرغب عن بعض العلم كما يرغب عن بعض الحلال؟ فقال المأمون: قد يُسمّى بعض الناس شيئاً علماً وليس بعلم، فإن كان هذا أردت فوجهه الذي ذكرت؛ ولو قلت أيضاً: إن العلم لا يُدرّك غوره، ولا يُسبر قعره، ولا تُبلغ غايته، ولا تُستقى أصوله، ولا تُنضبط أجزاؤه، صدقت، فإن كان الأمر كذلك فابدأ بالأهم فالأهم، والأوكد فالأوكد، وبالفرص قبل النفل، يكن ذلك عدلاً قصداً ومذهباً جميلاً. وقد قال بعض الحكماء: لست أطلب العلم طمعاً في غايته والوقوف على نهايته، ولكن التماس ما لا يسع جهله؛ فهذا وجهٌ لما ذكرت. وقال آخرون: علم الملوك والنسب والخبر، وعلم أصحاب الحروب درس كتب الأيام والسير، وعلم التجار الكتاب والحساب، فأما أن يُسمّى الشيء علماً وينهى عنه من غير أن يُسأل عما هو أنفع منه فلا. وقال محمد بن إدريس رضي الله عنه: العلم علمان: علم الأبدان، وعلم الأديان.

وقال عبد الله بن مُسلم بن قُتيبة: من أراد أن يكون عالماً فليطلب فنّاً واحداً، ومن أراد أن يكون أديباً فليتسع في العلوم.
وقال أبو يوسف القاضي: ثلاثة لا يسلمون من ثلاثة: مَنْ طلب الدِّين بالفلسفة لم يسلم من الزُّنْدَقَةِ، ومَنْ طلب "المال" بالكيمياء لم يسلم من الفقر،
ومن طلب غرائب الحديث لم يسلم من الكذب.

وقال ابن سيرين رحمه الله تعالى: العلم أكثر من أن يُحاط به، فخذوا من كل شيء أحسنه.

وقال ابن عباس رضي الله عنهما: كفاك من علم الدِّين أن تعرف ما لا يسع جهله، وكفاك من علم الأدب أن تُروِي الشاهد والمثل، قال الشاعر:

كِتَابَتُهُ وَإِنْ فَنَيْتَ يَدَاهُ

يَسْرُوكَ فِي الْقِيَامَةِ أَنْ تَرَاهُ

وَمَا مِنْ كَاتِبٍ إِلَّا سَتَبَقَى

فَلَا تَكْتُبْ بِكَفِّكَ غَيْرَ شَيْءٍ

قال الأصمعي: وَصَلْتُ بِالْمَلْحِ، وَنَلْتُ بِالْغَرِيبِ.

وقالوا: مَنْ أَكْثَرَ مِنَ النَّحْوِ حَمَقَهُ، وَمَنْ أَكْثَرَ مِنَ الشَّعْرِ بَدَّلَهُ، وَمَنْ أَكْثَرَ مِنَ الْفِقْهِ شَرَفَهُ.

وقال أبو نُوَاسِ الحَسَنُ بنِ هَانِيٍّ:

لَوْ قَدْ نَبَذْتَ بِهِ إِلَيْكَ لَسْرَكَ

كَالدَّرِّ مُنْتَضِماً بِنَحْرِ فَلَكَ

كَيْمَا أَحَدَّثَ مِنْ لَقَيْتُ فَيَضْحَكَ

كَمْ مِنْ حَدِيثٍ مُعْجِبٍ عِنْدِي لَكَ

مِمَّا تَخَيَّرَهُ الرِّوَاةُ مُهَذَّبٍ

أَتَتَّبِعُ الْعُلَمَاءَ أَكْتُبُ عَنْهُمْ

الحض على طلب العلم

قال النبي صلى الله عليه وسلم: لا يزال الرجل عالماً ما طلب العلم، فإذا ظنَّ أنه قد علم فقد جهل.

وقال عليه الصلاة والسلام: الناس عالمٌ ومُتعلِّمٌ وسائرهم همَج.

وعنه صلى الله عليه وسلم: إن الملائكة لتضع أجنحتها لطالب العلم رِضاً بما يطلب، ولِمَدَادِ جَرَتْ بِهِ أَقْلَامُ الْعُلَمَاءِ خَيْرٌ مِنْ دِمَاءِ الشَّهَدَاءِ فِي سَبِيلِ اللَّهِ.

وقال داود لابنه سليمان عليهما السلام: لَفَّ الْعِلْمُ حَوْلَ عُنُقِكَ، وَاكْتُبْهُ فِي أَلْوَا حِ قَلْبِكَ.

وقال أيضاً: اجعل العلم مالك، والأدب حليتك.

وقال عليّ بن أبي طالب رضي الله عنه: قيمة كلِّ إنسان ما يُحَسِّنُ.

وقيل لأبي عمرو بن العلاء: هل يحسن بالشيخ أن يتعلم؟ قال: إن كان يحسن به أن يعيش فإنه يحسن به أن يتعلم.

وقال عروة بن الزبير رحمه الله تعالى "لبنيه": يا بني، اطلبوا العلم فإن تكونوا صغار "قوم" لا يُحتاج إليكم، فعسى أن تكونوا كبار قوم آخرين لا

يستغني عنكم.

وقال ملك الهند لولده، وكان له أربعون ولداً: يا بني، أكثروا من النظر في الكتب، وازدادوا في كل يوم حرفاً، فإن ثلاثة لا يستوحشون في غربة:

الفقيه العالم، والبطل الشجاع، والحلوة اللسان الكثير مخرج الرأي.

وقال المهلب لبنيه: إياكم أن تجلسوا في الأسواق إلا عند زراد أو وراق، أراد الزراد للحرب، والوراق للعلم.

وقال الشاعر:

تَلْهُو بِهِ إِنْ خَانَكَ الْأَحْبَابُ

وَتُقَادُ مِنْهُ حِكْمَةٌ وَصَوَابُ

نِعَمَ الْأَنْبِيَسُ إِذَا خَلَوْتَ كِتَابُ

لَا مُفْشِيًّا سِرًّا إِذَا اسْتَوْدَعْتَهُ

وقال "آخر":

ومرَّ رجل بعبد الله بن عبد العزيز بن عبد الله بن عمر، وهو جالس في المقبرة، ويده كتاب، فقال له: ما أجلسك هاهنا؟ قال: إنه لا أوعظ "من" قبر، ولا أمتع من كتاب.

وقال رؤبة بن العجاج: قال لي النسابة البكري: يا رؤبة، لعلك من قوم إن سكَّت عنهم لم يسألوني، وإن حدَّثتهم لم يفهموني؟ قلت: إني أرجو أن لا أكون كذلك. قال: فما آفة العلم ونكده وهجنته؟ قلت: تُخبرني؛ قال: آفته النسيان، ونكده الكذب، وهجنته نشره عند غير أهله.

وقال عبد الله بن عباس رضوان الله عليهما: منهُومان لا يشبعان: طالب علم وطالب دنيا. وقال: ذللتُ طالباً فعزَّزتُ مطلوباً.

وقال رجل لأبي هريرة: أريد أن أطلب العلم وأخاف أن أضيعه قال: كفاك بترك طلب العلم إضاعةً له.

وقال عبد الله بن مسعود: إن الرجل لا يُولد عالماً، وإنما العلم بالتعلم.

وأخذه الشاعر فقال:

وليس أخو علم كمن هو جاهلٌ

تَعَلَّم فليس المرء يُولد عالماً

ولآخر:

وما عالمٌ أمراً كمن هو جاهلٌ

تَعَلَّم فليس المرء يُخلق عالماً

ولآخر:

ولم أرَ فرعاً طال إلا بأصله

ولم أرَ فرعاً طال إلا بأصله

وقال آخر.

تَحْيَا البلادُ إذا ما مَسَّهَا المَطَرُ

العِلْمُ يُحْيِي قُلُوبَ المَيِّتِينَ كَمَا

كَمَا يُجَلِّي سِوَادَ الظُّلْمَةِ القَمَرِ

والعِلْمُ يَجْلُو العَمَى عَن قَلْبِ صَاحِبِهِ

وقال بعض الحكماء: اقصد من أصناف العلم إلى ما هو أشهى لنفسك، وأخف على قلبك، فإن نفاذك فيه على حسب شهوتك له وسهولته عليك.

فضيلة العلم

حدَّثنا أيوب بن سليمان قال حدَّثنا عامر بن معاوية عن أحمد بن عمران الأحنس عن الوليد بن صالح الهاشمي عن عبد الله بن عبد الرحمن الكوفي عن

أبي مخنف عن كميل التَّخَعِي، قال: أخذ بيدي علي بن أبي طالب كرم الله وجهه، فخرج بي إلى ناحية الجبَّانة، فلما أسحر تنفس الصُّعداء، ثم قال: يا

كميل، إن هذه القلوب أوعية، فخيرها أوعاها، فاحفظ عني ما أقول لك: الناس ثلاثة: عالم رباني، ومتعلم على سبيل نجاة، وهمج رعاع، أتباع كل

ناعق، مع كل ربح يميلون، لم يستضيئوا بنور العلم، ولم يلجأوا إلى ركن وثيق. يا كميل: العلم يجرُّسك وأنت تحرس المال، والمال تنقصه التفقة،

والعلم يزكو على الإنفاق، ومنفعة المال تزول بزواله. يا كميل: محبة العلم دين يُدان به، يَكسِب الإنسان الطاعة في حياته، وجميل الأحدوثة بعد

وفاته. والعلم حاكم، والمال محكوم عليه. يا كميل: مات خزان المال وهم أحياء، والعلماء بأقون ما بقي الدهر، أعيانهم مَفْقُودَة، وأمثالهم في القلوب

مَوْجُودَة. ها إن هاهنا لعُلماً جماً- وأشار بيده إلى صدره- لو وجدت له حملة؛ بلى أجد لقناً غير مأمون، يستعمل "آلة" الدين للدنيا، ويستظهر بنعم

الله على عباده، ويحججه على أوليائه، أو مُنقاداً لحملة الحق ولا بصيرة له في أحنائه، يَنقُذ الشكَّ في قلبه لأوَّل عارض من شبهة، لا إلى هؤلاء ولا إلى

هؤلاء؛ "أو منهُوماً باللذة سلس القيادة للشهوة، أو مُغرماً بالجمع والادخار"، ليسا من رعاة الدين، "في شيء"، أقربُ شبيهاً هما الأنعام السائمة،

كذلك يموت العلم بموت حامله؛ اللهم بلى، لا تخلو الأرض من قائم بحجة الله، إما ظاهراً مشهوراً، وإما خائفاً مغموراً، لئلا تبطل حجج الله وبيئاته، وكم ذا وأين؟ أولئك "والله" الأقلون عدداً، والأعظمون "عند الله" قدراً، بهم يحفظ الله حججه "وبيئاته"، حتى يودعوها نظراءهم، ويزرعوها في قلوب أشباههم، هجم بهم العلم على حقيقة الإيمان حتى باشرؤوا رُوح اليقين، فاستلنا ما استخشن المترفون، وأنسوا بما استوحش منه الجاهلون، وصحبوا الدنيا بأبدان أرواحها معلقة بالرقيق الأعلى. يا كميل: أولئك خلفاء الله في أرضه، والدعاة إلى دينه، آه آه شوقاً إليهم، انصرف "يا كميل" إذا شئت.

قيل للخليل بن أحمد: أيهما أفضل، العلم أو المال؟ قال: العلم. قيل له: فما بال العلماء يزدهمون على أبواب الملوك، والملوك لا يزدهمون على أبواب العلماء؟ قال: ذلك لمعرفة العلماء بحق الملوك، وجهل الملوك بحق العلماء.

وقال النبي صلى الله عليه وسلم: فضل العلم خير من فضل العبادة.

وقال عليه الصلاة والسلام: إن قليل العمل مع العلم كثير، كما أن كثيره مع الجهل قليل.

وقال عليه الصلاة والسلام: يحمل هذا العلم من كل خلف عدو له، ينفون عنه تحريف الفاضل، وانتحال المبطلين، وتأويل الجاهلين.

وقال الأحنف بن قيس: كاد العلماء أنت يكونوا أرباباً، وكل عز لم يؤكد بعلم فإلى ذل ما يصير.

وقال أبو الأسود الدؤلي: الملوك حكام على الدنيا، والعلماء حكام على الملوك وقال أبو قلابة: مثل العلماء في الأرض مثل النجوم في السماء، من تركها ضل، ومن غابت عنه تحير.

وقال سفيان بن عيينة: إنما العالم مثل السراج، من جاءه اقتبس من علمه، ولا ينقصه شيئاً؛ كما لا ينقص القابس من نور السراج شيئاً.

وفي بعض الأحاديث: إن الله لا يقتل نفس التقي العالم جوعاً.

وقيل للحسن بن أبي الحسن البصري: لم صارت الحرفة مقرونة مع العلم، والثروة مقرونة مع الجهل؟ فقال: ليس كما قلتم، ولكن طلبتم قليلاً في

قليل فأعجزكم: طلبتم المال وهو قليل "في الناس" في أهل العلم! وهم قليل "في الناس"، ولو نظرتهم إلى من احترق من أهل الجهل لوجدتموهم أكثر.

وقال الله تبارك وتعالى: إنما يخشى الله من عباده العلماء "و" وما يعقلها إلا العالمون ".

وقيل: لا تمنعوا العلم أهله فتظلموهم، ولا تعطوه غير أهله فتظلموه. ولبعضهم:

مَنْ مَنَعَ الْحِكْمَةَ أَرْبَابَهَا

وَوَاضِعُ الْحِكْمَةِ فِي غَيْرِهِمْ

سَمِعْتُ يَوْمًا مِثْلًا سَائِرًا

لَا خَيْرَ فِي الْمَرْءِ إِذَا مَا غَدَا

وقيل لبعض العلماء: كيف رأيت العلم؟ قال: إذا اغتممت سلوكي، وإذا سلوت لذاتي.

وأشده لسابق البربري:

الْعِلْمُ زَيْنٌ وَتَشْرِيفٌ لِسَابِحِهِ

ولغيره:

وَالْجَهْلُ وَالنُّوْكَ مَقْرُونَانِ فِي قَرْنٍ

حَمَلٌ فَأَبْصُرْ أَيَّ شَيْءٍ تَحْمِلُ

فَاشْغَلْ فَوَإِنَّكَ بِالَّذِي هُوَ أَفْضَلُ

وَإِذَا طَلَبْتَ الْعِلْمَ فَاعْلَمْ أَنَّهُ

وَإِذَا عَلِمْتَ بِأَنَّهُ مُتَفَاوِضٌ

الأصمعي قال:

أول العلم الصمت، والثاني الاستماع، والثالث الحفظ، والرابع العمل، والخامس نشره .

ويقال: العالم والمتعلم شريكان، والباقي همج.
وأنشد:

لَا يَنْفَعُ الْعِلْمَ قَلْبًا قَاسِيًا أَبَدًا

وَلَا يَلِينُ لَفَاكُ الْمَاضِغِ الْحَجْرُ

وقال معاذ بن جبل: تعلموا العلم فإن تعلمه حسنة، وطلبه عبادة، وبدله لأهله قربة، والعلم منار سبيل أهل الجنة، والأنيس في الوحشة، والصاحب في العربة، والمحدث في الخلوة، والدليل على السراء والضراء، والزين عند الإخلاء، والسلاح على الأعداء. يرفع الله به قوماً فيجعلهم قادة أئمة تقتفى آثارهم، ويقتدى بفعالهم. والعلم حياة القلب من الجهل، ومصباح الأبصار من الظلمة، وقوة الأبدان من الضعف يبلغ بالعبد منازل الأخيار، والدرجات العلا في الدنيا والآخرة، الفكر فيه يعدل الصيام، ومذاكرته القيام، وبه توصل الأرحام، ويعرف الحلال من الحرام. ولا ين طباطبا العلوي:

"حَسُودٌ مَرِيضٌ الْقَلْبُ يُخْفِي أُنَيْنَهُ

وَيُضْحِي كُنَيْبَ الْبَالِ عِنْدِي حَزِينَهُ،

يَلُومُ عَلَى أَنْ رُحْتُ فِي الْعِلْمِ طَالِبًا

أُجَمِّعُ مِنْ عِنْدِ الرَّجَالِ فُنُونَهُ

فَأَمْلِكُ أَبْكَارَ الْكَلَامِ وَعُونَهُ

وَأَحْفَظُ مِمَّا اسْتَفِيدُ عِيُونَهُ

وَيَزْعُمُ أَنَّ الْعِلْمَ لَا يَجْلِبُ الْغِنَى

وَيُحْسِنُ بِالْجَهْلِ الذَّمِيمِ ظُنُونَهُ

فَيَا لَائِمِي دَعْنِي أَغَالِ بِقِيَمَتِي

فَقِيَمَةُ كُلِّ النَّاسِ مَا يَحْسِنُونَهُ"

ضبط العلم والتثبت فيه

قيل لمحمد بن عبد الله بن عمر رضي الله عنه: ما هذا العلم الذي بنت به عن العالم؟ قال: كنت إذا أخذت كتاباً جعلته مدرعة. وقيل لرقبة بن مصقلة: ما أكثر شكك؟ قال: محاماة عن اليقين. وسأل شعبة أيوب السختياني عن حديث، فقال: أشك فيه. فقال: شكك أحب إلي من يقيني. وقال أيوب: إن من أصحابي من أرتجي بركة دُعائه، ولا أقبل حديثه. وقالت الحكماء: علم علمك من يجهل وتعلم ممن يعلم، فإذا فعلت ذلك حفظت ما علمت، وعلمت ما جهلت. وسأل إبراهيم النخعي عامراً الشعبي عن مسألة، فقال: لا أدري؟ فقال: هذا والله العالم، سئل عما لا يدري، فقال: لا أدري. وقال مالك بن أنس: إذا ترك العالم لا أدري أصيبت مقالة. وقال عبد الله بن عمرو بن العاص: من سئل عما لا يدري فقال: لا أدري، فقد أحرز نصف العلم. وقالوا: العلم ثلاثة: حديث مسند، وآية محكمة، ولا أدري. فجعلوا لا أدري من العلم، إذ كان صواباً من القول. وقال الخليل بن أحمد: إنك لا تعرف خطأ معلمك حتى تجلس عند غيره. وكان الخليل قد غلبت عليه الإباضية حتى جالس أيوب وقالوا: عواقب المكاره محمودة. وقالوا: الخير كله فيما أكرهت النفوس عليه.

انتحال العلم

قال بعض "الحكماء": لا يَنْبَغِي لأحد أن يَنْتَحِلَ العِلْمَ، فإنَّ الله عزَّ وجلَّ يقول: "وَمَا أُوتِيتُمْ مِنَ العِلْمِ إِلَّا قَلِيلًا". وقال عز وجل: "وَفَوْقَ كُلِّ ذِي عِلْمٍ عِلِيمٌ".

وقد ذُكِرَ عن موسى بن عِمْرَانَ عليه السَّلَامُ، أنَّه لما كَلَّمَهُ اللهُ تَعَالَى تَكْلِيمًا، وَدَرَسَ التَّوَارَةَ وَحَفِظَهَا، حَدَّثَتْهُ نَفْسُهُ: أَنَّ اللهُ لَمْ يَخْلُقْ خَلْقًا أَعْلَمَ مِنْهُ. فَهَوَّنَ اللهُ عَلَيْهِ نَفْسَهُ بِالْخِضْرِ عَلَيْهِ السَّلَامُ.

وقال مُقَاتِلُ بْنُ سُلَيْمَانَ، وَقَدْ دَخَلَتْهُ أَمَةٌ العِلْمِ: سَلُوْنِي عَمَّا تَحْتَ العَرْشِ إِلَى أَسْفَلِ الثَّرَى. فقام إليه رجلٌ من القوم فقال: ما نسألك عما تحت العرش، ولا أسفل الثرى، ولكن نسألك عما كان في الأرض، وذكره الله في كتابه، أخبرني عن كلب أهل الكهف، ما كان لوته؟ فأفحمه. وقال قتادة: ما سمعت شيئاً قط إلا حفظته، ولا حفظت شيئاً قط فنسيتته، ثم قال: يا غلام، هاتِ نعلي، فقال: هما في رجلك، ففضحه الله. وأنشد أبو عمرو بن العلاء في هذا المعنى:

فَضَحَّتْهُ شَوَاهِدُ الامْتِحَانِ

مَنْ تَحَلَّى بِغَيْرِ مَا هُوَ فِيهِ

"وفي هذا المعنى:

شَانَ مَا فِي يَدَيْهِ مَا يَدَّعِيهِ

مَنْ تَحَلَّى بِغَيْرِ مَا هُوَ فِيهِ

هَ أَضَافُوا إِلَيْهِ مَا لَيْسَ فِيهِ

وَإِذَا قَلَّ الدَّعَاوَى لِمَا فِي

س وَإِنْ كَانَ دَائِبًا يُخْفِيهِ

وَمَمَّكَ الفَتَى سِيظْهَرَ لِلنَّا

أَنَّهُ عَالِمٌ بِمَا يَفْتَرِيهِ

يَحْسِبُ الذِّي ادَّعَى مَا عَدَاهُ

وقال شَيْبُ بْنُ شَيْبَةَ لَفَتَى مِنْ دَوْسٍ: لَا تُنَازِعْ مَنْ فَوْقَكَ، وَلَا تَقُلْ إِلَّا بَعْلَمَ، وَلَا تَتَعَاطَ مَا لَمْ تَبْلُ، وَلَا يَخَالَفْ لِسَانُكَ مَا فِي قَلْبِكَ، وَلَا قَوْلُكَ فِعْلُكَ، وَلَا تَدَّعِ الأَمْرَ إِذَا أَقْبَلَ، وَلَا تَطْلُبْهُ إِذَا أُدْبِرَ".

وقال قتادة: حَفِظْتُ مَا لَمْ يَحْفَظْ أَحَدٌ، وَأَنْسِيْتُ مَا لَمْ يَنْسَ أَحَدٌ، حَفِظْتُ القُرْآنَ فِي سَبْعَةِ أَشْهُرٍ، وَقَبِضْتُ عَلَى لِحْيَتِي وَأَنَا أُرِيدُ قَطْعَ مَا تَحْتَ يَدِي فَقَطَعْتُ مَا فَوْقَهَا.

وَمَرَّ الشَّعْبِيُّ بِالسُّدِّيِّ، وَهُوَ يَفْسِرُ القُرْآنَ، فَقَالَ: لَوْ كَانَ هَذَا السَّاعَةَ نَشْوَانٌ يُضْرَبُ عَلَى اسْتِهِ بِالطَّبْلِ، أَمَا كَانَ خَيْرًا لَهُ؟ وَقَالَ بَعْضُ المُنْتَحِلِينَ:

تَمَنُّونَ أَمْثَالًا لَهُمْ مُحْكَمِ العِلْمِ

يُجْهَلُنِي قَوْمِي وَفِي عَقْدٍ مَنزَرِي

مَدَى الدَّهْرِ إِلَّا كُنْتُ مِنْهُ عَلَى فَهْمِ

وَمَا عَنِّي لِي مِنْ غَامِضِ العِلْمِ غَامِضِ

وقال عَدِيُّ بْنُ الرَّقَّاعِ:

عَنْ عِلْمٍ وَاحِدَةٍ لَكِي أَزْدَادَهَا

وَعَلِمْتُ حَتَّى مَا أُسَائِلُ عَالِمًا

شُرَائِطُ العِلْمِ وَمَا يَصْلِحُ لَهُ

وقالوا: لَا يَكُونُ العَالِمُ عَالِمًا، حَتَّى تَكُونَ فِيهِ ثَلَاثُ خِصَالٍ: لَا يَحْتَقِرُ مَنْ دُونَهُ، وَلَا يَحْسُدُ مَنْ فَوْقَهُ، وَلَا يَأْخُذُ عَلَى العِلْمِ تَمَنًّا.

وقالوا: رَأْسُ العِلْمِ الخَوْفُ "مَنْ" اللهُ تَعَالَى.

وقيل للشَّعْبِيِّ: أَفْتَنِي أَيُّهَا العَالِمُ؛ فَقَالَ: إِنَّمَا العَالِمُ مَنْ اتَّقَى اللهُ.

وقال الحسن: يَكُونُ الرَّجُلُ عَالِمًا وَلَا يَكُونُ عَابِدًا، وَيَكُونُ عَابِدًا وَلَا يَكُونُ عَاقِلًا.

وكان مُسْلِمُ بْنُ يَسَارٍ عَالِمًا عَابِدًا عَاقِلًا.

وقالوا: مَا قَرِنَ شَيْءٌ إِلَى شَيْءٍ أَفْضَلَ مِنْ حِلْمٍ إِلَى عِلْمٍ، وَمَنْ عَفُوٌّ إِلَى قُدْرَةٍ.

وقالوا: من تمام آلة العالم أن يكون شديد الهيبة، رزين المجلس، وقوراً صموتاً، بطيء الالتفات، قليل الإشارات، ساكن الحركات، لا يصخب ولا يغضب، ولا يبهز في كلامه، ولا يمسح عنثونه عند كلامه في كل حين؛ فإن هذه كلها من آفات العي. وقال الشاعر:

مليء ببهر وألتفات وسعلة

ومدح خالد بن صفوان رجلاً، فقال: كان بديع المنطق، جزل الألفاظ، عربي اللسان، قليل الحركات، حسن الإشارات، حلو الشمائل. كثير الطلاوة، صموتاً وقوراً، يهنا الجرب، ويذاوي الدبر، ويُقل "الحز"، ويُطبق المفصل، لم يكن بالزمر المروءة، ولا الهذر المنطبق، متبوعاً غير تابع. كأنه علم في رأسه نارُ وقال عبد الله بن المبارك في مالك بن أنس رضي الله عنه:

يأتي الجواب فما يرجع هيبه

فالسائلون نواكس الأذقان

هدى الوقار وعز سلطان النقي

فهو المهيب وليس ذا سلطان

وقال عبد الله بن المبارك فيه أيضاً:

صموت إذا ما الصمت زين أهله

وفتاق أباكار الكلام المختم

وعى ما وعى القرآن من كل حكمة

وسيطت له الآداب باللحم والدم

ودخل رجلٌ علي عبد الملك بن مروان، وكان لا يسأله عن شيء إلا وجد عنده منه علماً، فقال له: أن لك هذا؟ فقال: لم أمتنع قط يا أمير المؤمنين علماً أفيده، ولم أحتقر علماً أستفيده، وكنت إذا لقيت الرجل أخذتُ منه وأعطيتُهُ. وقالوا: لو أن أهل العلم صانوا علمهم لسادوا أهل الدنيا، لكن وضعوه غير موضعه فقصر في حقهم أهل الدنيا.

حفظ العلم واستعماله

قال عبد الله بن مسعود: تعلموا فإذا علمتم فاعملوا.

وقال مالك بن دينار: العالم إذا لم يعمل بعلمه زلت موعظته عن القلب، كما يزل الماء عن الصفا.

وقالوا: لولا العمل لم يطلب العلم، ولولا العلم لم يطلب العمل.

وقال الطائي:

ولم يحمدوا من عالم غير عامل

ولم يحمدوا من عامل غير عالم

وقال عمر بن الخطاب رضوان الله عليه: أيها الناس، تعلموا كتاب الله تُعرفوا به، وأعملوا به تكونوا من أهله.

وقالوا: الكلمة إذا خرجت من القلب وقعت في القلب، وإذا خرجت من اللسان لم تُجاوز الأذان.

وروى زياد عن مالك قال: كُنْ عالماً أو متعلماً "أو مُستمعاً"، وإياك والرابعة فإنها مهلكة، ولا تكون عالماً حتى تكون عاملاً، ولا تكون مؤمناً حتى تكون تقياً.

وقال أبو الحسن: كان "وكيع" بن الجراح يستحفظ كل يوم ثلاثة أحاديث.

وكان الشعبي والزهرري يقولان: ما سمعنا حديثاً قطُ وسألنا إعادته.

رفع العلم وقولهم فيه

قال عبد الله بن مسعود: تَعَلَّمُوا الْعِلْمَ قَبْلَ أَنْ يُرْفَعَ.
 وقال النبي صلى الله عليه وسلم: إِنَّ اللَّهَ لَا يَقْبِضُ الْعِلْمَ انْتِزَاعًا يَنْتَزِعُهُ مِنَ النَّاسِ، وَلَكِنْ يَقْبِضُهُ بِقَبْضِ الْعُلَمَاءِ.
 وقال عبد الله بن عباس رضوان الله عليهما، لما وُورِيَ زَيْدُ بْنُ ثَابِتٍ فِي قَبْرِهِ: مَنْ سَرَّهُ أَنْ يَرَى كَيْفَ يُقْبِضُ الْعِلْمَ فَهَكَذَا يُقْبِضُ.

تحامل الجاهل على العالم

قال النبي صلى الله عليه وسلم: وَيَلْ لَعَالِمٍ أَمْرٌ مِنْ جَاهِلِهِ.
 وقالوا: إِذَا أُرِدْتَ أَنْ تُفْحِمَ عَالِمًا فَأَحْضِرْهُ جَاهِلًا.

وقالوا: لَا تُنَاطِرْ جَاهِلًا.

وقالوا: لَا تُنَاطِرْ جَاهِلًا وَلَا لَجَوْحًا، فَإِنَّهُ يَجْعَلُ الْمُنَاطِرَةَ ذَرِيعَةً إِلَى التَّعَلُّمِ بغيرِ شُكْرِ.

وقال النبي صلى الله عليه وسلم: أَرْحَمُوا عَزِيزًا ذَلًّا، أَرْحَمُوا غَنِيًّا افْتَقَرَ، أَرْحَمُوا عَالِمًا ضَاعَ بَيْنَ جُهَالٍ.

وجاء كَيْسَانَ إِلَى الْخَلِيلِ بْنِ أَحْمَدَ يَسْأَلُهُ عَنْ شَيْءٍ، فَفَكَّرَ فِيهِ الْخَلِيلُ لِيُجِيبَهُ، فَلَمَّا اسْتَفْتَحَ الْكَلَامَ؟ قَالَ لَهُ: لَا أَدْرِي مَا تَقُولُ؛ فَانْشَأَ الْخَلِيلُ يَقُولُ:

أَوْ كُنْتُ أَجْهَلُ مَا تَقُولُ عَذَلْتُكَ

وَعَلِمْتُ أَنَّكَ جَاهِلٌ فَعَذَرْتُكَ

لَوْ كُنْتُ تَعَلَّمْتُ مَا أَقُولُ عَذَرْتَنِي

لَكِنْ جَهَلْتُ مَقَالَتِي فَعَذَلْتَنِي

وقال حَبِيبٌ:

وَعَاذِلِ عَذَلْتَهُ فِي عَذَلِهِ

مَا غَبِنَ الْمَغْبُونُ مِثْلَ عَقْلِهِ

فَظَنَّ أَنِّي جَاهِلٌ مِنْ جَهْلِهِ

مَنْ لَكَ يَوْمًا بِأَخِيكَ كُلِّهِ

تبجيل العلماء وتعظيمهم

الشَّعْبِيُّ قَالَ: رَكِبَ زَيْدُ بْنُ ثَابِتٍ فَأَخَذَ عَبْدَ اللَّهِ بْنَ عَبَّاسٍ بِرُكْبَتَيْهِ، فَقَالَ: لَا تَفْعَلْ بَابِنَ عَمِّ رَسُولِ اللَّهِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ؛ فَقَالَ: هَكَذَا أَمَرْنَا أَنْ نَفْعَلَ بِعُلَمَائِنَا. قَالَ زَيْدٌ: أَرِنِي يَدَكَ، فَلَمَّا أَخْرَجَ يَدَهُ قَبَّلَهَا، وَقَالَ: هَكَذَا أَمَرْنَا أَنْ نَفْعَلَ بَابِنَ عَمِّ نَبِيِّنَا.
 وقالوا: خِدْمَةُ الْعَالِمِ عِبَادَةٌ.

وقال عليُّ بن أبي طالب رضوان الله عليه: مَنْ حَقَّ الْعَالِمُ عَلَيْكَ إِذَا أَتَيْتَهُ أَنْ تُسَلِّمَ عَلَيْهِ خَاصَّةً، وَعَلَى الْقَوْمِ عَامَّةً، وَتَجْلِسَ قُدَّامَهُ، وَلَا تَشِرَّ بِيَدِكَ، وَلَا تَعْمُرَ بِعَيْلِيكَ، وَلَا تَقُلْ: قَالَ فُلَانٌ خِلَافَ قَوْلِكَ، وَلَا تَأْخُذْ بِثَوْبِهِ، وَلَا تُلَحَّ عَلَيْهِ فِي السُّؤَالِ، فَإِنَّمَا هُوَ بِمَنْزِلَةِ النَّخْلَةِ الْمُرْتَبَةِ، الَّتِي لَا يَزَالُ يَسْقُطُ عَلَيْكَ مِنْهَا شَيْءٌ. وَقَالُوا: إِذَا جَلَسْتَ إِلَى الْعَالِمِ فَسَلْ تَفَقُّهًا وَلَا تَسَلْ تَعَنَّاتًا.

عويص المسائل

الأَوْزَاعِيُّ عَنْ عَبْدِ اللَّهِ بْنِ سَعْدٍ عَنِ الصَّنَابِحِيِّ عَنْ مُعَاوِيَةَ بْنِ أَبِي سُفْيَانَ قَالَ: نَهَى رَسُولُ اللَّهِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ عَنِ الْأَغْلُوطَاتِ. قَالَ الْأَوْزَاعِيُّ: يَعْنِي صِعَابَ الْمَسَائِلِ. وَكَانَ ابْنُ سِيرِينَ إِذَا سُئِلَ عَنْ مَسْأَلَةٍ فِيهَا أَغْلُوطَةٌ، قَالَ لِلسَّائِلِ: أَمْسِكْهَا حَتَّى نَسْأَلَ عَنْهَا أَحَاكَ إِبْلِيسَ.
 وسأل عُمرُ بن قيسَ مالكَ بن أنسَ عن مُحْرَمٍ نَزَعَ نَابِي ثَلَبِ، فَلَمْ يَرِدْ عَلَيْهِ شَيْئًا.

وسأل عُمرُ بن الخطَّابِ رضي الله عنه علي بن أبي طالب كَرَّمَ اللَّهُ وَجْهَهُ، فَقَالَ: مَا تَقُولُ فِي رَجُلٍ أَمَّهُ عِنْدَ رَجُلٍ آخَرَ؟ فَقَالَ: يُمَسِّكُ عَنْهَا، أَرَادَ عَمْرُ أَنْ الرَّجُلَ يَمُوتُ وَأَمَّهُ عِنْدَ رَجُلٍ آخَرَ، وَقَوْلُ عَلِيٍّ يُمَسِّكُ عَنْهَا. يَرِيدُ الزَّوْجَ يُمَسِّكُ عَنْ أُمَّ الْمَيِّتِ حَتَّى تَسْتَبْرَأَ مِنْ طَرِيقِ الْمِيرَاثِ.

وسأل رجلٌ عُمرُ بن قيس عن الحَصاة يَجدها الإنسان في ثوبه أو في خُفِّه أو في جَبْهته من حَصَى المَسْجِد؛ فقال: ارْمُ بها قال الرجلُ: زَعَمُوا أَنها تَصِيحُ حتى ترد إلى المسجد؛ فقال: دَعها تَصِيحُ حتى يَنْشَقَّ حلقها؟ فقال الرجلُ: سُبْحان الله! ولها حَلْقٌ؟ قال: فمن أين تَصِيحُ؟ وسأل رجلٌ مالكَ بن أنس عن قوله تعالى: "الرَّحْمَنُ عَلَى الْعَرْشِ اسْتَوَى" كيف هذا الاستواء؟ قال: الاستواء مَعْقُول والكَيْفُ مَجْهُول، ولا أَظنُّكَ إلا رجلاً سوء.

وروى مالكُ بن أنس الحديثَ عن رسول الله صلى الله عليه وسلم قال: إذا استيقظ أحدُكم من نومه فلا يُدخِل يده في الإناء حتى يَغْسِلها، فإنَّ أحدكم لا يَدْرِي أين باتت يده. فقال له رجل: فكيف نَصنع في المِهْرَاسِ أبا عبد الله؟- والمِهْرَاسُ: حَوْضُ مَكَّة الذي يَتَوَضَّأُ الناس فيه- فقال: من الله العِلْمُ، وعلى الرسول البلاغُ، ومِنَّا التَّسْلِيمُ، أمرُوا الحديث.

وقيل لابن عباس رضي الله عنهما: ما تقول في رجل طَلَّق امرأته عددَ نُجوم السماء؟ قال: يَكْفِيه منها كوكب الجوزاء.

وسئِل عليُّ بن أبي طالب رضوان الله عليه: أين كان ربُّنا قبل أن يَخْلُق السماء والأرض؟ فقال: أين: تُوجِب المَكَان، وكان الله عزَّ وجلَّ ولا مكان.

التصحيف

وذكر الأصمعيُّ رجلاً بالتَّصْحِيفِ، فقال: كان يَسْمَعُ فِعْيِي غيرَ ما يَسْمَعُ، ويَكْتُبُ غيرَ ما وَعَى، ويَقْرَأُ في الكتاب غيرَ ما هو فيه.

وذكر آخر رجلاً بالتَّصْحِيفِ، فقال: كان إذا نَسَخَ الكِتَابَ مرَّتَيْنِ عاد سُرِّيانيًّا.

طلب العلم لغير الله

وقال النبي صلى الله عليه وسلم: إذا أُعْطِيَ الناسُ العِلْمُ ومُنِعوا العَمَلُ، وتَحَابُّوا بالألسنِ، وتَبَاغَضُوا بِالقُلُوبِ، وتَقاطَعوا في الأرحامِ، لَعَنَهُمُ اللهُ فَأَصَمَهُمُ وأَعَمَّى أَبْصَارَهُمُ. وقال النبي صلى الله عليه وسلم: ألا أُخْبِرُكم بِشَرِّ الناس؟ قالوا: بلى يا رسول الله؛ العُلَماءُ إذا فَسَدُوا.

وقال الفُضَيْلُ بن عِيَّاض: كان العُلَماءُ رَبِيعَ الناسِ، إذ رآهم المَرِيضُ لم يَسْرَهُ أن يكون صَحيحاً، وإذا نَظَرَ إليهم الفَقِيرُ لم يَودَّ أن يكون غَنيًّا، "وقد صاروا اليومَ فتنَةً للناس".

وقال عيسى بن مَرِّيم عليه السلام: سيكون في آخرِ الزمانِ عُلَماءُ يُزْهَدون في الدُّنيا ولا يَزْهَدون، ويُرَغَّبون في الآخرة ولا يَرُغَّبون، يَنْهَوْنَ عن إتيانِ الوِلاَةِ ولا يَنْتَهَوْنَ، يُقَرَّبون الأَغْنِياءَ، ويُبْعَدون الفُقَرَاءَ، وَيَتَبَسَّطون للكِبَرَاءِ، وَيَنْقَبِضون عن الحُقَرَاءِ، أولئك إخوانُ الشياطينِ وأعداءُ الرحمنِ.

وقال محمد بن واسع: لأن تَطَلَّبَ الدنيا بأَقْبَحِ مِمَّا تَطَلَّبُ به الآخرةَ خَيْرٌ من أن تَطَلَّبَها بأَحْسَنِ مِمَّا تَطَلَّبُ به الآخرةَ.

وقال الحسن: العِلْمُ عِلْمان، عِلْمُ في القَلْبِ، فذاك العِلْمُ النافع، وعِلْمُ في اللسانِ، فذاك حِجَّةُ الله على عِباده.

وقال النبي صلى الله عليه وسلم: إنَّ الزبانية لا تَخْرُجُ إلى فِقِيهِه ولا إلى حَمَلَةِ القُرْآنِ إلا قالوا لهم: إلیکم عَنَّا، دُونَكم عِبَدَةَ الأوثانِ. فَيَسْتَكُونُ إلى الله، فيقول: ليس من عِلْمِ كَمَن لم يَعْلَمُ.

وقال مالك بن دينار: مَنْ طَلَبَ العِلْمَ لِنَفْسِهِ فَالْقَلِيلُ مِنْهُ يَكْفِيهِ، وَمَنْ طَلَبَهُ لِلنَّاسِ فَحَوَائِجُ الناسِ كَثِيرَةٌ.

وقال ابن شَبْرَمَةَ: ذَهَبَ العِلْمُ إلا غُيِّرات في أَوْعِيَةِ سوء.

وقال النبي صلى الله عليه وسلم: مَنْ طَلَبَ العِلْمَ لأَرْبَعِ دَخَلَ النارَ: مَنْ طَلَبَهُ لِيُبَاهِي به العُلَماءَ، ولِيُمَارِي به السُّفْهَاءَ، وَلِيَسْتَمِيلَ به وُجُوهَ الناسِ إِلَيْهِ، أو لِيأخِذَ به مِنَ السُّلْطَانِ.

وتكلَّم مالكُ بن دينار فأبْكَى أصحابه، ثم افتقد مُصْحَفَهُ، فنظَرَ إلى أصحابه وكلهم يَبْكِي، فقال: ويحك! كلِّم يَبْكِي، فمن أخذ هذا المُصْحَفَ؟ قال

أحمد بن أبي الحَوَارِي: قال لي أبو سُلَيْمان في طريق الحجِّ: يا أحمد، إنَّ الله قال لمُوسَى بنِ عِمْران: مُرْ ظَلَمَةَ بَنِي إِسْرَائِيلَ أن لا يَذْكُرُوا في أيِّ لا أذكر من ذكركم منهم إلا بَلَعْتَهُ حتى يَسْكُتَ. ويحك يا أحمد! بلِّغني أنه من حجَّ بمالٍ من غير حِلِّه ثم لَبَّى قالت الله تبارك وتعالى: لا لبيك ولا سَعْدَيْكَ حتى تُؤدِّي ما بيديك، فلا يؤمننا أن يُقال لنا ذلك.

باب من أخبار العلماء والأدباء

أملى أبو عبد الله محمد بن عبد السلام الحُشَينِيَّ. إنَّ عبدَ اللهِ بنَ عَبَّاسٍ سُئِلَ عن أبي بكرٍ رضي اللهُ عنه، فقال: كان اللهُ خيراً كلَّهُ مع الحِدَّةِ التي كانت فيه. قالوا: فأخبرنا عن عمرِ رضوانِ اللهِ عليه. قال: كان اللهُ كالطيرِ الحذرِ الذي نصب فخ له فهو يخاف أن يقع فيه. قالوا فأخبرنا عن عثمان، قال: كان اللهُ صواماً قواماً. قالوا: فأخبرنا عن علي بن أبي طالب رضوان اللهُ عليه قال: كان اللهُ ممن حَوَى علماً وحلماً؟ حَسْبُكَ من رجلٍ أعزَّته سابقته وَقَدَمَتَهُ قرابته من رسولِ اللهِ صلى اللهُ عليه وسلم؛ فقلَّما أُشْرِفَ على شيءٍ إلا نالَهُ. قالوا: يقال إنه كان مَحْدوداً؛ قال: أنتم تقولونه.

وذكروا أن رجلاً أتَى الحَسَنَ، فقال: أبا سَعِيدٍ، إهم يزعمون أنك تُبَغِضُ علياً، فبَكَى حتى اخضلت لِحْيَتَهُ، ثم قال: كان عليُّ بنُ أبي طالبٍ سهماً صائباً من مراميِ اللهِ على عدوِّه، وربَّاني هذه الأمة، وذا فضلها، وذا قرابةٍ قَرِيبَةٍ من رسولِ اللهِ صلى اللهُ عليه وسلم، لم يكن بالنَّثومة عن أمرِ اللهِ، ولا بالمُلولة في حقِّ اللهِ، ولا بالسَّرْوقة لمالِ اللهِ، أعطَى القرآن عزائمه ففاز منه برياضِ مُونِقَةٍ، وأعلامِ بَيِّنَةٍ، ذاك عليُّ بنُ أبي طالبٍ يا لُكْعَ. وسُئِلَ خالدُ بنُ صَفْوانٍ عن الحَسَنِ البَصْرِيِّ، فقال: كان أشبَهَ الناسِ علانيةً بسَرِيرَةٍ، وسريرةً بعلانيةٍ، واحذَّ الناسُ لِنَفْسِهِ بما يَأْمُرُ به غيرَه. "يا له" من رجلٍ اسْتَعْنَى عَمَّا في أيدي الناسِ من دُنْيائِهِم، واحتاجُوا إلى ما في يَدَيْهِ من دينِهِم.

وَدَخَلَ عُروَةُ بنُ الزبيرِ بُسْتاناً لعبدِ المَلِكِ بنِ مَرْوانٍ، فقال عُروَةُ: ما أحسنَ هذا البستان! فقال له عبدُ المَلِكِ: أنت والله أحسنُ منه، إنَّ هذا يُؤْتِي أَكلَهُ كلَّ عامٍ، وأنت تُؤْتِي أَكلَكَ كلَّ يومٍ.

وقال محمد بنُ شهابِ الزُّهْرِيِّ: دخلتُ على عبدِ المَلِكِ بنِ مَرْوانٍ في رجالٍ من أهلِ المدينة، فرآني أهدتُهُم سناً، فقال: من أنت؟ فانتسبتُ إليه، فعرَفني، فقال: لقد كان أبوك وعمُّك نَعاقِينَ في فِتْنَةِ ابنِ الزُّبيرِ؟ قلتُ: يا أميرَ المؤمنين، مثلك إذا عفا يُعَدُّ، وإذا صَفَحَ لم يثرب، قال لي: أين نشأت؟ قلتُ بالمدينة؟ قال: عند مَنْ طلبت؟ قلت: عند ابنِ يَسارٍ وقَبِيصَةَ ابنِ ذُويبٍ وسَعِيدَ بنِ المُسَيَّبِ؟ قال لي: وأين كنت من عُروَةَ بنِ الزبيرِ؟ فإنه بحرٌ لا تُكَدِّرُهُ الدَّلَاءُ.

وذكرُ الصحابةِ عندَ الحَسَنِ البَصْرِيِّ، فقال: رَحِمَهُمُ اللهُ، شَهِدُوا وَعَبَّأُوا، وَعَلِمُوا وَجَهِلْنَا، فما اجتمعوا عليه اتَّبَعْنَا، وما اختلفوا فيه وَفَقْنَا. وقال جعفرُ بنُ سُلَيْمانٍ: سمعتُ عبدَ الرحمنِ بنَ مهديٍّ يقول: ما رأيتُ أحداً أَقْشَفَ من شُعبَةَ، ولا أعبَدَ من سُفْيَانَ، ولا أَحفظَ من ابنِ المَبَارِكِ. وقال: ما رأيتُ مثلَ ثلاثةِ عَطَاءَ بنِ أَبِي رَبَاحٍ بمَكَّةَ، ومحمدِ بنِ سِيرِينَ بالعِراقِ، ورجاءِ بنِ حَيوةٍ بالشَّامِ. وقيل لأهلِ مَكَّةَ: كيف كان عَطَاءُ بنُ أَبِي رَبَاحٍ فيكم؟ فقالوا: كان مثلَ العافيةِ التي لا يُعرَفُ فَضْلُها حتى تُفقدَ. وكان عَطَاءُ بنُ أَبِي رَبَاحٍ أسودَ أعورَ أَفطسَ أشلَّ أعرجَ ثم عَمِي، وأمه سوادٌ تُسَمَّى بَرَكَةَ. وكان الأحنفُ بنُ قَيْسٍ: أعورَ أعرجَ، ولكنه إذا تكلم جلا عن نفسه.

وقال الشَّعْبِيُّ: لولا أَنِّي زُوِّجْتُ في الرَّحْمِ ما قامت لأحدٍ معي قائمة، وكان تَوَأمًا. وقيل لطاؤوس: هذا قتادة يُريد أن يَأْتِيكَ، قال: لئن جاء لأقومن، قيل إنه فقيه، قال: ابلِسَ أَفقُه منه؟ قال: "رَبِّ بِمَا أَعُوذُ بِتِي". وقال الشَّعْبِيُّ: الفُضاةُ أربعة: عُمَرُ وعليُّ وعبدُ اللهِ وأبو موسى.

وقال الحَسَنُ: ثلاثةٌ صَحَبُوا النبيَّ صلى اللهُ عليه وسلم، الابنُ والأبُ والجدُّ: عبدُ الرحمنِ بنُ أبي بكرٍ بنِ أبي قُحافة، ومَعَنُ بنُ يزيدِ بنِ الأحنسِ السُّلَمِيِّ. وكان عُبيدُ اللهِ بنِ عبدِ اللهِ بنِ عُبَيْةِ بنِ مَسْعُودٍ فقيهاً شاعراً، وكان أحدَ السَّبْعَةِ من فُقهائِ المدينة. وقال الزُّهْرِيُّ: كنتُ إذا لقيتُ عُبيدَ اللهِ بنَ عَبْدِ اللهِ، فكأنا أَفجُرُ به بحرًا.

وقال عمرُ بنُ عبدِ العزيزِ: وددتُ لو أن لي مجلساً من عُبيدِ اللهِ بنِ عبدِ اللهِ بنِ عُبَيْةِ بنِ مَسْعُودٍ لم يُفْتِنِي. ولَقِيَهُ سَعِيدُ بنُ المُسَيَّبِ فقال له: أنت الفقيهُ الشاعِرُ؟ قال: لا بدُّ للمصْدُورِ أن يُفْتَنَ.

وكتب عُبيدُ اللهِ بنِ عبدِ اللهِ إلى عُمَرَ بنِ عبدِ العزيزِ، وبلغه عنه شيءٌ يكرهه:

أَبَا حَفْصَ أَتَانِي عَنكَ قَوْلٌ
أَبَا حَفْصَ فَلَا أَدْرِي أَرَعَمِي
فَإِنَّ تَكْ عَاتِبًا تُعْتَبُ وَإِلَّا
وَقَدْ فَارَقْتُ أَعْظَمَ مِنْكَ رِزْءًا
وَقَدْ عَزَّوَا عَلِيَّ وَأَسْلَمُونِي

وكان خالد بن يزيد بن معاوية أبو هاشم عالماً كثير الدّراسة للكتب وربما قال الشعر، ومن قوله:

قُطِعْتُ بِهِ وَضَاقَ بِهِ جَوَابِي
تُرِيدُ بِمَا تُحَاوِلُ أُمَّ عِتَابِي
فَمَا عُوْدِي إِذَا بِيْرَاعَ غَابَ
وَوَارَيْتُ الْأَحْبَبَةَ فِي التَّرَابِ
مَعًا فَلَبَسْتُ بَعْدَهُمْ ثِيَابِي

هَلْ أَنْتَ مُنْتَفِعٌ بِعَلٍ
وَمِنْ الْمُشِيرِ عَلَيْكَ بِالِ
الْمَوْتِ حَوْضٌ لَا مَحَا
وَمِنْ التَّقَى فَازْرَعْ فَإِنْ

مَكَ مَرَّةً وَالْعِلْمُ نَافِعٌ
رَأَى الْمُسَدَّدَ أَنْتَ سَامِعٌ
لَهُ فِيهِ كُلُّ الْخَلْقِ شَارِعٌ
كَ حَاصِدٌ مَا أَنْتَ زَارِعٌ

وقال عمر بن عبد العزيز: ما ولدت أمة مثل خالد بن يزيد، ما أسستني عثمان ولا غيره.

وكان الحسن في جنازة فيها نوائح، ومعه سعيد بن جبير، فهم سعيد بالانصراف، فقال له الحسن: إن كنت كلما رأيت قبيحاً تركت له حسناً أسرع ذلك في دينك.

وعن عيسى بن إسماعيل عن ابن عائشة عن ابن المبارك قال: علمني سفيان الثوري احتصار الحديث.

وقال الأصمعي: حدثنا شعبة قال: دخلت المدينة فإذا للملك حلقة وإذا نافع قد مات قبل ذلك بسنة، وذلك سنة ثمان عشرة ومائة.

وقال أبو الحسن بن محمد: ما خلق الله أحداً كان أعرف بالحديث من يحيى بن معين، كان يُؤتى بالأحاديث قد خلطت وقُلبت، فيقول: هذا الحديث لهذا وهذا، فيكون كما قال.

وقال شريك: إني لأسمع الكلمة فيتغير لها لوني.

وقال ابن المبارك: كل من ذكر لي عنه وجدته دون ما ذكر إلا حيوة بن شريح وأبا عون.

وكان حيوة بن شريح يقعد للناس، فتقول له أمه: قم يا حيوة ألق الشعر للدجاج، فيقوم.

وقال أبو الحسن: سمع سليمان التيمي من سفيان الثوري ثلاثة آلاف حديث.

وكان يحيى بن اليمان يذهب بابنه داود كل مذهب، فقال له يوماً: كان رسول الله صلى الله عليه وسلم، ثم كان عبد الله، ثم كان علقمة، ثم كان إبراهيم، ثم كان منصور، ثم كان سفيان. ثم كان وكيع، قم يا داود: يعني أنه أهل للإمامة. ومات داود سنة أربع ومائتين.

وقال الحسن: حدثني أبي قال: أمر الحجاج أن لا يؤم بالكوفة إلا عربي.

وكان يحيى بن وثاب يوم قومه بني أسد، وهو مؤلى لهم؛ فقالوا: اعتزل، فقال: ليس عن مثلي نهى، أنا لاحق بالعرب، فأبوا، فأتى الحجاج فقراً؛ فقال: من هذا؟ فقالوا: يحيى بن وثاب؛ قال: ماله؟ قالوا: أمرت أن لا يؤم إلا عربي فنحاه قومه؛ فقال: ليس عن مثل هذا نهيت، يُصلي بهم. قال: فصلى بهم

الفجر والظهر والعصر والمغرب والعشاء، ثم قال: اطلبوا إماماً غيبي، إنما أردت أن لا تستدلوني، فأما إذ صار الأمر إلي، فأنا أؤمكم؟ لا ولا كرامة.

وقال الحسن: كان يحيى بن اليمان يُصلي بقومه، فتعصب عليه قوم منهم. فقالوا: لا تُصل بنا، لا نرضاك، إن تقدمت نحيتناك: فجاء بالسيف فسئل منه

أربع أصابع ثم وضعه في الحراب، وقال: لا يدنو مني أحد إلا ملأت السيف منه؛ فقالوا: بيننا وبينك شريك؛ فقدموه إلى شريك فقالوا: إن هذا كان

يُصلي بنا وكرهناه؛ فقال لهم شريك: من هو؟ قالوا: يحيى بن اليمان؛ فقال: يا أعداء الله، وهل بالكوفة أحد يشبه يحيى؛ لا يُصلي بكم غيره. فلما

حَضْرَتُهُ الْوَفَاءَ، قَالَ لِابْنِهِ دَاوُدَ: يَا بُنَيَّ، كَانَ دِينِي يَذْهَبُ مَعَ هَؤُلَاءِ، فَإِنْ اضْطُرَّوهُ إِلَيْكَ بَعْدِي فَلَا تُصَلِّ بِهِمْ. وَقَالَ يَحْيَى بْنُ الْيَمَانِ: تَزَوَّجْتُ أُمَّ دَاوُدَ وَمَا كَانَ عِنْدِي لَيْلَةَ الْعُرْسِ إِلَّا بِطَيْخَةٍ، أَكَلْتُ أَنَا نِصْفَهَا وَهِيَ نِصْفُهَا، وَوَلَدَتْ دَاوُدَ، فَمَا كَانَ عِنْدَنَا شَيْءٌ نَلْفُهُ فِيهِ، فَاشْتَرَيْتُ لَهُ كُسُوءَ مَجَبَّتَيْنِ، فَلَفَفْنَا فِيهَا.

وقال الحسن بن محمد: كان لعلِّي ضَفِيرَتَانِ، ولابن مَسْعُودِ ضَفِيرَتَانِ.

وذكر عبدُ الملك بن مروان رَوْحًا، فقال: مَا أُعْطِي أَحَدًا مَا أُعْطِي أَبُو زُرْعَةَ، أُعْطِي فَحَقَّهُ الْحِجَازَ، وَدَهَاءَ أَهْلِ الْعِرَاقِ، وَطَاعَةَ أَهْلِ الشَّامِ.

وَرُوِيَ أَنَّ مَالِكَ بْنَ أَنَسٍ كَانَ يَذْكُرُ عُثْمَانَ وَعَلِيًّا وَطَلْحَةَ وَالزُّبَيْرَ، فيقول: وَاللَّهِ مَا اقْتَلَوْا إِلَّا عَلَى الثَّرِيدِ الْأَعْفُرِ.

ذكر هذا محمد بن يزيد في الكامل، "ثم"، قال: فأما أبو سعيد الحسن البصري فإنه كان يُنكر الحُكُومَةَ ولا يرى رأيهم، وكان إذا جَلَسَ فتمكَّنَ في مَجَلِسِهِ ذَكَرَ عُثْمَانَ، فترحم عليه ثلاثاً، ولعن قتلته ثلاثاً "ويقول: لو لم نلعنهم للنعنا"؛ ثم يذكر علياً فيقول: لم يزل عليُّ أميرُ المؤمنين صلواتُ الله عليه مُظْفَرًا مُؤِيدًا بالنعم حتى حَكَّم، ثم يقول: ولم تُحَكِّمْ وَالْحَقُّ مَعَك؟ أَلَا تَمْضِي قُدَمًا لَا أَبَا لَكَ.

وهذه الكلمة وإن كان فيها جفاء، فإن بعض العرب يأتي بها على معنى المدح، فيقول: انظر في أمر رعيتك لا أبا لك "وأنت على الحق" 0 وقال أعرابي:

قَدْ كُنْتَ تَسْقِينَا فَمَا بَدَا لَكَ

رَبِّ الْعِبَادِ مَا لَنَا وَمَا لَكَ

أَنْزَلْ عَلَيْنَا الْغَيْثَ لَا أَبَا لَكَ

وقال ابن أبي الحَوَارِيِّ: قلت لسفيان: بلغني في قول الله عزَّ وجلَّ: "إِلَّا مَنْ أَتَى اللَّهَ بِقَلْبٍ سَلِيمٍ". أنه الذي يلقى الله وليس في قلبه أحد غيره. قال:

فبكى وقال: ما سمعتُ منذ ثلاثين سنةً أحسنَ من هذا.

وقال ابن المبارك: كنتُ مع محمد بن النَّضْرِ الحارثيِّ في سَفِينَةٍ، فقلتُ: بأيِّ شيءٍ أَسْتَخْرِجُ مِنْهُ الْكَلَامَ؟ فقلتُ: ما تقول في الصَّوْمِ فِي السَّفَرِ؟ قال: إنما هي المُبَادَرَةُ يَا بِنَ أَخِي. فجاءني واللهُ بفتياً غير فتياً إبراهيم والشعبي.

وقال الفُضَيْلُ بْنُ عِيَّاضٍ: اجتمع محمد بن واسع ومالك بن دينار في مجلس بالبصرة، فقال مالك بن دينار: ما هو إلا الله أو النار، فقال محمد بن واسع: لِمَنْ كَانَ عِنْدَهُ: كُنَّا نَقُولُ: مَا هُوَ إِلَّا عَفْوُ اللَّهِ أَوْ النَّارِ. قال مالك بن دينار: إِنَّهُ لِيُعْجِبُنِي أَنْ تَكُونَ لِلْإِنْسَانِ مَعِيشَةٌ قَدْرَ مَا يَقُوتُهُ. فقال محمد بن واسع: مَا هُوَ إِلَّا كَمَا تَقُولُ: وَليْسَ يُعْجِبُنِي أَنْ يُصْبِحَ الرَّجُلُ وَليْسَ لَهُ عَدَاءٌ، وَيُجْسِي لَهُ عَشَاءٌ، وَهُوَ مَعَ ذَلِكَ رَاضٍ عَنِ اللَّهِ عَزَّ وَجَلَّ. فقال مالك: مَا أَحْوجُنِي إِلَى أَنْ يَعِظَنِي مِثْلُكَ.

وكان يجلس إلى سفيان فتى كثير الفكرة، طويل الإطراق، فأراد سفيان أن يحرَّكه ليسمع كلامه، فقال: يا فتى، إن مَنْ كَانَ قَبْلَنَا مَرُّوا عَلَى خَيْلِ عِتَاقٍ وَبَقِينَا عَلَى حَمِيرِ دَبْرَةٍ. قال: يا أبا عبد الله، إن كُنَّا عَلَى الطَّرِيقِ فَمَا أَسْرَعَ لِحُوقِنَا بِالْقَوْمِ. الأصمعي عن شعبة قال: ما أحدثكم عن أحدٍ من تَعْرِفُونَ، وَمَنْ لَا تَعْرِفُونَ، إِلَّا وَأَيُّوبُ وَيُونُسُ وَابْنُ عَوْنٍ وَ"سُلَيْمَانُ" خَيْرٌ مِنْهُمْ.

قال الأصمعيُّ: وَحَدَّثَنِي سَلَامُ بْنُ أَبِي مُطِيعٍ؟ قال: أَيُّوبُ أَفْقَهُهُمْ: وَسُلَيْمَانُ التَّيْمِيُّ أَعْبَدُهُمْ، وَيُونُسُ أَشَدُّهُمْ "زُهْدًا"، عِنْدَ الدَّرَاهِمِ، وَابْنُ عَوْنٍ أَضْبَطُهُمْ لِنَفْسِهِ فِي الْكَلَامِ.

"الأصمعيُّ قال؛ حَدَّثَنَا نَافِعُ بْنُ أَبِي نُعَيْمٍ عَنِ رَبِيعَةَ بْنِ أَبِي عَبْدِ الرَّحْمَنِ قَالَ: أَلْفٌ عَنْ أَلْفٍ خَيْرٌ مِنْ وَاحِدٍ عَنْ وَاحِدٍ، "فَلَانٌ عَنْ فَلَانٍ" يَنْتَزِعُ السَّنَةَ مِنْ أَيْدِيكُمْ".

وكان إبراهيم النَّخَعِيُّ فِي طَرِيقِ فَلَقِيهِ الْأَعْمَشُ فَانصرف معه، فقال له: يا إبراهيم، إنَّ النَّاسَ إِذَا رَأَوْنَا قَالُوا: أَعْمَشُ وَأَعُورُ قَالَ: وَمَا عَلَيْكَ أَنْ يَأْتُمُوا وَنُوجِرَ؟ قَالَ: وَمَا عَلَيْكَ أَنْ يَسَلَّمُوا وَنَسَلَّمَ.

وَرَوَى سُفْيَانُ الثَّوْرِيُّ عَنِ وَاصِلِ الْأَحْدَبِ قَالَ: قُلْتُ لِإِبْرَاهِيمَ: إِنَّ سَعِيدَ بْنَ جُبَيْرٍ يَقُولُ: "كُلُّ امْرَأَةٍ أَتْرَوْجَهَا طَالِقٌ" لَيْسَ بِشَيْءٍ. فَقَالَ لَهُ إِبْرَاهِيمُ: قُلْ

له يَنْقَعُ أَسْتَهَ فِي الْمَاءِ الْبَارِدِ. قَالَ: فَفُتُّ لِسَعِيدٍ مَا أَمْرِي بِهِ؛ فَقَالَ: قُلْ لَهُ: إِذَا مَرَرْتَ بِوَادِي التَّوَكِّي فَاحْلُلْ بِهِ.
وقال محمد بن مُنَادِرٍ:

وَمَنْ يَبْغِ الْوَصَاةَ فَإِنَّ عِنْدِي

وَصَاةً لِلْكَهُولِ وَالشَّبَابِ

خُذُوا عَنِ مَالِكٍ وَعَنِ ابْنِ عَوْنٍ

وَلَا تَرَوُوا أَحَادِيثَ ابْنِ دَابٍ

وقال آخر:

أَيُّهَا الطَّالِبُ عِلْمًا

آيَتِ حَمَّادِ بْنِ زَيْدٍ

فَاقْتَبَسْ حِلْمًا وَعِلْمًا

ثُمَّ قَبِّدْهُ بِقَيْدِ

وقيل لأبي نُؤاسٍ: قد بعثوا في أبي عُبيدة والأصمعيَّ لِيَجْمَعُوا بَيْنَهُمَا، قَالَ: أَمَا أَبُو عُبيدة فَإِنَّ مَكْتُوبَهُ مِنْ سَفَرِهِ قَرَأَ عَلَيْهِمْ أُسَاطِيرَ الْأَوَّلِينَ، وَأَمَا الْأَصمعيُّ فُجِّلَ فِي قَفْصٍ يُطْرَبُهُمْ بِصَفِيرِهِ.

وَذَكَرُوا عِنْدَ الْمُنْصُورِ مُحَمَّدَ بْنَ إِسْحَاقَ وَعِيسَى بْنَ دَابٍ، فَقَالَ: أَمَا ابْنُ إِسْحَاقَ فَأَعْلَمُ النَّاسَ بِالسِّيَرَةِ، وَأَمَا ابْنُ دَابٍ فإِذَا أُحْرَجْتَهُ عَنْ دَاحِسٍ وَالْعَبْرَاءِ لَمْ يُحْسِنْ شَيْئًا. وَقَالَ الْمَأْمُونُ رَحِمَهُ اللَّهُ تَعَالَى: مَنْ أَرَادَ لَهْوَاً بِلَا حَرَجٍ، فَلْيَسْمَعْ كَلَامَ الْحَسَنِ الطَّالِبِيِّ. وَسُئِلَ الْعَتَّابِيُّ عَنِ الْحَسَنِ الطَّالِبِيِّ فَقَالَ: إِنَّ جَلِيسَهُ لَطِيبٌ عَشْرَتُهُ لِأَطْرَبُ مِنَ الْإِبِلِ عَلَى الْحُدَاءِ، وَمِنَ الثَّمَلِ عَلَى الْغَنَاءِ.

قولهم في حملة القرآن

وقال رجلٌ لإبراهيمَ النَّخعيِّ: إني أحتِمُ القرآنَ كلَّ ثلاثٍ، قال: لَيْتَكَ تَخْتِمُهُ كُلَّ ثَلَاثِينَ وَتَدْرِي أَيَّ شَيْءٍ تَقْرَأُ. وَقَالَ الْحَارِثُ الْأَعْوَرُ: حَدَّثَنِي عَلِيُّ بْنُ أَبِي طَالِبٍ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ قَالَ: سَمِعْتُ رَسُولَ اللَّهِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ يَقُولُ: كِتَابُ اللَّهِ فِيهِ خَيْرٌ مَا قَبْلَكُمْ وَنَبَأٌ مَا بَعْدَكُمْ وَحُكْمٌ مَا بَيْنَكُمْ، وَهُوَ الْفَصْلُ لَيْسَ بِالْهَزْلِ، هُوَ الَّذِي لَا تَزِيغُ بِهِ الْأَهْوَاءُ، وَلَا يَشْتَعِبُ مِنْهُ الْعُلَمَاءُ، وَلَا يَخْلُقُ عَلَى كَثْرَةِ الرَّدِّ، وَلَا تَنْقُضِي عَجَائِبُهُ، هُوَ الَّذِي مَنْ تَرَكَهُ مِنْ جَبَلٍ قَصَمَهُ اللَّهُ، وَمَنْ ابْتَغَى الْهُدَى فِي غَيْرِهِ أَضَلَّهُ اللَّهُ، هُوَ حَبْلُ اللَّهِ الْمَتِينِ، وَالذِّكْرُ الْعَظِيمِ، وَالصِّرَاطُ الْمُسْتَقِيمِ، خُذْهَا إِلَيْكَ يَا أَعْوَرُ.

وقيل للنبيِّ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ، عَجَّلْ عَلَيْكَ الشَّيْبُ يَا رَسُولَ اللَّهِ؟ قَالَ: شَيَّبَتْنِي هُودٌ وَأَخَوَاتُهَا.

وقال عبد الله بن مسعود: الْحَوَامِيمُ دِيَاجُ الْقُرْآنِ.

وقال: إِذَا رَتَعْتَ رَتَعْتُ فِي رِيَاضِ دَمْتَةَ أَتَأْتِقُ فِيهِنَّ.

وقالت عائشة رضي الله تعالى عنها: كَانَتْ تَنْزُلُ عَلَيْنَا الْآيَةُ فِي عَهْدِ رَسُولِ اللَّهِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ فَتَحْفَظُ حَلَالَهَا وَحَرَامَهَا، وَأَمْرَهَا وَزَجْرَهَا، قَبْلَ أَنْ نَحْفَظَهَا.

وقال صلى الله عليه وسلم: سَيَكُونُ فِي أُمَّتِي قَوْمٌ يَقْرَأُونَ الْقُرْآنَ لَا يَجَاوِزُ تَرَاقِيهِمْ، يَمْرُقُونَ مِنَ الدِّينِ كَمَا يَمْرُقُ السَّهْمُ مِنَ الرَّمِيَّةِ، هُمْ شَرُّ الْخَلْقِ وَالْخَلِيقَةِ.

وقال: إِنْ الزَّبَانِيَةُ لِأَسْرَعِ إِلَى فُسَاقِ حَمَلَةِ الْقُرْآنِ مِنْهُمْ إِلَى عَبَدَةِ الْأَوْثَانِ؛ فَيَشْتَكُونَ إِلَى رَبِّهِمْ، فَيَقُولُ: لَيْسَ مِنْ عِلْمٍ كَمَنْ لَمْ يَعْلَمْ.

وقال الحسن: حَمَلَةُ الْقُرْآنِ ثَلَاثَةٌ نَفَرٌ: رَجُلٌ اتَّخَذَهُ بَضَاعَةً يَنْقُلُهُ مِنْ مِصْرَ إِلَى مِصْرَ يَطْلُبُ بِهِ مَا عِنْدَ النَّاسِ، وَرَجُلٌ حَفِظَ حُرُوفَهُ، وَضَيَّعَ حُدُودَهُ، وَاسْتَدْرَجَ بِهِ الْوُلَاةَ، وَاسْتَطَالَ بِهِ عَلَى أَهْلِ بَلَدِهِ، وَقَدْ كَثُرَ هَذَا الضَّرْبُ فِي حَمَلَةِ الْقُرْآنِ، لَا كَثَرَهُمْ اللَّهُ عَزَّ وَجَلَّ، وَرَجُلٌ قَرَأَ الْقُرْآنَ، فَوَضَعَ دَوَاءَهُ عَلَى دَاءِ قَلْبِهِ، فَسَهَّرَ لَيْلَتَهُ، وَهَمَلَتْ عَيْنَاهُ، وَتَسَرَّبَلِ الْخُشُوعَ، وَارْتَدَى الْوَقَارَ، وَاسْتَشْعَرَ الْحُزْنَ، وَوَاللَّهِ لِهَذَا الضَّرْبِ مِنْ حَمَلَةِ الْقُرْآنِ أَقَلُّ مِنَ الْكِبْرِيَةِ الْأَحْمَرِ، بِهِمْ يَسْقَى اللَّهُ الْعَيْثَ، وَيُنزِلُ النِّصْرَ، وَيُدْفَعُ الْبَلَاءَ.

العقل

وقال سحبان وائل: العَقْل بالتَّجَارِبِ، لأنَّ عَقْلَ العَرِيْزَةِ سُلِّمَ إلى عَقْلِ التَّجْرِبَةِ. ولذلك قال عليُّ بن أبي طالب رضوانُ الله عليه: رأيُ الشَّيْخِ خَيْرٌ مِنْ مَشْهَدِ العُلَّامِ. وعلى العاقل أن يكونَ عالماً بأهلِ زمانه "مالِكاً لسانه" مُقْبِلاً على شأنه.

وقال الحسن البَصْرِيُّ: لسانُ العاقل من وراء قلبه، فإذا أراد الكلامَ تفكَّرَ، فإن كان له قال، وإن كان عليه سكت. وقلب الأحمق من وراء لسانه فإذا أراد أن يقول قال، "فإن كان له سَكَت، وإن كان عليه قال".

وقال محمد بن الغاز: دخل رجل على سليمان بن عبد الملك، فتكلَّم عنده بكلام أعجب سليمانَ، فأراد أن يخبِّره لينظر أَعْقَلَهُ على قَدْرِ كلامه أم لا، فوجده مَضْعُوفاً فقال: فضل العَقْل على المنطقِ حِكْمَةٌ، وَفَضْلُ المنطقِ على العَقْلِ هِجْنَةٌ، وخير الأمور ما صدقت بعضها بعضاً، وأنشد:

ومَعْقُولُهُ وَالجِسْمُ خَلَقَ مُصَوِّرُ

وما المرءُ إلا الأصغرُ انِ لسانه

أمر مذاقُ العودِ والعودُ أخضرُ

فإن تمر منه ما يروقُ فربِّما

ومن أحسن ما قيل في هذا المعنى قولُ زهير:

زيادته أو نقصه في التكلُّم

وكائن ترى من صامت لك مُعْجِب

فلم يبقِ إلا صورةُ اللحمِ والدمِ

لسانُ الفتى نصفُ فؤاده

وقال عليُّ رضي الله عنه: العَقْلُ في الدماغِ، والضَّحَكُ في الكَبِدِ، والرَّأْفَةُ في الطَّحَالِ، والصَّوْتُ في الرِّئَةِ.

وسئل المغيرة بن شعبه عن عُمَرَ بن الخطاب رضوان الله عليه فقال: كان والله أفضلَ من أن يَخْدَع، وأَعْقَلَ من أن يُخْدَع، وهو القائل: لستُ بِخَبٍّ والخَبُّ لا يَخْدَعُنِي.

وقال زياد: ليس العاقلُ الذي إذا وَقَعَ في الأمرِ احتالَ له، ولكنَّ العاقلَ يَحْتالُ للأمرِ حتى لا يقع فيه.

وقيل لعُمَرُ بن العاص: ما العَقْلُ؟ فقال: الإِصَابَةُ بِالظَّنِّ، ومَعْرِفَةٌ ما يكونُ بما قد كان.

وقال عُمَرُ بن الخطاب رضي الله عنه: مَنْ لم يَنْفَعه ظَنُّه لم يَنْفَعه يَقِينُهُ.

وقال عليُّ بن أبي طالب رضي الله عنه، ودَكَرَ ابن عَبَّاسٍ رضي الله عنهما فقال: لقد كان ينظرُ إلى العَيْبِ من سترٍ رقيقٍ.

وقالوا: العاقلُ فَطِنٌ مُتَغافل.

وقال معاوية: العَقْلُ مِكيالٌ ثلثه فِطْنَةٌ وثلثاه تَغافل.

وقال المغيرة بن شعبه لعُمَرَ بن الخطاب رضي الله عنه إذ عَزَلَهُ عن كتابَةِ أبي موسى: أَعَنَ عَجَزَ عَزَلْتَنِي أم عن خِيانَةٍ؟ فقال: لا عن واحدةٍ منهما، ولكني

كِرِهْتُ أن أحملَ على العامةِ فَضَّلَ عَقْلَكَ.

وقال معاوية لعُمَرُ بن العاص: ما بَلَغَ من عَقْلِكَ؟ قال: ما دخلتُ في شيءٍ قَطُّ إلا خَرَجْتُ منه؟ فقال معاوية: لكنِّي ما دخلتُ في شيءٍ قَطُّ أريد

الخُرُوجَ منه.

وقال الأصمعيُّ: ما سَمِعْتُ الحَسَنَ بنَ سَهْلٍ مُدْ صَارَ في مَرْتَبَةِ الوِزارَةِ يَمَثَلُ إلا بِهَذَيْنِ البَيْتَيْنِ:

مَحادِثَةُ الرِّجالِ ذَوِي العُقُولِ

وما بَقِيَتْ مِنَ اللِّذاتِ إلا

فقد صارُوا أَقلَّ مِنَ القَلِيلِ

وقد كانوا إذا ذُكِرُوا قَلِيلًا

وقال محمدُ بنُ عبدِ اللهِ بنِ طاهرٍ، "ويروي لِمُحمودِ الوَرَّاقِ":

ولا باكتِسَابِ المِمالِ يُكْتَسَبُ العَقْلُ

لَعَمْرُكَ ما بِالعَقْلِ يَكْتَسَبُ الغِنَى

وَكَمْ مِنْ قَلِيلِ الْمَالِ يُحْمَدُ فَضْلَهُ
وَمَا سَبَقَتْ مِنْ جَاهِلٍ قَطُّ نِعْمَةً
وَذُو اللَّبِّ إِنْ لَمْ يُعْطِ أَحْمَدْتَ عَقْلَهُ

وقال محمد بن مُناذر:

وَأَخْرَجَ ذِي مَالٍ وَلَيْسَ لَهُ فَضْلٌ
إِلَى أَحَدٍ إِلَّا أَضْرَرَ بِهَا الْجَهْلُ
وَإِنْ هُوَ أَعْطَى زَانَةَ الْقَوْلِ وَالْفِعْلُ

عَدُّ أَهْلِ الْعَقْلِ قَلُوبًا فِي الْعَدَدِ
يَعْدَمُ الْقَلَّةُ مَنْ لَمْ يَقْتَصِدْ
تُخْلَفُ الْوَعْدَ وَعَجَلٌ مَا تَعَدُّ
وَإِذَا مَا قُلْتَ شِعْرًا فَأَجْدُ

وَتَرَى النَّاسَ كَثِيرًا فَإِذَا
لَا يَقِلُّ الْمَرْءُ فِي الْقَصْدِ وَلَا
لَا تَعْدُ شِرًّا وَعِدْ خَيْرًا وَلَا
لَا تَقِلُّ شِعْرًا وَلَا تَهْمُمُ بِهِ

ولآخر:

مَشِيئَتُهُ أَوْلَاهَا وَالْحَرَكَ
بَعْدُ عَلَيْهِنَّ يَدُورُ الْفَلَكَ
آخِرُهَا مَنْهَنَ سُمَيْنَ لَكَ
وَالْعَقْلُ فِي أَرْكَانِهِ كَالْمَلِكِ
وَيَهْلِكُ الْمَرْءُ إِذَا مَا هَلَكَ
وَعَقْلُهُ لَيْسَ إِلَى مَا مَلَكَ
وَقَدْ يَكُونُ النَّوْكَ فِي ذِي النَّسْكَ
فَادُلُّ عَلَى الْعَاقِلِ لَا أُمَّ لَكَ

يُعْرِفُ عَقْلَ الْمَرْءِ فِي أَرْبَعٍ
وَدَوْرَ عَيْنِيهِ وَأَلْفَظِهِ
وَرُبَّمَا أَخْلَفَنَ إِلَّا الَّتِي
هَذِي دَلِيلَاتٍ عَلَى عَقْلِهِ
إِنْ صَحَّ صَحَّ الْمَرْءُ مِنْ بَعْدِهِ
فَانظُرْ إِلَى مَخْرَجِ تَدْبِيرِهِ
فَرُبَّمَا خَلَطَ أَهْلُ الْحِجَا
فَإِنْ إِمَامٌ سَالَ عَنْ فَاضِلٍ

وكان هُوذة بن عليّ الحنفيّ يُجيز لطيمة كسرى في كل عام - واللّطيمة غير تحمّل الطيب والبزّ - فوفد على كسرى، فسأله عن بنيه، فسَمَّى له عدداً؛ فقال: أيهم أحب إليك؟ قال: الصّغير حتى يكبر، والغائب حتى يرجع، والمريض حتى يُفِيق؟ فقال له: ما غداؤك في بلدك؟ قال: الحُبز؛ فقال كسرى لجلسائه: هذا عَقْلُ الحُبز، يُفَضِّلُهُ عَلَى عُقُولِ أَهْلِ الْبُؤَادِي الَّذِينَ غَدَاؤُهُمُ اللَّبَنُ وَالتَّمْرُ. وهُوذة بن عليّ الحنفيّ هو الذي يقول فيه أعشى بكر:

إِذَا تَعَصَّبَ فَوْقَ التَّاجِ أَوْ وَضَعَا
صَوَاغَهَا لَا تَرَى عَيْبًا وَلَا طَبْعَا

مَنْ يَرَى هُوذَةَ يَسْجُدُ غَيْرَ مُتَّئِبٍ
لَهُ أَكَالِيلُ بِالْيَاقُوتِ فَضَّلَهَا

وقال أبو عبيدة عن أبي عمرو: لم يَتَوَجَّعْ مَعْدِي قَطُّ، وإنما كانت التَّيجان لليمن، فسألته عن هُوذة بن عليّ الحنفيّ، فقال: إنما كانت خَرَزَاتٌ تُنْظَمُ لَهُ. وقد كتب النبي صلى الله عليه وسلم إلى هُوذة بن عليّ يدعوه إلى الإسلام كما كتب إلى الملوك. وفي بعض الحديث: إِنَّ اللَّهَ عَزَّ وَجَلَّ لَمَّا خَلَقَ الْعَقْلَ، قَالَ: أَقْبِلْ، فَأَقْبِلْ، ثُمَّ قَالَ لَهُ: أَذْبِرْ، فَأَذْبِرْ. فقال: وعزّي وجلالي ما خلقتُ خَلْقًا أَحَبَّ إِلَيَّ مِنْكَ وَلَا وَضَعْتُكَ إِلَّا فِي أَحَبِّ الْخَلْقِ إِلَيَّ.

وبالعقل أدرك الناس معرفة الله عز وجل، ولا يشك فيه أحدٌ من أهل العقول، يقول الله عز وجل في جميع الأمم: "وَلَكِنْ سَأَلْتَهُمْ مَنْ خَلَقَهُمْ لَيَقُولُنَّ اللَّهُ". وقال أهل التفسير في قول الله "فَسَمِ لَدِي حَجْرًا" قالوا: لذي عقل. وقالوا: ظنُّ العاقل كهانة. وقال الحسنُ البصريُّ: لو كان للناس كلُّهم عقولٌ خربت الدنيا. وقال الشاعر:

وإن لم يكن في قومه بحسب
وما عاقلٌ في بلده بغريب

يُعد رفيع القوم من كان عاقلاً
وإن حل أرضاً عاش فيها بعقله

وقالوا: العاقل يقي ماله بسُلطانِه، ونَفْسَه بماله، ودينه بنفسه.

وقال الأحنف بن قيس؛ أنا للعاقل المدير أرجى مني للأحمق المقبل.

"قال: ولما أهبط الله عز وجل آدم عليه السلام إلى الأرض، أتاه جبريل عليه السلام، فقال له: يا آدم، إن الله عز وجل قد حبأك بثلاث خصالٍ لتختارَ منها واحدة وتتحلى عن اثنتين، قال: وما هن؟ قال: الحياء والدين والعقل. قال آدم: اللهم إني اخترت العقل. فقال جبريل عليه السلام للحياء والدين: ارتفعاً؟ قالوا: لن ترتفع؟ قال جبريل عليه السلام: أعصيتُما؟ قالوا: لا، ولكننا أمرنا أن لا نُفارق العقلَ حيث كان.

وقال صلى الله عليه وسلم: لا تفتدوا بمن ليست له عقدة.

قال: وما خلق الله خلقاً أحب إليه من العقل.

وكان يقال: العقل ضربان: عقل الطبيعة وعقل التجربة، وكلاهما يُحتاج إليه ويؤدي إلى المنفعة.

وكان يقال: لا يكون أحدٌ أحب إليك من وزيرٍ صالح وافرِ العقلِ كاملِ الأدبِ حينك السن بصيرٍ بالأمر، فإذا ظفرتَ به فلا تُباعده، فإن العاقلَ ليس يمانعك نصيحته وإن حفت.

وكان يقال: غريزة عقل لا يضيع معها عمل.

وكان يقال: أجل الأشياء أصلاً وأحلاها ثمرة، صالح الأعمال، وحسن الأدب، وعقل مُستعمل.

وكان يقال: التجاربُ ليس لها غاية والعاقلُ منها في الزيادة. ومما يؤكد هذا قولُ الشاعر:

وأن كمالَ العقلِ طولُ التجاربِ

ألم ترَ أن العقلَ زينٌ لأهله

ومكتوب في الحكمة: إن العاقلَ لا يغررُ بمودة الكذوب ولا يثقُ بنصيحته ويُقال: من فاته العقلُ والمُتوَّة فرأسُ ماله الجهلُ.

ويقال: من غير الناس الشيء ورَضِيه لنفسه فذاك الأحمق نفسه.

وكان يقال: العاقلُ دائم المودة، والأحمق سريع القطيعة.

وكان يقال: صديق كل امرئ عقله وعدوه جهله.

وكان يقال: المعجب لُحُوح والعاقلُ منه في مؤونته. وأما العُجب فإنه الجهل والكبر.

وقيل: أعلى الناس بالعفو أقدُرهم على العُتوبة، وأثقص الناس عقلاً من ظلم من هو دونه.

ويقال: ما شيء بأحسن من عقل زانه حلم، وحلم زانه علم، وعلم زانه صدق، وصدق زانه عمل، وعمل زانه رفق.

وكان عمر بن الخطَّاب رضي الله عنه يقول: ليس العاقلُ من عرف الخير من الشر، بل العاقلُ من عرف "خَيْر" الشرِّين ويقال: عدو عاقل أحب إلي من صديق جاهل.

وكان يقال: الزم ذا العقل وذا الكرم واسترسل إليه، وإياك وفراقه إذا كان كريماً، ولا عليك أن تصحب العاقل وإن كان غير محمود الكرم، لكن

احترس من شين أخلاقه وانتفع بعقله، ولا تدع مواصلة الكرم وإن لم تحمد عقله، وانتفع بكرمه وانفعه بعقلك، وفر الفرار كله من الأحمق اللثيم. وكان يقال: قطيعة الأحمق مثل صلة العاقل.

وقال الحسن: ما أودع الله تعالى أمراً عقلاً إلا استنقذه به يوماً ما.

وأتى رجلٌ من بني مجاشع إلى النبي صلى الله عليه وسلم فقال: يا رسول الله، أأنت أفضل قومي؟ قال النبي صلى الله عليه وسلم: إن كان لك عقل فلك فضل، وإن كان لك تقى فلك دينٌ، وإن كان لك مالٌ فلك حسب، وإن كان لك خلق فلك مروءة.

قال: تفاخر صفوان بن أمية مع رجل، فقال صفوان: أنا صفوان بن أمية، بخٍ بخٍ، فبلغ ذلك عمر بن الخطاب رضي الله عنه فقال: ويلك! إن كان لك دين فإن لك حسباً، وإن كان لك عقل فإن لك أصلاً، وإن كان لك خلق فلك مروءة، وإلا فأنت شرٌّ من حمار.

وقال النبي صلى الله عليه وسلم: كرم الرجل دينه، ومروءته عقله، وحسبه خلقه.

وقال: وكل الله عز وجل الحرمان بالعقل، ووكّل الرزق بالجهل، ليعتبر العاقل فيعلم أن ليس له في الرزق حيلة.

وقال بزجرهم: لا ينبغي للعاقل أن يتزلّ بلدًا ليس فيه خمسة: سلطان قاهر، وقاضٍ عدل، وسقٍ قائمة، ونهرٍ جارٍ، وطبيب عالم.

وقال أيضاً: العاقل لا يرجو ما يعنف برجائه، ولا يسأل ما يخاف منعه، ولا يمتحن ما لا يستعين بالقدرة عليه.

سئل أعرابي: أي الأسباب أعون على تذكية العقل وأيها أعون على صلاح السيرة؟ فقال: أعونها على تذكية العقل التعلم، وأعونها على صلاح السيرة القناعة.

وسئل عن أجود المواطن أن يُختبر فيه العقل، فقال: عند التدبير.

وسئل: هل يعمل العاقل بغير الصواب؟ فقال: ما كلُّ ما عمِلَ بإذن العقل فهو صواب.

وسئل: أيُّ الأشياء أدلُّ على عقل العاقل؟ قال: حُسن التدبير.

وسئل: أيُّ مَنافع العقل أعظم؟ قال: اجتنابُ الذنوب.

وقال بزجرهم: أفره ما يكون من الدوابِّ لا غنى بها عن السَّوط، وأعفُّ من تكون من النساء لا غنى بها عن الزَّوج، وأعقل من يكون من الرجال لا غنى به عن مشورة ذوي الألباب.

سئل أعرابي عن العقل متى يُعرف؟ قال: إذا نهاك عقلك عمّا لا ينبغي فأنت عاقل.

وقال النبي صلى الله عليه وسلم: العقل نُورٌ في القلب يُفرِّق به بين الحقِّ والباطل، وبالعقل عُرف الحلال والحرام، وعُرفت شرائع الإسلام ومواقع الأحكام، وجعل الله نُوراً في قلوب عباده يهديهم إلى هدى ويصُدُّهم عن ردى.

"ومن جلالة قدر العقل أن الله تعالى لم يخاطب إلا ذوي العقول فقال عز وجل: "إِنَّمَا يَتَذَكَّرُ أُولُو الْأَلْبَابِ". وقال: "لِنُنذِرَ مَنْ كَانَ حَيًّا". أي عاقلاً، وقال: "إِنَّ فِي ذَلِكَ لَذِكْرًا لِمَنْ كَانَ لَهُ قَلْبٌ". أي لمن كان له عقل.

وقال النبي صلى الله عليه وسلم: العاقل يحلِّم عمن ظلم، ويتواضع لمن هو دونه، ويسابق إلى البرِّ من فوقه. وإذا رأى باباً برّ أنتهزه، وإذا عرضت له فئنة اعتصم بالله وتكبَّها.

وقال صلى الله عليه وسلم: فوام المرء عقله، ولا دين لمن لا عقل له.

وإذا كان العقل أشرف أَعْلَاق النَّفس، وكان بقدر تمكنه فيها يكون سُمُّها لطبِّ الفضائل وعلوُّها لابتغاء المنازل، كانت قيمة كلِّ امرئ عقله، وحليته التي يحسن بها في أعين الناظرين فضله.

ولعبد الله بن محمد:

وَكُنْ بَعْضَ مَنْ صَانَهُ نُبُلُهُ

وَقِيْمَةُ كُلِّ أَمْرٍ عَقْلُهُ

تَأَمَّلْ بَعَيْنَيْكَ هَذَا الْأَنَامَ

فَحَلِيَّةُ كُلِّ فِتْنَةٍ فَضْلُهُ

ولا تتكل في طلاب العُلا

فما من فتى زانه أهله

ويُقال: العَقْلُ إثْرُكَ الأشياءِ على حَقائِقِها، فَمَنْ أدْرَكَ شيئاً على حَقِيقَتِه فقد كَمَّلَ عَقْلَه.

وقيل: العَقْلُ مرآة الرَّحْلِ.

أخذه بعضُ الشعراء فقال:

على نَسَبِ ثابتٍ أصلُه

بشيءٍ وخالفه فَعَلُه

ة تَرى فيها فِعالُه

صدأً فَهُوَ جِعالُه

ه صِقِالاً وصَفاً له

ناظرٍ فيها مِثالُه

عَقْلُ هذا المَرءِ مرآة

فإذا كانَ عليها

وإذا أخلَصه الل

فَهي تُعْطِي كُلَّ حَيٍّ

ولآخر:

رِمُ ذا المَالِ لِمالِه

قل عِنْدِي سُوءُ حالِه

كَ وهذا بِفِعالِه

كل وجهٍ بِمِثالِه

يَجِدُنِي مِن رِجالِه

لا تَراني أبداً أَك

لا ولا تَزري بِمَنْ يع

إنما أَقْضي عَلى ذا

أنا كالمِراةِ ألقى

كَيْفما قَلْبني الدَهرُ

ولبعضهم:

وإن كانَ ذا نُبْلِ على النَّاسِ هِين

وأفْضَلُ عَقْلُ مَنْ يَنْدِين

إذا لم يَكُنْ لِلْمَرءِ عَقْلٌ فَإِنَّه

وإن كانَ ذا عَقْلٍ أَجَلٌ لِعَقْلِه

وقال آخر:

فأنتَ كذِي رَحْلٍ وليس له بَعْلُ

فأنتَ كذِي بَعْلٍ وليس له رَحْلُ

إذا كُنتَ ذا عَقْلٍ ولم تَكُ ذا غنى

وإن كُنتَ ذا مالٍ ولم تَكُ عاقِلا

ويُقال: إنَّ العَقْلَ عَيْنُ القَلْبِ، فإذا لم يَكُنْ للمَرءِ عَقْلٌ كانَ قَلْبُه أَكْمَه.

وقال صالح بنُ جَنَاح:

وإن لم يَكُنْ عَقْلٌ فلا يُبْصِرُ القَلْبُ

ألا إنَّ عَقْلَ المَرءِ عَيْنًا فُؤادِه

وقال بعضُ الفلاسفة: الهَوَى مِصادُ العَقْلِ.

ولعبد الله بن مِيحَمَد:

نَفْسُه عن هَواها

ثلاث مَنْ كُنَّ فِيه حَوى الفِضْلِ وإن كانَ راعِباً عن سِواها: صِحَّةُ العَقْلِ، والتَّمسُّكُ بِالعَدْلِ، وتَتْرِيه

ولمحمد بن الحَسَنِ بن دُرَيْد:

وَأَفَةُ الْعَقْلِ الْهَوَىٰ فَمَنْ عَلَا

وقال بعض الحكماء: ما عبد الله بشيء أحب إليه من العقل، وما عُصي بشيء أحب إليه من السُّرِّ.

وقال مسَّلمة بن عبد الملك: ما قرأتُ كتاباً قطُّ لأحدٍ إلا عرفتُ عقله منه.

وقال يحيى بن خالد: ثلاثة أشياء تدلُّ على عُقول أربابها: الكتاب يدلُّ على عقل كاتبه، والرسول يدلُّ على عقل مُرسِله، والهدية تدلُّ على عقل مُهدئها. واستعمل عمرُ بن عبد العزيز رجلاً، فقيل له: إنه حديث السنن ولا نراه يضبط عملك؛ فأخذ العهد منه وقال: ما أراك تضبط عملك لحدائقك؛ فقال الفتي:

وَلَيْسَ بِزَيْدٍ الْمَرْءَ جَهْلًا وَلَا عَمَىٰ

فقال عمرُ: صدق، وردَّ عليه عهده.

وقال جثامة بن قيس يصف عاقلاً:

إِذَا كَانَ ذَا عَقْلٍ حَدَاثَةٌ سِنِهِ

تُخَاطِبُهُ مِنْ كُلِّ أَمْرٍ عَوَاقِبُهُ

بَصِيرٌ بِأَعْقَابِ الْأُمُورِ كَأَنَّمَا

ولغيره في المعنى:

يَرَى بِصَوَابِ الرَّأْيِ مَا هُوَ وَاقِعٌ

بَصِيرٌ بِأَعْقَابِ الْأُمُورِ كَأَنَّمَا

وقال شبيب بن شيبَةَ لخالد بن صفوان: إني لأعرفُ أمراً لا يتلاقى فيه اثنان إلا وجب التُّحجح بينهما؛ قال له خالد: ما هو؟ قال العقل، فإن العاقل لا يسأل إلا ما يجوز، ولا يردُّ عما يُمكن. فقال له خالد: نعتت إلي نفسي، إنا أهل بيت لا يموتُ منا أحدٌ حتى يرى خلفه.

وقال عبد الله بن الحسن لابنه محمد، يا بني احذر الجاهل وإن كان لك ناصحاً، كما تحذر العاقل إذا كان لك عدواً؟ ويوشك الجاهل أن تورطك مشورته في بعض اغترارك فيسبق إليك مكر العاقل، وإياك ومُعَاداة الرجال، فإنك لا تعلمنَّ منها مكر حليم عاقل، أو مُعاندَة جاهل.

وقال أمير المؤمنين علي بن أبي طالب صلواتُ الله عليه: لا مال أعودُ من عقل، ولا فقر أضُرُّ من جهل.

ويقال: لا مروءة لمن لا عقل له.

وقال بعض الحكماء: لو استغنى أحدٌ عن الأدب لاستغنى عنه العاقل، ولا يتنفع بالأدب من لا عقل له، كما لا يتنفع بالرياضة إلا النجيب.

وكان يُقال: بالعقل تُنال لذة الدنيا، لأنَّ العاقل لا يسعَى إلا في ثلاث: مزية لمعاش، أو منفعة لمعاد، أو لذة في غير مُحرم.

ولبعضهم:

إِذَا أَحْبَبْتَ أَقْوَامًا فَلَاصِقٌ

بِأَهْلِ الْعَقْلِ مِنْهُمْ وَالْحَيَاءِ

فَإِنَّ الْعَقْلَ لَيْسَ لَهُ إِذَا مَا

تَفَاضَلَتِ الْفَضَائِلُ مِنْ كِفَاءِ

لمحمد بن يزيد:

وَأَفْضَلُ قَسَمِ اللَّهِ لِلْمَرْءِ عَقْلُهُ

وَلَيْسَ مِنَ الْخَيْرَاتِ شَيْءٌ يُقَارِبُهُ

إِذَا أَكْمَلَ الرَّحْمَنُ لِلْمَرْءِ عَقْلَهُ

فَقَدْ كَمَلَتْ أَخْلَاقُهُ وَمَأْرِبُهُ

يَعِيشُ الْفَتَى بِالْعَقْلِ فِي النَّاسِ إِنَّهُ

عَلَى الْعَقْلِ يَجْرِي عِلْمُهُ وَتِجَارِبُهُ

وَمَنْ كَانَ غَلَبًا بِعَقْلٍ وَنَجْدَةً

فَذُو الْجَدِّ فِي أَمْرِ الْمَعِيشَةِ غَالِبُهُ

فَزَيْنُ الْفَتَى فِي النَّاسِ صِحَّةُ عَقْلِهِ

وَإِنْ كَانَ مَحْصُورًا عَلَيْهِ مَكَاسِبُهُ

وَشَيْنُ الْفَتَى فِي النَّاسِ قِلَّةُ عَقْلِهِ

وَإِنْ كَرُمْتَ أَعْرَاقَهُ وَمَنَاسِبُهُ

ولبعضهم:

والإيه يَأْوِي الحِلْمُ حين يُوُولُ
إِنَّ العُقُولَ يُرَى لها تَفْصِيلُ

العَقْلُ يَأْمُرُ بالعَفَافِ وبالتَّقَى
فإن استطعتَ فَخُذْ بِفَضْلِكَ فَضْلَهُ

ولبعضهم:

وشرَّ من البُخْلِ المَواعِيدُ والمَطْلُ
ولا خَيْرَ في غَمْدٍ إذا لم يَكُنْ نَصْلُ
هُوَ النَّصْلُ والإِنسانُ من بعده فَضْلُ

إذا جُمِعَ الآفَاتُ فَالبُخْلُ شرُّها
ولا خَيْرَ في عَقْلٍ إذا لم يَكُنْ غَنَى
وإن كان للإِنسانِ عَقْلٌ فَعَقْلُهُ

ولبعضهم:

مِصائبُه قَبْلَ أن تَنزِلَا
لِما كان في نَفْسِه مِثْلَا
فَصَيَّرَ آخِرَه أَوَّلَا
وَيَنسَى مِصَارِعَ مَنْ قَد خَلَا "

يُمَثِّلُ ذُو العَقْلِ في نَفْسِه
فإن نَزَلَتْ بَعَثَةٌ لم تَرَعه
رَأَى الهَمَّ يُفْضِي إلى آخِرٍ
"وذو الجَهْلِ يَأْمَنُ أَيامَه"

الحكمة

قال النبي صلى الله عليه وسلم: ما أخلصَ عبدُ العملِ لله أربعينَ يوماً إلا ظهرتَ يَنابيعُ الحِكمةِ من قلبه على لسانه. وقال عليه الصلاة والسلام: الحِكمةُ ضالةُ المؤمنِ يأخذها مَنْ سَمِعَها ولا يبالي من أيِّ وعاءٍ خَرَجَتْ. وقال عليه الصلاة والسلام: لا تَضَعُوا الحِكمةَ عِنْدَ غيرِ أهلِها فَتَظْلِمُوهَا، ولا تَمْنَعوها أهلِها فَتَظْلِمُوهُمْ. وقال الحُكَمَاءُ: لا يَطْلُبُ الرَّجُلُ حِكمةً إلا بِحِكمةٍ عنده. وقالوا: إذا وَجَدْتُم الحِكمةَ مَطْرُوحَةً على السَّكِّ فَخُذوها. وفي الحديث: خُذُوا الحِكمةَ ولو من أَلْسِنَةِ المُشْرِكِينَ. وقال زياد: أيها الناس لا يَمْنَعُكم سُوءُ ما تَعْلَمُونَ مِثْلَ ما تَنْتَفِعُونَ بِأَحْسَنِ ما تَسْمَعُونَ مِنَّا، فإنَّ الشاعِرَ يَقولُ:

يَنْفَعُكَ قَوْلِي ولا يَضُرُّكَ تَقْصِيرِي

اعْمَلْ بِعِلْمِي وَإِنْ قَصُرَتْ في عَمَلِي

نوادِر من الحِكمة

قيل لقس بن ساعدة: ما أَفْضَلُ المَعْرِفَةِ؟ قال مَعْرِفَةُ الرَّجُلِ نَفْسَه؛ قِيلَ لَهُ: فما أَفْضَلُ العِلْمِ؟ قال: وَقُوفُ المَرءِ عِنْدَ عِلْمِه؛ قِيلَ لَهُ: فما أَفْضَلُ المَرْوَةِ؟ قال: اسْتِيقَاءُ الرَّجُلِ ماءٍ وَجْهَه.

وقال الحسنُ: التَّقْدِيرُ نِصْفُ الكَسْبِ، والتَّوَدُّةُ نِصْفُ العَقْلِ، وَحُسْنُ طَلْبِ الحَاجَةِ نِصْفُ العِلْمِ. وقالوا: لا عَقْلَ كالتَّدْبِيرِ، ولا وَرَعَ كالكِفِّ، ولا حَسَبَ كحُسْنِ الخُلُقِ، ولا غِنَى كَرِضَا عَنِ اللَّهِ، وَأَحَقُّ ما صَبَرَ عَلَيْهِ ما لَيْسَ إلى تَغْيِيرِهِ سَبِيلُ. وقالوا: أَفْضَلُ البِرِّ الرَّحْمَةُ، ورَأْسُ المودَّةِ الاستِرسالُ، ورَأْسُ العُتُوقِ مُكَاتِمَةُ الأذْنينِ، ورَأْسُ العَقْلِ الإِصَابَةُ بِالظَّنِّ.

وقالوا: التفكّر نور، والعفلة ظلمة، والجهالة ضلالة، والعلم حياة، والأول سابق، والآخِر لاحق، والسعيد من وعظ بغيره.

حدّث أبو حاتم قال: حدّثني أبو عبيدة قال: حدّثني غير واحد من هوازِن من أولي العلم، وبعضهم قد أدرك أبوه الجاهلية "أو حدّه"، قالوا: اجتمع عامر بن الظرب العدواني، وحُمّة بن رافع الدؤسي - ويَزعمُ التّساب أن ليلى بنت الظرب أم دوس، وزينب بنت الظرب أم تقيف "وهو قيسي" - عند ملك من ملوك حمير، فقال: نساء لا حتى أسمع ما تقولان. فقال عامر لحممة: أين تُحب أن تكون أياديك؟ قال: عند ذي الرثية العديم، وعند ذي الخلة الكريم، والمُعسر العريم، والمستضعف المضميم. قال: من أحقّ الناس بالمتّ؟ قال: الفقير المختال، والضعيف الصوال، والعيبي القوال، قال: فمن أحقّ الناس بالمتّ؟ قال: الحريص الكاند، والمستميد الحاسد، والمُلهف الواحد. قال: فمن أجدُر الناس بالصنّيعه؟ قال: من إذا أعطى شكر، وإذا مُنع عذر، وإذا مُطل صبر، وإذا قدّم العهد ذكر قال: من أكرمُ الناس عشرة؟ قال: من إذا قرّب منح، "وإذا بعد مدح"، وإذا ظلّم صفح، وإذا ضويق سمح قال: من أأمّ الناس؟ قال: من إذا سأل خضع، وإذا سُئل منع، وإذا ملك كنع، ظاهره جشع، وباطنه طبع. قال: فمن أحلم الناس؟ قال: من عفا إذا قدر، وأجمل إذا انتصر، ولم تُطغِه عزّة الظفر. قال: فمن أحرّم الناس؟ قال: من لا أخذ رقاب الأمور بيديه، وجعل العواقب نُصب عينيّه، ونبد التهيب دبر أذنيه. قال: فمن أحرقُ الناس؟ قال: من ركب الخطار، واعتسف العثار، وأسرع في البدار قبل الاقتدار. قال: من أجودُ الناس؟ قال: من بذل المجهود، ولم يأس على المجهود. قال: من أبلغُ الناس؟ قال: من جلى المعنى الميز باللفظ الوجيز، وطبق المفصل قبل التّحزيز. قال: من أنعم الناس عيشاً؟ قال: من تحلى بالعفاف، ورضي بالكفاف، وتجاوز ما يخاف إلى ما لا يخاف. قال: فمن أشقى الناس؟ قال: من حسد على النعم، وسخط على القسّم، واستشعر التّدم، على فوت ما لم يُحتم. قال: من أغنى الناس؟ قال: من آسّشعر الياس، وأظهر التّجمل للناس، واستكثر قليل النعم، ولم يسخط على القسّم. قال: فمن أحكم الناس؟ قال: من صمت فادكر، ونظر فاعتبر، ووعظ فازدجر. قال: من أجهل الناس؟ قال: من رأى الخرق معنما، والتّجاوز مغرماً.

وقال أبو عبيدة: الخلة: الحاجة، والخلة: الصداقة. والكاند: الذي يكفر النعمة، والكنود: الكفور، والمستميد: مثل المستمير، وهو المستعطي. ومنه اشتقاق المائدة. لأنها تُماد. وكنع: تقبض؟ يُقال منه: تكنع جلده، إذا تقبض. يريد أنه مُمسك بجيل. والجشع: أسوأ الحرص. والطبع: الدنس. والاعتساف: رُكوب الطريق على غير هداية، وركوب الأمر على غير معرفة. والميز: من قولهم: هذا أمرٌ من هذا، أي أفضل منه وأزيد. والمطبق من السيوف: الذي يُصيب المفاصل لا يجاوزها.

وقال عمرو بن العاص: ثلاثٌ لا أناة فيهنّ: المبادرة بالعمل الصالح، ودفن الميت، وتزويج الكفء.

وقالوا: ثلاثة لا يُندم على ما سلف إليهم: الله عزّ وجلّ فيما عمل له، والمولى الشّكور فيما أُسدى إليه، والأرضُ الكريمة فيما بُذر فيها. وقالوا: ثلاثة لا بقاء لها: ظلّ العمام، وصحبة الأشرار، والشّاء الكاذب.

وقالوا: ثلاثة لا تكون إلاّ في ثلاثة: الغنى في التّفنّس، والشّرف في التّواضع، والكرم في التّقوى.

وقالوا ثلاثة لا تُعرف إلاّ عند ثلاثة ذو البأس لا يُعرف إلاّ عند اللقاء، وذو الأمانة لا يُعرف إلاّ عند الأخذ والعطاء. والإخوان لا يُعرفون إلاّ عند التّوائب.

وقالوا: من طلب ثلاثة لم يسلم من ثلاثة: من طلب المال بالكيمايا لم يسلم من الإفلاس، ومن طلب الدّين بالفلسفة لم يسلم من الزّندقة، ومن طلب الفقه بغرائب الحديث لم يسلم من الكذب.

وقالوا: عليكم بثلاث: جالسوا الكبراء، وخاطبوا الحكماء، وسألوا العلماء.

وقال عمرُ بن الخطّاب رضوان الله عليه: أخوف ما أخاف عليكم شحُّ مطاع، وهوى مُتبع، وإعجاب المرء بنفسه.

واجتمعت علماء العرب والعجم على أربع كلمات: لا تحمل على ظنّك ما لا تُطيق، ولا تعمل عملاً لا ينفعك، ولا تُعترّ بامرأة، ولا تتق بمال وإن كثر.

وقال الرّياحي في خطبته بالمربد: يا بني رياح، لا تحقرُوا صغيراً تأخذون عنه، فإني أخذتُ من الثعلب روغانه، ومن القرد حكايته، ومن السنور صرعه،

ومن الكلب نُصِرْتَه. ومن ابن آوى حَذَرَه؛ ولقد تعلّمت من القمر سَيْرَ اللَّيْلِ، ومن الشَّمْسِ ظهور الحِينِ بعد الحِينِ.

وقالوا: ابن آدم هو العالم الكبير الذي جمع الله فيه العالم كله، فكان فيه بسالة الليث، وصبر الحمار، وحِرْص الخنزير، وحَدَر الغراب، وروغان الثعلب، وضرع السنور، وحكاية القرد، وجبن الصّفر.

ولما قتل كِسْرِي بُزْرَجْمَهَر وحده في منطقتيه مكتوباً: إذا كان الغدر في الناس طِباعاً فالثقة بالناس عَجْز، وإذا كان القدر حقاً فالحرص باطل، وإذا كان الموت راصداً فالطمأنينة حُمو.

وقال أبو عمرو بن العلاء: خُذ الخَيْر من أهله، ودَع الشَّر لأهله.

وقال عمر بن الخطاب رضي الله عنه: لا تَنْهَكُوا وَجْه الأرض فإن شَحْمَتها في وَجْهها.

وقال: بع الحيوان أحسن ما يكون في عينك.

وقال: فرّقوا بين المنايا، واجعلوا من الرأس رأسين، ولا تلبثوا بدرًا معجزة.

وقالوا: إذا قُدِّمَت المصيبة تُرِكَت التعزية، وإذا قُدِّمَ الإحياء سَمِحَ النِّناء.

وفي كتاب للهند: ينبغي للعاقل أن يدع التماس ما لا سبيل إليه، لئلا يعدّ جاهلاً، كرجل أراد أن يجري السفن في البرّ والعجل في البحر، وذلك ما لا سبيل إليه.

وقالوا: إحسان المصيبة أن يكفّ عنك أذاه، وإساءة المحسن أن يمنحك جدواه.

وقال الحسن البصري: اقدعوا هذه النفوس فإنها طلعة، وحادثوها بالذكر فإنها سريعة الدثور، فإنكم إلا تقدعوها تترع بكم إلى شرّ غاية.

يقول: حادثوها بالحكمة كما يحدث السيّف بالصقال، فإنها سريعة الدثور يريد الصّدأ الذي يعرض للسيّف. واقدعوها: من قدعت أنف الحمل، إذا دفعته. فإنها طلعة، يريد متطلّعة إلى الأشياء.

قال أردشير بن بابك: إن للأذان مجّة، وللقلوب مَلَأ، ففرّقوا بين الحكمتين يَكُن ذلك استجماماً.

البلاغة وصفتها

قيل لعمرو بن عبّيد: ما البلاغة؟ قال: ما بلّغك الجنّة، وعدل بك عن النار، قال السائل: ليس هذا أريد قال: فما بصرك مواضع رشّتك، وعواقب غيّك؟ قال: ليس هذا أريد؛ قال: من لم يحسن أن يسكت لم يحسن أن يسمع؛ ومن لم يحسن أن يسمع لم يحسن أن يسأل، ومن لم يحسن أن يسأل لم يحسن أن يقول: قال: ليس هذا أريد؛ قال قال النبي صلى الله عليه وسلم: إنّنا معشر "النبين" بكاء - أي قليلو الكلام، وهو جمع بكىء - وكانوا يكرهون أن يزيد منطلق الرجل على عقله؛ قال السائل: ليس هذا أريد؟ قال: فكأنك تريد تخيير الألفاظ في حُسن إيفاهم؛ قال: نعم؛ قال: إنك إن أردت تقرير حجة الله في عقول المكلفين، وتخفيف المؤونة على المستمعين، وتزيين المعاني في قلوب المستفهمين بالألفاظ الحسنة رغبة في سرعة استجابتهم، ونفي الشواغل عن قلوبهم بالموعظة الناطقة عن الكتاب والسنة، كنت قد أوتيت فصل الخطاب.

وقيل لبعضهم: ما البلاغة؟ قال: معرفة الوصل من الفصل.

وقيل لآخر: ما البلاغة؟ قال: إيجاز الكلام، وحذف الفضول، وتقرّيب البعيد.

وقيل لبعضهم: ما البلاغة؟ قال: أن لا يُؤتى القائل من سوء فهم السامع، ولا يُؤتى السامع من سوء بيان القائل.

وقال معاوية لصحار العبدي: ما البلاغة؟ قال: أن تُجيب فلا تُبْطئ، وتُصيب فلا تُخطئ. ثم قال: أفلني يا أمير المؤمنين؛ قال: قد أفلتتك. قال: لا تُبْطئ ولا تُخطئ.

قال أبو حاتم: استطال الكلام الأول فاستقال، وتكلم بأوجز منه.

وسمع خالد بن صفوان رجلاً يتكلم ويكثر فقال، اعلم رحمك الله أن البلاغة ليست بحفة اللسان، وكثرة الهديان، ولكنها بإصاغة المعنى، والقصد إلى

الحجّة. فقال له: أبا صفوان، ما من ذنب أعظم من اتفاق الصنعة.
وتكلم ربيعة الرأي يوماً فأكثر " وأعجب بالذي كان منه " وإلى جنبه أعرابي، فالتفت إليه، فقال: ما تعدون البلاغة يا أعرابي؟ قال: قلة الكلام وإيجاز الصواب، قال: فما تعدون العي؟ قال: ما كنت فيه منذ اليوم. فكأنما ألقمه حجراً.
ومن أمثالهم في البلاغة قولهم: يُقِلّ الحزّ ويُطبّق المِفصل. وذلك أنهم شَبَّهوا البليغ الموحز الذي يُقلّ الكلام، ويُصيب الفصول والمعاني، بالجزّار الرقيق يُقلّ حَزّ اللحم ويُصيب مفاصله.
ومثله قولهم: يَضَع الهناء مواضع الثقبِ أي لا يتكلم إلا فيما يجب فيه الكلام، مثل الطالبي الرقيق الذي يضع الهناء مواضع الثقب. وآلهناء؛ القطران. والثقب: الجرب.
وقولهم: قَرطس فلان فأصاب الثغرة، وأصاب عَيْن القِرطاس. كل هذا مثل للمُصيب في كلامه الموحز في لفظه.
"قيل للعتابي: ما البلاغة؟ قال: إظهار ما غمض من الحق، وتصوير الباطل في صورة الحق.
وقيل لأعرابي: من أبلغ الناس؟ قال: أسهلهم لفظاً وأحسنهم بديهة.
وقيل لآخر: ما البلاغة؟ فقال: نشر الكلام بمعانيه إذا قصّر، وحسن التأليف له إذا طال.
وقيل لآخر: ما البلاغة؟ فقال: قرع الحجّة ودنو الحاجة.
وقيل لآخر: ما البلاغة؟ قال: الإيجاز في غير عجز، والإطناب في غير خطل.
وقيل لغيره: ما البلاغة؟ قال: إقلال في إيجاز، وصواب مع سرعة جواب.
قيل لليوناني: ما البلاغة؟ قال: تصحيح الأقسام واختيار الكلام.
وقيل لبعضهم: من أبلغ الناس؟ قال: من ترك الفضول واقتصر على الإيجاز.
وكان يقال: رسول الرجل مكان رأيه، وكتابه مكان عقله.
وقال جعفر بن محمد عليه السلام: سُمي البليغ بليغاً لأنه يبلِّغ حاجته بأهون سعيه.
وسئل بعض الحكماء عن البلاغة فقال: من أخذ معاني كثيرة فأداها بألفاظ قليلة، وأخذ معاني قليلة فولد منها لفظاً كثيراً، فهو بليغ.
وقالوا: البلاغة ما حسن من الشعر المنظوم نثره، ومن الكلام المنشور نظمته.
وقالوا: البلاغة ما كان من الكلام حسناً عند استماعه، موحزاً عند بديهته.
وقيل: البلاغة: لَمحة دالة على ما في الضمير.
وقال بعضهم: إذا كفاك الإيجاز فالإكثار عي، وإنما يحسن الإيجاز إذا كان هو البيان: ولبعضهم:

على كثير دليل

يحويه لفظ طويل

خير الكلام قليل

والعي معنى قصير

وقال بعض الكتاب: البلاغة معرفة الفصل من الوصل. وأحسن الكلام القصّد وإصابة المعنى.

قال الشاعر:

وأقصد فخير الناس من قصدًا

وإذا نطقت فلا تكن أشراً

وقال آخر:

فيسلم من ملام أو أثم

وما أحد يكون له مقال

وقال:

والمرء يصمت مرّة ويقول

الدهر ينقص تارة ويطول

والقولُ مختلفٌ إذا حصَّلتَه

وقال:

إذا وَضَحَ الصَّوَابَ فلا تَدَعُه

وجدتَ له على اللّهواتِ بَرْدًا

وقال آخر:

ليس شأنُ البليغِ إرساله القو

إنما شأنُه التَّنَطُّفُ لِلْمَع

بَعْضٌ يَرَدُّ وبعضُه مَقْبُول

فإنَّكَ كَلَّمَكَا ذُقْتَ الصَّوَابَا

كَبَّرَدَ الماءَ حينَ صَفَا وطابَا

لَ بَطُولِ الإسْهَابِ والإِكْثَارِ

نَيَّ بِحُسْنِ الإِيرَادِ والإِصْدَارِ

وجوه البلاغة

البلاغة تكون على أربعة أوجه: تكون باللفظ والخط والإشارة والدلالة، وكلٌّ منها له حظٌّ من البلاغة والبيان، وموضع لا يجوز فيه غيره، ومنه قولهم: لكل مقام مقال، ولكل كلام جواب، وربُّ إشارة أبلغ من لفظ. فأما الخطُّ والإشارة فمفهومان عند الخاصة أو أكثر العامة. وأما الدلالة: فكل شيء ذلك على شيء فقد أحبرك به، كما قال الحكيم: أشهد أن السموات والأرض آيات دالات، وشواهد قائمت، كلُّ يُوَدِّي عنك الحجَّة، ويشهد لك بالرُّبوبيَّة.

وقال آخر: سل الأرض " فقل": من شقَّ أمَّارك، وغرَّس أشجارك، وجنى ثمارك؛ فإن لم تُجيبك إخباراً، أحابتك اعتباراً. وقال الشاعر:

لقد جِئْتُ أبغِي لِنَفْسِي مُجِيرًا

فقال لي البحرُ إذ جِئْتَه

وقال آخر: نطقتُ عينه بما في الضمير وقال نُصِيبُ بن رباح:

فَجِئْتُ الجِبَالَ وجِئْتُ البُحُورَا

وكيف يُجِيرُ ضَرِيرٌ ضَرِيرَا

فَعَاجُوا فَأَتَتْهُمُ بِالذِي أَنْتَ أَهْلُهُ

ولو سَكْتُوا أَتَتْكَ عَلَيْكَ الحَقَائِبُ

يُرِيد: لو سكتوا لأتت عليك حقائب الإبل التي يحتملها الركب من هباتك. وهذا الثناء إنما هو بالدلالة لا باللفظ. وقال حبيب:

الدار ناطقةٌ وليست تتنطقُ

بدثورها أنَّ الجديد سيخلقُ

وهذا في قديم الشعر وحديثه، وطارف الكلام وتليده، أكثر من أن يُحيط به وصف، أو يأتي من ورائه نعت. وقال رجل للعنابي: ما البلاغة؟ قال: كل من بلغك حاجته وأفهمك معناه، بلا إعادة ولا حُبسة ولا استعانة، فهو بليغ. قالوا: قد فهما إعادة والحُبسة، فما معنى الاستعانة؟ قال: أن يقول عند مقاطع كلامه: أسمع مني، وأفهم عني، أو يمسح عُثُونَه، أو يفتل أصابعه، أو يُكثِر التفاته من غير مُوجب، أو يتساءل من غير سُعلة، أو ينهر في كلامه. وقال الشاعر:

مليءٌ ببهرٍ والتفاتٍ وسُعلة

ومسحةٌ عُثُونٍ وفتلٍ الأصابع

وهذا كله من العيِّ.

وقال أبرويز لكاتبه: اعلم أن دعائم المقالات أربع، إن التمس لها خامسة لم تُوجد، وإن نَقصت منها واحدة لم تتم، وهي: سؤالك الشيء، وسؤالك عن الشيء، وأمرُك بالشيء، وإخبارك عن الشيء. فإذا طلبت فأسجح، وإذا سألت فأوضح، وإذا أمرت فأحكم، وإذا أخبرت فحقق. وأجمع الكثير مما تريد في القليل مما تقول.

يريد الكلام الذي تَقِل حروفه، وتكثر معانيه.

وقال ربيعة الرائي: إني لأسمع الحديثَ عَطُلاً فأشئفه وأقرطه فيحسُن، وما زدت فيه شيئاً ولا غيرت له معنى.

وقالوا: خير الكلام ما لم يُحتج بعده إلى كلام.

"وقال يحيى: الكلام ذو فنون، وخيره ما وفق له القائل، وانتفع به السامع وللحسن بن جعفر:

عجبت لإدلال العيِّ بنفسه

وصمّت الذي قد كان بالحقّ أعلماً

وفي الصمّت سترٌ للعيِّ وإنما

صحيفة لبّ المرء أن يتكلما

وصف أعرابي بليغاً فقال: كأن الألسن رِيضتْ فما تَنَعَدِ إلا على وُدّه، ولا تَنطِق إلا ببيانه.

وصف أبو الوجيه بلاغة رجل فقال: كان والله يَشُول بلسانه شولان البروق ويتخلّل به تخلّل الحية".

وللعرب من مُوجز اللفظ ولطيف المعنى، فصول عَجيبية، وبدائع غريبة، وسنأتي على صَدْر منها إن شاء الله تعالى.

فصول من البلاغة

قدم فُتبية بن مُسلم خراسانَ والياً عليها فقال: مَنْ كان في يده شيء من مال عبد الله بن خازم فليُنْبِذْهُ، وإن كان في فيه فليَلْفِظْهُ، وإن كان في صدره فليَنفُثْهُ. فَعَجِبَ الناس من حُسن ما فصل.

وقيل لأبي السَّمّال الأَسدي أيام معاوية: كيف تركت الناس؟ قال: تركتهم بين مظلوم لا يَنصِف، وظالم لا يَنْتهي.

وقيل لشيب بن شيبَة عند باب الرّشيد: كيف رأيت الناس؟ قال: رأيت الداخلَ راجياً، والخارجَ راضياً.

وقال حسّان بن ثابت في عبد الله بن عباس:

إذا قال لم يترك مقالاً لقائل

بمَلتَقَطات لا نرى بينها فضلاً

كفي وشفي ما في النفوس ولم يدع

لذي إربة في القول جدّاً ولا هزلاً

ولقي الحسين بن عليّ رضوان الله عليهما الفرزدق في مسيره إلى العراق، فسأله عن الناس، فقال: القلوب معك، والسيوف عليك، والنصر في السماء. وقال مُجاشع النهشلي: الحق ثقيل، فمن بلغه اكتفي، ومن جاوزهُ اعتدى.

وقيل لأمير المؤمنين عليّ بن أبي طالب عليه السلام: كم بين المشرق والمغرب؟ فقال: مسيرة يوم للشمس؛ قيل له: فكم بين السماء والأرض؟ قال: مسيرة ساعة لدعوة مُستجابة.

وقيل لأعرابي: كم بين موضع كذا وموضع كذا؟ قال: بياض يوم وسواد ليلة.

وشكا قوم إلى المسيح عليه السلام ذنوبهم، فقال: اتركوها تُغفر لكم.

وقال عليّ بن أبي طالب رضي الله عنه: قيمة كل إنسان ما يحسن.

وقيل لخالد بن يزيد بن معاوية: ما أقرب شيء؟ قال: الأجل؛ قيل له: فما أبعد شيء؟ قال: الأمل؛ قيل له: فما أوحش شيء؟ قال: الميت؛ قيل له: فما آنس شيء؟ قال: الصاحب المواتي.

مرّ عمرو بن عُبيد بسارق يُقَطع، فقال: سارق السَّريرة يَقَطع سارق العلانية. وقيل للخليل بن أحمد: مالك تَرُوي الشَّعر ولا تُقوله؟ قال: لأني كالمِسْن، أَشْحذ ولا أَقَطع.

وقيل لعقيل بن علفمة: ما لك لا تُطيل الهجاء؟ قال: يكفيك من القلادة ما أحاط بالعنق.

ومرّ خالد بن صفوان برجل صلبه الخليفة، فقال: أثبتته الطاعة، وحصدته المعصية.

ومرّ أعرابي برجل صلبه السلطان، فقال: من طلق الدنيا فالآخرة صاحبتُه، ومن فارق الحق فالجذع راحلته.

ومن النطق بالدلالة ما حدّث به العباس بن الفرّج الرّياشي قال: نزل النعمان بن المنذر ومعه عدي بن زيد العبادي في ظل شجرة مورقة ليلهو النعمان

هناك، فقال له عدي: أبيت اللعن، أتدري ما تقول هذه الشجرة؟ قال: ما تقول؟ قال تقول:

رب شرب قد أناخوا حولنا

ثم أضحوّا عصف الدهر بهم

يمزجون الخمر بالماء الزلال

وكذاك الدهر حال بعد حال

فتنصص على النعمان ما هو فيه.

"وقال ابن الأعرابي: قلت للفضل: ما الإيجاز عندك؟ قال: حذف الفضول، وتقريب البعيد."

وقال رجل لخالد بن صفوان: إنك لتكثر؛ قال: أكثر لضرّين، أحدهما فيما لا تُغني فيه القلة، والآخر لتمرين اللسان، فإن حبسه يُورث العقلة.

وكان خالد بن صفوان يقول: لا تكون بليغاً حتى تُكلّم أمّك السوداء في الليلة الظلماء في الحاجة المهمة بما تتكلّم به في نادي قومك.

وإنما اللسان عضو إذا مرّته مرّن، وإذا تركته لکن، كاليد تُخشّنها بالممارسة، والبدن الذي تُقويّه برفع الحجر وما أشبهه، والرجل إذا عودت المشي مشيت.

وكان نوفل بن مُساحق إذا دخل على امرأته صمت، فإذا خرج عنها تكلم، فقالت له: إذا كنت عندي سكت، وإذا كنت عند الناس تنطق؟ قال: إني أجلّ عن ذيقك وتديقين عن حليلي.

وذكر شبيب بن شيبه خالد بن صفوان فقال: ليس له صديق في السرّ، ولا عدو في العلانية. وهذا كلام لا يعرف قدره إلا أهل صناعته.

"ووصف رجل آخر فقال: أتيناه فأخرج لسانه كأنه مخراق لالعاب.

ودخل معن بن زائدة على المنصور يُعارب خطوه، فقال المنصور: لقد كبرت سنك؛ قال: في طاعتك؛ قال: وإنك لجلد؟ قال: على أعدائك؟ قال: أرى فيك بقية؟ قال: هي لك.

وكان عبد الله بن عباس بليغاً، فقال فيه معاوية:

إذا قال لم يترك مقالاً ولم يقف

يُصرّف بالقول اللسان إذا انتحى

لعي ولم يثن اللسان على هجر

وينظر في أعطافه نظر الصقر

وتكلّم صعصعة بن صوحان عند معاوية فعرق، فقال له معاوية: بهرك القول، قال: الجياد نصّاحة بالعرق.

وكتب ابن سيابة إلى عمرو بن بانه: إن الدهر قد كَلَحَ فَجَرَحَ، وطَمَحَ فَجَمَحَ، وأفسد ما صلح، فإن لم تُغن عليه فَضَحَ.

ومدح رجل من طيء كلام رجل فقال: هذا الكلام يُكنفي بأولاه، ويُشئني بأخراه.

ووصف أعرابي رجلاً فقال: إن رفدك لنجیح، وإن خيرك لصريح، وإن منّك لمريح.

ودخل إياس بن معاوية الشام وهو غلام، فقدّم خصماً له إلى قاضٍ لعبد الملك، "وكان خصمه شيخاً كبيراً". فقال له القاضي: أتقدّم شيخاً كبيراً؟

فقال له إياس: الحق أكبر منه؟ قال له: اسكت، قال: فمن ينطق بحجتي؟ قال: ما أظنك تقول حقاً حتى تقوم؛ قال: أشهد أن لا إله إلا الله. فقام

القاضي فدخل على عبد الملك فأخبره بالخبر، فقال: اقض حاجته الساعة وأخرجه من الشام لا يُفسد عليّ الناس.

ومن الأسجاع قول ابن القريّة، وقد دُعي لكلام فاحتبس القول عليه فقال: قد طال السمر، وسقط القمر، واشتدّ المطر، فما أنتظر. فأجابه فتى من عبد القيس: قد طال الأرق، وسقط الشفق، فلينطق من نطق.

قال أحمد بن يوسف الكاتب: دخلت، على المأمون وبهده كتاب لعمر بن مسعدة، وهو يصعد في ذراه ويقوم مرّة ويقعد أخرى، ففعل ذلك مراراً ثم التفت إليّ فقال: أحسبك مفكراً فيما رأيت؟ قلت: نعم، وقى الله عزّ وجلّ أمير المؤمنين المكاره، فقال: ليس بمكروه، ولكن قرأت كلاماً نظير خير خبرني به الرشيد، سمعته يقول: إنّ البلاغة لتقارب من المعنى البعيد وتباعداً من حشو الكلام، ودلالة بالقليل على الكثير. فلم أتوهم أنّ هذا الكلام يستتب على هذه الصفة حتى قرأت هذا الكتاب، فكان استعظافاً على الجند وهو: كتابي إلى أمير المؤمنين أيده الله، ومن قبلي من أجناده وقواده في الطاعة والانقياد على أفضل ما تكون عليه طاعة جند تأخرت أرزاقهم واحتلت أحوالهم. فأمر بإعطائهم ثمانية أشهر.

ووقع جعفر البرمكي إلى كُتابه: إن استطعتم أن تكون كتبكم توفيعات فافعلوا.

وأمره هارون الرشيد أن يعزل أخاه الفضل عن الخاتم ويأخذه إليه عزلاً لطيفاً.

فكتب إليه: قد رأى أمير المؤمنين أن ينقل خاتم خلافته من يمينك إلى شمالك، فكتب إليه الفضل: ما انتقلت عني نعمة صارت إليك، ولا خصتك دوي.

ووقع جعفر في رُفعة رجل تنصل إليه من ذنب: تقدمت لك طاعة، وظهرت منك نصيحة، كانت بينهما نبوة، ولن تغلب سيئة حسنتين.

قال الفضل بن يحيى لأبيه: ما لنا نُسدي إلى الناس المعروف فلا نرى من السُرور في وجوههم عند انصرافهم بيّنا ما نراه في وجوههم عند انصرافهم بيّر غيرنا؟ فقال له يحيى: إن آمال الناس فينا أطول منها في غيرنا، وإنما يسر الإنسان بما بلغه أمله.

قيل ليحيى: ما الكرم؟ قال: ملك في زي مسكين؟ قيل: فما الفرعة؟ قال: مسكين في بطش عفرية؟ قيل: فما الجود؟ قال: عفو بعد قدرة.

أني المأمون برجل قد وجب عليه الحد، فقال وهو يضرب: قتلتني يا أمير المؤمنين؟ قال: الحق قتلك، قال: ارحمني، قال: لست أرحم بك ممن أوجب عليك الحد.

وسأل المأمون عبد الله بن طاهر في شيء، فأسرع في شيء، فقال له المأمون: فإن الله عزّ وجلّ قد قطع عُذر العجول بما مكّنه من الثبوت، وأوجب الحجة على القلق بما بصّره من فضل الأناة. قال: أتأذن لي يا أمير المؤمنين أن أكُتبه؟ قال: نعم، فكتبه.

قال إبراهيم بن المهديّ قال لي المأمون: أنت الخليفة الأسود؟ قلت: يا أمير المؤمنين، أنت مننت عليّ بالعفو، وقد قال عبد بني الحسحاس:

عند الفخار مقام الأصل والورق

أو أسود الجلد إني أبيض الخلق

أشعار عبد بني الحسحاس قمن له

إن كنت عبداً فنفسى حرّة كراماً

فقال المأمون: يا عم، خرّجك الهزل إلى الحد، ثم أنشأ يقول:

ولا بالفتى الأديب الأريب

فبيّاض الأخلاق منك نصيبي

ليس يُزري السواد بالرجل الشهم

إن يكن للسواد منك نصيب

قال المأمون: أستحسن من قول الحكماء: الجود بذل الموجد، والبخل بطر بالمعبود عزّ وجلّ.

قالت أم جعفر زبيدة بنت جعفر للمأمون حين دخلت عليه بعد قتل ابنها: الحمد لله الذي ادّخرك لي لما أتكّلني ولدي، ما تكّلت ولداً كنت لي عوضاً منه. فلما خرجت قال المأمون لأحمد بن أبي خالد: ما ظننت أن نساء جُبلن على مثل هذا الصبر.

وقال أبو جعفر لعمر بن عبّيد: أعني بأصحابك يا أبا عثمان، قال: ارفع علم الحقّ يتبعك أهله.

آفات البلاغة

قال محمد بن منصور كاتب إبراهيم، وكان شاعراً راوياً وطالبا للنحو علامة، قال سمعتُ أبا دُواد "بن جرير الإيادي"، وجرى شيء من ذكر الخطب وتمييز الكلام، فقال: تلخيص المعاني رفق، والاستعانة بالعريب عجز، والتشادق في غير أهل البادية نقص، والنظر في عيون الناس عي، ومس اللحية هلع، والخروج عما بُني عليه الكلام إسهاب.

قال: وسمعتُه يقول: رأس الخطابة الطبع، وعمودها الدربة، "وجناحها رواية الكلام"، وحليها الإعراب، وبهاؤها تخير اللفظ، والمحبة مقرونة بقله الاستكراه. وأنشدني بيتاً في خطباء إباد:

يرمون بالخطب الطوال وتارة

وحي الملاحظ خيفة الرقباء

وقال ابن الأعرابي: قلت للفضل: ما الایجاز عندك؟ قال: حذف الفضول، وتقريب البعيد. وتكلم ابن السمّاك يوماً وجارية له تسمع "كلامه"، فلما دخل "إليها" قال لها: كيف سمعت كلامي؟ "قالت: ما أحسنه! لولا أنك تُكثر تردّاده! قال: أردده حتى يفهمه، من لم يفهمه؟" قالت: إلى أن تفهمه من لم يفهمه يكون "قد" مله من فهمه.

باب الحلم ودفع السيئة بالحسنة

قال الله تبارك وتعالى: "وَلَا تَسْتَوِي الْحَسَنَةُ وَلَا السَّيِّئَةُ ادْفَعْ بِالَّتِي هِيَ أَحْسَنُ فَإِذَا الَّذِي بَيْنَكَ وَبَيْنَهُ عَدَاوَةٌ كَأَنَّهُ وَلِيٌّ حَمِيمٌ. وَمَا يُلْقَاهَا إِلَّا الَّذِينَ صَبَرُوا وَمَا يُلْقَاهَا إِلَّا ذُو حِظٍّ عَظِيمٍ".

وقال رجل لعمرو بن العاص: والله لأتفرغن لك، قال: هنالك وقعت في الشغل؟ قال: كأنك تهددني، والله لمن قلت لي كلمة لأقولن لك عشرًا، قال: وانت والله لمن قلت لي عشرًا لم اقل لك واحدة وقال رجل لأبي بكر رضي الله عنه: والله لأسببك سبًا يدخل القبر معك؟ قال: معك يدخل لا معي. وقيل لعمرو بن عبّيد: لقد وقع فيك اليوم أيوب السخّتياني حتى رحمتك، قال: إياه فارحموا. وشتم رجل الشّعبيّ، فقال له: إن كنت صادقاً فغفر الله لي، وإن كنت كاذباً فغفر الله لك.

وشتم رجل أبا ذرّ فقال: يا هذا، لا تُعرق في شتمنا ودع للصّح مَوْضِعاً، فإننا لا نُكافيء من عمى الله فينا بأكثر من أن نُطيع الله فيه.

ومرّ المسيح بن مرّيم عليه الصلاة والسلام بقوم من اليهود، فقالوا له شرّاً، فقال خيراً؛ فقيل له: إنهم يقولون شرّاً وتقول لهم خيراً؟ فقال: كل واحد يُنفق مما عنده.

وقال الشاعر:

ثالبني عمرو وثالبته

فأثم المتلّوب والثالب

قلت له خيراً وقال الخنى

كل على صاحبه كاذب

وقال آخر.

وذي رحم قلمت أظفار ضغنه

بحلمي عنه حين ليس له حلم

إذا سُمته وصل القرابة سامني

قطبعتها تلك السفاهة والائتم

فداويته بالحلم والمرء قادر

على ستهمة ما كان في كفه السهم

"وعن النبي صلى الله عليه وسلم: ما تجرع عبد في الدنيا جرعة أحب إلى الله من جرعة غيظ ردها بحلم، أو جرعة موصية ردها بصبر" وكتب رجل إلى صديق له، وبلغه أنه وقع فيه:

لئن ساعني أن نلتني بمساءةٍ

وأنشد طاهر بن عبد العزيز:

إذا ما خليلي أسا مرةً

ذكرت المقدم من فعله

لقد سررتني أنني خطرتُ ببالك

وقد كان فيما مضى مُجملاً

فلم يفسد الآخرُ الأولا

صفة الحلم وما يصلح له

قيل للأحنف بن قيس: ممن تعلّمت الحلم؟ قال: من قيس بن عاصم المنقريّ، رأيته فاعداً بفناء داره مُحْتَبياً بمماثل سيّفه يُحدّث قومه؟ حتى أتى برجل مكتوف ورجل مقتول، فقيل له: هذا ابن أخيك قتل ابنك؟ فوالله ما حلّ حبّوته، ولا قطع كلامه، ثم التفت إلى ابن أخيه فقال له: يا بن أخي، أئمت ربّك، ورميت نفسك بسهمك، وقتلت ابن عمك. ثم قال لابن له آخر: قم يا بني فوار أخاك، وحلّ كتاف ابن عمك، وسُق إلى أمّه مائة ناقة دية ابنها فإنها غريبة، ثم أنشأ يقول:

إني امرؤ لا شأنٌ حسبي

من منقرٍ في بيت مكرمة

خطباء حي يقول قائلهم

لا يفطنون لعيب جارهم

دَنَس يهجنه ولا أفنُ

والغصن يَنْبُت حوله الغصن

بيض الوجوه أعفه لسن

وهم لحفظ جواره فطنُ

وقال رجل للأحنف بن قيس: علمني الحلم يا أبا بحر، قال: هو الذلّ يا بن أخي، أفنصبر عليه؟ وقال الأحنف: لستُ حليماً ولكنّي أتحمّل. وقيل "له": من أحلم: أنت أم معاوية؟ قال: تا لله ما رأيتُ أجهلَ منكم، إن معاويةَ يقدّر فيحلم، وأنا أحلم ولا أقدر، فكيف أفاست عليه أو أدانيه! وقال هشام بن عبد الملك لخالد بن صفوان: بم بلغ فيكم الأحنف ما بلغ؟ قال: إن شئتَ أخبرتك بحلّة، وإن شئتَ بخلتين، وإن شئتَ بثلاث قال: فما الحلّة؟ قال: كان أقوى الناس على نفسه قال: فما الخلتان؟ قال: كان موقّي الشر مُلقّي الخير؟ قال: فما الثلاث؟ قال: كان لا يجهل ولا يبغى ولا يئخل.

وقيل لقيس بن عاصم: ما الحلم؟ قال: أن تصل من قطعك، وتُعطي من حرّمك، وتعفو عمن ظلمك.

وقالوا: ما قرن شيء إلى شيء أزين من حلم إلى علم، ومن عفو إلى قدرة.

وقال لقمان الحكيم: ثلاثة لا تعرفهم إلا في ثلاثة: لا تعرف الحليم إلا عند الغضب، ولا الشجاع إلا عند الحرب، ولا تعرف أخاك إلا إذا احتجت إليه.

وقال الشاعر:

ليست الأحلام في حي الرضا

وفي الحديث. أقرب ما يكون المرء من غضب الله إذا غضب.

وقال الحسن: المؤمن حليم لا يجهل وإن جهل عليه، وتلا قول الله عز وجل: "وإذا خاطبهم الجاهلون قالوا سلاماً".

وقال معاوية: إني لأستحي من ربي أن يكون ذنب أعظم من عفوي، أو جهل أكبر من حلمي، أو عورة لا أوارئها بستري.

وقال مؤرّق العجلي: ما تكلمت في الغضب بكلمة ندمت عليها في الرضا. وقال يزيد بن أبي حبيب: إنما غضبي في نعلي، فإذا سمعت ما أكره أخذتهما ومضيت.

وقالوا: إذا غَضِبَ الرجلُ فَلْيَسْتَلِقْ على قفاه، وإذا عَيِيَ فَلْيَرَاوِحْ بين رِجْلَيْهِ.
 وقيل للأحنف: ما الحِلمُ؟ فقال: قول إن لم يكن فعل، وصمّت إن ضرّ قول.
 وقال "أمير المؤمنين" عليّ بن أبي طالب رضي الله عنه: من لانت كلمته، وجبت محبته.
 وقال: حلمك على السفيه يكثر أنصارك عليه.
 وقال الأحنف: من لم يصبر على كلمة سمع كلمات.
 وقال: رب غيظ تجرعه مخافة ما هو أشد منه، وأنشد:

رَضِيْتُ بِبَعْضِ الدَّلِّ خَوْفَ جَمِيعِهِ **كذلك بعض الشر أهون من بعض**

وأسمع رجل عمر بن عبد العزيز بعض ما يكره، فقال: لا عليك، إتما أردت أن يستفزني الشيطان بعزة السلطان، فأنا لك منك اليوم ما تناله مني غداً، انصرف إذا شئت.
 وقال الشاعر في هذا المعنى:

لَنْ يَدْرِكَ المَجْدَ أَقْوَامٌ وَإِنْ كَرُمُوا **حتى يذلوا وإن عزوا لأقوام**
وَيُسْتَمَوُا فَتَرَى الأَلْوَانَ كَاسِفَةً **لا ذل عجز ولكن ذل أحلام**

ولآخر:

إِذَا قِيلَتِ العوراءُ أغضى كأنه **دليل بلا ذل ولو شاء لانتصر**
وأحسن بيت في الحلم قول كعب بن زهير:
إِذَا أَنْتَ لَمْ تُعْرِضِ عَنِ الجَهْلِ والخَنِى **أصبحت حليماً أو أصابك جاهل**

وقال الأحنف آفة الحلم الذل.
 وقال: لا حلم لمن لا سفيه له.
 وقال: ما قل سفهاء قوم إلا ذلوا. وأنشد:

لا يَدُّ للِسُودِّدِ مِنَ رِمَاحِ **ومن رجال مصلتي السلاح**
يُدَافِعُونَ دُونَهُ بِالرَّاحِ **ومن سفيه دائم النباح**

وقال التابع الجعدي:

ولا خير في حلمٍ إذا لم تكن له **بوادر تحمي صفوه أن يكدر**
"ولا خير في جهلٍ إذا لم يكن له **حليم إذا ما أورد الأمر أصدر"**

ولما أنشد هذين البيتين للنبي صلى الله عليه وسلم، قال: لا يفضض الله فاك، " قال: " فعاش مائة وثلاثين سنة لم تنعص له نية.

وقالوا: لا يظهر الحلم إلا مع الانتصار، كما لا يظهر العفو إلا مع الاقتدار.
 وقال الأصمعي: سمعت أعرابياً يقول: كان سنان بن أبي حارثة أحلم من فرخ الطائر؛ قلت: وما حلم فرخ الطائر؟ قال: إنه يخرج من بيضة في رأس نيق ولا يتحول حتى يتوفر ريشه، ويقوى على الطيران.
 "وللأشنداني:

وفي اللين ضعفٌ والشراسة هيبة **ومن لا يهيب يحمل على مركب وعر**

وللفقر خيرٌ من غنى في دناءةٍ

وما كلُّ حينٍ يَنْفَعُ الحِلْمَ أهْلَهُ

وما بي على من لان لي من فظاظَةٍ

وقال آخر في مدح الحِلْمِ:

إني أرى الحِلْمَ مَحْمُوداً عواقبه

ولسابق:

ألم ترَ أن الحِلْمَ زَيْنٌ مُسَوِّدٌ

فكن دافناً للجهل بالحِلْمِ تَسْتَرِح

ولغيره:

الآ إن حِلْمَ المرءِ أكبرُ نِسْبَةٍ

فيا ربِّ هَبْ لي منك حِلْماً فإِنني

وقال بعضُ الحكماء: ما حَلَا عِنْدِي أَفْضَلُ مِنْ غِيْظٍ أَتَجَرَّعُهُ.

وقال بعضهم:

وفي الحِلْمِ رَدْعٌ لِلسَّقِيهِ عَنِ الأَذَى

فَتَنْتَدِمَ إِذْ لا تَنْفَعُكَ نَدَامَةٌ

وقال علي عليه السلام: أوَّلُ عَوْضِ الحَلِيمِ عَنِ حِلْمِهِ أَنْ النَّاسَ أَنْصَارُهُ عَنِ الجَاهِلِ.

سُئِلَ كِسْرَى أَنْوَ شَرِوَانَ: مَا قَدَّرَ الحِلْمُ؟ فَقَالَ: وَكَيْفَ تُعْرِفُ قَدْرَ مَا لَمْ يَرَ كَمَالَهُ أَحَدٌ.

وقال معاوية لخالده بن المعمر: كَيْفَ حُبُّكَ لِعَلِيِّ بْنِ أَبِي طَالِبٍ عَلَيْهِ السَّلَامُ؟ قَالَ: أَحِبُّهُ لثَلَاثِ خِصَالٍ: عَلِيٌّ حِلْمُهُ إِذَا غَضِبَ، وَعَلِيٌّ صِدْقُهُ إِذَا قَالَ، وَعَلِيٌّ وَفَاةٌ إِذَا وَعَدَ.

وكان يُقال: ثَلَاثٌ مَنْ كُنَّ فِيهِ اسْتَكْمَلُ الإِيمَانِ: مَنْ إِذَا غَضِبَ لَمْ يُخْرِجْهُ غَضَبُهُ عَنِ الحَقِّ، وَمَنْ إِذَا رَضِيَ لَمْ يُخْرِجْهُ رِضَاؤُهُ إِلَى الظُّلْمِ وَالبَاطِلِ، وَمَنْ إِذَا قَدَّرَ لَمْ يَتَنَاوَلْ مَا لَيْسَ لَهُ.

وقال عمرُ بن الخطابِ رضي اللهُ عنه: إِذَا سَمِعْتَ الكَلِمَةَ تُؤْذِيكَ فَطَأْطِئْ لَهَا حَتَّى تَتَخَطَّأَكَ.

وقال الحسنُ: إِنَّمَا يُعْرِفُ الحِلْمَ عِنْدَ العُصْبِ. فَإِذَا لَمْ تُغْضَبْ لَمْ تُكُنْ حَلِيمًا وَقَالَ الشَّاعِرُ:

وَلَيْسَ يَتِمُّ الحِلْمُ لِلْمَرْءِ رَاضِيًا

كَمَا لا يَتِمُّ الجُودُ لِلْمَرْءِ مُوسِرًا

وقال بعضُ الحكماء: إِنَّ أَفْضَلَ وَادِ ثُرَى بِهِ الحِلْمُ، فَإِذَا لَمْ تُكُنْ حَلِيمًا فَتَحَلِّمْ، فَإِذَا لَمْ تُكُنْ عَلِيمًا فَتَعَلِّمْ، فَقَلِّمًا تُشَبِّهُ رَجُلٌ بَقَوْمٍ إِلا كَانَ مِنْهُمْ. وَقَالَ بَعْضُهُمْ: الحِلْمُ عِدَّةٌ عَلَى السَّقِيهِ، لِأَنَّكَ لا تُقَابِلُ سَفِيهًا بِالإِعْرَاضِ عَنْهُ وَالإِسْتِخْفَافِ بِفِعْلِهِ إِلا أَذَلَّتْهُ.

ويقال: لَيْسَ الحَلِيمُ مَنْ ظَلَمَ فَحَلَّمْ حَتَّى إِذَا قَدَّرَ اتَّقَمَ، وَلَكِنَّ الحَلِيمَ مَنْ ظَلَمَ فَحَلَّمْ ثُمَّ قَدَّرَ فَعَفَا.

وللأحنف أو غيره:

وَلَلْمَوْتُ خَيْرٌ مِنْ حَيَاةٍ عَلَى صُغُرٍ

وَلا كُلُّ حَالٍ يَقْبَحُ الجَهْلُ بِالصَّبْرِ

وَلَكُنْتُ فِظًّا أَبِيَّ عَلَى القَسْرِ

وَالجَهْلُ أَفْنَى مِنَ الأَقْوَامِ أَقْوَامًا

لصاحبه وَالجَهْلُ لِلْمَرْءِ شَائِنٌ

مِنَ الجَهْلِ إِنْ الحِلْمَ لِلجَهْلِ دَافِنٌ

يُسَامِي بِهَا عِنْدَ الفَخَارِ كَرِيمٌ

أَرَى الحِلْمَ لَمْ يَنْدَمْ عَلَيْهِ حَلِيمٌ

وَفي الخُرُقِ إِغْرَاءٌ فَلا تَكُ أَخْرَقًا

كَمَا نَدِمَ المَغْبُونُ لَمَّا تَفَرَّقَا

ولربما ضحك الحليم من الأذى

ولربما شكّل الحليم لسانه

وقيل: ما استتبّ اثنان إلا غلب ألامهما.

وقال الأحنف: وجدتُ الحلم أنصر لي من الرجال.

وقال بعضهم: إياك وعزة العصب فإنها تصيرك إلى ذل الاعتذار.

وقيل: من حلم ساد، ومن تفهم ازداد.

وقال الأحنف: ما نازعي أحد قط إلا أخذتُ أمري بإحدى ثلاث: إن كان فوقني عرفتُ قدره، وإن كان دُوني أكرمتُ نفسي عنه، وإن كان مثلي

تفضّلتُ عليه. ولقد أحسن الذي أخذ هذا المعنى فنظّمه فقال:

أبيتُ لنفسي أن تُقارع بالجهل

هويتُ لصفحي أن يُضاف إلى العدل

عرفت له حقّ التقدم والفضل

إذا كان دُوني من بلّيت بجهله

وإن كان مثلي ثم جاء بزلّة

وان كنت أدنى منه قدراً ومنصباً

وفي مثله قال بعض الشعراء:

وإن كثرت منه إليّ الجرائمُ

شريفٌ ومشروفٌ ومثلٌ مقاومٌ

وأتبع فيه الحقّ والحقّ قائمٌ

إجابته نفسي وإن لأمّ لائمٌ

تفضّلت إنّ الفضل للحُرّ لازمٌ

سألزِم نفسي الصّحّ عن كل مُذنبٍ

ولا الناس إلا واحدٌ من ثلاثة

فأما الذي فوقني فأعرف فضله

وأما الذي دوني فإن قال صنّت عن

وأما الذين مثلي فإن زلّ أو هفأ

ولأصرم بن قيس، ويُقال إنّما لعليّ عليه السلام:

أصمّ عن الكلم المحفظات

وإني لأترك جُلّ الكلام

إذا ما اجتررتُ سفاه السفيه

فلا تغترّر برؤاء الرجال

فكم من فتى يُعجب الناظرين

ينام إذا حضر المكرّمات

وللحسن بن رجاء:

وأحلم والحلم بي أشبه

لئلا أجاب بما أكره

عليّ فإنّي أنا الأسفه

وما زخرّفوا لك أو موهوا

له السنُّ وله أوّجه

وعند الدّناءة يستنّبه

أحبُّ مكارم الأخلاق جهدي

وأصقّح عن سباب الناس حلماً

وأكره أن أعيب وأن أعابا

وشرُّ الناس من يهوى السبابا

وَمَنْ هَابَ الرَّجَالَ تَهَيَّبُوهُ

وَمَنْ قَضَتْ الرَّجَالَ لَهُ حُقُوقًا

وقال محمد بن عليّ رضوان الله عنهما: مَنْ حَلُمَ وَفَى عَرِضَهُ، وَمَنْ جَادَتْ كَفَّهُ حَسُنَ ثَنَاؤُهُ، وَمَنْ أَصْلَحَ مَالَهُ اسْتَعْنَى، وَمَنْ احْتَمَلَ الْمَكْرُوهَ كَثُرَتْ مَحَاسِنُهُ، وَمَنْ صَبَرَ حُمِدَ أَمْرُهُ، وَمَنْ كَظَمَ غَيْظَهُ فَشَا إِحْسَانَهُ، وَمَنْ عَفَا عَنِ الذُّنُوبِ كَثُرَتْ أَيَادِيهِ، وَمَنْ اتَّقَى اللَّهَ كَفَاهُ مَا أَهَمَّهُ.

وسأل أمير المؤمنين عليّ عليه السلام كبيراً من كُبراء الفُرس: أيُّ شيءٍ مُلُوككم كان أحمدَ عندكم؟ قال: كان لأردشِير فضل السَّبْقِ في المملكة، غير أنّ أحمدَهم سيرة أنو شروان. قال: فأَيُّ أخلاقه كان أغلبَ عليه؟ قال: الحلم والأناة. قال: هما توأمان يُنتجهما علُوُ الهمة. ولحمود بن الحسن الوراق:

إِنِّي وَهَبْتُ لِظَالِمِي ظُلْمِي

وَرَأَيْتُهُ أَسَدَى إِلَيَّ يَدَا

رَجَعَتْ إِسَاءَتُهُ عَلَيْهِ وَإِح

وَعَدُوتُ ذَا أَجْرٍ وَمَحْمَدَةَ

وَكأْنَا إِحْسَانُ كَانَ لَهُ

مَا زَالَ يَظْلَمُنِي وَأَرْحَمَهُ

ولمحمد بن زياد يَصِفُ حُلَمَاءَ:

نَخَالُهُمْ فِي النَّاسِ صُمًّا عَنِ الْخَنَى

وَمَرْضَى إِذَا لُوقُوا حَيَاءً وَعِفَّةً

كَأَنَّ لَهُمْ وَصْمًا يَخَافُونَ عَارَهُ

وله أيضاً:

وَأَرْفَعُ نَفْسِي عَنِ نَفُوسٍ وَرَبْمَا

وَإِنْ رَامَنِي يَوْمًا حَسِيسٌ بِجَهْلِهِ

قال وهب: مَكْتُوبٌ فِي الْإِنْجِيلِ: لَا يَنْبَغِي لِإِمَامٍ أَنْ يَكُونَ جَائِرًا وَمَنْهُ يُلْتَمَسُ الْعَدْلُ، وَلَا سَفِيهًا وَمَنْهُ يُقْتَبَسُ الْحِلْمُ. ولبعضهم:

وَإِذَا اسْتَشَارَكَ مَنْ تَوَدَّ فَقُلْ لَهُ

وَاعْلَمْ بِأَنَّكَ لَنْ تَسُودَ وَلَنْ تَرَى

وقال آخر:

وَكَنْ مَعْدِنًا لِلْحِلْمِ وَاصْفَحْ عَنِ الْأَذَى

وَأَحْبِبْ إِذَا أُجِبْتَ حُثًّا مُقَارِبًا

وَمَنْ حَقَرَ الرَّجَالَ فَلَنْ يُهَابَا

وَلَمْ يَقْضِ الْحُقُوقَ فَمَا أَصَابَا

وَعَفَرْتُ ذَاكَ لَهُ عَلَى عِلْمٍ

لَمَّا أَبَانَ بِجَهْلِهِ حِلْمِي

سَانِي إِلَيَّ مُضَاعَفَ الْغَنَمِ

وَعَدَا بِكَسْبِ الظُّلْمِ وَالْإِثْمِ

وَأَنَا الْمُسِيءُ إِلَيْهِ فِي الْحُكْمِ

حَتَّى رَثَيْتُ لَهُ مِنَ الظُّلْمِ

وَخُرُسًا عَنِ الْفَحْشَاءِ عِنْدَ التَّهَاجُرِ

وَعِنْدَ الْحِفَاطِ كَاللُّيُوثِ الْخَوَادِرِ

وَمَا ذَاكَ إِلَّا لِاتِّقَاءِ الْمَعَايِرِ

تَذَلَّلْتُ فِي إِكْرَامِهَا لِنَفُوسٍ

أَبَى اللَّهُ أَنْ أَرْضَى بِعَرِضِ حَسِيسٍ

قال وهب: مَكْتُوبٌ فِي الْإِنْجِيلِ: لَا يَنْبَغِي لِإِمَامٍ أَنْ يَكُونَ جَائِرًا وَمَنْهُ يُلْتَمَسُ الْعَدْلُ، وَلَا سَفِيهًا وَمَنْهُ يُقْتَبَسُ الْحِلْمُ. ولبعضهم:

أَطْعِ الْحَلِيمَ إِذَا الْحَلِيمُ نَهَاكَ

سُبُلَ الرَّشَادِ إِذَا أَطْعَمَ هَوَاكَ

فَإِنَّكَ رَأَيْتَ مَا عَمَلْتَ وَسَامِعَ

فَإِنَّكَ لَا تَدْرِي مَتَى أَنْتَ نَازِعٌ

باب السود

قيل لَعْدِي بنِ حاتم: ما السودد؟ قال: السيد الأحمق في ماله، الدليل في عرضه، المُطْرَحَ لِحِقْدِهِ. وقيل لَقَيْسِ بنِ عاصم: بِمِ سَوْدِكَ قَوْمُكَ؟ قال: بِكَفِّ الأذَى، وَبِذَلِّ النَّدى، وَنَصْرِ المولى. وقال رجلٌ للأحنف، بمِ سَوْدِكَ قَوْمُكَ وما أنت بأشرفهم بيتاً، ولا أَصْبَحهم وَجْهاً، ولا أَحْسَنهم خُلُقاً؟ قال: بخلاف ما فيك يا بنِ أخي، قال: وما ذاك؟ قال: بتركي من أَمْرِكَ ما لا يَعْنِينِي كما عنك من أَمْرِي ما لا يَعْنِيكَ. وقال عمرُ بنِ الخطابِ رضي الله عنه لرجل: مَنْ سَيِّدُ قَوْمِكَ؟ قال: أنا؛ قال: كذبت لو كنتَ كذلك لم تُقَلِّه. وقال ابن الكَلْبِيِّ: قَدِمَ أوسُ بنُ حارثةَ بنِ لأمِ الطائي وحاتمُ بنُ عبدِ الله الطائي على النُّعمانِ بنِ المنذر، فقال لإياس بنِ قَبِيصةِ الطائي: أيهما أَفضل؟ قال: أبيت اللعن أيها الملك. إنِّي من أحدهما، ولكنَّ سَلْهُما عن أنْفُسهما فإِهما يُخْبِرانك. فدخل عليه أوسُ، فقال أنت أَفضلُ أم حاتم؟ فقال: أبيت اللعن، إنَّ أدنَ ولدِ حاتمِ أَفضلُ مِنِّي، ولو كنتُ أنا وولدي ومالي لحاتمِ لأَنْهَبنَا في غَدَاةِ واحدة. ثم دخل عليه حاتم، فقال له: أنت أَفضلُ أم أوسُ؟ فقال: أبيت اللعن، إنَّ أدنَ ولدِ لأوسِ أَفضلُ مِنِّي. فقال النُّعمانُ: هذا واللهِ السُّودد، وأمر لكل واحد منهما بمائة من الإبل. وسأل عبدُ الملكِ بنِ مروانَ رُوحَ بنَ زُبَيعَ عن مالكِ بنِ مِسمع، فقال: لو غَضِبَ مالِكُ لَغَضِبَ معه مائةُ ألفِ سيفٍ لا يسأله واحدٌ منهم: لم غضبت؟ فقال عبدُ الملكِ: هذا واللهِ السودد.

أبو حاتم عن العُتْبِيِّ قال: أهدى ملكُ اليمنِ سبعَ جزائرٍ إلى مكة، وأوصى أن يَنْحَرها عَزْرُ قَرَشِيٍّ بها، فأنت وأبو سفيانِ عَرُوسِ بَهِند، فقالت له هُند: يا هذا، لا تَشْغَلِكِ التَّسَاءُ عن هذه الأكرومة التي لعلك أن تُسْبِقَ إليها؛ فقال لها: يا هذه، ذري زَوْجَكَ وما اختار لنفسه، فوالله لا نحرها أحدٌ إلا نحرته. فكانت في عُقْلها حتى خَرَجَ إليها بعد السابعِ فَتَحَرها.

ونظر رجلٌ إلى معاوية، وهو غلامٌ صغير، فقال: إني أَظنُّ أن هذا الغلامِ سَيَسُودُ قَوْمَهُ، فسمعتُه أمه هُندُ فقالت: ثكلته إذا إن لم يسُدْ غيرَ قومه. وقال الهيثم بنِ عَدِيٍّ: كانوا يقولون: إذا كان الصبي سابل العُرَّة، طويل العُرَّة، مُلتاث الإزرة، فذاك الذي لا يُشْكُ في سُودده. ودخل ضَمْرَةُ بنِ ضَمْرَةَ على النُّعمانِ بنِ المنذر، وكانت به دَمَامَةٌ شديدة، فالتفت النُّعمانُ إلى أصحابه، وقال: تَسْمَعُ بالمُعَيْدِيِّ خَيْرَ من أن تراه. فقال: أيها الملك، إنما المرء بأصغريه قلبه ولسانه، فإن قال قال بِييان، وإن قاتل قاتل بَجَنان قال: صدقت، وبِحَقِّ سَوْدِكَ قَوْمُكَ. وقيل لَعْرَابَةِ الأوسِيِّ: بِمِ سَوْدِكَ قَوْمُكَ؟ قال: بأربعِ خلال: أَنْتَدِعَ لهم في مالي، وأذِلَّ لهم في عَرَضِي، ولا أَحْقِرَ صغيرهم، ولا أَحْسُدُ كبيرهم. وفي عَرَابَةِ الأوسِيِّ يقول الشَّمَّاحُ، وهو "ابنِ ضَرَّارِ:

رَأَيْتُ عَرَابَةَ الأوسِيِّ يَسْمُو

إلى الخَيْرَاتِ مُنْقَطِعِ القَرِينِ

إِذَا ما رَأَيْتُ رُفْعَتَ لِمَجْدٍ

تَلَقَّاهَا عَرَابَةَ باليَمِينِ

وقالوا: يسود الرجل بأربعة أشياء: بالعقل والأدب والعلم والمال.

وكان سلم بنُ نوفلِ سَيِّدَ بني كِنانة فَوَثِبَ رجلٌ على ابنه وابنِ أخيه، فَجَرَحَهما، فَأُتِيَ به، فقال "له: ما أَمْنُكَ من انتقامي؟ قال: فلمِ سَوْدُناكَ إذا، إلا أن تَكْظُمَ العَيْظَ، وتَحْتَلِمَ عن الجاهل، وتَحْتَمِلَ المكروه، فَخَلَّى سبيلَهُ، فقال فيه الشاعر:

يَسُودُ أَقْوامٌ وَليسُوا بِسَادَةِ

بَلِ السَيِّدِ الصَّنَدِيدِ سَلَمُ بنِ نَوْفَلِ

وقال ابن الكَلْبِيِّ: قال لي خالدُ العَنْبَرِيُّ: ما تُعَدُّون السُّودد؟ قلت: أمّا في الجاهليَّةِ فالرِّياسة، وأمّا في الإسلامِ فالوِلاية، وخَيْرٌ من ذا وذاك التَّقوى؛ قال: صدقت؛ كان أبي يقول: لم يُدْرِكِ الأوَّلُ الشرفَ إلا بالعقل، ولم يُدْرِكِ الآخِرُ إلا بما أَدْرَكَ به الأوَّلُ قلتُ له: صدق أبوك، إنما ساد الأحنف بن قيسٍ بحُلْمه، ومالك بن مِسمعٍ بِحُبِّ العَشيرةِ له، وقُتَيْبَةُ بنِ مُسلمٍ بِدَهاثه، وساد المُهَلَّبُ بِهذه الخِلالِ كُلِّها. الأصمعي قال: قيل لأعرابيِّ يقال له مُنْتَجِعُ بنِ

نَبَّهَان: ما السَّمِيدُ؟ قال: السَّيِّدُ المُوَطَّأُ الأَكْناف.

وكان عمر بن الخطاب " رضي الله عنه " يُفَرِّشُ له فِرَاشٌ في بَيْتِهِ في وَقْتِ خِلافتِهِ، فلا يجلس عليه أحدٌ إلا العَبَّاسُ بن عبد المطلب، وأبو سُفْيَان بن حَرْب. وقال النبي صلى الله عليه وسلم لأبي سُفْيَان: كل الصيد في جَوْفِ الفَرَأ. والفَرَأ: الحِمَارُ الوَحْشِي، وهو مَهْمُوز، وجمعه فِرَاء، ومعناه: أنه في الناس مثل الحمار الوحشي في الوحش.

ودخل عمرو بن العاص مكة، فرأى قوماً من قُرَيْشٍ قد تحلَّقوا حلقةً، فلما رأوه رموا بأبصارهم إليه، فعَدَلَ إليهم، فقال: أَحْسَبُكُمْ كُنْتُمْ في شيء من ذِكْرِي؟ قالوا: أجل، كنا نُمَاتِلُ بينك وبين أحيك هِشام، أيكما أفضل. فقال عمرو: إن لهشام عليّ أربعةٌ: أمه ابنة هِشام بن المغيرة، وأمِّي من قد عَرَفْتُمْ؟ وكان أحبَّ الناس إلى أبيه منِّي، وقد عَرَفْتُمْ مَعْرِفَةَ الوالد؛ وأسَلَمَ قبلي، واستشهِدَ وبقيتُ.

قال قيس بن عاصم لِنَبِيِّهِ لما حضرته الوفاة: " يا بَنِي "، احفظوا عَنِّي فلا أحدٌ أنصح لكم منِّي، أمَّا إذا أنامتُ فسودُّوا كِبَارَكُم ولا تُسودُّوا صغارَكُم، فيحقر الناسُ كِبَارَكُم.

وقال الأحنف بن قيس: السُّودد مع السُّواد.

وهذا المعنى يحتمل وجهين من التفسير: أحدهما، أن يكون أراد بالسواد سوادَ الشعر، يقول: من لم يسُدْ مع الحدائث لم يسُدْ مع الشيخوخة. والوجه الآخر أن يكون أراد بالسواد سوادَ الناسِ وذَهْماءَهُم، يقول: من لم يَطِرْ له اسمٌ على السنة العامة بالسُّودد لم ينفعه ما طار له في الخاصة. وقال أبان بن مَسْلَمَةَ:

يُرَى ما لها ولا تُحَسَّ فَعَالِهَا

ومَسَعَاتِنَا ذُبِيانُ طُرّاً عِيالِهَا

المهثم بن عديّ قال: لما انفرد سُفْيَان بن عُيَيْنَةَ ومات نُظْرَاؤُهُ من العُلَماءِ تكاثُرَ الناسُ عليه، فأنشأ يقول:

ومِنَ الشَّقَاءِ تَفَرَّدِي بالسُّوددِ

ولَسْنَا قَومٌ مُحدِّثينَ سِيادَةً

مَسَاعِيهِمْ مَقْصُورَةٌ في بُيُوتِهِمْ

خَلَّتِ الدِّيَارُ فَسَدَّتْ غَيْرَ مُسَوِّدٍ

سودد الرجل بنفسه

قال النبي صلى الله عليه وسلم: مَنْ أَسْرَعَ به عَمَلُهُ لم يُطِئْ به حَسْبُهُ، وَمَنْ أَبْطَأَ به عَمَلُهُ لم يسرع به حسبه وقال قس بن ساعدة: من فاته حسب نفسه لم ينفعه حسب أبيه. وقالوا: إنما الناس بأبدانهم. وقال الشاعر:

وعلمته الكر والإقداما

يوماً على الأحساب نتكل

تبني ونفعل مثل ما فعلوا

نفس عصام سودت عصاماً

وقال عبد الله بن معاوية:

لسنا وإن كرمت أوائلنا

نبنينا كما كانت أوائلنا

وقال قس بن ساعدة: لأقضي بين العرب بقضية لم يقض بها أحد قبلي، ولا يردها أحدٌ بعدي، أيما رجل رمى رجلاً بملامة دونها كرم فلا لوم عليه، وأيما رجل ادعى كرمًا دونه لوم فلا كرم له.

وقالت عائشة رضي الله عنها: كل كرم دونه لوم فاللوم أولى به، وكل لوم دونه كرم فالكرم أولى به.

تريد أن أولى الأمور بالإنسان خصال نفسه، فإن كان كريماً وآباؤه لثام لم يضره ذلك، وإن كان لثاماً وآباؤه كرائم لم ينفعه ذلك.

وإني وإن كنت ابن سيد عامرٍ

فما سودتني عامرٌ عن وراثتهِ

ولكنني أحمي حماها وأتقي

وفارسها المشهور في كل موكب

أبى الله أن أسمو بجدٍ ولا أب

أذاها وأرمني من رماها بمنكبي

وتكلم رجل عند عبد الملك بن مروان بكلام ذهب فيه كل مذهب، فأعجب عبد الملك ما سمع من كلامه، فقل له: ابن من أنت؟ قال: أنا ابن نفسي يا أمير المؤمنين التي بها توصلت إليك، قال: صدقت.

فأخذ الشاعر هذا المعنى، فقال:

ما لي عقلي وهمتي حسبي

إذا انتمى منتم إلى أحد فإنني منتم إلى أدبي، وقال بعض المحدثين:

رأيت رجال بني دالقي

وبربرنا عند حيطانهم

وما الناس إلا بأبدانهم

ما أنا مولى ولا أنا عربي

ملوكاً بفضل تجارتهم

يخوضون في ذكر أمواتهم

وأحسابهم في حر اماتهم

المروءة

قال النبي صلى الله عليه وسلم: لا دين إلا بمروءة.

وقال ربعة الرأي: المروءة ست خصال: ثلاثة في الحضر وثلاثة في السفر، فأما التي في السفر: فبذل الزاد، وحسن الخلق، ومداعبه الرفيق، وأما التي في الحضر: فتلاوة القرآن، ولزوم المساجد، وعفاف الفرج.

وقال عمر بن الخطاب رضي الله عنه: المروءة مروءتان: مروءة ظاهرة، ومروءة باطنة، فالمروءة الظاهرة الرياش، والمروءة الباطنة العفاف. وقدم وفد على معاوية فقال لهم: ما تعدون المروءة؟ قالوا: العفاف وإصلاح المعيشة، قال اسمع يا يزيد.

وقيل لأبي هريرة: ما المروءة؟ قال: تقوى تالله وتفقد الضيعة.

وقيل للأحنف: ما المروءة؟ قال: العفة والحرفة.

وقال عبد الله بن عمر رضي الله عنهما: إنا معشر قريش لا نعد اللحم والجود سودداً، ونعتمد العفاف وإصلاح المال مروءة.

قال الأحنف: لا مروءة لكذوب، ولا سودد لبخيل، ولا ورع لسيء الخلق وقال النبي صلى الله عليه وسلم: تجاوزوا لذوي المروآت عن عشراهم، فوالذي نفسي بيده إن أحدهم ليعثر وإن يده لبيد الله.

وقال العتيبي عن أبيه: لا تتم مروءة الرجل إلا بخمس: أن يكون عالماً، صادقاً، عاقلاً، ذا بيان، مستغنياً عن الناس.

وقال الشاعر:

وما المرء إلا حيث يجعل نفسه

ففي صالح الأخلاق نفسك فاجعل

وقيل لعبد الملك بن مروان: أكان مصعب بن الزبير يشرب الطلاء؟ فقال: لو علم مصعب أن الماء يفسد مروءته ما شرب به.

وقالوا: من أخذ من الديك ثلاثة أشياء، ومن الغراب ثلاثة أشياء، تم بها أدبه ومروءته: من أخذ من الديك سخاءه وشجاعته وغيرته، ومن الغراب بكوره لطلب الرزق وشدة حذره وستر سفاده.

طبقات الرجال

قال خالد بن صفوان: الناس ثلاث طبقات: طبقة علماء، وطبقة خطباء، وطبقة أدباء ورجحة بين ذلك يعلون الأسعار، ويضيقون الأسواق، ويكدرون المياه.

وقال الحسن: الرجال ثلاثة: فرجل كالغذاء لا يُستغنى عنه، ورجل كاللدواء لا يحتاج إليه إلا حيناً بعد حين، ورجل كاللذات لا يحتاج إليه أبداً. وقال مطرف بن عبد الله بن الشخير: الناس ثلاثة: ناس ونسناس وناس غمسوا في ماء الناس.

وقال الخليل بن أحمد: الرجال أربعة: فرجل يدري ويدري أنه يدري، فذلك عالم فسؤوه، ورجل يدري ولا يدري أنه يدري فذلك الناسي فذكره، ورجل لا يدري ويدري أنه لا يدري، فذلك الجاهل فعلمه، ورجل لا يدري ولا يدري أنه لا يدري، فذلك الأحمق فرفضه. وقال الشاعر:

وأنت لا تدري بأنك لا تدري

فكيف إذا تدري بأنك لا تدري

أليس من البلوى بأنك جاهل

إذا كنت لا تدري ولست كمن درى

ولآخر:

ويزعم جهلاً أنه منك أعلم

وما الذاء إلا أن تعلم جاهلاً

وقال علي بن أبي طالب رضي الله عنه: الناس ثلاثة: عالم رباني، ومُتعلّم على سبيل نجاته، ورعاع همج يميلون مع كل ريح. وقالت الحكماء: الإخوان ثلاثة: فأخ يخلص لك وده، ويبدل لك ردفه، ويستفرغ في مهمك جهده؟ وأخ ذو نية يقتصر بك على حسن نيته دون ردفه ومعونته، وأخ يتملق لك بلسانه ويتشاغل عنك بشانه، ويوسعك من كذبه وأيمانه. وقال الشعبي: مرّ رجل بعبد الله بن مسعود، فقال لأصحابه: هذا لا يعلم، ولا يعلم أنه لا يعلم، ولا يتعلم ممن يعلم. وقال النبي صلى الله عليه وسلم: كُنْ عالماً أو متعلماً ولا تكن الثالثة فتَهلك.

الغوغاء

الغوغاء: الدّبا، وهي صغار الجراد، وشبّه بها سواد الناس.

وذكر الغوغاء عند عبد الله بن عباس فقال: ما اجتمعوا قط إلا ضرّوا، ولا افترقوا إلا نفعوا وقيل له: قد علمنا ما ضرّ اجتماعهم، فما نفع افتراقهم؟ قال: يذهب الحجاج إلى دكانه، والحداد إلى أكياره، وكل صانع إلى صناعته. ونظر عمر بن الخطاب رضي الله عنه إلى قوم يتبعون رجلاً أخذ في رية، فقال: لا مرحباً بهذه الوجوه التي لا تُرى إلا في كل شرّ. وقال حبيب بن أوس الطائي:

فأجله في هذا السواد الأعظم

الله يعلم أنني لم أقل فنذا

على كثير ولكن لا أرى أحدا

إن شئت أن يسود ظنك كله

ما أكثر الناس لا بل ما أقلهم

إني لأفتح عيني حين أفتحها

وقال دعبل:

الثقلاء

قالت عائشة أم المؤمنين رضي الله عنها: نزلت آية في الثقلاء: "فَإِذَا طَعِمْتُمْ فَانْتَشِرُوا وَلَا مَسْتَأْنِسِينَ لِحَدِيثٍ".

وقال الشعبي: مَنْ فَاتَتْهُ رَكَعَتَا الْفَجْرِ فَلْيَلْعَنِ الثَّقَلَاءَ.

وقيل لجالينوس: بِمَ صَارَ الرَّجُلُ الثَّقِيلُ أَثْقَلَ مِنَ الْحِمْلِ الثَّقِيلِ؟ فقال: لِأَنَّ الرَّجُلَ الثَّقِيلَ إِنَّمَا ثَقُلَهُ عَلَى الْقَلْبِ دُونَ الْجَوَارِحِ. وَالْحِمْلُ الثَّقِيلُ يَسْتَعِينُ فِيهِ الْمَرْءُ بِالْجَوَارِحِ.

وقال سهل بن هارون: مَنْ ثَقَلَ عَلَيْكَ بِنَفْسِهِ، وَغَمَكَ بِسُؤَالِهِ، فَأَعْرِهُ أَدْنَى صَمَاءٍ، وَعَيْنًا عَمِيَاءٍ.

وكان أبو هريرة إذا استتقل رجلاً، قال: اللَّهُمَّ اغْفِرْ لَهُ وَأَرْحْنَا مِنْهُ.

وكان الأعمش إذا حضر مجلسه ثقيل يقول:

فَمَا الْفِيلُ تَحْمَلُهُ مَيِّئًا

بِأَثْقَلٍ مِنْ بَعْضِ جُلَاسِنَا

وقال أبو حنيفة للأعمش، وأتاه عائداً في مرضه: لَوْلَا أَنْ أَثْقَلَ عَلَيْكَ أَبُو مُحَمَّدٍ لَعُدْتُكَ وَاللَّهِ فِي كُلِّ يَوْمٍ مَرَّتَيْنِ، فَقَالَ لَهُ الْأَعْمَشُ: وَاللَّهِ يَا بَنَ أَخِي، أَنْتَ ثَقِيلٌ عَلَيَّ وَأَنْتَ فِي بَيْتِكَ، فَكَيْفَ لَوْ جِئْتَنِي فِي كُلِّ يَوْمٍ مَرَّتَيْنِ.

وذكر رجلٌ ثقيلًا كان يجلس إليه، فقال: وَاللَّهِ إِنِّي لَأُبْعِضُ شَقِيَّ الَّذِي يَلِيهِ إِذَا جَلَسَ إِلَيَّ.

ونقشَ رجلٌ على خاتمه: أَبْرَمْتَ فَعَمَّ. فكان إذا جلس إليه ثقيلٌ ناوَلَهُ إِيَّاهُ وَقَالَ: اقْرَأْ مَا عَلَى هَذَا الْخَاتَمِ.

وكان حماد بن سلمة إذا رأى من يستثقله قال: "رَبَّنَا اكشِفْ عَنَّا الْعَذَابَ إِنَّا مُؤْمِنُونَ".

وقال بشار العُقَيْلِيُّ فِي ثَقِيلٍ يُكْنَى أَبُو عِمْرَانَ:

رُبَّمَا يَثْقُلُ الْجَلِيسُ وَإِنْ كَانَا

نَ حَنِيفًا فِي كِفَّةِ الْمِيزَانِ

وَلَقَدْ قُلْتُ إِذْ أَطَّلَ عَلَى الْقَوْرِ

مَ ثَقِيلٌ يُرْبِي عَلَى تَهْلَانِ

كَيْفَ لَا تَحْمِلُ الْأَمَانَةَ أَرْضُ

حَمَلَتْ فَوْقَهَا أَبُو عُمَرَ

ولآخر:

أَنْتَ يَا هَذَا ثَقِيلٌ

وتقيل وتقيل

أَنْتَ فِي الْمَنْظَرِ إِنْسَانَا

نَ وَفِي الْمِيزَانِ فِيلٌ

وقال الحسن بن هانئ في رجلٍ ثقيل:

ثَقِيلٌ يُطَالِعُنَا مِنْ أَمَمٍ

إذا سره رغم أنفي ألم

أَقُولُهُ لَهُ إِذَا بَدَأَ لَا بَدَأَ

ولا حملته إلينا قدم

فَقَدْتُ خِيَالَكَ لَا مِنْ عَمِي

وصوت كلامك لا من صمم

وله فيه:

وما أظن القلاصَ مُنجِيتي

منك ولا الفلكَ أيها الرجل

ولو ركبت البراق أدركني

منك على نأي دارك الثقل

هل لك فيما ملكته هبة

تأخذه جملة وترتجل

وله فيه:

يا مَنْ على الجُلاس كالْفَنق

هل لك في مالي وما قد حَوَت

تَأْخُذُه مِنِّي كذا فِدْيَةٍ

وله فيه:

ألا يا جِبلَ المَقْتِ ال

لقد أَكْثَرْتُ تَفْكِيرِي

فما تَصْلُحُ أَنْ تُهْجِيَ

أَهْدَى رَجُلٌ مِنَ الثُّقَلَاءِ إِلَى رَجُلٍ مِنَ الظُّرَفَاءِ جَمَلًا، ثُمَّ نَزَلَ عَلَيْهِ حَتَّى أُبْرِمَهُ، فَقَالَ فِيهِ:

يا مِبرمًا أَهْدَى جَمَلٌ

قالَ وما أَوْقارُها

قالَ وَمَنْ يَفُودُها

قالَ وَمَنْ يَسُوقُها

قالَ وما لِبِاسُهُم

قالَ وما سِلاحُهُم

قالَ عَيْدَ لي إِذْ

قالَ بِهذا فَاکْتُبُوا

قلتُ له أَلْفِي سِجِل

قالَ وَقَدْ أَضْجَرْتُكُمْ

قالَ وَقَدْ أُبْرِمْتُكُمْ

قالَ وَقَدْ أَثْقَلْتُكُمْ

قالَ فَإِنِّي راحِلٌ

يا كوكبَ الشُّومِ وَمَنْ

يا جِبالاً مِنْ جِبالِ

وقال الحمْدوني في رجلٍ بَغِيضٍ مَقِيَّتِ:

أيا بِنَ البَغِيضَةِ وابنَ البَغِيضِ

سألتُكَ باللهِ إِلا صَدَّقْتُ

كلامُكَ التَّخْديشِ في الحَلْقِ

يَدَايِ مِنْ جِلٍّ وَمِنْ دِقِّ

واذْهَبْ فِفي البُعدِ وَفي السَحْقِ

ذِي أرسىَ فِما يَبْرُخِ

فِما أَدْرِي لِمَا تَصْلُحُ

ولا تَصْلُحُ أَنْ تُمدَّحَ

خُذْ وانصِرِفْ أَلْفِي جَمَل

قلتُ زَيْبِيبٌ وَعَسَلٌ

قلتُ له أَلْفا رَجُل

قلتُ له أَلْفا بَطَل

قلتُ حُلِّيَّ وَحُلَّل

قلتُ سَيُوفٌ وَأَسَل

قلتُ نَعَمَ ثَمَ حَوَل

إِذْ عَلِيكُمْ لِي سِجِل

فاضْمَنْ لَنَا أَنْ تَرْتَحِلَ

قلتُ أَجَلٌ ثَمَ أَجَل

قلتُ له الأَمْرُ جَلَل

قلتُ له فِوقِ الثَّقَلِ

قلتُ العَجَلِ ثَمَ العَجَلِ

أرَبِي على نَحْسِ زُحَلِ

في جَبَلٍ فِوقِ جَبَلِ

ومَنْ هو في البُغْضِ لا يُلْحَقِ

وعَلِمِي بِأَنَّكَ لا تَصْدُقُ

أَتْبَغِضُ نَفْسَكَ مِنْ بُغْضِهَا

وله فيه:

فِي حَمِيرِ النَّاسِ إِنْ كُنْ

وَلَقَدْ أُنبِئْتُ: إِلَيَّ

وَلِحَبِيبِ الطَّائِي فِي مِثْلِهِ، أَيْ فِي رَجُلٍ مَقِيَّتٍ:

يَا مَنْ تَبَرَّمتَ الدُّنْيَا بَطَّلَعْتَهُ

يَمْشِي عَلَى الْأَرْضِ مَخْتَالًا فَأَحْسِبُهُ

لَوْ أَنَّ فِي الْأَرْضِ جُزْءًا مِنْ سَمَاجَتِهِ

وَلِلْحَسَنِ بْنِ هَانِيٍّ فِي الْفَضْلِ الرَّقَاشِيِّ:

رَأَيْتُ الرَّقَاشِيَّ فِي مَوْضِعٍ

فَقَالَ اقْتَرِحْ بَعْضَ مَا تَشْتَهِي

وَأَنْشَدَ الشَّعْبِيُّ:

إِنِّي بُلَيْتُ بِمَعَشَرٍ

بُلَّةٌ إِذَا جَالَسْتَهُمْ

لَا يُفْهَمُونِي قَوْلَهُمْ

فَهُمْ كَثِيرٌ بِي كَمَا

وَقَالَ الْعُتْبِيُّ: كَتَبَ الْكِسَائِيُّ إِلَى الرَّقَاشِيِّ:

شَكَوْتُ إِلَيْنَا مَجَانِيكُمْ

وَأَنْشَأْتَ تَذَكُّرَ قُدَّارِكُمْ

فَلَوْلَا السَّلَامَةُ كُنَّا كَهُمْ

وَقَالَ حَبِيبُ الطَّائِي:

وَصَاحِبِ لِي مَلَّتْ صُحْبَتُهُ

سَرَقْتُ سَكِينَهُ وَخَاتَمَهُ

وَقَالَ حَبِيبٌ:

يَا مَنْ لَهُ فِي وَجْهِهِ إِذْ بَدَا

لَوْ فَرَّ شَيْءٌ قَطُّ مِنْ شَكْلِهِ

كُوْنُكَ فِي صُلْبِ آبِينَا، الَّذِي

وَالْإِ فَأَنْتَ إِذْنُ أَحْمَقُ

تَ مَنْ النَّاسِ تُعَدُّ

سَ إِذَا رَاكَ يَصُدُّ

كَمَا تَبَرَّمتَ الْأَجْفَانُ بِالرَّمَدِ

لِبُغْضِ طَلَعْتَهُ يَمْشِي عَلَى كَيْدِي

لَمْ يَقْدَمْ الْمَوْتُ إِشْفَاقًا عَلَى أَحَدٍ

وَكَانَ إِلَيَّ بَغِيضًا مَقِيَّتَا

فَقُلْتُ اقْتَرِحْتُ عَلَيْكَ السُّكُوتَا

نَوَكَى أَخْفَهُمْ ثَقِيلٌ

صَدَّتْ لِقُرْبَهُمُ الْعُقُولُ

وَيَدِقُّ عَنْهُمْ مَا أَقُولُ

أَنِّي بِقُرْبِهِمْ قَلِيلٌ

وَأَشْكُو إِلَيْكَ مَجَانِينَنَا

فَأَنْتِنِ وَأَقْدِرُ بَمَنْ عِنْدَنَا

وَلَوْلَا الْبَلَاءُ لَكَانُوا كُنَّا

أَفْقَدَنِي اللَّهُ شَخْصَهُ عَجَلًا

أَقْطَعُ مَا بَيْنَنَا فَمَا فَعَلَا

كُنُوزِ قَارُونَ مِنَ الْبُغْضِ

فَرًّا إِذَا بَعْضُكَ مِنْ بَعْضِ

أَهْبَطْنَا جَمْعًا إِلَى الْأَرْضِ

وقال أبو حاتم:

وأنشدني أبو زيد الأنصاري النَّحوي صاحبُ النوادر :

غير أنني أصون عنه بُصاقي

وَجَهٌ يَحْيَى يَدْعُو إِلَى الْبَصَقِ فِيهِ

قال أبو حاتم: وأنشدني العُتبي:

ويحرمُ أن يُلقَى بالتَّحِيَّةِ

له وَجَهٌ يَحِلُّ الْبَصَقُ فِيهِ

قال وأنشدني:

وأوسخُ منه جِلْدُ أَبِي أُمِيَّةَ

قميصُ أَبِي أُمِيَّةَ مَا عَلِمْتُمْ

التفاؤل بالأسماء

سأل عُمر بن الخطاب رضي الله عنه رجلاً أراد أن يستعين به على عمل عن اسمه واسم أبيه. فقال: ظالم بن سُراقَة، فقال: تظلم أنت ويسرق أبوك؟ ولم يستعن به في شيء.

وأقبل رجلٌ إلى عُمر بن الخطاب فقال له عمر: ما اسمك؟ فقال: شهاب ابن حُرقة، قال: ممن؟ قال: من أهل حرة النار، قال: وأين مسكنك؟ قال: بذات لظي، قال: اذهب فإن أهلك قد احترقوا. فكان كما قال عمر رضي الله عنه. ولقي عمرُ بن الخطاب رضي الله عنه مسروق بن الأجدع، فقال له: من أنت؟ قال: مسروق بن الأجدع. قال: سمعتُ رسول الله صلى الله عليه وسلم يقول: الأجدع شيطان. وروى سُفيان عن هشام الدستوائي عن يحيى بن أبي كثير قال: كتب رسول الله صلى الله عليه وسلم إلى أمرائه: لا تُبردوا بريدًا إلا حسن الوجه، حسن الاسم.

ولما فرغ المهلب بن أبي صفرة من حرب الأزارقة وجه بالفتح إلى الحجاج رجلاً يقال له مالك بن بشير؟ فلما دخل على الحجاج، قال له: ما اسمك؟ قال: مالك بن بشير، محال: مُلك وبشارة.

وقال الشاعر:

أدعو بأسلم مرّةً ورباح

وإذا تكون كريهةً فرجتها

يريد التطير بأسلم ورباح، للسلامة والريح.

الرياشي عن الأصمعي قال: لما قدم رسول الله صلى الله عليه وسلم المدينة على رجل من الأنصار، فصاح الرجلُ بغلاميه: يا سالم ويا يسار؟ فقال رسول الله صلى الله عليه وسلم: سلمت لنا الدار في يسر.

وقال سعيد بن المسيب بن حزن بن أبي وهب المخزومي: قدم جدِّي حزن بن أبي وهب على النبي صلى الله عليه وسلم، فقال له: كيف اسمك؟ قال: حزن، قال له رسول الله صلى الله عليه وسلم: بل مهل؟ قال: ما كنت لأدع اسماً سمّيتني به أمي قال: سعيد: فإننا لَنجد تلك الحزونة في أخلاقنا إلى اليوم.

وإنما تطيرت العرب من الغراب للغرابة، إذ كان اسمه مُشتقاً منها.

وقال أبو الشَّيص:

غرابٌ ينوح على غصن بانٍ

أشفاقك والليل ملقي الجران

وفي البان بين بعيد التّداني

وفي نعبات الغراب اغتراب

ولآخر في السَّفَرِ جَل:

منه فَظَلَّ مُفَكِّرًا مُسْتَعْبِرًا
سَفَرَ وَحَقَّ لَهُ بَأْسٌ يَنْتَطِيرًا

أَهْدَى إِلَيْهِ سَفْرًا جَلًّا فَتَطِيرًا
خَوْفَ الْفِرَاقِ لِأَنَّ شَطْرَ هِجَاؤِهِ

ولآخر في السُّوسِن:

ما كُنْتَ فِي إِهْدَائِهِ مُحْسِنًا
يَالَيْتَ أَنِّي لَمْ أَرِ السُّوسِنَا

يَا ذَا الَّذِي أَهْدَى لَنَا السُّوسِنَا
شَطْرُ أَسْمِهِ سَوَاءٌ فَقَدْ سُوِّتَنِي

ولآخر في الأَثْرُج:

فَبَكَى وَأَشْفَقَ مِنْ عِيَاةِ زَاكِرٍ
لَوْ نَانَ بَاطِنُهَا خِلَافَ الظَّاهِرِ

أَهْدَى إِلَيْهِ حَبِيبُهُ أُتْرُجَةَ
خَافَ التَّبَدُّلَ وَالتَّلَوُّنَ إِنَّهَا

وقال الطائي في الحَمَام:

مِنْ حَائِهِنَّ فَإِنَّهِنَّ حِمَامٌ

هُنَّ الْحِمَامُ فَإِنْ كَسَرْتَ عِيَاةً

وكان أشعبُ يَختلفُ إلى قَيْنةَ بالمدينة، فلَمَّا أَرَادَ الخُرُوجَ سَأَلَهَا أَنْ تُعْطِيَهُ خَاتَمَ ذَهَبٍ فِي يَدِهَا لِيَذْكُرَهَا بِهِ، قَالَتْ: إِنْ ذَهَبَ، وَأَخَافُ أَنْ تَذْهَبَ، وَلَكِنْ هَذَا العُودُ فَلَعَلَّكَ أَنْ تَعُودَ.

باب الطيرة

قال النبي صلى الله عليه وسلم: ثلاثة لا يكاد يسلم منهن أحد: الطيرة والظن والحسد، قيل: فما المخرج منهن يا رسول الله؟ قال: إذا تطيرت فلا ترجع، وإذا ظننت فلا تحقق، وإذا حسدت فلا تبغ. وقال أبو حاتم: السانح ما ولاك ميامنه، والبارح ما ولاك مياسره، والجاهه ما استقبلك من تجاهك، والقعيد الذي يأتيك من خلفك. وقال النبي صلى الله عليه وسلم: لا عدوى ولا طيرة. وقال: ليس منا من تطير.

وقال: إذا رأى أحدكم الطيرة فقال: اللهم لا طير إلا طيرك، ولا خير إلا خيرك، ولا إله غيرك، لم تضره. وقد كانت العرب تتطير، ويأتي ذلك في أشعارهم، وقال بعضهم:

وما كان من دلاك فينا بخابر

وما صدقتك الطير يوم لقيتنا

وقال حسبان رضي الله تعالى عنه:

ما كان بين علي وابن عفانا

يا لبيت شعري ولبيت الطير تخبرني

الله أكبر يا ثارات عثماننا

لتسمعن وشيكاً في ديارهم

وقال الحسن بن هانئ:

واستقبل الملك في مستقبل الثمر

قام الأمير بأمر الله في البشر

عن طيب عيش وعن طول من العمر

فالطير تخبرنا والطير صادقة

وقال الشَّيباني: لما قَدِمَ قُتَيْبَةُ بن مُسْلِمٍ والياً على خُرَاسانَ، قامَ خَطِيباً، فَسَقَطَتِ المِخْصَرَةُ من يَدِهِ فَتَطَيَّرَ بها أَهلُ خُرَاسانَ، فقال: أَيُّها الناسَ، ليس كما ظننتم ولكنه كما قال الشاعر:

كما قر عيناً بالإيابِ المسافرُ

فألقت عصاها واستقرت بها النوى

اتخاذ الإخوان وما يجب لهم

رَوَى الأوزاعي عن يحيى بن أبي كثير أن داود قال لابنه سليمان عليهما السلام: يا بُنَيَّ لا تَسْتَقِلَّ عَدُوًّا واحداً ولا تَسْتَكْثِرِ أَلْفَ صَدِيقٍ، ولا تَسْتَبْدِلِ بأخٍ قَدِيمٍ أحاً مُسْتَحْدَثاً ما اسْتَقَامَ لَكَ. وفي الحديث المرفوع: المرءُ كثير بأخيه. وقاد شبيب بن شيبَةَ؟ إخوان الصِّفاء خير مكاسب الدنيا، هم زينة في الرِّحَاءِ، وعدة في البلاء، ومُعونة على الأعداء. وأنشد ابن الأعرابي:

ولكن إخوان الصِّفاء الذَّخائرُ

لَعَمْرُكَ ما مالُ الفَتَى بِذَخِيرَةٍ

وقال الأحنف بن قيس: خيرُ الإخوان إن استغنيت عنه لم يزدك في المودة، وإن احتجت إليه لم ينقصك منها، وإن كوثرت عضدك، وإن استرفدت رفدك، وأنشد:

يُجِبُّكَ وَإِنْ تَعَضِبَ إِلَى السِّيفِ يَعْضِبُ

أخوك الذي إن تدعه لملمة

ولآخر:

كساع إلى الهيجاً بغير سلاح

أخاك أخاك إن من لا أخأ له

وهل ينهض البازي بغير جناح

وإن ابن عم المرء فاعلم جناحه

ومما يحب للصديق على الصديق النصيحة جهده. فقد قالوا: صديق الرجل مرآته تُريه حسناته وسيئاته.

وقالوا الصديق من صدقك وده، وبذل لك رِفْدَه.

"وقالوا: أربعة لا تعرف إلا عند أربعة: لا يعرف الشجاع إلا عند الحرِّب، ولا الحليم إلا عند الغضب، ولا الأمين إلا عند الأخذ والعطاء، ولا الأخوان إلا عند التَّوائب".

وقالوا: خير الإخوان من أقبل عليك إذا أدبر الزمان عنك.

وقال الشاعر:

عند السُّرور لمن واساك في الحزن

فإن أولى الموالى أن توأليه

من كان يألّفهم في المنزل الخشن

إن الكرام إذا ما أسهلوا ذكروا

ولآخر:

والمن مفسدة الصنوعة

البر من كرم الطبيعة

ق يكون داعية القطيعة

ترك التعهد للصدي

أنشد محمد بن يزيد المرّد لعبد الصمد بن المعدل في الحسن بن إبراهيم.

له وقاء لما يخشى وأخشاه

يا من فدت نفسه نفسي ومن جعلت

أَنْيَّ وَإِنْ كُنْتُ لَا أَلْقَاهُ أَلْقَاهُ
وَإِنْ تَبَاعَدَ عَن مَثْوَايَ مَثْوَاهُ
وَكَيفَ يَذْكُرُهُ مَنْ لَيْسَ يَنْسَاهُ
وَهَلْ فَتَى عَدَلْتُ جَدَّوَاهُ جَدَّوَاهُ
وَالْقَطْرُ يُحْمَى وَلَا تُحْصَى عَطَايَاهُ

وقيل لبعض الولاة: كم صديقاً لك؟ قال: لا أذري، الدنيا مُقبلةٌ عليّ والناس كلهم أصدقائي، وإنما أعرف ذلك إذا أدبرت عنّي. ولما صارت الخِلافة إلى المنصور كتب إليه رجلٌ من إخوانه كتاباً فيه هذه الأبيات:

كُنَّا نَكَابِدُ مَا تَكَابِدُ
وَوَدَّ الْبِعَادَ لِمَنْ تَبَاعَدُ
كَ رَبِيبَةٍ وَاللَّيْلُ هَاجِدُ

أَبْلُغْ أَخَاكَ وَأَنْ شَطَّ الْمَزَارَ بِهِ
وَأَنْ طَرَفِي مَوْصُولَ بَرِّوَيْتِهِ
اللَّهُ يَعْلَمُ أَنِّي لَسْتُ أَذْكُرُهُ
عَدُّوَا فَهَلْ حَسَنٌ لَمْ يَحْوِهِ حَسَنٌ
فَالدَّهْرُ يَفْنَى وَلَا تَفْنَى مَكَارِمُهُ

أَنَا بِطَانَتِكَ الْآلِي
وَنُرَى فَنُعْرِفُ بِالْعَدَا
وَنَبِيْتُ فِي شَفَقٍ عَلَيَّ

أصناف الإخوان

قال العتّابي: الإخوان ثلاثة أصناف: فرع بائنٌ من أصله، وأصل مُتّصل بفرعه، وفرع ليس له أصل. فأما الفرع البائن من أصله، فإخاءٌ بُني على مودّة ثم انقطعت فحُفِظَ على ذمام الصُّحبة؛ وأما الأصل المُتّصل بفرعه، فإخاءٌ أصله الكرم وأغصانه التّقوى؛ وأما الفرع الذي لا أصل له، فالمموه الظاهر الذي ليس له باطن.

وقال النبي صلى الله عليه وسلم: الصاحب رُفعةٌ في قميصك فانظر بم تُرَفِّعه. ويقال: من علامة الصّديق أن يكون لصديق صديقه صديقاً ولعدوه عدوّاً.

وقدم دحية الكلبي على أمير المؤمنين عليّ عليه السلام، فما زال يذكّر مُعاوية ويطّريه في مجلسه؛ فقال عليّ عليه السلام:

وَإِنِّي لَمَنْ وَدَّ الصَّدِيقَ وَدَّوُدُ
فَإِنَّ الَّذِي بَيْنَ الْقُلُوبِ بَعِيدُ

صَدِيقُ عَدُوِّي دَاخِلٌ فِي عَدَاوَاتِي
فَلَا تَقْرَبَا مِنِّي وَأَنْتَ صَدِيقُهُ

وفي هذا المعنى قول العتّابي:

صَدِيقُكَ إِنْ الرَّأْيَ عَنكَ لِعَازِبُ
وَلَكِنْ أَخِي مَنْ دُونِي وَهُوَ غَائِبُ

تَوَدُّ عَدُوِّي ثُمَّ تَزْعُمُ أَنَّي
وَلَيْسَ أَخِي مَنْ دُونِي رَأْيَ عَيْنِهِ

وقال آخر:

يَوْمًا رَأَى الذَّنْبَ مِنْهُ غَيْرَ مَغْفُورِ
فِيهِ أَتَاهُ بِتَزْوِيقِ الْمَعَاذِيرِ
مَا لَيْسَ صَاحِبُهُ فِيهِ بِمَعْدُورِ

لَيْسَ الصَّدِيقُ الَّذِي إِنْ زَلَّ صَاحِبُهُ
وَإِنْ أَضَاعَ لَهُ حَقًّا فَعَاتَبَهُ
إِنَّ الصَّدِيقَ الَّذِي أَلْقَاهُ يَعْذِرُ لِي

وقال الآخر:

كم من أخ لم يلدِه أبوكا
صاف الكرام إذا أردت إياهم
والناس ما استغنيت كنت أياهم

وقال بعضهم:

وأخ أبوه أبوك قد يجفوكا
واعلم بأن أخا الحفاظ أخوكا
وإذا افتقرت إليهم رفضوكا

أخوك الذي إن قمت بالسيف عامداً
وإن جئت تبغي كفه لتبينها
يرى أنه في الود وإن مقصراً

وقال آخر:

لتضربيه لم يستغشك في الود
لبادر إشفافاً عليك من الرد
على أنه قد زاد فيه على الجهد

إن كنت متخذاً خليلاً
من لم يكن لك منصفاً
ولفلاً تلقى اللئيم

وللعطوي:

فتنق وانتقد الخيلاً
في الود فابغ به بديلاً
عليك إلا مستطيلاً

صن الود إلا عن الأكرمين
ولا تغتر من ذوي خلة
وكم من أخ ظاهر ودّه
إذا أنت عاتبته في الإخا
وكتب العباس بن جرير إلى الحسن بن مخلد:

ومن بمؤاخاته تشرف
بما موهوا لك أو زخرفوا
ضمير مودته أحيف
تتكبر منه الذي تعرف

ارع الإخاء أبا محم
وإذا رأيت منافساً
إن الصديق هو الذي
فإذا كشفت إخاءه
مثل الحسام إذا انتضا
يسعى لما تسعى له

وقال آخر:

دلذي يصفو وصنّه
في نيل مكرمة فكنه
يرعاك حيث تغيب عنه
أحمدت ما كشفت منه
ه أخو الحفيظة لم يخنه
كرماً وإن لم تستعنه

خير إخوانك المشارك في المر
الذي إن شهدت زادك في البر

وقال آخر:

وأين الشريك في المر أيناً
وإن غبت كان أذنأ وعيناً

وَمِنَ الْبَلَاءِ أَخُ جُنَايَتُهُ

ولآخر:

عَلَّقَ بِنَا وَلَغَيْرِنَا سَلْبَهُ

ضَاقَتْ عَلَيَّ بِرُحْبِ الْأَرْضِ أَوْطَانِي
فَالْعَيْنَ غَضَبِي وَقَلْبِي غَيْرَ غَضْبَانِ

إِذَا رَأَيْتُ انْحِرَافًا مِنْ أَخِي تِقَّةً
فَإِنْ صَدَدْتُ بِوَجْهِهِ كَيْ أَكَافَتْهُ

وكتب بعضهم إلى محمد بن بشَّار:

لِتَكُنْ كَمَنْ لَمْ تَسْتَفِدْهُ

وَإِذَا دَنَا شَبِيرًا فُزِدْهُ

أَرِ وَأَمُكْ لَمْ تَلِدْهُ

مَنْ لَمْ يُرِدْكَ فَلَا تَرُدْهُ

بَاعِدْ أَخَاكَ لِبُعْدِهِ

كَمْ مِنْ أَخٍ لَكَ يَا بَنَ بَشَّارٍ

عُكْ، غَيْبُهُ لَمْ تَفْتَقِدْهُ

وَأَخِي مُنَاسِبَةٌ يَسُوُّ

فأجابه محمد بن بشَّار:

مَنْ لَمْ يُرِدْكَ فَلَا تُرِدْهُ

يَبْدُ الْعِتَابَ وَلَمْ يُعِدْهُ

وَاعْطِفْ بُودَكَ وَاسْتَعِدْهُ

وَإِنْ فُقِلَ لَمْ تَعْتَمِدْهُ

غَلَطَ الْفَتَى فِي قَوْلِهِ:

مَنْ يَأْنِسُ الْإِخْوَانَ لَمْ

عَاتِبْ أَخَاكَ إِذَا هَفَا

وَإِذَا أَتَاكَ بِعَيْبِهِ

مُعَاتِبَةُ الصَّدِيقِ وَاسْتِبْقَاءُ مَوَدَّتِهِ

قالت الحكماء: مما يجب للصديق على الصديق الإغضاء عن زلاته، والتجاوز عن سيئاته، فإن رجع وأعتب وإلا عاتبته بلا إكثار، فإن كثرة العتاب مدرجة للقطيعة.

وقال علي بن أبي طالب رضي الله عنه: لا تقطع أخاك على ارتياب، ولا تهجره دون استعتاب.

وقال أبو الدرداء: من لك بأخيك كله.

وقالوا: أي الرجال المهذب.

وقال بشَّار العُقَيْلِيُّ:

ظَمِنْتَ وَأَيُّ النَّاسِ تَصْنُفُو مَشَارِبُهُ

إِذَا أَنْتَ لَمْ تَشْرَبْ مِرَارًا عَلَى الْقَدَى

وقالوا: معاينة الأخ خير من فقده.

وقال الشاعر:

وَبَقِيَ الْوُدُّ مَا بَقِيَ الْعِتَابُ

إِذَا ذَهَبَ الْعِتَابُ فَلَيْسَ وَدٌّ

ولمحمد بن أبان:

وَكُنْتُ أُجَازِيهِ فَأَيْنَ التَّفَاضُلُ

إِذَا أَنَا لَمْ أَصْبِرْ عَلَى الذَّنْبِ مِنْ أَخٍ

"إذا ما دهاني مفصلً فقطعته"

ولكن أدأويه فإن صحَّ سرِّي وإن هو أعيا كان فيه تحامل وقال الأحنف: من حقَّ الصديق أن يتحمل ثلاثاً: ظلم الغضب، وظلم الدالة، وظلم الهفوة. لعبد الله بن معاوية:

ولست ببأدي صاحبي بقطيعة

ولست بمفشٍ سرِّه حين يغضبُ

عليك بإخوان الثقات فإنهم

قليلٌ فصلهم دون من كنت تصحب

وما الخدن إلا من صفا لك ودّه

ومن هو ذو نصح وأنت مغيب

ما يستجلب الإخاء والمودة ولين الكلمة

قال عليُّ بن أبي طالب عليه السلام: من لانت كلمته وجبت محبته. وأنشد: كيف أصبحت كيف أمسيت مما يُنبئ الوُدَّ في فؤاد الكريم وعلى الصديق ألا يلقي صديقه إلا بما يُحب، ولا يُؤذي جليسه، فيما هو عنه بمعزل، ولا يأتي ما يعيب مثله، ولا يعيب ما يأتي شكَّله. وقد قال المتوكل الليثي:

لانتَه عن خلقٍ وتأتي مثله

عارٌ عليك إذا فعلت عظيمٌ

وقال عمرُ بن الخطاب رضي الله عنه: ثلاث تثبت لك الوُدَّ في صدرِ أحيك: أن تبدأه بالسَّلام، وتوسع له في المجلس، وتدعوه بأحبِّ الأسماء إليه. وقال: ليس شيءٌ أبلغ في خيرٍ ولا شرٍّ من صاحب. وقال الشاعر:

إن كنت تبغي الأمرَ أو أصله

وشاهداً يُخبر عن غائبٍ

فاعتبرِ الأرضَ بأشباهها

واعتبرِ الصَّاحبَ بالصَّاحب

لعديِّ بن زيد:

عن المرء لا تسلِّ وسلِّ عن قرينه

فكلُّ قرينٍ بالمقارن يفتدي

ولعمرو بن حميل التَّغَلبي:

سأصبر من صديقي إن جفاني

على كلِّ الأذى إلا الهوانا

فإن الحرَّ يأنف في خلاءٍ

وإن حضر الجماعة أن يُهانَا

وقال رجلٌ لمطيع بن إياس: جئتُك خاطباً مودَّتكَ؛ قال: قد زوجتُكها على شرط أن تجعل صداقها أن لا تسمع في مقال الناس. ويقال في المثل: من لم يزدرد الرقيق لم يستكثر من الصديق. وما أحسن ما قال إبراهيم بن العباس:

يا صديقي الذي بدلت له الو

دَّ وأنزلته على أحشائي

إن عينا أقدَّيتها لتراعي

ك على ما بها من الإقذاء

ما بها حاجةٌ إليك ولكن

هي معفودة بحبل الوفاء

ولابن أبي حازم:

ارض من المرء في مودته

بما يؤدي إليك ظاهره

مَنْ يَكْشِفِ النَّاسَ لَا يَرَى أَحَدًا

تَصِيحٌ مِنْهُ لَهُ سَرَائِرُهُ

تَوْشِكُ أَنْ لَا تَتَمَّ وَصَلَ أَخٍ
إِنْ سَاعَنِي صَاحِبِي احْتَمَلْتُ وَإِنْ
أَصْفَحَ عَن ذَنْبِهِ وَإِنْ طَلَّبَ ال

فِي كُلِّ زَلَّاتِهِ تَتَأْفِرُهُ
سِرًّا فَإِنِّي أَخُوهُ شَاكِرُهُ
عُذْرًا فَإِنِّي عَلَيْهِ عَازِرُهُ

ولغيره:

لِعَمْرِي لئن أَبْطَأْتُ عَنْكَ فَلَمْ أزل
لقد أَصْبَحْتُ نَفْسِي عَلِي شَفِيقَةً
أَسْرَبًا فِيهِ سُرُورُكَ إِنَّنِي
عَدَوٌّ لِمَنْ عَادَيْتَ سَلَّمَ مُسَالِمًا

لِأَحْدَاثِ دَهْرٍ لَا يَزَالُ يَعُوقُ
وَمِثْلِي عَلَى أَهْلِ الْوَفَاءِ شَفِيقُ
جَدِيرٌ بِمَكْنُونِ الْإِخَاءِ حَقِيقُ
لِكُلِّ أَمْرٍ يَهْوَى هَوَاكَ صَدِيقُ

ولأبي عبد الله بن عُرْفَةَ:

هُمُومٌ رِجَالٍ فِي أُمُورٍ كَثِيرَةٍ
يَكُونُ كَرْوَحٌ بَيْنَ جِسْمَيْنِ فُرْقًا

وَهَمِّي مِنَ الدُّنْيَا صَدِيقٌ مُسَاعِدٌ
فَجِسْمَاهُمَا جِسْمَانِ وَالرُّوحُ وَاحِدٌ

قال بعض الحكماء: الإخاء جوهره رقيقة، وهي ما لم تُوقَّها وتخرَّسها مُعْرَضَةٌ لِلآفَاتِ، فَرُضَ الْإِخَاءُ بِالْحَدِّ لَهُ حَتَّى تَصِلَ إِلَى قُرْبِهِ، وَبِالْكُظْمِ حَتَّى يَعْتَدِرَ إِلَيْكَ مَنْ ظَلَمَكَ، وَبِالرِّضَى حَتَّى لَا تَسْتَكْتَرُ مِنْ نَفْسِكَ الْفَضْلَ وَلَا مِنْ أَحْيَاكَ التَّقْصِيرَ.
لحمود الوراق:

لَا بَرٌّ أَعْظَمُ مِنْ مُسَاعِدَةٍ
وَإِذَا هَفَا فَأَقْلَهُ هَفْوَتَهُ
فَالصَّفْحُ عَنِ زَلَلِ الصَّدِيقِ وَإِنْ
لِعَبْدِ الصَّمَدِ بْنِ الْمُعَدَّلِ:

فَأشْكُرُ أَخَاكَ عَلِي مُسَاعِدَتِهِ
حَتَّى يَعُودَ أَخًا كَعَادَتِهِ
أَعْيَاكَ خَيْرٌ مِنْ مُعَانَدَتِهِ

لَمْ يَسْتَفِدْكَ وَلَمْ تُقَدِّهِ
وَرَدَّ النِّقَارُبَ وَاسْتَزَدَّهُ
مِنْ أَخِي تَقَةً فَشَدَّهُ

مَنْ لَمْ يُدْرِكْ وَلَمْ تَرُدَّهُ
قَرَّبُ صَدِيقِكَ مَا نَأَى
وَإِذَا وَهَتْ أَرْكَانُ وَدَّ

فضل الصداقة على القرابة

قيل لبُزْجَمَهْرٍ: مَنْ أَحَبَّ إِلَيْكَ: أَخُوكَ أَمْ صَدِيقُكَ؟ فَقَالَ: مَا أَحَبُّ أَحْيَى إِلَّا إِذَا كَانَ لِي صَدِيقًا.
وَقَالَ أَكْثَمُ بْنُ صَيْفِيٍّ: الْقَرَابَةُ تَحْتَاجُ إِلَى مَوَدَّةٍ، وَالْمَوَدَّةُ لَا تَحْتَاجُ إِلَى قَرَابَةٍ.
وَقَالَ عَبْدُ اللَّهِ بْنُ عَبَّاسٍ: الْقَرَابَةُ تَقْطَعُ، وَالْمَعْرُوفُ يُكْفَرُ، وَمَا رَأَيْتُ كَتَقَارَبَ الْقُلُوبُ.

وقالوا: إِيَّاكُمْ وَمَنْ تَكْرَهه قُلُوبُكُمْ فَإِنَّ الْقُلُوبَ تُجَارِي الْقُلُوبَ.
وقال عبد الله بن طاهر الخراساني:

أميل مع الذمام على ابن أمي
وإن ألفتني ملكاً مطاعاً
أفرق بين معروفٍ ومني

وقال حبيب الطائي:

ولقد سببتُ الناسَ ثم خبرتُهم
فإذا القرابةُ لا تُقربُ قاطعاً

وللميرد:

ما القربُ إلا لمن صحت مودته
كم من قريبٍ ذوي الصدور مضطغن

وقالت الحكماء: رب أخ لك لم تلده أمك.

وقالوا: القريب من قرب نفعه.

وقالوا: رب بعيد أقرب من قريب.

وقال آخر:

رُب بعيدٍ ناصح الجيب

وقال آخر:

أخو ثقةٍ يسر ببعض شاني
أحب إلي من ألفي قريب

وقال آخر:

فصل حبال البعيد إن وصل ال
قد يجمع المال غير أكله
فارض من الدهر ما أتاك به

وقال.

لكل شيء من الهموم سعة
لا تحقرن الفقير علك أن

وقال ابن هرمة:

لله درك من فتى فجعت به

وأحمل للصديق على الشقيق
فإنك واجدي عبد الصديق
وأجمع بين مالي والحقوق

ووصفتُ ما وصفوا من الأسباب
وإذا المودة أقرب الأنساب

ولم يخنك وليس القرب للنسب
ومن بعيدٍ سليم غير مقرب

وابن أبٍ منهم الغيب

وإن لم تُدنه مني قرابه
لبيت صدورهم لي مسترابه

حبل وأقص القريب إن قطعه
ويأكل المال غير من جمعه
من قرعنا بعيشه نفعه

والليل والصبح لا بقاء معه
تركع يوماً والدهر قد رفعه

يوم البقيع حوادث الأيام

هَشَّ إِذَا نَزَلَ الْوُفُودُ بِيَابِهِ
وَإِذَا رَأَيْتَ صَدِيقَهُ وَشَقِيقَهُ

سَهَّلَ الْحِجَابَ مُؤَدِّبَ الْخُدَامِ
لَمْ تَنْدِرْ أَيُّهُمَا أَخُو الْأَرْحَامِ

التحبيب إلى الناس

في الحديث المرفوع: أحبُّ الناس إلى الله أكثرهم تحبباً إلى الناس.
وفيه أيضاً: إذا أحبَّ الله عبداً حبَّبه إلى الناس.
ومن قولنا في هذا المعنى.

وَجَّةٌ عَلَيْهِ مِنَ الْحَيَاءِ سَكِينَةٌ
وَإِذَا أَحَبَّ اللَّهُ يَوْمًا عَبْدَهُ

ومحببة تجري مع الأنفاس
ألقي عليه محبة للناس

وكتب عمر بن الخطاب رضي الله عنه إلى سعد بن أبي وقاص: إن الله إذا أحبَّ عبداً حبَّبه إلى خلقه، فاعتبر مترلتك من الله. بمترلتك من الناس، واعلم أن مالك عند الله مثل ما للناس عندك.

وقال أبو ذُهْمان لسعيد بن مُسلم ووقف إلى بابه فحجَّبه حيناً، ثم أذن له، فمثل بين يديه وقال: إنَّ هذا الأمر الذي صار إليك وفي يديك، قد كان في يدي غيرك فأمسى والله حديثاً، إن خيراً فخير، وإن شراً فشر، فتحبَّب إلى عباد الله بحُسن البشر، وتسهيل الحجاب، ولين الجانب، فإن حُبَّ عبادِ الله موصولٌ بحُبِّ الله، وبُغضهم موصولٌ ببغض الله، لأنهم شهداء الله على خلقه، ورُفبأؤه على من أعوج عن سبيله. وقال الجارود: سوء الخلق يُفسد العمل، كما يُفسد الخَلَّ العسل.

وقيل لمعاوية: من أحبَّ الناس إليك؟ قال: من كانت له عندي يد صالحة؛ قيل له: ثم من؟ قال: من كانت لي عنده يدٌ صالحة.
وقال محمد بن يزيد النَّحوي: أتيتُ الخليلَ فوجدته جالساً على طُنْفَسَةٍ صَغِيرَةٍ، فوسَّع لي وكرَّهتُ أن أُضَيِّقَ عليه، فانقبضتُ، فأخذ بعَضْدي وقَرَّبني إلى نَفْسِهِ، وقال: إنه لا يَضِيقُ سَمَّ الخياطِ بِمُتَحَابِّينَ، ولا تَسَعُ الدنيا مُتَبَاغِضِينَ.
ومن قولنا في هذا المعنى.

صِلْ مِنْ هَوَيْتَ وَإِنْ أَبَدَى مُعَاتِبَةً
وَاقْطَعْ حَبَائِلَ خَدْنٍ لَا تَلَأَمَهُ

فَأَطِيبُ الْعَيْشَ وَصَلِّ بَيْنَ الْفَيْنِ
فَرِيماً ضَاقَتِ الدُّنْيَا بِإِثْنَيْنِ

صفة المحبة

أبو بكر الورَّاق قال: سأل المأمون عبد الله بن طاهر ذا الرِّيَّاسَتَيْنِ عن الحبِّ ما هو، فقال: يا أمير المؤمنين إذا تقادحتُ جواهر النفوس المتقاطعة بوصلِ المشاكلة انبعثت منها لمحة نور تستضيء بها بواطن الأعضاء، فتحرَّك لإشراقها طبائع الحياة، فيتصوَّر من ذلك خلق حاضر للنفس، متَّصِلٌ بِخَوَاطِرِهَا يُسمى الحب.

وسئل حماد الراوية عن الحبِّ، فقال: شجرة أصلها الفكر، وعروقها الذكر، وأغصانها السَّهر، وأوراقها الأسقام، وثمرتها المنية.
وقال مُعَاذُ بْنُ سَهْلٍ: الحبُّ أضعبُ ما ركب، وأسكِر، ما شرب، وأفطع ما لقي، وأحلى ما اشتهي، وأوجع ما بطن، وأشهى ما علن، وهو كما قال الشاعر:

وللحبِّ آياتٌ إذا هي صرَّحت

تبدَّتْ علاماتٌ لها غررٌ صفرٌ

فبِاطْنِهِ سَقَمَ وَظَاهِرُهُ جَوَى

وقالوا: لا يكن حُبِّكَ كَلْفًا، ولا بَعْضُكَ سَرَفًا.
وقال بَشَّارُ الْعُقَيْلِيِّ.

وَأَوَّلُهُ ذَكَرَ وَآخِرُهُ فَكَّرَ

هَلْ تَعَلَّمِينَ وَرَاءَ الْحُبِّ مَنْزِلَةً

وقال غيره:

تُدْنِي إِلَيْكَ فَإِنَّ الْحَبَّ أَقْصَانِي

أُحِبُّكَ حُبًّا لَوْ تَحْبِبِينَ مِثْلَهُ

أَصَابَكَ مِنْ وَجَدٍ عَلَيَّ جُنُونُ

لَطِيفًا مَعَ الْأَحْشَاءِ أَمَّا نَهَارُهُ

فَدَمَعٌ وَأَمَّا لَيْلُهُ فَأَنْبِيَانِ

مواصلتك لمن كان يواصل أباك

من حديث ابن أبي شيبَةَ عن النبي صلى الله عليه وسلم: لا تَقْطَعْ مَنْ كَانَ يواصلُ أَبَاكَ تُطْفِئُ بِهِ ذَلِكَ نُورَهُ، فَإِنَّ وَدَّكَ وَدُّ أَبِيكَ.
وقال عبدُ الله بن مسعود: مِنْ بَرِّ الْحَيِّ بِالْمَيِّتِ أَنْ يَصِلَ مَنْ كَانَ يَصِلُ أَبَاهُ.
وقال أبو بكر: الْحُبُّ وَالْبَغْضُ يُتَوَارَتَانِ.
ومن أمثالهم في هذا المعنى: لا تَقْتَنِ مِنْ كَلْبٍ سَوْءٍ جِرْوًا.
وقال الشاعر:

تَرْجُو الْوَالِدَ وَقَدْ أَعْيَاكَ وَالِدُهُ

وما رَجَاؤُكَ بَعْدَ الْوَالِدِ الْوَالِدَا

واجتمع عندَ مَلِكٍ مِنْ مَلُوكِ الْعَرَبِ. تَمِيمٌ بِنُ مُرِّ وَبَكْرُ بْنُ وَائِلٍ، فَوَقَعَتْ بَيْنَهُمَا مُنَازَعَةٌ وَمُفَاحِرَةٌ، فَقَالَا: أَيُّهَا الْمَلِكُ، أَعْطِنَا سَيْفَيْنِ نَتَجَالَدُ بِهِمَا بَيْنَ يَدَيْكَ حَتَّى تَعْلَمَ أَيُّنَا أَجْلَدُ. فَأَمَرَ الْمَلِكُ فُنِحَتْ لَهُمَا سَيْفَانِ مِنْ عُودَيْنِ، فَأَعْطَاهُمَا "إِيَاهُمَا"، فَجَعَلَا يَضْطَرِبَانِ مَلِيًّا مِنَ النَّهَارِ، فَقَالَ بَكْرُ بْنُ وَائِلٍ:

لَوْ كَانَ سَيْفَانَا حَدِيدًا قَطَعَا

قال تميم بن مر:

أَوْ نَحْتَا مِنْ جَنْدَلٍ تَصَدَّعَا

وحال الملك بينهما، فقال تميم بن مر لبكر بن وائل:

أَسَاجِلُكَ الْعَدَاوَةَ مَا بَقِينَا

فقال له بكر:

وَإِنْ مِتْنَا نُورَتْهَا الْبَنِينَا

فَيَقَالُ إِنَّ عَدَاوَةَ بَكْرٍ وَتَمِيمٍ مِنْ أَجْلِ ذَلِكَ إِلَى الْيَوْمِ.

أبو زيد: قال أبو عبيدة: بُنِيَ دُكَّانٌ بِسَجِسْتَانَ بَنَتْهُ بَكْرُ بْنُ وَائِلٍ، فَهَدَمْتَهُ تَمِيمٌ، ثُمَّ بَنَتْهُ تَمِيمٌ فَهَدَمْتَهُ بَكْرٌ، فَتَوَاقَعُوا فِي ذَلِكَ أَرْبَعَةً وَعِشْرِينَ وَقَعَةً. فقال ابن حِلْزَةَ الْيَشْكُرِيُّ فِي ذَلِكَ:

لَقَحَّتْ حَرْبُنَا وَحَرْبُ تَمِيمٍ

قَرَبِي يَاخَلِي وَيَحْكُ دِرْعِي

فِي حَدِيثٍ مِنْ دَهْرِهِمْ وَقَدِيمٍ

إِخْوَةٌ قَرَسُوا الذُّنُوبَ عَلَيْنَا

الحسد

قال علي رضي الله عنه: لا راحةٍ لحَسُودٍ، ولا إخاءٍ لمُلُولٍ، ولا مُحِبٍّ لِسَيِّءِ الخُلُقِ.
وقال الحسن: ما رأيت ظالماً أشبه بمظلومٍ من حاسدٍ، نَفْسٌ دائمةٌ، وحُزنٌ لازمٌ، وغمٌ لا ينفد.
وقال النبي صلى الله عليه وسلم: كاد الحسدُ يَغْلِبَ القَدَرَ.
وقال معاوية: كلُّ الناسِ أَقْدَرُ أرضِيهِم إلا حاسدٍ نعمةً، فإنه لا يرضيه إلا زوالها.
وقال الشاعر:

كُلُّ العَدَاوَةِ قَدْ تُرْجَى إِمَاتَتُهَا

إِلَّا عَدَاوَةٌ مِّنْ عَادَاكَ مِنْ حَسَدٍ

وقال عبد الله بن مسعود: لا تُعَادُوا نِعَمَ الله؛ قيل له: ومن يُعادي نِعَمَ الله؟ قال: الذين يُحْسَدُونَ الناسَ على ما آتاهم الله من فضله. يقول الله في بعض الكتب: الحَسُودُ عَدُوٌّ نِعْمَتِي، مُتَسَخِّطٌ لِقَضَائِي، غيرُ راضٍ بِقِسْمَتِي.
ويقال: الحَسَدُ أوَّلُ ذَنْبٍ عَصَى الله به في السَّمَاءِ، وأوَّلُ ذَنْبٍ عَصَى الله به في الأَرْضِ؟ فأما في السَّمَاءِ فَحَسَدُ إبليسَ لِآدَمَ، وأما في الأَرْضِ فَحَسَدُ قَابِلٍ هَابِيلَ. وقال بعضُ أهلِ التفسيرِ، في قوله تعالى: "رَبَّنَا أَرْنَا اللَّذِينَ أَضَلَّانَا مِنَ الجِنَّ وَالإِنسِ نَجْعَلُهُمَا تَحْتَ أَقْدَامِنَا لِيَكُونَا مِنَ الأسْفَلِينَ". إنه أراد بالذي من الجن إبليس، والذي من الإنس قَابِلٌ، وذلك أن إبليسَ أوَّلُ من سَنَّ الكُفْرَ، وقَابِلٌ أوَّلُ من سَنَّ القَتْلَ؛ وإنما كان أصلُ ذلك كله الحسد.
ولأبي العتاهية:

فِيَا رَبِّ إِنَّ النَّاسَ لَا يُنْصِفُونَنِي

وَكَيْفَ وَلَوْ أَنْصَفْتَهُمْ ظَلَمُونِي

وَإِنْ كَانَ لِي شَيْءٌ تَصَدَّقُوا لِأَخْذِهِ

وَإِنْ جِئْتُ أَبْغِي سَبِيهِمْ مَنَعُونِي

وَإِنْ نَالَهُمْ بِذَلِي فَلَا شُكْرَ عِنْدَهُمْ

وَإِنْ أَنَا لَمْ أَبْذَلْ لَهُمْ شَتْمُونِي

وَإِنْ طَرَقْتَنِي نِقْمَةٌ فَارْحُوا بِهَا

وَإِنْ صَحَبْتَنِي نِعْمَةٌ حَسَدُونِي

سَأَمْنَعُ قَلْبِي أَنْ يَحْنَ إِلَيْهِمْ

وَأُحِبُّ عَنْهُمْ نَاطِرِي وَجُفُونِي

أبو عُبَيْدَةَ مَعْمَرُ بنُ المُنْثَبِيِّ قال: مرَّ قيسُ بنُ زُهَيْرٍ ببِلَادِ غَطَفَانَ، فرَأَى ثَرْوَةً وعدداً، فكَرِهَ ذلكَ، فقيل له: أيسوؤك ما يسرُّ الناسَ؟ قال: إنك لا تُدْرِي أنَّ مع النِّعمَةِ والثَّرْوَةِ التَّحاسُدَ والتَّخادُلَ، وأنَّ مع القِلَّةِ التَّحاسُدَ والتَّناسُراً.
وكان يقال: ما تُرَى قَوْمٌ قَطُّ إلا تَحاسَدُوا وتَخادَلُوا.
وقال بعضُ الحكماء: ألزَمَ الناسَ للكتابةِ أربعة: رجلٌ حديدٌ، ورجلٌ حَسُودٌ، وخالِيطُ الأَدْبَاءِ وهو غيرُ أَدِيبٍ، وَحَكِيمٌ مُحَقَّرٌ لدى الأَقْوَامِ.
عليّ بنِ بَشْرِ المَرْوَزِيِّ قال: كتب إليّ ابنُ المَبَارِكِ هذه الأبيات:

كُلُّ العَدَاوَةِ قَدْ تُرْجَى إِمَاتَتُهَا

إِلَّا عَدَاوَةٌ مِّنْ عَادَاكَ مِنْ حَسَدٍ

فَإِنَّ فِي القَلْبِ مِنْهَا عَقْدَةٌ عَقِدَتْ

وَلَيْسَ يَفْتَحُهَا رَاقٍ إِلَى الأَبْدِ

إِلَّا الإِلَهَ فَإِنْ يَرْحَمُ تُحَلِّ بِهِ

وَإِنْ أَبَاهُ فَلَا تُرْجُوهُ مِنْ أَحَدٍ

سُئِلَ بعضُ الحكماء: أيُّ أعدائك لا تُحِبُّ أن يعودَ لك صديقاً؟ قال: "الحاسدُ الذي لا يُرِدُّه إلى "مودتي" إلا زوالُ نِعْمَتِي.

وقال سليمان التيمي: الحسد يُضعف اليقين، ويُسهِّر العين، ويُثِرُّ الهمَّ.

الأحنف بن قيس صلى على حارثة بن قدامة السعدي، فقال: رحمك الله، كنت لا تحسد غنياً ولا تحقر فقيراً.

وكان يُقال: لا يوجد الحُرُّ حريصاً، ولا الكريم حسداً.

وقال بعض الحكماء: أجهد البلاء أن تظهر الخلة، وتطول المدَّة، وتعجز الحيلة، ثم لا تعدم صديقاً مؤملياً، وابن عمٍّ شامتاً وجاراً حاسداً، ووليّاً قد تحوّل عدواً، وزوجةً مُختلعة، وجارية مُستبيعة، وعبدًا يحقرك، وولداً ينتهرك، فانظر أين موضع جهدك في الهرب: لرجل من قريش:

حَسَدُوا النِّعْمَةَ لَمَّا ظَهَرَتْ

وَإِذَا مَا اللَّهُ أَسَدَى نِعْمَةً

وقيل: إذا سرك أن تسلم من الحاسد فعم عليه أمرك.

وكانت عائشة رضي الله عنها تتمثل بهذين البيتين:

إِذَا مَا الدَّهْرُ جَرَّ عَلَى أَنْسِ

فَقُلْ لِلشَّامِتِينَ بِنَا أَفِقُوا

ولبعضهم:

فَرَمَوْهَا بِأَبَاطِيلِ الكَلِمِ

لَمْ يَضِرْهَا قَوْلُ أَعْدَاءِ النِّعَمِ

حَوَادِثُهُ أَنَاخَ بِآخِرِينَا

سَيَلْقَى الشَّامِتُونَ كَمَا لَقِينَا

فَتَوَقَّهْ وَتَوَقَّ غَيْرَهُ مَنْ حَسَدَ

بِالْقَوْلِ فَهُوَ لَكَ العَدُوُّ المُجْتَهَدُ

إِيَّاكَ وَالحَسَدَ الَّذِي هُوَ آفَةٌ

إِنَّ الحَسُودَ إِذَا أَرَكَ مَوَدَّةً

الليث بن سعد قال: بلغني أن إبليس لقي نوحاً صلى الله عليه وسلم، فقال له إبليس: اتق الحسد والشح، فإنني حسدت آدم فخرجت من الجنة، وشح آدم على شجرة واحدة منع منها حتى خرج من الجنة.

وقال الحسن: أصول الشرِّ "ثلاثة" وفروعه ستَّة، فالأصول الثلاثة: الحسد، والحِرْص، وحُبُّ الدُّنيا. والفروع الستة: "حُبُّ النوم، وحُبُّ الشَّبَع، وحُبُّ الراحة، وحُبُّ الرئاسة وحُبُّ الشَّاء، وحُبُّ الفَخْر.

وقال الحسن: يحسد أحدهم أخاه حتى يقع في سريره وما يعرف علانيته، ويلومه على ما لا يعلمه منه، ويتعلم منه في الصداقة ما يُعير به إذا كانت العداوة، والله ما أرى هذا مُسَلِّم.

ابن أبي الدنيا قال: بلغني عن عمر بن ذر أنه قال: اللهم من أردنا بشر فاكفنا بأيِّ حُكْمَيْكَ شِئْت، إمَّا بتوبة وإمَّا براحة. قال ابن عباس: ما حسدتُ أحداً على هاتين "الكلمتين".

وقال ابن عباس: لا تحقرن كلمة الحكمة أن تسمعها من الفاجر، فإنما مثله كما قال الأول: رَبِّ رَمِيَةٌ مِنْ غَيْرِ رَامِ.

وقال بعض الحكماء: ما أمحق للإيمان، ولا أهدك للستر من الحسد، وذلك أن الحاسد معاند لحكم الله. باغ على عباده، عات على ربه، يعتد نعم الله نهماً، ومزيده غيراً، وعدل قضاءه حيفاً، للناس حال وله حال، ليس يهدأ، ولا ينام حشعه، ولا ينفعه عيشه، مُحْتَرِّ لِنِعْمِ اللَّهِ عَلَيْهِ، مُتَسَخِّطُ مَا جَرَتْ بِهِ أقدَارُهُ، لا يبرُدُّ غليله، ولا تُؤْمَنُ غوائله، إن سلمته وترك، وأن وأصلته قطعك، وإن صرَّمته سبَّك.

ذُكِرَ حاسدٌ عند بعض الحكماء فقال: يا عَجَباً لرجل أسلكه الشيطانُ مهوياً الضلالة، وأورده قُحْمَ الهَلَكَةِ، فصار لنعم الله تعالى بالمرصاد، إن أناها من أحب من عباده أشعر قلبه الأسف على ما لم يُقدَّر له، وأغاره الكلف بما لم يكن ليناله.

أنشدني فتى بالرملة:

اصبر على حاسد الحسو

النَّارُ تَأْكُلُ بَعْضُهَا

د فَإِنَّ صَبْرَكَ قَاتِلُهُ

إِنْ لَمْ تَجِدْ مَا تَأْكُلُهُ

وقال عبدُ الملك بن مَرْوانَ للحجاج: إنه ليس من أحدٍ إلا وهو يَعْرِفُ عَيْبَ نفسه، فصَفَّ لي عيوبك. قال: أَعْنِي يا أميرَ المؤمنين؛ قال: لستُ أفعل؛ قال: أنا لَجُوحٌ لِدُودٍ حَقُودٍ حَسُودٍ؛ قال: ما في إبليس شرٌّ من هذا.
وقال المنصور لسليمان بن معاوية المهلبى: ما أسرع الناسَ إلى قومك! فقال: يا أمير المؤمنين:

ولن تَرَى للنَّامِ الناسَ حُسَّادًا

إن العَرانين تَلَقَّاهُ مُحَسَّدَةً

وأَنشد أبو موسى لَنَصْرُ بن سيار:

يا إذا المَعارج لا تَتَقَصُّ لهم عَدَدًا

إِنِّي نَشأتُ وحُسَّادي ذُوو عَدَدٍ

فمِثْلُ حُسْنِ بِلائِي جَر لي حَسدا

إِنْ يَحْسُدُونِي على حُسْنِ البِلاءِ بهم

وقال آخر:

قُبَلِي من الناسِ أهلَ الفضلِ قد حُسِدُوا

إِنْ يَحْسُدُونِي فَإِنِّي غيرُ لائِمهم

وما أَكثَرنا غِيظًا بما يَجِدُ

فَدَامَ لي ولهم ما بي وما بهم

وقال آخر:

فيما مضى من سالفِ الأحوالِ

إِنَّ الغُرابَ وكان يَمشي مَشِيَّةً

فأصابه ضَرْبٌ من العُقَّالِ

حَسَدِ القِطاةِ فَرَامَ يمشي مَشِيَّها

فلذاك كَنَّوه أبا مِرقالٍ"

"أفضلُ مَشِيَّتهِ وأخطأ مَشِيَّها

وقال حبيب الطائي:

طُويِت، أتاحَ لها لسانَ حَسُودِ

وَإِذا أَرادَ اللهُ نَشَرَ فَضِيلَةَ

ما كان يُعْرِفُ طِيبُ عَرَفِ العُودِ

لو لا اشتعالُ النارِ فيما جاورَتِ

وقال محمد بن مُناذِر:

عَيْبِ أَلّا تَرَ عَوي وتَرَدَجِرُ

بأَيها العائبي وما بيَ من

أَم أنتَ مما أَتيتَ مُعْتَذِرُ

هَلْ لَكَ عِندي وَتِرٌ فَتَطْلِبُه

وَأنتَ صَلَدٌ ما فيكَ مَعْتَصِرُ

إِنَّ يَكُ قَسَمُ الإِلهِ فَضَلَنِي

وَللْحَسودِ الترابُ وَالْحَجَرُ

فالحمْدُ والشُّكرُ والتَّناءُ له

يَبْدُو لَهُ منكَ حينَ يَحْتَبِرُ

فما الذي يَجتني جَلِيسُكَ أوْ

فإنَّ خَيْرَ المَواعِظِ السُّورُ

أقرأ لنا سورة تُذَكِّرنا

ما تَسْتَحِقُ الأُنثى أو الذَكَرُ

أو صِفِ لنا الحُكْمَ في فرائضنا

جاءَ بِهِ عن نبيِّنا الأَثَرُ

أو أروِ فَفَها تُحَيِّ القُلُوبَ بِهِ

فإنها حِكْمَةٌ ومُحْتَبِرُ

أو مِن أعاجيبِ جاهليتنا

فإن أمثالها لنا عِبْرُ

أو أروِ عن فارس لنا مثلاً

فإن تكن قد جهلت ذلك وذا

فغنَّ صوتاً تُشجِّي النفوس به

ففيك للناظرين مُعْتَبَر

وبعض ما قد أتيت يُغْتَفَر

الأصمعيّ قال: كان رجلٌ من أهل البصرة بديناً شريراً، يؤذي جيرانه ويشتم أعراضهم، فأتاه رجلٌ فوعظه، فقال له: ما بال جيرانك يشكونك؟ قال: إنهم يحسدونني؛ قال له: على أي شيء يحسدونك؟ قال: على الصلْب، قال: وكيف ذلك؟ قال: أقبل معي. فأقبل معه إلى جيرانه، ففقد مُتَحَازِناً، فقالوا له: ما لك؟ قال: طرَّق الليلة كتاب مُعاوية أنا أصلب أنا ومالك بن المنذر وفلان وفلان- فذكر رجالاً من أشرف أهل البصرة- فوثبوا عليه، وقالوا: يا عدو الله، أنت تُصلب مع هؤلاء ولا كرامة لك! فالتفت إلى الرجل فقال: أما تراهم قد حسدوني، على الصلْب، فكيف لو كان خيراً! وقيل لأبي عاصم النبيل: إن يحيى بن سعيد يحسدك وربما قرضك، فأنشأ يقول:

فلست بحيّ ولا ميت

إذا لم تُعاد ولم تُحسد

محاسبة الأقارب

كتب عُمر بن الخطاب رضي الله عنه إلى أبي موسى الأشعريّ: مُر ذوي القَرَابَات أن يتزاوروا ولا يتجاوروا. وقال أكثم بن صيفي: تباعدوا في الدار تقاربوا في المودة. وقالوا: أزهّد الناس في عالم أهله. فرج بن سلام قال: وقف أمية بن الأسكر على ابن عم له فقال:

نشدتك بالبيت الذي طاف حوله

رجال بنوه من لؤي بن غالب

فإنك قد جرّبتني فوجدتني

أعينك في الجلى وأكفيك جانبي

وإن دبّ من قومي إليك عداوة

عقاربهم دبّت إليهم عقاربي

قال كذلك أنت؟ قال: نعم، قال: فما بال مثيرك لا يزال إليّ دسيساً؟ قال: لا أعود؛ قال: قد رضيتُ، وعفا الله عما سلف وقال يحيى بن سعيد: من أراد أن يبين عمله، ويظهر علمه، فليجلس في غير مجلس رهطه. وقالوا الأقارب هم العقارب.

وقيل لعطاء بن مصعب: كيف غلبت على البرامكة وكان عندهم من هو أدب منك؟ قال: كنتُ بعيداً الدار منهم، غريب الاسم، عظيم الكبر، صغير الحرم، كثير اللتواء، فقرّبني إليهم تبعدني منهم، ورغبهم في رغبتي عنهم، وليس للقرباء طرفة الغرباء. وقال رجلٌ لخالد بن صفوان: إنّي أحبك؛ قال: وما يمنعك من ذلك ولست لك بجار ولا أخ ولا ابن عم. يريد أن الحسد مُوكل بالأدنى فالأدنى. الشيباني قال: خرج أبو العباس أمير المؤمنين متتراً بالأنبار فأمعن في نزهته وانتبت من أصحابه، فوافي خباء لأعرابي. فقال له الأعرابي: ممن الرجل؟ قال: من كنانة؟ قال: من أي كنانة قال: من أبغض كنانة إلى كنانة؛ قال: فأنت إذاً من قريش؟ قال: نعم؛ قال: فمن أي قريش؟ قال: من أبغض قريش إلى قريش؛ قال: فأنت إذاً من ولد عبد المطلب؛ قال: نعم؛ قال: فمن أي ولد عبد المطلب أنت؟ قال: من أبغض ولد عبد المطلب إلى ولد عبد المطلب؛ قال: فأنت إذاً أمير المؤمنين، السلام عليك يا أمير المؤمنين ورحمة الله وبركاته. فاستحسن ما رأى منه وأمر له بجائزة. وقال ذو الإصبع العدواني.

لي ابن عمّ على ما كان من خلق

محاسد لي أقلية وبقليني

أزرى بنا أننا شالت نعماتنا

فخالني عونهُ أو خلتهُ دوني

يا عمرو إلا تدع شتمي ومنقصتي
ماذا عليّ وإن كنتم ذوي رحمي
لا أسأل الناس عما في ضمائرهم

وقال آخر:

أضربك حتى تقول الهامة اسقوني
أن لا أحبكم إن لم تحبوني
ما في ضميري لهم من ذاك يكفيني

مهلاً بني عمنا مهلاً موالينا
لا تطمعوا أن تهينونا ونكرمكم
الله يعلم أنا لانحباكُم

وقال آخر:

لا تنبشوا بيننا ما كان مدفوناً
وأن نكف الأذى عنكم وتؤذونا
ولا نلومكم إن لم تحبونا

ولقد سبرت الناس ثم خبرتهم
فإذا القرابة لا تقرب قاطعاً

ووصفت ما وصفوا من الأسباب
وإذا المودة أقرب الأنساب

المشاكلة ومعرفة الرجل لصاحبه

قالوا: أقرب القرابة المشاكلة، وقالوا: الصاحب المناسب.
وقال حبيب:

وقلت أخي؟ قالوا أخ من قرابة؟

وقال أيضاً:

فقلت لهم إن الشكول أقاربُ

ذو الودّ مني وذو القرّبي بمنزلة
عصابة جاورت أدابهم أديبي

وقال أيضاً:

وإخوتي أسوة عندي وإخواني
فهم وإن فرّقوا في الأرض جيراني

إن نفترق نسباً يؤلف بيننا
أو نختلف فالوصل منا ماؤه

وقال آخر:

أدب أقمناه مقام الوالد
عذب تحدر من غمام واحد

إن النفوس لأجناد مجنّدة

فما تعارف منها فهو مؤتلف

بالإذن من ربنا تجري وتختلف
وما تناكر منها فهو مختلف

وقال رسول الله صلى الله عليه وسلم: الأنفس أجناد مجنّدة، وإنما لتتشمّ في الهوى كما تتشمّ الخيل، فما تعارف منها ائتلف، وما تناكر منها اختلف.
وقال صلى الله عليه وسلم: الصاحب رُفعة في الثوب، فليُنظر الإنسان بم يرفع ثوبه.
وقال عليه الصلاة والسلام: امتحنوا الناس بإخوانهم.
وقال الشاعر:

فاعتبر الأرض بأشباهها

وقيل: كلُّ إلفٍ إلى إلفه يترع وقال الشاعر:

والإلفُ ينزع نحو الألفين كما

وقال امرؤ القيس:

أجارتنا إنا غريبان هاهنا

وقال آخر:

إذا كنت في قومٍ فصاحبٌ خيارهم

عن المرء لا تسأل وسل عن قرينه

وقال آخر:

أصبح ذوي الفضل وأهل الدين

واعتبر الصاحب بالصاحب

طيرُ السماء على الأفها تقعُ

وكل غريب للغريب نسيبُ

ولا تصحب الأردى فتردى مع الردي

فكل قرين بالمقارن يقتدي

فالمرء منسوبٌ إلى القرين

أيوب بن سليمان قال: حدثنا أبان بن عيسى عن أبيه عن ابن القاسم، قال: بينما سليمان بن داود عليهما السلام تحمله الريح، إذ مرَّ بنسْرٍ واقع على قصر، فقال له: كم لك مذ وقعت هاهنا؟ قال: سبعمائة سنة؛ قال: فمن بنى هذا القصر؟ قال: لا أدري، هكذا وجدته؛ ثم نظر فإذا فيه كتاب منثور بأبيات من شعر وهي:

خرجنا من قرى اصطخر

فمن يسأل عن القصر

فلا تصحب أبا السوء

فكم من جاهل أردى

يُقاس المرء بالمرء

وفي الناس من الناس

وفي العين غنى للعين

إلى القصر فقلناه

فمبنيا وجدناه

وإياك وإياه

حكيمًا حي آخاه

إذا ما المرء ماشاه

مقاييسٌ وأشباه

أن تنطق أفواه

السعاية والبغي

قال الله تعالى ذكروه: "يا أيها الناس إنما بعيتكم على أنفسكم". وقال عز وجل: "ثم بُغِيَ عَلَيْهِ لِيَنْصُرَهُ اللَّهُ".

وقال الشاعر:

فلا تسبق إلى أحدٍ ببغي

وقال العتّابي:

فإن البغي مَصْرَعُهُ وخيم

كذاك البغي يَصْرَعُ كلَّ باغي

بَغَيْتِ فلم تقع إلا صريعاً

وقال المأمون يوماً لبعض وُلده: إياك وأن تُصغى لاستماع قول السُّعاة، فإنه ما سعى رجلٌ برجلٍ إلا انحطَّ من قَدْرِهِ عندي ما لا يتلافاه أبداً. ووقع في رُقعة ساع: سننظر أصدقت أم كنت من الكاذبين. ووقع في رُقعة رجل سعى إليه ببعض عَمَّاله: قد سمعنا ما ذكره الله عزَّ وجلَّ في كتابه، فانصرف رَحِمَك اللهُ. فكان إذا ذُكر عند السُّعاة، قال: ما ظنُّكم بقومٍ يلعنهم اللهُ على الصدق؟ وسعى رجلٌ إلى بلال بن أبي بُردة، فقال له: انصرف حتى أكشِفَ عما ذكرت.

ثم كشف عن ذلك فإذا هو لغير رِشدة، فقال: أنا أبو عمرو وما كذبتُ ولا كُذبت. حدثني أبي عن جدِّي أن رسول الله صلى اللهُ عليه وسلم قال: الساعي لغيرِ رِشدة. وسأل رجلٌ عبدَ الملك الخُلوة، فقال لأصحابه: إذا شِئتم فقوموا. فلما تهيَّأ الرجل للكلام، قال له: إياك أن تمدحني، فأنا أعلم بنفسِي منك، أو تكذِبي، فإنه لا رأي لكذُوب، أو تسعى إليَّ بأحد، وإن شئتَ أقتلك؟ قال: أقلني. ودخل رجلٌ على الوليد بن عبد الملك، وهو والي دِمَشق لأبيه، فقال: للأمير عندي نصيحة؟ فقال: إن كانت لنا فاذكرها، وإن كانت لغيرنا فلا حاجة لنا فيها؟ قال: جارٌ لي عصى وفرَّ من بعته؛ قال: أما أنت فتخبر أنك جارٌ سوء، وإن شئتَ أرسلنا معك، فإن كنت صادقاً أفضيناك، وإن كنت كاذباً عاقبناك، وإن شئتَ تاركناك، قال: تاركني. وفي سير العجم: أن رجلاً وشى برجلٍ إلى الإسكندر، فقال: أتحب أن تقبل منه عليك ومنك عليه؟ قال: لا، قال: فكفَّ الشرُّ يكفُّ عنك الشرُّ. وقال الشاعر:

فلا تدع الصديق لقولٍ واشي

إذا الواشي نعى يوماً صديقاً

وقال ذو الرِّياستين: قبول النِّميمة شرٌّ من النِّميمة، لأن النِّميمة دلالة، والقبول إجازة، وليس من دَلَّ على شيء كمن قبله وأحازه. ذُكر السُّعاة عند المأمون، فقال لرجلٍ ممن حضر: لو لم يكن من عيبيهم إلا أنهم أصدق ما يكونون أبغض ما يكونون إلى الله تعالى "لكفاهم". وعاتب مُصعبُ بن الزبير الأحنف في شيء، فأنكره، فقال: أخبرني الثقة؟ قال: كلا، إن الثقة لا يُبلغ. وقد جعل اللهُ السامعَ شريك القائل. فقال: "سماعون للكذب أكألون للسُّحت". وقيل: حسبك من شرِّ سماعه. وقال الشاعر:

ولكنما سبَّ الأمير المبلِّغ

لعمرك ما سبَّ الأمير عدوهُ

وقال آخر:

وتحفظن من الذي أنباكها

لا تقبلن نَميمةً بلَّغتها

سيديبُ عنك بمثلها قد حاكها

إن الذي أنباك عنه نَميمةٌ

فتنفي برجلِك رجلَ من قد شاكها

لا تنقسن برجلٍ غيرك شوكةً

وقال دُعبل:

ونحنُ إلى أن نوصِلَ الحبلَ أحوجُ

وقد قطعَ الواشون ما كان بيننا

فلم ينههم حلْمٌ ولم يتخرجوا

رأوا عورةً فاستقبلوها بألبهم

فراحوا على ما لا نحبُّ فأدلجوا

وكانوا أناساً كنتُ آمنُ غيبيهم

الغيبية

قال النبي صلى الله عليه وسلم: إذا قلتَ في الرجل ما فيه فقد اغتبتَه، وإذا قلتَ ما ليس فيه فقد هتته: ومرَّ محمدٌ سيرين بقوم، فقال إليه رجل منهم فقال: أبا بكر، إنا قد نلنا منك فحللنا؟ فقال: "إني"، لا أحلُّ لك ما حرَّم الله عليك، "فأمَّا ما كان إليَّ فهو لك". وكان رَقَبَة بن مَصْفَلَة جالساً مع أصحابه فذَكَرُوا رجلاً بشيء، فاطلَع ذلك الرجلُ، فقال "له" بعضُ أصحابه: ألا أخبره بما قلنا فيه لئلا تكون غيبية؟ قال: أخبره حتى تكون نيمة. اغتاب رجلٌ رجلاً عند قُتَيْبَة بن مُسلم، فقال له "قُتَيْبَة": أمسك عليك أيها الرجل، فوالله لقد تلمَّظت بمُضغَة طالما لفظها الكرام. محمد بن مُسلم الطائفي قال: جاء رجلٌ إلى ابن سيرين، فقال له: بلغني أنك نلتَ مني، قال: نفسي أعزُّ "علي"، من ذلك. وقال رجلٌ لِبَكْر بن محمد بن عَصْمَة: بلغني أنك تقع في؟ قال: أنت إذا عليَّ أكرم من نفسي. ووقع رجلٌ في طَلْحَة والزُبَيْر عند سَعْد بن أَبِي وَقَّاص، فقال له: اسكُتْ، فإن الذي بيننا لم يُبلِّغ ديننا. وعاب رجلٌ رجلاً عند بعض الأشراف، فقال له: قد استدلتُ على كثرة عُيوبك بما تكثُر من عُيوب الناس، لأن طالبَ العُيوب إنما يَطْلُبها بقدر ما فيه منها، أما سمعتَ قولَ الشاعر:

فِيهِتِكَ اللهُ سِتْرًا مِنْ مَسَاوِيكَ

وَلَا تَعِبْ أَحَدًا مِنْهُمْ بِمَا فِيكَ

لَا تَهْتِكَنَّ مِنْ مَسَاوِي النَّاسِ مَا سَتَرُوا

وَإِذَا ذَكَرُوا مَا فِيهِمْ إِذَا ذَكَرُوا

وقال آخر:

عَارٌ عَلَيْكَ إِذَا فَعَلْتَ عَظِيمٌ

فَإِذَا انْتَهتَ عَنْهُ فَأَنْتَ حَكِيمٌ

لَا تَنْتَهَ عَنْ خُلُقٍ وَتَأْتِي مِثْلَهُ

وَإِذَا بِنَفْسِكَ فَانْهَاهَا عَنْ غَيْبِهَا

وقال محمد بن السماك: تَحَنَّبَ القَوْلَ فِي أَحْيَاكَ لِخَلْتَيْنِ: أُمَّ وَاحِدَةً، فَعَلَّكَ تَعْيِبُهُ بِشَيْءٍ هُوَ فِيكَ؟ وَأَمَّا الْأُخْرَى، فَإِنَّ يَكُنَّ اللهُ عَافَاكَ مِمَّا ابْتَلَاهُ بِهِ، كَانَ شُكْرُكَ اللهُ عَلَى الْعَافِيَةِ تَعْبِيرًا لِأَحْيَاكَ عَلَى الْبَلَاءِ. وقيل لبعض الحكماء: فَلَانٌ يَعْيبُكَ، قَالَ: إِنَّمَا يَقْرُضُ الدَّرْهَمَ الْوِازِنُ. "قِيلَ لِبُزْرَجْمَهْرٍ: هَلْ تَعْلَمُ أَحَدًا لَا عَيْبَ فِيهِ؟ قَالَ: إِنْ الَّذِي لَا عَيْبَ فِيهِ لَا يَمُوتُ". وقيل لعمر بن عبید: لَقَدْ وَعَى فِيكَ أَيُّوبَ السُّخْتِيَانِيَّ حَتَّى رَحِمْنَاكَ؟ قَالَ: إِيَّاهُ فَارْحَمُوا. " وَقَالَ ابْنُ عَبَّاسٍ: إِذْكَرَ أَحَاكَ إِذَا غَابَ عَنْكَ بِمَا تَحِبُّ أَنْ يَذَكَرَكَ بِهِ، وَدَعَى مِنْهُ مَا تُحِبُّ أَنْ يَدَعَ مِنْكَ.

وقدم العلاء بن الحضرمي على النبي صلى الله عليه وسلم، فقال له: هل تُروِي من الشعر شيئاً؟ قال: نعم؟ قال: فأُنشِدني؟ فأُنشده:

تَحَبَّبَكَ الْقُرْبَى فَقَدْ تُرْقِعَ النَّعْلُ

وَإِنْ غَيَّبُوا عَنْكَ الْحَدِيثَ فَلَا تَسَلْ

وَإِنْ الَّذِي قَالُوا وَرَاءَكَ لَمْ يُقَلْ

تَحَبَّبُ دَوِي الْأَضْغَانِ تَسْبُ نَفُوسَهُمْ

وَإِنْ دَحَسُوا بِالْكُرْهِ فَأَعْفُ تَكْرُمًا

فَإِنَّ الَّذِي يُؤْذِيكَ مِنْهُ سَمَاعُهُ

فقال النبي عليه السلام: إن من الشَّعْرِ لِحِكْمَة.

وقال الحسنُ البَصْرِي: لَا غَيْبَةَ فِي ثَلَاثَةِ فَاسِقٍ مُجَاهِرٍ " بِالْفِسْقِ "، وَإِمَامٍ جَائِرٍ، وَصَاحِبٍ بَدْعَةٍ لَمْ يَدْعُ بِدَعْتِهِ.

وكتب الكِسَائِي إلى الرَّقَاشِي:

عَ وَالْتَرَكْ لَهُ رَبِيَّةَ

وَلَا تَقْضِي لِمَكْتُوبِهِ

تَرَكْتَ الْمَسْجِدَ الْجَامِ

فَلَا نَافِلَةٌ تَقْضِي

مداراة أهل الشر

قال النبي عليه الصلاة والسلام: شرّ الناس من اتقاه الناس لشرّه.

وقال عليه الصلاة والسلام: إذا لقيت اللئيم فخالفه، وإذا لقيت الكريم فخالطه.

وقال أبو الدرداء: إنا لنكشّر في وجوه قوم وإنّ قلوبنا لتلعنهم وسئل شبيب بن شيبه عن خالد بن صفوان، فقال: ليس له صديق في السرّ ولا عدوّ في العلانية.

وقال الأحنف: ربّ رجل لا تغيب فوائده وإن غاب، وآخر لا يسلم منه جلسه وإن احتس.

وقال كثير بن هراسة: إن من الناس ناساً يتقصونك إذا زدّهم، وتّهون عندهم إذا خاصصتهم، ليس لرضاهم موضع تعرفه، ولا لسخطهم موضع تحذره، فإذا عرفت أولئك بأعيانهم فابدل لهم موضع المودة، واحرمهم موضع يكنّ ما بذلت لهم من المودة حائلاً دون شرهم، وما حرمتهم من الخاصة، قاطعاً لحرمتهم.

وأنشده العتيبي:

نافلات وحقه الدهر فرضاً

ثم من بعد طولها سرت عرضاً

وأشتهى أن يزيد في الأرض أرضاً

وآمزج لهم من لسانك العسلأ

لأبي الهذيل خلف ما أبدي

في غير منفعة ولا رفا

وعناؤه فاجبهه بالرد

وإن لم تجد عنه محيصاً فداره

يجذه وراء البحر أو في قراره

ولكنها محقوفة بالمكاره

عداوة غير ذي حسب ودين

لي صديق يرى حقوقى عليه

لو قطعت البلاد طولا إليه

لرأى ما فعلت غير كثير

وفي هذه الطبقة من الناس يقول دعبل الخزاعي:

أسقهم السم إن ظفرت بهم

كتب سهل بن هارون إلى موسى بن عمران في أبي الهذيل العلاف:

إن الضمير إذا سألتك حاجة

"فألن له كنا ليحسن ظنه

حتى إذا طالت شقاوة جدّه

وقال صالح بن عبد القدوس:

تجنب صديق السوء وأصرم حباله

ومن يطلب المعروف من غير أهله

ولله في عرض السموات جنة

وقال آخر:

بلاء ليس يشبهه بلاء

بِيحِكْ مِنْهُ عَرِضاً لَمْ يَصْنُهُ

عُرِضَ عَلَى أَبِي مُسْلِمٍ صَاحِبِ الدَّعْوَةِ فَرَسٌ جَوَادٌ، فَقَالَ لِقَوَّادِهِ: لِمَاذَا يَصْلُحُ مِثْلُ هَذَا الْفَرَسِ؟ قَالُوا: إِنَّا نَعُزُّو عَلَيْهِ الْعَدُوَّ؛ قَالَ: لَا، وَلَكِنْ يَرِكِبُهُ الرَّجُلُ فَيَهْرُبُ عَلَيْهِ مِنْ جَارِ السَّوَاءِ.

ذَمُّ الزَّمَانِ

قَالَتِ الْحُكَمَاءُ: جُبِلَ النَّاسُ عَلَى ذَمِّ زَمَانِهِمْ وَقَلَّتِ الرِّضَا عَنْ أَهْلِ عَصْرِهِمْ، فَمِنْهُمْ قَوْلُهُمْ: رِضَا النَّاسِ غَايَةٌ لَا تُدْرِكُ. وَقَوْلُهُمْ: لَا سَبِيلَ إِلَى السَّلَامَةِ مِنَ أَلْسِنَةِ الْعَامَّةِ. وَقَوْلُهُمْ: النَّاسُ يَعْجِرُونَ وَلَا يَعْجِرُونَ، وَاللَّهُ يَعْجِرُ وَلَا يَعْجِرُ. وَفِي الْحَدِيثِ: لَوْ أَنَّ الْمُؤْمِنَ كَالْقَدْحِ الْمُقَوِّمِ لَقَالَ النَّاسُ: لَيْتَ وَلَوْ. وَقَالَ الشَّاعِرُ:

وَضَرَّسُوهُ بِأَنْيَابٍ وَأَضْرَأَسَ

مَنْ لَابَسَ النَّاسَ لَمْ يَسْتَلْمَ مِنَ النَّاسِ

هشام بن عروة عن أبيه عن عائشة أنها قالت: رَحِمَ اللَّهُ لَبِيداً كَانَ يَقُولُ:

وَبَقِيْتُ فِي خَلْفِ كَجِلْدِ الْأَجْرَبِ

ذَهَبَ الَّذِينَ يُعَاشُ فِي أَكْنَافِهِمْ

فكيف لو أبصر زماننا هذا.

قال عروة: ونحن نقول: رَحِمَ اللَّهُ عَائِشَةَ، فكيف لو أدركت زماننا هذا.

وكان بعضهم يقول: ذهب الناسُ وبقيَ السِّنْسَانُ، فكيف لو أدرك زماننا هذا.

دخل مُسْلِمٌ بِنَ زَيْدِ بْنِ وَهْبٍ عَلَى عَبْدِ الْمَلِكِ بْنِ مَرْوَانَ، فَقَالَ لَهُ عَبْدُ الْمَلِكِ: أَيُّ زَمَانٍ أَدْرَكْتَ أَفْضَلَ، وَأَيُّ الْمُلُوكِ أَكْمَلَ؟ قَالَ: أَمَّا الْمُلُوكُ فَلَمْ أَرِ إِلَّا حَامِداً أَوْ ذاماً، وَأَمَّا الزَّمَانُ فَيَرْفَعُ أَقْوَاماً، وَكُلَّهُمْ يَذُمُّ زَمَانَهُ لِأَنَّهُ يُبْلِي جَدِيدَهُمْ، وَيُفَرِّقُ عَدِيدَهُمْ، وَيَهْرِمُ صَغِيرَهُمْ؛ وَيَهْلِكُ كَبِيرَهُمْ. وَقَالَ الشَّاعِرُ:

فَهَا قَدْ صَنَعْتَ بِنَا مَا كَفَاكَ

أَيَا دَهْرٍ إِنْ كُنْتَ عَادِيَتَنَا

وَوَلَيْتَنَا بَعْدَ وَجْهِ قَفَاكَ

جَعَلْتَ الشَّرَّارَ عَلَيْنَا خِيَاراً

وقال آخر:

وَعَكَلَ فَالسَّلَامُ عَلَى الزَّمَانِ

إِذَا كَانَ الزَّمَانُ زَمَانَ تَيْمٍ

وَصَارَ الزُّجَّ قُدَامَ السَّنَانِ

زَمَانٍ صَارَ فِيهِ الصِّدْرُ عَجْزاً

كَمَا عَادَ الزَّمَانُ عَلَى بَطَانِ

لَعَلَّ زَمَانَنَا سَيَعُودُ يَوْمًا

أبو جعفر الشَّيبَانِي قَالَ: أَنَا نَا يَوْمًا أَبُو مَيَّاسِ الشَّاعِرِ وَنَحْنُ فِي جَمَاعَةٍ، فَقَالَ: مَا أَنْتُمْ "فِيهِ" وَمَا تَتَذَكَّرُونَ؟ قُلْنَا: نَذْكُرُ الزَّمَانَ وَفَسَادَهُ؟ قَالَ: كَلَّا، إِنَّمَا الزَّمَانُ وَعَاءٌ وَمَا أَلْقِي فِيهِ مِنْ خَيْرٍ أَوْ شَرٍّ كَانَ عَلَى حَالِهِ، ثُمَّ أَنْشَأَ يَقُولُ:

وَأَخْلَاقًا تَدَّاسُ فَمَا تُصَانُ

أَرَى حُلًّا تُصَانُ عَلَى أَنْاسٍ

وَهُمْ فَسَدُوا وَمَا فَسَدَ الزَّمَانُ

يَقُولُونَ الزَّمَانُ بِهِ فَسَادٌ

أنشد فرج بن سلام:

فِي مَا يُحَدِّثُ كَعَبٌ وَابْنُ مَسْعُودٍ

هَذَا الزَّمَانُ الَّذِي كُنَّا نُحَذِّرُهُ

إن دام ذا الدهر لم نحزن على أحدٍ

وقال حبيب الطائي:

يموت منا ولم نفرح بمولود

إلا بكيت عليه حين ينصرم

لم أبك في زمن لم أرض خلته

وقال آخر في طاهر بن الحسين:

تجنبت منها كل ما فيه طاهر

وأرجأتها حتى تدور الدوائر

إذا كانت الدنيا تتال بطاهر

وأعرضت عنها عفة وتكرماً

وقال مؤمن بن سعيد في معقل الضبي وابن أخيه عثمان:

وقد ملأ أهل الندى والتفضل

إلى مثل عثمان ومثل المحول

لقد ذلت الدنيا وقد ذل أهلها

إذا كانت الدنيا تميل بخيرها

وفي آست أم عثمان وفي آست أم معقل

ففي آست أم دنيانا وفي آست أم خيرها

وقال محمد بن منذر:

هذا زمان فاسد الحشو

ونشوه من أخبث النشو

ولا تقل شعراً ولا ترو

مستحكم العزف أو الشدو

لا يفعل الخير ولا ينوي

يا طالب الأشعار والنحو

نهاره أوحش من ليله

فدع طلاب النحو لا تبغه

فما يجوز اليوم إلا امرؤ

أو طرمدان قوله كذب

ومن قولنا في هذا المعنى:

ووعد مثل ما لمع السراب

وعائت في جوانبه الذئاب

ودنيا قد توزعها الكلاب

لقالوا عندنا انقطع التراب

وإن يحسن فليس له ثواب

رجاء دون أقربه السحاب

ودهر سادت العبدان فيه

وأيام خلّت من كل خير

كلاب لو سألتهم تراباً

يُعاقب من أساء القول فيهم

كتب عمرو بن بحر الجاحظ إلى بعض إخوانه في ذمّ الزمان: بسم الله الرحمن الرحيم، حفظك الله حفظ من وفقه للقناعة، واستعمله في الطاعة. كتبت إليك وحالي حال من كثفت غمومه، وأشكلت عليه أموره، واشتبه عليه حال دهره، ومخرج أمره، وقلّ عنده من ينق بوفائه، أو يحمد مغبة إخوانه، لاستحالة زماننا، وفساد أيامنا، ودولة أئدنا. وقدما كان يقال من قدم الحياء على نفسه، وحكم الصدق في قوله، وآثر الحق في أموره، وتبد المشتهات عليه من شئونه، تمت له السلامة، وفاز بوفور حظ العافية. وحمد مغبة مكروه العاقبة؛ فنظرنا إذ حال عندنا حكمه، وتحولت دولته، فوجدنا الحياء متصلاً بالحريمان، والصدق آفة على المال، والقصد في الطلب برك استعمال القحة وإخلاق العريض في طريق التوكل دليلاً على سخافة الرأي، إذا صارت الخطوة السابقة والنعمة السابعة في لوم النية، وتناول الرزق من جهة محاشاة الوفاء وملازمة معرة العار. ثم نظرنا في تعقب المتعقب

لقولنا، والكَاسِرِ لِحُجَّتِنَا، فَأَقَمْنَا لَهُ عِلْمًا وَاضِحًا، وَشَاهِدًا قَائِمًا، وَمَنَارًا بَيْنًا، إِذْ وَجَدْنَا مَنْ فِيهِ السُّفُولِيَّةَ الْوَاضِحَةَ، وَالْمَثَالِبَ الْفَاضِحَةَ، وَالكَذِبَ الْمُبْرِحَ، وَالْخُلْفَ الْمُصْرِحَ، وَالْجَهَالَ الْمُفْرَطَةَ، وَالرَّكَاسَةَ الْمُسْتَحْفَةَ؛ وَضَعَفَ الْيَقِينَ وَالْإِسْتِنَابَ، وَسَرَعَةَ الْعَضْبِ وَالْخَفَّةَ، قَدْ اسْتَكْمَلَ سُرُورَهُ، وَاعْتَدَلَتْ أُمُورُهُ، وَفَازَ بِالسُّهْمِ الْأَغْلَبِ، وَالْحِظِّ الْأَوْفَرِ، وَالْقَدْرَ الرَّفِيعِ، وَالْجَوَابَ الطَّائِعِ، وَالْأَمْرَ الْنَافِذَ، إِنْ زَلَّ قَبِيلَ حُكْمِهِ، وَإِنْ أَخْطَأَ قَبِيلَ أَصَابِهِ، وَإِنْ هَدَى فِي كَلَامِهِ وَهُوَ يَقْظَانُ، قَبِيلَ رُؤْيَا صَادِقَةٍ فِي سَنَةِ مُبَارَكَةٍ، فَهَذِهِ حُجَّتُنَا " أَبَقَاكَ اللَّهُ " عَلَى مَنْ زَعَمَ أَنَّ الْجَهْلَ يَخْفِضُ، وَأَنَّ الْحُمُقَ يَضَعُ، وَأَنَّ التَّوَكُّلَ يُرْدِي، وَأَنَّ الْكَذِبَ يَضُرُّ وَأَنَّ الْخُلْفَ يُزْرِئِي.

ثُمَّ نَظَرْنَا فِي الْوَفَاءِ وَالْأَمَانَةِ، وَالتَّيْبَلِ وَالْبِرَاعَةِ، وَحُسْنِ الْمَذْهَبِ وَكَمَالِهِ الْمُرُوعَةِ، وَسَعَةِ الصَّدْرِ، وَقَلَّةِ الْعَضْبِ، وَكَرَمِ الطَّبِيعَةِ، وَالْفَائِقِ فِي سَعَةِ عِلْمِهِ، وَالْحَاكِمِ عَلَى نَفْسِهِ، وَالْغَالِبِ لِهَوَاهُ، فَوَجَدْنَا فُلَانًا بِنِ فُلَانٍ، ثُمَّ وَجَدْنَا الزَّمَانَ لَمْ يَنْصِفْهُ مِنْ حَقِّهِ، وَلَا قَامَ لَهُ بِوِطَائِفِ فُرْضِهِ. وَوَجَدْنَا فِضَائِلَهُ الْقَائِمَةَ لَهُ قَاعِدَةً بِهِ. فَهَذَا دَلِيلٌ عَلَى أَنَّ الطَّلَاحَ أَجْدَى مِنَ الصَّلَاحِ، وَأَنَّ الْفَضْلَ قَدْ مَضَى زَمَانَهُ، وَعَفَّتْ آثَارُهُ، وَصَارَتِ الدَّائِرَةُ عَلَيْهِ، كَمَا كَانَتِ الدَّائِرَةُ عَلَى ضِدِّهِ؛ وَوَجَدْنَا الْعَقْلَ يَشْتَقِي بِهِ قَرِينَهُ، كَمَا أَنَّ الْجَهْلَ وَالْحُمُقَ يَحْظِي بِهِ حَدِيثُهُ. وَوَجَدْنَا الشَّعْرَ نَاطِقًا عَلَى الزَّمَانِ، وَمُعْرَبًا عَنِ الْإَيَّامِ حَيْثُ يَقُولُ:

وَلَا قِيَهُمُ بِالْجَهْلِ فَعَلَّ أَخِي الْجَهْلَ

يُخَلِّطُ فِي قَوْلٍ صَحِيحٍ فِي هَزَلٍ

كَمَا كَانَ قَبِيلَ الْيَوْمِ يَسْعُدُ بِالْعَقْلِ

تَحَامَقَ مَعَ الْحَمَقِي إِذَا مَا لَقَيْتَهُمْ

وَخَلَّطَ إِذَا لَاقَتْ يَوْمًا مُخَلِّطًا

فَإِنِّي رَأَيْتُ الْمَرْءَ يَشْتَقِي بِعَقْلِهِ

فَبَقِيَتْ أَبَقَاكَ اللَّهُ مِثْلَ مَنْ أَصْبَحَ عَلَى أَوْفَازٍ، وَمَنْ الثَّقَلَةَ عَلَى جِهَازٍ، لَا تَسُوغُ لَهُ نِعْمَةٌ، وَلَا يُطْعَمُ عَيْنِيهِ غَمَضَةٌ؛ فِي أَهْوَابِ يُبَاكِرُهُ مَكْرُوهَهَا، وَتُرَاوِحُهُ عَقَابِيلُهَا، فَلَوْ أَنَّ الدُّعَاءَ أَجِيبَ، وَالتَّضَرُّعَ سَمِعَ، لَكَانَتِ الْهَدَّةُ الْعُظْمَى، وَالرَّجْفَةُ الْكَبْرَى؟ فَلَيْتَ الَّذِي يَا أَخِي مَا أَسْتَبْطَنَهُ مِنَ التَّفَنُّحَةِ، وَمَنْ فَجَّأَتِ الصَّيْحَةَ، قُضِيَ فَحَانُ، وَأَذُنُ بِهِ فَكَانَ؟ فَوَاللَّهِ مَا عُدْبَتُ أُمَّةٌ بِرَجْفَةٍ، وَلَا رِيحٌ وَلَا سَخَطَةٌ، عَذَابٌ عَيْنِيَّ بِرُؤْيَا الْمَغَايِظَةِ الْمُضْنِيَّةِ، وَالْأَخْبَارِ الْمُهْلِكَةِ، كَأَنَّ الزَّمَانَ تَوَكَّلَ بَعْدَآبِي، أَوْ انْتَصَبَ لِإِيلَامِي؟ فَمَا عَيْشُ مَنْ لَا يُسِرُّ بِأَخٍ شَقِيقٍ، " وَلَا خِدْنَ شَفِيقٍ "، وَلَا يَصْطَبِحُ فِي أَوَّلِ نَهَارِهِ إِلَّا بِرُؤْيَا مِنْ تُكْرَهُ " رُؤْيَاهُ " وَنِعْمَةٌ مِنْ تُعْمَهُ طَلَعَتْهُ، فَبَدَّلَ اللَّهُ " لِي أَيُّ، أَخِي بِالْمَسْكَنِ مَسْكِنًا وَبِالرَّبْعِ رَبْعًا، فَقَدْ طَالَتِ الْعُمَةُ، وَوَاظَنَتِ الْكُرْبَةَ، ادهمتُ الظُّلْمَةَ، وَخَمَدَ السَّرَاجَ، وَتَبَاطَأَ الْإِنْفِرَاجَ. " وَالسَّلَامُ " .

فساد الإخوان

قال أبو الدرداء: كان الناس ورَقًا لا شوك فيه، فصاروا شوكًا لا ورق فيه.
وقيل لعروة بن الزبير: ألا تنتقل إلى المدينة؟ قال: ما بقي بالمدينة إلا حاسدٌ على نعمة، أو شامتٌ بمصيبة.
الحشني قال أنشدني الرياشي:

وباد رجاله وبقي الغناء

كأمثال الذئاب لها عواء

وأعداء إذا جهد البلاء

كأنني أجرب أذاه داء

على الإخوان كلهم العفاء

إذا ذهب التكرم والوفاء

وأسلمني الزمان إلى رجال

صديق كلما استغنيت عنهم

إذا ما جننتهم يتدافعوني

أقول ولا ألام على مقال

وقالت الحكماء: لا شيء أضيع من مودة من لا وفاء له: واصطناع من لا شكر عنده، والكرهيم يودُّ الكريم عن لقيته واحدة، واللئيم لا يصل أحدًا إلا عن رغبة أو رهبة.

وفي كتاب لهنهد: إن الرجل السوء لا يتغير عن طبعه، كما أن الشجرة المرة لو طليت بها بالعسل لم تثمر إلا مرة.
وسمع رجلٌ أبا العتاهية يُنشد:

تَ فلا ترى إلا بخيالاً

فارم بطرفك حيث شئ

"فقال له: بخلت الناس كلهم؛ قال: فأكذبي بسخي واحد".
وقال أيضاً في هذا المعنى:

أصبحتُ فيه وأيَّ أهلِ زمانٍ
يُعطي ويأخذ منك بالميزان
مالت مودته مع الرجحان

لله درُّ أبيك أي زمان
كل يوازنك المودة جاهداً
فإذا رأى رجحان حبة خردلٍ

وقال فيه أيضاً:

إذا كانت حوائجهم إلينا
يُقبح حُسن أوجههم علينا
فإننا سوف نمنح ما لدينا

أرى قوماً وجوههم حسانٌ
وإن كانت حوائجنا إليهم
فإن منع الأشحة ما لديهم

وقال:

وليس لنا إذا احتجنا موالى

موالينا إذا احتاجوا إلينا

للبيكري:

في دمي كفيه ظلماً قد غمس

وخليل لم أخنه ساعة

لستُ عنه في مُهمِّ أحترس
وإدعي الودَّ بغشٍ ودلس
غبت عنه الودَّ بغشٍ ودلس
حمل السيفَ على مجرى النفس
قدرٌ أيقظ من كان نعس

كان في سرِّي وجَهري تقتي
ستر البغض بألفاظ الهوى
إن رأني قال لي خيراً وإن
ثم لما أمكنته فرصة
وأراد الروح لكنْ خانهُ

وأنشد العتيبي:

وتعتب من غير جرم علينا
عددتك ميتاً وإن كنت حياً
فأكثر منه الذي في يدينا

إذا كنت تغضب من غير ذنب
طلبت رضاك فإن عزني
فلا تعجبن بما في يديكا

وقال ابن أبي حازم:

أشفق من والد علي واد

وصاحب كان لي وكنت له

كُنَّا كَسَاقٍ تَسْعَى بِهَا قَدَمٌ
حتى إِذَا دَبَّتِ الحَوَادِثُ فِي
أزور عَنِّي وَكَانَ يَنْظُرُ مِنِّ

وقال:

أَوْ كَذِرَاعٍ نَيْطَتْ إِلَى عَضْدِ
عَظْمِي وَحَلَّ الزَّمَانُ مِنْ عَقْدِي
طَرْفِي وَيَرْمِي بِسَاعِدِي وَيَدِي

وَخَلٌّ كَانَ يَخْفِضُ لِي جَنَاحًا
فَقُلْتُ لَهُ وَلِي نَفْسٌ عَزُوفٌ
سَأَبْدِلُ بِالْمَطَامِعِ فِيكَ يَأْسًا

وقال عبد الله بن معاوية بن "عبد الله بن" جعفر:

أَعَادَ غَنِيٌّ فَنَابِذَنِي جَمَاحًا
إِذَا حَمَيْتُ تَقَحَّمَتِ الرَّمَاحَا
وَبِالْيَأْسِ اسْتَرَاحَ مِنْ اسْتِرَاحَا

وَأَنْتَ أَخِي مَا لَمْ تَكُنْ لِي حَاجَةً
فَلَا زَادَ مَا بَيْنِي وَبَيْنَكَ بَعْدَ مَا
كِلَانَا غَنِيٌّ عَنْ أَخِيهِ حَيَاتِهِ
وَعَيْنُ الرِّضَا عَنْ كُلِّ عَيْبٍ كَلِيلَةٌ

وقال البُحْتَرِيُّ:

فَإِنْ عَرَضْتَ أَيْقَنْتُ أَنْ لَا أَخَا لِيَا
بَلَوْتُكَ فِي الحَاجَاتِ إِلَّا تَمَادِيَا
وَنَحْنُ إِذَا مِتْنَا أَشَدُّ تَغَانِيَا
كَمَا أَنَّ عَيْنَ السُّخْطِ تُبَدِي المَسَاوِيَا

أَشْرَقَ أَمْ أَعْرَبَّ يَا سَعِيدُ
عَدَنْتِي عَنْ نَصِيْبِيْنَ العَوَادِي
وَخَلَفَنِي الزَّمَانُ عَلَى رِجَالِ
لَهُمْ حُلَلٌ فَهِنَّ بِيضٌ
أَلَا لَيْتَ المَقَادِرَ لَمْ تُقَدَّرْ

وقال ابن أبي حازم:

وَأَنْقَصَ مِنْ ذِمَامِي أَوْ أَزِيدُ
فَبَخْتِي أبلَةٌ فِيهَا بَلِيدُ
وَجُوهُهُمْ وَأَيْدِيهِمْ حَدِيدُ
وَأَخْلَاقٌ سَمُجَنٌ فَهِنَّ سُودُ
وَلَمْ تَكُنْ العَطَايَا وَالجُدُودُ

وَقَالُوا لَوْ مَدَحْتَ قَتَى كَرِيمًا
بُلَيْتُ وَمَرَّ بِي خَمْسُونَ حَوْلًا
فَلَا أَحَدٌ يُعَدُّ لِيَوْمٍ خَيْرٍ

وقال:

فَقُلْتُ وَكَيْفَ لِي بِقَتَى كَرِيمِ
وَحَسْبُكَ بِالمُجْرَبِّ مِنْ عَلِيمِ
وَلَا أَحَدٌ يَعُودُ عَلَى عَدِيمِ

قَدْ بَلَوْتُ النَّاسَ طُرًّا
صَارَ حُلُوقُ النَّاسِ فِي العَيِّ

وقال:

لَمْ أَحَدٌ فِي النَّاسِ حِرَا
نَ إِذَا مَا ذَبِقَ مِرَا

مَنْ سَلَا عَنِّي أَطْلَقَ

تُ حِبَالِي مِنْ حِبَالِهِ

أَوْ أَجَدَّ الْوَصَلَ سَارِعٍ
إِنَّمَا أَحْذُو عَلَى فِع
غَيْرَ مُسْتَجِدِّ إِذَا زَوَرَ
لَنْ تَرَانِي أَبْدَأُ أَع
لَا وَلَا أَزْرَى بِمَنْ يَع
إِنَّمَا أَقْضِي عَلَى ذَا
كَيْفَمَا صَرَّفَنِي الدَّهَّ

ومن قولنا في هذا المعنى:

ت بَجْهَدِي فِي وَصَالِهِ
لِ صَدِيقِي بِمِثَالِهِ
ر كَأَنِّي مِنْ عِيَالِهِ
ظِمِّ ذَا مَالٍ لِمَالِهِ
قَلِّ عِنْدِي سُوءُ حَالِهِ
كَ وَهَذَا بِفِعَالِهِ
رُ فَاِنِّي مِنْ رِجَالِهِ

أَبَا صَالِحٍ جَاءَتْ عَلَى النَّاسِ غَفْلَةٌ
فَلَيْتَ الْآلِي بَاتُوا يُفَادُونَ بِالْأَلَى
وَيَالِيَتَهَا الْكُبْرَى فَنُطْوَى سَمَاوُنَا
فَمَا الْمَوْتُ إِلَّا عَيْشٌ كُلُّ مُبْخَلِّ

وَأَعْدَرُ مَا أَدْمَى الْجُفُونََ مِنَ الْبُكَاءِ

ومثله في هذا المعنى:

عَلَى غَفْلَةٍ بَانَتْ بِكُلِّ كَرِيمٍ
أَقَامُوا فَيَفْدَى ضَاعِنٌ بِمَقِيمٍ
لَهَا وَتَمَدَّ الْأَرْضُ مَدًّا أَدِيمٍ
وَمَا الْعَيْشُ إِلَّا مَوْتُ كُلِّ دَمِيمٍ

كَرِيمٍ رَأَى الدُّنْيَا بِكَفِّ لَثِيمٍ

أَبَا صَالِحٍ أَيْنَ الْكِرَامُ بِأَسْرِهِمْ
أَحْقًا يَقُولُ النَّاسُ فِي جُودِ حَاتِمِ
عَذِيرِي مِنْ خَلْقٍ تَخَلَّقَ مِنْهُمْ
حِجَارَةٌ يُخَلِّ مَا تَجُودُ وَرُبَّمَا
وَلَوْ أَنَّ مُوسَى جَاءَ يَضْرِبُ بِالْعَصَا
بِقَاءَ لِيَأْمِ النَّاسَ مَوْتُ عَلَيْهِمْ
عَزِيزٌ عَلَيْهِمْ أَنْ تَجُودَ أَكْفَهُمْ

ومثله قولنا في هذا المعنى:

أَفْدَنِي كَرِيمًا فَالْكَرِيمُ رِضَاءُ
وَابْنِ سِنَانٍ كَانَ فِيهِ سَخَاءُ
غَبَاءٌ وَلَوْمْ فَاضِحٌ وَجَفَاءُ
تَقَجَّرَ مِنْ صَمِّ الْحِجَارَةِ مَاءُ
لَمَا انْبَجَسَتْ مِنْ ضَرْبِهِ الْبُخْلَاءُ
كَمَا أَنَّ مَوْتَ الْأَكْرَمِينَ بَقَاءُ
عَلَيْهِمْ مِنَ اللَّهِ الْعَزِيزِ عَفَاءُ

كَأَنَّهُ لِحَنِينِ الصَّوْتِ مُشْتَاقُ
تَشَابَهَتْ مِنْهُمْ فِي اللَّؤْمِ أَخْلَاقُ
لَا بُورَكَتْ مِنْهُمْ أَيْدٍ وَأَعْنَاقُ
وَحَبَسَ نَائِلُهُمْ عَهْدٌ وَمِيثَاقُ

سَاقٌ تَرَنَحٌ يَشْدُو فَوْقَهُ سَاقُ
يَا ضَيْعَةَ الشَّعْرِ فِي بُلْهِ جَرَامِقَةٍ
"عَلَّتْ بِأَعْنَاقِهِمْ أَيْدٍ مُقَفَّعَةٌ
كَأَنَّمَا بَيْنَهُمْ فِي مَنَعِ سَائِلُهُمْ

نحو المَعَالِي فما انقادوا ولا انساقوا
 فالأرض واسعة والناس أفرار
 يَغْرُهُ من سراب القَفَر رِقَار
 اللَّهُ لِلأُنُوك المَعْتَوِه رَزَاق
 فما أناملها للناس أرزاق
 فما لفقدك في الأحشاء إقلاق
 ولا عليك لنور المجد إشراق
 إلا تَكْفَه ذُلَّ وإملاق

كم سَقْتَهُم بأمادِيحِي وقُدْتَهُم
 وإن نَبَا بِي فِي ساحتهم وَطَنُ
 ما كنتُ أَوَّلَ ظمآنَ بِمَهْمِه
 رَزَقُ من الله أرضاهم وأسخطني
 يا قابضَ الكف لا زالت مُقَبِّضَة
 وغِبُّ إذا شِئت حتى لا تُرى أبداً
 ولا إِلَيْكَ سبيلُ الجودِ شارِعَةٌ
 لم يكتفني رَجاء لا ولا أمل

وقال مؤمِّل بن سَعِيد في هذا المعنى:

لستُ من نايِهِ أهلِ البلدِ
 لذوي الألبابِ أو ذي حَسَدِ
 يَتَحامُونَ لِقَاءَ الأسدِ
 وعلى أنفسهم من أهد
 أهدًا يأخذ منهم بيدي

إنما أزرى بقَدْرِي أني
 ليس منهم غير ذي مَقْلِيَة
 يَتَحامُونَ لِقائِي مثلَ ما
 طَلَعْتِي أَثْقَلُ فِي أعينهم
 لو رأوني وَسَطَ بحرٍ لم يكن

باب في الكبر

أقال النبي صلى الله عليه وسلم: يقول الله تبارك وتعالى: العظمة إزارِي، والكبرياء ردائي، فمن نازعني واحداً منهما قصمته وأهنته. وقال عليه السلام: لا يدخل حَضْرَة القُدس مُتَكَبِّر. وقال: فضل الإزار في النار. معناه: من سَحَب ذيلَه في الحِيلَاء قاده ذلك إلى النار. و"نظر الحسنُ إلى عبد الله بن الأَهمم يَحْطِر في المَسْجِد، فقال: انظروا إلى هذا، ليس منه عضو إلا ولله عليه نِعْمَة، وللشيطان في لَعْنَة. وقال سَعْد بن أبي وَقاص لابنه: يا بُنِي: إِيَّاكَ وَالكَبْرَ، وَلْيَكُنْ فيمَا تَسْتَعِين به على تَرْكِه: عَلِمْتُكَ بالذي منه كنتَ، والذي إِلَيْهِ تَصِير، وكيف الكَبْر مع النُظْفَة الَّتِي منها خُلِقْت، والرحم الَّتِي منها قُدِفْت، والغِذاء الذي به غُدِيت. وقال يحيى بن حَيَّان: الشَريفُ إذا تَقَوَّى تواضَع، والوَضِيعُ إذا تَقَوَّى تَكَبَّر. وقال بعضُ الحُكَماء: كيف يَسْتَقِرُّ الكَبْر فيمَن خُلِق من تَراب، وطُوي على القَدَر، وجرى مجرى البول. وقال الحسن: عجباً لابن آدم كيف يَتَكَبَّر وفيه تَسع سُموم كَلَّها يُؤذِي وذكر الحسنُ المُتَكَبِّرين فقال: يُلْفِي أحدهم ينص "رَقَبْتَه" نصًّا، يَنْفُض مَذرويه، وَيَضْرِب أَصدْرِيه، يَمْلُخُ في الباطل مَلْخًا، يقول: ها أناذا فاعرفوني؟ قد عَرَفْتاك يا أحمق، مَقْتاك اللهُ ومَقْتاك الصالحون.

ووقف عُيَيْنَة بن حِصْن ببابِ عمرَ بن الخطاب رضي الله عنه، فقال: استأذِنُوا لي على أمير المؤمنين وقولوا له: هذا ابن الأخيار بالباب. فأذن له، فلما دخل عليه، قال له: أنت ابن الأخيار؟ قال نعم؛ قال له: بل أنت ابن الأشرار، وأما ابن الأخيار فهو يوسف بن يعقوب بن إسحاق بن إبراهيم. وقيل لعبيد الله بن ظبيان: كثر الله في العَشيرة أمثالك، فقال: لقد سألتم الله شَطْطًا.

وقيل لرجل من بني عبد الدار عظيم الكبر: ألا تأتي الخليفة؟ قال: أخشى ألا يحمل الجسر شرفي.
وقيل له: ألا تلبس فإن البرد شديد؟ قال: حسبي يذفتني.

قيل للحجاج: كيف وجدت مزلك بالعراق أيها الأمير؟ قال: خير منزل، لو أدركتُ بها أربعة نفر فتقرّبت إلى الله سبحانه وتعالى بدمائهم؛ قيل له: ومن هم؟ قال: مقاتل بن مسعم، ولي سجستان، فأتاه الناس فأعطاهم الأموال؛ فلما قدم البصرة بسط له الناس أرديتهم فمشى عليها؛ فقال: لئن هذا فليعمل العاملون. وعبيد الله بن ظبيان خطب خطبة أوجز فيها، فناداه الناس من أغراض المسجد. كثر الله فينا أمثالك؟ قال: لقد كلّفتم ربكم شططا. ومعبد بن زُرارة، كان ذات يوم جالسا على طريق، فمرت به امرأة، فقالت: يا عبد الله، أين الطريق لمكان كذا؟ فقال لئن لي يقال يا عبد الله! ويملك! وأبو السّمّال الحنفي، أضلّ ناقته، فقال: والله لئن لم تُرد عليّ ناقتي لا صليتُ أبداً.

وقال ناقل الحديث: ونسي الحجاج نفسه، وهو خامس هؤلاء الأربعة، بل هو أشدهم كُفراً وأعظمهم إلحاداً، حين كتب إلى عبد الملك بن مروان في عطسة عطسها فشتمته أصحابه وردّ عليهم: بلغني ما كان من عطاس أمير المؤمنين وتشميت أصحابه له وردّه عليهم، فيا ليتني كنت معهم فأفوز فوزاً عظيماً.

وكتابه إليه: إن خليفة الرجل في أهله أكرم عليه من رسوله إليهم، وكذلك الخلفاء يا أمير المؤمنين أعلى منزلة من المرسلين.
العُتبيّ قال: رأيتُ مُحْرزاً مولى باهلة يطوف على بعلّة بين الصفا والمروة، ثم رأته بعد ذلك على جسر بغداد راجلاً، فقلتُ له: أراجلُ أنت في مثل هذا الموضع؟ قال: نعم، إنني ركبْتُ في موضع يمشي الناس فيه، فكان حقيقاً على الله أن يُرجّلني في موضع يركب الناس فيه.
وقال بعض الحكماء لابنه: يا بُني، عليك بالترحيب والبشر، وإياك والتقطيب والكبر، فإن الأحرار أحب إليهم أن يلقوا بما يحبون ويُحرموا، من أن يلقوا بما يكرهون ويعطوا. فانظر إلى خصلة غطت على مثل اللوم فالزمها، وانظر إلى خصلة عفت على مثل الكرة فاجتنبها. ألم تسمع قول حاتم الطائي:

ويُخصب عندي المحلّ جديبٌ

ولكنما وجه الكريم خصيب

للعقل لمجلبة للذمّ والسخطِ

بذلّ العطاء بوجه غير منبسط

والتيه مفسدة لكل جوادٍ

ومسبة في الأهل والأولاد

أتأمل أن ترتقي إلى الدبران

ولو حلّ بين الجدّي والسرطان

بسهم من البلوى يدُ الحدّثان

أضاحك ضيفي قبل إنزال رحله

وما الخصب للأضياف أن يكثر القرى

التيه مفسدة للدين منقصة

منع العطاء وبسط الوجه أحسن من

بشرُ البخيل يكاد يصلح بخله

ونقيصة تبقى على أيامه

مع الأرض يا بن الأرض في الطيران

فو الله ما أبصرت يوماً محلّقاً

حماء مكان البعد من أن تناله

وقال محمود الوراق:

وقال أيضاً:

وقال آخر في الكبر:

التسامح مع النعمة والتذلل مع المصيبة

قالوا: من عَزَّ بِإِقْبَالِ الدَّهْرِ ذَلَّ بِإِذْبَارِهِ.

وقالوا: مَنْ أَبْطَرَهُ العَيْنَى أَذَلَّهُ الفَقْرُ.

وقالوا: مَنْ وَلِيَ وِلَايَةَ يَرَى نَفْسَهُ أَكْبَرَ مِنْهَا لَمْ يَتَغَيَّرْ لَهَا، وَمَنْ وَلِيَ وِلَايَةَ يَرَاهَا أَكْبَرَ مِنْ نَفْسِهِ تَغْيِيرُ لَهَا.

وقال يحيى بن حَيَّانَ: الشَّرِيفُ إِذَا تَقَوَّى تَوَاضَعًا، وَالْوَضِيعُ إِذَا تَقَوَّى تَكَبَّرَ.

وقال كِسْرَى: أَحْذَرُوا صَوْلَةَ الكَرِيمِ إِذَا جَاعَ، وَاللَّئِيمِ إِذَا شَبِعَ.

وكتب عليُّ بن الجَهْمِ إِلَى ابْنِ الزِّيَّاتِ:

أَبَا جَعْفَرَ عَرَجَ عَلَى خُلْطَانِكَ

فَإِنْ كُنْتَ قَدْ أُوتِيتَ فِي اليَوْمِ رِفْعَةً

وقال عبد العزيز بن زُرَّارَةَ الكَلَابِيِّ:

لَقَدْ عَجِبْتُ مِنْهُ اللَّيَالِي لِأَنَّهُ

إِذَا نَالَ لَمْ يَفْرَحْ وَليْسَ لِنَكْبَةٍ

وقال الحسنُ بن هانئٍ:

وَأَقْصِرْ قَلِيلًا مِنْ مَدَى غُلُوثِكَ

فَإِنْ رَجَائِي فِي غَدِّ كَرَجَائِكَ

صَبُورٌ عَلَى عَضَاءِ تِلْكَ البَلَابِلِ

أَلَمْتُ بِهِ بِالخَاشِعِ الْمُتَضَائِلِ

وَلَقَدْ فَرِحْتُ فَلَمْ أُمْتُ فَرَحًا

كتب عقيلُ بن أبي طالبٍ إِلَى أخيه عليِّ بن أبي طالبٍ عَلَيْهِ السَّلَامُ يَسْأَلُهُ عَن حَالِهِ، فَكُتِبَ إِلَيْهِ عَلِيُّ رَضِيَ اللهُ عَنْهُ:

جَلِيدٌ عَلَى عَضِ الزَّمَانِ صَلِيبٌ

فِي فِرْحِ وَاشٍ أَوْ يُسَاءَ حَبِيبٌ

لَقَدْ حَزَنْتُ فَلَمْ أُمْتُ تَرَحًا

فَإِنْ تَسْأَلِينِي كَيْفَ أَنْتَ فَإِنِّي

عَزِيزٌ عَلَيَّ أَنْ تُرَى بِي كَابَةٌ

مَا جَاءَ فِي ذِمِّ الحَمَقِ وَالجَهْلِ

قال النبي صلى الله عليه وسلم: "الجاهلُ يظلم مَنْ خالطه، ويعتدي على مَنْ هو دونه، ويتطاول على مَنْ هو فوقه، ويتكلم بغير تمييز، وإن رأى كريمةً أعرض عنها، وإن عرَضت فتنة أَرَدَّته وَتَهَوَّرَ فِيهَا.

وقال أبو الذَّرْدَاءِ: عَلامَةُ الجاهِلِ ثَلاثُ: العُجْبُ، وَكَثْرَةُ المَنطِقِ، وَأَنْ يَنْهَى عَن شَيْءٍ وَيَأْتِيهِ.

وقال أَرْدَشِيرُ: حَسْبُكُمْ دَلالةٌ عَلَى عَيْبِ الجَهْلِ أَنَّ كَُلَّ النَاسِ تَنفَرُ مِنْهُ وَتَغْضَبُ مِنْ أَنْ تُنَسَبَ إِلَيْهِ.

وَكان يُقالُ: لا تُعْرُزُكَ مِنَ الجاهِلِ قَرابَةٌ وَلا أُخوَةٌ وَلا إِلفٌ، فَإِنَّ أَحَقَّ النَاسِ بِتَحْرِيقِ النَّارِ أَقْرَبُهُمُ مِنْهَا.

وقيل: خَصَلْتانِ تَقَرَّبانِكَ مِنَ الأحمقِ، كَثْرَةُ الِالتفاتِ، وَسُرْعَةُ الجِوابِ. وَقيلُ: لا تَصْطَحِبِ الجاهِلَ، فَإِنَّهُ يُريدُ أَنْ يَنْفَعَكَ فَيَضُرُّكَ.

ولبعضهم:

لِكُلِّ داءٍ دِواءٌ يَسْتَطِبُّ بِهِ

وَلأبى العَناهِيةَ:

إِلا الحِماقَةَ أُعْيِتَ مَنْ يُدْاوِيها

إِنما الأحمقُ كالثَّوبِ الخَلَقُ

زَعزَعَتَهُ الرِيحُ يَوماً فَانخَرَقَ

أَحْذَرِ الأحمقَ أَنْ تَصَحَبَهُ

كَلِّمًا رَقَعَتَهُ مِنْ جِانِبِ

أو كصدع في زجاج فاحشٍ

فإذا عاتبته كي يرعوي

هل ترى صدع زجاج يلتصق

زاد شراً وتمادى في الحمق

باب في التواضع

قال النبي صلى الله عليه وسلم: مَنْ تَوَاضَعَ لِلَّهِ رَفَعَهُ اللَّهُ.

قالت الحكماء: كُلُّ نِعْمَةٍ يَحْسُدُ عَلَيْهَا إِلَّا التَّوَاضِعُ.

وقال عبدُ الملك بن مروان، رَفَعَهُ إِلَى النَّبِيِّ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ: أَفْضَلُ الرِّجَالِ مَنْ تَوَاضَعَ عَنْ رِفْعَةٍ، وَزَهَدَ عَنْ قُدْرَةٍ، وَأَنْصَفَ عَنْ قُوَّةٍ.

وقال ابن السَّمَاكِ لِعِيسَى بْنِ مُوسَى: تَوَاضَعْ فِي شَرِّكَ أَكْبَرَ مِنْ شَرِّكَ.

وأصبح النَّجَاشِيُّ يَوْمًا جَالِسًا عَلَى الْأَرْضِ وَالتَّاجُ عَلَيْهِ، فَأَعْظَمَتْ بَطَارِقَتُهُ ذَلِكَ، وَسَأَلُوهُ عَنِ السَّبَبِ الَّذِي أَوْجَبَهُ، فَقَالَ: إِنِّي وَجَدْتُ فِيمَا أَنْزَلَ اللَّهُ

عَلَى الْمَسِيحِ: إِذَا أَنْعَمْتُ عَلَى عَبْدِي نِعْمَةً فَتَوَاضَعَ أَمَمْتُهَا عَلَيْهِ، وَإِنَّهُ وُلِدَ لِي هَذِهِ اللَّيْلَةَ غَلَامٌ فَتَوَاضَعْتُ شُكْرًا لِلَّهِ.

خَرَجَ عُمَرُ بْنُ الْخَطَّابِ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ، وَيَدُهُ عَلَى الْمُعَلَّى بْنِ الْجَارُودِ الْعَبْدِيِّ، فَلَقِيَتْهُ امْرَأَةٌ مِنْ قُرَيْشٍ، فَقَالَتْ لَهُ: يَا عُمَرُ، فَوَقَفَ لَهَا؟ فَقَالَتْ: كُنَّا نَعْرِفُكَ

مُدَّةً عُمِيرًا، ثُمَّ صِرْتُ مِنْ بَعْدِ عُمَيْرِ عُمَرُ، ثُمَّ صِرْتُ مِنْ بَعْدِ عُمَرَ أَمِيرَ الْمُؤْمِنِينَ، فَاتَّقَ اللَّهُ يَا بْنَ الْخَطَّابِ وَانظُرْ فِي أُمُورِ النَّاسِ، فَإِنَّهُ مَنْ خَافَ الْوَعِيدَ

قَرَّبَ عَلَيْهِ الْبَعِيدَ، وَمَنْ خَافَ الْمَوْتَ خَشِيَ الْفَوْتَ. فَقَالَ الْمُعَلَّى: إِيهًا يَا أُمَّةَ اللَّهِ، فَقَدْ أَبَكَيْتَ أَمِيرَ الْمُؤْمِنِينَ. فَقَالَ لَهُ عُمَرُ: اسْكُتْ، أَتَدْرِي مَنْ هَذِهِ

"وَيَحْكُ؟" هَذِهِ خَوْلَةٌ بِنْتُ حَكِيمِ الَّتِي سَمِعَ اللَّهُ قَوْلَهَا مِنْ سَمَائِهِ، فَعُمِّرَ أَحْرَى أَنْ يَسْمَعَ قَوْلَهَا وَيَقْتَدِيَ بِهِ.

وقال أبو عَبَّادٍ "الكاتب": مَا جَلَسَ إِلَيَّ رَجُلٌ قَطُّ إِلَّا خَيَّلَ إِلَيَّ أَنِّي سَأَجْلِسُ إِلَيْهِ.

وَسُئِلَ الْحَسَنُ عَنِ التَّوَاضِعِ فَقَالَ: هُوَ أَنْ تَخْرُجَ مِنْ بَيْتِكَ فَلَا تَلْقَى أَحَدًا إِلَّا رَأَيْتَ لَهُ الْفَضْلَ عَلَيْكَ.

وقال رجل لبكر بن عبد الله: عَلَّمَنِي التَّوَاضِعَ؛ فَقَالَ: إِذَا رَأَيْتَ مَنْ هُوَ أَكْبَرُ مِنْكَ فَقُلْ: سَبَقَنِي إِلَى الْإِسْلَامِ وَالْعَمَلِ الصَّالِحِ، فَهُوَ خَيْرٌ مِنِّي، وَإِذَا رَأَيْتَ

"مَنْ هُوَ" أَصْغَرُ مِنْكَ فَقُلْ: سَبَقْتُهُ إِلَى الذُّنُوبِ وَالْعَمَلِ السَّيِّئِ، فَأَنَا شَرٌّ مِنْهُ.

وقال أبو العتاهية:

يَا مَنْ تَشَرَّفَ بِالدُّنْيَا وَزِينَتِهَا

إِذَا أُرِدْتَ شَرِيفَ النَّاسِ كُلِّهِمْ

"ذَاكَ الَّذِي عَظُمْتَ فِي النَّاسِ هِمَّتَهُ"

لَيْسَ التَّشَرُّفُ رَفَعَ الطَّيْنِ بِالطَّيْنِ

فَانظُرْ إِلَى مَلِكٍ فِي زِيِّ مَسْكِينٍ

وَذَاكَ يَصْلِحُ لِلدُّنْيَا وَلِلدِّينِ"

الرفق والأناة

قال النبي صلى الله عليه وسلم: مَنْ أَوْتِيَ حَظَّهُ مِنَ الرَّفْقِ فَقَدْ أُوْتِيَ خَيْرَ الدُّنْيَا وَالْآخِرَةِ.

وقالت الحكماء: يُدْرِكُ بِالرَّفْقِ مَا لَا يُدْرِكُ بِالْعَنْفِ، أَلَا تَرَى أَنَّ الْمَاءَ عَلَى لِيْنِهِ يَقْطَعُ الْحَجَرَ عَلَى شِدَّتِهِ؟ وَقَالَ أَشْجَعُ "بْنُ عَمْرٍو" السُّلَمِيُّ لَجَعْفَرِ بْنِ يَحْيَى

بْنِ خَالِدٍ:

مَا كَانَ يُدْرِكُ بِالرِّجَالِ وَلَا

وقال النابغة:

الرَّفْقُ يُمِّنُ وَالْأَنَاةُ سَعَادَةٌ

فَأَسْتَأْنِ فِي رِفْقٍ تَلَاقَ نَجَاحًا

وقالوا: العَجَلُ بَرِيدُ الزَّلَلِ.

أخذ القَطَامِي التَّعْلِيَّ هذا المعنى فقال:

وقد يكونُ معَ المُستَعَجِلِ الزَّلَلُ

قد يُدْرِكُ المُتَأَنِّيَ بعضَ حاجتِهِ

وقال عَدِيُّ بنُ زَيْدٍ:

والْحَيْنُ قد يَسْبِقُ جُهْدَ الحَرِيصِ

قد يُدْرِكُ المُبْطِئُ منَ حَظِّهِ

استراحة الرجل بمكنون سره إلى صديقة

تقول العرب: أَفْضَيْتُ إِلَيْكَ بِشَقُورِي. وَأَطْلَعْتُكَ عَلَى عَجْرِي وَبُجْرِي. لو كان في جَسَدِي بَرَصٌ ما كَتَمْتُهُ.

وقال الله تبارك وتعالى: "لِكُلِّ نَبَأٍ مُسْتَقَرٌّ".

وقالت الحكماء: لكلِّ سِرٍّ مُسْتَوْدَعٌ.

وقالوا: مكاتمة الأذنين صريحُ العُقوقِ.

وقال الشاعر:

وجَرَّعْتُهُ من مِرٍّ ما أَتَجْرَعُ

وأبْتَثْتُ عَمراً بعضَ ما في جَوَانِحِي

إِذَا جَعَلْتَ أَسْرارُ نَفْسٍ تَطَّلَعُ

"ولا بدَّ من شَكْوَى إلى ذِي حَفِيظَةٍ

وقال حبيب:

ولكن تَفِيضُ النَفْسِ عند امْتِلائِها

شكوت وما الشَّكْوَى لِمِثْلِي عَادَةٌ

وأَنشد أبو الحسن محمد البَصْرِيُّ:

وَدُفِنْتُ حَيًّا تحت رَدَمٍ هُمُومِي

لَعِبَ الهَوَى بِمَعَالِمِي ورُسُومِي

هَمًّا يَضِيقُ به فغِيرَ مَلُومِ

وشكوتُ هَمِّي حين ضِيقْتُ ومَن شكا

وقال آخر:

وناديتُ تحت اللَّيْلِ يا سامعَ النَّجْوَى

إِذَا لم أَطِقْ صَبِراً رَجَعْتُ إلى الشَّكْوَى

على كَبِدِ حَرَّى لِتَرَوَى فما تَرَوَى

وأَمْطَرْتُ صَحْنَ الخَدِّ غَيْثاً من البُكا

الاستدلال باللحظ على الضمير

قالت الحكماء: العينُ بابُ القَلْبِ، فما كان في القَلْبِ ظَهَرَ في العَيْنِ.

أبو حاتم عن الأصمعي عن يونس بن مُصعب عن عثمان بن إبراهيم بن محمد قال: إني لأُعرف في العين إذا عَرَفْتُ، وأُعرف فيها إذا أنكرت، وأُعرف فيها إذا لم تُعرف ولم تُنكر، أما إذا عرفت فتخوَّص، وأما إذا أنكرت فتجَحَّظ، وأما إذا لم تُعرف ولم تُنكر فتَسْجُو.

وقال صريحُ العَوالي:

مَصابِدَ لَحْظٍ هُنَّ أخْفَى من السَّحَرِ

جَلنا عَلاماتِ المَوَدَّةِ بَيْننا

وأُعرف فيها الهَجْرُ في النَظَرِ الشَّرِّ

فأُعرفُ فيها الوَصَلَ في لِينِ طَرَفِها

وقال محمودُ الورّاق:

فبغِيضُهَا لَكَ بَيْنَ وَحَبِيْبِهَا
وتحدّثت عما تجنّ قلوبها
يَخْفِي عَلَيْكَ بَرِيئُهَا وَمُرِيْبِهَا

إِنَّ الْعُيُونَ عَلَى الْقُلُوبِ شَوَاهِدٌ
وَإِذَا تَلَّاحَظْتَ الْعُيُونَ تَفَاوَضَتْ
يَنْطِقْنَ وَالْأَفْوَاهُ صَامِتَةٌ فَمَا

وقال ابن أبي حازم:

وَمِنَ الدَّهْرِ مَا صَفَا

خَذُ مِنَ الْعَيْشِ مَا كَفَى

عَيْنٌ مِنْ لَا يُحِبُّ وَصَلَّكَ تُبْدِي لَكَ الْجَفَا

ومن قولنا في هذا المعنى:

دَمْعَةٌ لِلشُّوقِ مَسْكُوبٌ
فهو في العَيْنَيْنِ مَكْتُوبٌ

صَاحِبٌ فِي الْحُبِّ مَكْذُوبٌ

كُلُّ مَا تَطْوِي جَوَانِحَهُ

وقال الحسنُ بن هانئ:

فَقَدْ كَدْتُ لَا يَخْفِي عَلَيَّ ضَمِيرُ

وَإِنِّي لَطَيْرٌ بِالْعَيْنِ بِالْعَيْنِ زَاجِرٌ

الاستدلال بالضمير على الضمير

كتب حكيمٌ إلى حكيمٍ: إذا أردتَ معرفةَ مالكَ عندي فضعْ يدك على صدرِكَ فكما تجدني كذلك أحذُك.
وقالوا: إياكم ومن تُبغضه قلوبُكم، فإنَّ القلوبَ تُجَازي القلوبَ.
وقال ذو الإصبع:

ما في ضميري لهم من ذاك يكفيني

لا أسألُ الناسَ عما في ضمائرهم

وقال محمودُ الورّاق:

واستَمَلَّ ما في قلبه من قلبكَا
أو كان حُبًا فاز منك بحبِّكَا

لا تسألنَّ المرءَ عما عنده

إن كان بُغْضًا كان عندك مثله

الإصابة بالظن

قيل لعمرو بن العاص: ما العَقْلُ؟ قال الإصابة بالظنِّ ومعرفة ما يكون بما قد كان.
أو قال عمر بن الخطاب: مَنْ لَمْ يَنْفَعِهِ ظَنُّهُ لَمْ يَنْفَعِهِ يَقِينُهُ،
وقال عليُّ بن أبي طالب رضي الله عنه: لله دَرُّ عَبَّاسٍ، إن كان، لينظر إلى العَيْبِ من سِتْرِ رَقِيقٍ.
وقال الشاعر:

حتى يرى لوجوه الشرِّ أسباباً

وقلّما يفجأ المكرُّوهُ صاحبه

وإنما رَكَّبَ اللهُ العَقْلَ في الإنسان دون سائر الحيوان ليستدلَّ بالظاهر على الباطن، ويفهم الكثيرَ بالقليل.
ومن قولنا في هذا المعنى:

ولو دَرَى ما رأى إلا مساويه
كلُّ البهائمِ يَجْرِي طَرَفُها فيه

يا غافلاً ما يرى إلا محاسنه
انظرْ إلى باطنِ الدُّنيا، فظاهرُها

تقديم القرابة وتفضيل المعارف

قال الشَّيباني: أوَّلُ مَنْ آثرَ القَرابةَ والأولياءَ عثمانُ بنُ عفَّانٍ رضي اللهُ عنه، وقال: كان عمرُ بنُ الخطابِ رضي اللهُ عنه يجمعُ أقاربهَ ابتغاءَ وجهِ اللهِ. فلا يُرى أفضلُ من عمر.

وقال لما آوى طريدَ النبي صلى اللهُ عليه وسلم: ما نَقِمَ الناسُ عَلَيَّ أن وصلتُ رحماً وقَرَّبتُ عمًا.

وقيل لمعاوية بن أبي سُفيان: إنَّ آذَنَكَ يُقدِّمُ معارفَه وأصدقاَه في الإذنِ على أشرفِ الناسِ ووُجوههم؛ فقال: ويَلُكُم! إنَّ المَعْرِفةَ لَتَنفَعُ في الكَلْبِ العَقورِ، والجَمَلِ الصَّوولِ، فكيف في رَجُلٍ حَسِيبٍ ذي كرمٍ ودين.

وقال رجلٌ لزياد: أصَلح اللهُ الأميرَ، إنَّ هذا يُدِلُّ بِمَكَانَةٍ يَدَّعِيها مِنكَ؛ قال: نعم، وأحْبِرُكَ بما يَنْفَعُه من ذلك، إنَّ كانَ الحَقُّ لَه عليك أخذتُكَ به أخذاً شديداً، وإن كان لك عليه قَضِيته عنه.

وقال الشاعر:

يُدِلُّ بِحَقِّ أو يُدِلُّ بِباطلِ

أقولُ لجارِي إنَّ أتانِي مُخاصِماً

إليكِ فما شَرَّيَ إليكِ بواصِلِ

إذا لم يَصِلْ خَبْرِي وأنتَ مُجاوِرِي

العُتْبِيُّ قال: وكَيَّ عبدُ اللهِ بنُ خالدِ بنِ عبدِ اللهِ القَسْرِي "قضاءَ" البَصْرَةَ، فكان يُحايِبُ أهلَ مودَّتِهِ؛ فقيلَ لَه: أيُّ رَجُلٍ أنتَ لولا أنكَ تُحايِبُ! قال: وما خَيْرُ الصَّدِيقِ إذا لم يَقْطعْ لصديقِهِ قِطْعَةً من دينِهِ.

وكَلِي ابنُ شُبْرَمَةَ قِضاءَ البَصْرَةَ وهو كارِه، فأحسَنَ السَّيرَةَ. فلما غَزَلَ اجتمعَ إليه أهلُ خاصَّتِهِ ومودَّتِهِ، فقال لهم: والله لقد وَلَّيتُ هذه الوِلايَةَ وأنا كارِهٌ، وغَزَلتُ عنها وأنا كارِهٌ، وما بي من ذلك إلا مخافَةٌ أن يَليَ هذه الوُجوهَ من لا يَعْرِفُ حَقَّها. ثم تمثَّلَ بقولِ الشاعر:

ولا أنني من خَشْيَةِ المَوْتِ أَجْزَعُ

فما السَّجْنُ أبْكَاني ولا القَيْدُ شَفَّني

إذا مِتُّ أن يُعْطوا الذي كنتُ أَمْنَعُ

بَلَى إنَّ أقواماً أخافُ عليهمُ

"وتقول العامة: مَحَبَّةُ السلطانِ أَرَدَ عليكِ من شُهودِكَ" وقال الشاعر:

فَلَيْسَ بِقابِلِ مِنكَ الشَّهودِ

إذا كانَ الأميرُ عليكِ خَصِماً

وقال زياد: أحبُّ الوِلايَةَ لثلاثِ، وأكرهها لثلاثِ: أحبُّها لِتَفْعِ الأَوْلِياءِ، وضرُّ الأَعْداءِ، واسترخاضِ الأَشْياءِ؛ وأكرهها لِروَعَةِ البَرِيدِ، وقُرْبِ العِزْلِ، وشَماتَةِ العَدُوِّ.

ويقول الحكماء: أَحَقُّ مَنْ شارَكَ في النِّعْمَةِ شَرُّكَواؤِ في المِصِيبَةِ.

أخذهُ الشاعرُ فقال:

عند السُّرُورِ لمن آساکِ في الحِزَنِ

وإنَّ أوْلَى الموالِي أن تُواسِيَهُ

مَنْ كانَ يألُفُهُم في المَنْزَلِ الخَشِنِ

إنَّ الكِرامِ إذا ما أسْهَلُوا ذَكَروا

وقال حبيب:

فَبِحِ الْإِلَهِ عَدَاوَةٌ لَا تُنْقَى

وَمَوَدَّةٌ يُدَلَّى بِهَا لَا تَنْفَعُ

فضل العشيرة

قال علي بن أبي طالب رضي الله عنه: عشيرة الرجل خيرٌ للرجل من الرجل للعشيرة، إن كف عنهم يداً واحدة كفوا عنه أيدياً كثيرة، مع مودتهم وحفاظهم ونصرتهم. إن الرجل ليغضب للرجل لا يعرفه إلا بنسبه، وسأئلو عليكم في ذلك آيات من كتاب الله "تعالى"، قال الله عز وجل فيما حكاه عن لوط: "لو أن لي بكم قوة أو آوى إلى ركن شديد!" يعني العشيرة، ولم يكن للوط عشيرة: فالذي نفسي بيده ما بعث الله نبياً من بعده إلا في ثروة من قومه، ومنعة من عشيرته، ثم ذكر شعيباً إذ قال له قومه: "إننا لتراك فينا ضعيفاً ولولا رهطك لرجمناك"، وكان مكفوفاً، والله ما هابوا "الله ولا هابوا" إلا عشيرته.

وقيل لبزرجهم: ما تقول في ابن العم؟ قال: هو عدوك وعدو عدوك.

الدين

من حديث عائشة عن النبي صلى الله عليه وسلم أنه قال: الدين ينقص ذا الحسب. وقال عمر "ألا إن" لأسيفع أسيفع جُهينة رضي من دينه وأمانته أن يقال: سبق الحاج ألا وإنه قد أدان معرضاً وأصبح قدرين به، فمن كان له عنده شيء فليأتنا بالعداة تقسم "له" ما "له" بين غرمائه، وإياكم والدين فإن أوله هم وآخره حزن. وقال مولى قضاة:

علي لإنسان من الناس درهما
فلست أبالي أن أدين وتغرماً

فلو كنت مولى قيس غيلان لم تجد
ولكنني مولى قضاة كلها

وقال آخر:

قضاء ولكن كان غرماً على غرم

إذا ما قضيت الدين بالدين لم يكن

وقال سفيان الثوري: الدين هم بالليل وذل بالنهار، فإذا أراد الله أن يذل عبداً جعله قلادة في عنقه. ورأى عمر بن الخطاب رضي الله عنه رجلاً متقنعاً، فقال له: كان لقمان الحكيم يقول: القناع ريبة بالليل ذل بالنهار؛ فقال الرجل: إن لقمان الحكيم لم يكن عليه دين. وقال المقنع الكندي:

تداينت في أشياء تكسبهم حمداً
وإن هدموا مجدي بنيت لهم مجداً

يعيبونني بالدين قومي وإنما
إذا أكلوا لحمي وقرت لحومهم

مجانبة الخلف والكذب

وقال النبي صلى الله عليه وسلم: الكذب مجانبة الإيمان. وقالت الحكماء: ليس لكذاب مروة. وقالوا: من عرف بالكذب لم يجز صدقه.

وقال النبي صلى الله عليه وسلم: لا يجوز الكذب في جد ولا هزل.

وقال: لا يكون المؤمن كذاباً.

وقال عبد الله بن عمر: خُلف الوعدُ ثلث التَّفاق.

وقال حبيب الطائي في عيَّاش:

يا أكثر الناس وعداً حشوه خلفٌ

وأكثر الناس قولاً حشوه كذبٌ

ومن قولنا في هذا المعنى:

صَحيفةٌ أفنيت لبت بها وعسى

عُنوانها راحة الرَّاجي إذا ينسأ

وعَدُّ له هاجسٌ في القلب قد برمتُ

أحشاء صدري به من طول ما أنحبسا

مواعدٌ غرني منها وميضُ سنَى

حتى مددتُ أيها الكفِّ مقتبسا

فصادفتُ حجراً لو كنتَ تضربه

من لؤمه بعصا موسى لما أنبجسا

كأنما صيغ من بخلٍ ومن كذبٍ

فكان ذاك له رُوحاً وذا نفساً

التنزه عن استماع الخنا والقول به

اعلم أن السامع شريك القائل في الشر. قال الله "تعالى": "سَمِعُونَ لِلْكَذِبِ".

وقال العتيبي: حدَّثني أبي عن سعد القصير قال: نظر إليَّ عمرو بن عُتبة ورجل يَشْتُم رجلاً بين يديّ، فقال لي، ويلك - وما قال لي ويلك قبلها - نَزَه سَمْعَكَ عن استماع الخنا كما نَزَه لسانك عن الكلام به، فإن السامع شريكُ القائل، وإنه عمَد إلى شرِّ ما في وعائه فأفرغه في وعائك، ولو رُدَّت كلمة جاهل في فيه لَسَعِدَ رَأدُها كما شَقِي قائلُها.

باب في الغلو في الدين

توفِّي رجل في عهد عمر بن ذرٍّ من أسرف على نفسه في الذنوب، وجاوزَ في الطُّغيان، فَتَحَمَى الناسُ عن جنازته، فحضرها عمرُ بن ذرٍّ وصلى عليه، فلما أذليَّ في قبره قال: يَرْحَمَك اللهُ أبا فلان، صَحِبْتَ عُمَرَكَ بالتوحيد، وَعَفَّرْتَ وجهك اللهُ بالسُّجود، فإن قالوا مُذْنِبٌ وذو خطايا، فَمَن منا غيرُ مُذْنِبٍ وذو خطايا.

ومن حديث أبي هريرة عن النبي صلى الله عليه وسلم قال: إن الله أمر المؤمنين بما أمر به المرسلين فقال: "يا أيُّها الرُّسل كُلُوا مِنَ الطَّيِّبَاتِ وَاَعْمَلُوا صَالِحاً إِيَّايَ بِمَا تَعْمَلُونَ عَلِيمٌ" وقال: "يا أيُّها الذين آمنوا كُلُوا مِنَ طَيِّبَاتِ مَا رَزَقْنَاكُمْ"، ثم ذكر الرجل يرى أشعثاً أغبراً يمدُّ يديه إلى السماء يقول: يا رَبِّ يا رَبِّ، ومَطْعَمُهُ حَرَامٌ ومَشْرَبُهُ حَرَامٌ ومَلْبَسُهُ حَرَامٌ، فأني يُسْتَجَابُ له؟ قال النبي صلى الله عليه وسلم: إن الله بعثني بالحنيفية السمحة ولم يعثني بالرهبانية المبتدعة، سنَّتي الصلاة والنوم، والإفطار والصوم، فمن رَغِبَ عن سنَّتي فليس مني.

وقال صلى الله عليه وسلم: إنَّ هذا الدينَ مَتِينٌ فَأَوْغِلْ فيه برفق، فإنَّ المُنْبِتَ لا أَرْضاً قَطَعَ ولا ظَهراً أَبْقَى.

وقال عليُّ بن أبي طالب رضي الله عنه: خَيْرُ هذه الأُمَّةِ هذا التَّمَطُّ الأَوْسَطُ، يَرْجِعُ إليهم الغالي ويلحق بهم التالي.

وقال مطرف بن عبد الله بن الشَّخِير لابنه، وكان قد تَعَبَّد: يا بُنَيَّ، إنَّ الحسنةَ بين السَّيِّئتين - يعني أن الدين بين الإفراط والتَّقْصير - وخَيْرُ الأمور أَوْسَطُها، وشَرُّ السَّيْرِ الحَقِّقَةُ.

وقال سلمان الفارسي: القصد والدوام فأنت الجواد السابق.

وقالوا: "طالب العلم و" عامل البر كآكل الطعام، إن أكل منه قوتاً عصمه وإن أسرف منه أبشمه.

وفي بعض الحديث: إن عيسى بن مريم عليه السلام لقي رجلاً فقال له: ما تصنع؟ قال: أتعبد؟ قال: فمن يعود عليك؟ قال: أخي؛ قال: هو أعبد منك. ونظير هذا أن رفقة من الأشعرين كانوا في سفر، فلما قدموا قالوا: ما رأينا يا رسول الله بعدك أفضل من فلان، كان يصوم النهار، فإذا نزلنا قام من الليل حتى نرتحل؛ قال: فمن كان يمهّن له ويكفله؟ قالوا: كلنا قال: كلكم أفضل منه.

وقيل للزهري: ما الزهد في الدنيا؟ قال "أما" إنه ما هو بتشيعت اللمة، ولا قشفت الهيئة، ولكنه ظلف النفس عن الشهوة.

علي بن عاصم عن أبي إسحاق الشيباني قال: رأيت محمد بن الحنفية واقفاً بعرفات على بردون وعليه مطرف خز أصفر.

السدي عن ابن جريج عن عثمان بن أبي سليمان: أن ابن عباس كان يرتدي رداء بألف.

إسماعيل بن عبد الله بن جعفر عن أبيه قال: رأيت رسول الله صلى الله عليه وسلم عليه ثوبان مصبوغان بالزعفران: رداء وعمامة.

وقال معمر: رأيت قميص أيوب السخثياني يكاد يمس الأرض، فسألت عن ذلك؟ فقال: إن الشهرة كانت فيما مضى في تدبيل القميص، وإنما اليوم في تشميره.

أبو حاتم عن الأصمعي: أن ابن عون اشترى برنسا فمر على معاذة العدوية، فقالت: من تلك يلبس هذا؟ فذكرت ذلك لابن سيرين، قال: أفلا أخبرتها أن تميما الدارمي اشترى حلة بألف فصلى فيها.

قدم حماد بن سلمة البصرة فجاهه فرقد السخخي وعليه ثياب صوف، فقال له حماد: ضع عنك نصرايتك هذه، فلقد رأينا ننتظر إبراهيم "فيخرج إلينا" وعليه معصفرة، ونحن نرى أن الميتة قد حلت له أبو الحسن المدائني قال: دخل محمد بن واسع على فتية بن مسلم والي خراسان في مذرعة صوف، فقال له: ما يدعوك إلى لباس هذه؟ فسكت؟ فقال له فتية: أكلمك ولا تحبيني؟ قال: أكره أن أقول زهداً فأزكي نفسي، أو أقول فقراً فأشكو ربي، فما جوابك إلا السكوت.

قال ابن السماك لأصحاب الصوف: والله لئن كان لباسكم وفقاً لسرايركم فقد أحببتهم أن يطلع الناس عليها، وإن كان مخالفاً لها فقد هلكتم.

وكان القاسم بن محمد يلبس الخبز، وسالم بن عبد الله يلبس الصوف، ويقعدان في مجلس المدينة، فلا يُنكر هذا على هذا "شيئاً" ولا ذا على هذا.

ودخل رجل على محمد بن المنكدر فوجده قاعداً على حشايا مضاعفة، وجارية تُعَلِّفه بالغالية، فقال: رحمك الله، جئت أسألك عن شيء وجدتك فيه - يريد التزین - قال: على هذا أدركت الناس.

وصلّى الأعمش في مسجد قوم فأطال بهم الإمام، فلما فرغ، قال له: يا هذا، لا تُطِلْ صلاتك، فإنه يكون خلفك ذو الحاجة والكبير والضعيف؟ قال الإمام: وإنما لكبيرة إلا على الخاشعين؛ فقال له الأعمش: أنا رسول الخاشعين إليك، إنهم لا يحتاجون إلى هذا منك.

العُتبي قال: أصابت الربيع بن زياد نُسابة في جبينه، فكانت تنتفض عليه كل عام، فأتاه علي بن أبي طالب عائداً، فقال له: كيف تجدك يا أبا عبد

الرحمن؟ قال: أجدني لو كان لا يذهب ما بي إلا بذهاب بصري لتمنيت ذهابه، قال له: وما قيمة بصرك عندك؟ قال: لو كانت لي الدنيا فديته بها؟

قال: لا جرم، ليعطيتك الله على قدر الدنيا، لو كانت لك لأنفتحتها في سبيله، إن الله يعطي على قدر الألم والمصيبة وعنده بعد تَضَعِيفُ كثير. قال له

الربيع: يا أمير المؤمنين، ألا أشكو إليك عاصم بن زياد؟ قال: وما له؟ قال: ليس العباء، وترك الملاء، وغم أهله، وأخزن وكده؛ قال: علي عاصماً. فلما

أتاه عبس في وجهه، وقال: ويئسك يا عاصم! أتري الله أباح لك اللذات وهو يكره "منك" أخذك منها، أنت أهون على الله من ذلك، أو ما سمعته

يقول: "مرج البحرين يلتقيان بينهما برزخ لا يبغيان" حتى قال: "يخرج منهما اللؤلؤ والمرجان". وتالله لا يتذال نعم الله بالفعال، أحب إلي من

ابتذالها بالمقال، وقد سمعته يقول: "وأما بنعمة ربك فحدث" وقوله: "قل من حرم زينة الله التي أخرج لعباده والطيبات من الرزق". قال عاصم:

فعلام اقتصرت أنت يا أمير المؤمنين؟ على لبس الخشن وأكل الحشيش؟ قال: إن الله افترض على أئمة العدل أن يُقدِّروا أنفسهم بالعوام لئلا يشنع بالفقير فقره. فما برح حتى لبس الملاء وترك العباء.

محمد بن حاطب الجُمَحِيِّ قال: حدّثني من سمع عمرو بن شعيب، وكنتُ سمعتهُ أنا وأبي جميعاً، قال: حدّثني عمرو بن شعيب عن أبيه عن جدّه عن " عبد الله بن مسعود قال: أتى رسول الله صلى الله عليه وسلم ذات يوم أمّ عبد الله بن عمرو "بن العاص"، وكانت امرأة تَلُطِّف برسول الله صلى الله عليه وسلم، فقال: كيف أنت يا أم عبد الله؟ كيف أكونُ وعبد الله بن عمرو رجلٌ قد تخلّى من الدنيا، قال لها: كيف ذلك؟ قالت: حرّم النوم فلا ينام، ولا يُفطر، ولا يَطْعَم اللحم، ولا يُؤدّي إلى أهله حقّهم؟ قال: فأين هو؟ قالت: خرج ويوشك أن يَرُجِع الساعة، قال: فإذا رجعت فاحبسبه عليّ. فخرج رسول الله صلى الله عليه وسلم وجاء عبد الله وأوشك رسول الله صلى الله عليه وسلم في الرّجعة، فقال: يا عبد الله بن عمرو، ما هذا الذي بلغني عنك، "قال: وما ذاك يا رسول الله؟ قال بلعني، أنك لا تنام "ولا تُنطّر"؟ قال: أردتُ بذلك الأمان من الفرع الأكبر قال: وبلغني أنك لا تَطْعَم اللحم، قال: أردتُ بذلك ما هو خيرٌ منه في الجنّة؟ قال: وبلغني أنك لا تؤدّي إلى أهلِكَ حقّهم؟ قال: أردتُ بذلك نساءً هنّ خيرٌ منهنّ فقال رسول الله صلى الله عليه وسلم وسلّم يا عبد الله بن عمرو، إن لك في رسول الله أسوة حسنة، فرسول الله يصوم ويُفطر ويأكل اللحم، ويُؤدّي إلى أهله حقوقهم. يا عبد الله بن عمرو، إن لله عليك حقاً، وإن لبدنك عليك حقاً، وإن لأهلك عليك حقاً. فقال: يا رسول الله، ما تأمرني أن أصوم خمسة أيام وأفطر يوماً؟ قال: لا؛ قال: فأصوم أربعة وأفطر يوماً؟ قال: لا؛ قال: فأصوم ثلاثة وأفطر يوماً؟ قال: لا؛ قال: فيومين وأفطر يوماً؟ قال: لا، قال: فيوماً "وأفطر يوماً"؟ قال: ذلك صيام أخي داود، يا عبد الله بن عمرو، كيف بك إذا بقيت في حُثالة من الناس قد مرّحتْ عهدوهم وموآبيهم فكانوا هكذا- وخالف بين أصابعه قال: فما تأمرني "به" يا رسول الله؟ قال: تأخذ ما تعرف، وتدع ما تُنكر، وتعمل بخاصّة نفسك، وتدع الناس وعوامّ أمرهم. قال: ثم أخذ به بيده وجعل يمشي به حتى وضع يده في يد أبيه، وقال له. أطع أباك. فلما كان يوم صيفين، قال له أبوه عمرو: يا عبد الله، اخرج فقاتل، فقال: يا أبتاه، أتأمرني أن أخرج فأقاتل وقد سمعتُ من رسول الله صلى الله عليه وسلم ما سمعت وعهد إليّ "ما عهد"؟ قال: أنشدك الله، ألم يكن آخر ما قال لك أن أخذ بيدك فوضعها في يدي، وقال لك: أطع أباك؟ قال: اللهم بلى؛ قال: فإني أعزم عليك أن تخرج فتقاتل. قال: فخرج فقاتل متقلداً بسيفين.

القول في القدر

أتى قومٌ من أهل القدر محمد بن المنكدر. فقالوا له: أنت الذي تقول: إن الله يُعذّب الخلق على ما قدر عليهم؟ فصرف وجهه عنهم ولم يُجبههم. فقالوا له: أصلحك الله، إن كنت لا تُجيبنا فلا تُخلنا من بركة دعائك، فقال: اللهم لا تُردنا بعقوبتك، ولا تمكر بنا حيلتك، ولا تُؤاخذنا بتقصيرنا عن رضاك، قليل أعمالنا تقبل، وعظيم خطايانا اغفر، أنت الله الذي لم يكن شيء قبلك، ولا يكونُ شيء بعدك، ولي الأشياء، ترفع بالهدى من تشاء؛ لا من أحسن استغنى عن عونك، ولا من أساء غلبك، ولا استبدّ شيء عن حكومتك وقدرتك، "لا ملجأ إلا إليك"، فكيف لنا بالمغفرة وليست إلا في يديك، وكيف لنا بالرحمة وليست إلا عندك، حفيظ لا ينسى، قديم لا يبلى، حي لا يموت، بك عرفناك، وبك اهتدينا إليك، ولولا أنت لم ندر ما أنت، سُبْحانك وتعاليت. فقال القوم: قد والله أخبر وما قصر.

وقال: ذكر القدر في مجلس الحسن البصري، فقال: إن الله خلق الخلق للابتلاء، لم يُطيعوه بإكراه، ولم يعصوه بعلبة، لم يُهملهم من الملوك وهو القادر على ما أقدرهم عليه، والمالك لما ملكهم إياه، فإن يأتمر العباد بطاعة الله لم يكن الله مُثبّطاً لهم "بل يزيدهم هدىً إلى هداهم، وتَقوى إلى تقواهم، وإن يأتروا بمعصية الله، كان الله قادراً على صرفهم إن شاء، وإن خلّى بينهم وبين المعصية، فمن بعد إعدار وإنذار.

مروان بن موسى قال: حدّثنا أبو ضمرة أن غيلان قدم بكلمة قد صاغها حتى وقف على ربيعة، فقال له: أنت الذي تزعم أن الله أحبّ أن يُعصى؟ فقال له ربيعة: أنت الذي تزعم أن الله يُعصى كرها؟ فكأثما ألقمه حجراً.

قيل لطاوس: هذا فتادة يُحب أن يأتيك، فقال: إن جاء لأقومن؟ قيل له: إنه فقيه؟ قال: إيليس أفقه منه، قال: "ربّ بما أغويتني". وقيل للشعبي: رأيت فتادة؟ قال: نعم، رأيت كُناسة بين حشّين، القدر هو العلم والكتاب والكلمة والإذن والمشية.

قال الأصمعي: سألت أعرابياً فقلت له: ما فضلُ بني فلان على بني فلان؟ قال: الكتاب، يعني القدر. وقال الله عز وجل: "إِنَّا كُلَّ شَيْءٍ خَلَقْنَاهُ بِقَدَرٍ". وقال: "كُلُّ فِي كِتَابٍ مُّبِينٍ". وقال: "وَلَقَدْ سَبَقَتْ كَلِمَتُنَا لِعِبَادِنَا الْمُرْسَلِينَ" يعني القدر. وقال: "وَلَوْلَا كَلِمَةٌ سَبَقَتْ مِنْ رَبِّكَ لَكَانَ لِرِزَامَا".

قال الحنفي أبو عبد الله محمد بن السلام: شاعران من فحول الجاهلية هما "بيتان" ذهب "أحدهما في بيته" مذهب العدلية، والآخر ذهب مذهب الجبرية، فالذي ذهب مذهب العدلية أعشى بكر حيث يقول:

وَوَلَّى اللَّامَةَ الرَّجْلَا

أَسْتَأْثِرَ اللَّهُ بِالْوَفَاءِ وَبِالْعَدْلِ

والذي ذهب مذهب الجبرية لبيد بن ربيعة حيث يقول:

وَبِإِذْنِ اللَّهِ رَيْثِي وَعَجَلٌ

إِنْ تَقَوَّى رَبَّنَا خَيْرٌ نَفَلٌ

نَاعِمَ الْبَالِ وَمَنْ شَاءَ أَضَلُّ

مَنْ هَدَاهُ سُبُلَ الْخَيْرِ اهْتَدَى

وقال إياس بن معاوية: كلمتُ الفرق كلها ببعض عقلي، وكلمتُ القدري بعقلي كله، فقلت له: دُحولك فيما ليس لك ظلم منك؟ قال: نعم؟ قلت: فإن الأمر كله لله.

ومن قول الله عز وجل في القدر: "قُلْ فَلِلَّهِ الْحُجَّةُ الْبَالِغَةُ فَلَوْ شَاءَ لَهَدَاكُمْ أَجْمَعِينَ". وقال: "يَمُنُونَ عَلَيْكَ أَنْ أَسْلَمُوا قُلْ لَا تَمُنُوا عَلَيَّ إِسْلَامَكُمْ بَلِ اللَّهُ يَمُنُّ عَلَيْكُمْ أَنْ هَدَاكُمْ لِيِيمَانٍ إِنْ كُنْتُمْ صَادِقِينَ" ابن شهاب قال: أنزل الله على نبيه آية في القدرية: "الذين قالوا لإخوانهم وقعدوا لو أطاعونا ما قتلوا قل فادعوا عن أنفسكم الموت إن كنتم صادقين وقال: "قُلْ لَوْ كُنْتُمْ فِي بُيُوتِكُمْ لَبَرَزَ الَّذِينَ كُتِبَ عَلَيْهِمُ الْقَتْلُ إِلَى مَضَاجِعِهِمْ". وقال محمد بن سيرين: ما يُنكر القدرية أن يكون الله "قد" علم من خلقه علماً فكتبه عليهم.

وقال رجل لعلي بن أبي طالب رضي الله عنه: ما تقول في القدر؟ قال: وَيْحَكَ! أخبرني عن رحمة الله، أكانت قبل طاعة العباد؟ قال نعم؟ قال علي: أسلم صاحبكم وقد كان كافراً؟ فقال الرجل له: أليس بالمشيئة الأولى التي أنشأت بها "وقوم خلقي"، أقوم وأقعد، وأقبض وأسط؟ قال له "علي"، إنك بعد في المشيئة؟ أما إني أسألك عن ثلاث، فإن قلت في واحدة منهن لا، كفرت؛ وإن قلت نعم، فأنت أنت، فمد القوم أعناقهم ليسمعوا ما يقول، فقال له علي: أخبرني عنك، أخلقك الله كما شئت أو كما شاء؟ قال: بل كما شاء؛ قال: فخلقك الله لما شئت أو لما شاء؟ قال: بل لما شاء؛ قال: فيوم القيامة تأتيه بما شئت أو بما شاء؟ قال: بل بما شاء؛ قال: قُمْ فلا مشيئة لك.

قال هشام بن محمد بن السائب الكلبي: كان هشام بن عبد الملك قد أنكر على غيلان التكلم في القدر، وتقدم إليه في ذلك أشدّ التقدّم، وقال له في بعض ما توعدده به من الكلام: ما أحسبك تنتهي حتى تنزل بك دعوة عمر بن عبد العزيز إذا احتج عليك في المشيئة بقول الله عز وجل: "وَمَا تَشَاءُونَ إِلَّا أَنْ يَشَاءَ اللَّهُ"، فزعمت أنك لم تُلِقِ إلا بالآ، فقال عمر: اللهم ان كان كاذباً فاقطع يده ورجله ولسانه واضرب عنقه، فأنته أولى لك، ودع عنك ما ضره إليك أقرب من نفعه، فقال له غيلان، لحيته وشقوته: ابعث إلي يا أمير المؤمنين من يكلمني ويحتج علي، فإن أخذته حجتي أمسكت عني فلا سبيل لك إلي، وإن أخذتني حجته، فسألتك بالذي أكرمك بالخلافة إلا نفذت في ما دعا به عمر علي. فغاض قوله هشاماً، فبعث إلى الأوزاعي فحكى له ما قال لغيلان، وما رد غيلان: فالتفت إليه الأوزاعي، فقال له: أسألك عن خمس أو عن ثلاث؟ فقال غيلان: بل عن ثلاث؛ قال الأوزاعي: هل علمت أن الله أعان على ما حرّم؟ قال غيلان: ما علمت، "وعظمت عنده". قال: فهل علمت أن الله قضى على ما نهى؟ قال غيلان: هذه أعظم! ما لي بهذا من علم؟ قال: فهل علمت أن الله حال دون ما أمر؟ قال غيلان: -: حال دون ما أمر؟ ما علمت؛ قال الأوزاعي: هذا مراتب من أهل الزبوع. فأمر هشام بقطع يده ورجله، ثم ألقي في الكناساة. فاحتوشه الناس، يعجبون من عظيم ما أنزل الله به من نعمته. ثم أقبل رجل كان كثيراً ما يُنكر عليه التكلم في القدر، فتخلل الناس حتى وصل إليه، فقال يا غيلان، اذكر دعاء عمر رحمه الله؟ فقال غيلان: أفلح إذا هشام، إن كان الذي نزل بي بدعاء عمر أو بقضاء سابق فإنه لا حرج على هشام فيما أمر به، فبلغت كلمته هشاماً، فأمر بقطع لسانه وضرب عنقه لتمام دعوة عمر. ثم التفت هشام إلى

الأوزاعيّ وقال له: قد قلتَ يا أبا عمرو ففسّر؛ فقال: نعم، قضى على ما نهي عنه، نهي آدم عن أكل الشجرة، وقضى عليه بأكلها؛ وحال دُون ما أمر، أمر إبليس بالسُّجود لآدم، وحال بينه وبين ذلك؛ وأعان على ما حرّم، الميئة، وأعان المضطر على أكلها. الرياشي عن سعيد بن عامر بن جويرية عن سعيد بن أبي عروبة، قال: لما سألتُ قتادة عن القدر، فقال: رأى العرب تريد فيه أم رأي العجم؟ فقلت: بل رأي العرب: قال: فإنه لم يكن أحدٌ من العرب إلا وهو يُثبت "القدر"، وأنشد:

ما كان قَطْعِي هَوْلَ كُلِّ تَنَوُّفَةٍ **إلا كتاباً قد خلا مسطوراً**

وقال أعرابي: الناظر في قدر الله كالناظر في عين الشمس، يعرف ضوؤها ولا يختم على حدودها. وقال كعب بن زهير:

لو كنتُ أعجبُ من شيءٍ لأعجِبني **سَعِيُ الْفَتَى وهو مخبوءٌ له القَدْرُ**
يسعى الفتى لأمرٍ ليس يُدرِكها **فالفنْسُ واحدةٌ وألهمٌ منتشر**
والمرءُ ما عاش ممدودٌ له أمل **لا تنتهي العينُ حتى ينتهي الأثر**

وقال آخر:

والجدُّ أنهض بالفتى من عقله **فأنهضُ جدًّا في الحوادثِ أو ذرٍ**
ما أقربَ الأشياءِ حين يسوقها **قدراً وأبعدها إذا لم تُقدّر**

عبد الرحمن القصير قال: حدثنا يونس بن بلال عن يزيد بن أبي حبيب، أن رجلاً قال للنبي صلى الله عليه وسلم: يا رسول الله، أيقدر الله عليّ الشرّ ثم يُعذبني عليه؟ قال: نعم، وأنت أظلم. وحدث أبو عبد الرحمن المقرئ، يرفعه إلى أبي هريرة، عن عمر بن الخطاب رضي الله عنه عن رسول الله صلى الله عليه وسلم قال: لا تجالسوا أهل القدر ولا تُفاحوهم. ومن حديث عبد الله بن مسعود، قال: ما كان كُفر بعد بُوءة قط، إلا كان مفتاحه التّكذيب بالقدر.

ثمامة بن أشرس قال: دخل أبو العتاهية على المأمون لما قدِم العراق، فأمر له بمال، وجعل يُحادثه، فقال له يوماً: ما في الناس أجهل من القدرية، فقال له المأمون: أنت بصناعتك أبصر، فلا تتخطّها إلى غيرها؟ قال له: يا أمير المؤمنين، اجمع بيني وبين من شئتَ منهم. فأرسل إليّ، فدخلتُ عليه، فقال لي: هذا يرعم أنّك وأصحابك لا حجة عندكم. قلت: فليسأل عمّا بدا له. فحرّك أبو العتاهية يده وقال: من حرّك هذه؟ قلتُ من ناك أمّه؟ فقال: يا أمير المؤمنين، شتمني؛ قلت له: نقضت أصلك يا ماصّ بظر أمّه؛ فضحك المأمون؛ فقلت له: يا جاهل، تحرك يدك، ثم تقول: من حرّكها؟ فإن كان الله حرّكها فلم أشتمك، وإن كنت أنت المحرك لها، فهو قولي؛ قال له المأمون: عندك زيادة في المسألة.

قال الكندي في الفنّ التاسع من التوحيد: اعلم أن العالم كله مسوس بالقضاء والقدر - أعني بالقضاء - ما قسم لكل معلول مما هو أصلح وأحكم وأتقن في بنية الكل، لأنه - جل ثناؤه - خلق وأبدع مضطراً ومختاراً بتمام القدرة، فلما كان المختار غير تامّ الحكمة، لأن تمام الحكمة لمبدع الكل، كان لو أطلق واختياره لاختار كثيراً مما فيه فساد الكل، فقدر - جلّ ثناؤه - بنية لكلّ تقديرًا محكماً. فصير بعضه سوانح لبعض، يختار بإرادته ومشيئته غير مقهور مما هو أصلح وأحكم في بنية اكل، فتقدير هذه السوانح هو القدر، فبالقضاء والقدر ساس - جلّ ثناؤه - جميع ما أبدع بهذه السياسة المحكمة المنظمة، التي لا يدخلها زلل ولا نقص، فائضح أنّ كل معلول فيما قسم له ربه من الأحوال لا خارج عنها، وأنّ بعض ذلك باضطرار وبعضه باختيار، وأنّ المختار عن سوانح قدره "اختار"، وإرادته لا بالكراهة "منه" فعل.

سئل أعرابي عن القدر فقال: ذاك علم اختصمت فيه الطنون، وكثر فيه المختلفون، والواجب علينا أن نرد ما أتشكل من حكمه إلى ما سبق في علمه.

واصطحب مَجُوسِي وَقَدْرِي فِي سَفَرٍ، فَقَالَ الْقَدْرِيُّ لِلْمَجُوسِيِّ: مَا لَكَ لَا تُسَلِّمُ؟ قَالَ: إِنَّ أَدْنَ اللَّهِ فِي ذَلِكَ كَانَ؛ قَالَ: إِنَّ اللَّهَ قَدْ أَدْنَ إِلَّا أَنْ الشَّيْطَانَ لَا يَدْعُكَ؛ قَالَ: فَأَنَا مَعَ أَقْوَامِهِمَا.

وقال رجلٌ لهشام بن الحكيم: أنت تزعم أن الله في فضله وكرمه وعدله كلّفنا ما لا نُطِيقُه، ثم يُعذِّبنا عليه؟ قال هشام: قد والله فعل، ولكن لا نستطيع أن نتكلّم. اجتمع عمرو بن عبّيد مع الحارث بن مسكين بمخ، فقال له: إن مثلي ومثلك لا يجتمعان في مثل هذا الموضع، فيفترقان من غير فائدة، فإن شئت فقل، وإن شئت فأنا أقول؟ قال له: قل، قال: هل تعلم أحداً أقبل للعذر من الله عز وجل؟ قال: لا؛ قال: فهل تعلم عذراً أبين من عذر من قال لا أقدر، فيما تعلم أنت أنه لا يقدر عليه؟ قال: لا؛ قال: فلم لا يقبل - من لا أقبل للعذر منه - عذر من لا أبين من عذره؟ فانقطع الحارث بن مسكين فلم يرّد شيئاً.

رد المأمون على الملحدين وأهل الأهواء

قال المأمون للشّوي الذي تكلم عنده: أسألك عن حرفين لا أزيد عليهما، هل ندم مُسيء قط على إساءته؟ قال: بلى؟ قال: فالندم على الإساءة إساءة أم إحسان؟ قال: بل إحسان؛ قال: فالذي ندم هو الذي أساء أم غيره؟ قال: بل هو الذي أساء، قال: فأرى صاحب الخير هو صاحب الشر؛ قال: فإني أقول: إن الذي ندم غير الذي أساء؟ قال: فندم على شيء كان منه أم على شيء كان من غيره، فسكت. قال له أيضاً: أخبرني عن قولك باثنين، هل يستطيع أحدهما أن يخلق خلقاً لا يستعين فيه بصاحبه؟ قال: نعم؛ قال: فما تصنع باثنين؟ واحدٌ يخلق كل شيء خير لك وأصح.

وقال المأمون للمُرتد الخراسانيّ الذي أسلم على يديه وحمله معه إلى العراق فارتد عن الإسلام: أخبرني ما الذي أوحشك مما كنت به آنساً من ديننا؟ فوالله لأن أستحييك بحق، أحب إليّ من أن أقتلك بحق، وقد صرّت مسلماً بعد أن كنت كافراً، ثم عدت كافراً بعد أن صرّت مسلماً، وإن وجدت عندنا دواءً لدائك تداويت به، وإن أخطأك الشفاء، وتباعد عنك، كنت قد أبليت العذر في نفسك، ولم تُقصر في الاجتهاد لها، فإن قتلناك قتلناك في الشريعة، وترجع أنت في نفسك إلى الاستبصار واليقين، ولم تُفِرْط في الدُّخُول من باب الخزم؛ قال المرتد: أوحشني منكم ما رأيت من كثرة الاختلاف في دينكم؛ قال المأمون: لنا اختلافان: أحدهما كاختلافنا في الآذان، وتكبير الجنائز، وصلاة العيدين، والتشهد، والتسليم من الصلاة، ووجوه القراءات، واختلاف وجوه الفتيا، وما أشبه ذلك، وهذا ليس باختلاف، وإنما هو تخيير وتوسعة وتخفيف من السنّة، فمن أذن مثني وأقام مثني لم يأثم، ومن ربح لم يأثم. والاختلاف الآخر كتحوُّ اختلافنا في تأويل الآية من كتاب الله، وتأويل الحديث عن نبينا، مع اجتماعنا على أصل التزييل، واتفاقنا على عين الخبر، فإن كان إنما أوحشك هذا، فينبغي أن يكون اللفظ بجميع التوراة والإنجيل متفقاً على تأويله كما يكون متفقاً على تزييله، ولا يكون بين اليهود والنصارى اختلاف في شيء من التأويلات، ولو شاء الله أن يُرِث كُتبه مفسّرة، ويجعل كلام أنبيائه ورسله لا يُختلف في تأويله لفعل، ولكننا لم نجد شيئاً من أمور الدين والدنيا وقع إلينا على الكفاية إلا مع طول البحث والتحصيل والنظر، ولو كان الأمر كذلك لسقطت البلوى والمحن، وذهب التفاضل والتباين، ولما عُرف الحازم من العاجز، ولا الجاهل من العالم، وليس على "هذا" بُنيَت الدنيا. قال المرتد: أشهد أن لا إله إلا الله وحده لا شريك له، وأن المسيح عبد الله، وأن محمداً صادق، وأنت أمير المؤمنين "حقاً".

وقال المأمون لعليّ بن موسى الرضا: بم تدعون هذا الأمر؟ قال: بقرابة عليّ من رسول الله صلى الله عليه وسلم "وعلى آله وبقرابة فاطمة منه"؟ فقال له المأمون: إن لم يكن ها هنا إلا القرابة، فقد خلف رسول الله صلى الله عليه وسلم من أهل بيته من كان أقرب إليه من عليّ، أو من في مثل قُعدده، وإن كان بقرابة فاطمة من رسول الله صلى الله عليه وسلم فإن الحق بعد فاطمة للحسن والحسين، وليس لعليّ في هذا الأمر حق وهما حيان، فإذا كان الأمر كذلك، فإن عليّاً قد ابتزهما حقهما وهما صحيحان، واستولى على ما لا يجب له. فما أجابه عليّ بن موسى بشيء.

كتب واصل بن عطاء الغزالي إلى عمرو بن عبّيد: أما بعد، فإن استلاب نعمة العبد وتَعْجِيل المعاقبة بيد الله، ومهما يكن ذلك فباستكمال الآثام، والمجاورة للجدال الذي يُحول بين المرء وقلبه، وقد عرفت ما كان يُطعن به عليك ويُنسب إليك ونحن بين ظهري الحسن بن أبي الحسن رحمه الله،

لاستِشاعِ قُبْحِ مَذْهَبِكُمْ، نحنُ ومَنْ قد عرَفْتَهُ من جَمِيعِ أَصْحَابِنَا، وُلمَّةِ إِخْوَانِنَا، الحَامِلِينَ الوَاعِينَ عَنِ الحَسَنِ، فَاللَّهُ تَلَكَّمْ لَمَّةً وَأَوْعِيَاءَ وَحَفَظَةً، مَا أَدْمَتَ الطَّبَاعَ، وَأَرْزَنَ المَجَالِسَ، وَأَيَّنَ الزُّهْدَ، وَأَصْدَقَ الأَلْسِنَةَ، اقْتَدُوا وَاللَّهُ بِمَنْ مَضَى شَبِيهَا بِكُمْ، وَأَخَذُوا بِهَدْيِهِمْ. عَهْدِي وَاللَّهُ بِالحَسَنِ وَعَهْدِكُمْ بِهِ أَمْسَ فِي مَسْجِدِ رَسولِ اللَّهِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ بِشَرْقِيِّ الأَجْنَحَةِ، وَآخِرَ حَدِيثِ حَدَّثْنَا إِذْ ذَكَرَ المَوْتَ وَهُوَ المَطَّلَعُ، فَأسْفَ عَلَى نَفْسِهِ واعْتَرَفَ بِذَنْبِهِ، ثُمَّ التَفَتَ وَاللَّهُ يَمْنَةً وَيَسْرَةً مُعْتَبِرًا بِأَكْبِيًّا، فَكَأبِي أَنْظِرْ إِلَيْهِ بِمَسْحِ مَرْفُضِ العَرَقِ عَنِ جَبِينِهِ، ثُمَّ قَالَ: اللَّهُمَّ إِنِّي قَدْ شَدَّدْتُ وَضِيحَ راحِلَتِي، وَأَخَذْتُ فِي أَهْبَةِ سَفَرِي إِلَى مَحَلِّ القَبْرِ وَفَرَشِ العَفْرِ، فَلَا تَوَاحِذْنِي. مَا يَنْسِيونَ إِلَيَّ مِنْ بَعْدِي، اللَّهُمَّ إِنِّي قَدْ بَلَّغْتُ مَا بَلَّغَنِي عَنِ رَسولِكَ، وَفَسَّرْتُ مِنْ مُحْكَمِ تَأْوِيلِكَ مَا قَدْ صَدَّقَهُ حَدِيثُ نَبِيِّكَ، أَلَا وَإِنِّي حَائِفٌ عَمْرًا، أَلَا وَإِنِّي حَائِفٌ عَمْرًا، شَكَايَةٌ لَكَ إِلَى رَبِّهِ جَهْرًا، وَأَنْتَ عَنِ بَيْنِ أَبِي حُدَيْفَةَ أَقْرَبَ بِنَا إِلَيْهِ؛ وَفَدَّ يَلْغِي كَبِيرَ مَا حَمَلْتَهُ نَفْسَكَ، وَقَلَّدْتَهُ عَنقَكَ، مِنْ تَفْسِيرِ التَّرْتِيلِ، وَعِبَارَةِ التَّوْبِيلِ، ثُمَّ نَظَرْتُ فِي كِتَابِكَ، وَمَا أَدَّتْهُ إِلَيْنَا رِوَايَتُكَ مِنْ تَنْقِيسِ المَعَانِي، وَتَفْرِيقِ المَبَانِي، فَدَلَّتْ شَكَايَةَ الحَسَنِ عَلَيْكَ بِالتَّحْقِيقِ بِظُهُورِ مَا ابْتَدَعْتَ، وَعَظِيمِ مَا تَحَمَّلْتَ، فَلَا يَغْرُوكَ "أَيُّ أَحْيَى" تَدْبِيرُ مَنْ حَوْلِكَ، وَتَعْظِيمُهُمْ طَوْلِكَ، وَخَفْضُهُمْ أَعْيُنَهُمْ عَنْكَ إِجْلَالًا لَكَ، غَدَاً وَاللَّهُ تَمْضِي الحَيَلَاءِ وَالتَّفَاخِرِ، وَتُحْزِي كُلَّ نَفْسٍ بِمَا تَسْعَى، وَلَمْ يَكُنْ كِتَابِي إِلَيْكَ، وَتَحْلِييَ عَلَيْكَ، إِلَّا لِتَذْكَرِكَ بِحَدِيثِ الحَسَنِ رَحِمَهُ اللَّهُ، وَهُوَ آخِرُ حَدِيثِ حَدَّثْنَاهُ، فَأَدِّ المَسْمُوعَ، وَانطِقْ بِالمَفْرُوضِ، وَدَعْ تَأْوِيلَكَ الأَحَادِيثِ عَلَى غَيْرِ وَجْهٍهَا، وَكُنْ مِنَ اللَّهِ وَجَلًا "فَكَأَنَّ قَدْ".

باب من أخبار الخوارج

لَمَّا خَرَجْتَ الخَوَارِجُ عَلَيَّ بَنَ أَبِي طَالِبٍ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ وَكَانُوا مِنْ أَصْحَابِهِ، وَكَانَ مِنْ أَمْرِ الحَكَمِيِّينَ مَا كَانَ، وَاخْتَدَاعِ عَمْرٍو لِأَبِي مُوسَى "الأَشْعَرِيِّ"؛ قَالُوا: لَا حُكْمَ إِلَّا لِلَّهِ. فَلَمَّا سَمِعَ عَلِيٌّ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ نِدَاءَهُمْ، قَالَ: كَلِمَةٌ حَقٌّ يَرَادُ بِهَا بَاطِلٌ، وَإِنَّمَا مَذْهَبُهُمْ أَنْ لَا يَكُونَ أَمِيرٌ، وَلَا بُدَّ مِنْ أَمِيرٍ بَرًّا كَانَ أَوْ فَاجِرًا. وَقَالُوا لِعَلِيِّ: شَكَّكَتَ فِي أَمْرِكَ، وَحَكَّمْتَ عَدُوَّكَ فِي نَفْسِكَ. وَخَرَجُوا إِلَى حَرُورَاءَ، وَخَرَجَ إِلَيْهِمْ عَلِيٌّ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ، فَخَطَبَهُمْ مَتَوَكَّنًا عَلَى قَوْسِهِ، وَقَالَ: هَذَا مَقَامٌ مَنْ أَفْلَحَ فِيهِ أَفْلَحَ يَوْمَ القِيَامَةِ، أَنْشُدْكُمْ اللَّهُ، هَلْ عَلِمْتُمْ أَنَّ أَحَدًا كَانَ أَكْرَهَ لِلحُكُومَةِ مِنِّي؟ قَالُوا: اللَّهُمَّ لَا؛ قَالَ: أَفَعَلِمْتُمْ أَنَّكُمْ أَكْرَهْتُمُونِي عَلَيْهَا حَتَّى قَبِلْتُمُهَا؟ قَالُوا: اللَّهُمَّ نَعَمْ، قَالَ: فَعَلَامَ خَالَفْتُمُونِي وَنَابَذْتُمُونِي؟ قَالُوا: إِنَّا أَتَيْنَا ذَنْبًا عَظِيمًا فَتُبْنَا إِلَى اللَّهِ مِنْهُ، فَتُبَّ إِلَى اللَّهِ مِنْهُ، وَأَسْتَغْفِرُهُ نُعَدُّ إِلَيْكَ. فَقَالَ عَلِيٌّ: إِنِّي أَسْتَغْفِرُ اللَّهَ مِنْ كُلِّ ذَنْبٍ، فَارْجِعُوا مَعَهُ وَهُمْ فِي سِتَّةِ آلَافٍ. فَلَمَّا اسْتَقَرُّوا بِالكُوفَةِ أَشَاعُوا أَنَّ عَلِيًّا رَجَعَ عَنِ التَّحْكِيمِ، وَتَابَ مِنْهُ، وَرَأَاهُ ضَلَالًا. فَأَتَى الأَشْعَثُ بَنَ قَيْسِ عَلِيًّا رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ؛ فَقَالَ: يَا أَمِيرَ المُؤْمِنِينَ، إِنَّ النَّاسَ قَدْ تَحَدَّثُوا أَنَّكَ رَأَيْتَ الحُكُومَةَ ضَلَالًا وَالإِقَامَةَ عَلَيْهَا كُفْرًا وَتُبْتُ. فَخَطَبَ عَلِيٌّ النَّاسَ فَقَالَ: مَنْ زَعَمَ أَنِّي رَجَعْتُ عَنِ الحُكُومَةِ فَقَدْ كَذَبَ، وَمَنْ رَأَاهُ ضَلَالًا فَهُوَ أَضَلُّ مِنْهَا. فَخَرَجَتْ الخَوَارِجُ مِنَ المَسْجِدِ فَحَكَّمْتَ، فَقِيلَ لِعَلِيِّ: إِنَّهُمْ خَارِجُونَ "عَلَيْكَ"؛ فَقَالَ: لَا أَقَاتِلُهُمْ حَتَّى يَقَاتِلُونِي، وَسَيَعْلُونَ.

فَوَجَّهَ إِلَيْهِمْ عَبْدَ اللَّهِ بَنَ عَبَّاسٍ، فَلَمَّا سَارَ إِلَيْهِمْ رَحِبُوا بِهِ وَأَكْرَمُوهُ، فَأَرَى لَهُمْ جِبَاهًا قَرِيحَةً لَطُولِ السُّجُودِ، وَأَيْدِيًا كَثْفِنَاتِ الإِبِلِ، وَعَلَيْهِمْ قُمْصٌ مُرْحَضَةٌ وَهُمْ مُشْمَرُونَ، فَقَالُوا: مَا جَاءَ بِكَ يَا بَنَ عَبَّاسٍ؟ قَالَ: جِئْتُكُمْ مِنْ عِنْدِ صِهْرِ رَسولِ اللَّهِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ وَابْنِ عَمِّهِ، وَأَعْلَمْنَا بِرَبِّهِ وَسُنَّةِ نَبِيِّهِ، وَمَنْ عِنْدَ المَهَاجِرِينَ وَالأَنْصَارِ؟ فَقَالُوا: إِنَّا أَتَيْنَا عَظِيمًا حِينَ حَكَّمْنَا الرِّجَالَ فِي دِينِ اللَّهِ، فَإِنْ تَابَ كَمَا تُبْنَا وَنَهَضَ لِمُجَاهَدَةِ عَدُوِّنَا رَجَعْنَا. فَقَالَ بَنُ عَبَّاسٍ: نَشَدْتُمْ اللَّهَ إِلَّا مَا صَدَقْتُمْ أَنْفُسَكُمْ، أَمَا عَلِمْتُمْ أَنَّ اللَّهَ أَمَرَ بِتَحْكِيمِ الرِّجَالِ فِي أَرْزَبِ تُسَاوِي رُبْعِ دَرْهَمٍ تُصَادُ فِي الحَرَمِ، وَفِي شِقَاقِ رَجُلٍ وَامْرَأَتِهِ؟ فَقَالُوا: اللَّهُمَّ نَعَمْ؛ قَالَ: فَأَنْشُدْكُمْ اللَّهَ، هَلْ عَلِمْتُمْ أَنَّ رَسولَ اللَّهِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ أَمْسَكَ عَنِ القِتَالِ لِلهَيْدَةِ بَيْنَهُ وَبَيْنَ أَهْلِ الحُدَيْبِيَّةِ؟ قَالُوا: نَعَمْ، وَلَكِنْ عَلِيًّا مَحَا نَفْسَهُ مِنَ خِلَافَةِ المُسْلِمِينَ قَالَ بَنُ عَبَّاسٍ: لَيْسَ ذَلِكَ يُزِيلُهَا عَنْهُ، وَقَدْ مَحَا رَسولَ اللَّهِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ "اسْمَهُ" مِنَ النُّبُوَّةِ، وَقَالَ سُهَيْلُ بَنَ عَمْرٍو: لَوْ عَلِمْتُ أَنَّكَ رَسولَ اللَّهِ مَا حَارَبْتُكَ، فَقَالَ لِلكَاتِبِ: اكْتُبْ: مُحَمَّدُ بَنُ عَبْدِ اللَّهِ. وَقَدْ أَخَذَ عَلِيٌّ الحَكَمِيِّينَ أَنْ لَا يَجُورُوا، "وَإِنْ يَجُورُوا"، فَعَلِيٌّ أَوْلَى مِنَ مُعَاوِيَةَ وَغَيْرِهِ، قَالُوا: إِنَّ مُعَاوِيَةَ يَدْعِي مِثْلَ دَعْوَى عَلِيٍّ؛ قَالَ فَأَيُّهُمَا رَأَيْتُمُوهُ أَوْلَى قَوْلُهُ، قَالُوا: صَدَقْتَ. قَالَ بَنُ عَبَّاسٍ: وَمَنْ يَجَارِ الحَكَمَانَ فَلَا طَاعَةَ لهُمَا وَلَا قَبُولَ لِقَوْلِهِمَا. فَاتَّبَعَهُ مِنْهُمْ أَلْفَانٌ وَبَقِيَ أَرْبَعَةُ آلَافٍ.

فَصَلَّى بِهُمْ صَلَاتَهُمْ بَنَ الكَوَّاءِ، وَقَالَ: مَتَى كَانَتْ حَرْبُ فَرَيْسُكُمُ شَبَثَ بَنَ رَبِيعِ الرِّيَّاحِيِّ. فَلَمْ يَزَالُوا عَلَى ذَلِكَ حَتَّى أَجْمَعُوا عَلَى البَيْعَةِ لِعَبْدِ اللَّهِ بَنِ وَهْبِ الرَّاسِيِّ، فَخَرَجَ بِهُمْ إِلَى النَّهْرَوَانَ، فَأَوْقَعَ بِهُمْ عَلِيٌّ، فَقَتَلَ مِنْهُمْ أَلْفَيْنِ وَثَمَانِمِائَةَ، وَكَانَ عَدَدُهُمْ سِتَّةَ آلَافٍ، وَكَانَ مِنْهُمْ بِالكُوفَةِ زُهَاءُ أَلْفَيْنِ مِمَّنْ يُسَرِّ

أمره، فخرج منهم رجلٌ بعد أن قال عليٌّ رضي الله عنه: ارجعوا وادفعوا إلينا قاتلَ عبد الله بن حَبَّاب؟ قالوا: كلَّنا قتلَهُ وشرك في دمه، وذلك أهمُّ لما خرجوا إلى النَّهْرَوَانِ لِقُوا مُسْلِمًا وَنَصْرَانِيًّا، وَفَقَتَلُوا الْمُسْلِمَ وَأَوْصُوا بِالنَّصْرَانِيَّ خَيْرًا، وَقَالُوا: احْفَظُوا دَمَةَ نَبِيِّكُمْ. وَلِقُوا عَبْدَ اللَّهِ بْنَ حَبَّابٍ، وَفِي عُنُقِهِ الْمُصْحَفُ وَمَعَهُ امْرَأَتُهُ وَهِيَ حَامِلٌ، فَقَالُوا: إِنَّ هَذَا الَّذِي فِي عُنُقِكَ بِأَمْرِنَا بَقَيْتَكَ؛ فَقَالَ لَهُمْ: أَحْيُوا مَا أَحْيَا الْقُرْآنَ، وَأَمَيْتُوا مَا أَمَاتَ الْقُرْآنَ، فَقَالُوا: حَدَّثْنَا عَنْ أَبِيكَ؛ قَالَ: حَدَّثَنِي أَبِي قَالَ: سَمِعْتُ رَسُولَ اللَّهِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ يَقُولُ: تَكُونُ فِتْنَةٌ يَمُوتُ فِيهَا قَلْبُ الرَّجُلِ كَمَا يَمُوتُ بَدَنُهُ، يَمْسَى مُؤْمِنًا وَيُصْبِحُ كَافِرًا، فَكُنْ عَبْدَ اللَّهِ الْمَقْتُولَ وَلَا تَكُنْ عَبْدَ اللَّهِ الْقَاتِلَ؛ قَالُوا: فَمَا تَقُولُ فِي أَبِي بَكْرٍ وَعُمَرُ؟ فَأَتْنِي خَيْرًا؟" قَالُوا: فَمَا تَقُولُ فِي عَلِيٍّ قَبْلَ التَّحْكِيمِ وَفِي عُثْمَانَ؟ فَأَتْنِي خَيْرًا؟" قَالُوا: فَمَا تَقُولُ فِي الْحُكُومَةِ وَالتَّحْكِيمِ؟ قَالَ: أَقُولُ: إِنَّ عَلِيًّا أَعْلَمُ بِكِتَابِ اللَّهِ مِنْكُمْ، وَأَشَدُّ تَوْقِيًّا عَلَى دِينِهِ وَأَبْعَدُ بَصِيرَةً؛ قَالُوا: إِنَّكَ لَسْتَ تَتَّبِعُ الْهَدْيَ بِلِ الرِّجَالِ عَلَى أَسْمَائِهَا، ثُمَّ قَرَّبُوهُ إِلَى شَاطِئِ الْبَحْرِ فَذَجَّوْهُ، فَمَا مَذْفَرٌ دَمُهُ، أَي جَرَى مُسْتَقِيمًا عَلَى دَقَّةٍ وَسَامُوا رَجُلًا نَصْرَانِيًّا بَنَخْلَةَ، فَقَالَ: هِيَ لَكُمْ هَبَّةٌ، قَالُوا: مَا كُنَّا نَأْخُذُهَا إِلَّا بِثَمَنِ؟ فَقَالَ: مَا أَعْجَبَ هَذَا! أَتَقْتُلُونَ مِثْلَ عَبْدِ اللَّهِ بْنِ حَبَّابٍ، وَلَا تَقْبَلُونَ مِنَّا "جَنَى" نَخْلَةَ إِلَّا بِثَمَنِ! ثُمَّ افْتَرَقَتِ الْخَوَارِجُ عَلَى أَرْبَعَةِ أَضْرَبٍ: الْإِبَاضِيَّةُ، أَصْحَابُ عَبْدِ اللَّهِ بْنِ إِبَاضٍ؟ وَالصُّفْرِيَّةُ، وَاجْتَلَفُوا فِي نَسْبِهِمْ، فَقَالَ قَوْمٌ: سُمُّوا بِابْنِ الصَّفَارِ، وَقَالَ قَوْمٌ: هَكَتَهُمُ الْعِبَادَةُ فَاصْفَرَّتْ وَجُوهُهُمْ، وَمِنْهُمْ الْبَيْهَسِيَّةُ، وَهِيَ أَصْحَابُ ابْنِ بَيْهَسٍ؟ وَمِنْهُمْ الْأَزْرَاقَةُ أَصْحَابُ نَافِعِ بْنِ الْأَزْرَقِ الْخَنْفِيِّ، وَكَانُوا قَبْلَ عَلِيٍّ رَأْيٍ وَاحِدًا لَا يَخْتَلِفُونَ إِلَّا فِي الشَّيْءِ الشَّاذِّ.

فبلغهم خروجُ مُسْلِمِ بْنِ عُقْبَةَ إِلَى الْمَدِينَةِ، وَقَتْلُهُ أَهْلَ حَرَّةٍ، وَأَنَّهُ مُقْبِلٌ إِلَى مَكَّةَ، فَقَالُوا: يَجِبُ عَلَيْنَا أَنْ نَمْنَعَ حَرَمَ اللَّهِ مِنْهُمْ، وَنَمْتَحِنَ ابْنَ الزُّبَيْرِ، فَإِنْ كَانَ عَلَى رَأْيِنَا تَابِعَانَهُ. فَلَمَّا صَارُوا إِلَى ابْنِ الزُّبَيْرِ عَرَّفُوهُ أَنْفُسَهُمْ، وَمَا قَدِمُوا لَهُ، فَأَظْهَرَ لَهُمْ أَنَّهُ عَلَى رَأْيِهِمْ، حَتَّى أَتَاهُمْ مُسْلِمُ بْنُ عُقْبَةَ وَأَهْلُ الشَّامِ، فَدَفَعُوهُ إِلَى أَنْ يَأْتِيَ رَأْيُ يَزِيدَ بْنِ مُعَاوِيَةَ، وَلَمْ يُتَابِعُوا ابْنَ الزُّبَيْرِ، ثُمَّ تَنَازَرُوا فِيهِمَا بَيْنَهُمْ، فَقَالُوا: نَدْخُلُ إِلَى هَذَا الرَّجُلِ فَنَنْظُرُ مَا عِنْدَهُ، فَإِنْ قَدَّمَ أَبَا بَكْرٍ وَعُمَرَ وَبَرِيءَ مِنْ عُثْمَانَ وَعَلِيٍّ، وَكَفَرَ أَبَاهُ وَطَلْحَةَ بَايَعَانَهُ، وَإِنْ تَكُنَّ الْأُخْرَى ظَهَرَ لَنَا مَا عِنْدَهُ، وَتَشَاغَلْنَا بِمَا يَجِدِي عَلَيْنَا. فَدَخَلُوا عَلَى ابْنِ الزُّبَيْرِ وَهُوَ مُتَبَدِّلٌ وَأَصْحَابُهُ مُتَفَرِّقُونَ عَنْهُ، فَقَالُوا لَهُ: إِنَّا جِئْنَاكَ لِتُخْبِرَنَا رَأْيَكَ، فَإِنْ كُنْتَ عَلَى صَوَابٍ بَايَعْنَاكَ، وَإِنْ كُنْتَ عَلَى خِلَافَةِ دَعْوَانَا إِلَى الْحَقِّ، مَا تَقُولُ فِي الشَّيْخَيْنِ؟ قَالَ: خَيْرًا؛ قَالُوا: فَمَا تَقُولُ فِي عُثْمَانَ الَّذِي حَمَى الْحِمَى، وَآوَى الطَّرِيدَ، وَأَظْهَرَ لِأَهْلِ مِصْرَ شَيْئًا وَكَتَبَ بِخِلَافِهِ، وَأَوْطَأَ آلَ بَنِي مُعِيظٍ رِقَابَ النَّاسِ، وَآثَرَهُمْ بَقِيَّةَ الْمُسْلِمِينَ؟ وَفِي الَّذِي بَعْدَهُ الَّذِي حَكَّمَ "فِي دِينِ اللَّهِ" الرِّجَالَ، وَأَقَامَ عَلَى ذَلِكَ عَيْرَ تَائِبٍ وَلَا نَادِمٍ؟ وَفِي أَبِيكَ وَصَاحِبِهِ، وَقَدْ بَايَعَا عَلِيًّا، وَهُوَ إِمَامٌ عَادِلٌ مَرَضِيٌّ لَمْ يَظْهَرْ مِنْهُ كُفْرٌ، ثُمَّ نَكَّنَّا بَيْعَتَهُ، وَأَحْرَجْنَا عَائِشَةَ تُقَاتِلُ، وَقَدْ أَمَرَهَا اللَّهُ وَصَوَّاحِبَهَا أَنْ يَقْرَنَ فِي بُيُوتِهِنَّ، وَكَانَ لَكَ فِي ذَلِكَ مَا يَدْعُوكَ إِلَى التَّوْبَةِ، فَإِنْ أَنْتَ قَبِلْتَ كُلَّ مَا نَقُولُ "لَكَ" فَلَكَ الزُّلْفَى عِنْدَ اللَّهِ، وَالنَّصْرَ عَلَى أَيْدِينَا، إِنْ شَاءَ اللَّهُ، وَنَسَأَلُ اللَّهَ لَكَ التَّوْفِيقَ وَإِنْ آبَيْتَ خَذَلَكَ اللَّهُ وَالنَّصْرَ مِنْكَ بِأَيْدِينَا.

فَقَالَ ابْنُ الزُّبَيْرِ: إِنَّ اللَّهَ أَمَرَ، وَهُوَ الْعَزَّةُ وَالْقُدْرَةُ فِي مَخَاطِبَةِ أَكْفَرِ الْكَافِرِينَ، وَأَعْتَى الْعَانِينَ، بِأَرْقٍ مِنْ هَذَا الْقَوْلِ، فَقَالَ لِمُوسَى وَأَخِيهِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِمَا: "إِذْهَبَا إِلَى فِرْعَوْنَ إِنَّهُ طَغَى، فَقُولَا لَهُ قَوْلًا لَنَا لَعَلَّهُ يَتَذَكَّرُ أَوْ يَخْشَى". وَقَالَ رَسُولُ اللَّهِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ: "لَا تُؤْذُوا الْأَحْيَاءَ بِسَبِّ الْمَوْتَى". فَفِيهِ عَنْ سَبِّ أَبِي جَهْلٍ مِنْ أَجْلِ عِكْرَمَةَ ابْنِهِ، وَأَبُو جَهْلٍ عَدُوُّ اللَّهِ وَعَدُوُّ رَسُولِهِ وَالْمَقِيمُ عَلَى الشِّرْكِ، وَالْجَادُّ فِي مِحَارِبَةِ رَسُولِ اللَّهِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ قَبْلَ الْهِجْرَةِ، وَالْمُحَارِبُ لَهُ بَعْدَهَا، وَكَفَى بِالشِّرْكِ ذَنْبًا، وَقَدْ كَانَ يُغْنِيكُمْ عَنْ هَذَا الْقَوْلِ الَّذِي سَمَّيْتُمْ فِيهِ طَلْحَةَ وَأَبِي أَنْ تَقُولُوا: أَتَبْرَأُ مِنَ الظَّالِمِينَ؟ فَإِنْ كَانَ مِنْهُمْ دَخَلًا فِي غَمَارِ النَّاسِ، وَإِنْ لَمْ يَكُنْ مِنْهُمْ لَمْ تُحْفَظُوا بِسَبِّ أَبِي وَصَاحِبِهِ، وَأَنْتُمْ تَعْلَمُونَ أَنَّ اللَّهَ جَلَّ وَعَزَّ قَالَ لِلْمُؤْمِنِ فِي أَبَوَيْهِ: "وَإِنْ جَاهَدَاكَ عَلَىٰ أَنْ تُشْرِكَ بِي مَا لَيْسَ لَكَ بِهِ عِلْمٌ فَلَا تُطِعْهُمَا وَصَاحِبُهُمَا فِي الدِّينِ مَعْرُوفًا". وَقَالَ: "وَقُولُوا لِلنَّاسِ حُسْنًا". وَهَذَا الَّذِي دَعَوْتُمْ إِلَيْهِ أَمْرٌ لَمْ يَكُنْ مِنْكُمْ، وَلَيْسَ يُفْنَعُكُمْ إِلَّا التَّوْقِيفُ وَالتَّصْرِيحُ، وَلَعَمْرِي إِنَّ ذَلِكَ أَحْرَى بِقَطْعِ الْحَجَجِ، وَأَوْضَحَ لِمَنْهَاجِ الْحَقِّ، وَأَوْلَىٰ بِأَنْ يَعْرِفَ كُلُّ صَاحِبِهِ مِنْ عَدُوِّهِ، فَرُوحُوا إِلَيَّ مِنْ عَشِيَّتِكُمْ هَذِهِ أَكْشَفَ لَكُمْ مَا أَنَا عَلَيْهِ إِنْ شَاءَ اللَّهُ تَعَالَى.

فَلَمَّا كَانَ الْعِشِيُّ رَاحُوا إِلَيْهِ، فَخَرَجَ إِلَيْهِمْ وَقَدْ لَبَسَ سِلَاحَهُ، فَلَمَّا رَأَى ذَلِكَ نَجَدُهُ، قَالَ: هَذَا خُرُوجٌ مِنَّا بِذَلِكَ، فَجَلَسَ عَلَى رَفْعٍ مِنَ الْأَرْضِ، فَحَمَدَ اللَّهَ، وَأَتْنِي عَلَيْهِ، وَصَلَّى عَلَى نَبِيِّهِ، ثُمَّ ذَكَرَ أَبَا بَكْرٍ وَعُمَرَ أَحْسَنَ ذِكْرٍ، ثُمَّ ذَكَرَ عُثْمَانَ فِي السَّنِينَ الْأَوَائِلِ مِنْ خِلَافَتِهِ، ثُمَّ وَصَلَهُنَّ بِالسَّنِينَ الَّتِي أَنْكَرُوا

سيرته فيها فجعلها كالمضحية؛ وأخبر أنه آوى الحكم بن أبي العاصي بإذن رسول الله صلى الله عليه وسلم، وذكر الحمي ومما كان فيه من الصلاح، وأن القوم آستعبوه "من أمور" ما كان له أن يفعلها؟ أولاً مصيباً، ثم أعتبهم بعد ذلك مُحسناً، وأن أهل مصر لما أتوه بكتاب ذكروا أنه منه بعد أن ضمن لهم العتي، ثم كُتب ذلك الكتاب بقتلهم، فدفعوا الكتاب إليه، فحلف بالله أنه لم يكتبه ولم يأمر به، وقد أمر الله عز وجل بقبول اليمين ممن ليس له مثل سابقته، مع ما اجتمع له من صهر رسول الله صلى الله عليه وسلم ومكانه "من" الإمامة، وأن بيعة الرضوان تحت الشجرة إنما كانت بسببه، وعثمان الرجل الذي لزمته يمين لو حلف عليها لحلف على حق، فافتدأها بمائة ألف ولم يحلف؛ وقد قال رسول الله صلى الله عليه وسلم جميع: "من حلف بالله فليصدق ومن حلف له بالله فليقبل". وعثمان أمير المؤمنين "كصاحبه" وأنا وليّ ولّيه، وعدوّ عدوّه، وأبي وصاحبه صاحباً رسول الله صلى الله عليه وسلم، "ورسول الله" يقول "عن الله" عز وجلّ يوم أحد لما قطعت إصبع طلحة: "سبقتني إلى الجنة". وقال: "أوجب طلحة". وكان الصديق إذا ذكر يوم أحد قال: ذلك يوم كله "أو جله" لطلحة. والزبير حواري رسول الله صلى الله عليه وسلم وصفتوه، وقد ذكر أنه في الجنة، وقال عز وجلّ: "لقد رضي الله عن المؤمنين إذ يبايعونك تحت الشجرة". وما أخبرنا بعد أنه سخط عليهم؟ وإن يكن ما صنعوا حقاً فأهل ذلك هم، وإن يكن زلة ففي عفو الله تمحيصها، وفيما وفقهم له من السابقة مع نبيهم صلى الله عليه وسلم ومهما ذكرتوهما به، فقد بدأت بأئمتكم عائشة، فإن أبي أب أن تكون له أمّاً، نبد اسم الإيمان عنه، وقد قال حلّ ذكره: "النبي أولى بالمؤمنين من أنفسهم وأزواجه أمهاتهم". فنظر بعضهم إلى بعض ثم انصرفوا عنه. وكتب بعد ذلك نافع بن الأزرق إلى عبد الله بن الزبير يدعوه إلى أمره: أما بعد، فإني أحذرك من الله يوم تجد كل نفس ما عملت من خير محضراً، وما عملت من سوء تودّ لو أن بينها وبينه أمداً بعيداً، "ويحذركم الله نفسه". فاتق الله ربك ولا تتول الظالمين فإن الله يقول: "ومن يتولهم منكم فإنه منهم". وقال: لا يتخذ المؤمنون الكافرين أولياء من دون المؤمنين ومن يفعل ذلك فليس من الله في شيء". وقد حضرت عثمان يوم قتل، فلعمري لمن كان قتل مظلوماً لقد كفر قاتلوه وحاذلوه، وإن كان قاتلوه مهتدين، وإهم مهتدون، لقد كفر من تولاه ونصره. ولقد علمت أن أبابك وطلحة وعليا كانوا أشد الناس عليه، وكانوا في أمره بين قاتل وحاذل، وأنت تتولى أبابك وطلحة وعثمان، فكيف ولاية قاتل مُتعمد ومقتول في دين واحد، ولقد ملك على بعده فنفي الشبهات، وأقام الحدود، وأجرى الأحكام مجاريها، وأعطى الأمور حقها فيما عليه وله، فبايعه أبوك وطلحة، ثم خلعا بيّعتة ظالمين له، وإن القول فيك وفيهما لكما قال ابن عباس رحمه الله: إن يكن عليّ في وقت معصيتكم ومحاربتكم له كان مؤمناً لقد كفرتم بقتال المؤمنين وائمة العدل، وإن كان كافراً كما زعمتم، وفي الحكم جائراً، فقد بؤتم بغضب من الله لفراركم من الرحف. ولقد كنت له عدواً، ولسيرته عاباً، فكيف توليته بعد موته.

وكتب بجدّة وكان من الصفرية القعدية إلى نافع بن الأزرق، لما بلغه عنه استعراضه للناس، وقتله الأطفال، واستحلاله الأمانة: بسم الله الرحمن الرحيم صلى الله عليه وسلم، أما بعد، فإن عهدي بك وأنت لليتيم كالأب الرحيم، وللضعيف كالأخ البرّ، لا تأخذك في الله لومة لائم، ولا ترى معونة ظالم، "كذلك كنت أنت وأصحابك، أما تذكر قولك: لولا أي أعلم أن للإمام العادل مثل أحر جميع رعيتيه ما توليت أمر رجلين من المسلمين" فلما شريت نفسك في طاعة ربك ابتغاء رضوانه، وأصبت من الحق فضّه، "وركبت مرة" تجرد لك الشيطان، فلم يكن أحد أثقل وطأة عليه منك ومن أصحابك، فاستمالك واستغواك، فعويت وأكفرت الذين عذرهم الله في كتابه من قعدة المسلمين وضعفتهم، فقال جل ثناؤه، وقوله الحق، ووعده الصّدق: "ليس على الضعفاء ولا على المرضى ولا على الذين لا يجدون ما ينفقون حرج إذا نصحوا لله ورسوله" ثم ستمهم أحسن الأسماء فقال: "ما على الحسين من سبيل". ثم استحلت قتل الأطفال، وقد نهى رسول الله صلى الله عليه وسلم عن قتلهم، وقال جل ثناؤه: "ولا تزرر وزرر أخرى". وقال في القعد خيراً، وفضل الله من جاهد عليهم، ولا يدفع منزلة أكثر الناس عملاً منزلة من هو دونه، إلا إذا اشتراكا في أصل، أو ما سمعت قوله تبارك وتعالى: "لا يستوي القاعدون من المؤمنين غير أولي الضرر والمجاهدون في سبيل الله" فجعلهم الله من المؤمنين، وفضل عليهم المجاهدين بأعمالهم، ورأيت من رأيك أن لا تؤدّي الأمانة إلى من يخالفك، والله يأمرك أن تؤدي الأمانة إلى أهلها، فاتق الله وانظر لنفسك، وأتق يوماً لا يجزي والد عن ولده ولا مولود هو جاز عن والده شيئاً، فإن الله بالمِرصاد، وحكمه العدل، وقوله الفصل، والسلام.

فكتب إليه نافع بن الأزرق: بسم الله الرحمن الرحيم، أما بعد: فقد أتاني كتابك تعظني فيه وتذكّرني، وتنصح لي وتزجرني، وتصيف ما كنت عليه من

الحق، وما كنتُ أوثرُهُ من الصواب، وأنا أسألُ الله أن يجعلني من الذين يَسْتَمعون القولَ فيتبعون أحسنه. وَعَبَتَ على ما دُنْتُ به من إكفار القَعْد، وَقَتَلَ الأَطْفال، واستحلال الأمانة؛ وسأفسرُ لك "لِمَ" ذلك إن شاء الله: أما هؤلاء القَعْد فليسوا كمن ذكرتَ ممن كان بعهدِ رسولِ الله صلى الله عليه وسلم، لأنهم كانوا بمكة مَقهورين مَحْصورين لا يجدون إلى الهرب سَبِيلاً، ولا إلى الاتصال بالمسلمين طريقاً؛ وهؤلاء قد فَقَهُوا في الدين، وقرءوا القرآن؛ والطريقُ لهم نَهَج واضح؛ وقد عرفتَ ما يقول الله فيمن كان مثلهم إذ قال: "إِنَّ الَّذِينَ تَوَفَّاهُمُ الْمَلَائِكَةُ ظَالِمِي أَنْفُسِهِمْ قَالُوا فِيمَ كُنْتُمْ. قَالُوا كُنَّا مُسْتَضْعَفِينَ فِي الْأَرْضِ. قَالُوا أَلَمْ تَكُنْ أَرْضُ اللَّهِ وَأَسْعَةً فَتُهَاجِرُوا فِيهَا". وقال: فَرحَ المُخَلَّفونَ بمقعدهم خلاف رسول الله وقال: "وَجَاءَ الْمُعَذِّرُونَ مِنَ الْأَعْرَابِ لِيُؤْذَنَ لَهُمْ. وَقَعَدَ الَّذِينَ كَذَبُوا اللَّهَ وَرَسُولَهُ" "فَخَبِرَ بِعَظِيمِهِمْ وَأَهُم كَذَبُوا اللَّهَ وَرَسُولَهُ". وقال: "سَيُصِيبُ الَّذِينَ كَفَرُوا مِنْهُمْ عَذَابٌ أَلِيمٌ" فانظر إلى أسمائهم وسِمَاتهم.

وأما أمر الأَطْفال فإن نبي الله نوحاً كان أعرف بالله يا نَجْدَةُ مَتِي ومنك قال: "رَبِّ لَا تَذَرْ عَلَيَّ الْأَرْضَ مِنَ الْكَافِرِينَ دَيَّارًا. إِنَّكَ إِن تَذَرَهُمْ يُضِلُّوا عِبَادَكَ وَلَا يَلِدُوا إِلَّا فَاجِرًا كَفَّارًا"، فسماهم بالكفر وهم أطفال وقبل أن يُؤلَدُوا، فكيف جاز ذلك في قوم نوح ولا يجوز في قومنا؟ والله يقول: "أَكْفَرُكُمْ خَيْرٌ مِنْ أَوْلِيكُمْ أَمْ لَكُمْ بَرَاءَةٌ فِي الزُّبُرِ". وهؤلاء كمشركي العرب لا تُقبل منهم جزية، وليس بيننا وبينهم إلا السيف أو الإسلام.

وأما استحلال الأمانات ممن خالفنا، فإن الله عز وجل أحل لنا أموالهم، كما أحل لنا دماءهم، فدمائهم حلال طلق، وأموالهم فيء للمسلمين، فأثقتُ الله وراجع نفسك، فإنه لا عذر لك إلا بالتوبة، ولا يسعك خذلاننا، والقعود دوننا، "وترك ما نهجناه لك من طريقتنا ومقاتلتنا"، والسلام على من أقرَّ بالحق وعمل به.

وكان مرداس أبو بلال من الخوارج وكان مُستتراً، فلما رأى جدَّ ابن زياد في قتل الخوارج وحبسهم، قال لأصحابه: إنه والله لا يسعنا المقام بين هؤلاء الظالمين تجري علينا أحكامهم! مجانين للعدل؛ مفارقين للعقل، والله إن الصبر على هذا لعظيم، وإن تجريد السيف وإخافة السبيل لعظيم، ولكننا لا نبتدئهم ولا نُجرِّد سيفاً ولا نُقاتل إلا من قاتلنا. فاجتمع عليه أصحابه، وهم ثلاثون رجلاً، فأرادوا أن يُؤلوا أمرهم حُرَيْث بن حَجَل، فأبى، فؤلوا أمرهم مرداساً أبا بلال. فلما مضى بأصحابه لقيه عبد الله بن رباح الأنصاري، وكان له صديقاً، فقال له: يا أخي، أين تُريد؟ قال: أريد أن أهربُ بديني ودين أصحابي هؤلاء من أحكام هؤلاء الجورة والظلمة؛ فقال له: أعلم بكم أحد؟ قال: لا؟ قال: فارح؛ قال أو تخاف عليّ مكرهاً؟ قال: نعم، "وَأَنْ يُؤْتِي بكَ"؛ قال: فلا تخف، فإني لا أجرد سيفاً، ولا أخيف أحداً، ولا أقاتل إلا من قاتلني. ثم مضى حتى نزل آسك، وهو موضع دون خراسان، فمرَّ به مالٌ يُحمل إلى ابن زياد، وقد بلغ أصحابه أربعين رجلاً، فحطَّ ذلك المال، وأخذ منه عطاءه وأعطيات أصحابه، وردَّ الباقي على الرُّسل، فقال: قولوا لصاحبكم إننا قبضنا أعطياتنا؛ فقال بعض أصحابه: فعلام نَدع الباقي؟ فقال: إنهم يقسمون هذا الفياء، كما يقسمون الصلاة، فلا نقاتلهم.

ولأبي بلال مرداس هذا أشعارٌ في الخروج، منها قوله:

ومن خاضَ في تلك الحروب المَهالكَا

أبعدَ ابن وهبَ ذي النزاهة والنقي

وقد قتلوا زيدَ بن حصنٍ ومالكا

أحبَّ بقاءً أو أرجي سلامةً

وهب لي التقى حتى ألقى أولئكا

فيا ربِّ سلِّمْ نيتي وبصيرتي

وقالوا: إن رجلاً من أصحاب زياد، قال: خرجنا في جيش تُريد خراسان، فمررنا بآسك، فإذا نحن بمرداس وأصحابه، وهم أربعون رجلاً، فقال: أفاصدون لقتالنا أتم؟ قلنا: لا، إنما نريد خراسان؛ قال: فأبلغوا من لقيتم أننا لم نخرج لنفسد في الأرض ولا لنروع أحداً، ولكن هربنا من الظلم، ولسنا نُقاتل إلا من قاتلنا، ولا نأخذ من الفياء إلا أعطياتنا، ثم قال: أئدب لنا أحد؟ قلنا: نعم، أسلم بن زُرعة الكلابي، قال: فمتى ترونه يصل إلينا؟ قلنا له: يوم كذا وكذا؛ فقال أبو بلال: حسبنا الله ونعم الوكيل.

ونَدبَ عبید الله بن زياد أسلم بن زُرعة الكلابي ووجهه إليهم في ألفين، فلما صار إليهم صاح به أبو بلال: اتق الله يا أسلم، فإننا لا تُريد قتالاً ولا

نَحْتَجِزْ مالا، فما الذي تُريد؟ قال: أريد أن أردكم إلى ابن زياد؟ قال: إذاً يقتلنا؟ قال: وإن قتلكم؛ قال: أفتشركه في دماننا؟ قال: نعم، إنه مُحَقٌّ وأنتم مُبْطَلون؛ قال أبو بلال: وكيف هو مُحَقٌّ وهو فاجر يُطِيع الظُّلْمَةَ. ثم حَمَلُوا عليه حَمَلَةً رجل واحد، فانهزم هو وأصحابه. فلما ورد على ابن زياد غَضِبَ عليه غَضَباً شديداً، وقال: انهزمت وأنت في ألفين عن أربعين رجلاً! قال له أسلم: والله لأن تَدُمْنِي حَيًّا أَحَبُّ إِلَيَّ من أن تَحْمَدَنِي مَيِّتًا. وكان إذا خرج إلى السوق ومرَّ بالصبيان صاحوا به: أبو بلال وراعيك؟ حتى شكوا إلى ابن زياد، فأمر الشَّرَطَ أن يكفوا الناس عنه.

رد عمر بن عبد العزيز رضي الله عنه على شوذب الخارجي

الميثم بن عدي قال: أخبرني عوانة بن الحَكَمِ عن محمد بن الزُّبَيْرِ قال: بعثني عمر بن عبد العزيز مع عَوْنِ بن عبد الله بن مسعود إلى شوذب الخارجي وأصحابه إذ خرجوا بالجزيرة، وكتب معنا كتاباً، فقدمنا عليهم ودفعنا كتابه إليهم، فبعثوا معنا رجلاً من بني شيبان ورجلاً فيه حبشية يقال له شوذب. فقدمنا معنا على عمر وهو بخناصرة، فصعدنا إليه، وكان في غرفة ومعه ابنه عبد الملك وحاجبه مزاحم، فأخبرناه بمكان الخارجيين؟ فقال عمر: فتشوهما لا يكن معهما حديد وأدخولهما، فلما دخلا قالوا: السلام عليكم، ثم جلسا؛ فقال لهما عمر: أخبراني ما الذي أخرجكم عن حُكْمِي هذا وما نَقِمْتُم علي؟ فتكلم الأسود منهما، فقال: إنا والله ما نَقِمْنَا عليك في سيرتك، وتحرَّيك العدل والإحسان إلى من وليت، ولكن بيننا وبينك أمران إن أعطيتنا فنحن منك وأنت منا، وإن منعتنا فلست منا ولسنا منك؟ قال عمر: ما هو؟ قالوا: رأيناك خالفت أهل بيتك وسميتها مظالم وسلكت غير طريقهم، فإن زعمت أنك على هدى وهم على ضلال فالعنهم وابرأ منهم؛ فهذا الذي يجمع بيننا وبينك أو يُفَرِّق. فتكلم عمر، فحمد الله وأثنى عليه، ثم قال: إني قد علمتُ أو ظننتُ أنكم لم تخرجوا مخرجكم هذا لطلب الدنيا ومتاعها، ولكنكم أردتم الآخرة فأخطأتم سبيلها، وإني سألتكما عن أمر، فبالله اصدقاني فيه مبلغ علمكما؛ قالوا: نعم؟ قال: أخبراني عن أبي بكر وعمر، أليسا من أسلافكما، ومن تتوليان وتشهدان لهما بالنجاة؟ قالوا: اللهم نعم؛ قال: فهل علمتما أن أبا بكر حين قبض رسول الله صلى الله عليه وسلم له فارتدت العرب قاتلهم فسفك الدماء وأخذ الأموال وسبى الذراري؟ قالوا: نعم؛ قال: فهل علمتم أن عمر قام بعد أبي بكر فردت تلك السبايا إلى عشائرها؟ قالوا: نعم؛ قال: فهل برىء عمر من أبي بكر أو تبرءون أتم من أحد منهما؟ قالوا: لا، قال: فأخبراني عن أهل النهروان، أليسوا من صالح أسلافكم ومن تشهدون لهم بالنجاة؟ قالوا: نعم؛ قال: فهل تعلمون أن أهل الكوفة حين خرجوا كفوا أيديهم، فلم يسفكوا دمًا، ولم يخيفوا آمنًا، ولم يأخذوا مالا؟ قالوا: نعم؛ قال: فهل علمتم أن أهل البصرة حين خرجوا مع مسعر بن قديك استعرضوا الناس، يقتلوهم، ولقوا عبد الله بن حباب بن الأرت، صاحب رسول الله صلى الله عليه وسلم، فقتلوه وقتلوا جاريته، ثم قتلوا النساء والأطفال، حتى جعلوا يلقوهم في قُدُور الأظف وهي تفور؟ قالوا: قد كان ذلك؛ قال: فهل برىء أهل الكوفة من أهل البصرة؟ قالوا: لا، قال: فهل تبرءون أتم من إحدى الفئتين؟ قالوا: لا؛ قال: أفرايتم الدين، ليس هو واحد، أم الدين اثنان؟ قالوا: بل واحدة قال: فهل يسعكم منه شيء يُعجزني؟ قالوا: لا؛ قال: فكيف وسعكم أن توليتم أبا بكر وعمر وتولى كل واحد منهما صاحبه، وتوليتم أهل الكوفة والبصرة وتولى بعضهم بعضاً، وقد اختلفوا في أعظم الأشياء: الدماء والفروج والأموال؛ ولا يسعني إلا لعن أهل بيتي والتبرؤ منهم؟ أو رأيت لعن أهل الذنوب فريضة لا بد منها؟ فإن كان ذلك فمتى عهدك بلعن فرعون، وقد قال: أنا ربكم الأعلى؟ قال: ما أذكر أبي لعنته؛ قال: ويحك! أيسعك أن لا تلعن فرعون وهو أحيى الخلق، ولا يسعني إلا أن لعن أهل بيتي والبراءة منهم؟ ويحكم! إنكم قوم جهال أردتم أمراً فأخطأتموه، فأنتم تردون على الناس ما قبل منهم رسول الله صلى الله عليه وسلم، بعثه الله إليهم وهم عبدة أوثان، فدعاهم إلا أن يخلعوا الأوثان، وأن يشهدوا أن لا إله إلا الله وأن محمداً عبده ورسوله، فمن قال ذلك حقن بذلك دمه، وأحرز ماله، ووجب حُرْمَتُهُ، وأمن به عند رسول الله صلى الله عليه وسلم، وكان إسوة المسلمين، وكان حسابه على الله، أفلمستم تَلْقَوْنَ مَنْ خَلَعَ الأوثان، ورفض الأديان، وشهد أن لا إله إلا الله وأن محمداً رسول الله تستحلون دمه وماله، ويُلعن عندكم، ومن ترك ذلك وأباه من اليهود والنصارى وأهل الأديان فتحرمون دمه وماله "ويأمن عندكم"؛ فقال الأسود: ما سمعتُ كالسيوم أحداً أبين حُجَّةً، ولا أقرب مأخذاً، أما أنا فأشهد أنك على الحق وأبي بريء ممن برىء منك. فقال عمر لصاحبه: يا أبا بني شيبان، ما تقول أنت؟ قال: ما

أَحْسَنَ مَا قُلْتُ وَوَصَفْتُ، غَيْرَ أَبِي لَا أَفْتَاتُ عَلَى النَّاسِ بِأَمْرٍ حَتَّى أَلْقَاهُمْ بِمَا ذَكَرْتُ وَأَنْظُرَ مَا حُجَّتْهُمْ؛ قَالَ: أَنْتَ وَذَلِكَ. فَأَقَامَ الْحَبَشِيُّ مَعَ عُمَرَ، وَأَمْرٌ لَهُ بِالْعَطَاءِ فَلَمْ يَلْبَثْ أَنْ مَاتَ، وَلَحِقَ الشَّيْبَانِي بِأَصْحَابِهِ، فَقَتَلَ مَعَهُمْ بَعْدَ وَفَاةِ عُمَرَ "رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ".

القول في أصاب الأهواء

وَذَكَرَ رَجُلٌ عِنْدَ النَّبِيِّ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ، فَذَكَرُوا فَضْلَهُ وَشِدَّةَ اجْتِهَادِهِ فِي الْعِبَادَةِ. فَبَيْنَمَا هُمْ فِي ذِكْرِهِ حَتَّى طَلَعَ عَلَيْهِمُ الرَّجُلُ، فَقَالُوا: يَا رَسُولَ اللَّهِ، هُوَ هَذَا؟ فَقَالَ رَسُولُ اللَّهِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ: أَمَا إِنِّي أَرَى بَيْنَ عَيْنَيْهِ سَفْعَةً مِنَ الشَّيْطَانِ، فَأَقْبَلَ الرَّجُلُ حَتَّى وَقَفَ فَسَلَّمَ عَلَيْهِمْ، فَقَالَ: هَلْ حَبَّبْتِكَ نَفْسُكَ إِذْ طَلَعْتَ عَلَيْنَا أَنَّهُ لَيْسَ فِي الْقَوْمِ أَحْسَنُ مِنْكَ؟ قَالَ نَعَمْ، ثُمَّ ذَهَبَ إِلَى الْمَسْجِدِ فَصَفَّ بَيْنَ قَدَمَيْهِ يَصَلِّي. فَقَالَ النَّبِيُّ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ: أَيَكُمُ يَقُومُ إِلَيْهِ فَيَقْتُلُهُ؟ فَقَالَ أَبُو بَكْرٍ: أَنَا يَا رَسُولَ اللَّهِ. فَقَامَ إِلَيْهِ فَوَجَدَهُ يَصَلِّي فَهَابَهُ فَانصَرَفَ؛ فَقَالَ: مَا صَنَعْتُ؟ قَالَ وَجَدْتُهُ يَصَلِّي يَا رَسُولَ اللَّهِ فَهَيْبَتُهُ. فَقَالَ النَّبِيُّ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ: أَيَكُمُ يَقُومُ إِلَيْهِ فَيَقْتُلُهُ؟ قَالَ عُمَرُ: أَنَا يَا رَسُولَ اللَّهِ. فَقَامَ إِلَيْهِ فَوَجَدَهُ يَصَلِّي فَهَابَهُ فَانصَرَفَ، فَقَالَ: يَا رَسُولَ اللَّهِ، وَجَدْتُهُ يَصَلِّي فَهَيْبَتُهُ. فَقَالَ رَسُولُ اللَّهِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ: أَيَكُمُ يَقُومُ إِلَيْهِ فَيَقْتُلُهُ؟ فَقَالَ عَلِيٌّ: أَنَا يَا رَسُولَ اللَّهِ؟ قَالَ: أَنْتَ لَهُ إِنْ أَدْرَكَتَهُ. فَقَامَ إِلَيْهِ فَوَجَدَهُ قَدْ انصَرَفَ. فَقَالَ النَّبِيُّ عَلَيْهِ الصَّلَاةُ وَالسَّلَامُ: هَذَا أَوَّلُ قَرْنٍ يَطْلُعُ فِي أُمَّتِي، لَوْ قَتَلْتُمُوهُ مَا اخْتَلَفَ بَعْدَهُ اثْنَانِ، إِنَّ بَنِي إِسْرَائِيلَ افْتَرَقَتْ عَلَى اثْنَتَيْنِ وَسَبْعِينَ فِرْقَةً، وَإِنَّ هَذِهِ الْأُمَّةَ سَتَفْتَرِقُ عَلَى ثَلَاثٍ وَسَبْعِينَ فِرْقَةً، كُلُّهَا فِي النَّارِ إِلَّا فِرْقَةً وَاحِدَةً، وَهِيَ الْجَمَاعَةُ.

الرافضة

إِنَّمَا قِيلَ لَهُمْ رَافِضَةٌ، لِأَنَّهُمْ رَفَضُوا أَبَا بَكْرٍ وَعُمَرَ وَلَمْ يَرْفُضْهُمَا أَحَدٌ مِنْ أَهْلِ الْأَهْوَاءِ غَيْرِهِمْ، وَالشَّيْعَةُ دُونَهُمْ، وَهَمُ الَّذِينَ يُفَضِّلُونَ عَلِيًّا عَلَى عُمَرَ، وَيَتَوَكَّلُونَ أَبَا بَكْرٍ وَعُمَرَ. فَأَمَّا الرَّافِضَةُ فَلَهَا غُلُوبٌ شَدِيدٌ فِي عَلِيٍّ، ذَهَبَ بَعْضُهُمْ مَدَهَبَ النَّصَارَى فِي الْمَسِيحِ، وَهَمُ السَّبْيِيَّةُ أَصْحَابُ عَبْدِ اللَّهِ بْنِ سَبَأٍ، عَلَيْهِمْ لَعْنَةُ اللَّهِ، وَفِيهِمْ يَقُولُ السَّيِّدُ الْحَمِيرِيُّ:

وَأُجْتَمِعُوا أَنْفُسًا فِي حُبِّهِ تَعَبًا

مَنْ أَنْ يَكُونَ ابْنَ شَيْءٍ أَوْ يَكُونَ أَبًا

قَوْمٌ غَلَوْا فِي عَلِيٍّ لَا أَبَالَهُمْ

قَالُوا هُوَ اللَّهُ، جَلَّ اللَّهُ خَالِقُنَا

وَقَدْ أَحْرَقَهُمْ عَلِيٌّ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ بِالنَّارِ.

وَمِنَ الرَّوَافِضِ: الْمُغِيرَةُ بْنُ سَعْدِ مَوْلَى بَجِيلَةَ. قَالَ الْأَعْمَشُ: دَخَلْتُ عَلَى الْمُغِيرَةَ بْنِ سَعْدٍ، فَسَأَلْتُهُ عَنْ فَضَائِلِ عَلِيٍّ؛ فَقَالَ: إِنَّكَ لَا تَحْتَمِلُهَا؛ قُلْتُ: بَلَى. فَذَكَرَ آدَمَ صَلَوَاتُ اللَّهِ عَلَيْهِ، فَقَالَ: عَلِيٌّ خَيْرٌ مِنْهُ، ثُمَّ ذَكَرَ مَنْ دُونَهُ مِنَ الْأَنْبِيَاءِ، فَقَالَ عَلِيٌّ خَيْرٌ مِنْهُمْ، حَتَّى انْتَهَى إِلَى مُحَمَّدٍ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ، فَقَالَ: عَلِيٌّ مِثْلُهُ، فَقُلْتُ: كَذَبْتَ، عَلَيْكَ لَعْنَةُ اللَّهِ؛ قَالَ: قَدْ أَعْلَمْتُكَ أَنَّكَ لَا تَحْتَمِلُهَا.

وَمِنَ الرَّوَافِضِ: مَنْ يَزْعُمُ أَنَّ عَلِيًّا رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ فِي السَّحَابِ، فَإِذَا أَطَلَّتْ عَلَيْهِمْ سَحَابَةٌ قَالُوا: السَّلَامُ عَلَيْكَ يَا أَبَا الْحَسَنِ. وَقَدْ ذَكَرَهُمُ الشَّاعِرُ فَقَالَ:

مِنْ الْغَزَالِ مِنْهُمْ وَابْنِ بَابٍ

يَرِدُونَ السَّلَامَ عَلَى السَّحَابِ

وَأَعْلَمُ أَنَّ ذَلِكَ مِنَ الصَّوَابِ

بِهِ أَرْجُو غَدًا حُسْنَ الثَّوَابِ

بَرَّيْتُ مِنَ الْخَوَارِجِ لَسْتُ مِنْهُمْ

وَمِنْ قَوْمٍ إِذَا ذَكَرُوا عَلِيًّا

وَلَكِنِّي أُحِبُّ بِكُلِّ قَلْبِي

رَسُولَ اللَّهِ وَالصَّدِيقَ حَقًّا

وهؤلاء من الرافضة يقال لهم: المنصورية. وهم أصحاب أبي منصور الكسفي، وإنما سُمِّي الكسفي لأنه كان يتأول في قول الله عز وجل: "وإن يروا كسفا من السماء ساقطاً يقولوا سحاب مَرَكُومٌ"، فالكسفي عليٌّ وهو في السحاب.

وكان المغيرة بن سعد من السبئية الذين أحرقتهم علي رضي الله تعالى عنه بالنار، وكان يقول: لو شاء علي لأحيا عاداً وثموداً وقروناً بين ذلك كثيراً.
"وقد" خرج "علي" خالد بن عبد الله، فقتل خالد وصلبه بواسط عند قنطرة العاشر.

ومن الروافض كثير عزّة الشاعر. ولما حضرته الوفاة، دعا ابنة أخ له، فقال: يا بنت أخي، إن عمك كان يحب هذا الرجل فأحبيه - يعني علي بن أبي طالب رضي الله عنه - فقالت: نصيحتك يا عمّ مردودة عليك، أحبه والله خلاف الحب الذي أحبيته أنت؛ فقال لها: برئت منك، وأنشد يقول:

ومن قول الخوارج أجمعيناً

غداة دُعي أمير المؤمنين

برئت إلى الإله من ابن أروى

ومن عمر برئت ومن عتيق

ابن أروى: عثمان.

والروافض كلها تؤمن بالرجعة، وتقول: لا تقوم الساعة حتى يخرج المهدي، وهو محمد بن علي، فيملؤها عدلاً كما ملئت جوراً، ويحیی لهم موتاهم فيرجعون إلى الدنيا، ويكون الناس أمة واحدة. وفي ذلك يقول الشاعر:

وإلا العدل أربعة سوا

هم الأسباط ليس بهم خفاء

وسبط غيبته كربلاء

ألا إن الأئمة من فريش

علي والثلاثة من بنيه

فَسِبْطُ سِبْطِ إِيْمَانٍ وَبِرِّ

أراد بالأسباط الثلاثة: الحسن، والحسين، ومحمد بن الحنفية، وهو المهدي الذي يخرج في آخر الزمان.

ومن الروافض: السيد الحميري، وكان يلقي له وسائد في مسجد الكوفة يجلس عليها، وكان يؤمن بالرجعة، وفي ذلك يقول:

وعلله المواشيط بالخضاب

فقم بأبيك فابك على الشباب

إلى أحد إلى يوم المآب

إلى دنياهم قبل الحساب

وما أنا في النشور بذي ارتياب

حيوا من بعد دس في التراب

إذا ما المرء شاب له قذال

فقد ذهب بشاشته وأودى

فليس بعائد ما فات منه

إلى يوم يؤوب الناس فيه

أدين بأنّ ذاك كذاك حقا

لأنّ الله خبر عن رجال

وقال يرثي أحاه:

كنت ركني ومفزعني وجمالي

رهن رمس ضنك عليك مهال

سامعاً مبصراً على خير حال

بعد ما رقت العظام البوالي

عابنوا هائلاً من الأهوال

وأني برؤية المتعالي

ثم أحياهم شديد المحال

يابن أمي فدتك نفسي ومالي

ولعمري لئن تركتك ميتاً

لوشيكاً ألقاك حياً صحيحاً

قد بعثتم من القبور فأبتم

أو كسبعين وافداً مع موسى

حين راموا من خبثهم رؤية الله

فرماهم بصعقة أحرقتهم

دخل رجل من الحسبانية على المأمون، فقال: لثمامة بن أشرس كلمه؟ فقال له: ما تقول وما مذهبك؟ فقال: أقول إن الأشياء كلها على التوهم والحسبان، وإنما يُدرك منها الناس على قدر عقولهم، ولا حتى في الحقيقة. فقام إليه ثمامة، فلطمه لطمه سودت وجهه، فقال: يا أمير المؤمنين، يفعل بي مثل هذا في مجلسك! فقال له ثمامة: وما فعلت بك؟ قال: لطمتني، قال: ولعل إنما دهنتك بالبان، ثم أنشأ يقول:

والأب حواً في الحساب

بيض الطيور هو الغراب

تَ وحين جئت هو الذهاب

وعسى البهار هو السذاب

ك وأنت تحسبه الكباب

ولعل آدم أمانا

ولعل ما أبصرت من

وعساک حين قعدت قم

وعسى البنفسج زنبقاً

وعساک تأكل من خراً

ومن حديث ابن أبي شيبه أن عبد الله بن شداد قال: قال لي عبد الله بن عباس: لأخبرتك بأعجب شيء: قرع اليوم علي الباب رجل ما وضعتُ ثيابي للظهيرة، فقلت: ما أتى به في مثل هذا الحين إلا أمرٌ مهم، أدخله. فلما دخل قال: متى يُبعث ذلك الرجل؟ قلت: أي رجل؟ قال: علي بن أبي طالب؟ قلت: لا يُبعث حتى يُبعث الله من في القبور، قال: وإنك لتقول بقول هذه الجهلة! قلت: أخرجوه عني لعنه الله.

ومن الروافض الكيسانية، قلت: وهم أصحاب المختار بن أبي عبيد، ويقولون إن اسمه كيسان.

ومن الرافضة الحسينية، وهم أصحاب إبراهيم بن الاشر، وكانوا يطوفون بالليل في أزقة الكوفة وينادون: يا ثارات الحسين؛ فقيل لهم: الحسينية.

ومن الرافضة الغرابية: سميت بذلك لقولهم: علي أشبه بالنبي من الغراب بالغراب.

ومن الرافضة: الزيدية، وهم أصحاب زيد بن علي المقتول بخراسان، وهم أقل الرافضة علواً، غير أنهم يرون الخروج مع كل من خرج.

مالك بن معاوية قال: قال لي الشعبي، وذكرنا الرافضة: يا مالك، لو أردت أن يُعطوني رقابهم عبيداً وأن يَمثلوا بي ذهاباً علي أن أكذب لهم علي

علي كذبة واحدة لقبولوا، ولكني والله لا أكذب عليه أبداً، يا مالك، إن دَرَسْتُ الأهواء كلها فلم أرَ قوماً أحق من الرافضة، فلو كانوا من الدواب

لكانوا حميراً، أو كانوا من الطير لكانوا رَحماً. ثم قال: أحذرك الأهواء المضلة شرها الرافضة، فإنها يهود هذه الأمة، يُبغضون الإسلام، كما يُبغض

اليهود النصرانية، ولم يدخلوا في الإسلام رغبةً ولا رهبةً من الله، ولكن مَقْتاً لأهل الإسلام وبغياً عليهم، وقد أحرقتهم علي بن أبي طالب رضي الله عنه

بالنار، ونفاهم إلى البلدان، منهم: عبد الله بن سبأ، نفاه إلى ساباط، وعبد الله بن سبأ، نفاه إلى الجازر، وأبو الكرويس، وذلك أن محنة الرافضة محنة

اليهود، قالت اليهود: لا يكون الملك إلا في آل داود، وقالت الرافضة: لا يكون الملك إلا في آل علي بن أبي طالب، وقالت اليهود: لا يكون جهاد في

سبيل الله حتى يخرج المسيح المنتظر، ويُنادي منادٍ من السماء، وقالت الرافضة: لا جهاد في سبيل الله حتى يخرج المهدي، وينزل سبب من السماء،

واليهود يُؤخرون صلاة المغرب حتى تشتبك النجوم، وكذلك الرافضة، واليهود لا ترى الطلاق الثلاث شيئاً، وكذا الرافضة واليهود لا ترى على النساء

عدة وكذلك الرافضة، واليهود تستحل دم كل مسلم، وكذلك الرافضة، واليهود حرفوا التوراة وكذلك الرافضة حرفت القرآن، واليهود تُبغض جبريل

وتقول: هو عدونا من الملائكة، وكذلك الرافضة تقول: غلط جبريل في الوحي إلى محمد بترك علي بن أبي طالب، واليهود لا تأكل لحم الجوزور،

وكذلك الرافضة. ولليهود والنصارى فضيلة على الرافضة في خصلتين، سئل اليهود من خير أهل ملتكم؟ فقالوا: أصحاب موسى، وسئلت النصارى،

فقالوا: أصحاب عيسى، وسئلت الرافضة: من شر أهل ملتكم؟ فقالوا: أصحاب محمد، أمرهم الله بالاستغفار لهم فشتّموهم، فالسيف مسلول عليهم

إلى يوم القيامة، لا تثبت لهم قدم، ولا تقوم لهم راية، ولا تُجمع لهم كلمة، دَعَوْتُهُمْ مَدْحُورَةٌ، وكَلِمَتُهُمْ، مِخْتَلَفَةٌ، وَجَمْعُهُمْ مُفْرَقٌ، كلما أوقدوا ناراً

للحرب أطفأها الله.

وذكرت الرافضة يوماً عند الشعبي فقال: لقد بعضوا إلينا حديث علي بن أبي طالب.

وقال الشعبي: ما شَبَّهْتُ تأويلَ الروافض في القرآن إلا بتأويل رجلٍ مَضْعُوفٍ من بني مَخَزُومٍ من أهل مَكَّةَ وجدُّه قاعدًا بِنِجَارِ الكَعْبَةِ، فقال يا شعبي: ما عندك في تأويل هذا البيت؟ فإن بني تميم يعلطون فيه ويزعمون أنه إنما قيل في رجل منهم، وهو قول الشاعر:

وَمُجَاشِعٌ وَأَبُو الْفَوَارِسِ نَهْشَلُ

بَيْتًا زُرَّارَةٌ مَحْتَبٌ بِنِجَارِهِ

فقلت له: وما عندك أنت فيه؟ قال: البيت هو هذا البيت، وأشار بيده إلى الكعبة، وزرارة الحجر، زرر حول البيت؟ فقلت له: فمُجاشع؟ قال: زمزم جَشِعت بالماء؟ قلت: فأبو الفوارس؟ قال: هو أبو قبيس جبل مكة؟ قلت: فنَهْشَلُ؟ فكَّرَ فيه طويلاً ثم قال: أصبته، هو مصباح الكعبة طويل أسود، وهو النَّهْشَلُ.

قولهم في الشيعة

قال أبو عثمان عمرو بن بحر الجاحظ: أخبرني رجلٌ من رؤساء التجار قال: كان معنا في السفينة شيخٌ شرس الأخلاق، طويل الإطراق، وكان إذا ذُكر له الشيعة غَضِبَ وارتدَّ وجهه وزوى من حاجبيه، فقلت له يوماً: يرحمك الله، ما الذي تكرهه من الشيعة فإني رأيتك إذا ذُكروا غَضِبْتَ وقُبِضت؟ قال: ما أكره منهم إلا هذه الشين في أول اسمهم، فإني لم أجدها قط إلا في كل شرٍّ وشؤمٍ وشيطانٍ وشغبٍ وشقاءٍ وشنارٍ وشرٍّ وشينٍ وشوكٍ وشكوىٍ وشهوةٍ وشتمٍ وشح. قال أبو عثمان: فما ثبت لشيعة بعدها قائمة.

باب من كلام المتكلمين

دخل الموبد على هشام بن الحكم، والموبد هو عالم الفرس، فقال له: يا هشام: حول الدنيا شيء؟ قال: لا، قال: فإن أخرجت يدي فثم شيء يردها؟ قال هشام: ليس ثم شيء يردها ولا شيء تُخرج يدك فيه؛ قال: فكيف أعلم هذا؟ قال له يا موبد، أنا وأنت على طرف الدنيا فقلت لك يا موبد. إني لا أرى شيئاً، فقلت لي: ولم لا ترى؟ فقلت لك: ليس هاهنا ظلامٌ يعني، قلت لي أنت: يا هشام، إني لا أرى شيئاً، فقلت لك: ولم لا ترى؟ قلت: ليس ضياءً أنظر به، فهل تكافأت الملتان في التناقض؟ قال: نعم؛ قال: فإذا تكافأتا في التناقض لم تتكافأ في الإبطال أن ليس شيء؟ فأشار الموبد بيده أن أصبت."

قال رجلٌ لبعض ولاة بني العباس: أنا أجعل هشام بن الحكم يقول في علي رضي الله عنه إنه ظالم فقال: إن فعلت ذلك فلك كذا وكذا ثم أحضر هشام فقال له نشدتك الله أبا محمد، أما تعلم أن علياً نازع العباس عند أبي بكر؟ قال: نعم؛ قال: فمن الظالم منهما؟ فكره أن يقول: العباس، فيواقع سُخْطَ الخليفة، أو يقول: علي فينقض أصله، قال: ما منهما ظالم؟ قال: فكيف يتنازع اثنان في شيء لا يكون أحدهما ظالماً؟ قال: قد تنازع الملكان عند داود عليه السلام وما فيهما ظالم، ولكن لئيبها داود على الخطيئة، وكذلك هذان أرادا تنبيه أبي بكر من خطيئته، فأسكت الرجل، وأمر الخليفة لهشام بصلة عظيمة.

"دخل إبراهيم التَّظَامُ على أبي الهذيل العلاف وقد أسنَّ وبعده عهده بالمناظرة، وإبراهيم حدث السن، فقال: أخبرني عن قراركم: أن يكون جوهرًا مخافةً أن يكون حسماً، فهل قررتم أن لا يكون جوهرًا مخافةً أن يكون عرضاً، والعرض أضعف من الجوهر. فبصق أبو الهذيل في وجهه؟ فقال له إبراهيم: قبحك الله من شيخ! ما أضعف حُجَّتِكَ وأسفه حلمك.

قال: لقي جهنم رجلاً من اليونانيين فقال له: هل لك أن تُكَلِّمني وأكلمك عن معبودك هذا، أرايته قط؟ قال: لا؟ قال: فلمسته؟ قال: لا؛ قال: فدُفِته؟ قال: لا؛ قال: فمن أين عرفته وأنت لم تُدركه بحس من حواسك الخمس وإنما عقلك معبر عنها فلا يدرك إلا ما أوصلت إليه من جميع المعلومات. قال: فتلجج جهنم ساعة ثم استدرك فعكس المسألة عليه فقال له: ما تُقرُّ أن لك روحاً؟ قال: نعم؛ قال: فهل رأيتَه أو دُفِته أو سَمِعته أو شَمَمته أو لَمَسته؟ قال: لا؛ قال: فكيف علمت أن لك روحاً؟ فأقر له اليوناني.

باب في الحياء

قال النبي صلى الله عليه وسلم الحياء خيرٌ كلُّه. الحياء شعبة من الإيمان.
وقال عليه السلام: إنَّ الله تبارك وتعالى يحبُّ الحيَّ الحليمَ المتعففَّ، ويكره البديءَ السَّالِّ المُلْحَفَ.
وقال عَوْنُ بن عبد الله: الحياءُ والحلمُ والصَّمْتُ من الإيمان.
وقال ابن عمر: الحياء والإيمان مَقْرُونان جميعاً، فإذا رُفِعَ أحدهما ارتفع الآخر معه.
وقال: مَكْتُوبٌ في التوراة: إذا لم تَسْتَحْ فاصنع ما تَشَاء. وقال: أَحْيُوا الحياءَ مُجَالِسَةَ من يُسْتَحْيَا منه.

وذكر أعرابيُّ رجلاً حياً فقال: لا تراه الدهرَ إلا وكأَنه لا غنىَ به عنك وإن كنتَ إليه أحوَجَ، وإن أذنبتَ غَفَرَ وكأَنه المذنب، وإن أسأتَ إليه أحسنَ وكأَنه المُسيء.
ليلي الأَحْيِيَّة:

وأشجعُّ من لَيْثٍ بخِفَانِ خادِرِ

فتى هو أحيًا من فتاة حبيبة

ولابن قيس أيضاً:

وخرُساً عن الفحشاءِ عند التهاجرِ

تخالهم للحلم صمًا عن الخنا

وعند الحفاظ كالليوث الخوادرِ

ومرضى إذا لوقوا حياءً وعفة

وقال الشعبي: تعاشر الناس فيما بينهم زماناً بالدين والتقوى، ثم رُفِعَ ذلك فتعاشروا بالحياء والتدبُّم، ثم رُفِعَ ذلك، فما يتعاشر الناس إلا بالرغبة والرَّهبة، وسيجيء ما هو شر من ذلك.
وقيل: الحياء يزيد في الثبيل.
ولبعضهم:

ولا الدنيا إذا ذهب الحياءُ

فلا وأبيك ما في العيش خيرٌ

وقال آخر:

تقلَّب في الأمور كما يشاءُ

إذا رزق الفتى وجهاً وقاحاً

تعالجه به فيه غناء

ولم يكُ للدَّواءِ ولا لشيءِ

وبين رُكُوبها إلا الحياءُ

ورث قبيحة ما حالَ بيني

وقال عليُّ بن أبي طالب كرم الله وجهه: قرنت الهيبة بالحيية، والحياء بالحِرمان. وقد قيل:

إنَّ لحياءَ مع الحرمانِ مقرونُ

ارفع حياءك فيما جئتَ طالبه

وفي المثل: كثرة الحياء من التخنت.

قال الحسن: من استتر بالحياء لبس الجهل سرباله، فقطَّعوا سراويل الحياء، فإنه من رَقَّ وجهه رَقَّ علمه.
وصَفَ رجل الحياء عند الأحنف فقال: إن الحياء " كَيْتُّم " لمقدار من المقادير، فما زاد على ذلك فسَمَّه بما أحببت.
وقال بعضهم:

كذلك قال أميرُ المؤمنين علي

إن الحياء مع الحرمان مُقْتَرَن

واعلم بأن من التخنيث أكثره

وللشماخ:

أجامل أقواماً حياءً وقد أرى

ولابن أبي حازم:

وإني ليتنيني عن الجهل والخنا
حياءً وإسلاماً وتقوى وأنني كريم

وقال آخر:

إذا حُرِمَ المرءُ الحياءَ فإنه

له قِحةٌ في كل أمر وسره

يرى الشتمَ مدحاً والدناءة رِفعة

فرج الفتى ما دام حياً فإنه

فارفعه في طلب الحاجات والأمل

صدورهم بادٍ عليّ مراضها

وعن شتم ذي القربى خلائق أربع
ومثلي قد يضرُّ وينفع

بكل قبيح كان منه جديرٌ

مُباحٌ وجدواه جفاً وغرور

وللسَّمع منه في العِظات نُفور

إلى خيرِ حالات المُنيب يصير "

باب جامع الآداب

أدب الله لنبيه صلى الله عليه وسلم

قال أبو عمر أحمد بن محمد: أول ما تبدأ أدب النبي صلى الله عليه وسلم، ثم أدبه صلى الله عليه وسلم لأمته، ثم الحكماء والعلماء، وقد أدب الله نبيه بأحسن الآداب كلها، فقال له: "وَلَا تَجْعَلْ يَدَكَ مَغْلُولَةً إِلَى عُنُقِكَ وَلَا تَبْسُطْهَا كُلَّ الْبَسْطِ فَتَقْعُدَ مَلُومًا مَحْسُورًا". فنهاه عن التقتير كما نهاه عن التبذير، وأمره بتوسط الحالين، كما قال عز وجل: "وَالَّذِينَ إِذَا أَنْفَقُوا لَمْ يُسْرِفُوا وَلَمْ يَقْتُرُوا وَكَانَ بَيْنَ ذَلِكَ قَوَامًا"، وقد جمع الله "تبارك و" تعالى لنبيه صلى الله عليه وسلم جوامع الكلم في كتابه المحكم، ونظم له مكارم الأخلاق كلها في ثلاث كلمات منه، فقال: "خُذِ الْعَفْوَ وَأْمُرْ بِالْعُرْفِ وَأَعْرِضْ عَنِ الْجَاهِلِينَ". ففي أخذ اللغو صلة من قطعها، والصفح عمن ظلمه؛ وفي الأمر بالمعروف تقوى الله، وغض الطرف عن المحارم، وصون اللسان عن الكذب؛ وفي الإعراض عن الجاهلين تزيه النفس عن ممراة السفه، ومنازعة اللجوج. ثم أمره تبارك وتعالى فيما أدبه باللين في عريكته والرفق بأمته فقال: "واخفص جناحك لمن اتبعك من المؤمنين". وقال: "ولو كنت فظا غليظ القلب لانفضوا من حولك". وقال تبارك وتعالى: "لا تستوي الحسنة ولا السيئة ادفع بالتي هي أحسن فإذا الذي بينك وبينه عداوة كأنه ولي حميم. وما يلقاها إلا الذين صبروا وما يلقاها إلا ذو حظ عظيم". فلما وعى عن الله عز وجل وكملت فيه هذه الآداب، قال الله تبارك وتعالى: "لقد جاءكم رسول من أنفسكم عزيز عليكم ما عنتم حريص عليكم بالمؤمنين رؤوف رحيم. فإن تولوا فقل حسبي الله لا إله إلا هو عليه توكلت عليه وهو رب العرش العظيم".

باب أدب النبي لأمة صلى الله عليه وسلم لأمته

قال النبي صلى الله عليه وسلم فيما أدب به أمة وحضها عليه من مكارم الأخلاق وجميل المعاشرة وإصلاح ذات البين وصله الأرحام: أوصاني ربي بتسع "وأنا" أوصيكم بها: أوصاني بالإخلاص في السر والعلاية، والعدل في الرضا والغضب، والقصد في الغنى والفقر، وأن أعفو عمن ظلمني، وأعطي من حرمني، وأصل من قطعني، وأن يكون صمتي فكراً، ونطقي ذكراً، ونظري عبراً.

وقد قال صلى الله عليه وسلم: نَهَيْتُكُمْ عَنْ قِيلٍ وَقَالَ وَإِضَاعَةُ الْمَالِ وَكَثْرَةُ السُّؤَالِ.

وقد قال صلى الله عليه وسلم: لَا تَقْعُدُوا عَلَى ظُهُورِ الطُّرُقِ، فَإِنَّ أَيْتِمَ فَعُضُوا الْأَبْصَارَ، وَأَفْشُوا السَّلَامَ، وَاهْدُوا الضَّالَّ، وَأَعِينُوا الضَّعِيفَ.
وقال صلى الله عليه وسلم: أَوْكُوا السَّقَاءَ، وَاكْفُتُوا الْإِنَاءَ، وَأَغْلِقُوا الْأَبْوَابَ، وَأَطْفِنُوا الْمِصْبَاحَ، فَإِنَّ الشَّيْطَانَ لَا يَفْتَحُ غَلْقًا، وَلَا يَجْلُ وَكَاءً، وَلَا يَكْشِفُ الْإِنَاءَ.

وقال صلى الله عليه وسلم: أَلَا أَنْبِئُكُمْ بِشَرِّ النَّاسِ؟ قَالُوا: بَلَى يَا رَسُولَ اللَّهِ؛ قَالَ: مَنْ أَكَلَ وَحَدَهَ، وَمَنَعَ رِفْدَهَ، وَجَلَدَ عَبْدَهَ. ثُمَّ قَالَ: أَلَا أَنْبِئُكُمْ بِشَرِّ مَنْ ذَلِكَ؟ قَالُوا: بَلَى يَا رَسُولَ اللَّهِ، قَالَ: "مَنْ لَا يُقِيلُ عِزَّةَ وَلَا يَقْبَلُ مَعْذِرَةً ثُمَّ قَالَ؛ أَلَا أَنْبِئُكُمْ بِشَرِّ مَنْ ذَلِكَ؟ قَالُوا بَلَى يَا رَسُولَ اللَّهِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ" قَالَ: مَنْ يُبْعِضُ النَّاسَ وَيُبْغِضُونَه.

وقال: حَصَّنُوا أَمْوَالَكُمْ بِالزَّكَاةِ، وَدَاوُوا مَرْضَاكُمْ بِالصَّدَقَةِ، وَاسْتَقْبِلُوا الْبَلَاءَ بِالدُّعَاءِ وَقَالَ: مَا قَلَّ وَكَفَى خَيْرٌ مِمَّا كَثُرَ وَالْهَى.

وقال المسلمون تتكافأ دماؤهم، ويسعى بذمتهم أدناهم، وهم يد على من سواهم.

وقال: الْيَدُ الْعُلْيَا خَيْرٌ مِنَ الْيَدِ السُّفْلَى.

"وقال": وَأَبْدَأْ بِمَنْ تَعُولُ.

وقال: لَا تَجُنَّ يَمِينُكَ عَلَى شِمَالِكَ، وَلَا يَلْدَغِ الْمُؤْمِنُ مِنْ جِوَارِحِ مَرَّتَيْنِ.

وقال: الْمَرْءُ كَثِيرٌ بِأَخِيهِ.

وقال: أَفْضَلُوا بَيْنَ حَدِيثِكُمْ بِالِاسْتِغْفَارِ، وَاسْتَعِينُوا عَلَى قِضَاءِ حَوَائِجِكُمْ بِالْكَتْمَانِ.

وقال: أَفْضَلُ الْأَصْحَابِ مَنْ إِذَا ذَكَرْتَ أَعَانَكَ، وَإِذَا نَسِيتَ ذَكَرَكَ.

وقال: لَا يُؤْمِ ذُو سُلْطَانٍ فِي سُلْطَانِهِ، وَلَا يُجْلِسُ عَلَى تَكْرِمَتِهِ إِلَّا بِإِذْنِهِ.

وقال صلى الله عليه وسلم: يَقُولُ ابْنُ آدَمَ مَالِي مَالِي، وَإِنَّمَا لَهُ مِنْ مَالِهِ مَا أَكَلَ فَأَفْنَى، أَوْ لَبَسَ فَأَبْلَى، أَوْ وَهَبَ فَأَمْضَى.

وقال: سَتَّحِرْصُونَ عَلَى الْإِمَارَةِ، فَنِعِمَّتِ الْمَرْضُوعَةُ وَبَسَّتِ الْفَاطِمَةُ.

وقال: لَا يَحْكُمُ الْحَاكِمُ بَيْنَ اثْنَيْنِ وَهُوَ غَضْبَانٌ.

وقال: لَوْ تَكَاشَفْتُمْ مَا تَدَافَنْتُمْ، وَمَا هَلَكَ أَمْرٌ عَرَفَ قَدْرَه.

وقال: النَّاسُ كَأَيْلٍ مَائَةٍ لَا تَكَادُ تَجِدُ فِيهَا رَاحِلَةً وَاحِدَةً، وَالنَّاسُ كُلُّهُمْ سِوَاءُ كَأَسْنَانِ الْمَشْطِ.

وقال: رَحِمَ اللَّهُ عَبْدًا قَالَ خَيْرًا فَعَنِمَ أَوْ سَكَتَ فَسَلِمَ.

وقال: خَيْرُ الْمَالِ سِكَّةٌ مَأْبُورَةٌ، وَمُهْرَةٌ مَأْمُورَةٌ، وَخَيْرُ الْمَالِ عَيْنٌ سَاهِرَةٌ لِعَيْنِ نَائِمَةٍ.

وقال فِي إِثْنَاتِ الْخَيْلِ: بَطَوْنَهَا كَنْزٌ وَظُهُورُهَا حِرْزٌ.

وقال: مَا أَمْلَقَ تَاجِرٌ صَدُوقًا، وَمَا أَقْفَرُ بَيْتٌ فِيهِ خَلٌّ.

وقال: قَيِّدُوا الْعِلْمَ بِالْكِتَابَةِ.

وقال: زُرْ غِيًّا تَزِدُّ حُبًّا.

وقال: عَلِقْ سَوْطَكَ حَيْثُ يَرَاهُ أَهْلُكَ.

باب في آداب الحكماء والعلماء

فضيلة الأدب أوصى بعض الحكماء بنبيه فقال: الأدب أكرم الجواهر طبيعةً، وأنفسها قيمةً، يرفع الأحساب الوضيعة، ويفيد الرغائب الجليلة، ويعز بلا
عشيرة، ويكثر الأنصار بغير رزية، فالبسوه حلة، وتزيئوه حلية، يؤنسكم في الوحشة، ويجمع لكم القلوب المختلفة.

ومن كلام علي عليه السلام: فيما يُروى عنه أنه قال: مَنْ حَلَمَ سَادَ، وَمَنْ سَادَ اسْتَفَادَ، وَمَنْ اسْتَحْيَا حُرِمَ، وَمَنْ هَابَ خَابَ، وَمَنْ طَلَبَ الرَّأْسَةَ صَبِرَ عَلَى السِّيَاسَةِ؛ وَمَنْ أَبْصَرَ عَيْبَ نَفْسِهِ عَمِيَ عَنْ عَيْبِ غَيْرِهِ، وَمَنْ سَلَّ سَيْفَ الْبَغْيِ قَتَلَ بِهِ، وَمَنْ احْتَقَرَ لِأَخِيهِ بَثْرًا وَقَعَ فِيهَا، وَمَنْ نَسَى زَلَّتْهُ اسْتِعْظَمَ زَلَّةَ غَيْرِهِ، وَمَنْ هَتَكَ حِجَابَ غَيْرِهِ أَهْتَكَتْ عَوْرَاتُ بَيْتِهِ، وَمَنْ كَابَرَ فِي الْأُمُورِ عَطَبَ، وَمَنْ اقْتَحَمَ اللَّحْجَ غَرِقَ، وَمَنْ أَعْجَبَ بِرَأْيِهِ ضَلَّ، وَمَنْ اسْتَعْنَى بِعَقْلِهِ زَلَّ، وَمَنْ تَجَبَّرَ عَلَى النَّاسِ ذَلَّ، وَمَنْ تَعَمَّقَ فِي الْعَمَلِ مَلَّ؛ وَمَنْ صَاحَبَ الْأَنْذَالَ حُقِّرَ، وَمَنْ جَالَسَ الْعُلَمَاءَ وَقَرَ؛ وَمَنْ دَخَلَ مَدَاحِلَ السُّوءِ أَثْهَمَ؛ وَمَنْ حَسَّنَ خُلُقَهُ، سَهَّلَتْ لَهُ طُرُقَهُ؛ وَمَنْ حَسَّنَ كَلَامَهُ، كَانَتْ الْهَيْبَةُ أَمَامَهُ؛ وَمَنْ خَشِيَ اللَّهَ فَازَ؛ وَمَنْ اسْتَقَادَ الْجَهْلَ، تَرَكَ طَرِيقَ الْعَدْلِ؛ وَمَنْ عَرَفَ أَجْلَهُ، قَصَرَ أَمَلَهُ؛ ثُمَّ أَنْشَأَ يَقُولُ:

وَاسْتُرُّ وَغَطَّ عَلَى ذُنُوبِهِ

وَلِلزَّمانِ عَلَى خُطُوبِهِ

وَكَلَّ الظُّلُومَ إِلَى حَسْبِيهِ

الْبَسُّ أَخَاكَ عَلَى عُيُوبِهِ

وَاصْبِرْ عَلَى بَهْتِ السَّقِيهِ

وَدَعِ الْجَوَابَ تَفْضُلًا

وقال شبيب بن شيبه: اطلبوا الأدب فإنه مادة للعقل؛ ودليل على المروءة، وصاحب في العربة، ومؤنس في الوحشة، وحلية في المجلس، "ويجمع لكم القلوب المختلفة".

وقال عبد الملك بن مروان لبنيه: عليكم بطلب الأدب فإنكم إن احتجتم إليه كان لكم مالا، وإن استغنيتم عنه كان لكم جمالا.

وقال بعض الحكماء: اعلم أن جاهاً بالمال إنما يضحك ما صحبك المال، وجاهاً بالأدب غير زائل عنك.

وقال ابن المقفع: إذا أكرمك الناس مالاً أو لسطاناً فلا يُعجبك ذلك، فإن الكرامة تزول بزواهما، ولكن يُعجبك إذا أكرموك لدين أو أدب.

وقال الأحنف بن قيس: رأس الأدب المنطق، ولا خير في قول إلا بفعل، ولا في مال إلا بجود، ولا في صديق إلا بوفاء، ولا في فقه إلا بورع، ولا في صدق إلا بنيه.

وقال مصقلة الزبيري: لا يستغني الأديب عن ثلاثة واثن؛ فأما الثلاثة: فالبلاغة والفصاحة وحسن العبارة، وأما الاثنان، فالعلم بالأثر والحفظ للخبر. وقالوا: الحسب محتاج إلى الأدب، والمعرفة محتاجة إلى التجربة.

وقال بزرجمهر: ما ورث الآباء الأبناء شيئاً خيراً من الأدب، لأن بالأدب يكسبون المال، وبالجهل يُتلفونه وقال الفضيل بن عياض: رأس الأدب معرفة الرجل قدره.

وقالوا: حُسن الخلق خير قرين، والأدب خير ميراث، والتوفيق خير قائد.

وقال سفيان الثوري: مَنْ عَرَفَ نَفْسَهُ لَمْ يَضُرَّهُ مَا قَالَ النَّاسُ فِيهِ.

وقال أنو شروان للموبد، وهو العالم "بالفارسية": ما كان أفضل الأشياء؟ قال: الطبيعة النقية تكتفي من الأدب بالرائحة، ومن العلم بالإشارة، وكلما يموت البدر في السباخ، كذلك تموت الحكمة بموت الطبيعة، قال له: صدقت، ونحن لهذا قلدناك ما قلدناك.

وقيل لارذشير: الأدب أغلب أم الطبيعة؟ فقال: الأدب زيادة في العقل، ومنبهة للرأي، ومكسبة للصواب، والطبيعة أملك، لأن بها الاعتقاد، ونماء الغراسة، وتمام الغذاء.

وقيل لبعض الحكماء: أي أعون للعقل بعد الطبيعة المولودة؟ قال: أدب مكتسب.

وقالوا: الأدب أدبان: أدب العريزة وهو الأصل، وأدب الرواية وهو الفرع، ولا يتفرع شيء إلا عن أصله، ولا ينمي الأصل إلا باتصال المادة. وقال الشاعر:

وَلَمْ أَرِ بَدْءَ الْعِلْمِ إِلَّا تَعَلُّمًا

"وَلَمْ أَرِ فَرْعًا طَالَ إِلَّا بِأَصْلِهِ"

وقال حبيب:

وما السيفُ إلا زُبْرَةٌ لو تركته

على الحالة الأولى لما كان يَقْطَعُ

وقال آخر:

ما وهب الله لامرئ هبةً

أفضل من عقله ومن أدبه

هُمَا حياةُ الفتى فإن فَقَّداً

فإن فَقَدَ الحياةَ أحسنُ به

وقال ابن عباس: كَفَّاكَ من عِلْمِ الدِّينِ أن تَعْرِفَ ما لا يَسَعُكَ جِهْلُهُ، وكفَّاكَ من عِلْمِ الأَدبِ أن تَرَوِيَ الشَّاهِدَ والمِثَالَ.

قال ابن قتيبة: إذا أردت أن تكون "علماً فاطلب فتاً واحداً؛ وإذا أردت أن تكون أديباً فتنقن في العلوم.

وقالت الحكماء: إذا كان الرجل طاهر الأثواب، كثير الآداب، حسن المذهب، تأدب بأدبه وصلح لصلاحه جميع أهله وولده. قال الشاعر:

رأيتُ صلاحَ المرءِ يصلحُ أهله

ويُفسدُهُم ربُّ الفسادِ إذا فسَدُ

يُعظَّمُ في الدنيا لفضلِ صلاحه

وحَفَظَ بعد الموتِ في الأهلِ والولدِ

وسئل ديوجانس: أي الخصال أحمد عاقبة؟ قال: الإيمان بالله عز وجل، وبرّ الوالدين، ومحبة العلماء، وقبول الأدب.

رؤي عن رسول الله صلى الله عليه وسلم أنه قال: مَنْ لا أدب له لا عقل له.

وقالوا: الأدب يزيد العاقل فضلاً ونباهة، ويُفيدة رقةً وظرفاً.

في رقة الأدب قال أبو بكر بن أبي شيبة: قيل للعباس بن عبد المطلب: أنت أكبر أم رسول الله صلى الله عليه وسلم؟ قال: هو أكبر مني وأنا أسن منه.

وقيل لأبي وائل: أيكما أكبر، أنت أم الربيع بن خثيم؟ قال: أنا أكبر منه سنًا، وهو أكبر مني عقلاً.

وقال أبان بن عثمان لطويس المعنى: أنا أكبر أم أنت؟ قال: جعلتُ فداك، لقد شهدتُ زفاف أمك المباركة "على أبيك الطيب. انظر إلى حدقه ورقة

أدبه كيف لم يُقل أمك الطيبة إلى أبيك المبارك".

وقيل لعمر بن ذر: كيف برّ ابنك بك؟ قال: ما مشيتُ نهاراً قطُّ إلا مشى خلفي، ولا ليلاً إلا مشى أمامي، ولا رقى عليّ وأنا تحته.

ومن حديث عائشة، قالت: ما رأيت رسول الله صلى الله عليه وسلم يُججل أحداً تبيجله لعمه العباس.

وكان عمر وعثمان إذا لقيا العباس نزلا إعظاماً له، إذا كانا راكبين.

الرياشي عن الأصمعيّ قال: قال هارون الرشيد لعبد الملك بن صالح: هذا منزلك؟ وقد تقدم هذا الخبر في الخبر الذي فيه مخاطبة الملوك، وكذلك قول

الحجاج للشعيبي: كم عطاؤك؟ ومن قولنا في رقة الأدب:

أدبٌ كمثل الماء لو أفرغته

يوماً لسال كما يسيل الماء

أحمد بن يحيى طاهر قال: قلت لعلي بن يحيى، ما رأيتُ أكملَ أدبا منك؛ قال: كيف لو رأيتُ إسحاق بن إبراهيم؟ فقلتُ ذلك لإسحاق بن إبراهيم؛

قال: كيف لو رأيتُ إبراهيم بن المهدي؟ فقلتُ ذلك لإبراهيم؛ فقال: كيف لو رأيتُ جعفر بن يحيى؟

وقال عبد العزيز بن عمر بن عبد العزيز: قال لي رجاء بن حيوة: ما رأيتُ أكرمَ أدباً ولا أكرمَ عشرةً من أبيك، سمّرتُ عنده ليلة، فبينما نحن كذلك إذ

عشى المصباحُ ونام الغلام، فقلتُ: يا أمير المؤمنين، قد عشى المصباحُ ونام الغلام، فلو أذنت لي أصلحتُهُ، فقال: إنه ليس من مروعة الرجل أن يُستخدم

ضيّفه، ثم حطّ رداءه عن منكبَيْه، وقام إلى الدبّة فصبّ من الزيت في المصباح وأشخص الفتيلة، ثم رجع "وأخذ رداءه وقال: قمت وأنا عمر ورجعت

وأنا عمر.

العتي عن أبيه قال: صوت رجل عند عمر بن الخطاب في المسجد، فلما كانت الصلاة قال عمر: عزمتُ على صاحب الصوت إلا قم فتوضأ؟ فلم

يُقم أحدٌ. فقال جرير بن عبد الله: يا أمير المؤمنين، اعزم علينا كلنا أن نقوم فتوضأ؟ قال: صدقت، ولا علمتُك إلا سيّدا في الجاهليّة، ففيها في

الإسلام، فوموا فتوضؤوا.

الرياشي عن الأصمعي قال: حدّثني عثمان الشَّحَّام، قال: قلتُ للحسن: يا أبا سعيد، قال: لبيك؛ قلت: أتقول لي لبيك؟ قال: إني أقولها لخادمي. وقال الشاعر:

وادي أُشَيِّ وَفَتِيانٌ به هُضْمٌ
وفي الرِّحالِ إذا جَرَبْتَهُمْ خَدَمٌ
إلا يَزِيدُهُمْ حُبًّا إِيَّاهُمْ

يا حَبِذا حينَ تَمسى الرِّيحُ بارِدةً
مُخَدِّمُونَ كِرامًا في مجالسِهِمْ
وما أَصاحِبُ من قَوْمٍ فأذْكَرُهُمْ

الأدب في الحديث والاستماع وقالت الحكماء: رأسُ الأدب كلُّه حُسْنُ الفَهْمِ والفَهْمُ والإِصْغاءُ للمتكلِّم. وذكر الشَّعْبِيُّ قوماً فقال: ما رأيتُ مثلَهُمْ أَسَدًا تَنابَوا في مَجْلِس، ولا أَحْسَنَ فهِما من مُحدِّث. وقال الشَّعْبِيُّ، فيما يَصِفُ به عبدُ الملكِ بنِ مروان: والله ما علَّمته إلا آخذاً بثلاث، تاركاً لثلاث آخذاً بحُسنِ الحديثِ إذا حدث، وُبَحْسَنِ الاستماعِ إذا حَدَّث، وبأيسرِ المَؤونة إذا خولف، تاركاً لمجاوبة اللثيم، وممارة السَّفيهِ، ومنازعة اللجوج. وقال بعض الحكماء لابنه: يا بُني، تعلِّم حُسْنَ الاستماعِ كما تتعلِّم حُسْنَ الحديث، وليعلم الناسُ أنك أحرصُ على أن تسمع منك على أن تقول، فاحذر أن تُسرِعَ في القَولِ فيما تُحِبُّ عنه الرجوعُ بالفِعلِ، حتَّى يعلم الناسُ أنك على فِعلٍ ما لم تُقلْ منك إلى قَولٍ ما لم تُفَعَل. وقالوا: من حُسِنَ الأدبُ أن لا تُغالبَ أحداً على كلامه، وإذا سئِلَ غيرُك فلا تُجِبْ عنه، وإذا حَدَّثَ بحديثٍ فلا تُنازعه إياه، ولا تُفَتِّحْ عليه فيه، ولا تُره أنك تعلمه، وإذا كلَّمت صاحِبَك فأخذته حُجَّتَكَ فحسِّنْ مخرج ذلك عليه، ولا تُظهِرِ الظُّفرَ به، وتعلِّم حُسْنَ الاستماعِ، كما تعلم حُسْنَ الكلام. وقال الحسنُ البَصْرِيُّ: حَدَّثُوا الناسَ ما أقبلوا عليكم بوجوههم. وقال أبو عَبادٍ "الكاتب": إذا أنكر المتكلِّمُ عينَ السامعِ فَلْيَسأَلْهُ عن مَقاطعِ حديثه، والسببُ الذي أُجْرِي ذلك له؛ فإن وَجده يقف على الحقِّ أتم له الحديث، وإلا قطعهُ عنه وحرَّمهُ مُؤانسته، وعَرَّفَهُ ما في سُوءِ الاستماعِ من الفُسْولة والحِرمانِ للفائدة. الأدب في المجالسة ومن حديث أبي بكر بن أبي شَيْبَةَ: أن النبي صلى الله عليه وسلم قال: لا يَقيمُ الرَّجُلُ "للرجل" عن مجلسه ولكن ليُوسع له. وكان عبد الله بن عمر إذا قام له الرجلُ عن مجلسه لم يجلس فيه؛ وقال: لا يَقيمُ أحدٌ لأحدٍ عن مجلسه، ولكن أفسَحوا يَفْسَحِ اللهُ لكم. أبو أمامة قال: خرج إلينا النبي صلى الله عليه وسلم فقمنا إليه؛ فقال: لا تقوموا كما يقوم العجم لعُظَمائِها. فما قام إليه أحدٌ مِنَّا بعد ذلك. ومن حديث ابن عمر: أن النبي صلى الله عليه وسلم قال: إن خرجتُ عليكم وأنتم جُلوسٌ فلا يقومنَّ أحدٌ منكم في وجهي، وإن قمت فكما أنتم، وإن جلست فكما أنتم، فإن ذلك خلق من أخلاق المشركين. وقال صلى الله عليه وسلم: الرَّجُلُ أحقُّ بِصَدْرِ دابَّتِهِ وَصَدْرِ مَجْلِسِهِ وَصَدْرِ فِراشِهِ، ومن قام من مجلسه وَرَجَعَ إليه فهو أحقُّ به. وقال صلى الله عليه وسلم: إذا جلس إليك أحدٌ فلا تَقمَ حتَّى تستأذنه وجلس رجلٌ إلى الحسن بن عليٍّ عليهما الرِّضوانُ، فقال له: إنك جلستَ إلينا، ونحن نريد القيامَ؛ أفتأذَنُ؟ وقال سعيدُ بنُ العاصِ: ما مددتُ رِجْلِي قَطُّ بين يَدَي جليسي، ولا قمتُ "عن مجلسي" حتَّى يقوم.

وقال إبراهيمُ النَّخَعِيُّ: إذا دخل أحدُكم بيتاً فَلْيَجلس حيثُ أجلسه أهله.

وطرَحَ أبو قلابَةَ لِرجُلٍ جَلَسَ إليه وسادَةٌ فرَدَّها؟ فقال: أما سَمِعْتَ الحديثَ؟ لا تُردِّدْ على أحبيكَ كرامتَهُ؟ وقال عليٌّ بن أبي طالب رضوان الله عليه: لا يأبي الكرامةَ إلا حِمَار.

وقال سَعِيدُ بنِ العاصِ: جليسي عَلَيٌّ ثلاثٌ: إذا دنا رَحَبْتُ به، وإذا جَلَسَ وَسَعْتُ له، وإذا حَدَّثَ أَقبَلْتُ عليه. وقال: إني لأكره أن يمرَّ الذُّبابُ بجليسي مخافةً أن يُؤذِيه.

الهيثم بن عدي "عن عامر الشَّعْبِيِّ" قال: دَخَلَ الأحنفُ بنُ قيسٍ على مُعاوية فأشار إليه إلى وسادَةٍ فلم يجلس عليها، فقال له: ما منعك يا أحنف أن تجلسَ على الوسادَةِ؟ فقال: يا أمير المؤمنين، إنَّ فيما أوصى به قيسُ بن عاصمٍ ولدَه أن قال: لا تُسَعِ للسلطانِ حتَّى يَمَلِّكَ، ولا تُقَطِّعه حتَّى يَنسَاكَ، ولا

تَجَلِسُ لَهُ عَلَى فِرَاشٍ وَلَا وَسَادَةَ، وَاجْعَلْ بَيْنَكَ وَبَيْنَهُ مَجْلِسَ رَجُلٍ أَوْ رَجُلَيْنِ.
 وَقَالَ الْحَسَنُ: "مُجَالِسَةُ الرَّجُلِ مِنْ غَيْرِ أَنْ يُسْأَلَ عَنْ اسْمِهِ وَاسْمِ أَبِيهِ مُجَالِسَةُ النُّوْكَى.
 وَلِذَلِكَ قَالَ شَيْبَانُ بْنُ شَيْبَةَ لِأَبِي جَعْفَرٍ، وَلَقِيَهُ فِي الطَّوْافِ وَهُوَ لَا يَعْرِفُهُ، فَأَعْجَبَهُ حَسَنُ هَيْئَتِهِ وَسَمَتَهُ: أَصْلَحَكَ اللَّهُ، إِنِّي أَحْبَبْتُ الْمَعْرِفَةَ، وَأَجَلَّكَ عَنِ الْمَسْأَلَةِ؟ فَقَالَ: أَنَا فُلَانُ بْنُ فُلَانٍ.

قال زياد: ما أتيت مجلساً قطّ إلا تركتُ منه ما لو جلستُ فيه لكان لي؛ وتَرَكْتُ ما لي أَحَبُّ مِنْ أَخَذِ مَا لَيْسَ لِي.
 وقال: يَاكَ وَصَدُورِ الْمَجَالِسِ وَإِنْ صَدَّرَكَ صَاحِبُهَا، فَإِنَّمَا مَجَالِسُ قُلُوعَةٍ.

وقال " الشعبي ": لأن أدعي من بُعد إلى قُرب أحبُّ إليَّ من أقصى من قُرب إلى بعد.
 وذكروا أنه كان يوماً أبو السَّمْرَاءِ عِنْدَ عَبْدِ اللَّهِ بْنِ طَاهِرٍ، وَعِنْدَهُ إِسْحَاقُ بْنُ إِبْرَاهِيمَ، فَاسْتَدْعَى عَبْدَ اللَّهِ إِسْحَاقَ فَنَاجَاهُ بِشَيْءٍ، وَطَالَتِ النَّجْوَى بَيْنَهُمَا. قَالَ: فَاعْتَرَفْتَنِي حَيْرَةً فِيمَا بَيْنَ الْقُعُودِ عَلَى مَا هُمَا عَلَيْهِ وَالْقِيَامِ، حَتَّى انْقَطَعَ مَا بَيْنَهُمَا وَتَنَحَّى إِسْحَاقُ إِلَى مَوْقِفِهِ، وَنَظَرَ عَبْدَ اللَّهِ إِلَيَّ، " يَا أَبَا السَّمْرَاءِ "

**فَانزُحْ بِسَمْعِكَ تَجْهَلُ مَا يَقُولَانِ
 عَلَى تَنَاجِيهِمَا بِالْمَجْلِسِ الدَّانِي**

**إِذَا النَّجِيانُ سَرَّأَ عَنْكَ أَمْرَهُمَا
 وَلَا تَحْمَلُهُمَا ثِقَلًا لَخَوْفَهُمَا**

فَمَا رَأَيْتُ أَكْرَمَ مِنْهُ، وَلَا أَرْفَقَ أَدْبًا، تَرَكَ مُطَالِبَتِي فِي هَفْوَتِي بِحَقِّ الْأَمْرَاءِ، وَأَدْبِي أَدَبَ النُّظْرَاءِ.
 وَقَالَ النَّبِيُّ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ: إِنَّمَا أَحَدُكُمْ مَرَاةَ أَخِيهِ، فَإِذَا رَأَى عَلَيْهِ أَدَى فِلَيْمِطِهِ عَنْهُ، وَإِذَا أَحَدُكُمْ عَلَى أَخِيهِ شَيْئًا فَلْيَقُلْ: لَا بَكَ السُّوءُ، وَصَرَفَ اللَّهُ عَنْكَ السُّوءُ.

وقالوا: إِذَا اجْتَمَعَتْ حُرْمَتَانِ، أَسْقَطْتَ الْكِبْرِيَّ الصُّغْرَى: وَقَالَ الْمُهَلَّبُ بْنُ أَبِي صَفْرَةَ: الْعَيْشُ كُلُّهُ فِي الْجَلِيسِ الْمُنْتَعِ.
 الْأَدَبُ فِي الْمَمَاشَاةِ وَجَهْ هِشَامُ بْنُ عَبْدِ الْمَلِكِ ابْنَهُ عَلَى الصَّانِفَةِ، وَوَجَّهَ مَعَهُ ابْنَ أَخِيهِ، وَأَوْصَى كُلَّ وَاحِدٍ مِنْهُمَا بِصَاحِبِهِ؛ فَلَمَّا قَدَمَا عَلَيْهِ، قَالَ لِابْنِ أَخِيهِ: كَيْفَ رَأَيْتَ ابْنَ عَمِّكَ؟ فَقَالَ: إِنْ شِئْتَ أَجَمَلْتُ، وَإِنْ شِئْتَ فَسَرَّرْتُ؛ قَالَ: بَلْ أَجْمَلُ؛ قَالَ: عَرَضْتُ بَيْنَنَا جَادَةً فَتَرَكَهَا كُلُّ وَاحِدٍ مَتًّا لِصَاحِبِهِ فَمَا رَكِبْنَاهَا حَتَّى رَجَعْنَا إِلَيْكَ.

وقال يحيى بن أكثم: مَا شِئْتُ الْمَأْمُونُ يَوْمًا مِنَ الْأَيَّامِ فِي بُسْتَانَ مُؤَنَسَةَ بِنْتِ الْمَهْدِيِّ، فَكُنْتُ مِنَ الْجَانِبِ الَّذِي يَسْتَرُّهُ مِنَ الشَّمْسِ، فَلَمَّا انْتَهَى إِلَى آخِرِهِ وَأَرَادَ الرَّجُوعَ، وَأَرَدْتُ أَنْ أَدُورَ إِلَى الْجَانِبِ الَّذِي يَسْتَرُّهُ مِنَ الشَّمْسِ، فَقَالَ: لَا تَفْعَلْ، وَلَكِنْ كُنْ بِجَانِبِكَ حَتَّى أَسْتَرَّكَ كَمَا سَتَّرْتَنِي، فَقُلْتُ: يَا أَمِيرَ الْمُؤْمِنِينَ، لَوْ قَدَرْتُ أَنْ أَقْبِكَ حَرَّ النَّارِ لَفَعَلْتُ فَكَيْفَ الشَّمْسُ؟ فَقَالَ: لَيْسَ هَذَا مِنْ كَرَمِ الصُّحْبَةِ، وَمَشَى سَاتِرًا لِي مِنَ الشَّمْسِ كَمَا سَتَّرْتَهُ.
 وَقِيلَ لِعُمَرَ بْنِ ذَرٍّ: كَيْفَ بَرُّ ابْنِكَ بِكَ؟ قَالَ: مَا مَشَيْتُ نَهَارًا قَطُّ إِلَّا مَشَى خَلْفِي، وَلَا لَيْلًا إِلَّا مَشَى أَمَامِي، وَلَا رَقِي سَطْحًا وَأَنَا تَحْتَهُ.
 وَقِيلَ لَزِيَادٍ: إِنَّكَ تَسْتَخْلَصُ حَارِثَةَ بْنَ بَدْرٍ وَهُوَ يُوَاقِعُ الشَّرَابَ؛ فَقَالَ: وَكَيْفَ لَا أَسْتَخْلَصُهُ وَمَا سَأَلْتَهُ عَنْ شَيْءٍ قَطُّ إِلَّا وَجَدْتُ عَنْدهُ مِنْهُ عِلْمًا، وَلَا اسْتَوْدَعْتُهُ سِرًّا قَطُّ فَضَيَّعْتَهُ، وَلَا رَاكِبِي قَطُّ فَمَسَتْ رُكْبَتِي رُكْبَتَهُ.

محمد بن يزيد بن عمر بن عبد العزيز قال: خَرَجْتُ مَعَ مُوسَى الْهَادِي أَمِيرِ الْمُؤْمِنِينَ مِنْ جُرْجَانَ؛ فَقَالَ لِي: إِذَا أَنْ تَحْمَلِينَ، وَإِنَّمَا أَنْ أَحْمَلُكَ، فَعَلِمْتُ مَا أَرَادَ، فَأَنْشَدْتُهُ أَيْبَاتَ ابْنِ صَرِيمةَ:

وَأَحْسَابِكُمْ وَالْبِرُّ بِاللَّهِ أَوْلُ

وَإِنْ كُنْتُمْ أَهْلَ السِّيَادَةِ فَاعْدِلُوا

وَإِنْ كَانَ فَضْلُ الْمَالِ فِيكُمْ فَأَفْضِلُوا

فَأَنْفُسَكُمْ دُونَ الْعَشِيرَةِ فَاجْعَلُوا

أَوْصِيكُمْ بِاللَّهِ أَوْلَ وَهَلَّةِ

وَإِنْ قَوْمُكُمْ سَادُوا فَلَا تَحْسُدُوهُمْ

وَإِنْ أَنْتُمْ أَعْوَزْتُمْ فَتَعَفَّفُوا

وَإِنْ نَزَلَتْ إِحْدَى الدَّوَاهِي بِقَوْمِكُمْ

قال: فأمر لي بعشرين ألف درهم.

وقيل: إن سعيد بن سلم راكب موسى الهلدي، والحربة بيد عبد الله بن مالك، وكانت الريح تَسْفِي التراب، وعبد الله يَلْحَظ موضع مَسِير موسى، فيتكَلَّف أن يسير على مُحاذاته، وإذا حاذاه ناله ذلك التراب، فلما طال ذلك عليه أقبل على سعيد بن سلم، فقال: أما ترى ما نَلَقَى من هذا الخائن؟ قال: والله يا أمير المؤمنين ما قَصَّر في الاجتهاد، ولكن حُرِم التوفيق.

باب السلام والإذن قال النبي صلى الله عليه وسلم: أطيبوا الكلام، وأفشوا السلام، وأطعموا الأيتام، وصلُّوا بالليل والناس نيام. وقال صلى الله عليه وسلم: إن أبجل الناس الذي يَنخل بالسلام.

وأتى رجل النبي صلى الله عليه وسلم، فقال: عليك السلام يا رسول الله؛ فقال: لا تَقُل: عليك السلام، فإنها تحية الموتى، وقل: السلام عليك. وقال صاحبُ حرس عمر بن عبد العزيز: خرج علينا عمرُ في يوم عيدٍ وعليه قميصٌ كَتَّانٌ وعمامة؛ على قلنسوةٍ لاطئة، فقمنا إليه وسَلَّمنا عليه؛ فقال: مه، أنا واحدٌ وأنتم جماعة، السلامُ عليّ والرُدُّ عليكم. ثم سلَّم ورددنا عليه ومشى، فمشينا معه إلى المسجد. قال النبي صلى الله عليه وسلم: يُسَلِّم الماشي على القاعد، والرَّاكب على الراجل، والصَّغير على الكبير. ودخل رجل على النبي صلى الله عليه وسلم فقال له: أي يُقرئك السلام؛ فقال: عليك وعلى أبيك السلام. إبراهيم عن الأسود قال قال "لي" عبد الله بن مسعود: إذا لقيتَ عمرَ فاقراً عليه السلام قال: فليقته فأقرأته السلام؛ فقال: عليك وعليه السلام. دخل ميمون بن مهران على سليمان بن هشام، وهو والي الجزيرة، فقال: السلام عليكم؛ فقال له سليمان: ما منعك أن تُسَلِّم بالأمرة؟ فقال: إنما يُسَلِّم على الوالي بالأمرة إذا كان عنده الناس.

أبو بكر بن أبي شيبه قال: كان الحسن وإبراهيم وميمون بن مهران يكرهون أن يقول الرجل: حيَّاك الله حتى يقول السَّلَام. وسئل عبد الله بن عمر عن الرجل يَدْخُل المَسْجِدَ أو البيتَ ليس فيه أحد؛ قال يقول: السلام علينا وعلى عباد الله الصالحين.

ومر رجل بالنبي صلى الله عليه وسلم وهو يَبُول، فسَلَّم عليه، فلم يرد عليه السلام.

وقال رجلٌ لعائشة "رضي الله عنها": كيف أصبحت؟ قالت: يا أم المؤمنين؟ قالت: بنعمة من الله.

وقال رجلٌ لشريح: كيف أصبحت؟ قال: بنعمة" ومدَّ إصبعه السَّبابة إلى السماء.

وقيل لمحمد بن وكيع: كيف أصبحت؟ قال: أصبحتُ طويلاً أملئ، قصيراً أجلي، سيئاً عملي.

وقيل لسفيان الثوري: كيف أصبحت؟ قال: أصبحتُ في دار حارَّت فيها الأدلاء.

واستأذن رجلٌ من بني عامر على النبي صلى الله عليه وسلم وهو في بيت، فقال: أُلج؟ فقال النبي صلى الله عليه وسلم لخادمه: اخرج إلى هذا فعَلِّمه الاستئذان، وقُل له يقول: السَّلَام عليكم، أَدْخُل؟ جابر بن عبد الله قال: استأذنتُ على النبي صلى الله عليه وسلم، فقال: مَنْ أنت؟ فقلت: أنا؛ قال: أنا أنا.

وقال النبي صلى الله عليه وسلم: الاستئذان ثلاثة، فإن أُذن لك وإلا فارجع.

وقال عليُّ بن أبي طالب رضي الله عنه: الأولى إذن، والثانية مؤامرة، والثالثة عزيمة، إمّا أن يأذنوا وإمّا أن يردّوا.

باب في تأديب الصغير

قالت الحكماء: مَنْ أَدَّب ولده صغيراً سرَّ به كبيراً.

وقالوا: اطْبَع الطَّن ما كان رَطْباً، واغْمَز العود ما كان لَدْناً.

وقالوا: مَنْ أَدَّب ولده غَمَّ حاسده.

وقال ابن عباس: مَنْ لم يَجْلِس في الصَّغَر حيث يُكره لم يَجْلِس في الكبر حيث يجب قال الشاعر:

إِذَا الْمَرْءُ أَعْيَبَهُ الْمَرْوَةُ نَاشِئًا

وقالوا: ما أشدَّ فِطَامَ الكَبِيرِ وأَعَسَرَ رِيَاضَةَ المَهِرِمِ.

قال الشاعر:

وَتَرَوُضَ عَرِسِكَ بَعْدَ مَا هَرَمْتَ

وكتب شريح إلى معلّم ولده:

تَرَكَ الصَّلَاةَ لِأَكْلِبِ يَسْعَى بِهَا

"فَلْيَأْتِيَنَّكَ غُدْوَةٌ بِصَحِيفَةٍ

فَإِذَا أَتَاكَ فَعَضَّهُ بِمَلَامَةٍ

فَإِذَا هَمَمْتَ بِضَرْبِهِ فَبِدْرَةٍ

وَاعْلَمْ بِأَنَّكَ مَا أَتَيْتَ فَنَفْسُهُ

وقال صالح بن عبد القدوس:

وَإِنَّ مَنْ أَدَبْتَهُ فِي الصَّبَا

حَتَّى تَرَاهُ مُورِقًا نَاضِرًا

وَالشَّيْخُ لَا يَنْتَرِكُ أَخْلَاقَهُ

إِذَا ارْعَوَى عَادَ لَهُ جَهْلُهُ

مَا يَبْلُغُ الأَعْدَاءُ مِنْ جَاهِلٍ

فَمَطْلَبُهَا كَهَلًا عَلَيْهِ شَدِيدٌ

وَمِنَ العِنَاءِ رِيَاضَةُ المَهِرِمِ

يَبْغِي المَهِرَاشَ مَعَ الغَوَاةِ الرُّجَسِ

كَتَبْتُ لَهُ كَصَحِيفَةِ المَتَلَمِّسِ "

وَعِظَتُهُ مَوْعِظَةُ الأَدِيبِ الكَبِّسِ

وَإِذَا بَلَغْتَ بِهَا ثَلَاثًا فَاحْبِسِ

مَعَ مَا تَجَرَّعَنِي اعْزُ الأَنْفَسِ

كَالْعُودِ يُسْقَى المَاءَ فِي غَرَسِهِ

بَعْدَ الذِّي أَبْصَرْتَ مِنْ يُبْسِهِ

حَتَّى يُوَارَى فِي ثَرَى رَمْسِهِ

كَذِي الضَّنَى عَادَ إِلَى نُكْسِهِ

مَا يَبْلُغُ الجَاهِلُ مِنْ نَفْسِهِ

وقال عمرو بن عُتْبَةَ لمعلّم ولده: لِيَكُنْ أَوَّلَ إِصْلَاحِكَ لَوْلَدِي إِصْلَاحُكَ لِنَفْسِكَ، فَإِنَّ عُيُوبَهُمْ مَعْقُودَةٌ بِعَيْنِكَ، فَالْحَسَنُ عِنْدَهُمْ مَا صَنَعْتَ، وَالقَبِيحُ عِنْدَهُمْ مَا تَرَكَتَ. عَلِمَهُمْ كِتَابَ اللّٰهِ وَلَا تُكْرَهُهُمْ عَلَيْهِ فَيَمْلُوهُ، وَلَا تَتْرَكُهُمْ مِنْهُ فَيَهْجُرُوهُ؛ رَوْهُمْ مِنَ الحَدِيثِ أَشْرَفُهُ، وَمِنَ الشَّعْرِ أَعْفَهُ، وَلَا تَتَّقُلْهُمْ مِنْ عِلْمٍ إِلَى عِلْمٍ حَتَّى يُحْكِمُوهُ، فَإِنَّ إِزْدِحَامَ الكَلَامِ فِي القَلْبِ مَشْغَلَةٌ لِلْفَهْمِ، وَعَلَّمَهُمْ سُنَنَ الحُكَمَاءِ، وَحَبَّبَهُمْ مَحَادِثَ النِّسَاءِ، وَلَا تَتَّكِلْ عَلَى عُذْرٍ مَتَّى لَكَ، فَقَدْ أَتَكَلْتُ عَلَى كِفَايَةِ مَنْكَ.

باب في حب الولد

أرسل معاوية إلى الأحنف بن قيس، فقال: يا أبا بحر، ما تقول في الولد؟ قال: " يا أمير المؤمنين، ثمار قلوبنا، وعماد ظهورنا؛ ونحن لهم أرضٌ ذليلة، وسماءٌ ظليلة، فإن طلبوا فأعطيهم، وإن غضبوا فأرضهم؛ يمنحوك ودهم ويحبوك جهدهم؛ ولا تكن عليهم ثقيلاً فيملؤا حياتك، ويحبوا وفاتك. فقال: لله أنت يا أحنف، لقد دخلت عليّ وإني لمملوء غضباً على يزيد فسألته من قلبي. فلما خرج الأحنف من عنده، بعث معاوية إلى يزيد بمائتي ألف درهم ومائتي ثوب، فبعث يزيد إلى الأحنف بمائة ألف درهم ومائة ثوب، شاطره إياها. وكان عبد الله بن عمر يذهب بولده سالم كل مذهب، حتى لامه الناس فيه، فقال:

وَجِلْدَةُ بَيْنَ العَيْنِ وَالأنْفِ سَالِمٌ

يَلُومُونَنِي فِي سَالِمٍ وَالْوَمَهْمُ

وقال: إن ابني سالماً لِيُحِبَّ حُبًّا لو لم يَخَفْه لم يَعْصِه.

وكان يجيى بن اليمان يذهب بولده داود كل مذهب، حتى قال يوماً: أئمة الحديث أربعة، كان عبد الله، ثم كان عَلْقَمَةَ، ثم كان إبراهيم، ثم أنت يا داود. وقال تروّجَتْ أم داود، فما كان عندنا شيءٌ أَلْفَه فيه، حتى اشتريتُ له كُسوةً بدانيق.

وقال زيد بن علي لُبنه: يا بُنيُّ، إن الله لم يرْضك لي فأوصاك بي، ورَضيني لك فحذَرنيك، واعلم أن الآباء للأبناء من لم تَدعه المودَّة إلى التفریط، وخيَّر الأبناء للآباء من لم يدعه التقصير إلى العُقوق.

وفي الحديث المرفوع: ریح الولد من ریح الجنَّة.

وفيه أيضاً: الأولاد من ریحان الله.

وقال النبي صلى الله عليه وسلم لما بُشِرَ بفاطمة: ریحانة أشمَّها ورزقها على الله.

ودخل عمرو بن العاص على معاوية وبين يديه بنته عائشة، فقال: من هذه يا "أمير المؤمنين"؟ فقال: هذه تَفَاحَة القَلْب؛ فقال له: انبذوها عنك "يا أمير المؤمنين" فوالله إنهن لَيَلِدُن الأعداء، ويُقرِّبن البُعداء، ويُورِثن الضغائن. قال: لا تَقُلْ ذلك يا عمرو، فوالله ما مرَّض المرَضى، ولا نَدَب الموتى، ولا أعان على الأحزان مثلهن، ورُبَّ ابن أُخت قد نَفَعَ حاله. وقال المعلِّي الطائي:

حُطِطُنْ من بعض إلى بعض

لولا بُنيَّات كز غب القطا

في الأرض ذات الطول والعرض

لكان لي مضطرب واسع

أكبأدنا تمشي على الأرض

وإنما أولادنا بيننا

لم تشبع العين من الغمض

إن هبَّت الریح على بعضهم

وقال عبد الله بن أبي بكر: مَوْتُ الولد صَدْعٌ في الكبد: لا ينجح آخر الأبد.

ونظر عمر بن الخطاب رضي الله عنه إلى رجل يحمل طفلاً على عنقه، فقال: ما هذا منك؟ قال: ابني يا أمير المؤمنين، قالت: أما إنه إن عاش فتنك، وإن مات حزتك.

وكانت فاطمة بنت رسول الله صلى الله عليه وسلم تُرَقِّص الحسين بن علي رضي الله عنهما وتقول:

ليس شبيهاً بعلي

إن بُني شبيه النبي

وكان الزبير يُرَقِّص "ولده" عُروة ويقول:

مُبارك من ولد الصديق

أبيض من آل أبي عتيق

أذنه كما أذ ربي

وقال أعرابي وهو يُرَقِّص ولده:

قد كان ذاق الفقر تم ناله

أحبه حب الشحيح ماله

إذا يريد بذله بدالة وقال آخر وهو يُرَقِّص ولده:

وخيفة في رأسه من راسي

أعرف منه قلة النعاس

وكان رجلٌ من طيء يقطع الطريق، فمات وترك بُنيًّا رضيعاً، فجعلت أمه تُرَقِّصه وتقول:

باليته قد قطع الطريقاً

وقد أخاف الفج والمضيقة

ولم يرد في أمره رقيقاً

فقل أن كان به شقيقاً

وقال عبدُ الملك بن مروان: أضر بنا في الوليد حُبنا له فلم نُؤدبه، وكان الوليد أدبنا.

وقال هارون الرشيد لابنه المعتصم: ما فعل وصيفك "فلان"؟ قال: مات فاستراح من الكتاب؛ قال أو بلغ منك الكتاب هذا المبلغ! والله لا حضرته أبداً، ووجهه إلى البادية، فتعلم الفصاحة، وكان أمياً، وهو المعروف بابن مرادة.

وفي بعض الحديث أن إبراهيم خليل الرحمن صلوات الله عليه كان من أغبر الناس، فلما حضرته الوفاة، دخل عليه ملك الموت في صورة رجل أنكره فقال له: من أدخلك داري؟ قال الذي أسكنك فيها منذ كذا وكذا سنة؛ قال: ومن أنت، قال: أنا ملك الموت، جئت لقبض رُوحك؟ قال: أثاركي أنت حتى أودع ابني إسحاق؟ قال: نعم، فأرسل إلى إسحاق، فلما أتاه أخبره، فتعلق إسحاق بأبيه إبراهيم وجعل يتقطع عليه بكاءً؛ فخرج عنهما ملك الموت، وقال: يا رب ذبيحك إسحاق متعلق بخليلك؛ فقال له الله: قل له إنني قد أمهلتك، ففعل. وانحل إسحاق عن أبيه، ودخل إبراهيم بيتاً ينام فيه، فقبض ملك الموت روحه وهو نائم.

باب الاعتضاد بالولد

قال الله تبارك وتعالى فيما حكاه عن عبده زكرياً ودُعائه إليه في الولد: "وَزَكْرِيَا إِذْ نَادَى رَبَّهُ رَبِّ لَا تَذَرْنِي فَرْدًا وَأَنْتَ خَيْرُ الْوَارِثِينَ". وقال: "وَأَنِّي خِفْتُ الْمَوَالِيَ مِنْ وَرَائِي وَكَانَتِ امْرَأَتِي عَاقِرًا فَهَبْ لِي مِنْ لَدُنْكَ وَلِيًّا. يَرِثُنِي وَيَرِثُ مِنْ آلِ يَعْقُوبَ وَاجْعَلْهُ رَبِّ رَضِيًّا". والموالي ها هنا بنو العم. وقال الشاعر:

إنَّ الدليل الذي لَيْسَتْ له عَضُدُ

ويأنف الضيم إن أثرى له عدد

من كان ذا عَضُدٍ يُدْرِكُ ظلامته

تنبو يذاه إذا ما قلَّ ناضره

العتبي قال: لما أسنَّ أبو براء عامر بن مالك وضَعفه بنو أخيه وخرّفوه ولم يكن له ولد يحميه، أنشأ يقول:

بشيء إذا لم تستعن بالأنامل

عليّ وأني لا أصول بجاهل

دفعنكم عني وما دفع راحة

يضعفني حلمي وكثرة جهلكم

وقال آخر:

وتنقي سورة المستنفر الحامي

تعُدو الذنائب على من لا كلاب له

باب في التجارب والتأدب بالزمان

قالت الحكماء: كفي بالتجارب تأديباً، وبتقلب الأيام عظة.

وقالوا: كفي بالدهر مؤدباً، وبالعقل مُرشداً.

وقال حبيب:

أم استمتت تأديبي فدهري مؤدبي

أحاولت إرشادي فعقلي مُرشدي

وقال إبراهيم بن شكلة:

أدبه الليل والنهار

من لم يؤدبه والده

كم قد أذلاً كَرِيمَ قَوْمٍ
مَنْ ذَا يَدُ الدَّهْرِ لَمْ تَنْلَهُ
كُلَّ عَنِ الحَادِثَاتِ مُغْضٍ

وقال آخر:

وما أبقْت لك الأيَّامُ عَذْرًا

وقالوا: كفي بالدهر مُخبراً بما مَضَى عَمَّا بَقِيَ.

وقالوا: كفي مخبراً لذوي الألباب ما جَرَبُوا.

وقالوا العيسى بن مرِّم عليهما السلام: مَنْ أَدَبَكَ؟ قال: ما أَدَّبَنِي أَحَدٌ، رَأَيْتُ الجَهْلَ قَبِيحاً فَاجْتَنَبْتُهُ.

باب في صحبة الأيام بالموادعة

قالت الحكماء: اصحب الأيام بالموادعة ولا تُسابق الدهر فتكُبو.

وقال الشاعر:

مَنْ سَابَقَ الدَّهْرَ كَبَا كَبُوءَةً

فاخْطُ مَعَ الدَّهْرِ إِذْ مَا خَطَا

وقال بشر العُقَيْلي:

أَعَادِلْ إِنْ العُسْرُ سَوَّفَ يُفِيقُ

وما كُنْتُ إِلا كَالزَّمَانِ إِذَا صَحَا

وقال آخر:

تَحَامِقْ مَعَ الحَمَقِي إِذَا مَا لَقَيْتَهُمْ

وَخَلِّطْ إِذَا لاقَيْتَ يَوْمًا مَخْلَطًا

فإِنِّي رَأَيْتُ المرءَ يَشْفِي بَعْلَهُ

وقال آخر:

إِنْ المَقَادِيرَ إِذَا سَاعَدَتْ

وقال الآخر:

والسبب المانع حظَّ العاقل

ومن أمثالهم في ذلك "قولهم": تطامن لها تَخْطُكُ.

ومن قولنا في هذا المعنى:

وتَطَامِنُ لِلزَّمَانِ يَجْزُكَ عَفْوًا

ليس له منهما انتصار
أو اطمأنت به الديار
وعنده للزَّمان تار

وبالأيَّام يَتَعْظَى اللَّيِّبُ

لم يَسْتَقْلِهَا مِنْ خَطَا الدَّهْرِ
واجرِ مَعَ الدَّهْرِ كَمَا يَجْرِي

وإِنْ يَسَارًا مِنْ غَدٍ لِخَلِيقُ
صحوتُ وَإِنْ ماقَ الزَّمَانُ أَمُوقُ

ولا فِهمُ بالجَهْلِ فِعْلُ ذَوِي الجَهْلِ
يُخَلِّطُ فِي قَوْلِ صَحيحٍ وَفِي هَزَلٍ
كما كان قَبْلَ اليَوْمِ يَسْعُدُ بِالعَقْلِ

أَلحقت العاجزَ بالحازمِ

هو الَّذِي سَبَّبَ حَظَّ الجاهِلِ

وإِنْ قالوا ذَلِيلٌ قُلْ ذَلِيلٌ

وقال حبيب:

وكانت لوعةً ثم اطمأنتُ

كذاك لكل سائلة قرارُ

وقال آخر:

ماذا يُريك الدهرُ من هوانه

ازفين لقرَدِ السوءِ في زمانه

ولآخر:

الدهر لا يبقى على حالةٍ

لا بُدَّ أن يُقبلَ أو يدبرُ

فإن تلقاك بمرؤهه

فاصبر فإن الدهر لا يصبر

ولآخر:

اصبر لدهر نال من

ك؛ فهكذا مضت الدهورُ

فرحاً وحزناً مرةً

لا الحزن دام ولا السرورُ

ولآخر:

عفا الله عمن صير الهمَّ واحداً

وأيقن أن الدائرات تدورُ

ترُوح لنا الدنيا بغير الذي غدت

وتحدث من بعد الأمور أمورُ

وتجري الليالي باجتماع وفرقة

وتطلع فيها أنجمٌ وتغور

وتطمع أن يبقى السرور لأهله

وهذا محال أن يدوم سرور

ولآخر:

سأنتظر الأيام فيك لعلها

تعود إلى الوصل الذي هو أجملُّ

باب التحفظ من المقالة القبيحة وإن كانت باطلا

قالت الحكماء: إياك وما يُعتذر منه.

وقالوا: من عرّض نفسه للتهم فلا يأمن من إساءة الظن.

وقالوا: حسبك من شرِّ سماعه.

وقالوا: كفي بالقول عاراً وإن كان باطلاً.

وقال الشاعر:

ومن دعا الناس إلى ذمّه

ذمّوه بالحق وبالباطل

مقالة السوء إلى أهلها

أسرع من منحدر سائل

وقال آخر:

قد قيل ذلك إن حقاً وإن كذباً

فما اعتذارك من قولٍ إذا قيلاً

وقال أرسططاليس للإسكندر: إنَّ الناس إذا قَدَرُوا أن يقولوا قَدَرُوا أن يفعلوا، فاحترس من أن يقولوا تُسَلِّم من أن يفعلوا.
وقال امرؤ القيس:

وَجُرْعُ اللِّسَانِ كَجُرْحِ اليَدِ

وقال الأخطل:

والقول يَنْفِذُ ما لا تَنْفِذُ الإِبْرُ

وقال يعقوب الحمْدوني:

وقد يُرْجَى لَجْرَحِ السَّيْفِ بُرءٌ

ولآخر:

ولا بُرءٌ لما جرح اللسانُ

مَنْ لي بِتَصْدِيقِ ما قالوا وتَكْذِيبِي

قالوا ولو صحَّ ما قالوا لَفُزْتُ به

باب الأدب في تشميت العاطس

ومن حديث أبي بكر بن أبي شيبة قال: قال النبي صلى الله عليه وسلم: لا تُشَمِّتِ العاطس حتى يَحْمَدَ الله، فإن لم يَحْمَدْه فلا تُشَمِّتْوه.
وقال: اذا عطس أحدكم فحمد الله فشَمِّتْوه، وإن لم يَحْمَدْ فلا تُشَمِّتْه.
وقال عليُّ رضي الله عنه: يُشَمِّتِ العاطس إلى ثلاث، فإن زاد فهو داء يخرج من رأسه.
عَطَسَ ابن عمر، فقالوا له: يَرِحْكَ اللهُ؟ فقال: يَهْدِيكُمْ اللهُ ويُصَلِّحْ بِالْكُمْ.
وعَطَسَ عليُّ بن أبي طالب فحمد الله، فقيل له: يَرِحْكَ اللهُ؟ فقال: يَغْفِرُ اللهُ لنا و لكم.
وقال عمرُ بن الخطَّاب رضي الله عنه: إذا عَطَسَ أحدكم فشَمِّتْوه ثلاثاً؟ فإن زاد فقولوا: إنك مَضْنوك.
وقال بعضهم: التَّشْمِيتُ مرة واحدة.

باب الإذن في القبلة

عبد الرحمن بن أبي ليلى عن عبد الله بن عمر قال: كُنَّا نُقَبِّلُ يَدَ النبي صلى الله عليه وسلم.
وكيع عن سُفيان قال: قَبَّلَ أبو عُبَيْدَةَ يَدَ عمر بن الخطَّابِ.
ومن حديث الشعبي قال: لَقِيَ النبي صلى الله عليه وسلم جعفرَ بن أبي طالب فالتزمه وقبل بين عينيه.
وقال إياسُ بن دَعْفَلٍ: رأيتُ أبا نُضْرَةَ يُقَبِّلُ حَدَّ الحَسَنِ.
الشَّيْبَانِي عن أبي الحَسَنِ عن مُصْعَبٍ قال: رأيتُ رجلاً دخلَ عَلَيَّ بنِ الحَسَنِ رضي الله عنهما في المسجد فقبَّلَ يَدَهُ ووَضَعَهَا على عَيْنَيْهِ فلم يَنْهَهُ.
العُتْبِيُّ قال: دخل رجلٌ على هِشَامِ بن عبد الملك فقبَّلَ يَدَهُ، فقال: أُمَّ! إنَّ العَرَبَ ما قَبَّلَتِ الأيدي إلا هُلُوعاً، ولا قَبَّلَتِها العجم إلا خُضُوعاً.
واستأذن رجلٌ المأمون في تَقْبِيلِ يَدِهِ، فقال: إنَّ القُبْلَةَ من المؤمن ذِلَّةٌ، ومن الدَّمِي خديعة، ولا حاجة بك أن تَدَلَّ، ولا حاجة بنا أن نُخَدَعَ.
واستأذن أبو دُلَامَةَ المهديُّ في تَقْبِيلِ يَدِهِ فَمَنَعَهُ، فقال: ما مَنَعْتَنِي شيئاً أيسرَ على عِيَالِي فَقَدْأَ مِنْهُ.
الأصمعيُّ قال: دخل أبو بكر الهَجْرِيُّ على المنصور فقال: يا أميرَ المؤمنين، نَعَضُ فمي، وأنتم أهل بيت بركة، فلو أذنت لي فقبلت رأسك لعلَّ الله كان يُمسك عليَّ ما بقي من أسناني؟ قال: اخترتَ بينها وبين الجائزة؟ فقال: يا أميرَ المؤمنين، إنَّ أهونَ من ذهاب درهم من الجائزة أن لا يبقى في فمي حاكَّةٌ.

فضحك المنصور وأمر له بجائزة.

وقالوا: قبلة الإمام في اليد، وقبلة الأب في الرأس، وقبلة الأخ في الخد، وقبلة الأخت في الصدر، وقبلة الزوجة في النَم.

باب الأدب في العيادة

مَرَضَ أَبُو عَمْرٍو بْنِ الْعَلَاءِ، فَدَخَلَ عَلَيْهِ رَجُلٌ مِنْ أَصْحَابِهِ، فَقَالَ لَهُ: أُرِيدُ أَنْ أُسَاهِرَكَ اللَّيْلَةَ؛ قَالَ لَهُ: أَنْتَ مُعَافِي وَأَنَا مُبْتَلِي، فَالْعَافِيَةُ لَا تَدْعُكَ أَنْ تَسْهَرَ، وَالْبَلَاءُ لَا يَدْعِي أَنْ أَنْامَ، وَأَسْأَلُ اللَّهَ أَنْ يَهَبَ لِأَهْلِ الْعَافِيَةِ الشُّكْرَ، وَلِأَهْلِ الْبَلَاءِ الصَّبْرَ. وَدَخَلَ كَثِيرٌ عَزَّةَ عَلَى عَبْدِ الْعَزِيزِ بْنِ مَرْوَانَ وَهُوَ مَرِيضٌ، فَقَالَ: لَوْ أَنَّ سُورَكَ لَا يَتِمُّ إِلَّا بِأَنْ تَسْلُمَ وَأَسْقَمَ لِدَعْوَتِ رَبِّي أَنْ يَصْرِفَ مَا بَكَ إِلَيَّ، وَلَكِنْ أَسْأَلُ اللَّهَ لَكَ أَيُّهَا الْأَمِيرُ الْعَافِيَةَ، وَلي فِي كَنْفِكَ النُّعْمَةَ. فَضَحِكَ وَأَمَرَ لَهُ بِجَائِزَةٍ، فَخَرَجَ وَهُوَ يَقُولُ:

لَيْتَ التَّشَكِّيَ كَانَ بِالْعَوَادِ

بِالْمُصْطَفِي مِنْ طَارِفِي وَتَلَادِي

نَفْسِي الْفِدَاءَ لَهُ مِنْ كُلِّ مَحْذُورِ

أَجْرُ الْعَلِيلِ وَأَنْيَ غَيْرُ مَاجُورِ

لَكَانَ بِنَا الشُّكْوَى وَكَانَ لَكَ الْأَجْرُ

وَنَعُودُ سَيِّدِنَا وَسَيِّدِ غَيْرِنَا

لَوْ كَانَ يُقْبَلُ فِدْيَةٌ لَفَدَيْتُهُ

وَكُتِبَ رَجُلٌ مِنْ أَهْلِ الْأَدَبِ إِلَى عَلِيلٍ:

نُبِّئْتُ أَنَّكَ مُعْتَلٌّ فَقُلْتُ لَهُمْ

يَا لَيْتَ عَلَّتَهُ بِي ثُمَّ كَانَ لَهُ

وَكُتِبَ آخَرَ إِلَى عَلِيلٍ:

وَقَيْنَاكَ لَوْ نَعَطَى الْهُوَى فِيكَ وَالْمُنَى

وَكَانَ شَاعِرٌ يَخْتَلِفُ إِلَى يَحْيَى بْنِ خَالِدِ بْنِ بَرْمَكٍ وَيَمْتَدِّحُهُ، فَغَابَ عَنْهُ أَيَّامًا لَعَلَّةَ عَرَضَتْ لَهُ، فَلَمْ يَفْتَقِدْهُ يَحْيَى وَلَمْ يَسْأَلْ عَنْهُ، فَلَمَّا أَفَاقَ الرَّجُلُ مِنْ عَلَّتِهِ كَتَبَ إِلَيْهِ:

ه وَأَبْقَاكَ لِي بَقَاءً طَوِيلًا

ه لَكَيْمًا أَرَاهُ أَيْضًا جَمِيلًا

لَا تُرَى مُنْفَذًا إِلَيَّ رَسُولًا

ر لَمَا قَدْ أَوْلَيْتَنِيهِ جَرِيلاً

فَظِ مِثْلِي عَلَى الزَّمَانِ مَلُولًا

كَرْتُ مِمَّا عَهَدْتُ إِلَّا قَلِيلًا

أَقَلْتُ عَلَّتِي عَلَيْهِ أَفُولًا

كُ غَدًا إِنْ أَجِدُ إِلَيْكَ سَبِيلًا

رِ وَحَاشَاكَ أَنْ تَكُونَ عَلِيلاً

كَ مِنْ الْعِذْرِ جَائِزًا مَقْبُولًا

أَيْهَذَا الْأَمِيرِ أَكْرَمَكَ اللَّهُ

أَجْمِيلاً تَرَاهُ أَصْلَحَكَ اللَّهُ

أَنْنِي قَدْ أَقَمْتُ عَنْكَ قَلِيلًا

أَلَذْنِبِ فَمَا عَلِمْتُ سِوَى الشُّكِّ

أَمْ مَلَالًا فَمَا عَلِمْتُكَ لِلْحَا

قَدْ أَتَى اللَّهَ بِالصَّلَاحِ فَمَا أَنْ

وَأَكَلْتُ الدَّرَّاجَ وَهُوَ غِذَاءُ

وَكَأَنِّي قَدِمْتُ قَبْلَكَ أَتِي

فَكُتِبَ إِلَيْهِ الْوَزِيرُ يَعْتَذِرُ:

دَفَعَ اللَّهُ عَنْكَ نَائِبَةَ الدَّه

أُشْهِدُ اللَّهَ مَا عَلِمْتُ وَمَا ذَا

وَلَعَلِّي لَوْ قَدْ عَلِمْتُ لَعَاوَدُ
فَاجْعَلْنِي لِي إِلَى التَّلَقُّقِ بِالْعُدُ
فَقَدِيمًا مَا جَاءَ ذُو الْفَضْلِ بِالْفَضْ

وكتب المعتصم إلى عبد الله بن طاهر:

أَعَزِّرُ عَلَى بَأْنِ أَرَاكَ عَلِيًّا
فَوَدِدْتُ أَنِّي مَالِكٌ لِسَلَامَتِي
فَتَكُونُ تَبْقَى سَالِمًا بِسَلَامَتِي
هَذَا أَخٌ لَكَ يَشْتَكِي مَا تَشْتَكِي

ومرض يحيى بن خالد فكان إسماعيل بن صبيح الكاتب إذا دخل عليه يعودوه وقف عند رأسه ودعا له، ثم يخرج فيسأل الحاجب عن منامه وشرابه وطعامه، فلما أفاق، قال يحيى بن خالد: ما عادني في مرضي هذا إلا إسماعيل ابن صبيح.
وقال الشاعر:

وَجَلْسَةٌ لَكَ مِثْلَ اللَّحْظِ بِالْعَيْنِ
يَكْفِيكَ مِنْ ذَلِكَ تَسْأَلُ بَحْرَفَيْنِ

عِيَادَةُ الْمَرءِ يَوْمَ بَيْنِ يَوْمَيْنِ
لَا تَبْرِمَنَّ مَرِيضًا فِي مُسَاءِلَةٍ

وقال بكر بن عبد الله لقوم عادوه في مرضه فأطالوا الجلوس عنده: المريض يُعاد والصحيح يُزار.
وقال سفيان الثوري: حُمِقَ الْعُوَادُ أَشَدُّ عَلَى الْمَرِيضِ مِنْ أَمْرَاهِمُ، يَجِئُونَ فِي غَيْرِ وَقْتٍ وَيَطِيلُونَ الْجُلُوسَ.
ودخل رجلٌ على عمر بن عبد العزيز يعودوه في مرضه، فسأله عن علته، فلما أخبره قال: من هذه العلة مات فلان ومات فلان. فقال له عمر: إذا عُدت المرضى فلا تُنَعَّ إليهم الموتى، وإذا خرجت عَنَّا فلا تُعُدْ إلينا.
وقال ابن عباس: إذا دخلتم على الرجل وهو في الموت فبشره ليلقى ربه وهو حسن الظن، ولقنوه الشهادة ولا تُضجروه.
ومرض الأعمش فأبرمه الناس بالسؤال عن حاله، فكتب قصته في كتاب وجعله عند رأسه، فإذا سأله أحدٌ، قال: عندك القصة في الكتاب فاقرأها.
ولبعضهم:

فَمَرِضْتُ مِنْ حَذْرِي عَلَيْهِ
فَبَرِئْتُ مِنْ نَظْرِي إِلَيْهِ

مَرِضَ الْحَبِيبُ فَعُدَّتْهُ
وَأَتَى إِلَيَّ يَعُودُنِي

ومرض محمد بن عبد الله بن طاهر، فكتب إلى أخيه عبيد الله بن عبد الله:

تُكُّ مِنْ فِعَالِكَ شَاهِدًا
تُ سِوَى رَسُولِكَ عَائِدًا
سَبِيًّا إِلَيْكَ مُسَاعِدًا
حَتَّى أَعُودَكَ رَاقِدًا

إِنِّي وَجَدْتُ عَلَى جَفَا
إِنِّي اعْتَلَلْتُ فِي فَقْدِ
وَلَوْ اعْتَلَلْتُ فَلَمْ أَجِدْ
لَا سْتَشَعْرَتْ عَيْنِي الْكَرَى

فأجابه:

لَمْ أَذُقْ مُذْ حُمِمْتَ طَعْمَ الرُّقَادِ

كُلِّتْ مُقْلَتِي بِشَوْكِ الْقَتَادِ

يا أخي البازل المودّة والنّا

منعنتي عليك رِقَّةٌ قلبي

لو بأذني سمعتُ منك أنيناً

ولمحمد بن يزيد:

يا عليلاً أفديك من ألم العِلِّ

إن يحلّ! دونك الحجابُ فما يح

وأنشد محمد بن يزيد قال أنشدني أبو دُهمان لنفسه وقد دَخَلَ على بعض الأمراء يعودُه:

بأنفسنا لا بالطوّارِفِ والتلُدِّ

زلَ من مقلتي مكانَ السوادِ

من دُخولي إليك في العوّادِ

لتفرّى مع الأئين فؤادي

ة هل لي إلى اللقاء سبيلُ

جَبَ عني بك الضننى والعويل

نَقِيكَ الذي تُخْفِي من السُّقْمِ أو تُبْدي

فإن أشفقوا مما أقول فبي وحدي

للمجد والمكرّمات في قلّك

في نومك المُعْترِي وفي أرقك

أخرج ذمّ الفعّال من عنقك

وكلّنا للمنايا دونه غرض

العائدين جميعاً لا به المرَض

وليس في غيره منه لنا عَوْض

لو باد كلُّ عباد الله وانقرضوا

واعتلّ فاعتلّ فيه البأسُ والكرمُ

عنه الضبّابة والأحزان والسقم

فما لك تجفوها وأنت صديقُ

على كلِّ شاكٍ بالعِراقِ شفيقُ

تُغْنيك عن دَعْوَتِي وعن جَدِّكَ

بنا معشَرَ العوّادِ ما بك من أذى

وكتب أبو تمام الطائي إلى مالك بن طوق في شكّاة له:

كم لَوْعةٌ للندى وكم قلّق

ألْبَسَكَ اللهُ منه عافيةً

تُخرج عن جسّمك السّقام كما

ودخل محمد بن عبد الله على المتوكل في شكّاة له يعودُه، فقال:

الله يدفعُ عن نفسِ الإمام لنا

فليت أن الذي يعروه من مرض

فبالإمام لنا من غيرنا عَوْض

فما أبالي إذا ما نَفَسَتْ سَلِمَتْ

وقال آخر في بعض الأمراء:

واعتلّ فاعتلت الدنيا لعلته

لما استقلّ أنار المجد وانقشعت

وبلغ قيساً مجنوناً بني عامر أن ليلي بالعراق مريضة، فقال:

يقولون ليلي بالعِراقِ مريضةٌ

شَفِي اللهُ مرضى بالعِراقِ فإنني

ولمحمد بن عبد الله بن طاهر:

ألْبَسَكَ اللهُ منه عافيةً

سُقْمَكَ ذَا لَا لَعْلَةَ عَرَضْتَ
"فيا مريضَ الجُفونِ أَحْيِي فَتِي"

وقال غيره:

يا أُملي كيف أنتَ من أَلَمِكُ
هذانِ يومانِ لي أعدُهُما
حسدتُ حَمَاكَ حينَ قِيلَ لنا
ولسُحيمِ عبدِ بني الحَسحاسِ:

تَجَمَّعَن شَتَى من ثَلاثِ وأَربَعِ
وأَقبلنِ من أَقصى الخِيامِ يَعدُّنني
وللعِباسِ بنِ الأَحف:

قالَت مَرَضتُ فَعَدَّتْها فَتَبَرَّمتِ
واللهِ لو قَسَّتِ القلوبُ كَقَلبِها

وقال الواثق:

لا بكَ السُقْمَ ولكنْ كانِ بي
قيلَ لي إنكَ صُدَّعتَ فما
وأَنشدَ مُحَمَّدُ بنَ يَزِيدِ المِرْدَ لَعَلِيَّةَ بنتِ المَهدِي:

تَمَارَضتِ كِي أَشجى وما بَكَ عِلَّةُ
وقولُكَ للعِوادِ كيفَ تَرَوْنَه
لئنَ سَأَعتي أَن نَلتِي بِمِساءَةٍ

ومن قولنا في هذا المعنى:

رُوحَ النَّدى بَينِ أَثوابِ العُلا وَصَبِ
ما أنتَ وَحدَكَ مَكسُوباً شُحوبَ ضَنى
يا مَنْ عَليه حِجابٌ من جَلالَتِه
أَلقى عَليكِ يداً للضُرِّ كاشِفةً

ومثله من قولنا:

لا غَرَوِ إن نالَ مِنكَ السُقْمُ والضررُ
يا غُرَّةَ القَمَرِ الذَّاوي غَضارتُها

بل سُقْمَ عَينِيكِ رُدَّ في جَسَدِكَ
قَتَلتَهُ بالجُفونِ لا بَيدِكَ"

وكيفَ ما تَشَتُّكيه من سَقَمِكَ
مُدَّ لِم تَلَحَّ لي بَرُوقِ مُبْتَسِمِكَ
بأنها قَبَّلَتَكَ فوقَ فَمِكَ

وواحدةٌ حَتى كَمَلنَ ثَمانِيا
أَلا إِنما بَعضُ العِواءِ دائِيا

وهي الصَّحيحةُ والمَريضُ العائِدُ
ما رَقَّ للوَلدِ الضَّعيفِ الوالِدُ

وبنَفْسِي وبأُمِّي وأبي
خالَطتِ سَمعي حَتى دَيرِ بي

تُرِيدينِ قَنَلِي قد ظَفَرَتِ بِذَلِكَ
فقالوا قَتيلًا قَلتِ أَهونُ هالِكِ
لقد سَرَنِي أَني خَطَرَتِ بِبالِكَ

يَعَتُنُّ في جَسَدِ المَجْدِ مَوْصوبِ
بل كَلنا بِكَ من مُضنى ومَشحوبِ
وَإِن بَدَا لَكَ يَوماً غيرَ مَحجوبِ
كَشَافُ ضُرِّ نَبِيِّ اللهِ أَيُّوبِ

قد تُكسِفُ الشَّمسُ لا بَلِ يُخسِفُ القَمَرُ
فِداً لَنُورِكَ مِنِّي السَّمعُ والبَصَرُ

إن يُمس جسمك موعوكا بصالية
أنت الحسام فإن تُلل مضاربه
روح من المجد في جثمان مكرمة

فهكذا يُوعك الضرغامه الهصر
فقبله ما يُفل الصارم الذكر
كأنما الصبح من خديه ينفجر

لو غال مجلوده شيء سوى قدر

أكبرت ذاك ولكن غاله القدر

ومن قولنا في هذا المعنى:

لا غرو إن نال منك السقم ما سألأ
ما تشنكي علة في الدهر واحدة

قد يُكسف البدر أحياناً إذا كملأ

إلا اشتكي الجود من وجد بها عللاً

الأدب في الاعتناق

أبو بكر بن محمد قال: حدثنا سعيد بن "إسحاق عن علي بن يونس المديني" قال: كنت جالساً عند مالك "بن أنس" فإذا سُفيان بن عُيينة يستأذن بالباب، فقال مالك: رجلٌ صالح صاحب سنة، أدخلوه؛ فدخل فقال: السلام عليكم ورحمة الله وبركاته، فرد السلام، فقال: سلامٌ خاصّ وعمّ عليك يا أبا عبد الله ورحمة الله؛ فقال مالك: وعليك السلام يا أبا محمد ورحمة الله، فصافحه مالك، وقال: يا أبا محمد، لولا أنها بدعة لعانقناك؟ فقال سُفيان: قد عانق من هو خيرٌ منّا، رسول الله صلى الله عليه وسلم؛ فقال مالك: جعفرأ؟ قال: نعم؟ فقال مالك: ذاك حديثٌ خاصّ يا أبا محمد ليس بعمّ؛ فقال سُفيان: ما عمّ جعفرأ يعننا وما خصّه يُخصنا إذا كنّا صالحين، أتأذن لي أن أُحدّث في مجلسك؟ قال: نعم يا أبا محمد؛ فقال: حدّثني عبد الله بن طاوس عن أبيه عن عبد الله بن عباس، أنه لما قدّم جعفرٌ من أرض الحبشة اعتنقه النبي صلى الله عليه وسلم، وقبل بين عينيه، وقال: جعفر أشبه الناس بي خلقاً وخلقاً.

باب الأدب في إصلاح المعيشة

قالوا: من أشبع أرضه عملاً أشبعت "بيته" خبزاً.
وقالوا: يقول الثوب لصاحبه: أكرمني داخلاً أكرّمك خارجاً.
وقالت عائشة: المغزل بيد المرأة أحسن من الرمح بيد المجاهد في سبيل الله.
وقال عمر بن الخطاب: لا تنهكوا وجه الأرض، فإن شحمها في وجهها.
وقال: فرّقوا بين المنايا واجعلوا من الرأس رأسين.
وقال: أملكوا العجيين فإنه أحد الربيعين.
وقال أبو بكر لُغلام له كان يتجر بالثياب: إذا كان الثوب سابغاً فانشره وأنت قائم، وإذا كان قصيراً فانشره وأنت جالس، وإنما البيع مكّاس.
وقال عبد الملك بن مروان: من كان في يده شيءٌ فليصلحه، فإنه في زمان إن احتاج فيه فأول ما يبدل دينه.

باب الأدب في المؤكلة

قال النبي صلى الله عليه وسلم: إذا أكل أحدكم فليأكل بيمينه وليشرب بيمينه، فإن الشيطان يأكل بشماله ويشرب بشماله.
محمد بن سلام الجُمحي قال: قال بلال بن أبي بردة وهو أمير على البصرة للجارود بن أبي سترّة الهذلي: أتخصّر طعام هذا الشيخ؟ - يعني عبد الأعلى بن

عبد الله بن عامر - قال: نعم؛ قال: فصِفْه لي؛ قال: نأتيه فنجدُه مُنْبَطِحاً - يعني نائماً - فنجلس حتى يستيقظ، فيأذن فنساقطه الحديث، فإن حَدَّثناهُ أحسن الاستماع، وإن حَدَّثنا أحسن الحديث، ثم يدعو بمائدته وقد تقدّم إلى حواريه وأمّهات أولاده أن لا تُلطفه واحدةٌ منهن "إلا" إذا وُضعت مائدته، ثم يُقبل خبازه فيمُثّل بين يديه قائماً، فيقول له: ما عندك؟ فيقول: عندي كذا وكذا، فيعدّد ما عنده - يريد بذلك أن يحبس كلُّ رجل نفسه وشهوته على ما يريد من الطعام، وتُقبِل الألوان من هاهنا ومن هاهنا، فتوضع على المائدة، ثم يُوتى بثريدة شهباء من الفلفل، رَقْطَاء من الحِمْص، ذاتِ حَفَافين من العَرَّاق، فيأكل مُعَدِراً، حتى إذا ظنَّ أن القوم قد كادوا يمتلئون جثّاً على رُكْبتيه، ثم استأنف الأكل معهم. قال ابن بُردة: لله ذرُّ عبد الأعلى، ما أربطُ جأشَه على وقع الأضراس.

حضر أعرابيُّ سفرةَ هشام بن عبد الملك، فبينما هو يأكل معه إذ تعلّقتَ شَعْرَةٌ في لُقمة الأعرابيِّ. فقال له هشام: عندك شعرة في لُقمتك يا أعرابيُّ؟ فقال: وإنك لثلاثي ملاحظة من يرى الشَّعْرَةَ في لُقمتي، والله لا أكلت عندك أبداً. ثم خرج وهو يقول:

يُلاحظ أطراف الأكل على عمدٍ

وللموت خيرٌ من زيارة باخل

محمد بن يزيد قال: أكل قائدٌ لأبي جعفر المنصور معه يوماً، وكان على المائدة محمدٌ المهديّ وصالحُ ابنه، فبينما الرجلُ يأكل من تريدة بين أيديهم إذ سقط بعضُ الطعام من فيه في الغَضَّارة، وكان المهديّ وأخاه عافاً الأكل معه، فأخذ أبو جعفر الطعام الذي سقط من فم الرجل فأكله. فالتفت إليه الرجل، فقال: يا أمير المؤمنين أما الدنيا فهي أقلُّ وأيسر من أن أتركها لك، لكن والله لأتركن في مرضاتك الدنيا والآخرة. وحدث إبراهيم بن السنديّ قال: كان فتىً من بني هاشم يدخل على المنصور كثيراً، "يسلم من بعيد وينصرف". فأتاه يوماً فأذناه، ثم دعاه إلى الغداء، فقال: قد تغذيتُ. فأملهه الربيعُ حاجبُ المنصور حتى ظنَّ أنه لم يفهم الخطيئة، فلما انصرف وصار وراء السُّتر دَفَع في قَفَاه. فلما رأى من الحاجب دَفَعه في قَفَاه شكاً الفتى حالته وما ناله إلى عُمومته، فأقبلوا من غد إلى أبي جعفر، وقالوا: إن الربيع نال من هذا الفتى كذا وكذا؛ فقال لهم أبو جعفر: إن الربيع لا يقدم على مثل هذا إلا وفي يده حُجَّة، فإن شئتُم أمسكنا عن ذلك وأغضينا، وإن شئتُم سألتُه وأسمعتكم؛ قالوا: بل يسأله أمير المؤمنين ونسمع. فدعاه فسأله فقال: إن هذا الفتى كان يأتي فيُسلِّم وينصرف من بعيد، فلما كان أمس أذناه أمير المؤمنين حتى سلّم من قُرب، وتبدل بين يديه ودعاه إلى غدائه، فبلغ من جهله بحق المرتبة التي أحلّه فيها أن قال: قد تغذيتُ، وإذا هو ليس عنده لمن أكل مع أمير المؤمنين وشاركه في يده إلا سدٌّ حلَّة الجوع، ومثل هذا لا يُقومه القولُ دون الفعل. فسكت القوم وانصرفوا.

وقال بكر بن عبيد الله: أحق الناس بلطمة من أبي طعاماً لم يُدعَ إليه؛ وأحقُّ الناس بلطمتين من يقول له صاحب البيت اجلس ها هنا، فيقول: لا، ها هنا؛ وأحقُّ الناس بثلاث لطمات من دُعي إلى طعام فقال لصاحب المنزل: ادع ربة البيت تأكل معنا.

وقال أبو عثمان عمرو بن بحر الجاحظ: لا ينبغي للفتى أن يكون مُكْحَلًّا ولا مُقْبَبًا ولا مُكوكبًا ولا شكامداً ولا حرامداً ولا نُقامداً، ثم فسره فقال: أما المُكحل فالذي يتعرَّق العظم حتى يدعه كأنه مُكْحَلَّة عاج والمُقَّب فالذي يُركب اللحم بين يديه حتى يجعله كأنه قُبَّة. والمُكوكب: الذي يئصق في الطَّسْت ويتنخَّم فيها حتى يصير بُصَافه كأنه الكواكب في الطَّسْت. والحرامد: الذي يأتي في وقت الغداء والعشاء فيقول: ما تأكلون؟ فيقولون من بُغْضه: سماً، فيدخل يده ويقول في حرامِّ العيش بعدكم. والشكامد: الذي يُتبع اللقمة بأخرى قبل أن يُسيغها فيختنق كأنه ديك قد ابتلع فأرة. والتَّقامد: الذي يضع الطعام بين يديه ويأكل من بين يدي غيره.

ومن الأدب: أن يبدأ صاحبُ الطعام بغسل يده قبل الطعام، ثم يقول لجلسائه: من شاء منكم فليغسل، فإذا غسَلَ بعد الطعام فليقدّمهم ويتأخر.

أدب الملوك

وقال العلماء: لا يُؤم ذو سلطان في لسْطانه، ولا يُجلس على تكريمته إلا بإذنه. وقال زياد: لا يُسلِّم على قادم بين يدي أمير المؤمنين: ودخل عبد الله بن عباس على معاوية وعنده زياد، فرحّب به معاوية، ووسّع له إلى جنبه، وأقبل عليه يُسائله ويُحادثه، وزياد ساكت، فقال له ابن عباس: كيف حالُّك أبا المغيرة، كأنك أردت أن تُحدث بيننا وبينك هجرة؟ فقال: لا، ولكنه لا يُسلِّم على قادم بين يدي أمير المؤمنين. قال ابن عباس: ما أدركت الناس

إلا وهم يُسلمون على إخوانهم بين يدي أمرائهم. فقال له معاوية: كُفَّ عنه يابن عباس، فإنك لا تَشَاءُ أَنْ تُعْلَبَ إِلَّا غَلِبْتَ.
 الشَّيبَانِي قَالَ: بَصَقَ ابْنُ مَرْوَانَ فَقَصَرَ فِي بَصَقَتِهِ، فَوَقَعَتْ فِي طَرْفِ الْبِسَاطِ، فَقَامَ رَجُلٌ مِنَ الْمَجْلِسِ فَمَسَحَهُ بِكُمِّهِ. فَقَالَ عَبْدُ الْمَلِكِ بْنُ مَرْوَانَ: أَرْبَعَةٌ لَا
 يُسْتَحْيَى مِنْ خِدْمَتِهِمْ: الْإِمَامُ وَالْعَالِمُ وَالْوَالِدُ وَالضَّيْفُ.
 وَقَالَ يَحْيَى بْنُ خَالِدٍ: مُسْأَلَةُ الْمَلُوكِ عَنْ حَالِهَا مِنْ تَحِيَّةِ النَّوَكِيِّ، فَإِذَا أُرِدْتَ أَنْ تَقُولَ: كَيْفَ أَصْبَحَ الْأَمِيرُ، فَقُلْ: صَبَّحَ اللَّهُ الْأَمِيرَ بِالنِّعْمَةِ وَالْكَرَامَةِ؛ وَإِنْ
 كَانَ عَلِيًّا فَأُرِدْتَ أَنْ تَسْأَلَهُ عَنْ حَالِهِ، فَقُلْ: أَنْزَلَ اللَّهُ عَلَيَّ الْأَمِيرَ الشِّفَاءَ وَالرَّحْمَةَ.

وقالوا: إذا زادك الملك إكراماً فردّه إعظاماً، ماذا جعلك عبداً فاجعله رباً، ولا تُدبِنِ النظرَ إليه، ولا تُكثِرِ من الدُّعَاءِ له في كلِّ كلمةٍ. ولا تتغير له إذا
 سَخِطَ، ولا تغتر به إذا رَضِيَ، ولا تُلْحِفِ في مسألته.
 وقالوا: الملوك لا تُسأل ولا تُشمت ولا تُكَيَّف. وقال الشاعر:

ولا إذا ملوا يُعَاتَبُونَ

وفي العطاس لا يُشمتون

يُثنى عليهم ويُجلون

إِنَّ الْمُلُوكَ لَا يُخَاطَبُونَ

وفي المقال لا يُنَازَعُونَ

وفي الخطاب لا يُكَيَّفُونَ

فافهم وصاتي لا تكن مجنوناً

وقالوا: من تمام خدمة الملوك أن يُقَرَّبَ الخادمُ إليه نَعْلِيهِ، ولا يَدَعَهُ يَمْشِي إِلَيْهِمَا، وَيَجْعَلُ النِّعْلَ الْيُمْنَى قِبَالَ الرَّجُلِ الْيُمْنَى، وَالْيُسْرَى قِبَالَ الرَّجُلِ
 الْيُسْرَى، وَإِذَا رَأَى مُتَّكِئاً يَحْتَاجُ إِلَى إِصْلَاحِ أَصْلَحِهِ، وَلَا يَنْتَظِرُ فِيهِ أَمْرَهُ، وَيَتَفَقَدُ الدَّوَاةَ قَبْلَ أَنْ يَأْمُرَهُ، وَيَنْفُضُ عَنْهَا الْغَبَارَ إِذَا قَرَّبَهَا إِلَيْهِ، وَإِنْ رَأَى بَيْنَ
 يَدَيْهِ قِرْطَاسًا قَدْ تَبَاعَدَ عَنْهُ قَرَّبَهُ إِلَيْهِ وَوَضَعَهُ بِي يَدَيْهِ عَلَى كِسْرِهِ.
 وَقَالَ أَصْحَابُ مُعَاوِيَةَ لِمُعَاوِيَةَ: إِنَّا رُبَّمَا جَلَسْنَا عِنْدَكَ فَوْقَ مِقْدَارِ شَهْوَتِكَ، فَأَنْتَ تَكْرَهُ أَنْ تَسْتَحْفِنَا فَتَأْمُرَ بِالْقِيَامِ، وَنَحْنُ نَكْرَهُ أَنْ نُثْقَلَ عَلَيْكَ فِي الْجُلُوسِ،
 فَلَوْ جَعَلْتَ لَنَا عِلَامَةً نَعْرِفُ بِهَا ذَلِكَ؟ فَقَالَ: عِلَامَةُ ذَلِكَ أَنْ أَقُولَ: إِذَا شِئْتُمْ.
 وَقِيلَ مِثْلُ ذَلِكَ لِيَزِيدَ بْنِ مُعَاوِيَةَ. فَقَالَ: إِذَا قُلْتُ عَلَى بَرَكَةِ اللَّهِ.
 وَقِيلَ مِثْلُ ذَلِكَ لِعَبْدِ الْمَلِكِ بْنِ مَرْوَانَ، فَقَالَ: إِذَا وَضَعْتُ الْحِزْرَانَةَ.
 وَمَا سَمِعْتُ بِاللُّطْفِ مَعْنَى، وَلَا أَكْمَلَ أَدْبَابًا، وَلَا أَحْسَنَ مَذْهَبًا فِي مُسْأَلَةِ الْمُلُوكِ مِنْ شَيْبِ بْنِ شَيْبَةَ، وَقَوْلِهِ لِأَبِي جَعْفَرٍ: أَصْلَحَكَ اللَّهُ إِنْ أَحْبَبَ الْمَعْرِفَةَ،
 وَأُجِّلَكَ عَنِ السُّؤَالِ. فَقَالَ لَهُ: فَلَانَ بْنِ فَلَانَ.

باب الكناية والتعريض

ومن أحسن الكناية اللطيفة عن المعنى الذي يُفْهِمُ ظاهراً: قِيلَ لِعُمَرَ بْنِ عَبْدِ الْعَزِيزِ وَقَدْ نَبَتَ لَهُ حَبْنٌ تَحْتَ أَنْثِيَّتِهِ: أَيْنَ نَبَتَ بِكَ هَذَا الْحَبْنُ؟ قَالَ بَيْنَ
 الرانفة والصَّغْنِ.
 وَقَالَ آخَرٌ وَنَبَتَ بِهِ حَبْنٌ فِي إِبْطِهِ: أَيْنَ نَبَتَ بِكَ هَذَا الْحَبْنُ؟ قَالَ: تَحْتَ مَنْكِبِيَّ.
 وَقَدْ كَتَبَ اللَّهُ تَعَالَى فِي كِتَابَةِ عَنِ الْجَمَاعِ بِالْمَلَامَسَةِ، وَعَنِ الْحَدِيثِ بِالْغَائِطِ فَقَالَ: "أَوْ جَاءَ أَحَدٌ مِنْكُمْ مِنَ الْغَائِطِ"، وَالْغَائِطُ: الْفَحْصُ، وَهُوَ الْمُطْمَئِنُّ
 مِنَ الْأَرْضِ؛ وَجَمَعَهُ: غَيْطَانٌ. "وَقَالُوا مَا لِهَذَا الرَّسُولِ يَأْكُلُ الطَّعَامَ". وَإِنَّمَا كَتَبَ "بِهِ" عَنِ الْحَدِيثِ. وَقَالَ تَعَالَى: "وَاضْمُمْ يَدَكَ إِلَى جَنَاحِكَ تَخْرُجُ
 بَيْضَاءَ مِنْ غَيْرِ سَوَاءٍ". فَكَتَبَ "بِالسَّوَاءِ" عَنِ الرَّصِ.
 وَدَخَلَ الرَّبِيعُ بْنُ زِيَادٍ عَلَى الثُّعْمَانَ بْنِ الْمُنْذَرِ وَبِهِ وَضَحٌ، فَقَالَ: مَا هَذَا الْبَيَاضُ بِكَ؟ فَقَالَ: سَيْفُ اللَّهِ جَلَاهُ.
 وَدَخَلَ حَارِثَةُ بْنُ بَدْرِ عَلَى زِيَادٍ وَفِي وَجْهِهِ أَثَرٌ، فَقَالَ لَهُ زِيَادٌ: مَا هَذَا الْأَثَرُ الَّذِي فِي وَجْهِكَ؟ قَالَ: رَكِبْتُ فَرَسِي الْأَشْقَرَ فَجَمَحَ بِي، فَقَالَ: أَمَا إِنَّكَ لَوْ

رَكِبْتُ الأَشْهَبَ لما فعل ذلك. فَكُنِّي حارثة بالأشقر عن النبيذ، وَكُنِّي زياد بالأشهب عن اللبن.
وقال معاوية للأحنف بن قيس: أَخْبِرْنِي عن قول الشاعرِ.

وسرك أن يعيش فجيء بزاد
أو الشيء الملقف في الجاد
ليأكل رأس لقمان بن عاد

إذا ما مات مئت من تميم
بخبز أو بتمر أو بسمن
تراه يطوف في الافاق حرصاً

ما هذا الشيء الملقف في الجاد؟ قال الأحنف: السخينة يا أمير المؤمنين. قال معاوية: واحدة بأحرى والبادي أظلم - والسخينة طعام كانت تعمله قريش من دقيق، وهو الحريرة، فكانت تُسب به، وفيه يقول حسّان بن ثابت:

وليُغلبن مغالب الغلاب

زعمت سخينة أن ستغلب ربها

وقال آخر:

تعشوا من خزيرتهم فناموا

ولما عزل عثمان بن عفان عمرو بن العاص عن مصر وولاه ابن أبي سرح، دخل عمرو على عثمان وعليه جبة مشوّة، فقال له عثمان: ما حشوّ جبتك يا عمرو؟ قال: أنا؛ قال: قد علمت أنك فيها. ثم قال له يا عمرو: أشعرت أن اللقاح درت بعدك ألبانها؟ فقال: لأنكم أعجفتهم أولادها. فكُنِّي عثمان عن خراج مصر باللقاح، وَكُنِّي عمرو عن جور الوالي بعده، وأنه حرم الرزق أهل العطاء ووفّره على السلطان.
وكان في المدينة رجل يُسَمَّى جَعْدَةَ يُرَجِّل شعره ويتعرّض للنساء المعزبات، فكتب رجلٌ من الأنصار كان في الغزو إلى عمّار بن الخطاب رضي الله عنه:

فدى لك من أخي ثقة إزاري
شغلنا عنكم زمن الحصار
وبئس معقل الذود الطوار

ألا أبلغ أبا حفص رسولا
قلائصنا هذاك الله إنا
يُعقلهن جعد شيطمي

فكُنِّي بالقلائص عن النساء. وعرض برجل يقال له جَعْدَةَ. فسأل عنه عمر، فدُل عليه، فجزّ شعره، ونفاه عن المدينة.
وسمع عمر بن الخطاب امرأة في الطواف تقول:

نقاخ فتلكم عند ذلك قرّت
أجاج ولولا خشية الله فرّت

فمنهنّ من تُسقى بعدب مُبرد
ومنهنّ من تُسقى بأخضر آجن

ففهم شكواها، فبعث إلى زوجها، فوجده متغيّر الفم. فخيّره بين خمسمائة من الدراهم وطلاقها. فاختر الدرهم، فأعطاه وطلقها.
ودخل على زياد رجلٌ من أشرف البصرة فقال له زياد: أين مسكنك من البصرة؟ قال: في وسطها، قال له: كم لك من الولد؟ قال: تسعة، فلما خرج من عنده قيل له: إنه ليس كذلك في كل ما سألته، وليس له من الولد إلا واحد، وهو ساكن في طرف البصرة. فلما عاد إليه سأله زياد عن ذلك، فقال له: ما كذبك، لي تسعة من الولد قدّمت منهم ثمانية فهم لي، وبقي معي واحد، فلا أدري إليّ يكون أم عليّ، ومترلي بين المدينة والجبانة، فأنا بين الأحياء والأموات، فمترلي في وسط البصرة؛ قال: صدقت.

الكناية يورى بها عن الكذب والكفر

لما هزم الحجاجُ عبدَ الرحمن بن الأشعث وقتل أصحابه وأسرَ بعضهم، كتب إليه عبدُ الملك بن مروان أن يعرضَ الأسرى على السيف، فمن أقرَّ منهم بالكفر حلَّى سبيله، ومن أبى يقتله، فأبى منهم عامر الشعبي ومطرف ابن عبد الله بن الشَّخِير وسعيد بن جبير؟ فأما الشعبي ومطرف فذهبا إلى التعريض والكناية ولم يُصرِّحا بالكفر، فقبِلَ كلامهما وعفا عنهما؟ وأما سعيد ابن جبير فأبى ذلك فقتل.

وكان مما عرضَ به الشعبي، فقال؛ أصلح الله الأمير، نَبَا المزل، وأحزَن بنا الجناب، واستحلَّسنا الخوفَ، واكتحلنا السهرَ، وخبطننا فتنةً لم نكن فيها بررةً أتقيا، ولا فجرةً أقويا. قال؛ صدقَ والله، ما برؤوا بخروجهم علينا ولا قووا، حلِّيا عنه ثم قَدِّم "إليه" مطرف بن عبد الله، فقال له الحجاج: أتقرُّ على نفسك بالكفر؟ قال: إنَّ من شق العصا، وسفك الدماء، ونكت البيعة، وأحاف المسلمين لجديرٍ بالكفر؟ قال: خليا عنه. ثم قَدِّم إليه سعيد بن جبير، فقال له: أتقرُّ على نفسك بالكفر؟ قال: ما كفرتُ بالله مذ آمنت به؟ قال: أضربوا عنقه.

ولما ولي الواثقُ وأقعد للناس أحمد بن أبي دُواد للمحنة في القرآن ودعا إليه الفقهاء، أتى فيهم بالحارث بن مسكين، فقيل له: أتشهد أن القرآن مخلوق؟ قال: أشهد أن التوراة والإنجيل والزبور والقرآن، هذه الأربعة مخلوقة، ومدَّ أصابعه الأربع، فعرض بها وكنى عن خلق القرآن وخلص مُهَجَّتَه من القتل: وعجز أحمد بن نصر فقيه بغداد عن الكناية فأباها، فقتل وصلب.

ودخل بعضُ النسَّاك على بعض الخلفاء فدعاه إلى طعامه، فقال له: الصائم لا يأكل يا أمير المؤمنين، وما أذكي نفسي بل الله يزكي من يشاء؛ وإنما كره طعامه.

الأصمعيُّ عن عيسى بن عمر قال؛ بينما ابن عرباض يمشي مُقدِّماً لطبيته، إذ استقبلته الخوارج يجزؤون الناسَ بسيفهم، فقال لهم: هل خرج إليكم في اليهود شيء؟ قالوا: لا؟ قال: فامضوا راشدين، فمضوا وتركوه.

ولقي شيطانُ الطاق رجلاً من الخوارج وبيده سيفٌ، فقال له الخارجي: والله لأقتلنك أو تبرأ من عليّ؛ فقال له: أنا من عليّ، ومن عثمان بريء " يريد أنه من عليّ، وبريء من عثمان" أبو بكر بن أبي شيبَةَ قال: قال الوليد "بن عُقبَةَ" على المنبر بالكوفة: أفسمُ على من سَماني أشعرَ برُكاً إلا قام "فخرج عتي" فقام إليه رجل من أهل الكوفة، فقال له: ومن هذا الذي يقوم بين يديك فيقول: أنا الذي سميتك أشعرَ برُكاً؟ "قال": وكان هو الذي سمّاه "بذاك".

"وقال معاويةُ لصعصعة بن صوحان: اصعد المنبر فالعن عليًّا"، فامتنع من ذلك وقال: أو تُعفيني؟ قال: لا. فصعد المنبر فحمد الله وأثنى عليه ثم قال: معاشر الناس، إنَّ معاوية أمرني أن ألعن عليًّا، فالعنوه لعنة الله".

الكناية عن الكذب في طريق المدح

المدائني قال: أتى العُريان بن الهيثم بسلام سكران، فقال له: من أنت؟ فقال:

وإن نزلت يوماً فسوف تعودُ

أنا ابن الذي لا ينزلُ الدهرُ قدره

فمنهم قيامٌ حولها وقعود

تري الناسَ أفواجا إلى ضوء نارهِ

فظنَّته ولداً لبعض الأشراف، فأمر بتخليته. فلما كشف عنه، قيل له: إنَّه ابن باقلاين.

ودخل رجل على عيسى بن موسى وعنده ابن شبرمة "القاضي"، فقال له: أتعرف هذا الرجل؟ - وكان رُمي عنده بريئة - فقال "نعم"، إن له بيتاً وقدماً وشرفاً، فخلَّى سبيله. فلما انصرف ابن شبرمة قال له "أصحابه": أكنت تعرف هذا الرجل؟ قال: لا، ولكني عرف أن له بيتاً يأوي إليه، وقدماً يمشي عليها، وشرفه أذناه ومكياه.

وخطب رجل لرجل إلى قوم، فسألوه: ما حرفته؟ فقال: هو نخَّاس الدواب، فزوجوه، فلما كشف عنه وجدوه يبيع السنَّانير، فلما عنَّوه في ذلك قال:

أَوْ مَا السَّنَانِيرِ دَوَابُّ؟ مَا كَذَبْتَكُمْ فِي شَيْءٍ.

ودخل مُعلَى الطائي على ابن السَّرِيِّ يعودُه في مرضه، فأَنشده شعراً يقول فيه:

فَأَقْسَمُ إِنَّ مِنَ الْإِلَهِ بِصَحَّةٍ

لَأُرْتَحِلَنَّ الْعَيْسَ شَهْرًا بِحِجَّةٍ

وَنَالَ السَّرِيَّ بْنَ السَّرِيِّ شَفَاءً

وَأُعْتَقَ شُكْرًا سَالِمًا وَصَفَاءً

فلَمَّا خرج من عنده قال له أصحابُه: واللَّهِ ما نعلم عبدك سالمًا ولا عبدك صفاءً، فَمَنْ أردت أن تُعتق؟ قال؟ هما هرتان عندي، والحجَّ فريضة واجبة، فما عَلَيَّ في قولي شيء إن شاء الله تعالى.

باب في الكناية والتعريض في طريق الدعابة

سُئِلَ ابن سيرين عن رجل، فقال: تُوفِّي البارحة. فلما رأى جَزَعَ السائل، قال: "اللَّهُ يَتَوَفَّى الْأَنْفُسَ حِينَ مَوْتِهَا وَالَّتِي لَمْ تُمُتْ فِي مَنَامِهَا" وإنما أردتُ بالوفاة النوم.

ومرَّضَ زيادٌ فدخل عليه شريح القاضي يعودُه. فلَمَّا خرج بعث إليه مسروقُ بن الأجدع يسأله: كيف تركتَ الأمير؟ قال: تركته يأمر وينهى؛ فقال مسروق: إن شَرِيحاً صاحبٌ تعريض "عويص" فاسأله، فسأله فقال: تركته يأمر بالوصية وينهى عن البكاء. وكان سنان بن مكمَّل التميمي يساير عُمر بن هبيرة الفزاري يوماً على بَغْلَةٍ، فقال له ابن هبيرة: عُضٌّ من عنانِ بَعْلَتِكَ؛ فقال: إنها مكتوبة، أصلح الله الأمير. أراد ابن هبيرة قول جرير:

فَغَضَّ الطَّرْفَ إِنَّكَ مِنْ نُمَيْرٍ

فَلَا كَعْبًا بَلَغْتَ وَلَا كَلَابًا

وأراد سنان قول الشاعر:

لَا تَأْمَنَنَّ فَزَارِيًّا خَلَوْتَ بِهِ

عَلَى قَلْوَصِكَ وَاكْتَبْتَهَا بِأَسْيَارٍ

ومرَّ رجلٌ من بني تميم برجل من بني نُمَيْرٍ على يده بازي، فقال التميميُّ للتميمي: هذا البازي لك؟ فقال له التميمي: نعم، وهو أهدى من القَطَا. أراد التميميُّ قول جرير:

أَنَا الْبَازِي الْمَطْلُ عَلَى نُمَيْرٍ

أُتِحْتُ لَهَا مِنَ الْجَوِّ انْصِبَابًا

وأراد النُمَيْريُّ قول الطَّرِمَاح:

تَمِيمٌ بِطَرُقِ اللَّؤْمِ أَهْدَى مِنَ الْقَطَا

وَلَوْ سَلَكَتْ سُبُلَ الْمَكَارِمِ ضَلَّتْ

ودخل رجلٌ من مُحَارِبٍ على عبد الله بن يزيد الهلالي، وهو والي أرمينية وقريبٌ منه غدير فيه ضفادع، فقال عبد الله بن يزيد: ما تركتنا شيوخ مُحَارِبٍ ننام الليلة؛ فقال له المحاربي: أصلح الله الأمير، أو تدري لمْ ذلك؟ قال: ولم؟ قال: لأنها أضفت بُرْقُعًا لها؛ قال: فَبَحَكَ اللَّهُ وَفَبِحَ ما جئت به. أراد ابن يزيد الهلالي قول الأخطل:

تَنْقُ بِلَا شَيْءٍ شِيُوخُ مُحَارِبٍ

وَمَا خَلَّتْهَا كَانَتْ تَرِيشٌ وَلَا تَبْرِي

ضَفَادِعُ فِي ظَلْمَاءِ لَيْلٍ تَجَاوَبَتْ

فَدَلَّ عَلَيْهَا صَوْتُهَا حَيَّةَ الْبَحَرِ

وأراد المحاربيُّ قول الشاعر:

لِكُلِّ هِلَالِيٍّ مِنَ اللَّؤْمِ بُرْقُعٌ

وَلابن يزيد بُرْقُعٌ وقميصٌ

وقال معاوية لعبد الرحمن بن الحكم: استعرض لي هذين الفرسين؛ فقال: أحدهما أحشٌ والآخر هزيم، يعني قول النجاشي:

أجشُّ هزيمٌ والرماح دواني

ونجى ابن هندٍ سابحٌ ذو علالةٍ

فقال معاوية: أما إن صاحبهما على ما فيه "لا"، يُشثب بكنايته.

وكان عبد الرحمن يُرمي بكنته.

وشاور زياداً رجلاً من ثقاته في امرأة يتزوجها، فقال: لا خير لك فيها، إني رأيت رجلاً يُقبلها، فتركها؛ وخالفه الرجل إليها وتزوجها. فلما بلغ زياداً خبره أرسل إليه وقال له: أما قلت لي إنك رأيت رجلاً يُقبلها؟ قال: نعم، رأيت أباهما يُقبلها.

وقال أعرابيٌ لعمر بن الخطاب رضي الله عنه: يا أمير المؤمنين، احملني وسحيمًا على حمل؟ فقال: نشدتك الله يا أعرابي، أسحيم هذا زق؟ قال: نعم؟ ثم قال: من لم ينفعه ظنه لم ينفعه يقينه.

وودع رجلٌ رجلاً كان يُبغضه، فقال: امض في سرٍ من حفظ الله، وحجاب من كلاءته. ففطن له الرجل، فقال: رفع الله مكانك، وشدّ ظهرك، وجعلك منظوراً إليك.

والشيباني قال: كان ابن أبي عتيق صاحب هزلٍ وهو، واسمه عبد الله بن محمد بن أبي بكر "الصدّيق رضي الله عنهم"، وكانت له امرأة من أشرف قريش، وكان لها فتيات يُغنين في الأعراس والمآتم، فأمرت جاريةً منهن أن تغني بشعر لها قالت في زوجهما، فتغنت الجارية وهو يسمع:

وقمرت لبك أيما قمر

ذهب الإله بما تعيش به

في كل زانية وفي الخمر

أنفقت مالك غير مُحنتم

فقال للجارية: لمن هذا الشعر؟ قالت: لمؤلاتي. فأخذ قرطاساً فكتبه وخرج به، فإذا هو بعبد الله بن عمر بن الخطاب، فقال: يا أبا عبد الرحمن، قف قليلاً أكلمك، فوقف عبد الله بن عمر؛ فقال: ما ترى فيمن هجاني بهذا الشعر؟ وأنشد البيت؟ قال: أرى أن تعفو وتصفح؛ قال: أما والله لئن لقيته لأنيكنه، فأخذ ابن عمر ينكله ويذره، وقال: قبحك الله. ثم لقيه بعد ذلك بأيام، فلما أبصره ابن عمر عرض عنه بوجهه، فاستقبله ابن أبي عتيق؟ فقال له: سألتك بالقبور ومن فيه إلا سمعت مني حرفين؟ فولاه قفاه وأصت له، قال: علمت أبا عبد الرحمن أني لقيت قائل ذلك الشعر ونكته؟ فصعق عبد الله ولبظ به؟ فلما رأى ما نزل به دنا من أذنه، وقال: أصلحك الله، إنها امرأتي "فلانة". فقام ابن عمر، وقيل ما بي عينيه "وتبسّم ضاحكاً".

باب في الصمت

كان لقمان الحكيم يجلس إلى داود صلى اله عليه وسلم "مُقْتَبِسا"، وكان عبداً أسود، فوجده وهو يعمل درعاً من حديد؛ فعجب منه ولم ير درعاً قبل ذلك، فلم يسأله لقمان عما يعمل ولم يُخبره داود، حتى تمت الدرّ بعد سنة، فقاسها داود على نفسه، وقال: زرد طافاً ليوم قرافاً. تفسيره: درع حصينة ليوم قتال. فقال لقمان: الصمت حُكم وقليل فاعله.

وقال أبو عبيد الله كاتب المهدي: كُن على التماس الحظ بالسكوتِ أحرص منك على التماسه بالكلام، إن البلاء موكّل بالمنطق. وقال أبو الدرداء: أنصف أذنيك من فيك، فإنما جعل لك أذنان اثنان وقم واحد لتسمع أكثر مما تقوله ابن عوف عن الحسن، قال: جلسوا عند معاوية فتكلّموا وسكت الأحنف فقال معاوية: مالك لا تتكلم أبا بحر؟ قال: أخافك إن صدقت، وأخاف الله إن كذبت.

وقال المهلب بن أبي صفرة: لأن أرى لعقل الرجل فضلاً على لسانه أحبُّ إليّ من أن أرى للسانه فضلاً على عقله.

وقال سالم بن عبد الملك: فضل العقل على اللسان مُروءة، وفضل اللسان على العقل هُجنة.

وقالوا: من ضاق صدره اتسع لسانه، ومن كثر كلامه كثر سقطه، ومن ساء خلقه قلّ صديقه.

وقال هرم ابن حيّان: صاحب الكلام بين إحدى منزلتين، إن قصر فيه خصم، وإن أغرق فيه أثم.

وقال شبيب بن شيبه: مَنْ سَمِعَ الْكَلِمَةَ يَكْرَهَهَا فَسَكَتَ عَنْهَا انْقَطَعَ ضَرْهُمَا عَنْهُ.
وقال أكنم بن صيفي: مَقْتَلُ الرَّجُلِ بَيْنَ فِكْيِهِ.
وقال جعفر بن محمد بن علي بن الحسين بن علي بن أبي طالب رضي الله عنهم:

وليس يموتُ المرءُ من عَثْرَةِ الرَّجْلِ
وعثرته بالرَّجْلِ تَبْرًا عَلَى مَهْلٍ

يَمُوتُ الْفَتَى مِنْ عَثْرَةِ بِلِسَانِهِ
فَعَثْرَتُهُ مِنْ فِيهِ تَرْمِي بِرَأْسِهِ

وقال الشاعر:

فإِذَا نَطَقْتَ فَلَا تَكُنْ مَكْتَارًا
لكن نَدِمْتُ عَلَى الْكَلَامِ مِرَارًا

الْحِلْمُ زَيْنٌ وَالسُّكُوتُ سَلَامَةٌ
مَا إِنْ نَدِمْتُ عَلَى سُكُوتِي مَرَّةً

وقال لحسن بن هانيء:

وَأَمْضِ عَنْهُ بِسَلَامٍ
لَكَ مِنْ دَاءِ الْكَلَامِ
لِ فَتَامٍ وَفَنَامٍ
جَمَ فَاهُ بِلِجَامٍ

خَلَّ جَنبِيكَ لِرَأْمِي
مُتُّ بَدَاءَ الصَّمْتِ خَيْرٌ
رَبُّ لَفْظِ سَاقِ آجَا
إِنَّمَا السَّلَامُ مِنْ أَلٍ

وقال بعض الحكماء: حَظِّي مِنَ الصَّمْتِ لِي وَنَفْعُهُ مَقْصُورٌ عَلَيَّ، وَحَظِّي مِنَ الْكَلَامِ لِغَيْرِي وَوَبَالَهُ رَاجِعٌ عَلَيَّ.
وقالوا: إِذَا أَعْجَبَكَ الْكَلَامُ فَاصْمُتْ.

وقال رجلٌ لعمر بن عبد العزيز: متى أتكلّم؟ قال: إِذَا اشْتَهَيْتَ أَنْ تَصْمُتَ؟ قال: فمتى أصمت؟ قال: إِذَا اشْتَهَيْتَ أَنْ تَتَكَلَّمَ.
وقال النبي صلى الله عليه وسلم: مَا أُعْطِيَ الْعَبْدُ شَرًّا مِنْ طَلَاقَةِ اللِّسَانِ.
وسَمِعَ عَبْدَ اللَّهِ بْنِ الْأَثَمِ رَجُلًا يَتَكَلَّمُ فَيُخْطِئُ، فَقَالَ: بِكَلامِكَ رُزِقَ الصَّمْتُ الْحَبِيبَةُ.

باب في المنطق

قال الذين فَضَّلُوا الْمُنْطِقَ: إِنَّمَا بُعِثَتِ الْأَنْبِيَاءُ بِالْكَلامِ وَلَمْ يُبْعَثُوا بِالسُّكُوتِ. وبالكلام وُصِفَ فَضَّلَ الصَّمْتِ، وَلَمْ يُوصَفِ الْقَوْلُ بِالصَّمْتِ، وبالكلام يُؤْمَرُ بِالْمَعْرُوفِ وَيُنْهَى عَنِ الْمُنْكَرِ وَيُعْظَمُ اللَّهُ وَيُسَبِّحُ بِحَمْدِهِ، وَالْبَيَانُ مِنَ الْكَلَامِ هُوَ الَّذِي مَنَّ اللَّهُ بِهِ عَلَى عِبَادِهِ، فَقَالَ: "خَلَقَ الْإِنْسَانَ عَلَّمَهُ الْبَيَانَ". وَالْعِلْمُ كُلُّهُ لَا يُؤَدِّبُهُ إِلَّا أَوْعِيَةُ الْقُلُوبِ إِلَّا اللِّسَانَ، فَتَنْفَعُ الْمُنْطِقَ عَامَ لِقَائِهِ وَسَامِعَهُ "وَمَنْ بَلَغَهُ"، وَتَنْفَعُ الصَّمْتِ خَاصَّ بِنَفْعِهِ.
وَأَعْدَلُ شَيْءٍ قِيلَ فِي الصَّمْتِ وَالْمُنْطِقِ قَوْلُهُمْ: الْكَلَامُ فِي الْخَيْرِ كُلِّهِ أَفْضَلُ مِنَ الصَّمْتِ، وَالصَّمْتُ فِي الشَّرِّ كُلِّهِ أَفْضَلُ مِنَ الْكَلَامِ.
وقال عبد الله المبارك صاحبُ الرِّقَاقِ يَرْتِي مالِكَ بْنَ أَنَسِ الْمَدِينِيِّ:

وَفَتَّاقُ أَبْكَارِ الْكَلَامِ الْمُخْتَمِّ
وَسَيْطَتُ لَهُ الْأَدَابُ بِاللَّحْمِ وَالْدَمِّ

صَمُوتٌ إِذَا مَا الصَّمْتُ زَيْنَ أَهْلِهِ
وَعَى مَا وَعَى الْقُرْآنُ مِنْ كُلِّ حِكْمَةٍ

وقال عمرُ بن الخطاب: تَرَكَ الْحَرَكَةَ غَفْلَةً.

وقال بكرُ بن عبد الله الزُّبَيْرِيُّ: طُولُ الصَّمْتِ حُبْسَةٌ.

وقالوا: الصمتُ نَوْمٌ، والكلامُ يَقْظَةٌ.
وقالوا: ما شيءٌ تُنِي إلا قَصْرٌ، إلا الكلامُ فإنه كلما تُنِي طال. "وقال الشاعر:

أَبْدَى مَقَالاً كَانَ فَضْلاً

لم لم يَدَعُ فِي الْقَوْلِ فَضْلاً "

الصمتُ شِيمَتُهُ فَإِنْ

أَبْدَى السُّكُوتَ فَإِنْ تَكَ

باب في الفصاحة

محمد بن سيرين قال: ما رأيتُ عَلَى امرأةٍ أَجْمَلَ من شَحْمٍ، ولا رأيتُ عَلَى رَجُلٍ أَجْمَلَ من فصاحة. وقال اللهُ تبارك وتعالى فيما حكاه عن نبيِّه موسى صلى اللهُ عليه وسلم وأستيحاشه بعدم الفصاحة: "وأخي هَرُونَ هُوَ أَفْصَحُ مِنِّي لِسَانًا فَأَرْسَلْهُ مَعِيَ رِدْءًا يُصَدِّقُنِي".

آفات المنطق

تكلّم ابن السّمّاك يوماً وجارية له تسمع كلامه، فلما دخل قال لها: كيف سمعت كلامي؟ قالت: ما أحسنه لولا أنك تردده؛ قال: أردده ليفهمه من لم يفهمه؛ قالت: إلى أن يفهمه من لم يفهمه يملّه من فهمه.

"الأصمعي قال: " قال معاوية يوماً لجلسائه: أيّ الناس أفصح؟ فقال رجلٌ من السّماط: يا أمير المؤمنين، قوم قد ارتفعوا عن رثّة العراق، وتياسرُوا عن كَشْكشة بكر، وتيامنُوا عن: شَثْنَة تُغَلَّب، ليس فيهم غَمْغمة قُضاعة، ولا طمطمانيّة حَمِير. قال: من هم؟ قال: قومك يا أمير المؤمنين قُرَيْش؛ قال: صدقت، فمن أنت؟ قال: من جَرَم قال الأصمعي: جَرَمُ فَصَحَى الناس.

وهذا الحديث قد وَقَعَ في فضائل قُرَيْش، وهذا مَوْضِعُهُ أيضاً فأعدناه. قال أبو العباس محمد بن يزيد النحويّ: التّمتمة في المنطق: التردّد في التّاء، والعُقْلَة: هي التّواء اللسان عند إرادة الكلام؟ والحُبْسَة: تعذّر الكلام عند إرادته؛ واللفف: إدخال حَرْفٍ في حَرْفٍ؟ والرّثّة: كالرّجّ تمّنع أول الكلام، فإذا جاء منه شيء اتصل به ". والعَمْغمة: أن تسمع الصوت ولا يبيّن لك تقطيع الحروف. وأما الرّثّة: فإنها تكون غريزية، وقال الراجز:

بأَيُّهَا الْمُخَطِّطُ الأَرْتَّ

ويقال إنّها تكثّر في الأشراف. وأما العَمْغمة: فإنها قد تكون من الكلام وغيره. لأنّها صَوْتٌ من لا يُفهم تقطيع حروفه. قال عنتره:

يُرِيدُ لَبِيكَ وما تكلّمًا

"وصاحب ناديتَه فغمّغما

قد صار من خوف الكلام أعجمًا "

والطمطمية: أن يكون الكلام مُشَبَّهًا لكلام العجم؟ واللكنة: أن تُعترض في الكلام اللّغة الأعجمية- وسنفسّر هذا حرفاً حرفاً، وما قيل فيه إن شاء الله- واللّثغة: أن يُعدّل بحرفٍ إلى حَرْفٍ؛ والعُتّة: أن يُشرب الحرف صوت الحيشوم؛ والحنّة: أشد منها؟ والزخيم: حَذَفَ الكلام؛ والفأفأة: التردد في الفاء؛ يقال: رجل فأفاء، تقديره فاعال، ونظيره من الكلام ساباط وخاتام، قال الراجز:

أخذت خاتامي بغير حقّ

يامي ذات الجورب المنشقّ

وقال آخر:

ليس بفأفاء ولا تَمَتَّام

ولا مُحَبُّ سَقَطَ الكَلام

وأما كشكشة تميم: فإن بني عمرو بن تميم إذا ذكرتُ كاف المؤنث فوفقتُ عليها أبدلت منها شينا، لقرب الشين من الكاف في المخرج، وقال راجزهم:

هل لك أن تنتفعي وأنفعش

فتدخلين اللذ معي في اللذ معش

وأما كسكسة بكر. فقوم منهم يُبدلون من الكاف سينا كما فعل التميميون في الشين. وأما طمطمانية حمير: ففيها يقول عنتره:

تأوي له قُلُص النِّعام كما أوت

حزق يمانية لأعجم طمطم

وكان صُهيب أبو يحيى رحمه الله يَرْتَضِخُ لُكْنَةَ روميّة.

وقال رسول الله صلى الله عليه وسلم: صُهيب سابق الروم.

وكان عبيد الله بن زياد يرتضخُ لُكْنَةَ فارسية من قبل زوج أمه شيرويه الأسواري.

وكان زياد الأعجم، وهو رجل من بني عبد القيس. يَرْتَضِخُ لُكْنَةَ أعجمية، وأنشد المهلب في مدحه إياه:

فتى زاده السلطان في الحمد رغبة

إذا غير السلطان كل خليل

بريد السلطان - وذلك أن بين التاء والطاء نسباً، لأن التاء من مخرج الطاء.

وأما العنة فُتستحسن من الجارية الحديثة السن. قال ابن الرقاع "في الظبية":

تُرْجِي أَعْنَ كَأَن إِيرَةَ رَوَقَه

قلم أصاب من الدواة مداها

وقال ابن المقفع: إذا كثرت تَغْلِيْبُ اللسان رقت حواشيه ولانت عَدْبَتَه.

وقال العتّابي: إذا حُبِس اللسان عن الاستعمال اشتدّت عليه مخارج الحروف.

وقال الراجز:

كأن فيه لَفَفًا إذا نطق

من طول تحسيس وهم وأرق

باب في الإعراب واللحن

أبو عبيدة قال: مرَّ الشَّعْبِيُّ بقومٍ من الموالِي يَتَذَكَّرُونَ النحوَ، فقال لهم: لئن أصلحتموه إنكم لأوّل من أفسده.
قال أبو عبيدة: ليته سَمِعَ لَحْنَ صَفْوَانَ وخالد بن صَفْوَانَ وخاقان والفتح بن خاقان والوليد بن عبد الملك.
وقال عبد الملك بن مروان: اللحنُ في الكلام أقيح من التفتيق في الثوب والجُدْرِيّ في الوجه.
وقيل له: لقد عَجَل عليك الشيبُ يا أمير المؤمنين، قال: شَبَّيْنِي ارتقاء المنابر وتوقع اللحن.
وقال الحجاج لابن يَمَعْر: أتسمعني أَلْحَن؟ قال: لا، إلا أنه ربما سَبَقَكَ لسألك ببعضه في آن وآن؛ قال: فإذا كان ذلك فعرفني.

وقال المأمون لأبي عليّ المعروف بأبي يَعْلَى المِنْقَرِيّ: بلغني أنك أُمِّيّ، وأنت لا تقيم الشَّعْرَ، وأنتك تُلْحَن في كلامك؟ فقال: يا أمير المؤمنين، أمّا اللحن فرمما سَبَقَنِي لساني بالشَّيْءِ منه، وأمّا الأُمِّيَّة وكَسْر الشعر فقد كان النبي صلى الله عليه وسلم أُمِّيًّا وكان لا يُنشد الشعر؟ قال المأمون: سألتك عن ثلاثة عيوب فيك فزدتني عيباً رابعاً، وهو الجهل، يا جاهل، إن ذلك في النبي صلى الله عليه وسلم فضيلة، وفيك وفي أمثالك نقيصة، وإنما منع ذلك النبي صلى الله عليه وسلم لنفي الظنّة عنه، لا لِعَيْب في الشَّعْر والكتاب، وقد قال تبارك وتعالى: " وَمَا كُنْتَ تَتْلُو مِنْ قَبْلِهِ مِنْ كِتَابٍ وَلَا تَخْطُهُ بِيَمِينِكَ إِذَا لَارْتَابَ

المبطلون".

وقال عبد الملك بن مروان: الإعراب جمالٌ للوَضِيع، واللحن هُجْنَةٌ على الشَّرِيف.

وقال: تَعَلَّمُوا النِّحْوَ كما تتعلَّمون السُّننَ والفرائض.

وقال رجلٌ للحسن: إنَّ لنا إماماً يلحن؟ قال: أميطوه "عنكم، فإن الإعراب حِلْيَةُ الكلام".

وقال الشاعر:

النَّحْوُ يَبْسُطُ من لسان الأَلْكن

فإذا طلبتَ من العلوم أَجلَّها

وقال آخر:

النَّحْوُ صَعْبٌ وطويلٌ سلَّمه

زلَّتْ به إلى الحَضِيضِ قَدَمُه

والمراءُ تُكْرَمُه إذا لم يَلْحَن

فأجلَّها منها مُقيِمُ الألسن

إذا ارتقى فيه الذي لا يَعْلَمُه

يُرِيدُ أن يُعْرِبَه فَيُعْجِمُه

وقال رجلٌ للحسن: يا أبو سعيد؟ فقال: أَحْسَبُ أن الدَّوائِقَ شَعَلْتَك عن أن تقول: يا أبا سعيد.

وكان عمرُ بنُ عبد العزيز جالساً عند الوليد بن عبد الملك، وكان الوليد لَحَناناً، فقال: يا غلام، ادعُ لي صالح؛ فقال الغلام: يا صالحاً؛ قال له الوليد:

انقص ألفاً؛ فقال عمر: وأنت يا أمير المؤمنين فرِّدْ ألفاً.

ودخل على الوليد بن عبد الملك رجلٌ من أشرف قُرَيْش، فقال له الوليد: من خَتَنَكَ؟ قال له: فلان اليهودي؛ فقال: ما تقول؟ ويحك! قال: لعلك إنما

تَسأل عن خَتَنِي يا أمير المؤمنين، هو فلان بن فلان.

وقال عبد الملك بن مروان: أضربنا في الوليد حُبناً له، فلم نُلْزِمه البادية. وقد يستثقل الإعرابُ في بعض المواضع كما يستخفُّ اللحنُ في بعضها.

وقال مالك بن أسماء بن خارجة الفزاري:

منطقٌ بارِعٌ وتَلْحَنُ أحياء

نأ وخير الحديث ما كان لحناً

وذلك أنه من حَكِي نادرةٌ مُضحكة، وأراد أن يُوفِّي حروفها حظَّها من الإعراب، طَمَس حُسْنُها، وأخرجها عن مقدارها، ألا ترى أن مُزبداً المديني

أكل طعاماً فكظَّه، فقيل له: ألا تقي؟ قال: وما أقي؟ خبز نقي ولحم طري؟ مرَّي طالق، لو وَجَدت هذا فيناً لأكلته.

قال: وكذلك يُستقبح الإعراب في غير موضعه كما استقبح من عيسى بن عمر إذ قال وابن هُبيرة يَضْرِبُه بالسَّياط: والله إن كانت إلا أُتَيَّاباً في أُسَيْفَاط

قَبْضِها عَشَّاروك.

وحُكي عن بعض المغربين في اللحن أن جارية له غنَّته:

إذا ما سَمَعْتَ اللومَ فيها رَفَضْتَه

فَيَدْخُلُ من أذُنٍ ويَخْرُجُ من أُخرى

فقال لها: من أُخرى يا فاعلة، أما عَلِمْتِكِ أن "من" تَخْفُضُ؟.

وقال رجلٌ لشرِّيح: ما تقول في رجل توفِّي وترك أباه وأخيه؟ فقال له: أباه وأخاه؛ فقال: كم لأباه وأخاه؟ قال لأبيه وأخيه؛ قال: أنت عَلِمْتِنِي فما

أصنَعُ؟ وقال بعضُ الشعراء، وأدرك عليه رجل من المُتَفَصِّحِينَ يقال له حَفْصٌ لحناً في شِعْرُه، وكان حَفْصٌ به اختلافٌ في عَيْنِيهِ وتَشْوِيهِ في وجهه، فقال

فيه:

لقد كان في عَيْنِيكَ يا حَفْصٌ شاغلٌ

وأنفٌ كَمِثْلِ الطَّودِ عما تَتَبَّعُ

تَتَبَّعُ لحناً من كلامٍ مُرَقَّشٌ

وحَلَفَكَ مَبْنِيٍّ من اللحنِ أجمع

باب في اللحن والتصحيح

وكان أبو حنيفة لحناً، على أنه كان في الفتيا ولطف النظر واحد زمانه. وسأله رجل يوماً فقال له: ما تقول في رجل تناول صخرة فضرب بها رأس رجل فقتله، أتقيده به؟ قال: لا، ولو ضربه بأبا قبيس.

وكان بشر المريسي يقول لجلسائه: قضى الله لكم الحوائج على أحسن الوجوه وأهنؤها، فسمع قاسم التمار قوماً يضحكون، فقال: هذا كما قال الشاعر:

إنّ سليمى والله يكلوها

ضنت بشيء ما كان يرزوها

وبشر المريسي رأس في الرأي، وقاسم التمار متقدم في أصحاب الكلام، واحتجاجه لبشر أعجب من لحن بشر. ودخل شبيب بن شيبه على إسحاق بن عيسى يُعزّيه عن طفل أُصيب به، فقال في بعض كلامه: أصلح الله الأمير، إنَّ الطفل لا يزال مُحَبَّنطياً على باب الجنة يقول: لا أدخل حتى يدخل أبوي، قال إسحاق بن عيسى: سبحان الله! ماذا جئت به؟ إنما هو مُحَبَّنطي، أما سمعت قول الراجز:

إني إذا أنشدتُ لا أحبطني

ولا أحبُّ كثرة التمطي

قال شبيب: ألي يقال مثل هذا وما بين لا بتيها أعلم مني بها؟ فقال له إسحاق: وهذه أيضاً، ألبصرة لابنان يالكع؟ فأبان بتقريعه عواره، فأحجله فسكت.

قوله المحبطني: الممتنع امتناع طلب لا امتناع إباء، وهو بالطاء غير معجمة، ورواه شبيب بالطاء المعجمة. وقوله ما بين لا بتيها، خطأ، إذ ليس للبصرة لابنان، وإنما اللابة للمدينة والكوفة. واللابة: الحرّة، وهي الأرض ذات الحجارة السود.

نوادير من الكلام

يقال: ماء نُقاخ، للماء العذب؟ وماء فُرات، وهو أعذب العذب؛ وماء قُعاخ، وهو شديد الملوحة؛ وماء حُراق، وهو الذي يحرق من ملوحته، وماء شُروب، وهو دون العذب قليلاً؛ وماء مَسُوس، وهو دون الشُروب، وماء شُريب، وهو العذب. اجتمع المُفضَّل الضبيّ وعبدُ الملك بن قَريب الأَصمعي، فأَنشد المُفضَّل:

تصمت بالملك تولباً جدعا

فقال له الأسمعي: تولباً جدعاً، والجَدع: السوء الغداء. فضجَّ المُفضَّل وأكثر؛ فقال له الأَصمعي: لو نَفخت في الشُّبور ما نفعك، تكلم بكلام الثمل وأصِب.

وقال مروان بن أبي حفصة في قوم من رُواة الشعر لا يعلمون ما هو على كثرة استكثارهم من روايته:

زوامل للأشعار لا علم عندهم

بجيدها إلا كعلم الأباغر

لعمرك ما يدري البعير إذا غدا

بأوساقه أو راح ما في الغرائر

باب نوادر من النحو

قال الخليل بن أحمد: أنشدني أعرابي:

وإن كلاباً هذه عشر أبطن

وأنت برىء من قبائلها العشر

قال: فجعلتُ أعجب من قوله عشر أبطن "حيث أنت، لأنه عنى القبيلة" فلما رأى عجيبي، قال: أليس هكذا قول الآخر:

وكان مجنبي دون من كنت أتقي

ثلاثُ شخوص كاعبان ومُعصرُ

وقال أبو زيد قلتُ للخليل: لم قالوا في تصغير واصل: أو يصل، ولم يقولوا وويصل؟ قال: كرهوا أن يُشبهه كلامهم بنبح الكلاب.

وقال أبو الأسود الدؤلي: من العرب من يقول: لولاي لكان كذا وكذا. وقال الشاعر:

وكم موطن لولاي طحت كما هوي

بأجرامه من قنة النيق منهوي

وكذلك لولا أتمم ولولاكم، ابتداءً وخبره محذوف.

وقال أبو زيد: وراء وقْدَام لا يصرفان لأتاهما مؤنثان، وتصغير قَدَام قَدَيْدَمَة وتصغير وراء ورَيْثَة، وقْدَام خمسة أحرف، لأن الدال مشددة: فأسقطوا

الألف لأتاهما زائدة، ولغلا يُصغر اسم على خمسة أحرف.

أبو حاتم قال: يقال أمُّ بَيْتَة الأومومة: وعمُّ بين العمومة. ويقال: مأموم، إذ شُج أم رأسه. ورجل مَمُوم: إذا أصابه الموم.

وقال المازني. يقال في حسب الرجل أرفة ووصمة وابنة، وكذلك يقال للعصا إذا كان فيها عيب. ويقال: قَدَيْت عينه، إذا أصابها الرمد. وقد يقال في

التقديم والتأخير مثل قول الشاعر:

شرَّ يومِها وأغواها لها

ركبت عنز بحدج حملاً

يريد: ركبت عنزاً بحدج حملاً في شرَّ يومِها: نصب لأنه ظرف.

وقد يُسمى الشيء باسم الشيء إذا جاوره. قال الفرزدق:

أخذنا بأفاق السماء عليكم

لنا قمرها والنجوم الطوالعُ

قوله: لنا قمرها: يريد الشمس والقمر.

وكذلك قولُ الناس في العُمرين: أبي بكر وعمر.

الرياشي: يقال أخذ قَصَّتْها وكُعبَتْها، إذا أخذ عُدرَها.

قال أبو عبيدة: المَعْيون الذي ليس له منظر ولا مخبر، والمعِين - الذي قد أصيب بالعين. والمعِين: الماء الظاهر.

أبو عبيدة قال: سمعت رُوْبَة يقول: أباريق، يريد على الريق.

الأصمعي قال: لقي أبو عمرو بن العلاء عيسى بن عمر. فقال له: كيف رَحَلْكَ؟ قال: ما تزداد إلا مثالة؛ قال: فما هذه المعبوراء التي تَرَكُض، يريد ما

هذه الحمير التي تَرَكُب.

يقال: مَعْبوراء ومَشْبُوخاء ومَعْبوداء.

قال الأصمعي: إنما يُقال: اقرأ عليه السلام. وأنشد:

اقرأ على عصر الشباب تحية

وإذا لقيت دداً ففطني من ددٍ

وقال الفرزدق:

وما سبق القيسي من ضعف عقله

ولكن طفت علماء قلفة خالدٍ

"أراد: على الماء، فحذف". وهذا آخر كتاب سيبويه. وقال بعض الوراقين:

رَأَيْتُ يَا حَمَّادَ فِي الصَّيِّدِ

إِنْ ذَوِيَ النَّحْوِ لَهُمْ أَنْفُسٌ

يُضْرَبُ عَبْدُ اللَّهِ زَيْدًا وَمَا

وَأُنشِدُ أَبُو زَيْدَ الْأَنْصَارِيِّ:

يَا قَرِطُ قَرِطَ حَيِّي لَا أَبَالِكُمْ

قُلْتُمْ لَهُ أَهْجٌ تَمِيمًا لَا أَبَا لَكُمْ

فَإِنْ بَيْتَ تَمِيمٍ ذُو سَمِعْتَ بِهِ

ذو هنا في مكان الذي، لا يتغيّر عن حاله في جميع الإعراب. وهذه لغة طيء تجعل ذو في مكان الذي.

وقال الحسن بن هانئ:

حُبُّ الْمَدَامَةِ ذُو سَمِعْتَ بِهِ

وبعضُ العرب يقول: لا أباك في مكان لا أباك، "ولأن أباك" مضاف. لذلك بقيت الألف، ولو كانت غير مُعرّبة لقلت: لا أب لك، بغير ألف:

وليس في الإضافة شيء يُشبه هذا لأنه حالٌ بين المضاف والمضاف إليه وقال الشاعر:

أَبَالِمَوْتِ الَّذِي لَا بَدْءَ أَنِي

وقال آخر:

وَقَدْ مَاتَ شَمَّاحٌ وَمَاتَ مُزَرَّدٌ

وَأُنشِدُ الْفَرَّاءَ لابن مالك العُقَيْلِيِّ:

إِذَا أَنَا لَمْ أُوْمَنْ عَلَيْكَ وَلَمْ يَكُنْ

هذا مثل قولهم: بين بين.

وقال محمود الوراق:

مَزَجَ لِلصَّدُودِ وَصَالِهِنَّ فَكَانَ أَمْرًا بَيْنَ بَيْنٍ

وقال الفرزدق:

وَإِذَا الرَّجَالُ رَأَوْا يَزِيدَ رَأَيْتَهُمْ

قال أبو العباس محمد بن يزيد النَّحْوِيُّ: في هذا البيت شيء مُسْتَطَرَفٌ عند أهل النَّحْوِ. وذلك أنه جمع فاعل على فواعل، وإذا كان هكذا لم يكن بين

المُذَكَّرِ والمُؤنَّثِ فَرَقٌ، لأنك تقول: ضاربة وضوارب، ولا يقال في المذكر فواعل إلا في موضعين، وذلك قولهم: فوارس وهوالك، ولكنه اضطر في

الشعر فأخرجه عن الأصل ولولا الضرورة ما جاز له.

وقال أبو عَسَّانَ "رَفِيعُ بْنُ سَلَمَةَ" تلميذ أبي عُبَيْدَةَ "المعروف بدمّاذ، يخاطب أبا عثمان النَّحْوِيَّ المَازِنِيَّ":

تُ وَتَعَبْتُ نَفْسِي لَهُ وَالْبَدَنُ

بِكُلِّ الْمَسَائِلِ فِي كُلِّ فَنٍ

ءُ لِلْفَاءِ يَالَيْتَهُ لَمْ يَكُنْ

تَفَكَّرْتُ فِي النَّحْوِ حَتَّى مَلَلْتُ

وَأَتَعَبْتُ بَكْرًا وَأَصْحَابَهُ

سَوَى أَنْ بَابًا عَلَيْهِ الْعَفَا

وكنت بباطنه ذا فطن
من المقت أحسبه قد لعن
ل لست بآتيك أو تأتين
على النصب قالوا لإضمار أن
فأعرف ما قيل إلا بفن
أفكر في أمر " أن " أو أجن "

فكنت بظاهره عالماً
وللواو باب إلى جنبه
إذا قلت هاتوا لما يقا
"أجيبوا لما قيل هذا كذا
وما إن رأيت لها موضعاً
فقد خفت يا بكر من طول ما

باب في الغريب والتعقيب

دخل أبو علقمة على أعين الطبيب، فقال: أصلحك الله، أكلت من لحوم هذه الجوازل وطسنت طسأة فأصابني وجع بين الوابلة ودأية العنق، فلم يزل يئمو ويربو حتى خالط الخلب والشرا سيف، فهل عندك دواء؟ قال: نعم، خذ خربقاً وسلفقاً وشبرقاً فزهرقه " وزقرقه " و اغسله بماء ذوب واشربه؛ فقال له أبو علقمة: لم أفهمك، فقال: ما أفهمتك إلا كما أفهمتي.

وقال له مرة أخرى: إني أحد معمعة وقرقرة؛ فقال: أما معمعة فلا أعرفها، وأما القرقرة: فضرط لم ينضج.

وقال أبو الأسود الدؤلي لأبي علقمة: ما حال ابنك؟ قال: أخذته الحمى فطبخته طبخاً، ورضخته رضخاً، " وفتخته فتحاً " فتركته فرخاً؛ قال: فما فعلت زوجته التي كانت تُشاره ونهاره وتزاره؟ قال: طلقها. فتزوجت بعده فحظيت وبطيت؟ فقال له: قد عرفنا " حظيت " فما " بطيت "؟ قال: حرف من الغريب لم يبلغك؛ فقال: يابن أخي، كل حرف لا يعرفه عمك فاستره كما تستر السنور خراًها.

ودعا أبو علقمة بحجام يحجمه فقال له: أتق غسل المحاجم، واشدد قصب الملازم، وأزهف طبات المشارط، وأسرع الوضع، وعجل النزع، وليكن شرطكم وخزا، ومصك نهزا، ولا تردن آتياً، ولا تُكرهن آتياً. فوضع الحجام محاجمه في جونه ومضى عنه.

وسمع أعرابي أبا المكنون التحوي " في حلقته " وهو يقول في دعاء الاستسقاء: اللهم ربنا وإلهنا ومولانا فصل على محمد نبينا، " اللهم " ومن أراد بنا سوءاً فأحط ذلك سوء به كإحاطة القلائد بأعناق الولائد، ثم أرسخه على هامته، كرسوخ السجيل على هام أصحاب الفيل، اللهم اسقنا عيئاً مغيثاً " مريئاً " مريعاً مجلجلاً مسحنفراً " هزجاً " سحاً سفوحاً طبقاً غدقاً مُثعنجراً، ناقعاً لعامتنا، وغير ضار لخاصتنا. فقال الأعرابي: يا خليفة نوح هذا الطوفان ورب الكعبة، دعني حتى آوي إلى جبل يعصمني من الماء.

وسمعه مرة أخرى يقول في يوم برد: إن هذا يوم بلّة عصبب بارد هلوّف، فارتعد الأعرابي وقال: واللّه هذا مما يزيدني برداً.

وخطب أبو بكر المنكور فأغرب في خطبته وتقرّر في كلامه، وعند أصل المنبر رجل من أهل الكوفة يقال له حنش، فقال لرجل إلى جنبه: إني لأبغض الخطيب يكون فصيحاً بليغاً متقراً. وسمعه أبو بكر المنكور الخطيب، فقال له: ما أحوجك يا حنش إلى مدح ممتول لي الجلاز لذن المهزة عظيم الثمرة، تؤخذ به من معز العنق إلى عجب الذنب " فتعلّى به " فتكثّر له رقصاتك من غير جدل.

وقال حبيب الطائي:

تعاطيك الغريب من الغريب
إذا لرسخت في علم الغيوب

فما لك بالغريب يد ولكن
أمالو أن جهلك عاد علماً

ومن قولنا نمدح رجلاً باستسهال اللفظ وحسن الكلام :

لَسِحْرٌ عَلَى ذَهْنِ اللَّيْبِيبِ
نِ وَلَا يَشْدُ عَنِ الْقُلُوبِ
تِ وَلَا تَوْحَّشَ بِالْغَرِيبِ
عَطْفَ الْقَضِيبِ عَلَى الْقَضِيبِ
بُ وَذَا تُجَدُّ بِهِ الْخُطُوبِ

قَوْلُ كَانَ فَرِيدَهُ
لَا يَشْمُزُّ عَلَى اللَّسَا
لَمْ يَغْلُ فِي شَنِعِ اللَّغَا
سَيْفٌ تَقَادَ مِثْلَهُ
هَذَا تُجَدُّ بِهِ الرَّقَا

باب في تكليف الرجل ما ليس من طبعه

قالوا: ليس الفقه بالتفقه، ولا الفصاحة بالتفصح، لأنه لا يزيد مُتَزَيِّدٌ في كلامه إلا لِنَقْصِ يَجِدُهُ في نفسه. ومما اتفقت عليه العربُ والعجمُ قولهم: الطَّعْ أَمْلَكَ. وقال حَفْصُ بْنُ التُّعْمَانَ: المرءُ يَصْنَعُ نَفْسَهُ فَمَتَى مَا تَبَلَّهُ يَنْزِعَ إِلَى الْعِرْقِ. وقال العَرَجِيُّ:

وَمِنْ شَمَائِلِهِ التَّبْدِيلُ وَالْمَلَقُ
إِنَّ التَّخْلُقَ يَأْتِي دُونَهُ الْخُلُقُ

بِأَيِّهَا الْمُتَحَلِّي غَيْرَ شَيْمَتِهِ
ارْجِعْ إِلَى خِيَمِكَ الْمَعْرُوفِ دَيْدِنَةَ

وقال آخر:

يَدَعُهُ وَيَغْلِبُهُ عَلَى النَّفْسِ خِيْمُهَا

وَمَنْ يَبْتَدِعُ مَا لَيْسَ مِنْ خِيَمِ نَفْسِهِ

وقال آخر:

وَإِنْ تَخَلَّقَ أَخْلَاقًا إِلَى حِينِ

كُلِّ أَمْرِيءٍ رَاجِعٍ يَوْمًا لِشَيْمَتِهِ

وقال الحرَّيْمِيُّ:

وَهَلْ يَمْلِكُ الْبَحْرُ إِلَّا يَفِيضًا

يُلَامُ أَبُو الْفَضْلِ فِي جُودِهِ

وقال أبو الأسود الدُّؤَلِيُّ:

فَقُلْتُ لَهَا هَلْ يَفْدَحُ اللَّوْمُ فِي الْبَحْرِ
وَمَنْ ذَا الَّذِي يَبْتَنِي السَّحَابَ عَنِ الْقَطْرِ

وَلَا تَمَّةَ لَامَتِكَ يَا فَيْضُ فِي النَّدَى
أَرَادَتْ لَتَنْتَنِي الْفَيْضَ عَنِ عَادَةِ النَّدَى

وقال حَبِيبٌ:

تَنَاهَا لِقَبْضٍ لَمْ تُجِبْهُ أَنْامِلُهُ

تَعَوَّدَ بَسْطَ الْكَفِّ حَتَّى لَوْ أَنَّهُ

وقال آخر:

فَإِنْ طَلَبُوا بَسْطَهَا تَتَكَسَّرُ

وَقَفَّعَ أَطْرَافَهُمْ قَبْضُهَا

وقالوا: إن مَلِكًا من ملوك فارس كان له وزير حازم مُجَرَّبٌ، فكان يُصَدِّرُ عن رأيه، وَيَتَعَرَفُ اليُمْنُ في مَشُورَتِهِ، ثم إنَّه هَلَكَ ذلك الملكُ، وقام بعده ولدٌ له مُعْجَبٌ بنفسه مُسْتَبِدٌّ برأيه، "فلم يُتَزَلْ ذلك الوزيرَ منزله ولا آهْتَبَلَ رأيه" ومَشُورَتِهِ، فَقِيلَ له: إن أباك كان لا يَقْطَعُ أمرًا دونَه، فقال: كان يَغْلُطُ فيه وسَأَمْتَحَنَهُ بِنَفْسِي. فأرسل إليه، فقال له: أَيُّهُمَا أَغْلَبَ على الرجل: الأدبُ أو الطبيعة؟ فقال له الوزير: الطبيعةُ أَغْلَبُ، لأنها أصلُ والأدبُ

فَرَعٌ، وكلَّ فَرَعٍ يَرْجِعُ إِلَى أَصْلِهِ. فدعا " الملكُ " بسُفْرته، فلما وُضعت أقبِلت سَنَانِيرُ بِأَيْدِيهَا الشَّمْعُ، فوفقت حول السُّفرة، فقال للوزير: اعتبر خَطَأَكَ وَضعفَ مَذْهَبِكَ، متى كان أبو هذه السنانير شَمَاعًا. فسكت عنه الوزير، وقال: أمهلني في الجواب إلى الليلة المقبلة؛ فقال: ذلك لك. فخرَجَ الوزيرُ، فدعا بَعْلَامَ له، فقال: التمس لي فأراً واربطه في خَيْطٍ وَجئني به؛ فأتاه به الغلامُ، فعقده في سَبِينَةِ وَطرحه في كُفِّهِ، ثم راح من الغد إلى الملك، فلما حضرت سُفْرته أقبِلت السنانير بالشَّمْعِ حتى حَفَّتْ بِهَا، فحلَّ الوزيرُ الفأرَ من سَبِينَتِهِ، ثم ألقاه إليها، فاستبقت السنانيرُ إليه ورَمَتِ الشَّمْعَ حتى كاد البيتُ يَضْطَرُمُّ عليهم ناراً. فقال الوزيرُ: كيف رأيتَ غَلْبَةَ الطَّبِيعَةِ على الأدب، ورُجُوعَ الفَرَعِ إلى أَصْلِهِ؟ قال: صدقت، ورجع إلى ما كان أبوه عليه معه، فإنما مدار كل شيء على طبعه، والتكلف مذموم من كل وجه. قال الله " تبارك وتعالى " لِنَبِيِّهِ صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ: قل يا محمد: " وَمَا أَنَا مِنَ الْمُتَكَلِّفِينَ ". وقالوا: من تَطَبَّعَ بِغَيْرِ طَبْعِهِ نَزَعَتْهُ العَادَةُ حتى تردَّه إلى طَبْعِهِ، كما أن الماءَ إذا أُسْخِنَتْهُ ثم تركته " ساعة " عاد إلى طَبْعِهِ من البرودة، والشجرة المُرَّة لو طليتها بالعسل لا تُثمر إلا مُرًّا.

باب في ترك المشاركة والمماراة

دخل السائب بن صَيْفِيٍّ عَلَى النبي صلى الله عليه وسلم، فقال: أتعرّفني يا رسول الله؟ قال: وكيف لا أعرف شريكِي في الجاهليَّة الذي كان لا يُشارِي ولا يُمارِي. وقال ابن المُفْعَلِ: للمُشاركة والمُماراة يُفسدان الصداقة القديمة، ويحلان العقدة الوثيقة، وأيسر ما فيها أنهما ذريعة إلى المنافسة والمغالبة. وقال عبد الرحمن بن أبي ليلى: لا تُمارِ أحاك فإما أن تُغضبِهِ وإما أن تُكذِبَهُ. وقال الشاعر:

إلى السبِّ دعاءٌ وللصِّرمِ جالبُ

فإياك إياك المرءَ فإنه

وقال عبد الله بن عباس: لا تُمارِ فقيهاً ولا سَفِيهاً، فإنَّ الفقيهَ يَغلبُكَ والسفِيهَ يُؤذِيكَ. وقال صلى الله عليه وسلم: سباب المؤمن فسوقٌ وقِتاله كفرٌ.

باب في سوء الأدب

دخل عُرْوَةُ بن مَسْعُودِ الثَّقَفِيِّ عَلَى النبي صلى الله عليه وسلم، فجعل يُحدِّثُهُ وَيُشيرُ بيده إليه حتى تَمَسَّ لِحِيته، والمغيرة بن شعبة واقفٌ على رأس رسول الله صلى الله عليه وسلم بيده السيفُ، فقال له: اقبض يدك عن لِحِيَةِ رسول الله صلى الله عليه وسلم قبل أن لا ترجع إليك. فقبض عُرْوَةُ يده. وعُرْوَةُ هذا " هو " عظيم القريتين الذي قالت " فيه " قريش: لولا نُزِّلَ هذا القرآنُ على رجلٍ من القريتين عظيم. ويقال إنه الوليد بن المغيرة المخزومي. ولما قَدِمَ وفدُ تميم على النبي صلى الله عليه وسلم ناداه رجل " منهم " من وراء الجدار: يا محمد، اخرج إلينا. فأَنزَلَ اللهُ تعالى: " إِنَّ الَّذِينَ يُنَادُونَكَ مِنْ وَرَاءِ الْحُجُرَاتِ أَكْثَرُهُمْ لَا يَعْقِلُونَ ". وفي قراءة ابن مسعود: " بنو تميم أكثرهم لا يَعْقِلُونَ ". وَأَنزَلَ اللهُ في ذلك: " لا تَجْعَلُوا دُعَاءَ الرَّسُولِ بَيْنَكُمْ كَدُعَاءِ بَعْضِكُمْ بَعْضًا ".

ونظر أبو بكر " الصديق رضي الله عنه إلى " رجل يبيع ثوباً، فقال له: أتبيع الثوب؟ قال: لا عافاك الله، قال: لقد علمتم لو تتعلمون! قل: لا وعافاك الله. وخطب الحسن في دم. فأجابهُ صاحب الدم، فقال: قد وضعتُ ذلك الدم لله ولو جوهكم. قال له الحسن: ألا قلت: قد وضعتُ ذلك لله خالصاً؟ وذكر إعرابي رجلاً بسوء الأدب فقال: إن حدِّثته سابقك إلى ذلك الحديث، وإن تركته أخذ في الترهات. ودخل بعضُ الرُّوَاةِ على المهديّ، فقال له: أنشدني قولَ زهير:

لمن الديار بقنة الحجر

فأنشدها حتى أتى على آخرها. فقال له المهديُّ: ذهب والله من كان يقول هذا؛ فقال له: كما ذهب والله من يُقال فيه. فاستجله واستحمله. ولما رَفَعَ قُطْرُبُ النحوي كتابه في القرآن إلى المأمون، أمر له بجائزة، وأذن له. فلما دخل عليه قال: قد كانت عدَّةُ أمير المؤمنين أرفع من جائزته. فعُضِبَ المأمون وهم به. فقال له سهل بن هارون: يا أمير المؤمنين: إنه لم يُقَلْ بذات نفسه، وإنما غلب عليه الحصر. ألا تراه كيف يَرشَحُ جبينه ويكسر أصابعه،

فَسَكَنَ غَضَبُ الْمُؤْمِنِ وَاسْتَجْهَلَهُ وَاسْتَحْمَقَهُ وَكَانَ الْحَسَنُ اللَّوْثِيُّ لَيْلَةً عِنْدَ الْمُؤْمِنِ بِالرَّقَّةِ وَهُوَ يُسَامِرُهُ، إِذْ نَعَسَ الْمُؤْمِنُ وَالْحَسَنُ يُحَدِّثُهُ، فَقَالَ لَهُ: نَعَسْتَ يَا أَمِيرَ الْمُؤْمِنِينَ. فَانْتَبَهَ فَقَالَ: سُوقِي رَبَّ الْكَعْبَةِ، يَا غَلَامَ خُدَّ بِيَدِهِ. وَدَخَلَ أَبُو النَّجْمِ عَلَى هِشَامِ بْنِ عَبْدِ الْمَلِكِ بِأَرْجُوزَتِهِ الَّتِي أَوْلَاهَا:

الحمد لله الوهوب المجزّل

وهي من أجود شعره. "فاستحسنها هشام وأصغى إليها" فلما أتى على قوله:

والشمس في الجو كعين الأحول

غضب هشام وكان أحول، فأمر بصنع قفاه وإخراجه.

ودخل كثير عزة على يزيد بن عبد الملك، فبينما هو يحدثه إذ قال: يا أمير المؤمنين، ما معنى قول الشماخ:

إذا الأرطى توسد أبردیه

خدود جوازيء بالرمل عين

فقال له يزيد: وماذا على أمير المؤمنين ألا يعرف ما قال هذا الإعرابي الجلف مثلك، واستحمله وأمر بإخراجه. ودخل كثير عزة على عبد العزيز بن مروان فأنشدته مدحته التي يقول فيها:

وأنت فلا تفقد ولا زال منكم

إماماً يحيا في حجاب مسدّن

أشم من الغادين في كل حلة

يميسون في صبغ من العصب منقن

لهم أزر حمر الحواشي يطونها

بأقدامهم في الحضرمي الملسن

فاستحسنها وقال له: سل حاجتك؟ فقال: ثولبي مكان ابن رمانة كاتبك؛ فقال له: ويلك! ذا كاتب وأنت شاعر، فكيف تقوم مقامه وتسد مسدّه؟ فلما خرج من عنده ندم وقال:

عجبت لأخذي خطة العجز بعدما

تبيّن من عبد العزيز قبولها

لئن عاد عبد العزيز بمثلها

وأمكنني منها إذا لا أقولها

ووقف الأحنف بن قيس ومحمد بن الأشعث بباب معاوية، فأذن للأحنف ثم لمحمد بن الأشعث، فأسرع محمد في مشيته حتى دخل قبل الأحنف. فلما رآه معاوية قال له: والله إنني ما أذنت له قبلك وأنا أريد أن تدخل قبله، وإنا كما نلى أموركم كذلك نلى أدبكم، ولا يزيد متزيّد في أمره إلا لنقص يجده في نفسه. وقال عبد الملك بن مروان: ثلاثة لا ينبغي للعاقل أن يستخفّ بهم: العلماء والسُّلطان والإخوان. فمن استخفّ بالعلماء أفسد دينه، ومن استخفّ بالسُّلطان أفسد دنياه، ومن استخفّ بالإخوان أفسد مروءته.

وقال أبو الزناد: كنت كاتباً لعمر بن عبد العزيز، فكان يكتب إلى عبد الحميد عامله على المدينة في المظالم فيراجعها فيها، فكتب "إليه": إنه يُخيل إلي أنّي لو كتبتُ إليك أن تُعطي رجلاً شاة، لكتبتُ إلي: أضأنا أم معزاً؟ ولو كتبتُ إليك بأحدهما لكتبتُ إلي: أذكراً أم أنثى؟ ولو كتبتُ إليك بأحدهما لكتبتُ: أصغيراً أم كبيراً؟ فإذا كتبتُ إليك في مظلمة "فنقدُ أمري" ولا تراجعني فيها. وكتب أبو جعفر إلى سلم بن قتيبة، يأمره بهدم دور من خرج مع إبراهيم "بن عبد الله"، وعقر نخلهم، فكتب إليه: بأيّ ذلك تبدأ، بالدور أو بالنخل؟ فكتب إليه أبو جعفر: إنني لو أمرتك بإفساد تمرهم، لكتبتُ: بأيّ ذلك تبدأ؟ بالصيحاني أم بالبرني؟ وعزله وولّى محمد بن سليمان. "ولحمود الوراق:

كم قد رأيت مساءة

من حيث تطمع أن تسراً

ولربما طلب الفتى

لأخيه منفعة فضرراً

ودخل عدي بن أرطاة على شريح القاضي، فقال له: أين أنت أصلحك الله؟ قال: بينك وبين الحائط، قال: اسمع مني؛ قال: قل نسمع؛ قال: إني رجل من أهل الشام، قال: مكان سحيق، قال: وتزوجت عندكم، قال: بالرفاء والبنين؛ قال: وأردت أن أرحلها؟ قال: الرجل أحق بأهله؟ قال: وشرطت لها دارها؛ قال: الشرط أم لك؛ قال: فاحكم الآن بيننا، قال: قد فعلت، قال: فعلى من حكمت؟ قال: على ابن أمك، قال: بشهادة ابن أخت خالتك- أراد شريح إقراره على نفسه بالشرط- وكان شريح صاحب تعريض عويص. ودخل شريك بن عبد الله على إسماعيل وهو يتبخر بعود، فقال للخادم: جئنا بعود لأبي عبد الله. فجاء ببريط، فقال له إسماعيل: أكسره، "ويلك!" وقال لشريك: أخذوا البارحة في الحرس رجلاً ومعه هذا البربط. وقال بعض الشعراء في عمي الخادم:

ء أنتني بصحفة وزبيب

ومتى أدعها بكأس من الما

وقال حبيب في بني تغلب من أهل الجزيرة يصفهم بالجفاء وقلة الأدب مع كرم النفوس:

وتباعدوا عن فطنة الأعراب

لا رقة الحضرة اللطيف غدتهم

كرم النفوس وقلة الآداب

فإذا كشفتهم وجدت لديهم

وكان فتى يجالس الشعبي، وكان كثير الصمت، فالتفت إلى الشعبي، فقال له: إني لأجد في قفاي حكة أفتأمرني بالحجامة؟ فقال الشعبي: الحمد لله الذي حولنا من الفقه إلى الحجامة. "قال: وأتى أحمد بن الحصب بعض المتظلمين يوماً، فأخرج رجله من الركاب فركله بما. فقال فيه الشاعر:

اشكل وزيرك إنه ركال

قل للخليفة يابن عم محمد

وبعث رجل من التجار وكيلاً له إلى رجل من الأشراف يقتضيه مالاً عليه، فرجع إليه مضروباً فقال له: ويلك! مالك؟ قال: سبك فسببته، فضربني. قال: وما قال لك؟ قال قال: أدخل الله هن الحمار في حر أم من أرسلك؛ قال: دعني من افترائه عليّ وسبه لي، وأخبرني كيف جعلت أنت لأثر الحمار من الحرمة ما لم يجعله لحر أم من أرسلك؟ هلا قلت: أير الحمار في هن أم من أرسلك؟

باب في تحنك الفتى

قيل لعمر بن الخطاب: إن فلاناً لا يعرف الشر. قال: ذلك أحرى أن يقع فيه. وقال سفيان الثوري: من لم يحسن أن يتفتى لم يحسن أن يتقرى. وقال عمرو بن العاص: ليس العاقل الذي يعرف الخير من الشر، إنما العاقل الذي يعرف خير الشرين. ومثل ذلك قول الشاعر:

كذلك بعض الشر أهون من بعض

رضيت ببعض الذل خوف جميعه

وسئل المغيرة بن شعبة عن عمر بن الخطاب "رضي الله عنه" فقال: كان والله له فضل يمنعه من أن يخدع، وعقل يمنعه من أن ينخدع. قال إياس: لست بحب والخب لا يخدعني. وتجادل إياس والحسن- وكان الحسن يرى كل مسلم جائر الشهادة حتى تظهر عليه سقطة أو يجرحه المشهود عليه، وكان إياس لا يرى ذلك- فأقبل رجل إلى الحسن، فقال: إن إياساً ردّ شهادتي. فقام معه الحسن إليه، فقال: أبا وائلة، لم رددت شهادة هذا المسلم؟ فقد قال صلى الله عليه وسلم: من صلى إلى قبلتنا فهو المسلم، له مالنا وعليه ما علينا؛ فقال له إياس: يا أبا سعيد، يقول الله تعالى: "ممن ترضون من الشهداء" وهذا ممن لا ترضاه.

وكان عامر بن عبد الله بن الزبير في غاية الفضل والدين، وكان لا يعرف الشر، فبينما هو جالس في المسجد، إذ أتى بعطائه، فقام إلى منزله فنسيه. فلما صار في بيته ذكره، فقال لخادمه: اذهب إلى المسجد فائتني بعطائي؛ فقال له: وأين نجده؟ قال سبحانه الله! أو بقي أحد يأخذ ما ليس له؟ وقال أيوب: من أصحابي من ارتجى بركة دعائه ولا أقبل شهادته. وذكرت فاطمة بنت الحسين عليهما السلام عند عمر بن عبد العزيز وكان لها معظماً، فقيل إنها لا تعرف الشر، فقال عمر: عدم معرفتها بالشر جنبها الشر.

وكانوا يستحسنون الحنكة للفتى والصبوة للحدث، ويكرهون الشيب قبل أوانه، ويشبهون ذلك بيوس الثمرة قبل نضجها، وأن ذلك لا يكون إلا من

ضَرَرَ فِيهَا. فَأَنْفَعُ الْإِخْوَانَ مَجْلِسًا، وَأَكْرَمُهُمْ عَشْرَةً، وَأَشَدَّهُمْ حِدْقًا، وَأَنْبَهُهُمْ نَفْسًا، مَنْ لَمْ يَكُنْ بِالشَّاطِرِ الْمُتَمَتِّكَ، وَلَا الزَّاهِدِ الْمُتَنَسِّكَ، وَلَا الْمَاجِنِ الْمُتَطَرِّفِ، وَلَا الْعَابِدِ الْمُتَقَشِّفِ، وَلَكِنْ كَمَا قَالَ الشَّاعِرُ:

وَقَدْ يَكُونُ شَبَابٌ غَيْرَ فِتْيَانٍ

يَا هِنْدُ هَلْ لَكَ فِي شَيْخِ فِتْيٍ أَبَدًا

وقال آخر:

سَيْنَ يَلْفَاكَ فِي ثِيَابِ غِلَامٍ

وَفِتْيٍ وَهُوَ قَدْ أَنْفَعَ عَلَى الْخَمِّ

وقال آخر:

وَلِلَّهِو مَنِي وَالبَطَالَةِ جَانِبُ

فَلِلنُّسْكَ مَنِي جَانِبُ لَا أَضِيْعُهُ

وقال حبيب:

لِلرَّوْعِ كَانَ الْقَشْعَمَ الْغَطْرِيْفَا

كَهْلُ الْأُنَاةِ فِتْيِ الشَّدَاةِ إِذَا عَدَا

ومن قولنا "في هذا المعنى":

وَجَالَسَ كَهْلَ النَّاسِ أَلْفِيْتَهُ كَهْلًا

إِذَا جَالَسَ الْفِتْيَانَ أَلْفِيْتَهُ فِتْيً

ونظيره قول ابن حطّان:

وَإِنْ لَهَقِيْتِ مَعْدِيَا فَعَدْنَانِي

يَوْمًا يَمَانٍ إِذَا لَاقِيْتِ ذَا يَمَنِ

وقولُ عمران بن حطّان هذا هذا يحتمل غير هذا المعنى، إلا أنّ هذا أقربُ إليه وأشبهُ به، لأنّه أراد أنه مع اليماني يماني، ومع العدناني عدناني، فيحتمل أنّ ذلك لخوف منه أو مُساعدة، وكل ذلك داخلٌ في باب الحُنْكَةِ والحِدْقِ والتَّجْرِبَةِ.

وقالوا: اصحبُ البرَّ لتتأسَى به، والفاجرَ لتتحنك به. وقالوا: مَنْ لَمْ يَصْحَبِ الْبِرَّ وَالْفَاجِرَ "وَلَمْ يُوَدِّبْهُ الرِّخَاءُ وَالشَّدَاةَ مَرَّةً، وَلَمْ يَخْرُجْ مِنَ الظِّلِّ إِلَى الشَّمْسِ مَرَّةً فَلَا تَرُجُّهُ. وَمِنْ هَذَا قَوْلُهُمْ: حَلَبَ فُلَانٌ الدَّهْرَ أَشْطُرُهُ، وَشَرِبَ أَفَاوِيْقَهُ، إِذْ فَهَمَّ خَيْرَهُ وَشَرَّهُ، فِإِذَا نَزَلَ بِهِ الْغَيْثُ عَرَفَهُ " و لَمْ يُيْطِرْهُ"، وَإِذَا نَزَلَ بِهِ الْبَلَاءُ "صَبَرَ لَهُ وَ" لَمْ يُنْكَرْهُ.

وقال هُدْبَةُ الْعُدْرِيّ:

وَلَا جَازِعَ وَ مِنْ صَرْفِهِ الْمُتَقَلِّبِ

وَلَسْتُ بِمَفْرَاحٍ إِذَا الدَّهْرُ سَرَّنِي

وَلَكِنِّي مَتَى أَحْمَلُ عَلَى الشَّرِّ أَرْكَبُ

وَلَا أَتَمْنَى الشَّرَّ وَالشَّرُّ تَارِكِي

وقال عبد العزيز بن زرارة في هذا المعنى:

شَتَى فِصَادَفْتُ مِنْهُ اللَّيْنَ وَالْفَطْعَا

قَدْ عَشْتُ فِي الدَّهْرِ أَطَوَارًا عَلَى طُرُقِ

وَلَا تَخَشَعْتُ مِنْ لَأَوَائِهِ جَزَعَا

كُلًّا بَلَوْتُ فَلَا النَّعْمَاءُ تُبْطِرُنِي

وَلَا أَضِيْقُ بِهِ ذَرْعًا إِذَا وَقَعَا

لَا يَمْلَأُ الْأَمْرَ صَدْرِي قَبْلَ وَقَعْتَهُ

وقال آخر:

تُرَاثُ كَرِيْمٍ لَا يَخَافُ الْعَوَاقِبَا

فَإِنْ تَهَدِمُوا بِالْغَدْرِ دَارِي فَإِنَّهَا

وَأَضْرِبُ عَنْ ذِكْرِ الْعَوَاقِبِ جَانِبَا

إِذَا هَمَّ أَلْقَى بَيْنَ عَيْنَيْهِ عَزْمَهُ

ولم يَسْتَشِرْ فِي أَمْرِهِ غَيْرَ نَفْسِهِ

ولم يَرْضَ إِلَّا قَائِمَ السَّيْفِ صَاحِبًا

سَأَعْسِلُ عَنِّي الْعَارَ بِالسَّيْفِ جَالِبًا

عَلَيَّ قِضَاءُ اللَّهِ مَا كَانَ جَالِبًا

وسئلت هند عن معاوية، فقالت: والله لو جمعت قريش من أقطارها ثم رمي به في وسطها لخرج من أي أعراضها شاء. وهذا نظير قول الشاعر:

برئت إلى الرحمن من كل صاحب

أصاحبه إلا عراك بن نائل

وعلمي به بين السماطين أنه

سينجو بحق أو سينجو بباطل

وقال آخر:

لئن كنت محتاجاً إلى الحلم إنني

إلى الجهل في بعض الأحياء أخرج

وما كنت أرضى الجهل خذناً وصاحباً

ولكنني أرضى به حين أخرج

فإن قال قوم إن فيه سماجةً

فقد صدقوا والذل بالحر أسمج

ولي فرس للحلم بالحلم ملجم

ولي فرس للجهل بالجهل مسرج

فمن شاء تقويمي فإني مقوم

ومن شاء تعويجي فإني معوج

وقال معاوية في سفيان بن عوف الغامدي: هذا الذي لا يكفكف من عجلة، ولا يدفع في ظهره من بطة، ولا يضرب على الأمور ضرب الحمل الثفال.

وقال الحسن بن هانئ:

من للجذاع إذا الميدان ماطلها

بشأو مطلع الغايات قد فرحا

من لا يعضض منه البؤس أنملة

ولا يصعد أطراف الربى فرحا

وقال جرير:

وابن اللبون إذا ما لزر في قرن

لم يستطع صولة البزل القناعيس

باب في الرجل النفاع الضرار

يقال إنه لخراج ولاج، وإنه لحول قلب، إذا كان متصرفاً في أموره، نفاعاً لأولياؤه، ضراراً لأعدائه. وإذا كان على غير ذلك، قيل: ما يحلي ولا يمر، ولا يعد في العير ولا في التفير، وما فيه خير يُرجى ولا شر يُتقى. وقال بعضهم: لا يرضى العاقل أن يكون إلا إماماً في الخير والشر. وقال الشاعر:

إذا أنت لم تنفع فضر فإنما

يرجى الفتى كيما يضر وينفعا

وقال حبيب:

ولم أر نفعاً عند من ليس ضائراً

ولم أر ضرراً عند من ليس ينفع

وسمع إعرابي رجلاً يقول: ما أتى فلان يوم خير قط؛ فقال: إن لا يكن أتى يوم خير فقد أتى بيوم شر. وقال الشاعر:

وما فعلت بنو ذبيان خيراً

ولا فعلت بنو ذبيان شراً

وقال آخر:

قَبَحَ الإِلَهَ عداوَةَ لا تُتَّقَى

وقرابةٌ يُدَلَّى بها لا تَنفَعُ

وفخر رجال فقال: أبي الذي قتل الملوك، وغصب المنابر، وفعل وفعل. فقال له رجل: لكنه أسير وقتل وصلب. فقال: دعني من أسره وقتله وصلبه، أبوك "هل" حدث نفسه بشيء من هذا قط. وقال رجل "من العرب" يذم قومه وأغارت بنو شيبان على إبله فاستنجدهم، فلم يُنجدوه، وكان فيهم ضعف، فقال فيهم:

بنو اللقيطة من ذهل بن شيباناً

عند الحفيظة إن ذو لوثة لانا

طاروا إليه زرافات ووحدانا

في النأبات على ما قال برهاناً

ليسوا من الشر في شيء وإن هانا

ومن إساءة أهل السوء إحساناً

سواهم من جميع الناس إنساناً

شئوا الإغارة فرساناً وركباناً

لو كنت من مارن لم تستبح إيلي

إذا لقام بنصري معشر خشن

قوم إذا الشر أبدى ناجذيه لهم

لا يسألون أخاهم حين يندبهم

لكن قومي وإن كانوا ذوي عدد

"يجزون من ظلم أهل الظلم مغفرة

كأن ربك لم يخلق لخشيتيه

"قلبت لي بهم قوماً إذا ركبوا

ولم يُرد بهذا أنه وصفهم بالحلم ولا بالخشية لله، وإنما أراد به الذل والعجز، كما قال النجاشي في رهط تميم بن مفضل:

ولا يظلمون الناس حبة خردل

إذا صدر الوراد عن كل منهل

ويفك أعناقاً من الرق

كأنك الجنة والنار

وفي يدك الجود والبأس

وإن تمت مات بك الناس

لشرب صبوح أو لشرب غبوق

لضرب عدو أو لنفع صديق

قبيلته لا يخفرون بذمة

ولا يردون الماء إلا عشية

وكل من نفع في شيء فقد ضر في شيء. وكذلك قول أشجع بن عمرو:

يصطاد أعناقاً بمنصله

وقال الحسن بن هانئ:

يرجو ويخشى حالتك الورى

ومن قولنا في هذا المعنى:

من يرتجي غيرك أو يتقي

ما عشت عاش الناس في نعمة

وقال آخر:

وليس فتى الفتيان من راح واغتندى

ولكن فتى الفتيان من راح واغتندى

باب في طلب الرغائب واحتمال المغارم

في كتاب للهئذ: مَنْ لَمْ يَرْكَبِ الْأَهْوَالَ لَمْ يَتَلِ الرُّعَائِبَ، وَمَنْ تَرَكَ الْأَمْرَ الَّذِي لَعَلَّهُ أَنْ يَنَالَ مِنْهُ حَاجَتَهُ مَخَافَةَ مَا لَعَلَّهُ يُوقَاهُ فَلَيْسَ بِبَالِغٍ حَسِيمًا، وَإِنَّ الرَّجُلَ إِذَا الْمُرُوءَةَ لِيَكُونَ حَامِلَ الذِّكْرِ حَافِضَ الْمَنْزِلَةِ، فَتَأْبَى مُرُوءَتُهُ إِلَّا أَنْ يَسْتَعْلَى وَيَرْتَفِعَ، كَالشُّعْلَةِ مِنَ النَّارِ الَّتِي يَصُومُهَا صَاحِبُهَا وَتَأْبَى إِلَّا أَرْتَفَاعًا. وَذُو الْفَضْلِ لَا يَخْفَى فَضْلُهُ، وَإِنْ أَحْفَاهُ، كَالْمِسْكِ الَّذِي يُخْتَمُ عَلَيْهِ ثُمَّ لَا يَمْنَعُ ذَلِكَ رِيحَهُ مِنَ التَّدَكِّيِّ وَالظُّهُورِ. وَمَنْ قَوْلُنَا فِي هَذَا الْمَعْنَى:

فَأَبْتُ إِلَّا التَّدَكِّيَّ

لِ بَزُورٍ وَبِإِفْكَ

لِ غَنِيِّ عَنِ مُرْكِي

فَطَرْفِي لَيْلَةَ شَكِّ

رُ فَجَلِّي كُلَّ حَلِّكَ

كَبَهُ مِنْ غَيْرِ فُلْكَ

قَدِهِ مِنْ غَيْرِ سَلِّكَ

رِيضُ إِلَّا بَعْدَ سَبِّكَ

لِ فَمَنْ شَاءَ فَيَحْكِي

وَشَامِيٍّ وَمَكِّي

وَلَا مِنْ نَسْجِ عَكِّي

خَتَمْتُ فَأَرَّةُ مِسْكَ

لَيْسَ يَخْفَى فَضْلُ ذِي الْفَضِ

وَالَّذِي بَرَزَ فِي الْفَضِ

رُبَّمَا عَمُّ هِلَالُ الْ

ثُمَّ جَلَّى وَجْهَهُ النَّوُ

إِنْ ظَهَرَ الْبَيْمُ لِاتَرُ

وَنِظَامِ الدُّرِّ لَا تَعِ

لَيْسَ يَصْفُو الذَّهَبَ إِلَّا الْبِ

هَذِهِ جُمْلَةٌ أَمْثَا

أَبْطَلْتُ كُلَّ يَمَانِيٍّ

لَيْسَ ذَا مِنْ صَوْغِ عَيْنِيٍّ

وقالوا: لَا يَنْبَغِي لِلْعَاقِلِ أَنْ يَكُونَ إِلَّا فِي إِحْدَى مَتْرَلَتَيْنِ: إِمَّا فِي الْغَايَةِ مِنْ طَلَبِ الدُّنْيَا؟ وَإِمَّا فِي الْغَايَةِ مِنْ تَرْكِهَا. وَلَا يَنْبَغِي لَهُ أَنْ يَرَى إِلَّا فِي مَكَانَيْنِ: إِمَّا مَعَ الْمَلُوكِ مَكْرَمًا، وَإِمَّا مَعَ الْعِبَادِ مُتَبَتِّلًا. وَلَا يُعَدُّ الْعُرْمُ غُرْمًا إِذَا مَا سَاقَ غَنْمًا، وَلَا الْغَنْمُ غَنْمًا إِذَا مَا سَاقَ غُرْمًا. وَنَظَرُ مَعَاوِيَةَ إِلَى عَسْكَرِ عَلِيٍّ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ يَوْمَ صِفِّينَ، فَقَالَ: مَنْ طَلَبَ عَظِيمًا خَاطَرَ بِعَظِيمَتِهِ، وَأَشَارَ إِلَى رَأْسِهِ. وَقَالَ حَبِيبُ الطَّائِيِّ:

وَأَخْشَنَ مِنْهُ فِي الْمَلِمَاتِ رَاكِبُهُ

فَأَهْوَالُهُ الْعُظْمَى تَلِيهَا رِغَائِبُهُ

وَلَيْسَ لِرَجُلٍ حَطَّهَ اللَّهُ حَامِلُ

أَصَبَتْ حَلِيمًا أَوْ أَصَابَكَ جَاهِلُ

وَلَا فِي بُيُوتِ الْحَيِّ بِالْمُتَوَلِّجِ

وَيَضْرِبُ فِي رَأْسِ الْكَمِيِّ الْمَدَجِّجِ

كَفَّانِي وَلَمْ أَطْلُبْ قَلِيلٌ مِنَ الْمَالِ

أَعَادَلْتِي مَا أَخْشَنَ اللَّيْلَ مَرْكَبًا

ذَرِينِي وَأَهْوَالَ الزَّمَانِ أَقَاسِهَا

وَقَالَ كَعْبُ بْنُ زُهَيْرٍ:

وَلَيْسَ لِمَنْ لَمْ يَرْكَبِ الْهَوْلَ بُغْيَةً

إِذَا أَنْتَ لَمْ تُعْرِضْ عَنِ الْجَهْلِ وَالْخَنَاءِ

وَقَالَ الشُّمَاحُ:

فَتَى لَيْسَ بِالرَّاضِي بِأَدْنَى مَعِيشَةٍ

فَتَى يَمْلَأُ الشِّيزَى وَيُرْوِي سِنَانَهُ

وَقَالَ امْرُوءُ الْقَيْسِ:

فَلَوْ أَنَّ مَا أَسْعَى لِأَدْنَى مَعِيشَةٍ

ولكنما أسعى لمجدٍ مؤثّل

وقد يُدرك المجدَ المؤثّل أمثالي

وقال آخر:

لولا شماتة أعداء ذوي حسدٍ

أو أن أنال بنفعي من يُرجيني

لما خطبت من الدنيا مطالبها

ولا بذلت لها عرضي ولا ديني

لكن منافسة الأكفاء تحملي

على أمورٍ أراها سوف تُرديني

وكيف لا كيف أن أرضى بمنزلة

لا دينٍ عندي ولا دنيا تواتيني

وقال الحطيئة في هجائه الزبيرَ قان بن بدر:

دع المكارم لا ترحل لبغيتها

واقعد فإنك أنت الطاعم الكاسي

فاستعدى عليه عمر بن الخطاب وأسمعه الشعراء فقال: ما أرى مما قال بأساً؛ قال: والله يا أمير المؤمنين ما هجيت بيت قط أشد! "علي" منه. فأرسل إلى حسّان فسأله: هل هجاه؟ فقال: ما هجاه، ولكنه سلح عليه. وقد أخذ هذا المعنى من الحطيئة بعض المحدثين فقال:

إنني وجدت من المكارم حسبكم

أن تلبسوا خر الثياب وتشبعوا

فإذا تذوكرت المكارم مرة

في مجلس أنتم به فتقنعوا

وقالوا: من لم يركب الأهوال لم ينل الرغائب، ومن طلب العظام خاطر بعظيمته. وقال يزيد بن عبد الملك لما أتى برأس يزيد بن المهلب فنال منه بعض جلسائه، فقال: إن يزيد ركب عظيمًا، وطلب جسيمًا، ومات كريماً. وقال بعض الشعراء:

لا تقنعن ومطلب لك ممكن

فإذا تضايقت المطالب فاقنع

ومما جيل عليه الحر الكريم، أن لا يقنع من شرف الدنيا والآخرة بشيء مما انبسط له، أملاً فيما هو أسنى منه درجةً وأرفع مرتبةً؛ ولذلك قال عمر بن عبد العزيز للدين الراجز: إن لي نفساً تواقفة، فإذا بلغك أنني صرّتُ إلى أشرف من منزلتي "هذه"، فبعين ما أريتك - قال له ذلك وهو عامل "المدينة" لسليمان بن عبد الملك - فلما صارت إليه الخلافة قدم عليه دُكين، فقال له: أنا كما أعلمتك أن لي نفساً تواقفة، وأن نفسي تاقّت إلى أشرف منازل الدنيا، فلما بلغتها وجدتها تنوق إلى أشرف منازل الآخرة. ومن الشاهد لهذا المعنى، أن موسى صلوات الله عليه - لما كلمه الله "عز وجل" تكليماً - سأله النظر إليه، إذ كان ذلك لو وصل إليه أشرف من المتزلة التي نالها، فانبسط أمله إلى ما لا سبيل إليه، ليُستدلّ بذلك على أن الحرّ الكريم لا يقنع بمتزلة إذا رأى ما هو أشرف منها. ومن قولنا في هذا المعنى:

والحرُّ لا يكتفي من نيل مكرمة

حتى يروم التي من دونها العطب

يسعى به أمل من دونه أجل

إن كفه رهب يستدعه رغب

لذلك ما سال موسى ربه أرني

أنظر إليك وفي تسأله عجب

يبغى التزيّد فيما نال من كرم

وهو النجى لديه الوحي والكتب

وقال تائب شرّاً في ابن عم له يصفه برُكوب الأهوال وبذل الأموال:

وإني لمهّد من تنائي فقاصد

به لابن عم الصدق شمس بن مالك

أهز به في ندوة الحي عطفه

كما هز عطف بالهجان الأوارك

قليل التشكي للمهم يصيبه

كثير النوى شتى الهوى والمسالك

وَحِيداً وَيَعْرُورِي ظُهُورَ الْمَهَالِكِ
بِمُنْخَرِقٍ مِنْ شَدَةِ الْمُتَدَارِكِ
لَهُ كَالِيٍّ مِنْ قَلْبِ شَيْحَانَ فَاتِكِ
إِلَى سَلَّةٍ مِنْ جَفْنِ أَخْلَقَ بَاتِكِ"
نَوَاجِذُ أَفْوَاهِ الْمَنَائِي الضَّوَاحِكِ

أَضَاعَ وَقَاسَى أَمْرَهُ وَهُوَ مُذْبِرٌ
بِهِ الْخَطْبُ إِلَّا وَلِلْقَصْدِ مَبْصِرٌ

إِذَا سَدَّ مِنْهُ مِخْرَجُ جَاشِ مِخْرَجِ

يَظَلُّ بِمَوْمَاةٍ وَيَسْمَى بِغَيْرِهَا
وَيَسْبِقُ وَقَدْ الرِّيحِ مِنْ حَيْثُ يَنْتَحِي
إِذَا خَاطَ عَيْنَيْهِ كَرَى النَّوْمِ لَمْ يَزَلْ
"وَيَجْعَلُ عَيْنَيْهِ رَبِيبَةً قَلْبِهِ
إِذَا هَزَّهَ فِي عَظْمِ قَرْنٍ تَهَلَّلَتْ
وقال غيره من الشعراء "بل هي له":

إِذَا الْمَرْءُ لَمْ يَحْتَلْ وَقَدْ جَدَّ جِدُّهُ
وَلَكِنْ أَخُو الْحَزْمِ الَّذِي لَيْسَ نَازِلًا

فَذَاكَ قَرِيعُ الدَّهْرِ مَا عَاشَ حَوْلَ

باب في الحركة والسكون

قال وهب بن منبه: مكتوب في التوراة: ابن آدم، خلقتك من الحركة " للحركة " فتحرك وأنا معك. وفي بعض الكتب: ابن آدم: أمدد يدك إلى باب من العمل أفتح لك باباً من الرزق. وشاور عتبة بن ربيعة أخاه شيبية بن ربيعة في النجعة، وقال: إني قد أجدبت، ومن أجدب انتجع. فذهبت مثلاً. قال له شيبية: ليس من العز أن تتعرض للذل. فذهبت مثلاً. " فقال عتبة: لن يفرس الليث الطلأ وهو رابض، فذهبت مثلاً، أخذه حبيب فقال:

وَلَنْ يَفْرِسَ اللَّيْثُ الطَّلَا وَهُوَ رَابِضٌ

وقيل لأعشى بكر: إلى كم هذه التجعة والاعتراب، ما ترضى بالخفض والدعة؟ فقال: لو دامت الشمس عليكم لملثتموها. أخذه حبيب فقال:

لِدِيَابِجَتَيْهِ فَاغْتَرِبْ تَتَجَدَّدِ

إِلَى النَّاسِ إِذْ لَيْسَتْ عَلَيْهِمْ بِسَرْمِدِ

أَرَادَ بَأَنَّ يَحْوِي الْغِنَى وَهُوَ وَادِعٌ

وَطَوَّلَ مَقَامَ الْمَرْءِ فِي الْحَيِّ مُخْلِقٌ

فَإِنِّي رَأَيْتُ الشَّمْسَ زَيْدَتْ مَحَبَّةً

قال أبو سعيد أحمد بن عبد الله المكي: سمعت الشافعي يقول: قلت بيتين من الشعر، وأنشدنا:

وَمِنْ دُونِهَا خَوْضُ الْمَهَامَةِ وَالْقَفْرِ

أَقَادَ إِلَيْهَا أَمْ أَقَادَ إِلَى قَبْرِي

إِنِّي أَرَى نَفْسِي تَتَوَقَّعُ إِلَى مِصْرَ

فَوَاللَّهِ مَا الْمَحْرِي أَلْخَفْضُ وَالْغِنَى

فدخل مصر فمات. وقال موسى بن عمران عليه السلام: لا تدموا السفر، فإني أدركت فيه ما لم يدرك أحد. يريد أن الله عز وجل كلمه فيه تكليماً. وقال المأمون: لا شيء ألد من سفر في كفاية، لأنك في يوم تحل محلة لم تحلها، وتعاشر قوماً لم تعاشرهم. وقال الشاعر:

مَنْ أَنْ تَبَدَّلَ أَوْطَانًا بِأَوْطَانِ

أَهْلًا بِأَهْلٍ وَإِخْوَانًا بِإِخْوَانِ

لَا يَمْنَعُكَ خَفْضُ الْعَيْشِ فِي دَعَا

تَلْقَى بِكُلِّ بِلَادٍ إِنْ حَلَّتْ بِهَا

مع أن المقام بالمقام الواحد يورث الملالة.

وقال النبي صلى الله عليه وسلم: زُرْعًا تَزِدُّ حُبًا. وقالت الحكماء: لا تُنَالِ الرَّاحَةَ إِلَّا بِالتَّعَبِ، وَلَا تُدْرِكِ الدَّعَا إِلَّا بِالنَّصَبِ. وقال حبيب:

بَصُرْتُ بِالرَّاحَةِ الْكُبْرَى فَلَمْ تَرَهَا

وقال أيضاً:

على أنني لم أحوِ وفراً مجمعا
ولم تعطني الأيام يوماً مسكناً

وقال أيضاً:

وركب كأطراف الأسننة عرسوا
لأمر عليهم أن تتم صدوره

تتال إلا على جسر من التعب

قررت به إلا بشمل مبدد
أذبه إلا بنوم مشرد

على مثلها والليل تسطر غياهبه
وليس عليهم أن تتم عواقبه

وبعد فهل يجوز في وهم، أو يتمثل في عقل، أو يصح في قياس، أن يُحصد زرع بغير بدر، أو تُحنى ثمرة بغير غرس، أو يُورى زند بغير قدح، أو يُثمر مال بغير طلب. ولهذا قال الخليل بن أحمد: لا تصل إلى ما تحتاج إليه إلا بالوقوف على ما لا تحتاج إليه؛ فقال له أبو شمر المتكلم: فقد احتجت إذاً إلى ما لا تحتاج إليه، إذ كنت لا تصل إلى ما تحتاج إليه إلا به؛ قال "له" الخليل ويحك! وهل يقطع السيف الحسام إلا بالضرب، أو يجري الجواد إلا بالركض، أو هل تنال نهاية أو تُدرك غاية إلا بالسعي إليها، والإيضاع نحوها، وقد يكون الإكداء مع الكد، والخيبة مع الهيبة.

وقال الشاعر:

وما زلت أقطع عرض البلاد
وأدرع الخوف تحت الدجى
وأطوي وأنشر ثوب الهوم
إلى كم أكون على حالة
فقير الصديق غني العدو

من المشرقين إلى المغربين
وأستصحب الجدّي والفرقدين
إلى أن رجعت بخفي حنين
مقللاً من المال صفر اليدين
قليل الجداء عن الوالدين

ومثل هذا قليل في كثير، وإنما يُحكم بالأعم والأغلب، والنجح مع الطلب، والحِرمان للعجز أصح. وقد شرح حبيب هذا المعنى، فقال:

همم الفتى في الأرض أغصان الغنى

وقال إسماعيل بن إبراهيم الحمطوي في المطالب:

لك ألاحظ مراض ودل
وأرى خديك ورداً نصيراً
عذبة الألفاظ لم لم يشنها
أن عزى التي أنفت بي
ظلت في أفياء ظلك حتى
إن أولى منك بي لمرام
ما مقامي، وحسامي قاطع

غريست وليست كل حين تورق

غير أن الطرف عنها أكل
جاده من دمع عيني طل
كر تفتيد بسمعي يضل
عن سواها كثرها لي قل
ظل فوقي للمتالف ظل
لا يحل الهوان حيث يحل
وسناني صارم ما يفل

سَنَائِي مِثْلُ رَوْضَةِ حَزْنٍ
 دَلِيلِي بَيْنَ فَكِّي يَعْلو
 ثَمَلًا مِنْ خَمْرَةِ الْعَجْزِ أُسْقَى
 إِنْ يَكُنْ قُرْبُكَ عِنْدِي جَلِيلًا
 أَقْعِيدًا لِلْقَعِيدَةِ الْفَا
 وَيْكَ لَيْسَ اللَّيْثُ لِلْيَيْثِ يُضْحِي
 فَاتْرُكِي عَنَّا وَلَوْ مَا وَدَعَى
 هُوَ سَيْفٌ غَمْدُهُ بُرْدَتَاهُ
 لَا يَشُكُّ السَّمْعُ حِينَ يَرَاهُ
 بَيْنَ ثَوْبِيهِ أَخُو عِزْمَاتِ
 لَيْسَ تَنْبُوْ بِي رِحَالٌ وَبَيْدٌ
 فَأَقْلِي بَعْضَ عَدَلٍ مُقْلٌ
 نَ وَخَدَ الْعَيْسِ إِثْمَارَ رِزْقِ
 لَا تَقْلِي حَدَّ عِزْمِي بِلَوْمِ
 فَالْفَتَى مَنْ لَيْسَ يَرَعَى حِمَاهُ
 مَنْ إِذَا خَطَبُ أَطْلَّ عَلَيْهِ
 يَصْحَبُ اللَّيْلَ الْوَلِيدَ إِلَى أَنْ
 وَيَرَى السَّيْرَ "قَدْ" يَلْجَلْجُ مِنْهُ
 شَمَرَتْ أَثْوَابُهُ تَحْتَ لَيْلٍ
 سَأُضِيعُ النُّومَ كَيْمَا تَرِيْنِي
 فَابْتِنَاءُ الْعِزِّ هَدْمُ الْمَهَارِي

أَضْحَكْتَهَا دَيْمَةً تَسْتَهْلُ
 كُلَّ صَعْبٍ رِيضٍ فَيَذَلُ
 نَهْلًا مِنْ بَعْدِهِ لِي عَلَيَّ
 فَأَقْلُ الْحَزْمَ مِنْهُ أَجَلُ
 كُلُّ الْفِ بِي لِعُدْمِي مَخِلُ
 مَخْرَجًا مِنْ غَيْلِهِ وَهُوَ كَلُ
 وَعَلَى الْإِقْتَارِ عَنَّا كُلُّ
 يَنْتَضِيهِ الْحَزْمُ حِينَ يُسَلُّ
 أَنَّهُ بِالْبَيْدِ سَمِعَ أَرْلُ
 يَنْقِيهَا الْحَادِثُ الْمَصْمَلُ
 إِنْ نَبَا بِي مَنْزِلٌ وَمَحَلُّ
 لَا يَرَى صَرْفَ الزَّمَانِ يَقْلُ
 يَجْتَنِيهَا الْمُسْتَهَبُ الْمُسْمَعَلُ
 إِنِّي لِلْعِزْمِ وَالذَّهْرِ خَلُ
 طَمَعًا يَوْمًا لَهُ مُسْتَذَلُّ
 فَلَهُ صَبْرٌ عَلَيْهِ مُطَلُّ
 يَهْرَمَ اللَّيْلُ وَمَا إِنْ يَمَلُّ
 مُضْغَةً لَكِنَّا لَا تَصِلُ
 ثَوْبُهُ ضَافٍ عَلَيْهِ رِفْلُ
 وَمُضِيعِي مُعْظَمٌ لِي مُجَلُّ
 وَانْحِلَالُ الْعُدْمِ سَيْرٌ وَحَلُّ

باب التماس الرزق وما يعود على الأهل والولد

قال النبي صلى الله عليه وسلم: العائد على أهله وولده كالمجاهد المرباط في سبيل الله. وقال صلى الله عليه وسلم: اليد العليا خير من اليد السفلى، وابدأ بنفسك ثم بمن تعول. وقال عمر بن الخطاب: لا يقعد أحدكم عن طلب الرزق ويقول: اللهم ارزقني، وقد علم أن السماء لا تمطر ذهباً ولا فضة؛ وإن الله تعالى إنما يرزق الناس بعضهم من بعض، وتلا قول الله جلّ وعلا: "فإذا قضيت الصلاة فانتشروا في الأرض وابتغوا من فضل الله واذكروا الله كثيراً لعلكم تفلحون". وقال محمد بن إدريس الشافعي: احرص على ما ينفعك ودع كلام الناس، فإنه لا سبيل إلى السلامة من السنة العامة.

ومثله قولُ مالك بن دينار: مَنْ عَرَفَ نَفْسَهُ لَمْ يَضِرْهُ مَا قَالَ النَّاسُ فِيهِ. وقال كطاهر بن عبد العزيز: أَخْبَرَنَا عَلِيُّ بْنُ عَبْدِ الْعَزِيزِ، قَالَ: أَنْشَدَنَا أَبُو عُبَيْدِ الْقَاسِمِ بْنِ سَلَامٍ:

لَا يَنْقُصُ الْكَامِلَ مِنْ كَمَالِهِ

مَا سَاقَ مِنْ خَيْرٍ إِلَى عِيَالِهِ

وقال عمرُ بن الخطاب "رضى الله عنه": يا معشرَ القراء، التمسوا الرزق، ولا تكونوا عائلةً على الناس. وقال أكنم بن صيفي: مَنْ ضَيَّعَ زَادَهُ أَتَكَلَ عَلَى زَادٍ غَيْرِهِ. وقال النبي صلى الله عليه وسلم: خَيْرُكُمْ مَنْ لَمْ يَدَعِ آخِرَتَهُ لِدُنْيَاهُ وَلَا دُنْيَاهُ لِآخِرَتِهِ. وقال عمرو بن العاص: اعْمَلْ لِدُنْيَاكَ عَمَلٌ مِنْ يَعِيشُ أَبَدًا، وَاعْمَلْ لِآخِرَتِكَ عَمَلٌ مِنْ يَمُوتُ غَدًا.

وذكر رجلٌ عند النبي صلى الله عليه وسلم بالاجتهاد في العبادة والقوة على العمل، وقالوا: صَحَبْنَا فِي سَفَرٍ فَمَا رَأَيْنَا بَعْدَكَ يَا رَسُولَ اللَّهِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ أَعْبَدَ مِنْهُ، كَانَ لَا يَنْقُتُ مِنْ صَلَاةٍ، وَلَا يُفْطِرُ مِنْ صِيَامٍ. قال النبي صلى الله عليه وسلم: فَمَنْ كَانَ يَمُونَهُ وَيَقُومُ بِهِ؟ قالوا: كلنا؛ قال: كُلُّكُمْ أَعْبُدُ مِنْهُ. وَمَرَّ الْمَسِيحُ بِرَجُلٍ مِنْ بَنِي إِسْرَائِيلَ يَتَعَبَّدُ، فَقَالَ: مَا تَصْنَعُ؟ قَالَ: أَتَعْبُدُ؟ قَالَ: وَمَنْ يَقُومُ بِكَ؟ قَالَ: أَخِي؟ قَالَ: أَخُوكَ أَعْبُدُ مِنْكَ. وَقَدْ جَعَلَ اللَّهُ طَلَبَ الرِّزْقِ مَفْرُوضًا عَلَى الْخَلْقِ كُلِّهِ، مِنَ الْإِنْسِ وَالْجَنِّ وَالطَّيْرِ وَالْهَوَامِ، مِنْهُمْ بَتُّعَلِيمٍ، وَمِنْهُمْ يُلْهَمُ وَأَهْلُ التَّحْصِيلِ وَالنَّظَرِ "من الناس" يَطْلُبُونَهُ بِأَحْسَنِ وَجْهِهِ مِنَ التَّنَصُّفِ وَالتَّحْرُزِ، وَأَهْلُ الْعَجْزِ وَالْكَسَلِ يَطْلُبُونَهُ بِأَفْجَحِ وَجْهِهِ مِنَ السُّؤَالِ وَالِاتِّكَالِ وَالْخِلَابَةِ وَالِاحْتِيَالِ.

باب في فضل المال

قال الله تعالى " الْمَالُ وَالْبَنُونَ زِينَةُ الْحَيَاةِ الدُّنْيَا وَالْبَاقِيَاتُ الصَّالِحَاتُ خَيْرٌ عِنْدَ رَبِّكَ ثَوَابًا وَخَيْرٌ أَمَلًا". وقال النبي صلى الله عليه وسلم للمُجَاشِعِيِّ: إِنْ كَانَ لَكَ مَالٌ فَلِكِ حَسَبٌ، وَإِنْ كَانَ لَكَ خُلُقٌ فَلِكِ مَرْوَةٌ، وَإِنْ كَانَ لَكَ دِينَ فَلِكِ كَرَمٌ. وقال عمرُ بن الخطاب: حَسَبَ الرَّجُلِ مَالُهُ، وَكَرَمَهُ دِينُهُ، وَمُرُوءَتَهُ خُلُقُهُ.

وفي كتاب الأدب للجاحظ: اعلم أن تميمير المال آلة للمكارم، وعونٌ على الدين، وتأليف للإخوان؛ وأن من فقد المال قلت الرغبة إليه والرغبة منه، ومن لم يكن بموضع رغبة ولا رهبة استهان الناس به؛ فاجهد جهدك كله في أن تكون القلوب معلقةً منك برغبة أو رهبة في دين أو دنيا. وقال حكيم لابنه: يَا بُنَيَّ، عَلَيْكَ بِطَلَبِ الْمَالِ، فَلَوْ لَمْ يَكُنْ فِيهِ إِلَّا أَنَّهُ عَزَّ فِي قَلْبِكَ وَذُلٌّ فِي قَلْبِ عَدُوِّكَ لَكَفَى.

وقال عبد الله بن عباس: الدنيا العافية، والشباب الصّحة، والمروءة الصبر، والكرم التقوى، والحسب المال. وكان سعدُ بن عُبادة يقول: اللهم ارزقني جدًّا ومجدًّا، فإنه لا مجد إلا بفعال، ولا فعال إلا بمال. وقالت الحكماء: لا خيرَ فيمن لا يجمع المالَ يَصون به عرضه، ويحتمي به مروءته، ويصل به رحمة. وقال عبد الرحمن بن عوف: يا حَبِذا المَالُ أَصُونٌ بِهِ عِرْضِي، وَأَتَقَرَّبُ بِهِ إِلَى رَبِّي وَقَالَ سُفْيَانُ الثَّوْرِيُّ: المَالُ سِلَاحُ الْمُؤْمِنِ فِي هَذَا الزَّمَانِ. وقال النبي صلى الله عليه وسلم: نِعَمَ الْعَوْنُ عَلَى طَاعَةِ اللَّهِ الْغَنَى، وَنِعَمَ السُّلْمُ إِلَى طَاعَةِ اللَّهِ الْغَنَى، وَتَلَا " وَكَوْا أَنْتُمْ أَقَامُوا التَّوْرَةَ وَالْإِنْجِيلَ وَمَا أَنْزَلَ إِلَيْهِمْ مِنْ رَبِّهِمْ لَأَكْلُوا مِنْ فَوْقِهِمْ وَمَنْ تَحْتِ أَرْجُلِهِمْ"، وَقَوْلُهُ: " وَاسْتَغْفِرُوا رَبَّكُمْ إِنَّهُ كَانَ غَفَّارًا، يُرْسِلُ السَّمَاءَ عَلَيْكُمْ مِدْرَارًا، وَيُمْدِدْكُمْ بِأَمْوَالٍ وَيَنْبِيْنُ". وقال خالدُ بن صفوان لابنه: يَا بُنَيَّ، أَوْصِيكَ بِاثْنَتَيْنِ، لَنْ تَزَالَ بِخَيْرٍ مَا تَمَسَّكَتَ بِهِمَا: دِرْهَمُكَ لِمَعَاشِكَ، وَدِينَكَ لِمَعَادِكَ. وقال عُروَةُ بْنُ الْوَرْدِ:

ذَرِينِي لِلْغِنَى أَسْعَى فَإِنِّي

وَأَحْقَرُهُمْ وَأَهْوَنُهُمْ عَلَيْهِمْ

يُبَاعِدُهُ الْقَرِيبُ وَتَزْدَرِيهِ

وَتُنْفِي ذَا الْغِنَى وَلَهُ جَلَالٌ

قَلِيلٌ ذَنْبُهُ وَالذَّنْبُ جَم

قَلِيلٌ ذَنْبُهُ وَالذَّنْبُ جَم

رَأَيْتُ النَّاسَ شَرَّهُمُ الْفَقِيرُ

وَإِنْ أَمْسَى لَهُ حَسَبٌ وَخَيْرٌ

حَلِيلَتُهُ وَيَنْهَرُهُ الصَّغِيرُ

يَكَادُ فَوْادُ صَاحِبِهِ يَطِيرُ

وَلَكِنْ لِلْغِنَى رَبُّ غَفُورٌ

وَلَكِنْ لِلْغِنَى رَبُّ غَفُورٌ

وقال آخر:

يَقِلُّ بِهَا قَطْرُ الدَّمْعِ عَلَى قَبْرِي

سَأَكْسِبُ مَالاً أَوْ أَمُوتَ بَبْلَدَةَ

وقال آخر:

غِنَى الْمَالِ يَوْمًا أَوْ غِنَى الْحَدَثَانِ

سَأَعْمَلُ نَصَّ الْعَيْسِ حَتَّى يُكْفِنِي

عَلَى الْمَرْءِ بِالْإِقْلَالِ وَسَمُّ هَوَانِ

فَلَلَمُوتُ خَيْرٌ مِنْ حَيَاةٍ يُرَى بِهَا

وَإِنْ لَمْ يَقُلْ قَالُوا عَدِيمٌ بَيَانِ

إِذَا قَالَ لَمْ يُسْمَعْ لِحُسْنِ مَقَالِهِ

غَيْرِ لِسَانٍ نَاطِقٍ بِلِسَانِ

كَأَنَّ الْغِنَى عَنْ أَهْلِهِ بُورِكَ الْغَنِيْبِ

الرياشي قال: أنشدنا أبو بكر بن عيَّاش:

مَا لَمْ يَسْتَقْهُ لَهُ دَيْنٌ وَلَا خُلُقٌ

حَيْرَانَ يَعْلَمُ أَنَّ الْمَالَ سَاقٍ لَهُ

إِلَى ثَلَاثِينَ أَلْفًا ضَاقَتْ الطَّرْقُ

لَوْلَا ثَلَاثُونَ أَلْفًا سَقَّتْهَا بِدِرًّا

فَأَكْرَمَ النَّاسَ مَنْ كَانَتْ لَهُ وَرَقٌ

فَمَنْ يَكُنْ عَنِ كِرَامِ النَّاسِ يَسْأَلُنِي

وقال آخر:

وَكُلُّ غِنَى فِي الْعُيُونِ جَلِيلٌ

أَجَلُّكَ قَوْمٍ حِينَ صِرْتَ إِلَى الْغِنَى

ذَلَّلَتْ لَدَيْهِمْ وَالْفَقِيرُ ذَلِيلٌ

وَلَوْ كُنْتَ ذَا عَقْلٍ وَلَمْ تُؤْتِ ثَرْوَةً

وقال محمود الوراق:

وَإِنْ كَانَ لَا أَصْلَ هُنَاكَ وَلَا فَضْلُ

أَرَى كُلَّ فِي مَالٍ يُبِيرُ لِمَالِهِ

فَقَوْلُهُمْ قَوْلٌ وَقِعْلُهُمْ فِعْلٌ

فَشَرَّفَ ذَوِي الْأَمْوَالِ حَيْثُ لَقِيَتَهُمْ

وأنشد أبو مُحَلِّمٍ لرجل من ولد "طَلْبَةَ بن قَيْسِي بن عاصم:

عَلَى الْوَجْهِ حَتَّى خَاصَمْتَنِي الدَّرَاهِمُ

وَكَنْتُ إِذَا خَاصَمْتُ خَصَمًا كَيْبَتُهُ

عَلَيَّ وَقَالُوا قُمْ فَإِنَّكَ ظَالِمٌ

فَلَمَّا تَنَازَعْنَا الْخُصُومَةَ غَلِبْتُ

وأنشد الرياشي:

إِلَّا التَّعَرُّضُ لِلْحَتُوفِ

لَمْ يَبْقَ مِنْ طَلَبِ الْغِنَى

بَيْنَ الْأَسِنَّةِ وَالسِّيُوفِ

فَلَأَقْدَفَنَّ بِمَهْجَتِي

الْمَوْتَ يَلْمَعُ فِي الصُّفُوفِ

وَلَأَطْلُبَنَّ وَلَوْ رَأَيْتُ

وكان لأحِيحَةَ بن الجَلَّاحِ بالزُّوراءِ ثلثمائة ناضح، فَدَخَلَ بستاناً لَهُ، فَمَرَّ بِتَمْرَةٍ فَلَقَطَهَا فَعُوتِبَ فِي ذَلِكَ، فَقَالَ: تَمْرَةٌ إِلَى تَمْرَةٍ تَمْرَاتٍ، وَحَمَلٌ إِلَى حَمَلٍ ذَوْدٍ. ثُمَّ أَنشَأَ يَقُولُ:

إِنَّ الْحَبِيبَ إِلَى الْإِخْوَانَ ذُو الْمَالِ

إِنِّي مُقِيمٌ عَلَى الزُّوراءِ أَعْمُرُهَا

مَنْ ابْنِ عَمٍّ وَمَنْ عَمٍّ وَمَنْ خَالَ

فَلَا يَغْرُبُكَ ذُو قُرْبَى وَذُو نَسَبِ

كل النداء إذا ناديت يُخَذِّلني

ومن قولنا في هذا المعنى.

إلا ندائي إذا ناديت يا مالي

وإن تغرَّبتُ عن أهلي وعن ولدي
مالي أخٌ غير ما تطوى عليه يدي

دَعْنِي أَصْنُ حُرًّا وَجَهِي عَنِ إِذَالْتِهِ
قَالُوا نَأَيْتَ عَنِ الْإِخْوَانِ قُلْتُ لَهُمْ

"كان الرُّمَاحِسُ بن حَفْصَةَ بن قَيْسِ وابن عمِّ له يُدْعَى رَبِيعَةَ بن الوَرْدِ يَسْكُنَانِ الْإِرْدُنَّ، وكان رَبِيعَةَ بن الوَرْدِ مُوسِرًا، والرُّمَاحِسُ مُعَسِّرًا كَثِيرًا ما يَشْتَكُو إِلَيْهِ الْحَاجَةَ وَيُعْطِفُ عَلَيْهِ رَبِيعَةَ بَعْضَ الْعَطْفِ، فلما أكثر عليه كتب إليه:

شكَا الْفَقْرَ أَوْ لَامَ الصَّدِيقَ فَأَكْثَرَا
صِلَاتِ ذَوِي الْقُرْبَى لَهُ أَنْ تَتَكَرَّرَا
تَعِشْ ذَا يَسَارٍ أَوْ تَمُوتْ فَتُعْذَرَا
من المالِ إِلَّا مَنْ أَجَدَّ وَشَمَّرَا
وكيف يَنَامُ اللَّيْلَ مَنْ كَانَ مُعَسِّرَا

إِذَا الْمَرْءُ لَمْ يَطْلُبْ مَعَاشًا لِنَفْسِهِ
وَصَارَ عَلَى الْأَذْنِينَ كَلًّا وَأَوْشَكَتْ
فَسِرِّ فِي بِلَادِ اللَّهِ وَالتَّمَسِ الْغِنَى
فَمَا طَالِبُ الْحَاجَاتِ مِنْ حَيْثُ تَبْتَغِي
وَلَا تَرْضَ مَنْ عَيْشَ بَدُونٍ وَلَا تَتَمَّ

وقال بعضُ الْحَكَمَاءِ: الْمَالُ يُوقِرُ الدُّنْيَى وَالْفَقْرُ يُذِلُّ السَّيِّئَ. وأنشد:

فَإِنْ قَالَ قَوْلًا تَابَعُوهُ وَصَدَّقُوا
فَإِنْ زَالَ عَنْهُ الْمَالُ يَوْمًا تَفَرَّقُوا

أَرَى ذَا الْغِنَى فِي النَّاسِ يَسْعَوْنَ حَوْلَهُ
فَذَلِكَ دَابُّ النَّاسِ مَا كَانَ ذَا غِنَى

وأنشد:

فحيثما انقلبت يوماً به انقلبوا
يوماً عليه بما لا يشتتهي وتبوا"

ما النَّاسُ إِلَّا مع الدُّنْيَا وصاحبها
يُعْظَمُونَ أَخَا الدُّنْيَا فَإِنْ وَتَبَتْ

صنوف المال

قال معاوية لصعصعة بن صوحان: إنما أنت هاتف بلسانك لا تنظر في أود الكلام ولا في استقامته، فإن كنت تنظر في ذلك فأخبرني عن أفضل المال. فقال: والله يا أمير المؤمنين إن لأدع الكلام حتى يختمر في صدرِي، فما أرهف به ولا أتلهق فيه، حتى أقيم أوده، وأحرر منته. وإن أفضل المال ليرة سمراء في تربة غيراء، أو نعجة صفراء في روضة حضراء، أو عين حرارة في أرض حوارة. قال معاوية: لله أنت! فأين الذهب والفضة؟ قال: حجران يصطكان، إن أقبلت عليهما نفدا، وإن تركتهما لم يزيدا. وقيل لأعرابية: ما تقولين في مائة من المعز؟ قالت: قني؛ قيل لها: فمائة من الضأن؟ قالت: غني؟ قيل لها: فمائة من الإبل؟ قالت: منى. وقال عبد الله بن الحسن: غلة الدور مسألة، وغلة النخل كفاف، وغلة الحب ملك. وفي الحديث: أفضل أموالكم فرس في بطنها فرس يتبعها فرس، وعين ساهرة لعين نائمة. وأنشد فرج بن سلام لبعض العراقيين:

خَلَّ الْعُرُوضُ وَبِعَ لَنَا أَرْضًا
والمال يأكل بعضه بعضا
وعيونهم وقلوبهم مرضى

ولقد أقول لحاجب نصحا له
إني رأيت الأرض تبقى نفعها
واحذر أناسا يظهرون محبة

تدبير المال

قالوا: "لا مال" لأخرق ولا عيلة على مُصلح، وخيرُ المال ما أطمعك لا ما أطمعته. وقال صاحبُ كليله ودمنة: لِيُنْفِقَ ذُو الْمَالِ مَالَهُ فِي ثَلَاثَةِ مَوَاضِعَ: فِي الصَّدَقَةِ إِنْ أَرَادَ الْآخِرَةَ، وَفِي مُصَانَعَةِ السُّلْطَانِ إِنْ أَرَادَ الذُّكْرَ، وَفِي النَّسَاءِ إِنْ أَرَادَ "نَعِيمًا"، الْعَيْشَ. وقال: إِنْ صَاحَبَ الدُّنْيَا يَطْلُبُ ثَلَاثَةَ وَلَا يُدْرِكُهَا إِلَّا بِأَرْبَعَةٍ؛ فَأَمَّا الثَّلَاثَةُ الَّتِي تُطْلَبُ: فَالسَّعَةُ فِي الْمَعِيشَةِ، وَالْمَتْرَلَةُ فِي النَّاسِ، وَالزَّادُ إِلَى الْآخِرَةِ. وَأَمَّا الْأَرْبَعَةُ الَّتِي تُدْرِكُ بِهَا هَذِهِ الثَّلَاثَةُ: فَالْكَتْسَابُ الْمَالِ مِنْ أَحْسَنِ وَجْهِهِ، وَحُسْنُ الْقِيَامِ عَلَيْهِ، ثُمَّ التَّثْمِيرُ لَهُ، ثُمَّ إِتْفَاقُهُ فِيمَا يُصْلِحُ الْمَعِيشَةَ وَيُرْضِي الْأَهْلَ وَالْإِخْوَانَ وَيَعُودُ فِي الْآخِرَةِ نَفْعَهُ، فَإِنْ أَضَاعَ شَيْئًا مِنْ هَذِهِ الْأَرْبَعَةِ لَمْ يُدْرِكْ شَيْئًا مِنْ هَذِهِ الثَّلَاثَةِ؛ إِنْ لَمْ يَكْتَسِبْ لَمْ يَكُنْ لَهُ مَالٌ يَعِيشُ بِهِ، وَإِنْ كَانَ ذَا مَالٍ وَكَتْسَابٍ لَمْ يُحْسِنِ الْقِيَامَ عَلَيْهِ يُوشِكُ أَنْ يَفْنَى وَيَبْقَى بِلَا مَالٍ، وَإِنْ هُوَ أَنْفَقَهُ لَمْ يَثْمُرْهُ لَمْ تَمْنَعَهُ قَلَّةُ الْإِنْفَاقِ مِنْ سُرْعَةِ التَّفَادِ، كَالْكُحْلِ الَّذِي إِذَا يُؤْخَذُ مِنْهُ عَلَى الْمِيلِ مِثْلُ الْغُبَارِ، ثُمَّ هُوَ مَعَ ذَلِكَ سَرِيعُ نَفَاذِهِ؛ وَإِنْ هُوَ اكْتَسَبَ وَأَصْلَحَ وَثَمَّرَ لَمْ يُنْفِقِ الْأَمْوَالَ فِي أَبْوَابِهَا كَانَ بِمِثْلَةِ الْفَقِيرِ الَّذِي لَا مَالَ لَهُ، ثُمَّ لَا يَمْنَعُ ذَلِكَ مَالَهُ مِنْ أَنْ يُفَارِقَهُ وَيَذْهَبُ حَيْثُ لَا مَنَفْعَةَ فِيهِ، كَحَابِسِ الْمَاءِ فِي الْمَوْضِعِ الَّذِي تَنْصَبُ فِيهِ الْمِيَاهُ، إِنْ لَمْ يَخْرُجْ مِنْهُ بِقَدْرٍ مَا يَدْخُلُ فِيهِ مَصَلٌ وَسَالٍ مِنْ نَوَاحِيهِ، فَيَذْهَبُ الْمَاءُ ضَيَاعًا. وَهَذَا نَظِيرُ قَوْلِ اللَّهِ تَعَالَى: "وَالَّذِينَ إِذَا أَنْفَقُوا لَمْ يُسْرِفُوا وَلَمْ يَقْتُرُوا وَكَانَ بَيْنَ ذَلِكَ قَوَامًا" وَقَوْلِهِ عَزَّ وَجَلَّ لَنَبِيِّهِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ: "وَلَا تَجْعَلْ يَدَكَ مَغْلُولَةً إِلَى عُنُقِكَ وَلَا تَبْسُطْهَا كُلَّ الْبَسْطِ فَتَقْعُدَ مَلُومًا مَحْسُورًا".

ونظر عبد الله بن عباس إلى درهم بيد رجل، فقال له: إنه ليس لك حتى يخرج من يدك. يريد أنه لا ينتفع به حتى يُنْفِقَهُ وَيَسْتَفِيدَ غَيْرَهُ مَكَانَهُ. وقال الحطيمية:

تَهَلَّلْ وَأَهْتَرِّزْ اهْتِرَازَ الْمُهَنْدِّ

مفيد ومثلاف إذا ما سألته

وقال مُسلم بن الوليد:

أَوْ يَوْمَ يَجْمَعُهُ لِلنَّهْبِ وَالْبِدْدِ

لَا يَعْرِفُ الْمَالَ إِلَّا رَيْثًا يُنْفِقُهُ

وقال آخر:

مُهْلِكُ مَالٍ وَمُفِيدُ مَالٍ

وقال سُفيان الثوري: مَنْ كَانَ فِي يَدِهِ شَيْءٌ فَلْيُصْلِحْهُ، فَإِنَّهُ فِي زَمَانٍ إِنْ احتاجَ فِيهِ، كَانَ أَوْلَ مَا يَنْدُلُهُ دَيْنُهُ. وَقَالَ الْمُتَمَسِّسُ:

وَضَرَبَ فِي الْبِلَادِ بَغَيْرِ زَادٍ

وَحَبَسَ الْمَالَ أَيْسَرُ مِنْ بُغَاةٍ

وَلَا يَبْقَى الْكَثِيرُ مَعَ الْفَسَادِ

وَأَصْلَاحُ الْقَلِيلِ يَزِيدُ فِيهِ

سَعْدُ الْقَصِيرِ قَالَ: وَاللَّيْنُ عُنْبَةُ أَمْوَالِهِ بِالْحِجَازِ، فَلَمَّا وَدَّعْتَهُ، قَالَ لِي: يَا سَعْدُ، تَعَاهَدُ صَغِيرَ مَالِي "فَيْكُثِرُ" وَلَا تُضَيِّعُ كَثِيرَهُ فَيَصْغُرُ، فَإِنَّهُ لَيْسَ يَشْغَلُنِي كَثِيرُ مَالِي عَنْ إِصْلَاحِ قَلِيلِهِ، وَلَا يَمْنَعُنِي قَلِيلُ مَا فِي يَدِي عَنِ الصَّبْرِ عَلَى كَثِيرٍ مِمَّا يُتَوَبَّنِي. قَالَ: فَتَقَدَّمَتِ الْمَدِينَةُ فَحَدَّثَتْ بِهَا رِحَالَاتٍ قُرَيْشٍ، فَفَرَّقُوا بِهَا الْكُتُبَ عَلَى الْوُكَلَاءِ.

الإقلال

قال أرسططاليس: العنى في الغربة وطن، والمقل في أهله غريب. أخذته الشاعر فقال:

لَعَمْرُكَ مَا الْغَرِيبُ بِذِي التَّنَائِي

إِذَا مَا الْمَرْءُ أَعْوَزَ ضَاقَ ذَرْعًا

وقال إبراهيم الشيباني: رأيتُ في جدار من جُدُر بيت المقدس " بيتين مكتوبين بالذهب:

وَكُلُّ مُقَلٍّ حِينَ يَغْدُو لِحَاجَةٍ

وَكَانَ بَنُو عَمِّي يَقُولُونَ مَرْحَبًا

وَمِنْ قَوْلِنَا فِي هَذَا الْمَعْنَى:

اعاذِلْ قَدْ الْمَتِّ وَيَكِ فُلُومِي

اقد أسقطتُ حَقِّي عَلَيْكَ صَبَابَتِي

وَأَعْذِرُ مَا أَدْمَى الْجُفُونََ مِنَ الْبُكَاءِ

أرى كلَّ فَنَمٍ قَدْ تَبَجَّحَ فِي الْغِنَى

قال الحسن بن هانئ:

الْحَمْدُ لِلَّهِ لَيْسَ لِي نَشَبٌ

مَنْ نَظَرَتْ عَيْنُهُ إِلَيَّ فَقَدَ

وكان أبو الشَّمَمَقِ الشاعر أديباً ظريفاً محارفاً صُغُوكاً مُتَبَرِّمًا، قد لَزِمَ بيته في أطمار مَسْحُوقَةٍ، وكان إذا اسْتَفْتَحَ عليه أحدٌ بآبِهِ خرج فَنَظَرَ من فُرْجِ الباب، فإن أعجبه الواقفُ فَتَحَ له، وإلا سَكَتَ عنه. فأقبل إليه بعضُ إخوانه فدخل عليه، فلما رأى سُوءَ حاله، قال له: أبشِرْ أبا الشَّمَمَقِ، فإننا رَوينا في بعض الحديث أن العارين في الدنيا هم الكاسون يوم القيامة. قال: إن كان والله ما تقول حقاً لأكوننَّ بَرَّازاً يوم القيامة، ثم أنشأ يقول:

ه رَبِّي أَيِّ حَالٍ

محت الشَّمْسُ خِيَالِي

فَأَنَا عَيْنَ الْمَحَالِ

لِ لِمَنْ ذَا قَلْتُ ذَا لِي

حَلَّ أَكْلِي لِعِيَالِي

مِنْ نِسَاءِ وَرِجَالِ

لَمْ أَكُنْ فِي ذَا الْمِثَالِ

أنا في حالِ تعالى الل

ولقد أهزلت حتى

مَنْ رَأَى شَيْئًا مُحَالًا

ليس لي شيءٌ إذا قي

ولقد أفلستُ حتى

في حرامِ النَّاسِ طُرًّا

لو أرى في النَّاسِ حُرًّا

وقال أيضاً:

لِي فِيهِ مَطِيَّةٌ غَيْرُ رِجْلِي

قَرَّبُوا لِلرَّحِيلِ قَرَّبْتُ نَعْلِي

مَنْ رَأَنِي فَقَدْ رَأَنِي وَرَحْلِي

أُتْرَانِي أَرَى مِنَ الدَّهْرِ يَوْمًا

كَلِّمًا كُنْتُ فِي جَمِيعِ فَقَالُوا

حَيْثُمَا كُنْتُ لَا أَخْلَفُ رَحْلًا

وقال أيضاً:

لو قد رأيت سريري كنت ترحميني

والله يعلم ما لي فيه شابكة

وقال أيضاً:

برزت من المنازل والقباب

فمنزلي الفضاء وسقف بيتي

فأنت إذا أردت دخلت بيتي

لأنني لم أجد مصراع باب

ولا انشق الثرى عن عود تخت

ولا خفت الإباق على عبيدي

ولا حاسبت يوماً قهرماناً

وفي ذا راحة و فراغ بال

الله يعلم ما لي فيه تلبيس

إلا الحصيرة والأطمار والديس

فلم يعسر على أحد حجابي

سماء الله أو قطع السحاب

علي مسلماً من غير باب

يكون من السحاب إلى التراب

أؤمل أن أشد به ثيابي

ولا خفت الهلاك على دوابي

محاسبة فأغظ في حسابي

فداب الدهر ذا أبداً ودابي

وفي كتاب للهند: ما التبع والإخوان والأهل والأصدقاء والأعوان والحشم إلا مع المال، وما أرى المروءة يُظهرها إلا المال، ولا الرأي والقوة إلا بالمال، ووجدت من لا مال له إذا أراد أن يتناول أمراً قعد به العدم، فيبقى مقصراً عما أراد، كالماء الذي يبقى في الأودية من مطر الصيف فلا يجري إلى بحر ولا نهر، بل يبقى مكانه حتى تشق الأرض، ووجدت من لا إخوان له لا أهل له، ومن لا ولد له لا ذكر له، ومن لا عقل له لا دنيا له ولا آخرة له، ومن لا مال له لا شيء له؛ لأن الرجل إذا افتقر رخصه إخوانه وقطعه ذوو رحمه، وربما اضطرته الحاجة لنفسه وعياله إلى التماس الرزق بما يُعزّر فيه بدينه ودنياه، فإذا هو قد خسر الدنيا والآخرة، فلا شيء أشد من الفقر. والشجرة النابتة على الطريق المأكولة من كل جانب أمثل حالاً من الفقير المحتاج إلى ما في أيدي الناس، والفقر داعٍ صاحبه إلى مقت الناس، ومُتلف للعقل والمروءة، ومُدبب للعلم والأدب، ومعدن للثمة، ومجمّع للبلايا. ووجدت الرجل إذا افتقر أساء به الظن من كان له مؤتمناً، وليس من خصلة هي للغني مدح وزين إلا وهي للفقير ذم وشين، فإن كان شجاعاً قيل أهوج، وإن كان جواداً قيل مُفسد، وإن كان حليماً قيل ضعيف؛ وإن كان وقوراً قيل بليد، وإن كان صموتاً قيل عي، وإن كان بليغاً قيل مهذار. فالموت أهون من الفقر الذي يضطر صاحبه إلى المسألة، ولا سيما مسألة اللئام؛ فإن الكريم "لو كلف" أن يدخل يده في فم تين ويخرج منه سمّاً فيبتلعه، كان أحفّ عليه من مسألة "البخيل اللئيم".

السؤال

قال النبي صلى الله عليه وسلم: لأن يأخذ أحدكم أحبله فيحتطب بها على ظهره أهون عليه من أن يأتي رجلاً أعطاه الله من فضله فيسأله، أعطاه أو منعه. وقال: من فتح علي نفسه باباً من السؤال فتح الله عليه سبعين باباً من الفقر. وقال أكثم بن صيفي: كل سؤال وإن قل أكثر من كل نوال وإن جُل. ورأى علي بن أبي طالب كرم الله وجهه رجلاً يسأل بعرفات فقتعه بالسوط، وقال: ويلك! أفي مثل هذا اليوم تسأل أحداً غير الله؟ وقال عبد الله بن عباس: المساكين لا يُعودون مريضاً، ولا يشهدون جنازة، ولا يحضرون جمعة، وإذا اجتمع الناس في أعيادهم ومساجدهم يسألون الله من فضله، اجتمعوا يسألون الناس ما في أيديهم. وقال التعمان بن النذر: من سأل فوق حقه استحق الحرمان، ومن ألحف في مسألته استحق المطل، والرفق يُمن،

والخُرْقُ شُومٌ، وخَيْرُ السَّخَاءِ ما وافق الحاجة، وخَيْرُ العَفْوِ مع المَقْدِرَةِ. وقال شَرِيحٌ: مَنْ سأل حاجةً فقد عَرَضَ نَفْسَهُ على الرَّقِّ، فإن قَضَاهَا المسئولُ استعبده بها، وإن رَدَّه عنها رَجَعَ كلاهما ذليلاً: هذا بذلُّ البُخْلِ، وذاك بذلُّ الرَّدِّ. وقال حَبِيبٌ:

من دونه شَرِقٌ من تحته جَرَضُ

كُلُّ السُّؤالِ شَجِيٌّ في الحَلْقِ مُعْتَرِضُ

من ماء وجهي إن أفنيتَه عَوَضُ

ما ماء كَفَكُ إن جادتُ وإن بَخَلتُ

الحُشْنِي قال: قال أبو غَسَّان: أخبرني أبو زيد قال: سأل سائلٌ بمسجد الكوفة وقت الظهر فلم يُعْطَ شيئاً، فقال: اللهم إنك بحاجتي عالم لا تُعَلِّم، أنت الذي لا يُعوزك نائل، ولا يُحفيك سائل، ولا يَبْلُغُ مَدْحَكَ قائل، أسألك صبراً جميلاً، وفَرَجاً قريباً، وبصراً بالهدى، وقُوَّةً فيما تُحب وترضى. فتبادروا إليه يُعْطونه، فقال: والله لا رَزَأْتكم الليلة شيئاً، "وقد رفعتُ حاجتي إلى الله"، ثم أنشأ يقول:

عَوَضاً ولو نال الغنى بسؤال

ما نالَ بأذلِّ وجْهه بسؤاله

رَجَحَ السؤالَ وشالَ كلُّ نوال

إذا النوالُ مع السؤالِ وزنته

وقال مسلم بن الوليد:

وصائنٌ عَرِضِي عن فلانٍ وعن فلٍ

سَلِ الناسَ إني سائلُ الله وحده

وقال عبید بن الأبرص:

وسائلُ الله لا يَخِيبُ

مَنْ يَسْأَلُ الناسَ يَحْرِمُوهُ

وقال ابن أبي حازم:

ولُبْسُ ثَوْبَيْنِ بالبين

لَطِيُّ يَوْمٍ وَلَيْلَتَيْنِ

أغضُّ منها جفونَ عيني

أهُونُ من مَنَّةِ لِقَوْمِ

قليلَ مالٍ كثيرَ دينِ

إني وإن كنتُ ذا عيالٍ

حوائجي بينه وبينِّي

لأحمدُ الله حينَ صارتُ

ومن قولنا في هذا المعنى:

لِبَابِ الفَقْرِ فَأَلْطَفَ في السُّؤالِ

سُؤالُ الناسِ مِفْطاحُ عَنِيذٍ

"وَرَوَى أشعْبُ الطَّمَّاعِ عن عبد الله بن عُمر عن النبي صلى الله عليه وسلم أنه قال: يَحْشُرُ اللهُ عز وجل يوم القيامة قوماً عارياً وجوههم قد أذهب حياءها كثرةُ السؤالِ".

سؤال السائل من السائل

مدح أبو الشَّمَمَقْمَقِ مروان بن أبي حَفْصَةَ، فقال له: أبا الشَّمَمَقْمَقِ، أنت شاعرٌ وأنا شاعرٌ، وغايتنا كلُّنا السؤالُ. وذَكَرَ أعرابيُّ رجلاً بالسُّؤالِ، فقال: إنَّه أسألُ من ذي عَصَوَيْنِ. وقال حَبِيبٌ:

من سائلٍ يَرْجُو الغنى من سائل

لم يَخْلُقِ الرحمنُ أحْمَقَ لِحْيَةً

الأصمعيُّ عن عيسى بن عمر التَّحَوِيِّ قال: قَدِمْتُ من سَفَرٍ، فدخَلَ عليَّ ذو الرُّمَةِ الشاعرُ، فَعَرَضْتُ أن أعطيه شيئاً، فقال: "كل" أنا وأنتَ نأخذ ولا نُعْطَى.

الشَّيْبُ

قال قيسُ بن عاصم: الشَّيْبُ خَطَأُ الْمَنِيَّةِ. وقال غيره: الشَّيْبُ نذيرُ الموتِ.
وقال الثَّمِيرِيُّ: الشَّيْبُ عُنْوَانُ الْكَبِيرِ. وقال المُعْتَمِرُ بن سُلَيْمَانَ: الشَّيْبُ مَوْتُ الشَّعْرِ، وَمَوْتُ الشَّعْرِ عِلَّةُ لَمَوْتِ الْبَشَرِ. وقال أعرابيٌّ: كنتُ أنكرُ الْبَيْضَاءَ
فَصِرْتُ أنكرُ السُّودَاءِ، فَمَا خَيْرَ مَبْدُولٍ وَمَا شَرَّ بَدَلٍ.
وقيلَ لِلنَّبِيِّ صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ: عَجَلَ عَلَيْكَ الشَّيْبُ يَا رَسُولَ اللهِ! قال: شَيَّبَتْنِي هُودٌ وَأَحْوَاثُهَا. وقيلَ لعبدِ الملكِ بنِ مَرْوَانَ: عَجَلَ عَلَيْكَ الشَّيْبُ يَا
أَمِيرَ الْمُؤْمِنِينَ! قال: شَيَّبَنِي ارْتِقَاءُ الْمَنَابِرِ وَتَوَقُّعُ اللَّحْنِ. وقيلَ لرجلٍ مِنَ الشُّعْرَاءِ: عَجَلَ عَلَيْكَ الشَّيْبُ! فقال: وَكَيْفَ لَا يَعْجَلُ وَأَنَا أَعْصِرُ قَلْبِي فِي عَمَلٍ لَا
يُرْجَى ثَوَابُهُ، وَلَا يُؤْمَنُ عِقَابُهُ.
وقال حبيبُ الطَّائِي:

طَرِيقُ الرَّدَى مِنْهَا إِلَى النَّفْسِ مَهْيَعُ
وَذُو الْإِلْفِ يُقَلِّي وَالْجَدِيدُ يُرْقَعُ
وَلَكِنَّهُ فِي الْقَلْبِ أَسْوَدُ أَسْفَعُ

وَبُعْدَ قَوَاتِ الْأَمَلِ
بِعَقَبِ شَبَابِ رَحَلِ
وَشَيْبٌ كَأَنَّ لَمْ يَزَلِ
وَجَاءَ بِشِيرِ الْأَجْلِ "

فَالشَّيْبُ إِحْدَى الْمَيْتَتَيْنِ
وَمَحَا مَحَاسِنَ كُلِّ زَيْنِ
تُ رَأَيْنَ مِنْكَ غُرَابَ بَيْنِ
كَ وَكُنَّ طَوْعًا لِلْيَدَيْنِ
بُ وَأَنَا سَهْلَ الْعَارِضِينَ
بُ وَصِرْتُ بَيْنَ عِمَامَتَيْنِ
ضَاءِ الْمَنَاشِرِ كَاللَّجِينِ
نَ كُنَّ أَمْرًا بَيْنَ بَيْنِ
دَ عَلَى مُصَانَعَةٍ وَمَيْنِ
بُ فَجَازَ قَطْرَ الْجَانِبَيْنِ
وَأَخَذَنِي مِنْكَ الْأَطْيَبَيْنِ

غَدَا الشَّيْبُ مَخْتَطًا بِفَوْدِي خُطَّةً
هُوَ الزَّوْرُ يُجْفِي وَالْمُعَاشِرُ يُحْتَوَى
لَهُ مَنَظَرٌ فِي الْعَيْنِ أَبْيَضُ نَاصِعٌ

وقال محمودُ الْوَرَّاقِ:

بَكَيْتُ لِقُرْبِ الْأَجْلِ
وَوَافِدِ شَيْبِ طَرَا
شَبَابِ كَأَنَّ لَمْ يَكُنْ
طَوَاكَ بِشِيرِ الْبَقَا

وقال أيضاً:

لَا تَطْلُبِينَ أَثْرًا بَعِينَ
أَبْدَى مَقَابِحَ كُلِّ شَيْنِ
فَإِذَا رَأَتْكَ الْغَانِيَا
وَلَرِيْمَا نَافَسْنَ فِي
أَيَّامِ عَمَمِكَ الشَّبَا
حَتَّى إِذَا نَزَلَ الْمَشْيِ
سَوْدَاءَ حَالِكَةِ وَبِي
مَزَجَ الصُّدُودُ وَصَالَهُ
وَصَبْرُنِ مَا صَبَرَ السَّوَا
حَتَّى إِذَا شَمَلَ الْمَشْيِ
قَفَيْنِ شَرَّ قَفِيَّةِ

فَأَقْنِ الْحَيَاءَ وَسَلِّ نَف

وَلَنْزِ أَصَابَتِكَ الْخَطُوبِ

فَلَقَدْ أَمِنْتَ بِأَنْ يُصِيبَ

وقال حبيب الطائي:

نَظَرْتُ إِلَيَّ بَعِينٍ مَنْ لَمْ يَعْدِلِ

لَمَّا رَأَتْ وَضَحَ الْمَشِيبِ بِلَمَّتِي

فَجَعَلْتُ أُطَلِّبُ وَصَلَهَا بِتَلَطُّفٍ

وقال آخر:

صَدَّتْ أَمَامَهُ لَمَّا جِئْتُ زَائِرَهَا

وَرَاعَهَا الشَّيْبُ فِي رَأْسِي فَقُلْتُ لَهَا

وقال محمد بن أمية:

رَأْتِي الْغَوَانِي الشَّيْبُ لَاحَ بَعَارِضِي

وَكُنْ إِذَا أَبْصَرْتَنِي أَوْ سَمِعْتَنِي بِي

وقال العلوي:

عَيْرَتِي بِشَيْبِ رَأْسِي نَوَارِ

إِنَّمَا الْعَارُ فِي الْفِرَارِ مِنَ الزَّحِّ

ومن قولنا في الشيب:

بِذَا وَضَحَ الْمَشِيبِ عَلَى عِذَارِي

وَأَلْبَسَنِي النَّهْيَ ثَوْبًا جَدِيدًا

شَرِيَتْ سَوَادَ ذَا بِيضِاضِ هَذَا

وَمَا بَعْتُ الْهُوَى بَيْعًا بِشَرَطِ

ومن قولنا فيه:

قَالُوا شَبَابُكَ قَدْ وَلَّى فَقُلْتُ لَهُمْ

صِلْ مِنْ هَوَيْتَ وَإِنْ أَبْدَى مُعَابِتَةَ

وَأَقْطَعْ حَبَائِلَ خَدْنٍ لَا تُلَائِمُهُ

ومن قولنا فيه:

سَكَ أَوْ فَنَادِ الْفَرَقْدَيْنِ

بُ بِكُلِّ مَكْرُوهٍ وَشَيْنِ

بِكَ نَاطِرٌ أَبَدًا بَعِينِ

لَمَّا تَمَكَّنَ حُبُّهَا مِنْ مَقْتَلِي

صَدَّتْ صُدُودَ مُجَانِبِ مُتَحَمِّلِ

وَالشَّيْبُ يَغْمِزُهَا بِأَنْ لَا تَفْعَلِي

عَنِّي بِمَطْرُوفَةٍ إِنْسَانُهَا غَرَقُ

كَذَلِكَ يَصْفِرُ بَعْدَ الْخُضْرَةِ الْوَرَقُ

فَأَعْرَضَنِي عَنِّي بِالْخُدُودِ النَّوَاضِرِ

دَنُونٌ فَرَقَعَنَ الْكُؤَى بِالْمَحَاجِرِ

يَا ابْنَةَ الْعَمِّ لَيْسَ فِي الشَّيْبِ عَارُ

فَ إِذَا قِيلَ أَيْنَ أَيْنَ الْفِرَارِ

وَهَلْ لَيْلٌ يَكُونُ بِلَا نَهَارِ

وَجَرَّدَنِي مِنَ الثَّوْبِ الْمُعَارِ

فَبَدَّلْتُ الْعِمَامَةَ بِالْخِمَارِ

وَلَا اسْتَنْتَيْتُ فِيهِ بِالْخِيَارِ

هَلْ مِنْ جَدِيدٍ عَلَى كَرِّ الْجَدِيدَيْنِ

فَأَطِيبُ الْعَيْشَ وَصِلُ بَيْنَ الْفَيْنِ

فَرَبَّمَا ضَاقَتْ الدُّنْيَا عَلَى اثْنَيْنِ

جَارَ الْمَشِيبُ عَلَى رَأْسِي فَغَيَّرَهُ

كَأَنَّمَا جُنَّ لَيْلٌ فِي مَفَارِقِهِ

ومن قولنا فيه:

سَوَادُ الْمَرءِ تُنْفِذُهُ اللَّيَالِي

فَأَسْوَدَهُ يَعُودُ إِلَى بَيَاضٍ

ومن قولنا أيضاً:

أَطْلَالَ لَهْوِكَ قَدْ أَفَوْتَ مَغَانِيهَا

هَذِي الْمَفَارِقِ قَدْ قَامَتْ شَوَاهِدُهَا

الشَّيْبُ سَفْتَجَةٌ فِيهَا مُعْنُونَةٌ

ومن قولنا أيضاً:

نُجُومٌ فِي الْمَفَارِقِ مَا تَخُورُ

كَأَنَّ سَوَادَ لِمَتِّهِ ظَلَاً

أَلَا إِنَّ الْقَتِيرَ وَعَيْدُ صِدْقٍ

نَذِيرُ الْمَوْتِ أَرْسَلَهُ إِلَيْنَا

وَقُلْنَا لِلنَّفُوسِ لَعَلَّ عُمُرًا

مَتَى كُذِبَتْ مَوَاعِدُهَا وَخَانَتْ

لَقَدْ كَادَ السَّلْوُ يُمِيتُ شَوْقِي

كَأَنِّي لَمْ أَرُقْ بَلْ لَمْ تَرْفُنِي

وَلَمْ أَلِقَ الْمُنَى فِي ظِلِّ لَهْوٍ

"ولآخر:

وَالشَّيْبُ تَنْغِيصُ الصَّبَا

وقال ابن عباس: الدنيا الصِّحَّةُ والشَّيْبُ. ولبعضهم:

فِي كُلِّ يَوْمٍ أَرَى بَيَاضًا قَدْ طَلَعَتْ

لَنِّ قِصَصَتِكَ بِالْمَقْرَاضِ عَنِ نَظْرِي

ولابن المعتز:

جَاءَ الْمَشِيبُ فَمَا تَعَسْتُ بِهِ

وقال أيضاً:

لَمَّا رَأَى عِنْدَنَا الْحُكَّامَ قَدْ جَارُوا

فَاعْتَاقَهُ مِنْ بَيَاضِ الصُّبْحِ إِسْفَارُ

وَإِنْ كَانَتْ تَصِيرُ إِلَى نَفَادٍ

وَأَبْيَضُهُ يَعُودُ إِلَى سَوَادٍ

لَمْ يَبْقَ مِنْ عَهْدِهَا إِلَّا أَثَافِيهَا

عَلَى فَنَائِكَ وَالذُّنْيَا تُرَكِّيهَا

لَمْ يَبْقَ إِلَّا أَنْ يَسْحِبِيهَا

وَلَا يَجْرِي بِهَا فَلَكَ يَدُورُ

أَغَارَ مِنَ الْمَشِيبِ عَلَيْهِ نُورُ

لَنَا لَوْ كَانَ يَزْجُرُنَا الْقَتِيرُ

فَكَذَّبْنَا بِمَا جَاءَ النَّذِيرُ

يَطُولُ بِنَا وَأَطْوَلُهُ قَصِيرُ

فَأَوَّلُهَا وَآخِرُهَا غُرُورُ

وَلَكِنْ قَلَّمَا فَطَمَ الْكَبِيرُ

شَمُوسٌ فِي الْأَكْلَةِ أَوْ بَدُورُ

بِأَقْمَارِ سَحَابَيْهَا السُّتُورُ

فاقضى اللبابة في الشباب

كَأَنَّمَا طَلَعَتْ فِي نَاطِرِ الْبَصْرِ

لَمَّا قَصَصْتِكَ عَنِ هَمِّي وَلَا فِكْرِي

وَمَضَى الشَّبَابُ فَمَا بُكَايَ عَلَيْهِ

سُنُو شَبَابِي وَهَذَا الشَّيْبُ قَدْ وَخَطَا
فِيصْبِحُ الشَّيْبُ لِلسُّودَاءِ مُنْقَطَا
فَطَالَمَا أَعْمَلُ المِقْرَاضَ وَالمُشْطَا

مَاذَا تُرِيدِينَ مِنْ جَهْلِي وَقَدْ غَبَّرْتِ
أَرْفَعُ الشَّعْرَةَ النِّبْيَاءَ مُنْقَطَا
وَسَوْفَ لَا شَكَّ يُعِينِنِي فَأَتْرِكُهُ

الشباب والصحة

قال أبو عمرو بن العلاء: ما بكت العربُ شيئاً ما بكتُ الشباب، وما بلغت به ما يستحقّه. وقال الأصمعيّ: أحسن أغماط الشعر المراتي والبكاء على الشباب. وقيل لكثير عزة: ما لك لا " تقول الشعر؟ قال: ذهب الشبابُ فما أطرب، ومات عبد العزيز فما - أرغب. وقال عبد الله بن عباس: الدنيا العافية، والشباب الصحة. وقال محمود الوراق:

يُصَابُ بِبَعْضِ الذِّي فِي يَدَيْهِ
وَبَيْنَ مُغْذٍّ مُعَزٍّ إِلَيْهِ
بِ فليس يُعزِّيهِ خَلْقٌ عَلَيْهِ

أليسَ عَجِيباً بَأَنَّ الفَتَى
فمن بين باكٍ له مُوجِعٌ
وَيَسْتَلِبُهُ الشَّيْبُ شَرَّخَ الشَّبَا

قال ابن أبي حازم:

فَقَدُّ الشَّبَابِ يَفْقَدُ الرُّوحَ مُتَّصِلُ
مِنَ الشَّبَابِ بِيَوْمٍ وَاحِدٍ بَدَلُ

وَلَى الشَّبَابُ فَخَلَّ الدَّمْعُ يَنْهَمِلُ
لَا تُكْذِبَنَّ فَمَا الدُّنْيَا بِأَجْمَعِهَا

وقال جرير:

لو كان ذلك يُشْتَرَى أَوْ يُرْجَعُ

وَلَى الشَّبَابُ حَمِيدَةً أَيامُهُ

وقال صريع الغواني:

لو كان أسْعَفَ بالمُقَامِ قَلِيلاً
هل يَسْتَطِيعُ إِلَى الرُّجُوعِ سَبِيلاً

وَاهَا لِأَيَّامِ الصَّبَا وَزَمَانِهِ
سَلْ عَيْشَ دَهْرٍ قَدْ مَضَتْ أَيامُهُ

وقال الحسن بن هانئ:

لِ وَفَوْقِي مِنَ الصَّبَا أَمْرَاءُ
وَلرَأْسِي ذَوَابَةٌ فَرَعَاءُ
لم تَرَقَعَهُ بِالخِضَابِ النِّسَاءُ
وتبلى عمامتي السوداء

وَأراني إذ ذاك في طاعة الجِه
تَرُبُّ عَيْتٌ لِرَبَطْتِي فَصَلُّ ذَيْلُ
بِقِنَاعِ مِنَ الشَّبَابِ جَدِيدِ
قَبْلَ أَنْ يَلْبَسَ المَشْيِبَ عِدَارِي

وقال أعرابي:

لو يُسْتَعَارُ جَدِيدُهُ فَيُعَارُ

لله أَيَّامَ الشَّبَابِ وَعَصْرُهُ

ما كان أقصرَ ليلَه ونَهَارَه

ومن قولنا في الشباب:

ولَى الشبابُ وكنْتَ تَسْكُن ظِلَّهُ
ونَهَى المَشْيِبُ عن الصبا لو أَنه

ومن قولنا فيه:

قالوا شبَابُك قد مضتْ أَيامُه
لله أَيَّة نعمةٍ كان الصبَا
حَسَرَ المَشْيِبُ قِنَاعَه عن رأسه
فكأنَّ ذاك العيشَ ظل غمامةٍ

"ومن قولنا فيه:

ولو شئتُ راهنتُ الصبَابَةَ والهوى
وأسبلتُ من ثوبِ الشبابِ وللصبا

وقال آخر:

إنَّ شَرَحَ الشبابِ والشعرِ الأَس

وقال آخر:

قالتْ عهدتُكَ مجنوناً فقلتُ لها

ومن قولنا في الشباب:

كنتُ إلفَ الصبَا فودَّعني
أيامَ لهوي كظلِّ إسحلةٍ

ومن قولنا فيه:

شبابي كيف صرّتَ إلى نَفَاد
وما أبقي الحوادثُ منك إلا
فِرَاقُكَ عَرَفَ الأحزانَ قلبي
فيا لنعيم عيشٍ قد تولى
كأني منك لم أربَع برَبَع
سقى ذاك الثرى وبِلُ الثرىا
فكم لي من غليلٍ فيه خافٍ

وكذاك أيامُ السُرورِ قِصارُ

فانظرُ لنفسك أَيَّ ظلٍّ تَسْكُنُ
يُدلى بحجَّتِه إلى مَنْ يلقنُ

بالعِيشِ قلتُ وقد مضتْ أَيامي
لو أَنها وُصِلت بطولِ دوامِ
وصحَا العوائلُ بعد طولِ ملامِ
وكأنَّ ذاك اللهُوَ طيفُ منامِ

وأجريتُ في اللذاتِ من مائتين
عليّ رداءٌ مُعلم الطرْفين"

ود ما لم يُعاصَ كان جُنونا

إنَّ الشبابَ جُنونٌ برؤُه الكبرِ

وداعَ مَنْ بانَ غيرَ مُنصرفِ
وذا شبابي كروضة أنفٍ

وبُدلتَ البياضَ من السوادِ
كما أبقتَ من القمرِ الدّادي
وفَرَّقَ بين جفني والرُقَادِ
ويا لغيليل حُزنٍ مستفادِ
ولم أرْتدَّ به أحلى مرادِ
وغادى نبتَه صوبُ الغوادي
وكم لي من عويلٍ فيه بادي

زمانٌ كان فيه الرُّشدُ غَيًّا

وكان الغيُّ فيه من الرُّشادِ

يُقبِّلني بدلٌ من قبُولِ

ويُسعدني بوِصلٍ من سعادِ

وأجنيه فيُعطيني قياداً

ويَجْنِبني فأعطينه قيادي

الخضاب

قال النبي صلى الله عليه وسلم: غَيَّرُوا هذا الشَّيْبَ "وحبَّوه السَّوادَ". وكان أبو بكر يَخْضِبُ بالحِنَّاءِ والكَتَمِ. وقال مالك بن أسماء بن خارجة لجاريتته: "قومي" اخضبي رأسي ولحيَّتي، فقالت: دَعَيْ، قد عَيَّيت بما أرقِّعك. فقال مالك بن أسماء:

عَيَّرتني خَلْقاً أبلِيتُ جدَّته

وهل رأيت جديداً لم يعدْ خَلْقاً

ودخل أبو الأسود الدُّؤليُّ على معاوية وقد خَضَبَ، فقال: لقد أصبحتَ يا أبا الأسود جميلاً، فلو عَلَّقت تميمه. فأنشأ أبو الأسود يقول:

أفنى الشَّبَابِ الذي فارقتُ بهجته

مرَّ الجديدين من آتٍ ومُنْطَلِقِ

لم يُبقِيا لي في طُولِ اختلافهما

شيئاً يُخاف عليه لَدَعَةُ الحَدَقِ

وذكر عن الأصمعيِّ قال: بلغني عن بعض العرب فصاحةً، فأتيته فوجدته يَخْضِبُ، فقال: يا بن أخي، ما الذي أَفْصَدَكَ إليَّ؟ قلتُ: الاستئناسُ بك والاستماعُ من حديثك؛ قال: يا بن أخي، قَصَدتني وأنا أخْضِبُ، والخضابُ من مُقَدِّمات الضَّعْفِ، ولطالما فَرَّعت الوُحوشُ، وقُدَّت الجيوشُ؛ وَرَوَّيت السَّيفَ، وَفَرَّيت الضَّيْفَ؛ وَحَمَّيت الحارَّ، وأبيت العارَ؛ وَشَرَّبتُ الرَّاحَ، وجالستُ المِلاحَ، وعاديت القُرومَ، وعَلوت الخُصومَ؟ واليوم يا بن أخي الكِبَرُ وضعفُ البصرِ، تركا من بعد الصَّفْوِ الكَدَرِ، وأنشأ يقول:

شَيْبٌ نَعَلَّه كيما نَسَرَ به

كهبيبة الثَّوبِ مطويا على خِرَقِ

فكنتُ كالغُصِّ يَرْتاحُ الفؤادُ به

فصرتُ عوداً بلا ماءٍ ولا وَرَقِ

صَبْرًا على الدَّهرِ إنَّ الدَّهرِ ذو غَيِّرِ

وأهلُّه منه بين الصَّفْوِ والرَّتَقِ"

ودخل معاوية على ابن جعفر يعوذه، فوجده مُفَيِّقاً وعنده جاريةٌ في حِجرها عودٌ، فقال: ما هذا يا بن جعفر؟ فقال: هذه جارية أرويه رقيقَ الشعرِ فَتَزِيدُه حُسناً بِحُسْنِ نَعْمَتِها. قال: فَتَلْتَلِ. فحرَّكتُ عودها وغنَّت، وكان معاوية قد خَضَبَ:

أليس عندك شُكْرٌ لَلَّتِي جَعَلتُ

ما ابيضُ من قادمات الرِّيشِ كالْحَمَمِ

جَدَّتْ منك ما قد كان أخلَّقه

رَيْبُ الزمانِ وَصَرَفُ الدَّهرِ والقَدَمِ

فحرَّك معاوية رجله، فقال له ابن جعفر: لم حرَّكت رجلك يا أمير المؤمنين؟ قال: كلُّ كريمٍ طَرُوب. وقال محمود الوراق في الخضاب:

للضيف أن يُقرَى ويُعرفَ حَقُّه

والشَّيْبُ ضيفُك فأقره بِخِضابِ

وافي بأكذبِ شاهدٍ ولربِّما

وافي المَشَّيبُ بِشاهدٍ كذابِ

فافسَخْ شهادتَه عليك بِخَضِبِه

تَنفِي الظُّنونِ به عن المُرْتابِ

فإذا دنا وَقَتُ المَشَّيبِ فخلَّه

والشَّيْبُ يذهبُ فيه كلُّ ذهابِ

وقال آخر:

وقائلة تقولُ وقد رأتني

عليك الخطرُ أن تُدني

فقلتُ لها المشيبُ نذيرُ عمري

وقال غيره:

أرقع عارضِي من القنيرِ

إلى بيضِ ترائبهن حُورِ

ولستُ مُسوداً وجهَ النذيرِ

إن شيباً صلاحُه بخضابِ

فوحقَّ الشبابُ لولا هوى البِي

لأرحتُ الخدينِ من وضر الخطِ

وقال غيره:

لعذابِ مُوكَّلٍ بعذابِ

ض وأنَّ تَشْمَنَزَ نفسُ الكعابِ

ر واذنتُ بانقضاءِ الشَّبابِ

بكرتُ تحسُّنَ لي سوادَ خضابي

وإذا أديمُ الوجهِ أخلقه البلي

ماذا ترى يجدي عليكِ سوادهُ

ما الشيبُ عندي والخضابُ لوأصِف

تخفي قليلاً ثم تقشعه الصبا

ومن قولنا هذا المعني:

لكأنَّ ذاك يُعيدني لشبابي

لم يُنتفعَ فيه بحسُنِ خضابِ

وخلافُ ما يُرضيك تحت ثيابي

إلا كشمس جَلَّتْ بسحابِ

فيصيرُ ما سترت به لذهابِ

أصمَّ في الغواية أم أنابا

إذا نصل الخضابُ بكى عليه

وشيبُ الرأسِ قد خلَّسَ الشَّبابا

ويضحكُ كلما وصل الخضابا

كأن حمامةً بيضاءَ ظلت

تُقاتلُ في مفارقة غرابا

فضيلة الشيب

قال النبي صلى الله عليه وسلم: مَنْ شَابَ شَيْبَةً فِي الْإِسْلَامِ كَانَتْ لَهُ نُورًا يَوْمَ الْقِيَامَةِ. وقال ابن أبي شَيْبَةَ: هِيَ رَسُولُ اللَّهِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ عَنْ تَنْفِ الشَّيْبِ، وَقَالَ: هُوَ نُورُ الْمُؤْمِنِ. وقالوا: أَوَّلُ مَنْ رَأَى الشَّيْبَ إِبْرَاهِيمُ خَلِيلُ الرَّحْمَنِ فَقَالَ: يَا رَبِّ، مَا هَذَا؟ قَالَ لَهُ: هَذَا الْوَقَارُ؟ قَالَ: رَبِّ زِدْنِي وَقَارًا. وقال أبو نُوَّاسٍ:

يَقُولُونَ فِي الشَّيْبِ الْوَقَارُ لِأَهْلِهِ

وقال غيره:

وشيبِي بحمد الله غير وقارِ

يَقُولُونَ هَلْ بَعْدَ الثَّلَاثِينَ مَلْعَبُ

لَقَدْ جَلَّ قَدْرُ الشَّيْبِ إِنْ كَانَ كَلْمًا

فقلتُ وهل قبلَ الثلاثينِ مَلْعَبُ

بَدَتْ شَيْبَةً يَعْزَى مِنَ اللَّهِ مَرْكَبُ

دخل أبو دُلف على المأمون وعنده جارية، وقد ترك أبو دُلف الحِضَابَ، فغمز المأمون الجاريةَ فقالت " له ": شِيتُ أبا دُلف، إنا لله وإنا إليه راجعون، "لا" عليك! فسكت أبو دُلف. فقال له المأمون: أجِها أبا دُلف: فأطرق ساعةً، ثم رَفَع رأسه، فقال:

لا تَهْزَيْ مَن يَطلُ عُمْرٌ به يَشِبِ
وَشَيْبُكَ لَكِنَّ الوَيْلُ فَانْتَبِي
وليس فيكِنَّ بعد الشَّيبِ مِن أرب

تَهْزَأُتُ أَن رَأَتْ شَيْبِي فَقَلْتُ لَهَا
شَيْبُ الرِّجَالِ لَهُم زَيْنٌ وَمَكْرَمَةٌ
فِينَا لَكِنَّ، وَإِنَّ شَيْبٌ بَدَأَ، أَرَبٌ

وقال محمود الوراق:

لم يَعدُ لَمَّا أَلَمَ وَقْتَهُ
ياعائِبَ الشَّيبِ لا بَلِغْتَهُ

وعائِبَ عابني بشيبِ
فقلتُ للعائِبِ بشيبي

" أنشدني أبو عبد الله الإسكندراني " معلّم الإخوة:

طلائعُ شيبَتين أَلَمتا بي
إلى المِقراضِ من حُبِّ التَّصابي
لَتَشْهَدَ بالبرِّاءِ من الخِضابِ "

ومما زادَ في طولِ اِكْتِتابي
فأما شَيْبَةٌ فَفَزَعْتُ فِيهَا
وأما شَيْبَةٌ فَعَفَوْتُ عَنْهَا

وقال محمد بن مُناذِر:

يا إلهُ الشَّبابِ من مَعْهُودِ
فوجدتُ الشَّبابَ شرًّا جَدِيدِ
ي وما مِن دُعا لَهُ بِرَشِيدِ
ب ونِعْمَ المَقادُ لِلْمُسْتَفِيدِ

لا سَلامٌ على الشَّبابِ ولا حَيِّ
قد لَبِستُ الجَدِيدَ من كلِّ شَيءِ
صاحبٌ ما يزالُ يَدْعُو إلى الغيِ
ولَنِعْمَ المَشيبُ والوازِعُ الشَّيِّ

كبر السن

قيل لأعرابيٍّ قد أخذته كِبَرَةُ السِّنِّ: كيف أصبحت؟ فقال: أصبحتُ تَقِيدِي الشَّعْرَةَ، وأَعْتُرُ بالبَعْرَةَ، قد أقام الدهرُ صَعْرِي، بعد أن أقمتُ صَعْرَهُ. وقال: " آخر": لقد كنتُ أَتُكِرُ البِيضاءَ، فَصُرْتُ أَتُكِرُ السُّوداءَ، فإِيا حَيْرَ مَبْدُولِ وإِيا شَرَّ بَدَلِ. ودخلَ المُسْتَوْغِرُ بنُ ربيعةَ على معاويةَ بنِ أبي سُفيانٍ وهو ابنُ ثلثمائةِ سَنَةٍ، فقال: كيف تَحْدُك يا مُسْتَوْغِرُ؟ فقال: أَجِدني يا أَميرَ المُؤمِنينَ، قد لَانَ مِنِّي ما كُنْتُ أَحَبُّ أن يَشْتَدَّ، واشتَدَّ مِنِّي ما كُنْتُ أَحَبُّ أن يَلينَ، وإبيضَّ مِنِّي ما كُنْتُ أَحَبُّ أن يَسودَّ، واسودَّ مِنِّي ما كُنْتُ أَحَبُّ أن يَبيضَ، ثم أنشأ يقول:

نومُ العِشاءِ وسُعالُ بالسَّحَرِ
وقِلَّةُ الطَّعْمِ إذا الزَّادُ حَضَرَ
وتَرَكُّ الحِسانِ في قُبُلِ الطُّهْرِ

سَلْنِي أَتَبَّتْكَ بآياتِ الكِبَرِ
"وقِلَّةُ النِّوْمِ إذا الليلُ اَعْتَكِرَ"
"وسُرْعَةُ الطَّرْفِ وتَحْمِيجُ النَظَرِ"
والناسُ يَبْلَوْنَ كما يَبْلَى الشَّجَرُ

وقال أعرابي:

أشكو إليك وجعاً برُكبتني
كهْدجان الرّأل خَلْف الهَيْقَتِ

وقال آخر:

وهْدجاناً لم يَكُنْ في مِشيتي

الرُّكبتان والنّسا والأخدع

وللكبير رَثِياتٌ أُرْبِع

وقال جرير:

ولَيْسَ لِدَاءِ الرُّكبتين طِيبُ

تَحْنِ العِظامِ الرَّاجفاتُ مِنَ البِلَى

وقال أعرابي في امرأة "عَجُوز":

وأقدمَ العالمِ في المِيلادِ

يا بَكَرَ حَوَاءَ مِنَ الأَوْلادِ

فحدّثينا بحدِيثِ عادِ

عُمركِ ممدودٌ إلى التَّنادِي

وكيف حالُ السَّيْلِ بالأطوادِ

ومُبتدا فرعونِ ذِي الأوتادِ

وقال آخر:

فقد ذَهَبَ المَسرَةُ والفَتَاءُ

إذا عاش سَبْعينَ عاماً

كان في غُطفانِ نَصْرُ بنِ دُهْمانِ، فَادَّ غُطفانِ وسادها حتى خَرِفَ وعُمِّرَ تسعينَ ومائةَ سَنَةٍ حتى اسودَّ شَعْرُهُ ونَبَتَ أَضراسُهُ وعاد شاباً، فلا تُعرفُ في العربِ أعجوبةٌ مثله. وقال محمد بن مناذر في رجل من المُعَمَّرين:

قد ضَجَّ من طُولِ عُمُرِهِ الأَبْدُ

إِنَّ مُعَاذَ بنِ مُسْلِمِ رَجُلٌ

رِ وأثوابُ عُمُرِهِ جُدُدُ

قد شابَ رَأْسُ الزَّمانِ واكتهلَ الدَّهَ

تَسَحَّبَ ذَيْلَ الحِياةِ يا لُبْدُ

يا نَسْرَ لُقمانِ كم تَعيشُ وكم

وأنتِ فيها كأنك الوَتِدُ

قد أَصبَحَتُ دارُ آدمَ خَرِبَتُ

كيفَ يَكُونُ الصِّداعُ والرَّمَدُ

تَسأَلُ غَرِبانها إذا حَجَلتُ

ودخل الشَّعبيُّ على عبد الملك بن مَرْوانَ، فَوَجَدَهُ قد كَبَا مُهْتَمًّا، فقالت: ما بالُ أميرِ المُؤمنينِ؟ قال: يا شَعبِيّ، ذَكَرْتُ قولَ زُهَيرِ:

خَلَعْتُ بِها عِذارَ لجامي

كأني وقد جاوزتُ سَبْعينَ حِجَّةً

فكيفَ بمن يُرْمَى وليس بِرِامي

رَمَتني بناتُ الدَهرِ من حيثُ لا أرى

ولكنني أُرْمَى بِغيرِ سِهامِ

فلو أَنني أُرْمَى بِبِنْبُلٍ رَأيتُها

أَنوَّءُ ثلاثاً بَعدَهُنَّ قِيامي

عَلَى الرَّاحِئِينَ تارَةً وَعَلَى العِصا

قال له الشَّعبيُّ: ليس كذلك يا أميرَ المُؤمنينِ، ولكن كما قال لَبِيدُ ابنِ رَبيعةَ، وقد بلغ سَبعينَ سَنَةً؛

خَلَعْتُ بِها عَن مَنكَبِي رِدايَا

كأني وقد جاوزتُ سَبْعينَ حِجَّةً

فلما بلغ سَبعاً وسَبعينَ قال:

باتت تشكى إلى النفس مُجهشةً

فإن تَزَادِي ثَلَاثًا تَبْلُغِي أَمَلًا

فلما بلغ مائة سنة قال:

ولقد سئمت من الحياة وطولها

فلما بلغ مائة سنة وعشرًا قال:

أليسَ في مائةٍ قد عاشها رجلٌ

فلما بلغ ثلاثين ومائةً وقد حضرته الوفاة قال:

تمنّى ابنتاي أن يعيش أبوهما

فقوما وقولا بالذي تعلمانه

وقولا هو المرء الذي لا صديقه

إلى الحولِ ثم اسمُ السلامِ عليكما

قال الشَّعْبِيُّ: فلقد رأيت السرورَ في وجه عبد الملك طمعاً أن يعيشها.

وقال لبيد أيضاً:

أليسَ ورائي إن تراخت منيَّتي

أخبر أخبارَ القرون التي مضت

فأصبحتُ مثل السيفِ أخلقُ جفنه

وقالوا: مكنوبٌ في الزبور: من بلغ السبعين أشتكى من غير علة. وقال محمد ابن حسان النَّبْطِيُّ: لا تسأل نفسك العام ما أعطتك في العام الماضي.

وقال معاوية لما أسنن: ما مرَّ شيءٌ كنتُ أستلذه وأنا شابٌ فأجده اليوم كما أجده إلا اللبن والحديث الحسن. عاش ضِرَارُ بن عمرو حتى وُلد له ثلاثة

عشرَ ذكراً، فقال: من سرَّه بنوه ساءته نفسه. وقال ابن أبي فَنَنِ:

مَنْ عَاشَ أَخْلَقَتِ الأيَامُ جَدَّتَهُ

قَالَتْ عَهْدَتُكَ مَجْنُونًا فَقُلْتُ لَهَا

قال أبو عُبيدة: قيل لشيخ: ما بقى منك؟ قال يسبقني من بي يدي ويُدركني من خلفي، وأذكر القديم، وأنسى الحديث، وأنعس في الملا، وأسهر في

الحلأ، وإذا قمتُ قُرْبَتِ الأَرْضُ مِنِّي، وإذا قعدتُ تباعدت عني.

وقال حميد بن ثور الهلالي:

أرى بصري قد رابني بعد صحّةٍ

وقال آخر:

كانت قناتي لا تلين لغامرٍ

ودَعَوْتُ رَبِّي بالسَّلامَةِ جاهداً

وقد حملتك سبعا بعد سبْعِينَا

وفي الثلاثِ وفاءٌ لِلثَّمانِينَا

وسؤال هذا الخلق كيف ليبيدُ

وفي تكاملِ عشرٍ بعدها عُمُرُ

وهل أنا إلا من ربيعةٍ أو مُضَرَ

ولا تخمشا وجهها ولا تحلقا شعرَ

أضاع ولا خانَ الخليلَ ولا غدرَ

ومن يبكِ حولاً كاملاً فقد اعتذرَ

لُزُومُ العَصَا تُخَنِّي عليها الأصابعُ

أدبٌ كأنِّي كلما قمتُ راعٍ

تَقادِمُ عهدِ القَيْنِ والنَّصلِ قاطِعِ

وخانه تقناه السَّمْعُ والبَصْرُ

إنَّ الشَّبَابَ جُنونٌ بُرُوه الكِبَرُ

قال أبو عُبيدة: قيل لشيخ: ما بقى منك؟ قال يسبقني من بي يدي ويُدركني من خلفي، وأذكر القديم، وأنسى الحديث، وأنعس في الملا، وأسهر في

الحلأ، وإذا قمتُ قُرْبَتِ الأَرْضُ مِنِّي، وإذا قعدتُ تباعدت عني.

وقال حميد بن ثور الهلالي:

وحسبك داءٌ أن تصحَّ وتسلِّماً

فألانها الإصباحُ والأيامُ

ليُصحَّني فإذا السَّلامَةُ داءٌ

وقال أبو العتاهية "ويروى للقمامي":

أَسْرَعُ فِي نَقْصِ أَمْرِي تَمَامُهُ

وقالت الحكماء: ما زاد شيء إلا نقص، ولا قام إلا شخّص. وقال بعض المحدثين:

"أَلَسْتَ تَرَى أَنَّ الزَّمَانَ طَوَانِي

تَحْيَفَنِي عَضُوًّا فَعَضُوًّا فَلَمْ يَدَعْ

وَلَوْ كَانَتْ الْأَسْمَاءُ يَدْخُلُهَا الْبَلَى

وَمَا لِي أَبْلَى لِسَبْعِينَ حَجَّةً

إِذَا عَنَّ لِي شَيْءٌ تَخِيلُ دُونَهُ

وقال الغزال:

أَصْبَحْتُ وَاللَّهِ مَحْسُودًا عَلَى أَمْدٍ

حَتَّى بَقِيْتُ بِحَمْدِ اللَّهِ فِي خَلْفٍ

وَمَا أَفَارِقُ يَوْمًا مَنَ أَفَارِقَهُ

وقال آخر:

يَا مَنْ لَشَيْخٍ قَدْ تَخَدَّدَ لِحْمُهُ

سُودَاءَ حَالِكَةً وَسَحَقَ مُقَوِّفٍ

قَصَرَ اللَّيَالِي خَطْوَهُ فَتَدَّانِي

وَالْمَوْتُ يَأْتِي بَعْدَ ذَلِكَ كُلِّهِ

"وقال سُفْيَانُ الثَّوْرِيُّ فِي مَدْحِ كِبَرِهِ:

إِنِّي وَإِنْ كَانَ مَسْنَى كِبَرٍ

أَعْرَفُ مِنْ قَبْلِ أَنْ تُفَارِقَنِي

من صحب من ليس من نظرائه لخصال فيه

كان حارثة بن بدر العُدائِيُّ فارسَ بني تميم، وكان شاعراً أديباً ظريفاً، وكان يُعاقِرُ الشَّرَابَ وَيَصُحِبُ زِياداً، فقليل لزياد: إنك تَصْحَبُ هَذَا الرَّجُلَ وَلَيْسَ مِنْ شَاكِلَتِكَ، إِنَّهُ يُعَاقِرُ الشَّرَابَ؛ فَقَالَ: كَيْفَ لَا أَصْحَبُهُ، وَلَمْ أَسْأَلْهُ عَنْ شَيْءٍ قَطُّ إِلَّا وَجَدْتُ عِنْدَهُ مِنْهُ عِلْمًا، وَلَا مَشَى أَمَامِي فَاضْطَرَّنِي أَنْ أَنَادِيهِ، وَلَا مَشَى خَلْفِي فَاضْطَرَّنِي أَنْ أَلْتَفِتَ إِلَيْهِ، وَلَا رَاكِبِي فَمَسَّتْ رُكْبَتِي رُكْبَتَهُ. فَلَمَّا هَلَكَ زِيَادٌ قَالَ حَارِثَةُ بْنُ بَدْرٍ يَرِثِيهِ:

وَإِنْ مَنَ غَرَّتِ الدُّنْيَا لَمَغْرُورٌ

وَكَانَ عِنْدَكَ لِلتَّكْبِيرِ تَتَكْبِيرُ

إِذَا لَخَلَدَكَ الْإِسْلَامُ وَالْخَيْرُ

أَبَا الْمُعْجِرَةِ وَالْدُّنْيَا مُغْرَرَةٌ

قَدْ كَانَ عِنْدَكَ لِلْمَعْرُوفِ مَعْرِفَةٌ

لَوْ خَلَدَ الْخَيْرُ وَالْإِسْلَامُ ذَا قَدَمٍ

وتمام هذه الأبيات قد وقعت في الكتاب الذي أفرَدناه للمراثي. وكان زياد لا يُداعب "أحداً" في مجلسه ولا يضحك، فاختصم إليه بنو راسب وبنو الطفاوة في غلام أثبته هؤلاء وهؤلاء، فتَحَيَّرَ زيادُ في الحُكْم. فقال له حارثةُ ابن بدر: عندي أكرمُ الله الأميرَ في هذا الغلامِ أمرٌ، إن أذن الأميرُ تكلمتُ به فيه؟ قال: وما عندك فيه؟ قال: أرى أن يُلقَى في دِحْلَةٍ فإن رَسَبَ فهو لِبني راسِب، وإن طفا فهو لبني الطُّفاوة، فتبسَّم زياد وأخذَ نَعْلِيه ودخل، ثم خرج، فقال لحارثة: ما حَمَلَك على الدُّعابة في مَجلسي؟ قال: طَيِّبَةٌ حَضَرْتَنِي أبقي الله الأميرَ حَيًّا أن تُفوتَنِي؛ قال: لا تُعُدُّ إلى مثلها. ولما ولى عُبَيْدُ الله بن زياد بعد موت أبيه اطرَحَ حارثةُ بن بدر وحفاه. فقال له حارثةُ: مالك لا تُنزلني المترلةَ التي كان يُترلني أبوك؟ أتدعي أنك أفضلُ منه أو أعقل؟ قال له: إنَّ أبي كان بَرَع في الفضل بُرُوعاً لا تُضَرُّه صُحْبَةٌ مثلك، وأنا حَدَثٌ أخشى أن تُحرقني بنارك، فإن شِئتَ فائتُك الشراب وتكونَ أولَ داخلٍ وآخرِ خارجٍ؟ قال: والله ما تركتهُ لله فكيف أتركه لك؟ قال: فتخيَّرْ بلداً أو ليك. فاحتار سُرَّقٌ من أرضِ العِراق، فولاه إياها. فكتب إليه أبو الأسود الدؤلي، وكان صديقاً له:

فَكُنْ جَرِداً فِيهَا تَخُونُ وَتَسْرِقُ
لِسَاناً بِهِ المرءُ الهَيُوبَةُ يَنْطِقُ
يَقُولُ بما يَهُوَى وَإِماماً مُصَدِّقُ
فإن قِيلَ يوماً حَقَّقُوا لم يُحَقِّقُوا
فحظك من مالِ العِراقين سُرَّقُ

أحارَ بنَ بَدْرِ قَدْ وَاَلَيْتَ وَلايَةَ
وَباهِ تَمِيماً بِالغِنَى إنَّ لِلغِنَى
وما الناسُ إلا اثنانِ إما مُكذِّبُ
يُقولونَ أقوالاً وَلا يَحْكُمونها
فدع عنك ما قالوا وَلا تَكثُرْ بهم

فوقَّع في أسفل كتابه: لا يُعَدُّ عنك الرَّشْدُ.

وكان ابن الوليد البجلي، وهو ابن أخت خالد بن عبد الله القسري، ولي أصبهان، وكان رجلاً مُتَسَمِّتاً مُتَصَلِحاً، فقدم عليه حمزة بن بيض بن عوف "راغباً" في ضُحْبته، فقيل له: إنَّ مثل حمزة لا يَصُحِبُ مثلك، لأنه صاحبُ كِلابٍ وهو، فبعث إليه ثلاثة آلاف درهم وأمره بالانصراف. فقال فيه:

ومن يُجَلِّي الحَدَثَ الحالِكا
بالِ فما بالي عَلى بالِكا
والجودُ أَمسى حشو سربالِكا
والمِسْكُ قد يَستصحبُ الرامِكا
مِثْلُكَ لن تُؤتَى بِأَمثالِكا
فَعُدْ على جَهلي بِإِسلامِكا

يابن الوليد المرْتَجى سَيِّه
سَبِيلُ مَعروفِكَ مَني عَلى
حَشو قَميصي شاعِرٌ مُفْلِقُ
يلومك الناسُ على صُحْبَتِي
إن كُنْتَ لا تَصحبُ إلا فَتِي
إني آمِروُ جِنْتُ أريدُ الهُدَى

قال له: صدقت، وقربه وحسنت منزلته عنده.

وكان عبد الرحمن بن الحكم الأمير قد عتب على ندمائه! فأمر نصرًا الفتى بإسقاطهم من ديوان عطائه، ولم يستبدل بهم. فلما كان بعد أيام أستوحش لهم، فقال لنصر: قد استوحشنا لأصحابنا أولئك؟ فقال له نصر: قد ناهم من سخط الأمير ما فيه أدب لهم، فإن رأى أن يُرسل فيهم أرسلت؟ قال: أرسل. فأقبل القوم وعليهم كآبة، فأخذوا مجالسهم، ولم ينشروا ولا خاضوا فيما كانوا يخوضون فيه، فقال الأمير لنصر: ما يمنع هؤلاء من الانسراح؟ قال: عليهم أبقى الله الأمير وجمعة السخط الذي ناهم؟ قال: قل لهم: قد عفونا فليُنشروا. قال فقام عبد الرحمن بن الشمر الشاعر المتنجم، فجنثا بين يديه، ثم أنشد شعراً له أقذع فيه على بعض أصحابه إلا أنه ختمه بيتين بديعين وهما:

ومن جوده أبداً يسكبُ

فيا رحمة الله في خلقه

لئن عَفَتَ صُحْبَةَ أَهْلِ الذُّنُوبِ

وَأَحْسَنُ مَا قِيلَ فِي هَذَا الْمَعْنَى قَوْلُ النَّابِغَةِ:

وَلَمَسْتُ بِمُسْتَبِقِ أَخَا لَا تُلَمَّهُ

لَقَلَّ مِنَ النَّاسِ مَنْ يُصْحَبُ

عَلَى شَعَثِ أَيُّ الرَّجَالِ الْمُهَذَّبِ

قولهم في القرآن

كتب المَرِيْسِيُّ إِلَى أَبِي يَحْيَى مَنصُورَ بْنِ مُحَمَّدٍ: اكْتُبْ إِلَيَّ: الْقُرْآنُ خَالِقٌ أَوْ مَخْلُوقٌ؟ فَكُتِبَ إِلَيْهِ: عَافَانَا اللَّهُ وَإِيَّاكَ مِنْ كُلِّ فِتْنَةٍ، وَجَعَلْنَا وَإِيَّاكَ مِنْ أَهْلِ السُّنَّةِ، وَمَنْ لَا يَرْغَبُ بِنَفْسِهِ عَنِ الْجَمَاعَةِ، فَإِنَّهُ إِنْ تَفَعَّلَ فَأَعْظَمَ بِهَا مَنَّةً، وَإِنْ لَا تَفَعَّلَ فَهِيَ الْهَلَكَةُ، وَنَحْنُ نَقُولُ: إِنَّ الْكَلَامَ فِي الْقُرْآنِ بِدْعَةٌ، يَتَكَلَّفُ الْمُحِبُّ مَا لَيْسَ عَلَيْهِ، وَيَتَعَاطَى السَّائِلُ مَا لَيْسَ لَهُ، وَمَا نَعْلَمُ خَالِقًا إِلَّا اللَّهَ، وَمَا سِوَى اللَّهِ فَمَخْلُوقٌ، وَالْقُرْآنُ كَلَامُ اللَّهِ، فَاتَّهَ بِنَفْسِكَ إِلَى أَسْمَائِهِ الَّتِي سَمَاهُ اللَّهُ بِهَا فَتَكُونَ مِنَ الضَّالِّينَ، جَعَلْنَا اللَّهُ وَإِيَّاكَ مِنَ الَّذِينَ يَخْشَوْنَ رَبَّهُمْ بِالْغَيْبِ، وَهُمْ مِنَ السَّاعَةِ مُشْفِقُونَ.

كتاب الجوهرة في الأمثال

"قال أبو عمر أحمد بن محمد بن عبد ربه: "قد مضى قولنا في العلم والأدب وما يتوَلَّد منهما، ويُنسب إليهما من الحكَم النادرة، والفِطَن البارة، ونحن قائلون بعَوْن الله وتوفيقه في الأمثال التي هي وشيُّ الكلام، وجوهر اللفظ، وحلَى المعاني، والتي تخيَّرتها العرب، وقَدَّمتها العجم، ونُطِقَ بها "في" كل زمان، وعلى كلِّ لسان، فهي أبقى من الشعر، وأشرف من الخطابة، لم يسِرْ شيءٌ مسيرها، ولا عمَّ عُمومها، حتى قيل: أسير من مثل. "وقال الشاعر":

ما أنتَ إلا مَثَلٌ سائرُ

يَعرفه الجاهلُ والخابِرُ

وقد ضرب الله عزَّ وجلَّ الأمثالَ في كتابه، وضربها رسول الله صلى الله عليه وسلم في كلامه، قال الله عز وجل: "يا أَيُّهَا النَّاسُ ضَرْبَ مَثَلٍ فَاسْتَمِعُوا لَهُ". وقال: "وَضَرَبَ اللَّهُ مَثَلًا رَجُلَيْنِ". ومَثَلُ هذا كثير في آي القرآن. فأوَّل ما نبدأ به أمثالُ رسول الله صلى الله عليه وسلم، ثم أمثالُ العلماء. ثم أمثالُ أكثَم بن صَيْفِي وبُزْرِجَمهر الفارسي، وهي التي كان يَسْتعملها عَفْرُ بن يحيى في كلامه، ثم أمثالُ العرب التي رواها أبو عُبَيْد وما أشبهها من أمثال العامة، ثم الأمثال التي استعملها الشعراء في أشعارهم في الجاهلية والإسلام.

أمثال رسول الله صلى الله عليه وسلم

قال النبي صلى الله عليه وسلم: ضرب الله مثلاً صراطاً مُستقيماً وعلى جنبي الصراط أبوابٌ مُفْتَحَةٌ، وعلى الأبواب سُتُورٌ مَرَحِيَّةٌ، وعلى رأس الصراط داعٍ يقول: ادخلوا الصراط ولا تُعوجُّوا. فالصراطُ الإسلام، والستورُ حدودُ الله، والأبواب محارمُ الله، والداعي القرآن. وقال "النبي" صلى الله عليه وسلم: مثلُ المؤمن كالحامة من الزرع، يُقَلِّبها الرِّيحُ مرَّةً كذا ومرَّةً كذا؛ ومثلُ الكافر مثلُ الأرزة المُجذِيَّة على الأرض "حتى" يكون انجعاها بِمَرَّة. وسأله حُدَيْفَةُ: أبعدَ هذا الخيرَ شرًّا يا رسول الله؟ فقال: جماعة "على" أَقْدَاءَ وَهُدْنَةَ على دَخَن. وقوله حين ذَكَر الدنيا وزينتها فقال: إنَّ ما يُنبِت الرِّبيع ما يَقْتُل حَبَطًا أو يُلِم. وقال لأبي سُفْيَان: أنتَ أبا سفيان كما قالوا: كلُّ الصيِّد في حَوْفِ الفَرَا: وقال حين ذَكَر العُلُوب في العبادَةِ: إنَّ المنبَت لا أرضاً قَطع ولا ظَهراً أُبقي. وقال صلى الله عليه وسلم: إياكم وخَضْرَاءَ الدَّمْن. قالوا: وما خَضْرَاءَ الدَّمْن؟ قال: المرأةُ الحَسَناء في المنبَتِ السَّو. وذكر الرِّبَا في آخر الزمان، وأفتنَّان الناس به، فقال: مَنْ لم يَأْكُلْه أَصَابُه غُبَارُه. وقال: الإيمانُ قَيْدُ الفَتْكِ. وقال صلى الله عليه وسلم: الولدُ لِلْفَرَّاشِ وللعاشرِ الحَجَر. وقال في فرس: وجدُّه بَحْرًا. وقال: إنَّ من البيانِ لَسِحْرًا. وقال: لا ترفعُ عصاك عن أهلِكَ. وقال صلى الله عليه وسلم: لا يُلدغ المؤمن من جُحرٍ مرَّتَيْن. وقال: الحَرْبُ حَدْعَةٌ. وله صلى الله عليه وسلم وعلى آله أمثالٌ كثيرةٌ غيرُ هذه، ولكنَّا لم نذهب في كل باب إلى استقصائه، وإنما ذهبنا إلى أن نَكْتَفِيَ بالبعضِ ونَسْتَدلُّ بالقليلِ على الكثير، ليكون أسهلَ مآخذاً للحفظ، وأبرأ من المألَّة والهرب.

وتفسيرها: أما المثل الأول، فقد فَسَّرَه النبي صلى الله عليه وسلم. وأما قوله: المؤمن كالحامة والكافر كالأرزة، فإنه شَبَّه المؤمن في تصرف الأيام به وما يناله من بلائها بالحامة من الزرع تُقَلِّبها الرِّيحُ مرَّةً كذا ومرَّةً كذا. والحامة "في قول أبي عُبَيْد": العَصَّة الرُّطْبَةُ من الزرع. والأرزة: واحدة الأرز، وهو شجر له ثمر، يقال له الصَّنُوبُر. والمُجذِيَّة: الثابتة، وفيها لغتان: جَذِي يَجْدُو، وأَجْدَى يَجْدِي. والانجعا: يقال: جَعَفَت الرجل، إذا قلعتَه وصرعتَه وضربت به الأرض. وقوله حُدَيْفَةُ: هُدْنَةَ على دَخَن وجماعة على أَقْدَاء؛ أراد ما تنطوي عليه القلوب من الضعائن والأحقاد، فشَبَّه ذلك بإغضاء الجفون على الأقداء. والدخَن: مأخوذ من الدُّحان، جعله مثلاً لما في الصُّدُور من الغلِّ. وقوله: إنَّ ما يُنبِت الرِّبيع ما يَقْتُل حَبَطًا أو يُلِم، فالحَبَط، كما ذكر أبو عُبَيْد عن الأصمعي: أن تأكل الدابة حتى تَتَفْتَح بطنها وتَمْرُض منه؛ يقال: حَبَطَتِ الدَّابَّةُ تَحْبِطُ حَبَطًا. وقوله: أو يُلِم، معناه: أو يَفْرُب من ذلك؛ ومنه قوله إذ ذكر أهل الجنة فقال: إنَّ أحدهم إذا نَظَرَ إلى ما أعدَّ اللهُ له في الجنة، فلولا أنه شيءٌ قَضاه اللهُ له لألم أن يذهب بصره، "يعنى" لما يرى فيها، يقول: لَقْرُب أن يذهب بصره. وقوله لأبي سُفْيَان: كلُّ الصيِّد في حَوْفِ الفَرَا، فمعناه أنك في الرجال كالفرأ في الصيِّد، وهو

الحمار الوحشي، وقال له ذلك يتألفه على الإسلام. وقوله حين ذكر الغلو في العبادة: إن المنبت لا أرضاً قطع ولا ظهراً أبقى. يقول: إن المغد في السير إذا أفرط في الإغاذذ عطبت راحلته من قبل أن يُبلغ حاجته أو يقضي سفره، فشبه بذلك من أفرط في العبادة حتى يبقى حسيراً. وقوله في الربا: من لم يأكله أصابه غبار؛ إنما هو مثل لما ينال الناس من حُرمتهم، وليس هناك "تراب ولا" غبار. وقوله: الإيمان قيد الفتك، أي منع منه، كأنه قيد له. وفي حديث آخر: لا يفتك مؤمن. وقوله في فرس: وحدته بحرأ، وإن من البيان لسحراً؛ إنما هو على التمثيل لا على التحقيق. وكذلك قوله: الولد للفراش وللعاهر الحجر. معناه: أنه لا حق له في نسب الولد. وقوله صلى الله عليه وسلم: لا ترفع عصاك عن أهلك؛ إنما هو الأدب بالقول، ولم يرد ألا ترفع عنهم العصا. وقوله: لا يلدغ المؤمن من جحر مرتين؛ معناه أن لدغ مرة يحفظ من أخرى. وقوله: الحرب خدعة؛ يريد أنها بالمكر والخديعة..

أمثال روتها العلماء

خطب النعمان بن بشير على منبر الكوفة فقال: يا أهل الكوفة، إني وجدت مثلي ومثلكم كالضبع والثعلب، أتيا الضب في جحره، فقالا: أبا حسل: قال: أحببنا "لم جئنا"؟ قال: جئناك نختصم؟ قال: في بيته يؤتى الحكم، قالت الضبع: فتحت عيني؟ قال: فعل النساء فعلت، قالت: فلقطت تمرة، قال: حلوا جنيت؟ قالت فاخطفها ثعالة؛ قال: نفسه بعى - ثعالة: اسم الثعلب، الذكر والأنثى - قالت: فلطمته لطمه؛ قال حقاً قضيت، قالت: فلطمني أخرى، قال: كان حراً فاتنصر؛ قالت: فاحكم الآن بيننا؛ قال: حدثت حديثين امرأة وإن لم تفهم فأربعة. وقال عبد الله بن الزبير لأهل العراق: وددت والله أن لي بكم من أهل الشام صرّف الدينار بالدرهم. قال له رجل منهم: أتدري يا أمير المؤمنين ما مثلنا ومثلك ومثل أهل الشام؟ قال: وما ذاك؟ قال: ما قاله أعشى بكر حيث يقول:

غيري وعلق أخرى ذلك الرجل

علقتها عرساً وعلقت رجلاً

أحبيناك نحن، وأحببت أنت أهل الشام، وأحب أهل الشام عبد الملك "بن مروان".

مثل في الرياء

يجي بن عبد العزيز قال: حدثني نعيم عن إسماعيل "عن رجل من ولد أبي بكر الصديق رضوان الله عليه عن وهب بن منبه قال: نصب رجل من بني إسرائيل فخاً فجاءت عصفورة فتزلت عليه، فقالت: مالي أراك منحنيماً؟ قال: لكثرة صلاتي انخيت؟ قالت: فمالي أراك بادية عظامك؟ قال: لكثرة صيامي بدت عظامي؛ قالت: فمالي أرى هذا الصوف عليك؟ قال: لزهدي في الدنيا لبست الصوف؛ قالت: فما هذا العصا عندك؟ قال: أتوكأ عليها وأضي "بها" حوائجي؛ قالت: فما هذه الحبة في يدك؟ قال: قربان إن مر بي مسكين ناولته إياها؛ قالت: فأني مسكينة؛ قال: فخذها. فدنت فقبضت على الحبة فإذا الفخ في عنقها. فجعلت تقول قعي قعي، تفسيره: لا غربي ناسك مرأ بعدك أبداً. داود بن أي هند عن الشعبي: أن رجلاً من بني إسرائيل صاد قبرة، فقالت: ما تريد أن تصنع بي؟ قال: أذبحك فأكلك؟ قالت: والله ما أشفي من قرم ولا أغني من جوع، ولكنني أعلمك ثلاث خصال هي خير لك من أكلي: أما الواحدة فأعلمك إياها وأنا في يدك، والثانية إذا صرت على هذه الشجرة، والثالثة إذا صرت على هذا الجبل. فقال: هات الأولى. قالت: لا تتلفن علي ما فاتك، فحللي عنها. فلما صارت فوق الشجرة، قال: هات الثانية؟ قالت: لا تصدقن بما لا يكون أنه يكون، ثم طارت فصارت على الجبل؛ فقالت: يا شقي، لو ذبحتني لأخرجت من حوصلي درة وزها عشرون مثقالاً. قال: فعص علي شفتيه وتلفه، ثم قال: هات الثالثة؛ قالت له: أنت قد نسيت الاثنتين، فكيف أعلمك الثالثة؟ ألم أقل لك: لا تلهفن على ما فاتك؟ فقد تلهفت علي إذ فتك، وقلت لك: لا تصدقن بما لا يكون أنه يكون، فصدقت، وأنا وعظمي وريشي لا أزن عشرين مثقالاً، فكيف يكون في حوصلي ما يزها! وفي كتاب للهند: مثل الدنيا وآفاتنا ومخاوفها والموت والمعاد الذي إليه مصير الإنسان. قال الحكيم: وجدت مثل الدنيا والمغور بالدنيا المملوءة آفات مثل رجل ألقا خوف إلى بئر تدلى فيها وتعلق بئرين نابتين على شفير البئر ووقعت رجلاه على شيء فمدهما، فنظر فإذا بجيات أربع قد أطلعن رؤوسهن من جحورهن، ونظر إلى أسفل البئر فإذا بثعبان فاغر فاه نحوه، فرجع بصره إلى الثصن الذي يتعلق به، فإذا في أصله

جُرْدَانٌ أبيضٌ وأسودٌ يَقْرِيضَانِ العُصْنَ دَائِبِينَ لَا يُفْتَرَانِ، فبينما هو مُعْتَمِّمٌ بنفسه وابتغاء الحيلة في نجاته، إذ نظر فإذا بجانب منه جُحْرٌ نَحْلٌ قد صَنَعْنَ شيئاً من عَسَلٍ، فَتَطَاعَمَ منه فَوَجَدَ حلاوته، فَشَغَلَتْهُ عَنِ الفِكْرِ في أمره والتماس النجاة لنفسه، ولم يَذْكُرْ أَنَّ رَجُلَيْهِ فوق أربع حَيَاتٍ لا يدري متى تُسَاوِرُهُ إحداهن، وَأَنَّ الجُرْدَيْنِ دَائِبَانِ في قَرُصِ العُصْنِ الذي يتعلَّق به، وأهما إذا قطعاه وقع في لَهْوَةِ التَّيْنِ، ولم يزل لاهياً غافلاً حتى هَلَكَ. قال الحكيم:

فَشَبَّهتِ الدُّنْيَا المملوءة آفاتٍ وشروراً ومخاوفَ بالبتر، وشَبَّهتِ الأحلاط التي تُبَيِّجَسدُ الإنسانَ عليها من المرِّتين والبلغم والدم بالحَيَاتِ الأربع، وشَبَّهتِ الحياةَ بالعُصْنِ اللذين تعلَّق بهما، وشَبَّهتِ الليل والنهار ودوراهما في إفناء الأيام والأجيال! بالجُرْدَيْنِ الأبيض والأسود اللذين يَقْرِيضَانِ العُصْنَ دَائِبِينَ لَا يُفْتَرَانِ، وشَبَّهتِ الموت الذي لا بد منه بالتَّيْنِ الفاجر فاه؛ وشَبَّهتِ الذي يرى الإنسانَ وَيَسْمَعُ "ويَطْعَمُ" وَيَلْمَسُ فَيُلْهِمُهُ ذلك عن عاقبة أمره وما إليه مَصِيرَةَ العُصْبَةِ التي تطاعمها.

من ضرب به المثل من الناس

قالت العرب: أَسْحَى من حاتم، وأشجع من ربيعة بن مكدَّم، وأدهى من قيس بن زهير، وأعزُّ من كليب وائل، وأوْفَى من السَّمَوَالِ، وأذكى من إياس بن معاوية، وأسود من قيس بن عاصم، وأمنع من الحارث بن طالم، وأبلغ من سحبان وائل، وأحلم من الأحنف بن قيس، وأصدق من أبي ذر الغفاري، وأكذب من مسيلمة الخنفي، وأعيا من باقل، وأمضى من سليك المقاب، وأنعم من خرِّم الناعم، وأحمق من هبَّقة، وأفتك من البراض.

من يضرب به المثل من النساء

يقال: أشأم من البسوس، وأمنع من أم قرفة، وأحمق من دُعة، وأقود من ظلمة، وأبصر من زرقاء اليمامة - البسوس: جارة حساس بن مرة بن ذهل بن شيبان، ولها كانت الناقة التي قُتِلَ من أجلها كليب بن وائل، وبها ثارت بين بكر بن وائل وتغلب "الرب" التي يُقال لها حَرْبُ البسوس. وأم قرفة: امرأة مالك بن حذيفة بن بدر الفراري، وكان يُعلَقُ في بيتها خمسون سيفاً كلُّ سيفٍ منها لذي محرِّم لها. ودُعة: امرأة من عجل بن لجيم، تزوجت في بني العنبر بن عمرو بن تميم. وزرقاء بني ثمير: امرأة كانت باليمامة تُبصر الشعرة البيضاء في اللبن، وتُنظَرُ الراكب على مسيرة ثلاثة أيام، وكانت تُنذر قومها الجيوش إذا غزَّهم، فلا يأتِيهم جيشٌ إلا وقد استعدُّوا له، حتى احتال لها بعض من غزاهم، فأمر أصحابه فقطعوا شجراً وأمسكوه أمامهم بأيديهم، ونظرت الزرقاء، فقالت: إني أرى الشجر قد أقبل إليكم؛ قالوا لها: قد خرفت ورق عقلك وذهب بصرُك، فكذبوها، وصبَّحتهم الخيل، وأغارت عليهم، وقُتِلت الزرقاء. قال: فقوروا عينيها فوجدوا عروق عينيها قد غرقت في الإثم من كثرة ما كانت تُكْتحلُ به. وظلمة: امرأة من هذيل زنت أربعين عاماً وقادت أربعين عاماً، فلما عجزت عن الزنا والقود اتخذت تيساً وعنزاً، فكانت تُنزي التيس على العنز، فقيل لها: لم تفعلين ذلك؟ قالت: حتى أسمع أنفاس الجماع.

ما تمثلوا به من البهائم

قالوا: أشجع من أسد، وأجبن من الصافر، وأمضى من ليث عفرين، وأحذر من غراب، وأبصر من عقاب "ملاع"، وأزهي من غراب، وأذلُّ من قراد "مَنَسِم"، وأسمع من فرس، وأنوم من فهد، وأعقُّ من ضب، وأجبن من صفر، وأحقد من حمل، وأضرع من سنور، وأسرق من زبابة، وأصبر من عود وأظلم من حية، وأحنُّ من ناب، وأكذب من فاختة، وأعزُّ من بيض الأثوق، وأجوع من كلبة حومل، وأعزُّ من الأبلق العقوق 0 الصافر: ذو الصفي من الطير، والعود: المسن من الجمال. والزبابة: الفأرة تسرق دود الحرير. والأثوق: طير يقال إنه: يبيض في الهواء. وفاختة: طير يطير بالرطب في غير أيامه.

ما ضرب به المثل من غير الحيوان

قالوا: أهدى من النجم، وأجود من الدَّم، وأصبح من الصَّبح؛ وأسَمَح من البَحْر، وأنور من النَّهار، وأقوَدُ من ليل، وأمضى من السيل، وأحمق من رجلة، وأحسن من دُمية، وأنزَه من روضة، وأوسع من الدهناء، وأنس من جدول، وأضيق من قرار حافر، وأوحش من مفازة، وأثقل من جبل، وأبقى من الوحي في صمِّ الصَّلاب، وأحف من ريش الحواصل.

مما ضربوا به المثل

قولهم: قوس حاجب، وقرط مارية، وحجَّام ساباط، وشقائق النعمان، وندامة الكسعي، وحديث خرافة، وكنز النَّطف، وخفا حنين، وعطر منشم. أما قوس حاجب، فقد فسّرنا خبره في كتاب الوفود، وأما قرط مارية، فإنها مارية بنت ظالم بن وهب بن الحارث بن معاوية الكندي، وأختها هند الهنود، امرأة حجر آكل المرار، وابنها الحارث الأعرج الذي ذكره النابغة بقوله:

والحارث الأعرج خير الأنام

وإياها يعنى حسان بن ثابت بقوله:

أولاد جفنة حول قبر أبيهم

قبر ابن مارية الكريمة المفضل

وأما حجَّام ساباط، فإنه كان يحجُّم الجيوش بنسبته إلى انصرافهم، من شدة كساده، وكان فارسياً، وساباط هو ساباط كسرى. ونُسبت شقائق النعمان إليه، لأن النعمان بن المنذر أمر بأن تُحمى وتُضرب قبته فيها استحساناً لها، فنُسبت إليه، والعرب تُسميها الشقر. وأما خرافة، فإن أنس بن مالك يروي عن النبي صلى الله عليه وسلم أنه قال لعائشة رضي الله عنها: إن من أصدق الأحاديث حديث خرافة. وكان رجلاً من بني عُذرة سبته الجن، وكان معهم، فإذا استرقوا السمع أخبروه، فيخبر به أهل الأرض، فيجدونه كما قال. وأما كنز النَّطف، فهو رجل من بني يربوع، كان فقيراً يحمل الماء على ظهره فينطف، أي يقطر، وكان أغار على مال بعث به باذان من اليمن إلى كسرى، فأعطى منه يوماً حتى غربت الشمس، فضربت به العرب المثل "في كثرة المال". وأما خفا حنين، فإنه كان إسكافاً من أهل الحيرة ساومه أعرابي بجنين، فاختلفا حتى أغضبه، فأراد أن يعيظ الأعرابي، فلما ارتحل أخذ أحد الحفنين فألقاه في طريق الأعرابي، ثم ألقى الآخر بموضع آخر على طريقه، فلما مرَّ الأعرابي بالحف الأول، قال: ما أشبه هذا بخفا حنين، لو كان معه صاحبه لأخذته، فلما مرَّ بالآخر ندم على ترك الأول، فأناخ راحلته، وانصرف إلى الأول، وقد كمن له حنين، فوثب على راحلته وذهب بها، وأقبل الأعرابي ليس معه غير خفي حنين، فذهبت مثلاً. وأما عطر منشم، فإنها كانت امرأة تبيع الحنوط في الجاهلية، فقيل للقوم إذا تحاربوا: دقوا عطر منشم، يراد بذلك طيب الموتى. وأما ندامة الكسعي، فإنه رجل رمى فأصاب وظن أنه أخطأ فكسر قوسه، فلما علم ندم على كسر قوسه فضرب به المثل.

أمثال أكثم بن صيفي ويزرجمهر الفارسي

العقل بالتجارب. الصَّاحِبُ مُنَاسِب. الصديق من صدق عينيه. الغريب من لم يكن له حبيب. رب بعيد أقرب من قريب. القريب من قرب نفعه. لو تكاشفتُم ما تدافنتُم. خير أهلِكَ من كفاك. خير سلاحك ما وقاك. خير إخوانك من لم تخبره. رب غريب ناصح الجيب، وابن أب متهم العيب. أحوك من صدقك "النصيحة". الأخُ مرأة أخيه. إذا عزَّ أحوك فهن. مكره أحوك لا بطل، تباعدوا في الديار وتقاربوا في المحبة. أي الرجال المهذب. من لك بأخيك كله. إنك إن فرجت لاق فرجا. أحسن يحسن إليك. ارحم ترحم. كما تدين تदान. من بر يوماً بر به، والدهر لا يعتر به، عين "عرفت فذ" رقت. في كل خيرة عيرة. من مأمنه يؤتى الحذر، لا يعدو المرء رزقه وإن حرص. إذا نزل القدر عمي البصر. إذا نزل الحين نزل بين الأذن والعين. الحمر مفتاح كل شر. الغنا رقية الزنا. القناعة مال لا ينفد. خير الغني غني النفس. منساق إلى ما أنت لاق. خذ من العافية ما أعطيت. ما

الإِنسان إلا القَلْبَ واللِّسان. إِنَّمَا لَكَ مَا أَمْضَيْتَ. لَا تَتَكَلَّفُ مَا كُفَيْتَ "وَلَا تَضَيِّعْ مَا وَلَيْتَ"، القَلَمُ أَحَدُ اللِّسَانَيْنِ. قَلَّةُ العِيَالِ أَحَدُ اليَسَارَيْنِ. رُبَّمَا ضَاقَتِ الدُّنْيَا بِاثْنَيْنِ. لَنْ تَعْدَمَ الحِسنَاءُ دَامًا. لَنْ يَعدَمَ الغَاوِي لِاثْمًا. لَا تَكُ فِي أَهْلِكَ كَالجِنَازَةِ لَا تَسْخَرُ مِنْ شَيْءٍ فَيَحوِرُ بِكَ. أَخْرَ الشَّرَّ فَإِذَا شَتَّتَ تَعَجَّلْتَهُ. صَغِيرَ الشَّرِّ يُوشِكُ يَوْمًا أَنْ يَكْبُرَ. يُبْصِرُ القَلْبُ مَا يَعمَى عَنهُ البَصَرُ. الحُرُّ حُرٌّ وَإِنْ مَسَّهُ الضَّرُّ. العَبْدُ عَبْدٌ وَإِنْ سَاعَدَهُ جَدًّا. مَنْ عَرَفَ قَدْرَهُ اسْتَبَانَ أَمْرَهُ. مَنْ سَرَّهُ بُوهُ سَاءَتْهُ نَفْسُهُ. مَنْ تَعَظَّمَ عَلَى الزَّمَانِ أَهَانَهُ. مَنْ تَعَرَّضَ لِلسُّلْطَانِ أَرَادَهُ وَمَنْ تَطَامَنَ لَهُ تَخَطَّاهُ مِنْ خَطَايَاهُ يَخْطُو. كَلَّ مَبْدُولٌ مَمْلُولٌ. كَلَّ مَمْنُوعٌ مَرغُوبٌ فِيهِ. كَلَّ عَزِيزٌ تَحْتَ القُدْرَةِ ذَلِيلٌ. لِكُلِّ مَقَامٍ مَقَالٌ. لِكُلِّ زَمَانٍ رِجَالٌ. لِكُلِّ أَجَلٍ كِتَابٌ. لِكُلِّ عَمَلٍ ثَوَابٌ. لِكُلِّ نَبَأٍ مُسْتَقَرٌّ. لِكُلِّ سِرٍّ مُسْتَوْدَعٌ. قِيَمَةُ كَلِّ إِنْسَانٍ مَا يُحْسِنُ. أَطْلُبُ لِكُلِّ غَلَقٍ مِفْتَاحًا. أَكْثَرُ فِي البَاطِلِ يَكُنْ حَقًّا. عِنْدَ القَنْطَرِ يَأْتِي الفَرَجُ. عِنْدَ الصَّبَاحِ يُحْمَدُ الشُّرَى. الصَّدَقُ مَنجَاةٌ وَالكَذِبُ مَهْوَاةٌ. الاعْتِرَافُ يَهْدِمُ الاعْتِرَافُ. رَبُّ قَوْلٍ أَنْفَذَ مِنْ صَوْلٍ. رَبُّ سَاعَةٍ لَيْسَ بِهَا طَاعَةٌ. رَبُّ عَجَلَةٍ تُعْجِبُ رِيثًا. رَبُّ كَلَامٍ أَقْطَعُ مِنْ حُسَامٍ. بَعْضُ الجَهْلِ أبلغُ مِنَ الحِلْمِ. رَبِيعُ القَلْبِ مَا اشْتَهَى. الهَوَى شَدِيدُ العَمَى. الهَوَى الإِلَهَ المَعْبُودِ. الرَأْيُ نَائِمٌ وَالهَوَى يَقْضَانُ. غَلَبَ عَلَيْكَ مَنْ دَعَا إِلَيْكَ. لَا رَاحَةَ لِحَسُودٍ وَلَا وِفَاءَ "لِملُولٍ". لَا سُرُورَ كَطِيبِ النَّفْسِ 0 العُمُرُ أَقْصَرُ مِنْ أَنْ يَحْتَمِلَ الهَجْرَ. أَحَقُّ النَاسِ بِالْعَفْوِ أَقْدَرُهُمْ عَلَى العُقُوبَةِ. خَيْرُ العِلْمِ مَا نَفَعَ. خَيْرُ القَوْلِ مَا اتَّبَعَ. البَطْنَةُ تُذْهِبُ الفِطْنَةَ. شَرُّ العَمَى عَمَى القَلْبِ أَوْثَقُ العُرَى كَلِمَةُ التَّقْوَى. النِّسَاءُ حَيَاتِلُ الشَّيْطَانِ 0 الشَّبَابُ شُعْبَةٌ مِنَ الجَنُونِ. الشَّقِيَّ شَقِيٌّ فِي بَطْنِ أُمِّهِ. السَّعِيدُ مَنْ وَعَظَ بغيرِهِ لِكُلِّ امْرِئٍ فِي بَدَنِهِ شُغْلٌ. مَنْ يَعْرِفُ البَلَاءَ يَصْبِرُ عَلَيْهِ المَقَادِيرُ تَرِيكَ مَا لَا يَخْطُرُ بِبَالِكَ. أَفْضَلُ الزَّادِ مَا تَزُودُ "تَه" لِلْمَعَادِ. الفِجْلُ أَحْمَى لِلشُّوْلِ. صَاحِبُ الحُظُوءِ غَدَاً مَنْ بَلَغَ المَدَى. عَوَاقِبُ الصِّبْرِ مَحْمُودَةٌ. لَا تُبْلِغِ الغَايَاتُ بِالأَمَانِي. الصَّرِيمَةُ عَلَى قَدْرِ العَزِيمَةِ. الصَّيْفُ يَنْبِي أَوْ يَدُمُ. مَنْ تَفَكَّرَ عَتَبَ. كَمْ شَاهِدٌ لَكَ لَا يَنْطِقُ. لَيْسَ مِنْكَ مِنْ عَشْتِكَ. مَا نَظَرَ لِامْرِئٍ مِثْلَ نَفْسِهِ. مَا سَدَّ فَمْرَكَ إِلَّا مَلِكٌ يَمِينُكَ. مَا عَلَى عَاقِلٍ ضَيْعَةٌ. الغِنَى فِي العُرْبَةِ وَطَنٌ وَالمَقْلُ فِي أَهْلِهِ غَرِيبٌ. أَوَّلُ المَعْرِفَةِ الِاخْتِبَارُ. يَدُكَ مِنْكَ وَإِنْ كَانَتْ شِئَاءً أَنْفُكَ مِنْكَ وَإِنْ كَانَ أَجْدَعُ. مَنْ عُرِفَ بِالكَذِبِ لَمْ يُجْزِ صِدْقُهُ وَمَنْ عُرِفَ بِالصَّدْقِ جَازَ كَذِبُهُ. الصَّحَّةُ دَاعِيَةُ السَّقَمِ. الشَّبَابُ دَاعِيَةُ الهَرَمِ. كَثْرَةُ الصَّبَاحِ مِنَ الفِشَلِ. إِذَا قَدُمْتَ المُصِيبَةُ ثَرَكْتَ التَّعْزِيَةَ. إِذَا قَدِمَ الإِحْيَاءُ سَمِحَ النِّسَاءُ. العَادَةُ أَمْلَكُ مِنَ الأَدَبِ. الرِّفْقُ يَمُنُّ وَالحُرْقُ شُؤْمٌ. المَرْأَةُ رِيحَانَةٌ وَلَيْسَتْ بِقَهْرْمَانَةٍ. الدَّالُّ عَلَى الخَيْرِ كِفَاعِلُهُ. المُحَاجِزَةُ قَبْلَ المُنَاجِزَةِ. قَبْلُ

الرَّمَايَةِ ثُمًّا الكِنَانِ. لِكُلِّ سَاقِطَةٍ لِأَقْطَعَةٍ. مَقْتَلُ الرَّجُلِ بَيْنَ فِكْيِهِ. تَرَكَّ الحَرَكَةَ غَفْلَةً. طُولُ الصَّمْتِ حُبْسَةٌ. مِنْ خَيْرِ خَيْرٍ أَنْ تَسْمَعَ بِمَطَرٍ. كَفَى بِالْمَرْءِ خِيَانَةً أَنْ يَكُونَ أَمِينًا لِلخَوْنَةِ. قِيدُوا النِّعَمَ بِالشُّكْرِ. مَنْ يَزِرُ العُرْفَ المَعْرُوفَ يَحْضُدُ الشُّكْرَ. لَا تَعْتَرِ بِمُودَةِ الأَمِيرِ إِذَا عَشْتِكَ الوَازِرَ. أَعْظَمُ مِنَ المُصِيبَةِ سُوءُ الخَلْفِ مِنْهَا. مَنْ أَرَادَ البَقَاءَ فَلْيُوطِّنْ نَفْسَهُ عَلَى المِصَائبِ. لِقَاءُ الأَحِبَّةِ مَسْئَلَةٌ لِلهَمِّ. قَطِيعَةُ الجَاهِلِ كَصَلَةِ العَاقِلِ. مَنْ رَضِيَ عَن نَفْسِهِ كَثَرَ السَّاحِطُ عَلَيْهِ. قَتَلَتْ أَرْضٌ جَاهِلِيَّهَا، وَقَتَلَتْ أَرْضًا عَارِفِيَّهَا. أَدْوَأُ الدَّوَاءِ الخُلُقُ الدَّنِيُّ وَاللِّسَانُ البِذِيُّ. إِذَا جَعَلَكَ السُّلْطَانُ أَحَا فَاجِعُهُ رِيًّا. احْذَرِ الأَمِينَ وَلَا تَأْمَنِ الخَائِنَ. عِنْدَ الغَايَةِ يُعْرَفُ السَّابِقُ. عِنْدَ الرَّهَانِ يُحْمَدُ المِضْمَارُ 0 السُّؤَالُ وَإِنْ قَلَّ أَكْثَرَ مِنَ التَّوَالِ وَإِنْ جَلَّ. كَافِيَةُ المَعْرُوفِ بِمِثْلِهِ أَوْ انْشَرَهُ. لَا خَلَّةَ مَعَ عَيْلَةٍ. وَلَا مُرُوءَةَ مَعَ ضُرٍّ، وَلَا صَبْرٌ مَعَ شَكْوَى. لَيْسَ مِنَ العَدْلِ سُرْعَةُ العَدْلِ. عِبْدُ غَيْرِكَ حُرٌّ مِثْلَكَ. لَا يَعدَمُ الخِيَارَ مَنْ اسْتَشَارَ. الوَضِيعُ مِنْ وَضَعِ نَفْسِهِ. المَهِينُ مِنْ نَزَلِ وَحْدِهِ. مِنْ أَكْثَرِ أَهْجَرٍ. كَفَى بِالْمَرْءِ كَذِبًا أَنْ يُحَدِّثَ بِكُلِّ مَا سَمِعَ. " كَلَّ إِنيَاءً يَنْضَحُ بِمَا فِيهِ. العَادَةُ طَبْعٌ ثَانٍ".

من أمثال العرب مما روى أبو عبيد

جَرَدْنَاها مِنَ الأَدَابِ الَّتِي أَدخَلَهَا فِيهَا أَبُو عُبَيْدٍ، إِذْ كُنَّا قَدْ أَفْرَدْنَا لِالأَدَبِ وَالمَواعِظِ كُتُبًا غَيْرَ هَذَا، وَضَمَمْنَا إِلى أَمْثَلَةِ العَرَبِ القَدِيمَةِ مَا جَرَى عَلَى أَلْسِنَةِ العَامَةِ مِنَ الأَمْثَلِ المُسْتَعْمَلَةِ، وَفَسَّرْنَا مِنْ ذَلِكَ مَا احتِجَّاجٌ إِلَى التَّفْسِيرِ، فَمِنْ ذَلِكَ قَوْلُهُمْ: فِي حِفْظِ اللِّسَانِ: لِعُمَرَ بْنِ عَبْدِ العَزِيزِ: التَّقِيُّ مُلْجَمٌ لِأَبِي بَكْرٍ الصِّدِّيقِ: " إِنَّ " البَلَاءَ مُوكَّلٌ بِالمَنْطِقِ. لِابْنِ مَسْعُودٍ: مَا شَيْءٌ أَوْلَى بِطُولِ سِجْنٍ مِنْ لِسَانٍ. لِأَنَسِ بْنِ مَالِكٍ: لَا يَكُونُ المُؤْمِنُ مُؤْمِنًا حَتَّى يَحْتَرِزَ مِنْ لِسَانِهِ وَلسَانِ غَيْرِهِ. أَحْذَرِ لِسَانَكَ لَا يَضْرِبُ عُنُقَكَ. جُرْحُ اللِّسَانِ كَجُرْحِ اليَدِ. رَبُّ كَلَامٍ أَقْطَعُ مِنْ حُسَامٍ. القَوْلُ يَنْفُذُ مَا لَا تَنْفُذُ الأَمْرَ. قَالَ الشَّاعِرُ:

ولا بُرءٌ لما جرح اللسان

وقد يُرَجَى لجرح السيف بُرءٌ

احتلبننا هذا البيت لأنه قد صار مثلاً سائراً للعامة، وجعلنا لأمثال الشعراء في آخر كتابنا هذا باباً. وقال أكثم بن صيفي: مَقْتَلُ الرَّجُلِ بَيْنَ فِكْيِهِ. وَقَالَ: رُبَّمَا أَعْلَمَ فَأَذْرُ. يَرِيدُ أَنَّهُ يَدْعُ ذِكْرَ الشَّيْءِ وَهُوَ بِهِ عَالِمٌ لَمَّا يَحْذَرُ مِنْ عَاقِبَتِهِ.

اكثر الكلام وما يتقى منه - قالوا: مَنْ ضاق صدره اتسع لسأته. ومن أكثر أهجر: أي خرج إلى الهجر، وهو القبيح من القول. وقالوا: المكثار كحاطب ليل. وحاطب الليل ربما نهشته الحية أو لسعته العقرب في احتطابه ليلا. وقالوا: أول العي الاحتلاط، وأساء القول الإفراط.

في الصمت - قالوا: الصمت حُكم وقليلُ فاعله. وقالوا: عَمِي صامتٌ خَيْرٌ من عَمِي ناطق. والصمت يُكسب أهله المحبة. وقالوا: استكثر من الهيبة الصموت. والندم على السكوت خَيْر من الندم على الكلام. وقالوا: السكوت سلامة.

القصدي المدح - منه قولهم: من حَفْنَا أَوْ رَفْنَا فَلْيَقْتَصِد. يقول: مَنْ مدحنا فلا يعلون في ذلك. وقولهم: لا تَهْرِف بما لا تَعْرِف. والمهرف: الإطناج في المدح والثناء. ومنه قولهم: شاكهُ أبا يسار من دون ذا يَنْفُق الحمار. أخبرنا أبو محمد الأعرابي عن رجل من بني عامر بن صعصعة قال: لقي أبو يسار رجلاً بالربد يبيع حماراً ورجلاً يساومه، فجعل أبو يسار يُطري الحمار، فقال المشتري: أعرفت الحمار؟ قال: نعم؛ قال: كيف سيره؟ قال: يُصطاد به النعام معقولاً؛ قال له البائع: شاكهُ أبا يسار، من دون ذا يَنْفُق الحمار. والمشاكهة: المقاربة والقصدي.

صدق الحديث - منه قولهم: من صدق الله نجا. ومنه قولهم: سبني وصدق.

وقالوا: الكذب داء والصدق شفاء. وقولهم: لا يكذب الرائد أهله. معناه أن الذي يرتاد لأهله منزلاً لا يكذبهم فيه. وقولهم: صدقني سن بكره. أصله أن رجلاً ابتاع من رجل بعيراً فسأله عن سنه، فقال له: إنه بازل؛ فقال له: أنخه، فلما أناخه، قال: هدع هدع - وهذه لفظة تُسكن بها الصغار من الإبل - فلما سمع المشتري هذه الكلمة. قال: صدقني سن بكره. ومنه قولهم: القول ما قالت حدام. وهي امرأة لجحيم بن صعْب والد حنيفة وعجل، ابني لجحيم، وفيها قال:

إذا قالت حدام فصدقوها فإن القول ما قالت حدام

من أصاب مرة وأخطأ مرة - منه قولهم: شخب في الإناء وشخب في الأرض " شبه بالحالب الجاهل الذي يحلب شخباً في الإناء وشخباً في الأرض " وقولهم: يشج مرة ويأسو أخرى. وقولهم: سَهَم لك وسهم عليك. وقولهم: أطرق وميشي. "والطرق: ضرب الصوف بالمطربة". والميش أن يخط الشعير بالصوف، والمطربة: العود الذي يضرب به بين ما خلط.

سوء المسألة وسوء الإجابة - قالوا: أساء سمعاً فأساء جابة. وهكذا تُحكى هذه الكلمة جابة بغير ألف، وذلك أنه اسم موضوع. يقال أجابني فلان جابة حسنة، فإذا أرادوا المصدر قالوا: إجابة، بالألف. وقالوا: حدثت امرأة حديثين فإن لم تفهم فأربعة. كذا في الأصل، والذي أحفظ فأربع، أي أمسك. وقولهم: إليك يُساق الحديث.

من صمت ثم نطق بالفهامة - قالوا: سكت ألفاً ونطق خلفاً 0 الخلف من كل شيء: الرديء.

المعروف بالكذب يصدق مرة - قولهم: مع الخواطيء سَهْم صائب. ورُبَّ رَمِيَةٍ من غير رام. وقولهم: قد يصدق الكذوب.

المعروف بالصدق يكذب مرة - قالوا: لكل جواد كِبْوة، ولكل صارم نَبْوة، ولكل عام هَفْوة. وقد يعثر الجواد. ومن لك بأخيك كله. وأي الرجال المهذب.

كتمان السر - قالوا: صدرك أوسع لسرك. وقالوا: لا تُغش سرِّك إلى أمة، ولا تُبِّل على أكمة. يقول: لا تُغش سرِّك إلى امرأة فتبديها، ولا تُبِّل على مكان مرتفع فتبدو عورتك. ويقولون إذا أسروا إلى الرجل: اجعل هذا في وعاء غير سرب. وقولهم: سرِّك من دمك. وقيل لأعرابي: كيف كتمانك السر؟ فقال: ما صدري إلا القبر.

انكشاف الأمر بعد اكتتامة - قولهم: حصحص الحق؛ وقولهم: أبدى الصريخ عن الرغوة. وفي الرغوة ثلاث لغات: فتح الرء وضمها وكسرهما. وقولم:

صَرَّح المحض عن الزبد. وقالوا: أفرخ القوم بيضتهم، أي أخرجوا فرختها، يريدون أظهروا سرهم. وقولهم: برح الخفاء، وكشف الغطاء.

إبداء السر - قالوا: أفضيت إليك بشقوري، أي أخبرتك بأمر، وأطلعتك على سرِّي. وقولهم: أخبرتك بعجري وبجري، أي أطلعتك على معايي.

والعجر: العروق المنعقدة؛ وأما البحر فهي في البطن خاصة. وتقول العامة: لو كان في جسدي برص ما كتمتك.

الحديث يتذكر به غيره- قالوا: الحديث ذو شُجُون- وهذا المثل لضَبَّة ابن أَدُّ وكان له ابنان: سَعْدٌ وسَعِيدٌ. فخرجوا في طلب إبل لهما، فرجع سَعْدٌ ولم يَرَجِع سعيد، فكان ضَبَّةً كلما رأى رجلاً مُقبِلاً، قال: أَسَعِدُ أم سَعِيدٌ؟ فذهبت مثلاً. ثم إن ضَبَّةً بينما هو يَسِير يوماً ومعه الحارث بن كَعْبٍ في الشَّهْرِ الحَرَامِ إذ أتى على مكان، فقال له الحارث: أترى هذا الموضع؟ فإني لقيتُ فتىً هيئته كذا وكذا فقتلته وأخذت منه هذا السيفَ، فإذا بصفة سعيد، فقال له ضَبَّةٌ: أربي السيفَ أنظرُ إليه، فناوله فَعَرَفَهُ، فقال له: إن الحديث ذو شجون، ثم ضربَ به حتى قتله؛ فلامه الناسُ في ذلك وقالوا: أقتلتَ في الشهر الحرام! قال: سَبَقَ السيفُ العَدْلَ، فذهبتَ مثلاً. ومنه: ذَكَرْتَنِي الطَّعْنَ وَكُنْتُ نَاسِياً. وأصل هذا أن رجلاً حَمَلَ لِيَقْتُلَ رجلاً، وكان بيد المَحْمُولِ عليه رُمحٌ، فأَنسَاهُ الدَّهْشُ والجَزَعُ ما في يده، فقال له الحامل: أَلْقِ الرُّمْحَ؟ قال الآخر: فَإِن رُمحي لَمَعِي! ذَكَرْتَنِي الطَّعْنَ وَكُنْتُ نَاسِياً، ثم كَرَّ على صاحبه فَهَزَمَهُ أو قَتَلَهُ. ويقال: إِنَّ الحَامِلَ صَخْرٌ أو مُعَاوِيَةَ السُّلَمِيِّ أحو الخنساء، والمَحْمُولُ عليه يزيد بن الصَّعْقِ.

العدر يكون للرجل ولا يمكن أن يبيده- منه قولهم: رُبَّ سَامِعٍ بَخْرِي لَمْ يَسْمَعْ عُدْرِي. ورُبَّ مَلُومٍ لَا ذَنْبَ لَهُ. ولَعَلَّ لَهُ عُدْرًا وَأَنْتَ تَلُومُ. وقولهم: المرءُ أَعْلَمُ بِشَأْنِهِ.

الاعتذار في غير موضعه- منه قولهم: تَرَكْتُ الذَّنْبَ أَيْسَرُ مِنَ التَّمَاسِ العُدْرُ. وتَرَكْتُ الذَّنْبَ أَيْسَرُ مِنَ طَلَبِ التَّوْبَةِ.

التعريض بالكناية- منه قولهم: أَعَن صُبُوحٌ تُرْفِقُ؟ ومنه قولهم: إِيَّاكَ أَعْنِي واسمعي يا حارة.

المن بالعرف- قالوا: شَوَى أَخوكَ فلما انضح رمد. وقولهم: فَضَّلُ القَوْلَ على الفِعْلِ دَنَاءَةً، وَفَضَّلُ الفِعْلَ على القَوْلِ مَكْرَمَةٌ.

الحمد قبل الاختبار- لا تَحْمَدَنَّ أُمَّةً عامَ أَشْرَاطِهَا، وَلَا حُرَّةً عامَ بَنَائِهَا. وقولهم: لَا تَهْرِفْ قَبْلَ أَنْ تَعْرِفَ. يقول: لَا تَمْدَحْ قَبْلَ أَنْ تَخْتَبِرَ. وقولهم: أَدْلُ المعرفة الاختبار.

إنجاز الوعد- قالوا: أَنْجَزَ حُرٌّ ما وَعَدَ. وقولهم: العِدَّةُ عَطِيَّةٌ. وقولهم: من أَخَّرَ حَاجَةً فَقَدَ ضَمِنَهَا. وقالوا: وَعَدُ الحَرِّ فِعْلٌ وَوَعْدُ اللَّيْمِ تَسْوِيفٌ. وقالت العامة: الوعد من العهد.

التحفظ من المقالة القبيحة وان كانت باطلا- حَسْبُكَ من شَرِّ سَمَاعِهِ وما اعتذارك من شيء إذا قيل؟ الدعاء بالخير- منه قولهم للقادم من سفره: خَيْرٌ ما رَدُّ في أَهْلِ وَمَالٍ. أي جعلك الله كذلك. وقولهم: بَلَّغَ اللَّهُ بِكَ أَكْلًا العُمْرَ، أَي أَقْصَاهُ. وقولهم: نَعِمَ عَوْفُكَ، أَي نَعِمَ بِكَ 0 وقولهم في النِّكَاحِ: على يَدِ الخَيْرِ واليَمِينِ. وقولهم: بِالرِّفَاءِ وَالْبَيْنِ يَرِيدُ بِالرِّفَاءِ: الكثرة؟ يقال منه: رَفَاتُهُ، إِذَا دَعَوْتَ لَهُ بِالكَثْرَةِ. وقولهم: هُنْتُتَ وَلَا تُنْكَكِ، أَي أَصَابَكَ خَيْرٌ وَلَا أَصَابَكَ ضَرٌّ. وقولهم: هَوَتْ أُمَّهُ. وهبَلته أُمَّهُ. يدعون عليه، وهم يريدون الحمد له. ونحوه: قَاتَلَهُ اللَّهُ، وَأَخْرَاهُ اللَّهُ، إِذَا أَحْسَنَ. ومنه قول امرئ القيس:

ما له عُدٌّ من نَفَرِهِ

تعبير الانسان صاحبه بعيه- قالوا: رَمَتْنِي بِدَائِهَا وانسلت. وقولهم: عَيَّرَ بُحَيْرٌ بُحْرَهُ نَسِيَّ بُحَيْرٍ خَيْرَهُ. وقولهم: مُحْتَرَسٌ من مثله وهو حارس وقولهم: تُبْصِرُ القَدَى في عَيْنِ أَحْيِكَ وَلَا تُبْصِرُ الجَذَعَ في عَيْنِكَ.

الدعاء على الإنسان- منه قولهم: فَاها لِفَيْكَ، يَرِيدُ الأَرْضَ لِفَيْكَ. وقولهم: بِفَيْكَ الحَجَرَ، وَبِفَيْكَ الأَثْلَبَ. وقولهم: لِلْيَدَيْنِ وَلِلْفَمِ. ولما أتى عمر بن الخطاب رضي الله عنه بسكران في رمضان، قال له: لِلْيَدَيْنِ وَلِلْفَمِ، أَوْلَدَانَا صِيَامًا وَأَنْتَ مُفْطِرٌ؟ وَضَرِبَهُ مِائَةَ سَوْطٍ. ومنه قولهم: بِجَنَبِهِ فَلْتَكُنِ الوَجْبَةَ. يَرِيدُ الصَّرْعَةَ. ومنه قولهم: مِنْ كِلا، جَانِبَيْكَ لَا لِيَيْكَ، أَي لَا كَانَتْ لَكَ تَلْبِيَّةٌ وَلَا سَلَامَةٌ مِنْ كِلا جَانِبَيْكَ. والتَّلْبِيَّةُ: الإِقامَةُ بِالْمَكَانِ وَقَوْلُهُمْ: بِهِ لَا بِظُلْمِي. وقال الفرزدق:

به لا يظني بالصريمة أعفراً

أقول له لما أتاني نعيه

ومنه قولهم: جَدَعَ اللَّهُ مَسامِعَهُ. وقولهم: عَقْرًا حَلْقًا. يَرِيدُ عَقْرَهُ اللَّهُ وَحَلْقَهُ. ومنه قولهم: لَا لَعًا لَهُ، أَي لَا أَقَامَهُ اللَّهُ. قال الأخطل:

ولا لعا لبني ذكوان إذا عثروا

صَفْرَاءُ صُفْرَةَ صِحَّةٍ قَدْ رَكَبَتْ فَقَتَلْتَهُ سِرًّا ثُمَّ قَالَتْ جَهْرًا

جُبْثَانُهُ فِي ثَوْبٍ سَقَمٍ أَصْفَرٍ قَوْلَ الْفَرَزْدَقِ لَا بِظَبِّي أَعْفَرٍ

رمى الرجل غيره بالمعضلات - منه قولهم: رماه بأقحاف رأسه. ورماه بثالثة الأثافي، يريد قطعة من الجبل يجعل إلى جنبها أثفتان، وتكون هي الثالثة. ومنه: يا للعصيبة والأفيكة، إذا رماه بالبهتان. وقولهم: كأنما أفرغ عليه ذنوباً، إذا كلمه كلمة يسكتها بها. المكر والخلافة - منه قولهم: قتل في ذروته. أي خادعه حتى أزاله عن رأيه. قال أبو عبيد: ويروي عن الزبير أنه حين سأل عائشة الخروج إلى البصرة فأبت عليه؟ فما زال يفتل في الذروة والغارب حتى أحابت. وقولهم: ضرب أخماساً لأسداس، يريدون المماكرة. وقال آخر:

إذا أراد امرؤ مكرًا جنى عللاً

وظلَّ يَضْرِبُ أَخْمَاسًا لِأَسْدَاسٍ

ومنه قولهم: الذئب يأدو للغزال، أي يختله ليوقعه.

اللهو والباطل - منه قولهم: جاء فلان بالثره، وجرى فلان السمّة، وهذا من أسماء الباطل. وقال صلى الله عليه وسلم: ما أنا من ددٍ ولا ددٌ مني. وفيه ثلاث لغات: ددٌ، ودداء، مثل قفا، وددن، مثل حزن. خلف الوعد - منه قولهم: ما وعدته إلا بقرٍ خلب، وهو الذي لا مطر معه.

ومنه: ما وعدته إلا وعد عرقوب، وهو رجل من العماليق أتاه أخوه يسأله، فقال: إذا أطلعت هذه النخلة فلك طلعتها، فأتاه للعدة، فقال: دعها حتى تصير بلحا، فلما أبلحت، قال: دعها حتى تصير رطباً، فلما أرطب، قال: دعها حتى تصير تمرًا، فلما أتمرت، عمد إليها عرقوب فجزها، ولم يعط أحاه شيئاً، فصارت مثلاً سائرًا في الخلف. قال الأعشى:

وَعَدْتِ وَكَانَ الْخُلْفُ مِنْكَ سَجِيَّةً

مواعيد عرقوب أخاه بيثرب

اليمن الغموس - منه قولهم: جدّها جدّ العير الصليانة، وذلك أن العير ربما اقتلع الصليانة إذا ارتعاها. ومنه الحديث المرفوع: اليمن الغموس تدع الديار بلاقع. قال أبو عبيد: اليمن الغموس، هي المصبورة التي يوقف عليها الرجل فيخلف بها، وسميت غموساً لغموسها حالها في المأثم. ومنه قولهم: اليمن حنث أو منادمة. وقال النبي صلى الله عليه وسلم: من كان حالفاً فليخلف بالله.

أمثال الرجال واختلاف نعوتهم

في الرجل المبرز في الفضل - قولهم: ما يُشَقِّقُ غَبَارُهُ. وأصله السابق من الخيل. وقولهم: جري المذكي حسرت عنه الحمر. أي كما يسبق الفرس القارح الحضر وقولهم: جري المذكيات غلاءً أو غلاب. وقولهم: ليست له همّة دون الغاية القصوى. الرجل النبه الذكر - قولهم: ما يُحَجِّرُ فلاناً في العكم. العكم: الجوالق، يريد أنه لا يخفي مكانه. وقولهم: ما يوم حليمة بسر. وكانت فيه وقعة مشهورة قتل فيها المنذر بن ماء السماء، فضربت مثلاً لكل أمر مشهور. وقولهم: أشهر من الفرس الأبلق. وقولهم: وهل يخفي على الناس النهار. ومثله: وهل يخفي على الناصر الصبح. وقولهم: وهل يجهل فلاناً إلا من يجهل القمر.

الرجل العزيز يعذبه الذليل - منه قولهم: إن البغاث بأرضنا تستنسر. البغاث صغار الطير. تستنسر: تصير نسوراً. وقولهم: لا حرّ بوادي عوف. يريدون عوف بن محلم الشيباني، وكان منيعاً. وقولهم: تمرّد مارد وعزّ الأبلق. ما رد: حصن بدومة الجندل. والأبلق: حصن "السؤال". ومن عزّ بزّ، ومن قلّ ذلّ، ومن أمر فلّ. أمر: كثر.

الرجل الصعب - منه قولهم: فلان ألوى بعيد المستمر. وقولهم: ما بللت منه بأفوق ناضل. وأصله السهم المكسور والفوق الساقط التصل. يقول: فهذا

ليس كذلك " ولكنه كالتَّهْم القويّ " . وقولهم: ما يقعق لي بالثَّنَان. وقولهم: ما يصطلى بناره. وقولهم: ما تقرر به صعبة. النجد يلتقى قرنه - منه قولهم: إن كنت ريحاً فقد لاقيت إحصاراً والحديد بالحديد يفلح. والفلح: الشق. "ومنه: فلاحه الأرض، وهو شقها بالحرث " . ولا يفلّ الحديد إلا الحديد. والتَّع يقرع بعضه بعضاً ورمي فلان بحجره، أي قرنٌ بمثله.

الأريب الداهي - هو هتر أهتار. وصلُّ أصلال. الصلُّ: من الحيات، شبه الرجل بها. ومثله: حيةٌ ذكر، وحيةٌ واد. وقولهم: هو عضلة من العضل. وهو باقعة من البواقع. وحولٌ قلب. ومؤدم مبشر؛ يقول: فيه لين الأدمة وخشونة البشرة. وفلان يعلم من حيث توكّل الكتف. النبيه بلا منظر ولا سابقة - قال أبو عبيد: هو الذي تسميه العرب الخارجيّ، يريدون خرج من غير أوليّة كانت له. قال الشاعر:

وليس قديم مجدك بانتحال

أبا مروان لست بخارجيّ

وقولهم: تسمع بالمعيديّ خيرٌ من أن تراه، وهو تصغير رجل منسوب إلى معد. وقالوا:

نفس عصامٍ سوّدت عصاماً

الرجل العالم النحرير - قالوا: إنه لنقاب؛ وهو الفطن الذكيّ. وقالوا: إنه لعض، وهو العالم النحرير. وقولهم: أنا جذيلها المحكك، وعذيقها المرجب. قال الأصمعي: الجذيل: تصغير الجذل، وهو عود ينصب للإبل الجرباء، لتحتك به من الجرب، فأراد أنه يشفى برأيه. والعذيق: تصغير عذق، والعذق " بالفتح " : النخلة نفسها، فإذا مالت النخلة الكريمة بنوا من جانبها المائل بناء مرتفعاً يدعّمها لكيلا تسقط، فذلك التّرجيب، وصعّرهما للمدح. ومثله قولهم: إنه لجذل حكاك: ومنه قولهم: عنيته تشنفي الجرب. والعنية: شيء تُعالج به الإبل إذا جربت. وقولهم:

لذي الحلم قبل اليوم ما تُقرع العصا

وأول من قرعت له العصا سعد بن مالك الكنانيّ ثم قرعت لعامر بن الطّرب العدواني، وكان حكّم العرب في الجاهلية فكبر حتى أنكر عقله، فقال لبنيه: إذا أنا زغت فقوموني، وكان إذا زاغ قرعت له العصا، فينزح عن ذلك. ومنه قولهم: إنه الألمي، وهو الذي يُصيب بالظن. وقولهم: ما حككت قرحة إلا أدميتها. وقولهم الأمور تشابه مُقبلة وتظهر مُدبرة ولا يعرفها مُقبلة إلا العالم النّحرير، فإذا أدبرت عرفها الجاهل والعالم. الرجل المحرب - منه قولهم: إنه لشرابٍ بأنقع، أي معاود للخير والشر. وقولهم: إنه لخراج ولاج. وقولهم: حلب الدهر أشطّره، وشرب أفوايقه، أي اختبر من الدهر خيره وشره. فالشطر: هو شطر الحلبة، والفيقة: ما بين الحلبتين. وقولهم: رجل مُنجد، وهو المُجرب، وأصله من التّواجد؟ يقال: قد عضّ على ناجذيه، إذا استحكّم: وقولهم: أول العزو أخرج. وقولهم: لا تغز إلا بغلام قد غزا. وقولهم: زاحم بعود أودع. "معناه: لا تستعن إلا بمسّن مُحكّم، أودع " . وقولهم: العوان لا تُعلم الخمر. وقالت العامة: الشارف لا يُصفر له.

الذب عن الحرم - قالوا: الفحل يحمي شؤله. والخيل تجري على مساويها. يقول: إن الخيل وإن كانت لها عيوب فإن كرمها يحميها على الجري. وقولهم: النساء لحم على وضم إلا ما ذب عنه. وقولهم: النساء حبال الشيطان. وقولهم: كل ذات صدار خالة؛ يريد أنه يحميها كما يحمي خالته.

الصلة والقطيعة - منه قولهم: لا خير لك فيمن لا يرى لك ما يرى لنفسه: وقولهم: إنما يُضن بالضنين. وقولهم حلّ سبيل من وهى سقاؤه. وقولهم: ألق حبله على غاربه. وقولهم: لو كرهتني يدي قطعته.

الرجل يأخذ حقه قسراً - منه قولهم: يركب الصعب من لا ذلول له. وقولهم: مُجاهرة إذا لم أجد مَحْتَلًا. يقول: أخذ حقي قسراً وعلانية إذا لم أصل إليه بالسّر والعافية. وقولهم: حلبتها بالساعد الأشد؛ يقول: أخذتها بالقوة والشدة إذ لم أقدر عليها بالرّفق. وقولهم: التجلد خيرٌ من التبلد. والمنية خيرٌ من الدنية. ومن عزّ بزّ.

الإطراق حتى تصاب الفرصة - منه قولهم: مخزئبق لينباع. مخزئبق: مُطرق. لينباع: لينبعث. يقول: سكت حتى يُصيب فرصته فيثب عليها. وقولهم: تحسبها حمقاء وهي باحس. وقولهم: خيره في صدره. وقولهم: أحقق بلغ. يقول: مع حُقه يُدرك حاجته.

الرجل الجلد المصحح - أطري فإناك ناعلة. أصله أن رجلاً قال لراعية له كانت ترعى في السهولة وتترك الحزونة، فقال لها: أطري، أي خذي طرر الوادي، وهي نواحيه، فإنك ناعلة، يريد فإن عليك نعلين. وقولهم: به داء ظي، معناه أنه ليس به "داء كما ليس" بالظي داء، وقالوا: الشجاع موقى.

الذل بعد العز - منه قولهم: كان جملاً فاستنوق، أي صار ناقه. وقولهم: كان حمراً فاستأن، أي صار أتاناً. وقولهم: الحور بعد الكور وقولهم: ذل لو أجد ناصرأ. أصله أن الحارث بن "أبي، شمير العسائي سأل ابن أبي الحجير عن بعض الأمر فأخبره فلطمه الحارث، فقال أنس: ذل لو أجد ناصرأ، فلطمه ثانية، فقال: لو نهيت الأولى لم تلطم الثانية، فذهبتا مثلين" وقولهم: الحمى أضرعتني إليك .

الانتقال من ذل إلى عز - منه قولهم: كنت كراعاً فصرت ذراعاً. وقولهم: كنت عنزاً فاستنيست. وقولهم: كنت بوعاناً فاستنسرت، أي صرت نسرا. تأديب الكبير - قالوا: ما أشد فظام الكبير! وقولهم: عود يقلح، أي حمل مسن تئقى أسنائه. وقالوا: من العناء رياضة الهرم. قال الشاعر:

وتروض عرسك بعد ما هرمت ومن العناء رياضة الهرم

وقولهم: أعيتني بأشرف فكيف بدرذر. يقول أعيتني وأنت شابة فكيف إذا بدت درادرك، وهي مغازر الأسنان. الدليل المستضعف - منه قولهم: فلان لا يعوى ولا ينبح من ضعفه، يقول: لا يتكلم بخير ولا شر. وقولهم: أهون مظلوم سقاء مروب، وهو السقاء الذي يلف حتى يبلغ أوان المخض. وقالوا: أهون مظلوم عجوز معقومة. وقولهم:

لقد ذل من بالث عليه الثعالب .

الدليل يستعين بأذل منه - قالوا: عبء صريحه أمة. وقولهم: مثقل استعان بذقته؛ وأصله البعير يُحمل عليه الحمل الثقيل فلا يقدر على النهوض به فيعتمد على الأرض بذقته. وقولهم: العبد من لا عبء له.

الأحمق المائق - قالوا: عدو الرجل حمقه، وصديقه عقله. وقولهم: خرقاء عيابة، وهو الأحمق الذي يعيب الناس. قالوا: في الرجل إذا اشتد حمقه جدًا: تآطة مدت بماء. التآطة: الحمأة، فإذا أصابها الماء ازدادت فساداً ورطوبة.

الذي تعرض له الكرامة فيختار الهوان - منه قولهم: تجنّب روضة وأحال يعدو. يقول: ترك الخير واختار الشقاء. وقولهم: لا يخلو مسك السوء عن عرف السوء. يقول: لا يكون جلد رديء إلا والريح المنتنة موجودة فيه. ومنه قول العامة: قيل للشقي: هلم إلى السعادة؛ قال: حسبي ما أنا فيه. ومنه قول العامة:

أن الشقي بكل حبل يخنق

وقولهم: لا يعدم الشقي مهيراً، أي لا يعدم الشقي رياضة مهراً.

الرجل تريد اصلاحه وقد أعياك أبوه قبل - منه قولهم: لا تفتن من كلب سوء جرؤا. وقال الشاعر:

ترجو الوليد وقد أعياك والدّه

وما رجاؤك بعد الوالد الولدًا

الواهن العزم الضعيف الرأي - منه قولهم: ما له أكل ولا صبور، أي ليس له قوة ولا رأي. قال الأصمعي: طلب أعراي ثوباً من تاجر، فقال: أعطني ثوباً له أكل، يعني قوة وحصافة. ومنه قولهم: هو إمعة، وهو امرأة.

قال أبو عبيد: هو الرجل الذي لا رأي له ولا عزم. فهو يتابع كل أحد على رأيه، ولا يثبت على شيء، وكذلك الإمرة، الذي يتابع كل أحد على أمره. ومنه قولهم: هو بنت الجبل، ومعناه الصدى يُجيبك من، الجبل، أي هو مع كل متكلم يُجيبه بمثل كلامه.

الذي يكون ضاراً لا نفع عنده - من قولهم: المعزى تبهي ولا تبني. "معناه أن المعزى لا تكون منها الأبنية" وهي بيوت الأعراب، وإنما تكون من وبر الإبل وصوف الضأن، ولا تكون من الشعر، وربما صعدت المعزى إلى الخباء فحرقته، فذلك قولهم تبهي، يقال: أهيمت البيت، إذا خرقته، فإذا انخرق، قيل: بيت باه.

الرجل يكون ذا منظر ولا خير فيه - منه قولهم: ترى الفتيان كالنخل، وما يُدريك ما الدخل. وقال الحجاج لعبد الرحمن بن الأشعث: إنك لمنظرائي،

قال: نعم، ومخبرانيّ.

أمثال الجماعات وحالاتهم من اجتماع الناس وافتراقهم- قال الأصمعي: ويقال: لن يزال الناس بخير ما تباينوا، فإذا تساؤوا هلكوا. قال أبو عبيد: معناه أن الغالب على الناس الشرُّ، والخير في القليل من الناس، فإذا كان التساوي وإنما هو في الشر. ومن أشدَّ الهجاء قولُ القائل: سواسية كأسنان الحمير. ومنه قولهم: الناس سواء كأسنان المشط. وقولهم:

الناس شباه وشتي في الشيم وكلهم يجمعه بيت الأدم .

وقولهم: الناس أخيف، أي مُفترقون في أخلاقهم. والأخيف من الخيل: الذي إحدى عينيه زرقاء، والأخرى كحلاء. ومنه قولهم: بيت الإسكاف، لأن فيه من كل جلد رُقعة.

المتساويان في الخير والشر- هما كفَرسي رهان. وكركبتي بعير. وهما زندان في وعاء. هذا في الخير، وأما في الشر، فيقال: هما كحماري العبادي "حين قيل له: أي حماريك شر؟ قال: هذا ثم هذا".

الفاضلان وأحدهما أفضل- منه قولهم: مرعى ولا كالسعدان. وقولهم: ماء ولا كصداء. وصداء: ركية ذات ماء عذب. وقولهم: فتى ولا كمالك. وقولهم: في كل الشجر نار. واستمجد المرخ والعفار، وهما أكثر الشجر ناراً.

الرجل يرى لنفسه فضلاً على غيره- منه قولهم: كلُّ مُجرٍ بالخلاء يسرّ. وأصله الذي يُجرى فرسه في المكان الخالي فهو يسرّ بما يرى منه. المكافأة- منه قولهم: هذه بتلك، وقولهم: أضى لي أقدح لك، أي كُن لي أكن لك. وقولهم: اسقى رقاش إنما سقاية. يقول: أحسنوا إليها إنما مُحسنة.

الأمثال في القربى

التعاطف من ذوي الأرحام- قال ابن الكلبي: منه قولهم: يا بعضي دغ بعضاً. وأصل هذا أن زُرارة بن عُدس زوّج ابنته من سُويد ابن ربيعة، فكان له منها تسعة بنين، وأن سُويداً قتل أحاً صغيراً لعمر بن هند الملك وهرب ولم يُقدّر عليه ابن هند، فأرسل إلى زُرارة: إن ابنتي بولده من ابنتك، فجاه بهم، فأمر عمرو بقتلهم، فتعلقوا بجدهم زُرارة. فقال: يا بعضي دغ بعضاً، فذهبت مثلاً.

ومن أمثالهم في التحنن على الأقارب- قولهم: لكن على بلدح قوم عجنفي. وقولهم: لكن بالآثلاث لحم لا يُظلل. وأصل هذا أن بيهساً الذي يُلقب بنعامه، كان بين أهل بيته وبين قوم حرب. فقتلوا سبعة إخوة لبيهس وأسروا بيهساً، فلم يقتلوه لصغره وارتحلوا به، فزلوا منزلاً في سفرهم ونحروا جزوراً " في يوم شديد الحر"، فقال بعضهم: ظللوا لحم جزوركم "لثلا يفسد"؛ فقال بيهس: لكن بالآثلاث لحم لا يُظلل- يعني لحم إخوته القتل- ثم ذكروا كثرة ما غنموا؛ فقال بيهس: لكن على بلدح قوم عجنفي. ثم إنه أفلت أو خلوا سبيله، فرجع إلى أمه، فقالت: أنجوت من بينهم؟ وكانت لا تُحبّه، فقال لها: لو خبرت لاحترت. فلما لم يكن لها ولدٌ غيره رقت له وتعطفت عليه. فقال بيهس: النكل أرامها، فذهبت كلماته هذه الأربع كلها أمثالاً. ومنه قولهم: لا يعدم الحوار من أمه حنة. وقولهم: لا يضُر الحوار ما وطئته أمه. وقولهم: بأبي أوجه اليتامى.

حماية القريب وإن كان مبغضاً- من ذلك قولهم: أكل لحمي ولا أدعه يؤكل.

ومنه لا تعدم من ابن عمك نصراً. وقولهم الحفاظ تُحلل الأحقاد. وقولهم في ابن العم: عدوك وعدو عدوك. وقولهم: كفتك منك وإن كانت شلاء. وقولهم: انصر أخاك ظالماً أو مظلوماً.

إعجاب الرجل بأهله- منه قولهم: كل فتاة بأبيها مُعجبة. وقولهم: القربى في عين أمها حسنة. وقولهم: زين يا عين والد ولد. وقولهم: حسن في كل عين ما تود. وقولهم: من يمدح العروس إلا أهلها؟ تشبيه الرجل بأبيه- منه قولهم: من أشبه أباه فما ظلم. وقولهم: العصى من العصا. وقولهم: ما أشبه حجل الجبال بألوان صخورها! وقولهم: ما أشبه الحول بالقبيل! وما أشبه الليلة بالبارحة! وقولهم: شنشنة أعرفها من أخزم يقال هذا في الولد إذا كانت فيه طبيعة من أبيه. قال زهير:

وتغرس إلا في منابتها النخل

وهل يُنبِت الخطي إلا وشيجه

ومنه قولُ العامة: لا تُلدِ الذئبةُ إلا ذئبًا. وقولهم: حَذَوْ النعلَ بالنعل. وحَذَوْ القذةَ بالقذة. والقذة: الريشة من ريش السهم تُحْدَى على صاحبيتها.

تحاسد الأقارب - من ذلك قولهم: الأقارب هم العقارب. وقال عمر: تَزاورُوا ولا تَحاورُوا. وقال أكرم: تَباعدوا في الديار وتَقاربوا في المحبة. وقال رسول الله صلى الله عليه وسلم لأبي هريرة: زُرْ غَيًّا تَزْدَدُ حَبًّا. ومنه قولهم: فَرَّقَ بينَ معدٍ تحاب. يريد أن ذوي القربى إذا تَدانُوا تحاسدُوا وتباغضوا. قولهم في الأولاد - قالوا: مَنْ سَرَّهُ بنوه ساءتُه نفسه، أي من يرى فيهم ما يسره يرى في نفسه ما يسؤه. وقولهم:

إِنَّ بَنِي صَبِيئَةَ صَبِيئُونَ **أَفْلَحَ مَنْ كَانَ لَهُ رُبْعِيُونَ**

الولد الصَّبِيئِي: الذي يُولد للرجال وقد أَسَنَّ. والرَبِيعِي: الذي يُولد له في عُنُقوان شبابه، أُخذ من ولد البقرة الصَّبِيئِي والرَّبِيعِي. ويقال للمرأة إذا تَبَنَّت غير ولدها: ابنتك مَنْ دَمِي عَقَبِيك.

الرجل يُوتى من حيث أَمَن - قالوا: من مَأمنه يُوتى الحَذِر. وقال عَدِي بن زيد العبادي:

لَوْ بَغِيرِ الْمَاءِ حَلَقَى شَرِقٌ **كُنْتُ كَالْغَضَانِ بِالْمَاءِ أَعْتَصَارِي**

قال الأصمعي: هذا من أشرف أمثال للعرب. يقول: إنَّ كلَّ من شَرِقَ " بشيء يستغيث بالماء، ومَنْ شَرِقَ " بالماء لا مُسْتَغَاثَ له. وقال الآخر:

كُنْتُ مِنْ كُرْبَتِي أَفْرُ إِلَيْهِمْ **فَهُمْ كُرْبَتِي فَأَيْنَ الْفِرَارُ**

ومثله قول العباس بن الأحنف:

قَلْبِي إِلَى مَا ضَرَّتِي دَاعِي **يُكْثِرُ أَحْزَانِي وَأَوْجَاعِي**

كَيْفَ احْتِرَاسِي مِنْ عَدَوِّي إِذَا **كَانَ عَدَوِّي بَيْنَ أَضْلَاعِي**

" وقال آخر:

مَنْ غَصَّ دَاوَى بُشْرِبِ الْمَاءِ غُصْتَهُ **فَكَيْفَ يَصْنَعُ مَنْ قَدَ غَصَّ بِالْمَاءِ**

الأمثال في مكارم الأخلاق

الحلم

قال أبو عبيد: من أمثالهم في الحلم: إذا نزل "بك" الشرُّ فأقعد، أي فاحلم ولا تسارع إليه. ومنه قول الآخر: الحليم مطيِّبة الجهول. وقولهم: لا يَنْتَصِفُ حليمٌ من جاهل. وقولهم: أحر الشرُّ فإن شئتَ تعجَّلتَه. وقولهم في الحليم: إنه لواقع الطير، ولساكن الرِّيح. وقولهم: في الحليماء: كأنما على رؤوسهم الطير. ومنه قولهم: ربِّمَّا أَسْمَعُ فَأَذِر. وقولهم: حِلْمِي أَصْمٌ وَأُذُنِي غَيْرُ صَمَاء.

العفو عند المقدرة

منه قولهم: مَلَكْتُ فَأَسْجِح. وقد قالته عائشة رضوان الله عليها لعلي بن أبي طالب كرم الله وجهه يوم الجمل حين ظهر على الناس فدنا من هودجها وكلمها فأجابته: مَلَكْتُ فَأَسْجِح، " أي ظفرت فأحسن. فجهزها بأحسن الجهاز وبعث معها أربعين امرأة - وقال بعضهم: سبعين - حتى قدمت المدينة ". ومنه قولهم: " إنَّ المَقْدِرَةَ تُذْهِبُ الحَفِيظَةَ. وقولهم:

إِذَا رَجَحَنَّ شَاصِيًّا فَارْفَعْ يَدَا

يقول: إذا رأيتَه قد خَضَعَ واستكان فاكفُف عنه. والشاصي: " هو " الرَّافِعُ رِجْلَهُ.

المساعدة وترك الخلاف

من ذلك قولهم: إذا عَزَّ أخوك فَهَنْ. وقولهم: لولا الوِثَامُ هَلَكَ اللِّثَامُ. الوِثَامُ: المِباهاة: يقول لولا المِباهاة لم يفعل الناسُ خيراً.

مداراة الناس

قالوا: إذا لم تَعْلِبْ فَاخْلِبْ. يقول: إذا لم تغلب فاحدع ودار والطف. وقولهم: إلا حِطِيَّةٌ فلا آليَّة. معناه: إن لم يكن حُطْوَةٌ فلا تَقْصِير. "إلية: من " ألا يألو. ويأتلي، أي يقصر. "ومنه قول الله عز وجل: " ولا يَأْتِلُ أُولُو الْفَضْلِ مِنْكُمْ وَالسَّعَةِ"، وقولهم: سوء الاستمساك خَيْرٌ من حُسْنِ الصَّرْعَةِ. ومنه قولُ أبي الدرداء: إِنَّا لَنَبِشُّ فِي وُجُوهِ قَوْمٍ وَإِنْ قُلُوبُنَا لَتَلْعُنُهُمْ. ومنه قولُ رسول الله صلى الله عليه وسلم: شَرُّر النَّاسِ مَنْ دَارَاهُ النَّاسُ لَشْرِهِ. ومنه قولُ شَيْبِ بْنِ شَيْبَةَ فِي حَالِدِ بْنِ صَفْوَانَ: لَيْسَ لَهُ صَدِيقٌ فِي السَّرِّ وَلَا عَدُوٌّ فِي الْعَلَانِيَةِ. يريد أن الناس يُدارونه لَشْرِهِ وَقُلُوبُ النَّاسِ تُبْغِضُهُ.

مفاكهة الرجل أهله

منه قولهم: كل امرئ في بيته صَيِّ. يريد حُسن الخلق والمفاكهة؛ ومنه قولُ أمير المؤمنين عمر بن الخطاب: إنا إذا خَلَوْنَا قَلَلْنَا. ومنه قولُ النبي صلى الله عليه وسلم: خَيْرَ كُمْ خَيْرَ كُمْ لِأَهْلِهِ. ومنه قولُ معاوية: إهْنَنَّ يَعْلبِنَ الْكِرَامَ وَيَعْلبِهِنَّ اللَّثَامُ.

اكتساب الحمد واجتناب الذم - قالوا: الحمد مَعْتَمٌ والذم مَعْرَمٌ. وقولهم: "إنَّ" قليل الذم غير قليل. وقولهم: إنَّ خيراً من الخير فاعله وإنَّ شراً من الشرِّ فاعله. وقولهم:

والشرُّ أَخْبَثُ مَا أُوعِيَتْ مِنْ زَادٍ

الْخَيْرِ بِيَقَى وَإِنْ طَالَ الزَّمَانُ بِهِ

الصبر على المصائب - من ذلك قولهم:

هَوْنٌ عَلَيْكَ وَلَا تُولَعِ بِإِشْفَاقِ

وقولهم: من أراد طولَ البقاء فَلْيَوَظَّنْ نفسه على المصائب. وقولهم: المصيبة للصابر واحدة وللجازع اثنتان. وقال أكتم بن صَيْفِي: حيلة من لا حيلة له الصبر. وذكروا عن بعض الحكماء أنه أُصيب بآبن له فبكى حَوْلًا ثُمَّ سَلَا، فقليل له: مالك لا تَبْكِي؟ قال كان جرحاً فَبَرِيءٌ. قال أبو خِرَاشِ الهُدَلِي:

نُكِّلَ بِالْأَدْنَى وَإِنْ جَلَّ مَا يَمْضِي

بَلَى إِنَّهَا تَعْفُو الْكُلُومَ وَإِنَّمَا

ومنه قولهم: لا تلهف على ما فاتك.

الحض على الكرم

منه قولهم: اصطناع المعروف بقي مصارع السوء. وقولهم: الجود محبة والبخل مَبْغِضَةٌ. وقول الحُطَيْبِيَّة:

لَا يَذْهَبُ الْعُرْفُ بَيْنَ اللَّهِ وَالنَّاسِ

مَنْ يَفْعَلُ الْخَيْرَ لَا يَعْدَمُ جَوَازِيَهُ

الكريم لا يجد

منه قولهم: يَبْتِي بِيَخْلُ لَا أَنَا. وقولهم: بالسَّاعِدِ تَبْطِشُ الْكَفُّ. وقولهم:

وَلَا تَجُودُ يَدٌ إِلَّا بِمَا تَجِدُ

ما كلف الله نفساً فوق طاقتها

وقال آخر:

يَرَى المرءُ أحياناً إِذَا قَلَّ مَالُهُ

مَتَى ما يرمها قَصَرَ الفقرُ كَفَّهُ

القناعة والدعة - منه قولهم:

وَحَسْبُكَ من غِنَى شِبَعِ وريِّ

وقولهم: يَكْفِيكَ ما يَلْغُكَ المَحَل. وقال الشاعر:

مَنْ شاء أَنْ يُكْثِرَ أو يُقَلِّدَ

مِنَ الخَيْرِ تاراتٍ ولا يَسْتَطِيعُها

فَيَضَعُفُ عنها والغِنَى يُضِيعُها

يَكْفِيهِ ما بَلَغَهُ المَحَلَّ

الصبر على المكاره يحمد العواقب - قالوا: عواقب المكاره محمودة. وقالوا: عند الصباح يحمد القوم السرى. وقولهم: لا تُدرك الراحة إلا بالتعب. أخذه حبيب فقال:

على أَنِّي لم أَحِوَ مالاً مُجمَعاً

ولم تُعْطِنِي الأيامُ نوماً مسكناً

وأحسن منه قوله أيضاً:

فَفُزْتُ بِهِ إلا بِشَمَلِ مُبَدَّدِ

أَلَذُّ بِهِ إلا بِنَوْمِ مُشَرَّدِ

تَنالُ إلا على جِسْرِ مِنَ التَّعبِ

بَصُرْتُ بِالرَّاحةِ العُلَيَّا فلم تَرها

الانتفاع بالمال - قالوا: خيرُ مالِك ما نَفَعَكَ. ولم يَضِعْ من مالِك ما وَعَظَكَ.

ونظر ابن عباس إلى درهم بيد رجل، فقال: إنه ليس لك حتى يخرج من يدك. وقولهم: تَفْتِيرُ المرءِ على نفسه تَوْفِيرٌ منه على غيرِه. قال الشاعر:

أَنْتَ لِلمالِ إِذا أَمْسَكَتَهُ

المتصافيان - منه قولهم: هما كَنَدَمائِي جَذِمةِ الأبرش الملك. وندمهما رجلان من بلقين يقال لهما: مالك وعقيل. "بلقين: يريد من بني القين". وقولهم: "هما أطول صحبة من الفرقدين. قال الشاعر:"

فَإِذا أَنْفَقْتَهُ فالمالُ لَكَ

وَكُلُّ أَخٍ مُفارِقُهُ أخُوهُ

ومنه قولهم: "هما أطول صحبة من " ابني شمام، وهما جبالان.

خاصة الرجل - منه قولهم: عيبة الرجل. يريدون خاصته وموضع سره. ومنه الحديث في خزاعة: كانوا عيبة رسول الله صلى الله عليه وسلم، مؤمنهم وكافرهم.

لَعَمْرُ أَيْبِكَ إلا الفَرَقَدانِ

مَنْ يَكسِبُ له غيرِه - منه قولهم: ليس عليك غزله فاسحب وجراً. وقولهم: ورُبُّ ساعٍ لقاعد. وقولهم: خير المال عينٌ ساهرة لعين نائمة.

المروءة مع الحاجة - منه قولهم: تجوع الحرة؛ ولا تأكل بثدييها. وقولهم: شر الفقر الخُضوع، وخير الغنى القناعة. ومنه الحديث المرفوع: أحمَلوا في الطلب. قال الشاعر:

مُتَجَسِّعاً وَتَجَمَّلِ

فَإِذا افْتَقَرْتَ فلا تَكُنْ

ومنه قول هُذَبة العُدْرِي:

ولا جازِع من صَرَفِهِ المُتَقَلِّبِ

ولستُ بِمُفْراحٍ إِذا الدَهرُ سَرَّني

ولكنَّ مَتَى أَحْمَلُ على الشَرِّ أَرْكَبَ

ولا أتمنى، الشَرِّ والشَرُّ تاركي

المال عند مَنْ لا يستحقه - منه قولهم: حَرَفَاءُ وَحَدَتِ صُوفَا. وَعَبْدٌ مَلِكٌ عَبْدًا "فأولاده تَبًا". وقولهم: مَنْ يَطْلُ ذَيْلَهُ يَنْتَطِقُ بِهِ. وَمَرَعَى وَلَا أَكُولَةَ. وَعَشْبٌ وَلَا بَعِيرٌ. وَمَالٌ وَلَا مُنْفِقٌ.

الحض على الكسب - منه قولهم: اطلب تَظْفِر. وقولهم: مَنْ عَجَزَ عَنْ زَادِهِ أَتَكَلَ عَلَى زَادِ غَيْرِهِ. وقولهم: مِنَ الْعَجَزِ تُنَجَّتِ الْفَاقَةُ. وقولهم: لَا يَفْتَرَسُ اللَّيْثُ الظُّبْيَ وَهُوَ رَابِضٌ. وقول العامة: كَلَبَ طَوَافٍ خَيْرٌ مِنْ أَسَدٍ رَابِضٍ. وقولهم:

ما هكذا تُورد يا سَعْدُ الإِبِلُ

أوردها سَعْدٌ وَسَعْدٌ مُشْتَمَلٌ

الخبر بالأمر البصير به - منه قولهم: عَلَى الْخَبِيرِ سَقَطَتْ. وقولهم: كَفَى قَوْمًا بِصَاحِبِهِمْ خَبِيرًا. وقولهم: لِكُلِّ أَنْسٍ فِي جِوَاهِرِهِمْ خَبِيرٌ. وقولهم: عَلَى يَدِي دَارَ الْحَدِيثِ. وقولهم: تُعَلِّمَنِي بِضَبِّ أَنَا حَرَشْتُهُ. يقول: أَتُخْبِرُنِي بِأَمْرِ أَنَا وَلَيْتَهُ؟ وَلِ الْقَوْسِ بَارِيهَا. وقولهم: الْخَيْلُ أَعْلَمُ بِفُرْسَانِهَا. وقولهم: كُلُّ قَوْمٍ أَعْلَمُ بِصِنَاعَتِهِمْ. وقولهم: قَتَلَ أَرْضًا عَالِمُهَا. وَقَتَلَتْ أَرْضٌ جَاهِلُهَا.

الاستخبار عن علم الشيء وتيقنه - من ذلك قولهم: مَا وَرَاءَكَ يَا عِصَامُ؟ أَوَّلُ مَنْ تَكَلَّمَ بِهِ النَّابِغَةُ الذَّبْيَانِي لِعِصَامِ صَاحِبِ التَّعْمَانِ، وَكَانَ النِّعْمَانُ مَرِيضًا فَكَانَ إِذَا لَقِيَهِ النَّابِغَةُ، قَالَ لَهُ: مَا وَرَاءَكَ يَا عِصَامُ؟ وقولهم: سَيَأْتِيكَ بِالْأَخْبَارِ مَنْ لَمْ تُزَوِّدْ. وَإِلَيْكَ يُسَاقُ الْحَدِيثُ. انتحال العلم بغير آله - منه قولهم:

لكالحادي وليس له بغير

وقال الحطيئة:

لكا لماشي وليس له حذاء .

وقولهم: إنباض بغير توتير. وكقَبَاضٍ عَلَى الْمَاءِ. أَخَذَهُ الشَّاعِرُ فَقَالَ:

على الماءِ خانتَهُ فَرُوجُ الأصابعِ

وَمَنْ يَأْمَنُ الدُّنْيَا يَكُنْ مِثْلَ قَابِضٍ

وخرقاء ذات نيقة. يضرب للرجل الجاهل بأمر يدعي معرفته.

من يوصي غيره وينسي نفسه - يا طَبِيبُ طَبِّ لِنَفْسِكَ. ومنه: لَا تَعْطِينِي وَتَعْطِطِي، أَي لَا تَوْصِيَنِي وَأَوْصِي نَفْسَكَ.

الأخذ في الأمور بالاحتياط - منه قولهم: أَنْ تَرِدَ الْمَاءُ بِمَاءِ أَكَيْسٍ. وقول العامة.

لا تُصَبِّ مَاءً حَتَّى تَجِدَ مَاءً. وقولهم: عَشٌّ وَلَا تَغْتَرِ. يقول: عَشٌّ إِبْلُكَ، وَلَا تَغْتَرِ بِمَا تُقَدِّمُ عَلَيْهِ. وَيُرْوَى عَنْ ابْنِ عَبَّاسٍ وَابْنِ عَمْرِو بْنِ الزَّبِيرِ أَنَّ رَجُلًا أَتَاهُمْ، فَقَالَ: كُلُّ لَا يَنْفَعُ مَعَ الشَّرِّكَ عَمَلٌ، كَذَلِكَ لَا يَضُرُّ مَعَ الْإِيمَانِ تَقْصِيرٌ، فَكَلَّمَهُمْ قَالَ: عَشٌّ وَلَا تَغْتَرِ. وقولهم: لَيْسَ بِأَوَّلِ مَنْ غَرَهُ السَّرَابُ. وقولهم: اشْتَرَّ لِنَفْسِكَ وَلِلسُّوقِ. ومنه الحديثُ المرفوعُ عَنِ الرَّجُلِ الَّذِي قَالَ أَرْسِلْ نَاقِي وَأَتَوَكَّلْ؟ قَالَ: "بَلْ" اعْقَلْهَا وَتَوَكَّلْ.

الاستعداد للأمر قبل نزوله - منه قولهم: قَبْلَ الرَّمْيِ يُرَاشُ السَّهْمُ. وقولهم: قَبْلَ الرَّمَاءِ تُمَلَأُ الْكِنَانُ. وقولهم: خُذِ الْأَمْرَ بِقَوَابِلِهِ، أَي بِاسْتِقْبَالِهِ قَبْلَ أَنْ يُدْبِرَ. وقولهم: شَرُّ الرَّأْيِ الدَّبْرِيُّ. وقولهم: الْمُحَاجَزَةُ قَبْلَ الْمَاجَزَةِ. وقولهم: التَّقَدُّمُ قَبْلَ التَّنَدُّمِ. وقولهم: يَا عَاقِدُ إِذْكَرْ حَلَا. وقولهم: خَيْرُ الْأُمُورِ أَحْمَدُهَا مَعْبَةٌ. وقولهم: لَيْسَ لِلأَمْرِ بِصَاحِبٍ مَنْ لَمْ يَنْظُرْ فِي الْعَوَاقِبِ.

طلب العافية بمسألة الناس - قولهم: مَنْ سَلَكَ الْجِدَدَ أَمِنَ الْعِثَارَ. وَأَحْذَرُ تَسْلَمَ. ومنه قولهم: جَرُّوا لَهُ الْخَطِيرَ مَا انْجَرَّ لَكُمْ. الْخَطِيرُ: ذِمَامُ النَّاقَةِ. وَمِنْهُ قَوْلُهُمْ: لَا تُكُنْ أَدْنَى الْعَيْرِينَ إِلَى السَّهْمِ. يقول: لَا تُكُنْ أَدْنَى أَصْحَابِكَ إِلَى مَوْضِعِ التَّلْفِ وَكُنْ نَاحِيَةً أَوْ وَسْطًا. قَالَ كَعْبٌ: إِنَّ لِكُلِّ قَوْمٍ كَلْبًا فَلَا تُكُنْ كَلْبَ أَصْحَابِكَ. وَتَقُولُ الْعَامَّةُ: لَا تُكُنْ لِسَانَ قَوْمٍ.

توسط الأمور - من ذلك قولهم: لَا تُكُنْ حُلُومًا فَتُسْتَرَطَّ، وَلَا مَرًّا فَتُعْفَى، أَي تُلْفِظُ؟ يُقَالُ: أَعْقَى الشَّيْءُ، إِذَا اشْتَدَّتْ مَرَارَتُهُ. " قَالَ الشَّاعِرُ:

ولا مرًا فتنشِب في الحلاق "

ولا نك أنيا حُلُومًا فَتُنْحَسَى

وتقول العامة: لا تَكُنْ حُلُومًا فِتْوَكُلْ ولا مُرًّا فِتْلَفْظْ. وتَوَسَّطْ الأمور أدنى السلامة. ومنه قول مُطَرِّف بن "عبد الله بن" الشَّخِير: الحَسَنَةُ بي السَّيِّئَتَيْنِ وخَيْرُ الأمور أوسطها. وشرَّ السَّيْرِ الحَقِّحَةُ. قوله: بين السَّيِّئَتَيْنِ، يريد بين المُجَاوِزَةِ والتَّقْصِيرِ. ومنه قولهم: بين المُخِخَةِ والعَجْفَاءِ. "يريد" بين السَّيِّئَتَيْنِ والمَهْزُولِ. ومنه قول علي بن أبي طالب رضي الله عنه: خَيْرُ النَّاسِ هَذَا النَّمَطُ الأَوْسَطُ يَلْحَقُ بِهِمُ التَّالِي وَيُرْجَعُ إِلَيْهِمُ الغَالِي.

الإِتَابَةُ بعد الاجْرَامِ - منه قولهم: أقْصَرَ لَمَّا أبْصَرَ. ومنه أُنْبِغِ السَّيِّئَةَ الحَسَنَةَ "مَحْجَاهَا". والتَّائِبُ مِنَ الذَّنْبِ كَمَنْ لَا ذَنْبَ لَهُ. والندْمُ تَوْبَةٌ. والاعْتِرَافُ يَهْدِمُ الإِقْتِرَافَ.

مَدَافِعَةُ الرَّجُلِ عَنِ نَفْسِهِ - جَاحَشَ فُلَانٌ عَنِ خَيْطِ رَقَبَتِهِ. وخَيْطُ الرِّقْبَةِ: النِّخَاعُ؛ يَقُولُ: دَافِعٌ عَنِ دَمِهِ وَمُهْجَتِهِ. وَقَالَتِ العَامَّةُ:

وَأَيَّةُ نَفْسٍ بَعْدَ نَفْسِكَ تَنْفَعُ

"ومنه": أَدْفَعُ عَنِ نَفْسِي إِذَا لَمْ يَكُنْ عَنْهَا دَافِعٌ. قولهم في الانْفِرَادِ - الذَّنْبُ خَالِيًا أَسَدٌ. يَقُولُ: إِذَا وَجَدَكَ خَالِيًا اجْتَرَأَ عَلَيْكَ. ومنه الحديث المأثور: الوَحِيدُ شَيْطَانٌ. وفي الحديث الأخر: عَلَيْكُمْ بِالْجَمَاعَةِ فَإِنَّ الذَّنْبَ إِذَا يُصِيبُ مِنَ الغَنَمِ الشَّارِدَةَ. من ابتلى بشيء مرة فخافه أخرى - منه الحديث المرفوع: لَا يُلْسَعُ المُوْمِنُ مِنْ جُحْرٍ مَرَّتَيْنِ. يريد أنه إذا لُسِعَ مَرَّةً "منه" تَحْفَظُ مِنْ أُخْرَى. وقولهم: مَنْ لَدَغَتْهُ الحَيَّةُ يَفْرَقُ مِنَ الرَّسَنِ. وقولهم:

مَنْ يَشْتَرِي سَيْفِي وَهَذَا أَثْرُهُ

يُضْرَبُ هَذَا المِثْلُ لِلَّذِي قَدْ اجْتَبَرَ وَجُرَّبَ وَقَوْلُهُمْ: كُلُّ الحِذَاءِ يَحْتَذِي الحَافِي الوَقْعِ الوَقْعُ: الَّذِي يَمْشِي فِي الوَقْعِ، وَهِيَ الحِجَارَةُ. قَالَ أَعْرَابِي:

وَشْرُكًا مِنْ آسِنَتِهَا لَا تَنْقَطِعُ

يَا لَيْتَ لِي نَعْلَيْنِ مِنْ جِلْدِ الضَّبْعِ

كُلُّ الحِذَاءِ يَحْتَذِي الحَافِي الوَقْعِ

اتِّبَاعُ الهَوَى - قَالَ ابْنُ عَبَّاسٍ: مَا ذَكَرَ اللهُ الهَوَى فِي شَيْءٍ إِلَّا ذَمَّهُ. قَالَ الشَّعْبِيُّ: قِيلَ لَهُ هَوَى، لِأَنَّهُ يَهْوَى بِهِ. وَمِنْ أَمْثَالِهِمْ فِيهِ: حُبُّ الشَّيْءِ يُعْمَى وَيُصَمُّ. وَقَالُوا: الهَوَى إِلَهٌ مَعْبُودٌ. الحِذْرُ مِنَ العَطْبِ - قَالُوا:

إِنَّ السَّلَامَةَ مِنْهَا تَرَكَ مَا فِيهَا

وقولهم: أَعْوَرُ، عَيْنُكَ وَالحَجَرُ. وقولهم: اللَّيْلُ وَأَهْضَامُ الوَادِي. وَأَصْلُهُ أَنْ يَسِيرَ الرَّجُلُ لَيْلًا فِي بَطُونِ الأَوْدِيَةِ، حَذَرَهُ ذَلِكَ. وقولهم: دَعَّ خَيْرَهَا لَشَرِّهَا. وقولهم: لَا تُرَاهِنَ عَلَى الصَّعْبَةِ. وقولهم: أَعْذَرَ مَنْ أَنْذَرَ.

حَسَنُ التَّدْبِيرِ وَالنَّهْيِ عَنِ الحِرْقِ - الرَّفْقُ يُمْنٌ وَالحِرْقُ شَوْمٌ. وَرُبَّ أَكْلَةٍ تَمْنَعُ أَكْلَاتٍ. وقولهم: قَلْبُ الأَمْرِ ظَهْرًا لِالبَطْنِ. وقولهم: "اضْرِبْ" وَجْهَ الأَمْرِ وَعَيْنَيْهِ، وَأَجْرُ الأَمْرِ عَلَى أَذْلَالِهَا، أَيْ عَلَى وَجْهِهَا. وقولهم: وَجْهَ الحَجَرِ وَجْهًا مَا "لَهُ". وقولهم: وَكَلَى حَارَهَا مِنْ وَكَلَى قَارَهَا.

المشورة - قالوا: أَوَّلُ الحَزْمِ المَشُورَةُ. ومنه: لَا يَهْلِكُ امْرُؤٌ عَنِ مَشُورَةٍ. قَالَ ابْنُ المُسَيَّبِ: مَا اسْتَشِرْتُ فِي أَمْرٍ وَأَسْتَحَرْتُ وَأَبَالِي عَلَى أَيِّ جَنِيٍّ سَقَطْتُ. الجِدِّي فِي طَلَبِ الحَاجَةِ - أَبْلَغُ عُدْرًا وَخَلَاقَ دَمٍّ. "يقول: إِنَّمَا عَلَيْكَ أَنْ تَجْتَهِدَ فِي الطَّلَبِ وَتُعْذِرَ، لِكَيْلَا تُذَمَّ فِيهَا وَإِنْ لَمْ تَكُنْ تَقْضِي الحَاجَةَ". ومنه:

هَذَا أَوْ أَنَّ الشَّدَّ فَاشْتَدَّ زَيْمٌ وَقَوْلُهُمْ: اضْرِبْ عَلَيْهِ جِرْوَتَكَ، أَيْ وَطَّنْ عَلَيْهِ نَفْسَكَ. ومنه: اجْمَعْ عَلَيْهِ جَرَامِيكَ، وَاشْدُدْ لَهُ حِيَاظِيكَ. وقولهم: شَمَّرَ ذَيْلًا وَأَدْرَعَ لَيْلًا. ومنه: أَتَتْ بِهِ "مِنْ" حِسِّكَ وَبَسِّكَ. ومنه قول العامة: جِئْتُ بِهِ مِنْ حَيْثُ أَيْسَ وَلَيْسَ. الأَيْسُ: المَوْجُودُ. وَاللَيْسُ: المَعْدُومُ.

التَّائِبُ فِي الأَمْرِ - مِنْ ذَلِكَ قَوْلُهُمْ: رَبُّ عَجَلَةٍ تُعْتَقَبُ رَيْثًا. وَقَوْلُهُمْ: إِنَّ المَنْبِتَ لَا أَرْضًا قَطَعَ وَلَا ظَهْرًا أَبْقَى. وَقَالَ القَطَامِيُّ:

قد يُدرك المنأني بعض حاجته

ومنه: ضَحَّ رَوَيْدًا، أي لا تعجل. والرَّشْفُ أنقع، أي أروى؛ يقال: شَرَبَ حَتَّى نَقَعَ. ومنه:

لا يُرسل الساق إلا مُمسكاً ساقاً .

سوء الجوار - منه قولهم: لا يَنْفَعُكَ من جارٍ سَوَاءٌ تَوَقَّفَ. والجارُ السُّوءُ قطعة من نار. ومنه: هذا أَحَقُّ مَثَلٌ بَتْرَكُ. "ومنه قولهم: الجارُ قبل الدار. الرفيقُ قبل الطريق. ومنه قولهم: بعثُ جاري ولم أبع داري. يقول: كنتُ راعباً في الدار إلا أُنِي بعثها بسبب الجار السوء".
سوء المرافقة - أنت تَتَّقُ وأنا مَتَّقُ فمَتَّى تَتَّقِ. التَّتَقُّ: السريع الشرُّ. والمَتَّقُ: السريع البكاء؛ ويقال: الممتلىء من الغضب، والتَّتَقُّ والمَتَّقُ مهموزان. وقولهم: ما يجمع بين الأروى والنعام؟ يريد أن مَسْكَنَ الأروى الجبلُ ومَسْكَنَ النعام الرَّمْلُ - الأروى: جمع أروية - ومنه: لا يَجْتَمِعُ السِّيفَانِ في غِمد. ومنه: لا يَلْتَأُ هذا بَصْفَرِي، أي لا يَلْصِقُ بَقْلِي.

العادة - قالوا: العادة أملكُ من الأدب. وقالوا: عادةُ السُّوءِ شرٌّ من المَعْرَمِ. وقالوا: أعطِ العبدَ ذراعاً يَطْلُبُ باعاً.

ترك العادة والرجوع إليها - منه قولهم: عادَ فلانٌ في حافرتِهِ، أي في طريقته.

ومنه قوله تعالى: "إِنَّا لَمَرْدُودُونَ فِي الْحَافِرَةِ". ومنه: رجع فلان على قَرَوَائِهِ. ومنه الحديث: لا تَرْجِعْ هذه الأمة عن قَرَوَائِهَا.

اشتغال الرجل بما يعنيه - منه: كلُّ امرئٍ في شأنِهِ ساعٍ. وقولهم: هَمُّكَ ما هَمُّكَ. همك ما أذأبك. وقولهم: ولي حارها من تَوَلَّى قارها.

قلة الاكثراث - منه قولهم: ما أباليه بالة. وسئل ابن عباس عن الوضوء من اللبن، فقال: ما أباليه بالة. وقولهم: اسْمَحْ يُسْمَحْ لك. وقولهم: الكلابُ على البقر. يقول: خلَّ الكلابُ وبقرَ الوحش.

قلة اهتمام الرجل بصاحبه - هان على الأملس ما لاقى الدبر. ما يلقي الشجي من الخلي. قال أبو زيد: الشجي، مخفف، والخلي، مشدد؛ ومنه قول

العامَّة: هان على الصحيح أن يقول للمريض: لا بأس عليك.

الجشع والطمع - منه قولهم

تَقَطَّعَ أَعْنَاقَ الرِّجَالِ المَطامِعُ

ومنه قولهم: غَثُّكَ خيرٌ لك من سَمِينِ غيرِكَ. وقولهم: المسئلة خُموش في وجه صاحبها. وقال أبو الأسود في رجل دنيء: إذا سئِلَ أَرَزَّ وإذا دُعِيَ انتَهَزَ.

ومنه قولُ عَوْنِ بن عبد الله: إذا سألَ أَلْحَفَ وإذا سئِلَ سَوَّفَ.

الشره المطعام - منه قولهم: وَحْمَى ولا حَبَل، أي لا يذكر له شيء إلا اشتهاه، كَشَهْوَةِ الحَبْلِ، وهي الوَحْمَى. ومنه: المرءُ تَوَاق إلى ما لم يَنَل. وقولهم:

يَبْعَثُ الكلابُ عن مَرابضها، أي يَطْرُدُها طَمَعاً أن يَجِدَ شيئاً يأكله من تَحْتِها. ومنه قولهم: أراد أن يأكل بيدين. ومنه الحديث المرفوع: الرَّغْبَةُ شُومٌ.

الغلط في القياس - منه قولهم: ليس قَطاً مثل قُطِي. وقال ابن الأُسْتَلْت:

ليس قَطاً مثل قُطِي ولا ال

ومنه قولهم: مُذَكِّيَّةٌ تقاس بالجداع. يُضْرَبُ لمن يقيس الكبير بالصغير. والمُذَكِّيَّةُ، هي المُسِنَّةُ من الخيل.

وضع الشيء في غير موضعه - منه: كُمُسْتَبْضِعُ التَّمْرِ إلى هَجَرَ. وهجر: معدن التمر. قال الشاعر:

مَرَعِيُّ فِي الأَقْوَامِ كالرَّاعِي

فإننا وَمَنْ يَهْدِي القَصائِدَ نَحُونَا

ومنه قولهم: كَمُعَلِّمةٌ أمها الرضاع. ومنه الحديث المرفوع: رُبُّ حَامِلٍ فَفَهْ إلى مَنْ هو أفقه منه. وفيمن وضع الشيء في غير موضعه "قولهم": ظَلَمَ مَنْ

اسْتَرعى الذئبَ العَنَمَ. وقال ابن هرمة:

وملحفة بيضٍ أُخْرَى جَنَاحًا

كتاركةٍ يبيضها بالعرَاء

يصف النعامة التي تحصن بيضَ غيرها وتُضيع بيضَها.

كفران النعمة - منه: سَمَنَ كلبك يأكلك. أحشك وتروثني! قاله في مخاطبة فرسه، أي أعلفك الحشيش وتروث علي؟ ومنه قول الآخر:

أعلمه الرماية كل يوم فلما اشتد ساعده رماني

التدبير - منه قولهم: لا ماءك أبقيت ولا درنك أنقيت. وقولهم: لا أبوك نُشِر ولا التراب نَفِد. أصل هذا المثل لرجل قال: ليتني أعرف قبر أبي حتى آخذ من ثرابه على رأسي.

التهمة - منه قولهم: عسى الغوير أبوساً. والأبوس: جمع بأس. قال ابن الكلبي: الغوير: ماء معروف للكلب. وهذا مثل تكلمت به الزباء، وذلك أنها وجهت قصيراً اللخمي بالعبير ليحلب لها من بز العراق، وكان يطلبها بدم جذبة الأبرش، فجعل الأحمال صناديق، وجعل في كل صندوق رجلاً معه السلاح، ثم تنكب بهم الطريق وأخذ على الغوير، فسألت عن خبره فأخبرت بذلك، فقالت: عسى الغوير أبوساً. تقول: عسى أن يأتي الغوير بشر، واستنكرت أخذه على غير الطريق. ومنه: سقطت به النصيحة على الظنة، أي نصحتة فاهمك. ومنه: لا تنقش الشوكة بمثلها "فإن ضلعتها معها". يقول: لا تستعن في حاجتك بمن هو ومنه:

إذا غاب منها كوكب لآح كوكب

وقولهم: رأس برأس وزيادة خمسمائة. قالها الفرزدق في رجل كان في جيش، فقال "صاحب الجيش": من جاء برأس فله للمطلوب منه الحاجة أنصح "منه لك".

تأخير الشيء وقت الحاجة إليه - منه: لا عطر بعد عروس. وأصل هذا أن عروساً أهدت فوجدها الرجل ففلة، فقال لها: أين الطيب؟ قالت: ادخرته؛ قال: لا عطر بعد عروس. وقولهم: لا بقاء للحميّة بعد الحرمة. يقول: إنما يحمي الإنسان حرمة فإذا ذهبت فلا حمية له. الإساءة قبل الإحسان - منه: يسبق درته غراؤه. الغرار: قلة اللبن. والدرّة: كثرته. ويسبق سيله مطره. البخل - ما عنده خير ولا مير سواء هو والعدم. والعدم والغدم لغتان. ما بض حجره. والبض: أقل السيالان. ما تبل إحدى يديه الأخرى. الجبن -

إن الجبان حتفه من فوقه .

"ومثله" في القرآن: "يَحْسِبُونَ كُلَّ صَيْحَةٍ عَلَيْهِمْ". ومنه: كل أزب نفور. وقَفَّ شعره، واقشعرت ذؤابته. معناه: قام شعره من الفزع. وشرق بريقه. الجبان يتواعد بما لا يفعل - الصدق يُبني عنك لا الوعيد. يُبني "عنك": يدفع عنك، من يَنبُو. ومنه: أوسعتهم شتماً وأودوا بالإبل. وقيل لأعرابيٍ خاصم امرأته إلى السلطان "فقليل له: ما صنعت معها؟" قال: كَبَّها اللهُ لوجهها ولو أمر بي إلى السجن. الاستغناء بالحاضر عن الغائب - قولهم: إن ذهب عيرٌ فعيرٌ في الرباط. خمسمائة درهم. فبرز رجل وقتل رجلاً من العدو، فأعطاه خمسمائة درهم، ثم برز ثانية، فقتل، فبكى عليه أهله، فقال لهم الفرزدق: أما ترضون رأساً برأس وزيادة خمسمائة؟ المقادير - منه قولهم: المقادير تُريك ما لا يخطر ببالك. وقولهم: إذا نزل القدر غشى البصر. وإذا نزل الحين غطى العين. ولا يُعنى حذر من قدر. ومن مأمته يُوتى الحذر. وقولهم: وكيف توقي ظهر ما أنت راكبه.

الرجل يأتي إلى حتفه - منه قولهم: أتتك بجائنٍ رجلاه. لا تكن كالباحث عن المدينة. وقولهم: حتفها تحمل ضاناً بأطلاها. ما يقال للجان على نفسه - يداك أوكتنا وفوك نفع. وأصله أن رجلاً نفع زقاً وركبه في النهر، فأنحل الوكاء وخرجت الريح وغرق الرجل، فاستغاث بأعرابي على ضفة النهر فقال: يداك أوكتنا وفوك نفع.

جالب الحين إلى أهله - منه قولهم: دلت على أهلها رقاش، ورقاش، كلبة لحي من العرب مرَّ بهم جيش ليلاً ولم ينتهبوا لهم، فنبحت رقاش فدلَّت عليهم. وقالوا: كانت عليهم كراغية البكر. يعنون ناقة ثمود. وقال الأخطل:

ضفادع في ظلّماء ليل تجاوبت

تصرف الدهر - منه قولهم: مرّة عيش ومرّة جيش. ومنه: اليوم خمّر وغداً أمر قاله امرؤ القيس أو مهلهل أخو كليب لما أتاه موت أخيه وهو يشرب. وقالوا: عيش رجياً ترى عجباً. وقالوا: أتى الأبد على لُبد. وقال الشاعر:

فيوم علينا ويوم لنا

وقولهم: من يجتمع تتفقع عُمده. وأنشد:

ويوماً نساء ويوماً نسر

ومن يك رهناً للحوادث يعلّق

أجارتنا من يجتمع ينفرق

الأمر الشديد المعضل - منه قولهم: أظلم عليه يومه. وأين يضع المخنوق يده؟ ومنه "قولهم": لو كان ذا حيلة لتحوّل. ومنه قولهم: رأى الكوكب ظهراً. قال طرفة: وثريه النجم يجري بالظهور هلاك القوم - منه قولهم: طارت بهم العنقاء. وطارت بهم عقاب ملاح. يُقال ذلك في الواحد والجمع، وأحسبها معدولة عن مِيلع. والمنايا على الحوايا. قال أبو عُبيد: يقال: إن الحوايا في هذا الموضع مرّكب من مراكب النساء، واحدها حويّة، وأحسب أصلها أن قوماً قتلوا فحُمِلوا على الحوايا، "فطنّ الراؤون أن فيها نساء، فلما كشفوا عنها أبصروا القتلَى فقالوا ذلك"، فصارت مثلاً. ومنه: أتتهم الدهيم ترمي بالرصف. معناه: الداهية العظيمة. وهذا أمر لا يُنادى وليده، معناه أن الأمر اشتدّ حتى ذهلت المرأة أن تدعو وليدها. ومنه: التقت حلقتنا البطان، وبلغ السيل الزبي، وجاوز الحزام الطيبين. وتقول العامة: بلغ السكين العظم. إصلاح ما لا صلاح له - منه قولهم: كدابة وقد حلّم الأديم حلّم: فسد. وكتب الوليد بن عُقبه إلى معاوية بهذا البيت:

كدابغة وقد حلّم الأديم

فإنك والكتاب إلى عليّ

في شعر له.

صفة العدو - يقال في العدو: هو أزرَق العين، وإن لم يكن أزرَق، وهو أسود الكبد، وأصهب السبال. البخيل يعتل بالعسر - منه قولهم: قبل البكاء كان وجهك عابساً. ومنه: قبل التفاس كنت مُصْفرة. اغتنام ما يعطى البخيل وإن قل - منه: خذ من الرضفة ما عليها. وخذ من جدع ما أعطاك. قال ابن الكلبي: وأصل هذا المثل أن غسان كانت تُؤدّي إلى ملوك سَلِيح دينارين كل سنة عن كل رجل، وكان الذي بلى ذلك سَبطة بن المنذر السليحي، فجاء سَبطة إلى جدع بن عمرو الغساني يسأله الدينارين، فدخل جدع منزله، واشتمل على سيفه، ثم خرج فضرب به سَبطة حتى سكت، ثم قال له خذ من جدع ما أعطاك، فامتنعت غسان من الدينارين بعد ذلك، وصار الملك لها حتى أتى الإسلام. البخيل يمنع غيره ويوجد على نفسه - منه قولهم: سَمْنُكم "هريق" في أديمكم. ومنه؛ يا مُهدِي المال كُل ما أهديت. ومنه قول العامة: الحمار جَلبه والحمار أكله.

موت البخيل وماله وافر - منه مات فلان عريض البطان. ومات بيطنته لم يتعضعض منها شيء. والتعضعض: النقصان.

البخيل يعطي مرة - منه قولهم: ما كانت عطيتّه إلا بيضة العُقر، وهي بيضة الديك. قال الزُّبيري: الديك ربّما باض بيضة، وأنشد لبشار:

ثني ولا تجعليها بيضة الديك

قد زرتني زورة في الدهر واحدة

ومنه قول الشاعر:

فالكوكبُ النّحس يَسقي الأرض أحياناً

لا تعجبن لخير زلّ من يده

ومنه قولهم: من الخواطي سَهْم صائب. والليل طويل وأنت مُقَمَّر. وأصل هذا "أن سليلك بن سُلَكة كان نائماً مُشتملاً، فحتم رجل على صدره، وقال له: استأسر؛ فقال له: الليل طويل وأنت مُقَمَّر؛ "ثم قال له: استأسر" يا حبيث؛ فضمّه ضمّة ضَرَط منها، فقال له: أضرطاً وأنت الأعلى، فذهبت أيضاً.

طلب الحاجة المتعذرة - منه قولهم: تسألني برامتين سلجماً. وأصله أن امرأة تشهت على زوجها سلجماً، وهو ببلد قفر، فقال هذه المقالة. والسلج: اللفت.

ومنه؛ شرُّ ما رام امرؤ ما لم ينل. ومنه: السائل فوق حقه مُستحق الحرمان. ومنه قولهم:

إنك إن كلفتي ما لم أطق

سأءك ما سرَّك مني من خلق

الرضا بالبعض دون الكل - منه: قد يركب الصعب من لا ذلول له. وقولهم: خذ من جدع ما أعطاك. وقولهم: خذ ما طف لك، أي ارض بما أمكنك. ومنه قولهم: زوج من عود خير من قعود. وقولهم: ليس الرِّي "عن" التشاف، أي ليس يروى الشاربُ بشرب الشفافة كلها، وهي بقية الماء في الإناء. ولكنه يروى قبل بلوغ ذلك. وقولهم: لم يُحرِّم من فُصد له. ومعناه: أنهم كانوا إذا لم يقدرُوا على قرى الضيف فصدوا له بعيراً وعالجوا دمه بشيء حتى يمكن أن يأكله. ومنه قول العامة: إذا لم يكن شحم فنفس. أصل هذا أن امرأة لبست ثياباً، ثم مَشَت وأظهرت البُهر في مشيتها بارتفاع نفْسها، فلقيها رجل، فقال لها: إني أعرفك مهزولة، فمن أين هذا النفس؟ قالت: إن لم يكن شحم فنفس. وقال ابن هانئ:

قال لي ترضى بوعد كاذب

قلت إن لم يك شحم فنفس!

التنوق في الحاجة - منه قولهم: فعلت فيها فعل من طب لمن أحب. ومنه قولهم: جاء تَضِبُّ لثاته على الحاجة، معناه لشدة حرصه عليها. وقال بشر بن أبي حازم: خيلاً تَضِبُّ لثاتها للمعتم استتمام الحاجة - أتبع الفرس لجامها؛ يريد أنك قد جدت بالفرس، واللجام أيسر خطباً فأتم الحاجة. ومنه: تمام الربيع الصيف، وأصله في المطر، فالربيع أوله والصيف آخره. المصانعة في الحاجة - من يطلب الحسنة يُعط مهراً. وقولهم: المصانعة تُيسر الحاجة. ومن اشترى فقد اشتوى. يقول: من اشترى لحماً فقد أكل شواء. تعجيل الحاجة - قولهم: السراح من النجاح. النفس مولة بحب العاجل. الحاجة تمكن من وجهين - منه قولهم: كلا جانبي هرشي لمن طريق. هرشي: عقبة. ومنه: هو على حبل ذراعك، أي لا يخالفك.

من منع حاجة فطلب أخرى - منه قولهم: إلامه فلاده. قال ابن الكلبي: معناه أن كاهناً تقاضى إليه رجلان من العرب: فقالا: أخبرنا في أي شيء جئناك؟ قال: في كذا وكذا؛ قالا: إلامه، أي انظر غير هذا النظر. قال: إلامه فلاده، "ثم أخبرهما بما". قال الأصمعي: معناه إن لم يكن هذا الآن فلا يكون بعد الآن.

الحاجة يحول دونها حائل - منه قولهم: قد علقت دلوك دلو أخرى. وقولهم: الأمر يُحدثُ دونه الأمر. وقولهم: أخلف رُويعياً مطنه. وأصله أن راعياً اعتاد مكاناً فجاءه يرعاه، فوجده قد تعير وحال عن عهده. ومنه قولهم سدَّ ابن بيض الطريق سداً. وابن بيض: رجل عقر ناقة في رأس ثنية فسد بها الطريق.

الياس والخيبة - منه قولهم: جاء بخفي حنين. وقد فسرناه في الكتاب الذي قبل هذا. ومنه: أطال الغيبة وجاء بالخيبة. ونظير هذا قولهم: سكت ألفاً ونطق خلفاً، أي أطال السكوت وتكلم بالقبيح، وهذا المثل يقع في باب العي، وله ها هنا وجه أيضاً. وقال الشاعر:

ومازلت أقطع عرض البلاد

من المشرقين إلى المغربين

وأدرغ الخوف تحت الدجى

وأستصحب الجدى والفرقدين

وأطوى وأنشُرُ ثوب الهُموم

إلى أن رجعت بخفي حنين

طلب الحاجة في غير موضعها - قالوا: لم أجد لشفرتي محزاً. وقولهم: كدمت غير مكدم. وقولهم: نفخت لو تنفخ في فحم. وقالت العامة: يضرب في حديد بارد.

طلب الحاجة بعد فواتها - منه قولهم: لا تطلب أثراً بعد عين. وقولهم: "في" الصيف ضيعت اللبن. معناه أن الرجل إذا لم يُطرق ماشيته في الصيف كان مُضيعةً "ألبانها عند الحاجة".

الرضا من الحاجة بتركها - منه قولهم: نجا برأسه فقد ربح. وقولهم: رَضِيتُ من الغنِمة بالإياب وقول العامة: الهزيمة مع السلامة غنِمة. وقال امرؤ القيس:

وقد طوّفتُ في الأفاقِ حتّى

رَضِيتُ من الغنِمة بالإيابِ

وقال آخر:

الليلُ داجٌ والكباشُ تَنطَحُ

فمن نجا برأسه فقد ربح

من طلب الزيادة فانتقص - منه: كطالب القرن جُدعتُ أذنه. وقولهم: كطالب الصيّد في عريسة الأسد. وقولهم: سَقَطَ العشاءُ بها على سِرْحان. يريد دابة خَرَجَتْ تطلب العشاء فصادفت ذبّاً. ونظير هذا من قولنا:

طلبتُ بك التكثرُ فازددتُ قلةً

وقد يخسر الإنسان في طلب الربح

الرجل يخلو بحاجته - منه قولهم: خلا لك الجوُّ فيبضى واصفري ومنه: "رَمِي" برَسَنك على غاربك. وهذا المثلُ قالته عائشة لابن أخت ميمونة زوج النبي صلى الله عليه وسلم: ذهب والله ميمونة ورُمي برَسَنك على غاربك.

ارسالك في الحاجة من تتق به - أرسل حكيماً ولا توصه. وقولهم: الحريص يصيد لك لا الجواد. يقول: إن الذي له هوى وحرص على حاجتك هو الذي يُقوم بها لا القوي عليها ولا هوى له فيها. ومنه قولهم: لا يُرحلن رحلك من ليس معك. ومنه في "هذا" المعنى: الحاجة يجعلها نُصَبَ عينيه، ويحملها بين أذنه وعاتقه، ولم يجعلها بظَهْر.

قضاء الحاجة قبل السؤال - لا تسأل الصارخ وانظر ماله. يريد لم يأتك مُستصرخاً إلا من دُعر. أصابه فأغته قبل أن يسألك. ومنه كفي برُغائها منادياً. ومنه: يُخبر عن مجهوله "معلومه". وقولهم: في عينه فراره. يعنون في نظرك إلى الفرس ما يُعنيك عن فراره.

الانصراف بحاجة تامة مقضية - جاء فلان ثانياً من عنانه. فإن جاء بغير قضاء حاجته، قالوا: جاء يضربُ أُصدريه، أي عطفه. وجاء وقد لفظ لِحامه. وجاء سهلاً. فإن جاء بعد شدة قيل: جاء بعد ألتيا والتي. وجاء بعد الهياط والمياط.

تجديد الحزن بعد أن يبلى - منه قولهم: حرّك لها حوارها تحن. وهذا المثلُ يروى عن عمرو بن العاص أنه قال لمعاوية حين أراد أن يستنصر أهل الشام: أخرج إليهم قميص عثمان رضوان الله عليه الذي قتل فيه. ففعل ذلك معاوية، فأقبلوا يئكون، فعندها قال عمرو: حرّك لها حوارها تحن.

جامع أمثال الظلم - منه قولهم: الظلم مرتعه وخيم. وفي الحديث: الظلم ظلمات يوم القيامة. ومنه: فإنك لا تجنى من الشوك العنب. وقولهم: الحربُ غشوم.

الظلم من نوعين - منه: أحشفاً وسوء كيلة. ومنه: أغدّة كعدّة البعير وموت في بيت سلوئية. وهذا المثل لعامر بن الطفيل حين أصابه الطاعون في انصرافه عن النبي صلى الله عليه وسلم، فلجأ إلى امرأة من سلول فهلك عندها. ومنه: أغيرة وجبناً. قالته امرأة من العرب لزوجها تُعيّره حين تخلّف عن عدوه في منزله، وراها تنظر إلى قتال الناس فضرّهما. فقالت: أغيرة وجبناً. وقولهم: أكسفاً وإمساكاً. أصله الرجل يلقاك بعبوس وكلوح مع يُخل ومنع. وقولهم: ياعبري مقبلة، يا سهري مديرة. يُضرب للأمر الذي يكره من وجهين. ومنه قول العامة: كالمستغيث من الرّمضاء بالنار وقولهم: للموت نزع والموت بدر. وقولهم: كالأشقر إن تقدّم نحر، وإن تأخر عُقر. وقولهم: كالأرقم إن يُقتل يُنقم، وإن يُترك يُلقم. يقول: إن قتلته كان له من ينتقم منك، وإن تركته قتلك. ومنه: هو بين حاذف وقاذف. الحاذف: الضارب بالعصا. والقاذف: الرامي بالحجر.

من يزداد غماً على غم - منه قولهم: ضُغْتُ على إبالة. الضُغْتُ: الحزمة الصغيرة من الحطب. والإبالة: الكبيرة. "ومنه قولهم: كفتُ إلى وثية. الكفتُ: القدرُ الصغيرة. والوثية: القدرُ الكبيرة. يُضرب للرجل يحمل البلية الكبيرة ثم يزيد إليها أخرى صغيرة" ومنه قولهم: وقَعوا في أم جُنْدب. إذا ظلّموا.

المغبون في تجارته - منه قولهم: صَفَقَ لم يشهدّها حاطب. وأصله أن بعض أهل حاطب باع بيعةً غبن فيها. ومنه قولهم: أعطاه اللفاء غير الوفاء. سرعة الملامة - منه: ليس من العدل سرعة العدل. ومنه رُبّ ملوم لا ذنب له. وقولهم: الشّعيرُ يُؤكل ويُذم. وقول العامة: أكلاً وذماً. وقول الحجاج:

قُبِحَ وَاللَّهُ مِنَ الْحَسَنِ الْكَرِيمِ يَهْتَضِمُهُ اللَّيْمُ - لَوْ ذَاتُ سِوَارٍ لَطَمْتَنِي. وَمِنْهُ: ذَلَّ لَوْ أُجِدَ نَاصِرًا.

الانتصار من الظالم - هذه بتلك والبادي أظلم. ومنه: مَنْ لَمْ يَدُدْ عَنِ حَوْضِهِ يَهْدَمْ.

الظلم ترجع عاقبته على صاحبه - قالوا: مَنْ حَفَرَ مُغْوَاةً وَقَعَ فِيهَا. وَالْمُغْوَاةُ: الْبُئْرُ تُحْفَرُ لِلذَّنَابِ، وَيُجْعَلُ فِيهَا حِدْيٌ فَيَسْقُطُ الذَّنْبُ فِيهَا لِيَصِيدَهُ فَيُصَادُ. وَمِنْهُ: يَعْدُو عَلَى كُلِّ أَمْرٍ مَا يَأْتُرُ. وَمِنْهُ: عَادَ الرَّمِيُّ عَلَى النَّزَعَةِ. وَهِيَ الرَّمَاةُ يَرْجِعُ عَلَيْهِمْ رَمِيَهُمْ. وَتَقُولُ الْعَامَّةُ: كَالْبَاحِثِ عَنِ مُدْيَةِ. وَمِنْهُ قَوْلُهُمْ: رُمِيَ بِحَجَرِهِ، وَقُتِلَ بِسِلَاحِهِ.

المضطر إلى القتال - مَكْرَهُ أَحْوَكُ لَا بَطْلَ.

قَدْ يَحْمِلُ الْعَيْرَ مِنْ ذَعْرٍ عَلَى الْأَسَدِ الْمَآخُودِ بِذَنْبٍ غَيْرِهِ - جَانِيكَ مَنْ يَجْنِي عَلَيْكَ. وَمِنْهُ: "كَذِبِي الْعُرَّ يُكْوِي غَيْرُهُ وَهُوَ رَاتِعٌ وَمِنْهُ: كَالثَّوْرِ يُضْرَبُ لَمَّا عَافَتْ الْبَقْرَ يَعْنِي عَافَتْ الْمَاءَ. وَقَالَ أَنَسُ بْنُ مَدْرِكٍ:

كَالثَّوْرِ يُضْرَبُ لَمَّا عَافَتْ الْبَقْرُ

إِنِّي وَقَتْلِي سَلِيكًا ثُمَّ أَعَقَلُهُ

يعني ثور الماء، وهو الطحلب؟ يقال: ثار الطحلب ثوراً وثوراناً.

ومنه قولهم: كلُّ شاةٍ برجلها تُناط. يُريد: لَا يُؤْخَذُ رَجُلٌ بِغَيْرِ ذَنْبِهِ.

المتبرئ من الشيء - ما هو من ليلي ولا سمره. ما هو من بزّي ولا من عطري. مالي فيه ناقة ولا حمل. ومنه قولهم: بَرِئْتُ مِنْهُ إِلَى اللَّهِ. وَمِنْهُ: لَسْتُ مِنْكَ وَلَسْتُ مِنِّي. وَمَا أَنَا مِنْ دَدٍ وَلَا دَدٌ مِنِّي.

سوء معاشرته الناس - قالوا: النَّاسُ شَجَرَةٌ بَعِيٌّ. لَا سَبِيلَ إِلَى السَّلَامَةِ مِنْ أَلْسِنَةِ الْعَامَةِ. وَقَوْلُهُمْ: رَضِيَ النَّاسُ غَايَةً لَا تَدْرِكُ. وَمِنْهُ الْحَدِيثُ الْمَرْفُوعُ: النَّاسُ كَأَيْلٍ مَائَةٍ لَا تَكَادُ تَجِدُ فِيهَا رَاحِلَةً "وَاحِدَةً". وَمِنْهُ قَوْلُهُمْ: النَّاسُ يُعَيِّرُونَ وَلَا يُعْفَرُونَ وَاللَّهُ يَغْفِرُ وَلَا يُعَيِّرُ.

وقال مالكُ بن دينار: مَنْ عَرَفَ نَفْسَهُ لَمْ يَضِرْهُ قَوْلُ النَّاسِ فِيهِ. وَقَوْلُ أَبِي الدَّرْدَاءِ: إِنَّ قَارِضَتَ النَّاسِ قَارِضُوكَ، إِنَّ تَرَكَتَهُمْ لَمْ يَزْكُوكَ.

الجبان وما يذم من أخلاقه - مِنْهُ قَوْلُهُمْ: إِنَّ الْجَبَانَ حَتَفَهُ مِنْ فَوْقِهِ. وَهُوَ مِنْ قَوْلِ عَمْرٍو بْنِ أَمَامَةَ:

إِنَّ الْجَبَانَ حَتَفَهُ مِنْ فَوْقِهِ

لَقَدْ وَجَدْتُ الْمَوْتَ قَبْلَ ذَوْقِهِ

قال أبو عبيد: أَحْسَبُهُ أَرَادَ "أَنْ" حَذَرَهُ وَتَوَقَّيْهِ لَيْسَ بِدَافِعٍ عَنْهُ الْمَنِيَّةُ. "قَالَ أَبُو عَمْرٍو": وَهَذَا غَلَطٌ مِنْ أَبِي عُبَيْدٍ عِنْدِي، وَالْمَعْنَى فِيهِ أَنَّهُ وَصَفَ نَفْسَهُ بِالْجُبْنِ، وَأَنَّهُ وَجَدَ الْمَوْتَ قَبْلَ أَنْ يَذُوقَهُ، وَهَذَا مِنَ الْجُبْنِ، ثُمَّ قَالَ: إِنَّ الْجَبَانَ حَتَفَهُ مِنْ فَوْقِهِ، يُرِيدُ أَنَّهُ نَظَرَ إِلَى مَنِيَّتِهِ كَأَنَّمَا تَحْوِمُ عَلَى رَأْسِهِ، كَمَا قَالَ اللَّهُ تَبَارَكَ وَتَعَالَى فِي الْمَنَافِقِينَ "إِذْ وَصَفَهُمْ بِالْجُبْنِ": "يَحْسَبُونَ كُلَّ صَيِّحَةٍ عَلَيْهِمْ هُمُ الْعُدُو". وَكَمَا قَالَ جَرِيرٌ لِلْأَخْطَلِ يُعَيِّرُهُ "إِقْبَاعَ قَيْسٍ بِهِم":

شَعْنًا عَوَابِسَ تَحْمِلُ الْأَبْطَالَ

حَمَلْتُ عَلَيْكَ رِجَالَ قَيْسٍ خَيْلَهَا

خِيَلًا تَكَرُّ عَلَيْكُمْ وَرِجَالًا

مَازَلْتُ تَحْسِبُ كُلَّ شَيْءٍ بَعْدَهُمْ

ولو كان الأمر كما ذهب إليه أبو عبيد ما كان معناه يدخل في هذا الباب، لأنه باب الجبان وما يُذم من أخلاقه، وليس أخذ الحذر من الجبن في شيء، لأن أخذ الحذر محمود، وقد أمر الله تعالى به فقال: "خُذُوا حِذْرَكُمْ"، والجبن مذموم من كل وجه. ومنه الشعر تمثل به سعد بن معاذ يوم الخندق:

مَا أَحْسَنَ الْمَوْتَ إِذَا حَانَ الْأَجَلُ

لَبِثْتُ قَلِيلًا يُدْرِكُ الْهَيْجَا حَمَلٌ

ومنه قولهم: كُلُّ أَرْبٍ نَفُورٌ، وَإِنَّمَا يُقَالُ فِي الْأَرْبِ مِنَ الْإِبِلِ لِكثْرَةِ شَرِّهِ، وَيَكُونُ ذَلِكَ فِي عَيْنَيْهِ، فَكَلَّمَا رَأَاهُ ظَنَّ أَنَّهُ شَخْصٌ "يَطْلُبُهُ" فَيَنْفِرُ مِنْ أَجْلِهِ. وَمِنْهُ قَوْلُهُمْ: بَصِصُنْ إِذْ حُدِينِ بِالْأَذْنَابِ. وَمِنْهُ قَوْلُهُمْ: دَرَدَبٌ لَمَّا عَصَّه الثَّقَافُ وَقَوْلُهُمْ: حَالُ الْجَرِيضِ دُونَ الْقَرِيضِ. وَهَذَا الْمَثَلُ لِعَبِيدِ بْنِ الْأَبْرَصِ قَالَهُ لِلنَّعْمَانِ بْنِ الْمُنْذَرِ بْنِ مَاءِ السَّمَاءِ حِينَ أَرَادَ قَتْلَهُ، فَقَالَ لَهُ: أَتَشِدُّنِي شِعْرَكَ: أَقْفَرُ مِنْ أَهْلِهِ مَلْحُوبٌ فَقَالَ عَبِيدٌ: حَالُ الْجَرِيضِ دُونَ الْقَرِيضِ. وَمِنْهُ: قَفَّ شَعْرَهُ، وَاقْشَعَرَتْ ذُؤَابَتُهُ. "مَعْنَاهُ: قَامَ شَعْرُهُ" مِنَ الْفَرَعِ.

إفلات الجبان بعد اشفائه - مِنْهُ قَوْلُهُمْ: أَفَلْتُ وَأَنْحَصَ الذَّنْبَ، وَمِنْهُ: أَفَلْتُ وَلَهُ حُصَاصٌ. وَيُرْوَى فِي الْحَدِيثِ: إِنَّ الشَّيْطَانَ إِذَا سَمِعَ الْأَذَانَ أَذْبَرَ وَلَهُ

حُصَّاص. ومنه: أفلتني جُرَيْعَةُ الذَّقْنِ، إذا كان منه قَرِيْباً كَقُرْبِ الجِرْعَةِ من الذَّقْنِ، ثم أفلته. ومنه قول العامة: إن يُفَلت العَيْرُ فقد ذَرَق. وقولهم: أفلتني وقد بَلَ النَيْفُ، الذي تُسَمِّيهِ العامة النَيْفُ الجبان يتهدد غيره- منه قولهم: جاء فلان يَنْفُض مِذْرَوِيَه، أي يتوعَّد ويتهدَّد. والمِذْرَوَان: فَرَعَا الأليتين. ولا يكاد يُقال هذا إلا لمن يتهدد بلا حقيقة. ومنه: أْبْرُق لمن لا يَعْرِفك. وأقصد بذَرْعك. ولا تَبُق إلا على نفسك.

تصرف الدهر - منه: مَنْ يَجْتَمع تَتَقَعَّع عُمُدُه: أي إن الاجتماع داعية الافتراق. ومنه: كل ذات بَعْل سَتِّيم. ومنه البيت السائر:

لَعَمْرُ أَيْبِكَ إِلَّا الفَرْقَدَانِ

وكل أخ مفارقه أخوه

ومنه: لم يُفْت مَنْ لم يَمُت.

الاستدلال بالنظر على الضمير - منه قولهم: شاهد البُعْض اللَّحْظ. وجَلَّى محبُّ نَظَرَه. قال زُهَيْر:

تخبرك العيون عن القلوب

فإن تك في صديق أو عدو

وقال ابن أبي حازم:

ومن الدهر ما صفًا

خذ من العيش ما كفي

لك تُبدي لك الجفا

عين من لا يحب وصًا

نفى المال عن الرجل - منه قولهم: ما له سَعْنَةٌ ولا مَعْنَةٌ. معناه: لا شيء له.

ومنه: ما له هَلْعٌ ولا هَلْعَةٌ، وهما الجُدْيُ والعَنَاق. ومنه: ما له هارب ولا قارب. معناه: ليس أحد يهْرُب منه، ولا أحد يقرب إليه، فليس له شيء. وقولهم: ما له عَافِظَةٌ ولا نَافِظَةٌ، وهما الصَّائِنَةُ والمَاعِزَةُ. وما به نَبْضٌ ولا حَبْضٌ. قال الأصمعي: النَّبْضُ: التحرك، ولا أعرف الحَبْضُ. وقال غيره: النَّبْضُ والحَبْضُ في الوتر، فَالنَّبْضُ: تحرك الوتر، والحَبْضُ: صوته. وقال: والنَّيْلُ يَهْوِي نَبْضًا وحَبْضًا ومنه قولهم: ما له سَبَدٌ ولا لَبَدٌ، هما الشعر والصفوف. ولم يَعْرِف الأصمعي السَّعْنَةَ والمَعْنَةَ.

إذا لم يكن في الدار أحد - منه قولهم: ما بالدار شَفْرٌ، ولا بها دُعُوِيٌّ، ولا بها دَبِيٌّ. معناه: ما بها من يدعو من يدب. وما بها من عَرِيبٍ، ولا بها دُورِيٌّ ولا طُورِيٌّ، وما بها وَاِبِرٍ، وما بها صَافِرٍ، وما بها دِيارٍ، وما بها نَافِخٌ ضَرَمَةٌ، وما بها أَرَمٍ. معنى هذا كله: ما بها أحد. ولا يقال منها شيء في الإثبات والإيجاب، وإنما يقولونها في النَّفْيِ والجُحْدِ.

اللقاء وأوقاته - منه: لَقِيْتُ فلانًا أولَ عَيْنٍ، يعني أولَ شيءٍ. وقال أبو زيد: لَقِيْتُهُ أولَ عَائِنَةٍ، ولَقِيْتُهُ أولَ وَهْلَةٍ، ولَقِيْتُهُ أولَ يَدَيْنِ، ولَقِيْتُهُ أولَ صَوَكٍ وأولَ بُوَكٍ. فإن لَقِيْتَهُ فجأةً من غير أن تُرِيده قلت: لَقِيْتَهُ نَقَابًا، ولَقِيْتَهُ التَّقَاطُأً، إذا لَقِيْتَهُ من غير طَلَبٍ. وقال الرازي: ومَنْهَلٌ ووردته التَّقَاطُأً وإن لَقِيْتَهُ مُوَاجِهَةً قلت: لَقِيْتَهُ صِفاحًا، ولَقِيْتَهُ كِفاحًا، ولَقِيْتَهُ كَفَّةً كَفَّةً.

قال أبو زيد: فإن عَرَضَ لك من غير أن تذكره قلت: رُفِعَ لي رِفْعًا، وأَشِبَّ لي إِشْبَابًا. فإن لَقِيْتَهُ وليس بينك وبينه أحدٌ قلت: لَقِيْتَهُ صَحْرَةً بَحْرَةً، وهي غيرُ مُجْرَاةٍ. فإن لَقِيْتَهُ في مكانٍ قَفَرٍ لا أنيسَ به قلت: لَقِيْتَهُ بوحشٍ إِصْمَتَ، غير مُجْرَى أيضاً، ولَقِيْتَهُ بين سَمْعِ الأَرْضِ وبصرها. فإن لَقِيْتَهُ قبل الفجر قلت: لَقِيْتَهُ قبل "كل" صِيحٍ وَنَفْرٍ. النفر: التفرق. وإن لَقِيْتَهُ بالمَاجِرَةَ قلت: لَقِيْتَهُ صَكَّةً عَمِيٌّ "وصَكَّةً أَعْمِيٌّ". قال: رؤبة يصف الفلاة إذ لمعت بالسراب في المَاجِرَةَ:

صَكَّةُ أَعْمِيٍّ زَاخِرٍ قَدْ أَتْرَعَا

شبيهه يم بين عيرين معاً

فإن لَقِيْتَهُ في اليومين والثلاثة قلت: لَقِيْتَهُ في الفَرَطِ، ولا يكون الفَرَطُ في أكثر من خمس عشرة ليلة. فإن لَقِيْتَهُ بعد شهر ونحوه، قلت: لَقِيْتَهُ من عُمْرٍ. فإن لَقِيْتَهُ بعد الحول ونحوه قلت: لَقِيْتَهُ عن هَجْرٍ. فإن لَقِيْتَهُ بعد أعوام قلت: لَقِيْتَهُ ذات العُرَيْمِ. فإن لَقِيْتَهُ في الزمان قلت: لَقِيْتَهُ ذات الرُّمَيْنِ. والغِيبُ في الزيارة: هو الإبطاء فيها. والاعتماد في الزيارة: هو التردد فيها.

في ترك الزيارة - منه قولهم: لا آتيك ما حنَّ النَّيْبُ، وما أطَّت الإبل، وما اختلفت الدَّرَّةُ والجِرَّةُ، وما اختلف المَلْوَانُ، وما اختلف الجديدان. ولا

آتيك الشمس والقمر، وأبد الأبد؛ ويقال: أبد الآبدين، ودهر الدهرين، وحتى يرجع السهم إلى فوقه، وحتى يرجع اللبن في الصرع. ولا آتيك سن الحسل. تفسيره: التيب. جمع ناب، وهي المسنة من الإبل. والدرّة: الحلبّة من اللبن. والجرّة: من اجترار البعير. والملوان والجديدان: الليل والنهار. والحسل: هو ولد الضبّ. يقول: حتى تسقط أسنانه، ولا تسقط أبداً حتى يموت. استجهال الرجل ونفي العلم "عنه" - منه قولهم: ما يعرف الحو من اللو. وما يعرف الحي من اللي، ولا هريراً من غرير، ولا قبيلاً من دبير. وما يعرف أي طرفيه أطول وأكبر. وما "يعرف هراً من بر. أي ما "يعرف من يهره ممن يبره. والقبييل: ما أقبلت به من قتل الحبل. والدبير: ما أدبرت "به" منه. وأي طرفيه أطول: أنسبُ أبيه أم نسب أمه.

أمثال مستعملة في الشعر - قال الأصمعي: لم أحد في شعر شاعر بيتاً أوله مثلٌ وآخره مثلٌ إلا ثلاثة أبيات، منها بيتٌ للحطيئة:

لا يذهب العرف بين الله والناس

من يفعل الخير لا يعدم جوازيه

وبيتان لأمرئ القيس:

ولو أدركته صفر الوطاب

وأفلهنّ علباء جريضا

وبالاشقين ما كان العقاب

وقاهم جدّهم ببني أبيهم

ومثل هذا كثير في القديم والحديث، ولا أدري كيف أغفل القديم منه الأصمعي. فمنه قول طرفة:

ويأتيك بالأخبار من لم تزود

ستبدي لك الأيام ما كنت جاهلاً

وفي هذا مثلان من أشرف الأمثال. ويقال إن رسول الله صلى الله عليه وسلم سمع هذا البيت فقال: إن معناه من كلام النبوة ومن ذلك قول الآخر:

ولا تجود يد إلا بما تجد

ما كلف الله نفساً فوق طاقتها

"ففي الصدر مثل وفي العجز مثل". ومن ذلك قول الحسن بن هانئ:

لست من ليلي ولا سمّره

أيها المنتاب عن عقّره

قد بلوت المرّ من ثمره

لا أدود الطير عن شجر

إنّ العرب تقول: انتاب فلان عن عقّره، أي تباعد عن أصله. لست من ليلي ولا سمّره، مثل ثان. وليس في البيت الثاني إلا مثل واحد. ومن قولنا في بيت أوله مثلٌ وآخره مثل:

وأشرق الصبح لذي العين

وقد صرح الأعداء بالبين

وبعد أبيات في كل بيت منها مثل، وذلك:

شقيق روح بين جسمين

وعاد من أهواه بعد القلا

كساقط بين فراشين

وأصبح الداخل في بيننا

لا يصلح الغمد لسيفين

قد أليس البغضة ذا وذا

يكون أنفاً بذهن عيين

ما بال من ليست له حاجة

ومن قولنا الذي هو أمثال سائرة:

هل من جديد على كر الجديدين

قالوا شبابك قد ولّي فقلت لهم

صِلْ مِنْ هَوِيَّةٍ وَإِنْ أَبَدَى مَعَاتِبَةَ

وَاقْطَعْ حَبَائِلَ خَلِّ لَا تَلَاتِمَهُ

وقلت بعد هذا في المدح:

فَكَرَّرْتُ فِيكَ أَبْحَرَ أَنْتَ أَمْ قَمَرٌ

إِنْ قُلْتُ بَحْرًا وَجَدْتُ الْبَحْرَ مُنْحَسِرًا

أَوْ قُلْتُ بَدْرًا رَأَيْتُ الْبَدْرَ مُنْتَقِصًا

ومن الأمثال التي لم تأت إلا في الشعر أو في قليل من الكلام: من ذلك قول الشاعر:

تَرْجُو النِّجَاةَ وَلَمْ تَسْأَلْكَ مَسَالِكَهَا

"وقال آخر:

مَتَى تَتَّقِضِي حَاجَاتُ مَنْ لَيْسَ صَابِرًا

قيل ولما بلغ حاتمًا قول المُتَلَمِّسِ:

وَأَعْلَمُ عِلْمَ صَدَقٍ غَيْرَ ظَنٍّ

وَحِفْظَ الْمَالِ أَيْسَرُ مِنْ بُغَاةٍ

وَإِصْلَاحَ الْقَلِيلِ يَزِيدُ فِيهِ

قال: قَطَعَ اللهُ لِسَانَهُ! يَحْمِلُ النَّاسَ عَلَى الْبُخْلِ؟ أَلَا قَالَ:

لَا الْجُودُ يَنْقِي الْمَالَ قَبْلَ فَنَائِهِ

فَلَا تَلْتَمِسْ مَالًا بَعِيشَ مُقْتَرٍ

وقال غيره:

إِذَا كُنْتُ لَا أَعْفُو عَنِ الذَّنْبِ مِنْ أَحٍ

فَإِنْ أَقْطَعِ الْإِخْوَانَ فِي كُلِّ عُسْرَةٍ

وَلَكِنِّي أَغْضِي الْجُفُونَ عَلَى الْقَدَى

مَتَى مَا يَرِ بَنِي مِفْصَلٍ فَقَطَعْتُهُ

وَلَكِنْ أَدَاوِيهِ فَإِنْ صَحَّ سَرْنِي

وقال:

يُذَيِّفُونَ لِي سَمًّا وَأَسْقِيهِمُ الْحَيَا

كَأَنِّي سَلَبْتُ الْقَوْمَ نُورَ عُيُونِهِمْ

وَقَدْ كَانَ إِحْسَانِي لَهُمْ غَيْرَ مَرَّةٍ

فَأَطِيبِ الْعَيْشَ وَصِلْ بَيْنَ الْفَيْنِ

فَرَبِّمَا ضَاقَتْ الدُّنْيَا عَلَى اثْنَيْنِ

فَقَدْ تَحَيَّرَ فِكْرِي بَيْنَ هَذَيْنِ

وَبَحْرٍ جُودِكَ مَمْتَدِّ الْعُبَابَيْنِ

فَقُلْتُ شَتَانَ مَا بَيْنَ الْبُدَيْرَيْنِ

إِنَّ السَّفِينَةَ لَا تَجْرِي عَلَى الْبَيْسِ

عَلَى حَاجَةٍ حَتَّى تَكُونَ لَهُ أُخْرَى

لَتَقْوَى اللهُ مِنْ خَيْرِ الْعِتَادِ

وَسَيَّرَ فِي الْبِلَادِ بِغَيْرِ زَادٍ

وَلَا يَبْقَى الْكَثِيرُ مَعَ الْفَسَادِ

وَلَا الْبَخْلُ فِي مَالِ الشَّحِيحِ يَزِيدُ

لِكُلِّ غَدٍّ رِزْقٌ يَعُودُ جَدِيدٌ

وقلت: أَكْفِيهِ فَأَيْنَ التَّقَاضُلُ

بَقِيْتُ وَحِيدًا لَيْسَ لِي مَنْ أَوْصَلَ

وَأَصْفَحُ عَمَّا رَابَنِي وَأَجَامِلُ

بَقِيْتُ وَمَالِي لِلنُّهُوضِ مَفَاصِلُ

وَإِنْ هُوَ أَعْيَا كَانَ فِيهِ التَّحَامِلُ

وَيَقْرُونََنِي شَرًّا وَشَرِي مُؤَخَّرُ

فَلَا الْعُذْرُ مَقْبُولٌ وَلَا الذَّنْبُ يُغْفَرُ

وَلَكِنْ إِحْسَانِ الْبَغِيضِ مُكْفَرُ

إلا التعرض للحتوف
ت الموت يلمع في الصفوف
أدب ولا حظٍ سخيف
ل من القوي إلى الضعيف

لم يبق من طلب الغنى
فلاقبلن وإن رأي
إني امرؤٌ لم أوت من
لكنه قدرٌ يزو

كتاب الزمردة في المواعظ والزهد

قال أحمد بن محمد بن عبد ربه: قد مضى قولنا في الأمثال، وما تَفَنَّنُوا فيه على كلِّ لسان، ومع كلِّ زمان، ونحن نبدأ بعون الله وتوفيقه، بالقول في الزهد ورجاله المشهورين به، ونذكر المُتَّحِلَّ من كلامهم، والمواعظ التي وَعَظَتْ بها الأنبياء، وأسْتَخْلَصَهَا الآباءُ للأبناء، وَجَرَّتْ بين الحكماء والأدباء، ومَقَامَاتِ العِبَادِ بين أيدي الخلفاء. فأبلغ المواعظ كلها كلام الله تعالى الأعزَّ الذي لا يأتيه الباطلُ من بين يديه ولا من خلفه تنزيلٌ من حكيم حميد. قال الله تبارك وتعالى: "ادْعُ إِلَى سَبِيلِ رَبِّكَ بِالْحُكْمَةِ وَالْمَوْعِظَةِ الْحَسَنَةِ" إلى آخر السورة. وقال جل ثناؤه: "كَيْفَ تَكْفُرُونَ بِاللَّهِ وَكُنْتُمْ أَمْوَاتًا فَأَحْيَاكُمْ ثُمَّ يُمَيِّتُكُمْ ثُمَّ يُحْيِيكُمْ ثُمَّ إِلَيْهِ تُرْجَعُونَ" وقال "أَوَلَمْ يَرِ الْإِنْسَانُ أَنَّا خَلَقْنَاهُ مِنْ نُطْفَةٍ فَإِذَا هُوَ خَصِيمٌ مُبِينٌ" إلى قوله: "عَلِيمٌ". فهذه أبلغ الحُجَجِ وَأَحْكَمِ المواعظ.

ثم مواعظُ الأنبياء صلواتُ الله عليهم، ثم مواعظُ الآباءِ للأبناء، ثم مواعظُ الحكماء والأدباء، ثم مَقَامَاتِ العِبَادِ بي أيدي الخلفاء. ثم قولهم في الزهد ورجاله المعروفين، ثم المشهورين من المنتسبين إليه. والموعظةُ ثقيلةٌ على السمع، مُحَرِّجةٌ على النفس، بعيدةٌ من القبول، لاعتراضها الشهوة، ومُضَادَّةٌ لها، الذي هو ربيع القلب، ومراد الروح، ومرجع اللهو، ومسرح الأمانى، إلا مَنْ وَعَظَهُ عِلْمُهُ، وَأَرْشَدَهُ قَلْبُهُ، وَأَحْكَمَتْهُ تَجْرِبَتُهُ. قال الشاعر:

حتى يرى منها لها واعظ

لَنْ تَرْجِعَ الْأَنْفُسُ عَنْ غِيهَا

وقالت الحكماء: السَّعِيدُ مَنْ وَعَظَ بغيره، لَا يَعْنُونَ مَنْ وَعَظَهُ بغيره، ولكن مَنْ رَأَى العِبْرَةَ فِي بغيره فَاتَّعَظَ بِهَا فِي نَفْسِهِ. ولذلك كان يقول الحَسَنُ: أَقْدَعُوا هذه النفوس فإنها طُلْعَةٌ وحادثوها بالذِّكْرِ، فإنها سريعةُ الدُّثورِ، وأعضوها فإنها إن أُطِيعَتْ نَزَعَتْ إِلَى شَرِّ غَايَةٍ. وكان يقول عند انقضاء مجلسه وحتم موعظته: يا لها من موعظة لو صادفت من القلوب حياةً. وكان ابن السماك يقول إذا فَرَّغَ من كلامه: أَلَسُنُ تَصِفُ، وَقُلُوبٌ تَعْرِفُ، وَأَعْمَالٌ تُخَالِفُ. وقال يونس بن عبيد: لو أَمَرْنَا بِالْجَزَعِ لَصَبَرْنَا. يريد ثَقُلَ الموعظةُ على السَّمْعِ، وَجُنُوحَ النَّفْسِ إِلَى مُخَالَفَتِهَا. ومنه قولهم: أَحَبُّ شَيْءٍ إِلَى الْإِنْسَانِ مَا مُنِعَا وَقَوْلُهُمْ: وَالشَّيْءُ يُرْغَبُ فِيهِ حِينَ يَمْتَنِعُ وَالْمَوْعِظَةُ مَانِعَةٌ لَكَ مِمَّا تَشْتَهِي، حَامِلَةٌ لَكَ عَلَى مَا تَكْرَهُ، إِلَّا أَنْ تَلْقَاهَا بِسَمْعٍ قَدْ فَتَقَّتْهُ العِبْرَةُ، وَقَلْبٍ قَدَحَتْ فِيهِ الفِكْرَةُ، وَنَفْسٍ لَهَا مِنْ عِلْمِهَا زَاجِرٌ، وَمِنْ عَقْلِهَا رَادِعٌ، فَيُفْتَحُ لَكَ بَابُ التَّوْبَةِ، وَيُوضَحُ لَكَ سَبِيلُ الْإِنَابَةِ: قال النبي صلى الله عليه وسلم: حَفَّتِ الجَنَّةُ بِالْمَكَارِهِ، وَخَفَّتِ النَّارُ بِالشَّهَوَاتِ. يريد أن الطريقَ إِلَى الجَنَّةِ احتمالُ المَكَارِهِ فِي الدُّنْيَا، وَالطَّرِيقَ إِلَى النَّارِ رُكُوبُ الشَّهَوَاتِ. وخيرُ الموعظة ما كانت من قائلٍ مخلصٍ إِلَى سامعٍ مُنْصِفٍ. وقال بعضهم: الكَلِمَةُ إِذَا خَرَجَتْ مِنَ القَلْبِ وَقَعَتْ فِي القَلْبِ، وَإِذَا خَرَجَتْ مِنَ اللِّسَانِ لَمْ تُجَاوِزِ الْآذَانَ. وقالوا: مَا أَحْسَنَ التَّاجِ! وَهُوَ عَلَى رَأْسِ المَلِكِ أَحْسَنُ، وَمَا أَحْسَنَ الدُّرُّ! وَهُوَ عَلَى نَحْرِ الفَتَاةِ أَحْسَنُ، وَمَا أَحْسَنَ المَوْعِظَةَ! وَهِيَ مِنَ الفاضلِ التَّقِيِّ أَحْسَنُ وَقَالَ زِيَادٌ: أَيُّهَا النَّاسُ، لَا يَمْتَنِعُكُمْ سُوءُ مَا تَعْلَمُونَ مَتَى أَنْ تَنْتَفِعُوا بِأَحْسَنِ مَا تَسْمَعُونَ مَتَى قَالَ الشَّاعِرُ:

يَنْفَعُكَ قَوْلِي وَلَا يَضُرُّكَ تَقْصِيرِي

اعْمَلْ بِقَوْلِي وَإِنْ قَصَرْتُ فِي عَمَلِي

وقال عبد الله بن عباس. ما انتفعتُ بكلام أحد بعد رسول الله صلى الله عليه وسلم ما انتفعتُ بكلام كُتَيْبِ بْنِ عَلِيٍّ بن أبي طالب رضي الله عنه. كتب إلي: أمَّا بعد، فإن المرءَ يسره إدراكُ ما لم يكن ليفوته، ويسوءه فوته ما لم يكن ليُدْرِكُهُ، فليكن سرورُك بما نلتَ من أمرٍ آخرتِكَ، وليكن أسفُك على ما فاتك منها. وما نلتَ من أمرٍ دُنْيَاكَ فلا تكن به فَرِحًا، وما فاتك منها فلا تأسَ عليه جَزَعًا، وليكن همُّك ما بعد الموت. ووقفَ حكيمٌ ببابِ بعضِ الملوك، فَحُجِبَ فَتَلَطَّفَ بِرُقْعَةٍ أَوْصَلَهَا إِلَيْهِ. وكتب فيها هذا البيت:

وَأَنْ الغِنَى يُخْشَى عَلَيْهِ مِنَ الفَقْرِ

أَلَمْ تَرَ أَنَّ الفَقْرَ يُرْجَى لَهُ الغِنَى

فلما قرأ البيت لم يلبث أن انتعل وجعل لاطئةً على رأسه وخرج في ثوب فضال: فقال له: والله ما اتعظت بشيء بعد القرآن اتعاطي بيتك هذا، ثم قضى حوائجه.

مواظب الأنبياء عليهم السلام

قال أبو بكر أبي شبة، يرفعه إلى النبي صلى الله عليه وسلم قال: يكفي أحدكم من الدنيا قدرُ زادِ الرَّأكبِ. وقال صلى الله عليه وسلم: ابن آدم، اغتَمَّ خَمْسًا قبل خمس: شبَابَكَ قبل هَرَمِكَ، وصِحَّتَكَ قبل سَقَمِكَ، وغِنَاكَ قبل فَقْرِكَ، وفَرَاغَكَ قبل شُغْلِكَ، وحيَاتَكَ قبل مَوْتِكَ. عبد الله بن سلام قال: لما قَدِم علينا رسول الله صلى الله عليه وسلم المدينة أتيتُهُ، فلَمَّا رأيتُ وجهه عَلِمْتُ أَنَّهُ ليس بوجهِ كَذَّابٍ، فسمِعْتُهُ يقول: أيها الناسُ، أطعموا الطعَامَ وأفشوا السلامَ، وصلُّوا والناسُ نيامًا.

وقال عيسى بن مريم عليه السلام: أَلَا أُخْبِرُكُمْ بخيركم مُجالسةً؟ قالوا: بلى يا رُوحَ الله؛ قال: مَنْ تُذَكِّرُكُمْ باللهِ رُؤْيَتُهُ، وَيَزِيدُ فِي عَمَلِكُمْ مِنْطِقَهُ، وَيَشْفِقُكُمْ إِلَى الجَنَّةِ عَمَلُهُ. وقال عيسى بن مريم عليهما السلام للحواريين: ويلكم يا عبيد الدنيا! كيف تُخالف فروغكم أصولكم، وأهواؤكم عقولكم، قولكم شفاءً يرى الداءَ وفعلكم داءٌ لا يقبلُ الدواءَ، لستم كالكرمَةِ التي حَسُنَ ورَقُها، وطابَ ثَمَرُها، وسَهَلُ مُرْتَقاها، ولكنكم كالسَّمرةِ التي قَلَّ ورَقُها، وكثُرَ شوْكها، وصَعِبَ مُرْتقاها. ويلكم يا عبيد الدنيا! جعلتم العملَ تحت أقدامكم، من شاء أخذَه، وجعلتم الدنيا فوق رؤوسكم، لا يمكن تناوُلُها، فلا أنتم عبيدُ نُصحاء، ولا أحرارُ كرام. ويلكم يا أجراءَ السَّوءِ! الأجرُ تأخذون، والعملُ تفسدون، سوف تَلْقَوْنَ ما تحذرون، إذا نظر ربُّ العملِ في عَمَلِهِ الذي أفسدتم، وأجره الذي أخذتم. وقال عليه السلام للحواريين: اتخذوا المساجدَ بيوتًا، والبيوتَ منازلًا، وكُلُّوا بَقَلِ البريةِ، واشربوا الماءَ الفَرَّاحِ، وانجُوا من الدنيا سالمين. وقال عليه السلام للحواريين: لا تنظروا في أعمالِ الناسِ كأنكم أرباب، وانظروا في أعمالكم كأنكم عبيد، فإنما الناسُ رجالان: مُبتَلَى ومُعافى، فارحموا أهلَ البلاءِ، واحمدوا اللهَ على العافية. وقال عليه السلام لهم أيضاً: عجباً لكم تَعْمَلُونَ للدُّنيا، وأنتم تُرزقون فيها بلا عَمَلٍ، ولا تَعْمَلُونَ للآخرةِ وأنتم لا تُرزقون فيها إلا بعمل.

وقال يحيى بن زكريا عليه السلام للمكذِّبين من بني إسرائيل: يا نَسَلَ الأفاعي، من دَلَكُم على الدخولِ في مَسَاحِطِ اللهِ المُوبقةِ لكم، ويلكم! تَقْرَبُوا بِعَمَلٍ صالح، ولا تُعْرَثُكم قرابتكم من إبراهيم "عليه السلام"، فإن الله قادر على أن يَسْتخرج من هذه الجنادلِ نَسلاً لإبراهيم. إن الفأسَ قد وُضِعَتْ في أصولِ الشجر، فأخْلَقَ بكلِّ شَجَرَةٍ مُرَّةَ الطَّعمِ أن تَقْطَعُ وتُلْقَى في النار.

وقال شعيب بن إسرائيل إذ أنطق الله لسانه بالوحي: إن الدابةَ تزداد على كثرةِ الرِّياضةِ لِينًا، وقُلُوبكم لا تزداد على كثرةِ الموعظةِ إلا قَسوَةً، إنَّ الجسدَ إذا صلَحَ كفاه القليلُ من الطَّعامِ، وإنَّ القَلْبَ إذا صلَحَ كفاه القليلُ من الحِكْمَةِ. كم من سِرَّاجٍ قد أطفأته الرِّيحُ، وكم من عابِدٍ قد أفسده العُجْبُ. يا بني إسرائيل، اسمعوا قولِي، فإنَّ قائلَ الحِكْمَةِ وسامعها شريكان، وأولاهما بما مَن حَقَّقها بعمله.

وقال المسيح عليه السلام: إن أولياءَ الله لا خوفٌ عليهم ولا هم يَحْزَنون، الذين نَظَرُوا إلى باطنِ الدُّنيا إذ نَظَرَ الناسُ إلى ظاهرها، وإلى اجلها إذ نَظَرُوا إلى عاجلها، فأماثوا منها ما خَشُوا أن يُميتهم، وتركوا ما علموا أن سَيِّرَهم، هم أعداءُ لما سالم الناسُ، وسَلِمَ لما عادى الناسُ، لهم خيرٌ، وعندهم الخير العجيب، بهم نَطَقَ الكِتَابُ وبه نَطَقُوا، وبهم عُلِمَ الهدى وبه عُلِمُوا، لا يَرَوْنَ أماناً دون ما يَرْجُونَ، ولا خوفاً دون ما يَحْذَرُونَ.

وَهَبَ بن مُنَبِّه: قال "قال داودُ عليه السلام: يا رب، ابن آدم ليس منه شَعْرَةٌ إلا وتحتها لك نِعْمَةٌ وفوقها لك نِعْمَةٌ، فَمَنْ أَيْنَ يُكافئُك بما أعطيتَه؟ فأوحى اللهُ إليه: يا داود، إني أعطيتُ الكثير، وأرضى من عبادي بالقليل، وأرضى من شُكْرِ نِعْمَتِي بأن يعلم العبدُ أن ما به من نِعْمَةٍ فَمَنْ عندي لا من عند نفسه.

ولمَّا أمر اللهُ عزَّ وجلَّ إبراهيم عليه السلام أن يذبح ولده ويجعله قرْباناً، أَسْرَ بذلك إلى خليلٍ له يقال له العازر، وكان له صديقاً، فقال له الصديق: إن الله لا يَبْتَلِي بمثل هذا مثلك، ولكنه يريد أن يَحْتَبِرَكَ أو يَحْتَبِرَ بك، وقد علمت أنه لا يبتليكَ بمثل هذا لِبِفْتِنِكَ، ولا لِيُضِلَّكَ ولا لِيُعْتَبِكَ، ولا لِيُنْقِصَ به بصيرتَكَ وإيمانَكَ وَيَقِينَكَ، فلا يَرُوعَنَّكَ هذا، ولا يَسُوْأَنَّ باللهِ ظنكَ، وإنما رَفَعَ اللهُ اسمَكَ في البلاءِ عنده على جميع أهلِ البلايا، حتى كنت أعظمهم مِحْنَةً في نفسك وولَدِكَ، لِيَرَفَعَكَ بِقَدْرِ ذلك في المنازلِ والدرجاتِ والفَضائلِ، فليس لأهلِ الصبرِ في فضيلةِ الصبرِ إلا فضلُ صبرِكَ، وليس لأهلِ الثوابِ في فضيلةِ الثوابِ إلا فضلُ ثوابِكَ، وليس هذا من وجوه البلاءِ الذي يَبْتَلِي اللهُ به أوليائه، لأنَّ اللهُ أَكْرَمُ في نفسه وأعدلُ في حكمه وأرحمُ بعباده من أن يجعل ذبح الولد الطيب بيد الوالد النبي المصطفى، وأنا أعوذ بالله أن يكون هذا مَتِي حَتْمًا على الله أو رَدًّا لأمره أو سُخْطًا لحُكْمِهِ، ولكنَّ هذا الرَّجاءُ

فيه والظنُّ به، فإن عَزَمَ رَبُّكَ على ذلك فَكُنْ عند أَحْسَنَ علمه بك، فإنِّي أعلمُ أنه لم يُعَرِّضْكَ لهذا البلاءِ الجسيمِ والخطْبِ العظيمِ إلا الحُسْنَ علمه بك وصدِّقْ وتَصَبَّرْ، ليجعلك إماماً، ولا حَوْلَ ولا قُوَّةَ إلا باللهِ العليِّ العظيمِ.

من وحي الله تعالى إلى أنبيائه

أوحى الله عزَّ وجلَّ إلى نبيِّ من أنبيائه: إني أنا الله مالكُ الملوكِ، قلوبُ الملوكِ بيدي، فمن أطاعني جعلتُ الملوكَ عليهم رحمةً، ومن عصاني جعلتُ الملوكَ عليهم نِقْمَةً. وما أنزل اللهُ على المسيح "عليه السلام" في الإنجيل: شوَقناكم فلم تشتاقوا، ونُحنا لكم فلم تبكوا. يا صاحبَ الخمسين، ما قدِّمتَ وما أخَّرتَ؟ يا صاحبَ الستين، قد دنا حِصَادُكَ؛ ويا صاحبَ السبعين، هلِمَّ إلى الحساب. وفي بعض الكتب القديمة المتَّلة: يقول اللهُ عزَّ وجلَّ يومَ القيامة: يا عبدي، طالما ظمَّمتُم؛ وتقلَّصتَ في الدنيا شفاهُكم، وغارتَ أعينُكم عطشاً وجوعاً، فكلُّوا واشربوا هنيئاً بما أسلفتم في الأيام الخالية. وأوحى اللهُ تعالى إلى نبيِّ من أنبيائه: هَبْ لي من قلبك الحُشوعَ، ومن نَفْسِكَ الخُشوعَ، ومن عَيْنِكَ الدموعَ، وسلِّني فأنا القريبُ المحيَّب. وفي بعض الكتب: عبدي، كم أتحبُّ إليك بالنعم وتبتغضُ إلي بالمعاصي! خيري إليك نازل، وشركُ إلي صاعد. وأوحى اللهُ إلى نبيِّ من أنبيائه: إن أردتَ أن تسكنَ غداً حظيرةَ القُدسِ فكنْ في الدنيا فريداً وحيداً، طريداً مهموماً حزيناً، كالطيرِ الوُحْدانيِّ يظَلُّ بأرضِ الفلاةِ ويرُدُّ ماءَ العيونِ، ويأكلُ من أطرافِ الشجرِ، فإذا جنَّ عليه الليلُ أوى وحده استيحاشاً من الطيرِ، واستئناساً بربه.

ومما أوحى اللهُ إلى موسى في التوراة: يا موسى بن عمران يا صاحبَ جبلِ لُبنان، أنت عبدي وأنا الملكُ الديان، لا تستدلُّ الفقيرَ، ولا تَغِيبُ الغنيَّ "بشيء يسير"، وكُنْ عند ذكْرِي حاشعاً، وعند تلاوةِ وحيي طائعاً، أسمعني لذاذةِ التوراة بصوت حزين. وقال وهبُ بن مُنبه: أوحى اللهُ إلى موسى عند الشجرة: لا تُعجبك زينةُ فرعونَ، ولا ما مَتَّعَ به، ولا تَمُدَّنْ إلى ذلك عينك؛ فإنها زهرة الحياة الدنيا، وزينةُ المترفينَ؛ ولو شئتُ أن أُوتيك زينةً يَعْلَمُ فرعونُ حين ينظرُ إليها أنَّ مقدَّرتَه تعجزُ عنها فعلتُ، ولكني أرغبتُك عن ذلك، وأزويتُه عنك؛ فكذلك أفعَلُ بأوليائي، إني لأذودهم عن نعيمها ولذاذها كما يذود الراعي الشفيقُ غنمه عن مراتعِ الهلكةِ، وإني لأحميهم عيشها وسلوَّها، كما يحمي الراعي ذؤده عن مباركِ العرِّ.

وذكر عن وهب بن مُنبه: أن يوسفَ لما لبَّثَ في السجنِ بضعَ سنين أرسل اللهُ جبريلَ إليه بالبشارةِ بخروجه، فقال: أما تُعرِّفني أيها الصديق؟ قال يوسف: أرى صورةَ طاهرةٍ وروحاً طيباً لا يُشبهه أرواحُ الخاطئين؛ قال جبريلُ: أنا الروحُ الأمين، رسولُ ربِّ العالمين؛ قال يوسف: فما أذخلك مداخلِ المُذنبين، وأنت سيِّدُ المرسلين، ورأسُ المُقرَّين؟ قال: ألم تعلم أيها الصديق أن الله يُطهرُ البيوتَ بطهرِ النبيين، وأن البُقعةَ التي تكون فيها هي أظهُرُ الأرضين، وأن الله قد طهرَ بك السجنَ وما حوله يا بن الطاهرين؟ قال يوسف: كيف تُشبهني بالصالحين، وتسميني بأسماءِ الصادقين، وتُعْذِني مع آبائي المُخلصين، وأنا أسير بين هؤلاء الجرمين؟ قال جبريلُ: لم يكَلِّمَ قلبك الجزعَ ولم يغيِّرْ خلقك البلاءَ، ولم يتعاطمك السجنُ، ولم تَطَّأَ فراشَ سيِّدك، ولم يُنسك بلاءُ الدنيا الآخرةَ، ولم يُنسك بلاءُ نفسك أباك، ولا أبوك ربك، وهذا الزمانُ الذي يُفكُ الله فيه عُقَّتكَ، وبعثَ فيه رَقبتك، ويبين للناس فيه حِكْمَتَكَ، ويصدِّق رؤياك، ويُنصفك من ظلمك، ويجمع لك أحبتك، ويهبُ لك مُلكَ مصرَ، تملكُ ملوكها، وتُعبِّدُ جبابرتها، وتُصغِرُ عظماءها، ويُذلُّ لك أعزَّها، ويُخدِّمك سوقها، ويُخولك حَوْلها، ويرحم بك مساكنها ويُلقِي لك المودَّةَ والهبةَ في قلوبهم، ويجعل لك اليدَ العُلْيَا عليهم، والأثرَ الصالحَ فيهم، ويرى فرعونُ حُلماً يفرغُ منه حتى يسهرَ ليله، ويذهبَ نومُه، ويُعمَى عليه تفسيره وعلى السِّحرةِ والكهنةِ، ويُعلِّمك تأويله.

مواعظ الحكماء

قال عليُّ بن أبي طالب كرم الله وجهه: أوصيكم بحمس لو ضربتم عليها آباط الإبل لكان قليلاً: لا يَرَجَّوْنَ أحدكم إلا ربَّه، ولا يخافنَ إلا ذنبه، ولا يستحي إذا سئل عما لا يعلم أن يقول: لا أعلم. وإذا لم يعلم الشيء أن يتعلَّمه واعلموا أن الصبرَ من الإيمان بمتزلة الرأس من الجسد، فإذا قُطِعَ الرأسُ ذهبَ الجسد. وقال أيضاً: من أراد العنَى بغير مال، والكثرة بلا عَشية، فليتحولَّ من ذلِّ المعصية إلى عزِّ الطاعة "أبي الله إلا أن يُذلَّ من عصاه. وقال الحسن: مَنْ خاف الله أخاف الله منه كل شيء، ومن خاف الناسَ أخافه الله من كل شيء.

وقال بعضهم: من عمل لأخرته كفاه الله أمر دنياه، ومن أصلح ما بينه وبين الله أصلح الله ما بينه وبين الناس، ومن أخلص سريره أخلص الله علانيته. قال العنبي: اجتمعت العرب والعجم على أربع كلمات: قالوا: لا تحمّلن على قلبك مالا يطيق، ولا تعملن عملاً ليس لك فيه منفعة، ولا تنقن بامرأة، ولا تغتر بمال وإن كثر.

وقال أبو بكر الصديق لعمر بن الخطاب رضي الله عنهما عند موته حين استخلفه: أوصيك بتقوى الله، إن لله عملاً بالليل لا يقبله بالنهار، وعملاً بالنهار لا يقبله بالليل، وإنه لا يقبل نافلة حتى تؤدّي الفرائض، وإنما ثقّلت موازين من ثقّلت موازينهم يوم القيامة باتباعهم الحقّ وثقله عليهم، وحقّ لميزان لا يوضع فيه إلا الحقّ أن يكون ثقيلاً، وإنما خفّت موازين من خفّت موازينهم يوم القيامة باتباعهم الباطل في الدنيا وخفته عليهم، وحقّ لميزان لا يوضع فيه إلا الباطل أن يكون خفيفاً، وإن الله ذكر أهل الجنة فذكرهم بأحسن أعمالهم، وتجاوز عن سيئاتهم؛ فإذا سمعت بهم قلت: إني أخاف أن لا أكون من هؤلاء؛ وذكر أهل النار بأفح أعمالهم، وأمسك عن حسناتهم، فإذا سمعت بهم قلت: أنا خير من هؤلاء، وذكر آية الرّحمة مع آية العذاب ليكون العبد راغباً راهباً لا يتمنى على الله غير الحق. فإذا حفظت وصيّي فلا يكون غائباً أحبّ إليك من الموت، وهو آتيك؟ وإن ضيعت وصيّي فلا يكون غائباً أكره إليك من الموت، ولن تُعجزه.

ودخل الحسن بن أبي الحسن على عبد الله بن الأهمم يعود في مرضه، فراه يصوّب بصره في صندوق في بيته ويصعده، ثم قال: أبا سعيد، ما تقول في مائة ألف في هذا الصندوق لم أؤد منها زكاة، ولم أصل منها رَحِمًا؟ قال: تكلّتك أمك، ولمن كنت تجتمعها؟ قال: لرؤعة الزمان، وحفوة السلطان، ومكاثرة العشيّة. قال: ثم مات، فشاهده الحسن، فلما فرغ من دفنه، قال: انظروا إلى هذا المسكين، أتاه شيطانه فحذره رؤعة زمانه، وحفوة سلطانه، ومكاثرة عشيرته، عما رزقه الله إياه وعمره فيه، انظروا كيف خرج منها مسلوباً محروباً. ثم التفت إلى الوارث فقال: أيها الوارث، لا تُخذعن كما خدع صويحك بالأمس، أتاك هذا المال حلالاً، فلا يكون عليك وبالاً، أتاك عفواً صفواً، ممن كان له جموعاً منوعاً، من باطل جمعه، ومن حقّ منعه، قطع فيه لجج البحار، ومفاوز القفار، لم تكدح فيه بيمين، ولم يعرق لك فيه جبين. إن يوم القيامة يوم ذو حسرات، وإن من أعظم الحسرات غداً أن ترى مالك في ميزان غيرك، فيالها عثرة لا تُقال، وتوبة لا تُنال.

ووعظ حكيم قوماً فقال: يا قوم، استبدلوا العواري بالهيات تحمدوا العقبى، واستقبلوا المصائب بالصبر تستحيقوا الثمعي، واستديموا الكرامة بالشكر تستوجبوا الزيادة، واعرفوا فضل البقاء في النعمة، والغنى في السلامة، قبل الفتنه الفاحشه، والمثله البينه، وانتقال العمل، وحلول الأجل، فإنما أتم في الدنيا أغراض المنايا، وأوطان البلايا، ولن تنالوا نعمة إلا بفراق أخرى، ولا يستقبل مغمم منكم يوماً من عمره إلا بانتقاص آخر من أجله، ولا يحيا له أثر إلا مات له أثر. فأنتم أعوان الخثوف على أنفسكم، وفي معاشكم أسباب مناياكم، لا يمنعكم شيء منها، ولا يشغلكم شيء عنها. فأنتم الأخلاف بعد الأسلاف، وستكونون أسلافاً بعد الأخلاف. بكل سبيل منكم صريع منفر، وقائم ينتظر، فمن أيّ وجه تطلبون البقاء وهذان الليل والنهار، لم يرفعا شيئاً قط إلا أسرع الكره في هدمه، ولا عقداً أمراً قط إلا رجعا في نقضه.

وقال أبو الدرداء: يا أهل دمشق، مالكم تبنون مالا تسكنون، وتأملون ما لا تُدرّكون، وتجمعون ما لا تأكلون، هذه عادٌ وثمود قد ملّوا ما بين بصرى وعدن أموالاً وأولاداً، فمن يشتري مني ما تركوا بدرهمين؟ وقال ابن شبرمة: إذا كان البدن سقيماً لم ينجع فيه الطعام ولا الشراب، وإذا كان القلب مغمماً يحب الدنيا لم تنجع فيه الموعظة. وقال الربيع بن خثيم: أقلل الكلام إلا من تسع: تكبير وتهليل وتسيب وتحميد وسؤال الخير وتعوذك من الشر وأمر بالمعروف ونهيك عن المنكر وقراءتك القرآن.

قال رجل لبعض الحكماء: عطني. قال: لا يراك الله بحيث نهاك، ولا يفقدك من حيث أمرك. وقيل لحكيم: عطني. قال: جميع المواعظ كلها منتظمة في حرف واحد؟ قال: وما هو؟ قال: تُجمع على طاعة الله، فإذا أنت قد حوت المواعظ كلها. وقال أبو جعفر لسفيان عطني. قال: وما عملت فيما علمت فأعظك فيما جهلت؟ قال هارون لابن السمك: عطني. قال: كفي بالقرآن واعظاً؛ يقول الله تبارك وتعالى: "ألم تر كيف فعل ربك بعاد. إرم ذات العماد التي لم يخلق مثلها في البلاد". إلى قوله "فصّب عليهم ربك سوط عذاب. إن ربك لبالمرصاد".

مكاتبة جرت بين الحكماء

عَتَبَ حَكِيمٌ عَلَى حَكِيمٍ، فَكَتَبَ الْمَعْتُوبُ عَلَيْهِ إِلَى الْعَاتِبِ: يَا أَحِي، إِنَّ أَيَّامَ الْعُمُرِ أَقْصَرُ مِنْ أَنْ تَحْتَمِلَ الْمَجْرُ. فَارْجِعْ إِلَيْهِ.
وكتب الحسنُ إلى عُمرَ بن عبد العزيز: أما بعد، فكأنك بالدنيا لم تكن، وبالآخرة لم تزل. والسلام. وكتب إليه عُمر: أما بعد، فكأن آخر من كُتِبَ عليه الموت قد مات، والسلام.

ابن المبارك قال: كتب سلمان الفارسي إلى أبي الدرداء: أما بعد، فإنك لن تنال ما تُريد إلا بترك ما تشتهي، ولن تنال ما تأمل إلا بالصبر على ما تُكره. فليكن كلامك ذكراً، وصمتك فكراً، ونظرك عبراً، فإن الدنيا تتقلب، وبهجتها تتغير، فلا تغتر بها، وليكن بيتك المسجد، والسلام. فأجابه أبو الدرداء: سلامٌ عليك، أما بعد، فأني أوصيك بتقوى الله، وأن تأخذ من صحبتك لِسَمَمِكِ، ومن شبابك لِهَرَمِكِ، ومن فراغك لِشُغْلِكِ، ومن حياتك لِمَوْتِكِ، ومن جفائك لِمَوَدَّتِكِ، واذكر حياة لا موتَ فيها في إحدى المترلتين: إما في الجنة، وإما في النار، فإنك لا تدري إلى أيهما تصير.
وكتب أبو موسى الأشعري إلى عامر بن عبد القيس: أما بعد، فإني عاهدتك على أمر وبلغني أنك تغيرت، فإن كنت على ما عهدتُك فاتق الله ودُم، وإن كنت على ما بلغني فاتق الله وعُد.

وكتب محمد بن النضر إلى أخ له: أما بعد، فإنك على منهج، وأمامك مترلان لا بد لك من نزول أحدهما، ولم يأتك أمان فتطمئن، ولا براءة فتنتكل. وكتب حكيم إلى آخر: اعلم حفظك الله، أن النفوس جُلبت على أخذ ما أُعطيتَ وَمَنَعَ ما سُئِلتَ، فأحملها على مطية لا تُبطيء إذا رُكبت، ولا تُسبق إذا قُدِّمَتْ، وإنما تحفظا لِنَفْسٍ على قدر الخوف، وتطلب على قدر الطمع، وتطمع على قدر السبب. فإذا استطعت أن يكون معك خوف المُشْفِقِ وقناعة الرّاضي فافعل.

وكتب عمر بن عبد العزيز إلى رجاء بن حيوة: أما بعد، فإنه من أكثر من ذكر الموت اكتفى باليسير: ومن علم أن الكلام عملٌ قلّ كلامه إلا فيما يَنْفَعُه. وكتب عمر بن الخطاب إلى عتبة بن غزوان عامله على البصرة: أما بعد، فقد أصبحت أميراً تقول فيسمع لك، وتأمر فينفذ أمرُك، فيألفها نعمة إن لم تُرفعك فوق قدرك، وتُطغك على من دونك، فاحترس من النعمة أشد من احتراسك من المصيبة، وإياك أن تسقط سقطة لا لعالمها - أي لا إقالة لها - وتغر عثرة لا تُفألفها، والسلام.

وكتب الحسن إلى عمر: إن فيما أمرك الله به شغلا عما هلك عنه، والسلام.

وكتب عمر بن عبد العزيز إلى الحسن: اجمع لي أمر الدنيا ووصف لي أمر الآخرة. فكتب إليه: إنما الدنيا حُلْمٌ والآخرة يَقْظَةٌ والموت متوسط؛ ونحن في أضغاث أحلام، من حاسب نفسه ربح، ومن غفل عنها خسِر، ومن نظر في العواقب نجح، ومن أطاع هواه ضلّ، ومن حلم غنم، ومن خاف سلم، ومن اعتبر أضر، ومن أبصر فهم، ومن فهم علم، ومن علم عمل، فإذا زللت فارجع، وإذا ندمت فأقلع، وإذا جهلت فاسأل، وإذا غضبت فأمسك، وأعلم أن أفضل الأعمال ما أكرهت النفوس عليه.

مواعظ الآباء للأبناء

قال لقمان لابنه: إذا أتيت مجلس قوم فأرهمهم بسهم السلام ثم اجلس، فإن أفاضوا في ذكر الله فأجل سهمك مع سهامهم، وإن أفاضوا في غير ذلك فتخل عنهم وانفض. وقال: يا بني، استعد بالله من شرار الناس وكن من خيارهم على حذر. ومثل هذا قول أكنم بن صيفي: احذر الأمين ولا تأمن الخائن، فإن القلوب بيد غيرك. وقال لقمان لابنه: لا تترك إلى الدنيا، ولا تشغل قلبك بها، فإنك لم تُخلق لها، وما خلق الله خلقاً أهون عليه منها، فإنه لم يجعل نعيمها ثواباً للمطيعين، ولا بلاعها عقوبة للعاصين. يا بني، لا تضحك من غير عجب، ولا تمش في غير أرب، ولا تسأل عما لا يعينك. يا بني، لا تُضيّع مالك وتصلح مال غيرك، فإن مالك ما قدمت، ومال غيرك ما تركت. يا بني، إنه من يرحم يُرحم، ومن يصمت يسلم، ومن يقل الخير يغم، ومن يقل الباطل يآثم، ومن لا يملك لسانه يندم. يا بني، زاحم العلماء برُكبتك، وأنصت إليهم بأذنيك، فإن القلب يحيا بنور العلماء كما تحيا الأرض الميته بمطر السماء.

وقال خالد بن صفوان لابنه: كُنْ أَحْسَنَ مَا تَكُونُ فِي الظَّاهِرِ حَالاً، أَقْلَ مَا تَكُونُ فِي البَاطِنِ، مَالاً، وَدَعْ مِنْ أَعْمَالِ السَّرِّ مَا لَا يَصْلُحُ لَكَ فِي العِلَاقَةِ. وقال أعرابي لابنه: يا بني، إِنَّهُ قَدْ أَسْمَعَكَ الدَّاعِي، وَأَعَذَرَ إِلَيْكَ الطَّالِبِ، وَأَنْتَهَى الأَمْرَ فَيْكَ إِلَى حَدِّهِ، وَلَا أَعْرِفُ أَعْظَمَ رِزْيَةً مِنْ ضَيْعِ اليَقِينِ وَأَخْطَأَ الأَمْلَ. وقال عليُّ بن الحسين لابنه، وكان من أفضل بني هاشم: يا بني، اصبر على التَّوَاتِبِ، وَلَا تَعْرِضْ لِلْحُتُوفِ، وَلَا تُجِبْ أَحَاكَ مِنَ الأَمْرِ إِلَى مَا مَضَرَّتْهُ عَلَيْكَ أَكْثَرَ مِنْ مَنَفَعَتِهِ لَكَ. وقال حكيم لبنيه: يا بني، إياكم أن تكونوا بالأحداث مُعْتَرِينَ، ولها آمين، فإني واللَّهِ ما سَخِرْتُ مِنْ شَيْءٍ إِلَّا نَزَلَ بِي مِثْلَهُ، فَاحْذَرُوهَا وَتَوَقَّعُوهَا، فَإِنَّمَا الإِنْسَانُ فِي الدُّنْيَا غَرَضٌ تَتَعَاوَرُهُ السَّهَامُ، فَمُجَاوِزٌ لَهُ وَمُقَصِّرٌ عَنْهُ وَوَاقِعٌ عَنْ يَمِينِهِ وَشِمَالِهِ، حَتَّى يُصِيبَهُ بَعْضُهَا؛ وَاعْلَمُوا أَنَّ لِكُلِّ شَيْءٍ جِرَاءً وَلِكُلِّ عَمَلٍ ثَوَاباً. وَقَدْ قَالُوا: كَمَا تَدِينُ تُدَانَ، وَمَنْ بَرَّ يَوْمًا بَرَّ بِهِ. وقال الشاعر:

إِذَا مَا الدَّهْرُ جَرَّ عَلَى أَنَاسٍ

حَوَادِثُهُ أَنَاخَ بَأَخْرِينَا

فَقُلْ لِلشَّامِتِينَ بِنَا أَفْبِقُوا

سَيَلِقَى الشَّامِتُونَ كَمَا لَقِينَا

وقال حكيم لابنه: يا بني، إني مُوصيك بوصية، فإن لم تحفظ وصيتي عني لم تحفظها عن غيري: اتق الله ما استطعت، وإن قدرت أن تكون اليومَ خيراً منك أمس وغداً خيراً منك اليومَ فافعل، وإياك والطمع فإنه فُقرٌ حاضر، وعليك بالياس فإنك لن تياس من شيء قط إلا أغناك الله عنه، وإياك وما يُعتذر منه فإنك لن تُعتذر من خير أبداً، وإذا عثر عاثر فاحمد الله أن لا تكون هو. يا بني، خذ الخير من أهله، ودع الشر لأهله، وإذا قُمت إلى صلاتك فصل صلاة مُودع، وأنت ترى أن لا تُصلي بعدها "أ بدأ".

وقال عليُّ بن الحسن عليهما السلام لابنه: يا بني، إن الله لم يرُضك لي فأوْصاك بي، ورَضيتُ لك فَحَدَرْتِي مِنْكَ، وَاعْلَمْ أَنَّ خَيْرَ الآبَاءِ لِلأَبْنَاءِ مَنْ لَمْ تَدْعُهُ المِودَةَ إِلَى التَّفْرِيطِ فِيهِ، وَخَيْرَ الأَبْنَاءِ لِلآبَاءِ مَنْ لَمْ يَدْعُهُ التَّقْصِيرَ إِلَى العُتُوقِ لَهُ. وقال حكيم لابنه: يا بني، إن أشدَّ الناس حَسرةً يَوْمَ القِيَامَةِ رَجُلٌ كَسَبَ مَالاً مِنْ غَيْرِ حِلِّهِ فَادْخَلَهُ النَّارَ، وَأَوْرَثَهُ مَنْ عَمِلَ فِيهِ بِطَاعَةِ اللَّهِ فَادْخَلَهُ الجَنَّةَ.

عَمَرُو بَن عُنْبَةَ قَالَ: لَمَّا بَلَغَتْ خَمْسَ عَشْرَةَ سَنَةً قَالَ لِي أَبِي: يَا بَنِي، قَدْ تَقَطَّعَتْ عَنْكَ شَرَائِعُ الصَّبَا فَالزَّمِ الحَيَاءَ تَكُنْ مِنْ أَهْلِهِ، وَلَا تُزَايِلْهُ فَتَبِينُ مِنْهُ، وَلَا يَغْرُنَكَ مِنْ اغْتَرَّ بِاللَّهِ فِيكَ فَمَدَحَكَ بِمَا تَعْلَمُ خِلَافَهُ مِنْ نَفْسِكَ، فَإِنَّهُ مَنْ قَالَ فِيكَ مِنَ الخَيْرِ مَا لَمْ يَعْلَمْ إِذَا رَضِيَ، قَالَ فِيكَ مِنَ الشَّرِّ مِثْلَهُ إِذَا سَخِطَ. فَاسْتَأْنَسَ بِالوَحْدَةِ مِنْ جُلْسَاءِ السَّوِّءِ تَسَلَّمَ مِنْ غَيْبِ عَوَاقِبِهِمْ.

وقال عبد الملك بن مروان لبنيه: كُفُّوا الأَذَى، وَابْذُلُوا المَعْرُوفَ، وَاعْفُوا إِذَا قَدَرْتُمْ!، وَلَا تَبْخُلُوا إِذَا سَأَلْتُمْ، وَلَا تُتْلِحُوا إِذَا سَأَلْتُمْ، فَإِنَّهُ مِنْ ضَيِّقِ ضَيِّقِ عَلَيْهِ، وَمَنْ أَعْطَى أَخْلَفَ اللَّهُ عَلَيْهِ. وقال الأشعث بن قيس لبنيه: "يا بني"، "لا" تَدُلُّوا فِي أَعْرَاضِكُمْ، وَانْخَدَعُوا فِي أَمْوَالِكُمْ، وَلِتَخَفَّ بَطُونُكُمْ مِنْ أَمْوَالِ النَّاسِ، وَظَهَرَكُمْ مِنْ دِمَائِهِمْ، فَإِنَّ لِكُلِّ أَمْرٍ تَبِعَةً؛ وَإِيَاكُمْ وَمَا يُعْتَذَرُ "منه" أَوْ يُسْتَحَى، فَإِنَّمَا يُعْتَذَرُ مِنْ ذَنْبٍ، وَيَسْتَحَى مِنْ عَيْبٍ؛ وَأَصْلِحُوا المَالَ لِحَفْوَةِ السُّلْطَانِ وَتَعَبِيرِ الزَّمَانِ، وَكُفُّوا عِنْدَ الحَاجَةِ عَنِ المَسْأَلَةِ، فَإِنَّهُ كَفَى بِالرَّدِّ مَنَعًا، وَأَجْمَلُوا فِي الطَّلَبِ حَتَّى يَوافِقَ الرِّزْقُ قَدْرًا، وَامنعوا النِّسَاءَ مِنْ غَيْرِ الأَكْفَاءِ، فَإِنَّكُمْ أَهْلُ بَيْتٍ يَتَأَسَى بِكُمْ الكَرِيمُ، وَيَتَشَرَّفُ بِكُمْ اللُّثِيمُ؛ وَكُونُوا فِي عَوَامِّ النَّاسِ مَا لَمْ يَضْطَرِبِ الحِجْلُ إِذَا اضْطَرَبَ الحِجْلُ، فَالْحَقُوا بِعِشَائِرِكُمْ.

وكتب عمرُ بن الخطَّابِ إِلَى ابْنِهِ عَبْدِ اللَّهِ فِي غَيْبِهِ غَايِمًا: أَمَّا بَعْدُ، فَإِنَّ مَنْ اتَّقَى اللَّهَ وَقَاهُ، وَمَنْ ائْتَمَرَ بِهِ كَفَاهُ، وَمَنْ شَكَرَ لَهُ زَادَهُ، وَمَنْ أَقْرَضَهُ جَزَاهُ؛ فَاجْعَلِ التَّقْوَى عِمَارَةَ قَلْبِكَ وَجَلَاءَ بَصْرِكَ، فَإِنَّهُ لَا عَمَلَ لِمَنْ لَا نِيَّةَ لَهُ، وَلَا خَيْرَ لِمَنْ لَا حَشْيَةَ لَهُ، وَلَا جَدِيدَ لِمَنْ لَا خَلْقَ لَهُ.

وكتب عليُّ بن أبي طالبِ إِلَى وَالدِهِ الحَسَنِ عَلَيْهِمَا السَّلَامُ: مِنْ عَلِيِّ أَمِيرِ المُؤْمِنِينَ الوَالِدِ الفَانِ، المُقَرَّرِ لِلزَّمَانِ، المُسْتَسَلِّمِ لِلحَدَثَانِ: المُدْبِرِ العُمُرِ، المُؤَمَّلِ مَا لَا يُدْرِكُ، السَّالِكِ سَبِيلَ مَنْ قَدْ هَلَكَ، غَرَضُ الأَسْقَامِ، وَرَهِينَةُ الأَيَّامِ، وَعَبْدُ الدُّنْيَا، وَتَاجِرُ العُرُورِ، وَأَسِيرُ المَنَاقِبِ، وَقَرِينُ الرِّزَايَا، وَصَرِيحُ الشَّهَوَاتِ، وَنُصَبُ الآفَاتِ، وَخَلِيفَةُ الأَمْوَاتِ، أَمَّا بَعْدُ، يَا بَنِي، فَإِنَّ فِيمَا تَفَكَّرْتُ فِيهِ مِنْ إِدْبَارِ الدُّنْيَا عَنِي، وَإِقْبَالِ الآخِرَةِ إِلَيَّ، وَجُمُوحِ الدَّهْرِ عَلَيَّ، مَا يُرَغِّبُنِي عَنْ ذِكْرِ سِوَايَ، وَالاِهْتِمَامِ بِمَا وَرَائِي، غَيْرَ أَنَّهُ حِينَ تَفَرَّدَ بِي هَمُّ نَفْسِي دُونَ هَمِّ النَّاسِ، فَصَدَّقْتَنِي رَأْيِي "وَصَرَفْتَنِي عَنْ هَوَايَ"، وَصَرَّحَ بِي مَحْضُ أَمْرِي، فَأَفْضَى بِي إِلَى جِدِّ لَا يُزْرِي بِهِ لَعِبٍ، وَصِدْقٍ لَا يَشُو بِهِ كَذِبٍ، وَوَجْدْتُكَ يَا بُنِّي بَعْضِي، بَلْ وَجَدْتُكَ كُلِّي، حَتَّى كَأَنَّ شَيْئاً لَوْ أَصَابَكَ لِأَصَابِي، وَحَتَّى

كأن الموت لو أتاك أتاني، فعند ذلك عَنَانِي من أَمْرِكَ ما عَنَانِي من أَمْرِ نَفْسِي. كَتَبْتُ إِلَيْكَ كِتَابِي هَذَا يَا بُنَيَّ "مُسْتَظْهِراً" به "إِنْ" "أَنَا" بَقِيَتْ "لَكَ" "أَوْ" فَنِيَتْ، فَإِنِّي مُوصِيكَ بِتَقْوَى اللَّهِ وَعِمَارَةِ قَلْبِكَ بِذِكْرِهِ، وَالِاعْتِصَامِ بِحَبْلِهِ، فَإِنَّ اللَّهَ تَعَالَى يَقُولُ: "وَأَعْتَصِمُوا بِحَبْلِ اللَّهِ جَمِيعاً وَلَا تَفَرَّقُوا وَاذْكُرُوا نِعْمَةَ اللَّهِ عَلَيْكُمْ إِذْ كُنْتُمْ أَعْدَاءً فَأَلَّفَ بَيْنَ قُلُوبِكُمْ فَأَصْبَحْتُمْ بِنِعْمَتِهِ إِخْوَاناً" وَأَيُّ سَبَبٍ يَا بُنَيَّ أَوْثَقَ مِنْ سَبَبِ بَيْنِكَ وَبَيْنَ اللَّهِ تَعَالَى "إِنْ أَنْتَ أَخَذْتَ بِهِ". أَحْيِ قَلْبَكَ بِالْمَوْعِظَةِ، وَتَوَرَّعْ بِالْحِكْمَةِ، وَأَمْتِنْ بِالزُّهْدِ، وَذَلِّلْهُ بِالْمَوْتِ، وَقَوِّهِ بِالْغِنَى عَنِ النَّاسِ، وَحَذِّرْهُ صَوْلَةَ الدَّهْرِ، وَتَقَلُّبَ الْأَيَّامِ وَاللَّيَالِي. وَاغْرُضْ عَلَيْهِ أَحْبَابَ الصِّينِ، وَسِرِّ فِي دِيَارِهِمْ وَأَثَارِهِمْ فَانظُرْ مَا فَعَلُوهُ وَأَيْنَ حُلُوهَا، فَإِنَّكَ تَجِدُهُمْ قَدْ انْتَقَلُوا عَنْ دَارِ الْأَحْبَابِ وَنَزَلُوا دَارَ الْغُرْبَةِ، وَكَأَنَّكَ عَنْ قَلِيلٍ يَا بُنَيَّ قَدْ صَرْتَ كَأَحَدِهِمْ، فَبِعْ دُنْيَاكَ بِأَحْرَتِكَ، وَلَا تَبِعْ آخِرَتَكَ بِدُنْيَاكَ؛ وَدَعْ الْقَوْلَ فِيمَا لَا تَعْرِفُ، وَالْأَمْرَ فِيمَا لَا تَكْلِفُ، وَأَمُرْ بِالْمَعْرُوفِ وَبِيدِكَ وَلسَانِكَ، وَأَنَّهُ عَنِ الْمُنْكَرِ بِيَدِكَ وَلسَانِكَ، وَبِأَيِّنْ مَنْ فَعَلَهُ؛ وَخُضَّ الْعَمْرَاتِ لِلْحَقِّ، وَلَا تَأْخُذْكَ فِي اللَّهِ لَوْمَةٌ لَائِمَةٌ، وَاحْفَظْ وَصِيَّتِي وَلَا تَذْهَبْ عَنْكَ صَفْحاً، فَلَا خَيْرَ فِي عِلْمٍ لَا يَنْفَعُ. وَاعْلَمْ "أَنَّ أَمَامَكَ طَرِيقاً ذَا مَسَافَةٍ بَعِيدَةٍ، وَمَشَقَّةَ شَدِيدَةٍ"، وَأَنَّهُ لَا غِنَى لَكَ فِيهِ عَنْ حُسْنِ الْارْتِيَادِ، مَعَ بِلَاغِكَ مِنَ الرَّادِ. فَإِنْ أَصَبْتَ مِنْ أَهْلِ الْفَاقَةِ مَنْ يَحْمِلُ عَنْكَ زَادَكَ فَيُؤَيِّدُكَ بِهِ فِي مَعَارِكِ فَاعْتَمِنْهُ، فَإِنَّ أَمَامَكَ عَقَبَةٌ كَوْدَا لَا يُجَاوِزُهَا إِلَّا أَحْفُ النَّاسِ حَمَلًا، فَأَجْمَلْ فِي الطَّلَبِ، وَأَحْسِنِ الْمَكْتَسَبِ، فَرُبَّ طَلَبٍ قَدْ حَرَّ إِلَى حَرْبٍ، وَإِنَّمَا الْخُرُوبُ مِنْ حَرْبٍ دِينُهُ، وَالْمَسْلُوبُ مِنْ سُلْبٍ يَقِينُهُ. وَاعْلَمْ أَنَّهُ لَا غِنَى يَعْدِلُ الْجَنَّةَ، وَلَا فَقْرٌ يَعْدِلُ النَّارَ. وَالسَّلَامُ عَلَيْكَ وَرَحْمَةُ اللَّهِ وَبَرَكَاتُهُ.

وَكَتَبَ إِلَى ابْنِهِ مُحَمَّدِ بْنِ الْحَنْفِيَّةِ: أَنْ تَفَقَّهَ فِي الدِّينِ، وَعَوَّدَ نَفْسَكَ الصَّبْرَ عَلَى الْمَكْرُوهِ، وَكَلِّ نَفْسَكَ فِي أُمُورِكَ كُلِّهَا إِلَى اللَّهِ عَزَّ وَجَلَّ، فَإِنَّكَ تَكَلِّهَا إِلَى كَهْفٍ.

وَأَخْلَصَ الْمَسْأَلَةَ لِرَبِّكَ فَإِنَّ يَدَيْهِ الْعِطَاءُ وَالْحَرَمَانُ. وَأَكْثَرَ الْأَسْتِخَارَةَ لَهُ، وَاعْلَمْ أَنَّ مِنْ كَانَتْ مَطِيئَتُهُ اللَّيْلَ وَالنَّهَارَ "فِيهِ" يُسَارُ بِهِ وَإِنْ كَانَ لَا يَسِيرُ، فَإِنَّ اللَّهَ تَعَالَى قَدْ أَبَى إِلَّا خَرَابَ الدُّنْيَا وَعِمَارَةَ الْآخِرَةِ. فَإِنْ قَدَّرْتَ أَنْ تَزْهَدَ فِيهَا زُهْدَكَ كُلَّهُ فَافْعَلْ ذَلِكَ، وَإِنْ كُنْتَ غَيْرَ قَابِلٍ لِصَبِيحَتِي إِيَّاكَ فَاعْلَمْ عِلْمًا يَقِينًا أَنَّكَ لَنْ تَبْلُغَ أَمْلَكَ، وَلَنْ تَعْدُوَ أَجْلَكَ، وَأَنَّكَ فِي سَبِيلِ مَنْ كَانَ قَبْلَكَ، فَأَكْرَمَ نَفْسَكَ عَنْ كُلِّ دُنْيَةٍ، وَإِنْ سَاقَتَكَ إِلَى الرِّغَابِ، فَإِنَّكَ لَنْ تَعْتَضَّ بِمَا تَبْدُلُ مِنْ نَفْسِكَ "عَوْضاً". وَإِيَّاكَ أَنْ تُوجِفَ بِكَ مَطَايَا لِلطَّمَعِ وَتَقُولَ: مَتَى مَا آخَرْتَ نَزَعْتُ، فَإِنَّ هَذَا أَهْلَكَ مَنْ هَلَكَ قَبْلَكَ. وَأَمْسِكْ عَلَيْكَ لِسَانَكَ، فَإِنَّ تَلَافِيكَ مَا فَرَطَ مِنْ صَمْتِكَ أَيْسَرَ عَلَيْكَ مِنْ إِدْرَاكَ مَا فَاتَ مِنْ مَنَاطِقِكَ، وَاحْفَظْ مَا فِي الْوِعَاءِ بِشِدَّةِ الْوَكَاءِ، فَحُسْنُ التَّدْبِيرِ مَعَ الْاِقْتِصَادِ أَبْقَى لَكَ مِنَ الْكَثِيرِ مَعَ الْفَسَادِ، وَالْحُرْفَةُ مَعَ الْعِفَّةِ خَيْرٌ مِنَ الْغِنَى مَعَ الْفَجُورِ وَالْمَرْءُ أَحْفَظُ لِسَرِّهِ، وَلرَبِّمَا سَعَى فِيمَا يَضُرُّهُ. إِيَّاكَ وَالِاتِّكَالَ عَلَى الْأَمَانِيِّ، فَإِنَّهَا بَضَائِعُ النَّوْكَى وَتَبْطِطُ عَنِ الْآخِرَةِ وَالْأُولَى. وَمَنْ خَيْرَ حِظٍّ الدُّنْيَا الْقَرِينَ الصَّالِحَ، فَقَارِنْ أَهْلَ الْخَيْرِ تُكُنْ مِنْهُمْ، وَبَيْنَ أَهْلِ الشَّرِّ تَبَيَّنْ عَنْهُمْ، وَلَا يَغْلِبَنَّ عَلَيْكَ سُوءُ الظَّنِّ، فَإِنَّهُ لَنْ يَدَعَ بَيْنَكَ وَبَيْنَ خَلِيلِ صُلْحًا. أَذْكَ قَلْبِكَ بِالْأَدَبِ كَمَا تَذْكِي النَّارَ الْحَطْبَ وَاعْلَمْ أَنَّ كُفْرَ النِّعْمَةِ لَوْمَةٌ، وَصُحْبَةُ الْأَحْمَقِ شَوْمٌ، وَمَنْ الْكِرَمِ مَنَعَ الْحَرَمِ، وَمَنْ حَلَّمَ سَادَ، وَمَنْ تَفَهَّمَ زَادَ. آمَحِضْ أَخَاكَ النَّصِيحَةَ، حَسَنَةً كَانَتْ أَوْ قَبِيحَةً. لَا تَصْرَمْ أَحَاكَ عَلَى ارْتِيَابِ، وَلَا تَقْطَعْهُ دُونَ اسْتِعْتَابِ، وَلَيْسَ جِزَاءُ مَنْ سَرَّكَ أَنْ تَسُوءَهُ. الرِّزْقُ رِزْقَانِ: رِزْقٌ تَطْلُبُهُ وَرِزْقٌ يَطْلُبُكَ، فَإِنْ لَمْ تَأْتَهُ أَتَاكَ. وَاعْلَمْ يَا بُنَيَّ أَنَّ مَالَكَ مِنْ دُنْيَاكَ إِلَّا مَا أَصْلَحْتَ بِهِ مِنْ مَتَوَاكٍ، فَأَنْفَقْ مِنْ خَيْرِكَ، وَلَا تُكَنَّ خَازِنًا لِعَيْرِكَ، وَإِنْ جَزَعْتَ عَلَى مَا يُفْلِتُ مِنْ يَدَيْكَ فَاجْزَعْ عَلَى مَا لَمْ يَصِلْ إِلَيْكَ. رُبَّمَا أَحْطَأَ الْبَصِيرُ قَصْدَهُ، وَأَبْصَرَ الْأَعْمَى رُشْدَهُ، وَلَمْ يَهْلِكْ أَمْرُهُ اقْتِصَادًا، وَلَمْ يَفْتَقِرْ مِنْ زَهْدٍ. مَنْ ائْتَمَنَ الزَّمَانَ خَانَهُ، وَمَنْ تَعَطَّمَ عَلَيْهِ أَهَانَهُ. رَأْسُ الدِّينِ الْيَقِينُ، وَتَمَامُ الْإِخْلَاصِ اجْتِنَابُ الْمَعَاصِي، وَخَيْرُ الْمَقَالِ مَا صَدَّقْتَهُ الْفِعَالُ. سَلِّ عَنِ الرَّفِيقِ قَبْلَ الطَّرِيقِ، وَعَنِ الْجَارِ قَبْلَ الدَّارِ، وَاحْمِلْ لِصَدِيقِكَ عَلَيْكَ، وَأَقْبَلْ عَدُوَّكَ مَنِ اعْتَذَرَ إِلَيْكَ، وَأَخِرِ الشَّرَّ مَا اسْتَطَعْتَ، فَإِنَّكَ إِذَا شِئْتَ تَعَجَّلْتَهُ. لَا يَكُنْ أَحْوَكَ عَلَى قَطِيعَتِكَ أَقْوَى مِنْكَ عَلَى صِلَتِهِ، وَعَلَى الْإِسَاءَةِ أَقْوَى مِنْكَ عَلَى الْإِحْسَانِ. لَا تُسَلِّكَنَّ الْمَرْءَ مِنَ الْأَمْرِ مَا يُجَاوِزُ نَفْسَهَا، فَإِنَّ الْمَرْءَ رِيحَانَةٌ، وَلَيْسَتْ بِقَهْرْمَانَةٍ، فَإِنَّ ذَلِكَ أَدْوَمُ لِحَالِهَا، وَأَرْخَى لِبَالِهَا. وَاغْضُضْ بَصَرَهَا بِسِتْرِكَ، وَاكْفُفْهَا بِجِجَابِكَ، وَأَكْرَمِ الَّذِينَ يَهْمُ تَصُولُ، وَإِذَا تَطَاوَلَتْ بِهِمْ تَطُولُ. اسْأَلِ اللَّهَ أَنْ يُلْهَمَكَ الشُّكْرَ وَالرُّشْدَ، وَيُقَوِّمَكَ عَلَى الْعَمَلِ بِكُلِّ خَيْرٍ، وَيَصْرِفَ عَنْكَ كُلَّ مَحْذُورٍ بِرَحْمَتِهِ، وَالسَّلَامُ عَلَيْكَ وَرَحْمَةُ اللَّهِ وَبَرَكَاتُهُ.

مقامات العباد عند الخلفاء

مقام صالح بن عبد الجليل

قام صالح بن عبد الجليل بين يدي المهديّ فقال له: إنه لما سهّل علينا ما توعدّ على غيرنا من الوصول إليك فمنا مقام الأداء عنهم وعن رسول الله صلى الله عليه وسلم، يظهار ما في أعناقنا من فريضة الأمر والنهي عند انقطاع عُذر الكتمان، ولا سيّما حين اتّسمت بميسم التواضع، ووعدت الله وحمله كتابه إثارة الحق على ما سواه، فجمعنا وإياك مشهداً من مشاهد التّمحيص. وقد جاء في الأثر: مَنْ حَبَبَ اللهُ عَنْهُ الْعِلْمَ عَدَبَهُ عَلَى الْجَهْلِ، وَأَشَدُّ مِنْهُ عَذَاباً مَنْ أَقْبَلَ لَهُ الْعِلْمُ فَأَدْبَرَ عَنْهُ، فَأَقْبَلَ يَا أَمِيرَ الْمُؤْمِنِينَ مَا أَهْدَى إِلَيْكَ مِنْ أَلْسِنَتِنَا قَبُولَ تَحْقِيقِ وَعَمَلِ، لَا يَقْبُولُ سُمْعَةَ وَرِيَاءَ، فَإِنَّمَا هُوَ تَنْبِيَهُ مِنْ غَفْلَةٍ، وَتَذْكَيرٍ مِنْ سَهْوٍ، وَقَدْ وَطَّنَ اللهُ "عَزَّ وَجَلَّ" نَبِيَّهُ "عَلَيْهِ السَّلَامُ" عَلَى نُزُولِهَا، فَقَالَ تَعَالَى: "وَأَمَّا يَنْزِعَنَّكَ مِنَ الشَّيْطَانِ نَزْغٌ فَاسْتَعِذْ بِاللَّهِ إِنَّهُ هُوَ السَّمِيعُ الْعَلِيمُ".

مقام رجل من العباد عند المنصور

بينما المنصور في الطراف بالبيت ليلاً إذ سمع قائلاً يقول؛ اللهم إني أشكو إليك ظهور البغي والفساد في الأرض، وما يحول بين الحق وأهله من الطمع. فخرج المنصور، فجلس ناحية من المسجد، وأرسل إلى الرجل يدعو، فصلّى ركعتين واستلم الركن وأقبل مع الرسول فسلم عليه بالخلافة، فقال المنصور: ما الذي سمعتك تذكر من ظهور الفساد والبغي في الأرض؟ وما الذي يحول بين الحق وأهله من الطمع؟ فوالله لقد حشوت مسامعي ما أرمضني. فقال: إن أمنتني يا أمير المؤمنين أعلمتك بالأمر من أصولها، وإلا احتجرت منك واقتصرت على نفسي فلي فيها شاغل. قال: فأنت آمن على نفسك فقل. فقال: يا أمير المؤمنين، إن الذي دخله الطمع وحال بينه وبين ما ظهر في الأرض من الفساد والبغي لأنت؛ فقال: فكيف ذلك ويحك! يدخلني الطمع والصفراء والبيضاء في قبضي والحلو والحامض عندي؟ قال: وهل دخل أحد من الطمع ما دخلك، إن الله استرعاك أمر عباده وأموالهم، فأغفلت أمورهم، واهتممت بجمع أموالهم، وجعلت بينك وبينهم حجاباً من الجص والآجر، وأبوأباً من الحديد، وحرّاساً معهم السلاح، ثم سجنك نفسك عنهم فيها، وبعثت عمالك في حبايات الأموال وجمعها، وقويتهم بالرجال والسلاح والكرّاع، وأمرت أن لا يدخل عليك أحد من الرجال إلا فلان وفلان نقرأ سميتهم، ولم تأمر بإبصال المظلوم ولا الملهوف ولا الجائع العاري "ولا الضعيف الفقير" إليك، ولا أحد إلا وله في هذا المال حق، فلما رآك هؤلاء النفر الذين استخلصتهم لنفسك، وآثرتهم على رعيتك، وأمرت أن لا يُحجبوا دونك، تُجبي الأموال وتجمعها، قالوا: هذا قد خان الله فما لنا لا نخونه، فإتتمروا أن لا يصل إليك من علم أخبار الناس شيء إلا ما أردوا، ولا يخرج لك عامل "فيخالف أمرهم" إلا خوونه عندك ونفوه، حتى تسقط منزلته، فلما انتشر ذلك عنك وعنهم أعظمهم الناس وهابوهم وصانعوهم، فكان أول من صانعهم عمالك بالهدايا والأموال، ليقتوا بها على ظلم رعيتك، ثم فعل ذلك ذوو المقدرة والثروة من رعيتك، لينالوا ظلم من دونهم، فامتلات بلاد الله بالطمع ظلماً وبعياً وفساداً، وصار هؤلاء القوم شركاءك في سلطانك وأنت غافل، فإن جاء متظلم حيل بينك وبينه. فإن أراد رفع قصته إليك عند ظهورك، وجدك قد نهيت عن ذلك، ووقفت للناس رجلاً ينظر في مظالمهم، فإن جاء ذلك المتظلم فبلغ بطانتك خبره، سألوها صاحب المظالم أن لا يرفع مظلمته إليك "فإن المتظلم منه له بهم حرمة، فأجابه خوفاً منهم"، فلا يزال المظلوم يختلف إليه ويلوذ به، ويشكو ويستغيث وهو يدفعه، فإذا أجهد وأخرج ثم ظهرت صرخ بين يديك، فيضرب ضرباً مبرحاً يكون نكالا لغيره، وأنت تنظر فما تنكر، فما بقاء الإسلام "على هذا"؟ وقد كنت يا أمير المؤمنين أسافر إلى الصين، فقدمتها مرة وقد أصيب ملكها بسمعه، فبكي بكاء شديداً، فحته جلساؤه على الصبر، فقال أما إني لست أبكي للبلية النازلة بي، ولكني أبكي لمظلوم يصرخ بالباب فلا أسمع صوته. ثم قال: أما إذ قد ذهب سمعي فإن بصري لم يذهب، نادوا في الناس أن لا يلبس ثوباً أحمر إلا متظلم. ثم كان يركب الفيل طرقي النهار وينظر هل يرى مظلوماً. فهذا يا أمير المؤمنين مُشرك بالله، بلغت رأفته بالمشركين هذا المبلغ وأنت مؤمن بالله من أهل بيت نبيّه لا تغلبك رأفتك بالمسلمين على شح نفسك، فإن كنت إنما تجمع المال لولدك، فقد أراك الله عبيراً في الطفل يسقط من بطن أمه ماله على الأرض مال، وما من مال إلا ودونه يد شحيحة تحويه، فما يزال الله يلطف بذلك الطفل، حتى تعظم رغبة الناس إليه، ولست الذي تُعطي، بل الله الذي يعطي من يشاء ما يشاء، فإن قلت إنما تجمع المال لتشدّ به السلطان، فقد أراك الله عبيراً في بني أمية، ما أغنى عنهم جمعهم من الذهب، وما أعدوا من الرجال والسلاح والكرّاع

حين أراد الله بهم ما أراد، وإن قلت إنما تجمع المال لطلب غاية هي أحسم من الغاية التي أنت فيها، فوالله ما فوق ما أنت فيه إلا منزلة لا تُدرك إلا بخلاف ما أنت عليه. يا أمير المؤمنين، هل تُعاقب مَنْ عَصَاكَ بأشدّ من القتل؟ فقال المنصور: لا؛ فقال: فكيف تصنع بالملك الذي حوّلَكَ مُلكَ الدنيا وهو لا يُعاقب مَنْ عَصَاهُ بالقتل، ولكن بالخُلود في العذاب الأليم؟ قد رأى ما عُقد عليه قلبك، وعَمَلته جوارحك، ونظَر إليه بصرك، واجترَحْتَهُ يداك، ومَنَنْتَ إليه رجلاك، هل يُعني عنك ما شَحِحتَ عليه من مُلكِ الدُّنيا إذا انتزَعَهُ من يدك ودعاكَ إلى الحِسَاب؟ قال: فبكى المنصور، ثم قال: ليتني لم أخلق. وبِحك! فكيف أحتال لنفسي؟ فقال: يا أمير المؤمنين، إن للناس أعلاماً يَفْرَعُونَ إليهم في دينهم، وَيَرْضُونَ بهم في دُنياهم، فاجعلهم بِطانتك يُرشدوك، وشاورهم في أمرِكَ يُسدّدوك؛ قال: قد بعثتُ إليهم فهبوا مِنِّي؛ قال: خافوك أن تحملهم على طريقتك، ولكن أفتح بابك، وسهّل حجّابك، وانصُر المظلوم، واقمع الظالم، وخذِ الفَيءَ والصدقات من حلّها، واقسمها بالحقّ والعدل على أهلها، وأنا ضامن عنهم أن يأتوك ويساعدوك على صلاح الأمة. وجاء المؤذنون فسلموا عليه، فصلّى وعاد إلى مجلسه، وطُلب الرجل فلم يوجد.

مقام الأوزاعي بين يدي المنصور

قال الأوزاعي: دخلتُ عليه فقال لي: ما الذي بطأ بك عني؟ قلتُ: وما تُريد مِنِّي يا أمير المؤمنين؟ قال: الاقتباس منك؛ قلتُ: يا أمير المؤمنين، انظر ما تقول، فإنّ مكحولاً حدّثني عن عطية بن بسر أن رسول الله صلى الله عليه وسلم قال: مَنْ بَلَغْتَهُ عن الله نصيحةً في دينه فهي رحمة من الله سيقت إليه، فإن قبلها من الله بشكرو إلا فهي حُجّة من الله عليه، ليزداد إنمًا ويزداد الله عليه غضبًا؛ "وإن بلغه شيء من الحق فرضي فله الرضا، وإن سخطَ فله السخط، ومن كرهه فقد كره الله عزّ وجلّ، لأنّ الله هو الحق المبين". ثم قلتُ: يا أمير المؤمنين، إنك تحمّلت أمانة هذه الأمة، وقد عرضت على السموات والأرض فأبين أن يحملنّها وأشفقنَ منها. وقد جاء عن جدك عبد الله بن عباس في تفسير قول الله عزّ وجلّ: "لا يُعادرُ صغيرةً ولا كبيرةً إلا أحصاها". قال: الصغيرة: التيسم. والكبيرة: الضحك. فما ظنك بالقول والعمل؟ فأعنيك بالله يا أمير المؤمنين أن ترى أن قرابتك من رسول الله صلى الله عليه وسلم تنفعك مع المخالفة لأمره، فقد قال لله: يا صفيّة عمّة محمد، ويا فاطمة بنت محمد، استوهبا أنفسكما من الله فإني لا أغني عنكما من الله شيئاً. وكذلك جدك العباس سأل إمارة من النبي صلى الله عليه وسلم، فقال: أي عمّ، نفسٌ تُحييها، خيرٌ لك من إمارة لا تُحْصِيها. نظرًا لعمه وشفقةً عليه من أن يلي فيحيد عن سنّته حتّاح بعوضة، فلا يستطيع له نفعاً، ولا عنه دُفعاً. وقال صلى الله عليه وسلم: ما من راعٍ يبيتُ غاشاً لرعيته إلا حرم الله عليه رائحة الجنة. وحقيق على الوالي أن يكون لرعيته ناظرًا، ولما استطاع من عوراتهم ساترًا، وبالحق فيهم قائمًا، فلا يتخوّف مُحسنهم منه رهقًا، ولا مُسيئهم عدوانًا؟ فقد كانت بيد رسول الله صلى الله عليه وسلم جريدةٌ يَسْتاك بها، ويردُّعُ المنافقين عنه، فاتاه جبريلُ، فقال: يا محمد، ما هذه الجريدة التي معك؟ اتركها لا تمألاً قلوبهم رعبًا. فما ظنك بمن سفك دماءهم، وقطع أستارهم، ونهب أموالهم؟ يا أمير المؤمنين، إن المغفور له ما تقدّم من ذنبه وما تأخّر، دعا إلى القصاص من نفسه بخدش خدشه أعرابياً لم يتعمّده، فقال جبريلُ: يا محمد، إن الله لم يبعثك جباراً تكسر قرون أمّتك. واعلم يا أمير المؤمنين أن كلّ ما في يدك لا يعدلُ شربةً من شراب الجنة، ولا ثمرةً من ثمارها، ولو أن ثوباً من ثياب أهل النار عُلق بين السماء والأرض لأهلك الناس رايحته، فكيف بمن تقمّصه! ولو أن ذنوباً من "صديد أهل النار صبّ على ماء الدنيا لأحمّه، فكيف بمن تجرّعه! ولو أن حلقة من سلاسل جهنّم وضعت على جبل لأذابته، فكف بمن يُسلّك فيها، ويردّ فضلها على عاتقه!

كلام أبي حازم لسليمان بن عبد الملك

حجّ سليمان بن عبد الملك، فلما قدّم المدينة للزيارة بعث إلى أبي حازم الأعرج، وعنده ابن شهاب، فلما دخل قال: تكلم يا أبا حازم. قال: فيم أتكلّم يا أمير المؤمنين؟ قال: في المخرج من هذا الأمر؛ قال: يسيرٌ إن أنت فعلته؛ قال: وما ذاك؟ قال: لا تأخذ الأشياء إلا من حلّها، ولا تضعها إلا في أهلها؛ قال: ومن يقوى على ذلك؟ قال: من قلّده الله من أمر الرعيّة ما قلّده. قال: عطني يا أبا حازم؟ قال: اعلم أنّ هذا الأمر لم يصير إليك إلا بموت من كان قبلك، وهو خارجٌ من يديك بمثل ما صار إليك. قال: يا أبا حازم، أشير عليّ؛ قال: إنما أنت سوق فما نفق عندك حُمِل إليك من خير أو شرّ،

فاشتر أيهما شئت. قال: مالك لا تأتينا؟ قال: وما أصنع بياتيانك يا أمير المؤمنين؟ إن أدنيتني فتننتني، وإن أقصيتني أخزيتني، وليس عندك ما أرجوك له، ولا عندي ما أخافك عليه. قال: فارفع إلينا حاجتك؛ قال: قد رفعتها إلى ما من هو أقدرك منك عليها، فما أعطاني منها قبلت، وما منعتني منها رخصت.

مقام ابن السماك عند الرشيد

دخل عليه، فلما وقف بين يديه قال له: عطني يابن السمّك وأوجز. قال: كفي بالقرآن واعظاً يا أمير المؤمنين، قال الله تعالى: "بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ. وَيَلِّمُ الْمُطَفِّفِينَ الَّذِينَ إِذَا اكْتَالُوا عَلَى النَّاسِ يَسْتَوْفُونَ: "إلى قوله" لرب العالمين ". هذا يا أمير المؤمنين وعيد لمن طفف في الكيل فما ظنك بمن أخذته كله؟ وقال له مرة: عطني وأتي بماء ليشربه، فقال: يا أمير المؤمنين، لو حبست عنك هذه الشربة أكنت تفديها بملكك؟ قال: نعم؛ قال: فلو حبس عنك خروجها أكنت تفديها بملكك؟ قال: نعم؛ قال: "فما خير في ملك لا يساوي شربة ولا بولة. قال: يابن السماك، ما أحسن ما بلغني عنك! قال: يا أمير المؤمنين، إن لي عيوباً لو أطلع الناس منها على عيب واحد ما ثبتت لي في قلب أحد مودة، وإن لخائف في الكلام الفتنه، وفي السر الغرّة، وإن لخائف على نفسي من قلة خوفاً عليها.

كلام عمرو بن عبيد عند المنصور

دخل عمرو بن عبيد على المنصور وعنده ابنه المهدي، فقال له أبو جعفر: هذا ابن أمير المؤمنين، وولي عهد المسلمين، ورحائي أن تدعو له؛ فقال: يا أمير المؤمنين، أراك قد رخصت له أموراً يصير إليها وأنت عنه مشغول. فاستعبر أبو جعفر، وقال له: عطني أبا عثمان؛ قال: يا أمير المؤمنين، إن الله أعطاك الدنيا بأسرها، فاشتر نفسك منه ببعضها، هذا الذي أصبح في يديك لو بقي في يد من كان قبلك لم يصل إليك. قال: أبا عثمان، أعني بأصحابك؛ قال: ارفع علم الحق يتبعك أهله، ثم خرج، فأتبعه أبو جعفر بصرة، فلم يقبلها وجعل يقول:

صيد غير عمرو بن عبيد

كلكم يمشي رويد كلكم خاتل

خبر سفيان الثوري مع أبي جعفر

لقي أبو جعفر سفيان الثوري في الطواف، وسفيان لا يعرفه، فضرب بيده على عاتقه وقال: أتعرفني؟ قال: لا، ولكنك قبضت علي قبضة جبار. قال: عطني أبا عبد الله؛ قال: وما عملت فيما علمت فأعظك فيما جهلت؟ قال: فما يمنحك أن تأتينا؟ قال: إن الله نهي عنكم، فقال تعالى: "ولا تروكوا إلى الذين ظلموا فتمسكم النار". فمسح أبو جعفر يده به ثم التفت إلى أصحابه، فقال: ألقينا الحب إلى العلماء فلقطوا إلا ما كان من سفيان فإنه أعيانا فراراً.

كلام شبيب بن شيبه للمهدي

قال العتيبي: سألت بعض آل شبيب بن شيبه أتخفظون شيئاً من كلامه؟ قالوا: نعم، قال للمهدي: يا أمير المؤمنين، إن الله إذ قسم الأقسام في الدنيا جعل لك أسناتها وأعلاها، فلا ترض لنفسك في الآخرة إلا مثل ما رضي لك به من الدنيا، فأوصيك بتقوى الله، فعليكم نزلت، ومنكم أخذت، وإليكم ترد.

من كره الموعدة لبعض ما يكون فيها من الغلظ أو الخرق

قال رجل للرشيد: يا أمير المؤمنين، إني أريد أن أعظك بعبظة فيها بعض الغلظة فاحتملها؛ قال: كلاً، إن الله أمر من هو خير منك بإلانة القول لمن هو شر مني، قال لنبية موسى "عليه السلام" إذ أرسله إلى فرعون: "فقلوا له قولاً لئلا لعله يتذكر أو يخشى".

دخل أعرابيُّ على سُلَيْمان بن عبد الملك، فقال: يا أمير المؤمنين، إني مُكَلِّمك بكلامٍ فاحْتَمِلْهُ إن كرهْتَهُ، فإن وراءه ما تُحِبُّ إن قبلْتَهُ؟ قال: هات يا أعرابيُّ؟ قال: إني سأُطَلِّقُ لساني بما حَرَسْتُ عنه الأُلْسُنُ من عِظْتِكَ تَأْدِيَةً لِحَقِّ اللَّهِ تعالى وَحَقِّ إِمَامَتِكَ، إنه قد اكَتَنَّفَكَ رجالُ أَسَاءُوا الاختيارَ لأنفسِهِم فابتاعوا دُنْيَاكَ بدينِهِم، وَرِضَاكَ بِسُخْطِ ربهِم، خَافُوكَ في اللَّهِ ولم يَخَافُوا اللَّهَ فيكَ، فهِم حَرَبٌ لِلآخِرَةِ، سَلِمَ لِلدُّنْيَا، فلا تَأْمَنُهُم عَلَيَّ ما ائْتَمَنَكَ اللَّهُ عَلَيْهِ، فَإِئْتَمَهُمْ لا يَأْلُونكَ حَبَالاً، وَالْأَمَانَةَ تَضْيِيعاً، وَالْأُمَّةَ عَسْفاً وَخَسْفاً، وَأَنْتَ مَسْؤُولٌ عَمَّا اجْتَرَحُوا، وَليْسُوا مَسْؤُولِينَ عَمَّا اجْتَرَحْتَ، فلا تُصَلِّحْ دُنْيَاهُمْ بفسادِ آخِرَتِكَ، فَإِنَّ أَخْسَرَ النَّاسِ صَفْقَةً يَوْمَ الْقِيَامَةِ وَأَعْظَمَهُمْ غَبْنًا مَنْ بَاعَ آخِرَتَهُ بِدُنْيَا غَيْرِهِ. قال سُلَيْمان: أما أَنْتَ يا أعرابيُّ فَقَدْ سَلَّتَ لِسَانَكَ وَهُوَ أَحَدُ سِيفَيْكَ. قال: أَجَلُ يا أمير المؤمنين، لك لا عليك.

ووعظ رجل المأمون فأصغى إليه مُنْتَصِتاً، فلما فرغ قال: قد سمعتُ موعظتَكَ، فاسألُ اللَّهَ أَنْ يَنْفَعَنَا بِهَا وَبِمَا عَلَّمَنَا، غيرَ أَنَّا أَحْوَجُ إلى المَعَاوَنَةِ بِالْفِعَالِ مِنَّا إلى المَعَاوَنَةِ بِالْمَقَالِ، فَقَدْ كَثُرَ الْقَاتِلُونَ، وَقَلَّ الْفَاعِلُونَ.

العُتْبِيُّ قال: دَخَلَ رَجُلٌ مِنْ عَبْدِ الْقَيْسِ عَلَى أَبِي فَوْعِظَةَ، فَلَمَّا فَرَّغَ قَالَ أَبِي لَهُ: لَوْ اتَّعَظْنَا بِمَا عَلَّمْنَا لَا تَنْفَعُنَا بِمَا عَلَّمْنَا، وَلَكِنَّا عَلَّمْنَا عِلْمًا لَرَمْتَنَا فِيهِ الْحُجَّةَ، وَغَفَلْنَا غَفْلَةً مَنْ وَجِبَتْ عَلَيْهِ التَّقْوَةُ، فَوَعَظْنَا فِي أَنْفُسِنَا بِالتَّنْقِيلِ مِنْ حَالٍ إِلَى حَالٍ، وَمَنْ صَغَرَ إِلَى كَبِيرٍ، وَمَنْ صَحَّحَهُ إِلَى سَقَمٍ، فَأَبِينَا إِلَّا الْمَقَامَ عَلَى الْغَفْلَةِ، وَإِنِّثَاراً لِعَاجِلِ لَبَاءِ لَأَهْلِهِ، وَإِعْرَاضاً عَنْ أَجْلِ إِلَيْهِ الْمَصِيرِ.

سعد القَصِيرِ قال: دَخَلَ أَنَسٌ مِنَ الْقُرَاءِ عَلَى عُتْبَةَ بْنِ أَبِي سَفْيَانَ فَقَالُوا: إِنَّكَ سَلَّطْتَ السَّيْفَ عَلَى الْحَقِّ وَلَمْ تَسَلِّطْ الْحَقَّ عَلَى السَّيْفِ، وَجِئْتَ بِهَا عَشْوَةً خَفِيَّةً. قال كَذَبْتُمْ: بَلِ سَلَّطْتَ الْحَقَّ وَبِهِ سَلَّطْتَ، فَاعْرِفُوا الْحَقَّ تَعْرِفُوا السَّيْفَ فَإِنَّكُمْ الْحَامِلُونَ لَهُ حَيْثُ وَضَعَهُ أَفْضَلُ، وَالْوَاضِعُونَ لَهُ حَيْثُ حَمَلَهُ أَعْدَلُ، وَنَحْنُ فِي أَوَّلِ زَمَانٍ لَمْ يَأْتِ آخِرُهُ، وَآخِرِ دَهْرٍ قَدْ فَاتَ أَوَّلُهُ، فَصَارَ الْمَعْرُوفُ عِنْدَكُمْ مُنْكَرًا، وَالْمُنْكَرُ مَعْرُوفًا، وَإِنِّي أَقُولُ لَكُمْ مَهَلًا قَبْلَ أَنْ أَقُولَ لِنَفْسِي هَلَا؟ قَالُوا: فَتَنْخَرِجَ آمِنِينَ؟ قال: غيرَ راشدين ولا مَهْدِيِّينَ.

حاد قوم سَفَرٌ عَنِ الطَّرِيقِ فَدَفَعُوا إِلَى رَاهِبٍ مُتَفَرِّدٍ فِي صَوْمَعَتِهِ، فَنادَوْهُ، فَأَشْرَفَ عَلَيْهِمْ، فَسَأَلُوهُ عَنِ الطَّرِيقِ، فَقَالَ: هَا هُنَا، وَأَوْمَأَ بِيَدِهِ إِلَى السَّمَاءِ، فَعَلِمُوا مَا أَرَادَ؛ فَقَالُوا: إِنَّا سَائِلُوكَ، قَالَ: سَلُّوا وَلَا تُكْثِرُوا، فَإِنَّ النَّهَارَ لَا يَرِجَعُ، وَالْعُمْرُ لَا يَعُودُ، وَالطَّالِبَ حَثِيثٌ؟ قَالُوا: عَلَامَ النَّاسِ يَوْمَ الْقِيَامَةِ؟ قَالَ: عَلَى نِيَّاتِهِمْ وَأَعْمَالِهِمْ؟ قَالُوا: إِلَى أَيْنَ الْمُوتِلُ؟ قَالَ: إِلَى مَا قَدَّمْتُمْ؟ قَالُوا: أَوْصِنَا؟ قَالَ: تَزَوَّدُوا عَلَى قَدَرِ سَفَرِكُمْ، فَخَيْرُ الزَّادِ مَا بَلَغَ الْمَحَلَّ، ثُمَّ أَرْشَدَهُمُ الْجَادَّةَ وَأَنْقَمِعَ.

وقال بعضهم: أتيت الشام فمررتُ بديرِ حَرْمَلَةَ فإذا فيه راهبٌ كأنَّ عينيه مَرادتان، فقلتُ له: ما يُبْكِيكَ؟ قال: يا مُسْلِمَ، أبْكِي على ما فَرَطْتُ فِيهِ مِنْ عُمْرِي، وَعَلَى يَوْمِ يَمُضِي مِنْ أَجْلِي لَمْ يَحْسُنْ فِيهِ عَمَلِي. قال: ثُمَّ مَرَرْتُ بَعْدَ ذَلِكَ فَسَأَلْتُ عَنْهُ، فَقِيلَ لِي: إِنَّهُ قَدْ أَسْلَمَ وَغَزَا الرُّومَ وَقُتِلَ.

قال أبو زَيْدٍ الْحَيْرِيُّ: قُلْتُ لثَوْبَانَ الرَّاهِبِ: مَا مَعْنَى بُسِّ الرَّهْبَانَ هَذَا السَّوَادُ؟ قَالَ: هُوَ أَشْبَهُهُ بلباسِ أَهْلِ الْمَصَائِبِ؟ قُلْتُ: وَكَلِّمُكَ مَعْشَرَ الرَّهْبَانَ قَدْ أَصِيبُ بِمُصِيبَةٍ؟ قَالَ: يَرِحْمَكَ اللَّهُ، وَهَلْ مُصِيبَةٌ أَعْظَمُ مِنْ مَصَائِبِ الذُّنُوبِ عَلَى أَهْلِهَا؟ قَالَ أَبُو زَيْدٍ: فَمَا أَذْكَرُ قَوْلُهُ إِلَّا أَبْكَانِي.

حبيبُ العَدَوِيِّ عَنِ مَوْسَى الْأَسْوَارِيِّ قَالَ: قَالَ: لَمَّا وَقَعَتْ الْفِتْنَةُ أَرَدْتُ أَنْ أَحْرَزَ دِينِي فَخَرَجْتُ إِلَى الْأَهْوَازِ، فَبَلَغَ أَزَادْمَرْدَ قُدُومِي، فَبَعَثَ إِلَيَّ مَتَاعاً، فَلَمَّا أَرَدْتُ الْانْصِرَافَ بَلَغَنِي أَنَّهُ ثَقِيلٌ، فَدَخَلْتُ عَلَيْهِ فَإِذَا هُوَ كَالْحَفَّاشِ لَمْ يَبْقَ مِنْهُ إِلَّا رَأْسُهُ، فَقُلْتُ: مَا حَالُكَ؟ قَالَ: وَمَا حَالُ مَنْ يُرِيدُ سَفَرًا بَعِيدًا بِغَيْرِ زَادٍ وَيَدْخُلُ قَبْرًا مَوْحِشًا بِلَا مَوْسٍ، وَيَنْتَظِقُ إِلَى مَلِكٍ عَدَلٌ بِلَا حُجَّةٍ؟ ثُمَّ خَرَجْتُ نَفْسُهُ.

العُتْبِيُّ قَالَ: مَرَرْتُ بِرَاهِبٍ بَاكٍ فَقُلْتُ: مَا يُبْكِيكَ؟ قَالَ: أَمْرٌ عَرَفْتُهُ وَقَصُرْتُ عَنْ طَلْبِهِ، وَيَوْمٌ مَضَى مِنْ عُمْرِي نَقَصَ لِي أَجْلِي وَلَمْ يُنْقِصْ لِي أَمَلِي.

باب كلام الزهاد وأخبار العباد

قيل لقوم من العباد: ما أقامكم في الشمس؟ قالوا: طلب الظل.

قال علقمة لأُسُودَ بْنِ يَزِيدٍ: كَمْ تُعَذِّبُ هَذَا الْجَسَدَ الضَّعِيفَ؟ قَالَ: لَا تَنَالُ الرَّاحَةَ إِلَّا بِالتَّعَبِ. وقيل لآخر: لو رفقتَ بنفسك؟ قال: الخَيْرُ كُلُّهُ فِيما أَكْرَهْتَ النَّفْسُ عَلَيْهِ، قَالَ النَّبِيُّ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ: حُقَّتِ الْجَنَّةُ بِالْمَكَارِهِ.

وقيل لمسروق بن الأجدع: لقد أضرت ببدنك؟ قال: كرامته أريد. وقالت له امرأته فيروز لما رآته لا يُفطر من صيام ولا يفتر عن صلاة: ويلك يا مسروق! أما يعبد الله غيرك؟ أما خلقت النار إلا لك؟ قال لها: ويحك يا فيروز! إن طالب الجنة لا يسأم، وهارب النار لا ينام. وشككت أم الدرداء إلى أبي الدرداء الحاجة، فقال لها: تصبري فإن أماننا عقبه كئوداً لا يجاوزها إلا أخف الناس حملاً.

ومر أبو حازم بسوق الفاكهة، فقال: موعدك الجنة. ومر بالجزارين، فقالوا له: يا أبا حازم، هذا لحم سمين فاشتره؛ قال: ليس عندي ثمنه؛ قالوا: نُوحرك؛ قال: أنا أؤخر نفسي. وكان رجل من العباد يأكل الرمان بقره، فقيل له: لم تفعل هذا؟ فقال: إنما هو عدو فأنخن فيه ما أمكنك. وكان علي بن الحسين عليهما السلام إذا قام للصلاة أخذته رعدة، فسئل عن ذلك، فقال: ويحكم! أتدرون إلى من أقوم ومن أريد أن أناجي؟ وقال رجل ليونس بن عبيد: هل تعلم أحداً يعمل بعمل الحسن؟ قال: لا والله، ولا أحداً يقول بقوله. وقيل لمحمد بن علي بن الحسين، أو لعلي بن الحسين عليهم السلام: ما أقل ولد أبيك؟ قال: العجب كيف ولدت له! وكان يصلي في اليوم والليلة ألف ركعة، فمتى كان يتفرغ للنساء؟ وحج خمسة وعشرين حجةً راجلاً.

ولما ضرب سعيد بن المسيب وأقيم للناس قالت له امرأة: "يا شيخ"، لقد أقيمت مقام خزية؛ فقال: من مقام الخزية فررت. وشكا الناس إلى مالك ابن دينار القحط، فقال: أنتم تستبطنون المطر وأنا أستبطن الحجارة. وشكا أهل الكوفة إلى الفضيل بن عياض القحط؛ فقال: أمد براً غير الله تريدون؟ وذكر أبو حنيفة أيوب السخيتي، فقال: رحمه الله تعالى، ثلاثاً، لقد قدم المدينة مرة وأنا بها، فقلت: لأعدن إليه لعلي أتعلق منه بسقطة، فقام بين يدي القبر مقاماً ما ذكرته إلا اقشعر له جلدي. وقيل لأهل مكة: كيف كان عطاء بن أبي رباح فيكم؟ قالوا: كان مثل العافية التي لا يعرف فضلها حتى تُفقد. وكان عطاء أفضس أشل أعرج ثم عمي، وأمه سوداء تسمى بركة. وكان الأوقص المخزومي قاضياً بمكة فما رآه مثله في عفاه وزهده، فقال يوماً لجلسائه: قالت لي أمي: يا بني، إنك خلقت خلقة لا تصلح معها لمجامع الفتيان عند القيان، "إنك لا تكون مع أحدٍ إلا تخطئك إليه العيون"، فعليك بالدين فإن الله يرفع به الحسياسة، ويُتم به النقيصة. فنفعني الله تعالى بكلامها، وأطعتها فوليت القضاء.

الفضيل بن عياض قال: اجتمع محمد بن واسع ومالك بن دينار في مجلس بالبصرة، فقال مالك بن دينار: ما هو إلا طاعة الله أو النار. فقال محمد بن واسع: ما هو كما تقول، ليس إلا عفو الله أو النار. قال مالك: صدقت. ثم قال مالك: إنه يُعجبني أن يكون للرجل معيشة على قدر ما يقوته. قال محمد بن واسع: ولا هو كما تقول، ولكن يُعجبني أن يصبح الرجل، وليس له غداء، ويُمسي وليس له عشاء، وهو مع ذلك راضٍ عن الله. قال مالك: ما أحوجني إلى أن يُعلمني مثلك.

جعفر بن سليمان قال: سمعت عبد الرحمن بن مهدي يقول: ما رأيت أحداً أقشَف من شعبة، ولا أعبد من سُفيان الثوري، ولا أحفظ من ابن المبارك، وما أحب أن ألقى الله بصحيفة أحدٍ إلا بصحيفة بشر بن منصور، مات ولم يدع قليلاً ولا كثيراً. عبد الأعلى بن حماد قال: دخلت على بشر بن منصور وهو في الموت، فإذا به من السرور في أمر عظيم، فقلت له: ما هذا السرور؟ قال: سُحان الله! أخرج من بين الظالمين والباغين والحاسدين والمعتنين وأقدم على أرحم الراحمين ولا أَسر؟.

حجَّ هارون الرشيد، فبلغه عن عابد بمكة مُجاب الدعوة مُعتزل في جبال تهامة، فاتاه هارون الرشيد فسأله عن حاله، ثم قال له: أوصني ومُرني بما شئت، فوالله لا عصيتك. فسكت عنه ولم يرد عليه جواباً. فخرج عنه هارون، فقال له أصحابه: ما منعك إذ سألك أن تأمره بما شئت - وقد حلف أن لا يعصيك - أن تأمره بتقوى الله والإحسان إلى رعيته؟ فخط لهم في الرمل: إني أعظمتُ الله أن يكون يأمره فيصيه وأمره أنا فيطيعني.

علي بن حمزة ابن "أخت" سُفيان الثوري قال: لما مرض سُفيان مرضه الذي مات فيه ذهب ببوله إلى دبراني، فأرئته إياه فقال: ما هذا ببول حنيفي؟ قلت: بلى والله، من خيارهم. قال: فأنا أذهب معك إليه. قال: فدخل عليه وجسَّ عرقه، فقال: هذا رجلٌ قطع الحزن كبدته. مؤرق العجلي قال: ما رأيت أحداً أفقه في ورعه ولا أروع لا فقهه من محمد بن سيرين، ولقد قال يوماً: ما عَشيتُ امرأةً قط في نوم ولا يقظة، إلا امرأتي أم عبد الله، فلاني أرى المرأة في النوم، فاعلم أنها لا تحل لي، فأصرف بصري عنها.

الأصمعي عن ابن عَوْن قال: رأيت ثلاثة لم أر مثْلهم: محمد بن سيرين بالعراق، والقاسم بن محمد بالحجاز، ورجاء بن حيوة بالشام. العُتبي قال: سمعت أشياخنا يقولون: انتهى الزهد إلى ثمانية من التابعين: عامر بن عبد القيس، والحسن بن أبي الحسن البصري، وهريم بن حيان، وأبي مسلم الخولاني، وأويس القرني، والربيع بن خثيم، ومسروق بن الأجدع، والأسود بن يزيد.

كيف يكون الزهد

العُتبي يرفعه قال: قيل لرسول الله صلى الله عليه وسلم: ما الزهد في الدنيا؟ قال: أما إنه ما هو بتحریم الحلال، ولا إضاعة المال، ولكن الزهد في الدنيا أن تكون بما في يد الله أغنى منك عما في يدك. وقيل للزهري: ما الزهد؟ قال: أما إنه ليس تشعيث اللمة، ولا قشف الهيمه، ولكنه صرف النفس عن الشهوة. وقيل لآخر: ما الزهد في الدنيا؟ قال: أن لا يغلب الحرام صبرك، ولا الحلال شكرك وقيل لرسول الله صلى الله عليه وسلم: يا رسول الله، من أزهّد الناس في الدنيا؟ قال من لم ينس المقابر والبلى، وآثر ما يبقى على ما يفنى، وعدّ نفسه مع الموتى. وقيل لمحمد بن واسع: من أزهّد الناس في الدنيا؟ قال: من لا يبالي بيد من كانت الدنيا. وقيل للخليل بن أحمد: من أزهّد الناس في الدنيا؟ قال: من لم يطلب المفقود حتى يفقد الموجود. وقال النبي صلى الله عليه وسلم: الزهد في الدنيا مفتاح الرغبة في الآخرة، والرغبة في الدنيا مفتاح الزهد في الآخرة. وقالوا: مثل الدنيا والآخرة كمثل رجل له امرأتان ضرّتان، إن أرضى إحداهما أسخط الأخرى. وقال النبي صلى الله عليه وسلم: من جعل الدنيا أكبر همه نزع الله خوف الآخرة من قلبه، وجعل الفقر بين عينيه، وشغله فيما عليه لا له. وقال ابن السّمك: الزاهد الذي إن أصاب الدنيا لم يفرح، وإن أصابته الدنيا لم يحزن، يضحك في المأل، ويبيكي في الخلال. وقال الفضيل: أصل الزهد في الدنيا الرضا عن الله تعالى.

صفة الدنيا

قال رجل لعلي بن أبي طالب كرم الله وجهه: يا أمير المؤمنين، صف لنا الدنيا.

قال: ما أصف من دار أولها عناء، وآخرها فناء، حلالها حساب، وحرامها عقاب؟ من أستغنى فيها فتن، ومن افتقر فيها حزن. قيل لأرسطاطاليس: صف لنا الدنيا. فقال: ما أصف من دار أولها قوت، وآخرها موت. وقيل لحكيم: صف لنا الدنيا. قال: أمل بين يديك، وأجل مطل عليك، وشيطان فتان، وأمانني جرارة العنا؛ تدعوك فتستجيب، وترجوها فتخيب. وقيل لعامر بن عبد القيس: صف لنا الدنيا. قال: الدنيا والدة للموت، ناقضة للميرم، مرجّعة للعطية، وكل من فيها يجري إلى ما لا يدري. وقيل لبكر بن عبد الله المزني: صف لنا الدنيا. فقال: ما مضى منها فحلّم، وما بقي فأمانني، وقيل لعبد الله بن ثعلبة: صف لنا الدنيا قال: أمسك مذموم منك، ويومك غير محمود لك، وعدك غير مأمون عليك. وقال النبي صلى الله عليه وسلم: الدنيا سجن المؤمن وجنة الكافر. وقال: الدنيا عرض حاضر، يأكل منه البر والفاجر، والآخرة وعد صدق يحكم فيها ملك قادر، يفصل الحق من الباطل. وقال: الدنيا خضرة حلوة، فمن أخذها بحقها بورك له فيها، ومن أخذها بغير حقها كان كالأكل الذي لا يشبع. وقال ابن مسعود: ليس من الناس أحد إلا وهو ضيف على الدنيا وماله عارية، فالضيف مرتحل، والعارية مردودة. وقال المسيح عليه السلام: الدنيا لإبليس مزرعة وأهلها حرّاث. وقال إبليس: ما أبالي إذا أحب الناس الدنيا أن لا يعبدوا صنما ولا وتنا، الدنيا أفن لهم من ذلك، وكان النبي صلى الله عليه وسلم يسمي الدنيا أم ذفر. والذفر: النتن. وقال النبي صلى الله عليه وسلم للضحك بن سفيان: ما طعامك؟ قال: اللحم والبن؛ قال: ثم إلى ماذا يصير؟ قال: يصير إلى ما قد علمت؛ قال: فإن الله عز وجل ضرب ما يخرج من ابن آدم مثلاً للدنيا. وقال المسيح عليه السلام لأصحابه: اتخذوا الدنيا قنطرة فاعبروها ولا تعمروها. وفي بعض الكتب: أوحى الله إلى الدنيا: من خدمني فخدمته، ومن خدمك فاستخدمه. وقيل لثوح عليه السلام: يا أبا البشر يا طويل العمر، كيف وجدت الدنيا؟ قال: كبيت له بابان، دخلت من أحدهما وخرجت من الآخر. وقال لقمان لابنه: إن الدنيا بحر عريض، قد هلك فيه الأولون والآخرون، فإن استطعت فاجعل سفينتك تقوى الله، وعدتك التوكل على الله، وزادك العمل الصالح، فإن نجوت فبرحمة الله، وإن هلكت فبذنوبك.

وقال محمد بن الحنفية: من كُرِّمت عليه نفسه هانت عليه الدنيا. وقال: إنَّ الملوك خَلَّوْا لكم الحكمة فَخَلُّوا لهم الدنيا. وقيل لمحمد بن واسع: إنك لترضى بالدُّون؛ قال: إنما رَضِي بالدُّون من رَضِي بالدنيا. وقال المسيخُ عليه الصلاة والسلام للحواريين: أنا الذي كَفَّأتُ الدنيا عليَّ وَجَهِها، فليس لي زوجةٌ تموت ولا بَيْتٌ يَخْرَب. شكَا رجل إلى يونس بن عُبيد وَجَعًا يَجده؛ فقال له: يا عبد الله، هذه دار لا توافقك، فالتمس لك داراً تُوافقك. لقي رجلاً رَاهِباً، فقال: يا راهب، صِف لنا الدنيا؛ فقال: الدنيا تُخَلِّق الأبدان، وتُجَدِّد الآمال، وتباعد الأُمْنِيَّة، وتُقَرِّب المنيَّة، قال: فما حال أهلها؟ قال مَنْ ظَفَرَ بها تَعَب، ومن فائتته نَصِب؟ قال: فما الغنى عنها؟ قال: قَطَعَ الرَّجَاءَ منها، قالت: فأين المَخْرَج؟ قال: في سُلوِك المُنْهَج؟ قال: وما ذاك؟ قال بَدَل المجهود، والرِّضا بالموجود. قال الشاعر:

فحيثما انقلبت يوماً به انقلبوا
يوماً عليه بما لا يَسْتَنهي وتبوا

ما الناسُ إلا مع الدنيا وصاحبها
يُعظَّمون أبا الدنيا وإن وثبت

وقال آخر:

تَتَخَّ عن خطبتِها تَسَلِّم
قريبة العُرس من الماتَم

يا خاطبَ الدنيا إلى نفسه
إنَّ التي تَخْطُبُ غزارةً

داود بن المُحَبَّر قال: أحرنا عبدُ الواحد بن الخطاب قالت: أقبلنا قافلين من بلاد الروم حتى إذا كُنَّا بين الرُّصافة وَحِمَص، سمعنا صوتاً من تلك الجبال، تَسْمعه آذاننا ولا تُبصره أبصارنا، يقول: يا مَسْتُوريا مَحْفُوظ، انظر في سترٍ من "وَحِظْ من" أنت، إنما الدنيا شَوْك، فانظر أين تَضَع قدميك منها. وقال أبو العتاهية:

مُلِحَّ على الدنيا وكلُّ مُفَاخِر
فَرَّت حَلَقَه منها بِشَفْرة جازر
لدى الله أو مقدارَ نَغْبَةِ طائرٍ
ولم يَرْضَ بالدنيا عِقاباً لكافر

رَضِيَتْ بذي الدنيا كَكُلِّ مُكَاثِر
ألم تَرَهَا تَسْفِيه حتى إذا صَبَا
"ولا تَعْدُلُ الدنيا جَنَاحَ بَعُوضَة
فلم يَرْضَ بالدنيا ثواباً لمؤمن

وقال أيضاً:

وتَمَّ سرورُها خَذَلَتْ
كما فيمن مَضَى فَعَلَتْ

هي الدنيا إذا كَمَلَتْ
وتَفَعَل في الذين بقوا

وقال بعضُ الشعراء يصف الدنيا:

بمنزلة ما بعدها متحوَّلُ
وراضٍ بأمر غيره سيبدلُ
ومخترَم من دون ما كان يأمَلُ

لقد غرت الدنيا رجالاً فأصبحوا
فساخطُ أمر لا يَبْدَلُ غيره
وبالغُ أمر كان يأمَلُ دونه

وقال هارون الرشيد: لو قيل للدنيا صفي لنا نفسك، وكانت مِّن يَنْطِق، ما وَصفت نفسها بأكثر من قول أبي نُواس:

له عن عدوِّ في ثياب صديقٍ
وذو نسبٍ في الهالكين عريقٍ

إذا امتحن الدنيا لبيبٌ نكشفت
وما الناسُ إلا هالكٌ وابن هالكٍ

وقال آخر في صفة الدنيا:

فَرُحْنَا وِرَاحَ الشَّامِتُونَ عَشِيَّةً
لِحَا اللَّهِ دُنْيَا يَدْخُلُ النَّارَ أَهْلُهَا

ولأبي العتاهية:

كَأَنَّ عَلَيَّ أَكْتَفَانَا فَلَقَّ الصَّخْرُ
وَتَهْتَكُ مَا بَيْنَ الْأَقْرَابِ مِنْ سِتْرِ

يَا وَكَلٍ بِحُبِّهَا مَقْتُونَ
هَامَ لُطْفًا وَلَا تَرَاهَا الْعُيُونَ
حَرَكَاتٍ كَأَنَّهُنَّ سُكُونٌ

كُنَّا يُكْثِرُ الْمَلَامَةَ لِلدَّنِ
وَالْمَقَادِيرُ لَا تَتَاوَلُهَا الْأَوْ
وَلرِكْبِ الْفَنَاءِ فِي كُلِّ يَوْمٍ

ومن قولنا في وصف الدنيا:

إِذَا اخْضَرَ مِنْهَا جَانِبٌ جَفَّ جَانِبٌ
عَلَيْهَا وَلَا اللَّذَاتُ إِلَّا مَصَائِبُ
وَقَرَّتْ عُيُونَ دَمْعُهَا الْيَوْمَ سَاكِبٌ
عَلَى ذَاهِبٍ مِنْهَا فَإِنَّكَ ذَاهِبٌ

أَلَا إِنَّمَا الدُّنْيَا نِضَارَةٌ أَيْكَةٌ
هِيَ الدَّارُ مَا الْأَمَالُ إِلَّا فَجَائِعُ
فَكَمْ سَخَنَتْ بِالْأَمْسِ عَيْنَ قَرِيرَةٍ
فَلَا تَكْتَحِلُ عَيْنَاكَ فِيهَا بِعَبْرَةٍ

وقال أبو العتاهية:

وَالْحَمْدُ لِلَّهِ عَلَى ذَلِكَ
وَلَا أَرَى مِنْهُمْ لَهَا تَارِكًا

أَصْبَحَتِ الدُّنْيَا لَنَا فِتْنَةً
قَدْ أَجْمَعَ النَّاسُ عَلَى ذَمِّهَا

وقال إبراهيم بن أدهم:

فَلَا دِينَنَا يَبْقَى وَلَا مَا نُرَقِّعُ

نُرَقِّعُ دُنْيَانَا بِتَمْزِيْقِ دِينِنَا

وما سمعتُ في صفة الدنيا والسبب الذي يُحبها الناسُ لأجله بأبلغ من قول القائل:

وَتَعْتَرِضُ الدُّنْيَا فَنَلْهُوً وَنَلْعَبُ
وَمَا كُنْتُ مِنْهُ فَهُوَ شَيْءٌ مُحِبَّبٌ

نِرَاعٍ بِذِكْرِ الْمَوْتِ فِي حِينِ ذِكْرِهِ
وَنَحْنُ بَنُو الدُّنْيَا خُلِقْنَا لِغَيْرِهَا

فذكر أن الناس بنو الدنيا وما كان الإنسان منه فهو محبب إليه.

واعلم أن الإنسان لا يُحب شيئاً إلا أن يُجانسه في بعض طبائعه، وأن الدنيا جَانَسَتْ الإنسان في طبائعه كلها فأحبها بكل أطرافه. وقال بعض ولد ابن شبرمة: كنت مع أبي جالساً قبل أن يلي القضاء فمر به طارقٌ بن أبي زياد في موكب نبيل، فلما رآه أبي تنفس الصعداء وقال:

سَحَابَةٌ صَيْفٍ عَنِ قَلِيلٍ تَقْشَعُ

أَرَاهَا وَإِنْ كَانَتْ تُحِبُّ كَأَنَّهَا

ثم قال: اللهم لي ديني ولهم دنياهم. فلما ابتلى بالقضاء، قلت: يا أبت، أتذكر يوم طارق؟ فقال: يا بُني، إنهم يجدون خلفاً من أهلك وإن أباك لا يجد خلفاً منهم، إن أباك خطب في أهوائهم، وأكل من حلواتهم.

وقال الشعبي: ما رأيتُ مثلاً ومثلاً الدنيا إلا كما قالت كُثَيْرٌ عَزَّة:

لَدَيْنَا وَلَا مَقْلِيَّةٌ إِنْ تَقَلَّتْ

أَسِيْبِي بِنَا أَوْ أَحْسَنِي لَا مَلُومَةٌ

وأحكم بيت قبيل في تمثيل الدنيا قول الشاعر:

وَمَنْ يَأْمَنَ الدُّنْيَا يَكُنْ مِثْلَ قَابِضٍ

على الماء خائنته فُروجُ الأصابع

وَحَدَّثَ الْعَبَّاسُ بْنُ الْفَرَجِ الرَّيَّاشِيُّ قَالَ: رَأَيْتُ الْأَصْمَعِيَّ يُنْشِدُ هَذَا الْبَيْتَ وَيَسْتَحْسِنُهُ فِي صِفَةِ الدُّنْيَا:

ما عذر مُرْضِعَةٍ بِكَا

س الموت تَفْطِمُ مَنْ غَدَتْ

وَلَقَطَهْرِيُّ بْنُ الْفُجَاءَةِ فِي وَصْفِ الدُّنْيَا خُطْبَةً مَجْرَدَةً تَقَعُ فِي جَمَلَةِ الْخُطْبِ فِي كِتَابِ الْوَاسِطَةِ.

قولهم في الخوف

سُئِلَ ابْنُ عَبَّاسٍ عَنِ الْخَائِفِينَ لِلَّهِ، فَقَالَ: هُمُ الَّذِي صَدَّقُوا اللَّهَ فِي مَخَافَةِ وَعِيدِهِ، فَقَلْبُهُمْ بِالْخَوْفِ قَرِيحَةٌ، وَأَعْيُنُهُمْ عَلَى أَنْفُسِهِمْ بَاكِيةٌ، وَدُمُوعُهُمْ عَلَى خُدُودِهِمْ جَارِيَةٌ، يَقُولُونَ: كَيْفَ نَفْرَحُ وَالْمَوْتُ مِنْ وَرَائِنَا، وَالْقُبُورُ مِنْ أَمَامِنَا، وَالْقِيَامَةُ مَوْعِدُنَا، وَعَلَى جَهَنَّمَ طَرِيقُنَا، وَبَيْنَ يَدَيْ رَبِّنَا مَوْفِقُنَا. وَقَالَ عَلِيُّ كَرَّمَ اللَّهُ وَجْهَهُ: أَلَا إِنَّ لِلَّهِ عِبَادًا مُخْلِصِينَ، كَمَنْ رَأَى أَهْلَ الْجَنَّةِ فِي الْجَنَّةِ فَكَاهِنِينَ، وَأَهْلَ النَّارِ فِي النَّارِ مُعَدِّينَ، شَرُّورُهُمْ مَأْمُونَةٌ، وَقُلُوبُهُمْ مَحْزُونَةٌ، وَأَنْفُسُهُمْ عَفِيفَةٌ، وَحَوَائِجُهُمْ خَفِيفَةٌ، صَبَرُوا أَيَّامًا قَلِيلَةً، لِعُغْيَى رَاحَةٍ طَوِيلَةٍ؛ أَمَّا بِاللَّيْلِ فَصَفُّوا أَقْدَامَهُمْ فِي صَلَاتِهِمْ، تَجْرِي دُمُوعُهُمْ عَلَى خُدُودِهِمْ، يَخْجَرُونَ إِلَى رَبِّهِمْ: رَبَّنَا رَبَّنَا، يَطْلُبُونَ فَكَاكَ قُلُوبِهِمْ: وَأَمَّا بِالنَّهَارِ فَعُلَمَاءُ حُلَمَاءَ، بَرَّةٌ أَتْقِيَاءَ، كَأَهْمِ الْقِدَاحِ- الْقِدَاحِ: السَّهَامِ، يَرِيدُ فِي ضَمْرَتِهَا- يَنْظُرُ إِلَيْهِمُ النَّاطِرُ فَيَقُولُ: مَرَضَى، وَمَا بِالْقَوْمِ مِنْ مَرَضٍ، وَيَقُولُ: خُوْلَطُوا، وَلَقَدْ خَالَطَ الْقَوْمَ أَمْرٌ عَظِيمٌ. وَقَالَ مَنْصُورُ بْنُ عَمَّارٍ فِي مَجْلِسِ الزُّهْدِ: إِنَّ لِلَّهِ عِبَادًا جَعَلُوا مَا كُتِبَ عَلَيْهِمْ مِنَ الْمَوْتِ مِثَالًا بَيْنَ أَعْيُنِهِمْ، وَقَطَعُوا الْأَسْبَابَ الْمُتَّصِلَةَ بِقُلُوبِهِمْ مِنْ عِلَاقِقِ الدُّنْيَا، فَهَمُ أَنْضَاءُ عِبَادَتِهِ، حُلَفَاءُ طَاعَتِهِ قَدْ نَضَحُوا خُدُودَهُمْ بِوَابِلِ دُمُوعِهِمْ، وَافْتَرَشُوا جِبَاهَهُمْ فِي مَحَارِبِهِمْ، يَنَاجُونَ ذَا الْكِبْرِيَاءِ وَالْعَظَمَةَ فِي فَكَاكَ رِقَابِهِمْ.

وَدَخَلَ قَوْمٌ عَلَى عُمَرَ بْنِ عَبْدِ الْعَزِيزِ يَعُودُونَهُ فِي مَرَضِهِ، وَفِيهِمْ شَابٌّ ذَابِلٌ نَاحِلٌ. فَقَالَ لَهُ عُمَرُ: يَا فَتَى، مَا بَلَغَ بِكَ مَا أَرَى؟ قَالَ: يَا أَمِيرَ الْمُؤْمِنِينَ، أَمْرَاضٌ وَأَسْقَامٌ. قَالَ لَهُ عُمَرُ: لَتَصُدَّقَنَّيَّ. قَالَ: بَلَى يَا أَمِيرَ الْمُؤْمِنِينَ، ذُقْتُ يَوْمًا حَلَاوَةَ الدُّنْيَا فَوَجَدْتُهَا مَرَّةً عَوَاقِبُهَا، فَاسْتَوَى عِنْدِي حَجَرُهَا وَذَهَبُهَا، وَكَأَنِّي أَنْظُرُ إِلَى عَرْشِ رَبِّنَا بَارِزًا، وَإِلَى النَّاسِ يُسَاقُونَ إِلَى الْجَنَّةِ وَالنَّارِ، فَأَظْمَأْتُ نَهَارِي، وَأَسْهَرْتُ لَيْلِي، وَقَلِيلٌ كُلُّ مَا أَنَا فِيهِ فِي جَنبِ ثَوَابِ اللَّهِ وَخَوْفِ عِقَابِهِ.

وَقَالَ ابْنُ أَبِي الْخَوَارِيزِيِّ: قُلْتُ لِسُفْيَانَ: بَلِّغْنِي فِي قَوْلِ اللَّهِ تَبَارَكَ وَتَعَالَى: "إِلَّا مَنْ أَتَى اللَّهَ بِقَلْبٍ سَلِيمٍ" الَّذِي يَلْقَى رَبَّهُ وَلَيْسَ فِيهِ أَحَدٌ غَيْرُهُ. فَبَكَى وَقَالَ: مَا سَمِعْتُ مِنْذُ ثَلَاثِينَ سَنَةً أَحْسَنَ مِنْ هَذَا التَّفْسِيرِ. وَقَالَ الْحَسَنُ: إِنَّ خَوْفَكَ حَتَّى تَلْقَى الْأَمْنَ خَيْرٌ مِنْ أَمْنِكَ حَتَّى تَلْقَى الْخَوْفَ. وَقَالَ: يَنْبَغِي أَنْ يَكُونَ الْخَوْفُ أَغْلَبَ عَلَى الرَّجَاءِ، فَإِنَّ الرَّجَاءَ إِذَا غَلَبَ الْخَوْفَ فَسَدَ الْقَلْبُ. وَقَالَ: عَجِبًا لِمَنْ خَافَ الْعِقَابَ وَلَمْ يَكْفِ، وَلِمَنْ رَجَا الثَّوَابَ وَلَمْ يَعْمَلْ. وَقَالَ عَلِيُّ بْنُ أَبِي طَالِبٍ كَرَّمَ اللَّهُ وَجْهَهُ لِرَجُلٍ: مَا تَصْنَعُ؟ فَقَالَ: أَرْجُو وَأَخَافُ، قَالَ: مَنْ رَجَا شَيْئًا طَلَبَهُ، وَمَنْ خَافَ شَيْئًا هَرَبَ مِنْهُ. وَقَالَ الْفَضِيلُ بْنُ عِيَاضٍ: إِنِّي لَأَسْتَحِي مِنَ اللَّهِ أَنْ أَقُولَ: تَوَكَّلْتُ عَلَى اللَّهِ، وَلَوْ تَوَكَّلْتُ عَلَيْهِ حَقَّ التَّوَكُّلِ مَا خِفْتُ وَلَا رَجَوْتُ غَيْرَهُ. وَقَالَ: مَنْ خَافَ اللَّهَ أَخَافَ اللَّهُ مِنْهُ كُلَّ شَيْءٍ، وَمَنْ لَمْ يَخَفِ اللَّهَ أَخَافَهُ اللَّهُ مِنْ كُلِّ شَيْءٍ. وَقَالَ: وَعَدَ مِنَ اللَّهِ لِمَنْ خَافَهُ أَنْ يُدْخِلَهُ اللَّهُ الْجَنَّةَ، وَتَلَا قَوْلَهُ عَزَّ وَجَلَّ: "وَلَمَنْ خَافَ مَقَامَ رَبِّهِ جَنَّاتٍ".

وَقَالَ عُمَرُ بْنُ ذَرِّجَةَ: عِبَادَ اللَّهِ، لَا تَعْتَرُوا بِطُولِ حَلْمِ اللَّهِ، وَاحْذَرُوا أَسْفَهَهُ، فَإِنَّهُ قَالَ عَزَّ وَجَلَّ: "فَلَمَّا أَسْفُونَا أَنْتَقَمْنَا مِنْهُمْ فَأَغْرَقْنَاهُمْ أَجْمَعِينَ. فَجَعَلْنَاهُمْ سَلَفًا وَمَثَلًا لِّلْآخِرِينَ". وَقَالَ مُحَمَّدُ بْنُ سَلَامٍ: سَمِعْتُ يُونُسَ بْنَ حَبِيبٍ يَقُولُ: لَا تَأْمَنُ مَنْ قَطَعَ فِي حِمْسَةِ دَرَاهِمٍ أَشْرَفَ عَضُو فَيْكَ أَنْ تَكُونَ عُقُوبَتُهُ فِي الْآخِرَةِ أضعافَ ذَلِكَ. وَقَالَ الرَّبِيعُ بْنُ خُثَيْمٍ: لَوْ أَنَّ لِي نَفْسَيْنِ إِذَا غَلِقَتْ إِحْدَاهُمَا سَعَتِ الْآخَرَى فِي فَكَاكِهَا، وَلَكِنهَا نَفْسٌ وَاحِدَةٌ، فَإِنَا أَوْثَقْتُهَا مَنْ يَفْكَهَا؟ وَفِي الْحَدِيثِ: مَنْ كَانَتِ الدُّنْيَا هَمَّهُ طَالَ فِي الْآخِرَةِ عَمُّهُ، وَمَنْ أُخْلِيفَ الْوَعِيدَ لَهَا عَمَّا يُرِيدُ، وَمَنْ خَافَ مَا بَيْنَ يَدَيْهِ ضَاقَ ذَرْعًا بِمَا فِي يَدَيْهِ. وَقَالَ مُحَمَّدُ الْوَرَّاقُ:

يا غافلًا تَرْتَنُو بِعَيْتِي راقِد

ومُشَاهِدًا لِلأَمْرِ غَيْرَ مُشَاهِدٍ

تَصِلُ الذُّنُوبَ إِلَى الذُّنُوبِ وَتَرْتَجِي

وَنَسِيتَ أَنَّ اللَّهَ أَخْرَجَ آدَمًا

وقال نايغة بني شيبان:

عَرَكَ الْجَنَانَ بِهَا وَفَوَزَ الْعَابِدِ

منها إلى الدنيا بِذَنْبِ واحد

حين يخلو بسرّه غير خالي

شاهداه وربّه ذو الجلال

إِنَّ مَنْ يَرَكِبُ الْفَوَاحِشَ سِرًّا

كيف يخلو وعنده كاتباه

قولهم في الرجاء

قال العلماء: لا تشهد على أحد من أهل القبلة بجنة ولا بنار، يُرْجَى للمُحْسِنِ ويُخَافُ عليه، ويخاف عليه المُسِيءُ ويُرْجَى له. وفي الحديث المرفوع: إنَّ اللَّهَ يَغْفِرُ ولا يُعَيِّرُ، والناسُ يَعْبِرُونَ ولا يَغْفِرُونَ. وفي حديث آخر: لا تُكْفَرُوا أهل الذنوب.

وَتُوْفِّي رجلٌ في عهد رسول الله صلى الله عليه وسلم، وكان مُسْرِفًا على نفسه، وفرَّع برأسه وهو يجود بنفسه، فإذا أبواه يَبْكِيَانِ عند رأسه، فقال: ما يَبْكِيَكِمْ؟ قالوا: نَبْكِي لإسرافك على نفسك؛ قال: لا تَبْكِيَا، فوالله ما يَسُرُّني أن الذي بيد الله من أمري بأيديكم، ثم مات. فأتى جبريل عليه الصلاة والسلام النبي صلى الله عليه وسلم، فأخبره أن فتى تُوفِّي اليوم فأشهدته بأنه من أهل الجنة. فسأل رسولُ الله صلى الله عليه وسلم أبويه عن عمله، فقالوا: ما عَلِمنا عنده شيئاً من خَيْرٍ إلا أنه قال لنا عند الموت كذا وكذا؟ فقال رسول الله صلى الله عليه وسلم: من ها هنا أوتي، إن حُسن الظنِّ بالله من أفضل العمل عنده. وتُوْفِّي رجل بجوار ابن ذرٍّ وكان مُسْرِفًا على نفسه، فتحامى الناسُ من جنازته، وبلغ ذلك عُمَرَ بن ذرٍّ، فأوصى أهله: إذا جهزتموه فأذنوني، ففعلوا، فشهدته الناسُ معه، فلما أُذْلِي وَقَفَ على قبره فقال: رَحِمَك اللهُ أبا فلان، فلقد صَحَبْتَ عُمَرَكَ بالتَّوْحِيدِ، وَعَفَرْتَ وَجْهَكَ لِلَّهِ بالسجود، فإن قالوا مُذْنِبٌ وذو خطايا، فمن مَنَّا غير مُذْنِبٍ و"غير" ذي خطايا؟ "وتمثل معاوية عند الموت بهذا البيت:

نُحَاذِرُ بَعْدَ الْمَوْتِ أَنْكِي وَأُفْطَعُ

هُوَ الْمَوْتُ لَا مَنَجِي مِنَ الْمَوْتِ وَالَّذِي

ثم قال: اللَّهُمَّ فَأَقِلِ الْعَثْرَةَ، وَاغْفِرْ عَنِ الرَّئِةِ، وَعُدْ بِحِلْمِكَ عَلَى جَهْلٍ مِنْ لَمْ يَرُجْ غَيْرَكَ، وَلَمْ يَنْتَقِ إِلَّا بِكَ، فَإِنَّكَ وَاسِعُ الْمَغْفِرَةِ. يا رب، أين لذي الخطأ مهرب إلا إليك. قال داود بن أبي هند: فبلغني أن سعيد بن المسيب قال حين بلغه ذلك: لقد رغب إلى من لا مرغب إلا إليه كرهاً، وإني أرجو من الله له الرحمة".

الأصمعي قال: سمعتُ أعرابياً يقول في دُعائه وأبتهاله: إلهي، ما توهمتُ سعة رحمتك، إلا وكانت نعمة عَفْوِكَ تُفَرِّعُ مسامعي: أن قد غفرتُ لك. فصدَّق ظني بك، وحقَّق رجائي فيك يا إلهي. ومن أحسن ما قيل في الرجاء هذا البيت:

أَرَى بِجَمِيلِ الظَّنِّ مَا اللَّهُ صَانِعُ

وَإِنِّي لَأَرْجُو اللَّهَ حَتَّى كَأَنَّي

قولهم في التوبة

مرَّ المسيح "بن مريم" عليه السلام بقوم من بني إسرائيل يَبْكُونَ، فقال لهم: ما يُبْكِيَكِمْ؟ قالوا: نَبْكِي لذنوبنا؟ قال: اتركوها تُغْفَرْ لكم. وقال علي بن أبي طالب كرم الله وجهه: عجباً لمن يَهْلِكُ ومعه النجاة! قيل له: وما هي؟ قال: التوبة والاستغفار.

وقالوا: كان شابٌّ من بني إسرائيل قد عبد الله عشرين حجةً ثم عصاه عشرين حجة، فبينما هو في بيته يتراءى في مرآته نَظَرَ إلى الشَّيْبِ في لِحْيَتِهِ فسأه ذلك فقال: إلهي، أظعتك عشرين سنةً، وعصيتك عشرين سنةً، فإن رجعتُ إليك تُقبَلْني؟ فسَمِعَ صوتاً من زاوية البيت ولم ير شخصاً: أَحْبَبْنَا فَأَحْبَبْنَاكَ، وَتَرَكْنَا فَمَهَلْنَاكَ، وَإِنْ رَجَعْتَ إِلَيْنَا قَبْلَنَاكَ.

عبد الله بن العلاء قال: حَرَجْنَا حُجَّاجًا مِنَ الْمَدِينَةِ. فَلَمَّا كُنَّا بِالْحَلِيفَةِ نَزَلْنَا، فَوَقَّفَ عَلَيْنَا رَجُلٌ عَلَيْهِ أَثْوَابٌ رَثَّةٌ لَهُ مِنْظَرٌ وَهَيْئَةٌ، فَقَالَ: مَنْ يَبْغِي خَادِمًا؟ مَنْ يَبْغِي سَاقِيًّا؟ مَنْ يَمْلَأُ قِرْبَةً أَوْ إِدَاوَةً؟ فَقُلْنَا: دُونَكَ هَذِهِ الْقِرْبُ فَاْمَلَأْهَا. فَأَخَذَهَا وَانْطَلَقَ، فَلَمْ يَلْبَثْ إِلَّا يَسِيرًا حَتَّى أَقْبَلَ، وَقَدْ امْتَلَأَتْ أَثْوَابُهُ طِينًا، فَوَضَعَهَا وَهُوَ كَالْمَسْرُورِ الضَّاحِكِ ثُمَّ قَالَ: لَكُمْ غَيْرُ هَذَا؟ قُلْنَا: لَا، وَأَطْعَمْنَاهُ قَارِصًا حَازِرًا، فَأَخَذَهُ، وَحَمِدَ اللَّهَ وَشَكَرَهُ، ثُمَّ اعْتَرَلَ وَقَعَدَ يَأْكُلُ أَكْلًا جَائِعًا، فَأَدْرَكْتَنِي عَلَيْهِ الرَّقَّةُ، فَقَمَمْتُ إِلَيْهِ بِطَعَامٍ طَيِّبٍ كَثِيرٍ، وَقُلْتُ: قَدْ عَلِمْتُ أَنَّهُ لَمْ يَقَعْ مِنْكَ الْقَارِصُ مَوْعِدًا فِدُونِكَ هَذَا الطَّعَامَ فَكُلْهُ. فَظَنَرْتُ فِي وَجْهِهِ وَتَبَسَّمَ وَقَالَ: يَا عَبْدَ اللَّهِ، إِنَّمَا هِيَ فَوْزَةٌ هَذِهِ النَّارُ قَدْ أَطْفَأْتَهَا، وَضَرَبَ بِيَدِهِ عَلَى بَطْنِهِ. فَرَجَعْتُ وَقَدْ انْكَسَفَ بَالِي لَمَّا رَأَيْتُ مِنْ هَيْئَتِهِ. فَقَالَ لِي رَجُلٌ كَانَ إِلَى جَانِبِي: أَعْرِفُهُ؟ قُلْتُ: مَا أَعْرِفُهُ؟ قَالَ: هَذَا رَجُلٌ مِنْ بَنِي هَاشِمٍ مِنْ وَلَدِ الْعَبَّاسِ بْنِ عَبْدِ الْمُطَّلِبِ، كَانَ يَسْكُنُ الْبَصْرَةَ، فَتَابَ وَخَرَجَ مِنْهَا فَفُقِدَ وَمَا يُعْرِفُ لَهُ أَثَرٌ. فَأَعْجَبَنِي قَوْلُهُ، ثُمَّ لَحِقْتُ بِهِ وَنَاشَدْتُهُ اللَّهَ، وَقُلْتُ لَهُ: هَلْ لَكَ أَنْ تَعَادِلَنِي، فَإِنْ مَعِيَ فَضْلًا مِنْ رَاحِلَتِي وَأَنَا رَجُلٌ مِنْ بَعْضِ أَخْوَالِكَ؟ فَجَزَانِي خَيْرًا، وَقَالَ: لَوْ أَرَدْتُ شَيْئًا مِنْ هَذَا لَكَانَ لِي مُعَدًّا؟ ثُمَّ أُنْسَ إِلَيَّ وَجَعَلَ يُحَدِّثُنِي، وَقَالَ: أَنَا رَجُلٌ مِنْ وَلَدِ الْعَبَّاسِ كُنْتُ أَسْكُنُ الْبَصْرَةَ وَكُنْتُ ذَا كِبَرٍ شَدِيدٍ وَجَبْرُوتٍ وَبَذَخٍ، وَإِنِّي أَمَرْتُ خَادِمًا أَنْ تَحْشُو لِي فِرَاشًا وَمِخْدَةً مِنْ حَرِيرٍ بَوْرِدٍ نَثِيرٍ، فَفَعَلْتُ، فَإِنِّي لِنَائِمٍ إِذْ أَيْقَظْتَنِي قِمَعٌ وَرَدَّةٌ أَغْفَلْتَهُ الْخَادِمُ، فَقَمَمْتُ إِلَيْهَا فَأَوْجَعْتَهَا ضَرْبًا. ثُمَّ عُدْتُ إِلَى مَضْجَعِي بَعْدَ أَنْ خَرَجَ ذَلِكَ الْقِمَعُ مِنَ الْمِخْدَةِ، فَأَتَانِي آتٌ فِي مَنَامِي فِي صُورَةٍ فَطِيعَةٍ فَنَهَرَنِي وَزَبَرَنِي، وَقَالَ: أَفِقْ مِنْ غَشَّيْتِكَ وَأَبْصِرْ مِنْ حَيْرَتِكَ، ثُمَّ أَنْشَأَ يَقُولُ:

وَسَدَّتْ بَعْدَ الْمَوْتِ صُمَّ الْجَنْدَلِ

فَلْتَتَدَمَّنَ غَدًا إِذَا لَمْ تَفْعَلْ

يَا خَذْ إِنَّكَ إِنْ تَوَسَّدَ لَيْنًا

فَامْهَدْ لِنَفْسِكَ صَالِحًا تَنْجُو بِهِ

فَانْتَبَهْتُ فَرَعًا وَخَرَجْتُ مِنْ سَاعَتِي هَارِبًا بِدِينِي إِلَى رَبِّي.

وقالوا: علامة التوبة الخروج من الجهل، والندم على الذنب، والتجافي عن الشهوة، وترك الكذب، والانتهاة عن خُلُقِ السَّوِّءِ. وقالوا: التائب من الذنب كمن لا ذنب له، وأول التوبة الندم. ومن قولنا في هذا المعنى:

أَخَوْفُ مِنْ أَنْ يَعْدِلَ الْحَاكِمُ

وَلَيْسَ لِي مِنْ دُونِهِ رَاحِمٌ

أَسْرَفَ إِلَّا أَنَّهُ نَادِمٌ

يَا وَيْلَنَا مِنْ مَوْقِفٍ مَا بِهِ

أُبَارِزُ اللَّهَ بِعَصِيَانِهِ

يَارَبِّ غُفْرَانَكَ عَنْ مُذْنِبٍ

وقال بعض أهل التفسير: في قول الله تبارك وتعالى: "يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا تُوبُوا إِلَى اللَّهِ تَوْبَةً نَصُوحًا": إِنَّ التَّوْبَةَ النَّصُوحَ أَنْ يَتُوبَ الْعَبْدُ عَنِ الذَّنْبِ وَلَا يَتَوَّيُّ أَنْ يَعُودَ إِلَيْهِ. وقال ابن عباس في قول الله عزَّ وجلَّ "إِنَّمَا التَّوْبَةُ عَلَى اللَّهِ لِلَّذِينَ يَعْمَلُونَ السُّوءَ بِجَهَالَةٍ ثُمَّ يَتُوبُونَ مِنْ قَرِيبٍ": إِنَّ الرَّجُلَ لَا يَرُكِبُ ذَنْبًا وَلَا يَأْتِي فَاِحْشَةً إِلَّا وَهُوَ جَاهِلٌ. وقوله: "ثُمَّ يَتُوبُونَ مِنْ قَرِيبٍ" قال: كُلُّ مَا كَانَ دُونَ الْمَعَايِنَةِ فَهُوَ قَرِيبٌ، وَالْمَعَايِنَةُ أَنْ يُؤْخَذَ بِكُطْمِ الْإِنْسَانِ، فَذَلِكَ قَوْلُهُ: "إِذَا حَضَرَ أَحَدَهُمُ الْمَوْتُ قَالَ إِنِّي تُبْتُ الْآنَ". قال أهل التفسير: هو إِذَا أُخِذَ بِكُطْمَةٍ. وقال ابن شُبْرُمَةَ: إِنِّي لِأَعْجَبُ مَنْ يَحْتَمِي مَخَافَةَ الضَّرْرِ وَلَا يَدْعُ الذَّنُوبَ مَخَافَةَ النَّارِ.

المبادرة بالعمل الصالح

قال الله عزَّ وجلَّ: "وَسَارِعُوا إِلَى مَغْفِرَةٍ مِنْ رَبِّكُمْ وَحَنَّةً" وقال تعالى: "وَالسَّابِقُونَ السَّابِقُونَ أُولَئِكَ الْمُقَرَّبُونَ". وقال الحسن: بادروا بالعمل الصالح قبل حلول الأجل، فإنَّ لكم ما أمضيتم لا ما أبقيتم. وقالوا: ثلاثة لا أناة فيهن: المبادرة بالعمل الصالح، ودفن الميت، وإنكاح الكُفء. وقال النبي صلى الله عليه وسلم: ابن آدم، اغتنم خمسا قبل خمس: شبابك قبل هرمك، وصحتك قبل سقمك، وفراغك قبل شغلك، وحياتك قبل موتك، وغناك قبل

فَقَرَّكَ. وقال الحسن: " ابن آدم، صُمْ قَبْلَ أَنْ لَا تَقْدِرَ عَلَى يَوْمِ تَصُومُهُ، كَأَنَّكَ إِذَا ظَمِئْتَ لَمْ تُكُنْ رَوِيْتَ، وَكَأَنَّكَ إِذَا رَوِيْتَ لَمْ تَكُنْ ظَمِئْتَ. وَكَانَ يَزِيدُ الرَّقَاشِي يَقُولُ: يَا يَزِيدُ، مَنْ يَصُومُ عِنْدَكَ أَوْ يُصَلِّيَ لَكَ أَوْ يَتَرَضَّى لَكَ رَبِّكَ إِذَا مِتَ؟ وَكَانَ خَالِدُ بْنُ مَعْدَانَ يَقُولُ:

إِذَا أَنْتَ لَمْ تَتَزَّرَعْ وَأَبْصُرْتَ حَاصِداً **نَدِمْتَ عَلَى التَّقْرِيطِ فِي زَمَنِ الْبَذْرِ**

وقال ابن المبارك: رَكِبْتُ مَعَ مُحَمَّدِ بْنِ النَّضْرِ فِي سَفِينَةٍ، فَقُلْتُ: بِأَيِّ شَيْءٍ أُسْتَخْرَجُ مِنْهُ الْكَلَامُ؟ فَقُلْتُ لَهُ: مَا تَقُولُ فِي الصَّوْمِ فِي السَّفَرِ؟ فَقَالَ: إِنَّمَا هِيَ الْمِبَادِرَةُ يَا بَنَ أَخِي. فَجَاءَنِي وَاللَّهِ بَقِيَّةً غَيْرَ فُتِيًّا إِبْرَاهِيمَ وَالشَّعْبِيَّ. وَمِنْ قَوْلِنَا فِي هَذَا الْمَعْنَى:

بَادِرْ إِلَى التَّوْبَةِ الْخَلْصَاءِ مُجْتَهِداً **والموتُ وَيَحْكُ لَمْ يَمُدِّدَ إِلَيْكَ يَدَا**
وَأَرْقُبْ مِنَ اللَّهِ وَعَدَاً لَيْسَ يُخْلِفُهُ **لَا بُدَّ لِلَّهِ مِنْ إِنْجَازِ مَا وَعَدَا**

وقال علي بن أبي طالب رضي الله عنه لأصحابه: فيم أنتم؟ قالوا: نَرْجُو وَنَخَافُ؟ قَالَ: مَنْ رَجَا شَيْئاً طَلَبَهُ، وَمَنْ خَافَ شَيْئاً هَرَبَ مِنْهُ. وَقَالَ الشَّاعِرُ:

تَرْجُو النَّجَاةَ وَلَمْ تَسَلُكْ مَسَالِكَهَا **إِنَّ السَّفِينَةَ لَا تَجْرِي عَلَى الْيَبِيسِ**

وقال آخر:

اعْمَلْ وَأَنْتَ مِنَ الدُّنْيَا عَلَى حَذَرٍ **وَأَعْلَمُ بِأَنَّكَ بَعْدَ الْمَوْتِ مَبْعُوثٌ**
وَأَعْلَمُ بِأَنَّكَ مَا قَدَمْتَ مِنْ عَمَلٍ **يُحْصَى عَلَيْكَ وَمَا خَلَّفْتَ مَوْرُوثٌ**

وَقَدَمَتْ عَائِشَةُ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهَا إِلَى النَّبِيِّ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ صَحْفَةً فِيهَا خُبْزٌ شَعِيرٍ وَقِطْعَةٌ مِنْ كَرَشٍ، وَقَالَتْ: يَا رَسُولَ اللَّهِ، ذَبَحْنَا الْيَوْمَ شَاةً فَمَا أَمْسَكْنَا مِنْهَا غَيْرَ هَذَا؟ فَقَالَ: بَلْ كُلُّهَا أَمْسَكْتُمْ غَيْرَ هَذَا.

العجز عن العمل

قال رجلٌ لِمُورِقِ الْعِجْلِيِّ: أَشْكُو إِلَيْكَ نَفْسِي، إِنَّمَا لَا تُرِيدُ الصَّلَاةَ وَلَا تَسْتَطِيعُ الصَّبْرَ عَلَى الصِّيَامِ؛ قَالَ: بئسَ الشَّاءُ أَنْتِيتَ بِهِ عَلَى نَفْسِكَ، فَإِذَا ضَعُفْتَ عَنِ الْخَيْرِ فَاضْعُفْ عَنِ الشَّرِّ، فَإِنَّ الشَّاعِرَ قَالَ:

احْزَنْ عَلَى أَنَّكَ لَا تَحْزَنْ **وَأَضْعُفْ عَنِ الشَّرِّ كَمَا تَدْعَى**
وَلَا تُسَيِّئْ إِنْ كُنْتَ لَا تُحْسِنُ **ضَعْفًا عَنِ الْخَيْرِ وَقَدْ يُمَكِّنُ**

وقال بكر بن عبد الله: اجتهدوا في العمل، فإن قصر بكم ضعف فأمسكوا عن المعاصي. وقال الحسن رحمه الله: من كان قويا فليعتمد على قوته في طاعة الله، ومن كان ضعيفا فليكف عن معاصي الله. وقال علي بن أبي طالب عليه السلام: لا تكن كمن يعجز عن شكر ما أوتي، ويبتغي الزيادة فيما بقي، وينهى الناس ولا ينتهي.

وكان الحسن إذا وعظ يقول: يا لها موعظة لو صادفت من القلوب حياة، أسمع حسيباً ولا أرى أنيساً، ما لهم تفاقدا عقولهم، فرأش نار وذباب طمع. وكان ابن السمك إذا فرغ من موعظته يقول: ألسنة تصف، وقلوب تعرف، وأعمال تخالف. وقال: الحسنه نور في القلب وقوة في العمل، والسئنة ظلمة في القلب وضعف في العمل.

وقال بعض الحكماء: يا أيها المشيخة الذين لم يتركوا الذنوب حتى تركزتهم الذنوب، ثم ظنوا أن تركها لهم توبة، وليتهم إذ ذهب عنهم لم يتمنوا عودها إليهم. وكان مالك بن دينار يقول: ما أشد فطام الكبير وينشد:

وتَرُوضُ عَرِسَكَ بَعْدَمَا هَرِمَتْ

ومن حديث محمد بن وَصَّاح قال: إذا بلغَ الرجلُ أربعين سنةً ولم يُتَّبِ مَسْحَ إِبْلِيسُ بيده على وجهه وقال: بِأَبِي وَجْهٌ لَا أَفْلَحُ أَبَدًا. قال الشاعر:

حَيَا وَقَالَ فَدَيْتُ مِنْ لَا يُفْلِحُ

فَإِذَا رَأَى إِبْلِيسُ غُرَّةَ وَجْهِهِ

وقال رجلٌ للحسن: أبا سعيد، أردتُ أن أُصَلِّيَ فلم أستطع؛ قال: فَيَدِّتُكَ ذُنُوبُكَ.

قولهم في الموت

قال النبي صلى الله عليه وسلم لعمر بن الخطَّابِ رضوانُ الله عليه: ما عندك من ذِكْرِ الموتِ أبا حَفْصٍ؟ قال: أُمْسِي فما أرى أَنِّي أُصْبِحُ، وأُصْبِحُ فما أرى أَنِّي أُمْسِي؟ قال: الأمرُ أوْشَكَ من ذلك أبا حَفْصٍ، أما إِنَّهُ يَخْرُجُ عَنِّي نَفْسِي فما أرى أَنَّهُ يَعُودُ إِلَيَّ. وقال عبد بن شَدَّاد: أرى داعي الموتِ لَا يُفْلِعُ، و"أرى" مَنْ مَضَى لَا يَرْجِعُ، وَمَنْ بَقِيَ فَإِلَيْهِ يَنْزِعُ. وقال الحسن: ابن آدم، إِنَّمَا أَنْتَ عَدَدٌ، فَإِذَا مَضَى يَوْمُكَ فَقَدْ مَضَى بَعْضُكَ. وقال أبو العتاهية:

وَرَحَى الْمَنِيَّةَ تَطْحَنُ

الناس في غفلاتهم

وقال عمر بن عبد العزيز: مَنْ أَكْثَرَ من ذِكْرِ الموتِ اكتفي باليسير، وَمَنْ عَلِمَ أَنَّ الكَلَامَ عَمَلٌ قَلَّ كَلَامُهُ إِلَّا فِيمَا يَنْفَعُ. وكان أبو الدَّرْدَاءِ إِذَا رَأَى جِنَازَةً، قال: اغدي فَإِنَا راتِحُونَ، أو رُوحِي فَإِنَا غَادُونَ. وقال رجلٌ للحسن: مات فلانٌ فجاءةً، فقال: لو لم يَمُتْ فجاءةً لَمَرَضَ فجاءةً ثم مات. وقال يعقوب صلواتُ الله عليه للبَشِيرِ الذي أتاه بقميصِ يوسف: ما أَذْرِي ما أَثْبِيكَ به، ولكن هَوَّنَ اللهُ عَلَيْكَ سَكَراتِ الموتِ. وقال أبو عمرو بن العلاء: لَقَدْ جَلَسْتُ إِلَى جَرِيرٍ وَهُوَ يُمْلِي عَلَيَّ كاتِبِهِ: وَدَعَّ أُمَامَةَ حَانَ مِنْكَ رَحِيلٌ ثُمَّ طَلَعَتْ جِنَازَةً فَأَمْسَكَ وَقَالَ: شَيَّبَتْنِي هَذِهِ الْجِنَازَةُ؟ قُلْتُ: فَلَمْ تَسُبَّ النَّاسَ؟ قال: يَبْدُو بِي ثُمَّ لَا أَعْفُو، وَأَعْتَدِي وَلَا أَتَّيِدِي. ثم أنشد يقول:

فَنَلَّهُو حِينَ تَذْهَبُ مُدْبِرَاتِ

تُرَوِّعُنَا الْجِنَازُ مَقْبِلَاتِ

فلما غابَ عادتُ راتعاتِ

كَرَوَعَةَ هَجْمَةٍ لِمُغَارِ سَبْعِ

وقالوا: مَنْ جَعَلَ الموتَ بَيْنَ عَيْنَيْهِ لَهَا عَمَّا فِي يَدَيْهِ. وقالوا: اتَّخَذَ نُوْحٌ بَيْتًا مِنْ خُصٍّ؟ فَقِيلَ لَهُ: لَوْ بَنَيْتَ ما هُوَ أَحْسَنُ مِنْ هَذَا؟ قال: هَذَا كَثِيرٌ لَمَنْ يَمُوتُ.

وأحکم بيتِ قالته العَرَبُ فِي وَصْفِ الموتِ بَيْتُ أُمِيَّةِ بْنِ أَبِي الصَّلْتِ، حَيْثُ يَقُولُ:

فِي بَعْضِ غِرَاتِهِ يُوَأْفِقُهَا

يُوشِكُ مَنْ فَرَّ مِنْ مَنِئِيَّتِهِ

للموتِ كَأَسِّ وَالْمَرءِ ذَائِقُهَا

مَنْ لَمْ يَمُتْ غَبْطَةً يَمُتْ هَرَمًا

وقال إصْبَغُ بْنُ الفَرَجِ: كانَ بَنَجْرانَ عابِدٌ يَصْبِحُ فِي كُلِّ يَوْمٍ صَاحِتَيْنِ بِهَذِهِ الأَبْيَاتِ:

وَعُدُّوْها مِنْ حَيْثُ لَا تُمْسِي

قَطَعَ البَقَاءَ مَطالِعُ الشَّمْسِ

وَعُرُوبُها صَفراءُ كالوَرَسِ

وَطَلُوْعُها حَمراءُ قانِيَةٌ

وَمَضَى بِفَضْلِ قَضائِهِ أَمَسِ

اليومُ يُخْبِرُ ما يَجِيءُ بِهِ

قال آخر:

ولعلَّ غيرَكَ صاحِبُ البَيْتِ

زِينتُ بَيْتِكَ جَاهِلًا وَعَمَرَتَهُ

مَنْ كَانَتْ الْأَيَّامُ سَائِرَةً بِهِ
وَالْمَرْءُ مُرْتَهَنٌ بِسَوْفٍ وَلَيْتَنِي
لِلَّهِ دَرٌّ فَتَى تَدَبَّرَ أَمْرَهُ

وقال صريع الغواني:

كَمْ رَأَيْنَا مِنْ أَنَاسٍ هَلَكُوا
تَرَكُوا الدُّنْيَا لِمَنْ بَعْدَهُمْ
كَمْ رَأَيْنَا مِنْ مُلُوكٍ سُوْقَةَ

وقال الصَّلْتَانُ الْعَبْدِيُّ:

أَشَابَ الصَّغِيرَ وَأَفْنَى الْكَبِي
إِذَا لَيْلَةٌ أَهْرَمَتْ يَوْمَهَا
نُرُوحٌ وَنَعْدُو لِحَاجَاتِنَا
تَمُوتُ مَعَ الْمَرْءِ حَاجَاتُهُ

وكان سُفْيَانُ بْنُ عُيَيْنَةَ يَسْتَحْسِنُ قَوْلَ عَدِيِّ بْنِ زَيْدٍ:

أَيْنَ أَهْلُ الدِّيَارِ مِنْ قَوْمِ نُوحٍ
بَيْنَمَا هُمْ عَلَى الْأَسْرَةِ وَالْآنَ
وَصَحِيحٌ أَمْسَى يَعُودُ مَرِيضاً
ثُمَّ لَمْ يَنْقُضِ الْحَدِيثُ وَلَكِنْ

وقال أبو العتاهية في وَصْفِ الْمَوْتِ:

كَأَنَّ الْأَرْضَ قَدْ طُوِّبَتْ عَلَيَّ
كَأَنَّ قَدْ صَرْتُ مُنْفَرِداً وَحِيداً
كَأَنَّ الْبَاكِيَّاتِ عَلَيَّ يَوْماً
ذَكَرْتُ مَنِيَّتِي فَنَعَمْتُ نَفْسِي

وقال:

سَتَخْلُقُ جِدَّةً وَتَجُودُ حَالُ
وَلِلدُّنْيَا وَدَائِعُ فِي قُلُوبِ
تَخَوَّفُ مَا لَعَلَّكَ لَا تَرَاهُ
وَقَدْ طَلَعَ الْهَيْلَالُ لِهَدْمِ عُمْرِي

فَكَأَنَّهُ قَدْ حَلَّ بِالْمَوْتِ
وَهَلَكَهُ فِي السَّوْفِ وَاللَّيْتِ
فَغَدَا وَرَاحَ مُبَادِرَ الْفَوْتِ

قَدْ بَكَوْا أَحْبَابَهُمْ ثُمَّ بُكُوا
وَدَّهَمَ لَوْ قَدَّمُوا مَا تَرَكَوْا
وَرَأَيْنَا سُوقَةَ قَدْ مَلَكُوا

رَكَرُ الْغَدَاةِ وَمَرُّ الْعَشِيِّ
أَتَى بَعْدَ ذَلِكَ يَوْمَ فِتْيِ
وَحَاجَةٌ مِّنْ عَاشٍ لَا تَنْقُضِي
وَتَبَقَى لَهُ حَاجَةٌ مَا بَقِيَ

ثُمَّ عَادَ مِنْ بَعْدِهَا وَتَمُودُ
مَاطٍ أَفْضَتْ إِلَى التُّرَابِ الْخُدُودِ
وَهُوَ أَدْنَى لِلْمَوْتِ مِمَّنْ يَعُودُ
بَعْدَ ذَا كُلِّهِ وَذَاكَ الْوَعِيدِ

وَقَدْ أُخْرِجْتُ مِمَّا فِي يَدَيَا
وَمُرْتَهناً هُنَاكَ بِمَا لَدَيَا
وَلَا يُغْنِي الْبُكَاءُ عَلَيَّ شَيْئاً
أَلَا أَسْعُدُ أُخِيكَ يَا أُخِيّاً

وَعِنْدَ الْحَقِّ تَخْتَبِرُ الرِّجَالَ
بِهَا جَرَّتِ الْقَطِيعَةُ وَالْوِصَالَ
وَتَرْجُو مَا لَعَلَّكَ لَا تَتَّالُ
وَأَفْرَحُ كُلَّمَا طَلَعَ الْهَيْلَالُ

والمَنَايا لا تُبالي من أنتُ
وشَقَاءٍ وَعَناءٍ وَعَنَتِ
سالمًا إلا قليلاً إن نَبَتِ
لو نَهَيْتَ النفسَ عنه لانتَهتِ
نفسه إذ قال خَيْرًا أو سَكَتِ

وكان منِّي نحو المَوْتِ قَيْدِ يَدِ
فالدَّمْعُ في صَبَبِ والنفسِ في صُعْدِ
حتى يُفَرِّقَ بينَ الرُّوحِ والجَسَدِ

وأنتُ من الهلاكِ على شَفِيرِ
يُؤدِّيهِ إلى أَجْلِ قَاصِرِ
تريكِ مكانَ قبركِ في القَبورِ
فإنَّ الحُزْنَ عاقِبَةُ السُرُورِ
كعَاريَةٍ تَرُدُّ إلى المَعِيرِ
وَدَارَ الحَقِّ من دارِ الغُرُورِ

إلا وللمَوْتِ سَيْفٌ فيهِ مَسْئُولُ

تَجَاوَزَ اللهُ عَنَّا
بِكَاسِهِ حَيْثُ كُنَّا

يَبْنِي عَلَيَّ من كُلِّ النِّوَاحيِ
لَعَلِّي لا أَعِيشُ إلى الصَّبَّاحِ

مِنَ الحَيَاةِ قَاصِرِ غيرِ مُمْتَدِّ

مَنْ يَعِيشُ يَكْبُرُ وَمَنْ يَكْبُرُ يَمُتُ
نحنُ في دارِ بَلَاءٍ وَأَذَى
مَنْزَلٌ ما يَنْبُتُ المرءُ به
أَيُّهَا المَغْرُورُ ما هَذَا الصَّبَا
رَحِمَ اللهُ امرأً أَنْصَفَ مِنْ

ومن قولنا في ذكر الموت:

مَنْ لِي إِذا جُدَّتْ بَيْنَ الأهلِ والوَلَدِ
والدَّمْعُ يَهْمُلُ والأَنفاسُ صاعِدَةٌ
ذاكَ القِضاءُ الَّذي لا شَيءَ يَصْرِفُهُ

ومن قولنا فيه:

أُتْلَهُو بَيْنَ باطِيَةِ وِزِيرِ
فيا مَنْ غَرَّهُ أَمَلٌ طَوِيلٌ
أَتَفَرَّحُ والمِنيَّةُ كُلَّ يَوْمِ
هي الدُّنيا فإنَّ سَرَتَكَ يَوْمًا
سَتَسَلِّبُ كُلَّ ما جَمَعْتَ مِنْها
وَتَعْتاضُ اليَقِينِ مِنَ التَّنْظِي

ولأبي العتاهية:

وَلَيْسَ مِنْ مَنزَلٍ يَأوِيهِ ذُو نَفْسِ

وله أيضاً:

ما أَقْرَبَ المَوْتِ مَنَّا
كَأَنَّهُ قَدْ سَقَّانا

وله أيضاً:

أُؤمِّلُ أَنْ أُحَلِّدَ والمَنَايا
وما أَدْرِي إِذا أَمْسِيتُ حَيًّا

وقال العزّال:

أَصْبَحْتُ وَاللَّهِ مَجْهُودًا على أَمَلِ

وما أفارق يوماً من أفارقه
انظر إلي إذا أدرجت في كفني
وأقعد قليلاً وعاین من يُقيم معي
هيهات كلهم في شأنه لعبٌ

وقال أبو العتاهية:

نعي لك ظلَّ الشَّبَابِ المَشِيبُ
فكن مستعداً لريب المنون
وقبلك داوى الطبيب المریض
يخاف على نفسه من يتوب

وله أيضاً:

أخي ادخر مهما أستطع
فلتزلن بمنزلٍ

وقال أبو الأسود الدؤلي:

أيها الأمل ما ليس له

رُبَّ من بات يُمني نفسه
والفتى المحتال فيما نابَه
قل لمن متل في أشعاره
نافس المحسن في إحسانه

وقال عدي بن زيد العبادي:

أين كسرى كسرى الملوك أنوشر
وبنو الأصفر الكرام ملوك الرُّ
وأخو الحصر إذ بناه وإذ دج
شاده مرمرًا وجلله كلس
لم يهينه ريب المنون فبان ال
وتبين رب الخورنق إذ أش
سره ماله وكثرة ما يم

إلا حسبت فراقى آخر العهد
وانظر إلي إذا أدرجت في اللحد
ممن يُشيع نعشي من ذوي ودِّي
يرمي التراب ويحتوه على خدي

ونادتك باسم سواك الخطوب
فإن الذي هو آت قريب
فعاش المریض ومات الطبيب
فكيف ترى حال من لا يتوب

ت ليوم بؤسك وافتقارك
تحتاج فيه إلى ادخارك

ربما غر سفيهاً أمله

حال من دون مناه أجله
ربما ضاقت عليه حيله
يهلك المرء ويبقى مثله
فسيكفيك سناء عمله

وإن أم أين قبله سابور
وم لم يبق منهم مذکور
له تجبي إليه والخابور
سأ فلطير في ذراه وكور
ملك عنه فبابه مهجور
رف يوماً وللهدى تفكير
لك والبحر معرضاً والسدير

فارْعَوِي قَلْبَهُ وَقَالَ فَمَا غِيبَ
ثُمَّ بَعْدَ الْفَلَاحِ وَالْمُلْكِ وَالنَّعِّ
ثُمَّ صَارُوا كَأَنَّهُمْ وَرَقٌ

وقال حُرَيْثُ بْنُ جَبَلَةَ الْعُدْرِيُّ:

يَا قَلْبُ إِنَّكَ فِي الْأَحْيَاءِ مَغْرُورٌ
حَتَّى مَتَى أَنْتَ فِيهَا مُدْنَفٌ وَلَهُ
قَدْ بُحْتُ بِالْجَهْلِ لَا تُخْفِيهِ عَنْ أَحَدٍ
تَرِيدُ أَمْرًا فَمَا تَدْرِي أَعَاجِلُهُ
فَاسْتَقْدِرِ اللَّهَ خَيْرًا وَارْضِينَ بِهِ
وَبَيْنَمَا الْمَرْءُ فِي الْأَحْيَاءِ مُغْتَبِطٌ
حَتَّى كَأَنَّ لَمْ يَكُنْ إِلَّا تَوْهَمَهُ
يَبْكِي الْغَرِيبَ عَلَيْهِ لَيْسَ يَعْرِفُهُ
فَذَاكَ آخِرُ عَهْدٍ مِنْ أَخِيكَ إِذَا

طَةَ حَيٍّ إِلَى الْمَمَاتِ يَصِيرُ؟
مَةَ وَارْتَهُمْ هُنَاكَ الْقُبُورُ
جَفَّ فَأَلَوْتَ بِهِ الصَّبَا وَالذَّبُورُ

فَاذْكُرْ وَهَلْ يَنْفَعُكَ الْيَوْمَ تَذْكَيرُ
لَا يَسْتَفْرِتُكَ مِنْهَا الْبُدْنَ الْحُورُ
حَتَّى جَرَتْ بِكَ أَطْلَاقًا مُحَاضِيرُ
خَيْرٌ لِنَفْسِكَ أَمْ مَا فِيهِ تَأْخِيرُ
فَبَيْنَمَا الْعُسْرُ إِذْ دَارَتْ مَيَاسِيرُ
إِذْ صَارَ فِي الرَّمْسِ تَعْفُوهُ الْأَعَاصِيرُ
وَالدَّهْرُ فِي كُلِّ حَالِيهِ دَهَارِيرُ
وَذُو قَرَابَتِهِ فِي الْحَيِّ مَسْرُورُ
مَا ضَمَنْتَ شِلْوَهُ اللَّحْدَ الْمُحَافِيرُ

قولهم في الطاعون

قال أبو عبيدة بن الجراح لعمر بن الخطاب رضوان الله عليه، لما بلغه أن الطاعون وقع في الشام فانصرف بالناس: أفراراً من قدر الله يا أمير المؤمنين؟ قال عمر: لو غيرك قالها يا أبا عبيدة، نعم نفر من قدر الله إلى قدر الله، أرايت لو أن لك إبلاً هبّطت بها وادياً له جهتان إحداهما خصيبة والأخرى جدبية، أليس لو رعيت الخصيبة رعيتها بقدر الله، ولو رعيت الجدبية رعيتها بقدر الله؟ وكان عبد الرحمن بن عوف غائباً فأقبل، فقال: عندي في هذا علم سمعته من رسول الله صلى الله عليه وسلم، قال: إذا سمعتم به في أرض فلا تقدّموا عليها، وإذا وقع في أرض وأنتم بها فلا تخرجوا فراراً منه. فحمد الله عمر ثم انصرف بالناس.

وقيل للوليد بن عبد الملك حين فر من الطاعون: يا أمير المؤمنين، إن الله تعالى يقول: " قُلْ لَنْ يَنْفَعَكُمْ الْفِرَارُ إِنْ فَرَرْتُمْ مِنَ الْمَوْتِ أَوْ الْقَتْلِ وَإِذَا لَا تُمْتَعُونَ إِلَّا قَلِيلًا ". قال: ذلك القليل تطلب.

العُتْبِيُّ قَالَ: وَقَعَ الطَّاعُونُ بِالْكُوفَةِ، فَخَرَجَ صَدِيقٌ لِشُرَيْحٍ إِلَى النَّحْفِ، فَكَتَبَ إِلَيْهِ شُرَيْحٌ: أَمَا بَعْدُ، فَإِنَّ الْمَوْضِعَ الَّذِي هَرَبْتَ مِنْهُ لَمْ يَسْقُ إِلَى أَجْلِكَ تَمَامَهُ، وَلَمْ يَسْلُبْهُ أَيَّامَهُ؛ وَإِنَّ الْمَوْضِعَ الَّذِي صَرْتَ إِلَيْهِ لَبَعِينٌ مَنْ لَا يُعْجِزُهُ طَلَبٌ وَلَا يُفَوِّتُهُ هَرَبٌ؛ وَأَنَا وَإِيَّاكَ عَلَى بَسَاطِ مَلِكٍ، وَإِنَّ النَّحْفَ مِنْ ذِي قُدْرَةٍ لَقَرِيبٍ.

لَمَّا وَقَعَ الطَّاعُونُ الْحَارِفُ أَطَافَ النَّاسُ بِالْحُسَيْنِ، فَقَالَ: مَا أَحْسَنَ مَا صَنَعَ بِكُمْ رَبُّكُمْ، أَقْلَعُ مُذْنِبٌ وَأَنْفَقَ مُمْسِكٌ. وَخَرَجَ أَعْرَابِيٌّ هَارِبًا مِنَ الطَّاعُونِ فَلَدَغَتْهُ أَفْعَى فِي طَرِيقِهِ فَمَاتَ، فَقَالَ أَخُوهُ يَرْتِيهِ:

مَنْ هَلَكَ فَهَلَاكَ

طَافَ يَبْغِي نَجْوَةً

لَيْتَ شِعْرِي ضَلَّةً

أَجْحَافٍ سَائِلٌ

وَالْمَنَائِيَا رَاصِدَاتٍ

كُلُّ شَيْءٍ قَاتِلٌ

أَيُّ شَيْءٍ قَتَلَكَ

مِنْ جِبَالٍ حَمَلَكُ

لِلْفَتَى حَيْثُ سَلَكَ

حِينَ تَلْقَى أَجْلَكَ

حُكِيَّ أَنْ مَاءَ الْمَطْرِ اتَّصَلَ فِي وَقْتٍ مِنَ الْأَوْقَاتِ، فَقَطَعَ الْحَسَنُ بْنُ وَهْبٍ عَنْ لِقَاءِ مُحَمَّدِ بْنِ عَبْدِ الْمَلِكِ الزَّيَّاتِ، فَكَتَبَ إِلَيْهِ الْحَسَنُ:

يُوضِحُ الْعِذْرَةَ فِي تَرَاحِي اللَّقَاءِ

فَسَلَامُ الْإِلَهِ أَهْدِيهِ مِنِّي

لَسْتُ أَدْرِي مَاذَا أَدُمُّ وَأَشْكُو

غَيْرَ أَنِّي أَدْعُو لِهَاتِيكَ بِالتُّكُّ

مَا تَوَالِي مِنْ هَذِهِ الْأَنْوَاءِ

كُلُّ يَوْمٍ لِسَيِّدِ الْوُزَرَاءِ

مِنْ سَمَاءٍ تَعُوقِنِي عَنْ سَمَاءِ

لِ وَأَدْعُو لِهَذِهِ بِالْبَقَاءِ

اتَّصَلَ بِأَحْمَدَ بْنَ أَبِي دُوَادٍ أَنَّ مُحَمَّدَ بْنَ عَبْدِ الْمَلِكِ هَجَاهُ بِقَصِيدَةٍ فِيهَا تَسْعُونَ بَيْتًا، فَقَالَ:

أَحْسَنُ مَنْ تَسْعِينِ بَيْتًا سُدِّي

مَا أَحْوَجَ النَّاسَ إِلَى مَطْرَةٍ

جَمْعُكَ مَعْنَاهُنَّ فِي بَيْتِ

تَزِيلُ عَنْهُمْ وَضَرَ الزَّيْتِ

فَبَلَغَ قَوْلُهُ مُحَمَّدًا فَقَالَ:

يَا أَيُّهَا الْمَأْفُونُ رَأْيَا لَقَدْ

قَبَّرْتُمُ الْمَلِكَ فَلَمْ نُنْقِهِ

الزَّيْتِ لَا يَزِيرِي بِأَحْسَابِنَا

عَرَضْتُ لِي نَفْسَكَ لِلْمَوْتِ

حَتَّى قَلَعْنَا الْقَارَ بِالزَّيْتِ

أَحْسَابِنَا مَعْرُوفَةُ الْبَيْتِ

وقيل لابن أبي دواد: لم لا تسأل حوائجك الخليفة بخصرة محمد بن عبد الملك؟ فقال: لا أحب أن أعلمه شأني. وقد حدث أبو القاسم جعفر أن محمدًا الحسيني قال: أخبرنا محمد بن زكريا الغلابي، قال: حدثنا محمد بن نجيع التوبختي، قال: حدثنا يحيى أن سليمان قال: حدثني أبي، وكان ممن لحق الصحابة، قال: دخلت الكوفة فإذا أنا برجل يحدث الناس، فقلت: من هذا؟ قالوا: بكر بن الطرماح، فسمعتُه يقول: سمعتُ زيد بن حسين يقول: لما قُتِلَ أمير المؤمنين عليُّ بن أبي طالب عليه السلام، أتى بنعيه إلى المدينة كلثوم بن عمرو، فكانت تلك الساعة التي أتى فيها بنعيه أشبه بالساعة التي قبض فيها رسول الله صلى الله عليه وسلم من باك وبكايه، وصارخ وصارخة، حتى إذا هدأت عبيرة البكاء عن الناس، قال أصحاب رسول الله صلى الله عليه وسلم: تعالوا حتى نذهب إلى عائشة زوج النبي صلى الله عليه وسلم، فننظر حزنها على ابن عم رسول الله صلى الله عليه وسلم. فقام الناس جميعاً حتى أتوا منزل عائشة رضي الله عنها، فاستأذنوا عليها فوجدوا الخبر قد سبق إليها، وإذا هي في غمرة الأحزان وعبرة الأشجان، ما تفتت عن البكاء والتحبيب منذ وقت سمعت بحبره. فلما نظر الناس إلى ذلك منها انصرفوا. فلما كان من غد قيل لهما غدت إلى قبر رسول الله صلى الله عليه وسلم، فلم يبق في المسجد أحدٌ من المهاجرين إلا استقبلها يسلم عليها، وهي لا تسلم ولا ترد ولا تطيق الكلام من غزارة الدمعة، وغمرة العبارة، تتحنق بعبورها، وتتعرثر في أثوابها، والناس من خلفها، حتى أتت إلى الحجر، فأخذت بعضادة الباب ثم قالت: السلام عليك يا نبي الهدى، السلام عليك يا أبا القاسم، السلام عليك يا رسول الله وعلى صاحبك. يا رسول الله، أنا ناعية إليك أحبابك، ذاكركم لك أكرم أودائك عليك. قُتِلَ وَاللَّهِ حَبِيبُكَ الْمُحْتَبَى، وَصَفِيكَ الْمُرْتَضَى. قُتِلَ وَاللَّهِ مَنْ زَوْجَتَهُ خَيْرَ النِّسَاءِ. قُتِلَ وَاللَّهِ مَنْ آمَنَ وَوَفَّى، وَإِنِّي لِنَادِيَةٌ تُكَلِّمِي، وَعَلَيْهِ بَاكِيَةٌ حَرِي. فلو كُشِفَ عَنْكَ الثَّرَى لَقَلْت: إِنَّهُ قُتِلَ أَكْرَمَهُمْ عَلَيْكَ وَأَحْظَاهُمْ لَدَيْكَ. وَلَوْ قُدِّرَ أَنْ نَتَجَنَّبَ الْعِدَاءَ مَا كَانَ، تَعَرَّضْتَ لَهُ مِنْذُ الْيَوْمِ، وَاللَّهِ يَجْرِي الْأُمُورَ عَلَى السَّدَادِ.

قال الميرد: عزى أحمد بن يوسف الكاتب ولد الربيع، فقال: عظم أجركم ورحم الله فقيدكم، وجعل لكم من وراء مصيبتكم حالاً تجمع شملكم، وتلم شعثكم، ولا تُفرك ملاكم. وقيل لأعرابية مات لها بنون عدة: ما فعل بنوك؟ قالت: أكلهم دهرٌ لا يشبع. وعزى رجل الرشيد فقال: يا أمير المؤمنين، كان لك الأجر لا بك، وكان العزاء لك لا عنك.

ومما روى أن عبد الله بن عباس رضي الله عنهما نُعتت إليه ابنته وهو في السفر، فاسترجع، ثم قال: عورة سترها الله، ومؤونة كفاها الله، وأجر ساقه الله. وقال أسامة بن زيد رضي الله عنهما: لما عزى رسول الله صلى الله عليه وسلم بابنته رقية، قال: الحمد لله، دفن البنات من المكرمات. وفي رواية: من المكرمات دفن البنات. وقال الغزال: ماتت ابنة لبعض ملوك كندة، فوضع بين يديه بدرّة من الذهب وقال: من أبلغ في التعزية فهي له. فدخل عليه أعرابي، فقال: أعظم الله أجر الملك، كفيّت المؤونة، وسُترت العورة، ونعم الصهر القبر. فقال له الملك: أبلغت وأوجزت، وأعطاه البدرّة.

من أحب الموت ومن كرهه

في بعض الأحاديث: لا يتمنى أحدكم الموت، فعسى أن يكون مُحسنًا فيزداد في إحسانه، أو يكون مُسيئًا فينزح عن إساءته. وقد جاء في الحديث: يقول الله تبارك وتعالى: إذا أحبَّ عبدي لقائي أحببت لقاءه، وإذا كرهه لقائي كرهت لقاءه. وليس معنى هذا الحديث حُبَّ الموتِ وكرهه، ولكن معناه: من أحبَّ الله أحبَّه الله، ومن كرهه الله كرهه الله.

وقال أبو هريرة: كره الناس ثلاثاً وأحببتهن: كرهوا المرض وأحببته، وكرهوا الفقر وأحببته، وكرهوا الموت وأحببته. عبد الأعلى بن حماد قال: دخلنا على بشر بن منصور، وهو في الموت، وإذا هو من السرور في أمر عظيم. فقلنا له: ما هذا السرور؟ قال: سُبْحان الله! أخرج من بين الظالمين والحاسدين والمعتابين والباغين، وأقدم على أرحم الراحمين ولا أسراً! ودخل الوليد بن عبد الملك المسجد، فخرج كل من كان فيه إلا شيخاً قد حناه الكبر، فأرادوا أن يخرجوه، فأشار إليهم أن دعوا الشيخ؟ ثم مضى حتى وقف عليه، فقال له: يا شيخ، تحب الموت؟ قال: لا يا أمير المؤمنين، ذهب السباب وشتره، وأتى الكبر وخيره، فإذا قمتُ حمدتُ الله، وإذا قعدتُ ذكرته، فأنا أحب أن تدوم لي هاتان الخلتان. قال عبد الله بن عمر: جاء رجل إلى رسول الله صلى الله عليه وسلم، فقال: يا رسول الله، مالي لا أحب الموت؟ قال: هل لك مال؟ قال: نعم، قال: فقدّمه بين يديك؛ قال: لا أطيق ذلك؟ فقال النبي عليه الصلاة والسلام: إن المرء مع ماله، إن قدمه أحب أن يلحقه، وإن أخره أحب أن يتخلف معه.

وقال الشاعر في كراهية الموت:

إن الشجاعة مقرّون بها العطب

ما يشتهي الموت عندي من له أدب

قامت تشجعتني هند فقلت لها

لا والذي منع الأبصار رؤيته

وقالت الحكماء: الموت كرية. وقالوا: أشد من الموت ما إذا نزل بك أحببت له الموت، وأطيب من العيش ما إذا فارقت أبغضت له العيش.

التهدد

المغيرة بن شعبة قال: قام النبي صلى الله عليه وسلم حتى ورمت قدماه. وقيل للحسن: ما بال المتهجدين أحسن الناس وجوهاً؟ قال: إنهم خلوا بالرحمن فأسفر نورهم من نوره. وكان بعضهم يصلّي الليل حتى إذا نظر إلى الفجر قال: عند الصباح يجمد القوم السرى. وقالوا: الشتاء ربيع المؤمنين، يطول ليلهم للقيام، ويقصر نهارهم للصيام.

وقال النبي صلى الله عليه وسلم: أطعموا الطعام وأفشوا السلام وصلوا بالليل والناس نيام. وقال الله تبارك وتعالى: "وبالأسحار هم يستعفرون". وهذا يوافق الحديث الذي رواه أبو هريرة عن النبي صلى الله عليه وسلم: إن الله تبارك وتعالى ينزل إلى سماء الدنيا في الثلث الأخير من الليل فيقول: هل من

سائل فَأَعْطِيهِ؟ هل من دَاعٍ فَأَسْتَجِيبَ له؟ هل من مُسْتَعْفِرٍ فَأُغْفِرَ له؟ هل من مُسْتَعِيثٍ فَأُغِيثَهُ؟ أبو عَوَانَةَ عن المغيرة قال: قلتُ لإبراهيمَ التَّخَعِي: ما تقولُ في الرَّجُلِ يَرَى الصُّوَاءَ بِاللَّيْلِ؟ قال: هو من الشَّيْطَانِ، لو كان خيراً لَأَرَاهُ أَهْلَ بَدْرٍ.

البكاء من خشية الله عز وجل

قال النبي صلى الله عليه وسلم: حَرَّمَ اللهُ عَلَى النَّارِ كُلَّ عَيْنٍ تَبْكِي من خَشْيَةِ اللهِ، وَكُلَّ عَيْنٍ غُصَّتْ عن محارمِ اللهِ. وكان يزيد الرِّقَاشي قد بكى حتى سقطت أشْفَارُ عَيْنَيْهِ. وقيل لغالِبِ بن عبد الله: أَمَا تَخَافُ على عَيْنَيْكَ من العَمَى من طُولِ البُكَاءِ؟ فقال: شَفَاءُهَا أُرِيدُ. وقيل ليزيد بن مَزِيدٍ: ما بالُ عَيْنِكَ لا تَحْفُ؟ قال: أَيُّ أَخِي، إن الله أوعدني إن عَصَيْتُهُ أن يَحْبِسَنِي في النَّارِ، ولو أوعدني أن يَحْبِسَنِي في الحَمَامِ لَكُنْتُ حَرِيًّا أن لا تَحْفُ عَيْنِي. وقال: عمر بن ذَرٍّ لأبيه: مَالِكٌ إِذَا تَكَلَّمْتَ أَبْكَيْتَ النَّاسَ، إِذَا تَكَلَّمَ غَيْرُكَ لم يُبْكِهِمْ؟ قال: يا بني، ليست النَّائِحَةُ التَّكَلَّى مثلَ النَّائِحَةِ المُسْتَأْجِرَةِ. وقال اللهُ لِنَبِيِّ من أَنْبِيَائِهِ: هَبْ لِي من قَلْبِكَ الخُشُوعَ، ومن عَيْنَيْكَ الدُّمُوعَ، ثم ادعني أَسْتَجِبْ لكَ. ومن قولنا في البكاء "من خشية الله تعالى":

وَأَعِينُ مَكْحُولَةً بِالهُجُودِ

فَبَادَرُوا خَشْيَةَ ذَاكَ الوَعِيدِ

يَبْكُونَ من خَوْفِ عِقَابِ المَجِيدِ

ما قَابَلَتْ أَعْيُنَهُمْ في السُّجُودِ

مَدَامِعٌ قَدْ خَدَّدَتْ في الخُدُودِ

وَمَعَشَرٌ أَوْعَدَهُمْ رَبُّهُمْ

فَهُمْ عُكُوفٌ في مَحَارِبِهِمْ

قد كَادَ يُعْتَسِبُ من دَمْعِهِمْ

وقال قيسُ بن الأَصمِ في هذا المعنى:

كانوا إِذَا ذَكَرُوا أو ذُكِّرُوا شَهَقُوا

وَإِنْ تَلَّأَ بَعْضُهُمْ تَخْوِيفَهَا صَعَقُوا

عِنْدَ التَّلَاوَةِ إِلا الخَوْفَ والشَّفَقَ

بَقِيَّةَ الرُّوحِ في أوداجِهِمْ رَمَقُ

من شِدَّةِ الخَوْفِ والإشْفَاقِ قَدْ زَهَقُوا

صَلَّى الإِلهَ عَلَى قَوْمٍ شَهَدْتُهُمْ

كانوا إِذَا ذَكَرُوا نارَ الجَحِيمِ بَكَوْا

من غيرِ هَمَزٍ من الشَّيْطَانِ يأخذُهُمْ

صَرَعى من الحُزْنِ قَدْ سَجَّوْا ثِيَابَهُمْ

حتى تَخَالَهْمُ لو كُنْتَ شاهِدَهُمْ

النهي عن كثرة الضحك

في الحديث المرفوع: كثرة الضحك تُميت القلب وتُذهب بهاء المؤمن. وفيه: لو علمتمُ لَبَكَيْتُمْ كثيراً وَضَحِكْتُمْ قَلِيلاً. وفيه: إنَّ الله يكره لكم العَبَثَ في الصلاة والرَّفَثَ في الصَّيَامِ والضَّحِكَ في الجنائزِ.

ومرَّ الحسنُ بَقَوْمٍ يَضْحَكُونَ في شَهْرِ رَمَضانَ، فقال: يا قوم، إنَّ الله جعل رَمَضانَ مِضْمَاراً لِخَلْقِهِ يَتَسَابِقُونَ فيه إلى رَحْمَتِهِ، فَسَبَقَ أَقْوَامٌ فَفَازُوا، وَتَخَلَّفَ أَقْوَامٌ فَخَابُوا، فَالعَجَبُ من الضَّاحِكِ اللّاهِي في اليَوْمِ الذي فاز فيه السَّابِقُونَ، وَخاب فيه المتخَلِّفُونَ؟ أما والله لو كُشِفَ الغِطاءُ لَشَغَلَتْ مُحْسِنًا إِحْسَانَهُ ومُسيئًا إِسْأَتَهُ. ونظر عبد الله إلى رجل يضحك مُسْتَعْرِقاً، فقال له: أتضحك ولعلَّ أَكْفَانَكَ قَدْ أَحْدَتْ من "عند" الفَصَّارِ. وقال الشاعر:

وقد نُسِجَتْ أَكْفَانُهُ وهو لا يَدْرِي

وكم من فتى يُمسي وَيُصبحُ آمِناً

النهي عن خدمة السلطان وإتيان الملوك

"لقى أبو جعفر سفیان الثوري في الطواف، فقال: ما الذي يمنعك أبا عبد الله أن تأتينا؟ قال: إن الله هانا عنكم فقال: "وَلَا تَرَكُوا إِلَى الَّذِينَ ظَلَمُوا فَتَمَسَّكُمْ النَّارُ". وقدم هشام بن عبد الملك المدينة لزيارة القبر، فدخل عليه أبو حازم الأعرج، فقال: ما يمنعك أبا حازم أن تأتينا؟ فقال: وما أصنع بإتيانك يا أمير المؤمنين، إن أذنتني فنتتني، وإن أقصيتني أحرزيتني، وليس عندي ما أخافك عليه، ولا عندك ما أرجوك له".

قال عمر بن الخطاب رضي الله عنه: من دخل على الملوك خرج وهو ساخط على الله. أرسل أبو جعفر إلى سفیان، فلما دخل عليه قال: سألني حاجتك أبا عبد الله؟ قال: وتفضيها يا أمير المؤمنين؟ قال: نعم، قال: فإن حاجتي إليك أن لا ترسل إلي حتى آتيك؛ ولا تُعطيني شيئاً حتى أسألك، ثم خرج. فقال أبو جعفر: ألقينا الحب إلى العلماء فلَقَطُوا إلا ما كان من سفیان الثوري، فإنه أعيانا فراراً. وقال عمر بن الخطاب رضي الله عنه: الدُّخُولُ عَلَى الْأَغْنِيَاءِ فِتْنَةٌ لِلْفُقَرَاءِ.

وقال زياد لأصحابه: مَنْ أَعْبَطَ النَّاسَ عَيْشاً؟ قالوا: الأُمير وأصحابه؟ قال: كَلَّا، إِنَّ لِأَعْوَادِ الْمَنْبَرِ لَهَيْبَةً، وَلِقَرَعِ لِحَامِ الْبَرِيدِ لَفَزَعَةً، وَلَكِنَّ أَعْبَطَ النَّاسِ عَيْشاً رَجُلٌ لَهُ دَارٌ يَسْكُنُهَا، وَزَوْجَةٌ صَالِحَةٌ يَأْوِي إِلَيْهَا، فِي كَفَافٍ مِنْ عَيْشٍ، لَا يَعْرِفُنَا وَلَا نَعْرِفُهُ، فَإِنْ عَرَفْنَا وَعَرَفْنَا أفسدنا "عليه" آخرته ودُنياه وقال الشاعر:

فَلَا يَكُنْ لَكَ فِي أَكْنَافِهِمْ ظِلٌّ

جَارُوا عَلَيْكَ وَإِنْ أَرْضِيَّتَهُمْ مَلُوا

إِنَّ الْوُقُوفَ عَلَى أَبْوَابِهِمْ ذُلٌّ

إِنَّ الْمُلُوكَ بِلَاءٌ حَيْثُمَا حَلُّوا

مَاذَا تُرِيدُ بِقَوْمٍ إِنْ هُمْ غَضِبُوا

فَاسْتَعْنِ بِاللَّهِ عَنِ إِيْتَانِهِمْ أَبَدًا

وقال آخر:

تُصْبِحُ عَلَى وَجَلٍ تَمْسِي عَلَى وَجَلٍ

فَالشَّرُّ أَجْمَعُهُ فِي ذَلِكَ الْعَمَلِ

لَا تُصَحِّبَنَّ ذَوِي السُّلْطَانِ فِي عَمَلٍ

كُلِّ التَّرَابِ وَلَا تَعْمَلِ لَهُمْ عَمَلًا

وفي كتاب كليله ودمنة: صاحبُ السلطان مثلُ راجب الأسد لا يدري متى يهيجُ به فيقتله. دخل مالك بن دينار على رجل في السجن يورده، فنظر إلى رجل جُنْدِيٍّ قد اتكأ، في رجليه كُبول قد قرنت بين ساقيه، وقد أتى بسفرة كثيرة الألوان، فدعا مالك بن دينار إلى طعامه؟ فقال له: أحشى إن أكلت من طعامك هذا أن يُطرح في رجلي مثل كُبولك هذه.

وفي كتاب الهند: السلطان مثلُ النار، إن تباعدت عنها احتجت إليها، وإن دنوت منها أحرقتك. أيوب السخيتاني قال: طُلب أبو قلابة لقضاء البصرة فهرب منها إلى الشام، فأقام حيناً ثم رجع. قال: أيوب. فقلت له: لو وليت القضاء وعدلت كان لك أجران؟ فقال يا أيوب، إذا وقع السابح في البحر كم عسى أن يسبح؟ وقال بقيّة: قال لي إبراهيم: يا بقيّة، كن ذنباً ولا تكن رأساً، فإن الرأس يهلك والذنب ينجو. ومن قولنا في خدمة السلطان وصحبته:

وَلَا تَخْتَنِمَ يَوْمًا بِفَصِّ زَبْرَجِدٍ

وَتَسْحَبَ أَذْيَالَ الْمَلَأِ الْمَعْضَدِ

وَلَا تَتَّصِدِرَ فِي الْفِرَاشِ الْمُمَهَّدِ

تَرُوحُ وَتَغْدُو فِي إِزَارٍ وَبُرْجُدِ

عَلَيْهِ، سِرِيرًا فَوْقَ صَرْحٍ مَمْرَدِ

لَهُ سَطَوَاتٌ بِاللِّسَانِ وَبِالْيَدِ

تَجَنَّبَ لِبَاسَ الْخَزْزِ إِنْ كُنْتَ عَاقِلًا

وَلَا تَتَطَيَّبَ بِالْغَوَالِي تَعَطُّرًا

وَلَا تَتَخَيَّرَ صَيِّتَ النَّعْلِ زَاهِيًا

وَكُنْ هَمَلًا فِي النَّاسِ أَغْبَرَ شَاعِنًا

يَرَى جِلْدَ كَبْشٍ، تَحْتَهُ كَلِمَا اسْتَوَى

وَلَا تَطْمَحِ الْعَيْنَانِ مِنْكَ إِلَى امْرِيءٍ

تراعت له الدنيا بزبرج عيشها

فأسمن كشحيه وأهزل دينه

فيوماً تراه تحت سوطٍ مُجرّداً

وقادت له الأطماع من غيره مقود

ولم يرتقب في اليوم عاقبة الغد

ويوماً تراه فوق سرجٍ مُنضد

فِيرَحَم تاراتٍ وَبِحَسَدٍ تارةً

فذا شرٌّ مَرَحُومٍ وَشَرٌّ مُحَسَّدٌ

القول في الملوك

الأصمعيّ قال: بلغني أنت الحسن قال: يابن آدم، أنت أسيرُ الجوع، صريعُ الشَّبَعِ، إنَّ قوماً لَبَسُوا هذه المَطَارِفَ العِتاقِ، والعَمائمَ الرقاقِ، وَوَسَعُوا دُورَهُمْ وَضَيَّقُوا قُبُورَهُمْ، وَأَسْمَنُوا دَوَائِبَهُمْ، وَأَهْزَلُوا دِيْنَهُمْ، وَتَكَىءُ أَحَدُهُمْ عَلَى شِمَالِهِ، وَيَأْكُلُ "مِنْ" غَيْرِ مَالِهِ، "فَإِذَا أَدْرَكَتْهُ الكِظَّةُ" قال: يا جارية، هاتي هاضومك، ويلك! وهل تَهْضُمُ إِلَّا دِينَكَ. يجيى بنُ يجيى قال: جَلَسَ مالِكٌ يَوماً فَأَطْرَقَ مِلياً، ثُمَّ رَفَعَ رَأْسَهُ فَقَالَ: يا حَسْرَةَ عَلَى المُلُوكِ، لَأَنَّهُمْ تُرَكُوا فِي نَعِيمِ دُنْيَاهُمْ، وَمَاتُوا قَبْلَ أَنْ يَمُوتُوا حُزْناً عَلَى ما حَلَفُوا، وَحَزَراً مِمَّا اسْتَقْبَلُوا. وقال الحسن، وَذَكَرَ عِنْدَهُ المُلُوكُ: أَمَا إِيْتَهُمْ وَإِنْ هَمَلَجَتْ بِهِمُ البِغَالُ، وَأَطَافَتْ بِهِمُ الرِّجَالُ، وَتَعَاقَبَتْ لَهُمُ الأُمُوالُ، إِنَّ ذُلَّ المَعْصِيَةِ فِي قُلُوبِهِمْ، أَبِي اللهُ إِلَّا أَنْ يُدِلَّ مَنْ عَصَاهُ. الأصمعيّ قال: خَطَبَ عبدُ اللهِ بنُ الحَسَنِ عَلَى مِنْبَرِ البَصْرَةِ فَأَنشَدَ عَلَى المِنْبَرِ:

حتى سقاها بكأس الموت ساقبها

أين الملوك التي عن حظها غفلت

بلاء المؤمن في الدنيا

قال النبي صلى الله عليه وسلم: المؤمن كالخامة من الزرع تَمِيلُ بِهَا الرِّيحُ مَرَّةً كَذَا وَمَرَّةً كَذَا، وَالكَافِرُ كالأرزة المُنْجَذِيَّةُ حَتَّى يَكُونَ انْجِعافُها مَرَّةً. ومعنى هذا الحديث: تردُّدُ الرزايا عَلَى المؤمنِ وَتَجافِيها عَنِ الكافرِ ليزدادَ إِثْماً. وَقَالَ وَهَبُ بْنُ مُنْبَهٍ: قَرَأْتُ فِي بَعْضِ الكُتُبِ: إِنِّي لأذُودُ عِبَادِي المُخْلِصِينَ عَنِ نَعِيمِ الدُّنْيَا كَمَا يَذُودُ الرَّاعِي الشَّقِيقُ إِبِلَهُ عَنِ مَوَارِدِ الهَلَكَةِ. وَقَالَ الفُضَيْلُ ابنُ عِيَاضٍ: أَلَا تَرَوْنَ كَيْفَ يُزَوِّي اللهُ الدُّنْيَا عَمَّنْ يُحِبُّ مِنْ خَلْقِهِ وَبِمَرْمَرِها عَلَيْهِ مَرَّةً بِالْجُوعِ وَمَرَّةً بِالْعُرْيِ وَمَرَّةً بِالْحَاجَةِ، كَمَا تَصْنَعُ الأُمُّ الشَّقِيقَةَ بِولدها، تَقْطِمْهُ بِالصَّبْرِ مَرَّةً، وَبِالحُضْضِ مَرَّةً، وَإِنَّمَا تُرِيدُ بِذَلِكَ ما هُوَ خَيْرٌ لَهُ. "وفي الحديث: إن النبي صلى الله عليه وسلم قال: أَخْبَرَنِي جَبْرِيلُ عَنِ اللهِ تَبَارَكَ وَتَعَالَى أَنَّهُ قال: ما ابْتَلَيْتُ عَبْدِي بِبَلِيَّةٍ! نَفْسَهُ أَوْ مَالَهُ أَوْ وَلَدَهُ فَتَلَقَّها بِصَبْرٍ جَمِيلٍ إِلَّا اسْتَحْيَيْتُ يَوْمَ القِيامَةِ أَنْ أَرْفَعَ لَهُ مِيزاناً أَوْ أَنْشُرَ لَهُ دِيواناً".

كتمان البلاء إذا نزل

قال النبي صلى الله عليه وسلم: من ابتلي ببلاء فكتمه ثلاثة أيام صبراً واحتساباً كان له أجرُ شهيد. وَسَمِعَ الفُضَيْلُ بنُ عِيَاضٍ رِجالاً يَشْكُو بِلَءٍ نَزَلَ بِهِ، فَقَالَ: يا هَذَا، تَشْكُو مَنْ يَرَحِمُكَ إِلى مَنْ لا يَرَحِمُكَ. وَقَالَ: مَنْ شَكَا مُصِيبَةً نَزَلَتْ بِهِ فَكأَنما شَكَا رَبَّهُ. وَقَالَ دُرَيْدُ بنُ الصَّمَّةِ يَرثِي أِخاهَ عبدَ اللهِ بنَ الصَّمَّةِ:

من اليوم أعقاب الأحاديث في غد

قليل التشكي للمصائب ذاكراً

وقال تأبط شراً:

كثير النوى شتى الهوى والمسالك

قليل التشكي للملم يصيبه

الشيبياني قال: أخبرني صديق لي قال: سمعت شريح وأنا أشتكي بعض ما غمني إلى صديق "لي"، فأخذ بيدي وقال: يا بن أخي، إياك والشكوى إلى غير الله، فإنه لا يخلو من تشكو إليه أن يكون صديقاً أو عدواً، فأما الصديق فتخزئه ولا ينفحك، وأما العدو فيشمت بك، انظر إلى عيني هذه - وأشار إلى إحدى عيني - فوالله ما أبصرت بها شخصاً ولا طريفاً منذ خمس عشرة سنة، وما أخبرت بها أحداً إلى هذه الغاية، أما سمعت قول العبد الصالح: "إنما أشكو بنّي وحزني إلى الله"، فاجعله مشكاكاً ومفرّجك عند كل نائبة تُتوبك، فإنه أكرم مسئول، وأقرب مدعو إليك. كتب عقيل إلى أخيه علي بن أبي طالب رضوان الله عليهما يسأله عن حاله، فكتب إليه:

**جَلِيدٌ عَلَى رَيْبِ الزَّمَانِ صَلِيبٌ
فِي فَرْحٍ وَأَشٍ أَوْ يُسَاءَ حَبِيبٌ**

**فَإِنْ تَسَأَلَنِي كَيْفَ أَنْتَ فَإِنِّي
عَزِيزٌ عَلَيَّ أَنْ تُرَى بِي كَابَةٌ**

وكان ابن شبرمة إذا نزلت به نازلة قالت: سحابة "صيف عن قليل" تفتش.
وكان يُقال: أربع من كنوز الجنة: كتمان المصيبة، وكتمان الصدقة، وكتمان الفاقة، وكتمان الوجع.

القناعة

قال النبي صلى الله عليه وسلم: من أصبح وأمسى آمناً في سربه معافى في بدنه عنده قوت يومه كان كمن حيزت له الدنيا بحذافيرها. والسرب: المسلك؛ يقال: فلان واسع السرب، يعني المسلك والمذهب.
وقال قيس بيت عاصم: يا بني: عليكم بحفظ المال فإنه منتهى للكرم، ويُسْتَعْنَى به عن اللئيم. وإياكم والمسألة، فإنها آخر كسب الرجل. وقال سعد ابن أبي وقاص لابنه: يا بني، إذا طلبت الغنى فاطلبه بالقناة، فإنها مال لا ينفد؛ وإياك والطمع، فإنه فقر حاضر؛ وعليك باليأس، فإنك لا تئأس من شيء قط إلا أغناك الله عنه. وقالوا: العني من استغنى بالله، والفقير ما افتقر إلى الناس. وقالوا: لا غنى إلا غني النفس. وقيل لأبي حازم: ما مالك؟ قال: مالان، العني بما في يدي عن الناس، واليأس عما في أيدي الناس. وقيل لآخر: ما مالك؟ فقال: التحمل في الظاهر، والقصد في الباطن. وقال آخر: لا بُد مما ليس منه بد اليأس حُرٌّ والرجاء عَيْدٌ وليس يُعْنَى الكد إلا الجَدَّ.
وقالوا: ثمره القناعة الراحة، وثمره الحرص التعب. وقال البحتري:

**طَرَحْتُ الهمَّ عَنِّي يَا سَعِيدُ
لأنَّ غداً له رِزقٌ جَدِيدٌ**

**إذا ما كان عندي قوتٌ يوم
ولم تخطرْ هُمومٌ غدٍ ببالي**

وقال عروة بن أذينة:

**بأن رِزقي وإن لم يأتِ يأتيني
ولو قعدت أتاني لا يعنيني**

**وقد علمتُ وخيرُ القولِ أصدقه
أسعى إليه فيعيني تطلبه**

ووفد عروة بن أذينة على عبد الملك بن مروان في رجال من أهل المدينة، فقال له عبد الملك: ألسنت القائل يا عروة؟ أسعى إليه فيعيني تطلبه؟ فما أراك إلا قد سعيت له، فخرج عنه عروة وشخص من فورهِ إلى المدينة. فأفتقده عبد الملك، فقيل له: توجه إلى المدينة، فبعث إليه بألف دينار. فلما أتاه الرسول قال: قلْ لأُمير المؤمنين: الأمرُ على ما قلتُ، قد سعيتُ له، فأعياني تطلبه، وقعدت عنه فأتاني لا يعنيني.
وقال النبي صلى الله عليه وسلم: إنَّ رُوحَ القُدسِ نَفثَ في رُوعي: إنَّ نفساً لن تموتَ حتى تَسْتَوِي رِزقَها، فاتَّقوا الله وأجملوا في الطَّلب. وقال تعالى فيما حكى عن لقمان الحكيم: "يا بني إنَّها إن تكُ مثقالَ حَبَّةٍ مِن خَرْدَلٍ فَتَكُنْ في صَخْرَةٍ أَوْ في سَمَوَاتٍ أَوْ في الأَرْضِ يَأْتِ بِها اللهُ إِنَّ اللهَ لَطِيفٌ خَبِيرٌ".

وقال الحسن: ابن آدم، لست بسابق أحلك، ولا ببالغ أملك، ولا مغلوب على رزقك، ولا بمرزوق ما ليس لك، فعلام تقتل نفسك؟ وقال ابن عبد ربه: قد أخذت هذا المعنى فنظمته في شعر فقلت:

ولا بعباد أجلي
قِ الذي قُدِّرَ لي
ري بالشقا والعمل
أدخلني في شغلي

لست بقاض أملي
ولا بمغلوب على الرزق
ولا بمعطى رزق غي
فليت شعري ما الذي

وقال آخر:

غضب المرء أم رضي

سيكون الذي قضي

وقال محمود الوراق:

ببعض فيرضى بالكفيل المطالب
فلم يرضَ والإنسانُ فيه عجائب
وفي قلبه شكُّ على القلبِ دائب
فلم يُغنِ عنه علمه والتجارب

أما عجبٌ أن يكفلَ بعضهم
وقد كفل الله الوفي برزقه
عليمٌ بأنَّ الله موفٍ بوعدِهِ
أبى الجهل إلا أن يضرَّ بعلمه

وله أيضاً:

وتُصيحُ من خوفِ العواقبِ آمنة
ضميناً ولا ترضى بربك ضامنا

أتطلبُ رزقَ الله من عند غيره
وترضى بعرافٍ وإن كان مشركاً

وقال أيضاً:

وليس بمغنيك الكثيرُ من الحرص
وقلة هم المرء تدعو إلى النقص

غنى النفس يغنيها إذا كنت قانعاً
وإن اعتقادهم للخير جامعٌ

وله أيضاً:

يقنع فذاك المؤسر المعسر

من كان ذا مالٍ كثيرٍ ولم

كان مقللاً فهو المكثر

وفي غنى النفس الغنى الأكبر

وكل من كان قنوعاً وإن

الفقر في النفس وفيها الغنى

وقال بكر بن حماد:

وذلل له أهل السموات والأرض
وفضل بعض الناس فيها على بعض
فقولوا له يزداد في الطول والعرض

تبارك من ساس الأمور بعلمه
ومن قسم الأرزاق بين عباده
فمن ظن أن الحرص فيها يزيده

وقال ابن أبي حازم:

وَمَنْتَظِرٌ لِّلْمَوْتِ فِي كُلِّ سَاعَةٍ
لَهُ حِينَ تَبْلُوهَ حَقِيقَةٌ مُّوقِنٌ
عَيَانٌ كَانِكَارٍ وَكَالْجَهْلِ عِلْمُهُ

وقال أيضاً:

اضرع إلى الله لا تضرع إلى الناس
واستغن عن كل ذي قربي وذي رحم

وله أيضاً:

فلا تحرصن فإن الأمور
فليس باتيك منهيها

وله أيضاً:

يَشِيدُ وَيَبْنِي دَائِباً وَيُحْصِنُ
وَأَفْعَالُهُ أَفْعَالٌ مِّنْ لِّسِنِ يُوَقِّنُ
يَشُكُّ بِهِ فِي كُلِّ مَا يَتَّقِنُ

واقنع ببأس فإن العز في اليأس
إن الغني من استغنى عن الناس

بكَفِّ الإله مقاديرها
ولا قاصر عنك مأمورها

ص وللآمال عبء
ي إذا لم يك جد
ه من الأمر مرد
وجرى بالخير سعد
يهما قبل وبعد
هر والأيام عهد
ع وأفنى ما أعدوا
فل بها جزر ومد

كَمْ إِلَى كَمْ أَنْتَ لِلْحَرِّ
لَيْسَ يُجْدِي الْحِرْصُ وَالسَّعْيُ
مَا لَمَّا قَدْ قَدَّرَ اللّٰهُ
قَدْ جَرَى بِالشَّرِّ نَحْسٌ
وَجَرَى النَّاسُ عَلَى جَرِّ
أَمِنُوا الدَّهْرَ وَمَا لِلدَّ
غَالَهُمْ فَأَصْطَلَمَ الْجَمُّ
إِنَّهَا الدُّنْيَا فَلَا تَحْ

وقال الأصبط بن قريع:

ارض من الدهر ما أتاك به
قد يجمع المال غير آكله

وقال مسلم بن الوليد:

لن يبطل الأمر ما أملت أوبته
والدهر أخذ ما أعطى مكدراً ما
فلا يغرنك من دهر عطيتة

وقال كلثوم العتاي:

مَنْ يَرِضَ يَوْمًا بِعَيْشِهِ نَفَعَهُ
وَيَأْكُلُ الْمَالَ غَيْرُ مَنْ جَمَعَهُ

إذا أعانك فيه رفق متدد
أصقي ومفسد ما أهوى له بيد
فليس ينرك ما أعطى على أحد

لَوَى الدهر عنها كلَّ طَرْفٍ وتالِدِ
مَقْلَدَةً أَجْبَادُهَا بِالْقَلَائِدِ
وما نال يحيى في الحياة ابن خالد
مُعْضَمًا بِالْمُرْهَفَاتِ الحَدَائِدِ
ولم أتجشم هول تلك الموارد
سَيْرَمَى بِالْوَانِ الدُّهَى والمكَايِدِ
بِمُسْتَوْدَعَاتِ فِي بَطُونِ الأَسَاوِدِ

تَلُومٌ عَلَى تَرَكَ الغِنَى باهليَّةً
رَأَتْ حَوْلَهَا النِّسْوَانَ يِرْفُلْنَ فِي الكَسَا
يَسْرُكُ أَنِي نَلْتُ مَا نَالَ جَعْفَرُ
وَأَنْ أَمِيرَ الْمُؤْمِنِينَ أَعْضَنِي
ذَرِينِي تَجَنُّنِي مِيْتَتِي مُطْمَئِنَّةً
فَإِنَّ الَّذِي يَسْمُو إِلَى الرِّتَبِ العُلَا
وَجَدْتُ لِدَاذَاتِ الحَيَاةِ مَشْوَبَةً

وقال:

وَطُولُ شُغْلِ بَادِبَارٍ وَإِقْبَالِ
عَنِ الأَحْبَةِ مَا يَدْرُونَ مَا حَالِي
لَا يَخْطُرُ المَوْتَ مِنْ حِرْصٍ عَلَى بَالِي
إِنَّ القُنُوعَ الغِنَى لَا كَثْرَةَ المَالِ

حَتَّى مَتَى أَنَا فِي حِلِّ وَتَرَحَالِ
وَنَازِحِ الدَّارِ مَا يَنْفِكُ مُعْتَرِبًا
بِمَشْرِقِ الأَرْضِ طَوْرًا ثُمَّ مَغْرِبِهَا
وَلَوْ قَنَعْتُ أَتَانِي الرِّزْقُ فِي دَعَا

وقال عبد الله بن عباس: القناعة مال لا تَفَادُ له. وقال علي بن أبي طالب رضي الله عنه: الرِّزْقُ رِزْقَان: فَرِزْقٌ تَطْلِبُهُ وَرِزْقٌ يَطْلُبُكَ، فَإِنْ لَمْ تَأْتَهُ أَتَاكَ. وقال حبيب:

يَأْتِي وَلَمْ تَتَّبِعْ إِلَيْهِ رَسُولًا

فَالرِّزْقُ لَا تَكْمَدُ عَلَيْهِ فَإِنَّهُ

وفي كتاب للهند: لا ينبغي للتمس أن يتمس من العيش إلا الكفاف الذي به يدفع الحاجة عن نفسه، وما سوى ذلك إنما هو زيادة في تعب وغم. ومن هذا قالت الحكماء: أقل الدنيا يكفي وأكثرها لا يكفي. وقال أبو ذؤيب:

وَإِذَا تُرِدُّ إِلَى قَلِيلٍ تَقْنَعُ

وَالنَّفْسُ رَاغِبَةٌ إِذَا رَغِبَتْهَا

وقال المسيح عليه السلام: عجباً منكم، إنكم تعملون للدنيا وأنتم تُرْزَقُونَ فيها بلا عمل، ولا تعملون للأخرة و"أنتم" لا تُرْزَقُونَ فيها إلا بالعمل. وقال الحسن: عيرت اليهود عيسى عليه السلام بالفقر، فقالت: من الغنى أتيتم. أخذ هذا المعنى محمود الوراق فقال:

عَيْبُ الغِنَى أَكْثَرُ لَوْ تَعْتَبِرُ

يَا عَائِبَ الفَقْرِ أَلَا تَرْدَجِرُ

عَلَى الغِنَى إِنْ صَحَّ مِنْكَ النِّظَرُ

مَنْ شَرَّفَ الفَقْرَ وَمَنْ فَضَّلَهُ

وَلَيْسَ تَعْصَى اللهُ كِي تَفْتَقِرُ

أَنْكَ تَعْصَى كِي تَنَالَ الغِنَى

سُفْيَانُ عَنْ مُعْبِرَةَ عَنْ إِبْرَاهِيمَ قَالَ: كَانُوا يَكْرَهُونَ الطَّلَبَ فِي أَطْرَافِ الأَرْضِ. وَقَالَ الأَعْمَشُ: أَعْطَانِي البُنَانِيُّ مَضَارِبَهُ أَخْرَجَ بِهَا إِلَى مَاءٍ، فَسَأَلْتُ إِبْرَاهِيمَ، فَقَالَ لِي: مَا كَانَ يَطْلُبُونَ الدُّنْيَا هَذَا الطَّلَبَ. وَبَيْنَ مَاءٍ وَبَنِ الكَوِيفَةِ عَشْرَةُ أَيَّامٍ. الأَصْمَعِيُّ عَنْ يُونُسَ بْنِ حَبِيبٍ قَالَ: لَيْسَ دُونَ الإِيمَانِ غِنَى وَلَا بَعْدَهُ فَقْرٌ. قِيلَ لِخَالِدِ بْنِ صَفْوَانَ: مَا أَصْبِرَكَ عَلَى هَذَا الثَّوْبِ " الخَلْقُ؟ قَالَ: رَبٌّ مَمْلُولٌ لَا يُسْتَطَاعُ فِرَاقُهُ.

وكتب حكيم إلى حكيم يشكو إليه دهره: إنه ليس من أحد أنصفه زمانه فتصرفت به الحال حسب استحقاقه، وإنك لا ترى الناس إلا أحد رجلين: إما مُقَدِّمَ آخره حظه، أو متأخر قدمه جدّه، فارض بالحال التي أنت عليها وإن كانت دون أملك واستحقاقك اختياراً، وإلا رضيت بما اضطراراً. وقيل

للأخنف بن قيس: ما أصبرك على هذا الثوب"، فقال: أحق ما صُبرَ عليه ما ليس إلى مُفارقة سبيل. "قال الأصمعي: رأيت أعرابية ذات جمال تسأل بمعنى، فقلت لها: يا أمة الله، تسألين ولك هذا الجمال؟ قالت: قدر الله فما أصنع؟ قلت: فمن أين معاشكم؟ قالت: هذا الحاج، نسقيهم ونغسل ثيابهم؟ قلت: فإذا ذهب الحال فمن أين؟ فنظرت إليّ وقالت: يا صلت الجبين، لو كُنّا نعيش من حيث نعلم ما عشنا". وقيل لرجلٍ من أهل المدينة: ما أصبرك على الخبز والتّمْر؟ قال: ليتهما صبراً عليّ.

الرضا بقضاء الله

قالت الحكماء: أصلُ الزُهد الرضا عن الله. وقال الفضيل بن عياض: استخبروا الله ولا تتخبروا عليه، فرُبما اختار العبدُ أمراً هلاكه فيه. وقالت الحكماء: رُبَّ محسودٍ على رخاء هو شقاؤه، ومَرحومٍ من سقم هو شفاؤه، ومَعْبُوطٍ بنعمة هي بلاؤه. وقال الشاعر:

وَيَبْتَلِي اللهُ بَعْضَ الْقَوْمِ بِالنَّعْمِ

قَدْ يَنْعِمُ اللهُ بِالْبَلْوَى وَإِنْ عَظُمَتْ

"وقال بعضهم: خاطبني أخٌ من إخواني وعاتبني في طلب الرُتب، فأنشدته:

وَكَمْ غَنَيْتُ فَلَمْ أَكْبِرْ عَلَى أَحَدٍ

كَمْ افْتَقَرْتُ فَلَمْ أَقْعُدْ عَلَى كَمَدٍ

أَشْتَاقُ فِيهَا إِلَى مَالٍ وَلَا وَدِّ

إِنِّي أَمْرٌ هَانَتْ الدُّنْيَا عَلَيَّ فَمَا

وقالوا: من طلب فوق الكفاية رجع من الدّهر إلى أبعد غاية".

من قتر على نفسه وترك المال لوارثه

زياد عن مالك قال: مَنْ لم يَكُنْ فيه خَيْرٌ لنفسه لم يَكُنْ فيه خَيْرٌ لغيره، لأنَّ نفسه أولى الأَنْفُسِ كُلِّهَا، فإذا ضَيَعَهَا فهو لما سِوَاهَا أَضَيَعٌ؟ ومن أَحَبَّ نفسه حاطها وأبقى عليها وتجنّب كل ما يعيها أو يَنقُصُها، فَجَنَّبَهَا السَّرِقَةَ مَخَافَةَ الْقَطْعِ، وَالزَّانَا مَخَافَةَ الْحَدِّ، وَالقَتْلَ خَوْفَ الْقِصَاصِ.

علي بن داود الكاتب قال: لما افتتح هارون الرشيدُ هِرَقْلَةَ وأباحها ثلاثة أَيَّامٍ، وكان بِطَرِيقِهَا الخراج عليه بِسَبِيلِ الرُّومِيِّ، فنظر إليه الرَّشِيدُ مُقْبِلاً على جِدَارٍ فيه كتابة باليونانية، وهو يُطِيلُ النَّظَرَ فِيهِ، فَدَعَا بِهِ وَقَالَ لَهُ: لِمَ تَرَكْتَ النَّظَرَ إِلَى الْإِتْتِهَابِ وَالغَنِيمَةِ وَأَقْبَلْتَ عَلَى هَذَا الْجِدَارِ تَنْظُرَ فِيهِ؟ فقال: يا أمير المؤمنين، قرأتُ في هذا الجدار كتاباً هو أَحَبُّ إِلَيَّ من هِرَقْلَةَ وما فيها؛ قال له الرَّشِيدُ: ما هو؟ قال: بِسْمِ اللَّهِ الْمَلِكِ الْحَقِّ الْمُبِينِ. ابن آدم، غافِصُ الْفُرْصَةِ عِنْدَ إِسْكَانِهَا، وَكُلُّ الْأُمُورِ إِلَى وَليِّهَا، وَلَا تَحْمِلْ عَلَى قَلْبِكَ هَمَّ يَوْمٍ لَمْ يَأْتِ بَعْدُ، إِنْ يَكُنْ مِنْ أَجْلِكَ يَأْتِكَ اللَّهُ بِرِزْقِكَ فِيهِ، وَلَا تَجْعَلْ سَعْيَكَ فِي طَلَبِ الْمَالِ أَسْوَأَ بِالْمَغْرُورِينَ، فَرُبَّ جَامِعٍ لِبَعْلِ حَلِيلَتِهِ، وَاعْلَمْ أَنَّ تَقْتِيرَ الْمَرْءِ عَلَى نَفْسِهِ هُوَ تَوْفِيرٌ مِنْهُ عَلَى غَيْرِهِ، فَالْسَعِيدُ مَنْ اتَّعَظَ بِهَذِهِ الْكَلِمَاتِ وَلَمْ يُضَيِّعْهَا. قال له الرَّشِيدُ: أَعَدَّ عَلَيَّ يَا سَبِيلُ، فَأَعَادَهَا عَلَيْهِ حَتَّى حَفِظَهَا.

وقال الحسن: ابن آدم، أنت أسيرٌ في الدنيا، رَضِيْتَ مِنْ لَدُنْهَا بِمَا يَنْقُضِي، وَمِنْ نَعِيمِهَا بِمَا يَمْضِي، وَمِنْ مُلْكِهَا بِمَا يَنْفَدُ، فَلَا تَجْمَعِ الْأَوْزَارَ لِتَنْفُسِكَ وَأَلْهَكِ الْأَمْوَالَ، فَإِذَا مِتَّ حَمَلْتَ الْأَوْزَارَ إِلَى قَبْرِكَ، وَتَرَكْتَ أَمْوَالَكَ لِأَهْلِكَ. أخذ أبو العتاهية هذا المعنى فقال:

فَلَيْتَ شَعْرِي مَا أَبْقَى لَكَ الْمَالَ

أَبْقَيْتَ مَالَكَ مِيراثاً لَوَارِثِهِ

فَكَيْفَ بَعْدَهُمْ دَارَتْ بِكَ الْحَالُ

الْقَوْمُ بَعْدَكَ فِي حَالٍ تَسْرُهُمْ

وَاسْتَحْكَمَ الْقَيْلُ فِي الْمِيرَاثِ وَالْقَالَ

مَلُّوا الْبُكَاءَ فَمَا يَبْكِيكَ مِنْ أَحَدٍ

وفي الحديث المرفوع: أشدُّ الناس حَسْرَةً يَوْمَ الْقِيَامَةِ رَجُلٌ كَسَبَ مَالاً مِنْ غَيْرِ حِلِّهِ فَدَخَلَ بِهِ النَّارَ، وَوَرِثَهُ مَنْ عَمِلَ فِيهِ بِطَاعَةِ اللَّهِ فَدَخَلَ بِهِ الْجَنَّةَ. وقيل لعبد الله بن عمر: تُؤَيُّ زَيْدُ بْنُ حَارِثَةَ وَتَرَكَ مِائَةَ أَلْفٍ؛ قَالَ: لَكِنِّهَا لَا تَتْرُكُهُ.

وَدَخَلَ الْحَسَنَ عَلَى عَبْدِ اللَّهِ بْنِ الْأَهْتَمِ يَعُودُهُ فِي مَرَضِهِ فَرَأَهُ يُصَعَّدُ بَصْرَهُ فِي صُنْدُوقٍ فِي بَيْتِهِ وَيُصَوِّبُهُ، ثُمَّ التَفَتَ إِلَى الْحَسَنِ، فَقَالَ: أَبَا سَعِيدٍ، مَا تَقُولُ فِي مِائَةِ أَلْفٍ فِي هَذَا الصُّنْدُوقِ لَمْ أُؤَدِّ مِنْهَا زَكَاةً، وَلَمْ أَصِلْ بِهَا رَحْمًا؟ فَقَالَ لَهُ: تَكَلِّتُكَ أَمْكُ! وَلِمَنْ كُنْتَ تَجْمَعُهَا؟ قَالَ: لِرَوْعَةِ الزَّمَانِ، وَجَفْوَةِ السُّلْطَانِ، وَمُكَاثِرَةِ الْعَشِيرَةِ. ثُمَّ مَاتَ، فَشَهِدَ الْحَسَنُ جِنَازَتَهُ، فَلَمَّا فَرَّغَ مِنْ دَفْنِهِ ضَرَبَ بِيَدِهِ الْقَبْرَ، ثُمَّ قَالَ: انظُرُوا إِلَى هَذَا، أَتَاهُ شَيْطَانُهُ فَحَدَّرَهُ رَوْعَةَ زَمَانِهِ، وَجَفْوَةَ سُلْطَانِهِ، وَمُكَاثِرَةِ عَشِيرَتِهِ، عَمَا اسْتَوَدَعَهُ اللَّهُ وَاسْتَعْمَرَهُ فِيهِ، انظُرُوا إِلَيْهِ يَخْرُجُ مِنْهَا مَذْمُومًا مَذْخُورًا. ثُمَّ قَالَ: أَيُّهَا الْوَارِثُ، لَا تُخَدِّعَنَّ كَمَا خَدَعَ صُؤْيُوحُوكَ بِالْأَمْسِ، أَتَاكَ هَذَا الْمَالُ حَلَالًا فَلَا يَكُونُ عَلَيْكَ وَبَالًا، أَتَاكَ عَفْوًا صَفْوًا مِمَّنْ كَانَ لَهُ جَمُوعًا مَنُوعًا، مِنْ بَاطِلٍ جَمَعَهُ، وَمِنْ حَقٍّ مَنَعَهُ، قَطَعَ فِيهِ لُجَجَ الْبِحَارِ، وَمَفَاوِزَ الْقِفَارِ، لَمْ تَكْذَحْ فِيهِ بِيَمِينِ، وَلَمْ يَعْزِقْ لَكَ فِيهِ جَبِينِ، إِنْ يَوْمَ الْقِيَامَةِ يَوْمُ حَسْرَةٍ وَنَدَامَةٍ، وَإِنْ مِنْ أَعْظَمِ الْحَسْرَاتِ غَدَاً أَنْ تَرَى مَالَكَ فِي مِيزَانِ غَيْرِكَ، فَيُلَاهَا حَسْرَةً لَا تُقَالُ، وَتُوبَةً لَا تُنَالُ.

لَمَّا حَضَرَتْ هِشَامَ بْنَ عَبْدِ الْمَلِكِ الْوَفَاةَ، نَظَرَ إِلَى أَهْلِهِ يَبْكُونَ عَلَيْهِ، فَقَالَ: جَادَ لَكُمْ هِشَامٌ بِالْدُّنْيَا وَجُدَّتْ لَهُ بِالْبُكَاءِ، وَتَرَكَ لَكُمْ مَا جَمَعَ، وَتَرَكَتُمْ لَهُ مَا عَمَلْ، مَا أَعْظَمَ مُنْقَلَبَ هِشَامِ إِنْ لَمْ يَغْفِرَ اللَّهُ لَهُ!

نقصان الخير وزيادة الشر

عاصم بن حميد عن معاذ بن جبل قال: إنكم لن ترؤوا من الدنيا إلا بلاءً وفِتْنَةً، ولا يزيد الأمر إلا شِدَّةً، ولا الأئمة إلا غِلْظًا، وما يأتيكم أمرٌ يهولكم إلا حقره ما بعده. قال الشاعر:

فَالْخَيْرُ مُنْتَقَصٌ وَالشَّرُّ مُزْدَادٌ

ذَوِي فَضَائِلَ إِلَّا قِيلَ قَدْ بَادُوا

الْخَيْرُ وَالشَّرُّ مُزْدَادٌ وَمُنْتَقَصٌ

وَمَا أَسْأَلُ عَنْ قَوْمٍ عَرَفْتُهُمْ

العزلة عن الناس

قال النبي صلى الله عليه وسلم: استأنسوا بالوُحْدَةِ عَنْ جُلُوسِ السَّوِّءِ. وقال: إِنَّ الْإِسْلَامَ بَدَأَ غَرِيبًا وَلَا تَقُومُ السَّاعَةُ حَتَّى يَعُودَ غَرِيبًا كَمَا بَدَأَ. وقال العتّابي: ما رأيتُ الرّاحةَ إِلَّا مَعَ الْخَلْوَةِ، وَلَا الْأَنْسَ إِلَّا مَعَ الْوَحْشَةِ. وقال النبي صلى الله عليه وسلم: خَيْرِكُمُ الْأَتْقِيَاءُ الْأَصْفِيَاءُ الَّذِينَ إِذَا حَضَرُوا لَمْ يُعْرِفُوا، وَإِذَا غَابُوا لَمْ يُفْتَقِدُوا. وقال: لَا تَدْعُوا حَظَّكُمْ مِنَ الْعِزْلَةِ فَإِنَّ الْعِزْلَةَ لَكُمْ عِبَادَةٌ.

وقال لقمان لابنه: استعد بالله من شرار الناس وكُنْ مِنْ خِيَارِهِمْ عَلَى حَذَرٍ.

وقال إبراهيم بن أدهم: فِرْ مِنَ النَّاسِ فِرَارَكَ مِنَ الْأَسَدِ. وقيل لإبراهيم بن أدهم: لَمْ تَجْتَنِبِ النَّاسَ؟ فَأَنْشَأَ يَقُولُ:

وَدَرِ النَّاسَ جَانِبًا

تَجِدُهُمْ عَقَارِبًا

ارْضَ بِاللَّهِ صَاحِبًا

"قَلْبَ النَّاسِ كَيْفَا شَيْءٍ"

وكان محمد بن عبد الملك الزيات يأنسُ بأهل البلادَةِ وَيَسْتَوْحِشُ مِنْ أَهْلِ الذِّكَاةِ، فَسُئِلَ عَنْ ذَلِكَ، فَقَالَ: مَعُونَةُ التَّحَفُّظِ شَدِيدَةٌ. وقال ابن مُحَيْرِيزٍ: إِنْ اسْتَطَعْتَ أَنْ تُعْرِفَ وَلَا تُعْرِفَ، وَتَسْأَلَ وَلَا تُسْأَلَ، وَتَمْشِي وَلَا يُمَشَى إِلَيْكَ، فَافْعَلْ: وقال أيوب السخيتاني: مَا أَحَبَّ اللَّهُ عَبْدًا إِلَّا أَحَبَّ أَنْ لَا يُشْعَرَ بِهِ.

وقيل للعتّابي: مَنْ تُجَالِسُ الْيَوْمَ؟ قَالَ: مَنْ أَبْصَقُ فِي وَجْهِهِ وَلَا يَعْصَبُ؛ قِيلَ لَهُ: وَمَنْ هُوَ؟ قَالَ: الْحَائِطُ وَقِيلَ لِذَعْبِلِ الشَّاعِرِ: مَا الْوَحْشَةُ عِنْدَكَ؟ قَالَ: النَّظَرُ إِلَى النَّاسِ، ثُمَّ أَنْشَأَ يَقُولُ:

اللَّهُ يَعْلَمُ أَنِّي لَمْ أَقُلْ فَنَدًا

مَا أَكْثَرَ النَّاسَ لَا بَلَّ مَا أَقْلَهُمْ

إِنِّي لَأَفْتَحُ عَيْنِي حِينَ أَفْتَحُهَا

وقال ابن أبي حازم:

طَبُّ عَنِ الْإِمْرَةِ نَفْسًا

مَا عَلَيْهَا أَحَدٌ يَسُ

وقال آخر:

قَدْ بَلَوْتُ النَّاسَ طُرًّا

صَارَ أَحْلَى النَّاسِ فِي الْع

عَلَى كَثِيرٍ وَلَكِنْ لَا أَرَى أَحَدًا

وَارِضَ بِالْوَحْشَةِ أَنْسًا

وَيَ عَلَى الْخَبْرَةِ فَلَسًا

لَمْ أَجِدْ فِي النَّاسِ حُرًّا

يَنْ إِذَا مَا ذَبِقَ مُرًّا

إعجاب الرجل بعلمه

قال عمر بن الخطاب: ثلاث مهلكات: شح مطاع، وهوى متبع، وإعجاب المرء بنفسه. وفي الحديث: خير من العجب بالطاعة أن لا تأتي طاعة. وقالوا: ضاحك معترف بذنبه خير من باك مدلل على ربه. وقالوا: سيئة تُسِينك خير من حسنة تُعْجِبك. وقال الله تبارك وتعالى: "ألم تر إلى الذين يزكون أنفسهم بل الله يُزكي مَنْ يَشَاءُ".

وقال الحسن: ذم الرجل لنفسه في العلانية مدح لها في السريرة. وقالوا: من أظهر عيب نفسه فقد زكاه. وقيل: أوحى الله إلى عبده داود: يا داود، خالق الناس بأخلاقهم، واحتجز الإيمان بيني وبينك. وقال ثابت البناني: دخلت على داود، فقال لي: ما جاء بك؟ قلت: أזורك؛ قال: ومن أنا حتى تزورني؟ أمن العباد أنا؟ لا والله، أم من الزهاد؟ لا والله. ثم أقبل على نفسه يوبخها، فقال: كنت في الشبية فاسقا، ثم شئت فصرت مرثيا، والله إن المرثي شر من الفاسق.

لقي عابداً عابداً، فقال أحدهما لصاحبه: والله إني أحبك في الله؛ قال: والله لو اطلعت على سريري لأبغضتني في الله. وقال معاوية بن أبي سفيان لرجل: من سيد قومك؟ قال: أنا؛ قال: لو كنت كذلك لم تقله. وقال محمود الوراق:

هذا مُحَالٌ فِي الْقِيَاسِ بَدِيعٌ

إِنَّ الْمُحِبَّ لِمَنْ أَحَبَّ مُطِيعٌ

منه وأنت لشكر ذاك مُضِيعٌ "

تَعْصَى الْإِلَهَ وَأَنْتَ تَظْهَرُ حُبَّهُ

لو كنتَ تَضْمُرُ حُبَّهُ لِأَطْعَمْتَهُ

"فِي كُلِّ يَوْمٍ بَيْنَتِيكَ بِنِعْمَةٍ

وقال أبو الأشعث: دخلنا على ابن سيرين فوجدناه يُصلي، فظننا أننا أعجبنا بصلاته، فأراد أن يضع نفسه عندنا، فلما انفتل منها التفت إلينا وقال: كانت عندنا امرأة تضع يدها على فرجها وتقول: حاجتكم تحت يدي.

الرياء

زياد عن مالك قال: قال النبي صلى الله عليه وسلم: إياكم والشرك الأصغر؛ قالوا: وما الشرك الأصغر يا رسول الله؟ قال: الرياء. وقال عبد الله ابن مسعود: سمعت النبي صلى الله عليه وسلم يقول: لا رياء ولا سمعة، من سمع سمع الله به. وقال صلى الله عليه وسلم: ما أسرّ أمرؤ سريرة إلا ألبسه الله رداءها، إن خيراً فخير، وإن شراً فشر. وقال لقمان الحكيم لابنه: احذر واحدة هي أهل للحدرد؟ قال: وما هي؟ قال: إياك أن تُري الناس أنك تخشى الله وقَلْبِكَ فاجر. وفي الحديث: من أصلح سريرته أصلح الله علانيته. وقال الشاعر:

وَإِذَا أَظْهَرْتَ شَيْئًا حَسَنًا

فَمُسِرِّ الْخَيْرِ مَوْسُومٌ بِهِ

فَلْيَكُنْ أَحْسَنَ مِنْهُ مَا تُسِرُّ

وَمُسِرِّ الشَّرِّ مَوْسُومٌ بِشَرِّ

صلى أشعب، فخفف الصلاة فليل له: ما أخفَّ صلاتك! قال: إنه لم يُخالطها رياء. وصلى رجلٌ من المُرائين، فليل له: ما أحسنَ صلاتك! فقال: ومع ذلك إني صائم. وقال طاهرٌ بنِ الحسينِ لأبي عبد الله المُرُوزِيِّ: كم لك منذُ نزلتَ بالعِراقِ؟ قال: منذُ عشرين سنةً، وأنا أصومُ الدهرَ منذُ ثلاثين سنةً. قال: أبا عبد الله، سألتك عن مسألة فأجبتني عن مسألتين. الأصمعيُّ قال: أخبرني إبراهيمُ بن القَعَقَاعِ بن حَكِيمٍ، قال: أمر عمر بن الخطاب لرجلٍ بكيس، فقال الرجلُ: آخذُ الخَيْطُ؟ قال عمر: ضَعِ الكَيْسَ.

قال رجلٌ للحسن، وكتب عنده كتاباً: أجمعني في حلٍ من تُرابِ حائِطِكَ؟ قال: يا بن أخي، وَرَعُكَ لا يُنْكَرُ. وقال محمود الوراق:

أَظْهَرُوا لِلنَّاسِ دِينًا

وَلَهُ صَامُوا وَصَلُّوا

وَعَلَى الدِّينَارِ دَارُوا

وَلَهُ حَجَّوا وَزَارُوا

وَلَهُمْ رِيشٌ لَطَارُوا

لَوْ بَدَأَ فَوْقَ الثَّرِيَا

وَقَالَ مُسَاوِرُ الْوَرَّاقِ:

شَمْرُ ثِيَابِكَ وَاسْتَعْدَ لِقَائِي

وَعَلَيْكَ بِالْغَنَوِيِّ فَاجْلِسْ عِنْدَهُ

وَإِذَا دَخَلْتَ عَلَى الرَّبِيعِ مُسَلِّمًا

وَاحْكُ جَبِينَكَ لِلْقَضَاءِ بِثُومٍ

حَتَّى تُصِيبَ وَدِيعَةَ لَيْتِيَمٍ

فَاخْصُصْ سِيَابَةَ مَنْكَ بِالتَّسْلِيمِ

وَقَالَ:

تَصَوَّفَ كَيْ يُقَالَ لَهُ أَمِينٌ

وَلَمْ يُرِدِ الْإِلَهَ بِهِ وَلَكِنْ

وَمَا يَعْنِي التَّصَوُّفَ وَالْأَمَانَةَ

أَرَادَ بِهِ الطَّرِيقَ إِلَى الْخِيَانَةِ

وَقَالَ الْغَزَّالُ:

يَقُولُ لِي الْقَاضِي مُعَاذَ مُشَاوِرًا

قَعِيدِكَ مَاذَا تَحْسَبُ الْمَرْءَ فَاعِلًا

يَذُقُّ خَلَايَاهَا وَيَأْكُلُ شَهْدَهَا

وَوَلَّى أَمْرًا، فِيمَا يَرَى، مِنْ ذَوِي الْعَدْلِ

فَقُلْتَ وَمَاذَا يَفْعَلُ الدَّبِيرُ فِي النَّحْلِ

وَيَتْرَكَ لِلذَّبَّانِ مَا كَانَ مِنْ فَضْلِ

"وقال أبو عثمان المازني لبعض من رآه فتهتك الله عز وجل ستره:

بَيْنَا أَنَا فِي تَوْبَتِي مُسْتَعْبِرًا

وَقَدْ حَمَلْتُ الْعِلْمَ مُسْتَظْهِرًا

إِذْ خَطَرَ الشَّيْطَانُ لِي خَطْرَةً

قَدْ شَبَّهُونِي بِأَبِي دُوَادٍ

وَحَدَّثُوا عَنِّي بِإِسْنَادٍ

نُكِسَتْ مِنْهَا فِي أَبِي جَادٍ

وقال ابن أبي العتاهية: أرسلني أبي إلى صوفيٍّ قد قيرَ إحدى عينيه أسأله عن المعنى في ذلك؛ فقال: النَّظَرُ إِلَى الدُّنْيَا بِكِلْتَا عَيْنِي إِسْرَافٌ. قال: ثم بدا له في ذلك فاتصل الخبر بأبي فكتب إليه:

مُقِيرَ عَيْنِهِ وَرَعَا

أُرِدْتُ بِذَلِكَ الْبِدْعَا

يحيى بن عبد العزيز قال: حدّثني نُعيم عن إسماعيل، رجل من ولد أبي بكر الصديق، عن وهب بن مُنّبّه. قال: نَصَبَ رجلٌ من بني إسرائيل فخاً، فجاءت عُصفورة، فوقعت عليه، فقالت: مالي أراك مُتُحنياً؟ قال: لكثرة صلاتي انحنيت؛ قالت: فما لي أراك باديةً عظامك؟ قال: لكثرة صيامي بدت عظامي؛ قالت: فما لي أرى هذا الصوف عليك؟ قال: لزهادتي في الدنيا لَبِسْتُ الصُوف؛ قالت: فما هذه العصا عندك؟ قال أتوكأ عليها وأقضي بها حوائجي؟ قالت: فما هذه الحبة في يدك؟ قال: قُرْبَانٌ إن مرَّ بي مسكين ناولته إياه، قالت: فإني مسكينة، قال: فخذِها. فقَبِضَتْ على الحبة فإذا الفخ في عنقها، فجعلت تقول: قَعِي قَعِي. قال الحسن: تفسيره. لا غربي ناسكٌ مرءٍ بعدك أبداً.

الدعاء

قال النبي صلى الله عليه وسلم: الدعاء سلاح المؤمن، والدعاء يُردُّ القدر، والبرُّ يزيد في العمر. وقالوا: الدعاء بي الأذان والإقامة لا يُرد. وقال النبي صلى الله عليه وسلم: استقبلوا البلاء بالدعاء. وقال الله تعالى: "ادْعُونِي أَسْتَجِبْ لَكُمْ". وقال تعالى: "فَلَوْلَا إِذْ جَاءَهُمْ بَأْسُنَا تَضَرَّعُوا وَلَكِنْ قَسَتْ قُلُوبُهُمْ لَه". وقال عبد الله بن عباس: إذا دعوت الله فاجعل في دعائك الصلاة على النبي صلى الله عليه وسلم، فإن الصلاة عليه مقبولة، والله أكرم من أن يقبل بعض دعائك ويرُد بعضاً.

وقال سعيد بن المسيب: كنت جالساً بين القبر والمنبر، فسمعت قائلاً يقول: اللهم إني أسألك عملاً باراً، ورزقاً داراً، وعيشاً قاراً. فالتفت فلم أر أحداً. هشام بن عروة عن أبيه عن عائشة قالت: كنت نائمة مع رسول الله صلى الله عليه وسلم ليلة النصف! من شعبان، فلما ألصق جلدي بجلده أغفيت، ثم انتبهت، فإذا رسول الله صلى الله عليه وسلم ليس عندي، فأدر كني ما يدرك النساء من الغيرة، فلَفَقْتُ مرطبي، أما والله ما كان خزاً ولا قرأ ولا ديباجاً ولا قطناً ولا كتاناً؛ قيل: فما كان يا أم المؤمنين؟ قالت: كان سداه ومن شعر، ولُحْمته من أوبار الإبل. قالت: فَتَحَوْتُ إليه أطلبه، حتى ألفتته كالقوب الساقط على وجهه في الأرض وهو ساجدٌ يقول في سُجوده: سجد لك خيالي وسوادي، وآمن بك فؤادي، هذه يدي، وما جئيتُ بها على نفسي، "يا مَنْ تُرَجِّحُ لكل عَظِيم، فاغفر لي الذنب العظيم. فقلت: بأي أنت وأمي يا رسول الله، إنك لفي شأن، وإني لفي شأن. فرفع رأسه ثم عاد ساجداً فقال: أعوذ بوجهك الذي أضاءت له السموات السبع، والأرضون السبع، من فجأة نَقَمْتِك، وتحوّل عافيتك، ومن شرِّ كتاب قد سَبَق، وأعوذ برضاك من سُخْطِك، وبَعْفُوك من عَقُوبَتِك، وبك منك، لا أحصى ثناءً عليك أنت كما أُنْتيت على نفسك. فلما انصرف من صلاته تَقَدَّمْتُ أمامه حتى دخلت البيت ولي نفس عال؛ فقال: مالك يا عائشة؟ فأخبرته الخبر؟ فقال: وَيْح هاتين الرُكبتين ما لقيتا في هذه الليلة! وَمَسَحَ عليهما. ثم قال: أتدرين أي ليلة هذه يا عائشة؟ فقلت: الله ورسوله أعلم؛ فقال صلى الله عليه وسلم: هذه الليلة ليلة النصف من شعبان، فيها تُوقَّت الأجال، وتُثَبَّت الأعمال.

العُتْبِي عن أبيه قال: خرجت مع عُمر بن ذرٍّ إلى مكة فكان إذا لَبِي لم يُلبِّ أحدٌ من حُسن صوته، فلما جاء الحرم قال: يا رب، ما زلنا نَهْبَطُ وهدةً ونَصْعَدُ أكمةً، ونَعْلُو نَشْراً، وَيَبْدُو لنا عَلمٌ، حتى جئناك بما نَقَبَةٌ أخفافها، دبرة ظُهورها، ذا بلةً أَسْنِمْتُهَا، وليس أعظمُ المؤونة علينا إِتْعَابَ أبداننا، ولكن أعظمُ المؤونة علينا أن تَرَجِعَنَا خائبين من رحمتك، يا خيرَ من نَزَلَ به النازلون.

وكان آخرُ يدعو بعرفات: يا رب، لم أعصِكَ إذ عصيتُك جهلاً مني بحقك، ولا استخففاً بعقوبتك، ولكن الثقة بعَفْوِكَ، والاعتزاز بِسِتْرِكَ المُرْحَى علي، مع الشقوة الغالبة، والقدر السابق، فالآن من عذابك من يَسْتَنْقِذني؟ وَبِحَبْلِ مَنْ أَعْتَصِمُ إن قطعْتَ حَبْلَكَ عني؛ فيا أسفي على الوُوقُوفِ غداً بين يديك، إذا قِيلَ لِلْمُخْفِينِ جُوزُوا، ولِلْمُذْنِبِينَ حُطُّوا.

أبو الحسن قال: كان عروة بن الزبير يقول في مُناجاته بعد أن قَطِعت رِجْلُهُ ومات ابنه: كانوا أربعة - يعني بنه - فأخذت واحداً وأبقيت ثلاثة؛ وكنُّ أربعة - يعني يديه ورجليه - فأخذت واحدة وأبقيت ثلاثاً؛ فلئن ابتليت لطالما عافيت، ولئن عاقبت لطالما أنعمت. وكان داود إذا دعا في جوف الليل

يقول: نامت العيون، وغارت النجوم، وأنت حي قيوم، اغفر لي ذنبي العظيم فإنه لا يعُفَر الذنب العظيم إلا العظيم، إليك رفعت رأسي، نَظَر العَبْدِ الذليل إلى سيده الجليل. وكان من دُعاء يوسف: يا عُدِّي عند كُرْبِي، ويا صاحبي في غُرْبِي، ويا غَايِي عند شِدِّي، ويا رَحائي إذا انقطعت حيلِي، اجعل لي فَرَجاً وَمَخْرَجاً.

وكان عبدُ الله بن ثعلبة البَصْرِيّ يقول: اللهم أنت من حَلَمك تُعْصَى وكأنك لا تُرى، وأنت من جَوَدك وَفَضْلِكَ تُعْطَى وكأنك لا تُعْطَى، وأي زمان لم يَعْصِكَ فيه سُكَّان أَرْضِكَ فَكُنْتَ عَلَيْهِم بِالْعَفْوِ عَوَاداً وَبِالْفَضْلِ جَوَاداً. وكان من دُعاء علي بن الحُسَيْن رضي الله عنه: اللهم إني أَعُوذُ بِكَ أَنْ تُحَسِّنَ فِي مَرَأَى الْعُيُونِ عَلَائِي، وَتَقْبِحَ فِي خَفِيَّاتِ الْقُلُوبِ سَرِيرَتِي، اللَّهُمَّ وَكَمَا أَسَأْتُ فَأَحْسَنْتَ إِلَيَّ، إِذَا عُدْتُ فَعُدْ عَلَيَّ، وَارزُقني مُوَسَاةً مَن قَتَرْتَ عَلَيْهِ مَا وَسَّعْتَ عَلَيَّ.

الشيبياني قال: أصاب الناس ببغداد ريحٌ مُظْلَمَةٌ، فانتَهيتُ إلى رجل في المسجد وهو ساجد يقول في سُجُودِهِ: اللهم احفظ محمداً في أمته، ولا تُشِمِّتْ بنا أعداءنا من الأمم، فإن كنتَ أخذتَ العوامَ بذنبي، فهذه ناصيتي بين يديك. وكان الفضيل بن عِيَاض يقول: إلهي، لو عَذَبْتَنِي بالنار لم يَخْرُجْ حُبُّكَ مِن قَلْبِي، ولم أنسَ أياديكَ عندي في دار الدنيا وقال عبد الله بن مسعود: اللهم وَسَّعْ عَلِي فِي الدُّنْيَا وَزَهَّدْنِي فِيهَا، وَلَا تُزَوِّهْ عَنِّي وَتُرْغِبْنِي فِيهَا. مرَّ أبو الدرداء برجل يقول في سُجُودِهِ: اللهم إني سائلٌ فقيرٌ فأعْزِني من سَعَةِ فَضْلِكَ، خائفٌ مُسْتَجِيرٌ فأجِرْني من عَذَابِكَ. الأصمعي قال: كان عطاءُ ابن أبي رباح يقول في دُعَايِهِ: اللهم ارحم في الدُّنْيَا غُرْبِي، وعند الموت صرْعِي، وفي القُبُورِ وَحْدَتِي، ومقامي غداً بين يديك. العُتْبِيُّ قال: حدَّثني عبدُ الرحمن بن زياد قال: اشتكي أبي فكتب إلى أبي بكر بن عبد الله يسأله أن يدعو له، فكتب إليه: حُقَّ لِمَن عَمِلَ ذَنْباً لَا عُذْرَ لَهُ فِيهِ، وَخَافَ مَوْتاً لَا بُدَّ لَهُ مِنْهُ " أَنْ يَكُونَ مُشْتَفِئاً، سَأدَعُو لَكَ، وَلَسْتُ أَرْجُو أَنْ يُسْتَجَابَ لِي بِقُوَّةٍ فِي عَمَلٍ وَبِرَاءَةٍ مِنْ ذَنْبٍ. العُتْبِيُّ قال: كان عبد الملك بن مَرْوَانَ يَدْعُو عَلَى الْمَنِيرِ: يَا رَبِّ، إِنْ ذُنُوبِي قَدْ كَثُرَتْ وَجَلَّتْ عَنِّي أَنْ تُوصَفَ، وَهِيَ صَغِيرَةٌ فِي حَنْبِ عَفْوَكَ، فَاعْفُ عَنِّي.

كيف يكون الدعاء

سفيان بن عيينة عن أبي معبد عن عكرمة عن ابن عباس قالت: الإخلاص هكذا، وبسط يده اليسرى وأشار بإصبعه من يده اليمنى؛ والدعاء هكذا؛ وأشار براحته إلى السماء؛ والابتهاال هكذا، ورفع يديه فوق رأسه وظهورهما إلى وجهه. سفيان الثوري قال: دخلتُ على جعفر بن محمد رضي الله عنهما فقال لي: يا سفيان، إذا كثرت همومك فأكثر من لا حول ولا قوة إلا بالله العلي العظيم، وإذا تداركت عليك النعم فأكثر من الحمد لله، وإذا أبطأ عنك الرزق فأكثر من الاستغفار. وقال عبد الله بن عباس: لا كبيرة مع استغفار، ولا صغيرة مع إصرار. وقال علي بن أبي طالب رضي الله عنه: عجباً ممن يهلك والنجاة معه! قيل له: وما هي؟ قال: الاستغفار.

دعاء النبي صلى الله عليه وسلم وأبي بكر الصديق وعمر رضوان الله عليهما

أم سلمة قالت: كان أكثرُ دعاء رسول الله صلى الله عليه وسلم: يا مُقَلِّبَ الْقُلُوبِ ثَبِّتْ قَلْبِي عَلَى دِينِكَ. المَغِيرَةُ بن شُعْبَةَ قال: كان رسول الله صلى الله عليه وسلم إذا سلّم من الصلاة يقول: لا إله إلا الله وحده لا شريك له، له الملك وله الحمد وهو على كل شيء قدير. وكان آخرُ دُعاء أبي بكر الصديق رضي الله عنه في خُطْبَتِهِ: اللهم اجعل خَيْرَ زَمَانِي آخِرَهُ، وَخَيْرَ عَمَلِي خَوَاتِمَهُ، وَخَيْرَ أَيَامِي يَوْمَ لِقَائِكَ. وكان آخرُ دُعاء عمر رضي الله عنه في خُطْبَتِهِ: اللهم لا تَدْعُنِي فِي عَمْرَةٍ، وَلَا تَأْخُذْنِي فِي غَرَةٍ، وَلَا تَجْعَلْنِي مِنَ الْغَافِلِينَ.

الدعاء عند الكرب

عبد الله بن مسعود قال: كان رسول الله صلى الله عليه وسلم يقول: ما من عبد أصابه هم فقال: اللهم إني عبدك وابن عبدك وابن أمتك، ناصيتي بيدك، ماضٍ في حُكْمِكَ، عدلٌ في قضاؤك، أسألك بكلِّ اسمٍ سميت به نفسك، أو ذكركته في كتابك، أو علمته أحداً من خلقك، أو استأثرت به في علم الغيب عندك، أن تجعل القرآن ضياءً صدري، وريحاً قلبي، وجلاءً حزني، وذهاباً همي، إلا اذهب الله همه وبدله مكان حزنه فرحاً. وقالوا: كلمات الفرج من كل كرب: لا إله إلا الله الكريم الحليم، وسبحان الله رب العرش العظيم، والحمد لله رب العالمين.

الكلمات التي تلقى آدم بها ربه

اللهم لا إله إلا أنت سبحانك وبحمدك، عمِلْتُ سُوءاً وظلمتُ نفسي فَتَبَّ عَلَيَّ إِنَّكَ أَنْتَ التَّوَّابُ الرَّحِيمُ.

اسم الله الأعظم

عبد الله بن يزيد عن أبيه قال: سمع النبي صلى الله عليه وسلم رجلاً يقول: اللهم إني أسألك بأنك أنت الله الأحد الصمد الذي لم يلد ولم يولد ولم يكن له كفواً أحد فقال النبي صلى الله عليه وسلم: لقد سألت الله باسمه الأعظم الذي إذا دُعي به أجاب وإذا سُئِلَ به أعطى. أسماء بنت يزيد عن النبي صلى الله عليه وسلم أنه قال: اسم الله الأعظم فيما بي الآيتين: "وَالهِكُمُ إِلَهٌ وَاحِدٌ لَا إِلَهَ إِلَّا هُوَ الرَّحْمَنُ الرَّحِيمُ"، وفاتحة آل عمران: "الم الله لا إله إلا هو الحي القيوم".

الاستغفار

شَدَّادُ بْنُ أَوْسٍ عَنِ النَّبِيِّ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ قَالَ: سَيِّدُ الْإِسْتِغْفَارِ أَنْ تَقُولَ: اللَّهُمَّ أَنْتَ رَبِّي لَا إِلَهَ إِلَّا أَنْتَ خَلَقْتَنِي وَأَنَا عَبْدُكَ، وَأَنَا عَلَى عَهْدِكَ وَوَعْدِكَ مَا اسْتَطَعْتُ، أَعُوذُ بِكَ مِنْ شَرِّ مَا صَنَعْتُ، أَبُوءُ لَكَ بِنِعْمَتِكَ عَلَيَّ وَأَبُوءُ بِذَنْبِي، فَاغْفِرْ لِي إِنَّهُ لَا يَغْفِرُ الذُّنُوبَ إِلَّا أَنْتَ. الْأَسْوَدُ وَعَلْقَمَةُ قَالَا: قَالَ عَبْدُ اللَّهِ بْنُ مَسْعُودٍ: إِنَّ فِي كِتَابِ اللَّهِ آيَتَيْنِ مَا أَصَابَ عَبْدٌ ذَنْبًا فَقَرَأَهُمَا ثُمَّ اسْتَغْفَرَ اللَّهُ إِلَّا غُفِرَ لَهُ: "وَالَّذِينَ إِذَا فَعَلُوا فَاحِشَةً أَوْ ظَلَمُوا أَنْفُسَهُمْ" إِلَى آخِرِ الْآيَةِ "وَمَنْ يَعْمَلْ سُوءًا أَوْ يَظْلِمْ نَفْسَهُ ثُمَّ يَسْتَغْفِرِ اللَّهَ يَجِدِ اللَّهَ غَفُورًا رَحِيمًا" أَبُو سَعِيدٍ الْخُدْرِيُّ قَالَ: مَنْ قَالَ: اسْتَغْفِرِ اللَّهَ الَّذِي لَا إِلَهَ إِلَّا هُوَ الْحَيُّ الْقَيُّومُ وَأَتُوبُ إِلَيْهِ، خَمْسَ مَرَّاتٍ غُفِرَ لَهُ وَلَوْ فَرَّ مِنَ الرَّحْفِ.

دعاء المسافر

عِكْرَمَةُ عَنِ ابْنِ عَبَّاسٍ قَالَ: كَانَ رَسُولُ اللَّهِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ إِذَا أَرَادَ سَفَرًا قَالَ: اللَّهُمَّ أَنْتَ الصَّاحِبُ فِي السَّفَرِ، وَالْحَلِيفَةُ فِي الْحَضَرِ. اللَّهُمَّ إِنِّي أَعُوذُ بِكَ مِنْ وَعَثَاءِ السَّفَرِ، وَكَآبَةِ الْمُنْقَلَبِ، وَالْحَوْرِ بَعْدَ الْكُورِ، وَمِنْ سُوءِ الْمَنْظَرِ فِي الْأَهْلِ وَالْمَالِ. الشَّعْبِيُّ عَنْ أُمِّ سَلَمَةَ قَالَتْ: كَانَ النَّبِيُّ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ إِذَا خَرَجَ فِي سَفَرٍ يَقُولُ: اللَّهُمَّ إِنِّي أَعُوذُ بِكَ أَنْ أَذِلَّ أَوْ أُذِلَّ أَوْ أَظْلِمَ أَوْ أُظْلِمَ أَوْ أَجْهَلَ أَوْ يُجْهَلَ عَلَيَّ. وَقَالَتْ: مَنْ خَرَجَ فِي طَاعَةِ اللَّهِ فَقَالَ: اللَّهُمَّ إِنِّي لَمْ أَخْرَجْ أَشْرًا وَلَا بَطْرًا وَلَا رِيَاءً وَلَا سُمْعَةً، وَلَكِنِّي خَرَجْتُ ابْتِغَاءَ مَرْضَاتِكَ وَاتِّقَاءَ سُخْطِكَ، فَأَسْأَلُكَ بِحَقِّكَ عَلَى جَمِيعِ خَلْقِكَ أَنْ تَرْزُقَنِي مِنَ الْخَيْرِ أَكْثَرَ مِمَّا أَرْجُو، وَتَصْرِفَ عَنِّي مِنَ الشَّرِّ أَكْثَرَ مِمَّا أَخَافُ. اسْتَجِيبْ لَهُ بِإِذْنِ اللَّهِ.

الدعاء عند الدخول على السلطان

سَعِيدُ بْنُ جُبَيْرٍ عَنِ ابْنِ عَبَّاسٍ قَالَ: إِذَا دَخَلْتَ عَلَى السُّلْطَانِ وَهُوَ مَهَيْبٌ تَخَافُ أَنْ يَسْطُو عَلَيْكَ فَقُلْ: اللَّهُ أَكْبَرُ وَأَعَزُّ مِمَّا أَخَافُ وَأَحْذَرُ، اللَّهُمَّ رَبِّ السَّمَوَاتِ السَّبْعِ وَرَبِّ الْعَرْشِ الْعَظِيمِ، كُنْ لِي جَارًا مِنْ عَبْدِكَ فَلَانَ وَجَنُودِهِ وَأَشْيَاعِهِ وَأَتْبَاعِهِ، تَبَارَكَ اسْمُكَ وَجَلَّ تَنَاوُكَ وَعَزَّ جَارُكَ وَلَا إِلَهَ غَيْرُكَ أَبُو الْحَسَنِ الْمَدَائِنِيُّ قَالَ: لَمَّا حَجَّ أَبُو جَعْفَرٍ الْمَنْصُورُ مَرَّ بِالْمَدِينَةِ فَقَالَ لِلرَّبِيعِ: عَلِيٌّ بِجَعْفَرِ بْنِ مُحَمَّدٍ، قَتَلَنِي اللَّهُ إِنْ لَمْ أَقْتَلْهُ. فَمُطِّلُ بِهِ، ثُمَّ أَلْحَ فِيهِ، فَحَضَرَ. فَلَمَّا كُشِفَ السُّتْرُ بَيْنَهُ وَبَيْنَهُ وَمَثَلُ بَيْنَ يَدَيْهِ، هَمَسَ جَعْفَرُ بِشَفَقَتِهِ، ثُمَّ تَقَرَّبَ وَسَلَّمَ؛ فَقَالَ: لَا سَلَامَ لِلَّهِ عَلَيْكَ يَا عَدُوَّ اللَّهِ، تُعْمَلُ عَلَى الْغَوَائِلِ فِي مُلْكِي،

قَتَلَنِي اللَّهُ إِنْ لَمْ أَقْتُلْكَ. فَقَالَ لَهُ جَعْفَرُ: يَا أَمِيرَ الْمُؤْمِنِينَ، إِنْ سُلَيْمَانَ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ أُعْطِيَ فَشَكَرَ، وَإِنْ أَيُّوبَ ابْتَلِيَ فَصَبَرَ، وَإِنْ يُوسُفَ ظَلِمَ فَعَفَّرَ، وَأَنْتَ عَلَى إِرْثٍ مِنْهُمْ وَأَحَقُّ مِنْ تَأْسَى بِهِمْ، فَنَكَسَ أَبُو جَعْفَرٍ رَأْسَهُ مَلِيًّا ثُمَّ رَفَعَ إِلَيْهِ رَأْسَهُ وَقَالَ: إِلَيَّ يَا أَبَا عَبْدِ اللَّهِ، فَأَنْتَ الْقَرِيبُ الْقَرَابَةِ، وَإِنَّكَ ذُو الرَّحْمِ الْوَاشِحَةِ، السَّلِيمِ النَّاحِيَةِ، الْقَلِيلِ الْغَائِلَةِ، ثُمَّ صَافَحَهُ بِيَمِينِهِ وَعَانَقَهُ بِيَسَارِهِ وَأَجْلَسَهُ مَعَهُ عَلَى فِرَاشِهِ وَانْحَرَفَ لَهُ عَنْ بَعْضِهِ وَأَقْبَلَ عَلَيْهِ بِوَجْهِهِ يُسَائِلُهُ وَيُحَادِثُهُ، ثُمَّ قَالَ: عَجَلُوا لِأَبِي عَبْدِ اللَّهِ إِذْنَهُ وَكُسُوتَهُ وَجَائِزَتَهُ. قَالَ الرَّبِيعُ: فَلَمَّا خَرَجَ وَأَسْدَلَ السُّتْرَ أَمْسَكَتُ بَثْوِيهِ فَارْتَاعَ، وَقَالَ: مَا أَرَانَا يَا رَبِيعَ إِلَّا قَدْ حُبِسْنَا؟ قُلْتُ: هَذِهِ مَنِّي لَا مِنْهُ؛ قَالَ: فَذَلِكَ أَيْسَرُ، قُلْ حَاجَتَكَ؟ قُلْتُ: إِنِّي مِنْذُ ثَلَاثِ أَدْفَاعٍ عَنْكَ وَأَذَارِي عَلَيْكَ، وَرَأَيْتُكَ إِذْ دَخَلْتَ هَمَسْتَ بِشَفَتَيْكَ، ثُمَّ رَأَيْتُ الْأَمْرَ الْبَاطِلَ عَلَيْكَ، وَأَنَا خَادِمُ سُلْطَانٍ وَلَا غِنَى بِي عَنْهُ، فَأُحِبُّ مِنْكَ أَنْ تُعَلِّمَنِيهِ؛ قَالَ: نَعَمْ، قُلْ: اللَّهُمَّ احْرَسْنِي بِعَيْنِكَ الَّتِي لَا تَنَامُ، وَاكْتَفِنِي بِكَتْفِكَ الَّذِي لَا يُرَامُ، وَلَا أَهْلِكَ وَأَنْتَ رَجَائِي، فَكَمْ مِنْ نِعْمَةٍ أَنْعَمْتَهَا عَلَيَّ قَلَّ عِنْدَهَا شُكْرِي فَلَمْ تَحْرِمْنِي، وَكَمْ مِنْ بَلِيَّةٍ ابْتَلَيْتَنِي بِهَا قَلَّ عِنْدَهَا صَبْرِي فَلَمْ تَحْدِلْنِي، اللَّهُمَّ بَكَ أَذْرَأُ فِي نَحْرِهِ، وَأَعُوذُ بِخَيْرِكَ مِنْ شَرِّهِ.

الدعاء على الطعام

مَنْ قَالَ عَلَى طَعَامِهِ: بِسْمِ اللَّهِ خَيْرَ الْأَسْمَاءِ فِي الْأَرْضِ وَفِي السَّمَاءِ، وَلَا يَضُرُّهُ مَعَ اسْمِهِ دَاءٌ، اللَّهُمَّ اجْعَلْ فِيهِ الدَّوَاءَ وَالشِّفَاءَ، لَمْ يَضُرَّهُ ذَلِكَ الطَّعَامُ كَائِنًا مَا كَانَ. وَكَانَ النَّبِيُّ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ إِذَا فَرَّغَ مِنْ طَعَامِهِ قَالَ: الْحَمْدُ لِلَّهِ الَّذِي مَنَّ عَلَيْنَا وَهَدَانَا وَأَطْعَمَنَا وَأَرْوَانَا، وَكُلَّ بِلَاءٍ حَسَنٍ أَبْلَانَا.

الدعاء عند الأذان

مَنْ قَالَ إِذَا سَمِعَ الْأَذَانَ: رَضِيْتُ بِاللَّهِ رَبًّا، وَبِالْإِسْلَامِ دِينًا، وَبِمُحَمَّدٍ نَبِيًّا، غُفِرَ لَهُ ذُنُوبُهُ. وَقَالَ النَّبِيُّ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ: إِذَا سَمِعْتُمُ الْأَذَانَ فَقُولُوا مِثْلَ مَا يَقُولُ الْمُؤَذِّنُ.

الدعاء عند الطيرة

قَالَ النَّبِيُّ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ: مَنْ رَأَى مِنَ الطَّيْرِ شَيْئًا يَكْرَهُهُ فَقَالَ: اللَّهُمَّ لَا طَيْرَ إِلَّا طَيْرِكَ، وَلَا خَيْرَ إِلَّا خَيْرِكَ، وَلَا إِلَهَ غَيْرِكَ، لَمْ يَضُرَّهُ.

الساعة التي يستجاب فيها الدعاء

الْفَضِيلُ عَنْ أَبِي حَازِمٍ عَنْ أَبِي سَلَمَةَ بْنِ عَبْدِ الرَّحْمَنِ عَنْ نَاسٍ مِنْ أَصْحَابِ رَسُولِ اللَّهِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ أَنَّهُمْ أَجْمَعُوا أَنَّ السَّاعَةَ الَّتِي يُسْتَجَابُ فِيهَا الدُّعَاءُ آخِرُ سَاعَةِ مِنْ يَوْمِ الْجُمُعَةِ.

التعويد

أَنَّ بْنَ مَالِكٍ قَالَ: كَانَ النَّبِيُّ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ يَقُولُ: اللَّهُمَّ إِنِّي أَعُوذُ بِكَ مِنْ عِلْمٍ لَا يَنْفَعُ، وَقَلْبٍ لَا يَخْشَعُ، وَدُعَاءٍ لَا يُسْمَعُ، وَنَفْسٍ لَا تَسْتَعِزُّ 0 " اللَّهُمَّ إِنِّي أَعُوذُ بِكَ مِنْ هَذِهِ الْأَرْبَعِ ". وَقَالَ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ: مَنْ قَالَ إِذَا أَمْسَى وَأَصْبَحَ: أَعُوذُ بِكَلِمَاتِ اللَّهِ التَّامَّاتِ الْمُبَارَكَاتِ الَّتِي لَا يَجَاوِزُهَا بَرٌّ وَلَا فَاجِرٌ، مِنْ شَرِّ مَا يَتَرَلُّ مِنَ السَّمَاءِ، وَمِنْ شَرِّ مَا يَعْرُجُ فِيهَا، وَمِنْ شَرِّ مَا ذَرَأَ فِي الْأَرْضِ وَمَا يَخْرُجُ مِنْهَا، لَمْ يَضُرَّهُ شَيْءٌ مِنَ الشَّيَاطِينِ وَالْهُوَامِ. مَسْرُوقٌ عَنْ عَائِشَةَ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهَا، قَالَتْ: كَانَ رَسُولُ اللَّهِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ يُعَوِّذُ الْحَسَنَ وَالْحُسَيْنَ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُمَا بِهَذِهِ الْكَلِمَاتِ: أَعِيدْ كَمَا بِكَلِمَاتِ اللَّهِ التَّامَّةِ، مِنْ كُلِّ عَيْنٍ لَامَّةٍ، وَمِنْ كُلِّ شَيْطَانٍ وَهَامَّةٍ. وَكَانَ إِبْرَاهِيمُ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ يُعَوِّذُ بِهَا إِسْمَاعِيلَ وَإِسْحَاقَ. وَقَالَ أَعْرَابِيٌّ يَصِفُ دَعْوَةَ:

مَحَلًّا وَلَمْ يَقَطَعْ بِهَا الْبَيْدَ قَاطِعًا

وَسَارِيَةً لَمْ تَسْرُ فِي الْأَرْضِ تَبْتَغِي

"سَرَتْ حَيْثُ لَمْ تَسْرِ الرِّكَابُ وَلَمْ تُنْخِ
تَظَلُّ وَرَاءَ اللَّيْلِ وَاللَّيْلِ سَاقِطٌ
تَفْتَحُ أَبْوَابُ السَّمَاءِ لَوْفِهَا

إِذَا سَأَلْتَ لَمْ يَرُدِّدِ اللهُ سُؤْلَهَا
وَإِنِّي لِأَرْجُو اللهُ حَتَّى كَأَنَّمَا

ومن قولنا في هذا المعنى:

بُنِيَ لِنَّ أَعْيَا الطَّبِيبِ ابْنِ مُسْلِمٍ
لَأَبْتَهَلْنَ تَحْتَ الظَّلَامِ بِدَعْوَةٍ
يُقَلِّقُ مَا بَيْنَ الضُّلُوعِ نَشِيجُهَا
إِلَى فَارِجِ الكَرْبِ المُجِيبِ لِمَنْ دَعَا
فِيَا خَيْرٍ مَدْعُوٌّ دَعْوَتُكَ فَاسْتَمِعْ

لُورِدُ وَلَمْ يَقْصُرْ لَهَا القَيْدَ مَانِعٌ"
بِأَوْرَاقِهِ فِيهِ سَمِيرٌ وَهَاجِعٌ
إِذَا قَرَعَ الأبْوَابَ مِنْهُنَّ قَارِعٌ

عَلَى أَهْلِهَا وَاللهِ رَأَى وَسَامِعٌ
أَرَى بِجَمِيلِ الظَّنِّ مَا اللهُ صَانِعٌ

ضَنَّاكَ وَأَعْيَا ذَا النِّبَانِ المُسَجِّعِ
مَتَى يَدْعُهَا دَاعٍ إِلَى اللهِ يُسْمَعُ
لَهَا شَافِعٌ مِنْ عِبْرَةٍ وَتَضْرَعُ
فَزَعَتْ بُكَرْبِي إِنَّهُ خَيْرٌ مَفْرَعٌ
وَمَالِي شَفِيعٌ غَيْرُ فَضْلِكَ فَاشْفَعْ

كتاب الدرّة في التعازي والمرائي

قال أحمد بن محمد بن عبد ربّه: قد مضى قولنا في الزهد ورجاله المشهورين.
ونحن قائلون بعون الله "وتوفيقه" في التّواديّ والمرائي والتعازي بأبلغ ما وجدناه من الفطر الذكيّة، والألفاظ الشحيّة، التي تُرّق القلوب القاسية، وتذيب لدموع الجمامدة، مع اختلاف التّواديّ عند نزول المصائب، فنادية تُثير الحزن من ربّنته، وتبعث الوجد من رقدته، بصوت كترجيع الطير، تُقطع أنفاس المآثم، وتترك صدعاً في القلوب الجلامد؛ ونادية تُخفّض من نشيجها، وتقصّد في نحيبها، وتذهب مذهب الصبر والاستسلام، والثقة بجزيل الثواب.
قال عمر بن ذر: سألتُ أبي: ما بال الناس إذا وعظتهم بكوا، وإذا وعظهم غيرك لم يبكوا؟ قال: يا بني، ليست النائحة الثكلي مثل النائحة المُستأجرة.
وقال الأصمعي: قلتُ لأعرابي: ما بال المرائي أشرفُ أشعاركم؟ قال: لأننا نقولها وقلوبنا مُحترقة.
وقالت الحكماء: أعظم المصائب كلّها انقطاع الرّجاء. وقالوا: كلُّ شيء يبدو صغيراً ثم يعظم إلا المصيبة فإنها تبدو عظيمة ثم تصغر.

القول عند الموت

الأصمعي عن مُعتمر عن أبيه، قال: لقنوا موتاكم الشّهادة، فإذا قالوها فدعوهم ولا تُضجروهم. وقال الحسن: إذا دخلتم على الرجل في الموت فبشّروه ليَلقى ربّه وهو حسن الظنّ به، وإذا كان حيّاً فخوّفوه.
ولقي أبو بكر طلحة بن عبيد الله، فرآه كاسفاً متغيّراً لونه، فقال: مالي أراك متغيّراً لونه؟ قال: لكلمة سمعتها من رسول الله صلى الله عليه وسلم، ولم أسأله عنها؛ قال وما ذاك؟ قال: سمعته يقول: إني أعلم كلمة من قالها عند الموت محصّت ذنوبه، ولو كانت مثل زبد البحر، فأنتسيت أن أسأله عنها.
قال أبو بكر: أعلمكها، وهي: لا إله إلا الله.
أبو الحُبّاب قال: لما احتضر مُعاذ قال لخادمتة: ويحك! هل أصبَحنا؟ قالت: لا، ثم تركها ساعة ثم قال لها: انظري، فقالت: نعم؛ قال: أعوذ بالله من صباح إلى النار. ثم قال: مرّحبا بالموت، مرّحبا بزائر جاء علي فاقه، أفلح من ندم. اللهم إنك تعلم أي لم أحبّ البقاء في الدنيا لجرّي الأتجار، وغرس الأشجار، ولكن لمكابدة الليل الطويل، وظمأ الهواجر في الحرّ الشديد، ومزاحمة العلماء بالرّكب في مجالس الذّكر. ولما حضرت الوفاة عمر بن عُتبه قال لرفيقه: نزل بي الموت ولم أتأهب له، اللهم إنك تعلم أنه ما سنح لي أمران لك في أحدهما رضاً ولي في الآخر هوًى، إلا آترتُ رضاك على هوأي. ولما حضرت الوفاة عمر بن الخطاب: قال لولده عبد الله بن عمر: ضع خدي على الأرض علّ ربّي أن يتعطف عليّ ويرحمي.
ابن السمّك قال: دخلتُ على يزيد الرّقاشي وهو في الموت، فقال لي: سبّني العابدون وقطع بي، والهفاه! موسى السّوّاري قال: دخلتُ على أزدامرد وهو ثقيل فإذا هو كالحفّاش لم يبق منه إلا رأسه، فقلتُ له: يا هذا، ما حالك؟ قال: وما حال من يُريد سفراً "بعيداً"، بغير زاد، وينطلق إلى ملك عدل بغير حجّة، ويدخل قبراً موحشاً بغير مؤنس؟

قال عمر بن عبد العزيز لأبي قلابة، وقد ولي غسل ابنه عبد الملك: إذا غسلته وكفنته فأذني قبل أن تُعطّي وجهه، ففعل فنظر إليه وقال: رحمك الله يا بُني وغفر لك. ولما مات محمد بن الحجاج جزع عليه جزعاً شديداً، وقال: إذا غسلتموه وكفنتموه فأذوني، ففعلوا، فنظر إليه وقال مُتمثلاً:

وأفترّ نايك عن شبّاة القارح

وأعنت ذلك بالفعال الصالح

الآن لما كنت أكمل من منى

وتكاملت فيك المروءة كلّها

فقيل له: اتق الله واسترجع؛ فقال: إنا لله وإنا إليه راجعون. وقال عمر بن عبد العزيز لابنه عبد الملك: كيف تجدك يا بُني؟ قال: أجدني في الموت فاتحبتسني، فإنّ ثواب الله خيرٌ لك منّي؛ قال: والله يا بُني لأن تكون في ميزاني أحب لي أن أكون في ميزانك؛ قال: وأنا والله لأن يكون ما تُحب أحب إليّ من أن يكون ما أحب.

لما احتضر عمرُ بن عبد العزيز رحمه الله استأذن عليه مسلمة بن عبد الملك، فأذن له وأمره أن يُخفف الوُففة، فلما دخل وقف عند رأسه فقال: جَزَاكَ اللهُ يا أمير المؤمنين عَنَّا خيراً، فلقد أَلت لنا قلوباً كانت علينا قاسية، وجعلت لنا في الصالحين ذِكراً.

حماد بن سلمة عن ثابت عن أنس بن مالك، قال: كانت فاطمة جالسةً عند رسول الله صلى الله عليه وسلم: فتراكبت عليه كُرْب الموت، فرفع رأسه وقال: واكْرَبَاه! فبكت فاطمة وقالت: واكْرَبَاه لَكْرَبِكَ يا أبتاه! قال: لا كْرَب على أبيك بعد اليوم. الرِّياشي عن عثمان بن عُمر عن إسرائيل عن ميسرة بن حبيب عن المنهال بن عمرو عن عائشة بنت طلحة عن عائشة أم المؤمنين أنها قالت: ما رأيتُ أحداً من خلق الله أشبه حَدِيثاً وكلاماً برسول الله صلى الله عليه وسلم من فاطمة، وكانت إذا دخلت عليه أخذ بيدها فقَبَلها ورحب بها وأجلسها في مجلسه، وكان إذا دخل عليها قامت إليه ورحبت به وأخذت بيده فقَبَلتها. فدخلت عليه في مرضه الذي تُوِي فيه، فأسرَّ إليها فبكت، ثم أسرَّ إليها فضحكت. فقلت: كنتُ أحسبُ لهذه المرأة فضلاً على النساء، فإذا هي واحدةٌ منهن، بينما هي تبكي إذا هي تضحك. فلما تُوِي رسول الله صلى الله عليه وسلم سألتها، فقالت: أسرَّ إليّ فأخبرني أنه ميّت فبكيّت، ثم أسرَّ إليّ أني أولُ أهل بيته لُحوقاً به فضحكتُ.

القاسم بن محمد عن عائشة أم المؤمنين رضي الله عنها: أنها دخلت على أبيها في مرضه الذي مات فيه، فقالت له: يا أبت، اعهد إلى خاصتك، وأنفذ رأيك في عامتك، وأنقل من دار جهازك إلى دار مُقامك، وإنك محضورٌ ومُتصلٍ بقلبي لو عثقتُ، وأرى تخاذل أطرافك، وانتفاع لُونك، فإلى "الله" تعزيتي عنك، ولديه ثوابٌ صبري عليك، أرقاً فلا أرقاً، وأشكو فلا أشكى. فرفع رأسه فقال: يا بُنيّة، هذا يوم يُحلّ فيه عن غطائي، وأعين جزائي، إن فرحاً فدائم، وإن ترحاً فمقيم. إني اضطلعت بإمامة هؤلاء القوم حين كان النكوص إضاعةً، والحذر تفریطاً، فشهيدي الله ما كان بقلبي إلا إياه، فبَلَّغت بصحفتهم، وتعلّلت بدرّة لِقحتهم، وأقمت صلاي معهم، لا مُختالاً أشراً، ولا مُكابراً بطراً، لم أعد سدَّ الجوعه، وتورية العورة، طَوِي مُغصص تَهْفُو له الأحشاء، وتجب له الأمعاء؛ واضطرت إلى ذلك اضطرار الجِرص إلى الماء المعيف الآجن، فإذا أنا متُ فردّي إليهم صحفتهم ولِقحتهم وعبدتهم ورحاهم، ودثارة ما فوقني اتقيت بها أذى البرد، ودثارة ما تحتي اتقيت بها أذى الأرض، كان حشوهما قطع السعف.

ودخل عليه عمر فقال: يا خليفة رسول الله صلى الله عليه وسلم، لقد كلفت القوم بعدك تعباً، ووليتهم نصباً، فبهيات من شقّ غبارك، فكيف باللحاق بك. وقالت عائشة وأبوها يُغمض:

وأبيض يُستسقى الغمام بوجهه

ربيع اليتامى عصمة للأرامل

"قالت عائشة: فنظر إليّ كالغضبان" وقال: ذلك رسول الله صلى الله عليه وسلم. ثم أغمي عليه، فقالت:

لعمرك ما يغني الثراء عن الفتى

إذا حشرجت يوماً وضاق بها الصدرُ

قالت: فنظر إليّ كالغضبان وقال لي: قولي: "وجاءت سكرة الموت بالحق ذلك ما كنت منه تحيد". ثم قال: انظروا ملاءي فاعسلوهما وكفوني فيهما، فإن الحيّ أحوج إلى الجديد من الميت.

وقال معاوية حين حضرته الوفاة:

ألا لييتي لم أغن في الملك ساعة

ولم أك في اللذات أعشى النواظر

وكنت كذي طمرين عاش ببلغة

ليالي حتى زار ضنك المقابر

لما ثقل معاوية ويزيدُ غائبٌ أقبل يزيد، فوجد عثمان بن محمد بن سُفيان جالساً فأخذ بيده، ودخل على معاوية وهو يجود بنفسه، فكلمه يزيد فلم يكلمه، فبكى يزيد وتصور معاوية ساعة، ثم قال: أي بُني، إن أعظم ما أخاف الله فيه ما كنتُ أصنع لك. يا بني، إني خرجتُ مع رسول الله صلى الله عليه وسلم، فكان إذا مضى لحاجته وتوضأ، أصب الماء على يديه، فنظر إلى قميص لي قد انخرق من عاتقي، فقال لي: يا معاوية: ألا أكسوك قميصاً؟ قلت: بلى، فكساني قميصاً لم ألبسه إلا لبسة واحدة، وهو عندي؛ واجتر ذات يوم فأخذتُ جزاة شعره وقلامه أظفاره فجعلت ذلك في قارورة، فإذا متُّ يا بُني فاعسلني، ثم اجعل ذلك الشعر والأظفار في عيني ومنخري وفمي، ثم اجعل قميص رسول الله صلى الله عليه وسلم شعاراً من تحت كفني،

إن نفع شيء نفع هذا.

لما احتضر عمرو بن العاص، جمع بنيه فقال: يا بني، ما تغنون عني من أمر الله شيئاً؛ قالوا: يا أبانا، إنه الموت، ولو كان غيره لوقيناك بأنفسنا؛ فقال: أسندوني، فأسندوه. ثم قال: اللهم إنك أمرتني فلم أؤتم، وزجرتني، فلم أزدجر، اللهم لا قومي فأتصبر، ولا بريء فأعتذر، ولا مُستكبر بل مُستغفر، أستغفرك وأتوب إليك، لا إله إلا أنت سبحانك إني كنت من الظالمين. فلم يزل يُكرِّرها حتى مات. قال: وأحبرنا رجالٌ من أهل المدينة أن عمرو بن العاص قال لبنيه عند موته: إني لستُ في الشرك الذي لو متُّ عليه أدخلتُ النار، ولا في الإسلام الذي لو متُّ عليه أدخلت الجنة، فمهما قصرتُ فيه فإني مُستمسكٌ بلا إله إلا الله، وقبضٌ عليها يده، وقبضٌ لوقتته. فكانت يده تفتح، تترك فتتقبض. وقال لبنيه: إن أنا متُّ فلا تبكوا عليّ، ولا يتبعني مادح ولا نائح، وشنؤوا عليّ التراب شيئاً، فليس جنِّي الأيمن أولى بالتراب من الأيسر، ولا تجعلوا في قبري خشبةً ولا حجراً، وإذا واريتموني فاقعدوا عند قبري قدرَ نحرٍ جزورٍ وتفصيلها أستأنس بكم.

الجزع من الموت

الفُضيل بن عياض قال: ما جزع أحدٌ من أصحابنا عند الموت ما جزع سُفيان الثوري، فقلنا: يا أبا عبد الله، ما هذا الجزع؟ أليس تذهب إلى من عبثته وفرزت ببدنك إليه؟ فقال: ويحكم! إني أسئلك طريقاً لم أعرفه، وأقدم عليّ ربِّ لم أره. ولما توفِّي سعيد بن أبي الحسن وجد عليه أخوه الحسن وجداً شديداً، فكلم في ذلك، فقال: ما رأيتُ الله جعل الحزن عاراً على يعقوب. وقال صالح المري: دخلتُ على الحسن وهو في الموت وهو يُكثر الاسترجاع، فقال له ابنه: أمثلك يسترجع على الدنيا؟ قال: يا بني، ما أسترجع إلا على نفسي التي لم أصب بمثلها قط. ولما أمر معاوية بقتل حجر بن الأديب وأصحابه، بعث إليهم أكفاهم وأمر بأن تُفتح قبورهم ويُقتلوا عليها. فلما قدم حجر بن الأديب إلى السيف جزع جزعاً شديداً، فقيل له: أمثلك يجزع من الموت؟ فقال: وكيف لا أجزع وأرى سيفاً مشهوراً، وكفنًا منشوراً، وقبراً محفوراً.

البكاء على الميت

الشَّعبي عن إبراهيم قال: لا يكون البكاء إلا من فضلٍ "قوة"، فإذا اشتد الحزن ذهب البكاء. وأنشد:

ولئن تركنا ذاك للصبرِ

ولمئله جمدت ولم تجرِ

فلئن بكينا لحق لنا

فلمئله جرت العيون دماً

مر الأحنف بامرأة تبكي ميتاً ورجل ينهها، فقال: دعها فإنها تندب عهداً قريباً وسقراً بعيداً. قالوا: لما توفِّي إبراهيم بن محمد صلى الله عليه وسلم بكى عليه. فسئل عن ذلك، فقال: تدمع العينان وبحزن القلب ولا نقول ما يُسخط الرب.

ومر النبي صلى الله عليه وسلم بنسوة من الأنصار يبكين ميتاً، فزجرهن عمر، فقال له النبي صلى الله عليه وسلم: دعهن يا عمر، فإن النفس مُصابة، والعين دامة والعهد قريب. ولما بكت نساء أهل المدينة على قتلى أحد، قال النبي صلى الله عليه وسلم: لكن حمزة لا باكية له. فسمع ذلك أهل المدينة، فلم يقيم لهم مأتم "أبعدها" إلى اليوم إلا ابتداء "النساء" فيه بالبكاء على حمزة قالت النبي صلى الله عليه وسلم: لولا أن يُشقَّ على صفة ما دفنته حتى يُحشر من حواصل الطير وبطن السباع.

ولما نعي النعمان بن مقرن إلى عمر بن الخطاب وضع يده على رأسه وصاح يا أسفي على النعمان. ولما استشهد زيد بن الخطاب باليمامة، وكا صحبه رجل من بني عدي بن كعب فرجع إلى المدينة، فلما رآه عمر دمعت عيناه، وقال: وحلفت زيدا ثاوياً وأتيتني وقال عمر بن الخطاب "رضي الله عنه": ما هبت الصبا إلا وجدت نسيم زيد.

وكان إذا أصابته مصيبة قال: قد فقدتُ زَيْداً فصبرتُ.

ولما تُوفي خالدُ بن الوليد أيامَ عمرَ بن الخطاب، وكان بينهما هجرة، فامتنع النساء من البكاء عليه. فلما انتهى ذلك إلى عمر، قال: وما على نساء بني المغيرة أن يُرِقْنَ من دمعهن على أبي سليمان ما لم يكن لَعُواً ولا لَقَلَقَةً. وقال معاوية، وذُكر عنده النساء: ما مَرَضَ المَرَضَى ولا نَدَبَ المَوْتَى مثلهنَّ. وقال أبو بكر بن عيَّاش: نزلت بي مصيبة أوْجعتني، فذكرتُ قولَ ذي الرُّمَّة:

من الوجدِ أو يشفي شجيّ البلابل

لعل انحدار الدمع يُعقبُ راحةً

فَخَلَوْتُ فبكِيتُ فسلوتُ. وقال الفرزدق في هذا المعنى:

بكِيتُ فنادتني هُنَيْدَةٌ مالياً

ألم ترَ أنّي يومَ جَوِّ سَوَيْقَةٍ

به يشتفي من ظنٍّ أن لا تلاقياً

فقلْتُ لها إنّ البُكاءَ لراحةٌ

ألم تسمعا بالبيضتين المُنَادِيا

قعيدَ كما الله الذي أنتما له

فأسمعني سقياً لذلك داعياً

حبيبٌ دعا والرملَ بيني وبينه

يقال: قعيدك الله، وقعيدك الله، معناه: سألتك الله.

القول عند المقابر

قال بعضهم: خرجنا مع زيد بن عليّ تُريد الحجَّ، فلما بلغنا النَّبَاجَ وصرنا إلى مقابرها التفتَ إلينا، فقال:

فهم يَنْقُصُونَ والقُبورَ تَزِيدُ

لُكُلٌ أَناسٍ مَقْبَرٍ بِفنائهم

وقَبْرٌ بِأَفْناءِ الدُّيُوتِ جَدِيدِ

فما إن تَزَالَ دارُ حَيٍّ قد اخْرَبَتْ

فدانٍ وأما المَلْتَقَى فبَعِيدِ

هُمُ جِيرةُ الأحياءِ أما مزارُهُم

وقال: مررتُ بيزيد الرِّقَاشيِّ وهو جالسٌ بين المدينة والمقبرة، فقلت له: ما أجلسك ها هنا؟ قال: أنظرُ إلى هذين العَسْكَرينِ، فعسكركُ يَقْذِفُ الأحياءَ وعسكركُ يَلْتَقِمُ الموتى ثم نادى بأعلى صوته: يا أهلَ القُبورِ المُوَحِّشَةَ، قد نطقَ بالخَرَابِ فَنَاوُها، ومُهَّدَ بالترابِ بِنَاوُها، فمحلُّها مُقْتَرَبٌ، وساكنها مَعْتَرَبٌ، لا يتواصلون تواصلَ الإخوانِ، ولا يتزاوون تزاوَرَ الجيرانِ، قد طَحَنهم بِكُلِّكَلِّه البليِّ، وأكلتهم الجنادلُ والترى.

وكان عليُّ بن أبي طالب كرم الله وجهه إذا دخلَ المَقْبِرَةَ قال: أما المنازلُ فقد سُكِنَتْ، وأما الأموالُ فقد قُسِّمَتْ، وأما الأزواجُ فقد نُكِحَتْ، فهذا خبر ما عندنا، فليتَ شِعْري ما عندكم؟ ثم قال: والذي نفسي بيده، لو أذن لهم في الكلام لقالوا: إن خيرَ الزَّادِ التَّقْوَى. وكان عليُّ بن أبي طالب إذا دخلَ المَقْبِرَةَ قال: السلامُ عليكم يا أهلَ الدِّيارِ المُوَحِّشَةَ، والمَحالِّ المَقْفِرَةَ، من المؤمنين والمؤمناتِ، اللهم اغفرِ لنا ولهم، وتجاوزَ بعفوك عَنَّا وعنهم. ثم يقول:

الحمد لله الذي جعل لنا الأرضَ كَفَاتاً، وأحياءً وأمواتاً، والحمد لله الذي منها خَلَقنا و"جعل" إليها مَعادنا، وعليها مَحْشَرنا؛ طوي لمن ذكرَ المَعادِ، وعملَ الحَسَناتِ، وقَنعَ بالكِفافِ، ورَضِيَ عن الله عزَّ وجلَّ.

وكان النبي صلى الله عليه وسلم إذا دَخَلَ المَقْبِرَةَ قال: السلامُ عليكم دارَ قومٍ مُؤمِنينَ وإِنَّا إن شاء الله بكم لآحقون. وكان الحَسَنُ البَصْرِيّ إذا دخلَ المَقْبِرَةَ قال: اللهم رَبِّ هذه الأَجسادِ الباليةِ، والعِظامِ النخرةِ، التي خَرَجَتْ من الدُّنيا وهي بك مُؤمِنَةٌ، أَدْخِلْ عليها رَوْحاً منك وسلاماً منّا. وكان عليُّ ابنَ الفَضْلِ إذا دَخَلَ المَقْبِرَةَ يقول: اللهم اجعل وفائهم نَجاةً لهم مما يَكْرَهُونَ، واجعل حسابهم زيادةً لهم فيما يُحِبُّونَ.

الوقوف على القبور وتأبين الموتى

وقف أعرابيُّ على قَبْرِ رسولِ الله صلى الله عليه وسلم فقال: قُلْتَ فَقَبَلْنَا، وأمرتَ فحَفَظْنَا، وبلغتَ عن ربك فسمِعْنَا. "ولو أنهم إذ ظَلَمُوا أنفُسَهُمْ جاءوك فاستغفروا الله واستغفر لهم الرسول لوجَدُوا الله تواباً رَحِيماً". وقد ظَلَمْنَا أنفُسَنَا وحنَّناك فاستغفر لنا. فما بَقِيَتْ عَيْنٌ إِلَّا سَأَلَتْ. ووقفت فاطمةٌ عليهما السلام على قبر أبيهما صلى الله عليه وسلم، فقالت:

إِنَّا فَقَدْنَاكَ فَقَدَّ الْأَرْضُ وَابِلَهَا

وَغَابَ مَذُ غَيْتِ عَنَّا الْوَحْيُ وَالْكِتَابُ

فَلَيْتَ قَبْلَكَ كَانَ الْمَوْتُ صَادِفَنَا

لَمَا نَعَيْتَ وَحَالَتْ دُونَكَ الْكِتَابُ

حمَّاد بن سلمة عن ثابت عن أنس بن مالك قال: لما فرغنا من دَفْنِ رسولِ الله صلى الله عليه وسلم أقبلتُ عليَّ فاطمةٌ فقالت: يا أنس، كيف طابَتْ أنفُسُكم أن تَحْتُوا علي وجه رسولِ الله صلى الله عليه وسلم الترابَ، ثم بَكَت وناذت: يا أبتاه! أحاب ربًّا دعاه، يا أبتاه! من ربِّه ما أدناه، يا أبتاه! مَنْ ربُّ ناداه، يا أبتاه! إلى جبريل نُنْعَاه، يا أبتاه! حِنَّةَ الْفَرْدَوْسِ مَاوَاه. قال: ثم سَكَتَتْ، فما زادت شيئاً. ولما دُفِنَ عمر بن الخطاب رضي الله عنه أقبلَ عبدُ الله بن مسعود وقد فاتتَه الصلاةُ عليه، فوَقَفَ على قبره يبكي ويَطْرَحُ رِداءه، ثم قال: واللَّهِ لئن فاتتني الصلاةُ عليك لا فاتتني حُسْنُ النِّئَاءِ، أما والله لقد كنتُ سَخِيحاً بِالْحَقِّ، بَخِيلاً بِالْبَاطِلِ، تَرْضَى حِينَ الرِّضَا، وَتَسْخَطُ حِينَ السُّخْطِ، ما كنتُ عَيَاباً وَلَا مَدَّاحاً، فجزاك اللهُ عن الإسلامِ خَيْرًا. ووقف عليُّ بن أبي طالب رضي الله عنه على قَبْرِ حَبَّابٍ، فقال: رَحِمَ اللهُ حَبَّابًا، لَقَدْ أَسْلَمَ رَاغِبًا، وَجَاهَدَ طَائِعًا، وَعَاشَ زَاهِدًا، وَأَبْتَلِي فِي جِسْمِهِ فَصَبْرًا، وَلَنْ يُضَيِّعَ اللهُ أَجْرَ مَنْ أَحْسَنَ عَمَلًا.

ولما تُوْفِيَ عليُّ بن أبي طالب رضوان الله عليه، قام الحسنُ بن علي رضي الله عنهما، فقال: أيها الناس، إنه قَبِضَ فيكم الليلة رَجُلٌ لم يسبقه الأولون ولم يُدْرِكه الآخرون، قد كان رسولُ لله صلى الله عليه وسلم يَبْعَثُهُ فيكُنْفَهُ جبريلُ عن يمينه وميكائيلُ عن شماله، لا يَنْشِي حتى يَفْتَحَ اللهُ له، ما تَرَكَ صَفْرَاءَ وَلَا بِيضَاءَ إِلَّا سَبْعَمِائَةَ دِرْهَمٍ أَعَدَّهَا الْخَادِمُ له. عبدُ الرحمن بن الحسن عن محمد بن مُصْعَبٍ قال: لما مات داود الطائي تكلم ابن السَّمَاكِ فقال: إنَّ داودَ نظر إلى ما بي يَدَيْهِ من آخرته، فأعشى بَصْرَ الْقَلْبِ بَصَرَ الْعَيْنِ، فكأنه لم ينظر إلى ما إليه تَنْظُرُونَ، وكأَنَّكم لم تَنْظُرُوا إلى ما إليه نظر، وأنتم منه تَعْجَبُونَ، وهو منكم يَعْجَبُ، فلما رآكم مَفْتُونِينَ مَغْرورِينَ، قد أذهلت الدنيا عَقُولَكم، وأماتت بحبِّها قُلُوبَكم، استوحش منكم، فكنت إذا نظرت إليه حَسِبْتَهُ حَيًّا وَسَطَ أَمْوات. يا داود، ما أعجب شأنك بين أهل زمانك! أهنتَ نَفْسَك وإِنما تُريدُ إكْرَامَها، وأتعبتها وإِنما تُريدُ راحتها، أَحَشَشْتَ الْمَطْعَمَ وإِنما تُريدُ طيبه، وأحششتَ الملبسَ وإِنما تُريدُ لينة، ثم أمتَ نَفْسَك قبل أن تموت، وقبرتها قبل أن تُقْبَرَ، وعدبتها قبل أن تُعَذَّبَ، سَحَّتْ نَفْسَك في بَيْتِكَ وَلَا مَحَدَّتْ لها وَلَا جَلِيسَ معها، وَلَا فِرَاشَ تحتك، وَلَا سترَ على بابك، وَلَا قُلَّةً تُبْرَدُ فيها ماءك، وَلَا صَحْفَةً يكون فيها عَدَاؤُك وعشاؤُك. يا داود، ما تشتهي من الماء بارده، ولا من الطعام طيبه، ولا من اللباس لينة، بلى، ولكن زهدت فيه لما بين يديك، فلا أصغر ما بذلتَ وما أحقر ما تَرَكْتَ في حَنْبٍ ما رَعِبْتَ وأملت! لم تقبل من الناس عَطِيَّةً، ولا من الإخوان هدية، فلما مِتَّ شَهَرَكَ رَبُّكَ بِفَضْلِكَ، وأبسك رِداءَ عملك، فلو رأيت مَنْ حَضَرَكَ علمت أن ربَّك قد أكرمك وشرَّفك.

وقف الأحنفُ بن قيسٍ على قَبْرِ أخيه فأنشد:

فوالله لا أنسى قَتِيلًا رَزِينَتُهُ

بجانب قوسى ما مشى على الأرض

على انها تعفو الكلوم وإنما

نوكل بالأدنى وإن جل ما يمضي

وقف محمد بن الحنفية على قبر الحسن بن علي رضي الله عنه فحَنَفَّتْهُ الْعَبْرَةُ، ثم نَطَقَ فقال: يَرِحْكَ اللهُ أبا أحمد، فلئن عزت حياثك فلقد هدَّتْ وفائتُك، ولِنِعْمِ الرُّوحِ روحَ ضَمَمَ بَدَنَكَ، وَلِنِعْمِ الْبَدَنِ بَدَنَ ضَمَمَهُ كَفَنُكَ، وكيف لا يكون كذلك وأنت بقية ولد الأنبياء، وسليل الهدى، وخامس أصحاب الكساء، غَدَّتْكَ أَكْفُ الْحَقِّ، وَرُبِيتَ فِي حِجْرِ الْإِسْلَامِ، فَطِبْتَ حَيًّا وَطِبْتَ مَيِّتًا، وإن كانت أنفُسنا غيرَ طَيِّبَةٍ بفراقك، ولا شاكاة في الحيار لك. ووقفت عائشة على قبر أبي بكرٍ فقالت: نَضَّرَ اللهُ وَجْهَكَ، وَشَكَرَ لَكَ صَالِحَ سَعْيِكَ، فَقَدْ كُنْتَ لِلدُّنْيَا مَذْلًا بِإِدْبَارِكَ عَنْهَا، وَكُنْتَ لِلْآخِرَةِ مُعْرًا بِإِقْبَالِكَ عَلَيْهَا، وَلئن كان أجلُّ الحوادث بعد رسولِ الله صلى الله عليه وسلم رُزُؤُكَ، وأعظم المصائب بعده فَقْدُكَ، إنَّ كتابَ اللهِ ليعِدُّ بحُسْنِ الصبرِ فيك

وَحُسْنِ الْعَوَظِ مِنْكَ فَأَنَا أَنْتَجِزُ مَوْعِدَ اللَّهِ بِحَسَنِ الْعِزَاءِ عَلَيْكَ، وَأَسْتَعِيضُهُ مِنْكَ بِالِاسْتِغْفَارِ لَكَ، فَعَلَيْكَ السَّلَامُ وَرَحْمَةُ اللَّهِ، تَوَدِّعُ غَيْرَ قَالِيَةٍ لَكَ، وَلَا زَارِيَةَ عَلَى الْقَضَاءِ فِيكَ، ثُمَّ انصرفت.

لَمَّا قُبِضَ أَبُو بَكْرٍ "رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ" سُجِّي ثَنُوبٌ، فَارْتَجَّتِ الْمَدِينَةَ بِالْبُكَاءِ عَلَيْهِ وَدَهَشَ الْقَوْمَ كَيَوْمِ قُبُضِ رَسُولِ اللَّهِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ، وَجَاءَ عَلِيُّ بْنُ أَبِي طَالِبٍ بَاكِيًا مُسْرِعًا مُسْتَرْجِعًا حَتَّى وَقَفَ بِالْبَابِ وَهُوَ يَقُولُ: رَحِمَكَ اللَّهُ أبا بَكْرٍ، كُنْتَ وَاللَّهِ أَوَّلَ الْقَوْمِ إِسْلَامًا، وَأَخْلَصَهُمْ إِيمَانًا، وَأَشَدَّهُمْ يَقِينًا، وَأَعْظَمَهُمْ عِنَاءً، وَأَحْفَظَهُمْ عَلَى رَسُولِ اللَّهِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ، وَأَحْرَبَهُمْ كُلَّ الْإِسْلَامِ، وَأَحْنَاهُمْ عَلَى أَهْلِهِ، وَأَشْبَهُهُمْ بِرَسُولِ اللَّهِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ خُلُقًا وَقَضْلًا وَهَدْيًا وَصِمْتًا؛ فَجَزَاكَ اللَّهُ عَنِ الْإِسْلَامِ وَعَنِ رَسُولِ اللَّهِ وَعَنِ الْمُسْلِمِينَ خَيْرًا، صَدَقْتَ رَسُولَ اللَّهِ "صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ" حِينَ كَذَّبَهُ النَّاسُ، وَوَأَسَيْتَهُ حِينَ يَخْلَوُا، وَقَمْتَ مَعَهُ حِينَ قَعَدُوا، سَمَّاكَ اللَّهُ فِي كِتَابِهِ صِدْقًا فَقَالَ: "وَالَّذِي جَاءَ بِالصَّدَقِ وَصَدَّقَ بِهِ" يَرِيدُ مُحَمَّدًا وَيُرِيدُكَ. كُنْتَ وَاللَّهِ لِلْإِسْلَامِ حِصْنًا، وَعَلَى الْكَافِرِينَ عَذَابًا، لَمْ تُفَلِّحْ حُجَّتَكَ، وَلَمْ تَضْعُفْ بِصِيرَتِكَ، وَلَمْ تَحْجِبْ نَفْسَكَ. كُنْتَ كَالْجَبَلِ لَا تَحْرُكُهُ الْعَوَاصِفُ وَلَا تُزِيلُهُ الْقَوَاصِفُ، كُنْتَ كَمَا قَالَ رَسُولُ اللَّهِ "صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ": ضَعِيفًا فِي بَدَنِكَ، قَوِيًّا فِي أَمْرِ اللَّهِ، مَتَوَاضِعًا فِي نَفْسِكَ، عَظِيمًا عِنْدَ اللَّهِ، قَلِيلًا فِي الْأَرْضِ، كَثِيرًا عِنْدَ الْمُؤْمِنِينَ، لَمْ يَكُنْ لِأَحَدٍ عِنْدَكَ مَطْمَعٌ، وَلَا لِأَحَدٍ عِنْدَكَ هَوَادَةٌ، فَالْقَوِيُّ عِنْدَكَ ضَعِيفٌ حَتَّى تَأْخُذَ الْحَقُّ مِنْهُ، وَالضَّعِيفُ عِنْدَكَ قَوِيٌّ حَتَّى تَأْخُذَ الْحَقُّ لَهُ، فَلَا حَرَمْنَا اللَّهُ أَحْرَكَ، وَلَا أَضَلَّنَا بَعْدَكَ.

وَقَفَ عَبْدُ الْمَلِكِ بْنُ مَرْوَانَ عَلَى قَبْرِ مَعَاوِيَةَ فَقَالَ: تَاللَّهِ إِنْ كُنْتُ إِلَّا كَمَا عَلِمْتَ، يُنْطِقُكَ الْعِلْمُ، وَيُسْكِنُكَ الْحِلْمُ. ثُمَّ أَنْشَأَ يَقُولُ:

رَزِيَّةَ مَالٍ أَوْ فِرَاقُ حَبِيبٍ

وَمَا الدَّهْرُ وَالْأَيَّامُ إِلَّا كَمَا تَرَى

الهِثْمُ بْنُ عَدَى قَالَ: لَمَّا هَلَكَ زِيَادٌ اسْتَعْمَلَ مَعَاوِيَةَ الضَّحَّاكَ عَلَى الْكُوفَةِ، فَلَمَّا دَخَلَهَا، سَأَلَ عَنْ قَبْرِ زِيَادٍ، فُدِّلَ عَلَيْهِ، فَأَتَاهُ حَتَّى وَقَفَ بِهِ، ثُمَّ قَالَ:

وَإِنَّ مِنْ غَرَّتِ الدُّنْيَا لَمَغْرُورٌ

أَبَا الْمُغِيرَةَ وَالدُّنْيَا مُفْجَعَةٌ

وَكَانَ عِنْدَكَ لِلنَّكْرَاءِ تَنْكِيرٌ

قَدْ كَانَ عِنْدَكَ لِلْمَعْرُوفِ مَعْرِفَةٌ

إِذَا لَخَلَّدَكَ الْإِسْلَامُ وَالْخَيْرُ

لَوْ خَلَّدَ الْخَيْرُ وَالْإِسْلَامُ ذَا قَدَمٍ

وَالْأَبْيَاتُ لِحَارِثَةَ بْنِ بَدْرٍ يَرْتِي زِيَادًا.

المدائني قال: لما دفن علي بن أبي طالب كرم الله وجهه فاطمة عليهما السلام تمثلت عند قبرها، فقال:

وَكُلُّ الَّذِي دُونَ الْمَمَاتِ قَلِيلٌ

لِكُلِّ اجْتِمَاعٍ مِنْ خَلِيلَيْنِ فَرَقَةٌ

دَلِيلٌ عَلَى أَنْ لَا يَدُومَ خَلِيلٌ

وَإِنْ أَفْتَقَدَا وَاحِدًا بَعْدَ وَاحِدٍ

لَمَّا مَاتَ الْحَسَنُ بْنُ عَلِيٍّ عَلَيْهِمَا السَّلَامُ ضَرَبَتْ أَمْرَاتُهُ فُسْطَاطًا عَلَى قَبْرِهِ وَأَقَامَتْ حَوْلًا، ثُمَّ انصرفت إلى بيتها، فسمعت قاتلاً يقول: أدركوا ما طلبوا. فأجابته مُجِيبٌ: بَلْ مَلُّوا فَانصرفوا. ابن الكلبي قال: وقفت نائلة بنت الفرافصة الكلبية على قبر عثمان فترحمت عليه، ثم قالت:

وَقَدْ ذَهَبَتْ عَنَّا فَضُولُ أَبِي عَمْرٍو

وَمَالِي لَا أَبْكِي وَتَبْكِي صَحَابَتِي

ثم انصرفت إلى منزلها، فقالت: إني رأيتُ الحُزْنَ يَبْلِي كَمَا يَبْلِي الثُوبُ، وَقَدْ حَفَّتْ أَنْ يَبْلِي حُزْنَ عِثْمَانَ فِي قَلْبِي. فَدَعَتُ بِفَهْرٍ فَهَشِمَتْ فَاهَا وَقَالَتْ: وَاللَّهِ لَا قَعْدَ مَنِّي رَجُلٍ مَقْعَدِ عِثْمَانَ أَبَدًا.

لَمَّا هَلَكَ الْإِسْكَانْدَرُ قَامَتِ الْخُطْبَاءُ عَلَى رَأْسِهِ، فَكَانَ مِنْ قَوْلِهِمْ: الْإِسْكَانْدَرُ كَانَ أَمْسَ أَنْطَقَ مِنْهُ الْيَوْمَ، وَهُوَ الْيَوْمَ أَوْعَظَ مِنْهُ أَمْسَ. أَخَذَ هَذَا الْمَعْنَى أَبُو الْعَتَاهِيَةِ، فَقَالَ عِنْدَ دَفْنِهِ وَلَدًا لَهُ:

نَفَضْتُ تُرَابَ قَبْرِكَ مِنْ يَدَيَا

كَفَى حَزَنًا بِدَفْنِكَ ثُمَّ أَنِي

وكنْتَ وفي حَيَاتِكَ لي عِظَاتٌ

فَأنتَ اليومَ أو عِظُ منكَ حَيَا

وَقَفَ أَبُو ذَرِّ الهمْدَانِي عَلَى قَبْرِ ابْنِهِ ذَرِّ فَقَالَ: يَا ذَرُّ، شَغَلَنِي الحَزْنُ لَكَ عَنِ الحَزْنِ عَلَيْكَ، فَلَيْتَ شِعْرِي مَا قُلْتَ وَمَا قِيلَ لَكَ. ثُمَّ قَالَ: اللَّهُمَّ إِنِّي قَدْ وَهَبْتُ لَكَ إِسَاءَتَهُ إِلَيَّ، فَهَبْ لَهُ إِسَاءَتَهُ إِلَيْكَ. فَلَمَّا انصَرَفَ عَنْهُ التَفَتَ إِلَى قَبْرِهِ فَقَالَ: يَا ذَرُّ، قَدْ انصَرَفْنَا وَتَرَكْنَاكَ، وَلَوْ أَقْمْنَا مَا نَعَفْنَاكَ.

وَقَفَ مُحَمَّدُ بْنُ سُلَيْمَانَ عَلَى قَبْرِ ابْنِهِ فَقَالَ: اللَّهُمَّ إِنِّي أَرْجُوكَ لَهُ وَأُحَافِكُ عَلَيْهِ، فَحَقِّقْ رَجَائِي وَأَمِّنْ خَوْفِي. وَوَقَفَتْ أَعْرَابِيَّةٌ عَلَى قَبْرِ أَبِيهَا فَقَالَتْ: يَا أَيْتُ، إِنَّ فِي اللَّهِ تَبَارَكَ وَتَعَالَى مِنْ فَقْدِكَ عَوْضًا، وَفِي رَسُولِ اللَّهِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ مِنْ مُصِيبَتِكَ أَسْوَةٌ، ثُمَّ قَالَتْ: اللَّهُمَّ، نَزَلَ بِكَ عَبْدُكَ مُقْفَرًا مِنَ الزَّادِ، مَخْشَوْشِينَ المِهَادِ، غَنِيًّا عَمَّا فِي أَيْدِي العِبَادِ، فَقِيرًا إِلَى مَا فِي يَدَيْكَ يَا حَوَادِ، وَأَنْتَ أَيُّ رَبِّ خَيْرٌ مِنْ نَزَلَ بِهِ المُوْمَلُونَ، وَأَسْتَعْنِي بِفَضْلِهِ المَقْلُونَ، وَوَلِّجْ فِي سَعَةِ رَحْمَتِهِ المَذْنُوبِينَ. اللَّهُمَّ فَلْيَكُنْ قَرِيَّ عَبْدِكَ مِنْكَ رَحْمَتِكَ، وَمِهَادُهُ جَنَّتِكَ، ثُمَّ انصَرَفَتْ.

قَالَ عَبْدُ الرَّحْمَنِ بْنُ عُمَرَ: دَخَلْتُ عَلَى امْرَأَةٍ مِنْ نَجْدٍ بِأَعْلَى عَلَى الأَرْضِ فِي خِباءٍ لَهَا وَبَيْنَ يَدَيْهَا بُنْيٌ لَهَا قَدْ نَزَلَ بِهِ المَوْتُ، فَقامَتْ إِلَيْهِ فَأَعْمَضَتْهُ وَعَصَبَتْهُ وَسَجَّتْهُ، وَقَالَتْ: يَا بِنَ أَخِي؟ قُلْتُ: مَا تَشَائِينِ؟ قَالَتْ: مَا أَحَقُّ مِنْ أَلْبَسَ النُّعْمَةَ وَأَطِيلَتْ بِهِ النُّظْرَةَ أَنْ لَا يَدْعُ التَّوْتُوقَ مِنْ نَفْسِهِ قَبْلَ حِلِّ عُقْدَتِهِ، وَالْحُلُولَ بِعَقْوَتِهِ، وَالْحَالَةَ بَيْنَهُ وَبَيْنَ نَفْسِهِ. قَالَ: وَمَا يَقْطُرُ مِنْ عَيْنِهَا دَمْعَةٌ صَبْرًا وَاحْتِسَابًا. ثُمَّ نَظَرْتُ إِلَيْهِ فَقَالَتْ: وَاللَّهِ مَا كَانَ "مَالُهُ" لَبَطْنَهُ وَلَا أَمْرُهُ لِعَرْسِهِ؛ ثُمَّ أَنْشَدَتْ:

رَحِيبُ ذِرَاعٍ بِالنَّيِّ لَا تَشِينُهُ

وَإِنْ كَانَتْ الفَحْشَاءُ ضَاقَ بِهَا ذِرْعَا

وَقَفَ عُمَرُ بْنُ عَبْدِ العَزِيزِ عَلَى قَبْرِ ابْنِهِ عَبْدِ المَلِكِ فَقَالَ: رَحِمَكَ اللَّهُ يَا بُنْيَّ، فَلَقَدْ كُنْتُ سَارًّا مَوْلُودًا بَارًّا نَاشِئًا، وَمَا أَحْسَبُ أَنِّي لَوْ دَعَوْتُكَ أَجَبْتَنِي. تُوفِّي رَجُلٌ كَانَ مُسْرِفًا عَلَى نَفْسِهِ بِالدُّنُوبِ فَتَحَامَى النَّاسُ جِنَازَتَهُ، فَبَلَغَ عُمَرَ بْنِ ذَرِّ خَبْرَهُ، فَأَوْصَى إِلَى أَهْلِهِ أَنْ خَذُوا فِي جِهَارِهِ فَإِذَا فَرغْتُمْ فَادْنُونِي، فَفَعَلُوا وَشَهِدَهُ عُمَرُ بْنُ ذَرِّ وَشَهِدَهُ النَّاسُ مَعَهُ، فَلَمَّا فَرَّغَ مِنْ دَفْنِهِ وَقَفَ عُمَرُ بْنُ ذَرِّ عَلَى قَبْرِهِ فَقَالَ: يَرْحَمُكَ اللَّهُ أَبَا فُلَانِ، فَلَقَدْ صَحَبْتُ عُمَرَكَ بِالتَّوْحِيدِ، وَعَفَّرْتُ لَكَ وَجْهَكَ بِالسُّجُودِ، فَإِنْ قَالُوا مُذْنِبٌ وَذُو خَطَايَا، فَمَنْ مَتَا غَيْرَ مُذْنِبٍ وَغَيْرُ ذِي خَطَايَا.

سَمِعَ الحَسَنُ جَارِيَةَ وَاقِفَةً عَلَى قَبْرِ أَبِيهَا وَهِيَ تَقُولُ: يَا أَيْتُ، مِثْلَ يَوْمِكَ لَمْ أَرَهُ. قَالَ الَّذِي وَاللَّهِ لَمْ يَرِ مِثْلَ يَوْمِهِ أَبُوكَ. وَسَمِعَ عُمَرَ بْنَ عَبْدِ العَزِيزِ خَصِيًّا لِلوَلِيدِ بْنِ عَبْدِ المَلِكِ وَاقِفًا عَلَى قَبْرِ الوَلِيدِ وَهُوَ يَقُولُ: يَا مَوْلَايَ، مَاذَا لَقِينَا بِعَدُوكَ؟ فَقَالَ لَهُ عُمَرُ: أَمَا وَاللَّهِ لَوْ أُذِنَ لَهُ فِي الكَلَامِ لَأَخْبَرَ أَنَّهُ لَقِيَ بِعَدُوكَ أَكْثَرَ مِمَّا لَقِيتُمُ بَعْدَهُ. وَقَفَ مُعَاوِيَةُ عَلَى قَبْرِ أَخِيهِ عُتْبَةَ فَدَعَا لَهُ وَتَرَحَّمَّ عَلَيْهِ، ثُمَّ التَفَتَ إِلَى مَنْ مَعَهُ، فَقَالَ: لَوْ أَنَّ الدُّنْيَا بُنِيَتْ عَلَى نِسْيَانِ الأَحِيَةِ مَا نَسِيتُ عُتْبَةَ أَبَدًا.

المراثي

من رثي نفسه ووصف قبره وما يكتب على القبر

قال ابن قتيبة: بلغني أن أول من بكى على نفسه وذكر الموت في شعره يزيد بن خذاق، فقال:

أم هل له من حمام الموت من راقبي
وألبسوني ثياباً غير أخلاق
وأدرجوني كأني طي مخراق
ليسننوا في ضريح القبر أطباقي
وقال قائلهم مات ابن خذاق

هل للفتى من بنات الدهر من واقبي
قد رجّلوني وما بالشعر من شعث
وطيّبوني وقالوا أيما رجل
وأرسلوا فتية من خيرهم حسبا
وقسموا المال وارفضت عوائدهم

هُونٌ عَلَيْكَ وَلَا تُولَعْ بِإِشْفَاقِ

وقال أبو ذؤيب الهذلي يصف حفرته:

مُطَاطَأةً لَمْ يَنْبِطُوهَا وَإِنِهَا

فَضَوْا مَا فَضَوْا مِنْ رَمِّهَا ثُمَّ أَقْبَلُوا

فَكُنْتُ ذُنُوبَ الْبِئْرِ لَمَّا تَبَسَّلْتُ

وقال عروة بن حزام لما نزل به الموت:

مَنْ كَانَ مِنْ أَخَوَاتِي بَاكِيًا أَبَدًا

يُسْمِعُنِيهِ فَإِنِّي غَيْرُ سَامِعِهِ

وقال الطرمّاح بن حكيم:

فِيَا رَبِّ لَا تَجْعَلْ وَفَاتِي إِنْ أَتَتْ

وَلَكِنْ شَهِيدًا ثَاوِيًا فِي عِصَابَةٍ

إِذَا فَارَقُوا دُنْيَاهُمْ فَارَقُوا الْأَذَى

فَأَقْتُلَ قَعَصًا ثُمَّ يُرْمَى بِأَعْظَمِي

وَيُصْبِحَ لَحْمِي بَطْنِ نَسْرٍ مَقِيلُهُ

فَإِنَّمَا مَالُنَا لِلْوَارِثِ الْبَاقِي

لَيَرْضَى بِهَا فُرَاطُهَا أُمَّ وَاحِدٍ

إِلَى بَطَاءِ الْمَشِيِّ غَيْرِ السَّوَاعِدِ

وَأَرْجَتْ أَكْفَانِي وَوَسَدَتْ سَاعِدِي

فَالْيَوْمَ إِنِّي أُرَانِي الْيَوْمَ مَقْبُوضًا

إِذَا عَلَوْتُ رِقَابَ الْقَوْلِ مَعْرُوضًا

عَلَى شَرَجٍ يُعَلَى بِخُضْرِ الْمَطَارِفِ

يُصَابُونَ فِي فَجٍّ مِنَ الْأَرْضِ خَائِفِ

وَصَارُوا إِلَى مَوْعُودِ مَا فِي الصَّحَائِفِ

مُفْرَقَةً أَوْصَالُهَا فِي التَّنَائِفِ

بِجَوِّ السَّمَاءِ فِي نَسُورِ عَوَاكِفِ

وقال مالك بن الرّيب يرنى نفسه ويصف قبره، وكان خرج مع سعيد بن عثمان بن عفان لما ولي خراسان، فلما كان ببعض الطريق أراد أن يلبس خفه، فإذا بأفعى في داخلها فلسعته، فلما أحس الموت استلقى على قفاه، ثم أنشأ يقول:

دَعَانِي الْهَوَى مِنْ أَهْلِ أَوْدٍ وَصُحْبَتِي

فَمَا رَاعَنِي إِلَّا سَوَاقِبُ عِبْرَةٍ

أَلَمْ تَرَنِي بَعْتُ الضَّلَالَةَ بِالْهَدَى

فَلَلَهُ دَرِيٌّ حِينَ أَتْرَكَ طَائِعًا

وَدَرَ كَبِيرِيَّ الَّذِينَ كَلَاهُمَا

وَدَرَ الطَّبَّاءُ السَّانِحَاتِ عَشِيَّةً

تَقُولُ ابْنَتِي لَمَّا رَأَتْ وَشَكَ رِحْلَتِي

أَلَا لَيْتَ شِعْرِي هَلْ بَكَتْ أَمَّا لَكَ

عَلَى جَدَّتْ قَدْ جَرَّتِ الرِّيحُ فَوْقَهُ

فِيَا صَاحِبِي رَحْلِي دَنَا الْمَوْتَ فَاحْفَرَا

وَخُطَّ بِأَطْرَافِ الْأَسِنَّةِ مَضْجِعِي

بِذِي الطَّبَّسِينِ؟ فَالْتَقْتُ وَرَائِيَا

تَقَنَعْتُ مِنْهَا أَنْ أَلَامَ رِدَائِيَا

وَأَصْبَحْتُ فِي جَيْشِ ابْنِ عَفَّانِ غَازِيَا

بَنِي بَاعِلَى الرَّقْمَتَيْنِ وَمَالِيَا

عَلَيَّ شَفِيقٌ نَاصِحٌ لَوْ نَهَانِيَا

يُخْبِرُنِي أَنِّي هَالِكٌ مِنْ أَمَامِيَا

سِفَارُكَ هَذَا تَارِكِي لَا أَبَالِيَا

كَمَا كُنْتُ لَوْ عَالُوا نَعِيكَ بَاكِيَا

تُرَابًا كَسَحَقِ الْمَرْبِئَانِي هَابِيَا

بِرَابِيَةِ إِنِّي مُقِيمٌ لِيَالِيَا

وَرُدًّا عَلَى عَيْنِي فَضْلَ رِدَائِيَا

من الأرض ذات العَرَض أن توسعِاليا
 وقد كنت قبلَ اليوم صَعْباً قِياديا
 سوى السَّيْفِ والرَّمْحِ الردينيِّ باكيا
 إلى الماء لم يترك له الموت ساقيا
 بَكَيْنَ وفَدَّيْنِ الطَّيِّبِ المَدَاوِيا
 بِمَوْتِي وَبِنْتِ لِي تَهِيحِ البَوَاكيا
 لقد كنتُ عن بابي خراسان نائيا
 أختا تَقَّةً في عَرَصَةِ الدَّارِ ثاوِيا
 وأين مكان البُعْدِ إلا مكانيا

ولا تحسداني بارك الله فيكما
 خُدَّانِي فَجَرَّانِي بِبُرْدِي إِلَيْكما
 تَفَقَّدْتُ مَنْ يَبْكِي عَلَيَّ فلم أجد
 وأدَّهم غَرِيبٌ يجرُّ لِجَامِهِ
 وبالرمل لو يَعْلَمَنَّ عِلْمِي نِحْسَوَّةً
 عَجُوزِي وَأَخْتاي اللَّتَانِ أُصِيبَتَا
 لعمرِي لئنْ غالت خراسانُ هامتي
 تَحْمَلُ أَصْحَابِي عِشَاءً وَغادِرُوا
 يَقُولُونَ لا تَبْعُدْ وَهم يَدْفِنُونَنِي

وقال رجل من بني تغلب يقال له أفنون، وهو لقبه، واسمه صريم بن معشر بن ذهل بن تيم بن عمرو بن مالك بن حبيب بن عمرو بن عثمان بن تغلب، ولقي كاهناً في الجاهلية، فقال له: إنك تموت بمكان يقال له إلهة. فمكث ما شاء الله، ثم سافر في ركب من قومه إلى الشام فأتوها، ثم انصرفوا فضلوا الطريق، فمالوا لرجل: كيف تأخذ؟ فقال: سيروا حتى إذا كنتم بمكان كذا وكذا ظهر لكم الطريق ورأيتم إلهة - وإلهة قارة بالسماوة - فلما أتوها نزل أصحابه وأبى أن ينزل، فبينما ناقته ترتعي وهو راكبها إذ أخذت بمشفر ناقته حيّة، فاحتكت الناقة بمشفرها فلدغت ساقه؛ فقال لأخيه وكان معه، واسمه معاوية: احفر لي فيني ميت، ثم تغنى قبل أن يموت ييكي نفسه:

ولا المشفقات إذ تبعن الحوازيا
 وتقول له للشيء يا ليت ذا ليا

فلست على شيء فروحن معاويا
 ولا خير فيما يكذب المرء نفسه

فدعه وواكل حاله واللياليا
 وإن لم يكن في خوفه العيث وإنيا
 وأنك لا تبقى بنفسك باقيا
 إذا هو لم يجعل له الله واقيا
 وأنزل في أعلى إلهة ثاويا

وإن أعجبتك الدهر حال من أمرى
 يرحن عليه أو يغيرن ما به
 فطأ معرضاً إن الحتوف كثيرة
 لعمرك ما يدري أمرؤ كيف ينقي
 كفي حزناً أن يرحل الركب غدوة

قال: فمات فدّفنوه بما. وقال هُدْبَةُ العَدْرِي لما أيقن بالموت:

وقبل أطلاع النفس بين الجوانح
 إذا راح أصحابي ولست برائح
 وغودرت في لحد علي صفائح
 وما الرمس في الأرض القواء بصالح

ألا عللاني قبل نوح النوائح
 وقبل غدٍ يالْهَفَ نَفْسِي على غدٍ
 إذا راح أصحابي بفيض دموعهم
 يقولون هل أصلحتم لأخيكم

وقال محمد بن بشير:

ويل لمن لم يرحم الله
والويل لي من كل يوم أتى
كأنه قد قيل في مجلس
صار البشيري إلى ربه

ومن تكون النار مثواه
يذكرني الموت وأنساه
قد كنت آتية وأغشاه:
يرحمنا الله وإياه

ولما حضرت أبا العتاهية الوفاة - واسمه إسماعيل بن القاسم - أوصى بأن يُكتب على قبره هذه الأبيات الأربعة:

أذن حيّ تسمعي
أنا رهنٌ بمضجعي
عشتُ، تسعين حجة
لي شيء سوى التقى

اسمعي ثم عي وعي
فاحزري مثل مصرعي
ثم وافيت مضجعي
فخذي منه أو دعي

وعارضه بعض الشعراء في هذه الأبيات، وأوصى بأن تُكتب على قبره أيضاً فكتبت، وهي:

أصبح القبر مضجعي
صرعتني الحتوف في
أين إخواني الذي
مت وحدي فلم يمّت

ومحلي وموضعي
الترب يا ذل مصرعي
ن إليهم تطلعي
واحد منهم معي

وُجد على قبر جارية إلى جنب قبر أبي نواس ثلاثة أبيات، فقبل إلهما من قول أبي نواس، وهي:

أقول لقبر زرتة مثلثاً
لقد غيبوا تحت الثرى قمر الدجى
عجبت لعين بعدها ملّت البكا

سقى الله برد العفو صاحبة القبر
وشمس الضحى بين الصفائح والعفو
وقلب عليها يرتجى راحة الصبر

الرياشي قال: وُجدت تحت الفراش الذي مات عليه أبو نواس رقعة مكتوب فيها هذه الأبيات:

يارب إن عظمت ذنوبي كثرة
إن كان لا يرجوك إلا محسن
أدعوك رب كما أمرت تضرعاً
مالي إليك وسيلة إلا الرجا

فلقد علمت بأن عفوك أعظم
فبمن يلوذ ويستجير المجرم
فإذا رددت يدي فمن ذا يرحم
وجميل عفوك ثم أني مسلم

الحسنّي قال: أخبرنا بعض أصحابنا من كان يعشى مجلس الرياشي، قال: رأيت علي قبر أبي هاشم الإيادي بواسط:

الموت أخرجني من دار مملكتي
لله عبد رأى قبري فأعبره

والموت أضرعني من بعد تشريفي
وخاف من دهره ريب التصاريف

الأصمعي قال: أخذ بيدي يحيى بن خالد بن برمك فوقفني على قبره بالحيرة فإذا عليه مكتوب:

إِنَّ بَنِي الْمُنْذِرِ لَمَّا أَنْقَضُوا
تَتَفَحَّ بِالْمِسْكِ مَحَارِيبِهِمْ
وَالْخُبْزِ وَاللَّحْمِ لَهُمْ رَاهِنٌ
وَالْقُطْنُ وَالْكَتَّانُ أَثْوَابُهُمْ
فَأَصْبَحُوا قُوتًا لِدُودِ الثَّرَى

كَأَنَّمَا حَيَاتُهُمْ لُعْبَةٌ

وقال أبو حاتم: بين: موضع من الحيرة على ثلاث ليال.
الشيباني قال: وُجد مكتوباً على بعض القبور:

مَلِ الْأَحِبَّةُ زَوْرَتِي فَجَفَيْتُ
الْحَيَّ يَكْذِبُ لَا صَدِيقَ لَمِيتٍ
يَا مُؤْنِسَا سَكَنَ الثَّرَى وَبَقِيتُ
أَوْ كَانَ يَعْمَى لِلْبِكَاءِ مُفْجَعٌ

وقال محمد بن عبد الله:

وَعَمَّا قَلِيلٍ لَنْ تَرَى بَاكِئًا لَنَا
تَرَى صَاحِبِي يَبْكِي قَلِيلًا لِفِرْقَتِي
وَيُحَدِّثُ إِخْوَانًا وَيَنْسَى مَوَدَّتِي

من رثي ولده: فمن قولي في ولدي:

بَلِيتَ عِظَامُكَ وَالْأَسَى يَتَجَدَّدُ
يَا غَائِبًا لَا يُرْتَجَى لِإِيَابِهِ
مَا كَانَ أَحْسَنَ مَلْحَدًا ضُمَّنْتَهُ
بِالْيَأْسِ أَسَلُوا عَنْكَ لَا بِتَجَلُّدِي

ومن قولي فيه أيضاً:

وَكَبِدًا قَدْ قُطِعَتْ كَبِدِي
مَا مَاتَ حَيٌّ لَمِيتٍ أَسْفَاً
يَا رَحْمَةَ اللَّهِ جَاوِرِي جَدْنَاً
وَنَوْرِي ظُلْمَةَ الْقُبُورِ عَلِي

بِحَبِّ شَادِ الْبَيْعَةِ الرَّاهِبِ
وَعَنْبِرٍ يَقْطُبُهُ قَاطِبُ
وَقَهْوَةٍ رَاوُوقَهَا سَاكِبُ
لَمْ يَجْلِبِ الصُّوفَ لَهُمْ جَالِبُ
وَالذَّهْرُ لَا يَبْقَى لَهُ صَاحِبُ

سَرَى إِلَى بَيْنِ بَهَا رَاكِبُ

وَسَكَنْتُ فِي دَارِ الْبَلَى فَنَسِيتُ
لَوْ كَانَ يَصْدُقُ مَاتَ حِينَ يَمُوتُ
لَوْ كُنْتُ أَصْدُقُ إِذْ بَلِيتُ بَلِيتُ
مَنْ طُولَ مَا أَبْكِي عَلَيْكَ عَمِيتُ

سَيَضْحُكَ مِنْ يَبْكِي وَيُعْرَضُ عَنْ ذِكْرِي
وَيَضْحُكَ مِنْ طُولِ اللَّيَالِي عَلَى قَبْرِي
وَتَشْغَلُهُ الْأَحْبَابُ عَنِّي وَعَنْ ذِكْرِي

وَالصَّبْرُ يَنْفَدُ وَالْبُكَاءُ لَا يَنْفَدُ
وَلِقَائِهِ دُونَ الْقِيَامَةِ مَوْعِدُ
لَوْ كَانَ ضَمَّ أَبَاكَ ذَاكَ الْمُلْحَدُ
هَيْهَاتَ أَيْنَ مِنَ الْحَزِينِ تَجَلَّدُ

وَحَرَّقَتْهَا لَوَاعِجُ الْكَمَدِ
أَعْذَرَ مِنَ وَالِدِ عَلِيٍّ وَوَلَدِ
دَفَنْتُ فِيهِ حُشَاةَ شَتِي بِيَدِي
مَنْ لَمْ يَصِلْ ظُلْمَهُ إِلَى أَحَدِ

من كان خلوًا من كل بائقةٍ
يا موت، يحيى لقد ذهبت له
يا مَوْتَهُ لو أَقْلَتَ عَثْرَتَهُ
يا موت لو لم تكن تعاجله
أو كنت راخيت في العنان
أي حسام سلبت رونقه
وأي ساقٍ قطعت من قدم
يا قمرًا أبحف الخسوف به
أي حشًا لم تذب له أسفًا
لا صبر لي بعده ولا جلدًا
لو لم أمت عند موته كمدًا
يا لوعة ما يزال لا عجزها

وقلت فيه أيضًا:

قصد المنون له فمات فقيدًا
بأبي وأمِّي هالكًا أفردته
سود المقابر أصبحت بيضاء به
لم نرزه لما رزينا وخذَه
لكن رزينا القاسم بن محمد
وابن المبارك في الرقائق مخبرًا
والأحفشين فصاحة وبلاغة
كان الوصي إذا أردت وصية
ولى حفيظًا في الأذمة حافظًا
ما كان مثلي في الرزية والدا
حتى إذا بذ السوابق في العلا

يا من يُفند في البكاء مؤلها
تأبى القلوب المستكينة للأسى

العقد الفريد-ابن عبد ربه الأندلسي

وطيب الروح طاهر الجسد
ليس بزميلة ولا نكد
يا يومه لو تركته لغد
لكان لا شك بيضة البلد
حاز العلا واحتوى على الأمد
وأي روح سللت من جسد
وأي كف أزلت من عضد
قبل بلوغ السواء في العدد
وأي عين عليه لم تجد
فجعت بالصبر فيه والجد
لحق لي أن أموت من كمدي
يقدح نار الأسي على كبدي

ومضى على صرف الخطوب حميدا
قد كان في كل العلوم فريدا
وغدت له بيض الضمائر سودا
وإن استقل به المنون وحيدا
في فضله والأسود بن يزيدا
وابن المسيب في الحديث سعيدا
والأعشيين رواية ونشيدا
والمستفاد إذا طلبت مفيدا
ومضى ودودا في الورى مؤدودا
ظفرت يده بمتله مؤلودا
والعلم ضمن شلوه ملحودا

ما كان يمس في البكا تفنيدا
من أن تكون حجارة وحديدا

إن الذي باد السرورُ بموته
الآن لما أن حويتَ مآثرًا
ورأيتُ فيك من الصلاحِ شمائلًا
أبكي عليك إذا الحمامة طرّبت
لولا الحياءَ وأن أزنَ ببِدعة
لجعلتُ يومك في المنائح مأتما

وقلت فيه أيضاً:

لا بيتَ يُسكن إلا فارق السكنا
لَهقي على ميّت مات السرور به
واهاً عليك أبا بكرٍ مُرددةً
إذا ذكرتك يوماً قلت واحزنا
يا سيدي ومراح الروح في جسدي
حتى يعود بنا في قعرٍ مظلمة
يا أطيب الناس رُوحاً ضمّه بدنٌ
لو كنتُ أعطي به الدنيا معاوضةً

وقال أبو ذؤيب الهذلي، وكان له أولادٌ سبعة فماتوا كلهم إلا طفلاً، فقال يرثيهم:

أمن المنون ورّيبه نتوجع
قالت أميمة ما لجسمك شاحباً
أم ما لجسمك لا يلائم مضجعاً
فأجبتُها أن ما لجسمي أنه
أودى بني وأعقبوني حسرةً
سبقوا هوى وأعقبوا لهوهم
فبقيت بعدهم بعيشٍ ناصبٍ
ولقد حرصتُ بأن أدافع عنهم
وإذا المنيّة أنشبت أظفارها
فالعين بعدهم كأن حدّاقها
حتى كأنّي للحوادثِ مروّة

العقد الفريد-ابن عبد ربه الأندلسي

ما كان حزني بعده ليبيدا
أعيت عدواً في الورى وحسودا
ومن السّماح دلائلاً وشهودا
وجّه الصّباح وغرّدت تغريدا
مما يُعدّده الورى تعديدا
وجعلتُ يومك في الموالد عيدا

ولا امتلا فرحاً إلا امتلا حزناً
لو كان حياً لأحيا الدين والسّنا
لو سكنت ولهاً أو فترت شجنا
وما يرُد عليّ القول: واحزنا
هلا دنّا الموتُ مني حين منك دنّا
لحدٍ ويُلبسنا في واحدٍ كفنا
أستودع الله ذاك الروح والبدنا
منه لما كانت الدنيا له ثمنا

والدهر ليس بمعتب من يجزغ
منذ ابتذلت ومثل مالك ينفع
إلا أقضّ عليك ذاك المضع
أودى بني من البلاد فودعوا
بعد الرقاد وعبرة ما تفلع
فتخرّموا ولكلّ جنبٍ مصرع
وإخال أني لاحقٌ مستتبع
وإذا المنيّة أقبلت لا تدفع
ألفيت كلّ تميمة لا تنفع
سُملت بشوكٍ فهي عورٌ تدمع
بصفاً المشرق كل يوم تُقرع

وَتَجَلُّدِي لِلشَّامِتِينَ أُرِيهِمْ

وقال في الطفل الذي بقي له:

والنفسُ رَاغِبَةٌ إِذَا رَغِبَتْهَا

وقال الأصمعي: هذا أَبَدَعُ بَيْتٍ قالته العرب.

وقال أعرابيٌّ يَرِثِي بَنِيهِ:

أُسْكُنْ بَطْنَ الْأَرْضِ لَوْ يُقْبَلُ الْفِدَا

فِيَا لَيْتَ مَنْ فِيهَا عَلَيْهَا وَلَيْتَ مَنْ

وَقَاسَمَنِي دَهْرِي بَنِي بَشَطْرِهِ

فَصَارُوا دُيُونًا لِلْمَنَايَا وَلَمْ يَكُنْ

كَأَنَّهُمْ لَمْ يَعْرِفِ الْمَوْتَ غَيْرَهُمْ

وَقَدْ كُنْتُ حَيًّا الْخَوْفِ قَبْلَ وَقَاتِهِمْ

فَلِلَّهِ مَا أُعْطِيَ وَلِلَّهِ مَا حَوَى

أَنْي لِرَيْبِ الدَّهْرِ لَا أُتَضَعَع

وَإِذَا تُرِدُّ إِلَى قَلِيلٍ تَقْنَعُ

فَدَيْنَا وَأَعْطَيْنَا بِكُمْ سَاكِنِي الظَّهْرِ

عَلَيْهَا ثَوَى فِيهَا مُقِيمًا إِلَى الْحَشْرِ

فَلَمَّا تَقَصَّى شَطْرُهُ مَالٍ فِي شَطْرِي

عَلَيْهِمْ لَهَا دَيْنٌ قَضَوْهُ عَلَى عُسْرِ

فَتُكَلُّ عَلَى تُكَلِّ وَقَبْرِ إِلَى قَبْرِ

فَلَمَّا تُوَفَّوْا مَاتَ خَوْفِي مِنَ الدَّهْرِ

وَلَيْسَ لِأَيَّامِ الرِّزْيَةِ كَالصَّبْرِ

وقيل لأعرابية مات ابنها: ما أحسن عزاءك؟ قالت: إن فَّقدي إياه امنِّي كل فَّقْدٍ سِوَاهُ، وَإِنْ مُصِيبِي بِهِ هَوْنَتِ عَلَيَّ الْمَصَائِبُ بَعْدَهُ. ثم أنشأت تقول:

مَنْ شَاءَ بَعْدَكَ فَلَيْمَتْ

كُنْتَ السَّوَادَ لِنَاطِرِي

لَيْتَ الْمَنَازِلَ وَالذِّيَا

إِنِّي وَغَيْرِي لَا مَحَا

أخذ الحسنُ بن هانئٍ معنى هذا البيت الأول، فقال في الأمين:

طَوَى الْمَوْتَ مَا بَيْنِي وَبَيْنَ مُحَمَّدٍ

وَكَنْتُ عَلَيْهِ أَحْذِرُ الْمَوْتَ وَحَدَهُ

لِئِنْ عَمَرْتُ دُورًا بَمَنْ لَا أَحِبُّهُ

وقال عبدُ اللهِ بن الأَهمم يَرِثِي ابْنَاهُ:

دَعَوْتُكَ يَا بُنِيَّ فَلَمْ تَجِبْنِي

بِمَوْتِكَ مَاتَتِ اللَّذَاتُ مِنِّي

فِيَا أَسْفَا عَلَيْكَ وَطُولَ شَوْقِي

وأصيب أبو العتاهية بابن له، فلما دَفَنَهُ وَقَفَ عَلَى قَبْرِهِ وَقَالَ:

كَفَى حَزَنًا بَدْفَنِكَ ثُمَّ أَنِّي

فَعَلَيْكَ كُنْتُ أَحَازِرُ

فَعَمِي عَلَيْكَ النَّاطِرُ

رَحَقَاتِرُ وَمَقَابِرُ

لَهُ حَيْثُ صِرْتُ لَصَائِرُ

وليس لَمَّا تَطَوَّى الْمَنِيَّةُ نَاشِرُ

فَلَمْ يَبْقَ لِي شَيْءٌ عَلَيْهِ أَحَازِرُ

لَقَدْ عَمَرْتُ مَمَّنْ أَحَبَّ الْمَقَابِرُ

فَرُدَّتْ دَعْوَتِي يَا سَأَا عَلِيَّ

وَكَانَتْ حَيَّةً مَا دُمْتُ حَيًّا

إِلَيْكَ لَوْ أَنَّ ذَلِكَ رَدَّ شَيْئًا

نَفَضْتُ تُرَابَ قَبْرِكَ مِنْ يَدَيَا

وكانت في حياتك لي عِظَاتُ

فأنت اليومَ أَوْعِظُ مِنْكَ حَيًّا

ومات ابن لأعرابي فاشتد حُزنه عليه، وكان الأعرابي يُكِنُّ به، فقيل له: لو صِرتَ لكان أعظمَ لثوابك؟ فقال:

بأبي وأمي من عَبَاتُ حَنَوطَه

بيدي وفارقني بماءِ شَبَابِه

كيف السُّلُوبُ وكيف أنسى ذِكْرَه

وإذا دُعيتُ فإنما أدْعِي به

خرج عمرُ بن الخطَّابِ رضي اللهُ عنه يوماً إلى بَقِيعِ العَرَقُد، فإذا أعرابي بين يديه، فقال: يا أعرابي، ما أدخلك دارَ الحقِّ؟ قال: ودِيعَة لي ها هنا منذُ ثلاثِ سنين؟ قال: وما ودِيعتك؟ قال: ابنُ لي حين تَرَعْرَعُ فقدتهُ فأنا أنُدُّبه؟ قال عمر: أسمعني ما قلتَ فيه؛ فقال:

يا غائباً ما يؤوب من سَفَرِه

عاجله موته على صِغَرِه

يا قُرَّةَ العَيْنِ كُنْتَ لي سَكَنًا

في طُولِ لَيْلِي نَعَمَ وفي قِصَرِه

شَرِبْتُ كأساً أبوكَ شارِبُها

لا بُدَّ يوماً له على كِبَرِه

أشربُها والأنامِ كلهم

مَنْ كان في بَدْوِه وفي حَضَرِه

فالحَمْدُ لله لا شريكَ له

الموتُ في حُكْمِه وفي قَدَرِه

قد قَسَمَ الموتُ في الأنامِ فما

يَقْدِرُ خَلْقٌ يَزِيدُ في عُمُرِه

قال عمر: صدقتَ يا أعرابي، غيرَ أن الله خيرٌ لك منه.

الشَّيباني قال: لما مات جَعْفَرُ بن أبي جَعْفَرِ المَنْصُورِ اشتدَّ عليه حزنه، فلما فرغ من دَفْنِه التفت إلى الرَّبِيعِ فقال: يا ربِيع، كيف قال مُطِيعُ بن إياس في يحيى بن زياد؟ فأنشد:

يا هل دواء لِقَلْبِي القَرِحِ

وللدُّمُوعِ الذَّوارِفِ السُّفْحِ

راخُوا بيحْيِي ولو تَطَّوَعَنِي الُ

أقدارُ لم يَبْتَكِرْ ولم يَرِحْ

يا خير من يَحْسُنُ البُكَاءُ به

اليومَ ومَنْ كان أَمَسَ للمِدْحِ

قد ظَفَرَ الحُزْنَ بالسُّرُورِ وقد

أدِيلَ مَكْرُوهُه مِنَ الفَرَحِ

وقالت أعرابيةٌ تَنُدُّبُ ابناً لها:

ابنِي غَيْبِكَ المَحَلُّ المُلْحَدُ

إمَّا بَعُدْتَ فأين من لا يَبْعُدُ

أنت الذي في كلِّ مُمْسَى لَيْلَةٌ

تَبْلَى وحُزْنُكَ في الحَشَى يَتَجَدَّدُ

وقالت فيه:

لئن كنتَ لهواً للعُيونِ وقُوَّةً

لقد صِرتَ سُقماً للقلوبِ الصِّحَّاحِ

وهوَنَ حُزْنِي أنَّ يومَكَ مُدْرِكِي

وأني غداً من أهلِ تلكِ الضَّرَائِحِ

وقال أبو الخطَّارِ يرثي ابنه الخطَّارَ:

ألا خَبْراني بَارِكِ اللهُ فيكما

متى العَهْدُ بالخطَّارِ يا فَتَيَانِ

فتي لا يَرى نَوْمَ العِشاءِ غَنِيمةً

ولا يَبْتَنِّي من صَوْلَةِ الحَدَثَانِ

كيف العزاء وقد فارقتُ أشبالي
بازٍ يُصرِّصُ فوق المرقبِ العَالِي
وحين صرَّتُ كعظمِ الرمةِ البَالِي

قالوا نَصِيبُكَ من أجرٍ فقلتُ لهم
ذا كم سَوَادَةُ يَجْلُو مُفْلَتِي لَحْمِ
فارقتُهُ حين غَضَّ الدهرُ من بَصْرِي

وقال أبو الشعْبِ يرثي ابنه شَعْبًا:

عزًّا تُزادُ به في عزِّها مُضْرُ
دكًّا فلم يَبْقَ من أحجارها حَجَر
بئسَ الخَلِيطَانُ طُولُ الحُزْنِ والكَبْرِ

قد كان شَعْبُ لو أن الله عمَّره
ليتَ الجبالُ تَدَاعَتِ قبلَ مَصْرَعِه
فارقتُ شَعْبًا وقد قُوِّسَتْ من كَبْرِ

ولما تُوفي أيوبُ بنَ سُلَيْمانَ بنِ عبدِ الملكِ في حياةِ سُلَيْمانَ، وكانَ وليَّ عهده وأكبرَ ولده، رثاه ابنُ عبدِ الأعلى وكانَ من خاصَّته، فقالَ فيه:

جَزَعِي ومن يَذِقُ الحوادثَ يَجْزَعُ
وأفرحُ بِمَرَوْتِكَ التي لم تُقْرَعُ
أو يُفَجِّعُوا بك إن بهم لم تُفَجِّعُ
عن نَفْسِهِ دَفْعًا وهل من مَدْفَعِ

ولقد أَقولُ لذي الشَّماتَةِ إذ رَأَى
أَبْشِرُ فقد قَرَعَ الحوادثُ مَرَوْتِي
إن عِشْتَ تُفَجِّعُ بالأحِبَّةِ كُلَّهُم
أَيُّوبُ من يَشْمَتُ بِمَوْتِكَ لم يُطِيقُ

الأصمعيّ عن رجلٍ من الأعرابِ قال: كُنَّا عَشْرَةَ إِخْوَةٍ، وكانَ لنا أخٌ يقالُ له حَسَنٌ، فَنُعِي إلى أَيْبِنَا، فَبَقِيَ سَتَيْنِ، يَبْكِي عليه حتى كَفَّ بَصْرَهُ، وقالَ فيه:

وكُفَّ عَنِّي البُكَاءُ والحَزَنُ
ليس لَنَكْذِيبِ قَوْلِهِ ثَمَنُ
وفي الدَّارِ أناسٌ جِوارُهُم غَبَنُ
كانُوا وبيِّنِي وبيِّنَهُم مُدُنُ
ما في فَنَاتِي صَدَعٌ ولا أُبْنُ
ما زالَ بيِّنِي وبيِّنَهُم إِحْنُ
كما بَرَى فَرَعٌ نَبْعَةٌ سَفَنُ
خُدُّ وأنتَ الحَدِيثُ والوَسَنُ
تَمَضُّ فَنَتِكَ السَّبِيلُ والسَّنَنُ
فكُلُّ حَيٍّ بِالموتِ مُرْتَهَنُ
دونَكَ فيه الترابُ والكَفَنُ
قَبْلَ المماتِ الصِيَامُ والبُدُنُ

أَفَلَحْتَ إن كانَ لم يَمُتْ حَسَنُ
بل أَكْذَبَ اللهُ مَنْ نَعَى حَسَنًا
أَجُولُ في الدارِ لا أراك
بُدِّلْتَهُم منك لَيْتَ أَنَّهُمُ
قد عَلِمُوا عندَ ما أَنافَرَهُمُ
قد جَرَّبُونِي فما أَلوَمُهُمُ
قد بَرَى الجِسْمُ مَذْ نُعِيَتْ لَنَا
فإن نَعِشْ فَالْمُنَى حَيَاتُكَ وَال
إن تَحَيَّ نَحْيَ بِخَيْرِ عَيْشٍ وَإِن
بَرِيدُكَ الحَمْدُ والسَّلَامُ مَعًا
يا وَيحُ نَفْسِي أن كُنْتَ في جَدَّتِ
عليَّ لِلَّهِ إن لَقِينَاكَ من

أدما هجاناً قد كظها السمن
من مات أو من أودى به الزمن
لكل حي من أهله سكن
أصبحت تحت التراب يا حسن

أجاب الأسي طوعاً ولم يجب الصبر
سبيقي عليك الحزن ما بقي الدهر

لقد قرحت مني عليك جفون
وللنفس منها دافن ودفين

فراق حبيب دون أوبته الحشر
فتحت الثرى شطرً وفوق الثرى شطر
فقلت لهم مالي فؤادٌ ولا صبر
من الریش حتى ضممه الموت والقبر

يُجددها فكرٌ يُجدده نكر
كأن جميع الأرض عندي له قبر
وليس سوى قعر الضريح له وكر

يا ليت أمك لم تحبل ولم تلد
مطيباً للمنايا آخر الأبد
وكيف يبقى ذراعٌ زال عن عضد

ففؤادي ما له اليوم سكن
فكذا يبلى عليهن الحزن

أسوقها حافياً مجللةً
فلا نبالي إذا بقيت لنا
كنت خليلي وكنت خالستي
لا خير لي في الحياة بعدك إذ

ولما دعوت الصبر بعدك والأسي
فإن ينقطع منك الرجاء فإنه

بني لئن ضنت جفون بمائها
دفتت بكفي بعض نفسي فأصبحت

على مثلها من فجعة خانني الصبر
ولي كبد مشطورة في يد الأسي
يقولون لي صبر فؤادك بعده
فريخ من الحمر الحواصل ما اكتسى

إذا قلت أسلو عنه هاجت بلابل
وأنظر حوالي لا أرى غير قبره
أفرخ جنان الخلد طرت بمهجتي

يا قرحة القلب والأحشاء والكبد
لما رأيتك قد أدرجت في كفن
أيقنت بعدك أني غير باقية

توفي ابن لأعرابي فبكى عليه حيناً، فلما هم أن يسألوه عنه توفي له ابن آخر، فقال في ذلك:

إن أفق من حزن هاج حزن
وكما تبلى وجوه في الثرى

وقال في ذلك:

عُيُونٌ قَدْ بَكَينَكَ مُوجَعَاتٍ

إِذَا أَنْفَذْنَ دَمْعًا بَعْدَ دَمْعٍ

أبو عبد الله البجلي قال: وقعت أعرابية على قبر ابن لها يقال له عامر، فقالت:

أَقَمْتُ أَبْكَيَهُ عَلَى قَبْرِهِ

تَرَكَتَنِي فِي الدَّارِ لِي وَحِشَّةٌ

وقالت فيه:

أَضْرَبَ بِهَا الْبُكَاءُ وَمَا بَيْنَنَا

يُرْاجِعُنَ الشُّؤُونََ فَيَسْتَقِينَا

مَنْ لِي مِنْ بَعْدِكَ يَا عَامِرُ

قَدْ ذَلَّ مَنْ لَيْسَ لَهُ نَاصِرٌ

هُوَ الصَّبْرُ وَالتَّسْلِيمُ لِلَّهِ وَالرِّضَا

إِذَا نَحْنُ أُنْبَا سَالِمِينَ بِأَنْفُسٍ

فَأَنْفَسْنَا خَيْرَ الْغَنِيمَةِ إِنَّهَا

وَلَا بَرٌّ إِلَّا دُونَ مَا بَرَّ عَامِرٌ

هُوَ ابْنِي أَمْسَى أَجْرَهُ "لِي" وَعَزَّتَنِي

فَإِنْ احْتَسِبَ أَوْجَرَ وَإِنْ أَبْكَه أَكُنْ

إِذْ نَزَلَتْ بِي خُطَّةٌ لَا أَشَاؤُهَا

كِرَامَ رَجَتْ أَمْرًا فَخَابَ رَجَاؤُهَا

تَوُوبٌ وَيَبْقَى مَاؤُهَا وَحَيَاؤُهَا

وَلَكِنْ نَفْسًا لَا يَدُومُ بَقَاؤُهَا

عَلَى نَفْسِهِ رَبُّ إِلَيْهِ وَلَاؤُهَا

كِبَاكِيَةٌ لَمْ يُحْيِ مَيِّتًا بُكََاؤُهَا

الشيبياني قال: كانت امرأة من هذيل لها عشرة إخوة وعشرة أعمام، فهلكوا جميعاً في الطاعون، وكانت بكرًا لم تتزوج، فخطبها ابن عم لها فتزوجها، فلم تلبث أن اشتملت على غلام فولدته، فنبت نباتاً كأنما يمد بناصيته، وبلغ، فزوجته وأخذت في جهازه، حتى إذا لم يبق إلا البناء "بأهله" أتاه أجله فلم تشق لها حياً ولم تدمع لها عين، فلما فرغوا من جهازه دُعيت لتوديعه، فأكبّت عليه ساعة، ثم رفعت رأسها ونظرت إليه وقالت:

أَلَا تِلْكَ الْمَسْرَّةَ لَا تَدُومُ

وَلَا يَبْقَى عَلَى الْحَدَثَانِ غُفْرٌ

وَلَا يَبْقَى عَلَى الدَّهْرِ النَّعِيمُ

بِشَاهِقَةٍ لَهُ أُمَّ رُعُومُ

ثم اكبت عليه أخرى، فلم تقطع نحيبها حتى فاضت نفسها، فدُفنا جميعاً.

خليفة بن خياط قال: ما رأيت أشدَّ كمدًا من امرأة من بني شيبان قُتِلَ ابنها وأبوها وزوجها وأمتها وعمتها وخالتها مع الضحاك الحروري، فما رأيتها قطُّ ضاحكةً ولا مُتَبَسِّمَةً حتى فارقت الدنيا، وقالت تراثيهم:

مَنْ لِقَلْبٍ شَفَهُ الْحَزْنَ

ظَعَنَ الْأَبْرَارُ فَأَنْقَلَبُوا

مَعَشَرَ قَضَوْا نُحُوبَهُمْ

صَبَرُوا عِنْدَ السِّيُوفِ فَلَمْ

فِتِيَةٌ بَاعُوا نَفُوسَهُمْ

فَأَصَابَ الْقَوْمُ مَا طَلَبُوا

وقال عبد الله بن ثعلبة يرثي ولدًا له:

وَلنَفْسٍ مَا لَهَا سَكَنٌ

خَيْرَهُمْ مِنْ مَعَشَرَ ظَعَنُوا

كُلُّ مَا قَدْ قَدَّمُوا حَسَنَ

يَنْكَلُوا عَنْهَا وَلَا جَبْنُوا

لَا وَرَبِّ الْبَيْتِ مَا غَبْنُوا

مِنَّةً مَا بَعْدَهَا مَنْنٌ

أَلْخَضِبِ رَأْسِي أُمَّ أَطْيَبُ مَفْرَقِي

وَرَأْسُكَ مَرْمُوسٌ وَأَنْتَ سَلِيبٌ

نَسِيبُكَ مِنْ أَمْسَى يُنَاجِيكَ طَرْفُهُ

وليس لمن تحت التراب نَسِيب

غَرِيبٌ وَأَطْرَافُ الْبُيُوتِ تُكْنَهُ

أَلَا كُلَّ مَنْ تَحْتَ التَّرَابِ غَرِيب

قال العُتَيْبِيُّ - محمدُ بنُ عُبيدِ اللهِ - يرثي ابنا له:

أَضْحَتْ بِخَدِي لِلدُّمُوعِ رُسُومُ

أَسْفَاً عَلَيْكَ وَفِي الْفُؤَادِ كُؤُومُ

وَالصَّبْرُ يُحْمَدُ فِي الْمَوَاطِنِ كُلِّهَا

إِلَّا عَلَيْكَ فَإِنَّهُ مَذْمُومُ

خَرَجَ أَعْرَابِيٌّ هَارِبًا مِنَ الطَّاعُونَ، فَبَيْنَمَا هُوَ سَائِرٌ إِذْ لَدَغَتْهُ أَعْمَى فَمَاتَ، فَقَالَ أَبُوهُ يَرِثِيهِ:

طَافَ يَبْغِي نَجْوَةَ

مِنْ هَلَاكَ فَهَلَاكَ

وَالْمَنَآيَا رَصَدٌ

لِلْفَتَى حَيْثُ سَلَكَ

لَيْتَ شِعْرِي ضَلَّةً

أَيَّ شَيْءٍ قَتَلْتُكَ

كُلُّ شَيْءٍ قَاتِلٌ

حِينَ تَلْقَى أَجْلَكَ

لَمَّا قَتَلَ عَبْدُ اللَّهِ الْمَأْمُونُ أَخَاهُ مُحَمَّدَ بْنَ زُبَيْدَةَ أَرْسَلَتْ أُمُّهُ زُبَيْدَةُ بِنْتَ جَعْفَرٍ إِلَى أَبِي الْعَتَاهِيَةِ أَنْ يَقُولَ آيَاتًا عَلَى لِسَانِهَا لِلْمَأْمُونِ، فَقَالَ:

أَلَا إِنْ رَيْبَ الدَّهْرِ يُدْنِي وَيَبْعِدُ

وَلِلدَّهْرِ أَيَّامٌ تُذَمُّ وَتُحْمَدُ

أَقُولُ لِرَحِيبِ الدَّهْرِ إِنْ ذَهَبْتُ يَدٌ

فَقَدْ بَقِيَتْ وَالْحَمْدُ لِلَّهِ لِي يَدٌ

إِذَا بَقِيَ الْمَأْمُونُ لِي فَالرَّشِيدُ لِي

وَلِي جَعْفَرٌ لَمْ يَهْلِكَا وَمُحَمَّدٌ

وَكَتَبْتُ إِلَيْهِ مِنْ قَوْلِهِ:

لَخَيْرِ إِمَامٍ مِنْ خَيْرِ مَعَشَرٍ

وَأَكْرَمِ بَسَامٍ عَلَى عُوْدٍ مُنْبِرٍ

كَتَبْتُ وَعَيْنِي تَسْتَهْلُ دُمُوعَهَا

إِلَيْكَ ابْنَ يَعْليَّ مِنْ دُمُوعِي وَمُحْجَرِي

فُجِعْنَا بِأَدْنَى النَّاسِ مِنْكَ قَرَابَةً

وَمَنْ زَلَّ عَنْ كِبْدِي فَقَلَّ تَصْبِرِي

أَتَى طَاهِرٌ لَا طَهَّرَ اللهُ طَاهِرًا

وَمَا طَاهِرٌ فِي فِعْلِهِ بِمُطَهَّرٍ

فَأَبْرَزَنِي مَكْشُوفَةَ الْوَجْهِ حَاسِرًا

وَأَنْهَبَ أَمْوَالِي وَخَرَّبَ أَدُورِي

وَعَزَّ عَلَى هَارُونَ مَا قَدْ لَقِيْتَهُ

وَمَا نَابَنِي مِنْ نَاقِصِ الْخَلْقِ أَعُورٍ

فَلَمَّا نَظَرَ الْمَأْمُونُ إِلَى كِتَابِهَا وَجَّهَ إِلَيْهَا بِحَبَاءِ حَزِيلٍ، وَكَتَبَ إِلَيْهَا يَسْأَلُهَا الْقُدُومَ عَلَيْهِ، فَلَمْ تَأْتِهِ فِي ذَلِكَ الْوَقْتِ وَقَبِلَتْ مِنْهُ مَا وَجَّهَ "بِهِ" إِلَيْهَا. فَلَمَّا

صَارَتْ إِلَيْهِ بَعْدَ ذَلِكَ قَالَ لَهَا: مَنْ قَاتِلُ الْآيَاتِ؟ قَالَتْ: أَبُو الْعَتَاهِيَةِ؛ قَالَ: وَبِكُمْ أَمْرٌ لَه؟ فَقَالَتْ: بَعْشَرِينَ أَلْفَ دِرْهَمٍ؟ قَالَ الْمَأْمُونُ: وَقَدْ أَمَرْنَا لَه بِمِثْلِ

ذَلِكَ. وَاعْتَذَرَ إِلَيْهَا مِنْ قَتْلِ أَخِيهِ مُحَمَّدٍ، وَقَالَ "لَهَا": لَسْتُ صَاحِبَهُ وَلَا قَاتِلَهُ. فَقَالَتْ: يَا أَمِيرَ الْمُؤْمِنِينَ، إِنَّ لَكُمَا يَوْمًا تَجْتَمِعَانِ فِيهِ، وَأَرْجُو أَنْ يُعْفَرَ اللهُ

لَكُمَا إِنْ شَاءَ اللهُ.

أَبُو شَأْسٍ يَرِثِي ابْنَهُ شَأْسًا:

فَلله تَرْبِيَّتِي وَالنَّصَبُ

وَرَبِيَّتُ شَأْسًا لِرَيْبِ الزَّمَانِ

فَلَيْتَكَ يَا شَأْسُ فِيمَنْ بَقِيَ

وَكُنْتُ مَكَانَكَ فِيمَنْ ذَهَبَ

من رثى إخوته

الرياشي قال: صَلَّى مُتَمِّمٌ بِنِ نَوَيْرَةَ الصُّبْحِ مَعَ أَبِي بَكْرٍ الصِّدِّيقِ رَضِيَ اللَّهُ تَعَالَى عَنْهُ، ثُمَّ أُنْشِدَ:

نِعْمَ الْقَتِيلُ إِذَا الرِّيحُ تَنَاحَتْ
أَدْعُوْتَهُ بِاللَّهِ ثُمَّ قَتَلْتَهُ
بَيْنَ البُيُوتِ قَتَلْتَ يَا بِنَ الأَزُورِ
لَوْ هُوَ دَعَاكَ بِذِمَّةٍ لَمْ يَغْدِرْ

لَا يُضْمِرُ الفَحْشَاءَ تَحْتَ رِدَائِهِ
حُلُوْ شَمَائِلُهُ عَفِيفٌ المُنْزَرِ

قال: ثُمَّ بَكَى حَتَّى سَالَتْ عَيْنُهُ العُورَاءَ. قَالَ أَبُو بَكْرٍ: مَا دَعُوْتُهُ وَلَا قَتَلْتَهُ.

وَقَالَ مُتَمِّمٌ:

وَلَيْسَ أَخُو الشُّجُوِّ الحَزِينِ بِضَاحِكِ
لَقَبْرِ بِأَطْرَافِ المَلَا فَالِدَكَادِكِ
فَدَعَانِي فَهَذِي كُلُّهَا قَبْرُ مَالِكِ

وَمُسْتَضْحِكِ مَنِّي أَدْعَى كَمَصِيبَتِي

يَقُولُ أَتَبْكِي مِنْ قُبُورِ رَأَيْتَهَا

فَقُلْتُ لَهُ إِنَّ الأَسَى يَبْعَثُ الأَسَى

وَقَالَ مُتَمِّمٌ يَرْنِي أَخَاهُ مَالِكًا، وَهِيَ الَّتِي تُسَمَّى أُمَّ المَرَاثِي:

وَلَا جَزَعَ مِمَّا أَلَمَ فَأَوْجَعَا
فَتَى غَيْرَ مِبْطَانِ العَشِيَّاتِ أَرْوَعَا
إِذَا القَشْعُ مِنْ بَرْدِ الشِّتَاءِ تَقَعَعَا

لَعَمْرِي وَمَا دَهْرِي بِنَأْبِينِ هَالِكِ

لَقَدْ غَيَّبَ المِنْهَالُ تَحْتَ رِدَائِهِ

وَلَا بَرَمًا تُهْدِي النِّسَاءَ لِعَرْسِهِ

إِذَا لَمْ تَجِدْ عِنْدَ امْرِئِ السُّوءِ مَطْمَعَا
إِذَا هَزَّتْ الرِّيحُ الكَنِيفَ المُرْفَعَا
كَفَرَّخِ الحُبَارِي رِيشُهُ قَدْ تَمَرَّعَا
وَلَا طَالِبَا مِنْ خَشِيَةِ المَوْتِ مَفْرَعَا
إِذَا هُوَ لَاقَى حَاسِرًا أَوْ مُقَنَّعَا
أَرَى كُلَّ حَبَلٍ بَعْدَ حَبْلِكَ أَقْطَعَا
وَكُنْتُ حَرِيًّا أَنْ تُحِيبَ وَتَسْمَعَا
وَأَمْسَى تُرَابًا فَوْقَهُ الأَرْضُ بَلْقَعَا
فَقَدْ بَانَ مَحْمُودًا أَخِي حِينَ وَدَّعَا
أَصَابَ المَنَايَا رَهْطَ كِسْرَى وَتُبَّعَا
مِنَ الدَّهْرِ حَتَّى قِيلَ لَنْ يَبْصَدَّعَا

تَرَاهُ كَنَصَلِ السِّيفِ يَهْتَزُّ لِلنَّدَى

فَعَيْنِي هَلَا تَبْكِيانِ لِمَالِكِ

وَأرْمَلَةٌ تَمْشِي بِأَشْعَثِ مُحْتَلِ

وَمَا كَانَ وَقَافَا إِذَا الخَيْلُ أَحْجَمَتْ

وَلَا بِكِهَامِ سَيْفِهِ عَنِ عَدُوِّهِ

أَبِي الصَّبْرِ آيَاتُ أَرَاهَا وَأُنِّي

وَأَنِّي مَتَى مَا أَدْعُ بِاسْمِكَ لَمْ تُجِبْ

تَحِيَّتِهِ مَنِّي وَإِنْ كَانَ نَائِيًّا

فَإِنْ تَكُنِ الأَيَّامُ فَرَقْنَ بَيْنَنَا

فَعِشْنَا بِخَيْرِ فِي الحَيَاةِ وَقَبْلَنَا

وَكُنَّا كَنَدْمَانِي جَدِيمَةَ حِقْبَةٍ

فَلَمَّا تَفَرَّقْنَا كَأَنِّي وَمَالِكا

فَمَا شَارِفٌ حَنَنْتُ حَنِينًا وَرَجَعْتُ

وَلَا وَجَدْتُ أَطَارَ ثَلَاثِ رَوَائِمِ

بِأَوْجَدَ مِنِّي يَوْمَ قَامَ بِمَالِكِ

سَقَى اللهُ أَرْضًا حَلَّهَا قَبْرُ مَالِكِ

قيل لعمرو بن بحر الجاحظ: إن الأصمعي كان يُسمي هذا الشعر أم المراثي؛ فقال: لم يسمع الأصمعي:

أَيُّ الْقُلُوبِ عَلَيْكُمْ لَيْسَ يَنْصَدِعُ

وقال الأصمعي: لم يتدبأ أحد مرثية بأحسن من ابتداء أوس بن حجر:

أَيْتُهَا النَّفْسُ أَجْمَلِي جَزَعَا

وبعدها قول زُمَيْل:

لَطُولُ اجْتِمَاعِ لَمْ نَبِتْ لَيْلَةً مَعَا

أُنَيْنًا فَأَبْكِي شَجْنُهَا الْبَرَكُ أَجْمَعَا

رَأَيْنَ مَجْرًا مِنْ حُورٍ وَمَصْرَعَا

مُنَادٍ فَصِيحٍ بِالْفِرَاقِ فَاسْمَعَا

ذَهَابُ الْغَوَادِي الْمُدْجِنَاتِ فَأَمْرَعَا

وَأَيُّ نَوْمٍ عَلَيْكُمْ لَيْسَ يَمْتَنِعُ

إِنَّ الَّذِي تَحْذَرِينَ قَدْ وَقَعَا

وَمَنْ يَكُ رَهْنًا لِلْحَوَادِثِ يَعْطِقُ

قال ابن إسحاق صاحب المغازي: لما نزل رسول الله صلى الله عليه وسلم الصَّغْرَاءَ - وقال ابن هشام: الأثيل - أمر علي بن أبي طالب بضرب عنق النضر بن الحارث بن كلدة بن علقمة بن عبد مناف، صبراً، بين يدي رسول الله صلى الله عليه وسلم، فقالت أخته فُتَيْلَةُ بنت الحارث ترثيه:

يَا رَاكِبًا إِنَّ الْأَثِيلَ مَظْنَةٌ

أَبْلَغُ بِهَا مَيْتًا بِأَنْ تَحْيَتْ

مَنِّي إِلَيْكَ وَعَبْرَةٌ مَسْفُوحَةٌ

هَلْ يَسْمَعُنِي النَّضْرُ إِنْ نَادَيْتُهُ

أَمَحْمَدًا يَا خَيْرَ ضِيءٍ كَرِيمَةٍ

مَا كَانَ ضَرْكَ لَوْ مَنَنْتَ وَرَبَّمَا

فَالنَّضْرُ أَقْرَبُ مَنْ أَسْرَتْ قَرَابَةٌ

ظَلَّتْ سَيُوفُ بَنِي أَبِيهِ تَتَوَشَّه

صَبْرًا يَقَادُ إِلَى الْمَنِيَّةِ مُتَعَبًا

قال ابن هشام: قال النبي الصلاة والسلام لما بلغه هذا الشعر: لو بلغني قبل قتلته ما قتلته.

الأصمعي قال: نظر عمر بن الخطاب إلى الخنساء وبها ندوب في وجهها، فقال: ما هذه الندوب يا خنساء؟ قالت: من طول البكاء على أخوي؛ قال لها: أخواك في النار؛ قالت: ذلك أطول لحزني عليهما، إني كنت أشفق عليهما من النار، وأنا اليوم أبكي لهما من النار، وأنشدت:

لِتَدْرِكْهُ: يَا لَهْفَ نَفْسِي عَلَى صَخْرٍ

إِلَى الْقَبْرِ مَاذَا يَحْمِلُونَ إِلَى الْقَبْرِ

وَقَائِلَةٌ وَالنَّعْشُ قَدْ فَاتَ خَطْوَهَا

أَلَا تَكَلَّتْ أُمُّ الذِّينِ غَدَوًا بِهِ

دخلت خنساء على عائشة أم المؤمنين رضي الله تعالى عنها وعليها صِدَارٌ من شَعْرٍ قد استشعرته إلى جلدِها، فقالت لها: ما هذا يا خنساء؟ فوالله لقد تُوفي رسول الله صلى الله عليه وسلم فما لبيسته؛ قالت: إنَّ له معني دَعَانِي إلى لِبَاسِهِ، وذلك أنَّ أَبِي زَوْجِي سَيِّدُ قَوْمِهِ، وكان رجلاً مَثَلًا فَأَسْرَفَ في ماله حتى أنْفَدَهُ، ثم رَجَعَ في مالي فَأَنْفَدَهُ أيضاً، ثم التفت إليّ فقال: إلى أين يا خنساء؟ قلتُ: إلى أخي صَخْر. قالت: فأَتِينَاهُ فَقَسَمَ مَالَهُ شَطْرَيْنِ، ثم خَيَّرَنَا في أَحْسَنِ الشَّطْرَيْنِ، فَرَجَعْنَا من عنده، فلم يَزَلْ زَوْجِي حتى أَذْهَبَ جَمِيعَهُ. ثم التفت إليّ، فقال لي: إلى أين يا خنساء؟ قلتُ: إلى أخي صَخْر. قالت: فَرَحَلْنَا إِلَيْهِ، ثم قَسَمَ مَالَهُ شَطْرَيْنِ وخَيَّرَنَا في أَفْضَلِ الشَّطْرَيْنِ. فقالت له زوجته: أما تَرْضَى أن تَشَاطِرَهُم مَالَكَ حتى تُخَيِّرَهُم بين الشَّطْرَيْنِ؟ فقال:

والله لا أمتحها شرارها

واتخذت من شعر صدارها

فأليت أن لا يفارق الصدار جسدي ما بقيت.

قيل للخنساء: صفي لنا أخويك صخرًا ومعاوية، قالت: كان صخرٌ والله حنة الزمان الأغر، وزُعاف الحميس الأحمر، وكان والله معاوية القاتل والفاعل. قيل لها: فأيهما كان أسنى وأفخر؟ قالت: أما صخر فحرُّ الشتاء، وأما معاوية فبردُ الهواء. قيل لها: فأيهما أوجع وأفجع؟ قالت: أما صخر فجمر الكبد، وأما معاوية فسقام الجسد، وأنشأت:

أسدان محمراً المخالب نجدة

قمران في النادي رفيعا محتد

وقالت الخنساء ترثي أباها "صخر بن الشريد":

قذى بعينك أم بالعين عوار

كأن عيني لذكراه إذا خطرت

فالعين تبكي على صخر وحق لها

بكاءَ والهة ضللت أليفتها

ترعى إذا نسيت حتى إذا ذكرت

وإن صخرًا لتأتم الهداة به

حامي الحقيقة محمود الخليفة مه

وقالت أيضاً:

ألا ما لعيني ألا مالها

أمن بعد صخر من آل الشريد

فأليت آسي على هالك

وهمت بنفسي كل الهموم

سأحمل نفسي على خطة

وقالت أيضاً:

فلو هلكت قددت خمارها

"وهي حصان قد كفتني عارها"

قيل للخنساء: صفي لنا أخويك صخرًا ومعاوية، قالت: كان صخرٌ والله حنة الزمان الأغر، وزُعاف الحميس الأحمر، وكان والله معاوية القاتل والفاعل. قيل لها: فأيهما أوجع وأفجع؟ قالت: أما صخر فجمر الكبد، وأما معاوية فسقام الجسد، وأنشأت:

بحران في الزمن الغضوب الأمر

في المجد فرعا سودد متخير

أم أقفرت إذ خلّت من أهلها الدار

فيض يسيل على الخدين مدار

ودونه من جديد الأرض أستار

لها حنينان إصغار وإكبار

فإنما هي إقبال وإدبار

كأنه علم في رأسه نار

دي الطريقة نفاع ضرار

لقد أخضل الدمع سربالها

حلت به الأرض أنقالها

وأسأل باكية مالها

فأولى لنفسي أولى لها

فإما عليها وإما لها

أعيني جودا ولا تجمدا

ألا تبكيان الجريء الجواد

طويال النجاد رفيع العما

يحملة القوم ما غالهم

جموع الضيوف إلى بابه

وقالت أيضاً:

فما أدركت كف امرئ متناولاً

وما بلغ المهدون للمدح غاية

وما ألغيث في جعد الثرى دمت الربى

بأفضل سيباً من يدبك ونعمة

من القوم مغشي الرواق كأنه

شربث أطراف البنان ضيازماً

وقالت أخت الوليد بن طريف ترثي أباها الوليد بن طريف:

أيا شجر الخابور مالك مورقاً

فتى لا يريد العز إلا من التقى

ولا الذخر إلا كل جرداء صلدم

فقدناه فقدان الربيع فليتنا

خفيف على ظهر الجواد إذا عدا

عليك سلام الله وقفاً فإنني

وقال آخر يرثي أباها:

أخ طالما سرنى ذكره

وقد كنت أغدو إلى قصره

وكنت أراني غنياً به

وكنت إذا جئته زائراً

وقالت النساء ترثي أباها صخرأ:

بكت عيني وعاودها قذاها

على صخر وأي فتى كصخر

ألا تبكيان لصخر الندى

ألا تبكيان الفتى السيدا

د ساد عشيرته أمردا

وإن كان أصغرهم مولدا

يرى أفضل الكسب أن يحمدا

من المجد إلا والذي نلت أطول

ولول جهدوا إلا الذي فيك أفضل

تعبق فيها الوابل المتهلل

تجود بها بل سيب كفيك أجزل

إذا سيم ضيماً خادراً متبسل

له في رؤ عين الغيل عرسٌ وأشبل

كأنك لم تجزع على ابن طريف

ولا المال إلا من فناً وسيوف

وكل رقيق الشفرتين حليف

فديناه من سادتنا بألوف

وليس على أعدائه بخفيف

أرى الموت وقاعاً بكل شريف

فقد صرت أشجى إلى ذكره

فقد صرت أغدو إلى قبره

عن الناس لو مد في عمره

فأمري يجوز على أمره

بعوار فما تقضي كراها

إذا ما الناب لم ترام طلاها

حلفت برب صهبِ معملات

لئن جزعت بنو عمرو عليه

له كف يشد بها وكفٌ

ترى الشم الغطارف من سليم

أحاميكِمْ ومُطعمِكِمْ تركتِمْ

فمن للضيِّفِ إن هبَّتِ شمَّالٌ

وألجأ برِّدُها الأشْوالَ حُدْباً

هنالك لو نزلتِ ببابِ صخرِ

وخيلٍ قد دلَّفتِ لها بخيلِ

تُكفِّفُ فضلَ سابِغَةِ دِلاصِ

وقال كعب يرثي أخاه أبا المغوار:

تقول سلِّمِي ما لِجِسْمِكِ شاحِباً

فقلْتُ شَجُونُ من خُطوبِ تَتابعُ

لَعَمْرِي لئنُ كانتِ أصابَتْ مَنِيَّةٌ

فإني لباكِبهِ وإني لصادِقٌ

أخي ما أخي لا فاحشٌ عندِ بيتهِ

أخٌ كان يكفِينِي وكان يُعِينِي

هو العَسَلُ المَاديُّ لِيناً وشِيمَةً

هُوتُ أمُّه ما يَبْعَثُ الصُّبْحُ غادِياً

كعاليةِ الرُمحِ الرُدينيِّ لم يَكُنْ

وَدَاعِ دَعَا يا مَنْ يُجيبُ إلى النِّدا

فقلتِ ادعُ أخرى وارفعِ الصوتَ ثانيا

يُجبِكُ كما قد كان يَفْعَلُ إنَّه

وحَدَّثتُمانِي أنما المَوْتُ بالقُرى

فلو كانتِ المَوْتِي تُباعُ اشترِيتُه

بِعَيْنِي أو يَمْنِي يَدِي وَخَلَّتِي

العقد الفريد-ابن عبد ربه الأندلسي

إلى البيت المحرم منتهاها

لقد رزئت بنو عمرو فتاها

تجود فيما يجف ثرى نداها

وقد بلت مدامعها لجاها

لَدَى غَبْرَاءَ مُنْهَمِ رِجاها

مُزَعزَعَةٌ تَتَّوَحَّحُها صَبَّاهَا

إلى الحُجراتِ بادِيةً كُلاها

قَرَى الأضيافَ شَحْماً من دُراها

فَدَارَتْ بينَ كَبْشِيها رِحاها

على خِيفانَةٍ خَفِقٌ حَشَّاهَا"

كَأَنَّكَ يَحْمِيكَ الطَّعامَ طَبِيبُ

عليَّ كِبَارٌ والزَّمانُ يَريبُ

أخي فالمنايا للرجال شعوب

عليه وبعضُ القائلين كذوب

ولا ورعٌ عند اللِّقاء هَيُّوب

على نائباتِ الدَّهرِ حينَ تَنوبُ

وليثُ إذا لاقى الرجالَ قُطُوبُ

وماذا يَرِدُ اللَّيلُ حينَ يَؤُوبُ

إذا ابتدر الخيلَ الرجالُ يَخِيبُ

فلم يَسْتَجِبْه عندَ ذاكِ مُجِيبُ

لعلَّ أباي المغوارُ منك قَريبُ

بأمثالها رَحْبُ الدَّرَاعِ أريبُ

فكيفَ وهاتي هَضْبَةٌ وكُئيبُ

بما لم تَكُنْ عنه النُّفوسُ تَطِيبُ

أنا الغانمُ الجَدْلانُ حينَ يَؤُوبُ

لقد أفسد الموت الحياة وقد أتى
أتى دون حلو العيش حتى أمره
فو الله لا أنساه ما ذرَّ شارِقُ
فإن تكن الأيام أحسن مرّة

وقال امرؤ القيس يرثي إخوته:

ألا يا عين جودي لي شنيئا
ملوك من بني صخر بن عمرو
فلم تغسل رؤوسهم بسدر
فلو في يوم معركة أصيبوا

وقال الأبيرد بن المعدر الرياحي يرثي أخاه بريداً:

"تطاول ليلى ولم أنمه قلباً
أراقب من ليل التمام نجومه
تذكر علق بان منا بنصره
فإن تكن الأيام فرقن بيننا
وكنت أرى هجراً فراقك ساعة
أحقاً عباد الله أن لست لأقيا
فتى ليس كالفتيان إلا خيارهم
فتى إن هو استغنى تخرق في الغنى

وسامى جسيمات الأمور فبالها
ترى القوم في العزاء ينتظرونه
فليتك كنت الحي في الناس باقياً
فتى يشتري حسن الثناء بماله
كان لم يصاحبها برید بغبطة
لعمري لنعم المرء على نعيه
تمصت به الأخبار حتى تغلغلت
فلما نعى الناعي بریداً تغولت
عساكر تغشى النفس حتى كأنني

العقد الفريد-ابن عبد ربه الأندلسي

على يومه علق إلي حبيب
قطوب على آثارهن نكوب
وما اهتز في فرع الأراك قضيب
إلي لقد عادت لهن ذنوب

وبكى للملوك الذاهبين
يقادون العشيّة يقتلوننا
ولكن في الدماء مزملينا
ولكن في ديار بني مرينا

كان فراشي حال من دونه الجمر
لذن غاب قرن الشمس حتى بدا الفجر
ونائله يا حبذا ذلك الذكر
فقد عذرتنا في صحابته العذر
ألا لا بل الموت التفرق والهجر
بريداً طوال الدهر ما لأل العفر
من القوم جزل لا دليل ولا غمر
وإن كان فقر لم يؤد منته الفقر
على العسر حتى يدرك العسرة اليسر
إذا شت رأي القوم أو حزب الأمر
وكنت أنا الميت الذي ضمّه القبر
إذا السنة الشهباء قل بها القطر
ولم تأتتا يوماً بأخباره البشر
لنا ابن عرين بعد ما جنح العصر
ولم تتنه الأطباغ عنا ولا الجدر
بي الأرض فرط الحزن وانقطع الظهر
أخو نسوة ارت بهامته الخمر

إلى الله أشكو في بُرَيْدٍ مُصِيبَتِي
وقد كُنْتُ أَسْتَعْفِي الإِلهَ إِذَا اشْتَكَيْتُ
وما زال في عَيْنِي بَعْدُ غِشَاوَةٌ
على أَنَّنِي أَقْنَى الحَيَاءِ وَأَتَقِي
فحْيَاكَ عَنِّي اللَّيْلُ وَالصَّبْحُ إِذْ بَدَأَ
سَقَى جَدْنًا لَوْ أَسْتَطِيعَ سَقِيئُهُ

ولا زال يُسَقِّي من بلاد ثَوَى بها
حَلَفْتُ بِرَبِّ الرَّافِعِينَ أَكْفَهُمْ
وَمُجْتَمَعِ الحُجَّاجِ حَيْثُ تَوَاقَفْتُ
يَمِينِ امرِيءِ آلِي وِلَيْسَ بِكَاذِبٍ
لَنْ كَانَ أَمْسَى ابْنِ المُعَدَّرِ قَدْ ثَوَى
هُوَ المَرءُ لِلْمَعْرُوفِ وَالدِّينِ وَالنَّدَى
أَقَامَ وَنَادَى أَهْلُهُ فَتَحَمَّلُوا

فَأَيَّ امرِيءٍ غَادَرْتُمْ فِي بُيُوتِكُمْ
إِذَا الشَّوْلُ أَمْسَتْ وَهِيَ حُدْبٌ ظُهُورِهَا
كَثِيرِ رَمَادِ النَّارِ يُغْشَى فِنَاؤُهُ
فَتَى كَانَ يُعْلِي اللحمَ نِيئًا وَلَحْمُهُ
يُقَسَّمُهُ حَتَّى يَشِيْعَ وَلَمْ يَكُنْ
فَتَى الحَيِّ وَالْأَضْيَافِ إِنْ رَوَّحْتَهُمْ
إِذَا جَهَدَ القَوْمُ المَطِيَّ وَأَدْرَجَتْ
وَخَفَّتْ بَقَايَا زَادِهِمْ وَتَوَاكَلُوا
رَأَيْتَ لَهُ فَضْلًا عَلَيْهِمْ بِقُوَّتِهِ
إِذْ القَوْمُ أُسْرُوا لَيْلَهُمْ ثَمَّ أَصْبَحُوا
وَإِنْ خَشَعَتْ أَبْصَارُهُمْ وَتَضَاعَلَتْ
وَإِنْ جَارَةٌ حَلَّتْ إِلَيْهِ وَفِي لَهَا

وَبَيْتِي وَأَحْزَانًا يَجِيشُ بِهَا الصَّدْرُ
مِنَ الأَجْرِ لِي فِيهِ وَإِنْ سَرَّني الأَجْرُ
وَسَمَعِي عَمَّا كُنْتُ أَسْمَعُهُ وَقَرُّ
شِمَاتِهِ أَقْوَامِ عِيُونِهِمْ خُزْرُ
وَهُوَ جُحٌّ مِنَ الأَرْوَاحِ غُدُوَّتُهَا شَهْرُ
بُأُودٍ فَروَاهُ الرَّوَاعِدُ وَالْقَطْرُ

نَبَاتٌ إِذَا صَابَ الرَّبِيعُ بِهَا نَضْرُ
وَرَبُّ الهَدَايَا حَيْثُ حَلَّ بِهَا النَّحْرُ
رِفَاقٌ مِنَ الآفَاقِ تَكْبِيرُهَا جَارٌ
وَمَا فِي يَمِينِ بَتَّهَا صَادِقٌ وَزُرُ
بُرَيْدٌ لِنَعْمِ المَرءِ غَيْبِهِ القَبْرُ
وَمِسْعَرٌ حَرْبٌ لَا كَهَامٌ وَلَا غُمْرُ
وَصُرْمَتٌ مِنَ الأَسْبَابِ وَاخْتَلَفَتْ النَّجْرُ
إِذَا هِيَ أَمْسَتْ لَوْنُ آفَاقِهَا حُمْرُ
عِجَافًا وَلَمْ يُسْمَعِ لِفَحْلٍ لَهَا هَدْرُ
إِذَا نُودِيَ الأَيْسَارُ وَاحْتَضَرَ الجُزْرُ
رَخِيسٌ بِكَفْيِهِ إِذَا تَنَزَّلَ القَدْرُ
كَأَخْرَ يُضْحِي مِنَ غَيْبَتِهِ ذُخْرُ
بَلِيلٌ وَزَادُ القَوْمِ إِنْ أَرْمَلَ السَّفْرُ
مِنَ الضُّمْرِ حَتَّى يَبْلُغَ الحَقَبَ الضَّفْرُ
وَأَكْسَفَ بَالُ القَوْمِ مَجْهُولَةٌ قَفْرُ
وَبالعَقْرُ لَمَّا كَانَ زَادُهُمُ العَقْرُ
غَدَاً وَهُوَ مَا فِي سِقَاطٍ وَلَا فَنْرُ
مِنَ الأَيْنِ جَلِي مِثْلَ مَا يَنْظُرُ الصَّقْرُ
فَبَاتَتْ وَلَمْ يُهَيْئْكَ لِجَارَتِهِ سِتْرُ

عَفِيفٌ عَنِ السَّوَاتِ مَا التَّبَسَّتْ بِهِ
سَلَكْتَ سَبِيلَ الْعَالَمِينَ فَمَا لَهُمْ
وَكُلُّ أَمْرٍ يَوْمًا مُلَاقٍ حِمَامِهِ
فَأَبْلَيْتْ خَيْرًا فِي الْحَيَاةِ وَإِنَّمَا
لِيَفِدِكَ مَوْلَى أَوْ أَخٌ ذُو ذِمَامَةٍ

لِشَيْبِ بْنِ مَعْبُدِ الْبَجَلِيِّ:

أَتَى دُونَ حُلُوِّ الْعَيْشِ حَتَّى أَمْرَهُ
تَتَابَعْنَ فِي الْأَحْبَابِ حَتَّى أَبَدْنَهُمْ
بَرَّتَنِي صُرُوفُ الدَّهْرِ مِنْ كُلِّ جَانِبٍ
فَأَصْبَحْتُ إِلَّا رَحْمَةَ اللَّهِ مُفْرَدًا
إِذَا ذَرَّ قَرْنَ الشَّمْسِ عُلَّتْ بِالْأَسَى
وَنَامَ خَلِيُّ الْبَابِ عَنِّي وَلَمْ أَنْمِ
تَضُرُّ بِهِ الْأَيَّامُ حَتَّى كَأَنَّهُ
فَقَلْتُ لِأَصْحَابِي وَقَدْ قَدَفْتُ بِنَا
مَتَى الْعَهْدُ بِالْأَهْلِ الَّذِينَ تَرَكَتُهُمْ
فَمَا تَرَكَ الطَّاعُونَ مِنْ ذِي قَرَابَةٍ
فَقَدْ أَصْبَحُوا لَا دَارَ لَهُمْ مِنْكَ غَرْبَةً

وَكُنْتَ تَرْجَى أَنْ تُؤُوبَ إِلَيْهِمْ
مَقَادِيرَ لَا يُغْفِلَنَّ مَنْ حَانَ يَوْمُهُ
سَقَيْنَ بِكَأْسِ الْمَوْتِ مَنْ حَانَ حِينُهُ
وَإِنَّا وَإِيَّاهُمْ كَوَارِدٍ مَنْهَلٍ
إِلَيْهِ تَتَاهِينَا وَلَوْ كَانَ دُونَهُ
فَهَوَّنَ عَنِّي بَعْضَ وَجَدِي أَنْنِي
وَلَسْنَا بِأَحْيَا مِنْهُمْ غَيْرَ أَنَّنَا
وَإِنِّي إِذَا مَا سَنَيْتُ لِأَقِيْتُ أَسْوَةً
فَتَى كَانَ ذَا أَهْلٍ وَمَالٍ فَلَمْ يَزَلْ

العقد الفريد-ابن عبد ربه الأندلسي

صَلِيبٌ فَمَا يُلْفِي بِعُودٍ لَهُ كَسْرٌ
وَرَاءَ الَّذِي لِأَقَيْتُ مَعْدَى وَلَا قَصْرٌ
وَإِنْ دَانَتْ الدُّنْيَا وَطَالَ بِهِ الْعُمُرُ
ثَوَابُكَ عِنْدِي الْيَوْمَ أَنْ يَنْطِقَ الشَّعْرُ
قَلِيلَ الْغِنَاءِ لَا عَطَاءٌ وَلَا نَصْرُ

نُكُوبٌ عَلَى آثَارِهِنَّ نُكُوبٌ
فَلَمْ يَبْقَ فِيهِمْ فِي الدِّيَارِ قَرِيبٌ
كَمَا يَنْبِرِي دُونَ اللَّحَاءِ عَسِيبٌ
لَدَى النَّاسِ طُرًّا وَالْفُؤَادِ كَتِيبٌ
وَيَأْوِي إِلَيَّ الْحُزْنَ حِينَ تَوُوبُ
كَمَا لَمْ يَنْمِ عَارِي الْفِنَاءِ غَرِيبٌ
لِطُولِ الَّذِي أَعْقَبَنَ وَهُوَ رَقُوبٌ
نَوَى غُرْبَةً عَمَّنْ نَحِبَ شَطُوبٌ
لَهُمْ فِي فُؤَادِي بِالْعِرَاقِ نَصِيبٌ
إِلَيْهِ إِذَا حَانَ الْإِيَابُ نَوُوبٌ
بَعْدَ وَلَاهُمْ فِي الْحَيَاةِ قَرِيبٌ

فَغَالَتَهُمْ مِنْ دُونَ ذَاكَ شَعُوبٌ
لَهُنَّ عَلَى كُلِّ النَّفُوسِ رَقِيبٌ
وَفِي الْحَيِّ مِنْ أَنْفَاسِهِنَّ ذَنُوبٌ
عَلَى حَوْضِهِ بِالنَّالِيَّاتِ يُهَيْبُ
مِيَاهَ رَوَاءَ كُلِّهِنَّ شُرُوبٌ
رَأَيْتُ الْمَنَايَا تَغْتَدِي وَتَوُوبُ
إِلَى أَجَلٍ نُدَعَى لَهُ فَجَحِيبُ
تَكَادُ لَهَا نَفْسُ الْحَزِينِ تَطِيبُ
بِهِ الدَّهْرُ حَتَّى صَارَ وَهُوَ حَرِيبُ

وليس له في الغابرين حبيب
وتسجم دموع بينهن حبيب
جداول تجري بينهن غروب
فؤاد إلى أهل القبور طروب
كما واترت بين الحنين سلوب
وردت إلى الألف فهي تحوب
شباب يزبون الندى ومشيب

وكيف عزاء المرء عن أهل بيته
متى يذكروا يفرح فؤادي لذكركم
دموع مرأها الشجوة حتى كأنها
إذا ما أردت الصبر هاج لي البكا
بكي شجوه ثم ارعوى بعد عوله
دعاها الهوى من سقبا فهي واله
فوجدني بأهلي وجدها غير أنهم

من رثت زوجها

قالت أسماء بنت أبي بكر ذات النطاقين "رضي الله عنها" رثني زوجها الزبير بن العوام، وكان قتله عمرو بن جرهمون الموحشي بوادي السباع وهو منصرف من وقعة الجمل. "وتروى هذه الأبيات لزوجته عاتكة التي تزوجها بعد عمر بن الخطاب رضي الله عنه":

يوم الهياج وكان غير معرد
لا طائشا رعى الجنان ولا اليد
حلت عليك عقوبة المتعمد

غدر ابن جرهمون فارس بهمة
يا عمرو لو نبهته لوجدته
تكلتك أمك إن قتلت لمسلما

الهالي قال: تزوج محمد بن هارون الرشيد لبانة بنت علي بن ربيعة وكانت من أجل النساء، فقتل محمد عنها ولم يئن بها، فقالت رثته:

بل للمعالي والرُمح والفرس
خانته قواده مع الحرس
أرملني قبل ليلة العرس
أم من لذكر الإله في الغلس
إن أضرمت نارها بلا قبس

أبكيك لا للنعيم والأنس
يا فارساً بالعرء مطرحاً
أبكي على سيد فجعت به
أم من لير أم من لعائدة
من للحروب التي تكون لها

وقالت أعرابية رثني زوجها:

حيناً على خير ما ينمي به الشجر
وطاب قنواهما واستنظر الثمر
يبقي الزمان على شيء ولا يذر
يجلو الدجى فهوى من بينها القمر

كنا كغصنين في جرثومة بسقا
حتى إذا قيل قد طالت فرؤهما
أخنى على واحد ريب الزمان وما
كنا كأنجم ليل بينها قمر

الأصمعي قال: دخلت بعض مقابر الأعراب ومعني صاحب لي فإذا جارية على قبر كأنها تمثال وعليها من الخلى والحلل ما لم أر مثله وهي تبكي بعين غزيرة وصوت شجي. فالتفت إلى صاحبي. فقلت: هل رأيت أعجب من هذه؟ قال: لا والله، ولا أحسبني أراه. ثم قلت لها: يا هذه، إني أراك حريئة وما عليك زي الحزن: فانشأت تقول:

فإن تسألاني فيم حزني فإنني

رهينة هذا القبر يا فتيان

وإني لأستحييه والترّب بيننا
أهابك إجلالاً وان كنت في الثرى

كما كنت أستحييه حين يراني
مخافة يوم أن يسوك لساني

ثم اندفعت في البكاء وجعلت تقول:

يا صاحب القبر يا من كان ينعم بي
قد زرت قبرك في حلى وفي حلل
أردت أتيك فيما كنت أعرفه
فمن رآني رأى عبري مؤلهة

بالأ ويكثر في الدنيا مؤاساتي
كأنني لست من أهل المصيبات
ان قد تسرّ به من بعض هيئاتي
عجيبه الزيّ تبكي بين أموات

وقال: رأيت بصحراء جارية قد أُلصقت خدها بقبر وهي تبكي وتقول:

خدي تقيك خشونة اللحد
يا ساكن القبر الذي بوفاته
اسمع أبئك علتي فلعلني

وقليلة لك سيدي خدي
عميت علي مسالك الرشد
أطفي بذلك حرقة الوجد

من رثي جاريته

كان لمعلّى الطائي جارية يُقال لها وَصَف، وكانت أديبة شاعرة، فأخبرني محمد بن وَصَّاح، قال: أدركت معلّى الطائي بمصر، وأعطني بجاريته وَصَف أربعة آلاف دينار فباعها. فلما دخل عليها قالت له: بعثني يا معلّى! قال نعم، قالت: والله لو ملكت منك مثل ما تملك مني ما بعثتك بالدنيا وما فيها. فردّ الدنانير، واستقال صاحبه، فأصيب بما إلى ثمانية أيام، فقال يرثيها:

يا موت كيف سلّبتني وصفا
هلا ذهبنا بنا معاً فلقد
وأخذت شقّ النفس من بدني
فعلّيك بالباقي بلا أجل
يا موت ما بقيت لي أحداً
هلا رحمت شباب غانية
ورحمت عيني ظبية جعلت
تغفي إذا انتصبت فرائصه
فإذا مشي اختلفت قوائمه
متحيراً في المشي مرتعشاً

قدّمته وتركتني خلفاً
ظفرت يدك فسمتني خسفاً
فقدّرت وتركت لي النصفاً
فالموت بعد وفاتها أعفي
لما زففت إلى البلى وصفاً
رياً العظام وشعرها الوحفاً
بين الرياض تناظر الخشفاً
ولظلّ ترعاه إذا أغفي
وقت الرضاع فينطوي ضعفاً
يخطو فيضرب ظلّفه الظلّفاً

فَكَأَنَّهَا وَصَفٌ إِذَا جَعَلَتْ
يَا مَوْتُ أَنْتُ كَذَا لِكُلِّ أَخِي
خَلَيْتِي فَرْدًا وَبِنْتُ بَهَا
فَتَرَكْتُهَا بِالرَّغْمِ فِي جَدَثٍ
دُونَ الْمُقَطَّمِ لَا أَلْبَسَهَا
أَسْكَنْتَهَا فِي قَعْرِ مُظْلِمَةٍ
بَيْتًا إِذَا مَا زَارَهُ أَحَدٌ
لَبَسَتْ ثِيَابَ الْحَتْفِ جَارِيَةً
فَكَأَنَّهَا وَالنَّفْسُ زَاهِقَةٌ
يَا قَبْرُ أَبْقِ عَلَى مُحَاسِنِهَا

لما هُزِمَ مَرُوانُ بنُ مُحَمَّدٍ وَخَرَجَ نَحْوَ مِصْرَ، كَتَبَ إِلى جَارِيَةٍ لَهُ خَلَّفَهَا بِالرَّمْلَةِ:

وَمَا زَالَ يَدْعُونِي إِلى الصَّبْرِ مَا أَرى
وَكَانَ عَزِيزًا أَنْ بَيْنِي وَبَيْنَهَا
وَأَنْكَاهُمَا لِلْقَلْبِ وَاللَّهِ فَاعْلَمِي
وَأَعْظَمُ مِنْ هَذَيْنِ وَاللَّهِ أَنَّنِي

سَأَبْكِيكَ لَا مُسْتَبْقِيًا فَيُضِ عِبْرَةٌ

وَجَدُوا عَلَى قَبْرِ جَارِيَةٍ إِلى جَنْبِ قَبْرِ أَبِي نُوَّاسٍ أَيْبَاتًا ذَكَرُوا أَنَّ أَبَا نُوَّاسٍ قَالَهَا، وَهِيَ:

أَقُولُ لِقَبْرِ زُرَّتِهِ مُتَلَثِّمًا

لَقَدْ غَيَّبُوا تَحْتَ الثَّرَى قَمَرَ الدُّجَى

عَجِبْتُ لِعَيْنٍ بَعْدَهَا مَلَّتِ النُّكَا

وَقَالَ حَبِيبُ الطَّائِي يَرِثِي جَارِيَةَ أَصِيبُ بِهَا:

جُفُوفَ الْبَلَى أَسْرَعَتْ

وَخَطَبَ الرَّدَى وَالْمَوْتَ

لَقَدْ شَرِقَتْ فِي الشَّرْقِ بِالْمَوْتِ غَادَةٌ

وَأَلْبَسْنِي ثَوْبًا مِنَ الْحُزْنِ وَالْأَسَى

وَكَنتُ أَرْجِي الْقُرْبَ وَهِيَ بَعِيدَةٌ

نَحْوِي تُدِيرُ مَحَاجِرًا وَطُفَا
إِلْفٍ يَصُونُ بَبْرَهُ الْإِلْفَا
مَا كُنتُ قَبْلَكَ حَافِلًا وَكَفَا
لِلرَّيْحِ يَنْسِفُ تُرْبَهُ نَسْفَا
مِنْ زِينَةِ فُرْطَا وَلَا شَنْفَا
بَيْتًا يُصَافِحُ تُرْبَهُ السَّقْفَا
عَصَفَتْ بِهِ أَيْدِي الْبَلَى عَصَفَا
قَدْ كُنتُ أَلْبَسُ دُونَهَا الْحَتْفَا
غُصْنٌ مِنَ الرَّيْحَانِ قَدْ جَفَا
فَلَقَدْ حَوَيْتِ النُّورَ وَالظَّرْفَا

فَأَبَى وَيَتَّيْنِي الَّذِي لِكَ فِي صَدْرِي
حِجَابًا فَقَدْ أَمْسَيْتُ مِنْكَ عَلَى عَشْرِ
إِذَا ازْدَدْتُ مِثْلِيهَا فَصِرْتُ عَلَى شَهْرِ
أَخَافُ بَأْنَ لَا نَلْتَقِي آخِرَ الدَّهْرِ

وَلَا طَالِبًا بِالصَّبْرِ عَاقِبَةَ الصَّبْرِ

سَقَى اللهُ بَرْدَ الْعَفْوِ صَاحِبَةَ الْقَبْرِ

وَشَمْسَ الضَّحَى بَيْنَ الصَّفَائِحِ وَالْعَفْرِ

وَقَلْبَ عَلَيْهَا يَرْتَجِي رَاحَةَ الصَّبْرِ

فِي الْغُصْنِ الرَّطْبِ

أَبْرَحْتُ مِنْ خَطْبِ

تَبَدَّلْتُ مِنْهَا غُرْبَةَ الدَّارِ فِي الْغُرْبِ

هَلَالَ عَلَيْهِ نَسْجُ ثَوْبٍ مِنَ التُّرْبِ

فَقَدْ ثَقُلْتُ بَعْدِي عَنِ الْبُعْدِ وَالْقُرْبِ

أقول وقد قالوا استراح بموتها

لها منزل تحت الثرى وعهدتها

وقال يرثيها:

ألم ترني خلّيتُ نفسي وشانها

لقد خوفتني النائباتُ صرُوفها

وكيف على نارِ الليالي مُعرّسي

أصِبتُ بخودِ سوفِ أعبرُ بعدها

عنانُ من اللذاتِ قد كان في يدي

منحتُ المهاجرِ فلا مُحسناتها

يقولون هل يبكي الفتى لخريده

وهل يستعِض المرءُ من خمسِ كفه

وقال أعرابي يرثي امراته:

فوالله ما أدري إذا الليلُ جنّني

أمفصلٌ عن نذّي أم كريمة

وقال محمود الوراق يرثي جاريته نشو:

ومنتصح يُردّد ذكرِ نشو

أقول وعدّ ما كانت تُساوِيسَ

عطيته إذا أعطى سرور

فأيُّ النعمتين أعمُ نفعاً

أنعمته التي أهدت سروراً

بل الأخرى وإن نزلت بحزن

من الكرب روح الموت شرٌّ من الكرب

لها منزل بين الجوانح والقلب

ولم أحفل الدنيا ولا حدّثانها

ولو أمّنتني ما قبلتُ أمانها

إذا كان شيبُ العارضين دُخانها

حليفَ أسى أبكى زماناً زمانها

فلما قضى الإلفُ استردت عنانها

أودُّ ولا يهوى فؤادي حسانها

إذا ما أراد اعتاضَ عشراً مكانها

ولو صاغ من حرِّ اللجين بنانها

وذكرنيها أيتها هو أوجع

أم العاشقُ النابي به كلُّ مضجع

على عمدٍ ليبيعت لي أكتئاباً

يحسبُ ذاك من خلق الحسابا

وإن أخذ الذي أعطى أثاباً

وأحسنُ في عواقبها إياباً

أم الأخرى التي أهدت ثواباً

أحقُّ بشكرٍ من صبرٍ احتساباً

أبو جعفر البغدادي قال: كان لنا جارٌ وكانت له جاريةٌ جميلة، وكان شديد المحبة لها، فماتت فوجد عليها وجداً شديداً، فبينما هو ذات ليلة نائمٌ إذ أتته الجاريةُ في نومه فأنشدته هذه الأبيات:

في النومِ ألثمُ خدّاً زانه الجيدُ

فكيف ذا وطريقُ القبرِ مسدود

ينهشَن منها هوامُ الأرضِ والدود

فاقبلِ زيارةً من في القبرِ ملحود

جاءت تزور وسادي بعدما دُفنتُ

فقلتُ قرّةَ عيني قد نُعيتُ لنا

قالت هناك عظامي فيه ملحدة

وهذه النفسُ قد جاءتك زائرة

فانتبه وقد حَفِظَهَا، وكان يحدِّث الناس بذلك ويُنشدهم. فما بقي بعدها إلا أياماً يسيرة حتى لحق بها.

من رثى ابنه

قال البُحْتَرِيُّ في رثاء ابنة لأحد بني حُمَيْد:

ظَلَمَ الدَّهْرُ فَيْكُمْ وَأَسَاءَ

أَنْفُسُ مَا تَزَالُ تَفْقَدُ فَقْدًا

أَصْبَحَ السِّيفُ دَاعِكُمْ وَهُوَ الدَّاءُ

وَانْتَحَى الْقَتْلَ فَيْكُمْ فَبَكَيْنَا

يَا أَبَا الْقَاسِمِ الْمُقَسَّمِ فِي النَّجِّ

وَالهَزْبِرِ الَّذِي إِذَا دَارَتْ الْحَرَّ

الْأَسَى وَاجِبٌ عَلَى الْحُرِّ إِمَّا

وَسَفَاهَا أَنْ يَجْزَعَ الْحُرُّ مِمَّا

أُتْبِكِي مَنْ لَا يُنَازِلُ بِالسَّيْفِ

وَالْفَتَى مَنْ رَأَى الْقُبُورَ لِمَنْ طَا

لَسَنْ مِنْ زِينَةِ الْحَيَاةِ لَعْدَ اللَّ

قَد وَلَدْنَ الْأَعْدَاءَ قَدَمًا وَوَرَّثَ

لَمْ يَنْدِرْ بِهِنَّ قَيْسُ تَمِيمٍ

وَتَغَشَى مُهْلَهْلَ الذَّلِّ فِيهِ

وَشَفِيقَ بِنُ فَاتِكِ حَذَرَ الْعَا

وَعَلَى غَيْرِهِنَّ أَحْزَنَ يَعْقُو

وَشَعِيبَ مَنْ أَجْلَهْنَ رَأَى الْوُحِ

وَتَلَفَّتْ إِلَى الْقَبَائِلِ فَاَنْظُرُ

وَاسْتَزَلَّ الشَّيْطَانُ آدَمَ فِي الْجَنِّ

وَلِعُمْرِي مَا الْعَجْزُ عِنْدِي إِلَّا

فَعَرَاءَ بَنِي حُمَيْدٍ عَرَاءَ

وَصُدُورٌ مَا تَبْرَحُ الْبُرْحَاءَ

الَّذِي مَا يَزَالُ يُعِي الدَّوَاءَ

بِدِمَاءِ الدُّمُوعِ تَلِكِ الدِّمَاءِ

دِةِ وَالْجُودِ وَالنَّدَى أَجْزَاءَ

بُ بِهِ صَرَفَ الرَّدَى كَيْفَ شَاءَ

نِيَّةً حُرَّةً وَإِمَا رِيَاءَ

كَانَ حَتْمًا عَلَى الْعِبَادِ قَضَاءَ

مُشِيحًا وَلَا يَهْزُ اللَّوَاءَ

بُ بِهِ مَرِ بَنَاتِهِ أَكْفَاءَ

ه مِنْهَا الْأَمْوَالُ وَالْأَبْنَاءَ

نِ التَّلَادِ الْأَقَاصِيَّ الْبُعْدَاءَ

عَيْلَةً بَلْ حَمِيَّةً وَإِبَاءَ

نِ وَقَدْ أُعْطِيَ الْأَدِيمَ حِيَاءَ

رِ عَلَيْهِنَّ فَارَقَ الدَّهْنَاءَ

بُ وَقَدْ جَاءَهُ بَنُوهُ عِشَاءَ

دِةً ضَعْفًا فَاسْتَأْجَرَ الْأَنْبِيَاءَ

أَمْهَاتٍ يَنْسِبِينَ أُمَّ أَبَاءَ

ةً لَمَّا أُغْرِيَ بِهِ حَوَاءَ

أَنْ تَبَيَّتَ الرِّجَالَ تَبْكِي النِّسَاءَ

مراثي الأشرف

قال حَسَّانُ بْنُ ثَابِتٍ يَرِثِي رَسُولَ اللَّهِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ وَأَبَا بَكْرٍ وَعَمْرَ رَضْوَانَ اللَّهُ عَلَيْهِم:

نَضْرَهُمْ رَبُّهُمْ إِذَا نُشِرُوا
وَاجْتَمَعُوا فِي الْمَمَاتِ إِذْ قُبِرُوا
يُنْكِرُهُمْ فَضْلَهُمْ إِذَا ذُكِرُوا

فَاذْكُرْ أَخَاكَ أَبَا بَكْرٍ بِمَا فَعَلَا
بَعْدَ النَّبِيِّ وَأَوْفَاهَا بِمَا حَمَلَا
وَأَوَّلِ النَّاسِ طُرَا صَدَقَ الرُّسُلَا
مِنَ الْبَرِيَّةِ لَمْ يَعْدِلْ بِهِ رَجُلَا

يَدُ اللَّهِ فِي ذَاكَ الْأَدِيمِ الْمُمَرَّقِ
لِيُذْرِكَ مَا قَدَّمْتَ بِالْأَمْسِ يُسْبِقِ
نَوَافِحَ فِي أَكْمَامِهَا لَمْ تَفْتَقِ
بِكَفِّي سَبَنْتِي أَرْزُقِ الْعَيْنَ مُطْرَقِ

فَلْيَأْتِ مَا سَرَّهُ فِي دَارِ عَثْمَانَا
مَا دَمْتُ حَيًّا وَمَا سُمِّيتُ حَسَانَا
مَا كَانَ شَأْنُ عَلِيٍّ وَابْنِ عَفَانَا
اللَّهُ أَكْبَرُ يَا ثَارَاتِ عَثْمَانَا
يُقَطِّعُ اللَّيْلَ تَسْبِيحًا وَقُرْآنَا

مِنَ أَهْلِ يَثْرَبَ إِذْ غَيَّرَ الْهُدَى سَلَكَوَا
لَمَا رَأَى اللَّهُ فِي عَثْمَانَ مَا انْتَهَكُوا
أَيُّ دَمٍ لَا هُدُوءًا مِنْ غِيهِمْ سَفَكُوا

وَشَارَكْتَ كُفَّهُ كَفِّي بِصِفِينَا
وَأَبْرَزَ اللَّهُ لِلْقِسْطِ الْمَوَازِينَا
ثُمَّ اسْتَفْنِي مِثْلَهَا آمِينَ آمِينَا

ثَلَاثَةٌ بَرَزُوا بِسَبْقِهِمْ
عَاشُوا بِلا فُرْقَةٍ حَيَاتِهِمْ
فَلَيْسَ مِنْ مُسْلِمٍ لَهُ بَصْرٌ

وقال حسان يرثي أبا بكر رضي الله عنه:

إِذَا تَذَكَّرْتَ شَجَوًا مِنْ أَخِي تِقَّةٍ
خَيْرَ الْبَرِيَّةِ أَنْفَاقًا وَأَعْدَلَهَا
الثَّانِي اثْنَيْنِ وَالْمَحْمُودَ مَشْهُدَهُ
وَكَانَ حُبَّ رَسُولِ اللَّهِ قَدْ عَلِمُوا

وقال يرثي عمر بن الخطاب رضي الله عنه:

عَلَيْكَ سَلَامٌ مِنْ أَمِيرٍ وَبَارَكْتَ
فَمَنْ يَجْرُ أَوْ يَرْكَبُ جَنَاحِي نَعَامَةً
قَضَيْتَ أُمُورًا ثُمَّ غَادَرْتَ بَعْدَهَا
وَمَا كُنْتُ أَخْشَى أَنْ تَكُونَ وَفَاتُهُ

وقال يرثي عثمان بن عفان رضي الله عنه:

مَنْ سَرَّهُ الْمَوْتُ صَرِيفًا لَا مِزَاجَ لَهُ
إِنِّي لَمَنْهُمْ وَإِنْ غَابُوا وَإِنْ شَهِدُوا
يَا لَيْتَ شِعْرِي وَلَيْتَ الطَّيْرُ تُخْبِرُنِي
لَتَسْمَعَنَّ وَشَيْكًا فِي دِيَارِهِمْ
ضَحْوًا بِأَشْمَطَ عُنْوَانَ السُّجُودِ بِهِ

وقال الفرزدق في قتل عثمان رضي الله تعالى عنه:

إِنَّ الْخِلَافَةَ لَمَا أَطْعَمْتَ ظَعْنَتُ
صَارَتْ إِلَى أَهْلِهَا مِنْهُمْ وَوَارِثِهَا
السَّافِكِي دَمِهِ ظُلْمًا وَمَعْصِيَةً

وقال السيد الحميري يرثي علي بن أبي طالب كرم الله وجهه ويذكر يوم صفين:

إِنِّي أَدِينُ بِمَا دَانَ الْوَصِيَّ بِهِ
فِي سَفَكِ مَا سَفَكَتَ فِيهَا إِذَا احْتَضَرُوا
تِلْكَ الدِّمَاءَ مَعًا يَا رَبِّ فِي عُنْقِي

آمِينَ مِنْ مَنَّهُمْ فِي مِثْلِ حَالِهِمْ

لَيْسُوا يَرِيدُونَ غَيْرَ اللَّهِ رَبَّهُمْ

أنشد الرياشي لرجل من أهل الشام يرثي عمر بن عبد العزيز رضي الله عنه:

قَدْ غَيَّبَ الدَّافِنُونَ اللِّحْدَ إِذْ دَفَّنُوا

مَنْ لَمْ يَكُنْ هُمُهُ عَيْنًا يُفَجِّرُهَا

أَقُولُ لِمَا أَتَانِي نَعْيُ مَهْلِكِهِ

وقال الفرزدق يرثي عبد العزيز بن مروان:

ظَلُّوا عَلَى قَبْرِهِ يَسْتَغْفِرُونَ لَهُ

يُقْبَلُونَ تَرَابًا فَوْقَ أَعْظَمِهِ

لِلَّهِ أَرْضٌ أَجْتَتْهُ ضَرِيحَتُهَا

إِنَّ المَنَابِرَ لَا تَعْتَاضُ عَنْ مَلِكٍ

وقال جرير يرثي عمر بن عبد العزيز:

يَنْعَى النُّعَاةَ أَمِيرَ الْمُؤْمِنِينَ لَنَا

حُمِلَتْ أَمْرًا عَظِيمًا فَاصْطَبْرَتْ لَهُ

فَالشَّمْسُ طَالِعَةٌ لَيْسَتْ بِكَاسِفَةٍ

وقال جرير يرثي الوليد بن عبد الملك:

إِنَّ الخَلِيفَةَ قَدْ وَارَتْ شِمَائِلَهُ

أَمْسَى بَنُو وَقَدْ جَلَّتْ مُصِيبَتُهُمْ

كَانُوا جَمِيعًا فَلَمْ يَدْفَعْ مَنِّيَّتَهُ

وقال غيره يرثي قيس بن عاصم المنقري:

عَلَيْكَ سَلَامُ اللَّهِ قَيْسَ بْنَ عَاصِمٍ

تَحِيَّةَ مَنْ أَلْبَسَتْهُ مِنْكَ نِعْمَةً

فَمَا كَانَ قَيْسٌ هُلُكُهُ هُلُكُ وَاحِدٍ

وقال أبو عطاء السندي يرثي يزيد بن عمر بن هبيرة لما قُتل بواسط:

أَلَا إِنَّ عَيْنًا لَمْ تَجِدْ يَوْمَ وَاسِطٍ

عَشِيَّةَ رَاحِ الدَّافِنُونَ وَشَفَقَتْ

فَإِنَّ تَكَ مَهْجُورَ الفِنَاءِ فَرِمْمَا

فِي فِتْيَةٍ هَاجَرُوا اللَّهَ سَارِينَا

نَعْمَ المُرَادُ تَوَخَّاهَ المُرِيدُونََا

بَدِيرٍ سَمِعَانَ قِسْطَاسِ المَوَازِينِ

وَلَا النَّخِيلَ وَلَا رَكُضَ البَرَاذِينِ

لَا يَفْقَدَنَّ قَوَامَ المُلْكِ وَالدِّينِ

وَقَدْ يَقُولُونَ ثَارَاتٍ لَنَا العَبْرُ

كَمَا يُقْبَلُ فِي المَحْجُوجَةِ الحَجَرِ

وَكَيفَ يُدْفَنُ فِي المَلْحُودَةِ القَمَرِ

إِلَيْهِ يَشْخَصُ فَوْقَ المَنْبَرِ البَصَرِ

يَا خَيْرَ مَنْ حَجَّ بَيْتَ اللَّهِ وَاعْتَمَرَ

وَقُمْتَ فِيهِ بِأَمْرِ اللَّهِ يَا عُمَرَ

تَبْكِي عَلَيْكَ نُجُومُ اللَّيْلِ وَالقَمَرَا

غَبْرَاءُ مَلْحُودَةٍ فِي جَوْلِهَا زَوْرُ

مِثْلَ النُّجُومِ هَوَى مِنْ بَيْنِهَا القَمَرِ

عَبْدُ العَزِيزِ وَلَا رُوحٌ وَلَا عَمْرُ

وَرَحْمَتُهُ مَا شَاءَ أَنْ يَتَرَحَّمَا

إِذَا زَارَ عَنِ شَحَطِ بِلَادِكَ سَلَمَا

وَلَكِنَّهُ بُنْيَانُ قَوْمٍ تَهْدَمَا

عَلَيْكَ بِجَارِي دَمْعِهَا لَجْمُودُ

جُيُوبَ بِأَيْدِي مَاتَمٍ وَخُدُودِ

أَقَامَ بِهِ بَعْدَ الوُفُودِ وَوُفُودِ

وإنك لم تبعد على متعهد

وقال منصور النمري يرثي يزيد بن يزيد:

بلى إن من تحت التراب بعيد

أبا خالد من بعد أن لا تلاقيا
أصابك معداً يوم أصبحت ثاويًا
شماتاً لقد سرُّوا بربعك خاليا
وزرَّت بها الأجداث وهي كما هيا
بسيِّفٍ لهم ما كان في الحرب نابيا

متى يبُردُ الحزن الذي في فؤاديا
أبا خالد ما كان أدهى مُصيبةً
لعمري لئن سرُّ الأعداي وأظهروا
وأوتار أقوامٍ لَدَيْكَ لَوَيْتَهَا
نُعزِّي أميرَ المؤمنين ورهطه

عليه المنايا فالق إن كنت لاقيا
فإن له ذكراً سيفني اللياليا

على مثل ما لاقى يزيد بن يزيد
وإن تك أفتته الليالي وأوشكت

وقال:

فحسبك مني ما تجن الجوانح
على أحدٍ إلا عليك النوائح
لقد حسنت من قبلُ فيك المدائح
ولا بسرورٍ بعد موتك فارح

سأبكيك ما فاضت دموعي فإن تغض
كأن لم يمُت حيُّ سواك ولم تقم
لئن حسنت فيك المرآثي وذكرها
فما أنا من رزءٍ وإن جلَّ جازعُ
وقال زياد الأعجم يرثي المغيرة بن المهلب:

قبراً بمرؤ على الطريق الواضح
كوم الهجان وكل طرفٍ سابح
فلقد يكون أخوا دمٍ وذبايح
واقتر نايك عن شبة القارح
وأعنت ذلك بالفعال الصالح

إن الشجاعة والسماحة ضمنا
فإذا مررت بقبره فاعقر به
"وانضح جوانب قبره بدمائها
والآن لما كنت أكمل من مشي
وتكاملت فيك المروءة كلها

للمهلي من مرثيته للمتوكل:

وهل كمن فقدت عيناى مفتح
كما هوى من غطاء الزبية الأسد
إذ تمُدُّ إلى الجاني عليك يد
أبليتة الجهد إذ لم يبيله أحد
والحرب تسعر والأبطال تجتلد

لا حزن إلا أراه دون ما أجد
لا يبعدن هالك كانت منيته
لا يدفع الناس ضيماً بعد ليلتهم
لو أن سيفي وعقلي حاضران معي
هلاً أنته أعاديه مجاهرة

لم يحمه ملكه لما آنقضى الأمد
وللردى دون أرصاد الفتى رصد
ليثاً صريعاً تنزى حوله النقد
وليس فوقك إلا الواحد الصمد
فقد شقوا بالذي جاءوا وما سعّدوا
خدّاً كريماً عليه قارت جسد
لكل ذي عزة في رأسه صيد
ولم يكن مثله رُوح ولا جسد
من الجوائف يغلى فوقها الزبد
وإن رثيت فإن القول مطرد
فعلمتني الليالي كيف أقتصد
ضعتُم وضيعتُم من كان يُعتد
حمتكم السادة المركوزة الحشد
والمجدُ والدينُ والأرحامُ والبد
بغير قحطان لم يبرح به أود
يبالون ما نالوا إذا حُمّدوا
حتى كأنّ الذي يبّلونه رشّد

قامت عليه نوادبٌ وروامس
فنما الفسيلُ ومات عنه الغارس

تركوا منازلهم وبعد أيادٍ
والقصرُ ذي الشرفات من سندان
ماءُ الفرات يجرى من أطواد
فكأنما كانوا على ميعاد
في ظل ملك ثابت الأوتاد

فخر فوق سرير الملك مُجدلاً
قد كان أنصاره يحمون حوزته
وأصبح الناس فوضى يعجبون له
علتك أسياف من لا دونه أحد
جاءوا عظيماً لدنيا يسعدون بها
ضجت نساؤك بعد العز حين رأت
أضحى شهيد بني العباس موعظة
خليفة لم ينل ما ناله أحد
كم في أديمك من فوّهاء هادرة
إذا بكيت فإن الدمع منهل
قد كنت أسرف في مالي ويخلف لي
لما اعتقدتم أناساً لا حلوم لهم
فلو جعلتم على الأحرار نعمتكم
قوم هم الجذم والأنساب تجمعكم
"إذا قرّيش أرادوا شدّ ملكهم
من الألى وهبوا للمجد أنفسهم فما
قد وتر الناس طراً ثم صمتوا

وقال آخر:

وفتى كأنّ جبينه بدرُ الدجا
غرس الفسيل مؤملاً لبقائه
وقال الأسود بن يعفر.

ماذا أوّمل بعد آل محرق

أهل الخورنق والسدير وبارق
نزلوا بأنقرة يسيل عليهم
جرت الرياح على محل ديارهم
ولقد غنوا فيها بأنعم عيشة

وَإِذَا النَّعِيمُ وَكُلُّ مَا يُلْهَى بِهِ

وَقَالَ عَيْبُدُ بْنُ الْأَبْرَصِ:

يَوْمًا يَصِيرُ إِلَى بَلَى وَنَفَادٍ

إِلَّا وَالْمَوْتُ فِي آثَارِهِمْ حَادِي

إِلَّا تَقَرَّبُ آجَالًا لِمِيعَادٍ

تَحْتَ التَّرَابِ وَأَجْسَادُ كَأَجْسَادِ

لَمَّا مَاتَ أَسْمَاءُ بْنُ خَارِجَةَ الْفَزَارِيُّ قَالَ الْحَجَّاجُ: ذَلِكَ رَجُلٌ عَاشَ مَا شَاءَ وَمَاتَ حِينَ شَاءَ. وَقَالَ فِيهِ الشَّاعِرُ:

فَلَا مَطَرَتْ عَلَى الْأَرْضِ السَّمَاءُ

وَلَا حُمِلَتْ عَلَى الطَّهْرِ النِّسَاءُ

كَثِيرٍ عِنْدَهُمْ نَعَمٌ وَشَاءُ

إِذَا مَاتَ ابْنُ خَارِجَةَ بْنِ زَيْدٍ

وَلَا جَاءَ الْبَرِيدُ بِغَنَمِ جَيْشٍ

فَيَوْمَ مِنْكَ خَيْرٌ مِنْ رِجَالٍ

وَقَالَ مُسْلِمُ بْنُ الْوَلِيدِ الْأَنْصَارِيُّ:

وَأَمْسَيْتَ لَمْ تَعْرِضْ لَهَا التَّرْحَاتُ

تَمَرٌ بِهِمَا الرُّوحَاتُ وَالغَدَوَاتُ

مَضَتْ وَهِيَ فَرَدَ مَا لَهَا أَخَوَاتُ

وَلَمْ تَتَعَمَّدْ غَيْرَكَ النَّكَبَاتُ

طَوَّاهَا الرَّدَى فِي اللَّحْدِ وَهِيَ رُفَاتُ

لَهْنَ اجْتِمَاعٍ مَرَّةً وَشَتَاتُ

فَهُنَّ عَنِ الْأَمَالِ مَنْقَبِضَاتُ

أَمْسَعُودٌ هَلْ غَادَاكَ يَوْمٌ بِفَرَحَةٍ

وَهَلْ نَحْنُ إِلَّا أَنْفُسٌ مُسْتَعَارَةٌ

بَكَيْتَ وَأَعْطَيْتَكَ الْبِكَاءَ مُصِيبِيَّةُ

كَأَنَّكَ فِيهَا لَمْ تَكُنْ تَعْرِفُ الْعَزَا

سَقَى الضَّاحِكُ الْوَسْمِيَّ أَعْظَمَ حُفْرَةَ

أَرَى بِهَجَّةِ الدُّنْيَا رَجِيْعَ دَوَائِرِ

طَوَى أَيْدِيَّ الْمَعْرُوفِ مَصْرَعِ مَالِكِ

وَقَالَ أَيْضًا:

بِجِوَارِ قَبْرِكَ وَالذِّيَارِ قُبُورُ

فَالنَّاسُ فِيهِ كُلُّهُمْ مَاجُورُ

فَكَانَهُ مِنْ نَشْرِهَا مَنْشُورُ

أَمَّا الْقُبُورُ فإِنَّهِنَّ أَوَانِسُ

عَمَّتْ فَوَاضِلُهُ وَعَمَّ مُصَابُهُ

رَدَّتْ صِنَائِعُهُ إِلَيْهِ حَيَاتُهُ

وَقَالَ أَشْجَعُ بْنُ عَمْرِو السُّلَمِيِّ يَرِثِي مَنْصُورَ بْنَ زِيَادٍ:

مَا فِي ثَرَاكَ مِنَ النَّدَى وَالْخَيْرِ

وَطَفَاءَ دَانِيَّةٍ وَظِلِّ حُبُورِ

وَالْأَكِّ مِنْ قَبْرِ وَمِنْ مَقْبُورِ

وَفَجَعْتَهُ بَوْلِيَّةَ الْمَذْكَورِ

مِنْ رَبِّهَا وَحَرَمْتَ كُلَّ فَقِيرِ

يَا حُفْرَةَ الْمَلِكِ الْمُؤَمَّلِ رِفْدُهُ

لَا زِلْتِ فِي ظِلِّينِ ظِلِّ سَحَابَةٍ

وَسَقَى الْوَلِيَّ عَلَى الْعِهَادِ عِرَاصَ مَا

يَا يَوْمَ مَنْصُورِ أَبَحْتَ حِمَى النَّدَى

يَا يَوْمَهُ أَعْرَيْتِ رَاحِلَةَ النَّدَى

يا يومه ماذا صنعت بِمُرْمَلٍ
يا يومه لو كنت جِئْتَ بِصِيحَةٍ
لله أَوْصَالٍ تَقْسِمُهَا الْبِلَى
عَجَبًا لخمسة أذرعٍ في خمسةٍ
مَنْ كَانَ يَمَلَأُ عَرْضَ كُلِّ تَوُفَةٍ
ذَلَّتْ بِمصرِعه المكارِمُ والندى
أَقَلَّتْ نَجُومُ بَنِي زِيَادٍ بَعْدَمَا
لَوْلَا بَقَاءُ مُحَمَّدٍ لَتَصَدَّعَتْ
أَبْقَى مَكَارِمَ لَا تَبِيدُ صِفَاتُهَا
أَصْبَحَتْ مَهْجُورًا بِحُفْرَتِكَ الَّتِي

بَلَّيْتَ عِظَامُكَ وَالصَّفَاحُ جَدِيدَةٌ
إِنْ كُنْتُ سَاكِنَ حَفْرَةٍ فَلَقَدْ تُرَى

وقال يرثي محمد بن منصور:

أُنْعَى فِتَى الْجُودِ إِلَى الْجُودِ
أُنْعَى فِتَى مَصِّ الثَّرَى بَعْدَهُ
فَانْتَلَمَ الْمَجْدُ بِهِ تَلْمَةً
أُنْعَى ابْنَ مَنْصُورٍ إِلَى سَيِّدٍ
وَأَشْعَثَ يَسْعَى عَلَى صَبِيئَةٍ
وَطَارِقِ أَعْيَا عَلَيْهِ الْقِرَى
الْيَوْمَ تُخْشَى عَثْرَاتُ النَّدَى
أُورِدَهُ يَوْمَ عَظِيمٍ نَأَى
كُلُّ أَمْرٍ يَجْرَى إِلَى مَدَّةٍ
سَيَنْطِقُ الشُّعْرُ بِأَيَّامِهِ
فَكُلُّ مَقْفُودٍ إِلَى جَنْبِهِ
يَا وَافِدَيَّ قَوْمَهُمَا إِنَّ
طَلَبْتُمَا الْجُودَ وَقَدْ ضَمَمَهُ

العقد الفريد-ابن عبد ربه الأندلسي

يَرْجُو الْغِنَى وَمُكَبَّلٌ مَأْسُورٍ
فَجَمَعَتْ بَيْنَ الْحَيِّ وَالْمَقْبُورِ
فِي اللَّحْدِ بَيْنَ صَفَائِحٍ وَصُخُورِ
غَطَّتْ عَلَى جَبَلٍ أَشَمَّ كَبِيرِ
وَأَرَاهُ جُولُ مُلْحَدٍ مَحْفُورِ
وَذُبَابُ كُلِّ مَهْنَدٍ مَأْثُورِ
طَلَعَتْ بَنُورِ أَهْلَةٍ وَبُدُورِ
أَكْبَادُنَا أَسْفَاً عَلَى مَنْصُورِ
وَمَضَى لَوَقْتِ حِمَامِهِ الْمَقْدُورِ
بُدَّلَتْهَا مِنْ قَصْرِكَ الْمَعْمُورِ

ليس البلى لفعالك المشهور
سكننا لعودي منبرٍ وسريرٍ

مَا مِثْلُ مَنْ أُنْعَى بِمَوْجُودِ
بَقِيَّةِ الْمَاءِ مِنَ الْعُودِ
جَانِبُهَا لَيْسَ بِمَسْدُودِ
وَأَيْدٍ لَيْسَ بِرِعْدِيدِ
مِثْلُ فِرَاحِ الطَّيْرِ مَجْهُودِ
وَمُسْلِمٍ فِي الْقَدِّ مَصْفُودِ
وَعَدْوَةَ الْبُخْلِ عَلَى الْجُودِ
فِي الْمَجْدِ حَوْضًا غَيْرَ مَحْمُودِ
وَأَجَلَ قَدْ خُطَّ مَعْدُودِ
عَلَى لِسَانٍ غَيْرِ مَعْقُودِ
وَإِنْ تَعَالَى غَيْرَ مَقْفُودِ
مَنْ طَلَبْتُمَا تَحْتَ الْجَلَامِيدِ
مُحَمَّدٌ فِي بَطْنِ مَلْحُودِ

فَاتَكَمَا الْمَوْتَ بِمَعْرُوفِهِ

يَا عَضُدًا لِلْمَجْدِ مَقْتُوتَةً

أَوْهَنَ زَنْدِيهَا وَأَكْبَاهُمَا

وَهَدَّتِ الرُّكْنَ الَّذِي كَانَ بِالْأَمْسِ

وقال حبيب الطائي يرثي خالد بن يزيد بن مزيد:

أَشْيِيَانِ لَا ذَاكَ الْهَيْلَالُ بَطَالِعِ

أَشْيِيَانِ عَمَّتْ نَارُهَا مِنْ رَزِيَّةِ

فَمَا جَانِبُ الدُّنْيَا بِسَهْلٍ وَلَا الضُّحَى

فِيَا وَحِشَّةَ الدُّنْيَا وَكَانَتْ أَنْيَسَةً

وأششد أبو محمد التيمي في يزيد بن مزيد:

أَحَقًّا أَنَّهُ أَوْدَى يَزِيدُ

أَتَدْرِي مِنْ نَعِيَتْ وَكَيْفَ فَاهَتْ

أَحَامِي الْمُلْكِ وَالْإِسْلَامِ أَوْدَى

تَأْمَلْ هَلْ تَرَى الْإِسْلَامَ مَالَتْ

وَهَلْ شَبِيعَتْ سَيْوْفُ بَنِي نِزَارِ

وَهَلْ نَسَقِي الْبِلَادَ عِشَارُ مَزْنِ

أَمَا هُدَّتْ لِمَصْرَعِهِ نِزَارِ

وَحَلَّ ضَرْبِيحَهُ إِذْ حَلَّ فِيهِ

وَهُدَّ الْعِزُّ وَالْإِسْلَامُ لَمَا

لَقَدْ أَوْفَى رَبِيعَةَ كُلِّ نَحْسِ

وَأَنْصَلَتْ الْأَسِنَّةُ مِنْ قَنَاهَا

نَعِي يَزِيدُ أَنْ لَمْ يَبِيقَ بِأَسِّ

نَعِيَّ أَبِي الرَّبِيرِ لِكُلِّ يَوْمِ

أَأُودَى عَصْمَةَ الْبَادِي يَزِيدُ

فَمِنْ يَحْمِي حِمَى الْإِسْلَامِ أَمْ مَنْ

وَمَنْ يَدْعُو الْإِمَامُ لِكُلِّ خَطْبِ

وَلَيْسَ مَا فَاتَ بِمَرْدُودِ

وَسَاعِدًا لَيْسَ بِمَعْضُودِ

قَرُخُ الْمَنَايَا فِي الصَّنَادِيدِ

عِمَادًا غَيْرَ مَهْدُودِ

عَلَيْنَا وَلَا ذَاكَ الْعَمَامُ بَعَائِدِ

فَمَا تَشْتَكِي وَجَدًّا إِلَى غَيْرِ وَاجِدِ

بَطْلُقٍ وَلَا مَاءَ الْحَيَاةِ بِبَارِدِ

وَوُحْدَةً مَنْ فِيهَا بِمَصْرَعِ وَاحِدِ

تَبَيَّنَ أَيُّهَا النَّاعِي الْمَشِيدُ

بِهِ شَفَتَاكَ وَارَاكَ الصَّعِيدِ

فَمَا لِلأَرْضِ وَيَحْكُ لَا تَمِيدِ

دَعَائِمُهُ وَهَلْ شَابَ الْوَالِيدِ

وَهَلْ وُضِعَتْ عَنِ الْخَيْلِ اللَّبُودِ

بَدْرَتِهَا وَهَلْ يَخْضَرُ عُودِ

بَلَى وَتَقَوَّضَ الْمَجْدُ الْمَشِيدِ

طَرِيفُ الْمَجْدِ وَالْحَسْبُ التَّلِيدِ

ثَوَى وَخَلِيفَةُ اللَّهِ الرَّشِيدِ

لِمَهْلِكِهِ وَغُيِّبَتْ السُّعُودِ

وَأَشْرَعَتْ الرَّمَّاحُ لِمَنْ يَكِيدِ

غَدَاةَ مَضَى وَأَنْ لَمْ يَبِيقَ جُودِ

عَبُوسَ الْوَجْهِ زَيْنَتَهُ الْحَدِيدِ

وَسَيْفُ اللَّهِ وَالْغَيْثُ الْحَمِيدِ

يَذُبُّ عَنِ الْمَكَارِمِ أَوْ يَذُودِ

يَخَافُ وَكُلَّ مَعْضَلَةٍ تَوُودِ

وَمَنْ تَجَلَّى بِهِ الْغَمْرَاتُ أَمْ مَنْ
 وَمَنْ يَحْمِي الْخَمِيسَ إِذَا تَعَايَا
 وَأَيْنَ يَوْمٌ مَنْتَجِعٌ وَلَا جِ
 لَقَدْ رُزِنْتُ نِزَارٌ يَوْمَ أَوْدَى
 فَلَوْ قِيلَ الْفِدَاءُ فِدَاءُ مَنْأ
 أَبْعَدُ يَزِيدُ تَخْتَرْنَ الْبَوَاكِي
 أَمَا وَاللَّهِ لَا تَتَفَكُّ عَيْنِي
 وَإِنْ تَجَمَّدَ دُمُوعٌ لَتَيْمٌ قَوْمٌ
 وَإِنْ يَكُ غَالَهُ حَيْنٌ فَأَوْدَى
 وَإِنْ يَعْثُرُ بِهِ دَهْرٌ فَكَمْ قَدْ
 وَإِنْ يَهْلِكُ يَزِيدُ فَكُلُّ حَيٍّ
 فَإِنْ يَكُ عَنْ خُلُودٍ قَدْ دَعْتَهُ
 فَمَا أَوْدَى أَمْرُوءَ أَوْدَى وَأَبْقَى
 أَلَمْ تَعْلَمْ أَخِي أَنْ الْمَنَايَا
 قَصْدَنْ لَهُ وَكُنَّ يَحْدَنْ عَنْهُ
 فَهَلَا يَوْمَ يَقْدُمَهَا يَزِيدُ
 وَلَوْ لَاقَى الْحُتُوفَ عَلَى سِوَاهِ
 أَضْرَابِ الْفَوَارِسِ كُلِّ يَوْمٍ
 فَمَنْ يُرْضَى الْقَوَاطِعَ وَالْعَوَالِيَّ
 لَتَبْكِكَ قَبَّةَ الْإِسْلَامِ لَمَّا
 وَيَبْكِكَ مَرْهَقٌ تَتْلُوهُ خَيْلٌ
 وَيَبْكِكَ خَامِلٌ نَادَاكَ لَمَّا
 وَيَبْكِكَ شَاعِرٌ لَمْ يُبْقِ دَهْرٌ
 تَرَكَتِ الْمَشْرِفِيَّةَ وَالْعَوَالِيَّ
 وَغَادَرْتَ الْجِيَادَ، بِكُلِّ لُغْزٍ
 فَإِنْ تُصْبِحَ مُسَلَّبَةً فَمَمَا

يُقَوْمُ لَهَا إِذَا اعْوَجَّ الْعَنِيدُ
 بِحِيلَةٍ نَفْسَهُ الْبَطْلَ النَّجِيدُ
 وَأَيْنَ تَحُطُّ أَرْحَلُهَا الْوُفُودُ
 عَمْدًا مَا يَقَاسُ بِهِ عَمِيدُ
 بِمُهْجَتِهِ الْمُسَوِّدُ وَالْمَسَوِّدُ
 دُمُوعًا أَوْ تُصَانَ لَهَا خُدُودُ
 عَلَيْهِ بَدَمْعُهَا أَبَدًا تَجُودُ
 فَلَيْسَ لِدَمْعِ ذِي حَسَبٍ جُمُودُ
 لَقَدْ أَوْدَى وَلَيْسَ لَهُ نَدِيدُ
 تَفَادَى مِنْ مَخَافَتِهِ الْأَسْوَدُ
 فَرَيْسٌ لِلْمَنِيَّةِ أَوْ طَرِيدُ
 مَآثِرُهُ فَكَانَ لَهَا الْخُلُودُ
 لِوَارِثِهِ مَكَارِمَ لَا تَبِيدُ
 غَدَرْنَ بِهِ وَهُنَّ لَهُ جُنُودُ
 إِذَا مَا الْحَرْبُ شَبَّ لَهَا الْوَقُودُ
 إِلَى الْأَبْطَالِ وَالْخُلَانِ حِيدُ
 لَلِقَاهَا بِهِ حَتْفٌ عَنِيدُ
 تَرَى فِيهِ الْحُتُوفُ لَهَا وَعِيدُ
 إِذَا مَا هَزَّهَا قَرَعٌ شَدِيدُ
 وَهَتْ أَطْنَابُهَا وَوَهَى الْعَمُودُ
 إِبَالَةٌ وَهُوَ مَجْدُولٌ وَحِيدُ
 تَوَاكَلَهُ الْأَقْرَابُ وَالْبَعِيدُ
 لَهُ نَشْبًا وَقَدْ كَسَدَ الْقَصِيدُ
 مُحَلَاةٌ وَقَدْ حَانَ الْوُرُودُ
 عَوَاطِلُ بَعْدَ زِينَتِهَا تَرُودُ
 تُفِيدُ بِهَا الْجَزِيلَ وَتَسْتَفِيدُ

أَلَمْ تَكُ تَكْشِفُ الْغَمْرَاتِ عَنْهَا
 أَصِيبَ الْمَجْدِ وَالْإِسْلَامُ لَمَّا
 لَقَدَ عَزَى رِبِيعَةَ أَنْ يَوْمًا
 وَمِثْلُكَ مِنْ قَصْدِنَ لَهُ الْمَنِيَا
 فَيَا لِلدَّهْرِ مَا صَنَعْتَ يَدَاهُ
 سَقَى جَدْنًا أَقَامَ بِهِ يَزِيدُ
 فَإِنْ أَجْزَعُ لِمَهْلِكَةِ فَإِنِّي
 لَيَذْهَبُ مَنْ أَرَادَ فَلَسْتُ أَسَى
 وقال مروان بن أبي حفصة يرثي معن بن زائدة:

عوايسَ والوجوه البيض سود
 أصابك بالردى سهم سديد
 عليها مثل يومك لا يعود
 بأسئهما وهن له جنود
 كأن الدهر منها مستقيد
 من الوسمي بسام رعود
 على النكبات إذ أودى جليد
 على من مات بعدك يا يزيد

زار ابن زائدة المقابر بعد ما
 إن القبائل من نزار أصبحت
 ودت ربيعة أنها قسمت له
 فلا بكين فتى ربيعة ما دجا
 لازل قبر أبي الوليد تجوده

أَلَقْتُ إِلَيْهِ عُرَى الْأُمُورِ نِزَارُ
 وَقَلُوبُهَا أَسْفًا عَلَيْهِ حَرَارُ
 مِنْهَا فَعَاشَ بِشَطْرِهَا الْأَعْمَارُ
 لَيْلٌ بِظُلْمَتِهِ وَوَلَّاحَ نَهَارُ
 بَعِيهَا وَبَوْبَلِهَا الْأَمْطَارُ

قَبْرٌ يَضُمُّ مَعَ الشَّجَاعَةِ وَالنَّدَى
 إِنَّ الرِّزِيَّةَ مِنْ رِبِيعَةَ هَالِكُ
 رَحْبُ السَّرَادِقِ وَالْفِنَاءِ جَبِينُهُ
 لَهْفًا عَلَيْكَ إِذَا الطَّعَانُ بِمَازِقِ
 خَلَى الْأَعْنَةَ يَوْمَ مَاتَ مَشِيْعُ
 يُمْسِي وَيُصْبِحُ مُعْلَمًا تَذَكَّى بِهِ نَارُ
 مَهْمَا يُمِرَّ فَلَيْسَ يَرْجُو نَقْضَهُ
 لَوْ كَانَ خَلْفَكَ أَوْ أَمَامَكَ هَائِبًا

حَلْمًا يُخَالِطُهُ تَقَى وَوَقَارُ
 تَرَكَ الْعُيُونَ دُمُوعَهُنَّ غِزَارُ
 كَالْبَدْرِ ضِيَاءَهُ الْإِسْفَارُ
 تَرَكَ الْقَنَا وَطَوَاهُنَّ قِصَارُ
 بَطَلَ اللَّقَاءِ مُجْرَبٌ مِغْوَارُ
 بِمُعْتَرِكٍ وَتُخَمَدُ نَارُ
 أَحَدٌ وَلَيْسَ لِنَقْضِهِ إِمْرَارُ
 أَحَدًا سِوَاكَ لَهَا بَكَ الْمِقْدَارُ

وقال يرثيه:

بكى الشام معنًا يوم خلى مكانه
 ثوى القائد الميمون والذائد الذي
 أتى الموت معنًا وهو للعرض صائن

فكادت له أرض العراقين ترجف
 به كان يرمي الجانب المتخوف
 وللمجد مبتاع وللمال متلف

وما مات حتى قلدته أمورها
وحتى فشا في كل شرقٍ ومغربٍ
وكم من يدٍ عندي لمعنٍ كريمةٍ
بكته الجيادُ الأعوجية إذ ثوى
وقد غنيت ريح الصبا في حياته

وقال أبو الشيبان يرثي هارون الرشيد ويمدح ابنه محمد بن زبيدة الأمين:

جرت جوارٍ بالسعد والنس
العين تبكي والسن ضاحكة
يضحكننا القائم الأمين ويُب
بدرانٍ بدرٍ أضحى ببغداد في ال

وأنشد العتي:

والمرء يجمع ماله مستهتراً
وليأتين عليك يوم مرة

وقال حارثه بن بدر العدائي يرثي زياداً:

صلى الإله علي قبرٍ وطهره
زقت إليه قریش نعش سيدها
أبا المغيرة والدنيا مغيرة
قد كان عندك للمعروف معرفة
لو خلد الخير والإسلام ذا قدم
قد كنت تؤتى فتعطي المال عن سعة

وقال نهار بن توسة يرثي المهلب:

الأذهب الغزو المقرَّب للغنى
أقما بمرؤ الروذ رهن ضريحه

وقال المهلهل بن ربيعة يرثي أخاه كليب وائل، وكان كليب إذا جلس لم يرفع أحد بحضرتة صوته:

ذهب الخيار من المعاشر كلهم
وتناولوا من كل أمرٍ عظيمة

وقال عبد الصمد بن المعدل يرثي سعيد بن سلم:

ربيعه والحيان قيسٌ وخندف
أيادٍ له بالضرر والنفع تُعرف
سأشكرها ما دامت العين تطرف
وحن مع النبع الوشيح المتقف
قبولاً فأمست وهي نكبأء حرّجف

فحن في وحشةٍ وفي أنس
فحن في ماتمٍ وفي عرس
كيناً وفاة الإمام بالأمس
خلدٍ وبحرٍ بطوس في الرمس

فراحاً وليس بأكلٍ ما يجمع
يُنكى عليك مفعناً لا تسمع

عند الثوية يسفي فوقه المور
فتم كل التقى والبر مقبور
وإن من غرت الدنيا لمغرور
وكان عندك للنكراء تكبير
إذا لخدك الإسلام والخير
فاليوم بيتك أضحى وهو مهجور

ومات الندى والحزم بعد المهلب
وقد غيباً من كل شرقٍ ومغرب

واستب بعدك يا كليب المجلس
لو كنت حاضرٍ أمرهم لم ينبسوا

كم يتيم جبرته بعد يتم

وعديم نعشته بعد عدم

كلما عض بالحوادث نادى رضي الله

عن سعيد بن سلم

وقال ابن أخت تأبط شرا يرثي خاله تأبط شرا الفهمي، وكانت هذيل قتلته:

إن بالشعب الذي دون سلع

لقتيلاً دمه ما يطل

قذف العباء علي وولي

أنا بالعباء له مستقل

وراء الثأر مني ابن أخت

مصع عقنته ما تحل

مطرق يرشح سمًا كما أط

رق أفعى ينفث السم صل

خبر ما نابنا مصمئل

جل حتى دق فيه الأجل

بزني الدهر وكان غشوما

بأبي جاره ما بذل

شامس في القر حتى إذا ما

ذكت الشعري فبرد وظل

يا بس الجبين من غير بوس

وندي الكفين شههم مدل

ظاعن بالحزم حتى إذا ما

حل حل الحزم حيث يحل

وله طعمان أري وشري

وكلا الطعمين قد ذاق كل

رائح بالمجد غاد عليه

من ثياب الحمد ثوب رفل

أفتح الراحة بالجود جواداً

عاش في جدوى يديه المقل

مسبل في الحي أحوى رفل

وإذا يغزو فسمع أزل

يركب الهول وحيداً

يصحبه إلا اليماني أقل

ولا فاحتسوا أنفاس يوم فلما

هوما رعتهم فاشمعلوا

كل ماض قد تردى بماض

كسنا البرق إذا ما يسل

فلئن قلت هذيل شباه

لبما كان هذيلاً يقل

وبما أبركها في مناخ

جعجع يقب منه الأطل

صليت منه هذيل بخرق

لا يمل الشر حتى يملوا

يُنهل الصعدة حتى إذا ما

نهلت كان لها منه عل

تضحك الضبع لقتلى هذيل

وترى الذئب لها يستهل

وعتاق الطير تغدو بطاناً

تتخطاهم فما تستقل

وفتو هجروا ثم أسروا

ليلهم حتى إذا أنجاب حلوا

فاسْتَفِينِيهَا يَا سَوَادَ بْنَ عَمْرٍو
وقال أمية بن أبي الصلت يرثي قتلى بدر "من قريش".

أَلَا بَكَيْتِ عَلَى الْكِرَا
كَبُكَا الْحَمَامِ عَلَى فُرُو
"يَبْكِينَ حَرَى مُسْتَكِي
أَمْثَالَهُنَّ الْبَاكِيَا
مَنْ يَبْكُهُمْ يَبْكِي عَلَى
مَنْ ذَا بَدْرٍ فَالْعَقْنَ
شُمَطٍ وَشُبَّانٍ بِهَا
أَلَا تَرُونَ لِمَا أَرَى
أَنْ قَدْ تَغَيَّرَ بَطْنُ مَكَّةَ
مَنْ كُلِّ بِطَرِيقٍ لِبَط
دُعْمُوصِ أَبْوَابِ الْمَلُوءِ
وَمَنْ السَّرَاطِمَةَ الْحَلَا
الْقَائِلِينَ الْفَاعِلِي
الْمُطْعِمِينَ الشَّحْمِ فَوْ

نُقْلَ الْجَفَانِ مَعَ الْجَفَا
لَيْسَتْ بِأَصْفَارٍ لِمَنْ
"لِلضَيْفِ ثُمَّ الضَيْفِ بَع
وَهُبِ الْمَنِينِ مِنَ الْمَنِِي
سَوْقَ الْمُؤَبَّلِ لِلْمُؤَبَّلِ
لِكِرَامِهِمْ فَوْقَ الْكِرَا
كَتَنَاقِلِ الْأُرْطَالِ
لِلَّهِ دَرِ بَنِي عَلِيٍّ
إِنْ لَمْ يُغَيِّرُوا غَارَةَ
بِالْمُقَرَّبَاتِ الْمُبْعَدَا

إِنَّ جِسْمِي بَعْدَ خَالِي لَخَلُّ

مِ بَنِي الْكِرَامِ أَوْلِي الْمَمَادِحِ
عِ الْأَيْكَ فِي الْغُصْنِ الْجَوَانِحِ
نَاتٍ يَرْحُنُ مَعَ الرَّوَانِحِ
تِ الْمَعُولَاتِ مِنَ النَّوَانِحِ
حُزْنٍ وَيَصْدُقُ كُلَّ مَادِحِ
قَلِّ مِنْ مَرَازِبَةِ جَحَاجِحِ
لَيْلِ مَنَاطِيرِ وَحَاوِحِ
وَلَقَدْ أَبَانَ لِكُلِّ لَامِحِ
فَهِيَ مُوحِشَةُ الْأَبَاطِحِ
رَيْقِ نَقِيِّ اللَّوْنِ وَأَضْحِ
كِ وَجَائِبِ لِخَرْقِ فَاتِحِ
جَمَةِ الْمَلَازِبَةِ الْمَنَاجِحِ
نِ الْأَمْرِينَ بِكُلِّ صَالِحِ
قِ الْخُبْرِ شَحْمًا كَالْأَنَافِحِ

نِ إِلَى جِفَانِ كَالْمَنَاضِحِ
يَعْفُو وَلَا رَحَ رَحَارِحِ
دِ الضَّيْفِ وَالْبُسْطِ السَّلَاطِحِ
نِ إِلَى الْمَنِينِ مِنَ اللُّوَانِحِ
صَادِرَاتِ عَنِ بِلَادِحِ
مِ مَزِيَّةِ وَزَنِ الرَّوَانِحِ
بِالْقَسْطِ فِي الْأَيْدِي الْمَوَانِحِ
أَيْمِ مِنْهُمْ وَنَاكِحِ
شَعْوَاءِ تَجَحَّرَ كُلُّ نَابِحِ
تِ الطَّامِحَاتِ مَعَ الطَّوَامِحِ

مُرَدًّا عَلَى جُرْدٍ إِلَى

وِيَلَاقِ قِرْنِ قِرْنَهُ

بِزُهَاءِ أَلْفٍ ثُمَّ أَلْ

الصَّارِبِينَ التَّقْدِيمِيَّةَ

روى الأخفش لسهّل بن هارون:

ما للحوادث عنك مُنصَرِفٌ

فَكَأَنَّهَا رَامَ عَلَى حَنْقٍ

دهرٌ سُرِرْتُ بِهِ فَأَعَقَبَنِي

فابكِ الَّذِي وَلَّى لِمَهْلِكَةٍ

إِذْ لَا يَرِدُ عَلَيْكَ مَا أَخَذَتْ

قَبْرٌ بِمُخْتَلَفِ الرِّيَّاحِ بِهِ

أَنْسَ الثَّرَى بِمَحَلِّهِ وَلَهُ

فَالصَّبْرُ أَحْسَنُ مَا اعْتَصَمْتَ بِهِ

وقال فرّوّة بن نوّفل الحُروريّ، وكان بعضُ أهل الكوفة يقاتلون الخوارج، ويقولون: والله لَنُخْرِقَنَّهْم ولنفعلن ولنفعلن، فقال في ذلك فرّوّة بن نوّفل، وكان من الخوارج:

ما إِنْ نَبَالِي إِذَا أُرِوَحْنَا قُبِضَتْ

تَجْرِي المَجْرَّةُ والنَّسْرَانِ بَيْنَهُمَا

لقد علمتُ وخيرُ العِلْمِ أنْفَعُهُ

وقال يرثى قَوْمَهُ:

هَمْ نَصَبُوا الأَجْسَادَ لِلنَّبَلِ والقَنَا

تَظَلُّ عِتَاقُ الطَّيْرِ تحجُلُ حَوْلَهُمْ

لَطَافًا بَرَاها الصَّوْمُ حَتَّى كَانَهَا

أَسَدٌ مُكَالِبَةٌ كَوَالِحِ

مَشِي المُصَافِحِ لِلْمُصَافِحِ

ف بين ذِي بَدَنِ وِرَامِحِ

بِالمُهَنَّدَةِ الصَّفَائِحِ

إِلَّا بِنَفْسِ مَا لَهَا خَلْفُ

وَكأَنَّي لِسَهَامِهَا هَدَفُ

جَرِيَانِهِ مَا عَشْتُ أَنْتَقِفُ

عنك السُّرُورُ خَلْفَ الأَسْفِ

مَنكَ الحَوَادِثُ دَمْعَةٌ تَكْفِ

مَنْ لَسْتُ أَبْلُغُهُ بِمَا أَصِفُ

قد أَوْحَشَ المُسْتَأْنَسَ الأَلْفِ

إِذْ لَيْسَ مِنْهُ لَدَيَّ مُنْتَصِفُ

مَاذَا فَعَلْتُمْ بِأَجْسَادِ وَأَبْشَارِ

والشمسُ والقمرُ الساري بمقدارِ

أَنْ السَّيِّدَ الَّذِي يَنْجُو مِنَ النَّارِ

فلم يَبْقَ مِنْهَا اليَوْمِ إِلَّا رَمِيمُهَا

يُعَلِّلُنْ أجسادًا قَلِيلًا نَعِيمِهَا

سيوفٌ إِذَا مَا الخَيْلُ تَدْمَى كلومُهَا

التعازي

قال عبد الرحمن بن أبي بكر لسليمان بن عبد الملك يُعزِّيهِ في ابنه أيوب وكان وليّ عهده وأكبر ولده: يا أمير المؤمنين، إنه من طال عمره فَقَدَ أَحَبَّتُهُ، ومن قصر عمره كانت مُصِيبَتُهُ في نفسه. فلو لم يكن في ميزانك لَكُنْتُ في ميزانه. وَكَتَبَ الحَسَنُ بنُ أَبِي الحَسَنِ إلى عُمَرَ بن عبد العزيز يُعزِّيهِ في ابنه عبد الملك:

فَقِيدُكَ لَا يَأْتِي وَأَجْرُكَ يَذْهَبُ

وَعَوِضَتْ أَجْرًا مِنْ فَقِيدٍ فَلَا يَكُنُ

العُتْبِيُّ قال: قال عبدُ الله بن الأَهمَّتَم: مات لي ابن وأنا بمكة فجزعتُ عليه جزعاً شديداً، فَدَخَلَ عَلَيَّ ابن جُرَيْجٍ يُعزِّي، فقال لي: يا أبا محمد، اسألُ صَبْرًا واحْتِسَابًا قَبْلَ أَنْ تَسْأَلَ غَفْلَةً وَنِسْيَانًا كَمَا تَسْأَلُو الْبِهَائِمَ. وهذا الْكَلَامُ لِعَلِيِّ ابن أَبِي طالب كَرَّمَ اللهُ وَجْهَهُ يُعزِّي بِهِ الْأَشْعَثَ بن قَيْسٍ فِي ابن له، وَمِنْهُ أَخَذَهُ ابن جُرَيْجٍ. وَقَدْ ذَكَرَهُ حَبِيبٌ فِي شِعْرِهِ فَقَالَ:

وقال علي في التعازي لأشعث

وخاف عليه بعض تلك المائم

أَتَصْبِرُ لِلْبَلْوَى عَزَاءً وَحِسْبَةً

فَتَوَجَّرَ أَمْ تَسْأَلُو سَلْوَى الْبِهَائِمِ

أتى عليُّ أبي طالب كَرَّمَ اللهُ وَجْهَهُ لِأَشْعَثَ يُعزِّيهِ عَنْ ابنه، فقال: إِنْ تَحَزَنْ فَقَدْ آسَحَقْتُ ذَلِكَ مِنْكَ الرَّحْمَ، وَإِنْ تَصْبِرْ فَإِنَّ فِي اللَّهِ خَلْفًا مِنْ كُلِّ هَالِكٍ، مَعَ أَنَّكَ إِنْ صَبَرْتَ جَرَى عَلَيْكَ الْقَدَرُ وَأَنْتَ مَا جُورُ، وَإِنْ جَزَعْتَ جَرَى عَلَيْكَ الْقَدَرُ وَأَنْتَ آئِمٌ. وَعَزَّى ابن السَّمَاكَ رَجُلًا فَقَالَ: عَلَيْكَ بِالصَّبْرِ، فِيهِ يَعْمَلُ مَنْ احْتَسَبَ، وَإِلَيْهِ يَصِيرُ مَنْ جَزَعَ، وَاعْلَمْ أَنَّهُ لَيْسَتْ مُصِيبَةٌ إِلَّا وَمَعَهَا أَعْظَمُ مِنْهَا مِنْ طَاعَةِ اللَّهِ فِيهَا أَوْ مَعْصِيَتِهِ بِهَا. الْأَصْمَعِيُّ قَالَ: عَزَّى صَالِحُ الْمُرِّي رَجُلًا بِابْنِهِ، فَقَالَ لَهُ: إِنْ كَانَتْ مُصِيبَتُكَ لَمْ تُحْدِثْ لَكَ مَوْعِظَةً فَمُصِيبَتُكَ بِنَفْسِكَ أَعْظَمُ مِنْ مُصِيبَتِكَ بِابْنِكَ، وَاعْلَمْ أَنَّ التَّهَنُّةَ عَلَى آجِلِ الثَّوَابِ أَوْلَى مِنَ التَّعْزِيَةِ عَلَى عَاجِلِ الْمِصِيبَةِ. الْعُتْبِيُّ قَالَ: عَزَّى أَبِي رَجُلًا فَقَالَ: إِنَّمَا يَسْتَوْجِبُ عَلَى اللَّهِ وَعَدَهُ مِنْ صَبْرِ لِحَقِّهِ، فَلَا تَجْمَعُ إِلَى مَا فُجِعْتَ بِهِ الْفَجِيعَةَ بِالْأَجْرِ، فَإِنَّهَا أَعْظَمُ الْمِصِيبَتَيْنِ عَلَيْكَ، وَلِكُلِّ احْتِمَاعٍ فُرْقَةٌ إِلَى دَارِ الْحُلُولِ. عَزَّى عَبْدُ اللَّهِ بن عَبَّاسٍ عمر بن الْخَطَّابِ رَضِيَ اللَّهُ تَعَالَى عَنْهُ فِي بُنَى لَهُ صَغِيرٍ، فَقَالَ: عَوَّضَكَ اللَّهُ مِنْهُ مَا عَوَّضَهُ اللَّهُ مِنْكَ. وَكَانَ عَلِيُّ بن أَبِي طالبٍ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ إِذَا عَزَّى قَوْمًا قَالَ: عَلَيْكُمْ بِالصَّبْرِ فَإِنَّ بِهِ يَأْخُذُ الْحَازِمُ وَإِلَيْهِ يَرْجِعُ الْجَازِعُ. وَكَانَ الْحَسَنُ يَقُولُ فِي الْمِصِيبَةِ: الْحَمْدُ لِلَّهِ الَّذِي آجَرَنَا عَلَى مَا لَوْ كَلَّفْنَا غَيْرَهُ لَعَجَزْنَا عَنْهُ.

كتاب تعزية

أما بعد، فَإِنَّ أَحَقَّ مَنْ تَعَزَّى، وَأَوْلَى مَنْ تَأْسَى وَسَلَّمَ لِأَمْرِ اللَّهِ، وَقَبْلَ تَأْدِيَتِهِ فِي الصَّبْرِ عَلَى نَكَبَاتِ الدُّنْيَا، وَتَجَرُّعِ غُصَصِ الْبَلْوَى، مَنْ تَنَحَّزَ مِنَ اللَّهِ وَعَدَهُ، وَفَهِمَ عَنْ كِتَابَةِ أَمْرِهِ، وَأَخْلَصَ لَهُ نَفْسَهُ، وَاعْتَرَفَ لَهُ بِمَا هُوَ أَهْلُهُ. وَفِي كِتَابِ اللَّهِ سَلْوَةٌ مِنْ فَقْدِ كُلِّ حَبِيبٍ وَإِنْ لَمْ تَطْبِ النَّفْسُ عَنْهُ، وَأَنْسَ مِنْ كُلِّ فَقِيدٍ وَإِنْ عَظُمَتِ اللَّوْعَةُ بِهِ، إِذْ يَقُولُ عَزَّ وَجَلَّ: "كُلُّ شَيْءٍ هَالِكٌ إِلَّا وَجْهَهُ لَهُ الْحُكْمُ وَإِلَيْهِ تُرْجَعُونَ" وَحَيْثُ يَقُولُ: "الَّذِينَ إِذَا أَصَابَتْهُمْ مُصِيبَةٌ قَالُوا إِنَّا لِلَّهِ وَإِنَّا إِلَيْهِ رَاجِعُونَ أُولَئِكَ عَلَيْهِمْ صَلَوَاتٌ مِنْ رَبِّهِمْ وَرَحْمَةٌ وَأُولَئِكَ الْمُهْتَدُونَ". وَالْمَوْتُ سَبِيلُ الْمَاضِيْنَ وَالْغَابِرِينَ، وَمَوْرِدُ الْخَلَائِقِ أَجْمَعِينَ، وَفِي أَنْبِيَاءِ اللَّهِ وَسَالِفِ أَوْلِيَائِهِ أَفْضَلُ الْعِبْرَةِ، وَأَحْسَنُ الْأَسْوَةِ، فَهَلْ أَحَدٌ مِنْهُمْ إِلَّا وَقَدْ أَخَذَ مِنْ فِجَائِعِ الدُّنْيَا بِأَجْزَلِ الْعَطَاءِ، وَمَنْ الصَّبْرُ عَلَيْهَا بِاحْتِسَابِ الْأَجْرِ فِيهَا بِأَوْفَرِ الْأَنْصِبَاءِ؛ فَجَعَّ نَبِيْنَا عَلَيْهِ الصَّلَاةُ وَالسَّلَامُ بِابْنِهِ إِبْرَاهِيمَ، وَكَانَ ذَخْرَ الْإِيمَانِ، وَقُرَّةَ عَيْنِ الْإِسْلَامِ، وَعَقِبَ الطُّهَارَةِ، وَسَلِيلَ الْوَحْيِ، وَنَتِيجَ الرَّحْمَةِ، وَحَضِينَ الْمَلَائِكَةِ، وَبِقِيَّةِ آلِ إِبْرَاهِيمَ وَإِسْمَاعِيلِ صَلَوَاتِ اللَّهِ عَلَيْهِمْ أَجْمَعِينَ وَعَلَى عَامَةِ الْأَنْبِيَاءِ وَالْمُرْسَلِينَ، فَعَمَّتِ التَّقْلِينَ مُصِيبَتُهُ، وَخَصَّتِ الْمَلَائِكَةَ رَزِيَّتَهُ، "وَرَضِيَ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ مِنْ فِرَاقِهِ بِثَوَابِ اللَّهِ بَدَلًا، وَمِنْ فَقْدَانِهِ عَوْضًا، فَشَكَرَ قَضَاهُ، وَاتَّبَعَ رِضَاهُ، فَقَالَ: يَحْزَنُ الْقَلْبُ وَتَدْمَعُ الْعَيْنُ، وَلَا نَقُولُ مَا يُسَخِّطُ الرَّبَّ، وَإِنَّا بِكَ يَا إِبْرَاهِيمَ لَمَحْزُونُونَ. وَإِذَا تَأَمَّلَ ذُو النَّظَرِ مَا هُوَ مُشْفٍ عَلَيْهِ مِنْ غَيْرِ الدُّنْيَا، وَاتَّصَحَّ نَفْسَهُ وَفِكَرَهُ فِي غَيْرِهَا بِنَقْلِ الْأَحْوَالِ، وَتَقَارُبِ الْأَحَالِ، وَانْقِطَاعِ سَيْرِ هَذِهِ الْمُدَّةِ، ذَلَّتِ الدُّنْيَا عِنْدَهُ، وَهَانَتِ الْمِصَائِبُ عَلَيْهِ، وَتَسَهَّلَتِ الْفِجَائِعُ لَدَيْهِ، فَأَخَذَ لِلْأَمْرِ أَهْبَتَهُ، وَأَعَدَّ لِلْمَوْتِ عَدَّتَهُ. وَمَنْ صَحِبَ الدُّنْيَا بِحُسْنِ رَوِيَّةٍ، وَلَا حَظَّهَا بِعَيْنِ الْحَقِيقَةِ، كَانَ عَلَى بَصِيرَةٍ مِنْ وَشْكَ زَوَالِهَا. قَالَ النَّبِيُّ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ: أَذْكَرُوا الْمَوْتَ فَإِنَّهُ هَادِمُ اللَّذَاتِ، وَمُنْعَصُ الشَّهَوَاتِ. وَليْسَ شَيْءٌ مِمَّا اقْتَصَصْتُ إِلَّا وَقَدْ جَعَلَكَ اللَّهُ مُقَدِّمًا فِي الْعِلْمِ بِهِ. وَلَعَمْرِي إِنْ الْخُطْبَ فِيهَا أَصِيبَتْ بِهِ لَعَظِيمٌ، غَيْرَ أَنْ تَعَوَّضَهُ مِنَ الْأَجْرِ وَالْمُتَوَبَّةِ عَلَيْهِ بِحُسْنِ الصَّبْرِ يُهَوِّنَانِ الرَّزِيَّةَ وَإِنْ ثَقُلَتْ، وَيُسَهِّلَانِ الْخُطْبَ وَإِنْ عَظُمَ. وَهَبَ اللَّهُ لَكَ مِنْ عِصْمَةِ الصَّبْرِ مَا يُكْمِلُ لَكَ بِهِ زُلْفَى الْفَائِزِينَ، وَمَزِيدَ الشَّاكِرِينَ، وَجَعَلَكَ مِنَ الْمُرْتَضِينَ قَوْلًا وَفِعْلًا، الَّذِينَ أَعْطَاهُمْ " الْحُسْنَى " وَوَفَّقَهُمُ لِلصَّبْرِ وَالتَّقْوَى.

محمد بن الفضل عن أبي حازم قال: مات عُقْبَةُ بن عِيَّاض بن عَنَمِ الْفَهْرِيِّ، فعَزَى رجلٌ أباه فقال: لا تَجْزَع عليه فقد قُتِلَ شهيداً؛ فقال: وكيف أجزع على من كان في حَيَاتِهِ زينةَ الدُّنْيَا، وهو اليومَ من الباقياتِ الصَّالِحَاتِ.
ابن الغاز قال: حَدَّثَنَا عيسى بن إسماعيل قال: سمعتُ الأصمعيَّ يقول: دخلتُ على جعفر بن سُلَيْمان وقد ترك الطعامَ جَزَعاً على أخيه محمد بن سليمان فأنشدته بيتين، فما برحتُ حتى دعا بالمائدة. فقلتُ للأصمعيَّ: ما هما، فسكت، فسألته، فقال: أتدري ما قال الأحوص؟ قلت: لا أدري؛ قال: قال الأحوص:

قد زاده كلفاً بالحُبِّ إذ منعت

أحبُّ شيءٍ إلى الإنسان ما مُنعاً

قال أبو موسى: والأبيات لأراكة الثقفى يرثى بها عمرو بن أراكة ويُعزى نفسه حيث يقول:

لعمري لئن أتبت عينك ما مضى

به الدهرُ أو ساق الحمام إلى القبر

لتستفدن ماء الشئون بأسره

وإن كنت تَمريهن من تَبج البحر

تَبينَ فإن كان البُكا ردَّ هالكاً

على أحدٍ فاجهد بكاك على عمرو

فلا تَبك مَيِّتاً بعد مَيِّتِ أجنَّة

عليَّ وعبَّاس وآل أبي بكر

أبو عمر بن يزيد قال: لما مات أخو مالك بن دينار، بكى مالك، وقال: يا أخي، لا تَقْرُ عيني بعدك حتى أعلم أفي الجنة أنت أم في النَّار، ولا أعلم ذلك حتى ألق بك. وقالت أعرابية، ورأت ميتاً يُذفن: جاني الله عن جَنبِيهِ الثَّرى وأعانه على طول البلى. وعزى أعرابي رجلاً فقال: أوصيك بالرِّضا من الله بقضائه، والتنجز لما وعد به من ثوابه، فإن الدنيا دار زوال، ولا بد من لقاء الله. وعزى أيضاً رجلاً فقال: إن من كان لك في الآخرة أجراً، خيرٌ لك ممن كان لك في الدنيا سروراً. وجزع رجلٌ على ابن له، فشكا ذلك إلى الحسن؛ فقال له: هل كان ابنك يَغيب عنك؟ قال: نعم، كان مَغيبه عني أكثر من حضوره؛ قال: فاتركه غائباً فإنه فإنه لم يَغِبْ عنك غيبةً الأجر لك فيها أعظمُ من هذه الغيبة. وعزى رجلٌ نصرانيُّ مسلماً، فقال له: إن مثلي لا يُعزى مثلك، ولكن انظر ما زهد فيه الجاهلُ فارغب فيه.

وكان عليُّ بن الحسين رضى الله عنه في مجلسه وعنده جماعة، إذ سمع ناعيةً في بيته، فنَهض إلى منزله فسكَّنهم، ثم رجَعَ إلى مجلسه، فقالوا له: أمِنُ حَدَثَ كانت الناعية؟ قال: نعم. فعزوه وعجبوا من صبره فقال: إنا أهل بيت نُطِيعُ الله فيما نُحِبُّ، ونَحْمَدُه على ما نكره.

تعزية- التمس ما وعد الله من ثوابه بالتسليم لقضائه، والانهاء إلى أمره، فإن ما فات غير مُستدرك.

وعزى موسى المَهديَّ إبراهيم بن سلم على ابن له مات، فجزع عليه جزعاً شديداً، فقال له: أيسرك وهو بلية وفِتنة، ويحزنك وهو صلوات ورحمة؟ سُفيان الثوري عن سعيد بن جبير قال: ما أعطيت أمة عند المصيبة ما أعطيت هذه الأمة من قولها: "إنا لله وإنا إليه راجعون". ولو أعطيتها أحدٌ لأعطيتها يعقوب حيث يقول: "يا أسفاً على يوسف، وبيضت عيناه من الحزن فهو كظيم". وعزى رجلٌ بابن له فقال له: ذهب أبوك وهو أصلك، وذهب ابنك وهو فرعك، فما بقاء من ذهب أصله وفرعه؟

تعازى الملوك

العُتبي قال: عزى أكتهم بن صيفي عمرو بن هند ملك العرب على أخيه، فقال له: أيها الملك، إن أهل الدار سَفَرٌ لا يحلون عُقد الرجال إلا في غيرها، وقد أتاك ما ليس بمردود عنك، وارتحل عنك ما ليس براجع إليك، وأقام معك من سيظعن عنك ويدعك. واعلم أن الدنيا ثلاثة أيام: فأمس عظة وشاهد عدل، فجعك بنفسه، وأبقى لك عليه حُكمك؛ واليوم غنيمة وصدق، أتاك ولم تأته، طالت عليك غيبته، وسُتسرع عنك رحلته؛ وعد لا تدري من أهله، وسيأتيك إن وجدك. فما أحسن الشكر للمُنعم، والتسليم للقادر! وقد مضت لنا أصولٌ نحن فروعها، فما بقاء الفروع بعد أصولها! واعلم أن أعظم من المصيبة سوء الخلف منها، وخيرٌ من الخير مُعطيه، وشرٌ من الشر فاعله.

لما هلك أمير المؤمنين المنصور، قَدِمَتْ وفود الأنصار على أمير المؤمنين المهديّ، وقَدِمَ فيهم أبو العيْناء المُحدِّث، فتقدّم إلى التّعزية، فقال: آجر الله أمير المؤمنين على أمير المؤمنين قبله، وبارك لأمر المؤمنين فيما خلفه له، فلا مُصيبةَ أعظمَ من مُصيبةِ إمام والد، ولا عُقْبَى أفضلُ من خلافة الله على أوليائه، فأقبل من الله أفضلَ العطية، واصر له على الرزية. ولما مات معاوية بن أبي سفيان، ويزيدُ غائب، صَلَّى عليه الضحّاك بن قيس الفهري، ثم قَدِمَ يزيد من يومه ذلك، فلم يقدّم أحدٌ على تعزيته حتى دخل عليه عبد الله بن همام السلوي، فقال:

واشكر حباءَ الذي بالملك حاباكاً

مما رزئتَ ولا عُقبَى كعُقباكا

فأنت ترعاهم والله يرعاك

إذا بقيتَ فلا نسمع بمنعاك

اصبرْ يزيدُ فقد فارقتَ ذا مِقّة

لا رزءَ أعظمُ في الأقوامِ قد علّموا

أصبحتَ راعى أهل الأرض كلهم

وفي معاوية الباقي لنا خلف

فافتتح الخطباء الكلام.

عزى شبيب بن شيبّة المنصور على أخيه أبي العباس، فقال: جعل الله ثواب ما رزئتَ به لك أجراً، وأعقبك عليه صبراً، وختم لك ذلك بعافية تامّة، ونعمة عامّة، فنواب الله خير لك منه، وما عند الله خير له منك، وأحقُّ ما صبر عليه ما ليس إلى تغييره سبيل. وكتب إبراهيم بن إسحاق إلى بعض الخلفاء يُعزيه: إنَّ أحقَّ مَنْ عَرَفَ حقَّ الله فيما أخذَ منه مَنْ عَرَفَ نعمته فيما أبقي عليه. يا أمير المؤمنين، إنَّ الماضيَ قبلك هو الباقي لك، والباقي بعدك هو المأجور فيك، وإنَّ التّعمة على الصابرين فيما ابتلوا به أعظمُ منها عليهم فيما يُعافون منه.

دخل عبد الملك بن صالح دار الرّشيد، فقال له الحاجب: إن أمير المؤمنين قد أصيب بابتلاءٍ له ووُلد له آخر. فلما دخل عليه، قال: سرّك الله يا أمير المؤمنين فيما ساءك، ولا ساءك فيما سرّك، وجعل هذه هذه مُتوبةً على الصبر، وجزاءً على الشكر. ودخل المأمونُ على أم الفضل بن سهل يُعزيها بانها الفضل بن سهل، فقال: يا أمّه، إنك لم تُفقدِي إلا رؤيته وأنا ولدك مكانه؛ فقالت: يا أمير المؤمنين، إن رجلاً أفادني ولداً مثلك لجدّير أن أجزع عليه.

لما مات عبد الملك بن عمر بن عبد العزيز كتب عمر إلى عمّاله: إنَّ عبد الملك كان عبداً من عبید الله، أحسنَ الله إليه وإليّ فيه، أعاشه ما شاء وقبضه حين شاء، وكان- ما علمتُ من صالحِ شباب أهل بيته قراءةً للقرآن، وتحريراً للخير، وأعوذ بالله أن تكون لي محبّةً أحالف فيها محبة الله، فإن ذلك لا يحسنُ في إحسانه إليّ، وتتابع نعمه عليّ، ولأعلمنّ ما بكت عليه باكية ولا ناحت عليه نائحة، قد نهينا أهله الذين هم أحقُّ بالبقاء عليه. دخل زياد بن عثمان بن زياد على سليمان بن عبد الملك وقد توفي ابنه أيوب، فقال: يا أمير المؤمنين، إنَّ عبد الرحمن ابن أبي بكر كان يقول: من أحبَّ البقاء- ولا بقاء- فليؤطّن نفسه على المصائب.

لما مات معاوية دخل عطاء بن أبي صيفي على يزيد، فقال: يا أمير المؤمنين، أصبحتَ رزئتَ خليفة الله، وأعطيت خلافة الله، فاحتسب على الله أعظم الرزية، واشكره على أحسن العطية. عزى محمد بن الوليد بن عتبة عمر بن عبد العزيز على ابنه عبد الملك، فقال: يا أمير المؤمنين، أعدّ لما تَرى عُدّةً تكن لك جنةً من الحزن وسيراً من النار. فقال عمر: هل رأيتَ حزنًا يُحتجّ به، أو غفلةً يُنبه عليها؟ قال: يا أمير المؤمنين، لو أن رجلاً ترك تعزية رجلٍ لعلمه وانتباهه لكنته، ولكن الله قضى أن الذكرى تنفع المؤمنين.

وتُوفيت أختُ لعمر بن عبد العزيز، فلما فرغ من دفنها دنا إليه رجل فعزّاه، فلم يرُدّ عليه شيئاً، ثم دنا إليه آخر فعزّاه، فلم يرُدّ عليه شيئاً، فلما رأى الناس ذلك أمسكوا عنه ومشّوا معه. فلما بلغ الباب أقبل على الناس بوجهه وقال: أدركتُ الناس وهم لا يُعزّون بامرأة إلا أن تكون أمّاً، انقلبوا رحكم الله. وُجد في حائط من حيطان بُعّ مکتوب:

ك فهكذا مضت الدهور

اصبرْ لدهرٍ نال من

فرح وحزن مرة

لا الحزن دام ولا السرور

وهذا نظير قول العتّابي:

وقائلة لما رأنتي مسهداً

كأن الحشا مني تلذعه الجمر

أباطن داء أم جوى بك قاتل

فقلت الذي بي ما يقوم له صبر

تفرق آلاف وموت أحبة

وفقد ذوى الإفضال قالت كذا الدهر

كتب محمد بن عبد الله بن طاهر إلى المتوكل يعزيه بابن له:

إني أعزيك لا أنني على ثقة

من الحياة ولكن سنة الدين

ليس المعزى ببعد ميته بباقي بعد ميته

ولا المعزى وإن عاشا إلى حين

وقال أبو عيينة:

فإن أشك من ليلي بجرجان طوله

فقد كنت أشكو منه بالبصرة القصر

وقائلة ماذا نأى بك عنهم

فقلت لها لا علم لي فسلي القدر

وقال بعض الحكماء لسليمان بن عبد الملك لما أصيب بابنه أيوب: يا أمير المؤمنين، إن مثلك لا يُوعظ إلا بدون علمه، فإن رأيت أن تُقدّم ما أحرّت العجزة من حُسن العزاء والصبر على المصيبة فترضي ربك وتريح بدنك، فافعل. وكتب الحسن إلى عمر بن عبد العزيز يعزيه في ابنه عبد الملك بيت شعر وهو:

وعوضت أجراً من فقيد فلا يكن

فقيدك لا يأتي وأجرك يذهب

ولما حضرت الإسكندر الوفاة كتب إلى أمه: أن اصنعي طعاماً يحضره الناس، ثم تقدّمي إليهم أن لا يأكل منه محزون، ففعلت. فلم يسقط إليه أحدٌ يده، فقالت: ما لكم لا تأكلون؟ فقالوا: إنك تقدّمت إلينا أن لا يأكل منه محزون، وليس منّا إلا من قد أصيب بحميم أو قريب؛ فقالت: مات والله ابني وما أوصى إلي بهذا إلا ليعزّيئني به.

وكان سهل بن هارون يقول في تعزّيته: إن التهنّئة بأجل الثواب أوجب من التّعزية على عاجل المصيبة.

كتاب اليتيمة في النسب

كتاب اليتيمة في النسب وفضائل العرب

قال أحمد بن محمد بن عبد ربه: قد مضى قولنا في التوادب والمراثي، ونحن قائلون بعون الله وتوفيقه في النسب الذي هو سبب التعارف، وسلم إلى التواصل، به تتعاطف الأرحام الواشحة، وعليه تحافظ الأواصر القريبة. قال الله تبارك وتعالى: "يا أيها الناس إنا خلقناكم من ذكرٍ وأنثى وجعلناكم شعوباً وقبائل لتعارفوا". فمن لم يعرف النسب لم يعرف الناس، ومن لم يعرف الناس لم يعد من الناس. وفي الحديث: تعلموا من النسب ما تعرفون به أحسابكم وتصلون به أرحامكم. وقال عمر بن الخطاب: تعلموا النسب ولا تكونوا كنبيط السواد إذا سئل أحدهم عن أصله قال: من قرية كذا وكذا.

أصل النسب

معاوية بن صالح عن يحيى عن سعيد بن المسيب، قال: ولد نوح ثلاثة أولاد: سام وحام وياث. فولد سام العرب وفارس الروم، وولد حام السودان والبربر والنبط، وولد ياث الترك والصقالبة ويأجوج ومأجوج.

أصل قريش - كانت قريش تُدعى النضر بن كنانة، وكانوا مُتفرقين في بني كنانة، فجمعهم قصي بن كلاب بن مرة بن كعب بن لؤي بن غالب بن فهر بن مالك من كل أوب إلى البيت، فسُموا قريشاً. والتقرش: التجمع، وسُمي قصي بن كلاب مُجمعاً، فقال فيه الشاعر:

به جمع الله القبائل من فهر

قصي أبوكم كان يُدعى مُجمعاً

وقال حبيب:

قريش يوم مات مُجمعاً

غدوا في نواحي نعشه وكأنما

يُريد مُجمعاً قصي بن كلاب، وهو الذي بنى المشعر الحرام، وكان يقوم عليه أيام الحج، فسماه الله مشعراً وأمر بالوقوف عنده. وإنما جمع قصي إلى مكة بني فهر بن مالك، فجدم قريش كلها فهر بن مالك، فما دونه قريش، وما فوقه عرب، مثل كنانة وأسد وغيرهما من قبائل مضر، وأما قبائل قريش، فإنما تنتهي إلى فهر بن مالك لا تُجاوزه. وكان قريش تُسمى آل الله، وجيران الله، وسكان حرم الله، وفي ذلك يقول عبد المطلب ابن هاشم:

لم نزل فيها على عهدٍ قدم

نحن آل الله في ذمته

من يرد فيه بائتم يُخترم

إن للبيت لرباً مانعاً

يدفع الله بها عنا النقم

لم نزل لله فينا حرمة

وقال الحسن بن هانئ في بعض بني شيبه بن عثمان الذين بأيديهم مفتاح الكعبة:

أولو الله والبيت العتيق المحرم

إذا اشتعب الناس البيوت فأنتم

نسب قريش - أبو المنذر هشام بن محمد بن السائب الكلبي: تسمية من انتهى إليه الشرف من قريش في الجاهلية فوصله بالإسلام، عشرة رهط من عشرة أبطن وهم: هاشم وأمّية ونوفل وعبد الدار وأسد وتيم ومحرزوم وعدّي وجمح وسهم. فكان من هاشم: العباس بن عبد المطلب، يسقي الحجيج في الجاهلية وبقي له ذلك في الإسلام؛ ومن بني أمية: أبو سفيان بن حرب، كانت عنده العقاب راية قريش، وإذا كانت عند رجل أخرجها إذا حميت الحرب، فإذا اجتمعت قريش على أحد أعطوه العقاب، وإن لم يجتمعوا على أحد رأسوا صاحبها فقدّموه؛ ومن بني نوفل: الحارث بن عامر، وكانت

إليه الرفادة، وهي ما كانت تُخرجه من أموالها وترُفد به مُنقَطع الحاج؛ ومن بني عبد الدار: عثمان ابن طلحة، كان إليه اللواء والسدانة مع الحجابة، ويقال: والتدوة أيضاً في بني عبد الدار؛ ومن بني أسد: يزيد بن زَمعة بن الأسود، وكان إليه المشورة، وذلك أن رؤساء قريش كانوا لا يجتمعون على أمر حتى يعرضوه عليه، فإن وافقه والاهم عليه وإلا تحيّر، وكانوا له أعواناً، واستشهد مع رسول الله صلى الله عليه وسلم بالطائف، ومن بني تميم: أبو بكر الصديق، وكانت إليه في الجاهلية الأشناق، وهي الذبابة والمعرم، فكان إذا احتمل شيئاً فسأل فيه قريشاً صدقوه وأمضوا حمالة من نهض معه، وإن احتملها غيره خذلوه؛ ومن بني مخزوم: خالد بن الوليد، كانت إليه القبة والأعنة، فأما القبة فيهم كانوا يضرّبونها ثم يجمعون إليها ما يُجهّزون به الجيش، وأما الأعنة فإنه كان على خيل قريش في الحرب؛ ومن بني عدي: عمر بن الخطاب، وكانت إليه السفارة في الجاهلية، وذلك أنهم كانوا إذا وقعت بينهم وبين غيرهم حرب بعثوه سفيراً، وإن نافهم حي لمفاخرة جعلوه منافراً ورضوا به؛ ومن بني جمح: صفوان بن أمية، وكانت إليه الأيسار، وهي الأرزلام، فكان لا يُسبق بأمر عام حتى يكون هو الذي تسييره على يديه؛ ومن بني سهيم: الحارث بن قيس، وكانت إليه الحكومة والأموال المحجرة التي سمّوها لأهلهم.

فهذه مكارم قريش التي كانت في الجاهلية، وهي السقاية والعمارة والعقاب والرفادة والسدانة والحجابة والتدوة واللواء والمشورة والأشناق والقبة والأعنة والسفارة والأيسار والحكومة والأموال المحجرة إلى هؤلاء العشرة من هذه البُطون العشرة على حال ما كانت في أوليتهم يتوارثون ذلك كابراً عن كابر، وجاء الإسلام فوصل ذلك لهم، وكذلك كل شرف من شرف الجاهلية أدرّكه الإسلام وصله، فكانت سقاية الحاج وعمارة المسجد الحرام وحلوان الثغر في بني هاشم. فأما السقاية فمعروفة، وأما العمارة فهو أن لا يتكلم أحد في المسجد الحرام يُحجر ولا رقت ولا يرفع فيه صوته، كان العباس ينهاهم عن ذلك. وأما حلوان الثغر، فإن العرب لم تكن تملك عليها في الجاهلية أحداً، فإن كان حرب أقرعوا بين أهل الرئاسة، فمن خرجت عليه الفرعة أحضره صغيراً كان أو كبيراً، فلما كان يوم الفجار أقرعوا بين بني هاشم فخرج سهيم العباس وهو صغير فأجلسه على المِحن. أبو الطاهر أحمد بن كثير بن عبد الوهاب قال: حدثني أبو ذكوان عن أحمد بن يزيد الأنطاكي أنه سمع المأمون يقول لأبي الطاهر الذي كان على البحرين: من أي قريش أنت؟ قال: من بني سامة بن لؤي؛ فقال المأمون: ما سمعنا بسامة بن لؤي نسباً في بطوننا العشرة، لو علمنا به على بعده لكتنا به بررة.

فضل بني هاشم وبني أمية

قيل لعلي بن أبي طالب: أخبرنا عنكم وعن بني أمية؛ فقال: بنو أمية أنكروا وأمكروا وأفجروا، ونحن أصبَح وأنصح وأسمح. وسأل رجل الشَّعبي عن بني هاشم وبني أمية؛ فقال: إن شئت أخبرتك ما قال علي بن أبي طالب فيهم، قال: أما بنو هاشم فأطعمها للطعام، وأضربها للهام، وأما بنو أمية فأسدّها حجراً، وأطلبها للأمر الذي لا يُنال فينالونه. قيل لمعاوية: أخبرنا عنكم وعن بني هاشم، قال: بنو هاشم أشرف واحدنا ونحن أشرف عدداً، فما كان إلا كلاً وبلى حتى جاءوا بواحدة بدت الأولين والآخرين، يريد النبي صلى الله عليه وسلم. وبقوله "أشرف واحدنا": عبد المطلب بن هاشم. الرياشي عن الأصمعي قال: تصدّى رجل من بني أمية لهارون الرشيد فأنشده:

قَوْلِ ذِي فَهْمٍ وَعِلْمٍ وَأَدَبٍ

وَهُمَا بَعْدُ لِأَمٍّ وَأَبٍ

عَبْدُ شَمْسٍ جَدُّ عَبْدِ الْمُطَلِّبِ

بِكُمْ الْفَضْلُ عَلَى كُلِّ الْعَرَبِ

يَا أَمِينَ اللَّهِ إِنِّي قَاتِلٌ

عَبْدُ شَمْسٍ كَانَ يَتَلَوُ هَاشِمًا

فَاحْفَظِ الْأَرْحَامَ فِينَا إِنَّمَا

لَكُمْ الْفَضْلُ عَلَيْنَا وَلَنَا

فأحسن جائزته ووصله. سُفيان الثوري يرفعه إلى النبي صلى الله عليه وسلم قال: إن الله خلق الخلق فجعلني في خير خلقه، وجعلهم أرفاقاً فجعلني في خير فرقة، وجعلهم قبائل فجعلني في خير قبيلة، وجعلهم بيوتاً فجعلني في خير بيت، فأنا خيركم بيتاً وخيركم نسباً. وقال صلى الله عليه وسلم: كلُّ

سَبَبٌ وَنَسَبٌ مُنْقَطِعٌ يَوْمَ الْقِيَامَةِ إِلَّا سَبَّيْ وَنَسَبِي.

جماعة بني هاشم بن عبد مناف وجماعة قريش عبد المطلب بن هاشم ولده عشر بنين، وهم: عبد الله أبو محمد صلى الله عليه وسلم، وأبو طالب، والزبير، أمهم فاطمة بنت عمر المخزومية، والعباس وضرار، أمهما ثبيلة النمرية، وحمزة والمقوم، أمهما هالة بنت وهب، وأبو لهب، أمه لئي، خزاعية، والحارث، أمه صقيية، من بني عامر بن صعصعة، والغيداق، أمه خزاعية.

جماعة بني أمية بن عبد شمس بن عبد مناف - وهو أمية الأكبر: حرب بن أمية، وأبو حرب، وسفيان، وأبو سفيان، وعمرو، وأبو عمرو وهؤلاء يقال لهم العنابس والعاصي وأبو العاصي، والعيص، وأبو العيص، وهؤلاء يقال لهم الأغياص، ومنهم معاوية بن أبي سفيان وعثمان بن عفان بن أبي العاص بن أمية، وسعيد بن العاص بن أمية، ومروان بن الحكم بن أبي العاص بن أمية.

جماعة بني نوفل - الحارث بن عامر صاحب الرقادة، ومطعم بن نوفل، ومنهم عدي بن الحيار بن نوفل، ومنهم نافع بن زريب بن عمرو بن نوفل وهو كاتب المصاحف لعمر بن الخطاب، ومسلم بن قرظة، قُتِلَ يَوْمَ الْجَمَلِ.

جماعة بني عبد الدار - عثمان بن طلحة صاحب الحجابة، وشيبة بن أبي طلحة، والحارث بن علقمة بن كلدة، كان رهينة قريش عند أبي يكسوم والنضر بن الحارث بن علقمة بن كلدة بن عبد مناف بن عبد الدار. قَتَلَهُ النَّبِيُّ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ صَبْرًا، أَمْرٌ عَلِيٌّ بِنِ أَبِي طَالِبٍ فَقَتَلَهُ يَوْمَ الْأَثِيلِ. جماعة بني أسد بن عبد العزى - منهم: الزبير بن العوام بن خويلد بن أسد، وأمّه صفيية بنت عبد المطلب، ويزيد بن زمنة بن الأسود، صاحب المشورة، وأبو البخترى، واسمه العاصي بن هشام بن الحارث بن أسد، وورقة ابن نوفل بن أسد وهو الذي أدرك الإيمان بعقله وبشر خديجة بالنبي صلى الله عليه وسلم.

جماهير بني تميم بن مرة - منهم: أبو بكر الصديق، وطلحة بن عبيد الله، وعمر بن عبيد الله بن معمر، وعبد الله بن جُدعان، وعلي بن يزيد ابن عبد الله بن أبي مليكة، والمهاجر بن قنفذ بن عمير بن جُدعان، ومحمد بن المنكر بن عبد الله بن الهدير.

جماهير مخزوم بن مرة - منهم: المغيرة بن عبد الله بن عمرو بن مخزوم، وخالد بن الوليد بن المغيرة، وعبد الرحمن بن الحارث، وعمرو بن حريث، وأبو جهل بن هشام بن المغيرة، وعياش بن أبي ربيعة الشاعر، وعبد الله بن المهاجر، وعمارة بن الوليد بن المغيرة، وإسماعيل بن هشام بن المغيرة، ولي ابنه هشام ابن إسماعيل بن هشام بن المغيرة المدينة وضرب سعيد بن المسيب بن أبي وهب الفقيه.

جماهير عدي بن كعب - منهم: عمر بن الخطاب، وسعيد بن زيد ابن عمرو بن نفيل، وهو من أصحاب حراء، وعبد الحميد بن عبد الرحمن بن زيد بن الخطاب، ولي الكوفة لعمر بن عبد العزيز، وسراقبة بن المعتمر، والنحام بن عبد الله بن أسيد، والثعمان بن عدي بن نضلة. استعمله عمر على ميسان، وعبد الله بن مطيع، وأبو جهم بن حذيفة، وخارجة بن حذافة، وكان قاضيًا لعمر بن العاصي. بمصر فقتله الخارجي وهو يظنه عمرو بن العاصي، وقال فيه: أردتُ عمرًا وأراد الله خارجة.

جماهير جمح - منهم: صفوان بن أمية، من المؤلفات قلوبهم، وأميه بن خلف، قُتِلَ يَوْمَ بَدْرٍ، وأبي بن خلف، ومحمد بن حاطب، وجميل بن معمر بن حذافة، وأبو عزة، وهو عمرو بن عبد الله، وأبو محذورة، مؤذن النبي صلى الله عليه وسلم.

جماهير بني سهم - منهم: الحارث بن قيس، صاحب حكومة قريش، وعمرو بن العاصي، وقيس بن عدي وخنيس بن حذافة، ومُنَبِّهٌ وَنُبِيهٌ ابنا الحجاج، ومنهم العاصي بن مُنَبِّهٍ، قُتِلَ مَعَ أَبِيهِ، قَتَلَهُ عَلِيٌّ يَوْمَ بَدْرٍ، وأخذ سيفه ذا الفقار فصار إلى النبي عليه الصلاة والسلام.

جماهير عامر بن لؤي - ومنهم: سهيل بن عمرو، من المؤلفات قلوبهم، ومنهم ابن أبي ذئب الفقيه، واسمه محمد بن عبد الرحمن، وخويط بن عبد العزى، من المؤلفات قلوبهم، وعبد الله بن مخزوم، بدرى، ونوفل بن مساحق، وأبو بكر بن عبد الله بن أبي سبرة الفقيه. وعبد الله بن أبي سرح، بدرى. ومنهم: ابن أم مكتوم، مؤذن النبي عليه الصلاة والسلام.

جماهير بني محارب بن فهد بن مالك - منهم: الضحّاك بن قيس الفهري، وحبيب بن مسلمة.

جماهير بني الحارث بن فهد بن مالك - منهم: أبو عبيدة بن الجراح، أمن هذا الأمة. وسهيل وصفوان ابنا وهب، وعياض بن غنم بن زهير، وأبو جهم

بن خالد. وبنو الحارث هؤلاء من المطَّيَّن الذي تحالفوا وغمَّسوا أيديهم في جفنة فيها طيب. قريش الظواهر وغيرها من بطون قريش - بنو الحارث وبنو مُحارب ابنا فِهْر بن مالك، وهم قريش الظواهر، لأنهم نزلوا حول مكة وما والاها. فمن بني الحارث بن فِهْر: أبو عُبيدة بن الجراح، واسمه عامر بن عبد الله بن الجراح، من المهاجرين الأولين. ومن بني مُحارب بن فِهْر: الضحَّاك بن قيس الفِهْرِي، صاحب مَرَجِ رَاهِط.

وما سوى هؤلاء من بطون قريش يقال لهم قريش البطحاء، لأنهم سَكَنُوا بَطْحَاءَ مَكَّة، وهم البُطون العشرة التي ذَكَرناها قبل هذا الباب. ومن بطون قريش: بنو زُهرة بن كلاب بن كَعْب بن لُؤي. منهم: عبد الرَّحمن بن عوف، خال النبي عليه الصلاة والسلام؛ ومنهم بنو حبيب ابن عبد شمس. ومنهم عبد الله بن عامر بن كُرَيْز بن حبيب بن عبد شمس، صاحب العِراق، ومنهم بنو أمية الاصغر بن عبد شمس بن عبد مناف، وأمه عُبلة، فيقال لهم العَبلات. وبنو عبد العُزَّى بن عبد شمس، منهم أبو العاصي بن الربيع، صهر رسول الله صلى الله عليه وسلم، تزوج ابنته التي قال النبي صلى الله عليه وسلم فيه: ولكنَّ أبا العاصي لم يذُمَّ صِهْرَه. ومنهم: بنو المُطلب بن عبد مناف، ومنهم محمد بن إدريس الشافعي. ومن بني نُوَفل بن عبد مناف: المُطعم بن عدي. ولعبد شمس بن عبد مناف ونُوَفل بن عبد مناف يقول أبو طالب:

**فيا أخوينَا عبد شمسٍ ونوفاً
أعيدُ كما أن تبعتنا بيننا حرباً**

وَوَلدُ أمية الأكبر العاصي وأبا العاصي والعيص وأبا العيص، فهؤلاء يقال لهم الأعياص، وحرباً وأبا حرب. وهذه البُطون التي ذَكَرناها كلها من قريش ليست من البُطون العشرة التي ذَكَرناها أولاً وذَكَرنا جماهيرها.

فضل قريش

قال النبي عليه الصلاة والسلام: الأئمة من قريش. وقال: وقَدَمُوا قريشاً ولا تَقْدَموها. ولما قتل النضر بن الحارث بن كَلدة بن عبد مناف، قال: لا يُقتل قُريشٌ صَبِراً بعد اليوم. يُريد أنه لا يُكْفَرُ قريشٌ فيقتل صَبِراً بعد هذا اليوم. الأصمعي قال: قال معاوية: أي الناس أفصح؟ فقال رجل من السَّماط: يا أمير المؤمنين، قوم ارتفعوا عن رُتة العِراق، وتياسرُوا عن كَشكشة بَكْر، وتيامنوا عن شَشنة تغلب، ليست فيهم غَمَمة قُضاعة، ولا طمطمانيَّة حَمير؟ قال: مَنْ هُم؟ قال: قَوْمُك يا أمير المؤمنين؟ قال: صدقت؟ قال: فَمِمَّن أنت؟ قال: من جَرَم. قال الأصمعي: وجَرَمُ فُصحى العَرَب. قدم محمد بن عُمير بن عَطارد في نَيْف وسبعين ركباً فاستزارهم عمرو بن عُتْبة.

قال: فسمعته يقول: يا أبا سُفيان، ما بال العَرَب تُطيل كلامها وأنتم تُقصرُونه معاشِر قريش؟ فقال عمر و بن عُتْبة: بالجندل يُرمي الجندل، إن كلامنا كلام يَقل لفظه ويكثر معناه، ويكتفي بأولاه ويُستشفي بأحراه، يتحَرَّر تحدر الزلال على الكبد الحَرى، ولقد نَقَصُوا وأطال غيرهم فما أخلوا، والله أقوامٌ أدركتهم كأنما خلِقوا للتَّحسين ما قَبحت الدنيا، سهلت أَلفاظهم كما سهلت أنفاسهم، فابتدلوا أموالهم وصانوا أعراضهم، حتى ما يجد الطاعن فيهم مطعنا، ولا المادح مَرِداً، ولقد كان آل أبي سُفيان مع قلتهم كثيراً منه نصيبهم، ولله درُّ مولاهم حيث يقول:

**وَصَع الدهر فيهم شَفرتيه
فَمضى سالماً وأمسوا شَعوبياً**

شَفَرَتان والله أفنتا أبدانهم، وأبقنا أخبارهم، فتركتاهم حديثاً حسناً في الدنيا ثوابه في الآخرة أحسن، وحديثاً سيئاً في الدنيا عقابه في الآخرة أسوأ، فبِأ موعوظاً بمن قَبَله، موعوظاً به من بعده، اربح نفسك إذا خسرها غيرك. قال: فظننت أنه أراد أن يُعلمه أن قريشاً إذا شاءت أن تتكلم تكلمت. العُتبي قال: شهدت مجلس عمرو بن عُتْبة وفيه ناسٌ من القُرشيين، فتشاحوا في مواريت وتجاحدوا، فلما قاموا من عنده أقبل علينا فقال: إن لقريش درجاً تزلقُ عنها أقدام الرجال، وأفعالاً تخضع لها رقاب الأقوال، وغايات تُقصر عنها الجياد المنسوبة، وألسنة تكلم عنها الشفار المشحودة، ولو احتفلت الدنيا ما تزيَّنت إلا بهم، ولو كانت لهم ضاقت عن سعة أحلامهم. ثم إن قوماً منهم تخلَّقوا بأخلاق العوام، فصار لهم رفق باللوم، وخرق في الحرص، ولو أمكنهم لقاسموا الطير أرزاقها، وإن خافوا مكرهاً تعجلوا له الفقر، وإن عجلت لهم النعم أخروا عليها الشكر، أولئك "أنضاء" فكرة

قال أبو العيْناء الهاشمي: جرى بين محمد بن الفضل وبين قوم من أهل الأهواز كلام، فلما أصبح رجع عنه. قالوا له: ألم تقل أمس كذا وكذا؟ قال: تختلف الأقوال إذا اختلفت الأحوال. ودخل محمد بن الفضل على والي الأهواز فسمعه يقول: إذا كان الحق استوى عندي الهاشمي والتبطي. فقال محمد بن الفضل: لئن استوت حالناهما عندك، فما ذلك بزائد التبطي زينة ليست له، ولا ناقص الهاشمي قدراً هو له، وإنما يلحق النقص المسوي بينهما. العتي قال: قال عمرو بن عتبة: احتصم قوم من قريش عند معاوية فمنعوا الحق. فقال معاوية: يا معشر قريش، ما بال قوم لأم يصلون بينهم ما انقطع، وأنتم لعلات تقطعون بينهم ما وصل الله، وتواعدون ما قرب، بل كيف ترجون لغيركم وقد عجزتم عن أنفسكم! تقولون: كفانا الشرف من قبلنا، فعندنا لزمتمكم الحجة، فأكفوه من بعدكم كما كفاكم من قبلكم. أو تعلمون أنكم كنتم رقاهاً في جنوب العرب، وقد أخرجتم من حرم ربكم، ومُنعتهم ميراث أبيكم وبلدكم، فأخذ لكم الله، ما أخذ منكم، وسمّاكم باجتماعكم اسماً به أبانكم من جميع العرب، وردّ به كيد العجم، فقال جل ثناؤه: "إيلاف قريش إيلافهم" فأرعبوا في الائتلاف أكرمكم الله به، فقد حذرتكم الفرقة نفسها، وكفي بالتجربة واعظاً.

مكان العرب من قريش

يجي بن عبد العزيز عن أبي الحجّاج رباح بن ثابت عن أبكر بن، حنيس عن أبي الأحوص عن أبي الحصن عن عبد الله بن مسعود أن النبي صلى الله عليه وسلم قال: قريش الجوحو والعرب الجناحان، والجوحو لا ينهض إلا بالجناح. قال عمرو بن عتبة: ما استدرّ لعمي كلاماً قطّ فقطعه حتى يذكر العرب بفضل أو يوصى فيهم بخير. ولقد أنشدته مروان ذات يوم بيتاً للنابعة حيث يقول:

إلى يوم النّسار وهم مجنى

فهم درعي التي استلأمت فيها

فقال معاوية: ألا إن ذرّوع هذا الحي من قريش إخوانهم من العرب، المتشابهة أرحامهم تشابك حلق الدرّع، التي إن ذهب حلقه منه فرقت بين أربع، ولا تزال السيوف تكره مذاق لحوم قريش ما بقيت ذرّوعها معها، وشدّت نطقها عليها، ولم تفك حلقها منها، فإذا خلعتّها من رقاها كانت للسيوف جزراً.

العتي عن أبيه عن عمرو بن عتبة، قال: عقت النساء أن يلدن مثل عمي، شهدته يوماً وقد قدمت عليه وفود العرب، فقضى حوائجهم، وأحسن جوائزهم، فلما دخلوا عليه ليشكروه سبقهم إلى الشكر، فقال لهم: جزاكم الله يا معشر العرب عن قريش أفضل الجزاء بتقدّمكم إياهم في الحرب، وتقدّمكم لهم في السلم، وحقنكم دماءهم بسفكها منكم، أما والله لا يؤثركم على غيركم منهم إلا حازم كريم، ولا يرعب عنكم منهم إلا عاجز لئيم، شجرة قامت على ساقٍ تنفّر أعلاها وأجتمعت أصلها، عضد الله من عضدّها. فيالها كلمة لو اجتمعت، وأيدياً لو آتلفت، ولكن كيف بإصلاح ما يريد الله إفساده.

فضل العرب

يجي بن عبد العزيز، قال حدثنا أبو الحجّاج رباح - بن ثابت، قال حدثنا بكر بن حنيس عن أبي الأحوص عن أبي الحصن عن عبد الله بن مسعود قال: قال رسول الله صلى الله عليه وسلم: إذا سألتكم الحوائج فاسألوا العرب، فإنها تُعطى لثلاث خصال: كرم أحسابها، واستحياء بعضها من بعض، والمواساة لله. ثم قال: من أبغض العرب أبغضه الله.

ابن الكلبي قال: كانت في العرب خاصة عشر خصال لم تكن في أمة من الأمم، خمس منها في الرأس، وخمس في الجسد. فأما التي في الرأس: فالفرق والسواك والمضمضة والاستنثار وقص الشارب. وأما التي في الجسد: فتقليم الأظفار وتنف الإبط وحلق العانة والحتان والاستنحاء. وكانت في العرب

خاصة القيافة، لم يكن في جميع الأمم أحدٌ ينظر إلى رجلين أحدهما قصير والآخر طويل، أو أحدهما أسود والآخر أبيض، فيقول: هذا القصير ابن هذا الطويل، وهذا الأسود ابن هذا الأبيض، إلا في العرب.

أبو العيناء الهاشمي عن القحذمي عن شبيب بن شيبه قال: كنا وقوفاً بالمربد- وكان المربد مآلف الأشراف- إذ أقبل ابن المقفع فبششنا به وبدأناه بالسلام، فرد علينا السلام، ثم قال: لو ملتم إلى دار نيروز وظلها الظليل، وسورها المديد، ونسيمها العجيب، فعودتم أبدانكم تمهيد الأرض، وأرحتم دوابكم من جهد النقل، فإن الذي تطلبونه لن تُفاتوه، ومهما قضى الله لكم من شيء تناولوه. فقيلنا وملنا، فلما استقر بنا المكان، قال لنا: أي الأمم أعقل؟ فنظر بعضنا إلى بعض، فقلنا: لعله أراد أصله من فارس، قلنا: فارس، فقال ليسوا بذلك، إنهم ملكوا كثيراً من الأرض، ووجدوا عظيماً من الملك، وغلبوا على كثير من الخلق، ولبت فيهم عقدة الأمر، فما استنبطوا شيئاً يعقوبهم، ولا ابتدعوا باقي حكم بنفوسهم، قلنا: فالروم؛ قال: أصحاب صنعة، قلنا: فالصين؛ قال: أصحاب طرفة؛ قلنا: الهند؛ قال: أصحاب فلسفة؛ قلنا: السودان، قال: شر خلق الله؛ قلنا: الترك؛ قال: كلاب ضالة، قلنا: الخزر؛ قال: بقر سائمة؛ قلنا: فقل؛ قال: العرب. قال فضحكنا. قال: أما إنني ما أردت موافقتكم، ولكن إذا فاتني حظي من النسبة فلا يفوتني حظي من المعرفة. إن العرب حكمت على غير مثال مثل لها، ولا آثار أثرت، أصحاب إبل وغنم، وسكان شعر وأدم، يجرود أحدهم بقوته، ويفضل مجهوده، ويشارك في ميسوره ومعسوره، ويصف الشيء بعقله فيكون قدوة، ويفعله فيصير حجة، ويحسن ما شاء فيحسن، ويقبح ما شاء فيقبح، أدبهم أنفسهم، ورفعتهم همهم، وأعلنتهم قلوبهم وألسنتهم، فلم يزل حياء الله فيهم وحياؤهم في أنفسهم حتى رفع "الله" لهم الفخر، وبلغ بهم أشرف الذكر، ختم لهم ملكهم الدنيا على الدهر، وافتتح دينه وخلافته بهم إلى الحشر، على الخير فيهم ولهم. فقال "تعالى": "إن الأرض لله يورثها من يشاء من عباده والعاقبة للمتقين". فمن وضع حقهم خسر، ومن أنكر فضلهم خصم، ودفع الحق باللسان أكبت للجنان. ذكر الأصمعي عن ذي الرمة، قال: رأيت عبداً أسوداً لبني أسد قدم علينا من شق اليمامة، وكان وحشياً لطول تعزبه في الإبل، وربما كان لقي الأكرة فلا يفهم عنهم ولا يستطيع إفهامهم، فلما رأني سكن إلي، ثم قال لي: يا غيلان، لعن الله بلاداً ليس فيها قريب، وقاتل الله الشاعر حيث يقول: حُرُّ الثرى مُستعرب الثراب وما رأيت هذه العرب في جميع الناس إلا مقدار القرحة في جلد الفرس، ولولا أن الله رَقَّ عليهم فجعلهم في حشاه؛ لطمست هذه العجمان آثارهم. والله ما أمر الله نبيه بقتلهم إلا لضئته بهم، ولا ترك قبول الجزية "منهم" لا لتركها لهم. الأكرة: جمع أكار، وهم الحراث. وقوله: جعلهم في حشاه، أي استبطنهم، يقول الرجل للعربي إذا استبطنه: حباأتك في حشائي. وقال الرازي:

جَعَلْتَهُ فِي رُفْعَةٍ مِنْ جِلْدِي

وصاحب كالدمل الممدِّ

وقال آخر:

بحبك إلا أن ما طاح طائح

لقد كنت في قوم عليك أشحة

ولا يدفع الموت النفوس الشحائح

يودون لو خاطوا عليك جلودهم

علماء النسب

كان أبو بكر رضي الله عنه نسابة، وكان سعيد بن المسيب نسابة، وقال رجل: أريد أن تعلمني النسب؛ قال: إنما تريد أن تُساب الناس. عكرمة عن ابن عباس عن علي بن أبي طالب، قال: لما أمر رسول الله صلى الله عليه وسلم أن يعرض نفسه على القبائل خرج مرة وأنا معه وأبو بكر، حتى رُفِعنا إلى مجلس من مجالس العرب، فتقدم أبو بكر فسلم- قال علي: وكان أبو بكر مُقَدِّماً في كل خير وكان رجلاً نساباً- فقال: ممن القوم؟ قالوا: من ربيعة، قال: وأي ربيعة أنتم؟ أمن هامتها؟ قالوا: من هامتها العظمى؛ قال: وأي هامتها العظمى أنتم؟ قالوا: ذهل الأكبر؛ قال أبو بكر: فمنكم عوف بن محلم الذي يقال فيه: لا حُرُّ بوادي عوف؟ قالوا: لا؛ قال: فمنكم حساس بن مرة الحامي الذمار والمانع الجار؟ قالوا: لا؛ قال: فمنكم أخوال الملوك

من كندة؛ قالوا: لا؛ قال: فمنكم أصهار الملوك من لخم؟ قالوا: لا؛ قال أبو بكر فليستم ذُهلاً الأكبر، أنتم ذهل الأصغر. فقام إليه غلام من شيبان حين بَقَلَ وَجْهَهُ، يُقال له دَغفل، فقال:

إِنَّ عَلَى سَائِلِنَا أَنْ نَسْأَلَهُ

وَالْعَيْبُ! لَا تَعْرِفَهُ أَوْ تَحْمِلَهُ

يا هذا، إنك قد سألتنا فأخبرناك ولم نكنتمك شيئاً، فممن الرجل؟ قال أبو بكر: من قريش؟ قال: بخ بخ أهل الشرف والرياسة؛ فمن أي قريش أنت؟ قال: من ولد تميم بن مرة؛ قال: أمكنت والله الرامي من سؤاء الثغرة، أفمنكم قُصَيُّ ابن كلاب الذي جمع القبائل فسمي مجمعا؟ قال: لا، قال: أفمنكم هاشم الذي هشم الثريد لقومه ورجال مكة مستنون عجاف قال: لا؛ أفمنكم شَيْبَةُ الحَمْدِ وعبدُ المطلب مُطعم طير السماء الذي وجهه كالقمر في الليلة الظلماء؟ قال: لا؛ قال: فمن أهل الإفاضة بالناس أنت؟ قال: لا؛ قال: فمن أهل السقاية أنت؟ قال: لا. فاجتذب أبو بكر زمام الناقة ورجع إلى رسول الله صلى الله عليه وسلم، فقال الغلام:

صَادَفَ دَرُّ السَّيْلِ دَرَأً يَدْفَعُهُ

يَهْيِضُهُ حِينًا وَحِينًا يَصْدَعُهُ

قال: فتبسّم النبي عليه الصلاة والسلام. قال عليّ: فقلتُ له: وقعت يا أبا بكر من الأعرابيّ على بائقة؟ قال: أجل، ما من طامة إلا وفوقها أخرى، والبلاء موكّل بالمنطق، والحديث ذو شجون.
قال ابن الأعرابي: بلغني أنّ جماعة من الأنصار وقفوا على دغفل النسابة بعدما كَفَّ، فسلموا عليه، فقال: من القوم؟ قالوا: سادة اليمن، فقال: أمن أهل مجدّها القديم وشرفها العميم كندة؟ قالوا: لا، قال: فأنتم الطوال "أقصباً" الممحصون نسباً بنو عبدالمدان؟ قالوا: لا؛ قال: فأنتم أقودها للزحوف وأخرقها للصفوف، وأضربها بالسيف رهط عمرو بن معد يكرب؟ قالوا: لا؛ قال: فأنتم أحضرها قراء وأطيبها فناء، وأشدّها لقاء "رهط" حاتم ابن عبد الله؟ قالوا: لا؛ قال: فأنتم الغارسون للتخل، والمطمعون في المخل، والقائلون بالعدل الأنصار؟ قالوا: نعم.

مسلمة بن شبيب عن المنقريّ قال: ذكروا أنّ يزيد بن شيبان بن علقمة ابن زُرارة بن عُدس قال: خرجتُ حاجاً حتى إذا كنتُ بالخصب من منى إذا رجل على راحلة معه عشرة من الشباب مع كل رجل منهم محجن، يُنحون الناس عنه ويُوسعون له، فلما رأيته دنوتُ منه، فقلت: ممن الرجل؟ قال: رجلٌ من مهرة ممن يسكن الشحر. قال: فكرهته ووليتُ عنه، فناداني من ورائي: مالك؟ فقلت: لست من قومي ولست تعرفني ولا أعرفك؛ قال: إن كنت من كرام العرب فسأعرفك، قال: فكردتُ عليه راحلتي فقلت: إني من كرام العرب، قال: فممن أنت؟ قلت: من مضر؟ قال: فمن الفُرسان أنت لم من الأرحاء؟ فعلمتُ أن أراد بالفُرسان قيساً وبالأرحاء خندفاً، فقلت: بل من الأرحاء؛ قال: أنت امرءٌ من خندف؟ قلت: نعم؛ قال: من الأرنبة "أنت أم من الجمجمة، فعلمتُ أنه أراد بالأرنبة مدركة وبالجمجمة بني أد بن طابجة، قلت: أجل؛ قال: فمن الدواني أنت أم من الصميم؟ قال: فعلمتُ أنه أراد بالدواني الرباب وبالصميم بني تميم؛ قلت: من الصميم؟ فأنت إذا من بني تميم؟ قلت: أجل؛ قال: فمن الأكثرين أنت أم الأقلين أو من إخوانهم الآخرين؟ فعلمتُ أنه أراد بالأكثرين وكُد زيد "مناة"، والأقلين ولد الحارث، وبإخوانهم الآخرين بني عمرو بن تميم، قلت: من الأكثرين؟ قال: فأنت إذا من ولد زيد؟ قلت: أجل؛ قال: فمن البُحور أنت أم من الجلود أم من الثماد؟ فعلمتُ أنه أراد بالبُحور بني سعد، وبالجلود بني مالك بن حنظلة، وبالثماد بني امرئ القيس ابن زيد، قلت: بل من الجلود؛ قال: فأنت من مالك بن حنظلة؟ قلت: أجل؛ قال: فمن اللهاب أنت أم من الشعاب أم من اللصاب؟ فعلمتُ: أنه أراد باللهاب مُجاشعاً، وبالشعاب نهشلاً، وباللصاب بني عبد الله بن دارم، فقلتُ له: من اللصاب؟ قال: فأنت من بني عبد الله بن دارم؟ قلت: أجل؛ قال: فمن البيوت أنت أم من الزوافر؟ فعلمتُ أنه أراد بالبيوت ولد زُرارة وبالزوافر الأحلاف، قلت: من البيوت؛ قال: فأنت يزيد بن شيبان ابن علقمة بن زُرارة بن عُدس، وقد كان لأبيك امرأتان فأيتهما أمك؟

قول دغفل في قبائل العرب - الهيثم بن عديّ عن عوانة قال: سأل زياد دغفلاً عن العرب، فقال: الجاهلية لليمن، والإسلام لمُضر، والفينة "بينهما" لربيعة؛ قال: فأخبرني عن مُضر؛ قال: فاحر بكنانة وكاثر بتميم وحارب بقيس، ففيها الفُرسان والأنجاد، وأما أسد ففيها دَلٌّ وكبير. وسأل معاوية بن

أبي سُفْيَان دَغْفَلًا، فقال له: ما تقول في بني عامر بن صَعْصَعَة؟ قال: أعناقِ ظَبَاءٍ، وأعجازِ نِسَاءٍ؛ قال: فما تقول في بني أسد؟ قال: عَافَة قَافَة، فُصْحَاء قَافَة، قال: فما تقول في بني تميم؟ قال: حَجَرٌ أَحْشَنٌ إِنْ صَادَفْتَهُ آذَاكَ، وَإِنْ تَرَكَتَهُ أَعْفَاكَ؛ قال: فما تقول في خُزَاعَة؟ قال: جُوعٌ وَأَحَادِيثٌ؟ قال: فما تقول في اليمَن؟ قال: شِدَّةٌ وَإِبَاءٌ. قال نَصْرُ بْنُ سَيَّارٍ:

عِنْدَ الْفَخَّارِ أَعَزَّةٌ أَكْفَاءُ
وَلَنَا لَدَيْهِمْ إِحْنَةٌ وَدِمَاءُ
لَا هُمْ لَنَا سَلْمٌ وَلَا أَعْدَاءُ
أَوْ يَخْذُلُونَا فَالَسَّمَاءِ سَمَاءُ

إِنَّا وَهَذَا الْحَيِّ مِنْ يَمَنٍ لَنَا
قَوْمٌ لَهُمْ فِينَا دِمَاءٌ جَمَّةٌ
وَرَبِيعَةُ الْأَذْنَابِ فِيمَا بَيْنَنَا
إِنْ يَنْصُرُونَا لَا نَعِزُّ بِنَصْرِهِمْ

مفاحرة يمين ومضر - قال الأبرش الكَلْبِيُّ لخالِد بن صَفْوَانَ: هَلُمَّ أَفَاحِرْكَ، وَهَمَّا عِنْدَ هِشَامِ بْنِ عَبْدِ الْمَلِكِ، فَقَالَ لَهُ خَالِدٌ: قُلْ؛ فَقَالَ الْأَبْرَشُ: لَنَا رُبْعُ الْبَيْتِ - يُرِيدُ الرَّكْنَ الْيَمَانِي - وَمَنَا حَاتِمٌ طَيِّبٌ، وَمَنَا الْمُهَلَّبُ بْنُ أَبِي صُفْرَةَ. قَالَ خَالِدٌ بْنُ صَفْوَانَ: مَنَا النَّبِيُّ الْمُرْسَلُ، وَفِينَا الْكِتَابُ الْمُنَزَّلُ، وَلَنَا الْخَلِيفَةُ الْمُؤَمَّلُ؛ قَالَ الْأَبْرَشُ: لَا فَاحِرَتْ مُضْرِيًّا بَعْدَكَ. وَنَزَلَ بِأَبِي الْعَبَّاسِ قَوْمٌ مِنَ الْيَمَنِ مِنْ أَسْوَأِ أَسْوَأِ مَنْ كَعَبُ، فَفَخَّرُوا عِنْدَهُ بِقَدِيمِهِمْ وَحَدِيثِهِمْ، فَقَالَ أَبُو الْعَبَّاسِ لَخَالِدِ بْنِ صَفْوَانَ: أَحِبِّ الْقَوْمَ؛ فَقَالَ: أَحْوَالُ أَمِيرِ الْمُؤْمِنِينَ؛ قَالَ: لَا بُدَّ أَنْ تَقُولَ؛ قَالَ: وَمَا أَقُولُ لِقَوْمِ يَا أَمِيرَ الْمُؤْمِنِينَ هُمْ بَيْنَ حَائِكِ بُرْدٍ، وَسَائِسِ قِرْدٍ، وَدَابِغِ جِلْدٍ، دَلَّ عَلَيْهِمْ هُدْهُدٌ، وَمَلَكَتْهُمْ امْرَأَةٌ، وَغَرَّقَتْهُمْ فِأْرَةٌ، فَلَمْ تُثَبِّتْ لَهُمْ بَعْدَهَا قَائِمَةٌ. مفاحرة الأوس والخزرج - الحُشْنِيُّ يَرْفَعُهُ إِلَى أَنْسٍ قَالَ: تَفَاحِرْتَ الْأَوْسُ وَالْخَزْرَجُ، فَقَالَتِ الْأَوْسُ: مَنَا غَسِيلُ الْمَلَائِكَةِ حَنْظَلَةُ بْنُ الرَّاهِبِ، وَمَنَا عَاصِمُ بْنُ ثَابِتِ بْنِ أَبِي الْأَفْلَحِ الَّذِي حَمَتِ لِحَمَةِ الدَّبْرِ، وَمَنَا ذُو الشَّهَادَتَيْنِ خَزِيمَةُ بْنُ ثَابِتٍ، وَمَنَا الَّذِي أَهْتَزَ لِمَوْتِهِ الْعَرْشُ سَعْدُ بْنُ مُعَاذٍ. قَالَتِ الْخَزْرَجُ: مَنَا أَرْبَعَةٌ قَرَأُوا الْقُرْآنَ عَلَى عَهْدِ رَسُولِ اللَّهِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ لَمْ يقرأه غَيْرُهُمْ: زَيْدُ بْنُ ثَابِتٍ، وَأَبُو زَيْدٍ، وَمُعَاذُ بْنُ جَبَلٍ، وَأَبِيٌّ بْنُ كَعْبِ سَيِّدِ الْقُرَاءِ، وَمَنَا الَّذِي أَيْدَهُ اللَّهُ بَرُوحَ الْقُدْسِ فِي شِعْرِهِ، حَسَّانُ بْنُ ثَابِتٍ.

البيوتات

قال أبو عُبَيْدَةَ فِي كِتَابِ التَّاجِ: أَجْتَمَعَ عِنْدَ عَبْدِ الْمَلِكِ بْنِ مَرْوَانَ فِي سَمَرَةَ عُلَمَاءُ كَثِيرُونَ مِنَ الْعَرَبِ، فَذَكَرُوا بِيُوتَاتِ الْعَرَبِ، فَاتَّفَقُوا عَلَى خَمْسَةِ أَبْيَاتٍ، بَيْتُ بَنِي مُعَاوِيَةَ الْأَكْرَمِينَ فِي كِنْدَةَ، وَبَيْتُ بَنِي جُثَمِ بْنِ بَكْرِ فِي تَغْلِبَ، وَبَيْتُ ابْنِ ذِي الْجَدَّيْنِ فِي بَكْرٍ، وَبَيْتُ زُرَّارَةَ بْنِ عُدَسٍ فِي تَمِيمٍ، وَبَيْتُ بَنِي بَدْرِ فِي قَيْسٍ. وَفِيهِمُ الْأَحْرَزُ بْنُ مُجَاهِدِ التَّغْلِبِيِّ، وَكَانَ أَعْلَمَ الْقَوْمِ، فَجَعَلَ لَا يَخُوضُ مَعَهُمْ فِيمَا يَخُوضُونَ فِيهِ، فَقَالَ لَهُ عَبْدُ الْمَلِكِ: مَالِكُ يَا أَحْرِيزُ سَاكِنًا مِنْذُ اللَّيْلَةِ؟ فَوَاللَّهِ مَا أَنْتَ بِدُونَ الْقَوْمِ عِلْمًا؛ قَالَ: وَمَا أَقُولُ؟ سَبَقَ أَهْلَ الْفَضْلِ "فِي فَضْلِهِمْ أَهْلُ النِّقْصِ" فِي نِقْصَانِهِمْ، وَاللَّهُ لَوْ أَنَّ لِلنَّاسِ كَلِمَةً فَرَسًا سَابِقًا لَكَانَتْ غُرَّتُهُ بَنُو شَيْبَانَ، فَفِيمِ الْإِكْتَارِ. وَقَدْ قَالَتِ الْمُسَيْبُ بْنُ عَلَسٍ:

وَشَيْبَانَ إِنْ عَنَبْتَ تُعْتَبِ
وَأَحْلَامُهُمْ مِنْهَا أَعْدَبِ
وَتُرْبُ قُبُورِهِمْ أَطِيبِ

تَبَيَّتِ الْمُلُوكُ عَلَى عُنْبِهَا
فَكَا لَشُهْدُ بِالرَّاحِ أَخْلَاقُهُمْ
وَكَالْمِسْكِ تُرْبُ مَقَامَاتِهِمْ

بيوتات مضر وفضائلها

قال النبي صلى الله عليه وسلم، وسئل عن مضر "فقال": كِنَانَةٌ حُمُجْمَتُهَا وَفِيهَا الْعَيْنَانِ، وَأَسَدٌ لِسَائِهَا وَتَمِيمٌ كَاهِلُهَا. وَقَالُوا: بَيْتُ تَمِيمِ بَنُو عَبْدِ اللَّهِ بْنِ دَارِمٍ، وَمَرْكَزُهُ بَنُو زُرَّارَةَ، وَبَيْتُ قَيْسِ فَزَارَةَ، وَمَرْكَزُهُ بَنُو بَدْرِ "بَنُ عَمْرُو"، وَبَيْتُ بَكْرِ بْنِ وَائِلِ شَيْبَانَ، وَمَرْكَزُهُ بَيْتُ بَنِي ذِي الْجَدَّيْنِ.

وقال معاوية للكَلْبِيِّ حين سأله عن أخبار العرب، قال: أخبرني عن أعز العرب؛ فقال: رجل رأته بباب قُبته فَقسَّم الفيء بين الحليين أسد وغطفان معاً؛ قال: ومن هو؟ قال: حصن بن حذيفة بن بدر. قال: فأخبرني عن أشرف بيت في العرب؟ قال: والله إني لأعرفه وإني لأبغضه؛ قال: ومن هو؟ قال: بيت زُرارة بن عُدس. قال: فأخبرني عن أفصح العرب؟ قال: بنو أسد. والمجتمع عليه عند أهل النسب، وفيما ذكره أبو عبيدة في التاج أن أشرف بيت في مضر غير مُدافع في الجاهلية بيت بهدلة بن عوف بن كعب ابن سعد بن زيد مناة بن تميم.

وقال النعمان بن المنذر ذات يومٍ وعنده وجوه العرب ووفود القبائل ودعا بُردى مُحرق، فقال: ليليس هذين البردين أكرمُ العرب وأشرفهم حسباً وأعزهم قبيلة، فأحجم الناس، فقال الأَحيمِر بن خَلق بن بهدلة بن عوف بن كعب بن سعد بن زيد مناة، فقال: أنا لهما، فانتزرت بأحدهما وارتدى بالآخر. فقال له النعمان: وما حجتك فيما ادّعت؟ قال: الشرف من نزار كلها في مضر، ثم في تميم، ثم في سعد، ثم في كعب، ثم في بهدلة، قال: هذا أنت في أهلك فكيف أنت في عشيرتك؟ قال: أنا أبو عشرة وعُم عشرة وأخو عشرة وخال عشرة؛ فهذا أنت في عشيرتك فكيف أنت في نفسك؟ فقال: شاهد العين شاهدي، ثم قام فوضع قدمه في الأرض، وقال: من أزالها فله من الإبل مائة. فلم يقم إليه أحدٌ ولا تعاطى ذلك. ففيه يقول الفرزدق:

غلامٌ إذا سبيل لم ينبهدل

فما تم في سعدٍ ولا آل مالك

بمجد معدّ والعديد المحصل

لهم وهب النعمان بُردى مُحرق

ومن بيت بهدلة بن عوف كان الزبيرقان بن بدر، وكان يُسمّى سعد "بن زيد مناة بن تميم: سعد" الأكرمين، وفيهم كانت الإفاضة في الجاهلية في عطار بن عوف بن كعب بن سعد، ثم في آل كرب بن صفوان بن عطار، وكان إذا اجتمع الناس أيام الحج بمحى لم يبرح أحدٌ حتى يجوز آل صفوان ومن ورث ذلك عنهم، ثم يمر الناس أرسالاً. وفي ذلك يقول: أوس بن معراء السعدي:

حتى يقال أجيزوا آل صفوانا

ولا يريمون في التعريف موقفهم

ولا تغيبن إلا عند أحرانا

ما تطلع الشمس إلا عند أولنا

وقال الفرزدق:

وإن نحن أومأنا إلى الناس وقفوا

ترى الناس ما سرنا يسرون خلفنا

بيوتات اليمن وفضائلها

قال النبي صلى الله عليه وسلم: إني لأجدُ نفس ربيكم من قبل اليمن. معناه والله أعلم: أن الله يُنفس عن المسلمين بأهل اليمن، يريد الأئصار، ولذلك تقول العرب: نفسي فلانٌ في حاجتي؛ إذا رَوَّح عنه بعض ما كان يُعَمُّه من أمر حاجته. وقال عبد الله بن عباس لبعض اليمانية: لكم من السماء نجمها ومن الكعبة ركبها ومن الشرف صميمه. وقال عمرو بن الخطاب: من أجود العرب؟ قالوا: حاتم طيء؛ قال: فمن فارسها؟ قالوا: عمرو بن معد يكرب؛ قال: فمن شاعرها؟ قالوا: امرؤ القيس بن حجر، قال: فأبي سيوفها أقطع؟ قالوا: الصمصامة؛ قال: كفي بهذا فخراً لليمن. وقال أبو عبيدة: ملوك العرب حمير، ومقاولها غسان ولخم، وعددها وفرساتها الأزدي، وسنائها مدحج، وريحانها كندة، وفريشها الأئصار. وقال ابن الكلبي: حمير ملوك وأرداف الملوك، والأزد أسد، ومدحج الطغان، وهمدان أحلاس الخيل، وغسان أرباب الملوك. ومن الأزد: الأئصار، وهم الأوس والخزرج ابنا حارثة بن عمرو بن عامر، وهم أعز الناس أنفسهم وأشرفهم همما، لم يؤدوا إتاوة قط إلى أحد من الملوك. وكتب إليهم أبو كرب ثبج الآخر يستدعيهم إلى طاعته ويتوعدهم إن لم يفعلوا أن يعزّوهم، فكتبوا إليه:

ومكانه بالمنزل المتذل

العبدُ تبعكم يريد قتالنا

عص الرسول يبظر أم المرسل

إنا أناس لا ينام بأرضنا

قال: فغزاهم أبو كَرَب، فكانوا يُحاربونه بالتهار ويُقروونه بالليل، فقال أبو كَرَب: ما رأيتُ قوماً أكرمَ من هؤلاء، يُحاربوننا بالتهار، ويُخرجون لنا العشاء بالليل، آرتحلوا عنهم، فارتحلوا. ابن لهيعة عن ابن هُبيرة عن علقمة ابن وَعلة عن ابن عباس: أن رسول الله صلى الله عليه وسلم سُئل عن سبِّ ما هو، أبلد أم رجل أم امرأة؟ فقال: بل رجلٌ وُلد له عشرة فسكن اليمن منهم ستة والشام أربعة، أما اليمانيون فكنندة ومدحج والأزد وأنمار وحمير والأشعريون وأما الشاميون فلنخم وجذام وغسان وعاملة.

ابن لهيعة قال: كان أبو هُريرة إذا جاء الرسول سألته ممن هو؟ فإذا قال: من جذام، قال: مرحباً بأصحاب موسى وقوم شعيب. ابن لهيعة عن بكر بن سَوادة قال: أتى رجلٌ من مهرة إلى علي بن أبي طالب، قال: ممن أنت؟ قال: من مهرة، قال: "وأذكرُ أخا عادٍ إذ أنذرَ قومَهُ بالأحقافِ". وقال ابن لهيعة: قَبْرُ هُودٍ فِي مَهْرَةَ.

تفسير القبائل والعمائر والشعوب

قال ابن الكلبي: الشعب أكبر من القبيلة ثم العمارة ثم البطن ثم الفخذ ثم العشيبة ثم الفصيصة. وقال غيره: الشعوب العجم والقبائل العرب، وإنما قيل للقبيلة قبيلة لتقابلها، وتناظرها، وأن بعضها يكافئ بعضها. وقيل للشعب شعب لأنه انشعب منه أكثر مما انشعب من القبيلة، وقيل لها عمائر، من الاعتمار والاجتماع، وقيل لها بطون، لأنها دون القبائل، وقيل لها أفخاذ، لأنها دون البطون، ثم العشيبة، وهي رهط الرجل، ثم الفصيصة، وهي أهل بيت الرجل خاصة. قال تعالى: "وفصيصة التي تئوبه". وقال تعالى: "وأندر عشيرتك الأقرين".

تفسير الأرحاء والجماحم - وقال أبو عبيدة في التاج: كانت أرحاء العرب سباً وجماحمها ثمانية، فالأرحاء الست، مخصر منها اثنتان، ولربيعه اثنتان. ولليمن اثنتان؛ واللذان في مضر تميم بن مر وأسد بن خزيمه، واللذان في اليمن كلب ابن وبرة وطيب بن أدد، وإنما سُميت هذه أرحاء لأنها أحرزت دوراً ومياهاً لم يكن للعرب مثلها. ولم تَبْرَحْ من أوطانها ودارت في دورها كالأرحاء على أقطابها، إلا أن ينتجع بعضها في البرحاء وعام الجذب، وذلك قليل منهم. وقيل للجماحم جماحم لأنها يتفرع من كل واحدة منها قبائل اكتفت بأسمائها دون الانتساب إليها، فصارت كأنها حسد قائم وكل عضو منها مكنت باسمه معروف بموضعه، والجماحم ثمان: فاثنتان منها في اليمن، واثنتان في ربيعة، وأربع في مضر. فالأربع التي في مضر: اثنتان في قيس واثنتان في خندف، ففي قيس: غطفان وهوازن، وفي خندف: كنانة وتميم، واللذان في ربيعة: بكر ابن وائل وعبد القيس بن أقصى، واللذان في اليمن: مدحج، وهو مالك بن أدد ابن زيد بن كهلان بن سبأ، وقضاعه بن مالك بن زيد بن مالك بن حمير بن سبأ. ألا ترى أن بكرًا وتغلب ابني وائل قبيلتان متكافئتان في القدر والعدد فلم يكن في تغلب رجال شهرت أسماءهم حتى انتسب إليهم واستجزئ بهم عن تغلب، فإذا سألت الرجل من بني تغلب لم يستجزئ حتى يقول تغلبي. ولبكر رجال قد اشتهرت أسماءهم حتى كانت مثل بكر، فمنها شيبان وعجل ويشكر وقيس وحنيفة وذهل، ومثل ذلك عبد القيس، ألا ترى أن عزة فوقها في النسب ليس بينها وبين ربيعة إلا أب واحد، عزة بن أسد بن ربيعة فلا يستجزئ الرجل منهم إذا سئل أن يقول عزي؟ والرجل من عبد القيس ينتسب شيباناً وجرمياً وبكرياً. ومثل ذلك أن ضبة بن أد، عم تميم، فلا يستجزئ الرجل منهم أن يقول ضبي، والتميمي قد ينتسب فيقول منقري وهجيمي وطهوي ويربوعي ودارمي وكلبي، وكذلك الكناني ينتسب فيقول ليثي ودؤلي وضمري وفراسي، وكل ذلك مشهور معروف، وكذلك العطفاني ينتسب فيقول عبسي ودؤباني وفزاري ومرّي وأشجعي وبغيضي. وكذلك هوازن منها ثقيف والأعجاز وعمار بن صعصعة وقشير وعقيل وجعدة، وكذلك القبائل من يمن التي ذكرنا، فهذا فرق ما بني الجماحم وغيرها من القبائل، والمعنى الذي به سميت جماحم. وجمرات العرب أربعة وهم: بنو تميم بن عامر بن صعصعة وبنو الحارث بن كعب وبنو ضبة وبنو عبس بن بغيض، وإنما قيل لها الجمرات لاجتماعهم، والجمرة الجماعة، والتجمير التجميع.

أسماء ولد نزار

قال أبو عبد الله محمد بن عبد السلام الحُشَنِي: لما احتضر نزار بن معدّ ابن عدنان ترك أربعة بنين: مُضَرَّ ورَبِيعَةَ وأَمَّارَ وإيادَ، وأوصَى أن يُقسَمَ ميراثهم بينهم سَطِيحُ الكاهن. فلما مات نزار صَفَّهُم سَطِيحٌ بين يديه، ثم أعطاهم على الفِرَاسَةِ، فأعطى ربيعةَ الحَيْلَ، فيقال له ربيعةُ الفَرَسُ، وأعطى مُضَرَ الناقَةَ الحمراءَ، فيقال له مُضَرُ الحَمْرَاءِ. وأعطى أَمَّاراً الحِمَارَ، وأعطى إياداً أثاثَ البيت. قال: فقيل لسَطِيحٍ: من أين عَلِمْتَ هذا العِلْمَ؟ قال سَمِعْتُهُ من أخي حين سَمِعَهُ من موسى يومَ طورِ سيناء. الأصمعيّ قال: أخبرني شيخٌ من تَغْلِبَ، قال: أرَدَفني أبي، فلما أَصْحَرَ رَفَعَ عَقبَرتَه فقال:

به بيتها ألا تحاذر رامياً

وأدرك روقاها الغصون الدوانيا

تطلع ذات الخذر تدعو الجواريا

رأت سِدْرَةَ مَنْ سِدْرٍ حَوْمَلٍ فابْتَنَّتْ

إذا هي قامت فيه قامت ظليلاً

تطلع منه بالعشي وبالضحى

ثم قال: أتدري من قائل هذه الأبيات يا بُني؟ قلت: لا أدري؛ قال: قالها ربيعةُ بن نزار، فقلت: وما يَصِفُ؟ قال: البقرة الوحشية.

أنساب مضر

ولد مضر بن نزار إلياس والناس، وهو عَيْلان، وهو الرباب بنت حَيْدَةَ بن معدّ. فولد الناس، الذي هو عَيْلان بن مُضَرَ، قَيْسَ بن عَيْلان بن مُضَرَ، وولد إلياس بن مُضَرَ عَمراً، وهو مُدْرِكَةُ، وعامراً، وهو طابخة، وعميراً وهو القَمْعَةُ. ويقال إن القَمْعَةُ هو الجَزْعَةُ، وأمهم خندف، وهي كَيْلَى بنت خُلوان بن عمران بن الحاف بن قضاعة، فجميع ولد إلياس بن مُضَرَ بن نزار من خندف، ولذلك يُقال لهم خندف، لأنها أمهم وإليها يُنسبون. فجميع ولد مُضَرَ بن نزار قيس وخندف. ومن بطون خندف: بنو مُدْرِكَةَ بن إلياس بن مُضَرَ، وهم هُنَيْلُ بن مُدْرِكَةَ، وكِنانة بن خُزَيْمَةَ بن مُدْرِكَةَ، وأسد بن خُزَيْمَةَ بن مُدْرِكَةَ، والهون بن خُزَيْمَةَ بن مُدْرِكَةَ، وهم إخوة أسد. ومن بني طابخة بن إلياس بن مُضَرَ، ضبة بن أدبن طابخة، ومُزَيْنَةُ، وهما بنو عمرو بن أدبن طابخة، نُسبوا إلى أمهم مُزَيْنَةُ بنت كَلْبِ بن وَبْرَةَ، والرباب، بنو أدبن طابخة، وهم عَدِيّ وتَيْمٌ وَنُورٌ وَعُكْلٌ، وإنما سُمِّيَتِ الرباب لأنها اجتمعت وتحالفت فكانت مثل الربابة. ويقال إهم كانوا إذا تحالفوا وضعوا أيديهم في حَفْنَةٍ فيها رُبّ. وصُوفَةُ، وهو الرُّبَيْطُ بن العوث بن أدبن طابخة، وكانوا أصحابَ الإجازة، ثم انتقلت في بني عطارذ بن عوف بن كعب بن سعد بن زبد مَناة بن تميم، و تميم ابن مرّ بن أد ابن طابخة. فجميع قبائل مُضَرَ تجتمعها قَيْسٌ وخندف، وقد تنسب ربيعة في مُضَرَ وإمامهم إخوة مُضَرَ، لأن ربيعة ابن نزار ومُضَرَ ابن نزار.

بطون هذيل وجماهيرها

منهم لَحْيَانُ بن هُذَيْلٍ، بَطْنُ: وخنّاعة بن سعد بن هُذَيْلٍ، بَطْنُ، وحرِيث بن سعد بن هُذَيْلٍ، بَطْنُ، وصاهلة بن كاهل بن الحارث بن سعد بن هُذَيْلٍ، بَطْنُ، وصُبح بن كاهل، بَطْنُ، وكعب بن كاهل، بَطْنُ. فمن بني صاهلة: عبد الله بن مسعود، صاحب رسول الله صلى الله عليه وسلم شهد بدرًا. ومن بني صُبح بن كاهل: أبو بكر الهذليّ الفقيه، ومنهم: صخر بن حبيب الشاعر، الذي يقال له صخر العيّ، وأبو بكر الشاعر، واسمه ثابت بن عبد شمس، ومنهم: أبو ذؤيب الشاعر، وهو خُوَيْلِدُ بن خالد. وبُطون هُذَيْلٍ كلّها لا تنتسب إلى شيء منها، وإنما تنتسب إلى هُذَيْلٍ لأنها ليست جُمُحمة.

بطون كنانة وجماهيرها

كنانة بن خُزَيْمَةَ بن مُدْرِكَةَ، منهم: قُريش، وهم بنو النَّضْرِ بن كِنانة، ومنهم: بكر بن عبد مَناة، بَطْنُ، وجندع بن ليث بن بكر بن عبد مَناة، بَطْنُ، ومنهم: نصر بن سيار صاحب خراسان، وغفار بن مُلَيْلُ بن صَمْرَةَ، بَطْنُ، ومنهم: أبو ذر الغفاريّ صاحب النبي عليه الصلاة والسلام، ومُدَلج بن مَرّة بن عبد مَناة، بَطْنُ، ومنهم: سُراقَةُ "بن مالك" بن جُعْشَمِ المَدَلِجِيّ الذي تصوّر إبليس في صورته يوم بدر، وقال لقريش: إني جار لكم، وبنو مالك من

كِنَانَةَ، بَطْنٌ، ومنهم: جَدَلُ الطَّعَانِ، وهو عَلَقْمَةُ بنِ أَوْسِ بنِ عَمْرٍو بنِ ثَعْلَبَةَ بنِ مَالِكِ بنِ كِنَانَةَ، ومن ولدِ جَدَلِ الطَّعَانِ: رَبِيعَةُ بنِ مُكْدَمٍ، وهو أَشَجَعُ بَيْتِ فِي الْعَرَبِ، وفيهم يقول عليُّ بنُ أَبِي طَالِبٍ لِأَهْلِ الْكُوفَةِ: وَدَدْتُ وَاللَّهِ لَوْ أَنَّ لِي بِمِائَةِ أَلْفٍ مِنْكُمْ ثَلَاثِمِائَةَ مِنْ بَنِي فِرَاسٍ بنِ غَنَمِ بنِ ثَعْلَبَةَ، وَبَنُو الْحَارِثِ بنِ مَالِكِ بنِ كِنَانَةَ، مِنْهُمْ: الْقَلَمَسُ، وهو أَبُو ثَمَامَةَ الَّذِي كَانَ يُنْسَى الشُّهُورَ حَتَّى أَنْزَلَ اللَّهُ فِيهِ: "إِنَّمَا النِّسْيَاءُ زِيَادَةٌ فِي الْكُفْرِ" وَبَنُو مُحَمَّدِجِ بنِ عَامِرِ بنِ ثَعْلَبَةَ، بَطْنٌ: وَبَنُو ضَمْرَةَ بنِ بَكْرِ، فِي كِنَانَةَ، وَمِنْهُمْ: الْبِرَاضُ بنِ قَيْسِ الَّذِي يُقَالُ فِيهِ: أَفْتَكُ مِنَ الْبِرَاضِ؟ وَعُمَارَةُ بنِ مَخَشِيٍّ الَّذِي عَاقَدَ النَّبِيُّ عَلَيْهِ الصَّلَاةَ وَالسَّلَامَ عَلَى بَنِي ضَمْرَةَ.

وَمِنْ بَنِي كِنَانَةَ: الْأَحَابِيشُ: مَبْدُولٌ وَعَوْفٌ وَأَحْمَرٌ وَعَوْنٌ، وَهَمَّ بَنُو الْحَارِثِ بنِ عَبْدِ مَنَاةَ، وَمِنْهُمْ: الْحُلَيْسُ بنِ عَمْرٍو بنِ الْحَارِثِ، وَهُوَ رَئِيسُ الْأَحَابِيشِ يَوْمَ أُحُدٍ، وَبَنُو سَعْدِ بنِ لَيْثٍ، وَمِنْهُمْ: أَبُو الطَّفِيلِ عَامِرُ بنِ وَائِلَةَ، وَوَائِلَةُ بنِ الْأَسْقَعِ، كَانَتْ لَهُ صُحْبَةٌ مَعَ النَّبِيِّ عَلَيْهِ الصَّلَاةُ وَالسَّلَامُ.

بطون أسد وجماهيرها

أَسَدُ بنِ خُزَيْمَةَ بنِ مُدْرِكَةَ بنِ إِيَّاسِ بنِ مُضَرَ، مِنْهُمْ دُوْدَانُ الَّذِي يَقُولُ فِيهِ امْرُؤُ الْقَيْسِ:

ما غرركم بالأسد بالباسل

قولاً لدودان عبيد العصا

وَمِنْهُمْ: كَاهِلُ بنِ عَمْرٍو بنِ صَعْبٍ، وَحُلْمَةُ. فَأَمَّا بَنُو حُلْمَةَ فَأَفْنَاهُمْ امْرُؤُ الْقَيْسِ ابْنُ حُجْرٍ بِأَبِيهِ، وَمِنْهُمْ: غَنَمُ بنِ دُوْدَانَ وَثَعْلَبَةُ بنِ دُوْدَانَ، وَمِنْهُمْ: قَعِيْسُ بنِ الْحَارِثِ بنِ ثَعْلَبَةَ بنِ دُوْدَانَ بنِ أَسَدٍ، وَمِنْهُمْ: بَنُو الصَّيْدَاءِ بنِ عَمْرٍو بنِ قَعِيْسٍ، وَمِنْهُمْ فَقْعَسُ بنِ طَرِيفِ بنِ عَمْرٍو بنِ قَعِيْسٍ، وَمِنْهُمْ: جَحْوَانُ بنِ فَقْعَسٍ وَدِتَّارٌ وَنَوْفَلٌ وَمُنْفَذٌ "وهو" حَدَلُمُ بنُو فَقْعَسِ. فَمِنْ بَنِي جَحْوَانَ: طَلِيْحَةُ بنُ حُوَيْلِدِ الْأَسَدِيِّ، وَمِنْ بَنِي الصَّيْدَاءِ: شَيْخُ بنِ عُمَيْرَةَ الْقَائِدِ، وَالصَّامِتُ بنِ الْأَقْفَمِ الَّذِي قَتَلَ رَبِيعَةَ بنِ مَالِكِ، أَبُو لَيْبِدِ بنِ رَبِيعَةَ الشَّاعِرِ، يَوْمَ ذِي عَلَقٍ. وَفِي بَنِي الصَّيْدَاءِ يَقُولُ الشَّاعِرُ:

إنما يفعل هذا بالذليل

يا بني الصميداء ردوا فرسي

وَمِنْ بَنِي قَعِيْسٍ: الْعَلَاءُ بنِ مُحَمَّدِ بنِ مَنظُورٍ، وَلي شُرْطَةُ الْكُوفَةِ، وَمِنْهُمْ: ذُوْأَبُ بنِ رَبِيعَةَ الَّذِي قَتَلَ عُنَيْبَةَ بنِ الْحَارِثِ بنِ شَهَابِ الْيَرْبُوعِيِّ، وَمِنْهُمْ: قَبِيصَةُ بنِ بُرْمَةَ، وَمِنْهُمْ: بِشْرُ بنِ أَبِي خَازِمِ الشَّاعِرِ. وَمِنْ بَنِي سَعْدِ بنِ ثَعْلَبَةَ ابْنِ دُوْدَانَ: سُؤَيْدُ بنِ رَبِيعَةَ، وَعَبِيدُ بنِ الْأَبْرَصِ، وَعَمْرُو بنِ شَأْسُ أَبُو عِرَارٍ، وَالْكَمَيْتُ بنِ زَيْدٍ، وَمِنْهُمْ: ضِرَارُ بنِ الْأَزُورِ صَاحِبُ الْمُخْتَارِ، وَمِنْهُمْ: بَنُو غَاضِرَةَ بنِ مَالِكِ بنِ ثَعْلَبَةَ بنِ دُوْدَانَ، وَمِنْ بَنِي غَاضِرَةَ: زُرُّ بنِ حُبَيْشِ الْفَقِيهِ، وَمِنْهُمْ الْحَسْحَاسُ بنِ هِنْدٍ، الَّذِي يُنْسَبُ إِلَيْهِ عَبْدُ بَنِي الْحَسْحَاسِ، وَمِنْ أَسَدٍ: بَنُو غَنَمِ بنِ دُوْدَانَ، وَمِنْهُمْ: زَيْنَبُ بنتِ جَحْشِ زَوْجِ النَّبِيِّ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ وَمِنْهُمْ: أَيْمَنُ بنِ خُرَيْمِ الشَّاعِرِ، وَالْأَفَيْشِرُ الشَّاعِرِ، وَمِنْ بَنِي كَاهِلِ بنِ أَسَدٍ: عَلْبَاءُ بنِ الْحَارِثِ، الَّذِي يَقُولُ فِيهِ امْرُؤُ الْقَيْسِ:

ولو أدركته صفر الوطاب

وأقلتهنّ علباء جريضا

الهُونُ بنِ حَزِيمَةَ بنِ مُدْرِكَةَ - مِنْهُمْ الْقَارَةَ، وَهِيَ عَائِدَةٌ وَبَيْتُ بَنِي الْهُونِ ابْنِ خُزَيْمَةَ بنِ مُدْرِكَةَ، وَالْقَارَةُ أَرْمَى حَيًّا فِي الْعَرَبِ، وَلَهُمْ يُقَالُ:

قد أنصف القارة من رامها

فَهَذِهِ قِبَائِلُ بنِ مُدْرِكَةَ بنِ إِيَّاسِ، وَهِيَ: هَذِيلُ بنِ مُدْرِكَةَ، وَكِنَانَةُ بنِ خُزَيْمَةَ بنِ مُدْرِكَةَ، وَأَسَدُ بنِ خُزَيْمَةَ بنِ مُدْرِكَةَ، وَالهُونُ بنِ خُزَيْمَةَ بنِ مُدْرِكَةَ.

وَمِنْ قِبَائِلِ طَابِجَةَ بنِ إِيَّاسِ بَطُونِ ضَبَّةَ وَجَمَاهِيرِهَا: ضَبَّةُ بنِ أَدِّ بنِ طَابِجَةَ ابْنِ إِيَّاسِ. وَكَذَلِكَ ضَبَّةُ بنِ أَدِّ سَعْدًا وَسَعِيدًا وَبِاسِلًا، وَلَهُ الْمَثَلُ الَّذِي يُقَالُ فِيهِ: أَسْعَدُ أَمْ سَعِيدٌ. فَقَتَلَ سَعِيدٌ وَلَمْ يَعْقِبْ، وَلَحِقَ بِاسِلٌ بِأَرْضِ الدَّيْلَمِ فَتَزَوَّجَ امْرَأَةً مِنْ أَرْضِ الْعَجَمِ، فَوَلَدَتْ لَهُ الدَّيْلَمِ. فَيُقَالُ إِنْ بِاسِلٌ بنِ ضَبَّةَ أَبُو الدَّيْلَمِ. وَيَا ذَلِكَ يَقُولُ أَبُو بَجْرٍ يَعِيبُ بِهِ الْعَرَبُ:

وبينكم قربي وبين البرابر

زعمتم بأن الهند أولاد خندف

وبرجان من أولاد عمرو بن عامر

وديلم من نسل ابن ضبّة باسل

فقد صار كلُّ النَّاسِ أَوْلَادَ واحدٍ

وصاروا سِوَاءَ فِي أَصُولِ العنَاصِرِ

بنو الأصفر الأملاك أكرمُ منكمُ

وأولَى بقرِبانًا ملوكُ الأكاسِرِ

فمن بني سَعْدِ بنِ ضَبَّةَ: بنو السَّيِّدِ بنِ مالِكِ بنِ بَكْرِ بنِ سَعْدِ بنِ ضَبَّةَ، بَطْنِ: وبنو كُوزِ بنِ كَعْبِ بنِ بَحَالَةَ بنِ ذَهْلِ بنِ مالِكِ بنِ بَكْرِ بنِ سَعْدِ بنِ ضَبَّةَ، بَطْنِ، ومنهم: عبدُ مناةَ بنِ سَعْدِ بنِ ضَبَّةَ، وبنو ثَعْلَبَةَ بنِ سَعْدِ بنِ ضَبَّةَ. فمن بني كُوزِ: المُسَيَّبُ بنُ زُهَيْرِ بنِ عَمْرُو، ومن بني زِيدِ: "ضَرَارُ بنُ" عمرو بنِ مالِكِ بنِ زَيْدِ بنِ كَعْبِ، وكان سَيِّدًا مُطَاعًا، ووُلِدَ له عبدُ الحارثِ وحِصِينُ وعَمْرُو وأدهمُ ودُلْجَةَ وعامرُ وقَبِيصَةُ وحَنْظَلَةُ وحِيارُ وحارثُ وقَيْسُ وشَيْبَةُ ومُنْدَرُ، كلُّ هؤلاءِ شَرِيفٌ قد رَأَسَ ورَبَعَ - يعني قد أخذ المِرْبَاعَ - وكان الرَّئيسُ إذا غَنِمَ الجَيْشُ معه أخذ الرُّبْعَ ومن ولد الحُصَيْنِ بنِ ضَرَارِ: زَيْدُ الفِوَارِسِ، وله يقولُ الفَرَزْدَقُ:

زَيْدُ الفِوَارِسِ وابنِ زَيْدٍ مِنْهُمْ

وأبو قَبِيصَةَ والرَّئيسُ الأوَّلُ

الرَّئيسُ الأوَّلُ: مُحَلَّمُ بنُ سُويَطِ، رَعَ ضَبَّةَ وتَمِيمَ والرِّبابَ، ومن بني زَيْدِ الفِوَارِسِ: ابنُ شُبْرَمَةَ القَاضِي، ومن بني عاتِذَةَ بنِ مالِكِ: شَرْحَافُ بنُ المَثَلَمِ الذي قَتَلَ عُمارةَ بنِ زِيَادِ العَبْسِيِّ، ومن السَّيِّدِ بنِ مالِكِ: زِيدُ بنِ حُصَيْنِ، وليَ أَصْبَهانَ، وعَبْدُ اللهِ بنُ عُلْقَمَةَ الشَّاعِرِ الجاهِلِيّ، ومنهم عُمَيْرَةُ بنُ اليَثْرِيّ، قَاضِي البَصْرَةِ، وهو الذي قَتَلَ عِلْبَاءَ وهنَّدَ الجَمَلِيّ، وقال في قَتْلِهِما يومَ الجَمَلِ:

إني أنا عُمَيْرَةُ بنُ اليَثْرِيّ

قَتَلْتُ عِلْبَاءَ وَعِنْدَ الجَمَلِيّ

ومن بني ثَعْلَبَةَ "بنُ" سعدِ بنِ ضَبَّةَ: عاصِمُ بنُ خَلِيفَةَ بنِ يَعْقَلِ الذي قَتَلَ بِسْطامَ بنِ قَيْسِ.

مُزِينَةُ - مُزِينَةُ بنِ عَمْرُو بنِ أَدِّ بنِ طابِخَةَ بنِ إِيَّاسِ، نُسِبوا إلى أُمِّهِمُ مُزِينَةُ بنتِ كَلْبِ بنِ وَبْرَةَ. منهم، التَّعَمَّانُ بنُ مُقَرَّنِ، ومنهم: مَعْقَلُ بنُ سِنانِ "بنِ نُبَيْشَةَ" صَاحِبِ النَّبِيِّ عليه الصَّلَاةُ والسَّلَامُ، وزُهَيْرُ بنُ أَبِي سُلَيْمِ الشَّاعِرِ، وَمَعْنُ بنُ أَوْسِ الشَّاعِرِ، ومنهم إِيَّاسُ بنُ مُعاوِيَةَ القَاضِي. وإِثْمًا مُزِينَةُ كَلَّها بنو عُثْمَانَ وأَوْسِ ابني عَمْرُو بنِ أَدِّ بنِ طابِخَةَ. وفي ذلك يقولُ كَعْبُ بنُ زُهَيْرِ:

متى أَدْعُ في أَوْسِ وَعُثْمَانَ تَأْتِنِي

مَساعِيرُ قَوْمِ كَلَّهِمُ سادَةَ دِعَمِ

هم الأَسَدُ عندِ البَأْسِ والحَشْدِ في القَرَى

وهم عندِ عَقْدِ الجارِ يُوفونَ بالذَّمِّ

الرِّبابُ - وهم: عَدِيٌّ وتَيْمٌ وثَوْرٌ وَعُكْلٌ. وإِثْمًا سُمِّيَتِ هذه القبائلُ الرِّبابُ لأنَّهم تَحالَفوا فَوَضَعوا أَيْديهِمُ في حَفَنَةِ فِئِها رُبًّا. وقال بَعْضُهُم: إِثْمًا سُمُّوا الرِّبابُ لأنَّهم إذا تَحالَفوا جَمَعوا أَفْداحًا، من كلِّ قَبِيلَةٍ مِنْهُمْ قَدَحٌ، وجَعَلوها في قِطْعَةِ أَدَمِ، وتُسمَّى تلكِ القِطْعَةُ الرُّبَّةَ، فُسِّمُوا بِذلكِ الرِّبابِ. فمن بني عَدِيٍّ بنِ عَبدِ مَناةَ بنِ أَدِّ بنِ طابِخَةَ: ذُو الرُّمَةِ الشَّاعِرِ، وهو غَيْلانُ بنُ عَقْبَةَ. ومن بني تَيْمِ بنِ عَبدِ مَناةَ: عُمَرُ بنُ لَجَأِ الشَّاعِرِ الذي كان يُهاجِي حَرِيرًا. ومن بني عُكْلِ بنِ عَبدِ مَناةَ: النَّمِرُ بنُ تَوَلِّبِ الشَّاعِرِ. ومن بني ثَوْرِ بنِ عَبدِ مَناةَ: سَفِيانُ الثَّوْرِيّ الفَقِيه. فهذه الرِّبابُ، وهم بنو عَبدِ مَناةَ.

صُوفَةُ - هم بنو العَوْتِ بنِ مُرِّ بنِ أَدِّ بنِ طابِخَةَ، وفيهم كانت الإجازَةُ في الجاهِلِيَّةِ، هم كانوا يَدْفَعونَ بالناسِ من عَرَقاتِ، ثم انتقلت الإجازَةُ في بني عَطَّارِدِ بنِ عَوْفِ بنِ كَعْبِ بنِ سَعْدِ بنِ زَيْدِ مَناةَ بنِ تَمِيمِ. فمن العَوْتِ: شَرْحَبِيلُ بنُ عَبدِ العُزَّى الذي يُقالُ له: شَرْحَبِيلُ بنُ حَسَنَةَ.

بطون تميم وجماهيرها

تَمِيمُ بنُ مُرِّ بنِ أَدِّ بنِ طابِخَةَ بنِ إِيَّاسِ بنِ مُضَرَ. كان لَتَمِيمِ ثلاثةُ أَوْلادٍ: زَيْدُ مَناةَ وعَمْرُو والحارثُ بنو تَمِيمِ.

فمن الحارثِ بنِ تَمِيمِ: شَقْرَةَ، واسمُه مُعاوِيَةَ بنِ الحارثِ بنِ تَمِيمِ، وإِثْمًا قِيلَ له شَقْرَةَ لَبِيَّتِ قاله وهو:

وقد أَحْمَلُ الرُّمَحَ الأصمَّ كُعُوبَهُ

به من دِماءِ النُّومِ كالشَّقَرَاتِ

والشَّقَرَات: هي شَقَائِقِ الثُّعْمَان، شَبَّه الدَّمَاءُ بِهَا فِي حُمُرَتِهَا، وَمِنْ بَنِي شَقِرَةَ الْمُسَيَّبِ بْنِ شَرِيكَ الْفَقِيهِ، وَنَصَرَ بْنِ حَرْبِ بْنِ مَخْرَمَةَ.
 وَمِنْ عَمْرٍو بْنِ تَمِيمٍ: أُسَيْدُ بْنُ عَمْرٍو بْنِ تَمِيمٍ، وَمِنْهُمْ أَكْثَمُ بْنُ صَيْفِي حَكِيمِ الْعَرَبِ، وَأَبُو هَالَةَ زَوْجُ "حَدِيجَةَ زَوْجِ" النَّبِيِّ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ، وَأَوْسُ بْنُ حَجَرَ الْأَسِيدِيِّ الشَّاعِرِ، وَحَنْظَلَةُ بْنُ الرَّبِيعِ صَاحِبِ النَّبِيِّ عَلَيْهِ الصَّلَاةُ وَالسَّلَامُ، الَّذِي يُقَالُ لَهُ: حَنْظَلَةُ الْكَاتِبِ.
 بَنُو الْعَنْبَرِ بْنِ عَمْرٍو بْنِ تَمِيمٍ - مِنْهُمْ: سَوَّارُ بْنُ عَبْدِ اللَّهِ الْقَاضِي وَعُبَيْدُ اللَّهِ ابْنُ الْحَسَنِ الْقَاضِي، وَعَامِرُ قَيْسِ الرَّاهِدِ. وَمِنْهُمْ: بَنُو دُعَاةَ بِنْتِ مَعْنَجِ الَّتِي يُقَالُ فِيهَا: أَحْمَقُ مِنْ دُعَاةَ، وَهِيَ مِنْ إِيَادِ بْنِ نَزَارٍ، تَزَوَّجَهَا عَمْرُ بْنُ حَنْدَلِ بْنِ الْعَنْبَرِ، فَوُلِدَتْ لَهُ بَنُو الْمُحْجِمِ بْنِ عَمْرٍو بْنِ تَمِيمٍ، وَيُقَالُ لَهُمْ: الْحَبَالُ.
 بَنُو مَازِنِ بْنِ عَمْرٍو بْنِ تَمِيمٍ - مِنْهُمْ عَبَّادُ بْنُ أَحْضَرَ، وَحَاجِبُ بْنُ ذُبْيَانَ الَّذِي يَعْرِفُ بِحَاجِبِ الْفَيْلِ، وَمَالِكُ بْنُ الرَّيْبِ الشَّاعِرِ، وَمِنْهُمْ: قَطْرِيُّ بْنُ الْفُجَاءَةِ، صَاحِبِ الْأَزَارِقَةِ، وَسَلْمٌ وَأَخُوهُ هِلَالُ بْنُ أَحْوَزَ.
 الْحَبَّاطَاتُ - وَهُمْ بَنُو الْحَارِثِ بْنِ عَمْرٍو بْنِ تَمِيمٍ، وَذَلِكَ أَنَّ أَبَاهُمْ الْحَارِثُ أَكَلَ طَعَامًا فَحَبَّطَ "مِنْهُ، أَيْ وَرَمَ" بَطْنَهُ. مِنْهُمْ: عَبَّادُ بْنُ الْحُصَيْنِ، مِنْ فُرْسَانَ الْعَرَبِ، كَانَ عَلَى شَرْطَةِ مُصْعَبِ بْنِ الزُّبَيْرِ.

غَيَّلَانَ وَأَسْلَمَ وَحَرَمَازَ بْنَ "مَالِكِ" بْنِ عَمْرٍو بْنِ تَمِيمٍ - "فَمِنْ بَنِي غَيَّلَانَ: أَبُو الْجَرَبَاءِ، شَهِدَ يَوْمَ الْجَمَلِ مَعَ عَائِشَةَ، وَقُتِلَ يَوْمَئِذٍ. وَمِنْ بَنِي حَرَمَازَ: سَمُرَةُ بْنُ يَزِيدَ، كَانَ مِنْ رِجَالِ الْبَصْرَةِ فِي أَوَّلِ مَا نَزَلَهَا النَّاسُ".

بَنُو سَعْدِ بْنِ زَيْدِ مَنَاةَ بْنِ تَمِيمٍ - الْأَبْنَاءُ، وَهُمْ سِتَّةٌ مِنْ وَلَدِ سَعْدِ بْنِ زَيْدِ مَنَاةَ، يُقَالُ لَهُمْ: عَبْدُ شَمْسٍ وَمَالِكُ وَعَوْفٌ وَعُوَافَةُ وَجُشْمٌ وَ"كَعْبٌ". فَبَنُو سَعْدِ بْنِ زَيْدِ مَنَاةَ. وَأَوْلَادُ كَعْبِ بْنِ سَعْدِ يَسْمَوْنَ مُقَاعَسَ وَالْأَجَارِبَ إِلَّا عَمْرًا وَعَوْفًا ابْنَيْ كَعْبِ.

فَمِنْ بَنِي عَبْدِ شَمْسِ بْنِ سَعْدِ - ثَمِيلَةُ بْنُ مَرَّةَ، صَاحِبِ شَرْطَةِ إِبْرَاهِيمِ ابْنِ عَبْدِ اللَّهِ بْنِ الْحَسَنِ، وَإِيَّاسُ بْنُ قَتَادَةَ، حَامِلُ الدِّيَاتِ فِي حَرْبِ الْأَزْدِ لِتَمِيمٍ، وَهُوَ ابْنُ أُخْتِ الْأَحْنَفِ بْنِ قَيْسٍ، وَعَبْدَةُ بْنُ الطَّبِيبِ الشَّاعِرِ، وَ"و" حَمَّانُ وَهُوَ عَبْدُ الْعَزَّى بْنِ كَعْبِ بْنِ سَعْدِ.

الْأَجَارِبُ - هُمْ بَطْنَانِ فِي سَعْدِ، وَهُمْ: رِبِيعَةُ بْنُ كَعْبِ بْنِ سَعْدِ، وَبَنُو الْأَعْرَجِ ابْنِ كَعْبِ بْنِ سَعْدِ، وَفِيهِمْ يَقُولُ أَحْمَرُ بْنُ حَنْدَلِ:

يَلْحَقْنَا حَمَّانُ وَالْأَجَارِبُ

نُودَا قَلِيلًا تَلْحَقُ الْجَلَانِبُ

فَمِنْ بَنِي الْأَجَارِبِ: حَارِثَةُ بْنُ قَدَامَةَ، صَاحِبُ شَرْطَةِ عَلِيِّ بْنِ أَبِي طَالِبٍ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ، وَعَمْرُو بْنُ جُرْمُوزَ، قَاتِلُ الزُّبَيْرِ بْنِ الْعَوَّامِ.
 مُقَاعَسُ، وَهُوَ الْحَارِثُ بْنُ عَمْرٍو بْنِ كَعْبِ بْنِ سَعْدِ. وَمِنْ أَفْخَاذِ مُقَاعَسِ: مَنَقَرُ بْنُ عُبَيْدِ بْنِ مُقَاعَسِ، وَمِنْهُمْ: قَيْسُ بْنُ عَاصِمِ، سَيِّدُ الْوَابِرِ، وَعَمْرُو بْنُ الْأَهْتَمِ، وَخَالِدُ بْنُ صَفْوَانَ بْنِ عَمْرٍو بْنِ الْأَهْتَمِ، وَشَيْبِ بْنِ شَيْبَةَ بْنِ عَبْدِ اللَّهِ بْنِ عَمْرٍو بْنِ الْأَهْتَمِ. وَمِنْ بَنِي عُبَيْدِ بْنِ مُقَاعَسِ، وَهُمْ إِخْوَةُ مَنَقَرِ:
 الْأَحْنَفُ بْنُ قَيْسٍ، وَسَلَامَةُ بْنُ حَنْدَلِ، وَالسُّلَيْكُ بْنُ السُّلَيْكَةِ. رَجُلِي الْعَرَبِ. وَيُقَالُ لَهُ الرَّبَّالُ، لِأَنَّهُ كَانَ يُغَيِّرُ وَحْدَهُ، وَمِنْهُمْ عَبْدِ اللَّهِ بْنُ صَفَّارِ، الَّذِي تُنْسَبُ إِلَيْهِ الصُّفْرِيَّةُ، وَعَبْدُ اللَّهِ بْنُ إِبَاضِ، الَّذِي تُنْسَبُ إِلَيْهِ الْإِبَاضِيَّةُ. فَهَذِهِ مُقَاعَسُ وَجَمَاهِيرُهَا.
 بَنُو عَطَّارِدِ بْنِ عَوْفِ بْنِ كَعْبِ بْنِ سَعْدِ - مِنْهُمْ: كَرِبُ بْنُ صَفْوَانَ بْنِ حُبَابِ، صَاحِبِ الْإِفَاضَةِ الْإِفَاضَةَ الْحَاجِ، يَدْفَعُ بِهِمْ مِنْ عَرَفَاتِ، وَلَهُ يَقُولُ أَوْسُ بْنُ مَعْرَاءَ:

حَتَّى يُقَالَ أَجْبِزُوا آلَ صَفْوَانًا

وَلَا يَرِيمُونَ فِي التَّعْرِيفِ مَوْقِفَهُمْ

قُرَيْعُ بْنُ عَوْفِ بْنِ كَعْبِ بْنِ سَعْدِ - مِنْهُمْ الْأَضْبَطُ بْنُ قُرَيْعِ، رَيْسُ تَمِيمِ يَوْمَ مَيْطِ، وَبَنُو لُؤَى بْنِ أَنْفِ النَّاقَةِ الَّذِينَ مَدَّحَهُمُ الْحَطِيبَةُ، فَقَالَ فِيهِمْ:

وَمَنْ يُسَوِّي بِأَنْفِ النَّاقَةِ الذَّنْبَا

قَوْمٌ هُمْ الْأَنْفُ وَالْأَذْنَابُ غَيْرُهُمْ

وَمِنْهُمْ: أَوْسُ بْنُ مَعْرَاءَ الشَّاعِرِ، وَهَذَا أَشْرَفُ بَطْنِ فِي تَمِيمِ.

بَهْدَلَةُ بْنُ عَوْفِ بْنِ كَعْبِ بْنِ سَعْدِ - مِنْهُمْ الزُّبْرَقَانُ بْنُ بَدْرِ، وَاسْمُهُ حُصَيْنٌ، وَمِنْهُمْ: الْأَحْيَمِرُ بْنُ خَلْفِ بْنِ بَهْدَلَةَ، صَاحِبُ بُرْدِيٍّ مُحَرَّقٍ، وَالَّذِي يَقُولُ فِيهِ الْفَرَزْدَقُ:

وَيَا ابْنَةَ ذِي الْبُرْدَيْنِ وَالْفَرَسَ النَّهْدِ

فِيَا ابْنَةَ عَبْدِ اللَّهِ وَابْنَةَ مَالِكِ

جُشَم بن عَوْف بن كَعْب بن سَعْد - يقال لبني جُشَم وعُطارد وبَهْدلة: الجَذَاع.
 حَنْظَلَة بن مالك الأحمق بن زَيْد مَناة - البراجم حَمْسَة من بني حَنْظَلَة ابن مالك بن زَيْد مَناة وهم: غالب وعمرو وقَيْس وكُلْفَة "وظَلِيم" بنو حَنْظَلَة
 ابن مالك الأحمق بن زَيْد مَناة بن تميم، منهم: عُمَيْر بن ضَابِي الذي قَتله الحجاج.
 يربوع بن حَنْظَلَة بن مالك بن زيد مَناة بن تميم - من ولده: رِيَّاح بن يربوع بن حَنْظَلَة، منهم: عَتَّاب بن ورَقَاء الرِّيَّاحِي، إلى أصبهان وأحد أجواد
 الإسلام، ومَطَر بن ناجية، الذي غَلَب على الكوفة أيام ابن الأشعث. وسُحَيْم بن وثيل الشاعر، والحارث بن يزيد، صاحب الحسن بن علي، وأبو
 الهندي الشاعر، واسمه أزهَر بن عبد العزيز، ومَعْقِل بن قَيْس، صاحب علي بن أبي طالب رضي الله عنه، والأبَيْرد بن قُرَّة.
 عُدانة بن يربوع - منهم: وكيع بن أبي سُود، وحارثة بن بَدْر، وكان فارساً شاعراً.
 ثعلبة بن يربوع - منهم مالك ومُتَمِّم ابنا نُويرَة، وعُتَيْبَة بن الحارث بن شهاب، الذي يُقال له صَيَّاد الفوارس.
 بنو سَلِيط بن يربوع - منهم: المُساور بن رِثَاب.
 كَلْب بن يربوع - منهم: جرير بن الحُطَفي الشاعر.
 العَبْر بن يربوع - منهم: سَجَاع بنت أوس التي تَنبأت في تميم.
 زَيْد بن مالك وكَعْب الضَّرَاء بن مالك ويربوع بن مالك بن حَنْظَلَة ابن مالك بن زَيْد مَناة أمهم العَدَوِيَّة وبها يُعرفون، ويقال لهم بنو العَدَوِيَّة وطُهَيَّة،
 وهم بنو أبي سُود بن مالك وعَوْف بن مالك أمهم طُهَيَّة وبها يُعرفون ويقال لبني طُهَيَّة وبني العَدَوِيَّة الجَمَّار، ومن بني طُهَيَّة: بنو شَيْطَان.
 ومنهم دارم بن مالك بن حَنْظَلَة بن مالك بن زيد مَناة بن تميم - فولد دارم بن مالك: عبد الله ومُجاشع وسَدُوف وخَيْرِي ونَهْشَل وجرير وأبان
 "ومَناف".

فمن ولد عبد الله بن دارم - حاجب بن زُرارة بن عدس بن عبد الله بن دارم، وهو بَيْت بني تميم وصاحب القوس، ومحمد بن "جُبَيْر بن" عُطارد،
 وهَلَال بن وكيع بن "بِشْر".
 مُجاشع بن دارم - منهم: الفرزدق الشاعر، والأقرع بن حابس، وأعين ابن ضُبَيْعة بن عِقَال، والحتات بن يزيد، والحارث بن شريح بن زيد صاحب
 خُرَاسان، والبَعِيَت الشاعر، واسمه حَدَاش بن بِشْر، والأصْبَع بن بُبَاة، صاحب علي.
 نَهْشَل بن دارم - منهم: حازم بن خَزِيمَة، قائد الرُّشَيْد، وعَبَّاس بن مَسْعُود، الذي مَدَحَه الحُطَيْبَة، وكَثِير عَزَّة الشاعر، والأسود بن يَعْفَر الشاعر.
 أبان بن دارم - منهم: سَوْرَة بن بَحْر، كان فارساً، صاحب خُرَاسان وذو الخِرْق بن شَرِيح الشاعر.
 سدوس بن دارم - "وهؤلاء بادوا".

ورَبِيعَة بن مالك بن زيد مَناة، ورَبِيعَة بن حَنْظَلَة بن مالك بن زيد مَناة، ورَبِيعَة بن مالك بن حَنْظَلَة يُقال لهم الرِّبَاع. فَمِنْ رَبِيعَة بن حَنْظَلَة: أبو بلال
 الخارجي، واسمه مِرْدَاس بن جُدَيْر، ومن رَبِيعَة بن مالك بن زيد مَناة: عَلْقَمَة بن عَبْدَة الشاعر وأخوه شَأْس، ومن رَبِيعَة بن مالك بن حَنْظَلَة: الحُنَيْف
 بن السَّحْف جَشِيش بن مالك - وأمه حُطَي، على مثال حُبَلِي، وبها يُعرفون. منهم: حُصَيْن بن تميم، الذي كان على شرطة عبِيد الله بن زياد، ويقال
 جُشَيْش ورَبِيعَة ودارم وكعب بن مالك بن حَنْظَلَة بن مالك: الحِشَاب انقضى نسب الرِّبَاب وضَبَّة ومزينة وتميم

بطون قيس وجماهيرها

نسب قيس بن عيلان بن مضر - قيس بن الناس، وهو عيلان بن مضر. فَمِنْ بطون قيس: عَدُوَان وفَهْم ابنا عمرو بن قيس بن عيلان، وأمهما جَدِيلَة
 بنت مُدْرَكَة بن إلياس بن مضر، نسبو إليها.
 فمن عَدُوَان: عامر بن الظُّرب، حَكَم العرب بعكاظ، ومنهم: أبو سَيَّارة، وهو عُمَيْلَة بن الأعزل. ومنهم: تَابَط شَرَاء، وهو ثابت ابن عَمَيْل غَطَفَان بن
 قيس بن عيلان - وأعصُر بن سعد بن قيس بن عيلان.

فمن بطون غطفان: أشجع بن ريث بن غطفان. وأشجع بن ريث بن غطفان، منهم: نصر بن دهمان، وكان من المعمرين، عاش مائتي سنة، ومنهم فروة بن نوفل.

عبس بن بغيض بن ريث بن غطفان - وهي إحدى جمرات العرب، منهم: زهير بن جذيمة، كان سيد عبس كلها حتى قتله خالد بن جعفر الكلابي وابنه قيس بن زهير، فارس داحس، وعنترة الفوارس، والحطيئة، وعروة بن الورد والربيع بن زياد، وإخوته الذين يقاد لهم الكملة، ومروان بن زباج، الذي يُقال له مروان القرظ، وخالد بن سنان، الذي ضيعه قومه.

ذبيان بن بغيض بن ريث بن غطفان - منهم: فزارة بن ذبيان بن بغيض، وفيهم الشرف، ومنهم حذيفة بن بدر، ومنهم: منظور بن زيان ابن سيار، وعمر بن هبيرة، وعدي بن أرطاة.

مروة بن عوف بن سعد بن ذبيان - منهم: هرم بن سنان المرّي الجواد الذي كان يمدحه زهير، ومنهم: زياد النابغة الشاعر، ومنهم الحارث بن ظالم الذي يُقال فيه: أمتع من الحارث، ومنهم: شبيب بن البرصاء، وأرطاة بن سهية، وعقيل بن علفة المرّي، وابن ميادة الشاعر، ومسلم بن عقبة، صاحب الحرّة، وعثمان بن حيّان، وهاشم بن حرملة، الذي يقول فيه الشاعر:

يَقْتُلُ ذَا الذَّنْبِ وَمَنْ لَا ذَنْبَ لَهُ

أَحْيَا أَبَاهُ هَاشِمُ بْنُ حَرْمَلَةَ

والشماخ الشاعر وأخوه مزرّد ابنا ضرار.

ومن بطون أعصر: غني بن أعصر بن سعد بن قيس بن النّاس بن مضر منهم: طفيل الخليل، وقد ربح غنياً، ومنهم: مرثد بن أبي مرثد، وقد شهد بدرًا. باهلة - هم بنو معن بن أعصر، نُسيبوا إلى أمهم باهلة، وهم قتيبة ووائل وأود وجأوة، أمهم باهلة وبها يُعرفون. منهم: حاتم بن النعمان، وقتيبة بن مسلم، وأبو أمامة صاحب رسول الله صلى الله عليه وسلم، وسلمان بن ربيعة، ولأه أبو بكر الصديق، وزيد ابن الحباب.

بنو الطفاوة بن أعصر - وهم ثعلبة وعامر ومعاوية، أمهم الطفاوة، إليها يُنسبون، وهم إخوة غني بن أعصر. فهذه غطفان "وأعصر".

بنو خصفة بن قيس بن عيلان - مُحارب بن زياد بن خصفة بن قيس بن عيلان، منهم: الحكم بن منيع الشاعر، وبقيع بن صفار الشاعر الذي كان يُهاجي الأخطل. وولد مُحارب: ذهل وغنم، وهم الأبناء، والخضر، وهم بنو مالك بن مُحارب.

سليم بن منصور بن عكرمة بن خصفة - منهم: العباس بن مرداس، كان فارساً شاعراً، وهو من المؤلفة قلوبهم، والفجاءة، الذي أحرقه أبو بكر في الردّة.

ومنهم صخر ومعاوية ابنا عمرو بن الحارث بن الشريد، وهما أخوة الخنساء، وخفاف بن عمير الشاعر، ونبيشة بن حبيب، قاتل ربيعة بن مكدّم ومجاشع بن مسعود، من أهل البصرة، وعبد الله بن حازم، صاحب خُرسان.

ذكوان وهز وبهثة بنو سليم - منهم: أبو الأعور السلمي، صاحب معاوية، وعمير بن الحباب، قائد قيس، والجحاف بن حكيم. فهذه بطون سليم ومُحارب.

قبائل هوازن

هو هوازن بن منصور بن عكرمة بن خصفة بن قيس بن عيلان: سعد بن بكر بن هوازن - فيهم استرضع النبي صلى الله عليه وسلم.

نصر بن معاوية بن بكر هوازن - منهم: مالك بن عوف النَّصْرِي، قائد المُشْرِكِينَ يوم حُنين.

جُشم بن معاوية بن بكر - منهم دُرَيْد بن الصَّمَّة، فارس العرب.

تقيف - وهو قسي بن مُنَّبَه بن بكر بن هوازن. منهم: مسعود بن معتب والمختار بن أبي عبيد. ومنهم: عروة بن مسعود، عظيم القرّيتين، والمغيرة ابن

شُعْبَة، وعبد الرحمن بن أمّ الحكم.

عامر بن صعصعة بن معاوية بن بكر بن هوازن - فمن بطون عامر: بنو هلال بن عامر بن صعصعة، منهم: ميمونة زوج النبي عليه الصلاة والسلام،

ومنهم: عاصمُ بن عبد الله، صاحبُ خراسان، وحُميد بن نُور الشاعر، وعمرو ابن عامر بن "ربيعه بن عامر"، فارس الضَّحْبَاء، ومن ولده: خالدٌ وحرْملة ابنا هُوَذة، صحبَا النبي صلى الله عليه وسلم، وخذاش بن زُهَيْر.

نمير بن عامر بن صعصعة - منهم: الرَّاعي الشاعر، وهو عُبيد بن حُصَيْن، وهَمَّام بن قَبِيصة، وشريك بن حُباشة، الذي دخل الجنة في الدنيا في أيام عمُر ابن الخطاب.

بنو كَعْب بن ربيعة بن عامر بن صعصعة - وهم ستة بطون، منهم: عقيل بن كعب - رهط توبة بن الحمير، صاحب لَيْلى الأَحْيَلِيَّة، ومنهم: بنو المنتفق. بنو الحريش بن كَعْب - رهط سَعِيد بن عمُر، ولي خراسان، وهو صاحبُ رأس خاقان.

بنو العَجَلان بن كَعْب - رهط تميم بن مُقبِل الشاعر.

ومنهم: بنو قُشَيْر بن كعب - رهط مالك بن سَلَمَة، الذي أسر حاجبَ ابن زُرارة.

ومنهم: بنو جَعْدَة. بن كعب - رهطُ النابغة الجَعْدِي، وهو أبو لَيْلى. فهذه بطون كعب بن ربيعة بن عامر بن صعصعة.

ومن أفضاخ ربيعة بن عامر بن صعصعة: كِلَاب بن ربيعة بن عامر بن صعصعة، منهم: المُحَلِّق بن حَنْتَم بن شَدَّاد، ومنهم: زُفَر بن الحارث الكِلَابِي، ويزيد بن الصَّعِق، ووَكيع بن الجَرَّاح الفقيه.

جَعْفَر بن كِلَاب بن ربيعة بن عامر بن صعصعة - منهم: الطُّفَيْل، فارس فَرَزَل، وعامر بن الطُّفَيْل، وعَلْقَمَة بن عَلَاثة، وأبو براء عامر بن مالك، ومُلاعب الأَسنة.

الضُّبَاب بن كِلَاب - منهم: شَمِر بن ذي الجَوْشَن. هؤلاء بنو عامر بن صعصعة.

بنو سَلُول - وهم: بنو مُرَّة بن صعصعة نُسبوا إلى أمهم سَلُول.

غاضرة - وهم: بنو مُرَّة بن صعصعة نُسبوا إلى أمهم سَلُول.

غاضرة - وهم: غالب بن صعصعة ومالك وربيعة وغويضرة، وحارث وعبد الله وهما عادية، وعَوْف وقيس ومساود، وسيار وهو غَزِيَّة.

لُوذان وحوش وحوش وعَوْف، وهم الوَقعة، بنو معاوية بن بكر بن هوازن.

وبنو صعصعة بن معاوية بن بكر بن هوازن يقال لهم الأبناء. هذا آخر نسب مُضَر بن نزار.

نسب ربيعة بن نزار

وَلَدُ رِبِيْعَةَ بنِ نِزَارٍ: أَسَدٌ وَضَبِيْعَةٌ وَعائِشَةُ، وَهَمَّامٌ بِأَلْيَمِنَ "فِي مُرَادٍ، وَعَمْرُو وَعَامِرٌ وَأَكْلَبٌ، وَهَمَّامٌ رَهْطُ أَنْسِ بنِ مُدْرِكٍ. فَمِنْ قِبَائِلِ رِبِيْعَةَ بنِ نِزَارٍ: ضَبِيْعَةُ بنِ رِبِيْعَةَ بنِ نِزَارٍ - وَفِيهِمْ كَانَ بَيْتُ رِبِيْعَةَ وَشَرَفُهَا، وَمِنْهُمْ: الْحَارِثُ الْأَضْجَمُ، حَكَمَ رِبِيْعَةَ فِي زُهْرَةَ، وَفِيهِ يَقُولُ الشَّاعِرُ:

تُرْدُ إِلَى الْحَارِثِ الْأَضْجَمِ

قَلْوَصِ الظَّلَامَةِ مِنْ وَأَنْلِ

وَمَهْمَا يَشَأُ مِنْهُمُ يَهْضِمُ

فَمَهْمَا يَشَأُ يَأْتِ مِنْهُ السَّدَادُ

ومنهم المُتَلَمِّسُ، وَهُوَ جَرِيرُ بنِ عَبْدِ الْمَسِيحِ الشَّاعِرِ، صَاحِبُ طَرْفَةِ بنِ الْعَبْدِ، الَّذِي يَقُولُ فِيهِ:

وَنَجَاحِذَارَ حَمَامِهِ الْمُتَلَمِّسُ

أَوْدَى الَّذِي عَلِقَ الصَّحِيْفَةَ مِنْهُمَا

ومنهم: المُسَيَّبُ بنِ عَلَسِ الشَّاعِرِ، وَمِنْهُمْ: الْمُرَقِّشُ الْأَكْبَرُ وَالْمُرَقِّشُ الْأَصْغَرُ، وَكَانَ الْمُرَقِّشُ الْأَكْبَرُ عَمَّ الْمُرَقِّشِ الْأَصْغَرِ، وَالْمُرَقِّشُ الْأَصْغَرُ عَمَّ طَرْفَةَ ابْنِ الْعَبْدِ بنِ سَفِيَّانِ بنِ سَعْدِ بنِ مَالِكِ بنِ ضَبِيْعَةَ.

عَتْرَةَ بنِ أَسَدِ بنِ رِبِيْعَةَ بنِ نِزَارٍ - لَهُ وَكَدَانٌ: يَقْدُمُ وَيَذْكُرُ، فَمِنْهُمَا تَفَرَّقَتِ عَتْرَةُ. فَمِنْ يَذْكُرُ: بَنُو جِلَّانِ بنِ عَتِيكَ بنِ أَسْلَمِ بنِ يَذْكُرَ، وَبَنُو هَزَانَ بنِ صَبَاحِ بنِ عَتِيكَ بنِ أَسْلَمِ بنِ يَذْكُرَ، وَبَنُو الدُّوَلِ بنِ صَبَاحِ بنِ عَتِيكَ بنِ أَسْلَمِ بنِ يَذْكُرَ، وَهَمَّامٌ الَّذِينَ أَسْرَوْا حَاتِمَ طَيِّءٍ، وَكَعْبُ بنِ مَامَةَ، وَالْحَارِثُ ابْنُ ظَالِمٍ، وَفِي ذَلِكَ يَقُولُ الْحَارِثُ بنِ ظَالِمٍ:

أَبْلَغُ سَرَاةِ بَنِي غَيْظٍ مُغْلَغَلَةً

ومنهم: كِدَامُ بن حَيَّانَ، ومن بني هُمَيْمٍ، كان من خِيَارِ التابعين، وكان من خِيَارِ أصحابِ عَلِيِّ عبدِ الرَّحْمَنِ بنِ حَسَانَ من بني هُمَيْمٍ، وكان من أصحابِ عَلِيِّ عليه السلام: ولهما يقول عبد الله بن خليفة:

وَيَسِّرْتُ مَا لِلصَّالِحَاتِ فَأَبْشِرَا

فِي أَخَوَيْ مِ هُمَيْمٍ هُدَيْتُمَا

ومن بني يَاقُوتَ بنِ عَتْرَةَ: رَشِيدُ بنِ رَمِيضِ الشَّاعِرِ، وَعِمْرَانُ بنِ عِصَامِ الَّذِي قَتَلَهُ الحِجَّاجُ "بَدَيْرِ الجَمَّاحِ".
عَبْدُ القَيْسِ بنِ دُعَمِيِّ بنِ جَدِيلَةَ بنِ أَسَدِ بنِ رَبِيعَةَ - وُلِدَ لِعَبْدِ القَيْسِ أَفْصَى واللُّبُّ. ووُلِدَ لِأَفْصَى عَبْدُ القَيْسِ وَشَنَّ وَكَلَّزَ.
اللُّبُّ بنِ عَبْدِ القَيْسِ: منهم رِثَابُ بنِ زَيْدِ بنِ عَمْرُو بنِ جَابِرِ بنِ ضُبَيْبٍ، كان ممن وَحَدَّ اللهُ فِي الجَاهِلِيَّةِ، وسَأَلَ عَنْهُ النَّبِيُّ صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ وَقَدَّ عَبْدُ القَيْسِ، وكان يَسْتَقِي قَبْرَ كُلِّ مَنْ مَاتَ مِنْ وَلَدِهِ. وفي ذلك يقول الحُجَّيْنِ ابنِ عَبْدِ اللهِ:

إِذَا مَاتَ مِنْهُمْ مَيِّتٌ جَيِّدٌ بِالقَطْرِ

وَمِنَّا الَّذِي المَبْعُوثُ يَعْرفُ نَسْلَهُ

بِمَثَلِ رِثَابِ حِينَ يُخْطَرُ بِالسَّمْرِ

رِثَابٌ وَأَنْبِيٌّ لِلرَّبِّيَّةِ كُلِّهَا

لُكَيْزُ بنِ عَبْدِ القَيْسِ - منهم: بنو نُكْرَةَ بنِ لُكَيْزِ بنِ عَبْدِ القَيْسِ، ومنهم: المَمْزُوقُ الشَّاعِرُ. وهو شَأْسُ بنُ نَهَارِ بنِ أَسْرَجِ الَّذِي يَقول:

وَإِلَّا فَأَدْرِكُنِي وَلَمَّا أَمْزَقِ

فَإِنْ كُنْتُ مَأْكُولًا فَكُنْ خَيْرًا أَكَلِ

وَصُبَّاحُ بنِ لُكَيْزٍ - منهم: كَعْبُ بنِ عَامِرِ بنِ مالِكِ، كان ممن وَقَدَّ عَلَى النَّبِيِّ عَلَيْهِ الصَّلَاةُ وَالسَّلَامُ.
وَبَنُو غَنَمِ بنِ وَدِيعَةَ بنِ لُكَيْزٍ - منهم: حَكِيمُ بنِ جَبَلَةَ، صاحبِ عَلِيِّ بنِ أَبِي طَالِبِ كَرَّمَ اللهُ وَجْهَهُ. وفيه يقول:

نَالَ بِهَا المَنْزِلَةَ الرَفِيعَةَ

دَعَا حَكِيمٌ دَعْوَةَ سَمِيعِهِ

وَبَنُو جَدِيمَةَ بنِ عَوْفِ بنِ بَكْرِ بنِ أَمَّارِ بنِ وَدِيعَةَ بنِ لُكَيْزٍ - منهم: الجَارُودُ العَبْدِيُّ، وهو بَشَرُ بنِ عَمْرُو.
وَعَصْرُ بنِ عَوْفِ بنِ بَكْرِ بنِ عَوْفِ بنِ أَمَّارِ بنِ وَدِيعَةَ بنِ لُكَيْزٍ. منهم: عَمْرُو بنِ مَرْجُومِ الَّذِي يمدحه المُنْتَلَسُ.
وَبَنُو حُطْمَةَ بنِ مُحَارِبِ بنِ عَمْرُو بنِ "أَمَّارِ بنِ" وَدِيعَةَ بنِ لُكَيْزٍ، إِلَيْهِمْ تُنْسَبُ الدَّرُوعُ الحُطْمِيَّةُ.
وَعَامِرُ بنِ الحَارِثِ بنِ عَمْرُو بنِ أَمَّارِ بنِ وَدِيعَةَ بنِ لُكَيْزٍ: منهم مَهْزَمُ بنِ الفِرْزِ، الَّذِي يَقول فِيهِ الحِرْمَانِيُّ:

العَامِرَ بنِ المِهْزَمِ بنِ الفِرْزِ

يَحْمَلُنَ بِالمَوْمِةِ بَحْرًا يَجْرِي

العُمُورُ من عَبْدِ قَيْسِ: الدَّلِيلُ وَعِجْلُ وَمُحَارِبُ، بنو عَمْرُو بنِ وَدِيعَةَ بنِ لُكَيْزٍ. فمن بني الدَّلِيلِ: سُحَيْمُ بنِ عَبْدِ اللهِ بنِ الحَارِثِ، كان أَحَدَ السَّبْعَةِ الَّذِينَ عَرَبُوا الدَّجْلَةَ مَعَ سَعْدِ بنِ أَبِي وقاص. ومن بني مُحَارِبِ: عبد الله بن هَمَامِ بنِ امرئ القيس بن ربيعة، وَقَدَّ عَلَى النَّبِيِّ صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ. ومن بني عِجْلٍ: صَعْصَعَةُ ابنِ صُوحَانَ وَزَيْدُ بنِ صُوحَانَ، من أصحابِ عَلِيِّ بنِ أَبِي طَالِبِ رَضِيَ اللهُ عَنْهُ. فهذه عبد القيس وبطونها وجماهيرها.

النمر بن قاسط

النَّمْرُ بنِ قَاسِطِ بنِ هَنْبِ بنِ أَفْصَى بنِ دُعَمِيِّ بنِ جَدِيلَةَ بنِ أَسَدِ بنِ رَبِيعَةَ ابنِ نِزَارِ: فمن ولد النَّمْرِ بنِ قَاسِطِ: تَيْمُ اللهِ وَأَوْسُ مَنَاةَ وَعَبْدُ مَنَاةَ وَقَاسِطُ وَمَنْبَهُ، بنو النَّمْرِ بنِ قَاسِطِ.

أَوْسُ مَنَاةَ بنِ النَّمْرِ - منهم: صَهَيْبُ بنِ سِنَانَ بنِ مالِكِ، صاحبِ النَّبِيِّ عَلَيْهِ الصَّلَاةُ وَالسَّلَامُ: كان أَصَابَهُ سِيبَاءُ فِي الرُّومِ، ثم وَافُوا بِهِ المَوْسِمَ فَاشْتَرَاهُ عَبْدُ اللهِ بنِ جُدْعَانَ فَأَعْتَقَهُ، وَقَدَّ كانَ التُّعْمَانُ بنِ المَنْدَرِ اسْتَعْمَلَ أَبَاهُ سِنَانَ عَلَى الأَبْلَةِ. ومنهم: حُمْرَانُ بنِ أَبَانَ، الَّذِي يَقالُ لَهُ مَوْلَى عَثْمَانَ بنِ عَفَّانَ.
ومن تَيْمِ اللهِ بنِ النَّمْرِ: الضَّحِّيَّانِ، واسمُهُ عَامِرُ بنِ سَعْدِ بنِ الخَزْرَجِ بنِ تَيْمِ اللهِ بنِ النَّمْرِ... فتى بني شيبان. وإنما سُمِّيَ الضَّحِّيَّانِ لِأَنَّهُ كانَ يَجْلِسُ لَهُم

وقت الضُّحَى فَيَقْضِي بَيْنَهُمْ، وقد رُبِعَ رَبِيعَةُ أربعين سنة، وأخوه عَوْفٌ بن سَعْدٍ، ومن ولده ابن القَرِيْبَةِ البَلِيغِ، واسمه أَيُّوبُ بن زيد، وكان خَرَجَ مع ابن الأَشْعَثِ فقتله الحَجَّاجُ، ومنهم: ابن الكَيْسِ النَّسَابَةِ، وهو عُبيد بن مالك بن شراحيل بن الكَيْسِ. فهذا النَّمِرُ بن القَاسِطِ.

تغلب بن وائل

تغلب بن وائل بن قاسط بن هنب بن أفصى بن دُعَمِيٍّ بن جديلة بن أسد بن ربيعة بن نزار - فمن بطونِ تَغْلِبِ: الأرقام، وهم جُشَمٌ وَعَمْرُو وَتَغْلِبَةُ وَمُعَاوِيَةُ والحارث، بنو بَكْرٍ بن حَبِيبٍ بن غَنَمٍ بن تَغْلِبِ، وإنما سُمُّوا الأرقام لأنَّ عِيونَهُم كَعِيونِ الأرقام. ومن بطونِ تَغْلِبِ: كَلِيبُ وائل، الذي يقال فيه أعزُّ من كَلِيبِ وائل، وهو كَلِيبُ بن ربيعة بن الحارث بن زُهَيْرِ بن جُشَمِ، وأخوه مُهَلِّهْلُ بن ربيعة.

ومن بني كنانة بن تيم بن أسامة: إياس بن عَيَّان بن عَمْرُو بن مُعَاوِيَةَ قاتل عُمَيْرِ بن الحُبَابِ، وله يقول زُفَرُ بن الحارث:

وقد أَلْصَقْتُ خَدَّكَ بِالنَّبْرَابِ

أَلَا يَأْكَلُ غَيْرُكَ أَرْجُونِي

فقد أودَى عُمَيْرِ بن الحُبَابِ

أَلَا يَا كَلْبُ فانتشري وسحِّي

رماخٌ في أعاليها اضطرابُ

رِمَاحِ بني كِنَانَةَ أَقْصَدْتَنِي

ومن بني حارثة بن ثعلبة بن بكر بن حبيب: المُذَيْلُ بن هُبَيْرَةَ، وهو الذي تقول فيه نَهَيْشَةَ بنت الجَرَّاحِ البَهْرَانِي تُعِيرُ قِضَاعَةَ:

فلا شَرَبْتَ قِضَاعَةَ غَيْرَ بَوْلِ

إِذَا مَا مَعَشَرْتُ شَرِبُوا مَدَاماً

وإِذَا أَنْ تَدِينُوا لِلْمُذَيْلِ

فإِذَا أَنْ تَقُودُوا الْخَيْلَ شُعْتاً

وَتَعْطُوهُ خُرَاجَ بني الدُّمَيْلِ

وَتَتَّخِذُوهُ كَالنُّعْمَانِ رَبّاً

الدُّمَيْلُ ابن لَحْمِ.

ومن عَدِيٍّ بن معاوية بن غنم بن تَغْلِبِ: فارس العَصَا، وهو الأَخْنَسُ ابن شهاب.

ومن بني الفَدَوِ كَس بن عمرو بن الحارث بن جُشَمِ: الأَخْطَلُ الشَّاعِرُ النَّصْرَانِي. ومنهم: قَبِيصَةُ بن والِقِ، له هَجْرَةٌ قَتَلَهُ شَبِيبُ الحُرُورِيِّ، وكان جواداً كَرِيماً، فقال شبيب حين قتله، هذا أعظم أهل الكوفة جفنة، فقال له أصحابه: أَتَطْرِي المُنَافِقِينَ؟ فقال: إن كان مُنَافِقاً في دينه، فقد كان شريفاً في دنياه.

ومن الأوس بن تغلب: كعب بن جُعِيلِ الذي يقول فيه جَرِيرُ:

وكان أبوك يُسَمِّي الجُعَلِ

وَسُمِّيَتْ كَعْباً بِسِتْرِ الطَّعَامِ

محلَّ القراد من أسنت الجمل

وكان محلُّك من وائل

فهذه تَغْلِبُ ليس لها بطون تُنسَبُ إليها كما تُنسَبُ إلى بطون بَكْرٍ بن وائل لأن بَكراً جُمُحِمَةً، وتَغْلِبُ غير جُمُحِمَةٍ.

بكر بن وائل

القبائل من بَكْرٍ بن وائل: يَشْكُرُ بن بكر بن وائل، وعِجْلٌ وَحَنِيْفَةُ ابنا لُجَيْمِ بن صَعْبِ بن عَلِيٍّ بن بَكْرٍ بن وائل، وشَيْبَانُ وَذُهَلُ وَقَيْسُ، بنو تَغْلِبَةَ بن عَكَابَةَ بن صَعْبِ بن عَلِيٍّ بن بَكْرٍ بن وائل، وأمهم البَرَشَاءُ، من تَغْلِبِ.

يَشْكُرُ بن بكر - منهم: الحارث بن حِلْزَةَ الشَّاعِرِ، ومنهم: شِهَابُ بن مَدْعُورِ بن حِلْزَةَ، وكان من عُلَمَاءِ الأَنْسَابِ، ومنهم: سُوَيْدُ بن أبي كاهل الشَّاعِرِ.

عجل بن لجيم - منهم: حنظلة بن ثعلبة بن سيار، كان سيّد بني عجل يوم ذي قار، ومنهم: الفرات بن حيان. له صُحبة مع النبي صلى الله عليه وسلم، ومنهم: إدريس بن معقل، جدّ أبي دُلف، ومنهم شبّابة بن المعتمر بن لقيط، صاحب الديوان، ومنهم: الأغلب الرّاجز، ومنهم: أبحر بن جابر بن شريك، وقد على عمّر بن الخطّاب رضي الله عنه.
حنيفة بن لجيم - ولد له الدليل وعدي وعامر. فمن بني الدليل بن حنيفة: قتادة بن مسلمة، كان سيّداً شريفاً، ومنهم: ثمامة بن أثال بن النعمان بن مسلمة، ومنهم: هودّة بن عليّ بن ثمامة، الذي يقول فيه أعشى بكر:

مَنْ يَلْقَى هَوْدَةَ يَسْجُدُ غَيْرَ مَتَّئِبٍ إِذَا تَعَصَّبَ فَوْقَ التَّاجِ أَوْ وَضَعَا

ومن بني الدليل بن حنيفة: شمّر بن عمرو، الذي قتل المنذر بن ماء السماء يوم عين أباغ، ومنهم: بنو هفان بن الحارث بن ذهل بن الدليل، وبنو عبّيد بن ثعلبة، ويروى عن ثعلبة بن الدليل. وبنو أبي ربيعة، في شيبان، سيدهم هاني بن قبيصة.
شيبان بن ثعلبة بن عكابة - منهم: حسّاس بن مرة بن دهل بن شيبان، قاتل كليب بن وائل، وهمام بن مرة بن ذهل بن شيبان، وقيس بن مسعود بن قيس بن خالد، وهو ذو الجدين، وابنه بسطام بن قيس، فارس بني شيبان في الجاهلية، وقد ربّع الذهلين واللاهزم اثني عشر مرباعاً، ومنهم: هاني بن قبيصة بن هاني بن مسعود بن المزدلف، عمرو بن أبي ربيعة بن ذهل بن شيبان، الذي أجاز عيال النعمان بن المنذر وماله عن كسرى، وبسببه كانت وقعة ذي قار، ومنهم: مصقلة بن هبيرة، كان سيّداً شريفاً، وفيه يقول الفرزدق:

وَبَيْتَ أَبِي قَابُوسَ مَصْقَلَةَ الَّذِي بَنَى بَيْتَ مَجْدٍ إِسْمَهُ غَيْرَ زَائِلٍ

وفيه يقول الأخطل:

دَعِ الْمُغَمَّرَ لَا تَقْتُلْ بِمَصْرَعِهِ وَاسْلُ بِمَصْقَلَةِ الْبَكْرِيِّ مَا فَعَلَا

بِمَتْلَفٍ وَمُفِيدٍ لَا يَمَنُّ وَلَا يُعْنَفُ النَّفْسُ فِيمَا فَاتَهُ عَدَلَا

إِنْ رِبِيعَةَ لَا تَتَفَكَّ صَلَاحَةً مَادَّافِعَ اللَّهُ عَنْ حَوْبَائِكَ الْأَجَلَا

ومن ذهل بن شيبان: عوف بن ملحّم، الذي يُقال فيه: لآخر بوادي عوف، والضحاك بن قيس الخارجي، والمثنى بن حارثة، وي زيد بن رزيم، ومنهم: العصبان بن القبعثري، وي زيد بن مسهر أبو ثابت، الذي ذكره الأعشى، والحوفزان، وهو حارثه بن شريك، ومطر بن شريك، ومن ولده: معن بن زائدة، وشيب الحوروري.

ذهل بن ثعلبة بن عكابة - منهم الحارث بن وعلة، وكان سيّداً شريفاً، ومن ولده: الحُصَيْن بن المنذر بن الحارث بن وعلة، صاحب راية ربيعة بصفين مع عليّ بن أبي طالب رضي الله تعالى عنه، وله يقول عليّ:

لَمِنْ رَايَةِ سَوْدَاءُ يَخْفِقُ ظِلُّهَا إِذَا قَبِلَ قَدَمَهَا حُضَيْنٌ تَقَدَّمَا

ومنهم: القعقاع بن شور بن النعمان، كان شريفاً، ومنهم: دغفل بن حنظلة العلامة، كان أعلم أهل زمانه، وهؤلاء من بني ذهل بن ثعلبة بن عكابة، أمهم رقاش، وإليها يُنسبون، ومنها - يقال - الحُصَيْن بن المنذر بن الحارث بن وعلة الرقاشي.

قيس بن ثعلبة بن عكابة - منهم: الحارث بن عبّاد بن ضبيعة بن ثعلبة ابن حارثة، كان على جماعة بكر بن وائل يوم قضة، فأسر مهلهل بن ربيعة وهو لا يعرفه فحلّى سبيله، ومنهم: مالك بن مسمع بن شيبان بن شهاب، يُكنى أبا غسان؛ ومنهم: الأعشى أعشى بكر، وهو من بني تيم اللات من قيس بن ثعلبة بن عكابة؛ ومن بني تيم اللات أيضاً: مطر بن فضة، وهو الجعد بن قيس، كان شريفاً سيّداً؛ وهو الذي أسر خاقان الفارسي بالقادسية، ومن ولده: عبّيد الله زياد بن ظبيان.

سدوس - من شيبان بن ذهل بن ثعلبة بن عكابة. منهم: خالد بن المعمر ومجرأة بن ثور، وأخوه شقيق بن ثور، وابن أخيه سويد بن متجوف ابن ثور،

وعمران بن حطّان.

اللهازم: وهم عَنَزَة بن أسد بن ربيعة. وعجل بن لجيم، وتيم الله وقيس ابنا ثعلبة بن عكابة بن صعّب بن عليّ بن بكر بن وائل، وهم حلفاء. والدّهلان: شيبان وذهل، ابنا ثعلبة بن عكابة. وأم عجل بن لجيم يقال لها حدّام، وفيها يقول لجيم:

إذا قالت حدّام فصدّقوها

فإنّ القول ما قالت حدّام

انقضى نسب ربيعة بن نزار.

إياد بن نزار

وَلَدَ إيادُ بن نزار زهراً ودُعَمِيّاً ونمارةً وثعلبةً. فولد نمارة الطّمّاح، ولهم يقول عمرو بن كلثوم:

ألا أبلغ الطّمّاح عنّا

ودُعَمِيّاً فكيف وجدتمونا

وولّد زهر بن إياد حدافَةَ، رهط أبي ذؤاد الشاعر. وأمّا أنمار بن نزار بن معدّ فلا عقب له إلا ما يقال في بحيلة وخنعم، فإنه يقال: إنهما ابنا أنمار بن نزار وتأي ذلك بحيلة وخنعم ويقولون: إنّما تزوج إراش بن عمرو بن العوّث، ابن أخي الأزد بن العوّث، سلامة بنت أنمار، فولدت له أنمار بن إراش، فنحن ولده، وقال حسّان بن ثابت:

ولدنا بني العنقاء وابن محرّق

أراد بالعنقاء ثعلبة بن عمرو مزريقياً، سُمّي العنقاء لطول عنقه، ومحرّق هو الحارث بن عمرو مزريقياً، وكان أول الملوك أحرق الناس بالنار، والولادة التي ذكرها حسّان، أنّ هنداً بنت الخزرج بن حارثة كانت عند العنقاء فولدت له ولده كلهم، وكانت أختها عند الحارث بن عمرو فولدت له أيضاً. انقضى نسب بني نزار بن معدّ.

القبائل المشتبهة

الدُّلّ، في كنانة، والدُّلّ بن حنيفة، في بكر بن وائل؛ منهم: قتادة ابن مسلمة، وهوذة بن عليّ، صاحب التاج الذي يمدحه أعشى بكر بن وائل. سدّوس، في ربيعة، وهو سدّوس بن شيبان بن بكر بن وائل؛ منهم: سويد ابن منجوف؛ وسدّوس، مرفوعة السين، في تميم، وهو سدّوس بن دارم. مُحارب بن فهر بن مالك، في قريش؛ ومُحارب بن حصّة، في قيس؛ ومُحارب ابن عمرو بن ودّية، في عبد القيس غاضرة، في بني صعصعة بن معاوية؛ وغاضرة في ثقيف. تيم بن مرة، في قريش؛ رهط أبي بكر؛ وتيم بن غالب بن فهر، في قريش أيضاً، وهم بنو الأدرم؛ وتيم بن عبد مناة بن أد بن طابخة، في مضر؛ وتيم بن ذهل، في ضبّة؛ وتيم، في قيس بن ثعلبة؛ وتيم، في شيبان. وتيم الله بن ثعلبة ابن عكابة، في النمر بن قاسط. كلاب بن مرة في قريش؛ وكلات بن ربيعة بن عامر بن صعصعة، في قيس. عدّي بن كعب، في قريش، رهط عمر ابن الخطّاب؛ وعدّي بن عبد مناة، من الرباب، رهط ذي الرمة؛ وعدّي، في فزارة؛ وعدّي، في بني حنيفة. ذهل بن ثعلبة بن عكابة، وذهل بن شيبان، وذهل بن مالك، في ضبّة. ضبيّعة، في ضبّة، وضبيّعة، في عجل، وضبيّعة، في قيس بن ثعلبة، وهم رهط الأعشى. مازن، في تميم، ومازن، في قيس عيلان، وهم رهط عتبة بن غزوان؛ ومازن، في بني صعصعة بن معاوية؛ ومازن، في شيبان. سهّم، في قريش؛ وسهّم، في باهلة. سعد بن ذبيان؛ وسعد بن بكر، في هوازن، أظار رسول الله صلى الله عليه وسلم؛ وسعد، في عجل، وسعد بن زيد مناة، في تميم. حشم، في معاوية بن بكر؛ وحشم، في ثقيف؛ وحشم، في الأرقام. بنو ضمرة، في كنانة؛ وبنو ضمرة، في قشير. دودان، في بني أسد؛ ودودان، في بني كلاب. سليم، في قيس عيلان، وسليم، في جذام، من اليمن. جديلة، في ربيعة؛ وجديلة، في طيّ؛ وجديلة، في قيس عيلان. الخزرج، في الأنصار؛ والخزرج، في النمر بن قاسط. أسد: ابن خزيمه بن مدركة؛ وأسد: ابن ربيعة بن نزار. شقرة

بن ربيعة، في ضبة، وشقرة، في تميم، ربيعة: ربيعة الكبرى، وهو ربيعة بن مالك بن زيد مناة، ويُلقب ربيعة الجوع؛ وربيعة الوسطى، وهو ربيعة بن حنظلة بن مالك بن زيد مناة؛ وربيعة الصغرى، وهو ربيعة بن مالك بن حنظلة، وكل واحد منهم عم الآخر.

مفخرة ربيعة

قال عبد الملك بن مروان يوماً لجلسائه: خيروني عن حيّ من أحياء العرب، فيهم أشدُّ الناس وأسخى الناس وأخطب الناس وأطوع الناس في قومه، وأحلم الناس وأحضرهم جواباً؛ قالوا: يا أمير المؤمنين، ما نعرف هذه القبيلة، ولكن ينبغي لها أن تكون في قريش؛ قال: لا، قالوا: ففي حمير وملوكةا، قال: لا، قالوا: ففي مضر، قال: لا، قال: مصقلة بن ربيعة العبدي: فهي إذا في ربيعة ونحن هم؛ قال: نعم. قال جلساؤه: ما نعرف هذا في عبد القيس إلا أن تُخبرنا به يا أمير المؤمنين. قال: نعم، أما أشدُّ الناس، فحكيم بن جبَل، كان مع عليّ بن أبي طالب رضي الله عنه، ففُطعت ساقه فضمَّها إليه حتى مرَّ به الذي قطعها فرماه بها فجذَّله عن دابته، ثم جثا عليه فقتله واثكأ عليه، فمرَّ به الناس، فقالوا له: يا حكيم، من قطع ساقك؟ قال: وسادي هذا، وأنشأ يقول: يا ساقُ لا تُراعي إنَّ معي ذِراعي أحمي بها كُراعي

وأما أسخى الناس: فعبد الله بن سوار، استعمله معاوية على السند، فسار إليها في أربعة آلاف من الجند، وكانت تُوقد معه نارٌ حيثما سار، فيُطعم الناس، فبينما هو ذات يوم إذ أبصر ناراً، فقال: ما هذه؟ قالوا: أصلح الله الأمير، اعتلَّ بعض أصحابنا فاشتتهى خبيصاً فعملنا له؛ فأمر خبازه أن لا يُطعم الناس إلا الخبيص، حتى صاحوا وقالوا: أصلح الله الأمير، رُدُّنا إلى الخبز واللحم، فسُمي: مُطعم الخبيص. وأما أطوع الناس في قومه: فالجارود بشر بن العلاء، إنه لما قبض رسول الله صلى الله عليه وسلم وارتدت العرب خطب قومه فقال: أيها الناس، إنَّ كان محمد قد مات فإنَّ الله حيٌّ لا يموت، فاستمسكوا بدينكم، فمن ذهب له في هذه الردة دينار أو درهم أو يعير أو شاة فله عليّ مثلاه، فما خالفه منهم رجل. وأما أحضر الناس جواباً، فصعصعة بن صوحان، دخل على معاوية في وفد أهل العراق، فقال معاوية: مرحبا بكم يا أهل العراق، قدمتم أرض الله المقدسة، منها المنشر وإليها المحشر، قدمتم على خير أمير يبر كبيركم، ويرحم صغيركم، ولو أنَّ الناس كلهم ولدُ أبي سفيان لكانوا حُلماً عقلاء. فأشار الناس إلى صعصعة، فقام فحمد الله وصلى على النبي صلى الله عليه وسلم، ثم قال: أما قولك يا معاوية إننا قدمنا الأرض المقدسة، فلعمري ما الأرض تُقدس الناس، ولا يُقدس الناس إلا أفعالهم، وأما قولك المنشر وإليها المحشر، فلعمري ما ينفع قُرْبها ولا يضُرُّ بُعدها مؤمناً، وأما قولك لو أنَّ الناس كلهم ولدُ أبي سفيان لكانوا حُلماً عقلاء، فقد ولدَهم خيرٌ من أبي سفيان، آدم صلواتُ الله عليه، فمنهم الحليم والسقيفة والجاهل والعالم. وأما أحلم الناس، فإنَّ عبد القيس قدِموا على النبي صلى الله عليه وسلم بصدقائهم وفيهم الأشج، ففرَّقها رسول الله صلى الله عليه وسلم في أصحابه، وهو أول عطاء فرَّقها في أصحابه، ثم قال: يا أشج، ادن منِّي، فدنا منه، فقال: إنَّ فيك خلتين يُحبهما الله، الأناة والحلم، وكفي برسول الله صلى الله عليه وسلم شاهداً. ويُقال إنَّ الأشج لم يعضب قط.

جمرات العرب

وهم بنو نُمير بن عامر بن صعصعة، وبنو الحارث بن كعب بن غلة بن جلد وبنو ضبة بن أد بن طابخة، وبنو عبس بن بغيض، وإنما قيل لهذه القبائل جمرات، لأنها تجمعت في أنفسها ولم يدخلوا معهم غيرهم. والتجمير: التجميع، ومنه قيل: حمرة العقبة، لاجتماع الحصى فيها؛ ومنه قيل: لا تُحجروا المسلمين فتفتنوهم وتفتنوا نساءهم، يعني لا تجمعوهم في المغازي. وأبو عبيدة قال في كتاب التاج: أطفئت جمرتان من جمرات العرب: بنو ضبة، لأنها صارت إلى الرباب فخالفتها، وبنو الحارث، لأنها صارت إلى مذحج فخالفتها، وبقيت بنو نُمير إلى الساعة لم تُحالف ولم يدخل بينها أحد. وقال شاعرهم يرِدُّ على جرير:

تَرَلُّ فِي الْحَرْبِ تَلْتَهُبُ التَّهَابَا

فَتَحَتْ عَلَيْهِمُ لِلْخَسْفِ بَابَا

نُمَيْرٌ جَمْرَةُ الْعَرَبِ الَّتِي لَمْ

وَإِنِّي إِذْ أَسْبُّ بِهَا كَلِيْبَا

فلولا أن يُقال هَجَا نَمِيرًا
رَغَبْنَا عن هِجَاءِ بَنِي كَلِيبِ

ولم نَسْمَعْ لشاعرها جَوَابًا
وكيف يُسَاتِمُ الناسُ الكلابا

أنساب اليمن

قَحْطَانُ بن عَابِرٍ، وعَابِرٌ هو هُودُ النبي صلى الله عليه وسلم، ابن شَالِحِ بن أَرْفَحَشَنْدِ بن سَامِ بن نُوحِ عليه السلام ابن لَمَكِ بن مَتَوْشَلِحِ بن أَخْنُوخِ، وهو إدريس النبي عليه السلام، ابن يَرْدِ بن مَهْلَابِيلِ بن قَيْنَانَ بن أَنُوشِ ابن شِيثِ، وهو هِبَةُ اللهِ، ابن آدم أبي البشر صلى الله عليه وسلم فولد قَحْطَانَ: يَعْرُبُ، وهو المُرْعَفُ. وسَبَأُ والمُسَلْفُ والمِرْدَادُ ودِقْلَى وتَكْلَا وأَيْمَالُ وَعُوبَالُ وَأَزَالُ وهُدُورَامُ وهو جُرْهَمُ. وَأُوْفِيرُ وهُوَيْلَا وَرَوْحُ وإِرْمُ ونُوبِتُ، فهؤلاء ولد قَحْطَانَ فيما ذكر عبدُ الله بن مَلاذٍ. وقال الكَلْبِيُّ محمد بن السَّائِبِ: وَكَدَ قَحْطَانَ المُرْعَفُ، وهو يَعْرُبُ، ولأَيِ وجَابِرِ والمُتَلَمَّسِ والعاصِيِ والمُتَعَشِّمِ وعاصِبِ ومُعَوِّذِ وشَيْمِ والقَطَامِيِ وظالمِ والحارثِ ونُبَاتِهِ، فَهَلَكَ هؤلاء إلا ظالمًا فإنه كان يَغْزُو بالجُيُوشِ. وقال الكَلْبِيُّ: وَكَدَ قَحْطَانَ أيضًا جُرْهَمًا وحَضْرَمُوتَ، فمن أَشْرَافِ حَضْرَمُوتِ بن قَحْطَانَ: الأَسْوَدُ ابن كَبِيرِ، وله يقول الأَعْشَى قصبته التي أولها: ما بُكَّاءُ الكَبِيرِ بالأَطْلَالِ ومنهم: مَسْرُوقُ بن وائِلِ، وفيه يقول الأَعْشَى:

تَ فَقُلْتُ مَسْرُوقُ بنِ وائِلِ

قَالَتْ قَتَيْلَةُ مَنْ مَدَحَ

فولَدِ يَعْرُبِ بنِ قَحْطَانَ: يَشْجُبُ؛ ووَلَدِ سَبَأَ: حَمِيرًا وَكَهْلَانَ وَصَيْفِيًا وَبِشْرًا وَنَصْرًا وَأَفْلَحَ وَزَيْدَانَ والعَوْدَ ورُهْمًا وَعَبْدَ اللهِ ونُعْمَانَ وَيَشْجُبَ وشَدَادًا وَرَبِيعَةَ وَمَالِكًا وَزَيْدًا، فَيُقَالُ لبني سَبَأَ كلهم: السَّبِيتُونَ، إلا حَمِيرًا وَكَهْلَانَ، فَإِنَّ القَبَائِلَ قد تَفَرَّقَتْ مِنْهُمَا، فإذا سَأَلْتَ الرَّجُلَ: مَنْ أَنْتَ؟ فقال: سَبِيتِي، فليس بِحَمِيرِي ولا كَهْلَانِي.

حمير

حَمِيرُ بنِ سَبَأَ بنِ يَشْجُبِ بنِ يَعْرُبِ بنِ قَحْطَانَ. فولد حَمِيرُ بنِ سَبَأَ مَسْرُوحًا وَمَالِكًا وَالمَهْمَيْسَعَ وَزَيْدًا وَأَوْسًا وَعَرَبِيًّا وَوائِلًا وَدَرَمِيًّا وَكَهْلَانَ وَعَمِيكَرِبَ وَمَسْرُوحًا ومُرةَ رَهْطَ مَعْدِيكَرِي بنِ النُّعْمَانَ القَيْلِ الذي كان بِحَضْرَمُوتِ. فمن بطون حَمِيرِ: مَعْدَانُ بنِ حُشَمِ بنِ عَبْدِ شَمْسِ بنِ وائِلِ بنِ العَوْتِ بنِ قَطْنِ بنِ عَرِيبِ، وَمِلْحَانَ بنِ عَمْرُو بنِ قَيْسِ بنِ مُعاويةَ بنِ حُشَمِ بنِ عَبْدِ شَمْسِ بنِ وائِلِ، رَهْطُ عامرِ الشَّعْبِيِّ الفَقِيهِ، وَعِدَادُ بنِ مِلْحَانَ وشَيْبَانَ فِي هَمْدَانَ، فَمَنْ كان مِنْهُم باليَمَنِ فهو حَمِيرِي، ويُقالُ له شَيْبَانِي. ومن بطون حَمِيرِ: شَرْعَبُ بنِ قَيْسِ بنِ مُعاويةَ بنِ حُشَمِ بنِ عَبْدِ شَمْسِ، وإليه تُنسَبُ الرِّمَاحُ الشَّرْعَبِيَّةُ. ومن بطون حَمِيرِ: الدُّرُونُ، وقد يُقالُ لَهُم الأَذْوَاءُ. وأيضًا: رَمَدَدُ، فَمِنْهُمْ: بنو فَهْدٍ وَعَبْدُ كَلالِ وَذُو كَلالِ- وهو يَزِيدُ بنِ النُّعْمَانَ، وهو ذُو كَلالِ الأَكْبَرِ. يُقالُ: تَكَلَّعَ الشَّيْءُ: إذا تَجَمَّعَ- وَذُو رُعَيْنِ، وهو شَراحِيلُ بنِ عَمْرُو، القائلُ:

فمَعذَرَةُ الإِلهِ لِذِي رُعَيْنِ

فإن تَكُ حَمِيرِ غَدَرَتِ وَخانَتِ

ذُو أَصْبَحِ: واسمُه الحارثُ بنِ مالِكِ بنِ زَيْدِ بنِ العَوْتِ، وهو أوَّلُ مَنْ عُمِلَتْ لَهُ السِّياطُ الأَصْبَحِيَّةُ. ومن وُلدِهِ: أْبْرَهَةُ بنِ الصَّبَّاحِ، كان مَلِكًا تِهَامَةَ، وأُمُّهُ رَيْحانَةُ بنتُ أْبْرَهَةَ الأَشْرَمِ مَلِكِ الحَبَشَةِ، وابنُه أَبُو شَمْرٍ، قَتِلَ مَعَ عَلِيِّ بنِ أَبِي طالِبٍ يَوْمَ صِفِّينَ؟ وَأَبُو رُشْدَيْنِ كُرَيْبُ بنِ أْبْرَهَةَ، كان سَيِّدَ حَمِيرِ بالشَّامِ زَمَنَ مُعاويةَ؛ وَمِنْهُمْ: يَزِيدُ بنِ مُفَرِّغِ الشَّاعِرِ.

ذُو يَزَنَ، واسمُه عامرُ بنِ أُسْلَمِ بنِ زَيْدِ بنِ العَوْتِ بنِ قَطْنِ بنِ عَرِيبِ؛ وَمِنْهُمْ: النُّعْمَانُ بنِ قَيْسِ بنِ سَيْفِ بنِ ذِي يَزَنَ، الذي نَفِيَ الحَبَشَةَ عَنِ اليَمَنِ، وجاءَ فِي الحَدِيثِ عَنِ النبي صلى الله عليه وسلم، أَنِ اشْتَرَى حُلَّةً بِبِضْعِ عَشْرِينَ قَلُوصًا، فَأَعْطاها إِلى ذِي يَزَنَ، وإلى ذِي يَزَنَ تُنسَبُ الرِّمَاحُ اليَزَنِيَّةُ.

ذو جَدَن، وهو عَلَس بن الحارث بن زَيْد بن العَوْث. ومن ولده: عَلْقَمَة بن شَرَا حِيل ذو قَيْفَان، الذي كانت له صَمْصامة عَمْرُو بن مَعْدِيكِرِي، وقد ذكره عَمْرُو في شِعْره حيث يقول:

وسَيْفٌ لابنِ ذِي قَيْفَانِ عِنْدِي

تخبر نَصَلُهُ من عَهْدِ عاد

حَضُور بن عَدِي بن مالك بن زَيْد بن سَهْل بن عَمْرُو بن قَيْس بن معاوية، وهم في هَمْدان. فمن حَضُور: شُعَيْب بن ذِي مَهْدَم، النبي الذي قَتَله قومُه، فسَلَطَ اللهُ عليهم بُخْتَنْصَرَ فقتَلهم، فلم يَبْقَ منهم أحد، فاصطلمت حَضُور، ويقال: فيهم نزلت: "فَلَمَّا أَحْسَبُوا بِأَسْنَا إِذَا هُمْ مِنْهَا يَرْكُضُونَ" إلى قوله "خَامِدِينَ". فيقال إن قبر شُعَيْب هذا النبي في جَبَل باليمن في حَضُور يقال له ضِيْن، ليس باليمن جَبَل فيه مِلْحٌ غيرُه، وفيه فاكهة الشام، ولا تُمرُّ به هامة من الهام.

الأوزاع- وهو مرثد بن زَيْد بن زُرعة بن سَبَأ بن كَعْب، وهم في هَمْدان إلا جَرَش بن أسلم بن زَيْد بن العَوْث الأصغر بن أسعد بن عوف: شَجِيح بن عَدِي بن مالك بن زَيْد بن سَهْل بن عَمْرُو، وصَيْفِي بن سَبَأ الأصغر ابن كَعْب بن زيد بن سَهْل بن تُبَع، وهو أسعد أبو كَرَب. التبابعة- تُبَع الأصغر أسعد أبو كَرَب، واسمه تَبان بن مَلِكِيكِرَب، وهو تُبَع الأكبر بن قَيْس بن صَيْفِي، ومَلِكِيكِرَب تُبَع الأكبر يُكنى أبا مالك، وله يقول الأعشى:

وخان الزمانُ أبا مالكٍ

وأبي امرئٍ لم يَخْنُهُ الزَّمَنُ

ومن بني صَيْفِي بن سَبَأ بلقيس، وهي بَلْقَمَة بنت آل شَرخ بن ذِي جَدَن ابن الحارث بن قيس بن سَبَأ الأصغر، ومنهم: التَّبابعة وهم تسعة، منهم: تُبَع الأصغر وتُبَع الأكبر، ومنهم المَثامنة، وهم ثمانية رَهْطٌ وُلادة اليهود بعد الملوك، ومن المَثامنة أربعة آلاف قَيْل، والقَيْل الذي يَكَلِّم المَلِك فيسمع كلامه ولا يَكَلِّم غيره، ومنهم أبو فُرَيْفِيش بن قيس بن صَيْفِي، الذي آفَتِح إفريقية فسميت به، ويومئذ سُميت البرابرة، وذلك أنهم قالوا: إنه قال لهم: ما أكثر بَرَبَرَتِكُمْ.

قضاة- هو قضاة بن مالك بن عَمْرُو بن مُرّة بن زَيْد بن مالك ابن حَمِير، واسم قضاة عمرو. فمن قبائل قضاة وبطونها وجماهيرها: كلب ابن وبرة بن ثعلب بن حُلوان بن عَمْران بن الحاف بن قضاة، وذلك أنّ وبرة وُلد له كَلْبٌ وأسد ونمرٍ وذئبٌ وتُعَلْبٌ وفَهْدٌ وضُبُعٌ ودُبٌ وسيدٌ وسِرْحان. فمن أشرف كَلْب: الفرافصة بن الأحوص بن عَمْرُو بن تُعَلْبَة، وهو الذي تزوّج عثمان بن عَفّان ابنته نائلة بنت الفرافصة؛ ومنهم: زُهَيْر بن جَناب بن هُبَل بن عبد الله بن كِنانة؛ ومن أسلافهم في الإسلام؟ دَحِيَة بن خَلِيفَة الكَلْبِي، وهو الذي كان جبريلُ عليه السلام ينزل في صورته؛ ومنهم: حَسان بن مالك بن جَدِيمة.

ومن قضاة: القَيْنُ بنُ جَسْر بن شَيْع اللات بن أسد بن وبرة. فمن أشرف القَيْن: دَعَج بن كُثَيْف، وهو الذي أسر سِنان بن حارثة المُرِّي؛ ومنهم: نديما جَدِيمة وهما: مالك وعَقِيل ابنا فارج، ولهما يقول المُنخَل:

ألم تَعَلَمِي أن قد تَفَرَّقَ قَبَلَنَا

خَلِيلاً صَفَاءِ مالِكٍ وَعَقِيلُ

ومنهم: سَعْد بن أبي عمرو، وكان سيد بني القَيْن ورئيسهم.

ومن قضاة تَنُوخ، وهم ثلاثة أَبْطَن، منهم: بنو تَيْم الله بن أسد بن وبرة؛ ومنهم مالك بن زُهَيْر بن عَمْرُو بن فَهْم بن تَيْم الله بن تُعَلْبَة بن مالك ابن فَهْم؛ ومنهم: أذينة الذي يقول فيه الأعشى:

أزال أذينة عن مُلكه

وأخرَج من قَصْره ذا يَزَن

ومن بني قضاة: حَرَم، وهو عَمْرُو بن عَلَاف بن حُلوان بن عَمْران بن الحاف بن قضاة، وإلى عَلَاف تُنسب الرِّجال العَلَافِيَة، وقال الشاعر: مَجُوف عَلَافِي ونَطَعٌ ومُرْمُقٌ ومن حَرَم الرِّعْل بن عُرْوَة، وكان شريفًا؛ ومنهم: عِصام بن شَهَبَر بن الحارث، وكان شجاعاً شديداً، وله يقول النابغة:

فإني لا ألومك في دخول

ولكن ما وراءك يا عصام

وله قيل:

نفسُ عصامٍ سوّدتِ عصاماً

وعلمته الكر والإقداماً

وجعلته ملكاً هماماً

ولجرم أربعة من الولد: قدامة وجدة وملكان وناجية. فمن بني قدامة كنانة بن صريم الذي كان يُهاجي عمرو بن معد يكرب، ووعلة بن عبد الله بن الحارث الذي قتل الحارث بن عبد المدان؛ ومنهم: بنو شنن، وهم باليمامة مع بني هزان بن عنزة؛ ومنهم: أبو قلابة الفقيه عبد الله بن زيد، والمساور بن سوار، ولي شرطة الكوفة محمد بن سليمان، ومن بني جدّة بن جرم: بنو راسب، وهم بنو الخزرج بن جدّة بن جرم. ومن قضاة سليح، وهو عمرو بن حلوان بن عمران. ومن بني سعد بن سليح: الضجاعة الذين كانوا ملوك الشام قبل غسان. ومن بني التمر بن وبرة: حشين، منهم: أبو ثعلبة الحشني صاحب النبي صلى الله عليه وسلم. ومن بني التمر بن وبرة: غاضرة وعاتبة ابنا سليم بن منصور.

ومن بني أكنم بن التمر: مشجعة بن العوث: منهم معاوية بن حجار الذي يُقال له ابن قارب، وهو الذي قتل داود بن هبولة السليحي وكان ملكاً. بهراء بن عمرو بن الحاف بن قضاة، فولد بهراء: أهود وقاسطاً وعبدة وقسراً وعدياً، بطون كلها، ومنهم: قيس وشبيب بطنان عظيمان؛ ومنهم: المقداد ابن عمرو صاحب النبي صلى الله عليه وسلم، وهو الذي يُقال له المقداد بن الأسود لأن الأسود بن عبد يعوث كان تبناه، وقد انتسب المقداد إلى كندة، وذلك أن كندة سبته في الجاهلية فأقام فيهم وانتسب إليهم. ومن قضاة، بلي بن عمرو بن الحاف بن قضاة: منهم المجذر بن زياد قاتل أبي البختري العاصي بن هشام بن الحارث بن أسد بن عبد العزي في يوم بدر وهو يقول:

بشر بيتم من أبيه البختري

أو بشرن بمتلها مني أبي

أنا الذي أزعم أصلي من يلي

أضرب بالهندي حتى ينثني

وفيهم: بنو إراشة بن عامر، منهم: كعب بن عجرة الأنصاري صاحب النبي عليه الصلاة والسلام، وسهل بن رافع صاحب الصّاع؛ وفيهم: بنو العجلان ابن الحارث، منهم: ثابت بن أرقم، شهد بدرًا، وهو الذي قتله طلحة في الردة؛ ومنهم: بنو وائلة بن حارثة أخي عجلان، منهم: النعمان بن أعصر شهد بدرًا.

ومن قضاة: مهرة بن حيدان بن عمرو بن الحاف بن قضاة، وهو الذي تُنسب إليه الإبل المهريّة، ومنهم: كرز بن روعان، من بني المنسم، الذي صار إلى معد يكرب بن جبلة الكندي، وهو الذي يقول:

تقول بنيتي لما رأنتي

أكرّ عليهم وأذبّ وحدي

لعمرك إن ونيت اليوم عنهم

لنتقلبن مصروعاً بخدّ

ومنهم ذهبن بن فرضم بن العجيل، وهو الذي كان وقد على النبي صلى الله عليه وسلم وكتب له كتاباً وردّه إلى قومه. جهيّنة بن ليث بن سوّد بن أسلم بن الحاف بن قضاة- منهم: سويد بن عمرو بن جديمة بن سيرة بن خديج بن مالك بن عمرو بن ثعلبة بن رفاعة بن مضر بن مالك بن غطفان بن قيس بن جهيّنة، وكان شريفًا.

ومن قضاة: نهد بن زيد بن سوّد بن أسلم بن الحاف بن قضاة: منهم الصّعق، وهو جشم بن عمرو بن سعد، وكان سيّد نهد في زمانه، وكان قصيراً أسود دميماً، وكان النعمان قد سمع شرفه فأتاه، فلما نظر إليه تبّت عنه عينه، قال: تسمع بالمعيدي خير من أن تراه؛ فقال: أبيت اللعن، إن الرجال

ليست بُمسوك يُسْتَقَى فيها الماء، وإنما المرء بأصغريه قلبه ولسانه، إذا نطقَ نطقَ بَيَان، وإن صال صال بجاناً؛ قال: صدقت، ثم قال له: كيف علمك بالأمر؟ قال: أبغض منها المَقْبُول، وأبْرَم المَسْحُول، وأحيلها حتى تحول، وليس لها بصاحب من لم ينظر في العواقب. ومنهم: ودعة بن عمرو صاحب بسبس طليعة رسول الله صلى الله عليه وسلم.

عُدْرَة بن سَعْد هُدْم بن زَيْد بن لَيْث: منهم خالد بن عَرْفَطَة، ولأه سَعْد بن أَبِي وَقَّاص مَيْمَنَة الناس يوم القادسية، ومنهم عُرْوَة بن حِرَام صاحب عَفْرَاء، ومنهم رَزَاح بن رَيْبَعَة أَخُو قُصَيٍّ لَأْمَة، وهو الذي أعان قُصَيًّا حتى غلب على البيت، ومنهم جَمِيل بن عبد الله بن مَعْمَر بن نَهِيك صاحب بُثَيْنَة، وبنو الحارث بن سَعْد إخوة عُدْرَة. فهؤلاء بطون قُضَاعَة بن مالك بن عُمَر بن مُرَة، وهؤلاء أولاد حَمِير بن سَبَأ.

كهلان بن سبا

الأرد بن العوث بن نبت بن زيد بن كهلان. فمن قبائل الأزد: الأنصار، وهم الأوس والخزرج ابنا حارثة بن ثعلبة بن عمرو بن عامر، وأمهما قبيلة، وهؤلاء الأوس والخزرج ابنا حارثة بن ثعلبة، وهو العنقاء بن عمرو بن ثعلبة، وهو المزقياء بن عامر، وهو ماء السماء. فمن بطون الأوس والخزرج وجماهيرها: عمرو بن عوف بن مالك بن أوس، وهم بنو السمعية، بما يعرفون، وهم عوف وثلعة ولؤذان بنو عمرو بن عوف بن مالك بن الأوس.

ضبيعة بن زيد بن عمرو بن عوف بن مالك بن الأوس - منهم: عاصم ابن أبي الأفلح الذي حمت لحمه الدبر، والأحوص بن عبد الله الشاعر، وحنظلة بن أبي عامر، غسيل الملائكة، وأبو سفيان بن الحارث، بدري، وأبو مليل بن الأزعر، بدري. حبيب بن عمرو بن مالك بن الأوس - ومنهم: سويد بن الصامت، قتله الجذر ابن ذياب في الجاهلية فوثب أبوه على الجذر فقتله في الإسلام، فقتله النبي عليه الصلاة والسلام.

عبد الأشهل بن جشم بن الحارث بن الخزرج بن عمرو بن مالك بن الأوس - منهم: سعد بن معاذ الذي اهتز لموته العرش، بدري، حكم في بني قريظة؛ والنضر بن عمرو، أخو سعد بن معاذ، شهد بدرًا وقتل يوم أحد؛ والحارث بن أنس، شهد بدرًا وقتل يوم أحد؛ وعمار بن زياد، قتل يوم بدر؛ وأسيد بن الحضير بن سماك، شهد العقبة وبدرًا؛ وربيع بن زيد، شهد العقبة وبدرًا.

ربيع بن عبد الأشهل بن جشم بن الحارث بن خزرج بن عمرو بن مالك بن الأوس - منهم: رفاع بن وقش، قتل يوم أحد؛ وسلمة بن سلامة ابن وقش، شهد بدرًا وقتل يوم أحد؛ وأخوه عمرو بن سلامة، قتل يوم أحد؛ ورافع بن يزيد، بدري. زعوراء بن جشم بن الحارث بن خزرج بن عمرو بن مالك بن الأوس منهم: مالك بن التهيان أبو الهيثم، نقيب بدري عقي، وأخوه عتبة بن التهيان بدري، قتل يوم أحد.

خطمة، هو عبد الله بن جشم بن مالك بن الأوس - منهم: عدي بن حرشة، وعمرو بن حرشة، وأوس بن خالد، وخزيمة بن ثابت ذو الشهادتين، وعبد الله بن زيد القارئ، ولي الكوفة لابن الزبير.

واقف، هو مالك بن امرئ القيس بن مالك بن الأوس - منهم: هلال بن أمية، وعائشة بن ثمير، الذي ينسب إليهم بئر عائشة بالمدينة، وهرم بن عبد الله.

والسلم بن امرئ القيس بن مالك بن الأوس - ومنهم: سعد بن خيثمة بن الحارث، بدري عقي نقيب، قتل يوم أحد. عامرة، هم أهل رايخ ابن مرة بن مالك بن الأوس - منهم: وائل بن زيد بن قيس بن عامرة، وأبو قيس بن الأسلت.

الخزرج

فمن بَطُونِ الْخَزْرَجِ: النَّجَّارُ بْنُ ثَعْلَبَةَ بْنِ عَمْرٍو بْنِ خَزْرَجٍ، وَعَنْمٌ بْنُ مَالِكِ بْنِ النَّجَّارِ بْنِ ثَعْلَبَةَ بْنِ عَمْرٍو بْنِ الْخَزْرَجِ، مِنْهُمْ: أَبُو أَيُّوبَ خَالِدُ بْنُ زَيْدٍ، بَدْرِيُّ؛ وَثَابِتُ بْنُ النُّعْمَانِ، وَسُرَّاقَةُ بْنُ كَعْبٍ، وَعُمَارَةُ بْنُ حَزْمٍ، وَعَمْرٍو بْنُ حَزْمٍ، بَدْرِيُّ عَقَبِيُّ؛ وَزَيْدُ بْنُ ثَابِتٍ صَاحِبُ الْقُرْآنِ وَالْفَرَائِضِ، بَدْرِيُّ؛ وَمُعَاذٌ وَمَعُوذٌ وَعَوْفٌ وَبَنُو الْحَارِثِ بْنِ رِفَاعَةَ، وَأَمَّهُمْ عَفْرَاءٌ، بِهَا يُعْرَفُونَ، شَهِدُوا بَدْرًا؛ وَأَبُو أَمَامَةَ أَسْعَدُ بْنُ زُرَّارَةَ، نَقِيبُ عَقَبِيِّ بَدْرِيِّ وَحَارِثَةُ بْنُ النُّعْمَانِ، بَدْرِيُّ.

مَبْدُولُ - اسْمُهُ عَامِرُ بْنُ مَالِكِ بْنِ النَّجَّارِ بْنِ ثَعْلَبَةَ بْنِ عَمْرٍو بْنِ خَزْرَجٍ، مِنْهُمْ: حَبِيبُ بْنُ عَمْرٍو، قُتِلَ يَوْمَ الْيَمَامَةِ؛ وَأَبُو عَمْرَةَ، وَهُوَ بَشِيرُ بْنُ عَمْرٍو، قُتِلَ مَعَ عَلِيِّ بْنِ أَبِي طَالِبٍ بِصِفِّينَ؛ وَالْحَارِثُ بْنُ الصَّمَةِ، بَدْرِيُّ؛ وَسَهْلُ بْنُ عَتِيكٍ، بَدْرِيُّ.

حُدَيْلَةُ - هُوَ مُعَاوِيَةُ بْنُ عَمْرٍو بْنِ مَالِكِ بْنِ النَّجَّارِ بْنِ ثَعْلَبَةَ بْنِ عَمْرٍو بْنِ الْخَزْرَجِ، أُمُّهُ حُدَيْلَةُ وَبِهَا يُعْرَفُونَ، مِنْهُمْ: أَبِي بْنُ كَعْبٍ بْنُ قَيْسِ بْنِ عُبَيْدِ بْنِ مُعَاوِيَةَ؛ وَأَبُو حَبِيبِ بْنِ زَيْدٍ، بَدْرِيُّ.

مَعَالَةُ - هُوَ عَدِيُّ بْنُ عَمْرٍو بْنِ مَالِكِ بْنِ النَّجَّارِ، مِنْهُمْ: حَسَّانُ بْنُ ثَابِتِ بْنِ الْمُنْذَرِ بْنِ حَرَامٍ، شَاعِرُ النَّبِيِّ عَلَيْهِ الصَّلَاةُ وَالسَّلَامُ؛ وَأَبُو طَلْحَةَ، وَهُوَ زَيْدُ بْنُ سَهْلِ بْنِ الْأَسْوَدِ بْنِ حَرَامٍ.

مِلْحَانُ بْنُ عَدِيِّ بْنِ النَّجَّارِ بْنِ ثَعْلَبَةَ بْنِ عَمْرٍو بْنِ خَزْرَجٍ - مِنْهُمْ: سُلَيْمُ بْنُ مِلْحَانَ، وَحَرَامُ بْنُ مِلْحَانَ، بَدْرِيَّانِ قَتِلَا يَوْمَ بَثْرَ مَعُونَةَ. "عَنْمٌ بْنُ عَدِيِّ بْنِ النَّجَّارِ" - وَمِنْهُمْ صِرْمَةُ بْنُ أَنَسِ بْنِ صِرْمَةَ، صَحَبَ النَّبِيَّ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ؛ وَمُحْرَزُ بْنُ عَامِرٍ، بَدْرِيُّ؛ وَعَامِرُ بْنُ أُمِيَّةٍ، بَدْرِيُّ، قُتِلَ يَوْمَ أُحُدٍ؛ وَأَبُو حَكِيمٍ، وَهُوَ عَمْرٍو بْنُ ثَعْلَبَةَ، بَدْرِيُّ؛ وَثَابِتُ بْنُ خُنْسَاءٍ، بَدْرِيُّ، قُتِلَ يَوْمَ أُحُدٍ؛ وَأَبُو الْأَعْوَرِ، وَهُوَ كَعْبُ بْنُ الْحَارِثِ، بَدْرِيُّ؛ وَأَبُو زَيْدٍ، أَحَدُ السِّتَّةِ الَّذِينَ جَمَعُوا الْقُرْآنَ عَلَى عَهْدِ رَسُولِ اللَّهِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ؛ وَبَنُو الْحَسْحَاسِ الَّذِينَ ذَكَرَهُمْ حَسَّانُ فِي قَوْلِهِ: دِيَارٌ مِنْ بَنِي الْحَسْحَاسِ قَفْرٌ مَازَنُ بْنُ النَّجَّارِ بْنِ ثَعْلَبَةَ بْنِ عَمْرٍو بْنِ خَزْرَجٍ - مِنْهُمْ: حَبِيبُ بْنُ زَيْدٍ، قَطَعَ مُسْلِمَةَ يَدِهِ، وَكَانَ رَسُولُ اللَّهِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ بَعَثَهُ إِلَيْهِ؛ وَعَبْدُ الرَّحْمَنِ بْنُ كَعْبٍ، مِنَ الَّذِينَ تَوَلَّوْا وَأَعْيَنَهُمْ تَفِيضُ مِنَ الدَّمْعِ، بَدْرِيُّ؛ وَقَيْسُ بْنُ أَبِي صَعْصَعَةَ، بَدْرِيُّ؛ وَغَزِيَّةُ بْنُ عَمْرٍو، عَقَبِيُّ.

بَنُو الْحَارِثِ بْنِ الْخَزْرَجِ - مِنْهُمْ: عَبْدُ اللَّهِ بْنُ رَوَاحَةَ الشَّاعِرِ، بَدْرِيُّ عَقَبِيُّ نَقِيبٌ؛ وَخِلَادُ بْنُ سُؤَيْدٍ، بَدْرِيُّ، قُتِلَ يَوْمَ قُرَيْظَةَ؛ وَسَعْدُ بْنُ الرَّبِيعِ، بَدْرِيُّ عَقَبِيُّ نَقِيبٌ، قُتِلَ يَوْمَ أُحُدٍ؛ وَخَارِجَةُ بْنُ زَيْدٍ، بَدْرِيُّ عَقَبِيُّ نَقِيبٌ، قُتِلَ يَوْمَ أُحُدٍ؛ وَابْنُهُ زَيْدُ بْنُ خَارِجَةَ، الَّذِي تَكَلَّمَ بَعْدَ مَوْتِهِ؛ وَثَابِتُ بْنُ قَيْسِ بْنِ شَمَّاسٍ، خَطِيبُ النَّبِيِّ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ، قُتِلَ يَوْمَ الْيَمَامَةِ وَهُوَ عَلَى الْأَنْصَارِ؛ وَبَشِيرُ بْنُ سَعْدٍ، بَدْرِيُّ عَقَبِيُّ؛ وَابْنُهُ النَّعْمَانُ بْنُ بَشِيرٍ؛ وَزَيْدُ بْنُ أَرْقَمٍ؛ وَابْنُ الْإِطْنَابَةِ الشَّاعِرِ؛ وَيَزِيدُ بْنُ الْحَارِثِ الشَّاعِرِ، بَدْرِيُّ؛ وَأَبُو الدَّرْدَاءِ، وَهُوَ عُؤَيْمَرُ بْنُ زَيْدٍ، وَعَبْدُ اللَّهِ بْنُ زَيْدٍ، الَّذِي أَرَى الْأَذَانَ؛ وَسُبَيْعُ بْنُ قَيْسٍ، بَدْرِيُّ، وَعَامِرُ بْنُ كَعْبِ الشَّاعِرِ.

بَنُو حُدْرَةَ بْنِ عَوْفِ بْنِ الْحَارِثِ بْنِ الْخَزْرَجِ - مِنْهُمْ: أَبُو مَسْعُودِ عُقْبَةَ بْنِ عَمْرٍو، بَدْرِيُّ عَقَبِيُّ؛ وَعَبْدُ اللَّهِ بْنُ الرَّبِيعِ، بَدْرِيُّ؛ وَأَبُو سَعِيدِ الْخُدْرِيِّ، وَهُوَ سَعْدُ بْنُ مَالِكٍ.

بَنُو سَاعِدَةَ بْنِ كَعْبِ بْنِ الْخَزْرَجِ - مِنْهُمْ: سَعْدُ بْنُ عُبَادَةَ بْنِ دُلَيْمٍ، كَانَ مِنَ الثَّقَبَاءِ وَهُوَ الَّذِي دَعَا إِلَى نَفْسِهِ يَوْمَ سَقِيفَةِ بَنِي سَاعِدَةَ؛ وَالْمُنْذَرُ بْنُ عَمْرٍو، بَدْرِيُّ عَقَبِيُّ نَقِيبٌ، قُتِلَ يَوْمَ بَثْرَ مَعُونَةَ؛ وَأَبُو دُجَابَةَ، وَهُوَ سِمَاكُ بْنُ أَوْسِ بْنِ خَرَشَةَ؛ وَسَهْلُ بْنُ سَعْدٍ؛ وَأَبُو أُسَيْدٍ، وَهُوَ مَالِكُ بْنُ رَبِيعَةَ، قُتِلَ يَوْمَ الْيَمَامَةِ؛ وَمَسْلَمَةُ بْنُ مَخْلَدٍ.

سَالِمُ بْنُ عَوْفِ بْنِ الْخَزْرَجِ - مِنْهُمْ: الرَّمَقُ بْنُ زَيْدِ الشَّاعِرِ، جَاهِلِيٌّ؛ وَمَالِكُ بْنُ الْعَجَّلَانَ بْنِ زَيْدِ بْنِ سَالِمِ سَيِّدِ الْأَنْصَارِ الَّذِي قَتَلَ الْفِطْيُونَ. الْقَوَقُلُ، هُوَ غَنْمُ بْنُ عَمْرٍو بْنِ عَوْفِ بْنِ الْخَزْرَجِ - مِنْهَا: عُبَادَةُ بْنُ الصَّامِتِ، بَدْرِيُّ نَقِيبٌ؛ وَمَالِكُ بْنُ الدُّخَشْمِ، بَدْرِيُّ، وَالْحَارِثُ بْنُ خَزِيمَةَ، بَدْرِيُّ. بَنُو بِيَاضَةَ بْنِ عَامِرِ بْنِ زُرَيْقٍ - مِنْهُمْ: زِيَادُ بْنُ لَبِيدٍ، بَدْرِيُّ؛ وَفَرَوَةَ بْنُ عَمْرٍو، بَدْرِيُّ عَقَبِيُّ؛ وَخَالِدُ بْنُ قَيْسٍ، بَدْرِيُّ؛ وَعَمْرٍو بْنُ النُّعْمَانِ، رَأْسُ الْخَزْرَجِ يَوْمَ بُعَاثٍ؛ وَابْنُهُ: النَّعْمَانُ، صَاحِبُ رَايَةِ الْمُسْلِمِينَ بِأَحَدٍ.

الْعَجَّلَانَ بْنُ زَيْدِ بْنِ سَالِمِ بْنِ عَوْفِ بْنِ عَمْرٍو بْنِ عَوْفِ بْنِ الْخَزْرَجِ - وَمِنْ بَنِي الْعَجَّلَانَ: عَبْدُ اللَّهِ بْنُ نَضْلَةَ بْنِ مَالِكِ بْنِ الْعَجَّلَانَ الْبَدْرِيِّ، قُتِلَ يَوْمَ أُحُدٍ؛ وَعِيَّاشُ بْنُ عُبَادَةَ بْنِ نَضْلَةَ؛ وَمُلَيْلُ بْنُ وَبَرَةَ، بَدْرِيُّ؛ وَعِصْمَةُ بْنُ الْحَصِينِ بْنِ وَبَرَةَ، بَدْرِيُّ؛ وَأَبُو خَيْثَمَةَ، وَهُوَ مَالِكُ بْنُ قَيْسٍ.

الحُبْلَى، وهو سالم بن غنم بن عوف بن عمرو بن عوف بن الخزرج، سُمي الحُبْلَى لعظم بطنه - منهم: عبد الله بن أبي بن سلول رأس المنافقين؛ وابنه عبد الله بن عبد الله، شهيد بدرًا وقتل يوم اليمامة، وأوس بن حوْلي، بدري.

بنو زُرَيْق بن عامر بن زُرَيْق بن حارثة بن مالك بن عَضْب بن جُشَم بن الخزرج - منهم: ذَكْوَان بن عَبْدِ قَيْس، بَدْرِي عَقَبِي، قُتِلَ يَوْمَ أَحَدٍ؛ وأبو عُبَادَةَ سَعْد بن عثمان، بَدْرِي، وَعُتْبَةُ بن عثمان، بدري؛ والحارث بن قَيْس، بدري؛ وأبو عِيَّاش بن مُعَاوِيَةَ، فارس جُلُودَة، بدري، وَمَسْعُود بن سَدَةَ بَدْرِي؛ ورفاعة بن رافع، بدري، وأبو رافع بن مالك، أول من أسلم من الأنصار.

بنو سَلْمَةَ بن سَعْد بن علي بن أسد بن شاردة بن جُشَم بن الخزرج - منهم: جابر بن عبد الله، صاحب النبي عليه الصلاة والسلام؛ ومُعَاذ بن الصمة، بدري، وخرّاش بن الصمة، شهيد بدرًا بفرسين؛ وعُتْبَةُ بن أبي عامر بدري؛ ومُعَاذ بن عمرو بن الجَمُوح، بدري، وهو الذي قطع رجل أبي لُحَب، وأخوه مُعَوِّذ بن عمرو، قُتِلَا يَوْمَ بَدْرٍ؛ وأبو قَتَادَةَ، واسمه النُعمان بن رَبِيعِي، وكَعْب بن مالك الشاعر؛ وأبو مالك بن أبي كَعْب الذي يقول:

لَعَمْرُ أَبِيهَا مَا تَقُولُ حَلِيتِي إِذَا فَرَعْنَهَا مَالِكُ بْنُ أَبِي كَعْبٍ

وبشر بن عبد الرحمن، والزبير بن حارثة، وأبو الخطّاب، وهو عبد الرحمن بن عبد الله، ومَعْن بن وَهَب، هؤلاء الخمسة شعراء؛ وعبد الله بن عَتِيك، قاتل ابن أبي الحقيق. هذا نسب الأنصار.

خزاعة

هو عمرو بن ربيعة بن حارثة بن عمرو بن عامر، وإنما قيل لها خزاعة لأنهم تخرّجوا من ولد عمرو بن عامر في إقبالهم من اليمن، وذلك أن بني مازن من الأزد لما تفرقت الأزد من اليمن في البلاد، نزل بنو مازن على ماء بين زبيد ورمع يقال له غَسَّان، فمن شرب منه فهو غَسَّانِي، وأقبل بنو عمرو فانخرعوا من قومهم فزلوا مكة، ثم أقبل أسلم ومالك وملكان بنو أقصى بن حارثة فانخرعوا، فسُموا خزاعة، وافترق سائر الأزد فالأنصار وخزاعة وبارق والمُهْجَن وغَسَّان كلها من الإزد، فجميعهم من عمرو بن عامر، وذلك أن عمرو بن عامر وُلِدَ له حَفْنَةُ والحارث، وهو مُحْرَق، لأنه أوّل من عَذَّب بالنار، وتُعَلْبَةُ العنقاء، وهو أبو الأنصار، وحارثة، وهو أبو خزاعة، وأبو حارثة ومالك وكَعْب ووداعة، وهو في هَمْدَان، وعَوْف وذهل، وهو وائل، وعمران، فلم يشرب أبو حارثة ولا عمّران ولا وائل من ماء غَسَّان، فليس يُقال لهم غَسَّان.

بطون من خزاعة حُلَيْل بن حُبْشِيَةَ بن سلول بن كَعْب بن ربيعة بن خزاعة، وهو كان صاحب البيت قبل قريش - منهم: المُحْتَرَش بن حُلَيْل بن حُبْشِيَةَ، الذي باع مفتاح الكعبة من قُصَيِّ بن كِلَاب، وهلال بن حُلَيْل، وكُرْز بن عَلْقَمَةَ، الذي قفا أثر النبي صلى الله عليه وسلم حتى دخل الغار، وهو الذي أعاد معالم الحَرَم في زمن مُعَاوِيَةَ فهي إلى اليوم؛ وطارق بن باهية الشاعر.

قَمِير بن حُبْشِيَةَ بن سلول بن كعب بن ربيعة بن خزاعة - فمن بني قَمِير: بُسْر بن سُفْيَان، الذي كتب إليه النبي صلى الله عليه وسلم؛ وحَلْجَلَة بن عمرو، الذي ذكره أبو الكنود في شعره، ومن ولده: قَبِيصَة بن دُوَيْب بن حَلْجَلَة؛ ومالك بن الهَيْثَم بن عَوْف. كَلِيب بن حُبْشِيَةَ بن سلول بن كعب بن ربيعة بن خزاعة - منهم: السَّفَّاح. ابن عبد مائة الشاعر؛ وخرّاش بن أمية، حليف بني مخزوم، وهو الذي حلق النبي عليه الصلاة والسلام.

ضاطر بن حُبْشِيَةَ بن سلول بن كَعْب بن ربيعة بن خزاعة - منهم: حَفْص ابن هاجر الشاعر، وقرة بن إياس الشاعر، وكان ابنه يحيى بن قرة سيد قومه، وطلحة بن عبيد الله بن كُرَيْزَة وابن الحُدَادِيَّة، الشاعر، واسمه قَيْس بن عمرو.

حَرَام بن عمرو بن حُبْشِيَةَ بن سلول بن كَعْب بن ربيعة بن خزاعة - منهم: أكتم بن أبي الجَوْن؛ وسُلَيْمَان بن صُرْد بن الجَوْن؛ ومُعْتَب بن الأَكْوَع الشاعر وأم مَعْبُد، وهي عاتكة بنت خليف، التي نزل بها النبي صلى الله عليه وسلم في مهاجرته إلى المدينة. غاضرة بن عمرو بن حُبْشِيَةَ بن سلول بن كعب بن ربيعة بن خزاعة - منهم: عمّران بن حُصَيْن، صاحب النبي عليه الصلاة والسلام؛ وسعيد بن سارية، ولي شرطة علي بن أبي طالب؛ وأبو جُمعة، جد كثير عزة؛ وجعدة وأبو الكنود ابنا عبد العزّي.

مُليح بن خُزاعة- منهم عبد الله بن خلف، قُتل مع عائشة يومَ الجمل؛ وأخوه سليمان بن خلف، كان مع عليّ يومَ الجمل، وابنه طلحة بن عبد الله بن خلف، يُقال له طلحة الطَّلحات، وهو أجود العرب في الإسلام؛ وعمرو بن سالم الذي يقول:

لَا هُمْ إِنِّي نَاشِدٌ مُحَمَّدًا

حَلَفَ أَيْبِنَا وَأَيْبِهِ الْأَتْلَدَا

ومنهم: كُثير عَزَّ الشاعر، وكُنيتُه أبو عبد الرحمن.

عدي بن خُزاعة- منهم: بَدِيل بن وَرْقَاء، الذي كَتَبَ إليه النبي صلى الله عليه وسلم يدعوهُ إلى الإسلام؛ وابنه عبد الله بن بَدِيل، ونافعُ بن بَدِيل، قُتل يوم بئر مَعُونَة؛ ومحمد بن ضَمْرَة، كان شريفًا والحِيسُمان بن عمرو، الذي جاء بَقَتْلَى أهل بدر إلى مكة وأسلم بعد ذلك.

سعد بن كَعْب بن خُزاعة- منهم: مَطْرُود بن كعب، الذي رَثَى بني عَبْدِ مَنَافٍ؛ وعمرو بن الحَمِق، صاحب النبي عليه الصلاة والسلام، وأبو مالك القائد، وهو أسد بن عَبْدِ اللّهِ؛ والحُصَيْن بن نَضْلَة، كان سيّد أهل تَمَامَة، ماتَ قَبْلَ الإسلام؛ والحارث بن أسد، صَحِبَ النبي صلى الله عليه وسلم.

المصطَلِق بن سعد بن خُزاعة- منهم: جُوَيْرِيَة بنت الخَزْرَج، زَوْجَ النبي عليه الصلاة والسلام. وإخوة خُزاعة، وهم يُنسَبون في خُزاعة: أسلم بن أَفْصَى بن حارثة بن عمرو بن عامر- منهم: بُرَيْدَة بن الحَصِيب، صاحبُ النبي عليه الصلاة والسلام؛ وسَلْمَة بن الأَكْوَع، صاحبُ النبي عليه الصلاة والسلام.

ومَلِك بن أَفْصَى بن حارثة بن عمر بن عامر- ومنهم: ذُو الشَّمَالِين، وهو عُمَيْر بن عبد عمرو، شَهِدَ بدرًا مع النبي صلى الله عليه وسلم ومالك بن الطَّلَاطِلَة، كان من المُستَهزِئِين من النبي صلى الله عليه وسلم؛ ونافع بن الحارث، وَلِي مكة لعمرَ بن الخطَّاب.

مالك بن أَفْصَى بن عمرو بن عامر- منهم: عُوَيْمِر بن حارثة، وسُلَيْمَان ابن كُثَيْب، من نُقباء بني العَبَّاس، قَتَلَهُ أبو مُسلم جُرَّاسَان.

سَلَامَان بن أسلم بن أَفْصَى بن حارثة بن عمرو بن عامر- منهم: جَرَهْد بن رِزَاح، كان شريفًا؛ وأبو بُرْدَة، صاحب النبي عليه الصلاة والسلام. فرغَت خُزاعة

بارق والهجن

وَلَدَ عَدِيَّ بن حارثة بن عمرو بن عامر، سَعْدَا، وهو بارق، وعمرا، وهم الهجن، فخُزاعة وبارق والهجن من بني حارثة بن عمرو بن عامر.

فمن بارق: سُرَاقَة بن مِرْدَاس الشاعر، وجَعْفَر بن أَوْس الشاعر؛ ومنهم: النُّعْمَان بن حَمِيصَة، جاهليّ شريف. وبارق والهجن لا يُقال لها غَسَّان، وغَسَّان ماء بالمشلَل، فمن شرب منه من الأزد فهو غَسَّاني، ومن لم يشرب منه فليس بِغَسَّاني. وقال حسان:

إِمَّا سَأَلْتِ فَإِنَّا مَعَشَرُ نَجْبٍ

الْأَزْدُ نَسَبَتْنَا وَالْمَاءُ غَسَّانُ

ومن الهجن: عَرَفْجَة بن هَرْمَة، الذي جَنَدَ الموصل، وعداده في بارق؛ ومنهم: رَبِيعَة ومُلَادِس وتَعْلِبَة وشَيْب ومَلْع، بنو الهجن.

حُجْر بن عمرو بن عامر حارثة بن تَعْلِبَة بن امرئ القَيْس بن مازن بن الأزد- ومنهم: أبو شَجَرَة بن حُجْنَة، هاجر مع النبي صلى الله عليه وسلم، ومنهم: صَيْفِيّ بن خالد بن سَلْمَة بن هُرَيْم. والعَتِيك، هو ابن الأزد بن عِمْرَان بن عمرو- منهم: المُهَلَّب بن أبي صَفْرَة واسم أبي صَفْرَة ظالم بن سُرَاقَة وجُدَيْع بن سَعِيد بن قَبِيصَة ومن العَتِيك عمرو بن الأَشْرَف، قُتل مع عائشة يومَ الجَمَل، وابنه زياد بن عمرو، كان شريفًا؛ وثابت قُطْنَة الشاعر. ويُقال: إنَّ العَتِيك بنُ عِمْرَان بن عمرو بن أسد بن خَزِيمَة فهؤلاء بنو عِمْرَان بن عمرو بن عامر، وهم الحُجْر والأزد والعَتِيك.

بطون الأزد

بنو ماسخَة بن عبد الله بن مالك بن النَّصر بن الأزد، إليهم تُنسب القِيسِيّ الماسخِيّية، كان أولَ مَنْ رَمَى بِهَا زَهْرَانُ بن كَعْب بن الحارث بن كعب بن عبد الله بن مالك بن نصر، من الأزد. ومنهم: حُمَمَة بن رافع. وفيهم: بنو النَّمِر بن عُثْمَان بن النَّصر بن هوزان. ومنهم: أبو الكَنُود، صاحب ابن

مَسْعُود، قُتِلَ يَوْمَ الْفَجَارِ؛ وَأَبُو الْجَهْمِ بْنِ حَبِيبٍ، كَانَ وَالِيًّا لِأَبِي جَعْفَرٍ، وَأَبُو مَرْثِمٍ؛ وَهُوَ حُذَيْفَةُ بْنُ عَبْدِ اللَّهِ، صَاحِبُ رَايَتِهِمْ يَوْمَ رُسْتَمٍ؛ وَالْحَارِثُ بْنُ حَصْرَةَ، الَّذِي يُحَدِّثُ عَنْهُ، وَمُخَلَّدُ بْنُ الْحَسَنِ، كَانَ فَارِسًا بَحْرَاسَانَ، وَفَهْمُ بْنُ زَهْرَانَ، بَطْنٌ؛ وَحُدَّانُ، بَطْنٌ، وَزِيَادَةُ، بَطْنٌ، وَمَعُولَةُ، بَنُو شَمْسِ بْنِ عَمْرٍو بْنِ غَنَمِ بْنِ غَالِبِ بْنِ عَثْمَانَ بْنِ نَصْرِ بْنِ هَوَازِنَ. فَمِنْ بَنِي حُدَّانَ: صَبْرَةُ بْنُ شَيْبَانَ، كَانَ رَأْسَ الْإَزْدِ يَوْمَ الْجَمَلِ وَقُتِلَ يَوْمَئِذٍ. وَمِنْ بَنِي مَعُولَةَ بْنِ شَمْسٍ: الْجُلَنْدِيُّ بْنُ الْمُسْتَكِينِ صَاحِبُ عَثْمَانَ، وَابْنُهُ جَيْفَرٌ، وَكَتَبَ النَّبِيُّ عَلَيْهِ الصَّلَاةَ وَالسَّلَامَ إِلَى جَيْفَرٍ وَعُبَيْدِ ابْنِي الْجُلَنْدِيِّ. وَمِنْهُمْ: الْعَطْرِيُّفُ الْأَصْعَرُ وَالْعَطْرِيُّفُ الْأَكْبَرُ، مِنْ بَنِي دُهْمَانَ بْنِ نَصْرِ بْنِ زَهْرَانَ؛ وَمِنْهُمْ: سُبَّالَةُ وَحُدْرُوجُ وَرَسَنُ بَنُو عَمْرٍو بْنِ كَعْبِ بْنِ الْعَطْرِيِّفِ بَطُونَ كَلِّهِمْ، وَبَنُو جَعْتَمَةَ بْنِ يَشْكُرَ بْنِ مَيْسَرَ بْنِ صَعْبِ بْنِ دُهْمَانَ. بَنُو رَاسِبِ بْنِ مَالِكِ بْنِ مَيْدَعَانَ بْنِ مَالِكِ بْنِ نَصْرِ بْنِ الْأَزْدِ- مِنْهُمْ: عَبْدِ اللَّهِ بْنُ وَهَبٍ، ذُو الثَّنَائِنَاتِ، رَئِيسُ الْخَوَارِجِ، قَتَلَهُ عَلِيُّ بْنُ أَبِي طَالِبٍ يَوْمَ التَّهْرَوَانَ. وَمِنَ النَّاسِ مَنْ يُنْسَبُ بِبَنِي رَاسِبِ فِي قِضَاعَةَ. ثَمَالَةُ، وَهُوَ عَوْفُ بْنُ أَسْلَمَ بْنِ أُجْرَ بْنِ كَعْبِ بْنِ الْحَارِثِ بْنِ كَعْبِ بْنِ عَبْدِ اللَّهِ بْنِ مَالِكِ بْنِ نَصْرِ بْنِ الْأَزْدِ، وَثَمَالَةُ مِنْهُمْ قَرِيبٌ مِنَ الطَّائِفِ وَهُمْ أَهْلُ رَوِيَّةٍ وَعُقُولٍ. مِنْهُمْ: مُحَمَّدُ بْنُ يَزِيدَ النَّحْوِيُّ الْمَعْرُوفُ بِالْمَبْرَدِ صَاحِبُ الرُّوْضَةِ. وَقَالَ فِيهِ بَعْضُ الشُّعْرَاءِ:

فَقَالَ الْقَائِلُونَ وَمَنْ ثَمَالَهُ

سَأَلْنَا عَنْ ثَمَالَةَ كُلِّ حَيٍّ

فَقَالُوا الْآنَ زِدْتِ بِهِمْ جِهَالَهُ

فَقُلْتُ مُحَمَّدُ بْنُ يَزِيدَ مِنْهُمْ

بَنُو لَهَبِ بْنِ أَبِجَرَ بْنِ كَعْبِ بْنِ الْحَارِثِ بْنِ كَعْبِ، وَهُمْ أَعْيَفُ كُلِّ حَيٍّ فِي الْعَرَبِ- الْعَائِفِ، الَّذِي يَزْحَرُ الطَّيْرَ- وَهُمْ يَقُولُ كَثِيرٌ عِزَّةً:

عِنْدَهُمْ وَقَدْ رَدَّ عِلْمَ الْعَائِفِينَ إِلَى لَهَبِ

تَيَمَّمْتُ لَهَا أَبْتَغِي الْعِلْمَ

دَوْسُ بْنُ عَدَّثَانَ بْنِ عَبْدِ اللَّهِ بْنِ زَهْرَانَ- وَمِنْهُمْ: حُمَيْمَةُ بْنُ الْحَارِثِ بْنِ رَافِعٍ، كَانَ سَيِّدَ دَوْسٍ فِي الْجَاهِلِيَّةِ وَكَانَ أَسْحَى الْعَرَبِ، وَهُوَ مُطْعِمُ الْحَجِّ بِمَكَّةَ. وَمِنْهُمْ: أَبُو هُرَيْرَةَ صَاحِبُ النَّبِيِّ عَلَيْهِ الصَّلَاةُ وَالسَّلَامُ، وَاسْمُهُ عُمَيْرُ بْنُ عَامِرٍ. وَمِنْهُمْ: حَلْدِيمَةُ الْأَبْرَشِ بْنِ مَالِكِ بْنِ فَهْمِ بْنِ غَنَمِ بْنِ دَوْسٍ، وَجَهْضَمُ بْنُ عَوْفِ بْنِ مَالِكِ بْنِ فَهْمِ بْنِ غَنَمِ بْنِ دَوْسٍ. وَمِنْهُمْ: الْجُرَّامِيزُ، جَمْعُ جُرْمُوزٍ، وَالْقَرَادِيسُ، جَمْعُ قَرْدُوسٍ، وَالْقَسَامِلُ جَمْعُ قَسْمَلَةٍ، وَالْأَشَاقِرُ، جَمْعُ أَشْقَرٍ، وَهُمْ بَنُو عَائِدَةَ بْنِ دَوْسٍ، وَفِيهِمْ يَقُولُ الْأَعْجَمُ:

مَا كُنْتُ أَحْسِبُهُمْ كَانُوا وَلَا خَلَقُوا

قَالُوا الْأَشَاقِرُ تَهْجُوكُمْ فَقُلْتُ لَهُمْ

كَطَخَلِبِ الْمَاءِ لَا أَصْلَ وَلَا وَرَقَ

وَهُمْ مِنَ الْحَسَبِ الزَّاكِي بِمَنْزِلَةٍ

وَلَوْ يَبُولُ عَلَيْهِمْ تَعْلَبُ غَرِقُوا

لَا يَكْبُرُونَ وَإِنْ طَالَتْ حَيَاتُهُمْ

عَكَّ بْنُ عُدَّثَانَ بْنِ عَبْدِ اللَّهِ بْنِ زَهْرَانَ. وَعَكَّ أَخُو دَوْسِ بْنِ عُدَّثَانَ بْنِ عَبْدِ اللَّهِ بْنِ زَهْرَانَ، عِنْدَ مَنْ نَسَبَهُمْ إِلَى الْأَزْدِ، وَمَنْ قَالَ غَيْرَ ذَلِكَ، فَهُوَ عَكُّ بْنُ عُدَّثَانَ أَخُو مَعَدَّ بْنِ عُدَّثَانَ. وَفِي عَكَّ: قَرْنٌ، وَهُوَ بَطْنٌ كَبِيرٌ، مِنْهُمْ: مُقَاتِلُ بْنُ حَكِيمٍ، كَانَ مِنْ ثُقَبَاءِ بَنِي هَاشِمٍ بَحْرَاسَانَ.

غَسَّانُ، وَهُمْ بَنُو عَمْرٍو بْنِ مَازِنَ- وَفِيهِمْ: صُرَيْمٌ وَبَنُو نُفَيْلٍ، وَهُمْ الصَّبْرِيُّ،

سَمَوْا بِذَلِكَ الصَّبْرِيَّ فِي الْحَرْبِ. وَفِي بَنِي صُرَيْمٍ: شَقْرَانُ وَتَمْرَانُ ابْنَا عَمْرٍو بْنِ صُرَيْمٍ، وَهُمَا بَطْنَانِ فِي غَسَّانَ. وَبَنُو عَنَزَةَ بْنِ عَمْرٍو بْنِ عَوْفِ بْنِ عَمْرٍو بْنِ عَدِيِّ بْنِ عَمْرٍو بْنِ مَازِنَ: عَبْدُ الْمَسِيحِ بْنِ عَمْرٍو بْنِ تَعْلَبَةَ، صَاحِبُ خَالِدِ بْنِ الْوَلِيدِ؛ وَمِنْهُمْ: عَبْدُ الْمَسِيحِ الْجَهْدِيُّ؟ وَمِنْهُمْ: سَطِيحُ الْكَاهِنِ، وَهُوَ رِبِيعَةُ بْنُ رِبِيعَةَ. وَمِنْ بَنِي غَسَّانَ: بَنُو حَفْنَةَ بْنِ حَارِثَةَ بْنِ عَمْرٍو بْنِ عَمَرَ بْنِ حَارِثَةَ بْنِ تَعْلَبَةَ بْنِ امْرِئِ الْقَيْسِ بْنِ مَازِنَ بْنِ الْأَزْدِ؛ وَمِنْهُمْ: مُلُوكُ غَسَّانَ بِالشَّامِ، وَهُمْ سَبْعَةٌ وَثَلَاثُونَ مَلَكًا مَلَكُوا سِتْمِائَةَ سَنَةً وَسِتَّ عَشْرَةَ إِلَى أَنْ جَاءَ الْإِسْلَامُ.

بَجِيلَةَ، وَهُمْ عَبَقَرُ وَالْعَوْتُ وَصُهَيْبٌ وَوَدَاعَةُ وَأَشْهَلُ، نُسِبُوا إِلَى أُمِّهِمْ بَجِيلَةَ بِنْتُ صَعْبِ بْنِ سَعْدِ الْعَشِيرَةِ، وَهُمْ بَنُو أَنْمَارِ بْنِ إِرَاشِ بْنِ عَمْرٍو بْنِ الْعَوْتُ، أَحَى الْأَزْدِ بْنِ الْعَوْتُ. مِنْهُمْ: حَرِيرُ بْنُ عَبْدِ اللَّهِ، صَاحِبُ النَّبِيِّ عَلَيْهِ الصَّلَاةُ وَالسَّلَامُ، وَكَانَ يُقَالُ لِحَرِيرٍ: يُوسُفُ هَذِهِ الْأُمَّةِ، لِحُسْنِهِ. وَفِيهِمْ يَقُولُ الشُّاعِرُ:

لَوْلَا جَرِيرٌ هَلَكْتُ بِجِيلِهِ

نِعْمَ الْفَتَى وَبِنَسْتِ الْقَبِيلَةِ

ومنهم الضَّبَّيْنِ بن مُضَرِّ، الذي وقع بيني كِنَانَةَ؛ ومنهم: القاسم بن عُقَيْل، أحد بني عائذة بن عامر بن قُدَاد، كان شَرِيفاً، وهو الذي ابتداءً مُنَافِرَةً بِجِيلِهِ وَقُضَاعَةَ. وفي بَجِيلَةَ: قَسْرَى عَبْقَر، منهم: خالد بن عبد الله القسري صاحبُ العِرَاق. ومنهم: بنو أَحْمَس، وهم بنو عَظْمَةَ بن عَبْقَر بن أَنْمَار بن إِرَاش بن عَمْرُو بن العَوْت، وبنو زَيْد بن العَوْت بن أَنْمَار، وبنو دهن بن مُعَاوِيَةَ بن أسلم بن أَحْمَس، رَهْطُ عَمَّارِ الدَّهْنِيِّ. ومن قبائل بَجِيلَةَ: هُدْمٌ وهُدَيْمٌ وَأَحْمَسٌ وعَادِيَةَ وَعَدِيَةَ وقَيْنَانٌ وعُرَيْنَةَ بن زَيْد.

خَتْنَعْمٌ، هُوَ خَتْنَعْمُ بن أَنْمَار بن إِرَاش بن عَمْرُو بن العَوْت، أخی الأَزْدُ ابن العَوْت - ففي خَتْنَعْمٍ: عَفْرَسٌ ونَاهِسٌ وشَهْرَانٌ، فيها الشرفُ والعَدَد. فمن بني شَهْرَانٍ: بنو قُحَافَةَ بن عامر بن رَبِيعَةَ، منهم: أسماءُ بنتُ عُمَيْسٍ؛ ومالكُ ابن عبد الله، الذي قاد خَيْلَ خَتْنَعْمٍ للنبيِّ صلى الله عليه وسلم. ومن رَبِيعَةَ بن عَفْرَسٍ: نُفَيْل بن حَبِيب، دليل الحَبِشَةَ على الكَعْبَةِ، وهو القائل:

وكلهم يسائل عن نفيل

كأن علي للحبشان ديناً

وما كانت دلالتهم بزَيْن

ولكن كان ذاك علي شيناً

فإنك لو رأيت ولم تريه

لدى جنب المحصب ما رأينا

إذا لم تفرحي أبداً بشيء

ولم تأسي على ما فات عيناً

حمدت الله إذ أبصرت طيراً

وحصب حجارة ترمي علينا

ومن خَتْنَعْمٍ: عَتْنَعْتُ بن قحافة، وهو الذي هَزَمَ هَمْدَانَ ومَذْحِجَ، وله يقول الشاعر:

وجرثومة لم يدخل الذلَّ وسطها

قريبة أنساب كثير عديها

ملممة فيها فوارس عتنت

بنوه وابناء الأقيصر جديها

ومنهم: حُمْرَانُ الذي يقول:

أقسمت لأموت إلا حراً

وإن وجدت الموت طعماً مرّاً

أخاف أن أخدع أو أغرا

ويقال: إنَّ خَتْنَعْمَ اسمه أَقْتَل، وإنما خَتْنَعْمُ جَمَلٌ كان لهم نُسبوا إليه.

همدان

وهو هَمْدَانُ بن مالك بن زَيْد بن أَوْسَلَةَ بن رَبِيعَةَ بن الحِيارِ بن مالك بن زَيْد بن كَهْلَانَ. فولد هَمْدَانَ حَاشِدًا وَبِكَيْلًا، ومنهما تَفَرَّقَتِ هَمْدَانُ. فمن بَطُونِ هَمْدَانَ: شِبَامٌ، وهو عبد الله بن أسعد بن حاشد؛ ومنهم: ناعط وهو رَبِيعَةَ بن مَرْتَدُ بن حَاشِدِ بن جُشَمِ بن حَاشِدٍ؛ ومنهم: وداعة بن عمرو ابن عامر، رهط مسروق بن الأجدع، ومن الناس من يزعم أنه وداعة بن عمرو بن عامر بن الأزد، ولكنهم انتسبوا إلى هَمْدَانَ. ومن هَمْدَانَ: بنو السُّبَيْعِ ابن الصَّعْبِ بن مُعَاوِيَةَ بن كَثِيرِ بن مالك بن جُشَمِ بن حَاشِدٍ؛ منهم: سَعِيدُ بن قَيْسِ بن زَيْدِ بن حَرْبِ بن مَعْدِ يَكْرِبِ بن سَيْفِ بن عَمْرُو السُّبَيْعِيِّ. ومن بني نَاعِظٍ: الحارث بن عُمَيْرَةَ الذي يَمْدَحُه أعشى هَمْدَانَ بقوله:

إلى ابن عميرة تُخْدَى بنا

على أنها القلص الضمر

ومن بني بَكِيل بن جُشَم بن خَيَّوان بن نُوف بن هَمْدان: بنو جَوْب - وهم الجَوْبِيُّونَ - ابن شِهَاب بن مالك بن ربيعة بن صَعْب بن دُوْمان بن بَكِيل،
وبنو أَرْحَب بن دُعَام بن مالك بن مُعاوية بن صَعْب، وبنو شَاكِر، وهم أبو ربيعة بن مالك بن مُعاوية بن صعب، وهم الذين قال فيهم عليُّ بن أبي
طالب رضي عنه يوم الحمل: لو تَمَّتْ عدتُهم ألفاً لعبد الله حقَّ عبادته. وكان إذا رآهم تَمَثَّل بقول الشاعر:

وَمِثْلُ هَمْدَانَ سَنَى فَتَحَةَ الْبَابِ

وَجَّةٌ جَمِيلٌ وَقَلْبٌ غَيْرٌ وَجَابِ

وَأَنْسٌ إِذَا لاقُوا وَحُسْنُ كَلَامِ

لَقَلْتُ لَهُمْدَانَ ادْخُلُوا بِسَلَامِ

نَادَيْتُ هَمْدَانَ وَالْأَبْوَابُ مُعْلَقَةٌ

كَالْهُنْدَوَانِيَّ لَمْ تَقَلِّ مَضَارِبُهُ

وقال فيهم عليُّ بن أبي طالب كَرَّمَ اللهُ وجهه:

لَهُمْدَانَ أَحْلَاقٌ وَدِينٌ يَزِينُهُم

فَلَوْ كُنْتُ بَوَّاباً عَلَى بَابِ جَنَّةٍ

ومن أشرف هَمْدان: مالك بن حُرَيم الدَّالاني، وكان فارساً شاعراً. ومنهم: مُحمد بن مالك الحَيَّواني، وكان يُجبر قُريشاً في الجاهليَّة على اليمَن. وفي
هَمْدان: جُشَم، وهم رَهْطُ أعشى هَمْدان؛ وفيهم: خَيَّوان، وهو مالك بن زيد بن جُشَم بن حاشد؛ وفيهم: دَألان بن سابقة بن ناشج بن دافع؛ منهم:
مالك بن حريم الذي يقول:

فَهَلْ أَنَا فِي ذَا يَا لَهُمْدَانَ ظَالِمٌ

وَأَنْفًا حَمِيًّا تَجْتَنِّبُكَ الْمَظَالِمُ

وَكُنْتُ إِذَا قَوْمٌ غَزَوْنِي غَزَوْتُهُمُ

مَتَى تَجْمَعُ الْقَلْبَ الذَّكِيَّ وَصَارِمًا

ومنهم: أَرْحَب بن دُعَام بن مالك بن معاوية بن صَعْب بن دُوْمان بن بَكِيل، منهم: أبو رُهْم بن مُعظم الشاعر، الذي هاجر إلى النبي صلى الله عليه
وسلم وهو ابن خمسين ومائة سنة. وفي هَمْدان: الهان بن مالك، وهو أخو هَمْدان ابن مالك، منهم حَوْشَب، قُتل بصفيين مع مُعاوية.

كِنْدَةَ

كِنْدَةَ بن عُفَيْر بن عَدِيَّ بن الحارث بن مُرَّة بن أدد بن زيد بن يَشْجُب ابن عَرِيب بن زيد بن كَهْلان. فمن بَطون كِنْدَةَ: الرَّائِث بن الحارث بن مُعاوية
بن كِنْدَةَ؛ منهم: شُرَيْح بن الحارث القاضي؛ ومنهم: بنو مُعاوية الأَكْرَمِين، الذين مَدَحَهُمُ الأعشى. ومنهم: الأشعث بن قَيْس بن مُعد يَكْرِب،
والصَّبَّاح بن قَيْس، وشَرْحَبِيل بن السَّمْط، وِلِي حِمَص، وحُجْر بن عَدِيَّ الأَدْبَر، صاحب عليٍّ، وهو الذي قَتَلَهُ مُعاوية صَبْرًا. ومنهم: بنو مُرَّة بن
حُجْر، لهم مَسْجِدٌ بالكوفة؛ ومنهم: الأَسود بن الأرقم، ويزيد بن فُرُوة، الذي أجاز خالده بن الوليد يوم قَطَعَ نخل بني وليعة. وفي كِنْدَةَ: مُعاوية الولادة،
سُمِّيَ بذلك لكثرة وُلْدِهِ. ومنهم: حُجْرُ الفَرْد، سُمِّيَ بذلك لُجُودِهِ، وأهل اليمَن يُسَمُّونَ الجِوَادَ الفَرْد. ومنهم: مُعاوية مُقَطَّع التُّجْد، كان لا يَتَقَلَّدُ أَحَدًا
معه سَيْفًا إلا قَطَعَ نِجَادَهُ. فَمَنْ بَنَى حُجْرَ الفَرْدِ الملوِك الأربعة. مِخْوَسٌ ومِشْرَحٌ وَجَمْدٌ وَأَبْضَعَةٌ، وأختهم العَمْرَدَةُ، بنو مُعَدِيكْرِب بن وليعة بن شَرْحَبِيل
بن حَجْر الفَرْد، وهم الذين يَقُولُ فيهم الشاعر:

مِخْوَسٌ مِشْرَاحًا وَجَمْدًا أَبْضَعَهُ

نَحْنُ قَتَلْنَا بِالنَّجِيرِ أَرْبَعَةَ

ومن بني امرئ القيس بن مُعاوية: رَجَاءُ بن حَيَّوة الفَقِيه، وامرؤ القَيْس بن السَّمْط. ومن أشرف بني الحارث بن مُعاوية بن نُور: امرؤ القَيْس الشاعر بن
حُجْر بن عمرو بن حُجْر أَكَلِ المُرَار بن عمرو بن مُعاوية بن الحارث بن نُور، وهم مُلُوك كِنْدَةَ. ومنهم: حُجْر بن الحارث بن عمرو، وهو ابن أم قَطَام
بنت عَوْف بن مُحَلِّم الشيباني.

ومن بَطون كِنْدَةَ: السَّكَّاسِكُ والسَّكُونُ ابنا أَشْرَس بن كِنْدَةَ؛ ومنهم: مُعاوية بن خُدَيْج، قاتِلَ محمد بن أبي بَكْر. ومنهم: الجَوْن بن يزيد، وهو أوَّل مَنْ
عَقَدَ الحِلْفَ بن كِنْدَةَ وبين بكر بن وائل. ومنهم: حُصَيْن بن نُمير السكُونِي، صاحب الجيش بعد مُسلم بن عُقبة صاحب الحَرَّة. ومن السكُون: تُجيب،

وهما عَدِيٌّ وَسَعْدُ ابْنَا أَشْرَسَ بْنِ شَيْبِ بْنِ السَّكُونِ، وَأَمَهَا تُجِيبُ بِنْتُ تَوْبَانَ بْنِ مَذْحَجٍ، إِلَيْهَا يُنْسَبُونَ. فَمِنْ أَشْرَافِ تُجِيبَ: ابْنُ غَزَالَةَ الشَّاعِرِ جَاهِلِيٍّ، وَهُوَ رَبِيعَةُ بْنُ عَبْدِ اللَّهِ؛ وَحَارِثَةُ بْنُ سَلْمَةَ، كَانَ عَلَى السَّكُونِ يَوْمَ مُحْيَاةٍ، وَهُوَ يَوْمَ اقْتَتَلَتْ مُعَاوِيَةَ بْنُ كِنْدَةَ وَكِنَانَةَ بْنَ بَشْرٍ، الَّذِي ضَرَبَ عَثْمَانَ يَوْمَ الدَّارِ. وَالسَّكَاكُ بْنُ أَشْرَسَ بْنِ كِنْدَةَ - مِنْهُمْ: الضَّحَّاكُ بْنُ رَمْلٍ بْنِ عَبْدِ الرَّحْمَنِ؛ وَحُوَيِّ بْنِ مَانِعٍ، الَّذِي زَعَمَ أَهْلُ الشَّامِ أَنَّهُ قَتَلَ عَمَّارَ بْنَ يَاسِرٍ، وَيَزِيدَ بْنَ أَبِي كَبْشَةَ، صَاحِبَ الْحَجَّاجِ. انْقَضَى نَسَبُ كِنْدَةَ.

مذحج

وَمِنْ بَنِي أَدَدَ بْنِ زَيْدِ بْنِ يَشْجَبَ بْنِ عَرِيبِ بْنِ زَيْدِ بْنِ كَهْلَانَ بْنِ سَبَأَ بْنِ يَشْجَبَ بْنِ يَعْرَبَ بْنِ قَحْطَانَ: مَالِكُ بْنُ أَدَدَ، وَهُوَ مَذْحِجٌ، وَطِيءُ ابْنُ أَدَدَ، وَالْأَشْعَرُ بْنُ أَدَدَ. وَقَالَ ابْنُ الْكَلْبِيِّ: إِنَّ مَذْحِجَ بْنَ أَدَدَ هُوَ ذُو الْأَنْعَامِ وَلَهُ ثَلَاثَةُ نَفَرٍ: مَالِكُ بْنُ مَذْحِجٍ، وَطِيءُ بْنُ مَذْحِجٍ، وَالْأَشْعَرُ بْنُ مَذْحِجٍ. فَمِنْ قِبَاثِلِ مَذْحِجٍ: سَعْدُ الْعَشِيرَةِ بْنِ مَالِكِ بْنِ أَدَدَ، وَوَلَدَهُ الْحَكَمُ بْنُ سَعْدِ الْعَشِيرَةِ، وَهُوَ قَبِيلُ كَبِيرٍ، مِنْهُمْ: الْحِرَّاحُ بْنُ عَبْدِ اللَّهِ الْحَكَمِيِّ، قَتَلَهُ التَّرِكُ أَيَّامَ عُمَرَ بْنِ عَبْدِ الْعَزِيزِ، وَهُمْ مَوَالِي أَبِي نُؤَاسٍ. وَفِي بَعْضِهِمْ يَقُولُ:

نَمْتُ عَنْ لَيْلَى وَلَمْ أَنْمِ

يَا شَقِيقَ النَّفْسِ مِنْ حَكَمٍ

وَإِنَّمَا سُمِّيَ سَعْدُ الْعَشِيرَةِ لِأَنَّهُ لَمْ يَمُتْ حَتَّى رَكِبَ مَعَهُ مِنْ وَلَدِهِ وَوَلَدَ ثَلَاثَةَ رِجَالٍ. وَمِنْهُمْ: عُمَيْرُ بْنُ بَشْرٍ، وَمِنْهُمْ: بُنْدُقَةُ بْنُ مَطَّةٍ. وَمِنْ بَطُونِ سَعْدِ الْعَشِيرَةِ: جُعْفُ بْنُ سَعْدِ الْعَشِيرَةِ بْنِ مَالِكِ بْنِ أَدَدَ، وَصَعْبُ بْنُ سَعْدِ الْعَشِيرَةِ، دَخَلَ فِي جُعْفٍ، وَجَزْءُ بْنُ سَعْدِ الْعَشِيرَةِ. فَمَنْ وَلَدَ جَزْءُ بْنُ سَعْدِ: الْعَدْلُ وَالْحَمْدُ، وَكَانَ الْعَدْلُ عَلَى شُرْطَةِ تَبَعٍ، وَكَانَ إِذَا أَرَادَ قَتْلَ رَجُلٍ قَالَ: يُجْعَلُ عَلَى يَدِي عَدْلٌ، وَهُوَ قَوْلُ النَّاسِ فُلَانٌ عَلَى يَدِي عَدْلٌ، إِذَا كَانَ مُشْرِفًا عَلَى الْمَلَائِكَةِ. وَمِنْ أَشْرَافِ جُعْفٍ: أَبُو سَبْرَةَ، وَهُوَ يَزِيدُ بْنُ مَالِكٍ، كَانَ وَقَدَّ إِلَى النَّبِيِّ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ فَدَعَا لَهُ؛ وَمِنْهُمْ: شِرَاحِيلُ بْنُ الْأَصْهَبِ، كَانَ أَبْعَدَ الْعَرَبِ غَارَةً، كَانَ يُعْزَوُ مِنْ حَضْرَمَوْتِ إِلَى الْبَلْقَاءِ فِي مِائَةِ فَارَسٍ مِنْ بَنِي أَبِيهِ، فَقَتَلَهُ بَنُو جَعْدَةَ، فَفِيهِ يَقُولُ نَابِغَةُ بِنْتُ جَعْدَةَ:

أَرَاهَا مَعَ الصُّبْحِ الْكَوَاكِبَ مَظْهَرًا

أَرْحَنَا مَعَدًّا مِنْ شِرَاحِيلَ بَعْدَمَا

بِذِي الرَّمْتِ إِذَا صَامَ النَّهَارُ وَهَجَا

وَعَلْقَمَةَ الْحَرَّابِ أَدْرَكَ رَكُضَنَا

وَعَلْقَمَةُ الْحَرَّابِ كَانَ رَأْسُ بَنِي جُعْفٍ بَعْدَ شِرَاحِيلَ وَمِنْ بَنِي جُعْفٍ: زَحْرُ بْنُ قَيْسٍ، صَاحِبُ عَلِيِّ بْنِ أَبِي طَالِبٍ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ. وَمِنْهُمْ: الْأَشْعَرُ بْنُ أَبِي حُمْرَانَ الَّذِي يَقُولُ:

وَرِاقَ الْمُعَلِّيِّ بَيَاضُ اللَّبَنِ

أُرِيدُ دِمَاءَ بَنِي مَازِنَ

أُرِيدُ الْعَلَاءَ وَيَبْغِي السَّمْنَ

خَلِيلَانَ مُخْتَلَفَ بَيْنِنَا

وَمِنْهُمْ: عُبَيْدُ اللَّهِ بْنُ مَالِكِ الْفَاتِكِ الْجُعْفِيِّ. وَمِنْ بَنِي سَعْدِ الْعَشِيرَةِ: أَوْدُ وَزَيْدُ، وَاسْمُهُ مُنْبَهٌ، وَهِيَ أَيْضًا صَعْبُ بْنُ سَعْدِ الْعَشِيرَةِ، وَزَيْدُ الْأَصْغَرُ، وَهُوَ مُنْبَهُ الْأَصْغَرُ بْنُ رَبِيعَةَ بْنِ سَلْمَةَ بْنِ مَازِنَ بْنِ رَبِيعَةَ بْنِ زَيْدِ بْنِ صَعْبِ بْنِ سَعْدِ الْعَشِيرَةِ؛ وَمِنْهُمْ: أَبُو الْمُعْرَاءِ الشَّاعِرُ؛ وَمِنْهُمْ: الزَّعَافِرُ، وَهُوَ عَامِرُ بْنُ حَرْبِ ابْنِ سَعْدِ بْنِ مُنْبَهٍ بْنِ أَوْدٍ؛ وَمِنْهُمْ: عَبْدِ اللَّهِ بْنُ إِدْرِيسِ الْفَقِيهِ؛ وَمِنْهُمْ: الْأَفْوَهُ الشَّاعِرُ، وَاسْمُهُ صَلَاءَةُ بْنُ عَمْرٍو؛ وَمِنْهُمْ: بَنُو رَمَانَ بْنِ كَعْبِ بْنِ أَوْدٍ، مِنْ وَلَدِهِ: عَافِيَةُ بْنُ يَزِيدِ الْقَاضِي؛ وَبَنُو قَرْنٍ، لَهُمْ مَسْجِدٌ بِالْكُوفَةِ.

زَيْدُ بْنُ صَعْبِ بْنِ سَعْدِ الْعَشِيرَةِ، وَاسْمُهُ مُنْبَهٌ، وَهُوَ زَيْدُ الْأَكْبَرُ، مِنْ وَلَدِهِ:

زَيْدُ الْأَصْغَرُ، وَهُوَ زَيْدُ بْنُ رَبِيعَةَ بْنِ سَلْمَةَ بْنِ مَازِنَ بْنِ رَبِيعَةَ بْنِ زَيْدِ ابْنِ صَعْبِ. وَمِنْ بَنِي زَيْدِ الْأَصْغَرِ، عَمْرُو بْنُ مَعْدٍ يَكْرِبُ، وَعَاصِمُ بْنُ الْأَصْقَعِ الشَّاعِرُ، وَمُعَاوِيَةُ بْنُ قَيْسِ بْنِ سَلْمَةَ، وَهُوَ الْأَفْكَلُ، وَكَانَ شَرِيفًا، وَإِنَّمَا سُمِّيَ الْأَفْكَلَ لِأَنَّهُ كَانَ إِذَا غَضِبَ أَرْعَدَ؛ وَيُقَالُ: الْأَفْكَلُ مِنْ بَنِي زَيْدِ الْأَكْبَرِ؛ وَمِنْهُمْ: الْحَارِثُ بْنُ عَمْرٍو بْنِ عَبْدِ اللَّهِ بْنِ قَيْسِ بْنِ أَبِي عَمْرٍو بْنِ رَبِيعَةَ ابْنِ عَاصِمِ بْنِ عَمْرٍو بْنِ زَيْدِ الْأَصْغَرِ. فَهَذِهِ سَعْدُ الْعَشِيرَةِ.

وَمِنْ مَذْحِجِ حَنْبٍ وَصُدَاءَ وَرُهَاءَ، فَمِنْ بَنِي حَنْبٍ، مُنْبَهُ وَالْحَارِثُ وَالْعَلِيُّ، وَشَيْحَانُ وَشِمْرَانُ وَهِفَّانُ. فَهَوْلَاءُ السِّتَةِ - وَهُمْ حَنْبٌ - بَنُو يَزِيدِ بْنِ حَرْبِ بْنِ عَلَّةَ بْنِ حَلْدِ بْنِ مَالِكِ بْنِ أَدَدَ، وَإِنَّمَا قِيلَ لَهُمْ حَنْبٌ لِأَنَّهُمْ جَانَبُوا أَحَاهِمُ صُدَاءَ وَحَالَفُوا سَعْدَ الْعَشِيرَةِ، وَحَالَفَتْ صُدَاءُ بِنْتُ الْحَارِثِ بْنِ كَعْبٍ. فَمِنْ

جَنَّب: أبو ظَبْيَانَ الجَنَّبِيَّ الفَقِيه، ومنهم: مُعَاوِيَةُ الخَيْر بن عَمْرُو بن مُعَاوِيَةَ، صاحب لواء مَدْحَج، وهو الذي أجاز مُهَلْهَل بن ربيعة التَّغْلِي على بكر بن وائل، فتزوَّج ابنة مهلهل، وفي ذلك يقول مُهَلْهَل بن ربيعة أخو كَلَيْب وائل:

أُخْتُ بَنِي الأَكْرَمِينَ مِنْ جُشَمٍ
جَنَّبٌ وَكَانَ الحَبَاءُ مِنْ أَدَمٍ
رُمْلٌ مَا أَنْفُ خَاطِبٍ بِدَمٍ

هَانَ عَلَى تَغْلِبٍ بِمَا لَقِيَتْ
أَنْكَحَهَا فَقَدَّهَا الأَرَاقِمَ فِي
لَوْ بِأَبَانِينَ جَاءَ يَخْطُبُهَا

قوله: وكان الحباء من آدم، أي أنه ساق إليها في مهرها قُبَّة من آدم.

صُدَاءُ بن يزيد بن حَرْب بن عُلَّة بن جَلْد بن مالك بن أدد، وهم حُلَفَاءُ بني الحارث بن كعب بن مَدْحَج رُهَاءُ بن مُنَبِّه بن عُلَّة بن جَلْد بن مالك، ومنهم: هِرَّان بن سعيد بن قَيْس بن سَرْمَح، كان من أَشْرَافِ أهل الشَّام.

بنو الحارث بن كعب بن حَرْب بن عُلَّة بن جَلْد بن مالك بن أدد، وهو بيت مَدْحَج، منهم: زَعْبِل، بطن في بني الحارث، وهو الذي يقال فيه: لا يُكَلِّمُ زَعْبِلًا، وكان شريفًا؛ ومنهم: المُحَجَّل بن حَزْن، ومنهم: بنو حِمَّاس ابن ربيعة، منهم: التَّجاشي، واسمه قَيْس بن عَمْرُو؛ ومنهم: بنو المَعْقِل بن كَعْب بن ربيعة، منهم: مَرْتَد ومُرَيْثد ابنا سَلَمَةَ بن المَعْقِل، قيل لهم المَرَاثِد؛ ومنهم: المأمون بن مُعَاوِيَةَ، اجتمعت عليه مَدْحَج؛ ومُزَاحِم بن كعب، ومنهم: اللجلاج؛ وأخوه مُسَهْر، الذي فَقَأَ عَيْنَ عامر بن الطَّفِيل يوم قَيْف الرِّيح؛ وَعَبْدُ يَعُوث بن الحارث الشاعر، قَتِيلُ التَّيْمِ يَوْمَ الكَلَاب، وهو القائل:

أَلَا يَا آلَ تَيْمٍ أَطْلُقُوا مِنْ لِسَانِيَا
كَأَنَّ لَمْ تَرَيَّ قَلْبِي أُسِيرًا يَمَانِيَا

أَقُولُ وَقَدْ شَدُّوا لِسَانِي بِنِسْعَةٍ
وَتَضْحَكُ مِنِّي شَيْخَةٌ عَبْشَمِيَّةٌ

ومنهم: بنو قُنَان بن سَلَمَةَ، منهم: الحُصَيْن ذُو الغَصَّة بن مَرْتَد بن شَدَّاد بن قُنَان، وهو رأس بني الحارث، عاش مائة سنة، وكان يُقال لأبنائه: فوارس الأرباع، قتلته هَمْدَان؟ من ولده: كثير بن شَهَاب بن الحُصَيْن؛ ومنهم: محمد بن زُهْرَةَ بن الحارث، وفي بني الحارث بن كَعْب: الضَّبَاب، منهم: هِنْدُ ابن أسماء، الذي قَتَلَ المنتشر الباهلي؛ وفيهم: بنو الديان؛ وفيهم: زياد بن النَّضْر، صاحب عليّ، والرَّيِّع بن زياد، ولي خُرَاسَانَ أيام مُعَاوِيَةَ؛ والنابعة الشاعر، واسمه يزيد بن أَبَانَ، هؤلاء بنو الحارث بن كَعْب.

الضباب في بني الحارث بن كَعْب، مفتوحة الضاد، وفي عامر بن صَعَصَعَة مكسورة الضاد.

ومن بَطُونِ مَدْحَج: مُسَلِيَّة بن عامر بن عَمْرُو بن عُلَّة بن جَلْد بن مالك، فولد مُسَلِيَّة كِنَانَةَ وَأَسَدًا، منهما تَفَرَّقَت مُسَلِيَّة.

كينانة وأسد ابنا مُسَلِيَّة - فمن بني كِنَانَةَ بن مُسَلِيَّة: بنو صُبْح وثعلبة ابنا ناشرة، وأمهما حَبَابَةَ، بها يُعْرَفُونَ، منهم: أُبَيُّ بن مُعَاوِيَةَ بن صُبْح الذي يقول له عمرو بن معديكرب:

وَدِدْتُ وَأَيْنَمَا مِنِّي وَدَادِي

تَمَنَانِي لِإِلْقَانِي أُبَيُّ

ومن بني حَبَابَةَ: عامر بن إِسْمَاعِيلَ القَائِد، وابن الحَبَابَةَ الشاعر، جاهليّ.

ومن مَدْحَج: النَّخَع بن عمرو بن عُلَّة بن جَلْد بن مالك بن أدد. فمن بَطُونِ النَّخَع: عَمْرُو، بطن؛ وَصُهْبَانَ، بطن؛ وَوَهْبِيل، بطن؛ وَعَامِر، بطن، وَجَدِيمَةَ، بطن، وَحَارِثَةَ، بطن؛ وَكَعْب، بطن.

فمن بني جَدِيمَةَ بن سعد بن مالك بن جلد بن النَّخَع، الأَشْتَر، واسمه مالك ابن الحارث، وثابت بن قَيْس بن أَبِي المُنَفَّع.

ومن بني حَارِثَةَ بن سَعْد بن مالك بن النَّخَع: إِبراهيم بن يزيد الفقيه، والحجَّاج بن أَرطَاة.

ومن بني وَهْبِيل بن سَعْد بن مالك بن النَّخَع: سنان بن أَنَس، الذي قَتَلَ الحُسَيْن بن عليّ؛ وشريك بن عَبْدِ الله القاضي.

ومن بني صُهْبَانَ بن سعد بن مالك بن النَّخَع: كُمَيْل بن زياد، صاحب عليّ بن أبي طالب، قَتَلَهُ الحجَّاج.

وفي النَّحْع: جُشْم وبكر. فمن بني جُشْم: العُرْيَان بن الهَيْثَم بن الأسود. ومن بني بَكْر بن عَوْف بن النَّحْع: يزيد بن المكْفَف، وعَلْقَمَة بن قَيْس، وأخوه أُبَيِّ بن قَيْس، قُتِلَ مع عَلِيٍّ بَصْفَيْنِ، وأخوهما يزيد بن قَيْس، وابنه الأسود بن يزيد العابد. ومن مَذْحِج: عَنَس بن مالك بن أَدَد. فولد عَنَس سَعْدًا الأكبر وسَعْدًا الأصغر ومالكًا وعمراً ومخامراً ومُعَاوَبَة وَعَرِيْبًا وَعَتِيْكَأ وشَهَابًا والقَرِيْبَة ويامًا.

فمن بني مالك بن عَنَس، الأسود بن كعب، الذي تَنَبَّأ بِالْيَمَن، ومن بني يام ابن عَنَس: عَمَّار بن ياسر، صاحبُ النبي عليه الصلاة والسلام. ومن بني سَعْد الأكبر: الأسود بن كَعْب، تَبَنَّا سَعْد الأكبر وكان كاهنًا. ومن أَشْرَافِ عَنَس: عامر بن رَبِيعَة، شهد بدرًا مع النبي صلى الله عليه وسلم، وهو حَلِيف لِقُرَيْش.

ومن بَطُون مَذْحِج: مُرَاد بن مالك بن مَذْحِج بن أَدَد، ويُسمى يَحَابِر. فمن بَطُون مُرَاد: ناجية وزاهر وَأَنَعَم. فمن بني ناجية بن مُرَاد: فَرَوَة بن مُسَيْك، كان واليًّا لرسول الله صلى الله عليه وسلم على نَجْرَان. ومن بني زاهر بن مُرَاد: قيس بن هُبَيْرَة بن عبد يغوث، ومنهم: أُويس القُرَيْبِي بن عمرو بن مالك بن عمرو بن سَعْد بن عمرو بن عَصُون بن قَرْن بن رُدْمَان بن ناجية بن مُرَاد، وهو الذي يُقال إِنَّ النبي صلى الله عليه وسلم قال فيه: يدخل بشفاعته الجنة مثل رَبِيعَة ومُضَرّ، وكان من التابعين، وقد أَتَى عَمْرَ بن الحِطَّاب رضي الله عنه. وفي ناجية بن مُرَاد: بنو غُطَيْف بن عبد الله بن ناجية، ويُقال إنهم من الأزد. ومنهم: هانء بن عَرُوَة، المَقْتُول مع مُسَلِم بن عَقِيل. وفي ناجية بن مُرَاد: بنو حَمَل بن كِنَانَة بن ناجية، منهم: هِنْد بن عمرو، قَتَلَهُ عبدُ الله بن اليَثْرَبِي يوم الجمل، وقال في ذلك:

قَتَلْتُ عِلْبَاءَ وَهِنْدَ الْجَمَلِي

إِنِّي لَمَنْ يَجْهَلُنِي ابْنُ الْيَثْرَبِي

أَوْ ابْنًا لَصَوْحَانَ عَلِيٍّ دِينَ عَلِيٍّ

ومن بني زاهر بن مُرَاد: قَيْس بن هُبَيْرَة بن عبد يغوث، وهو قيس ابن مَكْشُوح.

طِيء

هو طِيء بن أَدَد بن زَيْد بن يَشْجُب بن عَرِيب بن زَيْد بن كَهْلَان، أخو مَذْحِج، ويُقال: ابن مَذْحِج، في رواية ابن الكلبي. فولد طِيء العَوْثَ وفُطْرَة والحارث.

فمن بَطُون طِيء: جَدِيلَة، وهم بنو جُنْدَب وبنو حُور، وأمهما جديلة وبها يُعرفون، وهي جَدِيلَة طِيء، فأما بنو حُور بن جَدِيلَة فسُهَيْلِيون وليسوا من الجَدِيلِيين، وأما بنو جُنْدَب بن جَدِيلَة فهم من الجَدِيلِيين، وفيهم الشَّرْف والعدَد، وفيهم التَّعَالِب، وهم بنو ثَعْلَبَة بن جَدْعَاء بن ذهل بن رُومَان بن جُنْدَب. فمن بني ثَعْلَبَة بن جَدْعَاء: المَعْلَى بن تَيْم بن ثَعْلَبَة بن جَدْعَاء، عليه نزل امرؤ القَيْس بن حُجْر الشاعر إذ قُتِلَ أبوه حُجْر بن الحارث، وقال في المَعْلَى:

نَزَلْتُ عَلَى الْبَوَاذِخِ مِنْ شَمَامٍ

كَأَنِّي إِذْ نَزَلْتُ عَلَى الْمَعْلَى

بِمَقْتَدَرٍ وَلَا مَلِكُ الشَّمَامِ

فَمَا مَلِكُ الْعِرَاقِ عَلَى الْمَعْلَى

بَنُو تَيْمٍ مَصَابِيحُ الظَّلَامِ

أَقْرَحْنَا امْرِئَ الْقَيْسِ بْنِ حُجْرٍ

فَسُمِّيَ بنو تَيْم بن ثَعْلَبَة مَصَابِيحُ الظَّلَامِ. فمن ثَعْلَبَة بن جَدْعَاء: الحُرُّ بن مَسْجَعَة بن التَّعْمَان، كان رَئِيسَ جَدِيلَة يوم مُسَيْلَمَة الكَذَّاب. ومنهم: أَوْس بن حارثة بن لَأَم، سَيِّد طِيء؛ ومنهم: حاتم بن عبد الله الجَوَاد، وابنه عَدِي بن حاتم، وَقَد عَلِيٌّ النبي صلى الله عليه وسلم فَأَلْقَى لَهُ وَسَادَةً وَأَجْلَسَهُ عَلَيْهَا وَجَلَسَ هُوَ عَلَى الْأَرْضِ. قال عَدِيٌّ: فَمَا رَمَتْ حَتَّى هَدَانِي اللَّهُ لِلْإِسْلَامِ وَسَرَّيْ مَا رَأَيْتُ مِنْ إِكْرَامِ رَسُولِ اللَّهِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ، وفي بني عمرو بن العَوْثِ بن طِيء: ثَقَل، بطن؛ وَنَهَان، بَطْن؛ وَبَوْلَان، بَطْن؛ وَسَلَامَان، بَطْن؛ وَهَنِيٌّ، بَطْن. فمن هَنِيٍّ، إِيَاسُ بن قَبِيصَة، وأبو زَبِيد الشاعر، واسمه حَرْمَلَة بن المنذر. ومن بني سَلَامَانَ: بنو بُحْتَرُ، بَطْن فِي طِيء. ومن بني بُحْتَر: مُعْرَضُ بن صالح، اجتمعت عليه جَدِيلَة والعَوْث. ومن بني ثَعْلَبَة بن عمرو بن المُسَبِّح، كان أرمى العرب، وإيَّاه يَعْني امرؤ القَيْس بقوله:

رُبَّ رَامٍ مِنْ بَنِي ثَعْلٍ

وأدرِكُ النبي عليه الصلاة والسلام وهو ابن خمس ومائة سنة فأسلم. ومن بني ثَعْلٍ أيضاً: أبو حَنْبَلٍ، الذي يُعد في الأوفياء، نزل به امرؤ القَيْسِ ومدَّحه؛ ومنهم: زَيْدُ الحَيْلِ، وقد على النبي صلى الله عليه وسلم فسمَّاه زيد الحَيْرِ، وقال: ما بلغني عن أحد إلا رأيتُه دون ما بلغني إلا زَيْدُ الحَيْلِ. وفي طَيِّء: سُدُوسٌ، وهي مَضمومة السَّينِ، والتي في ربيعة مفتوحة السَّنِ.

الأشعر

هو الأشعر بن أدد أخو مدحج، ويقال ابن مدحج، في رواية ابن الكلبي. فولد الأشعر الجماهر والأرغم والأذغم والأثعم وجدة وعبد شمس وعبد الثريا. فمن بطن الأشعرين: مُرَاطة وصنامة وأسد وسهلة وعُكَّابة والشراعبة وعُسامة والدعَّالج، ومن أشرف الأشعرين: أبو موسى الأشعري عبد الله بن قيس، صاحبُ النبي عليه الصلاة والسلام، ومنهم: مالك بن عامر بن هاني بن خفاف، وقد على النبي صلى الله عليه وسلم، وشهد القادسية، وهو أول من عبر دجلة يوم المدائن، وقال في ذلك:

والأول القاطع منكم ماجور

ما تصنعون والحديث مأثور

امضوا فإن البحر بحر مأمور

قد خاب كسرى وأبوه سابور

وابنه سعد بن مالك، كان من أشرف أهل العراق؛ ومنهم: السائب بن مالك، كان على شرطة المختار، وهو الذي قوى أمره؛ ومنهم: أبو مالك الأشعري، زوجه النبي عليه الصلاة والسلام إحدى نساء بني هاشم وقال لها: مارضيت أن زوجتك رجلاً هو وقومه خير من طلعت عليهم الشمس. وقال النبي عليه الصلاة والسلام: يا بني هاشم، زوجوا الأشعرين وتزوجوا إليهم فإنهم في الناس كصرة المسك وكالأترج الذي إن شمتمته ظاهراً وجدته طيباً، وإن اختبرت باطنه وجدته طيباً. فهؤلاء بنو أدد، وهم مدحج وطيء والأشعر، بنو أدد بن زيد بن يشجب ابن يعرب بن قحطان.

لخم

هو مالك بن عدي بن الحارث بن مرة بن أدد. فولد لخم جزيلة وغمارة، ومنهما تفرقت بطون لخم. فمن بني ثمارة: بنو الدار، وهو هاني بن حبيب ابن ثمارة، منهم: تميم الداري، صاحبُ النبي عليه الصلاة والسلام. وفي ثمارة: الأجد، وهم بنو مازن بن عمرو بن زياد بن ثمارة، رهط الطرمّاح بن حكيم الشاعر. ويقال: إن الطرمّاح من طيء. ومنهم: قصير بن سعد، صاحب جديمة الأبرش. ومن بي ثمارة: ملوك الحيرة اللخميون، رهط النعمان بن المنذر بن امرئ القيس بن النعمان. وفي جزيلة بن لخم بطون كثيرة، منهم: إراش وحجر ويشكر وأدب وخالفة، وهو راشدة، وغم، وجديس، بطن عظيم. وفي جزيلة بن لخم أيضاً: العمرة؛ وفيهم: عباد الحيري، منهم: رهط عدي بن زيد العبادي، ومنهم: بنو مارة، وفيهم: جدس بن إدريس بن جزيلة بن لخم؛ ومنهم: مالك بن دعر بن حجر ابن جزيلة بن لخم، يقال: إنه الذي استخرج يوسف بن يعقوب صلوات الله وسلامه عليه من الجب.

جدام

هو جدّام بن عدي بن الحارث بن مرة بن أدد. فولد جدّام حرّاما وحشّما، منهما تفرقت جدّام. فمن بني حشّم بن جدّام: بنو عتيب بن أسلم بن خالد بن شنوة ابن تدليل بن حشّم بن جدّام، وهم الذين يُنسبون في بني شيبان. وفي حرّام ابن جدّام: بنو غطفان وأقصى ابنا سعد بن إياس بن حرّام، وفيهما عدد جدّام وشرفها، ويقال إن غطفان بن سعد بن قيس بن عيلان هو هذا. فمن بني أقصى بن سعد: روح بن زبّاع، وزير عبد الملك بن

مَرَّوان، وقَيْس بن زيد، وقد على النبي صلى الله عليه وسلم. ومن بني غَطَفان بن سَعْد: عَنبَس ونَضْرَة وأبَاة وَعَبْدَة وحَرْب ورَيْث وعَبْد الله، بَطون كلِّهم. فانتسب رَيْث وعَبْد الله في غَطَفان بن قَيْس، وغيرهم في جُدَام.

عاملة

هم بنو الحارث بن عَدِيّ بن الحارث بن مُرّة بن أُدد بن زَيْد بن يَشْجُب ابن عَرِيب بن زَيْد بن كَهْلان بن سَبَأ. ولد الحارث الزُّهد ومُعاوية، وأمهما عاملة بنت مالك بن ربيعة بن قُضاعة، فُنسبا إلى أمهما. ويُقال: عاملة هو الحارث نفسه. فمن بني مُعاوية بن عاملة: شَعْل وسَلْبَة وعِجْل، بَطون كلِّهم؛ ومن أشراف عاملة: قَوّال بن عَمرو، وشَهَاب بن بُرهم، وكان سَيِّداً، وهَمَّام بن مَعْقِل، وكان شَرِيفاً مع مَسْلَمَة بن عبد الملك؛ ومنهم: عَدِيّ بن الرِّقاع الشاعر، ومنهم: قَيْسِيّس، الذي أسر عَدِيّ بن حاتم الطائي، فأخذ منه شُعيب بن الرِّبيع الكلبي فاطلقه بغير فِداء. فهؤلاء بنو عَدِيّ بن الحارث بن مُرّة بن أُدد بن زَيْد بن يَشْجُب بن عَرِيب بن زَيْد بن كَهْلان بن سَبَأ، وهم لَحْم وجُدَام وعاملة بنو عَدِيّ بن الحارث، وكِنْدَة بن عُفَيْر بن عَدِيّ بن الحارث.

خولان

هو خَوْلان بن عَمرو بن يَعْفُر بن مالك بن الحارث بن مُرّة بن أُدد، فولد خَوْلان حَبِيباً وَعَمراً والأصْهب وقَيْسا ونَبْتاً وبَكراً وسَعْدًا. منهم: أبو مُسلم عبد الرحمن بن مِشْكَم الفقيه.

جرهم

هو من القبائل القَبِيّة، وهو جُرهم بن يَقْطَن بن عَابِر، وعند عابر تَجْتَمِعُ يَمَن ومُضَر، لأنَّ مُضَر كلها بنو فالغ بن عَابِر، واليَمَن كلها بنو قَحْطان بن عابر.

حضر موت

هو ابن عَمرو بن قيس بن مُعاوية بن جُثَم بن عَبْد شَمْس بن وائل بن العَوْت بن حَيْدان بن قُصَيّ بن عَرِيب بن زُهَيْر بن أَيْمَن بن الهَمَيْسَع بن حَمِير. منهم: ذو مَرْحَب، وذو نَحْو؛ ومنهم: الأَعْدَل؛ ومنهم: بنو مَرْتَد، وبنو ضَجْع، وبنو حُجْر، وبنو رَحَب، وبنو أَقرن، وبنو قَلِيان.

قول الشعوبية وهم أهل التسوية

ومن حُجّة الشعوبية على العَرَب أن قالت: إنا ذهبنا إلى العَدْل والتَّسوية، وإلى أن الناس كلُّهم من طِينَة واحدة وسُلالة رَجُل واحد، واحتججنا بقول النبي عليه الصلاة والسلام: المؤمنون إخوة تتكافأ دماءُهم ويسعى بدمتهم أذنابهم وهم يد على من سواهم. وقوله في حجة الوداع - وهي خطبته التي ودع فيها أمته وختم بها نبوته: أيها الناس، إن الله أذهب عنكم نخوة الجاهلية وفخرها بالآباء، كلِّكم لآدم وآدم من تُراب، ليس لعربيّ على عَجَمي فضلٌ إلا بالتَّقوى. وهذا القول من النبي عليه الصلاة والسلام مُوافق لقول الله تعالى: "إنَّ أَكْرَمَكُم عِنْدَ اللَّهِ أَتْقَا". فَأَيْتِمُّ إِلَّا فَخْرًا، وَقُلْتُمْ لَا تُسَاوِينَا الْعَجْمُ، وَإِنْ تَقَدَّمْتَنَا إِلَى الْإِسْلَامِ، ثُمَّ صَلَّتْ حَتَّى تَصِيرَ كَأَحْنَاءَ، وَصَامَتْ حَتَّى تَصِيرَ كَأَوْتَارِ، وَنَحْنُ تُسَامِحُكُمْ وَنُجِيبُكُمْ إِلَى الْفَخْرِ بِالْآبَاءِ الَّذِي نَهَاكُمْ عَنْهُ نَبِينَا وَنَبِيَّكُمْ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ إِذْ أَيْتِمُّ إِلَّا خِلَافَهُ، وَإِنَّمَا نُجِيبُكُمْ إِلَى ذَلِكَ لِاتِّبَاعِ حَدِيثِهِ وَمَا أَمَرَ بِهِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ فَتَرُدُّ عَلَيْكُمْ حَجَّتَكُمْ فِي الْمَفَاخِرَةِ وَنَقُولُ: أَخْبَرُونَا إِنْ قَالَتْ لَكُمْ الْعَجْمُ: هَلْ تَعْدُونَ الْفَخْرَ كُلَّهُ أَنْ يَكُونَ مُلْكًا أَوْ نُبُوَّةً؟ فَإِنْ زَعَمْتُمْ أَنَّهُ مُلْكٌ قَالَتْ لَكُمْ: فَإِنْ لَنَا مُلْكُ الْأَرْضِ كُلِّهَا مِنَ الْفِرَاعِنَةِ وَالتَّمَارِدَةِ وَالْعَمَالِقَةِ وَالْأَكَاسِرَةِ؛ وَالْقَبَاصِرَةِ، وَهَلْ يَنْبَغِي لِأَحَدٍ أَنْ يَكُونَ لَهُ مِثْلُ مُلْكِ سُلَيْمَانَ الَّذِي سَخَّرَتْ لَهُ الْإِنْسُ وَالْجِنُّ وَالطَّيْرُ

والريح، وإنما هو رَجُلٌ مِنَّا، أم. هل كان لأحد مثلُ مُلْكِ الإسكندر الذي ملك الأرض كلها وبلغَ مَطْلَعُ الشَّمْسِ ومَعْرَبُهَا، وَبَنَى رَدْمًا من حَدِيدٍ ساوَى به بين الصَّدْفَيْنِ وَسَحَنَ وراءَهُ خَلْقًا من الناسِ تَرْبِيَةً على خَلْقِ الأرضِ كلها كَثْرَةً. يقول الله عزَّ وجلَّ: "حَتَّى إِذَا فُتِحَتْ يَأْجُوجُ وَمَأْجُوجُ وَهُمْ مِنْ كُلِّ حَدَبٍ يَنْسِلُونَ". فليس شيءٌ أدلُّ على كَثْرَةِ عَدَدِهِمْ من هذا، وليس لأحد من ولدِ آدمٍ مثلُ آثارِهِ في الأرضِ، ولو لم يكن له إلا مَنَارَةُ الإسكندرية التي أسهها في قَعْرِ البَحْرِ وجعلَ في رَأْسِهَا مِرَاةً يَظْهَرُ البَحْرُ كلَهُ في رُجْحَاتِهَا لَكَفَى، وكيف ومِنَّا مُلُوكُ الهِنْدِ الذين كتبَ أحدهم إلى عُمرَ بنِ عبدِ العزيز: من مَلِكِ الأَمْلَاكِ الذي هو ابنُ ألفِ مَلِكٍ، والذي تَحْتَهُ بِنْتُ ألفِ مَلِكٍ والذي في مَرْبِطِهِ ألفُ فِيلٍ، والذي له نَهْرَانِ يُنْبِتَانِ العُودَ والفُوهَ والجُوزَ والكافورَ، والذي يُوجدُ رِيحَهُ علي اثني عشرَ مِيلًا، إلى ملكِ العَرَبِ الذي لا يَشْرِكُ باللهِ شيئًا. أما بعد، فإني أردتُ أن تَبْعَثَ إلي رَجُلًا يُعَلِّمُنِي الإسلامَ ويُوقِّفُنِي على حُدُودِهِ والسلامِ. وإن زَعَمْتُمْ أَنَّهُ لا يَكُونُ الفَخْرُ إلا بِنُبُوَّةٍ، فإنَّ مِنَّا الأَنْبِيَاءَ والمُرْسَلِينَ قاطِبَةً من لدنِ آدمَ ماخِلًا أربعةً: هُودًا وصَالِحًا وإِسْمَاعِيلَ ومُحَمَّدًا، وَمِنَّا المُصْطَفَوْنَ من العالمين: آدمَ، ونُوحَ، وهما العُنُصْرَانِ اللذان تَفَرَّعَ مِنْهُمَا البَشَرُ، فنحنُ الأَصْلُ وأنتم الفَرْعُ، وإنما أنتم غِصْنٌ من أغصاننا، فقولوا بعد هذا ما شِئْتُمْ وادَّعُوا، ولم تَزَلْ للأُمَمِ كلها من الأَعاجِمِ في كلِّ شَقٍّ من الأرضِ مُلُوكٌ تَجْمَعُهَا، ومدائنُ تَضَمُّهَا، وأحكامُ تَدِينُ بِهَا، وفَلَسَفَةٌ تُنْتَجِهَا، وبَدَائِعُ تَفْتَقِهَا في الأدواتِ والصَّناعاتِ، مثلُ صَنْعَةِ الدِّيَاجِ وهي أَدْعُ صَنْعَةٍ، ولَعِبِ الشَّطْرَنْجِ وهي أَشْرَفُ لَعِبَةٍ، ورُمَانَةُ القَبَانِ التي يوزنُ بِهَا رِطْلٌ واحدٌ ومائةٌ رِطْلٍ، ومثَلُ فِلَسَفَةِ الرُّومِ في ذاتِ الخالقِ، والقانونِ، والأسْطِرابِ، الذي يُعَدَّلُ به النجومُ، ويُدْرِكُ به عِلْمُ الأَبْعَادِ ودُورَانِ الأَفْلاكِ، وعِلْمُ الكُسُوفِ. ولم يكن للعَرَبِ مَلِكٌ يَجْمَعُ سِوَاهَا، وَيَضُمُّ قِوَاصِيَهَا، وَيَقْمَعُ ظَالِمَهَا، وَيُنْهِي سَفِيهَا، ولا كان لها قَطُّ نَتِيجَةٌ في صِنَاعَةٍ، ولا أثرٌ في فِلَسَفَةٍ، إلا ما كان من الشَّعْرِ، وقد شاركتها فيه العجمُ، وذلك أن للرُّومَ أشعارًا عَجِيبَةً قَائِمَةٌ الوِزْنَ والعُرُوضُ. فما الذي تَفَخَّرَ به العَرَبُ على العجمِ، وإنما هي كالدُّنَابِ العاديةِ، والوُحُوشِ النَّافِرَةِ، يَأْكُلُ بَعْضُهَا بَعْضًا، وَيُغَيِّرُ بَعْضُهَا على بَعْضٍ، فرجالُها مَوْتُوقُونَ في حَلْقِ الأَسْرِ، ونسائُها سَبَايا مُرَدَّفَاتٌ على حَقَائِبِ الإِبْلِ، فإذا أدركهنَّ الصَّرِيخُ فاستنقذن بالعيشيِّ، وقد وُطِنَ كما تُوطَأُ الطَّرِيقُ المَهْيَعُ، فخرَ بذلك الشاعرُ فقال: وألحق رَكْبَ المُرَدَّفَاتِ على عَشِيَّةِ

فَقِيلَ لَهُ: وَيَحْكُ، وَأَيُّ فَخْرٍ لَكَ فِي أَنْ تَلْحَقَهُنَّ بالعِشِيِّ وَقَدْ نُكِحْنَ وَاثْمَهُنَّ.
وقال حَرِيرٌ يَعْيرُ بِنِي دارِمٍ بَغْلَبَةً قَيْسَ عَلَيْهِمُ يَوْمَ رَحْرَحَانَ:

وَبَرَحْرَحَانَ غَدَاةَ كِبَلٍ مَعْبُدُ

وقال عَنترَةُ لامرأته:

إِنَّ الرِّجَالَ لَهُمُ إِلَيْكَ وَسِيلَةٌ

وَأَنَا امْرُؤٌ إِنْ يَأْخُذُونِي عَنوَةٌ

وَيَكُونُ مَرَكِبُكَ القَعُودُ وَرِجْلُهُ

نُكِحْتَ نِسائُكُمْ بِغَيْرِ مُهُورٍ

إِنْ يَأْخُذُوكَ تَكْحَلِي وَتَخْضَبِي

أَقْرَنَ إِلَى سَيْرِ الرِّكَّابِ وَأَجْنَبَ

وَابْنَ النِّعَامَةِ عِنْدَ ذَلِكَ مَرَكِبِي

أراد بَابِنِ النِّعَامَةِ: باطنَ القَدَمِ. وَسَيَّ ابْنُ هُبُولَةَ العَسائِيَّ امْرَأَةً الحارثِ بنِ عَمْرُو الكِنْدِيِّ، فَلَحِقَهُ الحارثُ فَقتَلَهُ وارْتَجَعَ المَرأَةَ وقد كان نالَ مِنْهَا، فقال لها: هل كان أصابك؟ قالت: نعم والله، فما اشتملت النساء على مثله، فأوثقها بين فرسين، ثم استحضرتَها حيثَ قَطَعَاها، وقال في ذلك:

أَيَّةُ الوُدِّ عَهْدُهَا خَيْتَعُورُ

بَعْدَ هِنْدٍ لَجَاهِلٍ مَغْرُورِ

كُلُّ أَنتَى وَإِنْ بَدَأَكَ مِنْهَا

إِنَّ مَنْ غَرَّهُ النِّسَاءُ بُوْدُ

وسَبَتَ بنو سَلِيمِ رِيحانةَ أختَ عمرو بنِ مَعْدِ يَكْرِبِ فارسِ العَرَبِ، فقال فيها عمرو:

أَمِنْ رِيحانةِ الدَّاعِيِ السَّمِيعِ

يُورِقْنِي وَأَصْحَابِي هُجُوعُ

وفِيها يقول:

وَجَاوِزُهُ إِلَى ما تَسْتَطِيعُ

إِذَا لَمْ تَسْتَطِيعْ أَمْرًا فَدَعَهُ

وأغار الحوْفَزانَ على بَنِي سَعْدِ بنِ زَيْدِ مَنَاةَ، فاحتمل الزُرْقَاءَ من بَنِي رَبِيعِ بنِ الحَارِثِ فَأَعْجَبْتَهُ وَأَعْجَبَهَا، فَوَقَعَ بِهَا، ثُمَّ لَحِقَهُ قَيْسُ بنِ عَاصِمٍ، فَاسْتَنْقَذَهَا وَرَدَّهَا إِلَى أَهْلِهَا بَعْدَ أَنْ وَقَعَ بِهَا. فَهَذَا كَانَ شَأْنُ الْعَرَبِ وَالْعَجَمِ فِي حَاهِلِيَّتِهَا، فَلَمَّا أَتَى اللَّهُ بِالْإِسْلَامِ كَانَ لِلْعَجَمِ شَطْرُ الْإِسْلَامِ، وَذَلِكَ أَنَّ النَّبِيَّ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ بَعَثَ إِلَى الْأَحْمَرِ وَالْأَسْوَدِ مِنْ بَنِي آدَمَ، وَكَانَ أَوَّلَ مَنْ تَبِعَهُ حُرٌّ وَعَبْدٌ، وَاخْتَلَفَ النَّاسُ فِيهِمَا، فَقَالَ: قَوْمٌ: أَبُو بَكْرٍ وَبِلَالٌ، وَقَالَ قَوْمٌ: عَلِيٌّ وَصُهَيْبٌ. وَلَمَّا طَعَنَ عُمَرُ بنَ الْخَطَّابِ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ قَدَّمَ صُهَيْبًا عَلَى الْمُهَاجِرِينَ وَالْأَنْصَارِ، فَصَلَّى بِالنَّاسِ وَقِيلَ لَهُ: اسْتَخْلَفْ؛ فَقَالَ: مَا أَجِدُ مِنْ أَسْتَخْلَفَ، فَذَكَرَ لَهُ السُّتَّةَ مِنْ أَهْلِ حِرَاءَ، فَكَلَّمَهُمْ طَعَنَ عَلَيْهِ، ثُمَّ قَالَ: لَوْ أَدْرَكَتُ سَالِمًا مَوْلَى أَبِي حُدَيْفَةَ حَيًّا لَمَا شَكَّكْتُ فِيهِ، فَقَالَ فِي ذَلِكَ شَاعِرُ الْعَرَبِ:

وَعَلَّا جَمِيعَ قِبَائِلِ الْأَنْصَارِ

وَهُمِ الْهُدَاةُ وَقَادَةُ الْأَخْبَارِ

حَيًّا لِنَالِ خِلَافَةِ الْأَمْصَارِ

إِنْ الْعَوِيَّ لَفِي عَمَى وَخَسَارِ

هَذَا صُهَيْبٌ أُمَّ كُلِّ مُهَاجِرٍ

لَمْ يَرْضَ مِنْهُمْ وَاحِدًا لَصَلَاتِنَا

هَذَا وَلَوْ كَانَ الْمُثَرَّمُ سَالِمًا

مَا بَالَ هَذَا الْعُجْمُ تَحِيًّا دُونِنَا

وَقَالَ بُجَيْرٌ يُعَيِّرُ الْعَرَبَ بِاخْتِلَافِهَا فِي النَّسَبِ وَاسْتِلْحَاقِهَا لِلْأَدْعِيَاءِ:

زَعَمْتُمْ بَأَنَّ الْهِنْدَ أَوْلَادَ خِنْدِفٍ

وَدَيْلِمٍ مِنْ نَسْلِ ابْنِ ضَبَّةٍ بَاسِلٍ

فَقَدْ صَارَ كُلُّ النَّاسِ أَوْلَادًا وَاحِدًا

بَنُو الْأَصْفَرِ الْأَمْلاكِ أَكْرَمُ مِنْكُمْ

أَنْطَمِعَ بِي صِهْرًا دَعِيًّا مُجَاهِرًا

وَتَشْتَمُ لَوْ مَا رَفَطَهُ وَقَبِيلَهُ

وَبَيْنَكُمْ قُرْبَى وَبَيْنَ الْبَرَابِرِ

وَبُرْجَانٍ مِنْ أَوْلَادِ عَمْرِو بْنِ عَامِرٍ

وَصَارُوا سِوَاءَ فِي أَصُولِ الْعَنَاصِرِ

وَأَوْلَى بِقُرْبَانَا مَلُوكِ الْأَكَاسِرِ

وَلَمْ تَرَ سِتْرًا مِنْ دَعِيٍّ مُجَاهِرٍ

وَتَمَدَّحَ جَهْلًا طَاهِرًا وَابْنَ طَاهِرٍ

وَقَدْ ذَكَرْتُ هَذَا الشَّعْرَ تَامًّا فِي كِتَابِ النَّسَاءِ وَالْأَدْعِيَاءِ وَالنُّجَبَاءِ. وَقَالَ الْحَسَنُ بنُ هَانِيٍّ عَلَى مَذْهَبِ الشَّعْبِيَّةِ:

أَوْاصِرُ إِلَّا دَعْوَةٌ وَظُنُونُ

إِلَى دَعْوَةٍ مِمَّا عَلَيَّ تَهُونُ

إِذَا افْتَخَرَ الْأَقْوَامُ ثُمَّ تَلَيْنُ

عَلَى مِسْمَعٍ فِي الْبَطْنِ وَهُوَ جَنِينُ

كَأَحْنَفِنَا حَتَّى الْمِمَاتِ يَكُونُ

وَجَاوَرَتْ قَوْمًا لَيْسَ بَيْنِي وَبَيْنَهُمْ

إِذَا مَا دَعَا بِاسْمِي الْعَرِيفُ أَجِبْتُهُ

لَأُرْدَ عُثْمَانَ بِالْمُهَلَّبِ نَزْوَةً

وَبَكْرٌ تَرَى أَنَّ النَّبِيَّةَ أَنْزَلْتِ

وَقَالَتْ تَمِيمٌ لَا نَرَى أَنَّ وَاحِدًا

إِذَا افْتَخَرُوا إِنَّ الْفَخَارَ فُنُونُ

فَلَا لَمْتُ قَيْسًا بَعْدَهَا فِي قَتِيْبَةِ

رد ابن قتيبة على الشعوبية

قال ابن قتيبة في كتاب تفضيل العرب: وأما أهل التَّسْوِيَةِ فَإِنَّ مِنْهُمْ قَوْمًا أَخَذُوا ظَاهِرَ بَعْضِ الْكِتَابِ وَالْحَدِيثِ، فَفَضَّلُوا بِهِ وَلَمْ يُفْتَشُوا عَنْ مَعْنَاهِ، فَذَهَبُوا إِلَى قَوْلِهِ عَزَّ وَجَلَّ: "إِنَّ أَكْرَمَكُمْ عِنْدَ اللَّهِ أَتْقَاهُمْ"، وَقَوْلِهِ: "إِنَّمَا الْمُؤْمِنُونَ إِخْوَةٌ فَأَصْلِحُوا بَيْنَ أَخَوَيْكُمْ"، وَإِلَى قَوْلِ النَّبِيِّ عَلَيْهِ الصَّلَاةُ وَالسَّلَامُ فِي خُطْبَتِهِ

في حجة الوداع: أيها الناس، إن الله قد أذهب عنكم نخوة الجاهلية وتفآخرها بالآباء، ليس لعربي على عجمي فخر إلا بالتقوى، كلكم لآدم وادم من ثراب. وقوله: المؤمنون تتكافأ دماؤهم ويسعى بذمتهم أدناهم وهم يد على من سواهم وإنما المعنى في هذا أن الناس كلهم من المؤمنين سواء في طريق الأحكام والمثلة عند الله عز وجل والدأر الآخرة، ولو كان الناس كلهم سواء في أمور الدنيا ليس لأحد فضل إلا بأمر الآخرة، لم يكن في الدنيا شريف ولا مشروف، ولا فاضل ولا مفضل. فما معنى قوله صلى الله عليه وسلم: إذا أتاكم كريم قوم فأكرموه؛ وقوله صلى الله عليه وسلم: أقبِلوا ذوي الهيئات عثراتهم؛ وقوله صلى الله عليه وسلم في قيس بن عاصم: هذا سيد الوبر. وكانت العرب تقول: لا يزال الناس بخير ما تباينوا فإذا تساؤوا هلكوا. وتقول: لا يزالون بخير ما كان فيهم أشرف وأخيار، فإذا جملوا كلهم جملة واحدة هلكوا. وإذا ذمت العرب قومًا قالوا: سواسية كأسنان الحمار. وكيف يستوي الناس في فضائلهم، والرجل الواحد لا تستوي في نفسه أعضاؤه ولا تتكافأ مفاصله، ولكن لبعضها الفضل على بعض، وللرأس الفضل على جميع البدن بالعقل والحواس الخمس. وقالوا: القلب أمير الجسد، ومن الأعضاء خادمه ومنها مخدومه. قال ابن قتيبة: ومن أعظم ما ادعت الشعوبية فخرهم على العرب بآدم عليه السلام، ويقول النبي عليه الصلاة والسلام: لا تفضلوني عليه فإنما أنا حسنة من حسناته؛ ثم فخرهم بالأنبياء أجمعين، وأهم من العجم غير أربعة: هود وصالح وإسماعيل ومحمد عليهم الصلاة والسلام، واحتجوا بقول الله عز وجل: "إن الله اصطفى آدم ونوحاً وآل إبراهيم وآل عمران على العالمين. ذرية بعضها من بعض والله سميعٌ عليم". ثم فخرُوا بإسحاق بن إبراهيم، وأنه لسارة وأن إسماعيل لأمة تُسمى هاجر. وقال شاعرهم:

ولا خبَاء ولا عكّ وهمدانُ

لكنّها لبني الأحرار أوطان

فما بها من بني اللخناء إنسان

في بلدة لم تصل عكلاً بها طنباً

ولا لجرم ولا بهراء من وطن

أرض يُبني بها كسرى مساكنه

فبنو الأحرار عندهم العجم، وبنو اللخناء عندهم العرب، لأنهم من ولد هاجر، وهي أمة. وقد غلطوا في هذا التأويل، وليس كل أمة يقال لها اللخناء، إنما اللخناء من الإماء الممتحنة في رعي الإبل وسقيها وجمع الحطب. وإنما أخذ من اللخن، وهو تنن الرياح، يُقال: لحن السقاء، إذا تغير ريحه. فأما مثل التي طهرها الله من كل دنس، وارتضاها للخليل فرأشا، وللطيبين إسماعيل ومحمد أمًا، وجعلهما لها سُلالة، فهل يجوز لمُلحد فضلًا عن مسلم أن يُسميها لخناء.

رد الشعوبية على ابن قتيبة

قال بعض من يرى رأي الشعوبية فيما يُرد به على ابن قتيبة في تبأين الناس وتفاضلهم، والسيد منهم والمسود: إننا نحن لا نُنكر تبأين الناس ولا تفاضلهم، ولا السيد منهم ولا المسود، ولا الشريف ولا المشروف، ولكننا نزعم أن تفاضل الناس فيما بينهم ليس بأبائهم ولا بأحسابهم، ولكنه بأفعالهم وأخلاقهم وشرف أنفسهم، وبعدهم هممهم، ألا ترى أنه من كان دينه الهمة، ساقط المروءة، لم يشرف وإن كان من بني هاشم في ذؤابتها، ومن أمية في أرومتها، ومن قيس في أشرف بطن منها إنما الكريم من كرم أفعاله، والشريف من شرف همته، وهو معنى حديث النبي عليه الصلاة والسلام: إذا أتاكم كريم قوم فأكرموه، وقوله في قيس بن عاصم: هذا سيد أهل الوبر. إنما قال فيه هذا لسؤدده في قومه بالذبح عن حريمهم، وبذله رفده لهم، ألا ترى أن عامر بن الطفيل، وكان في أشرف بطن في قيس، يقول:

وفارسها المشهور في كل موكب

أبى الله أن أسمو بأب ولا أب

أذاها وأرمي من رماها بمنكب

وإني وإن كنت ابن سيّد عامرٍ

فما سؤدنتي عامرٌ عن وراثته

ولكنني أحمي حماها وأنقي

وقال آخر:

إِنَّا وَإِنْ كَرُمْتَ أَوَانُنَا

نَبْنِي كَمَا كَانَتْ أَوَانُنَا

لَسْنَا عَلَى الْأَحْسَابِ نَتَّكِلُ

تَبْنِي وَنَفْعَلُ مِثْلَ مَا فَعَلُوا

وقال قيس بن ساعدة: لأقضي بين العرب بقضية لم يقض بها أحد قبلي ولا يردها أحد بعدي، أيما رجل رمى رجلاً بملامة دونها كرم فلا لوم عليه، وأيما رجل ادعى كرمًا دونه لوم فلا كرم له. ومثله قول عائشة أم المؤمنين: كل كرم دونه لوم فاللوم أولى به، وكل لوم دونه كرم فالكرم أولى به تعني بقولها: أن أولى الأشياء بالإنسان طبائع نفسه وخصالها، فإذا كرمت فلا يضُرُّه لوم أوليته، وإذا لومت فلا ينفعه كرم أوليته. وقال الشاعر:

نَفْسِ عِصَامٍ سَوَدَّتْ عِصَامًا

وَصَيَّرَتْهُ مَلَكًا هُمَامًا

وَعَلَّمَتْهُ الْكِرَّ وَالْإِقْدَامَا

وقال آخر:

مَا لِي عَقْلِي وَهَمَّتِي حَسْبِي

إِنْ أَنْتَمِي مُنْتَمٍ إِلَى أَحَدٍ

مَا أَنَا مَوْلَى وَلَا أَنَا عَرَبِي

فَأَيْنِي مُنْتَمٍ إِلَى أَدْبِي

وتكلم رجل عندي عبد الملك بن مروان بكلام ذهب فيه كل مذهب، فأعجب عبد الملك ما سمع منه، فقال: ابن من أنت يا غلام؟ قال: ابن نفسي يا أمير المؤمنين التي نلت بها هذا المقعد منك؛ قال: صدقت. وقال النبي عليه الصلاة والسلام: حسب الرجل ماله وكرمه دينه. وقال عمر بن الخطاب: إن كان لك مال فلك حسب، وإن كان لك دين فلك كرم. وما رأيت أعجب من ابن قتيبة في كتاب تفضيل العرب، إنه ذهب فيه كل مذهب من فضائل العرب، ثم ختم كتابه بمذهب الشعوبية، فنقض في آخره كل ما بنى في أوله؛ فقال: آخر كلامه: وأعدل القول عندي إن الناس كلهم لأب وأم، خلُقوا من تُراب، وأعيدوا إلى التراب، وجرؤوا في مجرى البؤل، وطؤوا على الأقداء، فهذا نسبهم الأعلى الذي يردع به أهل العقول عن التعظم والكبرياء والفخر بالآباء، ثم إلى الله مرجعهم فتقطع الأنساب؛ وتبطل الأحساب، إلا من كان حسبه التقوى، أو كانت مائتة طاعة الله قالت الشعوبية: إنما كانت العرب في الجاهلية ينكح بعضهم نساء بعض في غاراتهم بلا عقد نكاح ولا استبراء من طمث، فكيف يدري أحدكم من أبوه، وقد فخر الفرزدقُ ببني ضبة وأهم بيتزون العيال في حروهم في سبي سبواها من بني عامر بن صعصعة:

فَظَلَّتْ وَظَلُّوا يَرْكَبُونَ هَبِيرَهَا

والهبير: المظمن من الأرض، وإنما أرادها هنا فرجها، وهو القائل في بعض ما يفخر به:

وَمِنَّا التَّمِيمِيُّ الَّذِي قَامَ أُبْرُهُ

وَلَيْسَ لَهُمْ إِلَّا عَوَالِيهِمْ سِتْرُهُ

ثَلَاثِينَ يَوْمًا ثُمَّ قَدْ زَادَهَا عَشْرًا

باب المتعصبين للعرب

قال أصحاب العصبية من العرب: لو لم يكن منا على المولى عتاقة ولا إحسان إلا استنقادنا له من الكفر وإخراجنا له من دار الشرك إلى دار الإيمان كما في الأثر: إن قومًا يقادون إلى حظوظهم بالسواجير. وكما قالوا: عجب ربنا من قوم يقادون إلى الجنة في السلاسل. يريد إخراجهم من أرض الشرك إلى أرض الإسلام، لكفي. على أننا تعرضنا للقتل فيهم. فمن أعظم عليك نعمة ممن قتل نفسه لحياتك، فالله أمرنا بقتلكم، وفرض علينا جهادكم، ورغبنا في مكاتبكم. وقدم نافع بن جبير بن مطعم رجلاً من أهل الموالي يضلِّي به، فقالوا له في ذلك؛ فقال: إنما أردت أن أتواضع لله بالصلاة خلفه. وكان نافع بن جبير هذا إذا مررت به جنازة قال: من هذا؟ فإذا قالوا: قرشي؛ قال: واقوماه! وإذا قالوا: عربي؛ قال: وابلدتاه! وإذا قالوا: مولى؛ قال: هو مال الله يأخذ ما شاء، ويدع ما شاء. قال: وكانوا يقولون: لا يقطع الصلاة إلا ثلاثة: حمار أو كلب أو مولى. وكانوا لا يكتوهم

بالكُنَى، ولا يَدْعُوهم إلا بالأَسْمَاءِ والألقاب، ولا يَمْشُونَ فِي الصَّفِّ معهم، ولا يُقَدِّمُوهم فِي المَوْكَبِ، وإن حَضَرُوا طَعَاماً قاموا على رؤوسهم، وإن أطمعوا المولى لسنه وفضله وعلمه أحلسوه فِي طرف الخِوَانِ، لئلا يَخْفِي على الناظر أنه ليس من العَرَبِ، ولا يدعوهم يُصَلُّون على الجنائز إذا حَضَرَ أحد من العَرَبِ، وإن كان الذي يَحْضُرُ غَريباً. وكان الخاطب لا يَخْطُبُ المَرْأَةَ منهم إلى أبيها ولا إلى أخيها وإنما يَخْطُبُها إلى مَواليها، فإن رَضِيَ زَوْجٌ وإلا رُدَّ، فإن زَوْجَ الأب والأخ بغير رأي مَواليه فُسِّخَ النِّكاحُ، وإن كان قد دَخَلَ بها، وكان سِفاحاً غير نِكَاح. وقال زياد: دعا مُعاوية الأحنف بن قَيْسٍ وَسَمُرَةَ بن جُنْدَبٍ فقال: إنِّي رأيتُ هذه الحَمْرَاءَ قد كَثُرَتْ، وأراها قد طعنت على السِّلْفِ وكأني أنظر إلى وَثْبَةٍ منهم على العَرَبِ والسُّلْطَانِ، فقد رأيتُ أن أقتل شَطْرًا وأدع شَطْرًا لإقامة السُّوقِ وَعِمارة الطريق، فما تَرَوْنَ؟ فقال الأحنف: أرى أن نَفْسِي لا تَطِيبُ، يُقتل أَحِي لأمي وحالي ومَوَالِي! وقد شارَكناهم وشاركونا فِي التَّسْبِ، فظننتُ أَنِّي قد قُتِلْتُ عنهم، وأطرق. فقال سَمُرَةُ بن جُنْدَبٍ: أحعلها إلي أيها الأمير، فأنا أتولَّى ذلك منهم وأبْلُغُ إلى ما تريد منه. فقال: قوموا حتى أنظر فِي هذا الأمر. قال الأحنف: فقمنا عنه وأنا خائفٌ، وأتيت أهلي حَزِينًا. فلما كان بالعَدَاة أرسل إلي، فعلمتُ أنه أخذ برأبي وترك رأي سَمُرَةَ.

ورُوي أن عامرَ بن عبد القَيْسِ فِي نُسْكَه وزُهدِه وتَقَشُّفه وإخباته وعبادته كَلَّمه حُمران مولى عثمان بن عَفَّان عند عبد الله بن عامر صاحب العِراق فِي تَشْتِيعِ عامر على عثمان وطَعْنه عليه، فأنكر ذلك، فقال له حُمران: لا كَثُرَ اللهُ فِينا مِثْلَكَ؛ فقال له عامر: بل كَثُرَ اللهُ فِينا مِثْلَكَ؛ فَقِيلَ له أيدعو عليك وتَدعو له؟ قال: نعم، يَكْسَحون طَرْقنا وَيَحْرِزون خِفافنا وَيَحْوَكون ثيابنا. فاستوى ابن عامر جالساً وكان مُتَكَنِّمًا، فقال: ما كنتُ أَطُنُّكَ تَعْرِفُ هذا البابَ لِفَضْلِكَ وزَهَادَتِكَ؛ فقال: ليس كلُّ ما ظننتُ أَنِّي لا أعرفُه لا أعرفُه. وقالوا: إنَّ خالد بن عبد الله بن خالد بن أسيد لما وَجَّهَ أحاه عبد العزيز إلى قتال الأزارقة هَزَموه، وقتلوا صاحبه مُقاتِلَ بن مَسْمَعٍ، وسبوا امرأته أُم حَفْصَ بنت المنذر بن الجارود العبدي، فأقاموها فِي السُّوقِ حاسرةً بادية المحاسن، غَالُوا فِيها، وكانت من أكمل الناس كمالاً وَحُسْنًا، فتزايدت فِيها العَرَبُ والمَوالي، وكانت العَرَبُ تزيد فِيها على العَصَبِيَّةِ، والموالي تزيد فِيها على الوَلَاءِ، حتى بَلَّغَتْها العَرَبُ عِشرين ألفاً، ثم تزايدوا فِيها حتى بَلَّغوها تسعين ألفاً، فأقبل رجلٌ من الخوارج من عبد القَيْسِ من خَلْفِها بالسيفِ فَضْرَبَ عُنُقَها، فأخذوه وَرَفَعوه إلى قَطْرِي بن الفُجاءة، فقالوا: يا أمير المؤمنين، إن هذا استهلك تسعين ألفاً من بَيْتِ المالِ، وقُتِلَ أمةٌ من إماء المؤمنين؛ فقال له: ما تقول؟ قال: يا أمير المؤمنين، إنِّي رأيتُ هؤلاء الإسماعيلية والإسحاقية. قد تنازعا عليها حتى ارتفعت الأصوات واحمرت الحَدَقُ، فلم يَبْقَ إلا الخَبْطُ بالسِّيوفِ، فرأيتُ أن تسعين ألفاً فِي جَنبِ ما خشيت من الفتنه بين المسلمين هَبَّتْ. فقال قَطْرِي: خَلُّوا عنه، عَيْنُ من عَيون الله أصابها. قالوا: فأقْدَمناه؛ قال: لا أفيد من وَرَعَةٍ؛ الله ثم قَدِمَ هذا العبدي بعد ذلك البَصْرَةَ وأتى المنذر بن الجارود يَسْتَحْدِيه بذلك السببِ، فوصَّله وأحسن إليه.

قال أبو عُبَيْدَةَ: مرَّ عبد الله بن الأَهمم بقوم من الموالى وهم يتذاكرون التَّحْوِ، فقال: لئن أصلحتموه إنَّكم لأولُ مَنْ أفسده. قال أبو عُبَيْدَةَ: لبتَه سَمِعَ لحن صَفْوان وحقان ومؤمل بن حاقان. الأصمعي قال: قَدِمَ أبو مَهْدِيَّةُ الأعرابي من البادية، فقال له رجل: أبا مَهْدِيَّةُ، أتتوضؤون بالبادية؟ قال: والله يا بن أخي، لقد كُنَّا نتوضأ فيكفينا التَّوضُّؤَ الواحد الثلاثة الأيام والأربعة، حتى دخلت علينا هذه الحمراء، يعني المَوالي، فَجَعَلَتْ تَلِيْقُ أَسْتاهها بالماء كما تُلاقِ الدَّوَاةَ. ونظرَ رجلٌ من الأعراب إلى رجل من الموالى يَسْتَنْجِي بماء كثير، فقال له: إلى كَمْ تَغْسِلُها، ويلك! أتريد أن تَشْرَبَ بها سَوِيْقاً؟ وكان عَقِيلُ بن عُلفَةَ المري أشدَّ الناس حَمِيَّةً فِي العَرَبِ، وكان ساكناً فِي البادية، وكان يصْهَرُ إليه الخلفاء. وقال لعبد الملك بن مَرْوَانَ إذ خطب إليه ابنته الجَرَباء: جَنِّبِي هُجْناءَ وَلَدِكَ. وهو القاتل:

بنو مالك غِيظاً وصرنا لمالك

وسودَّ أشباه الإماء العوارك

كنا بني غِيظٍ رجالاً فأصبحت

لحي الله دهرًا ذَعَذَعَ المال كله

وقال ابن أبي ليلى: قال لي عيسى بن موسى، وكان جائراً شديد العَصَبِيَّةِ.

مَنْ كان فقيه البَصْرَةَ؟ قلت: الحسن بن أبي الحسن، قال: ثمَّ مَنْ؟ قلت: محمد بن سيرين؛ قال: فما هما؟ قلت: مَوَالِيان؛ قال: فَمَنْ كان فقيه مكة؟ قلت:

عطاء بن أبي رباح ومجاهد بن جبر وسعيد بن جبير وسليمان بن يسار؛ قال: فما هؤلاء؟ قلت: موالى، قال: فمن فقهاء المدينة؟ قلت: زيد بن أسلم ومحمد بن المنكدر ونافع بن أبي نجيح؛ قال: فما هؤلاء؟ قلت: موالى. فتغير لونه، ثم قال: فمن أفعه أهل قباء؟ قلت: ربيعة الرأي وابن الزناد؛ قال: فما كانا؟ قلت: من الموالى. فاربذ وجهه، ثم قال: فمن كان فقيه اليمن؟ قلت: طاووس وابنه وهمام بن منبه؛ قال: فما هؤلاء؟ قلت: من الموالى. فانتفخت أوداجه وانتصب قاعداً ثم قال: فمن كان فقيه خراسان؟ قلت: عطاء بن عبد الله الخراساني، قال: فما كان عطاء هذا؟ قلت: مولى. فازداد وجهه تربداً واسود أسوداً حتى خفته، ثم قال: فمن كان فقيه الشام؟ قلت: مكحول؛ قال: فما كان مكحول هذا؟ قلت: مولى. فازداد تغيطاً وحنقاً، ثم قال: فمن كان فقيه الجزيرة؟ قلت: ميمون بن مهران؛ قال: فما كان؟ قلت: مولى. قال: فتنفس الصعداء، ثم قال: فمن كان فقيه الكوفة؟ قال: فولله لولا خوفه لقلت: الحكم بن عيينة وعمار بن أبي سليمان، ولكن رأيت فيه الشر، فقلت: إبراهيم والشعبي؛ قال: فما كانا؟ قلت: عربيان، قال: الله أكبر، وسكن جأشه.

وذكر عمرو بن بحر الجاحظ، في كتاب الموالى والعرب: أن الحجاج لما خرج عليه ابن الأشعث وعبد الله بن الجارود، ولقي ما لقي من قري أهل العراق، وكان أكثر من قاتله وخلعه وخرج عليه الفقهاء والمقاتلة والموالى من أهل البصرة، فلما علم أنهم الجمهور الأكبر، والسواد الأعظم، أحب أن يسقط ديوانهم، ويفرق جماعتهم حتى لا يتألفوا، ولا يتعاقدوا، فأقبل على الموالى، وقال: أنتم علوج وعجم، وقراكم أولى بكم، وفرقهم وفض جمعم كيف أحب، وسيروهم كيف شاء، ونقش على يد كل رجل منهم اسم البلدة التي وجه إليها، وكان الذي تولّى ذلك منهم رجل من بني سعد بن عجل بن لجيم، يقال له خراش بن جابر. وقال شاعرهم:

فَرَّ شَيْخُكَ حَتَّى عَادَ بِالْحَكَمِ

وَأَنْتَ مَنْ نَقَشَ الْعِجْلِيُّ رَاحَتَهُ

يُرِيدُ الْحَكَمَ بِنِ أَيْوَبِ التُّقْفِيِّ عَامِلِ الْحَجَّاجِ عَلَى الْبَصْرَةِ. وَقَالَ آخَرُ، وَهُوَ يَعْنِي أَهْلَ الْكُوفَةِ، وَقَدْ كَانَ قَاضِيَهُمْ رَجُلٌ مِنَ الْمَوَالِي يُقَالُ لَهُ نُوحُ بْنُ دَرَّاجٍ:

إِذْ كَانَ قَاضِيَكُمْ نُوحُ بْنُ دَرَّاجٍ

إِنَّ الْقِيَامَةَ فِيمَا أَحْسَبَ اقْتَرَبَتْ

صَحِيحَةً كَفَهُ مِنْ نَقَشِ حَجَّاجٍ

لَوْ كَانَ حَيًّا لَهُ الْحَجَّاجُ مَا بَقِيَتْ

وقال آخر:

أَخْرَجَهَا الْحَجَّاجُ مِنْ كِنِّ وَظَلَّ

جَارِيَةً لَمْ تَدْرِ مَا سَوْقُ الْإِبِلِ

مَا نُقِشَتْ كَفَاكَ مِنْ غَيْرِ جَدَلٍ

لَوْ كَانَ شَاهِدًا حَذِيفٌ وَحَمَلٌ

ويروى أن أعرابياً من بني العنبر دخل على سوار القاضي، فقال: إن أبي مات وتركتي وأخاً لي، وخطت خطين، ثم قال: وهجينا، ثم خط خطاً ناحية، فكيف يقسم المال؟ فقال له سوار: ها هنا وارث غيركم؟ قال: لا؟ قال: فالمال أنلاثاً؛ قال: ما أحسبك فهمت عني، إنه تركني وأخي وهجينا، فكيف يأخذ المهجين كما أخذ أنا وكما يأخذ أخي؟ قال: أجل؛ فغضب الإعرابي، ثم أقبل على سوار، فقال: والله لقد علمت أنك قليل الخالات بالدهناء؛ قال سوار: لا يضرني ذلك عند الله شيئاً.

\\// كلام العرب قال أحمد بن محمد بن عبد ربه: قد مضى قولنا في النسب الذي هو سبب إلى التعارف، وسلم إلى التواصل، وفي تفضيل العرب. وفي كلام بعض الشعوبية، ونحن قائلون بعون الله وتوفيقه في كلام الأعراب خاصة إذ كان أشرف الكلام حسباً، وأكثره رونقاً، وأحسنه ديباجاً، وأقله كلفة، وأوضحه طريقة، وإذ كان مدار الكلام كله عليه، ومنتسبه إليه

قال رجل من منقر: تكلم خالد بن صفوان بكلام في صلح لم يسمع الناس كلاماً قبله مثله، وإذا بأعرابي في بت ما في رجليه حذاء، فأجابه بكلام وددت أبي مت قبل أن أسمع، فلما رأى خالد ما نزل به قال لي: ويحك! كيف نجاريهم وإنما نحكيهم، أم كيف نسابقهم وإنما نحري بما سبق إلينا من أعراقهم؟ قلت له: أبا صفوان، والله ما أومك في الأولى، ولا أدع حمدك على الأخرى.

وتكلم ربيعة الرأي يوماً بكلام في العلم فأكثر، فكأن العجب داخله، فالتفت إلى أعرابي إلى جنبه، فقال: ما تعدون البلاغة يا أعرابي؟ قال: فلة الكلام وإيجاز الصواب؛ قال: فما تعدون العي؟ قال: ما كنت فيه منذ اليوم، فكأما ألقمه حجراً.

قول الأعراب في الدعاء

قال عمر بن عبد العزيز رضي الله عنه: ما قوم أشبهه بالسلف من الأعراب لولا جفاء فيهم. وقال غيلان: إذا أردت أن تسمع الدعاء فاسمع دعاء الأعراب. قال أبو حاتم: أملئ علينا أعرابي! يقال له مرثد: اللهم اغفر لي والجلد بارد، والنفس رابطة، واللسان منطلق، والصحف منشورة، والأقلام جارية، والتوبة مقبولة، والأنفس مريجة، والتضرع مرجو، قبل أز العروق، وحشك النفس، وعلز الصدر، وتزليل الأوصال، ونصول الشعر، وتحيف التراب. وقبل ألا أقدر على استغفارك حين يفنى الأجل، ويتقطع العمل، أعني على الموت وكربته، وعلى القبر وغمته، وعلى الميزان وخفته وعلى الصراط وزلته، وعلى يوم القيامة وروعته، اغفر لي مغفرة واسعة، لا تُعادر ذنباً، ولا تدع كرتاً، اغفر لي جميع ما افترضت عليّ ولم أؤده إليك، اغفر لي جميع ما ثبت إليك منه ثم عدت فيه. يا رب، تظاهرت عليّ منك النعم، وتداركت عندك مني الذنوب، فلك الحمد على النعم التي تظاهرت، وأستغفرك للذنوب التي تداركت، وأمست عن عذابي غنياً، وأصبحت إلى رحمتك فقيراً؟ اللهم إني أسألك نجاح الأمل عند انقطاع الأجل، اللهم اجعل خير عملي ما ولي أجلي، اللهم اجعلني من الذين إذا أعطيتهم شكروا، وإذا ابتليتهم صبروا، إذا هم ذكركم ذكروا، واجعل لي قلباً تواباً أو اباً، لا فاجراً ولا مرتاباً، اجعلني من الذين إذا أحسنوا ازدادوا، وإذا أساءوا استغفروا، اللهم لا تحقق عليّ العذاب، ولا تقطع بي الأسباب، واحفظني في كل ما تحيط به شفقتي، وتأتي من ورائه سبحتي، وتعجز عنه قوتي، أدعوك دعاء خفيف عمله، متظاهرة ذنوبه، ضنين على نفسه، دعاء من بدنه ضعيف، ومثته عاجزة، قد انتهت عذته، وخلقت جدته، وتم ظمؤه. اللهم لا تخيبني وأنا أرجوك، ولا تعذبني وأنا أدعوك، والحمد لله على طول النسبنة، وحسن التباعة، وتشجج العروق، وإساعة الرقيق، وتأخر الشدائد، والحمد لله على حلمه بعد علمه، وعلى عفوه بعد قدرته، والحمد لله الذي لا يودي قتيله، ولا يخيب سؤله، ولا يردّ رسوله، اللهم إني أعوذ بك من الفقر إلا إليك، ومن الذل إلا لك، وأعوذ بك أن أقول زوراً، أو أغشى فجوراً، أو أكون بك مغروراً، أعوذ بك من شماتة الأعداء، وغضال الداء، وخيبة الرجاء، وزوال النعمة، أو فجاءة النعمة، دعا أعرابي وهو يطوف بالكعبة، فقال: إلهي، من أولى بالتقصير والزلل مني وأنت خلقتني، ومن أولى بالعفو منك عني، وعلمك بي محيط، وقضاؤك في ماض. إلهي أظنك بقوتك والمئة لك، ولم أحسن حين أعطيتني، وعصيتك بعلمك، فتجاوز عن الذنوب التي كتبت عليّ، وأسألك يا إلهي بوجوب رحمتك، وانقطاع حجتي، وافتناري إليك، وغناك عني، أن تغفر لي وترحمي. اللهم إنا أظنك في أحب الأشياء إليك، شهادة أن لا إله إلا أنت وحدك، لا شريك لك، ولم نعصك في أبغض الأشياء إليك، الشترك بك، فأغفر لي ما بين ذلك. اللهم إنك انس المؤمنين لأولياتك، وخير المعنيين للمتوكلين عليك. إلهي، أنت شاهدهم وغائبهم والمطلع على ضمائرهم وسري لك مكشوف، وأنا إليك ملهوف، إذا أوحشتني العربة، انسي ذكرك، وإذا أكتبت عليّ المهموم لجأت إلى الاستجارة بك، علماً بأن أزمّة الأمور كلها بيدك، ومصدرها عن قضائك، فأقلني إليك مغفوراً لي، معصوماً بطاعتك باقي عمري، يا أرحم الراحمين.

الأصمعي قال: حججت فرائت أعرابياً يطوف بالكعبة ويقول: يا خير موفود إليه سعى إليه الوغد، قد ضعفت قوتي وذهبت مئتي، وأتيت إليك بذنوب لا تغسلها الأنهار، ولا تحملها البحار، أستجير برضاك من سخطك، وبعفوك من عقوبتك. ثم التفت فقال: أيها المشفقون، ارحموا من شملته الخطايا، وغمرته البلياء، ارحموا من قطع البلاد، وخفف ما ملك من التلاد، ارحموا عن رنحته الذنوب، وظهرت منه العيوب، ارحموا أسير ضر، وطريد فقر، أسألكم بالذي أعملتكم الرغبة إليه، إلا ما سألتكم الله أن يهب لي عظيم جرمي. ثم وضع في حلقة الباب خده وقال: ضرع خدي لك، ودل مقامي بين يديك، ثم أنشأ يقول:

من الخيرات مسلوب

وما عندك مطلوب

عظيم الذنب مكروب

وقد أصبحت ذا فقر

العُتي قال: سمعت أعرابياً يعرفات عشية عرفة وهو يقول: اللهم إن هذه عشية من عشايا محبتك، وأحد أيام زلفتك، يأمل فيها من لجأ إليك من خلقك، لا يُشرك بك شيئاً، بكل لسان فيها تدعى، ولكل خير فيها تُرجى، أتتكَ العصاة من البلد السحيق، ودعتك العناة من شعب المضيق، رجاء

أَعْظَمَ مَن وَرَدَ حَوْضَكَ وانصرفَ مَحْرُومًا من سَعَةِ رَحْمَتِكَ الأَصْمَعِي قال: رأيتُ أعرابياً يَطُوفُ بالكعبة وهو يقول: إلهي، عَجَّتْ إليك الأصواتُ بضروب من اللغاتِ يَسْأَلُونَكَ الحاجاتِ، وحاجتي إليك إلهي أنْ تَذَكِّرني على طُولِ البلاءِ إذ نَسِيتُ أهلَ الدنيا. اللهم هَبْ لي حَقَّكَ، وأرْضْ عَنِّي خَلْقَكَ. اللهم لا تُعِيني بَطْلَبَ ما لم تُقَدِّرْه لي، وما قَدَّرْتَه لي فَيَسِّرْه لي. قال: ودَعَتْ أعرابية لابنَ وَجْهته إلى حاجة، فقالت: كان الله صاحبَكَ في أمرك، وخليفَتِكَ في أهلِكَ، ووليُّ نُجْحِ طَلَبَتِكَ، امضْ مُصاحِباً مَكْلُوعاً، لا أَشْمَتَ اللهُ بكِ عَدُوًّا، ولا أرى مُحبِّيكَ فيكَ سُوءاً، قال: ومات ابنُ لأعرابي فقال: اللهم إني وهبتُ له ما قَصَّرَ فيه من برِّي، فَهَبْ له ما قَمَرَ فيه من طاعتِكَ، فإنكَ أجود وأكرم.

قولهم في الرقائق

العُتْبِيُّ قال: ذَكَرَ أعرابيٌّ مُصِيبَةً فقال: مُصِيبَةٌ والله تَرَكَتْ سُودَ الرُّؤوسِ بِيضاً، بِيضَ الوجوهِ سُوداً، وهَوَّنتِ المصائبَ بعدها أخذَ هذا المعنى بعضُ الشعراءِ فقال يرثي آلَ أَبِي سَفِيانَ:

رَمَى الحَدِيثَانِ نِسْوَةَ آلِ حَرْبٍ
بِمَقْدَارِ سَمَدَنْ لَهُ سُمُودَا
فَرَدَّ شُعُورَهُنَ السُّودَ بِيضاً
وَرَدَّ وَجُوهَهُنَ البِيضَ سُودَا
بَكَيْتَ بكَاءَ مُوجَعَةٍ بِحُزْنٍ
أَصَابَ الدَّهْرُ واحِدَهَا الفَرِيدَا،

قال: وقيل لأعرابية أُصِيبَتْ بابنها: ما أحسنَ عَزَاءَكَ؟ قالت: إن فُقدي إياه أمني كلَ فقد سواه، وإن مَصِيبتي به هَوَّنت علي المصائبَ بعده، ثم أنشأت تقول:

مَنْ شَاءَ بَعْدَكَ فَلْيَمُتْ
فَعَلَيْكَ كُنْتُ أُحَاذِرُ
أَكُنْتُ السَّوَادَ لِمُقَلَّتِي
فَعَلَيْكَ بِيكِي النَّاظِرِ
لَيْتَ المَنازِلَ وَالذِّيارِ
رَ حَفائِرُ وَمَقابِرِ

وقيل لأعرابيٍّ: كيف حُزنتك على ولدك؟ قال: ما تَرَكَ هَمَّ العَدَاةِ والعِشاءِ لي حُزْناً. وقيل لأعرابيٍّ: ما أَذْهَبَ شِبابَكَ؟ قال: مَنْ طال أمدُه وكَثُرَ ولدُه وذَهَبَ جَلْدُه ذَهَبَ شِبابُه. وقيل لأعرابيٍّ: ما أَحْلَجَ جِسْمَكَ؟ قال: سُوءُ الغِذاءِ، وَجُدُوبَةُ المَرعى، واعتلاجُ المُمومِ في صَدْرِي، ثم أنشأ يقول:

اللَّهُمَّ ما لَمْ تَمُضْه لِسَبيلِهِ
دَاءٌ تَضَمَّنَهُ الضَّلُوعُ عَظِيمُ
ولربما استيأستُ ثم أقول لا
إِنَّ الَّذِي ضَمِنَ النِجاحَ كَرِيمُ

وقيل لأعرابيٍّ قد أخذته السنُّ: كيف أصبحت؟ قال: أصبحتُ تُقَيِّدني الشَّعْرَةَ، وأَعَثَّرُ في البِعرَةَ، قد أقامَ الدَّهْرُ صَعْرِي بعد أن أقمْتُ صَعْرَه. وقال أعرابيٌّ: لقد كنتُ أنكرُ البِيضاءَ فصرتُ أنكرُ السُّوداءَ، فيا خيرَ مَبْدولٍ ويا شرَّ بَدلٍ. وقال أعرابيٌّ:

إذا الرِّجالُ وُلِدَتْ أو لادُّها
واضطربت من كِبَرِ أعضادها
وَجَعَلتْ أسقامُها تَعْتادُها
فهي زُرُوعٌ قد دنا حِصادها

وذَكَرَ أعرابيٌّ قَطِيعَةَ بعضِ إخوانه، فقال: صَفَرَت عِيابُ الوُدِّ بعد امتلائها، واكفَهَرَّت وجوهُ كانت بمائها، فأدبر ما كان مُقبلاً، وأقبل ما كان مُدبراً. وذَكَرَ أعرابيٌّ منزلاً بادَّ أهلُه، فقال: منزلٌ والله رَحَلتُ عنه رِبَّاتِ الحُدُورِ، وأقامت فيه أنا في القُدْرِ، وقد اكتسَى بالنباتِ، كأنه ألبسَ الحُلَّ. وكان أهلُه يَعمَون فيه آثارَ الرِّياحِ، فأصبحت الرِّيحُ تُعمِّقُ آثارهم، فالعهدُ قَريبٌ، والمُلتقى بَعِيدٌ. وذَكَرَ أعرابيٌّ قومًا تَغَيَّرت أحوالهم، فقال أعيُنُ والله كَحِلَّتِ بالبِعرَةَ بعد الحَبْرَةَ، وأنفُسُ لَبِسَتِ الحُزْنَ بعد السُّرورِ. وذَكَرَ أعرابيٌّ قومًا تَغَيَّرت حالهم، فقال: كانوا والله في عَيْشٍ رَقيقٍ الحَواشي فَطَوَّاهُ الدَّهْرُ بعد سَعَةِ، حتى

يَسْتَأْبِدَانَهُم مِّنَ الْقُرَىٰ، وَلَمْ أَرَ صَاحِبًا أَعَزَّ مِنَ الدُّنْيَا، وَلَا ظَالِمًا أَغْشَمَ مِنَ الْمَوْتِ، وَمَنْ عَصَفَ بِهِ اللَّيْلُ وَالنَّهَارُ أُرْدِيَاهُ، وَمَنْ وُكِّلَ بِهِ الْمَوْتُ أَفْنَاهُ. وَقَفَّ إِعْرَابِيٌّ عَلَىٰ دَارٍ قَدْ بَادَ أَهْلُهَا، فَقَالَ: دَارُ وَاللَّهِ مُعْتَصِرَةٌ لِلدَّمُوعِ، حَطَّتْ بِهَا السَّحَابُ أَثْقَالَهَا، وَجَرَّتْ بِهَا الرِّيَّاحُ أَذْيَالَهَا. وَذَكَرَ أَعْرَابِيٌّ رَجُلًا تَغَيَّرَ حَالُهُ، فَقَالَ: طُوبَيْتُ صَحِيفَتُهُ، وَذَهَبَ رِزْقُهُ، فَالْبَلَاءُ مُسْرِعٌ إِلَيْهِ، وَالعَيْشُ عَنْهُ قَابِضٌ كَفِيهِ. وَذَكَرَ أَعْرَابِيٌّ رَجُلًا ضَاقَ عَيْشُهُ بَعْدَ سَعَةٍ، فَقَالَ: كَانَ وَاللَّهِ فِي ظِلِّ عَيْشٍ مَمْدُودٍ، فَقَدَحْتُ عَلَيْهِ مِنَ الدَّهْرِ يَدٌ غَيْرَ كَابِيَةِ الرَّنْدِ.

الأصمعي قال: أَنَشِدَنِي الْعُقَيْلِي لِأَعْرَابِيَّةٍ تَرْتِي ابْنَهَا:

بَيْنَ صَفَّيْنِ مِن قَنَا وَنَصَالِ
وَقَمِيصِ مِنَ الْحَدِيدِ مُدَالِ
رَوْلَمْ تَخْطُرِ الْمَنُونِ بِبَالِي

خَنَلْتَهُ الْمَنُونُ بَعْدَ اخْتِيَالِ
فِي رِذَاءٍ مِنَ الصَّفِيحِ صَقِيلِ
كُنْتُ أَخْبُوكَ لِاعْتِدَاءِ يَدِ الدَّهِ

وقال أعرابي يري ابنه عند دفنه:

وَلِلنَّفْسِ مِنْهَا دَافِنٌ وَدَفِينٌ

دَفَنْتُ بِكَفِّي بَعْضَ نَفْسِي فَأَصْبَحْتُ

وقال أعرابي: إِنَّ الدُّنْيَا تَنْطِقُ بِغَيْرِ لِسَانٍ، فَتُخْبِرُ عَمَّا يَكُونُ بِمَا قَدْ كَانَ. خَرَجَ أَعْرَابِيٌّ هَارِبًا مِنَ الطَّاعُونَ، فَبَيْنَا هُوَ سَائِرٌ إِذَا لَدَعَتْهُ أَفْعَى فَمَاتَ، فَقَالَ فِيهِ أَبُوهُ:

مِن هَلَاكِ فَهَلَاكِ
لِلْفَتَى حَيْثُ سَلَكَ

طَافَ يَبْغِي نَجْوَةً
وَالْمَنَايَا رَصْدًا

حِينَ تَلْقَى أَجْلَكَ

كُلُّ شَيْءٍ قَاتِلٌ

وَذَكَرَ أَعْرَابِيٌّ بَلَدًا، فَقَالَ: بَلَدٌ كَالثُّرْسِ مَا تَمْشِي فِيهِ الرِّيَّاحُ إِلَّا عَابِرَاتِ سَبِيلٍ، وَلَا يَمُرُ فِيهَا السَّفَرُ إِلَّا بِأَدَلِّ دَلِيلٍ.

قَوْلُهُمْ فِي الْإِسْتِطْعَامِ

قَدِمَ أَعْرَابِيٌّ مِنْ بَنِي كِنَانَةَ عَلَى مَعْنِ بْنِ زَائِدَةَ وَهُوَ بِالْيَمَنِ، فَقَالَ: إِنِّي وَاللَّهِ مَا أَعْرَفُ سَبِيًّا بَعْدَ الْإِسْلَامِ وَالرَّحِمِ أَقْوَى مِنْ رِحْلَةٍ مِثْلِي مِنْ أَهْلِ السَّنَنِ وَالْحَسَبِ إِلَيْكَ مِنْ بِلَادِهِ بِلَا سَبَبٍ وَلَا وَسِيلَةٍ إِلَّا دُعَاءَكَ إِلَى الْمَكَارِمِ، وَرَغْبَتِكَ فِي الْمَعْرُوفِ، فَإِنْ رَأَيْتَ أَنَّ نَفْسِكَ بِحَيْثُ وَضَعْتَ نَفْسِي مِنْ رَجَائِكَ فَافْعَلْ. فَوَصَلَهُ وَأَحْسَنَ إِلَيْهِ. الرَّبِيعُ بْنُ سُلَيْمَانَ قَالَ: سَمِعْتُ الشَّافِعِيَّ رَضِيَ اللَّهُ تَعَالَى عَنْهُ يَقُولُ: وَقَفَّ أَعْرَابِيٌّ عَلَى قَوْمٍ، فَقَالَ: إِنَّا - رَحِمَكُمُ اللَّهُ - أَبْنَاءُ سَبِيلٍ، وَأَنْضَاءُ طَرِيقٍ، وَفُلَالُ سَنَةٍ، رَحِمَ اللَّهُ أَمْرًا أَعْطَى عَنْ سَعَةٍ، وَوَأَسَى مِنْ كِفَافٍ. فَأَعْطَاهُ رَجُلٌ دِرْهَمًا، فَقَالَ: آجَرَكَ اللَّهُ مِنْ غَيْرِ أَنْ يَيْتَلِيكَ. وَوَقَفَّ أَعْرَابِيٌّ بِقَوْمٍ، فَقَالَ: يَا قَوْمِ تَتَابَعْتَ عَلَيْنَا سِنُونَ جِمَادٍ شِدَادٍ، لَمْ يَكُنْ لِلسَّمَاءِ فِيهَا رَجْعٌ، وَلَا لِلْأَرْضِ فِيهَا صَدْعٌ، فَنَصَبَ الْعِدَّةَ، وَنَشَفَ الْوَشْلَ، وَأَمَحَلَ الْحِصْبَ، وَكَلَّحَ الْجَدْبَ، وَشَفَّ الْمَالَ، وَكَسَفَ الْبَالَ، وَشَطَفَ الْمَعَاشَ، وَذَهَبَ الرِّيَّاشَ، وَطَرَحْتَنِي الْأَيَّامُ إِلَيْكُمْ غَرِيبَ الدَّارِ، نَائِي الْمَحَلِّ، لَيْسَ لِي مَا لَمْ أَرْجِعْ إِلَيْهِ، وَلَا عَشِيرَةٌ أَلْحَقَ بِهَا، فَارْحَمِ اللَّهُ أَمْرًا رَحِمَ اغْتِرَابِيَّ، وَجَعَلَ الْمَعْرُوفَ حَوَائِي.

خَرَجَ الْمَهْدِيُّ يَطُوفُ بَعْدَ هَدَاةٍ مِنَ اللَّيْلِ، فَسَمِعَ أَعْرَابِيَّةً مِنْ جَانِبِ الْمَسْجِدِ، وَهِيَ تَقُولُ: قَوْمٌ مَعُوزُونَ، نَبَتَ عَنْهُمْ الْعُيُونُ، وَفَدَحْتَهُمُ الدُّيُونُ، وَعَضَّتْهُمْ السَّنُونُ، بَادَ رَجَالُهُمْ، وَذَهَبَتْ أَمْوَالُهُمْ، أَبْنَاءُ سَبِيلٍ، وَأَنْضَاءُ طَرِيقٍ، وَصِيَّةُ اللَّهِ وَوَصِيَّةُ رَسُولِهِ، فَهَلْ مِنْ أَمْرٍ يُخَيِّرُ، كَلَّاهُ اللَّهُ فِي سَفَرِهِ، وَخَلَفَهُ فِي أَهْلِهِ. فَأَمَرَ نُصَيْرًا الْخَادِمَ فَدَفَعَ إِلَيْهَا خَمْسَمِائَةَ دِرْهَمًا. الْأَصْمَعِيُّ قَالَ: أُغْيِرَ عَلَى إِبْلِ خُرَيْمَةَ، فَارْكَبَ بِحَيْرَةٍ، فَقِيلَ لَهُ: أَتَرْكَبُ حَرَامًا؟ قَالَ: يَرْكَبُ الْحَرَامَ مِنْ لَا حَلَالَ لَهُ. وَقَالَ أَعْرَابِيٌّ:

كُلِّ الْحِدَاءِ يَحْتَنِذِي الْحَافِي الْوَقْعِ

يَا لَيْتَ لِي نَعْلَيْنِ مِنْ جِلْدِ الضَّبْعِ

أبو الحسن قال: اعترض أعرابي لعُتْبَةَ بن أبي سُفْيَانَ وهو على مكة؛ فقال: أيها الخليفة، قال: لستُ به ولم تُبْعُدْ؛ قال: فيا أخاه؛ قال: أسمعُ فقل، قال: شك من بني عامر يتقرب إليك بالعمومة ويختص بالخُفولة، ويشكو إليك كثرة العيال، ووطأة الزمان، وشدّة فقر، وترادف ضرّ، وعندك ما يسعه ويصرف عنه بؤسه. فقال عُتْبَةُ، أسْتَغْفِرُ الله منك، وأسْتَعِينَهُ عَلَيْكَ، قد أمرنا لك بغناك، فليت إسراعنا إليك يقوم بإبطائنا عنك. وسأل أعرابي فقال: رَحِمَ اللهُ مسلماً لم تَمَحَّ أذناه كلامي، وقَدِمَ لِنَفْسِهِ مَعَاذاً من سوء، مقامي، فإن البلاد مُجْدِبَةٌ، والدار مُضَيِّعَةٌ، والحياة زاجر يمنع من كلامكم، والعُدْمُ عاذر يدعو إلى إخباركم، والدعاء إحدى الصّدقتين، فَرَحِمَ اللهُ آمراً بَمَيْمِرٍ وداعياً بخير. فقال له بعضُ القوم: ممن الرجل؟ فقال: ممن لا تُنْفَعُكُمْ مَغْرَفَتُهُ، ولَا تُضْرِكُمْ جِهَالَتُهُ، ذل الاكتساب يمنع من عز الانتساب. العُتْبِيُّ قال: قَدِمَ عَلَيْنَا أعرابي في فِشْشَاشٍ قد أَطْرَدَتِ اللَّصَاصُ إِلَيْهِ، فَجَمَعْتُ لَهُ شَيْئاً من أهل المسجد، فلَمَّا دَفَعْتُ إِلَيْهِ الدِّراهِمَ أَنشَأَ يَقُولُ:

لولا شماتة أعداء ذوي إحنٍ

وأنّ أمراً قضاه الله لم يكن

لا والذي أنا عبد في عبادته

ما سرّني أن إبلي في مباركها

أخذ هذا المعنى بعض المُحدّثين فقال:

وأنّ أنال بنفعي من يرجيني

ولا بذلت لها عرضي ولا ديني

على أمور أراها سوف تُرديني

لا دين عندي ولا دنيا تُواتيني

لولا شماتة أعداء ذوي حسدٍ

لما خطبتُ إلى الدنيا مطالبها

لكن منافسة الأكفاء تحمّلني

وقد خشيتُ بأن أبقى بمنزلة

العُتْبِيُّ قال: دخل أعرابي على خالد بن عبد الله القسري، فلَمَّا مَثَلَ بين يديه أَنشَأَ يَقُولُ:

فما أطيق العيال إذ كثروا

فأرسلوني إليك وانتظروا

أصلحك الله قل ما بيدي

أناخ دهر ألقى بكلكله

قال: أرسلوك وانتظروا! والله لا تجلس حتى تعود إليهم بما يسرهم، فأمر له بأربعة أبعرة موقورة بُرّاً وتمراً، وخلع عليه. الشيباني قال: أقبل أعرابي إلى مالك بن طوق، فأقام بالرحبة حيناً، وكان الأعرابي من بني أسد، صعلوكاً في عباءة صوف وشملة شعر، فكلما أراد الدخول منعه الحجاب، وشمته العبيد، وضربه الأشراف، فلَمَّا كان في بعض الأيام خرج مالك بن طوق يُريد التزّه حول الرحبة، فعارضه الأعرابي، فضربوه، ومنعوه، فلم يشنه ذلك حتى أخذ يعنان فرسه، ثم قال: أيها الأمير، إني عائد بالله من أشراطك هؤلاء؛ فقال مالك: دعوا الأعرابي، هل من حاجة يا أعرابي؟ قال: نعم أصلح الله الأمير، أن تصغي إلي بسَمْعِكَ، وتُنظِرَ إلي بطرفك، وتقبّل إلي بوجهك؛ قال: نعم، فأنشأ الأعرابي يَقُولُ:

وأقبلت أسعى حوله وأطوفُ

وأنت بعيد والشروط صُفوفُ

ذئاب جياغ بينهنّ خرُوفُ

فأصرف عنه إنني لضعيفُ

تركتُ ورائي مَرَبَعٌ ومَصِيفُ

ومَنْ هو فيها نازل وحليفُ

إليك وقد أخذت علي صرُوفُ

ببابك دون الناس أنزلت حاجتي

ويمنعني الحجابُ والسُننُ مُسْبِلُ

يدورون حولي في الجلوس كأنهم

فأما وقد أبصرت وجهك مُقبِلاً

ومالي من الدنيا سواك ولا لمن

وقد علم الحيان قيسٌ وخندِفُ

تخطي أعناق الملوك ورحلتي

فَجِئْتُكَ أَبْغِي الْيُسْرَ مِنْكَ فَمَرَّ بِي

بِبَابِكَ مَن ضَرَبَ الْعَبِيدَ صُنُوفَ

فَلَا تَجْعَلَنَّ فِي نَحْوِ بَابِلِ عَوْدَةَ

فَقَلْبِي مَن ضَرَبَ الشَّرْطَ مَحَوَّفَ

فاستضحك مالك حتى كاد أن يسقط عن فرسه، ثم قالت لمن حوله: من يعطيه درهماً بدرهمين، وتوباً بتوبين؟ فوعدت عليه الثياب والدراهم من كل جانب، حتى تحير الأعرابي، ثم قال له: هل بقيت لك حاجة يا أعرابي؟ قال: أما إليك فلا؛ قال: فإلى من؟ قال: إلى الله أن يقيك للعرب، فإنها لا تزال بخير ما بقيت لها.

دخل أعرابي على هشام بن عبد الملك، فقال: يا أمير المؤمنين، أتت علينا ثلاثة أعوام: فعام أذاب الشحم، وعام أكل اللحم، وعام انتفى العظم، وعندكم أموال، فإن تكن لله فبئس في عباد الله، وإن تكن للناس فلم تحجب عنهم؟ وإن تكن لكم فتصدقوا إن الله يجزي المتصدقين. قال هشام: هل من حاجة غير هذه يا أعرابي؟ قال: ما ضربت إليك أكباد الإبل أدرع الحجر، وأحوض الدحا لخاص دون عام، ولا خير في خير لا يعم، فأمر له هشام بأموال فرقت في الناس، وأمر للأعرابي بمال فرقه في قومه. طلب أعرابي من رجل حاجة فوعده قضاءها، فقال الأعرابي: إن من وعد قضى الحاجة وإن كثرت، والمطل من غير عسر آفة الجود. وقال: أتى أعرابي رجلاً لم تكن بينهما حرمة في حاجة له، فقال: إني امتطيت إليك الرجاء، وسرت على الأمل، ووفدت بالشكر، وتوصلت بحسن الظن فحقق الأمل، وأحسن المنزلة، وأكرم القصد، وأتم الوعد، وعجل المراء. وقف أعرابي على حلقة يونس النحوي، فقال: الحمد لله، وأعوذ بالله أن أذكر به وأنساه، إنا أناس قدمنا هذه المدينة، ثلاثون رجلاً لا ندفن ميتاً، ولا نتحول من منزل وإن كرهنا، فرحم الله عبداً تصدق على ابن سبيل، ونضو طريق، وفل سنة، فإنه لا قليل من الأجر، ولا غني عن الله، ولا عمل بعد الموت. يقول الله عز وجل: من ذا الذي يقرض الله قرضاً حسناً. إن الله لا يستقرض من عوز، ولكن ليلبو خيار عباده. وقف أعرابي في شهر رمضان على قوم، فقال: يا قوم، لقد ختمت هذه الفريضة على أفواهنا من صبح أمس، ومعى بنتان لي والله ما علمتهما تخلتا بخلال، فهل رجل كريم يرحم اليوم ذلنا، ويرد حشاشتنا، منعه الله أن يقوم مقامنا، فإنه مقام ذل وعار وصغار. فافترق القوم ولم يعطوه شيئاً، فالتفت إليهم حتى تأملهم جميعاً، ثم قال: أشد والله علي من سوء حالي وفاقتي توهمي فيكم المأساة، انتعلوا الطريق لا صحبكم الله. الأصمعي قال: وقف أعرابي علينا، فقال: يا قوم تتابعنا سنون بتغيير وإفقاص، فما تركت لنا هبماً ولا رُبماً، ولا عاطفة ولا نافضة، ولا تاغية ولا راغية، فأماتت الزرع، وقتلت الصرع، وعندكم من مال الله فضل نعمة، فأعينوني من عطية لله إياكم، وأرحموا أبا أيتام، ونضو زمان، فلقد خلقت أقواماً ما بمرضون مريضهم، ولا يكفنون ميتهم، ولا ينتقلون من منزل إلى منزل، وإن كرهوه. ولقد مشيت حتى انتعلت الدماء، وجعت حتى أكلت النوى. الأصمعي قال: وفتت أعرابية من هوازن على عبد الرحمن بن أبي بكر الصديق رضي الله تعالى عنهما، فقالت: إني أتيت من أرض شاسعة، فبطني هابطة، وترفعني رافعة، في بواد برين لحي، وهضن عظمي، وثركني والهة قد ضاق بي البلد بعد الأهل والولد وكثرة من العدد، لا قرابة تؤوي، ولا عشيرة تحمين، فسألت أحياء العرب: المرتجى سبيته، المأمون غيبه، الكثير نائله، المكفي سائله، فدللت عليك، وأنا امرأة هوازن فقدت الولد والوالد، فاصنع في أمري واحدة من ثلاث: إما أن تحسن صفدي، وإما أن تقيم أودي، وإما أن تردني إلى بلدي، قال: بل أجمعهن لك. ففعل ذلك بما أجمع، وقال أعرابي:

يا عمر الخير رزقت الجنة

اكس بنياتي وأمهنة

وكن لنا من الرمان جنة

واردد علينا إن إن إنه

أقسمت بالله لتفعلنه

الأصمعي قال: وفتت أعرابية بقوم فقالت: يا قوم، سنة جردت، وأيد جمدت، وحال جهدت، فهل من فاعل خير، وأمر بمير، رحم الله من رحم، وأقرض من يقرض. الأصمعي قال: أصابت الأعراب أعوام جدبة وشدة وجهد، فدخلت طائفة منهم البصرة، وبين أيديهم أعرابي وهو يقول: أيها الناس، إخوانكم في الدين وشركاؤكم في الإسلام، عابرو سبيل، وفلال بؤس، وصرعى حدب، تتابعنا سنون ثلاث غيرت النعم، وأهكت النعم،

فأكلنا ما بقي من جلودها فوق عظامها، فلم نزل نُعللُ بذلك أنفسنا، ونُمنِّي بالعَيْثِ قلوبنا، حتى عادُ مُحْنًا عِظَامًا، وعاد إشرافنا ظلامًا، وأقبلنا إليكم يصرعنا الوعر، وينكبنا السهل، وهذه آثار مصائبنا، لائحة في سماتنا، فرحم الله مُتصدِّقًا من كثير، ومواسيًا من قليل، فلقد عظمت الحاجة، وكسفت البال، وبلغ المجهود، والله يجزي المتصدقين. الأصمعي قال: كنتُ في حلقة بالبصرة إذ وقف علينا أعرابي سائلًا، فقال: أيها الناس، إنَّ الفقر يهتك الحجاب، ويبرز الكعاب، وقد حملتنا سنو المصائب ونكبات الدهور على مركبها الوعر، فواسوا أيا أيتام، ونضو زمان، وطريد فاقة، وطريح هلكة، رَحِمَكُمُ اللهُ. أتى أعرابيَّ عُمَرَ بن عبد العزيز فقال: رجلٌ من أهل البادية سَأَفَتَهُ إِلَيْكَ الْحَاجَةُ، وَبَلَغَتْ بِهِ الْغَايَةَ، وَاللَّهُ سَائِلُكَ عَنْ مَقَامِي هَذَا. فقال عمر: ما سمعتُ أبلغ من قائل، ولا أوعظ لمقول له من كلامك هذا. سَمِعَ عَدِيَّ بن حاتم رجلاً من الأعراب وهو يقول: يا قوم، تَصَدَّقُوا عَلَيَّ شَيْخَ مُعِيلٍ، وَعَابِرَ سَبِيلٍ، شَهِدَ لَهُ ظَاهِرُهُ، وَسَمِعَ شَكْوَاهُ خَالِقُهُ، بَدَنُهُ مَطْلُوبٌ، وَثَوْبُهُ مَسْلُوبٌ؟ فقال له: مَنْ أَنْتَ؟ قال: رجلٌ من بني سعد سَعَى فِي دِيَةِ لَزْمَتِي؟ قال: فَكَمْ هِيَ؟ قال: مائة بَعِيرٍ؛ قال: دُونَكِهَا فِي بَطْنِ الْوَادِي. سَأَلَ أَعْرَابِيٌّ رَجُلًا، فَأَعْطَاهُ، فَقَالَ: جَعَلَ اللهُ لِلْمَعْرُوفِ إِلَيْكَ سَبِيلًا، وَلِلخَيْرِ عَلَيْكَ دَلِيلًا، وَلَا جَعَلَ حَظَّ السَّائِلِ مِنْكَ عِذْرَةَ صَادِقَةٍ. وقف أعرابي بقوم فقال: أَشْكُو إِلَيْكُمْ أَيُّهَا الْمَلَأَ زَمَانًا كَلْحَ لِي وَجْهَهُ، وَأَنَاخَ عَلَيَّ كَلْكُلَهُ، بَعْدَ نَعْمَةٍ مِنَ الْبَالِ، وَثَرْوَةٍ مِنَ الْمَالِ، وَغَبِطَةٍ مِنَ الْحَالِ، اعْتَوَرْتَنِي شِدَائِدُهُ بِئْتَلِ مَصَائِبِهِ، عَنْ قَسِيٍّ نَوَائِبِهِ، فَمَا تَرَكَ لِي ثَاغِيَةً أُحْتَدِي ضَرَعَهَا، وَلَا رَاغِيَةً أُرْتَجِي نَفْعَهَا، فَهَلْ فِيكُمْ مِنْ مُعِينٍ عَلَيَّ صَرْفَةً، أَوْ مُعَدٍّ عَلَيَّ حَيْفَهُ؛ فَردَّه الْقَوْمُ وَلَمْ يُنِيلُوهُ شَيْئًا. فَأَنْشَأَ يَقُولُ:

جُودًا وَلَيْسَ الْجُودُ مِنْ فَعَالِكُمْ

وَلَا أَزَاحَ السُّوءِ عَنْ عِيَالِكُمْ

قَدْ ضَاعَ مَنْ . يَأْمَلُ مِنْ أَمْثَالِكُمْ

لَا بَارِكَ اللهُ لَكُمْ فِي مَالِكُمْ

فَالْفَقْرُ خَيْرٌ مِنْ صَلَاحِ حَالِكُمْ

الأصمعي قال: سأل أعرابي، فلم يُعْطَ شَيْئًا، فَرَفَعَ يَدَيْهِ إِلَى السَّمَاءِ وَقَالَ:

يَا رَبَّ أَنْتَ تَقْتِي وَذَخْرِي

جَاءَهُمُ الْبَرْدُ وَهُمْ بِبَشَرٍ

كَأَنَّهُمْ خَنَافِسُ فِي جُحْرٍ

وَكَلَّهُمْ مُلْتَصِقٌ بِصَدْرِي

سأل أعرابيٍّ ومعه ابنتان له، فلم يُعْطَ شَيْئًا، فَأَنْشَأَ يَقُولُ:

أَيَا ابْنَتِي صَابِرًا أَبَاكُمَا

اللَّهُ مَوْلَايَ وَهُوَ مَوْلَاكُمَا

تَضَرَّعَا لَا تَذْخَرَا بِكَاكُمَا

إِنْ تَبَكَّيَا فَالدَّهْرُ قَدْ أَبَاكُمَا

العُتْبِيُّ قَالَ: كَانَتْ الْأَعْرَابُ تَنْتَجِعُ هِشَامَ بْنَ عَبْدِ الْمَلِكِ بِالْخُطْبِ كُلِّ عَامٍ، فَتَقَدَّمَ إِلَيْهِمُ الْحَاجِبُ يَأْمُرُهُمُ بِالْإِيجَازِ، فَقَامَ أَعْرَابِيٌّ فَحَمِدَ اللهُ وَأَثْنَى عَلَيْهِ، ثُمَّ قَالَ: يَا أَمِيرَ الْمُؤْمِنِينَ، إِنَّ اللَّهَ تَبَارَكَ وَتَعَالَى جَعَلَ الْعَطَاءَ مَحَبَّةً، وَالْمَنَعَ مَبْغِضَةً، فَلَا نَحْبُكَ خَيْرٌ مِنْ أَنْ تُبْغِضَكَ. فَأَعْطَاهُ وَأَجْزَلَ لَهُ. الْأَصْمَعِيُّ قَالَ: وَقَفَ أَعْرَابِيٌّ غَنَوِيٌّ عَلَى قَوْمٍ، فَقَالَ بَعْدَ التَّسْلِيمِ: أَيُّهَا النَّاسُ، ذَهَبَ النَّيْلُ، وَعَجُفَ الْحَيْلُ، وَبُخِسَ الْكَيْلُ، فَمَنْ يَرْحَمُ نَضُو سَفَرٍ وَقَلَّ سَنَةٌ، وَيُقْرَضُ اللهُ قَرْضًا حَسَنًا. لَا يَسْتَقْرِضُ اللهُ مِنْ عُدْمٍ وَلَكِنْ لِيَلْوَكُمْ فِيمَا آتَاكُمْ، ثُمَّ أَنْشَأَ يَقُولُ:

عَلَى فَقِيرٍ بِأَنْسٍ مَسْكِينٍ

هَلْ مِنْ فَتَى مُقْتَدِرٍ مُعِينٍ

أبي بناتٍ وأبي بنينٍ

جزاه ربِّي بالذي يُعطيني

أفضلَ ما يُجزي به ذو الدِّينِ

الأصمعي قال: سمعتُ أعرابياً يقول لرجل: أطعمك الله الذي أطعمتني له، فقد أحييتني بقتل جوعي، ودفعت عني سوء ظني بيومي، فحفظك الله على كل جنب، وفرَّج عنك كل كرب، وغفر لك كل ذنب. وسأل أعرابي رجلاً فاعتلَّ عليه، فقال: إن كنت كاذباً فجعلك الله صادقاً. وقال أعرابي للمأمون:

قلِّ لِلإمامِ الذي تَرَجَى فَضائله

رأس الأنام وما الأذُنابُ كالرَّاسِ

إني أعودُ بهارونٍ وخفرتِه

وبابن عمِّ رسولِ الله عبَّاسِ

مِن أن تُثدِّدَ رِحالُ العيسِ راجعةً إلى

اليمامة بالحرِّمانِ واليَّاسِ

الأصمعي قال: أصابت الأعرابَ مَعاةً، فمررتُ برجلٍ منهم قاعدٍ مع زوجته بقارعة الطريق وهو يقول:

يا ربَّ إني قاعدٌ كما تَرى

وزوجتي قاعداً كما تَرى

والبطنِ مِنِّي جائعٌ كما تَرى

فَمَا تَرى يا رَبِّنا فيما تَرى

الأصمعي قال: حدَّثني بعضُ الأعرابِ قال: أصابتنا سَنَةٌ وعِدنا رجلاً من غنيِّ وله كَلْبٌ، فَجَعَلَ كلبُه يَعوي جُوعاً فأنشأ يقول:

تَشكَّى إليَّ الكَلْبُ شِدَّةَ جُوعه

وبي مِثْل ما بالكَلبِ أو بي أَكثَرُ

فقلتُ لعلَّ اللهُ يَأْتِي بِغِيثِه

فِيضِحِي كِلانا قاعداً يَتَكَبَّرُ

كأنِّي أميرُ المُؤمِنينِ مِنَ الغَنيِّ

وأنتَ مِنَ النُّعمى كأنَّكَ جَعْفَرُ

الأصمعي قال: سأل أعرابي رجلاً يقال له عمرو، فأعطاه درهماين، فردَّهما عليه وقال:

تَركتُ لعمرو درهميه ولم يكن

لِيُغنيَ عني فاقَتني درُّهما عمرو

وقلتُ لعمرو خذْهما فاصْطِرْ فِهما

سريعين في نَقصِ المروءةِ والأجرِ

أبو الحسن قال: وقف علينا أعرابي، فقال: أخ في كتاب الله، وجارٌّ في بلاد الله، وطالبٌ خيرٍ من رزق الله، فهل فيكم من مؤاسٍ في الله؟ الأصمعي قال: ضجر أعرابي بكثرة العيال والولد وبلغه أن الوباء يخيبر شديداً فخرج إليها يُعرضهم للموت، وأنشأ يقول:

قلتُ لِحُمي خيبرَ استعدي

هاك عيالي فاجْهَدي وجِدي

وباكري بصالبٍ ووردٍ

أعانك اللهُ على ذي الجُندِ

فأخذته الحمى، فمات هو وبقي عياله. سأل أعرابي شيخاً من بني مروان وحوله قوم جلوس، فقال: أصابتنا سنة ولي بضم عشره بنتاً فقال الشيخ: أما السنة فوددت والله أن بينكم وبين السماء صفائح من حديد، ويكون مسيلها مما يلي البحر فلا تقطر عليكم قطرة، وأما البنات فليت الله أضعفهن لك أضعافاً كثيرة، وجعلك بينهن مقطوع اليبدين والرجلين ليس هن كاسب غيرك؛ قال: فنظر إليه الأعرابي ثم قال: والله ما أدري ما أقول لك، ولكن أراك قبيح المنظر، سيء الخلق، فأعضك الله بظهور أمهات هؤلاء الجلوس حولك. وقف أعرابي على رجل شيخ من أهل الطائف، فذكر له سنة، وسأله، فقال: وددت والله أن الأرض لا تُنبت شيئاً؛ قال: ذلك أيسر لجعر أمك في آستها.

قولهم في المواعظ والنزهد

أبو حاتم عن الأصمعي، قال: دخل أعرابي على هشام بن عبد الملك، فقال له: عطني يا أعرابي، فقال: كفي بالقرآن وأعطاء، أعوذ بالله السميع العليم من الشيطان الرجيم، بسم الله الرحمن الرحيم "وَيْلٌ لِلْمُطَفِّفِينَ الَّذِينَ إِذَا أَكْتَالُوا عَلَى النَّاسِ يَسْتَوْفُونَ. وَإِذَا كَالُوا لَهُمْ أَوْ وَزَنُواهُمْ يُخْسِرُونَ، أَلَا يَظُنُّ أُولَئِكَ أَنَّهُمْ مَبْعُوثُونَ لِيَوْمٍ عَظِيمٍ. يَوْمَ يَقُومُ النَّاسُ لِرَبِّ الْعَالَمِيِّ" ثم قال: يا أمير المؤمنين، هذا جزاء من يطفف في الكيل والميزان، فما ظنك بمن أخذه كله. وقال أعرابي لأخيه: يا أخي، أنت طالب ومطلوب، يطلبك من لا تقوته، وتطلب ما قد كفيته، فكأن ما غاب عنك قد كشف لك، وما أنت فيه قد نقلت عنه، فأمهّد لنفسك، وأعدّ زادك، وخذ في جهازك. ووعظ أعرابي أحاً له أفسد ماله في الشراب، فقال: لا الدهر يعظك، ولا الأيام تُنذرك، ولا الشيب يزجرُك، والساعات تُحصي عليك، والأنفاس تُعدّ منك، والمنايا تُفادُ إليك، وأحبّ الأمور إليك أعودها بالمضرة عليك. وقيل لأعرابي: ما لك لا تشرب التبيد؟ قال: لثلاث حلال فيه، لأنه مثلف للمال، مذهب للعقل، مسقط للمروءة. وقال أعرابي لرجل: أيّ أخي، إن يسار النفس أفضل من يسار المال، فإن لم ترزق غني فلا تُحرم تقوى، فرب شبعان من النعم غرثان من الكرم، واعلم أن المؤمن على خير، تُرحب به الأرض، وتُسبّش به السماء، ولن يساء إليه في بطنها، وقد أحسن على ظهرها. وقال أعرابي: الدرّاهم مياسم حسماً أو ذماً، فمن حبسها كان لها، ومن أنفقها كانت له، ما كان من أعطى مالا أعطى حسداً، ولا كلّ عديم ذميمة. أخذ هذا المعنى الشاعر فقال:

أنت للمال إذا أمسكته

فإذا أنفقتة فالمال لك

وهذا نظير قول ابن عباس، ونظر إلى درهم في يد رجل، فقال: إنه ليس لك حتى يخرج من يدك. وقال أعرابي لأخ له: يا أخي، إن مالك إن لم يكن لك كنت له، وإن لم تُفنه أفناك فكله قبل أن يأكلك. وقال أعرابي: مضى لنا سلف، أهل تواصل، اعتقدوا منناً، واتخذوا الأيدي ذخيرة لمن بعدهم، يرون اصطناع المعروف عليهم فرضاً لازماً، وإظهار البر واجباً، ثم جاء الزمان بينين اتخذوا مننهم بضاعة، وبرهم مراحمة، وأيديهم تجارة، واصطناع المعروف مقارضة، كنفد السوق خذ مني وهات. وقال أعرابي لولده: يا بني، لا تكن رأساً ولا تكن، ذنباً، فإن كنت رأساً فتهياً للنطاح، وإن كنت ذنباً فتهياً للنكاح. قال: وسمعت أعرابياً يقول لابن عمه: سأخطي ذنبك إلى عُذرك، وإن كنت من أحدهما على شك، ومن الآخر على يقين، ولكن ليمّ المعروف مني إليك، ولتقوم الحجة لي عليك. قال: وسمعت أعرابياً يقول: إن الموفق من ترك أرفق الحالات به لأصلحها لدينه نظراً لنفسه إذا لم تنظر نفسه لها. قال: وسمعت أعرابياً يقول: الله مُخلف ما أتلف الناس، والدهر مُتلف ما أخلفوا، وكم من ميتة علّتها طلب الحياة، وكم من حياة سببها التعرّض للموت. وقال أعرابي: إن الآمال قطعت أعناق الرجال كالسراب غر من رآه، وأخلف من رجاه. وقال أعرابي: لا تسأل من يفر من أن تسأله ولكن سل من أمرك أن تسأله، وهو الله تعالى. وقيل لأعرابي في مرضه: ما تشتهي؟ قال: تمام العدة، وانقضاء المدة. ونظر أعرابي إلى رجل يشكو ما هو فيه من الضيق والضر، فقال: يا هذا، أتشكو من يرحمك إلى من لا يرحمك. وقالت أعرابية لابنها: يا بني، إن سؤلك الناس ما في أيديهم من أشدّ الإفتقار إليهم، ومن افتقرت إليه هنت عليه، ولا تزال تُحفظ وتُكرم حتى تسأل وترغب، فإذا أحت عليك الحاجة وكزمتك سوء الحال، فأجعل سؤلك إلى من إليه حاجة السائل والمسئول، فإنه يُعني السائل ويكفي العائل. وقالت أعرابية تُوصي ابناً لها أراد سفراً: يا بني، عليك بتقوى الله، فإنها أجدى عليك من كثير عقلك، وإياك والثمائم، فإنها ثورث الضغائن، وتفرّق بين المحبين، ومثل لنفسك مثلاً تستحسنه من غيرك فاحذ عليه واتخذ إماماً واعلم أنه من جمع بين السخاء والحياء، فقد أجاد الحلة إزارها ورداءها. قال الأصمعي: لا تكون الحلة إلا ثوبين: إزاراً ورداءً. أنشد الحسن لأعرابي كان يطوف بأمه على عاتقه حول الكعبة:

إن تركبي على قدالي فاركي

فطالما حملتني وسرت بي

في بطنك المطهر المطيب

كم بين هذاك وهذا المركب

وأنشد لآخر كان يطوف بأمه:

ما حجّ عبد حجّة بأمه

فكان فيها منقفاً من كده إلا استتم الأجر

عند ربّه وقال: وسمعتُ أعرابياً يقول: ما بقاءُ عُمُرٍ تَقْطَعُه الساعات، وسلامةُ بَدَنٍ مُعَرَّضٍ لِلآفات. ولقد عَجِبْتُ من المؤمن كيف يكره الموت وهو يَنْقَلِه إلى الثَّوَاب الذي أحيأ له لَيْلَةً وأظماً له نهاره. وذكُر أهلُ السُلْطَان عند أعرابيٍّ فقال: أما والله لئن عَزُوا في الدنيا بِالْجُورِ فَقَدْ ذَلُّوا في الآخِرَةِ بِالْعَدْلِ، ولقد رَضُوا بِقَلِيلٍ فَإِنْ عَوْضاً عَنْ كَثِيرٍ بَاقٍ، وَإِنَّمَا نَزَلَ الْقَدَمُ حَيْثُ لَا يَنْفَعُ النَّدَمُ. ووصف أعرابيُّ الدنيا، فقال: هي رَنَقَةُ المِشَارِبِ، حَمَّةُ المِصَابِ، لَا تُمْتَعَكُ الدَّهْرَ بِصَاحِبِ. وقال أعرابيٌّ: مَنْ كَانَتْ مَطِيئَتَاهُ اللَّيْلَ والنَّهَارَ سَاراً بِهِ وَإِنْ لَمْ يَسِرْ، وَبَلَعَا بِهِ وَإِنْ لَمْ يَبْلُغْ. قال: وسمعتُ أعرابياً يقول: الزَّهَادَةُ فِي الدُّنْيَا مِفْتَاحُ الرَّغْبَةِ فِي الآخِرَةِ، وَالزَّهَادَةُ فِي الآخِرَةِ مِفْتَاحُ الرَّغْبَةِ فِي الدُّنْيَا. وقيل لأعرابيٍّ وقد مَرِضَ: إِنَّكَ تَمُوتُ، قال: وَإِذَا مِتَّ فإِلَى أَيْنَ يُذْهَبُ بِي؟ قالوا: إِلَى اللَّهِ، قال: فَمَا كَرَاهِيَتِي أَنْ يُذْهَبَ بِي إِلَى مَنْ لَمْ أَرِ الخَيْرَ إِلَّا مِنْهُ. وقال أعرابيٌّ: مَنْ خَافَ المَوْتَ بَادَرَ القَوْتَ، وَمَنْ لَمْ يُنَحِّ النَّفْسَ عَنِ الشَّهَوَاتِ أَسْرَعَتْ بِهِ إِلَى المَهْلَكَاتِ، وَالجَنَّةُ والنَّارُ أَمَامَكَ. وقال أعرابيٌّ لِصَاحِبِ لَهُ: وَاللَّهِ لئن هَمَلَجْتَ إِلَى البَاطِلِ إِنَّكَ لَعَطُوفٌ عَنِ الحَقِّ، وَلئن أَبْطَأْتَ لَيْسَ عَنِّي إِلَيْكَ، وَقَدْ حَسِرَ أَقْوَامٌ وَهُمْ يَظُنُّونَ أَنَّهُمْ رَاجِحُونَ، فَلَا تُغَرِّتَكَ الدُّنْيَا فَإِنَّ الآخِرَةَ مِنْ وِرائِكَ. وقال أعرابيٌّ: خَيْرٌ مِنَ الحَيَاةِ مَا إِذَا فَقَدْتَهُ أَبْغَضْتَ لَهُ الحَيَاةَ، وَشَرٌّ مِنَ المَوْتِ مَا إِذَا نَزَلَ بِكَ أَحْبَبْتَ لَهُ المَوْتَ. وقال أعرابيٌّ: حَسْبُكَ مِنْ فِسادٍ أَنْ تَرَى أَسْمَةَ تُوضَعُ، وَأَحْفَافاً تُرْفَعُ، وَالخَيْرَ يُطَلَّبُ عِنْدَ غَيْرِ أَهْلِهِ، وَالفَقِيرَ قَدْ حَلَّ غَيْرَ مَحَلِّهِ. وَقَدَّمَ أعرابيٌّ إِلَى السُلْطَانِ، فَقَالَ لَهُ: قُلِ الحَقَّ وَإِلَّا أَوْجَعْتُكَ ضَرْباً؟ قال له: وَأَنْتَ فَاعْمَلْ بِهِ، فَوَاللَّهِ لَمَّا أَوْعَدَكَ اللَّهُ عَليَّ تَرَكَهُ أَعْظَمَ مِمَّا تَوَعَّدَنِي بِهِ. وقيل لأعرابيٍّ: مِنْ أَحَقُّ النَّاسِ بِالرَّحْمَةِ؟ قال: الكَرِيمُ يُسَلِّطُ عَلَيْهِ اللَّيْمَ، وَالعَاقِلُ يُسَلِّطُ عَلَيْهِ الجَاهِلَ. وقيل له: أَيُّ الدَّاعِينَ أَحَقُّ بِالإِجَابَةِ؟ قال: المَظْلُومُ الَّذِي لَا ناصِرَ لَهُ إِلَّا اللَّهُ قِيلَ لَهُ: فَأَيُّ النَّاسِ أَعْنَى عَنِ النَّاسِ؟ قال: مَنْ أَفْرَدَ اللَّهُ بِحَاجَتِهِ. وَنَظَرَ عُثْمَانُ إِلَى أعرابيٍّ فِي شَمْلَةٍ، غائِرِ العَيْنَيْنِ، مُشْرِفِ الحَاجِبَيْنِ، نَاقِيَةِ الجَبْهَةِ، فَقَالَ لَهُ: يَا أعرابي. أَيْنَ رُبُّكَ؟ قال: بِالْمِصَادِ. الأصمعي قال: سَمِعْتُ أعرابياً يقول: إِذَا أَشْكَلَ عَلَيْكَ أَمْرانَ فَانظُرْ أَيَهُمَا أَقْرَبُ مِنْ هَوَاكَ فَخَالَفْهُ، فَإِنَّ أَكْثَرَ مَا يَكُونُ الخِطَأُ عَلَيْكَ مَعَ مُتَابَعَةِ الهَوَى. قال: وَسَمِعْتُ أعرابياً يقول: مِنْ نَتَجِ الخَيْرِ أَنتَجَ لَهُ فِرَاحاً تَطْيِيرَ بِأَجْنِحَةِ السُّرُورِ، وَمَنْ غَرَسَ الشَّرَّ أَثْبَتَ لَهُ نَبَاتاً مُرّاً مَذَاقَهُ، قُضِبَانَهُ العَيْظُ وَثَمَرَتُهُ التَّدَمُّ. وقال أعرابيٌّ: الهَوَى عَاجِلُهُ لِذِيذِهِ، وَأَحْلُهُ وَخِيمٌ. وقيل لأعرابيٍّ: إِنَّكَ لِحَسَنِ الشَّارَةِ؟ قال: ذَلِكَ عُنْوانُ نِعْمَةِ اللَّهِ عِنْدِي. قال الأصمعي: وَرَأَيْتُ أعرابياً أَمَامَهُ شَاءً، فَقَلَّتْ لَهُ، لِمَنْ هَذَا الشَّاءُ؟ قال: هِيَ لِلَّهِ عِنْدِي. وقيل: لأعرابيٍّ: كَيْفَ أَنْتَ فِي دِينِكَ؟ قال: أَحْرَقَهُ بِالْمِعاصِي وَأَرْقَعَهُ بِالاسْتِغْفَارِ. وقال أعرابيٌّ: مَنْ كَسَاهُ الحَيَاءُ ثَوْبَهُ، خَفِيَ عَلى النَّاسِ عَيْبُهُ. وقال: بِنَسِ الزَّادِ التَّعَدِّيَّ عَلى العِبَادِ. وقال: التَّلَطُّفُ بِالْحَلِيلَةِ أَنْفَعُ مِنَ الوَسِيلَةِ. وقال: مَنْ ثَقُلَ عَلى صَدِيقِهِ خَفَّ عَلى عَدُوِّهِ، وَمَنْ أَسْرَعَ إِلَى النَّاسِ بِمَا يَكْرَهُونَ قَالُوا فِيهِ بِمَا لَا يَعْلَمُونَ. قال: وَسَمِعْتُ أعرابياً يقول لابنِهِ وَهُوَ يُعَاتِبُهُ: لَا تَتَّوَهَّمَنَّ عَلى مَنْ يَسْتَدَلِّي عَلى غَائِبِ الأُمُورِ يَشَاهِدُهَا العَمَلَةُ عَنِ أُمُورٍ يُعَايِنُهَا فَتَكُونُ بِنَفْسِكَ بَدَأْتَ وَحِظُّكَ أَحْطَأَتْ. وَنَظَرَ أعرابيٌّ إِلَى رَجُلٍ حَسَنِ الوَجْهِ بَضَّهَ، فَقَالَ: إِنِّي أَرَى وَجْهاً مَا عَلَقَهُ بَرْدٌ وَضُوءٌ السَّحَرِ، وَلَا هُوَ بِالَّذِي قَالَ فِيهِ الشَّاعِرُ:

مِنْ كُلِّ مَجْتَهِدٍ يَرَى أَوْصَالَه

الأصمعي قال: سَمِعْتُ أعرابياً يُنشد:

وَإِذَا أَظْهَرْتَ أَمراً حَسَناً

فَمُسِرُّ الخَيْرِ مَوْسُومٌ بِهِ

صَوْمُ النَّهَارِ وَسَجْدَةُ الأَسْحَارِ

فَلْيَكُنْ أَحْسَنَ مِنْهُ مَا تَسِرُّ

وَمُسِرُّ الشَّرِّ مَرَسُومٌ بِشِرِّ

وَقَوْلُ الأعرابيِّ هَذَا عَلِيٍّ مَا جَاءَ فِي حَدِيثِ رَسُولِ اللَّهِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ مَا أَسْرَ امرؤُ سَرِيرَةً إِلَّا أَلْبَسَهُ اللَّهُ رِداً، إِنْ خَيْرٌ فَخَيْرٌ وَإِنْ شَرٌّ فَشَرٌّ، قال: وَأَنْشَدَنِي أعرابيٌّ:

فَمَا اسْطَعْتَ مِنْ مَعْرُوفِهَا فَتَزَوَّدِ

تَمُوتُ وَلَا مَا يُحَدِّثُ اللَّهُ فِي غَدِ

وما هذه الأيام إلا معارة

فإنك لا تدري بأية بلدة

يقولون لا تَبْعَدَ وَمَنْ يَكُ مُسَدِّلاً

على وَجْهه سِتْرٌ مِنَ الْأَرْضِ يَبْعُدُ

وقال أعرابي: أعجز الناس مَنْ قَصَرَ فِي طَلَبِ الْإِخْوَانِ، وَأَعْجَزَ مِنْهُ مَنْ ضَيَّعَ مَنْ ظَفِرَ بِهِ مِنْهُمْ. وقال أعرابي لابنه: لا يَسْرُكُ أَنْ تَعْلَبَ بِالشَّرِّ، فَإِنَّ الْغَالِبَ بِالشَّرِّ هُوَ الْمَغْلُوبُ. وقال أعرابي لأخ له: لَقَدْ نَهَيْتُكَ أَنْ تُرِيْقَ مَاءَ وَجْهِكَ عِنْدَ مَنْ لَا مَاءَ فِي وَجْهِهِ، فَإِنَّ حَظَّكَ مِنْ عَطِيَّتِهِ السُّؤَالُ. قال: وَسَمِعْتُ أَعْرَابِيًّا يَقُولُ: إِنَّ حُبَّ الْخَيْرِ خَيْرٌ وَإِنْ عَجَزْتَ عَنْهُ الْمَقْدِرَةُ، وَبُغْضُ الشَّرِّ خَيْرٌ وَإِنْ فَعَلْتَ أَكْثَرَهُ. وشهد أعرابي عند سَوَّارِ الْقَاضِي بِشَهَادَةٍ، فَقَالَ لَهُ: يَا أَعْرَابِي: إِنَّ مِيدَانَنَا لَا يَجْرِي مِنَ الْعِتَاقِ، فِيهِ إِلَّا الْجِيَادُ؛ قَالَ: لَنْ كَشَفْتَ عَنِّي لِتَجِدَنِي عَثُورًا فَسَأَلَ عَنْهُ سَوَّارٌ فَأَخْبَرَ بِفَضْلِ وَصْلَاحِ، فَقَالَ لَهُ: يَا أَعْرَابِي، إِنَّكَ مَنْ يَجْرِي فِي مِيدَانِنَا؛ قَالَ: ذَلِكَ بِسِتْرِ اللَّهِ. وقال أعرابي: وَاللَّهِ لَوْلَا أَنَّ الْمَرْوَةَ تَقِيلُ مَحْمَلَهَا، شَدِيدَةً مَوْوَتَهَا، مَا تَرَكَ اللَّغَامَ لِلْكَرَامِ شَيْئًا. احْتَضَرَ أَعْرَابِيًّا، فَقَالَ لَهُ بَنُوهُ: عِظْنَا يَا أَبَانَا؛ فَقَالَ: عَاشِرُوا النَّاسَ مُعَاشِرَةً إِنْ غَبِثُمْ حُنُوتًا إِلَيْكَ، وَإِنْ مَثَّمْ بَكُورًا عَلَيْكُمْ. ودخل أعرابي على بعض الملوك في شَمْلَةٍ شَعَرَ، فَلَمَّا رَأَاهُ أَعْرَضَ عَنْهُ، فَقَالَ لَهُ: إِنْ الشَّمْلَةَ لَا تُكَلِّمُكَ هَانَمَا يُكَلِّمُكَ مَنْ هُوَ فِيهَا. ومرَّ أعرابي بَقَوْمٍ يَدْفِنُونَ جَارِيَةً، فَقَالَ: نِعْمَ الصَّهْرُ مَا صَاهَرْتُمْ، وَأَنْشَدَ:

وفي الْأَعْيَاصِ أَكْفَاءٌ لِلْيَلَى

وفي لَحْدِ لَهَا كُفَاءٌ كَرِيمٌ

وقال أعرابي: رُبُّ رَجُلٍ سِرَّهُ مَنُشُورٌ عَلَى لِسَانِهِ، وَآخِرُهُ قَدْ التَّحَفَ عَلَيْهِ قَلْبُهُ التَّحَافَ الْجَنَاحَ عَلَى الْخَوَافِي. ومرَّ أعرابيان بَرَجُلٍ صَلَبَهُ بَعْضُ الْخُلَفَاءِ، فَقَالَ أَحَدُهُمَا: أَتَيْتَهُ الطَّاعَةَ وَحَصَدْتَهُ الْمَعْصِيَةَ. وقال الآخرُ: مَنْ طَلَّقَ الدُّنْيَا فَالْآخِرَةُ صَاحِبَتُهُ، وَمَنْ فَارَقَ الْحَقَّ فَالْجُدُّعُ رَاحِلَتُهُ. العُثَيْبِيُّ عَنِ زَيْدِ بْنِ عُمَارَةَ قَالَ: سَمِعْتُ أَعْرَابِيًّا يَقُولُ لِأَخِيهِ وَهُوَ يَبْتِنِي مِثْلًا: يَا أَحِي

أَنْتَ فِي دَارِ شَتَاتٍ

فَتَأْهَبُ لِشَتَاتِكَ

وَاجْعَلِ الدُّنْيَا كَيَوْمٍ

صَمْتِهِ عَنِ شَهْوَاتِكَ

وَاطْلُبِ الْفَوْزَ بِعَيْشِ الزُّ

هُدًى مِنْ طُولِ حَيَاتِكَ

ثُمَّ أَطْرَقَ حِينًا وَرَفَعَ رَأْسَهُ وَهُوَ يَقُولُ:

قَائِدُ الْغَفْلَةِ الْأَمَلُ

وَالهَوَى قَائِدُ الزَّلَلِ

قَتَلَ الْجَهْلُ أَهْلَهُ

وَنَجَا كُلُّ مَنْ عَقَلَ

فَاغْتَنِمِ دَوْلَةَ السَّلَا

مَةِ وَاسْتَأْنِفِ الْعَمَلَ

أَيُّهَا الْمُبْتَتِي الْقُصُورِ

رَوَقْدِ شَابِ وَأَكْتَهَلِ

أَخْبِرِ الشَّيْبَ عَنْكَ أَنْ

كَ فِي آخِرِ الْأَجْلِ

فَعَلَامَ الْوُقُوفِ فِي

عَرِصَةِ الْعَجْزِ وَالْكَسَلِ

أَنْتَ فِي مَنْزِلِ إِذَا

حَلَّةٌ نَازِلٌ رَحَلُ

مَنْزَلٌ لَمْ يَزَلْ يَضِي

قُ وَيَنْبُو بِمَنْ نَزَلَ

فَتَأْهَبُ لِرِحْلَةٍ

لَيْسَ يَسْعَى بِهَا جَمَلُ

رِحْلَةٍ لَمْ تَزَلْ عَلَى الدَّهْرِ

مَكْرُوهَةَ الْقَفَلِ

وقيل لأعرابي: كيف كِثْمَانِكَ لِلسَّرِّ؟ قَالَ: مَا جَوِّئِي لَهُ إِلَّا قَبْرٌ. وقال أعرابي: إِذَا أُرِدْتَ أَنْ تُعْرِفَ وَفَاءَ الرَّجُلِ، وَدَوَامَ عَهْدِهِ، فَانظُرْ إِلَى حَيْنِهِ إِلَى

أوطانه، وشوقه إلى إخوانه، وبكائه على ما مضى من زمانه. وقال أعرابي: إذا كان الرأي عند من لا يُقبل منه، والسلاح عند من لا يستعمله، والمال عند من لا يُنفقه، ضاعت الأمور. وسئل أعرابي عن القدر فقال: الناظر في قدر الله كالناظر في عين الشمس، يعرف ضوءها ولا يقف على حدودها. وسئل آخر عن القدر، فقال: علم اختصاصت فيه العقول، وتناول فيه المختلفون، وحق علينا أن نردمنا التيس علينا من حكمه إلى ما سبق من علمه. وقال أعرابي: تكوير الليل والنهار، لا تبقى عليه الأعمار، ولا لأحد فيه الخيار. أبو حاتم عن الأصمعي قال: خرج الحجاج ذات يوم فأصحر، وحضر غداؤه، فقال: اطلبوا من يتعدى معنا، فطلبوا، فلم يجدوا إلا أعرابياً في شملة فأتوه به؛ فقال له: هلم؛ قال له: قد دعاني من هو أكرم منك فأجبتُه؛ قال: ومن هو؟ قال: الله تبارك وتعالى، دعاني إلى الصيام فأنا صائم؛ قال: صوم في مثل هذا اليوم على حر؛ قال: صمت ليوم هو أحر منه؛ قال: فأفطر اليوم وصم غداً؛ قال: ويضمن لي الأمير أن أعيش إلى غد؛ قال: ليس ذلك إلي؛ قال: فكيف تسألني عاجلاً بأجل ليس إليه سبيل؛ قال: طعام طيب، قال: والله ما طيبه خبزك ولا طبأحك، ولكن طيبته العافية؛ قال الحجاج: تالله ما رأيت كالיום، أخرجوه عني. أبو الفضل الرياشي قال: أنشدنا أعرابي:

نعي أم يكون لها اصطبارُ
وراحوا والأكف بها غبارُ
تعاوره الجنائب والقطارُ
ويرعي حوله اللهب النوارُ
وحولاً ثم تجتمع الديارُ

أباكية رزينة أن أتاها
إذا ما أهل ودي ودعوني
وغودر أعظمي في لحد قبر
تظل الريح عاصفة عليه
فذاك النأي لا الهجران حولاً

وهذا نظير قول ليلى الأخيلىة:

ولكننا الهجران ما غيب القبرُ

لعمرك ما الهجران أن تشحط النوى

ونظير قول الخنساء:

هذا عليها وهذا تحتها ربما

حسب الخليلين كون الأرض بينهما

وأنشد لآخر:

حميمك فاعلم أنها ستعود

إذا ما المنيا أخطأتك وصادفت

الرياشي، قال: مر عمر بن الخطاب بالجبانة، فإذا هو بأعرابي فقال له: ما تصنع هنا يا أعرابي في هذه الديار الموحشة؟ قال: ودعة لي هاهنا يا أمير المؤمنين، قال: ما وديعتك؟ قال: بني لي دفنته، فأنا أخرج إليه كل يوم أنذبه؛ قال: فأنذبه حتى أسمع، فأنشأ يقول:

عاجله موته على صغره

يا غائباً ما يؤوب من سفره

في طول ليلي نعم وفي قصره

يا قرة العين كأساً كنت لي سكناً

لا بد يوماً له على كبره

شربت كأساً أبوك شاربها

من كان في بدوه وفي حضره

يشربها والأنام كلهم

الموت في حكمه وفي قدره

فالحمد لله لا شريك له

يقدر خلق يزيد في عمره

قد قسّم العمر في العباد فما

قولهم في المدح

ذَكَرَ أَعْرَابِيٌّ قَوْمًا عَبَّادًا، فَقَالَ: تَرَكُوا وَاللَّهِ النَّعِيمَ لِيَتَنَعَّمُوا، لَهُمْ عَيْرَاتٌ مُتَدافِعَةٌ، وَزَفَرَاتٌ مُتتَابِعَةٌ، لَا تَرَاهُمْ إِلَّا فِي وَجْهِهِ وَعِنْدَ اللَّهِ. وَذَكَرَ أَعْرَابِيٌّ قَوْمًا، فَقَالَ: أَدَبْتَهُمُ الْحِكْمَةَ، وَأَحْكَمْتَهُمُ التَّجَارِبَ، فَلَمْ تُعْرَهُمُ السَّلَامَةَ الْمُنْطَوِيَةَ عَلَى الْمَلَكَةِ، وَرَحَلَ عَنْهُمْ التَّسْوِيفُ الَّذِي بِهِ قَطَعَ النَّاسُ مَسَافَةَ آجَالِهِمْ، فَذَلَّتْ أَلْسِنَتُهُمُ بِالْوَعْدِ، وَانْبَسَطَتْ أَيْدِيهِمْ بِالْوَجْدِ، فَأَحْسَنُوا الْمَقَالَ، وَشَفَعُوهُ بِالْفَعَالِ. وَسُئِلَ أَعْرَابِيٌّ عَنْ قَوْمِهِ، فَقَالَتْ: كَانُوا إِذَا اصْطَفَوْا سَفَرَتْ بَيْنَهُمُ السَّهَامُ، وَإِذَا تَصَافَحُوا بِالسُّيُوفِ فَغَرَّتِ الْمَنَايَا أَفْوَاهَهُمَا، فَرُبَّ يَوْمٍ عَارِمٌ قَدْ أَحْسَنُوا أَدَبَهُ، أَوْ حَرَبٌ عَبُوسٌ قَدْ ضَاكَحَتْهَا أَسْنَتُهُمْ، إِنَّمَا قَوْمِي الْبَحْرُ مَا أَلْقَمْتَهُ التَّقَمَ. وَذَكَرَ أَعْرَابِيٌّ قَوْمًا، فَقَالَ: مَا رَأَيْتُ أُسْرِعَ إِلَى دَاعٍ بَلِيلٍ عَلَى فَرَسٍ حَسِيبٍ وَحَمَلٍ نَجِيبٍ مِنْهُمْ، ثُمَّ لَا يَنْتَظِرُ الْأَوَّلُ السَّابِقَ الْآخَرَ الْلاحِقَ. وَذَكَرَ أَعْرَابِيٌّ قَوْمًا، فَقَالَ: جَعَلُوا أَمْوَالَهُمْ مَنَادِيلَ أَعْرَاضِهِمْ، فَالْخَيْرُ بِهِمْ زَائِدٌ، وَالْمَعْرُوفُ لَهُمْ شَاهِدٌ، فَيُعْطَوْنَهَا بِطَبِيعَةِ أَنْفُسِهِمْ إِذَا طُلِبَتْ إِلَيْهِمْ، وَيَبَاشِرُونَ الْمَعْرُوفَ بِإِشْرَاقِ الْوُجُوهِ إِذَا بُغِيَ لَدَيْهِمْ. وَذَكَرَ أَعْرَابِيٌّ قَوْمًا، فَقَالَ: وَاللَّهِ مَا نَالُوا شَيْئًا بِأَطْرَافِ أَنْمَالِهِمْ إِلَّا وَطَنَاهُ بِأَحْمَاصِ أَقْدَامِنَا، وَإِنْ أَقْصَى هِمَمُهُمْ لِأَدْنَى فَعَالِنَا. وَذَكَرَ أَعْرَابِيٌّ أَمِيرًا، فَقَالَ: إِذَا وَلِيَ لَمْ يُطَابِقْ بَيْنَ حُفُونِهِ، وَأَرْسَلَ الْعُيُونَ عَلَى عِيُونِهِ، فَهُوَ غَائِبٌ عَنْهُمْ، شَاهِدٌ مَعَهُمْ، فَالْمُحْسِنُ رَاجٍ، وَالْمُسِيءُ حَائِفٌ. وَدَخَلَ أَعْرَابِيٌّ عَلَى رَجُلٍ مِنَ الْوُلَاةِ، فَقَالَ: أَصْلَحَ اللَّهُ الْأَمِيرَ، اجْعَلْنِي زِمَامًا مِنْ أَزْمَتِكَ لِمَ تَتَجَرَّبُهَا الْأَعْدَاءُ، فَإِنْ مَسَّعَ حَرْبٌ، وَرَكَابٌ نُجِبٌ، شَدِيدٌ عَلَى الْأَعْدَاءِ، لَيْنٌ عَلَى الْأَصْدِقَاءِ، مُنْطَوِي الْحَصِيلَةَ، قَلِيلُ الثَّمِيلَةَ، نَوْمِي غِرَارًا، قَدْ غَدَّتْنِي الْحَرْبُ بِأَفَاوِيقِهَا، وَحَلَبْتُ الدَّهْرَ أَشْطَرَهُ، وَلَا تَمْنَعُكَ عَيْنِي الدَّمَامَةَ، فَإِنَّ مِنْ تَحْتِهَا شَهَامَةً. وَذَكَرَ أَعْرَابِيٌّ رَجُلًا بَرَاعَةَ الْمُنْطَقِ، فَقَالَ: كَانَ وَاللَّهِ بَارِعَ الْمُنْطَقِ، جَزَلَ الْأَلْفَاظَ، عَرَبِيَّ اللَّسَانَ، فَصِيحَ الْبَيَانَ، رَقِيقَ حَوَاشِي الْكَلَامِ، بَلِيلَ الرَّيْقِ، قَلِيلَ الْحَرَكَاتِ، سَاكِنَ الْإِشَارَاتِ، وَذَكَرَ أَعْرَابِيٌّ رَجُلًا، فَقَالَ: رَأَيْتُ رَجُلًا لَهُ حِلْمٌ وَأَنَاةٌ، يُحَدِّثُكَ الْحَدِيثَ عَلَى مَقَاطِعِهِ، وَيُنْشِدُكَ الشَّعْرَ عَلَى مَدَارِجِهِ، فَلَا تَسْمَعُ لَهُ لِحْنًا وَلَا إِحَالَةَ لُعْتَبِي قَالَ: ذَكَرَ أَعْرَابِيٌّ قَوْمًا، فَقَالَ: آلَتْ سُيُوفُهُمْ إِلَّا تَقْضِي دِينًا عَلَيْهِمْ، وَلَا تُضَيِّعُ حَقًّا لَهُمْ، فَمَا اخَذَ مِنْهُمْ مَرْدُودَ إِلَيْهِمْ، وَمَا أَخَذُوا مَتْرُوكَ لَهُمْ. وَمَدَحَ أَعْرَابِيٌّ رَجُلًا، فَقَالَ: مَا رَأَيْتُ عَيْنًا قَطَّ أَحْرَقَ لَظْلَمَةَ اللَّيْلِ مِنْ عَيْنِهِ، وَلَحْظَةً أَشْبَهَ بِلَهَيْبِ النَّارِ مِنْ لَحْظَتِهِ، لَهُ هَزَّةٌ كَهَزَّةِ السَّيْفِ إِذَا طَرِبَ، وَجُرْأَةٌ كَجُرْأَةِ اللَّيْثِ إِذَا غَضِبَ. وَمَدَحَ أَعْرَابِيٌّ رَجُلًا، فَقَالَ: كَانَ الْفَهْمُ مِنْهُ ذَا أَدْنَيْنِ، وَالْجَوَابُ ذَا لِسَانَيْنِ، لَمْ أَرِ أَحَدًا أَرْتُقِ لِحْلُلِ الرَّأْيِ مِنْهُ، بَعِيدَ مَسَافَةِ الْعَقْلِ وَمَرَادِ الطَّرْفِ، إِنَّمَا يُرْمِي بِهَمَّتِهِ حَيْثُ أَشَارَ إِلَيْهِ الْكَرَمُ. وَمَدَحَ أَعْرَابِيٌّ رَجُلًا، فَقَالَ: ذَاكَ وَاللَّهِ فَسِيحَ التَّنَسُّبِ، مُسْتَحْكَمَ الْأَدَبِ، مِنْ أَيِّ أَظْفَارِهِ أَتَيْتَهُ انْتَهَى إِلَيْكَ بِكْرَمِ فَعَالٍ وَحُسْنِ مَقَالٍ. وَمَدَحَ أَعْرَابِيٌّ رَجُلًا فَقَالَ: كَانَتْ ظُلْمَةٌ لَيْلِهِ كَضَوْءِ نَهَارِهِ، أَمْرًا يَارِشَادًا، وَنَاهِيًا عَنْ فِسَادٍ، لِحْدِيثِ السُّوءِ غَيْرَ مُنْقَادٍ وَقَالَ أَعْرَابِيٌّ: إِنَّ فُلَانًا خَلَقْتُ، نَعَمَ لِلْسَّانَةِ قَبْلَ أَنْ يَخْلُقَ لِسَانَهُ لَهَا، فَمَا تَرَاهُ الدَّهْرَ إِلَّا وَكَأَنَّهُ لَا غِنَى لَهُ عَنْكَ، وَإِنْ كُنْتُ إِلَيْهِ أَحْوَجَ، إِذَا أَذْنِبْتَ إِلَيْهِ غَفَرَ وَكَأَنَّهُ الْمَذْنِبُ، وَإِذَا أَسَأْتَ إِلَيْهِ أَحْسَنَ وَكَأَنَّهُ الْمُسِيءُ. وَذَكَرَ أَعْرَابِيٌّ رَجُلًا، فَقَالَ: اشْتَرَى وَاللَّهِ عَرَضَهُ مِنَ الْأَذَى، فَلَوْ كَانَتْ الدُّنْيَا لَهُ فَانْفَقَهَا لِرَأْيٍ بَعْدَهَا عَلَيْهِ حَقُوقًا، وَكَانَ مِنْهَا جَاحًا لِلْأُمُورِ الْمُشْكَلَةِ إِذَا تَنَاجَرَ النَّاسُ بِاللَّائِمَةِ. وَمَدَحَ أَعْرَابِيٌّ رَجُلًا، فَقَالَ: كَانَ وَاللَّهِ يَغْسِلُ مِنَ الْعَارِ وَجُوهًا مُسْوَدَّةً، وَيَفْتَحُ مِنَ الرَّأْيِ عُيُونًا مُنْسَدَّةً. وَذَكَرَ أَعْرَابِيٌّ رَجُلًا، فَقَالَتْ: ذَاكَ وَاللَّهِ يَنْفَعُ سَلْمَهُ، وَلَا يَسْتَمِرُّ ظُلْمَهُ، إِنْ قَالَتْ فَعَلْ، وَإِنْ وَلِيَ عَدَلًا. وَمَدَحَ أَعْرَابِيٌّ رَجُلًا، فَقَالَ: ذَاكَ وَاللَّهِ يُعْنَى فِي طَلَبِ الْمَكَارِمِ، غَيْرَ ضَالٍّ فِي مَسَالِكِ طُرُقِهَا، وَلَا مُشْتَغَلٌ عَنْهَا بِغَيْرِهَا. وَذَكَرَ أَعْرَابِيٌّ رَجُلًا، فَقَالَ: يُسَدِّدُ الْكَلِمَةَ إِلَى الْمَعْنَى فَمَمْرُقٌ مُرُوقٌ السَّهْمِ مِنَ الرَّمِيَّةِ، فَمَا أَصَابَ قَتْلًا، وَمَا أَخْطَأَ أَشْوَى، وَمَا عَطَّعَ لَهُ سَهْمٌ مِنْذَ تَحَرَّكَ لِسَانُهُ فِي فِيهِ. وَذَكَرَ أَعْرَابِيٌّ أَحَاهُ، فَقَالَ: كَانَ وَاللَّهِ رَكُوبًا لِلْأَهْوَالِ، غَيْرَ أَلُوفٍ لِرِبَاتِ الْحِجَالِ إِذَا أَرْعَدَ الْقَوْمُ مِنْ غَيْرِ كَرٍّ يُهَيِّنُ نَفْسًا كَرِيمَةً عَلَى قَوْمِهَا، غَيْرَ مُبْقِيَةٍ لَعْدٍ مَا فِي يَوْمِهَا. وَمَدَحَ رَجُلٌ رَجُلًا، فَقَالَ: كَانَ الْأَلْسُنُ رِيضَتْ فَمَا تَنْعَقِدُ إِلَّا عَلَى وَدَّهِ، وَلَا تَنْطِقُ إِلَّا بِنَثَانِهِ. وَمَدَحَ أَعْرَابِيٌّ رَجُلًا، فَقَالَ: كَانَ وَاللَّهِ لِلْإِحْيَاءِ وَصُولًا؛ وَلِلْمَالِ بَدُولًا وَكَانَ الْوَفَاءَ بِمَا عَلَيْهِ كَفِيلًا، فَمَنْ فَاضَلَهُ كَانَ مَقْضُولًا. وَقِيلَ لِأَعْرَابِيٍّ: مَا الْبَلَاغَةُ؟ قَالَ: التَّبَاعُدُ مِنْ حَشْوِ الْكَلَامِ، وَالذَّلَالَةُ بِالْقَلِيلِ عَلَى الْكَثِيرِ. وَمَدَحَ أَعْرَابِيٌّ رَجُلًا، فَقَالَ: يُصَمُّ أَدْنِيَهُ عَنِ اسْتِمَاعِ الْحَنَاءِ، وَيُخْرِسُ لِسَانَهُ عَنِ التَّكَلُّمِ بِهِ، فَهُوَ الْمَاءُ الشَّرِيبُ، وَالْمِصْطَقُ الْخَطِيبُ. وَذَكَرَ أَعْرَابِيٌّ رَجُلًا، فَقَالَ: ذَاكَ رَجُلٌ سَبَقَ إِلَيَّ مَعْرُوفُهُ قَبْلَ طَلْبِي إِلَيْهِ، فَالْعَرِضُ وَافِرٌ، وَالْوَجْهُ بَمَانِهِ، وَمَا اسْتَقَلَّ بِنِعْمَةٍ إِلَّا أَثْقَلَنِي بِأَخْرَى. وَذَكَرَ أَعْرَابِيٌّ رَجُلًا فَقَالَ: ذَاكَ رَضِيعُ الْجُودِ، وَالْمَفْطُومُ بِهِ، عَيْبِي عَنِ الْفَحْشَاءِ، مَعْصِمٌ بِالتَّقْوَى، إِذَا خَرَسَتْ الْأَلْسُنُ عَنِ الرَّأْيِ حَذَفَ بِالصَّوَابِ، كَمَا يَحْذَفُ الْأَرِيبُ، فَإِنْ طَالَتِ الْغَايَةُ، وَلَمْ يَكُنْ مِنْ دُونِهَا نَهَايَةً، تَمَّهَلَ أَمَامَ الْقَوْمِ سَابِقًا. وَذَكَرَ أَعْرَابِيٌّ رَجُلًا، فَقَالَ: إِنَّ جَلِيسَهُ لَطِيبٌ عَشْرَتَهُ أَطْرَبُ مِنَ الْإِبِلِ عَلَى الْحَدَاءِ، وَالثَّمِيلُ عَلَى الْغِنَاءِ. وَذَكَرَ أَعْرَابِيٌّ رَجُلًا، فَقَالَ: كَانَ لَهُ عِلْمٌ لَا يُخَالِطُهُ جَهْلٌ، وَصِدْقٌ لَا يَشُوْبُهُ كَذِبٌ، كَأَنَّهُ الْوَيْلُ عِنْدَ الْمَحَلِّ.

وذكر أعرابي رجلاً، فقال: ذاك والله من شجر لا يُخلف ثمره، ومن بحر لا يُخاف كدره. وذكر أعرابي رجلاً، فقالت: ذاك والله فتى رباه الله بالخير ناشئاً فأحسن لبسه، وزين به نفسه. وذكر أعرابي رجلاً، فقال: ما رأيتُ أعشق للمعروف منه، وما رأيتُ النكر أبغضَ لأحدٍ منه. وقدم أعرابي البادية، وقد نال من بني برمك، فقيل له: كيف رأيتهم؟ قال: رأيتهم وقد أنستُ بهم التَّعمة كأها من بناهم. قال: وذكر أعرابي رجلاً، فقال: مازال يبتني المجد، ويشترى الحمد، حتى بلغ منه الجهد. ودخل أعرابي على بعض

الملوك، فقال: إنَّ جهلاً أن يقول المادح بخلاف ما يعرف من الممدوح، وإني والله ما رأيتُ أعشق للمكارم في زمانِ اللوم منك، ثم أنشد:

وكانَ بابكَ مَجْمَعِ الأَسْوَاقِ
بيديكَ فاجتمعوا من الأفاقِ
والمكرُماتِ قليلة العُشاقِ

مالي أرى أبوابهم مهجورة
حابوك أم هابوك أم شاموا الندى
إني رأيتُك للمكارم عاشقاً

وأنشد أعرابي في مثل هذا المعنى:

فَتَلادُها بك للصديقِ مباحِ
يوماً فأنت لقفها مفتاحِ

بنت المكارم وسط كفك بيتها
وإذا المكارم أغلقت أبوابها

وأنشد أعرابي في بني المهلب:

قَصياً بعيد الدار في زمن المحلِ
وبرُّهم حتى حسبتهم أهلي

قدمت على آل المهلب شاتياً
فما زال بي إطفاهم وافتقادهم

وأنشد أعرابي:

مُحرمةً عليك فما تحلِ
أكثر من سماحك أم تقلِّ
وإن دخل المصيف فأنت ظلِّ

كأنك في الكتاب وجدت لاءً
وما تدري إذا أعطيت مالاً
إذا دخل الشتاء فأنت شمسٌ

وقال أعرابي في مدح عمر بن عبد العزيز:

بين أبي العاص وآل الخطابِ

مقابل الأعراق في الطاب الطاب

وأنشد أعرابي:

فالنيل يشكر منه كثرة النيلِ
أو أرحم الصم ألجاها إلى الميلِ
وعند إمضائه أمضي من السيلِ
في شدّه عند لفّ الخيل بالخيلِ

لنا جواد أعار النيل نائله
إن بارز الشمس ألفي الشمس مظلمة
أهدى من النجم إن نابته مشكلة
والموت يرهب أن يلقى منيته

قولهم في الذم

الأصمعي: قال: ذكر أعرابي قوماً، فقال: أولئك سلخت أبقاؤهم بالهجاء، ودبغت وجوههم باللوم، لباسهم في الدنيا الملامة، وزادهم إلى الآخرة الندامة. قال: وذكر أعرابي قوماً فقال: لهم بيوت تدخل حيواً إلى غير نمارق ولا وسائد، فضح الأسن برد السائل، جعد الأوكف عن التائل. قال:

وسمعتُ أعرابياً يقول: لقد صَغَرَ فلاناً في عيني عَظُمَ الدُّنيا في عينه، وكأنا يَرى السائل إذا أتاه مَلَكَ الموت إذا رآه وسئل أعرابي عن رجل، فقال: ما ظَنُّكم بِسَكِّيرٍ لا يَفِيقُ، يَتَّهَمُ الصَّديقَ، ويعصي الشَّفِيقَ في موضعٍ إلا حَرَمْتَ فيه الصَّلَاةَ، ولو أَفَلَّتْ كَلِمَةُ سُوءٍ لم تَصِرْ إلا إِلَيْهِ، ولو نزلت لعنة من السماء لم تَقَعْ إلا عليه. وذكر أعرابي قوماً فقال: أقلُّ الناسِ ذنوباً إلى أعدائهم، وأكثرهم جُرماً إلى أصدقائهم، يَصُومون عن المعروف، وَيَقْطِرُونَ على الفحشاء. وذكر أعرابي رجلاً، فقال: إن فلانا لِيُعَدِّي يائمه من تَسَمَّى باسمه، ولئن خَيَّبني فلرُبَّ قافية قد ضاعت في طلب رجل كريم. وذكر أعرابي رجلاً فقال: تَعُدُّو إليه مواكب الضَّلالة فَتَرَجِعْ من عنده بِيُدُورِ الآثامِ، مُعَدِّمٌ مما تُحِبُّ، مُثْرٍ مما تُكْرَهُ، وصاحبُ السُّوءِ قِطْعَةٌ من النار. وقال أعرابي لرجل: أنت والله ممن إذا سأل الحف، وإذا سُئِلَ سَوَّفَ، وإذا حَدَّثَ حَلَفَ، وإذا وَعَدَّ أَخْلَفَ، تَنْظُرُ نَظْرَ حَسُودٍ، وتُعْرِضُ إِعْرَاضَ حَقُودٍ. وسافر أعرابي إلى رجل فَحَرَمَهُ، فقال لما سُئِلَ عن سَفَرِهِ: ما رَبَّجْنَا في سَفَرِنَا إلا ما قَصَرْنَا من صَلَاتِنَا، فأما الذي لَقِينَا من الهواجر، ولَقِيتُ منا الأباغر، فَعُقُوبَةُ لنا فيما أَفْسَدْنَا من حُسْنِ ظَنِّنا، ثم أنشأ يقول:

وما خابت سرية سالمينا

رجعنا سالمين كما خرجنا

وقال أعرابي يهجو رجلاً:

قويًا ولا أنت بالزاهد

ولما رأيتك لا فاجراً

ولا أنت بالرجل المتقي

ولا أنت بالرجل المتقي

وناديت هل فيك من زائد

عرضت في السوق سوق الرقيق

كفور بأنعمه جاحد

على رجل خائن للصدیق

يزيد على درهم واحد

فما جاني رجل واحد

ولم يك في ذاك بالجاهد

سوى رجل زاذني دانقاً

مخافة ردك بالشاهد

فبعنتك منه بلا شاهد

وحلّ البلاء على الناقد

وأبت إلى منزلي غانماً

وذكر أعرابي رجلاً فقال: كان إذا رأني قَرَّبَ من حاجب حاجباً، فأقول له؛ لا تُقَبِّحْ وَجْهَكَ إلى قُبْحِهِ، فوالله ما أتيتك لَطَمَعِ رَاغِباً، ولا لِخَوْفِ رَاهِباً. وذمَّ أعرابي رجلاً، فقال: عَبْدُ الفَعَالِ، حُرُّ المَقَالِ، عَظِيمُ الزُّوْاقِ، دِينِ الأَخلاقِ الدَّهْرُ يَرْفَعُهُ ونَفْسُهُ تَضَعُهُ. وذمَّ أعرابي رجلاً، فقال: ضَيِّقُ الصَّدْرِ، صَغِيرُ القَدْرِ عَظِيمُ الكِبَرِ، قَصِيرُ الشَّيْبِ، لَئِيمُ التَّجَرِّ، كَثِيرُ الفَخْرِ. وقال أعرابي: دخلتُ البصرةَ فرأيت ثيابَ أحرارٍ على أحسادِ عبيدٍ، إقبالَ حَظِّهِمِ إِذْ بَارَ حَظَّ الكِرَامِ، شَجَرَ أصوله عند فروعِهِ، شَغَلَهُم عن المعروف رَغْبَتُهُم في المنكر. وذكر أعرابي رجلاً، فقال: ذاك يَتِيمُ المِجالِسِ، أَعْيَا ما يكون عند جُلُوسائِهِ، أَبْلَغُ ما يكون عند نَفْسِهِ. وذكر أعرابي رجلاً فقال: ذلك إلى مَنْ يَدَاوِي عَقْلَهُ من الجهل أَحوجُ منه إلى مَنْ يَدَاوِي بَدَنَهُ من المرضِ إنه لا مَرَضَ أَوْجَعُ من قَلَةِ عَقْلِ. وذكر أعرابي رجلاً لم يُدْرِكْ بئاره، فقال: كيف يُدْرِكُ بئاره مَنْ في صَدْرِهِ من اللُّؤْمِ حَشْوٌ مَرْفُوقِيهِ، ولو دُقَّتْ بوجهِهِ الحِجارَةُ لَرَضَّها، ولو خَلَا بالكَعْبَةِ لَسَرَقَها. وذكر أعرابي رجلاً، فقال: تَسَهَّرَ والله زَوْجَتُهُ جُوعاً إذا سَهَرَ الناسُ شَبِيعاً، ثم لا يَخافُ مع ذلك عاجلِ عارٍ ولا آجلِ نارٍ، كالبهيمة أكلت ما جَمَعَتْ، ونكحت ما وَجَدَتْ. وسمع أعرابي رجلاً يَدْعُو، فقال: وَيْحَكَ! إنَّما يُسْتَجابُ لِمُؤْمِنٍ أو مَظْلُومٍ، ولستَ بواحدٍ منهما، وأراك يَخْفَ عَليكَ ثِقَلُ الدُّنُوبِ فَتَحْسُنُ عِنْدَكَ مَقابِحِ العيوبِ. وذكر أعرابي رجلاً بَضْعَفٍ، فقال: سيءُ الرُّويَّةِ، قليلُ التَّقِيَّةِ، كثيرُ السَّعَايَةِ، ضَعِيفُ التَّكَايَةِ. وذكر أعرابي رجلاً، فقال: عليه كلُّ يومٍ من فِعْلِهِ شَاهدٌ بَفِسْقِهِ، وشهاداتُ الأفعالِ أعدلُ من شهاداتِ الرِّجالِ. وذكر أعرابي رجلاً بذلَّةً، فقال: عاشَ خاملاً وماتَ مَوْتوراً. وذكر قوماً ألبسوا نعمةً ثم عرَّوْا منها، فقال ما كانت النعمة فيهم إلا طَيْفاً، لما انتبهوا لها ذهبَ عنهم. وذمَّ أعرابي رجلاً، فقال: هو، كالعبدِ القِنَّ، يَسْرُكُ شَاهداً، ويسوءُكُ غائباً. ودعت أعرابية على رجل، فقال: أمكن الله منك عدواً حَسُوداً، وفجع بك

صَدِيقًا وَدُودًا، وَسَلَّطَ عَلَيْكَ هَمًّا يُضْنِيكَ، وَجَارًا يُؤْذِيكَ. وَقَالَ أَعْرَابِيٌّ لِرَجُلٍ شَرِيفِ الْبَيْتِ، دِنِيءِ الْهَمَّةِ: مَا أَحْوَجَكَ إِلَى أَنْ يَكُونَ عَرَضُكَ لِمَنْ يَصُونُهُ، فَتَكُونَ فَوْقَ مَنْ أَنْتَ دُونُهُ. وَذَكَرَ أَعْرَابِيٌّ رَجُلًا. فَقَالَ: إِنَّ حَدِيثَهُ سَابِقَكَ إِلَى ذَلِكَ الْحَدِيثِ، وَإِنْ سَكَتَ عَنْهُ أَحَدٌ فِي الثَّرَهَاتِ. وَذَكَرَ أَعْرَابِيٌّ أَمِيرًا، فَقَالَ: يَصِلُ النَّشْوَةَ، وَيَقْضِي بِالْعَشْوَةِ، وَيَقْبَلُ الرَّشْوَةَ. وَذَكَرَ أَعْرَابِيٌّ رَجُلًا رَاكِبًا هَوَاهُ، فَقَالَ: لِمُو وَاللَّهِ أَسْرَعُ إِلَى مَا يَهْوَاهُ، مِنَ الْأَسَنِ إِلَى رَاكِدِ الْمِيَاهِ، أَفْقَرَهُ ذَلِكَ أَوْ أَغْنَاهُ. وَقَالَ أَعْرَابِيٌّ: لَيْتَ فَلَانًا أَقَالَنِي مِنْ حُسْنِ ظَنِّي بِهِ فَأَحْتَمَ بِصَوَابٍ إِذْ بَدَأْتُ بِخَطَأٍ، وَلَكِنْ مِنْ لَمْ تُحْكِمَهُ التَّجَارِبُ أَسْرَعَ بِالْمَدْحِ إِلَى مَنْ يَسْتَوْجِبُ الدَّمَّ، وَبِالدَّمِّ إِلَى مَنْ يَسْتَوْجِبُ الْمَدْحَ. وَقَالَ أَعْرَابِيٌّ لِرَجُلٍ: هَلْ أَنْتَ إِلَّا أَنْتَ لَمْ تَتَّعِبْ، وَلَوْ كُنْتُ مِنْ حَدِيدٍ وَوُضِعَتْ فِي أَتُونٍ مَحْمِيٍّ لَمْ تَذُبْ. وَسَمِعْتُ أَعْرَابِيًّا يَقُولُ لِأَخِيهِ: قَدْ كُنْتُ نَهَيْتُكَ أَنْ تُدْنَسَ عَرَضُكَ بِعَرَضِ فَلَانٍ، وَأَعْلَمْتُكَ أَنَّهُ سَمِينُ الْمَالِ، مَهْزُولُ الْمَعْرُوفِ، مِنَ الْمَرْزُوقِينَ فُجَاءَةً، قَصِيرُ عَمْرِ الْغِنَى، طَوِيلُ عَمْرِ الْفَقْرِ.

أَقْبَلَ أَعْرَابٍ! إِلَى سَوَارٍ فَلَمْ يَصَادَفْ عِنْدَهُ مَا أَحَبَّ، فَقَالَ فِيهِ:

رَأَيْتُ لِي رُؤْيَا وَعَبَّرْتُهَا

بَأَنْتِي أَخْبَطَ فِي لَيْلَتِي

وَقَالَ أَعْرَابِيٌّ فِي ابْنِ عَمٍّ لَهُ يُسَمَّى زِيَادًا:

مَنْ يُقَادِرُ مَنْ يُطَافِسُ

مَنْ يُبَادِلُنِي قَرِيبًا

وَقَالَ سَعِيدُ بْنُ سَلْمٍ الْبَاهِلِيُّ: مَدَحَنِي أَعْرَابِيٌّ، فَاسْتَبَطَّ الثَّوَابَ، فَقَالَ:

لِكُلِّ أَخِي مَدْحٌ ثَوَابٌ يَعْدُهُ

مَدَحْتُ سَعِيدًا وَالْمَدِيحُ مَهْرَةٌ

وَقَادَ أَيْضًا:

وَإِنْ مِنْ غَايَةِ حِرْصِ الْفَتَى

كَبِيرُهُمْ وَغَدٌ وَمَوْلُودُهُمْ

وَقَالَ أَيْضًا:

سَبَّكَانَهُ وَنَحَسَبَهُ لُجَيْنًا

وَقَالَ فِيهِ:

لَمَا رَأَانَا فَرًّا بَوَّابُهُ

وَعِنْدَهُ مِنْ مَقْتِهِ حَاجِبٌ

دَخَلَ أَعْرَابِيٌّ عَلَى الْمُسَاوِرِ بْنِ هِنْدٍ وَهُوَ عَلَى الرَّيِّ فَلَمْ يُعْطِهِ شَيْئًا، فَخَرَجَ وَهُوَ يَقُولُ:

أَتَيْتُ الْمُسَاوِرَ فِي حَاجَةٍ

وَحَكَ قَفَاهُ بِكَرِّ سُوْعِهِ

فَأَمْسَكَتُ عَنْ حَاجَتِي خِيْفَةً

فَأَقْسَمْتُ لَوْ عُدْتُ فِي حَاجَتِي

وَكُنْتُ لِلْأَحْلَامِ عِبَارًا

كَلْبًا فَكَانَ الْكَلْبُ سَوَّارًا

مَنْ يُنَادِلُ بِزِيَادٍ

بِبَعِيدٍ مِنْ إِيَادٍ

وَلَيْسَ لِمَدْحِ الْبَاهِلِيِّ ثَوَابٌ

فَكَانَ كَصَفْوَانَ عَلَيْهِ تَرَابٌ

طِلَابُهُ الْمَعْرُوفَ فِي بَاهِلَةَ

تَلَعَّنَهُ مِنْ قُبْحِهِ الْقَابِلَهُ

فَأَبْدَى الْكَبِيرَ عَنِ خَبَثِ الْحَدِيدِ

وَإِنْسَدَّ مِنْ غَيْرِ يَدٍ بَابُهُ

يَحْجُبُهُ إِنْ غَابَ حُجَابُهُ

مَا زَالَ يَسْعَلُ حَتَّى ضَرَطَ

وَمَسَحَ عُثُونَهُ وَامْتَحَطَّ؟

لِأُخْرَى تَقَطَّعُ شَرَجَ السَّقَطِ

لِللَّطِّخِ بِالسَّلْحِ وَشِي النَّمَطِ

وقال غَلَطْنَا حِسَابَ الْخِرَاجِ

فقلتُ من الضَّرْطِ جاء الغَلَطُ

وكان كلما ركب صاح الصبيان: من الضَّرْطِ جاء الغلط، حتى هَرَبَ من غير عَزَلٍ إلى بلاد أُصْبَهَانَ.
أبو حاتم عن أبي زَيْد، قال: أنشدنا أعرابي في رجل قَصِير:

يَكَادُ خَلِيلِي مِنْ تَقَارُبِ شَخْصِهِ

يَعِضُّ الْقِرَادُ بَاسْتِنِهِ وَهُوَ قَائِمٌ

وَذَكَرَ أعرابي امرأة قَبِيحَةَ، فقال: تُرْخِي ذَيْلَهَا عَلَى عُرْقُوبِي نَعَامَةً، وَتَسْدِلُ حِمَارَهَا عَلَى وَجْهِ كَالْجَعَالَةِ.
العُتْبِيُّ قال: سَمِعْتُ أعرابياً يقول: لَا تَرَكَ اللَّهُ مَخَا فِي سُلَامَى نَاقَةِ حَمَلْتَنِي إِلَيْكَ، وَالذَّاعِي عَلَيْهَا أَحَقُّ بِالذِّعَاءِ عَلَيْكَ، إِذْ كَلَّمَهَا الْمَسِيرَ إِلَيْكَ؛ وَقَالَ أعرابي لابن الزبير بوركت ناقة حملتني إليك. قال: إنَّ وصاحبها. قوله: إنَّ، يُريد: نعم. قال ابن قيس الرقيات:

وَيَقْلُنْ شَيْبٌ قَدْ عَلَا

كِ وَقد كَبُرَتْ فَقَلْتَ إِنَّهُ

يريد: نعم. وَذَكَرَ أعرابي رجلاً، فقال: لَا يُؤْنِسُ جَارًا، وَلَا يُؤْهِلُ دَارًا، وَلَا يُثَقِّبُ نَارًا. وَسَأَلَ أعرابي رجلاً فَحَرَمَهُ، فَقَالَ لَهُ أَخُوهُ: نَزَلَتْ وَاللَّهِ بَوَادٍ غَيْرَ مَمْطُورٍ، وَبِرَجُلٍ غَيْرِ مَبْرُورٍ، فَارْتَحِلْ بِنَدَمٍ، أَوْ أَقِمْ بَعْدَمٍ. وَدَخَلَتْ أعرابية عَلَى حَمْدُونَة بِنْتِ الْمَهْدِيِّ، فَلَمَّا خَرَجَتْ سَأَلَتْ عَنْهَا، فَقَالَتْ: وَاللَّهِ لَقَدْ رَأَيْتُهَا، فَمَا رَأَيْتُ طَائِلًا، كَأَنَّ بَطْنَهَا قَرِيبةٌ، وَكَأَنَّ ثَدْيَيْهَا دَبَّةٌ، وَكَأَنَّ اسْتِهَا رَقْعَةٌ، وَكَأَنَّ وَجْهَهَا وَجْهٌ دِيكٍ، قَدْ نَفَسَ عَفْرِيَّتَهُ يُقَاتِلُ دِيكًا. وَصَاحَبَ أعرابي امرأة، فقال لها: وَاللَّهِ إِنَّكَ لَمُشْرِفَةُ الْأَذْنِينَ، جَاحِظَةُ الْعَيْنِينَ، ذَاتُ خَلْقٍ مُتَضَائِلٍ، يُعْجِبُكَ الْبَاطِلُ، إِنَّ شَيْبَتَ بَطْرُوتِ، وَإِنْ جُعْتَ صَخِبْتَ، وَإِنْ رَأَيْتَ حَسَنًا دَفَنْتَهُ، وَإِنْ رَأَيْتَ سَيِّئًا أَدْعَيْتَهُ، تُكْرِمِينَ مِنْ حَقْرِكَ، وَتُحَمِّرِينَ مَنْ أَكْرَمَكَ. وَهَجَا أعرابي امرأته، فقال:

يَا بَكْرَ حَوَاءٍ مِنَ الْأَوْلَادِ

وَأُمَّ آلَافٍ مِنَ الْعِبَادِ

عُمْرُكَ مَمْدُودٌ إِلَى التَّنَادِي

فَحَدَّثِينَا بِحَدِيثِ عَادِ

وَالْعَهْدِ مِنْ فِرْعَوْنَ ذِي الْأَوْتَادِ

يَا أَقْدَمَ الْعَالَمِ فِي الْبِلَادِ

إِنِّي مِنْ شَخْصِكَ فِي جِهَادِهِ

وقال أعرابي في امرأة تزوجها، وَذُكِرَ لَهُ أَنَّهَا شَابَةٌ طَرِيَّةٌ، وَدَسُوا إِلَيْهِ عَجُوزًا:

عَجُوزٌ تُرْجَى أَنْ تَكُونَ فِتْنِيَّةً

وَقَدْ نَحَلَ الْجَنَّبَانَ وَاحِدُودِ الْظَهْرِ

تَدْسِي إِلَى الْعِطَارِ سِلْعَةَ أَهْلِهَا

وَهَلْ يُصَلِّحُ الْعِطَارَ مَا أَفْسَدَ الدَّهْرَ

تَزَوَّجْتَهَا قَبْلَ الْمِحَاقِ بَلِيَّةً

فَكَانَ مِحَاقًا كُلَّهُ ذَلِكَ الشَّهْرَ

وَمَا غَرَّنِي إِلَّا خِضَابٌ بِكَفِّهَا

وَكَحْلٌ بَعَيْنَيْهَا وَأَثْوَابُهَا الصَّفْرُ

وقال فيها:

وَلَا تَسْتَطِيعُ الْكُحْلَ مِنْ ضَيْقِ عَيْنِهَا

فَإِنْ عَالَجْتَهُ صَارَ فَوْقَ الْمِحَاجِرِ

وَفِي حَاجِبِيهَا حَزَّةٌ كَغِرَارَةِ

فَإِنْ حَلَّقَا كَانَتْ ثَلَاثُ غَرَائِرِ

وَتَدْيَانِ أَمَا وَاحِدٌ فَهُوَ مَزُودٌ

وَآخَرَ فِيهِ قَرِيبَةٌ لِمُسَافِرِ

وقال فيها:

لَهَا جِسْمٌ بُرْغُوثٌ وَسَاقًا بَعُوضَةٌ

وَوَجْهٌ كَوَجْهِ الْقِرْدِ أَوْ هُوَ أَقْبِحُ

تُبْرِقُ عَيْنَيْهَا إِذَا مَا رَأَيْتَهَا
لَهَا مَضْحَكَ كَالْحَشِّ تَحْسَبُ أَنَّهَا
وَتَقْتَحُ لَا كَانَتْ فَمَا لَوْ رَأَيْتَهُ
إِذَا عَايَنَ الشَّيْطَانَ صُورَةَ وَجْهَهَا

وقال أعرابي في سؤداء:

كَأَنَّهَا وَالْكُحْلُ فِي مِرْوَدِهَا

وقال فيها:

أَشْبَهَكَ الْمِسْكَ وَأَشْبَهَتْهُ
لِأَشْكَ إِذْ لَوْنُكُمَا وَاحِدٌ

ولآخر في عجوز:

عَجُوزٌ تُطَيِّبُ لِي نَفْسَهَا

فَمَنْ نَاكَهَا أَبَدًا طَائِعًا

وقال كثير في نصيب بن رباح، وكان أسود:

رَأَيْتُ أَبَا الْحَجَنَاءِ فِي النَّاسِ حَائِرًا

تَرَاهُ عَلَى مَا لَاحَهُ مِنْ سَوَادِهِ

وقال رجل من العمّال لأعرابي: ما أحسبك تعرف كم تُصَلِّي في كل يوم وليلة؟ فقال له: فإن عرفتُ أتجعل لم على نفسك مسألة؟ قال: نعم؛ قال: إن الصلاة أربع وأربع ثم ثلاث بعدهن أربع

ثم صلاة الفجر لا تضيّع

قال: صدقت. هات مسألتك؟ قال له: كم فقارُ ظهرك؟ قال: لا أدري؟ قال: أفتحكم بين الناس وتجهل هذا من نفسك!

قولهم في الغزل

ذَكَرَ أَعْرَابِي امْرَأَةً، فَقَالَ: لَهَا جِلْدٌ مِنْ لَوْلُوٍ مَعَ رَائِحَةِ الْمِسْكِ، وَفِي كُلِّ عَضُوٍّ مِنْهَا شَمْسٌ طَالِعَةٌ. وَذَكَرَ أَعْرَابِي امْرَأَةً وَدَعَاهَا لِلْمَسِيرِ: وَاللَّهِ مَا رَأَيْتُ دَمْعَةً تَرْتَرِقُ مِنْ عَيْنٍ بِإِثْمِدٍ عَلَى دِيبَاجَةٍ خَدٍّ، أَحْسَنَ مِنْ عَبْرَةٍ أَمْطَرَتْهَا عَيْنُهَا فَأَعْشَبَ لَهَا قَلْبِي. وَسَمِعْتُ أَعْرَابِيًّا يَقُولُ: إِنَّ لِي قَلْبًا مَرُوعًا، وَعَيْنًا دَمُوعًا، فَمَاذَا يَصْنَعُ كُلُّ وَاحِدٍ مِنْهُمَا بِصَاحِبِهِ، مَعَ أَنْ دَاءَهُمَا دَوَاؤُهُمَا، وَسُقْمُهُمَا شِفَاؤُهُمَا وَقَالَ أَعْرَابِي: دَخَلْتُ الْبَصْرَةَ فَرَأَيْتُ أَعْيُنًا دُعُجًا، وَحَوَاجِبَ زُجًا، يَسْحَبْنَ الثِّيَابَ، وَيَسْلُبْنَ الْأَبْيَابَ. وَذَكَرَ أَعْرَابِي امْرَأَةً، فَقَالَ: خَلَوْتُ بِهَا لَيْلَةً يُرِينِيهَا الْقَمَرُ، فَلَمَّا غَابَ أُرْتِنِيهِ، قُلْتُ لَهُ: فَمَا جَرَى بَيْنَكُمَا؟ فَقَالَ: أَقْرَبُ مَا أَحَلَّ اللَّهُ مِمَّا حَرَّمَ، الْإِشَارَةُ بِغَيْرِ بَاسٍ، وَالتَّقَرُّبُ مِنْ غَيْرِ مَسَاسٍ. وَذَكَرَ أَعْرَابِي امْرَأَةً، فَقَالَ: هِيَ أَحْسَنُ مِنَ السَّمَاءِ، وَأَطْيَبُ مِنَ الْمَاءِ. قَالَ: وَسَمِعْتُ أَعْرَابِيًّا يَقُولُ: مَا أَشَدَّ جَوْلَةَ الرَّأْيِ عِنْدَ الْهَوَى، وَفِطَامَ النَّفْسِ عَنِ الصَّبَا، وَلَقَدْ تَقَطَّعْتُ كَبْدِي لِلْعَاشِقِينَ، لَوْمُ الْعَاذِلِينَ قِرْطَةَ فِي آذَانِهِمْ، وَلَوْعَاتِ الْحُبِّ حَبِيرَاتٍ عَلَى أَبْدَانِهِمْ، مَعَ دُمُوعٍ عَلَى الْمَغَانِي، كَعُرُوبِ السَّوَانِي. وَذَكَرَ أَعْرَابِي امْرَأَةً، فَقَالَ: لَقَدْ نَعِمْتُ عَيْنٌ نَظَرْتُ إِلَيْهَا، وَشَقِي قَلْبٌ تَفَجَّعَ عَلَيْهَا، وَلَقَدْ كُنْتُ أَرْوَرُهَا عِنْدَ أَهْلِهَا، فَيُرْحَبُ بِي طَرْفُهَا، وَيَتَّجَهَمُنِي لِسَأْنِهَا؛ قِيلَ لَهُ: فَمَا بَلَغَ مِنْ حُبِّكَ؟ لَهَا قَالَ: إِنِّي لَذَاكِرٌ لَهَا وَبَيْنِي وَبَيْنَهَا عَدْوَةُ الطَّائِرِ، فَأَجِدُ لَذِكْرَهَا

ريح المسك. وذكر أعرابي نسوة خرجن متزهات، فقال: وجوه كالدنانير، وأعناق كأعناق اليعافير، وأوساط كأوساط الزنابير، أقبلن إلينا مجحول
تخفق، وأوشحة تعلق، فكم من أسير لمن وكم مطلق. قال: وسمعت أعرابياً يقول: أتبعْتُ فلانة إلى طرابُلس الشام، والحريص جاهد، والمضِل ناشد،
ولو خضت إليها النار ما أمتها. قال: وسمعت أعرابياً يقول: الهوى هوان، ولكن غلط باسمه، وإنما يعرف ما أقول من أبكته المنازل والطول. وقال
أعرابي: كنت في شبابي أعرض على الملام عَصَّ الجواد على اللحم، حتى أخذ الشَّيب بعنان شبَّابي. وذكر أعرابي امرأة، فقال، إن لساني بذكرها لذلول،
وإن حبها لقلبي لقتول، وإن قصير الليل بما ليطول. وصف أعرابي نساءً ببلاغة وجمال، فقال: كلامهن أقتل من التبل، وأو وقع بالقلب من الوئل
بالمحل، وفروعهن أحسن من نروع النخل. ونظر أعرابي إلى امرأة حسناء جميلة تسمى ذلفاء، ومعها صبي يبكي، وكلما بكى قبلته، فأنشأ يقول:

تَحْمَلْنِي الذَّلْفَاءُ حَوْلًا اِكْتَعَا

فلا أزال الدهر أبكي أجمعا

يا لَيْتَنِي كُنْتُ صَبِيًّا مُرْضِعًا

إذا بَكَيْتُ قَبْلَتَنِي فِي أَرْبَعَا

وأنشد أبو الحسن علي بن عبد العزيز بمكة لأعرابي :

تَمْشِي الهُوَيْنِي مَائِلًا خِمَارُهَا

يَطِيرُ مِنْ غُلْمَتِهَا إِزَارُهَا

جارية في سَفَوَانِ دَارُهَا

قد أعصرت أو قد دنا إعصارُها

العُتْبِي قال: وصف أعرابي امرأة حسناء، فقال: تَبْسَمُ عَنْ حُمْشِ اللِّثَاتِ، كَأَقْحَى النَّبَاتِ، فَالْسَعِيدُ مَنْ ذاقه، وَالشَّقِيَّ مَنْ أَرَقَه. وقال العُتْبِي: خرجت
ليلةً حين انحدرت النجوم، وشالت أرجلها، فما زلتُ أصدع الليل حتى إنصدع الفجر، فإذا بجارية كأنها علم، فجعلت أغازلها، فقالت: يا هذا، أما
لك ناه من كرم إن لم يكن لك زاجر من عقل؟ قلت: والله ما ترانا إلا الكواكب؛ قالت: فأين موكوبها؟ ذكر أعرابي امرأة، فقال هي السقم الذي لا
برء منه، والبرء الذي لا سقم معه، وهي أقرب من الحشى، وأبعد من السما. قال أعرابي: وقد نظر إلى جارية بالبصرة في مأم:

غَدَتِ بِيْبَاضٍ فِي ثِيَابِ سَوَادِ

فَأَهْلَكَتِ حَيًّا كُنْتُ أَشَامَ عَادِ

وَحُلِّ بَيْنَ عَيْنَيْهَا وَبَيْنَ فَوَادِي

وَبَصْرِيَّةٍ لَمْ تَبْصُرِ الْعَيْنُ مِثْلَهَا

غَدَوْتُ إِلَى الصَّحْرَاءِ تَبْكِينَ هَالِكَا

فِيَا رَبِّ خُذْ لِي رَحْمَةً مِنْ فَوَادِيهَا

وقال في جارية ودَّعها:

كَمَا يَمِيلُ نَسِيمَ الرِّيحِ بِالْغُصَنِ

يَا لَيْتَ مَعْرِفَتِي إِيَّاكَ لَمْ تَكُنْ

لَوْلَاكَ لَمْ تَحْسُنِ الدُّنْيَا وَلَمْ تَطِبْ

نَالَ الْخُلُودَ فَلَمْ يَهْرَمَ وَلَمْ يَشِبْ

فَمَا يَرُدُّ الْبُكَاءَ جَهْلًا عَلَى الدَّمَنِ

يَا حَبِذَا أَنْتِ مِنْ مَعْرُوضَةِ الْفِتَنِ

مَالَتْ تَوَدَّعَنِي وَالدَّمْعُ يَغْلِبُهَا

ثُمَّ اسْتَمَرَّتْ وَقَالَتْ وَهِيَ بَاكِيَةٌ

العُتْبِي قال: أنشد أعرابي:

يَا زَيْنَ مَنْ وَلَدَتْ حَوَاءَ مِنْ وَلدِ

أَنْتِ الَّتِي مَنْ أَرَاهُ اللَّهَ رُؤْيَيْنَهَا

وأنشد الرِّياشي لأعرابي:

مِنْ دَمْنَةٍ خُلِقَتْ عَيْنَاكَ فِي هَتَنِ

مَا كُنْتُ لِلْقَلْبِ إِلَّا فِتْنَةً عَرَضَتْ

تَسْبِيءٌ سَلْمِيٌّ وَأَجْزِيهَا بِهِ حَسَنًا

فَمَنْ سِوَايَ يُجَازِي السُّوءَ بِالْحَسَنِ

قال: وسمعتُ أعرابياً يصفُ امرأة، فقال: بِيضَاءُ جَعْدَةٌ، لَا يَمَسُّ الثُّوبُ مِنْهَا إِلَّا مُشَاشَةً كَتَفِيهَا، وَحَلْمَةٌ تَدْبِيهَا، وَرَضْفَتِي رُكْبَتِيهَا، وَرَانَفَتِي أَلْيَتِيهَا، وَأُنْشِدُ:

أَبَتْ الرِّوَادِفُ وَالثَّدْيِ لِقُمْصِهَا

مَسَّ البُطُونِ وَ أَنْ تَمَسَّ ظُهُورًا

وَإِذَا الرِّيَاحُ مَعَ العَشْيِ تَنَآوَحَتْ

نَبَّهْنَ حَاسِدَةً وَهَجْنَ غَيُورًا

وقال أعرابي: لَيْتَ فَلَانَةَ حَظِّي مِنْ أَمَلِي، وَلِرُبِّ يَوْمِ سِرِّثِهِ إِلَيْهَا حَتَّى قَبِضَ اللَّيْلُ بَصْرِي دُونَهَا، وَإِنْ مِنْ كَلَامِ النِّسَاءِ مَا يَقُومُ مَقَامَ المَاءِ، فَيَشْفِي مِنَ الظَّمَاءِ. وَذَكَرَ أَعْرَابِي امْرَأَةً، فَقَالَ: تَلِكُ نَتْمَسُ بَاهَتْ بِهَا الأَرْضُ نَتْمَسَ سَمَائِهَا. وَليس لي شَفِيعٌ فِي اقْتِضَائِهَا، وَإِنَّ نَفْسِي لَكُنْتُومٌ لِدَائِهَا، وَلَكِنهَا تَفِيضُ عِنْدَ امْتِلَائِهَا. أَخَذَ هَذَا المَعْنَى حَبِيبٌ فَقَالَ:

وَيَا شَمْسَ أَرْضِيهَا الَّتِي تَمَّ نُورُهَا

فَبَاهَتْ بِهَا الأَرْضُونَ شَمْسَ سَمَائِهَا

شَكَوَتْ وَمَا الشُّكْوَى لِمَتَلِّي عَادَةً

وَلَكِنْ نَفِيضُ النَفْسِ عِنْدَ امْتِلَائِهَا

وقيل لأعرابي: مَا بِالْحَبِّ اليَوْمَ عَلَى غَيْرِ مَا كَانَ عَلَيْهِ قَبْلَ اليَوْمِ؟ قَالَ: نَعَمْ، كَانَ الحَبُّ فِي القَلْبِ فَانْتَقَلَ إِلَى المَعْدَةِ، إِنْ أَطْعَمْتَهُ شَيْئًا أَحَبَّهَا، وَإِلَّا فَلَا. كَانَ الرَّجُلُ يُحِبُّ المَرْأَةَ، يُطِيفُ بِدَارِهَا حَوْلًا وَيَفْرَحُ إِنْ رَأَى مَنْ رَأَاهَا، وَإِنْ ظَفَرَ مِنْهَا بِمَجْلَسِ تَشَاكِيَا وَتَنَاشِدِ الأَشْعَارِ، وَإِنَّه اليَوْمَ يُشِيرُ إِلَيْهَا وَتَشِيرُ إِلَيْهِ وَيَعِدُّهَا وَيَعِدُّهُ، فَإِذَا اجْتَمَعَا لَمْ يَشْكُوا حُبًّا، وَلَمْ يُنْشِدَا شِعْرًا، وَلَكِنْ يُرْفَعُ رِجْلِيهَا وَيَطْلُبُ الوَلَدَ. وَقَالَ أَعْرَابِي:

شَكَوْتُ فَقَالَتْ كُلُّ هَذَا تَبْرُمًا

بِحُبِّي أَرَا حَ اللّهِ قَلْبِكَ مِنْ حُبِّي

فَلَمَّا كَتَمْتُ الحَبَّ قَالَتْ لَشَدْمًا

صَبَّرْتُ وَمَا هَذَا بِفِعْلِ شَجِي القَلْبِ

وَأَدْلُو فَتَقْصِينِي فَأَبْعِدْ طَالِبًا

رِضَاهَا فَتَعْتَدِ النَّبَاعِدَ مِنْ ذَنْبِي

فَشُكْوَايَ تُؤْذِيهَا وَصَبْرِي يَسُوءُهَا

وَتَجْزَعُ مِنْ بُعْدِي وَتَنْفِرُ مِنْ قُرْبِي

فِيَا قَوْمَ هَلْ مِنْ حِيَلَةٍ تَعْلَمُونَهَا

أَشِيرُوا بِهَا وَاسْتَوْجِبُوا الشُّكْرَ مِنْ رَبِّي

قولهم في الخيل

الأصمعي قال: سمعتُ أعرابياً يقول: حَرَجَتْ عَلَيْنَا خَيْلٌ مُسْتَطِيرَةٌ النَّقْعِ، كَأَنَّ هَوَادِيَهَا أَعْلَامٌ، وَأَذَانُهَا أَطْرَافُ أَقْلَامٍ، وَفُرْسَانُهَا أُسُودٌ آجَامٌ. أَخَذَ هَذَا المَعْنَى عَدِيٌّ بِنِ الرَّقَاعِ فَقَالَ:

تَخْرُجُنْ فُرُجَاتُ النَّقْعِ دَامِيَةً

كَأَنَّ أَذَانَهَا أَطْرَافُ أَقْلَامٍ

وقال أعرابي: حَرَجْنَا حُفَاةً حِينَ انْتَعَلَ كُلُّ شَيْءٍ بِظَلِّهِ، وَمَا زَادُنَا إِلَّا التَّوَكُّلَ، وَلَا مَطَايَانَا إِلَّا الأَرْجُلَ، حَتَّى لَحِقْنَا القَوْمَ. وَذَكَرَ أَعْرَابِي فَرَسًا وَسُرْعَتَهُ، فَقَالَ: لَمَّا حَرَجَتْ الحَيْلُ أَقْبَلَ شَيْطَانٌ فِي أَشْطَانٍ، فَلَمَّا أُرْسِلَتْ لَمَعَ لَمْعُ البَرَقِ، فَكَانَ أَقْرَبَهَا إِلَيْهِ الَّذِي تَقَعُ عَيْنُهُ عَلَيْهِ. وَقَالَ أَعْرَابِي فِي فَرَسِ الأَعُورِ السُّلْمِيِّ:

مَرَّ كَلْمَعُ البَرَقِ سَامَ نَاطِرِهِ

تَسْبَحُ أَوْلَاهُ وَيَطْفُو آخِرَهُ

فَمَا يَمَسُّ الأَرْضَ مِنْهُ حَافِرُهُ

سئل أعرابي عن سوابق الخيل، فقال: الذي إذا مشى ردى، وإذا عدا دحا، وإذا استقل أقمى، وإذا استدبر جى، وإذا اعترض استوى. وذكر أعرابي خيلاً، فقال: والله ما انحدرت في وادٍ إلا ملأت بطنه، ولا ركبت بطن جبل إلا أسهلت حزنه. وقال أعرابي: خرجت على فرس يختال احتيال ابن العشرين، نسوف للحزام، موارش للحام، فما متع النهار حتى أمتعنا برف ورفاهة.

قولهم في الغيث

الأصمعي قال: قلت لأعرابي: أي الناس أوصف للغيث؟ قال: الذي يقول - يعني امرأ القيس -:

طَبَقَ الْأَرْضَ تَحْرَى وَتَدْرٍ

دِيمَةٌ هَطْلَاءٌ فِيهَا وَطْفٌ

قلت: فبعده مات؛ قال الذي يقول - يعني عبيد بن الأبرص -:

فِي عَارِضٍ مُكْفَهَرٍ الْمُزْنِ دَلَّاحٍ

يَا مَنْ لِيرِقِ أَيْتِ اللَّيْلِ أَرْقِبُهُ

يَكَادُ يَدْفَعُهُ مَنْ قَامَ الرَّاحِ

دَانَ مُسِفٍ فَوَيْقِ الْأَرْضِ هَيْدَبُهُ

ودخل أعرابي على سليمان بن عبد الملك، فقال له: أصابتك سماء في وجهك يا أعرابي؛ قال: نعم يا أمير المؤمنين، غير أنها سحاء طخياء وطفاء، كأن هوداياها الدلاء، مرجحة النواحي، موصولة بالآكام، تمس هام الرجال، كثير زجلها، قاصف رعداها، خاطف برقها، حثيث ودقها، بطيء سيرها، متفجر قطرها، مظلم نوؤها، قد ألجأت الوحش إلى أوطانها، تبتح عن أصولها بأظلافها، متجمعة بعد شتاتها، فلولا اعتصامنا يا أمير المؤمنين بعضاه الشجر، وتعلقنا بقنن الجبال، لكتنا جفء في بعض الأودية ولقم الطريق، فأطال الله لأمة بقاءك، ونسألها في أجلك، فهذا، ببركتك، وعادة الله بك على رعيتك، وصلى الله على سيدنا محمد. فقال سليمان: لعمرك أيبك، لئن كانت بديهة لقد أحسنت، وإن كانت محبرة لقد أجدت؛ قال: بل محبرة مزورة يا أمير المؤمنين؟ قال: يا غلام، أعطه، فوالله لصدقه أعجب إلينا من وصفه.

قيل لأعرابي: أي الألوان أحسن؟ قال: قصور بيض في حدائق خضر.

وقيل لآخر: أي الألوان أحسن؟ قال: بيضة في روضة عن غب سارية والشمس مكبدة. وقال أعرابي: لقد رأيت بالبصرة برودا كأنها صبغت بأنوار الربيع، فهي تروع، واللبس لها أروع.

العتي قال: سمعت أعرابياً يقول: مررت ببلدة ألقى بها الصيف بعاعه، فأظهر غديراً يقصر الطرف عن أرحائه، وقد نمت الريح القدى عن مائه، فكأنه سلاسل درع ذات فضول. وأنشد أبو عثمان الجاحظ لأعرابي:

أَيْنَ أَهْلِ الْقَبَابِ وَالِدَهْنَاءِ

أَيْنَ إِخْوَانُنَا عَلَى السَّرَاءِ

رَ الْأَقَاحِي يُجَادُ بِالْأَنْوَاءِ

جَاوَرْنَا وَالْأَرْضُ مُلْبَسَةٌ نَوَ

تَضْحَكُ الْأَرْضُ مِنْ بُكَاءِ السَّمَاءِ

كُلُّ يَوْمٍ بِأَقْحَوَانٍ جَدِيدٍ

قال ابن عمران المخرومي: أتيت مع أبي والبا على المدينة من قریش وعنده أعرابي يقال له ابن مطير، وإذا مطر حود، فقال له الوالي: صفه؟ فقال: دعني أشرف وأنظر. فأشرف ونظر، ثم نزل فقال:

فَإِذَا تُحَلَّبَ فَاصَّتِ الْأَطْبَاءُ

كَثُرَتْ لِكثْرَةِ وَدَقِهِ أَطْبَاؤُهُ

قَبْلَ التَّنَعُّقِ دِيمَةٌ وَطَفَاءُ

وَلَهُ رَبَابٌ هَيْدَبٌ لِرَقِيقِهِ

رِيحٌ عَلَيْهِ وَعَرْفَجٌ وَالْأَاءُ

وَكَأَنَّ بَارِقَهُ حَرِيقٌ تَلْتَقِي

دُونَ السَّمَاءِ عَجَاجَةً طَخِيَاءَ
بِمَدَامَعٍ لَمْ تَمُرْهَا الْأَقْدَاءُ
ضَحِكُ يُولَفٍ بَيْنَهُ وَبُكَاءُ
وَجُنُوبِهِ كَفٌّ لَهُ وَرَهَاءُ
وَتَبَعَجَتْ عَنْ مَائِهِ الْأَحْشَاءُ
تِلْكَ السُّيُولُ وَمَالِهَا أَشْلَاءُ
حَمَلُ اللَّقَاحِ وَكُلُّهَا عَذْرَاءُ

وَكَأَنَّ رَيْقَهُ وَلَمَّا يَحْتَقِلُ
مُسْتَضْحِكِ بِلِوَامِعٍ مُسْتَعْبِرِ
فَلَهُ بِلَا حَزَنٍ وَلَا بِمَسْرَةٍ
حَيْرَانَ مُتَّبِعِ صَبَاهُ تَقْوَدُهُ
تَقَلَّتْ كُلَّاهُ فَبَهَّرَتْ أَصْلَابَهُ
غَدَقَ تَبَعَجٍ بِالْأَبَاطِحِ مُزَقَّتِ
عُرٌّ مَحْجَلَةٌ دِوَالِحُ ضَمُنَتْ

سُودٌ وَهِنَّ إِذَا ضَحِكْنَ وَضَاءُ
لَمْ يَبْقَ فِي لَجَجِ السَّوَاخِلِ مَاءُ

سُحْمٌ فَهِنَّ إِذَا عَبَسْنَ فِوَاخِمِ
لَوْ كَانَ مِنْ لَجَجِ السَّوَاخِلِ مَاءُ

قال هشام بن عبد الملك لأعرابي: أخرج فانظر كيف ترى السحاب، فخرَجَ فَنظَرَ، ثم انصرف فقال: سَفَانِنِ وَإِنْ اجْتَمَعْنَ بَعْعِنِ.

قولهم في البلاغة والإيجاز

قيل لأعرابي: مَنْ أَبْلَغُ النَّاسِ؟ قال: أَحْسَنُهُمْ لَفْظًا وَأَسْرَعُهُمْ بَدِيهَةً.

الأصمعي قال: خَطَبَ رَجُلٌ فِي نِكَاحٍ فَأَكْثَرَ وَطَوَّلَ؛ فَقِيلَ مَنْ يُجِيبُهُ؟ فقال أعرابي: أَنَا، قِيلَ لَهُ: أَنْتَ وَذَلِكَ؟ فَالْتَفَتَ إِلَى الْخَاطِبِ، فَقَالَ: إِنِّي وَاللَّهِ مَا أَنَا مِنْ تَخْطِيطِكَ وَتَمْطِيطِكَ فِي شَيْءٍ، قَدِمْتَتْ بَجْرُمَةٍ، وَذَكَرْتَ حَقًّا، وَعَظَّمْتَ مَرْجُوًّا، فَحَبَّلْتَ مَوْصُولًا، وَفَرَضْتَ مَقْبُولًا، وَأَنْتَ لَهَا كُفٌّ كَرِيمٌ، وَقَدْ أَنْكَحْنَاكَ وَسَلَّمْنَا. وَتَكَلَّمَ رَبِيعَةُ الرَّأْيِ يَوْمًا فَأَكْثَرَ، فَكَأَنَّ الْعُجْبَ دَاخِلَهُ وَأَعْرَابِيٌّ إِلَى جَنْبِهِ، فَأَقْبَلَ عَلَى الْأَعْرَابِيِّ، فَقَالَ مَا تُعَدُّونَ الْبَلَاغَةَ يَا أَعْرَابِيٌّ؟ قال: قَلَّةُ الْكَلَامِ وَإِيجَازُ الصَّوَابِ، قَالَ فَمَا تُعَدُّونَ الْعِيَّ؟ قال: مَا كُنْتُ فِيهِ مِنْذُ الْيَوْمِ فَكَأَنَّمَا أَلْقَمَهُ حَجْرًا. شَيْبِ بْنِ شَيْبَةَ قَالَ: لَقِيتُ أَعْرَابِيًّا فِي طَرِيقِ مَكَّةَ، فَقَالَ لِي: تَكْتَبُ؟ قُلْتُ: نَعَمْ، قَالَ: وَمَعَكَ دَوَاةٌ؟ قُلْتُ: نَعَمْ. فَأَخْرَجَ قِطْعَةَ جِرَابٍ مِنْ كُمِّهِ، ثُمَّ قَالَ: اكْتُبْ وَلَا تَرُدَّ حَرْفًا لَا تَنْقُصُ: هَذَا كِتَابُ كَتَبَهُ عَبْدُ اللَّهِ بْنُ عُقَيْلِ الطَّائِي، لِأَمْتِهِ لَوْلَاؤَةُ: إِنِّي أَعْتَقْتُكَ لَوْجَهُ اللَّهُ وَاقْتَحَمَ الْعَقَبَةَ، فَلَا سَبِيلَ لِي وَلَا لِأَحَدٍ عَلَيْكَ إِلَّا سَبِيلُ الْوَلَاءِ وَالْمِنَّةِ عَلَيَّ وَعَلَيْكَ مِنَ اللَّهِ وَحَدِّهِ، وَنَحْنُ فِي الْحَقِّ سَوَاءٌ، ثُمَّ قَالَ: اكْتُبْ شَهَادَتَكَ. رُوِيَ أَنَّ أَعْرَابِيًّا حَضَرَ مَجْلِسَ ابْنِ عَبَّاسٍ فَسَمِعَ عِنْدَهُ قَارِئًا يَقْرَأُ: "وَكُنْتُمْ عَلَيَّ شَفَا حُفْرَةٍ مِنَ النَّارِ فَأَنْقَذَكُمْ مِنْهَا". فَقَالَ الْأَعْرَابِيُّ: وَاللَّهِ مَا أَنْقَذَكُمْ مِنْهَا وَهُوَ يَرِجِعُكُمْ إِلَيْهَا. فَقَالَ ابْنُ عَبَّاسٍ: خُذُوهَا مِنْ غَيْرِ فَقِيهِ.

قولهم في حسن التوقيع وحسن التشبيه

قيل لأعرابي: مَالِكٌ لَا تُطِيلُ الْمَهْجَاءَ؟ قال: يَكْفِيكَ مِنَ الْقِلَادَةِ مَا أَحَاطَ بِالْعُنُقِ. وقيل لأعرابي: كَمْ بَيْنَ بَلَدٍ كَذَا وَبَلَدٍ، كَذَا؟ قال: عُمُرُ لَيْلَةٍ وَأَدِيمُ يَوْمٍ. وقال آخر: سَوَادٌ لَيْلَةٍ وَبِياضٌ يَوْمٍ. وقيل لأعرابي: كَيْفَ كِنَمَانِكَ لِلسَّرِّ؟ قال: مَا صَدَّرِي لَهُ، إِلَّا قَبْرٌ. قال مُعَاوِيَةُ لِأَعْرَابِيَّةٍ: هَلْ مِنْ قِرْيٍ؟ قالت: نَعَمْ؟ قال: وَمَا هُوَ؟ قالت: حُبٌّ خَمِيرٍ، وَلَبَنٌ فَطِيرٍ، وَمَاءٌ نَمِيرٍ. وقيل لأعرابي: فِيهِمْ كِنْتُمْ؟ قال: كُنَّا بَيْنَ قِدْرٍ تَفُورٍ، وَكَأْسٍ تَدُورٍ، وَحَدِيثٍ لَا يَحُورُ. وقيل لأعرابي: مَا أَعْدَدْتَ لِلْبُرْدِ؟ قال: شِدَّةُ الرَّعْدَةِ، وَفُرْفُصَاءُ الْقَعْدَةِ، وَذَرْبُ الْمِعْدَةِ. وقيل لإعرابي: مَالِكٌ مِنَ الْوَالِدِ؟ قال: قَلِيلٌ حَبِيثٌ، قِيلَ لَهُ: مَا مَعْنَاهُ؟ قال: إِنَّهُ لَا أَقْلَ مِنْ وَاحِدٍ، وَلَا أَحْبَثَ مِنْ أَنْثَى. وقال: أَضَلَّ أَعْرَابِيٌّ الطَّرِيقَ لَيْلًا، فَلَمَّا طَلَعَ الْقَمَرُ اهْتَدَى، فَرَفَعَ رَأْسَهُ إِلَيْهِ مُتَشَكِّرًا، فَقَالَ: مَا أَدْرَى مَا أَقُولُ لَكَ وَمَا أَقُولُ فِيكَ؟ أَقُولُ: رَفَعَكَ اللَّهُ، فَقَدْ رَفَعَكَ، أَمْ أَقُولُ: نَوَّرَكَ اللَّهُ، فَقَدْ نَوَّرَكَ، أَمْ أَقُولُ: حَسَّنَكَ اللَّهُ، فَقَدْ حَسَّنَكَ، أَمْ أَقُولُ: عَمَرَكَ اللَّهُ،

فقد عمرك، ولكنني أقول: جعلني الله فداك. وقيل لأعرابي: ما تقول في ابن العم؟ قال: عدوك وعدوك. وقيل لأعرابي، وقد أدخل ناقته في السوق لبيعها: صِفْ لنا ناقتك؛ قال: ما طلبتُ عليها قطَّ إلا أدركت، وما طلبتُ إلا فُت؛ قيل له: فلمَ تبيعها؟ قال: لقول الشاعر:

وقد تخرج الحاجات يا أمَّ عامر
كرائم من ربِّ بهنِّ ضنين

وقيل لأعرابي: كيف ابنك؟ - وكان له عاقاً - قال: عذابٌ لا يُقاومه الصَّبْر، وفائدة لا يجب في الشُّكر، فليتنى قد استودعته القبر. قيل لشريح القاضي: هل كلمك أحد قطَّ فلم تُطِقْ له جواباً؟ قال: ما أعلمه، إلا أن يكون أعرابياً خاصم عندي، وجعل يُشير بيديه، فقلتُ له: أمسك فإن لسانك أطول من يدك؛ قال:

أسامري أنت لا تمس

وقيل لأعرابي: ما عندكم في البادية طيب؟ قال: حُمْر الوَحْش لا تحتاج إلى بيطار. وقال أعرابي يصف خاتماً: سيفٌ تَدْوِير حَلَقَتِهِ، ودُورٌ كُرْسِي قِصَّتِهِ، وأحْكَمُ تَرْكِيهِ، وأثَقِنَ تَدْبِيرُهُ، فبه يتمُّ الملِك، ويُنفذُ الأمر، ويكرُمُ الكتاب، ويشرفُ المَكْتُوب إليه. وقال آخرٌ يصف خاتماً:

وأبيضَ أماً جسْمَهُ فمَنورٌ
ولم يُكتَسَبِ إلا لتسكن وسنطه
لها أخواتٌ أربعٌ هُنَّ مثلها
نقيٍّ وأما رأسه فمَعَارُ
بزيعة رأس ما عليه خمار
ولكنها الصغرى وهنَّ كبار

قولهم في المناكح

يجي بن عبد العزيز عن محمد بن الحَكَم عن الشافعي قال: تزوّج رجلٌ من الأعراب امرأةً جديدةً على امرأةٍ قديمة، وكانت جاريةً الجديدة تمر على باب القديمة فتقول:

وما تستوي الرجلان رجلٌ صحيحة
ورجلٌ رمى فيها الزمان فشتت

ثم مرّت بعد أيام فقالت:

وما يستوي الثوبان ثوبٌ به البلى
وثوبٌ بأيدي البائعين جدي

فخرجت إليها جاريةً القديمة فقالت:

نقلٌ فؤادك حيثُ شئت من الهوى
كم منزلٌ في الأرض يألفه الفتى
وحنيه أبدأ لأوّل منزل

الأصمعي قال: أخبرني أعرابي قال: خطبَ منا رجلٌ مَعْموز امرأةً مَعْموزةً فزوجوه، فقال رجلٌ لوليّ المرأة: تَعَمّمْ لكم فلان فزوجتموه؛ فقال: ما تَعَمّمْ لنا حتى تَبْرُقنا له.

أبو حاتم عن الأصمعي قال: قالت أعرابيةٌ لبنات عمّها لها: السعيدة منكن يتزوجها ابن عمّها، فيمهرها بتيسين وكليبين وعيرين ورحيين، فينبّ التيسان، وينهق العيران، وينبح الكلبان، وتدور الرحيان، فيعجّ الوادي، والشقية منكن من يتزوجها الحصري، فيكسوها الحرير، ويطعمها الخمير، ويحملها ليلة الزفاف على عود، تعنى سرجاً. الأصمعي قال: سمعت أعرابياً يُشَارُّ امرأته، فقالت لها أخته: أما والله أيام شرّحه، إذ كان ينكتك كما ينكت العظم عن محّه، لقد كنت له ثبوعاً، ومنه سموعاً، فلما لان منه ما كان شديداً، وأخلق منه ما كان جديداً، تعيّرت له، وائمُ الله، لئن كان تغيّر منه البعض لقد

تغيّر منك الكَل. وقيل لأعرابي: كيف حُبِّكَ لزَوْجَتِكَ؟ قال: ربما كنتُ معها على الفراش، فمدتُ يدها إلى صدري، فودّدتُ والله أن أجرّة خرت من السّقف فعدت يدها وضلعين من أضلاع صدري، ثم أنشأ يقول:

ولكنّ قرينُ السوء باقٍ معمرٌ
وعذبها فيه نكيرٌ ومُنكرٌ

لقد كنتُ محتاجاً إلى موت زوّجتي
فيا ليتها صارت إلى القبر عاجلاً

وتزوج أعرابي امرأة، فطالت صُحبتُها له فتغيّر لها، وقد طعنت في السنّ، فقالت له: ألم تكن تُرضى إذا غَضبت، وتُعنب إذا عتبت، وتَشقى إذا أبيت، فما بالكَ لأن؟ قال: ذهب الذي كان يُصلح بيننا. الأصمعي قال: كنتُ أختلف إلى أعرابي أقتبس منه العَرِيب، فكنت إذا استأذنتُ عليه يقول: يا أمانة، ائذني له، فتقول: ادخل. فاستأذنتُ له مراراً فلم أسمعُه يذكر أمانة، فقلت له: يرحمك الله، ما أسمعك تُذكر أمانة منذُ حين؟ قال: فوجمَ وجمّة، ندمتُ معها على ما كان مني، ثم قال:

ونجوت من غلّ الوثاقِ

قلبي ولم تدمع مآقي

يه النفسُ تعجيل الفراقِ

ن اثنتين من غير اتفاقِ

لأرحت نفسي بالإباقِ

ظننت أمانة بالطلاقِ

بانّت فلم يَألم لها

ودواء ما لا تشته

والعيش ليس يطيب بي

لو لم أرح بفراقها

الأصمعي قال: تزوّج أعرابيُّ امرأة فآذته وأفتدى منها بحمار وجبة، فقدم عليه ابن عمّ له من البادية، فسأله عنها، فقال:

فأدخلها من شقوتي في حباليبا

خطبتُ إلى الشيطان للحين بنته

جزى الله خيراً جبتي وحماريا

فأنقذني منها حماري وجبتي

الأصمعي قال: خاصم أعرابيُّ امرأته إلى زياد، فشدد على الإعرابي، فقال: أصلح الله الأمير، إنّ خيرَ عُمر الرجل آخره، يذهب جهله ويثوب حلمه، ويحتمع رأيه؛ وإن شرَّ عُمر المرأة آخره، يسوء خلقها، ويحتد لسانها، وتعم رحمتها. قال له؛ صدقت، اسفَع يدها. قال: وذكرت أعرابية زوجها، وكان شيخاً، فقالت: ذهب ذفره وبقي بخره، وفتر ذكره. الأصمعي قال: كان أعرابي قبيح طويل خطب امرأة، فقيل له: أيّ ضرب تريد؟ قالت أريدها قصيرة جميلة، فيأتي ولدُها في جمالها وطولها، فتزوجها على تلك الصفة، فجاء ولدُها في قصرها وقبحه. قدم أعرابي من طيء، فاحتلب لبناً ثم قعد مع زوجته يتنجعان، فقالت له: من أنعم عيشاً نحن أم بنو مروان؟ فقال لها: بنو مروان أطيبُ منا طعاماً، إلا أنا أردأُ منهم كسوة، وهم أظهر منّا نهاراً، إلا أنّا أظهر منهم ليلاً. الأصمعي قال: خاصم أعرابيُّ امرأته إلى السلطان، فقيل له: ما صنعت؟ قال خيراً، أكبها الله لوجهها، ولو أمر بي إلى السجن. الأصمعي قال: استشارت أعرابية في رجل تتزوجه، فقيل لها: لا تفعلي فإنه وكلةٌ تُكَلِّه، يأكل خَلِّه، أي يأكل ما يخرج من بين أسنانه إذا تخلّل. قال أبو حاتم: هو الخلالة، ووكلةٌ تُكَلِّه، إذا كان يكل أمره إلى الناس ويتكل عليهم. العُتبي قال: خطب إلى أعرابي رجلٌ مؤسرٌ إحدى ابنتيه، وكان للخاطب امرأة، فقالت الكبرى: لا أريده. قال أبوها: ولم؟ قالت: يومٌ عتاب، ويومٌ اكتتاب، يبلى فيما بين ذلك الشباب. قالت الصغرى زوّجني؛ قال لها: على ما سمعت من أحتك؟ قالت: نعم، يومٌ تزئين، ويومٌ تسمن، وقد تفرّ فيما بين ذلك الأعين. الأصمعي قال: رأيت امرأة تُرقصُ طفلاً لها، وتقول:

قد كان ذاق الفقر ثم ناله

أحبه حُبّ الشحيح ماله

إذا أراد بدله بدأ له

الأصمعي قال: هلك أعرابي، فأذمنت امرأته البكاء عليه، فقال لها بعض بنيها

أَتَفْقِدِينَ نَفْعَهُ وَخَيْرَهُ

أَتَفْقِدِينَ مِنْ أَبِينَا غَيْرَهُ

أَرَأَيْكَ مَا تَبْكِينَ إِلَّا أَيْرَهُ

قال: فأمسكت عن البكاء. جلس أعرابي إلى أعرابية، فعلمت أنه ما جلس إلا لينظر إلى محاسنها، فأنشأت تقول:

بِعَيْنِكَ عَيْنَيْهَا وَأَيْرُكَ خَائِبُ

وَمَا نَلْتَمَسُ مِنْهَا غَيْرَ أَنْكَ نَائِكُ

الرياشي قال: أنشدني العُبي لأعرابي:

مُرْجَلُ الرَّأْسِ ذُو بُرْدَيْنِ مَزَاخُ

مَاذَا تَنْظُنُّ بِسَلْمِي إِنْ أَلَمَ بِهَا

فِي كَفِّهِ مِنْ رُقَى إِبْلِيسِ مِفْتَاحُ

حُلُو فَكَاهَتُهُ خَزْرَ عِمَامَتِهِ

أبو حاتم عن الأصمعي قال: خطب أعرابي امرأة، فقالت له: سل عني بني فلان وبني فلان؛ قال لها: وما علمهم بذلك؟ قالت: في كلهم نُكْحَتْ؟ قال: أراك جَلَنَفَعَةً قَدْ خَزَمْتِكِ الْخِزَامُ؛ قالت: لا، ولكن جِوَالَةَ بِالرَّحْلِ عَنْتَرِيْس. تزوج رجل من الأعراب امرأة منهم عجوزاً ذات مال، فكان يصير عليها لملها، ثم ملها وتركها، فكتبت إليه تسترده، فكتب إليها يقول:

غَيْرُ طَعْنِ الْكَلَا وَضَرْبِ الرَّقَابِ

لَيْسَ بَيْنِي وَبَيْنَ قَيْسٍ عِتَابُ

فكتبت إليه: إنه والله ما يريد قيس غير طعن الكلا.

المفضل الضبي قال: خطب أعرابي امرأة، فجعل يخطبها ويُعِظُ، فضرَبَ ذَكَرَهُ بِيَدِهِ، وقال: مه، إليك يُسَاقُ الْحَدِيثُ، فأرسلها مثلاً. علي بن عبد العزيز قال: كان أبو البيداء عنيماً، وكان يتجلد ويقول لقومه: زوجوني امرأتين، فيقال له: إن في واحدة كفاية؛ فيقول: أما لي فلا؛ فقالوا نُزَوِّجُكَ واحدة فإن كَفَتَكَ وَإِلَّا زَوَّجْنَاكَ أُخْرَى، فزوجوه إعرابية، فدما دخل بها أقام معها أسبوعاً، فلما كان في اليوم السابع أتوه، فقالوا له: يا أبا البيداء، ما كان أمرُكَ في اليوم الأول؟ قال: عظيم جداً، قالوا: ففي الثاني؟ قال: أجل وأعظم؟ قالوا: ففي الثالث؟ قال: لا تسألوا. فأجابت المرأة من وراء الستر، فقالت:

حَتَّى إِذَا أُدْخِلَ فِي الْبَيْتِ أَبَقُ

كَانَ أَبُو الْبَيْدَاءِ يَنْزُو فِي الْوَهْقِ

مَارَسَهُ حَتَّى إِذَا أَرْفَضَ الْعَرَقُ

فِيهِ غَزَالَ حَسَنَ الدَّلِّ خَرِقِ

انْكَسَرَ الْمِفْتَاحُ وَأَنْسَدَ الْعَلَقُ

كانت لأعرابي امرأة لا ترد يد لأمس، فقيل له: مالك لا تُفارقها؟ قال: إنها حسناء فلا تُفرك، وأم بين فلا تترك. قال شيخ من الإعراب:

تُرَاوِدُنِي عَلَى مَا لَا يَجُوزُ

أَنَا شَيْخٌ وَلِي امْرَأَةٌ عَجُوزُ

وَذَلِكَ عِنْدَ امْتِثَالِي عَزِيزُ

تُرِيدُ أَنْيَكُهَا فِي كُلِّ يَوْمِ

فَقُلْتُ لَهَا بَلِ اتَّسَعَ الْقَفِيزُ

وَقَالَتْ رَقَى إَيْرُكَ مَدْ كَبِرْنَا

الأصمعي قال: قال أعرابي في امرأة تزوجها، وقد تزوجت قبله خمسة، وتزوج هو قبلها أربعاً، فلاحته يوماً، فقال فيها:

أَوْ مَارَسَ الْغُولَ الَّتِي أَمَارِسُ

لَوْ لَابَسَ الشَّيْطَانَ مَا أَلَابَسُ

وَزَوَّجَهَا أَرْبَعَةَ عَمَارِسُ

لَأَصْبَحَ الشَّيْطَانُ وَهُوَ عَابِسُ

وَسَاقِنِي الْحَيْنُ فَهَا أَنَا السَّادِسُ

فَانْفَلَتُوا مِنْهَا وَمَاتَ الْخَامِسُ

وقال فيها:

وتَعَنَّدُنِي إِنْ لَمْ يَقِ اللَّهُ سَادِيَا
وَأَعْتَدْتُهَا مُذْ جِئْتُهَا فِي رَجَائِيَا
يِرَاهَا وَيَقْضِي اللَّهُ مَا كَانَ قَاضِيَا

بُؤْيَزِلْ أَعْوَامِ أَدَاعَتْ بِخَمْسَةِ
وَمِنْ قَبْلِهَا غَيْبَتْ فِي التُّرْبِ أَرْبَعًا
كِلَانَا مُطَلِّ مُشْرِفٍ لَغْنِيمَةِ

وقال أعرابي:

مُفَرِّقَمِينَ وَعَجُوزًا شَمَلَقَا

أَشْكُو إِلَى اللَّهِ عِيَالًا دَرْدَقَا

الدَّرْدَقُ: الصَّغَارُ. والمُفَرِّقَمُ: البَطِيءُ الشَّبَابُ. والشَّمَلَقُ: السيئة الخلق.

قولهم في الإعراب الأصمعي قال: قلت لأعرابي، أتهمز إسرائيل؟ قال: إني إذا لرجل سوء؛ قلت له: أفتجر فلسطين؟ قال: إني إذا لقوي. وسمع أعرابي إماماً يقرأ: وَلَا تَنْكِحُوا الْمُشْرِكِينَ حَتَّى يُؤْمِنُوا. قال: ولا إن آمنوا أيضاً لن نكحهم؛ فقيل له: إنه يلحن وليس هكذا يقرأ؛ فقال: أحرّوه فبّحه الله لا تجعلوه إماماً، فإنه يحل ما حرّم الله. وسمع أعرابي أبا المكنون التحوّبي، وهو يقول في دعائه يستسقي: اللهم ربنا وإلهنا وسيدنا ومولانا، فصل على محمد نبينا، ومن أراد بنا سوءاً فأحط ذلك السوء به كإحاطة القلائد بأعناق الولايد، ثم أرسخه على هامته كرسوخ السجيل على هام أصحاب الفيل، اللهم اسقنا غيثاً مريئاً، مريعاً مجلجلاً مسخّناً هزجاً سحاً سفوحاً طباقاً غدقاً متعنجراً صخباً نافعاً لعامتنا وغير ضارٍ بخاصتنا. فقال الأعرابي: يا خليفة نوح، هذا، الطوفان ورب الكعبة، دعني حتى أوى إلى جبل يعصمي من الماء. الأصمعي قال: أصابت الأرض مجاعة، فلقيت رجلاً منهم خارجاً من الصحراء كأنه جذع مُحترق، فقلت له: أتقرأ مني كتاب الله شيئاً؟ قال: لا؛ قلت: فأعلمك؟ قال: ما شئت؛ قلت: اقرأ: "قل يا أيها الكافرون" قال: كل يا أيها الكافرون؛ قلت: "قل يا أيها الكافرون" كما أقول لك؛ قال: ما أجد لساني يتطلق بذلك. قال: ورأيت أعرابياً معه بئى له صغير مُسبك بقم قربة، وقد خاف أن تغلبه القربة، فصاح: يا أبت، أدرك فاها غلبي فوها لا طاقة لي بفيها.

قولهم في الدين

قال أعرابي: الدّين ذلٌّ بالنهار، وهمّ بالليل. وقال أعرابي في غرّاء له يطلبونه بدّين:

جاءوا إليّ غضاباً يلغظون معاً
وما أوعدهم إلا لأدراهم
وما جلبت إليهم غير راحلة
فقلت موعدكم ابن هبار
عني فيخرجني نقضي وإمراري
تخذي برحلي وسيف جفنه عاري
إن القضاء سيأتي دونه زمن
فاطو الصحيفة واحفظها من النار

الأصمعي قال: كان لرجل من يخصّب على رجل من باهلة دين، فلما حلّ دينه هرب الأعرابي، وأنشأ يقول:

ذا حلّ دين اليحصبي فقل له
سيصبح فوقني أقمّ الريش واقعاً
ترودّ بزادٍ واستعنّ بدليل
بقالي قلأ أو من وراء دبيل

الأصمعي قال: فأحبرني رجل أنه رآه مقنولاً بقالي قلا وعليه نسر أقمم الريش. الأصمعي قال: اختصم أعرابيان إلى بعض الولاة في دين لأحدهما على صاحبه، فجعل المدعى عليه يحلف بالطلاق والعتاق، فقال له المدعى: دعني من هذه الأيمان، واخلف بما أقول لك: لا ترك الله لك خفّاً يتبع خفّاً، ولا ظلماً يتبع ظلماً، وحتك من أهلك حتّ الورق من الشجر، إن لم يكن لي هذا الحق قبلك. فأعطاه حقه ولم يحلف له. الهيثم بن عدي قال: يمين لا يحلف بها أعرابي أبداً؛ لا أورد الله لك صادرة، ولا أصدر لك واردة، ولا حطّطت رحلك، ولا خلعت نعلك.

قولهم في النوادر والملح

الشيبياني قال: خرَج أبو العباس أمير المؤمنين مُتَنَزِّهاً بالأبواب فأمعن في نُزُهته وانتبذ من أصحابه، فوافى حِباءَ لأعرابيٍّ، فقال له الأعرابي: مَن الرَّجُل؟ قال: من كِنانة، قال: من أيِّ كِنانة؟ قال: من أبغض كِنانة إلى كِنانة، قال: فأنتَ إذاً من قُريش؟ قال: نعم؛ قال: فمن أي قُريش؟ قال: من أبغض قُريش إلى قُريش؟ قال: فأنتَ إذاً من ولد عبد المطلب؟ قال: نعم؛ قال: فمن أي ولد عبد المطلب؟ قال: من أبغض ولد عبد المطلب إلى عبد المطلب؟ قال: فأنتَ إذاً أمير المؤمنين، ووُثِبَ إليه، فاستحسن ما رأى منه، وأمر له بجائزة. الشَّيباني قال: خرج الحجاج مُتَّصِداً بالمدينة فوقف على أعرابيٍّ يرمي إبلًا له، فقال له: يا أعرابي، كيف رأيتَ سيرةَ أميركم الحجاج؟ قال له الأعرابي: غَشوم ظُلوم لا حيَّاه الله، فقال: فلم لا شكَّوتوه إلى أمير المؤمنين عبد الملك؟ قال: فأظلم وأغشم. فبينما هو كذلك إذ أحاطت به الخيل، فأومأ الحجاج إلى الأعرابي، فأخذ وحُمِلَ، فلما صار معهم، قال: مَن هذا؟ قالوا له: الحجاج، فحرَّك دابته حتى صار بالقرب منه، ثم ناداه: يا حجاج، ما تشاء يا أعرابي؟ قال: السرُّ الذي بيني وبينك أحبُّ أن يكون مكتوماً؛ قال: فضحك الحجاج، وأمر بتخلية سبيله: الأصمعي قال: ولَّى يوسف بن عُمر صاحبُ العراق أعرابياً على عمل له، فأصاب عليه خيانةً فعزَّله، فلما قدَّم عليه قال له: يا عدوَّ الله، أكلتَ مال الله، قال الأعرابي: فمالَ مَنْ أَكُلُ إذا لم أكل مال الله؟ لقد راودتُ إبليس أن يُعطيني فلساً واحداً فما فعل. فضحك منه وحلَّى سبيله. الشَّيباني قال: نزل عبدُ الله بن جعفر إلى خيمة أعرابيةٍ ولها دجاجة وقد دَحَنَت عندها، فدَبَّحتها وجاءها بها إليه، فقالت: يا أبا جعفر، هذه دجاجة لي كنت أدجنها وأغلِّفها من قوتي، وألْسها في آناء الليل، فكأنما أَلَسَ بنتي زَلَّت عن كِبدي، فنذرتُ لله أن أدفنها في أكرم بقعة تكون، فلم أجد تلك البقعة المباركة إلا بطنك، فأردت أن أدفنها فيه. فضحك عبدُ الله بن جعفر وأمر لها بخمسمائة درهم.

ونظر أعرابيٌّ إلى قومٍ يلتمسون هلالَ شهر رمضان، فقال: والله لئن أريتموه لئَمْسِكُنَّ منه بذياب عيش أغبر. الأصمعي قال: رأيتُ أعرابياً واقفاً على رَكِيَّةٍ ملحة، فقلت: كيف هذا الماء يا أعرابي؟ قال: يُخْطِيءُ القلبَ ويُصيب الأست. ونظر أعرابيٌّ إلى رجل سَمِين، فقال: أرى عليك قطيفةً من نَسجِ أضراسك. قال: وسمعت أعرابياً يقول: اللهم إني أسألك مِيتةً كَمِيتةِ أبي خارجة أكلَ بَدَجاً وشَرِبَ مُعَسَّلاً، ونام في الشمس، فمات دَفِيناً شَبَعانَ رِيانَ محمد بن وَضَّاح يرفعه إلى أبي هُريرة رضي الله عنه. قال: دخل أعرابيُّ المسجد والنبي جالسٌ، فقام يُصَلِّي، فلما فرغ قال: اللهم ارحمني ومحمداً ولا تُرَحِّمَ معنا أحداً، فقال النبي عليه الصلاة والسلام: لقد حجرتُ واسعاً يا أعرابي. قال: وسمعت أعرابياً وهو يقول في الطواف: اللهم اغفر لأمي؛ فقلتُ له: مالك لا تُذكرُ أباك؟ فقال أبي رجلٌ يَحْتالُ لنفسه، وأما أمي فبائسةٌ ضعيفةٌ.

أبو حاتم عن أبي زيد قال: رأيتُ أعرابياً كأنَّ أنفه كُوزٌ من عِظمه، فرآنا نضحك منه، فقال: ما يُضحِكُكم؟ فوالله لقد كنتُ في قوم ما كنتُ فيهم إلا أظس. قال: وحيء بأعرابيٍّ إلى السلطان ومعه كتاب قد كَتَبَ فيه قصته، وهو يقول: هاؤم اقرؤا كتابيه. فقيل له: يُقال هذا يومَ القيامة؛ قال: هذا والله شر من يوم القيامة، إنَّ يومَ القيامةِ يُؤْتِي بِحَسَناتي وسيأتي، وأنتم جئتم بسيأتي وتركتم حسناتي.

قيل لأبي المَحْشِش الأعرابي: أيسرك أنك خليفة وأن أمتك حرَّة؟ قال: لا والله ما يسُرُّني؟ قيل له: ولم؟ قال: لأنَّها كانت تَذْهب الأمة وتُضِيع الأُمَّة. اشتري أعرابيٌّ غلاماً، فقيل للبايع: هل فيه من عيب؟ قال: لا، إلا أنه يبُول في الفراش؛ قال: هذا ليس بعيب، إن وجدَ فراشاً فليُبَل فيه. أخذ الحجاج أعرابياً لصاً بالمدينة فأمر بِضَرْبِهِ، فلما قرَّعه بسوط قال: يا ربِّ شكراً، حتى ضربه سبعمائة سوط؟ قال: لماذا؟ قال: لكثرة شكرك، إنَّ الله تعالى يقول: "لئن شكرتُم لأزيدنَّكم". قال: وهذا في القرآن؟ قال: نعم. فقال الأعرابي:

أسأتُ في شكري فاعفُ عني

يا ربَّ لا شكراً فلا تزدني

باعد ثواب الشَّاكرين مني

مرَّ أعرابيٌّ بقوم وهو يَنشُد ابناً له، فقالوا له: صفه؛ قال: كأنه دُنَيْبِر، قالوا: لم تره. ثم لم يلبث القوم أن أقبل الأعرابيَّ وعلى عنقه جُعل، فقالوا: هذا الذي قلت فيه كأنه دُنَيْبِر؟ فقال: القَرْنِي في عين أمها حسناء. والقَرْنِي ثوبية من حَشاش الأرض إذا مسَّها أحد تقبَّضت فصارت من الكرة. قيل لأعرابي: ما يمنعك أن تُغزو؟ قال: والله إني لأبغضُ الموتَ على فراشي، فكيف أمضي إليه ركضاً! وغزا أعرابيٌّ مع النبي صلى الله عليه وسلم، فقيل

له: ما رأيت مع رسول الله في غزاتك هذه؟ قال: وُضِعَ عِنا نِصفَ الصلَاةِ، وأرجو في الغزاة الأخرى أن يضع النصفَ الباقي.
جلس أعرابي إلى مجلس أيوب السخيتاني، فقيل له: يا أعرابي، لعلك قدري؛ قال: وما القدري؟ فذكر له محاسن قولهم؛ قال: أنا ذاك، ثم ذكر له ما يعيب الناس من قولهم، فقال: لستُ بذاك، قال: فلعلك مُثبت؟ قال: وما المُثبت؟ فذكر محاسنهم، فقال: أنا ذاك، ثم ذكر له ما يعيب الناس منهم، فقال: لستُ بذاك! قال أيوب: هكذا يفعل العاقل، يأخذ من كل شيء أحسنه.
الأصمعي قال: سمع أعرابي جريراً يُنشد:

كاد الهوى يومَ سلمانين يقتلني

وكاد يقتلني يوماً بنعمان

وكاد يقتلني يوماً بذي خشب

وكاد يقتلني يوماً بسلمان

فقال: هذا رجل أفلت من الموت أربع مرّات، لا يموت هذا أبداً. الشيبان قال: بلغني أن أعرابيين ظريفين من شياطين العرب حطمتها سنة فأنحدرا إلى العراق، فبينما هما يتماشيان في السوق، واسم أحدهما خندان، وإذا فارس قد أوطأ دابته رجل خندان، ففطع إصبعاً من أصابعه، فتعلقا به حتى أخذوا أورش الإصبع، وكانا جاعين مقرورين، فلما صار المال بأيديهما قصدا إلى بعض الكرايج فابتاعا من الطعام ما اشتها، فلما شبع صاح خندان أنشأ يقول:

فلا غرثة ما دام في الناس كرج

وما بقيت في رجل خندان إصبع

وهذا شبيه قول أعرابي في إبنها، وكان لها ابن شديد الغرام، كثير القتال للناس، مع ضعف أسر، ورقة عظم، فوأتب مرة فتى من الأعراب، ففطع الفتى أنفه، فأخذت أمه دية أنفه، فحسُن حالها بعد فقر مُدقع، ثم وأتب آخر ففطع شفته، ثم أخذت دية شفته، فلما رأت ما صار عندها من الإبل والبقر والغنم والمتاع بجوارح ابنها ذكرته في أرجوزة لها تقول فيها:

أحلف بالمرّة حلفاً والصفاً

أنك خير من تفاريق العصا

فقلت لأعرابي: ما تفاريق العصا؟ قال: العصا تُقطع ساجوراً، ثم يُقطع الساجور أوتاداً، ثم تُقطع الأوتاد أسطه.

الأصمعي قال: خرج أعرابي إلى الحج مع أصحاب له، فلما كان ببعض الطريق راجعاً يريد أهله لقيه ابن عم له، فسأله عن أهله ومزله، فقال: أعلم أنك لما خرجت وكانت لك ثلاثة أيام وقع في بيتك الحريق. فرفع الأعرابي يديه إلى السماء، وقال: ما أحسن هذا يا رب! تأمرنا بعمارة بيتك وتخرب أنت بيوتنا. وخرجت أعرابية إلى الحج، فلما كانت ببعض الطريق عطبت راحلتها، فرفعت يديها إلى السماء، وقالت: يا رب، أخرجتني من بيتي إلى بيتك، فلا بيتي ولا بيتك. الأصمعي قال: عرضت السجون بعد هلاك الحجّاج، فوجدوا فيها ثلاثة وثلاثين ألفاً، لم يجب على واحد منهم قتل ولا صلب، وفيهم أعرابي أخذ وهو يبول في أصل سور، مدينة واسط، فكان فيمن أطلق، فانشأ يقول:

إذا ما خرجنا من مدينة واسط

خرينا وبلنا لا نخاف عقاباً

ذكر عند أعرابي الأولاد والانتفاع بهم، فقال: زوجوني امرأة أولدها ولداً أعلمه الفروسية حتى يجوى الرهان، والنزع عن القوس حتى يُصيب الحدق، ورواية الشعر حتى يفحم الفحول. فزوجوه امرأة، فولدت له ابنة، فقال فيها:

قد كنت أرجو أن تكوني ذكراً

فشفك الرحمن شقاً منكراً

شقاً أبى الله له أن يجبراً

مثل الذي لامها أو أكبراً

ثم حملت حملاً آخر، فدخل عليها وهي في الطلق، وكانت تسمي رباباً، فقال:

أيا ربأبي طرقي بخير

وطرقي بخصيه وأير

ولا تريناً طرف البظير

ثم ولدت له أخرى، فَهَجَرَ فِرَاشَهَا. وكان يأتي جارةً لها، فقالت فيه، وكان يُكنى أبا حَمْرَةَ:

يَظَلُّ فِي الْبَيْتِ الَّذِي يَلِينَا
وَإِنَّمَا نَأْخُذُ مَا أُعْطِينَا

مَا لِأَبِي حَمْرَةَ لَا يَأْتِينَا
غَضْبَانٌ أَنْ لَا نَلِدَ الْبِنِينَا

فألأنه قولها، ورجع إليها.

وقال سعيد بن أبي الفرج: سَمِعْتُ أَعْرَابِيًّا يَطُوفُ بِالْبَيْتِ وَهُوَ يَقُولُ:

وَحِينَ رَاحُوا مِنْ مَنِيٍّ وَحَصَّبُوا
وَالْمُسْتَزَارُ لَا سِقَاهُ الْكَوْكَبُ

لَا هَمَّ رَبِّ النَّاسِ حِينَ لَبَّبُوا
لَا سَقِيَتْ عَثْبَتَبُّ وَعُغْبُ

فقلت: يا أعرابي، ما لهذه المواضع تدعو عليها في هذا الموضع، فنظر إلي كالعُضبان، وقال:

مَنْ أَجَلُ حُمَاهِنَ مَاتَتْ زَيْنَبُ

قولهم في التلصص

أبو حاتم قال: أنشدنا أبو زيد لأعرابي وكان لصاً:

وَإِنْ لَأَمَنِي فِيهِنَّ كُلُّ خَلِيلٍ
حَمَائِلَ مَاضِي الشَّفْرَتَيْنِ صَقِيلٍ
إِذَا صَرَخَ الزَّحْفَانِ بِاسْمِ قَتِيلٍ
يَحَارُبُهَا فِي اللَّيْلِ كُلِّ مَمِيلٍ

ثَلَاثٌ خَلَّالٌ لَسْتُ عَنْهِنَّ تَائِبًا
فَمَنْهِنَّ أَنِي لَا أزال مُعَانِقًا
بِهِ كُنْتُ أُسْتَعْدِي وَأَعْدَى صَحَابَتِي
وَمَنْهِنَّ سَوَّقُ النَّهْبِ فِي لَيْلَةِ الدُّجَى

وهذا المعنى سبقه إليه الأول:

وَجَدَّكَ لَمْ أَحْقِلْ مَتَى قَامَ رَامِسُ
كَأَنَّ أَخَاهَا مَطَّلَعَ الشَّمْسُ نَاعِسُ
إِذَا ابْتَدَرَ الشَّخْصَ الصَّفِيَّ الْفَوَارِسُ
إِذَا ابْتَزَّ عَنْ أَكْفَالِهِنَّ الْمَلَابِسُ

فَلَوْلَا ثَلَاثٌ هُنَّ عَيْشَةُ الْفَتَى
فَمَنْهِنَّ سَبَقِي الْعَادِلَاتِ بَشْرِيَّةُ
وَمَنْهِنَّ تَقْرِيظُ الْجَرَادِ عِنَانَهُ
وَمَنْهِنَّ تَجْرِيدُ الْكَوَاعِبِ كَالدُّمَى

وأول من قال هذا المعنى طرفه حيث يقول:

وَجَدَّكَ لَمْ أَحْقِلْ مَتَى قَامَ عَوْدِي
كُمَيْتِ مَتَى مَا تُعَلُّ بِالْمَاءِ تَزِيدُ
كَسِيدِ الْغَضَى نَبَهْتَهُ الْمَتَوَرِّدُ
بِبِهْكَنَةٍ تَحْتَ الْخِبَاءِ الْمُعَمَّدُ

فَلَوْلَا ثَلَاثٌ هُنَّ مِنْ عَيْشَةِ الْفَتَى
فَمَنْهِنَّ سَبَقِي الْعَادِلَاتِ بَشْرِيَّةُ
وَكَرِّي إِذَا نَادَى الْمُضَافُ مُحْنَبًا
وَتَقْصِيرُ يَوْمِ الدَّجْنِ وَالِدَجْنُ مُعْجَبُ

قولهم في الطعام

الأصمعي قال: اصطحب شيخٌ وحَدَّث في سَفَرٍ، وكان لهما قُرْصٌ في كلِّ يومٍ، وكان الشيخُ مَنخَلع الأضراسِ بَطِيء الأكل. وكان الحَدَّث يَبْطِش بالقرْصِ ثم يجلس يَشْتَكِي العَشَق، ويتصوّر الشيخُ جُوعاً، وكان الحَدَّث يُسَمِّي جَعْفراً، فقال الشيخ:

بَطِيشٌ بقرْصي ثم يَبْكِي على جُمْل
بَطِيناً ونَسَاكَ الهوى شِدَّة الأكل

لقد رابني من جعفر أن جعفرأ
فقلت له لو مسك الحرب لم تبت

الأصمعي قال: أنشدني أعرابي لنفسه:

وخيلاً من البر في فرسانها الزبُذُ
بموت كريم لا يُعدُّ له لحد

الآليت لي خبزاً تسربل رائباً
فاطلب فيما بينهنَّ شهادةً

الشَّيباني عن العُتبي عن أبيه قال: قال أعرابي: كنت أشتهي ثريدة دَكْناء من الفُلْفُل، رَقْطاء من الحمص، ذات حَفَافين من اللّحم، لها جَنَاحان من العراق، أضرب فيها كما يضرب ولي السوء في مال اليتيم. وقال رجل لأعرابي: ما يسرني لو بتَ ضيفاً لك؟ فقال له الأعرابي: لو بتَ ضيفاً لي لأصبحت أبطن من أمك لبل أن تلدك بساعة.

حضر أعرابي سفرة سليمان بن عبد الملك، فجعل يمرُّ إلى ما بين يديه، فقال له الحاجب: مما يليك فكلُّ يا أعرابي؛ فقال: من أجدب انتجع. فشقَّ ذلك على سليمان، فقال للحاجب: إذا خرج عنَّا فلا يُعدُّ إلينا. وشهد بعد هذا سفرتَه أعرابي آخر، فمر إلى ما بين يديه أيضاً، فقال له الحاجب: مما يليك فكلُّ يا أعرابي؛ قال: من أخصب تخير. فأعجب ذلك سليمان، فقرَّبه وأكرمه وقضى حوائجه.

مرَّ أعرابي بقوم من الكُتبة في مُتَرَه لهم وهم يأكلون، فسلم، ثم وضع يده

يأكل معهم، فقالوا: أعرفت فينا أحداً؟ قال: بلى، عرفتُ هذا، وأشار إلى الطَّعام. فقال بعض الكُتَّاب يَصِفُ أكله: لم أرَ مثلاً سرطه ومطَّه قال الثاني:

وأكله دجاجة ببطه قال الثالث: ولَّه رُفَاقه بإقطه. قال الرابع: كأنَّ جالينوس تحت إبطه. فقالوا للرابع: أما الذي وصفتنا من فعله فمعلوم فما يصنع جالينوس من تحت إبطه؟ قال: يُلَقِّمه الجوارش كلما خاف عليه التَّخمة يهضم بها طعامه. وقال رجل من أهل المدينة لأعرابي: ما تأكلون وما تَعافون؟ قال له الأعرابي: نأكل كل ما دبَّ وهبَّ إلا أمَّ حيين. قال المدني: تَهَيء، أمَّ حيين العافية. قال رجل من الأعراب لولده: اشتروا لي لَحْماً، فاشترُوا، وطَبَّخه حتى تَهَرَّأ، فأكل منه حتى انتهت نفسه، ولم يُبق إلا عَظْمه، وشرعت إليه عيون ولده، فقال: ما أنا مُطعمه أحداً منكم إلا من أحسن أكله.

فقال له الأكبر: ألوكة يا أبتٍ حتى لا أدع فيه للذرة مَقِيلاً؟ قال: لست بصاحبه، قال الآخر: ألوكة حتى لا تَدري ألعامه هو أم لعام أول؛ قال: لست بصاحبه.

قال له الأصغر: أدقه يا أبت وأجعل إدامه المخ، قال: أنت صاحبه وهو لك. بلغني عن محمد بن يزيد بن معاوية أنه كان نازلاً بحلب على

الهيثم بن عدي فبعث إلى ضيف له من عُذرة أعرابي، فقال له: حدِّث أبا عبد الله بما رأيت في حضر المسلمين من الأعاجيب؛ قال: نعم، رأيتُ أموراً

مُعجبة، منها: أنني دخلتُ قرية بكر بن عاصم الهلالي، وإذا أنا بدورٍ متبانية، وإذا خصاص بيض بعضها إلى بعض، وإذا بها ناسٌ كثيرٌ مُقبِلون ومُدْبِرون،

وعليهم ثياب حَكْوًا بها أنواع الزَّهر، فقلت لنفسي: هذا أحد العيدين، الفِطْر أو الأضحى، ثم رجعت إلي ما عَزُبَ من عقلي فقلت: خرجتُ من أهلي في

عَقَب صَفَرٍ وقد مضى العيدان قبل ذلك. فبينما أنا واقفٌ أتعجب إذ أتاني رجلٌ: فأخذ بيدي فأدخلني بيتاً قد نُجِّد، وفي وجهه فُرْشٌ مُمَهَّدة، وعليها

شابٌّ ينال فرغ شعره كتنفيه، والناسُ حوله سَمَاطين، فقلت في نفسي: هذا الأمير الذي يُحكى لنا جلوسه وجلوسُ الناس حوله، فقلت وأنا مائلٌ بين

يديه: السلام عليك أيها الأمير ورحمة الله؛ قال: فجذب رجلٌ بيدي، وقال: ليس بالأمير، اجلس؛ قلت: فمن هو؟ قال: عَرُوس؛ قلت: وأكل أمَّاه!

لرُبَّ عَرُوسٍ بالبادية قد رأيتُه أهون على أصحابه من هن أمه. فلم ألبث أن أذخلت الرجال علينا هنَّات مُدَوَّرات من خشب، أما ما خف منها فتحمَل

حَمَلاً، وأما ما ثقل فيدخرج، فوضعت أماننا وحلقت القوم عليها حَلَقاً، ثم أتينا بخِرَق بيض فألقيت عليها، فهمتُ والله أن أسأل القوم خِرقة منها

أرقع بها قميصي، وذلك أني رأيتُ لها نَسْجاً مُتلاحماً لا تتبين له سدى ولا لحمه، فلما بسط القوم أيديهم، إذا هو يتمزق سريعاً، وإذا صنَّف من الخبز

لا أعرفه. ثم أتينا بطعام كثير من حُلُو وحامض، وحرار وبارد، فأكثرت منه وأنا لا أعلم ما في عقبه من التَّخْم والبَشْم. ثم أتينا بشارب أحمر في عَسَّاس

بيض، فلما نظرتُ إليه، قلتُ: لا حاجة لي به، لأنِّي أخاف أن يفتلني، وكان إلى جانبي رجلٌ ناصح لي، أحسن الله عني جزاءه، كان ينصحي بين أهل المجلس، فقال لي: يا أعرابي، إنك قد كثرت من الطعام، فإن لضربت الماء همى بطنك. فلما ذكر البطن ذكرتُ شيئاً أوصاني به الأشياخ، قالوا: لا تزال حياً ما دام بطنك شديداً، فإذا اختلف فأوص، فلم أزل أتداوى بذلك الشراب ولا أمله حتى داخلني به صلف لا أعرفه من نفسي، ولا عهد لي به، ولا اقتدار على أمري؛ وكان إلى جانبي الرجل الناصح لي، فجعلتُ نفسي مُحدثني بهم أسنانه مرة وهشمتُ أنفه أخرى، وأهممُ أحياناً أن أقول له: يا بن الزانية. فبيننا نحن كذلك، إذ هجم علينا شياطين أربعة: أحدهم قد علق جعبة فارسية مُفتحة الطرفين، قد شُبكت بالخيوط، وقد ألبست قطعة فرو كأهم يخافون عليها القُر، ثم بدأ الثاني فاستخرج من كفه هنة كَفَيْشلة الحمار، فوضع طرفها في فيه فضرط فيها، ثم حسَّ على حُجزتها فاستخرج منها صوتاً مُشاكلاً بعضه بعضاً، ثم بدا الثالث وعليه قميصٌ وسخ، وقد غرَّق رأسه بالدهن، معه مرأتان، فجعل يُمر إحداهما على الأخرى، ثم بدأ الرابع عليه قميصٌ قصيرٌ وسراويل قصيرة. فجعل يَقْفِزُ صُلبه ويهزُّ كتفيه، ثم التَبَّط بالأرض، فقلتُ: معنوه ورب الكعبة، ثم ما برح مكانه حتى كان أعبط القوم عندي. ثم أرسلت إلينا النساء أن أمتعنوا من لهُوكم، فبعثوا بهم إليهن، وبقيت الأصوات تُدور في آذاننا. وكان معنا في البيت شاب لا آبه له، فعَلت الأصوات له بالدعاء، فخرج فجاء بخشبة في يده، عيَّنها في صدرها، فيها خيوط أربعة، فاستخرج من جوانبها عُوداً فوضعه على آذنه، ثم زَم الخيوط الظاهرة فلما أحكمها عرك أذنها، فنطق فُوها، فإذا هي أحسن قينة رأيتها قط، فاستخفني حتى قُمتُ - من مجلسي، فجلستُ إليه فقلتُ: بأبي أنت وأمي، ما هذه الدابة؟ قال: يا أعرابي هذا البربط؟ قلت: ما هذه الخيوط؟ قال: أما الأسفل فزير، والذي يليه مثنى، والذي يليه مثلث، والذي يليه بَم، فقلتُ: آمنت بالله. وقال أعرابي: تَمَرْنَا حُرْس فُطُس، يغيب فيهن الصُّرْس، كأنَّ فاهَا ألسن الطير، تقع التمرة منها في فيك فتجد حلأوكما في كَعْبِكَ. وحضر أعرابي سُفرة سليمان بن عبد الملك، فلما أتى بالفالودج جعل يُسرِّع فيه، فقال سليمان: أتدري ما تأكل يا أعرابي؟ فقال: بلى يا أمير المؤمنين، إني لأجد ريقاً هنيئاً ومزوداً لنا، وأظنه الصراطُ المُستقيم الذي ذكره الله في كتابه. قال: فَصَحَّحك سليمان، وقال: أريدك منه يا أعرابي، فإنهم يدكرون أنه يزيد في الدماغ؟ قال: كذبوك يا أمير المؤمنين، لو كان كذلك لكان رأسك مثل رأس البَعْل. قال: ومررت بأعرابي يأكل في رمضان، فقلت له: ألا تُصوم يا أعرابي؟ فقال:

أَعْمِدِ لِصَوْمِكَ وَأَتْرُكْنِي وَإِطَارِي

وَصَائِمٌ هَب يَلْحَانِي فَقُلْتُ لَهُ

مَنْ ذَا بَصِيرٍ إِذَا مِتْنَا إِلَى النَّارِ

وَاطْمَأْ فإِنِّي سَأُرْوِي ثُمَّ سَوْفَ تَرَى

وحضر سُفرة سليمان أعرابي، فنظر إلى شعرة في لُقمة الأعرابي، فقال: أرى شعرة في لُقمتك يا أعرابي؟ قال: وإنك لَتراعيي مُراعاة من يُصِرُّ الشُّعرة في لُقمتي، والله لا واكلتك أبداً، فقال استرها علي يا أعرابي، فإنها زلة ولا أعود إلى مثلها أبداً.

أخبار أبي مهدية الأعرابي

أبو عثمان المازني قال: قال أبو مهدية: بلغني أن الأعراب والأعزاب هجاؤها واحد، قلت: نعم؛ قال: فافقرأ الأعزاب أشدَّ كُفراً ونفاقاً، ولا تقرأ: الأعراب ولا يُعْرَكُ العزب وإن صام وصلّى. وثوَقِي بُني لأبي مهدية صغير، فقيل له: أبشر أبا مهدية، فإننا نرجو أن يكون شَفِيعَ صِدْقِ يَوْمِ الْقِيَامَةِ؛ قال: لا وكلنا الله إلى شفاعته، إذاً والله يكون أعياناً لساناً، وأضعفنا حُجة، ليته المسكين كَفَانَا نَفْسَهُ. وقيل لأبي مهدية: أكنتم تتوضعون بالبادية؟ قال: نعم والله، لقد كنا نتوضأ فتكفي التوضئة الرجل منّا الثلاثة الأيام والأربعة، حتى دخلت علينا هذه الحمراء - يعني الموالي - فجعلت تُليق أَسْتَاهَا كما تُلَاقِ الدَّوَاةَ. وقيل لأبي مهدية: أتقرأ من كتاب الله تعالى شيئاً؟ قال: نعم، ثم افتتح يقرأ: "والضُّحَى واللَّيْلُ إِذَا سَجَى" حتى انتهى إلى "وَوَجَدَكَ ضَالًّا فَهَدَى"، فالتفت إلى صاحب له فقال: إن هؤلاء العلوج يقولون: وَوَجَدَكَ ضَالًّا فَهَدَى، والله لا أقولها أبداً. ولما أسن أبو مهدية ولي جانباً من اليمامة، وكان به قَوْمٌ من اليهود أهل عطاء وجدة فأرسل إليهم، فقال: ما عندكم في المسيح؟ قالوا: قتلناه وصلبناه؛ قال: فهل غرمتُم ديتَه؟ قالوا: لا؛ قال: إذاً والله لا تُبرحوا حتى تُغرِّموا ديتَه، فأرضوه حتى كَفَ عنهم. وقيل لأبي مهدية، ما أصبركم معشر العرب على البدو؟ قال: كيف لا يصبر على البدو من

طعامه الشمس، وشرابه الرّيح. ونظر أبو مَهْدِيَّة إلى رجل يَسْتَنْجِي ويكثر من الماء فقال له: إلى كم تَغْسِلُهَا ويحك! أتريد أن تَشْرَبَ فيها سَوِيْقًا. ومات طفل لأبي مَهْدِيَّة، فقيل له: اصبر يا أبا مَهْدِيَّة، فإنه فَرَطَ افترطته، وحرير قَدَمَتِهِ، وذُخْرُ أَحْرَزْتِهِ، فقال: بل ولد دفتته، وتُكَلُّ تُعَجَّلْتَهُ، والله لئن لم أَحْزِعْ لِلنَّقْصِ لا أَفْرَحَ بِالْمَزِيدِ. قال أبو عُبَيْدَةَ: سمع أبو مَهْدِيَّة رجلاً يقول بالفارسيَّة: ذود ذود، فقال: ما يقول هذا؟ فقيل له: يقول، عَجَّلْ عَجَّلْ؛ فقال: أفلا يقول: حَيْهَلًا؟

خبر أبي الزهراء

المُعلَى بن المُتَنَّى الشَّيبَانِيَّ قال: حَدَّثَنَا سُويد بن مَنجُوف قال: أَقبل أعرابيٌّ من بني تميم حتى دخل الكوفة من ناحية حَيَّانَةَ السَّبِيْعِ تحته أَنان له تَخُبٌّ، وعليه ذلاذِل وأطمار من سَحَقِ صُوفٍ، وقد اعتمَّ بما يَشْبُهه ذلك، من أشوه الناس مُنْظَرًا، وأقْبَحهم شِكْلًا، وهو يَهْدُر كما يَهْدُر البعيرُ، وهو يقول: أَلَا سَبَدُ أَلَا لَبَدُ، أَلَا مُؤُؤُ أَلَا سَعْدِيَّ أَلَا يَرْوَعِي أَلَا دَارْمِي؟ هَيْهَاتَ هَيْهَاتَ، وما يُعْنِي أَصْلُ حَوْضِ المَاءِ صَادِيًّا مُعْتَى؟ قال سُويد: فَدَخَلَ عَلَيْنَا فِي دَرْبِ الكُنَاسَةِ فلم يجد مُتَفَدًّا، وقد تَبَعَهُ صَبِيان كثيرون وَسَواد من سَواد الحَيِّ، فَسَمِعْتُ سَوادِيًّا يقول له: يا عَمَاهُ يا إبليس، متى أَذن لك بِالظُّهُورِ؟ فَالتَفْتُ إِلَيْهِمْ، فقال: منذ سَرَقَ أَباؤُكُمْ وَفَسَقَتِ آمِهَاتِكُمْ. قال: وَكانَ معنا أبو حَمادِ الحَيَّاطِ، وَكانَ من أَطلبِ الناسِ لِكلامِ الأعرابِ، وَأَصْرِهِم على الإنفاقِ على أعرابي يدخل علينا، وَكانَ مع؛ ذلكَ مَوْلى لِبني تميمٍ، فَأتَيْتُهُ فَأخْبَرْتَهُ، فَخَرَجَ مَبادِرًا كَأَنِّي قد أَفدُتُهُ فَائِدَةً عَظِيمَةً، وَقد نَزَلَ الأعرابي عن الأتانِ وَاستندَ إلى بعضِ الحَيَّطانِ، وَأَحذَ قَوْسَهُ بيده، فَتارَةً يُشِيرُ بِها إلى الصبيانِ، وَتارَةً يَذُبُ بِها الشَّدانَ عن الأتانِ، وَهو يقول لِأَتانِهِ:

ما شَبَّتِ من حَمَضٍ وماءٍ مُنْسَكِبِ

يَرَى وَجوهاً حوله ما تُرْتَقِبِ

كَأَنَّها الزَنْجِ وَعُبدانِ العَرَبِ

ولو أَمْنَتُ اليومَ من هذا اللَّجَبِ

الرَيْشُ أَوْ لاها وَأَخراها العَقَبِ

قد كُنْتُ بِالأمْعَزِ فِي خِصْبِ خِصْبِ

فَرَبُّكَ اليومَ ذليلٌ قد نَصَبِ

ولا عليها نُورٌ إِشراقِ الحَسَبِ

إلى عَجِيلِ كانِ كالرَّغْلِ السَّرَبِ

رَمَيْتُ أَفواقًا قَوِيْماتِ النَّصَبِ

قال: فلم يزل أبو حَمادٍ يُلَطِّفُهُ وَيَتَلَطَّفُ بِهِ وَيُيَخِّلُهُ إلى أن أدخله مَترَلَهُ، فَمَهَّدَ لَهُ وَحَطَّهُ عن أَتانِهِ، ودعا بِالعَلَفِ، فَجَعَلَ الأعرابيُّ يقول: أين اللَّيْفِ وَالنَّيْفِ وَالوَسادِ وَالنَّجادِ. يعني بِاللَّيْفِ: الحَصِيرِ، وَبِالنَّيْفِ: عَشْبَةٌ عِندَهُمْ، يُقالُ لها البُهْمَى. وَبِالوَسادِ: جِلْدٌ عَنزٌ يُسَلِّخُ ولا يُشَقُّ وَيُحْشَى وَبِراً وَشِعْراً وَيُنْكَأُ عَلَيْهِ، وَبِالنَّجادِ، مِسْحٌ شَعْرٌ يَسْتَظِلُّ تحته. قال: فلما نَزَعَ القَتَبَ عن الأتانِ إِذا ظَهَرُها قد دَبَرَ حتى أَضْرَّتْ بنا رائِحَتُهُ. فَجَعَلَ الأعرابي يَتَنَهَّدُ ويقول:

فذاك من دُؤُوبِ ليلِ مُسْهِرِ

مُشَمِّخِ الأَنْفِ كَرِيمِ العَنْصُرِ

إِنْ تُتَحَضِّي أَوْ تَدْبِرِي أَوْ تَرَحْرِي

أنا أبو الزهراء من آل السري

إِذا أَتَيْتِ خُطَّةً لَمْ أَفسِرِ

وَكانَ يُسَمَّى الأعرابيُّ صَلْتانَ بنِ عَوْسَجَةَ، من بني سَعْدِ بنِ دارمٍ، وَيُكْنَى بِأبي الزَهْرَاءِ. وما رأيتُ أعرابياً أَعْجَبَ مِنْهُ، كانَ أَكْثَرَ كِلامِهِ شِعْراً، وَأَمْثَلَ أعرابي سمعته كلاماً، إِلا أَنَّهُ ربما جاءَ بِاللَّفْظَةِ بعد الأخرى لا نَفْهَمُها، وَكانَ من أَضَحَرَ الناسِ وَأَسْوأَهُم خُلُقاً، وَإِذا نَحَنَ سألناه عن الشَّيءِ، قال: رُدُوا عَلَيَّ القَوْسِ وَالأتانِ، يَظُنُّ أَننا نَتَلَعَبُ بِهِ، وَكُنَّا نَجْتَمِعُ مَعَهُ في مَجْلِسِ أَبِي حَمادٍ وما مِننا إِلا من يَأْتِيهِ بما يَشْتَهِيهِ فلا يُعْجِبُهُ ذلكَ، حتى أَتَيْناه يوماً بِخَرِيزِ، وَكانتِ أَمامَهُ، فلما أَبْصَرها تَأَمَّلَها طويلاً وَجَعَلَ يقول.

بُدِّلَتْ وَالِدَهُ قَدِيمًا بَدَلًا

أَخْبَتْ مَا تَنْتَبِتُ أَرْضٌ مَأْكَلًا

فكنا نقول له: يا أبا الزهراء، إنه ليس بَحَنْظَلٍ، ولكنه طعام هيء مريء ونحن نبدوك فيه إن شئت؛ قال: فخذوا منه حتى أرى. فبدأنا نأكل وهو ينظر لا يَظرف، فلما رأى ذلك بسَطَ يده، فأخذ واحدةً، فترع أعلاها، وقور أسفلها؛ فقلنا لها: ما تُريد أن تصنع يا أبا الزهراء؟ فقال: إن كان السم يا بن أخي فقيما تَرُون. فلما طعمه استخفّه واستعذبه واستحلاه، فلم يكن يُؤثرُ عليه شيئاً، وما كنا نأتيه بعدُ بغيره، وجعل في خلال ذلك يقول:

هَذَا طَعَامٌ طَيِّبٌ يَلِينُ

الشَّهْدُ وَالزَّبْدُ بِهِ مَعْجُونُ

فلما كان إلى أيام، قلتُ له: يا أبا الزهراء، هل لك في الحَمَّامِ؟ قال: وما الحمام يا بن أخي؛ قلنا له: دارٌ فيها آيات حارٍّ وفاترٍ وبارد، تكون في أيها شئت، تُذهب عنك قَشْفَ السَّقَرِ، وَيَسْقِطُ عنك هذا الشَّعر. قال: فلم نزل به حتى أجابنا، فأتينا به الحَمَّامَ وأمرنا صاحب الحَمَّامِ أن لا يُدخل علينا أحداً، فَدَخَلَ وهو خائف مترقب لا يترع يده من يد أحدنا حتى صار في داخل الحَمَّامِ، فأمرنا من طَلاه بالثورة، وكان جِلْدُهُ أشعر كجلد عَنزٍ، فَفَلِقَ ونازَعَ للخروج، وبدأ شعره يسقط؛ فقلنا: أحين طاب الحَمَّامُ وبدأ شعرك يسقط تخرُج؟ قال: يا بن أخي، وهل بقي إلا أن أنسلخ كما ينسلخ الأدم في احتدام القَيْظِ، وجعل يقول:

هَلْ لَكُمْ فِي الْقَوْسِ وَالْأَتَانِ

وخلصوا المهجة يا صبياني

عُرِيَانِ بَلْ أَعْرَى مِنَ الْعُرِيَانِ

حُسِبَتْ فِي الْمَنْظَرِ كَالشَّيْطَانِ

وَهَلْ يَطِيبُ الْمَوْتَ يَا إِخْوَانِي

خَذُوهُمَا مِنِّي بَلَا أَتْمَانِ

فَالْيَوْمَ لَوْ أَبْصَرْتَنِي جِيرَانِي

قَدْ سَقَطَ الشَّعْرُ عَنِ الْجِثْمَانِ

قال: ثم خرج مُبادراً، وأتبعه أحداثٌ لنا لولا هم لخرَجَ بحاله تلك ما يستره شيء، ولحقناه في وَسَطِ البيوت، فأتيناه بماء بارد، فشرب وصبَّ على رأسه، فارتاح واستراح، وأنشأ يقول:

أَنْقَذَنِي مِنْ حَرِّ بَيْتِ النَّارِ

من بعد ما أيقنت بالدمار

الْحَمْدُ لِلْمُسْتَحْمَدِ الْقَهَّارِ

إِلَى ظِلِيلِ سَاكِنِ الْأَوَارِ

قال: فدعونا بكُسوةٍ غير كُسوته فألبسناه، وأتينا به مجلس أبي حماد وكان أبو حماد يبيع الحِنْطَةَ والتمرَ وجميع الحبوب، وكان يُجاوره قومٌ يبيعون أنبذة التمر، وكان أبو الحسن التَّمَّارَ ماهراً، فإذا خُضنا في النحو وذكرنا الرُّوَّاسِيَّ والكِسَائِيَّ وأبا زيد جعل يَنْظُرُ بفقهِ الكلام، ولا يفهم التأويل فقلنا له: ما تقول يا أبا الزَّهْرَاءِ؟ فقال: يا بن أخي، إن كلامكم هذا لا يسد عوزاً مما تتعلمونه له؛ فقال أبو الحسن: إن بهذا تعرف العرب صوابها من خَطئها؛ فقال له: ثَكَلَتْ وأثكلت، وهل تُخطيء العرب؛ قال: بلى؛ قال: على أولئك لعنة الله، وعلى الذين أعتقوا مثلك، قال سُويد: وكنت أحدثهم سناً، قالت: فقلت: جُعِلت فداك، أنا رجل من بني شَيْبَانَ وربيعة، ما نعلم أنا على مثل الذي أنت عليه من الإنكار عليهم، فقال فيهم:

وَمَا زَجَّ أَبْوَالُ لَهُ فِي إِيَّائِهِ

وَنَصَّبَ وَجَزَمَ صَيْغَ مِنْ سُوءِ رَائِهِ

وَذُو الْجَهْلِ يَرُوي الْجَهْلَ عَنْ نَظْرَائِهِ

يُسَائِلُنِي بِيَّاعِ تَمْرٍ وَجَرْدِقِ

عَنِ الرَّفْعِ بَعْدَ الْخَفْضِ لَا زَالَ خَافِضًا

فَقُلْتُ لَهُ هَذَا كَلَامٌ جَهْلَتَهُ

فقال بهذا يُعرَف النَحْوُ كُلُّهُ
فأما تَمِيمٌ أو سَلِيمٌ وعامر
ففيهم وعنهم يُؤثر العلم كُلُّهُ
فمن ذا الرُّؤاسيِّ الذي تَذَكَّرُونَهُ
ومَنْ ثالثٌ لم أسمع الدهرَ باسمه
فكيف يُحيلُ القومَ من كان أهله
فَلَسْتُ لِبَيَّاعِ التَّمِيرَاتِ مُغْضِيًّا
ولقد قلنا له: يا أبا الزَّهراء

يرى أَنِّي في العُجْمِ من نُظرائه
ومَنْ حلَّ غَمْرُ الضَّالِّ أو في إِزائه
ودَعَّ عنك من لا يهتدي لخطائه
ومَنْ ذا الكِسَائِيِّ سَالِحٍ في كِسائِهِ
يُسمونه من لُومِهِ سببوائِهِ
ويهدِي له من ليس من أوليائِهِ
على الضمير إن واقفتُ بعد عَشائِهِ
هل قرأتَ من كتابِ الله شيئاً؟

قال: أي وأبيك، آيات مُفصلات، أرَدَدَه في الصَّلوات، آباء وأمّهات، وعمات وخالات ثم أنشأ يقول:

قرأتُ قولَ اللهِ في الكتابِ
لعظم ما فيها من الثوابِ
وأنا فاعلم من ذوي الألبابِ
بِعَرشِهِ المستور بالحجابِ
وجنَّةِ فيها من الثيابِ
وجاحِمٍ يَلْفحُ بالتهابِ
ودَفَعَ رَحْلَ الطارقِ المنتابِ

ما أنزل الرحمنُ في الأحزابِ
الكُفْرَ والغِلظةَ في الأعرابِ
أومن بالله بلا ارتيابِ
والموتِ والبَعثِ وبالْحِسابِ
ما ليس بالبَصْرَةِ في حسابِ
أوجُهُ أهلِ الكُفْرِ والتَّبابِ
في ليلةِ ساكنةِ الكلابِ

ولما أحضرناه ذات يومٍ جنازةً، قلنا له: يا أبا الزهراء، كيف رأيت الكوفة؟ فقال: يا بن أخي، حضراً حاضراً، ومَحلاً أهلاً، أنكرتُ من أفعالكم الأكيال والأوزان، وشكّل النَّسوان، ثم نظر إلى الجبَّانة، فقال: ما هذه التلال يا بن أخي؟ قلت له: أحداثُ الموتى: فقال: أماتوا أم قُتلوا؟ فقلت: قد ماتوا بأجلهم، ميتاتٌ مختلفات، قال: فماذا تُنتظر نحن يا بن أخي؟ قلت: مثل الذي صاروا إليه، فاستعبر وبكى، وجعل يقول:

يا لَهْفَ نَفْسِي أَنْ أموتَ في بَلَدٍ
وكل ذي رَحْمٍ شفيقٍ مُعْتَقِدٍ
يا رَبِّ يا ذا العرشِ وَقِّقْ للرشدِ

قد غابَ عني الأهلُ فيه والولدُ
يكون ما كنتُ سقيماً كالرمدِ
ويَسِرُ الخيرَ لشيخٍ مُنْحَصِدِ

ثم لم يلبث إلا يسيراً حتى أخذته الحمى والبرسام، فكنا لا نُبارحه عائدين متفقدين، فبينما نحن عنده ذات يوم، وقد اشتدَّ كَرْبه وأيقنى بالموت، جعل يقول:

أبلِّغُ بناتي اليومَ أبلغَ بالصُّوَى
وقر تَمَنِّيْنَ وما تُفنى المني
يا رَبِّ يا ذا العرشِ في أعلى السما

قد كُنَّ يَأْمُلْنَ إِيابِي بالغنى
بأنَّ نَفْسِي وردت حَوْضَ الرَّدَى
إليك قَدِّمَت صيامي في الظما

كفاه ما لاقاه في الدنيا كفى

قلنا له: يا أبا الزهراء، ما تأمرنا في القوس والأتان، وفيما قَسَمَ اللهُ لك عندنا من رزق؟ فقال: يا بن أخي، أما ما قَسَمَ اللهُ لي عندكم، فمردود إليكم وأما القوس والأتان فبيعوها وتصدقوا بثمانهما في فقراء صليبة بني تميم، وما بقي ففي مآلئهم، ثم جعل يقول: اللهم اسمع دعاء عبدك إليك، وتضرعه بين يديك، وأعرف له حقَّ إيمانه بك، وتصدق به برؤسك الذين صليت عليهم وسلمت، اللهم إني جانُّ مُقْتَرِفٌ، وهائبٌ مُعْتَرِفٌ، لا أدعي براءة، ولا أرجو نجاة إلا برحمتك إياي، وتجاوزك عني، اللهم إنك كتبت علي في الدنيا التعب والتَّصَب، وكان في قَضَائِكَ وسابق علمك قبضٌ رُوحِي في غير أهلي وولدي، اللهم فبدِّل لي التَّعب والتَّصَب رُوحاً وريحاناً وجنة نعيمٍ فضل كريم. ثم صار يتكلم بما لا تَفْقَهُه ولا تَفْهَمُه، حتى مات رحمه الله. فما سمعتُ دعاءً أبلغ من دُعائه، ولا شهدتُ جنازةً أكثرَ باكياً وداعياً من جنازته، رحمه الله.

عودة إلى كلام الأعراب

وقال أعرابي يصف كساء:

مَقِيظٌ مُصَيِّفٌ مُشْتِي

نَ كَانَ ذَابِتًا فَهَذَا بَتِّي

سَجَّتُهُ مِنْ نَعَجَاتٍ سِتِّ

وقال أعرابي:

يَغْسِلُ أَسِي وَيَسْلُبُنِي الْحَزْنَ

قَالَتْ سُلَيْمَى لَيْتَ لِي بَعْلًا بِمَنْ

مشهورة قضاؤها منه وهن

حاجة ليس لها عندي تمن

كان فقيراً معدماً قلت وإن

قالت جوارى الحي يا سلمى وإن

قال الإعرابي:

وأن ليس مغبوناً من أشتراهما

جارتان حلفت أماهما

إلا بقولي هكذا هما هما

والله لا أخبركم أسماهما

حيا وحيا الله من حياهما

ما اللتان صادني سهماهما

حتى تلاقى منيتي مناهما

أمات ربِّي عاجلاً أباهما

وقال أعرابي:

مَعْنَةٌ مَفْنَةٌ

إِنْ لَنَا لَكَنَّهُ

إلا تره تظنه

سمعنة نظرنه

السُّمَعْنَةُ النَّظْرَةُ: المرأة التي إذا سمعت أو نظرت فلم تر شيئاً تظنت تظنياً. وأنشد أبو عبد الله بن لبانة لأعرابي:

مَلِيحَةٌ الْعَيْنَيْنِ عَدْبًا فُوهَا

كَرِيمَةً يُحِبُّهَا أَبُوهَا

لا تحسن السب وإن سبوا

قال الأصمعي: دخلتُ على هارون الرّشيد وبين يديه بَدْرَةٌ، فقال: يا أصمعي، إن حدثتني بحديث العَجَز فأضحكتني وهبتك هذه البدره، قلت: نعم يا أمير المؤمنين بينا أنا في صحاري الأعراب في يوم شديد البرد والريح، إذا أنا بأعرابي قاعد إلى أجمه، قد احتملت الريح كِسَاءَه فألقته على الأجمه وهو غريان، فقلت له: يا أعرابي، ما أحلسك ها هنا على هذه الحال؟ فقال: جارية واعدتها يقال لها سلمى أنا مُتَظَر لها؛ فقلت وما يَمْنَعك من أخذ كِسَاتِك؟ قال: العَجَز يُوقِظني عن أخذه؛ قلت له: فهل قلت في سلمى شيئاً؟ قال: نعم: قلت له: أسمعني لله أبوك؛ قال: لا أسمعك حتى تأخذ كِسَائِي وتلقيه عليّ. قال: فأخذته فألقيته عليه، فأنشأ يقول:

لعل الله أن يأتي بسلمى

ويأتي بعد ذلك سحابٌ مُزَن

فَيَبْطَحُهَا وَيُلْقِينِي عَلَيْهَا

يُظَهِّرُنَا وَلَا نَسْعَى إِلَيْهَا

فاستضحك هارون حتى استلقى على ظهره، وقال: خذ البدره لا بُورك لك فيها أذكروا أن أعرابياً أتى عِيناً من ماء صافٍ في شهر رمضان، فشرَب حتى رَوِيَ، ثم أوماً بيده إلى السماء فقال:

إِنْ كُنْتَ قَدَرْتَ الصِّيَا

أَوْ لَا فَإِنَّا مُفْطِرُو

مَ فَأَعْقِنَا مِنْ شَهْرِ آب

ن وَصَابِرُونَ عَلَى الْعَذَابِ

خلا أعرابيٌّ بامرأة ليفسُق بها فلم يَبْتَشِرْ له. فقالت له: قُم حائباً؛ فقال: الخائبُ من فَتَحَ فم الجراب ولم يُكَلِّ له دقيق. ففجحت ولم تُرد جواباً.

كتاب المجنبة في الأجوبة

قال أحمد بن محمد بن، عبد ربّه: قد مضى قولنا في كلام الأعراب خاصة،

ونحن قائلون بعون الله وتوفيقه في الجوابات التي هي أصعب الكلام كله مرّكباً، وأعره مطلباً، وأغمضه مذهباً، وأضيقه مسلكاً، لأن صاحبه يُعجل مُناجاة الفكرة، واستعمال القرينة؛ يوم في بديهة، نقض ما أبرم في رويته؛ فهو كمن أخذت عليه الفجّاج، وسُدّت عليه المخارج؛ قد تعرّض للأسنة، واستهدف للمرامي؛ لا يدري ما يُقرع به فيتأهب له، ولا ما يفجؤه من خصمه فيقرعه بمثله. ولا سيّما إذا كان القائل قد أخذ بمجامع الكلام فقاده بزمامه، بعد أن روى فيه وأحتفل، وجمّع خواطره وأحتهد، وترك الرأي يغيب حتى يخنم، فقد كرهوا الرأي الفطير، كما كرهوا الجواب الدبري؛ فلا يزال في نسج الكلام واستناسه، حتى إذا اطمأن شارده، وسكن نافرّه، صكّ به خصمه جملة واحدة؛ ثم إذا قيل له: أجب ولا تُخطيء، وأسرع ولا تُبطيء، تراه يجاب من غير أناة ولا استعداد، يُطبّق المفاصل، وينفذ إلى المقاتل، كما يُرمي الجندل بالجندل، ويُقرع الحديد بالحديد؛ فيحل به عُراه، وينقض به مرائره، ويكون جوابه على كلامه، كسحابة لبدت عجاجة. فلا شيء أعزل من الجواب الحاضر، ولا أعز من الخصم الألد، الذي يقرع صاحبه، ويصرع مُنازعه

بقول كمثل النار في الحطب الجزل

قال أبو الحسن: أسرع الناس جواباً عند البديهة قريش ثم بقية العرب؛ وأحسن الجواب كله ما كان حاضراً مع إصابة معنى وإيجاز لفظ. وكان يُقال: اتقوا جواب عثمان بن عفان. وقالت النبي عليه الصلاة والسلام لعمر بن الأهتم: أخبرني عن الزبيرقان؛ قال: مطّاع في أدانيه، شديد العارضة، مانع لما وراء ظهره. قال الزبيرقان: والله يا رسول الله، لقد علم مني أكثر من هذا، ولكن حسدي. قال عمرو بن الأهتم: أما والله يا رسول الله، إنه لزمير المروءة، ضيق العطن أحمق الوالد، لئيم الخال والله يا رسول الله ما كذبت في الأولى، ولقد صدقت في الأخرى؛ رضيت عن ابن عمي فقلت فيه أحسن ما فيه ولم أكذب، وسخطت عليه فقلت أقبح ما فيه ولم أكذب. فقال النبي عليه الصلاة والسلام: إن من البيان سحراً.

جواب عقيل بن أبي طالب لمعاوية وأصحابه

لَمَّا قَدِمَ عَقِيلُ بْنُ أَبِي طَالِبٍ عَلَى مُعَاوِيَةَ، أَكْرَمَهُ وَقَرَّبَهُ وَقَضَى حَوَائِجَهُ وَقَضَى عَنْهُ دَيْنَهُ، ثُمَّ قَالَ لَهُ فِي بَعْضِ الْأَيَّامِ: وَاللَّهِ إِنَّ عَلِيًّا غَيْرَ حَافِظٍ لَكَ، قَطَعَ قَرَابَتَكَ وَمَا وَصَلَكَ وَلَا اصْطَنَعَكَ. قَالَ لَهُ عَقِيلٌ: وَاللَّهِ لَقَدْ أَجْزَلَ الْعَطِيَّةَ وَأَعْظَمَهَا، وَوَصَلَ الْقَرَابَةَ وَحَفِظَهَا، وَحَسَّنَ ظَنَّهُ بِاللَّهِ إِذْ سَاءَ بِهِ ظَنُّكَ، وَحَفِظَ أَمَانَتَهُ وَأَصْلَحَ رَعِيَّتَهُ إِذْ خُنْتُمْ وَأَفْسَدْتُمْ وَجُرْتُمْ، فَاكْفُفْ لَأَبَاكَ، فَإِنَّهُ عَمَّا تَقُولُ بِمَعْرُوفٍ. وَقَالَ لَهُ مُعَاوِيَةُ يَوْمًا: أَبَا يَزِيدَ، أَنَا لَكَ خَيْرٌ مِنْ أُخِيكَ عَلِيٍّ. قَالَ: صَدَقْتَ، إِنَّ أُخِيَّ أَثَرَ دِينَهُ عَلَى دُنْيَاهُ، وَأَنْتَ أَثَرْتَ دُنْيَاكَ عَلَى دِينِكَ، فَأَنْتَ خَيْرٌ لِي مِنْ أُخِي، وَأُخِي خَيْرٌ لِنَفْسِهِ مِنْكَ. وَقَالَ لَهُ لَيْلَةَ الْهَرِيرِ: أَبَا يَزِيدَ، أَنْتَ اللَّيْلَةُ مَعْنَاهُ؟ قَالَ: نَعَمْ، وَيَوْمَ بَدَرٍ كُنْتُ مَعَكُمْ. وَقَالَ رَجُلٌ لِعَقِيلٍ: إِنَّكَ لَخَائِنٌ حَيْثُ تَرَكْتَ أَحَاكَ وَتَرَعَبْتَ إِلَى مُعَاوِيَةَ. قَالَ: أَخُوْنُ مَنِّي وَاللَّهِ مَن سَفَكَ دَمَهُ بَيْنَ أُخِي وَابْنِ عَمِّي أَنْ يَكُونَ أَحَدَهُمَا أَمِيرًا. وَدَخَلَ عَقِيلٌ عَلَى مُعَاوِيَةَ، وَقَدْ كَفَّ بَصَرَهُ، فَاجْلَسَهُ مُعَاوِيَةُ عَلَى سَرِيرِهِ، ثُمَّ قَالَ لَهُ: أَنْتُمْ مَعْشَرُ بَنِي هَاشِمٍ تُصَابُونَ فِي أَبْصَارِكُمْ. قَالَ: وَأَنْتُمْ مَعْشَرُ بَنِي أُمَيَّةٍ تُصَابُونَ فِي بَصَائِرِكُمْ. وَدَخَلَ عُتْبَةُ بْنُ أَبِي سُفْيَانَ، فَوَسَّعَ لَهُ مُعَاوِيَةُ بَيْنَهُ وَبَيْنَ عَقِيلٍ، فَجَلَسَ بَيْنَهُمَا، فَقَالَ عَقِيلٌ، مَنْ هَذَا الَّذِي اجْلَسَ أَمِيرَ الْمُؤْمِنِينَ بَيْنِي وَبَيْنَهُ؟ قَالَ: أَخُوْكَ وَابْنُ عَمِّكَ عُتْبَةُ. قَالَ: أَمَا إِنَّهُ إِنْ كَانَ أَقْرَبَ إِلَيْكَ مَنِّي إِنْني لأَقْرَبُ لِرَسُولِ اللَّهِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ مِنْكَ وَمَنْهُ، وَأَنْتُمْ مَعِ رَسُولِ اللَّهِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ أَرْضٌ وَنَحْنُ سَمَاءٌ. قَالَ عُتْبَةُ: أَبَا يَزِيدَ، أَنْتَ كَمَا وَصَفْتَهُ، وَرَسُولُ اللَّهِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ فَوْقَ مَا ذَكَرْتَهُ، وَأَمِيرُ الْمُؤْمِنِينَ عَالِمٌ بِحَقِّكَ، وَلَوْ أَنَّكَ لَمْ تَكُنْ لَنَا عِنْدَكَ مَا نَكَّرَهُ. وَدَخَلَ عَقِيلٌ عَلَى مُعَاوِيَةَ، فَقَالَ لِأَصْحَابِهِ: هَذَا عَقِيلٌ عَمَهُ أَبُو هَبْ. قَالَ لَهُ عَقِيلٌ: وَهَذَا مُعَاوِيَةُ عَمَّتُهُ حَمَّالَةُ الْحَطْبِ؛ ثُمَّ قَالَ: يَا مُعَاوِيَةَ إِذَا دَخَلْتَ النَّارَ فَاعْدِلْ ذَاتَ الْيَسَارِ، فَإِنَّكَ سَتَجِدُ عَمِّيَّ أَبَا هَبٍ مُفْتَرِشًا عَمَّتِكَ حَمَّالَةَ الْحَطْبِ، فَانظُرْ أَيُّهُمَا خَيْرٌ: الْفَاعِلُ أَوْ الْمَفْعُولُ بِهِ؟ وَقَالَ لَهُ مُعَاوِيَةُ يَوْمًا: مَا أَيْبِنَ الشَّبَقُ فِي رِجَالِكُمْ يَا بَنِي هَاشِمٍ! قَالَ: لَكِنَّهُ فِي نِسَائِكُمْ أَيْبُنٌ يَا بَنِي أُمَيَّةٍ. وَقَالَ لَهُ مُعَاوِيَةُ يَوْمًا: وَاللَّهِ إِنْ فَيَكُمُ لَخِصْلَةٌ مَا تُعْجِبُنِي يَا بَنِي هَاشِمٍ؟ قَالَ: وَمَا هِيَ؟ قَالَ: لَيْنٌ فَيَكُمُ؛ قَالَ: لَيْنٌ مَاذَا؟ قَالَ: هُوَ ذَاكَ؛ قَالَ: إِيَّانَا تُعِيرُ يَا مُعَاوِيَةُ! أَجَلٌ وَاللَّهِ، إِنْ فَيَنَا لَيْنًا مِنْ غَيْرِ ضَعْفٍ، وَعِزًّا مِنْ غَيْرِ جَبْرٍ؛ وَأَمَا أَنْتُمْ يَا بَنِي أُمَيَّةٍ، فَإِنَّ لَيْنَكُمْ غَدْرٌ، وَعِزِّكُمْ كُفْرٌ؛ قَالَ مُعَاوِيَةُ: مَا كُلُّ هَذَا أَرَدْنَا يَا أَبَا يَزِيدَ. قَالَ عَقِيلٌ:

وَمَا عَلَّمَ الْإِنْسَانَ إِلَّا لِيَعْلَمَ

لِذِي اللَّبِّ قَبْلَ الْيَوْمِ مَا تَقْرَعُ الْعَصَا

قال معاوية:

وَإِنَّ الْفَتَى بَعْدَ السَّقَاهَةِ يَحْلُمُ

وَإِنَّ سِفَاهَ الشَّيْخِ لَا حِلْمَ بَعْدَهُ

وقال معاوية لعقيل بن أبي طالب: لم جفوتونا يا أبا يزيد؟ فأنشأ يقول:

إِذَا صَاحَبِي يَوْمًا عَلَى الْهُونِ أَضْمَرَ

إِنِّي أَمْرٌ مَنِّي التَّكْرَمُ شِيمَةٌ

ثم قال: وایم الله يا معاوية، لئن كانت الدنيا مهَّدتكَ مهَادَهَا، وَأَطْلَتِكَ بِجَدَائِرِهَا، وَمَدَّتْ عَلَيْكَ أَطْنَابَ سُلْطَانِهَا، مَا ذَاكَ بِالَّذِي يَزِيدُكَ مِنْ رَغْبَةٍ، وَلَا تَحْشَعُ لِرَهْبَةٍ. قَالَ مُعَاوِيَةُ: لَقَدْ نَعْتَهَا أَبَا يَزِيدَ نَعْتًا هَشَّ لِقَلْبِي، وَإِنِّي لِأَرْجُو أَنْ يَكُونَ اللَّهُ تَبَارَكَ وَتَعَالَى مَا رَدَّانِي بَرْدَاءَ مُلْكِهَا، وَحَبَانِي بِفَضِيلَةِ عَيْشِهَا، إِلَّا لِكِرَامَةِ إِدْخَرِهَا لِي؛ وَقَدْ كَانَ دَاوُدُ خَلِيفَةً، وَسُلَيْمَانُ مَلِكًا، وَإِنَّمَا هُوَ لِمِثَالِ يُحْتَدَى عَلَيْهِ، وَالْأُمُورُ أَشْبَاهُ؛ وَایم الله يا أبا يزيد، لَقَدْ أَصْبَحْتَ عَلَيْنَا كَرِيمًا، وَإِلَيْنَا حَبِيبًا، وَمَا أَصْبَحْتُ أَضْمَرْتُ لِكَرَامَتِكَ إِسَاءَةً. وَيُقَالُ إِنَّ امْرَأَةَ عَقِيلٍ، وَهِيَ بِنْتُ عُتْبَةَ بِنْتُ رَيْبَعَةَ حَالَةَ مُعَاوِيَةَ، قَالَتْ لِعَقِيلٍ: يَا بَنِي هَاشِمٍ، لَا يُحِبُّكُمْ قَلْبِي أَبَدًا، أَيْنَ أَبِي؟ أَيْنَ أُخِي؟ أَيْنَ عَمِّي؟ كَأَنَّ أَعْنَاقَهُمْ أَبَارِيقُ فَضَّةٍ. قَالَ عَقِيلٌ: إِذَا دَخَلْتَ جَهَنَّمَ فَخُذِي عَلِيَّ شِمَالَكَ.

جواب ابن عباس لمعاوية رضي الله عنهما لمعاوية وأصحابه

اجتمعت قُرَيْشُ الشَّامِ وَالْحِجَازِ عِنْدَ مُعَاوِيَةَ وَفِيهِمْ عَبْدُ اللَّهِ بْنُ عَبَّاسٍ، وَكَانَ جَرِيئًا عَلَى مُعَاوِيَةَ، حَقَّارًا لَهُ، فَلَبَّغَهُ عَنْهُ بَعْضُ مَا عَمَّهُ، فَقَالَ مُعَاوِيَةُ: رَحِمَ اللَّهُ أَبَا سُفْيَانَ وَالْعَبَّاسَ، كَانَا صَفِيَّيْنِ دُونَ النَّاسِ، فَحَفِظْتُ الْمَيْتَ فِي الْحَيِّ وَالْحَيَّ فِي الْمَيْتِ؛ اسْتَعْمَلْتُ عَلِيًّا يَا بَنَ عَبَّاسَ عَلَى الْبَصْرَةِ وَاسْتَعْمَلْتُ أَحَاكَ عَبِيدَ اللَّهِ عَلَى الْيَمَنِ، وَاسْتَعْمَلْتُ أَحَاكَ تَمَامًا عَلَى الْمَدِينَةِ، فَلَمَّا كَانَ مِنَ الْأَمْرِ مَا كَانَ هُنَاكُمْ، بَمَا فِي أَيْدِيكُمْ، وَلَمْ أَكْشِفْكُمْ عَمَّا وَعَتَّ غَرَائِرُكُمْ، وَقُلْتُ: أَخَذَ

اليومَ وأعطى غداً مثله؟ وعلمتُ أنَّ بدءَ اللومِ يَضُرُّ بعاقبةِ الكرمِ، ولو شئتُ لأخذتُ بحلاقيمتكم، وقبائتكم ما أكلتم، ولا يزال يبلغني عنكم ما تبرُّك به الإبل؟ وذنوبكم إلينا أكثرُ من ذنوبنا إليكم: خذلتُم عُثمانَ بالمدينة، وقتلتمُ أنصاره يومَ الجمل، وحاربتموني بصفين؛ ولعمري لبنو تميمٍ وعدي أعظمُ ذنوباً منا إليكم، إذ صرّفوا عنكم هذا الأمر، وسنّوا فيكم هذه السنّة؛ فحتى متى أغضبي الجفونَ على القذّي، وأسحب الذبولَ على الأذى، وأقول: لعلَّ اللهَ وعسى! ما تقول يا بن عباس؟ قال: فتكلم ابنُ عباس فقال: رحم الله أبانا وأباك، كانا صفيين متقارضين، لم يكن لأبي من مال إلا ما فضل أباك، وكان أبوك كذلك لأبي، ولكن من هنا أبك بإخاء أبي أكثرُ من هنا أبي بإخاء أبيك؛ نصر أبي أباك في الجاهليّة، وحنّ دمه في الإسلام؛ وأما استعمالُ علي إياناً، فلنفسه دون هَواه، وقد استعملت أنت رجلاً لهواك لا لنفسك منهم ابن الحضرمي على البصرة، فقتل؛ وابن بشر بن أرطاة على اليمن، فخان، وحبيب بن مُرّة على الحجاز، فرد، والضحاك بن قيس الفهري على الكوفة، فحُصِب؛ ولو طلبت ما عندنا وقينا أعراسنا؛ وليس الذي يبلغنا عنّا بأعظم من الذي يبلغنا عنك، ولو وضع أصغرُ ذنوبكم إلينا على مائة حسنة لمحقها، ولو وضع أدنى عُذْرنا إليكم على مائة سيئة لحسنتها؛ وأما خذلتنا عثمان، فلو لزمنا نصره لنصرناه، وأما قتلنا أنصاره يومَ الجمل، فعلى خروجهم مما دخلوا فيه؛ وأما حربنا إياك بصفين، فعلى تركك الحقِّ وأدعائك الباطل؛ وأما إغراؤك إياناً بتيمةٍ وعديّ، فلو أردنا ما غلبونا عليها، وسكّت. فقال في ذلك ابنُ أبي لهب:

حتى رماه بما فيه ابنُ عباس

حتى استقاد وما بالحق من باس

إلا كواه بها في فروة الرأس

كان ابنُ حربٍ عظيمَ القدرِ في الناس

ما زال يُهبطه طوراً ويصعده

لم يتركن خطةً مما يذللّه

وقال ابنُ أبي مليكة: ما رأيتُ مثلَ ابنِ عباس! إذا رأيتُ أصحَّ الناس، وإذا

تكلم فأعربُ الناس، وإذا أفتى فأفقه الناس، ما رأيتُ أكثرَ صواباً، ولا أحضِرَ جواباً من ابنِ عباس. ابن الكلبّي قال: أقبل معاوية يوماً على ابنِ عباس، فقال: لو وليتمونا ما أتيتُم إلينا ما أتينا إليكم من الترحيب والتقريب، وإعطائكم الجزيل، وإكرامكم على القليل، وصبري على ما صبرتُ عليه منكم؛ وإني لا أريد أمراً إلا أظمتُ صدره، ولا آتني معروفاً إلا صغرتُ خطره، وأعطيكم العطيّة فيها قضاءُ حقوقكم فتأخذونها متكارهين عليها، تقولون: قد نَقَصَ الحقُّ دون الأمل؛ فأبي أملٌ بعد ألف ألف أعطيتها الرجل منكم، ثم أكون أسرَ بإعطائها منه بأخذها. والله لئن اتخذتُ لكم في مالي، وذلتُ لكم في عرضي، أرى انخداعي كرمًا، وذليّ حلماً. ول وليتمونا رضىنا منكم بالانصاف، ولا نَسألُكم أموالكم، لعلَّنا بحالنا وحالكم، ويكون أنبغضها إلينا وأحبّها إليكم أن نُغفِيكم. فقال ابنُ عباس: لو ولينا أحسنًا المأساة، وما ابئلنا بالأثرة، ثم لم نغشم الحيّ، ولم نثتم الميت، ولستُم بأجود منّا أكفًا، ولا أكرم أنفسًا، ولا أصون لأعراض المروءة؛ ونحن والله أعطى الآخرة منكم للدينا، وأعطي في الحق منكم في الباطل، وأعطي على التقوى منكم على الهوى؛ والقسمُ بالسوية والعدلُ في الرعية يأتيان على المني والأمل. ما رضىناكم منّا بالكفّاف! فلو رضىتم به، منّا لم ترض أنفسنا به لكم والكفّاف رضىنا من لا حقَّ له فلا تُبخلونا حتى نَسألونا، ولا تُلْفِظونا حتى نذوقونا. أبو عثمان الحزامي قال: اجتمعت بنو هاشم عند معاوية فأقبل عليهم، فقال: يا بني هاشم، والله إن خيرِي لكم لمنوح، وإن باي لكم لمفتوح، فلا يقطع خيرِي عنكم علةً، ولا يوصد باي دونكم مسألة، ولما نظرتُ في أمري وأمركم رأيتُ أمراً مختلفاً، إنكم لترّون أنكم أحقُّ بما في يدي مني، وإذا أعطيتُم عطيةً فيها قضاءُ حقكم، قلتم: أعطانا دون حنّنا، وقصرنا بنا عن قدرنا، فصرتُ كالمسلوب، المسلوب لا حمد له، وهذا مع انصاف قائلكم وإسعاف سائلكم. قال: فأقبل عليه ابنُ عباس فقال: والله ما منحتنا شيئاً حتى سألناه، ولا فتحت لنا باباً حتى قرعناه، ولئن قطعتَ عنّا خيرك لله أوسع منك، ولئن أغلقتَ دوننا لنكفن، أنسفتنا عنك. وأما هذا المال، فليس لك منه إلا ما لرجل من المسلمين، ولنا في كتاب الله حنّان: حق في الغنيمة، وحق في الفّيء، فالغنيمة ما غلبنا عليها، والفّيء ما اجتنيناها. ولولا حنّنا في هذا المال لم يأتك منّا زائر، يحمله خُفّ ولا حافر، أكفأك أم أزيدك؛ قال: كفاني، فإنك لا تُهَرّ ولا تبتج. وقال يوماً معاوية، وعنده ابنُ عباس: إذا جاءت هاشمٌ بقديهما وحديتها، وجاءت بنو أمية بأحلامها وسياستها، وبنو أسد بن عبد العزّي برفادتها ودياتها، وبنو عبد الدار بحجابها ولواتها، وبنو معزوم بأموالها وأفعالها، وبنو تميم بصديقتها وجوادها، وبنو عدي بفاروقها ومُتفكرها، وبنو سَهْم بأرائها ودهائنها، وبنو جُمح بشرّفها وأنفتها، وبنو عامر بن لوي بفارسها وقريعتها، فمن ذا يُجلى في مضمارها، ويجرى إلى غايتها؟ ما تقول يا بن عباس؟ قال: أقول: ليس حيّ يفخرون بأمرٍ إلا وإلى جنبهم منّ

يَشْرِكُهُمْ، إِلَّا قُرَيْشًا فَإِنَّهُمْ يَفْخَرُونَ بِالنَّبُوَّةِ الَّتِي لَا يُشَارِكُونَ فِيهَا، وَلَا يُسَاوُونَ بِهَا، وَلَا يُدْفَعُونَ عَنْهَا؛ وَأَشْهَدُ أَنَّ اللَّهَ لَمْ يَجْعَلْ مُحَمَّدًا مِنْ قُرَيْشٍ إِلَّا وَقُرَيْشٌ خَيْرُ الْبَرِيَّةِ، وَلَمْ يَجْعَلْهُ فِي بَنِي عَبْدِ الْمُطَّلِبِ إِلَّا وَهُمْ خَيْرُ بَنِي هَاشِمٍ، مَا تُرِيدُ أَنْ تَفْخَرَ عَلَيْكُمْ إِلَّا بِمَا تَفْخَرُونَ بِهِ، إِنْ بِنَا فَتُفْتَحِ الْأَمْرَ وَبِنَا يُخْتَمِ، وَلَكَ مُلْكٌ مُعَجَّلٌ، وَلَنَا مُؤَجَّلٌ، فَإِنْ يَكُنْ مُلْكُكُمْ قَبْلَ مُلْكِنَا فَلَيْسَ بَعْدَ مُلْكِنَا مُلْكٌ، لِأَنَّ أَهْلَ الْعَاقِبَةِ، وَالْعَاقِبَةُ لِلْمُتَّقِينَ أَبُو مُخَنَّفٍ قَالَ: حَجَّ عَمْرُو بْنُ الْعَاصِ فَمَرَّ بِعَبْدِ اللَّهِ بْنِ عَبَّاسٍ فَحَسَدَهُ مَكَانَهُ وَمَا رَأَى مِنْ هَيْبَةِ النَّاسِ لَهُ وَمَوْفَعِهِ مِنْ قُلُوبِهِمْ، فَقَالَ لَهُ: يَا بَنَ عَبَّاسٍ، مَا لَكَ إِذَا رَأَيْتَنِي وَلَيْتَنِي الْقَصْرَةَ، وَكَانَ بَيْنَ عَيْنَيْكَ ذُبْرَةً، وَإِذَا كُنْتَ فِي مَلَأَ مِنَ النَّاسِ كُنْتَ الْهُوَاهَا الْهُمَزَةَ! فَقَالَ ابْنُ عَبَّاسٍ: لِأَنَّكَ مِنَ اللَّثَامِ الْفَجْرَةِ، وَلِقُرَيْشِ الْكِرَامِ الْبَرَّةِ، لَا يَنْطِقُونَ بِبَاطِلِ جَهْلِهِ، وَلَا يَكْتُمُونَ حَقًّا عِلْمِهِ، وَهُمْ أَعْظَمُ النَّاسِ أَحْلَامًا، وَأَرْفَعُ النَّاسِ أَعْلَامًا. دَخَلَتْ فِي قُرَيْشٍ وَلَسَتْ مِنْهَا، فَأَنْتَ السَّاقِطُ بَيْنَ فِرَاشَيْنِ، لَا فِي بَنِي هَاشِمٍ رَحْلُكَ وَلَا فِي بَنِي عَبْدِ شَمْسٍ رَاحِلَتُكَ، فَأَنْتَ الْأَثِيمُ الزَّيْمِ، الضَّالُّ الْمُضِلُّ، حَمَلَكُ مُعَاوِيَةَ عَلَى رِقَابِ النَّاسِ، فَأَنْتَ تَسْطُو بِحِلْمِهِ وَتَسْمُو بِكْرَمِهِ. فَقَالَ عَمْرُو: أَمَا وَاللَّهِ إِنِّي لَمَسْرُورٌ بِكَ، فَهَلْ يَنْفَعُنِي عِنْدَكَ؟ قَالَ ابْنُ عَبَّاسٍ: حَيْثُ مَالُ الْحَقِّ مِلْنَا، وَحَيْثُ سَلَكَ قَصْدُنَا. الْمَدَائِنِي قَالَ: قَامَ عَمْرُو بْنُ الْعَاصِ فِي مَوْسَمٍ مِنْ مَوَاسِمِ الْعَرَبِ، فَأَطْرَى مُعَاوِيَةَ بْنَ أَبِي سَفْيَانَ وَبَنِي أُمِيَّةٍ وَتَنَاوَلَ بَنِي هَاشِمٍ، وَذَكَرَ مَشَاهِدَهُ بِصِفِّينَ، وَاجْتَمَعَتْ قُرَيْشٌ، فَأَقْبَلَ عَبْدُ اللَّهِ بْنُ عَبَّاسٍ عَلَى عَمْرُو، فَقَالَ: يَا عَمْرُو، إِنَّكَ بَعْتَ دِينَكَ مِنْ مُعَاوِيَةَ، وَأَعْطَيْتَهُ مَا بِيَدِكَ، وَمَتَّكَ مَا بِيَدِ غَيْرِكَ، وَكَانَ الَّذِي أَخَذَ مِنْكَ أَكْثَرَ مِنَ الَّذِي أَعْطَاكَ، وَالَّذِي أَخَذْتَ مِنْهُ دُونَ الَّذِي أَعْطَيْتَهُ، حَتَّى لَوْ كَانَتْ نَفْسُكَ فِي يَدِكَ أَلْقَيْتَهَا، وَكُلُّ رَاضٍ بِمَا أَخَذَ وَأَعْطَى، فَلَمَّا صَارَتْ مِصْرُ فِي يَدِكَ كَدَّرَهَا عَلَيْكَ بِالْعَدْلِ وَالتَّقْصُصِ، وَذَكَرْتَ مَشَاهِدَكَ بِصِفِّينَ، فَوَاللَّهِ مَا ثَقُلْتُ عَلَيْنَا يَوْمَئِذٍ وَطَأْتِكَ، وَلَقَدْ كَشَفْتَ فِيهَا عَوْرَتِكَ، وَإِنْ كُنْتَ فِيهَا لِطَوِيلِ اللَّسَانِ، قَصِيرَ السِّنَانِ، آخَرَ الْخَيْلِ إِذَا أَقْبَلْتُ، وَأَوَّلَهَا إِذَا أَدْبَرْتُ، لَكَ يَدَانِ: يَدٌ لَا تَبْسُطُهَا إِلَى خَيْرٍ وَأُخْرَى لَا تَقْبِضُهَا عَنْ شَرٍّ، وَلِسَانٌ غَادِرٌ ذُو وَجْهَيْنِ؛ وَجِهَانِ وَجْهٌ مُوحَشٌ، وَوَجْهٌ مُؤَنَسٌ؛ وَلِعَمْرِي إِنْ مِنْ بَاعَ دِينَهُ بِدُنْيَا غَيْرِهِ، لِحَرِيٍّ أَنْ يَطُولَ عَلَيْهَا نَدْمُهُ. لَكَ بَيَانٌ وَفِيكَ حِطْلٌ، وَلَكَ رَأْيٌ وَفِيكَ نَكْدٌ، وَلَكَ قَدْرٌ وَفِيكَ حَسَدٌ، وَأَصْغَرَ عَيْبُ فَيْكَ أَعْظَمَ عَيْبٍ فِي غَيْرِكَ. فَأَجَابَهُ عَمْرُو بْنُ الْعَاصِ: وَاللَّهِ مَا فِي قُرَيْشٍ أَثْقَلُ عَلَيَّ مَسْئَلَةً، وَلَا أَمْرٌ جَوَابًا مِنْكَ، وَلَوْ اسْتَطَعْتُ أَلَّا أَجِيبَكَ لَفَعَلْتُ، غَيْرَ أَنِّي لَمْ أَعِ دِينِي مِنْ مُعَاوِيَةَ، وَلَكِنْ بَعْتُ اللَّهَ نَفْسِي، وَلَمْ أُنْسِ نَصِيبي مِنَ الدُّنْيَا، وَأَمَا مَا أَخَذْتُ مِنْ مُعَاوِيَةَ وَأَعْطَيْتَهُ، فَإِنَّهُ لَا تُعْلَمُ الْعَوَانَ الْخِمْرَةَ؛ وَأَمَا مَا أَتَى إِلَيَّ مُعَاوِيَةَ فِي مِصْرَ، فَإِنَّ ذَلِكَ لَمْ يُغَيِّرْنِي لَهُ؛ وَأَمَا خِفَّةَ وَطْأَتِي عَلَيْكُمْ بِصِفِّينَ، فَلِمَ اسْتَقْتَلْتُمْ حَيَاتِي وَاسْتَبْطَأْتُمْ وَفَاتِي؛ وَأَمَا الْجِنِّ، فَقَدْ عَلِمْتُ قُرَيْشَ أَتَى أَوَّلَ مَنْ يُبَارِزُ، وَأَمْرٌ مِنْ يُبَارِزُ، وَأَمَا طُولَ لِسَانِي، فَيَا كَمَا قَالَ هِشَامُ بْنُ الْوَلِيدِ لِعُثْمَانَ بْنِ عَفَّانَ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ:

لساني طويلٌ فاحترس من شداته

وَأَمَا وَجْهَيَّ وَلِسَانِي، فَإِنَّ أَلْقَى كُلَّ ذِي قَدْرٍ بِقَدْرِهِ، وَأَرْمِي كُلَّ نَابِحٍ بِحَجْرِهِ، فَمَنْ عَرَفَ قَدْرَهُ كَفَانِي نَفْسَهُ، وَمَنْ جَهَلَ قَدْرَهُ كَفَيْتُهُ نَفْسِي. وَلِعَمْرِي مَا لِأَحَدٍ مِنْ قُرَيْشٍ مِثْلُ قَدْرِكَ مَا خَلَا مُعَاوِيَةَ، فَمَا يَنْفَعُنِي ذَلِكَ عِنْدَكَ؛ وَأَنْشَأَ عَمْرُو يَقُولُ:

عليك وسيفي من لساني أطول

بِي الْيَوْمَ جُهَالٌ وَلَيْسَ بِكُمْ جَهْلٌ

سَرِيعٌ إِلَى الدَّاعِي إِذَا كَثُرَ الْقَتْلُ

جَبِلْتُ عَلَيْهَا، وَالطَّبَاعُ هُوَ الْجَبَلُ

بِدُومَةٍ إِذْ أَعْيَا عَلَى الْحَكْمِ الْفَصْلُ

وَأَنِّي إِذَا عَجَّتْ بِكَارِكُمْ فَحَلُّ

بَنِي هَاشِمٍ مَالِي أُرَاكُمُ كَأَنْكُمُ

أَلَمْ تَعْلَمُوا أَنِّي جَسُورٌ عَلَى الْوَعَى

وَأَوَّلَ مَنْ يَدْعُو نَزَالَ، طَبِيعَةٌ

وَأَنِّي فَصَلْتُ الْأَمْرَ بَعْدَ اسْتِبَاهِهِ

وَأَنِّي لَا أَعْيَا بِأَمْرٍ أُرِيدُهُ

مُحَمَّدُ بْنُ سَعِيدٍ عَنْ إِبْرَاهِيمَ بْنِ حُوَيْطِبٍ قَالَ: قَالَ عَمْرُو بْنُ الْعَاصِ لِعَبْدِ اللَّهِ بْنِ عَبَّاسٍ بَعْدَ قَتْلِ عَلِيِّ بْنِ أَبِي طَالِبٍ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ: إِنَّ هَذَا الْأَمْرَ، الَّذِي نَحْنُ فِيهِ وَأَنْتُمْ، لَيْسَ بِأَوَّلِ أَمْرِ قَادَةِ الْبَلَاءِ، وَقَدْ بَلَغَ الْأَمْرُ بِنَا وَبِكُمْ إِلَى مَا تَرَى، وَمَا أَثَقْتُ لَنَا هَذِهِ الْحَرْبُ حَيَاءً وَلَا صَبْرًا، وَلَسْنَا نَقُولُ: لَيْتَ الْحَرْبُ عَادَتْ، لَكِنَّا نَقُولُ: لَيْتَهَا لَمْ تَكُنْ كَانَتْ، فَانظُرْ فِيمَا بَقِيَ بَعِيرٍ مَا مَضَى، فَإِنَّكَ رَأْسُ هَذَا الْأَمْرِ بَعْدَ عَلِيٍّ، فَإِنَّكَ أَمِيرٌ مُطَاعٌ، وَمَأْمُورٌ مُطِيعٌ، وَمَشَاوِرٌ مَأْمُونٌ، وَأَنْتَ هُوَ.

مجاوبة بني هاشم وبني عبد شمس لابن الزبير

الشَّعْبِيُّ قال: قال ابنُ الزُّبَيْرِ لعبدِ الله بنِ عَبَّاسٍ: قاتلتَ أمَّ المؤمنينِ وحواريَّ رسولِ اللهِ صلى اللهُ عليه وسلم وأفتيتَ بزواجِ المُتعة. فقال: أمَّا أمُّ المؤمنينِ فأنتَ أخرجتَها وأبوكَ وحالكُ، وبنا سُمِّيتَ أمُّ المؤمنينِ، وكُنَّاها خَيْرَ بَيْنِ، فتنجَّوز اللهُ عنها. وقاتلتَ أنتَ وأبوكَ عليًّا، فإن كانَ عليٌّ مُؤمناً، فقد ضلَّمتُم بقتالكم المؤمنين؛ هانَ كانَ عليٌّ كافراً، فقد يؤتمُّ بسُخطِ منِ اللهُ بفراركم من الرَّحْفِ؛ وأمَّا المُتعة، فإنَّ عليًّا رضي اللهُ عنه قال: سمعتُ رسولَ اللهِ صلى اللهُ عليه وسلم رَحَّصَ فيها فأفتيتُ بها، ثم سمعتهُ يَنْهَى عنها فنهيتهُ عنها؟ وأولُ مجمرِ آلِ الزُّبَيْرِ. دخلَ الحسنُ بنُ عليٍّ على مُعاوية، وعنده ابنُ الزُّبَيْرِ وأبو سَعِيدِ بنِ عَقِيلِ ابنِ أَبِي طالب، فلما جَلَسَ الحسنُ، قال مُعاوية: يا أبا محمد، أيهما كانَ أكبرَ: عليٌّ أم الزُّبَيْرُ؟ قال: ما أقربُ ما بينهما! عليٌّ كانَ أسنَّ من الزُّبَيْرِ، رحمَ اللهُ عليًّا. فقال ابنُ الزُّبَيْرِ: ورحمَ اللهُ الزُّبَيْرِ. فتابَسَّم الحسنُ. فقال أبو سَعِيدِ بنِ عَقِيلِ بنِ أَبِي طالب: دَعَّ عنكَ عليًّا والزُّبَيْرِ، إنَّ عليًّا دعا إلى أمرٍ فاتَّبِع، وكانَ فيه رأساً، ودعا الزُّبَيْرِ إلى أمرٍ كانَ فيه الرأسُ امرأةً، فلما تراءتِ الفِئتانِ والتقى الجمعانِ نَكَّصَ الزُّبَيْرِ على عَقِيْبِهِ وأدبرَ مُنهزماً قبلَ أن يظْهَرَ الحَقُّ فيأخذه أو يَدْخُضَ الباطلُ فيتركه، فأدركه رجلٌ لو قيسَ ببعضِ أعضائه لكانَ أصغرَ، فضربَ عنقه، وأخذَ سَلْبَهُ وجاءَ برأسه، ومَضَى عليٌّ قُدماً كعادته من ابنِ عمِّه ونبِيهِ صلى اللهُ عليه وسلم، فَرَحِمَ اللهُ عليًّا ولا رَحِمَ الزُّبَيْرِ. فقال ابنُ الزُّبَيْرِ: أما والله لو أنَّ غيرَكَ تكَلَّم بهذا يا أبا سَعِيدِ لَعَلِم، قال: إن الذي تُعَرِّضُ به يَرْغَبُ عنكَ. وأخبرت عائشةُ بمقاتلتِهما، فمرَّ أبو سَعِيدِ بفنائِها فنادته: يا أحولُ يا خبيث! أنتَ القاتلُ لابنِ أخي كذا وكذا؛ فالتفت أبو سَعِيدِ فلم يَعرِ شيئاً، فقال: إن الشيطانَ ليرَاكَ من حيث لا تراه. فَصَحَّكَتِ عائشةُ وقالت: لله أبوك! ما أحببتُ لسانَكَ!

الشَّعْبِيُّ قال: دخلَ الحسينُ بنُ عليٍّ يوماً على مُعاوية ومعه مولى له يقالُ له ذُكْوَانُ، وعند مُعاوية جماعةٌ من قُرَيْشٍ فيهم ابنُ الزُّبَيْرِ، فَرَحَّبَ مُعاوية بالحسينِ وأجلسه على سريره، وقال: ترى هذا القاعدَ - يعني ابنَ الزُّبَيْرِ - فإنه ليدركه الحسدُ لبني عبد مناف. فقال ابنُ الزُّبَيْرِ لمعاوية: قد عَرَفْنَا فضلَ الحسينِ وقَرابته من رسولِ اللهِ صلى اللهُ عليه وسلم لكنَّ إن شئتَ أن أعلمَكَ فضلَ الزُّبَيْرِ على أبيك أبي سُفيانٍ فَعَلْتُ. فتكلَّم ذُكْوَانُ مولى الحسينِ ابنِ عليٍّ، فقال: يا بنِ الزُّبَيْرِ، إن مولاي ما يمنعُ من الكلامِ أن لا يكونَ طَلَّقَ اللِّسانَ، رابطَ الجَنانِ، فإن نطقَ نطقَ بَعْلِم، وإن صَمَّتْ صَمَّتْ بِجَلْمٍ غيرَ أنه كَفَّ الكلامَ وسَبَقَ إلى السِّنَانِ، فأقرَّتْ بفضله الكرام، وأنا الذي أقول:

والناسُ بينَ مُقَصِّرٍ ومُبَلِّدٍ

يُنمى بغيرِ مُسودِّ ومُسَدِّدٍ

خيرِ الأنامِ وفرعِ آلِ محمدٍ

فِيمَ الكَلَامِ لِسَابِقِ فِي غَايَةِ

إِنَّ الَّذِي يَجْرِي لِيُذْرِكَ شَأْوَهُ

بَلْ كَيْفَ يُذْرِكَ نُورُ بَدْرِ ساطِعٍ

فقال مُعاوية: صدَّقَ قولُكَ يا ذُكْوَانُ، أكثرَ اللهُ في موالِي الكرامِ مثلكَ. فقال ابنُ الزُّبَيْرِ: إنَّ أبا عبدِ اللهِ سَكَتَ، وتكلَّم مولاه، ولو تكَلَّم لأجَبناه، أو لكفَّفنا عن جوابه إجلالاً له، ولا جوابَ لهذا العبدِ. قال ذُكْوَانُ: هذا العبدُ خيرٌ منك، قال رسولُ اللهِ صلى اللهُ عليه وسلم "مولى القومِ منهم". فأنا مولى رسولِ اللهِ صلى اللهُ عليه وسلم وأنتَ ابنُ الزُّبَيْرِ بنِ العوامِ بنِ خُوَيْلِدٍ، فنحنُ أكرمُ ولأءَ وأحسنُ فعلاً. قال ابنُ الزُّبَيْرِ: إني لستُ أُحِبُّ هذا، فهاتِ ما عندكَ يا مُعاوية. فقال مُعاوية: قاتلكَ اللهُ يا بنِ الزُّبَيْرِ! ما أعيَاكَ وأبعَاكَ! أتفخرُ بينَ يدي أميرِ المؤمنينِ وأبي عبدِ اللهِ! إنَّكَ أنتَ المُتَعَدِّي لِطُورِكَ، الذي لا تُعَرِّفُ قَدْرَكَ، فَقسُ شِركَ بِنِزْكَ، ثم تعرَّفَ كيف تَقَعُ بينَ عَرانينِ بني عَبدِ مناف. أما والله لئن دُفِعَتْ في بُحورِ بني هاشمِ وبني عبدِ شمسٍ لقطعتُكَ باعِ مواجِها، ثم لترمينِ بكِ في لُججِها. فما بقاؤُكَ في البحورِ إذا غَمَرْتَكَ، وفي الأمواجِ إذا بهَزَّتْكَ هنالكِ تعرفُ نفسَكَ، وتندمُ على ما كانَ من جُرأتِكَ، وتَمَنَّى ما أصبَحْتَ فيه من أمان، وقد حِيلَ بينَ العيرِ والنزوانِ. فأطرقَ ابنُ الزُّبَيْرِ ملياً! ثم رَفَعَ رأسَه فالتفتَ إلى مَنْ حوله، ثم قال: أسألكم بالله، أتعلمون أنَّ أبي حواريَّ رسولِ اللهِ صلى اللهُ عليه وسلم، وأن أباهُ أبا سُفيانِ حاربَ رسولَ اللهِ صلى اللهُ عليه وسلم وأن أُمِّي أسماءُ بنتُ أبي بَكْرٍ الصِّدِّيقِ، وأمه هِنْدُ الأَكْبَادِ؛ وَجَدِّي الصِّدِّيقِ، وَجَدَّه المَشْدُوخُ بيدرُ ورأسِ الكُفْرِ، وَعَمَّتِي خديجةُ ذاتِ الحَظَرِ والحَسَبِ، وَعَمَّتَهُ أمُ جَمِيلِ حَمالةُ الحَظَبِ، وَجَدَّتِي صَفِيَّةُ، وَجَدَّتَهُ حَمَامَةُ، وَزَوْجَ عَمَّتِي خَيْرُ ولدِ آدمَ مُحَمَّدُ صلى اللهُ عليه وسلم وزوجَ عَمَّتِهِ شَرُّ ولدِ آدمَ أبو هُبَ سَيصلى ناراً ذاتِ لَهَبِ، وخالتي عائشةُ أمُّ المؤمنينِ. وخالتي أشتقى الأشقيينَ، وأنا عبدُ اللهِ

وهو معاوية. قال له معاوية: ويحك يا بن الزبير! كيف تصف نفسك بما وصفتها؟ والله مالك في القديس من رياسة، ولا في الحديث من سياسة، ولقد قدناك وسدناك قديماً وحديماً، لا تستطيع لذلك إنكاراً، ولا عنه فراراً، وإن هؤلاء الخُصوم ليعلمون أن قريشاً قد اجتمعت يوم الفجار على رياسة حرب بن أمية، وأن أباك وأسرتك تحت رايته راضون بإمارته، غير مُنكرين لفضله ولا طامعين في عزله، إن أمر أطاعوا، وإن قال أنصتوا؛ فلم تزل فينا القيادة وعز الولاية حتى بعث الله عز وجل محمداً صلى الله عليه وسلم فأنتخبه من خير خلقه، من أسرتي لا من أسرتك، وبني أبي لابي أبيك، فحدثه قريش أشد الجحود، وأنكرته أشد الإنكار، وجاهدته أشد الجهاد، إلّا من عصم الله من قريش؛ فما ساد قريشاً وقادهم إلا أبو سفيان ابن حرب، فكانت الفتنة تلتقي، ورئيس الهدى منا ورئيس الضلالة منا، فمهديكم تحت راية مهدينا، وضالكم تحت راية ضالنا، فنحن الأرباب وأنتم الأذئاب، حتى خلص الله أبا سفيان بن حرب بفضله من عظيم شره، وعصمه بالإسلام من عبادة الأصنام، فكان في الجاهلية عظيماً شأنه، وفي الإسلام معروفاً مكانه، ولقد أعطى يوم الفتح ما لم يُعط أحد من آباءك، وإن مُنادي رسول الله صلى الله عليه وسلم نادى: من دخل المسجد فهو آمن، ومن دخل دار أبي سفيان فهو آمن؛ وكانت داره حرماً، لا دارك ولا دار أبيك؛ وأما هند، فكانت امرأة من قريش، في الجاهلية عظيمة الخطر، وفي الإسلام كريمة الخير؛ وأما جدك لصديق، فيتصديق عبد مناف سُمي صديقاً لا بتصديق عبد العزي؛ وأما ما ذكرت من جدّي المشدوخ بيدر فلعمري لقد دعا إلى البراز هو وأخوه وابنه، فلو برزت إليه أنت وأبوك ما بارزوكم ولا رأوكم لهم أكفاء، كما قد طلب ذلك غيركم فلم يقبلوهم، حتى برز إليهم أكفأهم من بني أبيهم، فقضى الله مَنايهم بأيديهم، فنحن قتلنا ونحن قُتلنا، وما أنت وذاك؟ وأما عمّتك أم المؤمنين، فبنا شرفت وسميت أم المؤمنين، وخالتك عائشة مثل ذلك، وأما صفيّة، فهي أذنتك من الظلّ ولولاها لَكُنْتَ ضاحياً؛ وأما ما ذكرت من عمك وخال أبيك سيّد الشهداء، فكذلك كانوا رحمهم الله، وفخرهم وإرثهم لي دونك، ولا فخر لك فيهم، ولا إرث بينك وبينهم؛ وأما قولك أنا عبد الله وهو معاوية، فقد علمت قريش أننا أجد في الإزم، وأمضى في القدم وأمنع للحرم، لا والله ما أراك مُنتهباً حتى تُروم من بني عبد مناف ما رام أبوك، فقد طالبهم بالذحول، وقدم إليهم الخيول، وخدعتم أم المؤمنين، ولم تراقبوا رسول الله صلى الله عليه وسلم إذ مددتم على نساءكم السجوف، وأبرزتم زوجته للثتوف، ومقارعة السيوف، فلما التقى الجمعان نكص أبوك هارباً، فلم يُنجه ذلك أن طحنه أبو الحسين بكلّك طحن الحصيد بأيدي العبيد، وأما أنت، فأقلت بعد أن حَمَشْتِك بَرائته وناثك مخالّبه. وإم الله، ليقومنك بنو عبد مناف بثقافها أو لتصيحن منها صياح أبيك بوادي السباع، وما كان أبوك المرهوب جانبه، ولكنه كما قال الشاعر:

فَقَضَّضَهُ بِالْكَفِّ مِنْهُ وَحَطَّماً

أَكِيلَةَ سِرْحَانٍ فَرِيَسَةَ ضَيْغَمٍ

نارِع مَرَوَانُ بْنُ الْحَكَمِ يَوْمًا ابْنُ الزُّبَيْرِ عِنْدَ مَعَاوِيَةَ، فَكَانَ مَعَاوِيَةَ مَعَ مَرَوَانَ، فَقَالَ ابْنُ الزُّبَيْرِ: يَا مَعَاوِيَةَ: إِنَّ لَكَ حَقًّا وَطَاعَةً، وَإِنَّ لَكَ صِلَةً وَحُرْمَةً، فَأَطَعِ اللَّهَ تُطْعَمَ، فَإِنَّهُ لَا طَاعَةَ لَكَ عَلَيْنَا إِنْ لَمْ تُطْعِ اللَّهَ، وَلَا تُطْرَقِ إِطْرَاقَ الْأَفْعَوَانِ فِي أَصُولِ السَّخِيرِ. وَقَالَ مَعَاوِيَةُ يَوْمًا وَعِنْدَهُ ابْنُ الزُّبَيْرِ، وَذَكَرَ لَهُ مَرَوَانَ فَقَالَ: إِنْ يُطْلَبُ هَذَا الْأَمْرُ فَقَدْ يَطْمَعُ فِيهِ مَنْ هُوَ دُونَهُ، وَإِنْ يَتْرَكَهُ يَتْرَكَهُ لِمَنْ هُوَ فَوْقَهُ، وَمَا أَرَاكُمْ بِمَنْتَهَيْنِ حَتَّى يَبْعَثَ اللَّهُ عَلَيْكُمْ مَنْ لَا تَعْطِفُهُ قَرَابَةٌ، وَلَا تَرْدَهُ مَوَدَّةٌ، يَسُومُكُمْ حَسْفًا، وَيُورِدُكُمْ تَلْفًا. قَالَ ابْنُ الزُّبَيْرِ: إِذَا وَاللَّهِ تُطْلَقُ عِقَالُ الْحَرْبِ بِكُتَائِبِ تَمُورِ كَرِجْلِ الْجَرَادِ، حَافَاتِهَا الْأَسَلُ، لَهَا دَوِيٌّ كَدَوِيٍّ الرَّيْحِ، تَتَّبِعُ طَرِيفًا مِنْ قُرَيْشٍ، لَمْ تَكُنْ أُمَّهُ بَرَاعِيَةً تَلَّةً قَالَ مَعَاوِيَةَ: أَنَا ابْنُ هِنْدٍ، أَطْلَقْتُ عِقَالَ الْحَرْبِ، وَأَكَلْتُ ذِرْوَةَ السَّنَامِ، وَشَرِبْتُ عُفْوَانَ الْمَكْرَعِ، وَلَيْسَ لِلْأَكْلِ بَعْدِي إِلَّا الْفَلْدَةُ، وَلَا لِلشَّارِبِ إِلَّا الرَّتْقُ.

مجاوبة الحسن بن علي لمعاوية وأصحابه

وفد الحسن بن عليّ على معاوية، فقال عمرو لمعاوية: يا أمير المؤمنين: إن الحسن لهُ، فلو حملته على المنبر فتكلم وسمع الناس كلامه عابوه وسقط من عيوبهم، ففعل. فصعد المنبر وتكلم وأحسن، ثم قال: أيها الناس، لو طلبتم ابناً لنبيكم ما بين لايتيها لم تجدوه غيري وغير أخي، وإن أدري لعله فتنة لكم ومتاع إلى حين. فسأ ذلك عمراً وأراد أن يقطع كلامه، فقال له: أبا محمد، أتصف الرطب؟ فقال: أجل، ثلحقه الشمال، وتخرجه الجنوب. وثنضجه الشمس، ويصبغه القمر. قال: أبا محمد، هل تئعت الجراءة؟ قال: نعم، تُبعد المشي في الأرض الصَّحَّصَح حتى تتوارى من القوم، ولا تستقبل

القَبْلَة ولا تَسْتَدْبِرْهَا، ولا تَسْتَنْجِ بِالْقَمَامَةِ والرَّمَّة - يريد الرُّوث والعَظْم - ولا تُبْلِ فِي المَاءِ الرَّآكِد. بينما مُعاوية بن أبي سُفيان جالسٌ في أصحابه إذ قيل له: الحسنُ بالباب؟ فقال معاوية: إن دخل أفسد علينا ما نحن فيه؛ فقال له مروان بن الحَكَم: ائذن لي، فيأني أسأله ما ليس عنده فيه جواب؛ قال معاوية: لا تَفْعَل، فإنهم قَوْمٌ قد. أَلْهَمُوا الكَلَامَ، وأذن له. فلما دَخَلَ وجلس، قال له مروان: أَسْرِع الشَّيْبُ إلى شاربك يا حسن، ويُقال إن ذلك من الخُرْق، فقال الحسن: ليس كما بلغك، ولكننا - معشر بني هاشم - أفواهُنا عَذْبَةٌ شِفَاهُهَا، فنساؤنا يُقْبَلْنَ علينا بأنفاسهنَّ وقَبْلِهِنَّ، وأنتم معشر بني أمية فيكم بَخْرٌ شديد، فنساؤكم يَصْرَفْنَ أفواهُهنَّ وأنفاسهن عنكم إلى أصداعكم، فإنما يَشِيبُ منكم موضعُ العِدَارِ من أجل ذلك. قال مروان: إن فيكم يا بني هاشم خَصْلَةٌ سَوَاءٌ؟ قال: وما هي؟ قال: العُلْمَةُ؟ قال: أجل، نُزِعَت العُلْمَةُ مِن نَسائنا ووُضِعَت في رجالنا، ونُزِعَت العُلْمَةُ من رجالكم ووُضِعَت في نَسائكم، فما قام؟ لأُموية إلا هاشمي. فَغَضِبَ معاوية، وقال: قد كنتُ أخبرتكم فأبيتم حتى سَمِعْتُم ما أظلم عليكم بيئتكم، وأفسد عليكم مَجْلِسَكُم. فَخَرَجَ الحسنُ وهو يقول:

وَحَمَسًا أَرْجِي، قَائِلًا بَعْدَ قَائِلٍ

وَلَا فِي الذِّي أهُوَى كَدَحْتُ بَطَائِلَ

وَأَيَقَنْتُ أَنِّي رَهْنٌ مَوْتٍ مُعَاجِلِ

وَمَارَسْتُ هَذَا الذَّهْرَ خَمْسِينَ حِجَّةً

فَلَا أَنَا فِي الدُّنْيَا بَلِغْتُ جَسِيمَهَا

وَقَدْ شَرَعْتُ دُونِي المَنَابِيَا أَكْفَهَا

قال الحسن بن عليّ لحبيب بن مسلمة الفهري: ربّ مسير لك في غير طاعة الله؛ قال: أمّا مسيري إلى أبيك فلا، بلى، ولكنك أطعت معاوية عن دنيا قليلة، فلئن كان قام بك في دنياك لقد قعد بك في آخرتك، ولو كنت إذ فعلت شرّاً قلت خيراً كنت كما قال الله عزّ وجل: خَلَطُوا عَمَلًا صَالِحًا وَآخَرَ سَيِّئًا وَلَكِنَّ كَمَا قَالَ اللَّهُ: "بَلْ رَانَ عَلَى قُلُوبِهِمْ مَا كَانُوا يَكْسِبُونَ". قَدِمَ عَبْدُ اللَّهِ بن جعفر على عبد الملك بن مروان، فقال له يحيى بن الحَكَم: ما فعلت خبيثة؟ فقال: سبحان الله! يسميها رسول الله صلى الله عليه وسلم طيبةً وتسميها خبيثة! لقد اختلفتما في الدنيا وستختلفان في الآخرة؛ قال يحيى: لأن أموت بالشام أحبُّ إليّ من أن أموت بها؛ قال: اخترت جوار النصارى على جوار رسول الله صلى الله عليه وسلم قال يحيى: ما تقول في عليّ وعثمان؛ قال: أقول ما قاله من هو خيرٌ منّي فيمن هو شرٌّ منهما: إن تُعَذِّبَهُم فإِنَّهُمْ عِبَادُكَ وَإِنْ تَغْفِرْ لَهُمْ فَإِنَّكَ أَنْتَ العَزِيزُ الحَكِيمُ.

مجاوبة بين معاوية وأصحابه

قال معاوية يوماً وعنده الضحّاك بن قيس وسعيد بن العاص وعمرو بن العاص: ما أعجب الأشياء؟ قال الضحّاك بن قيس: إكداء العاقل وإجداء الجاهل. وقالت سعيد بن العاص: أعجب الأشياء ما لم ير مثله. وقالت عمرو بن العاص: أعجب الأشياء غلبة من لا حق له ذا الحق على حقه. فقال معاوية: أعجب من هذا أن تعطي من لا حق له ما ليس له بحق من غير غلبة. حضر قوم من قريش مجلس معاوية، فيهم عمرو بن العاص وعبد الله بن صفوان ابن أمية وعبد الرحمن بن الحارث بن هشام. فقال عمرو: أحمد الله يا معشر قريش إذ جعل أمركم إلى من يُعْضِي على القذى، ويتصام عن العوراء، ويجرّ ذيله على الخداع. قال عبد الله: لو لم يكن كذلك لَمَشِينَا إليه الضراء، ودبنا إليه الخمر، ورجونا أن يقوم بأمرنا من لا يُطعمك مال مصر. قال معاوية: يا معشر قريش، حتى متى لا تُنصفون من أنفسكم؟ قال عبد الرحمن بن الحارث: إن عمراً أفسدك علينا وأفسدنا عليك، ولو أغضبتك هذه. قال: إن عمراً لي ناصح؛ قال عبد الرحمن: فأطعمنا مثل ما أطعمته، وخدنا بمثل نصيحتته؛ إنا رأيناك يا معاوية تُضْرِبُ عوام قريش بأيديك في خواصها، كأنك ترى أن بكرامها قوتك دون لثامها، وإنك والله تُفْرَغُ في إناء فعم من إناء ضخم، وكأنك بالحرب قد حلّ عقالها عليك من لا ينظرك قال معاوية: يا بن أخي، ما أحوج أهلك إليك، فلا تَفْجِعْهم بنفسك، ثم أنشد:

عَلَى سَفَهٍ مَنِي الحَيَا وَالتَّكْرُمِ

أَغْرَ رَجَالًا مِنْ قُرَيْشٍ تَتَابِعُوا

وقال معاوية لابن الزبير: تُنازعني هذا الأمر كأنك أحقُّ به منّي! قال: لم لا أكون أحقَّ به منك يا معاوية، وقد اتبع أبي رسول الله صلى الله عليه وسلم على الإيمان، واتبعت الناس أباك على الكفر؛ قال له معاوية: غلّطت يا بن الزبير، بعث الله ابن عمّي نبياً، فدعا أباك فأجابته، فما أنت إلا تابع لي، ضالاً

كنتُ أو مَهْدِيًّا. العُتْبِيُّ قال: دعا مُعاويةُ مَروانَ بنَ الحَكم، فقال له: أشرِ عليَّ في الحُسين؛ قال: تخرجه معك إلى الشام فَتَقطعه عن أهل العراق وَتَقطعهم عنه؛ قال: أردتَ والله أن تستريح منه وَتبتليني به، فإن صبرتُ عليه صبرتُ على ما أكرهه، وإن أسأتُ إليه كُنتُ قد قطعْتُ رحمة. فأقامه، وبعث إلى سعيد ابن العاص، فقال له: يا أبا عثمان، أشرِ عليَّ في الحُسين؟ قال: إنك والله ما تحاف الحُسين إلا على مَنْ بعدك، وإنك لتُخلف له قرناً إن صارعه لَيَصْرَعته، هانَ سابقه لَيَسْبِقته، فذَرِ الحُسينَ منبتَ التخلّة، يشربُ من الماء، ويصعدُ في الهواء، ولا يبلُغ إلى السماء؛ قال: فما غيَّبك عني يومَ صِفِّين؟ قال: تحملتُ الحُرْمَ، وكُفِّيتَ الحَزْمَ، وكنتُ قريباً، لو دعوتنا لأجبنك، ولو أمرت لأطعنك؛ قال معاوية: يأهل الشام، هؤلاء قومي وهذا كلامهم.

مجاوبة بين بني أمية

قال: لما أخرج أهل المدينة عمرو بن سعيد الأشدق، وكان واليه بعد الوليد بن عتبة هو الذي، أمر أهل المدينة بإخراجي، فأرسل إليهِ وتوثقه. فأرسل إليهِ مُعاوية، فلما دخل عليه، قال له عمرو: أوليد، أنت أمرت بإخراجي؟ قال: لا، ورَحِمك أبا أمية، ولا أمرت أهل الكوفة بإخراج أهلك، بل كيف أطاعني أهل المدينة فيك إلا أن تكون عصيت الله فيهم، إنك لتحلُ عُرَى مُلك شديدةً عُقدتها، وتُمرِّي أحلاف فيقة سريعةً درتها، وما جعل الله صالحاً مُصلِحاً كفاسد مُفسد. جلس يوماً عبدُ الملك بن مَروان وعند رأسه خالدُ بن عبد الله بن خالد بن أسيد، وأدخلت عليه الأموال التي جاءت من قبل الحجاج حتى وضعت بين يديه، فقال: هذا والله التوفير وهذه الأمانة! لا ما فعل هذا، وأشار إلى خالد، استعملته على العراق فاستعمل كلُّ مُلَطَّ فاسق، فأدوا إليه العشرة واحداً، وأدى إليَّ من العشرة واحداً، وأدى إلي من العشرة واحداً، واستعملت هذا على خُرسان، وأشار إلى أمية، فأهدى إلي برذونين حَطَمين، فإن استعملتكم ضيعتم، وإن عزلتكم قلمت استخف بنا وقطع أرحامنا. فقال خالدُ بن عبد الله: استعملتني على العراق وأهله رجلاً: سماع مطيع مُناصح، وعدو مُبغض مُكاشح، فإننا داريناه ضَعْنه، وسللنا حَفْده، وكثرتنا لك المودة في صُدور رَعيتك؟ وإن هذا جنى الأموال، وزرع لك البغضاء في قلوب الرجال، فيوشك أن تثبت البغضاء، فلا أموال ولا رجال. فلما خرج ابن الأشعث قال عبدُ الملك: هذا والله ما قال خالد.

قدم محمد بن عمرو بن سعيد بن العاص الشام فأتى عمته أمنة بنت سعيد بن العاص، وكانت عند خالد بن يزيد بن معاوية، فدخل عليه خالد، فراه، فقال له: ما يقدّم علينا أحدٌ من أهل الحجاز إلا اختار المقام عندنا على المدينة. فظن محمد أنه يُعرض به، فقال: وما يمنعهم وقد قدم من المدينة قومٌ على التواضع فنكحوا أمك، وسلبوك مُلكك، وفرغوك لطلب الحديث، وقراءة الكتب، ومُعالجة ما لا تُقدر عليه، يعني الكيمياء، وكان يعملها. لما عزّل عثمانُ عمرو بن العاص عن مصرٍ وولّاهما عبدُ الله بن سرح، دخل عليه عمرو وعليه حُبة، فقال له: ما حشوّ جُبَّتِك يا عمرو؟ قال: أنا؛ قال: قد علمت أنك فيها، ثم قال: أشعرت يا عمرو أن اللقاح درت بعدك ألبانها بمصر؟ قال: لأنكم أعجفتُم أولادها. وقع بين ابن لعمُر بن عبد العزيز وابن لسليمان بن عبد الملك كلام، فجعل ابنُ عمر يذكر فضل أبيه؛ قال له ابنُ سليمان: إن شئت فأقلل وإن شئت فأكثر، ما كان أبوك إلا حسنة من حسنات أبي. لأنَّ سليمان هو ولىُّ عمُر بن عبد العزيز. ذكروا أنَّ العباس بن الوليد وجماعةً من بني مَروان كانوا عند هشام، فذكروا الوليد بن يزيد فحتموه وعابوه، وكان هشام يُبغضه، ودخل الوليد، فقال له العباس بن الوليد: كيف حُبُّك للروميات؟ فإن أباك كان مشغولاً بهن، قال: إني لأجبهن، وكيف لا يُحببن وهن يلدن مثلك؟ قال: اسكت فلست بالفحل يأتي عسبه بمثلي؟ قال له هشام: يا وليد، ما شراك؟ قال: شراك يا أمير المؤمنين، وقام فخرج. فقال هشام: هذا الذي تزعمون أنه أحق. وقرب إلى الوليد بن يزيد فرسه، فجمع جَرَاميزه ووثب على سرحه، ثم التفت إلى ولد لهشام بن عبد الملك، فقال: يُحسنُ أبوك أن يصنع مثل هذا؟ قال: لأبي مائة عبد يصنعون مثل هذا، فقال الناس: لم يُنصفه في الجواب. خطب عبد الملك بن مَروان بنت عبد الرحمن بن الحارث بن هشام، فقالت: والله لا تزوجني أبا الذباب. فتزوجها يحيى بن الحكم. فقال عبدُ الملك ليحيى: أما والله لقد تزوجت أسود أفوه، قال يحيى: أما إنها أبت مني ما كرهت منك. كان عبدُ الملك رديء الفم يدمى فيقع عليه الذباب، فسُمي أبا الذباب.

الجواب القاطع

نَظَرَ ثَابِتُ بْنُ عَبْدِ اللَّهِ بْنِ الزَّبِيرِ إِلَى أَهْلِ الشَّامِ، فَقَالَ: إِنِّي لِأَبْغِضُ هَذِهِ الْوُجُوهُ؟ قَالَ لَهُ سَعِيدُ بْنُ عَثْمَانَ: تُبْغِضُهُمْ لِأَنَّهُمْ قَتَلُوا أَبَاكَ؟ قَالَ: صَدَقْتَ، وَلَكِنْ

الْأَنْصَارُ وَالْمُهَاجِرِينَ قَتَلُوا أَبَاكَ. وَقَالَ الْحَجَّاجُ لِرَجُلٍ مِنَ الْخَوَارِجِ: وَاللَّهِ إِنَّكَ مِنْ قَوْمٍ أَبْغِضُهُمْ؛ قَالَ لَهُ: أَدْخَلَ اللَّهُ أَشَدَّنَا بُغْضًا لِصَاحِبِهِ الْجَنَّةَ. وَقَالَ ابْنُ الْبَاهِلِيِّ لِعَمْرُو بْنِ مَعْدٍ يَكْرَبُ: إِنَّ مُهْرَكَ لَمُقْرِفٍ؛ قَالَ: هَجِينِ عَرَفَ هَجِينًا مِثْلَهُ. وَقَالَ الْحَجَّاجُ لَامْرَأَةٍ مِنَ الْخَوَارِجِ: وَاللَّهِ لِأَعْدَنَّاكُمْ عَدًّا وَلَا حَصْدُكُمْ حَصْدًا؛ قَالَتْ لَهُ: اللَّهُ يَزْرَعُ وَأَنْتَ تَحْصُدُ، فَأَيْنَ قُدْرَةُ الْمَخْلُوقِ مِنَ الْخَالِقِ؟ وَأَيُّ الْحَجَّاجِ بَامْرَأَةٍ مِنَ الْخَوَارِجِ، فَقَالَ لِأَصْحَابِهِ: مَا تَقُولُونَ فِيهَا؟ قَالُوا: عَاجِلُهَا الْقَتْلُ أَيُّهَا الْأَمِيرُ، قَالَتِ الْخَارِجِيَّةُ: لَقَدْ كَانَ وَزْرَاءُ صَاحِبِكَ خَيْرًا مِنْ وَزْرَائِكَ يَا حَجَّاجُ؛ قَالَ لَهَا: وَمَنْ صَاحِبِي؟ قَالَتْ: فِرْعَوْنُ، اسْتَشَارَهُمْ فِي مَوْسَى، فَقَالُوا: أَرْجِهْ وَأَحَاهُ. وَأَيُّ زِيَادٍ بَرَجَلٍ مِنَ الْخَوَارِجِ، فَقَالَ لَهُ: مَا تَقُولُ فِيَّ وَفِي أَمِيرِ الْمُؤْمِنِينَ؟ قَالَ: أَمَّا الَّذِي تُسَمِّيهِ أَمِيرَ الْمُؤْمِنِينَ فَهُوَ أَمِيرُ الْمُشْرِكِينَ؛ وَأَمَّا أَنْتَ، فَمَا أَقُولُ فِي رَجُلٍ أَوْلَهُ لِزَيْتِيهِ وَآخِرُهُ لِدَعْوَتِي؟ فَأَمَرَ بِهِ فُقِّتِلَ وَصُلِبَ. قَالَ الْأَشْعَثُ بْنُ قَيْسٍ لِشُرَيْحِ الْقَاضِي: لَشَدِّ مَا ارْتَفَعْتَ! قَالَ: فَهَلْ رَأَيْتَ ذَلِكَ ضَرْكًا؟ قَالَ: لَا، قَالَ: فَارَاكَ تَعْرِفُ نِعْمَةَ اللَّهِ عَلَيْكَ وَتَحْهَلُّهَا عَلَى غَيْرِكَ. نَازَعَ مُحَمَّدُ بْنُ الْفَضْلِ بَعْضَ قَرَابَتِهِ فِي مِيرَاثٍ، فَقَالَ لَهُ: يَا بَنَ الزَّنْدِيقِ؛ قَالَ لَهُ: إِنْ كَانَ أَبِي كَمَا تَقُولُهُ وَأَنَا مِثْلُهُ، فَلَا يَحِلُّ لَكَ أَنْ تُنَازِعَنِي فِي هَذَا الْمِيرَاثِ، إِذْ كَانَ لَا يَرِثُ دِينَ دِينًا.

وَأَيُّ الْحَجَّاجِ بَامْرَأَةٍ مِنَ الْخَوَارِجِ، فَجَعَلَ يَكْلِمُهَا وَهِيَ لَا تَنْظُرُ إِلَيْهِ، فَقِيلَ لَهَا: الْأَمِيرُ يَكْلِمُكَ وَأَنْتَ لَا تَنْظُرِينَ إِلَيْهِ! قَالَتْ: إِنِّي لِأَسْتَحْيِي أَنْ أَنْظُرَ إِلَى مَنْ لَا يَنْظُرُ اللَّهُ إِلَيْهِ. فَأَمَرَ بِهَا فُقِّتِلَتْ. لَقِيَ عَثْمَانُ بْنُ عَفَانَ عَلِيَّ بْنَ أَبِي طَالِبٍ، فَعَاتَبَهُ فِي شَيْءٍ بَلَغَهُ عَنْهُ، فَسَكَتَ عَنْهُ عَلِيٌّ؟ فَقَالَ لَهُ عَثْمَانُ: مَا لَكَ لَا تَقُولُ؟ قَالَ لَهُ عَلِيٌّ: لَيْسَ لَكَ عِنْدِي إِلَّا مَا تَحِبُّ وَلَيْسَ جَوَابُكَ إِلَّا مَا تَكْرَهُ. وَتَكَلَّمَ النَّاسُ عِنْدَ مُعَاوِيَةَ فِي يَزِيدِ ابْنِهِ، إِذْ أَخَذَ لَهُ الْبَيْعَةَ، وَسَكَتَ الْأَحْنَفُ فَقَالَ لَهُ: مَا لَكَ لَا تَقُولُ أَبَا بَحْرٍ؟ قَالَ: أَحَافُكَ إِنْ صَدَقْتُ، وَأَحَافُ اللَّهِ إِنْ كَذَبْتُ. قَالَ مُعَاوِيَةُ يَوْمًا: أَيُّهَا النَّاسُ إِنْ اللَّهُ فَضَّلَ قُرَيْشًا بِنِثْلَاثٍ، فَقَالَ لِنَبِيِّهِ عَلَيْهِ الصَّلَاةُ وَالسَّلَامُ: وَأَنْدِرُ عَشِيرَتِكَ الْأَقْرَبِينَ فَنَحْنُ عَشِيرَتُهُ، وَقَالَ: وَإِنَّهُ لَذِكْرٌ لَكَ وَلِقَوْمِكَ فَنَحْنُ قَوْمُهُ، وَقَالَ: لَا يَلِافُ قُرَيْشٌ إِلَّا قَوْمَهُ الَّذِي أَطْعَمَهُمْ مِنْ جُوعٍ أَمْنَهُمْ مِنْ خَوْفٍ وَنَحْنُ قُرَيْشٌ. فَأَجَابَهُ رَجُلٌ مِنَ الْأَنْصَارِ، فَقَالَ: عَلَى رِسْلِكَ يَا مُعَاوِيَةَ، فَإِنَّ اللَّهَ يَقُولُ: "وَكَذَبَ بِهِ قَوْمُكَ" وَأَنْتُمْ قَوْمُهُ، وَقَالَ: "وَلَمَّا ضُرِبَ ابْنُ مَرْثَمٍ مِثْلًا إِذَا قَوْمُكَ مِنْهُ يَصِدُونُ" وَأَنْتُمْ قَوْمُهُ، وَقَالَ الرَّسُولُ عَلَيْهِ الصَّلَاةُ وَالسَّلَامُ: يَا رَبِّ إِنْ قَوْمِي اتَّخَذُوا هَذَا الْقُرْآنَ مَهْجُورًا، وَأَنْتُمْ قَوْمُهُ، ثَلَاثَةٌ بِنِثْلَاثَةٍ، وَلَوْ زِدْنَا لَزِدْنَاكَ، فَافْجَحْهُ.

وَقَالَ مُعَاوِيَةُ لِرَجُلٍ مِنَ الْيَمَنِ: مَا كَانَ أَجْهَلُ قَوْمِكَ حِينَ مَلَكَوا عَلَيْهِمْ امْرَأَةً! فَقَالَ: أَجْهَلُ مِنْ قَوْمِي قَوْمُكَ الَّذِينَ قَالُوا حِينَ دَعَاهُمْ رَسُولُ اللَّهِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ اللَّهُمَّ إِنْ كَانَ هَذَا هُوَ الْحَقُّ مِنْ عِنْدِكَ فَأَمْطِرْ عَلَيْنَا حِجَارَةً مِنَ السَّمَاءِ أَوْ ائْتِنَا بِعَدَابِ الْيَمِّ، وَلَمْ يَقُولُوا: اللَّهُمَّ إِنْ كَانَ هَذَا هُوَ الْحَقُّ مِنْ عِنْدِكَ فَاهْدِنَا إِلَيْهِ.

مجاوبة الأمراء والرد عليهم

قال معاوية لجارية بن قدامة: ما كان أهونك على أهلك إذ سموك جارية!

قال: ما كان أهونك على أهلك إذ سموك معاوية! وهي الأنتى من الكلاب، قال: لا أم لك! قال: أمي وكذنتي للضيوف التي لقيناك بها في أيدينا؛ قال: إنك لتهددني؛ قال: إنك لم تفتحننا قسرًا، ولم تملكنا عنوةً، ولكنك أعطيتنا عهدًا وميثاقًا، وأعطيتنا سمعًا وطاعةً، فإن وقيت لنا وقينا لك، وإن فرغت إلى غير ذلك، فإننا تركنا وراءنا رجالًا شدادًا، وألسنة حدادا قال له معاوية: لا كثر الله في الناس أمثالك؛ قال جارية: قل معروفاً وراعنا، فإن شر الدعاء المحتطب. عدد معاوية بن أبي سفيان على الأحنف ذنوبًا، فقال: يا أمير المؤمنين، لا ترد الأمور على أعقابها، أما والله إن القلوب التي أبغضناك بها لبيّن جواحنا، والسيوف التي قاتلناك بها لعلى عواتقنا، ولئن مددت فترًا من عذر لنمدن باعًا من ختر، ولئن شئت لتستصفين كدر قلوبنا بصفو حلمك، قال: فإني أفعل. قال معاوية لعدي بن حاتم: ما فعلت الطرقات يا أبا طريف؟ - يعني أولاده - قال: قتلوا؛ قال: ما أنصفك ابن أبي طالب إذ قتل بنوك معه وبقي له بنوه؛ قال: لئن كان ذلك لقد قتل هو وبقيت أنا بعده؛ قال له معاوية: ألم ترعم أنه لا يُخنق في قتل عثمان عنز؛ قد والله خنق فيه التيس الأكبر. ثم قال معاوية: أما إنه قد بقيت من دمه قطرة ولا بد أن أتبعها؛ قال عدي: لا أبا لك! شِم السيف، فإن سلَّ السيف يسُلَّ السيف. فالتفت معاوية إلى حبيب بن مسلمة، فقال: اجعلها في كتابك فإنها حكمة. الشيباني عن أبي الحباب الكندي عن أبيه: أن معاوية بن أبي

الله بن زياد بن، طَبَّيَانِ عَلَى عَبْدِ الْمَلِكِ بْنِ مَرْوَانَ، فَقَالَ لَهُ عَبْدُ الْمَلِكِ: مَا هَذَا الَّذِي يَقُولُ النَّاسُ؟ قَالَ: وَمَا يَقُولُونَ؟ قَالَ: يَقُولُونَ إِنَّكَ لَا تُشْبِهُ أَبَاكَ؟ قَالَ: وَاللَّهِ لَأَنَا أَشْبَهُ بِهِ مِنْ الْمَاءِ بِالْمَاءِ، وَالْعُرَابِ، وَلَكِنْ أَذْكَ عَلَى مَنْ لَمْ يُشْبِهُ أَبَاهُ؟ قَالَ: مَنْ هُوَ؟ قَالَ: مَنْ لَمْ تُنْضِجْهُ الْأَرْحَامَ، وَلَمْ يُؤَلِّدْ لَتَمَامِ، وَلَمْ يُشْبِهِ الْأَحْوَالَ وَالْأَعْمَامَ؟ قَادَ: وَمَنْ هُوَ؟ قَالَ: ابْنُ عَمِّي سُؤَيْدُ بْنُ مَنجُوفٍ، وَإِنَّمَا أَرَادَ عَبْدُ الْمَلِكِ بْنِ مَرْوَانَ، وَذَلِكَ أَنَّهُ وُلِدَ لِسِتَّةِ أَشْهُرٍ. دَخَلَ زَيْدُ بْنُ عَلِيٍّ عَلَى هِشَامِ بْنِ عَبْدِ الْمَلِكِ فَلَمْ يَجِدْ مَوْضِعًا يَقْعُدُ فِيهِ، فَعَلِمَ أَنَّ ذَلِكَ فِعْلٌ بِهِ عَلَى عَمَدٍ، فَقَالَ: يَا أَمِيرَ الْمُؤْمِنِينَ، اتَّقِ اللَّهَ! قَالَ: أَوْ مِثْلَكَ يَا زَيْدُ يَا مِثْلِي بِتَقْوَى اللَّهِ؛ قَالَ زَيْدٌ إِنَّهُ لَا يَكْبُرُ أَحَدٌ فَوْقَ أَنْ يُوصَى بِتَقْوَى اللَّهِ، وَلَا يَصْغُرُ دُونَ أَنْ يُوصَى بِتَقْوَى اللَّهِ. قَالَ لَهُ هِشَامٌ: بَلِّغْنِي أَنَّكَ تُحَدِّثُ نَفْسَكَ بِالْخِلَافَةِ وَلَا تَصْلُحُ لَهَا لِأَنَّكَ ابْنُ أُمَّةٍ؛ قَالَ زَيْدٌ: أَمَا قَوْلُكَ إِنِّي أَحَدُتُ نَفْسِي بِالْخِلَافَةِ، فَلَا يَعْلَمُ الْعَيْبُ إِلَّا اللَّهَ؛ وَأَمَّا قَوْلُكَ إِنِّي ابْنُ أُمَّةٍ، فَهَذَا إِسْمَاعِيلُ بْنُ إِبْرَاهِيمَ خَلِيلِ الرَّحْمَنِ، ابْنُ أُمَّةٍ، مِنْ صُلْبِهِ خَيْرُ الْبَشَرِ مُحَمَّدٌ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ، وَإِسْحَاقُ، ابْنُ حُرَّةٍ، أَخْرَجَ مِنْ صُلْبِهِ الْقِرْدَةَ وَالْحَنَازِيرَ وَعَبْدَةَ الطَّاعُوتِ. قَالَ لَهُ: قَم، قَالَ: إِذَنْ لَا تَرَانِي إِلَّا حَيْثُ تَكْرَهُ، فَلَمَّا خَرَجَ مِنْ عِنْدِهِ قَالَ: مَا أَحَبُّ أَحَدًا قَطَّ الْحَيَاةَ إِلَّا ذَلَّ. قَالَ لَهُ حَاجِبُهُ: لَا يَسْمَعُ هَذَا الْكَلَامَ مِنْكَ أَحَدٌ. وَقَالَ زَيْدٌ بِنِ عَالِيٍّ:

كَذَاكَ مَنْ يَكْرَهُ حَرَّ الْجِلَادِ

تَقَرَّعَهُ أَطْرَافُ مَرَوٍ حِدَادِ

وَالْمَوْتَ حَتْمًا فِي رِقَابِ الْعِبَادِ

شَرَّدَهُ الْخَوْفُ وَأَزْرَى بِهِ

مَحْتَفِي الرَّجُلِينَ يَشْكُو الْوَجَى

قَدْ كَانَ فِي الْمَوْتِ لَهُ رَاحَةٌ

ثم خرج بخراسان فقتل وصلب في كُنَاسَةَ. وفيه يقوله سُدَيْفُ بْنُ مَيْمُونٍ فِي دَوْلَةِ بَنِي الْعَبَّاسِ:

وَقَتِيلًا بِجَانِبِ الْمَهْرَاسِ

وَأَذْكُرُوا مَقْتَلَ الْحُسَيْنِ وَزَيْدًا

يُرِيدُهُ حَمْرَةَ بْنَ عَبْدِ الْمَطْلَبِ الْمَقْتُولِ بِأَحَدٍ.

دَخَلَ رَجُلٌ مِنْ قَيْسِ عَلَى عَبْدِ الْمَلِكِ بْنِ مَرْوَانَ فَقَالَ: زُبَيْرِي! وَاللَّهِ لَا يُحِبُّكَ قَلْبِي أَبَدًا؛ قَالَ: يَا أَمِيرَ الْمُؤْمِنِينَ، إِنَّمَا يَجْزَعُ مَنْ فَقَدَ الْحُبَّ النَّسَاءَ، وَلَكِنْ عَدَلًا وَإِنْصَافًا. وَقَالَ عَمْرُ بْنُ الْخَطَّابِ لِأَبِي مَرْيَمَ الْخَنْفِيِّ، قَاتِلَ زَيْدِ بْنِ الْخَطَّابِ: وَاللَّهِ لَا يُحِبُّكَ قَلْبِي أَبَدًا حَتَّى تُحِبَّ الْأَرْضُ الدَّمَ؛ قَالَ: يَا أَمِيرَ الْمُؤْمِنِينَ، فَهَلْ تَمْنَعُنِي لِذَلِكَ حَقًّا؟ قَالَ: لَا؛ قَالَ: فَحَسْبِي. دَخَلَ يَزِيدُ بْنُ أَبِي مُسْلِمٍ عَلَى سُلَيْمَانَ بْنِ عَبْدِ الْمَلِكِ، فَقَالَ لَهُ: عَلَى امْرَأَةٍ أَوْطَأَكَ رَسَنَكَ وَسَلَّطَكَ عَلَى الْأُمَّةِ لَعْنَةُ اللَّهِ؛ فَقَالَ: يَا أَمِيرَ الْمُؤْمِنِينَ، إِنَّكَ رَأَيْتَنِي وَالْأَمْرُ مُدْبِرٌ عِنِّي، وَلَوْ رَأَيْتَنِي وَالْأَمْرُ مُقْبِلٌ عَلَيَّ لَعَظُمَ فِي عَيْنِكَ مَا اسْتَصْغَرْتَ مِنِّي؟ قَالَ: أَنْظِنِ الْحِجَّاجَ اسْتَقَرَّ فِي قَعْرِ جَهَنَّمَ أَمْ هُوَ يَهْوِي فِيهَا؟ قَالَ: يَا أَمِيرَ الْمُؤْمِنِينَ، إِنَّ الْحِجَّاجَ يَأْتِي يَوْمَ الْقِيَامَةِ بَيْنَ أَيْبِكَ وَأَخِيكَ، فَضَعَهُ مِنَ النَّارِ حَيْثُ شِئْتَ. وَقَالَ مَرْوَانَ بْنُ الْحَكَمِ لِرُفْرِ بْنِ الْحَارِثِ: بَلِّغْنِي أَنَّ كِنْدَةَ تَدْعِيكَ؛ قَالَ: لَا خَيْرَ فِيمَنْ لَا يُتَّقَى رَهْبَةً وَلَا يَدْعَى رَغْبَةً. قَالَ مَرْوَانَ بْنُ الْحَكَمِ لِلْحَسَنِ بْنِ ذُلْجَةَ: إِنِّي أَظُنُّكَ أَحْمَقَ؟ قَالَ: مَا يَكُونُ الشَّيْخُ إِذَا أَعْمَلَ ظَنَّهُ؟ وَقَالَ مَرْوَانَ لِحُوَيْطِ بْنِ عَبْدِ الْعُزِيِّ: وَكَانَ كَبِيرًا مُسْنَأً. أَيُّهَا الشَّيْخُ، تَأَخَّرَ إِسْلَامُكَ حَتَّى سَبَقَكَ الْأَحْدَاثُ؛ فَقَالَ: اللَّهُ الْمُسْتَعَانَ، وَاللَّهِ لَقَدْ هَمَمْتُ بِالْإِسْلَامِ غَيْرَ مَرَّةٍ كُلِّ ذَلِكَ يَعْوِقُنِي عَنْهُ أَبُوكَ وَيَنْهَانِي وَيَقُولُ: يَضَعُ مِنْ قَدْرِكَ، وَتَتْرَكَ دِينَ آبَائِكَ لِدِينِ مُحَدَّثٍ، وَتَصِيرُ تَابِعًا. فَسَكَتَ مَرْوَانَ. قَالَ عَبْدُ الْمَلِكِ بْنُ مَرْوَانَ لثَابِتِ بْنِ عَبْدِ اللَّهِ بْنِ الزُّبَيْرِ: أَبُوكَ كَانَ أَعْلَمَ بِكَ حَيْثُ كَانَ يَشْتُمُّكَ؛ قَالَ: يَا أَمِيرَ الْمُؤْمِنِينَ، إِنَّمَا كَانَ يَشْتُمُّنِي لِأَنِّي كُنْتُ أَهْمَاهُ أَنْ يُقَاتَلَ بِأَهْلِ الْمَدِينَةِ وَأَهْلِ مَكَّةَ، فَإِنَّ اللَّهَ لَا يَنْصُرُ بِنِيهَا؛ أَمَا أَهْلُ مَكَّةَ فَأَخْرَجُوا النَّبِيَّ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ وَأَخْفَوْهُ، ثُمَّ جَاءُوا إِلَى الْمَدِينَةِ فَأَذَوْهُ، حَتَّى سَيَّرَهُمْ، يَعْرِضُ بِالْحَكَمِ بْنِ أَبِي الْعَاصِي طَرِيدِ النَّبِيِّ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ وَأَمَا أَهْلُ الْمَدِينَةِ فَخَذَلُوا عُثْمَانَ حَتَّى قُتِلَ بَيْنَ أَظْهُرِهِمْ وَلَمْ يَدْفَعُوا عَنْهُ، قَالَ لَهُ: عَلَيْكَ لَعْنَةُ اللَّهِ. جَلَسَ مُعَاوِيَةُ يُبَايِعُ النَّاسَ عَلَى الْبِرَاءَةِ مِنْ عَلِيٍّ، فَقَالَ لَهُ رَجُلٌ مِنْ بَنِي تَمِيمٍ: يَا أَمِيرَ الْمُؤْمِنِينَ، نُطِيعُ أَحْيَاءَكُمْ وَلَا نَبْرَأُ مِنْ مَوْتَاكُمْ؛ فَالْتَفَتَ مُعَاوِيَةُ إِلَى زَيْدِ بْنِ عَلِيٍّ فَقَالَ: هَذَا رَجُلٌ فَاسْتَوْصِ بِهِ. قَالَ مُعَاوِيَةُ يَوْمًا: يَا مَعْشَرَ الْأَنْصَارِ، لَمْ تَطْلُبُوا مَا عِنْدِي، فَوَاللَّهِ لَقَدْ كُنْتُمْ قَلِيلًا مَعِيَ كَثِيرًا مَعِ عَلِيٍّ، وَلَقَدْ فَلَنْتُمْ حَدَى يَوْمِ صِفِّينَ، حَتَّى رَأَيْتُ الْمَنَائِمَ تَتَلَطَّى مِنْ أَسْتَكْمِكُمْ، وَلَقَدْ هَجَوْتُمُونِي بِأَشَدِّ مِنْ وَخَزِ الْأَسْلِ، حَتَّى إِذَا أَقَامَ اللَّهُ مَنَا مَا حَاوَلْتُمْ مَيْلَهُ، قُلْتُمْ أَرُعْ فِينَا وَصِيَّةَ رَسُولِ اللَّهِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ هَيْهَاتَ! أَبِي الْحَقِيقِينَ الْعِدْرَةَ. فَأَجَابَهُ قَيْسُ بْنُ سَعْدٍ، قَالَ: أَمَا قَوْلُكَ جِئْنَاكَ نَطْلُبُ مَا عِنْدَكَ، فَبِالْإِسْلَامِ الْكَافِي بِهِ اللَّهُ لَا يَمَّا تَمَّتْ بِهِ إِلَيْكَ الْأَحْزَابُ؛ وَأَمَا اسْتِقَامَةُ الْأَمْرِ، فَعَلَى كُرْهِ مَنَا كَانَ؛ وَأَمَا فَلْنَا حَدَّكَ

يُشاحن الربيعَ صاحبَ شُرطة المهديِّ، فحمل الربيعُ المهديَّ عليه، فدخل شريك يوماً على المهديِّ، فقال له المهديُّ: بلَغني أنك وُلدت في قَوْصرة؛ فقال: وُلدتُ يا أميرَ المؤمنين بخراسان والقواصر هناك عَزيزة؛ قال: إني لأراك فاطمياً حَيثاً؛ قال: واللَّه إني لأحبُّ فاطمةَ وأبا فاطمةَ صلى اللهُ عليه وسلم، قال: وأنا واللهُ أحبُّهما، ولكي رأيتك في مَنامي مَصروفاً وَجْهك عَنِّي، وما ذاك إلا لُبُغضك لنا، وما أراي إلا قاتلك لأنك زنديق؟ قال: يا أميرَ المؤمنين، إنَّ الدماءَ لا تُسْفك بالأحلام، ليس رؤياك رؤيا يوسفَ النبيِّ صلى اللهُ عليه وسلم، وأما قولُك بأبي زنديق، فإن للزنادقة علامةً وليس رؤياك رؤيا يوسفَ النبيِّ صلى اللهُ عليه وسلم وأما قولك بأبي زنديق، فإن للزنادقة علامة يعرفون بها؟ قال: وما هي؟ قال: بشرب الخمر والضرب بالطنبور؛ قال: صدقت أبا عبد الله، وأنت خير من الذي عَمَلني عليك. قال عمرُ بن الخطاب لعمر بن العاص لما قَدِم عليه من مصر: لقد سِرَّت سيرةَ عاشقٍ، قال: واللَّه ما تأبطنني الإماء، ولا حَمَلتني البغايا! في غُبرات المآلي؛ قال عمر: واللَّه ما هذا جوابُ كلامي الذي سألتُك عنه، وإنَّ الدُّجاجة لتفحص في الرماد فتضع لغير الفحلِّ، والبيضة منسوبة إلى طرفها، وقام عمر فدخل. فقال عمرو: لقد فحش علينا أميرُ المؤمنين. وتزعم الرواة أن قُتيبة بن مُسلم لما افتتح سمرقند أفضى إلى أثاث لم يُر مثله، وإلى آلات لم يُسمع بمثله، فأراد أن يُري الناس عظيمَ ما فَتَح اللهُ عليهم، ويُعرفهم أقدارَ القوم الذين ظهروا عليهم، فأمر بدارٍ ففرشت، وفي صَحْنها قُدور أشتات، تُرتقى بالسلا. فإذا الحُضَيْن بن المنذر بن الحارث بن وعلة الرقاشي قد أقبل، والناسُ جلوس على مراتبهم، والحُضَيْن شَخَّح كبير، فلما رآه عبدُ الله ابن مُسلم قال لقتيبة: إئذن لي في كلامه؛ فقال: لا تُرِده، فإنه حبيبتُ الجواب فأبى عبدُ الله إلا أن يأذن له - وكان عبدُ الله يُضعف، وكان قد تسوَّر حائطاً إلى امرأةٍ قبل ذلك - فأقبل على الحُضَيْن، فقال: أمن الباب دخلت يا أبا ساسان؟ قال: أجل، ضعفتُ عن تسوَّر الحيطان؛ قال: رأيت هذه القُدور؟ قال: هي أعظم من أن لا ترى، قال: ما أحسبُ بكرُ بن وائل رأى مثلهما؟ قال: أجل، ولا عيَّلان، ولو كان رآها سُمِّي شِععان ولم يُسمَّ عيَّلان، قال له عبدُ الله: أتعرف الذي يقوله:

عَزَلْنَا وَأَمَرْنَا وَبَكَرُ بْنُ وَائِلٍ

قال: أعرفه وأعرف الذي يقول:

وَخَيْبَةَ مِنْ يَخِيبَ عَلَى غَنِي

يُرِيدُ: يا خَيْبَةَ مَنْ يَخِيبُ. قال له: أتعرف الذي يقول:

كَأَنَّ فِقَاحَ الْأَرْدِ حَوْلَ ابْنِ مِسْمَعٍ

قال: نعم. وأعرف الذي يقول:

قَوْمَ قُتَيْبَةَ أُمَّهُمْ وَأَبُوهُمْ

قال: أما الشعر، فأراك ترويه، فهل تقرأ من القرآن شيئاً؟ قال: أقرأ منه الأكثر: هل على الإنسان حين من الدهر لم يكن مشيئاً مذكوراً قال: فأغضبه، فقال: واللَّه لقد بلغني أن امرأةَ الحُضَيْن حُمِلت إليه وهي حُبلى من غيره. قال: فما تحرك الشيخُ عن هيئته الأولى، ثم قال على هرسله: وما يكون! تلد غلاماً على فراشي، فيقال: فلان بن الحُضَيْن، كما يقال: عبدُ الله بن مُسلم. فأقبل قُتيبة على عبد الله، فقال: لا يُبعد الله غيرك. والحُضَيْن هذا هو الحُضَيْن ابن المنذر الرقاشي، ورقاش أمه، وهو من بني شيبان ابن بكر بن وائل، وهو صاحب لواء علي بن أبي طالب رضي الله عنه بصفين على ربيعة كلها، وله يقول علي بن أبي طالب:

إِذَا قِيلَ قَدَمُهَا حُضَيْنٌ تَقَدَّمَ

حِيَاضَ الْمَنَايَا تَقَطَّرِ السُّمُّ وَالذَّمَا

رَبِيعَةٌ خَيْرًا مَا أَعَفَ وَأَكْرَمًا

لَمَنْ رَايَةَ سَوْدَاءَ يَحْفِقُ ظِلُّهَا

يُقَدِّمُهَا فِي الصَّفِّ حَتَّى يَزِيرُهَا

جَزَى اللَّهُ عَنِي وَالْجَزَاءُ بِفَضْلِهِ

وقال المنذر بن الجارود العبدي لعمر بن العاص: أي رجل أنت لو لم تكن أمك، ممن هي؟ قال: أحمد الله إليك، لقد فكرتُ فيها البارحة، فجعلتُ أنقلها في قبائل العرب، فما خطرت لي عبدُ القيس ببال. قال خالد بن صفوان لرجل من بني عبد الدار، وسمعه يفخر بموضعه من قريش، فقال له

خالد: لقد هَشَمْتَكَ هاشم، وأَمَتِكَ أمية، وخَزَمْتَكَ مَخْرُوم، وجمَحْتَكَ جُمَح، وسَهَمْتَكَ سَهْم، فأنت ابنُ عبد دارها، تُفَتِّح الأبواب إذا أغلقت، وتُغلقها إذا فتحت.

جواب في هزل

كان للمغيرة بن عبد الله التَّقْفِيّ - وهو والي الكوفة - جَدِّي يوضع على مائدته، فَحَضَرَهُ أعرابي فمد يده إلى الجَدِّي؟ وجعل يُسرع فيه، قال له المغيرة: إنَّكَ لتأكله بجرْد كأنَّ أمَّهُ تطحنتك، قال قال: وإنَّكَ لمُشَفِّقٌ عليه كأنَّ أمَّهُ أرَضَعْتَكَ. كان إبراهيم بن عبد الله بن مُطِيع جالساً عند هشام، إذ أقبل عبد الرحمن بن عَنبِسة بن سَعِيد بن العاصِ الجُبَيْة والمِطْرَف والعمامة، فقال إبراهيم: هذا ابنُ عَنبِسة قد أقبل في زينة قارُون. قال: فَضَحِكَ هشام. قال له عبدُ الرحمن: ما أضحكك يا أمير المؤمنين؟ فأخبره بقول إبراهيم. فقال له عبدُ الرحمن: لولا ما أخاف من غَضَبِهِ عليك وفي وعلى المسلمين لأجبتُه؟ قال: وما تخاف من غَضَبِهِ؟ قال: بلغني أن الدَّجال يَخْرُج من غَضَبِهِ يَعْضَبُهَا، وكان إبراهيم أعور. قال إبراهيم: لولا أن له عندي يداً عظيمة لأجبتُه؛ قال: وما يده عندك؟ قال: ضربه غلامٌ له بُمدية فأصابه، فلما رأى الدم فرغ، فَجَعَلَ لا يَدْخُلُ عليه مَمْلُوك إلا قال له: أنت حرٌّ، فدخلتُ عليه عائداً، فقلت له: كيف بنجديك؟ قال لي: أنت حرٌّ؛ قلت له: أنا إبراهيم؛ قال لي: أنت حرٌّ. فَضَحِكَ هشامٌ حتى اسْتَلَقَى. قال عبدُ الرحمن بن حسانٍ لِعطاء بن أبي صَيْفِي بن ثابت: لو أصبت رَكْوَةً مملوءةً خَمراً بالبقيع ما كنت صانعاً؟ قال: كنتُ أعرِفُها بين التجار، فإن لم تكن لهم. فهي لك؟ لكن أخبرني عن الفريضة أكبر أم ثابت؟ وقد تزوجها قبله أربعة كلهم يلقاها بمثل ذراع البكر، ثم يُطلقها عن قلى، فقيل لها: يا فريضة، لم تُطلقين وأنت جميلة حلوة؛ قالت: يُريدون الصيِّقَ صَيِّقُ الله عليهم. ولقي رجل من قريش، كان به وَضَحٌ، حارثة بن بدر، وكان مُغرماً بالشراب، فقال لها: أشعرت أنه بعث نبيّ لهذه الأمة يُحلّ الخمر للناس؟ قال: إذا لا تُصدِّقُ به حتى يُبرئ الأكمه والأبرص. دخل الزُّبْرانُ بن بدرٍ على زياد، فسلم تسليمًا حافياً، فأدناه زياد فأجلسه معه، ثم قال له: يا أبا عيَّاش، الناسُ يضحكون من جفائك، قال ولم ضحكوا؛ فوالله إنَّ منهم رجلٌ إلا ودَّ أني أبوه دون أبيه لغية كان أو لرشدة. دخل الفرزدقُ على بلال بن أبي بردة وعنده ناسٌ من اليمامة يضحكون، فقال: يا أبا فراس، أتدري ممَّ يضحكون؟ قال: لا أدري؟ قال: من جفائك؟ قال: أصلح الله الأمير، حججتُ فإذا رجلٌ على عاتقه الأيمن صَبِيٌّ، وامرأةٌ أخذتُ بمئزره، وهو يقول:

وكَهَلَّةٌ أُولج فيها الأجرَدَا

أنت وهبت زائداً ومزیداً

وهي تقول: إذا شئت، فسألتُ؟ ممن الرجل؟ قيل: من الأشعرين، فأنا أحمى من ذلك الرجل؛ قال: لا حيَّك الله، فقد علمتُ أننا لا نُفَلت منك. اجتمع رجلٌ كوسج مع رجلٍ مُسبِل، فقال المُسبِل: والبلد الطيب يخرجُ نَبأه بإذن ربِّه والذي خبث لا يخرجُ إلا نكداً، قالت الكوسج: قل لا يستوي الخبيث والطيب ولو أعجبك كثرة الخبيث. مرَّ مسلمة بن عبد الملك، وكان من أجمل الناس، بموسوس على مزبلة، فقال له الموسوس: لو رآك أبوك آدم لقرت عينه بك؟ وقال له مسلمة: لو رآك أبوك آدم لأذهبت سخنة عينه بك قرة عينه بي! وكان مسلمة من أحضر الناس جواباً.

خرج إبراهيم التَّنخعي وقام سليمان الأعمش بمشي معه، فقال إبراهيم: إنَّ الناس إذا رأونا قالوا: أعور وأعمش! قال: وما عليك أن يأثموا ونوجر؟ قال وما عليك أن يسلموا وتسلم. وقال شدَّاد الحارثي: لقيتُ أسودَ بالبادية، فقلت: لمن أنت يا أسود؟ قال: لسيد الحيِّ يا أصلع؟ قلت: ما أغضبك مني الحق؟ قال لي: الحقُّ أغضبك؟ قلت: أولست بأسود؟ قال: أولست بأصلع؟ أدخل مالكٌ بن أسماء السحن - سحن الكوفة - فجلس إليه رجلٌ من بني مرَّة فاتكأ عليه المريُّ يُحدِّثه، ثم قال: أتدري كم قتلنا منكم في الجاهلية؟ قال: أما في الجاهلية فلا ولكن أعرف من قتلتم منا في الإسلام قال: أنا، قد قتلني بنتنٍ إبطيك. مرَّت امرأةٌ من بني نُميرٍ على مجلسٍ لهم في يوم ريح، فقال رجلٌ منهم: إنها لرسحاء. قالت: والله يا بني نُميرٍ ما أطعمت الله ولا أطعمت الشاعر، قال الله تبارك وتعالى: "قل للمؤمنين يعضوا من أبصارهم" وقال الشاعر:

فغضَّ الطرْفَ إنَّكَ من نُميرٍ

قيل لشريح: أيهما أطيب: الجوزنيق أم اللوزنيق؟ قال: لستُ أحكم على غائب. هشام بن القاسم قال: جمعتني والفرزدق مجلس فتجاهلتُ عليه فقلتُ: من الكهل؟ قال: وما تعرفني؟ قلت: لا؟ قال: أبو فراس، قلتُ: ومن أبو فراس؟ قال: الفرزدق؟ قلت: ومن الفرزدق؟ قال: وما تعرف الفرزدق؟ قلت: لا أعرف الفرزدق إلا شيئاً يفعله النساء عندنا يتشبهون به كهيئة السويق؛ قال: الحمد لله الذي جعلني في بطون نسائك يتشبهون بي. قال هشام بن عبد الملك للأبرش الكلبي: زوجني امرأة من كلب، فزوجته، فقال له ذات يوم: لقد وجدنا في نساء كلب سعة؛ قال: يا أمير المؤمنين، نساء كلب خلقتن لرجال كلب. وقال له يوماً، وهو يتغدى معه يا أبرش، إن أكلك أكل معدي؟ قال: هيهات! تأتي ذلك قضاة. عمارة عن محمد بن أبي بكر البصري قال: لما مات جعفر بن محمد قال أبو حنيفة لشيطان الطاق: مات إمامك، وذلك عند المهدي؛ فقال شيطان الطاق: لكن إمامك من المنظرين إلى يوم الوقت المعلوم. فضحك المهدي من قوله، وأمر له بعشرة آلاف درهم. العتيبي قال: حدثني أبي قال: لما افتتح النجف، وهي مدينة باليمن، سمع رجلاً من كندة رجلاً وهو يقول؟ وجدنا في نساء كندة سعة؟ فقال له: إن نساء كندة مكاحل فقدت مرادها. لقي خالد بن صفوان الفرزدق، وكان كثيراً ما يُداعيه، وكان الفرزدق دميماً، فقال له: يا أبا فراس، ما أنت بالذي لما رأينه أكبرته وقطعت أيديهن؟ قال له: ولا أنت أبا صفوان بالذي قالت فيه الفتاة لأبيها: يا أبت استأجره إن خير من استأجرت القوي الأمين. باع رجل ضيعة من رجل، فلما انتقد المال قال للمشتري: أما والله لقد أخذتها كثيرة المؤونة، قليلة المعونة؛ قال له المشتري: وأنت والله أخذتها بطيئة الإجماع، سريعة الإفتراق. واشترى رجل من رجل داراً، فقال لصاحبها: لو صيرت لاشرت منك الذراع بعشرة دنانير؛ قال له البائع: وأنت لو صيرت لاشرت مني الذراع بدرهم. وكان بالرقعة رجل يحدث بأخبار بني إسرائيل، فقال له الحجاج بن حنيفة: كيف كان اسم بقرة بني إسرائيل؟ قال: حنيفة؛ فقال له رجل من ولد أبي موسى الأشعري: أين وجدت هذا؟ قال: في كتاب عمرو بن العاص.

وقال رجل للشعبي: ما كان اسم امرأة إبليس؟ قال: إن ذلك نكاح ما شهدناه. ودخل رجل على الشعبي فوجده قاعداً مع امرأة، فقال: أيكما الشعبي؟ قال الشعبي: هذه، وأشار إلى المرأة. كان معن بن زائدة ظنينا في دينه، فبعث إلى ابن عيَّاش المنتوف بألف دينار، وكتب إليه: قد بعثت إليك بألف دينار، اشترتُ بها منك دينك، فأقبض المال وأكتب إلي بالتسليم. فكتب إليه: قد قبضت المال وبعثتُ به ديني خلا التوحيد، لما علمتُ من زهدك فيه. بعث بلال بن أبي بردة في ابن أبي علقمة الممرور، فلما أتى به قال: أتدري لما بعثتُ إليك؟ قال: لا أدري؟ قال: بعثتُ إليك لأضحك بك؟ قال: لئن فعلت لقد ضحك، أحد الحكمين من صاحبه، يُعرض له بجده أبي موسى، فعضب به بلال وأمر به إلى الحبس. فكلمه الناس وقالوا: إن المحنون لا يُعاقب ولا يُحاسب، فأمر بإطلاقه وأن يُؤتى به إليه. فأُتي به في يوم سبت وفي كفه طرائف أُتِف بها قي الحبس، فقال له بلال: ما هذا الذي في كُحك؟ قال: من طرائف الحبس؟ قال: ناولني منها؟ قال: هو يوم سبت ليس يُعطى ولا يُؤخذ يُعرض بعمّة كانت له من اليهود. دخل حسّان بن ثابت على عائشة رضي الله عنها فأنشدها:

وتُصبح غرَّتني من لحوم الغوافل

حصان رزان ما تُزن بريبة

قالت له: لكنك لست كذلك، وكان حسّان من الذين جاءوا بالإفك.

نظر رجل من الأزدي إلى هلال بن الأحمز حين قدم من قنديل، وقد أطافت به بنو تميم فقال: انظروا إليهم وقد أطافوا به إطفاء الحواريين بعيسى. فقال له محمد بن عبد الملك المازني: هذا ضد عيسى، عيسى كان يُحى الموتى وذا يُميت الأحياء. لما حُلقت لحيّة ربيعة بن أبي عبد الرحمن، كانت امرأة من المسجد تقف عليه كل يوم في حلقته، وتقول: الله لك يا بن أبي عبد الرحمن! من حلق لحيّتك؟ فلما أبرمته، قال لها: يا هذه، إن ذلك حلقها في جزة واحدة وأنت تحلقينها في كل يوم. خرج سعيد بن هشام بن عبد الملك يوماً بحمص في يوم مطر عليه طيلسان وقد كاد يمس الأرض، فقال له رجل وهو لا يعرفه: أفسدت ثوبك يا عبد الله؟ قال: وما يضرُّك؟ قال: وددت أنك وهو في التار؛ قال: وما ينفك؟ لما قدم الحجاج العراق والياً عليها خرج عبّيد الله بن ظبيان متوكفاً على مولى له وقد ضربه الفالج، فقال: قدم العراق رجل على ديني، فقال له حُضين ابن المنذر الرقاشي؛ فهو إذا منافق؟ قالت عبّيد الله: إنه يقتل المنافقين؟ قال له حُضين: إذا يقتلك. لما قدم عبد الملك بن مروان المدينة نزل دار مروان، فمر الحجاج بخالد بن يزيد بن معاوية وهو

جالسٌ في المسجد، وعلى الحجاج سيفٌ مُحلَّى، وهو يُخطِرُ متبخرًا في المسجد، فقال له رجلٌ من قريش: مَنْ هذا التَّخَطُّرة؟ فقال خالدٌ بَخٍ بَخٍ! هذا عمرو بن العاص. فسمعه الحجاج فمال إليه، فقال: قلت: هذا عمرو بن العاص! والله ما سرَّني أن العاص ولدي ولا ولدته، ولكن إن شئتَ أخبرتك من أنا، أنا ابن الأشياخ من ثقيف، والعقائل من قريش، والذي ضرب مائة ألف بسيفه هذا، كلُّهم يشهد على أبيك بالكفر وشرب الخمر، حتى أقروا أنه خليفة، ثم وكَّى وهو يقول: هذا عمرو بن العاص! قال رجلٌ من بني لُهَبٍ لِهَبٍ بن مُتَبِّه: مَنْ الرجل؟ قال: رجل من اليمن؟ قال: فما فعلتُ أمَّكم بلقيس؟ قال: هاجرتُ مع سليمان لله رب العالمين، وأمَّكم حمالة الحطب في جِدها حَبْلٌ من مسد. وقال رجل لابن شبرمة: من عندنا خرج العلم إليكم؟ قال: نعم، ثم لم يرجع إليكم. نظر يزيد بن منصور، حال المهدي، إلى يزيد بن يزيد، وعليه رداء يمان وهو يسبحه، فقال: ليس عليك غزله، فاسحب وجُرِّ؛ قال له: على آباتك غزله، وعليّ سحبه. فشكاه إلى المهدي؟ فقال: لم تجد أحداً تتعرض له إلا يزيد بن يزيد! دخل أبو يقظان القيسي علي يزيد بن حاتم، وهو والي مصر وعنده هاشمُ ابن حُديج، فقال له يزيد: حرَّكه، وعلى أبي يقظان حُلَّةً وشيْ وكساء حرَّ، فقال هاشم: الحمد لله أبا يقظان، لبستُم الوشي بعد العباء؟ قال: أجل، تحوكون وتلبس، فلا عدمتُم هذا متًا، ولا عدمتنا هذا منكم. كتب الفرزدقُ إلى عبد الجبار بن سلمى المُجاشعي يستهديه جارية، وهو بعمان، فكتب إليه:

كُتِبَتْ إِلَيَّ تَسْتَهْدِي الْجَوَارِي

لَقَدْ أَنْعَظْتَ مِنْ بِلَدٍ بَعِيدٍ

وقال رجلٌ من العرب: رأيتُ البارحة الجنة قي منامي، فرأيتُ جميع ما فيها من القصور، فقلتُ: لمن هذه؟ فقيل لي: للعرب؟ قال له رجلٌ من الموالي: صعدتُ العرف؟ قال: لا؟ قال: تلك لنا. قال عبدُ الله ابن صفوان، وكان أمياً، لعبد الله بن جعفر بن أبي طالب: أبا جعفر، لقد صرَّت حُجَّةً لفتياننا علينا، إذا نهيناهم عن المَلاهي قالوا: هذا ابن جعفر سيد بني هاشم يحضرها ويتخذها؛ قال له: وأنت أبا صفوان صرَّت حُجَّةً لصبياننا علينا، إذ لمُناهم في ترك المكتب قالوا: هذا أبو صفوان سيد بني جُمح يقرأ آيةً ولا يخطها. قال معاوية لعبد الله بن عامر: إن ليإيليك حاجة؟ قال: بحاجة تقضيها يا أمير المؤمنين، فسأل حاجتك؟ قال: أريد أن تهب لي دُورك وضياعك بالطائف؛ قال: قد فعلتُ، قال: وصَلتُك رَحِمَ، فسأل حاجتك، قال: حاجتي إليك أن تردّها عليّ يا أمير المؤمنين؟ قال: قد فعلت. وقال رجل لثمامة بن أشرس: إن لي إليك حاجة، قال: وأنا لي إليك حاجة؟ قال: وما حاجتك؟ قال: فتقضيها؟ قال: نعم، فلما توثق منه قال: فإن حاجتي إليك ألا تسألني حاجة.

جواب في فخر

سعيد بن أبي عروبة عن قتادة مَال! تَفَاخِرُ عمرو بن سعيد بن العاص وخالد بن يزيد بن معاوية عند عبد الملك بن مروان، فقال عبدُ الملك لشيخ من موالي قريش: اقض بينهما؛ فقال الشيخ: كان سعيد بن العاصي لا يعمّم - أحد في البلد الحرام بلون عمامته، وكان حرب بن أمية لا يبكي على أحد من بني أمية ما كان في البلد شاهداً، فلما مات سعيدٌ وحربٌ شاهد لم يُبْك عليه. قال الأبرش الكلبي لخالد بن صفوان: هلّم أفاخرك، وهما عند هشام بن عبد الملك، قال له خالد؛ قل، فقال له الأبرش: لنا رُبع البيت - يُريد الرُكن اليماني - ومنا حاتم طيء، ومنا المهلب بن أبي صفرة. فقال خالد بن صفوان: منّا النبي المرسل، وفينا الكتاب المنزل ولنا الخليفة المؤمل. قال الأبرش: لا فاخرتُ مُضرباً بعدك. ونزل بأبي العباس قوم من اليمن من أخواله من كعب، ففخروا عنده بقدمهم وحديثهم، فقال أبو العباس لخالد بن صفوان: أحب القوم؟ فقال: أخوال أمير المؤمنين؛ قال: لا بد أن تقول؛ قال: وما أقول، يا أمير المؤمنين لقوم هم بين حائك بُرد، ودابع جلد، وسائس قرد، ملكتهم امرأة، ودلّ عليهم هُدهد، وغرقتهم فأره. فلم يقم بعدها ليماني قائمة. قال عبدُ الملك بن الحجاج: لم كان رجل من ذهب لكنته. قال له رجلٌ من قريش: وكيف ذلك؟ قال: لم تلدني أمة بيني وبين آدم ما خلا هاجر؛ فقال له: لولا هاجر لكنت كلباً من الكلاب. دخل عمر بن عبّيد الله بن معمر على عبد الملك بن مروان وعليه حبرة صدأة عليها أثر الحمائل، فقالت له أمية بن عبد الله بن خالد بن أسيد: يا أبا حفص، أي رجل أنت لو كنت من غير من أنت منه من قريش؛ قال: ما أحب أي من غير من أنا منه، إن منّا لسيد الناس في الجاهلية عبدُ الله بن جُدعان، وسيد الناس في الإسلام أبا بكر الصديق، وما كانت هذه يدي عندك، إني استنفذت أمهات أولادك من عدوك أي فديك بالبحرين، وهنّ حبال، فولدن في حجابك.

قال عبد الرحمن بن خالد بن الوليد بن المغيرة، مُعاوية: أما والله لو كُنَّا بمكة على السواء، لعلمت! قال مُعاوية: إذا كنتُ أكون مُعاوية بن أبي سفيان، مَنزلي الأبطح، يَنشِقُّ عَنِّي سَيْلُهُ، وكنْتَ عبدَ الرحمن بن خالد، متزكُّك أحياداً، أعلاه مدرة، وأسفله عذرة. تنازع الزبير بن العوام وعُثمان بن عفان في بعض الأمور، فقال الزبير: أنا ابن صَفِيَّة؛ قال عُثمان: هي أدنتك من الظلِّ، ولولا ذاك لَكُنْتَ ضاحياً. قال أحمد بن يوسف الكاتب محمد بن الفضل: يا هذا، إنك تتطاول بهاشم كأنك جمعتهما، وهي تَعْتَدُ في أكثر من خمسة آلاف؛ قال له محمد بن الفضل: إن كثرة عددها ليس يُخرج من عنقك فضل واحداً. فخر مولى لزيد بن يزيد عند مُعاوية. قال له فعافية: اسكت، فوالله ما أدرك صاحبك شيئاً بسيفه إلا أدركتُ أكثر منه بلساني. وقال رجل من مخزوم للأحوص محمد، بن عبد الله الأنصاري: أتعرف الذي يقول:

ذَهَبْتُ قَرِيشَ بِالْمَكَارِمِ كُلِّهَا

قال: لا، ولكنني أعرُفُ الذي يقول:

النَّاسُ كَنَوْهُ أبا حَكَمٍ

أَبَقْتُ رِيَّاسَتَهُ لِأَسْرَتِهِ

وَالذُّلُّ تَحْتَ عِمَائِمِ الْأَنْصَارِ؟

وَاللَّهِ كَنَاهُ أبا جَهْلٍ

لَوْمَ الْفُرُوعِ وَرِقَّةِ الْأَصْلِ

سأل رجلٌ من قريش رجلاً من بني قيس بن ثعلبة: ممن أنت؟ قال: من ربيعة؛ قال له القرشي: لا أثر لكم ببطحاء مكة؛ قال القيسي: آثارها. في أكناف الجزيرة المشهورة، موافقنا في ذي قار معروفة، فأما مكة فسواء العاكف فيها والبادي، كما قال الله تبارك و، تعالى، فأفحمه. قال الأشعث بن قيس لشريح القاضي: شد ما ارتفعت! قال: فهل ضرك؟ قال: لا؟ قال: فأراك تعرف نعمة الله على غيرك، وتجلهلها على نفسك. قال سليمان بن عبد الملك ليزيد بن المهلب: فيمن العزُّ بالبصرة؟ قال: فينا، وفي أحلافنا من ربيعة؛ قال له سليمان بن عبد الملك: الذي تحالفتما عليه أعز منكما. قدم أعرابيُّ البصرة فدخل المسجد الجامع، وعليه خلقة وعمامة قد كورها على رأسه، فرمى بطرفه يمنة ويسرة، فلم ير فتية أحسن وجوهاً ولا أظهر زياً من فتية حضروا حلقة عتبة المخزومي، فدنا منهم وفي الحلقة فرجة فطبقها، فقال له عتبة: ممن أنت يا أعرابي؟ قال: من مدحج، قال: من زيدها الأكرمين، أو من مُرادها الأطيبين؟ قال: لست من زيدها ولا من مُرادها؟ قال: فمن أنت؟ قال: فيني من حُماة أعراضها، وزهرة رياضها بني زيد. قال: فأفحم عتبة حتى وضع قلنسوته عن رأسه، وكان أصلع، فقال له الأعرابي: فأنت يا أصلع، ممن أنت؟ قال: أنا رجل من قريش؛ قال: فمن بيت نُبوها، أو من بيت مملكتها؟ قال: إني من رِيحانتها بني مخزوم، قال: والله لو تدري لم سُميت بنو مخزوم رِيحانة قريش، ما فخرت بها أبداً، إنما سميت رِيحانة قريش لخور رجالها، ولين نساتها، قال عتبة: والله لا نازعتُ أعرابياً بعدك أبداً. وضع فيروز بن، حُصين يده على رأس نُميلة بن مالك بن أبي عكابة عند زيد، فقال: من هذا العبد؟ قال: أنت العبد، ضربناك فما انتصرت، ومننا عليك فما شكرت. اجتمعت بكر بن وائل إلى مالك بن مسمع لأمر أراه مالك، فأرسل إلى بكر بن وائل وأرسل إلى عبيد الله بن زيد بن، طيبان، فأتى عبيد الله، فقال: يا أبا مسمع، ما منعك أن تُرسل إلي؟ قال: يا أبا مطر، ما في كنانتي سَهْمٌ أنا أوثق به مني بك. قال: وإني لفي كنانتك! أما والله لئن كنتُ فيها قائماً لأطولتها، ولئن كنتُ فيها قاعداً لأحرقنها. نازع مالك بن مسمع شقيق بن ثور، فقال له مالك! إنما شرفك قبر بُسْتَرْتِ؛ قال شقيق: لكن وضعك قبرٌ بالمشقر. وذلك أن مسمعاً أبا مالك جاء إلى قوم بالمشقر، فبجحه كلبهم، فقتله، فقتلوه به، فكان يقال له: قتل الكلاب. وأراد مالك قبر مَجْزاة بن ثور، أخي شقيق، وكان استشهد بُسْتَرْتِ مع أبي موسى الأشعري. قال قتيبة بن مسلم لهبيرة بن مسروح: أي رجل أنت لو كانت أحوالك من غير سلول! فبادل بهم، قال: أصلح الله الأمير، بادل! بهم من شئت وجنبتني باهلة. وكان قتيبة من باهلة.

جواب ابن أبي دواد

قال أحمد بن أبي دواد محمد بن عبد الملك، الزيات عند الوثائق: أضوي أي أسكت - يا لتبطينة - فقال له: لماذا والله؟ ما أنا بنيطي ولا بدعي؟ قال له: ليس فوقك أحد يفضلك، ولا دونك أحد تنزل إليه، فأنت مُطرح في الحالتين جميعاً. ودخل أحمد بن أبي دواد على أشناس، فقال له: بلغني أنك

أفسدت هذا الرجل، يعني، محمد بن عبد الملك، وهو لنا صديق، فأحب أن لا تأتينا؛ قال له ابن أبي دُواد: أنت رجل صَنَعْتَك هذه الدولة، فإن أتيناك فلها، هان تَرَكَناك فلنفسك. قال أحمد بن أبي دُواد: دخلتُ على الواثق، فقال: ما زال قومُ اليوم في ثَلْبِكَ وَنَقْصِكَ؛ فقلت: يا أمير المؤمنين، لكل امرئ منهم ما اكتسب مات الإثم، والذي تَوَلَّى كِبْرَهُ منهم له عذاب عظيم، فالله وليّ جزائه، وَعِقَابُ أمير المؤمنين من ورائه، وما ضاع امرؤ أنت حائطُهُ، ولا ذَلٌّ مَنْ كنت ناصِرَهُ، فماذا قلت لهم يا أمير المؤمنين؟ قال: أبا عبد الله:

وسعى إلى بعيب عزة نسوة

جعل المليك خدودهن نعالها

وقال أبو العيناء الهاشمي: قلت لابن أبي دُواد: إن قوماً تضافروا عليّ؛ قال: يدُ الله فوق أيديهم. قلتُ: لهم جماعة؛ قال: كم من فئة قليلة غلبت فئة كثيرة بإذن الله والله مع الصابرين. قلت: إن لهم مكرًا؛ قال: ولا يحيق المكر السيء بأهله. قال أبو العيناء: فحدثت به أحمد بن يوسف الكاتب، فقال: ما يرى ابن أبي دُواد إلا أن القرآن إنما أنزل عليه.

جواب في تفحش

خَطَب خالد بن عبد الله القسريّ، فقال: يا أهل البادية، ما أحسن بلدكم! وأغلظ معاشكم! وأجفى أخلاقكم! لا تشهدون جمعة، ولا تُجالسون عالماً فقام إليه رجال منهم دَمِيم، فقال: أمّا ما ذكرت من حُشونة بلدنا، وغلظ طعامنا، وجفاء أخلاقنا، فهو كذلك؛ ولكنكم معشر أهل الحضرة فيكم ثلاث خصال هي شرٌّ من كل ما ذكرت، قال له خالد: وما هي؟ قال: تُنقبون الدُور، وتنبشون القُبور، وتتكحون الذُكُور؛ قال: فَبَحَكَ اللهُ وَفَبَحَ ما جئت به. أبو الحسن قال: أتى موسى بن مُصعب منزل امرأة مدنية لها قينة تعرّضها، فإذا امرأة جميلة لها هيئة، فنظر إلى رجل دَمِيم يجيء ويذهب ويأمر وينهى في الدار، فقال: مَنْ هذا الرجل؟ قالت: هو زوجي؟ قال: إنا لله وإنا إليه راجعون! أمّا وجدت من الرجال غير هذا وبك من الجمال ما أرى؟ قالت: والله يا أبا عبد الله لو استدبرك مثل ما يستقبلني به لعظم في عينك. أبو الحسن قال: قالت عاتكة بنت الملاءة لرائض دُواد زوجها في طريق مكة: ما وجدت عملاً شرّاً من عملك، إنما كَسَبْتَ باستك! فقال لها: جعلت فداك، ما بين ما اكتسب به، وما تُكتسبين به أنت إلا إصبعان؛ قالت: ويلي عليك! خذوا الخبيث. فطلبه حشمها، ففاهم ركضاً. أبو الحسن قال: قال رجل من الأزديّ في مجلس يونس النحويّ: وددت والله أن بني تميم جميعاً في حَوْثي، على أن يُضربَ وسطي بالسيف. قال له شيخ في ناحية المجلس حرّمازي من بني تميم: يا هذا، يكفيك من ذاك كَمَرَةَ حمارية يملأ بها أستاذك إلى لهاتك.

وسأل أعرابي شيخاً من بني مروان وحواله قوم جلوس، فقال: أصابتنا سنةٌ ولي بضع عشرة بنتاً؟ فقال الشيخ: أما السنة، فوددت والله أن بينكم وبين السماء صفيحة من حديد؛ وأما البنات، فليت الله أضعفهن لك أضعافاً كثيرة، وجعلك مقطوع اليدين والرجلين ليس هن كاسب غيرك. قال: فنظر الأعرابي ملياً، ثم قال: ما أدري ما أقول لك! ولكني أراك قبيح المنظر، لئيم المخير، فأعضك الله بظهور أمهات هؤلاء الجلوس حولك. وسأل أعرابي شيخاً من الطائف وشكاً إليه سنةً أصابته؛ فقال: وددت والله أن الأرض حصاء ولا تُثبت شيئاً، قال: ذلك أليس لجعر أمك في آستها. قال عبيد الله بن زياد بن طيبان لزرعة بن ضمرة الضمريّ: إني لو أدركتُك يوم الأهواز، لقطعتُ منك طابقاً شحيماً؛ قال: ألا أدلك على طابق شحيم، هو أولى بالقطع؛ قال: بلى، قال: البظر الذي بين آسني أمك. قال عبد الله بن الزبير لعددي بن حاتم: متى فُتنت عينك؟ قال: يوم طعنتك في آستك وأنت مؤلّ. وقال الفرزدق: ما عيّت بجواب أحد قط ما عيّت بجواب امرأة، وصبيّ، ونبطي؟ فأما المرأة، فإني ذهبتُ ببغلي أسقيها في التهر، فإذا معشر نسوة، فلما همزت البغلة حبقت، فاستضحك النسوة، فقلتُ لمن: ما أضحككن؟ فوالله ما حملتني أنثى إلا فعلت مثلها؟ فقالت امرأة منهن: فكيف كان ضراط أمك قفيرة؛ فقد حملتُك في بطنها تسعة أشهر، فما وجدت لها جواباً؛ وأما الصبيّ فإني كنت أنشد بجامع البصرة، وفي حلقتي الكميّ ابن زيد، وهو صبيّ، فأعجبني حسن استماعه، فقلتُ له: كيف سمعت يا بُني؟ قال لي: حسن؛ قلتُ: أفيسرك آني أبوك؟ قال: أما أبي فلا أريد به بديلاً، ولكن وددتُ أن تكون أمي؟ قلتُ: أسترها عليّ يا بن أخي، فما لقيتُ مثلها؟ وأما النبطي، فإني لقيتُ نبطياً بيثرب فقال لي: أنت الفرزدق؟ ملحتُ؛ نعم؟ قال: أنت

الذي يخاف الناس لسانك؟ قلت: نعم، قال: فأنت الذي إذا هجوتني يموت فرس هذا؟ قلت: لا، قال: فيموت ولدي؟ قلت: لا؟ قال: فأموت أنا؛ قلت: لا؟ قال: فأدخليني الله في حرام الفرزدق من رجلي إلى عنقي؛ قلت: ويحك! ولم تترك رأسك؟ قال: حتى أرى ما تصنع الزانية. ولقي جرير الفرزدق بالكوفة، فقال: أبا فراس، تحتمل عني مسألة؟ قال: أحتملها بمسألة؟ قال: نعم، قال: فسأل عمًا بدا لك؟ قال: أي شيء أحب إليك: يتقدمك الخير أو تتقدمه؟ قال: لا يتقدمني ولا أتقدمه، ولكن أكون معه في قرن؟ قال: هات مسألتك؟ قال له الفرزدق: أي شيء أحب إليك إذا دخلت على امرأتك: أن تجديدها على أير رجل أو تجد يد رجل على حرها؟ قال: قاتلك الله! ما أقبح كلامك! وأرذل لسانك! أبو الحسن قال: مر الفرزدق يوماً بمسجد الأحامرة وفيه جماعة فيهم أبو المزد الحنفي، فقال له الفرزدق. يا أبا بني حنيفة، ما شيء لم يكن له أسنان ولا تكون، ولو كان لم يستقم؟ قال: لا أدري، قال: يا أبا المزد، إنه سفيه، فإن لم تغضب أخبرتك؟ قال: قل فيني لا أغضب؟ فقال: حر أمك، لم تكن له أسنان ولا تكون، ولو كان لم يستقم. أبو الحسن قال: لقي الفرزدق عمرو بن عفراء فعاتبه في شيء بلغه عنه، فقال له ابن عفراء وهو بالمربد: ما شيء أحب إلي من أن آتي كل شيء تكرهه؟ قال له الفرزدق: بالله إنك لأني كل شيء أكرهه؟ قال: نعم؟ قال فيني أكره أن تأتي أمك فأثما. ضاف رجل قبيح الوجه ذي الحسب أبا عبد الله الجمار، فجعل يفخر بيته؟ فقال له الجمار: اسكت، فقباحة وجهك، ودنو حسبك بمنعنا من سبك؛ فأبى إلا التماسي في اللجاج، فقال له الجمار:

أو حسن الوجه لنكناكا

قبح أو اللؤم تركناكا

لو كنت ذا عرض هجوناكا

جمعت مر قبحك لوماً فلل

كتاب الوسطة في الخطب

قال أبو عمر، أحمد بن محمد بن عبد ربّه: قد مضى قولنا في الأجابة وتباين الناس فيها على قدر عقولهم ومبلغ فطنهم، وحضور أذهانهم بم ونحن قائلون بعون الله وتوفيقه في الخطب التي يُختار لها الكلام، وتفأخرت بها العرب في مشاهدهم، ونطقت بها الأئمة على منابرهم، وشهرت بها في، وقامت بها على رؤوس خلفائهم، وتباهت بها في أعيادهم ومساجدهم، ووصلتها بصلواتهم، وخوطب بها العوام، واستجزلت لها الألفاظ، وتُخيرت لها المعاني: أعلم أنّ جميع الخطب على ضربين: منها الطوال، ومنها القصار؛ ولكل ذلك موضع يليق به، ومكان يحسن فيه. فأول ما نبدأ به من ذلك خُطب النبي صلى الله عليه وسلم ثم السلف المتقدمين، ثم الجلة من التابعين، والجلّة من الخلفاء الماضين، والفصحاء المتكلمين، على ما سقط إلينا، ووقع عليه اختيارنا؛ ثم نذكر بعض خطب الخوارج، لجزالة ألفاظهم، وبلاغة منطقتهم، كخطبة قطري بن الفجاءة في ذم الدنيا، فإنها معدومة التطير، مُتقطعة القرين، وخطبة أبي حمزة التي سمعها مالك بن أنس، فقال: خطبنا أبو حمزة بالمدينة خطبة شكك فيها المستبصر، وردّ بها المرتاب؟ ثم نسمح بصدر من خطب البادية وقول الأعراب خاصة، لمعرفة بداء الكلام ودوائه، وموارده ومصادره.

قال عبد الملك بن مروان لخالد بن سلمة القرشي المخزومي من أخطب الناس؟ قال: أنا؟ قال: ثم من؟ قال: أنا؟ قال: ثم من؟ قال: شيخ جُدام - يعني رُوح بن زُبَاع - قال؟ ثم من؟ قال: أخيفش ثقيف - يعني الحجاج -؛ قال: ثم من؟ قال: أمير المؤمنين. وقال معاوية لما خطب الناس عنده فأكثرُوا: والله لأرْمينكم بالخطيب المصنوع، فم يا زياد. وقال محمد كاتب المهدي - وكان شاعراً راوية، وطالبا للنحو علامة -، قال: سمعت أبا ذؤاد يقول: وجرى شيء من ذكر الخطب وتخير الكلام، فقال: تلخيص المعاني رفق، والاستعانة بالعريب عجز، والتشادق في غير أهل البادية نقص، والتظر في عيون الناس عي، ومسح اللحية هُلك، والخروج عما بُني عليه الكلام إسهاب. قال: وسمعتُه يقول: رأسُ الخطابة الطبع، وعمودها الدرّة، وحليها الإعراب، وبهاؤها تخير اللفظ، والحبّة مقرونة بقلة الاستكراه. وأنشدني بيتاً له في خطباء إياد:

وَحَيِّ الْمَلَاظِحَ خَيْفَةَ الرَّقِيَاءِ

يَرْمُونَ بِالْخُطْبِ الطَّوَالَ وَتَارَةَ

أنشدني في عي الخطيب واستعانت به. مسح العثون وقتل الأصابع:

وَمَسْحَةَ عُثُونٍ وَقَتْلَ الْأَصْبَاعِ

مَلِيءٌ بِبُهْرٍ وَالتَّفَاتِ وَسُعْلَةٍ

مرّ بشر بن المعتمر بإبراهيم بن جبلة بن محرمة السكوني الخطيب، وهو يعلم فتيانهم الخطابة، فوقف بشر يستمع، فظن إبراهيم أنه إنما وقف ليستفيد، أو يكون رجلاً من النظارة. فقال بشر: اضربوا عما قال صفحاً، واطوا عنه كشحاً، ثم دفع إليهم صحيفة من تميمه وتخييره، فيها: خذ من نفسك ساعة نشاطك وفراغ بالك وإجابتها إياك، فإن قليل تلك الساعة أكرم جوهراً، وأشرف حسباً، وأحسن في الأسماع، وأخلى في الصدور، وأسلم من فاحش الخطأ، وأجلب لكل عين وغرّة، من لفظ شريف، ومعنى بديع، واعلم أنّ ذلك أجدى عليك مما يُعطيك يومك الأطول بالكذب والمطاوله، والمجاهدة بالتكليف والمعاودة، ومهما أخطأك لم يُخطئك أن يكون مقبولاً قصداً، وخفيفاً على اللسان سهلاً، كما خرج من ينبوعه، ونجم من معدنه؛ وإياك والتوعر، فإن التوعر يُسلمك إلى التعقيد، والتعقيد هو الذي يستهلك معانيك، ويشين ألفاظك. ومن أراد معنى كريماً فليتمس له لفظاً كريماً، فإن حق المعنى الشريف اللفظ الشريف؛ ومن حققهما أن تصوهُما عما يُفسدُهُما ويهجنُهُما، وعما تعود من أحله إلى أن تكون أسوأ حالاً منك قبل أن تلتبس إظهارهما، وترهن نفسك بملابستهما وقضاء حقهما. وكن في ثلاث منازل: وإن أوكى الثلاث أن يكون لفظك رشيماً عذباً، وفحماً سهلاً، ويكون معنك ظاهراً مكشوفاً، وقريباً معروفاً، إمّا عند الخاصة، إن كنت للخاصة قصدت، وإمّا عند العامة، إن كنت للعامة أردت، والمعنى ليس يشرف بأن يكون من معاني الخاصة، وكذلك ليس يتضع بأن يكون من معاني العامة، وإنما مدار الشرف على الصواب، وإحراز المنفعة مع موافقة

الحال، وما يجب لكل مقام من المقال، وكذلك اللفظ العامي والخاصي، فإن أمكنك أن تبلغ من بيان لسانك، وبلاغة قلمك، ولطف مداخلك، واقتدارك على نفسك، على أن تُفهم العامة معاني الخاصة، وتكسوها الألفاظ المتوسطة التي لا تُلطف عن الدهماء، ولا تُجفو عن الأكفاء، فأنت البليغُ التام. فقال له إبراهيم بن جبلة: جعلت فداك، أنا أحوجُ إلى تعلّمي هذا الكلام من هؤلاء الغلّمة.

خطبة رسول الله في حجة الوداع صلى الله عليه وسلم في حجة الوداع

إن الحمد لله نحمده ونستغفره ونتوب إليه؛ ونعوذ بالله من شرور أنفسنا، ومن سيئات أعمالنا، من يهّد الله فلا مضلّ له، ومن يضلّل فلا هاديّ له وأشهد أن لا إله إلا الله وحده لا شريك له، وأنّ محمداً عبده ورسوله. أوصيّكم عبادَ الله بتقوى الله، وأحثّكم على طاعته، وأسْتَفْتَحَ بالذي هو خير. أما بعد، أيها الناس، اسمعوا منّي أيّينَ لكم، فإنّي لا أدري لعليّ لا ألقاكم بعد عامي هذا في موقفي هذا. أيها الناس، إن دماءكم وأموالكم عليكم حرام إلى أن تلقوا ربّكم، كحرمة يومكم هذا في شهركم هذا في بلدكم هذا. ألا هل بلّغت، اللهم اشهد. فمن كانت عنده أمانة فليؤدها إلى الذي ائتمن عليها، وإن ربّيا الجاهلية مَوْضوع، وإن أوّل ربّيا أبدأ به ربّا عمّي العباس بن عبد المطلب، وإن دماء الجاهليّة مَوْضوعَة، وإن أوّل دم أبدأ به دم عامر بن ربيعة بن الحارث بن عبد المطلب، وإنّ مآثر الجاهلية موضوعة غير السّدانة والسّقاية. والعمد قود، وشبه العمد ما قُتل بالعصا والحجر، ففيه مائة بعير، فمن زاد فهو من أهل الجاهلية. أيها الناس، إنّ الشيطان قد يئس أن يُعبد في أرضكم هذه ولكنه رضي أن يُطاع فيما سوى ذلك مما تُحَقِّرون من أعمالكم. أيها الناس، إنّما التّسّيء زيادة في الكُفر، يُضِلُّ به الذين كَفَرُوا، يُحِلُّونه عاماً ويُحَرِّمونهُ عاماً، ليُواطئوا عدّة ما حرّم الله، وإنالزمان قد استدار كهيئته يوم خلق الله السموات والأرض، وإن عدّة الشهور عند الله اثنا عشر شهراً في كتاب الله يوم خلق السموات والأرض، منها أربعة حُرّم، ثلاثة متواليات، وواحد فرد، ذو القعدة وذو الحجة والمحرم، ورجب الذي بين جمادى وشعبان، ألا هل بلّغت، اللهم اشهد. أيها الناس، إنّ لئسائكم عليكم حقاً، وإنّ لكم عليهن حقاً، لكم عليهن أن لا يُوطئن فرشكم غيركم، ولا يُدخلن أحداً تَكَرَّهُونه بيوتكم إلاّ بإذنكم، ولا يأتين بفاحشة، فإن فعلن فإنّ الله قد أذن لكم أن تُعْضِلُوهُنَّ وتُهْجِرُوهُنَّ في المضاجع وتضربوهن ضرباً غير مُبرّح، فإن انتهين وأطعنكم فعليكم رزقهن وكسوتهن بالمعروف، وإنما النساء عندكم عَوَار لا يملكن لأنفسهن شيئاً، أخذتموهن بأمانة الله، واستحللتم فروجهن بكلمة الله، فاتقوا الله في النساء واستوصوا بهن خيراً. أيها الناس، إنّما المؤمنون إخوة فلا يحل لامرئٍ مال أخيه إلاّ عن طيب نفسه، ألا هل بلّغت، اللهم اشهد. فلا تَرْجِعُوا بعدي كفاراً يضرب بعضكم أعناق بعض، فإنّي قد تركت فيكم ما إن أخذتم به لم تضلّوا: كتاب الله، ألا هل بلّغت، اللهم اشهد. أيها الناس: إنّ ربكم واحد، وإن أباكم واحد، كلّكم لآدم، وآدم من تراب، أكرمكم عند الله أتقاكم، ليس لعربيّ على عجميّ فضل إلاّ بالتقوى، ألا هل بلّغت؟ قالوا: نعم؟ قال: فليبلغ الشاهد منكم الغائب. أيها الناس، إنّ الله قد قسم لكل وارث نصيبه من الميراث، ولا يجوز لوارث وصية ولا تجوز وصية، في أكثر من الثلث، والولد للفراس وللعاهر الحجر، من ادعى إلى غير أبيه، أو تولى غير مواليه، فعليه لعنة الله والملائكة والناس أجمعين، لا يقبل الله منه صرفاً ولا عدلاً. والسلام عليكم ورحمة الله وبركاته.

وخطب أبو بكر يوم السقيفة

أراد عُمر الكلام، فقال له أبو بكر؟ على رسلك، ثم حمد الله وأثنى عليه، ثم قال؟ أيها الناس، نحن المهاجرون أوّل الناس إسلاماً، وأكرمهم أحساباً، وأوسطهم داراً، وأحسنهم وجوهاً، وأكثر الناس ولادةً في العرب، وأمستهم رحماً برسول الله صلى الله عليه وسلم، أسلمنا قبلكم، وقدمنا في القرآن عليكم، فقال تبارك وتعالى: والسابقون الأوّلون من المهاجرين والأنصار والذين أتبعوهم بإحسان. فنحن المهاجرون وأنتم الأنصار، إخواننا في الدين، وشركاؤنا في الفَيْء، وأنصارنا على العدو، أويتم وآسيتم، فجزاكم الله خيراً، فنحن الأمراء وأنتم الوزراء، لا تدين العرب إلاّ لهذا الحيّ من قريش، فلا تنفوسوا على إخوانكم المهاجرين ما منحهم الله من فضله.

وخطب أيضا

حمد الله وأثنى عليه، قال: أيها الناس، إني قد وليتُ عليكم، ولستُ بخيركم، فإن رأيتُموني على حق فأعينوني، وإن رأيتُموني على باطل فسدّدوني. أطيعوني ما أطعتُ الله فيكم، فإذا عصيته لا طاعة لي عليكم. ألا إن أقواكم عندي الضّعيفُ حتى آخذَ الحقَّ له، وأضعفكم عندي القوي حتى آخذَ الحق منه. أقول قولي هذا وأستغفر الله لي ولكم.

وخطب أخرى

فلما حمد الله بما هو أهله، وصلى على نبيه عليه الصلاة والسلام، قال: إن أشقى الناس في الدنيا والآخرة الملوئ. فرجع الناس رؤوسهم، فقال: ما لكم أيها الناس، إنكم لطفعون عجلون. إن من الملوئ من إذا ملك زهده الله فيما بيده، ورغبه فيما بيد غيره، وانتقصه شطر أجله، وأشرب قلبه الإشفاق، فهو يحسد على القليل، ويتسخط الكثير، ويسأم الرّخاء، وتقطع عنده لذة البقاء، لا يستعمل العبرة، ولا يسكن إلى الثقة، فهو كالدرهم القسي، والسراب الخادع، جدل الظاهر، حزين الباطن؟ فإذا وجبت نفسه، ونضب عمره، وضحا ظله، حاسبه الله فأشدد حسابه، وأقل عفوّه. ألا إن الفقراء هم المرحومون، وخير الملوئ من أمن بالله وحكم بكتابه وسنة نبيه، صلى الله عليه وسلم وإنكم اليوم على خلافة نبوة ومفرق محجة، وسترون بعدي ملكاً عضوضاً، وملياً عنوداً، وأمة شعاعاً، وذماً مفاجاً، فإن كانت للباطل نزوة، ولأهل الحق حولة، يعفو بها الأثر، ويموت لها الخبر، فالزموا المساجد، واستشيروا القرآن، واعتصموا بالطاعة. وليكن الإبرام بعد التشاور، والصّفة بعد طول التناظر. أفي بلاد خرشنة؛ إن الله سيفتح لكم أقصاها، كما فتح عليكم أداها.

وخطب أيضا فقال

الحمد لله أحمدته وأستعينه، وأستغفره وأومن به وأتوكل عليه، وأشهدني الله بالهدى، وأعوذ به من الضلال والردي، ومن الشك والعمى. من يهد الله فهو المهتدي ومن يضل فلن تجد له ولياً مرشداً. وأشهد أن لا إله إلا الله وحده لا شريك له، له الملك وله الحمد يحيي ويميت، وهو حي لا يموت، يُعزّ من يشاء، ويذل من يشاء، بيده الخير وهو على كل شيء قدير. وأشهد أن محمداً عبده ورسوله، أرسله بالهدى ودين الحق ليظهره على الدين كله ولو كره المشركون، إلى الناس كافة رحمة لهم وحجة عليهم، والناس حينئذ على شرّ حال، في ظلمات الجهلية، دينهم بدعة، ودعوتهم فرية. فأعزّ الله الدين بمحمد صلى الله عليه وسلم وألف بين قلوبكم أيها المؤمنون فأصبحتم بنعمته إخواناً، وكنتم على شفا حفرة من النار فأنقذكم منها، كذلك يبين الله لكم آياته لعلكم تهتدون. فأطيعوا الله ورسوله، فإنه قال عزّ وجل: مَنْ يُطِعِ الرَّسُولَ فَقَدْ أَطَاعَ اللَّهَ وَمَنْ تَوَلَّىٰ فَمَا أَرْسَلْنَاكَ عَلَيْهِمْ حَفِيظًا. أمّا بعد، أيها الناس، إني أوصيكم بتقوى الله العظيم في كل أمر وعلى كل حال، ولزوم الحق فيما أحببتم وكرهتتم، فإنه ليس فيما دون الصدق من الحديث خير. مَنْ يَكْذِبْ يَفْجُرْ، وَمَنْ يَفْجُرْ يَهْلِكْ. وإياكم والفخر، وما فخر من خلق من تراب وإلى التراب يعود، هو اليوم حيّ غداً ميت. فاعملوا وعدّوا أنفسكم في الموتى، وما أشكل عليكم فردّوا علمه إلى الله، وقدموا لأنفسكم خيراً تجدوه محضراً، فإنه قال عزّ وجل: يَوْمَ تَجِدُ كُلُّ نَفْسٍ مَا عَمِلَتْ مِنْ خَيْرٍ مُحْضَرًا وَمَا عَمِلَتْ مِنْ سُوءٍ تَوَدُّ لَوْ أَنَّ بَيْنَهَا وَبَيْنَهُ أَمَدًا بَعِيدًا وَيُحَذِّرُكُمُ اللَّهُ نَفْسَهُ وَاللَّهُ رَءُوفٌ بِالْعِبَادِ. فاتقوا الله عباد الله، وراقبوه واعتبروا بمن مضى قبلكم، واعلموا إنه لا بُدّ من لقاء ربكم والجزاء بأعمالكم صغيرها وكبيرها، إلا ما غفر الله أنه غفور رحيم، فأنتفسكم أنفسكم والمستعان الله، ولا حول ولا قوة إلا بالله. إن الله وملائكته يصلون على النبي، يا أيها الذين آمنوا صلّوا عليه وسلّموا تسليماً. اللهم صلّ على محمد عبدك ورسولك أفضل ما صليت على أحد من خلقك، وزكنا بالصلاة عليه، وألحقنا به، وأحشرنا في زمرة، وأوردنا حوضه. اللهم أعنا على طاعتك، وانصرتنا على عدوك

خطبة أخرى رضي الله عنه

حمد الله وأثنى عليه، ثم قال: أوصيكم بتقوى الله، وان تثنوا عليه بما هو أهله، وأن تخلطوا الرغبة بالرغبة، وتجمعوا الإلحاف بالمسألة، فإن الله أثنى على زكريا وعلى أهل بيته، فقال: أنهم كانوا يسارعون في الخيرات ويدعوننا رغبا وكانوا لنا خاشعين. ثم اعلّموا عباد الله أن الله قد ارهّن بحقه أنفسكم، وأخذ على ذلك موثيقكم، وعوضكم بالقليل الفاني الكثير الباقي، وهذا كتاب الله فيكم لا تفتن عجائبه، ولا يطفأ نوره. فنفقوا بقوله، وانتصحو كتابه، واستبصروا به ليوم الظلمة، فإنه خلقكم لعبادته، ووكل بكم الكرام الكاتين، يعلمون ما تفعلون. ثم اعلّموا عباد الله أنكم تعدون وتروحون في أجل قد غيب عنكم علمه، فإن استطعتم أن تنقضي الآجال وأنتم في عمل الله، ولن تستطيعوا ذلك إلا بالله، فسابقوا في مهل بأعمالكم قبل أن تنقضي آجالكم فتردكم إلى سوء أعمالكم، فإن أقواما جعلوا أجالهم لغيرهم، فأهأكم أن تكونوا أمثالهم. فالوحي الوحي، والنجاء النجاء، فإن وراءكم طالبا حثيثا مره، سريعا سيره.

خطب عمر بن الخطاب رضي الله عنه

قال بعد أن حمد الله وأثنى عليه: أيها الناس، تعلّموا القرآن واعملوا به تكونوا من أهله، إنه لم يبلغ حق مخلوق أن يطاع في معصية الخالق. إلا وإني أنزلت نفسي من مال الله بمثلة وإلي اليتيم: إن استغيت عفتي، وإن افتقرت أكلت بالمعروف، تفرم البهمة الأعرابية: القضم لا الخضم.

وخطب أيضا

حمد الله وأثنى عليه ثم قال: أيها الناس: من أراد أن يسأل عن القرآن فليأت أبي بن كعب، ومن أراد أن يسأل عن الفرائض فليأت زيد بن ثابت، ومن أراد أن يسأل عن الفقه فليأت معاذ بن جبل، ومن أراد أن يسأل عن المال فليأتني، فإن الله جعلني له خازنا وقاسما. إني بادىء بأزواج رسول الله صلى الله عليه وسلم فمعهن، ثم المهاجرين الأولين الذين أخرجوا من ديارهم وأموالهم، أنا وأصحابي، ثم بالأنصار الذين تبؤوا الدار والإيمان من قبلهم، ثم من أسرع إلى الهجرة أسرع إليه العطاء، وجمن أبطأ عن الهجرة أبطأ عنه العطاء. فلا يلومن رجل إلا من أخ راحلته. إني قد بقيت فيكم بعد صاحبي، فابتليت بكم وابتليت بي، وإني لن يحضرن من أموركم شيء فأكله إلى غير أهل الجزاء والأمانة، فليكن أحسنوا لأحسن إليهم، ولئن أسأوا لا نكلن بهم.

وخطب أيضا

فقال: الحمد لله الذي أعزنا بالإسلام، وأكرمنا بالإيمان، ورحمنا بنبيه صلى الله عليه وسلم، فهدانا به من الضلالة، وجمعنا به من الشتات، وألف بين قلوبنا، ونصرنا على عدونا، ومكن لنا في البلاد، وجعلنا به إخوانا متحابين. فاحمدوا الله على هذه النعمة، واسألوه المزيد فيها والشكر عليها، فإن الله قد صدقكم الوعد بالنصر على من خالفكم. وإياكم والعمل بالمعاصي، وكفر النعمة، فقلما كفر قوم بنعمة ولم يترعوا إلى التوبة إلا سلبوا عزهم، وسلط عليهم عدوهم. أيها الناس، إن الله قد أعز دعوة هذه الأمة وجمع كلمتها وأظهر فلجها ونصرها وشرفها، فاحمدوه عباد الله على نعمه، واشكروه على آلائه. جعلنا الله وإياكم من الشاكرين.

وخطبة له أيضا

أيها الناس، إنه قد أتى عليّ زمان وأنا أرى أن قوماً، يقرعون القرآن يريدون به الله عز وجل وما عنده، فخيّل إليّ أن قوماً قرعوه يريدون به الناس والدنيا. ألا فأريدوا الله بأعمالكم. ألا إنما كنا نعرفكم إذ يتزل الوحي وإذ رسول الله بين أظهرنا يبيننا من أخباركم، فقد انقطع الوحي، وذهب النبي، فإنما نعرفكم بالقول. ألا من رأينا منه خيرا ظننا به خيرا وأحببناه عليه، ومن رأينا منه شرا ظننا به شرا وأبغضناه عليه. سرائركم بينكم وبين ربكم. ألا

وإني إنما أبعث عُمالي لِيُعَلِّمُوكُمْ دينكم وسُننكم، ولا أبعثهم لِيَضْرِبُوا ظهوركم ويأخذوا أموالكم. ألا مَنْ رابه شيء من ذلك فَلْيَرْفَعْهُ إِلَيَّ، فوالذي نفسي بيده لأَقْصَنَكُم منه.

فقام عمرو بن العاص فقال: يا أمير المؤمنين، أَرَأَيْتَ إِنْ بَعَثْتَ عَامِلًا مِنْ عُمَّالِكَ فَأَدَّبَ رَجُلًا مِنْ رَعِيَّتِكَ فَضْرَبَهُ، أَتَقْصَهُ مِنْهُ؟ قَالَ: نَعَمْ، وَالَّذِي نَفْسُ عُمَرُ بِيَدِهِ، لَأَقْصَنَهُ مِنْهُ، فَقَدْ رَأَيْتُ رَسُولَ اللَّهِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ يَقْصُّ مِنْ نَفْسِهِ.

وخطب أيضا فقال

أيها النَّاسُ، اتقوا الله في سَريرتكم وعَلانيتكم، وأمروا بالمعروف وانهوا عن المنكر، ولا تكونوا مثل قوم كانوا في سَفينة فأقبل أحدهم على مَوْضِعِهِ يَخْرِقُهُ، فَنَظَرَ إِلَيْهِ أَصْحَابُهُ فَمَنَعُوهُ، فَقَالَ: هُوَ مَوْضِعِي وَلِي أَنْ أَحْكَمَ فِيهِ. فَإِنْ اخذوا عَلَيَّ يَدَهُ سَلِمَ وَسَلِمُوا، وَإِنْ تَرَكُوهُ هَلَكَ وَهَلَكُوا مَعَهُ. وَهَذَا مَثَلٌ ضَرَبْتُهُ لَكُمْ، رَحِمَنَا اللَّهُ وَإِيَّاكُمْ.

خطب عام الرمادة بالعباس

رحمه الله:

حمد الله وأثنى عليه وصلى على نبيِّه، ثم قال: أيها الناس، استغفروا ربكم إنه كان غفَّارًا، اللهم إني استغفرك وأتوب إليك. اللهم إنا نتقرب إليك بعمِّ نبيِّك وبقية آباءه وكبار رجاله، فإنك تقول وقولك الحق: وأما الجدارُ فكانَ لِعُلَّامِينَ يَتِيمِينَ فِي الْمَدِينَةِ وَكَانَ تَحْتَهُ كَنْزٌ لَهُمَا وَكَانَ أَبُوهُمَا صَالِحًا. فحفظتُهما لصلاح أبيهما، فاحفظ اللهم نبيِّك في عمِّه. اللهم أغفر لنا إنك كنت غفَّارًا. اللهم أنت الرَّاعي، لا تُهمل الضَّالَّةَ، ولا تدع الكَسيرةَ بمَضِيعة. اللهم قد ضَرَعَ الصَّغِيرَ، وَرَقَّ الْكَبِيرَ؛ وَارْتَفَعَتِ الشُّكُوى، وَأَنْتَ تَعْلَمُ السَّرَّ وَأَخْفَى. اللهم اغثهم بغياتك قبل أن يَقْنَطُوا فَيَهْلِكُوا، فَإِنَّهُ لَا يَبَاسَ مِنْ رُوحِ اللَّهِ إِلَّا الْقَوْمُ الْكَافِرُونَ. فما برحوا حتى علقوا الحِذاءَ، وَقَلَّصُوا الْمَازِرَ، وَطَفِقَ النَّاسُ بِالْعَبَّاسِ يَقُولُونَ: هَنِيئًا لَكَ يَا سَاقِي الْحَرَمِينَ.

خطب إذ ولي الخلافة

صعد المنبر فحمد الله وأثنى عليه، ثم قال: يا أيها الناس، إني داعٍ فأمَّنوا. اللهم إني غليظ فليئني لأهل طاعتك بموافقة الحق، ابتغاء وجهك والدار الآخرة، وارزقني الغلظة والشدة على أعدائك وأهل الدعة والنفاق، من غير ظلم متي لهم ولا اعتداء عليهم. اللهم إني شحيح فسخني في نواب المعروف، قَصْدًا مِنْ غَيْرِ سُرْفٍ وَلَا تَبْذِيرٍ وَلَا رِيَاءٍ وَلَا سُمْعَةٍ، وَاجْعَلِي ابْتِغَى بِذَلِكَ وَجْهَكَ وَالْدارَ الْآخِرَةَ. اللهم ارزقني خَفْضَ الْجَنَاحِ وَلِينَ الْجَانِبِ لِلْمُؤْمِنِينَ. اللهم إني كثير الغفلة والنسيان فألهمني ذِكْرَكَ عَلَى كُلِّ حَالٍ، وَذِكْرَ الْمَوْتِ فِي كُلِّ حِينٍ. اللهم إني ضعيف عند العمل بطاعتك فارزقني النشاط فيها والقوة عليها بالنية الحسنة التي لا تكون إلا بعزتك وتوفيقك. اللهم تبني باليقين والبر والتقوى، وذكّر المقام بين يديك، والحياء منك، وأرزقني الخشوع فيما يرضيك عني، والمحاسبة لنفسي، وصلاح النيات، والحذر من الشبهات، اللهم ارزقني التفكر والتدبر لما يتلوه لساني من كتابك، والفهم له، والمعرفة بمعانيه، والنظر في عجائبه، والعمل بذلك ما بقيت، إنك على كل شيء قدير.

وكان آخر كلام أبي بكر الذي إذا تكلم به عُرف أنه قد فرغ من خطبته: اللهم اجعل خيرَ زماني آخره، وخيرَ عملي خواتمه، وخيرَ أيامي يومَ ألقاك.

وكان آخر كلام عمر الذي إذا تكلم به عُرف أنه فرغ من خطبته: اللهم لا تدعني في عمرة، ولا تأخذني على غرة، ولا تجعلني من الغافلين.

خطبة لعثمان بن عفان رضي الله عنه

ولما ولي عثمان بن عفان قام خطيباً، فحمد الله وأثنى عليه، وتشهد، ثم أرتج عليه، فقال: أيها الناس، إن أول كل مركب صعب، هان أعش فستأتاكم الخطب على وجهها، وسيجعل الله بعد عسر يسراً.

خطبة أمير المؤمنين علي بن أبي طالب رضوان الله عليه

أول خطبة خطبها بالمدينة، فحمد الله وأثنى عليه وصلى على نبيه عليه الصلاة والسلام، ثم قال: أيها الناس، كتاب الله وسنة نبيكم صلى الله عليه وسلم أما بعد، فلا يدعين مدح إلا على نفسه، شغل من الجنة والنار أمامه. ساع نجح، وطالب يرحو، ومقمر في النار، ثلاثة، واثان: ملك طار بجناحيه، ونبي أخذ الله بيديه، لا سادس. هلك من اقتحم، وردى من هوى اليمين والشمال مضلة، والوسطى الجادة. منهج عليه أم الكتاب والسنة وآثار النبوة. إن الله داوى هذه الأمة بدواعين: السوط والسيوف، لا هواده عند الإمام فيهما. استتروا بيوتكم، واصلحوا فيما بينكم، فالمت من ورائكم. من أبدى صفحته للحق هلك. قد كانت أمور لم تكونوا فيها محمودين. أما إني لو أشاء أن أقول لقلت. عفا الله عما سلف. سبق الرجلان ونام الثالث كالغراب هتمه بطنه، وبه! لو قص جناحه وقطع رأسه لكان خيراً له. انظروا فإن أنكرتم فانكروا، وإن عرفتم فاعرفوا. حق وباطل، ولكل أهل، ولن كثر الباطل لقدماً فعل ولن قل الحق لربما ولعل، ولقلما أدير شيء فاقبل، ولن رجعت إليكم أموركم إنكم لسعداء، وإني لأخشى أن تكونوا في فتر، وما علينا إلا الاجتهاد. وروى فيها جعفر بن محمد رضوان الله عليه: ألا إن الأبرار عترتي، وأطياب أرومتي؛ أحلم الناس صغاراً، وأعلم الناس كباراً. ألا وإنا أهل البيت من علم الله علمنا، وبحكم الله حكمنا، ومن قول صادق سمعنا، فإن تتبعوا آثارنا تتمدوا ببصائرنا. معنا راية الحق، من يتبعها لحق، ومن تأخر عنها غرق. ألا وبنا ثرد ترة كل مؤمن، وبنا ثخلع ربة الذل من أعناقكم، وبنا فتح الأمر وبنا يفتحتم.

وخطبة له أيضا

حمد الله وأثنى عليه، ثم قال: أوصيكم عباد الله ونفسي بتقوى الله ولزوم طاعته، وتقديم العمل، وترك الأمل، فإنه من فرط في عمله، لم ينتفع بشيء من أمله. أين التعب بالليل والنهار، والمتحم للبحر، ومفاوز القفار؛ يسير من وراء الجبال، وعالج الرمال؛ يصل الغدو بالرواح، والمساء بالصباح، في طلب محقرات الأرباح؛ هجمت عليه منيته، فعظمت بنفسه رزيتة؛ فصار ما جمع بوراً، وما اكتسب غروراً، ووافى القيامة محسوراً. أيها اللاهي الغاز نفسه، كآتي بك وقد أتاك رسول ربك، لا يقرع لك باباً، ولا يهاب لك حجائباً؛ ولا يقبل منك بدليلاً، ولا يأخذ منك كفيلاً؛ ولا يرحم لك صغيراً، ولا يوقر فيك كبيراً؛ حتى يؤدبك إلى قعر مظلمة، أرجاؤها موحشة، كفعله بالأمم الخالية، والقرون الماضية. أين من سعى واجتهد، وجمع وعدد، وبى وشيد، وزحرف ونجد، وبالقليل لم يقنع، وبالكثير لم يمتع؛ أين من قاد الجنود، ونشر البنود؛ أضحو رفاتاً، تحت الثرى أمواتاً، وأنتم بكأسهم شاربون، ولسيلهم سالكون. عباد الله، فاتقوا الله وراقبوه، واعملوا لليوم الذي تُسير فيه الجبال، وتشقق السماء بالعمام، وتطير الكُتب عن الأيمان والشمائل. فأَي رجل يومئذ تُراك؟ أقاتل: هاؤم اقرعوا كتابيه؟ أم: يا ليتني لم أوت كتابيه؟ نسأل من وعدنا بإقامة الشرائع جنته أن يقينا سُخطه. إن أحسن الحديث وأبلغ الموعظة كتاب الله الذي لا يأتيه الباطل من بين يديه ولا من خلفه، تنزيل من حكيم حميد.

وخطبة له أيضا

الحمد لله الذي استخلص الحمد لنفسه، واستوجه على جميع خلقه، الذي ناصية كل شيء بيده، ومصير كل شيء إليه، القوي في سلطانه، اللطيف في خبروته، لا مانع لما أعطى، ولا مُعطي لما منع، خالق الخلائق بقدرته، ومستخرهم بمشيئته، وفي العهد، صادق الوعد، شديد العقاب، جزيل الثواب. أحمده وأستعينه على ما أنعم به، مما لا يعرف كنهه غيره، وأتوكل عليه توكل المستسلم لقدرته، المتبري من الحول والقوة إلا إليه، وأشهد شهادة لا يشوبها شك أنه لا إله إلا هو وحده لا شريك له، إلهاً واحداً صمداً، لم يتخذ صاحبة ولا ولداً، ولم يكن له شريك في الملك، ولم يكن له ولي من

الذلل وكبره تكبيراً، وهو على كل شيء قدير. قطع ادعاء المدعي بقوله عز وجل: وما خلقت الجن والإنس إلا ليعبدون. وأشهد أن صلى الله عليه وسلم صفوته من خلقه، وأمينه على وحيه، أرسله بالمعروف أمراً، وعن المنكر ناهياً، وإلى الحق داعياً، على حين فترة من الرسل، وضلالة من الناس، واختلاف من الأمور، وتنازع من الألسن، حتى تتم به الوحي، وانذر به أهل الأرض. أوصيكم عباد الله بتقوى الله، فإنها العصمة من كل ضلال، والسبيل إلى كل نجاة؟ فكأنكم بالجثث قد زايئتها أرواحها، وتضمنتها أحداثها، فلن يستقبل مكرم منكم يوماً من عمره إلا بانتقاص آخر من أجله، وإنما دُنياكم كفيء الظل، أو زاد الراكب. وأحذركم دعاء العزيز الجبار عبده، يوم تعفى آثاره، وتوحش منه دياره، ويؤتم صغارُه، ثم يصير إلى حفير من الأرض، متعفراً حده، غير مؤسد ولا مُمهّد. أسأل الذي وعدنا على طاعته جنته أن يقينا سُخطه، ويجنّبنا نِقَمته، ويهب لنا رَحْمته، إن وأبلغ الحديث كتاب الله.

وخطبة له رضي الله عني

أما بعد، فإن الدنيا قد أدبرت وأذنت بوداع، وإن الآخرة قد أقبلت وأشرفت باطلا، وإن المصمّر اليوم والسبّاق غداً. ألا وإنكم في أيام أمل، ومن ورائه أجل، فمن أخلص في أيام أمله، قبل حضور أجله، ونفعه عمله، ولم يضره أمله؛ ومن قصر في أيام أمله، قبل حضور أجله، فقد خسر عمله، وضجره أمله. ألا فاعملوا الله في الرغبة، كما تعملون له في الرهبة. ألا وإني لم أر كالجنة نام طالبها، ولم أر كالتار نام هاربها. ألا وإنكم قد أمرتم بالظن، ودلتم على الزاد، وإن أخوف ما أخاف عليكم اتباع الهوى، وطول الأمل.

وخطبة له أيضا

قالوا: ولما أغار سُفيان بن عوف الأسدي على الأنبار في خلافة في رضي الله عنه، وعليها حسان البكري، فقتله وأزال تلك الخيل عن مسارحها، فخرج علي رضي الله عنه حتى جلس على باب السدة، فحمد الله وأثنى عليه ثم قال: أما بعد، فإن الجهاد باب من أبواب الجنة، فمن تركه ألبسه. الله ثوب الذل، وأشملة البلاء، والزمه الصغار، وسامه الخسف، ومنعه التصف. ألا وإني دعوتكم إلى قتال هؤلاء القوم ليلاً ونهاراً، وسراً وإعلاناً، وقلت لكم: اغزؤهم قبل أن يغزؤكم، فولله ما غزى قوم قط في عُقر دارهم إلا ذلوا. فتواكلتم وتخاذلتم وثقل عليكم قوتي، فاتخذتموه وراءكم ظهرياً، حتى شنت عليكم الغارات. هذا أخو غامد، قد بلغت خيله الأنبار، وقتل حسان البكري، وأزال خيلكم عن مسارحها، وقتل منكم رجالاً صالحين. ولقد بلغني أن الرجل منهم كان يدخل على المرأة المسلمة والأخرى المعاهدة فينزع حجلها وقلبها ورعائها، ثم انصرفوا وافرين، ما كلم رجل منهم. فلو أن رجلاً مسلماً مات من بعد هذا أسفاً ما كان عندي ملوماً، بل كان عندي جديراً. فواعجبا من جد هؤلاء في باطلهم، وفشلكم عن حَقِّكم! فقبحاً لكم وتراً! حين صرتم غرضاً يرمي، يغار عليكم ولا تُغيرون، تُغزون، ولا تُغزون ويُعصى الله وترضون! فإذا أمرتكم بالمسير إليهم في أيام الحرّ قُلتم: حَمارة القيظ، أمهلنا حتى ينسلخ عنا الحر، وإذا أمرتكم بالمسير إليهم ضحى في الشتاء، قُلتم: أمهلنا حتى ينسلخ عنا هذا القر. كل هذا فراراً من الحر والقر، فختم والله من السيف أفر. يا أشباه الرجال ولا رجال! ويا أحلام أطفال، وعقول ربات الحجال! وددت أن الله أخرجني من بين أظهركم وقبضني إلى رحمته من بينكم، وأني لم أركم ولم أعرفكم، معرفةً والله جرّت وهنا، ووريتم والله صدري غيظاً، وجرّعتوني الموت أنفاساً، وأفسدتم علي رأي بالعصيان والخذلان، حتى قالت قريش: إن ابن أبي طالب شجاع، ولكن لا علم له بالحرب، لله أبوه! وهل منهم أحد أشد لها مراساً وأطول تجربة مني! لقد مارسناها وأنا ابن عشرين، فما أنذا الآن بد تيفت على الستين، ولكن لا رأي لمن لا يطاع.

وخطبة له رضي الله عنه

قام فيهم فقال: أيها الناس، المجتمعمة أبادهم، المختلفة أهواؤهم، كلامكم يوهي الصم الصلاب، وفعلكم يُطمع فيكم عدوكم؟ تقولون في المجالس كيت وكيت، فإذا جاء القتال! قُلتم حيدي، حياء. ما عزت دعوة من دعاكم، ولا استراح قلب من قاساكم، أعالي بأباطيل. وسألتموني التأخير، دفاع ذي

الذَّيْنِ الْمَطُولِ. هيهات! لا يدفع الصَّيِّمَ الدَّلِيلُ، ولا يُدْرِكُ الْحَقُّ إِلَّا بِالْجِدِّ. أَيَّ دَارٍ بَعْدَ دَارِكُمْ تَمْنَعُونَ؟ أَمْ مَعَ أَيِّ إِمَامٍ بَعْدِي تُقَاتِلُونَ؛ الْمَعْرُورِ وَاللَّهِ مِنْ غَرَّرَ تَمُوهُ، وَمَنْ فَازَ بِكُمْ فَازَ بِالسَّهْمِ الْأَخْيَبِ. أَصْبَحْتُ وَاللَّهِ لَا أَصَدِّقُ قَوْلَكُمْ، وَلَا أَطْعَمُ فِي نُصْرَتِكُمْ، فَرَقَ اللَّهُ بَيْنِي وَبَيْنَكُمْ، وَأَعْقَبَنِي بِكُمْ مَنْ هُوَ خَيْرٌ لِي مِنْكُمْ. وَدِدْتُ وَاللَّهِ إِنْ لِي بِكُلِّ عَشْرَةِ مِنْكُمْ رَجُلًا مِنْ بَنِي فِرَاسٍ ابْنَ غَنَمٍ، صَرَفَ الدِّينَارَ بِالدَّرْهَمِ.

خطب إذ استنفر أهل الكوفة لحرب الجمل

فَأَقْبَلُوا إِلَيْهِ مَعَ ابْنَةِ الْحَسَنِ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ، فَقَامَ فِيهِمْ خَطِيبًا، فَقَالَ: الْحَمْدُ لِلَّهِ رَبِّ الْعَالَمِينَ، وَصَلَّى اللَّهُ عَلَى سَيِّدِنَا مُحَمَّدٍ خَاتَمِ النَّبِيِّينَ وَآخِرِ الْمُرْسَلِينَ. أَمَّا بَعْدُ، فَإِنَّ اللَّهَ بَعَثَ مُحَمَّدًا عَلَيْهِ الصَّلَاةُ وَالسَّلَامُ إِلَى النَّقْلِينَ كَأَفَّةٍ، وَالنَّاسُ فِي احْتِلَافٍ، وَالْعَرَبُ بِشَرِّ الْمَنَازِلِ، مُسْتَضْعَفُونَ لِمَا بِهِمْ، بَعْضُهُمْ عَلَى بَعْضٍ، فَرَأَى اللَّهُ بِهِ النَّأْيَ، وَلَأَمَّ بِهِ الصَّدْعَ، وَرَتَّقَ بِهِ الْفَتْقَ وَأَمَّنَ بِهِ السُّبُلَ، وَحَقَّنَ بِهِ الدَّمَاءَ، وَقَطَعَ بِهِ الْعِدَاوَةَ الْوَاعِرَةَ لِلْقُلُوبِ، وَالضَّغَائِنَ الْمُخَشِّنَةَ لِلصُّدُورِ، ثُمَّ قَبِضَهُ اللَّهُ عَزَّ وَجَلَّ مَشْكُورًا سَعِيَّهُ، مَرْضِيًّا عَمَلَهُ، مَعْفُورًا ذَنْبَهُ، كَرِيمًا عِنْدَ رَبِّهِ. فَيَا لَهَا مَصِيبَةً عَفَّتَ الْمُسْلِمِينَ، وَخَضَّتَ الْأَقْرَبِينَ! وَوَلِيَ أَبُو بَكْرٍ، فَسَارَ بِسِيرَةِ رَضِيهَا الْمُسْلِمُونَ؛ ثُمَّ وَلِيَ عَمْرٌ، فَسَارَ بِسِيرَةِ أَبِي بَكْرٍ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُمَا؛ ثُمَّ وَلِيَ عُثْمَانُ، فَجَالَ مِنْكُمْ وَنَلْتَمَسْنَا مِنْهُ، حَتَّى إِذَا كَانَ مِنْ أَمْرِهِ مَا كَانَ، اتَيْتُمُوهُ فَفَقَلْتُمُوهُ، ثُمَّ أَتَيْتُمُونِي فَفَقَلْتُمْ لِي: يَا بَايَعْنَا، فَقُلْتُ لَكُمْ: لَا أَفْعَلُ، وَقَبِضْتُ يَدِي فَبَسَطْتُمُوهَا، وَنَازَعْتُمْ كَفِّي فَجَذَبْتُمُوهَا، وَقُلْتُمْ: لَا نَرْضَى إِلَّا بِكَ، وَلَا نَجْتَمِعُ إِلَّا عَلَيْكَ، وَتَدَاكَكُمْ عَلَيَّ تَدَاكَكَ الْإِبِلِ الْهَيْمِ عَلَى حِيَاضِهَا يَوْمَ وَرُدَّهَا، حَتَّى ظَنَنْتُ أَنْكُمْ قَاتِلِي، وَأَنْ بَعْضَكُمْ قَاتِلُ بَعْضٍ، فَيَا بَايَعْتُمُونِي، وَبَايَعَنِي طَلْحَةَ وَالزُّبَيْرَ، ثُمَّ مَا لَبِنَا أَنْ اسْتَأْذَنَانِي لِلْعَمْرَةِ، فَسَارَا إِلَى الْبَصْرَةِ، فَفَقَتَلَا بِهَا الْمُسْلِمِينَ، وَفَعَلَا الْأَفَاعِيلَ، وَهَمَا يَعْلَمَانُ وَاللَّهِ أَنِّي لَسْتُ بِدُونَ وَاحِدٍ مِنْ مَضَى، وَلَوْ أَشَاءَ أَنْ أَقُولَ لَقُلْتُ: اللَّهُمَّ إِنَّهُمَا قَطَعَا قَرَابَتِي، وَنَكَنَّا بَيْعَتِي، وَأَلْبَا عَلَيَّ عَدُوِّي. اللَّهُمَّ فَلَا تُحْكِمْ لِمَا مَا أَبْرَمَا، وَأَرِهَا الْمَسَاءَةَ فِيمَا عَمِلَا وَأَمَلَا.

مما حفظ عنه بالكوفة على المنبر

قَالَ نَافِعُ بْنُ كَلْبِيبٍ: دَخَلْتُ الْكُوفَةَ لِلتَّلْسِيمِ عَلَى أَمِيرِ الْمُؤْمِنِينَ عَلِيِّ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ، فَإِنِّي لَجَالِسٌ تَحْتَ مَنِيرِهِ وَعَلَيْهِ عِمَامَةٌ سُودَاءُ وَهُوَ يَقُولُ: انظُرُوا هَذِهِ الْحُكُومَةَ، فَمَنْ دَعَا إِلَيْهَا فَاقْتُلُوهُ وَإِنْ كَانَ تَحْتَ عِمَامَتِي هَذِهِ. فَقَالَ لَهُ عَدِيُّ بْنُ حَاتِمٍ: قُلْتَ لَنَا أَمْسُ: مَنْ أَبِي عَنْهَا فَاقْتُلُوهُ، وَتَقُولُ لَنَا الْيَوْمَ: مَنْ دَعَا إِلَيْهَا فَاقْتُلُوهُ، وَاللَّهِ مَا نَدْرِي مَا نَصْنَعُ بِكَ! وَقَامَ إِلَيْهِ رَجُلٌ أَحَدَبُ مِنْ أَهْلِ الْعِرَاقِ فَقَالَ: أَمَرْتَ بِهَا أَمْسِي وَتَنَهَيْتَ عَنْهَا الْيَوْمَ! فَأَنْتَ كَمَا قَالَ الْأَوَّلُ: أَكَلْتُكَ وَأَنَا أَعْلَمُ مَا أَنْتَ. فَقَالَ عَلِيٌّ: إِلَيَّ يُقَالُ هَذَا؟

بُدِّلَتْ مِنْهَا هُوِيَّ الرِّيحِ بِالْقَصَبِ

أَصْبَحْتُ أَذْكَرُ أَرْحَامًا وَأَصْرَةً

أَمَّا وَاللَّهِ لَوْ إِنِّي حِينَ أَمَرْتُمْ بِمَا أَمَرْتُمْ بِهِ، وَنَهَيْتُمْ عَمَّا نَهَيْتُمْ عَنْهُ، حَمَلْتُمْ عَلَيَّ الْمَكْرُوهَ الَّذِي جَعَلَ اللَّهُ عَاقِبَتَهُ خَيْرًا إِذَا كَانَ فِيهِ، لَكَانَتْ الْوُتْقَى الَّتِي لَا تُفْصَمُ، وَلَكِنْ مَتَى وَإِلَى مَتَى أَدَاوِيكُمْ؟ إِنِّي وَاللَّهِ بِكُمْ كَنَاقِشِ الشُّوْكَةِ بِالشُّوْكَةِ! يَا لَيْتَ لِي بَعْضُ قَوْمِي، وَلَيْتَ لِي مِنْ بَعْدِ خَيْرِ قَوْمِي. اللَّهُمَّ إِنَّ دِجْلَةَ وَالْفِرَاتَ نَهْرَانِ أَعْجَمَانِ أَصْمَانِ أَبْكَمَانِ، اللَّهُمَّ سَلِّطْ عَلَيْهِمَا بَحْرَكَ، وَانزِعْ مِنْهُمَا بَصْرَكَ، وَبِئْسَ لِلنَّزْعَةِ بِأَشْطَانِ الرَّكْمِيِّ، دُعُوا إِلَى الْإِسْلَامِ فَاقْبَلُوهُ، وَقَرَعُوا الْقُرْآنَ فَاحْسِنُوهُ، وَنَطَقُوا بِالشَّعْرِ فَأَحْكُمُوهُ، وَهَيِّجُوا إِلَى الْجِهَادِ فَوَلُّوا اللَّقَاحَ أَوْلَادَهَا، وَسَلِّبُوا الضِّيُوفَ أَعْمَادَهَا، ضَرْبًا ضَرْبًا، وَزَحْفًا زَحْفًا، لَا يَتَبَاشَرُونَ بِالحَيَاةِ، وَلَا يُعَزَّوْنَ عَلَى الْقَتْلِ:

فَحَقَّ الْبِكَاءُ لَهُمْ أَنْ يَطِيبِيَا

أولئك إخواني الذاهبون

وفارقت بعد حبيب حبيبًا

رُزِيتُ حَبِيبًا عَلَى فَاقَةٍ

ثُمَّ نَزَلَ تَدْمَعُ عَيْنَاهُ. فَقُلْتُ: إِنَّا لِلَّهِ وَإِنَّا إِلَيْهِ رَاجِعُونَ عَلَى مَا صَبَرْتَ إِلَيْهِ! فَقَالَ: نَعَمْ؛ إِنَّا لِلَّهِ وَإِنَّا إِلَيْهِ رَاجِعُونَ! أَقَوْمُهُمْ وَاللَّهِ غُدُوَّةٌ، وَيَرْجِعُونَ إِلَيَّ عَشِيَّةً، مِثْلَ ظَهْرِ الْحَيَّةِ، حَتَّى مَتَى وَإِلَى مَتَى؟ حَسْبِيَ اللَّهُ وَنَعْمَ الْوَكِيلُ!

خطبة الغراء رضي الله عنه:

الحمد لله الأحد الصمد، الواحد المنفرد، الذي لا من شيء كان ولا من شيء خلق إلا وهو خاضع له، قُدرة بان بها من الأشياء، وبانت الأشياء منه، فلست له صفة تنال، ولا حد يضرب له فيه الأمثال، كل دون صفته تحبير اللغات، وضلت هناك تصاريف الصفات، وحات دون ملكوته مذاهب التفكير، وانقطعت دون علمه جوامع التفسير، وحالت دون غيبه حجب تاهت في أدنى دُنُوها طامحات العقول. فتبارك الله الذي لا يبلغه بعدد المهمم، ولا يناله غوص الفطن؛ وتعالى الذي ليس له نعت موجود، ولا وقت محدود. وسبحان الذي ليس له أول مبتدأ، ولا غاية منتهى، ولا آخر يفتى؛ وهو سبحانه كما وصف نفسه، والواصفون لا يبلغون نعته، أحاط بالأشياء كلها علمه، وأتقنها صنعه، ودلّلها أمره، وأحصاها حفظه، فلا يعرّب عنه غيوب الهوى، ولا مكنون ظلم الدجى، ولا ما في السموات العلى، إلى الأرض السابعة السفلى؛ فهو لكل شيء منها حافظ ورقيب، أحاط بها. الأحد الصمد، الذي لم تُغيره ضروف الأزمان، ولم يتكأده صنع شيء منها كان. قال لما شاء أن يكون؛ كُنْ فكان؛ ابتدع ما خلق، بلا مثال سبق، ولا تعب، ولا نصب؛ وكل عالم من بعد جهل تعلم، والله لم يجهل ولم يتعلم؛ أحاط بالأشياء كلها علماً، ولم يزد بتجربتها خيراً؛ علمه بما قبل كونها كعلمه بما بعد تكوينها؛ لم يكوها لتسديد سلطان، ولا خوف من زوال ولا نقصان؛ ولا استعانة على ضد منوائ، ولا نذ مكاثر؛ ولكن خلاق مربيون، وعباد داخرون. فسبحان الذي لم يؤده خلق ما ابتدأ، ولا تدير ما برأ، خلق ما علم وعلم ما أراد، ولا يتفكر على حادث أصاب، ولا شبيهة دخلت عليه فيما شاء؛ لكن قضاء متقن، وعلم مُحكم، وأمر مُبرم. توحد فيه بالربوبية، وخص نفسه بالوحدانية؛ فليس العز والكبرياء، واستخلص المجد والسناء، واستكمل الحمد والثناء؛ فانفرد بالتوحيد، وتوحد بالتمجيد؛ فجل سبحانه وتعالى عن الأبناء، وتطهر وتقّس عن ملامسة النساء؛ فليس له فيما خلق نذ، ولا فيما ملك ضدّ هو الله الواحد الصمد، الوارث للأبد، الذي لا يبيد ولا ينفد، ملك السموات العلى، والأرضين السفلى، ثم دنا فعلاً، وعلا فدنًا، له المثل الأعلى، والأسماء الحسنى، والحمد لله رب العالمين. ثم إن الله تبارك وتعالى سبحانه وبحمده، خلق الخلق بعلمه، ثم اختار منهم صفوته لنفسه، واختار من خيار صفوته أئمة على وحيه، وخزنة له على أمره، إليهم تنتهي رسالته، وعليهم يتزل وحيه؛ جعلهم أصفياء، مُصطفين أنبياء، مهديين نجباء. استودعهم وأقرهم في خير مُستقر، تناسختهم أكارم الأصلاب، إلى مطهرات الأمهات؛ كلما مضى منهم سلف، انبعث لأمره منهم خلف؛ حتى انتهت نبوة الله وأفضت كرامته إلى محمد صلى الله عليه وسلم فأخرجه من أفضل المعادن محدثاً، وأكرم المغارس منبتاً، وأمنعها ذروة، وأعزها أرومة، وأوصلها مكرمة؛ من الشجرة التي صاغ منها أئمة، وانتخب منها أنبياء؛ شجرة طيبة العود، معتدلة العمود، باسقة الفروع، مُخصّرة الأصول والغصون، يانعة الثمار، كريمة المُجتنى؛ في كرم نبتت، وفيه بسقت وأثمرت، وعزت فامتنت؛ حتى أكرمه الله بالروح الأمين، والثور المبين، فحتم به التبيين، وأتم به عدة المرسلين؛ خليفته على عبادته، وأمينه في بلاده؛ زينته بالتقوى، واثار الذكري؛ وهو إمام من اتقى، ونصر من اهتدى؛ سراج لمع ضوؤه، وزند برق لمعه، وشهاب سطع ثوره. فاستضاءت به العباد، واستنارت به البلاد، وطوى به الأحساب، وأزجى به السحاب، وسخر له البراق، حتى صافحته الملائكة، وأذعن له الأبالسة، وهدم به أصنام الآلهة. سيرته القصد، وسنته الرشد؛ وكلامه فصل، وحكمه عدل. فصدع صلى الله عليه وسلم بما أمره به، حتى أفصح بالتوحيد دعوته، وأظهر في خلقه: لا إله إلا الله، حتى أذعن له بالربوبية، وأقر له بالعبودية والوحدانية. اللهم فخص محمدًا صلى الله عليه وسلم بالذكر الحمود، والحوض

المورود. اللهم آت محمدًا الوسيلة، والرفعة والفضيلة؛ واجعل في المُصطفين محلته، وفي الأعلى درجاته، وشرّف بنيانه، وعظم برهانه؛ واسقنا بكأسه، وأوردنا حوضه، وأحشرنا في زمرة؛ غير خزايا ولا ناكثين، ولا شاكين ولا مُرتابين، ولا ضالين ولا مفتونين، ولا فبذلين ولا حائدين ولا مضلين. اللهم أعط محمدًا من كل كرامة أفضلها، ومن كل نعيم أكمله، ومن كل عطاء أجزله، ومن كل قسم أتمه؛ حتى لا يكون أحد من خلقك أقرب منك مكاناً، ولا أحظى عندك منزلة، ولا أدنى إليك وسيلة، ولا أعظم عليك حقاً ولا شفاعة من محمد؛ واجمع بيننا وبينه في ظل العيش، وبرد الروح، وقرة العين، ونصرة السرور، وبهجة النعيم؛ فإننا نشهد أنه قد بلغ الرسالة، وأدى الأمانة والتّصيحة، واجتهد للأمة، وجاهد في سبيلك، وأوذى في جنبك، ولم يخف لومة لائم في دينك، وعبدك حتى أتاه اليقين. إمام المتقين، وسيّد المرسلين، وتمام النبيين، وخاتم المرسلين، ورسول رب العالمين. اللهم ربَّ

البيت الحرام، ورب البلد الحرام، ورب الركن والمقام، ورب المشعر الحرام، بلغ محمداً منا السلام. اللهم صل على ملائكتك المقربين، وعلى أنبيائك المرسلين، وعلى الحفظة الكرام الكاتبين، وصلى الله عليه أهل السموات وأهل الأرضين، من المؤمنين.

خطبة الزهراء

الحمد لله الذي هو أول كل شيء وبليته، ومُنتهى كل شيء ووليته، وكل شيء حاشع له، وكل شيء قائم به، وكل شيء ضارعٌ إليه، وكل شيء مُستكين له. خَشَعَتْ له الأصوات، وكَلَّتْ دونه الصِّفَات؛ وَضَلَّتْ دونه الأوهام، وحاترت دونه الأبصار. لا يَقْضِي في الأمور غيرُهُ، ولا يَتَمَّ شيء منها دونه، سُبحانه ما أجل شَأْنَهُ، وأعظمَ سُلْطانه! تُسَبِّحُ له السمواتُ العُلَى، وَمَنْ في الأرض السفلى؛ له التَّسْبِيحُ والعِظَمَةُ، والمَلِكُ والقُدْرَةُ، والحَوْلُ والقُوَّةُ؛ يَقْضِي بعِلْمِهِ، وَيَعْفُو بِجِلْمِهِ، قُوَّة كل ضعيف ومَقْزَع كل مَلْهُوفٍ، وَعِزٌّ كل ذليل، ووليُّ كل نِعْمَةٍ، وصاحبُ كل حَسَنَةٍ، وكاشفُ كل كُرْبَةٍ؛ المَطَّلَعُ على كل خَفِيَّةٍ، المُحْصِي لكل سَرِيرَةٍ، يَعْلَمُ ما تُكِنُّ الصُّدُورُ، وما تُرْخَى عليه الستور؛ الرَّحِيمُ بِحَلْقِهِ، الرَّؤُوفُ بِعِباده، مَنْ تَكَلَّمَ منهم سَمِعَ كلامَهُ، وَمَنْ سَكَتَ منهم عِلْمَ ما في نفسه، وَمَنْ عَاشَ منهم فعليه رِزْقُهُ، وَمَنْ ماتَ منهم فإليه مَصِيرُهُ، أَحاطَ بكل شيء عِلْمُهُ، وَأَحْصَى كل شيء حِفْظُهُ. اللهم لك الحمد عدد ما تُحْيِي وتميت، وعدد أنفاس خَلْقِكَ ولَفْظِهِمْ ولِحَظِّ أَبْصارِهِمْ، وعدد ما تَجْرِي به الرِّيحُ، وتَحْمِلُهُ السحابُ، ويخْتَلِفُ به الليلُ والنهارُ، ويسيرُ به الشمسُ والقمرُ والنجومُ، حمداً لا يَنْقُضِي عَدَدُهُ، ولا يَفْنِي أَمْدُهُ. اللهم أنتَ قَبْلَ كل شيء، وإليك مَصِيرُ كل شيء، وتكون بعد هلاك كل شيء، وتَبْقَى وَيَفْنَى كل شيء، وأنتَ وارثُ كل شيء، أَحاطَ عِلْمُكَ بكل شيء، وليس يُعْجِزُكَ شيء، ولا يَتَوَارَى عنكَ شيء، ولا يَقْدِرُ أَحَدٌ قُدْرَتَكَ، ولا يَشْكُرُكَ أَحَدٌ حَقَّ شُكْرِكَ، ولا تَهْتَدِي العُقُولُ لَصِفَتِكَ، ولا تَبْلُغُ الأوهام حَدَّكَ. حارت الأبصار دون النظر إليك، فلم تَرَ عَيْنٌ فَتُخْبِرَ عَنْكَ كيف أنتَ وكيف كُنْتَ، لا نَعْلَمُ اللهم كيف عَظَمْتُكَ، غيرَ أَنَّا نَعْلَمُ أَنَّكَ حَيٌّ قَيُّومٌ، تَأْخُذُكَ سِنَةٌ ولا نَوْمٌ، لم يَنْتَهَ إليك نَظْرٌ، ولم يُدْرِكْكَ بَصَرٌ، ولا يَقْدِرُ قُدْرَتَكَ مَلَكٌ ولا بَشَرٌ؛ أَدْرَكَتْ الأبصارُ، وَكَتَبَتْ الآجالُ، وَأَحْصَيْتِ الأعمالُ، وأخذت بالنواصي والأقدام؛ لم تَخْلُقِ الخلقَ لحاجة ولا لَوَحْشَةٍ؛ مَلَأْتَ كل شيء عِظَمَةً، فلا يَرِدُ ما أَرَدْتَ، ولا يُعْطَى ما مَنَعْتَ، ولا يَنْقُصُ سُلْطَانُكَ مَنْ عَصَاكَ، ولا يَزِيدُ في مُلْكِكَ مَنْ أَطَاعَكَ. كل سرٍّ عندك عِلْمُهُ، وكلَّ غيبٍ عندك شاهِدُهُ، فلم يَسْتِرْ عنكَ شيء، ولم يَشْغَلْكَ شيء عن شيء، وقُدْرَتُكَ على ما تَقْضِي كَقُدْرَتِكَ على ما قَضَيْتَ، وقُدْرَتُكَ على القويِّ كَقُدْرَتِكَ على الضَّعيفِ، وقُدْرَتُكَ على الأحياء كَقُدْرَتِكَ على الأمواتِ. فإليك المُنتَهَى، وأنتَ المَوْعِدُ، لا منجى إلا إليك، بيدك ناصية كل دابة، وياذنك تَسْقُطُ كل ورقة، لا يَعْزُبُ عنكَ مثقالُ ذَرَّةٍ، أنتَ الحي القيومُ. سبحانك! ما أعظم ما يُرى من خَلْقِكَ! وما أعظم ما يُرى من ملكوتِكَ! وما أَقْلَهُما فيما غابَ عَنَّا منه! وما أَسْبَغَ نِعْمَتَكَ في الدُّنْيَا وأحقرها في نعيم الآخرة! وما أَشَدَّ عِقوبَتَكَ في الدُّنْيَا وما أيسرها في عُقوبة الآخرة! وما الذي تَرَى من خَلْقِكَ، وَتَعْتَبِرُ من قُدْرَتِكَ وَنَصِيفِ من سُلْطَانِكَ فيما يَغيبُ عَنَّا منه، مما قَصُرَتْ أَبْصارُنا عنه، وَكَلَّتْ عقولنا دونه، وحالت العُيُوبُ بيننا وبينه! فَمَنْ قَرَعَ سَنَّهُ، وأعملَ فِكرَهُ: كيف أقمْتَ عَرْشَكَ؟ وكيف ذَرَأْتَ خَلْقَكَ؟ وكيف عَلَّقْتَ في الهواءِ سَمَواتِكَ؟ وكيف مَدَدْتَ أرضَكَ؟ يَرْجِعُ طَرْفُهُ حاسِراً، وعقلُهُ مَبْهُوراً، وَسَمْعُهُ والها، وفِكرُهُ متَحيراً. فكيف يَطْلُبُ عِلْمَ ما قَبْلَ ذلكِ مِنْ شَأْنِكَ، إِذْ أنتَ وحدك في العُيُوبِ التي لم يكن فيها غيرُكَ، ولم يكن لها سواكَ، لا أَحَدٌ شَهِدَكَ حينَ فَطَرْتَ الخلقَ، ولا أَحَدٌ حَضَرَكَ حينَ ذَرَأْتَ النُفُوسَ، فكيف لا يَعْظُمُ شَأْنُكَ عندَ مَنْ عَرَفَكَ، وهو يرى مِنْ خَلْقِكَ ما تَرْتاعُ به عقولُهم، ويملأ قلوبهم، من رَعْدِ تَفْزَعُ له القُلُوبُ، وَبَرَقِ يَخْطِفُ الأبصارَ، وملائكةً خَلَقْتَهُمْ وأسكتتَهُمْ سَمَواتِكَ، وليست فيهم فَتْرَةٌ، ولا عِنْدَهُمْ غَفْلَةٌ، ولا بهم مَعْصِيَةٌ. هم أعلمُ خَلْقِكَ بِكَ، وأخوفُهُمْ لَكَ، وأقومُهُمْ بِطاعتِكَ، ليس يَعْشَاهُمْ نومُ العيونِ، ولا سَهُوُ العقودِ؛ لم يَسْكُنُوا الأَصْلابَ، ولم تَضْمَعْهُمُ الأرحامُ؛ أنشأتَهُمْ، إنشَاءً، وأسكتتَهُمْ سَمَواتِكَ، وأكرمْتَهُمْ بجوارِكَ، واتممتَهُمْ على وَحْيِكَ؟ وَجَنَّبْتَهُمُ الأفاتِ، ووقَّيْتَهُمُ السيئاتِ، وطَهَّرْتَهُمُ مِنَ الذنوبِ؛ فلولا تقويتكَ لم يَقُوءُوا، ولولا تَثْبِيْتِكَ لم يَثْبَتُوا، ولولا رَهْبَتِكَ لم يَطِيعُوا، ولولاك لم يكونوا.

أما إنهم على مكانتهم منك، ومزلتهم عندك، وطول طاعتهم إياك، لو يُعابنون ما يخفي عليهم لاحتقروا أعمالهم، ولعلموا أنهم لم يعبدوك حقاً

عبادتك. فسُبْحانَكَ حالِقاً ومعبوداً ومحموداً مُحْسِن بلائِكَ عند خَلْقِكَ! أنت خلقت ما دَبَّرته مَطْعماً ومَشْرَباً، ثم أرسلت داعياً إلينا، فلا الدَّاعي أَجينا، ولا فيما رَغَبنا فيه رَغَبنا، ولا إلى ما شوَقَّنا إليه اشتقنا. أقبلنا كُلنا على جِيفة نأكل منها ولا نَشبع، وقد زاد بعضنا على بعض حرصاً، لما يرى بعضنا من بعض؛ فافتضحنا بأكلها، واصطلحنا على حُبها، فأعمت أَبصارَ صُلاَحنا وفُقهائنا، فهم ينظرون بأعين غير صحيحة، ويسمعون بأذان غير سَمِيعَة، فحيثما زالت زالوا معها، وحيثما مالت أقبلوا إليها؛ وقد عاينوا المأخوذِين على الغرَّة كيف فجأهم الأمور، ونزل بهم المخذور، وجاءهم من فراق الأحيَّة ما كانوا يتوقعون، وقدموا من الآخرة إلى، ما كانوا يُوعدون. فارقوا الدُّنيا وصاروا إلى القُبور وعرفوا ما كانوا فيه من العُور؛ فاجتمعت عليه حَسْرَتان؛ حَسْرَة الفوت، وحَسْرَة الموت، فاغرت لها وُجوههم، وتغيَّرت بها ألوانهم، وعَرِقت بها جباههم، وشَخَّصت أَبصارهم، وبردت أطرأفهم، وحِيل بينهم وبين المنطق؛ وإنَّ أحدهم لَيبِنُ أهله يَنْظر ببصره، ويسمع بأذنه. ثم زاد الموتُ في جسده حتى خالط بصره، فذهبت من الدنيا مَعْرِفته، وهَلكت عند ذلك حُجته، وعابن هولُ أمر كان مُغْطىً عليه، فأحدَّ لذلك بصره. ثم زاد الموتُ في جسده، حتى بلغت نفسه الحُلُوم، ثم خَرَج رُوحه من جسده فصار جسداً مُلقى لا يُحِيب داعياً، ولا يَسْمَع باكياً، فزعوا ثيابه وخاتمته، ثم وَضَعوه وضوء الصلاة، ثم غَسَلوه وكَفَنوه أَدراجاً في أكفانه، وحَنَطوه ثم حملوه إلى قبره، فدلَّوه في حُفْرته، وتركوه مُخلى بمقطعات من الأمور، وتحت مسألة مُنكر ونكير، مع ظلمة وضيق، ووحشة قبر؛ فذاك مَثواه حتى يَبْلَى جسده ويَصيرُ تُراباً. حتى إذا بلغ الأمر إلى مقداره، وأُلْحِقَ آخرُ الخلق بأوله، وجاءه أمرٌ من خالقه، أراد به تجديد خلقه، فأمر بصوت من سمواته، فماتت السمواتُ موراً، وفرخَ من فيها، وبقي ملائكتُها على أرجائها، ثم وَصَلَ الأمرُ إلى الأرضِ - والخلقُ رُفات لا يَشْعرون - فأرج أرضهم وأرجفها وزلزلها، وقَلَع جبالها ونسفها وسيرها، وركبَ بعضُها بعضاً من هيبته وجلاله، وأخرج من فيها، فجددهم بعد بلائهم، وجمَعهم بعد تفرقهم، يُريد أن يُحصيهم ويُميزهم: فريقاً في ثوابه، وفريقاً في عقابه، فخلد الأمرُ لأبده دائماً، خيرُه وشره ثم لم يَنْسِ الطاعة من المُطِيعين، ولا المعصية من العاصين، فأراد عز وجل أن يجازي هؤلاء، وينتقم من هؤلاء، فأتاب أهل الطاعة بجواره، وحُلُول داره، وعيش رَعْد، وخلود أبد، ومجاورة الرّب، ومُوافقة محمد صلى الله عليه وسلم، حيث لا ظَعن ولا تَغْيير، وحيث لا تُصيبهم الأحزان، ولا تُعترضهم الأخطار، ولا تشخصهم الأسفار. وأما أهل المعصية، فخلدَهم في النار، وأوثقَ منهم الأقدام، وغَلَّتْ منهم الأيدي إلى الأعناق، في لَهَب قد اشتد حرّه، ونار مُطْبَقة على أهلها، لا يدخل عليهم بها رُوح، همهم شديد، وعذابهم يزيد، ولا مَدَّة للدار تُنْقِضي، ولا أَجَل للقوم ينتهي. اللهم إني أسألك بأن لك الفضل، والرحمة بيدك، فأنت وليهما، لا يليهما أحدٌ غيرك، وأسألك باسمك المَخزُون المَكْنُون، الذي قال به عرشُك وكرسيُّك وسمواتُك وأرضُك، وبه ابتدعت خَلْقَكَ، الصلاة على محمد، والنجاة من النار برحمتك، آمين، إنك وليّ كريم.

وخطب أيضاً فقال

أيها الناس، احفظوا عني خمساً، فلو شددتم إليها المطايا حتى تُنضوها لم تُظفروا بمثلها: إلا لا يرجون أحدكم إلا ربّه، ولا يخافن إلا ذنبه، ولا يستحى أحدكم إذا لم يعلم أن يتعلم، وإذا سئل عمّا لا يعلم أن يقول: لا أعلم؛ أي وإن الخامسة الصبر؛ فإن الصبر من الإيمان بمثلة الرأس من الجسد. من لا صبر له لا إيمان له، ومن لا رأس له لا جسد له. ولا خير في قراءة إلا بتدبر، ولا في عبادة إلا بتفكير، ولا في حلم إلا بعلم. ألا أنبتكم بالعالم كُلِّ العالم، من لم يزين لعباد الله معاصي الله، ولم يؤمنهم مكره، ولم يؤيسهم من رُوحه. ولا تُنزلوا المُطِيعين الجنة، ولا المُذنبين الموحدين النار، حتى يَقْضِيَ الله فيهم بأمره. لا تأمنوا على خير هذه الأمة عذاب الله، فإنه يقول: فلا يأمن مكر الله إلا القومُ الخاسرون. ولا تُقنطوا شر هذه الأمة من رحمة الله، فإنه لا يياس من رُوح الله إلا القومُ الكافرون.

من كلامه رضوان الله عليه:

قال ابن عباس: لما فرغ علي بن أبي طالب من وقعة الحمل، دعا بأجرتين فعلاهما، ثم حمد الله وأثنى عليه، ثم قال: يا أنصار المرأة، وأصحابَ البهيمة، رِغاً فَحِجْتُمْ، وَعَقْرٌ فَاهْزَمْتُمْ. دخلتُ شرَّ بلاد، أبعدُها من السماء، بها يَغِيضُ كل ماء، ولها شرُّ أسماء، هي البصرة والبُصيرة والمؤتفكة وتدمر أين ابن عباس؟ فدُعيت، فقال لي: مُرْ هذه المرأة فترجع إلى بيتها الذي أمرت أن تَقَرَّ فيه. وتمثل علي بن أبي طالب رضي الله عنه بعد الحكمين:

سوف أكيسُ بعدها وأنشمرُ

زللت فيكم زلةً فأعتذرُ

وأجمَعُ الأمرَ الشنيت المننشرُ

خطب معاوية

قال الفَحْدَمِيُّ: لَمَّا قَدِمَ مُعَاوِيَةُ الْمَدِينَةَ عَامَ الْجَمَاعَةِ تَلَقَّاهُ رِجَالُ قُرَيْشٍ، فَقَالُوا: الْحَمْدُ لِلَّهِ الَّذِي أَعَزَّ نَصْرَكَ، وَأَعْلَى كَعْبِكَ. قال: فوالله ما ردّ عليهم شيئاً حتى صعد المنبر فحمد الله وأثنى عليه ثم قال: أما بعد، فإنني والله وليتُها بحجة علمتُها منكم، ولا مسرة بولايتي، ولكني جالدُكم بسيفي هذا مجالدة، ولقد رُضتُ لكم نفسي على عمل ابن أبي قُحافة، وأردتُها على عمل عمر، فنفرتُ من ذلك نفاراً شديداً، وأردتُها على مثل، نبيات عثمان، فأبت علي فسلكتُ بها طريقاً لي ولكم فيه منفعة، مواكلة حسنة، ومشاركة جميلة، فإن لم تجدوني خيركم فإنني خير لكم ولاية. والله لا أحملُ السيفَ على من لا سيف له، وإن لم يكن منكم إلا ما يستشفى به القائل بلسانه، فقد جعلتُ له ذلك دبراً أذني وتحت قدمي، وإن لم تجدوني أقوا بحقكم كُله فاقبلوا مني بعضه، فإن أتاكم مني خيرٌ فاقبلوه، فإن السيل إذا يزداد عنى، وإذا قلَّ أغنى؛ وإياكم والفتنة، فإنها تُفسد المعيشة، وتكدر النعمة، ثم نزل.

خطبة أيضاً لمعاوية

حمد الله وأثنى عليه ثم صلى على النبي صلى الله عليه وسلم، ثم قال: أما بعد، أيها الناس، إنا قدمنا عليكم، وإنما قدمنا على صديقٍ مُستبشر، أو على عدوٍ مُستتر، وناس بين ذلك ينتظرون وينتظرون، فإن أعطوا منها رضوا، وإن لم يُعطوا منها إذا هم يسخطون. ولستُ واسعاً كلَّ الناس، فإن كانت مَحْمَدة فلا بدَّ من مَدْمَةٍ، فلو ما هوناً إذا ذُكرَ غُفر، وإياكم والتي إن أُخفيت أو بقت. وإن ذُكرت أو تفتت، ثم نزل.

خطبته أيضاً لمعاوية

صعد منبر المدينة. فحمد الله وأثنى عليه، ثم قال: يا أهل المدينة، إني لست أحب أن تكونوا خلقاً كَخَلَقِ الْعِرَاقِ، يَعْيِيون الشيء وهم فيه، كل امرئ منهم شبيعةٌ نَفْسُهُ، فاقبلونا بما فينا، فإن ما وراءنا شر لكم، وإن معروف زماننا هذا مُنكَرَ زمان مَضَى، ومُنكَرَ زماننا معروفُ زمان لم يأت، ولو قد أتى، فالرثق خيرٌ من الفثق، وفي كلِّ بلاغ، ولا مُقام على الرزية.

خطبة لمعاوية أيضاً

قال العُتْبِيُّ: خَطَبَ مُعَاوِيَةُ الْجُمُعَةَ فِي يَوْمِ صَائِفِ شَدِيدِ الْحَرِّ، فَحَمَدَ اللَّهَ وَأَثْنَى عَلَيْهِ، وَصَلَّى عَلَى رَسُولِهِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ ثُمَّ قَالَ: إِنَّ اللَّهَ عَزَّ وَجَلَّ خَلَقَكُمْ فَلَمْ يَنْسِكُمْ، وَوَعظكم فلم يُهملكم، فمال: يا أيها الذين آمنوا اتقوا الله حقَّ تقاته ولا تموتنَّ إلا وأنتم مُسلمون. قوموا إلى صلاتكم.

ذكر لعبيد الله بن زياد عند معاوية

قال ابن دأب: لما قدم عبيد الله بن زياد على معاوية بعد هلاك زياد فوجده لاهياً عنه، أنكره، فجعل يتصدى له بخلوة ليسير من رأيه ما كره أن يُشرك

به في عمله، فاستأذن عليه بعد انصداع الطُّلاب، وإشعال الخاصة، وافتراق العامة، وهو يوم معاوية الذي كان يَخْلُو فيه بنفسه. ففَطِن معاوية لما أراد، فَبِعَث إلى ابنه يزيد، وإلى مُرْوَانَ بن الحكم، وإلى سعيد بن العاص، وعبد الرحمن بن الحكم، وعمرو بن العاص. فلما أخذوا مجالسهم آذَن له، فسلم ووقف واجماً يتصفح وجوه القوم، ثم قالت: صرَّيح العُقوق مُكاثمة الأذنين، ولا خَيْرَ في اختصاص إن وفر، أحمَدُ الله إليكم على الآلاء، وأستعينه على الألوَاء، وأستهدِّيه من عمي مُجهد، وأستعينه على عدوِّ مُرصد، وأشهد أن لا إله إلا الله، المنقذ بالأمين الصادق، من شقاء هاوٍ، ومن غواية غاوٍ؛ وصلواتُ الله على الزكيِّ نبيِّ الرحمة، ونذير الأُمّة، وقائد الهدى. أما بعد، يا أمير المؤمنين، فقد عَسَف بنا ظَنِّ فرَع، وفرَع صدَّع؛ حتى طَمِع السحيق، ويَس الرقيق؛ ودَث الوُشاة بموت زياد، فكُلُّهم مُتَحَفِّر للعداوة، وقد قَلَص الإزرة، وشَمَّر عن عِطافه، ليقول: مضى زياد بما اسْتَلْحِق به، وولَّى على الدُّنية من مُستلحقه. فليت أمير المؤمنين لَسَم في دَعَتِه، وأسلم زياداً في صَعَتِه، فكان تَرَبَّ عامّة، وواحد رعيّة، فلا تَشْخَص إليه عين ناظر، ولا إصْبَع مُشير، ولا تذلُّق عليه ألسُن. كَلَمَتِه حيًّا، ونَبَشَتِه ميّتاً، فإن تكن يا أمير المؤمنين حايبت زياداً بولاء رُفات، ودَعْوَة أموات، فقد حاباك زياد بجَدِّ هُصُور، وعزَم جَسُور، حتى لانت شكائُم الشَّرَس، وذلت صَعْبَة الأَشُوس، وبَدَل لك أمير المؤمنين يمينه ويساره، تأخذ بهما المنيع، وتَقْهَر بهما البزيع، حتى مضى، والله يَغْفِر له. فإن يكن زيادٌ أخذ بحقِّ فأنزِلنا منازل الأَقْرَبِين، فإن لنا بعده ما كان له، بدالة الرَّحِم، وقرابة الحَمِيم، ومالنا يا أمير المؤمنين نمشي الضراء، ونَدِب الخفاء، ولنا من خَيْرِك أكمله، وعليك من حوبنا أُنْقَلُه، وقد شَهِد القوم، وما ساءني قُرْبهم، لِيُفَرِّوا حقًّا، ويردُّوا باطلاً، فإن الحق مناراً واضحاً، وسبيلاً قَصداً، فقل يا أمير المؤمنين بأيِّ أَمْرِيك شِئْت، فما نَارِز إلى غير جُحرنا، ولا نَسْتَكْثِر بغير حقِّنا، واستغفر الله لي ولكم. قال: فنظر معاوية في وجوه القوم كالمتعجب، فتصَفَّحهم بلحظه رجلاً رجلاً، وهو مُبتسم. ثم اتجه تَلْفَاء، وعقد حُبُوتِه، وحسر عن يده، وجعل يُومئ بهما نحوه، ثم قال معاوية: الحمد لله على ما نحنُ فيه، فكلُّ خير منه، وأشهد أن لا إله إلا الله، فكلُّ شيء خاضع له، وأن محمداً عبده ورسوله، دل على نفسه بما بان عن عَجْز الخلق أن يؤتوا بمثله، فهو خاتم النبيين، ومُصدِّق المرسلين، وحجَّة ربِّ العالمين، وصلواتُ الله عليه وسلامه وبركاته. أما بعد، فربَّ خير مسطور، وشرِّ مذكور، وما هو إلا السهم الأخبب لمن طار به، والحط المرغب لمن فاز به، فيهما التفاضل وفيهما التغابن، وقد صَفَقت يداي من أبيك صَفَقَة ذي الجلبَة من ضوارع الفُصْلان، عامل اصطناعي له بالكُفر لما أولَّيته، فما رَميت به إلا انتصل، ولا انتضيته إلا غلَّق جَفَنَه، ورَزَلت شَفْرَتَه؛ ولا قلتُ إلا عاند، ولا قُمْتُ إلا قعد، حتى اخترمه الموت؛ وقد أوقع بَحْثَرَه، ودلَّ على حِقْدِه. وقد كنتُ رأيتُ في أبيك رأياً حَضَرَه الخطل، والتبس به الزلل، فأخذ مني بحِطِّ العَفْلة، وما أبرئُ نفسي إن النَّفس لأَمَّارة بالسوء، فما بَرِحْتَ هناة أبيك تَحْطِبُ في حَبَل القطيعة، حتى انتكث المبرم، وانحل عقد الوداد. فيالها توبة تُؤْتِنف، من حوبة أورتت ندما؛ اسْمَع بها الهاتف، وشاعت للشامت، فليهنأ الواصم ما به احتقر. وأراك تحمد من أبيك جدًّا وجسوراً، هما أوفيا به على سرف التَّقْحُم، وعَمَط النَّعمة، فدَعَهما، فقد أذكرتُنا منه ما زهدنا فيك من بَعْدَه، وبهما مَشَيْتَ الضراء، ودببت الخفاء، فاذهب إليك، فأنت نَجَل الدَّعَل، وعِثْرَة التَّغَل، والآخِرُ شرٌّ.

فقال يزيد: يا أمير المؤمنين، إن للشاهد غير حَكَم الغائب، وقد حَضَرَكَ زياد وله مواطن معدودة بخير، لا يُفْسدها التظنِّي، ولا تُغَيِّرُها التُّهم، وأهلوه أهلوك، التحقوا بك، وتوسطوا شأنك، فسافرت به الرُّكبان، وسمعت به أهلُ البُلدان، حتى اعتقده الجاهل، وشكَّ فيه العالم، فلا تتحجر يا أمير المؤمنين ما قد اتسع، وكثرت فيه الشهادات وأعانك عليه قومٌ آخرون. فانحرف معاوية إلى من معه، هذا، وقد نَفَس عليه ببيعته، وطعن في إمرته، يعلم ذلك كاحما اعلمه، يا للرجال من آل أبي سُفيان! لقد حَكَمُوا وبدَّهم يزيد وحده. ثم نظر إلى عبيد الله فقال: يا بن أخي، إني لأعرفُ بك من أبيك، وكأني بك في غمرة لا يخطؤها السابح، فالزم ابن عمك، فإن ما قال حق. فخرجوا، ولزم عبيد الله يزيد، يرد مجلسه، ويَطأ عَقْبَه أياماً، حتى رمى به معاوية إلى البصرة والياً عليها. ثم لم تزل تُوكِسُه أفعاله حتى قتله الله بالجازر.

خطبة لمعاوية أيضا

قال بهيثم بن عدي: لما حضرت معاوية الوفاة ويزيد غائب، دعا بمسلم ابن عُقبة المر والضحَّاك بن قيس القهري، وقال لهما: أبلغا عني يزيد وقولا له: انظر أهل الحجاز، فهم عصابتك اعترتك، فمن أتاك منهم فأكرمه، ومن قعدَ عنك فتعاهده؟ وانظر أهل العراق، فإن سألوك عزل عامل في كل يوم،

فَعَزَّ لَهُ عَنْهُمْ، فَإِنْ عَزَلَ عَامِلٌ وَاحِدٌ أَهْوَىٰ عَلَيْكَ مِنْ سَلِّ مِائَةَ أَلْفِ سَيْفٍ، ثُمَّ لَا تَدْرِي عَلَامَ أَنْتَ عَلَيْهِ مِنْهُمْ ثُمَّ انظُرْ أَهْلَ الشَّامِ فَاجْعَلْهُمْ الشُّعَارَ دُونَ الدُّنْيَا، فَإِنَّ رَابِعَ مَنْ عَدُوَّ رَيْبٍ فَارْمِهِ بِهِمْ، فَإِنْ أَظْفَرَكَ اللَّهُ فَارْدُدْ أَهْلَ الشَّامِ إِلَىٰ بِلَادِهِمْ، لَا يُقِيمُوا فِي غَيْرِ بِلَادِهِمْ فِي فَيْتَادِيَوْمَا بغيرِ أَدَائِهِمْ. لَسْتُ أَخَافُ عَلَيْكَ غَيْرَ عَبْدِ اللَّهِ بْنِ عَمْرٍو، وَعَبْدِ اللَّهِ بْنِ الزُّبَيْرِ، وَالْحُسَيْنِ بْنِ عَلِيٍّ. فَأَمَّا عَبْدُ اللَّهِ بْنُ عَمْرٍو، فَرَجُلٌ قَدْ وَقَّذَهُ الْوَرَعُ وَأَمَّا الْحُسَيْنُ، فَأَرْجُو أَنْ يَكْفِيكَهُ اللَّهُ بِمَنْ قَتَلَ أَبَاهُ، وَخَذَلَ إِخْوَانَهُ؛ وَأَمَّا ابْنُ الزُّبَيْرِ، فَإِنَّهُ حَبَّ ضَبَّ. فَإِنْ ظَفَرْتَ بِهِ فَقَطِّعْهُ إِرْبًا إِرْبًا. وَمَاتَ مَعَاوِيَةَ. فَقَامَ الضَّحَّاكُ بْنُ قَيْسٍ خَطِيبًا فَقَالَ: إِنَّ أَمِيرَ الْمُؤْمِنِينَ كَانَ أَنْفَ الْعَرَبِ، وَهَذِهِ أَكْفَانُهُ، وَنَحْنُ مُدْرِجُونَ فِيهَا وَمُخْلُونَ بَيْنَهُ وَبَيْنَ رَبِّهِ، فَمَنْ أَرَادَ حُضُورَهُ بَعْدَ الظُّهْرِ فَلْيَحْضُرْ. فَصَلَّىٰ عَلَيْهِ الضَّحَّاكُ. ثُمَّ قَدِمَ يَزِيدٌ فَلَمْ يَقْدَمْ أَحَدٌ عَكَ تَعْرِيزِهِ، حَتَّىٰ دَخَلَ عَلَيْهِ عَبْدُ اللَّهِ بْنُ هَمَّامٍ فَأَنْشَأَ يَقُولُ:

وَأَشْكُرُ حِبَاءَ الَّذِي بِالْمَلِكِ حَابَاكَ

مِمَّا رُزِنْتَ وَلَا عُقْبَىٰ كَعُقْبَاكَ

فَأَنْتَ تَرَعَاهُمْ وَاللَّهُ يَرَعَاكَ

إِذَا بَقِيَتْ فَلَا نَسْمَعُ بِمَنْعَاكَ

أَصْبِرْ يَزِيدُ فَقَدْ فَارَقْتَ ذَا مِقَّةٍ

لَا رَزَاءَ أَعْظَمُ فِي الْأَقْوَامِ قَدْ عَلِمُوا

أَصْبَحْتَ رَاعِيَّ أَهْلِ الدِّينِ كُلِّهِمْ

وَفِي مَعَاوِيَةَ الْبَاقِي لَنَا خَلْفٌ

قال: فانفتح الخطباء بالكلام.

خطبة أيضا لمعاوية

ولما مرض معاوية مرض وفاته قال لمولى له: من بالباب؟ قال: نفر من قريش يتباشرون بموتك. قال: ويحك! لم؟ فوالله ما لهم بعدي إلا الذي يسوءهم. وأذن للناس فدخلوا، فحمد الله وأثنى عليه وأوجز، ثم قال: أيها الناس، إنا قد أصبحنا في دهر عنود، وزمن شديد، يُعدّ فيه المحسن مُسيئاً، ويزداد الظالم فيه عُتُوًّا، لَا نَنْتَفِعُ بِمَا عَلَّمْنَا، وَلَا نَسْأَلُ عَمَّا جَهَلْنَا، وَلَا نَتَخَوَّفُ قَارِعَةً حَتَّىٰ تَحُلَّ بِنَا؛ فَالنَّاسُ عَلَىٰ أَرْبَعَةِ أَصْنَافٍ: مِنْهُمْ مَنْ لَا يَمْنَعُهُ مِنَ الْفَسَادِ فِي الْأَرْضِ إِلَّا مَهَانَةَ نَفْسِهِ، وَكِلَالَ حُدِّهِ، وَنَضِيضَ وَفْرِهِ؛ وَمِنْهُمْ الْمُصَلِّتُ لِسَيْفِهِ، الْمُجْلِبُ بِرَجُلِهِ، الْمُعْلَنُ بِشَرِّهِ، وَقَدْ أَشْرَطَ نَفْسَهُ، وَأَوْبَقَ دِينَهُ، لِحُطَامِ يَنْتَهِرُهُ، أَوْ مِقْنَبِ يَقُودُهُ، أَوْ مِثْبَرِ يَفْرَعُهُ، وَلَيْسَ الْمُتَجَرِّحَانِ تَرَاهُمَا لِنَفْسِكَ ثَمًّا، وَمَالِكَ عِنْدَ اللَّهِ عَوْضًا؟ وَمِنْهُمْ مَنْ يَطْلُبُ الدُّنْيَا بِعَمَلِ الْآخِرَةِ، وَلَا يَطْلُبُ الْآخِرَةَ بِعَمَلِ الدُّنْيَا، قَدْ طَامَنَ مِنْ شَخْصِهِ، وَقَارَبَ مِنْ خَطْوِهِ. وَشَمَّرَ عَنِ تَوْبِهِ، وَزَخَرَفَ نَفْسَهُ بِالْأَمَانَةِ، وَاتَّخَذَ سِتْرَ اللَّهِ ذَرِيْعَةً إِلَىٰ الْمَعْصِيَةِ، وَمِنْهُمْ مَنْ أَقْعَدَهُ عَنِ طَلْبِ الْمُلْكِ ضَالَّةَ نَفْسِهِ، وَانْقَطَاعَ سَبَبِهِ، فَقَصَّرَتْ بِهِ الْحَالُ عَنِ حَالِهِ، فَتَحَلَّىٰ بِاسْمِ الْقِنَاعَةِ، وَتَرَيَا بِلِبَاسِ الرَّهَادَةِ، وَلَيْسَ مِنْ ذَلِكَ فِي مَرَّاحٍ وَلَا مَعْدَىٰ. وَبَقِيَ رَجَالٌ أَغْضَىٰ أَبْصَارَهُمْ ذِكْرُ الْمَرْجِعِ، وَأَرَاقُ دُمُوعِهِمْ خَوْفُ الْمَضْجَعِ، فَهَمَّ بَيْنَ شَرِيدِ بَادٍ، وَبَيْنَ خَائِفِ مُنْتَمِعٍ، وَسَاكَتِ مَكْعُومٍ، وَدَاعِ مُحْلَصٍ، وَمُوجِعِ نُكْلَانٍ، قَدْ أَخْمَلَتْهُمُ التَّقِيَّةُ، وَشَمَلَتْهُمُ الدَّلَّةُ، فَهَمَّ فِي بَحْرِ أَحْجَاجٍ، أَفْوَاهُهُمْ ضَامِرَةٌ، وَقُلُوبُهُمْ قَرِحَةٌ، قَدْ وَعْظُوا حَتَّىٰ مَلَّوْا، وَقَهَرُوا حَتَّىٰ ذَلَّوْا، وَقَتَلُوا حَتَّىٰ قَلَّوْا. فَلَتَكُنِ الدُّنْيَا فِي أَعْيُنِكُمْ أَصْغَرَ مِنْ حُثَالَةِ الْقَرَطِ، وَقُرَادَةِ الْحَلَمِّ؛ وَاتَّعْظُوا. بَعْنُ كَانَ قَبْلَكُمْ، قَبْلَ أَنْ يَتَّعِظَ بِكُمْ مِنْ بَعْدِكُمْ، وَارْفُضُوهَا ذَمِيمَةً، فَقَدْ رَفُضْتُمْ مَنْ كَانَ أَشْفَقَ بِهَا مِنْكُمْ.

ليزيد بن معاوية بعد موت أبيه

الحمد لله الذي ما شاء صنع، ومن شاء أعطى، ومن شاء منع، ومن شاء خفص، ومن شاء رفع. إن أمير المؤمنين كان حبالاً من حبال الله، مدّه ما شاء أن يمدّه، ثم قطعته حين أراد أن يقطعها، وكان. دون من قبله، وخيراً ممن يأتي بعده، ولا أزكّيه عند ربّه، وقد صار إليه، فإن يعف عنه فبرحمته، وإن يعاقبه فبدينه، وقد وليت بعده الأمر، ولست أعتذر من جهل، ولا آسى على طلب علم، وعلى إرسالكم، إذا كره الله شيئاً غيرّه، وإذا أحب شيئاً يسره.

وخطبة أيضا ليزيد

الحمد لله أحمده وأستعينه، وأومن به وأتوكل عليه، ونعوذ بالله من شرور أنفسنا، ومن سيئات أعمالنا، من يهده الله فلا مضل له، ومن يضلل فلا هادي له، وأشهد أن لا إله إلا الله وحده لا شريك له، وأن محمداً عبده ورسوله، اصطفاه لوحيه. واختاره لرسالته، بكتاب فضله وفضله، وأعزه وأكرمه، ونصره وحفظه، ضرب فيه الأمثال، وحلل فيه الحلال، وحرّم فيه الحرام، وشرّع فيه الدين إعداراً وإنذاراً، لئلا يكون للناس على الله حجة بعد الرسل، ويكون بلاغاً لقوم عابدين. أوصيكم عباد الله بتقوى الله العظيم، الذي ابتداء الأمور بعلمه، وإليه يصير معادها، وانقطاع مدتها، وتصرم دارها. ثم إني أحذركم الدنيا، فإنها حلوة خضرة، حفت بالشهوات، وراقت بالقليل، وأينعت بالفاني، وتحيبت بالعاجل، لا يدوم نعيمها، ولا يؤمن فجيئها، أكالة غوالة، غرارة، لا تبقني على حال، ولا يبقى لها حال، ولن تعدو الدنيا إذا تناهت إلى أمنية أهل الرغبة فيها، والرضا بها، أن تكون كما قال الله عز وجل: "واضرب لهم مثل الحياة الدنيا كماء أنزلناه من السماء"، إلى قوله ومقتدراً نسأل الله ربنا وإلهنا وخالقنا ومولانا أن يجعلنا وإياكم من فزع يومئذ آمنين. إن أحسن الحديث وأبلغ الموعدة كتاب الله، يقول الله: ما له "وإذا قرئ القرآن فاستمعوا له وأنصتوا لعلكم ترحمون". أعود بالله من الشيطان الرجيم، بسم الله الرحمن الرحيم لقد جاءكم رسول من أنفسكم إلى آخر السورة.

خطب بني مروان

خطبة عبد الملك بن مروان

وكان عبد الملك بن مروان يقول في آخر خطبته: اللهم إن ذنوبي قد عظمت وجلت عن أن تحمي، وهي صغيرة في جنب عفوك، فاعف عني. وخطب بمكة شرفها الله تعالى، فقال في خطبته: إني الله ما أنا بالخليفة المستضعف، يعني عثمان، ولا بالخليفة المذاهن، يعني معاوية، ولا بالخليفة المأفون، يعني يزيد. قال أبو إسحق النظام: أما والله لولا نسبك من هذا المستضعف، وسببك من هذا المذاهن، لكنت منها أبعد من العيوق. والله ما أخذها بوراثته، ولا سابقة، ولا قرابة، ولا بدعوى شورى، ولا بوصية.

خطبة الوليد بن عبد الملك

لما مات عبد الملك بن مروان ورجع الوليد من دفته، لم يدخل منزله حتى دخل المسجد، وتودى في الناس: الصلاة جامعة. فصعد المنبر فحمد الله وأثنى عليه، ثم قال: أيها الناس، إنه لا مؤخر لما قدم الله، ولا مقدم لما آخر الله، وقد كان من قضاء الله وسابق علمه، وما كتب على أنبيائه، وحملة عرشه من الموت، موت ولي هذه الأمة، ونحن نرجو أن يصير إلى منازل الأبرار، للذي كان عليه من الشدة على المريب، واللين على أهل الفضل والدين، مع ما أقام من منار الإسلام وأعلامه، وحج هذا البيت، وغزو هذه الثغور، وشن الغارات على أعداء الله، فلم يكن فيها عاجزاً، ولا وانياً، ولا مقرطاً. فعليكم أيها الناس بالطاعة، ولزوم الجماعة، فإن الشيطان مع الفذ، وهو من الجماعة أبعد. واعلموا أنه من أبدى لنا ذات نفسه ضربنا الذي فيه عيناه، ومن سكت مات بدائه. ثم نزل.

خطب سليمان بن عبد الملك

فقال: الحمد لله، ألا إن الدنيا دار غرور، ومنزل باطل، تُضحك باكياً، وتُبكي ضاحكاً، وتُخيف أمنياً، وتؤمن خائفاً، وتُفقر مثرى، وتثري مقترأ، ميلة غرارة، لعباة بأهلها. عباد الله، فاتخذوا كتاب الله إماماً، وارتضوا به حكماً، واحملوه لكم قائداً، فإنه ناسخ لما كان قبله، ولم ينسخه كتاب بعده. واعلموا عباد الله أن هذا القرآن يجلو كيد الشيطان، كما يجلو ضوء الصبح إذا تنفس، ظلام الليل إذا عسعس.

خطب عمر بن عبد العزيز رحمه الله ورضي عنه:

قالت العُتيبي: أول خطبة خطبها عمرُ بن عبد العزيز رحمه الله قوله: أيها الناس، أصلحوا سرائركم تصلح لكم علائبتكم، وأصلحوا آخرتكم تصلح دُنْيَاكُمْ؛ وإن امرئ ليس بينه وبين آدم أبٌ حيٌّ لمُعْرِقٍ في المَوْتِ.

وخطبة له رحمه الله

إن لكل سَفَرٍ زاداً لا محالة، فتزوّدوا من دُنْيَاكُمْ لِأَخْرَجْتُمْ التَّقْوَى، وكُونُوا كَمَنْ عَايَنَ مَا أَعَدَّ اللَّهُ لَهُ مِنْ ثَوَابِهِ وَعِقَابِهِ، فَتَرَهَبُوا وَتَرَعَّبُوا، وَلَا يَطْوَلَنَّ عَلَيْكُمْ الْأَمَدُ فَتَقْسُو قُلُوبُكُمْ، وَتَقْفَادُوا لِعَدْوِكُمْ، فَإِنَّهُ وَاللَّهِ، مَا بَسِطَ أَمَلٌ مَن لَّا يَدْرِي لَعَلَّهُ لَا يُصْبِحُ بَعْدَ إِسْمَائِهِ، أَوْ يَمْسِي بَعْدَ إِصْبَاحِهِ، وَرَبَّمَا كَانَتْ بَيْنَ ذَلِكَ خَطَرَاتُ الْمَنَايَا، وَإِنَّمَا يَطْمَئِنُّ إِلَى الدُّنْيَا مَنْ أَمِنَ عَوَاقِبَهَا، فَإِنَّ مِنْ يَدَاوِي مِنَ الدُّنْيَا كَلَّمَا أَصَابَتْ جِرَاحَةً مِنْ نَاحِيَةِ أُخْرَى، فَكَيْفَ يَطْمَئِنُّ إِلَيْهَا، أَعُوذُ بِاللَّهِ إِنْ أَمُرْكُمْ بِمَا أَنْهَى عَنْهُ نَفْسِي فَتَخَسَّرَ صَفْقَتِي، وَتَظَهَرَ عَيْلَتِي، وَتَبَدُّوا مَسْكِنَتِي، فِي يَوْمٍ لَا يَنْفَعُ فِيهِ إِلَّا الْحَقُّ وَالصِّدْقُ. ثُمَّ بَكَى وَبَكَى النَّاسُ مَعَهُ.

خطبة لعمر بن عبد العزيز أيضاً

شبيب بن شيبه عن أبي عبد الملك قال: كنت من حرس الخلفاء قبل عمر، فكنا نقوم لهم ونبدؤهم بالسلاح. فخرج علينا عمر رضي الله عنه في يوم عيد وعليه قميص كتان وعمامة على قلنسوة لاطئة، فمئلتنا بين يديه وسلمنا عليه، فقال: مه، أنتم جماعة وأنا واحد، السلام عليّ والردّ عليكم؟ وسلم، فرددنا، وقربت له دابته فأعرض عنها ومشى، ومشيئنا، حتى صعد المنبر، فحمد الله وأثنى عليه وصلى على النبي صلى الله عليه وسلم، ثم قال: وددت أن أغنياء الناس اجتمعوا فردوا على فقرائهم، حتى نستوي نحن بهم، وأكون أنا أولهم. ثم قال: ما لي وللدنيا؛ أم مالها ومالي؛ وتكلم فأرق حتى بكى الناس جميعاً، يميناً وشمالاً. ثم قطع كلامه ونزق! فدنا منه رجاء بن حيوة، فقال له: يا أمير المؤمنين، كلمت الناس بما أرق قلوبهم وأبكاهم، ثم قطعت أحوج ما كانوا إليه. فقال: يا رجاء، إن أكره المباهاة.

خطبة ابن الأهمم بين يدي عمر بن عبد العزيز

ودخل عبد الله بن الأهمم على عُمَرَ بن عبد العزيز مع العامة، فلم يُفجأ إلا وهو قائم بين يديه يتكلم؛ فحمد الله وأثنى عليه، وقال: أما بعد، فإن الله خلق الخلق غنياً عن طاعتهم، آمناً من معصيتهم، والناس يومئذ في المنازل والرأي مختلفون، والعرب بشرت تلك المنازل، أهل الوبر وأهل المدر، تُحتاز دونهم طيبات الدنيا ورفاهة عيشها، ميتهم في النار، وحيثهم أعمى، مع ما لا يُحصي من المرغوب عنه، المرغوب فيه. فلما أراد الله أن ينشر فيهم رحمته، بعث إليهم رسولا منهم، عزيزاً عليه ما عنتوا حريصاً عليهم بالمؤمنين رؤوف رحيم، فلم يمنعمهم ذلك أن جرحوه في جسّمه، ولقبوه في اسمه، ومعه كتاب من الله ناطق، لا يرحل إلا بأمره، ولا ينزل إلا بإذنه، واضطروه إلى بطن غار. فلما أمر بالعزيمة، أسفر لأمر الله لوئه، فأبلج الله حُجته، وأعلى كلمته، وأظهر دعوته، وفارق الدنيا تقياً صلى الله عليه وسلم ثم قام من عده أبو بكر رضي الله عنه، فسلك سُنَّته، وأخذ سبيله؛ فارتدت العرب، فلم يقبل منهم إلا الذي كان رسول الله صلى الله عليه وسلم يقبله؛ فانتضى السيف من أعمادها، وأوقد النيران في شعلها، ثم ركب بأهل الحق أهل الباطل، فلم يرح يفصل أو صالحهم، ويسقي الأرض دماءهم، حتى أدخلهم في الباب الذي خرجوا منه، وقرّهم بالأمر الذي نفروا عنه. وقد كان أصاب من مال الله بكراً يرتوي عليه، وحبشية تُرضع ولدًا له، فرأى ذلك غصّة في حلقه عند موته، وثقلاً على كاهله، فأداه إلى الخليفة من بعده، وبرئ إليهم منه، وفارق الدنيا نقياً تقياً على منتهج صاحبه. ثم قام من بعده عمر بن الخطاب رضي الله عنه. فمصر الأمصار، وخلط الشدة باللين، وحسّر عن ذراعيه، وشمر عن ساقيه، وأعدّ للأمر أفرانها، وللحرب آلتها. فلما أصابه قن المغيرة بن شعبة أمر ابن عباس أن يسأل الناس: هل يُثبتون قائله. فلما قيل له: قن المغيرة استهل بحمد الله أن لا يكون أصابه من له حق في الفياء فيستحلّ دمه بما استحله من حقه. وقد كان أصاب من مال الله بضعة وثمانين ألفاً. فكسر بما رباعه، وكره فيها كفالة أهله وولده، فأدى ذلك إلى الخليفة من بعده، وفارق الدنيا تقياً على منتهج صاحبه. ثم إننا والله

ما اجتمعنا بعدهما إلا على ضلع أعوج. ثم إنك يا عمر ابن الدنيا، ولدتك ملوكها، وألقتك نديها، فلما وليتها ألغيتها وأجبت لقاء الله وما عنده، فالحمد لله الذي جلا بك حوبتنا، وكشف بك كربتنا، أمض ولا تلتفت، فإنه لا يُعني عن الحق شيء، أقول قولي هذا واستغفر الله لي ولكم وللمؤمنين وللمؤمنات. ولما قال: ثم إنا والله ما اجتمعنا بعدهما إلا على ضلع أعوج. سكت الناس كلهم غير هشام، فإنه قال: كذبت.

وخطبة أيضا لعمر بن عبد العزيز

قال أبو الحسن: خطب عمر بن عبد العزيز بخصاصة خطبة لم يخطب بعدها حتى مات رحمه الله، حمد الله وأثنى عليه، ثم قال: أيها الناس، إنكم لم تُخلقوا عبثاً، ولم تُتركوا سُدىً، وإن لكم معاداً يحكم الله بينكم فيه، فخاب وحسر من خرج من رحمة الله التي وسعت كل شيء، وحرم جنة عرضها السموات والأرض. واعلموا أن الأمان غداً لمن يخاف اليوم، وباع قليلاً بكثير، وفانياً بباقي؛ ألا ترون أنكم في أصلاب المالكين، وسيخلفها من بعدكم الباقون، حتى تُردوا إلى خير الم لورثين، ثم إنكم في كل يوم تُشيعون غادياً ورائحاً إلى الله، قد قضى نحبته، وبلغ أجله، ثم تغيبونه في صدع في الأرض، ثم تدعونه غير مؤسّد ولا مُمهد، قد خلع الأسباب، وفارق الأحباب، وواجه الحساب، غنياً عما ترك: فقيراً إلى ما قدّم، وإيم الله، إني لأقول لكم هذه المقالة وما أعلم عند أحد منكم من الذنوب، أكثر مما عندي، فاستغفر الله لي ولكم، وما تبخلنا حاجة يتيسر لها ما عندنا إلا سدّذناها، ولا أحد منكم إلا ودّدت أن يده مع يدي ولحمي الذين يلونني، حتى يستوى عيشنا وعيشكم، وإيم الله إني لو أردت غير هذا من عيش أو غضارة لكان اللسان به ناطقاً ذلولاً عالماً بأسبابه، ولكنه مضى من الله كتاب ناطق وسنة عادلة، دلّ فيهما على طاعته، ونهى عن معصيته؛ ثم بكى، فتلقى دموع عينيه بردائه ونزل. فلم يعد بعدها على تلك الأعواد حتى قبضه الله تعالى.

خطبة يزيد بن الوليد حين قتل الوليد بن يزيد

بقي بن مخلد قال: حدّثني خليفة بن خياط قال: حدّثنا إسماعيل بن إبراهيم قال: حدّثني إبراهيم بن إسحاق، أن يزيد بن الوليد بن عبد الملك لما قتل الوليد بن يزيد قام خطيباً فحمد الله وأثنى عليه، ثم قال: أما بعد أيها الناس، إني ما خرجتُ أشراً ولا بطراً، ولا حرصاً على الدنيا، ولا رغبة في الملك، وما بي إطرأ نفسي، ولا تزكية عملي، وإني لظُلوم لنفسي إن لم يرْحمني ربّي، ولكني خرجتُ غضباً لله ودينه، وداعياً إلى كتابه وسنة نبيه، حين درّست معالم الهدى، وأطفئ نور أهل التقوى، وظهر الجبار العنيد، المستحل الحرمة، والراكب البدعة، والمعير السنة. فلما رأيت ذلك أشفقت إذ غشيتكم ظلمة لا تُقلع، على كثير من ذنوبكم، وقسوة من قلوبكم، وأشفقت أن يدعّم كثيراً من الناس إلى ما هو عليه، فيُجيبه من أحابه منكم، فاستخرت الله في أمري، وسألته أن لا يكلني إلى نفسي، وهو ابن عمي في نسبي، وكفي في حسبي، فأراح الله منه العباد، وطهر منه البلاد، ولاية من الله وعزماً، بلا حول متا ولا قوة، ولكن بحول الله وقوته، وولايته وعزّته. أيها الناس، إن لكم عليّ إن وليتُ أموركم ألا أضع لينة على لينة، ولا حَجراً على حَجْر، ولا أنقل مالا من بلد إلى بلد، حتى أسدُّ نعره، وأقيم مصالحه، مما تحتاجون إليه، وتَقوون به، فإن فضل شيء ردّدته إلى البلد الذي يليه، وهم من أحوج البلدان إليه، حتى تستقيم المعيشة بين المسلمين وتكونوا فيه سواءً، ولا أحمرّكم في بعوثكم فتفتنونا وتفتن أهاليكم. فإن أردتم بيّعتي على الذي بذلت لكم فأنا لكم به، وإن ملّت فلا بيعة لي عليكم، وإن رأيتم أحداً أقوى عليها منّي فأردتم بيعته فانا أول من يُبايعه، ويدخل في طاعته، أقول قولي هذا واستغفر الله لي ولكم.

خطب بني العباس

العُتي قال: قيل لمسلمة بن هلال العبدي، خطبنا جعفر بن سليمان الهاشمي خطبة لم يُسمع أحسن منها، وما درينا أوجّهه كان أحسن أم كلامه. قال: أولئك قوم بنور الخلافة يُشرفون، وبلسان النبوة يُنطقون.

خطبة أبي العباس السفاح بالشام

خطب أبو العباس عبد الله بن محمد عليّ، لما قُتل مروان بن محمد، فقال: ألم تر إلى الذين بدّلوا نعمة الله كُفراً وأحلّوا قومهم دار البوار، جهنّم يصلّونها ويبنّس القرار، نكصَ بكم يا أهل الشام آل حرب، وآل مروان، يتسكعون بكم الظلم، ويتهورون بكم مداحض الزلق، يطؤون بكم حرم الله وحرم رسوله، ماذا يقول زُعماؤكم غداً؟ يقولون: ربنا هؤلاء أضلونا فاهم عذاباً ضعفاً من النار. إذا يقول الله عزّ وجلّ لكلّ ضعف ولكن لا تعلمون. أما أمير المؤمنين، فقد ائتنف بكم التوبة، واغتفر لكم الزلّة، وبسط لكم الإقالة، وعاد بفضله على نقصكم، وبجلّمه على جهلكم، فليفرح روعكم، ولتطمئنّ به داركم، ولتعظكم مصارع أوائلكم، فتلك بيوتهم حاوية بما ظلّموا.

خطب المنصور

خطب أبو جعفر المنصور، واسمه عبد الله بن محمد بن عليّ، لما قُتل الأمويين فقال: أحرز لسان رأسه، انتبه امرؤ لحظه، نظّر امرؤ في يومه لغده، فمشى القصد، وقال الفصل، وجانب الهجر. ثم أخذ بقائم سيفه فقال: أيها الناس، إن بكم داء هذا داؤه، وأنا زعيم لكم بشفائه، فليعتبر عبد قبل أن يُعتبر به، فإنما بعد الوعيد الإيقاع وإنما يفترى الكذب الذين لا يؤمنون بآيات الله.

خطبة المنصور حين خروجه إلى الشام

من يلق أبطال الرجال يكلم

شنشنة أعرفها من أخزم

مهلاً مهلاً، روايا الإرجاف، وكهوف النفاق، عن الخوض فيما كُفيتم، والتخطي إلى ما حُدثتم. قبل أن تتلف نفوس، ويقلّ عدد، ويدول عزّ، وما أنتم وذاك، ألم تجدوا ما وعد ربكم من إیراث المُستضعفين من مشارق الأرض ومغارها حقاً والجحد الجحد. ولكن حبّ كامن، وحسدٌ مُكمد، فبُعداً للقوم الظالمين.

وخطب أيضا

قال يعقوب بن السكّيت: خطب أبو جعفر المنصور يوم جمعة، فحمد الله وأثنى عليه وقال: أيها الناس، اتقوا الله. فقام إليه رجلٌ فقال: أذكرك من ذكرتنا به يا أمير المؤمنين. قال أبو جعفر، سمعاً سمعاً لمن فهم عن الله وذكر به، وأعوذ بالله أن أذكر به وأنساه، فتأخذني العزة بالإثم، لقد ضللت إذا، وما أنا من المهتدين. وأما أنت، والتفت إلى الرجل، فقال: والله ما الله أردت بها، ولكن يُقال قام فقال فعوقب فصبر، وأهون بها لو كانت العقوبة، وأنا أنذركم أيها الناس أختها، فإن الموعدة علينا نزلت، وفيها أنبت، ثم رجع إلى موضعه من الخطبة.

خطبة للمنصور بمكة

وخطب بمكة فقال: أيها الناس، إنما أنا سلطان الله في أرضه، أسوسكم بتوفيقه، وتسدّيده وتأييده، وحارسه على ماله، أعمل فيه بمشيئته وإرادته، وأعطيه بإذنه، فقد جعلني الله عليه قفلاً، إذ شاء أن يفتحنى فتحنى لإعطائكم، وقسم أرزاقكم، وإذا شاء أن يُقفلني عليها أقفلني، فارغبوا إلى الله وسلّوه في هذا اليوم الشريف وهب لكم من فضله ما أعلمكم به في كتابه إذ يقول: "اليوم أكملت لكم دينكم وأتممت عليكم نعمتي ورضيت لكم الإسلام ديناً" أن يوقني للرشد والصواب، وأن يلهمني الرأفة بكم والإحسان إليكم، أقول قولي هذا وأستغفر الله لي ولكم.

خطبة لسليمان بن علي

"ولقد كتبتنا في الزبور من بعد الذكر أن الأرض يرثها عبادي الصالحون إن في هذا لآياتاً لقوم عابدين." قضاء مُبرم، وقولٌ فصل ما هو بالهزل. الحمد لله الذي صدق عبده، وأنجز وعده، وبُعداً للقوم الظالمين الذين اتخذوا الكعبة عرضاً، والفيء إرثاً، والدين هزواً، وجعلوا القرآن عجين، لقد حاق بهم

ما كانوا به يَسْتَهْزِئُونَ، فكأَيِّن ترى من بُرِّ مُعْطَلَةٌ وَقَصْرٌ مَشِيدٌ، ذلك ما قَدَمْتُ أَيْدِيكُمْ وَأَنَّ اللَّهَ لَيْسَ بِظَلَّامٍ لِلْعَبِيدِ. أُمَهَلُوا حَتَّى نَبْذُوا الْكِتَابَ، واضطهدوا العِترَةَ، وَبَذُوا السَّنَةَ، واعتدوا واستكبروا وخاب كلُّ جِبَّارٍ عَنِيدٍ، ثم أَخَذَهُمْ، فَهَلْ تُحْسِنُ مِنْهُمْ مِنْ أَحَدٍ أَوْ تَسْمَعُ لَهُمْ رِكْزاً.

خطبة عبد الملك بن صالح بن علي

أعوذ بالله السميع العليم من الشيطان الرجيم، أفلا يتدبرون القرآن أم على قلوب أقفالها، ي أهل الشام، إن الله وصف إخوانكم في الدين، وأشباهكم في الأجسام، فحذّرهم نبيه محمداً صلى الله عليه وسلم فقال: "وإذا رأيْتَهُمْ تُعْجِبُكَ أَجْسَامُهُمْ وَإِنْ يَقُولُوا تَسْمَعُ لِقَوْلِهِمْ كَأَنَّهُمْ خِشْبٌ مُسْنَدَةٌ. يَحْسِبُونَ كُلَّ صَيِّحَةٍ عَلَيْهِمْ هُمُ الْعَدُوُّ فَاحْذَرْهُمْ قَاتِلَهُمُ اللَّهُ أَنْ يُؤْفَكُونَ" فقائلكم الله أي تُصْرَفُونَ، حُتَّ مائِلة، وقلوب طائرة، تشبُّون الفتن، وتؤلون الدُّبر، إلا عن حُرْمِ اللَّهِ، فإنها دَرَيْتِكُمْ وَحُرْمِ رَسُولِهِ، فإنها مَعْزَاكُم، أما وَحُرْمَةُ النَّبُوَّةِ، والخِلافة لِتَنْفِرُنَّ خِيفاً وَتَقَالاً أَوْ لَا وَسَعْنَكُم إِرْغَاماً وَنِكَالاً.

خطبة صالح بن علي

يا أعضاء النِّفاق، وَعَمَدَ الضَّلَالَةِ، أَعْرَكُم لِيْنِ إِسْأَسِي وَطُولُ إِينَاسِي، حَتَّى ظَنَ جَاهِلِكُمْ أَنَّ ذَلِكَ لِفُلُولِ حَدِّ، وَفُتُورِ جِدِّ، وَخَوَرِ قِنَاةٍ، كَذَبَتِ الظُّنُونِ. إِنَّمَا الْعِترَةُ بَعْضُهَا مِنْ بَعْضٍ، فَإِذَا قَدْ اسْتَمَرَّ أَمُّ الْعَافِيَةِ، فَعِنْدِي فَصَالٌ وَفِطَامٌ، وَسَيْفٌ يَقْدُ الْهَامُ، وَإِنِّي أَقُولُ:

رَفِيقٌ وَإِنِّي بِالْفَوَاحِشِ آخِرَقٌ

تَكَلَّمَ نِعْمَاهُ بِفِيهَا فَتَنَّتِيقُ

هَنِيئاً مَرِيئاً أَنْتَ بِالْفُحْشِ أَرْفَقُ

أَعْرَكُم أَنِّي بِأَكْرَمِ شِيمَةٍ

وَمِنِّي إِذَا لَمْ يُجْزَأْ أَحْسَنَ سَعِيهِ

لَعَمْرِي لَقَدْ فَاحْشَتَنِي فَعَلَبْتَنِي

خطبة داود بن علي بالمدينة

فقال: أَيُّهَا النَّاسُ، حَتَّامٌ يَهْتَفُ بِكُمْ صَرِيحُكُمْ، أَمَا أَنْ لِرَاقِدِكُمْ أَنْ يَهْبُتَ مِنْ نَوْمِهِ، كَلَّا بَلْ رَانَ عَلَى قُلُوبِهِمْ مَا كَانُوا يَكْسِبُونَ، أَعْرَكُم الْإِمْهَالَ حَتَّى حَسَبْتُمُوهُ الْإِمْهَالَ، هِيَهَاتَ مِنْكُمْ وَكَيْفَ بِكُمْ وَالسُّوْطُ فِي، كَفِّي وَالسَيْفُ مُشَهَّرٌ:

وَيَعِضُّ كُلُّ مُتَقَفٍّ بِالْهَامِ

يَمَسْحَنُ عُرْضَ ذَوَائِبِ الْإِيْتَامِ

حَتَّى يُبِيدَ قَبِيلَةَ فَقَبِيلَةَ

وَيُقِمْنَ رَبَّاتِ الْخُدُورِ حَوَاسِرًا

خطبة داود بن علي بمكة وخطب داود بن علي بمكة: شُكْرًا شُكْرًا، وَاللَّهِ مَا خَرَجْنَا لِنَحْفِرَ فِيكُمْ نَهْرًا، وَلَا لِنَبْنِي فِيكُمْ قَصْرًا، أَظْنَ عَدُوُّ اللَّهِ أَنْ لَنْ نَظْفِرَ إِذْ مَدَّ لِي فِي عِنَانِهِ، حَتَّى عَثَرَ فِي فَضْلِ زِمَامِهِ، فَالآنَ عَادَ الْأَمْرُ فِي نِصَابِهِ، وَأَطْلَعَتِ الشَّمْسُ مِنْ مَشْرِقِهَا، وَالآنَ حَيْثُ تَوَلَّى الْقَوْسَ بَارِيهَا، وَعَادَتِ النَّبْلُ إِلَى النَّزْعَةِ، وَرَجَعَ الْأَمْرُ إِلَى مُسْتَقَرِّهِ، فِي أَهْلِ بَيْتِ نَبِيِّكُمْ، أَهْلِ الرَّأْفَةِ وَالرَّحْمَةِ، فَاتَّقُوا اللَّهَ وَاسْمَعُوا وَأَطِيعُوا، وَلَا تَجْعَلُوا النَّعْمَ الَّتِي أَنْعَمَ اللَّهُ عَلَيْكُمْ سَبَبًا إِلَى أَنْ تُبَيِّحَ هَلَكَتِكُمْ، وَتُرْزِلَ النَّعْمَ عَنْكُمْ.

خطبة للمهدي

الحمد لله الذي ارتضى الحمد لنفسه، ورَضِيَ بِهِ مِنْ خَلْقِهِ، أَحْمَدُهُ عَلَى الْآتِهِ، وَأُجْمَدُهُ لِبَلَاتِهِ، وَأَسْتَعِينُهُ وَأُؤْمِنُ بِهِ وَأَتَوَكَّلُ عَلَيْهِ، تَوَكَّلْ رَاضٍ بِقَضَائِهِ، وَصَابِرٍ لِبَلَاتِهِ، وَأَشْهَدُ أَنْ لَا إِلَهَ إِلَّا اللَّهُ وَحْدَهُ لَا شَرِيكَ لَهُ، وَأَنَّ مُحَمَّدًا عَبْدُهُ الْمُصْطَفَى، وَنَبِيُّهُ الْمُجْتَبَى، وَرَسُولُهُ إِلَى خَلْقِهِ، وَأَمِينُهُ عَلَى وَحْيِهِ، أَرْسَلَهُ بَعْدَ انْقِطَاعِ الرَّجَاءِ، وَطُمُوسِ الْعِلْمِ، وَاقْتِرَابِ مِنَ السَّاعَةِ، إِلَى أُمَّةٍ جَاهِلِيَّةٍ، مُخْتَلِفَةِ أُمِيَّةٍ، أَهْلِ عَدَاوَةٍ وَتَضَاغُنٍ، وَفُرْقَةٍ وَتَبَايُنٍ، قَدْ اسْتَهْوَتْهُمْ شَيَاطِينُهُمْ،

وَعَلَبَ عَلَيْهِمْ قُرْنَاؤُهُمْ، فَاسْتَشَعَرُوا الرَّدَى، وَسَلَكُوا الْعَمَى، يُبَشِّرُ مَنْ أَطَاعَهُ بِالْحَيَّةِ وَكَرِيمِ ثَوَابِهَا، وَيَنْذِرُ مَنْ عَصَاهُ بِالنَّارِ وَأَلِيمِ عِقَابِهَا، لِيَهْلِكَ مَنْ هَلَكَ عَنِ بَيْتَةِ، وَيَحْيَا مَنْ حَيَّ عَنِ بَيْتَةِ، وَإِنَّ اللَّهَ لَسَمِيعٌ عَلِيمٌ، أَوْصِيَكُمْ عِبَادَ اللَّهِ بِتَقْوَى اللَّهِ، فَإِنَّ الْاِقْتِصَارَ عَلَيْهَا سَلَامَةٌ، وَالتَّرَكُّ لَهَا نَدَامَةٌ، وَأَحْتَنِكُمْ عَلَى إِجْلَالِ عَظَمَتِهِ، وَتَوْقِيرِ كِبَرِيَّاتِهِ وَقُدْرَتِهِ، وَالِانْتِهَاءِ إِلَى مَا يُقَرَّبُ مِنْ رَحْمَتِهِ، وَيُنْخَى، مِنْ سَخَطِهِ، وَيُنَالُ بِهِ مَا لَدَيْهِ مِنْ كَرِيمِ الثَّوَابِ، وَجَزِيلِ الْمَأْتَبِ. فَاجْتَنِبُوا مَا حَوَّقَكُمْ اللَّهُ مِنْ شَدِيدِ، لِعِقَابِ، وَأَلِيمِ الْعَذَابِ، وَوَعِيدِ الْحِسَابِ، يَوْمَ تُوقَفُونَ فِي يَدَيْ الْجَبَّارِ، وَتَعْرَضُونَ فِيهِ عَلَى النَّارِ، يَوْمَ لَا تَكَلِّمُ نَفْسٌ إِلَّا بِإِذْنِهِ، فَمِنْهُمْ شَقِيٌّ وَسَعِيدٌ، يَوْمَ يَقَرَّرُ الْمَرْءُ مِنْ أَخِيهِ وَأُمِّهِ وَأَبِيهِ وَصَاحِبَتِهِ وَبَنِيهِ، لِكُلِّ امْرِئٍ مِنْهُمْ يَوْمَئِذٍ شَأْنٌ يَغْنِيهِ، يَوْمَ لَا تَجْزِي نَفْسٌ عَنْ نَفْسٍ شَيْئًا وَلَا يُقْبَلُ مِنْهَا عَدْلٌ وَلَا تَنْفَعُهَا شَفَاعَةٌ وَلَا هُمْ يُنصَرُونَ، يَوْمَ لَا يَجْزِي وَالِدٌ عَنْ وَلَدِهِ وَلَا مَوْلُودٌ هُوَ جَازٍ عَنِ وَالِدِهِ شَيْئًا، إِنَّ وَعْدَ اللَّهِ حَقٌّ، فَلَا تَغْرِبَنَّ الْحَيَاةَ الدُّنْيَا وَلَا يُغْرِبَنَّكُمْ بِاللَّهِ الْعَرُورُ، فَإِنَّ الدُّنْيَا دَارُ غُرُورٍ، وَبِلَاءٍ وَشُرُورٍ، وَاضْمِحْلَالٍ وَزَوَالٍ، وَتَقَلُّبٍ وَانْتِقَالٍ، قَدْ أَفْنَتَ مَنْ كَانَ قَبْلَكُمْ، وَهِيَ عَائِدَةٌ عَلَيْكُمْ وَعَلَى مَنْ بَعْدَكُمْ. مَنْ رَكَنَ إِلَيْهَا صَرَغَتْ، وَمَنْ وَثِقَ بِهَا خَانَتْ، وَمَنْ أَمَلَهَا كَذَبَتْ، وَمَنْ رَجَاهَا خَذَلَتْ، عِزُّهَا ذُلٌّ، وَغِنَاهَا فَقْرٌ، وَالسَّعِيدُ مَنْ تَرَكَهَا، وَالشَّقِيُّ فِيهَا مَنْ آثَرَهَا، وَالْمَغْبُونُ فِيهَا مَنْ بَاعَ حَظَّهُ مِنْ دَارِ آخِرَتِهِ بِهَا، فَاللَّهُ اللَّهُ عِبَادَ اللَّهِ، وَالتَّوْبَةُ مَقْبُولَةٌ، وَالرَّحْمَةُ مَبْسُوطَةٌ، وَبَادِرُوا بِالْأَعْمَالِ الزَّائِكَةِ فِي هَذِهِ الْأَيَّامِ الْخَالِيَةِ، قَبْلَ أَنْ يُؤَخَذَ بِالكَظْمِ، وَتَدْمُوا فَلَا تَقَالُونَ بِالنَّدَمِ، فِي يَوْمِ حَسْرَةٍ وَتَأْسَفٍ، وَكَابَةِ وَتَلَهْفٍ، يَوْمَ لَيْسَ كَالْأَيَّامِ، وَمَوْقِفِ ضَنْكِ الْمَقَامِ. إِنَّ أَحْسَنَ الْحَدِيثِ وَأَبْلَغَ الْمَوْعِظَةِ كِتَابُ اللَّهِ، يَقُولُ اللَّهُ تَبَارَكَ وَتَعَالَى: "وَإِذَا قُرِئَ الْقُرْآنُ فَاسْتَمِعُوا لَهُ وَأَنْصِتُوا لَعَلَّكُمْ تُرْحَمُونَ". أَعُوذُ بِاللَّهِ الْعَظِيمِ مِنَ الشَّيْطَانِ الرَّجِيمِ بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ: أَلْهَاكُمْ التَّكَاثُرُ حَتَّى زُرْتُمُ الْمَقَابِرَ إِلَى آخِرِ السُّورَةِ، أَوْصِيَكُمْ عِبَادَ اللَّهِ بِمَا أَوْصَاكُمْ اللَّهُ بِهِ، وَأَهَاكُمْ عَمَّا نَهَاكُمْ اللَّهُ عَنْهُ، وَأَرْضَى لَكُمْ طَاعَةَ اللَّهِ، وَأَسْتَغْفِرُ اللَّهَ لِي وَلَكُمْ.

خطبة هارون الرشيد

الْحَمْدُ لِلَّهِ نَحْمَدُهُ عَلَى نِعْمِهِ، وَنُسْتَعِينُهُ عَلَى طَاعَتِهِ، وَنَسْتَنْصِرُهُ عَلَى أَعْدَائِهِ نَوْمَنَ بِهِ حَقًّا، وَنَتَوَكَّلُ عَلَيْهِ مُفَوِّضِينَ إِلَيْهِ، وَأَشْهَدُ أَنْ لَا إِلَهَ إِلَّا اللَّهُ وَحْدَهُ لَا شَرِيكَ لَهُ، وَأَشْهَدُ أَنَّ مُحَمَّدًا عَبْدُهُ وَرَسُولُهُ، بَعَثَهُ عَلَى فِتْرَةٍ مِنَ الرُّسُلِ، وَدَرُوسٍ مِنَ الْعِلْمِ، وَإِذْ بَارَ مِنَ الدُّنْيَا، وَإِقْبَالَ مِنَ الْآخِرَةِ، بِشِيرًا بِالنَّبِيِّ الْمَقِيمِ، وَنَذِيرًا بَيْنَ يَدَيْ عَذَابِ أَلِيمٍ، فَبَلَّغَ الرِّسَالَةَ، وَنَصَحَ الْأُمَّةَ، وَجَاهَدَ فِي اللَّهِ، فَأَدَّى عَنِ اللَّهِ وَعَدَهُ وَوَعِيدَهُ، حَتَّى آتَاهُ الْيَقِينَ، فَعَلَى النَّبِيِّ مِنَ اللَّهِ صَلَاةٌ وَرَحْمَةٌ وَسَلَامٌ. أَوْصِيَكُمْ عِبَادَ اللَّهِ بِتَقْوَى اللَّهِ، فَإِنَّ فِي التَّقْوَى تَكْفِيرَ السَّيِّئَاتِ، وَتَضْعِيفَ الْحَسَنَاتِ، وَفَوْزًا بِالْحَيَّةِ، وَنَجَاةً مِنَ النَّارِ. وَأَحْذَرِكُمْ يَوْمًا تُشْخَصُ فِيهِ الْأَبْصَارُ، وَتُبْلَى فِيهِ الْأَسْرَارُ، يَوْمَ الْبَعْثِ وَيَوْمَ التَّغَايُنِ وَيَوْمَ التَّلَاقِ وَيَوْمَ التَّنَادِ، يَوْمَ لَا يُسْتَعْتَبُ مِنْ سَيِّئَةٍ، وَلَا يُزَادُ فِي حَسَنَةٍ، يَوْمَ الْأَرْفَةِ، إِذَا الْقُلُوبُ لَدَى الْحَنَاجِرِ كَاطْمِينَ، مَا لِلظَّالِمِينَ مِنْ حَمِيمٍ وَلَا شَفِيعٍ يُطَاعُ، يُعْلَمُ فِيهِ خَائِنَةُ الْأَعْيُنِ وَمَا تُخْفِي الصُّدُورُ، وَاتَّقُوا يَوْمًا تُرْجَعُونَ فِيهِ إِلَى اللَّهِ ثُمَّ تُوَفَّى كُلُّ نَفْسٍ مَا كَسَبَتْ وَهُمْ لَا يُظْلَمُونَ. عِبَادَ اللَّهِ، إِنَّكُمْ لَمْ تُحْلِقُوا عِبْنَا، وَلَنْ تَتْرَكُوا سُذْيَ، حَصَّنُوا إِيمَانَكُمْ بِالْأَمَانَةِ، وَدِينَكُمْ بِالْوَرَعِ، وَصَلَاتَكُمْ بِالزَّكَاةِ، فَقَدْ جَاءَ فِي الْخَبَرِ أَنَّ النَّبِيَّ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ قَالَ: لَا إِيمَانَ لِمَنْ لَا أَمَانَةَ لَهُ، وَلَا دِينَ لِمَنْ لَا عَهْدَ لَهُ، وَلَا صَلَاةَ لِمَنْ لَا زَكَاةَ لَهُ. إِنَّكُمْ سَفَرٌ مُجْتَازُونَ، وَأَنْتُمْ عَنْ قَرِيبٍ تَنْتَقِلُونَ مِنْ دَارِ فَنَاءٍ إِلَى دَارِ بَقَاءٍ، فَسَارِعُوا إِلَى الْمَغْفِرَةِ بِالتَّوْبَةِ، وَإِلَى الرَّحْمَةِ بِالتَّقْوَى، إِلَى الْهُدَى بِالْإِنَابَةِ؛ فَإِنَّ اللَّهَ تَعَالَى ذَكَرَهُ أَوْجِبَ رَحْمَتَهُ لِلْمُتَّقِينَ، وَمَغْفِرَتَهُ لِلتَّائِبِينَ، وَهُدَاهُ لِلْمُتَّبِعِينَ. قَالَتْ اللَّهُ عَزَّ وَجَلَّ وَقَوْلُهُ الْحَقُّ: "وَرَحْمَتِي وَسِعَتْ كُلَّ شَيْءٍ فَسَأَكْتُبُهَا لِلَّذِينَ يَتَّقُونَ وَيُؤَدُّونَ الزَّكَاةَ" وَقَالَ: "وَإِنِّي لَغَفَّارٌ لِمَن تَابَ وَآمَنَ وَعَمِلَ صَالِحًا ثُمَّ اهْتَدَى" وَإِيَّاكُمْ وَالْأَمَانِي، فَقَدْ غَرَّتْ وَأَوْبَقَتْ كَثِيرًا، حَتَّى أَكْذَبْتَهُمْ مُنَايَاهُمْ، فَتَنَّاوَسُوا التَّوْبَةَ مِنْ مَكَانٍ بَعِيدٍ، وَحِيلَ بَيْنَهُمْ وَبَيْنَ مَا يَشْتَهُونَ، فَأَخْبِرِكُمْ رَبِّكُمْ عَنِ الْمَثَلَاتِ فِيهِمْ، وَصَرَّفَ الْآيَاتِ، وَضَرَبَ الْأَمْثَالَ، فَرَغَّبَ بِالْوَعْدِ، وَقَدَّمَ إِلَيْكُمْ الْوَعِيدَ، وَقَدْ رَأَيْتُمْ وَقَائِعَهُ بِالْقُرُونِ الْخَوَالِيَةِ جِيلًا فَجِيلًا، وَعَهَدْتُمُ الْآبَاءَ وَالْأَبْنَاءَ وَالْأَحِبَّةَ وَالْعَشَائِرَ بِاخْتِطَافِ الْمَوْتِ إِيَّاهُمْ مِنْ يُبُوتِكُمْ وَمِنْ بَيْنِ ظَهْرِكُمْ، لَا تَدْفَعُونَ عَنْهُمْ وَلَا تَحُولُونَ دُونَهُمْ، فَزَالَتْ عَنْهُمْ الدُّنْيَا، وَانْقَطَعَتْ بِهِنَّ الْأَسْبَابُ، فَاسْلَمْتَهُمْ إِلَى أَعْمَالِهِمْ عِنْدَ الْمَوَاقِفِ وَالْحِسَابِ وَالْعِقَابِ، لِيُجْزَى الَّذِينَ أَسَاءُوا بِمَا عَمِلُوا، وَيُجْزَى الَّذِينَ أَحْسَنُوا بِالْحُسْنَى. إِنَّ أَحْسَنَ الْحَدِيثِ وَأَبْلَغَ الْمَوْعِظَةِ كِتَابُ اللَّهِ، يَقُولُ اللَّهُ عَزَّ وَجَلَّ: "وَإِذَا قُرِئَ الْقُرْآنُ فَاسْتَمِعُوا لَهُ وَأَنْصِتُوا لَعَلَّكُمْ تُرْحَمُونَ" أَعُوذُ بِاللَّهِ الْعَظِيمِ مِنَ الشَّيْطَانِ الرَّجِيمِ، إِنَّهُ هُوَ السَّمِيعُ الْعَلِيمُ. بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ "قُلْ هُوَ اللَّهُ أَحَدٌ. اللَّهُ الصَّمَدُ. لَمْ يَلِدْ. وَلَمْ يُولَدْ. وَلَمْ يَكُنْ لَهُ كُفُوًا أَحَدٌ" أَمْرُكُمْ بِمَا أَمَرَكَ اللَّهُ بِهِ، وَأَهَاكُمْ عَمَّا نَهَاكُمْ اللَّهُ عَنْهُ. وَأَسْتَغْفِرُ اللَّهَ لِي وَلَكُمْ.

خطبة المأمون في يوم الجمعة

الحمد لله مُستخلص الحمد لنفسه، ومُستوجب على خَلقه أحمده وأستعينه، وأؤمن به، وأتوكل عليه، وأشهد أن لا إله إلا الله وحده لا شريك له، وأشهد أن محمداً عبده ورسوله، أرسله بالهدى ودين الحق ليظهره على الدين كله ولو كره المشركون، أوصيكم عباد الله ونفسي بتقوى الله وحده، والعمل لما عنده، والتنجز لوعده، والخوف لوعيدته، فإنه لا يسلم إلا من اتقاه ورجاه، وعمل له وأرضاه. فاتقوا الله عباد الله، وبادروا آجالكم بأعمالكم، وابتاعوا ما يبقى بما يزول عنكم ويفنى، وترحلوا عن الدنيا، فقد جدبكم، واستعدوا للموت فقد اظلمكم، وكُونوا كقوم صبح فيهم فانتبهوا، وعلموا أن الدنيا ليست لهم بدار فاستبدلوا، فإن الله عز وجل لم يخلقكم عبثاً، ولم يترككم سُدى، وما بين أحدكم وبين الجنة والنار إلا الموت أن ينزلى به؛ وإن غاية تنقصها اللحظة، وتهدمها الساعة الواحدة، لجديرة بقصر المدة؛ وإن غائباً يحذوه الجديدان الليل والنهار؛ لجدير بسرعة الأوبة، وإن قادماً يحل بالفوز أو بالشقوة مُستحق لأفضل العدة. فاتقى عبداً ربّه، ونصح نفسه، وقدم توبته، وغلب شهوته؛ فإن أجله مستور عنه، وأمله خادع له، والشيطان موكّل به، يُزيّن له المعصية ليركبها، ويُمنّيه التوبة لیسوّفها، حتى تهجم عليه منيته، أغفل ما يكون عنها. فيالها حسرة على كل ذي غفلة، أن يكون عمره عليه حجة، أو تؤدّيه منيته إلى شقوة. نَسأل الله أن يجعلنا وإياكم ممن لا تُبطره نعمة، ولا تُقصر به عن طاعة ربه غفلة، ولا تُحل به بعد الموت فرجة، إنّه سميع الدعاء، بيده الخير وهو على كل شيء قدير، فعّال لما يريد.

خطبة المأمون يوم الأضحى قالت بعد التكبير والتحميد: إن يومكم هذا يوم أبان الله فضله، وأوجب تشريفه، وعظم حرمة، ووفى له من خلقه صفوته، وابتلى فيه خليله. وفدى فيه بالذبح العظيم نبيه، وجعله حاتم الأيام المعلومات من العشر، ومقدم الأيام المعدودات من التفر، يوم حرام، من أيام عظام، في شهر حرام، يوم الحج الأكبر، يوم دعا الله فيه إلى مشهده، ونزل القرآن العظيم بتعظيمه، قال الله عز وجل: "وأذن في الناس بالحج يأتوك رجالاً وعلى كل ضامر يأتين من كل فج عميق" فتقربوا إلى الله في هذا اليوم بذبائحكم، وعظّموا شعائر الله، واجعلوها من طيب أموالكم، وبصحة التقوى من قلوبكم، فإنه يقول: "الذي ينال الله لحومها ولا دماؤها ولكن يناله التقوى منكم" ثم التكبير والتحميد. والصلاة على النبي صلى الله عليه وسلم، والوصية بالتقوى. ثم ذكر الموت، ثم قال: وما من بعده إلا الجنة أو النار، عظم قدر الدارين، وارتفع جزاء العاملين، وطالت مدة الفريقين. الله؛ فوالله إنه الحد لا اللب، والحق لا الكذب، وما هو إلا الموت والبعث والميزان والحساب والصرّاط والقصاص والثواب والعقاب. فمن نجا يومئذ فقد فاز، ومن هوى يومئذ فقد حاب، الخير كله في الجنة. والشر كله في النار.

خطبة للمأمون في الفطر

قال بعد التكبير والتحميد: ألا وإن يومكم هذا يوم عيد وسنة، وابتهاج ورغبة، يوم ختم الله به صيام شهر رمضان، وافتتح به حج بيته الحرام، فجعله أول أيام شهور الحج، وجعله مُعقباً لمفروض صيامكم، ومُنْتَقِلاً لقيامكم، أحل الله لكم فيه الطعام، وحرّم عليكم فيه الصيام، فاطلبوا إلى الله حوائجكم، واستغفروه لتفريطكم، فإنه يُقال: لا كثير مع ندم واستغفار، ولا قليل مع تَمَادٍ وإصرار. ثم كبر وحمد، وذكر النبي صلى الله عليه وسلم وأوصى بالبر والتقوى، ثم قال: اتقوا الله عباد الله، وبادروا الأمر الذي اعتدل فيه يقينكم، ولم يحضر الشد فيه أحداً منكم، وهو الموت المكتوب عليكم، فإنه لا تُستقال بعده عثرة، ولا تُحظر قبله توبة، واعلموا أنه لا شيء قبله إلا دونه، ولا شيء بعده إلا فوقه، ولا يُعين على جزعه وعَلْزَه وكُربِه، وعلى القبر وظلمته، وضيقه ووحشته، وهول مطلعته، ومسألة ملكيه، إلا العمل الصالح الذي أمر الله به؛ فمن زلت عند الموت قدمه، فقد ظهرت ندامته، وفاتته استقالته، ودعا من الرجعة إلى ما لا يُجاب إليه؛ وبذل من الفدية ما لا يُقبل منه. فالله الله عباد الله، كُونوا قوماً سألوا الرجعة فأعطوها إذ مُنعها الذين طلبوها، فإنه ليس يتمنى المُتقدمون قبلكم إلا هذا الأجل المُبسوط لكم، فاحذروا ما حذركم الله، واتقوا اليوم الذي يجمعكم الله فيه، لوضع موازينكم، ونشر صحفكم، والحفاظة لأعمالكم. فليُنظر عبداً ما يضع في ميزانه مما يُثقل به، وما يُملئ في صحيفته الحفاظة لما عليه وله؛ ألا فقد حكى الله لكم ما قال المُفراطون عندها، إذ طال إعراضهم عنها، قال جل ذكره: "ووضع الكتاب فترى المجرمين مُشفقين مما فيه ويقولون يا ويلتنا ما لهذا الكتاب لا يُعادر صغيرة ولا كبيرة إلا أحصاها ووجدوا ما عملوا ضراً ولا يظلم ربك أحداً" قال: "ووضع الموازين القسط ليوم القيامة فلا تُظلم نفس شيئاً. وإن كان مثقال حبة من خردل أتينا بها وكفى بنا حاسبين" ولست أُنماكم عن الدنيا بأكثر مما تهتمكم به الدنيا عن أنفسها، فإن كل ما بها

يُحَدِّرُ مِنْهَا، وَيَنْهَى عَنْهَا، وَكُلَّ مَا فِيهَا يَدْعُو إِلَى غَيْرِهَا، وَأَعْظَمَ مِمَّا رَأَتْهُ أَعْيُنُكُمْ مِنْ فِجَائِعِهَا وَزَوَالِهَا دَمُّ كِتَابِ اللَّهِ لَهَا وَالنَّهْيُ عَنْهَا، فَإِنَّهُ يَقُولُ تَبَارَكَ وَتَعَالَى: "فَلَا تَعْرَنُكُمْ الْحَيَاةُ الدُّنْيَا وَلَا يَعْزَنُكُمْ بِاللَّهِ الْعُرُورُ" وَقَالَ: "اعْلَمُوا أَنَّ الْحَيَاةَ الدُّنْيَا لَعِبٌ وَلَهْوٌ وَزِينَةٌ وَتَفَاخُزٌ بَيْنَكُمْ وَتَكَاثُرٌ فِي الْأَمْوَالِ وَالْأَوْلَادِ" فَانْتَفَعُوا بِمَعْرِفَتِكُمْ بِهَا. وَيَاخْبَارُ اللَّهِ عَنْهَا. وَاعْلَمُوا أَنَّ قَوْمًا مِنْ عِبَادِ اللَّهِ أَدْرَكْتَهُمْ عِصْمَةُ اللَّهِ فَحَذَرُوا مَصَارِعَهَا، وَجَانَبُوا خَدَائِعَهَا، وَاتَرَوْا طَاعَةَ اللَّهِ فِيهَا، وَأَدْرَكُوا الْجَنَّةَ بِمَا يَتَرَكُونَ مِنْهَا.

خطبة عبد الله بن الزبير حين قام بفتح إفريقية:

قَدِمَ عَبْدُ اللَّهِ بْنُ الزُّبَيْرِ عَلَيَّ عُثْمَانَ بْنَ عَفَّانَ بِفَتْحِ إِفْرِيقِيَّةٍ، فَأَخْبَرَهُ مُشَافِهَةً،

وَقَصَّ عَلَيْهِ كَيْفَ كَانَتْ الْوَقْعَةُ. فَأَعْجَبَ عُثْمَانَ مَا سَمِعَ مِنْهُ، فَقَالَ لَهُ: يَا بَنِي، أَنْتُمْ بِمِثْلِ هَذَا الْكَلَامِ فِي النَّاسِ؟ فَقَالَ: يَا أَمِيرَ الْمُؤْمِنِينَ، أَنَا أَهْيَبُ لَكَ مِنْهُمْ. فَقَامَ عُثْمَانُ فِي النَّاسِ خَطِيبًا فَحَمَدَ اللَّهُ وَأَثْنَى عَلَيْهِ، ثُمَّ قَالَ: أَيُّهَا النَّاسُ، إِنَّ اللَّهَ قَدْ فَتَحَ عَلَيْكُمْ إِفْرِيقِيَّةً، وَهَذَا عَبْدُ اللَّهِ بْنُ الزُّبَيْرِ يُخْبِرُكُمْ خَيْرَهَا إِنْ شَاءَ اللَّهُ. وَكَانَ عَبْدُ اللَّهِ بْنُ الزُّبَيْرِ إِلَى جَانِبِ الْمَنِيرِ، فَقَامَ خَطِيبًا، وَكَانَ أَوَّلَ مَنْ خَطَبَ إِلَى جَانِبِ الْمَنِيرِ، فَقَالَ: الْحَمْدُ لِلَّهِ الَّذِي أَلْفَ بَيْنَ قُلُوبِنَا، وَجَعَلَنَا مَتَحَابِينَ بَعْدَ الْبِعْضَةِ، الَّذِي لَا تُجْحَدُ نِعْمَاؤُهُ، وَلَا يَزُولُ مُلْكُهُ، لَهُ الْحَمْدُ كَمَا حَمَدَ نَفْسَهُ، وَكَمَا هُوَ أَهْلُهُ، انْتَحَبَ مُحَمَّدًا صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ، فَاخْتَارَهُ بَعْلُمَهُ، وَاتَّمَمَهُ عَلَى وَحْيِهِ، وَاخْتَارَ لَهُ مِنَ النَّاسِ أَعْوَانًا، قَدَفَ فِي قُلُوبِهِمْ تَصَدِيقَهُ وَمَحَبَّتَهُ، فَأَمَنُوا بِهِ وَعَزَّ رُوحَهُ وَوَقَرُوهُ، وَجَاهَدُوا فِي اللَّهِ حَقَّ جِهَادِهِ، فَاسْتَشْهَدَ اللَّهُ مِنْهُمْ مَنْ اسْتَشْهَدَ، عَلَى الْمُنْهَاجِ الْوَاضِحِ، وَالْبَيْعِ الرَّابِحِ، وَبَقِيَ مِنْهُمْ مَنْ بَقِيَ، وَلَا تَأْخُذْهُمْ فِي اللَّهِ لَوْمَةٌ لَائِمَةٌ. أَيُّهَا النَّاسُ: رَحِمَكُمُ اللَّهُ؛ إِنَّا خَرَجْنَا لِلْوَجْهِ الَّذِي عَلَّمْتُمْ، فَكُنَّا مَعَ الْوَالِ حَافِظًا، حَفِظَ وَصِيَّةَ أَمِيرِ الْمُؤْمِنِينَ، كَانَ يَسِيرُ بِنَا الْإِبْرَدِينَ، وَيَخْفِضُ بِنَا فِي الظُّهَائِرِ، وَيَتَخَذُ اللَّيْلِ جَمَلًا، يُعْجَلُ الرَّحْلَةَ مِنَ الْمَتَرِ الْجَدْبِ، وَيُطِيلُ اللَّبْثَ فِي الْمَتَرِ الْخِصْبِ، فَلَمْ نَزَلْ عَلَى أَحْسَنِ حَالَةٍ نَعْرِفُهَا مِنْ رَبَّنَا، حَتَّى انْتَهَيْنَا إِلَى إِفْرِيقِيَّةٍ، فَتَرَلْنَا مِنْهَا بِحَيْثُ يَسْمَعُونَ صَهِيلَ الْخَيْلِ، وَرُغَاءَ الْإِبِلِ، وَقَعْقَعَةَ السَّلَاحِ. فَأَقَمْنَا أَيَّامًا نُجَمِّ كُرَاعِنَا، وَنُصَلِّحُ سِلَاحِنَا، ثُمَّ دَعَوْنَاهُمْ إِلَى الْإِسْلَامِ وَالِدُخُولِ فِيهِ، فَأَبْعَدُوا مِنْهُ؛ فَسَأَلْنَاهُمْ الْجِزْيَةَ عَنْ صَعَارٍ، أَوْ الصَّلْحَ، فَكَانَتْ هَذِهِ أَبْعَدَ، فَأَقَمْنَا عَلَيْهِمْ ثَلَاثَ عَشْرَةَ لَيْلَةً نَتَأْتَاهُمْ، وَتَخْتَلِفُ رُسُلُنَا إِلَيْهِمْ. فَلَمَّا يَسَّ مِنْهُمْ، قَامَ خَطِيبًا فَحَمَدَ اللَّهُ، وَأَثْنَى عَلَيْهِ، وَذَكَرَ فَضْلَ الْجِهَادِ، وَمَا لِمُصَاحِبِهِ إِذَا صَبَرَ وَاحْتَسَبَ، ثُمَّ نَهَضْنَا إِلَى عَدُوِّنَا وَقَاتَلْنَاهُمْ أَشَدَّ الْقِتَالِ، يَوْمَنَا ذَلِكَ، وَصَبَرَ فِيهِ الْفَرِيقَانِ، فَكَانَتْ بَيْنَنَا وَبَيْنَهُمْ قِتْلَى كَثِيرَةٌ، وَاسْتَشْهَدَ اللَّهُ فِيهِمْ رِجَالٌ مِنَ الْمُسْلِمِينَ؛ فَبِتْنَا وَبَاتُوا، وَلِلْمُسْلِمِينَ دَوِيٌّ بِالْقُرْآنِ كَدَوِيٌّ النَّحْلِ، وَبَاتَ الْمُشْرِكُونَ فِي خُمُورِهِمْ وَمَلَاعِبِهِمْ، فَلَمَّا أَصْبَحْنَا أَخَذْنَا مَصَافِنَا الَّذِي كُنَّا عَلَيْهِ بِالْأَمْسِ، فَزَحَفَ بَعْضُنَا عَلَى بَعْضٍ، فَأَفْرَغَ اللَّهُ عَلَيْنَا صَبْرَهُ، وَأَنْزَلَ عَلَيْنَا نَصْرَهُ؛ فَفَتَحْنَاهَا مِنْ آخِرِ النَّهَارِ، فَأَصْبَحْنَا غَنَائِمَ كَثِيرَةً، وَفَيْئًا وَاسِعًا، بَلَغَ فِيهِ الْخُمْسُ خَمْسَمِائَةَ أَلْفَ، فَصَفَقَ عَلَيْهَا مَرْوَانَ بْنَ الْحَكَمِ، فَتَرَكْتُ الْمُسْلِمِينَ قَدْ قَرَّتْ أَعْيُنُهُمْ وَأَغْنَاهُمُ التَّقْلُ، وَأَنَا رَسُولُهُمْ إِلَى أَمِيرِ الْمُؤْمِنِينَ أَبْشِرُهُ وَإِيَّاكُمْ بِمَا فَتَحَ اللَّهُ مِنَ الْبِلَادِ، وَأَذَلَّ مِنَ الشَّرِكِ. فَاحْمَدُوا اللَّهَ عِبَادَ اللَّهِ عَلَى آيَاتِهِ، وَمَا أَحَلَّ بِأَعْدَائِهِ، مِنْ بَأْسِهِ الَّذِي لَا يَرُدُّهُ عَنِ الْقَوْمِ الْمُجْرِمِينَ، ثُمَّ سَكَتَ. فَنَهَضَ إِلَيْهِ أَبُوهُ الزُّبَيْرُ فَقَبَّلَ بَيْنَ عَيْنَيْهِ وَقَالَتْ: ذُرِّيَّةُ بَعْضِهَا مِنْ بَعْضٍ وَاللَّهُ سَمِيعٌ عَلِيمٌ، يَا بَنِي: مَا زَالَتْ تَنْطِقُ بِلِسَانِ أَبِي بَكْرٍ حَتَّى صَمَمَتْ.

خطبة عبد الله بن الزبير لما بلغه قتل مصعب

صَعِدَ الْمَنِيرَ فَحَمَدَ اللَّهُ وَأَثْنَى عَلَيْهِ ثُمَّ سَكَتَ، فَجَعَلَ لَوْثُهُ يَجْمَرُ مَرَّةً وَيَصْفَرُ مَرَّةً، فَقَالَ: رَجُلٌ مِنْ قُرَيْشٍ لَرَجُلٍ إِلَى جَانِبِهِ: مَا لَهُ لَا يَتَكَلَّمُ، فَوَاللَّهِ إِنَّهُ لِلْبَيْبِ الْخُطْبَاءُ قَالَ: لَعَلَّهُ يَرِيدُ أَنْ يَذْكَرَ مَقْتَلَ سَيِّدِ الْعَرَبِ فَيَشْتَدُّ ذَلِكَ عَلَيْهِ، وَغَيْرَ مَلُومٍ. ثُمَّ تَكَلَّمَ، فَقَالَ: الْحَمْدُ لِلَّهِ لَهُ الْخَلْقُ وَالْأَمْرُ، وَالدُّنْيَا وَالْآخِرَةُ، يُؤْتِي الْمَلِكَ مَنْ يَشَاءُ، وَيَتَرَعُ الْمَلِكُ مِمَّنْ يَشَاءُ، وَيُعَزُّ مَنْ يَشَاءُ، وَيُذِلُّ مَنْ يَشَاءُ. أَمَّا بَعْدُ: فَإِنَّهُ لَمْ يُعَزِّ اللَّهُ مَنْ كَانَ الْبَاطِلُ مَعَهُ، وَإِنْ كَانَ مَعَهُ الْأَنْامُ طُرًّا، وَلَمْ يُذِلَّ مَنْ كَانَ الْحَقُّ مَعَهُ، وَإِنْ كَانَ فَرْدًا. أَلَا وَإِنْ خَبِرًا مِنَ الْعِرَاقِ أَتَانَا فَأَحْرَنَّا وَأَفْرَحْنَا، وَأَمَّا الَّذِي أَحْرَنَنَا، فَإِنْ لَفِرَاقِ الْحَمِيمِ لَوْعَةً يَجِدُهَا حَمِيمُهُ، ثُمَّ يَرِعُوِي ذُووِ الْأَلْبَابِ إِلَى الصَّبْرِ وَكَرِيمِ الْعِزَاءِ؛ وَأَمَّا الَّذِي أَفْرَحْنَا، فَإِنَّ قَتْلَ مُصْعَبٍ، لَهُ شَهَادَةٌ، وَلَنَا ذَخِيرَةٌ، أَسْلَمَهُ النَّعَامُ الْمُسْلِمُ؛ الْأَذَانُ. أَلَا وَإِنْ أَهْلَ الْعِرَاقِ بَاعُوهُ بِأَقْلٍ مِنَ الثَّمَنِ الَّذِي كَانُوا يَأْخُذُونَ مِنْهُ، فَإِنْ يُقْتَلُ فَقَدْ قُتِلَ أَخُوهُ وَأَبُوهُ وَابْنُ عَمِّهِ، وَكَانُوا الْخِيَارَ الصَّالِحِينَ. إِنَّا وَاللَّهِ لَا يَمُوتُ حَتْفًا وَلَكِنْ

قَعَصاً بِالرَّمَا ح، وَمَوْتَا تَحْتَ ظِلَالِ السُّيُوفِ، لَيْسَ كَمَا تَمُوتُ بَنُو مَرْوَانَ، أَلَا إِنَّمَا الدُّنْيَا عَارِيَّةٌ مِنَ الْمَلِيكِ الْأَعْلَى الَّذِي لَا يَبِيدُ ذِكْرَهُ، وَلَا يَذِلُّ سُلْطَانَهُ، فَإِنْ تُقْبِلِ الدُّنْيَا عَلَيَّ، لَمْ أَخْذْهَا أَخْذَ الْأَشْرِ الْبَطْرِ؛ وَإِنْ تُدْبِرْ عَنِّي، لَمْ أَبْكُ عَلَيْهَا بُكَاءَ الْخَرِقِ الْمُهِينِ، ثُمَّ نَزَلَ.

خطبة زياد البتراء

قال أبو الحسن المدائني عن مسلمة بن محارب بن أبي بكر الهذلي قال: قَدِمَ زِيَادُ الْبَصْرَةَ وَالْيَا مُعَاوِيَةَ بْنَ أَبِي سُفْيَانَ، وَضَمَّ إِلَيْهِ خِرَاسَانَ وَسَجِسْتَانَ، وَالْفَسْتُقُ بِالْبَصْرَةِ ظَاهِرٌ فَاشٍ، فَخَطَبَ خُطْبَةً بَتْرَاءَ لَمْ يَحْمَدِ اللَّهَ فِيهَا. وَقَالَ غَيْرُهُ بَلْ قَالَ: الْحَمْدُ لِلَّهِ عَلَى إِفْضَالِهِ وَإِحْسَانِهِ، وَتَسْأَلُهُ الْمَزِيدَ مِنْ نِعْمِهِ وَإِكْرَامِهِ، اللَّهُمَّ كَمَا زِدْتَنَا نِعْمًا فَأَلْهَمْنَا شُكْرًا، أَمَا بَعْدُ: فَإِنَّ الْجَهَالََةَ الْجَهْلَاءَ، وَالضَّلَالََةَ الْعَمِيَاءَ، وَالْعَمَى الْمُوْبِيَّ بِأَهْلِهِ عَلَى النَّارِ، مَا فِيهِ سُفْهَاءُكُمْ، وَيَشْتَمَلُ عَلَيْهِ حُلَمَاؤُكُمْ، مِنَ الْأُمُورِ الْعِظَامِ؛ يَنْبُتُ فِيهَا الصَّغِيرُ، وَلَا يَتَحَاشَى عَنْهَا الْكَبِيرُ. كَأَنَّكُمْ لَمْ تَقْرَءُوا كِتَابَ اللَّهِ، وَلَمْ تَسْمَعُوا مَا أَعَدَّ اللَّهُ مِنَ الثَّوَابِ بِالْكَرِيمِ لِأَهْلِ طَاعَتِهِ، وَالْعَذَابِ الْعَظِيمِ لِأَهْلِ مَعْصِيَتِهِ، فِي الزَّمَنِ السَّرْمَدِيِّ الَّذِي لَا يَزُولُ؟ أَتَكُونُونَ كَمَنْ طَرَفَتْ عَيْنُهُ الدُّنْيَا، وَسَدَّتْ مَسَامِعَهُ الشَّهَوَاتِ، وَاخْتَارَ الْفَانِيَةَ عَلَى الْبَاقِيَةِ، وَلَا تَذْكُرُونَ أَنَّكُمْ أَحَدْتُمْ فِي الْإِسْلَامِ الْحَدِيثَ الَّذِي لَمْ تُسَبِّقُوا إِلَيْهِ، مَنْ تَرَكَكُمْ هَذِهِ الْمَوَاحِيرَ الْمَنْصُوبَةَ، وَالضَّعِيفَةَ الْمَسْلُوبَةَ، فِي التَّهَارِ الْمُبْصَرِ، وَالْعَدْدُ غَيْرُ قَلِيلٍ. أَلَمْ يَكُنْ مِنْكُمْ نُهَاءُ تَمْنَعُ الْعَوَاةَ عَنْ دَلَجِ اللَّيْلِ وَغَارَةِ النَّهَارِ! قَرَبْتُمْ الْقَرَابَةَ، وَبَاعَدْتُمْ الدِّينَ، تَعْتَذِرُونَ بِغَيْرِ الْعُذْرِ، وَتَعْضُونَ عَلَى الْمُخْتَلِسِ كُلِّ امْرِيٍّ يَذُبُّ عَنْ سَفِيهِهِ، صَنِيعَ مَنْ لَا يَخَافُ عَاقِبَةَ وَلَا يَرْجُو مَعَادًا. مَا أَنْتُمْ بِالْحُلَمَاءِ، وَلَقَدْ اتَّبَعْتُمْ السُّفْهَاءَ، فَلَمْ يَزَلْ بِكُمْ مَا تَرَوْنَ مِنْ قِيَامِكُمْ دُونِهِمْ، حَتَّى اتَّهَكُوا حُرْمَ الْإِسْلَامِ، ثُمَّ أَطْرَقُوا وَرَاءَكُمْ، كُنُوسًا فِي مَكَانِ الرَّيْبِ. حَرَامٌ عَلَيَّ الطَّعَامُ وَالشَّرَابُ حَتَّى أُسْوِيَهَا بِالْأَرْضِ هَدْمًا وَإِحْرَاقًا. إِنِّي رَأَيْتُ أَحْرَهَذَا الْأَمْرَ لَا يَصْلُحُ إِلَّا بِمَا صَلَحَ بِهِ أَوْلَاهُ؛ لَيْتَ يَا غَيْرَ ضَعْفٍ، وَشِدَّةَ فِي غَيْرِ عُنْفٍ؛ وَإِنِّي أَقْسَمُ بِاللَّهِ لَأَخْذَنَ الْوَلِيَّ بِالْمَوْلَى، وَالْمُقِيمَ بِالطَّاعِنِ، وَالْمُقْبِلَ بِالْمُدْبِرِ، وَالصَّحِيحَ بِالسَّقِيمِ، حَتَّى يَلْقَى الرَّحْلَ مِنْكُمْ أَخَاهُ فَيَقُولُ: انْجُ سَعْدُ فَقَدْ هَلَكَ سَعِيدُ، أَوْ تَسْتَقِيمَ لِي قَنَاتِكُمْ. إِنَّ كَذِبَةَ الْأَمِيرِ بِلِقَاءِ مَشْهُورَةٍ، فَإِذَا تَعَلَّقْتُمْ عَلَيَّ بِكَذِبَةٍ فَقَدْ حَلَّتْ لَكُمْ مَعْصِيَتِي. مَنْ نُقِبَ مِنْكُمْ عَلَيَّ فَأَنَا ضَامِنٌ لِمَا ذَهَبَ مِنْهُ، فَيَأْتِي وَدَلَجَ اللَّيْلِ، فَيَأْتِي لَا أُوْبِيَّ. مُمْلِحٌ إِلَّا سَفَكَتْ دَمَهُ، وَقَدْ أُحْلِطْتُمْ فِي ذَلِكَ بِقَدْرِ مَا يَأْتِي الْخَبَرَ الْكُوفَةَ وَيَرْجِعُ إِلَيْكُمْ، وَإِنِّي وَدَعَوِي الْجَاهِلِيَّةِ، فَإِنِّي لَا أَحُدُ أَحَدًا دَعَا بِهَا إِلَّا قَطَعْتُ لِسَانَهُ، وَقَدْ أَحَدْتُمْ أَحَدًا لَمْ تَكُنْ، وَقَدْ أَحَدْتَنَا لِكُلِّ ذَنْبٍ عَقُوبَةٌ، فَمَنْ غَرِقَ قَوْمًا غَرِقْنَا، وَمَنْ أَحْرَقَ قَوْمًا أَحْرَقْنَا، وَمَنْ نَقَبَ بَيْتًا نَقَبْنَا عَنْ قَلْبِهِ، وَمَنْ نَبَشَ قَبْرًا دَفَّنَاهُ فِيهِ حَيًّا، فَكُفُّوا عَنِّي أَلْسِنَتَكُمْ وَأَيْدِيَكُمْ أَكْفَ عَنْكُمْ يَدِي وَلِسَانِي، وَلَا يَطْهَرَنَّ مِنْ أَحَدٍ مِنْكُمْ رِيَّةٌ بِخِلَافِ مَا عَلَيْهِ عَامَتِكُمْ إِلَّا ضَرِبْتُ عُنُقَهُ، وَقَدْ كَانَتْ بَيْنِي وَبَيْنَ قَوْمٍ إِحْنٌ، فَجَعَلْتُ ذَلِكَ دَبْرَ أُذُنِي وَتَحْتِ قَدَمِي، فَمَنْ كَانَ مُحْسِنًا فَلْيَزِدْ فِي إِحْسَانِهِ، وَمَنْ كَانَ مُسِيئًا فَلْيَتَزَعْ عَنِ إِسَاءَتِهِ، إِنِّي لَوْ عَلِمْتُ أَنَّ أَحَدَكُمْ قَدْ قَتَلَ السُّلَّ مِنْ بُغْضِي لَمْ أَكْشِفْ لَهُ قِنَاعًا، وَلَمْ أَهْتِكْ لَهُ سِتْرًا حَتَّى يُبْدِيَ لِي صَفْحَتَهُ، فَإِنْ فَعَلَ ذَلِكَ لَمْ أَنْظُرْهُ. فَاسْتَأْنَفُوا أُمُورَكُمْ، وَاسْتَعِينُوا عَلَيَّ أَنْفُسَكُمْ، فَرَبُّ مَبْتَسٍ بِقَدُومِنَا سَيْسِرٌ، وَمَسْرُورٌ بِقَدُومِنَا سَيْتَسٌ. أَيُّهَا النَّاسُ، إِنَّا أَصْبَحْنَا لَكُمْ سَاسَةً، وَعَنْكُمْ ذَادَةً، تَسُوسُكُمْ بِسُلْطَانِ اللَّهِ الَّذِي أَعْطَانَا، وَتَذُودُ عَنْكُمْ بِفِيءِ اللَّهِ الَّذِي خَوْلَانَا؟ فَلَنَا عَلَيْكُمْ السَّمْعُ وَالطَّاعَةُ فَمَا أَحْبَبْنَا، وَلَكُمْ عَلَيْنَا الْعَدْلُ فَمَا وَلَيْنَا، فَاسْتَوْجِبُوا عَدْلَنَا وَفَيْئَنَا بِمُنَاصِحَتِكُمْ لَنَا. وَاعْلَمُوا أَنِّي مَهْمَا أَقْصَرْتُ فَلَنْ أَقْصَرَ عَنْ ثَلَاثٍ: لَسْتُ مُحْتَجِبًا عَنْ طَالِبِ حَاجَةٍ وَلَوْ أَتَانِي طَارِقًا لَيْلٍ، وَلَا حَابِسًا عَطَاءً وَلَا رِزْقًا عَنْ إِبَانِهِ، وَلَا مُجَمَّرًا لَكُمْ بَعْنًا. فَادْعُوا اللَّهَ بِالصَّلَاحِ لِأَتَمَّتْكُمْ؛ فَإِنَّهُمْ سَاسَتُكُمْ الْمُؤَدِّبُونَ، وَكَهَفُكُمْ الَّذِي إِلَيْهِ تَأْوُونَ، وَمَتَى يَصْلُحُوا تَصْلَحُوا. وَلَا تُشْرَبُوا قُلُوبَكُمْ بِبَعْضِهِمْ فَيَشْتَدَّ لَذَلِكَ أَسْفُكُكُمْ، وَيَطُولُ لَهُ حَزْنُكُمْ وَلَا تُذَرِّكُوا لَهُ حَاجَتَكُمْ، مَعَ أَنَّهُ لَوْ اسْتَجِيبَ لَكُمْ فِيهِمْ لَكَانَ شَرًّا لَكُمْ: أَسْأَلُ اللَّهَ أَنْ يُعِينَ كُلًّا عَلَى كُلِّ. وَإِذَا رَأَيْتُمُونِي أَنْفَذَ فِيكُمْ أَمْرًا فَأَنْفِذُوهُ عَلَى أَذْلَالِهِ وَاتِّمُّوا لِي فِيكُمْ لَصْرَعِي كَثِيرَةً، فَلْيَحْذَرِ كُلَّ امْرِيٍّ مِنْكُمْ أَنْ يَكُونَ مِنْ صَرَعاي، ثُمَّ نَزَلَ.

فَقَامَ إِلَيْهِ عَبْدُ اللَّهِ بْنُ الْأَهْتَمِ، فَقَالَ: أَشْهَدُ أَيُّهَا الْأَمِيرُ لَقَدْ أُوتِيَتْ الْحِكْمَةُ وَفُصِّلَ الْخِطَابُ. فَقَالَ لَهُ كَذَبْتَ، ذَاكَ دَاوُدُ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ. فَقَامَ الْأَحْنَفُ بْنُ قَيْسٍ، فَقَالَ: إِنَّمَا التَّنَاءُ بَعْدَ الْبَلَاءِ، وَالْحَمْدُ بَعْدَ الْعَطَاءِ، وَإِنَّا لَنْ نُثْنِيَ حَتَّى تَبْتَلِي. قَالَ لَهُ زِيَادٌ: صَدَلْتُ. فَقَامَ أَبُو بِلَالٍ، وَهُوَ يَهْمَسُ، وَيَقُولُ:

أبنا الله تعالى بخلاف ما قلت، قال الله تعالى: "وإبراهيمَ الذي وَفَى. أَلَا تَزِرُ وَازِرَةٌ وِزْرَ أُخْرَى. وَأَنْ لَيْسَ لِلْإِنْسَانِ إِلَّا مَا سَعَى" وأنت تزعم أنك تأخذ الصحيح بالسقيم، والمطيع بالعاصي، والمقبل بالمدير، فَسَمِعَهَا زياد، فقال: إنا لا نبليغ ما نريد فيك وفي أصحابك حتى نخوض إليكم الباطل خوفاً.

خطبة لزياد

استوصوا بثلاث منكم خيراً: الشريف والعالم والشيخ، فوالله لا يأتيني شيخٌ يحدث استخفاً به إلا أوجعته، ولا يأتيني عالمٌ جاهل استخف به إلا نكلتُ به، ولا يأتيني شريفٌ بوضع استخف به إلا ضربته.

خطبة لزياد

خطب زياد على المنبر فقال: أيها الناس، لا يمنعكم سوء ما تعلمون عنا أن تتفجعوا بأحسن ما تسمعون منا، فإن الشاعر يقول:

اعمل بقولي وإن قصرتُ في عملي
ينفعك قولي ولا يضرُّك تقصيري

وخطبة لزياد

العُتبي قال: لما شهدتُ الشُّهود لزياد، قام في أعقابهم فَحَمِدَ الله وأثنى عليه، ثم قال: هذا أمر له أشهد أوله، ولا علم لي بآخره، وقد قاد أميرُ المؤمنين ما بلغكم، وشهدتُ الشُّهود بما سمعتم. فالحمد لله الذي رفع منا ما وضع الناس، وحفظ منا ضيَعوا. فأما عبيد، فإنما هو والد مبرور، أو كافل مشكور.

خطبة الجامع المحاربي

وكان شيخاً صالحاً خطيباً لسناً، وهو الذي قال للحجاج حين بنى مدينة واسط: بنيتها في غير بلدك، وأورثتها غير ولدك شكاً للحجاج سوء طاعة أهل العراق، ونقمَ مذهبهم، وتسخطَ طريقتهم، فقال جامع: أما إهم لو أحبوك لأطاعوك، على أهم ما شئووك لنسبك، ولا لبلدك، ولا لذات نفسك؛ فدع عنك ما يُعدهم منك إلى ما يُقرهم إليك، والتمسى العافية ممن دونك تُعطيها ممن فوقك، وليكن إيقاعك بعد وعيك، ووعدك بعد وعدك. قال الحجاج: إني والله ما أرى أن أرد بني اللكية إلى طاعتي إلا بالسيف. قال له: أيها الأمير، إن السيف إذ لاقى السيف ذهب الخيار. قال الحجاج: الخيار يومئذ لله. قال: أجل، ولكن لا تدري لمن يجعله الله. وغضب الحجاج فقال: يا هناه إنك من محارب. فقال جامع:

وللحرب سميناً وكنا محارباً
إذا ما القنا أمسى من الطعن أحمرأ

والبيت للخضري قال الحجاج: والله لقد هممت أن أقطع لسانك فأضرب به وجهك. قال جامع: إن صدقناك أغضبتناك، وإن غششتناك أغضبتنا الله، فغضب الأمير أهون علينا من غضب الله. قال: أجل. وشغل الحجاج ببعض الأمر، فأنسل جامع، فمر بين صفوف خيل الشام حتى جاوزهم إلى خيل أهل العراق - وكان الحجاج لا يخلطهم - فأبصر كبكة فيها جماعة من بكر العراق وقيس العراق وتيمم العراق وأزد العراق، فلما رآوه اشتأبوا إليه وبلغهم خروجه، فقالوا له: ما عندك؟ دافع الله لنا عن نفسك. فقال: ويحكم! عموه بالخلع كما يُعمكم بالعداوة، ودعوا التعادي ما عاداكم، فإذا ظفرتم تراجعتم وتعاديتهم. أيها التميمي، هو أعدى لك من الأزدي، وأيها القيسي، هو أعدى لك من التغلي، وليس يظفر بمن نأواه منكم إلا بمن بقي معه. وهرب جامع من فوره ذلك إلى الشام، فاستجار بزفر بن الحارث.

خطبة للحجاج بن يوسف

خطب الحجاج فقال: اللهم أرني الغي غياً فأحتنبه، وأرني الهدى هدىً فأتبعه، ولا تكلني إلى نفسي فأضل ضلالاً بعيداً. والله ما أحب أن ما مضى من الدنيا لي بعمامي هذه، ولما بقي منها أشبه بما مضى من الماء بالماء.

خطبة للحجاج

قال الهيثم بن عدي: خرج الحجاج بن يوسف يوماً من القصر بالكوفة، فسمع تكبيراً في السوق، فراع ذلك، فصعد المنبر فحمد الله وأثنى عليه، ثم قال: يأهل العراق، يأهل الشقاق والنفاق، ومساوي الأخلاق، وبني اللكيسة، وعبيد العصا، وأولاد الإماء، والفقع بالقرقرة، إني سمعتُ تكبيراً لا يُراد به الله، وإنما يُراد به الشيطان، وإنما منلي ومثلكم ما قال ابن براق الهمداني:

فهل أنا في ذا يا لهمدان ظالمٌ
وأناً حمياً تجتنبك المظالم

وكنتُ إذا قوم غزوني غزوتهم
متى تجمع القلبَ الذكي وصارماً

أما والله لا تُفرع عصاً بعصاي إلا جعلتها كأس الدابر.

خطبة للحجاج بعد دبر الجماحم

خطب أهل العراق فقال: يأهل العراق، إن الشيطان قد استبطنكم فخالط اللحم، الدّم والعصب والمسامع والأطراف والأعضاء والشعاف، ثم أفضى إلى المخاخ والصمّاخ، ثم ارتفع فَعَشَّشَ، ثم باض وقرّخ، فحشاكم شقاقاً ونفاقاً، وأشعركم خلافاً؛ اتخذتموه دليلاً تتبعونه، وقائداً تُطيعونه، ومُؤامراً تُستشرونه. وكيف تنفعكم تجربة، أو تعظّم وقعة، أو يحجزكم إسلام، أو يردّكم إيمان! أستم أصحابي بالأهواز حيث رُمتم المكر، وسعيتم بالعدر، واستجمعتم للكفر وظننتم أن الله يخذل دينه وخلافته، وأنا أرميكم بطرقي وأنتم تتسللون لو إذا وتنهزمون سراعاً، ثم يوم الزاوية وما يوم الزاوية! بما كان فشلكم وتنازُعكم وتخاذلكم، وبراءة الله منكم، ونكوص وليه عنكم؛ إذ وليتم كالإبل الشوارد إلى أوطانها، النوازع إلى أعطائها، لا يسأل المرء منكم عن أخيه، ولا يُلوي الشيخ على بنيه، حتى عَضَّكم السلاح، وقصمتكم الرّماح؛ ثم يوم دبر الجماحم، وما دبر الجماحم! بما كانت المعارك والملاحم، بضرب يُزيل الهام عن مقيله، ويذهل الخليل عن خليله. يأهل العراق، والكفّرات بعد الفجرات، والعدّرات بعد الخنّرات، والتزوات بعد التزوات، إن بعثتكم إلى تُغوركم غلّتم وخنتم، وإن أمنتم أرحفتم، وإن خفتم نافقتهم، لا تذكرون حسنة ولا تشكرون نعمة. يأهل العراق، هل استخفكم ناكث، أو استغواكم غاو، أو استفزكم عاص، أو استنصركم ظالم، أو استعضدكم خالع، إلّا وثقتموه واوَيْتموه وعزّتموه ونصرتموه ورَضيتموه؛ يأهل العراق، هل شَغَبَ شاغِب، أو نعب ناعب، أو دَمَقَ ناعق، أو زفر زافر، إلا كنتم أتباعه وأنصاره؟ يأهل العراق، ألم تنهكم المواعظ، ألم تزجركم الوقائع؟ ثم التفت إلى أهل الشام فقال: يأهل الشام، إنما أنا لكم كالظليم الذابّ عن فراحه، ينثني عنها المدر، ويُباعد عنها الحجر، ويُكنّنها عن المطر، ويحميها من الضباب، ويحرّسها من الذئاب. يأهل الشام، أنتم الجئة والرداء، وأنتم الغدة والحذاء.

خطبة للحجاج

قال مالك بن دينار: غدوت الجمعة فجلست قريباً من المنبر، فصعد الحجاج، ثم قال: امرؤ حاسب نفسه، امرؤ راقب ربه، امرؤ زور عمله، امرؤ فكر فيما يقرؤه غداً في صحيفته، ويراه في ميزانه، امرؤ كان عند همّه ذاكراً، وعند هواه زاجراً، امرؤ أخذ بعنان قلبه كما يأخذ الرجل بخنطام حمله، فإن قاده إلى حق تبعه، وإن قاده إلى معصية الله كفه. إننا والله ما خلقتنا للفناء، وإنما خلقتنا للبقاء، وإنما نتقل من دار إلى دار.

خطبة للحجاج بالبصرة

أتقوا الله ما استطعتم، فهذه لله وفيها مثوبة. ثم قال: واسمعوا واطيعوا، فهذه لعبد الله وخليفة الله وحبيب الله عبد الملك بن مروان. والله لو أمرتُ الناس أن يأخذوا في باب واحد وأخذوا في باب غيره لكانت دماؤهم لي حلالاً من ألفه، ولو قُتل ربيعة ومضر لكان لي حلالاً. عذيري من هذه

الْحَمْرَاءُ، يَرْمِي أَحَدَهُم بِالْحَجَرِ إِلَى السَّمَاءِ وَيَقُولُ: يَكُونُ إِلَى أَنْ يَقَعَ هَذَا خَيْرًا. وَاللَّهُ لِأَجْعَلَنَّهُمْ كَأَمْسِ الدَّابِرِ. عَذِيرِي مِنْ عَبْدٍ، هُذَيْلٌ، إِنَّهُ زَعَمَ أَنَّهُ آمِنٌ عِنْدَ اللَّهِ، يَقْرَأُ الْقُرْآنَ كَأَنَّهُ رَجَزَ الْأَعْرَابِ وَاللَّهُ لَوْ أَدْرَكْتُهُ لَقَتَلْتُهُ.

خطبة للحجاج بالبصرة

حَمِدَ اللَّهُ وَأَثْنَى عَلَيْهِ ثُمَّ قَالَ: إِنَّ اللَّهَ كَفَانَا مَثُونَةَ الدُّنْيَا، وَأَمَرْنَا بِطَلَبِ الْآخِرَةِ، فَلَيْتَ اللَّهُ كَفَانَا مَثُونَةَ الْآخِرَةِ، وَأَمَرْنَا بِطَلَبِ الدُّنْيَا. مَا لِي أَرَى عُلَمَاءَكُمْ يُدْهِنُونَ، وَجُهَالَكُمْ لَا يَتَعَلَّمُونَ، وَشِرَارَكُمْ لَا يَتُوبُونَ! مَا لِي أَرَاكُمْ تَحْرُصُونَ عَلَى مَا كُفَيْتُمْ، تُضَيِّعُونَ مَا بِهِ أَمْرٌ! إِنَّ الْعِلْمَ يُوشِكُ أَنْ يُرْفَعَ، وَرَفْعُهُ ذَهَابُ الْعُلَمَاءِ. أَلَا وَإِنِّي أَعْلَمُ بِشِرَارِكُمْ مِنَ الْبَيْطَارِ بِالْفَرَسِ: الَّذِينَ لَا يَقْرَعُونَ الْقُرْآنَ إِلَّا هُجْرًا، وَلَا يَأْتُونَ الصَّلَاةَ إِلَّا دُبْرًا. أَلَا وَإِنَّ الدُّنْيَا عَرَضٌ حَاضِرٌ، يَأْكُلُ مِنْهَا الْبِرَّ وَالْفَاجِرَ. أَلَا وَإِنَّ الْآخِرَةَ أَجَلٌ مُسْتَأْخِرٌ، يَحْكُمُ فِيهِ مَلِكٌ قَادِرٌ. أَلَا فَاعْمَلُوا وَأَنْتُمْ مِنَ اللَّهِ عَلَى حَذَرٍ، وَاعْلَمُوا أَنَّكُمْ مُلَاقُوهُ، لِيَجْزِيَ الَّذِينَ أَسَاءُوا، بِمَا عَمِلُوا، وَيَجْزِيَ الَّذِينَ أَحْسَنُوا بِالْحُسْنَى. أَلَا وَإِنَّ الْخَيْرَ كُلَّهُ بِحِذَابِيهِ فِي الْجَنَّةِ، أَلَا وَإِنَّ الشَّرَّ كُلَّهُ بِحِذَابِيهِ فِي النَّارِ، أَلَا وَإِنْ مَنْ يَعْمَلُ مِثْقَالَ ذَرَّةٍ خَيْرًا يَرَهُ، وَمَنْ يَعْمَلُ مِثْقَالَ ذَرَّةٍ شَرًّا يَرَهُ، وَأَسْتَغْفِرُ اللَّهَ لِي وَلَكُمْ.

خطبة للحجاج

خَطَبَ الْحَجَّاجُ أَهْلَ الْعِرَاقِ فَقَالَ: يَا أَهْلَ الْعِرَاقِ، إِنِّي لَمْ أَجِدْ لَكُمْ دَوَاءً أَدْوِي لِدَائِكُمْ مِنْ هَذِهِ الْمَغَازِي وَالْبُعُوثِ، لَوْلَا طِيبُ لَيْلَةِ الْإِيَابِ، وَفَرَحَةُ الْقَفْلِ، فَإِنَّمَا تُعْقَبُ رَاحَةٌ؛ وَإِنِّي لَا أُرِيدُ أَنْ أَرَى الْفَرَحَ عِنْدَكُمْ وَلَا الرَّاحَةَ بِكُمْ. وَمَا أَرَاكُمْ إِلَّا كَارْهِينَ لِمَقَالَتِي، وَإِنِّي وَاللَّهِ لَرُؤْيَاكُمْ أَكْرَهُ. وَلَوْلَا مَا أُرِيدُ مِنْ تَنْفِيذِ طَاعَةِ أَمِيرِ الْمُؤْمِنِينَ فِيكُمْ مَا حَمَلْتُ نَفْسِي مُقَاسَاتِكُمْ، وَالصَّبْرَ عَلَيَّ النَّظَرَ إِلَيْكُمْ، وَاللَّهُ أَسْأَلُ حُسْنَ الْعَوْنِ عَلَيْكُمْ، ثُمَّ نَزَلَ.

خطبة للحجاج حين أراد الحج

يَأْهَلُ الْعِرَاقِ، إِنِّي أُرِدْتُ الْحَجَّ، وَقَدْ اسْتَخَلَفْتُ عَلَيْكُمْ ابْنَ مُحَمَّدًا، وَمَا كُنْتُمْ لَهُ بِأَهْلٍ، وَأَوْصِيْتُهُ فِيكُمْ بِخِلَافِ مَا أَوْصَى بِهِ رَسُولُ اللَّهِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ فِي الْأَنْصَارِ؛ فَإِنَّهُ أَوْصَى أَنْ يَقْبَلَ مِنْ مُحْسِنِهِمْ وَيَتَجَاوَزَ عَنْ مُسِيئِهِمْ؟ وَأَنَا أَوْصِيْتُهُ أَنْ لَا يَقْبَلَ مِنْ مُحْسِنِكُمْ وَلَا يَتَجَاوَزَ عَنْ مُسِيئِكُمْ. أَلَا وَإِنَّكُمْ قَائِلُونَ بَعْدِي مَقَالَةً لَا يَمْنَعُكُمْ مِنْ إِظْهَارِهَا إِلَّا خَوْفِي، تَقُولُونَ: لَا أَحْسَنَ اللَّهُ لَهُ الصَّحَابَةَ. وَإِنِّي أَعْجَلُ لَكُمْ الْجَوَابَ: فَلَا أَحْسَنَ اللَّهُ عَلَيْكُمْ الْخِلَافَةَ، ثُمَّ نَزَلَ.

خطبة للحجاج

قَالَ: خَرَجَ الْحَجَّاجُ يَرِيدُ الْعِرَاقَ وَالْيَأْ عَلَيْهِمَا فِي اثْنَيْ عَشَرَ رَاكِبًا عَلَى النَّجَائِبِ، حَتَّى دَخَلَ الْكُوفَةَ حِينَ انْتَشَرَ النَّهَارُ، وَقَدْ كَانَ بَشْرُ بْنُ مَرْوَانَ بَعَثَ الْمُهَلَّبَ إِلَى الْحُرُورِيَّةِ، فَبَدَأَ الْحَجَّاجُ بِالْمَسْجِدِ فَدَخَلَهُ، ثُمَّ صَعِدَ الْمِنْبَرَ وَهُوَ مُلْتَمِّمٌ بِعِمَامَةِ حَمْرَاءَ، فَقَالَ: عَلَيَّ يَا نَاسَ، فَحَسْبُوه وَأَصْحَابِيهِ خَوَارِجَ، فَهَمُّوا بِهِ، حَتَّى إِذَا اجْتَمَعَ النَّاسُ فِي الْمَسْجِدِ قَامَ، ثُمَّ كَشَفَ عَن وَجْهِهِ، ثُمَّ قَالَ:

مَتَى أَضَعُ الْعِمَامَةَ تَعْرِفُونِي

كَنْصَلُ السَّيْفِ وَضَاحِ الْجَبِينِ

وَقَدْ جَاوَزْتُ حُدَّ الْأَرْبَعِينَ

وَنَجَدْنِي مُدَاوِرَةَ الشُّنُونِ

غَدَاةَ الْعَبَاءِ إِلَّا فِي قَرِينِ

أَنَا ابْنُ جَلٍّ أَوْ طَلَاغُ التَّنَائِيَا

صَلِيبِ الْعُودِ مِنْ سَلْفِي رِبَاحِ

وَمَاذَا يَبْتَغِي الشُّعْرَاءُ مِنِّي

أَخُو خَمْسِينَ مُجْتَمَعِ أَشُدِّي

وَإِنِّي لَا يَعُودُ إِلَيَّ قَرْنِي

أما والله إني لا حمل الشرِّ بحمَله، وأحذوه بنَعْلِه، وأجزيه بمثله، وإني لأرى رعوساً قد أُنِعتَ وحنَ قِطافها، وإني لصاحبها، وإني؛ أنظر إلى، الدِّماء بين العمائم واللحي تترقق:

قد شمّرت عن ساقها فشمّري

ثم قال:

قد لفها الليلُ بسوِّاقِ حُطْمٍ
ولابجزارٍ على ظَهْرٍ وَضَمِّ

هذا أو أن الشدَّ فاشتدِّي زِيمِ
ليس براعيِ إبلٍ ولا غنمِ

ثم قال:

أرَوَعُ خَرَّاجٍ مِنَ الدَّوِيِّ

قد لَفَّها اللَّيْلُ بَعَصَلْبِي

مُهَاجِرٍ لَيْسَ بِأَعْرَابِيٍّ

مَا عَلَّنِي وَأَنَا شَيْخٌ إِدِّي

قَدْ شَمَّرْتُ عَنْ سَاقِهَا فَشَدُّوا

مِثْلُ ذِرَاعِ الْبَكْرِ أَوْ أَشَدُّ

وَالْقَوْسُ فِيهَا وَتَرٌّ عُرْدُ

إني والله يأهل العراق، ومعدن الشقاق والنفاق، ومسأوي الأخلاق، لا يُعَمَّرَ حانِي كَنَعَمَازِ التَّيْنِ، ولا يُفَعَّقَعُ لي بالشَّيْثَانِ، ولقد فُرِزْتُ عن ذكاء، وفُتِّشْتُ عن تَجْرِبَةٍ، وأُحْرِيْتُ إلى الغايةِ القُصُويِّ، وإنَّ أميرَ المُؤمِنِينَ نَشَرَ كِنَانَتَهُ بَيْنَ يَدَيْهِ، ثُمَّ عَجَمَ عِيدَانَهَا، فَوَجَدَنِي أَمْرَهَا عُودًا، وَأَشَدَّهَا مَكْسِرًا، فَوَجَّهَنِي إِلَيْكُمْ، وَرَمَاكُمْ بِي، فَإِنَّهُ قَدْ طَالَمَا أَوْضَعْتُمْ فِي الْفِتَنِ، وَسَنَنْتُمْ سُنْنَ الْعَيِّ، وَإِيمَ اللَّهِ لِأَلْحُونِكُمْ لَحْوُ الْعِصَا، وَأَقْرَعْنَكُمْ قَرَعُ الْمَرْوَةِ، وَأَعْصَبْتُمْ عَصَبَ السَّلْمَةِ، وَأَضْرَبْتُمْ ضَرْبَ غَرَائِبِ الْإِبِلِ. أَمَا وَاللَّهِ لَا أَعِدُ إِلَّا وَقَيْتُ، وَلَا أَخْلُقُ إِلَّا فَرَيْتُ. وَإِيَايَ وَهَذِهِ الشَّفْعَاءُ وَالزَّرَافَاتُ وَالْجَمَاعَاتُ، وَقَالًا وَقِيْلًا، وَمَا يَقُولُونَ، وَفِيمَ أَنْتُمْ وَذَلِكَ؟ اللَّهُ لَتَسْتَقِيمُنَّ عَلَى طَرِيقِ الْحَقِّ أَوْ لِأَدْعَنَ لِكُلِّ رَجُلٍ مِنْكُمْ شُغْلًا فِي حَسَدِهِ، مَنْ وَجَدْتُهُ بَعْدَ ثَلَاثَةِ مَنَ بَعَثَ الْمُهَلَّبُ سَفَكَتُ دَمِهِ، وَانْتَهَبَ مَالَهُ، وَهَدَمْتُ مَنَزَلَهُ، فَشَمَّرَ النَّاسُ بِالْخُرُوجِ إِلَى الْمُهَلَّبِ. فَلَمَّا رَأَى الْمُهَلَّبُ ذَلِكَ قَالَ: لَقَدْ وَكَلِيَ الْعِرَاقَ خَيْرٌ ذَكَرَ

خطبة الحجاج فلما مات عبد الملك

قام خطيباً فحمد الله وأثنى عليه ثم قال: أيها الناس، إن الله تبارك وتعالى نعى نبيكم صلى الله عليه وسلم إلى نفسه فقال: "إنك ميتٌ وإنهم ميتون" وقال: "وما محمدٌ إلا رسولٌ قد خلت من قبله الرُّسُلُ أفان مات أو قُتِلَ انقلبتم على أعقابكم" فمات رسولُ الله صلى الله عليه وسلم، ومات الخلفاء الراشدون المهتدون المهديون، منهم أبو بكر، ثم عمر، ثم عثمان الشهيد المظلوم، ثم تبعهم معاوية، ثم وليكم البازل الذُّكْرُ، الذي جَرَّبْتَهُ الْأُمُورَ، وَأَحْكَمْتَهُ التَّجَارِبَ، مَعَ الْفِقْهِ، وَقَرَأْتَ الْقُرْآنَ، وَالْمَرْوَةَ الظَّاهِرَةَ، وَاللَّيْنَ لِأَهْلِ الْحَقِّ، وَالْوَطْءَ لِأَهْلِ الزَّيْغِ، فَكَانَ رَابِعًا مِنَ الْوُلَاءِ الْمُهَيِّدِينَ الرَّاشِدِينَ، فَاحْتَارَ اللَّهُ لَهُ مِمَّا عِنْدَهُ، وَأَلْحَقَهُ بِهِمْ، وَعَهَّدَ إِلَى شَهَةِ فِي الْعَقْلِ وَالْمَرْوَةِ وَالْحَزْمِ وَالْجَلْدِ وَالْقِيَامِ بِأَمْرِ اللَّهِ وَخِلَافَتِهِ، فَاسْمَعُوا لَهُ وَأَطِيعُوا أَيُّهَا النَّاسُ. وَإِيَّاكُمْ وَالزَّيْغَ، فَإِنَّ الزَّيْغَ لَا يَحِيقُ إِلَّا بِأَهْلِهِ. وَرَأَيْتُمْ سِيرَتِي فِيكُمْ، وَعَرَفْتُمْ خِلَافَتَكُمْ، وَقَبِلْتُمْ عَلَيَّ مَعْرِفَتِي بِكُمْ، وَلَوْ عَلِمْتُ أَنَّ أَحَدًا أَقْوَى عَلَيْكُمْ مِنِّي أَوْ أَعْرَفَ بِكُمْ مَا وَكَلَيْتُمْ، فَإِيَايَ وَإِيَّاكُمْ، مَنْ تَكَلَّمَ قَتَلْنَا، وَمَنْ سَكَتَ مَاتَ بِدَائِهِ غَمًّا، ثُمَّ نَزَلَ.

خطبة الحجاج لما أصيب بولده محمد وأخيه محمد:

أيها الناس، محمدان في يوم واحد، أما الله لقد كنت أحبُّ أهما معي في الدنيا، مع ما أرجو لهما من ثواب الله يا الآخرة، وإيم الله، لِيُوشَكِّنَ الْبَاقِي مَنَّا وَمِنْكُمْ أَنْ يَفْنِيَ، وَالْحَدِيدُ مَنَّا وَمِنْكُمْ أَنْ يَبْلَى، وَالْحَيُّ مَنَّا وَمِنْكُمْ أَنْ يَمُوتَ، وَأَنْ تُدَالِ الْأَرْضُ مَنَّا كَمَا أَدَلَّنَا مِنْهَا؛ فَتَأْكُلْ مِنَ الْحَوْمَانَا، وَتَشْرَبَ مِنْ

دمائنا، كما مَشِينَا على ظَهْرهَا، وأَكَلْنَا من ثَمَارِهَا، وشَرَبْنَا من مَائِهَا، ثم يكون كما قال الله: "وَنُفِخَ فِي الصُّورِ فَإِذَا هُم مِنَ الْأَجْدَاثِ إِلَى رَبِّهِمْ يَنْسِلُونَ" ثم تَمَثَّلَ بهذين البيتين:

وَحَسْبِي ثَوَابُ اللَّهِ مِنْ كُلِّ هَالِكٍ

فَإِنْ سُرُّورَ النَّفْسِ فِيمَا هُنَاكَ

عَزَائِي نَبِيَّ اللَّهِ مِنْ كُلِّ مَيِّتٍ

إِذَا مَا لَقِيتُ اللَّهَ عَنِّي رَاضِيًا

خَطَبَ الْحِجَّاجُ فِي يَوْمِ جُمُعَةِ فَأَطَالَ الْجُمُعَةَ، فَقَامَ إِلَيْهِ رَجُلٌ فَقَالَ: إِنَّ الْوَقْتَ لَا يَنْتَظِرُكَ، وَالرَّبُّ لَا يَعَذْرُكَ. فَأَمَرَ بِهِ إِلَى الْحَبْسِ. فَأَتَاهُ آلُ الرَّجُلِ وَقَالُوا: إِنَّهُ مَحْنُونٌ، فَقَالَ: إِنَّ أقرَّ عَلَى نَفْسِهِ بِمَا ذَكَرْتُمْ خَلَيْتُ سَبِيلَهُ. فَقَالَ الرَّجُلُ: لَا وَاللَّهِ، لَا أَرُزَعُمُ أَنَّهُ ابْتِلَانِي وَقَدْ عَافَانِي.

خطبة للحجاج

ذَكَرُوا أَنَّ الْحِجَّاجَ مَرَضَ فَفَرِحَ أَهْلُ الْعِرَاقِ، وَقَالُوا: مَاتَ الْحِجَّاجُ. فَلَمَّا بَلَغَهُ، تَحَامَلَ حَتَّى صَعِدَ الْمَنِيرَ فَقَالَ: يَا أَهْلَ الشَّقَاقِ وَالنَّفَاقِ، نَفِخْ إِبْلِيسُ فِي مَنَاخِرِكُمْ فَقُلْتُمْ: مَاتَ الْحِجَّاجُ، مَاتَ الْحِجَّاجُ. فَمَهْ، وَاللَّهِ مَا أَحَبُّ الْأَمْوَاتِ، وَمَا أَرْجُو الْخَيْرَ كُلَّهُ إِلَّا بَعْدَ الْمَوْتِ، وَمَا رَأَيْتُ اللَّهَ عَزَّ وَجَلَّ كَتَبَ الْخُلُودَ لِأَحَدٍ مِنْ خَلْقِهِ إِلَّا لَهُوَهُمْ عَلَيْهِ، إِبْلِيسُ. وَلَقَدْ رَأَيْتُ الْعَبْدَ الصَّالِحَ سَأَلَ رَبَّهُ وَقَالَ: رَبِّ اغْفِرْ لِي وَهَبْ لِي مُلْكًا لَا يَنْبَغِي لِأَحَدٍ مِنْ بَعْدِي إِنَّكَ أَنْتَ الْوَهَّابُ. فَفَعَلَ، ثُمَّ اضْمَحَلَّ كَأَنَّهُ لَمْ يَكُنْ.

وخطبة للحجاج

خَطَبَ فَقَالَ فِي خُطْبَتِهِ: سَوَّطِي سَيْفِي، وَنِحَادِي عُنُقِي، وَقَائِمِي فِي يَدِي، وَذُبَابِي قِلَادَةٍ لِمَنْ اغْتَرَّبِي. فَقَالَ الْحَسَنُ: يُوسَى لَهَذَا، مَا أَعْرَهَ بِاللَّهِ! وَحَلَفَ رَجُلٌ بِالطَّلَاقِ: إِنَّ الْحِجَّاجَ فِي النَّارِ، ثُمَّ أَتَى زَوْجَتَهُ، فَمَنَعَتْهُ نَفْسَهَا، فَأَتَى ابْنَ شُرَيْمَةَ يَسْتَفْتِيهِ، فَقَالَ: يَا بَنَ أَخِي، امضْ فَكُنْ مَعَ أَهْلِكَ، فَإِنَّ الْحِجَّاجَ إِنْ لَمْ يَكُنْ مِنْ أَهْلِ النَّارِ، فَلَا يَضُرُّكَ أَنْ تَرَى. هَذَا مَا ذَكَرْنَا فِي كِتَابِنَا مِنَ الْخُطْبِ لِلْحِجَّاجِ، وَمَا بَقِيَ مِنْهَا فَهِيَ مُسْتَقْصَاةٌ فِي كِتَابِ الْبَيْتِيَّةِ الثَّانِيَةِ، حَيْثُ ذَكَرْتُ أَحْبَابَ زِيَادِ وَالْحِجَّاجِ، وَإِنَّمَا مَذْهَبُنَا فِي كِتَابِنَا هَذَا أَنْ نَأْخُذَ مِنْ كُلِّ شَيْءٍ أَحْسَنَهُ، وَنَحْذِفَ الْكَثِيرَ الَّذِي يُجْتَرَأُ مِنْهُ بِالْقَلِيلِ.

خطبة نطاهر بن الحسين

لَمَّا افْتَتَحَ مَدِينَةَ السَّلَامِ صَعِدَ الْمَنِيرَ، وَأَحْضَرَ جَمَاعَةً مِنْ بَنِي هَاشِمٍ وَالْقَوَادِ وَغَيْرِهِمْ فَقَالَ: الْحَمْدُ لِلَّهِ مَالِكِ الْمَلِكِ يُؤْتِي الْمُلْكَ مَنْ يَشَاءُ، وَيَتْرَعُ الْمُلْكَ مَنْ يَشَاءُ، وَيُعْزِزُ مَنْ يَشَاءُ، وَيُذِلُّ مَنْ يَشَاءُ، وَلَا يُصْلِحُ عَمَلَ الْمُفْسِدِينَ، وَلَا يَهْدِي كَيْدَ الْخَائِنِينَ. إِنَّ ظُهُورَ غَلْبَتِنَا لَمْ يَكُنْ عَنْ أَيْدِنَا وَلَا كَيْدِنَا، بَلْ اخْتَارَ اللَّهُ لِحِلَافَتِهِ، إِذْ جَعَلَهَا عَمُودًا لِدِينِهِ وَقَوَامًا لِعِبَادِهِ، مِنْ يَسْتَقِلُّ بِأَعْبَائِهَا، وَيَضْطَلِعُ بِجَمَلِهَا.

خطبة لعبد الله بن طاهر

خَطَبَ النَّاسَ وَقَدْ تَبَسَّرَ لِقِتَالِ الْخَوَارِجِ، فَقَالَ: إِنَّكُمْ فِتْنَةُ اللَّهِ الْمُجَاهِدُونَ عَنْ حَقِّهِ، الذَّايُونَ عَنْ دِينِهِ، الذَّايُونَ عَنْ مَحَارِمِهِ، الدَّاعُونَ إِلَى مَا أَمَرَ بِهِ مِنَ الْإِعْتِمَادِ بِحَبْلِهِ، وَالطَّاعَةِ لَوْلَا أَمْرُهُ، الَّذِي جَعَلَهُمْ رِعَاةَ الدِّينِ، وَنِظَامَ الْمُسْلِمِينَ، فَاسْتَنْجِزُوا مَوْعِدَ اللَّهِ وَنَصْرَهُ بِمُجَاهِدَةِ عَدُوِّهِ وَأَهْلِ مَعْصِيَتِهِ، الَّذِينَ أَشْرَوْا وَتَمَرَّدُوا، وَشَقُّوا الْعَصَا، وَفَارَقُوا الْجَمَاعَةَ، وَمَرَقُوا مِنَ الدِّينِ، وَسَعَوْا فِي الْأَرْضِ فِسَادًا، فَإِنَّهُ يَقُولُ تَبَارَكَ وَتَعَالَى: "إِنْ تَنْصَرُوا لِلَّهِ يَنْصُرْكُمْ وَيُثَبِّتْ أَقْدَامَكُمْ" عَفْلِيكُنَّ الصَّبْرُ مَعْقِلُكُمْ الَّذِي إِلَيْهِ تَلْجَثُونَ، وَعُدَّتْكُمْ الَّتِي بِهَا تَسْتَظْهِرُونَ، فَإِنَّهُ الْوَزْرُ الْمُنِيعُ، الَّذِي دَلَّكُمْ اللَّهُ عَلَيْهِ، وَالْجُنَّةُ الْحَصِينَةُ الَّتِي أَمَرَكُمْ اللَّهُ بِلِبَاسِهَا. غَضُّوا أَبْصَارَكُمْ، وَاحْفَتُوا أَصْوَاتَكُمْ فِي مَصَافِكُمْ، وَامضُوا قُدْمًا عَلَى بَصَائِرِكُمْ، فَارْغَبُوا إِلَى ذِكْرِ اللَّهِ، وَالِاسْتِعَانَةَ بِهِ، كَمَا أَمَرَكُمْ اللَّهُ، فَإِنَّهُ يَقُولُ: "إِذَا لَقِيتُمْ فِتْنَةً فَانْتَبِهُوا وَأَذْكُرُوا اللَّهَ كَثِيرًا لَعَلَّكُمْ تُفْلِحُونَ. أَيْدِيكُمْ اللَّهُ بِعِزِّ الصَّبْرِ، وَوَلِيكُمْ بِالْحَيَاةِ وَالنَّصْرِ.

خطبة لقتيبة بن مسلم

قام بخراسان حين خلع سليمان بن عبد الملك، فصعد المنبر فحمد الله وأثنى عليه، ثم قال: أتدرون من ثبايعون؟ إنما ثبايعون يزيد بن مروان - يعني هبنقة القيسي - كأبي بكر، وحكم جائر قد أتاكم يحكمكم في أموالكم ودمائكم وفروجكم وأبشاركم. ثم قال: الأعراب! وما الأعراب! لعن الله الأعراب! جمعتهم كما يجمع فرخ الخزريق من منابت الشَّيح والقيصوم والفلفل، يركبون البقر ويأكلون الهبيد. فحملتهم على الخيل وألبستهم السلاح، حتى منع الله بهم البلاد، وجي بهم الفيء. قالوا: مرنا بأمرك. قال: غرؤا غيري.

خطبة لقتيبة بن مسلم

يأهل العراق، ألسنت أعلم الناس بكم. أما هذا الحي من أهل العالية فتعم الصدقة؛ وأما هذا الحي من بكر بن وائل، فعليحة بظراء لا تمنع رجليها؛ وأما هذا الحي من عبد القيس، فما ضرب العير بذنبه؛ وأما هذا الحي من الأزد، فعلوج خلق الله وأنباطه. وإيم الله، لو ملكت أمر الناس لنقشت أيديهم؛ وأما هذا الحي من تميم، فإنهم كانوا يُسمون العدر في الجاهلية كيسان. وقال الشاعر:

بعيداً فلا يغررك خالك من سعد

إلى الغدر أدنى من شبابهم المرء

إذا كنت من سعد وخالك منهم

إذا ما دعوا كيسان كانت كهولهم

وخطبة لقتيبة بن مسلم

يأهل خراسان، قد حربكم الولاة قبلي، أتاكم أمية فكان كاسمه، أمية الرأي، وأمية الدين، فكتب إلى خليفته: إن خراج خراسان لو كان في مطبخه لم يكفه. ثم أتاكم بعده، أبو سعيد ثلاثاً، لا تدرن أفي طاعة الله أنتم أم في معصيته! ثم لم يجب فينا، ولم يبل عدواً، ثم أتاكم بنوه بعده مثل أطباء الكلبة، منهم ابن دحمة؛ حصان يضرب في عانة؛ لقد كان أبوه يخافه على أمهات أولاده. ثم أصبحتم وقد فتح الله عليكم البلاد، حتى إن الطعينة لتخرج من مرو إلى سمرقند في غير حوار. قوله: أبو سعيد، يريد المهلب بن أبي صفرة، وقوله: ابن دحمة، يريد يزيد بن المهلب.

خطبة ليزيد بن المهلب

حمد الله وأثنى عليه وصلى على النبي صلى الله عليه وسلم ثم قال: أيها الناس، إني أسمع قول الرعاع: قد جاء العباس، قد جاء مسلمة، قد جاء أهل الشام. وما أهل الشام إلا تسعة أسياف، منها سبعة معي، واثان علي؛ وما مسلمة إلا جرادة صفراء؛ وأما العباس، فبسطوس بن بسطوس، أتاكم في بربرة، وصقالبة وجرامقة وأقباط وأنباط وأخلاق، أقبل إليكم الفلاحون والأوباش كأشلاء اللحم، والله ما لقوا قط حذاً كحدكم، ولا حديداً كحديدكم. أعيروني سواعدكم ساعة من نهار، تصفقون بها خراطيمهم، فإنما هي غدوة أو روحة، حتى يحكم الله بيننا وهو خير الحاكمين.

خطبة لقس بن ساعدة الأيادي

ابن عباس قال: قدّم وقد إباد على رسول الله صلى الله عليه وسلم فقال: أيكم يعرف قسي بن ساعدة الإيادي؟ قالوا: كلنا يعرفه. قال: فما فعل؟ قالوا: هلك. قال: ما أنساه بسوق عكاظ في الشهر الحرام على جمل له أحمر وهو يخطب الناس، ويقول: اسمعوا وعوا، من عاش مات، ومن مات فات، وكل ما هو آت آت، إن في السماء لخبراً، وإن في الأرض لعبراً، سحائب تمور، ونجوم تغور، لا فلك يدور، ويُقسم قسق قسماً، إن لله لدينا

هو أرضى من دينكم هذا. ثم قال: مالي أرى الناس يذهبون ولا يرجعون، أرضوا بالإقامة فأقاموا، أم تركوا فناموا، أيكم يروى من شعره؟ فأنشد بعضهم:

ن من القرون لنا بصائر

للموت ليس لها مصادر

يمضي الأكبر والأصغر

يبقى من الباقيين غابر

لما حيث صار القوم صائر

في الذاهبين الأولي

لما رأيت موارد

ورأيت قومي نحوها

لا يرجع الماضي ولا

أيقنت أنني لا محا

خطبة لعائشة أم المؤمنين رحمها الله يوم الجمل:

قالت: أيها الناس، صه صه، إن لي عليكم حرمة الأمانة، وحق الموعظة، لا يتهمني إلا من عمى ربه، مات رسول الله صلى الله عليه وسلم بين سحري ونحري، فأنا إحدى نسائه في الجنة، له ادخري ربي، وخلصني من كل بضع، وبى ميز مؤمنكم من منافقكم، وبى أرخص الله لكم في صعيد الأبواء، ثم أبى ثاني اثنين الله ثالثهما، وأول من سمي صديقاً. مضى رسول الله صلى الله عليه وسلم راضياً عنه، وطوقه أعباء الإمامة، ثم اضطرب حبلى الدين بعده فمسك أبى بطرفيه، ورتق لكم فتق التفاق، وأغاض نبع الردة، وأطفأ ما حشنت يهود، وأنتم يومئذ جحظ العيون، تنظرون العذوة، وتسمعون الصيحة، فرأب الثأى، وأود من الغلظة، وإمتاح من الهوة، حتى اجتحنى دفين الداء، وحتى أعطن الوارد، وأورد الصادر، وعلّ الناهل، فقبضه الله إليه واطأ على هامات التفاق، مذكياً نار الحرب على المشركين، فانتظمت طاعتكم بحبه، فولى أمركم رجلاً مرعياً إذ ركن إليه، بعيداً ما بين اللابتين إذا ضلّ، عركة للأذاة بحبه، صفوحاً عن أذى الجاهلين، يقظان الليل في نصرة الإسلام، فسلك مسلك السابقه، ففرق شمل الفتنة، وجمع أعضاد ما جمع القرآن، وأنا نضب المسألة عن مسيري هذا، لم أتمس إنماً، ولم أؤرث فتنة أوطئكموها. أقول قولي هذا صدقاً وعدلاً، وإعذاراً وإنذاراً، وأسأل الله أن يصلي على محمد وأن يخلفه فيكم بأفضل خلافة المرسلين.

خطبة لعبد الله بن مسعود

أصدق الحديث كتاب الله، وأوثق العرى كلمة التقوى أكرم الملل ملّة إبراهيم صلى الله عليه وسلم. خير السنن سنة محمد صلى الله عليه وسلم، شرّ الأمور محدثاتها، وخير الأمور أوسطها. ما قل وكفى، خير مما كثر وألهى. لنفس تحيبيها خير من إمارة لا تحصيها. خير الغنى غنى النفس. خير ما ألقى في القلب اليقين. الخمر جماع الآثام. النساء حبايل الشيطان. الشبّاب شعبة من الجنون. حب الكفاية مفتاح المعجزة. شرّ الناس من لا يأتي الجماعة إلا دبراً، ولا يذكر الله إلا هجراً سباب المؤمن فسوق، وقتاله كفر، وأكل لحمه معصية. من يتأل على الله يكذبه، ومن يغفر له. مكتوب في ديوان المحسنين: من عفا عني عنه. الشقي شقي في بطن أمه. السعيد من وعظ بغيره. الأمور بعواقبها. ملك الأمر خواتمه. أحسن الهدى هدى الأنبياء. أفيح الضلالة الضلالة بعد الهدى. أشرف الموت الشهادة. من يعرف البلاء ويصبر عليه، ومن لا يعرف البلاء ينكره.

خطبة لعتبة بن غزوان بعد فتح الأبله

حمد الله وأثنى عليه، ثم صلى على النبي صلى الله عليه وسلم، وقال: إن الدنيا قد تولت وقد أذنت أهلها منها بصرم، وإنما بقي منها صباة كصباة الإناء يصطبها صاحبها. أأ وإنكم مفارقوها لا محالة، فارقوها بأحسن ما يحضركم. أأ وإن من العجب أني سمعت رسول الله صلى الله عليه وسلم

يقول: إِنَّ الْحَجَرَ الصَّخْمَ يُرْمَى بِهِ فِي شَقِيرِ جَهَنَّمَ فَيَهْوِي قِي النَّارِ سَبْعِينَ خَرِيفًا، وَلِجَهَنَّمَ سَبْعَةُ أَبْوَابٍ، بَيْنَ كُلِّ بَابَيْنِ مِنْهَا مَسِيرَةٌ خَمْسُمِائَةَ عَامًا، وَلِيَأْتِيَنَّ عَلَيْهَا سَاعَةٌ وَلَهَا كَطَظِظُ بِالزَّحَامِ. وَلَقَدْ كُنْتُ مَعَ رَسُولِ اللَّهِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ سَابِعَ سَبْعَةٍ، مَا لَنَا طَعَامٌ إِلَّا وَرَقُ الْبِشَامِ، حَتَّى قَرِحَتْ أَشْدَاقُنَا، فَوَجَدْتُ أَنَا وَسَعْدُ بْنُ مَالِكٍ تَمْرَةً فَشَقَقْتُهَا بَيْنِي وَبَيْنَهُ نَصْفَيْنِ، وَمَا مِنَّا أَحَدٌ الْيَوْمَ إِلَّا وَهُوَ أَمِيرٌ عَلَى مِصْرَ. أَنَّهُ لَمْ تَكُنْ نَبُوءَةٌ قَطُّ إِلَّا تَنَاسَخَتْ، وَأَنَا أَعُوذُ بِاللَّهِ أَنْ أَكُونَ فِي نَفْسِي عَظِيمًا، وَفِي أَعْيُنِ النَّاسِ صَغِيرًا.

خطبة لعمر بن سعيد الأشرق

لَمَّا عَقِدَ مُعَاوِيَةُ لِيَزِيدَ الْبَيْعَةَ قَامَ النَّاسُ يَخْطُبُونَ، فَقَالَ لِعَمْرٍو بْنِ سَعِيدٍ: قُمْ يَا أَبَا أُمِيَّةَ. فَقَامَ فَحَمِدَ اللَّهَ وَأَثْنَى عَلَيْهِ، ثُمَّ قَالَ: أَمَا بَعْدُ، فَإِنَّ يَزِيدَ بَيْنَ مُعَاوِيَةَ وَأَمَلٍ تَأْمَلُونَهُ، وَأَجَلٍ تَأْمَنُونَهُ، إِنْ اسْتَضَفْتُمْ إِلَى حِلْمِهِ وَسَعَمِكُمْ، وَإِنْ احْتَجَمْتُمْ إِلَى رَأْيِهِ أَرَشِدْكُمْ، وَإِنْ افْتَقَرْتُمْ إِلَى ذَاتِ يَدِهِ أَغْنَاكُمْ؛ جَدَّعَ قَارِحَ، سُوبِقَ فَسَبِقَ، وَمُوجِدَ فَمَجَّدَ، وَقُورِعَ فَفَقَّرِعَ، فَهُوَ خَلْفَ أَمِيرِ الْمُؤْمِنِينَ وَلَا خَلْفَ مِنْهُ. فَقَالَ لَهُ لَهُ مُعَاوِيَةُ: أَوْسَعْتَ أَبَا أُمِيَّةَ، فَاجْلِسْ.

خطبة لعمر بن سعيد بالمدينة

قَالَ أَبُو الْفَضْلِ، الْعَبَّاسُ بْنُ الْفَرَجِ الرَّيَّاشِيُّ: حَدَّثَنَا ابْنُ عَائِشَةَ قَالَ: قَدِمَ عَمْرٍو بْنُ سَعِيدِ بْنِ الْعَاصِ الْأَشْدَقِ الْمَدِينَةَ أَمِيرًا، فَخَرَجَ إِلَى مَنِيرِ رَسُولِ اللَّهِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ، فَقَعَدَ عَلَيْهِ وَعَمَّضَ عَيْنَيْهِ، وَعَلَيْهِ حَبَّةٌ خَزَّرَ قَرْمِزٍ، وَمُطْرَفٌ خَزَّرَ قَرْمِزٍ، وَعِمَامَةٌ خَزَّرَ قَرْمِزٍ. فَجَعَلَ أَهْلُ الْمَدِينَةِ يَنْظُرُونَ إِلَى ثِيَابِهِ إِعْجَابًا بِهَا. فَفَتَحَ عَيْنَيْهِ فِإِذَا النَّاسُ يَنْظُرُونَ إِلَيْهِ، فَقَالَ: مَا بِالْكُفَّاهِ بِأَهْلِ الْمَدِينَةِ تَرَفَعُونَ إِلَيَّ أَبْصَارَكُمْ، كَأَنَّكُمْ تُرِيدُونَ أَنْ تَضْرِبُونَا بِسُيُوفِكُمْ! أَغْرَكُمْ أَنْكُمْ فَعَلْتُمْ مَا فَعَلْتُمْ فَعَفَوْنَا عَنْكُمْ! أَمَا إِنَّهُ لَوْ أُتْبِتُمْ بِالْأُولَى مَا كَانَتْ الثَّانِيَةَ. أَغْرَكُمْ أَنْكُمْ قَتَلْتُمْ عِثْمَانَ فَوَافَقْتُمْ نَائِرَنَا مَنَّا رَفِيقًا، قَدْ فَنِي غَضَبُهُ، وَبَقِيَ حِلْمُهُ! اغْتَنَمُوا أَنْفُسَكُمْ فَقَدَ اللَّهُ مَلِكَنَاكُمْ بِالشَّبَابِ الْمُقْتَبِلِ، الْبَعِيدِ الْأَمَلِ، الطَّوِيلِ الْأَجَلِ، حِينَ فَرَّغَ مِنَ الصَّغَرِ، وَدَخَلَ فِي الْكِبَرِ، حَلِيمِ حَدِيدِ، لَيْسَ شَدِيدِ؛ رَفِيقِ كَثِيفِ، رَفِيقِ عَنِيفِ، حِينَ اشْتَدَّ عَظْمُهُ، وَاعْتَدَلَ جِسْمُهُ؛ وَرَمَى الدَّهْرَ بِبِمَرِهِ، وَاسْتَقْبَلَهُ بِأَشْرِهِ؛ فَهُوَ إِنْ عَضَّ نَهَسَ، وَإِنْ سَطَا فَرَسَ؛ لَا يَلْقُلُ لَهُ الْحَصَى، وَلَا تَقْرَعُ لَهُ الْعَصَا، رَلَا يَمْسُحِي السُّمَّهَى. قَالَ: فَمَا بَقِيَ بَعْدَ ذَلِكَ إِلَّا ثَلَاثَ سِنِينَ وَثَمَانِيَةَ أَشْهُرٍ حَتَّى قَصَمَهُ اللَّهُ.

خطبة لعمر بمكة

الْعُتْبِيُّ قَالَ؟ اسْتَعْمَلَ سَعِيدُ بْنُ الْعَاصِ وَهُوَ وَالِ عَلَى الْمَدِينَةِ ابْنَهُ عَمْرٍو بْنَ سَعِيدِ وَالْيَا عَلَى مَكَّةَ، فَلَمَّا قَدِمَ لَمْ يَلْقَهُ قُرَشِيٌّ وَلَا أُمَوِيٌّ إِلَّا أَنْ يَكُونَ الْحَارِثُ بْنُ تَوْفَلٍ، فَلَمَّا لَقِيَهُ قَالَ لَهُ: يَا حَارِ، مَا الَّذِي مَنَعَ قَوْمَكَ أَنْ يَلْقَوْنِي كَمَا لَقَيْتَنِي؟ قَالَ: مَا مَنَعَهُمْ مِنْ ذَلِكَ إِلَّا مَا اسْتَقْبَلْتَنِي بِهِ، وَاللَّهِ مَا كُنَيْتَنِي وَلَا أْتَمَمْتَ اسْمِي، وَإِنَّمَا أَنْتَهَاكَ عَنِ التَّكْبِيرِ عَلَى أَكْفَانِكَ، فَإِنَّ ذَلِكَ لَا يَرْفَعُكَ عَلَيْهِمْ وَلَا يَضَعُهُمْ لَكَ. قَالَ، وَاللَّهِ مَا أَسَاتَ الْمَوْعِظَةَ وَلَا أَتَمَمْتُكَ عَلَى النَّصِيحَةِ، وَإِنَّ الَّذِي رَأَيْتَ مَنِّي لَخُلُقٍ. فَلَمَّا دَخَلَ مَكَّةَ قَامَ عَلَى الْمَنِيرِ فَحَمِدَ اللَّهَ وَأَثْنَى عَلَيْهِ ثُمَّ قَالَ: أَمَا بَعْدُ، مَعَشَرَ أَهْلِ مَكَّةَ، فَإِنَّا سَكَنَّاهَا حَقِيقَةً، وَخَرَجْنَا عَنْهَا رَغْبَةً، وَكَدَاسِكَ كُنَّا إِذَا رُفِعَتْ لَنَا لُهْوَةٌ بَعْدَ لُهْوَةٍ أَخَذْنَا أَسْنَاهَا وَنَزَلْنَا أَعْلَاهَا؛ ثُمَّ شَدَخَ أَمْرَ أَمْرَيْنِ، فَقَتَلْنَا وَقَتَلْنَا؛ فَوَاللَّهِ مَا نَزَعْنَا وَلَا نُزِعْنَا عَنَّا، حَتَّى شَرِبَ الدَّمُ دَمًا، وَأَكَلَ اللَّحْمَ لَحْمًا، وَقَرَعَ الْعَظْمَ عَظْمًا، فَوَلَّى رَسُولُ اللَّهِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ بِرِسَالَةِ اللَّهِ إِلَيْهِ، وَاسْتَبَارَهُ لَهُ؟ ثُمَّ وَلَّى أَبُو بَكْرٍ لِسَابِقَتِهِ وَفَضْلُهُ؛ ثُمَّ وَلَّى عُمَرُ، ثُمَّ أُجِيلَتْ قِدَاحُ نُزْعِنَ مِنْ شُعْبِ حَوْلِ نَبْعَةٍ، فَفَازَ بِحَظِّهَا أَصْلَبُهَا وَأَعْتَقَهَا، فَكُنَّا بَعْضَ قِدَاحِهَا، ثُمَّ شَدَخَ أَمْرَ بَيْنَ أَمْرَيْنِ، فَقَتَلْنَا وَقَتَلْنَا، فَوَاللَّهِ مَا نَزَعْنَا وَلَا نُزِعْنَا عَنَّا حَتَّى شَرِبَ الدَّمُ دَمًا، وَأَكَلَ اللَّحْمَ لَحْمًا، وَقَرَعَ الْعَظْمَ عَظْمًا، وَعَادَ الْحَرَامُ حَلَالًا، وَأُسْكِتَ كُلُّ ذِي حَسٍّ عَنِ ضَرْبِ مُهَنْدٍ، عَرَكَا عَرَكًا، وَعَسْفًا عَسْفًا، وَوَحْزًا وَنَهْسًا، حَتَّى طَابُوا عَنْ حَقَّنَا نَفْسًا. وَاللَّهِ مَا أَعْطَوْهُ عَنْ هَوَادَةٍ، وَلَا رَضُوا فِيهِ بِالْقَضَاءِ، أَصْبَحُوا يَقُولُونَ: حَقَّنَا غُلْبِنَا عَلَيْهِ، فَجَزَيْنَا هَذَا بِهَذَا وَهَذَا فِي هَذَا. يَا أَهْلَ مَكَّةَ، أَنْفُسَكُمْ أَنْفُسَكُمْ، وَسُفْهَاءَكُمْ سُفْهَاءَكُمْ، فَإِنَّ مَعِيَ سَوَاطِنًا نَكَالًا، وَسَيْفًا وَبَالًا، وَكُلَّ مَصْبُوبٍ عَلَى أَهْلِهِ، ثُمَّ نَزَلَ.

خطبة للأحنف بن قيس

قال بعد حمد الله والثناء عليه: يا معشر الأزد وربيعه، أنتم! إخواننا في الدين، وشركاؤنا في الصهر، وأشقاؤنا في النسب، وجيراننا في الدار، ويدنا على العدو. والله لأزد البصرة أحب إلينا من تميم الكوفة، ولأزد الكوفة أحب إلينا من تميم الشام، فإن استشرى شنانكم، وأبى، حسد صدوركم، ففي أحلامنا وأموالنا سعة لنا ولكم.

خطبة ليوسف بن عمر

قام خطيباً فقال: اتقوا الله عباد الله، فكم مؤملاً أملاً لا يبلغه، وجامع مالا لا يأكله، ومانع، عما سوف يتركه، ولعله من باطل جمعه، ومن حق منعه. أصابه حراماً، وأورثه عدواً حلالاً بم فاحتمل إصره، وباء بوزره، وورد على ربه أسفاً لهفاً، حسر الدنيا والآخرة، ذلك هو الخسران المبين.

خطبة لشداد بن أوس الطائي

حمد الله وأثنى عليه وقال: ألا إن الدنيا عرض حاضر، يأكل منها البر والفاجر. ألا إن الآخرة وعد صادق، يحكم فيها ملك قادر. ألا إن الخير كله بخدايره في الجنة، ألا إن الشر كله بخدايره في النار. فاعملوا ما عملتم وأنتم في يقين من الله، واعلموا أنكم معروضة أعمالكم على الله، فمن يعمل مثقال ذرة خيراً يره، ومن يعمل مثقال ذرة شراً يره، وغفر الله لنا ولكم.

خطبة لخالد بن عبد الله القسري

صعد المنبر يوم الجمعة وهو والي مكة فذكر الحجاج فأحمد طاعته وأثنى عليه خيراً. فلما كان في الجمعة الثانية ورد عليه كتاب سليمان بن عبد الملك يأمره فيه بشتم الحجاج وذكر عيوبه وإظهار البراءة منه. فصعد المنبر فحمد الله وأثنى عليه ثم قال: إن إبليس كان ملكاً من الملائكة، وكان يظهر من طاعة الله ما كانت الملائكة ترى له به فضلاً، وكان الله قد علم من غشيه وخبثه ما خفي على ملائكته فلما أراد الله فضيخته ابتلاه بالسجود لآدم، فظهر لهم ما كان يخفيه عنهم، فلعنوه؟ وإن الحجاج كان يظهر من طاعة أمير المؤمنين ما كنا نرى له به فضلاً، وكان الله قد أطلع أمير المؤمنين من غشيه وخبثه على ما خفي عنا، فلما أراد فضيخته أجرى ذلك على يد أمير المؤمنين، فالعنوه، لعنه الله.

خطبة لمصعب بن الزبير

قدم العراق فصعد المنبر ثم قال: بسم الله الرحمن الرحيم: طسم، تلك آيات الكتاب المبين، تتلو عليك من نبي موسى وفرعون بالحق لقوم يؤمنون. إن فرعون علأ في الأرض وجعل أهلها شيعاً يستضعف، طائفة منهم، يذبح أبناءهم ويستخفي نساءهم إنه كان من المفسدين - وأشار بيده نحو الشام وتريد أن نمن على الذين استضعفوا في الأرض ونجعلهم أئمةً ونجعلهم الوارثين - وأشار بيده نحو الحجاز - ونمكن لهم في الأرض وتري فرعون وهامان وجنودهما منهم ما كانوا يحذرون - وأشار بيده نحو العراق.

خطبة للنعمان بن بشير بالكوفة

قال: إني والله ما وجدت مثلي ومثلكم إلا الضبع والثعلب، أتيا الضب في حجره، فقالا: أبا حسل؟ قال: أجبتهما؟ قال: جئناك نختم؛ قال: في بيته يؤتى الحكم؛ قالت الضبع؛ فتحت عيني؛ قال: فعل النساء فعلت؛ قالت: فلقطت ثمره؛ قال: حلوا اجئتي؛ قالت: فاحتفظها ثعاله؛ قال: لنفسه بغي

الخَيْرُ؛ قالت: فلطمته لطمه؛ قال: حقاً قَصِيْتُ؛ قالت: فَلَطَمَنِي أُخْرَى، قال: كان حُرّاً فانتصر؛ قالت: فاقض الآن بيننا؛ قالت: حَدَّثَ امْرَأَةٌ حَدِيثَيْنِ، فَإِنِ ابْتِ فَارِيعٌ، أَي اسكُتْ.

خطبة شبيب بن شيبية

قيل لبعض الخلفاء إن شبيب بن شيبية يستعمل الكلام ويستعد له، فإن أمرته أن يصعد المنبر لرجوت أن يفتضح. قال: فأمر رسولاً فأخذ بيده إلى المسجد فلم يُبارقه حتى صعد المنبر، فحمد لله وأثنى عليه وصلى على النبي صلى الله عليه وسلم حق الصلاة عليه، ثم قال: ألا إن لأمير المؤمنين أشباهاً أربعة: الأسد الخادر، والبحر الزاخر، والقمر الباهر، والربيع الناضر. فأما الأسد الخادر، فأشبهه منه صولته ومضاءه؛ وأما البحر الزاخر، فأشبهه منه جوده وعطاءه؛ وأما القمر الباهر، فأشبهه منه ثوره وضياءه؛ وأما الربيع الناضر، فأشبهه منه حسنه وبهائه، ثم نزل عن المنبر، وأنشأ يقول:

أُحْمِي الذَّمَّارَ وَتَرْمِينِي بِهِ الْحَدَقُ

إِذَا الرِّجَالُ عَلَى أَمْثَالِهِ زَلَفُوا

وَمَوْقِفٌ مِثْلُ حَدِّ السَّيْفِ قَمَتَ بِهِ

فَمَا زَلَفْتُ وَمَا أَلْفَيْتُ كَاذِبَةً

خطبة لعنبة بن أبي سفيان

بلغه عن أهل مصر شيء فأغضبه، فقام فيهم فقال بعد أن حمد الله وأثنى عليه: يا أهل مصر، إياكم أن تكونوا للسيف حصيداً، فإن الله فيكم ذبيحاً بعثمان، أرجو أن يوليئني الله نُسكته. إن الله جمعكم بأمر المؤمنين بعد الفرقة، فأعطى كل ذي حق حقه، وكان والله أذكركم إذا ذكر بخطه، وأصفحكم بعد المقدرة عن حقه، نعمة من الله فيكم، ومئة منه عليكم. وقد بلغنا عنكم نحم قول أظهره تقدم عفو منا، فلا تصيروا إلى وحشة الباطل بعد أنس الحق، بإحياء الفتن، وإماتة السنن، فأطأكم والله وطأة لا رَمَقَ معها، حتى تُنكروا متي ما كنتم تعرفون، وتستخشنون ما كنتم تستلينون، وأنا أشهد عليكم الذي يعلم خائنة الأعين وما تخفي الصدور.

خطبة لعنبة بن أبي سفيان

يا حاملِي الأم أنوف رُكِبَتْ بين أعين، إتما قَلَمْتُ أظفاري عنكم ليلين مَسِيَّ إياكم، وسألتكم صلاحكم إذ كان فسادك! راجعاً عليكم، فأما إذ أبيئتم إلَّا الطَّعْنَ عَلَى الوَلَاةِ، وَالتَّنْقِصَ لِلسَّلَفِ، فوالله لا قطعن على ظهوركم بطون السباط، فإن حَسَمْتُ داءكم، وإلَّا فالسيفُ من ورائكم. ولستُ أبخلُ عليكم بالعقوبة إذا جُدْتُمْ لَنَا بِالْمَعْصِيَةِ، وَلَا أُوَيْسِكُمْ مِنْ مُرَاجَعَةِ الحُسْنَى إِنْ صِرْتُمْ إِلَى الَّتِي هِيَ أَيْرُ وَأَتْقَى.

خطبة لعنبة بن أبي سفيان

لما اشتكى شكاته التي مات فيها تحامل إلى المنبر، فقال: يا أهل مصر، لا غنى عن الرب، ولا مهرب من ذنب! إنه قد تقدمت مني إليكم عقوبات كنت أرجو يومئذ الأجر فيها، وأنا أخاف اليوم الوزر منها، فليتني لا أكون اخترتُ ذنباي على معادي، فأصلحتكم بفسادي. وأنا أستغفر الله منكم، وأتوب إليه فيكم؛ فقد خفتُ ما كنتُ أرجو نفعاً عليه، ورجوتُ ما كنتُ أخاف اغتيالاً به، وقد شقي من هلك بين رحمة الله وعقوبته، والسلام عليكم سلام من لا ترؤنه عائداً إليكم. قال: فلم يعد.

وخطبة لعنبة

العُتْبِيُّ: قال سعد القَصر: احتبستُ عَنَّا كُتُبُ معاوية بن أبي سُفيان حتى أَرَجَفَ أهلُ مِصرَ بموتِهِ، ثم قَدِمَ علينا كتابُهُ بِسلامته، فَصَعِدَ عُتْبَةُ المُنْبِرَ والكتابُ في يده، فَحَمِدَ اللهَ وأثنى عليه، ثم قال: يا أهلَ مِصرَ، قد طالَت مُعابِتِنَا إِيَّاكُم بِأَطْرَافِ الرِّمَاحِ، وَظُبَاتِ السُّيُوفِ، حتى صِرْنَا شَجِيًّا فِي لَهَوَاتِكُم ما تُسِيغُهُ حُلُوقُكُم، وَأَقْدَاءً فِي أَعْيُنِكُم ما تَطْرِفُ عليها جُفُونُكُم. أَفحِينَ اشْتَدَّتْ عَرَى الحَقِّ عَلَيْكُم عَقْدًا، واسترخت عُقْدُ الباطلِ عنكُم حَلًّا، أَرَجَفْتُم بِالخَلِيفَةِ، وَأَرَدْتُم تَهْوِينَ الخِلافةِ، وَخَضْتُم الحَقَّ إلى الباطلِ، وَأَقْدَمْتُم عَهْدَكُم به حَدِيثَ، فَارْجَحُوا أَنْفُسَكُم إِذْ خَسِرْتُم دِينَكُم، فهذا كتابُ أميرِ المؤمنِينَ بالخَيْبَرِ السَّارِّ عنه والعَهْدِ القَرِيبِ منه، واعلموا أن سُلطاننا على أبدانِكُم دون قلوبِكُم، فأصْلِحُوا لنا ما ظَهَرَ وَنَكَلِكُم إلى اللهِ فيما بَطَنَ، واطْهَرُوا خَيْرًا وَإِنْ أَضْمَرْتُم شَرًّا، فَإِنَّكُم حاصِدُونَ ما أَنْتُم زارِعُونَ، وعلى اللهِ أَتَوَكَّلُ وبه أَسْتَعِينُ. ثم نزل.

خطبة لعتبة في الموسم

سعد القَصر مولى عُتْبَةَ بن أبي سُفيان قالت: دَفَعَ عُتْبَةَ بن أبي سُفيان بِالْمَوْسِمِ سَنَةَ إِحْدَى وأربعين، والناسُ حَدِيثُ عَهْدُهُم بِالْفِتْنَةِ، فقال بعد أن حَمَدَ اللهَ وأثنى عليه: إنا قد وَلِينَا هذا المَقامَ الَّذِي يَضاعِفُ اللهُ فِيهِ لِلْمُحْسِنِينَ الأجرَ، ولِلْمُسِيئِينَ الوِزْرَ، وَنَحْنُ على طَرِيقِ ما قَصَدْنَا له، فلا تَمُدُّوا الأَعناقَ إلى غَيْرِنَا، فَإِذَا تَنقَطَعَ مِنْ دُونِنَا، وَرُبَّ مُتَمَنَّ، حَتْفُهُ فِي أُمْنِيَّتِهِ. اقبِلونا ما قَبَلْنَا العافيةَ فِيكُم وَقَبَلْنَاها مِنْكُم، وإِيَّاكُم وَلَوْ، فَإِنْ لَوْ قَدْ أَتَعَبْتَ مَنْ قَبَلَكُم ولم تُرِحْ مَنْ بَعَدَكُم، فَاسْأَلِ اللهُ أَنْ يُعِينَ كلاً على كلِّ.

فناداه أعرابيٌّ من ناحية المسجد: أيها الخليفة، قال: لستُ به ولم تُبْعِدْ؛ فقال: يا أخاه؛ فقال: سمعتُ قُفْلَ؛ فقال: واللهِ لأن تُحَسِنُوا وقد أسأنا خَيْرٌ لَكُم من أن تُسِيئُوا وقد أحسنا، فإن كان الإحسان لَكُم فما أحقَّكُم بِاستِمامِهِ، وإن كان لنا فما أحقَّكُم بِمُكافَأَتِنَا؛ رجل من بني عامر بن صَعْصَعَةَ يَتَلَقَّكُم بِالْعُمُومَةِ، وَيَخْتَصُّ إِلَيْكُم بِالْحُؤُولَةِ، وقد كَثُرَ عِيالُهُ، ووَطَنُهُ زمانُهُ، وبه فَقرٌ، وفيه أجرٌ، وعنده شُكْرٌ. فقال عُتْبَةُ: أَسْتَغْفِرُ اللهُ مِنْكُم، وأسأله العونَ عَلَيْكُم، ولد أمرت لك بِغناك، فليتَ إِسْرَاعًا إِلَيْكِ يَقومُ بِإِطائِنَا عَنكَ.

خطبة لعتبة بن أبي سفيان

سعد القَصر قال: وَجَّهَ عُتْبَةَ بن أبي سُفيان ابنَ أَخِي أَبِي الأَعورِ السُّلَمِيِّ إلى مِصرَ، فَمَنَعُوهُ الخِراجَ، فَقدمَ عليه عُتْبَةُ فقامَ خَطيبًا فقال: يا أهلَ مِصرَ، قد كُنْتُمْ تَعْتَدِرُونَ لِبَعْضِ المَنعِ مِنْكُم بَعْضَ الجُورِ عَلَيْكُم، فقد وَليَكُم مَنْ يَقولُ وَيَفْعَلُ، وَيَفْعَلُ وَيَقولُ، فَإِنْ رَدَدْتُم رَدَّكُم بِيَدِهِ، وَإِنْ اسْتَصَعَبْتُم رَدَّكُم بِسَيْفِهِ، ثم رجا في الأخر ما أمل في الأوَّل. إن البَيْعَةَ مُشايِعَةٌ، فلنا عَلَيْكُم السَّمْعَ والطاعةَ، ولكم علينا العَدْلَ، فأينا غَدَرَ فلا ذِمَّةَ له عند صاحبه، واللهِ ما انطلقتُ بِها ألسُنُنَا حتى عقدت عليها قلوبُنَا، ولا طَلَبْنَاها مِنْكُم حتى بذلناها لَكُم نَاجزًا بناجِزًا، ومن حَذَرَ كَمَنَ بَشَّرَ. قال: فنادوه: سَمِعًا وطاعةً، فناداهم. عَدْلًا عَدْلًا.

خطبة لعتبة

قَدِمَ كتابُ معاوية إلى عُتْبَةَ بِمِصرَ: إِنَّ قَبْلَكَ قَوْمًا يَطْعَنُونَ على الوِلاةِ، وَيَعْيَبُونَ السُّلْفَ. فَخَطَبَهُم فقال: يا أهلَ مِصرَ، خَفَّ على ألسنتِكُم مَدْحُ الحَقِّ ولا تَفْعَلُونَهُ، وَدَمَّ الباطلُ وَأَنْتُمْ تَأْتُونَهُ، كالحِمَارِ يَحْمِلُ أَسفارًا، وَأَثْقَلَهُ حَمْلُها، ولم يَنْفَعَهُ عِلْمُها، وإِيمَ اللهُ، لا أَدَاوِيكُم بالسَيْفِ ما صَلَحْتُم على السُّوطِ، ولا أَبْلِغُ بالسُّوطِ ما كَفَتْنِي الدَّرَّةُ، ولا أَبْطِى عن الأوَّلِ ما لم تُسْرِعُوا إلى الأخرى، فالزموا ما أمركم اللهُ به تَسْتَوْجِبُوا ما فَرَضَ اللهُ لَكُم علينا، وإِيَّاكُم وقال ويقول، قبل أن يُقالَ فَعَلَ وَيَفْعَلُ، وَكُونُوا خَيْرَ قَوْسٍ سَهْمًا، فهذا اليوم الَّذِي ليس قَبْلَهُ عِقَابٌ، ولا بَعْدَهُ عِتَابٌ.

خطب الخوارج

خطبة قطري بن الفجاءة في ذم الدنيا

صعد قطري بن الفجاءة منبر الأزارقة، وهم أحد بني مازن بن عمرو بن تميم، فحمد الله وأثنى عليه، ثم قال: أما بعد، فإنني أحذركم الدنيا، فإنها حلوة خضرة، حُفَّت بالشهوات، وراقت بالقليل، وتحيبت بالعاجلة، وغمرت بالآمال، وتَحَلَّت بالأمان، وأزَّيْنَت بالغرور، لا تدوم حضرتها، ولا تؤمن فجعنتها، عَدَّارَةٌ ضَرَّارَةٌ، وحائلة زائلة، وناقدة بائدة، لا تعدو إذا هي تنهت إلى أمانة أهل الرغبة فيها والرضا عنها أن تكون كما قال الله عز وجل: "كَمَا أَنْزَلْنَاهُ مِنَ السَّمَاءِ فَاخْتَلَطَ بِهِ نَبَاتُ الْأَرْضِ فَأَصْبَحَ هَشِيمًا تَذْرُوهُ الرِّيَّاحُ وَكَانَ اللَّهُ عَلَيَّ كُلِّ شَيْءٍ مُقْتَدِرًا" مع أن أمرًا لم يكن منها في حبرة إلا أعقبته بعدها عبرة، ولم يلق من سرَّائها بطنًا إلا منحتة من ضرائها ظهراً، ولم تطله منها ديمة رخاء، إلا هطلت عليه مزنة بلاء؛ وحري إذا أصبحت له مُتَصِرَةٌ أن تُنْسِي له حاذلة مُتَنَكِّرَةٌ، وإن جانب منها اعذوذب واحلولى، أمر عليه منها جانب فأوبى، وإن ليس امرؤ من غضارتها ورفاهيتها نعماً، أرهقت من نوائها غمًا، ولم يُنس امرؤ منها في جناح أمن، إلا أصبح منها على قوادم خوف. غرارة غرور ما فيها، فانية فإن ما عليها، لا خير في شيء من زادها إلا التقوى، من أقل منها استكثر مما يؤمنه، ومن استكثر منها استكثر مما يُوبقه. كم واثق بها قد فجعته، وذي طمائية إليها قد صرَعته، وكم من ذي، اختيال فيها قد خدَعته، وكم من، ذي أمله فيها قد صيرته حقيراً، وذي نخوة فيها قد رذته ذليلاً، وذي تاج قد كَبَّته لليدين والقم. سلطاطها دُول، وعيشها رنق، وعذبها أحاج، وحلوهَا مُرٌّ،

وغذاؤها سِمام، وأسبابها رِمام، وقطافها سَلَع. حَيْثُهَا بَعْرَضُ مَوْت، وصحيحها بَعْرَضُ سُقْم، ومِنَعِيهَا بَعْرَضُ اهْتِضَام. مَلِيكِيهَا مَسْلُوب، وعزيرها مَغْلُوب، وصحيحها وسليمها مَنكُوب، وحائزها وجامعها مَحْرُوب، مع أن من وراء ذلك سكرات الموت وزفرائه، وهول المطلع، والوقوف بين يدي الحَكَمِ العَدْل، ليَجْزِي الذين أساءوا بما عملوا وَيَجْزِي الذين أحسنوا بالحسنى. أَلَسْتُمْ فِي مَسَاكِنٍ مِنْ كَانَ مِنْكُمْ أَطْوَلُ أَعْمَارًا، وَأَوْضَحُ آثَارًا، وَأَعْدَّ عَدِيدًا، وَأَكْتَفَى جُنُودًا، وَأَعَمَدَ عَتَادًا، وَأَصُولَ عِمَادًا! تُعْبِدُوا لِلدُّنْيَا أَيَّ تَعْبُدُ، وَأَتْرُوهَا أَيَّ إِثَار، وَظَعَنُوا عَنْهَا بِالْكَرْهِ وَالصَّغَار! فَهَلْ بَلَّغَكُمْ أَنَّ الدُّنْيَا سَمَحَتْ لِمَنْ نَفْسًا بِفِدْيَةٍ، وَأَعْتَتْ عَنْهُمْ فِيمَا قَدْ أَمَلْتُمْ بِهِ بِحَطْب! بَلْ أَتَقَلَّتْهُمُ بِالْفَوَادِحِ، وَضَعُضْتَهُمْ بِالنَوَائِبِ، وَعَفَرْتَهُمْ لِلْمَنَاخِرِ، وَأَعَانَتْ عَلَيْهِمْ رَبِّبَ الْمَنُونِ، وَأَرْهَقَتْهُمْ بِالْمَصَائِبِ. وَقَدْ رَأَيْتُمْ تَنْكُرُهَا لِمَنْ دَانَ لَهَا وَأَثَرَهَا وَأَحْتَلَدَ إِلَيْهَا، حَتَّى ظَعَنُوا عَنْهَا لِفِرَاقِ الْأَبَدِ، إِلَى آخِرِ الْأَمَدِ. هَلْ زَوَّدْتُمْ إِلَّا الشَّقَاءَ، وَأَحْتَتُمْ إِلَّا الصَّنْكَ، أَوْ نَوَّرْتُمْ لِمَنْ إِلَّا بِالظُّلْمَةِ، وَأَعَقَبْتُمْ إِلَّا النَّدَامَةَ! أَفَهَذِهِ تَوَثُّرُونَ، أَوْ عَلَى هَذِهِ تَحْرُصُونَ، أَوْ إِلَيْهَا تَطْمَئِنُّونَ! يَقُولُهُ اللَّهُ تَبَارَكَ وَتَعَالَى: "مَنْ كَانَ يُرِيدَ الْحَيَاةَ الدُّنْيَا وَزِينَتَهَا نُوَفِّ إِلَيْهِمْ أَعْمَالَهُمْ فِيهَا وَهُمْ فِيهَا لَا يُبْخَسُونَ. أُولَئِكَ الَّذِينَ لَيْسَ لَهُمْ فِي الْآخِرَةِ إِلَّا النَّارُ وَحَبِطَ مَا صَنَعُوا فِيهَا وَبَاطِلٌ مَا كَانُوا يَعْمَلُونَ" فبئس الدار لمن لم يتهمها، ولم يكن فيها على وحل منها. اعلموا، وأنتم تعلمون، أنكم تاركوها لا بد، فإنما هي كما نَعَتَ اللَّهُ عَزَّ وَجَلَّ: "لَعِبٌ وَلَهْوٌ وَزِينَةٌ وَتَفَاخُرٌ بَيْنَكُمْ وَتَكَاثُرٌ فِي الْأَمْوَالِ وَالْأَوْلَادِ" فَاتَّعِظُوا فِيهَا بِالَّذِينَ قَالَ اللَّهُ تَعَالَى فِيهِمْ: أَتَبْنُونَ بِكُلِّ رِيعٍ آيَةً تَعْبَثُونَ. وَتَتَّخِذُونَ مَصَانِعَ لَعَلَّكُمْ تَخْلُدُونَ وبالذين قالوا: مَنْ أَشَدُّ مَنَاقِةً. وَاتَّعِظُوا. مَنْ رَأَيْتُمْ مِنْ إِخْوَانِكُمْ كَيْفَ حُمِلُوا إِلَى قُبُورِهِمْ، فَلَا يُدْعُونَ رُكْبَانًا، وَانزَلُوا الْأَحْدَاثَ فَلَا يُدْعُونَ ضَيْفَانًا، وَجُعِلَ لَهُمْ مِنَ الضَّرِيحِ أَكْنَان، وَمِنَ التَّرَابِ أَكْفَان، وَمِنَ الرِّقَاتِ جِيرَان، فَهَمَّ حَيْرَةٌ لَا يُجِيبُونَ دَاعِيًا، وَلَا يَمْنَعُونَ ضَيْمًا. إِنْ أَحْصَبُوا لَمْ يَفْرَحُوا، وَإِنْ فَحِطُوا لَمْ يَقْتَضُوا، جَمْعٌ وَهُمْ أَحَاد، حَيْرَةٌ وَهُمْ أَبْعَاد، مُتَنَاعُونَ يُزَارُونَ وَلَا يَزُورُونَ، حُلَمَاءٌ قَدْ ذَهَبَتْ أَضْغَاثُهُمْ، وَجَهْلَاءٌ قَدْ مَاتَ أَحْقَادُهُمْ، لَا يُخْشَى فَجَعُهُمْ، وَلَا يُرْجَى دَفْعُهُمْ، وَهُمْ! كَمَنْ لَمْ يَكُنْ. قَالَ اللَّهُ تَعَالَى: "قَتَلْتُكَ مَسَاكُنَهُمْ لَمْ تُسْكَنْ مِنْ بَعْدِهِمْ إِلَّا قَلِيلًا وَكُنَّا نَحْنُ الْوَارِثِينَ" اسْتَبَدَلُوا بظَهْرِ الْأَرْضِ بطنًا، وبالسَّعَةِ ضيقًا، وبالآلِ غربة، وبالنُّورِ ظُلْمَةً، فجاءوها حُفَاةً عُرَاةً فَرَادَى، غَيْرَ أَنْ ظَعَنُوا بِأَعْمَالِهِمْ إِلَى الْحَيَاةِ الدَّائِمَةِ، إِلَى خُلُودِ الْأَبَدِ. يَقُولُ اللَّهُ تَبَارَكَ وَتَعَالَى: كَمَا بَدَأْنَا أَوَّلَ خَلْقٍ نَعِيدُهُ وَعَدًّا عَلَيْنَا إِنَّا كُنَّا فَاعِلِينَ. فَاحْذَرُوا مَا حَذَّرَكُمُ اللَّهُ، وَاتَّقُوا جَمَاعَتَهُ، وَاعْتَصِمُوا بِحَبْلِ اللَّهِ، وَعَصَمْنَا اللَّهُ وَإِيَّاكُمْ بِطَاعَتِهِ، وَرَزَقْنَا وَإِيَّاكُمْ أَدَاءَ حَقِّهِ، ثُمَّ نَزَلَ.

خطبة لأبي حمزة بمكة

خطبهم أبو حمزة الشَّارِي بمكة. فَصَعَدَ الْمِنْبَرَ مَتَوَكِّنًا عَلَى قَوْسِ عَرَبِيَّةٍ، فَحَطَبَ خُطْبَةً طَوِيلَةً، ثُمَّ قَالَ: يَا هَلُمَّ مَكَّةَ، تُعَيِّرُونِي بِأَصْحَابِي، تَزْعُمُونَ أَنَّهُمْ شَبَابٌ، وَهَلْ كَانَ أَصْحَابُ رَسُولِ اللَّهِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ إِلَّا شَبَابًا! نَعَمْ الشَّبَابُ مُكْتَهَلِينَ، عَمِيَّةٌ عَنِ الشَّرِّ أَعْيُنُهُمْ، بَطِيئَةٌ عَنِ الْبَاطِلِ أَرْجُلُهُمْ. قَدْ نَظَرَ اللَّهُ إِلَيْهِمْ فِي آنَاءِ اللَّيْلِ مُنْشِئَةً أَصْلَابَهُمْ بِمَثَانِي الْقُرْآنِ، إِذَا مَرَّ أَحَدُهُمْ بِآيَةٍ فِيهَا ذِكْرُ الْحَيَّةِ بِكَيْ شَوْقًا إِلَيْهَا، وَإِذَا مَرَّ بِآيَةٍ فِيهَا ذِكْرُ النَّارِ شَهَقَ شَهَقَةً

كأن زفير جهنم في أذنيه. قد وصلوا كلال ليلهم بكلال نهارهم، أنضاء عبادة، قد أكلت الأرض جباههم وأيديهم وركبهم. مُصنفة ألوانهم، ناحلة أجسامهم، من كثرة الصيام، وطول القيام، مُستقلون لذلك في جنب الله، موفون بعهد الله، مستنجزون لوعد الله. إذا رأوا سهام العدو قد فوّقت، ورماحه قد أشرعت، وسيوفه قد انتصيت، وبرقت الكتبية وزعدت بصواعق الموت، استهانوا بوعيد الكتيبة لوعد الله، فمضي الشاب منهم قدماً حتى تختلف رجلاه على عنق فرسه، قد رُمّلت محاسن وجهه بالدماء، وعُمر جبينه بالثرى، وأسرع إليه سباع الأرض، وانحطت عليه طير السماء، فكم من مقلّة في منقار طائر، طالما بكى صاحبها من خشية الله؛ وكم من كفّ بنت عن معصمها، طالما اعتمد عليها صاحبها في سجوده؛ وكم من خدّ عتيق، وجبين رقيق، قد فلق بعمد الحديد. رحمة الله على تلك الأبدان، وأدخل أرواحها في الجنان. ثم قال: الناس منا ونحن منهم إلا عابداً وثناً، أو كفره أهل الكتاب، أو إماماً جائراً، أو شاذاً على عضده.

خطبة لأبي حمزة بالمدينة

قال مالك بن أنس رحمه الله: خطبنا أبو حمزة خطبة شكك فيها المستبصر وردت المرتاب، قال: أوصيكم بتقوى الله وطاعته، والعمل بكتابه وسنة نبيه صلى الله عليه وسلم، وصلية الرحم، وتَعْظيم ما صَعَّرت الجبايرة من حق الله، وتَصْغِير ما عَظَّمت من الباطل، وإماتة ما أحيوا من الجور، وإحياء ما أماتوا من الحقوق، وأن يُطاع الله ويُعمى العباد في طاعته، فالطاعة لله ولأهل طاعة الله، ولا طاعة لمخلوق في معصية الخالق. ندعوكم إلى كتاب الله وسنة نبيه، والقسم بالسوية، والعدل في الرعية، ووضع الأحماس في مواضعها التي أمر الله بها. وإنا والله ما خرجنا أشراً ولا بطراً ولا لهواً ولا لعباً، ولا لدولة مُلك نريد أن نخوض فيه، ولا لثأرٍ قد نبيل متناً؛ ولكن لما رأينا الأرض قد أظلمت، ومعالم الجور قد ظهرت، وكثر الادعاء في الدين، وعمل بالهوى، وعظمت الأحكام، وقتل القائم بالقسط، وعنف القائل بالحق، وسمعنا مُنادياً ينادي إلى الحق وإلى طريق مُستقيم، فأجبتنا داعي الله، فأقبلنا من قبائل شتى، قليلين مُستضعفين في الأرض، فأوانا الله وأيدنا بنصره، فأصبحنا بنعمته إخواناً، وعلى الذين أعواناً. يأهل المدينة، أو لُكم خير أول، وأحرکم شرّ آخر، إنكم أظعتم قراءكم وفقهاءكم فاختانواكم عن كتاب غير ذي عوج، بتأويل الجاهلين، وانتحال المبتلين، فأصبحتم عن الحق ناكبين، أمواتاً غير أحياء وما تشعرون. يأهل المدينة، يا أبناء المهاجرين والأنصار والذين اتبعوهم بإحسان، ما أصح أصلكم، وأسقم فرعكم! كان آباؤكم أهل اليقين وأهل المعرفة بالدين، والبصائر النافذة، والقلوب الواعية، وأنتم أهل الضلالة والجهالة، استعبدتكم الدنيا فاذتلكم، والأماي فأضفتكم، فتح الله لكم باب الدين فأفسدتموه، وأغلق عنكم باب الدنيا ففتحتتموه، سراع إلى الفتن، بطاء عن السنة، عُمي عن البرهان، صم عن العرفان، عبید الطمع، حلفاء الجزع. نعم ما ورثكم آباؤكم لو حفظتموه، وبئس ما ثورثون أبناءكم إن تمسكوا به. نصر الله آباءكم على الحق، وخذلكم على الباطل. كان عدد آباءكم قليلاً طيباً، وعددكم كثيراً خبيثاً. اتبعتم الهوى فأرداكم، وأللهو فأسهاكم، ومواعظ القرآن تزجركم فلا تزددجرون، وتعبّركم فلا تتعبرون. سألناكم عن ولاتكم هؤلاء فقلتم: والله ما فيهم الذي يعدل، أخذوا المال من غير حلقه فوضعوه في غير حقه، وجازوا في الحكم فحكّموا بغير ما أنزل الله، واستأثروا بفيننا فجعلوه دولة بين الأغنياء منهم، وجعلوا مَقاسمنا وحقوقنا في مهر النساء، وفروج الإماء. وقلنا لكم تعالوا إلى هؤلاء الذين ظلمونا وظلموكم وجاروا في الحكم فحكّموا بغير ما أنزل الله؛ فقلتم لا نقوى على ذلك ووددنا أننا أصبنا من يكفيننا؛ فقلنا: نحن نكفيكم، ثم الله راع علينا وعليكم، إن ظفّرنا لنعطين كل ذي حقه. فجننا فاتقينا الرّماح بصُدورنا، والسيوف بوجوهنا، فعرضتم لنا دوهم، فقائلتمونا، فأبعدكم الله! فوالله لو قلتم لا نعرف الذي تقول ولا نعلمه لكان أَعذر، مع أنه لا عذر للجاهل؛ ولكن أبي الله إلا أن ينطق بالحق على ألسنتكم ويأخذكم به في الآخرة. ثم قال: الناس منا ونحن منهم إلا ثلاثة: حاكماً جاء بغير ما أنزل الله، أو مُتبعاً له، أو راضياً بعمله. أسقطننا من هذه الخطبة ما كان من طعنه على الخلفاء؛ فإنه طعن فيها على عثمان وعلي بن أبي طالب، رضوان الله عليهما، وعمر بن عبد العزيز. ولم يترك من جميع الخلفاء إلا أبا بكر وعمر، وكفر من بعدهما، فلعن الله عليه. إلا أنه ذكر من الخلفاء رجلاً أصغى إلى الملاحى والمعازف، وأضاع أمر الرعية، فقال: كان فلان بن فلان من عدد الخلفاء عندكم، وهو مُضَيِّع للدين والدنيا. اشترى له بُردين بألف دينار، اتزّز بأحدهما والتحف بالآخر، وأفعد حباية عن يمينه وسلامته عن يساره! فقال: يا حباية غنّيني يا سلامة اسقيني، فإذا امتلأ سُكراً أو ازدهى طرباً شقّ ثوبيه وقال: ألا أطير؟ فطير إلى النار وبئس المصير. فهذه صفة خلفاء الله تعالى!

وخطبة لأبي حمزة

أما بعد، فإنك في ناشيءِ فتنَةٍ، وقائمِ ضلالةٍ، قد طال جُثومها، واشتدت عليك هُمومها، وتلوت مصايد عدوِّ الله منها وما نصَّبَ من الشَّرِكِ لأهلِ العَقْلَةِ عمَّا في عواقبها. يَهْدُ عمودها، ولن يترع أوتادها، إلا الذي بيده مُلْكُ الأشياءِ، وهو الرَّحْمَنُ الرَّحِيمُ. ألا وإنَّ اللهَ بقايا من عباده لم يَتَحَيَّرُوا في ظَلَمِها، ولم يُشايِعُوا أهلها على شَبهها، مصابيحُ النَّورِ في أفواههم تزهو، وألسنتهم مُجَجِّجُ الكِتَابِ تُنطقُ، رَكِبُوا مَنهَجَ السَّبِيلِ، وقاموا على العَلَمِ الأعظمِ. هم خصما الشيطان الرَّجِيمِ، بهم يَصْلُحُ اللهُ البلادَ، ويُدْفَعُ عن العبادِ. طوبى لهم وللمستصحين بنورهم، وأسألُ اللهَ أن يجعلنا منهم.

من أرتج عليه في خطبته

أولُ حُطْبَةٍ خطبها عثمان بن عفان أرتج عليه، فقال: أيها الناس، إنَّ أوَّلَ كُلِّ مَرَكَبٍ صعب، وإنَّ أعشَ تَأْتِكُمُ الخُطْبَةُ على وَجْهها، وسيَجْعَلُ اللهُ بعدَ عُسْرٍ يسراً إن شاء اللهُ. ولما قَدِمَ يزيد بن أبي سفيان الشام والياً عليها لأبي بكر، خطب الناس فأرتج عليه، فعاد إلى حمدِ اللهِ، ثم أرتج عليه، فعاد إلى الحمد، ثم أرتج عليه، فقال: يأهل الشام، عسى اللهُ أن يجعل بعد عسرٍ يسراً، وبعد عيٍّ بياناً، وأنتم إلى إمامٍ فاعلٍ أحوَجُ منكم إلى إمامٍ قائلٍ، ثم نزل. فبلغ ذلك عمرو بن العاص فاستحسنه. صعد ثابتُ قُطْنَةَ مَنبَرِ سَجِسْتَانَ، فقال: الحمد لله، ثم أرتج عليه، فترل وهو يقول:

بَسِيفِي إِذَا جَدَّ الوَغَى لَخَطِيبُ

فَإِنْ لَا أَكُنْ فِيهِمْ خَطِيباً فَإِنِّي

فَقِيلَ لَهُ: لَوْ قُتِلَتْهَا فَوْقَ المَنبَرِ لَكُنْتَ أَحَطَبَ النَّاسِ.

وخطب معاوية بن أبي سفيان لما ولى فَحَصِرَ، فقال: أيها الناس، إنِّي كُنْتُ أَعْدَدْتُ مَقَالاً أَقُومُ بِهِ فِيكُمْ فَحُجِبْتُ عَنْهُ، فَإِنَّ اللهَ يَحُولُ بَيْنَ المَرءِ وَقَلْبِهِ، كَمَا قَالَ فِي كِتَابِهِ، وَأَنْتُمْ إِلَى إمامٍ عَدَلٍ أَحْوَجُ مِنْكُمْ إِلَى إمامٍ خَطِيبٍ، وَإِنِّي أَمْرُكُمْ بِمَا أَمَرَ اللهُ بِهِ وَرَسُولُهُ، أَهْمَاكُمْ عَمَّا هَمَّاكُمْ اللهُ وَرَسُولُهُ، وَأَسْتَغْفِرُ اللهُ لِي وَلَكُمْ. وصعدَ خالد بن عبد الله القسري المنبر: فأرتج عليه، فمكثَ ملياً لا يتكلم، ثم هَمَّأَ له الكلامَ، فتكلم فقال: أما بعد، فإن هذا الكلام يجيء أحياناً، وَيَعزُبُ أحياناً، فيسيح عند مجيئه سبيبه، ويعز عند عزوبه طلبه، ولربما كوبر فأبي، وعوَجُ فَنَأَى، فالتأني لجيئه خير من التعاطي لأبيه، وتركه عند تنكره أفضل من طلبه عند تعذره، وقد يرتج على البليغ لسأئه، ويختلج من الجريء جنائمه، وسأعود فأقول إن شاء اللهُ. صعدَ أبو العنبر منبراً من منابر الطائف، فَحَمِدَ اللهُ وَأَتَى عليه، ثم قال: أما بعد، فأرتج عليه، فقال: أتدرون ما أريد أن أقول لكم؟ قالوا: لا؛ قال: فما يَنْفَعُكُمْ ما أريد أن أقول لكم، ثم نزل. فلما كان في الجمعة الثانية صعد المنبر وقال: أما بعد، فأرتج عليه، فقال: أتدرون ما أريد أن أقول لكم؟ قالوا: نعم؛ قال: فما حاجتكم إلى أن أقول لكم ما علمتم، ثم نزل. فلما كانت الجمعة الثالثة قال: أما بعد، فأرتج عليه، قال: أتدرون ما أريد أن أقول لكم؟ قالوا: بعضنا يدري وبعضنا لا يدري؛ قال: فليخبر الذي يدري منكم الذي لا يدري، ثم نزل. وأتى رجلٌ من بني هاشم اليمامة، فلما صعد المنبر أرتج عليه، فقال: حيَّا اللهُ هذه الوجوهَ وجعلني فداها، قد أمرت طائفي بالليل أن لا يرى أحداً إلا أتاني به، وإن كنت أنا هو، ثم نزل. وكان خالد بن عبد الله إذا تكلم يظن الناس أنه يصنع الكلام لعدوِّه لبلاغته منقطعاً، فبينما هو يخطب يوماً إذ وقعت جرادة على ثوبه، فقال: سُبْحَانَ مَنْ الجرادُ مِنْ خلقه، أدمج قوائمها وطرفها وجناحيها، وسلطها على مَنْ هو أعظم منها. خطبَ عبد الله بن عامر بالبصرة في يوم أضحى، فأرتج عليه، فمكث ساعة ثم قال: والله لا أجمع عليكم عيًّا ولؤماً، من أخذ شاةً من السوق فهي له وثمانها عليّ. قيل لعبد الملك بن مروان: عجل عليك المشيب يا أمير المؤمنين. فقال: كيف لا يعجل وأنا أعرض عقلي على الناس في كل جمعة مرة أو مرتين.

خطب النكاح

خطب عثمان بن عتبة بن أبي سفيان إلى عتبة بن أبي سفيان ابنته. فأقعدته على فخذه، وكان حدثاً، فقال: أقرَّبُ قَرِيبَ خَطْبِ أَحِبِّ حَبِيبٍ، لا أستطيع له رداً، ولا أجد من إسعافه بدءاً، قد زوجتكها وأنت أعزُّ علي منها، وهي ألصقٌ بقلبي منك، فأكرمها يعذب على لساني ذكرك، ولا تُهنئها فيصغرُ عندي قدرُك، وقد قرَّبْتُكَ مع قُرْبِكَ، فلا تبعد قلبي من قلبك.

خطبة نكاح

العُتبي قال: زوج شبيب بن شيبه ابنه بنت سَوَّار القاضي، فقلنا: اليوم يُعَبُّ عُباهه. فلما اجتمعوا، تكلم فقال: الحمد لله، وصلى الله على رسول الله. أما بعد، فإن المعرفة منا ومنكم وبنا وبكم تمنعنا من الإكثار، وإن فلاناً ذكر فلانة.

وخطبة نكاح

العُتبي قال: كان الحسن البصري يقول في خطبة النكاح بعد الحمد لله والثناء عليه: أما بعد، فإن الله جمع بهذا النكاح الأرحام المنقطعة، والأنساب المتفرقة، وجعل ذلك في سنة من دينه، ومنهاج من أمره. وقد خطب إليكم فلان، وعليه من الله نعمة، وهو يبدل من الصداق كذا، فاستخبروا الله ورُدُّوا خيراً يرحمكم الله.

خطبة نكاح

العُتبي قال: حضرت ابن الفقير خطب على نفسه امرأة من باهلة فقال:

ولكن أخلاقاً تدم وتمدح

وما حسن أن يمدح المرء نفسه

وإن فلانة ذكرت لي.

وخطبة نكاح

العُتبي قال: يُستحب للخاطب إطالة الكلام، وللمخطوب إليه تقصيره. فخطب محمد بن الوليد إلى عمر بن العزيز أخته، فتكلم محمد بكلام طويل. فأجابه عمر: الحمد لله ذي الكبرياء، وصلى الله على محمد خاتم الأنبياء. أما بعد، فإن الرغبة منك دعوتك إلينا، والرغبة فيك أجابتك منا، وقد أحسن بك ظناً من أودعك كريمته، واختارك ولم يختار عليك، وقد زوجتكها على كتاب الله، إمساكاً بمعروف أو تسريحاً بإحسان.

خطبة نكاح

خطب بلال إلى قوم من خثعم لنفسه ولأخيه، فحمد الله وأثنى عليه، ثم قال: أنا بلال وهذا أخي: كنا ضالين فهدانا الله، عبدَيْن فاعتقنا الله، فقيرين فأغنانا الله، فإن تزوجونا فالحمد لله، وإن ترُدُّونا فالمستعان الله. وقال عبد الملك بن مروان لعمر بن عبد العزيز: قد زوجك أمير المؤمنين ابنته فاطمة. قال: جزاك الله يا أمير المؤمنين خيراً، فقد أجزلت العطية، وكفيت المسألة.

نكاح العبد

الأصمعي قال: زوج خالد بن صفوان عبده من أمته، فقال له العبد: لو دعوت الناس وخطبت! قال: ادعهم أنت. فدعاهم العبد، فلما اجتمعوا تكلم خالد بن صفوان، فقال: إن الله أعظم وأجل من أن يُذكر في نكاح هذين الكلبين، وأنا أشهدكم أي زوجت هذه الزانية من هذا ابن الزانية.

خطب الأعراب

الأصمعي قال: خطب أعرابي فقال: أما بعد، فإن الدنيا دار ممر، والآخرة دار مقر، فخذوا من ممركم لمقركم، ولا تهتكوا أستاركم عند من لا تخفى عليه أسراركم، واخرجوا من الدنيا قلوبكم قبل أن تخرج منها أبدانكم، ففيها حبيبتكم، ولغيرها خلقتكم؛ اليوم عمل بلا حساب، وغداً حساب بلا

عَمَل. إِنَّ الرَّجُلَ إِذَا هَلَكَ قَالَ النَّاسُ: مَا تَرَكَ؟ وَقَالَتِ الْمَلَائِكَةُ: مَا قَدَّمَ؟ فَقَدَّمُوا بَعْضًا، يَكُونُ لَكُمْ قَرَضًا، وَلَا تَتْرَكُوا كَلْمًا فَيَكُونُ عَلَيْكُمْ كَلًّا. أَقُولُ قَوْلِي هَذَا وَالْمَحْمُودُ اللَّهُ، وَالْمُصَلَّى عَلَيْهِ مُحَمَّدٌ، وَالْمَدْعُو لَهُ الْخَلِيفَةُ، ثُمَّ إِمَامُكُمْ جَعْفَرٌ، قُومُوا إِلَى صَلَاتِكُمْ.

خطبة لأعرابي

الحمد لله الحميد المستحمد، وصلى الله على النبي محمد، أما بعد، فإن التعمق في ارتجال الخطب لممكن، والكلام لا يثنى حتى يثنى عنه، والله تبارك وتعالى لا يدرك واصف كنه صفته، ولا يبلغ خطيب منتهى مدحته، له الحمد كما مدح نفسه، فانهضوا إلى صلواتكم، ثم نزل فضلي.

خطبة أعرابي لقومه

الحمد لله، وصلى الله على النبي المصطفى وعلى جميع الأنبياء. ما أقبح بمثلي أن ينهى عن أمر ويرتكبه، ويأمر بشيء ويحْتَنِبُه، وقد قال الأول:

قَدَّمَ أَنْ يَلُومَكَ مَنْ تَلُومُ

وَدَعَّ مَا لُمْتَ صَاحِبَهُ عَلَيْهِ

أَلْهَمْنَا اللَّهُ وَإِيَّاكُمْ تَقْوَاهُ، وَالْعَمَلَ بَرِضَاهُ .

وفي الأم زيادة من غير أصلها، فأوردتها كهيتها، وهي خطبة لعلي كرم الله وجهه أوردت في هذه المجتبة تلو خطبة المأمون يوم عيد الفطر: جاء رجل إلى علي كرم الله وجهه فقال: يا أمير المؤمنين، صِفْ لَنَا رَبَّنَا لِتُرَادَ لَهُ مَحَبَّةٌ، وَبِهِ مَعْرِفَةٌ. فغضب علي كرم الله وجهه، ثم نادى: الصلاة جامعة. فاجتمع الناس إليه حتى غص المسجد بأهله، ثم صعد المنبر وهو مُغْضَبٌ مُتَغَيِّرُ اللَّوْنِ، فَحَمَدَ اللَّهَ وَأَثْنَى عَلَيْهِ بِمَا هُوَ أَهْلُهُ، ثُمَّ صَلَّى عَلَى النَّبِيِّ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ، ثُمَّ قَالَ: الْحَمْدُ لِلَّهِ الَّذِي لَا يُعْزِهُ الْمَنْعُ، وَلَا يُكْذِبُهُ الْإِعْطَاءُ، بَلْ كُلُّ مُعْطٍ يَنْقُصُ سِوَاهُ، هُوَ الْمَنَّانُ بِفَرَاغِ النَّعْمِ، وَعَوَائِدُ الْمُرِيدِ، وَبُجُودُهُ ضَمِنَتْ عِيَالَةَ الْخَلْقِ، وَنُهَجَ سَبِيلُ الْطَلْبِ لِلرَّاعِبِينَ إِلَيْهِ. وَلَيْسَ بِمَا يُسْأَلُ أَحْوَدَ مِنْهُ بِمَا لَا يُسْأَلُ، وَمَا اخْتَلَفَ عَلَيْهِ ذَهْرٌ فَتَخْتَلَفَ فِيهِ حَالٌ، وَلَوْ وَهَبَ مَا انشَقَّتْ عَنْهُ مَعَادِنُ الْجِبَالِ، وَضَحِكَتْ عَنْهُ أَصْدَافُ الْبِحَارِ، مِنْ فَلَذِ اللَّجِينِ، وَسِبَائِكِ الْعِقْيَانِ، وَشَذْرِ الدَّرِّ، وَحَصِيدِ الْمَرْجَانِ، لِبَعْضِ عِبَادِهِ، مَا أَثَرَ ذَلِكَ فِي مُلْكِهِ وَلَا فِي جُودِهِ، وَلَا أَنْفَدَ ذَلِكَ سَعَةً مَا عِنْدَهُ. فَعِنْدَهُ مِنَ الْأَفْضَالِ مَا لَا يُنْفِدُهُ مَطْلَبٌ وَسُؤَالٌ، وَلَا يَخْطُرُ لَكُمْ عَلَى بَالٍ؛ لِأَنَّهُ الْجَوَادُ الَّذِي لَا تَنْقُصُهُ الْمَوَاهِبُ، وَلَا يُرِمُهُ إِحَاخُ الْمَلْحِينِ بِالْحَوَائِجِ، إِتْمَا أَمْرُهُ إِذَا أَرَادَ شَيْئًا أَنْ يَقُولَ لَهُ كُنْ فَيَكُونُ. فَمَا ظَنُّكُمْ بِمَنْ هُوَ هَكَذَا وَلَا هَكَذَا غَيْرُهُ؟ سَبْحَانَهُ وَبِحَمْدِهِ! أَيُّهَا السَّائِلُ، اعْقِلْ مَا سَأَلْتَنِي عَنْهُ، وَلَا تَسْأَلْ أَحَدًا بَعْدِي، فَإِنِّي أَكْفِيكَ مَوْنَةَ الطَّلِبِ، وَشِدَّةَ التَّعَمُّقِ فِي الْمَذْهَبِ. وَكَيْفَ يُوصَفُ الَّذِي سَأَلْتَنِي عَنْهُ، وَهُوَ الَّذِي عَجَزَتْ عَنْهُ الْمَلَائِكَةُ، عَلَى قُرْبِهِمْ مِنْ كَرْسِيِّ كِرَامَتِهِ، وَطُولِ وَلَهْمِ إِلَيْهِ، وَتَعْظِيمِهِمْ جَلَالَ عِزَّتِهِ، وَقُرْبِهِمْ مِنْ غَيْبِ مَلِكُوتِهِ، أَنْ يَعْلَمُوا مِنْ عِلْمِهِ إِلَّا مَا عَلَّمَهُمْ، وَهُمْ مِنْ مَلِكُوتِ الْعَرْشِ بَحِيثٌ هَمٌّ، وَمِنْ مَعْرِفَتِهِ عَلَى مَا فَطَرَهُمْ عَلَيْهِ، فَقَالُوا: سُبْحَانَكَ لَا عِلْمَ لَنَا إِلَّا مَا عَلَّمْتَنَا إِنَّكَ أَنْتَ الْعَلِيمُ الْحَكِيمُ. فَمَدَحَ اللَّهُ اعْتِرَافَهُمْ بِالْعَجْزِ عَمَّا لَمْ يُحِيطُوا بِهِ عِلْمًا، وَسَمَّى تَرْكَهُمُ التَّعَمُّقَ فِيمَا لَمْ يُكَلِّفَهُمُ الْبَحْثَ عَنْهُ رُسُوحًا. فَاقْتَصِرْ عَلَى هَذَا، وَلَا تَقْدِرْ عِظْمَةَ اللَّهِ عَلَى قَدْرِ عَقْلِكَ، فَتَكُونَ مِنَ الْهَالِكِينَ. وَاعْلَمْ أَنَّ اللَّهَ الَّذِي لَمْ يَخْذُلْ فِيمَكُنْ فِيهِ التَّغْيِيرُ وَالِانْتِقَالُ، وَلَمْ يَتَغَيَّرْ فِي ذَاتِهِ بِمَرُورِ الْأَحْوَالِ، وَلَمْ يَخْتَلَفْ عَلَيْهِ تَعَاقُبُ الْأَيَّامِ وَاللَّيَالِي، هُوَ الَّذِي خَلَقَ الْخَلْقَ عَلَى غَيْرِ مِثَالِ أَمْتَلِهِ، وَلَا مِقْدَارِ احْتِدَى عَلَيْهِ مِنْ خَالِقٍ كَانَ قَبْلَهُ؛ بَلَى أَرَأْنَا مِنْ مَلِكُوتِ قُدْرَتِهِ، وَعَجَائِبِ رُبُوبِيَّتِهِ، مِمَّا نَطَقَتْ بِهِ آثَارُ حِكْمَتِهِ، وَاضْطِرَارِ الْحَاجَةِ مِنَ الْخَلْقِ إِلَى أَنْ يُفَهِّمَهُمْ مَبْلَغَ قُوَّتِهِ، مَا دَلَّنَا بِقِيَامِ الْحُجَّةِ لَهُ بِذَلِكَ عَلَيْنَا عَلَى مَعْرِفَتِهِ. وَلَمْ تُحِطْ بِهِ الصِّفَاتُ بِإِدْرَاكِهَا إِيَّاهُ بِالْحُدُودِ مُتْنَاهِيًا، وَمَا زَالَ، إِذْ هُوَ اللَّهُ الَّذِي لَسِرَ كَمْتَلُهُ شَيْءٌ، عَنْ صِفَةِ الْمَخْلُوقِينَ مُتَعَالِيًا، انْخَسَرَتْ الْعُيُونُ عَنْ أَنْ تَنَالَهُ، فَيَكُونُ بِالْعِيَانِ مَوْصُوفًا، وَبِالذَّاتِ الَّتِي لَا يَعْلَمُهَا إِلَّا هُوَ عِنْدَ خَلْقِهِ مَعْرُوفًا. وَفَاتَ لَعْلَوَهُ عَنِ الْأَشْيَاءِ مَوَاقِعَ وَهْمِ الْمُتَوَهِّمِينَ، وَلَيْسَ لَهُ مِثْلٌ فَيَكُونُ بِالْخَلْقِ مُشْتَبَهًا، وَمَا زَالَ عِنْدَ أَهْلِ الْمَعْرِفَةِ بِهِ عَنِ الْأَشْبَاهِ وَالْأَنْدَادِ مَتْرَهًا. وَكَيْفَ يَكُونُ مَنْ لَا يُقَدِّرُ قَدْرَهُ مُقَدَّرًا فِي رِوَايَاتِ الْأَوْهَامِ، وَقَدْ ضَلَّتْ فِي إِدْرَاكِ كَيْفِيَّتِهِ حَوَاسُّ الْأَنَامِ؛ لِأَنَّهُ أَجَلٌ مِنْ أَنْ تَحُدَّهُ أَلْبَابُ الْبَشَرِ بِنَظِيرِ. فَسَبْحَانَهُ وَتَعَالَى عَنْ جَهْلِ الْمَخْلُوقِينَ، وَسُبْحَانَهُ وَتَعَالَى عَنْ إِفْكَ الْجَاهِلِينَ. أَلَا وَإِنَّ لِلَّهِ مَلَائِكَةً صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ لَوْ أَنَّ مَلَكًا هَبَطَ مِنْهُمْ إِلَى الْأَرْضِ لَمَا وَسِعَتْهُ، لِعَظَمِ خَلْقِهِ وَكَرَّةِ أَحْنَحْتِهِ؛ وَمَنْ مَلَائِكَتُهُ مَنْ سَدَّ الْآفَاقَ بِجَنَاحٍ مِنْ

أجنته دون سائر بدنه؟ ومن ملائكته من السموات إلى حُجَزَتِه وسائرُ بدنه في جِرمِ الهواءِ الأسفل، والأرضون إلى رُكبتِه؛ ومن ملائكته من لو
اجتمعت الإنسُ والجنُّ على أن يَصِفوه ما وَصَفوه، لُبُعدِ ما بين مَفَاصِلِه، ولُحُسنِ تركيبِ صورته؛ وكيف يُوصفُ من سَبْعِمائة عامٍ مقدار ما بين مَنكبيهِ
إلى شَحْمَةِ أُذنيهِ؛ ومن ملائكته من لو أُلقيتِ السُّفنُ لا دموعَ عينيهِ لَجَرَّتْ دَهْرَ الدَاهِرِينَ. فأين أين بأحدكم! وأين أين أن، يدرك ما لا يُدْرِك!

كتاب المجنبة الثانية في التوقيعات والفصول

والصدور وأخبار الكتبة

قال أبو عمر أحمد بن محمد بن عبد ربه: قد مضى قولنا في الخطب وفوائدها، وذِكْرُ طولها وقصرها، ومقامات أهلها؛ ونحن قائلون بعون الله وتوفيقه في التوقيعات والفصول والصدور وأدوات الكتابة وأخبار الكتاب وفصل الإيجاز؛ إذ كان أشرف الكلام كله حسناً، وأرفع قدرًا، وأعظم من القلوب موقعا، وأقله على اللسان عملاً، ما دلَّ بعضه على كله، وكفى قليله عن كثيرة، شهد ظاهره على باطنه، وذلك أن ثقل حروفه، وتكثر معانيه. ومنه قولهم: رب إشارة أبلغ من لفظ. ليس أن الإشارة تُبين ما لا يُبينه الكلام، وتبلغ ما يقصر عنه اللسان، ولكنها إذا قامت مقام اللفظ، وسدت مسد الكلام، كانت أبلغ، لقلّة مؤنتها وخفة حملها. قال أبو ريز لكاتبه: اجتمع الكثير مما تُريد من المعنى، في القليل مما تقول.

يُحْضُهُ على الإيجاز وينهاه عن الإكثار في كتبه. ألا تراهم كيف طعنوا على الإسهاب والإكثار حتى كان بعض الصحابة يقول: أعوذ بالله من الإسهاب! قيل له: وما الإسهاب؟ قال: المسهب الذي يتخلل بلسانه تخلل الباقر، ويشول به شولان الروق. وقال النبي صلى الله عليه وسلم أبغضكم إليّ الثرثارون المشتدقون. يُريد أهل الأكثار والتّعير في الكلام.

ولم أجد أحداً من الألف يذم الإيجاز ويقدم فيه ويعيبه ويطن عليه. وتحب العرب التخفيف والحذف، ولها مات التثقيب والتطويل كان قصراً الممدود أحب إليها من المد المقصور، وتُسْكِنُ المتحرّك أخف عليها من تحريك الساكن، لأن الحركة عمل والسكون راحة. وفي كلام العرب الاختصار والإطناب، والاختصار عندهم أحمد في الجملة، وإن كان للإطناب موضع لا يصلح إلا له. وقد توميء إلى الشيء فتستغني عن التفسير بالإيماء، كما قالوا: لحة دالة.

كتب عمرو بن مسعدة إلى ضمرة الحروري كتاباً، فنظر فيه جعفر بن يحيى فوقع في ظهره: إذا كان الإكثار أبلغ كان الإيجاز مقصراً، وإذا كان الإيجاز كافياً كان الإكثار عيباً. وبعث إلى مروان بن محمد قائداً من فواده بسلام أسود، فأمر عبد الحميد الكاتب أن يكتب إليه يلحاه ويعنفه، فكتب وأكثر، فاستنقل ذلك مروان، وأخذ الكتاب فوقع في أسفله: أما إنك لو علمت عدداً أقل من واحد ولونا شراً من أسود لبعثت به. وتكلم ربيعة الرأي فأكثر وأعجبه إكثاره، فالتفت إلى أعرابي إلى جنبه، فقال له: ما تعدون البلاغة عندكم يا أعرابي؟ قال له: حذف الكلام، وإيجاز الصواب. قال: فما تعدون العبي؟ قال: ما كنت فيه منذ اليوم. فكأنما ألقمه حجراً.

أول من وضع الكتابة

أول من وضع الخط العربي والسرياني وسائر الكتب آدم صلى الله عليه وسلم قبل موته بثلاثمائة سنة، كتبه في الطين ثم طبخه، فلما انقضى ما كان أصاب الأرض من العرق وجد كل قوم كتابهم، فكتبوا به. فكان إسماعيل عليه الصلاة والسلام وجد كتاب العرب. ورؤي عن أبي ذر عن النبي صلى الله عليه وسلم أن إدريس أول من خط بالقلم بعد آدم صلى الله عليه وسلم وعن ابن عباس أن أول من وضع الكتابة العربية إسماعيل بن إبراهيم عليهما السلام، وكان أول من نطق بها، فوضعت على لفظه ومنطقه. وعن عمر بن شبة بأسانيده: أن أول من وضع الخط العربي: أجد وهوز وحطي وكلمن وسعفس وقرشت، هم قوم من الجبل الآخرة، وكانوا نزولاً عند عدنان بن أد، وهم من طسم وجديس. وحكي أنهم وضعوا الكتب على أسمائهم، فلما وجدوا حروفاً في الألفاظ ليست في أسمائهم ألحقوها بها وسموها الروافد، وهي: الثاء والحاء والذال والضاد والطاء والغين، على حسب ما يلحق في حروف الجمل. وعنه أن أول من وضع الخط نفيس ونصر وتيما، بنو إسماعيل بن إبراهيم، ووضعوه متصل الحروف بعضها ببعض، حتى فرقه نبت وهميسع وقيدر. وحكوا أيضاً أن ثلاثة نفر من

طبيء اجتمعوا ببقعة، وهم: مُرامِر بن مُرّة وأسلم بن سدرة وعامر بن جدرة، فوضعوا الخط وقاسوا هجاء العربية على هجاء السريانية، فتعلمه قوم من الأنبار. وجاء الإسلام وليس أحد يكتب بالعربية غير سبعة عشر إنساناً، وهم؛ علي بن أبي طالب كرم الله وجهه، وعُمَر بن الخطاب، وطلحة بن عبيد الله، وعثمان، وأبو عبيدة بن الجراح، وأبان بن سعيد بن العاص، وخالد بن سعيد أخوه، وأبو حذيفة بن عتبة، ويزيد بن أبي سفيان، وحاطب بن عمرو بن عبد شمس، والعلاء بن الحضرمي، وأبو سلمة ابن عبد الأسد، وعبد الله بن سعد بن أبي سرح، وحويطب بن عبد العزري، وأبو سفيان بن حرب، ومعاوية ولده، وجُهيم بن الصلت بن مخزومة.

استفتاح الكتب

إبراهيم بن محمد الشيباني قال: لم تزل الكتب تُستفتح باسمك اللهم حتى أنزلت سورة هود وفيها: بسم الله مَحْرَاهَا ومُرْسَاهَا، فكتب: بسم الله؛ ثم نزلت سورة بني إسرائيل: قل أدعوا الله أو أدعوا الرَّحْمَن فكتب، بسم الله الرحمن، ثم نزلت سورة النمل: "إِنَّهُ مِنْ سُلَيْمَانَ وَإِنَّهُ بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ" فاستفتح بها رسول الله صلى الله عليه وسلم وصارت سنة. وكان رسول الله صلى الله عليه وسلم يكتب إلى أصحابه وأمراء جنوده: من محمد رسول الله إلى فلان. وكذلك كانوا يكتبون إليه، يبدعون بأنفسهم، فمن كتب إليه وبدأ بنفسه: أبو بكر والعلاء بن الحضرمي وغيرهما، وكذلك كتبت الصحابة والتابعين، ثم لم تزل حتى ولي الوليد بن عبد الملك، فعظم الكتاب وأمر أن لا يكتبه الناس. مثل ما يكتب به بعضهم بعضاً، فجرت به سنة الوليد إلى يومنا هذا، إلا ما كان من عمر بن عبد العزيز ويزيد الكامل، فإلهما عملاً بسنة رسول الله صلى الله عليه وسلم، ثم رجع الأمر إلى رأي الوليد، والقوم عليه إلى اليوم.

ختم الكتاب وعنوانه

وأما ختم الكتاب وعنوانه: فإن الكتب لم تزل مشهورة، غير معنونة ولا محتومة، حتى كتبت صحيفة المتلمس، فلما قرأها ختمت الكتاب، وعُنونت. وكان يُوتى بالكتاب فيقال: مَنْ عُنِيَ بِهِ، فَسُمِّيَ عُنَوَانًا. وقال حسّان بن ثابت في قتل عثمان:

يُقَطِّعُ اللَّيْلَ تَسْبِيحًا وَقُرْآنًا

صَحْوًا بِأَشْمَطِ عُنْوَانِ السُّجُودِ بِهِ

وقال آخر:

جَعَلْتَهَا لِلَّذِي أَحْبَبْتُ عُنْوَانًا

وَحَاجَةً دُونَ أُخْرَى قَدْ سَمَحْتُ بِهَا

وقال أهل التفسير في قول الله تعالى: إِنْ أُلْقِيَ إِلَيْكَ كِتَابٌ كَرِيمٌ أَيْ مَحْتوم، إذ كانت كرامة الكتاب ختمه.

تأريخ الكتاب

لا بد من تأريخ الكتاب، لأنه لا يُدَلَّ على تحقيق الأخبار وقرب عهد الكتاب وبعده إلا بالتأريخ. فإذا أردت أن تُؤرِّخ كتابك فانظر إلى ما مضى من الشهر وما بقي منه، فإن كان ما بقي أكثر من نصف الشهر، كتبت: لكذا وكذا ليلة مضت من شهر كذا؛ وإن كان الباقي أقل من النصف، جعلت مكان: مضت، بقيت. وقد قال بعض الكتاب: لا تكتب إذا أرخت إلا بما مضى من الشهر، لأنه معروف، وما بقي منه مجهول؛ لأنك لا تدري أيتم الشهر أم لا.

ولا تجعل سحاة كتابك غليظة، إلا في كتب العهود والسجلات التي يحتاج إلى بقاء خواتيمها وطوابعها؛ فإن عبد الله بن طاهر كتب إليه بعض عماله على العراق كتاباً، وجعل سحائه غليظة، فأمر بأشخاص الكاتب إليه، فلما ورد عليه، قال عبد الله بن طاهر: إن كانت معك فأس فاقطع ختم

كتابك ثم ارجع إلى عملك، وإن عُدت إلى مثلها عُدتنا إلى إشخاصك لقطعها. ولا تُعظّم الطيّنة جدّاً، ووطنُ كُتُبِكَ بعد كُتُبِكَ عناوينها، فإن ذلك من أدب الكاتب، فإن طيّنت قبل العُنوان فأدب مُنتحل.

تفسير الأمي

فأما الأمي فمجازُهُ على ثلاثة وجوه: قولهم أُمي، منسوب إلى أُمَّة رسول الله صلى الله عليه وسلم ويقال: رجل أُمي، إذا كان من أم القُرى. قال الله تعالى: "لِتُنذِرَ أُمَّ الْقُرَى وَمَنْ حَوْلَهَا" وأما قوله تعالى: النبيّ الأُمي فإنما أراد به الذي لا يقرأ ولا يكتب. والأمية في النبيّ صلى الله عليه وسلم فضيلة، لأنها أدلُّ على صدق ما جاء به أنه من عند الله لا من عنده، وكيف يكون من عنده وهو لا يكتب ولا يقرأ ولا يقول الشعر ولا يُنشده. قال المأمون لأبي العلاء المنقري: بلَغني أنك أُمي، وأنت لا تُقيم الشعر، وأنت تلحن في كلامك. فقال: يا أمير المؤمنين، أمّا اللحن، فربما سَبَقني لساني بالشيء منه؛ وأما الأمية وكسر الشعر، فقد كان النبيّ صلى الله عليه وسلم أُمياً، وكان لا يُنشد الشعر. فقال المأمون: سألتك عن ثلاثة عُيوب فيك فزدتني رابعاً، وهو الجهل؛ أما علمتَ يا جاهل أن ذلك في النبيّ صلى الله عليه وسلم فَضيلة، وفيك وفي أمثالك تقيصة!

شرف الكتاب وفضلهم

فمن فضلهم قولُ الله تعالى على لسان نبيه صلى الله عليه وسلم: "علم بالقلَمِ عَلم الإنسان ما لم يَعْلَم" وقوله تعالى: "كِرَاماً كَاتِبِينَ". وقوله: "بأيدي سَفرة. كِرَامَ بَرَزَةٍ" وللكتاب أحكام بينة، كأحكام القضاة، يُعرفون بها، ويُنسبون إليها، ويتقلّدون التدبير وسيارة الملوك بها، دون غيرهم، وهم يُقام أود الدين، وأمور العالمين.

فمن أهل هذه الصناعة: عليّ بن أبي طالب، كرم الله وجهه، وكان مع شرفه وتُبله وقربته من رسول الله صلى الله عليه وسلم، يكتب الوحي، ثم أفضت إليه الخلافة بعد الكتابة؛ وعثمان بن عفان، كانا يكتبان الوحي، فإن غابا، كتب ابن بن كعب وزيد بن ثابت، فإن لم يشهد واحد منهما، كتب غيرُهما. وكان خالد بن سعيد بن العاص ومعاوية بن أبي سفيان يكتبان بين يديه في حوائجه، وكان المغيرة بن شعبة والحُصين بن نمير يكتبان ما بين الناس وكانا ينويان عن خالد ومُعاوية إذا لم يحضرا، وكان عبد الله بن الأرقم ابن عبد يغوث والعلاء بن عُقبة يكتبان وبين القوم في قبائلهم وميَاههم، وفي دور الأنصار بين الرجال والنساء، وكان ربما كتب عبدُ الله بن الأرقم إلى الملوك عن النبيّ صلى الله عليه وسلم وعلى آله، وكان حذيفة بن اليمان يكتب خَرُصَ ثمار الحجاز، وكان زيد بن ثابت يكتب إلى الملوك مع ما كان يكتبه من الوحي، وقيل: إنه تعلّم بالفارسية من رسول كسرى، وبالرومية من حاجب النبيّ صلى الله عليه وسلم، وبالحبشية من خادم النبيّ صلى الله عليه وسلم، وبالقبطية من خادمه عليه الصلاة والسلام. ورُوي عن زيد بن ثابت قال: كنت أكتب بين يدي رسول الله صلى الله عليه وسلم يوماً، فقام لحاجة، فقال لي: ضَعِ القلم على أذنك فإنه أذكر للمملي وأقضى للحاجة. وكان مُعَيْقِب بن أبي فاطمة يكتب معانم النبيّ صلى الله عليه وسلم. وكان حنظلة بن الربيع بن المُرقع بن صَيْفِيّ، ابن أخي أكنم بن صَيْفِيّ الأسيديّ، خليفة كُلِّ كاتب من كُتاب النبيّ صلى الله عليه وسلم إذا غاب عن عمله، فغلب عليه اسم الكاتب، وكان يضع عنده خاتمه، وقال له: الزمني وأذكر في بكل شيء أنا فيه، وكان لا يأتي على مالك ولا طعام ثلاثة أيام إلا أذكره، فلا يبيت صلى الله عليه وسلم وعنده منه شيء. ومَرَّ رسول الله صلى الله عليه وسلم يوماً بامرأة مقتولة يوم فتح مكة، فقال لحنظلة: الحق خالداً وقل له: لا تقتلن ذُرّيّة ولا عَسِيْفًا. ومات حنظلة بمدينة الرها، فقالت فيه امرأته، وحكي أنه من قول الجن، وهذا محال:

تَبْكِي على ذي شَيْبَةٍ شاحِبِ

أخبرك قِيلاً ليس بالكاذبِ

وَجَدِي على حنْظَلَةَ الكاتبِ

يا عَجَبَ الدَّهْرِ لِمَحْزُونَةٍ

إن تسألني اليومَ ما شَفَنِي

أن سَوَادَ الرُّأْسِ أودَى به

ولما وَجَّهَ عمر بن الخطاب رضي الله عنه سعداً إلى العراق وكتب إليه أن يسبح القبائل أسباعاً، ويجعل على كل سُبُع رجلاً، ففعل سعد ذلك، وجعل السبع الثالث تميماً وأسداً وغطفان وهوازن، وأميرهم حنظلة بن الربيع الكاتب؛ وكان أحد من سُوِّرَ إلى يَزْدَجْرِد يدعوهُ إلى الإسلام. وكان الحصين بن ثُمير، من بني عبد مناة، شَهِدَ بَيْعَةَ الرِّضْوَانِ، ودعاه رسول الله صلى الله عليه وسلم يكتب صلح الحديبية، فأبى ذلك سهيل بن عمرو، وقال: لا يكتب إلا رجل منا، فكتب علي بن أبي طالب. ورُوِيَ عنه عليه السلام أنه قال: لما جاء سهيل بن عمرو ونحن مع رسول الله صلى الله عليه وسلم بالحديبية حين صالح قريشاً، كان عبد الله بن سعد بن أبي سرح يكتب له، ثم ارتد ولحق بالمشركين، وقال: إن محمداً يكتب بما شئت. فسمع ذلك رجل من الأنصار، فحلف بالله إن أمكنه الله منه ليضربنه ضرباً بالسيف، فلما كان يوم فتح مكة، جاء به عثمان، وكان بينهما رضاء، فقال: يا رسول الله، هذا عبد الله قد أقبل تائباً، فأعرض عنه، والأنصاري مُطِيفٌ به ومعه سيفه، فمد رسول الله صلى الله عليه وسلم يده وبايعه، وقال للأنصاري: لقد تلوَّمتك أن تُوفِّيَ بِنَدْرِكَ. فقال: هلأ أومضت إلي. فقال صلى الله عليه وسلم: لا ينبغي لي أن أومض.

أيام أبي بكر رضي الله عنه

كان يكتب لأبي بكر عثمان بن عفان، وزيد بن ثابت. ورُوِيَ أَنَّ عَبْدَ اللَّهِ ابْنَ الْأَرْقَمِ كَتَبَ لَهُ، وَأَنَّ حَنْظَلَةَ بْنَ الرَّبِيعِ كَتَبَ لَهُ أَيْضاً. ولما تقلد الخلافة دعا زيد بن ثابت، وقال له: أنت شاب عاقل لا نتهمك على رسول الله صلى الله عليه وسلم، وكنت تكتب الوحي، فتتبع القرآن فأجمعه، وفيه يقول حسان بن ثابت:

وَمَنْ لِلْمَثَانِي بَعْدَ زَيْدِ بْنِ ثَابِتٍ

فَمَنْ لِلْقَوَافِي بَعْدَ حَسَّانَ وَابْنِهِ

أيام عمر بن الخطاب رضي الله عنه

كتب لعمر بن الخطاب زيد بن ثابت، وعبد الله بن الأرقم، وعبد الله ابن خلف الخزاعي، أبو طلحة الطلحات، علي ديوان البصرة. وكتب له علي ديوان الكوفة أبو جبير بن الضحاك، فلم يزل عليه إلى أن ولي عبيد الله بن زياد فعزله وولي مكانه حبيب بن سعد القيسي.

أيام عثمان بن عفان

رضي الله عنه كان يكتب لعثمان مروان بن الحكم. وكان عبد الملك بن مروان يكتب له على ديوان المدينة، وأبو جبير على ديوان الكوفة، وعبد الله بن الأرقم على بيت المال، وأبو غطفان بن عوف بن سعد بن دينار، من بني دهمان، من قيس عيلان، يكتب له أيضاً، وكان يكتب له أهيب، مولاه، وحمران، مولاه.

أيام علي بن أبي طالب

كرم الله وجهه كان يكتب له سعيد بن نمران الهمداني، ثم ولي قضاء الكوفة لابن الزبير، وكان عبد الله بن جعفر يكتب له. ورُوِيَ أَنَّ عَبْدَ اللَّهِ بْنَ حَسَنِ كَتَبَ لَهُ، وَكَانَ عَبْدَ اللَّهِ بْنَ أَبِي رَافِعٍ يَكْتُبُ لَهُ، وَسِمَاكَ بْنَ حَرْبٍ.

أيام بني أمية

وكان يكتب لمعاوية. بن أبي سفيان. سعيد بن أنس العسائي. وكاتب يزيد بن معاوية سرجون بن منصور وكاتب مروان بن الحكم حميد بن عبد الرحمن بن عوف. وكاتب عبد الملك بن مروان سالم مولاه، ثم كتب له عبد الحميد بن يحيى، وهو عبد الحميد الأكبر. وكاتب الوليد بن عبد الملك

جَنَاح مَوْلَاهُ. وَكَاتَبَ سُلَيْمَانَ بْنِ عَبْدِ الْمَلِكِ عَبْدِ الْحَمِيدِ الْأَصْغَرَ. وَكَاتَبَ عُمَرَ بْنَ عَبْدِ الْعَزِيزِ اللَّيْثُ بْنَ أَبِي رُقَيْعَةَ، مَوْلَى أُمِّ الْحَكَمِ، وَكَتَبَ لَهُ رَجَاءُ بْنُ حَيَّوَةَ وَخُصَّ بِهِ، وَإِسْمَاعِيلُ بْنُ أَبِي حَكِيمٍ مَوْلَى الزُّبَيْرِ، وَسُلَيْمَانُ بْنُ سَعْدِ الْحَشْبِيِّ عَلَى دِيْوَانِ الْخَرَاجِ، وَكَانَ عَمْرٍو يَكْتُبُ كَثِيرًا بِيَدِهِ. وَكَاتَبَ يَزِيدُ ابْنَ عَبْدِ الْمَلِكِ عَبْدِ الْحَمِيدِ أَيْضًا، ثُمَّ لَمْ يَزَلْ كَاتِبًا لِبَنِي أُمِيَّةَ إِلَى أَيَّامِ مَرْوَانَ بْنِ مُحَمَّدٍ وَانْقِضَاءِ دَوْلَةِ بَنِي أُمِيَّةَ. وَكَانَ عَبْدِ الْحَمِيدِ أَوَّلَ مَنْ فَتَّقَ أَكْمَامَ الْبَلَاغَةِ، وَسَهَّلَ طُرُقَهَا، وَفَكَرَّ رِقَابَ الشُّعْرَى.

أَيَّامُ الدَّوْلَةِ الْعَبَّاسِيَّةِ

فَكَانَ كَاتِبًا أَبِي الْعَبَّاسِ وَأَبِي جَعْفَرِ أَبِي أَيُّوبَ الْمُرِيَّانِي الْأَهْوَازِيَّ. وَكَاتَبَ مُوسَى الْهَادِيَّ بْنَ مُحَمَّدِ الْمَهْدِيِّ إِبْرَاهِيمَ بْنَ ذَكْوَانَ الْحَرَّانِيَّ. وَكَاتَبَ هَارُونَ الرَّشِيدُ بْنُ مُحَمَّدِ الْمَهْدِيِّ يَحْيَى بْنَ خَالِدِ الْبَرْمَكِيِّ، ثُمَّ الْفَضْلُ بْنُ الرَّبِيعِ، ثُمَّ إِبْرَاهِيمَ بْنَ صُبَيْحٍ. وَكَاتَبَ مُحَمَّدُ بْنُ زُبَيْدَةَ الْأَمِينَ الْفَضْلُ بْنُ الرَّبِيعِ، وَكَاتَبَ عَبْدِ اللَّهِ الْمَأْمُونُ بْنُ هَارُونَ الرَّشِيدِ الْفَضْلُ بْنُ سَهْلٍ، ثُمَّ الْحَسَنُ بْنُ سَهْلٍ، ثُمَّ عَمْرُو بْنُ مَسْعُودَةَ، ثُمَّ أَحْمَدُ بْنُ يَوْسُفَ. وَكَاتَبَ أَبِي إِسْحَاقَ مُحَمَّدَ الْمُعْتَصِمَ بْنَ هَارُونَ الرَّشِيدِ، وَهُوَ الْمَعْرُوفُ بِابْنِ مَارِدَةَ، الْفَضْلُ بْنُ مَرْوَانَ، وَمُحَمَّدُ بْنُ عَبْدِ الْمَلِكِ الزِّيَّاتِ. وَكَاتَبَ الْوَائِقُ هَارُونَ بْنَ مُحَمَّدِ الْمُعْتَصِمِ مُحَمَّدَ بْنَ عَبْدِ الْمَلِكِ الزِّيَّاتِ أَيْضًا. وَكَاتَبَ الْمُتَوَكَّلُ جَعْفَرَ بْنَ مُحَمَّدِ الْمُعْتَصِمِ إِبْرَاهِيمَ بْنَ الْعَبَّاسِ بْنِ صَوْلٍ، مَوْلَى لِبَنِي الْعَبَّاسِ. وَكَاتَبَ الْمُتَنَصِّرُ مُحَمَّدَ، وَيَكْنَى أَبُو جَعْفَرِ، بْنُ الْمُتَوَكَّلِ، أَحْمَدُ بْنُ الْخَضِيبِ، ثُمَّ كَتَبَ لِلْمُسْتَعِينِ أَحْمَدُ بْنُ مُحَمَّدِ الْمُعْتَصِمِ، فَظَهَرَ مِنْ عَجْزِهِ وَعِيَهُ مَا أَسْخَطَهُ عَلَيْهِ، ثُمَّ جَعَلَ زَارَتَهُ إِلَى أَوْتَامِشَ، وَقَامَ بِجِدْمَتِهِ شِجَاعُ بْنُ الْقَاسِمِ كَاتِبَهُ، ثُمَّ سَخَطَ عَلَيْهِمَا فَقَتَلَهُمَا، وَاسْتَوَزَرَ أَبَا صَالِحِ عَبْدِ اللَّهِ بْنِ مُحَمَّدِ بْنِ يَزْدَادَ، ثُمَّ صَرَفَهُ وَقَلَّدَ زَارَتَهُ مُحَمَّدُ بْنُ الْفَضْلِ الْجُرْجَانِيَّ. ثُمَّ كَانَتْ الْفِتْنَةُ بَيْنَ الْمُسْتَعِينِ وَالْمُعْتَزِ، فَقَلَّدَ الْمُعْتَزُ زَارَتَهُ جَعْفَرَ بْنَ مُحَمَّدِ الْجُرْجَانِيَّ، فَلَمَّا اسْتَقَامَ الْأَمْرُ رَدَّ زَارَتَهُ إِلَى أَحْمَدَ ابْنَ إِسْرَائِيلَ. وَكَاتَبَ الْمُهْتَدِيَّ مُحَمَّدُ بْنُ الْوَائِقِ جَعْفَرَ بْنَ مُحَمَّدِ الْجُرْجَانِيَّ، ثُمَّ اسْتَوَزَرَ بَعْدَهُ أَبَا أَيُّوبَ سُلَيْمَانَ بْنَ وَهْبٍ. وَاسْتَوَزَرَ الْمُعْتَمِدُ أَحْمَدُ بْنُ الْمُتَوَكَّلِ عُبَيْدَ اللَّهِ بْنَ يَحْيَى بْنِ خَاقَانَ، فَلَمَّا تَوَفَّى اسْتَوَزَرَ بَعْدَهُ الْحَسَنُ بْنُ مَخْلَدٍ، وَكَانَ سَبَبَ مَوْتِهِ أَنَّهُ صَدَمَهُ غُلَامًا لَهُ فِي الْمِيدَانِ يُقَالُ لَهُ رَشِيقٌ، فَحَمَلَهُ إِلَى مِزْلِهِ فَمَاتَ بَعْدَ ثَلَاثِ سَاعَاتٍ. وَتَقَلَّدَ الْوِزَارَةَ لِلْمُعْتَضِدِ أَحْمَدُ بْنُ طَلْحَةَ، وَلِلْمَوْفُوقِ بْنِ جَعْفَرِ الْمُتَوَكَّلِ عُبَيْدُ اللَّهِ بْنُ سُلَيْمَانَ بْنِ وَهْبٍ، وَتَقَلَّدَ الْوِزَارَةَ لِلْمَكْتَفِيِّ بِاللَّهِ أَبِي مُحَمَّدِ عَلِيِّ بْنِ الْمُعْتَضِدِ بِاللَّهِ عَلِيِّ بْنِ مُحَمَّدِ بْنِ الْفُرَاتِ، ثُمَّ مُحَمَّدُ بْنُ عُبَيْدِ اللَّهِ بْنِ يَحْيَى بْنِ خَاقَانَ، ثُمَّ عَلِيُّ بْنُ عَيْسَى، ثُمَّ حَامِدُ بْنُ الْعَبَّاسِ، ثُمَّ مُحَمَّدُ بْنُ عَلِيِّ بْنِ مُقَلَّةَ، الَّذِي يُوصَفُ خَطَّهُ بِالْجُودَةِ، ثُمَّ سُلَيْمَانُ بْنُ الْحَسَنِ بْنِ مَخْلَدٍ، ثُمَّ عُبَيْدُ اللَّهِ بْنُ مُحَمَّدِ الْكَلُودَانِيِّ. ثُمَّ الْحُسَيْنُ بْنُ الْقَاسِمِ بْنِ عُبَيْدِ اللَّهِ بْنِ سُلَيْمَانَ بْنِ وَهْبٍ، وَوَلَّيْتُ بِعَمِيدِ الدَّوْلَةِ، وَكَانَ يَكْتُبُ عَلَى كُتُبِهِ: مِنْ عَمِيدِ الدَّوْلَةِ أَبِي عَلِيِّ بْنِ وَلِيِّ الدَّوْلَةِ، وَذَكَرَ لِقَبِهِ عَلَى الدَّنَانِيرِ وَالْدِرَاهِمِ، ثُمَّ الْفَضْلُ بْنُ جَعْفَرِ بْنِ مُحَمَّدِ بْنِ الْفُرَاتِ. وَتَقَلَّدَ الْوِزَارَةَ لِلْقَاهِرِ بِاللَّهِ أَبِي مَنْصُورِ مُحَمَّدِ بْنِ الْمُعْتَضِدِ مُحَمَّدُ بْنُ عَلِيِّ بْنِ مُقَلَّةَ، ثُمَّ مُحَمَّدُ بْنُ الْقَاسِمِ بْنِ عُبَيْدِ اللَّهِ، ثُمَّ الْقَاسِمُ بْنُ عُبَيْدِ اللَّهِ الْحُصَيْنِيِّ. وَتَقَلَّدَ الْوِزَارَةَ لِلرَّاضِي بِاللَّهِ أَبِي الْعَبَّاسِ مُحَمَّدُ بْنُ جَعْفَرِ الْمُقْتَدِرِ مُحَمَّدُ بْنُ عَلِيِّ بْنِ مُقَلَّةَ، ثُمَّ عَبْدِ الرَّحْمَنِ بْنِ عَيْسَى، أَوْحُو الْوِزَارَةَ عَلِيُّ بْنُ عَيْسَى، ثُمَّ مُحَمَّدُ بْنُ الْقَاسِمِ الْكَرَّخِيِّ، ثُمَّ الْفَضْلُ بْنُ جَعْفَرِ بْنِ مُحَمَّدِ بْنِ الْفُرَاتِ، ثُمَّ مُحَمَّدُ بْنُ يَحْيَى بْنِ شِيرَزَادَ. وَتَقَلَّدَ الْوِزَارَةَ لِلْمُتَّقِيِّ بِاللَّهِ إِبْرَاهِيمَ بْنَ جَعْفَرِ ابْنَ الْمُقْتَدِرِ كَاتِبَهُ أَحْمَدُ بْنُ مُحَمَّدِ بْنِ الْأَفْطُسِ. ثُمَّ أَبُو إِسْحَاقَ الْقَرَارِيْطِيُّ، ثُمَّ عَلِيُّ بْنُ مُحَمَّدِ بْنِ مُقَلَّةَ. وَتَقَلَّدَ الْوِزَارَةَ لِلْمُسْتَكْفِيِّ بِاللَّهِ أَبِي الْقَاسِمِ عَبْدِ اللَّهِ بْنِ عَلِيِّ الْمَكْتَفِيِّ بِاللَّهِ الْحُسَيْنِ بْنِ مُحَمَّدِ بْنِ أَبِي سُلَيْمَانَ، ثُمَّ مُحَمَّدُ بْنُ عَلِيِّ السَّامُرِيِّ، الْمَكْتَبِيُّ أَبُو الْفَرَجِ. ثُمَّ وَلِيَ الْمُطْبِعَ بِاللَّهِ الْفَضْلُ بْنُ الْمُقْتَدِرِ، فَوَزَّرَ لَهُ الْحَسَنُ بْنُ هَارُونَ.

أَسْمَاءُ مِنْ كُتُبِ لُغِيَّةِ الْخَلِيفَةِ

كَانَ الْمُغِيرَةُ بْنُ شُعْبَةَ كَاتِبًا لِأَبِي مُوسَى الْأَشْعَرِيِّ. وَكَانَ سَعِيدُ بْنُ جُبَيْرٍ كَاتِبًا لِعَبْدِ اللَّهِ بْنِ عُثْمَانَ بْنِ مَسْعُودٍ، وَكَانَ قَاضِيًا بَعْدَ ذَلِكَ. وَكَانَ الْحَسَنُ بْنُ أَبِي الْحَسَنِ الْبَصْرِيِّ، مَعَ تَبَلُّهِ وَفِقْهِهِ وَوَرَعِهِ وَزُهْدِهِ كَاتِبًا لِلرَّبِيعِ بْنِ زِيَادِ الْحَارِثِيِّ بَجُرَّاسَانَ، ثُمَّ وَلِيَ قَضَاءَ الْبَصْرَةِ لِعُمَرَ بْنِ عَبْدِ الْعَزِيزِ، فَقِيلَ لَهُ: مَنْ وَلَّيْتَ الْقَضَاءَ بِالْبَصْرَةِ؟ فَقَالَ: وَلَّيْتُ سَيِّدَ التَّابِعِينَ الْحَسَنَ بْنَ أَبِي الْحَسَنِ الْبَصْرِيِّ. وَكَانَ مُحَمَّدُ بْنُ سَيْرِينَ، مَعَ عِلْمِهِ وَوَرَعِهِ كَاتِبًا لِأَنْسَ بْنِ مَالِكِ بَفَارِسَ.

وكان زيادُ ابن أبيه، مع رأيهِ، ودَهائِهِ، وما كان من معاوية في ادعائه، يكتب للمُغيرة ابن شُعبة، ثم لعبد الله بن عامر بن كُرَيز، ثم لعبد الله بن عباس، ثم لأبي مولى الأشعري. فوجهه أبو موسى من البصرة ليعمرَ بن الخطاب ليرفع إليه حسابَه، فأمر له عمرُ بألف درهم، لما رأى منه من الذكاء، وقال: له لا تُرجع لأبي موسى؟ فقال: يا أمير المؤمنين. أَعنَ خيانة صرَفْتَنِي أم عن تَقْصِيرٍ؟ قال: لا عن واحدة منهما، ولكني أكره أن أحمل فَضْلَ عقلك على الرعية، ثم ولي بعد الكتابة العراق. وكان عامرُ الشَّعبي مع فَقهه وَعِلْمه وتُبله كاتباً لعبد الله بن مطيع، ثم لعبد الله بن يزيد، عامل عبد الله بن الزبير على الكوفة؛ ثم ولي قضاء الكوفة بعد الكتابة. وكان قبيصة بن ذؤيب كاتباً لعبد الملك على ديوان الخاتم. وكان عبد الرحمن كاتب نافع بن الحارث، وهو عامل أبي بكر وعمر على مكة. وكان عبد الله بن خلف الخزاعي، أبو طلحة الطلحات، كاتباً على ديوان البصرة لعمر وعثمان، ثم قُتل يوم الجمل مع عائشة، رضي الله عنها. وكان خارجة بن زيد بن ثابت على ديوان المدينة، ثم طلب الخلافة فقتل دونها. وكان يزيد بن عبد الله بن زَمعة بن الأسود بن المطلب بن أسد بن عبد العزى كاتباً على ديوان المدينة زمن يزيد بن معاوية، وكان بعده حميد بن عبد الرحمن بن عوف الزُهري.

أشراف الكتاب

كتاب النبي صلى الله عليه وسلم

كتب له عشرة كتب: علي بن أبي طالب، وعمر بن الخطاب، وعثمان بن عفان، وخالد بن سعيد بن العاصي، وأبان بن سعيد بن العاصي، وأبو سعيد بن العاصي، وعمرو بن العاصي، وشريحيل بن حسنة، وزيد بن ثابت، والعلاء بن الحضرمي، ومعاوية بن أبي سفيان، فلم يزل يكتب له حتى مات عليه الصلاة والسلام.

وكان عثمان بن عفان كاتباً لأبي بكر، ثم صار خليفة. وكان مروان بن الحكم كاتباً لعثمان بن عفان ثم صار خليفة. وكان عمرو بن سعيد بن العاصي كاتباً على ديوان المدينة، ثم طلب الخلافة فقتل دونها وكان المغيرة بن شعبة كاتباً لأبي موسى الأشعري. وكان الحسن بن أبي الحسن البصري كاتباً للربيع ابن زياد الحارثي بخراسان. وكان سعيد بن جبير كاتباً لعبد الله بن عتبة بن مسعود؛ وكان فاضلاً. وكان زياد كاتباً للمغيرة بن شعبة، ثم أبي موسى الأشعري، ثم لعبد الله بن عامر بن كُرَيز، ثم لعبد الله بن عباس. وكان عامرُ الشَّعبي كاتباً لعبد الله بن مطيع، وهو والي الكوفة لعبد الله بن الزبير. وكان محمد بن سيرين كاتباً لأنس بن مالك بفارس. وكان قبيصة بن ذؤيب كاتباً لعبد الملك، على ديوان الخاتم. وكان عبد الرحمن بن أزيى كاتب نافع بن الحارث الخزاعي، وهو عامل أبي بكر وعمر على مكة. وكان غبيد الله بن أوس الغساني، سيد أهل الشام، كاتب معاوية. وكان سعيد ابن نمران الهمداني، سيد همدان، كاتب علي بن أبي طالب، ثم ولي بعد ذلك قضاء الكوفة لابن الزبير. وكان عبد الله بن خلف الخزاعي، أبو طلحة الطلحات، كاتباً على ديوان البصرة لعمر وعثمان، وقتل يوم الجمل مع عائشة. وكان خارجة بن زيد بن ثابت على ديوان المدينة من قبل عبد الملك. وكان يزيد بن عبد الله بن زَمعة بن الأسود بن المطلب بن أسد بن عبد العزى على ديوان المدينة زمان يزيد بن معاوية. وكان بعده حميد، ابن عبد الرحمن بن عوف الزُهري، صاحب النبي صلى الله عليه وسلم.

من نبيل بالكتابة وكان قبل خاملا

سرجون بن منصور الرومي، كاتب معاوية ويزيد ابنه ومروان بن الحكم وعبد الملك بن مروان، إلى أن أمره عبد الملك بأمر فتوان فيهِ، ورأى منه عبد الملك، بعض التفريط، فقال لسليمان بن سعد كاتبه على الرسائل: إن سرجون يُدِلّ علينا بصناعته، وأظن أنه رأى ضرورتنا إليه في حسابهِ، فما عندك فيه حيلة؟ فقال: بلى، لو شئت لحولت الحساب من الرومية إلى العربية. قال: أفعَل. قال: أنظري أعان ذلك. قال: لك نظرة ما شئت. فحوّل! الديوان، فولاه عبد الملك جميع ذلك. وحسان التنبطي كاتب الحجّاج، وسالم مولى هشام بن عبد الملك، وعبد الحميد الأكبر، وعبد الصمد، وحيلة بن عبد الرحمن، وقحذم، جد الوليد بن هشام القحذمي، وهو الذي قلب الدواوين من الفارسية إلى العربية. ومنهم: الفراء، كاتب خالد بن عبد الله القسري.

ومنهم: الربيع، والفضل بن الربيع، ويعقوب بن داود، ويحيى بن خالد وجعفر بن يحيى، وأبو محمد، عبد الله بن المقفع، والفضل ابن سهل، والحسن بن سهل، وجعفر بن محمد بن، الأشعث، وأحمد بن يوسف، وأبو عبد السلام الجند يسابوري، وأبو جعفر محمد بن عبد الملك الزيات، والحسن بن وهب، وإبراهيم بن العباس الصولي، ونجاح بن سلمة، وأحمد بن محمد بن، المدبر. فهؤلاء نُبِلوا بالكتابة واستحقوا اسمها.

من أدخل نفسه في الكتابة ولم يستحقها

صالح بن شيرزاد، وجعفر بن سابور، كاتب الأفشين، والفضل بن مروان، وداود بن الجراح، وأبو صالح عبد الله بن محمد بن يزيد، وأحمد ابن الخصيب. فهؤلاء لَطَّخُوا أنفسهم بالكتابة وما دانوها. وقال بعض الشعراء في صالح بن شيرزاد:

كَدَعَوَى آلَ حَرْبٍ فِي زِيَادٍ
وَلَوْ غَرَّقْتَ ثَوْبَكَ فِي الْمِدَادِ

حِمَارٌ فِي الْكِتَابَةِ يَدَّعِيهَا
فَدَعَّ عَنكَ الْكِتَابَةَ لَسْتَ مِنْهَا

ومنهم: أبو أيوب، ابن أخت أبي الزبير، وهو القائل يرثي أمَّ سليمان بن وهب الكاتب:

مُغْلَغَلَةٌ مِثْلُ الْحُسَامِ الْبَوَاتِرِ
فَأُضْحَى سِرَاجَ الْبَيْتِ وَسَطَ الْمَقَابِرِ

لَأَمَّ سُلَيْمَانَ عَلَيْنَا مُصِيبَةً
وَكُنْتَ سِرَاجَ الْبَيْتِ يَا أُمَّ سَالِمٍ

فقال سليمان بن وهب: ما نزل بأحد من خلق الله ما نزل به، ماتت أمي فرثيت بمثل هذا الشعر، وتُقل اسمي من سليمان إلى سالم.

صفة الكتاب

قال إبراهيم بن محمد الشيباني: من صفة الكتاب اعتدالُ القامة، وصغرُ الهامة، وخفةُ اللهازم، وكثافةُ اللحية، وصدقُ الحس، ولطفُ المذهب، وحلاوةُ الشمائل، وحسنُ الإشارة، وملاحةُ الزِّي، حتى قال بعضُ المهالبة لولده: تَزَيَّوْا بِزِيِّ الْكُتَّابِ، فإن فيهم أدبُ الملوك وتواضعُ السُّوقَةِ. وقال إبراهيم بن محمد الكاتب: من كمال آل الكتابة أن يكون الكتاب: نقيَّ الملبس، نظيفَ المجلس، ظاهرُ المروءة، عطرُ الرائحة، دقيقُ الذهب، صادقُ الحس، حسنُ البيان، رقيقُ حواشي اللسان، حلوُ الإشارة، مليحُ الاستعارة، لطيفُ المسالك، مُستَقَرُّ التركيب؛ ولا يكون مع ذلك فضفاضُ الجنة، مُتَفَاوِتُ الأجزاء، طويلُ اللحية، عظيمُ الهامة؛ فإنهم زعموا أن هذه الصورة لا يليق بصاحبها الذكاء والفطنة. وأنشد سعيد بن حميد في إبراهيم بن العباس:

ولَهْزَمْتَكَ شَأْنُهُمَا الْفِدَامَةَ
كَمِثْلِ الدَّرِّ قَدْ رَصَفُوا نِظَامَ،
يَلُوكُ بِمَا يَفُوهُ بِهِ لِجَامِهِ

رَأَيْتُ لِهَازِمَ الْكُتَّابِ خَفَّتْ
وَكُتَّابَ الْمُلُوكِ لَهُمْ بَيَانٌ
وَأَنْتَ إِذَا نَطَقْتَ كَأَنَّ عَيْرًا

وقال آخر:

زَكِيٌّ فِي شَمَائِلِهِ حَرَارَهُ
فِيهِمْ رَجَعُ لِحْظِكَ بِالْإِشَارَةِ

عَلَيْكَ بِكَاتِبِ لَبِقٍ رَشِيقٍ
تُنَاجِيهِ بِطَرَفِكَ مِنْ بَعِيدٍ

ونظر أحمد بن الخصيب إلى رجل من الكتاب: فدَمَّ المنظر، مُضْطَرِرُّ الخلق، طويلُ العُنُون، فقال: لأن يكون هذا فَنُطَاسٌ مُرَكَّبٌ أَشْبَهُ مِنْ أَنْ يَكُونَ كَاتِبًا.

فإذا اجتمعت للكاتب هذه الخلال، وانتظمت فيه هذه الخصال، فهو الكاف البليغ، والأديب التحرير، وإن قصرت به آلة من هذه الآلات، وقعدت به

أداة كل هذه الأدوات، فهو منقوص الجمال منكشف الحس، مبخوس النصب.

ما ينبغي للكاتب أن يأخذ به نفسه

قال إبراهيم الشيباني: أول ذلك حُسن الخط الذي هو لسان اليد، وبهجة الضمير، وسفير العقل، ووحي الفكرة، وسلاح المعرفة، وأنس الإخوان عند الفرقة ومحادثتهم على بُعد المسافة، ومُستودع السرّ، وديوان الأمور. ولست أجد لحسن الخط حداً أقف عليه أكثر من قول عليّ بن ربن، النصراني الكاتب، فإني سألته واستوصفته الخطّ، فقال: أعلمك الخطّ في كلمة واحدة، فقلت له: تفضّل بذلك فقال: لا تكتب حرفاً حتى تستفرغ مجهودك في كتابة الحرف، وتجعل في نفسك إنك تكتب غيره حتى تعجز عنه، ثم تنتقل، إلى ما بعده. وإياك والنقطة والشكل في كتابك إلا أن تمر بالحرف المعضل الذي تعلم أن المكتوب إليه يعجز عن استخراجه فإني سمعتُ سعيد بن حميد بن عبد الحميد، الكاتب يقول: لأن يُشكل الحرف عن القارئ أحبُّ إليّ من أن يُعبأ الكتاب بالشكل. وكان المأمون يقول: إياكم والشونيز في كتبكم - يعني النقطة والإعجام. ومن ذلك أن يصلح الكاتب آتته التي لا بُدَّ منها، وأداته التي لا تتم صناعته إلا بها، مثل دواته، فليُنعم ربّها وإصلاحها، وليتخير من أنابيب القصب أقله عُقدًا، وأكثره لِحماً، وأصلبه قشراً، وأعدله استواءً، ويجعل لقرطاسه سكيناً حاداً لتكون عوناً له على بري أقلامه، ويبريها من ناحية نبات القصب. وأعلم أن محلّ القلم من الكاتب كمحلّ الرمح من الفارس.

قال العتّابي: سألتني الأصمعي يوماً في دار الرّشيد: أيّ الأنابيب للكتابة أصلح وعليها أصبر؛ فقلت له: ما نشف بالهجير ماؤه، وسره عن تلوّجه غشاؤه، من التبرية القشور، الذرية الظهور، الفضية الكسور. قال: فأني نوع من البري أصوب وأكتب؟ فقلت: البرية المستوية القطعة، التي عن يمين سنّها قرنة تأمن معها المجة عند المدة والمطة، للهواء في شقّها فتيق، والريح في جوفها خريق، والمداد في خرطومها رقيق. قال العتّابي: فبقي الأصمعي شاخصاً إليّ ضاحكاً لا يُحير مسألة ولا جواباً.

ولا يكون الكاتب كاتباً حتى لا يستطيع أحدٌ تأخير أول كتابه وتقديم آخره. وأفضل الكتاب ما كان في أول كتابته دليل على حاجته، كما أن أفضل الأبيات ما دلّ أول البيت على قافيته. فلا تُطيلن صدر كتابك إطالة تُخرجه عن حده، ولا تُقصر به دون حده، فإنهم قد كرهوا في الجملة أن تزيد صدور كتب الملوك على سطرين أو ثلاثة أو ما قارب ذلك.

وقيل للشعبي: أي شيء تعرف به عقل الرجل؟ قال: إذا كتب فأحاد. وقال الحسن بن وهب: الكاتب نفس واحدة تجزأت في أبدان متفرقة.

فأما الكاتب المستحق اسم الكتابة، والبلغ المحكوم له بالبلاغة، من إذا حاول صيغة كتاب سالت عن قلمه عيون الكلام من يبايعها، وظهرت من معادها، وبدرت من مواطنها، من غير استكراه ولا اغتصاب.

بلغني أن صديقاً لكلثوم العتّابي أتاه يوماً فقال له: اصنع لي رسالة، فاستعدت مدة ثم علّق القلم، فقال له صاحبه: ما أرى بلاغتك إلا شاردة عنك. فقال له العتّابي: إني لما تناولت القلم تداعت عليّ المعاني من كل جهة، فأحببت أن أترك كل معنى حتى يرجع إلى موضعه ثم أحتج لك أحسنها. قال أحمد بن محمد: كنت عند يزيد بن عبد الله أخي ذبيان، وهو يملي عليّ كتاب له، فأعجل الكاتب وذارك في الإملاء عليه، فتلجلج لسان قلم الكاتب عن تقييد إملائه، فقال له: اكتب يا حمار. فقال له الكاتب: أصلح الله الأمير، إنه لما هطلت شايب الكلام وتدافعت سيوله على حرف القلم، كل القلم عن إدراك ما وجب عليه تقييده. فكان حضور جواب الكاتب أبلغ من بلاغة يزيد. وقال له يوماً وقد مطّ حرفاً في غير موضعه: ما هذا؟ قال: طغيان في القلم.

فإن كان لا بُدّ لك من طلب أدوات الكتابة فتصفح من رسائل المتقدمين ما

يعتمد عليه، ومن رسائل المتأخرين ما يرجع إليه، ومن نواذر الكلام ما تستعين به، ومن الأشعار والأخبار والسير والأسمار ما يتسع به منطقتك، ويطول به قلمك، وانظر في كتب المقامات والخطب، ومجاوبة العرب، ومعاني العجم، وحُدود المنطق، وأمثال الفرس ورسائلهم وعهودهم وسيرهم ووقائعهم ومكايدهم في خروبهم، والوئائق والصور وكتب السجلات والأمانات، وقرض الشعر الجيد، وعلم العروض، بعد أن تكون متوسّطاً في، علم النحو

والغريب، لتكون ماهرًا تنتزعُ آي القرآن في مواضعها، والأمثال في أماكنها، فإن تضمين المثل السائر، والبيت الغابر البارع، مما يزين كتابك، ما لم تُخاطب خليفة أو ملكًا جليل القدر، فإن اجتلاب الشعر في كتب الخلفاء عيبٌ، إلا أن يكون الكاتب هو القارض للشعر والصانع له، فإن ذلك يزيد في أبيهته.

خبر حائك الكلام

أبو جعفر البغدادي قال: حدثنا عثمان بن سعيد قال: لما رجع المعتصم من النعمر وصار بناحية الرقة، قال لعمر بن مسعدة: ما زلت تسألني في الرُحجي حتى وليته الأهواز، فقعد في سره الدنيا يأكلها خضما وقضمًا؛ ولم يوجه إلينا بدرهم واحد. اخرج إليه من ساعتك. فقلت في نفسي: أبعده الوزارة أصيرُ مُحسِنًا على عامل خراج! ولكن لم أجد بداً من طاعة أمير المؤمنين، فقلت: أخرج إليه يا أمير المؤمنين. فقال: حلف لي أنك لا تقيم ببغداد إلا يوماً واحداً. فحلفت له، ثم انحدرت إلى بغداد، فأمرت ففرش لي زورق بالطبري وغشي بالسُّلج، وطرح عليه الكر. ثم خرجت، فلما صرت بين دَيْرِ هِزْلٍ ودَيْرِ العاقول إذا رجل يصيح: يا ملاح، رجل منقطع. فقلت للملاح: قَرِّب إلى الشَّط. فقال: يا سيدي، هذا شَحَاد، فإن قعد معك آذاك. فلم ألتفت إلى قوله، وأمرت الغلمان فأدخلوه، فقعد في كوثل الزورق. فلما حضر وقت الغداء عزم أن أدعوه إلى طعامي، فدعوته، فجعل يأكل أكل جائع بنهامة إلا أنه نظيف الأكل. فلما رفع الطعام أردت أن يستعمل معي ما يستعمل العوام مع الخواص: أن يقوم فيغسل يده في ناحية، فلم يفعل، فعمزه الغلمان فلم يقيم، فتنشأغلت عنه ثم قلت؟ يا هذا، ما صناعتك قال: حائك: فقلت في نفسي: هذه شر من الأولى. فقال لي: جعلت فداك، قد سألتني عن صناعتني فأحيرتُك، فما صناعتك أنت؟ قال: فقلت في نفسي: هذه أعظم من الأولى، وكرهت أن أذكر له الوزارة، فقلت: اقتصر له على الكتابة، فقلت: كاتب. قال: جعلت فداك، الكتاب على خمسة أصناف: فكتاب رسائل يحتاج إلى أن يعرف الفصل من الوصل، والصُدور، والتَّهاني، و التَّعازي، والترغيب والترهيب، والمقصود والممدود، وجملاً من العربية؛ وكاتب خراج يحتاج إلى أن يعرف الزرع والمساحة، والأشغال والسطوق، والتقسيم، والحساب؛ وكاتب جند يحتاج إلى أن يعرف مع الحساب الأطماع، وشيات الدواب، وحلى الناس؛ وكاتب قاض يحتاج إلى أن يكون عالماً بالشروط والأحكام والفروع والناسخ والمنسوخ والحلال والحرام والمواريث؛ وكاتب شرطة يحتاج إلى أن يكون عالماً بالجروح والقصاص والعقول والدييات. فأيهم أنت أعزك الله؟ قال: قلت: كاتب رسائل. قال: فأخبرني إذا كان لك صديق تكتب إليه في المحبوب والمكروه وجميع الأسباب، فتزوجت أمه، فكيف تكتب له، أهتبه أم تُعزِّيه؟ قلت: والله ما أقف على ما تقول. قال: فلست بكتاب رسائل، فأيهم أنت؟ قلت: كاتب خراج. قال: فما تقول أصلحك الله وقد ولاك السلطان عملاً فبثت عمالك فيه، فجاءك قوم يتطلّمون من بعض عمالك، فأردت أن تنظر في أمورهم، وتُصنّفهم إذا كنت تُحبّ العدل والبر، وتؤثر حُسن الأحذوثة وطيب الذكر، وكان لأحدهم قَرّاح، كيف كنت تمسحه؟ قال: كنت أضرب العُطوف في العمود، وأنظر كم مقدار ذلك. قال: إذن تظلم الرجل. قلت: فامسح العمود على حدة. قال: إذا تظلم السلطان. قلت: والله ما أدري. قال: فلست بكتاب خراج، فأيهم أنت؟ قلت: كاتب جند. قال: فما تقول في رجلين اسم كل واحد منهما أحمد، أحدهما مقطوع الشفة العليا والآخر مقطوع الشفة السفلى، كيف كنت تكتب حليتهما؟ قال: كنت أكتب، أحمد الأعلم وأحمد الأعم. قال: كيف يكون هذا ورزق هذا ما تنا درهم ورزق هذا ألف درهم، فيقبض هذا على دعوة هذا، فتظلم صاحب الألف! قلت: والله ما أدري. قال: فلست بكتاب جند، فأيهم أنت؟ قلت: كاتب قاض. فما قال: فما تقول أصلحك الله في رجل ثوبي وخلف زوجة وسريّة، وكان للزوجة بنت وللسريّة ابن، فلما كان في تلك الليلة أخذت الحرّة ابن السريّة فادعته، وجعلت ابنتها مكانه، فتنازعا فيه، فقالت هذه: هذا ابني، وقالت هذه: هذا ابني، كيف تحكم بينهما وأنت خليفة القاضي؟ قلت: والله لمست أدري. قال: فلست بكتاب قاض، فأيهم أنت؟ قلت: كاتب شرطة. قال: فما تقول: أصلحك الله في رجل وثب على رجل فشجّه شجة موضحة، فوثب عليه المشجوج فشجّه شجة مأمومة؛ قلت: ما أعلم. ثم قلت: أصلحك الله، قد سألت ففسر لي ما ذكرت. قال: أما الذي تزوجت أمه فتكتب إليه: أما بعد، فإن أحكام الله تجري بغير محاب المخلوقين والله يختار للعباد، فخار الله لك في قبضها إليه، فإن القبر أكرم لها، والسلام؛ وأما القراح، فتضرب واحداً في مساحة العُطوف، فمن ثمّ أباه، وأما أحمد وأحمد، فتكتب حلية المقطوع الشفة العليا: أحمد الأعلم، والمقطوع الشفة السفلى، أحمد الأشرم، وأما المرأتان، فيوزن لبن هذه ولبن هذه، فأيهما كان أخف فهي صاحبة البنت؛ وأما الشجة، فإن في الموضحة خمساً مني

الإبل، وفي المأمومة ثلاثاً وثلاثين وثلاثاً، فبرّد صاحب المأمومة ثمانية وعشرين وثلاثاً. قلت: أصلحك الله، فلا نزع بك إلى هنا؟ قال: ابن عمّ لي كان عاملاً على ناحية، فخرجتُ إليه فألفيته معزولاً، ففقطع بي، فأنا خارج أضطرب في المعاش. قلت: ألسنتَ ذكرت أنك حائك؟ قال: أنا أحوك الكلام ولستُ بحائك الثياب. قال: فدعوتُ المزِين فأخذ من شعره، وأدخل الحَمَامَ فطرحته عليه شيئاً من ثيابي. فلما صرتُ إلى الأهواز كلمتُ الرخحيّ فأعطاه خمسة آلاف درهم ورجع معي، فلما صرتُ إلى أمير المؤمنين، قال: ما كان من خبرك في طريقك؟ فأخبرته خبري حتى حدّثته حديث الرجل. فقال لي: هذا لا يُستغنى عنه، فلاي شيء يصلح؛ قلت: هذا أعلم الناس بالمساحة والهندسة. قال: فولاه أمير المؤمنين البناء والمِرْمَة. فكنْتُ والله ألقاه في الموكب النبيل فينحطّ عن دابته، فأحلف عليه، فيقول: سبحان الله! إنما هذه نعمتك، وبك أددتها.

فضائل الكتابة

قالت أبو عثمان الجاحظ: ما رأيتُ قوماً أنفذ طريقةً في الأدب من هؤلاء الكُتّاب، فإهم التمسوا من الألفاظ ما لم يكن متوعراً وحشياً، ولا ساقطاً سُوقياً. وقال بعضُ المهالبة لبنيه: تزوّوا بزِيّ الكُتّاب فإنهم جمّعوا أدب الملوك وتواضع السوقة. وعتب أبو جعفر المنصور على قوم من الكُتّاب فأمر بحبسهم، فرفعوا إليه رُقعة ليس فيها إلا هذا البيت:

فَهَبْنَا لِلْكَرَامِ الْكَاتِبِينَ

ونحنُ الكاتِبون وقد أسأنا

فعفا عنهم وأمر بتخلية سبيلهم.

وقال المؤيد: كُتّاب الملوك عُيُونهم الناظرة، وآذانهم الواعية، وألسنتهم الناطقة. والكتابة أشرفُ مراتب الدنيا بعد المخالفة، وهي صناعةٌ حليلة تحتاج إلى آلات كثيرة. وقال سهل بن هارون: الكتابة، أولُ زينة الدنيا التي إليها يتناهى الفضل، وعندها تقف الرُغبة.

ما يجوز في الكتابة وما لا يجوز فيها

قال إبراهيم بن محمد الشيباني: إذا احتجت إلى مخاطبة الملوك والوزراء والعلماء والكُتّاب والخطباء والأدباء والشُعراء وأوساط الناس وسُوقتهم، فخطب كلاً على قدر أجمته وجلالته، وعلوه وارتفاعه، وفطنته وانتباهه. واجعل طبقات الكلام على ثمانية أقسام؛ منها: الطبقات العلية أربع، والطبقات الآخرة، وهي دوفها، أربع؛ لكل طبقة منها درجة، ولكل قسّمها، لا ينبغي للكاتب البليغ أن يقصّر بأهلها عنها ويقلب معناها إلى غيرها. فالحدّ الأول: الطبقات العُليا، وغايتها القصوى الخِلافة، التي أحلّ الله قدرها وأعلى شأنها عن مساواتها بأحد من أبناء الدنيا في التعظيم والتوقير؛ والطبقة الثانية لوزرائها وكتّابها الذين يُخاطبون الخلفاء بعقولهم وألسنتهم، ويرتقون الفتوق بأرائهم؛ والطبقة الثالثة أمراء تُغورهم وقواد جُنودهم، فإنه تجب مخاطبة كل أحد منهم على قدره وموضع، وحظّه وغنائه وإجزائه، واضطلاعهم بما حمل من أعباء أمورهم وجلال أعمالهم؛ والرابعة القضاة، فإنهم وإن كان لهم تواضع العلماء، وحلية الفضلاء، فمعهم أمة السُلطنة وهيبة الأمراء. وأما الطبقات الأربع الآخرة فهم: الملوك الذين أوجبت نعمهم تعظيمهم في الكُتّب إليهم، وأفضالهم تفضيلهم فيها؛ والثانية وزراؤهم وكتّابهم وأتباعهم الذين بهم، تُقرع أبوابهم، وبعناياتهم تُستباح أموالهم؛ والثالثة هم العلماء الذين، يجب توقيرهم في الكُتّب بشرف العلم وعلو درجة أهلها؛ والطبقة الرابعة لأهل القدر والجلالة، والحلاوة والطلاوة، والظرف والأدب، فإنهم يضطرونك بحدّة أذهانهم، وشدة تمييزهم وانتقادهم، وأدهم وتصفحهم، إلى الاستقصاء على نفسك في مكاتبتهم. واستغينا عن الترتيب للسوقة والعوامّ والتجار باستغنائهم بمهانتهم عن هذه الآلات، واشتغالهم بمهاتهم عن هذه الأدوات. ولكل طبقة من هذه الطبقات معان ومذاهب يجب عليك أن ترعاها في مراسلتك إياهم في كتبك، فترن كلامك في مخاطبتهم بميزانه، وتعطيه قسّمه، وتؤقيه نصيبه؛ فإنك متى أهملت ذلك وأضعته لم آمن عليك أن تعدل بهم عن طريقهم، وتسلك بهم غير مسلكتهم، ويجرى شعاع بلاغتك في غير مجراه، وتنظّم جوهر كلامك في غير سلكه. فلا تعتدّ بالمعنى الجزل ما لم تُلبسه لفظاً لا تقا لمن كاتبته، ومثلتاً بمن راسلته، فإنّ لباسك المعنى، وإن صحّ وشرف، لفظاً متخلفاً عن قدر المكتوب إليه لم تجر به عاداتهم، تهجين للمعنى، وإحلال بقدره، وظلم بحق المكتوب إليه، ونقص مما يجب له؛ كما أن في إتباع تعارفهم، وما انتشرت به عادتهم، وجرت به سنتهم، قطعاً لعُدّتهم، وخروجاً من حقوقهم، وبلوغاً إلى غاية مُرادهم، وإسقاطاً لحُجة أدهم. فمن الألفاظ المرغوب عنها، والصُدور المستوحش منها

في كتب السادات والملوك والأمراء، على اتفاق المعاني، مثل: أبقاك الله طويلاً، وعَمَّرَكَ مَلِيًّا. وإن كُنَّا نعلم أنه لا فرق بين قولهم: أطال الله بقاءك، وبين قولهم: أبقاك الله طويلاً. ولكنهم جعلوا هذا أَرْحَحَ وَزَنًا، وأنبه قدرًا في المُخاطبة. كما أتتهم جعلوا: أكرمك الله، وأبقاك، أحسن منزلاً في كتب الفضلاء والأدباء، من: جُعِلت فداك، على اشتراك معناه، واحتمال أن يكون فداؤه من الخير، كما يحتمل أن يكون فداؤه من الشر؛ ولولا أن رسول الله صلى الله عليه وسلم قال لسعد بن أبي وقاص: أرم فداك أبي وأمي، لكرهنا أن يَكْتُبَ بها أحد. على أن كُتِبَ العسكر وعوامهم قد ولعوا بهذه اللفظة حتى استعملوها في جميع مُحاوراتهم، وعلوها هَجِيرَاهم في مخاطبة الشريف والوضيع، والكبير والصغير. وذلك قال محمود الوراق:

وَمَنْ قَدْ يُدَاخِلُ الْأَمَلَاكَ

قَالَ لِلْكَأَبِ يَا جُعِلْتَ فِدَاكَ

كُلُّ مَنْ حَلَّ سُرٌّ مَنْ نَرَى مِنَ النَّاسِ

لَوْ رَأَى الْكَأَبُ مَائِلًا بِطَرِيقِ

وكذلك لم يجيزوا أن يكتبوا بمثل، أبقاك الله، وأمتع بك، إلا في الابن والخادم المنقطع إليك؛ وأما في كتب الإخوان، فغير جائز بل مذموم مرغوب عنه. ولذلك كتب عبد الله بن طاهر إلى محمد بن عبد الملك الزيات:

أَمْ نَلْتَمَسُ مُلْكَاً فَتَهْتَبُ فِي كُتُبِكَ

إِخْوَانٍ نَقَصاً عَلَيْكَ فِي أَدْبِكَ

يَكُونُ فِي صَدْرِهِ: وَأَمْتَعَكَ بِكَ

حَسْبُكَ مَا قَدْ لَقِيتَ فِي تَعْبِكَ

أَحْلَيْتَ عَمَّا عَهَدْتُ مِنْ أَدْبِكَ

أَمْ قَدْ تَرَى أَنَّ فِي مَلَاظِفَةِ الْ

أَكَانَ حَقًّا كِتَابُ ذِي مِقَّةِ

أَتَعَبْتَ كَفَيْكَ فِي مُكَاتِبَتِي

فكتب إليه محمد بن عبد الملك الزيات:

وَكُلُّ شَيْءٍ أَنْالُ مِنْ سَبِيبِكَ

وَلَنْ تَرَاهُ يُحِطُّ فِي كُتُبِكَ

فَعُدُّ بِفَضْلِ عَلِيٍّ مِنْ حَسْبِكَ

يَعِيشُ حَتَّى الْمَمَاتِ فِي أَدْبِكَ

كَيْفَ أَخُونُ الْإِخَاءِ يَا أَمَلِي

أَنْكَرْتَ شَيْئاً فَلَسْتُ فَاعِلُهُ

إِنْ يَكُ جَهْلٌ أَتَاكَ مِنْ قِبَلِي

فَاعْفُ فِدَتَكَ النَّفُوسَ عَنْ رَجُلٍ

ولكلِّ مَكْتُوبٍ إِلَيْهِ قَدْرٌ وَوَزَنٌ، يَنْبَغِي لِلْكَاتِبِ أَلَّا يَتَجَاوَزَ بِهِ عَنْهُ، وَلَا يُقَصِّرَ بِهِ دُونَهُ. وقد رأيتهم عَابُوا الْأَحْوَصَ حِينَ خَاطَبَ الْمَلُوكَ خُطَابَ الْعَوَامِّ فِي قَوْلِهِ:

مَذَّقِ الْحَدِيثَ يَقُولُ مَا لَا يَفْعَلُ

وَأَرَاكَ تَفْعَلُ مَا تَقُولُ وَبَعْضَهُمْ

وهذا معنى صحيح في المدح، ولكنهم أجلوا قدر الملوك أن يُمدحوا بما تُمدح به العوام؛ لأنَّ صِدْقَ الْحَدِيثِ وَإِنْجَازَ الْوَعْدِ وَإِنْ كَانَ مِنَ الْمَدْحِ فَهُوَ وَاجِبٌ عَلَى الْعَامَّةِ، وَالْمَلُوكُ لَا يُمدحون بالفرائض الواجبة، إِنَّمَا يَحْسَنُ مَدْحُهُمْ بِالتَّوَافُلِ، لِأَنَّ الْمَادِحَ لَوْ قَالَ لِبَعْضِ الْمَلُوكِ: إِنَّكَ لَا تَزُنِي بِجَلِيلَةِ حَارِكَ، وَإِنَّكَ لَا تَخُونُ مَا اسْتَوْدَعْتَ، وَإِنَّكَ لِتَصَدِّقَ فِي وَعْدِكَ وَتَفِي بِعَهْدِكَ، فَكَأَنَّهُ قَدْ أَتَى. بما يجب، ولو قَصِدَ بِنِثَائِهِ إِلَى مَقْصَدِهِ كَانَ أَشْبَهَ فِي الْمَلُوكِ. ونحن نعلم أن كل أمير يتولَّى من أمر المؤمنين شيئاً فهو أمير المؤمنين، غير أنهم لم يُطلقوا هذه اللفظة إلا على الخلفاء خاصة. ونحن نعلم أن الكيس هو العاقل، لكن لو وصفت رجلاً فقلت: إنه لعاقل، كنت مدحته عند الناس، وإن قلت: إنه لكيس، كنت قد قَصَّرْتُ بِهِ عَنْ وَصْفِهِ وَصَغَّرْتُ مِنْ قَدْرِهِ، إِلَّا عِنْدَ أَهْلِ الْعِلْمِ بِاللُّغَةِ؛ لِأَنَّ الْعَامَّةَ لَا تَلْتَفِتُ إِلَى مَعْنَى الْكَلِمَةِ، وَلَكِنْ إِلَى مَا جَرَتْ بِهِ الْعَادَةُ مِنْ اسْتِعْمَالِهَا فِي الظاهر، إِذْ كَانَ اسْتِعْمَالُ الْعَامَّةِ لِهَذِهِ الْكَلِمَةِ مَعَ الْحِدَاثَةِ وَالغَرَّةِ وَخَسَاسَةِ الْقَدْرِ وَصِغَرِ السِّنِّ. وقد روينا عن عليٍّ كرم الله وجهه أنه تسمَّى بالكيس حين بنى سجن الكوفة، فقال في ذلك:

بَنِيْتُ بَعْدَ نَافِعٍ مُخَيَّسًا

أَمَا تَرَانِي كَيْسًا مُكَيَّسًا

وقال الشاعر:

مَا يَصْنَعُ الْأَحْمَقُ الْمَرْزُوقُ بِالْكَئِيسِ

وكذلك نعلم أن الصلاة رحمة، غير أنهم كرهوا الصلاة إلا على الأنبياء، كذلك روينا عن ابن عباس. وسمع سعد بن أبي وقاص ابن أخ له يلبي ويقول في تلبيته: لَبَّيْكَ يَا ذَا الْمَعَارِجِ، فقال: نحن نعلم أنه ذو المعارج، ولكن ليس كذا كُنَّا نلبي على عهد رسول الله صلى الله عليه وسلم، إنما كُنَّا نقول: لَبَّيْكَ اللَّهُمَّ لَبَّيْكَ. وكان أبو إبراهيم المُرِّي يقول في بعض ما خاطب به داود ابن خَلْفِ الْأَصْبَهَانِيِّ: فَإِنْ قَالَ كَذَا فَقَدْ خَرَجَ عَنِ الْمَلَّةِ، وَالْحَمْدُ لِلَّهِ. فنقض ذلك عليه داود، وقال فيما ردَّ عليه: تَحْمَدُ اللَّهُ عَلَى أَنْ تُخْرِجَ امْرَأً مُسْلِمًا مِنَ الْإِسْلَامِ، وَهَذَا مَوْضِعُ اسْتِرْجَاعٍ، وَلِلْحَمْدِ مَكَانٌ يَلِيْقُ بِهِ! وَإِنَّمَا يُقَالُ فِي الْمُصِيبَةِ: إِنَّا لِلَّهِ وَإِنَّا إِلَيْهِ رَاجِعُونَ.

فامتثل هذه المذاهب، واجر على هذه القواعد، وتحفظ في صدور كُتُبِكِ وفصولها وخواتمها، وضع كل معنى في موضع يليق به، وتخير لكل لفظة معنى يشاكلها، وليكن ما تختتم به فصولك في موضع ذكر البَلْوَى بمثل: نَسَأَلُ اللَّهَ دَفْعَ الْمَحْذُورِ، وَصَرَفَ الْمَكْرُوهِ، وَأَشْبَاهَ هَذَا؟ وَفِي مَوْضِعِ ذِكْرِ الْمُصِيبَةِ: إِنَّا لِلَّهِ وَإِنَّا إِلَيْهِ رَاجِعُونَ؟ وَفِي مَوْضِعِ ذِكْرِ النَّعْمَةِ: الْحَمْدُ لِلَّهِ خَالِصًا وَالشُّكْرُ لِلَّهِ وَاجِبًا. فَإِنْ هَذِهِ الْمَوَاضِعُ يَجِبُ عَلَى الْكَاتِبِ أَنْ يَتَفَقَّهَهَا وَيَتَحَفَّظَ فِيهَا؛ فَإِنَّ الْكَاتِبَ إِذَا صَبَرَ كَاتِبًا بَانَ يَضَعُ كُلَّ مَعْنَى فِي مَوْضِعِهِ، وَيَعْلُقُ كُلَّ لَفْظَةٍ عَلَى طَبَقَتِهَا مِنَ الْمَعْنَى. وَاعْلَمْ أَنَّهُ لَا يَجُوزُ فِي الرِّسَالَةِ اسْتِعْمَالُ مَا أَتَتْ بِهِ أَيُّ الْقُرْآنِ مِنَ الْاِقْتِصَارِ وَالْحَذْفِ، وَمَخَاطَبَةُ الْخَاصِّ بِالْعَامِّ وَالْخَاصِّ بِالْخَاصِّ، لِأَنَّ اللَّهَ جَلَّ ثَنَاؤُهُ خَاطَبَ الْقُرْآنَ قَوْمًا فَصَحَاءَ فَهَمُّوا عَنْهُ جَلَّ ثَنَاؤُهُ أَمْرَهُ وَنَهْيَهُ وَمُرَادَهُ، وَالرِّسَالَةَ إِذَا يُخَاطَبُ بِمَا أَقْوَامٌ دَخَلُوا عَلَى اللُّغَةِ، لَا عِلْمَ لَهُمْ بِلِسَانِ الْعَرَبِ. وَكَذَلِكَ يَنْبَغِي لِلْكَاتِبِ أَنْ يَحْتَنِبَ اللَّفْظَ الْمَشْتَرِكَ وَالْمَعْنَى الْمَلْتَبَسَ، فَإِنَّهُ إِذْ ذَهَبَ يُكَاتِبُ عَلَى مِثْلِ مَعْنَى قَوْلِ اللَّهِ تَعَالَى: "وَاسْأَلِ الْقَرْيَةَ الَّتِي كُنَّا فِيهَا وَالْعَيْرَ الَّتِي أَقْبَلْنَا فِيهَا" وَكَقَوْلِهِ تَعَالَى: "بَلْ مَكْرُ اللَّيْلِ وَالنَّهَارِ"، أَحْتَاجُ الْكَاتِبُ أَنْ يُبَيِّنَ مَعْنَاهُ: بَلْ مَكْرَهُمُ بِاللَّيْلِ وَالنَّهَارِ، وَمِثْلُ هَذَا كَثِيرٌ لَا يَتَسَعُ الْكِتَابُ لَذِكْرِهِ. وَكَذَلِكَ لَا يَجُوزُ أَيْضًا فِي الرِّسَالَةِ وَالْبَلَاغَاتِ الْمَشْهُورَةِ مَا يَجُوزُ فِي الْأَشْعَارِ الْمَوْزُونَةِ، لِأَنَّ الشَّاعِرَ مُضْطَرٌّ، وَالشَّعْرَ مَقْصُورٌ مَقْيَّدٌ بِالْوِزْنِ وَالْقَوَافِي، فَلِذَلِكَ أَجَازُوا لَهُمْ صَرَفَ مَا لَا يَنْصَرَفُ مِنَ الْأَسْمَاءِ، وَحَذْفَ مَا لَا يُحْذَفُ مِنْهَا، وَاعْتَفَرُوا فِيهِ سَوْءَ النِّظْمِ، وَأَجَازُوا فِيهِ التَّقْدِيمَ وَالتَّأَخِيرَ، وَالْإِضْمَارَ فِي مَوْضِعِ الْإِظْهَارِ، وَذَلِكَ كُلُّهُ غَيْرُ مُسْتَسَاغٍ فِي الرِّسَالَةِ وَلَا جَائِزٌ فِي الْبَلَاغَاتِ. فَمَا أَحْبَبَ فِي الشَّعْرِ مِنَ الْحَذْفِ مِثْلَ، قَوْلِ الشَّاعِرِ:

قَوَاطِنًا مَكَّةَ مِنْ وُرُقِ الْحَمَى يَعْنِي الْحَمَامِ

وقول الآخر:

صِفِرِ الْوِشَاحِينَ صَمَوْتَ الْخَلْخَلِ يَرِيدُ: الْخَلْخَالِ

وكقول الآخر:

دَارَ لَسَلَمَى إِذْ مِنْ هَوَاكَ يَرِيدُ: إِذْ هِيَ

وكقول الحطيطية:

فِيهَا الرِّمَاحُ وَفِيهَا كُلُّ سَابِغَةٍ

يريد: سليمان. وكقول الآخر:

مَنْ نَسَجَ دَاوُدَ أَبِي سَلَامٍ

أراد: عثمان بن عفان. وكما قال الآخر:

جَدَلَاءُ مَسْرُودَةٍ مِنْ صُنْعِ سَلَامٍ

وَالشَّيْخُ عُثْمَانُ أَبِي عَفَانَ

وسائلة بتعلبة بن سير

وأراد: تعلبة بن سير. وكما، قال الآخر:

ولست بآتيه ولا أستطيعه

أراد: ولكن.

وكذلك لا ينبغي في الرسائل أن يُصغَّر الاسم في موضع التَّعْظِيم، وإن كان ذلك جائزاً، مثل قولهم: دُويهيّة، تصغير داهية. وجُدِّل، تصغير جدل. وعُدِّيق، تصغير عَدَق. وقال الشاعر، هو لبيد:

وكل أناس سوف تدخل بينهم

دُويهيّة تصقّر منها الأنامل

وقال الحُباب بن المُنذر، يومَ سَقِيفَةِ بني ساعدة: أنا عُدِّيقها المُرَجَّب، وجُدِّلها المُحَكِّك. وقد شرحه أبو عبيد.

ومما لا يجوز في الرِّسائل وكرهوه في الكلام أيضاً مثل قولهم: كَلَمْتُ إِيَّاكَ، وأعني إِيَّاكَ، وهو جائز في الشعر. وقال الشَّاعر:

وأحسِنُ وأجْمِلُ في أسيرك إنّه

ضعيفٌ ولم يأسِرِ كإيالك أسرُ

وقال الراجز:

إيالك حتى بلغت إيالك

فتخيّر من الألفاظ أرححها لفظاً، وأجزّلها معنى، وأشرفها جوهرًا، وأكرمها حسبًا، وأليقها في مكانها، وأشكلها في موضعها؛ فإن حاولت صنعة رسالة فزِنِ اللَّفْظَةَ قَبْلَ أَنْ تُخْرِجَهَا بِمِيزَانِ التَّصْرِيفِ إِذَا عَرَضَتْ، وعَايِرِ الكَلِمَةَ بِمِيعَارِهَا إِذَا سَنَحَتْ، فإنه ربما مرَّ بك موضعٌ يكون مخرج الكلام إذا كتبت: أنا فاعل، أحسن من أن تكتب: أنا أفعل، وموضع آخر يكون فيه: استفعلت، أحلى من: فعلت. فأدر الكلام على أماكنه، وقبِّله على جميع وجوهه، فأَيِّ لَفْظَةٍ رَأَيْتَهَا أَحْفَ فِي المَكَانِ

الذي نديتها إليه، وأنزَع إلى الموضع الذي راودتها عليه، فأوقِعها فيه، ولا تجعل اللَّفْظَةَ قَلِقَةً فِي مَوْضِعِهَا، نَافِرَةً عَنِ مَكَانِهَا، فَإِنَّكَ مَتَى فَعَلْتَ هَجَنْتَ المَوْضِعَ الَّذِي حَاولْتَ تَحْسِينَهُ، وَأفْسَدْتَ المَكَانَ الَّذِي أَرَدْتَ إِصْلَاحَهُ؛ فَإِنَّ وَضْعَ الأَلْفَافِ فِي غير أماكنها، وقَصْدَكَ بِهَا إِلَى غير مُصَابِهَا، وإنما هو كترقيع الثوب الذي لم تتشابه رقاعه، ولم تتقارب أجزاءه، فخرج من حدِّ الجِلْدَةِ، وتغيّر حُسْنُهُ، كما قال الشاعر:

إنَّ الجديدَ إذا ما زيدَ في خَلْقِ

تَبَّنَ النَّاسُ أَنَّ الثَّوبَ مَرَقُوعٌ

وكذلك كلما احلولى الكلامُ وعَدَّبُ وراق وسَهَّلْتَ مَخارِجَهُ كانَ أَسْهَلَ وُلُوجاً فِي الأَسْماعِ، وَأَشَدَّ اتِّصَالاً بِالقُلُوبِ، وَأَحْفَ عَلَى الأَفْوَاحِ؛ لا سِيَّما إِذا كانَ المَعْنى البَدِيعَ مُتَرَجِّمًا بِلَفْظِ مَوْنِقِ شَرِيفٍ، ومُعَايِرًا بِكَلَامِ عَدْبٍ لَمْ يَسِمَهُ التَّكْلِيفَ بِمِيسَمِهِ، وَلَمْ يُفْسِدْهُ التَّعْقِيدَ بِاسْتِغْلَاقِهِ. وَكُتِبَ عَيْسَى بِنَ لَهْيِيعَةَ إِلَى أَحْيِهِ أَبِي الحَسَنِ وَزَوَّرَ كَلَامَهُ وَجَاوَزَ المِقْدَارَ فِي التَّنَطُّعِ، فَوَقَعَ فِي أَسْفَلِ كِتَابِهِ:

أني يكون بليغاً

من اسمه كان عينا

وثالثُ الحرف منه

أدَّى كفيته ميساً

قال: وبلغني أن بعض الكتَّاب عاد بعضَ الملوك فوجده يئن من علة، فخرج عنه ومرَّ بباب الطاق، فإذا بطيرٍ يدعى الشَّفانين، فاشتراه وبعث به إليه، وكتب كتاباً وتنطع في بلاغته: وتذكر أنه يقال له شَفانين، أرجو أن يكون شفاءً من أنين. فرفع في أسفل الكتاب: والله لو عطست ضباً ما كنت عندنا إلا نبطياً، فاقصر عن تنطعك، وسهَّل كلامك.

قوله: لو عطست ضباً، يريد أن الضباب من طعام الأعراب وفي بلدهم؛ فقال: لو عطست فنثرت ضباً من عطاسك لم تُلحَق بالأعراب ولم تكن إلا نَبْطِيًّا. وقد جاء في بعض الحديث: إن القِطَّ من نثرة عطسة الأسد، وإن الفأر من نثرة عطسة الخنزير. فقال هذا: لو أن الضب من نثرتك لم تكن إلا نبطياً. وفي هذا المعنى قال مغلل الموصلي يهجو حبيبا:

ليس في ذلك كلامٌ
ك خُزَامِي وَثُمَامِ
وَنَوَاصِيكَ تَغَامِ
وَك نَبْعَ وَبَشَامِ
جَفَلْتَ مِنْكَ نَعَامِ
ت وَيَرَابِيْعَ عِظَامِ
حَبِذَا ذَاكَ الْحَمَامِ
كَذَّبْنِي فِيكَ الْأَنَامِ
عَرَقْتَ فِيهِ الْكِرَامِ
مَنْ بَنِي الْأَنْبَاطِ حَامِ
إِلَّا عَرَبِيٍّ وَالسَّلَامِ

أنت عندي عربيٌّ
شَعْرُ سَاقِيكَ وَفَخَذِي
وَقَدَى عَيْنِكَ صِبْغِ
وَضُلُوعِ الصَّدْرِ مِنْ شَلِ
لَوْ تَحَرَّكَتْ كَذَا إِنْ
وِظَبَاءً رَاتِعَا
وَحَمَامٌ يَتَغَنَّى
أَنَا مَا ذَنْبِي لِأَنْ
وَفَتَى يَحْلِفُ مَا إِنْ
ثُمَّ قَالُوا جَاسِمِيَّ
كَذَّبُوا مَا أَنْتَ

وقد رأيتهم شبهوا المعنى الخفي بالروح الخفي، واللفظ الظاهر بالجثمان الظاهر، وإذا لم ينهض بالمعنى الشريف الجزل لفظُ شريف جزل لم تكن العبارة واضحة، ولا النظام مُتسقاً، وتضالُّو المعنى الحسن تحت اللفظ القبيح كتضالُّو الحسنة في الأظمار الرثة.

وإنما يدل على المعنى أربعة أصناف: لفظ وإشارة وعقد وخط. وقد ذكر له أرسطو طاليس صنفاً خامساً في كتاب المنطق، وهو الذي يسمى النصبية. والنصبية: الحال الدالة التي تقوم مقام تلك الأصناف الأربعة، وهي الناطقة بغير لفظ، ومُشير إليك بغير يد. وذلك ظاهر في خلق السموات والأرض وكل صامت وناطق. وجميع هذه الأصناف الخمسة كاشفة عن أعيان المعاني، وسافرة عن وجوهها. وأوضح هذه الدلائل وأفصح هذه الأصناف، صنفاً، هما: القلم واللسان، وكلاهما للقلب ترجمان. فأما اللسان فهو الآلة التي يخرج الإنسان بها عن حد الاستبهام إلى حد الإنسانية بالكلام، ولذلك قال صاحب المنطق: حد الإنسان الحي الناطق. وقالت هشام بن عبد الملك: إن الله رفع درجة اللسان فانطقه بين الجوارح. وقال علي بن عبيده: إنما يُبين عن الإنسان اللسان، وعن المودة العيان. وقال آخر: الرجل محبوب تحت لسانه. وقالوا: المرء بأصغريه: قلبه ولسانه. وقال الشاعر:

ومعقوله والجسم خلق مصورٌ

وما المرء إلا الأصغر إن لسانه

أمر مذاق العود والعود أخضر

فإن طرة رافتك يوماً فربما

وللخط صورة معروفة، وحلية موصوفة، وفضيلة بارعة، ليست لهذه الأصناف؟ لأنه يقوم مقامها الإيضاح عند المشهد، ويفضلها في المغيب، لأن الكتب تُقرأ في الأماكن المتباعدة، والبُلدان المتفرقة، وتُدرس في كل عصر وزمان، وبكل لسان، واللسان وإن كان ذلكاً فصيحاً لا يعدو سامعاً، ولا يُجاوزه إلى غيره.

البلاغة

قال سهل بن هارون: سياسة البلاغة أشد من البلاغة. وقيل لجعفر بن يحيى بن، خالد: ما البلاغة؟ قال: التقرب من المعنى البعيد، والدلالة بالقليل على الكثير. وقيل لابن المقفع: ما البلاغة؟ قال: قلة الحصر، والجراة على البشر؛ قيل له: فما العي؟ قال: الإطراق من غير فكرة، والتشريح من غير غلة. وقيل لآخر: ما البلاغة؟ قال: تطويل القصير، وتقصير الطويل. وقيل لأعرابي: ما البلاغة؟ فقال: حذف الفضول، وتقريب البعيد. وقيل لأرسطاطاليس:

ما البلاغة؟ فقال: حُسْن الاستعارة. قيل لجالينوس: ما البلاغة؟ فقال: إيضاح المُعْضِل، وفك المُشْكل. وقيل للخليل بن أحمد: ما البلاغة؟ فقال: ما قُرْب طرفاه، وبعْد مُنتهاه. وقيل لخالد بن صَفْوَان: ما البلاغة؟ قال: إصَابَةُ المعنى، والقَصْدُ للحجَّة. وقيل لآخر: ما البلاغة؟ قال: تَصْوِيرُ الحَقِّ في صُورَة الباطل، والباطل في صورة الحق. وقيل لإبراهيم الإمام: ما البلاغة؟ فقال: الجزالة والإصابة.

تضمين الأسرار في الكتب

وأما تضمين الأسرار في الكتب حتى، لا يقرؤها غير المكتوب إليه ففيه أدبٌ تجب معرفته. وقد تعلقت العامة بكتاب القمّي والأصهباني. وكان أبو حاتم سهل بن محمد قد وصف لي منهما أشياء جليية من تبديل الحروف، وذلك مُمكن لكل إنسان. غير أن اللطيف من ذلك: أن تأخذ كُنَّا حلييا فتكتب به في القُرطاس، فيذَر المكتوبُ له عليه رَماداً سُخْناً من رَماد القراطيس، فيظهر ما كتبتَ به إن شاء الله. وإن شئتَ كتبتَ بماء الزَّاج الأبيض، فإذا وصل إلى المكتوب إليه أمر عليه شيئاً من غبار الزَّاج، وإن أحببتَ أن لا يُقرأ الكتاب بالنهار ويُقرأ بالليل فاكُتبه بمرارة السُّلْحفاة،

قولهم في الأقلام

قالوا: القلم أحدُ اللسانين، وهو المخاطب للعيون بسرائر القلوب، على لغات مختلفة، من معان معقودة بحروف معلومة مؤلفة؛ متباينات الصور، مختلفات الجهات؛ لقاؤها التفكير، وتاجها التدبير؛ تخرس مُنفردات، وتُنطق مُزدوجات؛ بلا أصوات مسموعة، ولا ألسن محدودة، ولا حركات ظاهرة؛ خلا قلم حَرَف باريه قَطَنه ليتعلق المداد به، وأرهف جانبيه ليرد ما انتشر عنه إليه، وشقَّ رأسه ليحتبس المداد عليه، فهناك استمد القلم بشقه، ونثر في القراطيس بَحْطه، حروفاً أحكمها التفكير، وجرى على أسلته الكلام، الذي سدَّاه العقل، وألحمه اللسان، ونهسته اللهوات، وقطعته الأسنان، ولفظته الشفاه، ووعته الأسماع، عن أنحاء شتى من صفات وأسماء. وقالت الشاعر، وهو أبو الحسن محمد بن عبد الملك بن صالح الهاشمي:

له ذمَّان في بَطون المَهاريقِ

بلا صوتِ إرعاد ولا ضوِّءِ بارقِ

مُجلية تمضي أمام السوابقِ

إذا ما استهلَّت مَزَنه بالصواعقِ

ونورُ الخُزامى في عُيونِ الحدائقِ

وأسمرَ طاوي الكَشْحِ أخرَسَ ناطقِ

إذا استعجلتَه الكفُّ أمطرَ وبَّله

إذا ما حداً غرَّ القوافي رأيتها

كأن عليه من دجى الليل حلةً

كأن اللالِي والزَبَرَجْدُ نطقه

وقال العلويُّ في صِفَةِ القلم:

وعُرْيَانٍ من خِلعةٍ مُكْتَسِ

تَحَدَّرُ من رأسه ريفة

فكم من أسيرٍ له مُطلقِ

يُقيم ويوطن غربَ البلادِ

قليلٌ كثيرٌ ضروبِ الخطوطِ

يسير بركبٍ ثلاثِ عجالِ

وقالت آخر في القلم:

لك القَلَمُ المُطِيعُك غيرَ أنا

يميس من الوشي في يلمقِ

تسيل على ذرِّوة المَفْرِقِ

وكم من طليقٍ له مؤثِقِ

ويَنهي ويأمر بالمَشْرِقِ

وأخرس مُسْتَمِعِ المَنْطِقِ

إذا ما حدا الفكرُ في مَهْرِقِ

وجدنا رسمه خيرَ المُطاعِ

ومن شَرِيٍّ وَبِيٍّ ذِي امْتِنَاعٍ
فَيَسْمَعُ وَهُوَ لَيْسَ بِذِي اسْتِمَاعٍ
عَلَيْهِ سَمَاءٌ فَكْرُكَ بَانْدِفَاعٍ
بِأَسْمَرَ مَشْفُوقِ الْخِيَاشِيمِ يُرْعَفُ
مُقِيمٌ فَمَا يَمْضِي وَمَا يَتَخَلْفُ
يَسِيرٌ وَإِنْ أَرْجَلَتَهُ فَمُضَعَفُ

يُصَابُ مِنَ الْأَمْرِ الْكُلِيِّ وَالْمِفَاصِلِ
وَأُرِي الْجَنَى اشْتَارَتْهُ أَيْدٍ عَوَاسِلِ
بِآثَارِهِ فِي الشَّرْقِ وَالْغَرْبِ وَابِلِ
وَأَعْجَمٌ إِنْ خَاطَبْتَهُ وَهُوَ رَاجِلِ
عَلَيْهِ شِعَابُ الْفِكْرِ وَهِيَ حَوَافِلِ
لِنَجْوَاهِ تَقْوِيضِ الْخِيَامِ الْجَحَافِلِ
أَعَالِيهِ فِي الْفَرِطَاسِ وَهِيَ أَسَافِلِ
ثَلَاثَ نَوَاحِيهِ الثَّلَاثُ الْأَنَامِلِ
ضَنَى وَسَمِينًا خَطْبُهُ وَهُوَ نَاحِلِ

وردت عليك لشاعر مجدود

مصقول خلت لسانه من عصبه
برقت مصابيح الدجى في كتبه
منا ويبعد نيله في قربه
متدفق وقلبيها في قلبه
شخص الحبيب بدا لعين محبه

مما يعود عليه فيما يكتب

له ذوقان من أري هنّي
أخذُ اللَّفْظِ يُنْطِقُ عَنِ سِوَاهِ
إِذَا اسْتَسْقَى بِلَاغَتِكَ اسْتَهَلَّتْ
وَبَيْتِ بَعْلِيَاءِ الْعِلَاةِ بِنَيْتِهِ
كَأَنَّ عَلَيْهِ مَلْبَسًا جَلَدَ حَيَّةِ
جَلِيلُ شُؤُونِ الْخَطْبِ مَا كَانَ رَاكِبًا

وقال حبيب بن أوس، وهو من أحسن ما قيل فيه:

لك القلمُ الأعلى الذي بشباته
لُعَابِ الْأَفَاعِي الْقَاتِلَاتِ لُعَابُهُ
لَهُ رِيْقَةٌ طَلٌّ وَلَكِنْ وَقَعَهَا
فَصِيحٌ إِذَا اسْتَنْطَقْتَهُ وَهُوَ رَاكِبٌ
إِذَا مَا امْتَنَى الْخَمْسَ اللَّطَافِ وَأَفْرَغْتَ
أَطَاعَتَهُ أَطْرَافُ الْقَنَا وَتَقَوَّضَتْ
إِذَا اسْتَعَزَرَ الذَّهْنَ الْجَلِيَّ وَأَقْبَلْتَ
وَقَدْ رَفَدْتَهُ الْخِنْصِرَانِ وَسَدَدْتَ
رَأَيْتَ جَلِيلًا شَأْنُهُ وَهُوَ مُرْهَفٌ

ولما قال حبيب هذا الشعر حسده الخثعمي، فقال لابن الزيات :

ما خطبة القلم التي أنبيتها

وأنشد البحتري لنفسه يصف قلم الحسن بن وهب:

وإذا تألق في الندي كلامه ال
وإذا دجت أقلامه ثم انتحت
باللفظ يقرب فهمه في بعده
حكّم فسائحها خلال بنانه
وكأنها والسمع معقود بها

وأنشد أحمد بن أبي طاهر في بعض الكتاب ويصف القلم:

قلم الكتابة في يمينك آمن

قلم به ظُفِرُ العَدُوِّ مُقْلَم

يُبْدِي السرائِرَ وَهُوَ عِنها مُحْجَب

ومن قولنا في القلم:

بِكْفِه سَاحِرُ البِيانِ إِذا

يَنْطِقُ فِي عُجْمَةٍ بَلْفَظْتِه

نِوادرُ يَفْرَعُ القُلُوبَ بِها

نِظامِ دُرِّ الكِلامِ ضَمْنِه

إِذا امْتَطى الخِناصِرِينَ أَذْكَرَ مِنْ

يُخاطِبُ الغائِبَ البَعِيدَ بِما

تَرى المِقادِيرَ تَسْتَدْفِ لِه

شَخَتْ ضَيْئِلُ لِفِعْلِه خَطَرُ

تَمَجَّ فَكاهَ رِيقَةً صَغَرَتْ

تُواقِعِ النَفْسُ مِنْها ما حَذِرَتْ

مُهَفِّهف تَزْدَهِي بِها صُحْف

كأَما تَرْتَعِ العِيونُ بِها

إِنْ قُرِّبَتْ مُرْطَط طِوابِعِها

يَكادِ عِنوانِها لِرِوَعْتِه

وَهُوَ الأمانُ لِمَا يُخافُ وَيُرْهَبُ

وَلِسانُ حُجَّتِه بِصَمْتِ يُعَرِّبُ

أَدارِه فِي صَحيْفَةٍ سَحَرًا

نُصِمَ عِنها وَتَسْمَعُ البَصِرا

إِنْ تَسْتَبْنِها وَجَدْتِها صُورا

سَلِكا لَخَطِّ الكِتابِ مُسْتَطْرا

سَحْبانَ فِيما أَطالَ واخْتِصِرا

يُخاطِبُ الشاهِدَ الَّذي حَضِرا

وَتُتَفَذِ الحادِثاتُ ما أَمِرا

أَظْمَ بِها فِي مِلْمَةٍ خَطِرا

وَخَطَبِها فِي القُلُوبِ قَدِ كَبِرا

وَرِبما جَنِبْتَ بِها الحَذِرا

كأَما حُيِّتَ بِها دُورا

خِلالِ رِوَضِ مُكَلَّلِ زَهْرا

ما فَضَّ طِينُ لَها وَلا كُسِرا

يُنْبِيكُ عَنِ سِرِّها الَّذي اسْتِرا

ومن أحسن ما شُبِّهت به الأقلام وشبَّه بها قولُ ذي الرمة :

كَأَنَّ أنُوفَ الطَّيْرِ فِي عَرَصاتِها

ومثله قول عديِّ بن الرِّقاعِ فِي وِلْدِ البَقْرةِ:

تُرْجى أَغْنِ كَأَنَّ إِبرةَ رِواقِه

ومن قولنا:

يَخْرُجْنَ مِنْ فُرْجاتِ النِّقَعِ داميةً

ومنه قول المأمون:

كأَما قَابلَ القُرطاسُ إِذْ مُشَقَّتْ

ومثله قولنا

خِراطِيمُ أَقلامِ تَخَطُّ وَتُعْجِمُ

قَلَمُ أَصابَ مِنَ الدَّواءِ مِدادِها

كَأَنَّ أَذانِها أَطرافُ أَقلامِ

مِنْها ثِلاثَةُ أَقلامِ عَلى قَلَمِ

إذا أدارت بنانه قلماً

لم تدر للشبه أيها القلم

ومن قولنا في الأقلام:

ومعشر تنطق أقلامهم

بحكمة تلقنها الأعين

تلفظها في الصك أقلامهم

كأنما أقلامهم ألسن

ومن قولنا في الأقلام:

يا كاتباً نقشت أنامل كفه

سحر البيان بلا لسان ينطق

إلا صقيل المتن ملموم القوي

حدت لها زمه وشق المفرق

فإذا تكلم رغبةً أو رهبةً

في مغرب أصغى إليه المشرق

يجرى بريقة أريه أو شريه

بيكي ويضحك من سراه المهرق

ولعبد الله بن المعتز كلامٌ يصف فيه القلم: القلم يخدم الإرادة، ولا يملّ الأستزادة؛ يسكت واقفاً، وينطق ساكتاً؛ على أرض بياضها مظلم، وسوادها مضيء. وقال سليمان بن وهب، وزير المهدي: كل قلم تطيل جلفته فإن الخط يخرج به أوقص.

وكتب جعفر بن يحيى إلى محمد بن الليث يستوصفه الخط، فكتب إليه: أما بعد، فليكن قلمك بحراً، لا سمينا ولا رقيقاً، ما بين الرقة والغلظ، ضيق الثقب. فابره برأياً مستويًا كمنقار الحمامة، اعطف قطته، ورقق شفرته. وليكن مداك صافياً، خفيفاً إذا استمددت منه، فانقعه ليلة ثم صفه في الدواة. وليكن قرطاسك رقيقاً مستوي النسخ، تخرج السحاة مستوية من أحد الطرفين إلى الآخر، فليست تستقيم السطور إلا فيما كان كذلك. وليكن أكثر تمطيطك في طرف القرطاس الذي في يسارك وأقله في الوسط، ولا تمط في الطرف الآخر، ولا تمط كلمة ثلاثة أحرف ولا أربعة، ولا تترك الأخرى بغير مط؛ فإنك إذا فرقت القليل كان قبيحاً، وإذا جمعت الكثير كان سمحاً. ثم ابتدء الألف برأس القلم كله وإحططه بعوضه واختمه بأسفله. وأكتب الباء والتاء والسين والشين؛ والمطّة العليا من الصاد والضاد والطاء والكاف والعين والغين، ورأس كلّ مرسل، برأس القلم. وأكتب الجيم والحاء والحاء والذال والراء، والمطّة السفلى من الصاد والضاد والطاء والكاف والعين والغين بالسّن السفلى من القلم، وامطط بعرض القلم. وللطّ نصف الخط، ولا يقوى عليه إلا العاقل، ولا أحسب العاقل يقوى عليه أيضاً إلا بالنظر إلى اليد في استعمالها الحركة، والسلام. وقال ابن طاهر لكتابه: ألق دواتك، وأطل سنّ قلمك، وفرج بين السطور، وقرمط بين الحروف. وقال إبراهيم بن جبلة: مرّ بي عبد الحميد، وأنا أخط خطأ رديئاً، فقال لي: أتحب أن يجود خطك؟ قلت: بلى. قالت: أطل جلفه القلم وأسمنها، وحرف قطتك وأيمنها. ففعلت فجاد خطي: وقال العتّابي: بيكاء القلم تبسم الكتّاب. وقال بعض الحكماء: أمر الدّين والدنيا تحت شبة السيف والقلم. وقال حبيب الطائي:

لولا مناشدة القريب لغادركم

حصائد المرهفين: السيف والقلم

وقال أرسطاطاليس: عقول الرجال تحت سنّ أقلامهم وقال أبو حكيمة: كنت أكتب المصاحف، فمرّ بي علي بن أبي طالب كرم الله وجهه، فقال: أحجل قلمك. فقصمت من قلمي قُصمة. فقال: هكذا، نورّه كما نورّه الله. وكان ابن سيرين يكره أن يكتب القرآن مشقفاً، وقال: أحوذ الخط أبيضه.

وقال سليمان بن وهب: زينوا خطوطكم بإسبال ذوائبها. وقال عمرو بن مسعدة: الخط صورة ضئيلة، لها معان جلييلة، وربما ضاق على العيون، وقد ملأ أقطار الظنون. وذكر علي بن عبيدة القلم فقال: أصم يسمع النجوى، أعيا من باقل، وأبلغ من سحبان وائل، يُجهل الشاهد، ويخبر الغائب، ويجعل الكتّاب بين الإخوان ألسنا ناطقة، وأعيننا لاحظة، وربما ضمّنها من ودائع القلوب ما لا تبوح به الألسن عند المشاهدة. وقال أحمد بن يوسف الكاتب: ما عبرات الغواني في خدودهنّ بأحسن من عبرات الأقلام في خدود الكتّاب. وقال العتّابي: الأقلام مطايا الفطن. وتخيّر غلامان في بعض الدواوين فقاما إلى أستاذهما يعرضان عليه خطوطهما، فكره أن يفضّل أحدهما على الآخر، فقال لأحدهما: أما خطك أنت فوشى محوك. وقال للآخر: وأما

حطّك أنت فذهب مسبوك، تكافيتما في غاية، وتوافيتما في نهاية. وقال آخر: دخلت الديوان فنظرت إلى غلام بيده قلم كأنه قضيب عقيان وعليه مكتوب:

من كفّ من يكتب بي

وا بأبي، وا بأبي

وقال أبو هفان يصف القلم:

بأنامل يحملن شخناً مرهفاً

وإذا أمرّ على المهارق كفه

وموصلاً ومشتتا ومؤلفاً

ومقصراً ومطولاً ومقطعاً

يستنزل الأروى إليه تطفأ

كالحية الرقشاء إلا أنه

فيعود سيفاً صارماً ومثففاً

يهفو بها قلم يمّج لعابه

وقال آخر في وصف الدواة:

ورويت من قعر لها غير منبّط

ومسودة الأرجاء قد خضت حالها

أميناً على سرّ الأمين المسلط

خميص الحشي يروى على كل شرب

وقال بعض الكتاب:

ندى الأسحار يارج بالغداة

وما روض الربيع وقد زهاه

تؤديه الأفاوه من دواة

بأضوع أو بأسطع من نسيم

وقال آخر في وصف محبرة:

ب بادٍ وأمواجه تزخر

ولجة بحر أجم العبا

سريع السباحة ما يفتّر

إذا غاص فيه أخو غوصة

بديع الكلام له جوهر

فأنفس بذلك من غائص

جواهرها حكّم تنتثر

وأكرم ببحر له لجة

وقال ثمامة بن أشرس: ما أثرته الأقلام لم تطمع في درسه الأيام. ونظر المأمون إلى جارية من حواريه تحطّ خطاً حسناً، فقال فيها:

وفي إصبعيها أسمر اللون أهيف

وزادت لدينا حظوة حين أطرقت

ينال جسيمات المنى وهو أعجف

أصم سميع ساكن متحرك

وقال بعض الكتاب:

يكاد يُصمّ السامعين صريرها

إذا ما التقينا وانتضينا صوارما

كمثل اللآلى نظمها ونثيرها

تساقط في القرطاس منها بدائع

قال بشر بن المعتز: القلب معدن، والحلم جوهر، واللسان مستنبت، والقلم صانع، والخط صيغة. وقال سهل بن هارون: القلم لسان الضمير، إذا رعف أعلن أسراره، وأبان آثاره. وقالوا: حسن الخط يناضل عن صاحبه، ويوضح الحجة، ويمكن له درك البغية. وقال آخر: الخط الرديء زمانة الأديب. وقال الحسن بن وهب: يحتاج الكاتب إلى خلل، منها: جودة برّي القلم، وإطالة جلفته، وتحريف قطنه، وحسن التأني لإمطاء الأنامل،

وإرسال المدّة بقدر اتساع الحروف، والتحرز عند فراغها من الكسوف، وترك الشكل على الخطأ، والإعجام على التصحيف، واستواء الرسوم، وحلاوة المقاطع.

وقال سعيد بن حميد: من أدب الكاتب أن يأخذ قلمه في أحسن أجزائه وأبعد ما يتمكن المداد فيه، ويُعطيه من القرطاس حقّه. وقال عبد الله بن عباس: كل كتاب غير مختوم فهو غُفْل. وفي تفسير قول الله تعالى: "إِنِّي أَلْتَمِي إِلَيْكَ كِتَابًا كَرِيمًا" قال: مختوم. ورفع إلى عبد الله بن طاهر قصة قد أكثر صاحبها إعجامها، فقال: ما أحسن ما كتبت، إلا أنك أكثرت شؤنيها.

وقال أبو عبيدة: لا يقال: كأس، إلا إذا كان فيها شراب، وإلا فهي زجاجة؛ ولا مائدة، إلا إذا كان عليها طعام، وإلا فهي حوان؛ ولا قلم، إلا إذا بُرّي، وإلا فهو قصبية. وقال آخر: جلوس الأدباء عند الورّاقين، وجلوس المخمّنين عند النخّاسين، وجلوس الطُفليين عند الطّبّاحين. وكتب عليّ بن الأزهر إلى صديق له يسأله أقلاماً يبعث بها إليه: أما بعد، فإنّنا على طول الممارسة لهذه الكتابة التي غلبت على الاسم، ولزمت لزوم الوَسم، فحلّت محلّ الأنساب، وجرّت مجرى الألقاب، وجدنا الأقلام الصّحريّة أسرع في الكواغد، وأمرّ في الجلود، كما أنّ البحريّة منها أسلس في القراطيس، وألين في المعاطف، وأشدّ لتصريف الخطّ فيها. ونحن في بلد قليل القصب رديته، وقد أحببتُ أن تتقدّم في اختيار أقلام بحريّة، وتتأنّق في انتقائها قبلك، وتطلبها في مظائرها ومنابتها من شطوط الأنهار، وأرجاء الكروم، وأن تميم باختيارك منها الشديدة المخصّ، الصّلبة المعصّ، النقيّة الحدود، لقليلة الشّحوم، المكتتزة اللحوم، الضيقة الأجواف، الرّزينة المحمّل؛ فإنها أبقى على الكتابة، وأبعد من الحفاء، وأن تقصد بانتقائك الرقاق القضبان، المقومات المعون، الملس المعاهد، الصافية القشور، الطويلة الأنابيب، البعيدة ما بين الكعوب، الكريمة الجواهر، المعتدلة القوام، المستحكمة يُيساً، وهي قائمة على أصولها، لم تُعجل عن إبان ينعها، ولم تؤخر إلى الأوقات المخوفة عليها من خصّر الشتاء، وعفن الأنداء، فإذا استجمعتُ عندك أمرت بقطعها ذراعاً ذراعاً، قطعاً رقيقاً، ثم عبأت منها حزمًا فيما يصونها من الأوعية، ووجهتها مع من يؤدي الأمانة في حراستها وحفظها وإيصالها، وكتبت معه رقعة بعدتها وأصنافها، بغير تأخير ولا توان، إن شاء الله تعالى.

قولهم في الحبر

قال بعض الكتاب: عطروا دفاتر آدابكم بحبر الحبر، فإن الأدب غواني، والحبر غوالي. ونظر جعفر بن محمد إلى فتى على ثيابه أثر المداد وهو يستره، فقال له:

عطرُ الرّجال وحليّة الكتاب

لا تجز عنّ من المداد فإنه

وأتى وكيع بن الجراح رجلٌ يمت إليه بحُرمة، فقال له: وما حُرمتك؟ وقال له: كنت تكتب من محبرتي عند الأعمش، فوثب وكيع ودخل منزله، ثم أخرج له بضعة دنانير، وقال له: أعدر فما أملك غيرها.

الأقلام

أهدى ابن الحرون إلى رجل من إخوانه من الكُتّاب أقلاماً وكتب إليه: إنه لما كانت الكتابة، أبناك الله، أعظمّ الأمور، وقوام الخِلافة، وعمود المملكة، خصصتُك من آلتها بما يخف محمله، وتثقل قيمته، ويعظم نفعه، ويجل خطره، وهي أقلام من القصب النابت في الصّخر، الذي نشف في حرّ الهجير ماؤه، وسره من تلويحه غشاؤه، فهي كاللّاليء المكنونة في الصدف، والأنوار المحجوب في السُدف، تبرية القشور، ذرية الظهور، فضية الكسور، قد كستها الطبيعة جواهر كالوشى المحبر، وفرند الديباج المنير.

قولهم في الصحف

نعم الأنيسُ إذا خلوتَ كتابُ
لا مُفْشِيًّا سرًّا إذا استودعته

وقال آخر:

ولكلِّ صاحبٍ لذةٍ متنزه

وقال حبيب

مدادٌ مثلُ خافيةِ الغراب
وألفاظٌ كألفاظِ المثنائي

كُتبتُ ولو قدرتُ هوىً وشوقاً

وقال في صحيفة جاءته من عند الحسن بن وهب:

لقد جلى كتابك كلَّ بثٍّ

فضضتُ ختامه فتبلَّجتُ لي

وكان أعضً في عيني وأندى

وأحسنَ موقعاً مني وعندي

وضمنَ صدره ما لم تضمّن

فكائن فيه من معنى خطير

فيا تلج الفؤاد وكان رصفاً

فكم أفصحتَ عن برٍّ جليل

كُتبتَ به بلا لفظٍ كريه

رسالةً من تمتع منذ حين

لئن غربتها في الأرض بكرأ

وإن يكُ من هداياك الصفايا

وقال ابن أبي طاهر في ابن ثوابة:

في كلِّ يومٍ صدورُ الكتبِ صادرةٌ

عن خطِّ أقلامه خطُّ القضاء على ال

لُعابها عللٌ في الصدر تنفثه

كأنَّ أسطارها في بطنٍ مهرقها

تلهو به إن ملك الأحاب!
وتفاد منه حكمةً وصواب

أبدأ ونزهة عالم في كتبه

وقرطاس كرقراق السراب

وخط مثل وشم يد الكعاب

إليك لكنت سطرًا في الكتاب

جورٍ وأصاب شاكلة الرمي

غرائبه عن الخبر الجلي

على كبدي من الزهر الجني

من البشري أتت بعد النعي

صدورُ الغانيات من الحلبي

وكائن فيه من لفظ بهي

ويا شبعي بروثقه وريي

به ووأيت من وأي سني

على أذن ولا خط قمي

ومتعنا من الأدب الرضي

لقد زُفت إلى قلب وفي

فرب هدية لك كالهدي

من رأيه وندى كفيه عن مثل

أعداء بالموت بين البيض والأسل

وربما كان فيه النفع للعَلل

نورٍ يضاحك دمع الواكف الخضل

وقال البحرني في محمد بن عبد الملك الزيات:

عَطَلِ النَّاسُ فَنَ عِبْدَ الْحَمِيدِ
أَمْرًا أَنَّهُ نِظَامٌ فَرِيدٌ
حَكَ فِي رَوْتِ الرَّبِيعِ الْجَدِيدِ
سَ وَمَا حُمِلَتْ ظُهُورُ الْبَرِيدِ
ظَفْرَادِي كَالجَوْهَرِ الْمَعْدُودِ
وَتَجَنَّبَنَّ ظُلْمَةَ التَّعْقِيدِ
ضَ إِذَا رُحِنَ فِي الْخُطُوطِ السُّودِ

قَدْ تَصَرَّفَتْ فِي الْكِتَابَةِ حَتَّى
فِي نِظَامٍ مِنَ الْبَلَاغَةِ مَا شَكَ
وَبَدِيعِ كَأَنَّهُ الزَّهْرُ الضَّاحِ
مَا أُعِيرَتْ مِنْهُ بَطُونُ الْقِرَاطِي
حُجَّجَ تَخْرُسُ الْأَلْدَّ بِالْأَفَا
حُزْنَ مُسْتَعْمَلِ الْكَلَامِ اخْتِيَارَا
كَالْعَذَارَى غَدَوْنَ فِي الْحُلِّ الْبِي

وقال علي بن الجهم في رقعة جاءته بخط جيد:

كَأَنَّهَا خَدٌّ عَلَى خَدٍّ
ذَرَّ فَنَيْتِ الْمِسْكَ فِي الْوَرْدِ
عَنْ جِهَةِ الْهَزْلِ إِلَى الْجَدِّ
إِلَيْكَ حَسْبِي مِنْكَ مَا عِنْدِي

مَا رُقِعَةَ جَاءَتْكَ مَثْنِيَّةٌ
نَثَّرَ سَوَادٌ فِي بِيَاضٍ كَمَا
سَاهَمَةُ الْأَسْطُرِ مِصْرُوفَةٌ
يَا كَاتِبًا أَسْلَمَنِي عَنِّي

وقال محمد بن إبراهيم بن محمد الشيباني: رفع أبان بن عبد الحميد اللاهقي إلى الفضل بن يحيى بن خالد رقعة بأبيات له يصف فيها قامته، وكثافة لحيته، وحلاوة شمائله، وبراعة أدبه، وبلاغة قلمه، فقال:

مَنْ كُنُوزِ الْأَمِيرِ ذُو أَرْبَاحٍ
نَاصِحٌ زَائِدٌ عَلَى النَّصَاحِ
شِئَةٌ مِمَّا تَكُونُ تَحْتَ الْجَنَاحِ
أَنَا فِيهِ قِلَادَةٌ بِوِشَاحِ
رِمَاحًا صَدَمْتُ حَدَّ الرِّمَاحِ
هَ بِقَوْلِ مُنَوَّرِ الْإِفْصَاحِ
مَ وَلَا بِالْمُجْعَدِ الدَّخْدَاحِ
وَإِتْقَادِ كِشْعَلَةِ الْمِصْبَاحِ
سَ بِصِيرِ بَخَافِيَاتِ مِلَاحِ
هُوَ عِنْدَ الْأَمِيرِ كَالنَّفَاحِ
فِي غَدْوٍ أَوْ بُكْرَةٍ أَوْ رَوَاحِ
دُوبَالِخَرْدِ الْحِسَانِ الْمِلَاحِ

أَنَا مِنْ بَغِيَةِ الْأَمِيرِ وَكَنْزُ
كَاتِبُ حَاسِبٍ أَدِيبٍ لَبِيبُ
شَاعِرٌ مُفْلِقٌ أَخْفَّ مِنَ الرِّي
لِي فِي النَّحْوِ فِطْنَةٌ وَنَفَاحُ
لَوْ رَمَى بِي الْأَمِيرُ أَصْلَحَهُ اللَّهُ
ثُمَّ أَرَوَى مِنْ ابْنِ سِيرِينَ فِي الْفِقْ
لَسْتُ بِالضَّخْمِ فِي رَوَائِي وَلَا الْفَدُ
لِحِيَةٍ كَثَّةٍ وَأَنْصُ طَوِيلُ
وَكَثِيرُ الْحَدِيثِ مِنْ مِلْحِ النَّا
كَمْ وَكَمْ قَدْ خَبَأَتْ عِنْدِي حَدِيثًا
أَيْمَنُ النَّاسِ طَائِرًا يَوْمَ صَيْدِ
أَعْلَمُ النَّاسِ بِالْجَوَارِحِ وَالصِّي

كُلُّ هَذَا جَمَعْتُ وَالْحَمْدُ لِلَّهِ

لَسْتُ بِالنَّاسِكِ الْمُشْمَرِّ ثَوْبِي

لَوْ دَعَانِي الْأَمِيرُ عَايِنَ مَنِي

ه عَلَى أَنِّي ظَرِيفُ الْمَزَاحِ

ه وَلَا الْفَاتِكِ الْخَلِيعِ الْوَقَاحِ

شَمْرِيًّا كَالْبَلْبَلِ الصَّدَاحِ

قال: فدعاه. فلما دخل عليه أتاه كتاب من إرمينية فرمى به إليه وقال له: أجب. فأجاب بما في غرضه وأحسن. فأمر له بألف ألف درهم، وكنا نراه أول داخل وآخر خارج، وكان إذا ركب فركابه مع ركابه. قال محمد بن يزيد: فبلغ هذا الشعر أبا نواس فقال:

أَنْتِ أَوْلَى بِقَلَّةِ الْحِظِّ مَنِي

يَا مُسَمِّي بِالْبَلْبَلِ الصَّدَاحِ

قَبِلُوا مِنْهُ حِينَ عَزَّ لَدَيْهِمْ

ثُمَّ بِالرِّيشِ شَبِهَ النَّفْسَ فِي الْخِفِّ

إِذَا الشَّمُّ مِنْ شَمَارِيخِ رَضْوَى

لَمْ يَكُنْ فِيكَ غَيْرُ شَيْئَيْنِ مِمَّا

لِحْيَةِ جَعْدَةٍ وَأَنْفٍ طَوِيلٍ

فِيكَ مَا يَحْمِلُ الْمَلُوكَ عَلَى السَّخِّ

بَارِدِ الطَّرْفِ مُظْلَمِ اللَّبِّ تَبَا

أَخْرَسَ الْقَوْلَ غَيْرَ ذِي إِفْصَاحِ

ه مِمَّا يَكُونُ تَحْتَ الْجَنَاحِ

خَفَّةٌ عِنْدَهُ نَوَى الْمَسْبَاحِ

قَلَّتْ فِي نَعْتِ خَلْقِكَ الدَّخْدَاحِ

وَسَوَى ذَاكَ ذَاهِبٌ فِي الرِّيَّاحِ

فِ وَيَزْرِي بِالْمَاجِدِ الْجَحْجَاحِ

ه مُعِيدِ الْحَدِيثِ سَمَّجِ الْمَزَاحِ

قال: فبعث إليه أبان بأن لا تُذيعها وخُذ الألف ألف درهم. فبعث إليه أبو نواس: لو أعطيتني مائة ألف ألف درهم لم أجد بدأ من إذاعتها. فيقال: إنَّ الفضل بن يحيى لما سمع شعرَ أبي نواس قال: لا حاجة لي في أبان، لقد رُمي بخمس في بيت لا يقبل على واحدة منهن إلا جاهل، فقيل له: كذب عليه. فقال: قد قبل ذلك، فأقصاه. وإنما أغرى أبو نواس بهذا الكاتب أبان بن عبد الحميد اللاهقي أن الفضل بن يحيى أعطاه مالا يُفرقه في الشعراء ويُعطى كل واحد على قدره، فبعث إلى أبي نواس بدرهم زائف ناقص، وقال: إني أعطيتُ كل شاعر على مقدار شعره، وكان هذا أوفر نصيبك عندي. فهجاه لذلك.

توقيعات الخلفاء

عمر بن الخطاب رضي الله عنه

كتب إليه سعد بن أبي وقاص في بُنيان يَبنيه، فوَقَعَ في أسفل كتابه: ابن ما يُكِنُّكَ من الهواجر وأذى المطر. ووقع إلى عمرو بن العاص: كُنْ لرعيتك كما تُحب أن يكون لك أميرك.

عثمان بن عفان رضي الله عنه

وقع في قصة قوم تظلموا من مروان بن الحكم وذكروا أنه أمر بوجع أعناقهم: فإن عصوك فقل إني بريء مما تعملون. ووقع في قصة رجل شكى عيلة: قد أمرنا لك بما يُقيمك، وليس من مال الله فضل للمُسرف.

علي بن أبي طالب كرم الله وجهه

وَقَعَ إلى طلحة بن عبيد الله: في بيته يُؤتى الحكم. ووقع في كتاب جاءه من الحسن بن علي رضي الله عنهما: رأيُ الشَّيخ خير من مَشهد الغلام. ووقع في كتاب لسلمان الفارسي، وكان سأله كيف يُحاسب الناس يوم القيامة: يُحاسبون كما يُرزقون. ووقع في كتاب الحُصين بن المنذر إله يذكر أن السيف قد أكثر في ربيعة: بقيَّة السَّيف أتمى عددا. وفي كتاب جاءه من الأشتر النَّخعي فيه بعض ما يكره: مَنْ لك بأخيك كله؟ وفي كتاب صَعصعة ابن صَوْحان يسأله في شيء: قيمة كل امرئ ما يُحسن.

معاوية بن أبي سفيان

كتب إليه عبد الله بن عامر في أمر عاتبه فيه، فوَقَعَ في أسفل كتابه: بَيْتُ أُمِّيَّةٍ في الجاهليَّة أشرف من بيت حَبِيب. فأما في الإسلام، فأنت تراه. وفي كتاب عبد الله بن عامر يسأله أن يُقطعه مالا بالطائف: عِشْ رَجِيًّا تَرَى عَجبا: وفي كتاب زياد يُخبره بطعن عبد الله بن عباس في خلافته: إنَّ أبا سفيان وأبا الفضل كانا في الجاهليَّة في مَسْلَاحٍ واحد، وذلك حَلْفٌ لا يَحِلُّهُ سُوءُ أدبِكَ. وكتب إليه ربيعة بن عِسل اليربوعي يسأله أن يُعينه في بناء داره بالبصرة باثني عشر ألف جذع: أدارك في البصرة أم البصرة في دارك؟

يزيد بن معاوية

وَقَعَ في كتاب عبد الله بن جعفر إليه يستميحه لرجال من خاصته: احكُم لهم بآمالهم إلى منتهى آجالهم. فحكمت بتسعمائة ألف، فأجازها. وكتب إليه مُسلم ابن عقبة المرِّي بالذي صنَع أهل الحرة، فوقع في أسفل كتابه: فلا تُأس على القوم الفاسقين. وفي كتاب مُسلم بن زياد عامله على خُرَاسان وقد استبطأه في الخراج: قليل العتاب يُحكَم مرائر الأسباب، وكثيره يَقْطَع أواحي الإنتساب. ووقع إلى عبد الرحمن بن زياد، وهو عامله على خُرَاسان: القرابة واشجعة، والأفعال مُتباينة، فخذ لرحمك من فعلك. وإلى عبيد الله بن زياد: أنت أحدُ أعضاء ابن عمك فأحرص أن تكون كُلهَا.

عبد الملك بن مروان

وَقَعَ في كتاب أتاها من الحجاج: جَنَّبني دماء بني عبد المطلب، فليس فيها شفاء من الطلَب. وكتب إليه الحجاج يخبره بسوء طاعة أهل العراق وما يُقاسي منهم، ويستأذنه في قتل أشرافهم، فوَقَعَ له: إنَّ من يُمن السائس أن يتألف به

المختلفون، ومن شؤمه أن يختلف به المؤلفون. وفي كتاب الحجاج يُخبره بقوة ابن الأشعث: بضعفك قوي، وبخرفك طلع. ووقع في كتاب ابن الأشعث:

حِفاظاً وَيَبْوي مِن سفاهته كَسْرِي؟

فما بال مَن أَسعى لأَجْبِرَ عَظْمه

ووقع أيضاً في كتاب:

شَمَلَ الرَّأسَ مَشيباً وَصَلَعَ؟

كيف يَرْجون سِقاَطي بعدما

الوليد بن عبد الملك

كتب إليه الحجاج لا بلغه أنه خرق فيما خلف له عبد الملك، يُنكر ذلك عليه ويُعرفه أنه على، غير صواب، فوقع في كتابه: لأجمعن المال جمع من يعيش أبداً، ولا فرقته تفريق من يموت غداً. ووقع إلى عمر بن عبد العزيز: قد رآب الله بك الداء، وأوذم بك السقاء.

سليمان بن عبد الملك

كتب قتيبة بن مسلم إلى سليمان يتهدده بالخلع، فوقع في كتابه:

أبشِرْ بِطُولِ سِلامَةٍ يا مَرْبِع

زَعَمَ الفرزدقُ أَن سَيَقْتَلُ مَرْبِعاً

ووقع في كتابه أيضاً: العاقبة للمتقين. وإلى قتيبة أيضاً جواباً وعيده: وإن تصبروا وتتقوا لا يضركم كيدهم شيئاً.

عمر بن عبد العزيز

كتب بعض العمال إليه يستأذنه في مرمة مدينته، فوقع أسفل كتابه: ابنها بالعدل، ونق طرقها من الظلم. وإلى بعض عماله في مثل ذلك: حصنها ونفسك بتقوى الله. وإلى رجل ولأه الصدقات، وكان دميماً، فعدل وأحسن: ولا أقول للذين تزدري أعينكم لن يؤتيهم الله خيراً. وكتب إليه صاحب العراق يُخبره عن سوء طاعة أهلها، فوقع له: أرض لهم ما ترضى لنفسك، وخداهم بجرائمهم بعد ذلك. وإلى عدي بن أرطاة في أمر عاتبه عليه: إن آخر آية أنزلت: "وأتقوا يوماً ترجعون فيه إلى الله". وإلى عامله على الكوفة، وكتب إليه أنه فعل في أمر كما فعل عمر بن الخطاب: أولئك الذين هدى الله فبهداهم اقتد. وإلى الوليد بن عبد الملك، وعمر عامله على المدينة، فوقع في كتابه: الله أعلم أنك لست، أول خليفة تموت. وأتاه كتاب عدي يُخبره بسوء طاعة أهل الكوفة، فوقع في كتابه: لا تطلب طاعة من خذل علياً، وكان إماماً مرضياً. وإلى عامله بالمدينة، وسأله أن يعطيه موضعاً يبيته، فوقع: كُنْ من الموت على حذر وفي قصه متظلم: العدل إمامك: وفي رقعه محبوس: تب تطلق، وفي رقعة رجل قتل: كتاب الله بيني وبينك، وفي رقعه متنصح: لو ذكرت الموت شغلك عن نصيحتك وفي رقعة رجل شكاه أهل بيته: أنتما في الحق سيان. وفي رقعة امرأة حبس زوجها: الحق حبسه. وفي رقعة رجل تظلم من ابنه: إن لم أنصفك منه فأنا ظلمتك

يزيد بن عبد الملك

وقع إلى صاحب خراسان: لا يعرثك حُسن رأي فإنما تفسده عشرة وإلى صاحب المدينة عثر فاستقل وفي قصة متظلم شكاه بعض أهل بيته: ما كان عليك لو صفحت عنه واستوصلتني

هشام بن عبد الملك

في قصه متظلم: أتاك الغوث إن كنت صادقاً وحل بك النكال إن كنت كاذباً فتقدم أو تأخر. في قصه قوم متظلم شكوا أميرهم: إن صح ما أديتم عليه عزلناه وعاقبناه. وإلى صاحب خراسان حين أمره بمحاربة الترك: أحذر ليالي البيات. وإلى صاحب المدينة وكتب يخبره بوثوب أبناء الأنصار: احفظ فيهم رسول الله صلى الله عليه وسلم وهبهم له ووقع في رُقعة محبوس لزمه الحد: نزل بحدك الكتاب. ووقع في قصة رجل شكاً إليه الحاجة وكثرة العيال وذكر أن له حُرمة: لعِيالك في بيت مال المسلمين سهم، ولك بحرمتك منّا مثلاه، وإلى عامله على العراق في أمر الخوارج: ضَع سَيْفك في كلاب النَّار، وتقرب إلى الله بقتل الكفار. وإلى جماعة يشكون تعدي عاملهم عليهم لنفوسكم دونكم. وفي كتاب عامله يُخوه قيه بقله الأمطار في بلده: مرهم بالاستغفار وإلى لسهل ابن سيّار: خَف الله وإمامك فإنه يأخذه عند أول زلّة

يزيد بن الوليد بن عبد الملك بن مروان

وَقَعَ إلى مروان: أراك تقدّم وِجلاً وتَوَخَّرَ أخرى، فإذا أتاك كتابي هذا فاعتمد على أيّهما شئت. وإلى صاحب خراسان في المسودة: نجم أمر أنت عنه نائم، وما أراك منه أو مني سالم.

مروان بن محمد

كتب إلى نصر بن سيّار في أمر أبي مسلم: تحوّل الظاهر يدلّ على ضعف الباطن، والله المستعان. ووقع إلى ابن هُبيرة أمير خراسان: الأمر مُضطرب، وأنت نائم وأنا ساهر. وإلى حوثرة بن سهيل حين وجهه إلى قحطبة: كُن من بيّات المارقة على حذر. ووقع حين أتاه غرق قحطبة وانهمام ابن هُبيرة: هذا والله الإدبار، وإلا فمن رأى ميّتا هزم حيا. وفي جواب أبيات نصر بن سيّار إذ كتب إليه:

أرى خلل الرّماد وميضَ جَمْرٍ ويوشك أن يكون له ضيرامُ

الحاضر يرى ما لا يرى الغائب، فاحسم التؤلؤل. فكتب نصر: التؤلؤل قد امتدت أغصانه، وعظمت نكايته. فوقع إليه: يداك أوكتا وفوك نَفخ.

توقيعات بني العباس

السفاح كتب إليه جماعه من أهل الأنبار يذكرون أنّ منازلهم أخذت منهم وأدخلت في البناء الذي أمر به ولم يُعطوا أثمانها، فوقع: هذا بناء أسس على غير تقوى، ثم أمر بدفع قيم منازلهم إليهم. ووقع في كتاب أبي جعفر وهو يجارب ابن هبيرة بعد أن أرجعه فيه غير مرة: لست منك ولست مني إن لم تقتله. وجاءه كتاب من أبي مسلم يستأذنه في الحجّ وفي زيارته، فوقع إليه: لا أحول بينك وبين زيارة بيت الله الحرام أو خليفته، وإذناك لك. ووقع في كتاب جماعة من بطانته يشكون احتباس أرزاقهم: من صبر في الشدة شارك في النعمة؛ ثم أمر بأرزاقهم. وإلى عامل تظلم منه: وما كنت متخذ المضلين عضداً. وفي قوم شكوا غرق ضياعهم في ناحية الكوفة: وقيل بعداً للقوم الظالمين.

أبو جعفر وقع في كتابه إلى عبد الله بن عليّ عمه: لا تجعل للأيام وفي وفيك نصيباً من حوادثها. ووقع إليه أيضاً: ادفع بالتي هي أحسن إلى قوله: وما يلقاه إلا ذو حظ عظيم. فاجعل الحظّ لي دونك يكن لك كله. ووقع إلى عبد الحميد صاحب خراسان: شكوت فأشكينك، وعتبت فأعتبتك؛ ثم خرجت عن العامة، فتأهب لفرار السلامة. وإلى أهل الكوفة، وشكوا عاملهم: كما تكونون يؤمر عليكم. وإلى قوم تظلموا من عاملهم: لا ينال عهدي الظالمين. وفي قصة رجل شكاً عيلة: سلّ الله من رزقه. وفي قصة رجل سأله أن يبيّن بقره مسجداً فإنّ مُصلّاه على بُعد: ذلك أعظم لثوابك. وفي قصة رجل قطعت عنه أرزاقه: "ما يفتح الله للناس من رحمة فلا ممسك لها" الآية. وفي قصة رجل شكاً الدين: إن كان دينك في مرضاة الله قضاء. وإلى صارورة سأله أن يحج: "الله على الناس حج البيت من استطاع إليه سبيلاً". وإلى صاحب مصر حين كتب يذكر نقصان النيل: طهر عسكرك من الفساد يُعطك النيل القيادة. وإلى عامله على حمص، وجاءه منه كتاب فيه خطأ: استبدل بكاتبك وإلا استبدل بك. وإلى صاحب أرمينية: إن لي في قفاك عيناً، وبين عينيك عينا، ولهما أربع آذان. وإلى رجل استوصله: لا مانع لما أعطاه الله. وفي كتاب أتاه من صاحب الهند يخبره أنّ جُنُداً شغبوا عليه

وكَسَرُوا أَقْفَالَ بَيْتِ الْمَالِ فَأَخَذُوا أَرْزَاقَهُمْ مِنْهُ: لَوْ عَدَلْتَ لَمْ يَشْغَبُوا، وَلَوْ وَفَيْتَ لَمْ يَنْهَبُوا.

المهدي وَقَعَ فِي قِصَّةِ مَتَزَلِّمِينَ شَكَّوْا بَعْضَ عُمَّالِهِ: لَوْ كَانَ عَيْسَى عَامِلِكُمْ قُدْنَاهُ إِلَى الْحَقِّ كَمَا يُقَادُ الْجَمَلُ الْمُخْشَوْشُ - يَرِيدُ عَيْسَى وَلَدَهُ. وَوَقَعَ إِلَى صَاحِبِ إِرْمِينِيَّةَ، وَكُتِبَ إِلَيْهِ يَشْكُو سَوْءَ طَاعَةِ رَعَايَاهُ: خُذْ الْعَفْوَ وَأْمُرْ بِالْعُرْفِ وَأَعْرِضْ عَنِ الْجَاهِلِينَ. وَإِلَى صَاحِبِ خُرَّاسَانَ فِي أَمْرِ جَاءَهُ: أَنَا سَاهِرٌ وَأَنْتَ نَائِمٌ. وَفِي قِصَّةِ قَوْمِ أَصَابِهِمْ قَحَطٌ: يُقَدَّرُ لَهُمْ قُوَّةُ سَنَةِ الْقَحَطِ وَالسَّنَةِ الَّتِي تَلِيهَا. وَإِلَى شَاعِرٍ، أَظْنَهُ مَرْوَانَ بْنَ أَبِي حَفْصَةَ: أَسْرَفْتَ فِي مَدِيحِكَ فَقَصَّرْنَا فِي حَبَائِكَ. وَفِي قِصَّةِ رَجُلٍ مِنَ الْغَارِمِينَ: خُذْ مِنْ بَيْتِ مَالِ الْمُسْلِمِينَ مَا تَقْضِي بِهِ دِينَكَ، وَتُقْرَبُ بِهِ عَيْنُكَ. وَفِي قِصَّةِ رَجُلٍ شَكَا الْحَاجَةَ: أَنَا كَ الْعُوثِ. وَإِلَى رَجُلٍ مِنْ بَطَانَتِهِ اسْتَوْصَلَهُ: لَيْتَ إِسْرَاعَنَا إِلَيْكَ يَقُومُ بِإِبْطَانِنَا عَنْكَ. وَفِي قِصَّةِ قَوْمٍ تَزَلَّمُوا مِنْ عَامِلِهِمْ وَسَأَلُوهُ إِشْخَاصَهُ إِلَى بَابِهِ: قَدْ أَنْصَفَ الْقَارَةَ مِنْ رَامَاهَا. وَفِي قِصَّةِ رَجُلٍ حُبَسَ فِي دَمٍ: وَلَكُمْ فِي الْقِصَاصِ حَيَاةٌ يَا أُولِي الْأَلْبَابِ. وَإِلَى صَاحِبِ خُرَّاسَانَ، وَكُتِبَ إِلَيْهِ يَخْبِرُهُ بِغَلَاءِ الْأَسْعَارِ: خُذْهُمْ بِالْعَدْلِ فِي الْمَكْيَالِ وَالْمِيزَانِ. وَإِلَى يَوْسُفَ الْبَرَمِّ حِينَ خَرَجَ بِخُرَّاسَانَ: لَكَ أَمَانِي وَمُؤَكَّدٌ أَيْمَانِي.

موسى الهادي كتب إلى الحسن بن قحطبة في أمر راجعه فيه: قد أنكركنا منذ لزمنا أبا حنيفة، كفناه الله. وإلى صاحب إفريقية في أمر فرط منه: يا بن اللحناء، أني تترس.

هارون الرشيد وَقَعَ إِلَى صَاحِبِ خُرَّاسَانَ: دَاوِ جَرْحَكَ لَا يَتَّسِعُ. وَإِلَى عَامِلِهِ عَلَى مِصْرَ: احْذَرِ أَنْ تُخَرَّبَ خِرَانَتِي وَخِرَانَةَ أَحْيَى يَوْسُفَ، فَيَأْتِيكَ مَنِّي مَا لَا قَبِيلَ لَكَ بِهِ، وَمَنْ اللَّهُ أَكْثَرَ مِنْهُ. وَقِيعٌ فِي قِصَّةِ رَجُلٍ مِنْ، الْبِرَامِكَةِ: أَنْبَتَتْهُ الطَّاعَةُ وَحَصَدَتْهُ الْمَعْصِيَةُ وَإِلَى عَامِلِهِ عَلَى فَارِسَ: كُنْ مَنِّي عَلَى مِثْلِ لَيْلَةِ الْبِيَّاتِ. وَإِلَى عَامِلِ خُرَّاسَانَ: إِنَّ الْمُلُوكَ يُؤَثَّرُ عَنْهُمْ الْحَزْمُ. وَإِلَى خَزِيمَةَ بْنِ خَازِمٍ، إِذْ كُتِبَ إِلَيْهِ أَنَّهُ وَضَعَ فِيهِمْ، السِّيفَ حِينَ دَخَلَ أَرْضَ أَرْمِينِيَّةَ: لَا أَمْ لَكَ! تَقْتُلُ بِالذَّنْبِ مَنْ لَا ذَنْبَ لَهُ. وَفِي قِصَّةِ مَحْبُوسٍ: مَنْ لَجَأَ إِلَى اللَّهِ نَجَا. وَفِي قِصَّةِ مَتَزَلِّمٍ: لَا يُجَاوِزُ بِكَ الْعَدْلُ، لَا يُقْصِرُ بِكَ دُونَ الْإِنْصَافِ. وَإِلَى صَاحِبِ السُّنْدِ، إِذْ ظَهَرَتِ الْعَصْبِيَّةُ؛ كُلٌّ مِنْ دَعَا إِلَى الْجَاهِلِيَّةِ، تَعَجَّلِي إِلَى الْمُنِيَّةِ. وَإِلَى عَامِلِهِ عَلَى خُرَّاسَانَ: كُلُّ مَنْ رَفَعَ رَأْسَهُ فَأَنْزَلَهُ عَنْ بَدَنِهِ وَفِي رُقْعَةٍ مَتَزَلِّمٍ مِنْ عَامِلِهِ عَلَى الْأَهْوَازِ، وَكَانَ بِالْمَتَزَلِّمِ عَارِفًا؛ قَدْ وَلِينَاكَ مَوْضِعَهُ فَتَنْكَبُ سِيرَتَهُ. وَفِي كِتَابِ بَكَارِ الزُّبَيْرِيِّ وَفِي كِتَابِ بَكَارِ الزُّبَيْرِيِّ إِلَيْهِ يَخْبِرُهُ بِسَرِّ مِنْ أَسْرَارِ الطَّالِبِينَ: جَزَى اللَّهُ الْفَضْلَ خَيْرَ الْجَزَاءِ فَاخْتِيَارَهُ إِيَّاكَ، وَقَدْ أَتَاكَ أَمِيرُ الْمُؤْمِنِينَ مَائَةَ أَلْفٍ بِحَسَنِ نَيْتِكَ. وَإِلَى مَحْفُوظِ صَاحِبِ خُرَّاسَانَ: يَا مَحْفُوظُ، اجْعَلْ خُرْجَ مِصْرَ خُرْجًا وَأَحَدًا وَأَنْتَ أَنْتَ. وَإِلَى صَاحِبِ الْمَدِينَةِ. ضَعِ رَجْلِيكَ عَلَى رِقَابِ أَهْلِ هَذَا الْبَطْنِ، فَإِنَّهُمْ قَدْ أَطَالُوا لَيْلِي بِالشُّهَادِ، وَنَعُوا عَنِ عَيْنِي لِذِيذِ الرَّقَادِ. وَوَقَعَ إِلَى السُّنْدِيِّ بْنِ شَاهِكٍ: خَفِ اللَّهُ وَإِمَامُكَ فَهَمَا نَجَاتُكَ. وَإِلَى سُلَيْمَانَ بْنِ أَبِي جَعْفَرَ فِي كِتَابِ وَرَدَ عَلَيْهِ مِنْهُ يَذْكَرُ فِيهِ وَثُوبَ أَهْلِ دِمَشْقَ. اسْتَحْيَيْتُ لَشَيْخٍ وَلَدَهُ الْمَنْصُورَ أَنْ يَهْرُبَ عَمَّنْ وَلَدَتَهُ كِنْدَةَ وَطِيءَ، فَهَلَّا قَابَلْتَهُمْ بِوَجْهِكَ، وَأَبْدَيْتَ لَهُمْ صَفْحَتَكَ، وَكُنْتَ كَمَرْوَانَ ابْنَ عَمِّكَ إِذْ خَرَجَ مُصَلِّيًا سَيْفَهُ مَتَمَثِّلًا بِبَيْتِ الْجَحَافِ بْنِ حُكَيْمٍ:

يَتْرُكُنْ مَنْ ضَرَبُوا كَمَنْ لَمْ يُولَدْ

مُتَقَلِّدِينَ صَفَاتِحًا هِنْدِيَّةً

فَجَلَّدَ بِهِ حَتَّى قُتِلَ، لِلَّهِ أُمٌّ وَلَدَتَهُ، وَأَبٌ أَهَضَهُ! وَكُتِبَ مَتَمَلِّكُ الرُّومِ إِلَى هَارُونَ الرَّشِيدِ: إِنِّي مَتَوَجِّهٌ نَحْوَكَ بِكُلِّ صَلِيبٍ فِي مَمْلَكَتِي، وَكُلِّ بَطَلٍ فِي جَنْدِي فَوْقَ فِي كِتَابِهِ: سَيَعْلَمُ الْكَافِرُ لِمَنْ عُقِيَ الدَّارُ. وَكُتِبَ إِلَيْهِ يَحْيَى بْنُ خَالِدٍ مِنَ الْحَبَسِ حِينَ أَحْسَسَ بِالْمَوْتِ: قَدْ تَقَدَّمَ الْخَصْمُ! إِلَى مَوْقِفِ الْفَصْلِ، وَأَنْتَ بِالْأَثَرِ؛ وَاللَّهُ الْحَكَمُ الْعَادِلُ، وَسُقَدَّمَ فَتَعَلَّمْ، فَوْقَ فِيهِ الرَّشِيدُ: الْحَكْمُ الَّذِي رَضِيَتْهُ فِي الْآخِرَةِ لَكَ هُوَ الَّذِي أَعْدَى الْخَصْمَ فِي الدُّنْيَا عَلَيْكَ، وَهُوَ مَنْ لَا يُرَدُّ حُكْمَهُ، وَلَا يُصْرَفُ قِضَاؤُهُ.

المأمون وَقَعَ إِلَى عَلِيِّ بْنِ هِشَامٍ فِي أَمْرِ تَزَلِّمٍ فِيهِ مِنْهُ: مِنْ عِلْمَةِ الشَّرِيفِ أَنْ يَتَزَلَّمُ مَنْ فَوْقَهُ وَيَتَزَلَّمُ مَنْ دُونَهُ، فَأَيُّ الرَّجُلَيْنِ أَنْتَ؟ وَإِلَى هِشَامٍ: لَا أَذْنِيكَ وَلَكَ بِيَابِي خَصْمٌ. وَإِلَى الرَّسْتَمِيِّ فِي قِصَّةِ مَنْ تَزَلَّمُ مِنْهُ: لَيْسَ مِنَ الْمَرْوَةِ أَنْ تَكُونَ آتِيْتُكَ مِنْ ذَهَبٍ وَفِضَّةٍ، وَغَرِيْمُكَ خَاوٍ، وَجَارِكَ طَاوٍ. وَفِي قِصَّةِ مَتَزَلِّمٍ مِنْ عَمْرٍو بْنِ مَسْعُودَةَ: يَا عَمْرٍو، اعْمُرْ نَعْمَتَكَ بِالْعَدْلِ، فَإِنَّ الْجَوْرَ يَهْدِمُهَا. وَفِي قِصَّةِ مَتَزَلِّمٍ مِنْ أَبِي عِيَّادٍ: يَا ثَابِتُ، لَيْسَ بَيْنَ الْحَقِّ وَالْبَاطِلِ قَرَابَةٌ. وَفِي قِصَّةِ مَتَزَلِّمٍ مِنْ أَبِي عَيْسَى أَحْيَاهُ: إِذَا نُفِخَ فِي الصُّورِ فَلَا أَنْسَابَ بَيْنَهُمْ يَوْمَئِذٍ وَلَا يَتَسَاءَلُونَ. وَفِي قِصَّةِ مَتَزَلِّمٍ مِنْ حُمَيْدِ الطُّوسِيِّ: يَا أَبَا غَانِمٍ، لَا تَعْتَرِّمْ مَوْضِعَكَ مِنْ إِمَامِكَ، فَإِنَّكَ وَأَخْسُ عَيْبِهِ فِي الْحَقِّ سَيَّانٌ. وَإِلَى طَاهِرِ صَاحِبِ خُرَّاسَانَ: أَحْمَدُ اللَّهُ أَبَا الطَّيِّبِ إِذَا أَحْلَكَكَ مِنْ خَلِيفَتِهِ مَحَلَّ نَفْسِهِ، فَمَا لَكَ مَوْضِعَ تَسْمُوَ إِلَيْهِ نَفْسُكَ إِلَّا وَأَنْتَ فَوْقَهُ عِنْدَهُ. وَفِي كِتَابِ بَشْرَ بْنِ دَاوُدَ: هَذَا أَمَانٌ عَاقَدْتُ اللَّهُ عَلَيْهِ، فِي مُنَاجَاتِي إِيَّاهُ. وَفِي كِتَابِ إِبْرَاهِيمَ بْنِ جَعْفَرَ

في فَدَك حين أمره بردها: قد أرضيت خليفة الله في فَدَك كما أرضى الله رسوله فيها. وفي قصة متظلم من محمد بن الفضل الطوسي: قد احتملنا بذاءك وشكاسة خلقتك، فأما ظلمك للرعية فإننا لا نحتمله. ووقع إلى بعض عماله: طالع كل ناحية من نواحيك، وقاصية من أقاصيك، بما فيه استصلاحها. وكتب إليه إبراهيم بن المهدي في كلام له: إن غفرت فبفضلك، وإن أخذت فبحقك. فوقع في كتابه: القدرة تُذهب الحفيظة، والندم جزء من التوبة، وبينهما عفو الله. ووقع في رُعدة مولى طلب كسوة: لو أردت الكسوة للزمت الخدمة، ولكنك آثرت الرقاد فحظك الرؤيا. ووقع في يوم عاشوراء لبعض أصحابه، وقد وافته الأموال: يُؤمر له بخمسمائة ألف لطول همته. ولثمامة بن أشرس بثلاثمائة ألف لتركة ما لا يعنيه. ولأبي محمد اليزيدي: يُؤمر له بخمسمائة ألف لكبره. وللمعلّى بخمسمائة ألف لصحيح نيته. ولإسحاق بن إبراهيم بخمسمائة ألف لصدق لهجته. وللعباس بخمسمائة ألف لفصاحة منطقه. ولأحمد بن أبي خالد بألف ألف لمخالفة شهوته. ولإبراهيم بن بويه كذلك لسرعة دمعته. وللمريسي بثلاثمائة ألف لإسباغ وضوئه. ولعبد الله بن بشر بمثلها لحسن وجهه.

توقيعات الأمراء والكبراء

زياد وقع إلى بعض عماله

قد كنت على الدُّعَار، وأخالك داعراً. وكتبتُ إليه عائشة في وصاة برجل، فوقع في كتابها: هو بين أبويه. وإلى صاحب خراسان في أمر خالفه فيه: اشتر بعض دينك ببعض وإلا ذهب كله. وإلى عامله بالكوفة: أمط الحدود عن ذوي المروآت. وفي قصة متظلم: أنا معك. وفي قصة قوم رفعوا على عامل ربيعة، من أماله الباطل قومه الحق. وفي قصة مُستمح: لك المواساة. وإلى عامله في خوارج خرجوا بالبصرة: النساء تُحاربهم دونك. وفي قصة سارق: القَطْع جزاؤك. وفي قصة امرأة حُبس زوجها: حُكمه إلى الله. وفي قصة قوم تقبوا: تُتقب ظهورهم. وفي قصة نباش: يُدفن حياً في قبره. وفي قصة متظلم. الحق يسعك. وفي قصة مُتنصّح: مهلاً فقد أبلغت إسماعي وفي قصة متظلم: كُفيت. وفي قصة رجل شكاه إليه عُقوق ابنه: ربما كان عُقوق الولد من سوء تأديب الوالد. وفي قصة رجل شكاه الحاجة: لك في مال الله نصيب أنت آخذه. وفي قصة رجل جارح: الجروح قصاص. وفي قصة محبوس: التائب من الذنب كمن لا ذنب له. وفي قصة قوم شكوا غرق ضياعهم: لا نعوض فيما تفرّد الله به. وفي قصة قوم اشتكوا احتياح الجراد لزرعهم: لا حُكم فيما استأثر الله به.

الحجاج بن يوسف

وقع في كتاب آتاه من قتيبة بن مسلم يشكو كثرة الجراد وذهاب الغلات وما حل بالناس من القحط: إذا أزف خراجك فانظر لرعيّتك في مصالحها، فبيت المال أشدّ اضطلاعاً بذلك من الأرملة واليتيم وذوي العيلة. وفي كتاب قتيبة إليه أنه على عبور النهر ومُحاربة الترك: لا تُخاطر بالمسلمين حتى تعرف موضع قدمك، ومرمى سهامك. وفي كتاب صاحب الكوفة يُخبره بسوء طاعتهم وما يقاسي من مداراهم: ما ظنّك بقوم قتلوا من كانوا يُعبدونه. وفي قصة محبوس ذكروا أنه تاب: ما على المحسنين من سبيل. وإلى قتيبة: خذ عسكريك بتلاوة القرآن، فإنه أمانع من حُصونك. وفي كتابه إلى بعض عماله: إياك والملاهي حتى تستنظف خراجك. وفي كتابه إلى ابن أخيه: ما ركب يهودي قبلك منيراً. وفي كتابه إلى يزيد بن أبي مسلم: أنت أبو عبيدة هذا القرن.

أبو مسلم

وقع يا كتاب سليمان بن كثير الخزاعي: لكل نأ مُستقر وسوف تعلمون. وإلى أبي العباس في يزيد بن عمر بن هبيرة: قلّ طريق سهل تُلقى فيه الحجارة إلا عاد وعرّاً، والله لا يصلح طريق في ابن هبيرة أبداً. وإلى ابن قحطبة: لا تُنس نصيبك من الدنيا. وإليه: ادع إلى سبيل ربك بالحكمة والموعظة الحسنة. وإليه: لا تتركوا إلى الذين ظلموا فتمسككم النار. وإلى محمد بن صول، وكتب إليه بسلامة أطرافه: وأما بنعمة ربك فحدث. وكتب إليه

قَحطبة: إن بعض قُواده خَرَج إلى عسكر ابن ضُبارة راغباً، فوَقَّع في كتابه: "ألم تُر إلى الذين بَدَّلوا نِعْمَةَ اللَّهِ كَفراً" الآية. وإلى عامله بِيْلُخ: لا تُؤخَّر عمل اليوم لغد. وإلى أبي سَلْمَةَ الخَلَّال حين أنكر نَيْتَه: وإذا لَقُوا الذين آمنوا قالوا آمنا وإذا حَلُّوا إلى شياطينِهِم قالوا إنا معكم.

جعفر بن يحيى

وَقَّع في قصَّة محبوس: لكلِّ أجل كتاب. وفي مثله: العَدْل يُوبِقه، والتوبة تطلقه. وفي قصه متنصح: بعض الصدق قَبِيح. وإلى بعض عُمَّاله: قد كثر شاكوك، وقل شاكروك، فإما عدلت وإما اعتزلت. وفي قصة رجل شكَا بعضَ خَدَمه: خُذ بأذنه ورأسه فهو مالك وإلى عامل فارس في رجل كتب إليه بالوصاة: كُن له كأبيه لو كان مكانك وإلى عامل مصر رجل من بطانته يُوصيه. إنه رغب إلى شعبك. فأرغب في اصطناعه. وفي قصه متظلم من بعض عماله: أني ظلمتك دونه وفي قصة عبوس: الجناية حسبه، والتوبة تطلقه، وإلى قوم، عين الخليفة تكلؤكم وفي رقعه صارورة استأذنه في الحج: من سافر إلى الله أنجح وفي قصه رجل شكَا عزوبه: الصوم لك وجاء وفي رقعه رجل سأل ولاية: لا أولى بعض الظالمين بعضاً وفي قصه رجل سأل أن يقفل ابنه فقد طالت غيبته عنه: غيبته يوسف صلى الله عليه وسلم كانت أطول رجل تظلم من بعض عماله: أنا لمثله حتى بنصفك، وفي قصة قوم شكوا سوء جوار بعض قرابته: يرحل عنكم وفي قصه مستمنح قد كان وصله مراراً: دع الضرع يدر لغريك كما در لك. وإلى الفضل بن الربيع، وجاءه منه كتاب غمه وأكربه: كثرة ملاحاة الرجال ربما أراقت الدماء. وإلى منصور بن زياد في أمر عاتبه فيه: لم نزرعك لنحصدك. وإلى بعض عماله اجعل وسيلتك إلينا ما يزيدك عندنا وإلى بعض ندمائه: لا تبعد عن ضمك ووقع إلى متصل من ذنب: حكم الفلتات خلاف حكم الإصرار.

الفضل بن سهيل

كتب إلى أخيه الحسن: أحمد الله يا أخي، فما يبيت خليفة الله إلا على ذكرك. وإلى طاهر: ليخبر ما اتصعت. وإليه: لشر ما سموت. وإلى هرثة وأشار عليه برأي: لا يُحل ما عقدت. وفي قصة متظلم: كفى بالله للمظلوم ناصراً. ويا قصة رجل نقب بيت المال: يدرأ عنه الحد إن كان له فيه سهم. ووقع إلى حاجبه: تمهل وتسهل. وإلى صاحب الشرطة: ترفق توفق. وإلى رجل شكَا غلبة الدين. قد أمرنا لك بثلاثين ألفاً وسنشفعهما بمثلها ليرغب المستمنحون وفي قصه متظلم: طب نفساً فإن الله مع المظلوم وإلى رجل شكَا إليه الدين: الدين سوء يهيبض الأعناق، وقد أمرنا بقضائه. وفي قصة قوم قَطَعوا الطريق إنما جزأ الذين يجاربون الله ورسوله ويسعون في الأرض فساداً الآية. وفي امرئ قاتل شهد عليه العدول فشفع فيه: كتاب الله أحق أن يتبع. وفي قصه رجل شهد عليه أنه شتم أبا بكر وعمر: يضرب دون الحد ويشهر ضربه.

الحسن بن سهل ذو الرياستين

وقع في قصة متظلم: ينظر فيما رفع: فإن الحق منيع، وإلا فشفاء السقيم دواء السقيم. وفي قصة قوم تظلموا من واليهم: الحق أولى بنا، والعدل بغيتنا، وإن صح ما ادعيتم عليه صرفناه وعاقبناه. وفي قصة امرأة حبس زوجها: الحق يجسه والإنصاف يطلقه. وفي رقعة رائد قد أمرنا لك بشيء وهو دون قدرك في الاستحقاق، وفوق الكفاية مع الاقتصاد. وكتب إليه رجل من الشعراء يقول له:

ولي وصيف وفي كفي دنانير

رأيت في النوم إنني راكب فرساً

رأيت خيراً وللأحلام تعبير

فقال قوم لهم فهم ومعرفة

في الحلم خيراً وفي النوم التبشير

رؤياك فسر غداً عند الأمير تجد

فوقع في أسفل كتابه: أضغاث أحلام وما نحن بتأويل الأحلام بعالمين. وأطلق له ما التمسه. ودخل بعض الشعراء على عبد الملك بن بشر بن مروان فأنشده:

أغفيت عند الصبح نوم مسهد

فرأيت إنك رعتني بوليدة

وببدره حملت إلي وبغلة

فدعوت ربي أن يثيبك جنة

ليت المناير يا بن مروان الندى

في ساعة ما كنت قبل أنامها

رعوبة حسن علي قيامها

دهماء مشرفة يصل لجامها

عوضاً يصيبك بردها وسلامها

أضحت وأنت خطيبها وإمامها

فقال له عبد الملك بن بشر: في كل شيء أصبت إلا البغلة، فإني لا أملك إلا شهباء. فقال له: امرأتي طالق أن كنت رأيتها إلا شهباء، إلا أنني غلظت.

ظاهر بن الحسين

وَقَعَ فِي كِتَابِ رَجُلٍ تَظَلَّمَ مِنْ أَصْحَابِ نَصْرِ بْنِ شَيْبٍ: طَلَبَ الْحَقَّ فِي دَارِ الْبَاطِلِ. وَفِي قِصَّةِ رَجُلٍ طَلَبَ قَبَالَةَ بَعْضِ أَعْمَالِهِ: الْقَبَالَةَ مِفْتَاحَ الْفَسَادِ، وَلَوْ كَانَتْ صَاحِحًا مَا كُنْتُ لَهَا مَوْضِعًا. وَإِلَى السَّنْدِيِّ بْنِ شَاهِكٍ، وَجَاءَهُ مِنْهُ كِتَابٌ يَسْتَعِظُفُهُ وَفِيهِ: عِشْ مَا لَمْ أَرِكْ. وَإِلَى خُزَيْمَةَ بْنِ خَازِمٍ: الْأَعْمَالُ بِخَوَاتِيمِهَا، وَالصَّنِيْعَةُ بِاسْتِدَامَتِهَا، وَإِلَى الْغَايَةِ مَا جَرَى الْجَوَادُ، فَحُمِدَ السَّابِقُ، وَذُمَّ السَّاقِطُ. وَإِلَى الْعَبَّاسِ بْنِ مُوسَى الْهَادِيَّ وَأَسْتَبْطَأَهُ فِي خِرَاجِ نَاحِيَّتِهِ:

ولكن أخوها من بيت علي رحل

وليس أخو الحاجات من بات نائماً

وَفِي رُقْعَةٍ مُتَنَصِّحٍ: سَنَنْظُرُ أَصْدَقْتَ أَمْ كُنْتَ مِنَ الْكَاذِبِينَ. وَفِي قِصَّةِ مَجْبُوسٍ: يُطْلَقُ وَيُعْتَقُ. وَفِي رُقْعَةٍ مُسْتَوْصِلٍ: يُقَامُ أَوَدَهُ. وَكُتِبَ أَبُو جَعْفَرٍ إِلَى عَمْرُو بْنِ عَبِيدٍ: أبا عثمان، أعني بأصحابك، فإنهم أهل العدل، وأصحابُ الصادق، والمؤثرون له فوقَّع في كتابه: ارفع علم الحق يتبعك أهله.

توقيعات العجم

وَقَعَ أَرْدَشِيرُ فِي أَرْزَمَةِ الْمَمْلُوكَةِ: مِنَ الْعَدْلِ أَنْ لَا يَفْرَحَ الْمَلِكُ وَرَعِيَّتُهُ مَحْزُونُونَ. ثُمَّ أَمَرَ فَرَّقَ فِي الْكُورِ جَمِيعَ مَا فِي بُيُوتِ الْأَمْوَالِ. وَرَفَعَ رَجُلًا إِلَى كَسْرَى بْنِ قُبَادٍ رُقْعَةً يُخْبِرُهُ فِيهَا أَنَّ جَمَاعَةَ مِنْ بَطَانَتِهِ قَدْ فَسَدَتْ نِيَاتِهِمْ وَحَبِثَتْ ضَمَائِرَهُمْ، مِنْهُمْ فُلَانٌ وَفُلَانٌ. فَوَقَّعَ فِي أَسْفَلِ كِتَابِهِ: إِنَّمَا أَمْلَكَ ظَاهِرَ الْأَجْسَامِ لَا النِّيَّاتِ، وَأَحْكَمَ بِالْعَدْلِ لَا بِالْهَوَى، وَأَفْحَصَ عَنِ الْأَعْمَالِ لَا عَنِ السَّرَائِرِ. وَوَقَّعَ كَسْرَى فِي رُقْعَةٍ مَدْحٍ: طُوبَى لِلْمَمْدُوحِ إِذَا كَانَ لِلْمَمْرُوسِ مُسْتَحَقًّا، وَلِلدَّاعِي إِذَا كَانَ لِلْإِجَابَةِ أَهْلًا. وَكُتِبَ إِلَيْهِ مُتَنَصِّحٌ: إِنْ قَوْمًا مِنْ بَطَانَتِهِ اجْتَمَعُوا لِلْمُنَادِمَةِ، فَعَابُوهُ وَتَلَمَّوهُ. فَوَقَّعَ: لَئِنْ كَانُوا نَطَقُوا بِاللِّسَانَةِ شَتَّى لَقَدْ اجْتَمَعَتْ مَسَاوِيَهُمْ عَلَى لِسَانِكَ، فَجَرَّحَكَ أَرْغَبٌ، وَلِسَانِكَ أَكْذَبٌ. وَرَفَعَ إِلَيْهِ جَمَاعَةٌ مِنْ بَطَانَتِهِ رُقْعَةً يَشْكُونَ فِيهَا، سَوَّءَ حَالِهِمْ. فَوَقَّعَ: مَا أَنْصَفَكُمْ مِنْ إِلَى الشُّكِّيَّةِ أَحْوَجَكُمْ؛ ثُمَّ فَرَّقَ بَيْنَهُمْ مَا وَسَعَهُمْ وَأَغْنَاهُمْ. وَوَقَّعَ أَنْوَشْرَوَانَ إِلَى صَاحِبِ خِرَاجِهِ: مَا اسْتَعْزَرَ الْخِرَاجَ بِمَثَلِ الْعَدْلِ، وَلَا اسْتَشْتَرَى بِمَثَلِ الْجُورِ. وَوَقَّعَ فِي قِصَّةِ رَجُلٍ تَظَلَّمَ مِنْهُ: لَا يَنْبَغِي لِلْمَلِكِ الظَّلْمَ، وَمِنْ عِنْدِهِ يُلْتَمَسُ الْعَدْلُ، وَلَا الْبُخْلُ، وَمَنْ عِنْدَهُ يُتَوَقَّعُ الْجُودُ؛ ثُمَّ أَمَرَ بِإِحْضَارِ الرَّجُلِ وَقَعَدَ مِنْهُ بَيْنَ يَدَيْ الْمُوْبَذِّ. وَوَقَّعَ فِي قِصَّةِ مَجْبُوسٍ: مَنْ رَكِبَ مَا نُهِى عَنْهُ حَيْلَ بَيْنَهُ وَبَيْنَ مَا يَشْتَهِي. وَرَفَعَ إِلَيْهِ بَعْضُ خَدَمِهِ رُقْعَةً يُخْبِرُهُ فِيهَا بِكَثْرَةِ عِيَالِهِ، وَسَوَّءِ حَالِهِ، فَعَرَفَ كَذِبَهُ، فَوَقَّعَ: إِنَّ اللَّهَ خَفَّفَ ظَهْرَكَ فَتَقَلَّتْهُ، وَأَحْسَنَ إِلَيْكَ فَكَفَّرْتَهُ، فَتُبَّ إِلَى اللَّهِ يُتَبَّ عَلَيْكَ. وَوَقَّعَ فِي قِصَّةِ رَجُلٍ سَعَى إِلَيْهِ بِبَاطِلٍ: بِاللِّسَانِ احْفَظْ رَأْسَكَ. وَوَقَّعَ فِي قِصَّةِ رَجُلٍ ذَكَرَ أَنَّ بَعْضَ قَرَابَةِ الْمَلِكِ ظَلَمَهُ وَأَخَذَ مَالَهُ: لَا تَصْلِحِ الْعَامَّةُ إِلَّا بَبَعْضِ الْحَيْفِ عَلَى الْخَاصَّةِ، فَإِنْ كُنْتَ صَادِقًا أَبْحَثُكَ جَمِيعَ مَا يَمْلِكُهُ. فَلَمْ يَتَظَلَّمْ بَعْدَهَا أَحَدٌ مِنْ قَرَابَتِهِ.

فصول في المودة

كتب عبد الرحمن بن أحمد الحراني إلى محمد بن سهل: أعزك الله، إن كل مجازاة قاصرة عن حق السابق إلى افتتاح الود، وقد علمت أني استقبلتك من الإقبال عليك بما لم تستدعه، واعتدتك من الرغبة فيك بما لم تؤله.

وفصل لأبي عليّ البصير: قد أكد الله بيننا من الود، ما نأمن الدهر على حل عقده، ونقض مرائره، وما يستوي فيه ثقتنا بأنفسنا لك، وثقتنا بما عندك. وفصل له: الحال فيما بيننا تحتل الدالة، وتوجب الأناج والثقة، ويسط اللسان بالاستزادة، وأنا أمت إليك بالحرمة المتقدمة، والأسباب المؤكدة، التي تُحل صاحبها محل خاصة الأهل والقرابة.

وفصل لإبراهيم بن العباس: المودة يجمعنا حبها، والصناعة تُؤلفنا أسبابها، وما بين ذلك من تراخٍ في لقاء، أو تخلف في مكاتبة، موضوع بيننا يجب العذر فيه. وفصل لسعيد بن عبد الملك: أنا صبب إليك، سامي الطرف نحوك، وذكرك مُلصق بلساني، واسمك حلو على لهوتي، وشخصك مائل بين عيني، وأنت أقرب الناس من قلبي، أحدهم بمجامع هواي.

وفصل له: لنحن أحقّ بابتدائك بما ابتدأنا به من الصلّة، إلا أنك أحقّ بالفضل الذي سبقت إليه.

وفصل لسعيد بن حميد: إنني أهديت مودتي إليك رغبة، ورضيت بالقبول منك مثنوية، فصرت بقبولها قاضياً لحق، ومالكاً لرق، وصرت بالتسرّع إلى الهدية، والتتنظر للمثوبة، مُرهن اللسان بالجزاء، واليدين بالوفاء.

وفصل له: إني صادفت منك جوهر نفسي، فأنا غير محمود على الانقياد لك بغير زمام، لأن النفس يقود بعضها بعضاً. ولحال أبو العتاهية:

دليل حين يلقاه

مقاييس وأشباه

وللقب على القلب

وللناس من الناس

وفصل ل: لساني رطب بذكرك، وقلبي معمور بمحبتك، حضرت أو غبت، سرت أو قمت، كقول معقل أحي أبي دلف:

لقد سخنت بالبين منك عيون

مكانك من قلبي عليك مصون

لعمري لئن قرت بقربك أعين

فسر أو أقم وقف عليك مودتي

وفصل لإبراهيم بن المهدي: كتابي إليك كتاب مخبر وسائل؛ فأما الإخبار، فعن تصرف الخطوب بما يوجب العذر عنه صديقي العزي عليّ في إبطائي بالتعهد له، وأما السؤال، فعن إمساك هذا الأخ الودود المودود عن مثل ذلك؛ وإن العذر كاشف ما سلف، مُصلح لما استؤنف.

فصول في الزيارة

كتب الحسين بن الحسن بن سهل إلى صديق له: نحن في مأذبة لنا تشرف على روضة تضاحك الشمس حسناً، قد باتت السماء تطلها، فهي شرقة بمائها، حالية بنوارها، فبادر إلينا لنكون على سواء من، استمتاع بعضنا ببعض. فكتب إليه: هذه صفة لو كانت في أقاصي الأطراف لوجب انتجاعها، وحث المطي في ابتغائها، فكيف في موضع أنت تسكنه، وتجمع إلى أنيق منظره، حُسن وجهك، وطيب شمائلك، وأنا الجواب.

وفصل: كتب حكيم إلى حكيم: يا أخي، إن أيام العمر أقل من أن تحتل الحجر، والسلام وفصل: كتب إسحاق بين إبراهيم الموصلي إلى أحمد بن يوسف في المصير إليه، وعند أحمد بن يوسف إبراهيم بن المهدي فكتب إليه: عندي من أنا عنده، وحجتنا عليك إعلامنا إياك.

وفصل: إنه من ظمى شوقه من رؤيتك، استوجب الري من زيارتك. ثم كتب تحت هذا:

ء فقد طال عهدنا بالتلاقي

فلقد خفت سطوة الإشتياق

سر إلينا تفديك نفسي من السو

واجعلن ذلك إن رأيت جوابي

وفصل: إلى الله أشكو شدة الوحشة لعيبك، وفرط الحزن من فراقك، وظلم الأيام بعدك، وأقول كما قال بعض المحدثين.

غُضَارَةٌ دُنْيَا أَظْلَمَ الْعَيْشُ بَعْدَهَا

وَعِنْدَ غُرُوبِ الشَّمْسِ يَعْرفُ فَقْدَهَا

وفصل: الشوقُ إليك وإلى عهدِ أَيْماننا التي حَسُنْتَ بك، حتى كأنها أعياد، وقَصُرْتُ بك حتى كأنها ساعات، يفوت الصفات؛ ومما يجِدُّه ويُكثِرُ دواعيه تَصَاقُبُ الدِّيارِ، وقُرْبُ الجِوارِ، تَمَّمَ اللهُ لنا التَّعَمَّةَ المجددة فيك بالتَّظَرُّعِ إلى العُرةِ المباركة، التي لا وَحْشَةَ معها ولا أُنْسَ بعدها.

وفصل: مُثَلِّنا - أعزك اللهُ - في قُرْبِ تَجاورنا، ويُبعد تزاورنا، ما قِيلَ في أهل القُبور:

هُمُّ جَبْرَةِ الْأَحْيَاءِ أَمَا مزارهم

فدان، وأما المُلْتَقَى فَبَعِيد

وكل عِلَّةٍ معك مُحتَمِلة، وكل جَفْوَةٌ مغفورة؛ ولِلشَّغْفِ بك، والثقة بِحَسَنِ نَيْتِكَ، وسنأخذ بقول أبي قَيْسِ بنِ الأَسَلْتِ:

وَيُكْرِمُهَا جاراتها فيزُرُها

وتَغْفَلُ عن إيتيانهنَّ فَتَعْذُرُ

وفصل: كتب حكيم إلى حكيم: يا أخي، إن أيام القمر أقل من أن تحتل المجر، والسلام وفصل: كتب أحمد بن يوسف: لا تجوز قَطِيعَةُ الصديق، لأنها لا تَخْلُو من أحدٍ وَجْهين: إمَّا ضَعْفٌ في نفس الاختيار، وإمَّا مَلَلٌ. وكلاهما لا حُجَّةَ فيه.

وفصل: طال العهدُ بالاجتماع حتى كِدْنَا نَتَنَاقَرُ عند الالتقاء، وقد جعلك اللهُ لِلسُّرُورِ نِظامًا، ولأنسِ تَمَامًا، وجعل المَشاهِدَ مُوحِشَةً إذا خَلَّتْ منك. وكتب الحسن بن وهب إلى محمد بن عبد الملك الزيات:

أوجب العُدْرَةَ في تراخي اللِّقَاءِ

ما توالى من هذه الأنواعِ

فسلامُ الإلهِ أهديه مني

كلَّ يومٍ لسيدِ الوزراءِ

لست أدري ماذا أقول وأشكو

من سماءٍ تَعوِّفُنِي عن سماءِ

غير أنني أدعو على تلكِ بالثَّكُّ

ل وأدعو لهذه بالبقاءِ

وقال آخر:

أزور محمداً فإذا التقينا

تكلَّمتُ الضمائرُ في الصِّدُورِ

فأرجع لم ألمه ولم يلمني

وقد رضي الضميرُ عن الضميرِ

فصول في وصاة

كتب الحسن بن وهب إلى مالك بن طوق في ابن، أبي الشَّيْصِ: كتابي إليك خططه يميني، وفرغت له ذهني، فما ظنك بحاجة هذا موقعها مني؟ أتراني أقبل العُدْرَةَ فيها، أو أقصر في الشكر عليها؟ وابن أبي الشَّيْصِ قد عرفته وعرفت، نسبه وصفاته، ولو كانت أيدينا تَبْسِطُ بيره ما عدانا إلى غيرنا، فاكتف بهذا منا.

وفصل: كتابي إليك كتاب معني. ممن كُتِبَ له، واثق. ممن كُتِبَ إليه، ولَنْ يَضِيعَ بين الثقة والعناية حامله.

وفصل: كتب العتابي فكاد أن يُخِلَّ بالمعنى من شدة الاختصار، فكتب: حاملُ كتابِ إليك أنا، فكن له أنا، والسلام.

وفصل للحسن بن سهل: فلان قد استغنى باصطناعك إياه عن تحريكك إياك في أمره، فإن الصنعة حُرمة للمصنوع إليه، ووسيلة إلى مُصْطَنَعِهِ، فبسط اللهُ يدك بالخيرات، وجعلك من أهلها، ووصل بك أسبابها.

وفصل له: موصك كتابي إليك أنا، فكن له أنا، وتأمله بعين مُشاهِدَتِي وخُلُوتِي، فلسائه أشكر ما آتيت إليه، وأذم ما قصرت فيه.

فصول في عتاب

كتب أحمد بن يوسف: لولا حُسن الظن بك - أعزك الله - لكان في إغضائك عني ما يقبضني عن الطلبة إليك، ولكن أمسك برمق من الرجاء علمي برأيك في رعاية الحق، وبسط يدك إلى الذي لو قبضتها عنه لم يكن له إلا كرمك مُذكراً، وسؤددك شافعا.
فصل: ما أبعد البرء من مريض داؤه في دوائه، وعلته في حِمِيته، وأنا منك كالغاص بالماء لا مساع له. وكما قال الشاعر:

وهم كُربتي، فأين الفرار؟

كنت من كُربتي أفر إليهم

فصل: أنا مُنتظرٌ واحدة من اثنتين: عتبي تكون منك، أو عتبي تُغني عنك.

فصل: أما بعد فقد كنت لنا كلُّك، فاجعل لنا بعضك، ولا نرضى إلا بالكلِّ لك منا فصل: أنا ابقني على ودك من عارض يغيره، أو عتاب يقده فيه، وأملُ عائداً من حُسن رأيك يغني عن اقتضائك.

فصل: ألهمك الله من الرشد بحسب ما منحك من الفضل. ولو أن كل من نزع إلى الصرم قلّدها عنان الحجر لكنا أولى بالذنب منه، ولكنا نرد عليك من نفسك، ونأخذ لها منك.

فصل: لعبد الله بن معاوية بن عبد الله بن جعفر ذي الجناحين: أما بعد، فقد عاقني الشك في أمرك عن عزيمة الرأي فيك، ابتدأني بلطف عن غير خيرة، وأعقبته جفاء من غير ذنب، فاطمئني أولك في إحائك، وآيسني أخرك من وفائك، فسبحان من لو شاء لكشف من أمرك عن عزيمة الرأي فيك، فأقمنا على ائتلاف، أو افترقنا على اختلاف.

وفصل: إذا جعلت الظن شاهداً تعدل شهادته، بعد أن جعلته حكماً يحيف في حكومته، فأين المولى من جورك، ولست أسلك طريقاً من العتب عليك، إلا سده ما أنطوى عليه من مودتك. ولا سبيل إلى شكائتك إلا إليك، ولا استعانة إلا بك، وما أحق من جعلك على أمره عوناً أن تكون له إلى النجاح سبباً. وقال الشاعر:

ومن طول ودك، أني ذهب؟

عجبت لقلبك كيف انقلب

أراك بعين الرضا من الغضب

وأعجب من ذا وذا أنني

وفصل: إن مسألتي إليك حوائجي مع عتبك عليّ لمن اللوم، خالط إمساكي عنها في حالة ضرورة إليها مع علمي بكرامك في السخط والرضا لعجز؛ غير أني أعلم أقرب الوسائل في طلب رضاك مُساءلتك ما سَنَح من الحاجة، إذ كنت لا تجعل عتبك سبباً لمنع معروفك.

وفصل: لو كانت الشكوك تحتلجني في صحّة مودّتك، وكريم إحائك، ودوام عهدك، لطال عتبي عليك في تواتر كتبي واحتباس جواباتها عني؛ ولكن الثقة بما تقدّم عندي تعذر، وتحسن ما يقبّحه جفاؤك، والله يديم نعمته لك ولنا بك.

وفصل لابن المدير: وصل كتابك المُفتّح بالعتاب الجميل، والتّقرّيع اللطيف: فلولا ما غلب عليّ من السرور بسلامتك، لتقطعتُ غما بعتابك الذي لطف حتى كاد يخفي عن أهل الرقة والفطنة، وغلظ حتى كاد يفهمه أهل الجهل والبله. فلا أعدمني الله رضاك مُجازياً على ما استحقّه عتبك، وأتّ ظالم فيه، فهو وليّ المخرج منه. وقالت أبو الدرداء: عتاب الأخ خير من فقدّه وقال الشاعر:

ويبقى الود ما بقي العتاب

إذا ذهب العتاب فليس ود

وقال آخر في هذا المعنى:

وتعتب في كل يوم علياً

إذا كنت تغضب من غير ذنب

عددتك ميئاً وإن كنت حيّاً

طلبت رضاك فإن عزني

فأكثر منه الذي في يدي

فلا تعجب بما في يديك

وفصل في عتاب: العتابُ قبل العقاب، فليكن إيقاعك بعد وعيدك، ووعيدك بعد وعذك.
وفصل: قد حميتُ جانبَ الأملِ فيك، وقطعتُ أسبابَ الرجاءِ منك، وقد أسلمني اليأسُ منك إلى العزاءِ عنك، فإن تُرغب من الآن فصَحَّح لا تثریب معه، وإن تماديتَ فهجرٌ لا وصلَ بعده.

فصول في التنصل

كتب ابن مكرم: لا وعظيم أملی فيك، ما أتيت فيما بيني وبينك ذنباً مُحططاً ولا متعمداً، ولعلّ فلتة لم ألق لها بالاً فأوطفىء لها اعتذاراً، وإن تكن فتنَةٌ حاسد زحرفها على لسان واش نبذها إليك في بعض غرأتك أصابت مني مقتلاً، وشفت منه غليلاً.
وفصل: ليس يُزِيلني عن حُسن الظن بك فعلٌ حَمَلك الأعداءِ عليه، ولا يَقطعني عن رجائك عَنبٌ حَدث منك عليّ، بل أرجو أن يتقاضى كَرَمك إنجاز وعذك؛ إذ كان أبلغ الشُّفعاء إليك، وأوجب الوسائلَ لَدَيْك.

وفصل: أنت - أعزك الله - أعلم بالعفو والعقوبة من أن تُجازيني بالسوء على ذنب لم أحنه بيد ولا لسان، بك جناه عليّ لسان واش. فأما قولك إنك لا تُسَفِّك سبيل العُذر، فأنت أعلم بالكرم، وأرعى لحقوقه، وأعرف بالشرف، وأحفظُ لذمّاماته من أن تُردَّ يدَ مؤمِّلِك صِفراً من عَفْوِك إذا التمسّه، ومن عُذرك إذا جعل فضلكَ شافعاً فيه، وذريعة له.

وفصل لإبراهيم بن العباس: الكرم أوسع ما تكون مغفرته، إذا ضاقت بالمذنب معذرتة.

وفصل: يا أخي، أشكو إلى الله وإليك تحمل الأيامِ عليّ، وسوء أثر الدهر عندي، وأني مُعلِّق في حبالٍ من لا يعرف موضعي، ولا يحلو عنده موقعي، أطلبُ منه الخلاص فيزيدي كلفاً، وأرتجى منه الحقَّ فيزداد به ضنّاً، فالثواءُ ثواء مقيم، والنّيةُ نيةُ ظاعن، والزّماعُ زماعُ مُرتحل. ما أذهب إلى ناحية من الحيلة إلا وجدتُ من دوها مانعاً من العواقب، فأحمل الذنبَ على الدهر، وأرجع إلى الله بالشكوى وأسأله جميل العقبى، وحسن الصبر.

فصول في حسن التواصل

للمفضل أن يَخُص بفضلِه مَنْ شاء، وله الحمد فيما أعطى. ولا حجة عليه فيما منع و، كن كيف شئت، فإني قد أوليتك خالصةً سريري، أرى ببقاتك بقاءً سروري، وبدوام التّعمة عندك، ودوامها عندي.

وفصل: قد أغنى الله بكرمك عن الذريعة إليك، والاستعانة عليك، لأنَّ حُسن الظن فيك، وتأميل نُجح الرّغبة إليك، فوق الشُّفعاء عندك.

وفصل: قد أفردتك برجائي بعد الله، وتعجّلت راحة اليأسِ ممن يجود بالوعد، ويضن بالإنجاز، ويُحسن الفضل ويَزهّد في أن يتفضل، ويعيب الكذب ولا يصدق. وفصل: ضعني - أكرمك الله - من نفسك حيث وضعت نفسي من رجائك، أصاب الله بمعرفتك مواضعه، وبسط بكل خير يدك.
وفصل: لا أزال - أبقاك الله - أسألُ الكتابَ إليك. فمرة أتوقف توقّف المُخفّف عنك من المؤونة، ومرة أكتب كتاب الرجاء منك إلى الثقة، والمُعتمد منك على المقة. لا أعدمنا الله دوام عرك، ولا سلب الدنيا بهجتها بك، ولا أخلاننا من الصُّنع لك، فإننا لا نعرف إلا نعمتك، ولا نجد للحياة طعماً إلا في ظلك، ولئن كانت الرغبة إلى نفر من الناس خساسةً وذلاً، لقد جعل الله الرّغبة إليك كرامةً وعزاً، لأنك لا تعرف حرّاً قعد به دهره إلا سبقت مسألته بالعطيّة، وصنّت وجهه عن الطلب والذلة.

وفصل: لي عليك حقُّ التأميل في الزيادة بما ابتدأت من المعروف، ولك عليّ حقُّ الاصطناع والفضل، والتّنويه بالاسم والشكر، وليس بمنعني علمي بزيادة حقك على ما أبلغه من شكرك من مُساءلتك المزيد، إذ كنت قد انتهيتُ إلى ما بلغه المجهود، وخرجتُ من منزله الإضاعة والتّقصير؛ وإذ كنت تسمح بالحق عليك، وتطيب نفساً عن حقك، وتُنكر اليسير، ولا تكفّف أحداً شكرك على الكثير.
وفصل: لك - أصلحك الله - عندي أيادٍ تُشفع لي إلى محبتك، ومُعرف يُوجب عليك الرّبَّ والإتمام.
وفصل: أنا أسأل الله أن يُنجز لي ما لم تُزل الفِراسة تُعدّنيه فيك.

وفصل: قد أجلّ الله قَدْرَكَ عن الاعتذار، وأغناك في القول عن الاعتلال، وأوجب علينا أن نَنفع بما فعلتَ، ونرضى بما أتيت، وصلت أو قطعت.

فصول في الشكر

كتب محمد بن عبد الملك الزيات كتاباً عن المعتصم إلى عبد الله بن طاهر الخراسانيّ، فكان في فصل منه: لو لم يكن من فضل الشُّكر إلا أنك لا تراه إلا بين نعمة مقصورة عليك، أو زيادة مُنتظرة لها الكفَى. ثم قال محمد بن إبراهيم بن زياد: كيف ترى؟ قال: كأهما قرطان بينهما وجه حسن. وفصل للحسن بن وهب: في شُكرك على درجة رفعتَه إليها، أو ثروة أفدته إياها، فإن شكري لك على مُهجة أحببتَها، وحُشاشة أبقيتَها، ورَمَقَ أمسكتَ به، وقُمتَ بين التلّف وبينه. فلكلّ نعمة من نعم الدُّنيا حدٌ تنتهي إليه، ومدى يُوقف عنده، وغاية من الشُّكر يسمو إليها الطرف، خلا هذه النعمة التي قد فاقت الوصفَ، وطالت الشُّكر، وتجاوزت كل قَدْر، وأنت من وراء كل غاية؛ ردتْ عنا كيدَ العدو، وأرغمت أنف الحسود، فنحن نلجأ منها إلى ظل ظليل، وكَنف كريم. فكيف يشكر الشاكر، وأين يبلغ جُهد المجتهد؟ وقال إبراهيم بن المهديّ يشكر المأمون:

وقبل ردك مالي قد حقنت دمي

هي الحياتان من موتٍ ومن عدم

والمال حتى أسأل النعل من قدمي

إليك لو لم تعرّها كنت لم تلم

فيما أتيت فلم تعتب ولم تلم

مقام شاهد عدلٍ غير مُتهم

رددت مالي ولم تمنن عليّ به

فأبت منك وقد جعلتني نعماً

فلو بذلت دمي أبغي رضاك به

ما كان ذاك سوى عارية رجعت

البرُّ بي منك وطى العذر عندك لي

وقام علمك بي يحججُ عندك لي

فصول في البلاغة

كتب الحسن بن وهب إلى إبراهيم بن العباس: وصل كتابك فما رأيت كتاباً أسهل فُنوناً، ولا أملس مُتوناً، ولا أكثر عيوناً، ولا أحسن مقاطع ومطالع، منه؛ أنجزت فيه عدّة الرأي، وبشرى الفراسة، وعاد الظن يقيناً، والأمل مبلوغاً، والحمد لله الذي بنعمته تتم الصالحات. فصل: الكلام كثيرة فُونه، قليلة عيونُه؛ فمنه ما يُفكّه الأسماع، ويؤنس القلوب، ومنه ما يُحمّل الأذان ثِقلاً، ويملأ الأذهان وحشة.

فصول في المدح

وكتب ابن مكرم إلى أحمد بن المدبر: إن جميع أكفائك ونظرائك يتنازعون الفضل، فإذا انتهوا إليك أقرؤا لك، ويتنافسون في المنازل، فإذا بلغوك وقفوا دونك فزادك الله وزادنا بك وفيك، وجعلنا ممن يقبله رأيك، ويُقدمه اختيارك، ويقع من الأمور بموقع موافقتك، ويجري فيها على سبيل طاعتك. وفصل له: إن من النعمة على المثني عليك أنه لا يخاف الإفراط ولا يأمن التقصير، ويأمن أن تلحقه نقيصة الكذب، ولا ينتهي به المدح إلى غاية إلا وجد فضلك تجاوزها. ومن سعادة جدك أن الداعي لا يعدم كثرة المشايين له، والمؤمنين منه وفصل: أن مما يُطمعني في بقاء النعمة عندك، ويزيدين بصيرة في العلم بدوامها لديك، أنك أخذتها بحقها، واستوجبته بما فيك من أسبابها؛ ومن شأن الأجناس أن تتألف، وشأن الأشكال أن تتقارب، وكل شيء يتقلقل إلى معدنه، ويحن إلى عُصره، فإذا صادف منيته، ونزل في مَعْرسه، ضرب بعرقه، وسفق بفرعه، وتمكن تمكن الإقامة، وتبنك تبنك الطبيعة.

وفصل: إني فيما أتعاطى من مدحك كالمخبر عن ضوء النهار الزاهر، والقمر الباهر، الذي لا يخفى على كل ناظر. وأيقنتُ أني حيث انتهت بي القولُ

مَنْسُوبٌ إِلَى الْعَجْزِ مَقْصَرٌ عَنِ الْغَايَةِ، فَانصرفتُ مِنَ الثَّنَاءِ عَلَيْكَ إِلَى الدُّعَاءِ لَكَ، وَوَكَلْتُ الْإِخْبَارَ عَنْكَ إِلَى عِلْمِ النَّاسِ بِكَ.
 وَفَصَلَ: مُحَمَّدُ بْنُ الْجَهْمِ: إِنَّكَ لَزِمْتَ مِنَ الْوَفَاءِ طَرِيقَةً مَحْمُودَةً، وَعَرَفْتَ مَنَاقِبَهَا، وَشَهَرْتَ بِمَحَاسِنِهَا، فَتَنَافَسَ الْإِخْوَانُ فِيكَ يَتَبَدَّرُونَ وَدُكَّ، وَيَتَمَسَّكُونَ بِجَبَلِكَ، فَمَنْ أَثَبَّتَ اللَّهُ لَهُ عِنْدَكَ وَدًّا فَقَدْ وَضَعَتْ خُلَّتَهُ مَوْضِعَ حِرْزِهَا.
 وَفَصَلَ لِابْنِ مَكْرَمٍ: السَّيْفُ الْعَتِيقُ إِذَا أَصَابَهُ الصَّدَا اسْتَعْنَى بِالْقَلِيلِ مِنَ الْجَلَاءِ حَتَّى تَعُودَ جِدَّتُهُ وَيُظْهِرَ فِرْنَدَهُ، لِلِّينِ طَبِيعَتَهُ، وَكَرَمِ جَوْهَرِهِ، وَلَمْ أَصِفْ نَفْسِي لَكَ عُجْبًا بَلْ شُكْرًا.

وَفَصَلَ لَهُ: زَادَ مَعْرُوفُكَ عِنْدِي عِظْمًا، أَنَّهُ عِنْدَكَ مَسْتَوْرٌ حَقِيرٌ، وَعِنْدَ النَّاسِ مَشْهُورٌ كَبِيرٌ. أَخَذَهُ الشَّاعِرُ فَقَالَ:

زَادَ مَعْرُوفُكَ عِنْدِي عِظْمًا
 تَتَنَاسَاهُ كَأَنَّ لَمْ تَأْتِهِ
 أَنَّهُ عِنْدَكَ مَسْتَوْرٌ حَقِيرٌ
 وَهُوَ عِنْدَ النَّاسِ مَشْهُورٌ كَبِيرٌ

وَفَصَلَ الْعَتَابِيُّ: أَنْتَ أَيُّهَا الْأَمِيرُ وَارِثُ سَلْفِكَ، وَبَقِيَّةُ أَعْلَامِ أَهْلِ بَيْتِكَ، الْمَسْدُودُ بِهِ ثَلَمُهُمْ، الْمُجَدَّدُ بِهِ قَدِيمُ شَرَفِهِمْ، وَالْمُحْيَا بِهِ أَيَّامُ سَعْيِهِمْ. وَإِنَّهُ لَمْ يَخْمَلْ مِنْ كُنْتَ وَارِثَهُ، وَلَا دَرَسْتَ آثَارَ مَنْ كُنْتَ سَالِكٌ سَبِيلَهُ، وَلَا ائْتَحْتَ أَعْلَامَ مَنْ خَلَفْتَهُ فِي رُتْبَتِهِ.

فصول في الذم

كَتَبَ أَحْمَدُ بْنُ يَوْسُفَ: أَمَا بَعْدَ، فَإِنِّي لَا أَعْرِفُ لِلْمَعْرُوفِ طَرِيقًا أَوْعَرَ مِنْ طَرِيقِهِ إِلَيْكَ، فَالْمَعْرُوفُ لَدَيْكَ ضَائِعٌ، وَالشُّكْرُ عِنْدَكَ مَهْجُورٌ؛ وَإِنَّمَا غَابَتْكَ فِي الْمَعْرُوفِ أَنْ تَحْقِرَهُ، وَفِي وِلْيَةِ أَنْ تَكْفُرَهُ.

وَكَتَبَ أَبُو الْعَتَاهِيَةِ إِلَى الْفَضْلِ بْنِ مَعْنٍ بْنِ زَائِدَةَ: أَمَا بَعْدَ، فَإِنِّي تَوَسَّلْتُ فِي طَلْبِ نَائِلِكَ بِأَسْبَابِ الْأَمَلِ، وَذَرَاعِ الْحَمْدِ فِرَارًا مِنَ الْفَقْرِ، وَرَجَاءَ لِلْغِنَى، فَازْدَدْتُ بِمَا بَعْدًا مِمَّا فِيهِ تَقَرَّبْتُ، وَقُرْبًا مِمَّا فِيهِ تَبَعَّدْتُ. وَقَدْ قَسَمْتُ اللَّائِمَةَ بَيْنِي وَبَيْنَكَ؛ لِأَنِّي أَخْطَأْتُ فِي سُؤْالِكَ وَأَخْطَأْتُ فِي مَعْنِي، أَمَرْتُ بِالْيَأْسِ مِنْ أَهْلِ الْبِخْلِ فَسَأَلْتُهُمْ، وَثَبَّيْتُ عَنْ مَعْنِ أَهْلِ الرِّغْبَةِ فَمَنْعْتُهُمْ. وَفِي ذَلِكَ أَقُولُ:

فَرَرْتُ مِنَ الْفَقْرِ الَّذِي هُوَ مُذْرِكِي
 فَأَعْقَبَنِي الْحَرِمَانَ غِبًّا مَطَامِعِي
 وَغَيْرُ بَدِيعٍ مَنَعَ ذِي الْبُخْلِ مَالَهُ
 إِذَا أَنْتَ كَشَفْتَ الرِّجَالَ وَجَدْتَهُمْ
 إِلَى بُخْلِ مَحْظُورِ النَّوَالِ مَنُوعِ
 كَذَلِكَ مَنْ تَلَقَّاهُ غَيْرُ قَنُوعِ
 كَمَا بَدَّلَ أَهْلَ الْفَضْلِ غَيْرُ بَدِيعِ
 لِأَعْرَاضِهِمْ مِنْ حَافِظٍ وَمُضِيعِ

وَفَصَلَ لِإِبْرَاهِيمَ بْنِ الْمَهْدِيِّ: أَمَا بَعْدَ، فَإِنَّكَ لَوْ عَرَفْتَ فَضْلَ الْحَسَنِ لَتَحَنَنْتَ شَيْنَ الْقَبِيحِ، وَرَأَيْتَكَ أَثَرُ الْقَوْلِ عِنْدَكَ مَا يَبْضُرُّكَ، فَكُنْتُ فِيمَا كَانَ مِنْكَ وَمَنَا، كَمَا قَالَ زَهْرِبْنَ أَبِي سُلَيْمَى:

وَذِي خَطَلٍ فِي الْقَوْلِ يَحْسَبُ أَنَّهُ
 عَبَاتُ لَهُ حِلْمًا وَأَكْرَمْتَ غَيْرَهُ
 مُصِيبٌ فَمَا يُلْمِمُ بِهِ فَهُوَ قَائِلُهُ
 وَأَعْرَضْتَ عَنْهُ وَهُوَ بَادٍ مَقَاتِلُهُ

فَصَلَ: إِنَّ مَوْدَةَ الْأَشْرَارِ مَتَصِلَةٌ بِالذَّلَّةِ وَالصَّعَارِ، تَمِيلُ مَعَهُمَا، وَتَنْصَرِّفُ فِي آثَارِهِمَا. وَقَدْ كُنْتُ أَحَلُّ مَوْدَتِكَ بِالْحُلِّ النَّفِيسِ، وَأَنْزَلُهَا بِالْمُتَزَلِّ الرَّفِيعِ، حَتَّى رَأَيْتُ ذَلِكَ عِنْدَ الضَّعْفَةِ، وَضَرَعَكَ عِنْدَ الْحَاجَةِ، وَتَغْيِيرَكَ عِنْدَ الْاسْتِغْنَاءِ، وَأَطْرَاحَكَ لِإِخْوَانِ الصَّفَاءِ، فَكَانَ ذَلِكَ أَقْوَى أَسْبَابِ عُذْرِي فِي قَطِيعَتِكَ عِنْدَ مَنْ يَنْتَفِخُ أَمْرِي وَأَمْرُكَ بَعِينَ عَدَلٍ، لَا يَمِيلُ إِلَى هَوَى وَلَا يَرَى الْقَبِيحَ حَسَنًا.

فَصَلَ لِلْعَتَابِيِّ: تَأْتِينَا إِفَاقَتَكَ مِنْ سَكْرَتِكَ، وَتَرْقُبْنَا انْتِبَاهَكَ مِنْ وَقْدَتِكَ، وَصَبْرُنَا عَلَى تَجَرُّعِ الْغَيْظِ فِيكَ. فَهِيَ أَنَا قَدْ عَرَفْتُكَ حَقَّ مَعْرِفَتِكَ فِي تَعْدِيكَ لَطُورِكَ، وَأَطْرَاحَكَ حَقَّ مِنْ غَلَطٍ فِي إِحْتِيَارِكَ.

فصول في الأدب

كتب سعيد بن حميد: إن من أمارات الحزم وصحة الرأي في الرجل تركه التماس ما لا سبيل إليه؛ إذ كان ذلك داعيةً لعناء لا ثمرة له، وشقاء لا درك فيه، وقد سمحت في أمرٍ تُخبرك أوائله عن أواخره، ويُنبئك بدوّه عن عواقبه، لو كان لهذا الخير الصادق مُستمع حازم. ورأيت رائد الهوى مال بك إلى هذا الأمر ميلاً أياس من رغب فيك، ودل عدوك على معاييك، وكشف له عن مقاتلك. ولولا علمي بأن غلظة الناصح تؤدي إلى نفع في اعتقاد صواب الرأي، لكان غير هذا القول أولى بك. والله يوفقك لما يجب، ويُوفق لك ما تحب وفصل: أنت رجل لسائك فوق عقلك، وذكاؤك فوق عزمك، فقدم على نفسك من قدمك على نفسه.

وفصل: من أخطأ في ظاهر دُنياه وفيما يُؤخذ بالعين كان أحرى أن يُخطيء في أمر دينه وفيما يُؤخذ بالعقل.

وفصل: قد حسدك من لا ينم دون الشفاء، وطلبك من لا ينم دون الظفر، فاشدّد حيازيمك وكُن على حذر.

وفصل: قد آن أن تدع ما تسمع بما تعلم، ولا يكن غيرك فيما يُبلغه أوثق من نفسك فيما تعرفه.

وفصل: لست بحال يرضى بها حرّ، ولا يُقيم عليها كريم، وليس يرضى لك بهذا إلا من يبتغي لك أن ترضى به.

وفصل: أنت طالب مُقيم، وأنا دافع مُغرم، فإن كنت شاكراً فيما مضى، فاعذر فيما بقى.

وفصل: للعتابي، أما بعد، فإن قريبك من قُرب منك خيرُه، وابن عمك من عمك نفعُه، وعشيرك من أحسن عِشرتك، وأهدى الناس إلى مودتك من أهدى برّه إليك.

فصول إلى علي

ليست حالي - أكرمك الله - في الاعتماد بعلتك حال المشاركة فيها بأن ينالني نصيب منها وأسلم من أكثرها، بل اجتمع علي منها أي مخصوص بها دونك، مؤلم منها بما يُؤلمك، فأنا علي مَصروف العناية إلى علي، كأني سليم يسهر على سليم؛ فأنا أسأل الله الذي جعل عافيتي في عافيتك أن يخصني بها فيك، فإنها شاملة لي ولك. وفصل: إن الذي يعلم حاجتي إلى بقائك، قادر على المدافعة عن حوَّباتك. فلو قلت إن الحق قد سقط عني في عيادتك لأنني علي بعلتك، لقام لي بذلك شاهد عدل في ضميرك، وأثر بادٍ في حالي لعينك. وأصدق الخبر ما حققه الأثر، وأفضل القول ما كان عليه دليل من العقل.

وفصل: لئن تخلفت عن عيادتك بالعدر الواضح من العفة لما أعفل قلبي ذكرك، ولا لساني فحصاً عن خبرك، فحُص من تقسم جوارحه وصُبك، وزاد في ألمها ألمك، ومن تتصل به أحوالك في السراء والضراء. ولما بلغتني إفاقتك كتبتُ مهتئاً بالعافية، مُعفياً من الجواب، إلا بجزء السلامة إن شاء الله.

ولأحمد بن يوسف: قد أذهب الله وصَب العلة ونصبها، ووقر أجرها وثوابها، وجعل فيها من إرغام العدو بعقبها، أضعاف ما كان عنده من السرور بقبح أولهاها.

فصول إلى خليفة وأمير

منها: كتب الحجاج بن يوسف إلى عبد الملك بن مروان: يا أمير المؤمنين، إن كل من عنت به فكرتك فما هو إلا سعيد يوتر، أو شقي يوتر. كتب الحسن بن سهل يصف عقل المأمون: وقد أصبح أمير المؤمنين عمود السيرة، عفيف الطعمة، كريم الشيمة، مبارك الضريبة، محمود التقية، موفياً بما أخذ الله عليه، مُضطعاً بما حمَّله منه، مُؤدياً إلى الله حقه، مُقرراً له بنعمته، شاكراً لآلائه، لا يأمر إلا عدلاً، ولا ينطق إلا فصلاً، راعياً لدينه وأمانته، كافاً ليدِه ولسانه. وكتب محمد بن عبد الملك الزيات: إن حق الأولياء على السلطان تنفيذُ أمورهم، وتقويمُ أودهم، ورياضةُ أخلاقهم، وأن يميزَ بينهم، فيقدمُ مُحسنهم، ويؤخرُ مُسيئهم، ليزدادَ هؤلاء في إحسانهم، ويزدجر هؤلاء عن إساءتهم.

وفصل له: إِنَّ أعظمَ الحقِّ حقُّ الدِّينِ، وأوجبَ الحُرمةَ حُرمةَ المُسلمينَ. فَحَقِّقْ لِمَن راعَى ذلكَ الحقَّ وحَفِظَ تلكَ الحُرمةَ أن يُراعَى له حَسَبَ ما رعاها اللهُ به، ويُحَفِظَ له حَسَبَ ما حَفِظَ اللهُ على يَدَيه.

وفصل له: إِنَّ اللهُ أوجبَ لخُلُفائِهِ على عبادِهِ حقَّ الطَّاعةِ والتَّصِيحَةِ، ولعبيدِهِ على خُلُفائِهِ بَسْطَ العَدْلِ والرِّأفَةِ، وإحياءَ السُّنَنِ الصَّالِحَةِ. فإذا أدى كُلُّ إلى كُلِّ حَقِّهِ. كان سبباً لتمامِ المَعونَةِ، واتصالِ الرِّيادةِ، واتساقِ الكَلِمَةِ، ودوامِ الألفَةِ.

وفصل: ليس من نعمة يُجَدِّدُها اللهُ لِأَميرِ المُؤمِنينَ في نَفْسِهِ خاصَّةً إلا اتصَلت بِرعيته عامَّةً، وشَمِلت المُسلمينَ كافَّةً، وعَظُمَ بلاءُ اللهُ عندهم فيها، ووجبَ عليهم شُكْرُهُ عليها؛ لأنَّ اللهُ جعلَ بنعمته تمامَ نِعْمَتِهِم، وتبديره ودَّيَّهُ عن دينِهِ حِفْظَ حَرَمِهِم، وبِحياطته حَقْنَ دَمائِهِم وأَمْنِ سبيلِهِم. فأطال اللهُ بقاءَ أميرِ المُؤمِنينَ، مُؤيِّداً بالتَّصَرُّ، معزِّزاً بالتمكينِ، موصولاً بالبقاءِ بالتَّعْييمِ المُقيمِ.

فصل: الحمد لله الذي جعلَ أميرَ المُؤمِنينَ معقودَ النَّيةِ بطاعته، مُنطوي القَلْبِ على مُناصحتِهِ، مشحودَ السَّيفِ على عدوِّهِ، ثمَّ وهبَ له الظَّفِرَ، ودوخَ له البلادَ، وشرَّدَ به العَدوَّ، وخصَّه بِشَرَفِ الفُتوحِ شرقاً وغرباً، وبراً وبحراً.

وفصل: أفعالُ الأميرِ عندنا مَعسولةٌ كالأمانِ، مُتَّصلةٌ كالأَيَّامِ، ونحنُ نُواترُ الشُّكْرَ لكَرِيمِ فِعْلِهِ، ونُواصلُ الدُّعاءَ له مُواصلَةً برَّهِ؛ إنه الناهضُ بَكَلِّنا، والحاملُ لأعبائنا، والقائمُ بما نابَ من حُقوقنا.

وفصل: أما بعد، فقد انتهى إلى أميرِ المُؤمِنينَ كذا فأنكره، ولا يخلو من إحدى متزتين ليس في واحدةٍ منهما عُذرٌ يوجبُ حُجَّةً، ويُزيلُ لائمةً: إمَّا تَقصيرٌ في عملِ دعاكَ للإحلالِ بالحَزْمِ والتَّفريطِ في الواجبِ، وإمَّا مَظَاهرةٌ لأهلِ الفسادِ ومُداهنةٌ لأهلِ الرِّيبِ. وآيةُ هاتينِ كانتِ منك مُحلَّةً التُّكْرَ بكِ، ومُوجبةً العُقوبةَ عليكِ، لولا ما يلقاكِ به أميرُ المُؤمِنينَ من الأناةِ والنَّظرةِ، والأخذُ بالحُجَّةِ، والتَّقدُّمُ في الإِعذارِ والإِنذارِ. وعلى حَسَبِ ما أَقَلَّتْ من عَظِيمِ العَثرةِ يجبُ اجتِهادُكَ في تلافيِ التَّقصيرِ والإِضاعةِ، والسَّلامِ.

وكتب طاهرُ بنِ الحُسينِ، حينَ أخذَ بغدادَ، إلى إبراهيمِ بنِ المهديِّ: أما بعد، فإنه عزيزٌ عليَّ أن أكتبَ إلى أحدٍ من بَيِّتِ الخِلافةِ بغيرِ كلامِ الإمرةِ وسَّلامِها، غيرَ أنه بلغني عنكَ أنك ماثلُ الهوى والرأيِ للناكثِ المخلوعِ، فإن كانَ كما بلغني فكثيرٌ ما كتبتُ به قَليلٌ لك، وإن يكنَ غيرَ ذلكَ فالسَّلامُ عليكِ أيها الأميرُ ورحمةُ اللهِ وبركاته. وقد كتبتُ في أسفلِ كتابي آياتاً فتدبَّرها:

جَهْلَ رَمَى بِكَ بِالْإِقْحَامِ تَغْرِيرُ

حِظَ الْمَصِيبِينَ وَالْمَغْرورُ مَغْرورُ

فَلَنْ يُذَمَّ لِأَهْلِ الْحَزْمِ تَدْبِيرُ

فَأَنْتَ عِنْدَ ذَوِي الْأَبْأَابِ مَعْذورُ

قَالُوا جَهْلُ أَعَانَتِهِ الْمَقَادِيرُ

رُكُوبُكَ الْهَوَلَ مَا لَمْ تُتْلَفْ فُرْصَتَهُ

أَهْوَنُ بَدْنِيَا يُصِيبُ الْمَخْطُوتُونَ بِهَا

فَازَرَ عِصْوَابَا وَخَذَ بِالْحَزْمِ حَيْطَتَهُ

فَإِنْ ظَفَرْتَ مُصِيباً أَوْ هَلَكْتَ بِهِ

وَإِنْ ظَفَرْتَ عَلَى جَهْلٍ فَفَزْتَ بِهِ

فصل: للحسن بن وهب: أما بعد، فالحمدُ لله مَتَمِّمُ النِّعمِ بِرَحْمَتِهِ، الهادي إلى شُكْرِهِ بِفَضْلِهِ، وصَلَّى اللهُ على سيدنا محمدِ عبدِهِ ورسولِهِ، الذي جَمَعَ له مِنَ الفِضائلِ ما فَرَّقَهُ في الرُّسُلِ قَبْلَهُ، وجَعَلَ ثَرَاتِهِ راجِعاً إلى مَنْ خَصَّه بِخِلافَتِهِ، وسَلَّمَ تَسْلِيمًا.

فصول لعمر بن بحر الجاحظ

منها فصول في عتاب: أما بعد، فإنَّ المُكَافأةَ بِالإِحسانِ فَرِيضَةٌ، والتَّفَضُّلُ على غيرِ، ذَوِي الإِحسانِ نافِلَةٌ.

أما بعد، فليكن السُّكُوتُ على لسانِكَ، إن كانت العافية من شأنِكَ.

أما بعد، فلا تَرَهْدَ فيمَن رَغِبَ إِلَيْكَ فَتَكُونَ لِحِطِّكَ مُعَانِداً، وللنِّعمةِ جاحداً.

أما بعد، فإنَّ العَقْلَ والهوى ضِدانَ، فَقرينُ العَقْلِ التَّوْفِيقُ، وقرينُ الهوى الخِذلانُ، والنَّفْسُ طالِبَةٌ، فبأيهِما ظَفَرْتَ كانتِ في حِزْبِهِ.

أما بعد، فإنَّ الأشخاصَ كالأشجار، والحركاتِ كالأغصان، والألفاظَ كالثمار.

أما بعد، فإن القلوب أوعية، والعقول معادن، فما في الوعاء ينفد إذا لم يُمدّه المعدن.

أما بعد، فكفَى بالتجارب تأديباً، وبتقلب الأيام عظة، وبأخلاق من عاشرت معرفة، وبذكر الموت زاجرا.

أما بعد، فإن احتمال الصبر على لذع الغضب أهون من إطفائه بالشتيم والقذع.

أما بعد، فإن أهل النظر في العواقب أولو الاستعداد للنوائب، وما عظمت نعمة امرئ إلا استغرقت الدنيا همته، ومن فرغ لطلب الآخرة شغله جعل الأيام مطايا عمله، والآخرة مقيلاً مُرتحله.

أما بعد، فإن الاهتمام بالدنيا غير زائد في الرزق والأجل، والاستغناء غير ناقص للمقادير.

أما بعد، فإنه ليس كل من حلّم أمسك، وقد يُستجهل الحليم حين يستخفه الحجر.

أما بعد: فإن أحببت أن تتم لك المقة في قلوب إخوانك، فاستقل كثيراً مما توليهم.

أما بعد، فإن أنظر الناس في العاقبة من لطف حتى كف حرب عدوه بالصّفح والتجاوز، واستلّ حقدَه بالرفق والتحبب.

وكتب إلى أبي حاتم السّجستاني، وبلغه عنه أنه نال منه: أما بعد، فلو كفت عتاً من غربك لكننا أهلاً لذلك منك، والسلام. فلم يُعد أبو حاتم إلى ذكره بقبیح: وله فصول في وصاة: أما بعد، فإن أحق في أسعفته في حاجته، وأحبته إلى طلبته، من توصل إليك بالأمل، ونزع نخوك بالرجاء.

أما بعد، فما أقبح الأحدث من مُستمنح حرّمته، وطالب حاجة رددته، ومثابر حجت، ومُنسبط إليك قبضته، ومُقبل إليك بعنانه لويت عنه. فتنبّت في ذلك، ولا تُطع كل حلاف مهين، هماز مشاء بنميم.

أما بعد، فإن فلاناً أسبابه متصلة بنا، يُلزمنا ذمامه عندنا بلوغ موافقته من أيديك، وأنت لنا موضع الثقة من مكافأته. فأولنا فيه ما نعرف به موقعنا من حُسن رأيك، ويكون مكافأة لحقه علينا.

أما بعد، فقد أتانا كتابك في فلان، وله لدينا من الذمام ما يُلزمنا مكافأته ورعاية حقه، ونحن من العناية بأمره على ما يُكافي حُرّمته، ويؤدي شكره.

وله فصول في استنجاز وعد: أما بعد، فقد رسفنا في قيود مواعيدك، وطال مقامنا في سُجون مطلقك، فأطلقنا- أبقاك الله- من ضيقها وشديد غمها، بنعم منك مُثمرة أو لا، مُريجة.

أما بعد، فإن شجرة مواعيدك قد أورقت، فليكن ثمرها سالماً من جوائح المظل.

أما بعد، فإن سحاب وعدك قد برقت، فليكن وبلها سالماً من صواعق المظل والاعتلال.

وله فصول في الاعتذار: أما بعد، فنعم البديل من الزلة الاعتذار، وبس العوض من التوبة الإصرار.

أما بعد، فإن أحق من عطف عليه بحلمك من لم يتشفع إليك بغيرك.

أما بعد، فإنه لا عوض من إحاثك، ولا خلف من حُسن رأيك، وقد انتقمت مني في زلتي بجفائك، فأطلق أسير تشوقي إلى لقائك.

أما بعد، فإنني بمعرفتي بمبلغ حلمك، وغاية عفوكم، ضمنت لنفسي العفو من زلتها عندك.

أما بعد، فإن من جحد إحسانك بسوء مقالته فيك مكذب نفسه بما يبدو للناس أما بعد، فقد مسني من الألم بقطيعتك ما لا يشفيه غير مُواصلتك، مع حبسك الاعتذار من هفتوك؛ لكن ذنبك تغفره مودتك، فان علينا بصلتك تكن بدلاً من مساءتك، وعوضاً من هفتوك.

أما بعد، فلا خير فيمن استغرقت موجدته عليك قدر لي عنده، ولم يتسع لهفات الإخوان صدره.

أما بعد، فإن أولى الناس عندي بالصّفح من أسلمه إلى ملكك التماس رضاك من غير مقدرة منك عليه.

أما بعد، فإن كنت ذممتني على الإساءة فلم رَضيت لنفسك المكافأة.

وله فصول في التعازي: أما بعد، فإن الماضي قبلك الباقي لك، والباقي بعدك المأجور فيك، وإنما يُوفى الصابرون أجرهم بغير حساب.

أما بعد، فإن في الله العزاء من كل هالك، والخلف من كل مصاب، وإن من لم يتعزّ بعزاء الله تنقطع نفسه على الدنيا حسرة.

أما بعد، فإن الصبر يعقبه الأجر، والجَزَع يعقبه الهلع فتمسك بحظك من الصبر تنل به الذي تطلب؛ وتذكر به الذي تأمل.

أما بعد، فقد كفى بكتاب الله واعظاً، ولذوي الألباب زاجراً، فعليك بالتلاوة تنج مما أوعد الله به أهل المعصية.

صدور إلى خليفة: وفق الله أمير المؤمنين بالظفر فيما قلد وأيده، وأصلح به وعلى يديه - أكرم الله أمير المؤمنين بالظفر، وأيده بالنصر قي دوام نعمته، وحاط الرعية بطول مدته.

صدور إلى ولي عهد: متع الله أمير المؤمنين بطول مدة الأمير، وأجرى على يديه فعل الجميل، وانس بولايته المؤمنين - مد الله للأمير النعمة، وأسعد بطول عمره الأمة، وجعله غيائاً ورحمة - أكمل الله له الكرامة، وحاطه بالنعمة والسلامة، ومتع به الخاصة والعامة - متع الله بسلامتك أهل الحرمه، وجمع لك شمل الأمة. واستعملك بالرأفة والرحمة.

صدور إلى ولي شرطة: أنصف الله بك المظلوم، وأغاث بك المهوف، وأيدك بالثبوت، ووفقك للصواب - أرشدك الله بالتوفيق، وأنطقك بالصواب، وجعلك عصمة للدين، وحصناً للمسلمين - أعانك الله على ما قللك، وحفظ لك ما استعملك بما يرضي من فعلك - سدك الله وأرشدك، وأدام لك فضل ما عودك - زادك الله شرفاً في المتزلة، قدراً في قلوب الأمة، وزلفة عند الخليفة - نصر الله بعدلك المظلوم، وكشف بك كربة المهوف، وأعانك على أداء الحقوق.

صدور إلى قاضي: أهلك الله الحجة، وأيدك بالثبوت، ورد بك الحقوق. - أهلك الله الاعتصام بحبله بالعلم، والثبوت في الحكم - أهلك الله الحكمة وفصل الخطاب، وجلك إماماً لذوي الألباب - زين الله بفضلك الزمان، وأنطق بشكرك اللسان، وبسط يدك في اصطناع المعروف، وأدام لك الإفضال، وحقق فيك الآمال.

صدور إلى عالم: جعل الله لك العلم نوراً في الطاعة، وسبباً إلى النجاة، وزلفة عند الله - نفع الله بعلمك المستفيدين، وقضى بك حوائج المتحرمين، وأوضح بك سنن الدين، وشرائع المسلمين - أدام الله لك التطول بإسعاف الراغب، وأنجح بك حاجة الطالب، وأمنك مكروه العواقب.

صدور إلى أخوان: متع الله أبصارنا برؤيتك، وقلوبنا بدوام الفتك، ولا أخلانا من جميل عشرتك، وهب لك من كريم نفسك بحسب ما تنطوي عليه مودتك، وأهجم الله إخوانك بقربك، وجمع ألفتهم بالأنس بك، وصرف الله عن ألفتنا عواقب القدر، وأعاد صفو إختائنا من الكدر، وجعلنا ممن أنعم الله عليه فشكر - من الله علينا بطول مدتك، وأنس أيامنا بمواصلتك، وهنأنا النعمة بسلامتك - قرب الله منا ما كنا نأمل منك، وجمع شمل السور بك - نزه الله بقربك القلوب، وبرؤيتك الأبصار، ومحدثك الأسماع - أقبل الله بك على أودائك، ولا ابتلاهم بطول جفائك - أдал الله حرصنا من فتورك عنا، ورغبتنا فيك من تقصيرك في أمورنا - حفظ الله لنا منك ما أوحشنا فقدته، ورد إلينا ما كنا نألفه ونعده - رحم الله فاقة الحنين إليك، وما بي من تباريح الحزن عليك، وجعل حرمتنا منك، الشفيع لديك - يسر الله لنا من صفحك ما يسع تقصيرنا، ومن حلمك ما يرد سخطك عنا زين الله ألفتنا بمعاودة صلتك، واجتماعنا بزيارتك - أعاد الله علينا من إختائك وجميل رأيك ما يكون معهوداً منك، ومألوفاً لك.

صدور في عتاب: أنصف الله شوقنا إليك من جفائك لنا، وأخذ لبرنا بك من تقصيرك عنا.

وكتب معاوية إلى عمرو بن العاص، وبلغه عنه أمر: وفقك الله لرشدك.

بلغني كلامك فإذا أوله بطر، وآخره خور، ومن أبطره الغني أذله الفقر، وهما ضدان مخادعان للمرء عن عقله، وأولى الناس بمعرفة الدواء من يبين له الداء، والسلام. فأجابه: طاولتكم النعم وطاولت بك. علو إنصافك يؤمن سطوة جورك، ذكرت أي نطقت بما تكره، وأنا مخدوع، وقد علمت أي ملئت إلى محبتك ولم أخدع، ومثلك من شكر سعي معتذر، وعفا زلة معتترف.

كتاب العسجدة الثانية في الخلفاء

وتواريخهم وأيامهم

قال الفقيه أبو عمر أحمد بن محمد بن عبد ربّه رحمه الله: قد مضى لنا قولنا في التوقيعات والفصول والصدور والكتابة، وهذا كتاب ألفناه في أخبار الخلفاء وتواريخهم وأيامهم، وأسماء كتّابهم وحجّابهم.

أخبار الخلفاء

نسب المصطفى صلى الله عليه وسلم

رَوَى أَبُو الْحَسَنِ عَلِيُّ بْنُ مُحَمَّدٍ بْنِ عَبْدِ اللَّهِ بْنِ أَبِي سَيْفٍ عَنْ أَشْيَاخِهِ: هُوَ مُحَمَّدٌ رَسُولُ اللَّهِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ ابْنُ عَبْدِ اللَّهِ بْنِ عَبْدِ الْمُطَّلِبِ بْنِ هَاشِمِ بْنِ عَبْدِ مَنَافٍ بْنِ قُصَيِّ بْنِ كِلَابٍ بْنِ مُرَّةَ بْنِ كَعْبِ بْنِ لُؤَيٍّ بْنِ غَالِبِ بْنِ فِهْرٍ بْنِ مَالِكِ بْنِ النَّضْرِ بْنِ كِنَانَةَ بْنِ خُزَيْمَةَ بْنِ مُدْرِكَةَ بْنِ الْيَاسِ بْنِ مُضَرَ بْنِ نَزَارِ بْنِ مَعَدِ بْنِ عَدْنَانَ. وَأُمُّهُ أَمَنَةُ بِنْتُ وَهَبِ بْنِ عَبْدِ مَنَافِ بْنِ زُهْرَةَ بْنِ كِلَابِ بْنِ مُرَّةَ بْنِ كَعْبِ.

مولد النبي صلى الله عليه وسلم

قالوا: وُلِدَ رَسُولُ اللَّهِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ عَامَ الْفَيْلِ لِاثْنَتَيْ عَشْرَةَ لَيْلَةً خَلَّتْ مِنْ رَبِيعِ الْأُولِ. وَقَالَ بَعْضُهُمْ: لِللَّيْتَيْنِ خَلَّتَا مِنْهُ. وَقَالَ بَعْضُهُمْ: بَعْدَ الْفَيْلِ بِثَلَاثِينَ يَوْمًا. فَهَذَا جَمَعَ مَا اخْتَلَفُوا فِيهِ عَنْ مَوْلَدِهِ. وَأَوْحَى اللَّهُ إِلَيْهِ وَهُوَ ابْنُ أَرْبَعِينَ عَامًا. وَأَقَامَ بِمَكَّةَ عَشْرًا، وَبِالْمَدِينَةِ عَشْرًا. وَقَالَ ابْنُ عَبَّاسٍ: أَقَامَ بِمَكَّةَ خَمْسَ عَشْرَةَ وَبِالْمَدِينَةِ عَشْرًا. وَالْمَجْمَعُ عَلَيْهِ أَنَّهُ أَقَامَ بِمَكَّةَ ثَلَاثَ عَشْرَةَ وَبِالْمَدِينَةِ عَشْرًا. الْيَوْمَ وَالشَّهْرَ الَّذِي هَاجَرَ فِيهِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ - هَاجَرَ إِلَى الْمَدِينَةِ يَوْمَ الْاِثْنَيْنِ لِثَلَاثِ عَشْرَةَ خَلَّتْ مِنْ رَبِيعِ الْأُولِ. وَمَاتَ يَوْمَ الْاِثْنَيْنِ لِثَلَاثِ عَشْرَةَ خَلَّتْ مِنْ رَبِيعِ الْأُولِ، الْيَوْمَ وَالشَّهْرَ الَّذِي هَاجَرَ فِيهِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ. جَعَلَنَا اللَّهُ مَنْ يَرِدُ حَوْضَهُ، وَيُنَالُ مُرَافَقَتَهُ فِي أَعْلَى عِلِّيِّينَ مِنْ دَرَجَاتِ الْفِرْدَوْسِ، وَأَسْأَلُ اللَّهَ الَّذِي جَعَلَنَا مِنْ أُمَّتِهِ وَلَمْ نَرَهُ أَنْ يَتَوَفَّانَا عَلَى مِلَّتِهِ، وَلَا يَحْرِمَنَا رُؤْيَيْتِهِ فِي الدُّنْيَا وَالْآخِرَةِ.

صفة النبي صلى الله عليه وسلم - ربيعة بن أبي، عبد الرحمن، عن أنس بن مالك، قال: كان رسول الله صلى الله عليه وسلم أبيض، مُشْرَبًا حُمْرَةً، ضَخْمَ الرَّأْسِ، أَرْجَحَ الْحَاجِبِينَ، عَظِيمَ الْعَيْنِينَ، أَدْعَجَ أَهْدَبَ، شَنَّ الْكَفَّيْنَ وَالْقَدَمَيْنِ. إِذَا مَشَى تَكْفَأُ كَأَنَّمَا يَنْحَطُّ مِنْ صَبَبٍ، وَيَمْشِي فِي صُعدٍ كَأَنَّمَا يَتَقَلَّعُ مِنْ صَخْرٍ. إِذَا تَنَفَّتْ التَّنَفَّتْ جَمِيعًا. لَيْسَ بِالْجَعْدِ الْقَطَطُ وَلَا السَّبْطُ. ذَا وَفْرَةٍ إِلَى شَحْمَةِ أُذُنَيْهِ. لَيْسَ بِالطَّوِيلِ الْبَاتِنِ، وَلَا بِالْقَصِيرِ الْمُتَطَامِنِ. عَرَفَهُ أَطِيبُ مِنَ الْمَسْكِ الْأَذْفَرِ. لَمْ تَلِدِ النِّسَاءُ قَبْلَهُ وَلَا بَعْدَهُ مِثْلَهُ. بَيْنَ كَتْفَيْهِ خَاتَمُ النَّبُوَّةِ كَبِيضَةُ الْحَمَامَةِ. لَا يَضْحَكُ إِلَّا تَبَسُّمًا. فِي عَنَقَتِهِ شَعْرَاتٌ بِيضٌ لَا تَكَادُ تَبِينُ. وَقَالَ أَنَسُ بْنُ مَالِكٍ: لَمْ يَبْلُغِ الشَّيْبُ الَّذِي كَانَ بِرَسُولِ اللَّهِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ عَشْرِينَ شِعْرَةً. وَقِيلَ لَهُ: يَا رَسُولَ اللَّهِ، عَجَّلْ عَلَيْكَ الشَّيْبَ. قَالَ: شَيْبَتَنِي هُوْدٌ وَأَخْوَاتُهَا.

هيئة النبي وقعدته صلى الله عليه وسلم - كان صلى الله عليه وسلم يأكل على الأرض، ويجلس على الأرض،

وبمشي في الأسواق، ويلبس العباءة، ويُجالس المساكين، ويقعد القرفصاء، ويتوسد يده، ويلعق أصابعه، ولا يأكل مُتَكَنًا، ولم يُرَقَطْ ضاحكاً ملء فيه. وكان يقول: إنما أنا عبد آكلُ كما يأكل العبد، وأشربُ كما يشرب العبد، ولو دُعيت إلى ذِراعٍ لَأَجبت، ولو أهدى إلي كِراعٍ لَقَبَلت. شرف بيت النبي صلى الله عليه وسلم - قال النبي صلى الله عليه وسلم: أنا سيّد البشر ولا فخر، وأنا أفصحُ العرب، وأنا أولُ مَنْ يَقْرَعُ بابَ الحنة، وأنا أولُ مَنْ يَنْشِقُّ عنه التراب. دعا لي إبراهيم، وبشرني عيسى، ورأت أمي حين وَضَعْتِي نُورًا أضاء لها ما بين المشرق والمغرب. وقال صلى الله عليه وسلم: إنَّ اللهَ خَلَقَ الخَلْقَ فجعلني في خير خَلَقَه، وجعلهم فِرَقًا فجعلني في خيرهم فِرَقَةً، وجعلهم قبائل فجعلني في خير قبيلة، وجعلهم بُيوتًا فجعلني في خير بيت، فأنا خيرُكم بيتاً وخيرُكم نَسباً. وقال صلى الله عليه وسلم. أنا ابن الفواطم والعواتك من سُليم، واسترضعتُ في بني سعد بن بكر. وقال: نَزَلَ القرآنُ بأعرب اللُّغات، فلكل العرب فيه لغة، ولبي سَعْدُ بن بكر سبعُ لغات. وبنو سعد ابن بكر بن هوازن أفصحُ العرب، فهم من الأعجاز، وهي قبائلُ من مُضَرَ متفرقة، وكانت ظنَّ النَّبِيَّ صلى الله عليه وسلم التي أرضعته حليلة بنت أبي ذؤيب، من بني ناصرة بن قصية بن نصر، بن سعد بن بكر بن هوازن. وإخوته في الرِّضاعة: عبد الله بن الحارث، وأنيسة بنت الحارث، وخدامة بنت الحارث، وهي التي أتى بها النبي صلى الله عليه وسلم في أسرى حنين، فَبَسَطَ لها رداءه ووهب لها أسرى قومها. والعواتك من سُليم ثلاث: عاتكة بنت مرة ابن هلال، ولدت هاشماً وعبد شمس ونوفلاً، وعاتكة بنت الأوقص بن هلال، ولدت وهب بن عبد مناف بن زهرة؟ وعاتكة بنت هلال بن، فالج. وقال عليٌّ للأشعث إذ خَطَبَ إليه: أغرَّك ابن أبي قحافة إذ زَوَّجَكَ أمَّ فِرْوَةَ، وإمَّا لم تكن من الفواطم من قُريش، ولا العواتك من سُليم.

أبو النبي صلى الله عليه وسلم - عبد الله بن عبد المطلب

ولم يكن له ولدٌ غيرُه، صلى الله عليه وسلم، وتُوِّفِي وهو في بطن أمه. فلما وُلِدَ كَفَلَهُ جَدُّهُ عبدُ المطلب إلى أن توفِّي، فكَفَلَهُ عُمُّهُ أبو طالب، وكان أخوا عبد الله لأمه وأبيه، فمن ذلك كان أشفقَ أعمام النبي صلى الله عليه وسلم وأولاهم به. وأمَّا أعمام النبي صلى الله عليه وسلم وعمَّاته، فإنَّ عبد المطلب بن هاشم كان له من الولد لصلبه عشرة من الذكور وستة من الإناث. وأسماء بنيه: عبد الله، والد النبي صلى الله عليه وسلم، والزبير، وأبو طالب، واسمه عبد مناف، والعبَّاس، وضرار، وحَمَزَة، والمُقَوِّم، وأبو هَب، واسمه عبد العزى، والحارث، والغيداق، واسمه حجل، وقال نوفل. وأسماء بناته، عمَّات النبي صلى الله عليه وسلم: عاتكة، والبيضاء، وهي أم حكيم، وبرة، وأميمة، وأروى، وصفيّة.

ولد النبي صلى الله عليه وسلم -

وُلِدَ له من خَدِيجَةَ: القاسمُ والطيبُ وفاطمةُ وزَيْنَبُ ورُقِيَّةُ وأم كلثوم. وولد له من مارية القبطية: إبراهيم. فجميعُ ولده من خديجة غير إبراهيم.

أزواجه

صلى الله عليه وسلم - أولهن خديجة بنت خويلد بن أسد بن عبد العزى، ولم يتزوج عليها حتى ماتت. ثم تزوج سودة بنت زمعة، وكانت تحت السكران بن عمرو، وهو من مهاجرة الحبشة، فمات ولم يُعقب، فتزوجها النبي صلى الله عليه وسلم بعده. ثم تزوج عائشة بنت أبي بكر بكرًا، ولم يتزوج بكرًا غيرها، وهي ابنة ست، وابتني عليها ابنة تسع، وتُوِّفِي عنها وهي ابنة ثمان عشرة سنة، وعاشت بعده إلى أيام معاوية، وماتت سنة ثمان وخمسين وقد قاربت السبعين، ودُفِنَتْ ليلاً بالقيع، وأوصت إلى عبد الله بن الزبير. وتزوج حفصة بنت عمر بن الخطاب، وكانت تحت خنيس بن خذافة السهمي، وكان رسولُ الله صلى الله عليه وسلم أرسله إلى كِسرى، ولا عَقَبَ له. ثم تزوج زينب بنت خزيمة، من بني عامر بن صعصعة، وكانت تحت عُبَيْدَةَ بن الحارث ابن عبد المطلب، أول شهيد كان ببدر. ثم تزوج زينب بنت جحش الأسدية، وهي بنت عممة النبي صلى الله عليه وسلم، وهي أولُ مَنْ مات من أزواجه في خلافة عُمر. ثم تزوج أم حبيبة؛ واسمها رَمْلَة بنت أبي سُفيان، وهي أختُ معاوية، وكانت تحت عُبيد الله بن جحش الأسدي، فتنصر ومات بأرض الحبشة. وتزوج أم سلمة بنت أبي أمية بن المغيرة المخزومي، وكانت تحت أبي سلمة، فتُوِّفِي عنها وله منها أولاد،

وبقيت إلى سن تسع وخمسين. وتزوج ميمونة بنت الحارث، من بني عامر بن صعصعة، وكانت تحت أبي رهم العامري. وتزوج صفية بنت حُيَيِّ بن أخطب النَّضْرِيَّة، وكانت تحت رجل من يهود خيبر، يقال له كِنَانَة، فضرَب رسولُ الله صلى الله عليه وسلم عنقه وسبى أهله. وتزوج جُوَيْرِيَّة بنت الحارث، وكانت من سبى بني المصطلق. وتزوج خولة بنت حكيم، وهي التي وهبت نفسها للنبي صلى الله عليه وسلم. وتزوج امرأة يقال لها عمرة، فطلقها ولم يئن بها، وذلك أن أباهَا قال له: وأزيدك أنها لم تمرض قط. فقال: ما لَهذه عند الله من خير، فطلقها. وتزوج امرأة يقال لها: أميمة بنت النعمان، فطلقها قبل أن يطأها. وخطب امرأة من بني مرة بن عوف، فردَّه أبوها، وقال: إنَّ بها برصاً. فلما رجع إليها وجدها برصاء.

كتاب النبي صلى الله عليه وسلم وخدامه

- كتاب الوحي لرسول الله صلى الله عليه وسلم: زيد بن ثابت، ومعاوية بن أبي سفيان، وحظلة بن الربيع الأسدي، وعبد الله بن سعد بن أبي سرح، ارتد ولحق بمكة مشركاً. وحاجبه: أبو أنسة، موله، وخدامه: أنس بن مالك الأنصاري، ويكنى أبا حمزة. وخازنه على خاتمه: معيقب بن أبي فاطمة. ومؤذنه: بلال وابن أم مكتوم. وحراسه: سعد بن زيد الأنصاري، والزبير بن العوام، وسعد بن أبي وقاص. وخاتمه فضة، وفصه حبشي مكتوب عليه: محمد رسول الله، في ثلاثة أسطر: محمد، سطر، ورسول، سطر، والله، سطر. وفي حديث أنس بن مالك خادم النبي صلى الله عليه وسلم: وبه تختم أبو بكر وعمر، وتختم به عثمان ستة أشهر، ثم سقط منه في بئر ذي أروان، فطلب فلم يوجد.

وفاة النبي صلى الله عليه وسلم

- توفي صلى الله عليه وسلم يوم الاثنين لثلاث عشرة ليلة خلت من ربيع الأول، وحُفِر له تحت فراشه في بيت عائشة. وصلى عليه المسلمون جميعاً بلا إمام، الرجال ثم النساء ثم الصبيان، ودُفن ليلة الأربعاء في جوف الليل، ودخل القبر علي، والفضل وقتم، ابنا العباس، وشقران موله، ويقال: أسامة بن زيد، وهم تولوا غسله وتكفينه وأمره كله، وكفن في ثلاثة أثواب بيض سحولية، ليس فيها قميص ولا عمامة. واحتلف في سنه. فقال عبد الله ابن عباس وعائشة وجري بن عبد الله ومعاوية: توفي وهو ابن ستين سنة. وقال عروة بن الزبير وقتادة: اثنتين وستين سنة.

نسب أبي بكر الصديق وصفته رضي الله عنه

هو عبد الله بن أبي قحافة، واسم أبي قحافة عثمان بن عمرو بن كعب بن سعد بن تيم بن مرة، وأمه أم الخير بنت صخر بن عمرو بن كعب بن سعد بن تيم بن مرة.

وكاتبه: عثمان بن عفان. وحاجبه: رشيد، موله. وقيل: كتب له زيد بن ثابت أيضاً. وعلى أمره كله وعلى القضاء عمر بن الخطاب، وعلى بيت المال أبو عبيدة بن الجراح، ثم وجهه إلى الشام. ومؤذنه: سعد القرظ، مولى عمار بن ياسر.

قيل لعائشة: صفني لنا أباك. قالت: كان أبيض، نحيف الجسم، خفيف العارضين، أحن لا يستمسك إزاره، معروق الوجه، غائر العينين، ناتئ الجبهة، عاري الأشجاع، أقرع. وكان عمر بن الخطاب أصلع. وكان أبو بكر يخضب بالحناء والكتم. وقال أبو جعفر الأنصاري: رأيت أبا بكر كأن لحيته ورأسه حمر الغصى. وقال أنس بن مالك قدم رسول الله صلى الله عليه وسلم المدينة، وليس في أصحابه أشمط غير أبي بكر. فغلفها بالحناء والكتم. وتوفي مساء ليلة الثلاثاء، لثمان ليال بقين من جمادى الآخرة، سنة ثلاث عشرة من التاريخ. فكانت خلافته سنتين وثلاثة أشهر وعشر ليال. وكان نقش خاتم أبي بكر: نعم القادر الله.

خلافه أبي بكر رضي الله عنه - شعبة عن سعد بن إبراهيم عن عروة عن عائشة: إن النبي صلى الله عليه وسلم قال في مرضه: مروا أبا بكر فليصل بالناس. فقلت: يا رسول الله، إن أبا بكر إذا قام في مقامك لم يسمع الناس من البكاء، فمر عمر فليصل بالناس. قال: مروا أبا بكر فليصل بالناس:

قالت عائشة: فقلت لحفصة: قولي له: إن أبا بكر إذا قام في مقامك لم يُسمع الناس من البكاء، فمُرْ عُمر، ففعلت حفصة. فقال رسولُ الله صلى الله عليه وسلم: مه! إنكن صواحبُ يوسف، مُروا أبا بكر فليصل بالناس.

أبو جعدة عن الزبير قال: قالت حفصة: يا رسولَ الله، إنك مَرِضْتَ فَقَدَمْتَ أبا بكر. قال: لستُ الذي قدمته، ولكن الله قدمه.

أبو سلمة عن إسماعيل بن مسلم عن أنس قال. صلى أبو بكر بالناس ورسولُ الله صلى الله عليه وسلم مريض ستة أيام.

النضر بن إسحاق عن الحسن قال: قيل لعلي: علامَ بايعتَ أبا بكر؟ فقال: إن رسولَ الله صلى الله عليه وسلم لم يمتَ فحاجة، كان يأتيه بلالٌ في كل يوم في مرضه يُؤذنه بالصلاة، فيأمر أبا بكر فيصلي بالناس، وقد تَرَكتني وهو يرى مكاني، فلما قبض رسولُ الله صلى الله عليه وسلم رضي المسلمون لديناهم من رضى رسول الله صلى الله عليه وسلم لدينهم، فبايعوه وبايعته.

ومن حديث الشَّعبي قال: أوَّلَ مَنْ قَدِمَ مَكَّةَ، بوفاء رسول الله صلى الله عليه وسلم وخلافة أبي بكر، عبدُ ربِّه بن قيس بن السائب المخزومي، فقال له أبو قحافة: مَنْ ولي الأمر بعده؟ قال: أبو بكر ابنك. قال: فرضي بذلك بنو عبد مناف؟ قال: نعم. قال: لا مانع لما أعطى الله ولا مُعطي لما منع الله. جعفر بن سليمان عن مالك بن دينار قال: تُوفي رسولُ الله صلى الله عليه وسلم، وأبو سفيان غائب في مسعاة أخرجها فيها رسولُ الله صلى الله عليه وسلم، فلما انصرف لقي رجلاً في بعض طر مُقبلاً من المدينة، فقال له مات محمد؟ قال: نعم. قال: فمن قام مقامه؟ قال: بكر. قال أبو سفيان: فما فعل المُستضعفان عليّ والعباس؟ قال: جالسين. قال: أما والله لئن بقيت لهما لأرفعنَّ من أعقابهما، ثم قال: إني أرى غيراً لا يُطفئها إلا دم. فلما قدم المدينة جعل يطوف في أزقتها ويقول:

ولا سيما تيم بن مرة أو عدي

وليس لها إلا أبو حسن علي

بني هاشم لا تطمع الناس فيكم

فما الأمر إلا فيكم وإليكم

فقال عمر لأبي بكر: إن هذا قد قدم وهو فاعل شرّاً، وقد كان النبي صلى الله عليه وسلم يستألفه على الإسلام، فدع له ما بيده من الصدقة، ففعل. فرضي أبو سفيان وبايعه.

سقيفة بني ساعدة

أحمد بن الحارث عن أبي الحسن عن أبي معشر عن المقرئ: أن المهاجرين بينما هم في حُجرة رسول الله صلى الله عليه وسلم، وقد قبضه الله إليه، إذ جاء معن بن عديّ وعويم ساعدة، فقالا لأبي بكر: باب فتنة إن يُلقه الله بك، هذا سعد بن عبادَةَ والأنصار يُريدون أن يُبايعوه. فمضى أبو بكر وعمر وأبو عبيدة حتى جاءوا سقيفة بني ساعدة وسعد على طنفس مُتكتماً على وسادة، وبه الحمى، فقال له أبو بكر: ماذا ترى أبا ثابت؟ قال: أنا رجل منكم. فقال حُباب بن المنذر: متاً أمير ومنكم أمير، فإن عمل المهاجري في الأنصاري شيئاً ردّ عليه، وإن عمل الأنصاري في المهاجري شيئاً ردّ عليه، وإن لم تفعلوا فأنا جديها المحكك وعديها المرجب، لتعيدنّها جعدة.

قال عمر: فأردت أن أتكلم، وكنت زوّرت كلاماً في نفسي. فقال أبو بكر: على رسلك يا عمر، فما ترك كلمة كنت زوّرتها في نفسي إلا تكلم بها، وقال: نحن المهاجرون، أول الناس إسلاماً، وأكرمهم أحساباً، وأوسطهم داراً، وأحسنهم وجوهاً، وأمسهم برسول الله صلى الله عليه وسلم رَحماً، وأنتم إخواننا في الإسلام، وشركاؤنا في الدين، نصرتم وواسيتم، فجزاكم الله خيراً، فنحن الأمراء وأنتم الوزراء، لا تدين العرب إلا لهذا الحي من قريش، فلا تنفَسوا على إخوانكم المهاجرين ما فضّلهم الله به، فقد قال رسولُ الله صلى الله عليه وسلم: الأئمة من قريش. وقد رضيت لكم أحد هذين الرجلين - يعنى عمر ابن الخطاب وأبا عبيدة بن الجراح - فقال عمر: يكون هذا وأنت حي! ما كان أحد ليؤخرك عن مقامك الذي أقامك فيه رسولُ الله صلى الله عليه وسلم، ثم ضرب على يده فبايعه، وبايعه الناس وازدحموا على أبي بكر. فقالت الأنصار: قتلتم سعداً. فقال عمر: اقتلوه قتلته الله، فإنه صاحب فتنة. فبايع الناس أبا بكر، وأتوا به المسجد يُبايعونه، فسمع العباس وعليّ التكبيرة في المسجد، ولم يفرغوا من غسل رسول الله صلى

الله عليه وسلم، فقال عليّ: ما هذا؟ قال العباس: ما رأيي مثل هذا قطّ، أما قلتُ لك! ومن حديث الثّعمان بن بشير الأنصاري: لما ثقل رسولُ الله صلى الله عليه وسلم تكلم الناس من يقوم بالأمر بعده، فقال قوم: أبو بكر، وقال قوم: أبي بن كعب. قال الثّعمان بن بشير: فأتيتُ أبا فقلت: يا أبا، إن الناس قد ذكروا أن رسول الله صلى الله عليه وسلم يستخلف أبا بكر أو إياك، فانطلق حتى ننظر في هذا الأمر. فقال: إن عندي في هذا الأمر من رسول الله صلى الله عليه وسلم شيئاً ما أنا بذاكره حتى يقبضه الله إليه، ثم انطلق. وخرجت معه حتى دخلنا على النبي صلى الله عليه وسلم بعد الصُّبح، وهو يحسو حسواً في قصعة مشعوبة. فلما فرغ أقبل على أبي فقال: هذا ما قلتُ لك. قال: فأوص بنا. فخرج يخطُّ برجليه حتى صار على المنبر، ثم قال: يا معشر المهاجرين، إنكم أصبحتم تزيدون، وأصبحت الأنصار كما هي لا تزيد، ألا وإن الناس يكثرون وتقل الأنصار حتى يكونوا كالمُح في الطعام، فمن ولى من أمرهم شيئاً فليقبل من محسنهم، وليعف عن مُسيئهم، ثم دخل. فلما توفي قيل لي: هاتيك الأنصار مع سعد بن عبادة يقولون: نحن الأولى بالأمر، والمهاجرون يقولون: لنا الأمر دونكم. فأتيت أبا ففرعتُ بابه، فخرج إليّ ملتحفاً، فقلت: ألا أراك إلا قاعداً بينك مُغلِقاً عليك بابك وهؤلاء قومك من بني ساعدة يُنازعون المهاجرين، فأخرج إلى قومك. فخرج، فقال: إنكم والله ما أنتم من هذا الأمر في شيء، إنه لهم دونكم، يليها من المهاجرين رجلاً، ثم يُقتل الثالث، ويُترع الأمر فيكون هاهنا، وأشار إلى الشام، وإن هذا الكلام لمبلول بريق رسول الله صلى الله عليه وسلم، ثم أغلق بابه ودخل. ومن حديث حذيفة قال: كنا جلوساً عند رسول الله عظيم، فقال: إني لا أدري ما بقائي فيكم، فافتدوا بالذين من بعدي، وأشار إلى أبي بكر وعمر، واهتدوا بمهديّ عمار، وما حدّثكم ابن مسعود فصدقوه. الذين تخلفوا عن بيعة أبي بكر - في العباس والزبير وسعد بن عبادة. فأما عليّ والعباس والزبير، ففقدوا في بيت فاطمة حتى بعث إليهم أبو بكر عمر ابن الخطاب ليُخرجهم من بيت فاطمة، وقال له: إن أبا فقتلتهم. فأقبل بقبس من نار على أن يُضرم عليهم الدار، فلقيته فاطمة، فقالت: يا بن الخطاب، أحتت لثحرق دارنا؟ قال: نعم، أو تدخلوا فيما دخلت فيه الأمة. فخرج علي حتى دخل على أبي بكر فبايعه، فقال له أبو بكر: أكرهت إمارتي؟ فقال: لا، ولكني آليتُ أن لا أرتدي بعد موت رسول الله صلى الله عليه وسلم حتى أحفظ القرآن، فعليه حبست نفسي.

ومن حديث الزُّهري عن عروة عن عائشة قالت: لم يُبايع عليّ أبا بكر حتى ماتت فاطمة، وذلك لستة أشهر من موت أبيها صلى الله عليه وسلم. فأرسل عليّ إلى أبي بكر، فأثاه في منزله فبايعه، وقال: والله ما نفسنا عليك ما ساق الله إليك من فضل وخير، ولكننا كُننا نرى أن لنا في هذا الأمر شيئاً فاستبددت به دوننا، وما تُنكر فضلك. وأما سعد بن عبادة فإنه رحل إلى الشام. أبو المنذر هشام بن محمد الكلبي قال: بث عمر رجلاً إلى الشام، فقال: ادعه إلى البيعة واحمل له بكل ما قدرت عليه، فإن أي فاستعن الله عليه. فقدم الرجل الشام، فلقيه جُوران في حائط، فدعاه إلى البيعة، فقال: لا أبايع قُرشياً أبداً. قال: فإني أقاتلك. قال: وإن قاتلتني! قال: أفخارج أنت مما دخلت فيه الأمة؟ قال: أما من البيعة فأنا خارج. فرماه بسهم، فقتله. ميمون بن مهران عن أبيه قال: رُمي سعد بن عبادة في حَمَام بالشام، فقتل. سعيد بن أبي عروبة عن ابن سيرين قال: رُمي سعد بن عبادة بسهم فوجد دفيناً في جسده. فمات، فبكته الجنّ، فقالت:

رج سعد بن عبادة

ن فلم نخطيء فؤاده

وقتلنا سيّد الخز

ورمينا به سهمي

فضائل أبي بكر رضي الله عنه - محمد بن المنكدر قال: نازع عمر أبا بكر، فقال رسول الله صلى الله عليه وسلم: هل أنتم تاركوني وصاحبي؟ إن الله بعثني بالهدى ودين الحق إلى الناس كافة، فقالوا جميعاً: كذبت، وقال أبو بكر: صدقت. وهو صاحب رسول الله صلى الله عليه وسلم، وجليسه في الغار، وأول من صلى معه آمن به وأتبعه. وقال عمر بن الخطاب: أبو بكر سيّدنا، وأعتق سيّدنا. يريد بلالاً. وكان بلال عبداً لأمية بن خلف، فاشتراه أبو بكر وأعتقه، وكان من مؤلدي مكة، أبوه رباح، وأمه حمامة. وقيل للنبي صلى الله عليه وسلم: من أول من قام معك في هذا الأمر؟ قال: حرّ وعبد. يريد بالحرّ أبا بكر، وبالعبد بلالاً. وقال بعضهم: عليّ وخبّاب. أبو الحسن المدائني قال: دخل هارون الرشيدُ مسجد رسول الله صلى الله عليه

وسلم، فبعث إلى مالك بن أنس، فقيه المدينة، فأثاه وهو واقف بين قبر رسول الله صلى الله عليه وسلم والمنبر، فلما قام بين يديه وسلم عليه بالخلافة، قال: يا مالك، صف لي مكان أبي بكر وعمر من رسول الله صلى الله عليه وسلم في الحياة الدنيا. فقال: مكائهما منه يا أمير المؤمنين كمكان قريههما من قبره. فقال: شفيتني يا مالك: الشعي عن أبي سلمة: إن عليا سئل عن أبي بكر وعمر، فقال: على الخير سقطت، كانا والله إمامين صالحين مُصلحين، خرجا من الدنيا خميصين. وقال علي بن أبي طالب: سبق رسول الله صلى الله عليه وسلم، وتتى أبو بكر، وثلث عمر، ثم خبطتنا فتنة عمياء كما شاء الله. وقالت عائشة: تُوفي رسول الله عظيم بين سحري ونحري، فلو نزل بالجمال الراسيات ما نزل بأبي هلهما، اشرب النفاق، وارتدت العرب، فولله ما اختلفوا لفظة إلا طار أبي بحظها وغنائها في الإسلام. عمرو بن عثمان عن أبيه عن عائشة، أنه بلغها أن أناساً يتناولون من أبيها، فأرسلت إليهم، فلما حضروا قالت: إن أبي والله لا تعطوه الأيدي، طود منيف، وظل ممدود، أنجح إذ أكديتم، وسبق إذ نيتتم سبق الجواد إذا استولى على الأمد. فتى قريش ناشئاً، وكهفها كهلاً. يفك عانيها، ويريش مملقها، ويرأب صدعها، ويلم شعثها. فما برحت شكيمته في ذات الله تشتد حتى اتخذ بفنائها مسجداً يحيى فيه ما أمات المبطلون. وكان وقيد الجوامح، عزيز الدمعة، شحي النسيج. وأصفقت إليه نسوان مكة وولداها يسخرون منه ويستهنون به، والله يستهزى بهم ويكدهم في طغيانهم يعمهون، وأكبرت ذلك رجالات قريش، فما فلوا له صفاة، ولا قصفوا قناة، حتى ضرب الحق بجراحه، وألقى بركه، ورست أوتاده. فلما قبض الله نبيه ضرب الشيطان رواقه، ومدّ طنبه، ونصب حباته، وأجلب بخيله ورجله، فقام الصديق حاسراً مشمراً. فردّ نشر، الإسلام على غره، وأقام أوده بثقافه، فابذع النفاق بوطفه، وانتاش الناس بعدله، حتى أراح الحق على أهله، وحقن الدماء في أهبها. ثم أتته منيته، فسدّ ثلمته نظيره في الرحمة، وشقيقه في المعدلة، ذلك ابن الخطاب. لله درّ أم حفلت له ودرّت عليه. ففتح الفتوح، وشرّد الشرك، وبعج الأرض، فقاءت أكلها، ولفظت جناها؟ ترامه وأباها، وتريده ويصدف عنها، ثم تركها كما صحبها. فأروني ما ترتابون؛ وأيّ يومي أبي تنقمون؟ أيوم إقامته إذ عدل فيكم، أم يوم طعنه إذ نظر لكم؟ أقول قولي، هذا واستغفر الله لي ولكم.

وفاة أبي بكر الصديق رضي الله عنه

الليث بن سعد عن الزهري قال: أهدى لأبي بكر طعام وعنده الحارث ابن كلدّة فأكلا منه، فقال الحارث: أكلنا سم سنة، وإني وإياك لميتان عند رأس الحول، فماتا جميعاً في يوم واحد عند انقضاء السنة. وإنما سمته يهود كما سمّت النبي صلى الله عليه وسلم بخير في ذراع الشاة. فلما حضرت النبي صلى الله عليه وسلم الوفاة قال: ما زالت أكله خير تُعاودني حتى قطعت أبهري. وهذا مثل ما قال الله تعالى "ثم لقطعنا منه الوتين". والأهرم والوتين: عرقان في الصلب إذا انقطع أحدهما مات صاحبه. الزهري عن عروة عن عائشة قالت: اغتسل أبو بكر يوم الاثنين لسبع خلون من جمادى الآخرة، وكان يوماً بارداً، فحُم خمسة عشر يوماً لا يخرج إلى صلاة، وكان يأمر عمر يصلي بالناس. وتوفي ليلة الثلاثاء لثمان بقين من جمادى الآخرة سنة ثلاث عشرة من التاريخ. وغسلته امرأته أسماء بنت عميس. وصلى عليه عمر بن الخطاب بين القبر والمنبر، وكبر أربعاً. الزهري عن سعيد بن المسيب قال: لما توفي أبو بكر أقامت عليه عائشة النوح، فبلغ ذلك عمر فنهاهن، فأين. فقال لهشام بن الوليد: أخرج إلي بنت أبي قحافة، فأخرج إليه أم فروة، فعلاها بالدرّة ضرباً، ففترقت النواح. وقالت عائشة وأبوها يغمض، رضي الله عنه:

ربيع اليتامى عصمة للأرامل

وأبيض يُستسقى الغمام بوجهه

قالت عائشة: فنظر إلي وقال: ذاك رسول الله صلى الله عليه وسلم، ثم أعغمي عليه. فقالت:

إذا حشرجت يوماً وضاق بها الصدرُ

لعمرك ما يُعنى الثراء عن الفتى

فنظر إلي كالغضبان وقال: قولي: "وجاءت سكرة الموت بالحق ذلك ما كنت منه تحيد" ثم قال: انظروا ملاءتين خلقين فاغسلوهما وكفوني فيهما، فإن الحيّ أحوج إلى الجديده من الميت.

عروة بن الزبير والقاسم بن محمد قالوا: أوصى أبو بكر عائشة أن يدفن إلى جنب رسول الله صلى الله عليه وسلم. فلما توفي حفر له وجعل رأسه بين

كَتَفِي رَسُولُ اللَّهِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ، وَرَأْسُ عَمْرٍ عِنْدَ حَقْوِي أَبِي بَكْرٍ. وَبَقِيَ فِي الْبَيْتِ مَوْضِعَ قَبْرِ. فَلَمَّا حَضَرَتِ الْوَفَاةُ الْحَسَنَ بْنَ عَلِيٍّ أَوْصَى بِأَنْ يُدْفَنَ مَعَ جَدِّهِ فِي ذَلِكَ الْمَوْضِعِ. فَلَمَّا أَرَادَ بَنُو هَاشِمٍ أَنْ يَحْفَرُوا لَهُ مَنَعَهُمْ مِرْوَانُ، وَهُوَ وَالِي الْمَدِينَةِ فِي أَيَّامِ مَعَاوِيَةَ. فَقَالَ أَبُو هُرَيْرَةَ: عَلَامَ تَمْنَعُهُ أَنْ يُدْفَنَ مَعَ جَدِّهِ؟ فَأَشْهَدُ لَقَدْ سَمِعْتُ رَسُولَ اللَّهِ عَلَيْهِ يَقُولُ: الْحَسَنُ وَالْحُسَيْنُ سَيِّدَا شَبَابِ أَهْلِ الْجَنَّةِ. قَالَ لَهُ مِرْوَانُ: لَقَدْ صَيَّعَ اللَّهُ حَدِيثَ رَسُولِ اللَّهِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ إِذْ لَمْ يَرَوْهُ غَيْرُكَ. قَالَ: أَنَا وَاللَّهُ لَقَدْ قَلْتُ ذَلِكَ، لَقَدْ صَحَبْتُهُ حَتَّى عَرَفْتُ مَنْ أَحَبُّ وَمَنْ أَبْغَضُ، وَمَنْ نَفَى وَمَنْ أَقْرَبُ، وَمَنْ دَعَا لَهُ وَمَنْ دَعَا عَلَيْهِ. قَالَ: وَسُطِحَ قَبْرُ أَبِي بَكْرٍ كَمَا سُطِحَ قَبْرُ النَّبِيِّ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ وَرُشَ بِالْمَاءِ.

هشام بن عروة عن أبيه: إن أبا بكر صَلَّى عليه ليلاً ودُفِنَ ليلاً. ومات وهو ابن ثلاث وستين سنة، ولما مات النبي صَلَّى الله عليه وسلم. وعاش أبو قحافة بعد أبي بكر أشهراً وأياماً، ووهب نصيبه في ميراثه لولد أبي بكر. وكان نقش حاتم أبي بكر: نعم القادر الله. ولما قبض أبو بكر سُجِّي بثوب، فارتجت المدينة من البكاء، ودهش القوم كيوم قبض فيه رسولُ الله صَلَّى الله عليه وسلم. وجاء عليُّ بن أبي طالب باكياً مُسرِعاً مسترجعاً حتى وقف بالباب وهو يقول. رَحِمَكَ اللَّهُ أبا بكر، كنتَ والله أولَ القومِ إسلاماً، وأصدقهم إيماناً، وأشدَّهم يقيناً، وأعظمهم غناءً، واحفظهم على رسول الله صَلَّى الله عليه وسلم، وأحلبهم على الإسلام، وأحماهم عن أهله، وأنسبهم برسول الله خُلُقاً وفضلاً وهدياً وسَمْتاً؛ فجَزَاكَ اللهُ عن الإسلام وعن رسول الله وعن المسلمين خيراً. صدقت رسول الله حين كذبه الناس، وواسيته حين بخلوا، وقمتَ معه حين قعدوا، وسَمَّاكَ اللهُ في كتابه صديقاً، فقال: "والذي جاء بالصدق وصدَّق به" يريد محمداً ويريدك. كنتَ والله للإسلام حِصْناً، وللكافرين ناكباً، لم تضلل حجَّتكَ، ولم تضعف بصيرتكَ، ولم تجن نفسك. كنتَ كالجليل لا تحركه العواصف، ولا تُزِيلُه القواصف. كنتَ كما قال رسولُ الله صَلَّى الله عليه وسلم: ضعيفاً في بدنك، قوياً في دينك، متواضعاً في نفسك، عظيماً عند الله، جليلاً في الأرض، كبيراً عند المؤمنين. لم يكن لأحد عندك مطمع ولا هوى، فالضعيفُ عندك قويٌّ، والقويُّ عندك ضعيف، حتى تأخذ الحق من القوي وتأخذه للضعيف، فلا حرمك الله أجرك، ولا أضلنا بعدك. القاسم بن محمد عن عائشة أم المؤمنين أنها دخلت على أبيها في مرضه الذي تُوفي فيه فقالت: يا أبت، اعهد إلى خاصتكَ، وأنفذ رأيك في عامتكَ، وانقل من دار جهازك إلى دار مقامك، إنك محضور ومتصل بي لوعتكَ، وأرى تخاذل أطرافك وانتقاع لونك، فإلى الله تعزيتي عنك، ولديه ثواب حُزني عليك. أرقاً فلا أرقاً، وأشكو فلا أشكى. قال: فرفع رأسه، وقال: يا أمه، هذا يوم يُخَلِّي لي فيه عن غطائي، وأشاهد جزائي؛ إن فرحاً فدايم، وإن ترحاً فمُقيم. إني اضطلعتُ بإمامة هؤلاء القوم حين كان التُّكُوصُ إضاعة، والخزلُ تفريطاً؛ فشهدي الله، ما كان بقلي إلا إياه، فتبَلَّغ بصحفتهم، وتعلَّلت بدرّة لِقحتهم، فأقمت صلاي معهم، لا مختالاً أشراً، ولا مُكاثراً بطراً. لم أعدُ سدَّ الجوعه، وتورّية العورة، وإقامة القوام، من طوى مُعض، تهفو منه الأحشاء، وتجعّف له الأمعاء، فاضطرت إلى ذلك اضطرار الجُرْحِ إلى الماء، المغيّب الآجن. فإذا أنا ميتٌ فردّي إليهم صحفتهم وعبدهم ولقحتهم ورحاهم ودثاراً ما فوقِي اتقيت بها البرد، ووثاراً ما تحتي اتقيتُ بها أذى الأرض، كان حشوها قطع السعف. قال: ودخل عليه عمر فقال: يا خليفة رسول الله، لقد كلفت القوم بعدك تعباً، ووليتهم نصباً، فهيهات من شقِّ غبارك! فكيف للحاق بك!.

استخلاف أبي بكر لعمر

عبد الله بن محمد التيمي عن محمد بن عبد العزيز: إن أبا بكر الصديق حين حضرته الوفاة كتب عهده وبعث به مع عثمان بن عفان ورجلٍ من الأنصار ليقرأه على الناس، فلما اجتمع الناس قاما فقالا: هذا عهدُ أبي بكر، فإن تُقروا به نقرأه، وإن تُنكروه نرجعه. فقال: بسم الله الرحمن الرحيم. هذا عهد أبي بكر بن أبي قحافة عند آخر عهده بالدُّنيا خارجاً منها، وأوّل عهده بالأخرة داخلاً فيها، حيث يُؤمّن الكافر، ويتقي الفاجر، ويصدق الكاذب. إني أمرت عليكم عمر بن الخطّاب، فإن عدل واتفق فذاك ظنّي به ورجائي فيه، وإن بدّل وغير فالخير أردت، لا يعلم الغيب إلا الله قال أبو صالح: أخبرنا محمد بن وضاح، قال: حدّثني محمد بن رُمح بن المهاجر التميمي قال: حدّثني الليث بن سعد عن عُلوّان عن صالح بن كيسان عن حميد ابن عبد الرحمن بن عوف عن أبيه أنه دخل على أبي بكر رضي الله عنه في مرضه الذي تُوفي فيه فأصابه مُفيقاً، فقال: أصبحت بحمد الله بارئاً. قال أبو

بكر: أتراه؟ قال: نعم. قال: أما إني على ذلك لشديد الوَجع، ولما لقيتُ منكم يا معشر المهاجرين أشدُّ عليَّ من وِجعي. إني وليتُ أمركم خيركم في نفسي فكلَّكم ورم من ذلك أنفه، يريد أن يكون له الأمر من دونه، ورأيتم الدنيا مُقبلة، ولن تقبل - وهي مُقبلة - حتى تتخذوا سُتور الحرير ونضائد الدُّباج، وتألوا الاضطجاع على الصوف الأذريِّ كما يألم أحدكم الاضطجاع على شوك السَّعدان. والله لأن يُقدِّم أحدكم فُتُضرب عنقه في غير حدِّ خير له من أن يَحوض في غمِّرة الدنيا. ألا وإنكم أول ضالِّ بالناس غدا فتصدَّوهم عن الطريق يميناً وشمالاً. يا هاديَّ الطريق إنما هو الفجر أو البَحْر. قال: فقلتُ له: خَفِّضْ عليك يرحمك الله، فإن هذا يهيضك على ما بك، إنما الناس في أمرك بين رجلين، إما رجل رأى ما رأيت فهو معك، وإما رجل خالفك فهو يُشير عليك برأيه، وصاحبك كما تُحب، ولا نعلمك أردت إلا الخير، ولم تزل صالحاً مُصلحاً، مع أنك لا تأسى على شيء من الدنيا. فقال: أجل، إني لا آسى على شيء من الدنيا إلا على ثلاث فعلتُهن وودتُ أني تركتُهن، وثلاثٍ تركتُهن ووددتُ أني فعلتُهن. سألت رسول الله صلى الله عليه وسلم عنهن. فأما الثلاث التي فعلتُهن ووددتُ أني تركتُهن: فوددتُ أني لم أكشف بيتَ فاطمة عن شيء، وإن كانوا أغلقوه على الحرب؛ ووددتُ أني لم أكن حرقت الفجاءة السلمي، وأني قتلتُه سريعاً أو خلَّيته نجيحاً؛ ووددتُ أني يوم سقيفة بني ساعدة قد رميتُ الأمر في عنق أحد الرجلين، فكان أحدهما أميراً وكنْتُ له وزيراً - يعني بالرجلين عمر بن الخطاب وأبي عبيدة بن الجراح - وأما الثلاث التي تركتُهن ووددتُ أني فعلتُهن: فوددتُ أني يوم آتيت بالأشعث بن قيس أسيراً ضربتُ عنقه؛ فإنه يُخيل إلي أنه لا يرى شيئاً إلا أعان عليه؛ ووددتُ أني سيرت خالد بن الوليد إلى أهل الردة أقمت بذي القصة فإن ظفر المسلمون ظفروا وإن اهزموا كنتُ بصدد لقاء أو مدد؛ ووددتُ أني وجهت خالد بن الوليد إلى الشام ووجهتُ عمر ابن الخطاب إلى العراق، فأكون قد بسطت يدي كلتيهما في سبيل الله. وأما الثلاث التي ووددتُ أني أسأل رسول الله صلى الله عليه وسلم عنهن: فإني ووددتُ أني سألته: لمن هذا الأمر من بعده فلا يُنازعه أحد، وأني سألته هل للأنصار يا هذا الأمر نصيب فلا يُظلموا نصيب منه، ووددتُ أني سألته عن بنت الأخ والعمة، فإن في نفسي منهما شيئاً.

نسب عمر بن الخطاب وصفته

أبو الحسن علي بن محمد قال: هو عمر بن الخطاب بن نُفيل بن عبد العزى بن رياح بن عبد الله بن قرط بن رزاح بن عدي بن كعب بن لؤي بن غالب ابن فهر بن مالك. وأمه حنتمة بنت هاشم بن المغيرة بن عبد الله بن عمر بن مخزوم. وهاشم هو ذو الرِّمحين. قال أبو الحسن: كان عمر رجلاً آدمَ مُشرباً حُمرة طويلاً أصلح له حِفافان، حسنَ الخدين والأنف والعينين، غليظَ القدمين والكفين، مجذول الفم، حسن الخلق، ضخم الكراديس، أعسر يسر، إذا مشى كأنه راكب. ولى الخلافة يوم الثلاثاء لثمان بقين من جمادى الآخرة سنة ثلاث عشرة من التاريخ. وطعن لثلاث بقين من ذي الحجة سنة ثلاث وعشرين من التاريخ. فعاش ثلاثة أيام. ويقال سبعة أيام. معدان بن أبي حفصة، قال: قُتل عمر يوم الأربعاء لأربع بقين من ذي الحجة سنة ثلاث وعشرين، وهو ابن ثلاث وستين سنة، في رواية الشعبي. ولها مات أبو بكر، ولها مات النبي صلى الله عليه وسلم.

فضائل عمر بن الخطاب

أبو الأشهب عز الحسن، قال: عاتب عيينة عثمان، فقال له: كان عمر خيراً لنا منك، أعطانا فأغنانا، وأحشانا فأثقتنا. وقيل لعثمان: ما لك لا تكون مثل عمر؟ قال: لا أستطيع أن أكون مثل لُقمان الحكيم. القاسم بن عمر قال: كان إسلام عمر فتحاً، وهجرته نصراً، وإمارته رحمة. وقيل: إن عمر خطب امرأة من ثقيف وخطبها المغيرة؛ فزوجها المغيرة. فقال النبي صلى الله عليه وسلم: ألا زوجتم عمر؛ فإنه خير قريش أولها وآخرها، إلا ما جعل الله لرسوله. الحسن بن دينار عن الحسن، قال: ما فضل عمر أصحاب رسول الله صلى الله عليه وسلم أنه كان أطولهم صلاة، وأكثرهم صياماً؛ ولكنه كان أزهدهم في الدنيا، وأشدهم في أمر الله. وتظلم رجل من بعض عمال عمر، وادعى أنه ضربته وتعذى عليه، فقال: اللهم إني لا أحلُّ لهم أشعارهم ولا أبشارهم. كلُّ من ظلمه أميره فلا أميرَ عليه دوني، ثم أفاده منه. عوَّأته عن الشعبي قال: كان عمر يطوف في الأسواق، ويقرأ القرآن، ويقضي بين

الناس حيث أدركه الخصوم. وقال المغيرة بن شعبة، وذكر عمر، فقال: كان والله له فضل يمنعه من أن يخذع، وعقل يمنعه من، أن يخذع. فقال عمر: لست بخب ولا الخب يخذعني. عكرمة عن ابن عباس، قال قال: بينما أنا أمشي مع عمر بن الخطاب في خلافته وهو عامد لحاجة له وفي يده الذرة، فأنا أمشي خلفه وهو يُحدث نفسه ويضرب وحشي قدميه بدرته، إذ التفت إليّ، فقال: يا ابن عباس، أتدري ما حملني على مقالتي التي قلتُ يوم تُوفي رسول الله صلى الله عليه وسلم؟ قلت: لا. قال: الذي حملني على ذلك أنني كنتُ أقرأ هذه الآية: "وكذلك جعلناكم أمةً وسطاً لتكونوا شهداء على الناس ويكون الرسول عليكم شهيداً" فوالله إني كنت لأظن أن رسول الله صلى الله عليه وسلم سيبقى في أمته حتى يشهد علينا بأخف أعمالنا، فهو الذي دعاني إلى ما قلت. ابن دأب قال: قال ابن عباس: خرجت أريد عمر في خلافته، فألفيته راكباً على حمار قد أرسنه بحبل أسود، وفي رجليه نعلان مخصوفتان، وعليه إزار قصير وقميص قصير، قد انكشفت منه ساقاه، فمشيتُ إلى جنبه وجعلتُ أجهدُ الإزار عليه، فجعل يضحك ويقول: إنه لا يطيعك. حتى أتى العالية، فصنع له قومٌ طعاماً من خبز ولحم، فدعاه إليه، وكان عمر صائماً، فجعل يئبُذ إليّ الطعام ويقول: كُلْ لي ولك. ومن حديث ابن وهب عن الليث بن سعد: أن أبا بكر لم يكن يأخذ من بيت المال شيئاً ولا يجري عليه من الفيء درهمًا، إلا أنه استلف منه مالاً، فلما حضرته الوفاة أمر عائشة برده. وأما عمر بن الخطاب فكان يُجرى على نفسه درهمين كل يوم. فلما ولى عمر بن عبد العزيز قيل له: لو أخذت ما كان يأخذ عمر بن الخطاب؟ قال: كان عمر لا مال له، وأنا مال يُغنيني بم فلم يأخذ منه شيئاً. أبو حاتم عن الأصمعي، قال: قال عمر وقام على الردم: أين حقاك يا أبا سفيان مما هنا؟ قال: مما تحت قدميك إليّ. قال: طالما كنت قديم الظلم، ليس لأحد فيما وراء قدمي حق، إنما هي منازل الحاج. قال الأصمعي: وكان رجلٌ من قريش قد تقدّم صدرٌ من داره عن قدمي عمر فهدمه. وأراد أن يُغور البئر، فقيل له: في البئر للناس منفعة، فتركها. قال الأصمعي: إذا ودّع الحاجُّ ثم بات خلف قدمي عمر لم أر عليه أن يرجع. يقول: قد خرج من مكة.

مقتل عمر

أبو الحسن: كان للمغيرة بن شعبة غلام نصراني يقال له: فيروز أبو لؤلؤة، وكان نجاراً لطيفاً، وكان خراجه ثقيلاً، فشكا إلى عمر ثقل الخراج، وسأله أن يكلم مولاة أن يخفف عنه من خراجه، فقال له: وكم خراجك؟ قال ثلاثة دراهم في كل شهر. قال وما صناعتك؟ قال: نجار. قالت: ما أرى هذا ثقيلاً في مثل صناعتك. فخرج مغضباً، فاستلّ خنجراً محدوداً الطرفين. وكان عمر قد رأى في المنام ديكاً أحمر ينقره ثلاث نقرات، فتأوله رجلاً من العجم يطعنه ثلاث طعنات. فطعنه أبو لؤلؤة بخنجره ذلك في صلاة الصبح ثلاث طعنات، إحداهما بين سرته وعانته، فخرقت الصفاق، وهي التي قتلتته. وطعن في المسجد معه ثلاثة عشر رجلاً، مات منهم سبعة. فأقبل رجلٌ من بني تميم، يقال له حطان، فألقى كساءه عليه ثم احتضنه. فلما علم العليج أنه مأخوذ طعن نفسه وقدم عمر صهيياً يصلّي بالناس، فقرأ بهم في صلاة الصبح: "قل هو الله أحد" في الركعة الأولى، و"قل يأيها الكافرون" في الركعة الثانية. واحتُمل عمر إلى بيته، فعاش ثلاثة أيام ثم مات. وقد كان استأذن عائشة أن يُدفن في بيتها مع صاحبيه، فأجابته وقالت: والله لقد كنت أردت ذلك المضحج لنفسي ولأوثرته اليوم على نفسي. فكانت ولاية عمر عشر سنين. صلى عليه صهيب بين القبر والمنبر، ودُفن عند غروب الشمس. كاتبه: زيد بن ثابت، وكتب له مّعقب أيضاً. وحاجبه: يرفأ، مولاة. وخازنه: يسار. وعلى بيت ماله: عبد الله ابن الأرقم. وقال الليث بن سعد: كان عمر أول من جند الأجناد، ودون الدواوين، وجعل الخلافة شورى بين ستة من المسلمين، وهم: عليّ وعثمان وطليحة والزبير وسعد بن أبي وقاص وعبد الرحمن بن عوف، ليختاروا منهم رجلاً يولونه أمر المسلمين. وأوصى أن يحضر عبد الله بن عمر معهم، وليس له من أمر الشورى شيء.

أمر الشورى في خلافة عثمان بن عفان

صالح بن كيسان قال: قال ابن عباس: دخلت على عمر في أيام طعنته، وهو مضطجع على وسادة من آدم، وعنده جماعة من أصحاب النبي صلى الله عليه وسلم. فقال له رجل: ليس عليك بأس. قال: لئن لم يكن عليّ اليوم ليكون بعد اليوم، وإن للحياة لنصيباً من القلب، وإن للموت لكربة، وقد

كنت أحب أن أنجي نفسي وأنجو منكم، وما كنت من أمركم إلا كالغريق يرى الحياة فيرجوها، ويخشى أن يموت دونها، فهو يركض بيديه ورجليه؛ وأشد من الغريق الذي يرى الجنة والنار وهو مشغول. ولقد تركت زهرتك كما هي، ما لبستها فأخلفتها، وثمرتك يابنة في أكامها ما أكلتها، وما جنيت ما جنيت إلا لكم، وما تركت ورائي درهما ما عدا ثلاثين أو أربعين درهما، ثم بكى وبكى الناس معه. فقلت: يا أمير المؤمنين، أبشر، فوالله لقد مات رسول الله صلى الله عليه وسلم وهو عنك راض، ومات أبو بكر وهو عنك راض، وإن المسلمين راضون عنك. قال: المَعْرور والله من غررتومه، أما والله لو أن لي ما بين المشرق والمغرب لافتديت به من هَوْل المَطَّلَع. داود بن أبي هند عن قتادة قال: لما ثقل عمر قال لولده عبد الله: ضَع خَدَيَّ على الأرض. فكَرِهَ أن يفعل ذلك. فوضع عمرُ حَذَه على الأرض وقال: ويل لعمر ولا م عمر إن لم يَعْفُ الله عنه. أبو أمية بن يعلى عن نافع قال: قيل لعبد الله بن عمر: تُغسل الشهداء؟ قال: كان عمر أفضل الشهداء، فغُسل وكُفِن وصُلِّي عليه. يونس عن الحسن، وهشام بن عُروة عن أبيه، قال: لما طعن عمرُ بن الخطاب قيل له: يا أمير المؤمنين، لو استخلفت؟ قال: إن تركتكم فقد ترككم من هو خيرٌ مِنِّي، وإن استخلفت فقد استخلف عليكم من هو خيرٌ مِنِّي، ولو كان أبو عبيدة بن الجراح حيًّا لاستخلفته، فإن سألتني ربي قلت: سمعتُ نبيك يقول: إنه أمينُ هذه الأمة؛ ولو كان سالمٌ مولى أبي خديفة حيا لاستخلفته، فإن سألتني ربي قلت: سمعتُ نبيك يقول: إن سالماً يُحب الله حُباً لو لم يخفه ما عصاه. قيل له: فلو أنك عهدت إلى عبد الله فإنه له أهلٌ في دينه وفضلته وقدم إسلامه. قال: بحسب آل الخطاب أن يُحاسِب منهم رجلٌ واحد عن أمة محمد صلى الله عليه وسلم، ولوددتُ أني نجوتُ من هذا الأمر كفافاً لا لي ولا علي. ثم راحوا فقالوا: يا أمير المؤمنين، لو عهدت؟ فقال: قد كنتُ أجمعتُ بعد مقالتي لكم أن أولي رجلاً أمركم أرجو أن يحملكم على الحق - وأشار إلى علي - ثم رأيتُ أن لا أتحملها حيًّا وميتاً، فعليكم بهؤلاء الرهط الذين قال فيهم النبي صلى الله عليه وسلم.

إنهم من أهل الجنة، منهم سعيد بن زيد ابن عمرو بن نفيل، ولستُ مُدخله فيهم، ولكن الستة: علي وعثمان، ابنا عبد مناف، وسعد، وعبد الرحمن بن عوف، خال رسول الله صلى الله عليه وسلم، والزبير، حواري رسول الله صلى الله عليه وسلم وابن عمته، وطلحة الخير، فليختاروا منهم رجلاً، فإذا ولوكم والياً فأحسنوا مؤازرته. فقال العباس لعلي: لا تدخل معهم. قال: أكره الخلاف. قال: إذن ترى ما تكره. فلما أصبح عمرُ دعا عليا وعثمان وسعداً والزبير وعبد الرحمن، ثم قال: إني نظرت فوجدتكم رؤساء الناس وقادتهم، ولا يكون هذا الأمر إلا فيكم، وإني لا أخاف الناس عليكم، ولكني أخافكم على الناس، وقد قبض رسول الله صلى الله عليه وسلم وهو عنكم راض، فاجتمعوا إلى حُجرة عائشة بإذنها، فتشاوروا واختاروا منكم رجلاً، ولْيصل بالناس صُهيبة ثلاثة أيام، ولا يأتي اليوم الرابع إلا وعليكم أميرٌ منكم، ويحضركم عبد الله مُشيراً، ولا شيء له من الأمر، وطلحة شريككم في الأمر، فإن قَدِم في الأيام الثلاثة فأحضره أمركم، وإن مَضت الأيام الثلاثة قبل قدومه فأمضوا أمركم. ومن لي بطلحة؛ فقال سعد: أنا لك به إن شاء الله. قال لأبي طلحة الأنصاري: يا أبا طلحة، إن الله قد أعزَّ بكم الإسلام، فاختر خمسين رجلاً من الأنصار وكُونوا مع هؤلاء الرهط حتى يختاروا رجلاً منهم. وقال للمقداد بن الأسود الكندي: إذا وضعتموني في حُفرتي فاجمع هؤلاء الرهط حتى يختاروا رجلاً منهم. وقال لصُهيبة: صل بالناس ثلاثة أيام، وأدخل علياً وعثمان والزبير وسعداً وعبد الرحمن وطلحة، إن حضر، بيت عائشة وأحضر عبد الله بن عمر، وليس له في الأمر شيء، وقم على رؤوسهم، فإن اجتمع خمسة على رأي واحد وأبى واحد فاشدخ رأسه بالسيف، وإن اجتمع أربعة فترضوا وأبى اثنان فاضرب رأسيهما، فإن رضي ثلاثة رجلاً وثلاثة رجلاً فحكموا عبد الله بن عمر، فإن لم يرضوا بعبد الله فكونوا مع الذين فيهم عبد الرحمن بن عوف واقتلوا الباقين، إن رغبوا عما اجتمع عليه الناس وخرجوا. فقال علي لقوم معه من بني هاشم: إن أطيع فيكم قومكم فلن يومروكم أبداً. وتلقاه العباس فقال له: عدلتُ عننا. قال له: وما أعلمك؟ قال: قرن بي عثمان، ثم قال: إن رضي ثلاثة رجلاً فكونوا مع الذين فيهم عبد الرحمن بن عوف، فسعد لا يخالف ابن عمه عبد الرحمن، وعبد الرحمن صهر عثمان، لا يخلفون، فلو كان الآخرون معي ما نفعاني، فقال العباس: لم أدفعك في شيء إلا رجعت إلي مستأخراً بما أكره، أشرت عليك عند وفاة رسول الله صلى الله عليه وسلم أن تسأله فيمن، هذا الأمر فأبيت، وأشرت عليك بعد وفاة رسول الله صلى الله عليه وسلم أن تعالج الأمر فأبيت، وأشرت عليك حين سَمَّك عمر في الشورى أن لا تدخل معهم فأبيت، فاحفظ عني واحدة: كل ما عرض عليك القوم فأمسك إلى أن يولوك، واحذر هذا الرهط فإنهم لا يبرحون يدفعوننا عن هذا الأمر حتى يقوم لنا به غيرنا. فلما مات عمر وأخرجت جنازته تصدَّى علي وعثمان أيهما يصلي عليه. فقال عبد الرحمن: كلا كما يجب الأمر، لستما من هذا في شيء، هذا صُهيبة، استخلفه عمرُ يصلي بالناس ثلاثاً حتى يجتمع الناس على

إمام. فصلّى عليه صُهب. فلما دُفن عمر جمع المقدادُ بن الأسود أهل الشُّورى في بيت عائشة بإذنها وهم خمسة، معهم ابن عمر، وطلحة غائب، وأمروا أبا طلحة، فحجّهم. وجاء عمرو بن العاص والمغيرة بن شعبة فجلسا بالباب، فحصبهما سعد وأقامهما، وقال: تُريدان أن تقولاً: حضرنا وكُنّا في أهل، الشُّورى! فتنافس القومُ في الأمر، وكثرَ بينهم الكلام، كلٌّ يرى أنه أحقُّ بالأمر. فقال أبو طلحة: أنا كنتُ لأن تدفعوها أخوفَ مني لأن تنافسوها، لا والذي ذهب بنفس محمد لا أزيدكم على الأيام الثلاثة التي أمر بها عمر أو أجلس في بيتي. فقال عبدُ الرحمن: أيكم يُخرج منها نفسه ويتقلدها على أن يُوليها أفضلكم؛ فلم يُجبه أحد. قال: فأنا أنخلع منها. قال عثمان: أنا أولُ من رضي، فإني سمعتُ رسولَ الله صلى الله عليه وسلم يقول: عبدُ الرحمن أمين في السماء أمين في الأرض. فقال القوم: رضينا، وعليّ ساكت. فقال: ما تقول يا أبا الحسن؟ قال: إن أعطيتني موثقاً لتؤثرن الحق، ولا تتبع الهوى، ولا تُخصّ ذا رحم، ولا تألو الأمة نُصحاً. قال: أعطوني موثيقكم على أن تكونوا معي على من نكل، وأن ترضوا بما أخذتُ لكم. فتوثق بعضهم من بعض وجعلوها إلى عبد الرحمن.

فخلاً بعليّ، فقال: إنك أحقُّ بالأمر لقرايتك وسابقتك وحسن أترك، ولم تُبعد، فمن أحقُّ بما بعدك من هؤلاء؟ قال: عثمان. ثم خلا بعثمان فسأل عن مثل ذلك. فقال: عليّ ثم خلا بسعد. فقال عثمان ثم خلا بالزبير. فقال: عثمان. أبو الحسن قال: لما خاف عليّ بن أبي طالب عبدَ الرحمن بن عوف والزبير وسعداً أن يكونوا مع عثمان لقي سعداً ومعه الحسنُ والحسين، فقال له: "اتقوا الله الذي تساءلون به والأرحام إن الله كان عليكم رقيباً". أسألك برحمِ ابني هذين من رسول الله صلى الله عليه وسلم، وبرحمِ عمّي حمزة منك أن لا تكون مع عبد الرحمن ظهيراً عليّ لعثمان، فإني أدلي إليك بما لا يُدلي به عثمان. ثم دار عبدُ الرحمن لبياليه تلك على مشايخ قريش يُشاورهم، فكلّهم يُشير بعثمان، حتى إذا كان في الليلة التي استكمل فيم صبيحتها الأجل أتى منزلَ المسورِ ابن مخرمة بعد هجعة من الليل فأيقظه، فقال: ألا أراك إلا، نائماً ولم أذق في هذه الليالي نوماً، فانطلق فادع لي الزبير وسعداً، فدعا بهما. فبدأ بالزبير في مؤخر المسجد، فقال له: خلّ بني عبد مناف لهذا الأمر. فقال: نصبي عليّ. فقال لسعد: أنا وأنت كالألة فاجعل نصيبك لي فأختار. قال: أما إن اخترت نفسك فنعم، وأما إن اخترت عثمان فعليّ أحب إليّ منه. قال: يا أبا إسحاق، إني قد خلعت نفسي منها على أن أختار، ولو لم أفعل وجعل لي الخيار ما أردتها، إني رأيت كأني في روضة خضراء كثيرة العُشب، فدخل فحلّ لم أر مثله فحلاً أكرم منه، فمرّ كأنه سَهْم لا يلتفت إلى شيء مما في الروضة حتى قطعها، ودخل بعير يتلوه فأتبع أثره حتى خرج إليه من الروضة، ثم دخل فحلّ عبقرٍ يجر خطامه يلتفت يميناً وشمالاً ويمضي قَصْدَ الأوّلين، ثم خرج من الروضة، ثم دخل بعير رابع فرتع في الروضة، ولا والله لا أكون البعيرَ الرابع، ولا يقوم بعد أبي بكر وعمر أحدٌ فيرضى الناسُ عنه. ثم أرسل المسورَ إلى عليّ، وهو لا يشك أنه صاحب الأمر. ثم أرسل المسورَ إلى عثمان فناحاه طويلاً حتى فرّق بينهما آذان الصبح. فلما صلوا الصبح جمع إليه الرهطَ وبعث إلى من حضره من المهاجرين والأنصار، وإلى أمراء الأجناد، حتى ارتج المسجد بأهله فقال: أيها الناس، إن الناس قد أحبوا أن تلتحق أهلُ الأمصار بأمصارهم وقد علموا من أميرهم. فقال عمار بن ياسر: إن أردت أن لا يختلف المسلمون فبايع علياً. فقال المقداد بن الأسود: صدق عمار، إن بايعت عليّاً قلنا: سمعنا وأطعنا. قال ابن أبي سرح: إن أردت أن لا تختلف قريش فبايع عثمان، إن بايعت عثمان سمعنا وأطعنا. فشتتم عمار ابن أبي سرح، وقال: متي كنتَ تنصح المسلمين! فتكلم بنو هاشم وبنو أمية. فقال عمار: أيها الناس، إن الله أكرمنا بنبينا وأعزنا بدينه، فأني تصرفون هذا الأمر عن بيت نبيكم! فقال له رجل من بني مخزوم: لقد عدوت طورك يا بن سمية، وما أنت وتأمير قريش لأنفسها. فقال سعدُ بن أبي وقاص: يا عبد الرحمن، أفرغ قبل أن يفتتن الناس. فقال عبد الرحمن: إني قد نظرت وشاورت، فلا تجعلُ أيها الرهطُ على أنفسكم سبيلاً.

ودعا عليّاً فقال: عليك عهدُ الله وميثاقه لتعلمن بكتاب الله وسنة نبيه وسيرة الخليفيتين من بعده؟ قال: أعمل بملغ علمي وطاقتي. ثم دعا عثمان، فقال: عليك عهدُ الله وميثاقه لتعلمن بكتاب الله وسنة نبيه وسيرة الخليفيتين من بعده؟ فقال: نعم، فبايعه. فقال عليّ: حبوته محاباة، ليس ذا بأول يوم تظاهرت فيه علينا، أما والله ما وليت عثمان إلا ليرد الأمر إليك، والله كل يوم هو في شأن. فقال عبدُ الرحمن: يا علي، لا تجعل على نفسك سبيلاً، فإني قد نظرت وشاورت الناس فإذا هم لا يعدلون بعثمان أحداً. فخرج عليّ وهو يقول: سيبلغ الكتابُ أجله. فقال المقدادُ: يا عبد الرحمن، أما والله لقد

تركته من الذين يُقضون بالحقّ وبه يعدلون. فقال: يا مقداد، والله لقد اجتهدتُ للمسلمين. قال: لئن كنتَ أردتَ بذلكَ الله فأثابك الله ثوابَ المحسنين. ثم قال: ما رأيتُ مثلَ ما أوتيَ أهلُ هذا البيتِ بعدَ نبيّهم، إني لأعجب من قريشٍ أُمهم تركوا رجالاً ما أقولُ إن أحداً أعلمَ منه، ولا أفضيَ بالعدلِ، ولا أعرفَ بالحقِّ، أما والله لو أحدُ أعوانا! قال له عبدُ الرحمن: يا مقداد، اتقِ الله فإنَّي أخشى عليكِ الفتنَةَ. قال: وقد طلحة في اليوم الذي بُويع فيه عثمان، فقيل له: إنَّ الناسَ قد بايعوا عثمان. فقال: أكلَ قريشٌ رضوا به؟ قالوا: نعم. وأتى عثمان، فقال له عثمان: أنتَ على رأسِ أمرِك. قال طلحة: فإنَّ أبيتُ أتردُّها؟ قال: نعم. قال: أكلَ الناسَ بايعوك؟ قال: نعم. قال: قد رضيتُ، لا أرغبُ عما اجتمعتِ الناسُ عليه، وبايعه. وقال المغيرة بن شعبه لعبدِ الرحمن: يا أبا محمد، قد أصبتَ إذ بايعتَ عثمان ولو بايعتَ غيره ما رضيناه. قال: كذبتَ يا أعور، لو بايعتُ غيره لبايعته وقلتَ هذه المقالة. وقال عبدُ الله بن عباس: ماشيتُ عمرَ بن الخطابِ يوماً فقال لي: يا ابنِ عباس، ما يمنعُ قومَك منكم وأنتم أهلُ البيتِ خاص؟ قلت: لا أدري. قال: لكني أدري، إنكم فضلتموهم بالتبوة، فقالوا: إن فضلوا بالخلافة مع النبوة لم يُبقوا لنا شيئاً، وإن أفضلَ النَّصبيين بأيديكم، بل ما إخالها إلا مُجمعة لكم وإن نزلت على رغم أنفِ قريش. فلما أحدث عثمان ما أحدث من تأمير الأحداث من أهل بيته على الجلة من أصحاب محمد، قيل لعبدِ الرحمن: هذا عملك، قال: ما ظننتُ هذا، ثم مضى ودخل عليه وعاتبه، وقال: إنما قدَّمتك على أن تسير فينا بسيرة أبي بكر وعمر، فخالفتهم وحايبت أهل بيتك وأوطأتهم رقابَ المسلمين. فقال: إنَّ عمر كان يقطع قرابته في الله وأنا أصلُ قرابتي في الله. قال عبدُ الرحمن: لله عليّ أن لا أكلمك أبداً، فلم يكلمه أبداً حتى مات، ودخل عليه عثمان عائداً له في مرضه، فتحول عنه إلى الحائط ولم يكلمه. ذكروا أن زياداً أوفد ابن حُصين على معاوية، فأقام عنده ما أقام، ثم إنَّ معاوية بعث إليه ليلاً، فخلا به، فقال له: يا بن حُصين، قد بلغني أنَّ عندك ذنباً وعقلاً، فأخبرني عن شيء أسألك عنه. قال: سلني عما بدا لك. قال: أخبرني ما الذي شئتَ أمرَ المسلمين وفرق أهواءهم وخالف بينهم؟ قال: نعم، قُتلَ الناسُ عثمان. قال: ما صنعتَ شيئاً. قال: فمسيرُ عليّ إليك وقتاله إياك. قال: ما صنعتَ شيئاً. قال: ما عندي غيرُ هذا يا أمير المؤمنين. قال: فأنا أخبرك، إنه لم يُشئتَ بين المسلمين ولا فرق أهواءهم ولا خالف بينهم إلا الشورى التي جعلها عمرُ إلى ستة نفر، وذلك أنَّ الله بعث محمداً بالهدى ودين الحق ليُظهره على الدين كله ولو كره المشركون، فعمل بما أمره الله به ثم قبضه الله إليه، وقدم أبو بكر للصلاة، فرضوه لأمر ذنباهم إذ رضيه رسولُ الله صلى الله عليه وسلم لأمر دينهم، فعمل بسنة رسول الله صلى الله عليه وسلم وسار بسيره، حتى قبضه الله، واستخلف عمر، فعمل بمثل سيرته، ثم جعلها شورى بي ستة نفر، فلم يكن رجلٌ منهم إلا رجاها لنفسه ورجاها له قومه، وتطلعت إلى ذلك نفسه. ولو أنَّ عمرَ استخلف عليهم كما استخلف أبو بكر ما كان في ذلك اختلاف. وقال المغيرة بن شعبه: إني لعند عمرَ بن الخطاب، وليس عنده أحدٌ غيري، إذا أتاه فقال: هل لك يا أمير المؤمنين في نفر من أصحاب رسول الله صلى الله عليه وسلم، يزعمون أن الذي فعل أبو بكر في نفسه وفيك لم يكن له، وأنه كان بغير مشورة ولا مؤامرة، وقالوا: تعالوا نتعاهد أن لا نعود إلى مثلها. قال عمر: وأين هم؟ قال: ي دار طلحة. فخرج نحوهم وخرجت معه، وما أعلمه يُصبرني من شدة الغضب، فلما رأوا كرهوه وظنوا الذي جاء له. فوقف عليهم، وقال: أنتم القاتلون ما قلتم؟ والله لن تتحابوا حتى يتحاب الأربعة: الإنسان والشيطان يُغويه وهو يلعنه، والنار والماء يطفئها وهي تُحرقه، ولم يأنِ لكم بعدُ، وقد آن ميعادكم ميعاد المسيح متى هو خارج. قال: فتفرقوا فسللك كل واحد منهم طريقاً. قال المغيرة: ثم قال لي: أدرك ابن أبي طالب فاحسبه عليّ. فقلت: لا يفعل أمير المؤمنين وهو مُغدّ. فقال: أدركه وإلا قلت لك يا بن الدباغة. قال: فأدر كته، فقلت له: قف مكانك لإمامك واحلم فإنه سلطان وسيندم وتندم. قال: فأقبل عمر، فقال: والله ما خرج هذا الأمر إلا من تحت يدك.

قال عليّ: اتق أن لا تكون الذي تُطيعك فنفتنك. قال: وتُحب أن تكون هو؟ قال: لا، ولكننا نذكرك الذي نسيت. فالتفت إليّ عمر فقال: انصرف، فقد سمعت منّا عند الغضب ما كفاك فتنجيت قريباً، وما وقفت إلا خشية أن يكون بينهما شيء فأكون قريباً، فتكلما كلاماً غير غضبانين ولا راضيين، ثم رأيتهما يضحكان وتفرقا. وجاءني عمر، فمشيتُ معه وقلت: يغفر الله لك، أغضبت؟ قال: فأشار إلى علي وقال: أما والله لولا دُعاة فيه ما شككت في ولايته، وإن نزلت على رغم أنفِ قريش.

العُتي عن أبيه: إن عتبة بن أبي سفيان قال: كنتُ مع معاوية في دار كندة، إذ أقبل الحسنُ والحسينُ ومحمد، وبنو علي بن أبي طالب، فقلت: يا أمير

المؤمنين، إن هؤلاء القوم أشعاراً وأبشاراً، وليس مثلهم كذب، وهم يزعمون أن أباهم كان يعلم. فقال: إليك من صوتك، فقد قُرب القوم، فإذا قاموا فذكرني بالحديث، فلما قاموا قلت يا أمير المؤمنين، ما سألتك عنه من الحديث؟ قال: كل القوم كان يعلم وكان أبوهم من أعلمهم. ثم قال. قدمت على عمر بن الخطاب، فإني عنده إذ جاءه عليّ وعثمان وطلحة والزبير وسعدٌ وعبد الرحمن بن عوف، فاستأذنوا، فأذن لهم، فدخلوا وهم يتدافعون ويضحكون، فلما رآهم عمر نكس، فعلموا أنه على حاجة، فقاموا كما دخلوا. فلما قاموا أتبعهم بصره، فقال: فتنة، أعود بالله من شرهم، وقد كفاني الله شرهم. قال: ولم يكن عمر بالرجل يُسأل عما لا يُفسر. فلما خرجت جعلت طريقي على عثمان فحدثته الحديث وسألته الستر. قال: نعم، على شريطة. قلت: هي لك. قال: تسمع ما أحبرك به وتسكت إذا سكت. قلت: نعم. قال: ستة يُقدح بهم زناد الفتنة يجري الدم منهم على أربعة. قال: ثم سكت. وخرجت إلى الشام، فلما قدمت على عمر فحدثت من أمره ما حدث، فلما مضت الشورى، ذكرت الحديث، فأتيت بيت عثمان وهو جالس ويده قُصيب، فقلت: يا أبا عبد الله، تذكر الحديث الذي حدثتني؟ قال: فأرَمَ على القُصيب عَضاً، ثم أقلع عنه وقد أثر فيه، فقال: ويحك يا معاوية، أي شيء ذكرتني! لولا أن يقول الناسُ خاف أن يُؤخذ عليه لخرجتُ إلى. الناس منها. قال: فأبى قضاء الله إلا ما ترى. ومما نقم الناسُ على عثمان أنه أوى طريد رسول الله صلى الله عليه وسلم الحُكم بن أبي العاص، ولم يُؤوه أبو بكر ولا عمر، وأعطاه مائة ألف، وسير أبا ذرٍّ إلى الريدة، وسير عامر بن عبد قيس من البصرة إلى الشام، وطلب منه عبيد الله بن خالد بن أسيد صلةً فأعطاه أربعمئة ألف، وتصدَّق رسولُ الله صلى الله عليه وسلم بمهزور - موضع سوق المدينة - على المسلمين، فأقطعها الحارث بن الحُكم، أخوا مروان، وأقطع فذك مروان، وهي صدقة لرسول الله صلى الله عليه وسلم، وافتتح إفريقية، وأخذ خمسه فوهبه لمروان. فقال عبد الرحمن بن حنبل الجُمحي:

م ما كتب الله شيئاً سُدَى

لكي نبئلي بك أو تبئلي

منار الحق عليه الهدى

وما تركا درهما في هوى

د هيهات شأوك ممن شأى

فأحلفُ بالله ربّ الأنا

ولكن خلقت لنا فتنة

فإن الأمينين قد بينا

فما أخذنا درهما غيلة

وأعطيت مروان خمس العبا

نسب عثمان وصفته

هو عثمان بن عفان بن أبي العاص بن أمية بن عبد شمس بن عبد مناف. أمه أروى بنت كُريز بن ربيعة بن حبيب بن عبد شمس. وأمها البيضاء بنت عبد المطلب بن هاشم، عم النبي صلى الله عليه وسلم. وكان عثمان أبيضَ مُشرباً صُفرة، كأنها فضة وذهب، حسنَ القامة، حسنَ الساعدين، سبط الشعر، أصلع الرأس، أجهل الناس إذا اعتم، مُشرف الأنف، عظيم الأرنبة، كثير شعر الساقين والذراعين، ضخم الكراديس، بعيد ما بين المنكبين. ولما أسن شد أسنانه بالذهب، وسلس بوله، فكان يتوضأ لكل - صلاة، ولي الخلافة مُسلخ ذي الحجة سنة ثلاث وعشرين، وقُتل يوم الجمعة صبيح عيد الأضحى سنة خمس وثلاثين. وفي ذلك يقول حسان:

يُقطع الليل تسبيحاً وقرآناً

الله أكبر يا ثارات عثماننا

ضحوا بأشمط عنوان السجود به

لنسمعن وشيكاً في ديارهم

فكانت ولايته اثنتي عشرة سنة وستة عشر يوماً. وهو ابن أربع وثمانين سنة. وكان على شُرطته - وهو أول من - اتخذ صاحب شرطة - عبيد الله ابن قُنُذ. وعلى بيت المال، عبد الله بن أرقم، ثم استعفاه. وكتبه: مروان. وحاجبه: حُمران، مولاه.

فضائل عثمان

سالم بن عبد الله بن عمر، قال: أصاب الناس جماعة في غزوة تبوك، فاشترى عثمان طعاماً على ما يصلح العسكر، وجَهز به عيراً. فنظر النبي صلى الله عليه وسلم إلى سواد مُقبل، فقال: هذا جمل أشقر قد - جاءكم بميرة. فأنيخت الركائب، فرفع رسول الله صلى الله عليه وسلم يديه إلى السماء وقال: اللهم إني قد رضيتُ عن عثمان فارضَ عنه. وكان عثمان حليماً سخيّاً مُحبباً إلى قريش، حتى كان يقال: "أحبك والرحمن، حب قُريش عثمان". وزوجه النبي صلى الله عليه وسلم رُقية ابنته، فاتت عنده، فزوجه أم كلثوم ابنته أيضاً.

الزهري عن سعيد بن المسيب، قال: لما ماتت رُقية جَزَع عثمانُ عليها، وقال: يا رسول الله، انقطع صِهري منك. قال: إن صهرك مني لا ينقطع، وقد أمرني جبريلُ أن أزوجهك أختها بأمر الله. عبد الله بن عباس قال: سمعتُ عثمان بن عفان يقول: دخل عليّ رسولُ الله صلى الله عليه وسلم في هذا البيت، فراي ضجيعاً لأم كلثوم، فاستعير، فقلت: والذي بَعَثَكَ بالحق ما اضطجعتُ عليه أنثى بعدها. فقال: ليس لهذا استعيرتُ، فإن الثياب للحَيِّ وللميت الحجر، ولو كُنْ يا عثمان عَشراً لزوجتُكهن واحدةً بعد واحدة. وعرض عمرُ بن الخطاب ابنته حَفْصَةَ على عُثمان فأبى منها، فشكاه عمرُ إلى النبي صلى الله عليه وسلم، فقال: سيزوج الله ابنتك خيراً من عثمان، ويزوج عثمان خيراً من ابنتك. فتزوج رسولُ الله صلى الله عليه وسلم حَفْصَةَ، وزوج ابنته من عثمان بن عفان. "ومن حديث الشَّعبي أن النبي عليه إِسلام، دخل عليه عثمان، فسوَّى ثوبه عليه وقال: كيف لا أستحي ممن تَسْتحي منه الملائكة!"

مقتل عثمان بن عفان

الرياشي عن الأصمعي قال: كان القواد الذين ساروا إلى المدينة في أمر عثمان أربعة: عبد الرحمن بن عديس التَّنُوخي، وحكيم بن جبلة العبدي، والأشتر النَّخعي، وعبدُ الله بن فُديك الخُزاعي. فقدموا المدينة فحاصروه، وحاصره معهم قومٌ من المهاجرين والأنصار، حتى دخلوا عليه فقتلوه والمصحف بين يديه. ثم تقدّموا إليه وهو يقرأ يوم الجمعة صَبِيحَةَ النَّحر، وأرادوا أن يقطعوا رأسه ويذهبوا به، فرمّت نفسها عليه امرأته نائلة بنت الفُرافصة، وابنة شيبَةَ بن ربيعة، فتركوه وخرجوا. فلما كان ليلة السبت ائْتَدب لدفنه رجال، منهم: خبير ابن مُطعم، وحكيم بن حزام، وأبو الجهم بن حذيفة، وعبدُ الله بن الزُّبير، فوضعه على باب صَغير، وخرجوا به إلى البقيع، ومعهم نائلة بنتُ الفُرافصة بيدها السَّراج. فلما بلغوا به البقيع منعهم من دَفْنه فيه رجالٌ من بني ساعدة، فردّوه إلى حُش كوكب، فدفنوه فيه، وصلى عليه خبير بن مُطعم، ويقال: حكيم بن حزام. ودخلت القبر نائلة بنت الفُرافصة، وأمُّ البنين بنت عيينة، وزوجتاه، وهما دلتاه في القبر. والحُش: البستان. وكان حُشَّ كوكب، اشتراه عثمان، فجعله أولاده مقبرة للمسلمين.

يعقوب بن عبد الرحمن: عن محمد بن عيسى الدَّمشقي عن محمد بن عبد الرحمن ابن أبي ذئب عن محمد بن شهاب الزُّهري قال: قلتُ لسعيد بن المسيب: هل أنت مُخبري كيف قتل عثمان؟ وما كان شأنُ الناسِ وشأنه؟ ولم خذله أصحابُ محمد صلى الله عليه وسلم؟ فقال: قُتل عثمان مَظْلوماً، ومَن قتله كان ظالماً، ومَن خذله كان مَعذوراً. قلت: وكيف ذلك؟ قال: إنَّ عثمان لما ولي كَرِه ولايته نفرٌ من أصحابِ رسول الله صلى الله عليه وسلم، لأنَّ عثمان كان يُحب قومه، فولي الناسِ اثنتي عشرة سنةً، وكان كثيراً ما يُولي بني أمية، ممن لم يكن له من لرسول الله صلى الله عليه وسلم صُحبة، وكان يحيي من أمرائه ما يُنكره أصحابُ محمد، فكان يُستعْتب فيهم فلا يعزلهم. فلما كان في الحجج الآخرة استأثر ببني عمه فولاهم وأمرهم بتقوى الله، فخرجوا. ووليَّ عبدُ الله بن أبي صح مصرَ، فمكث عليها سنين، فجاء أهلُ مصر يشكونه ويتظلمون منه. ومن قبل ذلك كانت من عثمان هِناءُ إلى عبد الله بن مسعود وأبي ذرٍّ وعمَّار بن ياسر. فكانت هُذيل وبنو زُهرة في قلوبهم ما فيها لابن مسعود. وكانت بنو غِفار وأحلافها ومن غَضب لأبي ذرٍّ في قلوبهم ما فيها وكانت بنو مخزوم قد حَنَقت على عثمان بما نال عمَّار بن ياسر. وجاء أهلُ مصر يشكون من ابن أبي سرح، فكتب إليه عثمانُ كتاباً يتهدده، فأبى ابن أبي سرح أن يقبل ما ناهه عثمانُ عنه، وضرب رجلاً ممن أتى عثمانَ، فقتله. فخرج من أهل مصر سبعمائة رجل إلى المدينة، فترلوا المسجد، وشكوا إلى أصحابِ رسول الله صلى الله عليه وسلم في مواقيت الصلاة ما صنع ابن أبي سرح. فقام طلحةُ بن عبيد الله فكلم عثمانَ بكلام شديد. وأرسلت إليه عائشة: قد تقدّم إليك أصحابُ رسول الله صلى الله عليه وسلم وسألوك عَزَل هذا الرجل فأبيت أن تعزله، فهذا قد

قَتَلَ مِنْهُمْ رَجُلًا، فَأَنْصَفَهُمْ مِنْ عَامِلِك. ودخل عليه عليٌّ، وكان متكلمَ القوم، فقال: إنما سألوكم رجلاً مكانَ رجل، وقد ادعوا قبله دماً، فاعزله عنهم، واقتض بينهم، وإن وجب عليه حق فأنصفهم منه. فقال لهم: اختاروا رجلاً أوله عليكم مكانه. فأشار الناسُ عليهم بمحمد ابن أبي بكر. فقالوا: استعمل علينا محمد بن أبي بكر. فكتبَ عهدهَ وولاهُ، وأخرج معهم عدَّةً من المهاجرين والأنصار ينظرون فيما بين أهلِ مصر وابن أبي سرح. فخرج محمد ومَن معه، فلما كان على مسيرة ثلاثة أيام من المدينة إذا هم بـغلام أسود على بعير يخيظ الأرض خبطاً، كأنه رجل يطلب أو يُطلب. فقال له أصحابُ محمد: ما قصتك؟ وما شأنك؟ كأنك هارب أو طالب. فقال: أنا غلامُ أمير المؤمنين وجهني إلى عامل مصر. فقالوا: هذا عامل مصر معنا. قال: ليس هذا أريد. وأخبر بأمره محمد بن أبي بكر، فبعث في طلبه، فأتي به، فقال له: غلامُ من أنت؟ قال: فأقبل مرة يقول: غلام أمير المؤمنين، ومرة: غلامُ مروان، حتى عرّفه رجل منهم أنه لعثمان. فقال له محمد: إلى من أرسلت؟ قال: إلى عامل مصر. قال: بماذا؟ قال: برسالة. قال: معك كتاب؟ قال: لا. ففتشوه فلم يوجد معه شيء إلا إداوة قد يبست فيها شيء يتقلقل، فحركه ليخرج فلم يخرج، فشقوا الإداوة، فإذا فيها كتاب من عثمان إلى ابن أبي سرح. فجمع محمدُ من كان معه من المهاجرين والأنصار وغيرهم، ثم فُكَّ الكتاب بمحضِر منهم، فإذا فيه: إذا جاءك محمد وفلان وفلان فاحتل لقتلهم، وأبطل كتابهم، وقرّ على عملك حتى يأتيك رأي، واحتبس من جاء يتظلم منك ليأتيك في ذلك رأي إن شاء الله. فلما قرأوا الكتاب فزعوا وعزموا على الرجوع إلى المدينة، وختم محمد الكتاب بخواتم القوم الذين أرسلوا معه، ودفَعوا الكتاب إلى رجل منهم، وقدموا المدينة فجمعوا عليًّا وطلحةَ والزبير وسعداً ومن كان من أصحاب رسول الله صلى الله عليه وسلم، ثم فكّوا الكتاب بمحضِر منهم وأخبروهم بقصة الغلام، وأقرأوهم الكتاب فلم يبق أحدٌ في المدينة إلا حنق على عثمان، وازداد من كان منهم غضباً لابن مسعود وأبي ذر وعمار بن ياسر غضباً وحنقاً، وقام أصحابُ النبي صلى الله عليه وسلم فلحقوا منازلهم، ما منهم أحد إلا وهو مُغتم بما قرأوا في الكتاب. وحاصر الناسُ عثمان، وأجلب عليه محمد بن أبي بكر بنو تيم وغيرهم، وأعاناه طلحةُ بن عبيد الله

على ذلك. وكانت عائشة تُقرضه كثيراً. فلما رأى ذلك عليٌّ بعث إلى طلحةَ والزبير وسعدَ وعمار ونفرٍ من أصحاب رسول الله صلى الله عليه وسلم، كلهم بدري، ثم دخل على عثمان ومعه الكتاب والغلام والبعير، وقال له علي: هذا الغلام غلامك؟ قال: نعم. والبعيرُ بعيرك؟ قال: نعم. والخاتمُ خاتمك؟ قال: نعم. قال: فأنت كتبتَ الكتاب؟ قال: لا، وحلف بالله: ما كتبتُ الكتاب ولا أمرتُ به ولا وجهتُ الغلامَ إلى مصر قط. وأما الخطُ فعرفوا أنه خط مروان، وشكّوا في أمر عثمان وسألوه أن يدفع إليهم مروان، فأبى. وكان مروان عنده في الدار. فخرج أصحابُ محمد من عنده غضاباً، وشكّوا في أمر عثمان، وعلموا أنه لا يحلف باطلاً، إلا أن قوماً قالوا: لا تُبريء عثمان إلا أن يدفع إلينا مروان، حتى نمتحنه ونعرف أمرَ هذا الكتاب، وكيف يأمر بقتل رجال من أصحاب محمد صلى الله عليه وسلم بغير حق! فإن يك عثمانُ كتبه عزلناه، وإن يك مروان كتبه على لسانه نظرنا في أمره، ولزموا بيوتهم. وأبى عثمان أن يخرج إليهم مروان، وخشي عليه القتل. وحاصر الناسُ عثمانَ ومنعوه الماء، فأشرف عليهم، فقال: أفيكم عليٌّ؟ قالوا: لا. قال: أفيكم سعدٌ؟ قالوا: لا. فسكت ثم قال: ألا أحدٌ يبلغ عليًّا فيسقيننا ماءً؟ فبلغ ذلك عليًّا، فبعث إليه ثلاث قِرب مملوءة ماء، فما كادت تصلُ إليه، وجرح بسببها عدَّةً من موالي بني هاشم وبني أمية، حتى وصل إليه الماء. فبلغ عليًّا أن عثمان يراد قتله، فقال: إنما أردنا منه مروان، فأما قتل عثمان فلا. وقالت للحسن والحسين: اذهبا بسيفيكما حتى تقوموا على باب عثمان فلا تدعا أحداً يصل إليه بمكروه. وبعث الزبيرُ ولده، وبعث طلحةُ ولده على كُره منه، وبعث عدَّةً من أصحاب رسول الله صلى الله عليه وسلم أبناءهم ليمنعوا الناسَ أن يدخلوا على عثمان، وسألوه إخراج مروان. ورَمَى الناس عثمان بالسُّهَم حتى خضب الحسن بن عليٍّ الدماء على بابه، وأصاب مروان سهمٌ في الدار، وخضب محمد بن طلحة، وشجَّ قنبر، مولى عليٍّ. وخشي محمد بن أبي بكر أن تغضب بنو هاشم لحال الحسن والحسين فيثيروها، فأخذ بيدي رجلين فمال لهما: إذا جاءت بنو هاشم فرأوا الدماء على وجه الحسن والحسين كُشف الناس عن عثمان وبطل ما تُريد، ولكن مروان بنا حتى تنسورَ عليه الدار فنقتله من غير أن يعلم أحد. فتسورَ محمد بن أبي بكر وصاحبه من دار رجل من الأنصار. ويقال من دار محمد بن حزم الأنصاري. ومما يدل على ذلك قولُ الأحوص:

طراً ولو طرَح الحزَميُّ في النارِ

والمُدخلين على عثمان في الدار

لا ترثين لحزَمي ظفرت به

الناخسين بمروان بذِي خُشب

فدخلوا عليه وليس معه إلا امرأته نائلة بنت الفرافصة، والمصحف في حجره، ولا يعلم أحدٌ في كان معه، لأنهم كانوا على البيوت. فتقدم إليه محمد وأخذ بلحيته، فقال له عثمان: أرسل لحييتي يا بن أخي فلو رآك أبوك لساءه مكأثك. فتراخت يده من لحيته، وغمز الرجلين فوجاه بمشاقص معهما حتى قتلاه، وخرجوا هاربين من حيث دخلوا. وخرجت امرأته فقالت: إن أمير المؤمنين قد قُتل. فدخل الحسن والحسين ومن كان معهما فوجدوا عثمان مذبحاً، فأكبوا عليه يبكون. وبلغ الخبرُ علياً وطلحة والزبير وسعداً ومن كان بالمدينة، فخرجوا وقد ذهبت عقولهم حتى دخلوا على عثمان فوجدوه مقتولاً، فاسترجعوا. وقال عليٌّ لابنائه: كيف قتل أمير المؤمنين وأتما على الباب؟ ورفع يده فططم الحسين، وضرب صدر الحسن، وشتم محمد بن طلحة، ولعن عبد الله بن الزبير. ثم خرج علي وهو غضبان يرى أن طلحة أعان عليه. فلقية طلحة فقال: ما لك يا أبا الحسن ضربت الحسن والحسين؟ فقال: عليك وعليهما لعنة الله، يُقتل أمير المؤمنين ورجل من أصحاب النبي صلى الله عليه وسلم بدري، ولم تقم بيته ولا حجة! فقال طلحة: لو دفع مروان لم يُقتل. فقال: لو دفع مروان قُتل قبل أن تثبت عليه حجة. وخرج علي فأتى منزله. وجاءه القوم كلهم يهرعون إليه، أصحابُ محمد وغيرهم، يقولون: أمير المؤمنين علي بن أبي طالب فقال: ليس ذلك إلا لأهل بدر فمن رضي به أهل بدر فهو خليفة، فلم يبق أحدٌ من أهل بدر إلا أتى علياً، فقالوا: ما نرى أحداً أولى بما منك، فمد يدك تُبايعك. فقال: أين طلحة والزبير وسعد؟ فكان أول من بايعه طلحة بلسانه، وسعد بيده. فلما رأى ذلك علي خرج إلى المسجد، فصعد المنبر، فكان أولاً من صعد طلحة فبايعه بيده، وكانت إصبغه شلاءً، فتطير منها علي، وقال: ما أخلقه أن ينكث. ثم بايعه الزبير وسعد وأصحاب النبي جميعاً. ثم نزل، ودعا الناس، وطلب مروان فهرب منه. خرجت عائشة باكية تقول: قُتل عثمان مظلوماً! فقال لها عمار: أنتِ بالأمس تُحرضين عليه، واليوم تبيكين عليه! وجاء علي إلى امرأة عثمان، فقال لها: من قتل عثمان؟ قالت: لا أدري، دخل رجلان لا أعرفهما إلا أن أرى وجوههما، وكان معهما محمد بن أبي بكر، وأخبرته بما صنع محمد بن أبي بكر. فدعا علي بمحمد، فسأله عما ذكرت امرأة عثمان. فقال محمد: لم تكذب، وقد والله دخلت عليه وأنا أريد قتله، فذكر لي أبي، فقممتُ وأنا تائب، والله ما قتلته ولا أسكتته. فقالت امرأة عثمان: صدق، ولكنه أدخلهما. لمُتعر عن أبيه عن الحسن: إن محمد بن أبي بكر أخذ بلحية عثمان، فقال له: ابن أخي، لقد قعدت ممي مقعداً ما كان أبوك ليقعه. وفي حديث آخر: إنه قال: يا بن أخي، لو رآك أبوك لساءه مكأثك. فاسترخت يده، وخرج محمد. فدخل عليه رجل والمصحف في حجره، فقال له: بيني وبينك كتابُ الله، فأهوى إليه بالسيف، فاتقاه بيده، فقطعها. فقال: أما إنها أول يد حطت المُفصل.

القواد الذين أقبلوا إلى عثمان

الأصمعي عن أبي عوانة قال: كان القواد الذين أقبلوا إلى عثمان: علقمة ابن عثمان، وكنانة بن بشر، وحكيم بن جبلة، والأشتر التنجعي، وعبد الله بن بديل. وقال أبو الحسن: لما قدم القواد قالوا لعلني: فم معنا إلى هذا الرجل. قال: لا والله لا أقوم معكم. قالوا: فلم كتبت إلينا؟ قال: والله ما كتبت إليكم كتاباً قط. قال: فنظر القوم بعضهم إلى بعض، وخرج علي من المدينة. الأعمش عن عبيدة عن مسروق قال: قالت عائشة: مُصّتموه مؤص الإناء حتى تركتموه كالثوب الرخيص نقياً من الدنس، ثم عدوتم فقتلتموه! فقال مروان: فقلت لها: هذا عملك، كتبت إلى الناس تأمرينهم بالخروج عليه. فقالت: والذي آمن به المؤمنون وكفر به الكافرون ما كتبت إليهم بسواد في بياض، حتى جلست في مجلسي هذا. فكانوا يرون أنه كُتب على لسان علي وعلى لسانها، كما كُتب أيضاً على لسان عثمان مع الأسود إلى عامل مصر. فكان اختلاف هذه الكتب كلها سبباً للفتنة. وقال أبو الحسن: أقبل أهل مصر عليهم عبد الرحمن بن عديس البلوي، وأهل البصرة عليهم حكيم بن جبلة العبدي، وأهل الكوفة عليهم الأشتر - واسمه مالك بن الحارث التنجعي - في أمر عثمان حتى قدموا المدينة. قال أبو الحسن: لما قدم وفد أهل مصر دخلوا على عثمان فقالوا: كتبت فينا كذا وكذا؟ قال: إنما هما اثنتان، أن تُقيموا رجلين من المسلمين، أو يميني بالله الذي لا إله إلا هو ما كتبت ولا أمليت ولا علمت، وقد يُكتب الكتاب على لسان الرجل، ويُنقش الخاتم على الخاتم. قالوا: قد أحل الله دمك، وحصروه في الدار. فأرسل عثمان إلى الأشتر، فقال له: ما يريد الناس مني؟ قال: واحدة من ثلاث ليس عنها بُد. قال: ما هي؟ قال: يُخبرونك بين أن تخلع لهم أمرهم فتقول: هذا أمركم فقعدوه من شتمت؟ وإما أن تقتص من نفسك؟ فإن أبيت فالقوم قاتلوك. قال: أما أن أخلع لهم أمرهم، فما كنت لأخلع سربالاً سربلني الله فتكون سنة من بعدي، كلما كره القوم إمامهم خلعه، وأما أن

أقتص من نفسي، فوالله لقد علمتُ أن صاحبي بين يدي قد كانا يُعاقبان، وما يقوى بدني على القصاص؛ وأما أن تقتلونني، فإني تقتلونني لا تتحابون بعدي أبداً ولا تُصلون بعدي جميعاً أبداً. قال أبو الحسن: فوالله لن يزالوا على التوى جميعاً، وإن قلوبهم مختلفة. وقال أبو الحسن: أشرف عليهم عثمان وقال: إنه لا يحل سفك دم امرئ مسلم إلا في إحدى ثلاث: كفر بعد إيمان، أو زنا بعد إحصان، أو قتل نفس بغير نفس، فهل أنا في واحدة منهم؟ فما وجد القوم له جواباً. ثم قال: أنشدكم الله، هل تعلمون أن رسول الله صلى الله عليه وسلم كان على حراء ومعه تسعة من أصحابه أنا أحدهم، فتزلزل الجبل حتى همت أحجاره أن تتساقط، فقال: اسكن حراء، فما عليك إلا نبي أو صديق أو شهيد؟ قالوا: اللهم نعم. قال: شهدوا لي ورب الكعبة. قال أبو الحسن: أشرف عليهم عثمان فقال: السلام عليكم، فيا ردّ أحدٌ عليه السلام. فقال: أيها الناس، إن وجدتم في الحق أن تضعوا رجلي في القبر فضعوها. فما وجد القوم له جواباً. ثم قال: استغفر الله إن كنت ظلمتُ، وقد غفرتُ إن كنت ظلمت.

يحيى بن سعيد عن عبد الله بن عامر بن ربيعة قال: كنتُ مع عثمان في الدار فقال: أعزم على كل من رأى أنّ لي عليه سمعاً وطاعة أن يكف يده ويُلقى سلاحه. فألقى القوم أسلحتهم. ابن أبي عروبة عن قتادة: إن زيد بن ثابت دخل على عثمان يوم الدار، فقالت: إن هذه الأنصار بالباب وتقول: إن شئت كُنّا أنصاراً لله مرتين. قال: لا حاجة لي في ذلك، كفوا. ابن أبي عروبة عن يعلى بن حكيم عن نافع: إن عبد الله بن عمر لبس درعه وتقلد سيفه يوم الدار، فعزم عليه عثمان أن يخرج ويضع سلاحه ويكف يده، ففعل. محمد بن سيرين قال قال سليط: هانا عثمان عنهم، ولو أذن لنا عثمان فيم لضربناهم حتى نُخرجهم من أقطارنا.

ما قالوا في قتل عثمان

العُبيّ قال: قال رجل من ليث: لقيت الزبير قادمًا، فقلت: أبا عبد الله، ما بالكَ؟ قال: مطلوب مغلوب، يغلبني ابني، ويطلبني ذنبي. قال: فقدمت المدينة فليقت سعد بن أبي وقاص، فقلت: أبا إسحاق، من قتل عثمان؟ قال: قتله سيفٌ سلته عائشة، وشحذه طلحة، وسمه علي. قلت: فما حال الزبير؟ قال: أشار بيده وصمت بلسانه. وقالت عائشة: قتل الله مذمماً بسعيه على عثمان، تريد محمداً أحاهما، وأهرق دم ابن بُديل على ضلالتة، وساق إلى أعين بني تميم هواناً في بيته، ورمى الأشتر بسهم من سهامه لا يُشوي. قال: فما منهم أحد إلا أدركته دعوة عائشة. سفيان الثوري قال: لقي الأشتر مسروقاً فقال له: أبا عائشة، ما لي أراك غضبان على ربك من يوم قتل عثمان بن عفان؟ لو رأيتنا يوم الدار ونحن كأصحاب عجل بني إسرائيل! وقال سعد بن أبي وقاص لعمار بن ياسر: لقد كنت عندنا من أفاضل أصحاب محمد حتى إذا لم يبق من عمرك إلا ظمء الحمار فعلت وفعلت، يُعرض له بقتل عثمان. قال عمار: أي شيء أحب إليك؟ مودةً على دحل أو هجر جميل؟ قال: هجر جميل. قال: فله عليّ ألا أكلمك أبداً. دخل المغيرة بن شعبه على عائشة فقالت: يا أبا عبد الله، لو رأيتني يوم الحمل وقد نفذت النصال هودجي حتى وصل بعضُها إلى جلدني. قال لها المغيرة: وددتُ والله أن بعضها كان قتلك. قالت: يرحمك الله، ولم تقول هذا؟ قال: لعلها تكون كفارة في سعيك على عثمان. قالت: أما والله لئن قلت ذلك لما علم الله أني أردتُ قتله، ولكن علم الله أني أردتُ أن يُقاتل فقوتلتُ، وأردتُ أن يُرمى فرميت، وأردتُ أن يعصى فعصيت، ولو علم مني أني أردتُ قتله لقتلت. وقال حسان بن ثابت لعليّ: إنك تقول: ما قتلت عثمان ولكن خذلته، ولم أمر به ولكن لم أنه عنه، فالخاذل شريك القاتل، والساكتُ شريك القاتل. أخذ هذه المعنى كعب بن جعيل التعلبي، وكان مع معاوية يوم صفين، فقال في عليّ بن أبي طالب:

مقالٌ سوى عَصَمه المُحدِثينَا

ورَفَع القَصاص عن القاتلينَا

وعَمى الجواب على السائلينَا

ولا في النُهاة ولا الأمرينَا

ولا آمن بعضَ ذا أن يكونَا

وما في عليّ لمستحدِث

وإيثاره لأهالي الذنوب

إذا سِيل عنه زوى وجهه

فليس براضٍ ولا ساخطٍ

ولا هو ساءٌ ولا سرّه

وقال رجل من أهل الشام في قتل عثمان رضي الله تعالى عنه:

تُ وكانت تِقَاتِهِ الأَنْصَارُ
س وفي ذاك للبرية عار
ه ووال من الولاة وجار
ء فَدَتِهِ الأَسْمَاعُ والأَبْصَارُ
لحة هاجا أمراً له إعصار
ل فشبت وسط المدينة نار
ق بما زخرفت لها الأخبار
ر جهازاً وخلفه عمّار
س ابتداء وعنده الأخبار
و عليه لسكينة ووقار
بالذي سببت له الأقدار
كُل قول يشينه إكثار

خذلته الأَنْصَارُ إذ حَضَرَ المَو
ضربوا بالبلاء فيه مع النَّا
حُرْمُ بالبلاء من حُرْم الل
أين أهل الحياء إذ مُنِع الما
مَنْ عَذِيرِي مِنَ الزُّبَيْرِ وَمِنْ ط
تَرَكُوا النَّاسَ دونهم عبرة العج
هكذا زاعت اليهود عن الح
ثم وافى محمد بن أبي بك
وعلي في بيته يسأل النا
باسطاً للتي يُريد يديه
يَرُقِبُ الأمر أن يُزِفَّ إليه
قد أرى كثرة الكلام قبيحاً

وقال حسان يرثي عثمان بن عفان رضي الله تعالى عنه:

فَلْيَأْتِ مَأْسَدَةَ فِي دَارِ عُثْمَانَ
قد يَنْفَعُ الصَّبْرُ فِي المَكْرُوهِ أحياناً
خليفة الله فيكم كالذي كانا
ما دمت حيا وما سيمت حسانا
ما كان شأنُ عليّ وابنِ عفّانا

مَنْ سرّه الموتُ صِرْفاً لا مِزَاجَ له
صَبْرًا فِدَى لَكُمْ أُمِّي وما وُلِدْتَ
لعلكم أن تروا يوماً بمغيظه
إني لمنهم وإن غابوا وإن شهدوا
يا لي شعري ولي الطير تُخبرني

الله أكبر يا ثارات عثمانا
يَقْطَعُ اللّيلَ تَسْبِيحاً وقرّانا

لتسمعين وشيكا في ديارهم
ضحوا، بأشمط عنوان السجود به

مقتل عثمان بن عفان

أبو الحسن عن مسلمة عن ابن عون: كان ممن نصر عثمان سبعة، فيهم الحسن بن عليّ، وعبد الله بن الزبير. ولو تركهم عثمان لضربوهم حتى أخرجوهم من أقطارها.
أبو الحسن عن جبير بن سيرين قال: دخل ابن بُدَيْلِ علي عثمان ويده سيف، وكانت! بينهما شحناء، فضربه بالسيف، فاتقاه بيده فقطعها، فقال: أما إنما أول كف خَطَّتْ المُفْضَلِ.

أبو الحسن قالت: يوم قُتل عثمان يقال له: يوم الدار. وأغلق على ثلاثة من القتلى: غلام أسود كان لعثمان، وكنانة بن بشر، وعُثمان. أبو الحسن قال: قال سلامة بن رُوْح الخُزاعي لعمر بن العاص: كان بينكم وبين الفتنة فكسرتموه فما حملكم على ذلك؟ قال: أردنا أن نُخرج الحق من حَيرة الباطل وأن يكون الناس في الحق سواء. عن الشعبي قال: كتب عثمان إلى معاوية: أن أمدني. فأمدّه بأربعة آلاف مع يزيد بن أسد بن كرز البجليّ. فتلقاه الناس بقتل عثمان فانصرف، فقال: لو دخلت المدينة وعثمان حيّ ما تركت بها مُختلفاً إلا قتلته، لأن الخاذل والقاتل سواء. قيس بن رافع قال قال زيد بن ثابت: رأيتُ عليّاً مُضطجعاً في المسجد، فقلت: أبا الحسن، إن الناس يروون أنك لو شئت رددت الناس عن عثمان. فجلس، ثم قال: والله ما أمرتهم بشيء ولا دخلتُ في شيء من شأنهم. قال: فأتيْتُ عثمان فأخبرته، فقال:

وَحَرَّقَ قَيْسَ عَلِيٍّ الْبَلَاءُ دَ حَتَّى إِذَا اضْطَرَمْتَ أَجْزَمَا

الفضل عن كثير عن سعيد المقبري قال: لما حضروا عثمان ومنعوه الماء، قال الزبير: وحيل بينهم وبين ما يشتهون، كما فعل بأشباعهم من قبل. ومن حديث الزهري قال: لما قتل مسلم بن عقبة أهل المدينة يوم الحرّة، قال عبد الله بن عمر: بفعلهم في عثمان ورب الكعبة. ابن سيرين عن ابن عباس قال: لو أمطرت السماء دماً لقتل عثمان لكان قليلاً له

أبو سعيد مولى أبي حذيفة قال: بعث عثمان إلى أهل الكوفة: من كان يطالبني بدينار أو درهم أو لظمة فليأت يأخذ حقه، أو يتصدق فإن الله يجزي المتصدقين. قال: فبكى بعض القوم، وقالوا: تصدقنا. ابن عون عن ابن سيرين قال: لم يكن أحد من أصحاب النبي صلى الله عليه وسلم أشد على عثمان من طلحة. أبو الحسن قال: كان عبد الله بن عباس يقول: ليغلبن معاوية وأصحابه عليّاً وأصحابه، لأن الله تعالى يقول: "وَمَنْ قُتِلَ مَظْلُوماً فَقَدْ جَعَلْنَا لَوْلِيَهُ سُلْطَاناً". أبو الحسن قال: كان ثمامة الأنصاري عاملاً لعثمان، فلما أتاه قتلته بكى، وقال: اليوم انتزعت خلافة النبوة من أمة محمد وصار الملك بالسيف، فمن غلب على شيء أكله. أبو الحسن عن أبي مخنف عن نُمير بن وَعَلَةَ عن الشعبي: أن نائلة بنت الفرافصة امرأة عثمان بن عفان كتبت إلى معاوية كتاباً مع النعمان بن بشير، وبعثت إليه بقميص عثمان محضوباً بالدماء. وكان في كتابها: من نائلة بنت الفرافصة إلى معاوية بن أبي سفيان، أما بعد: فإني أدعوك إلى الله الذي أنعم عليكم، وعلمكم الإسلام، وهداكم من الضلالة، وأنقذكم في الكفر، ونصركم على العدو، وأسع عليكم نعمه ظاهرة وباطنة، وأنشدكم الله وأذكركم حقه وحق خليفته أن تنصروه بعزم الله عليكم، فإنه قال: "وإن طائفتان من المؤمنين اقتتلوا فأصلحوا بينهما فإن بعت إحداهما على الأخرى فقاتلوا التي تبغي حتى تفيء إلى أمر الله". فإن أمير المؤمنين بُغي عليه، ولو لم يكن لعثمان عليكم إلا حق الولاية لحق على كل مسلم يرجو إمامته أن ينصره، فكيف وقد علمتم قدمه في الإسلام، وحسن بلائه، وأنه أحاب الله، وصدق كتابه، وأتبع رسوله، والله أعلم به إذ انتخبه، فأعطاه شرف الدنيا وشرف الآخرة. وإني أقص عليكم خبره، إني شاهدة أمره كُله: إن أهل المدينة حصروه في داره وخرسوه ليأثمهم ونهارهم، قياماً على أبوابه بالسلاح، يمنعون من كل شيء قدروا عليه، حتى منعه الماء، فمكث هو ومن معه خمسين ليلة؛ وأهل مصر قد أسندوا أمرهم إلى عليّ ومحمد بن أبي بكر وعمار بن ياسر وطلحة والزبير، فأمرهم بقتله، وكان معهم من القبائل خُزاعة وسعد بن بكر وهذيل وطوائف من جهينة ومزينة وأنباط يثرب، فهؤلاء كانوا أشد الناس عليه. ثم إنه حُصر فَرَشَقَ بالتبيل والحجارة، فخرج ممن كان في الدار ثلاثة نفر معه، فأتاه الناس يصرخون إليه ليأذن لهم في القتال، فنهاهم وأمرهم أن يردوا إليهم نبلهم، فردوها عليهم؛ فما زادهم ذلك في القتل إلا جرأة، وفي الأمر إلا إغراقاً، فحرقوا باب الدار. ثم جاء نفر من أصحابه فقالوا: إن ناساً يريدون أن يأخذوا بين الناس بالعدل فأخرج إلى المسجد يأتوك. فانطلق فجلس فيه ساعة وأسلحة القوم مُطلّة عليه من كل ناحية، فقال: ما أرى اليوم أحداً يعدل، فدخل الدار. وكان معه نفر ليس على عامتهم لسلاح، فلبس درعه وقال لأصحابه: لولا أنتم ما لبست اليوم درعي. فوثب عليه القوم، فكلّمهم ابن الزبير، وأخذ عليهم ميثاقاً في صحيفة بعث بها إلى عثمان: عليكم عهد الله وميثاقه أن لا تقرّبوه بسوء حتى تكلموه وتخرجوا، فوضع السلاح، ولم يكن إلا وضعه. ودخل عليه القوم يقدّمهم محمد بن أبي بكر، فأخذ بلحيته، ودعوه باللقب. فقال: أنا عبد الله وخليفته عثمان. فضربوه على رأسه ثلاث ضربات، وطعنوه في صدره ثلاث طعنات، وضربوه على مقدم العين فوق الأنف ضربة أسرع في العظم، فسقطت عليه وقد أتخوه وبه حياة، وهم يريدون أن يقطعوا رأسه فيذهبوا به، فأتتني ابنة شيبه بن ربيعة فألقت بنفسها معي، فوطئنا وطناً شديداً، وعرّينا من حلينا. وحُرمة أمير المؤمنين أعظم، فقتلوا أمير المؤمنين في بيته مقهوراً على فراشه. وقد أرسلت إليكم بثوبه عليه دمه، فإنه والله إن كان أثم من قتله فما سلم من خذله، فانظروا أين أنتم من الله. وأنا أشتكي كل ما مسنا إلى الله عز وجل،

وأستصرخ بصالحه عباده. فرحم الله عثمانَ ولعن قتلته وصرعهم في الدنيا مصارع الخزي والمدلة، وشفى منهم الصدور. فحلف رجال من أهل الشام أن لا يمساوا غسلاً حتى يقتلوا علياً أو تنفى أرواحهم. وقال الفرزدق في قتل عثمان: في قتل عثمان:

عن أهل يثرب إذ غير الهدى سلكوا
لما رأى الله في عثمان ما انتهكوا
أي دم لا هدوا من غيهم سفكوا

إن الخلافة لما أظعنت ظعنت
صارت إلى أهلها منهم ووارثها
السافكي دمه ظلماً ومَعْصِيَةً

وقال حسان:

بابٌ صريعٌ وبيتٌ مُحرقٌ خربٌ
فيها ويأوي إليها المجدُّ والحسبُ
لا يَستوي الحق عند الله والكذبُ

إن تُمس دارُ بني عثمانَ خاويةً
فقد يُصادف باغي الخير حاجته
يا معشرَ الناس أبدوأ ذات أنفسكم

تبرؤ علي من دم عثمان

قال علي بن أبي طالب على المنبر: والله لئن لم يدخل الجنة إلا من قتل عثمان لا دخلتها أبداً. وأشرف علي من قصر له بالكوفة، فنظر إلى سفينة في دجلة فقال: والذي أرسلها في بحرهِ مُسخرةً بأمره ما بدأت في أمر عثمان بشيء، ولئن شاءت بنو أمية لأباهلنهم عند الكعبة خمسين يمينا ما بدأت في حق عثمان بشيء. فبلغ هذا الحديثُ عبدَ الملك بن مروان فقال: إني لا أحسبه صادقاً. قال معبدُ الخزاعي: لقيتُ علياً بعد الجمل، فقلت له: إني سألتك عن مسألة كانت منك ومن عثمان، فإن نجوت اليوم نجوت غداً إن شاء الله. قال: سل عما بدا لك. قلت: أخبرني أي منزلة وسعتك إذ قتل عثمان ولم تنصره؟ قال: إن عثمان كان إماماً وإنه نهي عن القتال، وقال: من سل سيفه فليس مني، فلو قاتلنا دونه عصينا. قال: فأني منزلة وسعت عثمان إذ استسلم حتى قُتل؟ قال: المنزلة التي وسعت ابن آدم، إذ قال لأخيه: "لئن بسطت إلي يدك لتقتلني ما أنا بباسط يدي إليك لأقتلك إني أخافُ الله رب العالمين". قلت: فهلاً وسعتك هذه المنزلة يوم الجمل؟ قال: إنا قاتلنا يوم الجمل من ظلمنا، قال الله: "ولمن أتتصر بعد ظلمه فأولئك ما عليهم من سبيل. إنما السبيلُ على الذين يظلمون الناس ويغيغون في الأرض بغير الحق أولئك لهم عذاب أليم. ولمن صبر وغفر إن ذلك لمن عزم الأمور". فقاتلنا نحن من ظلمنا وصبر عثمان، وذلك من عزم الأمور. ومن حديث بكر بن حماد: إن عبد الله ابن الكواء سأل علي بن أبي طالب يوم صفين، فقال له: أخبرني عن مخرجك هذا، تضرب الناس بعضهم ببعض، أعهد إليك عهد رسول الله صلى الله عليه وسلم أم رأي ارتأيته؟ قال علي: اللهم إني كنت أول من آمن به فلا أكون أول من كذب عليه، لم يكن عندي فيه عهد من رسول الله صلى الله عليه وسلم، ولو كان عندي فيه عهد من رسول الله صلى الله عليه وسلم ما تركتُ أخا تيم وعدي على منابرها؛ ولكن نبينا صلى الله عليه وسلم كان نبي رحمة، مريض أياماً وليالي، فقدم أبا بكر على الصلاة، وهو يراني ويرى مكاني. فلما ثوي رسول الله صلى الله عليه وسلم، رضىناه لأمر دنيانا إذ رضىه رسول الله لأمر ديننا. فسلمت له وبايعتُ وسمعتُ وأطعتُ، فكنتُ

أخذ إذا أعطاني، وأغزو إذا أغزاني، وأقيم الحدود بين يديه. ثم أتته منيته، فرأى أن عمر أطوق لهذا الأمر من غيره، ووالله ما أراد به المحاباة، ولو أرادها لجعلها في أحد ولذبه. فسلمت له وبايعتُ وأطعتُ وسمعتُ، فكنتُ أخذ إذا أعطاني، وأغزو إذا أغزاني، وأقيم الحدود بين يديه. ثم أتته منيته، فرأى أنه من استخلف رجلاً فعمل بغير طاعة الله عذبه الله به في قبره، فجعلها شورى بين ستة نفر من أصحاب رسول الله صلى الله عليه وسلم. وكنتُ أحدهم، فأخذ عبد الرحمن مواتيقنا وعهودنا على أن يخلع نفسه وينظر لعامة المسلمين، فبسط يده إلى عثمان فبايعه. اللهم إن قلتُ إني لم أجد في نفسي فقد كذبت، ولكنني نظرتُ في أمري فوجدتُ طاعتي قد تقدمت معصيتي، ووجدت الأمر الذي كان بيدي قد صار بيد غير لم. فسلمت

وبايعت وأطعت وسمعت، فكنت أخذ إذا أعطاني، وأغزو إذا أغزاني، وأقيم الحدود بين يديه. ثم نقم الناس عليه أموراً فقتلوه ثم بقيت اليوم أنا ومعاوية، فأرى نفسي أحق بها من معاوية؛ لأبي مهاجري وهو أعرايي، وأنا ابن عم رسول الله وصهره، وهو طليق ابن طليق. قال له عبد الله بن الكواء: صدقت، ولكن طلحة والزبير، أما كان لهما في هذا الأمر مثل الذي لك؟ قال: إن طلحة والزبير بايعاني في المدينة ونكنا بيعتي بالعراق، فقاتلتهما على نكنتهما، ولو نكنا بيعة أبي بكر وعمر لقاتلتهما على نكنتهما كما قاتلتهما على نكنتهما، قال: صدقت، ورجع إليه. واستعمل عبد الملك بن مروان نافع بن علقمة بن صفوان على مكة، فخطب ذات يوم، وأبان بن عثمان قاعدٌ عند أصلى المنبر، فنال من طلحة والزبير، فلما نزل قال لأبان: أرضيتك من المدنين في أمر أمير المؤمنين؟ قال: لا، ولكنتك سؤتي، حسبي أن يكونا بريئين من أمره. وعلى هذا المعنى قال إسحاق بن عيسى: أعيد علياً بالله أن يكون قتل عثمان، وأعيد عثمان أن يكون قتله علي. وهذا الكلام على مذهب قول النبي صلى الله عليه وسلم: إن أشد الناس عذاباً يوم القيامة رجل قتل نبياً أو قتله نبي. سعيد بن جبير عن أبي الصهباء: إن رجالاً ذكروا عثمان فقال رجلٌ من القوم: إني أعرف لكم رأي علي فيهِ. فدخل الرجل على علي، فنال من عثمان، فقال علي: دَع عنك عثمان، فوالله ما كان بأشرفنا، ولكنه ولي فاستأثر فحرمنا فأساء الحرمان. وقال عثمان بن حنيف: إني شهدت مشهداً اجتمع فيه علي وعمار ومالك الأشتر وصعصعة، فذكروا عثمان، فوقع فيه عمار، ثم أخذ مالكٌ فحذا حذوه، ووجهه علي يمتعر، ثم تكلم صعصعة، فقال: ما على رجل يقول: كان والله أول من ولي فاستأثر، وأول من تفرقت عنه هذه الأمة! فقال علي: إني أبا اليقظان، لقد سبقت لعثمان سوابق لا يُعذبه الله بها أبداً. محمد بن حاطب قال: قال لي علي يومَ الجمل: انطلق إلى قومك فأبلغهم كُتبي وقولي. فقلت: إن قومي إذا أتيتهم يقولون: ما قولُ صاحبك في عثمان؟ فقال: أخبرهم أن قولِي في عثمان أحسنُ القول، إن عثمان كان من الذين آمنوا وعملوا الصالحات، ثم اتقوا وآمنوا واحسنوا والله يحب المحسنين. جرير بن حازم عن محمد بن سيرين قال: ما علمت أن علياً أتتهم في دم عثمان حتى يُوبع، فلما بوبع اتهمه الناس. محمد بن الحنفية: إني عن يمين في يومَ الجمل وابن عباس عن يساره، إذ سمع صوتاً فقالت: ما هذا؟ قالوا: عائشة تلعن قتلة عثمان. فقال علي: لعن الله قتلة عثمان في السهل والجبل والبحر والبر.

ما نقم الناس على عثمان

ابن دأب قال: لما أنكر الناس على عثمان ما أنكروا من تأمير الأحداث من أهل بيته على الجلة الأكابر من أصحاب محمد صلى الله عليه وسلم، قالوا لعبد الرحمن بن عوف: هذا عملك واختيارك لأمة محمد. قال: لم أظن هذا به. ودخل على عثمان فقال له: إني إنما قدمتك على أن تسير فينا بسيرة أبي بكر وعمر، وقد خالفتهما. فقال: عمر كان يقطع قرابته في الله وأنا أصل قرابتي في الله. فقال له: لله علي أن لا أكلمك أبداً. فمات عبد الرحمن وهو لا يكلم عثمان. ولما رد عثمان الحكم بن أبي العاصي، طريد النبي صلى الله عليه وسلم طريد أبي بكر وعمر إلى المدينة، تكلم الناس في ذلك، فقال عثمان: ما ينقم الناس مني! إني وصلت رحماً وقربت قرابة. حصين بن زيد بن وهب قال: مررنا بأبي ذرٍّ بالريذة فسألناه عن منزله. فقال: كنت بالشام فقرأت هذه الآية: "والذين يَكْفُرُونَ الذَّهَبَ وَالْفِضَّةَ وَلَا يُنْفِقُوهَا فِي سَبِيلِ اللَّهِ فَبَشِّرْهُمْ بِعَذَابٍ أَلِيمٍ". فقال معاوية: إنما هي في أهل الكتاب. فقلت: إنما لفينا وفيهم. فكتب إلي عثمان: أقبل. فلما قدمت ركبتني الناس كأهم لم يروني قط، فشكوت ذلك إلى عثمان. فقال: لو اعتزلت فكنت قريباً. فترلتُ هذا المنزل، فلا أدع قولي، ولو أمروا عليّ عبداً حبشياً لأطعت. الحسن بن أبي الحسن عن الزبير بن العوام في هذه الآية: "واتقوا فتنةً لا تُصيبن الذين ظلموا منكم خاصة". قال: لقد نزلت وما ندرني من يتخلف لها. فقال بعضهم: يا أبا عبد الله، فلم جئت إلى البصرة؟ قال: ويحك، إننا ننظر ولا نُبصر. أبو نضرة عن أبي سعيد الخدري قال: إن ناساً كانوا عند فسطاط عائشة وأنا معهم بمكة، فمر بنا عثمان فما بقي أحدٌ من القوم إلا لعنه غيري، فكان فيهم رجلٌ من أهل الكوفة فكان عثمان على الكوفي أجراً منه على غيره، فقال: يا كوفي، أتشتمي؟ فلما قدم المدينة كان يتهدده. قال: فقيل له: عليك بطلحة. قال: فانطلق معه حتى دخل على عثمان. فقال عثمان: والله لأجلدته مائة سوط. قال طلحة: والله لا تجلدنه مائة إلا أن يكون زانياً. قال: والله لأحرمه عطاءه. قال: الله يرزقه. ومن حديث ابن أبي قتيبة عن الأعمش عن عبد الله بن سنان قال: خرج علينا ابن مسعود ونحن في المسجد، وكان على بيت مال الكوفة، وأمير الكوفة الوليد بن عقبة بن أبي مُعيط، فقال: يا أهل الكوفة، فُقدت من بيت مالكم الليلة مائة ألف لم يأتيها

كتابٌ من أمير المؤمنين ولم يكتب لي بها براءة. قال: فكتب الوليدُ بن عُقبة إلى عثمان في ذلك، فنزعه عن بيت المال. ومن حديث الأعمش يرويه أبو بكر بن أبي شيبة قال: كُتِبَ أصحابُ عثمان عيَّبه وما يَنْقَمُ الناسُ عليه في صحيفة، ثم قالوا: مَنْ يذهب بها إليه؟ قال عُمَارُ: أنا. فذهب بها إليه. فلما قرأها قال: أرغم الله أنفك. قال: وأنف أبي بكر وعمر. قال: فقام إليه فوطئه حتى غشى عليه. ثم ندم عثمان وبعث إليه طلحة والزبير يقولان له: اختر إحدى ثلاث: إما أن تُعْفُو، هاما أن تأخذ الأرش، وإما أن تُتَّقِص. فقال: والله لا قبلتُ واحدة منها حتى ألقى الله. قال أبو بكر: فذكرتُ هذا الحديث للحسن بن صالح، فقال: ما كان على عثمان أكثر مما صنع.

ومن حديث الليث بن سعد قال: مرَّ عبدُ الله بن عمرٍ بحذيفة فقال: لقد اختلف الناسُ بعد نبيهم، فما منهم أحدٌ إلا أعطى من دينه ما عدا هذا الرجل. وسئل سعدُ بن أبي وقاص عن عثمان فقال: أما والله لقد كان أحسننا وضوءاً، وأطولنا صلاة، وأتالنا لكتاب الله، وأعظمنا نفقةً في سبيل الله. ثم ولي فأنكروا عليه شيئاً، فأثووا إليه أعظم مما أنكروا.

وكتب عثمان إلى أهل الكوفة حين ولَّاهم سعيد بن العاص: أما بعد. فإني كنت وليتكم الوليد بن عُقبة غلاماً حين ذهب شرَّحه، وثاب حلمه، وأوصيته بكم ولم أوصكم به، فلما أعيتكم علانيته طعنتم في سريرته. وقد وليتكم سعيد بن العاص، وهو خيرُ عشيرته، وأوصيكم به خيراً فاستوصوا به خيراً. وكان الوليد بن عُقبة أحبا عثمان لأمه، وكان عامله على الكوفة، فصلَّى بهم الصبح ثلاث ركعات وهو سكران، ثم التفت إليهم فقال: وإن شئتم زدْتكم. فقامت عليه البيِّنة بذلك عند عثمان، فقال لطلحة: قم فاحلده. قال: لم أكن من الجالدين. فقام إليه عليٌّ فحلده. وفيه يقول الحطيئة:

أَنَّ الْوَلِيدَ أَحَقُّ بِالْعُذْرِ

لَجَمَعْتَ بَيْنَ الشَّفَعِ وَالْوَثْرِ

تَرَكَوا عِنَانَكَ لَمْ تَزَلْ تَجْرِي

شَهِدَ الْحَطِيئَةُ يَوْمَ يَلْقَى رَبَّهُ

لِيَزِيدَهُمْ خَيْرًا وَلَوْ قَبِلُوا

مَسَكُوا عِنَانَكَ إِذْ جَرَيْتَ وَلَوْ

ابن دأب قال: لما أنكر الناسُ على عثمان ما أنكروا واجتمعوا إلى علي وسأله أن يلقى لهم عثماناً. فأقبل حتى دخل عليه فقال: إن الناسَ ورائي قد كلَّموني أن أكلمك، والله ما أدري ما أقول لك، ما أعرف شيئاً تُنكره، ولا أعلمك شيئاً تجهله، وما ابن الخطاب أولى بشيء من الخير منك، وما تُبصرُك من عمى، وما تُعلمُك من جهل، وإن الطريقَ لبين واضح. تُعلم يا عثمان أن أفضل الناس عند الله إمامٌ عدلٌ، هُدي وهُدَى، فأحيا سنة معلومة، وأمات بدعة مجهولة؛ وأن شر الناس عند الله إمامٌ ضلالة، ضل وأضل، فأحيا بدعة مجهولة، وأمات سنة معلومة. وإني سمعت رسول الله صلى الله عليه وسلم يقول: يُؤتى بالإمام الجائر يوم القيامة ليس معه ناصرٌ ولا له عاذر فيُلقي في جهنم فيدور دُورَ الرحي يَرتطم بجمرة النار إلى آخر الأبد. وأنا أحذرك أن تكون إمام هذه الأمة المقتول، يُفتح به باب القتل والقتال إلى يوم القيامة، يَمْرَجُ به أمرهم ويمرجون. فخرج عثمان، ثم خطب خطبته التي أظهر فيها التوبة. وكان عليٌّ كلما اشتكى الناسُ إليه أمر عثمان أرسل ابنه الحسن إليه، فلما أكثر عليه قال له: إن أباك يرى أن أحداً لا يعلم ما يعلم، ونحن أعلم بما نفع، فكف عنا. فلم يبعث علي ابنه في شيء بعد ذلك. وذكروا أن عثمان صلى العصر ثم خرج إلى علي يعود في مرضه، ومروان معه، فرآه ثقيلًا. فقالت: أما والله لولا ما أرى منك ما كنتُ أتكلّم بما أريد أن أتكلّم به، والله ما أدري أيّ يوميك أحبُّ إليّ أو أبغض، أيوم حياتك أو يوم موتك؟ أما والله لئن بقيت لا أعدم شامتاً يُعدك كفاً، ويتخذك عصداً، ولئن مت لأفجعن بك. فحظي منك حظّ الوالد المشفق من الولد العاق، إن عاش عقه، وإن مات فجعته. فليتك جعلت لنا من أمرك علماً نقف عليه ونعرفه، إما صديقٌ مسلم وإما عدوٌ مُعانَد، ولم تجعلني كالمُختنق بين السماء والأرض، لا يرقى بيد، ولا يهبط برجل. أما والله لئن قتلتك لا أصيب منك خلفاً، ولئن قتلتني لا تصيب مني خلفاً، وما أحب أن أبقى بعدك. قال مروان: أيّ والله وأحرى، إنه لا يُنال ما وراء ظهورنا حتى تُكسر رماحنا وتقطع سيوفنا، فما خيرُ العيش بعد هذا. فضرب عثمان في صدره وقال: ما يُدخلك في كلامنا؟ فقال علي: إني والله في شغل عن جوابكما، ولكني أقول كما قال أبو يوسف: فصير جميل والله المستعان على ما

تَصِفُونَ. وقال عبدُ الله بن العباس: أرسل إليَّ عثمان فقال لي: اكفني ابن عمك. فقلت: إن ابن عمي ليس بالرجل يُرى له ولكنه يَرى لنفسه، فأرسلني إليه بما أحببت. قال: قل له فليخرج إلى ماله باليُنْع فلا أعتم به ولا يَعتَم بي. فأتيتُ عليًّا فأخبرته. فقال: ما اتخذني عثمانُ إلا ناصحاً، ثم أنشد يقول:

فكيف به أني أدوي جراحه
فيدوي فلا ملّ الدواء ولا الداء

أما والله إنه ليختبر القوم. فأتيتُ عثمانَ، فحدّثته الحديثَ كله إلا البيت الذي أنشده. وقوله: إنه ليختبر القوم. فأنشد عثمان:

فكيف به أني أدوي جراحه
فيدوي فلا ملّ الدواء ولا الداء

وجعل يقول: يا رحيم، انصربي، يا رحيم، انصربي، يا رحيم، انصربي.

قال: فخرج عليٌّ إلى يَنبُع، فكتب إليه عثمان حين اشتدَّ الأمر: أما بعد. فقد بلغ السيل الزُّبى، وجاوز الحِزام الطُّبَّيين، وطَمَع في مَنْ كان يَضْعُف عن نفسه:

فإنك لم يفخر عليك كفاخر
ضعيف ولم يغلبك مثل مغلب

فأقبل إليَّ على أيِّ أمريك أحببت، وكُن لي أم علي، صديقاً كنتَ أم عدواً:

فإن كنت مأكولاً فكُن خير آكل
وإلا فأدركني ولما أمزق

خلافة علي بن أبي طالب رضي الله عنه

قال: لما قُتل عثمان بن عفان، أقبل الناس يُهرعون إلى علي بن أبي طالب فتراكمت عليه الجماعةُ في البيعة، فقال: ليس ذلك إليكم، إنما ذلك لأهل بَدْر ليُبايعوا. فقال: أين طلحة والزبير وسعد؟ فأقبلوا فبايعوا، ثم بايعه المهاجرون والأنصار، ثم بايعه الناسُ. وذلك يومَ الجمعة لثلاثِ عشرةَ خلت من ذي الحجة سنة خمس وثلاثين، وكان أولَ مَنْ بايع طلحةً، فكانت إصبه شلاءً، فتطيرَ منها عليٌّ، وقال: ما أحلقه أن يَنكث. فكان كما قال عليٌّ رضي الله عنه.

نسب علي بن أبي طالب وصفته

هو عليٌّ بن أبي طالب بن عبد المطلب بن هاشم بن عبد مناف، وأمه فاطمة بنت أسد بن هاشم بن عبد مناف. وصفته، كان أصلحَ بطيناً حَمَش الساقين. صاحبُ شُرطته مَعْقِل بن قيس الرِّياحي، وما لك بن حَبِيب اليربوعي، وكاتبه سعيد ابن نمران، وحاجبه قُنبر، مولاه. وقُتل يوم الجمعة بالكوفة، وهو خارج إلى المسجد لصلاة الصبح، لسبعِ بَقين من شهر رمضان، فكانت خلافته أربع سنين وتسعة أشهر، صلى عليه ولده الحسن، ودُفن برحبة الكوفة، ويقال في لحف الحيرة، وعمِّي قبره. واحتُلف في سنه، فقال الشعبي: قُتل علي رحمه الله وهو ابن ثمان وخمسين سنة، ووُلد علي بمكة في شعب بني هاشم.

فضائل علي بن أبي طالب كرم الله وجهه

أبو الحسن قال: أسلم علي وهو ابن خمس عشرة سنة، وهو أول من شَهد أن لا إله إلا الله وأن محمداً رسولُ الله. وقال النبي عليه الصلاة والسلام من كنتُ مولاه فعلي مولاه. اللهم وال من والاه وعاد من عاداه. وقال له النبي صلى الله عليه وسلم: أما تَرْضَى أن تكون مني بمثلة هارون من موسى غير أنه لا نبي بعدي؟ وبهذا الحديث سَمَّت الشيعةُ علي بن أبي طالب الوصيَّ، وأولوا فيه أنه استخلفه على أمته إذ جعله منه بمثلة هارون من موسى؛ لأن هارون كان خليفة موسى على قومه إذا غاب عنهم. وقال السيد الحِميري رحمه الله تعالى:

إني أدِينُ بما دانَ الوَصِيُّ به

وشاركتُ كَفَّهُ كَفِّيَ بصفينا

وجمع النبي صلى الله عليه وسلم فاطمةَ وعليًا والحسنَ والحسينَ فألقى عليهم كساءً وضمهم إلى نفسه ثم تلا هذه الآية: إنما يريد الله ليذهب عنكم الرجسَ أهلَ البيتِ ويُطهركم تطهيرًا. فتأولت الشيعةُ الرجسَ هاهنا بالخوض في غمرة الدنيا وكُدورتها. وقال النبي صلى الله عليه وسلم يومَ خيبر: لأعطين الرايةَ غدًا رجلًا يُحب اللهَ ورسولَهُ، ويُحبه اللهَ ورسولُهُ، لا يُمسي حتى يفتحَ اللهُ له. فدعا عليًا، وكان أرمَدَ، فَنفَلَ في عينيه، وقال: اللهم. قه داءَ الحر والبرد. فكان يلبس كُسوةَ الصيف في الشتاء وكُسوةَ الشتاء في الصيف ولا يضره. أبو الحسن قال: ذُكر عليٌّ عند عائشة فقالت: ما رأيتُ رجلًا أحبَّ إلى رسول الله صلى الله عليه وسلم منه، ولا رأيتُ امرأةً كانت أحبَّ إليه من امرأته. وقال عليٌّ بن أبي طالب: أنا أخو رسول الله صلى الله عليه وسلم وابن عمه، لا يقولها بعدي إلا كذاب. الشَّعبي قال: كان عليٌّ بن أبي طالب في هذه الأمة مثل المسيح بن مريم في بني إسرائيل، أحبه قومٌ فكفروا في حبه، وأبغضه قوم فكفروا في بُغضه. وقال النبي صلى الله عليه وسلم: الحسنُ والحسينُ سيِّدا شبابِ أهل الجنة، وأبوهما خيرٌ منهما. أبو الحسن قال: كان علي بن أبي طالب رضي الله عنه يُقسَم بيت المال في كل جمعة حتى لا يبقى منه شيئًا، ثم يُفرش له ويقبل فيه. ويتمثل بهذا البيت:

هذا جنائي وخياره فيه

إذ كلَّ جانٍ يده إلى فيه

كان علي بن أبي طالب إذا دخل بيتَ المال ونظر إلى ما فيه من الذهب والفضة قال:

أبيضيِّ واصفريِّ وغريِّ غيري

إني من الله بكلِّ خيرٍ

ودخل رجل على الحسن بن أبي الحسن البصري فقال: يا أبا سعيد، إنهم يزعمون أنك تُبغض عليًا. قال: فبكى الحسنُ حتى اخضلتَ لحيته، ثم قال: كان علي بن أبي طالب سهماً صائباً من مرامي الله على عدوه، ورباني هذه الأمة، وذا فضلها وسابقتها، وذا قرابة قريبة من رسول الله صلى الله عليه وسلم، لم يكن بالنومة عن رسول الله صلى الله عليه وسلم، ولا المألولة في ذات الله، ولا السرَّوفة لمال الله. أعطى القرآن عزائمه ففاز منه برياض مؤنقة وأعلام بيّنة، ذلك علي بن أبي طالب يا لكع.

يوم الجمل

أبو اليقظان قال: قدِم طلحةُ بن عبيد الله والزبير بن العوام وعائشة أم المؤمنين البصرة. فتلقاهم الناس بأعلى المربد، حتى لو رموا بحجر ما وقع إلا على رأس إنسان، فتكلّم طلحة وتكلمت عائشة، وكثر اللغط، فجعل طلحة يقول: أيها الناس، أنصتوا. وجعلوا يركبونه ولا يُنصتون. فقال: أف أف! فرأش نار، وذباب طمع. وكان عثمان بن حنيف الأنصاري عاملَ علي بن أبي طالب على البصرة، فخرج إليهم في رحاله ومن معه، فتواقفوا حتى زالت الشمس، ثم اصطلحوا، وكتبوا بينهم كتاباً أن يكفّوا عن القتال حتى يقدّم علي بن أبي طالب، ولعثمان بن حنيف دارُ الإمارة والمسجد الجامع وبيتُ المال، فكفّوا. ووجه علي بن أبي طالب الحسن ابنه وعمّار بن ياسر إلى أهل الكوفة يستنفر بهم، فنفرَ معهما سبعةُ آلاف من أهل الكوفة. فقال لهم عمار. أما والله إني لأعلم أنها زوجته في الدنيا والآخرة، ولكن الله ابتلاكم بما تشبهوه أو تتبعوه. وخرج علي في أربعة آلاف من أهل المدينة، فيهم ثمانمائة من الأنصار، وأربعمائة ممن شهد بيعه الرضوان مع النبي صلى الله عليه وسلم. وراية علي مع ابنه محمد ابن الحنفية، وعلى ميمنته الحسن، وعل ميسرته الحسين، وعلى الخليل عمّار بن ياسر، وعلى الرحالة محمد بن أبي بكر، وعلى المُقدّمة عبدُ الله بن عباس. ولواء طلحة والزبير مع عبد الله بن حكيم بن حزام، وعلى الخليل طلحة بن عبيد الله، وعلى الرحالة عبدُ الله بن الزبير. فالتقوا بموضع قصر عبيد الله بن زياد في النصف من جمادى الآخرة يوم الخميس. وكانت الوقعة يوم الجمعة.

وقالوا: لما قدِم علي بن أبي طالب البصرة قال لابن عباس: اتت الزبير ولا تأت طلحة، فإن الزبير أليّن، وأنت تجد طلحة كالثور عاقصاً بقرنه يركب الصعوبة، ويقول: هي أسهل، فأقرئه السلام، وقُل له: يقول لك ابن خالك: عرفني بالحجاز، وأنكرتني بالعراق، فما عدا ما بدا؟ قال ابن عباس: فأتيته فأبلغته. فقال: قل له: بيننا وبينك عهدٌ خليفه، ودُم خليفه، واجتماع ثلاثة، وانفراد واحد، وأم مبرورة، ومشاورة العشيرة، ونشر المصاحف، نُحل ما

أحلت، وتُحرّم ما حرّمتم. وقال عليّ بن أبي طالب: ما زال الزبير رجلاً منا أهل البيت حتى أدركه ابنه عبد الله فلفته عنا. وقال طلحة لأهل البصرة وسأله عن بيعة علي فقال: أدخلوني في حش ثم وضعوا الفج على قفي فقالوا: بايع وإلا قتلناك. قوله: اللج، يريد السيف، وقوله: قفي، لغة طيء، وكانت أمه طائية.

وخطبت عائشة أهل البصرة يوم الجمل فقالت: أيها الناس، صه صه، كأنما قُطعت الألسن في الأفواه. ثم قالت: إن لي عليكم حرمة الأمومة، وحق الموعدة، لا يتهمني إلا من عصى ربه. مات رسول الله صلى الله عليه وسلم بين سحري ونحري، وأنا إحدى نسائه في الجنة، له ادخري ربي وسلمني من كل بضع، وبني ميمز بين منافقكم ومؤمنكم، وبني أرخص لكم في صعيد الأبواء. ثم أبي ثالث ثلاثة من المؤمنين وثاني اثنين في الغار، وأول من سمي صديقاً. مضى رسول الله صلى الله عليه وسلم راضياً عنه، وطوّقه طوق الإمامة. ثم اضطرب حبل الدين فمسك أبي بطرفيه، ورتق لكم أثنائه فوقم النفاق، وأغاض نبع الردة، وأطفأ ما حشت يهود، وأنتم يومئذ جحظ العيون، تنظرون العدو، وتسمعون الصيحة، فرأب الثأبي، وأوذم العطلّة، وانتاش من الهوة، واجتحي دفين الداء، حتى أعطن الوارد، وأورد الصادر، وعلّ الناهل، فقبضه الله واطناً على هامات النفاق، مذكياً نار الحرب للمشركين. وانتظمت طاعتكم بحبله. ثم ولي أمركم رجلاً مرعياً إذا ركن إليه، بعيداً ما بين اللابتين إذا ضل، عروكة للأذاة بحنّبه، يقظان الليل في نصرة الإسلام، فسلك مسلك السابقين، وفرق شمل الفتنة، وجمّع أعضاد ما جمع القرآن، وأنا نصب المسألة عن مسيري هذا. لم أتمس إثمًا، ولم أورت فتنة أوظفكموها. أقول قولي هذا صدقاً وعدلاً، وإعذاراً وإنذاراً، وأسأل الله أن يصلي علي محمد وأن يخلفه فيكم بأفضل خلافة المرسلين. وكتبت أم سلمة زوج النبي صلى الله عليه وسلم إلى عائشة أم المؤمنين إذ عزمت على الخروج يوم الجمل: من أم سلمة زوج النبي صلى الله عليه وسلم إلى عائشة أم المؤمنين، فإني أحمد الله الذي لا إله إلا هو. أما بعد، إنك سُدّة بين رسول الله صلى الله عليه وسلم وبين أمته، حجاب مضروب على حرمة. قد جمّع القرآن ذلك فلا تُنذحيه، وسكّر خفارتك فلا تُبذليها. فالله من وراء هذه الأمة. لو علم رسول الله صلى الله عليه وسلم أن النساء يحتملن الجهاد عهد إليك. أما علمت أنه قد نهاك عن الفرامة في البلاد، فإن عمود الدين لا يثبت بالنساء إن مال، ولا يُرأب بمن إن انصدع؟ جهاد النساء غرض الأطراف، وضّمّ الذبول، وقصر المادة. ما كنت قائلة لرسول الله صلى الله عليه وسلم لو عارضك ببعض هذه الفلوات ناصّة قعوداً، من منهل إلى منهل؟ وغداً تردين على رسول الله صلى الله عليه وسلم. وأقسم لو قيل لي: يا أم سلمة، ادخلي الجنة، لاستحييت أن ألقى رسول الله صلى الله عليه وسلم هاتكة حجاباً ضربته عليّ. فاجعليه سترك، وقاعة البيت حصنك؟ فإنك أنصح ما تكونين لهذه الأمة ما قعدت عن نصرته. ولو أبي حدثك بحديث سمعته من رسول الله صلى الله عليه وسلم ولنهشتني نمش الحية الرقشاء المطرقة. والسلام.

فأجابتها عائشة: من عائشة أم المؤمنين إلى أم سلمة، سلام عليك، فإني أحمد الله الذي لا إله إلا هو. أما بعد. فما أقبلني لو عظمتك، وأعرفتي لحق نصيحتك، وما أنا بمُعتمرة بعد تعريج، ولنعم المطلع مطلع فرقت فيه بين فتنتين متشاجرتين من المسلمين، فإن أقعد فعن غير حرج، وإن أمض فإلى ما لا غنى بي عن الزدياد منه. والسلام. وكتبت عائشة إلى زيد بن صوحان إذ قدمت البصرة: من عائشة أم المؤمنين إلى ابنها الخالص زيد بن صوحان، سلام عليك. أما بعد، فإن أباك كان رأساً في الجاهلية وسيداً في الإسلام، وإنك من أبيك بمترلة المصلّى من السابق، يقال كاد أو لحق، وقد بلغك الذي كان في الإسلام من مُصاب عثمان بن عفان، ونحن قادمون عليك، والعيان أشفى لك من الخبر. فإذا أتاك كتابي هذا فنبط الناس عن في بن أبي طالب، وكُن مكانك حتى يأتيك أمري، والسلام. فكتب إليها: من زيد بن صوحان إلى عائشة أم المؤمنين. سلام عليك، أما بعد، فإنك أمرت بأمر وأمرنا بغيره، أمرت أن تقرّي في بيتك، وأمرنا أن نقاتل الناس حتى لا تكون فتنة. فتركت ما أمرت به وكتبت تتهينا عما أمرنا به، والسلام وخطب علي رضي الله عنه بأهل الكوفة يوم الجمل إذ أقبلوا إليه مع الحسن بن علي فقام فيهم خطيباً، فقال: الحمد لله رب العالمين، وصلى الله على سيدنا محمد خاتم النبيين وآخر المرسلين، أما بعد. فإن الله بعث محمداً صلى الله عليه وسلم إلى التقلين كافة، والناس في اختلاف، والعرب بشر المنازل، مُستضعفون لما بهم، فرأب الله به الثأبي، ولأم به الصدع، ورتق به الفتق، وأمن به السبيل، وحقن به الدماء، وقطع به العداوة الموغرة للقلوب، والصفائن المشحنة للصدور، ثم قبضه الله تعالى مشكوراً سعيه، مرضياً عمله، معفوراً ذنبه، كريماً عند الله نزله. فيا لها من مضيبة عمّت المسلمين،

وَحَصَّتْ الْأَقْرَبِينَ. وَوَلَّى أَبُو بَكْرٍ فَسَارَ فِينَا بَسِيرَةَ رِضَا، رَضِيَ بِهَا الْمُسْلِمُونَ. ثُمَّ وَلِيَ عُمَرَ فَسَارَ بِسِيرَةِ أَبِي بَكْرٍ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُمَا. ثُمَّ وَلِيَ عُثْمَانَ فَنَالَ مِنْكُمْ وَنَلْتُمْ مِنْهُ. ثُمَّ كَانَ مِنْ أَمْرِهِ مَا كَانَ، أَتَيْتُمُوهُ فَقَتَلْتُمُوهُ، ثُمَّ أَتَيْتُمُونِي فَقُلْتُمْ: لَوْ بَايَعْتَنَا؟ فَقُلْتُ: لَا أَفْعَلُ، وَقَبِضْتُ يَدِي فَبَسَطْتُمُوهَا، وَنَازَعْتُمْ كَفِّي فَجَذَبْتُمُوهَا، وَقُلْتُمْ: لَا تَرْضَى إِلَّا بَكْ، وَلَا نَجْتَمِعُ إِلَّا عَلَيْكَ، وَتَرَكَتُمْ عَلِيَّ تَرَكَمُ الْإِبِلَ الْهِيمَ عَلَى حَيَاضِهَا يَوْمَ وُرُودِهَا، حَتَّى ظَنَنْتُ أَنْكُمْ قَاتِلِي وَأَنْ بَعْضَكُمْ قَاتِلُ بَعْضًا، فَبَايَعْتُمُونِي، وَبَايَعَنِي طَلْحَةُ وَالزُّبَيْرُ، ثُمَّ مَا لَبِثْنَا أَنْ اسْتَأْذَنَانِي إِلَى الْعُمْرَةِ. فَسَارَا إِلَى الْبَصْرَةِ فَقَاتَلَا بِهَا الْمُسْلِمِينَ، وَفَعَلَا بِهَا الْأَفَاعِيلَ، وَهِيَ يَعْلَمَانِ وَاللَّهُ أَعْلَمُ لَسْتُ بِدُونَ مَنْ مَضَى، وَلَوْ أَشَاءَ أَنْ أَقُولَ لَقُلْتُ: اللَّهُمَّ إِنَّمَا قَطَعَا قَرَابَتِي، وَنَكَثَا بَيْعَتِي، وَأَلْبَا عَلَيَّ عَدُوِّي. اللَّهُمَّ فَلَا تُحْكَمْ لِمَا مَا أBRَمَا، وَأَرْهَمَا الْمَسَاءَةَ فِيمَا عَمَلَا. وَأَمَلَى عَلَيَّ بِنَ مُحَمَّدٍ عَنِ مَسْلَمَةَ بِنِ مُحَارِبٍ عَنِ دَاوُدَ عَنِ أَبِي هِنْدٍ عَنِ أَبِي حَرْبٍ عَنِ أَبِي الْأَسْوَدِ عَنِ أَبِيهِ قَالَ: خَرَجْتُ مَعَ عِمْرَانَ بْنِ حُصَيْنٍ وَعُثْمَانَ بْنِ حُنَيْفٍ إِلَى عَائِشَةَ فَقَلْنَا: يَا أُمَّ الْمُؤْمِنِينَ، أَخْبِرِينَا عَنْ مَسِيرِكَ هَذَا. عَهْدٌ عَهْدَهُ إِلَيْكَ رَسُولُ اللَّهِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ؟ أَمْ رَأَيْ رَأْيِيهِ؟ قَالَتْ: بَلِ رَأَيْ رَأْيُهُ حِينَ قُتِلَ عُثْمَانُ بْنُ عَفَّانَ، إِنَّا نَقَمْنَا عَلَيْهِ ضَرْبَهُ بِالسَّوْطِ، وَمَوْقِعَ الْمَسْحَاةِ الْمُحَمَّاتِ، وَإِمْرَةَ سَعِيدِ وَالْوَلِيدِ، فَعَدَوْتُمْ عَلَيْهِ فَاسْتَحَلَلْتُمْ مِنْهُ الثَّلَاثَ الْحُرْمَ: حُرْمَةَ الْبَلَدِ وَحُرْمَةَ الْخِلَافَةِ وَحُرْمَةَ الشَّهْرِ الْحَرَامِ، بَعْدَ أَنْ مُصَّتَّمُوهُ كَمَا يُمَاصُ الْإِنَاءُ. فَغَضِبْنَا لَكُمْ مِنْ سَوَاطِ عُثْمَانَ، وَلَا نَغْضَبُ لِعُثْمَانَ مِنْ سَيْفِكُمْ؟ قَلْنَا: مَا أَنْتَ وَسَيْفُنَا وَسَوَاطِ عُثْمَانَ، وَأَنْتَ حَبِيبُ رَسُولِ اللَّهِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ! أَمْرُكَ أَنْ تُقَرِّيَ فِي بَيْتِكَ فَجِئْتُ تَضْرِبِينَ النَّاسَ بِبَعْضِهِمْ بِبَعْضٍ! قَالَتْ: وَهَلْ أَحْذِيقَاتِلِي أَوْ يَقُولُهُ غَيْرُ هَذَا؟ قَلْنَا: نَعَمْ. قَالَتْ: وَمَنْ يَفْعَلُ ذَلِكَ؟ هَلْ أَنْتَ مُبْلَغُ عَنِّي يَا عِمْرَانُ؟ قَالَ: لَسْتُ مُبْلَغًا عَنْكَ حَرْفًا وَاحِدًا. قُلْتُ: لَكِنِّي مُبْلَغُ عَنْكَ، فَهَاتِ مَا شِئْتَ. قَالَتْ: اللَّهُمَّ اقْتُلْ مَذْمَمًا قِصَاصًا بِعُثْمَانَ، وَارْمِ الْأَشْتَرِ بِسَهْمٍ مِنْ سَهَامِكَ لَا يُشَوِّرِي، وَأَدْرِكْ عَمَارًا بَخَّرَهُ بِعُثْمَانَ أَبُو بَكْرٍ بِنِ أَبِي شَيْبَةَ قَالَ: حَدَّثَنَا عَبْدُ اللَّهِ بْنُ إِدْرِيسَ عَنْ حُصَيْنِ بْنِ الْأَحْنَفِ بْنِ قَيْسٍ قَالَ: قَدِمْنَا الْمَدِينَةَ وَنَحْنُ نُرِيدُ الْحَجَّ، فَانْطَلَقْتُ فَأَتَيْتُ طَلْحَةَ وَالزُّبَيْرَ، فَقُلْتُ: إِنِّي لَا أَرَى هَذَا إِلَّا مَقْتُولًا، فَمَنْ تَأْمُرَانِي بِهِ كَمَا تَرْضِيَانِهِ لِي؟ قَالَا: نَأْمُرُكَ بِعَلِيِّ. قُلْتُ: فَتَأْمُرَانِي بِهِ وَتَرْضِيَانِهِ لِي؟ قَالَا: نَعَمْ. قَالَ: ثُمَّ انْطَلَقْتُ حَتَّى أَتَيْتُ مَكَّةَ، فَبَيْنَمَا نَحْنُ بِهَا إِذْ أَتَانَا قَتْلُ عُثْمَانَ وَهِيَ عَائِشَةُ أُمَّ الْمُؤْمِنِينَ، فَانْطَلَقْتُ إِلَيْهَا فَقُلْتُ: مَنْ تَأْمُرِينِي أَنْ أَبَايَعُ؟ قَالَتْ: عَلِيٌّ بِنِ أَبِي طَالِبٍ. قُلْتُ: أَتَأْمُرِينِي بِهِ وَتَرْضِيَانِهِ لِي؟ قَالَتْ: نَعَمْ. قَالَ: فَمَمَرْتُ عَلِيَّ بِالْمَدِينَةِ فَبَايَعْتُهُ، ثُمَّ رَجَعْتُ إِلَى الْبَصْرَةِ، وَأَنَا أَرَى أَنَّ الْأَمْرَ قَدْ اسْتَقَامَ، فَمَا رَاعِنَا إِلَّا قَدُومُ عَائِشَةَ أُمَّ الْمُؤْمِنِينَ وَطَلْحَةَ وَالزُّبَيْرَ قَدْ نَزَلُوا حَنَابَ الْحَزْرِيَّةِ. قَادَ: فَقُلْتُ: مَا جَاءَ بِهِمْ؟ قَالُوا: قَدْ أَرْسَلُوا إِلَيْكَ يَسْتَنْصِرُونَكَ عَلَى دَمِ عُثْمَانَ، إِنَّهُ قُتِلَ مَظْلُومًا. قَالَ: فَأَتَانِي أَفْضَعُ أَمْرٌ لَمْ يَأْتِي قَطُّ. قُلْتُ: إِنَّ خَدِلَانَ هُوَ لَاءَ وَمَعَهُمْ أُمَّ الْمُؤْمِنِينَ وَحَوَارِي رَسُولِ اللَّهِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ لِشَدِيدٍ، وَإِنَّ قِتَالَ ابْنِ عَمِ رَسُولِ اللَّهِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ أَمْرُونِي بِبَيْعَتِهِ لِشَدِيدٍ. قَالَ: فَلَمَّا أَتَيْتُهُمْ قَالُوا: جِنَانُكَ نَسْتَنْصِرُكَ عَلَى دَمِ عُثْمَانَ، قُتِلَ مَظْلُومًا. قَالَ: فَقُلْتُ: يَا أُمَّ الْمُؤْمِنِينَ، أَنْشُدُكَ اللَّهَ، أَقُلْتُ لَكَ: مَنْ تَأْمُرِينِي بِهِ وَتَرْضِيَانِهِ لِي، فَقُلْتُ: عَلِيٌّ؟ قَالَتْ: بَلَى، وَلَكِنَّهُ بَدَلٌ. قُلْتُ: يَا زُبَيْرُ، يَا حَوَارِيَّ رَسُولِ اللَّهِ، وَيَا طَلْحَةَ، نَشُدُّكَ بِاللَّهِ، قُلْتُ لَكُمَا: مَنْ تَأْمُرَانِي بِهِ وَتَرْضِيَانِهِ لِي، فَقُلْتُمَا عَلِيٌّ؟ قَالَا: بَلَى، وَلَكِنَّهُ بَدَلٌ. قَالَ: وَاللَّهِ لَا أَقَاتِلُكُمْ وَمَعَكُمْ أُمَّ الْمُؤْمِنِينَ، وَلَا أَقَاتِلُ عَلِيًّا ابْنَ عَمِ رَسُولِ اللَّهِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ، وَلَكِنْ اخْتَارُوا مِنِّي إِحْدَى ثَلَاثِ خِصَالٍ: إِمَّا أَنْ تَفْتَحُوا لِي بَابَ الْجَسْرِ فَأَلْحِقَ بِأَرْضِ الْأَعَاجِمِ حَتَّى يَقْضِيَ اللَّهُ مِنْ أَمْرِهِ مَا يَقْضِي، وَإِمَّا أَنْ أَلْحِقَ بِمَكَّةَ فَأَكُونَ بِهَا، أَوْ أَتَحَوَّلَ فَأَكُونَ قَرِيبًا؟ قَالُوا: نَأْتَمُرُ ثُمَّ نُرْسِلُ إِلَيْكَ. قَالَ: فَأَتَمَّرُوا وَقَالُوا: نَفْتَحُ لَكَ بَابَ الْجَسْرِ فَيَلْحَقُ بِهِ الْمَفَارِقُ وَالْحَاذِلُ، أَوْ يَلْحَقُ بِمَكَّةَ فَيَفْخَشُكُمْ فِي قُرَيْشٍ وَيُخْبِرُهُمْ بِأَخْبَارِكُمْ، اجْعَلُوهُ هَاهُنَا قَرِيبًا حَيْثُ تَنْظُرُونَ إِلَيْهِ. فَاعْتَزَلَ بِالْجُلْحَاءِ، مِنَ الْبَصْرَةِ عَلَى فَرَسَيْنِ، وَاعْتَزَلَ مَعَهُ زَهَاءُ سِتَّةِ آلَافٍ مِنْ بَنِي تَمِيمٍ.

مقتل طلحة

أبو الحسن قال: كانت وقعة الجمل يوم الجمعة في النصف من جمادى الآخرة، التقوا فكان أول مَصْرُوعِ فِينَا طَلْحَةُ بْنُ عُبَيْدِ اللَّهِ، أَتَاهُ سَهْمٌ غَرَبَ فَأَصَابَ رُكْبَتَهُ، فَكَانَ إِذَا أَمْسَكَهُ فَتَرَ الدَّمَ، وَإِذَا تَرَكَهُ انْفَجَرَ، فَقَالَ لَهُمْ: اتْرُكُوهُ، فَإِنَّمَا هُوَ سَهْمٌ أَرْسَلَهُ اللَّهُ.

حماد بن زيد عن يحيى بن سعيد قال: قال طلحة يوم الجمل:

طلبتُ رضا بني حزم بزعمي

ندمتُ ندامة الكسعي لما

للهم خذُ مني لعثمان حتى يَرْضَى .

ومن حديث أبي بكر بن أبي شيبة قال: لما رأى مروان بن الحكم يوم الحمل طلحة بن عبيد الله قال: لا أنتظر بعد اليوم بنأري في عثمان، فانتزع له سهماً فقتله.

ومن حديث سُفيان الثوري قال: لما انقضى يومُ الحمل خرج علي بن أبي طالب في ليلة ذلك اليوم ومعه مولاه وبيده شَمعة يتصفّح وجوه القتلى، حتى وقف على طلحة بن عبيد الله في بطن وادٍ مُتَعَفِّراً فجعل يمسح الغبار عن وجهه ويقول: أعزُّ علي يا أبا محمد أن أراك متعفراً تحت نجوم السماء وفي بطون الأودية، إنا لله وإنا إليه راجعون. شقيت نفسي وقتلتُ معشري، إلى الله أشكو عُجْرِي وُبُجْرِي. ثم قال: والله إني لأرجو أن أكون أنا وعثمان وطلحة والزبير من الذين قال الله فيهم: "وَنَزَعْنَا مَا فِي صُدُورِهِمْ مِنْ غَلٍّ إِخْوَانًا عَلَى سُرُرٍ مُتَقَابِلِينَ" وإذا لم نكن نحن فمن هم؟ أبو إدريس عن ليث بن طلحة عن مُطَرَف: أن علي بن أبي طالب أحلس طلحة يوم الحمل وَمَسَحَ العُبار عن وجهه وبكى عليه. ومن حديث سُفيان: أن عائشة بنت طلحة كانت ترى في نومها طلحة، وذلك بعد موته بعشرين يوماً؛ فكان يقول لها: يا بُنية، أخرجيني من هذا الماء الذي يُؤذيني. فلما انتهت من نومها جمعت أعرانها ثم نهضت فنبتته، فوجدته صحيحاً كما دُفِنَ لم تُنَحَسِر له شعرة، وقد احضر جنبه كالسُّلق من الماء الذي كان يسيل عليه، فلفته في الملاحف واشترت له عَرَصَة بالبصرة فدفتته فيها، وبنت حوله مسجداً. قال: فلقد رأيتُ المرأة من أهل البصرة تُقبل بالقارورة من البان فتصبها على قبره حتى تُفرغها، فلم يزل يفعل ذلك حتى صار تراب قبره مسكاً أذفر. ومن حديث الحُشني قال: لما قُتل طلحة بن عبيد الله يوم الحمل وجدوا في تركته ثلثمائة بُهار من ذهب وفضة. والبُهار: مزود من جلد عجل. وقع قومٌ في طلحة عند علي بن أبي طالب فقال: أما والله لئن قُلتم فيه إنه لكما قال الشاعر:

إذا ما هو استغنى ويُبعدة الفقرُ

وفي خدّه الشعري وفي الآخر البدرُ

فتى كان يُدنيه الغنى من صديقه

كان الترياً علقت في يمينه

مقل الزبير بن العوام

شريك عن الأسود بن قيس قال: حدثني من رأى الزبير يوم الحمل يُقص الخيل بالرُمح قَعصاً، فنوّه به علي: أيا عبد الله، أتذكر يوماً أتانا النبي صلى الله عليه وسلم وأنا أناجيك فقال: أتناجيه! والله ليقاتلنك وهو ظالم لك. قال: فصرف الزبير وجهه دابته وانصرف. قال أبو الحسن: لما انحاز الزبير يوم الحمل مر بماء لبني تميم، فقيل للأحنف بن قيس: هذا الزبير قد أقبل. قال: وما أصنع به أن جمع بين هذين العزيمين وترك الناس وأقبل - يريد بالعزيمين المُعسكرين - وفي مجلسه عمرو بن جرُموز المِجاشعيّ، فلما سمع كلامه قام من مجلسه واتبعه حتى وجده بوادي الطباع نائماً فقتله، وأقبل برأسه على علي بن أبي طالب. فقال علي: أبشر بالنار، سمعتُ رسول الله صلى الله عليه وسلم يقول: بشروا قاتل الزبير بالنار. فخرج عمرو بن جرُموز وهو يقول:

وقد كنتُ أحسبها زُلفه

فبئس بشارة ذي التحفه

أتيتُ علياً برأس الزبير

فبشر بالنار قبل العيان

ومن حديث ابن أبي شيبة قال: أقبل رجلٌ بسيف الزبير إلى الحسن بن علي، فقال: لا حاجة لي به، أدخله إلى أمير المؤمنين. فدخل به إلى علي، فنأوله إياه وقال: هذا سيفُ الزبير. فأخذه علي، فنظر إليه ملياً ثم قال: رَحِمَ اللهُ الزبير. لطالما فرَّج به الكُرب عن وجه رسول الله صلى الله عليه وسلم. وقالت امرأة الزبير تَرثيه:

يومَ الهياج وكان غير مُعدِّدٍ

لا طائشاً رَعِشَ الجَنان ولا اليَدُ

عَدَرَ ابن جرُموز بفارس بُهْمَة

يا عمرو لو نَبهته لوجدته

تَكَتُّكَ أُمُّكَ أَنْ قَتَلْتَ لِمُسْلِمًا

وقال جرير يَبْعِي عَلَى ابْنِ مُجَاشِعٍ قَتَلَ الزَّبِيرَ رَضِيَ اللَّهُ تَعَالَى عَنْهُ:

إِنِّي تَذَكَّرُنِي الزَّبِيرَ حَمَامَةً

قَالَتْ فُرَيْشٌ مَا أَذَلَّ مُجَاشِعًا

لَوْ كُنْتُ حَرًّا يَا بَنَ قَيْنِ مُجَاشِعٍ

أَفْبَعِدَ قَتْلَكُمْ خَلِيلَ مُحَمَّدٍ

حَلَّتْ عَلَيْكَ عُقُوبَةُ الْمُتَعَمِّدِ

تَدْعُو بِنَبْطِنِ الْوَادِيَيْنِ هَدَيْلًا

جَارًا وَأَكْرَمَ ذَا الْقَتِيلِ قَتَيْلًا

شَبِعْتَ ضَيْفَكَ فَرَسَخًا أَوْ مِيَلًا

تَرْجُو الْقَيْونَ مَعَ الرَّسُولِ سَبِيَلًا

هشام بن عروة عن أبيه عن عبد الله بن الزبير قال: دعاني أبي يومَ الجمل فقمْتُ عن يمينه، فقال: إنه لا يُقتل اليوم إلا ظالم أو مظلوم، وما أراي إلا سأقتل مظلوما، وإن أكبر همِّي ديني، فبع مالي ثم اقض ديني، فإن فضل شيء فثقله لولدك، وإن عجزت عن شيء ما بُني فاستعن مولاي. قلت: ومن مولاك يا أبت؟ قال: الله. قال عبدُ الله بن الزبير: فوالله ما بقيت بعد ذلك في كُرْبَةٍ من دينه أو عُسْرَةٍ إلا قلت: يا مولاي الزبير، اقض عنه دينه، فيقضيه. قال: فقتل الزبير ونظرتُ في دينه فإذا هو ألفُ ألفٍ ومائة ألف. قال: فبعت ضيعةً له بالغابة بألف ألفٍ وستمائة ألف، ثم ناديتُ: مَنْ كان له قبل الزبير شيء فليأتنا نقضه. فلما قضيتُ دينه أتاني إخواني فقالوا: أقسم بيننا ميراثنا. قلت: والله لا أقسم حتى أنادي أربع سنين بالمؤسم: من كان له على الزبير شيء فليأتنا نقضه. قال: فلما مضت الأربع السنين أخذت الثلث لولدي، ثم قسمتُ الباقي. فصار لكل امرأة من نساءه - وكان له أربع نسوة - في ربع الثمن ألف ألف ومائة ألف. فجميع ما ترك مائة ألف ألف وسبعمائة ألف ألف. ومن حديث ابن أبي شيبَةَ قال: كان علي يُخرج مُناديه يومَ الجمل يقول: لا يُسلبن قتيلا، ولا يُتبع مُدبر، ولا يُجهز على جريح. قال: وخرج كعب بن ثور من البصرة قد تقلد المُصحف في عنقه، فجعل ينشره بين الصّفين ويُناشد الناس في دمائهم، إذ أتاه سهم فقتله وهو في تلك الحال لا يدري مَنْ قتله. وقال في بن أبي طالب يومَ الجمل للأشتر، وهو مالك بن الحارث، وكان الميمنة: أحمل. فحمل، فكشفت من إيازته. وقال لهاشم بن عُقبة، أحد بني زُهرة بن كلاب، وكان على الميسرة: احمل. فحمل، فكشفت من إيازته. فقال علي لأصحابه: كيف رأيتم ميسرتي وميمنتي!

من حديث الجمل

الحُشني عن أبي حاتم الجسّاني قال: أنشدني الأصمعي عن رجل شهد الجمل يقول:

فلم تر عيني كيوم الجمل

وأفتك منه لخرق بطل

وليتك عسكر لم ترتحل

شهدت الحروب وشيبي

أضرت على مؤمن فتنة

فليت الطعينة في بيتها

ابن مُنيّة وَهَبَهُ لِعَائِشَةَ وَجَعَلَ لَهُ هَوْدَجًا مِنْ حَدِيدٍ، وَجَهَّزَ مِنْ مَالِهِ خَمْسَمِائَةَ فَارِسٍ بِأَسْلِحَتِهِمْ وَأَزْوَدِهِمْ. وَكَانَ أَكْثَرَ أَهْلِ الْبَصْرَةِ مَالًا. وَكَانَ عَلِيٌّ بِنَ أَبِي تَالِبٍ يَقُولُ: بُلِيَتْ بِأَنْضَى النَّاسِ وَأَنْطَقَ النَّاسِ وَأَطْوَعَ النَّاسِ فِي النَّاسِ. يُرِيدُ بِأَنْضَى النَّاسِ: يَعْلى بِنَ مُنِيّةٍ، وَكَانَ أَكْثَرَ النَّاسِ نَاضًا؛ وَيُرِيدُ بِأَنْطَقَ النَّاسِ: طَلْحَةَ بِنَ عُبَيْدِ اللَّهِ؛ وَأَطْوَعَ النَّاسِ فِي النَّاسِ عَائِشَةُ أُمُ الْمُؤْمِنِينَ. أَبُو بَكْرٍ بِنَ أَبِي شَيْبَةَ عَنْ مُحَمَّدِ بْنِ عُبَيْدِ اللَّهِ عَنِ التَّمِيمِيِّ قَالَ: كَانَتْ رَايَةُ عَلِيٍّ يَوْمَ الْجَمَلِ سُودَاءَ، وَرَايَةُ أَهْلِ الْبَصْرَةِ كَالْجَمَلِ. الْأَعْمَشُ عَنْ رَجُلٍ سَمَّاهُ قَالَ: كُنْتُ أَرَى عَلِيًّا يَوْمَ الْجَمَلِ يَحْمَلُ فَيَضْرِبُ بِسَيْفِهِ حَتَّى يَنْثِي، ثُمَّ يَرْجِعُ فَيَقُولُ: لَا تَلْمُونِي وَلُومُوا هَذَا، ثُمَّ يَعُودُ وَيُقَوْمُهُ. وَمِنْ حَدِيثِ أَبِي بَكْرٍ بِنَ أَبِي شَيْبَةَ قَالَ: قَالَ عَبْدُ اللَّهِ بِنَ الزَّبِيرِ: التَّقِيْتُ مَعَ الْأَشْطَرِ يَوْمَ الْجَمَلِ، فَمَا ضَرَبْتُهُ ضَرْبَةً حَتَّى ضَرَبَنِي خَمْسَةَ أَوْ سِتَّةَ، ثُمَّ جَرَّ بَرَجْلِي فَأَلْقَانِي فِي الْحَنْدَقِ، وَقَالَ: وَاللَّهِ لَوْلَا قُرْبُكَ مِنْ رَسُولِ اللَّهِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ مَا اجْتَمَعَ فِيكَ عُضْوٌ إِلَى آخَرٍ. أَبُو بَكْرٍ بِنَ أَبِي شَيْبَةَ قَالَ: أَعْطَتْ عَائِشَةُ الَّذِي بَشَّرَهَا بِحَيَاةِ ابْنِ الزَّبِيرِ، إِذْ التَقَى مَعَ الْأَشْطَرِ يَوْمَ الْجَمَلِ، أَرْبَعَةَ آلَافٍ. سَعِيدٌ عَنْ قَتَادَةَ

قال: قُتِلَ يومَ الجَمَلِ مع عائشةَ عشرون ألفاً، منهم ثمانمائة من بني ضبة. وقالت عائشةُ: ما أنكرتُ رأسَ جَمَلِي حتى فقدتُ أصواتَ بني عديّ. وقُتِلَ من أصحابِ عليٍّ خمسائة رجل، لم يُعرف منهم إلا علباء بن الهيثم وهند الجَمَلِيّ، قتلتهما ابن اليتربيّ، وأنشأ يقول:

قتلتُ علباءَ وهندَ الجَمَلِيّ

إني لَمَن يَجْهَلِي ابن اليتربيّ

عبدُ الله بن عَوْن عن أبي رجاء قال: لقد رأيتُ الجَمَلَ حينئذ وهو كظهر القنفذ من النبل، ورجلٌ من بني ضبّة أخذ بحُطامه وهو يقول:

الموتُ أحلى عندنا من العسلِ

نحنُ بنو ضبّة أصحابُ الجَمَلِ

ننعيّ ابن عَفانَ بأطرافِ الأسلِ

غندر قال: حَدَّثنا شعبه بن عمرو بن مُرة قال: سمعتُ عبدَ الله بن سلمة، وكان مع في بن أبي طالب يومَ الجَمَلِ، والحارثَ بن سُويد، وكان مع طلحة والزبير، وتذاكرا وقعة الجَمَلِ، فقال الحارث بن سُويد: والله ما رأيتُ مثلَ يومِ الجَمَلِ، لقد أشرعوا رماحهم في صدورنا وأشرعنا رماحنا في صدورهم، ولو شاءت الرجال أن تمشي عليها لمشت، يقول هؤلاء: لا إله إلا الله والله أكبر، ويقول هؤلاء: لا إله إلا الله والله أكبر، فوالله لوددتُ أني لم أشهد ذلك اليوم، وأني أعمى مقطوعُ اليدين والرجلين. وقال عبدُ الله بن سلمة: والله ما يُسرّني أبي غيبتُ عن ذلك اليوم ولا عن مشهدِ شَهِدَهُ عليٌّ بن أبي طالب بحُمر التَّعم. علي بن عاصم عن حُصين قال: حَدَّثني أبو حُميلة البكاء قال: إني لفي الصَّفِّ مع علي بن طالب إذ عُقر بأَم المؤمنين جَمَلها، فرأيتُ محمدَ بن أبي بكر وعمار بن ياسر يشتردان بين الصَّفِّين أيهما يسبق إليها، فقطعا عارضة الرَّحَل واحتملاها في هودجها. ومن حديثِ الشَّعبي قال: مَنْ زَعَم أنه شهدَ الجَمَلَ من أهل بدر إلا أربعة، فكذبه، كان عليّ وعمار في ناحية، وطلحة والزبير في ناحية. أبو بكر بن أبي شيبة قال: حَدَّثني خالدُ بن مَخْلَد عن يعقوب بن جَعفر بن أبي المُغيرة عن ابن أُبَري قال: انتهى عبدُ الله بن بُديل إلى عائشة وهي في الهودج، فقال: يا أم المؤمنين، أنشدك بالله، أتعلمين أني أتيتُك يومَ قُتِلَ عثمان فقلتُ لك: إن عثمان قد قُتِلَ فما تأمريني به. فقلتُ لي: الزم عليًّا؟ فوالله ما غير ولا بدّل. فسكتت. ثم أعاد عليها. فسكتت. ثلاث مرات. فقال: اعقروا الجَمَلَ، فعقروه. فترلتُ أنا وأخوها محمد بن أبي بكر فاحتملنا الهودج حتى وضعناه بين يدي علي، فسُرَّ به، فأدخل في منزل عبد الله بن بُديل.

وقالوا: لما كان يومَ الجَمَلِ ما كان، وظفر عليٌّ بن أبي طالب دنا من هودج عائشة، فكلمها بكلام. فأجابته: ملكتُ فأسجع. فجهَّزها عليٌّ بأحسن الجِهاز وبَعث معها أربعين امرأة - وقال بعضهم: سبعين امرأة - حتى قَدِمَت المدينة. عكرمة عن ابن عباس قال: لما انقضى أمرُ الجَمَلِ دعا علي بن أبي طالب بأجرتين فعلاهما، فحمد الله وأثنى عليه، ثم قال: يا أنصارَ المرأة، وأصحابَ البهيمة، رَغَا فجنُّتم، وعُقر فهزمتُم، نزلتم شرَّ بلاد، أبعدها من السماء، بما مغيض كل ماء، ولها شرُّ أسماء، هي البصرة والبصرة والمؤتفكة وتُدمر، أين ابن عباس؟ قال: فدُعيت له من كل ناحية، فأقبلت إليه، فقال: ائت هذه المرأة، فلترجع إلى بيتها الذي أمرها الله أن تقر فيه. قال: فجننتُ فاستأذنتُ عليها، فلم تأذن لي، فدخلتُ بلا إذن ومددت يدي إلى وسادة في البيت فجلستُ عليها. فقالت: تالله يا بن عباس ما رأيتُ مثلك! تدخل بيتنا بلا إذننا، وتجلس على وسادتنا بغير أمرنا. فقلت: والله ما هو بيئتُك، ولا بيئتُك إلا الذي أمرك الله أن تقرِّي فيه فلم تفعل، إن أمير المؤمنين يأمرُك أن ترجعي إلى بلدك الذي خرجت منه. قالت: رحم الله أمير المؤمنين، ذاك عمرُ بن الخطاب. قلتُ: نعم، وهذا أمير المؤمنين عليٌّ بن أبي طالب. قالت: أبيتُ أبيت. قلتُ: ما كان إباوك إلا فُواقَ ناقة بكيفة، ثم صرت ما تُحلِّين ولا تُمَرِّين، ولا تأمرين ولا تنهين. قال: فبكت حتى علا نسيحُها. ثم قالت: نعم، أرجعُ؛ فإن أبغض البلدان إلي بلدُ أنتم فيه. قلتُ: أما والله ما كان ذلك جزاؤنا منك إذ جعلناك للمؤمنين أمًّا، وجعلنا أباك لهم صديقًا. قال: أئمنُ في برسول الله يا بن عباس؟ قلتُ: نعم، نحن عليك بمن لو كان منك بمثلته منا لمننت به علينا. قال ابن عباس: فأتيتُ عليًّا فأخبرته، فقبِلَ بين عبيّ، وقال: بأبي ذرِّيَّة بعضا من بعض والله سميع عليم. ومن حديث ابن أبي شيبه عن ابن فضيل عن عطاء بن السائب: أن قاضيا من قضاة أهل الشام أتى عمرَ بن الخطاب، فقال: يا أمير المؤمنين، رأيتُ رؤيا أفضعتني. قال: وما رأيتُ؟ قال: رأيتُ الشمس والقمر يفتتان والنجومَ معهما نصفين. قال: فمع أيهما كنت؟ قال: مع القمر على الشمس. قال عمرُ بن الخطاب:

"وجعلنا الليل والنهار آيتين فمحونا آية الفيل وجعلنا آية النهار مبصرة" فانطلق، فوالله لا تعمل لي عملاً أبداً. قال: فبلغني أنه قُتل مع معاوية بصفين. أبو بكر بن أبي شيبه قال: أقبل سليمان بن صرد، وكانت له صُحبة مع النبي صلى الله عليه وسلم، إلى علي بن أبي طالب بعد وقعة الجمل، فقال له: تنأأت وتزحزحت وتربصت، فكيف رأيت الله صنع؟ قال: يا أمير المؤمنين، إن الشوط بطين، وقد بقي من الأمور ما تعرف به عدوك من صدقك. وكتب علي بن أبي طالب إلى الأشعث بن قيس بعد الجمل، وكان والياً لعثمان على أذربيجان: سلامٌ عليك، أما بعد. فلولا هنات كنّ منك لكنت أنت المُقدم في هذا الأمر قبل الناس، ولعل أمرك يحمل بعضه بعضاً إن اتقيت الله، وقد كان من بيعة الناس إياي ما قد بلغك، وقد كان طلحة والزبير أول من بايعني ثم نكثنا بيعتي من غير حدّث ولا سبب، وأخرجنا أمّ المؤمنين، فساروا إلى البصرة، وسرت إليهم فيمن بايعني من المهاجرين والأنصار، فالتقينا، فدعوتهم إلى أن يرجعوا إلى ما خرجوا منه، فأبوا، فأبلغت في الدعاء وأحسنت في البقيا، وأمرت ألا يُذفّ على جريح ولا يُتبع مُنهزم ولا يُسلب قتيل، ومن ألقى سلاحه وأغلق بابه فهو آمن. واعلم أن عملك ليس لك بطعمة، إنما هو أمانة في عنقك، وهو مال من مال الله، وأنت من خزائي عليه حتى تُؤديه إليّ إن شاء الله، ولا قوة إلا بالله. فلما بلغ الأشعث كتاب عليّ قام فقال: أيها الناس، إن عثمان بن عفان ولاني أذربيجان فهلك، وقد بقيت في يدي، وقد بايع الناس عليّاً وطاعتنا له واجبة، وقد كان من أمره وأمر عدوّه ما كان، وهو المأمون على من غاب من ذلك المجلس، ثم جلس.

قوله في أصحاب الجمل

أبو بكر بن أبي شيبه قال: سُئل علي عن أصحاب الجمل: أمشركون هم؟ قال: من الشرك فروا. قال: فمنافقون هم؟ قال: إن المنافقين لا يذكرون الله إلا قليلاً. قال: فما هم! قال: إخواننا بَعُوا علينا. ومَر علي بقتلى الجمل فقال: اللهم اغفر لنا ولهم، ومعه محمد بن أبي بكر وعمار بن ياسر، فقال أحدهما لصاحبه: أما تسمع ما يقول! قال: اسكت لا يزيدك. وكيع عن مسعر عن عبد الله بن رباح عن عمار قال: لا تقولوا: كَفَر أهل الشام، ولكن قولوا: فسقوا وظلموا. وسُئل عمار بن ياسر عن عائشة يوم الجمل فقال: أما والله إنا لنعلم أنها زوجته في الدنيا والآخرة، ولكن الله ابتلاكم بما يعلم أتبعونه أم تتبعونها. وقال علي بن أبي طالب يوم الجمل: إن قوماً زعموا أن البغي كان مآ عليهم، وزعمنا انه منهم علينا، وإنما اقتتلنا على البغي ولم نقتل على التكفير.

أبو بكر بن أبي شيبه قال: أول ما تكلمت به الخوارج يوم الجمل قالوا: ما أحلّ لنا دماءهم وحرّم علينا أموالهم! فقال علي: هي السنة في أهل القبلة. قالوا: ما ندرى ما هذا؟ قال: فهذه عائشة رأس القوم، أتتساهمون عليها! قالوا: سبحان الله! أمنا. قال: فهي حرام؟ قالوا: نعم. قال: فإنه يحرم من أبنائها ما يحرم منها. قال: ودخلت أم أوفى العبديّة على عائشة بعد وقعة الجمل فقالت لها: يا أمّ المؤمنين، ما تقولين في امرأة قتلت ابناً لها صغيراً؟ قالت: وحبّت لها النار. قالت: فما تقولين في امرأة قتلت من أولادها الأكابر عشرين ألفاً في صعيد واحد؟ قالت: خذوا بيد عدوة الله. وماتت عائشة في أيام معاوية، وقد قاربت السبعين. وقيل لها: تُدفن مع رسول الله صلى الله عليه وسلم؟ قالت: لا، إني أحدثت بعده حدّاً فادفوني مع إخواني بالبيع. وقد كان النبي صلى الله عليه وسلم قال لها: يا حميراء، كأني بك تَنبُحِك كلاب الحُوب. تقاتلين عليّاً وأنت له ظالمة. والحُوب، بضم الحاء وتثقيب الواو، وقد زعموا أن الحُوب ماء في في طريق البصرة. قال في ذلك بعض الشيعة:

وَبَنِي الوَصِيِّ شُهُودِهِمِ والغَيْبِ

وَمِنَ التي نَبَحَت كِلابُ الحُوبِ

إني أدينُ بحُب آل محمدٍ

وأنا البريء من الزُّبَيْرِ وطلحة

أخبار علي ومعاوية

كتب علي بن أبي طالب إلى جرير بن عبد الله، وكان وجهه إلى معاوية في أخذ بيعته، فأقام عنده ثلاثة أشهر يُماطله بالبيعة، فكتب إليه علي: سلام عليك، فإذا أتاك كتابي هذا فأحمل معاوية على الفصل، وخيره بين حرب مجلّية، أو سلم محظية. فإن اختار الحرب فانبذ إليهم على سواء إن الله لا

يُحب الخائنين، وإن اختار السلم فخذ بيعة وأقبل إلي. وكتب عليّ إلى معاوية بعد وقعة الجمل: سلام عليك. أما بعد. فإن بيعتي بالمدينة لزمك وأنت بالشام، لأنه بايعني الذين بايعوا أبا بكر وعمر وعثمان علي ما بويعوا عليه. فلم يكن للشاهد أن يختار ولا للغائب أن يردّ، وإنما الشورى للمهاجرين والأنصار، فإذا اجتمعوا على رجل وسموه إماماً كان ذلك لله رضاءً، وإن خرج عن أمرهم خارجاً رده إلى ما خرج عنه؛ فإن أبي قاتلوه على أتباعه غير سبيل المؤمنين، وولاه الله ما تولى وأصله جهنم وساءت مصيراً. وإن طلحة والزبير بايعاني ثم نقضا بيعتهما، وكان نقضهما كردهما، فجاهدتهما بعد ما أعذرت إليهما، حتى جاء الحق وظهر أمر الله وهم كارهون. فادخل فيما دخل فيه المسلمون، فإن أحب الأمور إليّ قبولك العافية. وقد أكثرت في قتلة عثمان، فإن أنت رجعت عن رأيك وخلافك ودخلت فيما دخل فيه المسلمون، ثم حاكمت القوم إلي، حملتكم وإياهم على كتاب الله. وأما تلك التي تُريدها فهي خدعة الصبي عن اللبن. ولعمري لئن نظرت بعقلك دون هواك لتجدني أبرأ قريش من دم عثمان. واعلم أنك من الطلقاء الذين لا تحل لهم الخلافة ولا يدخلون في الشورى، وقد بعثت إليك وإلى من قبلك جرير بن عبد الله، وهو من أهل الإيمان والمهجرة، فبايعه ولا قوة إلا بالله. فكتب إليه معاوية: سلام عليك. أما بعد، فلعمري لو بايعك الذين ذكرت وأنت بريء من دم عثمان لكنت كأبي بكر وعمر وعثمان، ولكنك أغريت بدم عثمان وخذلت الأنصار، فأطاعك الجاهل، وقوي بك الضعيف. وقد أبي أهل الشام إلا قتالك حتى تدفع إليهم قتلة عثمان، فإن فعلت كانت شورى بين المسلمين. وإنما كان الحجازيون هم الحكام على الناس والحق فيهم، فلما فارقه كان الحكام على الناس أهل الشام. ولعمري ما حجتك على أهل الشام كحجتك على أهل البصرة، ولا حجتك عليّ كحجتك على طلحة والزبير، إن كانا بايعاك فلم أبايعك أنا. فأما فضلك في الإسلام وقرابتك من رسول الله صلى الله عليه وسلم فلست أدفعه. فكتب إليه عليّ: أما بعد. فقد أتانا كتابك، كتاب امرئ ليس له بصير يهديه ولا قائد يرشده، دعاه الهوى فأجاب، وقاده فاتبعه. زعمت أنك إنما أفسد عليك بيعتي خفوري لعثمان. ولعمري ما كنت إلا رجلاً من المهاجرين أوردت كما أوردوا، وأصدرت كما أصدروا. وما كان الله ليجمعهم على ضلالة ولا ليضربهم بالعمى. وما أمرت فلزمتني خطيئة الأمر، ولا قتلت فأخاف على نفسي قصاص القاتل. وأما قولك إن أهل الشام هم حكام أهل الحجاز. فهات رجلاً من أهل الشام يُقبل في الشورى أو تحل له الخلافة، فإن سميت كذبك المهاجرون والأنصار. ونحن نأتيك به من أهل الحجاز. وأما قولك: ادفع إليّ قتلة عثمان. فما أنت وذاك؟ وهاتنا بنو عثمان، وهم أولى بذلك منك. فإن زعمت أنك أقوى على طلب دم عثمان منه، فارجع إلى البيعة التي لزمك وحاكم القوم إليّ. وأما تمييزك بين أهل الشام والبصرة، وبينك وبين طلحة والزبير. فلعمري ما الأمر هناك إلا واحد، لأنها بيعة عامة لا يتأتى فيها النظر ولا يُستأنف فيها الخيار. وأما قرابتي من رسول الله صلى الله عليه وسلم وقدمي في الإسلام، فلو استطعت دفعه لدفعته. وكتب معاوية إلى عليّ: أما بعد. فإنك قتلت ناصرك، واستنصرت واترك. فوام الله لأرمتك بشهاب تُزكيه الريح ولا يُطفئه الماء. فإذا وقع وقب، وإذا مسّ ثقب، فلا تحسبني كسُحيم أو عبد القيس أو حُلوان الكاهن. فأجابه عليّ: أما بعد. فوالله ما قتل ابن عمك غيرك! أي أرجو أن ألحقك به على مثل ذنبه وأعظم من خطيئته. وإن السيف الذي ضربت به أهلك لمعي دائم. والله ما استحدثت ذنباً، ولا استبدلت نبياً، وإني على المنهاج الذي تركتموه طائعين، وأدخلتم فيه كارهين. وكتب معاوية إلى علي بن أبي طالب: أما بعد.

فإن

الله اصطفى محمداً وجعله الأمين على وحيه، والرسول إلى خلقه، واختار له من المسلمين أعواناً أيده بهم، وكانوا في منازلهم عنده على قدر فضائلهم في الإسلام، فكان أفضلهم في الإسلام وأنصحهم لله ولرسوله الخليفة، وخليفة الخليفة، والخليفة الثالث، فكلهم حسدت، وعلى كلهم بيعت. عرفنا ذلك في نظرك الشزر، وتفطسك الصعداء، وإبطائك على الخلفاء، وأنت في كل ذلك تُقاد كما يُقاد البعير المخشوش، حتى تُبايع وأنت كاره. ولم تكن لأحد منهم أشد حسداً منك لابن عمك عثمان، وكان أحقهم أن لا تفعل ذلك في قرابته وصهره. فقطعت رحمة، وقبحت محاسنه، وألبت عليه الناس، حتى ضربت إليه آباط الإبل، وشهر عليه السلاح في حرم الرسول، فقتل معك في المحلة وأنت تسمع في داره الهاتعة، لا تُؤدّي عن نفسك في أمره بقول ولا فعل برّ. أقسم قسماً صادقاً لو قصت في أمره مقاماً واحداً تنهيت الناس عنه ما عدل بك ممن قبلنا من الناس أحد ولمحا ذلك عنك ما كانوا يعرفونك به من المجانبة لعثمان، فهم بطانتك وعضدك وأنصارك. فقد بلغني أنك تنتفي من دمه، فإن كنت صادقاً فادفع إلينا قتله نقتلهم به، ثم نحن أسرع الناس إليك، وإلا فليس لك ولا لأصحابك عندنا إلا الصيف. والذي نفس معاوية بيده لأطبلن قتلة عثمان في الجبال والرمال والبر والبحر حتى نقتلهم أو تلحق أرواحنا بالله. فأجابه عليّ: أما بعد. فإن أخوا خولان قدم علي بكتاب منك تذكر فيه محمداً صلى الله عليه وسلم وما أنعم الله به عليه

من الهدى والوحي. فالحمد لله الذي صدقه الوعد، وتم له النصر، ومكّنه في البلاد، وأظهره على الأعداء من قومه، الذين أظهروا له التكذيب، ونابدوه بالعداوة، وظاهره على إخراجهم وألبوا عليه العرب، وحزّبوا الأحزاب، حتى جاء الحق وظهر أمر الله وهم كارهون. وذكرت أن الله اختار من المسلمين أعواناً أيده بهم، فكانوا في منازلهم عنده على قدر فضائلهم في الإسلام، فكان أفضلهم في الإسلام وأنصحته لله ولرسوله الخليفة من بعده. ولعمري إن كان مكائهما في الإسلام لعظيما، وإن كان المصاب بهما لجرحا في الإسلام شديداً، فرحمهما الله وغفر لهما. وذكرت أن عثمان كان في الفضل ثالثاً، فإن كان مُحسناً فسيلقي رباً شكوراً يُضاعف له الحسنات ويجزيه الثواب العظيم، وإن يك مُسيئاً فسيلقي رباً غفوراً، لا يتعاضمه ذنب يغفره. ولعمري إني لأرجو إذا الله أعطى الأسمه أن يكون سَهْمنا أهل البيت أوفر نصيب. وإيم الله، ما رأيت ولا سمعت بأحد كان أنصح لله ورسوله، ولا أنصح لرسول الله في طاعة الله، ولا أصبر على البلاء والأذى في مواطن الخوف، من هؤلاء نفر من أهل بيته، الذي قُتلوا في طاعة الله: عبدة بن الحارث يوم بدر، وحمزة بن عبد المطلب يوم أحد، وجعفر وزيد يوم مؤتة. وفي المهاجرين خير كثير، جزاهم الله بأحسن أعمالهم. وذكرت إبطائي عن الخلفاء وحسدي إياهم والبغي عليهم. فأما البغي، فمعاذ الله أن يكون. وأما الكراهة لهم، فوالله ما اعتذر للناس من ذلك. وذكرت بغيي على عثمان وقطعي رحمه، فقد عمل عثمان بما قد علمت، وعمل به الناس ما قد بلغك. فقد علمت أي كنت من أمره في عزلة، إلا أن تجنّي، فنجن ما شئت وأما ذكرك قتلة عثمان وما سألت من دفعهم إليك، فإني نظرت في هذا الأمر وضربت أنفه وعينه، فلم يسعني دفعهم إليك ولا إلى غيرك، وإن لم تترع عن غيبك لعرفتك عما قليل يطلبونك ولا يكلفونك أن تطلبهم في سهل ولا جبل، ولا بر ولا بحر. وقد كان أبوك أبو سفيان أتاني حين قبض رسول الله صلى الله عليه وسلم فقال. ابسط يدك أبايعك، فأنت أحق الناس بهذا الأمر. فكنت أنا الذي أبيت عليه مخافة الفرقة بين المسلمين، لقرب عهد الناس بالكفر. فأبوك كان أعلم بحقي منك، وإن تعرف من حقي ما كان أبوك يعرفه تُصّب رشذك، وإلا فنتستعين الله عليك. وكتب عبد الرحمن بن الحكم إلى معاوية:

كتاباً من أخي ثقة يلوّم

كدا بغة وقد حلّم الأديم

ألا أبلغ معاوية بن حرب

فإنك والكتاب إلى عليّ

يوم صفين

أبو بكر بن أبي شيبة قال: خرج علي بن أبي طالب من الكوفة إلى معاوية في خمسة وتسعين ألفاً، وخرج معاوية من الشام في بضع وثمانين ألفاً، فالتقوا بصفين. وكان عسكر علي يُسمى الزحجة، لشدة حرّكته، وعسكر معاوية يسمى الحضرية، لاسوداده بالسلاح والدروع. وأبو الحسن قال: كانت أيام صفين كلها موافقة، ولم تكن هزيمة بين الفريقين إلا على حامية ثم يكرون. أبو الحسن قال: كان مُنادي علي يخرج كل يوم وينادي: أيها الناس، لا تُجهزوني على جريح، ولا تُبغعن مؤلياً، ولا تُسلبن قتيلاً، ومن ألقى سلاحه فهو آمن. أبو الحسن قال: خرج معاوية إلى علي يوم صفين، ولم يُبايعه أهل الشام بالخلافة، وإنما بايعوه على نُصرة عثمان والطلب بدمه. فلما كان من أمر الحكمين ما كان، بايعوه بالخلافة. فكتب معاوية إلى سعد بن أبي وقاص يدعو إلى القيام معه في دم عثمان: سلام عليك: أما بعد. فإن أحق الناس بنُصرة عثمان أهل الشورى من قريش، الذين اثبتوا حقّه، واختاروه على غيره، ونُصرة طلحة والزبير، وهما شريكاك في الأمر، ونظيراك في الإسلام. وخفت لذلك أم المؤمنين، فلا تُكره ما رضوا، ولا تُردّ ما قبلوا، وإنما نريد أن نردّها شورى بين المسلمين. والسلام.

فأجاب سعد: أما بعد. فإن عمّر رضي الله عنه لم يُدخل في الشورى إلا من تحل له الخلافة، فلم يكن أحد أولى بها من صاحبه إلا باجتماعنا عليه. غير أن علياً كان في ما فينا، ولم يكن فينا ما فيه، ولو لم يطلبها ولزم بيته لطلبته العرب ولو بأقصى اليمن. وهذا الأمر قد كرهنا أوله وكرهنا آخره. وأما طلحة والزبير فلو لزمنا بيوتهما لكان خيراً لهما. والله يعفر لأم المؤمنين ما أتت. وكتب معاوية إلى قيس بن سعد بن عباد: أما بعد. فإنما أنت يهودي ابن يهودي، إن ظفر أحب الفريقين إليك عزلك واستبدل بك، وإن ظفر أبغض الفريقين إليك قتلك وتكل بك. وقد كان أبوك أوتر قوسه ورَمَى غرضه، فأكثر الحز وأخطأ المفضل، فخذله قومه، وأدركه يومه، ثم مات طريداً بحوران.

فأجابه قيس: أما بعد. فأنت وثنيّ ابن وثنيّ. دخلتَ في الإسلام كرهاً، وخرجتَ منه طوعاً، لم يقدّم إيمانك، ولم يحذر نفاقك. ونحن أنصارُ الدين الذي خرجتَ منه، وأعداء الدين الذي دخلتَ فيه. والسلام.

وخطب عليّ بن أبي طالب أصحابه يوم صفين فقال: أيها الناس، إن الموتَ طالبٌ لا يُعجزه هارب، ولا يفوته مُقيم، أقدموا ولا تنكّلوا، فليس عن الموتِ مَحِيص. والذي نفسُ ابن أبي طالب بيده، إن ضربة سيف أهُونُ من موت الفراش.

أيها الناس، اتقوا السيوفَ بوجوهكم، والرماحَ بصدوركم، وموعدي وإياكم الرايةَ الحمراء. فقال رجلٌ من أهل العراق: ما رأيتُ كالיום خطيباً يخطبنا! يأمرنا أن نتقي السيوفَ بوجوهنا، والرماحَ بصدورنا، ويعدنا رايةً بيننا وبينها مائة ألف سيف.

قال أبو عبيدة في التاج: جمّع عليّ بن أبي طالب رياسةَ بكر كلّها يوم صفين لحُضين بن المنذر بن الحارث بن وُعلة، وجعل ألويتها تحت لوائه، وكانت له رايةٌ سوداء يَخْفِقُ ظلُّها إذا أُقبل، فلم يُغن أحدٌ في صفين غناه. فقال فيه عليّ بن أبي طالب رضي الله عنه:

إذ قيلَ قَدَمَها حُضِينُ تَقَدَّمَ

حياضَ المنايا تَقَطَّرَ السَّمَّ وَالِدَمَّا

ربيعة خيراً ما أعفَّ وأكرما

لمن رايةٌ سِوَاها يَخْفِقُ ظِلُّها

يَقْدَمُها في الصَّفِّ حَتَّى يُزِيرَها

جَزَى اللهُ عَنِّي وَالْجِزَاءُ بِكَفِّه

وكان من همدان في صفين حُسن. فقال فيهم علي بن أبي طالب رضي الله عنه:

وبأسٌ إذا لاقوا وحُسنُ كلام

لقلتُ لهمدان ادخلوا بسلام

لهمدان أخلاقٌ ودينٌ يزينهم

فلو كُنتُ بواباً على بابِ جَنَّة

أبو الحسن قال: كان فيّ بن أبي طالب يخرج كلّ غداةً لصفين في سرعان الخيل فيقف بين الصفين ثم ينادي: يا معاوية، علام يقتل الناس؟ أبرز إلي وأبرز إليك فيكون الأمرُ لمن غلب. فقال له عمرو بن العاص: أنصفك الرجلُ. فقال له معاوية: أردتها يا عمرو، والله لا رضيتُ عنك حتى تُبارز عليّاً. فبرز إليه متنكراً، فلما غشيه علي بالسيف رمى بنفسه إلى الأرض وأبدى له سواته، فضرب عليّ وجهَ فرسه وانصرف عنه. فجلس معه معاوية يوماً فنظر إليه فضحك. فقال عمرو: أضحك الله سنك، ما الذي أضحكك؟ قال: من حضور ذهنك يوم بارزت عليّاً إذ اتقيته بعورتك. أما والله لقد صادفتُ مناناً كريماً، ولولا ذلك لخرم رفيعك بالرمح. قال عمرو بن العاص: أما والله إني عن يمينك إذ دعاك إلى البراز فأحولت عينك، ورباً لسحرُك، وبدأ منك ما أكره ذكره لك. وذكر عمرو بن العاصي عند علي بن أبي طالب، فقال فيه عليّ: عجباً لابن النابغة! يزعم أنّي بلقائه أعافس وأمارس، أنّي وشترُ القول أكذبُه، إنه يسأل فيلحف، ويسأل فييحل. فإذا أحمرّ البأس، وحَمِي الوطيس، وأخذت السيوفُ مأخذها من هام الرجال. لم يكن له هُتمٌ إلا نزعُه ثيابه، ويمنح الناس استه، أغضه الله وترّحه.

مقتل عمار بن ياسر

العُبيّ قال: لما التقى الناس بصفين نظر معاوية إلى هاشم بن عتبة الذي يقال له: المرقال، لقول النبي صلى الله عليه وسلم: أرقل ليمون. وكان أعور، والراية بيده، وهو يقول.

قد عالَجَ الحياةَ حَتَّى مَلَأَ

أعور يبغي نفسه محلاً

أعور يبغي نفسه محلاً

لا بُدَّ أن يفل أو يفلا

فقال معاوية لعمر بن العاص: يا عمرو، هذا المر قال، والله لئن زحف بالراية زحفاً إنه ليوم أهل الشام الأطول. ولكني أرى ابن السوداء إلى جنبه، يعني عماراً، وفيه عجلة في الحرب، وأرجو أن تُقدمه إلى المهلكة. وجعل عمار يقول: أبا عتبة، تقدم. فيقول: يا أبا اليقظان، أنا أعلم بالحرب منك، دعني أزحف بالراية زحفاً. فلما أضحجه وتقدم، أرسل معاوية خيلاً فاخطفوا عماراً، فكان يُسمي أهل الشام قتلَ عمار فتحَ الفتوح. أبو بكر بن أبي شيبة: عن يزيد بن هارون عن العوام بن حوشب عن أسود بن مسعود عن حنظلة بن خويلد قال: إني لجالس عند معاوية إذ أتاه رجلان يختصمان في رأس عمار، كل واحد منهما يقول: أنا قتلتُه. فقال لهما عبدُ الله بن عمرو بن العاص: ليطبُ به أحدكما نفساً لصاحبه، فإني سمعت رسول الله صلى الله عليه وسلم يقول له: تقتلك الفئة الباغية. أبو بكر بن أبي عشيبة عن ابن عُلية عن ابن عَوْن عن الحسن بن أم سلمة قالت: سمعتُ رسولَ الله صلى الله عليه وسلم يقول: تقتل عماراً الفئة الباغية. أبو بكر قال: حدَّثنا عليُّ بن حفص عن أبي معشر عن محمد بن عُمارة قال: ما زال جدِّي خزيمه بن ثابت كافاً سلاحه يوم صفين حتى قُتلَ عمار، فلما قُتلَ سَلَّ سيفه وقال: سمعت رسول الله صلى الله عليه وسلم يقول: تقتل عماراً الفئة الباغية. فما زال يُقاتل حتى قُتل. أبو بكر عن عُندَر عن شعبة عن عمرو بن مرة عن عبد الله بن سَلَمَةَ قال: رأيتُ عماراً يومَ صفين شيخاً آدم طويلاً أخذاً الحربة بيده، ويدهُ ترعد، وهو يقول: والذي نفسي بيده، لقد قاتلتُ هذه الحربة مع رسول الله صلى الله عليه وسلم ثلاث مرات وهذه الرابعة. والذي نفسي بيده لو ضربونا حتى يبلغوا بنا سَعَفات هجر لعرفتُ أنا على حق وأهم على باطل. ثم جعل يقول: صبراً عبادَ الله، الجنة تحت ظلال السيوف. أبو بكر بن أبي شيبة عن وكيع عن سُفيان عن حبيب عن أبي البحتري قال: لما كان يوم صفين واشتدت الحربُ دعا عمارُ بشريةَ لبن وشرها وقال: إن رسول الله صلى الله عليه وسلم قال لي: إن آخر شربة تشربها من الدنيا شربة لبن. أبو ذرُّ عن محمد بن يحيى عن محمد بن عبد الرحمن عن أبيه عن جدته أم سلمة زوج النبي صلى الله عليه وسلم قال: لما بُني رسول الله صلى الله عليه وسلم مسجده بالمدينة أمر باللبن يُضرب وما يُحتاج إليه، ثم قام رسول الله صلى الله عليه وسلم فوضع رداءه، فلما رأى ذلك المهاجرون والأنصار وضعوا أرديتهم وأكسيتهم يرتجزون ويقولون ويعملون:

ذَكَ إِذَا لَعْمَلٌ مُضَلَّلٌ

لَنْ قَعَدْنَا وَالنَّبِيَّ يَعْمَلُ

قالت: وكان عثمان بن عفان رجلاً نظيفاً مُتَنظِّفًا، فكان يحملُ اللَّبنة ويُجافي بها عن ثوبه، فإذا وَضَعَهَا نَفَضَ كَفَّيْهِ وَنَظَرَ إِلَى ثَوْبِهِ، فَإِذَا أَصَابَهُ شَيْءٌ مِنَ التَّرَابِ نَفَضَهُ. فنظر إليه علي رضي الله عنه فأنشده:

يَذَابُ فِيهَا رَاكِعًا وَسَاجِدًا

لَا يَسْتَوِي مَنْ يَعْمُرُ الْمَسَاجِدَا

وَمَنْ يُرَى عَنِ التَّرَابِ حَائِدًا

وَقَائِمًا طَوْرًا وَطَوْرًا قَاعِدًا

فسمعها عمارُ بن ياسر فجعل يرتجزها وهو لا يدري من يعني. فسمعه عثمان، فقال: يا بن سُمَيَّة، ما أعرفني بمن تُعرِّض، ومعه جريدة، فقال: لتكفن أو لأعترضنَ بها وجهك. فسمعه النبي صلى الله عليه وسلم وهو جالس في ظل حائط، فقال: عمارُ جلدة ما بين عيني وأنفي، فمن بلغ ذلك منه فقد بلغ مني، وأشار بيده فوضعها بين عينيه. فكفَّ الناسُ عن ذلك، وقالوا لعمار: إن رسول الله صلى الله عليه وسلم قد غَضِبَ فَيْكَ وَخَافَ أَنْ يَتَزَلَ فِيْنَا قِرَانَ. فقال: أنا أرضيه كما غضب. فأقبل عليه فقال: يا رسول الله، مالي ولأصحابك؟ قال: وما لك ولهم؟ قال: يريدون قتلي، يحملون لبنة ويحملون على لبنتين. فأخذ به وطاف به في المسجد، وجعل يمسح وجهه من التراب ويقول: يا بن سُمَيَّة. لا يقنتك أصحابي، ولكن تقتلك الفئة الباغية. فلما قُتلَ بصفين وروى هذا الحديث عبدُ الله بن عمرو بن العاص، قال معاوية: هم قتلوه لأهم أخرجوه إلى القتل. فلما بلغ ذلك علياً قال: ونحن قتلنا أيضاً حمزة لأننا أخرجناه.

من حرب صفين

أبو الحسن قال: كانت أيام صفين كلها موافقة، ولم تكن هزيمة في أحد الفريقين إلا على حامية ثم يكرون. أبو بكر بن أبي شيبة قال: انفضت وقعة صفين عن سبعين ألف قتيل، خمسين ألفاً من أهل الشام، وعشرين ألفاً من أهل العراق. ولما انصرف الناس من صفين قال عمرو بن العاص:

مُشْرِفُ الْحَارِكِ مَحْبُوكُ النَّبِجِ

شَبَّتْ الْحَرْبُ فَأَعَدَّتْ لَهَا

يصل الشرُّ بشرَّ فإذا

جُرُشُعُ أعظمه جُفْرته

وقال عبدُ الله بن عمرو بن العاص:

وَتَبِ الخيلُ من الشرِّ مَعَج

فإذا ابتل من الماء خَرَج

بصَفِّين يوماً شاباً منها الذوائبُ

سحابُ خريف صَفَفَتَه الجَنائبُ

كَنائِبُ منهم وارِجَحَنْت كَنائِب

سِراةَ النَّهار ما تُولِّي المَنابِك

عليًّا فقلنا بل نرى أن تُضاربوا

فإن شهدتُ جُمْلُ مَقامي ومَشْهَدي

عشيَّةَ جا أهلُ العِراق كأنهم

إذا قلتُ قد ولّوا سِراعاً بدت لنا

فدارت رَحانا واستدارت رِحاَهُم

وقالوا لنا إنا نرى أن تُتابعوا

وقال السيّد الحميري، وهو رأس الشيعة، وكانت الشيعة من تعظيمها له تلقي له وساداً بمسجد الكوفة:

وشاركتُ كَفَّهُ كَفِّي بصَفِّينَا

وأبرز اللهُ لِلقِسْطِ المَوازِينَا

ثم اسقني مِثلها آمين آمينا

في فِتيَةٍ هاجروا في اللهُ شارِينَا

نِعْم المُرَاد توخَّاه المُرِيدونَا

إني أدينُ بما دان الوصيُّ به

في سَفْكِ ما سَفَكْتَ منها إذا احتَضَرُوا

تلك الدِّماءَ معاً يا ربَّ في عُنُقِي

آمين من مِثلهم في مِثل حالهم

ليسوا يُريدون غيرَ اللهُ ربِّهم

وقال النَّجاشي يوم صِفِّين، وكتب بها إلى معاوية:

يا أيها الملك المَبْدي عداوتُه

فإن نَفَسْتَ على الأَقوامِ مَجْدَهُم

واعلم بأنَّ عليَّ الخَيْر من نَفَر

نِعْمَ الفتى أنت إلبا أن بينكما

وما إخالكَ إلا لست مُنتهياً

انظر لنفْسِكَ أيَّ الأَمْرِ تَأْتِمِرُ

فابسُطْ يَدَيْكَ فإنَّ الخَيْرَ مُبْتَدِرُ

سُمُّ العَرانين لا يعلوهم بَشَرُ

كَمَا تَفاضل ضوءُ الشَّمسِ والقمرِ

حتى يَنالكَ من أَظفارِه ظُفَرُ

خبر عمرو بن العاص مع معاوية

سُفيان بن عُيينة قالت: أخبرني أبو موسى الأشعري قال: أخبرني الحسنُ قال: علِم معاوية والله إن لم يبايعه عمرو لن يتم له أمر، فقال له: يا عمرو، اتبعني. قال: لماذا؟ للأخرة؟ فوالله ما معك آخرة، أم للدنيا؟ فوالله لا كان حتى أكون شريكك فيها. قال: فأنت شريكي فيها. قال: فاكْتُب لي مصرَ وكُورها. فكتب له مصرَ وكُورها، وكتب في آخر الكتاب: وعلى عمرٍو والسمعُ والطاعة. قال عمرو: واكتب: إن السمع والطاعة لا يَنقُصان من شرطه شيئاً. قال معاوية: لا ينظر الناس إلى هذا. قال عمرو: حتى تكتب. قال: فكتب، والله ما يجد بدأً من كتابتها. ودخل عتبة بن أبي سفيان على معاوية وهو يكلمُ عمرًا في مصر، وعمرو يقول له: إنما أبايعك بما ديني. فقال عتبة: ائتمن الرجل بدينه فإنه صاحبٌ من أصحاب محمد صلى الله عليه

**مُعَاوِي لَا أُعْطِيكَ دِينِي وَلَمْ أُنَلِّ
وَمَا الدِّينُ وَالدُّنْيَا سِوَاءَ وَإِنِّي
فَإِن تَعَطْنِي مِصْرًا فَأَرْبِحُ صَفْقَةً**

**به منك دُنْيَا، فَانظُرْ كَيْفَ تَصْنَعُ؟
لَاخُذْ مَا تُعْطِي وَرَأْسِي مُقْتَع
أَخَذْتَ بِهَا شَيْخًا يَضُرُّ وَيَنْفَعُ**

وقالوا: لما قَدِم عمرو بن العاص على معاوية وقام معه في شأن عليّ، بعد أن جعل له مصر طُعمَة، قال له: إن بأرضك رجالاً له شَرَفٌ واسم، والله إن قام معك استهويت به قلوبَ الرجال، وهو عبادة بن الصامت. فأرسل إليه معاوية. فلما أتاه وَسَّعَ له بينه وبين عمرو بن العاص، فَجَلَسَ بينهما. فَحَمَدَ الله معاوية وأثنى عليه، وذكر فضلَ عبادة وسابقتَه، وذكر فضلَ عُثْمان وما ناله، وحضَّه على القيام معه. فقال عبادة: قد سمعتُ ما قلتَ، أتدريانِ لمَ جَلَسْتُ بينكما في مكانكما؟ قالوا: نعم، لفضلك وسابقتك وشرفك. قال: لا والله، ما جلستُ بينكما لذلك، وما كنتُ لأجلس بينكما في مكانكما، ولكن بينما نحن نسير مع رسول الله صلى الله عليه وسلم في غزاة تبوك إذ نظر إليكما تسييران، وأنتما تتحدثان، فالتفت إلينا فقال: إذا رأيتموهما اجتماعاً ففرقوا بينهما، فإنهما لا يجتمعان على خير أبداً. وأنا أهما كما عن اجتماعكما. فأما ما دعوتاني إليه من القيام معكما، فإن لكما عدواً هو أغلظ أعدائكما، وأنا كامنٌ من ورائكم في ذلك العدو، إن اجتمعتم على شيء دخلت فيه.

أمر الحكيمين

أبو الحسن قال: لما كان يوم الهزير، وهو أعظم يوم بصفين، زحف أهل العراق على أهل الشام فأزالوهم عن مراكزهم، حتى انتهوا إلى سُرَادِقِ معاوية، فدعا بالفرس وهم بالهزيمة، ثم التفت إلى عمرو بن العاص، وقال له: ما عندك؟ قال: تأمر بالمصاحف فترفع في أطراف الرِّمَاح، ويقال: هذا كتابُ الله يحكم بيننا وبينكم. فلما نظر أهل العراق إلى المصاحف ارتدوا واختلفوا، وقال بعضهم: نحاكمهم إلى كتاب الله. وقال بعضهم: لا نحاكمهم، لأننا على يقين من أمرنا ولسنا على شك. ثم أجمع رأيهم على التحكيم. فهمَّ عليّ أن يُقدِّم أبا الأسود الدَّؤَلِي، فأبى الناس عليه. فقال له ابن عباس: اجعلني أحدَ الحَكَمِين، فوالله لأقتلنَّ لك حياً لا ينقطع وسطه ولا يُنشر طرفاه. فقال له عليّ: لستَ من كيدك ولاحت كيد معاوية في شيء، لا أعطيه إلا السيف حتى يَغلبه الحق. قال: وهو والله لا يُعطيك إلا السيف حتى يَغلبك الباطل. قال: وكيف ذلك؟ قال: لأنك تُطاع اليوم وتُعصى غداً، وإنه يُطاع ولا يُعصى. فلما انتشر عن عليّ أصحابه قال: لله بلاءُ ابن عباس، إنه لينظر إلى العيب بستر رقيق. قال: ثم اجتمع أصحابُ البرانس، وهم وجوه أصحاب عليّ، على أن يقدِّموا أبا موسى الأشعري، وكان مُبرنساً، وقالوا: لا نرضى بغيره، فقدمه عليّ. وقدم معاوية عمرو بن العاص. فقال معاوية لعمرو: إنك قد رُميتَ برجل طويل اللسان قصير الرأي فلا تَرَمه بعقلك كله. فأخلى لهما مكان يجتمعان فيه، فأمهله عمرو بن العاص ثلاثة أيام، ثم أقبل إليه بأنواع من الطعام يشبهه بها، حتى إذا استبطن أبو موسى نجاه عمرو، فقال له: يا أبا موسى، إنك شيخ أصحاب محمد صلى الله عليه وسلم وذو فضلها وذو سابقتها، وقد ترى ما وقعت فيه هذه الأمة من الفتن العَمِيَاء التي لا بقاء معها، فهل لك أن تكونَ ميمونَ هذه الأمة فيَحْتَجِنَ الله بك دماءها، فإنه يقول في نفس واحدة: "ومن أحيائها فكأنما أحيأ الناس جميعاً"، فكيف بمن أحيأ أنفسَ هذا الخلقِ كله! قال له: وكيف ذلك؟ قال: تخلع أنت عليّ بن أبي طالب، وأخلع أنا معاوية بن أبي سفيان، ونختار لهذه الأمة رجلاً لم يحضر في شيء من الفتنة، ولم يغمس يده فيها. قال له: ومن يكون ذلك؟ وكان عمرو بن العاص قد فهم رأي أبي موسى في عبد الله بن عمر، فقال له: عبد الله بن عمر. فقال: إنه لكما ذكرت، ولكن كيف لي بالوثيقة منك؟ فقال له: يا أبا موسى، ألا بذكر الله تطمئن القلوب، خذ من العهود والمواثيق حتى ترضى. ثم لم يُبق عمرو بن العاص عهداً ولا موثقاً ولا يميناً مُؤكدة حتى حلف بها، حتى بقى الشيخ مبهوتاً، وقال له: قد أحببت. فتوذي في الناس بالاجتماع إليهما، فاجتمعوا. فقال له عمرو: قم فاحطب الناس يا أبا موسى. فقال: قم أنت أخطبهم. فقال: سبحان الله! أنا أتقدمك وأنت شيخ أصحاب رسول الله صلى الله عليه وسلم، والله لا فعلت أبداً! قال:

أو عسى في نفسك أمر؟ فزاده أيماناً وتوكيداً. حتى قام الشيخ فخطب الناس، فَحَمَدَ اللهَ وَأَثْنَى عليه، ثم قال: أيها الناس، إني قد اجتمعتُ أنا وصاحبي على أن أخلعَ أنا علي بن أبي طالب ويعزلَ هو معاويةَ بن أبي سفيان، ونجعل هذا الأمر لعبد الله بن عمر، فإنه لم يحضرُ في فتنه، ولم يَعْمَسِ يده في دم امرئ مسلم. ألا وإني قد خلعتُ عليَّ بن أبي طالب كما أخلعتُ سيفي هذا، ثم خلع سيفه من عاتقه، وجلس، وقال لعمرو: قُمْ. فقام عمرو بن العاص فحمد الله وأثنى عليه، وقال: أيها الناس، إنه كان من رأيي صاحبي ما قد سمعتم، وانه قد أشهدكم أنه خلَعَ عليَّ بن أبي طالب كما يخلع سيفه، وأنا أشهدكم أني قد أثبت معاوية بن أبي سفيان كما أثبت سيفي هذا، وكان قد خلع سيفه قبل أن يقومَ إلى الخطبة، فأعاده على نفسه. فاضطرب الناس، وخرجت الخوارج. وقال أبو موسى لعمرو: لعنك الله! فإنَّ مثلك كمثل الكلب إن تحمّل عليه يلهث أو تتركه يلهث. قال عمرو: لعنك الله! فإنَّ مثلك كمثل الحمار يحمل أسفاراً. وخرج أبو موسى من قوره ذلك إلى مكة مُستعيذاً بها من عليّ، وحلف أن لا يكلمه أبداً. فأقام بمكة حيناً حتى كتب إليه معاوية: سلامٌ عليك، أما بعد، فلو كانت النية تدفع الخطأ لنجا المجتهد وأعذر الطالب، والحق لمن نصب له فأصابه، وليس لمن عرض له فأخطأ. وقد كان الحكمان إذ حكما على عليّ لم يكن له الخيار عليهما، وقد اختاره القومُ عليك، فأكره منهم ما كرهوا منك، وأقبل إلى الشام فإني خيرٌ لك من عليّ، ولا قوة إلا بالله. فكتب إليه أبو موسى: سلامٌ عليك، أما بعد، فإني لم يكن مني في عليّ إلا ما كان من عمرو فيك، غير أني أردتُ بما صنعتُ ما عند الله، وأراد به عمرو ما عندك. وقد كان بيني وبينه شروط وشورى عن تراض، فلما رجع عمرو رجعتُ. أما قولك: إن الحكمين إذا حكما على رجل لم يكن له الخيار عليهما. فإنما ذلك في الشاة والبعير والدينار والدرهم. فأما أمر هذه الأمة، فليس لأحد فيما يكره حُكْم، ولن يُذهب الحقَّ عجزُ عاجز ولا خُدعة فاجر. وأما دعاؤك إياي إلى الشام، فليس لي رغبة عن حرم إبراهيم. فبلغ علياً كتابُ معاوية إلى أبي موسى الأشعري فكتب إليه: سلام عليك، أما بعد. فإنك امرؤ ظلمك الهوى واستدرجك العُور، حَقَّق بك حُسنَ الظن لزومك بيتَ الله الحرام غير حاجٍ ولا قاطن، فاستقل الله يُقلِّك؟ فإن الله يَغْفِر ولا يَغْفَل، وأحبَّ عباده إليه التوابون. وكتبه سماك بن حرب. فكتب إليه أبو موسى: سلامٌ عليك. فإنه والله لولا أني خشيتُ أن يرفعك مني منعُ الجواب إلى أعظم ممَّا في نفسك لم أُجيبك، لأنه ليس لي عندك عُذر ينفعني ولا قُوَّة تمنعني. وأما قولك "ولزومي بيتَ الله الحرام غير حاجٍ ولا قاطن" فإني اعتزلت أهلَ الشام، وانقطعت عن أهل العراق، وأصبت أقباطاً صغروا من ذنبي ما عظمتهم، وعظموا من حقِّي ما صغرتهم، إذ لم يكن لي منكم ولي ولا نصير. وكان علي بن أبي طالب إذ وجه الحكمان قال لهما: إنما حُكْمنا كما بكتاب الله، فُتْحِييان ما أحيا القرآن، وتُؤميتان ما أمات. فلما كاد عمرو بن العاص لأبي موسى اضطربَ الناس على عليّ واختلفوا، وخرجت الخوارج، وقالوا: لا حُكْم إلا الله، فَجَعَلَ عليّ يتمثل بهذه الأبيات:

سوف أكيس بعدها وأنشمر

لي زلة إليكم فأعتذر

وأجمع الأمر الشئيت المنتشر

أبو الحسن قال: لما قَدِمَ أبو الأسود الدؤلي على معاوية عام الجماعة، قال له معاوية: بلغني يا أبا الأسود أن علي بن أبي طالب أراد أن يجعلك أحد الحكمين، فما كنت تحكّم به؟ قال: لو جعلني أحدهما لجمعتُ ألفاً من المهاجرين وأبناء المهاجرين، وألفاً من الأنصار وأبناء الأنصار، ثم ناشدتهم الله: المهاجرين وأبناء المهاجرين أولى بهذا الأمر أم الطلقاء؟ قال له معاوية: لله أبوك! أي حُكْم كنت تكون لو حكمت!

احتجاج علي وأهل بيته في الحكمين

أبو الحسن قال: لما انقضى أمر الحكمين واختلف أصحابُ عليّ قال بعض الناس: ما منع أمير المؤمنين أن يأمر بعض أهل بيته فيتكلّم، فإنه لم يبق أحدٌ من رؤساء العرب إلا وقد تكلم. قال: فبينما علي يوماً على المنبر إذ التفت إلى الحسن ابنه فقال: قُمْ يا حسن فقل في هذين الرجلين: عبد الله بن قيس وعمرو بن العاص. فقام الحسن فقال: أيها الناس، إنكم قد أكثرتم في هذين الرجلين، وإنما بُعِثنا ليحكما بالكتاب على الهوى، فَحَكَمَا بالهوى على الكتاب. ومن كان هكذا لم يُسَمَّ حَكَمًا، ولكنه مَحْكوم عليه. وقد أخطأ عبدُ الله بن قيس إذ جعلها لعبدِ الله بن عمر، فأخطأ في ثلاث خصال:

واحدة، أنه خالف أباه، إذ لم يرضه لها، ولا جعله من أهل الشورى؛ وأخرى، أنه لم يستأمره في نفسه؛ وثالثة، أنه لم يجتمع عليه المهاجرون والأنصار الذين يعقدون الإمارة ويحكمون بها على الناس. وأما الحكومة، فقد حَكَم النبي عليه الصلاة والسلام سعد بن معاذ في بني قريظة، فحَكَم بما يرضي الله به ولا شك، ولو خالف لم يرضه رسول الله صلى الله عليه وسلم، ثم جلس. فقال لعبد الله بن عباس: قُمْ. فقال عبد الله بن عباس، بعد أن حَمِدَ الله وأثنى عليه: أيها الناس، إنَّ للحق أهلاً أصابوه بالتوفيق، فالناسُ بين راضٍ به وراغبٍ عنه، فإنه بعث عبد الله بن قيس يَهْدِي إلى ضلالة، وبعث عمرو بن العاص بضلالة إلى هُدَى، فلما التقيا رَجَعَ عبد الله بن قيس عن هُداه وتبَّت عمرو على ضلاله. وإيم الله، لئن كانا حَكَمَّا بما سارا به، لقد سار عبد الله وعليّ إمامه، وسار عمرو ومعاوية إمامه، فما بعد هذا من عيب يُنتظر؟ فقال عليّ لعبد الله بن جعفر بن أبي طالب: قُمْ. فقام فحمد الله وأثنى عليه، وقال: أيها الناس، إنَّ هذا الأمر كان النظر فيه إلى عليّ، والرضا إلى غيره. فَجِئْتُمْ إلى عبد الله بن قيس مُبرئناً فقلتم: لا نرضى إلا به. وإيم الله، ما استفدنا به علماً، ولا انتظر نامنه غائباً، وما نعرفه صاحباً. وما أفسدنا بما فعلا أهل العراق، وما أصلحنا أهل الشام، ولا وُضِعَ حق عليّ، ولا رفعا باطل معاوية، ولا يُذهب الحق رُفِيَةَ راق، ولا نَفَحَةَ شيطان، ونحن اليوم على ما كُنَّا عليه أمس.

احتجاج علي على أهل النهروان

قالوا: إنَّ علياً لما اختلف عليه أهل النهروان والقرى وأصحاب البرانس، ونزلوا قرية يقال لها حرُّ وراء، وذلك بعد وقعة الجمل، فرجع إليهم عليّ بن أبي طالب فقال لهم: يا هؤلاء، مَنْ زعيمكم؟ قالوا: ابن الكوّاء. قال: فليبرز لي. فخرج إليه ابن الكوّاء، فقال له عليّ: يا ابن الكوّاء، ما أخرجك علينا بعد رضاكم بالحكمين، ومقامكم بالكوفة؟ قال: قاتلت بنا عدواً لا نشك في جهاده، فرعمت أن قتلتنا في الجنة وقتلناهم في النار، فبينما نحن كذلك إذ أرسلت منافقاً، وحكمت كافراً، وكان مما شكك في أمر الله أن قلت للقوم حين دعوتهم: كتاب الله بيني وبينكم، فإن قضى في بايعتكم، وإن قضى عليكم بايعتموني. فلولا شكك لم تفعل هذا والحق في يدك. فقال عليّ: يا ابن الكوّاء، إنما الجواب بعد الفراغ، أفرضت فأجيبك؟ قالت: نعم. قال عليّ: أما قتالك معي عدواً لا نشك في جهاده، فصدقت، ولو شككت فيهم لم أقاتلهم. وأما قتلتنا وقتلناهم، فقد قال الله في ذلك ما يُستغنى به عن قولي؛ وأما إرسالي المنافق وتحكيمي الكافر، فأنت أرسلت أبا موسى مُبرئناً، ومعاوية حَكَمَ عمراً، أتيت بأبي موسى مُبرئناً، فقلت: لا ترضى إلا أبا موسى، فهلا قام إليّ رجل منكم فقال: يا عليّ، لا تُعطى هذه الدنية فإنها ضلالة. وأما قولي لمعاوية: إن تجرني إليك كتاب الله تبعثك، وإن جرّك إليّ تبعثني. زعمت أني لم أعط ذلك إلا من شك، فقد علمت أن أوثق ما في يدك هذا الأمر، فحدثني ويحك عن اليهودي والنصراني ومشركي العرب، أهم أقرب إلى كتاب الله أم معاوية وأهل الشام؟ قال: بل معاوية وأهل الشام أقرب قال عليّ: أفر سول الله صلى الله عليه وسلم كان أوثق بما في يديه من كتاب الله أو أنا؟ قال: بل رسول الله. قال: فرأيت الله تبارك وتعالى حين يقول: "قُلْ فَأْتُوا بِكِتَابٍ مِنْ عِنْدِ اللَّهِ هُوَ أَهْدَى مِنْهُمَا أَتَّبِعْهُ إِنْ كُنْتُمْ صَادِقِينَ" أما كان رسول الله يعلم أنه لا يُؤتى بكتاب هو أهدى مما في يديه؟ قال: بلى. قال: فلم أعطى رسول الله القوم ما أعطاهم؟ قال: إنصافاً وُحجة قال: فإني أعطيت القوم ما أعطاهم رسول الله. قال ابن الكوّاء: فإني اخطأت، هذه واحدة، زدني. قال عليّ: فما أعظم ما نعمتم عليّ؟ قال: تحكيم الحكمين، نظرنا في أمرنا فوجدنا تحكيمهما شكاً وتبديراً. قال عليّ: فمتى سُمِّي أبو موسى حَكَمًا؟ حين أرسل، أو حين حَكَم؟ قال: حين أرسل. قال: أليس قد سار وهو مُسلم، وأنت ترجو أن يحكم بما أنزل الله؟ قال: نعم. قال عليّ: فلا أرى الضلال في إرساله. فقال ابن الكوّاء: سمي حَكَمًا حين حَكَم. قال: نعم، إذاً فإرساله كان عدلاً. أرايت يا ابن الكوّاء لو أن رسول الله بعث مؤمناً إلى قوم مُشركين يدعوهم إلى كتاب الله، فارتد على عقبه كافراً، كان يضر نبي الله شيئاً؟ قال: لا. قال عليّ: فما كان ذنبي أن كان أبو موسى ضلّ، هل رضيت حكومته حين حَكَم، أو قوله إذ قال؟ قال ابن الكوّاء: لا، ولكنك جعلت مُسلماً وكافراً يحكمان في كتاب الله. قال عي: ويحك يا ابن الكوّاء! هل بعث عمراً غير معاوية، وكيف أحكمه وحكمه على ضرب عنقي؟ إنما رضي به صاحبه كما رضيت أنت بصاحبك، وقد يجتمع المؤمن والكافر يحكمان في أمر الله. أرايت لو أن رجلاً مؤمناً تزوج يهودية أو نصرانية فحافاً شقاقاً بينهما، ففزع الناس إلى كتاب الله، وفي كتابه "فأبغثوا حَكَمًا مِنْ أَهْلِهَا وَحَكَمًا مِنْ أَهْلِهَا" فجاء رجل من اليهود أو رجل من النصراني ورجل من المسلمين الذين يجوز لهما أن يحكما في كتاب الله، فحَكَمَا قال ابن

الكوّاء: وهذه أيضاً، أمهلنا حتى ننظر. فانصرف عنهم عليّ. فقال له صعصعة بن صوحان: يا أمير المؤمنين، ائذن لي في كلام القوة. قال: نعم، ما لم تَبْسُط يداً. قال: فنادى صعصعة ابن الكوّاء، فخرج إليه، فقال: أنشدكم بالله يا معشر الخارجين أَلَا تَكُونُوا عَاراً عَلَى مَنْ يَغْرُو لغيره، وَأَلَا تَخْرُجُوا بِأَرْض تُسَمُّو بِهَا بعد اليوم، ولا تستعجلوا ضلال العام خشية ضلال عام قابل. فقال له ابن الكوّاء: إن صاحبك لقينا بأمر قولك فيه صغير، فامسك. قالوا: إن عليّاً خرج بعد ذلك إليهم فخرج إليه ابن الكوّاء، فقال له عليّ: يا ابن الكوّاء، إنه من أذنب في هذا الدين ذنباً يكون في الإسلام حدثاً استتبهه من ذلك الذنب بعينه، وإن تويتك أن تعرف هدى ما خرجت منه وضلال ما دخلت فيه. قال ابن الكوّاء: إنا لا ننكر أنا قد فتنّا. فقال له عبدُ الله بن عمرو بن جرموز: أدركنا والله هذه الآية "ألم أحسب الناس أن يتركوا أن يقولوا آمناً وهم لا يفتنون" وكان عبدُ الله من قراء أهل حروراء، فرجعوا فصلّوا خلف عليّ الظهير، وانصرفوا معه إلى الكوفة، ثم اختلفوا بعد ذلك في رجعتهم، ولام بعضهم بعضاً. فقال زيد بن عبد الله الراسبي، وكان من أهل حروراء، يُشككهم:

ولو لم تشكوا ما أنثيتم عن الحرب
وكان لعبد الله خطباً من الخطب
فأصبح يهوى من ذرى حالي صعب

شككتكم ومن أرسى ثبيراً مكانه
وتحكيمكم عمراً على غير توبة
فأنكصه للعقب لما خلا به

وقال الرباعي:

وعمرٌ و عبدُ الله مُختلفان

ألم تر أن الله أنزل حكمه

وقال مسلم بن يزيد الثقفي، وكان من عبّاد حروراء:

خطايا بأخذ النصح من غير ناصح
عليّاً على أمرٍ من الحق واضح
سُررنا بأمرٍ غبه غير صالح

إن كان ما عيناه عيباً فحسبنا
إن كان عيباً فاعظمن بتركنا
نحن أناس بين بين وعلنا

ثم خرجوا على علي فقتلهم بالنهروان.

خروج عبد الله بن عباس على علي

قال أبو بكر بن أبي شيبة: كان عبدُ الله بن عباس من أحب الناس إلى عمر بن الخطاب، وكان يُقدّمه على الأكابر من أصحاب محمد صلى الله عليه وسلم، ولم يستعمله قط، فقال له يوماً: كدت استعملك ولكن أخشى أن تستحل الفيء على التأويل. فلما صار الأمر إلى عليّ استعمله على البصرة. فاستحل الفيء على تأويل قول الله تعالى "وأعلموا أن ما غنمتم من شيء فإن لله خمسه وللرسول ولذي القربى" واستحلّه من قرابته من رسول الله صلى الله عليه وسلم وروى أبو مخنف عن سليمان بن أبي راشد عن عبد الرحمن بن عبيد قال: مرّ ابن عباس على أبي الأسود الدؤلي فقال له: لو كنت من البهائم لكنت جَملاً، ولو كنت راعياً ما بلغت المرعى. فكتب أبو الأسود إلى عليّ: أما بعد. فإن الله جعلك والياً مؤمناً، وراعياً مسؤولاً، وقد بلونك، رحمك الله، فوجدناك عظيم الأمانة، ناصحاً للأمة، تُوقر لهم فيهم، وتكف نفسك عن دنياهم، فلا تأكل أموالهم، ولا ترتشي بشيء في أحكامهم. وابن عمك قد أكل ما تحت يديه من غير علمك، فلم يسعني كتمانك ذلك. فانظر، رحمك الله، فيما هنالك، وأكتب إليّ برأيك، فما أحببت أتبعه إن شاء الله. والسلام. فكتب إليه عليّ: أما بعد. فمثلك نصح الإمام والأمة، ووالى على الحق، وفارق الجور. وقد كتبت لصاحبك بما كتبت إليّ فيه، ولم أعلمه بكتابك إلي. فلا تدع إعلامي ما يكون بحضرتك مما النظر فيه للأمة صلاح، فإنك بذلك جدير، وهو حق واجب لله عليك. والسلام. وكتب عليّ إلى ابن عباس: أما بعد. فإنه قد بلغني عنك أمرٌ إن كنت فعلته فقد أسخطت الله، وأخربت أمانتك، وعصيت إمامك،

وختت المسلمين. بلغني أنك خرّبت الأرض، وأكلت ما تحت يدك. فارتفع إلي حسابك، واعلم أنّ حساب الله أعظم من حساب الناس. والسلام.

وكتب إليه ابن عباس: أما بعد. فإنّ كلّ الذي بلغك باطل، وأنا لما تحت يدي ضابط، وعليه حافظ، فلا تُصدّق عليّ الظنين. فكتب إليه عليّ: أما بعد. فإنه لا يسعني ترُّكك حتى تُعلمني ما أخذت من الجزية من أين أخذته، وما وضعت منها أين وضعت. فاتق الله فيما اتّمتتك عليه واسترعتك إياه، فإنّ المتاع بما أنت رازمه قليل، وتبعائه وبيلة لا تبيد. والسلام. فلما رأى أن علياً غير مُقلع عنه، كتب إليه: أما بعد. فإنه بلغني تعظيمك عليّ مرزئة مال بلغك أبي رزأته أهل هذه البلاد. وإيم الله، لأنّ ألقى الله بما في بطن هذه الأرض من عقباها ومخبئها، وما على ظهرها من طلاعها ذهباً، أحب إليّ من أن ألقى الله وقد سفكت دماء هذه الأمة لأنال بذلك الملك والإمرة. ابعث إلى عمك من أحييت فيني ظاعن. والسلام. فلما أراد عبد الله المسير من البصرة دعا أخواله بني هلال بن عامر بن صعصعة ليمنعوه. فجاء الضحّاك بن عبد الله الهلالي فأجاره، ومعه رجل منهم يقال له: عبد الله بن رزين. وكان شجاعاً بئيساً، فقالت بنو هلال: لا غنى بنا عن هوازن. فقالت هوازن: لا غنى بنا عن بني سليم. ثم أتتهم قيس. فلما رأى اجتماعهم له حمل ما كان في بيت مال البصرة، وكان فيما زعموا ستة آلاف ألف، فجعله في الغرائر. قال: فحدثني الأزرق الشكري، قال: سمعنا أشياخنا من أهل البصرة قالوا: لما وضع المال في الغرائر ثم مضى به، تبعته الأحماس كلها بالطّف، على أربع فراسخ من البصرة، فوافقوه. فقالت لهم قيس: والله لا تصلوا إليه ومنا عين تطرف. فقال ضمرة، وكان رأس الأزد: والله إن قيساً لإخوتنا في الإسلام، - وحيرأنا في الدار، وأعواننا على العدو. إن الذي تذهبون به المال، لو ردّ عليكم لكان نصيبكم منه الأقل، وهم خير لكم من المال. قالوا: فما ترى؟ قال: انصرفوا عنهم. فقالت بكر بن وائل وعبد القيس: نعم الرأى رأي ضمرة، واعتزلوهم. فقالت بنو تميم: والله لا نفارقهم حتى نقاتلهم عليه. فقال الأحنف بن قيس: أنتم والله أحقّ ألا تقاتلوهم عليه، وقد ترك قتالهم من هو أبعد منكم رحماً. قالوا: والله لئن قاتلتهم. فقال: والله لا نعاونكم على قتالهم، وانصرف عنهم. فقدم عليهم ابن المصعب فقاتلهم. فحمل عليه الضحّاك ابن عبد الله فطعنه في كتفه فصرعه، فسقط

إلى الأرض بغير قتل. وحمل سلمة بن ذؤيب السعدي على الضحّاك فصرعه أيضاً، وكثرت بينهم الجراح من غير قتل. فقال الأحماس الذين - اعتزلوا: والله ما صنعتم شيئاً. اعتزلتم قتالهم وتركتموهم يتشاجرون. فجاءوا حتى صرّفوا وجوه بعضهم عن بعض، وقالوا لبني تميم: والله إن هذا اللوم قبيح، لنحن أسخى أنفساً منكم حين تركنا أموالنا لبني عمك، وأنتم تقاتلوهم عليها، خلوا عنهم وأرواحهم، فإن القوم فُدحوا. فانصرفوا عنهم، ومضى معه نلس من قيس، فيهم الضحّاك بن عبد الله وعبد الله بن رزين، حتى قدموا الحجاز، فنزل مكة، فجعل راجز لعبد الله بن عباس يسوق له في الطريق ويقول:

مع ابن عباس بن عبد المطلب

صبحت من كازمة القصر الخرب

وجعل ابن عباس يرتجز ويقول:

أوي فقد حان لك الإياب

أوي إلى أهلك يا رباب

وجعل أيضاً يرتجز ويقول:

إن يصدّق الطير نك لميساً

وهنّ يمشين بناء. هميساً

فقيل له: يا أبا العباس، أمتلك يرفث في هذا الموضع؟ قال: إنما الرفث ما يقال عند النساء. قال أبو محمد: فلما نزل مكة اشترى من عطاء بن جبير مولى بني كعب، من جواريه ثلاث مولدات حجازيات، يقال لهن: شاذن، وحوراء، وفنون. بثلاثة آلاف دينار.

وقال سليمان بن أبي راشد عن عبد الله بن عبيد عن أبي الكنود قال: كنت من أعوان عبد الله بالبصرة، فلما كان من أمره ما كان أتيت علياً فأخبرته فقال: "وأئله عليه نبأ الذي آتيناها آياتنا فأنسلخ منها فأتبعه الشيطان فكان من الغاوين". ثم كتب معه إليه: أما بعد، فإنني كنت أشركتكم في أمانتي، ولم يكن من أهل بيتي رجل أوثقت عندي منك بمواساتي ومؤزرتي بأداء الأمانة، فلما رأيت الزمان قد كلب عليّ ابن عمك، والعدو قد حرّد، وأمانة الناس قد خربت، وهذه الأمة قد فتنّت، قلبت لابن عمك ظهر الجن، ففارقته مع القوم المفارقين، وخذلت أسوأ خذلان، وخنتته مع من خان. فلا ابن عمك

آسيت، ولا الأمانة إليه أديت، كأنك لم تكني على بيعة من ربك، وإنما كدت أمة محمد عن دُنياهم، وغدرتهم عن فيئهم. فلما أمكنتك الفرصة في حياينة الأمة، أسرعت العُدرة، وعالجت الوئبة، فاختطفت ما قدرت عليه من أموالهم، وأنقلبت بها إلى الحجاز، كأنك إنما حُزت عن أهلِكَ مِيراثك من أبيك وأُمك. سبحان الله! أما تُؤمن بالمعاد، أما تخاف الحساب! أما تعلم أنك تأكل حراماً وتشرب حراماً! وتشتري الإمامة وتنكحهم بأموال اليتامى والأرامل والمُجاهدين في سبيل الله، التي أفاء الله عليهم! فاتق الله وأد إلى القوم، أموالهم، فإنك والله لئن لم تفعل وأمكنني الله منك لأعذرني إلى الله فيك. فوالله لو أن الحسن والحسين فعلا مثل الذي فعلت ما كانت لهما عندي هُوادة، ولما تركتهما حتى أخذ الحق منهما. والسلام. فكتب إليه ابن عباس: أما بعد. فقد بلغني كتابك تُعظم علي أمانة المال الذي أصبت من بيت مال البصرة. ولعمري إن حقي في بيت مالك الله أكثر من الذي أخذت. والسلام. فكتب إليه علي: أما بعد، فإن العجب كل العجب منك، إذ ترى لنفسك في بيت مال الله أكثر مما لرجل من المسلمين، قد أفلحت إن كان تمنيك الباطل وادعاءك مالا يكون يُنجيك من الإثم، ويُحل لك ما حرم الله عليك. عمرك الله! إنك لأنت البعيد، قد بلغني أنك اتخذت مكة وطناً، وضربت بها عطناً، تشتري المولدات من المدينة والطائف، وتختارهن على عينك، وتُعطي بمن مال غيرك. وإني أقسم بالله ربه وربك رب العزة، ما أحب أن ما أخذت من أموالهم لي حلالاً أدعه ميراثاً لعقبتي. فما بال اغتباطك به تأكله حراماً! ضح رويداً. فكأنك قد بلغت المدى، وعرضت عليك أعمالك بالمحل الذي يُنادى فيه بالحسرة، ويتمنى المضيق التوبة، والظالم الرجعة. فكتب إليه ابن عباس: والله لئن لم تدعني من أساطيرك لأحملته إلى معاوية يُقاتلك به. فكف عنه علي.

مقتل علي بن أبي طالب رضي الله عنه

سُفيان بن عُيينة قال: كان علي بن أبي طالب رضي الله عنه، يخرج بالليل إلى المسجد. فقال أناسٌ من أصحابه: نخشى أن يصيبه بعضُ عدوه، ولكن تعالوا نحرسه. فخرج ذات ليلة فإذا هو بنا. فقال: ما شأنكم؟ فكنتمناه. فعزم علينا. فأخبرناه. فقال: تحرسوني من أهل السماء أو من أهل الأرض؟ قلنا: من أهل الأرض. قال: إنه ليس يقضى في الأرض حتى يقضى في السماء. التميمي يأسناد له قال: لما تواعد ابن مُلجم وصاحبه بقتل علي ومعاوية وعمرو بن العاص، دخل ابن مُلجم المسجد في بزوغ الفجر الأول، فدخل في الصلاة تطوعاً، ثم افتتح في القراءة، وجعل يُكرّر هذه الآية "وَمِنَ النَّاسِ مَنْ يَشْرِي نَفْسَهُ ابْتِغَاءَ مَرْضَاةِ اللَّهِ". فأقبل ابن أبي طالب بيده مُحففة، وهو يُوقظ الناس للصلاة، ويقول: أيها الناس، الصلاة الصلاة. فمرّ بابن مُلجم وهو يردد هذه الآية، فظن علي أنه ينسى فيها، ففتح عليه، فقال: والله رؤوف بالعباد. ثم انصرف علي وهو يريد أن يدخل الدار، فاتبعه فضربه على قرنه، ووقع السيف في الجدار، فأطار فِدرة من آخره، فابتدره الناس فأخذوه، ووقع السيف منه، فجعل يقول: أيها الناس، احذروا السيف فإنه مسموم. قال: فأتي به علي فقال: احسوه ثلاثاً وأطعموه واسقوه، فإن أعش أر فيه رأي، وإن أمت فاقتلوه ولا تمثلوا به. فمات من تلك الضربة. فأخذ عبد الله بن جعفر فقطع يديه ورجليه، فلم يفزع، ثم أراد قطع لسانه ففزع. فقيل له: لم لم تفزع لقطع يديك ورجليك وفزعت لقطع لسانك؟ قال: إني أكره أن لا تُمر بي ساعة لا أذكر الله فيها. ثم قطعوا لسانه وضربوا عنقه. وتوجه الخارجي الآحمر إلى معاوية فلم يجد إليه سبيلاً. وتوجه الثالث إلى عمرو فوجده قد أغفل تلك الليلة فلم يخرج إلى الصلاة، وقدم مكانه رجلاً يقال له خارجة، فضربه الخارجي بالسيف وهو يظنه عمرو بن العاص، فقتله. فأخذته الناس، فقالوا: قتلت خارجة. قال: أو ليس عمراً؟ قالوا له: لا. قال: أردتُ عمراً وأراد الله خارجة. وفي الحديث: أن النبي صلى الله عليه وسلم قال لعلي: ألا أخبرك بأشد الناس عذاباً يوم القيامة؟ قال: أخبرني يا رسول الله. قال: فإن أشد الناس عذاباً يوم القيامة عاقرُ ناقةٍ ثمود، وحاضِبُ لِحيتك بدم رأسك. وقال كثير عزة:

وُلَاةَ الْعَهْدِ أَرْبَعَةٌ سِوَاءِ

هُمْ الْأَسْبَاطُ لَيْسَ بِهِمْ خَفَاءُ

أَلَا إِنَّ الْأَئِمَّةَ مِنْ قُرَيْشٍ

عَلِي وَالثَّلَاثَةُ مِنْ بَنِيهِ

فَسَبَطَ سَبِطَ إِيمَانٍ وَبَرَ
وَسَبِطَ لَا يَذُوقُ الْمَوْتَ حَتَّى
تَغَيَّبَ لَا يُرَى عَنْهُمْ زَمَانًا

وَسَبِطُ غَيْبَتِهِ كَرِبْلَاءَ
يُقُودُ الْخَيْلَ يَقْدِمُهَا اللَّوَاءَ
بِرَضْوَى عِنْدَهُ عَسَلٌ وَمَاءٌ

قال الحسن بن عليّ صبيحة الليلة التي قتل فيها في بن أبي طالب رضي الله عنه: حدثني أبي البارحة في هذا المسجد، فقال: يا بني، إني صليت البارحة ما رزق الله، ثم نمت نومة فرأيت رسول الله صلى الله عليه وسلم، فشكوت له ما أنا فيه من مخالفة أصحابي وقلة رغبتهم في الجهاد، فقال لي: ادع الله أن يُريحك منهم، فدعوت الله. وقال الحسن صبيحة تلك الليلة: أيها الناس، إنه قتل فيكم الليلة رجلٌ كان رسولُ الله صلى الله عليه وسلم يعثه فيكثفه جبريلُ عن يمينه وميكائيلُ عن يساره، فلا ينثني حتى يفتح الله له، ما ترك إلا ثلثمائة درهم.

خلافة الحسن بن علي

ثم بُويع للحسن بن عليّ. وأمه فاطمة بنت رسول الله صلى الله عليه وسلم، في شهر رمضان سنة أربعين من التاريخ، فكتب إليه ابنُ عباس: إن الناس قد لوك أمرهم بعد عليّ، فاشدّد عن يمينك، وجاهد عدوك، واستر من الظنين ذنبه بما لا يثلم دينك، واستعمل أهل البيوتات تستصلح بهم عشائرهم. ثم اجتمع الحسن بن علي ومعاوية بمسكن، من أرض السّواد من ناحية الأنبار، واصطلحا، وسلم الحسن الأمر إلى معاوية، وذلك في شهر جمادى الأولى سنة إحدى وأربعين، ويسمى عام الجماعة. فكانت ولاية الحسن سبعة أشهر وسبعة أيام، ومات الحسن في المدينة سنة تسع وأربعين، وهو ابن ست وأربعين سنة. وصلى عليه سعيد بن العاص، وهو والي المدينة. وأوصى أن يُدفن مع جدّه وفي بيت عائشة، فمنعه مروان بن الحكم فردوه إلى البقيع. وقال أبو هريرة لمروان: علام تمنع أن يُدفن مع جده؟ فلقد أشهدُني سمعتُ رسول الله صلى الله عليه وسلم يقول: الحسنُ والحسين سيدا شباب أهل الجنة. فقال له مروان: لقد ضيع الله، حديث نبيه إذ لم يروّه غيرك. قال: أما إنك إذ قلت ذلك لقد صحبتته حتى عرفت من أحبّ ومن أبغض، ومن نفى ومن أقر، ومن دعا له ومن دعا عليه. ولما بلغ معاوية موت الحسن بن علي خر ساجداً لله، ثم أرسل إلى ابن عباس، وكان معه في الشام، فعزاه وهو مُستبشر، وقال له: ابن كم سنة مات أبو محمد؟ فقال له: سنة كان يُسمع في قريش، فالعجب من أن يجمله مثلك! قال: بلغني أنه ترك أطفالاً صغاراً. قال: كل ما كان صغيراً يكبر، وإن طفلاً لكهلاً، وإن صغيراً لكبير. ثم قال: مالي أراك يا معاوية مُستبشراً بموت الحسن بن علي؟ فوالله لا ينسأ في أحلك، ولا يسُد حُفرتك، وما أقل بقاءك وبقاءنا بعده. ثم خرج ابنُ عباس، فبعث إليه معاوية ابنه يزيد، فقعد بين يديه فعزاه واستعير لموت الحسن، فلما ذهب أتبعه ابنُ عباس بصره، وقال: إذا ذهب آل حرب ذهب الحلم من الناس. ثم اجتمع الناس على معاوية سنة إحدى وأربعين، وهو عام الجماعة، فبايعه أهل الأمصار كلها، وكتب بينه وبين الحسن كتاباً وشروطاً، ووصله بأربعين ألفاً. وفي رواية أبي بكر بن أبي شيبة أنه قال له: والله لأجيزنك بجائزة ما أجزتُ بها أحداً فبلك، ولا أجيز بها أحداً بعدك، فأمر له بأربعمئة ألف.

خلافة معاوية

هو معاوية بن أبي سفيان بن حرب بن أمية بن عبد شمس بن عبد مناف. وكنيته أبو عبد الرحمن، وأمه هند بنت عتبة بن ربيعة بن عبد شمس بن عبد مناف. ومات معاوية بدمشق يوم الخميس لثمان بقين من رجب سنة ستين، وصلى عليه الضحّاك بن قيس، وهو ابنُ ثلاث وسبعين سنة، ويقال ابن ثمانين سنة. كانت ولايته تسع عشرة سنة وتسعة أشهر وسبعة وعشرين يوماً. صاحب شرطته يزيد بن الحارث العبسي. وعلى حرسه - وهو أود من اتخذ حرساً - رجل من الموالي يقال له المختار. وحاجبه سعد، مولاه. وعلى القضاء أبو إدريس الخولاني. وولد له عبدُ الرحمن وعبدُ الله، مات فاحته بنت قرظة. أما عبدُ الرحمن فمات صغيراً، وأما عبدُ الله فمات كبيراً، وحنان ضعيفاً ولا عقب له من الذكور. وكان له بنت يقال لها عاتكة، تزوّجها يزيدُ بن عبد الملك، وفيها يقول الشاعر.

فضائل معاوية

ذكر عمرو بن العاص معاوية فقال: احذروا قرم قريش وابن كريمها، من يضحك عند الغضب، ولا ينام إلا على الرضا، ويتناول ما فوقه من تحته. سئل عبد الله بن عباس عن معاوية، فقال: سَمَا بشيء أسرة، واستظهر عليه بشيء أعلنه، فحاول ما أسرَّ بما أعلنه. كان حلمه قاهراً لعضبه، وجوده غالباً على منعه، يصل ولا يقطع، ويجمع ولا يفرق، فاستقام له أمره، وجرى إلى مدته. قيل: فأخبرنا عن ابنه. قال: كان في خير سبيله، وكان أبوه قد أحكمه، وأمره ونهاه، فتعلق بذلك، وسلك طريقاً مُذلاً له. وقال معاوية: لم يكن في الشباب شيء إلا كان مني فيه مُستمتع، غير أبي لم أكن صُرعةً ولا نُكحةً ولا سبياً. قال الأصمعي: الحب: كثير السباب: ميمون بن مهران قال: كان أول من جلس بين الخطبتين معاوية، وأول من وضع شرف العطاء ألفين معاوية وقال معاوية: لا زلت أطمع في الخلافة منذ قال لي رسول الله صلى الله عليه وسلم: يا معاوية، إذا ملكت فأحسن. العتيبي عن أبيه قال: قال معاوية لقريش: ألا أحرركم عني وعنكم؟ قالوا: بلى. قال: فأنا أطير إذا وقعتم، وأقع إذا طرتم، ولو وافق طيراني طيرانكم سقطننا جميعاً. قال معاوية: لو أن بيني وبين الناس شجرة ما انقطعت أبداً. قيل له: وكيف ذلك؟ قال: كنت إذا مدوها أرخيتها، ماذا أرخوها مددتها. وقال زياد: ما غلبني أمير المؤمنين معاوية قط إلا في أمر واحد، طلبت رجلاً مئة عُمالي كسر عليّ الخراج فلجأ إليه، فكتبتُ إليه: إن هذا فساد عملي وعملك. فكتب إلي: إنه لا ينبغي لنا أن نسوس الناس سياسةً واحدة، لا نلين جميعاً فيمرح الناس في المعصية، ولا نشدد جميعاً فنحمل الناس على المهالك، ولكن تكون أنت للشدّة والفظاظة والغلظة، وأكون أنا للرافة والرحمة.

أخبار معاوية

قدم معاوية المدينة بعد عام الجماعة، فدخل دار عثمان بن عفان، فصاحت عائشة بنت عثمان وبكت ونادت أباها. فقال معاوية: يا ابنة أخي، إن الناس أعطونا طاعةً وأعطيناهم أماناً، وأظهرنا لهم حِلماً تحت غضب، وأظهروا لنا ذللاً تحت حقد، ومع كل إنسان سيفه، ويرى موضع أصحابه، فإن نكناهم نكثوا بنا، ولا ندري أعلينا تكون أم لنا. لأن تكوني ابنة عم أمير المؤمنين خيرٌ من أن تكوني امرأة من عرض الناس.

القحذمي قال: لما قدم معاوية المدينة قال: أيها الناس، إن أبا بكر رضي الله عنه لم يُرد الدنيا ولم تُرده، وأما عمر فأرادته ولم يُردها، وأما عثمان فنال منها ونالت منه، وأما أنا فمالت بي وملتُ بها، وأنا ابنتها، فهي أُمي وأنا ابنتها، فإن لم تجدوني خيركم فأنا خيرٌ لكم. ثم نزل. قال جويرية بن أسماء. نال بسُر بن أرطاة من علي بن أبي طالب عند معاوية، وزيد بن عمر بن الخطاب جالس، فعلاً بسراً ضرباً حتى شجّه. فقال معاوية: يا زيد، عمدت إلى شيخ قريش وسيد أهل الشام فضربتته! وأقبل على بسُر وقال: تشتم علياً وهو جدُّه وأبوه الفاروق على رؤوس الناس! أفكنت تراه يصبر على شتم علي؟! وكانت أم زيد أم كلثوم بنت علي بن أبي طالب. ولما قدم معاوية مكة، وكان عمر قد استعمله عليها، دخل على أمه هند، فقالت له: يا بني. إنه قلما ولدت حرة مثلك، وقد استعملك هذا الرجل، فاعمل بما وافقه، أحببت ذلك أم كرهته. ثم دخل على أبيه أبي سفيان، فقال له: يا بني. إن هؤلاء الرهط من المهاجرين سبقونا وتأخرنا، فرفعهم سبقهم وقصر بنا تأخيرنا، فصرنا أتباعاً وصاروا قادة، وقد قلدوك جسيماً من أمرهم، فلا تُخالفن رأيهم، فإنك تجري إلى أمد لم تبلغه، ولو قد بلغته لتنفست فيه. قال معاوية: فعجبت من اتفاقهما في المعنى على اختلافهما في اللفظ. العتيبي عن أبيه: أن عمر بن الخطاب قدم الشام على حمار ومعه عبد الرحمن بن عوف على حمار، فتلقاها معاوية في موكب نبيل، فجاوز عمر حتى أخبر فرجع إليه، فلما قُرب منه نزل، فأعرض عنه عمر، فجعل يمشي إلى جنبه راجلاً. فقال له عبد الرحمن بن عوف: أتعبت الرجل. فأقبل عليه عمر فقال: يا معاوية، أنت صاحب الموكب أنفأ مع ما بلغني من وقوف ذوي الحاجات ببابك؟ قال: نعم يا أمير المؤمنين. قال: ولم ذلك؟ قال: لأننا في بلاد لا يُمتنع فيها من

جواسيس العدو، فلا بُدَّ لهم مما يُرهبهم من هيبه السلطان، فإن أمرتني بذلك أقمتُ عليه، وإن همتني عنه انتهيت. قال: لئن كان الذي قلتَ حقاً فإنه رأيُّ أريب، ولئن كان باطلاً فإنها خُدعة أحب، ولا أمرك به ولا أهماك عنه. فقال عبدُ الرحمن بن عوف: لحسن ما صدر من هذا الفتى عما أوردته فيه. قال: لحسن مصادره وموارده جشمناه ما جشمناه. وقال معاوية لابن الكوّاء: يا بن الكوّاء، أنشدك الله، ما علمك في؟ قال: أنشدتني الله! ما أعلمك إلا واسع الدنيا ضيق الآخرة. ولما مات الحسن بن عليّ حجّ معاوية، فدخل المدينة وأراد أن يلعن عليّاً على منبر رسول الله صلى عليه وسلم. فقيل له: إن هاهنا سعد بن أبي وقاص، ولا نراه يرضى بهذا، فابعث إليه وخُذ رأيه. فأرسل إليه وذكر له ذلك. فقال: إن فعلت لأخرجن من المسجد، ثم لا أعود إليه. فأمسك معاوية عن لعنه حتى مات سعد. فلما مات لعنه على المنبر، وكتب إلى عماله أن يلعنوه على المنابر، ففعلوا. فكتبت أم سلمة زوج النبي صلى عليه وسلم إلى معاوية: إنكم تلعن الله ورسوله على منابركم، وذلك أنكم تلعنون عليّ بن أبي طالب ومن أحبه، وأنا أشهد أن الله أحبه ورسوله، فلم يلتفت إلى كلامها. وقالت بعض العلماء لولده: يا بني، إن الدنيا لم تبن شيئاً إلا هدمه الدين، وإن الدين لم يبن شيئاً فهدمته الدنيا، ألا ترى أن قوماً لعنوا عليّاً ليخفصوا منه فكأنما أخذوا بناصيته جرأاً إلى السماء. ودخل صعصعة بن صوحان على معاوية ومعه عمرو بن العاص جالساً على سريره، فقال: وسّع له على ثرابية فيه. فقال صعصعة: إني والله لثرايب، منه خلقت، وإليه أعود، ومنه أبعث، وإنك لما رج من نار. العتيبي عن أبيه، قال قال معاوية لعمرو بن العاص: ما أعجب الأشياء؟ قال غلبة من لا حق له ذا الحق على حقه. قال معاوية: أعجب من ذلك أن يُعطي من لا حق له ما ليس له بحق من غير غلبة. وقال معاوية: أعنت على عليّ بأربعة، كنت أكنتم سري وكان رجلاً يُظهِره، وكنت في أصلح جند وأطوعه وكان في أحبّ جند وأعصاه، وتركته وأصحاب الحمل وقلت: إن ظفروا به كانوا أهون علي منه، وإن ظفّر بهم اغتر بها في دينه، وكنت أحب إلى قريش منه. فيالك من جامع إلي ومُفرق عنه!

العتبي قال: أراد معاوية أن يقدم ابنه يزيد على الصائفة، فكره ذلك يزيد، فأبى معاوية إلى أن يفعل، فكتب إليه يزيد يقول:

لتقطع وصل حبلك من حبالي

نزولي في المهالك وارتحالي

نجي لا يزال يعد ذنباً

فيوشك أن يريحك من أذاتي

وتجهز للخروج، فلم يتخلف عنه أحد، حتى كان فيمن خرج أبو أيوب الأنصاري صاحب النبي صلى الله عليه وسلم قال العتيبي: وحدثني أبو إسحاق إبراهيم قال: أرسل معاوية إلى ابن عباس، قال: يا أبا العباس، إن أحببت خرجت مع ابن أخيك فيأنس بك ويقربك وتشير عليه برأيك. ولا يدخل الناس بينك وبينه فيشغلوا كل واحد منكما عن صاحبه. وأقل من ذكر حقل؛ فإنه إن كان لك فقد تركته لمن هو أبعد منا حباً، وإن لم يكن لك فلا حاجة بك إلى ذكره، مع أنه صائر إليك، وكل آت قريب، ولتجدن، إذا كان ذلك، خيراً لكم منا.

فقال ابن العباس: والله لئن عظمت عليك النعمة في نفسك لقد عظمت عليك في يزيد، وأما ما سألتني من الكف عن ذكر حقي، فإني لم أعمد سيفي وأنا أريد أن أنتصر بلساني. ولئن صار هذا الأمر إلينا ثم وليكم من قومي مثلي كما ولينا من قومك مثلك لا يرى أهلك إلا ما يحبون.

قال: فخرج يزيد، فلما صار على الخليج ثقل أبو أيوب الأنصاري، فأتاه يزيد عاتداً، فقال: ما حاجتك أبا أيوب؟ فقال: أما دنياكم فلا حاجة لي فيها، ولكن قدمي ما استطعت في بلاد العدو، فإني سمعت رسول الله صلى الله عليه وسلم يقول: يدفن عند سور القسطنطينية رجلٌ صالح، أرجو أن أكون هو. فلما مات أمر يزيد بتكفينه وحمل على سريره، ثم أخرج الكئيب. فجعل قيصر يرى سريراً يحمل والناس يقتتلون. فأرسل إلى يزيد: ما هذا الذي أرى؟ قال: صاحب نبينا وقد سألنا أن تقدمه في بلادك، ونحن منفذون وصيته أو تلحق أرواحنا بالله. فأرسل إليه: العجب كل العجب: كيف يدهى الناس أباك وهو يرسلك، فتعمد إلى صاحب نبيك فتدفنه في بلادنا، فإذا وليت أخرجناه إلى الكلاب! فقال يزيد: إني والله ما أردت أن أودعه بلادكم حتى أودع كلامي أذانكم، فإنك كافر بالذي أكرمت هذا له، لئن بلغني أنه نبش من قبره أو مثل به، لا تركت بأرض العرب نصرانياً إلا قتلته، ولا كنيسة إلا هدمتها. فبعث إليه قيصر: أبوك كان أعلم بك، فوحق المسيح لأحفظته بيدي سنة. فلقد بلغني أنه بني على قبره قبة يسرج فيها إلى اليوم.

طلب معاوية البيعة ليزيد

أبو الحسن المدائني قال: لما مات زياد، وذلك سنة ثلاث وخمسين، أظهر معاوية عهداً مفتعلاً، فقرأه على الناس، فيه عقد الولاية ليزيد بعده، وإنما أراد أن يسهل بذلك بيعة يزيد. فلم يزل يروض الناس لبيعته سبع سنين، ويشاور، ويعطى الأقارب ويداي الأبعاد، حتى استوثق له من أكثر الناس. فقال لعبد الله بن الزبير: ما ترى في بيعة يزيد؟ قال: يا أمير المؤمنين، إني أناديك ولا أناجيك، إن أخاك من صدقك، فانظر قبل أن تتقدم. وتفكر قبل أن تتدم، فإن النظر قبل التقدم، والتفكر قبل التندم. فضحك معاوية وقال: ثعلب رواج، تعلمت السجع عند الكبر، في دون ما سجعت به على ابن أخيك ما يكفيك. ثم التفت إلى الأحنف فقال: ما ترى في بيعة يزيد؟ قال: نخافكم إن صدقناكم، ونخاف الله إن كذبنا.

فلما كانت سنة خمس وخمسين كتب معاوية إلى سائر الأمصار أن يفدوا عليه. فوفد عليه من كل مصر قوم. وكان فيمن وفد عليه من المدينة محمد بن عمرو بن حزم، فخلا به معاوية وقال له: ما ترى في بيعة يزيد؟ فقال: يا أمير المؤمنين، ما أصبح اليوم على الأرض أحدٌ هو أحب إليّ رشداً من نفسك سوى نفسي، وإن يزيد أصبح غنياً في المال، وسيطاً في الحسب، وإن الله سائل كل راعٍ عن رعيته، فاتق الله وانظر من تولى أمر أمة محمد. فأخذ معاوية بهر حتى تنفس الصعداء، وذلك في يوم شات، ثم قال: يا محمد، إنك امرؤ ناصح، قلت برأيك ولم يكن عليك إلا ذاك. ثم قال معاوية: إنه لم يبق إلا ابني وأبناؤهم، فابني أحب إليّ من أبنائهم، اخرج عني. ثم جلس معاوية في أصحابه وأذن للوفود، فدخلوا عليه، وقد تقدم إلى أصحابه أن يقولوا في يزيد، فكان أول من تكلم الضحاك بن قيس فقال: يا أمير المؤمنين، إنه لا بُد للناس من والٍ بعدك، والأنفس يُعدى عليها ويَراح. وإن الله قال: كُلَّ يومٍ هو في شأن. ولا ندري ما يختلف به العصران، ويزيد ابن أمير المؤمنين في حُسن معدنه، وقصد سيرته، من أفضلنا حلماً، وأحكمنا علماً، فوله عهدك، واجعله لنا علماً بعدك. وإنا قد بلونا الجماعة والألفة فوجدناه أحقن للدماء، وآمن للسبل، وخيراً في العاجلة والآجلة. ثم تكلم عمرو بن سعيد فقال: أيها الناس، إن يزيد أملٌ تأملونه، وأجل تأمنونه؛ طويل الباع، رَحْب الذراع، إذا صرَّتم إلى عدله وسِعكم، وإن طلبتم رِفده أغناكم؛ جدَّع قارح، سوبق فسبق، وموجد فمجد، وقورع فقرع، خلف من أمير المؤمنين ولا خلف منه. فقال: اجلس أبا أمية، فلقد أوسعت وأحسنست. ثم قام يزيد بن المُقَّع فقال: أمير المؤمنين هذا، وأشار إلى معاوية، فإن هلك فهذا، وأشار إلى يزيد، فمن أي فهذا، وأشار إلى سيفه. فقال معاوية: اجلس، فإنك سيّد الخطباء. ثم تكلم الأحنف بن قيس فقال: يا أمير المؤمنين، أنت أعلم بيزيد في ليله ونهاره، وسره وعلايته، ومدخله ومخرجه، فإن كنت تعلمه الله رضا ولهذه الأمة، فلا تُشاور الناس فيه، وإن كنت تعلم منه غير ذلك، فلا تُزوِّده الدنيا وأنت تذهب إلى الآخرة. قال: فنفَّرق الناس ولم يذكروا إلا كلام الأحنف. قال: ثم بايع الناس ليزيد بن معاوية، فقال رجل، وقد دُعي إلى البيعة: اللهم إني أعوذ بك من شر معاوية. فقال له معاوية: تعوذ من شر نفسك، فإنه أشدَّ عليك، وبايع. قال: إني أبايع وأنا كاره للبيعة. قال له معاوية: بايع أيها الرجل فإن الله يقول: "فَعَسَى أَنْ تَكْرَهُوا شَيْئاً وَيَجْعَلَ اللَّهُ فِيهِ خَيْراً كَثِيراً". ثم كتب إلى مروان بن الحكم، عامله على المدينة: أن ادْعُ أهلَ المدينة إلى بيعة يزيد، فإن أهل الشام والعراق قد بايعوا. فخطبهم مروان فحضَّهم على الطاعة وحذَّهم الفتنَّة ودعاهم إلى بيعة يزيد، وقال: سنُّه أبي بكر الهاديَّة المهديَّة. فقال له عبد الرحمن بن أبي بكر: كذبت! إن أبا بكر ترك الأهل والعشيرة، وبايع لرجل من بني عددي، رضي دينه وأمانته، واختاره لأمة محمد صلى الله عليه وسلم. فقال مروان: أيها الناس، إن هذا المتكلم هو الذي أنزل الله فيه: "والذي قال لوالديَّ أفٍّ لكما أتعداني أن أُخرَجَ وقد خلَّت القرونُ من قبلي". فقال له عبد الرحمن: يا ابن الزرقاء، أفينا تناول القرآن! وتكلم الحسين بن علي، وعبد الله بن الزبير، وعبد الله بن عمر وأنكروا بيعة يزيد، وتفرَّق الناس. فكتب مروان إلى معاوية بذلك. فخرج معاوية إلى المدينة في ألف، فلما قرَّب منها تلقاه الناس، فلما نظر إلى الحسين قال: مرحباً بسيد شباب المسلمين، قرَّبوا دابةً لأبي عبد الله. وقال لعبد الرحمن بن أبي بكر: مرحباً بشيخ قريش وسيدها وابن الصديق. وقال لابن عمر: مرحباً بصاحب رسول الله وابن الفاروق. وقال لابن الزبير: مرحباً بابن حواري رسول الله صلى الله عليه وسلم وابن عمته، ودعا لهم بدواب فحملهم عليها. وخرج حتى أتى مكة ففضى حجَّه، ولما أراد الشخصوص أمر بأثقاله فقدمت، وأمر بالمنبر فقرأ من الكعبة، وأرسل إلى الحسين وعبد الرحمن بن أبي بكر وابن عمر وابن الزبير فاجتمعوا. وقالوا لابن الزبير: اكفنا كلامه، فقال: على أن لا تُخالفوني. قالوا: لك ذلك، ثم أتوا

معاوية، فرحب بهم وقال لهم: قد علمتم نظري لكم، وتعتظي عليكم، وصلِّي أرحامكم، ويزيدُ أخوكم وابن عمكم، وإنما أردتُ أن أقدمه باسم الخلافة وتكونوا أنتم تأمرون وتنهون. فسكنوا، وتكلم ابن الزبير، فقال: نخيرك بين إحدى ثلاث، أيها أخذت فهي لك رغبة وفيها خيار: فإن شئت

فاصنع فينا ما صنع رسول الله صلى الله عليه وسلم، قبضه الله ولم يستخلف، فدع هذا الأمر حتى يختار الناس لأنفسهم، وإن شئت فما صنع أبو بكر، عهد إلى رجل من قاصية قريش وترك من ولده ومن رهطه الأذنين من كان لها أهلاً؛ وإن شئت فما صنع عمر، صيرها إلى ستة نفر من قريش يختارون رجلاً منهم وترك ولده وأهل بيته وفيهم من لو وليها لكان لها أهلاً. قال معاوية: هل غير هذا؟ قال: لا. ثم قال للآخرين: ما عندكم؟ قالوا: نحن على ما قال ابن الزبير. فقال معاوية: إني أتقدم إليكم، وقد أعذر من أنذر، إني قاتل مقالة، فأقسم بالله لئن رد علي رجل منكم كلمة في مقامي هذا لا ترجع إليه كلمته حتى يضرب رأسه، فلا ينظر امرؤ منكم إلا إلى نفسه، ولا يُبقى إلا عليها. وأمر أن يقوم على رأس كل رجل منهم رجلاً لا بسيفيهما، فإن تكلم بكلمة يُردّ بها عليه قوله قتلاه. وخرج وأخرجهم معه حتى رقي المنبر، وحفّ به أهل الشام، واجتمع الناس، فقال بعد حمد الله والثناء عليه: إنا وجدنا أحاديث الناس ذات عوار، قالوا: إن حسينا وابن أبي بكر وابن عمر وابن الزبير لم يُبايعوا ليزيد، وهؤلاء الرهط سادة المسلمين وخيارهم، لا نريم أمراً دونهم، ولا نقضي أمراً إلا عن مشورتهم، وإني دعوتهم فوجدتهم سامعين مطيعين، فبايعوا وسلّموا وأطاعوا. فقال أهل الشام: وما يعظم من أمر هؤلاء، ائذن لنا فنضرب أعناقهم، لا نرضى حتى يُبايعوا علانية! فقال معاوية: سبحان الله! ما أسرع الناس إلى قريش بالشر وأحلى دماءهم عندهم! أنصتوا، فلا أسمع هذه المقالة من أحد. ودعا الناس إلى البيعة فبايعوا. ثم قربت رواحله، فركب ومضى. فقال الناس للحسين وأصحابه: قتلتم: لا تُبايع، فلما دُعيتم وأرضيتم بايعتم! قالوا لم نفعل. قالوا: بلى، قد فعلتم وبايعتم، أفلا أنكرتم! قالوا: خفنا القتل وكادكم بنا وكادنا بكم.

وفاة معاوية

عن الهيثم بن عديّ قال: لما حضرت معاوية الوفاة، ويزيد غائب، دعا الضحاک بن قيس الفهريّ ومسلم بن عقبة المرّيّ، فقال: أبلغا عني يزيد وقولا له: انظر إلى أهل الحجاز فهم أصلك وعترتك، فمن أتاك منهم فأكرمه، ومن قعد عنك فتعاهده. وانظر أهل العراق، فإن سألوك عزّل عامل في كل يوم فاعزله، فإن عزّل عامل واحد أهون من سلّ مائة ألف سيف، ولا تدري على من تكون الدائرة؟ ثم انظر إلى أهل الشام فاجعلهم الشعار دون الدثار، فإن رابك من عدوك ربّ فارمه بهم؛ ثم اردد أهل الشام إلى بلدكم، ولا يُقيموا في غيره فيتأدّبوا بغير أدبهم. لست أخاف عليك إلا ثلاثة: الحسين بن عليّ، وعبد الله بن الزبير، وعبد الله بن عمر. فأما الحسين بن عليّ، فأرجو أن يكفيك الله، فإنه قتل أباه وخذل أخاه؛ وأما ابن الزبير، فإنه خبّ صبّ، وإن ظفرت به فقطعه إرباً إرباً؟ وأما ابن عمر، فإنه رجل قد وقده الورع، فخل بينه وبين آخرته يُخل بينك وبين دنياك. ثم أخرج إلى يزيد بريداً بكتاب يستقدمه ويستحثّه. فخرج مُسرّعا. فتلقاه يزيد، فأخبره بموت معاوية، فقال يزيد:

فأوجس القلب من قرطاسه فزعا

قالوا الخليفة أمسى مُثبّتا وجعا

كان أغبر من أركانها انقلعا

نرمي العجاج بها ما نأتلي سرعا

ما مات منهن بالمومة أو ظلعا

كذلك كنا جميعاً قاطنين معا

لو قارع الناس عن أحلامهم قرعا

أن يرقعوه ولا يوهون ما رقعا

جاء البريدُ بقرطاسٍ يخبّ به

قلنا لك الويلُ ماذا في صحيفتكم

فمادت الأرضُ أو كادت تميد بنا

ثم انبعثنا إلى حوصٍ مزممة

فما نبالي إذا بلغن أرحلنا

أودى ابنُ هندٍ وأودى المجدُّ يتبعه

أغرّ أبلجٌ يستسقى الغمام به

ا يرقع الناس ما أوهى ولو جهدوا

قال محمد بن عبد الحكم: قال الشافعي: سرق هذين البيتين من الأعشى. ابن دأب قال: لما هلك معاوية خرج الضحاک بن قيس الفهريّ وعلي عاتقه ثياب حتى وقف إلى جانب المنبر، ثم قال: أيها الناس، إن معاوية كان إلف العرب وملكها، أطفأ الله به الفتنة، وأحيا به السنة، وهذه أكفانه ونحن

مدْرَجوه فيها ومُخلون بينه وبين ربه، فمن أراد حُضوره صلاة الظُّهر فَلْيَحْضُرْهُ. وصَلَّى عليه الضحَّاك بن قيس الفِهْرِيّ. ثم قدم يزيدُ من يومه ذلك، فلم يَدَمَّ أحدٌ على تَعزِيته، حتى دخل عليه عبدُ الله بن هَمَّام السَّلُولِي فقال:

واشكر حياء الذي بالملك حاباكا

مما رزئت ولا عقيبى كعقبাকা

فأنت ترعاهم واللّه يرعاكا

إذا بقيت فلا نسمع بمنعاكا

اصبر يزيدُ فقد فارقت ذا مقّة

لا رزء أعظم في الأقوم قد علموا

أصبحت راعي أهل الأرض كلهم

وفي معاوية الباقي لنا خلف

فافتتح الخطباء الكلام. ثم دخل يزيد فأقام ثلاثة أيام لا يخرج للناس، ثم خرج وعليه أثر الحزن، فصعد المنبر، وأقبل الضحَّاك فجلس إلى جانب المنبر وخاف عليه الحصر. فقال له يزيد: يا ضحَّاك، أجتت تعلم بني عبد شمس الكلام! ثم قام خطيباً فقال: الحمد لله الذي ما شاء صنع، من شاء أعطى ومن شاء منع، ومن شاء خفض ومن شاء رفع. إن معاوية بن أبي سفيان كان حبلاً من حبال الله، مده الله ما شاء أن يمده، ثم قطعه حين شاء أن يقطعه، فكان دون من قبله، وخيراً ممن يأتي بعده، ولا أزكبه وقد صار إلى ربّه، فإن يعف عنه فبرحمته، وإن يُعذبه فبذنبه. وقد وليت بعده الأمر، ولست أعتذر من جهل، ولا أني عن طلب، وعلى رسلكم، إذا كره الله شيئاً غيرّه، وإذا أراد شيئاً يسهره.

خلافة يزيد بن معاوية ونسبه وصفته

هو يزيد بن معاوية بن أبي سفيان بن حرب بن أمية بن عبد شمس بن عبد مناف. وأمه ميسون بنت بحدل بن أنيف بن دلجة، بن قنافة، أحد بني حارثة بن جناب. وكنيته أبو خالد، وكان آدم جعداً مهضوماً أحور العين، بوجهه آثار جُدريّ، حسن اللحية خفيفها، ولي الخلافة في رجب سنة ستين، ومات في النصف من شهر ربيع الأول سنة أربع وستين، ودُفن بجوارين، خارجاً من المدينة. وكانت ولايته أربع سنين وأياماً. وكان على شرطته حميد بن حرِيث بن بحدل. وكاتبه وصاحب أمره سرجون بن منصور. وعلى القضاء أبو إدريس الخولاني. وعلى الخراج مسلمة بن حديدة الأزدي.

أولاد يزيد: معاوية وخالد وأبو سفيان، وأمهم فاختة بنت بي هاشم بن عتبة بن ربيعة، وعبد الله وعمرو، أمهما أم كلثوم بنت عبد الله بن عباس. وكان عبد الله ولده ناسكاً، وولده خالد عالماً، لم يكن في بني أمية أزهده من هذا ولا أعلم من هذا. الأصمعي عن أبي عمرو قال: أعرق الناس في الخلافة عاتكة بنت يزيد ابن معاوية بن أبي سفيان، أبوها خليفة، وجدها معاوية خليفة، وأخوها معاوية بن يزيد خليفة، وزوجها عبد الملك بن مروان خليفة، وأرباؤها: الوليد وسليمان وهشام، خلفاء

مقتل الحسين بن علي

علي بن عبد العزيز قال: قرأ عليّ أبو عبيد القاسم بن سلام وأنا أسمع، فسأله: نروي عنك كما قرىء عليك؟ قال: نعم. قال أبو عبيد: لما مات معاوية بن أبي سفيان وجاءت وفاته إلى المدينة، وعليها يومئذ الوليد بن عتبة، فأرسل إلى الحسين بن عليّ وعبد الله بن الزبير، فدعاهما إلى البيعة ليزيد، فقالا: بالغد إن شاء الله على رؤوس الناس، وخرجا من عنده. فدعا الحسين برواحله، فركبها وتوجّه نحو مكة على المنهج الأكبر، وركب ابن الزبير برذونا له وأخذ طريق العرج حتى قدم مكة. ومرّ حسين حتى أتى على عبد الله بن مطيع وهو على بئر له، فترل عليه، فقال للحسين: يا أبا عبد الله، لا سقانا الله بعدك ماءً طيباً، أين تريد؟ قال: العراق. قال: سبحان الله! لم؟ قال: مات معاوية وجاءني أكثر من حمل صُحف. قال: لا تفعل أبا عبد الله، فوالله ما حفظوا أباك وكان خيراً منك، فكيف يحفظونك، ووالله لئن قُتلت لا بقيت حرمة بعدك إلا استُحلت. فخرج حسين حتى قدم مكة، فأقام بها هو

وابنُ الزبير. قال: فقدم عمرو بنُ سعيد في رمضان أميراً على المدينة والموسم، وعُزل الوليد بن عُتبة. فلما استوى على المنبر رَعَفَ. فقال أعرابي: مه! جاءنا والله بالدم! قال: فنتلقاه رجل بعمامته. فقال: مه! عمَّ الناسَ والله! ثم قام فخطب، فنالوه عصاً لها شُعبتان. فقال: تشعَّبَ الناسُ والله! ثم خرج إلى مكة، فقدمها قبل يوم، التَّروية بيوم، ووفدت الناسُ للحُسين يقولون: يا أبا عبد الله، لو تقدَّمت فصلَّيت بالناس فأنزلتهم بدارك؟ إذ جاء المؤدِّن فأقام الصلاة، فتقدَّم عمرو بن سعيد فكبَّر، فقيل للحُسين: اخرج أبا عبد الله إذ أبيت أن تتقدَّم. فقال: الصلاة في الجماعة أفضل. قال: فصلِّي، ثم اخرج. فلما انصرف عمرو بنُ سعيد بلغه أن حُسيناً قد خرج. فقال: اطلبوه، اركبوا كل بعير بين السماء والأرض فاطلبوه. قال: فعجب الناسُ من قوله هذا، فطلبوه، فلم يُدرِكوه. وأرسل عبدُ الله بن جعفر ابنه عوناً ومحمداً ليردَّا حُسيناً. فأبى حُسين أن يرجع. وخرج ابنا عبد الله بن جعفر معه. ورجع عمرو بنُ سعيد إلى المدينة، وأرسل إلى ابن الزبير ليأتيه، فأبى أن يأتيه. وامتنع ابنُ الزبير برجال من قُريش وغيرهم من أهل مكة. قال: فأرسل عمرو بنُ سعيد لهم جيشاً من المدينة، وأمر عليهم عمرو بنُ الزبير، أحبا عبد الله بن الزبير، وضرب على أهل الديوان البعث إلى مكة، وهم كارهون للخروج، فقال: إما أن تأتوني بأدلاء وإما أن تخرجوا. قال: فبعثهم إلى مكة، فقاتلوا ابن الزبير، فاهزم عمرو بنُ الزبير، وأسره أخوه عبدُ الله، فحبسه في السجن. وقد كان بعث الحُسين بن عليٍّ مسلم بن عقيل بن أبي طالب إلى أهل الكوفة ليأخذ بيعتهم، وكان على الكوفة حين مات معاوية، فقال: يا أهل الكوفة، ابن بنت رسول الله صلى الله عليه وسلم أحبُّ إلينا من ابن بنت جدك. قال: فبلغ ذلك يزيدَ فقال: يا أهل الشام، أشيروا عليّ، من استعمل على الكوفة؟ فقالوا: ترضى من رضى به معاوية؟ قال: نعم. قيل له: فإنَّ الصكَّ بإمارة عبید الله بن زياد على العراقيين قد كُتِب في الديوان، فاستعمله على الكوفة. فقدمها قبل أن يقدِّم حُسين. وبايع مُسلم بن عقيل أكثر من ثلاثين ألفاً من أهل الكوفة، وخرجوا معه يريدون عبید الله بن زياد، فجعَلوا كلما انتهوا إلى زُفَّاق انسل منهم ناس، حتى بقي في شردمة قليلة. قال: فجعل الناسُ يرُمونه بالأجر من فوق البيوت. فلما رأى ذلك دخل دار هانيء بن عُروة المُرادِيّ، وكان له شرف ورأي، فقال له هانيء: إن لي من ابن زياد مكاناً، وإني سوف أمارض، فإذا جاء يعودي فاضرب عنقه. قال: فبلغ ابنُ زياد أن هانيء بن عُروة مريضٌ بقيء الدم، وكان شرب المعرة فجعل يقبؤها، فجاءه ابنُ زياد يعوده. وقال هانيء: لا قلت لكم: اسقوني، فاحرجُ إليه فاضرب عنقه، يقولها مُسلم ابن عقيل. فلما دخل ابنُ زياد وجلس، قال هانيء: اسقوني، فتشبَّطوا عليه. فقال: ويحكم! اسقوني ولو كان فيه نفسي. قال: فخرج ابنُ زياد ولم يصنع الآخر شيئاً. قال: وكان أشجع الناس، ولكن أخذ بقلبه. وقيل لابن زياد ما أراه هانيء، فأرسل إليه. فقال: إني شاك لا أستطيع. فقال: أتتوني به وإن كان شاكياً. فأسرجت له دابة،

فركب ومعه عصا، وكان أعرج، فجعل يسير قليلاً قليلاً، ثم يقف ويقول: ما أذهبُ إلى ابن زياد، حتى دخل على ابن زياد، فقال له: يا هانيء، أما كانت يدُ زياد عندك بيضاء؟ قال: بلى. قال: ويدي؟ قال: بلى. ثم قال له هانيء: قد كانت لك عندي ولأبيك، وقد أمئتُك في نفسي ومالي. قال: اخرج، فخرج. فتناول العصا من يده وضرب بها وجهه حتى كسرها، ثم قدَّمه فضرب عنقه. وأرسل إلى مُسلم بن عقيل، فخرج إليهم بسيفه، فما زال يقاتلهم حتى أثنخوه بالجراح، فأسروه. وأتى به ابنُ زياد، فقدمه ليضرب عنقه، فقالت له: دعني حتى أوصي، فقال له: أوص. فنظر في وجوه الناس، فقالت لعمر بن سعد: ما أرى قرشيًّا هنا غيرك، فأذن مني حتى أكلِّمك. فدنا منه، فقال له: هل لك أن تكون سيِّد قريش ما كانت قريش؟ إنَّ حُسيناً ومن معه، وهم تسعون إنساناً ما بين رجل وامرأة، في الطريق، فارددهم واكتب لهم ما أصابني، ثم ضُرب عنقه. فقال عمر لابن زياد: أتدري ما قال لي؟ قال: اكتم على ابن عمك. قال: هو أعظم من ذلك. قال: وما هو؟ قال: قال لي: إنَّ حُسيناً أقبل، وهم تسعون إنساناً ما بين رجل وامرأة، فارددهم واكتب إليهم بما أصابني. فقال له ابنُ زياد: أما والله إذ دلت عليه لا يُقاتله أحد غيرك. قال: فبعث معه جيشاً، وقد جاء حُسيناً الخبير وهم بشراف، فهمم بأن يرجع ومعه خمسة من بني عقيل، فقالوا: ترجع وقد قُتل أخونا وقد جاءك من الكُتب ما نثق به! فقال الحُسين لبعض أصحابه: والله مالي على هؤلاء من صبر. قال: فلقية الجيش على خيولهم وقد نزلوا بكرِّبلاء. فقال حُسين: أي أرض هذه؟ قالوا: كركبلاء، قال: أرض كركب وبلاء. وأحاطت بهم الحِيل. فقال الحُسين لعمر بن سعد: يا عمر، اختر مني إحدى ثلاث خصال: إما أن تتركني أرجع كما جئت، وإما أن تُسيرني إلى يزيد فأضع يدي في يده، وإما أن تسيرني إلى الترك أقاتلهم حتى أموت. فأرسل إلى ابن زياد بذلك، فهمم أن يُسيره إلى يزيد. فقال له شمر بن ذي الجوشن: أمكنك الله من عدوك فتسيره! إلا أن يتزل في حُكمك. فأرسل إليه بذلك. فقال الحُسين: أنا أنزل على حُكم ابن مَرَّحانة! والله لا أفعل ذلك أبداً. قال: وأبطأ عمر عن قتاله. فأرسل ابنُ زياد إلى شمر بن ذي الجوشن، وقال له: إن تقدَّم عمر وقاتل، وإلا فاتركه وكُن مكانه. قال: وكان مع عمر بن

سعد ثلاثون رجلاً من أهل الكوفة، فقالوا: يعرض عليكم ابن بنت رسول الله صلى الله عليه وسلم ثلاث خصال فلا تقبلون منها شيئاً! فتحوّلوا مع الحسين، فقاتلوا. ورأى رجل من أهل الشام عبد الله بن حسن بن عليّ، وكان من أجمل الناس، فقال: لأقتلن هذا الفتي. فقال له رجل: ويحك! ما تصنع به؟ دعه. فأبى وحمل عليه فضربه بالسيف فقتله، فلما أصابته الضربة، قال: يا عمّاه، قال: لبيك صوتاً قلّ ناصرُهُ، وكثّر واتره. وحمل الحسين على قاتله فقطع يده، ثم ضربه ضربةً أخرى فقتله، ثم اقتتلوا. عليّ بن عبد العزيز قال: حدثني الزبير قال حدثني محمد بن الحسن قال: لما نزل عمر بن سعد بالحسين وأيقن أنهم قاتلوه، قام في أصحابه خطيباً، فحمد الله وأثنى عليه، ثم قال: قد نزل بي ما تروون من الأمر، وإنّ الدنيا قد تغيّرت وتنكرت، وأدبر معروفها واشتملت، فلم يبق منها إلا صباية كصباية الإناء الأحنس، عيش كالمرعى الوبيل. ألا ترون الحق لا يعمل به، والباطل لا يُنهى عنه؟ ليرغب المؤمن في لقاء الله، فإني لا أرى الموت إلا سعادة، والحياة مع الظالمين إلا دُلاً ونُدماً. قُتل الحسين رضي الله عنه يوم الجمعة، يوم عاشوراء، سنة إحدى وستين بالطف من شاطئ الفرات، بموضع يدعى كربلاء. وولد لخمس ليالٍ من شعبان سن أربع من الهجرة. وقُتل وهو ابن ست وخمسين سنة، وهو صابغ بالسواد، قُتل سنان بن أبي أنس، وأجهز عليه حولة بن يزيد الأصبحي، من حمير. وحز رأسه وأتى به عبّيد الله وهو يقول:

أنا قتلْتُ الملكَ المُحبِّبا

أوقِر ركابي فِضةً وذهباً

خيرَ عبادِ اللهِ أمّا وأبّا

فقال له عبّيد الله بن زياد: إذا كان خير الناس أمّا وأبّا وخير عباد الله، فلم تقتله؟ قدّموه فاضربوا عنقه، فضربت عنقه. رُوّح بن زُبّاع عن أبيه عن الغاز بن ربيع الجُرشي قال: إني لعند يزيد ابن معاوية إذا أقبل زحر بن قيس الجعفي حتى وقف بين يدي يزيد، فقال: ما وراءك يا زحر! فقال: أبشرك يا أمير المؤمنين بفتح الله ونصره، قدّم علينا الحسين في سبعة عشر رجلاً من أهل بيته وستين رجلاً من شيعته، فبرزنا إليهم وسألناهم أن يستسلموا ويتزلوا على حُكم الأمير أو القتال، فأبوا إلا القتال، فغدونا عليهم مع شروق الشمس، فأحطنا بهم من كل ناحية، حتى أخذت السيوف مأخذها من هام الرجال، فجعلوا يلوذون منا بالأكل والحفر، كما يلوذ الحمام من الصقر، فلم يكن إلا نحر جزور أو قوم قائم حتى أتينا على آخرهم، فهاتيك أجسامهم مُجزّرة، وهامهم مُرملة، وخدودهم مُعفّرة، تصهرهم الشمس، وتسفي عليهم الريح بقاع سبب، زوارهم العقبان والرحم. قال: قدّمت عينا يزيد، وقال: لقد كنت أفنع من طاعتكم بدون قتل الحسين، لعن الله ابن سمية! أما والله لو كنت صاحبه لتركته، رحم الله أبا عبد الله وغفر له. علي بن عبد العزيز عن محمد بن الضحّاك بن عثمان الخزاعي عن أبيه، قال: خرج الحسين إلى الكوفة ساخطاً لولاية يزيد بن معاوية. فكتب يزيد إلى عبّيد الله بن زياد، وهو واليه بالعراق: إنه بلغني أن حسيناً سار إلى الكوفة، وقد ابتلي به زمائك بين الأزمان، وبلدك بين البلدان، وابتليت به من بين العمال، وعنده تُعتق أو تعود عبداً. فقتله عبّيد الله وبعث برأسه وتقله إلى يزيد. فلما وُضع الرأس بين يديه تمثّل بقول حُصين بن الحُمام المرّي:

علينا وهم كانوا أعق وأظلماً

نُقلُ هاماً من رجالِ أعزّة

فقال له عليّ بن الحسين، وكان في السبي: كتابُ الله أولى بك من الشّعر، يقول الله: "ما أصاب من مُصيبَةٍ في الأرض ولا في أنفسكم إلا في كتاب من قبل أن نبرأها إن ذلك على الله يسير. لكي لا تأسوا على ما فاتكم ولا تفرحوا بما آتاكم والله لا يحب كل مُختل فخور". فغضب يزيد وجعل يعبث بلحيته، ثم قال: غير هذا من كتاب الله أولى بك وبأبيك، قال الله: "وما أصابكم من مُصيبَةٍ فيما كَسَبْت أيديكم ويعفو عن كثير". ما ترون يا أهل الشام في هؤلاء؟ فقال له رجل منهم: لا تتخذ من كلب سوء جزوا. قال النعمان بن بشير الأنصاري: انظر ما كان يصنعه رسول الله صلى الله عليه وسلم بهم لو رآهم في هذه الحالة فاصنعه بهم. قال: صدقت، خلّوا عنهم واضربوا عليهم القباب. وأمال عليهم المطبخ وكساهم وأخرج إليهم جوائز كثيرة. وقال: لو كان بين ابن مرجانة وبينهم نسب ما قتلهم. ثم رَدّهم إلى المدينة. الرياشي قال: أخبرني محمد بن أبي رجاء قال: أخبرني أبو معشر عن يزيد ابن زياد عن محمد بن الحسين بن عليّ بن أبي طالب، قال: أتى بنا يزيد بن معاوية بعدما قُتل الحسين، ونحن اثنا عشر غلاماً، وكان أكبرنا يومئذ عليّ ابن الحسين، فأدخلنا عليه، وكان كل واحد منا مغلولة يده إلى عنقه، فقال لنا: أحرزت أنفسكم عبّيد أهل العراق! وما علمتُ بخروج أبي عبد الله ولا بقتله. أبو الحسن المدائني عن إسحاق بن إسماعيل بن سُفيان عن أبي موسى عن الحسن البصري، قال: قتل مع الحسين ستة عشر من أهل بيته. والله ما كان على الأرض يومئذ أهل بيت يُشبهون بهم. وحمل أهل الشام بنات رسول الله صلى الله عليه وسلم سبائاً على

أحقاب الإبل. فلما أدخلن على يزيد، قالت فاطمة بنت الحسين: يا يزيد، أنباتُ رسول الله صلى الله عليه وسلم سبايا! قال: بلى حرائر كرام، ادخلي على بنات عمك تجديهنّ قد فعلن ما فعلت. قالت فاطمة: فدخلتُ إليهنّ فما وجدت فيهنّ سفينةً إلا مُتدمةً تبكي. وقالت بنت عقيل بن أبي طالب تَرثي الحسين ومن أصيب معه:

عَيْني ابكي بعبرةٍ وعويل

واندبني إن ندبت آل الرسول

سنة كلهم لصلب علي

قد أصيبوا وخمسة لعقيل

ومن حديث أم سلمة زوج صلى الله عليه وسلم، قالت: كان عندي النبيّ على ومعي الحسين فدنا من النبيّ صلى الله عليه وسلم، فأخذته فبكي، فتركته فدنا منه، فأخذته فبكي، فتركته. فقال له جبريل: أتجبه يا محمد؟ قال: نعم. قال: أما إن أمتك ستقتله وإن شئت أريتك من تُربة الأرض التي يُقتل بها. فبسط جناحه، فأراه منها. فبكي النبيّ صلى الله عليه وسلم. محمد بن خالد قال: قال إبراهيم النخعي: لو كنتُ فيمن قتل الحسين ودخلتُ الجنة لاستحييتُ أن أنظرُ إلى وجه رسول الله صلى الله عليه وسلم. ابن لهيعة عن أبي الأسود قال: لقيتُ رأسَ الجالوت، فقال: إن بيني وبين داود سبعين أبا، وإن اليهود إذا رأوني عظموني وعرفوا حقّي وأوجبوا حفطي، وإنه ليس بينكم وبين نبيكم إلا أبٌ واحد قتلتم ابنه. ابن عبد الوهاب عن يسار بن عبد الحكم قال: انتهب عسكرُ الحسين فوجد فيه طيب، فما تطيّبت به امرأة إلا برّصت. جعفر بن محمد عن أبيه قال: بايع رسول الله صلى الله عليه وسلم الحسن والحسين وعبد الله بن جعفر وهم صغار، ولم يُبايع قطُّ صغيراً إلا هم. علي بن عبد العزيز عن الزبير عن مُصعب بن عبد الله قال: حجَّ الحسين خمسة وعشرين حجّةً مُلبياً ماشياً. وقيل لعلي بن الحسين: ما كان أقلُّ ولد أهلك! قال: العجب كيف وُلدتُ له؟ كان يصلي في اليوم والليلة ألفَ ركعة، فمتى كان يتفرَّغ للنساء. يحيى بن إسماعيل عن الشعبي أنّ سالماً قال: قيل لأبي: عبد الله، بن عمر: إن الحسين توجه إلى العراق، فلحقه على ثلاث مراحل من المدينة، وكان غائباً عند خروجه، فقال أين تريد؟ فقال: أريد العراق، وأخرج إليه كُتب القوم، ثم قال: هذه بيعتهم وكُتبتهم. فناشده الله أن يرجع، فأبى. فقال: أحدثك بحديث ما حدّثتُ به أحداً قبلك: إنّ جبريل أتى النبيّ صلى الله عليه وسلم يُخبره بين الدنيا والآخرة، فاختر الآخرة، وإنكم بضعه منه، فوالله لا يليها أحد من أهل بيته أبداً، وما صرفها الله عنكم إلا لما هو خيرٌ لكم، فارجع، فأنت تعرف غدر أهل العراق وما كان يلقي أبوك منهم. فأبى فاعتقه، وقال: استودعتك الله من قَتيل. وقالت الفرزدق: خرجتُ أريد مكة، فإذا بقباب مضروبة وفَساطيط، فقلت: لمن هذه؟ قالوا: للحسين، فعدلتُ إليه فسلمت عليه، فقالت: من أين أقبلت؟ قلت: من العراق. قال: كيف تركت الناس؟ قلت: القلوب معك، والسيوف عليك، والنصر من السماء.

تسمية من قتل مع الحسين بن علي رضي الله عنهما من أهل بيته ومن أسر منهم قال أبو عبيد: حدّثنا حجاج عن أبي معشر قال: قتل الحسين بن عليّ، وقتل معه عثمان بن عليّ، وأبو بكر بن عليّ، وجعفر بن عليّ، والعباس بن عليّ، وكانت أمهم أمّ البنين بنت حرام الكلابية، وإبراهيم بن عليّ لأم ولد له، وعبد الله بن حسن، وخمسة من بني عقيل بن أبي طالب، وعون ومحمد ابنا عبد الله بن جعفر بن أبي طالب، وثلاثة من بني هاشم. فجميعهم سبعة عشر رجلاً. وأسر اثنا عشر غلاماً من بني هاشم، فيهم: محمد بن الحسين، وعلي بن الحسين، وفاطمة بنت الحسين. فلم تقم لبني حرب قائمة حتى سلّمهم الله مُلكهم. وكتب عبد الملك بن مروان إلى الحجاج بن يوسف: جنّيت دماء أهل هذا البيت، فإني رأيت بني حرب سلبوا مُلكهم لما قتلوا الحسين.

حديث الزهري في قتل الحسين

رضي الله عنه حدّثنا أبو محمد عبد الله بن ميسرة قال: حدّثنا محمد بن موسى الحرشيّ قال: حدّثنا حماد بن عيسى الجهني عن عمر بن قيس، قال: سمعتُ ابن شهاب الزهري يُحدّث عن، سعيد بن المسيّب عن أبي هريرة عن النبيّ صلى الله عليه وسلم. قال حماد بن عيسى: وحدّثني به عباد بن بشر عن عقيل عن الزهري عن سعيد بن المسيّب عن أبي هريرة عن النبيّ صلى الله عليه وسلم، قال: لا يُلدغ المؤمن من جحر مرتين. وقالوا: قال الزهري: خرجتُ مع قُتيبة أريد المصيصة، فقدمنا على أمير المؤمنين عبد الملك بن مروان، وإذا هو قاعد في إيوان له، وإذا سماطان من الناس على باب الإيوان،

فإذا أراد حاجةً قالها للذي يليه، حتى تبلغ المسألة بابَ الإيوان، ولا يمشي أحدٌ بين السماطين. قال الزُّهري: فجننا فقمنا على باب الإيوان، فقال عبدُ الملك للذي عن يمينه: هل بلغكم أي شيء أصبح في بيت المقدس ليلة قتل الحسين بن علي؟ قال: فسأل كل واحد منهما صاحبه، حتى بلغت المسألة البابَ، فلم يرد أحدٌ فيها شيئاً. قال الزُّهري: فقلت: عندي في هذا علم. قال: فرجعت المسألة رجلاً عن رجل حتى انتهت إلى عبد الملك. قال: فدُعيتُ، فمشيتُ بين السماطين، فلما انتهيتُ إلى عبد الملك سلّمت عليه. فقال لي: من أنت؟ قلت: أنا محمد بن مسلم بن عبيد الله بن شهاب الزُّهري. قال: فعرفني بالنسب، وكان عبدُ الملك طالبةً للحديث، فعرفته. فقال: ما أصبح بيت المقدس يوم قتل الحسين بن علي بن أبي طالب؟ - وفي رواية علي بن عبد العزيز عن إبراهيم بن عبد الله عن أبي معشر عن محمد بن عبد الله ابن سعيد بن العاص عن الزُّهري، أنه قال: الليلة التي قُتل في صبيحتها الحسين بن علي قال الزُّهري: نعم، حدّثني فلان - ولم يُسمه لنا - أنه لم يُرفع تلك الليلة، التي صبيحتها قُتل الحسين بن علي بن أبي طالب، حجرٌ في بيت المقدس إلا وُجد تحته دمٌ عبيط. قال عبدُ الملك: صدقت، حدّثني الذي حدّثك، وإني وإياك في هذا الحديث لغريان. ثم قال لي: ما جاء بك؟ قلت: جئتُ، مُرابطاً. قال: الزم الباب، فأقمتُ عنده، فأعطاني مالاً كثيراً. قال: فاستأذنته في الخروج إلى المدينة، فأذن لي ومعني غلامٌ لي، ومعني مالٌ كثير في عيية، ففقدتُ العيية، فاهتمتُ الغلام، فوعدته وتوعدته، فلم يُقر لي بشيء. قال: فصرعته وقعدتُ على صدره ووضعتُ مرفقي على وجهه، وغمرته غمزةً وأنا لا أريد قتله، فمات تحتي، وسقط في يدي. وقدمتُ المدينة فسألت سعيد بن المسيّب وأبا عبد الرحمن وغرورة بن الزُّبير والقاسم بن محمد وسالم بن عبد الله، فكُلهم قال: لا نعلم لك توبة. فبلغ ذلك علي بن الحسين، فقال: علي به. فأتيته فقصتُ عليه القصة. فقال: إن لذيك توبة، صُم شهرين مُتتابعين وأعتق رقبة مؤمنة وأطعم ستين مسكيناً، ففعلتُ. ثم خرجتُ أريد عبد الملك، وقد بلغه أني أتلفتُ المال، فأقمتُ بابه أياماً لا يُؤذن لي بالدُّخول، فجلستُ إلى مُعلم لولده، وقد حدّق ابن لعبد الملك عنده، وهو يُعلم ما يتكلّم به بين يدي أمير المؤمنين إذا دخل عليه، فقلت لمؤدبه: ما تأمل من أمير المؤمنين أن يصلحك به فلك عندي، ذلك على أن تُكلّم الصبي إذا دخل على أمير المؤمنين، فإذا قال له: سل حاجتك، يقول له: حاجتي أن ترضى عن الزهري. ففعل، فضحك عبدُ الملك وقال: أين هو؟ قال: بالباب. فأذن لي، فدخلت، حتى إذا صرت بين يديه، قلت: يا أمير المؤمنين، حدّثني سعيد بن المسيّب عن أبي هريرة عن النبي صلى الله عليه وسلم أنه قال: لا يلدغ المؤمن من جحر مرتين.

وقعة الحرة

أبو اليقظان قال: لما حضرة معاوية الوفاة دعا يزيد، فقال له: إن لك من أهل المدينة يوماً، فإذا فعلوا فارمهم. مُسلم بن عقبة، فإنه رجل قد عرفنا نصيحته. فلما كانت سنة ثلاث وستين، قدم عثمان بن محمد بن أبي سفيان المدينة عاملاً عليها ليزيد بن معاوية، وأوفد على يزيد وفداً من رجال المدينة، فيهم عبدُ الله بن حنظلة غسيل الملائكة، معه ثمانية بنين له، فأعطاهم مائة ألف درهم، وأعطى بنيه كل رجل منهم عشرة آلاف، سوى كُسوتهم وحُملاهم. فلما قدم عبدُ الله بن حنظلة المدينة، أتاه الناس، فقالوا: ما وراءك؟ قال: أتيتكم من عند رجل والله لو لم أجد إلا بيّ هؤلاء لجاهدته بهم. قالوا: فإنه قد بلغنا أنه أكرمك وأجازك وأعطاك. قال: قد فعل، وما قبلتُ ذلك منه إلا أن اتقوى به عليه أي على قتال يزيد - وحضَّ الناس على يزيد فأجابوه. فكتب عثمان بن محمد إلى يزيد بما أجمع عليه أهل المدينة من الخلاف. فكتب إليهم يزيد بن معاوية: بسم الله الرحمن الرحيم، أما بعد. فإن الله لا يُغير ما بقوم حتى يُغيروا ما بأنفسهم، وإذا أراد الله بقوم سوءاً فلا مرد له وما لهم من دونه من وال. وإني قد لبستكم فأخلفتكم، ورفعتم على رأسي، ثم على عيني، ثم على فمي، ثم على بطني، والله لئن وضعتكم تحت قدمي لأطانكم وطأة أقلّ بها عددكم، وأتركم بما أحاديث، تنتسخ أخباركم مع أخبار عاد وثمود. فلما أتاهم كتابه حمي القوم، فقدّمت الأنصار عبدُ الله بن حنظلة على أنفسهم، وقدّمت قريش عبدُ الله بن مُطيع، ثم أخرجوا عثمان بن محمد بن أبي سفيان من المدينة، ومروان بن الحكم، وكُل من كان بها من بني أمية. وكان عبدُ الله بن عباس بالطائف، فسأل عنهم، فقيل له: استعملوا عبدُ الله بن مُطيع على قريش، وعبدُ الله بن حنظلة على الأنصار. فقال: أميران! هلك القوم. ولما بلغ يزيد ما فعلوا أمر بقبة فضربت له خارجاً عن قصره، وقطع البُعوث على أهل الشام، فلم تمضِ ثالثة حتى توافت الحشود. فقدّم عليهم مُسلم بن عقبة المرّي، فتوجه إليهم. وقد عمد أهلُ المدينة فأخرجوا إلى كل ماء لهم بينهم وبين الشام، فصبوا فيه زقاً من قطران وغوروه، فأرسل الله عليهم المطر، فلم يستقوا شيئاً حتى

وردوا المدينة. قال أبو اليقظان وغيره: إنَّ يزيدَ بن معاوية ولىَّ مسلمَ بن عُقبة، وهو قد اشتكى فقال له: إن حدث بك حَدَثٌ فاستعمل حُصينَ بن نَمير. فخرج حتى قدم المدينة، فخرج إليه أهلها في عُدَّة وهيئة وجموع كثيرة لم يُرَ مثلها. فلما رآهم أهل الشام هابوهم وكرهوا قتالهم. فأمر مُسلم بن عقبة بسريره فوضع بين الصَّفين وهو عليه مريض، وأمر مُنادياً ينادي: قاتلوا عن أميركم أو دَعوه. فجدَّ الناس في القتال، فسمعوا التكبيرَ من خلفهم في جوف المدينة، فإذا هم، قد أقحم عليهم بنو حارثة أهل الشام، وهم على الجدر، فاهزم الناس. وعبد الله بن حنظلة متساند إلى بعض بنيهِ يُعْطُ نوماً، فلما فتح عينيه فرأى ما صنعوا أمر أكبر بنيه، فتقدَّم حتى قُتل، فلم يزل يقدِّم واحداً واحداً حتى أتى على آخرهم، ثم كسر غمده سيفه وقاتل حتى قُتل. ودخل مسلم بن عقبة المدينة، وتغلب على أهلها، ثم دعاهم إلى البيعة على أنهم حوَلٌ ليزيد ابن معاوية يحكم في دمائهم وأموالهم وأهلهم، فبايعوا، حتى أتى بعبد الله ابن زَمعة، فقال له: على أنك حوَلٌ لأمير المؤمنين يحكم في مالك ودمك وأهلك. قال: لن أبايع على أي بزعم أمير المؤمنين يحكم في دمي ومالي وأهلي. فقال مسلم بن عقبة: اضربوا عنقه، فوثب مروان بن الحكم فضمَّه إليه، وقال: تُبايعك على ما أحببت. فقال: لا والله لا أقبلها إياه أبداً، إن تنح وإلا فاقتلوهما جميعاً. فتركه مروان وضرب عنقه. وهرب عبدُ الله بن مطيع حتى لحق بمكة، فكان بها حتى قُتل مع عبد الله بن الزبير في أيام عبد الملك بن مروان، وجعل يُقاتل أهل الشام وهو يقول:

والشيخ لا يفرُّ إلا مرة

لا بأس بالكرة بعد الفرة

أنا الذي فررت يوم الحره

فاللوم أجرى كره بقره

أبو عقيل الدورقي قال: سمعتُ أبا نضرة يحدث، قال: دخل أبو سعيد الخدري يوم الحره في غار، فدخل عليه رجل من أهل الشام، وفي عنق أبي سعيد السيف، فوضع أبو سعيد السيف وقال: بؤ يا نبي وإمك فتكون من أصحاب النار وذلك جزاء الظالمين. فقال: أبو سعيد الخدري أنت؟ قال: نعم. قال: فاستغفر لي، قال: غفر الله لك. وأمر مسلم بن عقبة بقتل معقل بن سنان الأشجعي، صبراً، ومحمد بن أبي الجهم بن حديقة العدوي، صبراً وكان جميعاً من قتل يوم الحره من قريش والأنصار ثلثمائة رجل وستة رجال. ومن الموالي وغيرهم أضعاف هؤلاء. وبعث مسلم بن عقبة برؤوس أهل المدينة إلى يزيد، فلما ألقى بين يديه جعل يتمثل بقول ابن الزبيري يوم أحد:

جزع الخزرج من وقع الأسل

ولقالوا ليزيد: لا قتل

ليت أشياخي ببدر شهدوا

لأهلوا واستهلوا فرحاً

فقال له رجل من أصحاب رسول الله صلى الله عليه وسلم: ارتددت عن الإسلام يا أمير المؤمنين! قال: بلى، تستغفر الله. قال: والله لا ساكنك أرضاً أبداً، وخرج عنه. ولما انقضى أمر الحره توجه مسلم بن عقبة بمن معه من أهل الشام إلى مكة يُريد ابن الزبير وهو ثقيل، فلما كان بالأبواء حضره أجله، فدعا حُصين ابن نَمير، فقال له: إني أرسلتُ إليك فلا أدري أقدمك على هذا الجيش أم أقدمك فأضرب عنقك؟ قال: أصلحك الله، أنا سهْمك فارم بي حيث شئت. قال: إنك أعراي جلف جاف، وإن هذا الحي من قريش لم يمكنهم أحد قط من أذنه إلا غلبوه على رأيه، فسِر بهذا الجيش، فإذا لقيت القوم فيأبك أن تمكنهم من أذنك، لا يكن إلا على الوقاف، ثم الثقاف، ثم الانصراف. ومات مسلم بن عقبة، وليصل بالناس الضحاك بن قيس حتى يختار الناس لأنفسهم، فلما مات صلى عليه الوليد بن عقبة لا رحمه الله. ومضى حُصين بن نَمير بجيشه ذلك. فلم يزل محاصراً لأهل مكة حتى مات يزيد، لا رحمه الله، وذلك خمسون يوماً. ونصب المجانيق على الكعبة وحرَّقها يوم الثلاثاء لخمس خلون من ربيع الأول سنة أربع وستين، وفيها مات يزيد بن معاوية بحوارين.

وفاة يزيد بن معاوية

مات يزيد بن معاوية بحوارين من بلاد حمص، وصلى عليه ابنه معاوية بن يزيد بن معاوية ليلة البدر في شهر ربيع الأول. وأم يزيد ميسون بنت بحدل الكلبي، ومات وهو ابن ثمانٍ وثلاثين سنة، وكانت ولايته ثلاث سنين وتسعة أشهر واثنتين وعشرين يوماً.

خليفة معاوية بن يزيد بن معاوية

واستخلف معاوية بن يزيد بن معاوية في شهر ربيع الأول سنة أربع وستين، وهو ابن إحدى وعشرين سنة، ومات بعد أبيه بأربعين يوماً، ولم يزل مريضاً طول ولايته لا يخرج من بيته، فلما حضرته الوفاة قيل له: لو عهدت إلى رجل من أهل بيتك واستخلفت خليفته؟ قال: لم أنتفع بما حيا، فلا أقدحها ميتاً، لا يذهب بنو أمية بجلاوتها وأجرع مرارها، ولكن إذا مات فليصل عليّ الوليد بن عقبة وليصل بالناس الضحاك بن قيس حتى يختار الناس لأنفسهم. فلما مات صلى عليه الوليد بن عقبة وصلى بالناس الضحاك بن قيس بدمشق، حيث قامت دولة بني مروان.

فتنة ابن الزبير

قال علي بن عبد العزيز: حدثنا أبو عبيد عن حجاج عن أبي معشر، قال: لما مات مسلم بن عقبة سار حصين بن نمير حتى أتى مكة، وابن الزبير بها، فدعاهم إلى الطاعة، فلم يجيبوه، فقاتلهم وقتله ابن الزبير. فقتل المنذر بن الزبير يومئذ ورجلان من إخوانه، ومصعب بن عبد الرحمن بن عوف، والمسور بن مخرمة. وكان حصين بن نمير قد نصب المخنف على أبي قبيس وعلى قبيعان، فلم يكن أحد يقدر أن يطوف بالبيت. فأسند ابن الزبير ألواحاً من ساج على البيت، وألقى عليها الفرش والقطائف، فكان إذا وقع عليها الحجر نبا عن البيت. فكانوا يطوفون تحت الألواح، فإذا سمعوا صوت الحجر حين يقع على الفرش والقطائف كبروا، وكان ابن الزبير قد ضرب فسطاطاً في ناحية، فكلما جرح رجل من أصحابه أدخله ذلك الفسطاط، فجاء رجل من أهل الشام بنار في طرف سنانه، فأشعلها في الفسطاط، وكان يوماً شديداً الحر، فتمزق الفسطاط، فوقعت النار على الكعبة، فاحترق الخشب والسقف، وانصدع الركن، واحترقت الأستار وتساقطت إلى الأرض. قال: ثم اقتتلوا مع أهل الشام أياماً بعد حريق الكعبة. قال أبو عبيد: احترقت الكعبة يوم السبت لست خلون من ربيع الأول سنة أربع وستين، فجلس أهل مكة في جانب الحجر ومعهم ابن الزبير، وأهل الشام يرمونهم بالنبل والحجارة، فوقعت نبله بين يدي ابن الزبير، فقال: في هذه خبر. فأخذها فوجد فيها مكتوباً: مات يزيد بن معاوية يوم الخميس لأربع عشرة خلت من ربيع الأول. فلما قرأ ذلك قال: يا أهل الشام، يا أعداء الله، ومحرقي بيت الله، علام تقاتلون وقد مات طاعتكم! فقالت حصين بن نمير: موعذك البطحاء الليلة أبا بكر. فلما كان الليل خرج ابن الزبير بأصحابه، وخرج حصين بأصحابه إلى البطحاء. ثم ترك كل واحد منهما أصحابه وانفردا فترلا. فقال حصين: يا أبا بكر، أنا سيد أهل الشام لا أدافع، وأرى أهل الحجاز قد رضوا بك، فتعال أبايعك الساعة ويهدر كل شيء أصبناه يوم الحرّة، وتخرج معي إلى الشام، فإني لا أحب أن يكون الملك بالحجاز. فقال: لا والله لا أفعل ولا أمن من أخاف الناس وأحرق بيت الله وانتهك حرمة. قال: بل فافعل على أن لا يختلف عليك اثنان. فأبى ابن الزبير. فقال له حصين: لعنك الله ولعن من زعم أنك سيد! والله لا تفلح أبداً! اركبوا يا أهل الشام. فركبوا وانصرفوا. أبو عبيد عن حجاج عن أبي معشر قال: حدثنا بعض المشيخة الذين حضروا قتال ابن الزبير، قال: غلب حصين بن نمير على مكة كلها إلا الحجر. قال: فوالله إني لجالس عنده، معه نفر من القرشيين: عبد الله بن مطيع والمختار بن أبي عبيد، والمسور بن مخرمة، والمنذر بن الزبير: إذ هبت روية، فقال المختار: والله إني لأرى في هذه الرويحة النصر، فاحملوا عليهم. فحملوا عليهم حتى أخرجوهم من مكة، وقتل المختار رجلاً، وقتل ابن مطيع رجلاً، ثم جاءنا على إثر ذلك موت يزيد بعد حريق الكعبة بإحدى عشرة ليلة، وانصرف حصين بن نمير وأصحابه إلى الشام، فوجدوا معاوية بن يزيد قد مات ولم يستخلف، وقال: لا أتحمّلها حياً وميتاً. فلما مات معاوية بن يزيد بايع أهل الشام كلهم ابن الزبير إلا أهل الأزد، وبايع أهل مصر أيضاً ابن الزبير. واستخلف ابن الزبير الضحاك بن قيس الفهري على أهل الشام. فلما رأى ذلك رجال بني أمية وناس من أشرف أهل الشام ووجوههم، منهم روح بن زبّاع وغيره، قال بعضهم لبعض: إن الملك كان فينا أهل الشام، فانتقل عنا إلى الحجاز، لا نرضى بذلك، هل لكم أن تأخذوا رجلاً متاً فينظر في هذا الأمر؟ فقال: استخبروا الله. قال: فرأى القوم أنه غلام حدث السن، فخرجوا من عنده، وقالوا: هذا حدث. فأتوا عمرو بن سعيد بن العاص، فقالوا له: ارفع رأسك لهذا الأمر، فأروه حدثاً فجاءوا إلى خالد بن يزيد بن معاوية، فقالوا له: ارفع رأسك لهذا الأمر، فأروه حريصاً على هذا الأمر. فلما خرجوا من عنده قالوا: هذا حدث. فأتوا مروان ابن الحكم، فإذا عنده مصباح، وإذا هم

يَسْمَعُونَ صَوْتَهُ بِالْقُرْآنِ، فَاسْتَأْذَنُوا وَدَخَلُوا عَلَيْهِ، قَالُوا: يَا أَبَا عَبْدِ الْمَلِكِ، ارْفَعْ رَأْسَكَ لِهَذَا الْأَمْرِ. فَقَالَ: اسْتَخِيرُوا اللَّهَ وَاسْأَلُوا أَنْ يَخْتَارَ لِأُمَّةٍ مُحَمَّدٌ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ خَيْرَهَا وَأَعَدَّهَا. فَقَالَ لَهُ رُوْحُ ابْنِ زَيْبَاعٍ: إِنَّ مَعِيَ أَرْبَعَمِائَةَ مِنْ جُذَامٍ، فَأَنَا أَمْرُهُمْ أَنْ يَتَقَدَّمُوا فِي الْمَسْجِدِ غَدًا، وَمُرَأْتُ ابْنِكَ عَبْدِ الْعَزِيزِ أَنْ يَخْطُبَ النَّاسَ وَيَدْعُوَهُمْ إِلَيْهِ، فَإِذَا فَعَلَ ذَلِكَ تَنَادَوْا مِنْ جَانِبِ الْمَسْجِدِ: صَدَقْتَ صَدَقْتَ، فَيُظَنُّ النَّاسُ أَنْ أَمْرَهُمْ وَاحِدٌ. فَلَمَّا اجْتَمَعَ النَّاسُ قَامَ عَبْدُ الْعَزِيزِ فَحَمِدَ اللَّهَ وَأَثْنَى عَلَيْهِ، ثُمَّ قَالَ: مَا أَحَدٌ أَوْلَى بِهَذَا الْأَمْرِ مِنْ مَرَّوَانَ كَبِيرِ قُرَيْشٍ وَسَيِّدِهَا، وَالَّذِي نَفْسِي بِيَدِهِ لَقَدْ شَابَتْ ذِرَاعَاهُ مِنَ الْكِبَرِ. فَقَالَ الْجُدَامِيُّونَ: صَدَقْتَ صَدَقْتَ. فَقَالَ خَالِدُ بْنُ يَزِيدَ: أَمْرٌ دَبَّرَ لِبَلِيلٍ. فَبَايَعُوا مَرَّوَانَ بْنِ الْحَكَمِ. ثُمَّ كَانَ مِنْ أَمْرِهِ مَعَ الضَّحَّاكِ بْنِ قَيْسِ بَمَرْجِ رَاهِطٍ مَا سَيَأْتِي ذِكْرُهُ بَعْدَ هَذَا فِي دَوْلَةِ بَنِي مَرَّوَانَ.

دولة بني مروان ووقعة مرج راهط

أبو الحسن قال: لما مات معاوية بن يزيد اختلف الناس بالشام، فكان أول من خالف من أمراء الأجناد النعمان بن بشير الأنصاري، وكان على حمص، فدعا لابن الزبير، فبلغ خبره زفر بن الحارث الكلبي، وهو بقنسرين، فدعا إلى ابن الزبير أيضاً بدمشق سراً، ولم يظهر ذلك لمن بها من بني أمية وكتب. وبلغ ذلك حسان بن مالك بن بحدل الكلبي، وهو بفلسطين فقال لروح بن زنباع: إني أرى أمراء الأجناد يبايعون لابن الزبير وأبناء قيس بالأردن كثير، وهم قومي، فأنا خارج إليها وأقم أنت بفلسطين، فإن جُل أهلها قومك من لخم وجذام، فإن خالفك أحد فقاتله بهم. فأقام روح بفلسطين، وخرج حسان إلى الأردن. فقام نائل بن قيس الجذامي، فدعا إلى ابن الزبير، وأخرج روح بن زنباع من فلسطين، ولحق بحسان بالأردن. فقال حسان: يأهل الأردن، قد علمتم أن ابن الزبير في شقاق ونفاق وعصيان لخلفاء الله ومفارقة لجماعة المسلمين، فانظروا رجلاً من بني حرب فبايعوه. فقالوا: اختر لنا من شئت من بني حرب وجنبتنا هذين الرجلين الغلامين: عبد الله وخالد، ابني يزيد بن معاوية، فإننا نكره أن يدعوا الناس إلى شيخ، ونحن ندعو إلى صبي. وكان هوى حسان في خالد بن يزيد، وكان ابن أخته. فلما رموه بهذا الكلام أمسك، وكتب إلى الضحاك بن قيس كتاباً يعظم فيه بني أمية وبلاءهم عنده، ويذم ابن الزبير ويذكر خلافه للجماعة، وقال لرسوله: اقرأ الكتاب على الضحاك. فحضر بني أمية وجماعة الناس. فلما قرأ كتاب حسان تكلم الناس فصاروا فرقتين، فصارت اليمانية مع بني أمية، والقيسية زبيرية، ثم اجتلدوا بالتعال ومشى بعضهم إلى بعض بالسيوف، حتى حجز بينهم خالد بن يزيد، ودخل الضحاك دار الإمارة، فلم يخرج ثلاثة أيام. وقدم عبید الله بن زياد، فكان مع بني أمية بدمشق. فخرج الضحاك بن قيس إلى المَرَج - مرج راهط - فعسكر فيه، وأرسل إلى أمراء الأجناد فأتوه، إلا ما كان من كلب. ودعا مروان إلى نفسه، فبايعته بنو أمية وكتب وغسان والسكاسك وطىء، فعسكر في خمسة آلاف. وأقبل عبَّاد بن يزيد من حوران في ألفين من مواليه وغيرهم من بني كلب، فلحق بمروان. وغلب يزيد بن أبي أنيس على دمشق، فأخرج منها عامل الضحاك، وأمد مروان برجاله وسلاح كثير. وكتب الضحاك إلى أمراء الأجناد، فقدم عليه زفر بن الحارث من قنسرين، وأمدته النعمان بن بشير بشرحيل بن ذي الكلاع في أهل حمص، فتوافوا عند الضحاك بمَرَجِ رَاهِطٍ، فكان الضحاك في ستين ألفاً، ومروان في ثلاثة عشر ألفاً، أكثرهم رجالة، وأكثر أصحاب الضحاك رُكباناً. فاقتتلوا بالمَرَجِ، عشرين يوماً، وصبر الفريقان. وكان على ميمنة الضحاك زياد بن عمرو بن معاوية العُمَيْلي، وعلى مسيرته بكر بن أبي بشير الهلالي. فقال عبید الله بن زياد لمروان: إنك على حق وابن الزبير ومن دعا إليه على الباطل، وهم أكثر منا عدداً وعدداً، ومع الضحاك فرسان قيس، واعلم أنك لا تنال منهم ما تريد إلا بمكيدة، وإنما الحرب خدعة، فادعهم إلى المودعة، فإذا أمنوا وكفوا عن القتال، ففكر عليهم. فأرسل مروان السُّفراء إلى الضحاك يدعوه إلى المودعة ووضع الحرب حتى ينظر. فأصبح الضحاك والقيسية قد أمسكوا عن القتال، وهم يطمعون أن يبايع مروان لابن الزبير، وقد أعد مروان أصحابه، فلم يشعر الضحاك وأصحابه إلا والخيل قد شدت عليهم، ففرغ الناس إلى راياتهم من غير استعداد وقد غشيتهم الخيل، فنادى الناس: أبا أنيس، أعجز بعد كئيس - وكنية الضحاك: أبو أنيس - فاقتتل الناس ولزم الناس راياتهم، فترجل مروان، وقال: قبح الله من ولأهم اليوم ظهره حتى يكون الأمر لإحدى الطائفتين. فقتل الضحاك بن قيس، وصبرت قيس عند راياتها يقاتلون، فنظر رجل من بني عُمَيْلٍ إلى ما تلقى قيس عند راياتها من القتل، فقال: اللهم العنها من رايات! واعترضها بسيفه، فجعل يقطعها، فإذا سقطت الراية تفرق أهلها. ثم هزم الناس، فنادى مُنادي مروان: لا تتبعوا من ولأكم اليوم ظهره. فزعموا أن رجلاً من ليس لم

يَضْحَكُوا بَعْدَ يَوْمِ الْمَرْجِ حَتَّى مَاتُوا جَزَعًا عَلَى مَنْ أَصِيبَ مِنْ فُرْسَانَ قَيْسِ يَوْمئِذٍ. فَقَتَلَ مِنْ قَيْسِ يَوْمئِذٍ مَنْ كَانَ يَأْخُذُ شَرْفَ الْعِطَاءِ ثَمَانُونَ رَجُلًا، وَقُتِلَ مِنْ بَنِي سَلِيمِ سِتِّمَاتَةَ، وَقُتِلَ لِمُرْوَانَ ابْنٌ يُقَالُ لَهُ عَبْدُ الْعَزِيزِ. وَشَهِدَ مَعَ الضَّحَّاكِ يَوْمَ مَرْجٍ رَاهِطُ عَبْدِ اللَّهِ بْنِ مُعَاوِيَةَ بْنِ أَبِي سُفْيَانَ. فَلَمَّا أَهْزَمَ النَّاسُ، قَالَ لَهُ عُيَيْدُ اللَّهِ بْنِ زِيَادٍ: ارْتَدَفَ خَلْفِي، فَارْتَدَفَ، فَأَرَادَ عَمْرُو بْنُ سَعِيدٍ أَنْ يَقْتُلَهُ. فَقَالَ لَهُ عُيَيْدُ اللَّهِ بْنِ زِيَادٍ: أَلَا تَكُفُّ يَا لَطِيمَ الشَّيْطَانِ! وَقَالَ زُفَرُ بْنُ الْحَارِثِ، وَقَدْ قُتِلَ ابْنَاهُ يَوْمَ الْمَرْجِ:

بِمُرْوَانَ صَدَعًا بَيْنَا مَتْنَائِيَا

فِرَارِي وَتَرْكِي صَاحِبِي وَرَائِيَا

بِصَالِحِ أَيَّامِي وَحُسْنِ بِلَائِيَا

وَتَذَهَبُ قَتْلِي رَاهِطٍ وَهِيَ مَا هِيََا

وَتَبْقَى حَزَاوَاتُ النُّفُوسِ كَمَا هِيََا

وَتَثَارُ مِنْ أَبْنَاءِ كَلْبٍ نَسَائِيَا

لَعَمْرِي لَقَدْ أَبْقَيْتُ وَقِيعةَ رَاهِطٍ

فَلَمْ يَزِمْ مَنِّي زَلَّةً قَبْلَ هَذِهِ

أَيَذْهَبُ يَوْمٌ وَاحِدٌ إِنْ أَسَأْتُهُ

أَنْتَرِكَ كَلْبًا لَمْ تَنْلَهَا رَمَاحُنَا

وَقَدْ تَتَبَّتِ الْخَضِرَاءُ فِي دِمَنِ الثَّرَى

فَلَا صُلِعَ حَتَّى نَدَعَسَ الْخَيْلَ بِالْقَنَا

فلما قتل الضحاك واهزم الناس، نادى مروان أن لا يُتبع أحد. ثم أقبل إلى دمشق فدخلها ونزل دار معاوية بن أبي سفيان دار الإمارة، ثم جاءتهبيعة الأجناد، فقال له أصحابه: إنا لا نتخوف عليك إلا خالد بن يزيد، فتزوج أمه، فإنك تكسره بذلك، وأمّه ابنة أبي هاشم بن عتبة بن ربيعة. فتزوجها مروان، فلما أراد الخروج إلى مصر قال لخالد: أعزني سلاحاً إن كان عندك، فأعاره سلاحاً، وخرج إلى مصر، فقاتل أهلها وسبى بها ناساً كثيراً، فافتدوا منه. ثم قدم الشام، فقال له خالد. بن يزيد: ردّ عليّ سلاحي. فأبى عليه. فألح عليه خالد. فقال له مروان، وكان فحاشاً: يا بن رطبة الإست. قال: فدخل إلى أمه فبكى عندها وشكا إليها ما قاله مروان على رؤوس أهل الشام. فقالت له: لا عليك، فإنه لا يعود إليك بمثلها. فلبث مروان بعد ما قال لخالد ما قال أياماً، ثم جاء إلى أم خالد فرقد عندها، فأمرت جواربها فطرحن عليه الوسائد، ثم غطته حتى قتله، ثم خرجن فصحن وشققن ثيابهن: يا أمير المؤمنين! يا أمير المؤمنين! ثم قام عبد الملك بالأمر بعده، فقال لفاخر أم خالد: والله لولا أن يقول الناس إني قتلتُ بأبي امرأةً لقتلتُك بأمر المؤمنين. وولد مروان بن الحكم بن العاصي بن أمية بن عبد شمس بن عبد مناف بمكة. ومات بالشام، لثلاث خلون من رمضان سنة خمس وستين، وهو ابن ثلاث وستين سنة. وصلى عليه ابنه عبد الملك بن مروان. وكانت ولايته تسعة أشهر وثمانية عشر يوماً. وكان على شرطته يحيى بن قيس الشيباني. وكاتبه سرجون بن منصور الرومي. وحاجبه أبو سهل الأسود، موله.

ولاية عبد الملك بن مروان

هو عبد الملك بن مروان بن الحكم بن العاص بن أمية. ويكنى: أبا الوليد. ويقال له: أبو الأملاك؛ وذلك أنه ولي الخلافة أربع من ولده: الوليد وسليمان ويزيد وهشام. وكان تدمي لنته فيقع عليها الذباب، فكان يُلقب: أبا الذباب. أمه عائشة بنت معاوية بن المغيرة بن أبي العاص بن أمية. وله يقول ابن قيس الرقيات:

فَضَلَّتْ أُرُومَ نَسَائِهَا

وَمَشَّتْ عَلَى غُلُوثِهَا

كَالشَّمْسِ وَسَطَ سَمَائِهَا

أَنْتِ ابْنُ عَائِشَةَ التِّي

لَمْ تَلْتَفْتِ لِلدِّائِهَا

وَلَدْتَ أَعْرَ مَبَارِكًا

وبُويَعُ عَبْدُ الْمَلِكِ بِدِمَشْقٍ لثَلَاثِ خَلُونَ مِنْ رَمَضَانَ سَنَةِ خَمْسٍ وَسِتِّينَ، وَمَاتَ بِدِمَشْقٍ لِلنَّصَفِ مِنْ شَوَالِ سَنَةِ سِتِّ وَثَمَانِينَ، وَهُوَ ابْنُ ثَلَاثِ وَسِتِّينَ سَنَةً، فَصَلَّى عَلَيْهِ الْوَلِيدُ بْنُ عَبْدِ الْمَلِكِ. وَوُلِدَ عَبْدُ الْمَلِكِ بِالْمَدِينَةِ سَنَةَ ثَلَاثِ وَعَشْرِينَ، وَيُقَالُ سَنَةَ سِتِّ وَعَشْرِينَ. وَيُقَالُ وُلِدَ لِسَبْعَةِ أَشْهُرٍ. وَكَانَ عَلَى شَرْطَتِهِ

ابن أبي كَبَيْشَةَ السُّكْسُكِيِّ، ثم أبو نائل بن رياح بن عُبيدة العَسَّائِي، ثم عبدُ الله بن يزيد الحَكَمِيُّ. وعلى حَرَسِه الرِّيَّان. وكتبه على الخراج والجُند سَرَجُون ابن منصور الرُّومِي. وكتبه على الرسائل أبو زُرْعَة، مولاه. وعلى الختم قَبِيصَة ابن ذُؤَيْب. وعلى يُبوت الأموال والخزائن رَجَاء بن حَيَّوَة. وحاجبه أبو يوسف، مولاه. ومات عبد الملك سنة ست وثمانين، وهو ابن ثلاث وستين سنة. وصلى عليه الوليد ابْنُه. وكانت ولايته، منذ اجتمع عليه ثلاث عشرة سنة وثلاثة أشهر، ودُفن خارجَ باب المدينة. وفي أيام عبد الملك حُوِّلت الدواوينُ إلى العربيَّة عن الرومية والفارسية، حَوَّها عن الرومية سليمان بن سَعْد، مولى خُشَيْن. وحولها عن الفارسية صالحُ بن عبد الرحمن، مولى عتبة، امرأة من بني مُرَة. ويقال: حُوِّلت في زمن الوليد. ابنُ وهب عن ابن لَهِيعة قال: كان معاوية فرض للموالي خمسة عشر، فبلغهم عبدُ الملك عشرين، ثم بلغهم سليمانُ خمسة وعشرين، ثم قام هشامُ فأتم للأبناء منهم ثلاثين. وكتب عبدُ الله بن عمر إلى عبد الملك بن مروان يبعثه لما قُتل ابنُ الزبير، وكان كتابه إليه يقول: لعبد الملك بن مروان، من عبد الله بن عُمَر: سلام عليك، فإني أقررتُ لك بالسمع والطاعة على سنة الله وسنة رسوله صلى الله عليه وسلم. وبيعة نافع مولاي على مثل ما بايعتُك عليه. وكتب محمدُ بن الحنفية ببيعته لما قتل ابن الزبير، وكان في كتابه: إني اعتزلتُ الأمة عند اختلافها، فقعدتُ في البلد الحرام الذي من دخله كان آمناً، لأحرزَ ديني وأمنع دمي، وتركتُ الناسَ "قُلْ كل يعمل على شاكلته، فربكم أعلمُ. بمن هو أهدى سبيلاً". وقد رأيتُ الناسَ قد اجتمعوا عليك، ونحن عصابة من أمتنا لا نفارق الجماعة، وقد بعثتُ إليك من رسولنا لياخذ لنا منك ميثاقاً، ونحن أحقُّ بذلك منك. فإن آبيتَ فأرضُ الله واسعة، والعاقبة للمتقين. فكتب إليه عبدُ الملك: قد بلغني كتابك بما سألتَه من الميثاق لك وللعصابة التي معك. فلك عهدُ الله وميثاقه أن لا تُهاج في سلطاننا غائباً ولا شاهداً، ولا أحد من أصحابك ما وقواً ببيعتهم، فإن أحببتَ المقام بالحجاز فأقم، فلن ندع صلتك وبرك، وإن أحببتَ المقام عندنا فاشخص إلينا، فلن ندع مواصلاتك. ولعمري لئن ألتأتك إلى الذهاب في الأرض خائفاً لقد ظلمناك، وقطعنا رحمتك. فاحرُج إلى الحجاج فبايع. فإنك أنت الحمود عندنا ديناً ورأياً، وخيرٌ من ابن الزبير وأرضى وأتقى. وكتب إلى الحجاج بن يوسف: لا تعرِّض محمد ولا لأحد من أصحابه، وكان في كتابه: جئني دماء بني عبد المطلب، فليس فيها شفاء من الحرب، وإني رأيتُ بني حربٍ سلبوا ملكهم لما قتلوا الحسين بن علي. فلم يتعرض الحجاج لأحد من الطالبين في أيامه. أبو الحسن المدائني قال: كان يقال: معاوية أحلم، وعبدُ الملك أحزم. وخطب الناسَ عبدُ الملك فقال: أيها الناس، ما أنا بالخليفة المستضعف - يريد عثمان بن عفان - ولا بالخليفة المداهن - يريد معاوية بن أبي سفيان - ولا بالخليفة المأفون - يريد يزيد بن معاوية فمن قال برأسه كذا قلنا بسيفنا كذا، ثم نزل. وخطب عبد الملك على المنبر فقال: أيها الناس، إن الله حدَّ حدوداً وفرضَ فروضاً، فما زلتُم تزدادون في الذنب وتزداد في العقوبة، حتى اجتمعنا نحن وأنتم عند السيف. أبو الحسن المدائني قال: قدِم عمرُ بن علي بن أبي طالب على عبد الملك، فسأله أن يُصير إليه صدقة علي. فقال عبدُ الملك متمثلاً بأبيات ابن أبي الحقيق:

إني إذا مالت دواعي الهوى

وأعتلج الناسُ بأرائهم

لا نجعل الباطل حقاً ولا

وأنتصت السامع للقاتل

نقضي بحكم عادلٍ فاصل

نرضى بدون الحق للباطل

لا، لعمري، لا تُخرجها من ولد الحسين إليك. وأمر له بصلة ورجع. وقال عبد الملك بن مروان لأئمن بن خريم: إن أباك وعمك كانت لهما صحبة فخذ هذا المال فقاتل ابن الزبير. فأبى فشتمه عبد الملك. فخرج وهو يقول:

فلست بقاتل رجلاً يُصلي

له سلطانه وعلي إثمِي

وقال أئمن بن خريم أيضاً:

على سلطان آخر من قريش

معاذ الله من سقاه وطيش

فرويد الميمل منها يعتدل

إن للفتنة هيّطاً بينا

وقال زُفر بن الحارث لعبد الملك بن مروان: الحمد لله الذي نصرك على كُره من المؤمنين. فقال أبو زعيرة: ما كره ذلك إلا كافر. فقال زُفر: كذبت، قال الله لنبيه: "كما أخرجك ربك من بيتك بالحق وإن فريقاً من المؤمنين لكارهون". وبعث عبد الملك بن مروان إلى المدينة حُبَيْش بن دُلْجَة القَيْسِيّ في سبعة آلاف. فدخل المدينة وجلس على منبر رسول الله صلى الله عليه وسلم، فدعا يُجْبَز ولحم فأكل، ثم دعا بماء فتوضأ على المنبر، ثم دعا جابر بن عبد الله صاحب النبي صلى الله عليه وسلم فقال: تُبايع لعبد الملك بن مروان أمير المؤمنين بعهد الله عليك وميثاقه، وأعظم ما أخذ الله على أحد من خلقه في الوفاء، فإن خُتِننا فهُرّاق الله دَمَك على ضلال. قال: أنت أطوقُ لذلك مني، ولكن أبايعة على ما بايعتُ عليه رسول الله صلى الله عليه وسلم يوم الحُدَيْبية، على السمع والطاعة. ثم خرج ابن دُلْجَة من يومه ذلك إلى الرَبْذَة، وقدم على أثره من الشام رجلاً، مع كل واحد منهما حَيْش، ثم اجتمعوا جميعاً في الرَبْذَة، وذلك في رمضان سنة خمس وستين. وأميرهم ابن دُلْجَة. وكتب ابن الزبير إلى العباس بن سهل الساعديّ بالمدينة أن يسير إلى حُبَيْش بن دُلْجَة. فسار حتى لقيَه بالرَبْذَة. وبعث الحارث بن عبد الله بن أبي ربيعة - وهو عامل ابن الزبير على البصرة - مدداً إلى العباس بن سهل، حنيف بن السَّجَف في تسعمائة من أهل البصرة. فساروا حتى انتهوا إلى الرَبْذَة. فبات أهل البصرة وأهل المدينة يقرأون القرآن ويصلون. وبات أهل الشام في المعازف والخمور، فلما أصبحوا غدوا على القتال، فقتل حُبَيْش بن دُلْجَة ومن معه. فتحصن منهم خمسمائة رجل من أهل الشام على عمود الرَبْذَة، وهو الجبل الذي عليها، وفيهم يوسف أبو الحجاج، فأحاط بهم عباس بن سهل، فطلبوا الأمان، فقال: انزلوا على حُكْمِي، فترلوا على حكمه، فضرب أعناقهم أجمعين. ثم رجع عباس بن سهل إلى المدينة، وبعث عبد الله بن الزبير ابنه حمزة عاملاً على البصرة، فاستضعفه القوم، فبعث أخاه مُصعب بن الزبير، فقدم عليهم، فقال: يا أهل البصرة، بلغني أنه لا يُقدّم عليكم أمير إلا لَقَبْتُموه، إني ألقب لكم نفسي: أنا القصاب. خبر المختار بن أبي عبيد ثم أرسل عبد الله بن الزبير إبراهيم بن محمد بن طلحة أميراً على الكوفة، ثم عزله وأرسل المختار بن أبي عبيد. وأرسل عبد الملك عبيد الله بن زياد إلى الكوفة. فبلغ المختار إقبال عبيد الله بن زياد، فوجه إليهم إبراهيم بن الأشتر في جيش، فالتقوا بالجزر، وقتل عبيد الله بن زياد وحُصَيْن بن نمير وذا الكلاع وعمامة من كان معهم. وبعث برؤوسهم إلى عبد الله بن الزبير. أبو بكر بن أبي شيبة قال: حدثنا شريك بن عبد الله عن أبي الجويرية الجرمي قال: كنت فيمن سار إلى أهل الشام يوم الحجاز مع إبراهيم بن الأشتر فلقيناهم بالزَّاب، فهبت الرياح لنا عليهم، فأدبروا، فقتلناهم عَشِيَّتِنَا وليلتنا حتى أصبحوا: فقال إبراهيم: إني قتلت البارحة رجلاً فوجدتُ عليه ريح طيب، فالتَمِسوه، فما أراه إلا ابن مَرَّجَانَة. فانطلقنا فإذا هو والله مَعكوس في بطن الوادي.

ولما التقى عبيد الله بن زياد وإبراهيم بن الأشتر بالزَّاب، قال: من هذا الذي يُقاتلني؟ قيل له: إبراهيم بن الأشتر. قال: لقد تركته أمس صبيّاً يلعب بالحمام. قال: ولما قُتل ابن زياد بعث المختارُ برأسه إلى عليّ بن الحسين بالمدينة. قال الرسول: فقدمتُ به عليه انتصافَ النهار وهو يتغذى، قال: فلما رآه قال: سبحان الله! ما اغتر بالدنيا إلا من ليس لله في عنقه نعمة! لقد أدخل رأس أبي عبد الله على ابن زياد وهو يتغذى. وقال يزيد بن مفرغ:

إن الذي عاش ختاراً بدمته

ومات عبداً قتيلاً الله بالزَّاب

ثم إن المختار كتب كتاباً إلى ابن الزبير، وقال لرسوله: إذا جئت مكة فدفعْتَ كتابي إلى ابن الزبير فأْتِ المهديّ - يعني محمد بن الحنفية - فاقرأ عليه السلام وقل له: يقول لك أبو إسحاق: إني أحبك وأحب أهل بيتك. قال: فأتاه، فقال له ذلك. فقال: كذبت وكذب أبو إسحاق، وكيف يُحِبُّني ويُحِبُّ أهل بيتي وهو يُجلس عمر بن سعد على وسائده وقد قتل الحسين! فلما قدم عليه رسوله وأخبره. قال المختار لأبي عمرو صاحب حرسه: استأجر لي نوائح يبيكين الحسين على باب عمر بن سعد، ففعل. فلما بكين، قال عمر لابنه حَفْص: يا بني، أيت الأمير، فقل له: ما بال النوائح يبيكين الحسين على بابي؟ فأتاه فقال له ذلك. فقال: إنه أهلٌ أن يُبكي عليه. فقال: أصلحك الله، انههن عن ذلك. قال: نعم، تم دعا أبا عمرو صاحب حرسه، قال له: اذهب إلى عمر بن سعد فأتني برأسه. فأتاه، فقام له: قم إليّ أبا حفص. فقام إليه وهو مُلتحف بملحفة، فجلله بالسيف، فقتله وجاء برأسه إلى

المختار. ثم قال: اتتوني بابن عمر. فلما حضره قال: أتعرف هذا؟ قال: نعم، رحمه الله. قال: أتحب أن نلحقك به؟ قال: لا خير في العيش بعده. فأمر به فضرب عنقه. ثم إن المختار لما قتل ابن مَرْحَانَةَ وعمر بن سعد جعل يتبع قتلة الحسين بن علي ومن خذله، فقتلهم أجمعين، وأمر الحسينية، وهم الشيعة، أن يطوفوا في أزقة المدينة بالليل ويقولوا: يا ثارات الحسين! فلما أفناهم ودانت له العراق، ولم يكن صادق النية ولا صحيح المذهب وإنما أراد أن يستأصل الناس، فلما أدرك بُغَيْتَهُ أظهر قُبْحَ نِيَّتِهِ للناس، فادّعى أن جبريل ينزل عليه ويأتيه بالوحي من الله. وكتب إلى أهل البصرة: بلغني أنكم تُكذّبونني وتكذبون رُسُلِي، وقد كذبت الأنبياء من قبلي، ولست بخير من كثير منهم. فلما انتشر ذلك عنه كَتَبَ أهل الكوفة إلى ابن الزبير، وهو بالبصرة، فخرج إليه. وبرز إليه المختار، فأسلمه إبراهيم بن الأشتر، ووجوه أهل الكوفة، فقتله مُصْعَبٌ وقتل أصحابه. أبو بكر بن أبي شَيْبَةَ قال: قيل لعبد الله بن عمر: إن المختار ليزعم أنه يوحي إليه. قال: صدق، الشياطين يوحون إلى أوليائهم.

وقتل مصعباً من أصحاب المختار ثلاثة آلاف. ثم حج سنة إحدى وسبعين، فقدم على أخيه عبد الله بن الزبير ومعه وجوه أهل العراق، فقال: يا أمير المؤمنين، قد جئتكم بوجوه أهل العراق، ولم أدع لهم بما، نظيراً، فأعطهم من المال. قال جئتني بعبيد أهل العراق لأعطيتهم من مال الله، وددت أن لي بكل عشرة منهم رجلاً من أهل الشام صرف الدينار بالدرهم. فلما انصرف مُصْعَبٌ ومعه الوفد من أهل العراق، وقد حرّمهم عبد الله بن الزبير ما عنده، فسدت قلوبهم، فراسلوا عبد الملك بن مروان حتى خرج إلى مصعب فقتله. في بن عبد العزيز عن حجاج عن أبي معشر قال: لما بعث مُصْعَبٌ برأس المختار إلى عبد الله بن الزبير فوضع بين يديه، قال: ما من شيء حدّثني كعب الأبحار إلا قد رأيته، غير هذا، فإنه قال لي: يقتلك شاب من ثقيف، فأراني قد قتلته. وقال محمد بن سيرين، لما بلغه هذا الحديث: لم يعلم ابن الزبير أن أبا محمد قد خيئ له. ولما قتل مصعب المختار بن أبي عبيد ودانت له العراق كلها: الكوفة والبصرة، قال فيه عبیدُ الله بن قيس الرقيات:

تَشْمَلُ الشَّامَ غَارَةً شَعَوَاءُ

عَنْ خِدَامِ الْعَقِيلَةِ الْعَدْرَاءِ

ه تَجَلَّتْ عَنْ وَجْهِهِ الظُّلْمَاءُ

كَيْفَ نَوْمِي عَلَى الْفِرَاشِ وَلَمَّا

تَذَهَلُ الشَّيْخَ عَنْ بَنِيهِ وَتُبْدِي

إِنَّمَا مُصْعَبٌ شَهَابٌ مِنَ اللَّ

وتزوج مُصْعَبٌ - لما ملك العراق - عائشة بنت طلحة وسُكَيْنَةَ بنت الحسين، ولم يكن لهما نظير في زمانهما. وقتل مصعب امرأة المختار، وهي ابنة النُّعْمَانِ بْنِ بَشِيرِ الْأَنْصَارِيِّ، فقال فيها عمر بن أبي ربيعة المخزومي:

قَتَلَ حَوْرَاءَ غَادَةَ عَيْطَبُولِ

إِنَّ لِلَّهِ دَرَّهَا مَنْ قَتِيلِ

وَعَلَى الْغَانِيَاتِ جَرُّ الذَّبُولِ

إِنَّ مِنْ أَعْظَمِ الْمَصَائِبِ عِنْدِي

قُتِلَتْ بَاطِلًا عَلَى غَيْرِ ذَنْبِ

كُتِبَ الْقَتْلُ وَالْقِتَالُ عَلَيْنَا

مقتل عمرو بن سعيد الأشدق أبو عبيد عن حجاج عن أبي معشر قال: لما قدم مُصْعَبٌ بوجوه أهل العراق على أخيه عبد الله بن الزبير فلم يُعْطِهِمْ شيئاً أبغضوا ابن الزبير، وكاتبوا عبد الملك بن مروان، فخرج يُريدُ مُصْعَبَ بن الزبير، فلما لم يأخذ في جهازه وأراد الخروج، أقبلت عاتكة بنت يزيد بن معاوية في جواربها، وقد ترينت بالحلى، فقالت: يا أمير المؤمنين، لو قعدت في ظلال مُلْكِكَ ووجهت إليه كلباً من كلابك لكفأك أمره. فقال: هيهات! أما سمعت قول الأول:

دُونَ النِّسَاءِ وَلَوْ بَاتَتْ بِأَطْهَارِ.

فلما أبى عليها وعزم، بكت وبكى معها جواربها. فقال عبد الملك: قاتل الله ابن أبي جُمعة كأنه ينظر إلينا حيث يقول:

حَصَانَ عَلَيْهَا نَظْمٌ دُرٌّ يَزِينُهَا

إِذَا مَا أَرَادَ الْغَزْوُ لَمْ يَبْنِ هَمَّهُ

ثم خرج يُريد، مصعب، فلما كان من دمشق على ثلاث مراحل أغلق عمرو بن سعيد دمشق وخالف عليه، فقيل له: ما تصنع، أتريد العراق وتدع دمشق؟ أهل الشام أشد عليك من أهل العراق؟ فرجع مكانه، فحاصر أهل دمشق حتى صالح عمرو بن سعيد على أنه الخليفة بعده، وأن له مع كل عامل عاملاً. ففتح له دمشق، وكان بيت المال بيد عمرو بن سعيد، فأرسل إليه عبد الملك: أن أخرج للحرس أرزاقهم. فقال: إذا كان لك حرس فإن لنا حرساً أيضاً. فقال عبد الملك: أخرج لحرسك أيضاً أرزاقهم. فلما كان يوم من الأيام أرسل عبد الملك إلى عمرو بن سعيد نصف النهار أن ائني أبا أمية حتى أدبر معك أموراً. فقالت له امرأته: يا أبا أمية، لا تذهب إليه فإنني أتخوف عليك منه. فقال: أبو الذباب! والله لو كنت نائماً ما أيقظني. قالت: والله ما أمته عليك، وإني لأجد ريح دم مسفوح. فما زالت به حتى ضربها بقائم سيفه فشجها. فخرج وخرج مه أربعة آلاف من أبطال أهل الشام الذين لا يُقدر على مثلهم، مسلحين، فأحدقوا بخضراء دمشق وفيها عبد الملك، فقالوا: يا أبا أمية، إن رابك ريب فأسمعنا صوتك. قال: فدخل، فجعوا يصيحون: أبا أمية! أسمعنا صوتك، وكان معه غلام أسحم شجاع، فقال له: اذهب إلى الناس! فقل لهم: ليس عليه بأس. فقال له عبد الملك: أمكراً عند الموت أبا أمية! خذوه، فأخذوه. فقال له عبد الملك: إني أقسمت إن أمكنتني منك يد أن أجعل في عنقك جامعة، وهذه جامعة من فضة أريد أن أيربها قسمي. قال: فطرح في رقبته الجامعة، ثم طرحة إلى الأرض بيده. فانكسرت ثنيته، فجعل عبد الملك ينظر إليه. فقال عمرو: لا عليك يا أمير المؤمنين، عظم انكسر. قال: وجاء المؤذنون فقالوا: الصلاة يا أمير المؤمنين، لصلاة الظهر، فقال لعبد العزيز بن مروان: اقتله حتى أرحع إليك من الصلاة. فلما أراد عبد العزيز أن يضرب عنقه، قال له عمرو: نشدتك بالرحم يا عبد العزيز أن لا تقتلني من بينهم، فجاء عبد الملك فراه جالساً، فقال: مالك لم تقتله! لعنك الله ولعن أمًا ولدتك. ثم قال: قدموه إلي، فأخذ الحربة بيده، فقال عمرو: فعلتها يا بن الزرقاء! فقال له عبد الملك: إني لو علمت أنك تبقى ويصلح لي ملكي لفتيتك بدم الناظر. ولكن قلما اجتمع فحلان في ذود إلا عدا أحدهما على الآخر، ثم رفع إليه الحربة فقتله. وقعد عبد الملك يُرعد، ثم أمر به فأدرج في بساط وأدخل تحت السرير. وأرسل إلى قبيصة بن ذؤيب الخزاعي، فدخل عليه، فقال: كيف رأيك في عمرو بن سعيد الأشدق؟ قال: وأبصر قبيصة رجل عمرو تحت السرير، فقال: اضرب عنقه يا أمير المؤمنين. قال: جزاك الله خيراً، أما علمت إنك لموفق. قال قبيصة: أطرح رأسه وأثر على الناس الدنانير يتشاغلون بها. ففعل، وافترق الناس، وهرب يحيى بن سعيد بن العاص حتى لحق بعبد الله بن الزبير بمكة، فكان معه. وأرسل عبد الملك بن مروان بعد قتله عمرو بن سعيد إلى رجل كان يستشيرهُ ويصدر عن رأيه إذا ضاق عليه الأمر، فقال له: ما ترى ما كان من فعلي بعمرو ابن سعيد؟ قال: أمرٌ قد فات دركه. قال: لتقولن. قال: حزم لو قتلتَهُ وحبيت أنت. قالت: أو لست بحمي؟ قال: هيهات! ليس بحمي من أوقف نفسه موقفاً لا يوثق منه بعهد ولا عقد. قال: كلام لو تقدم سماعه فعلي لأمسكت. ولما بلغ عبد الله بن الزبير قتل عمرو بن سعيد، صعد المنبر، فحمد الله وأثنى عليه، ثم قال: أيها الناس، إن عبد الملك بن مروان قتل لطيم الشيطان، كذلك نُؤلي بعض الظالمين بعضاً بما كانوا يكسبون. مقتل مصعب بن الزبير

فلما استقرت البيعة لعبد الملك بن مروان أراد الخروج إلى مصعب بن الزبير، فجعل يستنفر أهل الشام فيبطون عليه، فقال له الحجاج بن يوسف: سلطني عليهم، فوالله لأخرجتهم معك. قال له: قد سلطتك عليهم. فكان الحجاج لا يمر على باب رجل من أهل الشام قد تخلف عن الخروج إلا أحرق عليه داره. فلما رأى ذلك أهل الشام خرجوا، وسار عبد الملك حتى دنا من العراق. وخرج مصعب بأهل البصرة والكوفة، فالتقوا بين الشام والعراق. وقد كان عبد الملك كتب كتباً إلى رجاله من وجوه أهل العراق يدعوهم فيها إلى نفسه ويجعل لهم الأموال، وكتب إلى إبراهيم بن الأشتر بمثل ذلك، على أن يخذلوا مصعباً إذا التقوا. فقال إبراهيم بن الأشتر لمصعب: إن عبد الملك قد كتب إلي هذا الكتاب، وقد كتب إلى أصحابي بمثل ذلك، فادعهم الساعة فاضرب أعناقهم قال: ما كنت لأفعل ذلك حتى يستبين لي أمرهم. قال: فأخري. قال: ما هي؟ قال: احبسهم حتى يستبين لك ذلك. قال: ما كنت لأفعل. قال: فعليك السلام، والله لا تراني بعد في مجلسك هذا أبداً. وقد كان قال له: دعني أدعو أهل الكوفة بما شرطه الله فقال: لا والله، قتلتهم أمس وأستنصر بهم اليوم! قال: فما هو إلا أن التقوا فحولوا وجوههم وصاروا إلى عبد الملك. وبقي مصعب في شردمة قليلة. فجاءه عبيد الله بن زياد، بن ظبيان، وكان مع مصعب، فقال: أين الناس أيها الأمير؟ فقال: قد غدرتم يا أهل العراق! فرغ عبيد الله السيف ليضرب مصعباً،

فبدره مُصعب فضربه بالسيف على البَيضة، فَتَشِبَّ السيفُ في البَيضة، فجاء غلامٌ لُعبيد الله ابن زياد بن ظبيان، فضرب مُصعبا بالسيف فقتله. ثم جاء عُبيدُ الله برأسه إلى عبد الملك بن مروان وهو يقول:

وليس علينا. قتلهم بمُحرم

نطيع ملوك الأرض ما أقسطوا لنا

قال: فلما نظر عبدُ الملك إلى رأس مُصعب خَرَّ ساجداً. فقال عُبيد الله بن زياد، بن ظبيان، وكان من قَتاك العرب: ما ندمتُ على شيء قطُّ ندمي على عبد الملك بن مروان إذ أتيتُه برأس مُصعب فخر ساجداً أن لا أكون ضربت عنقه، فأكون قد قتلت ملكي العرب في يوم واحد. وقال في ذلك عُبيد الله ابن زياد، بن ظبيان:

فعلت فأدمنت البُكا لأقاربه

هَممتُ ولم أفعل وكِدْتُ وليتني

والحقتُ من قد خرَّ شكراً بصاحبه

فأوردتها في النار بكر بن وائل

الرياشي عن الأصمعي قال: لما أتى عبدُ الملك برأس مُصعب بن الزبير نظر إليه ملياً، ثم قال: متى تُلد قُريش مثلك! وقال: هذا سيّد شباب قُريش. وقيل لعبد الملك: أكان مُصعب يَشرب الطلأ؛ فقال: لو علم مُصعب أن الماء يُفسد مروءته ما شربه. ولما قُتل مُصعب دخل الناسُ على عبد الملك يُهنئونه، ودخل معهم شاعرٌ فأنشده:

وقد أراد المُلحدون عوقها

الله أعطاك التي لا فوقها

إليك حتى قلدوك طوقها

عك ويأبى الله سوقها

فأمر له بعشرة آلاف درهم. وقالوا: كان مُصعب أجلّ الناس، وأسخى الناس، وأشجع الناس. وكان تحته عَقيلتنا قُريش: عائشة بنت طلحة، وسكينة بنت الحسين. ولما قُتل مُصعب خرجت سُكينة بنت الحسين تُريد المدينة، فأطاف بها أهل العراق، وقالوا: أحسنَ اللهُ صحابَتَك يا ابنةَ رسول الله. فقالت: لا جزاكم اللهُ عني خيراً، ولا أخلف عليكم بخير من أهل بلد، قتلتم أبي وجدي وعمي وزوجي، أيتمتموني صغيرةً وأرملتموني كبيرةً. ولما بلغ عبد الله بن الزبير قتل مُصعب صعد المنبر فجلس عليه، ثم سكت، فجعل لوئته يجر مرةً ويصفر مرةً، فقال رجل من قُريش لرجل إلى جنبه: ماله لا يتكلم! فوالله إنه للخطيب اللبيب. فقال له الرجل: لعله يريد أن يذُكر مَقْتل سيّد العرب فيشتدّ ذلك عليه، وغير ملوم. ثم تكلم فقال: الحمدُ لله الذي له الخلقُ والأمر، والدنيا والآخرة، يُؤتي الملكَ من يشاء، ويترع الملكُ ممن يشاء، ويُعز من يشاء، ويُذل من يشاء، أما بعد. فإنه لم يعزَّ من كان الباطل معه، ولو كان معه الأنام طراً، ولم يذل من كان الحقَّ معه، ولو كان فرداً. ألا وإنَّ خيراً من العراق أانا فأحزننا وأفرحنا، فأما الذي أحزننا فإنَّ لفراق الحميم لوعةً يجدها حميمه، ثم يرعوى ذو الألباب إلى الصبر وكرام الأجر؛ وأما الذي أفرحنا، فإن قتل مُصعب له شهادةٌ ولنا ذخيرة. أسلمه الطغام، والصلم الأذان، أهل العراق، وباعوه بأقل من الثمن الذي كانوا يأخذون منه، فإن يُقتل فقد قُتل أخوه وأبوه وابن عمه، وكانوا الخيارَ الصالحين. أما والله لا نموت حتف أنوفنا، كما يموت بنو مروان، ولكن قَعْصاً بالرماح وموتاً تحت ظلالِ السيوف، فإن تقبل الدنيا علي لم آخذها مآخذ الأشرِ البَطِر، وإن تدبر عني لم أثبك عليها بُكاء الخرف الزائل العَقْل. ولما توطد لابن الزبير أمره ومَلِك الحرمين والعراقين أظهر بعضُ بني هاشم الطعنَ عليه، وذلك بعد موت الحسن والحسين، فدعا عبدُ الله بن عباس ومحمد بن الحنفية وجماعةً من بني هاشم إلى بيعته، فأبوا عليه، فجعل يَشتمهم ويتناوهم على المنبر، وأسقط ذكرَ النبي صلى الله عليه وسلم من خطبته، فعُوتب على ذلك، فقال: والله ما يمنعني أي لا أذكره علانيةً من ذكره سرّاً وأصلي عليه، ولكن رأيتُ هذا الحي من بني هاشم إذا سمعوا ذكرَه اشْرأبت أعناقهم، وأبغض الأشياء إلي ما يسرهم. ثم قال: لتبايُن أو لأحرقنكم بالنار. فأبوا عليه، فحبس محمد بن الحنفية في خمسة عشر من بني هاشم في السجن، وكان السجن الذي حبسهم فيه يقال له سِجْن عارم. فقال في ذلك كُثير عزةً، وكان ابن الزبير يُدعى العائد، لأنه عاد بالبيت:

بل العائد المظلوم يفِي سِجْن عارم

تخبر من لاقيت أنك عائد

وكان أيضاً يُدعى الحِلِّ، لإحلاله القتال في الحَرَم. وفي ذلك يقول رجل من الشعراء في رَملة بنت الزُّبير:

أَلَا مَنْ لِقَلْبٍ مُعْنَى غَزَلٍ

بِذِكْرِ الْمُحَلَّةِ أُخْتِ الْمُحَلِّ

ثم إن المختار بن أبي عبيد وجه رجلاً يثق بهم من الشيعة، يكمنون النهارَ ويسرون الليل، حتى كسروا سجنَ عارم واستخرجوا منه بني هاشم، ثم ساروا بهم إلى مأمَنهم.

وخطب عبدُ الله بن الزبير بعد موت الحسن والحسين، فقال: أيها الناس، إن فيكم رجلاً قد أعمى الله قلبه كما أعمى بصره، قاتل أمَّ المؤمنين وحواري رسول الله صلى الله عليه وسلم، وأفتى بزواج المتعة. وعبدُ الله بن عباس في المسجد، فقام وقال لعكرمة: أقم وجهي نحوه يا عكرمة، ثم قال هذا البيت:

إِنْ يَأْخُذُ اللَّهُ مِنْ عَيْنِي نَوْرَهُمَا

فَفِي فُؤَادِي وَعَقْلِي مِنْهُمَا نَوْرٌ

وأما قولك يا بن الزبير إني قاتلت أمَّ المؤمنين، فأنت أخرجتها وأبوك وخالك، وبنا سُميت أم المؤمنين، فكُنَّا لها خيرَ بنين، فتجاوزَ الله عنها. وقاتلت أنت وأبوك عليًّا؛ فإن كان عليٌّ مؤمناً، فقد ضللتكم بقتالكم المؤمنين، وإن كان كافراً، فقد يؤتم بسخط من الله بفراركم من الزحف. وأما المتعة، فإني سمعتُ عليَّ بن أبي طالب يقول: سمعتُ رسول الله صلى الله عليه وسلم رخصَ فيها فأفتيتُ بها، ثم سمعته ينهي عنها، وأول مجرم سَطَعَ في المتعة مجرم آل الزبير.

مقتل عبد الله بن الزبير

أبو عبيد عن حجاج عن أبي معشر قال: لما بايع الناسُ عبدَ الملك بن مروان بعد قتل مُصعب بن الزبير ودخل الكوفة، قال له الحجاج: إني رأيتُ في المنام كأنِّي أسلخُ ابنَ الزُّبير من رأسه إلى قدميه. فقال له عبدُ الملك: أنت له، فاخرج إليه. فخرج إليه الحجاج لا ألف وخمسائة، حتى نزل الطائف. وجعل عبدُ الملك يُرسل إليه الجيوش رَسَلاً بعد رَسَل، حتى تَوَافَى إليه الناسُ قدرَ ما يظن أنه يَقوى على قتال ابن الزبير، وكان ذلك في ذي القعدة سنة اثنتين وسبعين. فسار الحجاج من الطائف حتى نزل منى، فحجَّ بالناس، وابنُ الزبير محصور، ثم نصب الحجاجُ الجانيق على أبي قبيس وعلى قُعيقان ونواحي مكة كُلِّها، يرمي أهلَ مكة بالحجارة. فلما كانت الليلة التي قُتلَ فيها صبيحتها ابنُ الزبير، جمع ابنُ الزبير من كان معه من القرشيين فقال: ما ترون؟ فقال رجل من بني مخزوم من آل بني ربيعة: والله لقد قاتلنا معك حتى لا نجد مقيلاً، ولئن صبرنا معك ما نزيد على أن نموت، وإنما هي إحدى خصلتين: إما أن تأذن لنا فنأخذ الأمان لأنفسنا، وإما أن تأذن لنا فنخرج. فقالت ابن الزبير: لقد كنتُ عاهدتُ الله أن لا يبايعني أحدٌ فأقبله بيعته إلا ابن صفوان. فقال ابن صفوان: أما أنا فإني أقاتل معك حتى أموت بموتك، وإنما لتأخذني الحفيظة أن أسلمك في مثل هذه الحالة. وقال له رجل آخر: اكتب إلي عبد الملك بن مروان. فقال له: كيف أكتب: من عبد الله أمير المؤمنين إلى عبد الملك بن مروان؛ فوالله لا يقبل هذا أبداً، أم أكتب: لعبد الملك بن مروان أمير المؤمنين من عبد الله بن الزبير؟ فوالله لأن تقع الخضراء على الغبراء أحبَّ إليَّ من ذلك. فقال عروة بن الزبير، وهو جالس معه على السرير: يا أمير المؤمنين، قد جعل الله لك أسوة. قال: من هو؟ قال: حسن بن علي، خلع نفسه وبايع معاوية. فرفع ابنُ الزبير رِجْلَهُ فضرب بها عروة حتى ألقاه عن السرير، وقال: يا عروة، قلبي إذا مثل قلبك! والله لو قبلتُ ما تقولون ما عشتُ إلا قليلاً، وقد أخذت الدنيَّة، وإن ضربة بسيف في عَرِّ خيرٌ من لَطْمَةٍ في دَلِّ. فلما أصبح دخل عليه بعضُ نساءه، وهي أم هاشم بنت منصور بن زياد الفزارية، فقال لها: اصنعي لنا طعاماً، فصنعت له كبدًا وسناماً. فأخذ منه لُقمة فلاكها ثم لفظها، ثم قال: اسقوني لبنًا. فأتي بلبن فشرب منه. ثم قال: هَيِّئُوا لي غُسلًا، فاغتسل ثم تحنط وتطيب، ثم نام نومة، وخرج ودخل على أمه أسماء بنت أبي بكر ذات النطاقين، وهي عمياء، وقد بلغت مائة سنة، فقال: يا أمه، ما ترين، قد خذلني الناس وخذلني أهل بيتي؟ فقالت: لا يلعبن بك صبيان بني أمية، عَشُّ كريمًا ومُتُّ كريمًا. فخرج فأسند ظهره إلى الكعبة ومعه نفرٌ يسير، فجعل يُقاتلهم ويهزمهم وهو يقول: ويله! يا له فتحا لو كان له رجال! فناداه الحجاج: قد كان لك رجال فضيَّعتهم. وجعل ينظر إلى أبواب المسجد والناس يهجمون عليه فيقول:

مَنْ هُوَ؟ فيقال له أهل مصر. قال: قَتَلَهُ عَثْمَانُ! فحمل عليهم، وكان فيهم رجل من أهل الشام، يقال له خَلْبُوب، فقال لأهل الشام: أما تستطيعون إذا وُلِّيَ ابْنُ الزُّبَيْرِ أَنْ لَأُخَذُوهُ بِأَيْدِيكُمْ؟ قالوا: وَمُجَمِّكُنَا أَنْتَ أَنْ تَأْخُذَهُ بِيَدِكَ؟ قال نعم. قالوا: فاشأَنَّكَ. فاقبل وهو يريد أن يَحْتَضِنَهُ، وابنُ الزُّبَيْرِ يَرْتَجِزُ ويقول:

لو كان قِرْنِي واحداً كَفَيْتُهُ

فَضْرِبَهُ ابْنُ الزُّبَيْرِ بِالسَّيْفِ فَقَطَعَ يَدَهُ. فقال خَلْبُوبُ: حَسَّ قَالَ ابْنُ الزُّبَيْرِ: اصْبِرْ خَلْبُوبُ. قال: وجاءه حجر من حِجَارَةِ الْمَنْحَنِيقِ، فأصاب قَفَاهُ فَسَقَطَ. فاقْتَحَمَ أَهْلُ الشَّامِ عَلَيْهِ. فما فهموا قَتَلَهُ حَتَّى سَمِعُوا جَارِيَةَ تَبْكِي وتقول: وا أمير المؤمنين! فحزوا رأسه وذهبوا به إلى الحجاج. وقُتِلَ معه عبد الله بن صفوان، وعُمَارَةُ بْنُ حَزْمٍ، وعبد الله بن مُطِيعٍ.

قال أبو معشر: وبعث الحجاج برؤوسهم إلى المدينة. فنصبوها للناس، فجعلوا يقرَّبون رأس ابن صفوان إلى ابن الزبير، كأنه يسارَه، ويلعبون بذلك. ثم بعث برؤوسهم إلى عبد الملك بن مروان. فخرجت أسماء إلى الحجاج، فقالت له: أتأذن لي أن أدفنه فقد قضيت أربك منه؟ قال: لا. ثم قال لها: ما ظنك برجل قتل عبد الله بن الزبير؟ قالت: حَسْبِيهِ اللهُ. فلما منعها أن تدفنه قالت: أما إني سمعتُ رسول الله يقول: يخرج من ثقيف رجلان: الكذاب والمبير، فأما الكذاب فالمختار، وأما المبير فأنت. فقال الحجاج: اللهم مُبِيرٌ لا كَذَّابٌ. ومن غير رواية أبي عبيد قال: لما نَصَبَ الحجاج المُنْحَنِيقَ لِقَتَالِ عَبْدِ اللهِ بْنِ الزُّبَيْرِ أَظْلَمَتْهُمُ سَحَابَةٌ فَأَرَعَدَتْ وَأَبْرَقَتْ وَأَرْسَلَتْ الصَّوَاعِقُ، ففزع الناس وامسكوا عن القتال. فقام فيهم الحجاج فقال: أيها الناس، لا يهولنكم هذا، فإني أنا الحجاج بن يوسف وقد أصحرتُ لربِّي، فلو ركبنا عظيمًا لحال بيننا وبينه. ولكنها جبال تهامة لم تزل الصواعقُ تنزل بها. ثم أمر بكرسي، فطرح له، ثم قال: يا أهل الشام، قاتلوا على أعطيات أمير المؤمنين. فكان أهل الشام إذا رموا الكعبة يرتجزون ويقولون هذا:

يُرْمَى بِهَا عُوَاذُ أَهْلِ الْمَسْجِدِ

خَطْرَةٌ مِثْلُ الْفَتِيحِ الْمَرْبِدِ

ويقولون أيضاً: دري عُقَابُ، بِلَيْنٍ وَأَشْحَابُ. فلما رأى ذلك ابن الزبير خرج إليهم بسيفه، فقاتلهم حيناً. فناداه الحجاج: ويلك يا بن ذات النطاقين! أقبل الأمان وادخل في طاعة أمير المؤمنين. فدخل على أمه أسماء، فقال لها: سمعت - رحمك الله - ما يقول القوم وما يدعونني إليه من الأمان؟ قالت: سمعتهم لعنهم الله! فما أحلهم وأعجب منهم إذ يُعِيرُونَكَ بِذَاتِ النَّطَاقِينَ! ولو علموا ذلك لكان ذلك أعظم فخر عندهم. قالت: وما ذاك يا أمه؟ قالت: خرج رسول الله صلى الله عليه وسلم في بعض أسفاره مع أبي بكر، فهبأت لهما سفرة، فطلبا شيئاً يربطانها بها، فما وجداه، ففقطعت من منزري لذلك ما احتاجا إليه، فقال رسول الله صلى الله عليه وسلم: أما إن لك به نطاقين في الجنة. فقال عبد الله: الحمد لله حمداً كثيراً، فما تأمريني به، فإنهم قد أعطوني الأمان؟ قالت: أرى أن تموت كريماً ولا تتبع فاسقاً لقيماً، وأن يكون آخر نهارك أكرم من أوله. فقبل رأسها وودعها، وضمته إلى نفسها. ثم خرج من عندها، فصعد المنبر، فحمد الله وأثنى عليه ثم قال: أيها الناس، إن الموت قد تغشاكم سحابة، وأحدف بكم ربأه، واجتمع بعد تفرق، وارحجن بعد تمسّق، ورجس نحوكم رعدُه، وهو مُفْرَغٌ عَلَيْكُمْ وَدَقُّهُ، وقاد إليكم البلايا تتبعها المنايا، فاجعلوا السيوفَ لها غرضاً، واستعينوا عليها بالصبر. وتمثّل بأبيات، ثم اقتحم يُقاتل وهو يقول:

وقامت الحربُ لها على ساقٍ

قد جدَّ أصحابك ضربَ الأعناقِ

ثم جعل يُقاتل وحده ولا يهدّه شيء، كلما اجتمع عليه القومُ فرقههم وذادهم، حتى أثنى بالجرحات ولم يستطع النهوض. فدخل عليه الحجاج، فدعا بالنطع فحز رأسه هو بنفسه في داخل مسجد الكعبة - لا رحم الله الحجاج - ثم بعث برأسه إلى عبد الملك بن مروان، وقُتِلَ من أصحابه مَنْ ظَفِرَ بِهِ. ثم أقبل فاستأذن على أمه أسماء بنت أبي بكر ليعزيها، فأذنت له، فقالت له: يا حجاج، قتلت عبد الله؟ قال: يا ابنة أبي بكر، إني لقاتلُ الملحدين. قالت: بل أنت قاتل المؤمنين الموحدين. قال لها: كيف رأيت ما صنعتُ بابنك؟ قالت: رأيتك أفسدت عليه دنياه وأفسدت عليك آخرتك، ولا ضير أن أكرمه الله على يديك، فقد أهدي رأس يحيى بن زكريا إلى بغي من بغايا بني إسرائيل. هشام بن عروة عن أبيه قال: كان عثمان استخلف عبد الله بن الزبير

على الدار يوم الدار، فبذلك ادعى ابن الزبير الخلافة. محمد بن سعيد قال: لما نصب الحجاج راية الأمان وتصرم الناس عن ابن الزبير قال لعبد الله بن صفوان: قد أقلتك بيعتي وجعلتكم في سعة، فخذ لنفسك أماناً. فقال: مه، والله ما أعطيتهك إياها حتى رأيتك أهلاً لها، وما رأيت أحداً أولى بها منك، فلا تضرب هذه الصلعة فتیان بني أمية أبداً، وأشار إلى رأسه. قال: فحدثت سليمان بن عبد الملك حديثه، فقال: إني كنت لأراه أعرج جباناً. فلما كانت الليلة التي قُتل في صباحها ابن الزبير، أقبل عبد الله بن صفوان، وقد دنا أهل الشام من المسجد، فاستأذن. فقالت الجارية: هو نائم. فقال: أو ليلة نوم هذه؟ أيقظيه، فلم تفعل. فأقام، ثم استأذن. فقالت: هو نائم، فانصرف. ثم رجع آخر الليل وقد هجم القوم على المسجد. فخرج إليه، فقال: والله ما نمت منذ عقلت الصلاة نومي هذه الليلة وليلة الجمل، ثم دعا بالسواك، فاستاك متمكناً، ثم توضأ متمكناً، وليس ثيابه، ثم قال: أنظرني حتى أودع أم عبد الله، فلم يبق شيء، وكان يكره أن يأتيها فتعزم عليه أن يأخذ الأمان، فدخل عليها وقد كُفَّ بصرها، فسلم، فقالت: من هذا؟ فقال: عبد الله، فشمتته، ثم قالت: يا بني، مت كريماً. فقال لها: إن هذا قد أمتني - يعني الحجاج - قالت: يا بني، لا ترص الدنيّة، فإن الموت لا بُد منه. قال: إني أخاف أن يُمثّل بي. قالت: إن الكبش إذا ذبح لم يأمن السلخ. قال: فخرج، فقاتل قتالاً شديداً. فجعل يهزمهم، ثم يرجع ويقول: يا له فتحاً لو كان له رجال! أو كان المصعب أخي حياً! فلما حضرت الصلاة صلى صلاته، ثم قال: أين باب أهل مصر؟ حنقاً لعثمان. فقاتل حتى قتل، وقُتل معه عبد الله بن صفوان. وأتى برأسه الحجاج وهو فاتح عينيه وفاه، فقال: هذا رجل لم يكن يعرف القتل ولا ما يصير إليه المقتول، لذلك فتح عينيه وفاه. هشام بن عروة عن أبيه: إن عبد الله بن الزبير كان أول مولود وُلد في الإسلام، فلما وُلد كبر النبي صلى الله عليه وسلم وأصحابه، ولما قُتل كبر الحجاج ابن يوسف وأهل الشام معه. فقال ابن عمر: ما هذا؟ قالوا: كبر أهل الشام لقتل عبد الله بن الزبير. قال: الذين كبروا مولده خير من الذين كبروا لقتله. أيوب عن أبي قلابة: شهدت ابنة أبي بكر غسّلت ابنها ابن الزبير بعد شهر، وقد تقطعت أوصاله وذُهب برأسه، وكفنته وصلت عليه. هشام بن عروة قال: عبد الله بن عباس للجائز به: حنّبي خشية ابن الزبير. فلم يشعر ليلة حتى عثر فيها، فقال: ما هذا؟ فقال: خشية ابن الزبير. فوقف ودعا له، وقال: لئن علّتك رجلاك لطلما وقفت عليهما في صلاتك. ثم قال لأصحابه: أما والله ما عرفته إلا صوّماً قوّماً، ولكنني ما زلت أخاف عليه منذ رأيتُه أن، تُعجبه بغلات معاوية الشهب. قال: وكان معاوية قد حجّ فدخل المدينة وخلفه خمس عشرة بغلة شهباء عليها رحائل الأرحوان، فيها

الجواري عليهن الجلابيب والمعصفرات، ففتن الناس. أولاد عبد الملك بن مروان الوليد، وسليمان، من العبسية، ويزيد، وهشام، وأبو بكر، ومسلمة، وسعيد الخير، وعبد الله، وعنيسة، والحجاج، والمُنذر، ومروان الأكبر، ومروان الأصغر - ولم يُعقب مروان الأكبر - ومحمد، ومعاوية، دَرَج.

وفاة عبد الملك بن مروان

توفي عبد الملك بن مروان بدمشق للنصف من شوال سنة ست وثمانين، وهو ابن ثلاث وستين، وصلى عليه الوليد بن عبد الملك. ووُلد عبد الملك في المدينة في دار مروان سنة ثلاث وعشرين، وكتب عبد الملك إلى هشام بن إسماعيل المخزومي، وكان عامله على المدينة، أن يدعو الناس إلى البيعة لابنيه الوليد وسليمان. فبايع الناس، غير سعيد بن المسيّب، فإنه أبي وقال: لا أبايع وعبد الملك حيّ. فضربه هشام ضرباً مبرحاً، وألبسه المسوح، وأرسله إلى ثنية بالمدينة يقتلونه عندها ويصلبونه، فلما انتهوا به إلى الموضع ردّوه. فقال سعيد: لو علمت أنهم لا يصلّبوني ما لبستُ لهم الثبان. وبلغ عبد الملك خبره فقال: قبح الله هشاماً، مثل سعيد بن المسيّب يُضرب بالسياط! إنما كان ينبغي له أن يدعو إلى البيعة فإن أب يضرب عنقه. وقال للوليد: إذا أنا مت فضعني في قبري ولا تعصر في عينيك عصر الأمة، ولكن شمر، وانتزر، والبس للناس جلد النمر، فمن قال برأسه كذا فقل بسيفك كذا.

ولاية الوليد بن عبد الملك

ثم بُيع للوليد بن عبد الملك في النصف من شوال سنة ست وثمانين. وأم الوليد ولادة بنت العباس بن جزء بن الحارث بن زهير بن جذيمة العبسي. وكان على شرطته كعب بن حمّاد، ثم عزله وولى أبا نائل بن رياح ابن عبدة الغساني. ومات الوليد يوم السبت في النصف من شهر ربيع الأول سنة ست وتسعين، وهو ابن أربع وأربعين. وصلى عليه سليمان. وكانت ولايته عشر سنين غير شهور.

ولد الوليد بن عبد الملك عبد العزيز ومحمد، وعنيسة، ولم يُعقبوا - وأمهم أم البنين بنت عبد العزيز ابن مروان - والعباس، وبه كان يُكنى، ويقال: إنه

كان أكبرهم، وعمر، وبشر، ورُوْح، وتَمَام، ومبشر، وحَزْم، وخالد، ويزيد، ويحيى، وإبراهيم، وأبو عبيدة، ومسرور ومنصور، ومروان، وصدقة، لأمهات أولاد. وأم أبي عبيدة فزارية. وكان أبو عبيدة ضعيفاً. وولي الخلافة من ولد الوليد إبراهيم، شهرين ثم خلع. وولي يزيد الكامل شهراً ثم مات. وكان تمام ضعيفاً، هجاه رجل فقال:

نالوا المكارم طراً غير تمام

بنو الوليد كراماً في أرومتهم

ومسرور بن الوليد، وكان ناسكاً، وكانت عنده بنت الحجاج. وكان بشر من فتيانهم، ورُوْح من غلمانهم، والعباس من فُرسانهم؛ وفيه يقول الفرزدق:

مثل السماك الذي لا يُخلف المطراً

إن أبا الحارث العباس نائله

وكانت تحتها بنت قُطري بن الفجاءة، سابها وتزوجها. وله منها: المؤمل والحارث، وكان عمر من رجالهم، كان له تسعون ولداً، ستون منهم كانوا يركبون معه إذا ركب. وقال رجل من أهل الشام: ليس من ولد الوليد أحدٌ إلا ومن رآه يحسب أنه من أفضل أهل بيته، ولو وزن بهم أجمعين عبد العزيز لرجحهم. وفيهم يقول جرير:

كالبدر حُفَّ بواضحات الأنجم

وبنو الوليد من الوليد بمنزل

وعبد العزيز بن الوليد أراد أبوه أن يُبايع له بعد سليمان فأبى عليه سليمان. وحدث الهيثم بن عدي عن ابن عياش قال: لما أراد الوليد أن يبايع لابنه عبد العزيز بعد سليمان أبي ذلك سليمان وشنع عليه، فقيل للوليد: لو أمرت الشعراء أن يقولوا في ذلك لعله كان يسكت، فشهد عليه بذلك. فدعا الأقبيل القبي، فقال له: ارتجز بذلك وهو يسمع. فدعا سليمان فسأيره، والأقبيل خلفه، فرفع صوته وقال:

ثم ابنه ولي عهد عمه

إن ولي العهد لابن أمه

فهو يضم الملك في مضمه

قد رضي الناس به فسمه

يا ليتها قد خرجت من فمه

فالتفت إليه سليمان، وقال: يا بن الخبيثة، من رضي بهذا! أخبار الوليد

أبو الحسين المدائني قال: كان الوليد أسنّ ولد عبد الملك وكان يُحبه، فتراحى في تأديبه لشدة حبه إياه، فكان لحناً. وقال عبد الملك: أضرنا في الوليد حُبنا له. فلم يُوجّهه إلى البادية. وقال الوليد يوماً وعنده عُمر بن عبد العزيز: يا غلام، ادع لي صالح. فقال الغلام: يا صالحاً. فقال له الوليد: انقص ألفاً. فقال عمر بن عبد العزيز: وأنت يا أمير المؤمنين فزد ألفاً. وكان الوليد عند أهل الشام أفضل حلفائهم، وأكثرهم فتوحاً، وأعظمهم نفقة في سبيل الله، بنى مسجد دمشق ومسجد المدينة، ووضع المنابر، وأعطى الجذومين حتى أغناهم عن سؤال الناس، وأعطى كل مُقعد خادماً، وكل ضرير قائداً. وكان يمر بالبقال فيتناول قبضة فيقول: بكم هذه؟ فيقول: بفلس، فيقول: زد فيها فإنك تريح. ومرّ الوليد بمعلم كتاب فوجد عنده صبيبة، فقال: ما تصنع هذه عندك؟ فقال: أعلمها الكتابة والقرآن. قال: فاجعل الذي يُعلمها أصغر منها سنّاً. وشكا رجل من بني مخزوم ديناً لزمه، فقال: نقضيه عنك إن كنت لذلك مستحقاً. قال: يا أمير المؤمنين، وكيف لا أكون مستحقاً في منزلي وقرابتي؟ قال: قرأت القرآن؟ قال: لا. اذن مني، فدنا منه، فترع العمامة عن رأسه بقضيب في يده، ثم قرعه به قرعة، وقال لرجل من جلسائه: ضمّ إليك هذا العُلق ولا تُفارقه حتى يقرأ القرآن. فقام إليه آخر، فقال: يا أمير المؤمنين، اقض ديني، فقال له: أتقرأ القرآن؟ قال: نعم. فاستقرأه عشراً من الأنفال وعشراً من براءة، فقرأ. فقال نعم، نقض دينك وأنت أهل لذلك. وركب الوليد بعيراً وحادٍ يحدو بين يديه، والوليد يقول:

ويحك تعلم الذي علاكا

يا أيها البكر الذي أراكا

لم يُحب بكر مثل ما حباكا

خليفة الله الذي امتطاكا

ولاية سليمان بن عبد الملك

أبو الحسن المدائني: ثم بويع سليمان بن عبد الملك في ربيع الأول سنة ست وتسعين. ومات سنة تسع وتسعين بدابق، يوم الجمعة لعشر خلون من صفر، وهو ابن ثلاث وأربعين. وصلى عليه عمر بن عبد العزيز. وكانت ولايته سنتين وعشرة أشهر ونصفاً. وُلد سليمان فصيحاً جميلاً وسيماً، نشأ بالبادية عند أخواله بني عَبَس. وكانت ولايته يميناً وبركة، افتتحها ببحرٍ وختمها ببحرٍ. أما افتتاحه فيها ببحرٍ، فردّ المظالم، وأخرج المسجونين وبغزاة مَسلمة بن عبد الملك الصائفة حتى بلغ القُسطنطينية. وأما ختمها ببحرٍ، فاستخلافه عمر بن عبد العزيز. ولبس يوماً واعتَمَّ بعمامة، وكانت عنده جارية حجازية، فقال لها: كيف تَرين الهيئة؟ فقالت: أنت أجمل العرب، لولا! قال: على ذلك لتقولن. قالت:

غيرَ أن لا بقاءَ للإنسانِ

أنتِ نِعْمَ المتاعُ لو كنتِ تَبْقَى

يكره الناسُ غيرَ أنكِ فاني

أنتِ خلُو من العيوبِ ومما

قال: فتنعص عليه ما كان فيه، فما لبث بعدها إلا أياماً حتى تُوفي رحمه الله. وتفاجر ولدُ عمر بن عبد العزيز وولدُ لسليمان بن عبد الملك، فذكر ولدُ عمرَ فضلَ أبيه وخاله. فقال له ولدُ سليمان: إن شئتَ فأقلُّ وإن شئتَ فأكثر، فما كان أبوك إلا حسنةً من حسنات أبي. محمد بن سليمان قال: فعل سليمان في يوم واحد ما لم يفعلهُ عمرُ بن عبد العزيز في طول عمره: أعتق سبعين ألفاً ما بين مملوك ومملوكة وبنتهم، أي كساهم. والبتُّ: الكسوة. ولد سليمان أيوب، وأمه أم أبان بنت الحكم بن العاص، وهو أكبر ولد سليمان ووليَّ عهده، فمات في حياة سليمان، وله يقول جرير:

بعد الإمامِ ولي العهدِ أيوبُ

إنَّ الإمامَ الذي تَرَجَى فواضله

وعبد الواحد، وعبدُ العزيز، أمهما أمُ عامر بنت عبد الله بن خالد بن أسيد. وفي عبد الواحد يقول القَضامي:

إذا تَخَطَّ عبدَ الواحدِ الأجلُ

أهل المدينة لا يحزنُكَ حالهم

وقد يكون مع المُستعجلِ الزلُّ

قد يُدرك المتأنِّي بعضَ حاجته

ولما مات أيوب، وليَّ عهد سليمان بن عبد الملك قال ابن، عبد الأعلى يرثيه، وكان من خواصه:

جَزَعِي وَمَنْ يَذُقُ الحوادثِ يَجْزَع

ولقد أقولُ لذي الشَّماتةِ إذ رأى

وأفرَحَ بمرورتك التي لم تُقرَع

أبشِرِ فقد قرَع الحوادثُ مروتي

أو يُفجَعوا بك إن بهم لم تُفجَع

إن عشتَ تُفجَع بالأحبه كلهم

عن نفسه دَفَعاً وهل من مَدْفَع

أيوبُ من يَشمتَ بموتك لم يُطق

أخبار سليمان بن عبد الملك أبو الحسن المدائني قال: لما بلغ قُتَيْبَةَ بنَ مسلم أنَّ سليمان بن عبد الملك عزله عن خُرَاسان واستعمل يزيد بن المهلب، كتب إليه ثلاثَ صُحف، وقال للرسول: ادفع إليه هذه، فإن دَفَعها إلى يزيد فادفع إليه هذه، فإن شَتَمني فادفع إليه هذه. فلما سار الرسولُ إليه دفع الكتابَ إليه، وفيه: يا أمير المؤمنين، إن من بلائي في طاعة أبيك وأخيك كَيْتَ وكَيْت. فدفع كتابه إلى يزيد. فأعطاه الرسولُ الكتابَ الثاني، وفيه: يا أمير المؤمنين، كيف تأمن ابنَ دَحْمَةَ على أسراركَ وأبوه لم يأمنه على أمهات أولاده؟ فلما قرأ الكتابَ شَتَمه وناولهُ ليزيد. فأعطاه الثالثَ وفيه: من قُتَيْبَةَ بنِ مُسلم إلى سليمان بن عبد الملك. سلامٌ على من اتبع الهدى. أما بعد. فوالله لأوثقنَّ له أحيَّة لا يترعها المهر الأرن. فلما قرأها قال سليمان: عَجَلنا على قُتَيْبَةَ، يا غلام، جدِّد له عهداً على خُرَاسان. ودخل يزيدُ بن أبي مُسلم، كاتبُ الحجاج، على سليمان. فقال له سليمان: أترى الحجاج استقر في قَعْرِ جهنم، أم هو يَهوى فيها؟ قال: يا أمير المؤمنين، إن الحجاج يأتي يوم القيامة بين أبيك وأخيك، فضعه من النار حيث شئت. قال: فأمر به إلى الحبس، فكان فيه طولَ ولايته. قال محمد بن يزيد الأنصاري: فلما ولي عمرُ بن عبد العزيز، بعثني. فأخرجتُ

من السجن من حبسَ سليمان، ما خلا يزيدَ بن أبي مُسلم فقد رُدَّ. فلما مات عمرُ بن عبد العزيز ولَّاه يزيدُ بن عبد الملك إفريقية، وأنا فيها، فأخذتُ

فَأَتَى بِي إِلَيْهِ فِي شَهْرِ رَمَضَانَ عِنْدَ اللَّيْلِ، فَقَالَ: مُحَمَّدُ بْنُ يَزِيدَ؛ قُلْتَ: نَعَمْ. قَالَ: الْحَمْدُ لِلَّهِ الَّذِي مَكَّنَنِي مِنْكَ بِلا عَهْدٍ وَلا عَقْدٍ، فَطالما سَأَلْتُ اللَّهَ أَنْ يُمَكِّنَنِي مِنْكَ. قُلْتَ: وَأَنَا وَاللَّهِ طالما اسْتَعَدْتُ بِاللَّهِ مِنْكَ. قَالَ: فَوَاللَّهِ مَا أَعَاذَكَ اللَّهُ مِنِّي، وَلَوْ أَنَّ مَلِكَ الْمَوْتِ سَأَلَنِي إِلَيْكَ لَسَبَقْتَهُ. قَالَ: فَأَقِيمْتَ صَلَاةَ الْمَغْرَبِ، فَصَلَّيْتُ رُكْعَةً، فَثَارَتْ عَلَيْهِ الْجُنْدُ فَقَتَلُوهُ، وَقَالُوا لِي: خُذْ أَيَّ طَرِيقٍ شِئْتَ. وَأَرَادَ سُلَيْمَانُ بْنُ عَبْدِ الْمَلِكِ أَنْ يَزِيدَ عَلَى عَبْدِ الْمَلِكِ، وَذَلِكَ أَنَّهُ تَزَوَّجَ سَعْدَى بِنْتَ عَبْدِ اللَّهِ بْنِ عَمْرٍو بْنِ عَثْمَانَ فَأَصْدَقَهَا عَشْرِينَ أَلْفَ دِينَارٍ، وَاشْتَرَى جَارِيَةً بِأَرْبَعَةِ أَلْفِ دِينَارٍ. فَقَالَ سُلَيْمَانُ: لَقَدْ هَمَمْتُ أَنْ أُضْرِبَ عَلَى يَدِ هَذَا السَّفِيهِ، وَلَكِنْ كَيْفَ أَصْنَعُ بِوَصِيَّةِ أَمِيرِ الْمُؤْمِنِينَ بَابِنِي عَاتِكَةَ: يَزِيدَ وَمُرْوَانَ! وَحَبَسَ سُلَيْمَانُ بْنُ عَبْدِ الْمَلِكِ مُوسَى بْنَ نُصَيْرٍ وَأَوْحَى إِلَيْهِ: اغْرَمْ دَيْتَكَ خَمْسِينَ مَرَّةً. فَقَالَ مُوسَى: مَا عِنْدِي مَا أَغْرَمَهُ. فَقَالَ: وَاللَّهِ لَتَغْرِمَنَّهَا مِائَةَ مَرَّةٍ. فَحَمَلَهَا عَنْهُ يَزِيدُ بْنُ الْمُهَلَّبِ، وَشَكَرَ مَا كَانَ مِنْ مُوسَى إِلَى أَبِيهِ الْمُهَلَّبِ أَيَّامَ بَشْرِ بْنِ مُرْوَانَ، وَذَلِكَ أَنَّ بَشْرًا هَمَّ بِالْمُهَلَّبِ، فَكَتَبَ إِلَيْهِ مَوْلَى يُحَدِّثُهُ، فَتَمَارَضَ الْمُهَلَّبُ وَلَمْ يَأْتِهِ حِينَ أُرْسِلَ إِلَيْهِ. وَكَانَ خَالِدُ بْنُ عَبْدِ اللَّهِ الْقَسْرِيُّ وَالْيَأَى عَلَى الْمَدِينَةِ لِلوَلِيدِ، ثُمَّ أَقْرَاهُ سُلَيْمَانُ، وَكَانَ قَاضِيَ مَكَّةَ طَلْحَةَ بْنَ هَرَمٍ، فَاحْتَصَمَ إِلَيْهِ رَجُلٌ مِنْ بَنِي شَيْبَةَ، الَّذِينَ إِلَيْهِمْ مِفْتَاحُ الْكَعْبَةِ، يُقَالُ لَهُ الْأَعْجَمُ، مَعَ ابْنِ أَخٍ لَهُ فِي أَرْضِ لَهْمَا، فَقَضَى لِلشَّيْخِ عَلَى ابْنِ أَخِيهِ، وَكَانَ مُتَّصِلًا بِخَالِدِ بْنِ عَبْدِ اللَّهِ، فَأَقْبَلَ إِلَى خَالِدٍ فَأَخْبَرَهُ، فَحَالَ خَالِدُ بَيْنَ الشَّيْخِ وَبَيْنَ مَا قَضَى لَهُ الْقَاضِي. فَكَتَبَ الْقَاضِيُ كِتَابًا إِلَى سُلَيْمَانَ يَشْكُو لَهُ خَالِدًا، وَوَجَّهَ الْكِتَابَ إِلَيْهِ مَعَ مُحَمَّدِ بْنِ طَلْحَةَ. فَكَتَبَ سُلَيْمَانُ إِلَى خَالِدٍ: لَا سَبِيلَ لَكَ عَلَى الْأَعْجَمِ وَلَا وَلَدِهِ. فَقَدِمَ مُحَمَّدُ بْنُ طَلْحَةَ بِالْكِتَابِ عَلَى خَالِدٍ وَقَالَ: لَا سَبِيلَ لَكَ عَلَيْنَا، هَذَا كِتَابُ أَمِيرِ الْمُؤْمِنِينَ. فَأَمَرَ بِهِ خَالِدٌ فَضْرَبَ مِائَةَ سَوْطٍ قَبْلَ أَنْ يُقْرَأَ كِتَابُ سُلَيْمَانَ. فَبَعَثَ الْقَاضِيُ ابْنَ الْمَضْرُوبِ إِلَى سُلَيْمَانَ، وَبَعَثَ ثِيَابَهُ الَّتِي ضُرِبَ فِيهَا بِدَمَائِهَا. فَأَمَرَ سُلَيْمَانُ بِقَطْعِ يَدِ خَالِدٍ. فَكَلَّمَهُ يَزِيدُ بْنُ الْمُهَلَّبِ، وَقَالَ: إِنْ كَانَ ضَرْبُهُ يَا أَمِيرَ الْمُؤْمِنِينَ بَعْدَ مَا قَرَأَ الْكِتَابَ تُقَطِّعُ يَدَهُ، وَإِنْ كَانَ ضَرْبُهُ قَبْلَ ذَلِكَ فَعَفُوُّ أَمِيرِ الْمُؤْمِنِينَ أَوْلَى بِذَلِكَ. فَكَتَبَ سُلَيْمَانُ إِلَى دَاوُدَ بْنِ طَلْحَةَ بْنِ هَرَمٍ: إِنْ كَانَ ضَرْبُ الشَّيْخِ بَعْدَ مَا قَرَأَ الْكِتَابَ الَّذِي أَرْسَلْتَهُ فَاقْطَعْ يَدَهُ، وَإِنْ كَانَ ضَرْبُهُ قَبْلَ أَنْ يَقْرَأَ كِتَابِي فَاضْرِبْهُ مِائَةَ سَوْطٍ. فَأَخَذَ دَاوُدُ بْنُ طَلْحَةَ، لَمَّا قَرَأَ الْكِتَابَ، خَالِدًا فَضْرِبَهُ مِائَةَ سَوْطٍ. فَجَزَعَ خَالِدُ مِنَ الضَّرْبِ، فَجَعَلَ يَرْفَعُ يَدَيْهِ. فَقَالَ لَهُ الْفَرَزْدَقُ: ضَمُّ إِلَيْكَ يَدِيكَ يَا بَنَ النَّصْرَانِيَّةِ. فَقَالَ: لِيَهْنَأَ الْفَرَزْدَقُ، وَضَمَّ يَدَيْهِ. وَقَالَ الْفَرَزْدَقُ:

شَابِيبُ لَمْ يُصِيبَنَّ مِنْ صَبَبِ الْقَطْرِ
بِكَفْكَ فَتَخَّاءَ الْجَنَاحِ إِلَى الْوَكْرِ

لِعَمْرِي لَقَدْ صَبَّبْتَ عَلَى مَتْنِ خَالِدٍ
فَلَوْلَا يَزِيدُ بْنُ الْمُهَلَّبِ حَلَقْتَ

فَرَدَّتْ أُمُّ خَالِدٍ عَلَيْهِ تَقُولُ:

بَخَسَفَ وَصَلَّى وَجْهَهُ حَامِي الْجَمْرِ
خَمِيسٌ مِنَ التَّقْوَى بَطِينٌ مِنَ الْخَمْرِ

لِعَمْرِي لَقَدْ بَاعَ الْفَرَزْدَقُ عَرِضَهُ
فَكَيْفَ يُسَاوِي خَالِدًا أَوْ يَشِينُهُ

وَقَالَ الْفَرَزْدَقُ أَيْضًا فِي خَالِدِ الْقَسْرِيِّ:

مَتَى مَلَكَتْ قَسْرٌ قَرِيشًا تَدِينُهَا؟
فَتَلِكِ قَرِيشٌ قَدْ أَغَثَ سَمِينُهَا
وَمَا أُمُّهُ بِالْأَمِّ يُهْدَى جَنِينُهَا

سَلُوا خَالِدًا، لَا قَدَسَ اللَّهُ خَالِدًا
أَقْبَلَ رَسُولَ اللَّهِ أَوْ بَعَدَ عَهْدِهِ
رَجَوْنَا هُدَاهُ، لَا هَدَى اللَّهُ قَلْبَهُ

فَلَمْ يَزَلْ خَالِدٌ مَحْبُوسًا بِمَكَّةَ حَتَّى حَجَّ سُلَيْمَانُ وَكَلَّمَهُ فِيهِ الْمُفْضَلُ بْنُ الْمُهَلَّبِ. فَقَالَ سُلَيْمَانُ: لَا طَلْتَ بِكَ الرَّحْمَ أَبَا عَثْمَانَ، إِنَّ خَالِدًا جَرَعَنِي غِيظًا. قَالَ: يَا أَمِيرَ الْمُؤْمِنِينَ، هَبْنِي مَا كَانَ مِنْ ذَنْبِهِ. قَالَ: قَدْ فَعَلْتُ، وَلَا بَدَّ أَنْ يَمْشِيَ إِلَى الشَّامِ رَاجِلًا. فَمَشَى خَالِدٌ إِلَى الشَّامِ رَاجِلًا. وَقَالَ الْفَرَزْدَقُ يَمْدُحُ سُلَيْمَانَ ابْنَ عَبْدِ الْمَلِكِ.

عَنِ الْبَائِسِ الْمَسْكِينِ حَلَّتْ سَلْسِلُهُ
وَعَثْمَانَ فَوْقَ الْأَرْضِ رَاعٍ يَمَاتِلُهُ

سُلَيْمَانَ غَيَّثَ الْمُمَحْلِينَ وَمَنْ بِهِ
وَمَا قَامَ مِنْ بَعْدِ النَّبِيِّ مُحَمَّدٍ

جعلت مكان الجور في الأرض مثله

من العدل إذ صارت إليك محامله

وقد علموا أن لن يميل بك الهوى

وما قلت من شيء فإنك فاعله

زياد عن مالك: إن سليمان بن عبد الملك قال يوماً لعمر بن العزيز: كذبت! قال: والله ما كذبت منذ شددت عليّ إزارى، وإن في غير هذا المجلس لسعة، وقام مُغضباً، فتحهز يريد مصر. فأرسل إليه سليمان، فدخل عليه، فقال له: يا بن عمي. إن المعاتبَة تشق عليّ، ولكن والله ما أهمني أمر قط من ديني ودنياي إلا كنت أول من أذكره لك.

وفاة سليمان بن عبد الملك قال رجاء بن حيوة: قال لي سليمان: إلى من ترى أن أعهد؟ فقلت: إلى عمر بن عبد العزيز. قالت: كيف نصنع بوصية أمير المؤمنين بابني عاتكة، من كان منهما حياً؟ قلت: تجعل الأمر بعده ليزيد. قالت: صدقت. قال: فكتب عهده لعمر ثم ليزيد بعده. ولما نُقل سليمان قال: اتنوبي بقمص بني أنظر إليها. فأتي بها، فنشرها فراها قصاراً، فقال:

إن بني صبيبة صغار

أفلح من كان له كبار

فقال له عمر: أفلح من تركي. وذكر اسم ربه فصللي.

وكان سبب موت سليمان بن عبد الملك أن نصرانياً أتاه وهو بدابق بزئيل مملوء بيضاً وآخر مملوء تيناً. قال: قشروا، فقشروا. فجعل يأكل بيضة وتينة، حتى أتى على الزئيلين. ثم أتوه بقصعة مملوءة مخاً بسكر، فأكله، فأختم فمرض فمات. ولما حجَّ سليمان تأذى بحر مكة، فقال له عمر بن عبد العزيز: لو أتيت الطائف. فأتاها، فلما كان بسحق لقيه ابن أبي الزهير، فقال: يا أمير المؤمنين، اجعل بعض متلك عليّ. قال: كل متري، فرمى بنفسه على الرمل. فقيل له: يساق إليك الوطاء؟ فقال: الرمل أحدث إلي، وأعجبه برده، فألزم بالرمل بطنه. قال: فأتي إليه بخمس رمانات فأكلها، ثم قال: عندكم غير هذه؟ ففعلوا يأتونه بخمس بعد خمس، حتى أكل سبعين رمانة. ثم أتوه بجدي وست دجاجات فأكلهن. وأتوه بزبيب من زبيب الطائف، فثرب بين يديه، فأكل عامته، ونعس. فلما انتبه، أتوه بالغداء، فأكل كما أكل الناس. فأقام يومه، ومن غد قال لعمر: أرانا قد أضربنا بالقوم. وقال لابن أبي الزهير: اثبيني إلى مكة، فلم يفعل. فقالوا له: لو أتيتك؟ فقال: أقول ماذا: أعطني ثمن فراي الذي فريته! العتي عن أبيه عن الشمردل وكيل آل عمرو بن العاص قال: لما قدم سليمان بن عبد الملك الطائف دخل هو وعمر بن عبد العزيز وأيوب ابنه بستانا لعمرو. قال: فجال في البستان ساعة ثم قال: ناهيك بمالكم هذا مالاً! ثم ألقى صدره على غصن وقال: ويلك يا شمردل! ما عندك شيء تُطعمني؟ قلت: بلى، والله عندي جدي كانت تغدو عليه بقرة وتروح أخرى. قال: عجّل به، ويحك! فأتيته بن كانه عكة سمن، فأكله، وما دعا عمر ولا ابنه، حتى إذا بقي الفخذ، قال: هلم أبا حفص. قال: أنا صائم، فأتي عليه. ثم قال: ويلك يا شمردل! ما عندك شيء تُطعمني؟ قلت: بلى والله، دجاجتان هنديتان كأنهما رآلا النعام، فأتيته بهما، فكان يأخذ برجل الدجاجة فيلقى عظامها نقيه، حتى أتى عليهما. ثم رفع رأسه فقال: ويلك يا شمردل! ما عندك شيء تُطعمني؟ قلت: بلى، عندي حريرة كأنها قراضة ذهب. قال: عجّل بها، ويلك! فأتيته بعس يعيب فيه الرأس، فجعل يتلقمها بيده ويشرب. فلما فرغ تجشأ فكأنا صاح في حب. ثم قال: يا غلام، أفرغت من غدائي؟ قال نعم. قال: وما هو؟ قال: ثمانون قدراً. قال: اثني بها قدراً قدراً. قال: فأكثر ما أكل من كل قدر ثلاث لقم، وأقل ما أكل لقمة. ثم مسح يده واستلقى على فراشه، ثم أذن للناس، ووُضعت الحيوانات، وقعد يأكل، فما أنكرت شيئاً من أكله.

خلافة عمر بن عبد العزيز

المدائني قال: هو عمر بن عبد العزيز بن مروان بن الحكم، وكُنيتُه أبو حفص. وأمه أم عاصم بنت عاصم بن عمر بن الخطاب. وولي الخلافة يوم الجمعة لعشر خلون من صفر سنة تسع وتسعين. ومات يوم الجمعة لست بقين من رجب بدير سمعان من أرض دمشق سنة إحدى ومائة، وصلى عليه يزيد بن عبد الملك. علي بن زيد قال: سمعتُ عمر بن عبد العزيز يقول: تمت حجة الله على ابن الأربعين. ومات لها. وكان على شرطته يزيد بن بشير

الكناني. وعلى حرسه عمرو بن الأهجار، ويقال! أبو العباس الهلالي. وكان كاتبه على الرسائل ابن أبي رُقَيْة، وكاتبه أيضاً إسماعيل بن أبي حكيم. وعلى خاتم الخلافة نعيم ابن أبي سلامة. وعلى الخراج والجند صالح بن أبي جُبَيْر. وعلى إذنه أبو عُبَيْدة الأسود، مولاه. يعقوب بن داود التَّقْفِي عن أشياخ من تَقْيِف قال: قُرِيء عهدُ عمرَ بالخلافة، وعمر من ناحية، فقام رجلٌ من تَقْيِف يقال له: سالم، من أحوال عمر، فأخذ بضبعيه فأقامه. فمال عمر: أما والله ما الله أردت بهذا، ولن تُصيب بما مني ديناً. أبو بشر الخُرَاساني قال: خطب عمرُ بن عبد العزيز الناسَ حين استُخلف فقال: أيها الناس، والله ما سألتُ الله هذا الأمرَ قط في سر ولا علانية، فمن كان كارهاً لشيء مما وليته فالآن. فقال سعيدُ بن عبد الملك: ذلك أسرع فيما تَكَره، أتريد أن نختلف ويضرب بعضنا بعضاً؟ قال رجل: سبحان الله! وليها أبو بكر وعمر وعثمان وعلي ولم يقولوا هذا ويقوله عمر! أخبار عمر بن عبد العزيز بشر بن عبد الله بن عمر قال: كان عمر يخلو بنفسه ويكي، فنسمع نحيبه بالبكاء وهو يقول: أبعَدَ الثلاثة الذين اريتهم بيدي: عبد الملك والوليد وسليمان! وقدم رجلٌ من خراسان على عمر بن العزيز حين استُخلف، فقال: يا أمير المؤمنين، إني رأيتُ في منامي قائلاً يقول: إذا ولي الأشجج من بني أمية يملأ الأرض عدلاً كما ملئت جوراً. فولي الوليد، فسألتُ عنه، فقيل لي: ليس بأشجج، ثم ولي سليمان، فسألتُ عنه فقيل: ليس بأشجج. ووليت أنت، فكنت الأشجج. فقال عمر: تقرأ كتاب الله؟ قال: نعم. قال: فبالذي أنعم به عليك، أحق ما أحررتني؟ قال: نعم. فأمره أن يقيم في دار الضيافة. فمكث نحواً من شهرين، ثم أرسل إليه عمر، فقال: هل تدري لم احتسبناك؟ قال: لا. قال: أرسلتُ إلى بلدك لنسألَ عنك، فإذا ثناءً صديقك وعدوك عليك سواء، فانصرف راشداً. وكان عمرُ بن عبد العزيز لا يأخذ من بيت المال شيئاً ولا يُجري على نفسه من الفَيء درهماً. وكان عمرُ بن الخطاب يُجري على نفسه من ذلك درهمين في كل يوم. فقيل لعمر بن عبد العزيز: لو أخذت ما كان يأخذ عمرُ بن الخطاب؟ فقال: إن عمر بن الخطاب لم يكن له مال وأنا مالي يُغنييني. ولما ولي عمرُ بن عبد العزيز قام إليه رجل فقال: يا أمير المؤمنين، أعديني على هذا، وأشار إلى رجل. قال فيم؟ قال: أخذ مالي وضرب ظهري. فدعا به عمر، فقال: ما يقول هذا؟ قال صدق، إنه كتب إلي الوليدُ بن عبد الملك، وطاعتكم فريضة. قال: كذبت، لا طاعة لنا عليكم إلا في طاعة الله، وأمر بالأرض فُرِدتُ إلى صاحبها. عبد الله بن المبارك عن رجلٍ أخبره، قال: كنتُ مع خالد بن يزيد بن معاوية في صحن بيت المقدس، فلقينا عمرُ بن عبد العزيز ولا أعرفه، فاخذ بيد خالد، وقال: يا خالد، أعلينا عين؟ قلتُ: عليكم من الله عينٌ بصيرة وأذن سمعية. قال: فاستلَّ يده من يد خالد وأرعد ودمعت عيناه ومضى. فقلت لخالد: من هذا؟ قال: هذا عمرُ بن عبد العزيز، إن عاش فبوشك أن يكون إماماً عدلاً. وقال رياح بن عُبَيْدة: اشتريتُ لعمر قبل الخلافة مطرفاً بمخمسائة، فاستخشنه وقال: لقد اشتريته خشناً جداً، واشتريت له بعد الخلافة كساءً بثمانية دراهم، فاستلانه وقال: اشتريته لئباً جداً. ودخل مسلمةُ بن عبد الملك على عمر وعليه رِيطةٌ من رباط مصر، فقال: بكم أخذت هذه يا أبا سعيد؟ قال: بكذا وكذا. قال: فلو نقصت من ثمنها ما كان ناقصاً من شرفك. فقال مسلمة: إن الاقتصاد ما كان بعد الجدة، وأفضل العفو ما كان بعد القُدرة، وأفضل اللين ما كان بعد الولاية. وكان لعمرَ غلامٌ يقال له درهمٌ يحتطب له، فقال له يوماً: ما يقول الناس يا درهم؟ قال: وما يقولون؟ الناس كلهم بخير وأنا وأنت بشر. قال: وكيف ذلك؟ قال: إني عهدتُك قبل الخلافة عَطراً لباساً، فاره المَرَكَب، طَيَّب الطعام، فلما وليت رجوت أن أستريح وأتخلص، فزاد عملي شدة وصرت أنت في بلاء. قال: فأنت حُرٌّ، فاذهب عني، ودعني وما أنا فيه حتى يجعل الله لي منه مخرجاً. ميمون بن مهران قال: كنتُ عند عمرٍ فكثرتُ بكأوه ومسألته ربَّه الموت، فقلت: لم تسأل الموت! وقد صنع الله على يديك خيراً كثيراً، أحيا بك سُننا وأمات بك بدعا. قال: أفلا أكون مثل العبد الصالح حين أقرَّ الله عينه وجمَع له أمره، قال: "رَبِّ قد آتيتني من الملك وعلمتني من تأويل الأحاديث فاطر السموات والأرض أنت ولي في الدنيا والآخرة توفي مسلماً وألحقني بالصلحين". ولما ولي عمرُ بن عبد العزيز قال: إن فدك كانت مما أفاء الله على رسوله، فسألته فاطمةُ رسولَ الله. فقال لها: ما لك أن تسأليني ولا لي أن أعطيك. فكان رسولُ الله صلى الله عليه وسلم يصطنع فيها حيث أمره الله. ثم ولي أبو بكر وعمر وعثمان فكانوا يضعونها المواضع التي وضعها رسولُ الله صلى الله عليه وسلم. ثم ولي معاوية فأقطعها مروان، ووهبها مروان لعبد الملك وعبد العزيز، فقسمناها بيننا أثلاثاً أنا والوليد وسليمان. فلما ولي الوليدُ سألتُه نصيبه فوهبه لي، وما كان لي مالٌ أحب إلي منها، وأنا أشهدكم أني قد رددتها إلى ما كانت عليه على عهد رسول الله صلى الله عليه وسلم. وقال عمر: الأمور ثلاثة، أمر استبان رُشدُه فاتبعه، وأمر استبان ضره فاجتنبه، وأمر أشكل أمرُه عليك فُرِدَّه إلى الله. وكتب عمر إلى بعض عُمَّاله: الموالي ثلاثة: مولى رَحِم، ومولى عَتَاقَة، ومولى عَقَد، فمولى الرحم يرث ويُورث، ومولى العتاقة يُورث ولا يرث، ومولى العقد لا يرث ولا يُورث، وميراثه لعصبته. وكتب عمر إلى عُمَّاله: مُرُوا مَنْ كان على غير الإسلام أن

يضعوا العمائم، ويلبسوا الأكسية ولا يتشبهوا بشيء من الإسلام، ولا تتركوا أحداً من الكفار يستخدم أحداً من المسلمين. وكتب عمر بن عبد العزيز إلى عدي بن أرطاة عامله علي العراق: إذا أمكنتك القدرة على المخلوق فاذكر قدرة الخالق القادر عليك، واعلم أن مالك عند الله أكثر مما لك عند الناس. وكتب عمر بن عبد العزيز إلى عماله: مُروا من كان قبلكم، فلا يبقى أحد من أحرارهم ولا مماليكهم، صغيراً ولا كبيراً، وذكراً ولا أنثى، إلا أخرج عنه صدقة فطر رمضان: مدين من قمح، أو صاعاً من تمر، أو قيمة ذلك نصف درهم. فأما أهل العطاء فيؤخذ ذلك من أعطياتهم، عن أنفسهم وعيالاتهم. واستعملوا على ذلك رجلين من أهل الأمانة يقبضان ما اجتمع من ذلك ثم يقسمانه في مساكين أهل الحاضرة. ولا يقسم على أهل البادية. وكتب عبد الحميد بن عبد الرحمن إلى عمر: إن رجلاً شتمك فأردت أن أقتله. فكتب إليه: لو قتلته لأقذت بك به؛ فإنه لا يقتل أحد بشتم أحد إلا رجل شتم نبياً. وكتب رجل من عمال عمر إلى عمر: إنا أتينا بساحرة فألقيناها في الماء، فطففت على الماء، فما ترى فيها؟ فكتب إليه: لسنا من الماء في شيء، إن قامت عليها بيبة وإلا خلَّ سبيلها. كان عمر بن عبد العزيز يكتب إلى عبد الحميد بن عبد الرحمن عامله على المدينة في المظالم فيأردها فيها. فكتب إليه: إنه يُخيل لي أني لو كتبتُ لك أن تُعطي رجلاً شاة لكتبت إلى: أذكر أم أنثى؟ ولو كتبتُ إليك بأحدهما لكتبت إلى: أصغيرة أم كبيرة؟ ولو كتبتُ بأحدهما لكتبت: ضائنة أم معز؟ فإذا كتبت إليك فنقد ولا ترد عليّ. والسلام. وخطب عمر فقال: أيها الناس، لا تستصغروا الذنوب، والتمسوا تمحيص ما سلف منها بالتوبة منها. إن الحسنات يُذهبن السيئات، ذلك ذكرى للذاكرين. وقال عز وجل: "والذين إذا فعلوا فاحشة أو ظلموا أنفسهم ذكروا الله فاستغفروا لذنوبهم ومن يغفر الذنوب إلا الله ولم يُصروا على ما فعلوا وهم يعلمون". وقال عمر لبني مروان: أدوا ما في أيديكم من حقوق الناس ولا تُلجئوني إلى ما أكره فأحملكم على ما تكرهون. فلم يُجبه أحد منهم. فقال: أجيوبني. فقال رجل منهم: والله لا نُخرج من أموالنا التي صارت إلينا من آبائنا، فنفقر أبناءنا ونُكفر آبائنا، حتى تُزابل رؤوسنا أجسادنا. فقال عمر: أما والله لولا أن تستعينوا عليّ بمن أطلب هذا الحق له لأضرعتُ خدودكم عاجلاً، ولكنني أخاف الفتنة، ولئن أبقاني الله لأردن إلى كل ذي حق حقه إن شاء الله. وكان عمر إذا نظر إلى بعض بني أمية، قال: إني أرى رقاباً سُرد إلى أربابها. ولما مات عمر بن عبد العزيز قعد مسلمة على قبره، فقال: أما والله ما أمتُ الرِّق حتى رأيتُ هذا القبر. العتي قال: لما انصرف عمر بن عبد العزيز من دفن سليمان بن عبد الملك تبعه الأمويون، فما دخلوا إلى منزله، قال له الحاجب: الأمويون بالباب. قال وما يريدون؟ قال: ما عودتهم الخلفاء قبلك. قال ابنه عبد الملك، وهو إذ ذاك ابن أربع عشرة سنة: ائذن لي في إبلاغهم عنك. قال: وما تُبلغهم؟ قال: أقول: أبي يُقرتكم السلام ويقول لكم: إني أخاف إن عصيت ربي عذاب يوم عظيم.

زياد عن مالك قال: قال عبد الملك بن عمر بن عبد العزيز لأبيه: يا أبت، مالك لا تُنفذ الأمور، فوالله ما أبالي لو أن القُدور غلت بي وبك في الحق. قال له عمر: لا تجعل يا بني، فإن الله ذم الخمر في القرآن مرتين وحرَّمها في الثالثة، وأنا أخاف أن أحمل الحق على الناس جملةً فيدفعونه جُملةً، ويكون من ذلك فتنة. ولما نزل بعبد الملك بن عمر بن عبد العزيز الموت قال له عمر: كيف تجددك يا بني؟ قال: أجديني في الموت، فاحتسبني، فتواب الله خير لك مني. فقال: يا بني، والله لأن تكون في ميزاني أحب إلي من أن أكون في ميزانك. قال: أما والله لأن يكون ما تحب أحب إلي من أن يكون ما أحب، ثم مات. فلما فرغ من دفنه وقف على قبره وقال: يرحمك الله يا بني، فلقد كنت ساراً مولوداً، وباراً ناشئاً، وما أحب أني دعوتك فأجبتني، فرحم الله كل عبد، من حُر أو عبد ذكر أو أنثى، دعا له برحمة وكان الناس يترحمون على عبد الملك ليدخلوا في دعوة عمر - ثم انصرف. فدخل الناس يُعزّونه، فقال: إن الذي نزل بعبد الملك أمر لم نزل نعرفه، فلما وقع لم نُنكره. وتوفيت أخت لعمر بن عبد العزيز، فلما فرغ من دفنها دنا إليه رجل فعزاه، فلم يرد عليه، ثم أحر فلم يرد عليه. فلما رأى الناس ذلك أمسكوا ومشوا معه. فلما دخل الباب أقبل على الناس بوجهه فقال: أدركتُ الناس وهم لا يُعزّون في المرأة إلا أن تكون أمًا.

وفاة عمر بن عبد العزيز مرض عمر بن عبد العزيز بأرض حمص، ومات بدير سمعان، فبى الناس أن يزيد بن عبد الملك سمّه، دس إلى خادماً كان يخدمه، فوضع السم على ظفر إمامه، فلما استسقى عمر غمس إمامه في الماء ثم سقاه، فمرض مرضه الذي مات فيه. فدخل عليه مسلمة بن عبد الملك فوقف عند رأسه فقال: جزاك الله يا أمير المؤمنين عنّا خيراً، فلقد عطفنا علينا قلوباً كانت عنّا نافرة: وجعلت لنا في الصالحين ذكراً. زياد عن مالك قال: دخل مسلمة بن عبد الملك على عمر بن عبد العزيز في المرضة التي مات فيها، فقال له: يا أمير المؤمنين، إنك فطمت أفواه ولدك عن هذا المال،

وتركتهم عالة، ولا بد لهم من شيء يُصلحهم، فلو أوصيت بهم إليّ أو إلى نظرائك من أهل بيتك لكفيئتكم مؤونتهم إن شاء الله. فقال عمر: أجلسوني، فأجلسوه، فقال: الحمد لله، أبالفقر تُخوفني يا مسلمة، أما ما ذكرت أبي فظمت أفواه ولدي عن هذا المال وتركتهم عالة، فإني لم أمنعهم حقاً هو لهم ولم أعطهم حقاً هو لغيرهم، وأما ما سألت من الوصاة إليك أو إلى نظرائك من أهل بيتي، فإن وصيتي بهم إلى الله الذي نزل الكتاب وهو يتولى الصالحين، وإنما بنو عمر أحد رجلين: رجل اتقى الله فجعل الله له من أمره يسراً ورزقه من حيث لا يحتسب، ورجل غير وفجر، فلا يكون عمر أول من أعانه على ارتكابه، ادعوا إلى بني. فدعوهم، وهم يومئذ اثنا عشر غلاماً، فجعل يُصعد بصره فيهم ويصوبه حتى اغرورقت عيناه بالدمع، ثم قال: بنفسي فثية تركتهم ولا مال لهم. يا بني، إني قد تركتكم من الله بخير، إنكم لا تمرون على مسلم ولا معاهد إلا ولكم عليه حق واجب إن شاء الله، يا بني: مثلت رأي بين أن تفتقروا في الدنيا وبين أن يدخل أبوكم النار، فكان أن تفتقروا إلى آخر الأبد خيراً من دخول أبيكم يوماً واحداً في النار، قوموا يا بني عصمكم الله ورزقكم. قال: فما احتاج أحد من أولاد عمر ولا افتقر. واشترى عمر بن عبد العزيز من صاحب دَيْر سمعان موضع قبره بأربعين درهماً. ومرض تسعة أيام. ومات رضى الله عنه يوم الجمعة لخمس بقين من رجب سنة إحدى ومائة. وصلى عليه يزيد بن عبد الملك. وقال جرير بن الحطفي يرثي عمر بن عبد العزيز:

يا خير من حج بيت الله واعتماً

وسرت فينا بحكم الله يا عمراً

تبكي عليك نجوم الليل والقمر

بين أبي العاص وآل الخطاب

ينعى النعاة أمير المؤمنين لنا

حملت أمراً عظيماً فاصطبرت له

فالشمس طالعة ليست بكاسفة

وأنشد أبو عبيد الأعرابي في عمر بن عبد العزيز.

مقابل الأعواق في الطيب الطاب

قال أبو عبيدة يقال: طيب وطاب، كما يقاله: ذم وذام.

خلافة يزيد بن عبد الملك

ثم ولي يزيد بن عبد الملك بن مروان بن الحكم. وأمه عاتكة بنت يزيد ابن معاوية، يوم الجمعة لخمس بقين من رجب سنة إحدى ومائة. ومات ببلاد البلقاء يوم الجمعة لخمس بقين من شعبان سنة خمس ومائة، وهو ابن أربع وثلاثين سنة. صلى عليه أخوه هشام بن عبد الملك. وكانت ولايته أربع سنين وشهراً. وفيه يقول جرير:

قبل الثلاثين إن الملك مؤتسب

سربت سربال ملك غير مختص

وكان على شرفته كعب بن مالك العبسي. وعلى الحرس غيلان أبو سعيد، مولاه. وعلى خاتم الخلافة مطر، مولاه، وكان فاسقاً. وعلى الخاتم الصغير بكير أبو الحجاج. وعلى الرسائل والهند والخراج صالح بن جبير الهمداني، ثم عزله واستعمل أسامة بن زيد، مولى كلب. وعلى الخزانة وبيوت الأموال هشام ابن مصاد. وحاجبه خالد، مولاه.

وكان يزيد بن عبد الملك صاحب لهو ولذات، وهو صاحب حباة وسلامة. وفي ولايته خرج يزيد بن المهلب.

أسماء ولد يزيد الوليد ويحيى وعبد الله والعمر وعبد الجبار وسليمان وأبو سفيان وهاشم ودواد، ولا عقب له، ولا عوأم، ولا عقب له. وكتب يزيد بن عبد الملك إلى عمال عمر بن عبد العزيز: أما بعد، فإن عمر كان مغروراً، غرتموه أنتم وأصحابكم، وقد رأيت كتبكم إليه في انكسار الخراج والضريبة. فإذا أتاكم كتابي هذا فدعوا ما كنتم تعرفون من عهده وأعيدوا الناس إلى طبقتهم الأولى، أخصبوا أم أجدبوا، أحبوا أم كرهوا، حيوا أم ماتوا، والسلام. أبو الحسن المدائني قال: لما ولي يزيد بن عبد الملك، وجه الجيوش إلى يزيد بن المهلب، فعقد لمسلمة بن عبد الملك على الجيش، وللعباس بن الوليد على أهل دمشق خاصة. فقال له العباس: يا أمير المؤمنين، إن أهل العراق قوم، إرجاف، وقد خرجنا إليهم محاربين والأحداث تحدث، فلو

عهدت إلى عبد العزيز بن الوليد بن عبد الملك. قال: غداً إن شاء الله. وبلغ مسلمة الخبر، فأتاه فقال له: يا أمير المؤمنين، أولاد عبد الملك أحب إليك أم أولاد الوليد؟ قال: ولد عبد الملك. قال: فأحوك أحق بالخلافة أم ابن أخيك؟ قال: بل أخي، إذا لم يكن ولدي، أحقُّ بها من ابن أخي. قال: يا أمير المؤمنين، فإن ابنك لم يبلغ فبايع لهشام بن عبد الملك ولابنك الوليد من بعده. قال: غدا أن شاء الله. فلما كان من الغد بايع لهشام ولابنه الوليد من بعده، والوليد يومئذ ابن إحدى عشرة سنة. فلما انقضى أمر يزيد بن المهلب وأدرك الوليد ندم يزيد، على استخلاف هشام، فكان إذا نظر إلى ابنه الوليد قال: الله بيني وبين من جعل هشاماً بيني وبينك. قال: ولما قُتل يزيد بن المهلب جمع يزيد بن عبد الملك العراق لأخيه مسلمة بن عبد الملك. فبعث هلال بن أحوز المازني إلى قنديل في طلب آل المهلب، فالتقوا، فقتل المفضل بن المهلب، وانهمز الناس، وقتل هلال بن أحوز خمسة من ولد المهلب، ولم يفتش النساء ولم يعرض لهن، وبعث العيال والأسرى إلى يزيد بن عبد الملك. قال: حدثني جابر بن مسلم قال: لما دخلوا عليه قام كثير بن أبي جمعة، الذي يقال له كثير عزة، فقال:

أشدَّ عقابٍ أو عفا لم يُثرب

فما تكتسب من صالح لك يُكتب

وأعظم حلم حسبة حلم مغضب

وذو يمن بالمشرفي المشطب

حليم إذا ما ناد عاقب مجملاً

فعفوا أمير المؤمنين وحسبة

أساءوا فإن تغفر فإنك قادر

نفتهم قريش عن أباطح مكة

فقال يزيد: لا طئ بك الرحم، لا سبيل إلى ذلك، من كان له قبل آل المهلب دم فليقم. فدفعهم إليهم حتى قتل نحو ثمانين. قال: وبلغ يزيد بن عبد الملك أن هشاماً يتنصه، فكتب إليه: إن مثلي ومثلك كما قال الأول:

فتلك سبيل لست فيها بأوحد

به قبل موتي أن يكون هو الردي

وعن بعض ما فيه يمئ وهو عاتب

يجدها ولا يبقى له الدهر صاحب

تمن رجال أن أموت وإن أمت

لعل الذي يبغي رداي ويرتجي

فكتب إليه هشام: إن مثلي ومثلك كما قال الأول:

ومن لم يغمض عينه عن صديقه

ومن يتتبع جاهداً كل عثرة

فكتب إليه يزيد: نحن مغتفرون ما كان منك، ومكذبون ما بلغنا عنك، مع حفظ وصية أئبنا عبد الملك، وما حصر عليه من صلاح ذات البين. وإني لأعلم أنك كما قال معن بن أوس:

علي أيّنا تعدو المنية أول

قديماً لذو صفح على ذاك مجمل

يمينك فانظر أي كف تبدل

ليعقب يوماً منك آخر مقبل

على طرف الهجران إن كان يعقل

إذا لم يكن عن شفرة السيف مزحل

وفي الأرض عن دار القلى متحول

لعمرك ما أدري وإني لأوجل

وإني على أشياء منك تربييني

سنتقطع في الدنيا إذا ما قطعنتي

إذا سؤنتني يوماً صفحت وإلى غد

إذا أنت لم تنصف أخاك وجدته

ويركب حد السيف من أن تضيمه

وفي الناس إن رئت حبالك واصل

فلما جاءه الكتاب رَحَلَ هشام إليه: فلم يزل في جواره إلى أن مات يزيد، وهو معه يا عسكره مخافة أهل البعْثي. محمد بن الغاز قال: حَدَّثَنَا أبو سعيد عبد الله بن شبيب قال: حَدَّثَنِي الزُّبَيْرُ بن بكار قال: كان يزيدُ بن عبد الملك كَلَفًا مَجْبَابَةً كَلَفًا شَدِيدًا، فلما تُوفيت أكَبَّ عليها يتشمَّمها أياماً حتى أُنْتَت، فأخذ في جِهازها وخرَج بين يدي نَعَشها، حتى إذا بلغ القبرَ نزل فيه. فلما فرَغ من دَفنِها لصق به مَسْلَمَة أخوه يُعزِّيه ويؤنسه. فقال: قاتل الله ابنَ أبي جُمعة! كأنه كان يرى ما نحن فيه حيث يقول:

فباليأس تسلو عنك لا بالتجدد

أجلك هذا ميّت اليوم أو غد

فإن تسل عنك النفس أو تدع الهوى

وكل خليل زارني فهو قاتل من

قال: وطعن في جنازتها، فدفتها إلى سبعة عشر يوماً.

خلافة هشام بن عبد الملك بن مروان

ثم بُويع هشامُ بن عبد الملك بن مروان يُكنى أبا الوليد. وأمه أم هشام بنت هشام بن، إسماعيل بن هشام المخزوميّ - يوم الجمعة لخمس ليالي بقين من شعبان سنة خمس ومائة. ومات بالرُّصافة يوم الأربعاء لثلاث خلون من ربيع الأول سنة خمس وعشرين ومائة، وهو ابن ثلاث وخمسين سنة. وصلى عليه الوليدُ بن يزيد. وكانت خلافته عشرين سنة.

أسماء ولد هشام بن عبد الملك معاوية وخلف ومسلمة ومحمد وسليمان وسعيد وعبد الله ويزيد - وهو الأباكم - ومروان وإبراهيم ويحيى ومُنذر وعبد الملك والوليد وقريش وعبد الرحمن. وكان على شُرطته كعب بن عامر العبسي. وعلى الرِّسائل سالم، مولاه. وعلى خاتم الخلافة الرِّبيع، مولى لبني الحريش، وهو الربيع بن ساحبور. وعلى الخاتم الصغير أبو الزُّبير، مولاه. وعلى ديوان الخراج والجند أسامة بن زيد، ثم عزله وولّى الخنثاث. وعلى إذنه غالبُ بن مسعود، مولاه.

أخبار هشام بن عبد الملك أبو الحسن المدائني، قال: كان عبد الملك بن مروان رأى في منامه أن عائشة بنت هشام بن إسماعيل بن هشام بن الوليد بن المغيرة المخزومي فلقّت رأسه فقطعته عشرين قطعة. فغمّه ذلك، فأرسل إلى سعيد بن المسيب، فقصّها عليه. فقال سعيد: تلد غلاماً يملك عشرين سنة. وكانت عائشة أم هشام حَمَفاء، فطلقها عبد الملك الحُمَفاء، وولدت هشاماً وهي طالق، ولم يكن في ولد عبد الملك أكمل من هشام. قال خالد بن صفوان: دخلت على هشام بن عبد الملك بعد أن سخط على خالد بن عبد الله القسريّ وسلط عليه يوسف بن عمر عامله على العراق، فلما دخلت عليه استدناني حتى كنت أقرب الناس إليه، فتنفّس الصُّعداء، ثم قال: يا خالد، رُب خالد قعد مقعدك هذا أشهى إلى حديثاً منك. فعلمت أنه يريد خالد بن عبد الله القسريّ، فقلت: يا أمير المؤمنين، أفلا تُعيدُه؟ قال: هيهات، إن خالداً أدلّ فأملّ، وأوجف فأعجف، ولم يدع لمراجع مرجعاً، على أنه ما سألي حاجة قط. فقلت: يا أمير المؤمنين، فلو أدنيتَه فتنفّصت عليه؟ قال: هيهات! وأنشد:

عليه بوجه آخر الدهر تُقبل

إذا انصرفت نفسي عن الشيء لم تكن

قال أصبغ بن الفرج: لم يكن في بني مروان من مُلو كها أعطر ولا ألبس من هشام، خرج حاجاً فحمل ثياب طهره على ستمائة حمل. ودخل المدينة، فقال لرجل: انظر من في المسجد. فقال: رجل طويل أدلم. قال: هذا سالم بن عبد الله، ادعه. فأتاه، فقال: أحب أمير المؤمنين وإن شئت أرسل فتوتى بنبابك. فقال: ويحك! أتيت الله زائراً في رداء وقميص ولا أدخل بما على هشام! فدخل عليه، فوصله بعشرة آلاف. ثم قدم مكة فقضى حجه، فلما رجع إلى المدينة، قيل له: إن سالماً شديد الوجع، فدخل عليه وسأله عن حاله. ومات سالمُ فصلّى عليه هشام، وقال: ما أدري بأي الأمرين أنا أسرّ: بحجتي أم بصلاتي على سالم. قال: ووقف هشامُ يوماً قريباً من حائط فيه زيتون له، فسمع نفض الزيتون، فقال لرجل: انطلق إليهم فقل لهم: التقطوه ولا تنفضوه، فتفتقوا عُيونَه، وتكسروا غصونه. وخرج هشام هارباً من الطاعون، فانتهى إلى دير فيه راهب، فأدخله الراهبُ بستانه، فجعل يَنْتقي له أطياب الفاكهة والبالغ منها. فقال هشام: يا راهب، هبني بستانك هذا. فلم يُجبه. فقال: مالك لا تتكلم؟ فقال: وددت أن الناس كلهم ماتوا غيرك. قال: ولم؟ قال: لعلك أن تشيع. فالتفت هشام إلى الأبرش فقال: أتسمع ما يقول؟ قال الأبرش: بلى والله، ما لقيك حر غيره. العُبيّ قال: أتني لقاعد

عند قاضي هشام بن عبد الملك إذ أقبل إبراهيم ابن محمد بن طلحة وصاحب حرس هشام حتى قعدا بين يديه، فقال الحرسى: إن أمير المؤمنين جراني في خصومة بينه وبين إبراهيم. قال القاضي: شاهديك على الجارية. فقال: أتراني قلتُ على أمير المؤمنين ما لم يقل، وليس بيني وبينه إلا هذه الستارة؛ قال: لا، ولكنه لا يثبت الحق لك ولا عليك إلا ببينة. قال: فقام، فلم يلبث حتى قَعَقَت الأبوابُ وخرج الحرسى، فقال: هذا أمير المؤمنين. قال: فقام القاضي، فأشار إليه فقعد، وبسط له مُصلى فقعد عليه هو وإبراهيم، وكُنَّا حيث نَسْمَعُ بعضَ كلامهما ويحْفَى علينا البعضُ. قال: فتكلَّما وأحضرت البينة، فقضى القاضي على هشام. فتكلم إبراهيم بكلمة فيها بعض الخرق، فقال: الحمد لله الذي أبان للناس ظلمك. فقال هشام: لقد هممتُ أن أضربك ضربةً ينتثر منها لحمك عن عظمك. قال: أما والله لئن فعلت لتفعلنه بشيخ كبير السن، قريب القرابة، واجب الحق. قال له: اسأرها علي يا إبراهيم. قلت: لا ستر الله عليّ ذنبي إذا يوم القيامة. قال: إني مُعْطِيكَ عليها مائة ألف. قال إبراهيم: فسترُها عليه طولَ حياته ثمناً لما أخذتُ منه وأدعتها عنه بعد موته تزييناً له. وذكروا عن الهيثم ابن عدي قال: كان سعيد بن هشام بن عبد الملك عاملاً لأبيه على حمص، وكان يُرْمَى بالنساء والشراب، فقدم حمصي لهشام، فلقبه أبو جعد الطائي في طريق، فقال له: هل ترى أن أعطيك هذه الفرس، فإنني لا أعلم بمكان مثلها على أن تُبلِّغ هذا الكتابَ أميرَ المؤمنين، ليس فيه حاجة بمسألة دينار ولا درهم؟ فأخذها وأخذ الكتاب. فلما قدم على هشام سأله: ما قصة هذه الفرس؟ فأخبره. فقال: هاتِ الكتاب، فإذا فيه:

أمددتنا بأمر ليس عني

وعند ساحته يُسقى الطلأ دينا

أبلغ إليك أمير المؤمنين فقد

عوراً يخالف عمراً في حليته

قلما قرأ الكتاب بعث إلى سعيد فأشخصه، فلما قدم عليه علاه بالخيزرانة وقال: يا بن الخبيثة، تزي وأنت ابن أمير المؤمنين! ويلك! أعجزت أن تفجر فجور قريش؟ أو تدري ما فجور قريش لا أم لك؟ قتل هذا، وأخذ مال هذا، والله لا تلي له عملاً حتى تموت. قال قال: فما ولى له عملاً حتى مات.

أحمد بن عبيد قال: أخبرني هشام الكلبي عن أبي محمد بن سفيان القرشي عن أبيه قال: كُنَّا عند هشام بن عبد الملك وقد وفد عليه وفد أهل الحجاز، وكان شبابُ الكتاب إذا قدم الوفدُ حضروا لاستماع بلاغة خطبائهم، فحضرتُ كلامهم، حتى قام محمد بن أبي الجهم بن حذيفة العدوي، وكان أعظم القوم قدراً وأكبرهم سناً، فقال: أصلح الله أمير المؤمنين، إن خطباء قريش قد قالت فيك ما قالت، وأكثرت وأطنبت، والله ما بلغ قائلهم قدرك، ولا أحصى خطيبهم فضلك، وإن أذنت في القول قلت؟ قالت: قل وأوجز. قال: تولاك الله يا أمير المؤمنين بالحسن، وزينك بالتقوى، وجمع لك خير الآخرة والأولى، إن لي حوائج، أفأذكرها؟ قال: هاتهما. قال: كبر سني، ونال الدهر مني، فإن رأى أمير المؤمنين أن يجبر كسري، وينفي فقري، فعل. قال: وما الذي ينفي فقرك، ويجبر كسرك؟ قال: ألف دينار وألف دينار وألف دينار. قال: فأطرق هشام طويلاً ثم قال: يا بن أبي الجهم، بيت المال لا يحتمل ما ذكرت، ثم قال له: هيه. قال: ما هيه؟ أما والله إن الأمر لواحد، ولكن الله أترك بمجلسك، فإن تعطنا فحقتنا أديت، وإن تمنعنا فنسأل الله الذي بيده ما حوت. يا أمير المؤمنين، إن الله جعل العطاء محبةً، والمنع مبغضةً. والله لأن احبك أحبُّ إليَّ من أن أبغضك. قال: فألف دينار لماذا؟ قال: أفضي بما ديناً قد حان قضاؤه، وقد عناني حملهُ، وأضر بي أهله. قال: فلا بأس، نُنْفَسُ كربةً، ونؤدي أمانة. وألف دينار لماذا؟ قال: أزوج بها من بلغ من ولدي. قال: نعم المسلك سلكت، أغضضت بصراً، وأعففت ذكراً، وأمّرت نسلًا. وألف دينار لماذا؟ قال: أشتري بها أرضاً يعيش بها ولدي! وأستعين بفضلها على نواب دهرى، وتكون ذخراً لمن بعدي. قال: فإننا قد أمرنا لك بما سألت. قال: فالحمودُ لله على ذلك، وخرج. فأتبعه هشام بصره، وقال: إذا كان القرشي فليكن مثل هذا، ما رأيت رجلاً أوجز في مقال ولا أبلغ في بيان منه. ثم قال: أما والله إننا لنعوف الحق إذا نزل، ونكره الإسراف والبخل، وما نُعْطِي تَبْذِيرًا، ولا نمنع تَقْتِيرًا، وما نحن إلا خُرْانُ الله في بلاده، وأمناؤه على عباده؟ فإذا أذن أعطينا، وإذا منع أبينا؛ ولو كان كل قائل يصدق، وكل سائل يستحق؟ ما جَبَّهْنَا قائلًا، ولا رَدَدْنَا سائلًا. ونسأل الذي بيده ما استحفظنا أن يُجْرِيه على أدينا. فإنه يسط الرزق لمن يشاء ويقدر، إنه بعباده خبير بصير. فقالوا: يا أمير المؤمنين، لقد تكلمت فأبلغت، وما بلغ في كلامه ما قصصت. قال: إنه مُبتدئ وليس المُبتدئ كالمُتدي.

وذكروا أنَّ العباس بن الوليدَ وجماعةً من بني مروان اجتمعوا عند هشام، فذكروا الوليد بن يزيدَ وعابوه وذمّوه، وكان هشام يُغضه، ودخل الوليدُ، فقال له العباس: يا وليد، كيف حُبَّكَ للرومِيات، فإن أباك كان مشغولاً بهن؟ قال: كيف لا يكون وهُن يلدن مثلك؟ قال: ألا تسكت يا بن البظراء؟ قال: حسبيك أيها المفتخر علينا بختان أمه. وقال له هشام: ما شرأبك يا وليد؟ قال: شرأبك يا أمير المؤمنين، وقام فخرج. فقال هشام: هذا الذي زعمتموه أحمق!

وقرب الوليدُ بن يزيد فرسه جراميزه ووثب على سرجه، ثم التفت إلى ولد هشام، وقال له: هل يقدر أبوك أن يصنع مثل هذا؟ قال: لأبي مائة عبد يصنعون مثل هذا. فقال الناس: لم يُنصفه في الجواب. العُتبي عن أبيه، قال: سمعت معاوية بن عمرو بن عتبة يحدث، قال: إني لقاعد بباب هشام بن عبد الملك، وكان الناس يتقربون إليه بعيب الوليد ابن يزيد، قال: فسمعتُ قوماً يعيبنه، فقلت: دَعُونَا من عيب من يلزمنَا مدْحُه، ووَضِع من يجب علينا رَفْعُه. وكانت للوليد بن يزيد عيون لا يرحون بباب هشام، فنقلوا إليه كلامي وكلام القوم، فلم ألبث إلا يسيراً حتى راح إليّ مولى للوليد، قد التحف على ألف دينار، فقال لي: يقول لك مولاي: أنفق هذه في يومك، وغداً أمامك. قالت: فمُلئت رُعباً من هشام وخشيت سطوته، ورماه الله باللعنة فدفناه لثمانية عشر يوماً بعد ذلك اليوم. فلما قام الوليدُ بعده دخلت عليه، فقال لي: يا بن عتبة، أتراني ناسياً قُعودك بباب الأحوال يَهْدمني وتبني، ويضعني وترفعني؟ فقلت: يا أمير المؤمنين، شاركت قومك في الإحسان، وتفرّدت دوهم بإحسانك إليّ، فلستُ أحمد لك نفسي في اجتهاد، ولا أعذرُها في تقصير، وتشهد بذلك ألسنة الجائزين بنا، ويصدق قولهم الفعّال منا. قال كذلك أنتم لنا آل أبي سُفيان، وقد أقطعك مالي بالبئنة وما أعلم لقرشي مثله. وقال عبدُ الله بن عبد الحكم فقيه مصر: سمعتُ الأشياخ يقولون: سنة خمس وعشرين ومائة أديل من الشرف وذَهبت المروءة، وذلك عند موت هشام بن عبد الملك. قال أبو الحسن المدائني: مات هشامُ بن عبد الملك بالذئحة يوم الأربعاء، بالرصافة في ربيع الآخر لست خلون منه، سنة خمس وعشرين ومائة، وصلى عليه مسلمة بن هشام أو بعض ولده، واشترى له كفن من السوق.

خلافة الوليد بن يزيد بن عبد الملك

بُوع للوليد بن يزيد بن عبد الملك يوم الأربعاء لثلاث خلون من ربيع الآخر سنة خمس وعشرين ومائة. وأمه أم الحجاج بنت محمد بن يوسف، أخي الحجاج بن يوسف. وقُتل بالبخراء، من تدمر على ثلاثة أميال، يوم الخميس لليلتين بقيتا من جمادى الآخرة سنة ست وعشرين ومائة، وهو ابن خمس وثلاثين، أو لست وثلاثين. قال حاتم بن مسلم: ابن خمس وأربعين وأشهر. وكانت ولايته سنة وشهرين واثنين وعشرين يوماً. فأول شيء نظر فيه الوليدُ أن كتب إلى العباس ابن الوليد بن عبد الملك أن يأتي الرصافة يُحصي ما فيها من أموال هشام وولده، ويأخذُ عماله! وحشمه، إلا مسلمة بن هشام، فإنه كتب إليه أن لا يعرض له ولا يدخل منزله. وكان مسلمة كثيراً ما يكلم أباه في الرفق بالوليد. ففعل العباس ما أمره به. وكتب الوليدُ بن يزيد إلى يوسف بن عمر، فقدم عليه من العراق، فدفع إليه خالد بن عبد الله القسريّ ومحمداً وإبراهيم، ابني هشام بن إسماعيل المخزومي، وأمره بقتلهم. فحدث أبو بشر بن السريّ قال: رأيتهم قدم بهم يوسف بن عمر الحيرة، وخالد في عباءة في شقّ محمل، فعذبهم حتى قتلهم. ثم عكف الوليدُ على البطالة وحُب القيان والملاهي والشراب ومعاشقة النساء، فتعشّق سعدى بنت سعيد بن عمرو بن عثمان بن عفان، فتزوجها! ثم تعشّق أختها سلمى، ففطّق أختها سعدى وتزوج سلمى، فرجعت سعدى إلى المدينة فتزوجت بشر بن الوليد بن عبد الملك. ثم ندم الوليدُ على فراقها وكلف بجبها، فدخل عليه أشعبُ المضحك، فقال له الوليد: هل لك على أن تبلغ سعدى عني رسالةً ولك عشرون ألف درهم؟ قال: هاتها، فدفعها إليه. فقبضها وقال: ما رسالتك؟ قال: إذا قدمت المدينة فاستأذن عليها، وقل لها: يقول لك الوليد:

ولا حتى القيامة من تلاقِي

بموت من حليلك أو فراق

أسعدى ما إليك لنا سبيل

بلى، ولعلّ دهرًا أن يؤاتي

فأتاها أشعبُ فاستأذن عليها، وكان نساء المدينة لا يَحْتجن عنده، فقالت له: ما بدا لك في زيارتنا يا أشعب؟ قال: يا سيدي، أرسلني إليك الوليدُ

برسالة. قالت: هاتِها. فأنشدها البيتين. فقالت لجواريتها: خُذْنِ هذا الحَبِيثَ. وقالت: ما جَرَأَكَ على مثل هذه الرسالة؟ قال: إنها بعشرين ألفاً معجّلة مَقْبُوضَةٌ. قالت: والله لأجلدنك أو لتبلّغنه ما أبلغتني عنه. قال: فاجعلي لي جُعلاً. قالت: بساطي هذا. قال: فقومي عنه. فقامت عنه، وطوى البساط وضمه، ثم قال: هاتي رسالتك. فقالت له: قل له:

أَتَبْكِي عَلَى سَعْدِي وَأَنْتِ تَرَكْتَهُ؟ فَقَدْ ذَهَبْتَ سَعْدِي، فَمَا أَنْتِ صَانِعُ؟

فلما بلّغه الرسالة كَظَمَ الغَيْظَ على أشعب، وقال: اخترت إحدى ثلاث خصال: ولا بُدَّ لك من إحداها: إما أن أقتلك، وإما أن أطرحك للسباع فتأكلك، وإما أن ألقيك من هذا القصر؟ فقال أشعبُ: يا سيدي، ما كُنتَ لتعذب عينيّن نظرتا إلى سَعْدِي. فضحك وخطى سبيله، وأقامت عنده سَلْمَى حتى قُتِلَ عنها. وهو القائل في سَلْمَى:

ورواه كل بدو وحضر

وتغنين به حتى انتشر

لسجدنا ألف ألف للآثر

ولكانت حجنا والمُعتمر

هل حرجنا إن سجدنا للقمر

شاع شعري في سلمي وظهر

وتهادته الغواني بينها

لو رأينا من سلمي أثراً

واتخذناها إماماً مرتضى

إنما بنت سعيد قمر

وفيها يقول قبل تزوجه لها:

خرجت يوم المصلى

فوق غصن ينقلى

مني فدنا ثم تدلى

قال لا ثم تولى

باطنا ثم تخلى

حدثوا أن سلمي

فإذا طيرٌ مليح

قلت: يا طير! ادنُ

قلت: هل تعرف سلمي

فنكا في القلب كلاً

وقال في سلمى قبل تزوجه لها:

أليس الله يفعل ما يشاء

فيؤقظني وقد قضى القضاء

فتغسلها وليس بنا عناء

وهي في يسرى يديه

غير عدل يا أخيه

في الهوى لاقى منيه

ميتة غير سوية

لعل الله يجمعني بسلمي

ويأتي بي ويطرحني عليها

ويُرسل ديمة من بعد هذا

وقال فيها بعد تزوجه لها:

أنا في يمنى يديها

إن هذا لقضاء

ليت من لام محباً

فاستراح الناس منه

قال: ولهج الوليدُ بالنساء والشراب والصَّيد، فأرسل إلى المدينة فحملوا له المُعْتَنين، فلما قَرَبوا منه أمر أن يَدْخُلوا العسكرَ ليلاً، وكره أن يراهم الناس، فأقاموا حتى أمسوا غيرَ محمد بن عائشة، فإنه دخل نهاراً، فأمر الوليدُ بحبسِه، فلم يزل محبوساً حتى شرب الوليدُ يوماً فطرب، فكلمه مَعبد، فأمر الوليدُ بإخراجه، ودعاه فغناه فقال:

أنت ابنُ مسلنحِ البِطاحِ ولم

تَطْرُقُ عليكِ الحَنِيَّ والوَلجُ

فرضي عنه، وكان سعيدُ الأحوصُ ومَعبدُ حينَ قدما على الوليدِ نزلاً في الطريقِ على عَدِيرٍ وجاريةٍ تُسْتَقِي، فزاعتُ فانكسرتِ الحِجْرَةُ فجَلستِ تَغْتِي:

يا بَيْتَ عاتِكَةَ الذي أتعزَلُ

حَدَرَ العدا وبه الفؤادُ مُوكَلُ

فقال لها: يا جارية، لمن أنت؟ فقالت: كنت لآل الوليد بن عُقبَةَ، بالمدينة فاشتراني مولاي، وهو من بني عامر بن صعصعة، أحد بني الوَحيد من بني كلاب، وعنده بنتُ عمِّ له فوهبني لها، فأمرتني أن أستقي لها. فقالا لها: فلمن الشعرُ؟ قالت: سمعتُ بالمدينة أن الشعرَ للأحوص، والغناء لمعبد فقال مَعبد للأحوص: قل شيئاً أغنى عليه. فقال:

إن زَيْنَ الغديرِ مَنْ كسرَ الحِج

رٌ وَغَنَى غِناءَ فَحَلِّ مُجيدِ

قلتُ: مَنْ أنتِ يا مَلِيحَةَ؟ قالتُ:

كنتُ فيما مَضَى آلَ الوليدِ

ثم قد صرْتُ بعدَ عَزِ قَريشِ

في بني عامرِ آلَ الوَحيدِ

وَغِنائِي لمعبدٍ ونشيدِي

لَفَتِي الناسَ الأحوصَ الصنديدِ

فتضاحكتُ ثم قلتُ أنا الأحوصُ

والشيخُ مَعبدٌ فأعيدي

فأعادتُ وأحسنتُ ثم ولَّتْ

تتهادَى فقلتُ أمَّ سعيدِ

يَقْصرُ المالُ عن شِراكِ ولكن

أنتِ في ذِمَّةِ الإمامِ الوليدِ

وأمَّ سعيد كانت للأحوص بالمدينة، فغنى مَعبدُ على الشَّعرِ. فقال: ما هذا؟ فآخِراه، فاشترها الوليد. قال أبو الحسن: وقال ابنُ أبي الزناد: إنِّي كنتُ عند هشام وعنده الزُّهري، فذَكَرَ الوليد، فتنقَّصاه وعاباه عيباً شديداً، ولم أعرضُ لشيءٍ مما كانا فيه، فاستأذن فأذن له، فدخَلَ وأنا أعرفُ العَضْبَ لا وجهه، فجلَسَ قليلاً ثم قام. فلما مات هشام: كَتَبَ بي فحُمِلتُ إليه فرحَّبَ بي، وقال: كيف حالك يا بنِ ذكوان؟ وألطفَ المسألة. ثم قال: أتذكر هشاماً الأحول، وعنده الفاسقُ الزُّهري وهما يعيباني؟ فقلت: أذكر ذلك ولم أعرضُ لشيءٍ مما كانا فيه. قال: صدقت، رأيتَ العُلامَ الذي كان على رأسِ هشام قائماً؟ قلتُ: نعم. قال: فإنه نَمَّ إلىَّ بما قالاه. وإيم الله لو بقى الفاسقُ الزُّهري لقتلته. قلت: قد عرفتُ العَضْبَ في وجهك حين دخلت. قال: يا بنِ ذكوان، ذهبَ الأحولُ. قلتُ: يُطيلُ اللهُ عُمرَكَ، ويُمتِعُ الأمةَ ببقائِكَ. ودعا بالعشاء فتعشَّينا، وجاءت المغربُ فصلَّينا، وتحدَّثنا حتى حانت العشاء الآخرة فصلَّينا وجلس. فقال: استقني، فجاؤوا بإناءٍ مُعْطَى، وحيء بثلاثِ جوارٍ، فصُفِّفَ بيبي وبينه حتى شرب، وذَهَبَ، فتحدَّثنا، واستسقى، فصنعوا مثلَ ذلك. فما زال كذلك يَسْتَسْقِي ويتحدَّثُ ويصنعون مثلَ ذلك حتى طلعَ الفجرُ، فأحصيتُ له سبعينَ قدحاً. على بن عياش قال: إني عند الوليد بن يزيد في خلافته إذ أتى بشُراعةٍ من الكوفة، فوالله ما سأله عن نفسه ولا عن مَسيرِه حتى قال له: يا شُراعة، إني والله ما بعثتُ إليكُ لأسألكُ عن كتابِ الله وسُنَّةِ رسولِ الله صلى الله عليه وسلم. قال: والله لو سألتني عنهما لوجدتني فيهما حماراً، قال: إنما أرسلتُ إليكُ لأسألكُ عن القهوة. قال: دهقأئها الخبير، ولقماها الحكيم، وطبيها العليم. قالت: فأخبرني عن الشراب؟ قال: يسألُ أميرُ المؤمنين عما بدا له. قال: ما تقول في الماء؟ قال: لا بُد لي منه، والحمارُ شريكِي فيه. قالت: ما تقول في اللبن؟ ما رأيته قط إلا استحييتُ من أمي لطول ما أرَضعتني به. قال: ما تقول في السويق؟ قال: شرابُ الحَزِينِ والمُستعجلِ والمريضِ. قال: فنبيدُ التمر؟ قال: سريعُ المَلءِ، سريعُ الأنفِشاش. قال: فنبيدُ الزَّيبِيبِ؟ قال: تلهوُّأ به عن الشراب. قال: ما

تقول في الحمر؟ قال: أوه! تلك صديقة رُوحِي. قال: وأنت والله صديقُ رُوحِي. قال: فأبيّ المجالس أحبُّ؟ قال: ما شُرب الكأسُ قطُّ على وجه أحسنَ من السماء. قال أبو الحسن: كان أبو كامل مُضحكاً غزلاً مُعْتِياً! فعنَى الوليدُ يوماً فطُرب، فأعطاه قَلَنْسُوةَ بَرُوداً كانت عليه، فكان أبو كامل لا يلبسها إلا في عيد، ويقول: كَسَانِيهَا أميرُ الْمُؤْمِنِينَ، فأنا أصُوهُهَا، وقد أمرتُ أهلي إذا مِتُّ أن تُوضِعَ في أكفاني. وله يقول الوليد:

أني إذا ما غاب كالهابل
ما قد مضى من دهرنا الحائل
ظلت بيوم الفرح الجاذل

من مُبْلِغ عني أبا كامل
وزادني شوقاً إلى قُربهِ
إنِّي إذا عاطيتُهُ مُرَّةً

قال: وجلس الوليدُ يوماً وجاريةٌ تُعْنِيهِ، فأنشدها الوليدُ:

قينة في يمينها إبريقُ

قالت الجارية المغنية: لو أتممت الشعر غنيتُ به. قال: لست أرويه، وكتب إلى حماد الراوية فحُمل إليه: فلما دخل عليه قال له الوليد:

قينة في يمينها إبريقُ

فأنشد حماد الراوية:

قينة في يمينها إبريقُ
الذيكَ صفَى لسلافه الرأوق
مُزجت لذ طعمها من يذوق

ثم نادى ألا أصبحوني فقامتُ
فَدَمَّتْهُ على عُقار كعِينُ
مُرَّةً قبل مَرْجها فإذا ما

وكتب الوليدُ إلى المدينة، فحمل إليه أشعب، فألبسه سراويل جلد قرد له ذنب، وقال له: ارقص وغنَّ صوتاً يعجبني، فإن فعلتَ أعطيتُكَ أسف درهم. فرقص! وغنَّى، فأعجبه، فأعطاه ألف درهم: وأنشد الوليدُ هذا الصوت:

من شراب أصفهانِي
أو شراباً الهُرْمَزَانِ

عللاني واسقياني
من شراب الشيخ كسرى

أو بكفي من سقاني
يُتعاطى بالبنانِ

إنَّ بالكأسِ لمسكاً
إنما الكأسُ ربيعُ

وقال أيضاً:

سبأها الدهاقين من عسقلانِ
تراها كلمعة برق يمانِي

وصفراء في الكأس كالزعران
لها حَبَبٌ كلما صفقت

وقال أيضاً:

ل معاش لي وزادِ
طارفي بعد تِلادي
هاشماً في كل وادي

ليت حظي اليوم من كل
قهوة أبذل فيها
فيظل القلبُ منها

امدح الكأسَ وَمَنْ أعملها

واهجُ قوماً قتلونا بالعطشُ

إنما الكأسُ ربيعٌ باكر

فإذا ما لم نذُقها لم نعشُ

وبلغ الوليدُ أن الناسَ يعيونه ويتنقصونه بالشرابِ وطلبَ اللذاتِ، فقال في ذلك:

ولقد قضيتُ، ولم يُجلَلْ لمتي

شيب، على رَغَمِ العدا لذاتي

مِنْ كاعباتِ كالدُمى وَمَناصفٍ

ومراكبِ للصيِّدِ والنشواتِ

في فِتيةِ تآبَى الهوانِ وجوهُهم

شمُّ الأثوفِ ججاجِ ساداتِ

إِنْ يَطلبوا بتراتهم يُعطوا بها

أو يُطلبوا لا يُدركوا بتراتِ

وقال معاويةُ بن عمرو بن عُتبة للوليد بن يزيد حين تغير له الناسُ وطعنوا عليه: يا أمير المؤمنين، إنه يُنطقني الأثسُ بك، وُسُكتني الهيبةُ لك، وأراك تأمن أشياءً أخافُها عليك، أفأسكتُ مُطيعاً أم أقولُ مُشفقاً؟ قال: كلُّ مَقْبُولٍ منك، واللهُ فينا علمٌ غيبٌ نحن صائرون إليه. فقتل بعد ذلك بأيام. وقال الوليدُ إذا أكثر الناسُ القولَ فيه:

خذوا مُلككم لا تَبْتَ اللهُ مُلككم

ثباتاً يُساوى ما حبيبتُ عقالاً

دَعُوا لي سُلَيْمِي مع طِلاءِ وقِيئةِ

وكأسِ، أَلَا حَسْبِي بِذَلِكَ ما لا

أَبالملكِ أَرْجو أن أَخْدَ فيكم

أَلَا ربُّ مُلكٍ قد أزيلَ فزالا

أَلَا رَبُّ دارٍ قد تحمَلُ أهلها

فأضحتُ قفاراً والقفار حلالا

قال إسحاق بن محمد الأزرق: دخلتُ على منصور بن جُمهور الكَلْبِيِّ بعد قتل الوليد بن يزيد، وعنده جاريتان من حواري الوليد، فقال لي: اسمع من هاتين الجاريتين ما يقولان. قالتا: قد حدثناك. قال: بل حدثناه كما حدثتُماني. قالت إحداهما: كُنَّا أعزَّ حواريه عنده، فنكح هذه وجاء المُؤذنون يؤذنونه بالصلاة، فأخرجها وهي سَكْرَى جُنبة متلثمة فصلت بالناس.

مقتل الوليد بن يزيد

إسماعيل بن إبراهيم قال: حدثني عبدُ الله بن واقد الجَرْمِي، وكان شَهِدَ مقتلَ الوليد، قال: لما أجمعوا على قتله، فقدوا أمرهم يزيدَ بن الوليد بن عبد الملك، فخرج يزيدُ بن الوليد بن عبد الملك، فأتى أخاه العباسَ ليلاً فشاوره في قتل الوليد، فنهاه عن ذلك، فأقبل يزيدُ ليلاً حتى دخل دمشقَ في أربعين رجلاً، فكسروا بابَ المقصورة، ودخلوا على واليها فأوثقوه، وحمل يزيدُ الأموالَ على العَجَلِ إلى بابِ المضمار، وعقد لعبد العزيز بن الحجاج بن عبد الملك ونادى مُناديه: من انتدب إلى الوليد فله ألفان، فانتدب معه ألفاً رجلاً، وضمَّ مع عبد العزيز ابن الحجاج يعقوبَ بن عبد الرحمن، ومنصور بن جُمهور. وبلغ الوليدَ بن يزيد بن عبد الملك ذلك، فتوجه من البلقاء إلى حِمص، وكتب إلى العباسِ ابن الوليد أن يأتيه في جند من أهل حمص، وهو منها قريب، وخرج حتى انتهى إلى قمر في بَرِيَّةِ ورملٍ من تَدْمُرِ على أميال، وصبحت الخيلُ الوليدَ بالبخراء. وقدم العباسُ بن الوليد بغير خيل، فحبسه عبدُ العزيز ابن الحجاج خلفه، ونادى مُنادي عبد العزيز: مَنْ أتى العباسَ بن الوليد فهو آمن، وهو بيننا وبينكم. وظنَّ الناسُ أن العباسَ مع عبد العزيز، فنفروا عن الوليد، وهجم عليه الناسُ. فكان أول من هجم عليه السريُّ بن زياد بن أبي كبشة السُّكْسُكِي، وعبد السلام اللُّحْمِي، فأهوى إليه السريُّ بالسيف، وضربه عبد السلام على قرنه فقتل. قال إسماعيل: وحدثني عبدُ الله بن واقد قال: حدثني يزيد بن أبي فرّوة مولى بني أمية، قال: لما أتى يزيدُ برأس الوليد بن يزيد، قال لي: انصِبِ للناس، قلتُ: لا أفعل، إنما ينصب رأسُ الخارج. فحلف ليُنصِبَنَّ ولا ينصبه غيري. فوضع على رمحٍ ونصب على

دَرَج مَسْجِد دِمَشق. ثم قال: اذهب فطُف به في مدينة دمشق. خليفة بن خيَّاط قالت: حدَّثني الوليد بن هشام عن أبيه قال: لما أحاطوا بالوليد أخذ المصحف وقال: أقتل كما قُتل ابن عمي عثمان.

أبو الحسن المدائني قال: كان الوليدُ صاحبَ هو وصيِّدٍ وشرابٍ ولذات. فلما ولي الأمر جعل يكره المواضع التي يراه الناس فيها، فلم يدخل مدينة من مدائن الشام حتى قُتل، ولم يزل ينتقل ويتصيِّد حتى ثَقُل على الناس وعلى جُنده. واشتد على بني هشام وأضرَّ بهم، وضرب سليمان بن هشام مائة سوط، وحلق رأسه ولحيته، وغرَّ به إلى عُمان، فلم يزل محبوساً حتى قُتل الوليد. وحسب يزيد بن هشام، وهو الأقم، فرماه بنو هشام وبنو الوليد. وكان أشدَّهم قولاً فيه يزيد بن الوليد، وكان الناس إلى قوله أميل، لأنه كان يُظهر التُّسك. ولما دفع الوليدُ خالد بن عبد الله القسري إلى يوسف بن عمر فقتله، غَضِبَت له اليمانية كلها وغيرهم، فأتوا يزيد بن الوليد بن عبد الملك، فأرادوه على البيعة وخَلَع الوليد، فامتنع عليهم وخاف أن لا يُبايعه الناس، ثم لم يزل الناسُ به حتى بايعوه سرّاً. ولما قتل الوليد بن يزيد قام يزيد بن الوليد خطيباً، فحمد الله وأثنى عليه ثم قال: أيها الناس، إني والله ما خرجتُ أشراً ولا بطراً، ولا حرصاً على الدنيا، ولا رغبةً في الملك، وما بي إطرأ نفسي، وتزكية عملي، وإني لظُلوم لنفسي إن لم يرْحمني ربي، ولكنني خرجتُ غضباً لله ودينه، وداعياً إلى كتاب الله وسُنَّة نبيِّه، حين دَرَسْتُ معالم الهدى، وطَفِيء نور التقوى، وظهر الجبار العنيد، المُستحلَّ للحرمة، والرَّاكب للبدعة، والمُغَيِّر للسنة، فلما رأيتُ ذلك أشفقتُ أن غَشِيَتِكُمْ ظلمة لا تُقْلَع عنكم، على كثرة من ذنوبكم، وقسوة من قلوبكم، وأشفقتُ أن يدعو كثيراً من الناس إلى ما هو عليه فيُحِبِّيه من أحابه منكم، فاستخرتُ الله في أمري، وسألته أن لا يَكِلَنِي إلى نفسي، ودعوتُ إلى ذلك من أحابني من أهلي وأهل ولايتي، وهو ابن عمِّي في نسي، وكُفِّي في حسي، فأراح الله منه العباد، وطَفَّر منه البلاد، ولايةً من الله وعوناً، بلا حَوْلٍ منا ولا قُوَّة، ولكن بحَوْلِ الله وقوته، وولايته وعونه. أيها الناس: إنَّ لكم علي إن وليت أموركم أن لا أضعُ لَبَنَةً على لَبَنَةٍ، وحجراً على حجر، ولا أنقل مالا من بلد إلى بلد، حتى أسدُّ نُعْرَه، وأقسِّم بين أهله ما يَقْوون به، فإن فَضَلَ رددته إلى أهل البلد الذي يليه، ومن هو أحوج إليه، حتى تستقيم المعيشة بين المسلمين وتكونوا فيه سواء، ولا أجمركم في بُعوثكم فتنُّنوا ويُفْتِن أهاليكم، فإن أردتم بيعتي على الذي بذلت لكم فأنا لكم به، وإن ملتُ فلا بيعة لي عليكم، وإن رأيتم أحداً هو أقوى عليها مني فأردتم بيعته فأنا أول من بايع ودخل في طاعته، أقوله قولي هذا وأستغفر الله لي ولكم. وقال خلفُ بن خليفة في قتل الوليد بن يزيد: لقتل خالد بن عبد الله:

صَدَى كَانَ يَزْفُو لَيْلَهُ غَيْرَ رَاقِدٍ

مُكِباً عَلَى خَيْشُومِهِ غَيْرَ سَاجِدٍ

قَطَعْنَا بِهَا مِنْكُمْ مَنَاطَ قَلَائِدٍ

شَغَلْنَا الْوَلِيدَ عَنِ غِنَاءِ الْوَلَائِدِ

لَقَدْ سَكَنْتُ كَلْبٌ وَأَسْيَافٌ مَدْحَجٍ

تَرَكَنَا أَمِيرَ الْمُؤْمِنِينَ بِخَالِدٍ

فَإِنْ تَقَطَّعُوا مِنَّا مَنَاطَ قَلَائِدٍ

وَإِنْ تَشْغَلُوهُ عَنِ أَذَانِ فَإِنَّا

ولاية يزيد الناقص

ثم بُويِع يزيد بن الوليد بن عبد الملك في أول رجب سنة ست وعشرين ومائة. وأمه ابنة يزيد جرد بن كسرى، سبأها قُتَيْبَةُ بن مُسلم بجراسان وبعث بها إلى الحجاج بن يوسف، فبعث بها الحجاج إلى الوليد بن عبد الملك، فاتخذها فولدت له يزيد الناقص، ولم تلده غيره. ومات يزيد بن الوليد بدمشق لعشر بقين من ذي الحجة سنة ست وعشرين ومائة. وهو ابن خمس وثلاثين سنة. وصلَّى عليه أخوه إبراهيم بن الوليد بن عبد الملك.

قال عبد العزيز: بُويِع وهو ابنُ تسع وثلاثين سنة، ومات ولم يبلغ الأربعين، وعلى شُرطته بُكَيْر بن الشماخ اللخمي. وكاتب الرسائل ابن سليمان ابن سعد. وعلى الخراج والجند والخاتم الصغير والحرس النَّصْر بن عمرو، من أهل اليمن. وعلى حاتم الخلافة عبد الرحمن بن حميد الكلبي، ويقاد قطن، مولاه. وكتب يزيد بن الوليد إلى مروان بن محمد بالجزيرة، وبلغه عنه تلكاً في بيعته: أما بعد. فإني أراك تُقدِّم رجلاً وتؤخِّر أخرى، فإذا أتاك كتابي هذا

فاعتمد على أيهما شئت، والسلام. ثم قطع إليه البعث، وأمر لهم بالغطاء. فلم يَنْقُصْ! عطاؤهم حتى مات يزيد. ولما بلغ مروان أن يزيد قطع البعث إليه كتب بيئته، وبعث وفداً عليهم سليمان بن عُلَاثة العُقيلي. فخرج، فلما قطعوا الفُرات لقيهم بريد بموت يزيد، فانصرفوا إلى مروان بن محمد، والله أعلم.

ولاية إبراهيم بن الوليد المخلوع

العلاء بن يزيد بن سنان قال: حدثني أبي قال: حضرت يزيد بن الوليد حين حضرته الوفاة فاتاه قطن، فقال: أنا رسولُ من وراء بابك، يسألونك بحق الله لو وليت أمرهم أحاك إبراهيم بن الوليد. فغضب وضرب بيده على جبهته وقال: أنا أولي إبراهيم! ثم قال لي: يا أبا العلاء، إلى من ترى أن أعهد؟ قلت: أمر هَيْئِكَ عن الدخول قبي أوله، فلا أشير عليك بالدخول في آخره. قال: فأصابته إغماءة حتى ظننت أنه قد مات، ففعل ذلك غير مرة، ثم خرجت من عنده. فقعد قطن وافتعل عهداً على لسان يزيد بن الوليد لإبراهيم بن الوليد، ودعا ناساً فأشهدهم عليه. قال: والله ما عهد إليه يزيد شيئاً ولا إلى أحد من الناس. وقال يزيد في مرضه: لو كان سعيد بن عبد الملك قريباً مني لرأيت فيه رأيي. وفي رواية أبي الحسن المدائني، قال: لما مرض يزيد قيل له: لو بايعت لأخيك إبراهيم ولعبد العزيز بن الحجاج بعده؟ فقال له قيس بن هانيء العبسي: اتق الله يا أمير المؤمنين، وانظر لنفسك، وأرض الله في عبادته، فاجعل ولي عهدك عبد الملك بن عبد العزيز بن الوليد بن عبد الملك. فقال يزيد: لا يسألني الله عن فلك، ولو كان سعيد بن عبد الملك مني قريباً لرأيت فيه رأيي. وكان يزيد يرى رأي القدرية ويقول بقول غيلان. فألحت القدرية عليه قالوا: لا يحل لك إهمال أمر الأمة، فبايع لأخيك إبراهيم بن الوليد ولعبد العزيز من بعده. فلم يزالوا به حتى بايع لإبراهيم بن الوليد ولعبد العزيز من بعده. ومات يزيد لعشر بقين من ذي الحجة سنة ست وعشرين ومائة. وكان ولايته خمسة أشهر وأثنى عشر يوماً. فلما قدم مروان. نبش يزيد من قبره وصلبه. وكان يُقرأ في الكتب: يا مُبْدِر الكُنوز، يا سَجَّاداً بالأسحار، كانت ولايتك لهم رحمة، وعليهم حجة. نبشوك فصَلْبوك.

وبويع إبراهيم بن الوليد، وأمه بربرية، فلم يتم له الأمر، وكان يدخل عليه قوم فيسلمون بالخلافة، وقوم يسلمون بالإمرة، وقوم لا يسلمون بخلافة ولا بامرة، وجماعة تُبايع، وجماعة يأبون أن يبايعوا. فمكث أربعة أشهر، حتى قدم مروان بن محمد فخلع إبراهيم وقتل عبد العزيز بن الحجاج، وولي الأمر بنفسه.

وفي رواية خليفة بن خياط قال: لما أتى مروان بن محمد وفاة يزيد بن الوليد دعا قيساً وربيعاً، ففرض لستة وعشرين ألفاً من قيس، وسبعة آلاف من ربيعة وأعطاهم أعطياتهم وولى على قيس إسحاق بن مسلم العقيلي وعلى ربيعة المساور بن عقبة، ثم خرج يريد الشام، واستخلف على الجزيرة أخاه عبد العزيز بن محمد بن مروان، فتلقاه وجوه قيس: الوثيق بن الهذيل بن زُفر، ويزيد بن عمر بن هُبيرة الفزاري، وأبو الوَرْد بن الهذيل بن زفر، وعاصم بن عبد الله بن يزيد الهلالي، في خمسة آلاف من قيس. فساروا معه حتى قدم حلب، وبها بشر ومسرور، ابنا الوليد بن عبد الملك، أرسلهما إبراهيم بن الوليد حين بلغه مسير مروان بن محمد، فالتقوا، فاهزم بشر ومسرور من ابن محمد من غير قتال، فأخذهما مروان فحبسهما عنده. ثم سار مروان حتى أتى حمص، فدعاهم للمسير معه والبيعة لولي العهد: الحكم وعثمان، ابني الوليد بن يزيد، وهما محبوبان عند إبراهيم بن الوليد بدمشق، فبايعوه، وخرجوا معه حتى أتى عسكر سليمان بن هشام بن عبد الملك بعد قتال شديد. وبلغ عبد العزيز ابن الحجاج بن عبد الملك ما لقي سليمان وهو مُعسكر في ناحية عين الجَرِّ، فأقبل إلى دمشق، وخرج إبراهيم بن الوليد من دمشق، ونزل بباب الجابية وتياً للقتال، ومعه الأموال على العجل، ودعا الناس فخذلوه. وأقبل عبد العزيز بن الحجاج وسليمان بن الوليد فدخلوا مدينة دمشق يُريدان قتل الحكم وعثمان ابني الوليد وهما في السجن. وجاء يزيد بن خالد بن عبد الله القسري فدخل السجن فقتل يوسف بن عمر، والحكم وعثمان ابني الوليد بن يزيد، وهما الحَمَلان، وأتاهم رسول إبراهيم، فتوجه عبد العزيز بن الحجاج إلى داره ليُخرج عياله، فثار به أهل دمشق فقتلوه واحتزوا رأسه، فأتوا به أبا محمد بن عبد الله بن يزيد ابن معاوية، وكان محبوباً مع يوسف بن عمر وأصحابه، فأخرجوه ووضعوه على المنبر في قيوده، ورأس عبد العزيز بين يديه، وحلوا قيوده. فخطبهم وبايع لمروان

وشتم يزيد وإبراهيم ابني الوليد، وأمر بجثة عبد العزيز فضُلبت على باب الجابية منكوساً، وبعث برأسه إلى مروان بن محمد. واستأمن أبو محمد لأهل دمشق، فأمنهم مروان ورضي عنهم. وبلغ إبراهيم فخرج هارباً حتى أتى مروان فبايعه وخلع نفسه، فقيل منه وأمنه، فسار إبراهيم فترل الرقة على شاطئ الفرات، ثم أتاه كتاب سليمان بن هشام يستأمنه، فأمنه، فأتاه فبايعه. واستقامت لمروان بن محمد. وكانت ولاية إبراهيم بن الوليد المخلوع أشهراً. قال أبو الحسن: شهرين ونصفاً.

ولاية مروان بن محمد بن مروان

ثم بويع مروان بن محمد بن مروان بن الحكم. أمه بنت إبراهيم بن الأشتر. قال بعضهم: بل كانت أمه لخباز لمصعب بن الزبير أو لابن الأشتر. واسم الخباز رزبا، وقال بعضهم: كان رزبا عبداً لمسلم بن عمرو الباهلي. وقال أبو العباس الهلالي حين دخل على أبي العباس السفاح: الحمد لله الذي أبدلنا بحمار الجزيرة وابن أمة النخع ابن عم رسول الله صلى الله عليه وسلم وابن عبد المطلب. وكان مروان بن محمد أحزم بني مروان وأجدهم وأبلغهم، ولكنه ولي الخلافة والأمر مديبر عنهم. ودُفع إلى مروان أبيات قالها الحكم بن الوليد وهو محبوس، وهي:

أسارى في الحديد مكبلينا

فلا غنا أصبت ولا سميننا

فمروان أمير المؤمنيننا

فتخرج منهم الداء الدفيننا

وعمي الغمر طال بدا حنيننا

لدى البخراء في لحف مهيننا

الافتيان من مضر فيحتموا

أنذهب عامر بدمي وملكي

فإن أهلك أنا وولي عهدي

فأرت لا عدمتك حرب قيس

ألا من مبلغ مروان عني

بأنني قد ظلمت وطال حبسي

وقتل مروان ببوصير من أرض مصر في ذي الحجة سنة اثنتين وثلاثين ومائة. الوليد بن هشام عن أبيه، وعبد الله بن المغيرة عن أبيه، وأبو اليقظان قالوا: ولد مروان بالجزيرة سنة اثنتين وسبعين، وقتل بقرية من قرى مصر يقال لها ببوصير، يوم الخميس لخمس بقين من ذي الحجة سنة اثنتين وثلاثين ومائة. وكانت ولايته خمس سنين وستة أشهر وعشرة أيام، وأم مروان أمة لمصعب ابن الزبير. وقتل وهو ابن ستين سنة.

ولد مروان عبد الملك، ومحمد، وعبد العزيز، وعبيد الله، وعبد الله، وأبان، ويزيد، ومحمد الأصغر، وأبو عثمان. وكتبه عبد الحميد بن يحيى بن سعيد، مولى بني عامر بن لؤي، وكان معلماً وكان على القضاء سليمان بن عبد الله بن علاثة، وعلى شرطته الكوثر بن عتبة وأبو الأسود الغنوي. وكان للحرس ثوب، في كل ثلاثة أيام نوبة، يلي ذلك صاحب النوبة. وعلى حجابه صقلا ومقلاص. وعلى الخام الصغير عبد الأعلى ابن ميمون بن مهران، وعلى ديوان الجند عمران بن صالح، مولى بني هذيل.

مقتل مروان بن محمد بن مروان

قالوا: والتقى مروان وعامر بن إسماعيل ببوصير من أرض مصر، فقاتلوهما ليلاً، وعبد الله وعبيد الله، ابنا مروان، واقفان ناحية في جمع من أهل الشام، فحمل عليهم أهل خراسان فأزالوهم عن مراكزهم، ثم كروا عليهم فهزموهم حتى ردوهم إلى عسكرهم ورجعوا إلى موقفيهم. ثم إن أهل الشام بدأوهم فحملوا على أهل خراسان، فكشفوا كشفاً قبيحاً، ثم رجعوا إلى أماكنهم، وقد مضى عبيد الله وعبد الله، فلم يروا أحداً من أصحابهم، فمضوا على وجوههم وذلك في السحر. وقتل مروان وانهزم الناس، وأخذوا عسكر مروان وما كان فيه، وأصبحوا فاتبعوا الفل وتفرق الناس، فجعلوا يقتلون من قدروا عليه، ورجع أهل خراسان عنهم. فلما كان الغد لحق الناس بعبد الله وعبيد الله ابني مروان وجعلوا يأتوهم مقتطعين العشرة والعشرين وأكثر وأقل، فيقولون: كيف أمير المؤمنين؟ فيقول بعضهم: تركناه يُقاتلهم، ويقول بعضهم: انحاز وثاب إليه قوم، ولا يتعونه، حتى أتوا الحرون، فقال: كنت

معه أنا ومولاه فصرع فحررتُ برجله، فقالت: أوجعتني. فقالت أنا ومولاه عنه، وعلموا أنه مروان، فألحوا عليه، فتركته ولحقتُ بكم. فبكى عبدُ الله. فقال له أخوه عبيدُ الله: يا ألامَ الناس! فررتَ عنه وتبكي عليه! ومضوا. فقال بعضهم: كانوا أربعة آلاف! وقال بعضهم؟ كانوا ألفين. فأتوا بلادَ النوبة، فأجرى عليهم ملكُ النوبة ما يصلحهم، ومعهم أمُ خالد بنتُ يزيد وأمُ الحكم بنتُ عبيدِ الله - صبية جاء بها رجل من عسكرِ مروان حين هزموا فدفعها إلى أبيها - ثم أجمع ابنا مروان على أن يأتيا اليمن وقالوا: نأتيا قبل أن يأتيا المسوِّدة، فنتحصن في حصونها ونُدعو الناس. فقال لهم صاحبُ النوبة: لا تفعلوا، إنكم في بلادِ السُّودان وهم في عددِ كثير، ولا آمن عليكم، فأقيموا، فأبوا. قال: فاكتبوا إلي كتاباً، فكتبوا له: إنا قد منّا ببلادك فأحسنّتْ مَثوانا وأشرتْ علينا أن لا نخرج من بلادك فأيننا وخرجنا من عندك وافرئين راضيين شاكرين لك بطيبِ أنفسنا. وخرجوا، فأخذوا في بلادِ العدو. فكانوا ربما عَرَضوا لهم ولا يأخذون منهم إلا السلاحَ، وأكثرَ من، ذلك لا يعرضون له. حتى أتوا بعضَ بلادهم، فتلقاهم عظيمُهم فاحتسبهم، فطلبوا الماء، فمَنَعهم ولم يُقاتلهم ولم يُخلِّهم وعطشهم، وكان يبيعهم القريةَ بخمسين درهماً، حتى أخذ منهم مالا عظيماً. ثم خرجوا فساروا حتى عَرَض لهم جبلٌ عظيم بين طريقين، فسلك عبدُ الله أحدهما في طائفة، وسلك عبيدُ الله الآخر في طائفة أخرى، وظنوا أن للجبل غايةً يقطعونها ثم يجتمعون عند آخرها، فلم يلتقوا. وعَرَض قومٌ من العدو لعبيدِ الله وأصحابه فقاتلوهم، فقتل عبيدُ الله، وأخذت أمُ الحكم بنته، وهي صبية، وقتل رجلٌ من أصحابه، وكفوا عن الباقيين وأخذوا سلاحهم. وتقطع الجيشُ، فجعلوا يتكبون العُمران فيأتون الماء فيقيمون عليه الأيامَ، فتمضي طائفة وتُقيم الأخرى، حتى بلغ العطشُ منهم، فكانوا يَنحرون الدابةَ فيقطعون أكراشها فيشربونه، حتى وصلوا إلى البحر بحيال المندب، ووافاهم عبدُ الله وعليه مِرْمة قد جاء بها. فكانوا جميعاً خمسين أو أربعين رجلاً، فيهم الحجاجُ بن قتيبة بن مسلم الحرون، وعفان، مولى بني هاشم، فعبر التجار السُّفن، فعبروا بهم إلى المندب، فأقاموا بها شهراً فلم تحملهم، فخرجوا إلى مكة. وقال بعضهم: أعلمُ بهم العاملُ فخرجوا مع الحجاج عليهم ثيابٌ غلاظٌ وجِباب الأكرياء، حتى وافوا جدّة وقد تقطعت أرجلهم من المشي. فمروا بقوم، فرقوا لهم فحملوهم. وفارق الحجاج عبدَ الله بجدة. ثم حجوا وخرجوا من مكة إلى تبالة. وكان على عبدِ الله فصّ أحمر كان قد غيَّبه حين عبّر إلى المندب، فلما أمن استخرجه، وكانت قيمته ألف دينار، وكان يقول وهو يمشي: ليت به دابة. حتى صار في مِرْمة تكون عليه بالنهار وبلبسها بالليل. فقالوا: ما رأينا مثل عبدِ الله، قاتلوا فكان أشدَّ الناس، ومَشُوا فكان أقوامهم، وجاعوا فكان أصبرهم، وعَرُوا فكان أحسنهم عُرباً. وبعث، وهو بالمندب، إلى العدو الذين أخذوا أمَ الحكم بنتَ أخيه عبيدِ الله ففداها وردّها إليه، فكانت معه. ثم أخذ عبدُ الله فقدّم به على المهديّ، فجاءت امرأته

بنت يزيد بن محمد بن مروان بن الحكم، فكلّمت العباسَ بن يعقوب، كاتبَ عيسى بن عليّ، وأعطته لؤلؤاً ليكلّم فيه عيسى: فكلّمه وأعلمه بما أعطته فلم يُكلّم فيه عيسى بن عليّ المهديّ، وأراد المهديّ أن يقتله، فقال له عيسى: إن له في أعناقنا بيعة، وقد أعطى كاتبِي قيمةَ ثلاثين ألف درهم، فحبسه المهديّ. وكان عبدُ الله بن مروان تزوّج أمَ يزيد بنتَ يزيد بن محمد بن مروان، وكانت في الحبس، فلما أخرجهم العباس خرجت إلى مكة، فأقامت بها، وقدم عبدُ الله بن مروان سرّاً فتروّجها. وقال مولى مروان وهو هارب، فقال لي يوماً: أين عزبت عنا حلومنا في نِسائنا! ألا زوّجناهم من أكفائهم من قريش فكفينا مؤنتهن اليوم. وقال: بعض آل مروان، ما كان شيء أنفع لنا في هربنا من الجوهر الخفيف الثمن الذي يُساوي خمسة دنانير فما دون، كان يُخرجه الصبيّ والخادم فيبيعه، وكنا لا نستطيع أن نُظهر الجوهر الثمين الذي له قيمة كثيرة. وقال مصعب بن الربيع الخنعميّ كاتبُ مروان بن محمد: لما هزم مروانُ وظهر عبدُ الله بن عليّ على أهل الشام طلبتُ الإذنَ، فأنا عنده يوماً جالس وهو مُتكى، إذ ذكر مروانَ وهزماه، فقال: شهدت القتالَ؟ قلت: نعم، أصلح الله الأمير، وقال لي مروان: احزُر القوم، فقلت: إنما أنا صاحبٌ فلم ولستُ بصاحبِ حرب، فأخذ يَمَنه ويسرّه ثم نظر فقال لي: هم اثنا عشر ألف رجل. وقال مصعب: قيل لمروان: قد انتهب بيت المال الصغير، فانصرف يُريد بيتَ المال. فقيل له: قد انتهب بيتَ المال الأكبر، انتهبه أهلُ الشام.

وقال أبو الجارود السُّلمي: حدثني رجل من أهل خراسان قال: لقينا مروانَ على الزاب، فحمل علينا أهلُ الشام كأتهم جبالُ حديد، فجثونا على الركبِ وأشرعنا الرماح، فزالوا عنّا كأنهم سحابةٌ، ومَنَحنا الله أكتافهم، وانقطع الجسرُ مما يليهم حين عبّروا، فبقي عليه رجلٌ من أهل الشام، فخرج إليه رجلٌ منّا، فقتله الشاميّ. ثم خرج إليه آخر فقتله، حتى والى بين ثلاثة. فقال رجلٌ منّا: اطلبوا إليّ سيفاً قاطعاً وثرساً صلباً، فأعطيناه، ومشى إليه فصرّ به بالشامي، فأتقاه بالثرس، وضرب رجله فقطعها وقتله ورجع، فحملناه وكبّرنا، فإذا هو عبيدُ الله الكابليّ.

سَمَرَ المنصورُ ذاتَ ليلةٍ فذكرَ خُلفاءَ بني أميةٍ وسيرهم. وأنهم لم يَزالوا على استقامةٍ حتى أفضى أمرهم إلى أبنائهم المترفين، وكانت همتهم، مع عظم شأن الملك وجماله وقدره، قَصَدَ الشهوات وإيثارَ اللذات والدخولَ في معاصي الله ومساخطه، جهلاً باستدراج الله وأمناً لمكروه، فسلبهم الله العز، ونقل عنهم النعمة. فقال له صالح بن علي: يا أمير المؤمنين، إن عبد الله بن مروان لما دخل التوبة هارباً فممن تبعه، سأل ملك التوبة عنهم، فأخبر، فركب إلى عبد الله، فكلمه بكلام عجيب في هذا النحو لا أحفظه، وأزعجه عن بلده، فإن رأى أمير المؤمنين أن يدعوه به من الحبس بحضرتنا في هذه الليلة وشماله عن ذلك؟ فأمر المنصورُ بإحضاره وسأله عن القصة. فقال: يا أمير المؤمنين، قد منا أرض التوبة وقد خبر الملك بأمرنا، فدخل عليّ رجلٌ أقنى الأنف طوالاً حسن الوجه، فقعد على الأرض ولم يقرب الثياب. فقلت: ما يمنعك أن تقعد على ثيابنا؟ قال: لأني ملكٌ ويحقّ على الملك أن يتواضع لعظمة الله إذ رفعه الله. ثم قال: لأي شيء تشربون الخمر وهي محرمة عليكم؟ قلت: اجترأ على ذلك عبيدنا وغلماننا وأتباعنا لأنّ الملك قد زال عنا. قال: فلم تطعون الزروع بدوابكم والفساد محرّم عليكم في كتابكم؟ قلت: يفعل ذلك عبيدنا وأتباعنا بجهلهم. قال: فلم تلبسوا الديباج والحريير وتستعملون الذهب والفضة، وذلك محرّم عليكم؟ قلت: ذهب الملك عتاً وقل أنصارنا، فانتصرنا بقوم من العجم دخلوا في ديننا، فلبسوا ذلك على الكره منا. قال: فأطرق ملياً وجعل يقرب يده وينكث الأرض ويقول: عبيدنا وأتباعنا وقوم دخلوا في ديننا وزال الملك عنا! يردّ مراراً. ثم قال: ليس ذلك كذلك، رب أشتم قومٌ قد استحلّتم ما حرم الله، وركبتم ما نهاكم عنه، وظلمتم من ملككم، فسلبكم الله العز، وألبسكم الدلّ بذنوبكم، ولله فيكم نعمة لم تبلغ غايتها، وأخاف أن يحل بكم العذاب وأنتم ببلدي فيصيبني معكم، وإنما الضيافة ثلاثة أيام، فتزوّدوا ما احتجتم وارحلوا عن بلدي.

أخبار الدولة العباسية

الهيثم بن عدى قال: حدثني ابن عياش قال: حدثني بكير أبو هاشم، مولى مسلمة قال: لم يزل لبني هاشم بيعة سرّ ودعوة باطنة منذ قتل الحسين بن عليّ بن أبي طالب، ولم نزل نسمع بخروج الرايات السود من خراسان وزوال ملك بني أمية حتى صار ذلك. وقيل لبعض بني أمية: ما كان سبب زوال ملككم؟ قال: اختلافنا فيما بيننا، واجتماع المختلفين علينا. الهيثم بن عدى قال: حدثني غير واحد ممن أدركت من المشايخ أنّ علي بن أبي طالب أصر الأمر إلى الحسن، فأصاره إلى معاوية، وكره ذلك الحسين ومحمد بن الحنفية. فلما قتل الحسين بن عليّ صار أمر الشيعة إلى محمد بن الحنفية - وقال بعضهم: إلى عليّ بن الحسين - ثم إلى محمد بن عليّ، ثم إلى جعفر بن محمد. والذي عليه الأكثر أنّ محمد بن الحنفية أوصى إلى ابنه أبي هاشم عبد الله بن محمد بن الحنفية. فلم يزل قائماً بأمر الشيعة يأتونه ويقوم بأمرهم ويؤدّون إليه الخراج، حتى استخلف سليمان بن عبد الملك، فأتاه وافتاداً ومعه عدّة من الشيعة، فلما كلمه سليمان، قال: ما كلمت قط قرشياً يشبه هذا، وما نظن الذي كنا نحدث عنه إلا حقاً، فأجازه، وقضى حوائجه وحوائج من معه. ثم شخص وهو يريد فلسطين، فلما كان ببلاد لحم وجذام ضربوا له أبنية في الطريق ومعهم اللبن المسموم، فكلموا مرّ بقوم قالوا: هل لكم في الشراب؟ قال: جزيتم خيراً، ثم بأخرين، فعرضوا عليه، فقال: هاتوا، فلما شرب واستقر بجوفه، قال لأصحابه: إني ميت فانظروا من القوم؟ فنظروا فإذا هم قووضاً أبنيتهم وذهبوا.

فقال: ميلوا بي إلى ابن عمي، وما أحسبني أدركه. فأسرعوا السير، حتى أتوا الحميمة من أرض الشراة، وبها محمد بن علي بن عبد الله بن العباس، فترل به، فقال: يا بن عمي، إني ميت، وقد صرت إليك وأنت صاحب هذا الأمر، ولذلك القائم به، ثم أخوه من بعده، والله ليطمن الله هذا الأمر حتى تخرج الرايات السود من قعر خراسان، ثم ليغلبن علي ما بين حضرموت وأقصى إفريقية، وما بين الهند وأقصى فرغانة. فعليك هؤلاء الشيعة واستوص بهم خيراً، فهم دعائكم وأنصاركم. ولتكن دعوتكم خراسان ولا تعدّها، لا سيما مرو؛ واستبطن هذا الحي من اليمن، فإن كل ملك لا يقوم به فمصيروه إلى انتقاض، وانظر هذا الحي من ربيعة فألحقهم بهم، فإنهم معهم في كل أمر؛ وانظر هذا الحي من قيس وتميم فأقصهم، إلا من عصم الله منهم، وذلك قليل؛ ثم مرهم أن يرجعوا فليجعلوا اثني عشر نقيباً، وبعدهم سبعين نقيباً، فإن الله لم يصلح أمر بني إسرائيل إلا بهم، وقد فعل ذلك النبي صلى الله عليه وسلم فإذا مضت سنة الحمار فوجّه رُسلك في خراسان،

منهم من يُقتل ومنهم من ينحو، حتى يُظهر الله دعوتكم. قال محمد بن علي: يا أبا هاشم، وما سنة الحمار؟ قال: إنه لم تمض مائة سنة من نبوة قط إلا انتقض أمرها، لقول الله عز وجل: "أو كالذي مرَّ على قريةٍ وهي حاوية على عروشها. قال أني يحيى هذه الله بعد موتها. فأما الله مائة عام ثم بعثه" إلى قوله: "وانظر إلى حمارك ولنجعلك آية للناس". واعلم أن صاحب هذا الأمر من ولدك عبد الله بن الحارثية، ثم عبد الله أخوه. ولم يكن لمحمد بن علي في ذلك الحين ولدٌ يسمى عبد الله، فولد من الحارثية ولدان سمي كل واحد منهما عبد الله، وكنى الأكبر أبا العباس، والأصغر أبا جعفر، فوليا جميعاً الخلافة. ثم مات أبو هشام وقام محمد بن علي بالأمر بعده، فاختلفت الشيعة إليه. فلما ولد أبو العباس أخرجهم إليهم في حرقة، وقال لهم: هذا صاحبكم، فاجعلوا يلحسون أطرافه، وولد أبو العباس في أيام عمر بن عبد العزيز. ثم قدم الشيعة على محمد بن علي فأخبروه أنهم حبسوا بخراسان في السجن، وكان يخدمهم فيه غلام من السرايين ما رأوا قط مثل عقله وظرفه ومحبتة في أهل بيت رسول الله صلى الله عليه وسلم، يقال له: أبو مسلم. قال: أحر أم عبد؟ قال: أما عيسى فيزعم أنه عبد، وأما هو فيزعم أنه حر. قال: فاشترؤوه واعتقوه واجعلوه بينكم إذ رضيتموه. وأعطوا محمد بن علي مائتي ألف كانت معهم.

فلما انقضت المائة السنة بعث محمد بن علي رسله إلى خراسان فغرسوا بها غرساً، وأبو المقدم عليهم، وثار الفتن في خراسان بين المضرية واليمانية، فتمكّن أبو مسلم وفرّق رسله في كور خراسان يدعو الناس إلى آل الرسول، فأجابوه. ونصّر بن سيار عامل خراسان لهشام بن عبد الملك، فكان يكتب لهشام بخبرهم، وتمضي كتبه إلى ابن هبيرة صاحب العراق ليُنْفِذها إلى أمير المؤمنين، فكان يحبسها ولا يُنفِذها لئلا يقوم لنصر بن سيار قائمة عند الخليفة. وكان في ابن هبيرة حسد شديد. فلما طال بنصر بن سيار ذلك ولم يأت جواباً من عند هشام كتب كتاباً وأمضاه إلى هشام على غير طريق ابن هبيرة، وفي حوف الكتاب هذه الأبيات مُدرّجة، يقول فيها:

فِيُوشِكُ أَنْ يَكُونَ لَهَا ضِرَامٌ

وَإِنْ الْحَرْبَ أَوْلَهَا الْكَلَامُ

مُشْمَرَةٌ يَشِيبُ لَهَا الْغَلَامُ

أَيَقَاطُ أُمِّيَّةٌ أَمْ نِيَامُ

فَقُلْ قَوْمُوا فَقَدْ حَانَ الْقِيَامُ

عَلَى الْإِسْلَامِ وَالْعَرَبِ السَّلَامُ

أَرَى خَلَلَ الرَّمَادِ وَمِیْضَ جَمْرٍ

فَإِنَّ النَّارَ بِالْعُودِينَ تُنْذَكِي

فَإِنْ لَمْ تُطْفِئُوهَا تَجُنَّ حَرْبًا

فَقُلْتُ مِنَ التَّعَجُّبِ لَيْتَ شِعْرِي

فَإِنْ كَانُوا لِحَيْزِهِمْ نِيَامًا

فَفِرِّي عَنْ رِحَالِكَ ثُمَّ قُولِي

فكتب إليه هشام: أن احسم ذلك الثولول الذي نجم عندكم. قال نصر: وكيف لنا بحسمه! وقال نصر بن سيار يُخاطب المضرية واليمانية، ويُحذّرهم هذا العدو الداخل عليهم بقوله:

فَلْيَغْضِبُوا قَبْلَ أَنْ لَا يَنْفَعَ الْغَضَبُ

حَرْبًا يُحْرِقُ فِي حَافَاتِهَا الْحَطَبُ

كَأَنَّ أَهْلَ الْحِجَا عَنْ فِعْلِكُمْ غَيْبُ

مِمَّا تَأْتِشِبُ لَا دِينَ وَلَا حَسَبُ

عَنْ الرَّسُولِ وَلَمْ تَنْزَلْ بِهِ الْكُتُبُ

فَإِنَّ دِينَهُمْ أَنْ تُقْتَلَ الْعَرَبُ

أَبْلَغُ رِبِيعَةٍ فِي مَرَوْ وَإِخْوَتِهِمْ

وَلْيَنْصِبُوا الْحَرْبَ إِنْ الْقَوْمَ قَدْ نَصَبُوا

مَا بِالْكُمْ تَلْقَحُونَ الْحَرْبَ بَيْنَكُمْ

وَتَتْرَكُونَ عَدُوًّا أَظْلَكُمْ

قَدِمًا يَدِينُونَ دِينًا مَا سَمِعْتُ بِهِ

فَمَنْ يَكُنْ سَائِلًا عَنْ أَصْلِ دِينِهِمْ

ومات محمد بن عليّ في أيام الوليد بن يزيد، وأوصى إلى ولده إبراهيم بن محمد، فقام بأمر الشيعة. وقَدَّم عليهم أبا مسلم السَّراجِ وسُلَيْمان بن كثير، وقال لأبي مُسلم: إن استطعت أن لا تدع بُخْرَاسانَ لساناً عربياً فافعل، ومَنْ شكَّكت في أمره فاقتله. فلما استعَلَى أمرُ أبي مُسلم بُخْرَاسانَ وأجابته الكُور كلها، كتب نصرُ بن سيارٍ إلى مروان بن محمد بنخبر أبي مسلم وكثرة مَنْ تبعه، وأنه قد خاف أن يستولي على خُرَاسانَ وأن يدعو إلى إبراهيم بن محمد بن عليّ بن عبد الله بن عباس. فأتى الكتابُ مروان، وقد أتاه رسولُ لأبي مُسلم بجواب إبراهيم إلى أبي مُسلم. فكتب مروانُ إلى الوليد بن معاوية بن عبد الملك بن مروان، وهو عامله على دمشق: أن أكتب إلى عاملك بالبلقاء ليسيّر إلى الحُمَيْمة فيأخذ إبراهيم بن محمد فيشدّه وثاقاً ثم يبعث به إليك، ثم وجهه إليّ. فحمل إلى مروان، وتبعه من أهله عبدُ الله بن عليّ وعيسى بن موسى، فأدخل على مروان، فأمر به إلى الحبس.

وقال الهيثم: حدثني أبو عبيدة، قال: كنتُ آتية في السجن ومعه فيه سعيدُ بن عبد الملك، وعبد الله بن عمر بن عبد العزيز، فوالله إني ذات ليلة في سقيفة السجن بين النائم واليقظان، إذ بمولى لمروان قد استفتح الباب ومعه عشرون رجلاً من موالي مروان الأعاجم، ومعهم صاحب السجن، فأصبحنا وسعيدٌ وعبدُ الله وإبراهيم قد ماتوا.

قال الهيثم: حدثني أبو عبيدة قال: حدثني وصيفُ عبد الله بن عمر بن عبد العزيز الذي كان يخدمه في الحبس: إنه عمَّ عبدُ الله مولاة بِمرفقه. وإبراهيم بن محمد بجراب نُورة، وسعيدُ بن عبد الملك أخرجه صاحبُ السجن، فلقية بعضُ حرس مروان في ظلمة الليل، فوطفته الخيلُ وهم لا يعرفون من هو، فمات.

ثم استولى أبو مُسلم على خُرَاسان كلها، فأرسل إلى نصر بن سيار، فهرب هو وولده وكتابه داود حتى انتهوا إلى الرِّيِّ، فمات نصرُ بن سيار بساوة، وتفرَّق أصحابه، ولحق داود بالكوفة وولده جميعاً. واستعمل أبو مُسلم عمَّاله على خُرَاسان ومرو وسمرقند وأحوازها، ثم أخرج الرايات السود، وقطع البعوث، وجهز الخيل والرجال عليهم قحطبةُ بن شبيب، وعامر بن إسماعيل، ومُحرز بن إبراهيم في عدّة من القواد، فلَقُوا مَنْ بطُوس، فاهزموا، ومَنْ مات في الزحام أكثرُ ممن قُتل، فبلغ القتلى بضعة عشر ألفاً. ثم مضى قحطبة إلى العراق، فبدأ بجرجان، وعليها ثباتة بن حنظلة الكلابي. وكان قحطبة يقول لأصحابه: والله ليقتلن عامرُ بن ضبارة وينهزم ابنُ هُبيرة، ولكني أخاف أن أموت قبل أن أبلغ ثاري، وأخاف أن أكون الذي يغرق في الفرات، فإن الإمام محمد بن عليّ قال لي ذلك.

قال الهيثم: فقدم قحطبةُ جرجانَ فقتل ابنَ ثباتة، ودخل جرجان فانتهبها، وقسم ما أصاب بين أصحابه، ثم سار إلى عامر بن ضبارة بأصبهان، فلقية، فقتل ابنُ ضبارة وقتل أصحابه، ولم ينجُ منهم إلا الشريد، ولحق فلهم بابن هُبيرة.

وقال قحطبة لما قُتل ابنُ ضبارة: ما شيء رأيتُه ولا عدوُّ قتلته إلا وقد حدثني به الإمام صلواتُ الله عليه، إلا أنه حدثني أنني لا أعبرُ الفرات.

وسار قحطبة حتى نزل بجلوان، ووجه أبا عون في نحو ثلاثين ألفاً إلى مروان بن محمد، فأخذ على شهر زور حتى أن الزاب، وذلك برأي أبي مُسلم. فحدث أبو عون عبدُ الملك بن يزيد قال قال لي أبو هشام بكبير بن ماهان: أنت والله الذي تسير إلى مروان، ولتبعنَّ إليه غلاماً من مدحج يقال له عامر فليقتله. فأمضيت والله عامر بن إسماعيل على مُقدمتي، فلقى مروان فقتله.

ثم سار قحطبة من حُلوان إلى ابن هُبيرة بالعراق، فالتقوا بالفرات فاقتتلوا حتى اختلط الظلام، وقتل قحطبة في المعركة وهو لا يُعرف. فقال بعضهم: غرق في الفرات.

ثم اهزم ابنُ هُبيرة حتى لحق بواسط، وأصبح المسودة وقد فقدوا أميرهم، فقدّموا الحسن بن قحطبة. ولما بلغ مروان قتل قحطبة وهزيمة ابن هُبيرة قال: هذا والله الإدبار، وإلا فمتي رأيتم ميثاً هزم حياً! وأقام ابن هُبيرة بواسط، وغلبت المسودة على العراق، وبايعوا لأبي العباس عبد الله بن محمد بن عليّ بن عبد الله بن عباس لثلاث عشرة ليلةً خلت من شهر ربيع الآخر سنة اثنتين وثلاثين ومائة. ووجه عمَّة عبدُ الله بن عليّ لقتال مروان وأهل الشام، وقدمه على أبي عون وأصحابه. ووجه أخاه أبا جعفر إلى واسط لقتال ابن هُبيرة. وأقام أبو العباس بالكوفة حتى جاءت هزيمة مروان بالزاب، وأمضى عبد الله بن عليّ أبا عون في طلبه، وأقام على دمشق ومدائن الشام يأخذ يبعثها لأبي العباس.

وكان أبو سلمة الخلال، واسمه حفص بن سليمان، يدعى وزير آل محمد، وكان أبو مُسلم يدعى أمين آل محمد. فقتل أبو العباس أبا سلمة الخلال

واقمه بئب بني فاطمة؁ وأنه كان يحطب في حباهم. وقتل أبو جعفر أبا مسلم؁ وكان أبو مسلم يقول لقواده إذا أخرجهم: لا تكلموا الناس إلا رمزا؁ ولا تلحظوهم إلا شزرا؁ لتملىء صدورهم من هيبكم.

مقتل زيد بن علي

أيام هشام بن عبد الملك

كتب يوسف بن عمر إلى هشام بن عبد الملك: إن خالد بن عبد الله أودع زيد بن علي بن حسين بن علي بن أبي طالب مالا كثيرا. فبعث هشام إلى زيد؁ فقدم عليه؁ فسأله عن ذلك؁ فأنكر؁ فاستحلفه؁ فحلف له؁ فخلى سبيله؁ وأقام عند هشام بعد ذلك سنة. ثم دخل عليه في بعض الأيام؁ فقال له هشام: بلغني أنك تحدث نفسك بالخلافة؁ ولا تصلح لها لأنك ابن أمة. قال: أما قولك إني ابن أمة؁ فهذا إسماعيل صلى الله عليه وسلم ابن أمة؁ أخرج الله من صلبه خير البشر محمدا صلى الله عليه وسلم؁ وإسحاق ابن حرة؁ أخرج الله من صلبه القرظة والخنزير وعبد الطاغوت. وخرج زيد مغضبا. فقال زيد: ما أحب أحد الحياة إلا ذل قال له الحاجب: لا يسمع هذا الكلام منك أحد. وخرج زيد حتى قدم الكوفة فقال:

كذلك من يكره حرّ الجلاء

شرده الخوف وأزرى به

تتكبه أطراف مرو حداد

محتفي الرجلين يشكو الوجى

له راحة والموت حتم في رقاب العباد

قد كان في الموت

ثم خرج بخراسان؁ فوجه يوسف بن عمر إليه الخيل؁ وخرج في إثرها حتى لقيه؁ فقالت له؁ فرمي زيد في آخر النهار بنشابة في نحره فمات؁ فدفعه أصحابه في حماة كانت قريبة منهم. وتبع يوسف أصحاب زيد؁ فاهزم من اهزم؁ وقتل من قتل. ثم أتى يوسف فليل له: إن زيدا دفن في حماة. فاستخرجه وبعث برأسه إلى هشام؁ ثم صلبه في سوق الكناسة. فقال في ذلك أعور كلب؁ وكان مع يوسف في جيش أهل الشام:

وما كان مهدي على الجذع ينصب

نصبنا لكم زيدا على جذع نخلة

الشيباني قال: لما نزل عبد الله بن علي همر أبي فطرس؁ حضر الناس بأبه للإذن؁ وحضر اثنان وثمانون رجلا من بني أمية؁ فخرج الآذن؁ فقال: يا أهل خراسان؁ قوموا. فقاموا سباطين في مجلسه؁ ثم أذن لبني أمية؁ فأخذت سيوفهم ودخلوا عليه. قال أبو محمد العبدي الشاعر: وخرج الحاجب فأدخلني؁ فسلمت عليه؁ فرد علي السلام؁ ثم قال أنشدني قولك: وقف المتيم في رسوم ديار فأنشدته حتى انتهيت إلى قولي:

وبنو أمية من دعة النار

أما الدعاة إلى الجنان فهاشم

فلها يتم المجد غير فخار

من كان يفخر بالكارم والعلا

والعمر بن يزيد بن عبد الملك جالس معه على المصلى؁ وبنو أمية على الكراسي؁ فألقى إلي صرة حرير خضراء فيها خمسمائة دينار؁ فقال: لك عندنا عشرة آلاف درهم وجارية وبرذون وغلام وتخت ثياب. قال: فوفى والله بذلك كله. ثم انشأ عبد الله بن علي يقول:

عنها ويذهب زيدها وحسينها

حسبت أمية أن سيرضى هاشم

حتى تباح سهولها وحزونها

كلا ورب محمد وإله

ثم أخذ قلنسوته من رأسه فضرب بها الأرض؁ فأقبل أولئك الجند على بني أمية فحبطوهم بالسيف والعمد. وقال الكلبي الذي كان بينهم؁ وكان من أتباعهم: أيها الأمير؁ إني والله ما أنا منهم. فقال عبد الله بن علي:

بين العربيين حتى لزه القرن

ومدخل رأسه لم يدعه أحد

اضربوا عنقه، ثم أقبل على العَمْر فقال: ما أحسبُ لك في الحياة بعد هؤلاء خيراً. فقال: أجل. قال: يا غلام، اضرب عنقه فأقيم من المُصلى فضرِبْ عنقه. ثم أمر ببساط فطرح عليهم، ودعا بالطعام فجعل يأكل وارين بعضهم تحت البساط.

وفي رواية أخرى قال: لما قَدِم العَمْر بن يزيد بن عبد الملك على أبي العباس السفاح في ثمانين رجلاً من بني أمية، فوَضعت لهم الكراسي ووَضعت لهم نمارق وأجلسوا عليها، وأجلس العَمْر مع نفسه في المُصلى، ثم أذن لشيئته فدخلوا، ودخل فيهم سُديف بن ميمون، وكان مُتوشِّحاً سيفاً مُتنكباً قوساً، وكان طويلاً آدم، فقام خطيباً، فحمد الله وأثنى عليه، ثم قال: أيزعم الضُّلال بما حَبَطت أعمالهم أنْ غَيَّر آل محمد صلى الله عليه وسلم أولى بالخلافة، فلمَ وبم؟ أيها الناس، ألكم الفضل بالصَّحابة دون ذوي القرابة، والشُّركاء في النسب، الأكفاء في الحسب، الخاصَّة في الحياة، الوُفأة عند الوفاة، مع ضربهم على الأمر جاهلكم، وإطعامهم في الألواء جائعكم، فلکم قَصَمَ اللهُ بهم من جبار باغ، وفاسق ظالم. لم يسمع بمثل العباس، لم تخضع له الأمة بواجب حق الحرمة، أبو رسول الله صلى الله عليه وسلم بعد أبيه، وجلده ما بينَ عينيهِ، وأمنية ليلة العقبة، ورسوله إلى أهل مكة، وحاميه يوم حنين، لا يردُّ له رأياً، ولا يُخالف له قَسَمًا. إنكم والله معاشرَ قُريش ما اخترتم لأنفسكم من حيث اختار الله لكم، تيمي مرةً وعدوي مرةً، وكنتم بين ظَهْراني قوم قد اثروا العاجل على الآجل، والفاني على الباقي، وجعلوا الصدقات في الشهوات، والفَيء في اللذات، والمغانم في المحارم، إذا ذُكروا بالله لم يذكروا، وإذا قُدُّوا بالحق أدبروا، فذلك كان زمانهم، وبذلك كان يعمل سلطاهم.

فلما كان الغد أذن لهم فدخلوا ودخل فيهم شبيل، فلما جلسوا قام شبيل فاستأذن في الإنشاد، فأذن له فأنشد:

بالبهاليل من بني العباس

بعد ميِّل من الزمان وباس

اقطعوا كل نخلة وعراس

قربهم من منابر وكراسي

وقتيلاً بجانب المهراس

تحجُّل الطير حوله في الكناس

لو نجا من حبات الإفلاس

مستعدين يُوجعون المطيا

طاعة بل تخوفوا المشرفيا

إن تحت الضلوع داءً دويًا

لا ترى فوق ظهرها أمويا

أو تعاقب فلم تعاقب بريًا

فقد كان دينهم سامريًا

أصبح الملكُ ثابتَ الأساس

طلبوا ونثر هاشم فلقوها

لا تُقيلن عبدَ شمسٍ عثاراً

ولقد غاظني وغاز سوائي

واذكروا مصرع الحسين وزيداً

وقتيلاً بجوف حران أضحى

نعم شبيل الهراش مولاك شبيل

ثم قام وقاموا. ثم أذن لهم بعد، فدخلوا ودخل الشيعة. فلما جلسوا قام سُديف بن ميمون، فأنشد:

قد أنتك الوفود من عبد شمس

عنوة أيها الخليفة لا عن

لا يغرثك ما. ترى من رجال

فضع السيفَ وارفع السوط حتى

ثم قام حَلَف بن خليفة الأقطع فأنشد:

إن تُجاوز فقد قَدَرتَ عليهم

أو تُعاتبهم على رقة الدين

فالتفت أبو العباس إلى العَمْر، فقال: كيف ترى هذا الشعر؟ قال: والله إن هذا لشاعر، ولقد قال شاعرنا ما هو أشعر من هذا. قال: وما قال؟ فأنشده:

وأعظمُ الناس أحلاماً إذا قَدَروا

شمس العداوة حتى يستقاد لهم

فشرق وجه أبي العباس بالدم وقال: كذبت يا بن اللخناء، إني لا أرى الخيلاء في رأسك بعد، ثم قاموا. وأمر بهم فدُفِعوا إلى الشيعة، فافتسموهم فضربوا أعناقهم، ثم جَزَوْا بأرجلهم حتى ألقوها في الصحراء بالأنبار، وعليهم سراويلات الوشي، فوقف عليهم سُديف مع الشيعة وقال:

عنها ويذهب زيدها وحسينها

طمعت أمية أن سيرضى هاشم

حتى يباد كفورها وخزونها

كلا ورب محمد وإلهه

وكان أشد الناس على بني أمية عبد الله بن علي، وأحَنهم عليهم سليمان بن علي. وهو الذي كان يسميه أبو مُسلم كَنف الأمان، وكان يُجير كل من استجار به، وكتب أبي العباس: يا أمير المؤمنين، إنا لم نُحارب بني أمية على أرحامهم وإنما حار بناهم على عُقوبهم، وقد دافت إلي منهم دافة لم يشتهروا سلاحاً، ولم يُكثروا جمعاً، فأحب أن تكتب لهم منشورَ أمان. فكتب لهم منشورَ أمان وأنفذه إليهم. فمات سليمان بن علي وعنده بضعة وثمانون حُرمة لبني أمية.

خلفاء بني أمية بالأندلس

عبد الرحمن بن معاوية بن هشام

أول خلفاء الأندلس من بني أمية عبد الرحمن بن معاوية بن هشام بن عبد الملك. ولي الملك يوم الجمعة لعشر خلون من ذي الحجة سنة ثمان وثلاثين ومائة، وهو ابن ثمان وعشرين سنة. وتوفي في عشرة من جمادى الأولى سنة اثنتين وسبعين ومائة. فكان مُلكه اثنتين وثلاثين سنة وخمسة أشهر. وكان يقال له صقر قريش، وذلك أن أبا جعفر المنصور قال لأصحابه: أخبروني عن صقر قريش. من هو؟ قالوا: أمير المؤمنين الذي راضَ الملك، وسكن الزلازل، وحسم الأعداء، وأباد الأعداء. قال: ما صنعتُم شيئاً. قالوا: فمعاوية. قال: ولا هذا. قالوا: فعبد الملك بن مروان. قال: ولا هذا. قالوا: فمن يا أمير المؤمنين؟ قال: عبد الرحمن بن معاوية، الذي عبر البحر، وقطع القفر، ودخل بلاداً أعجمياً مُفرداً، فمصر الأمصار، وحند الأجناد، ودون الدواوين، وأقام مُلكاً بعد انقطاعه، بحسن تديره، وشدة شكيمته. إن معاوية نهض بمركب حمله عليه عمر وعثمان وذلك له صعبه، وعبد الملك بيعة تقدم له عقدها، وأمير المؤمنين بطلب عشيرته، واجتماع شيعته، وعبد الرحمن منفرد بنفسه، مؤيد برأيه، مُستصحب لعزمه. وقالوا: لما توطد مُلك عبد الرحمن بن معاوية عمل هذه الأبيات وأخرجها إلى وزرائه، فاستغربت من قوله إذ صدقها فعله، وهي:

بِمُنْتَضَى الشَّفَرَتَيْنِ نَصِلاً

ما حق من قام ذا امتعاض

ومنبراً للخطاب فمصلاً

فبِرِّ مُلْكَاً وشاد عزاً

مُسَامِياً لَجَّةً ومحللاً

فجاز قفراً وشقَّ بحرأ

ومصّر المِصرَ حين أجلى

وجند الجند حين أودى

حيث أنتأوا أن هلم أهلاً

ثم دعا أهله جميعاً

شريد سيف أبيد قتلاً

فجاء هذا طريد جوع

وحاز مالاً وضمَّ شمالاً

فحلَّ أماناً ونال شيباً

أوجب من مُنعم. ومولى

ألم يكن حق ذا على ذا

وكتب أمية بن يزيد عنه كتاباً إلى بعض عماله يستقصره فيما فرط فيه من عمله، فأكثر وأطال الكتاب، فلما لحظه عبد الرحمن أمر بقطعه، وكتب: أما بعد، فإن يكن التقصير منك مُقدِّماً. فحري أن يكون الاكتفاء عنك مُؤخراً، وقد علمت بما تقدمت، فاعتمد على أيهما أحببت.

وكان ثار عليه نائراً بغري بلدة، فغزاه فظفر به وأسرته، فبينما هو مُنصَرَف وقد حُمِلَ النَّائِرُ على بغلٍ مَكْبُولاً، نظر إليه عبدُ الرحمنِ بيني مُعاوية وتحتَه فرس له، ففتح رأسَه بالقناة، وقال: يا بغل، ماذا تحمل من الشَّقاق والنَّفاق؟ قال النَّائِر: يا فرس، ماذا تحمل من العَفو والرحمة؟ فقال له عبدُ الرحمن: والله لا تذوق موتاً على يدي أبداً.

هشام بن عبد الرحمن

ثم ولي هشامُ بن عبد الرَّحْمَنِ لسبعِ حَلَوْنَ من جُمادى الآخرة سنة اثنتين وسبعين ومائة، ومات في صَفَر سنة ثمانين ومائة. فكانت ولايته سبع سنين وعشرة أشهر. ومات وهو ابنُ إحدى وثلاثين سنة. وهو أحسنُ الناس وجهاً، وأشرفهم نفساً، الكاملُ المروءة، الحاكم بالكتاب والسنة، الذي أخذ الزكاة على حِلِّها، ووَضَعها في حَقِّها، لم يُعرف منه هفوة في حدائته، ولا زلة في أيام صباه. وراه يوماً أبوه وهو مُقبل مُمتلىء شاباً فأعجبه، فقال: يا ليت نساء بني هاشم أبصرنه حتى يُعدن فوارك. وكان هشامُ يصرُّ الصرر بالأموال في ليالي المطر والظلمة، ويبعث بها إلى المساجد. فيُعطي مَنْ وُجد فيها. يريد بذلك عمارة المساجد، وأوصى رجلاً في زمن هشام. عمال في فك سببه من أرض العدو، فطلبت فلم توجد؛ احتراساً منه للثغر واستنقاذاً لأهل السببي.

الحكم بن هشام

ثم ولي الخِلافة الحكمُ بن هشام في صَفَر سنة ثمانين ومائة، وكانت ولايته ستاً وعشرين سنة وأحد عشر شهراً. ومات يوم الخميس لثلاث بقين من ذي الحجة سنة ست ومائتين. وهو ابن اثنتين وخمسين سنة. وكانت فيه بطالة، إلا أنه كان شجاع النفس، باسط الكف، عظيم العفو، متخيراً لأهل عمله ولأحكام رعيته أورع من يقدر عليهم وأفضلهم، فيسلطهم. على نفسه فضلاً عن ولده وسائر خاصته. وكان له قاض قد كفاه أمور رعيته بفضله وعدله وورعه وزهده، فمرض مرضاً شديداً، واعتَمَ له الحكمُ غمّاً شديداً. فذكر يزيدُ فتاه أنه أرق ليلة وبُعد عنه نومُه وجعل يتلمل على فراشه، فقلت: اصلىح الله الأمير، إني أراك متملماً وقد زال النومُ عنك فلم أدر ما عرض لك؟ قال: ويحك! إني سمعتُ نائحة هذه الليلة وقاضينا مريض، فما أراه إلا قد قضى نحبه، وأين لنا بمثله؟ ومن يقوم للرعية مقامه؟ ثم إن القاضي مات، واستقضى الحكمُ بعده سعيدَ ابن بشير. فكان أقصد الناس إلى حق، أخذهم بعدل، وأبعدهم من هوى، وأنفذهم لحكم. رفع إليه رجلٌ من أهل كورة جيان أن عاملاً للحكم اغتصبه جاريةً وعمل في تصييرها إلى الحكم، فوفقت من قلبه كلَّ موقع، وأن الرجل أثبت أمره عند القاضي، وأتاه بيينة وشهود يشهدون على معرفة ما تظلم منه وعلى عين الجارية ومعرفة بهم. وأوجبت البيينة أن تحضر الجارية، واستأذن القاضي على الحكم، فأذن له، فلما دخل عليه، قال: إنه لا يتم عدلٌ في العامة دون إفاضته في الخاصة، وحكى له أمر الجارية وخيره في إبرازها إليه. أو عزله عن القضاء. فقال له: ألا أدعوك إلى خير من ذلك؟ تبتاع الجارية من صاحبها بأنفس ثمن وأبلغ ما يسأله فيها. فقال: إن الشهود قد شخصوا من كورة جيان يطلبون الحق في مظاته، فلما صاروا ببابك تصرفهم دون إنفاذ الحق لأهله، ولعل قائلاً أن يقول: باع ما يملك بيع مُقتسر على أمره. فلما رأى عزمه أمر بإخراج الجارية من قصره، وشهد الشهود على عينها، وقضى بها لصاحبها. وكان سعيدُ بن بشير القاضي إذا خرج إلى المسجد، أو جلس في مجلس الحكم، جلس في رداء معصفر وشعر مُفرق إلى شحمة أذنيه، فإذا طلب ما عنده وُجد أورع الناس وأفضلهم.

وكانت للحكم ألف فرس مربوطة بباب قصره على جانب النهر، عليها عشرة عرفاء، تحت يد كل عريف منها مائة فرس لا تُندب ولا تُبرح، فإذا بلغه عن نائير في طرف من أطرافه عاجله قبل استحكام أمره، فلا يشعر حتى يحاط به. وأتاه الخبر: أن جابر بن كبيد يُحاصر جيان وهو يلعب بالصولجان في الجسر. فدكا بعريف من أولئك العرفاء فأشار إليه أن يخرج من تحت يده إلى جابر بن كبيد، ثم فعل مثل ذلك بأصحابه من العرفاء. فلم يشعر ابن كبيد حتى تساقطوا عليه مُتساوين، فلما رأى ذلك عدوه سقط في أيديهم وظنوا أن الدنيا قد حُشرت لديهم، فولوا مُدبرين. وقال الحكم يوم الهيجاء بعد وقعة الرِّبض:

رأبت صدوع الأرض بالسيف راقعاً
فسائلُ ثغوري هل بها اليوم ثغرة

وقدماً رأبت الشعب مذ كنت يافعاً
أبادرُها مُسْتَنْضِي الصيف دارعا

وشافه علي أرض الفضاء جماعماً
تنبئك أني لم أكن عن قراعهم
ولما تساقينا سجال حروبنا
وهل زدت أن وفيتهم صاع قرضهم

كأحقاف شريان الهبيد لوامعا
بوان وأنني كنت بالسيف قارعا
سقيتهم يسماً من الموت ناقعا
فوافوا منايأ قذرت ومصارعا

قال عثمان بن المثنى المؤدب: قدم علينا عباس بن ناصح من الجزيرة أيام الأمير عبد الرحمن بن الحكم، فاستشديني شعرَ الحكم، فأنشدته، فلما انتهيتُ إلى قوله:

هل زدت أن وفيتهم صاع قرضهم

قال: لو جوئي الحكم في حكومة لأهل الرض لقام بعذره هذا البيت.

عبد الرحمن بن الحكم

ثم ولي بعده عبد الرحمن بن الحكم، أئدى الناس كفاً، وأكرمهم عطفاً، وأوسعهم فضلاً، في ذي الحجة سنة لست ومائتين، فملك إحدى وثلاثين سنة وخمسة أشهر. ومات ليلة الخميس لثلاث خلون من شهر ربيع الآخر سنة ثمان وثلاثين ومائتين، وهو ابن اثنتين وستين سنة، وكتب إليه بعض عماله يسأله عملاً ربيعاً لم يكن من شاكلته، فوقع في أسفل كتابه: من لم يُصِبْ وَجْهَ مَطْلِبِهِ، كان الحرمان أولى به.

محمد بن عبد الرحمن

ثم ولي الملك محمد بن عبد الرحمن، يوم الخميس لثلاث من شهر ربيع الآخر سنة ثمان وثلاثين ومائتين، فملك أربعاً وثلاثين سنة، وتوفي يوم الجمعة مُستهلَّ ربيع الأول سنة ثلاث وسبعين ومائتين، وهو ابن سبع وستين سنة. وكتب عبد الرحمن بن الشَّمر إلى الأمير محمد بن عبد الرحمن في حياة أبيه عبد الرحمن، وكان يتجنَّب الوقوف ببابه مخافة نصر الفتي، فلما مات نصر كتب ابن الشَّمر هذه الأبيات إلى محمد يقولها فيها:

لئن غابَ وَجْهِي عنكَ إنَّ مودتي

وما عاقني إلَّا عدوُّ مُسلِّطٍ

ولم يَسْتطِلْ إلَّا بكم وبعزكم

فمكنتموه فاستطال عليكم

كذلك كَلَبَ السَّوءَ إنَّ يشيع انبري

فجمّع إخواناً لُصوصاً أرذالاً

رأى بأمين الله سقماً فغره

فَنَحْمَدُ ربًّا سرَّنا بهلاكه

لشاهدة في كلِّ يومٍ تسلّمُ

يُذِلُّ وَيُقْصِي مَنْ يشاء وَيَرْغَمُ

ولا يَنْبَغِي أن يُمنح العزَّ مُجرم

وكادت بنا نيرانه تتضرم

لمُشبعه مستشلياً يترمرم

ومناهم أن يقتلونا ويغنموا

ولم يك يَدْرِي أنه يتقدّم

فما زال بالإحسان والطول يُنعم

والله كَيْدٌ يَغْلِبُ الكَيْدَ مُبْرَمَ
 كما ضَحِكْتَ شَوْقاً إِلَيْهِ جَهَنَّمَ
 جِبَايَةَ آلاَفٍ تُعَدُّ وَتُخْتَمُ
 بما اجْتَرَمُوا يَوْماً عَلَيْهِ وَأَقْدَمُوا
 فَإِنِّي أَرَى الدُّنْيَا لَهُ تَتَبَسَّمُ
 حَرِيصٌ عَلَيْكُمْ مُشْفِقٌ وَتَفَهَّمُوا
 وَسَيْفٌ بِكَفِّ اللهِ مَاضٍ مُصَمَّمُ
 أَباً حَدِيباً فِي الرُّحْمِ بَلْ هُوَ أَرْحَمُ
 مُعَافَى فَإِنَّا مَا سَلِمْتَ سَنَسَلِمُ
 لَهُ المَجْدُ مِنْهَا الأَثَلُذُ المُتَقَدِّمُ
 نَعَمَ وَلِأَهْلِ الشَّرِّ صَابٌ وَعَلَمُ

أَرَادَ يَكِيدُ اللهُ نَصْرًا فَكَادَهُ
 بَكَى الكُفْرُ وَالشَّيْطَانُ نَصْرًا فَأَعْوَلَا
 وَكَانَتْ لَهُ فِي كُلِّ شَهْرٍ جِبَايَةٌ
 فَهَلْ حَانِطُ الإِسْلَامِ يَوْمًا يَسُومُهُمْ
 وَيُنْهِنُنَا أَمْوَالَهُمْ وَهُوَ فَاعِلٌ
 أَلَا أَيُّهَا النَّاسُ اسْمَعُوا قَوْلَ نَاصِحٍ
 مُحَمَّدٌ نُورٌ يُسْتَضَاءُ بِوَجْهِهِ
 فَكُونُوا لَهُ مِثْلَ البَنِينِ يَكُنْ لَكُمْ
 فِيَا بِنِ أَمِينِ اللهُ لَا زَلْتَ سَالِمًا
 أَلَسْتَ المُرْجَى مِنْ أُمِّيَّةٍ وَالَّذِي
 وَأَنْتَ لِأَهْلِ الخَيْرِ رَوْحٌ وَرَحْمَةٌ

وَحَدَّثَ بَقِيَّ بنِ مُحَمَّدِ الفَقِيهِ قَال: مَا كَلِمَتُ أَحَدًا مِنَ المُلُوكِ أَكْمَلَ عَقْلاً، وَلَا أْبْلَغَ لَفْظًا، مِنَ الأَمِيرِ مُحَمَّدٍ، دَخَلْتُ عَلَيْهِ يَوْمًا فِي مَجْلِسِ خِلَافَتِهِ فَافْتَتَحَ الكَلَامَ، فَحَمَدَ اللهُ وَأَثْنَى عَلَيْهِ وَصَلَّى عَلَى النَّبِيِّ صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ، ثُمَّ ذَكَرَ الخُلَفَاءَ خَلِيفَةً خَلِيفَةً، فَحَكَى كُلَّ وَاحِدٍ مِنْهُمْ بِجَلِيلَتِهِ وَنَعْتِهِ وَوَصَفَهُ، وَذَكَرَ مَآثِرَهُ وَمَنَاقِبَهُ، بِأَفْصَحِ لِسَانٍ، وَأَيِّنَ بَيَانٍ، حَتَّى انْتَهَى إِلَى نَفْسِهِ فَسَكَتَ.

وَخَرَجَ الأَمِيرُ مُحَمَّدٌ يَوْمًا مَتْرَهًا إِلَى الرُّصَافَةِ وَمَعَهُ هَاشِمُ بنِ عَبْدِ العَزِيزِ، فَكَانَ بِهَا صَدَرَ نَهَارِهِ عَلَى لَذَّتِهِ، فَلَمَّا أَمْسَى وَاخْتَلَطَ الظُّلَامُ رَجَعَ مُنْصَرَفًا إِلَى القَصْرِ وَبِهِ اخْتِلَاطٌ، فَأُخْبِرَنِي مَنْ سَمِعَهُ وَهَاشِمٌ يَقُولُ لَهُ: يَا سَيِّدِي، يَا بنِ الخِلَافَةِ، مَا أَطِيبَ الدُّنْيَا لَوْلَا. قَالَ لَهُ: لَوْلَا مَاذَا؟ قَالَ: لَوْلَا المَوْتُ. قَالَ لَهُ: يَا بنِ اللِّخْنَاءِ، لَحَنْتَ فِي كَلَامِكَ، وَهَلْ مَلَكْنَا هَذَا المُلُوكَ الَّذِي نَحْنُ فِيهِ إِلَّا بِالمَوْتِ، وَلَوْلَا المَوْتُ مَا مَلَكْنَا أَبَدًا. وَكَانَ الأَمِيرُ مُحَمَّدٌ غَزَاءً لِأَهْلِ الشُّرْكِ وَالخِلَافِ، وَرَبْمَا أَوْغَلَ فِي بِلَادِ العَدُوِّ السُّتَّةِ الأَشْهَرِ أَوْ أَكْثَرَ، يَحْرَقُ وَيَنْسِفُ، وَهُوَ فِي العَدُوِّ وَقِيعةً وَوَادِي سَلِيطٍ، وَهِيَ مِنْ أَمْهَاتِ الوُقَاعِ، لَمْ يُعْرَفْ مِثْلُهَا فِي الأَنْدَلُسِ قَبْلُهَا، وَفِيهَا يَقُولُ عَبَّاسُ بنُ فَرْنَانَسٍ، وَشِعْرُهُ يَكْفِينَا مِنْ صِفَتِهَا:

لَهْؤُمُ الفَّلَا عَيْلُ القَنَابِلِ مُلْتَفٌّ
 بُرُوقًا تَرَاوَى فِي الجَهَامِ وَتَسْتَخْفِي
 قَرَاقِيرٍ يَمُّ قَدْ عَجَزْنَ عَنِ القَذْفِ
 حَجِيَّ مَلِكٍ نَجْدٍ شِمَائِلُهُ عَفٌّ
 إِذَا وَصَفَ الأَمْلاِكُ جَلَّ عَنِ الوَصْفِ
 وَقَدْ نَقَضَ الإِصْبَاحَ عَقْدَ عُرَى السَّجْفِ
 عَلَى النَّفْرِ العُبْدَانَ وَالعِصْبَةَ العُلْفِ
 كَمَا اجْتَمَعَ الجُعْلَانُ لِلْبَعْرِ فِي قُفِّ

وَمُخْتَلَفِ الأَصْوَاتِ مُؤْتَلَفِ الزَّحْفِ
 إِذَا أَوْمَضَتْ فِيهِ الصَّوَارِمُ خَلْتَهَا
 كَأَنَّ ذُرَى الأَعْلَامِ فِي سَيْلَانِهِ
 وَإِنْ طَحَنْتَ أَرْكَانَهُ كَانَ قُطْبُهَا
 سَمِيَّ خِتَامِ الأَنْبِيَاءِ مُحَمَّدٍ
 فَمَنْ أَجَلُّهُ يَوْمَ الثَّلَاثَاءِ غُدُوَّةً
 بَكَى جِبَالًا وَوَادِي سَلِيطٍ فَأَعْوَلَا
 دَعَاهُمْ صَرِيخَ الحَيِّنِ فَاجْتَمَعُوا لَهُ

فما كان إلا أن رماهم ببعضها
كأن مساعير الموالى عليهم
بنفسى تنانير الوغى حين صفتت
يقول ابن يلبوس لموسى وقد وتى
قتلناهم ألفاً وألفاً ومثلها
سوى من طواه النهر في مستلجه

فولوا على أعقاب مهزومة كشف
شواهين جادت للغرائق بالنسف
إلى الجبل المشحون صفاً على صف
أرى الموت قدامي وتحتي ومن خلفي
وألفاً وألفاً بعد ألف إلى ألف
فأغرق فيه أو تدأداً من جرف

المنذر بن محمد

ثم ولي المنذر بن محمد، يوم الأحد لثلاث خلون من ربيع الأول سنة ثلاث وسبعين ومائتين. ومات يوم السبت في غزاة له على بُبشتر، لثلاث عشرة بقية من صفر سنة خمس وسبعين ومائتين، وهو ابن ست وأربعين سنة. وكان أشد الناس شكيمة، وأمضاهم عزيمة. ولما ولي الملك بعث إليه أهل طليطلة بجبايتهم كاملة فردّها عليهم، وقال: استعينوا بما في حربكم فأنا سائر إليكم إن شاء الله. ثم غزا إلى المارق المرتد عمر بن حفصون وهو بحصن قامرة، فأحرق به وبجبله ورجله، فلم يجد الفاسق منفذاً ولا متنفساً، فأعمل الحيلة ولاذ بالمكر والخديعة، وأظهر الإجابة والإجابة، وأن يكون من مستوطني قرطبة بأهله وولده، وسأل إلحاق أولاده في الموالى. فأجابه الأمير إلى كل ما سأل، وكتب لهم الأمانات، وقطعت لأولاده الثياب، وخرزت لهم الخفاف، ثم سأل مائة بغل يحمل عليها ما له ومتاعه إلى قرطبة، فأمر الأمير بها. وطلبت البغال ومضت إلى بُبشتر، وعليها عشرة من العرفاء، وانحلّ العسكر عن الحصن بعض الانحلال، وعكف القاضي وجماعة من الفقهاء على تمام الصلح فيما حسبوا. فلما رأى الفاسق الفرصة انتهزها ففسق ليلاً وخرج، فلقى العرفاء بالبغال فقتلهم، وأخذ البغال وعاد إلى سيرته الأولى. فعقد المنذر على نفسه عقداً لا أن أعطاه صلحاً ولا عهداً إلا أن يُلقى بيده ويترل على عهده وحكمه، ثم غزاه الغزاة التي تُوفي فيها، فأمر بالبنيان والسكنى عليه، وأن يُرد سوق قرطبة إليه، فعاجله أجله عن ذلك.

عبد الله بن محمد

ثم تولى عبد الله بن محمد، التقي النقي، العابد الزاهد، التالي لكتاب الله، والقائم بحدود الله، يوم السبت لثلاث عشرة بقية من صفر سنة خمس وسبعين ومائتين. فبنى الساباط وخرج إلى الجامع، والتزم الصلاة إلى جانب المنبر، حتى أتاه أجله، رحمه الله، يوم الثلاثاء لليلة بقية من صفر سنة ثلاثمائة. وكانت له غزوات، منها غزاة بلي التي أنست كل غزاة تقدّمتها، في لك أن المرتد ابن حفصون ألب عليه كور الأندلس حتى لم يبق منها إلا قرطبة وحدها، ثم أقبل في ثلاثين ألفاً من أهل الكور فترل حصن بلي، وخرج إليه الأمير عبد الله بن محمد في أربعة عشر ألفاً من أهل قرطبة خاصة، وأربعة آلاف من حشمه ومواليه، فبرز إليه الفاسق، وقد كرّس كراديسه في سفح الجبل، وناهضه الأمير عبد الله بجمهور عسكره، فلم يكن له فيهم إلا صدمة صادقة، أزالهم بها عن معسكرهم، فلم يقدرُوا أن يتراجعوا إليه. ونظر الفاسق إلى معسكر عبد الله الأمير، فإذا بمدد مقبل مثل الليل، في انحدار السيل، لا ينقطع، فجنبت نفسه، وعطف إلى الحصن يظهر إخراج من بقي فيه، فثلّم ثلثة وخرج منها في خمسة معه، وقد طار بهم جناح الفرار. فلما انتهى ذلك إلى أهل عسكره ولوا مديرين، لا يلوي أحد على أحد، فعملت الرماح في أكتافهم، والسيوف في طلا أعناقهم، حتى أفنؤهم أو كادوا. وكان منهم جماعة قد افترقوا في عسكر الأمير عبد الله، فقعده الأمير في المظلة، وأمر بالنقاطهم، وأن لا يمر أحد على أحد منهم إلا قتله. فقتل منهم ألف رجل صبراً بين يدي الأمير.

عبد الرحمن بن محمد أمير المؤمنين

ثم ولي الملك القمرُ الأزهر، الأسدُ الغضنفر، الميمونُ النقيبة، المحمودُ الضريبة، سيدُ الخلفاء، وأنجبُ النجباء، عبدُ الرحمن بن محمد أمير المؤمنين، صبيحةً هلال ربيع الأول سنة ثلثمائة، فقلت فيه:

والمَلِكُ غَضُّ جَدِيدُ

ما كان فيه مَزِيدُ

بدا الهلالُ جديداً

يا نِعْمَةَ اللَّهِ زِيدِي

وهي عدة أبيات، فتولّى المَلِكُ، والأرضُ حَمْرَةٌ تحترق، ونازٌ تَضْطَرُّم، وشِقَاقٌ ونَفَاقٌ، فأخذ نيرانها، وسَكَنَ زلازلها، وافتتحها عَوْداً كما افتتحها بدءاً سَمِيَهُ عبدُ الرحمن بن معاوية، رحمه الله. وقد قلتُ وقيل في غزواته كُلِّها أشعار، قد جالت في الأمصار، وشَرِّدت في البلدان، حتى أهتمت أُنجدت وأعرقت، ولولا أن الناس مُكْتَفُونَ بما في أيديهم منها لأعدنا ذِكْرَها أو ذِكْرَ بعضها. ولكننا سنذكر ما سبق إلينا من مناقبه التي لم يتقدّمه إليها متقدم، ولا أخت لها ولا نظير، فمن ذلك أولُ غزاةِ غزاهَا، وهي الغزاةُ المعروفةُ بغزاةِ المنتلون، افتتح بها سبعين حصناً، كلُّ حصن منها قد نكلت عنه الطوائف، وأعياء على الخلائف. وفيها أقول:

والناسُ قد دَخَلُوا في الدِّينِ أَفْواجاً

وكأنما ألبست وَشِيأً وديباجاً

نَدَاكَ ما كان منها الماءُ ثَجَاجاً

ما هَيَّجت من حُمَيَّاك الذي اهتاجاً

وذلت الخيلُ إجماماً وإسراجاً

تَطَوَّى المراحلَ تَهْجِيراً وإِدْلاجاً

أخرجتهم من ديار الشَّرِّكِ إخراجاً

كالبحرِ يَقْذِفُ بالأموجِ أمواجاً

عَرَمَراً كسوادِ اللَّيْلِ رجراجاً

وتَسْمَعُونَ به للرعْدِ أهْراجاً

أبكيته منها بأرضِ الشَّرِّكِ أعلاجاً

من بعدما كان فيها الجورُ قداماجاً

من الخلائفِ خراجاً وولاجاً

جوراً وتوضيحُ للمعروفِ منهاجاً

يا لَيْثَ حَوْمَتِها إنْ هانجُ هاجاً

حتى عَقَدت لها في رأسك التَّاجاً

قد أَوْضَحَ اللَّهُ للإسلامِ مِنْهاجاً

وقد تَزِينت الدنيا لساكنها

يا بِنَ الخلائفِ إنَّ المَزْنَ لو عَلِمْتَ

والحربُ لو عَلِمْتَ بأسأَ تَصُولُ به

ماتَ النَفَاقُ وأعطى الكُفْرُ نِمَّتَه

وأصبحَ النصرُ معقوداً بألوية

أدخلت في قُبَّةِ الإسلامِ مارقةً

بجَحْثِ تَشْرِقُ الأرضِ الفِضاءُ به

يقوده البدرُ يَسْرِي في كواكبه

تَرُوقُ فيه بُروقِ الموتِ لامعةً

غادرت في عَقَوْتِي جَيَّانَ مَلْحَمَةً

في نِصْفِ شهرٍ تركت الأرضَ ساكنةً

وُجِدْتَ في الخبرِ المأثورِ مُنْصَلتاً

تُمَلأُ بك الأرضُ عدلاً مثل ما مُلئت

يا بَدْرَ ظَلَمْتِها يا شَمْسَ صُبِحتِها

إنَّ الخِلافةَ لَنْ تَرْضَى ولا رَضِيَتْ

ولم يكن مثل هذه الغزاة ملك من الملوك في الجاهلية والإسلام. وله غزاة مارشن، التي كانت أخت بدر وحنين، وقد ذكرناها على وجهها في الأرجوزة التي نظمناها في مغازيه كلها من سنة إحدى وثلثمائة إلى سنة اثنتين وعشرين وثلثمائة، وأوقعناها في أسفل كتابنا لتكون جامعة لمغازي أمير

المؤمنين، وجعلتها رجزاً لحنف الرجز وسهولة حفظه وروايته. ومن مناقبه: أن الملوك لم تنزل تبني على أقدارها، ويُقضى عليها بآثارها، وأنه بنى في المدة القليلة ما لم تبين الخلفاء في المدة الطويلة. نعم، لم يبق في القصر الذي فيه مصانع أجداده ومعالم أوليته بنية إلا له فيها أثر مُحدث، إما تزييد أو تجديد ومن مناقبه: أنه أود من سُمي أمير المؤمنين من خلفاء بني أمية بالأندلس. ومن مناقبه التي لا أحت لها ولا نظير، ما أعجز فيه من بعده، وقات فيه من قبله، الجود الذي لم يُعرف لأحد من أحواد الجاهلية والإسلام إلا له. وقد ذكرت ذلك في شعري الذي أقول فيه:

والجودُ يُعرفُ فضلُهُ للمفضل

حتى كأن نبيهم لم ينبئ

من فعلهم فكانه لم يفعل

للاخرين ومُدركٍ للأول

كالبذر يُقرن بالسماك الأعزل

منهم وجودك أن يكون لأول

يا بن الخلائف والعلا للمعتلي

نوّهت بالخلفاء بل أحملتهم

أذكرت بل أنسيت ما ذكر الألى

وأنتيت آخرهم وشاؤك فانت

الآن سميت الخلافة باسمها

تأبى فعالك أن تفر لآخر

وهذه الأرجوزة التي ذكرت جميع مغازيه، وما فتح الله عليه فيها في كل غزاة، وهي:

ولم تكن تُدركه الأبصارُ

فما له ندو لا شبيهه

وعالم بخلقه بصير

وأخر ليس له انتهاء

وعز أن يكون شيء مثله

أو يحويه الوهم والظنون

والعقل والأينية الصحيحه

في الأوجه الغامضة اللطائف

أثبت من معرفة العيان

حمدال جزيلاً وعلى آلائه

وبعد شكر المبدىء المعيد

ومن تحلى بالندى والباس

وشرد الفتنة والشقاقا

وفتنة مثل غناء السيل

ذاك الأغر من بني مروان

سُبْحان مَنْ لم تحوه أقطارُ

ومن عنت لوجهه الوجوه

سبحانه من خالقٍ قدير

وأول ليس له ابتداء

أوسعنا إحسانه وفضله

وجل أن تُدركه العيون

لكنه يُدرِك بالقريحه

وهذه من أثبت المعارف

معرفة العقل من الإنسان

فالحمد لله على نعمائه

وبعد حمد الله والتمجيد

أقول في أيام خير الناس

ومن أباد الكفر والنفاقا

ونحن في حنادس كالليل

حتى تولى عابد الرحمن

سيفاً يسيل الموتُ من طُباته
فأصبحاً يدين في الجَمال
والدين والدُنيا على يمينه
وانقطع التشغيب والفسادُ
واستفحل النُكاثُ والمُراقُ
وأذكت الحربُ لظى نيرانها
وظلمة ما مثلها من ظلمة
فما تلذُّ مقلَّةُ بنومٍ
مخافةً من العدوِّ النَّائرِ
طَبَّقَ بين الأرضِ والسماءِ
على جميع الخلقِ واجتباها
وخيرَ مَنْسوبٍ إلى الأئمةِ
وتَسْتَحِي من جُوده السحائبُ
وكفه تَقْبيلها قُرْبانُ
من عهدِ كَعْبٍ وزمانِ حاتمِ
وغرَّةِ يَحْسُرُ عنها الطَّرْفُ
وهِمَّةِ تَرَقِي إلى السماءِ
يُريكِ بدِّعاً من عَظيمِ شانِه
إِذَا لَجَّتْ عُفَاتُه إِلَيْه
ولا استَحِي من بعدُ أن يَفِيضاً
وفتقُ الدنيا وكانت رَتَقاً
وجاب عنها دامساتِ الظلمه
حتى رَسَتْ أوتادُه واستَوَسَقاً
وكثَّفَ الأجنادَ والحشودا
بعَسْكَرٍ يَسْعُرُ من حُماتِه

مُؤَيِّدٌ حَكَمَ في عُداتِه
وصبحَ المُلكَ مع الهلالِ
واحتملَ التَّقوى على جَبِينِه
قد أشرقت بنوره البلادُ
هذا على حينَ طغى النفاقُ
وضاقت الأرضُ على لسكانها
ونحنُ في عَشواءِ مُدْهَمَّةِ
تأخذنا الصَّيْحَةُ كُلُّ يومٍ
وقد نَصَلِي العِيدَ بالنواظِرِ
حتى أتانا الغوثُ من ضيَاءِ
خليفةِ الله الذي اصطفاه
مِن مَعْدِنِ الوحيِ وبَيَّتِ الحِكمه
تَكَلِّ عن مَعروفِه الجَنائبُ
في وَجْهه من نُوره برهانُ
أحيا الذي مات من المكارِمِ
مكارِمِ يَقْصُرُ عنها الوَصْفُ
وشِيمَة كالضابِ أو كالماءِ
وانظر إلى الرفيعِ من بُنيانِه
لو خايلَ البحرُ نَدَى يَدِيه
لغاض أو لكاد أن يَغِيضاً
مَنْ أَسْبَغَ النُّعمى وكانت مَحَقاً
هو الذي جَمَعَ شَمَلَ الأُمه
وجددَ المُلكَ الذي قد أخلقا
وجَمَعَ العُدَّةَ والعَدِيدا

أول غزاة غزاها عبد الرحمن أمير المؤمنين عبد الرحمن بن محمد

ثم انتحى جيان في غزاته

فاستنزل الوحش من الهضاب
فأذعنت مُراقها سراعاً

لما رماها بسيوف العزم
كادت لها أنفسهم تجودُ
لولا الإله زلزلت زلزالها
فأنزل الناس إلى البسط
وافتتح الحصون حصناً حصناً
ولم يزل حتى انتحى جياناً
فأصبح الناس جميعاً أمه
ثم انتحى من فوره البيرة
فداسها بخيله ورجله
ولم يدع من جنبها مريداً
إلا كساه الذل والصغاراً
فما رأيت مثل ذلك العام
فانصرف الأمير من غزاته
وقبلها ما خضعت وأذعنت
وبعدها مدينة الشئيل
لما غزاها قائد الأمير
فأسلمت ولم تكن بالمسلمة
وبعدها في آخر الشهر
أرجفت القلاع والحصون
وأقبلت رجالها وفوداً
وليس من ذي عزة وشده
قلوبهم باخعة بالطاعة

كأنما حطت من السحاب
وأقبلت حصونها تداعى

مشحودة على دُروع الحزم
وكادت الأرض بهم تميذُ
وأخرجت من رهبة أقالها
وقطع البين من الخليط
وأوسع الناس جميعاً أمناً
فلم يدع بأرضها شيطاناً
قد عقد الإل لهم والذمه
وهي بكل آفة مشهورة
حتى توطأ خدّها بنعله
بها ولا من إنسها عنيداً
وعمه وأهله دماراً
ومثل صنع الله للإسلام
وقد شفاه الله من عذاته
إستجة وطالما قد صنعت
ما أذعنت للصارم الصقيل
باليمن في لوائه المنصور
وزال عنها أحمد بن مسلمة
من ذلك العام الزكيّ النور
كأنما ساورها المنون
تبغى لدى إمامها السعوداً
إلا توافوا عند باب السده
قد أجمعوا الدخول في الجماعة

سنة إحدى وثلاثمائة

فجال في شذونة والساحل
حتى كوى أكلبها الهريره
بكل كل كمدره الطاحونه
يعزى إلى سواده إذا اعتزى
ثم يكون عبده المأمورا
وعاد بالفضل عليه وقفل

ثم غزا في عقب عام قابل
ولم يدع رية والجزيرة
حتى أناخ في ذرى قرمونه
على الذي خالف فيها وانتزى
فسال أن يمهل شهرًا
فأسعف الأمير منه ما سأل

سنة اثنتين وثمانئة

من غزو إحدى وتلثماية
غزو ولا بعث يكون فيها

كان بها القبول عند الجيه
فلم يكن يدرك في باقيها

سنة ثلاث وثمانئة

وقد كساه عزمه وحزمه
وقائد الجيش أبو العباس
وجال في ساحاتها بالعسكر
لهم ولا علقا ولا عقارا
ولم يبايع علجها ولا ظهر
وقد أباد الزرع والمأكلا
أن لا بقاء يرتجى هناكا
والسمع والطاعة والإنابه
وأصبح الناس معاً في هذنه
إذا وضعت أوزارها الحرؤب

ثمت أغزى في الثلاث عمه
فسار في جيش شديد الباس
حتى ترقى بذرى ببشتر
فلم يدع زرعا ولا ثمارا
وقطع الكروم منها والشجر
ثم انتنى من بعد ذاك قافلا
فأيقن الخنزير عند ذاك
فكاتب الإمام بالإجابه
فأحمد الله شهاب الفته
وارتعت الشاة معاً والديب

سنة أربع وثمانئة

فأي صنع ربنا لم يصنع
كلتا يديه يا سبيل الله

وبعدها كانت غزاة أربع
فيها ببسط الملك الأواه

بالنصر والتأييد ظاهرين
على عدو الشرك أو ذويه
وما مضى جرى إلى بلنسيه
القرشي القائد القنابل
في خير ما تعبئة وشك
وكل تكل للعدو تاكل
كان افتتاح لبلة الحمراء
في عقب هذا العام لا سواه
وغمها حتى أجابت حكمه
حتى أتى بدر به مأسورا

سنة خمس وثلثمائة

إلى السوادي عقيد النحس
ونقض الميثاق والعهودا
ومن تعديه وسوء رائه
إذ صار عن قصد السبيل حائدا
فكان كالشفع لهذا الوتر
مشمرا وجد في القتال
بالرجل والرماة والفرسان
كذا على قتاله منابر
وضيق الحلق عليه والنفس
وفتحوا الأبواب دون رائه
وهو بها كهينة الطعينة
وملقيا يديه للإسار
وقاده مكثفا لهلكه
نكب أبي العباس بالإسلام
وقائدا من أفضل القواد

وذاك أن قود قائدین
هذا إلى الثغر وما يليه
وذا إلى شم الربا من مرسية
فكان من وجهه للساحل
وابن أبي عبدة نحو الشرك
فأقبلا بكل فتح شامل
وبعد هذي الغزوة الغراء
أغزى بجند نحوها مولاة
بدرًا فضم جانبها ضمة
وأسلمت صاحبهما مقهورا

وبعدها كانت غزاة خمس
لما طغى وجاوز الحدودا
ونابذ السلطان من شقائه
أغزى إليه القرشي القائدا
ثمت شد أزره ببدر
أحدقها بالخيول والرجال
فنازل الحصن العظيم الشان
فلم يزل بدر بها محاصرا
والكلب في تهور قد انغمس
فافترق الأصحاب عن لوائه
واقتمح العسكر في المدينة
مستسلما للذل والصغار
فنزع الحاجب تاج ملكه
وكان في آخر هذا العام
غزا وكان أنجد الأنجاد

فسار في غير رجال الحربِ
مُحارباً في غير ما مُحارب
واجتمعت إليه أخلاطُ الكُورِ
حتى إذا أوغل في العدوِ
أسلمه أهلُ القلوبِ القاسيةِ
فاستشهد القائدُ في أبرارِ
في غير تأخير ولا فرارِ

الضارِبين عند وقت الضربِ
والحشَمُ الجُمهور عند الحاجبِ
وغاب ذو التَّحصيل عنه والنَّظرِ
فكان بين البُعدِ والدُّنُوِ
وأفردوه للكِلابِ العاويةِ
قد وهبوا نفوسهم للباريِ
إلا شديد الضرب للكفارِ

سنة ست وثلاثمائة

ثم أقاد الله من أعدائه
في مبدأ العام الذي من قابلِ
فكان من رأي الإمامِ الماجدِ
أنِ احتَمَى بالواحدِ القهارِ
فجمَعَ الأجنادَ والحشودَ
وحشَرَ الأطرافَ والثُّغورَ
حتى إذا ما وقت الجنودُ
قودَ بدراناً أمر تلك الطائفةُ
فسار في كتائب كالسَّيلِ
حتى إذا حلَّ على مُطْنِيهِ

وأحكم النصرَ لأوليائه
أزْهق فيه الحقُّ نفسَ الباطلِ
خَيْرِ مَوْلودٍ وخَيْرِ والدِ
وفاضَ من غيظِ على الكفارِ
ونَفَرَ السيدَ والمَسودَ
ورَفَضَ اللذاتِ والحُبورَ
واجتمع الحشادُ والحشودُ
وكانت النفسُ عليه خائفَةً
وعسكَرَ مثل سوادِ الليلِ
وكان فيها أخبثُ البريةِ

ناصبهم حرباً لها شرارِ
وجدَّ من بينهمُ القتالُ
فحاربوا يومهمُ وباتوا
فهم طَوالَ الليلِ كالطلائحِ
ثم مَضَوْا في حربهم أياماً
لما رأوا سحائبَ المنيهِ
تَغَلَّغَ العُجمُ بأرض العُجمِ

كأنما أضرمَ فيها النارُ
وأحدقت حولهم الرجالُ
وقد نَفَت نومهم الرماةُ
جراحهم تنغل في الجوارحِ
حتى بدا الموتُ لهم زُوماً
تُمطرهم صواعقِ البليهِ
وانحسدوا من تحت كلِّ نجمِ

يومَ الخَمِيسِ مُسرِعاً حَنيثاً
 وحوله الصُّلبانِ والنَّواقِسُ
 عن جانبِ الحِصنِ الذي قد دُمرَا
 مُستبصراً في زحفه إليه
 واعتنت الأرواحُ عند الحَنجره
 وانهزمت بطانةُ الشيطانِ
 وأدبر العِجُ ذَمِيماً خازياً
 فصَبَّحوا العدوَّ يومَ الجُمعةِ
 البنلوني مع الجَلقي
 وأن يموتا قبلَ ذاكَ المُحضرِ
 لا يُهزما دونَ لقاءِ المَوْتِ
 قد جَلَّوا الجبالَ بالفرسانِ
 فكان وقتاً يا له من وقتِ
 وقد علا التَّكبيرُ والصياحُ
 وفغرت أفواهها الحُتوفُ
 وانغمسوا في غَمرةِ القتالِ
 وقصرتُ في طوله الأعمارُ
 فأوعقوا على العدوِّ الكافرِ
 كأنه متضرب بالورسِ
 زَعَقاً على مُقدِّمِ الجلالقةِ
 وتُشبع السيوفُ والرِّماحَا
 وانكشفت عورته هُنَاكَ
 وجاءت الرؤوسُ في الأعوادِ
 من الجلاليقِ ذوي العماسِ
 وعمنا سرورُ ذاكَ العامِ
 موت ابنِ حَفْصونِ به الخنزيرِ

فأقبل العِجُ لهم مُغيثاً
 بين يديه الرَّجْلُ والفوارسُ
 وكان يَرجو أن يُزيلَ العسكراً
 فاعتاقه بدرٌ بمن لَدِيه
 حتى التقت ميمنة بميسرة
 ففاز حزبُ الله بالعِجانِ
 فقتلوا قتلاً ذريعاً فاشياً
 وانصرفَ الناسُ إلى القليعةِ
 ثم التقى العِجانُ في الطَّريقِ
 فاعقدا على انتهابِ العسكِرِ
 وأقسما بالحبِّبِ والطَّاعوتِ
 فأقبلوا بأعظمِ الطَّغيانِ
 حيَ تداعى الناسُ يومَ السبتِ
 فأشرعت بينهم الرماحُ
 وفارقت أغمادها السيوفُ
 والتقت الرجالُ بالرجالِ
 في موقِفٍ زاغت به الأبصارُ
 وهبَ أهلُ الصبرِ والبصائرِ
 حتى بدت هزيمةُ البُشكنسِ
 فانقضت العقبانُ والسَّلالقةُ
 عُقبان مَوْتِ تَخَطَفِ الأرواحَا
 فانهزم الخنزيرُ عند ذاكَا
 فقتلوا في بطنِ كلِّ وادي
 وقَدَّم القائدُ ألفَ راسِ
 فتمَّ صنَعُ الله للإسلامِ
 وخيرُ ما فيه من السُّرورِ

فاصل الفتحُ بفتح ثاني

وهذه الغزاة تُدعى القاضية

والنصرُ بالنصر من الرحمن

وقد أنتهم بعد ذاك الداهية

سنة سبع وثلثمائة

وبعدها كانت غزاة بلده

وبدؤها أن الإمام المصطفى

لما أنته ميتهُ الخنزيرِ

كاتبه أو لآذه بالطاعة

وأن يُقرهم على الولاية

فاختار ذلك الإمام المُفضلُ

ثم لوى الشيطانُ رأسَ جعفرِ

فنقضَ العهودَ والميثاقا

وهي التي أودت بأهل الرده

أصدق أهل الأرض عدلاً ووفاً

وأنه صار إلى السعيرِ

وبالدخول مدخل الجماعة

على درور الخرج والجباية

ولم يزل من رأيه التفضلُ

وصار منه نافخاً في المنخرِ

واستعمل التشغيب والنفاقا

وضم أهل النكت والخلافِ

فاعتاقه الخليفة المؤيد

من عليه من عيون الله

فجند الجنود والكثائب

ثم غزا في أكثر العديدي

حتى إذا مر بحصن بلده

يمنعهم من انتشار خيله

ثم مضى يستنزل الحصونا

حتى أتاه باشر من بلده

فقدم الخيل إليها مسرعاً

فحفها بالخييل والرماة

فاطلع الرجل على أنقابها

فأذعنت ولم تكن بمذعنه

فقدمت كفارها للسيفِ

من غير ما كافٍ وغير وافي

وهو الذي يشقى به ويسعد

حوافظ من كل أمر داهي

وقود القواد والمقانب

مستصحباً بالنصر والتأييدِ

خلف فيه قائداً في عده

وحارساً في يومه وليلمهم

ويبعث الطلاع والعيونا

يعدو برأس رأسها في صعده

واحتلها من يومه تسرعاً

وجملة الحماة والكماة

واقترح الجند على أبوابها

واستسلمت كافرة لمؤمنه

وقتلوا بالحق لا بالحيفِ

وذاك من يُمن الإمام المرتضى

ثم انتحى من فوره ببشراً

وحطّم النبات والزروعاً

فإذارأى الكلبُ الذي رآه

ألقي إليه باليدين ضارِعاً

وأن يكون عاملاً في طاعته

فوثق الإمام من رهانه

وقبل الإمامُ ذاك منه

وخير من بقي وخير من مضى

فلم يدع بها قضيباً أخضراً

وهتك الرباع والربوعاً

من عزمه في قطع مُنتواه

وسال أن يُبقَى عليه وادعا

على ثرور الخرج من جبايته

كيلا يكون في عمى من شأنه

فضلاً وإحساناً وسار عنه

سنة ثمان وثلاثمائة

ثم غزا الإمام دار الحرب

فحشدت إليه أعلام الكور

إلى ذوي الديوان والريات

وكل من أخلص للرحمن

وكل من طواع في الجهاد

فكان حشداً ياله من حشد

فتحسبُ الناسَ جراداً مُنتشراً

ثم مضى المُظفر المنصورُ

أمامه جُند من الملائكة

حتى إذا فوز في العدو

وأنزل الجزية والدواهي

فزُلزلت أقدامهم بالرعب

واقتحموا الشعاب والمكامناً

فما بقي من جنّبات دُور

إلا وقد صيرها هباءً

وزعزت كتائب السلطان

فكان من أول حصن زعزعوا

العقد الفريد-ابن عبد ربه الأندلسي

فكان خطباً يا له من خطب

ومن له في الناس ذكرٌ وخطر

وكل منسوب إلى الشامات

بطاعة في السر والإعلان

أو ضمه سرّج على الجياد

من كل حرٍ عندنا وعبد

كما يقول ربُّنا فيمن حُسر

على جبينه الهدى والنور

أخذة لربها وتاركة

جنبه الرحمن كلَّ سَو

على الذين أشركوا بالله

واستنفروا من خوف نار الحرب

وأسلموا الحصون والمدائن

من بيعة لراهب أو دير

كالنار إذ وافقت الأباء

لكل ما فيها من البنيان

ومن له من العدو أوقعوا

مَدِينَةَ مَعْرُوفَةَ بُوخْشَمَةَ

ثُمَّ ارْتَقُوا مِنْهَا إِلَى حَوَاضِرِ

ثُمَّ مَضَوْا وَالْعَلَجُ يَحْتَنِدُهُمْ

حَتَّى أَتَوْا تَوَا لُوَادِي دِي

لَمَّا اتَّقَوْا بِمَجْمَعِ الْجَوَزِينَ

مِنْ أَهْلِ أَلْيُونِ وَبَنْبَلُونَةَ

تَضَافَرُ الْكُفْرُ مَعَ الْإِلْحَادِ

فَاضْطَرَبُوا فِي سَفْحِ طُودٍ عَالِي

فَبَادَرَتْ إِلَيْهِمُ الْمُقَدَّمَةُ

وَرَدَّهَا مَتَّصِلٌ بَرْدٌ

فَانْهَزَمَ الْعَلْجَانُ فِي عِلَاجِ

كِلَاهِمَا يَنْظُرُ حِينًا خَلْفَهُ

وَالْبَيْضُ فِي إِثْرِهِمْ وَالسَّمْرُ

فَلَمْ يَكُنْ لِلنَّاسِ مِنْ بَرَاكِ

فَأَمَرَ الْأَمِيرُ بِالتَّقْوِيضِ

فَصَادَفُوا الْجُمْهُورَ لَمَّا هُزِمُوا

فَدَخَلُوا حَدِيقَةَ لَلْمَوْتِ

فِيهَا حَدِيقَةٌ وَيَالِهَا

تَحْضَنُوا إِذْ عَايَنُوا الْأَهْوَالَ

وَصَخْرَةَ كَانَتْ عَلَيْهِمْ صَيِّلًا

تَسَاقَطُوا يَسْتَطْعَمُونَ الْمَاءَ

فَكَمْ لَسِيفِ اللَّهِ مِنْ جَزُورِ

وَكَمْ بِهِ قَتْلَى مِنَ الْقَسَاوِسِ

ثُمَّ تَنَى عَنَانَهُ الْأَمِيرُ

مُصَمَّمًا بِحَرْبِ دَارِ الْحَرْبِ

فَغَادَرُواهَا فَحِمَةً مُسْخَمَةً

فَغَادَرُواهَا مِثْلَ أَمْسِ الدَّابِرِ

بَجَيْشِهِ يَخْشَى وَيَقْتَفِيهِمْ

فَفِيهِ عَفَى الرَّشْدُ سَبْلَ الْغِيِّ

وَاجْتَمَعَتْ كِتَابُ الْعَلْجِينَ

وَأَهْلُ أَرْنَيْطٍ وَبَرْشَلُونَةَ

وَاجْتَمَعُوا مِنْ سَائِرِ الْبِلَادِ

وَصَفَّوْا تَعْبِيَةَ الْقِتَالِ

سَامِيَةً فِي خَيْلِهَا الْمُسَوِّمَةَ

يُمِدُّهُ بَحْرُ عَظِيمِ الْمَدِّ

وَلَبَسُوا ثَوْبًا مِنَ الْعَجَاجِ

فَهُوَ يَرَى فِي كُلِّ وَجْهِ حَنْقَهُ

وَالْقَتْلُ مَاضٍ فِيهِمْ وَالْأَسْرُ

وَجَاءَتْ الرُّؤُوسُ فِي الرِّمَاحِ

وَأَسْرَعُ الْعَسْكَرُ فِي النَّهْوضِ

وَإِنَّا قَوَادِمُهُمْ تُخْرِمُوا

إِذْ طَمَعُوا فِي حَصْنِهَا بِالْفَوْتِ

وَافَتْ بِهَا نَفُوسُهُمْ آجَالُهَا

لَمَعَقَلٍ كَانَتْ لَهُمْ عِقَالًا

وَإِنْ قَلْبُوا مِنْهَا إِلَى جَهَنَّمَ

فَأَخْرَجَتْ أَرْوَاحَهُمْ ظِمَاءَ

فِي مَادِبِ الْغَرْبَانِ وَالنَّسُورِ

تَتَدَبُّ لِلصُّلْبَانِ وَالنَّوَاقِسِ

وَحَوْلَهُ التَّهْلِيلُ وَالتَّكْبِيرُ

فُدَّامَهُ كِتَابُ مَنْ عُرِبَ

والهتكِ والسفكِ لها والنسفِ
وأسْخَنُوا من أهلها العيونَا
فما ترى إلا لهيبَ النارِ
فما ترى إلا دخانًا ساطعَا
وقد شفى من العدو واشتقى

فداسَهَا وسامَهَا بالخسفِ
فحرقُوا ومزقُوا الحُصونَا
فانظرُ عن اليمين واليسارِ
وأصبحتُ ديارَهُم بلاقعَا
ونُصر الإمامُ فيها المصطفى

سنة تسع وثلثمائة

لسمَا إليها جيشه لم يُنْهَشُ
وكلُّ صلِ أسود شجاع
يَعْتور القوادِ فيه دائبَا
وغابَ عن يافوخها شيطانُهَا
وأكرم الأحياء والأمواتِ
وخير مَنْ يَحكم في بلادِهِ
بعد قُقول المَلِكِ المؤيدِ
وخيرَ مَصحوبٍ وخيرَ صاحبِ
عَقيدِ كُلِّ رَافِعَةٍ وخيرِ

وبعدهَا كانت غزاة طرشُ
وأحدثتُ بحصنِهَا الأفاعي
ثم بنى حصنًا عليها راتبَا
حتى أنابتُ عنوةَ جنانِهَا
فأذعنتُ لسيد الساداتِ
خليفةَ الله على عبادِهِ
وكان موت بدرِ بنِ أحمدِ
واستحجب الإمامُ خيرَ حاجبِ
مُوسى الأغرِّ من بني جُدَيْرِ

سنة عشر وثلثمائة

بها افتتاحُ منتلون عنوةً
يَوْمُ أهلِ النُكثِ والطغيانِ
أسبابَ مَنْ أصبح فيه خالعاً
حتى أتاه مُلقياً يَدَيْهِ
فعاصَهَا سهلاً من الحُزونةِ
إلى لُرومِ قُبّةِ الإيمانِ
إلا وقد أذلهم جميعاً
كما مَضَى بأحسنِ الفضولِ

وبعدهَا غزاةُ عشرِ غزوةٍ
غزا الإمامُ في ذوي السلطانِ
فاحتلَّ حصنَ منتلونِ قاطعَا
سارَ إليه وبني عليه
ثم انتنى عنه إلى شذونَه
وساقَهَا بالأهلِ والولدانِ
ولم يدعُ صعبًا ولا منيعًا
ثم انتنى بأطيبِ القُقولِ

سنة إحدى عشرة وثلثمائة

كم نَبَّهت من نائمٍ في سكرَةٍ
 في عسكرٍ أعظمَ بذاك عسكراً
 وجمالٍ في شاطئٍ وفي سواها
 وأذعنت شاطئاً لربِّ العسكرِ
 فيها ولم يتركْ بها عبيداً
 فداسها بالقضمِ بعد الخضمِ
 منها وفي الغاباتِ والوعورِ
 لم يدر قط طاعةَ السلطانِ
 وذادهم عنه بخيرِ ذائدِ
 وأنقذ الثغرَ من الهلاكِ
 وقد جرت دماؤها مظلولةً
 من شيعَةِ الكفرِ ومن ذويهِ
 قد غيرَ الفسادَ بالصلاحِ

وبعدها غزاةُ إحدى عشرة
 غزا الإمامُ يَنْتحي بْبَشْتِرا
 فاحتلَّ من بْبَشْتِرا ذراها
 فخرَّبَ العمرانَ من بْبَشْتِرا
 فأدخلَ العدةَ والعديداً
 ثم انتحى بعدُ حُصونَ العُجمِ
 ما كان في سواحلِ البُحورِ
 وأدخلَ الطاعةَ في مكانِ
 ثم رمى الثغرَ بخيرِ قائدِ
 به فما لله ذوي الإِشراكِ
 وانتاش من مَهواتها نُطيلُهُ
 وطهرَ الثغرَ وما يليه
 ثم انتنى بالفتحِ والنجاحِ

سنة اثنتي عشرة وثلثمائة

وكم بها من حسرةٍ وعبرةٍ
 كالبدْرِ محفوظاً به كواكبهِ
 وطالعُ السعدِ على جبينهِ
 موسى الأغرُّ حاجبُ الأميرِ
 واستنزل الوحشَ من الصخورِ
 وبابعتِه أمراءُ الفتنةِ
 وجملُ الحقِ على مُتونها
 تحت لواءِ الأسدِ الغضنْفِرِ
 من كلِّ صنفٍ يعتزى إليهم
 بكت على دمائها المظلولةِ
 والحربِ في الرواحِ والغدوِّ

وبعدها غزاةُ ثنتي عشرة
 غزا الإمامُ حوله كُتائبهِ
 غزا وسيفُ النصرِ في يمينهِ
 وصاحبُ العسكرِ والتدبيرِ
 فدمرَ الحُصونَ من تدميرِ
 فاجتمعتُ عليه كلُّ الأمةِ
 حتى إذا أوعب من حصونها
 مضى وسار في ظلالِ العسكرِ
 رجالُ تدميرٍ ومن يليهمُ
 حتى إذا حلَّ على تُطيلهِ
 وعظُم ما لاقت من العدوِ

وَأَنْ تَكُونَ رِدْأَهُ فِي الدَّرْبِ
مِنْ صَحْبِهِ وَمِنْ رِجَالِ الثُّغْرِ
وَلَا يَجُوزُ الْجَبَلُ الْمُؤَشِّبَا
بِنَدْبِ كُلِّ الْعُرْفَاءِ وَالْحَشَمِ
خَمْسِينَ أَلْفًا مِنْ رِجَالِ الْعِلْجِ
وَمَا إِلَى حَاشَاهُ مِنْ سَبِيلِ
وَسَاحَةِ الْمَدِينَةِ الْمَلْعُونَةِ
سَاعِدَهُ عَلَيْهِ غَيْرُ الْحَاجِبِ
فَكَانَ فَتْحًا لَمْ يَكُنْ لَهُ مَثَلٌ
وَأَدْرَعَ الْهَيْجَاءَ وَالْحُرُوبَا
كِتَابِيَا غَطَّتْ عَلَى الْفِجَاجِ
ثُمَّ اسْتَعَانَ بِالنَّدَى وَالْبَاسِ
وَاسْتَنْزَلَ النُّصْرَةَ مِنَ السَّمَاءِ
وَأَتْبَعَ الْمُدُودَ بِالْمُدُودِ
جَاوَزَ فِيهَا السَّاقَةَ الْمُقَدَّمَةَ
فَارْتَوَتْ الْبَيْضُ مِنَ الدَّمَاءِ
وَاقْتَحَمَ الْعَسْكَرُ فِي الْمَدِينَةِ
وَأَسْرَعَ الْخِرَابُ فِي مَعْمُورِهَا
إِذْ جَعَلَتْ تَدْفُقُهَا الْحَوَافِرُ
وَذُلٌّ مِنْ أَيْتَمٍ مِنْ أَطْفَالِهَا
تَهْمِي عَلَيْهِ الدَّمْعُ عَيْنُ الْأَسْقَفِ

بَدَّلَتْ الْأَذَانَ بِالنَّوَاقِسِ
كِلَاهُمَا فَرَضَ لَهُ النَّحِيبُ
وَالنُّصْرَةَ وَالتَّأْيِيدَ وَالْفَلَاحِ
إِلَى بَنِي ذِي النُّونِ مِنْ تَوْفِيقِهِ

فَهَمَّ أَنْ يَدِيخَ دَارَ الْحَرْبِ
ثُمَّ اسْتَشَارَ ذَا النُّهْيِ وَالْحَجْرِ
فَكُلُّهُمْ أَشَارَ أَنْ لَا يُدْرِبَا
لَأَنَّهُ فِي عَسْكَرٍ قَدْ انْخَرَمَ
وَشَنَعُوا أَنْ وَرَاءَ الْفَجِّ
فَقَالَ لَا بُدَّ مِنَ الدُّخُولِ
وَأَنْ أُدِيخَ أَرْضَ بَنْبَلُونَةَ
وَكَانَ رَأْيَا لَمْ يَكُنْ مِنْ صَاحِبِ
فَاسْتَنْصَرَ اللَّهَ وَعَبِي وَدَخَلَ
لَمَّا مَضَى وَجَاوَزَ الدَّرُوبَا
عَبِي لَهُ عِلْجٌ مِنَ الْأَعْلَاجِ
فَاسْتَنْصَرَ الْإِمَامُ رَبَّ النَّاسِ
وَغَاذَ بِالرَّغْبَةِ وَالذُّعَاءِ
فَقَدَّمَ الْقَوَادِمَ بِالْحُشُودِ
فَانهَزَمَ الْعِلْجُ وَكَانَتْ مَلْحَمَةً
فَقَتَّلُوا مَقْتَلَةَ الْفَنَاءِ
ثُمَّ أَمَالَ نَحْوَ بَنْبَلُونَةَ
حَتَّى إِذَا جَاسُوا خِلَالَ دُورِهَا
بَكَتْ عَلَى مَا فَاتَهَا النَّوَاطِرُ
لَفَقَدَ مِنْ قَتْلِ مَنْ رَجَالِهَا
فَكَمَ بِهَا وَحَوْلَهَا مِنْ أَغْلَفِ

وَكَمَ بِهَا حَقَّرَ مِنْ كِنَائِسِ
يَبْكِي لَهَا النَّاقُوسُ وَالصَّلِيبُ
وَانصَرَفَ الْإِمَامُ بِالنَّجَاحِ
ثُمَّ تَنَّى الرِّايَاتِ فِي طَرِيقِهِ

فأصبحوا من بسطهم في قبض
حتى بدوا إليه بالبرهان
فالحمد لله على تأييده

سنة ثلاث عشرة وثلثمائة

قد ألصقت خدودهم بالأرض
من أكبر الأباء والولدان
حمداً كثيراً وعلى تسديده

وقد أشادوا حولها حصوناً
وقاتلوهم أبلغ القتال
تبادروا بالطوع حينذاك
وسمّحوا بخرّجهم خضوعاً
قد هُدمت معاقل العصاة
على بني هابل في مسيره
وأمرء الفتنة المغيرة
حتى أتوا بكل ما لديهم
وكل من لاذ بهم من الخدم
وأسكنوا مدينة السلطان
بعد خضوع الكفر للإسلام
على يدي عبد الحميد القائد
فكان فتحاً لم يكن بالذون
بقتلهم لعامل السلطان
حتى غزاهم أنجد البرية
بنقضه كل الذي بنوه
أشنين بالرجل وبالفرسان
يختطف الأرواح منهم خطفاً
وأسلموا صنوهم محمداً
مغرب في مآتم الغريبان
من بعد ما مزق بالنيازك
وبذلهم ودائعاً من رهن

ثم غزا بيمنه أشونا
وحققها بالخيال والرجال
حتى إذا ما عاينوا الهلاكاً
وأسلموا حصنهم المنيعاً
وقبلهم في هذه الغزاة
وأحكم الإمام في تدبيره
ومن سواهم من ذوي العشيرة
إذ حُبسوا مراقباً عليهم
من البنين والعيال والحشم
فهبطوا من أجمع البلدان
فكان في آخر هذا العام
مشاهد من أعظم المشاهد
لما غزا إلى بني ذي النون
إذ جاوزوا في الظلم والطغيان
وحاولوا الدخول في الأذية
فعاقهم عن كل ما رجوه
وضبطه الحصن العظيم الشأن
ثم مضى الليث إليهم زحفاً
فانهزموا هزيمة لن تُرقد
وغيره من أوجه الفرسان
مقطع الأوصال بالسنايك
ثم لجوا إلى طلاب الأمن

فقبضت رهانهم وأمنوا
ثم مضى القائد بالتأييد
حتى أتى حصن بني عماره
فافتتح الحصن وخلي صاحبه

وأنغصوا رؤوسهم وأذعنوا
والنصر من ذي العرش والتسديد
والحرب بالتدبير والإدارة
وأمن الناس جميعاً جانباً

سنة أربع عشرة وثلثمائة

لم يعز فيها وغزت قواده
فكلهم أبلَى وأغنى واكتفى
ثم تلاهم بعد لَيْثُ الغيل
هو الذي قام مقام الضيغم
برأس جالوت النفاق والحسد
فهاكه مع صحبه في عده
قد امتطى مطية لا تبرح
مطية إن يعرّها انكسار
كأنه من فوقها أسوار

واعتورت ببشتر أجناده
وكلهم شفى الصدور واشتقى
عبد الحميد من بني بسيل
وجا في غزاته بالصيلم
من جمع الخنزير فيه والأسد
مُصَلِّين عند باب السدة
صائمة قائمة لا ترمح
يطبها النجار لا البيطار
عيناه في كلتيهما مسمار

مباشراً للشمس والرياح
يقول للخاطر بالطريق
هذا مقام خادم الشيطان
فما رأينا واعظاً لا ينطق
فقل لمن غر بسوء رائه
كم مارق مضى وكم منافق
وعاد وهو في العصا مُصَلَّب
فكيف لا يعتبر المخالف
أما تراه في هوان يرتع

على جواد غير ذي جراح
قول محب ناصح شفيق
ومن عصى خليفة الرحمن
أصدق منه في الذي لا يصدق
يمت إذا شاء بمثل دائه
قد ارتقى في مثل ذلك الحالق
ورأسه في جذعه مُرْكَب
بحال من تطلبه الخلائف
معتبراً لمن يرى ويسمع

سنة خمس عشرة وثلثمائة

فيها غزا معتزما ببشتر
ثم غزا طنجيرة إليها
وامتدّها بابن السليم راتباً
حتى رأى حفص سبيل رُشده
فدان للإمام قصداً خاضعاً

فجال في ساحتها ودمراً
وهي الشجى من بين أذعيتها
مشمراً عن ساقه مُحارباً
بعد بلوغ غاية من جهده
وأسلم الحصن إليه طائعاً

سنة ست عشرة وثلثمائة

لم يَغزُو فيها وانتحى ببشتر
واحتلّها بالعزّ والتمكين
وعاضها الإصلاح من فسادهم
حتى خلا ملحود كل قبر
عصابة من شيعة الشيطان
فخرمت أجسادها تخرماً
ووجه الإمام في ذا العام
إلى ابن داود الذي تقلعاً
فحطه منها إلى البسيط
شم أتى به إلى الإمام

فرمها بما رأى ودبراً
ومحو آثار بني حفصون
وطهر القبور من أجسادهم
من كل مرتدّ عظيم الكفر
عدوة لله والسلطان
وأصلبت أرواحهم جهنماً
عبد الحميد وهو كالضرغام
في جبلي شذونة تمنعا
كطائر آذن بالسقوط
إلى وفي العهد والذمام

سنة سبع عشرة وثلثمائة

وبعد سبع عشرة وفيها
فلم يزل يسومها بالخسف
حتى إذا ما ضم جانبيها
خلى ابن إسحاق عليها راتباً
ومر يستقصي حصون الغرب
حتى قضى منهن كل حاجة
وبعد فتح الغرب واستقصائه
لجت بطليوس على نفاقها

غزا بطليوس وما يليها
وينتحيتها بسيف الحنف
محاصراً ثم بنى عليها
مُثابراً في حربهِ مؤابطاً
ويبتليها بوييل الحرب
وافتحت أكشونية وباجه
وحسمه الأدواء من أعدائه
وغرّها اللجاج من مُراقها

حتى إذا شافهت الحنوفاً
دعا ابن مروان إلى السلطان
فصار في توسعة الإمام

وشامت الرماح والسيوف
وجاءه بالعهد والأمان
وساكناً في قبة الإسلام

سنة ثمانى عشرة وثلثمائة

فيها غزاً بعزمه طليطله
حتى بنى جرنشكه بجنيها
وشدها بابن سليم قائداً
فجاسها في طول ذلك العام

وامتنعوا بمعقل لا مثل له
حصناً منيعاً كافلاً بحرّبا
مجالداً لأهلها مجاهداً
بالخسف والنسف وضرب الهام

سنة تسع عشرة وثلثمائة

ثم أتى ردفاً له دُري
فحاصروها عام تسع عشرة
ثم آتاهم بعد بالرجال

في عسكر قضاؤه مقضي
بكل محبوك القوى ذي مره
فقاتلوههم أبلغ القتال

سنة عشرين وثلثمائة

حتى إذا ما سلفت شهور
ألقت يديها للإمام طائعة
فأذعنّت وقبلها لم تدعن
ولم تدن لربها بدين
ومبتدى عشرين مات الحاجب
وبرز الإمام بالتأييد
صمداً إلى المدينة اللعينة
مدينة الشقاق والنفاق
حتى إذا ما كان منها بالأمم
أتاه واليها وأشياخ البلد

من عام عشرين لها ثبور
واستسلمت قسراً إليه باخعه
ولم تقد من نفسها وتمكن
سبعاً وسبعين من السنين
موسى الذي كان الشهاب الثاقب
في عدة منه وفي عديد
أتعسها الرحمن من مدينه
وموئل الفساق والمراق
وقد ذكا حرّ الهجير واحتدم
مستسلمين للإمام المعتمد

فوافقوا الرحبَ من الإمام
ووجهَ الإمام في الظهيرةَ
جريدةً قائدُها دري
فاقتحموا في وعرها وسهلها
ولم يكن للقوم من دفاع
وقوض الإمام عند ذلكا
حتى إذا ما حلَّ في المدينة
أقمعها بالخييل والرجال
وكان من أول شيء نظرًا
تهدَّم لبابها والسور
حتى إذا صيرها برأحا
أقرَّ بالتشييد والتأسيس
حتى استوى فيها بناء مُحكم
فعند ذلك أسلمت واستسلمت

سنة إحدى وعشرين وثلثمائة

في أهبة وعُدَّة من الحشم
يحيى بن ذي النون به وامتتعا
من غير تعنيت وغير حرب
وفي الدُخول مدخل الجماعة
في الصفح عن ذنوبه وتائبًا
وقبَل المبدول من إنايته
مُسجلاً له عليها واليًّا

فيها مَضَى عبد الحميد مُلتمَّ
حتى أتى الحصن الذي تَقَلَّعا
فحطَّه من هَضبات ولب
إلا بترغيب له في الطاعة
حتى أتى به الإمام راغبًا
فَصَفح الإمام عن جنائته
ورده إلى الحصون ثانيًا

سنة اثنتين وعشرين وثلثمائة

في مُبتدا عشرين واثنتين
مُدكك الرؤوس والآكام

ثم غزا الإمام ذو المجددين
في فيلق مُجمهر لُهام

حافُ الرِّبِيِّ لَزَحَفَهُ تَجِيشُ
كَأَنَّهُمْ جِنٌّ عَلَى سَعَالِي
فَاقْتَحَمُوا مُلُونِدَةً وَرَوْمَةَ
حَتَّى أَتَاهُ الْمَارِقُ التَّجِيْبِي
تَخَصَّهَ الْإِمَامُ بِالْتَرْحِيْبِ
ثُمَّ حَبَاهُ وَكَسَاهُ وَوَصَلَ
كِلَاهُمَا مِنْ مَرْكَبِ الْخِلَافِ
وَقَالَ كُنْ مِنْنَا وَأَوْطِنْ قُرْطَبَةَ
تَكُنْ وَزِيْرًا أَعْظَمَ النَّاسِ خَطْرُ

فَقَالَ إِنِّي نَاقَةٌ مِنْ عِلَّتِي
فَإِنْ رَأَيْتَ سَيْدِي إِمْهَالِي
ثُمَّ أَوْافِيكَ عَلَى اسْتِعْجَالِ
وَأَوْثِقِ الْإِمَامَ بِالْعَهْدِ
فَقَبِلَ الْإِمَامُ مِنْ أَيْمَانِهِ
ثُمَّ أَتَتْهُ رِيْبَةُ الْبِشَاقِصِ
وَأَنَّهَا مُرْسَلَةٌ مِنْ عِنْدِهِ
وَكَتَفَلَتْ بِكُلِّ بَنْبَلُونِي
فَأَوْعَدَ الْإِمَامُ فِي تَأْمِينِهَا
ثُمَّ مَضَى بِالْعِزِّ وَالتَّمَكِينِ
فِي جُمْلَةِ الرِّيَايَاتِ وَالْعَسَاكِرِ
إِلَى عِدَى اللَّهِ مِنَ الْجَلَالِقِ
فَدَمَّرُوا السُّهُولَ وَالْقِلَاعَا
وَخَرَبُوا الْحُصُونِ وَالْمَدَائِنَا
فَلَيْسَ فِي الدِّيَارِ مِنْ دِيَارِ
فَغَادَرُوا عُمُرَانَهَا خَرَابَا

تَجِيْشُ فِي حَافَاتِهِ الْجِيُوشُ
وَكَلُّهُمْ أَمْضَى مِنَ الرُّتْبَالِ
وَمِنْ حَوَالِيهَا حِصُونِ حِيْمَةٍ
مُسْتَجِدِيًّا كَالْتَائِبِ الْمُنِيْبِ
وَالصَّفْحِ وَالْغُفْرَانِ لِلذُّنُوبِ
بِشَاحِجٍ وَصَاهِلٍ لَا يُمْتَلِ
فِي حَلِيَّةٍ تَعْجِزُ وَصَفَ الْوَاصِفِ
نُذْنِيكَ فِيهَا مِنْ أَجَلِّ مَرْتَبَةٍ
وَقَائِدًا تَجْبِي لَنَا هَذَا الثَّغْرُ

وَقَدْ تَرَى تَغْيِرِي وَصَفْرَتِي
حَتَّى أُرَمَّ مِنْ صِلَاحِ حَالِي
بِالْأَهْلِ وَالْأَوْلَادِ وَالْعِيَالِ
وَجَعَلَ اللَّهُ مِنَ الشُّهُودِ
وَرَدَّهُ عَفْوًا إِلَى مَكَانِهِ
تُدَلِّي إِلَيْهِ بِالْوِدَادِ الْخَالِصِ
وَجَدَّهَا مُتَصِلٌ بِجَدِّهِ
وَأَطْلَقْتَ أُسْرِي بَنِي ذِي النُّونِ
وَتَكَبَّ الْعَسْكَرَ عَنْ حُصُونِهَا
وَنَاصِرًا لِأَهْلِ هَذَا الدِّيْنِ
وَفِي رِجَالِ الصَّبْرِ وَالْبِصَائِرِ
وَعَابِدِي الْمَخْلُوقِ دُونَ الْخَالِقِ
وَهَنَكُوا الرُّبُوعَ وَالرُّبَاعَا
وَأَنْفَرُوا مِنْ أَهْلِهَا الْمَسَاكِنَا
وَلَا بِهَا مِنْ نَافِخٍ لِلنَّارِ
وَبَدَّلُوا رُبُوعَهَا بِيَابَا

وبالقلاع أحرقوا الحصوناً

ثم تئى الإمام من عنانه

وأمن القفار من أنجاسها

وأسخنوا من أهلها العيوناً

وقد شفى الشجى من أشجانه

وطهر البلاد من أرجاسها

127 \ كتاب البيمة الثانية في أخبار زياد والحجاج

والطالبين والبرامكة

فرش كتاب أخبار زياد والحجاج والطالبين والبرامكة قال الفقيه أبو عمر أحمد بن محمد بن عبد ربه رضى الله تعالى عنه: قد مضى قولنا في أخبار الخلفاء وتواريخهم وأيامهم وما تصرفت به دولهم، ونحن قائلون بعون الله في أخبار زياد والحجاج والطالبين والبرامكة، وما سجون على شيء من أخبار الدولة، إذ كان هؤلاء الذين جردنا لهم كتابنا هذا قُطِبَ الملك الذي عليه مدار السياسة، ومعادن التدبير، وينابيع البلاغة، وجوامع البيان. هم راضوا الصعاب حتى لانت مقاردها، وخزموا الأنوف حتى سكنت شواردها، ومارسوا الأمور، وجرّبوا الدهور؟ فاحتملوا أعباءها، واستفتحوا مغالقتها، حتى استقرت قواعد الملك، وانتظمت قلائد الحكم، ونفذت عزائم السلطان.

أخبار زياد

كانت سُمِّيَّةُ أم زياد قد وهبها أبو الخير بن عمرو الكندي للحارث بن كلدة، وكان طبيباً يعالجه فولدت له على فراشه نافعاً، ثم ولدت أبا بكره، فأنكر لونه. وقيل له: إن جاريتك بغي. فأنفني من أبي بكره ومن نافع، وزوجها عبداً، عبداً لابنته. فولدت على فراشه زياداً. فلما كان يوم الطائف نادى مُنادي رسول الله صلى الله عليه وسلم: أما عبد نزل فهو حر وولاؤه لله ورسوله. فترل أبو بكره واسلم ولحق بالنبي صلى الله عليه وسلم. فقال الحارث بن كلدة لنافع: أنت ابني، فلا تفعل كما فعل هذا، يريد أبا بكره. فلحق به، فهو ينتسب إلى الحارث بن كلدة. وكانت البغايا في الجاهلية هن رايات يُعرفن بها، وينتحيها الفتيان. وكان أكثر الناس يُكرهون إماءهم على البغاء والخروج إلى تلك الرايات، يبتغون بذلك عرض الحياة الدنيا. فنهى الله تعالى في كتابه عن ذلك بقوله جل وعز: "ولا تُكرهوا فتياتكم على البغاء إن أردن تحصناً لتبتغوا عرض الحياة الدنيا. ومن يُكرههن " يريد في الجاهلية "إن الله من بعد إكراههنّ غفورٌ رحيم" يريد في الإسلام. فيقال: إن أبا سفيان خرج يوماً، وهو تمل، إلى تلك الرايات، فقال لصاحبة الراية: هل عندك من بغي؟ فقالت: ما عندي إلا سُمِّيَّة. قال: هاها على نتن إبטיها، فوقع بها. فولدت له زياداً، على فراش عبيد.

ووجه عامل من عمّال عمر بن الخطاب زياداً إلى عمر بفتح فتحه الله على المسلمين. فأمره عمر أن يخطب الناس به على المنبر. فاحسن في خطبته وجود، وعند أصل المنبر أبو سفيان بن حرب وعلي بن أبي طالب. فقال أبو سفيان لعلي: أيعجبك ما سمعت من هذا الفتى؟ قال: نعم. قال: أما إنه ابن عمك. قال: وكيف ذلك؟ قال: أنا قذفته في رحم أمه سُمِّيَّة. قال: فما يمنعك أن تدعيه؟ قال: أخشى هذا القاعد على المنبر - يعني عمر بن الخطاب - أن يُفسد عليّ إهابي. فبهذا الخبر استلحق معاوية زياداً وشهد له الشهود بذلك. وهذا خلاف حكم رسول الله صلى الله عليه وسلم في قوله: الولد للفراش وللعاهر الحجر.

العنبي عن أبيه قال: لما شهد الشهود لزياد قام في أعقابهم، فحمد الله وأثنى عليه بما هو أهله، ثم قال: هذا أمر لم أشهد أوله ولا علم لي بأخره، وقد قال أمير المؤمنين ما بلغكم، وشهد الشهود بما سمعتم. فالحمد لله الذي رفع منا ما وضع الناس، وحفظ منا ما ضيعوا. وأما عبيد فإنما هو والد مبرور، أو ربيب مشكور. ثم جلس. وقال زياد: ما هجيت بيت قط أشد عليّ من قول الشاعر:

هل نلت مكرمة إلا بتأمير

فكر ففي ذلك إن فكرت معتبر

عاشت سُمَيَّة ما عاشت وما علّمت

أنّ ابنها من قریش في الجماهير

سُبْحان مَنْ مُلْك عباد بقدرته

لا يدفع الناس أسباب المقادير

وكان زياد عاملاً لعليّ بن أبي طالب على فارس: فلما مات عليّ رضي الله عنه، وباع الحسن معاوية عام الجماعة، بقي زياد بفارس وقد ملكها وضبط قلاعها، فاعتم به معاوية، فأرسل إلى المغيرة بن شعبه. فلما دخل عليه قال: لكل نأ مستقر، ولكل سر مستودع، وأنت موضع سري وغاية ثقتي. فقال: المغيرة: يا أمير المؤمنين، إن تستودعني سرّك تستودعه ناصحاً شقيقاً، وورعاً رفيقاً، فلا ذاك يا أمير المؤمنين؟ قال: ذكرت زياداً واعتصامه بأرض فارس ومقامه بها، وهو داهية العرب، ومعه الأحوال، وقد تحصن بأرض فارس وقلاعها يُدبر الأمور، فما يؤمني أن يبيع لرجل من أهل هذا البيت، فإذا هو أعاد جدّعه. قال له المغيرة: أتأذن لي يا أمير المؤمنين في إتيانه؟ قال: نعم. فخرج إليه. فلما دخل عليه وجده وهو قاعد في بيت له مستقبل الشمس. فقام إليه زياد ورحّب به سرُّ بقدمه، وكان له صديقاً— وذلك أنّ زياداً كان أحد الشهود الأربعة الذين شهدوا على المغيرة، وهو الذي تلجج في شهادته عند عمر بن الخطاب رضي الله عنه، فنجا المغيرة وجُلد الثلاثة من الشهود، وفيهم أبو بكره أخو زياد، فحلف أن لا يكلم زياداً أبداً— فلما تفاوضا في الحديث قال له المغيرة: أعلمت أنّ معاوية استخف الرجل حتى بعثني إليك، ولا تعلم أحداً يمد يده إلى هذا الأمر غير الحسن، وقد باع معاوية فخذه لنفسك قبل التواطين فيستغني عنك معاوية. قال: أشر عليّ وارم الغرض الأقصى، فإنّ المستشار مؤتمن. قال: أرى أن تصل حبلك بحبله وتسير إليه وتعير الناس أذنأ صماء، وعيناً عمياء. قال يا بن شعبه، لقد قلت قولاً لا يكون غرسه في غير منبته، ولا مدرة تغذية، ولا ماء يسقيه، قال زهير:

وهل يُنبت التخطيء إلا وشيجه

وتغرس إلا في منابتها النخل

ثم قال: أرى ويقضي الله. وذكر عمر بن عبد العزيز زياداً فقال: سعي لأهل العراق سعي الأم البرّة وجمع لهم جمع الدرة. وقال غيره: تشبه زياداً بعمر فأفرط، وتشبه الحجاج بزياد فأهلك الناس. وقالوا: الدهاة أربعة: معاوية للروية، وعمرو بن العاص للبدية، والمغيرة للمعضلات، وزياد لكل صغيرة وكبيرة.

ولما قدم زياد العراق قال: من على حراسكم؟ قالوا: بلج. قال: إنما يحترس من مثل بلج، فكيف يكون حارساً! أخذه الشاعر فقال:

وحارس من مثله يحترس

العنبيّ قال: كان في مجلس زياد مكتوب: الشدة في غير عنف، واللين في غير ضعف. المحسن يُجازى بإحسانه، والمسيء يعاقب بإساءته. الأعطيات في أيامها. لا احتجاب عن طارق ليّلا ولا صاحب ثغر. وبعث زياداً إلى رجال من بني تميم ورجال من بني بكر، وقال: دلوني على صلحاء كل ناحية ومن يطاع فيها. فدلوه، فضمتهم الطريق وحدّ لكل رجل منهم حداً. فكان يقول: لو ضاع جبل بيني وبين خراسان عرفت من أخذ به وكان زياد يقول: من سقى صبيّاً حمراً حددناه، ومن نقب بيتاً نقبنا عن قلبه، ومن نبش قبراً دفناه حياً. وكان يقول: اثنان لا يُقاتلوا فيهما: الشتاء وبطون الأودية. وأول من جمعت له العراق زياد، ثم ابنه عبید الله بن زياد، لم تجتمع لقرشي قط غيرهما. وعبيد الله بن زياد أول من جمع له العراق وسجستان وخراسان والبحران وعمان، وإنما كان البحران وعمان إلى عمال أهل الحجاز، وهو أول من عرف العرفاء، ودعا النقباء، ونكبا المناكب، وحصل الدواوين، ومشي بين يديه بالعمد، ووضع الكراسي، وعمل المقصورة، ولبس الزیادي، ورَبَعَ الأرباع بالكوفة وخمس الأحماس بالبصرة، وأعطى في يوم واحد للمقاتلة والذرية من أهل البصرة وأهل الكوفة وبلغ بالمقاتلة من أهل الكوفة ستين ألفاً، ومقاتلة البصرة ثمانين ألفاً، والذرية مائة ألف وعشرين ألفاً. وضبط زياد وابنه عبید الله العراق بأهل العراق.

قال عبد الملك بن مروان لعبد بن زياد: أين كانت سيرة زياد من سيرة الحجاج؟ قال: يا أمير المؤمنين، إن زياداً قدم العراق وهي حمرة تشتعل، فسأل أحقادهم، ودأوى أدواءهم، وضبط أهل العراق بأهل العراق. وقدمها الحجاج فكسر الخراج، وأفسد قلوب الناس، ولم يضبطهم بأهل الشام فضلاً عن أهل العراق، ولو رام منهم ما رامه زياد لم يفجأك إلا على قعود يوحف به.

وقال نافعٌ لزيد: استعملتُ أولادَ بكرةٍ وتركتُ أولادي؟ قال: إني رأيتُ أولادك كزُماً قصاراً، ورأيتُ أولاد أبي بكرةٍ نُجباء طوالاً. ودخل عبد الله بن عامر على معاوية، فقال له: حتى متى تذهب بخراج العراق؟ فقال: يا أمير المؤمنين، ما تقول هذا لمن هو أبعدُ منِّي رَحماً! ثم خرج. فدخل على يزيد فآخبره وشكا إليه. فقال له: لعلك أغضبتَ زياداً؟ قال: قد فعلتُ. قال: فإنه لا يرضى حتى تُرضي زياداً عنك. فانطلق ابنُ عامر، فاستأذن على زياد، فأذن له وألطفه. فقال ابنُ عامر: إن شئتَ فصلحَ بعتاب، وإن شئتَ فصلحَ بغير عتاب. "قال زياد: بل صلحَ بغير عتاب" فإنه أسلم للصَّدر. ثم راح زيادٌ إلى معاوية فأخبره، وأصبح ابنُ عامر غادياً على معاوية. فلما دخل عليه، قال: مرحباً بأبي عبد الرحمن، ها هنا، وأجلسه إلى جنبه، فقال له: يا أبا عبد الرحمن:

قد علمت ذلكم الرفاق

لنا سياق ولكم سياق

الحسن بن أبي الحسن قال: ثقل أبو بكرة فأرسل زياد إليه أنس بن مالك ليصالحه ويكلمه، فانطلقتُ معه. فإذا هو مُول وجهه إلى الجدار، فلما قعد قال له: كيف تجددك أبا بكرة؟ فقال صالحاً، كيف أنت أبا حمزة؟ فقال له أنس: اتق الله أبا بكرة في زياد أخيك، فإن الحياة يكون فيها ما يكون، فأما عند فراق الدنيا فليستغفر الله أحدٌ كما لصاحبه، فوالله ما علمتُ إنه لوصل للرحم؟ هذا عبدُ الرحمن ابْنُك على الأبله، وهذا داود على مدينة الرزق، وهذا عبدُ الله على فارس كلها. والله ما علمه إلا مُجتهداً: قال: أقعدوني. فأقعدوه، فقالت: أخبرني ما قلت في آخر كلامك، فأعاد عليه القول. فقال: يا أنس، وأهل حروراء قد اجتهدوا فأصابوا أم أخطئوا؟ والله لا أكلمه أبداً ولا يصلي عليّ. فلما رجع أنس إلى زياد أخبره بما قال، وقال له: إنه قبيحٌ أن يموت مثل أبي بكرة بالبصرة، فلا تُصلي عليه ولا تقوم على قبره، فاركب دوابك والحق بالكوفة. قال: ففعل، ومات أبو بكرة بالغد عند صلاة الظهر، فصلى عليه أنس بن مالك.

وقدم شريح على زياد من الكوفة ففضى بالبصرة، وكان زياد يُجلسه إلى جنبه ويقول له: إن حكمتُ بشيء ترى غيره أقربَ إلى الحق منه فأعلمنيه. فكان زياد يحكم فلا يردُّ شريح عليه. فيقول زيادٌ لشريح: ما ترى؟ فيقول: هذا الحكم؟ حتى أتاه رجل من الأنصار، فقال: إنِّي قدمت البصرة والخطط موجودة فأردت أن أخطط لي، فقال لي بنو عمي؟ وقد احتطوا ونزلوا: أين تخرج عننا؟ أقم معنا واحتط عندنا، فوسعوا لي، فاتخذت فيهم داراً وتزوجت، ثم نزع الشيطان بيننا فقالوا لي: اخرج عننا. فقال زياد: ليس ذلك لكم، منعتهم أن يخططوا والخطط موجودة، وفي أيديكم فضل فأعطيتموه، حتى إذا ضاقت الخطط أخرجتموه وأردتم الإضرار به، لا تخرج من متلك. فقال شريح: يا مُستعير القدر اردها. قال زياد: يا مستعير القدر أحبسها ولا ترددها. فقال محمد بن سيرين: القضاء بما قال شريح، وقول زياد حسن. وقال زياد: ما غلبني أمير المؤمنين معاوية إلا في واحدة، طلبت رجلاً فلجأ إليه وتحرم به، فكتبتُ إليه: إن هذا فساد لعملي، إذا طلبتُ أحداً لجأ إليك فتحرم بك. فكتب إلي: إنه لا ينبغي لنا أن نسوس الناسَ بسياسة واحدة فيكون مقامنا مقام رجل واحد، ولكن تكون أنت للشدة والغلظة، وأكون أنا للرفاة والرحمة فيستريح الناس فيما بيننا. ولما عزل عمر بن الخطاب رضي الله عنه زياداً عن كتابة أبي موسى، قال له: أعجز أم خيانة؟ قال له: أعجز أم خيانة؟ لا عن واحدة منهما، ولكني كرهتُ أن أحمل على العامة فضل عقلك. وكتب الحسن بن علي رضي الله عنه إلى زياد في رجل من أهل شيعته، عرض له زياد وحال بينه وبين جميع ما يملكه، وكان عنوان كتابه: من الحسن بن علي إلى زياد. فغضب زيادٌ إذ قدّم نفسه عليه ولم ينسبه إلى أبي سفيان، فكتب إليه: من زياد بن أبي سفيان إلى حسن: أما بعد، فإنك كتبتَ إليّ فاسق لا يؤويه إلا الفساق، وإم الله لأطلبته ولو بين جلدك ولحمك، فإن أحبَّ لحمٍ إليّ أن أكله لحم أنت منه. فكتب الحسن إلى معاوية يشتكي زياداً، وادرج كتاب زياد في داخل كتابه. فلما قرأه معاوية أكثر التعجب من زياد، وكتب إليه: أما بعد. فإن لك رأيين أحدهما من أبي سفيان والآخر من سمية، فأما الذي من أبي سفيان فحزم وعزم، وأما الذي من سمية فكما يكون رأي مثلها، وإن الحسن بن علي كتب إليّ يذكر أنك عرضت لرجل من أصحابه، وقد حجزناه عنك ونظراءه، فليس لك على واحد منهم سبيل ولا عليه حكم. وعجبتُ منك حين كتبتَ إلى الحسن لا تُنسبه إلى أبيه، أفإلى أمه وكلته لا أم لك؟ فهو ابنُ فاطمة الزهراء ابنة رسول الله صلى الله عليه وسلم، فالآن حين اخترت له! وكتب زياد إلى معاوية: إنَّ عبدَ الله بن عباس يُفسد الناسَ عليّ، فإن أذنت لي أن أتوعده فعلتُ. فكتب إليه: إن أبا الفضل وأبا سفيان كانا في الجاهلية في مسلّاح واحد، وذلك حلف لا يحلُّه سوء رأيك. واستأذن زيادٌ معاوية في الحجّ، فأذن له. وبلغ ذلك أبا بكرة، فأقبل حتى

دخل على زياد، وقد اجلس له بنيه، فسلم عليهم ولم يُسلم على زياد. ثم قال: يا بني أخي، إن أباكم ركب أمراً عظيماً في الإسلام بادعائه إلى أبي سفيان، فوالله ما علمتُ سُمياً بغتُ قط، وقد استأذن أمير المؤمنين في الحج وهو ماراً بالمدينة لا محالة، وبها أم حبيبة بنت أبي سفيان زوج النبي صلى الله عليه وسلم، ولا بُد له من الاستئذان عليها، فإن أذنت له ففَعَد منها مَفْعَد الأخ من أخته فقد انتهك من رسول الله صلى الله عليه وسلم حرمة عظيمة، وإن لم تأذن له فهو عارٌ الأبد، ثم خرج. فقال له زياد: جزاك الله خيراً من أخ، فما تدع النصيحة على حال. وكتب إلى معاوية يستقبله، فأقاله. وكتب زياداً إلى معاوية: إني قد أخذتُ العراق بيمينتي وبقيتُ شمالي فارغة، وهو يعرض له بالحجاز. فبلغ ذلك عبد الله بن عمر رضي الله عنهما، فقال: اللهم أكفنا شماله. فعرضت له قرحة في شماله، فقتلته. ولما بلغ عبد الله ابن عمر موت زياد قال: اذهب إليك ابن سُمية، لا يداً رفعت من حرام، ولا دنياً تملّيت.

قال زياد لعجلان حاجبه: كيف تأذن للناس؟ قال: على البيوتات، ثم على الأنساب، ثم على الآداب. قال: فمن تُؤخّر؟ قال: من لا يعبأ الله بهم. قال: ومن هم؟ قال: الذين يلبسون كسوة الشتاء في الصيف! وكسوة الصيف في الشتاء. وقال زياد لحاجبه: ولتيتك حجّابتي وعزّلتك عن أربع: هذا المُنادي إلى الله في الصلاح والفلاح، لا تُعوجّه عنّي ولا سلطان لك عليه؟ وطارق الليل، لا تُحجبه فشرُّ ما جاء به ولو كان خيراً ما جاء في تلك الساعة؟ ورسول صاحب الثغر، فإنه إن أبطأ ساعة أفسد عمل سنة؟ وصاحب الطعام، فإنّ الطعام إذا أعيد تسخينه فسد. وقال عجلان حاجب زياد: صار لي في يوم واحد مائة ألف دينار وألف سيف. قيل له: وكيف ذلك؟ قال: أعطيتُ زياداً ألفَ رجل مائتي ألف دينار وسيفاً، فأعطاني كل رجل منهم نصف عطائه وسيفه.

أخبار الحجاج

دخل المغيرة بن شعبه على زوجته فارعة، فوجدها تتخلّل حين انفلتت من صلاة الغداة، فقال لها: إن كنت تتخللين من طعام البارحة فإنك لبقرة، وإن كان من طعام اليوم إنك لنهمة، كنت فينت. قالت: والله ما فرحنا إذ كنّا ولا أسفنا إذ بنّا، وما هو بشيء مما ظننت، ولكنّي استكت فأردت أن أتخلّل للسواك. فندم المغيرة على ما بدر منه، فخرج أسفاً، فلقي يوسف بن أبي عقيل، فقال له: هل لك إلى شيء أدعوك إليه؟ قال: وما ذاك؟ قال: إني نزلت الساعة عن سيّدة نساء تُعيف، فتزوّجها فإنها تُنجب لك، فتزوّجها فولدت له الحجاج. ومما رواه عبد الله بن مسلم بن قتيبة قال: إنّ الحجاج بن يوسف كان يُعلّم الصبيان بالطائف، واسمه كليب، وأبوه يوسف معلّم أيضاً. وفي ذلك يقول مالك بن الرّيب:

إذا نحن جاوزنا حفير زياد

كما كان عبداً من عبيد إباد

يروح صبيان القرى ويغادي

فماذا عسى الحجاج يبلغ جهده

فلولا بنو مروان كان ابن يوسف

زمان هو العبد المقرّ بذلة

ثم لحق الحجاج بن يوسف بروح بن زنباع، وزير عبد الملك بن مروان، فكان في عديد شرطته إلى أن شكاه عبد الملك بن مروان ما رأى من انحلال عسكره، وأنّ الناس لا يرحلون برحيله ولا يتزلون بتزوله. فقال روح بن زنباع: يا أمير المؤمنين، إنّ في شرطتي رجلاً لو قلده أمير المؤمنين أمر عسكره لأرحلهم برحيله وأنزلهم بتزوله، يقال له الحجاج بن يوسف. قال: فيأنا قد قلده ذلك. فكان لا يقدر أحد أن يتخلف عن الرحيل والتزول إلا أعوان روح بن زنباع. فوقف عليهم يوماً وقد رحل الناس وهم على طعام يأكلون، فقال لهم: ما منعكم أن ترحلوا برحيل أمير المؤمنين؟ فقالوا له: انزل يا بن اللّخناء، فكل معنا. فقال: هيهات! ذهب ما هنالك. ثم أمر بهم فجلدوا بالسياط، وطوفهم في العسكر. وأمر بفساطيط روح بن زنباع فأحرق بالنار. فدخل روح بن زنباع على عبد الملك بن مروان باكياً. فقال له: مالك؟ فقال: يا أمير المؤمنين، الحجاج بن يوسف الذي كان في عديد شرطتي ضرب عبيدي وأحرق فساطيطي. قال: عليّ به. فلما دخل عليه قال: ما حملك على ما فعلت؟ قال: ما أنا فعلته يا أمير المؤمنين قال: ومن فعله؟ قال:

أنت والله فعلته، إنما يدي يدك وسوطي سوطك، وما على أمير المؤمنين أن يُخلف على رُوح بن زبناح للفُسطاط فُسطاطين، وللغلام غلامين، ولا يَكْسريني فيما قَدَمَني له. فأخلف لروح بن زبناح ما ذهب له، وتقدّم الحجاج في منزلته. وكان ذلك أول ما عرف من كفايته.

قال أبو الحسن المدائني: كانت أم الحجاج الفارعة بنت هبار قال: وكان الحجاج بن يوسف يضع في كل يوم ألف حوان في رمضان، وفي سائر الأيام خمسمائة حوان، على كل حوان عشرة أنفس وعشرة ألوان وسمكة مشوية طرية وأرزة بسكر، وكان يُحمل في محفة ويُدار به على مواعده يتفقدوها، فإذا رأى أرزة ليس عليها سُكْر وسعى الخباز ليحيى بسكرها، فأبطأ حتى أكلت الأرزة بلا سُكْر، أمر به فضرِب مائتي سوط. فكانوا بعد ذلك لا يمشون إلا متأبطي حرائط السكر. قال: وكان يوسف بن عمر والي العراق في أيام هشام بن عبد الملك يضع خمسمائة حوان، فكان طعام الحجاج لأهل الشام خاصة، وطعام يوسف بن عمر لمن حضره، فكان عند الناس أحمد.

العُتبي قال: دخل على الحجاج سُلَيْك بن سُلَيْكَة، فقال: أصلح الله الأمير، أعزني سمعك، واغضض عني بصرك، واكف عني غربك، فإن سمعتَ خطأ أو زللاً فدوتك والعقوبة. فقال: قل، فقال: عصى عاصٍ من عُرض العشيّة فحلّق على اسمي، وهُدمت داري، وحُرمت عطائي. قال: هيهات! أما سمعت قول الشاعر:

تَعْدِي الصَّاحَ مَبَارِكَ الْجُرْبِ

وَنَجَا الْمُقَارِفُ صَاحِبُ الذَّنْبِ

جانبيك من يجني عليك وقد

ولرب مأخوذ بذنبٍ عشيرة

قال: أصلح الله الأمير، فإني سمعت الله قال غير هذا. قال: وما ذاك؟ قال: قال: "يأيها العزيز إن له أباً شيخاً كبيراً فخذ أحدنا مكانه إننا نراك من المحسنين. قال معاذ الله أن نأخذ إلا من وجدنا متاعنا عنده إننا إذا لظالمون". فقال الحجاج: عليّ يزيد بن أبي مسلم، فأتي به، فمَثَل بين يديه، فقال: افكك لهذا عن اسمه، واصكك له بعبثه، وابن له منزله، ومُر مُنادياً ينادي في الناس: صدق الله وكذب الشاعر.

أُتِيَ الحجاجُ بامرأة عبد الرحمن بن الأشعث بعد ذير الجماحم، فقال لجرسي: قل لها: يا عدوة الله، أين مال الله الذي جعلته تحت ذيلك؟ فقال: يا عدوة الله، أين مال الله الذي جعلته تحت استك؟ فقال له: كذبت، ما هكذا قلت، أرسلها فحلى عنها. الأصمعي قال: ماتت رُفقة عَطَشاً بالشحج - والشحج: ربو من الأرض في بطن فلج - فَشَحَجِي به الوادي فسُمِّي شحج - فقال الحجاج: إني أراهم قد تضرعوا إذا نزل بهم الموت، فاحفروا في مكائهم، فحفروا. فأمر الحجاج رجلاً، يقال له عضيذة يحفر البئر، فلما أنبطها حمل منها قريبتين إلى الحجاج بأواسط، فلما قدم بهما عليه. قال: يا عديدة، لقد تجاوزت مياهاً عذاباً، أحسفت أم أشلت؟ لا واحدٍ منهما، ولكن تبطا بين الماءين. قال: وكيف يكون قدره؟ قال: مرّت بنا رُفقة فيها خمسة وعشرون جملاً فرويت الإبل وأهلها. قال: أو للإبل حفرتها؟ إنما حفرتها للناس! إن الإبل ضمُر حُسْف، ما حُسِّمَت تجسّمت.

بعث عبد الملك بن مروان الحجاج بن يوسف والياً على العراق وأمره أن يحشّر الناس إلى المهلب في حرب الأزارقة. فلما أتى الكوفة صعد المنبر مُتَلَمِّماً متنكباً قوسه، فجلس واضعاً إمامه على فيه. فنظر محمد بن عمير بن عطارد التميمي، فقال: لعن الله هذا ولعن من أرسله إلينا! أرسل غلاماً لا يستطيع أن ينطق عيياً! وأخذ حصاةً بيده ليحصبه بها. فقال له جليسه: لا تعجل حتى تنظر ما يصنع فقام الحجاج فكشف لثامه عن وجهه وقال:

متى أضع العمامة تعرفوني

كنصل السيف وضاح الجبين

ونجّني مداورة الشؤون

أنا ابن جلا وطلاع الثنايا

صليب العود من سلفي نزار

أخو خمسين مجتمع أشدي

أما والله إني لأحمل الشرّ بنقله، وأحذوه بنعله، وأجزيه بملته؟ أما والله إني لأرى رؤسا قد أينعت وحان قطافها، وكأني أرى الدماء تبق العمائم واللحى لترقق

قد لفها الليل بسواق حطم

هذا وأن الشد فاشتدي زيم

ألا إن أمير المؤمنين عبد الملك بن مروان كَبَّ كنانته فعجم عيدانها، فوجدني أصلهاعوداً، فوجهني إليكم، فإنكم طالما سَعَيْتُمْ فِي الضَّلَالَةِ، وَسَنَنْتُمْ سُننَ الْبَغْيِ. أما والله لألحونكم لحوَ العصا، ولأعصبتكم عصب السَّلْمَةِ، ولأقرعنكم، قَرعَ المِرْوَةِ، ولأضربنكم ضَرْبَ غَرَابِ الإِبِلِ. والله ما أخلقُ إلا فَرِيْت، ولا أعد إلا وقيت. إني والله لا أعمرز تَعْمَارَ التَّيْنِ، ولا يُقَعِّع لي بالثَّنَانِ. إياي وهذه الزرافات والجماعات، وقيل وقال وما يقول، وفيه أنتم ونحو هذا. من وجدته بعد ثلاثة من بعث المهلب ضربت عنقه. ثم قال: يا غلام، اقرأ عليهم كتاب أمير المؤمنين، فقرأ عليهم: بسم الله الرحمن الرحيم. من عبد الملك بن مروان إلى من بالكوفة من المسلمين. سلامٌ عليكم. فلم يقل أحد شيئاً. فقال الحجاج: اسكت يا غلام، هذا أدب ابن نَهْيَةِ، والله لأؤدبنهم غير هذا الأدب أو ليستقيمُنَّ. اقرأ يا غلام كتاب أمير المؤمنين. فلما بلغ قوله: سلام عليكم لم يبق أحد في المسجد إلا قال: وعلى أمير المؤمنين السلام. ثم نزل، فأتاه عمير بن ضابئ فقال: أيها الأمير، إني شيخ كبير عليل، وهذا ابني أقوى على العزو مني. قال: أجزوا ابنه عنه، فإن الحدت أحب إلينا من الشيخ. فلما ولَّى الرجل، قال له عنبسة بن سعيد. أيها الأمير، هذا الذي ركض عثمان برحله وهو مقتول. فقال: زدوا الشيخ، فردوه، فقال: أضربوا عنقه. فقال فيه الشاعر.

تجهز فإما أن تزور ابن ضابئ

عميراً وإما أن تزور المهلباً

هما خطتا خسف نجاؤك منهما

ركوبك حولياً من التلج أشهباً

ثم قال: دُلُونِي عَلَى رَجُلٍ أَوْلِيهِ الشَّرْطَةُ. فقيل له: أي الرجال تريد؟ قال: أريده دائم العُبُوسِ، طويلَ الجُلُوسِ؟ سَمِينِ الأَمَانَةِ، أعجفَ الحِيَانَةِ، لا يَحْنُقُ فِي الحَقِّ عَلَى حُرٍّ أَوْ حُرَّةٍ، يَهُونُ عَلَيْهِ سَوَالُ الأَشْرَافِ فِي الشَّفَاعَةِ. فقيل له: عليك بعد الرحمن بن عُبَيْدِ التَّمِيمِيِّ. فأرسل إليه فاستعمله: فقال له: لستُ أقبلها إلا أن تكفيني عمالك وولدك وحاشيتك. فقال الحجاج: يا غلام، نادِ مَنْ طَلَبَ إِلَيْهِ مِنْهُمْ حَاجَةً فَفَدَّ بِرِئْتِ الذَّمَّةِ مِنْهُ. قال الشعبي: فوالله ما رأيتُ قطُّ صاحبَ شرطة مثله، كان لا يحبس إلا في دِينِ، وكان إذا أتى برجل نَقِبَ عَلَى قَوْمٍ وَضَعُ مِثْقَبَتِهِ فِي بَطْنِهِ حَتَّى تَخْرُجَ مِنْ ظَهْرِهِ، وكان إذا أتى برجل نَبَّاشٍ حَفَرَ لَهُ قَبْرًا وَدَفَنَهُ فِيهِ حَيًّا، وإذا أتى برجل قَاتِلٍ بِجَدِيدَةٍ أَوْ شَهْرٍ سَلَاحًا قَطَعَ يَدَهُ، فربما أقام أربعين يوماً لا يُؤْتَى إِلَيْهِ بِأَحَدٍ. فَضَمَّ الحجاجُ إِلَيْهِ شَرْطَةَ البَصْرَةِ مَعَ شَرْطَةِ الكُوفَةِ.

ولما قدم عبد الملك بن مروان المدينة نزل دار مروان، فمر الحجاج بخالد بن يزيد بن معاوية وهو جالس في المسجد، وعلى الحجاج سيف محلى، وهو يخطر متبخرًا. في المسجد. فقال رجل من قريش لخالد: من هذا التختارة؟ فقال بخ بخ! هذا عمرو بن العاص! فسمعه الحجاج فمال إليه، فقال: قلت: هذا عمرو بن العاص! والله ما سرني أن العاص ولدني ولا ولدته، ولكن إن شئت أخبرتك من أنا: أنا ابنُ الأشياخ من ثقيف، والعقائل من قريش، والذي ضرب مائة بسيفه هذا كلهم يشهدون على أبيك بالكفر وشرب الخمر حتى أقرؤا أنه خليفة. ثم ولَّى وهو يقول: هذا عمرو بن العاص!

الأصمعي قال: بعث الحجاج إلى يحيى بن يعمر، فقال له: أنت الذي تقول إن الحسن بن علي ابن رسول الله صلى الله عليه وسلم والله لتأتيني بالمخرج أو لأضربن عنقك. فقالت له: فإن أتيت بالمخرج فأنا آمن؟ قال: نعم. قال له: اقرأ: "وتلك حجتنا آتيناها إبراهيم على قومه نرفع درجات من نشاء" إلى قوله "ومن ذريته داود وسليمان وأيوب ويوسف وموسى وهارون وكذلك نجزي المحسنين. وزكريا ويحيى وعيسى" فمن أقرب: عيسى إلى إبراهيم، وإنما هو ابنه بنته، أو الحسن إلى محمد؟ قال الحجاج: فوالله لكأن ما قرأت هذه الآية قط، وولاه قضاء بلد. فلم يزل بما قاضياً حتى مات. قال أبو عثمان عمرو بن بحر الجاحظ: كان عبد الملك بن مروان سنان قريش وسيفها رأياً وحزماً، وعابدها قبل أن يستخلف ورعاً وزهداً، فجلس يوماً في خاصته فقبض على لحيته فشمها ملياً، ثم اجتر نفسه ونفخ نفخة أطالها، ثم نظر وجوه القوم فقال: ما أطول يوم المسألة عن ابن أم الحجاج وأدحض المحتج على العليم بما طوته الحجب. أما إن تمليك لي له قرآن بي لوعة يحشها التذكار. كيف وقد علمت فتعامت، وسمعت فتصامت، وحمله الكرام الكاتبون. والله لكأنني إلف ذي الضغن على نفسي، وقد نعت الأيام بتصرفها أنفساً حُق لها الوعيد بتصرم الدول. وما أبتت الشبهة للباقي متعلقاً، وما

هو إلا الغل الكامن من النفس بجوئائها، والغَيْظُ المندمل. اللهم أنت لي أوسع، غير مُنتصر ولا مُعتذر. يا كاتب، هاتِ الدواةَ والقرطاس. فقعد كاتبه بين يديه وأملى عليه: بسم الله الرحمن الرحيم. من عبد الله عبد الملك بن مروان إلى الحجاج بن يوسف: أما بعد. فقد أصبحتُ بأمرِك برماً، يُعديني الإشفاقُ، ويُقيمني الرجاءُ وإذا عجزتُ في دار السعة وتوسَّطَ الملكُ وحين المهل واجتماع الفكر، أن أتمسألعُذرَ في أمرِك، فأنا لعمرُ الله، في دار الجزاء، وعَدَمَ السلطان، واشتغالِ الحامة، والرُّكون إلى الذلَّة من نفسي، والتوقُّع لما طُويت عليه الصحفُ، أعجز. وقد كنتُ أشركتُك فيما طوقني الله عزَّ وجلَّ حملهُ، ولاتَ بِجُحُويِّ من أمانته في هذا الخلقِ المرُعيِّ، فذُللتُ منك على الخزم والجِدِّ في إماتة بدعة وإعناشِ سُنَّة، فقعدتَ عن تلك وهضتَ بما عاندها، حتى صرَّت حُجة الغائب والشاهد القائم، وعُدَّ اللاعن. فلعن الله أبا عَقيل وما نَجَل، فالأمُ والد وأحبُّ نَسَل. فلعمري ما ظلمكم الزَّمان ولا قعدت بكم المراتب. لقد ألبستكم ملبسكم، وأقعدتكم على رَوابي حططكم، وأحللتكم أعلى مَنعتكم، فمن حافر وناقل وماتِح للقلْب المُقعدة في الفيافي المتفيهقة، ما تقدَّم فيكم الإسلام ولقد تأخَّرتم، وما الطائف مَنَّا بيبعد يُجهل أهله. ثم قمتَ بنفسك وطمحتَ بهمتك. وسرَّك انتضاء سَيْفك، فاستخرجك أميرُ المؤمنين من أعوان رُوح ابن زِباع وشُرطته، وأنت على معاونته يومئذ مَحسود، فهفا أميرُ المؤمنين، والله يُصبح بالتوبة والغفران زلَّته وكأني بك وكأنَّ ما لو لم يكن لكان خيراً مما كان. كل ذلك من تجاسرك وتحاملك على المخالفة لرأي أمير المؤمنين. فصدعتَ صفائنا، وهتكت حُجبتنا، وبسَّطت يديك تحقنَ بهما من كرائم ذوي الحقوق اللازمة، والأرحام الواشجة، في أوعية تقيف. فاستغفر الله لذنب ما له عُذر. فلئن استقال أميرُ المؤمنين فيك الرأي فقلد حالت البصيرةُ في تقيفِ بصلاح النبي صلى الله عليه و سلم، إذ ائتمنه على الصدقات، وكان عبده فهرب بها عنه، وما هو إلا اختبار الثقة والتلطُّف لمواضع الكفاية، فقعد به الرجاءُ كما قعد بأمرِ المؤمنين فيما نصبك له. فكأنَّ هذا ألبس أمير المؤمنين ثوبَ العزاء، وهض بعُدره إلى استنشاق نَسيم الرُّوح. فاعتزَل عمل أمير المؤمنين، واضعن عنه باللَّعنة اللازمة، والعُقوبة الناهكة إن شاء الله، إذ استحكمتُ لأمرِ المؤمنين ما يُحاول من رأيه والسلام.

ودعا عبدُ الملك مولى يقال له بُبائة، له لسان وفضَّل رأي، فناوله الكتابَ، ثم قال له: يا بُبائة، العَجَلُ ثم العَجَلُ حتى تأتني العراق، فضَّع هذا الكتاب يد الحجاج وترقَّب ما يكون منه، فإن اجبَل عند قراءته واستيعاب ما فيه، فأقلعه عن عمله وانقلع معه حتى تأتي به، وهذَّ النَّاسَ حتى يأتيهم أمري، بما تصفني به في حين انقلاصك، من حُبِّي لهم السلامة. وإن هَشَّ للجواب ولم تُكثفنه أربة الحيرة، فخذ منه ما يُجيب به وأفرزه على عمله، ثم اعجل عليَّ بجوابه. قال بُبائة: فخرجتُ قاصداً إلى العراق، فضمَّنتي الصَّحاري والفيافي، واحتواني القُرَّ، وأخذتُ منِّي السفرُ حتى وصلتُ. فلما وردته أدخلت عليه في يوم ما يحضُّره فيه المَلأ، وعليَّ شحوبٌ مُضني، وقد توسَّطَ خدمته من نواحي، وتدثَّر بِمَطْرَفِ خَزٍّ أدكن، ولاتَ به النَّاسُ من بني قائمٍ وقاعد. فلما نظر إليَّ، وكان لي عارفاً، قعد، ثم تبسَّم تبسَّم الوجَل، ثم قال: أهلاً بك يا بُبائة، أهلاً بمولى أمير المؤمنين، لقد أترَّ فيك سفركُ، وأعرف أمير المؤمنين بك ضنيناً، فليت شعري، ما دَهَمَكَ أو دَهَمَنِي عنده. قال: فسَلَّمْتُ وقعدتُ. فسأل: ما حالُ أمير المؤمنين وخوله؟ فلما هدأ أخرجت له الكتاب فناولته إياه. فأخذه منِّي مُسرِعاً ويده تُرعد، ثم نظر في وجوه النَّاس فما شعرتُ إلا وأنا معه ليس معنا ثالث، وصار كُلُّ من يُطيف به من خدَمه تلقاه جانباً لا يسمعون منَّا الصوت. ففكَّ الكتابَ فقراه، وجعل يثأب ويُردد تتأوُّبه ويسير العرقُ على جبينه وصدغيه على شدة البرد من تحت قلنسوته، من شدة الفرق، وعلى رأسه عمامة خَزٍّ خضراء، وجعل يشخص إليَّ ببصر ساعة كالمثوِّهم، ثم يعود إلى قراءة الكتاب، ويلاحظني النظر كالمثوِّهم، إلا أنه واجم، ثم يعاود الكتاب، وإني لأقول: ما أراه يُثبت حروفه من شدة اضطراب يده، حتى استقصى قراءته. ثم مالت يده حتى وقع الكتابُ على الفراش، ورجع إليه ذهنه، فمسح العرق عن جبينه، ثم قال متمثلاً:

أَلْفَيْتَ كُلَّ تَمِيمَةٍ لَا تَنْفَعُ

وَإِذَا الْمَنِيَّةُ أَنْشَبَتْ أَظْفَارَهَا

ثم قال: قَبِحَ والله منَّا الحسنُ يا بُبائة، وتواكلتنا عند أمير المؤمنين الألسن.

وما هذا إلا سانح فِكْرة نَمَّقها مُرصدٌ يَكَلِّبُ بقصَّتنا، مع حُسن رأي أمير المؤمنين فينا. يا غلام. فتبادر العِلْمان الصَّيِّحة، فملئ علينا منهم المجلس حتى دَفَأتني منهم الأنفاس. قال: الدَّواةُ والقرطاس،. فأتي بالدواة والقرطاس، فكتب بيده: وما رَفَعَ القلم إلا مُستمدداً حتى سَطَّرَ مثل خدِّ الفرس. فلما فرغ قال لي: يا بُبائة، هل علمتَ ما جئتَ به فُتسمعتُ ما كتبنا؟ فقلت: لا. قال: إذا حَسَبك منَّا مثله. ثم ناولني الجوابَ وأمر لي بجائزة فأجزل، وجرد لي

كيساء، ودعا لي بطعام فأكلت، ثم قال نكلك إلى ما أمرت به من عجلة أو توان، وإني لأحب مقارنتك والأنس برؤيتك. فقلت: كان معي قفلٌ مفتاحه عندك، وفتح قفلك عندي، فأحدثت لك العافية بأمرين: فأقفلت المكروه وفتحت العافية، وما ساعني ذلك، وما أحب أن أزيدك بياناً، وحسبك من استعجالي القيام. ثم نهضت، وقام مودعاً لي فالتزمني، وقال: بأبي أنت وأمي، رب لفظة مسموعة، ومحترم نافع، فكُن كما أظن. فخرجتُ مُستقبلاً وجهي حتى وردتُ أمير المؤمنين، فوجدته مُنصرفاً من صلاة العصر، فلما رأيته قال: ما احتواك المضجع يا نبأته! فقلت: من خاف من وجه الصبح أذبح، فسلمت وانتبذت عنه. فتركتني حتى سكن جأشي ثم قال: مهيم؟ فدفعتُ إليه الكتاب، فقرأه مُتبسماً، فلما مضى فيه ضحك حتى بدت له سنُّ سوداء، ثم استقصاه فانصرف إليّ، فقال: كيف رأيت إشفاقه؟ قال: فقصصتُ عليه ما رأيتُ منه فقال: صلواتُ الله على الصادق الأمين "إن من البيان لسحراً" ثم قذف الكتاب إليّ، فقال: اقرأ، فقرأته فإذا فيه:

بسم الله الرحمن الرحيم. لعبد الله عبد الملك أمير المؤمنين، وخليفة رب العالمين؟ المؤيد بالولاية، المعصوم من خطل القول، وزلل الفعل، بكفالة الله الواجبة لذوي أمره، من عبد اكتنفته الذلة، ومدَّ به الصغار إلى وخيم المرتع، ووبيل المكرع، من جليل فادح، ومُعتد قادح. والسلام عليك ورحمة الله، التي اتسعت فوسعت، وكان بها إلى أهل التقوى عائداً فيني أحمدُ إليك الله الذي لا إله إلا هو، راجياً لعطفك بعطفه، أما بعد. كان الله لك بالدعة في دار الزوال، والأمن في دار الزلزال. فإنه من عُنيت به فكرتُك يا أمير المؤمنين مخصوصاً فما هو إلا سعيد يُوتر أو شقي يُوتر، وقد حجَّني عن نواظر السعد لسان مرصد، ونافس حقد، انتهب به الشيطان حين الفكرة، فافتتح به أبواب الوسوس بما تحنق به الصدور. فواغوثاه استعادةً بأمير المؤمنين من رَجيم إنما سلطانه على الذين يتولونه، واعتصاماً بالتوكل على من خصَّه بما أجزل له من قَسَم الإيمان وصادق السنة. فقد أراد اللعين أن يفتق لأوليائه فتقاً نبا عنه كيده، وكثر عليه تحسره، بلبية قرع بها فكر أمير المؤمنين مُلبساً، وكادحاً ومؤرشاً، ليُفل من عزمه الذي نصبي له، ويصيب ثاراً لم يزل به موتوراً.

وذكر قديم ما مُني به الأوائل وكيف لحقتُ بئله منهم، وما كُنتُ أبلوه من حسنة أقدار ومزاولة أعمال، إلى أن وصلتُ ذلك بالتشرط لروح بن زبناح.

وقد علم أمير المؤمنين، بفضل ما اختار الله له تبارك وتعالى من العلم المأثور الماضي، بأن الذي عُير به القوم من مصانعهم من أشد ما كان يُراوله أهل القُدمة الذين احتبى الله منهم، وقد اعتصموا وامتعضوا من ذكر ما كان، وارْتفَعوا بما يكون، وما جهل أمير المؤمنين - وللبيان موقعه غير مُحْتج ولا متعد - أن متابعه روح بن زبناح طريق الوسيلة لمن أراد من فوقه، وأن روحاً لم يُلبسني العزم الذي به رفعتُ أمير المؤمنين عن حوله، وقد أَلصقتني بروح بن زبناح هِمَّةً لم تنزل نواظرها ترمي بي البعيد، وتُطالع الأعلام. وقد أخذتُ من أمير المؤمنين نصيباً اقتسمه الإشفاق من سخطته، والمواظبة على موافقته، فما بقي لنا في مثله بعده إلا صباية إرث، به تجول النفس، وتطرف النواظر. ولقد سرتُ بعين أمير المؤمنين سير المثبط لمن يتلوه المتطاول لمن تقدّمه، غير مبت مُوجف، ولا مُتثاقل مُحجف، ففتُّ الطالب، ولحقت الهارب، حتى سادت السنة، وبادت البدعة، وخسئ الشيطان، وحملت الأديان إلى الجادة العظمية. والطريقة المثلى. فهأنذا يا أمير المؤمنين: نُصب المسألة لمن رامني، وقد عقدت الحوبة، وقرنت الوظيفين لقاتل مُحْتج، أو لائم مُلتج. وأمير المؤمنين ولي المظلوم، ومَعقل الخائف. وستظهر له المحنة نأ امرى، ولكل نأ مستقر. وما حَفنتُ يا أمير المؤمنين في أوعية تقيف حتى روي الظمان، وبطن العرثان، وغصت الأوعية، وانقادت الأوكية في آل مروان فأخذت فضلاً صار لها، لولاها للقطته السابلة. ولقد كان ما أنكره أمير المؤمنين من تحاملي، وكان ما لو لم يكن لعظم الخطب فوق ما كان، وإن أمير المؤمنين لرباع أربعة، أحدهم ابنة شُعيب النبي صلى الله عليه وسلم إذ رمت بالظن غرض اليقين تفرساً في النجى المصطفى بالرسالة، فحق لها في الرجاء، وزالت شبهة الشك بالاختبار، وقبلها العزيز في يوسف، ثم الصديق في الفاروق، رحمة الله عليهما، وأمير المؤمنين في الحجَّاج. وما حسد الشيطان يا أمير المؤمنين حاملاً، ولا شَرَق بغير شحى. فكم غيظة يا أمير المؤمنين. للرجيم أدبر منها وله عواء وقد قلتُ حيلته. ووهن كيده يوم كيت وكيت، ولا أظن أذكر لها من أمير المؤمنين. ولقد سمعتُ لأمير المؤمنين في صالح، صلواتُ الله عليه، وفي تقيف مقالاً، هجم بي الرجاء لعدله، عليه بالحجة في ردّه. مُحكم التريل على لسان ابن عمه حاتم النبیین وسيد المرسلين، صلى الله عليه وسلم فقد أخبر عن الله عز وجل، وحكاية عن الملاء من قُرَيْش عند الاختيار والافتخار، وقد نفخ الشيطان في مناخرهم، فلم يدعوا خلف ما قصدوا إليه مرمى. فقالوا: "لولا نزل هذا القرآن على رجل من القريتين عظيم". فوقع اختيارهم، عند المباهاة بنفخة الكفر وكثر الجاهلية، على الوليد

بن المغيرة المخزومي وأبي مسعود الثقفي، فصارا في الإفتخار بهما صنوين، ما أنكر اجتماعهما من الأمة مُنكر في خبر القرآن، ومبلغ الوحي. وإن كان يُقال للوليد في الأمة يومئذ رِيحانة قريش، وما رد ذلك العزيز تعالى إلا بالرحمة الشاملة في القسم السابق، فقال عز وجل: "أهم يقسمون رحمة ربك نحن قسّمنا بينهم معيشتهم في الحياة الدنيا". وما قدّمتهني يا أمير المؤمنين تقيف في الاحتجاج لها، وإن لها مقالاً رحباً، ومُعانة قديمة، إلا أن هذا من أيسر ما يحتج به العبدُ المُشفق على سيده المُغضب، والأمر إلى أمير المؤمنين، عزّل أم أقرّ، وكلاهما عدلٌ مُتبع. وصواب معتقد. والسلام عليك يا أمير المؤمنين ورحمة الله.

قال ثبّانة: فأتيْتُ على الكتاب بمحضّر أمير المؤمنين عبد الملك، فلما استوعبته سارقتُه النظرة على الهيبة منه، فصادف لحظي لحظه، فقال: اقطعه، ولا تُعلمنّ بما كان أحداً فلما مات. عبدُ الملك فشا عني الخبر بعد موته.

محمد بن المنتشر بن الأجدع الهمداني قال: دَفَع إليّ الحجاج رجلاً ذمياً وأمرني بالتشديد عليه والإستخراج منه، فلما انطلقتُ به، قال لي: يا محمد، إن لك لشرفاً وديناً، وإن لا أعطي على القسر شيئاً فاستأذني وارفق بي. فقال: ففعلتُ، فأدى إليّ في أسبوع خمسمائة ألف. فبلغ ذلك الحجاج فأغضبه، فانزعج من يدي ودفعه إلى الذي كان يتولّى له العذاب، فذقّ يديه ورجليه، ولم يُعطهم شيئاً، قال محمد بن المنتشر: فإني لسائرُ يوماً في السوق، إذا صائح بي يا محمد، فالتفتُ، فإذا أنا به مُعرضاً على حمارٍ مدقوقٍ اليدين والرجلين. فخفت الحجاج إن آتيته وتذممتُ منه، فملتُ إليه، فقال لي: إنك وليتَ منّي ما ولي هؤلاء، فرفقتَ بي وأحسنْتَ إليّ، وإهم صنعوا ما ترى، ولم أعطهم شيئاً ولي خمسمائة ألف عند فلان فخذها مكافأة لما أحسنتَ إليّ. فقلت: ما كنتُ لأخذ منك على معروفٍ أجرأ، ولا لأرزأك على هذه الحال شيئاً. قال: فأما إذا نبت فاسمع منّي حديثاً أحذثك به حدثنيه بعض أهل دينك عن نبيك صلى الله عليه وسلم أنه قال: "إذا رضي الله عن قوم أنزل عليهم المطر في وقته، وجعل المال في سُمحائهم، واستعمل عليهم خيارهم وإذا سَخَط على قوم أنزل عليهم المطر في غير وقته، وجعل المال في بُخلائهم، واستعمل عليهم شرارهم". فانصرفتُ، فما وضعت ثوبي حتى أتاني رسولُ الحجاج. فسرتُ إليه، فألفيته جالساً على فراشه والسيفُ مُصلت بيده. فقال لي: اذنُ، فدنوتُ شيئاً. ثم قال لي: اذن، فدنوتُ شيئاً. ثم قال لي الثالثة: اذنُ، لا أبالك! فقلتُ: ما بي إلى الدنوّ من حاجة، وفي يد الأمير ما أرى. فضحك وأغمد سيفه، وقال: اجلس، ما كان من حديث الخبيث؟ فقلت له أيها الأمير، والله ما غششتُك منذ استنصحتني، ولا كذبتُك منذ استخبرتني، ولا خنتُك منذ اتمنتني، ثم حدثته. فلما صرتُ إلى ذكر الرجل الذي المالُ عنده اعرض عني بوجهه، وأوماً إليّ بيده، وقال: لا تُسمّه، ثم قال: إن للخبيث نفساً وقد سمع الأحاديث.

ويقال: إن الحجاج كان إذا استغرب ضحكاً والى بين الاستغفار، وكان إذا صعد المنبر تلعّف بمطرفه، ثم تكلم رويداً فلا يكاد يسمع، ثم يتزّيد في الكلام، فيخرج يده من مطرفه، ثم يزجر الزّجرة فيقرع بها أقصى من في المسجد.

صعد خالد بن عبد الله القسري المنبر في يوم الجمعة وهو إذ ذاك على مكة، فذكر الحجاج، فحمد طاعته وأثنى عليه خيراً. فلما كان في الجمعة الثانية ورد عليه كتابُ سليمان بن عبد الملك، يأمره فيه بشتم الحجاج ونشر عيوبه وإظهار البراءة منه. فصعد المنبر فحمد الله وأثنى عليه، ثم قال: إن إبليس كان ملكاً من الملائكة، وكان يظهر من طاعة الله ما كانت الملائكة ترى له به فضلاً، وكان الله قد علم من غشّه وخبثه ما خفي على ملائكته، فلما أراد الله فضيحتَه أمره بالسُّجود لآدم، فظهر لهم منه ما كان مُخفيه، فلعنوه. وإن الحجاج كان يُظهر من طاعة أمير المؤمنين ما كُنّا نرى له به فضلاً، وكان الله قد أطلع أمير المؤمنين من غشّه وخبثه على ما خفي عنّا، فلما أراد الله فضيحتَه أجرى ذلك على يد أمير المؤمنين فلعنه، فالعنوه لعنه الله، ثم نزل.

ولما أتى الحجاج بامرأة ابن الأشعث قال للحرس: قل لها: يا عدوة الله، أين مال الله الذي جعلته تحت ذيلك؟ فقال لها الحرس: يا عدوة الله، أين مال الله الذي جعلته تحت استك؟ قال الحجاج: كذبت، ما هكذا قلت. أرسلها. فخلي سبيلها.

أبو عوانة عن عاصم عن أبي وائل قال: أرسل الحجاج إلي، فقال لي: ما اسمك؟ قلت: ما أرسل الأميرُ إليّ حتى عَرَف اسمي! قال لي: متى هبطت هذه الأرض؟ قلت: حين ساكنتُ أهلها. قال: كم تقرأ من القرآن؟ قلت: أقرأ منه ما إن أتبعته كفاً قال: إني أريد أن أستعين بك على بعض عملي.

قلت: إن تستعن بي بكبيرٍ أحرَقَ ضعيفٍ يخاف أعوانِ السوء، وإن تدعني فهو أحبُّ إليَّ، وإن تُقحمني أتقحم. قال: إن لم أجد غيرَكَ أقحمتك، وإن وجدتُ غيرَكَ لم أقحمتك. قلت: وأحرى أكرم الله الأمير، إني ما علمتُ الناسَ هابوا أميراً قط هيبتهم لك، والله إني لأتعارَّ من الليل فأذكرك فما يأتيني النومُ حتى أصبح، هذا ولستُ لك على عمل. فأعجبه ذلك، وقال: هيه، كيف قلت؟ فأعدتُ عليه الحديث. فقال: إني والله ما أعلم اليوم رجلاً على وجه الأرض هو أحرأ على دمٍ منِّي. قال: فقمتُ فعدلتُ عن الطريق عمداً كأني لا أبصر. فقال: اهدوا الشيخ، أُرشدوا الشيخ.

أبو بكر بن أبي شيبَةَ قالت: دخل عبدُ الرحمن بن أبي ليلى على الحجاج، فقال لجلسائه: إذا أردتم أن تنظروا إلى رجلٍ يسبُ أميرَ المؤمنين عثمان فأنظروا إلى هذا. فقال عبدُ الرحمن: معاذَ الله أيها الأميرُ أن أكون أسب عثمان، إنه ليحجزني عن ذلك آيات في كتاب الله تعالى: "للقراء المهاجرين الذين أخرجوا من ديارهم وأموالهم يبتغون فضلاً من الله ورضواناً وينصرون الله ورسوله أولئك هم الصادقون" فكان عثمانُ منهم. ثم قال: "والذين تبوءوا الدارَ والإيمانَ من قبلهم يُحبُّونَ من هاجرَ إليهم ولا يجدون في صدورهم حاجةً مما أوتوا ويؤثرون على أنفسهم ولو كان بهم خصاصة" فكان أبي منهم. ثم قال: "والذين جاءوا من بعدهم يقولون ربنا اغفر لنا ولإخواننا الذين سبقونا بالإيمان" فكنتُ أنا منهم. قال: صدقت.

أبو بكر بن أبي شيبَةَ عن أبي معاوية عن الأعمش قال: رأيتُ عبدَ الرحمن ابن أبي ليلى ضربَه الحجاجُ ووقفه على باب المسجد، فجعَلوا يقولون له: ألعن الكاذبين: علي بن أبي طالب، وعبدُ الله بن الزبير، والمختار بن أبي عبيد. فقال: لعنَ الله الكاذبين، ثم قال: في علي بن أبي طالب، وعبدُ الله بن الزبير، والمختار بن أبي عبيد، بالرفع. فعرفتُ حين سكت ثم ابتداءً فرجع أنه ليس يُريدهم.

قال الشعبيُّ: أتى بي الحجاجُ مؤثقاً، فلما جئتُ باب القصر لقيني يزيدُ بن أبي مسلم كاتبه، فقال: إنا لله يا شعبي لما بين دفتيك من العلم، وليس اليومَ بيوم شفاعة. قلتُ له: فما المخرج؟ قال: بُؤُ للأمر بالشرك والنفاق على نفسك وبالحرِّي أن تجو. ثم لقيني محمدُ بن الحجاج فقال لي مثلَ مقالة يزيد.

فلما دخلتُ على الحجاج قال لي: وأنعت يا شعبي فيمن خرج علينا وأكثر؟ قلتُ: أصلحَ الله الأمير، بنا بنا

المتزل، وأجذب بنا الجناب، واستحلستنا الخوف، واكتحلنا السهر، وضاق المسلك، وخبطتنا فتنةً لم نكن فيها بررة أتقياء، ولا فجرة أقباء. قال:

صدق والله ما برؤوا بخروجهم علينا ولا قوا، أطلقوا عنه. فاحتاج إلي في فريضة بعد ذلك فأرسل إلي، فقال: ما تقول في أم وأخت وجد؟ فقلت:

اختلف فيها خمسة من أصحاب محمد صلى الله عليه وسلم عبدُ الله بن مسعود، وعلي، وعثمان، وزيد، وابن عباس. قال: فما قال فيها ابنُ عباس، إن كان لمُنقَباً؟ قلت: جعل الجد أباً ولم يُعط الأخت شيئاً، وأعطى الأم الثلث. قال: فما قال فيها ابنُ مسعود؟ قلت: جعلها من ستة، فأعطى الجدَّ ثلاثة،

وأعطى الأم اثنين، وأعطى الأخت سهماً. قال: فما قال زيد؟ قلت: جعلها من تسعة، فأعطى الأم ثلاثة، وأعطى الجد أربعة، وأعطى الأخت اثنين،

فجعل الجدَّ معها أحاً. قال: فما قال فيها أميرُ المؤمنين عثمان؟ قلت: جعلها ثلاثاً. قال: فما قال فيها أبو تراب؟ قلت: جعلها من ستة، فأعطى الأخت

ثلاثة، وأعطى الأم اثنين، وأعطى الجدَّ سهماً. قال: مُر القاضي فليمضها على ما أمضاها أميرُ المؤمنين. فبينما أنا عنده إذ جاءه الحاجبُ فقال له: إن

بالباب رسلاً. فقال: إيذن لهم. قال: فدخلوا وعمائمهم على أوساطهم، وسيوفهم على عواتقهم، وكتبهم بأيامهم، وجاء رجل من بني سليم يقال له

شبابة بن عاصم، فقال له: من أين؟ قال: من الشام. قال: كيف تركت أمير المؤمنين وكيف تركت حشمه؟ فأخبره. قال: هل وراءك من غيث؟ قال:

نعم. أصابني فيما بيني وبين الأمير ثلاث سحائب. قال: فأنعت لي كيف كان وقع المطر وتباشيره؟ قال: أصابني سحابةٌ بجوارين فوقَ قطرٍ صغار

وقطرٍ كبار، فكانت الصغار لحمةً للكبار، ووقع نشيطاً ومُتداركاً، وهو السحج الذي سمعتُ به، فوادٍ سائل، ووادٍ نازح، وأرض مُقبلة، وأرض مُدبرة.

وأصابتني سحابةٌ بسراء فلبدت الدمام، وأسالت العزاز، وأدحضت التلاع، وصدعت عن الكمأة أماكنها. وأصابتني سحابةٌ بالقرتين فقادت الأرضُ

بعد الرِّي. وامتلأت الأحاديث، وأفعمت الأودية، وجئتك في مثل وجار الضبُع. ثم قال: إيذن، فدخل رجل من بني أسد. فقال: هل وراءك من غيث؟

قال: لا، كثر الإعصار، وأغبرت البلاد، وأيقنا أنه عام سنة. قال: بمس المخير أنت. قال: أخبرتك الذي كان ثم، قال: إيذن. فدخل رجل من أهل

اليمامة. قال: هل وراءك من غيث؟ قال: نعم، سمعت الرُّواد يدعون إلى الماء وسمعت قائلاً يقول: هلمَّ ظعنكم إلى محلة تطفأ فيها النيران، وتشكى فيها

النساء، وتنافس فيها المعزى. وقال الشعبيُّ: فلم يدر الحجاج ما قال. فقال له: تبأ لك! إنما تُحدث أهلَ الشام فأفهمهم. قال: أصلحَ الله الأمير، أخصب

الناس، فكثرت النمر والسمن والزبد واللبن، فلا تُوقد نار يُختبر بها. وأما تشكى النساء، فإن المرأة تظللُ ترْبِقَ بهمها، وتمخضَ لبنها، فتبيت ولها أنينٌ من

عضدها. وأما تنافس المعزى، فإنها ترى من أنواع النمر وأنواع الشجر وتورُ النبات ما يُشبع بطونها ولا يُشبع عيونها، فتبيت وقد امتلأت أكراشها،

ولها من الكِطَّة جِرة، فبقي الجِرة حتى تَسْتزِل الدَّرَّة. ثم قال: إيذن، فدخل رجلٌ من الموالِي كان من أشد الناس في ذلك الزمان. فقال له: هل وراءك من غيث؟ قال. نعم، ولكني لا احسن أن أقول ما يقول هؤلاء. قال: فما تُحسن؟ قال: أصابني سحابة مُجْلوان، فلم أزل أظأ في آثارها حتى دخلت عليك. فقال: لئن كنت أقصرهم في المطر خُطبة، فإنك لأطولهم بالسيف خُطوة.

إبراهيم بن مَرْزوق عن سعيد بن جُويرية قال: لما كان عامُ الجماعة كتب عبدُ الملك بن مروان إلى الحجاج: انظر ابن عمر فاقند به وخُذ عنه، يعني في المناسك. قال: فلما كان عشية عرفة، سار الحجاج بين يدي عبد الله بن عمر وسالم ابنه، فقال له سالم: إن أردت أن تُصيب السنة اليوم فأوجز الخُطبة وعَجِّل الصلاة. قال: فَقطَّب ونظر إلى عبد الله بن عمر. فقال: صدق. فلما كان عند الزوال مرَّ عبد الله بن عمر بسراده، وقال الرواح: فما لبث أن خَرَج ورأسه يَفْطُر كأنه قد اغتسل. فلما أفاض الناس، رأيتُ الدم يتحدَّر من النَّجبية التي عليها ابنُ عمر، فقال: أبا عبد الرحمن، عقرت النَّجبية؟ قال: أنا عقرت ليس النَّجبية، وكان أصابه زُج رُمح بين إصبعين من قدمه، فلما صرنا بمكة دخل عليه الحجاج عائداً؟ فقال: يا أبا عبد الرحمن، لو علمتُ من أصابك لفعلتُ وفعلت. قال له: أنت أصبتي. قال: غفر الله لك. لم تقول هذا؟ قال: حملت السلاح في يوم لا يُحمل فيه السلاح؟. أبو الحسن المدائني قال: أخبرني من دخل المسجد، والحجاج على المنبر، وقد ملاً صوته المسجد بأبيات سويد بن أبي كاهل اليشكري حيث يقول:

قد تمنى لي موتاً لم يطع

عند غايات المدى كيف أقع

شمّل الرأس مَشيبٌ وصلع

رُب من أنضجتُ غيظاً صدره

ساء ما ظنوا وقد أبليتهم

كيف يرجون سقاطي بعدما

كتب الوليدُ إلى الحجاج: أن صِف لي سيرتك. فكتب إليه: إني أيقظت رأي، وأنت هوائي، فأدريت السيد المطاع في قومه، ووليت الحَرْب الحازم في أمره، وقلدت الخراج الموفر لأمانته، وصرفتُ السيف إلى النطف المَسيء، فخاف المريبُ صولة العقاب، وتمسكُ المحسن بحظه من الثواب. قرأ الحجاج: في سورة هود "قال يا نُوح إنه ليس من أهلِكَ إنه عمَل غير صالح" فلم يدُر كيف يقرأ: عمل بالضم والتنوين، أو عمل بالفتح فبعث حرسياً فقال: إيتني بقارئ. فأتي به، وقد ارتفع الحجاج عن مجلسه، فحبسه ونسيه حتى عَرَض الحجاجُ حبسه بعد ستة أشهر، فلما انتهى إليه قال له: فيم حبست؟ قال: في ابن نُوح، أصلح الله الأمير، فأمر بإطلاقه.

إبراهيم بن مَرْزوق قال: حدثني سعيد بن جُويرية قال: خرجتُ خارجةً على الحجاج بن يوسف، فأرسل إلى أنس بن مالك أن يَخرج معه، فأبي. فكتب إليه يَشتمه. فكتب أنسُ بن مالك إلى عبد الملك بن مروان يشكوه، وأدرج كتابَ الحجاج في جوف كتابه. قال إسماعيل بن عبد الله بن أبي المهاجر: بعث إليَّ عبدُ الملك بن مروان في ساعة لم يكن يبعثُ إليَّ في مثلها. فدخلتُ عليه وهو أشدُّ ما كان حنقاً وغيظاً، فقال: يا إسماعيل، ما أشدَّ عليَّ أن تقول الرعية: ضعُف أمير المؤمنين وضاق ذرعه في رجل من أصحاب النبي صلى الله عليه وسلم لا يقبل له حسنة، ولا يتجاوز له عن سيئة! فقلت: وما ذاك يا أمير المؤمنين؟ قال: أنس بن مالك، خدام رسول الله صلى الله عليه وسلم كتب إليَّ يذكر أن الحجاج قد أضرَّ به وأساء جواره، وقد كتبتُ في ذلك كتابين: كتاباً إلى أنس بن مالك، والآخر إلى الحجاج، فاقبضهُما ثم أخرج عليَّ البريد، فإذا وردت العراق فأبدأ بأنس بن مالك فادفعُ إليه كتابي، وقل له: أشتدَّ على أمير المؤمنين ما كان من الحجاج إليك، ولن يأتي أمرٌ تكرهه إن شاء الله. ثم إيت الحجاج فادفعُ إليه كتابه، وقل له: قد اغتررتُ بأمير المؤمنين غرةً لا أظنك يُخطئك شرها، ثم أفهم ما يتكلمُ به وما يكون منه، حتى تُفهمني إياه إذا قدمت عليَّ إن شاء الله قال إسماعيل: فقبضتُ الكتابين وخرجتُ على البريد حتى قدمتُ العراق، فبدأتُ بأنس بن مالك في منزله، فدفعتُ إليه كتاب أمير المؤمنين وأبلغته رسالته، فدعا له وجزاه خيراً. فلما فرغ من قراءة الكتاب قلتُ له: أبا حمزة، إن الحجاج عاملٌ ولو وُضع لك في جامعةٍ لَقدر أن يَصرك وينفعك، فأنا أريد أن تصالحه. قال: ذلك إليك لا أخرجُ عن رأيك. ثم أتيتُ الحجاج، فلما رأني رحَّب وقال: والله لقد كنتُ أحب أن أراك في بلدي هذا. قلت: وأنا والله قد كنتُ أحب أن أراك وأقدمُ عليك بغير الذي أرسلتُ به إليك. قال: وما ذاك؟ قلت: فارقتُ الخليفة وهو أغضبُ الناس عليك. قال: ولم؟ قال: فدفعتُ إليه

الكتاب. فجعل يقرؤه وجبينه يعرق. فيمسحه بيمينه، ثم قال: أركب بنا إلى أنس بن مالك. قلت له: لا تفعل، فإني سأتلطف به حتى يكون هو الذي يأتيك؟ وذلك للذي شرت عليه من مصالحته. قال: فألقى إلي، كتاب أمير المؤمنين فإذا فيه: بسم الله الرحمن الرحيم. من عبد الله عبد الملك بن مروان إلى الحجاج بن يوسف. أما بعد. فإنك عبدٌ طمّت بك الأمور فطغيت وعلوت فيها حتى جُزت قدرك، وعدوت طورك، وبم الله يابن المستفرمة بعجم زيب الطائف، لأغمزتك كبعض غمزات اللبوث للتعالب، ولأركضنك ركضة تدخل منها في وجعاء أمك. أذكر مكاسب آبائك بالطائف، إذ كانوا يتقلون الحجارة على أكتافهم، ويحفرون الآبار والمناهل بأيديهم، فقد نسيت ما كنت عليه أنت وآباؤك من الدناءة واللؤم والضراعة. وقد بلغ أمير المؤمنين استطلائة منك على أنس بن مالك خادم رسول الله صلى الله عليه وسلم جرأةً منك على أمير المؤمنين وغرةً بمعرفة غيره ونقماته وسطواته على من خالف سبيله، وعمد إلى غير محبته، ونزل عند سخطته. وأظنك أردت أن تُروزه بما لتعلم ما عنده من التغيير والتكبير فيها. فإن سوغتها مضيت قداماً، وإن بُغضتها وليت ذبراً، فعليك لعنة الله من عبد أخفش العينين، أصك الرجلين، ممسوح الجاعرتين وائم الله لو أن أمير المؤمنين علم أنك اجترمت منه جرماً، وانتهكت له عرضاً فيما كتب به إلى أمير المؤمنين، لبعث إليك من يسحبك ظهراً لبطن حتى ينتهي بك إلى أنس بن مالك، فيحكّم فيك ما أحب. ولن يخفى على أمير المؤمنين نبؤك، ولكل نبأ مستقر وسوف تعلمون.

قال إسماعيل: فانطلقتُ إلى أنس، فلم أزل به حتى انطلق معي إلى الحجاج.

فلما دخلنا عليه قال: يعفر الله لك أبا حمزة، عجلت باللائمة وأغضبت علينا أمير المؤمنين، ثم أخذ بيده فأجلسه معه على السرير. فقال أنس: إنك كنت تزعم أنا الأشرار، والله سمانا الأنصار. وقلت: إنا من أبخل الناس، ونحن الذين قال الله فيهم: "ويؤثرون على أنفسهم ولو كان بهم خصاصة". وزعمت أنا أهل نفاق والله تعالى يقول فينا: "والذين تبوءوا الدارَ والإيمانَ من قبلهم يُحبونَ من هاجر إليهم ولا يجدونَ في صدورهم حاجةً مما أوتوا". فكان المفزع والمشتكى في ذلك إلى الله وإلى أمير المؤمنين، فتولّى من ذلك ما ولاة الله، وعرف من حقنا ما جهلت، وحفظ منا ما ضيعت، وسيحكّم في ذلك رب هو أَرْضَى للمرضي، وأسخط للمُسخط، وأقدر على المُغير، في يوم لا يشوب الحق عنده الباطل، ولا النور الظلمة، ولا الهدى الضلالة. والله لو أن اليهود أو النَّصارى رأَت من خدم موسى بن عمران أو عيسى بن مريم يوماً واحداً لرأت له ما لم تروا لي في خدمة رسول الله عشر سنين. قال فاعتذر إليه الحجاج وترضاه حتى قبل عُذره ورضي عنه، وكتب برضاه عنه وقبوله عُذره. ولم يزل الحجاج له مُعظماً هائباً له حتى أنس رضي الله عنه. وكتب الحجاجُ إلى أمير المؤمنين عبد الملك بن مروان: بسم الله الرحمن الرحيم.

أما بعد. أصلح الله أمير المؤمنين وأبقاه، وسهّل حظّه وحاطه ولا أعدمنا إياه فإن إسماعيل بن أبي المهاجر رسول أمير المؤمنين - أعزّ الله نصره - قدّم عليّ بكتاب أمير المؤمنين - أطال الله بقاءه، وجعلني من كل مكروه فداءه - يذكر شتيمتي وتوبيخي بأبائي، وتغيري بما كان قبل نزول النعمة بي من عند أمير المؤمنين، أتم الله نعمته عليه وإحسانه إليه. ويذكر أمير المؤمنين، جعلني الله فداه، استطلائة منّي على أنس بن مالك خادم رسول الله صلى الله عليه وسلم، جراءة مني على أمير المؤمنين وغرة بمعرفة غيره ونقماته وسطواته على من خالف سبيله، وعمد إلى غير محبته، ونزل عند سخطته. وأمير المؤمنين، أصلحه الله، في قرابته من محمد رسول الله - إمام الهدى وخاتم الأنبياء أحق من أقال عثرتي وعفا عن ذنبي، فأمهلي ولم يُعجلني عند هفوتي، للذي جُبل عليه من كريم طبائعه، وما قلده الله من أمور عباده، فرأي أمير المؤمنين، أصلحه الله في تسكين روعي، وإفراج كربتي، فقد ملئت رعباً وفرقاً من سطوته وفجاعة نقمته وأمير المؤمنين - أقاله الله العثرات، وتجاوز له عن السيئات، وضاعفت له الحسنات، وأعلى له الدرجات. أحق من صَفح وعفا، وتعمّد وأبقى، ولم يُشمت بي عدواً مكباً، ولا حسوداً مضباً، ولم يجرّني غصصاً. والذي وصف أمير المؤمنين من صنيعه إليّ وتوبيهه بي بما أسند إليّ من عمله وأوطاني من رقاب رعيته، فصادقٌ فيه مجزي بالشكر عليه والتوسلُ مني إليه بالولاية، والتقرّبُ له بالكفاية. وقد عاين إسماعيل بن أبي المهاجر، رسول أمير المؤمنين وحامل كتابه، نزولي عند مسرة أنس بن مالك، وخضوعي لكتاب أمير المؤمنين، وإقلاقه إياي، ودخوله عليّ بالمصيبة، على ما سيعلمه أمير المؤمنين ويُنيهه إليه. فإن رأى أمير المؤمنين - طوّقي الله شكره وأعاني على تأدية حقه وبلّغني إلى ما فيه موافقة مرضاته ومد لي في أجله - أمر لي بكتاب من رضاه وسلامة صدره، يُؤمّني به من سفك دمي ويُرّد ما شرّد من نومي ويطمئن به قلبي، فقد ورد عليّ أمرٌ جليل خطبه، عظيم أمره، شديد عليّ كرهه. أسأل الله أن لا يُسخط أمير المؤمنين عليّ، وأن يُنتليه في حزمه وعزمه، وسياسته وفراسته ومواليه وحشمه، وعماله وصنائعه،

بما يُحمَد به حُسنُ رأيه، ويُعَدُّ هِمَّتَه؟ إنه وليُّ أمير المؤمنين، والذابُّ عن سلطانه، والصانع له في أمره، والسلام.
فحدّث إسماعيلُ أنه لما قرأ أمير المؤمنين الكتابَ قال: يا كاتب، أفرخ رُوعَ أبي محمد. فكتب إليه بالرضا عنه.

كان سليمانُ بن عبد الملك يكتب إلى الحجاج في أيام أخيه الوليد بن عبد الملك كُتُباً فلا ينظر له فيها. فكتب إليه: بسم الله الرحمن الرحيم. من سليمان بن عبد الملك إلى الحجاج بن يوسف: سلامٌ على أهل الطاعة من عباد الله. أما بعد. فإنك امرؤ مهتوك عنه حجابُ الحقِّ، مولعٌ بما عليك لا لك، مُنصرفٌ عن منافعك، تاركٌ لحظك، مُستخفٌّ بحق الله وحق أوليائه. لا ما سلف إليك من خير يعطفك، ولا ما عليك لا لك يصرفك. في مُبهمة من أمرك مغمورٌ منكوسٌ معصومٌ عن الحق اعصيصاراً، ولا تتنكب عن قبيح، ولا ترعوي عن إساءة، ولا ترجو الله وقاراً، حتى دُعيت فاحشاً سبباً. فقس شريك بفترك، واحذ زمام نعلك بحذو مثله. فإيم الله لئن أمكنني الله منك لأدوستك دوسة تلبس منها فرائصك، ولأجعلتك شر يداً في الجبال، تلوذ بأطراف الشمال، ولأعلقن الرومية الحمراء بئذيها. علم الله ذلك مني وقضى لي به عليّ، فقدماً غرتك العافية، وانتحيت أعراض الرجال، فإنك قدّرت فبدخت، وظفرت فتعدت. فرويدك حتى تنظر كيف يكون مصيرك إن كانت بي وبك مدة أتعلق بها، وإن تكن الأخرى فأرجو أن تؤول إلى مذلة ذليل، وخزينة طويلة، ويُجعل مصيرك في الآخرة شرَّ مصير. والسلام.

فكتب إليه الحجاج: بسم الله الرحمن الرحيم. من الحجاج بن يوسف إلى سليمان بن عبد الملك. سلامٌ على من أتبع الهدى. أما بعد. فإنك كتبت إليّ تذكر آتي امرؤ مهتوك عني حجابُ الحق، مولعٌ بما عليّ لا لي، مُنصرفٌ عن مناعي، تاركٌ لحظي، مُستخفٌّ بحق الله وحق وليّ الحق. وتذكر أنك ذو مُصاولة ولعمري إنك لصبيّ حديث السن تُعذر بقلة عقلك وحدائت سنك ويُرقب فيك غيرك، فأما كتابك إليّ فلعمري لقد ضُعب فيك عقلك، واستُخف به حلمك، فله أبوك. أفلا انتصرت بقضاء الله دون قضاءك، ورجاء الله دون رجائك، وأمت غيظك، وأمنت عدوك، وسترته عنه تدبيرك، ولم تُنبهه فيلتمس من مُكایدتك ما تلتمس من مُكایدته، ولكنت لم تُستشف الأمور علماً، ولم تُرزق من أمرك حزماً. جمعت أموراً دلاك فيها الشيطان على أسوأ أمرك، فكان الجفاء من خليقتك، والحُقم من طبيعتك، وأقبل الشيطان بك وأدبر، وحدتك أنك لن تكون كاملاً حتى تتعاطى ما يعيبك. فتحذلقنت حنجرتك لقوله، واتسعت جوابها لكذبه. وأما قولك لو ملكك الله لعلقت زينب بنت يوسف بئذيها، فأرجو أن يكرمها الله بئوانك، وأن لا يُوهق ذلك لك إن كان ذلك من رأيك، مع أنني أعرف أنك كتبت إليّ والشيطان بين كنفيك، فشرُّ مُمل على شرِّ كاتب راض بالخسف، بالحُقم أن لا يدلك على هدى، ولا يردك إلا إلى ردى. وتخلب فوك للخلافة، فأنت شامخ البصر، طامح النظر، تظنُّ أنك حين تملكها لا تنقطع عنك مُدتها. إنها للقطعة التي أسأل أن يُهملك فيها الشكر، مع أي أرجو أن ترغب فيما رغب فيه أبوك وأحوك فأكون لك مثلي لها. وإن نفخ الشيطان في مُنخريك فهو أمر أراد الله نزعك عنك وإخراجه إلى من هو أكمل به منك. ولعمري إنها لنصيحة، فإن تقبلها فمئتها قبل، وإن تردّها عليّ اقتطعها دونك؟ وأنا الحجاج. قدم الحجاج على الوليد بن عبد الملك فدخل عليه، وعليه درع وعمامة سوداء، وقوس عربيّة وكنانة، فبعثت إليه أم البنين بنت عبد العزيز بن مروان: من هذا الأعرابيّ المُستلم في السلاح عندك وأنت في غلالة. فبعث إليها: هذا الحجاج بن يوسف. فأعادت الرسول إليه تقول: والله لأن يخلو بك ملك الموت أحبُّ إليّ من أن يخلو بك الحجاج. فأخبره الوليد بذلك وهو بمازحه. فقال: يا أمير المؤمنين، دع عنك مُفاكهة النساء بزُخرف القول، فإنما المرأة ربحانة، ولست بقهرمانة، فلا تطلعها على سرِّك، ومُكايده عدوك. فلما دخل الوليد عليها أخبرها بمقالة الحجاج. فقالت: يا أمير المؤمنين، حاجتي أن تأمره غداً يأتيني مُستلماً، ففعل ذلك. وأتى الحجاج فحجبتة، فلم يزل قائماً، ثم قالت له: إيه يا حجاج، أنت الممتن على أمير المؤمنين بقتلك عبد الله بن الزبير وابن الأشعث؟ أما والله لولا أن الله علم أنك من شرار خلقه ما ابتلاك برمي الكعبة، وقتل ابن ذات النطاقين، وأول مولود وُلد في الإسلام. وأما نهيك أمير المؤمنين عن مُفاكهة النساء وبلوغ أوطاره منهن، فإن كُن يُنفرجن عن مثلك، فما أحقه بالأخذ عنك، وإن كن يُنفرجن عن مثله فغير قابل لقولك. أما والله لقد نقص. نساء أمير المؤمنين الطيب عن غدائهن فبعنه في أعطية أهل الشام حين كنت في أضيق من القرن قد أظلتك رماحهم، وأنخنت كفاحهم، وحين كان أمير المؤمنين أحبَّ إليهم من آبائهم وأبنائهم، فما نجّك الله من عد أمير المؤمنين إلا بحبهم إياه. ولله درّ القائل إذ نظر إليك، وسنان غزالة بين كنفيك:

أَسَدٌ عَلِيٌّ وَفِي الْحُرُوبِ نِعَامَةٌ
هَلَا بَرَزْتَ إِلَى غَزَاةٍ فِي الْوَعَى
صَدَعْتَ غَزَاةً جَمَعَهُ بَعْسَاكِرُ

رَبْدَاءُ تَجْفَلُ مِنْ صَفِيرِ الصَّافِرِ
بَلْ كَانَ قَلْبُكَ فِي مَخَالِبِ طَائِرِ
تَرَكْتَ كِتَابِيَهَ كَأَمْسِ الدَّابِرِ

ثم قالت: اخرج. فخرج مذموماً مدحوراً.

كان عروة بن الزبير عاملاً على اليمن لعبد الملك بن مروان، فاتصل به أن الحجاج مُجْمَع على مُطالبتة بالأموال التي بيده وعزله عن عمله، ففر إلى عبد الملك وعاد به خوفاً من الحجاج، واستدفعاً لضرره وشره. فلما بلغ ذلك الحجاج كتب إلى عبد الملك بن مروان: أما بعد. فإن لواء المعترضين بك، وحلول الجانحين إلى المكث بساحتك، واستلاتتهم دمت أخلاقك، وسعة عقوك، كالعارض المبرق لا يعدم له شائماً، رجاء أن يناله مطره وإذا أدن الناس بالصّبح عن الجرائم كان ذلك تُمرينا لهم على إضاعة الحقوق مع كل وال. والناس عبيد العصا، هم على الشدة أشد استتباعاً منهم على اللين. ولنا قبل عروة بن الزبير مال من مال الله، وفي استخراجهم منه قطع لطمع غيره، فليبعث به أمير المؤمنين، إن رأى ذلك. والسلام.

فلما قرأ الكتاب بعث إلى عروة، ثم قال له: إن كتاب الحجاج قد ورد فيك، وقد أبي إلا إشخاصك إليه. ثم قال لرسول الحجاج: شأنك به. فالتفت إليه عروة مقبلاً عليه، وقال: أما والله ما ذلّ وخزي من ملكتموه، والله لئن كان الملك بجواز الأمر، ونفاذ النهي، إن الحجاج لسُلطان عليك يُنفذ أمره دون أمورك، إنك لتريد الأمر يزيناك عاجله، ويبقى لك أكرومة أجله، فيجذبك عنه ويلقاه دونك، ليتولى من ذلك الحكم فيه، فيحظى بشرف عقو إن كان، أو يجرم عقوبة إن كانت. وما حاربك من حاربك إلا على أمر هذا بعضه.

قال: فنظر في كتاب الحجاج مرة، ورفع بصره إلى عروة تارة، ثم دعا بدواة وقرطاس فكتب إليه: أما بعد. فإن أمير المؤمنين، رآك مع ثقته بنصيحته خابطاً في السياسة خبط عشواء الليل. فإن رأيك الذي يسأل لك أن الناس عبيد العصا هو الذي أخرج رجالات العرب إلى الوثوب عليك، وإذا أخرجت العامة بعنف السياسة كانوا أوشك وثوباً عليك عند الفرصة، ثم لا يلتفتون إلى ضلال الداعي ولا هداه، إذا رجوا بذلك إدراك الثأر منك. وقد ولي العراق قبلك ساسة، وهم يومئذ أحمر أنوفا وأقرب من عمياء الجاهلية، وكانوا عليهم أصلح منك عليهم، وللشدة واللين أهلون، والإفراط في العفو أفضل من الإفراط في العقوبة. والسلام.

زكريا بن عيسى عن ابن شهاب قال: خرجنا مع الحجاج حجاجاً، فلما انتهينا إلى البيداء وافيناً ليلة الهلال، هلال ذي الحجة، فقال لنا الحجاج: تبصروا الهلال، فأما أنا فني بصري عاهة. فقال له نوفل بن مسحاق: وتدرى لم ذلك أصلح الله الأمير؟ قال: لا أدري. قال: لكثرة نظرك في الدفاتر. الأصمعي قال: عرضت السجون بعد الحجاج فوجدوا فيها ثلاثة وثلاثين ألفاً لم يجب على واحد منهم قتل ولا صلب، ووجد فيهم أعرايي أخذ يبول في أصل مدينة واسط، فكان فيمن أطلق. فأنشأ الأعرايي يقول:

إذا نحن جاوزنا مدينة واسط

خرينا وبلنا لا نخاف عقاباً

أبو داود المصنف، عن النضر بن شميل، قال: سمعت هشاماً يقول: احصوا من قتل الحجاج صبراً. فوجدوهم مائة ألف وعشرين ألفاً. وخطب الحجاج أهل العراق، فقال: يأهل العراق. بلغني أنكم تروون عن نبيكم أنه قال: من ملك عشرة رقاب من المسلمين جيء به يوم القيامة مغلولاً يده إلى عنقه، حتى يفكّه العدل أو يوبقه الجور. وإم الله، إني لأحب إلي أن احشر مع أبي بكر وعمر مغلولاً من أن احشر معكم مُطلقاً. ومرض الحجاج ففرح أهل العراق، وقالوا: مات الحجاج! مات الحجاج! فلما أفاق صعد المنبر وخطب الناس، فقال يأهل العراق، يأهل الشقاق والنفاق، مرضت فقلتم: مات الحجاج. أما والله إني لأحب إلي أن أموت من الأموت، وهل أرجو الخير كله إلا بعد الموت، وما رأيت الله رضي بالخلود في الدنيا إلا لأبغض خلقه إليه وأهونهم عليه: إبليس. ولقد رأيت العبد الصالح سأل ربه، فقال: "رب هب لي ملكاً لا يتبعني لأحد من بعدي". ففعل، ثم اضمحل ذلك فكأنه لم يكن.

وأراد الحجاج أن يحج. فاستخلف محمداً ولده على أهل العراق، ثم خطب فقال: يا أهل العراق، إن أردت الحج وقد استخلفت عليكم محمداً ولدي، وأوصيته فيكم بخلاف ما أوصى به رسول الله صلى الله عليه وسلم في الأنصار، فإنه أوصى فيهم أن يقبل من محسنهم، ويتجاوز عن مسيئتهم. وإني أوصيته ألا يقبل من محسنكم، وألا يتجاوز عن مسيئكم. ألا وإنكم قائلون بعدي مقالة لا يمنعكم من إظهارها إلا خوفاً: لا أحسن الله له الصحابة. وأنا أعجل لكم الجواب: فلا أحسن الله عليكم الخلافة. ثم نزل.

فلما كان غداة الجمعة مات محمد بن الحجاج، فلما كان بالعشي أتاه بريء من اليمن بوفاه محمد أخيه. ففرح أهل العراق، وقالوا: انقطع ظهر الحجاج وهيض جناحه فخرج فصعد المنبر ثم خطب الناس، فقال: أيها الناس، محمدان في يوم واحد! أما والله ما كنت أحب أنهما معي في الحياة الدنيا لما أرجو من ثواب الله لهما في الآخرة. وإني والله، لئوشكن الباقي مني ومنكم أن يفتني، والجديد أن يبلي، والحج مني ومنكم أن يموت، وأن تُدال الأرض منا كما أدلنا منها، فتأكل من لحومنا وتشرب من دمائنا، كما قال الله تعالى: "وَنُفِخَ فِي الصُّورِ فَإِذَا هُم مِّنَ الْأَجْدَاثِ إِلَىٰ رَبِّهِمْ يَنْسِلُونَ". ثم تمثل بهذين البيتين:

وَحَسْبِي ثَوَابُ اللَّهِ مِنْ كُلِّ هَالِكٍ

عَزَائِي نَبِيُّ اللَّهِ مِنْ كُلِّ مَيِّتٍ

فَإِنَّ سُرُورَ النَّفْسِ فِيمَا هُنَاكَ

إِذَا مَا لَقَيْتُ اللَّهَ عَنِّي رَاضِيًا

ثم نزل وأذن للناس فدخلوا عليه يعزونه، ودخل فيهم الفرزدق فلما نظر إليه قال: يا فرزدق، أما رثيت محمداً ومحمداً؟ قال: نعم أيها الأمير وأنشد:

تَكُونُ لِمَحْزُونٍ أَمْضًى وَأَوْجَعًا

لَنْ جَزَعَ الْحَجَّاجُ مَا مِنْ مُصِيبَةٍ

جَنَاحَاهُ لَمَّا فَارَقَاهُ وَوَدَّعَا

مِنَ الْمُصْطَفَىٰ وَالْمُنْتَقَىٰ مِنْ ثِقَاتِهِ

وَلَوْ نَزَعَا مِنْ غَيْرِهِ لَتَضَعَعَا

جَنَاحَا عَنِّيكَ فَارَقَاهُ كِلَاهُمَا

عَلَىٰ شَامِخٍ صَعَبَ الذَّرِي لَتَصَدَّعَا

وَلَوْ أَنَّ يَوْمِي جُمِعْتِيهِ تَتَابَعَا

أَب لَمْ يَكُنْ عِنْدَ الْحَوَادِثِ أَخْضَعَا

سَمِيًّا رَسُولَ اللَّهِ سَمَاهُمَا بِهِ

قال: أحسنت. وأمر له بصلة. فخرج وهو يقول: والله لو كلفني الحجاج بيتاً سادسا لضرب عنقي قبل أن آتية به، وذلك أنه دخل ولم يهبي شيئاً.

قولهم في الحجاج

الرياشي عن العتيبي عن أبيه، قال: ما رأيت مثل الحجاج، كان زي شاطراً. وكلامه كلام خارجي، ووصلته صولة جبار. فسألته عن زي فقال: كان يرجل شعره ويخضب أطرافه. كثير بن هشام عن جعفر بن برقان: قال: سألت ميمون بن مهران فقلت: كيف ترى في الصلاة خلف رجل يذكر أنه خارجي؟ فقال: إنك لا تصلي له إنما تصلي لله، قد كنا نصلي خلف الحجاج وهو حروري أزرقبي. قال: فنظرت إليه، فقال: أتدري ما الحروري الأزرقبي؟ هو الذي إن خالفت رأيه سمأك كافراً واستحل دمك، وكان الحجاج كذلك.

أبو أمية عن أبي مسهر قال: حدثنا هشام بن يحيى عن أبيه قال: قال عمر بن عبد العزيز: لو جاءت كل أمة بمناقبها وجئنا بالحجاج لفضلناهم. وحلف رجل بطلاق امرأته إن الحجاج في النار. فأتى امرأته، فمنعته نفسها.

فسأل الحسن بن أبي الحسن البصري. فقال: لا عليك يابن أخي، فإنه إن لم يكن الحجاج في النار، فما يضرك أن تكون مع امرأتك على زنى. أبو أمية عن إسحاق بن هشام عن عثمان بن عبد الرحمن الجهمي عن علي بن زيد، قال: لما مات الحجاج أتيت الحسن فأخبرته. فخر ساجداً. علي بن عبد العزيز عن إسحاق بن جرير بن منصور، قال: قلت لإبراهيم: ما ترى في لعن الحجاج؟ قال: ألم تسمع إلى قول الله تعالى: "أَلَا لَعْنَةُ اللَّهِ عَلَى الظالمين"، فأشهد أن الحجاج كان منهم.

وكيع عن سفيان عن محمد بن المنكدر عن جابر بن عبد الله، قال: دخلت على الحجاج فما سلمت عليه. وكيع عن سفيان قال: قال يزيد الرقاشي

عند الحسن: إني لأرجو للحجاج. قال الحسن: إني لأرجو أن يخلف الله رجاءك، ميمون بن مهران قال: كان أنس وابن سيرين لا يبيعان ولا يشتريان بهذه الدراهم الحجاجية. وقال عبد الملك بن مروان للحجاج: ليس من أحد إلا وهو يعرف عيب نفسه، فصيف لي عيوبك. قال: أعفني يا أمير المؤمنين. قال: لا بد أن تقول. قال: أنا لجوج حسود حقود. قال: ما في إبليس شر من هذا، أبو بكر بن أبي شيبة، قال: قيل لعبد الله بن عمر: هذا الحجاج قد ولي الحرمين. قال: إن كان خيراً شكرنا، وإن كان شراً صرنا. ابن أبي شيبة قال: قيل للحسن: ما تقول في قتال الحجاج؟ قال: إن الحجاج عقوبة من الله فلا تستقبلوا عقوبة الله بالسيف. ابن فضيل قال: حدثنا أبو نعيم قال: أمر الحجاج بماهان أن يصلب على بابه. فرأيته حين رفعت خشبته يسبح ويهلل ويدبر ويعقد بيده، حتى بلغ تسعاً وتسعين، وطعنه رجل على تلك الحال، فلقد رأيتها بعد شهر في يده. قال: وكُنَّا نرى عند خشبته بالليل شببها بالسراج. أبو داود المصنف عن النضر بن شميل، قال: سمعت هشاماً يقول: احصوا من قتل الحجاج صبراً. فوجدوهم مائة وعشرين ألفاً.

من زعم أن الحجاج كان كافراً

ميمون بن مهران عن الأجلح، قال: قلت للشعبي: يزعم الناس أن الحجاج مؤمن. قال: مؤمن بالجبت والطاغوت كافر بالله. علي بن عبد العزيز عن إسحاق بن يحيى عن الأعمش، قال: اختلفوا في الحجاج فقالوا: بمن ترضون؟ قالوا: بمجاهد. فأتوه، فقالوا: إنا قد اختلفنا في الحجاج. فقال: اجئتم تسألوني عن الشيخ الكافر؟ محمد بن كثير عن الأوزاعي، قال: سمعت القاسم بن محمد يقول: كان الحجاج بن يوسف ينتفض عرى الإسلام عروة عروة. عطاء بن السائب، قال: كنت جالساً مع أبي البختري والحجاج يخطب، فقال: في خطبته: إن مثل عثمان عند الله كمثلي عيسى بن مريم، قال الله فيه: "إني متوفيك ورافعك إلي ومطهرك من الذين كفروا وجاعل الذين أتبعوك فوق الذين كفروا إلى يوم القيامة". فقال أبو البختري: كفر ورب الكعبة.

ومما كفرت به العلماء الحجاج قوله، ورأى الناس يطوفون بقبر رسول الله صلى الله عليه وسلم ومنيره: إنما يطوفون بأعواد ورمة. الشيباني عن الهيثم عن ابن عيَّاش قال: كنا عند عبد الملك بن مروان، إذ أتاه كتاب من الحجاج يُعظم فيه أمر الخلافة ويزعم أن السموات والأرض ما قامت إلا بها، وأن الخليفة عند الله أفضل من الملائكة المقربين والأنبياء المرسلين. وذلك أن الله خلق آدم بيده، وأسجد له ملائكته وأسكنه جنته، ثم أهبته إلى الأرض وجعله خليفته، وجعل الملائكة رُسلًا إليه. فأعجب عبد الملك بذلك، وقال: لوددت أن عندي بعض الخوارج فأخاصمه بهذا الكتاب، فانصرف عبد الله بن يزيد إلى منزله، فجلس مع ضيفانه وحدثهم الحديث، فقال له حُوار بن زيد الصبي، وكان هارباً من الحجاج: توثق لي منه، ثم أعلمني به. فذكر ذلك لعبد الملك بن مروان. فقال: هو آمنٌ على كل ما يخاف. فانصرف عبد الله إلى حُوار فاخبره بذلك. فقال: بالغداة إن شاء الله. فلما أصبح اغتسل ولبس ثوبين ثم تحنط وحضر باب عبد الملك فدخل عبد الله فقال: هذا الرجل بالباب: فقال: أدخله يا غلام. فدخل رجلٌ عليه ثيابٌ بيضٌ يُوجد عليه ريح الخنوط، فقال: السلام عليكم، ثم جلس. فقال عبد الملك: إيت بكتاب أبي محمد يا غلام. فأتاه به: فقال اقرأ، فقرأ حتى أتى على آخره. فقال حُوار: أراه قد جعلك في موضع ملكاً وفي موضع نبياً وفي موضع خليفة، فإن كنت ملكاً فمن أنزلك؟ وإن كنت نبياً فمن بعثك؟ وإن كنت خليفة فمن استخلفك؟ أعن مشورة من المسلمين أم ابتزرت الناس أمورهم بالسيف؟ فقال عبد الملك قد أمتناك ولا سبيل إليك، والله لا تُجاورني في بلد أبداً. فارحل حيث شئت. قال: فإني قد اخترت مصر، فلم يزل بها حتى مات عبد الملك. علي بن عبد العزيز عن إسحاق بن إسماعيل الطالقاني، قال: حدثنا جرير عن مغيرة عن الربيع قال: قال الحجاج في كلام له: ويحكم! أليفة أحدكم في أهله أكرم عليه أم رسوله إليهم؟ قال: ففهمت ما أراد، فقلت له: لله عليّ ألا أصلي خلفك صلاة أبداً، ولن وجدت قوماً يقاتلونك لقاتلتك معهم. فقاتل في الجماعم حتى قُتل.

قيل للحجاج: كيف وجدت منزلك بالعراق؟ قال خير منزل لو أدركت بها أربعة فتقربت إلى الله بدمائهم. قيل: ومن هم؟ قال: مقاتل بن مسمع، ولي سجستان فأتاه الناس فأعطاهم الأموال، فلما قدم البصرة بسط الناس له أرديتهم، فقال: لمثل هذا فليعمل العاملون. وعبيد الله بن ظبيان، قام فخطب خطبة أوجز فيها، فنادى الناس من أعراض المسجد: أكثر الله فينا من أمثالك. قال: لقد سألتكم الله شططاً. ومعبد بن زرارة، كان ذات يوم جالساً على الطريق فمرت به امرأة، فقالت: يا عبد الله، أين الطريق إلى مكان كذا؟ فعُضب، وقال: ألتلي يقال يا عبد الله! وأبو سَمَاك الحنفي أضل ناقته، فقال:

لئن لم يردّها الله عليّ لا صليت أبداً، فلما وجدها، قال: علّم الله أن يمحي كانت برة. قال ناقل الحديث. ونسي الحجاج نفسه وهو خامس الأربعة، بل هو أفسقهم وأطغاهم وأعظمهم إلحاداً وأكفرهم في كتابه إلى عبد الملك بن مروان: "إن خليفة الله في أرضه أكرم عليه من رسوله إليهم وكتابه إليه"، وبلغه أنه عطس يوماً فحمد الله وشتمته أصحابه فردّ عليهم ودعا لهم، فكتب إليه: "بلغني ما كان من عطاس أمير المؤمنين، ومن تشميت أصحابه له وردّه عليهم، فياليّتي كنت معهم فأفوز فوزاً عظيماً".

وكان عبد الملك بن مروان كتب إلى الحجاج في أسرى الجَمَاحم أن يعرضهم على السيف، فمن أقرّ منهم بالكفر بخروجه علينا فخلّ سبيله، ومن زعم أنه مؤمن فاضرب عنقه. ففعل. فلما عرضهم أتى بشيخ وشاب، فقال للشاب: أمؤمن أنت أم كافر قال: بل كافر. فقال الحجاج: لكن الشيخ لا يرضى بالكفر. فقال له الشيخ: أعن نفسي تُخادعني يا حجاج، والله لو كان شيء أعظم من الكفر لرضيتُ به. فضحك الحجاج وخلّى سبيلهما. ثم قدّم إليه رجل، فقال له: على دين من أنت؟ قال: على دين إبراهيم حنيفاً وما كان من المشركين. فقال: اضربوا عنقه. ثم قدّم آخر، فقال له: على دين من أنت؟ قال: على دين أبيك الشيخ يوسف. فقال: أما والله لقد كان صوّماً قوّماً. حلّ عنه يا غلام. فلما حلّى عنه انصرَفَ إليه، فقال له: يا حجاج، سألت صاحبي: على دين من أنت؟ فقال: على دين إبراهيم حنيفاً وما كان من المشركين، فأمرت به فقتل؟ وسألتني: على دين من أنت؟ فقلت: على دين أبيك الشيخ يوسف، فقلت: أما والله لقد كان صوّماً قوّماً، فأمرت بتخلية سبيلي، والله لو لم يكن لأبيك من السيئات إلا أنه ولد مثلك لكفاه: فأمر به فقتل: ثم أتى بعمران بن عصام العتري، فقال: عمران؟ قال: نعم. قال: ألم أوفدك على أمير المؤمنين ولا يُوفد مثلك؟ قال: بلى. قال: ألم أزوجك مارية بنت مسمع سيدة قومها ولم تكن أهلاً لها؟ قال: بلى. قال: فما حملك على الخروج علينا؟ قال: أخرجني باذان. قال: فأين كنت من حجة أهلك؟ قال: أخرجني باذان. فأمر رجلاً فكشّف العمامة عن رأسه، فإذا هو مخلوق. قال: ومخلوق أيضاً! لا أقالني الله إن لم أقتلك. فأمر به فضرب عنقه. قال: فسأل عبد الملك بعد ذلك عن عمران بن عصام فقيل له: قتله الحجاج. فقال: ولم؟ قال: بخروجه مع ابن الأشعث. قال: ما كان ينبغي له أن يقتله بعد قوله:

صَفْراً يَلُودُ حَمَامُهُ بِالْعَوْسَجِ

وَإِذَا طَبَخْتَ بغيرها لم تتضج

لم يُنَجِّها منه صرِيخُ الهَجَجِ

وَبَعَثْتَ مَنْ وَلَدَ الْأَغْرَ مُعْتَبِ

فَإِذَا طَبَخْتَ بِنَارِهِ أَنْضَجْتَهَا

وَهُوَ الْهَزْبِرُ إِذَا أَرَادَ فَرِيْسَةً

ثم أتى بعامر الشَّعْبِيّ ومطرّف بن عبد الله بن الشَّخِيرِ وسعيد بن جبير. وكان الشَّعْبِيّ ومُطَرِّفُ يَريَانِ التَّوْرِيَةِ، وكان سعيد بن جبير لا يرى ذلك فما قدّم له الشَّعْبِيّ. قال: أكافر أنت أم مؤمن؟ قال: أصلح الله الأمير، نَبَا بنا المتزل، وأجذب بنا الجَنَاب، واستحلّسنا الخوف، واكتحلنا السهر، وخبّطتنا فتنّة لم نكن فيها بررة أتقياء، ولا فجرة أقوياء. قال الحجاج: صدق والله، ما برؤوا بخروجهم علينا ولا قووا، خلّيا عنه. ثم قدّم إليه مُطَرِّفُ ابن عبد الله، فقال له: أكافر أنت أم مؤمن؟ قال: أصلح الله الأمير، إن من شقّ العصا، ونكث البيعة، وفارق الجماعة، وأخاف المسلمين، لجدير بالكفر. فقال: صدق، خلّيا عنه. ثم أتى بسعيد بن جبير، فقال له: أنت سعيد بن جبير؟ قال: نعم. قال: لا، بل شقي بن كسير. قال: أمي كانت أعلم باسمي منك. قال: شقيت وشقيت أمك قال: الشقاء لأهل النار. قال: أكافر أنت أم مؤمن؟ قال: ما كفرت بالله منذ آمنتُ به. قال: اضربوا عنقه.

موت الحجاج

مات الحجاج بن يوسف في آخر أيام الوليد بن عبد الملك، فتفجع عليه الوليد وولى مكانه يزيد بن أبي مسلم كاتب الحجاج، فكفَى وجاوز. فقال الوليد: مات الحجاج ووليت مكانه يزيد بن أبي مسلم، فكنت كمن سقط منه درهم وأصاب ديناراً. وكان الوليد يقول: كان عبد الملك يقول: الحجاج جلدة ما بين عيني وأنفي. وأنا أقول: إنه جلدة وجهي كله. قال: ولما بلغ عمر بن عبد العزيز موت الحجاج خرج ساجداً. وكان يدعو الله أن يكون موته على فراشه ليكون أشدّ لعذابه في الآخرة.

أبو بكر بن عيَّاش قال: سُمع صباحُ الحجاج في قَبْره، فأتوا إلى يزيدَ بن أبي مُسلم فأخبروه، فركب في أهل الشام فَوَقَفَ على قَبْره فِتَسَمَّعَ، فقال: يرحمك الله يا أبا محمد، فما تدع القراءةَ حتى ميِّتاً.

الرياشي عن الأصمعيّ، قال: أقبل رجلٌ إلى يزيدَ بن أبي مسلم، فقال له: إني كنت أرى الحجاج في المنام فكنت أقول له: أخبرني ما فعل الله بك؟ قال: قتلني بكل قبيل قتلته قتلةً، وأنا مُنتظر ما ينتظره الموحدون. ثم قال: رأيته بعد الحول فقلت له: ما صنع الله بك؟ فقال: يا عاصَ بَطْرَ أمه، سألتني عن هذا عامٍ أول فأخبرتكَ؟ فقال يزيدُ بن أبي مسلم: أشهدُ أنك رأيت أبا محمد حقاً. وقال الفرزدق يرثي الحجاجَ ليرضي بذلك الوليدَ بن عبد الملك:

لبيك على الحجاج من كان باكياً
وأرملةً لما أتاها نعيه
وقالت لعبيدتها أنيخا فعجل
فليت الأكف الدافنات ابن يوسف
فما ذرفت عينان بعد محمد
على الدين من مستوحش الليل خائف
فجادت له بالواكفات الذوارف
فقد مات راعي ذودنا بالتنائف
يقطعن إذ يحثين فوق السفائف
على مثله إلا نفوس الخلائف

قال ابن عيَّاش: فليت الفرزدق في الكوفة، فقلت له: أخبرني عن قولك: "فليت الأكف الدافنات ابن يوسف يقطعن" ما معنك في ذلك؟ فقال: وددت والله أن أرجلهم تُقطع مع أيديهم.

قال ابن عيَّاش: فلما هلك الوليد واستخلف سليمان استعمل يزيدَ بن المهلب على العراق وأمره بقتل آل أبي عَقيْل، فقتلهم فأنشأ الفرزدق يقول:

لئن نفر الحجاج آل معتب
لقد أصبح الأحياء منهم أدلة
وكانوا يرون الدائرات بغيرهم
وكنا إذا قلنا اتق الله شممت
ألكني من كان بالصين أورمت
هلم إلى الإسلام والعدل عندنا
ألا تشكرون الله إذ فكك عنكم
وشيمت به عنكم سيوف عليكم
وإذ أنتم من لم يقل أنا كافر
لَقُوا دَوْلَةَ كان العدوُّ يُدَالها
وموتاهم في النار كلحاً سبأها
فصار عليهم بالعدة انتقالها
به عزة لا يُستطاع جدالها
به الهند ألواح عليها جلالها
فقد مات عن أرض العراق خبالها
أداهم بالمهدي صمًا قفالها
صباح مساء بالعذاب استلالها
تردى نهاراً عثرة لا يُقالها

قال ابن عيَّاش: فقلت للفرزدق. ما أدري بأي قوليك تأخذ، أمدحك في الحجاج حياته، أم هجوك له بعد موته؟ قال: إنما نكون مع أحدهم ما كان الله معه، فإذا تخلى عنه تخلينا عنه.

ولما مات الحجاج دخل الناس على الوليد يعزونه ويُنون على الحجاج خيراً، وعنده عمرُ بن عبد العزيز، فالتفت إليه ليقول فيه ما يقول الناس، فقال: يا أمير المؤمنين، وهل كان الحجاج إلا رجلاً منا؟ فرضيها منه.

أخبار البرامكة

قال أبو عثمان عمرو بن بحر الجاحظ: حدثني سهل بن هارون، قال: والله إن كانوا سَجَعُوا الطُّب، وقرضوا القريض لعيالٍ على يحيى بن خالد بن برمك وجعفر بن يحيى. ولو كان كلامٌ يُتصوَّرُ ذِراً، أو يُحيله المنطق السريّ جوهرًا، لكان كلامهما والمنتقى من لفظهما. ولقد كان مع هذا عند كلام الرشيد في بديهته وتوقعاته في كتبه قدمين عيّنين، وجاهليين أُميين، ولقد عمرت معهم، وأدركتُ طبقة المتكلمين في أيامهم، وهم يرون أن البلاغة لم تُستكمل إلا فيهم، ولم تكن مقصورةً إلا عليهم، ولا انقادت إلا لهم، وأنهم محض الأنام، ولباب الكرام، وملح الأيام، عتقَ منظر، وجودةً مخبر، وجزالةً منطلق، وسهولةً لفظ، ونزاهةً نفس، وأكتمالَ خصال، حتى لو فاخرت الدنيا بقليل أيامهم، والمأثور من خصالهم، كثيرَ أيام سواهم، من لدن آدم أبيهم إلى النسخ في الصور، وانبعاث أهل القبور، حاشى أنبياء الله المكرّمين، وأهل وحيه المرسلين، لما باهت إلا بهم، ولا عوّلت إلا عليهم. ولقد كانوا مع تمذيب أخلاقهم، وكريم أعراقهم، وسعة آفاقهم، ورونق سياقتهم، ومَعسول مذاقتهم، وبهاء إشراقهم، ونقاوة أعراضهم، وتهديب أغراضهم، واكتمال الخير فيهم، في جنب محاسن الرشيد كالتقطعة في البحر، والخردلة في المهمة القفر.

قال سهل بن هارون: إني لأحصل أرزاقَ العامة بين يدي يحيى بن خالد في في بناء خلافة داخل سُراده، وهو مع الرشيد بالرقعة، وهو يعقدها جُملاً بكفه، إذ غشيته سامة، وأخذته سنة فغلبته عيناه، فقال: ويحك يا سهل! طرق النوم شَفْرِي، وحلّت السنّة جَفْنِي، فما ذاك؟ قلت ضيفٌ كريم، إن قرّبت رَوْحَك، وإن منعت عَنَتَك. وإن طردته طلبك، وإن أقصيته أدركك، وإن غالبته غلبك. قال: فنام أقلّ من فواق بكيه أو نزع من ركية، ثم انتبه مذعوراً فقال: يا سهل، لأمر ما كان والله قد ذهب مُلْكنا، ووَلّي عَزْنا، وانقضت أيامُ دولتنا. قلت: وما ذاك أصلح الله الوزير؟ قال: كأن مُنشدّاً أنشدني:

أنيس ولم يَسْمُر بمكة سامر

كأن لم يكن بين الحجون إلى الصفا

فأجبتُه من غير رويّة ولا إجمالة فِكْرَة:

صروف الليلي والجدود العواثر

بلى نحن كنا أهلها فأبادنا

قال: فوالله ما زلتُ أعرّفها منه وأراها ظاهرةً فيه إلى الثالث من يومه ذلك فإني لفي مَعْعدي بين يديه أكتبُ توقيعات في أسافل كتبه لطلاب الحاجات إليه، قد كلفني إكمال معانيها وإقامة الوزن فيها، إذ وجدتُ رجلاً سعى إليه حتى ارتمى مُكباً عليه، فرفع رأسه، فقال: مهلاً، ويحك! ما اكتتم خير ولا استتر شرٌّ. قال: قتل أمير المؤمنين جعفرًا الساعة. قال: أو قد فعل إقال فما زاد على أن رمى بالقلم من يده، وقال: هكذا تقوم الساعة بغتة. قال سهل بن هارون: فلو انكفأت السماء على الأرض ما زاد. فنبأ منهم الحميم، واستبعد عن نسبهم القريب، وجحد ولاعهم المولى. ولقد اعتبرت لفقدهم الدنيا، فلا لسان يخطر بذكركم، ولا طرف ناظر يُشير إليهم.

وضم يحيى بن خالد وقته ذلك الفضل ومحمداً وخالداً، بنيه، وعبد الملك ويحيى وخالداً، أبناء جعفر بن يحيى، والعاصي ومزيداً وخالداً ومعمراً، بني الفضل ابن يحيى؟ ويحيى وجعفرًا وزيداً، بني محمد بن يحيى، وإبراهيم ومالكا وجعفرًا وعمر ومعمراً، بني خالد بن يحيى، ومن لف لفهم أو هجس بصدرة أمل فيهم.

وبعث إليّ الرشيدُ. فوالله لقد أعجلتُ عن النظر، فلبست ثياب أحزاني وأعظم رَغْبتي إلى الله الإراحة بالسيف والأل يُعبث بي عبث جعفر. فلما دخلتُ عليه، ومثلت بين يديه، عَرَفَ الذعر في تجرّص رِيقِي وشُخوصي إلى السيف المشهور ببصري. فقال: إيه يا سهل، من غمط نعمتي، وتعدّى وصيبي، وأنب موافقتي، أعجلته عُقوبتي. قال: فوالله ما وجدتُ جوابها حتى قال لي: لِيُفْرِخَ رَوْعُكَ، وَيَسْكُنَ جَأَشُكَ، وَتَطْبُ نَفْسُكَ، وَتَطْمِئَنَ حَوَاسُكَ، فَإِنِ الْحَاجَةُ إِلَيْكَ قَرَّبَتْ مِنْكَ، وَأَبَقْتَ عَلَيْكَ، بِمَا يَبْسُطُ مُنْقَبِضُكَ، وَيُطْلِقُ مَعْقُولُكَ، فَمَا اقْتَصِرْ عَلَى الْإِشَارَةِ دُونَ اللَّسَانِ، فَإِنَّهُ الْحَاكِمُ الْفَاصِلُ، وَالْحُسَامُ الْبَاتِرُ. وأشار إلى مَصْرَعِ جَعْفَرٍ، فقال: "مَنْ لَمْ يُوَدِّهِ الْجَمِيلُ فَنِي عُقُوبَتِهِ صَلَاحُهُ"

قال سهل: فوالله ما أعلمني أنني عيّيتُ بجواب أحد قط غير جواب الرشيد يومئذ، فما عوّلت في الشكر إلا على تقبيل باطن يديه ورجليه. ثم قال: اذهب، فقد أحللتك محلّ يحيى، ووهبتك، ما ضمنتُه أفنيته وما حواه سُراده، فأقبض الدواوين واحص حباؤه وحياء جعفر لنامرِك بقبضه إن شاء الله.

قال سهل: فكنتُ كمن نُشر عن كفن واخرج من حبس. وأحصيت حياءَهما فوجدته عشرين ألف دينار، ثم قفل راجعاً إلى بغداد، وفرق البرد إلى الأمصار. بقبض أموالهم وغلاتهم. وأمر بحيفة جعفر وجنته، ففصلت على ثلاثة جُدوع، رأسه في جذع على رأس الجسر مُستقبل الصرّاة، وبعض جسده على جذع بالجزيرة، وسائرُه في جذع على آخر الجسر الثاني ما يلي باب بغداد. فلما دنونا من بغداد، طلع الجسر الذي فيه وجه جعفر، واستقبلنا وجهه واستقبلته الشمس، فوالله لخلتها تطلع من بين حاجبيه. فأنا عن يمينه وعبد الملك بن الفضل الحاجب عن يساره، فلما نظر إليه الرشيد، وكأما قني شعره، وطل بثورة بشره، اربد وجهه وأغضى بصره. فقال عبد الملك بن الفضل: لقد عظّم ذنب لم يسعه عفو أمير المؤمنين. وقال الرشيد: من برد غير مائه يصدر بمثل دائه، ومن أراد فهم ذنبه يُوشك أن يقوم على مثل راحلته. عليّ بالتضاحات، فتضح عليه حتى احترق عن آخره وهو يقول: لئن ذهب أترك، لقد بقي خبرك، ولئن حط قدرك، لقد علا ذكرك.

قال سهل بن هارون: وأمر بضمّ أموالهم، فوجد من العشرين ألف ألف التي كانت مبلغ جبايتهم اثنا عشر ألف ألف مكتوب على بدها صُكوك محومة بتفسيرها وفيما حبوا بها، فما كان منها حياء على غريبة أو استطراف ملحة تصدق بها يحيى أثبت ذلك في ديوانها على تواريخ أيامها. فكان ديوان إنفاق واكتساب فائدة. وقبض من سائر أموالهم ثلاثين ألف ألف وستة وسبعين ألفاً، إلى سائر ضياعهم وغلاتهم ودورهم ورياشهم، والدقيق والجليل من مواعينهم، فإنه لا يصف أقله، ولا يعرف أيسره، إلا من أحصى الأعمال وعرف مُنتهى الآجال. وأبرزت حُرمة إلى دار الباتوقة بنت المهدي، فوالله ما علمته عاش ولا عشت إلا من صدقات من لم يزل متصدّقاً عليه، وما رأوا مثل موحدة الرشيد فيما يُعلم من ملك قبله على أحد ملكه.

وكانت أم جعفر بن يحيى، وهي فاطمة بنت محمد بن الحسين بن قحطبة، أرضعت الرشيد مع جعفر، لأنه كان ربي في حجرها، وغذي برسلها، لأن أمه ماتت عن مهده. فكان الرشيد يُشاورها مظهرًا لإكرامها والتبرك برأيها، وكان آلى وهي في كفالتها ألا يحجبها ولا استشفعته لأحد إلا شفعها، وآلت عليه أم جعفر ألا دخلت عليه إلا مآذوناً لها، ولا شفعت لأحد لعرض دنيا. قال سهل: فكم أسير فكّت، ومُبهم عنده فتحت، ومُستغلق منه فرّحت. واحتجب الرشيد بعد قدومه. فطلبت الإذن عليه من دار الباتوقة ومّت بوسائلها إليه، فلم يأذن لها ولا أمر بشيء فيها. فلما طال ذلك بها خرّجت كاشفة وجهها واضعة لثامها مُحْتفياً في مشيها، حتى صارت بباب قصر الرشيد. فدخل عبد الملك بن الفضل الحاجب، فقال: ظر أمير المؤمنين بالباب في حالة تَقَلب شماتة الحاسد إلى شفقة أم الواحد. فقال الرشيد: ويحك يا عبد الملك أو ساعية؟ قال: يا أمير المؤمنين حافية. قال: أدخلها يا عبد الملك، فرب كبد غدتها، وكربة فرّجتها، وعورة سترتها. قال سهل: فما شككت يومئذ في النجاة بطلبتها وإسعافها بحاجتها. فدخلت، فلما نظر الرشيد إليها داخله مُحْتفياً قام مُحْتفياً حتى تلقاها بين عمد المجلس، وأكب على تقبيل رأسها ومواضع تذييها، ثم أجلسها معه. فقالت: يا أمير المؤمنين، أيعدو علينا الزمان، ويجفونا خوفاً لك الأعوان، ويحردك عنا البهتان؟ وقد رببتك في حجرى، وأخذت برضاعك الأمان من عدوي ودهرى؟ فقال لها: وما ذلك يا أم الرشيد؟ قال سهل: فأيسنى من رفته بتركة كُنيتها آخر ما كان أطمعني من برّه بها أولاً. قالت: ظنك يحيى وأبوك بعد أبيك، ولا أصفه بأكثر مما عرفه به أمير المؤمنين من نصيحته، وإشفاقه عليه، وتعرضه للحتف في شأن موسى أخيه. قال لها: يا أم الرشيد، أمر سبق، وقضاء حُم، وغضب من الله نفذ. قالت: يا أمير المؤمنين، يمحو الله ما يشاء ويُثبت وعنده أم الكتاب. قال: صدقت، فهذا مما لم يمحّه الله. فقالت: الغيب محجوب عن النبيين، فكيف عنك يا أمير المؤمنين؟ قال سهل ابن هارون: فأطرق الرشيد ملياً، ثم قال:

ألفيت كل تميمة لا تنفع

وإذا المنيّة أنشبت أظفارها

فقالت بغير روية: ما أنا ليحيى بتميمة يا أمير المؤمنين، وقد قال الأول:

ذخراً يكون كصالح الأعمال

وإذا افتقرت إلى الذخائر لم تجد

هذا بعد قول عز وجل: "والكاظمين الغيظ والعافين عن الناس والله يُحبُّ المحسنين" فأطرق هارون ملياً، ثم قال: يا أم الرشيد، أقول:

إليه بوجه آخر الدهر تُقبل

إذا انصرفت نفسي عن الشيء لم تكذب

سَنَقَطُ فِي الدُّنْيَا إِذَا مَا قَطَعْتَنِي

يَمِينِكَ، فَانظُرْ أَي كَفٍ تَبْدُلُ؟

قال هارون: رضيتُ. قالت: فهبَّ لي يا أمير المؤمنين، فقد قال رسول الله صلى الله عليه وسلم. من ترك شيئاً لله لم يُوجده الله فقده. فأكبَّ هارون ملياً، ثم رفع رأسه يقول: لله الأمرُ من قبلُ ومن بعدُ. قالت: يا أمير المؤمنين، "ويومئذ يفرح المؤمنون بنصر الله ينصر من يشاء وهو العزيز الرحيم". وأذكرُ يا أمير المؤمنين، أليتك: ما استشفعتُ إلا شفعتني. قال: واذكري يا أم الرشيد أليتك أن لا شفعت لمقترف ذنباً. قال سهل بن هارون: فلما رأته صرَّحَ بمنعها ولاذ عن مطلبها أخرجت حُفًّا من زبرجدة خضراء فوضعتُه بين يديه فقال الرشيد: ما هذا؟ ففتحت عنه قفلاً من ذهب فأخرجت منه قميصه وذؤابته وثناياه، قد غمست جميع ذلك في المسك، فقلت: يا أمير المؤمنين، أستشفع إليك وأستعين بالله عليك وبما صار معي من كريم حسدك وطيب جوارحك ليحبي عبدك. فأخذ هارون ذلك فلثمه، ثم أستعبر وبكى بكاء شديداً وبكى أهل المجلس. ومرَّ البشيرُ إلى يحيى وهو لا يظن إلا أن البكاء رحمة له ورجوعُ عنه، فلما أفاق رمى جميع ذلك في الحق. وقال لها: لحسناً ما حفظتِ الوديعة. فقلت: وأهل للمكافأة أنت يا أمير المؤمنين. فسكتَ وقفل الحق ودفعه إليها وقال: "إن الله يأمركم أن تؤدوا الأمانات إلى أهلها". قالت: والله يقول: "وإذا حكمتم بين الناس أن تحكموا بالعدل". ويقول: "وأوفوا بعهد الله إذا عاهدتم". قال: وما ذلك يا أم الرشيد؟ قالت: ما أقسمت لي به أن لا تحبيني ولا تجهيني. قال: أ حب يا أم الرشيد أن تشتريه محكمة فيه. قالت: أنصفت يا أمير المؤمنين. وقد فعلتُ غيرَ مستقبلة لك ولا راجعة عنك. قال: بكم؟ قالت: برضاك عمَّن لم يُسخطك. قال: يا أم الرشيد، أما لي عليك من الحق مثل الذي لهم؟ قالت: بلى يا أمير المؤمنين، أعزُّ عليَّ وهم أحبُّ إليَّ. قال: فتحكمتي في ثمنه بغيرهم؟ قالت: بلى، قد وهبتك، وجعلتُك في حلِّ منه، وقامت عنه. وبقي مبهوتاً ما يُحير لفظه. قال سهل: وخرجت فلم تعد، ولا والله ما رأيتُها عبرة ولا سمعتُ لها أنه.

قال سهل: وكان الأمين محمد بن زبيدة رضيع يحيى بن جعفر، فمتَّ إليه يحيى بن خالد بذلك، فوعد استيهاب أمه إياهم وتكلمها لهم، ثم شغله الله عنهم. فكتب إليه يحيى، ويقال إنها لسليمان الأعمى أحيي مسلم بن الوليد، وكان مُنقطعاً إلى البرامكة، يقول:

يا ملاذي وعصمتي وعمادي

بك قام الرجاء في كل قلب

إنما أنت نعمة أعقبتها

وعَدَّ مولاك أتمننه فأبهي ال

ما أظلت سحائب اليأس إلا

إن تراخت يدك عني فواقاً

ومُجبري من الخطوب الشداد

زاه فيه البلاء كل مراد

نعم نفعها لكل العباد

در ما زين حسنه بانعقاد

كان في كشفها عليك اعتمادي

أكلنتي الأيام أكل الجراد

وبعث بها إلى الأمين محمد، فبعث بها الأمين إلى أمه زبيدة، فأعطتها هارون وهو في موضع لذته، وعند إقبال أريحيته، وهيات للاستشفاع لهم، وعبأت جواريتها ومغنياها وأمرهن بالقيام معها إذا قامت. فلما فرغ الرشيد من قراءتها لم ينقض حبوته حتى وقَّع في أسفلها: عظم ذنبك أمانت خواطر العفو عنك، ورمى بها إلى زبيدة. فلما رأت توقيعه علمت أنه لا يرجع عنه.

وقال بعض الهاشميين: أبحرني إسحاق بن علي بن عبد الله بن العباس، قال: كنت أساير الرشيد يوماً والأمين عن يمينه والمأمون عن شماله، فأستداني وقدمهما أمامه، فسأيرته، فجعل يحدثني، ثم بدأ يُشاورني في أمر البرامكة، وأخبرني بما أضر عليه لهم، وأنهم أستوحشوه من أنفسهم، وأني عنده بالوضع الذي لا يكتمني شيئاً من أمرهم. فقلت: يا أمير المؤمنين، لا تُنقلني من السعة إلى الضيق. فقال الرشيد: إلا أن تقول، فإني لا أهملك في نصيحة

ولا أخافك على رأي ولا مشورة. فقلت: يا أمير المؤمنين، إني أرى نفاستك عليهم بما صاروا إليه من النعمة والسعة، ولك أن تأمر وتنهى، وهم عبيد لك بإبانتك إياهم، فهل يصنعون ذلك كله إلا بك؟ قال -وكنت أخطب في حبال البرامكة- فقال لي: فضياعهم ليس لولدي مثلها وتطيب نفسي بذلك لهم؟ فقلت: يا أمير المؤمنين، إن الملك لا يحسد ولا يحقد، ولا يُنعم نعمة ثم يُفسد نعمته. قال: فرأيتك قد كرهت قولي وزوى وجهه عني قال إسحاق فعملت أنه سيوقع بهم ثم انصرفت فكنتم الخير، فلم يسمع به أحد. وتجنبت لقاء يحيى والبرامكة خوفاً أن يُظن أنني أفضي إليهم بسرّه، حتى قتلهم، وكان أشد ما كان إكراماً لهم. وكان قتلهم بعد ست سنين من تاريخ ذلك اليوم.

وكان يحيى بن خالد بن برمك قد اعتل قبل النازلة التي نزلت بهم، فبعث إلى منكة الهندي. فقال له؟ ماذا ترى في هذه العلة؟ فقال منكة: داء كبير، دواؤه يسير، والصبر أيسر. وكان مُتفتناً. فقال له يحيى: ربما تُقل على السمع خطرة الحق به. وإذا كان ذلك كذلك كان المهجر له ألزم من المفاوضة فيه. قال منكة: لكنني أرى في الطالع أثراً والأمر فيه قريب، وأنت قسيم في المعرفة، وربما كانت صورة النجم عقيمة لا نتاج لها، ولكن الأخذ بالحزم أوفى لحظّ الطالبين. قال يحيى: الأمور مُنصرفة إلى العواقب، وما حُتم فلا بدّ أن يقع، والمنعة مُسائلة الأيام نُهزة، فأقصد لما دعوتك له من هذا الأمر الموجود بالمزاج. قال منكة: هي الصفواء مازجتها مائية البلغم، فحدث لذلك ما يحدث من اللهب عند مُماسّة رطوبة الماء من الأشتغال. فخذ ماء الرمان فذف فيه إهليلجة سوداء تُنهضك مجلساً أو مجلسين، ويسكن ذلك التوقد إن شاء الله.

فلما كان من أمرهم ما كان تلطف منكة حتى دخل الحبس فوجد يحيى قاعداً على لبّد، والفضل بين يديه يخدمه، فاستعبر منكة باكياً، وقال: كنت ناديت لو أسرعت الإجابة. قال له يحيى: تراك كنت قد علمت من ذلك شيئاً جهلته؟ قال: كلا، ولكن كان الرجاء للسلامة بالبراءة من الذنب أغلب من الشفق، وكان مُراية القدر الخطير عتاً أقل ما تُنقض به التهمة، فقد كانت نعمة أرجو أن يكون أولها صبراً وأحرها أجراً. قال: فما تقول في هذا الداء؟ قال منكة: ما أرى له دواء أنفع من الصبر، ولو كان يُفدى بملك أو بمفارقة عضو كان ذلك مما يجب لك. قال يحيى: قد شكرت لك ما ذكرت فإن أمكنك تعاهدنا فافعل. قال منكة: لو أمكنني تخليف الروح عندك ما بخلتُ به، إذ كانت الأيام تحسن بسلامتك.

وكتب يحيى بن خالد في الحبس إلى هارون الرشيد: لأمر المؤمنين، وخليفة المهديين، وإمام المسلمين، وخليفة رب العالمين. من عبد أسلمته ذنوبه، وأوبقته عيوبه، وخذله شقيقه، ورفضه صديقه، وما به الزمان، ونزل به الحدّان، فعالج البؤس بعد الدعة، وأفترش السُّخبط بعد الرضا، وأكتحل بالسَّهاد بعد الهُجود؟ ساعته شهر، وليته دهر؟ قد عاين الموت، وشارف القوت، جزعاً لموجدتك يا أمير المؤمنين، وأسفاً على ما فات من قُربك لا على شيء من المَواهب، لأن الأهل والمال إنما كانا لك وبك، وكان في يدي عارية، والعارية مردودة. وأما ما أصبت به من ولدي فبذنبه، ولا أخشى عليك الخطأ في أمره، ولا أن تكون تجازت به فوق حدّه. تفكر في أمري جعلني الله فداك ولَيْمَل هواك بالعفو عن ذنب إن كان فمّن مثلي الرُّل، ومّن مثلك الإقالة، وإنما اعتذر إليك بإقرارى بما يجب به الإقرار حتى تُرضى، فإذا رضيت رجوتُ إن شاء الله أن يتبين لك من أمري وبراءة ساحتي ما لا يتعاضمك بعده ذنب أن تُفغره. مدّ الله في عمرك، وجعل يومي قبل يومك. وكتب إليه بهذه الأبيات:

عة والعطايا الفاشية

ش والملوك العالية

ن رموا لذيك بدهية

خلع المدلة بادية

أعجاز نخل خاوية

لم تبق منهم باقية

رة والأمر الساميه

قل للخليفة ذي الصني

وابن الخلائف من قري

إن البرامكة الذي

صفر الوجوه عليهم

فكانهم ممّا بهم

عمتهم لك سخطة

بعد الإمارة والوزا

فوق المنازل عاليه
منك الرضا والعافيه
يكفيك مني ما بيه
ذلي وذل مكانيه
بة والمدامع جاريه
يا سؤاتي وشقائيه
ن على جميع رجاليه
ما للزمان وماليه؟
عودي علينا ثانيه

ومنازل كانت لهم
أضحوا وجلّ مناهم
يا من يود لي الردى
يكفيك ما أبصرت من
وبكاء فاطمة الكئي
ومقالها بتوجع
من لي وقد غضب الزما
يا لهف نفسي لهفها
يا عطفة الملك الرضا

فلم يكن له جواب من الرشيد.

واعتل يحيى في الحبس، فلما أشفى دعا برقة فكتب في عنواها: يُنفذ أمير المؤمنين عهد مولاة يحيى بن خالد. وفيها مكتوب: بسم الله الرحمن الرحيم. قد تقدم الخضم إلى موقف الفصل، وأنت على الأثر، والله حكم عدل، وستقدم فتعلم. فلما ثقل قال للسجان: هذا عهدي توصله إلى أمير المؤمنين، فإنه ولي نعمتي، وأحق من نقد وصيتي. فلما مات يحيى، أوصل السجان عهده إلى الرشيد. قال سهل بن هارون: وأنا عند الرشيد إذ وصلت الرقة إليه. فلما قرأها جعل يكتب في أسفلها ولا أدري لمن الرقة، فقلت له: يا أمير المؤمنين، ألا أكفيك؟ قال: كلا، إني أخاف عادة الراحة أن تُقوي سلطان العجز، فيحكم بالعقل، ويقضي بالبلادة، ووقع فيها: الحكم الذي رضيت به في الآخرة لك هو أعدى الخصوم عليك، وهو من لا يُنقض حكمه، ولا يُردّ قضاؤه. قال: ثم رمى بالصك إليّ، فلما رأيته علمت أنه ليحيى، وأن الرشيد أراد أن يؤثر الجواب عنه.

وقال دعبل يرثي بني برمك:

ونادى مُنادٍ للخليفة في يحيى
أنما قصارى الفتى يوماً مفارقة الدنيا

ولما رأيتُ السيفَ جَلَّ جعفرًا
بكيّتُ على الدنيا وأيقنتُ

وقال سليمان الأعمى يرثي بني برمك:

وعيني لا يُلائمها المنامُ
إذا سهر المُحب المُستهام
فبي أرقُ إذا هجع النيام
بهم نسقى إذا انقطع الغمام
وللعبرات من عيني انسجام

هَذَا الخالون عن شجوي وناموا
وما سهرى بأني مستهام
ولكن الحوادث أرقنتني
أصبت بسادة كانوا عيوناً
فقلتُ وفي الفؤاد ضرامُ نار

ودولة آل برمك السلام
ومن يجزع عليك فلا يلام

على المعروف والدنيا جميعاً
جزعتُ عليك يا فضل بن يحيى

هُوتَ بِكَ أَنْجُمُ الْمَعْرُوفِ فِينَا
وَمَا ظَلَمَ إِلَاهُ أَخَاكَ لَكِنْ
عَقَابُ خَلِيفَةِ الرَّحْمَنِ فَخْرُ
عَجَبْتُ لِمَا دَهَا فَضْلَ بْنَ يَحْيَى
جَرَى فِي اللَّيْلِ طَائِرُهُمْ بِنَحْسِ
وَلَمْ أَرَ قَبْلَ قَتْلِكَ يَا بْنَ يَحْيَى
بُرَيْنَ الْحَادِثَاتِ لَهُ سِهَامًا
لِيَهْنُ الْحَاسِدِينَ بِأَنْ يَحْيَى
وَأَنْ الْفَضْلَ بَعْدَ رِدَاءِ عَزٍّ
فَقُلْ لِلشَّامَتَيْنِ بِهِمْ جَمِيعًا
أَمِينَ اللَّهِ فِي الْفَضْلِ بْنَ يَحْيَى
أَبَا الْعَبَّاسِ إِنَّ لِكُلِّ هَمٍّ
أَرَى سَبَبَ الرِّضَا وَلَهُ قَبُولُ
وَقَدْ آلَيْتُ فِيهِ بِصَوْمِ شَهْرٍ
وَقَدْ آلَيْتُ مُعْتَزِمًا بِنَذْرٍ
بِأَنْ لَا ذُقْتُ بَعْدَكُمْ مُدَامَا
أَلَّهُوْ بَعْدَكُمْ وَأَقْرَّ عَيْنًا
وَكَيْفَ يَطِيبُ لِي عَيْشٌ وَفَضْلُ
وَجَعَفَرُ ثَاوِيًا بِالْجِسْرِ أَبْلَتُ
أَمْرٌ بِهِ فَيَغْلِبُنِي بِكَائِي
أَقُولُ وَقُمْتُ مُنْتَصِبًا لَدِيهِ
أَمَا وَاللَّهِ لَوْ لَا خَوْفٌ وَأَشٍ
لَتَمْنَا رُكْنَ جِذْعِكَ وَاسْتَلَمْنَا
وَقَالَ بَعْضُ الشُّعْرَاءِ يُغْرِي هَارُونَ بَيْنِي بِرَمَكِ.

قُلْ لِلخَلِيفَةِ فِي اكْتِفَائِهِ

إِمَّا بَدَأَتْ بِجَعْفَرٍ

وَعَزَّ بِفَقْدِكَ الْقَوْمُ اللَّئَامُ
قَضَاءُ كَانَ سَبَبَهُ اجْتِرَامُ
لَمَنْ بِالسَّيْفِ صَبَّحَهُ الْحِمَامُ
وَمَا عَجَبِي وَقَدْ غَضِبَ الْإِمَامُ
وَصَبَّحَ جَعْفَرًا مِنْهُ اصْطِلَامُ
حُسَامًا قَدَّهُ السَّيْفُ الْحُسَامُ
فَغَالَتَهُ الْحَوَادِثُ وَالسَّهَامُ
أَسِيرٌ لَا يَضِيمُ وَيَسْتَضَامُ
غَدَا وَرَدَاؤُهُ ذَالٌ وَوَلَامُ
لَكُمْ أَمْثَالُهَا عَامٌ فَعَامُ
رَضِيْعُكَ وَالرَّضِيْعُ لَهُ ذِمَامُ
وَإِنْ طَالَ انْقِرَاضُ وَانْصِرَامُ
عَلَى اللَّهِ الزِّيَادَةُ وَالتَّمَامُ
فَإِنْ تَمَّ الرِّضَا وَجَبَ الصِّيَامُ
وَلِي فِيمَا نَذَرْتُ بِهِ اعْتِرَامُ
وَمَوْتِي أَنْ يُفَارِقَنِي الْمُدَامُ
عَلِيَّ اللَّهُوْ بَعْدَكُمْ حَرَامُ
أَسِيرٌ دُونَهُ الْبَلَدُ الشَّامُ
مَحَاسِنُهُ السَّمَائِمُ وَالْقَتَامُ
وَلَكِنَّ الْبُكَاءَ لَهُ اِكْتِنَامُ
إِلَى أَنْ كَادَ يَفْضَحُنِي الْقِيَامُ
وَعَيْنٌ لِلخَلِيفَةِ لَا تَنَامُ
كَمَا لِلنَّاسِ بِالْحَجَرِ اسْتِلَامُ

دُونَ الْأَنَامِ بِحُسْنِ رَائِهِ

فَاسِقِ الْبِرَامِكِ مِنْ إِنْائِهِ

ما برمكي بعده

أنى وقصر البرمك

فلقد رفعت لجعفر

فارفع ليحيى مثله

وأخضب بصدر مهند

تقف الظنون على وفائه

ي إلى انتكاث من شقائه

ذكرين قلاً في جزائه

ما العود إلا من لحائه

عثنون يحيى من دمائه

إبراهيم بن المهدي قال: قال لي جعفر بن يحيى يوماً إنني استأذنت أمير المؤمنين في الحمامة وأردت أن أخلو بنفسي وأفر من أشغال الناس وأتوحد، فهل أنت مُساعدي؟ قلت: جعلني الله فداك، أنا أسعد مُساعديك وأنس مُخالاتك: فقال: بكر إلى بكور الثراب. قال: فأتيت عند الفجر الثاني: فوجدت الشَّمة بين يديه وهو قاعدٌ ينتظرني للميعاد. قال: فصلينا ثم أفضنا في الحديث، حتى أتى وقت الحمامة، فأتى الحمام، فحجمنا في ساعة واحدة. ثم قُدِّم إلينا الطعام، فطعمنا. فلما غَسَلنا أيدينا خُلِع علينا ثياب المنادمة وضمَّخنا بالخلوق، وظلَّلنا بأسرٍ يوم مرَّ بنا. ثم إنه تذكَّر حاجة فدعا الحاجب. فقال له: إذا جاء عبدُ الملك القَهْرمان فأذن له، فنسي الحاجب، وجاء عبدُ الملك ابن صالح الهاشمي على جلالته وسنَّه وقدره وأدبه، فأذن له الحاجب. فما راعنا إلا طلعة عبدُ الملك بن صالح، فتغيَّر لذلك وجهُ جعفر بن يحيى، وتنعَّص عليه ما كان فيه. فلما نظر إليه عبدُ الملك على تلك الحالة دعا غلامه، فدفع إليه سيفه وسواده وعمامته، ثم جاء فوقف على باب المجلس، فقال: اصنعوا بنا ما صنعتم بأنفسكم. قال: فجاء الغلام فطرح عليه ثياب المنادمة، ودعا بطعام فطعم، ثم دعا بالشراب فشرب ثلاثاً، ثم قال: ليخفف عني فإنه شيء ما شربته قط. فتهلَّل وجهُ جعفر فرحاً. وقد كان الرشيد حاور عبدَ الملك على المنادمة فأبى ذلك وتتره عنه. ثم قال له جعفر بن يحيى: جعلني الله فداك، قد تفضَّلت وتطوَّلت وأسعدت، فهل من حاجة تُبلِّغها مقدرتي، وتُحيط بما نعمتي فأقضيها لك مكافأة لما صنعت؟ قال: بلى، إنَّ قلبَ أمير المؤمنين عاتب عليّ، فتسأله الرضا عني. قال: قد رضي عنك أمير المؤمنين. ثم قال: وعليّ أربعة آلاف دينار. قال: هي حاضرة، ولكن من مال أمير المؤمنين أحبُّ إليّ من مالي. قال: وابن إبراهيم أحبُّ أن أشد ظهره بمصاهرة أمير المؤمنين. قال: قد زوجه أمير المؤمنين ابنته عائشة الغالية. قال: وأحبُّ أن تحفِّق الألوية على رأسه بولاية. قال: قد ولَّاه أمير المؤمنين مصر. قال: فانصرف عبدُ الملك ونحن نَعْجب من إقدام جعفر على الرشيد من غير استئذان. فلما كان الغد وقفنا على باب أمير المؤمنين، ودخل جعفر، فلم يلبث أن دعا بأبي يوسف القاضي ومحمد ابن الحسن وإبراهيم بن عبد الملك، فعقد له النكاح وحملت البدر إلى عبد الملك وكتب سجلاً إبراهيم على مصر. وخرج جعفر فأشار إلينا، فلما صار إلى منزله ونحن خلفه، نزل ونزلنا بتزوله. فالتفت إلينا، فقال: تعلقت قلوبكم بأول أمر عبد الملك فأحببتُّم أن تعرفوا آخره، وإني لما دخلتُ على أمير المؤمنين ومثلت بين يديه سألتني عن أمسي، فابتدأت أحدثه بالقصة من أولها إلى آخرها، فجعل يقول: أحسن والله! أحسن والله ثم قال: فما أجبته، فجعلت أخبره وهو يقول في كل شيء: أحسنت. وخرج إبراهيم والياً على مصر.

من أخبار الطالبين

حدَّث عبد العزيز بن عبد الله البصري عن عثمان بن سعيد بن سعد المدني قال: لما ولى الخليفة أبو العباس السفاح قدم عليه بنو الحسن بن علي بن أبي طالب، فأعطاهم الأموال وقطع لهم القطائع، ثم قال لعبد الله بن الحسن: احتكم عليّ، قال: يا أمير المؤمنين، بألف ألف درهم، فإني لم أرها قط. فاستقرضها أبو العباس من ابن مقرن الصيرفي وأمر له بها - قال عبد العزيز: لم يكن يومئذ بيت مال - ثم إنَّ أبا العباس أتى بجوهر مروان، فجعل يُقلِّبه وعبد الله بن الحسن عنده، فبكى عبدُ الله. فقال له: ما يُكيك يا أبا محمد؟ قال: هذا عند بنات مروان وما رأيت بنات عمك مثله قط. قال: فحباه به. ثم أمر بن مقرن الصيرفي أن يصل إليه ويتاعه منه. فاشتراه منه بثمانين ألف دينار. ثم حضر خروج بني حسن فأرسل معهم رجلاً من ثقاته، وقال له: قم بإنزالهم ولا تأن في إطفاهم. وكلما حلوت معهم فأظهر الميل إليهم والتحامل علينا وعلى ناحيتنا، وأنهم أحقُّ بالأمر منا، وأحص لي ما يقولون وما يكون منهم في مسيرهم ومقدمهم.

ومما كان حَشَنَ قلب أبي العباس حتى أساء بهم الظن، أنه لما بَيَّنَّ مدينةَ الأنبار دخلها مع أبي جعفر أخيه وعبد الله بن الحسن، وهو يسير بينهما ويُريهما بُنيانه وما أقام فيها من المصانع والقصور، فظهرت من عبد الله بن الحسن فلتة، فجعل يتمثل بهذه الأبيات:

ألم ترجو شناً قد صار بيني

قصوراً نفعها لبني نفيلاً

يؤمل أن يعمر عمر نوح

وأمر الله يحدث كل ليله

قال: فتغير وجه أبي العباس. فقال له أبو جعفر: أترهما ابنك أبا محمد والأمر إليهما صائر لا محالة؟ قال: لا والله ما ذهبتُ هذا المذهب ولا أردتُه، ولا كانت إلا كلمة جرت على لساني، لم ألق لها بالاً. فأوحشتُ تلك الكلمة أبا العباس. فلما قَدِمَ المدينةَ عبد الله بن حسن اجتمع إليه الفاطميون، فجعل يُفرق فيهم الأموال التي بعث بها أبو العباس، فعظم بها سرورهم. فقال لهم عبد الله بن الحسن: أفرحتم؟ قالوا: وما لنا لا نفرح بما كان محجوباً عنا بأيدي بني مروان حتى أتى الله بقرابتنا وبني عمنا، فأصاروه إلينا. قال لهم: أفرَضَيْتُمْ أن تنالوا هذا من تحت أيدي قوم آخرين؟ فخرج الرجل الذي كان وكَّله أبو العباس بأخبارهم، فأخبره بما سمع من قولهم وقوله؟ فأخبر أبو العباس أبا جعفر بذلك، فزادت الأمور شراً. ثم مات أبو العباس وقام أبو جعفر بالأمر بعده، فبعث بعطاء أهل المدينة، وكتب إلى عامله: أن أعط الناس في أيديهم ولا تبعث إلى أحدٍ بعطائه، وتفقّد بني هاشم ومن تخلف منهم ممن حضر، وتحفظ بمحمد وإبراهيم، ابني عبد الله بن الحسن. ففعل وكتب: إنه لم يتخلف أحدٌ عن العطاء إلا محمد وإبراهيم، ابنا عبد الله بن الحسن، فإنهما لم يحضرا. فكتب أبو جعفر إلى عبد الله بن الحسن، وذلك مبتدأ سنة تسع وثلاثين ومائة، يسأله عنهما ويأمره بإظهارهما ويُخبره أنه غير عاذره. فكتب إليه عبد الله: إنه لا يدري أين هما ولا أين توجهها، وإن غيبتهما غيرُ معروفة. فلم يلبث أبو جعفر، وكان قد أذكى العيون ووضع الأرصاد، حتى جاءه كتابٌ من بعض ثقاته يُخبره أن رسولاً لعبد الله ومحمد وإبراهيم خرج بكتب إلى رجال بخراسان يستدعيهم إليهم. فأمر أبو جعفر برسولهم، فأتي به وبكتبه، فردها إلى عبد الله بن الحسن بطوابعها، لم يفتح منها كتاباً، ورد إليه رسوله، وكتب إليه: إني أتيت برسولك والكتب التي معه، فرددتها إليك بطوابعها كراهية أن أطلع منها على ما يُغيّر لك قلبي، فلا تدع إلى التقاطع بعد التواصل، ولا إلى الفرقة بعد الاجتماع، وأظهر لي ابنك فإنهما سيصيران بحيث تحب من الولاية والقرابة وتعظيم الشرف. فكتب إليه عبد الله بن الحسن يعتذر إليه ويتصل في كتابه، ويُعلمه أن ذلك من عدوٍ أراد تشتيت ما بينهم بعد التثامه. ثم جاءه كتابٌ ثقة من ثقاته يذكر أن الرسول بعينه خرج بالكتب بأعيانها على طريق البصرة، وأنه نازل على فلان المهلي، فإن أراد أمير المؤمنين فليضع عليه رصده. فوضع عليه أبو جعفر رصده. فأتي به إليه ومعه الكتب، فحبس الرسول وأمضى الكتب إلى خراسان مع رسول من عنده من أهل ثقاته. فقدمت عليه الجوابات بما كره، واستبان له الأمر. فكتب إلى عبد الله بن الحسن يقول:

أريد حياته ويُريد قتلي

عذيرك من خليلك من مراد

أما بعد، فقد قرأتُ كتبك وكتبُ ابنك وأنفذتها إلى خراسان، وجاءتني جواباتها بتصديقها، وقد استقرّ عندي أنك مُعَيَّبٌ لابنك تعرف مكانهما، فإظهارهما إليّ، فإن لك في أن أعظم صلتهما وجوائزهما وأضعهما بحيث وضعتهما قرابتهما، فتدارك الأمور قبل تفاقمها. فكتب إليه عبد الله بن الحسن:

وكيف أريد ذلك وأنت مني

وزندك حين تُدح من زنادي

وكيف أريد ذلك وأنت مني

بمنزلة النياط من الفؤاد

وكتب إليه: إنه لا يدري أين توجهها من بلاد الله، ولا يدري أين صار، وإنه لا يعرف الكتب ولا يشك أنها مُفتعلة. فلما اختلفت الأمور على أبي جعفر بعث سلم بن قتيبة الباهليّ وبعث معه بماله، وأمره بأمره، وقال له: إني إنما أدخلك بين جلدي وعظمي، فلا توطئي عشواء ولا تُخف عني أمراً تعلمه. فخرج سلم بن قتيبة حتى قَدِمَ المدينة، وكان عبد الله يُسقط له في رُحام المنبر في الروضة، وكان مجلسه فيه. فجلس إليه وأظهر له المحبة والميل

إلى ناحيته، ثم قال له حين أنس إليه: إن نقرأ من أهل خراسان وهم فلان وفلان -وسمّي له رجالاً يعرفهم ممن كان يُكاتب ممن استقرّ عند أبي جعفر أمرهم- قد بعثوا إليك معي مالا، وكتبوا إليك كتاباً. فقبل الكتاب والمال، وكان المال عشرة آلاف دينار، ثم أقام معه ما شاء الله حتى ازداد به أنساً وإليه استنامة، ثم قال له: إني قد بعثت بكتابين إلى أمير المؤمنين محمد وإلى ولي عهده إبراهيم، وأمرت أن لا أوصل ذلك إلا في أيديهما، فإن أوصلتني إليهما وأدخلتني عليهما أوصلت إليهما الكتابين والمال، ورحلت إلى القوم بما يُتلىج صدورهم، وتقبله قلوبهم، فأنا عندهم بموضع الصدق والأمانة، وإن كان أمرهما مظلماً، ولم تكن تعرف مكاهما، لم نخاطر بدينهم وأموالهم ومُهجهم. فلما رأى عبد الله أن الأمور تُفسد عليه من حيث يرجو صلاحها إلا بإيصاله إليهما وأظهارهما له أوصله، فدفعت الكتابين مع أربعين ألف درهم، ثم قال: هذا محمد وهذا إبراهيم. فقال لهم: إن من ورائي لم يعثوني ولهم ورائي غاية، وليس مثلي ينصرف إلى قوم إلا بجملة ما يحتاجون إليه، ومحمد إنما صار إلى هذه الخطة ووجبت له هذه الدعوة لقربته من رسول الله صلى الله عليه وسلم، وما هنا من هو أقرب من رسول الله رحماً وأوجب حقاً منه. قال: ومن هو؟ قال: أنت إلا أن يكون عندك ابنك محمد أثرٌ ليس عندك في نفسك. قال: فكذلك الأمر عندي. قال له: فإن القوم يقتدون بك في جميع أمورهم ولا يريدون أن يبذلوا دينهم وأموالهم وأنفسهم إلا بجملة يرجون بها لمن قتل منهم الشهادة، فإن أنت خلعت أبا جعفر وبايعت محمداً اقتدوا بك، وإن أبيت اقتدوا بك أيضاً في ترك ذلك ثقةً بك لقربتك من رسول الله صلى الله عليه وسلم، وموضعك الذي وضعك الله فيه. قال: فإني أفعل. فبايع محمداً وخلع أبا جعفر. وبايعه سلّم من بعده، وأخذ كُتبه وكتب إبراهيم ومحمد وخرج. فقدم على أبي جعفر وقد حضر الموسم، فأخبره حقيقة الأمر وبقينه. فلما دخل أبو جعفر المدينة أرسل إلى بني الحسن فجمّعهم، وقال لسلّم: إذا رأيت عبد الله عندي فقم على رأسي وأشير إليّ بالسلاح، ففعل. فلما رآه عبد الله سقط في يده وتغيّر وجهه. فقال له أبو جعفر: مالك أبا محمد، أعرفه؟ قال: نعم يا أمير المؤمنين، فأقِلني وصلتك رحم. فقال له أبو جعفر: هل علمت أنك تعرف موضع ولدك وأنه لا عُذر لك وقد باح السرُّ، فأظهرهما لي، ولك أن أصل رحمتك ورحمهما، وأن أعظم ولايتهما وأعطي كل واحد منهما ألف ألف درهم. فترجع عبد الله حتى انكفأ على ظهره، وبنو حسن اثنا عشر رجلاً، فأمر بحبسهم جميعاً. وخرج أبو جعفر فعسكر من ليلته على ثلاثة أميال من المدينة، وعباً على القتال، ولم يشك أن أهل المدينة سيقاتلونه في بني حسن، فعباً ميمنة وميسرة وقبلاً وهياً للحرب، وأجلس في مسجد النبي صلى الله عليه وسلم عشرين مُعظيماً يُعطون العطايا. فلم يتحرك عليه منهم أحد، ثم مضى بهم إلى مكة.

فلما انصرف أبو جعفر إلى العراق، خرج محمد بن عبد الله بالمدينة، فكتب إليه أبو جعفر: من عبد الله أمير المؤمنين إلى محمد بن عبد الله "إنما جزاء الذين يجارون الله ورسوله ويسعون في الأرض فساداً أن يُقتلوا أو يُصلبوا أو تُقطع أيديهم وأرجلهم من خلاف أو يُنقوا من الأرض ذلك لهم خزي في الدنيا وهم في الآخرة عذاب عظيم. إلا الذين تابوا من قبل أن تُقدروا عليهم فاعلموا أن الله غفورٌ رحيم". ولك عليّ عهد الله وميثاقه وذمة الله وذمة نبيه، إن أنتم أنتمتُم وتبتم ورجعتم من قبل أن أقدر عليكم وأن يقع بيني وبينكما سفك الدماء، أن أؤمنكما وجميع ولدكما. ومن شايكما وتآبعتكما على دمائكم وأموالكم، وأوسعكم ما أصبتم من دم أو مال، وأعطيكم ألف ألف درهم لكل واحد منكما، وما سألتما من الحوائج، وأبوئكما من البلاد حيث شئتما، وأطلق من الحبس جميع ولد أبيكما، ثم لا أتعب واحدًا منكما بذنب سلف منه أبداً. فلا تُشمت بنا وبك عدوتنا من قريش، فإن أحببت أن تتوثق من نفسك بما عرضت عليك، فوجه إليّ من أحببت ليأخذ لك من الأمان والعهود والمواثيق ما تأمن وتطمئن إليه إن شاء الله والسلام.

فأجابه محمد بن عبد الله: من محمد بن عبد الله أمير المؤمنين إلى عبد الله بن محمد "طسّم. تلك آيات الكتاب المبين. تثلو عليك من نبا موسى وفرعون بالحق لقوم يؤمنون" إلى قوله "وما كانوا يحذرون". وأنا أعرض عليك من الأمان ما عرضته، فإن الحق معنا وإنما ادعيتم هذا الأمر بنا، وخرجتم إليه بشيعتنا، وحظيتم بفضلنا، وإن أبانا علياً رحمه الله كان الإمام فكيف ورثتم ولاية ولده وقد علمتم أنه لم يطلب هذا الأمر أحدٌ. يمثل نسبنا ولا شرفنا، وأنا لسنا من أبناء الطائر، ولا من أبناء الطلقاء، وأنه ليس يمتُّ أحدٌ. يمثل ما نمت به من القرابة والسابقة والفضل وأنا بنو أم أبي رسول الله صلى الله عليه وسلم فاطمة بنت عمرو في الجاهلية، وبنو فاطمة ابنته في الإسلام دونكم، وأن الله اختارنا واختار لنا، فولدنا من النبيين أفضلهم، ومن الألف أولهم إسلاماً علي بن أبي طالب، ومن النساء أفضلهن خديجة بنت خويلد، وأول من صلى إلى القبلة منهن، ومن البنات فاطمة سيّدة نساء أهل الجنة،

ولدت الحسن والحسين سيدَي شباب أهل الجنة صلواتُ الله عليهما، وأن هاشمًا ولدَ عليا مرتين، وأن عبد المطلب ولدَ حسناً مرتين، وأن النبي صلى الله عليه وسلم ولدني مرتين، وأني من أوسط بني هاشم نسباً وأشرفهم أباً وأمّاً لم تُعرق في العجم ولم تُنزع في أمهات الأولاد. فما زال الله بمتته وفضله يختار لي الأمهات في الجاهلية والإسلام، حتى اختار لي في النار، فأنا ابنُ أرفع الناس درجةً في الجنة، وأهونهم عذاباً في النار، وأبي خيرُ أهل الجنة، وأبي خيرُ أهل النار، فأنا ابنُ خير الأخيار، وأبنُ خير الأشرار، فلك اللّه، إن دخلت في طاعتي وأوجبت دَعوتي، أن أؤمنك على نفسك ومالك ودمك وكلُّ أمرٍ أحدثته، إلا حداً من حدود الله، أو حقَّ امرئٍ مُسلم أو مُعاهد، فقد علمت ما يلزمك من ذلك، وأنا أولى بالأمر منك، وأوفى بالعهد؟ لأنك لا تُعطي من العهد أكثر مما أعطيت رجلاً قبلي. فأَي الأمانات تُعطيني: أمان ابن هبيرة، أو أمان عمك عبد الله بن عليّ، أو أمان أبي مُسلم. والسلام.

فكتب إليه أبو جعفر المنصور: من عبد الله أمير المؤمنين إلى محمد بن عبد الله بن حسن، أما بعد. فقد بلغني كتابك، وفهمتُ كلامك، فإذا جُل فخرِك بقرابة النساء، لتضل به الغوغاء. ولم يجعل الله النساء كالعُمومة والآباء، ولا كالعصبة الأولياء؟ لأن الله جعل العمَّ أباً وبدأ به في القرآن على الوالد الأدنى. ولو كان اختيارُ الله لهنَّ علي قدر قرابتهن لكانت أمنة أقربهن رحماً، وأعظمهن حقاً، وأول من يدخل الجنة غداً، ولكن اختيارَ الله لخلقه على قدر علمه الماضي لهم. فأما ما ذكرت من فاطمة جدّة النبي صلى الله عليه وسلم وولادتها لك، فإن الله لم يرزق أحداً من ولدها دين الإسلام ولو أن أحداً من ولدها رزق الإسلام بالقرابة لكان عبد الله بن عبد المطلب أولاهم بكل خير في الدنيا والآخرة، ولكن الأمر لله يختار لدينه من يشاء. وقد قال جل ثناؤه: "إنك لا تهدي من أحببت ولكن الله يهدي من يشاء وهو أعلم بالمهتدين". وقد بعث الله محمد صلى الله عليه وسلم وله عُمومة أربعة، فأنزل الله عليه: "وأندِر عَشِيرَتِكَ الأقرين". فدعاهم فأندرهم، فأجابه اثنان أحدهما أبي، وأبي عليه اثنان أحدهما أبوك، فقطع الله ولايتهما منه، ولم يجعل بينهما إلا ولا ذمة ولا ميراثاً. وقد زعمت أنك ابنُ أخفَّ أهل النار عذاباً وابنُ خير الأشرار، وليس في الشرِّ خيارٌ، ولا فخر في النار، وسترد فتعلم "وسيعلم الذي ظلموا أيُّ منقلبٍ يَنقلبون". وأما ما فخرت به من فاطمة أم عليّ، وأن هاشمًا ولد عليًا مرتين، وأن عبد المطلب ولد الحسن مرتين، وأن النبي صلى الله عليه وسلم ولدك مرتين، فخيرُ الأولين الآخرين رسولُ الله صلى الله عليه وسلم، لم يدله هاشمٌ إلا مرة واحدة، ولا عبد المطلب إلا مرة واحدة. وزعمت أنك أوسطُ بني هاشم نسباً وأكرمهم أباً وأمّاً، وأنك لم تُلدك العجم، ولم تُعرق فيك أمهاتُ الأولاد، فقد رأيتك فخرت على بني هاشم طراً، فانظر أين أنت ويحك من الله غداً! فإنك قد تعدّيت طورك، وفخرت على من هو خيرٌ منك نفساً وأباً وأولاً وآخرًا: فخرت على إبراهيم ولد النبي صلى الله عليه وسلم وهل خيار ولد أبيك خاصة وأهل الفضل منهم إلا بنو أمهات أولاد؟ وما ولد منكم بعد وفاة رسول الله صلى الله عليه وسلم أفضل من عليّ بن الحسين، وهو لأم ولد، وهو خيرٌ من جدك حسن بن حسن. وما كان فيكم بعده مثل ابنه محمد بن عليّ، وجدته أم ولد، وهو خيرٌ من أبيك، ولا مثل ابنه جعفر، وهو خيرٌ منك، وجدته أم ولد. وأما قولك: إنا بنو رسول الله صلى الله عليه وسلم فإن الله يقول: "ما كان محمدًا أباً أحدٍ من رجالكم ولكن رسولُ الله وخاتم النبيين" ولكنكم بنو ابنته وهي امرأة لا تُحز ميراتاً، ولا تُرث الولاة، ولا يحل لها أن تؤم، فكيف تورث بها إمامة، ولقد ظلمها أبوك بكل وجه، فأخرجها نهاراً مرَّضها سرّاً، ودفنها ليلاً. فأبي الناس إلا تقديم الشيخين وتفضيلهما. ولقد كانت السنة التي لا اختلاف فيها أن الجدَّ أبا الأم والخال والخالة لا يرثون.

وأما ما فخرت به من عليّ وسابقته. فقد حضرتُ النبي صلى الله عليه وسلم الوفاة، فأمر غيره بالصلاة. ثم أخذ الناس رجلاً بعد رجل فما أخذه، وكان في السنة من أصحاب الشورى، فتركوه كلهم: رفضه عبد الرحمن بن عوف، وقتاله طلحة والزبير، وأبي سعد بيعتَه وأغلق بابَه دونه، وبايع معاوية بعده. ثم طلبها بكل وجه فقاتل عليها، ثم حكّم الحكمين ورضي بهما وأعطاهما عهد الله وميثاقه، فاجتمعا على خلعه واختلفا في معاوية. ثم قال جدك الحسن فباعها بخرق ودراهم، ولحق بالحجاز، وأسلم شيعته بيد معاوية، ودفع الأموال إلى غير أهلها، وأخذ مالا من غير ولائه. فإن كان لكم فيها حق فقد بعتموه وأخذتم منه. ثم خرج عمك الحسين على ابن مِرْجانة، فكان الناس معه عليه حتى قتلوه وأتوا برأسه إليه. ثم خرجتُم على بني أمية فقتلوكم وصلبكم على جذوع النخل وأحرقوكم بالنيران ونفوكم من البلدان، حتى قتل يحيى بن زيد بأرض خراسان، وقتلوا رجالكم وأسروا الصبية والنساء وحملوهم كالسبي المجلوب إلى الشام. حتى خرجنا عليهم فطلبنا بثأركم، وأدركنا بدمائكم، وأورثناكم أرضهم وديارهم وأموالهم، وأردنا

إشراككم في مُلكنا، فأبيتم إلا الخروجَ علينا. وظننتَ ما رأيتَ من ذكرنا أباكَ وتَفصيلنا إياه أنا نُقدمه على العَبَّاسِ وحمزةَ وجَعْفَرَ، وليس كما ظننتَ ولكنَّ هؤلاءُ سالمونَ مُسلمٌ منهم، مُجتمعٌ بالفضلِ عليهم.

وأتبلى بالحربِ أبوكَ، فكانتِ بنو أميةَ تلغنه على المنابرِ كما تلغن أهلَ الكفرِ في الصلاةِ المكتوبةِ، فاحتججنا له وذكرنا فَضْلةَ وعَنَفناهم وظَلَمناهم فيما نالوا منه.

وقد علمت أن المَكْرمةَ في الجاهليةِ سقايةُ الحاجِ الأعظمِ وولايةُ بئرِ زمزم، وكانت للعَبَّاسِ من بين إخوته، وقد نازعنا فيها أبوكَ فقضى لنا بها رسولُ الله صلى الله عليه وسلم، فلم نزل نلبيها في الجاهليةِ والإسلامِ. فقد علمت أنه لم يبقَ أحدٌ من بعد النبيِّ صلى الله عليه وسلم من بني عبدِ المطلبِ غيرَ العَبَّاسِ وحده، فكان وارثه من بين إخوته. ثم طلب هذا الأمرَ غيرَ واحدٍ من بني هاشم فلم ينله إلا ولده، فالسقايةُ سقايُتنا، وميراثُ النبيِّ صلى الله عليه وسلم ميراثُنا، والخلافةُ بأيدينا، فلم يبقَ فضلٌ ولا شرفٌ في الجاهليةِ والإسلامِ إلا والعَبَّاسِ وارثه ومورثه، والسلام.

فلما خرج محمدُ بن عبدِ الله بن الحسنِ بالمدينةِ بايعه أهلُ المدينةِ وأهلُ مكَّةَ.

وخرج أخوه إبراهيمُ بن عبدِ الله بن الحسنِ بالبصرةِ في شهرِ رمضان، فاجتمع الناسُ إليه، فنهض إلى دارِ الإمارةِ وبها سفيان بن محمد بن المهلب، فسلم إليه البصرةَ بغيرِ قتالٍ. وأرسل إبراهيمُ بن عبدِ الله بن الحسنِ إلى الأهوازِ جيشاً، فأخذها بعد قتالٍ شديدٍ، وأرسل جيشاً إلى واسط فأخذها. ثم إن أبا جَعْفَرَ المَنصورَ جهَّزَ إليهم عيسى بن موسى، فخرج إلى المدينةِ، فلقى محمدُ بن عبدِ الله، فانهزم بأصحابه وقُتل. ثم مضى عيسى بن موسى إلى البصرةِ فلقى إبراهيمَ بن الحسنِ، فقتله وبعث برأسه إلى أبي جعفر.

وقال رجلٌ من أهلِ مكَّةَ: كُنتُ جالساً مع عمرو بن عُبيدٍ بالمسجدِ، فأتاه رجلٌ بكتابِ المَنصورِ على لسانِ محمد بن عبدِ الله بن الحسنِ يدعوهُ إلى بيعته، فقرأه ثم وضعه. فقال له الرسول: الجواب. فقال: ليس له جواب، قل لصاحبك يدعنا نجلس في الظلِّ ونشرب من هذا الماءِ الباردِ حتى تأتينا آجالنا.

مروان بن شجاع، مولى بني أميةَ، قال: كنتُ مع إسماعيل بن عليٍّ بفارس أودب ولده، فلما لقيته المبيضةَ وظفر بهم أتى منهم بأربعمائة أسير، فقال له أخوه عبدُ الصمدِ، وكان على شُرطته: أضرب أعناقهم. فقال ما تقول يا مروان؟ قلت: أصلح الله الأمير، إنه أولُ من سنَّ قتالَ أهلِ القِبْلةِ عليَّ بن أبي طالب، فرأى أن لا يُقتل أسير، ولا يُجهز على جريح، ولا يُتبع مولى. قال: خذ بيعتهم وخلِّ سبيلهم.

قيل لمحمد بن علي بن الحسين: ما أقل ولدَ أيبك؟ قال: إني لأعجبُ كيف وُلدتُ له! قيل له وكيف ذلك؟ قال: إنه كان يُصلي في اليومِ واللييلةِ ألفَ ركعة، فمتى كان يتفرَّغ للنساء؟

ولما وجَّه المَنصورُ عيسى بن موسى في مُحاربةِ بني عبدِ الله بن الحسنِ، قال: يا أبا موسى إذا صرتَ إلى المدينةِ فادع محمدَ بن عبدِ الله بن الحسنِ إلى الطاعةِ والدُّخولِ في الجماعةِ، فإن أجابك فأقبل منه، وإن هرب منك فلا تتبعه، وإن أبي إلا الحربَ فناجزه واستعن بالله عليه، فإذا ظفرتَ به فلا تُخيفنَّ أهلَ المدينةِ وعمَّهم بالعفو، فإنهم الأصلُ والعشيرةُ وذريةُ المهاجرين والأنصارِ، وجيرانُ قبرِ النبيِّ صلى الله عليه وسلم فهذه وصيِّي إياك، لا كما أوصى به يزيدُ بن معاويةَ مُسلمَ بن أبي عُقبَةَ حين وجهه إلى المدينةِ وأمره أن يقتل من ظهر له إلى ثنيةِ الوداعِ، وأن يُبيحها ثلاثةَ أيامٍ، ففعل. فلما بلغ يزيدُ ما فعله تمثَّل بقول ابنِ الزُبَيريِّ في يومِ أحدٍ حيث قال:

ليت أشياخي ببدرٍ شهيدوا

جزع الخزرج من وقع الأسل

ثم اكتب إلى أهل مكة بالعفو عنهم والصفح، فإنهم آلُ الله وجيرانه، وسكان حرمه وأمنه، ومنبت القوم والعشيرة، وعظم البيت والحرم، لا تُلحد فيه بظلم، فإنه حرم الله الذي بعث منه نبيَّه محمداً صلى الله عليه وسلم، وشرف به آباءنا لتشریف الله إيانا. فهذه وصيِّي لا كما أوصى به الذي وجه الحاج إلى مكَّةَ فأمره أن يضع المَجانيقَ على الكعبةِ وأن يُلحد في الحرمِ بظلم، ففعل ذلك. فلما بلغه الخبرُ تمثَّل بقول عمرو بن كلثوم:

ألا لا يجهنن أحدٌ علينا

فنجهل فوق جهلاً لجاهلينا

لنا الدنيا ومن أضحى عليها

ونبتش حين نبتش قادرينا

الرياشي قال: قال عيسى بن موسى: لما وجهني المنصور إلى المدينة حَرَبَ بني عبد الله بن الحسن، جعل يُوصيني ويكثر. فقلتُ: يا أمير المؤمنين، إلى كم توصيني؟

إِنِّي أَنَا السِّيفُ الحُسَامُ الهِنْدِي
فَكُلْ مَا تَطْلُبُ مِنِّي عِنْدِي

وقال معاوية يوماً لجلسائه: مَنْ أكرم الناس أباً وأماً وجداً وجدّةً وعمّاً وعمّةً وخالاً وخالة؟ فقالوا: أمير المؤمنين أعلم. فأخذ بيد الحسن بن عليّ وقال: هذا، أبوه علي بن أبي طالب، وأمه فاطمة بنت محمد، وجدّه رسولُ الله صلى الله عليه وسلم، وجدّته خديجة، وعمّه جعفر، وعمّته هالة بنت أبي طالب، وخاله القاسم بن محمد، وخالته زينب بنت محمد صلى الله عليه وسلم الرياشي عن الأصمعي قال: لما خرج محمد بن عبد الله بن الحسن بالمدينة، فبايعه أهل المدينة وأهل مكة، وخرج إبراهيم أخوه بالبصرة فتغلب على البصرة والأهواز وواسط، قال سُديف بن ميمون في ذلك:

هاجرت فؤادَ مُحبِّ دائِمِ الحَزَنِ

بعد التّباعدِ والشّحناءِ والإحَنِ

فيها كأحكامِ قَوْمِ عابِدي وَثَنِ

إنَّ الخِلافةَ فيكم يا بَنِي حَسَنِ

إنَّ أسلموكِ ولا رُكنَ لذي يَمَنِ

عُوداً وأنفاهم ثوباً من الدَرَنِ

وأبعدَ الناسَ من عَجَزِ ومن أفَنِ

إنَّ الحَمَامَةَ يَوْمَ الشَّعْبِ من حَضَنِ

إنَّا لنأملُ أن تَرتدَ ألفتنا

وتتَقضي دولةَ أحماءِ قادتها

فأنهضَ ببيعنكم ننهضَ بطاعتنا

لا عَزَرَكنُ نِزارٍ عند نائِبَةِ

ألست أكرمهم يوماً إذا انتسبوا

وأعظمَ الناسَ عند الله منزلةً

فلما سمع أبو جعفر هذه الأبيات استُطير بها. فكتب إلى عبد الصمد بن علي أن يأخذ سُديفاً فيدفعه حياً، ففعل.

قال الرياشي: فذكر هذه الأبيات لأبي جعفر، شيخ من أهل بغداد. قال: هذا باطل، الأبيات لعبد الله بن مصعب، وإنما كان سببُ قتل سُديف أنه قال أبياتاً مُبهمة، وكتب بها إلى أبي جعفر، وهي هذه:

فاكف يدَيك أضلّها مهديها

جرارة يفتادها حسنيها

أسرفت في قتل الرعية ظالماً

فلتأنين رايةً حسنيه

فالتفت أبو جعفر، فقال لخازم بن خزيمه: تهيأ بهيئة السفر متنكراً، حتى إذا لم يبق إلا أن تضع رجلك في العَرز اثني، ففعل. فقال له: إذا أتيت المدينة فادخل مسجد النبي صلى الله عليه وسلم فدع سارية وثانية، فإنك تنظر عند الثالثة إلى شيخ آدم يُكثر التلفت، طويل كبير، فاجلس معه فتوجع لآل أبي طالب، واذكر شدة الزمان عليهم ثلاثة أيام، ثم قل له في الرابع: مَنْ يقول هذه الأبيات:

أسرفت في قتل الرعية ظالماً

قال: ففعل. فقال له الشيخ: إن شئت نبأتك مَنْ أنت؟ أنت خازم ابن خزيمه، بعثك إليّ أمير المؤمنين لتعرف مَنْ قاتل هذا الشعر، فقل له: جعلت فداك، والله ما قلته ولا قاله إلا سُديف بن ميمون، فإني أنا القاتل وقد دعوني إلى الخروج مع محمد بن عبد الله:

وأوقد للغاوين نارَ الحُبابِ

وتلقون جهلاً أسدّه بالثعالبِ

دعوني وقد شالت لإبليس راية

أباليت تغتروني يحمي عرينه

فلا نَفَعْتَنِي السَّنُّ إِنْ لَمْ يُوْزَكَمْ

وَلَا أَحْكَمْتَنِي صَادِقَاتُ التَّجَارِبِ

قال: وإذا الشيخ إبراهيم بن هرمة. قال: فقدمتُ على المنصور فأخبرته الخبر. فكتب إلى عبد الصمد بن عليّ، وكان سُديف في حبسه، فأخذه فدَفَنه حياً.

قال الرياشي سمعتُ محمد بن عبد الحميد يقول: قلت لابن أبي حفصة: ما أغراك ببني عليّ؟ قال: ما أحدٌ أحبَّ إليّ منهم، ولكني لم أحد شيئاً أنفع عند القوم منه. ولما دخل زيد بن عليّ على هشام بن عبد الملك قال له: بلغني أنك تحدّثت نفسك بالخلافة ولا تصلح لها، لأنك ابن أمة. قال له: أمّا قولك إني أحدث نفسي بالخلافة، فلا يعلم الغيب إلا الله، وأمّا قولك إني ابن أمة. فهذا إسماعيل ابن أمة، أخرج الله من صلبه محمداً صلى الله عليه وسلم، وإسحاق ابن حُرّة، أخرج الله من صلبه القردة والخنازير وعبد الطاغوت، وخرج من عنده، فقال: ما أحبُّ أحدٌ الحياة إلا ذلّ، فقال له الحاجب: لا يسمع هذا الكلام منك أحد. وقال زيد بن عليّ عند خروجه من عند هشام بن عبد الملك:

شَرَدَهُ الخَوْفُ وَأَزْرَى بِهِ

كَذَلِكَ مَنْ يَكْرَهُ حَرَ الجَلَادِ

مُحْتَفَى الرَّجْلَيْنِ يَشْكُو الوَجَى

تَقْرَعُهُ أَطْرَافُ مَرَوْ حِدَادِ

قَدْ كَانَ فِي المَوْتِ لَهُ رَاحَةً

والمَوْتُ حَتْمٌ فِي رِقَابِ العِبَادِ

ثم خرج بخُرَّاسان، فقتل وصلب. فيه يقول سُديف لأبي العباس يُغريه ببني أمة حيث يقول:

وَادْكُرُوا مِصرَعَ الحُسَيْنِ وَزَيْدًا

وَقَتِيلًا بِجَانِبِ المِهْرَاسِ

يريد إبراهيم الإمام، أبا أبي العباس.

باب من فضائل علي بن أبي طالب رضي الله عنه

عوانة بن الحكم قال: حجَّ محمد بن هشام، ونزلت رفقة، فإذا فيها شيخ كبير قد احتوشه الناس، وهو يأمر وينهى، فقال محمد بن هشام لمن حوله: تجدون الشيخ عراقياً فاسقاً. فقال له بعض أصحابه: نعم، وكوفياً مُنَافِقاً. فقال محمد: عليّ به، فأني بالشيخ. فقال له: أعراقي أنت؟ فقال له: نعم، عراقي. قال: وكوفي؟ قال: وكوفي. قال، وثراي؟ قال: وثراي، من التراب خُلقت وإليه أصير. قال: أنت ممن يهوي أبا تراب؟ قال: ومن أبو تراب؟ قال: عليّ بن أبي طالب. قال: أتعني ابن عمّ رسول الله صلى الله عليه وسلم و زوج فاطمة ابنته، وأبا الحسن والحسين؟ قال: نعم. قال: فما قولك فيه؟ قال: قد رأيتُ من يقول خيراً ويحمد، ورأيت من يقول شراً ويذم. قال: فأيهما أفضل عندك، أهو أم عثمان؟ قال: وما أنا وذاك؟ والله لو أن علياً جاء بوزن الجبال حسنات ما نفعني، ولو أنه جاء بوزنها سيئات ما ضرني، وعثمان مثل ذلك. قال: فاشتم أبا تراب. قال: أو ما ترضى مني بما رضي به من هو خير منك ممن هو خير مني هو شر من عليّ؟ قال: وما ذاك؟ قال رضي الله، وهو خير منك، من عيسى، وهو خير مني، في النصرى، وهم شر من عليّ إذ قال: "إن تُعَذِّبَهُمْ فإنهم عبادك وإن تُعْفِرَ لَهُمْ فإنك أنت العزيز الحكيم".

الرياشي قال: أنتقص ابن حمزة بن عبد الله بن الزبير علياً فقال له أبوه: يا بُني: إنه والله ما بنت الدنيا شيئاً إلا هدمه الدين، وما بني الدين شيئاً فهدمته الدنيا. أما ترى علياً وما يُظهر بعضُ الناس من بُغضه ولعنه على المنابر، فكأنما والله يأخذون بناصيته رفعاً إلى السماء. وما ترى بني مروان وما يندبون به موتاهم من المدح بين الناس، فكأنما يكشفون عن الجيف.

قدم الوليد مكة، فجعل يطوف البيت، والفضل بن العباس بن عتبة بن أبي لهب يستقي من زمزم وهو يقول:

يَأْيُهَا السَائِلُ عَنِ عَلِي

تَسْأَلُ عَنِ بَدْرِ لَنَا بَدْرِي

مُرَدَّدٍ فِي المَجْدِ أَبْطَحِي

سَائِلَةٌ غُرَّتَهُ مَضِي

فلم يُنكر عليه أحد.

العُتبي قال: قيل يوماً لمسلمة بن هلال العبدي: خطب جعفر بن سليمان الهاشمي خطبة لم يُسمع مثلها قط، وما درينا أوجهه كان أحسن أن كلامه!
قال: أولئك قوم بنور الخلافة يُشرقون، وبلسان النبوة ينطقون.
وكتب عوام، صاحب أبي نواس، إلى بعض عمال ديار ربيعة:

بحق النبي بحق الوصي

بحق التي ظلمت حقها

ترفق بأرزاقنا في الخراج

قال: فاسقط عنه الخراج طول ولايته.

احتجاج المأمون على الفقهاء في فضل علي

إسحاق بن إبراهيم بن إسماعيل عن حماد بن زيد قال: بعث إلي يحيى بن أكثم وإلى عدّة من أصحابي، وهو يومئذ قاضي القضاة، فقال: إن أمير المؤمنين أمرني أن احضر معي غدًا مع الفجر أربعين رجلاً كلهم فقيه يفقه ما يُقال له ويُحسن الجواب، فسموا من تظنونه يصلح لما يطلب أمير المؤمنين. فسمينا له عدّة، وذكر هو عدّة، حتى تمّ العدد الذي أراد، وكتب تسمية القوم، وأمر بالبُكور في السّحر، وبعث إلى من لم يحضر فأمره بذلك. فغدونا عليه قبل طلوع الفجر، فوجدناه قد لبس ثيابه وهو جالس ينتظرنا، فركب وركبنا معه، حتى صرنا إلى الباب، فإذا بخادم واقف. فلما نظر إلينا قال: يا أبا محمد، أمير المؤمنين ينتظرك، فأدخلنا. فأمرنا بالصلاة، فأخذنا فيها، فلم نستتمها حتى خرج الرسول فقال: ادخلوا، فدخلنا. فإذا أمير المؤمنين جالس على فراشه وعليه سواده وطيلسانه والطويلة وعمامته. فوقفنا وسلّمنا، فردّ السلام، وأمرنا بالجلوس. فلما استقرّ بنا المجلس تحدّر عن فراشه ونزع عمامته وطيلسانه ووضع قلنسوته، ثم أقبل علينا فقال: إنما فعلت ما رأيتم لتفعلوا مثل ذلك، وأما الحفّ فما من خلعه علة، من قد عرفها منكم فقد عرفها، ومن لم يعرفها فسأعرفه بها، ومدّ رجله. ثم قال انزعوا قلانسكم وخفافكم وطيايسكم. قال: فأمسكنا. فقال لنا يحيى: انتهوا إلى ما أمركم به أمير المؤمنين. فتعجبنا فترعنا أخفافنا وطيايسنا وقلانسنا ورجعنا. فلما استقرّ بنا المجلس قال: إنما بعثت إليكم معشر القوم في المناظرة، فمن كان به شيء من الأخبثين لم ينتفع بنفسه، لم يفقه ما يقول: فمن أراد منكم الخلاء فهناك، وأشار بيده، فدعونا له. ثم ألقى مسألة من الفقه، فقال: يا أبا محمد، قل وليقل القوم من بعدك. فأجابه يحيى، ثم الذي يلي يحيى، ثم الذي يليه، حتى أجاب آخرنا في العلة وعلة العلة، وهو مُطرق لا يتكلم. حتى إذا انقطع الكلام التفت إلى يحيى فقال: يا أبا محمد، أصبت الجواب وتركت الصواب في العلة. ثم لم يزل يرد على كل واحد منا مقالته ويخطئ بعضنا ويصوب بعضنا حتى أتى على آخرنا. ثم قال: إني لم أبعث فيكم لهذا، ولكنني أحببت أن أنبئكم أن أمير المؤمنين أراد مناظرتك في مذهبه الذي هو عليه، ودينه الذي يدين الله به. قلنا: فليفعل أمير المؤمنين وفقه الله. فقال: إن أمير المؤمنين يدين الله على أن عليّ بن أبي طالب خير خلق الله بعد رسوله صلى الله عليه وسلم، وأولى الناس بالخلافة. قال إسحاق: قلت: يا أمير المؤمنين إن فينا من لا يعرف ما ذكر أمير المؤمنين في عليّ، وقد دعانا أمير المؤمنين للمناظرة. فقال: يا إسحاق، اختر إن شئت أن أسألك وإن شئت أن تسأل. قال إسحاق: فاغتنمها منه، فقلت: بل أسألك يا أمير المؤمنين. قال: سل. قلت: من أين قال أمير المؤمنين إن عليّ بن أبي طالب أفضل الناس بعد رسول الله وأحقّهم بالخلافة بعده؟ قال: يا إسحاق، خبّرني عن الناس من يتفاضلون حتى يُقال فلان أفضل من فلان؟ قلت: بالأعمال الصالحة. قال: صدقت. قال: فأخبرني عمّن فضل صاحبه على عهد رسول الله صلى الله عليه وسلم، ثم إن المفضول عمّل بعد وفاة رسول الله بأفضل من عمل الفاضل على عهد رسول الله، أيلحق به؟ قال: فأطرقت. فقال لي: يا إسحاق، لا تقل نعم، فإنك إن قلت نعم أوجدتك في دهرنا هذا من هو أكثر منه جهاداً وحجاً وصياماً وصلاةً وصدقةً. قلت: أجل يا أمير المؤمنين، لا يلحق المفضول على عهد رسول الله صلى الله عليه وسلم الفاضل أبداً. قال: يا إسحاق: فانظر ما رواه لك أصحابك ومَن أخذت عنهم دينك وجعلتهم قُدوتك من فضائل عليّ ابن أبي طالب. فقس عليها ما أتوك به من فضائل أبي بكر، فإن رأيت فضائل أبي بكر تُشاكل فضائل عليّ فقل إنه أفضل منه، لا والله، ولكن فقس إلى فضائله ما روي لك من فضائل أبي بكر وعمر، فإن وجدت لهما من الفضائل ما لعليّ وحده فقل إنهما أفضل منه. لا والله،

ولكن قس إلى فضائله فضائل أبي بكر وعمر وعثمان، فإن وجدتها مثل فضائل عليّ فقلّ إنهم أفضل منه، لا والله، ولكن قس إلى فضائله فضائل العشرة الذين شهد لهم رسول الله صلى الله عليه وسلم بالجنة، فإن وجدتها تُشاكل فضائله فقلّ إنهم أفضل منه. ثم قال: يا إسحاق، أي الأعمال كانت أفضل يوم بعث الله رسوله؟ قلت: الإخلاص بالشهادة.

قال: أليس السَّبِقُ إلى الإسلام؟ قلت: نعم. قال: أقرأ ذلك في كتاب الله تعالى يقول: "وَالسَّابِقُونَ السَّابِقُونَ أُولَئِكَ الْمُقَرَّبُونَ" إنما عني من سبق إلى الإسلام، فهل علمتَ أحداً سبقَ علياً إلى الإسلام؟ قلت: يا أمير المؤمنين، إن علياً أسلم وهو حديث السنّ لا يجوز عليه الحكم، وأبو بكر أسلم وهو مُستكمل يجوز عليه الحكم. قال: أحبرني أيهما أسلم قبل؟ ثم أناظرك من بعده في الحداثة والكمال. قلت: علي أسلم قبل أبي بكر على هذه الشريطة. فقال: نعم، فأحبرني عن إسلام علي حين أسلم لا يخلو من أن يكون رسول الله صلى الله عليه وسلم دعاه إلى الإسلام أو يكون إلهاماً من الله؟ قال: فأطرت. فقال لي: يا إسحاق، لا تقل إلهاماً فتقدمه على رسول الله صلى الله عليه وسلم، لأن رسول الله صلى الله عليه وسلم لم يعرف الإسلام حتى أتاه جبريل عن الله تعالى. قلت: أجل، بل دعاه رسول الله صلى الله عليه وسلم إلى الإسلام. قال: يا إسحاق، فهل يخلو رسول الله صلى الله عليه وسلم حين دعاه إلى الإسلام من أن يكون دعاه بأمر الله أو تكلف ذلك من نفسه؟ قال: فأطرت: فقال: يا إسحاق، لا تنسب رسول الله إلى التكلف، فإن الله يقول: "وما أنا من المتكلفين". قلت: أجل يا أمير المؤمنين، بل دعاه بأمر الله. قال: فهل من صفة الجبار جل ذكره أن يكلف رسله دعاء من لا يجوز عليه حكم؟ قلت أعود بالله! فقال: أفتراه في قياس قولك يا إسحاق إن علياً أسلم صبيّاً لا يجوز عليه الحكم، وقد كلف رسول الله صلى الله عليه وسلم دعاء الصبيان إلى ما لا يُطيقونه، فهو يدعوهم الساعة ويرتدون بعد ساعة، فلا يجب عليهم في ارتدادهم شيء، ولا يجوز عليهم حكم الرسول صلى الله عليه وسلم أثرى هذا جائزاً عندك أن تنسبه إلى الله عزّ وجلّ؟ قلت أعود بالله. قال: يا إسحاق، فأراك إنما قصدت لفضيلة فضل بها رسول الله صلى الله عليه وسلم علياً على هذا الخلق أبانه بما منهم ليُعرف مكانه وفضله ولو كان الله تبارك وتعالى أمره بدعاء الصبيان لدعاهم كما دعا علياً؟ قلت: بلى. قال: فهل بلغك أن الرسول صلى الله عليه وسلم دعا أحداً من الصبيان من أهله وقرابته، لئلا تقول إن علياً ابن عمه؟ قلت: لا أعلم، ولا أدري فعل أو لم يفعل. قال يا إسحاق، رأيت ما لم تدّره ولم تعلمه هل تُسأل عنه؟ قلت: لا. قال: فدع ما قد وضعه الله عنّا وعنك. ثم قال: أي الأعمال كانت أفضل بعد السَّبِق إلى الإسلام؟ قلت: الجهاد في سبيل الله. قالت صدقت، فهل تجد لأحد من أصحاب رسول الله صلى الله عليه وسلم ما تجد لعليّ في الجهاد؟ قلت: في أي وقت؟ قال: في أي الأوقات شئت؟ قلت: بدر. قال: لا أريد غيرها، فهل تجد لأحد إلا دون ما تجد لعليّ يوم بدر، أحبرني كم قتلى بدر؟ قلت: ثيِّف وستون رجلاً من المشركين. قال: فكم قتل عليّ وحده؟ قلت: لا أدري. قال: ثلاثة وعشرين أو اثنين وعشرين، والأربعون لسائر الناس. قلت: يا أمير المؤمنين، كان أبو بكر مع رسول الله صلى الله عليه وسلم في عريشه، قال: يصنع ماذا؟ قلت: يدبّر. قال: ويحك! يدبّر دون رسول الله أو معه شريكاً أم افتقارا من رسول الله صلى الله عليه وسلم إلى رأيه؟ أي الثلاث أحب إليك؟ قلت: أعود بالله أن يدبّر أبو بكر دون رسول الله صلى الله عليه وسلم، أو أن يكون معه شريكاً، أو أن يكون برسول الله صلى الله عليه وسلم افتقار إلى رأيه. قال: فما الفضيلة بالعريش إذ كان الأمر كذلك؟ أليس من ضرب بسيفه بين يدي رسول الله أفضل ممن هو جالس؟ قلت: يا أمير المؤمنين، كل الجيش كان مجاهداً. قال صدقت، كل مجاهد، ولكن الضارب بالسيف المحامي عن رسول الله صلى الله عليه وسلم وعن الجالس أفضل من الجالس، أما قرأت في كتاب الله: "لا يَسْتَوِي الْقَاعِدُونَ مِنَ الْمُؤْمِنِينَ غَيْرُ أُولِي الضَّرَرِّ وَالْمُجَاهِدُونَ فِي سَبِيلِ اللَّهِ بِأَمْوَالِهِمْ وَأَنْفُسِهِمْ فَضَّلَ اللَّهُ الْمُجَاهِدِينَ بِأَمْوَالِهِمْ وَأَنْفُسِهِمْ عَلَى الْقَاعِدِينَ دَرَجَةً وَكُلًّا وَعَدَّ اللَّهُ الْحُسْنَى. وَفَضَّلَ اللَّهُ الْمُجَاهِدِينَ عَلَى الْقَاعِدِينَ أَجْرًا عَظِيمًا".

قلت: وكان أبو بكر وعمر مُجاهدين. قال: فهل كان لأبي بكر وعمر فضل على من لم يشهد ذلك المشهد؟ قلت: نعم. قال: فكذلك سبق الباذل نفسه فضل أبي بكر وعمر. قلت: أجل. قال: يا إسحاق، هل تقرأ القرآن؟ قلت: نعم. قال: أقرأ عليّ: "هَلْ أَتَى عَلَى الْإِنْسَانِ حِينٌ مِّنَ الدَّهْرِ لَمْ يَكُنْ شَيْئًا مَّذْكُورًا". فقرأت منها حتى بلغت: "يَشْرَبُونَ مِنْ كَأْسٍ كَانَ مِزَاجُهَا كَافُورًا" إلى قوله: "وَيُطْعَمُونَ الطَّعَامَ عَلَى حُبِّهِ مِسْكِينًا وَيَتِيمًا وَأَسِيرًا". قال: علي رسلك، فيمن أنزلت هذه الآيات؟ قلت: في علي. قال: فهل بلغك أن علياً حين أطعم المسكين واليتيم والأسير قال: إنما نُطعمك لوجه الله؟ قلت: أجل. قال: وهل سمعت الله وصف في كتابه أحداً بمثل ما وصف به علياً؟ قلت: لا. قال: صدقت؟ لأن الله جل ثناؤه عرف سيرته. يا إسحاق، أأنت

تَشْهَدُ أَنَّ الْعَشْرَةَ فِي الْجَنَّةِ؟ قُلْتُ: بَلَى يَا أَمِيرَ الْمُؤْمِنِينَ. قَالَ: أَرَأَيْتَ لَوْ أَنَّ رَجُلًا قَالَ: وَاللَّهِ مَا أَدْرِي هَذَا الْحَدِيثَ صَحِيحٌ أَمْ لَا؟ وَلَا أَدْرِي إِنْ كَانَ رَسُولُ اللَّهِ قَالَهُ أَمْ لَمْ يَقُلْهُ، أَكَانَ عِنْدَكَ كَافِرًا؟ قُلْتُ: أَعُوذُ بِاللَّهِ. قَالَ: أَرَأَيْتَ لَوْ أَنَّهُ قَالَ: مَا أَدْرِي هَذِهِ السُّورَةُ مِنْ كِتَابِ اللَّهِ أَمْ لَا، أَكَانَ كَافِرًا؟ قُلْتُ: نَعَمْ. قَالَ: يَا إِسْحَاقَ، أَرَى بَيْنَهُمَا فَرْقًا. يَا إِسْحَاقَ، أَتُرَوِي الْحَدِيثَ؟ قُلْتُ: نَعَمْ. قَالَ: فَهَلْ تَعْرِفُ حَدِيثَ الطَّيْرِ؟ قُلْتُ: نَعَمْ. قَالَ: فَحَدِّثْنِي بِهِ. قَالَ: حَدَّثْتَهُ الْحَدِيثَ. فَقَالَ: يَا إِسْحَاقَ، إِنْ كُنْتُ أَكَلِمَكَ وَأَنَا أَظُنُّكَ غَيْرَ مُعَانِدٍ لِلْحَقِّ، فَأَمَّا الْآنَ فَقَدْ بَانَ لِي عِنَادُكَ، إِنَّكَ تُوفِّقُ أَنَّ هَذَا الْحَدِيثَ صَحِيحٌ؟ قُلْتُ: نَعَمْ، رَوَاهُ مِنْ لَا يُمَكِّنُنِي رُدُّهُ. قَالَ: أَفَرَأَيْتَ أَنْ مَنْ يَقْنَأَنَّ هَذَا الْحَدِيثَ صَحِيحًا، ثُمَّ زَعَمَ أَنَّ أَحَدًا أَفْضَلَ مِنْ عَلِيٍّ، لَا يَخْلُو مِنْ إِحْدَى ثَلَاثَةٍ: مِنْ أَنْ تَكُونَ دَعْوَةَ رَسُولِ اللَّهِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ عِنْدَهُ مَرْدُودَةٌ عَلَيْهِ؟ أَوْ أَنْ يَقُولَ: إِنْ اللَّهُ عَزَّ وَجَلَّ عَرَفَ الْفَاضِلَ مِنْ خَلْقِهِ وَكَانَ الْمَفْضُولُ أَحَبَّ إِلَيْهِ، أَوْ أَنْ يَقُولَ: إِنْ اللَّهُ عَزَّ وَجَلَّ لَمْ يَعْرِفِ الْفَاضِلَ مِنَ الْمَفْضُولِ. فَأَيُّ الثَّلَاثَةِ أَحَبُّ إِلَيْكَ أَنْ تَقُولَ؟ فَأَطَّرْت. ثُمَّ قَالَ: يَا إِسْحَاقَ، لَا تَقُلْ مِنْهَا شَيْئًا، فَإِنَّكَ إِنْ قُلْتَ مِنْهَا شَيْئًا اسْتَبْتَبْتُكَ، وَإِنْ كَانَ لِلْحَدِيثِ عِنْدَكَ تَأْوِيلٌ غَيْرُ هَذِهِ الثَّلَاثَةِ الْأَوْجُهَ فَقُلْهُ. قُلْتُ: لَا أَعْلَمُ، وَإِنَّ لِأَبِي بَكْرٍ فَضْلًا. قَالَ: أَجَلٌ، لَوْلَا إِنْ لَهُ فَضْلًا لَمَا قِيلَ إِنْ عَلِيًّا أَفْضَلُ مِنْهُ، فَمَا فَضْلُهُ الَّذِي قَصَدْتَ إِلَيْهِ السَّاعَةَ؟ قُلْتُ: قَوْلَ اللَّهِ عَزَّ وَجَلَّ: "ثَانِي اثْنَيْنِ إِذْ هُمَا فِي الْغَارِ إِذْ يَقُولُ لِصَاحِبِهِ لَا تَحْزَنْ إِنَّ اللَّهَ مَعَنَا"، فَتَسْبِيهِ إِلَى صَحْبَتِهِ. قَالَ: يَا إِسْحَاقَ، أَمَّا إِنْ لَا أَحْمَلُكَ عَلَى الْوَعْرِ مِنْ طَرِيقِكَ، إِنْ وَجَدْتُ اللَّهَ تَعَالَى نَسَبَ إِلَى صُحْبَةِ مَنْ رَضِيهِ وَرَضِي عَنْهُ كَافِرًا، وَهُوَ قَوْلُهُ: "فَقَالَ لَهُ صَاحِبُهُ وَهُوَ يُحَاوِرُهُ أَكْفَرْتَ بِالَّذِي خَلَقَكَ مِنْ تُرَابٍ ثُمَّ مِنْ نُطْفَةٍ ثُمَّ سَوَّكَ رَجُلًا. لَكِنَّهُ هُوَ اللَّهُ رَبِّي وَلَا أُشْرِكُ بِرَبِّي أَحَدًا". قُلْتُ: إِنْ ذَلِكَ صَاحِبُ كَانَ كَافِرًا، وَأَبُو بَكْرٍ مُؤْمِنٌ. قَالَ: إِذَا جَازَ أَنْ يَنْسَبَ إِلَى صُحْبَةِ نَبِيِّهِ مُؤْمِنًا، وَلَيْسَ بِأَفْضَلَ الْمُؤْمِنِينَ وَلَا الثَّانِي وَلَا الثَّلَاثَ، قُلْتُ: يَا أَمِيرَ الْمُؤْمِنِينَ، إِنْ قَدَّرَ الْآيَةَ عَظِيمًا، إِنْ اللَّهُ يَقُولُ: "ثَانِي اثْنَيْنِ إِذْ هُمَا فِي الْغَارِ إِذْ يَقُولُ لِصَاحِبِهِ لَا تَحْزَنْ، إِنَّ اللَّهَ مَعَنَا". قَالَ: يَا إِسْحَاقَ، تَأْتِي الْآنَ إِلَّا أَنْ أُخْرِجَكَ إِلَى الْإِسْتِقْصَاءِ عَلَيْكَ، أَخْبِرْنِي عَنْ حُزْنِ أَبِي بَكْرٍ، أَكَانَ رَضِيَ أَمْ سَخَطًا؟ قُلْتُ: إِنْ أَبَا بَكْرٍ إِنَّمَا حَزَنَ مِنْ أَجْلِ رَسُولِ اللَّهِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ خَوْفًا عَلَيْهِ، وَغَمًّا أَنْ يَصِلَ إِلَى رَسُولِ اللَّهِ شَيْءٌ مِنَ الْمَكْرُوهِ. قَالَ: لَيْسَ هَذَا جَوَابِي، إِنَّمَا كَانَ جَوَابِي أَنْ تَقُولَ: رَضِيَ أَمْ سَخَطًا؟ قُلْتُ: بَلِ رَضِيَ اللَّهُ. قَالَ: فَكَأَنَّ اللَّهَ جَلَّ ذِكْرُهُ بَعَثَ إِلَيْنَا رَسُولًا يَنْهَى عَنْ رَضَى اللَّهِ عَزَّ وَجَلَّ وَعَنْ طَاعَتِهِ. قُلْتُ: أَعُوذُ بِاللَّهِ. قَالَ: أَوْلَيْسَ قَدْ زَعَمْتَ أَنَّ حُزْنَ أَبِي بَكْرٍ رَضِيَ اللَّهُ؟ قُلْتُ: بَلَى. قَالَ أَوْلَمْ تَجِدْ أَنَّ الْقُرْآنَ يَشْهَدُ أَنَّ رَسُولَ اللَّهِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ قَالَ لَهُ: "لَا تَحْزَنْ" نَهْيًا لَهُ عَنِ الْحُزَنِ. قُلْتُ: أَعُوذُ بِاللَّهِ. قَالَ: يَا إِسْحَاقَ، إِنَّ مَذْهَبِي الرَّفْقُ بِكَ لَعَلَّ اللَّهَ يَرُدُّكَ إِلَى الْحَقِّ وَيَعْدِلُ بِكَ عَنِ الْبَاطِلِ لِكَثْرَةِ مَا تَسْتَعِيدُ بِهِ. وَحَدَّثَنِي عَنْ قَوْلِ اللَّهِ: "فَأَنْزَلَ اللَّهُ سَكِينَتَهُ عَلَيْهِ" وَمَنْ عَنِ ذَلِكَ: رَسُولَ اللَّهِ أَمْ أَبَا بَكْرٍ؟ قُلْتُ: بَلِ رَسُولَ اللَّهِ. قَالَ: صَدَقْتَ. قَالَ: فَحَدَّثَنِي عَنْ قَوْلِ اللَّهِ عَزَّ وَجَلَّ: "وَيَوْمَ حُنَيْنٍ إِذْ أَعْجَبَتْكُمْ كَثْرَتُكُمْ" إِلَى قَوْلِهِ: "ثُمَّ أَنْزَلَ اللَّهُ سَكِينَتَهُ عَلَى رَسُولِهِ وَعَلَى الْمُؤْمِنِينَ" أَتَعْلَمُ مِنَ الْمُؤْمِنِينَ الَّذِينَ أَرَادَ اللَّهُ فِي هَذَا الْمَوْضِعِ؟ قُلْتُ: لَا أَدْرِي يَا أَمِيرَ الْمُؤْمِنِينَ. قَالَ: النَّاسُ جَمِيعًا انْهَزَمُوا يَوْمَ حُنَيْنٍ، فَلَمْ يَبْقَ مَعَ رَسُولِ اللَّهِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ إِلَّا سَبْعَةٌ نَفَرٌ مِنْ بَنِي هَاشِمٍ: عَلِيٌّ يَضْرِبُ بِسَيْفِهِ بَيْنَ يَدَيْ رَسُولِ اللَّهِ، وَالْعَبَّاسُ أَخَذَ بِلِحْيَةِ رَسُولِ اللَّهِ، وَالْخَمْسَةُ مُحَدِّقُونَ بِهِ خَوْفًا أَنْ يَنَالَهُ لِمَنْ جَرَّاحَ الْقَوْمِ شَيْءٌ، حَتَّى أَعْطَى اللَّهُ لِرَسُولِهِ الظَّفَرَ، فَالْمُؤْمِنُونَ فِي هَذَا الْمَوْضِعِ عَلِيٌّ خَاصَّةً، ثُمَّ مِنْ حَضْرِهِ مِنْ بَنِي هَاشِمٍ. قَالَ: فَمَنْ أَفْضَلُ: مَنْ كَانَ مَعَ رَسُولِ اللَّهِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ فِي ذَلِكَ الْوَقْتِ، أَمْ مَنْ انْهَزَمَ عَنْهُ وَلَمْ يَرَهُ اللَّهَ مَوْضِعًا لِيَتْرَكَهَا عَلَيْهِ؟ قُلْتُ: بَلِ مَنْ أَنْزَلَتْ عَلَيْهِ السَّكِينَةُ؟ قَالَ: يَا إِسْحَاقَ، مَنْ أَفْضَلُ: مَنْ كَانَ مَعَهُ فِي الْغَارِ أَوْ مَنْ نَامَ عَلَى فِرَاشِهِ وَوَقَاهُ بِنَفْسِهِ، حَتَّى تَمَّ لِرَسُولِ اللَّهِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ مَا أَرَادَ مِنَ الْمَجْرَةِ؟ إِنْ اللَّهُ تَبَارَكَ وَتَعَالَى أَمَرَ رَسُولَهُ أَنْ يَأْمُرَ عَلِيًّا بِالنُّومِ عَلَى فِرَاشِهِ وَأَنْ يَقِي رَسُولَ اللَّهِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ بِنَفْسِهِ، فَأَمَرَهُ رَسُولُ اللَّهِ بِذَلِكَ. فَبَكَى عَلِيٌّ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ. فَقَالَ لَهُ رَسُولُ اللَّهِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ: مَا يُبْكِيكَ يَا عَلِيٌّ أَجَزَعًا مِنَ الْمَوْتِ؟ قَالَ: لَا، وَالَّذِي بَعَثَكَ بِالْحَقِّ يَا رَسُولَ اللَّهِ، وَلَكِنْ خَوْفًا عَلَيْكَ، أَفْتَسَلَّمُ يَا رَسُولَ اللَّهِ قَالَ: نَعَمْ. قَالَ: سَمِعًا وَطَاعَةً وَطَيْبَةً نَفْسِي بِالْفِدَاءِ لَكَ يَا رَسُولَ اللَّهِ. ثُمَّ أَتَى مَضْجَعَهُ وَاضْطَجَعَ، وَتَسَجَّى بَنَوْبِهِ. وَجَاءَ الْمَشْرُوكُونَ مِنْ قُرَيْشٍ فَخَفُّوا بِهِ، لَا يَشْكُونَ أَنَّهُ رَسُولُ اللَّهِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ، وَقَدْ أَجْمَعُوا أَنْ يَضْرِبَهُ مِنْ كُلِّ بَطْنٍ مِنْ بَطْنِ قُرَيْشٍ رَجُلٌ ضَرْبَةً بِالسَّيْفِ لئَلَّا يَطْلُبَ الْهَاشِمِيُّونَ مِنَ الْبَطْنِ بَطْنًا بَدَمَهُ، وَعَلِيٌّ يَسْمَعُ مَا الْقَوْمُ فِيهِ مِنْ تَلْفِ نَفْسِهِ، وَلَمْ يَدْعُهُ ذَلِكَ إِلَى الْجَزَعِ، كَمَا جَزَعَ صَاحِبُهُ فِي الْغَارِ، وَلَمْ يَزَلْ عَلِيٌّ صَابِرًا مُحْتَسِبًا. فَبَعَثَ اللَّهُ مَلَائِكَتَهُ فَمَنْعَتَهُ مِنْ مُشْرِكِي قُرَيْشٍ حَتَّى أَصْبَحَ فَلَمَّا أَصْبَحَ قَامَ، فَنَظَرَ الْقَوْمُ إِلَيْهِ فَقَالُوا: أَيْنَ مُحَمَّدٌ؟ قَالَ: وَمَا عَلِمِي بِمُحَمَّدٍ أَيْنَ هُوَ؟ قَالُوا: فَلَا نَرَاكَ إِلَّا كُنْتُ مُغْرَرًا بِنَفْسِكَ مِنْذُ لَيْلَتِنَا فَلَمْ يَزَلْ عَلِيٌّ أَفْضَلُ مَا بَدَأَ بِهِ يَزِيدُ وَلَا يَنْقُصُ حَتَّى قَبِضَهُ اللَّهُ إِلَيْهِ. يَا إِسْحَاقَ، هَلْ تَرَوِي حَدِيثَ الْوَلَايَةِ؟ قُلْتُ: نَعَمْ يَا أَمِيرَ الْمُؤْمِنِينَ. قَالَ: ارْوَاهُ. فَفَعَلْتُ. قَالَ: يَا إِسْحَاقَ، أَرَأَيْتَ هَذَا الْحَدِيثَ، هَلْ أَوْجِبَ عَلَيَّ أَبِي بَكْرٍ

وعمّر ما لم يُوجب لهما عليه؟ قلت: إن الناس ذكروا أن الحديث إنما كان بسبب زيد بن حارثة لشيء جرى بينه وبين عليّ، وأنكر ولاء عليّ، فقال رسول الله صلى الله عليه وسلم: من كنت مولاه فعليّ مولاه، اللهم وال من ولاة، وعاد من عاداته. وفي أي موضع قال هذا؟ أليس بعد مُنصرفه من حجة الوداع؟ قلت: أجل. قال: فإن قُتل زيد بن حارثة قبل الغدير كيف رضيت لنفسك بهذا؟ أخبرني لو رأيت ابناً لك قد أتت عليه خمس عشرة سنة يقول: مولاي مولى ابن عمي أيها الناس، فاعلموا ذلك أكنتم مُنكراً عليه تعريفه الناس ما لا يُنكرون ولا يجهلون؟

فقلت: اللهم نعم. قال: يا إسحاق، أفتزّه ابنك عما لا تزّه عنه رسول الله صلى الله عليه وسلم، ويُحكّم؟ لا تجعلوا فقهاءكم أربابكم إن الله جلّ ذكره قال في كتابه: "اتخذوا أبحارهم ورهبانهم أرباباً من دون الله" ولم يصلوا لهم ولا صاموا ولا زعموا أنهم أرباب، ولكن أمرهم فأطاعوا أمرهم. يا إسحاق، أتروي حديث: "أنت منّي بمثلة هارون من موسى"؟ قلت: نعم يا أمير المؤمنين، قد سمعته وسمعت من صحّحه وجمّده. قال: فمن أوثق عندك: من سمعت منه فصحّحه، أو من جمّده؟ قلت: من صحّحه. قال: فهل يمكن أن يكون الرسول صلى الله عليه وسلم مزح بهذا القول؟ قلت: أعوذ بالله. قال: فقال قولاً لا معنى له، فلا يُوقف عليه؟ قلت: أعوذ بالله. قال: أفما تعلم أن هارون كان أخاً موسى لأبيه وأمه؟ قلت: بلى. قال: فعليّ أخو رسول الله لأبيه وأمه؟ قلت: لا. قال: أوليس هارون كان نبياً وعليّ غير نبيّ؟ قلت: بلى. قال: فهذان الحلالان معدومان في عليّ وقد كانا في هارون، فما معنى قوله: "أنت منّي بمثلة هارون من موسى"؟ قلت: له: إنما أراد أن يُطيّب بذلك نفس عليّ لما قال المنافقون إنه خلفه استئقلاً له. قال: فأراد أن يُطيب نفسه بقول لا معنى له؟ قال: فأطرت. قال: يا إسحاق، له معنى في كتاب الله بين. قلت: وما هو يا أمير المؤمنين؟ قال: قوله عز وجلّ حكاية عن موسى إنه قال لأخيه هارون: "اخلفني في قومي وأصلح ولا تتبع سبيل المُفسدين". قلت: يا أمير المؤمنين، إن موسى خلف هارون في قومه وهو حيّ، ومضى إلى ربه، وأن رسول الله صلى الله عليه وسلم خلف علياً كذلك حين خرج إلى غزاته. قال: كلا ليس كما قلت. أخبرني عن موسى حين خلف هارون، هل كان معه حين ذهب إلى ربه أحد من أصحابه أو أحد من بني إسرائيل؟ قلت: لا. قال: أو ليس استخلفه على جماعتهم؟ قلت: نعم. قال: فأخبرني عن رسول الله صلى الله عليه وسلم حين خرج إلى غزاته، هل خلف إلا الضعفاء والنساء والصبيان؟ فأن يكون مثل ذلك؟ وله عندي تأويل آخر من كتاب الله يدل على استخلافه إياه لا يقدر أحد أن يحتج فيه، ولا أعلم أحداً احتج به، وأرجو أن يكون توفيقاً من الله. قلت: وما هو يا أمير المؤمنين؟ قال: قوله عز وجل حين حكى عن موسى قوله: "واجعل لي وزيراً من أهلي هارون أخي أشد به أزري وأشركه في أمري كي تُسبّحك كثيراً وتذكرك كثيراً إنك كنت بنا بصيراً": فأنت مني يا عليّ بمثلة هارون من موسى، ووزير من أهلي، وأخي أشد به أزري، وأشركه في أمري، كي تُسبّح الله كثيراً، وتذكره كثيراً، فهل يقدر أحد أن يُدخل في هذا شيئاً غير هذا؟ ولم يكن ليبتل قول النبي صلى الله عليه وسلم وأن يكون لا معنى له. قال: فطال المجلس وارتفع النهار. فقال يحيى ابن أكنم القاضي: يا أمير المؤمنين، قد أوضحت الحق لمن أراد الله به بالخير، وأثبت ما لا يقدر أحد أن يدفعه. قال إسحاق: فأقبل علينا وقال: ما تقولون؟ فقلنا: كلنا نقول بقول أمير المؤمنين أعزّه الله. فقال: والله لولا أن رسول الله صلى الله عليه وسلم قال: "اقبلوا القول من الناس" ما كنت لأقبل منكم القول. اللهم قد نصحت هم القول، اللهم إني قد أخرجت الأمر من عنقي، اللهم إني أدنيتك بالتقرّب إليك بحب عليّ وولايته.

وكتب المأمون إلى عبد الجبار بن سعد المساحقيّ عامله على المدينة: أن أخطب الناس وأدعهم إلى بيعة الرضا علي بن موسى. فقام خطيباً فقال: يا أيها الناس، هذا الأمر الذي كنتم فيه ترغبون، والعدل الذي كنتم تنتظرون، والخير الذي كنتم ترجون، هذا عليّ بن موسى بن جعفر بن محمد بن عليّ بن الحسين بن عليّ بن أبي طالب:

مِنْ خَيْرٍ مَنْ يَشْرَبُ صَوْبَ الْغَمَامِ

سِنَّةُ آبَاءِهِمْ مَا هُمْ

وقال المأمون لعليّ بن موسى: علام تدعون هذا الأمر؟ قال: بقرابة عليّ وفاطمة من رسول الله صلى الله عليه وسلم. فقال له المأمون: إن لم تكن إلا القرابة فقد خلف رسول الله صلى الله عليه وسلم من أهل بيته من هو أقرب إليه من عليّ، أو من هو في قُعدده؟ وإن ذهب إلى قرابة فاطمة من رسول الله صلى الله عليه وسلم، فإن الأمر بعدها للحسن والحسين، وقد ابتزهما عليّ حَقهما وهما حيّان صحيحان، فاستولى عليّ ما لا حق له فيه. فلم يجد عليّ بن موسى له جواباً.

باب من أخبار الدولة العباسية

رُوي عن عليّ بن أبي طالب رضي الله عنه أنه افتقد عبد الله بن عباس وقت صلاة الظهر، فقال لأصحابه: ما بال أبي العباس لم يحضر؟ قالوا: ولد له مولود. فلما صلى عليّ الظهر، قال: انقلبوا بنا إليه. فأتاه فهتأه، فقال له: شكرت الواهب وبورك لك في الموهوب، فما سميتَه؟ قال: لا يجوز لي أن أسميه حتى تُسميه أنت. فأمر به فأخرج إليه فأحذه، فحنّكه ودعا له وردّه، وقال: خُذْه إليك أبا الأملاك، وقد سميتَه علياً وكنيتَه أبا الحسن. قال: فلما قدم معاوية قال لابن عباس: لك اسمه وقد كنيتَه أبا محمد. فحرت عليه.

وكان علي سَيِّداً شريفاً عابداً زاهداً، وكان يصلي في كل يوم ألف ركعة، وضرب مرتين، كلتاهما، ضربه الوليد، فأحدهما، في تزويجه لبنة بنت عبد الله بن جعفر، وكانت عند عبد الملك بن مروان فعصّ ثفاحه ورَمَى بها إليها، وكان أبخر، فدعت بسكين. فقال: ما تصنعين به؟ قالت: أبيض عنها الأذى، فطلّقها، فتزوجها عليّ بن عبد الله بن عباس، فضربه الوليد، وقال: إنما تتزوج أمهات أولاد الخلفاء لتضع منهم. لأن مروان بن الحكم إنما تزوج أم خالد بن يزيد ليضع منه. فقال عليّ بن عبد الله بن عباس: إنما أردت الخروج من هذه البلدة وأنا ابن عمها، فتزوجتها لأكون لها محرماً. وأما ضربه إياه في المرة الثانية، فإن محمد بن يزيد قال: حدّثني من رآه مضروباً يُطاف به على بعير ووجهه مما يلي ذنب البعير، وصائح يصيح عليه: هذا عليّ بن عبد الله الكذاب. قال: فأتيتُه فقلت: ما هذا الذي نسبوك فيه إلى الكذب؟ قال: بلغهم أبي أقول إن هذا الأمر سيكون في ولدي، والله ليكون فيهم حتى تملكهم عبيدُهم الصغار العيون، العراض الوجوه، الذين كأن وجوههم المحنّ المطرقة. وفي حديث آخر: إن عليّ بن عبد الله دخل على هشام بن عبد الملك ومعه ابناه: أبو العباس وأبو جعفر، فشكا إليه ديناً لزمه، فقال له: كم دينك؟ قال: ثلاثون ألفاً، فأمر له بقضائه، فشكره عليه، وقال: وصلت رحماً، وأنا أريد أن تستوصي بابني هذين خيراً. قال: نعم. فلما تولى، قال هشام لأصحابه: إن هذا الشيخ قد أهنر وأسنّ وخولط، فصار يقول: إن هذا الأمر سينقل إلى ولده. فسمعه عليّ بن عبد الله بن العباس، فقال: والله ليكون ذلك وليملكن ابناي هذان ما تملكه.

قال محمد بن يزيد: وحدّثني جعفر بن عيسى بن جعفر الهاشمي قال: حضّر عليّ بن عبد الله مجلس عبد الملك بن مروان، وكان مُكرماً له، وقد أهديت له من خراسان جارية وفصّ خاتم وسيف. فقال: يا أبا محمد، إن حاضر الهدية شريك فيها، فاحتر من الثلاثة واحداً. فاحتر الجارية، وكانت تسمى سعدى. وهي من سبي الصغد من رهط عجيف بن عنبسة، فأولدها سليمان بن عليّ، وصالح بن عليّ. وذكر جعفر بن عيسى أنه لما أولدها سليمان، أحتنبت فراشه، فمرض سليمان من جذريّ خرج عليه. فانصرف عليّ من مُصلاه فإذا بها على فراشه، فقال: مرحباً بك يا أم سليمان. فوقع عليها فأولدها صالحاً. فاحتنبت فراشه، فسألها عن ذلك. فقالت: خفت أن يموت سليمان في مرضه، فينقطع النسب بيني وبين رسول الله صلى الله عليه وسلم، فالآن إذ ولدت صالحاً فالبحريّ إن ذهب أحدهما بقي الآخر، وليس مثلي وطينة الرجال.

وزعم جعفر أنه كانت في سليمان رُثة وفي صالح مثلها، وأنها موجودة في آل سليمان وصالح. وكان عليّ يقول: أكره أن أوصي إلى محمد ولدي، وكان سيد ولده وكبيرهم، فأشنيه بالوصية، فأوصى إلى سليمان. فلما دفن عليّ جاء محمد إلى سعدى ليلاً، ولكن تأتي غدوة إن شاء الله. فلما أصبح غداً عليه سليمان بالوصية، فقال: فقال: أخرجني لي وصية أبي. قالت: إن أباك أجل من أن تُخرج وصيته ليلاً، ولكن تأتي غدوة إن شاء الله. فلما أصبح غداً عليه سليمان بالوصية، فقال: يا أبي ويا أخي، هذه وصية أبيك. فقال: جزاك الله من ابنٍ وأخٍ خيراً، ما كنت لأتربّ على أبي بعد موته كما لم أتربّ عليه في حياته.

العُتبي عن أبيه عن جدّه قال: لما اشتكى معاوية شكاته التي هلك فيها أرسل إلى ناس من جلة بني أمية، ولم يحضرها سفياني غيري وغير عثمان بن محمد، فقال: يا معشر بني أمية، إنني لما خفت أن يسبقكم الموت إليّ سبقته بالموعظة إليكم، لا لأرد قدرًا، ولكن لأبلغ عُذراً. إن الذي أخلف لكم من دنياي أمرٌ سئساركون فيه وتُعلبون عليه، والذي أخلف لكم من رأى أمر مقصور لكم نفعه إن فعلتموه، مخوف عليكم ضرره إن ضيعتموه. إن قريشاً شاركتكم في أنسابكم، وانفردتم دونهما بأفعالكم، فقدّمكم ما تقدّمتم له، إذ آخر غيركم ما تأخروا عنه، ولقد جهل بي فحلّمت، ونقر لي ففهمت، حتى كأني أنظر إلى أبنائكم بعدكم كنظري إلى آبائهم قبلهم. إن دولتكم ستطول، وكل طويل مملول، وكل مملول مخدول. فإذا كان ذلك كذلك،

كان سببه اختلافكم فيما بينكم، واجتماع المختلفين عليكم، فيذير الأمر بصد ما قبل به. فلست أذكر جسيماً يركب منكم، ولا قبيحاً ينتهك فيكم، إلا والذي أمسك عن ذكره أكثر وأعظم، ولا مؤول عليه عند ذلك أفضل من الصبر واحتساب الأجر. سيمادكم القوم دولتهم امتداد العنانين في عنق الجواد، حتى إذا بلغ الله بالإمر مداه، وجاء الوقت المبلول بريق النبي صلى الله عليه وسلم، مع الحلقة المطبوعة على ملالة الشيء المحبوب، كانت الدولة كالإناء المكفأ. فعندها أوصيكم بتقوى الله الذي لم يتقه غيركم فيكم، فجعل العاقبة لكم، والعاقبة للمتقين. قال عمرو بن عبسة: فدخلت عليه يوماً آخر فقال: يا عمرو، أوعيت كلامي؟ قلت: وعيت. قال: أعد عليّ كلامي فقد كلمتكم وما أراي أمسي من يومكم ذلك. قال شبيب بن شيبه الأهمي: حججت عام هلك هشام وولي الوليد بن يزيد، وذلك سنة خمس وعشرين ومائة، فبينما أنا مريح ناحية من المسجد، إذ طلع من بعض أبواب المسجد فتى أسمر رقيق السمرة، موفر اللمة. خفيف اللحية، رَحِب الجبهة، أقي بين القنَى، أعين كأن عينيه لسانان ينطقان، يخلط أمة الأملاك بزى النسائك، تقبله القلوب، وتتبعه العيون، يُعرف الشرف في تواضعه، والعنق في صورته، واللُب في مشيته. فما ملكت نفسي أن نهضت في أثره سائلاً عن خبره، وسبقني فتحرم بالطواف، فلما سبَّع قصد المقام فرجع، وأنا أراعاه ببصري. ثم نهض مُنصرفاً، فكان عينا أصابته، فكبا كبوة دُميت لها إصبعه، فقعد لها القرفصاء، فدنوت منه متوجعاً لما ناله مُتصلاً به، أمسح رجله من عفر التراب، فلا يمتنع عليّ، ثم شققت حاشية ثوبي فعصبت بها إصبعه، وما يُنكر ذلك ولا يدفعه، ثم نهض متوكفاً عليّ. وانقدت له أماشيته، حتى إذا أتى داراً بأعلى مكة، ابتدره رجلان تكاد صدورهما تنفرج من هيئته، ففتحوا له الباب. فدخل، واجتذبي فدخلت بدخوله، ثم خلى يدي وأقبل على القبلة، فصلى ركعتين أوجز فيهما في تمام، ثم استوى في صدر مجلسه، فحمد الله وأثنى عليه وصلى على النبي صلى الله عليه وسلم أتم صلاة وأطيبها، ثم قال: لم يخف عليّ مكانك منذ اليوم ولا فعلك بي، فمن تكون يرحمك الله؟ قلت: شبيب بن شيبه التميمي. قال: الأهمي؟ قلت: نعم. قال: فرحب وقرب، ووصف قومي بابين بيان، وأفصح لسان. فقلت له: أنا أجلك، أصلحك الله، عن المسألة، وأحب المعرفة. فتبسم وقال: لطف أهل العراق، أنا عبد الله بن محمد بن عليّ بن عبد الله بن عباس. فقلت: بأبي أنت وأمي، ما أشبهك بنسبك، وأدلك على منصبك، ولقد سبق إلى قلبي من محبتك ما لا أبلغه بوصفي لك. قال: فأحمد الله يا أبا بني تميم، فإننا قوم يُسعد الله مجبنا من أحبه، ويُشقي ببعضنا من أبغضه، ولن يصل الإيمان إلى قلب أحدكم حتى يُحب الله ويُحب رسوله، ومهما ضَعُفنا عن جزائه، قوي الله على أدائه. فقلت له: أنت تُوصف بالقلم وأنا من حملته، وأيام الموسم ضيقة، وشغل أهل مكة كثير، وفي نفسي أشياء أحب أن أسأل عنها، أفتأذن لي فيها جعلت فداك؟ قال: نحن من أكثر الناس مُستوحشون، وأرجو أن تكون للسرّ موضعاً، وللأمانة واعياً، فإن كنت كما رجوت فافعل. قال: فقدمت من وثائق القول والإيمان ما سكن إليه، فتلا قول الله: "قُلْ أَيُّ شَيْءٍ أَكْبَرُ شَهَادَةً قُلِ اللَّهُ شَهِيدٌ بَيْنِي وَبَيْنَكُمْ" ثم قال: سل عما بدا لك. قلت:

ما ترى فيمن على الموسم؟ وكان عليه يوسف بن محمد بن يوسف الثقفي، حال الوليد. فتنفس الصعداء، وقال: عن الصلاة خلفه تسألني أم كرهت أن يتأمر على آل الله من ليس منهم؟ قلت: عن كلا الأمرين. قال: إن هذا عند الله لعظيم، فأما الصلاة ففرض لله تَعَبَدَ به خلقه، فأد ما فرض الله تعالى عليك في كل وقت مع كل أحد وعلى كل حال، فإن الذي ندبك لحج بيته وحضور جماعته وأعباده لم يُخبرك في كتابه بأنه لا يقبل منك نُسكاً إلا مع أكمل المؤمنين إيماناً، رحمةً منه لك، ولو فعل ذلك بك ضاق الأمر عليك، فاسمَحْ يُسمح لك. قال: ثم كررت في السؤال عليه فما احتجت أن أسأل عن أمر دين أحداً بعده. ثم قلت: يزعم أهل العلم أنها ستكون لكم دولة. فقال: لا شك فيها، تطلع طلوع الشمس وتظهر ظهورها، فنسأل الله خيرها، ونعوذ بالله من شرها، فخذ بحظ لسانك ويدك منها إن أدركتها. قلت: أو يتخلف عنها أحد من العرب وأنتم سادتها؟ قال: نعم، قوم يابون إلا الوفاء لمن أصطنعهم، ونأى إلا طلباً بحقنا، فننصر ويُخذلون، كما نُصر بأولنا أولهم، ويُخذل. ثمخالفنا من خالف منهم. قال: فاسترجعت. فقال: سهّل عليك الأمر، "سنة الله التي قد خلت من قبل ولن تجد لسنة الله تبديلاً". وليس ما يكون منهم بحاجز لنا عن صلة أرحامهم، وحفظ أعقابهم، وتجديد الصنيعة عندهم. قلت: كيف تسلم لهم قلوبكم وقد قاتلوكم مع عدوكم؟ قال نحن قوم حُبب إلينا الوفاء وإن كان علينا، وبُغض إلينا العَدْر وإن كان لنا، وإنما يشد علينا منهم الأقل، فأما أنصار دولتنا، ونقباء شيعتنا وأمراء جيوشينا، فهم مواليهم، وموالي القوم من أنفسهم. فإذا وضعت الحرب أوزارها صفحنا بالمحسن عن المسيء، ووهبنا للرجل قومه ومن اتصل بأسبابه، فتذهب النائرة، وتخبو الفئنة، وتطمئن القلوب. قلت: ويقال: إنه يُبتلى بكم من أحلص لكم المحبة. قال: قد روي أن البلاء أسرع إلى مُحبينا من الماء إلى قراره. قلت: لم أرد هذا. قال فمه؟ قلت: تُعقون الولي

وتحظون العدو؟ قال مَنْ يسعد بنا من الأولياء أكثر، ومن يسلم منا من الأعداء أقل وأيسر، وإنما نحن بشر وأكثرنا أذن، ولا يعلم الغيب إلا الله، وربما استترت عنا الأمور فنقع بما لا نريد، وإن لنا لإحساناً يأسو الله به ما تكلم، ويرم به ما نكلم، ونستغفر الله مما لا نعلم، وما أنكرت من أن يكون الأمر على ما بلغك، ومع الولي التعزز والإدلال والثقة والاسترسال؟ ومع العدو التحرز والإحتيال، والتدلل والإغتيال؟ وربما أمل المدل، وأخل المسترسل، وتجنب المتقرب، ومع المقة تكون الثقة؟ على أن العاقبة لنا على عدونا، وهي لوليتنا؟ وإنك لسؤول يا أبا بني تميم. قلت: إني أخاف أن لا أراك بعد اليوم. قال: إني لأرجو أن أراك وتراني كما تحب عن قريب إن شاء الله تعالى. قلت: عجل الله ذلك. قال: آمين. قلت: ووهب لي السلامة منكم فيني من محبيكم. قال آمين، وتبسم. وقال: لا بأس عليك ما أعاذك الله من ثلاث. قلت: وما هي؟ قال: قدح في الدين، أو هتك للملك، أو تهمة في حرمة. ثم قال: احفظ عني ما أقول لك: أصدق وإن ضرك الصدق؟ وأنصح وإن باعدك النصيح، ولا تجالس عدونا وإن أحظيناها، فإنه محذول، ولا تخذل ولينا وإن أبعدها، فإنه منصور، وأصبحنا بترك المماكرة، وتواضع إذا رفعتك، وصل إذا قطعوك، ولا تستخف فيمقتوك، ولا تتقبض فيتحشموك، ولا تبدأ حتى يبدءوك، ولا تحطب الأعمال، ولا تتعرض للأموال. وأنا رائح من عشتي هذه، فهل من حاجة؟ فنهضت لوداعه فودعته، ثم قلت: أترقت لظهور الأمر وقتاً؟ قال: الله المقدر الموقت، فإذا قامت التوحان بالشام فهما آخر العلامات. قلت: وما هما؟ قال: موت هشام العام وموت محمد بن علي مستهلاً ذي القعدة، وعليه أخلفت، وما بلغتكم حتى أنضيت. قلت: فهل أوصى؟ قال: نعم، إلى ابنه إبراهيم. قال: فلما خرجت فإذا مولى له يتبعني، حتى عرف منزلي، ثم أتاني بكسوة من كسوته، فقال: يأمرك أبو جعفر أن تصلي في هذه، قال: وافترقنا.

قال: فوالله ما رأيته إلا وحرسيان قابضان علي يدنياني منه في جماعة من قومي لأبايعه. فلما نظر إلي أثبتني، فقال: خليا عن صحت مودته، وتقدمت حرمته، وأخذت قبل اليوم بيعته. قال: فأكبر الناس ذلك من قوله، ووجدته، على أول عهده لي، ثم قال لي: أين كنت عني في أيام أخي أبي العباس. فذهبت أعتذر. قال: أمسك، فإن لكل شيء وقتاً لا يعدوه، ولن يفوتك إن شاء الله حظ مودتك وحق مسابقتك، فاختر بين رزقي يسعك أو عمل يرفعك. قلت: أنا حافظ لوصيتك. قال: وأنا لها أحفظ، إنما نهيئك أن تحطب الأعمال، ولم أنك عن قبولها. قلت: الرزق مع قرب أمير المؤمنين أحب إلي. قال: ذلك لك، وهو أحم لقلبك، وأودع لك، وأعفى إن شاء الله ثم قال: هل زدت في عيالك بعدي شيئاً، وكان قد سألتني عنهم، فذكرتهم له، فعجبت من حفظه، قلت: الفرس والخادم. قال: قد أحقنا عيالك بعيالنا وخادمك بخادمنا وفرسك بخيلنا، ولو وسعني لحملت إليك بيت المال، وقد ضممتك إلى المهدي، وأنا أوصيه بك، فإنه أفرغ لك مني.

قال لأحوص بن محمد الشاعر الأنصاري، من بني عاصم بن ثابت بن أبي الأفلح الذي حمت لحمه الدبر، يُشَبَّبُ بامرأة يقال لها أم جعفر، فقال فيها:

بأبياتكم ما دُرت حيث إدور

أدورُ ولولا أن أرى أم جعفر

وكان لأم جعفر أخ يُقال له أيمن، فأستعدى عليه ابن حزم الأنصاري، وهو والي المدينة للوليد بن عبد الملك، وهو أبو بكر بن محمد بن عمرو بن حزم، فبعث ابن حزم إلى الأحوص، فأتاه. وكان ابن حزم يُغضه، فقال: ما تقول فيما يقول هذا؟ قال: وما يقول؟ قال: يزعم أنك تُشَبَّبُ بأخته ولد فضحتَه وشهرت أخته بالشعر. فأنكر ذلك. فقال لهما: قد اشتبه علي أمركما، ولكنني أذفع إلى كل واحد منكما سوطاً، ثم اجتلدا، وكان الأحوص قصيراً نحيفاً، وكان أيمن طويلاً ضخماً جلدًا. فغلب أيمن الأحوص، فضربه حتى صرعه وأثخنه. فقال أيمن:

أشمُ طويلُ الساعدين غيورُ

لقد منع المعروف من أم جعفر

بأصفر من ماء الصفاق يفور

علاك بمنن السوط حتى أتقته

قال: فلما رأى الأحوص تحامل ابن حزم عليه امتدح الوليد، ثم شَخَص إليه إلى الشام، فدخل عليه فأنشده:

ضراً ولو ألقى الحرمي في النار

لا ترثين لحرمي رأيت به

المدخلين على عثمان في الدار

الناخسين لمروان بذي خشب

قال له صدقتَ والله، لقد كُنَّا غَفَلْنَا عن حزم وآل حزم ثم دعا كاتبه فقال: اكتب عهد عثمان بن حيان المري على المدينة، وأعزل ابن حزم، واكتب بقبض أموال حزم وآل حزم وإسقاطهم أجمعين من الديوان، ولا يأخذون لأموي عطاءً أبداً ففعل ذلك. فلم يزالوا في الحرمان للعطاء مع ذهاب الأموال والضَّياع حتى انقضت دولة بني أمية وجاءت دولة بني العباس. فلما قام أبو جعفر المنصور بأمر الدولة قدم عليه أهل المدينة، فجلس لهم فأمر حاجبه أن يتقدم إلى كل رلٍّ منهم أن ينتسب له إذا قام بين يديه، فلم يزالوا على ذلك يفعلون، حتى دخل عليه رجلٌ قصيرٌ قبيح الوجه، فلما مثل بين يديه قال له: يا أمير المؤمنين، أنا ابنُ حزم الأنصاري الذي يقول فينا الأصوص:

**ضراً ولو ألقى الحزمي في النار
والمدخلين على عثمان في الدار**

**لا ترثين لحزمي رأيت به
الناخسين لمروان بذى خشب**

ثم قال: يا أمير المؤمنين، حُرْمنا العطاء منذ سنين، وقُبضت أموالنا وضياغنا. فقال له المنصور: أعد عليّ البيتين. فأعادهما عليه. فقال: أما والله لئن كان ذلك ضرركم في ذلك الحين لينفَعنكم اليوم، ثم قال: عليّ بسليمان الكاتب. فأتاه أبو أيوب الخوزي. فقال: اكتب إلى عامل المدينة أن يرُدَّ جميع ما اقتطعه بنو أمية من ضياع بني حزم وأموالهم، ويحسب لهم ما فاتهم من عطائهم، وما استغلَّ من غلاتهم من يومئذٍ إلى اليوم، فيخلف لهم جميع ذلك من ضياع بني مروان، ويفرض لكل واحد منهم في شرف العطاء - وكان شرفُ العطاء يومئذٍ مائتي ألف دينار في السنة - ثم قال: عليّ الساعة بعشرة آلاف درهم تُدفع إلى هذا الفتى لتفتته. فخرج الفتى من عنده بما لم يخرج به أحد من دخل عليه.

ذكر خلفاء بني العباس وصفاتهم ووزرائهم

أبو العباس السفاح

ولد أبو العباس عبد الله بن محمد بن علي بن عبد الله بن العباس بن عبد المطلب مُستهل رجب سنة أربع ومائة. وُبيع له بالكوفة يوم الجمعة لثلاث عشرة ليلة خلت من ربيع الآخر سنة اثنتين وثلاثين ومائة. وتوفي بالأبهار لثلاث عشرة ليلة خلت من ذي الحجة سنة ست وثلاثين ومائة. فكانت خلافته أربع سنين وثمانية أشهر. وأمه ربيعة بنتُ عبيد الله بن عبد الله ابن عبد المَدان. وكان أبيضَ طويلاً أفتى الأنف حسنَ الوجه حسنَ اللحية جعلها. نقشُ خاتمه "الله ثقة عبد الله وبه يؤمن". وصلى عليه عمه عيسى بن علي. ورزق من الولد اثنتين: محمد، من أم ولد، ومات صغيراً، وابنة سَمَّها ربيعة، من أم ولد، تزوجها المهدي وأولدها علياً وعبيد الله. ووَزَّر له أبو سلمة حفص بن سليمان الخلال، وهو أول من لُقِّب بالوزارة. فقتله أبو العباس وأستوزر بعده خالد بن برمك إلى آخر أيامه، وكان حاجبه أبو غسان صالح بن الهيثم، وقاضيه يحيى بن سعيد الأنصاري.

المنصور

وُبيع أبو جعفر المنصور. واسمه عبد الله بن محمد بن علي بن عبد الله ابن العباس في اليوم الذي تُوفي فيه أخوه لثلاث عشرة ليلة خلت من ذي الحجة سنة ست وثلاثين ومائة. وكان مولده بالشرارة لسبع خلون من ذي الحجة سنة خمس وتسعين. وتوفي بمكة قبل التروية بيوم، لسبع خلون من ذي الحجة سنة ثمان وخمسين ومائة وهو مُحْرَم. ودُفن بالحجون. وصلى عليه إبراهيم بن يحيى بن محمد بن علي بن عبد الله بن العباس. وكانت مدة خلافته اثنتين وعشرين سنة إلا ثمانية أيام. وكانت سنه ثلاثاً وستين سنة. وأمه أمة اسمها سلامة. وجنسها بربرية. وكان أسمرَ طويلاً نحيفَ الجسم خفيفَ العارضين يخضب بالسواد. ونقش خاتمه "الله ثقة عبد الله وبه يؤمن". وتزوج بنت منصور الحميرية، وولدت له: محمداً، وهو المهدي، وجعفرًا. وكانت شرطت عليه ألا يتزوج ولا يتسرَّى إلا عن أمرها. وكان قد ابتاع جاريته أم علي وجعلها قَيْماً في داره على أم موسى وأولاده. فحظيت عند أم موسى وسألته التسرِّي بها لما رأت من فضلها. فواقعها فأولدها علياً، وتوفي قبل استكمال سنة؛ ثم فاطمة بنت

محمد، من ولد طلحة بن عبيد الله، فولدت له سليمان، وعيسى، ويعقوب. ورُزق من أمهات الأولاد: صالحاً والعالية وجعفرأ والقاسم والعباس وعبد العزيز.

ووزر له ابن عطية الباهلي، ثم أبو أيوب المورياني، ثم الربيع، مولاه. وكان حاجبه عيسى بن روضة، مولاه، ثم أبو الخصيب، مولاه. وكان قاضيَه عبدُ الله بن محمد بن صفوان، ثم شريك بن عبد الله، والحسن بن عمار، والحجاج بن أرطاة.

المهدي

ثم بُويغ ابنُه أبو عبد الله محمد المهديُّ بن عبد الله المنصور بن محمد بن علي بن عبد الله بن عباس صبيحة اليوم الذي تُوفي فيه أبوه لستَ خلونَ من ذي الحجة سنة ثمان وخمسين ومائة. وكان مولدُه بالحميمة يومَ الخميس لثلاث عشرة ليلة خلت من جمادى الآخرة سنة ست وعشرين ومائة. وتُوفي بما سبَدان في المحرم سنة تسع وستين ومائة. وصلى عليه ابنُه الرشيدُ- فكانت خلافته عشرَ سنين وخمسة وأربعين يوماً. وكانت سنه إحدى وأربعين سنة وثمانية أشهر ويومين.

وكان أَمْرَ طويلاً معتدلاً الخلف، جعدَ الشعر، بعينه اليمنى نُكتة بياض، نقش خاتمه "الله ثقة محمد وبه يؤمن" وتزوجَ رَيطَةَ بنت السفاح، وأولدها علياً وعبيد الله. وأول جارية ابتاعها مَحْيَاة، فرُزق منها ولدًا مات قبل استكمال سنة. وكان يبتاع الجواري باسمها وتُقرهن إليه. وأول من حظيَ منهن عنده رحيم، ولدت له العباسة، ثم الخيزران، فولدت له موسى وهارون والبانوقة؟ ثم حللة وحسنة، وكانتا مغنيتين مُحسنتين. وتزوج سنة تسع وخمسين ومائة أم عبد الله بنت صالح بن علي أخت الفضل وعبد الله، وأعتق الخيزران في السنة وتزوجها. ووزر له أبو عبد الله معاوية بن عبد الله الأشعري، ثم يعقوب بن داود السلمي، ثم الفيض بن أبي صالح. واستحجب سلامان الأبرش. واستخلف علي القضاء محمد بن عبد الله بن علانة، وعافية بن يزيد، كانا يُقضيان معاً في مسجد الرُصافة.

الهادي

ثم بُويغ ابنُه أبو محمد موسى الهادي بن المهديِّ مستهل صفر سنة تسع وستين ومائة. وتُوفي ليلة الجمعة لأربع عشرة ليلة خلت من شهر ربيع الأول سنة سبعين ومائة بعيساباد. وصلى عليه أخوه الرشيد. وكانت خلافته سنة وشهرين إلا أياماً. وكانت سنُه ستاً وعشرين سنة. وكان أبيضَ طويلاً جسيماً بشفته العليا تقلص. نقش خاتمه "الله ربي". وتزوجَ أمة العزيز، فأولدها عيسى؟ ثم رحيم، فأولدها جعفرأ؛ ثم سعوف، فأولدها العباس؟ واشترى جاريته حسنة بألف درهم، وكانت شاعرة، فرُزق منها عدة بنات، منهن أم عيسى، تزوجها المأمون. وكان له من أمهات الأولاد عبد الله وإسحاق وموسى، وكان أعمى.

ووزر له الربيع بن يونس، ثم عمر بن بزيع. واستحجب الفضل بن الربيع. وولى القضاء أبا يوسف يعقوب بن إبراهيم، في الجانب الغربي، وسعيد بن عبد الرحمن الجُمحي، في الجانب الشرقي.

هارون الرشيد

ثم بُويغ أخوه أبو محمد هارون الرشيد في اليوم الذي توفي فيه أخوه يومَ الجمعة لأربع عشرة ليلة خلت من شهر ربيع الأول سنة سبعين ومائة. وفي هذه الليلة وُلد عبد الله المأمون. ولم يكن في سائر الزمان ليلة وُلد فيها خليفة وتُوفي فيها خليفة وقام فيها خليفة غيرها. وكان مولد الرشيد في المحرم سنة ثمان وأربعين ومائة. وتُوفي في جمادى الأولى سنة ثلاث وتسعين ومائة ودُفن بطوس. وصلى عليه ابنُه صالح. فكانت خلافته ثلاثاً وعشرين سنة وشهراً وستة عشر يوماً. وكانت سنُه ستاً وأربعين سنة وخمسة أشهر. ولما أفضت إليه الخلافة سلّم عليه عمُه سليمان المنصور، والعباس بن محمد عم أبيه، وعبد الصمد ابن علي عم جده، فعبد الصمد عم العباس، والعباس عم سليمان وسليمان عم هارون.

وكان الرشيد أبيضاً طويلاً جميلاً. قد وَحَظَهُ الشَّيْبُ. نَقَشَ حَاتِمَهُ "لا إله إلا الله"، وخاتم آخر "كن من الله على حذر" وتزوج زُبَيْدَةَ، واسمُها أمة العزيز، وتكنى أمَّ الواحد، وزُبَيْدَةُ لقب لها. وهي ابنة جعفر بن المَنْصُور، أولدها محمداً الأمين؟ ثم مراجل، فأولدها عبد الله المأمون؟ وماردة، أولدها محمداً المعتصم؟ ونادر، ولدت له صالحاً؟ وشجاء، ولدت له خديجة ولبابة؟ وسريرة، ولدت محمداً، وبربرية، ولدت له أبا عيسى ثم القاسم، وهو المؤتمن؟ وسكينة، وحث، فولدت له إسحاق وأبا العباس.

ووزر له جعفر بن يحيى بن خالد البرمكي وقتله، ثم الفضل بن الربيع. واستحجب بشر بن ميمون، مولاه؟ ثم محمد بن خالد بن برمك. واستخلف على قضاء الجانب الغربي نُوحَ بن دَرَّاج، وحفص بن غياث.

الأمين

ثم يبيع أبو عبد الله محمد الأمين في جمادي الآخرة سنة ثلاث وتسعين ومائة. وقُتِلَ يَوْمَ الأَحَدِ لِحَمْسِ بَقِيْنَ مِنْ المُحْرَمِ سَنَةِ ثَمَانٍ وَتَسْعِينَ وَمِائَةٍ. وكان مولده بالرصافة سنة إحدى وسبعين ومائة في شوال. فكانت خلافته أربع سنين وستة أشهر وأياماً. صفا له الأمر في جملتها سنتين وشهراً. وكانت الفتنة بينه وبين أخيه سنتين.

وكان طويلاً جسيماً جميلاً حسن الوجه بعيد ما بين المنكبين، أشقر سبطاً، صغير العينين، به أثر جُدري. نقش حاتم "محمد واثق بالله". ورزق من الولد موسى، من أم ولد تُدعى نَظْم، ولقبه الناطق بالحق، وضرب اسمه على الدراهم.

وذكر الصولي قال: حدثني من قرأ على درهم:

فلموسى المظفر

في الكتاب المسطر

كل عز ومفخر

ملك خط ذكره

وماتت نظم فاشند جزعه عليها، فدخلت زُبَيْدَةُ معزياً له، فقالت:

ففي بقائك ممن قد مضى خلف

ما بعد موسى على مفقودة أسف

نفسى فداؤك لا يذهب بك التلف

عوضت موسى فماتت كأل مرزية

وباع لابنه مولى في حياته، ولأخيه عبد الله، وأمه أم ولد، ونقش اسمه أيضاً على الدراهم.

وكان لجعفر بن موسى الهادي جارية اسمها بَدَل، فطلبها الأمين منه، فأبى عليه، وكان شديد الوجد بها. فزاره الأمين يوماً فسُرَّ به وزاد عليه في الشرب حتى ثمل، فانصرف وأخذ الجارية. فلما أصبح جعفر ندم على ما جرى ولم يدر ما يصنع. فدخل على الأمين. فلما مثل بين يديه قال له: أحسنت والله يا جعفر بدفعك بذل إلينا وما أحسنا. ووقر زورقه بعشرين ألف ألف درهم.

ووزر للأمين الفضل بن الربيع إلى آخر أيامه. وكان حاجبه العباس بن الفضل بن الربيع، ثم علي بن صالح صاحب المصلى، ثم السندي بن شاهك.

المأمون

ثم يبيع أبو العباس عبد الله المأمون بن هارون الرشيد بعد قتل أخيه، يوم الخميس لحمس خلون من صفر سنة ثمان وتسعين ومائة. وكان مولده بالبصرة في ليلة الجمعة لأربع عشرة ليلة حلت من شهر ربيع الأول سنة سبعين ومائة. وتوفي بالبذنون سنة ثمان عشرة ومائتين لثمان خلون من رجب. ودُفِنَ بطرسوس فكانت خلافته عشرين سنة وخمسة أشهر وثلاثة عشر يوماً وكانت سنه ثمانياً وأربعين سنة وأربعة أشهر إلا أياماً.

وكان أبيض شقرة، أجناً أعين طویل اللحية رقيقها ضيق الجبين، بخده خال أسود، وكان قد وَحَظَهُ الشَّيْبُ. نَقَشَ حَاتِمَهُ "سَلَّ اللهُ يُعْطِكَ". وكان الرشيد حد المؤمن. وذلك أنه دخل على الرشيد وعنده مُعْنِيَةٌ تُغْنِيهِ فَلَحَنَتْ، فكسر المأمون عينه عند استماعه اللحن، فتغير لون الجارية وفطن

الرشيد لذلك، فقال: اعلمتها بما صنعت؟ قال: لا والله يا مولاي. قال: ولا أواماتَ إليها؟ قال: قد كان ذلك. فقال: كُنْ مِنِّي بِمَرَأَى وَمَسْمَعٍ إِذَا خَرَجَ إِلَيْكَ أَمْرِي فَانْتَهَ إِلَيْهِ، ثُمَّ أَخَذَ دَوَاةً وَقِرطَاساً وَكَتَبَ إِلَيْهِ:

يَا أَخَذَ اللَّحْنَ عَلَى ال

تُرِيدُ أَنْ تَفْهَمَهَا

أَقْسَمُ بِاللَّهِ وَمَا

لِلْكَأَبِ خَيْرٌ أَدْبَاباً

قَبِيْنَةَ عِنْدَ الطَّرْبِ

حَدَّ لُغَاتِ الْعَرَبِ

سَطَرَ أَهْلُ الْكُتُبِ

مِنْ بَعْضِ أَهْلِ الْأَدَبِ

إِذَا قَرَأْتَ مَا كَتَبْتُ بِهِ إِلَيْكَ، فَأَمْرٌ مَن يَضْرِبُكَ عَشْرِينَ مَقْرَعَةً جَيَاداً. فِدَعَا الْمَأْمُونُ الْبَوَائِينَ ثُمَّ أَمْرَهُمْ بِيَطْحَهُ وَضَرْبَهُ، فَامْتَنَعُوا. فَأَقْسَمَ عَلَيْهِمْ، فَامْتَثَلُوا أَمْرَهُ. وَرُزِقَ مِنَ الْوَلَدِ مُحَمَّدًا الْأَصْغَرَ، وَعُبَيْدَ اللَّهِ، مِنْ أُمِّ عَيْسَى بِنْتِ مُوسَى الْهَادِي. وَتَرَوَّجَ بُورَانَ بِنْتَ الْحَسَنِ بْنِ سَهْلٍ، بِنِي بِهَا سَنَةٌ عَشْرٌ وَمِائَتَيْنِ، وَوَهَبَ لِأَبِيهَا عَشْرَةَ آلَافٍ أَلْفِ دِرْهَمٍ، وَلَوْلَدِهِ أَلْفَ أَلْفِ دِرْهَمٍ. وَكَانَ لَهُ عِدَّةٌ أَوْلَادٍ مِنْ بَنِينَ وَبَنَاتٍ. وَوَزَّرَ لَهُ الْفَضْلُ بْنُ سَهْلٍ ذُو الرِّيَاسَتَيْنِ، ثُمَّ الْحَسَنُ بْنُ سَهْلٍ، ثُمَّ أَحْمَدُ بْنُ أَبِي خَالِدٍ ثُمَّ أَحْمَدُ بْنُ الْأَحْوَلِ، يُوسُفُ، ثُمَّ ثَابِتُ بْنُ يَحْيَى، ثُمَّ مُحَمَّدُ بْنُ يَزِيدٍ. وَاسْتَحْجَبَ عَبْدَ الْحَمِيدَ بْنَ شَيْبَةَ، ثُمَّ مُحَمَّدًا وَعَلِيًّا، ابْنِي صَالِحٍ مَوْلَى الْمَنْصُورِ.

المعتصم بالله

ثُمَّ يُوَيْعُ أَخُوهُ أَبُو إِسْحَاقَ الْمُعْتَصِمُ بْنُ الرَّشِيدِ يَوْمَ الْجُمُعَةِ لِاثْنَيْ عَشْرَةَ لَيْلَةً خَلَّتْ مِنْ رَجَبِ سَنَةِ ثَمَانِي عَشْرَةَ وَمِائَتَيْنِ. وَكَانَ مَوْلَدُهُ فِي شَهْرِ رَمَضَانَ سَنَةِ ثَمَانٍ وَسَبْعِينَ وَمِائَةٍ. وَتُوْفِيَ بِسَرٍّ مِنْ رَأْيِ يَوْمِ الْخَمِيْسِ لِاثْنَيْ عَشْرَةَ لَيْلَةً بَقِيَتْ مِنْ شَهْرِ رَبِيعِ الْأَوَّلِ سَنَةِ سَبْعٍ وَعَشْرِينَ وَمِائَتَيْنِ. وَصَلَّى عَلَيْهِ ابْنُهُ هَارُونَ الْوَاتِقُ. وَكَانَتْ خِلَافَتُهُ ثَمَانِي سِنِينَ وَثَمَانِيَةَ أَشْهُرٍ. وَأُمُّهُ أُمُّ وَلَدٍ يُقَالُ لَهَا مَارِدَةٌ. وَكَانَ أَيْضًا أَصْهَبَ اللَّحِيَةِ طَوِيلَهَا مَرْبُوعًا مُشْرَبَ اللَّوْنِ حُمْرَةً. نَقَشَ خَاتَمُهُ "اللَّهُ ثِقَةٌ أَبِي إِسْحَاقَ بْنِ الرَّشِيدِ وَبِهِ يَوْمَنُ" وَكَانَ شَدِيدَ الْبَأْسِ، حَمَلَ بَابًا مِنْ حَدِيدٍ فِيهِ سَبْعُمِائَةٍ وَخَمْسُونَ رَطْلًا وَفَوْقَهُ عِكَامٌ فِيهِ مِائَتَانِ وَخَمْسُونَ رَطْلًا، وَخَطَا خَطًا كَثِيرَةً وَكَانَ يُسَمَّى مَا بَيْنَ إِصْبَعِي الْمُعْتَصِمِ الْمُقَطَّرَةِ، لِشِدَّتِهِ. وَإِنَّهُ اعْتَمَدَ يَوْمًا عَلَى غِلَامٍ فَدَقَّهُ. وَذَكَرَ الصُّوْلِيُّ أَنَّهُ كَانَ يُسَمَّى الْمُثَمَّنَ، وَذَلِكَ أَنَّهُ الثَّامِنُ مِنْ خِلْفَائِهِمْ.

وَمَوْلَدُهُ سَنَةَ ثَمَانٍ وَسَبْعِينَ وَمِائَةٍ. وَوَلِيَّ الْأَمْرِ فِي سَنَةِ ثَمَانِي عَشْرَةَ وَمِائَتَيْنِ، وَلَهُ ثَمَانِي وَأَرْبَعُونَ سَنَةً. وَكَانَتْ خِلَافَتُهُ ثَمَانِي سِنِينَ وَثَمَانِيَةَ أَشْهُرٍ. وَرُزِقَ مِنَ الْوَلَدِ الذَّكَورِ ثَمَانِيَةَ، وَمِنَ الْإِنَاثِ ثَمَانِيًا. وَغَزَا ثَمَانِي غَزَوَاتٍ. حَلَّفَ فِي بَيْتِ مَالِهِ ثَمَانِيَةَ آلَافٍ دِينَارًا، وَمِنَ الْوَرِقِ ثَمَانِيَةَ آلَافٍ أَلْفِ دِرْهَمٍ. وَوَزَّرَ لَهُ الْفَضْلُ بْنُ مَرْوَانَ، ثُمَّ أَحْمَدُ بْنُ عَمَّارٍ، ثُمَّ مُحَمَّدُ بْنُ عَبْدِ الْمَلِكِ الزِّيَاتِ. وَاسْتَحْجَبَ وَصِيْفًا مَوْلَاهُ، ثُمَّ مُحَمَّدُ بْنُ حَمَّادِ بْنِ دَنْفَشٍ.

الواتق

ثُمَّ يُوَيْعُ ابْنَهُ أَبُو جَعْفَرَ هَارُونَ صَبِيْحَةَ الْيَوْمِ الَّذِي تُوفِيَ فِيهِ أَبُوهُ يَوْمَ الْخَمِيْسِ لِأَحْدَى عَشْرَةَ لَيْلَةً بَقِيَتْ مِنْ شَهْرِ رَبِيعِ الْأَوَّلِ سَنَةِ سَبْعٍ وَعَشْرِينَ وَمِائَتَيْنِ. وَكَانَ مَوْلَدُهُ يَوْمَ الْإِثْنَيْنِ لِعَشْرِ بَقِيْنَ مِنْ شَعْبَانَ سَنَةِ سِتِّ وَتِسْعِينَ وَمِائَةٍ. وَتُوْفِيَ بِسَرٍّ مِنْ رَأْيِ يَوْمِ الْأَرْبَعَاءِ لَسْتُ بَقِيْنَ مِنْ ذِي الْحِجَّةِ سَنَةِ اثْنَتَيْنِ وَثَلَاثَيْنِ وَمِائَتَيْنِ. وَصَلَّى عَلَيْهِ أَخُوهُ الْمُتَوَكَّلُ. فَكَانَتْ خِلَافَتُهُ خَمْسَ سِنِينَ وَتِسْعَةَ أَشْهُرٍ وَثَلَاثَةَ عَشْرِ يَوْمًا. وَكَانَتْ سَنَتُهُ سِتًّا وَثَلَاثِينَ سَنَةً وَأَرْبَعَةَ أَشْهُرٍ وَأَيَّامًا. وَكَانَ أَيْضًا إِلَى الصُّفْرَةِ، حَسَنَ الْوَجْهِ جَسِيمًا فِي عَيْنِهِ الْيَمْنَى نُكْتَةً بِيَاضٍ نَقَشَ خَاتَمُهُ "مُحَمَّدُ رَسُولُ اللَّهِ" وَخَاتَمَ آخَرَ "الْوَاتِقُ بِاللَّهِ". وَرُزِقَ مِنَ الْوَلَدِ مُحَمَّدًا الْمُهْتَدِيَّ، وَأَبَا وَأُمَّهُ أُمُّ وَلَدٍ يُقَالُ لَهَا قُرْبُ؟ وَعَبْدَ اللَّهِ، وَأَبَا الْعَبَّاسِ أَحْمَدَ، وَأَبَا إِسْحَاقَ مُحَمَّدًا، وَأَبَا إِسْحَاقَ إِبْرَاهِيمَ. وَوَزَّرَ لَهُ مُحَمَّدُ بْنُ عَبْدِ الْمَلِكِ الزِّيَاتِ. وَحَاجَبَهُ إِيتَاخُ، ثُمَّ وَصِيْفُ مَوْلَاهُ، ثُمَّ ابْنُ دَنْفَشٍ. وَقَاضِيَهُ ابْنُ أَبِي دُوَادٍ.

المتوكل

ثم بُويِعَ أخوه أبو الفضل جعفر المتوكل يوم الأربعاء لست بقين من ذي الحجة سنة اثنتين وثلاثين ومائتين. وكان مولده يوم الأربعاء لإحدى عشرة ليلة خلت من شوال سنة ست ومائتين. وقُتِلَ ليلة الأربعاء لثلاث خلون من شوال سنة سبع وأربعين ومائتين، ودُفِنَ في القصر الجعفري. وصلى عليه ابنه المنتصر ولمن عهده. فكانت مدة خلافته أربع عشرة سنة وتسعة أشهر وتسعة أيام. وكانت سنّه أربعين إلا ثمانية أيام. وكان أسمرَ كبيرَ العينين نحيفَ الجسم خفيفَ العارضين. نقشَ خاتمه "على إلهي اتكالي". وكان كثيرَ الولد. ووزر له محمد بن عبد الملك الزيات، ثم محمد بن الفضل الجرجاني، ثم عبيد الله بن يحيى بن خاقان. واستحجب وصيفاً التركي، ثم محمد بن عاصم، ثم إبراهيم بن سهل. وكان خليفته على القضاء يحيى بن أكنم.

المنتصر

ثم بويِعَ ابنه أبو جعفر محمد المنتصر لأربع خلوان من شوال سنة سبع وأربعين ومائتين. وكان مولده يوم الخميس لست خلون من شهر ربيع الآخر سنة اثنتين وعشرين ومائتين. ومات ليلة السبت لثلاث خلون من ربيع الآخر سنة ثمان وأربعين ومائتين. فكانت خلافته ستة أشهر؟ وسنّه ستاً وعشرين سنة إلا ثلاثة أيام.

وكان قصيراً أسمرَ ضخم الهامة عظيم البطن جسيماً، على عينه اليمنى أثر. نقشَ خاتمه "يؤتى الحذر من مأمنه"، وعلى خاتم آخر "أنا من آل محمد. الله وليّ ومحمد".

ورُزق من الولد عليا وعبد الوهاب وعبد الله وأحمد. ووزر له أحمد بن الخصيب. وحاجبه وصيف، ثم بغا، ثم ابن المرزبان، ثم أوتامش.

المستعين

ثم بويِعَ المستعين أبو العباس أحمد بن محمد بن المعتصم يوم الاثنين لأربع خلون من شهر ربيع الآخر سنة ثمان وأربعين ومائتين. وخلع نفسه بموافقة المعتزّ بوساطة أبي جعفر المعروف بأبن الكردية، يوم الجمعة لأربع خلون من المحرم سنة اثنتين وخمسين ومائتين. وكانت خلافته ثلاث سنين وتسعة أشهر. وكان مولده يوم الثلاثاء لأربع خلون من رجب سنة إحدى وعشرين ومائتين. وقُتِلَ بالقادسية مع خلعه نفسه بتسعة أشهر. وأمه أم ولد يقال لها مخارق.

وكان مربعاً أحمرَ الوجه أشقرَ مُسَمِّناً عريض المنكبين، ضخم الكراديس، خفيف العارضين، بوجهه أثر جُدري، أثلغ بالسين. نقشَ خاتمه "في الاعتبار غني عن الاعتبار".

وزر له أحمد بن الخصيب، فنكبه، وقُتِلَ مكانه ابن يزيد؟ ثم شجاع بن القاسم، كاتب أوتامش، وأوتامش هذا حاجبه. وكانت سنه إحدى وثلاثين سنة إلا ثمانية أيام.

المعتز

ثم ولى أبو عبد الله محمد المعتزّ بن المتوكل يوم الجمعة. لأربع خلون من المحرم سنة اثنتين وخمسين ومائتين، وكانت الفتنة قبل ذلك بينه وبين المستعين سنة. وقُتِلَ عشية يوم الجمعة لليلة خلت من شعبان سنة خمس وخمسين ومائتين، وكان مولده يوم الخميس لإحدى عشرة ليلة خلت من ربيع الآخر سنة اثنتين وثلاثين ومائتين. وكانت خلافته منذ بُويِعَ له واجتمعت الكلمة عليه ثلاث سنين وستة أشهر وثلاثة وعشرين يوماً، ومنذ بايعه أهل سُرّ من رأى إلى أن قُتِلَ أربع سنين وستة أشهر وخمسة عشر يوماً. وقتله صالح بن وصيف.

وكان أبيض شديد البياض، ربعة حسن الجسم، على خده الأيسر حال أسود الشعر. نقشَ خاتمه "الحمد لله رب كل شيء وخالق كل شيء".

وزر له جعفر بن محمود الإسكافي، ثم عيسى بن فرخان شاه، ثم أحمد ابن إسرائيل الأنباري. وحاجبه سماء بن صالح بن وصيف. وكانت سنه أربعاً وعشرين سنة وشهرين وأياماً.

المهتدي

ثم بويع المهتدي أبو عبد الله محمد بن الواثق بسرّ من رأى يوم الأربعاء لليلة بقيت من رجب سنة خمس وخمسين ومائتين. وكان مولده يوم الأحد لخمس خلون من شهر ربيع الأول سنة تسع عشرة ومائتين: وقُتل بسرّ من رأى بسهم لحقه يوم الثلاثاء لأربع عشرة ليلة بقيت من رجب سنة ست وخمسين ومائتين. فكانت خلافته أحد عشر شهراً وأربعة عشر يوماً. وكانت سنة سبعمائة وثلاثين سنة وأربعة أشهر وأحد عشر يوماً وكان أبيض مشرباً حُمرة، صغير العينين، أقي الأنف، في عارضيه شيب، وخصب لما ولي الخلافة: نقش خاتمه "من تعدى الحق ضاق مذهبه!". وزر له أيوب سليمان بن وهب. وحاجبه باك باك.

المعتد

ثم بويع أبو العباس أحمد المعتد بن المتوكل يوم الثلاثاء لأربع عشرة ليلة بقيت من رجب سنة ست وخمسين ومائتين. وكان مولده يوم الثلاثاء لثمان بقين من المحرم سنة تسع وعشرين ومائتين. فكانت خلافته ثلاثاً وعشرين سنة. وكانت سنه خمسين سنة وخمسة أشهر واثنين وعشرين يوماً. ومات أخوه وولى عهده طلحة الموفق في أيامه في صفر سنة ثمان سبعين ومائتين، وكان قد غلب على الأمر لميل الناس إليه. وكان المعتد قد عقد لولده جعفر ولقبه المفوض، وبعده لأبي أحمد طلحة الموفق، فاشتد أمر الموفق وقتل صاحب الزنج في سنة سبعين ومائتين ومال الناس إليه، واسمه الناصر لدين لله، وكان يُدعى له على المنبر، في أيام المعتد، وكان الموفق حبس ابنه أبا العباس المعتضد، فلما حضرته الوفاة أطلقه للقيام بالأمر، وأجرى المعتد أمره على ما كان يجري عليه أمر أبيه الموفق، وافرده بولاية العهد، وأمر بكتب الكُتب بخلع ابنه المفوض وأفرد المعتضد بالعهد وجعله الخليفة بعده. وكان المعتد أسمر مربعاً نحيف الجسم حسن العينين مدور الوجه، على وجه أثر جُدريّ. نقش خاتمه "السعيد من كفي بغيره". ووزر له عبید الله يحيى ابن خاقان، ثم سليمان بن وهب، ثم الحسن بن مخلد، ثم صاعد بن مخلد، ثم أبو الصقر إسماعيل بن بلبل. حاجبه موسى بن بغا، ثم جعفر بن بغا، ثم بكتمر.

المعتضد

وبويع المعتضد أبو العباس أحمد بن الموفق في رجب سنة سبع وسبعين ومائتين. وكان مولده في جمادى الآخرة سنة ثلاث وأربعين ومائتين. وتوفي ببغداد ليلة الثلاثاء لسبع بقين من شهر ربيع الآخر سنة تسع وثمانين ومائتين. وصلى عليه أبو عمر القاضي. فكانت خلافته تسع سنين وتسعة أشهر وأربعة أيام. وكانت سنه خمساً وأربعين سنة وتسعة أشهر وأياماً: وأمّه ضرار. وكان نحيف الجسم معتدل القامة طويل اللحية أسمر. نقش خاتمه الاضطراب يزيل الاختيار ووزر له عبید الله بن سليمان بن وهب، ثم ابنه القاسم بن عبید الله. وحاجبه صالح الأمين.

المكتفي

ثم بويع ابنه أبو محمد عليّ بن المعتضد يوم الثلاثاء لسبع بقين من شهر ربيع الآخر سنة تسع وثمانين ومائتين. وكان مولده في رجب سنة أربع وستين ومائتين، وتوفي ببغداد فدُفن عند قبر أبيه ليلة الأحد لثلاث عشرة ليلة خلت من ذي القعدة سنة خمس وتسعين ومائتين. وكانت خلافته ست سنين وستة أشهر وعشرين يوماً. وكانت سنه إحدى وثلاثين سنة وأربعة أشهر وأياماً. وأمّه جيحقي، وقيل خاضع. وكان رُبعة حسن الوجه أسود الشعر

وافرّ اللحية عريضها، ولم يَشِبْ إلى أن مات. نقش خاتمه "بالله على بن أحمد يثق. وخلّف في بيت ماله ستة عشر ألفَ دينار، ومن الورق ثلاثين ألفَ درهم.

ووزر له القاسم بن عبيد الله، ثم العباس بن الحسن ثم الحسن بن أيوب. وحاجبه خفيف السمركنديّ، ثم سوسن مولاه.

المقتدر

ثم بُويع المقتدر، وهو أبو الفضل جعفر بن المعتضد في اليوم الذي توفّي فيه أخوه يوم الأحد لثلاث عشرة ليلةً خلت من ذي القعدة سنة خمس وتسعين ومائتين. وخلع في خلافته دفتين، الأولى بعد جلوسه بأربعة أشهر وأيام بابل الأمر من يومه. والدفعة الثانية بعد إحدى وعشرين سنة وشهرين ويومين من خلافته، خلع نفسه وأشهد عليه وأجلس القاهرَ يومين وبعضَ اليوم الثالث. ووقع الخلف بين العسكرين، وعاد المقتدرُ إلى حاله. وكان مولده لثمان بقين من شهر رمضان سنة لاثنتين وثمانين ومائتين. وقُتل بالشّمسائية يوم الأربعاء لثلاث بقين من شوال سنة عشرين وثلثمائة. فكانت خلافته خمساً وعشرين سنة إلا خمسة عشر يوماً. وكانت سنّه ثمانياً وثلاثين سنة وشهراً وعشرين يوماً.

وكان أبيضَ مشرباً حمرةً حسنَ الخلق ضخم الجسم، بعيد ما بين المنكبين، جعد الشعر، مدورَ الوجه، قد كثّر الشيبُ في وجهه. نقش خاتمه "الحمد لله الذي ليس كمثلُه شيء وهو على كل شيء قدير".

ووزر له العباس بن الحسن، ثم عليّ بن محمد بن موسى بن الفرات، ثم عبيد الله بن خاقان، ثم أبو الحسن عليّ بن عيسى بن داود بن الجراح ثم حامد بن العباس، ثم أحمد بن عبيد الله الخصبي، ثم محمد بن عليّ بن مُقلة، ثم سليمان بن الحسن بن مخلد بن الجراح ثم عبيد الله بن محمد الكلوزاني، ثم الحسين بن القاسم بن عبيد الله بن سليمان بن وهب، ثم الفضل بن جعفر ابن موسى بن الفرات. واستحجب سوسنا، مولى المكتفي، ونصراً القشوري، وياقوتاً المعتضديّ، وإبراهيم ومحمداً، ابني رائق.

القاهر

ثم بُويع أخوه أبو منصور محمد القاهر بن المعتضد يوم الخميس لليلتين بقيتا من شوال سنة عشرين وثلثمائة. وخلع وسُمل يوم الأربعاء لخمس خلون من جمادى الأولى سنة اثنتين وعشرين وثلثمائة. وكان مولده لخمس خلون من جمادى الأولى سنة سبع وثمانين ومائتين، وكانت خلافته سنة وستة أشهر وستة أيام. وعاش إلى أيام المطيع، وكانت سنه وكان ربعةً أسمر اللون، معتدل القامة، أصهب الشعر. ووزر له أبو عليّ محمد بن مُقلة، ثم محمد بن القاسم بن عبيد الله، ثم أحمد بن عبيد الله الخصبيّ. واستحجب عليّ بن بليق، مولى يونس، ثم سلامة الطولوني.

الراضي

ثم بُويع الراضي أبو العباس أحمد بن المقتدر يوم الأربعاء لست خلون من جمادى الأولى سنة اثنتين وعشرين وثلثمائة. وكان مولده في رجب سنة سبع وتسعين ومائتين. ومات ببغداد ليلة السبت لأربع عشرة بقية من شهر ربيع الأول من سنة تسع وعشرين وثلثمائة. ودُفن بالرُصافة. وكانت خلافته ست سنين وعشرة أيام. وكانت سنّه إحدى وثلاثين سنة وثمانية أشهر وأياماً. وأمه أمٌ ولد يقال لها ظلوم. كان قصيراً، نحيف الجسم، أسود الشعر، رقيق السُمرة، في وجهه طول.

نقش خاتمه "رسول الله". ووزر له أبو عليّ محمد بن مُقلة، ثم ابنته أبو الحسين علي بن محمد ثم عبد الرحمن بن عيسى بن داود بن الجراح ثم محمد بن القاسم الكرخي، ثم سليمان بن الحسن بن محمد بن الجراح ثم الفضل بن جعفر بن الفرات ثم أبو عبد الله أحمد بن محمد اليزيديّ. واستحجب محمد بن ياقوت، ثم ذكياً، مولاه.

المتقي

ثم بُويع أخوه المُتقي أبو إسحاق إبراهيم بن المقتدر يومَ الأربعاء لعشر بقين من شهر ربيع الأول سنة تسع وعشرين وثلثمائة. وخلع وسمل يوم السبت لثمان خلون من صفر سنة ثلاث وثلثين وثلثمائة. وكان مولده في شعبان سنة سبع وتسعين ومائتين. وكانت خلافته ثلاث سنين وأحد عشر شهراً إلا أياماً.

وكان أبيض تعلوه حُمْرة، أصهَبَ شَعْرَ اللحية، كثَّ اللحية، بفكه الأدين عَوَج. نقش خاتمه "محمد رسول الله" وزر له أحمد بن محمد بن ميمون، ثم اليزيدي، ثم سليمان بن الحسن بن مخلد ثم أبو إسحاق محمد بن أحمد القراريطي. ثم محمد بن القاسم الكرخي، ثم أحمد بن عبد الله الأصبهاني، ثم علي بن محمد بن مُقلة. واستحجبت سلامة، مولى خُمارويه بن أحمد، ثم بدر الخرشني، ثم عبد الرحمن بن أحمد بن خاقان المُفلحي.

المستكفي

ثم بُويع أبو القاسم عبد الله بن عليّ المستكفي في صفر سنة ثلاث وثلثين وثلثمائة بالسندية عُقب كسوف القمر. وخلع في شعبان سنة أربع وثلثين وثلثمائة. فكانت خلافته سنة واحدة وستة أشهر وأياماً. وكان مولده مستهل سنة اثنتين وتسعين ومائتين. وتوفي سنة تسع وثلثين وثلثمائة. وكانت سنه سبعاً وأربعين سنة. وأمه أم ولد يقال لها غُصن.

وكان أبيض تعلوه حُمْرة، ضخَمَ الجسم، تام الطول؟ خفيف العارضين، كبير العينين، أشهل، جهوري الصوت. نقش خاتمه "محمد رسول الله". وزر له محمد بن عليّ السرّ من رائي. واستكتب بعده أبا أحمد الفضل بن عبد الله الشيرازي، واستحجبت أحمد بن خاقان.

المطيع

ثم بُويع المطيع أبو القاسم الفضل بن المقتدر لسبع بقين من شعبان سنة أربع وثلثين وثلثمائة وخلع نفسه ببغداد لسبع عشرة ليلة حُلت من ذي الحجة سنة ثلاث وستين وثلثمائة. وكان مولده في النصف من ذي القعدة سنة إحدى وثلثمائة. وتوفي في. فكانت خلافته تسعاً وعشرين سنة وثلاثة أشهر وعشرين يوماً. وأمه أم ولد تُدعى مَشعلة. وكانت سنة وكان شديد البياض أسود شعر الرأس واللحية. وزر له علي بن محمد ابن مُقلة. والناظر في الأمور أبو جعفر الصيمري. كاتب أحمد بن بويه. ثم استولى على اسم الوزارة. وكتب للمطيع الفضل بن عبد الرحمن الشيرازي، ومات وقام مقامه أبو محمد الحسن بن محمد المهلب، وحاجبه عز الدولة بُختيار ابن مُعز الدولة. تم كتاب البيئمة الثانية

كتاب الدرّة الثّانية في أيام العرب ووقائعهم

فرش الكتاب

قال الفقيه أبو عمر أحمد بن محمد بن عبد ربّه رضي الله عنه: قد مضى قولنا في أخبار زياد والحجاج والطالبيين والبرامكة، ونحن قائلون بعون الله وتوفيقه في أيام العرب ووقائعهم فإنها مآثر الجاهليّة، ومكارم الأخلاق السنيّة. قيل لبعض أصحاب رسول الله صلى الله عليه وسلم: ما كنتم تتحدّثون به إذا خلوتم في مجالسكم؟ قال: كُنّا نتناشد الشعر، ونتحدّث بأخبار جاهليّتنا. وقال بعضهم: وددتُ أن لنا مع إسلامنا كرم أخلاق آبائنا في الجاهليّة، ألا ترى أن عنتره الفوارس جاهليّ لا دين له، والحسن بن هانئ إسلاميّ له دين، فمنع عنتره كرمه ما لم يمنع الحسن بن هانئ دينه؟ فقال عنتره في ذلك:

حتى يُوارِي جارتِي مأواها

وأغضّ طرفي إن بدت لي جارتِي

وقال الحسن بن هانئ مع إسلامه:

ومُحسّن الضّحكات والهزل

كان الشباب مطيّة الجهل

حتى أتيتُ حليلة البعل

والباعثي والناس قد رقدوا

حروب قيس في الجاهلية

يوم منعج

لغنيّ على عيس

قال أبو عبيدة معمر بن المثنى: يوم منعج، يقال له يوم الرّدهة، وفيه قُتل شأس بن زهير بن جذيمة بن رواحة العيسيّ بمنعج على الرّدهة. وذلك أنّ شأس بن زهير أقبل من عند النّعمان بن المنذر، وكان قد حباه بجاء جزيل، وكان فيما حباه قطيفة حمراء ذات هُذب وطيلسان، وطيبٌ. فورد منعج، وهو ماء لغنيّ، فأناخ راحلته إلى جانب الرّدهة عليها حياء لرياح ابن الأسل العنويّ، وجعل يغتسل، وامرأة رياح تنظر إليه وهو مثل الثور الأبيض. فانترع له رياحٌ لسهما فقتله ونحر ناقته فأكلها، وضمّ متاعه وغيب أثره. وفقد شأس بن زهير، حتى وجدوا القطيفة الحمراء بسوق عكاظ قد سامتها امرأة رياح بن الأسل، فعلموا أنّ رياحاً صاحبٌ ثأرهم. فغزت بنو عيس غنياً قبل أن يطلبوا قوداً أوديّة، مع الحصين بن زهير بن جذيمة والحصين بن أسيد بن جذيمة. فلما بلغ ذلك غنياً قالوا لرياح: أنج لعلنا نصلح القوم على شيء. فخرج رياح رديفاً لرجل من بني كلاب، لا يريان إلاّ أهما قد خالفا وجهه القوم. فمرّ صردٌ على رعو سهما فصرصر. فقالا: ما هذا؟ فما راعهما إلاّ خيلُ بني عيس. فقال الكلابي لرياح: أنحدر من خلفي وألتمس نفقاً في الأرض فإنّي شاغلٌ القوم عنك. فأنحدر رياحٌ عن عجز الجمل حتى أتى صعدة فاحتفر تحتها مثل مكان الأرنب وولج فيه. ومضى صاحبه، فسأله فحدّثهم، وقال: هذه غنيّ جامعة وقد استمكنتهم منهم. فصدقوه وخلّوا سبيله. فلما ولّى رأوا مركب الرجل خلفه، فقالوا: من الذي كان خلفك؟ فقال: لا أكذب، رياح بن الأسل، وهو في تلك الصّعدات. فقال الحصينان لمن معهما: قد أمكننا الله من ثأرنا ولا نُريد أن يشركنا فيه أحد. فوقفوا عنهما، ومضيا فجعلا يريغان رياح بن الأسل بين الصّعدات. فقال لهما رياح: هذا غزالكما الذي تريغانه. فابتدراه، فرمى أحدهما بسهم فأقصده، وطعنه الآخر قبل أن يرميه فأخطأه، ومرّت به الفرس، واستدبره رياحٌ بسهم فقتله، ثمّ نجا حتى أتى قومه، وانصرفوا خائبين مَوْتورين وفي ذلك يقول الكُميت بن زيد الأسديّ، وكانت له أمان من غنيّ:

لأمّين منهم في الفروع وفي الأصل

أنا ابنُ غنيّ والداي كلاهما

هم استودعوا زُهراً بسَيْبِ بنِ سالمٍ
وهم قَتَلُوا شَأْسَ المُلُوكِ وأرغموا

وهم عَدَلُوا بينَ الحُصَيْنِيِّينَ بالنَّبْلِ
أباه زُهيراً بالمَدَلَّةِ والنُّكْلِ

يوم النفرات

لبني عامر على بني عبس

فيه قُتِلَ زُهَيْرُ بنِ جَدِيْمَةَ بنِ رَوَاحَةَ العَبْسِيِّ وكانت هوازن تُؤدِّي إليه إناوة، وهي الخراج. فأنته يوماً عجوز من بني نصر بن معاوية بسمن في نحي واعتذرت إليه وشكت سنين تتابعت على الناس، فذاقه فلم يرض طعمه، فدعسها بقوس في يده غطل في صدرها. فاستلقت على قفاها منكشفة. فتألى خالد بن جعفر، وقال: والله لأجعلن ذراعي في عنقه حتى يُقتل أو أقتل. وكان زهير عدوساً مقداماً لا يُبالي ما أقدم عليه. فاستقل، أي انفرد، من قومه بابنّه وبني أخويه: أسيد وزنياع، يرعى الغيث في عُشَرَاوَاتٍ له وشول. فأناه الحارث بن الشريد، وكانت ثماضر بنت الشريد تحت زهير فلما عرف الحارث مكانه أنذر بني عامر بن صعصعة، رهط خالد بن جعفر. فركب منهم ستة فوارس، فيهم خالد بن جعفر، وصخر بن الشريد، وحندج ابن البكاء، ومعاوية بن عبادة بن عقيل، فارس الحرار - ويقال لمعاوية: الأخيل: وهو جدّ ليلى الأخيلىة - وثلاثة فوارس من سائر بني عامر. فقال أسيد لزهير: أعلمتني راعية غنمي أنها رأّت على رأس الثنية أشباحاً ولا أحسبها إلا خيل بني عامر، فالحق بنا بقومنا. فقال زهير: كل أزب نفور. وكان أسيد أشعر القفا، فذهبت مثلاً. فتحمل أسيد بمن معه وبقي زهير وابناه: ورقاء والحارث وصحبتهم الفوارس. فتمردت بزهير فرسه القعساء، ولحقه خالد ومعاوية الأخيل، فطعن معاوية القعساء، فقلبت زهيراً، وخرّ خالد فوقه، ورفع المعفر عن رأس زهير، وقال: يا آل عامر، أقبلوا جميعاً. فأقبل معاوية، فضرب زهيراً على مفرق رأسه ضربة بلغت الدماغ، وأقبل ورقاء بن زهير فضرب خالداً وعليه درعان فلم يُغن شيئاً، وأجهض ابنا زهير القوم عن زهير واحتملاه وقد اثحتته الضربة، فمنعوه الماء. فقال: أميت أنا عطشاً؟ اسقوني الماء وإن كانت فيه نفسي. فسقوه فمات بعد ثلاثة أيام. فقال في ذلك ورقاء ابن زهير:

فأقبلتُ أسعى كالعجول أبادرُ

يردان نصل السيف والسيف نادر

ويمنعه مني الحديد المظاهر

ويوم زهير لم تلدني تماضر

فماذا الذي ردت عليك البشائر

أعتقتهم فتوالدوا أحرار

جدع الأنوف وأكثر الأوتار

عقل الملوك هجاننا وبكارا

رأيت زهيراً تحت كل كل خالدٍ

إلى بطلين يهضان كلاهما

فشلت يميني يوم أضرب خالداً

فيا ليت أني قبل أيام خالد

لعمري لقد بشرت بي إذ ولدتني

وقال خالد بن جعفر في قتله زهيراً:

بل كيف تكفرتني هوازن بعدما

وقتل ربهم زهيراً بعدما

وجعلت مهر بناتهم ودياتهم

يوم بطن عاقل

لذبيان على عامر

فيه قُتل خالد بن جَعْفَر بطن عاقل. وذلك أن خالدًا قَدِمَ على الأسود بن المُنذر، أخي التُّعمان بن المُنذر، ومع خالد عُرْوَةُ الرَّحَّال بن عُتْبَةَ بن جَعْفَر. فالتقى خالد بن جَعْفَر والحارث بن ظالم بن غَيْظ بن مُرَّة بن عَوْف بن سعد ابن ذُيَّان عند الأسود بن المُنذر. قال: فدعا لهما الأسود بتمر. فجاء به على نِطْعٍ فجعل بين أيديهم. فجعل خالد يقول للحارث بن ظالم: يا حارث، ألا تشكر يدي عندك أن قتلتُ عنك سيّد قومك زُهَيْرًا وتركتك سيدهم؟ قال: سأجزيك شُكْرَ ذلك. فلما خرج الحارث قال الأسود لخالد ما دعاك إلى أن تتحرش بهذا الكلب وأنت ضيفي فقال له خالد: إنما هو عبد من عبّدي لو وجدني نائمًا ما أيقظني. وانصرف خالدٌ إلى قُبَيْتِه، فلامه عُرْوَةُ الرَّحَّال. ثم ناما وقد أشرجت عليهما القُبّة، ومع الحارث تبع له من بني مُحارب يقال له حِرَاش. فلما هدأت العيون أخرج الحارث ناقته، وقال لِحَرَاش: كُن لي بِمَكَان كذا، فإن طلع كوكب الصُّبح ولم آتِك فانظر أي البلاد أحب إليك فأعمد لها. ثم انطلق الحارث حتى أتى قُبّة خالد فهتك شرجها، ثم ولجها، وقال لعُرْوَة: أسكت فلا بأس عليك.

وزعم أبو عُبَيْدَة أنه لم يشعر به حتى أتى خالدًا وهو نائم فقتله، ونادى عُرْوَة عند ذلك: واجوار الملك! فأقبل إليه الناس، وسمع الهتاف الأسود بن المُنذر، وعنده امرأة من بني عامر، يقال لها المتجردة، فشقت جيبها وصرخت. وفي ذلك يقول - عبد الله بن جعدة:

شقت عليك العامرية جيبها
يا حار، لو نبهته لوجدته
واغرورقت عيناى لما أخبرت
فلنقتلن بخالد سروانكم
فإذا رأيتم عارضاً متهللاً
أسفاً وما تنبكي عليك ضللاً
لا طائشاً رعشاً ولا معزلاً
بالجعفري وأسبلت إسبالاً
ولنجعلن للظالمين نكالاً
منا فإنا لا نحاول مالا

يوم رحرحان

لعامر على تميم

قال: وهرب الحارث بن ظالم ونبت به البلاد، فلجأ إلى معبد بن زُرارة، وقد هلك زُرارة، فأجاره. فقالت بنو تميم لمعبد: مالك آويت هذا المشعوم الأُنكد، وأغریت بنا الأسود؟ وخذلوه غير بني دماوية، وبني عبد الله ابن دارم. وفي ذلك يقول لقيط بن زُرارة:

فأما نهشل وبنو فقيم
فإن تعمد طهية في أمور
ويربوع بأسفل ذي طلوح
أسيد والهجوم لها حصاص
وأسلمنا قبائل من تميم
وأما الأثمان: بنو عدي
فلا تنعم بهم فتیان حرب
إذا ذهب رماحهم بزید
فلم يصبر لنا منهم صبور
تجدها ثم ليس لها نصير
وعمرو لا تحل ولا تسير
وأقوام من الجعراء عور
لها عدد إذا حسبوا كثير
وتيم إذا تدبرت الأمور
إذا ما الحي صبحهم نذير
فإن رماح تيم لا تضير

قال: وبلغ الأحوص بن جعفر بن كلاب مكان الحارث بن ظالم عند معبد، فغزى معبداً، فالتقوا برحرحان. فاهزمت بنو تميم وأسر معبد ابن زرارة، أسره عامر والطفيل، ابنا مالك بن جعفر بن كلاب. فوفد لقيط ابن زرارة عليهم في فدائه، فقال لهما: لكما عندي مائتا بعير. فقال: لا يا أبا نهشل، أنت سيد الناس وأحوك معبد سيد مضر، فلا نقبل فيه إلا دية ملك. فأبى أن يزيدهم، وقال لهم: إن أبانا أوصانا أن لا نزيد أحداً في ديتة على مائتي بعير. فقال معبد للقيط: لا تدعني يا لقيط، فوالله لئن تركتني لا تراني بعدها أبداً. قال: صيراً أبا القعقاع، فأين وصاة أئبنا ألا تؤكلوا العرب أنفسكم، ولا تزيدوا بفدائكم على فداء رجل منكم، فتذؤب بكم ذؤبان العرب. ورحل لقيط عن القوم. قال: فمنعوا معبداً الماء وضاروه حتى مات هزالاً. وقيل: أبى معبد أن يطعم شيئاً أو يشرب حتى مات هزالاً. ففي ذلك يقول عامر ابن الطفيل:

قضيـنا الجـون من عبس وكانت

وقال جرير:

منية معبد فينا هزالاً

فـراراً ولم تـلـووا زـفـيف النـعائم

وأـي أخ لم تـسـلموا

وليلة وادي رحرحان فررتم

تركتم أبا القعقاع في الغل مصفداً

وقال:

نـكـحوا بـناتـكم بـغـير مـهـور

وبرحرحان غداة كبل معبد

يوم شعب جبلة

لعامر وعبس على ذبيان وتميم

قال أبو عبيدة: يوم شعب جبلة أعظم أيام العرب، وذلك أنه لما انقضت وقعة رحرحان جمع لقيط بن زرارة لبني عامر وألب عليهم. وبين يوم رحرحان ويوم جبلة سنة كاملة. وكان يوم شعب جبلة قبل الإسلام بأربعين سنة، وهو عام وُلد النبي صلى الله عليه وسلم. وكانت بنو عبس يومئذ في بني عامر حلفاء لهم، فاستعدى لقيط بني ذبيان، لعداوتهم لبني عبس من أجل حرب داحس، فأجابته غطفان كلها غير بني بدر. وتجمعت لهم تميم كلها غير بني سعد، وخرجت معه بنو أسد لحلف كان بينهم وبين غطفان، حتى أتى لقيط الجون الكلبى، وهو ملك هجر، وكان يجي من بها من العرب، فقال له: هل لك في قوم غارين قد ملثوا الأرض نعمةً وشاء فترسل معي ابنيك، فما أصبنا من مال وسبى فلهما، وما أصبنا من دم فلي؟ فأجابته الجون إلى ذلك، وجعل له موعداً رأس الحول. ثم أتى لقيط النعمان بن المنذر فاستنجده وأطعمه في الغنائم، فأجابته. وكان لقيط وجيهاً عند الملوك. فلما كان على قرن الحول من يوم رحرحان اهلت الجيوش إلى لقيط، وأقبل سنان بن أبي حارثة المري في غطفان، وهو والد هرم بن سنان الجواد، وجاءت بنو أسد، وأرسل الجون ابنه معاوية وعمراً، وأرسل النعمان أخاه لأمه حسان ابن وبرة الكلبى. فلما توافوا خرجوا إلى بني عامر، وقد أئذروا بهم وتأهبوا لهم. فقال الأحوص بن جعفر، وهو يومئذ رحا هوازن، لقيس بن زهير: ما ترى؟ فإنك تزعم أنه لم يعرض لك أمران إلا وجدت في أحدهما الفرج. فقال قيس بن زهير: الرأي أن نرتحل بالعيال والأموال حتى ندخل شعب جبلة فنقاتل القوم دونها من وجه واحد، فإنهم داخلون عليك الشعب، وإن لقيطاً رجل فيه طيش فسيفتحم عليك الجبل، فأرى لك أن تأمر الإبل فلا ترعى ولا تستقى وتُعقل، ثم تجعل الذراري وراء ظهورنا، وتأمر الرجال فتأخذ بأذنان الإبل، فإذا دخلوا علينا الشعب حلت الرجالة عقل الإبل، ثم لزمت أذنانها، فإنها تنحدر عليهم وتحن إلى مرعاها ووردها، ولا يرد وجهها شيء، وتخرج الفرسان في إثر الرجالة الذين خلف الإبل فإنها تحطم ما لقيت وتقبل عليهم الخيل، وقد حطموا من عل. قال الأحوص: نعم ما رأيت، فأخذ برأيه. ومع بني عامر يومئذ بنو عبس، وغنى في بني كلاب، وباهلة في بني كعب، والأبناء أبناء صعصعة. وكان رهط المعقر البارقي يومئذ في بني تميم بن عامر، وكانت قبائل بجيلة كلها فيهم غير قسر. قال أبو عبيدة: وأقبل لقيط والملوك ومن معهم، فوجدوا بني عامر قد دخلوا شعب

جَبَلَة، فَتَزَلُّوا عَلَى فَمِ الشَّعْبِ. فَقَالَ لَهُم رَجُلٌ مِنْ بَنِي أَسَدٍ: خَذُوا عَلَيْهِمْ فَمِ الشَّعْبِ حَتَّى يَعْطِشُوا وَيَخْرُجُوا، فَوَاللَّهِ لَيْتَسَاقَطَنَّ عَلَيْكُمْ تَسَاقَطَ الْبَعْرِ مِنْ أَسْتِ الْبَعِيرِ. فَأَتُوا حَتَّى دَخَلُوا الشَّعْبَ عَلَيْهِمْ، وَقَدْ عَقَلُوا الْإِبِلَ وَعَطَّشَوْهَا ثَلَاثَةَ أَخْمَاسٍ، وَذَلِكَ اثْنَتَا عَشْرَةَ لَيْلَةً، وَلَمْ تَطْعَمْ شَيْئًا. فَلَمَّا دَخَلُوا حَلَّوْا عَقْلَهَا، فَأَقْبَلَتْ تَهْوِي. فَسَمِعَ الْقَوْمُ دَوْبَهَا فِي الشَّعْبِ، فَظَنُّوا أَنَّ الشَّعْبَ قَدْ هُدِمَ عَلَيْهِمْ، وَالرَّجَالَةَ فِي إِثْرِهَا آخِذِينَ بِأَذْنَانِهَا، فَدَقَّتْ كُلُّ مَا لَقِيَتْ، وَفِيهَا بَعِيرٌ أَعْمُرٌ يَتْلُوهُ غَلَامٌ أَعْمَسٌ أَخَذَ بِذَنْبِهِ وَهُوَ يَرْتَجِزُ وَيَقُولُ: "أَنَا الْغَلَامُ الْأَعْمَسُ الْخَيْرُ فِي الشَّرِّ وَالشَّرُّ فِي أَكْثَرِهِ" فَاهْتَزَمُوا لَا يُلَوْنُ عَلَى أَحَدٍ. وَقُتِلَ لَقِيطٌ بِنُ زُرَّارَةَ، وَأَسْرَ حَاجِبُ بْنُ زُرَّارَةَ، أَسْرَهُ ذُو الرُّقَيْبِيَّةِ. وَأَسْرَ سِنَانُ بْنُ حَارِثَةَ الْمُرِّي، أَسْرَهُ عُرْوَةُ الرَّحَالِ، فَجَزَّ نَاصِيَتَهُ وَأَطْلَقَهُ، فَلَمْ تَشْنِهِ. وَأَسْرَ عَمْرُو بْنُ أَبِي عَمْرُو بْنِ عُدْسٍ، أَسْرَهُ قَيْسُ بْنُ الْمُتَنَفِّقِ، فَجَزَّ نَاصِيَتَهُ وَحَلَّاهُ طَمَعًا فِي الْمُكَافَأَةِ، فَلَمْ يَفْعَلْ. وَقُتِلَ مَعَاوِيَةُ بْنُ الْجَوْنِ، وَمُنْقَذُ بْنُ طَرِيفِ الْأَسَدِيِّ، وَمَالِكُ بْنُ رَبِيعِ بْنِ جَنْدَلِ بْنِ نَهْشَلٍ. فَقَالَ جَرِيرٌ:

وعمرو بن عمرو إذ دعا يا لدارم

وبالحزن أصبحتم عبيد اللهازم

كأن عليه حلة أرجوان

فحكّم ذا الرقبيبة وهو عانى

كأنك لم تشهد لقيطاً وحاجباً

ويوم الصفا كنتم عبيداً لعامر

يعنى بالحزن يوم الوقيط. وقال جرير أيضاً في بني دارم:

ويوم الشعب قد تركوا لقيطاً

وكبل حاجب بشمام حولاً

وقالت دختنوس بنت لقيط تراثي لقيطاً:

فرّت بنو أسد فرا

عن خير خندف كلها

وأتمها حسباً إذا

وقال المعقر البارقي:

ر الطير عن أربابها

من كهلها وشبابها

نصت إلى أحسابها

مع الصبح أم زالت قبيل الأباعر

فليس عليها يوم ذلك قادر

كما قرّ عيناً بالإياب المسافر

عليها إذا أمست من الله ناظر

وحسان في جمع الرباب مكائر

وجاشت تميم كالفحول تخاطر

جراد هفا في هبوة منطائر

رجال بأطناب البيوت مساعر

لنا مسمعات بالدفوف وزامر

صبوح لدينا مطلع الشمس حازر

أمن آل شعناء الحمول البواكر

وحلت سليمي في هضاب وأيكة

وألقت عصاها واستقرت بها النوى

وصبحها أملاكها بكتيبة

معاوية بن الجون ذبيان حوله

وقد زحفت دودان تبغي لثأرها

وقد جمعوا جمعاً كأن زهاءه

فمروا بأطناب البيوت فردهم

فباتوا لنا ضيفاً وبتنا بنعمة

فلم نقرهم شيئاً ولكن قرأهم

كَأركانِ سَلْمَى سِيرُها مُتواتر
 وَأَعينَهُمُ تحتِ الحَبِيبِ خَوازِر
 إِذا غُصَّ بالرِّيقِ القليلِ الحَنانِجِر
 إِذا دُعيتِ بالسَّفحِ عَيْسُ وَعامِر
 فلم يَنجِ في الناجِينِ مِنْهُمُ مُفاخر
 كما انقَضَ بازِ أقتَمُ الرِّيشِ كاسِر
 مِسحَ كسِرِ حانِ القَصِيمَةِ ضامِر
 إِذا اغتَمَسَتِ في المِماءِ فَتخاءِ كاسِرِ
 كما مَهَدَتِ لِلبَعْلِ حَسَناءُ عاقِرِ
 مُحرَبَةٌ قد أَحْرَدتِها الضرائِر

وَصَبَّحَهُمُ عَدِ الشَّرُوقِ كَتائِبِ
 كَأَنَّ نَعامَ الدَّوِّ باضَ عَليَهُمُ
 مِنَ الضارِبِينَ الهامِ يَمشونَ مَقَدِّمًا
 أَضنَّ سِراةَ القومِ أَنَّ لَن يُقَاتلوا
 ضَرَبنا حَبِيبَكَ البَيْضُ يا غَمْرَ لَجَّة
 هوى زَهْدَمُ تحتِ العَجاجِ لِحاجِبِ
 يُفَرِّجُ عَنّا كُلَّ ثَغْرِ نِخافِهِ
 وَكُلُّ طَمُوحِ في العِنانِ كَأَنَّها
 لَها ناهِضٌ في الوَكْرِ قد مَهَدتِ لَه
 تخافُ نِساءً يَبْتَرِزنَ حَليَها

استعار هذا البيت فألقت عصاها من المعقر البارقي، إذ كان مثلاً في الناس، راشدٌ بن عبد ربّه السلمي، وكان رسول الله صلى الله عليه وسلم قد استعمل أبا سفيان بن حرب على نجران فولاه الصلاة والحرب، ووجه راشد ابن عبد ربّه السلمي أميراً على المظالم والقضاء، فقال راشد بن عبد ربّه:

ورَدَّتِ عَلَيهِ تَبتغيهِ تَماضِرُ
 وللشَّيبِ عَن بَعْضِ الغَوايِةِ زاجِرِ
 عَن اللّهُو لَمّا أبيضَ مَني الغَدائِرِ
 بِمَعَرَضِ ذِي الأجامِ عَيْسُ بِواكِرِ
 وَحَلَّتْ فِلاقَها سَلِيمُ وَعامِرِ
 وَبِينَ قُرى بَصرى وَنَجْرانِ كافرِ
 كَما قَرَّ عيناً بِالإيابِ المُسافرِ

صحا القلب عن سلمى وأقصر شأوه
 وحلمه شيبُ القذال عن الصبا
 فأقصر جهلي اليومَ وارتد باطلا
 على أنه قد هاجه بعد صحوه
 ولما دنت من جانب الغوط أخصبت
 وخبرها الركب أن ليس بينها
 فألقت عصاها واستقرت بها النوى

فاستعار هذا البيت الأخير من المعقر البارقي، ولا أحسبه استجاز ذلك إلا لاستعمال العامة له وتمثلهم به.

يوم مقتل الحارث بن ظالم

بالحرية
 قال أبو عبيدة: لما قتل الحارث بن ظالم خالد بن جعفر الكلابي أتى صديقاً له من كندة، فالتفت عليه، فطلبه الملك، فخفي ذكره. ثم شخص من عند الكندي، وأضرته البلاد حتى استجار بزياد، أحد بني عجل بن لجيم، فقام بنو ذهل بن ثعلبة وبنو عمرو بن شيبان فقالوا لعجل: أخرجوا هذا الرجل من بين أظهركم فإنه لا طاقة لنا بالشهباء ودوسر - وهما كتيبتان للأسود بن المنذر - ولا بمحاربة الملك. فأبت ذلك عليهم عجل. فلما رأى ذلك الحارث ابن ظالم كره أن يقع منهم فتنة بسببه، فأرتحل من بني عجل إلى جبلي طيء، فأجاروه، فقال في ذلك:

على ناصرٍ من طيءٍ غير خاذل

لعمري لقد حلّ بي اليومَ ناقتي

فأصبحتُ جاراً للمجرّة فيهم

على باذخ يعلو يد المتطاول

إذا أجا لفت عليّ شعابها

وسلّمي فأني أنتم من تناولي

فمكث عندهم حيناً ثم إنَّ الأسود بن المنذر لما أعجزه أمره أرسل إلى حارات كُنَّ للحارث بن ظالم، فاستاقهنَّ وأموالهن. فبلغ ذلك الحارث ابنَ ظالم، فخرج من الجبلين، فاندسَّ في الناس حتى علم مكان جاراته ومرعى إبلهن، فأتاهنَّ فاستنقذهنَّ، واستاق إبلهن فألحقهنَّ بقومهن، واندس في بلاد غطفان، حتى أتى سنان بن أبي حارثة المري، وهو أبو هرَم الذي كان يمدحه زهير. وكان الأسود بن المنذر قد أسترضع ابنه شرحبيل عند سلّمي امرأة سنان، وهي من بني غنم بن دودان بن أسد، فكانت لا تأمن على ابن الملك أحداً، فاستعار الحارث بن ظالم سرج سنان، وهو في ناحية الشربة لا يعلم سنان ما يُريد، وأتى بالسرج امرأة سنان وقال لها: يقول بعلك: ابعتي بابن الملك مع الحارث، فإني أريد أن أستأمن له الملك، وهذا سرجه آية ذلك. قال: فزيتته سلّمي ودفعته إليه. فأتى به ناحية من الشربة فقتله، وقال في ذلك:

أخصي حمارٍ بات يكدم نجمةً

أتؤكل جاراتي وجارك سالمٌ

علوتُ بذني الحيات مفرق رأسه

ولا يركب المكروه إلا الأكارم

فتكتُ به كما فتكتُ بخالد

وكان سلاحي تجتويه الجماجم

بدأتُ بذاك وانتثيتُ بهذه

وثالثة تبيضُ منها المقادم

قال: وهرب الحارث من فوره ذلك، وهرب سنان بن أبي حارثة. فلما بلغ الأسود قتل ابنه شرحبيل، غزا بني ذبيان، فقتل وسبى وأخذ الأموال، وأغار على بني دودان، رهط سلّمي التي كان شرحبيل في حجرها، فقتلهم وسباهم، بسط أريك. قال: فوجد بعد ذلك نعلي شرحبيل في ناحية الشربة عند بني مُحارب بن خصفة، فغزاهم الملك، ثم أسرهم، ثم أحصى الصفا، وقال: إني أحذيتكم نعلاً، فأمشاهم على ذلك الصفا، فتساقطت أقدامهم. ثم إن سيار بن عمرو بن جابر الفزاري احتمل للأسود دية ابنه ألف بعير، وهي دية الملوك، ورهنه بها قوسه فوفاه بها، فقال في ذلك:

ونحن رهنا القوسُ ثمتَ فوديت

بألفٍ على ظهر الفزاري أقرعاً

بعشر مئين للملوك وفي بها

ليحمد سيار بن عمرو فأسرعاً

وكان هذا قبل قوس حاجب. وقال في ذلك أيضاً:

وهل وجدتم حاملاً كحالمي

إذ رهن القوسَ بألفٍ كامل

بديّة ابن الملك الحلال

فافتكها من قبل عام قابل

سيار الموفى بها ذو النائل وهرب الحارث فلاحق بمعبد بن زُرارة، فاستجار به فأجاره، وكان من سببه وقعة رَحْرَحان التي تقدم ذكرها. ثم هرب الحارث حتى لحق بمكة وقريش، لأنه يقال إن مرة بن عوف بن سعد بن ذبيان، إنما هو مرة بن عوف بن لؤي ابن غالب، فتوسّل إليهم بهذه القرابة، وقال في ذلك:

إذا فارقتُ ثعلبة بن سعد

وإخوتهم نسبت إلى لؤي

إلى نسب كريم غير دغل

وحي من أكارم كل حي

فإم يك منهم أصلي فمنهم

قرايين الإله بني قصي

فقالوا: هذه رحم كرشاء، إذ استغنيتم عنها لن يتركم. قال: فشخص الحارث عنهم غضبان، وقال في ذلك:

ألا لستم منا ولا نحن منكم

برئنا إليكم من لؤي بن غالب

غَدَوْنَا عَلَى نَشْرِ الْحِجَازِ وَأَنْتُمْ

بِمَنْشَعِبِ الْبَطْحَاءِ بَيْنِ الْأَخَاشِبِ

وتوجّه الحارث بن ظالم إلى الشام فلاحق بيزيد بن عمرو الغساني، فأجاره وأكرمه. وكان ليزيد ناقة مُحَمَّاة، في عنقها مُدِيَّة وزناد وصرّة ملح، وإنما كان يمتحن بها رعيته لينظر من يجترئ عليه. فوَحِمَت امرأة الحارث فاشتبهت شَحْمًا في وَحَمِهَا، فانطلق الحارث إلى ناقة الملك فانتحرها، وأتاها بشَحْمِهَا، وفُقدت الناقة، فأرسل الملك إلى الخِمْسِ التَّغْلِي، وكان كاهنًا، فسأله عن الناقة، فأخبره أن الحارث صاحبها. فهِمَّ الملك به، ثم تدمم من ذلك. وأوجس الحارث في نفسه شرًّا، فأَتَى الخِمْسِ التَّغْلِي فقتله. فلما فعل ذلك دعا به الملك فأمر بقتله. قال: أيها الملك، إنك قد أجزتني فلا تُعَدِرَنَّ بي. فقال الملك: لا ضَيْرَ إن غدرتُ بك مرة لقد غدرتَ بي مرارًا. وأمر ابن الخِمْسِ. فقتله وأخذ ابن الخِمْسِ سيفَ الحارث فأتى به عكاظ في الأشهر الحرم، فأراه قيس بن زهير العبسي، فضربه به قيس فقتله، وقال يرثي الحارث بن ظالم:

أَبْرَأُ وَأَوْفَى مِنْكَ حَارِبِ بْنِ ظَالِمِ

وَأَضْرَبَ فِي كَابِ مِنَ النَّقْعِ قَاتِمِ

وَمَا قَصَرْتُ مِنْ حَاضِنِ سِتْرِ بَيْتِهَا

أَعَزُّ وَأَحْمَى عِنْدَ جَارِ وَدِمَّةِ

حرب داحس والغبراء

وهي من حروب قيس قال أبو عبيدة: حرب داحس والغبراء بين عيس وذبيان، ابني بغيض بن ريث بن غطفان. وكان السبب الذي هاجها أن قيس بن زهير وحمل بن بدر تراهنا على داحس والغبراء، أيهما يكون له السبق، وكان داحس فحلاً لقيس ابن زهير، والغبراء حجراً، لحمل بن بدر، وتواضعا الرهان على مائة بعير، وجعلاً مُنتَهَى الغاية مائة غلوة، والإضمار أربعين ليلة، ثم قادوهما إلى رأس الميدان بعد أن أضمرهما أربعين ليلة، وفي طرف الغاية شعاع كثيرة. فأكمن حمل بن بدر في تلك الشعاب فتيانا على طريق الفرسين، وأمرهم إن جاء داحس سابقاً أن يردّوا وجهه عن الغاية. قال: فأرسلوهما فأحضرا، فلما احضرا خرجت الأنتى من الفحل. فقال حمل بن بدر: سبقك يا قيس. قال قيس: رويدا يعدّوان الجدد إلى الوعث ترشح أعطاف الفحل. قال: فلما أوغلا في الجدد وخرجوا إلى الوعث برز داحس عن الغبراء فقال قيس: جرّي المذكيات غلاء، فذهبت مثلاً. فلما شارف داحس الغاية ودنا من الفتيّة، وثبوا في وجه داحس فردّوه عن الغاية. ففي ذلك يقول قيس بن زهير:

وَإِخْوَتِهِ عَلَى ذَاتِ الْإِصَادِ

وَرَدُّوا دُونَ غَايَتِهِ جَوَادِي

وَمَا لَأَقِيْتُ مِنْ حَمَلِ بْنِ بَدْرِ

هُمُ فَخَرُوا عَلَيَّ بِغَيْرِ فَخْرِ

ثارت الحرب بين عيس وذبيان، ابني بغيض، فبقيت أربعين سنة لم تُنتج لهم ناقة ولا فرس، لاشتغالهم بالحرب. فبعث حذيفة بن بدر ابنه مالكا إلى قيس بن زهير يطلب منه حق السبى. فقال قيس: كلا، لأمطنك به، ثم أخذ الرُمح فطعنه به فذق صلبه، ورجعت فرسه عارية فأجتمع الناس فاحتملوا دية مالك مائة عُشْرَاء. وزعموا أن الربيع بن زياد العبسي حملها وحده، فقبضها حذيفة وسكن الناس. ثم إن مالك بن زهير نزل اللقطة من أرض الشربة، فأخبر حذيفة بمكانه، فعدا عليه فقتله. ففي ذلك يقول عنترة الفوارس:

عَقِيرَةٌ قَوْمِ أَنْ جَرَى فَرَسَانِ

وَلِيْتَهُمَا لَمْ يُرْسَلَا لِرِهَانِ

فَلَلَّهَ عَيْنَا مَنْ رَأَى مِثْلَ مَالِكِ

فَلِيْتَهُمَا لَمْ يَجْرِيَا قَيْدَ غَلْوَةٍ

فقال بنو عيس: مالك بن زهير بمالك بن حذيفة، وردّوا علينا مالنا. فأبى حذيفة أن يردّ شيئاً. وكان الربيع بن زياد مجاوراً لبني فزارة، ولم يكن في العرب مثله ومثل إخوته، وكان يقال لهم الكملة، وكان مُشاحناً لقيس بن زهير من سبب درع لقيس غلبه عليها الربيع بن زياد، فاطرد قيس لبونا لبني زياد فأتى بها مكة، فعاوض بها عبد الله بن جدعان بسلاح، وفي ذلك يقول قيس ابن زهير:

بِمَا لَأَقْتُ لَبُونَ بَنِي زِيَادِ

أَلَمْ يَبْلُغْكَ وَالْأَنْبَاءُ تَنْمِي

وَمَحَبَسُهَا عَلَى الْقُرَشِيِّ تَشْرِي

وَكَنتُ إِذَا بُلِّيتُ بِخَصْمِ سَوْءٍ

بَأْدِرَاعِ وَأَسِيَّافِ حِدَادِ

دَلَفْتُ لَهُ بِدَاهِيَةِ نَادِ

ولما قُتِلَ مالك بن زُهَيرِ قامتِ بنو فَرَارةِ يسألون ويقولون: مَا فعل حِمَارِكم؟ قالوا: صَدَنَاهُ. فقال الربيع: ما هذا الوَحْيُ؟ قالوا: قتلنا مالك بن زهير. قال بتسما فعلتم بقومكم، قَبَلْتُمْ الدِّيَةَ، ثم رَضِيْتُمْ بِهَا وَعَدَرْتُمْ. قالوا: لولا أنك حارنا لَقَتَلْنَاكَ، وكانت حُفْرَةُ الجارِ ثلاثاً. فقالوا له: بعد ثلاث ليال: اخرج عنا. فخرج وأتبعوه فلم يَلْحَقُوهُ، حتى لَحِقَ بقومه. وأتاه قيسُ بن زهير فعاقده. وفي ذلك يقول الربيع:

فَإِنْ تَكُ حَرَبُكُمْ أَمَسْتُ عَوَانَا

وَلَكِنْ وُلِدْتُ سَوْدَةَ أَرْتُوها

فَإِنِّي غَيْرُ خَاذِلِكُمْ وَلَكِنْ

فَإِنِّي لَمْ أَكُنْ مِمَّنْ جَنَاهَا

وَحَشُونَا نَارَهَا لِمَنْ اصْطَلَاهَا

سَأَسْعَى الْآنَ إِذْ بَلَغْتَ مَدَاهَا

ثم نَهَضَتْ بنو عَبَسَ وحلفاؤهم بنو عبد الله بن غطفان إلى بني فَرَارةِ وذُبْيَانَ، ورئيسهم الربيع بن زياد، ورئيس بني فَرَارةِ حُذَيْفَةُ بن بدر.

يوم المريقب لبني عيس على فزارة

فالتقوا بذي المَرِيقِبِ: من أرض الشربة؟ فاقتتلوا، فكانت الشوكة في بني فَرَارةِ، قُتِلَ منهم عوف بن زيد بن عمرو بن أبي الحصين، أحد بني عدي بن فَرَارةِ، وضمضم أبو الحصين المُرِّي، قتله عنترة الفوارس، ونفر كثير ممن لا يعرف أسماؤهم. فبلغ عنترة أن حُصِينَا وَهَرِمًا، ابني ضَمْضَمِ، يشتمانه ويُواعدانه فقال في قصيدته التي أولها:

يَا دَارَ عِلْبَةَ بِالْجَوَاءِ تَكَلَّمِي

وَلَقَدْ خَشَيْتُ بَأْنَ أَمَوْتَ وَلَمْ تَدْرِي

الشَاتِمِي عَرَضِي وَلَمْ أَشْتَمِهَا

إِنْ يَفْعَلَا فَاقْدِ تَرَكْتَ أَبَاهَا

لَمَا رَأَيْتِي قَدْ نَزَلْتُ أُرِيدُهُ

وَعِمِّي صَبَاحًا دَارَ عِبْلَةَ وَأَسْلَمِي

لِلْحَرْبِ دَائِرَةٌ عَلَى ابْنِي ضَمْضَمِ

وَالنَّادِرِينَ إِذَا لَمْ أَلْقِهُمَا دَمِي

جَزَرَ السَّبَاعِ وَكُلَّ نَسَرَ قَشْعَمِ

أَبْدَى نَوَاجِذَهُ لَغَيْرِ تَبَسَمِ

وفي هذه الوقعة يقول عنترة الفوارس:

فَلتَعَلَّمْنَ إِذَا التَّقَتْ فُرْسَانُنَا

يَوْمَ المَرِيقِبِ أَنْ ظَنَنْكَ أَحْمَقُ

يوم ذي حسي لذبيان على عيس

ثم إن ذُبْيَانَ تجمعت لِمَا أصابت بنو عَبَسَ منهم يوم المَرِيقِبِ: فزارة، ابن ذُبْيَانَ، ومرة بن عوف بن سعد بن ذُبْيَانَ، وأحلافهم، فترلوا فتوافوا بذي حُسا، وهو وادي الصفا من أرض الشربة، وبينها وبين قطن ثلاث ليال، وبينها وبين اليعمرية ليلة. فهربت بنو عَبرِ، وخافت أن لا تقوم بجماعة بني ذُبْيَانَ، واتبعوهم حتى لحقوهم، فقالوا: التَّفَانِي أَوْ تُقِيدُونَا. فأشار قيسُ ابن زُهَيرِ على الربيع بن زياد ألا يُناجزوهم وأن يُعطوهم رهائن من أبنائهم حتى ينظروا في أمرهم. ففرضوا أن تكون رهنهم عند سُبَيْعِ بن عمرو، أحد بني ثعلبة ابن سعد بن ذُبْيَانَ. فدفعوا إليه ثمانية من الصبيان وانصرفوا، وتكاف الناس. وكان رأي الربيع مُناجزَتهم. فصرفه قيس عن ذلك. فقال الربيع:

أَقُولُ وَلَمْ أَمْلِكْ لَقَيْسِ نَصِيحَةً

أَرَى مَا يَرَى وَاللَّهُ بِالْغَيْبِ أَعْلَمُ

أُتْبِقِي عَلَى ذُبْيَانَ فِي قَتْلِ مَالِك

فَقَدْ حَسَّ جَانِي الْحَرْبِ نَاراً تَضْرَمُ

فمكثت رهنهم عند سبيع بن عمرو حتى حضرته الوفاة، فقال لابنه مالك ابن سبيع: إن عندك مكرمة لا تبيد، لا ضير إن أنت حفظت هؤلاء الأغيلمة، فكأنتي بك لو مت أتاك خالك حذيفة بن بدر فصبر لك عينيه وقال: هلك سيدنا، ثم خدعك عنهم حتى تدفعهم إليه فيقتلهم، فلا تشرف بعدها أبداً، فإن خفت ذلك فاذهب بهم إلى قومهم. فلما هلك شبيب أطاف حذيفة بابنه مالك وخدعه حتى دفعهم إليه. فأتى بهم اليعمرية، فجعل يبرز كل يوم غلاماً فينصبه غرضاً، ويقول: ناد أباك. فينادي أباه حتى يقتله.

يوم اليعمرية لعبس على ذبيان

فلما بلغ ذلك من فعل حذيفة بني عبس أتوهم باليعمرية فلقوهم - بالحرّة، حرّة اليعمرية - فقتلوا منهم اثني عشر رجلاً، منهم: مالك بن سبيع الذي رمى بالعلمة إلى حذيفة، وأخوه يزيد بن سبيع، وعامر بن لؤذان، والحارث بن زيد، وهرم بن ضمضم، وأخو حصين. ويقال ليوم اليعمرية يوم نفر، لأنّ بينهما أقل من نصف يوم.

يوم الهبأة لعبس على ذبيان

ثم اجتمعوا فالتقوا في يوم قائف إلى جنب جفر الهبأة، واقتتلوا من بكرة حتى أنتصف النهار، وحجز الحرّ بينهم، وكان حذيفة بن بدر يحرق فخذه الركن فقال قيس بن زهير: يا بني عبس، إن حذيفة غداً إذا احتدمت الوديقة مستنقع في جفر الهبأة، فعليكم بها. فخرجوا حتى وقعوا على أثر صارف، فرس حذيفة، والحنفاء، فرس حمل بن بدر. فقال قيس بن زهير: هذا أثر الحنفاء وصارف، فقفوا أثرهما حتى توافوا مع الظهيرة على الهبأة. فبصر بهم حمل بن بدر، فقال لهم: من أبعض الناس إليكم أن يقف على رؤوسكم؟ قالوا: قيس ابن زهير والربيع بن زياد، فقال: هذا قيس بن زهير قد أتاكم. فلم ينقض كلامه حتى وقف قيس وأصحابه على جفر الهبأة، وقيس يقول: لبيكم لبيكم - يعني إجابة الصبية الذين كانوا ينادونهم إذ يقتلون - وفي الجفر حذيفة وحمل، ابنا بدر، ومالك بن بدر، وورقاء بن هلال، من بني تعلبة بن سعد، وحسن بن وهب. فوقف عليهم شداد بن معاوية العبسيّ؛ وهو فارس جروة، وجروة فرسه، ولها يقول:

وَمَنْ يَكُ سَائِلاً عَنِّي فَإِنِّي

وَجَرَوَةٌ كَالشَّجَا تَحْتَ الْوَرِيدِ

أَقْوَتَهَا بِقَوْتِي إِنْ شَتَوْنَا

وَأَلْحَقَهَا رِدَائِي فِي الْجَلِيدِ

فحال بينهم وبين خيلهم. ثم توافت فرسان بني عبس، فقال حمل: ناشدتك الله والرحم يا قيس. فقال: لبيكم لبيكم. فعرف حذيفة أنه لن يدعهم، فأنتهر حملاً وقال: إياك والمأثور من الكلام. فذهبت مثلاً. وقال لقيس: لئن قتلتني لا تصلح غطفان أبعداها. فقال قيس: أبعداها الله ولا أصلحها. وجاءه قرواش معبلة، فقصم صلبه. وأبتدره الحارث بن زهير وعمرو بن الأصلع، فضرباه بسيفيهما حتى ذففا عليه. وقتل الربيع بن زياد حمل بن بدر. فقال قيس ابن زهير يرثيه:

تَعَلَّمَ أَنْ خَيْرَ النَّاسِ مَيِّتٌ

عَلَى جَفْرِ الْهَبَاءِ مَا يَرِيمُ

وَلَوْلَا ظَلْمُهُ مَا زَلَّتْ أَبْكَي

عَلَيْهِ الدَّهْرُ مَا طَلَعَ النُّجُومُ

وَلَكِنْ الْفَتَى حَمَلَ بِنَ بَدْرِ

بَغَى وَالْبَغْيُ مَرَّتَعَهُ وَخِيمُ

أَضْنَ الْحَلْمَ دَلَّ عَلَيَّ قَوْمِي

وَقَدْ يُسْتَضَعْفُ الرَّجُلُ الْحَلِيمُ

وَمَارَسَتْ الرُّجَالَ وَمَارَسُونِي

فَمُعَوَّجٌ عَلَيَّ وَمُسْتَقِيمُ

ومثّلوا بحذيفة بن بدر كما مثل هو بالعلّمة، فقتلوا مذكّره وجعلوها في فيه، وجعلوا لسانه في استه. وفيه يقول قائلهم:

صحيفته إن عاد للظلم ظالمٌ
وتُعرف إذ ما فضّ عنها الخواتم

فإنّ قتيلاً بالهباة في استه
متى تقرّ أواها تهديكم عن ضلالكم

وقال في ذلك عقيل بن علفمة المرّي:

فهلا على جفر الهباة أوقداً
تُنادي بني بدر وعاراً مُخلداً
بأير على جفر الهباة أسودا

ويوقد عوفٌ للعشيرة ناره
فإنّ على جفر الهباة هامة
وإنّ أبا ورد حذيفة مُتقرّ

وقال الربيع بن قعب:

لبنى فزارة خزبة لا تخلق
شنعاء من صُحف المخازي تبرق

خلق المخازي غير أنّ بذي حُسا
تبيان ذلك أنّ في است أبيهم

وقال عمرو بن الأسلع:

والله يشهد والإنسان والبلد
على الهباة قتلاً ماله قود
والمشرفية في أيماننا تقد
خذها إليك فأنت السيد الصمد

إنّ السماء وإنّ الأرض شاهدة
أنّي جزيتُ بني بدر بسعيهم
لما التقينا على أرجاء جمتها
علوته بحسام ثم قلتُ له

فلما أصيب أهل الهباة واستعظمت غطفان قتل حذيفة تجمعوا، وعرفت بنو عيس أن ليس لهم مقام بأرض غطفان، فخرجوا إلى اليمامة فقتلوا بأخوالهم بني حنيفة، ثم رحلوا عنهم فقتلوا ببني سعد بن زيد مناة.

يوم الفروق

ثم إنّ بني سعد غدروا لجوارهم، فأتوا معاوية بن الجون فاستجاشوه عليهم وأرادوا أكلهم. فبلغ ذلك بني عيس، ففروا ليلاً وقدموا طعنهم، ووقف فرسانهم بموضع يقال له الفروق. وأغارت بنو سعد ومن معهم من جنود الملك على محلّتهم، فلم يجدوا إلا مواقد النيران، فاتبعوهم حتى أتوا الفروق، فإذا بالخييل والفرسان، وقد توارت الطعن، فانصرفوا عنهم. ومضى بنو عيس فقتلوا ببني ضبة فأقاموا فيهم وكان بنو جديمة من بني عيس يُسمون بني رواحة، وبنو بدر من فرارة يُسمون بني سودة. ثم رجعوا إلى قومهم فصالحوهم، وكان أول من سعى في الحاملة حرملة بن الأشعر بن صرمة بن مرة، فمات، فسعى فيها هاشمُ ابن حرملة ابنه، وله يقول الشاعر:

يوم الهباتين ويوم اليعمله
يقتل ذا الذنب ومن لا ذنب له

أحيا أباه هاشمُ بن حرملة
ترى الملوك حوله مُرعبله

يوم قطن

فلما توافوا للصُّلح وقتت بنو عَبَسَ بَقَطْن، وأقبل حُصَيْن بن ضَمُضَم، فلقي تِيحَان. أحد بني مِخْزُوم بن مَالِك. فقتله بأبيه ضَمُضَم، وكان عنترة بن شداد قتله بذئ المريقب. فأشارت بنو عَبَس وحلفاؤهم بنو عبد الله بن غطفان وقالوا: لا نصلحك ما بل البحر صوفة، وقد غدرتم بنا غير مرة، وتناهض القوم عَبَس وذُبيان، فالتقوا بَقَطْن، فقتل يومئذ عمرو بن الأسلع عيينة، ثم سَفرت السفراء بينهم، وأتى خارجة بن سنان أبا تِيحَان بابنه فدفعه إليه، فقال: في هذا وفاء من ابنك. فأخذه فكان عنده أياماً. ثم حمل خارجة لأبي تِيحَان مائة بعير قادهما إليه واصطلحوا وتعاقدوا.

يوم غدِير قَلْهَى

قال أبو عُبَيْدَةَ: فاصطلح الحِيَان إلَّا بني ثَعْلَبَةَ بن سَعْد بن ذُبيان، فإنهم أبوا ذلك، وقالوا: لا نرضى حتى يُودوا قَتْلَانَا أو يُهدر دُمٌّ مَن قَتَلَهَا. فخرجوا من قَطْن حتى وَردوا غدِير قَلْهَى فسَبَقَهُم بنو عَبَسَ إلى الماء فَمَنَعَهُم حتى كادوا يموتون عطشاً ودوايهم، فاصلح بينهم عوف ومَعْقِل، ابنا سُبَيْع، من بني ثَعْلَبَةَ، وإياهما يعني زُهَيْر بقوله:

تَفَانُوا وَدَقُّوا بَيْنَهُم عِطْرَ مَنْشَمٍ

تَدَارَكْتُمَا عَبَسًا وَذُبيَانَ بَعْدَمَا

فوردوا حرباً واخرجوا عنه سلماً.

تم حرب داحس والغبراء.

يوم الرِّقْمِ لِعُطْفَانِ عَلِيِّ بَنِي عَامِرٍ

غَزَت بنو عَامِر فَأغاروا على بلاد عُطْفَانِ بِالرِّقْمِ -وهو ماء لبني مُرَّة- وعلى بني عَامِر عَامِر بن الطُّفَيْل -ويقال يزيد بن الصَّعْق- فركب عُبَيْدَةَ بن حِصْنِ فِي بَنِي فِرَارَةَ، ويزيد بن سِنَان فِي بَنِي مُرَّة، ويقال الحارث بن عَوْف، فانهزمت بنو عَامِر، وجعل يقاتل عَامِر بن الطُّفَيْل ويقول: "يَا نَفْسُ إِيَّا تَقْتَلِي تَمُوتِي" فزعمت بنو عُطْفَانِ أُنْهَم أَصَابُوا من بني عَامِر يَوْمَئِذٍ أَرْبَعَةً وَثَمَانِينَ رَجُلًا، فدفعوهم إلى أهل بيت من أشجع، كانت بنو عَامِر قد أصابوا فِيهِمْ، فقتلوهم أجمعين. وانهزم الحَكَم بن الطُّفَيْل فِي نَفَرٍ من أَصْحَابِهِ، فِيهِمْ جِرَابُ بن كَعْب، حتى انتهوا إلى ماء يقال له المَرَوْرَاءُ، فقطع العطشُ أَعْنَاقَهُمْ فماتوا، وخنق نفسه الحَكَم بن الطُّفَيْل تحت شجرة مخافة المثلة. وقال فِي ذَلِكَ عُرْوَةَ بن الوَرْد:

وَمَقْتَلَهُمْ تَحْتَ الوَعَى كَانَ أَجْدَرًا

عَجِبْتَ لَهُمْ لَمْ يَخْنُقُوا نَفْسَهُمْ

يوم النِّتَاءِ لِعَبَسِ عَلِيِّ بَنِي عَامِرٍ

خَرَجْتُ بنو عَامِر تُرِيدُ أَنْ تَدْرِكَ بَنَاهَا يَوْمَ الرِّقْمِ، فجمعوا على بني عَبَسَ بِالنِّتَاءِ وقد أُنْذِرُوا بِهِمْ، فالتقوا، وعلى بني عَامِرِ عَامِرُ بن الطُّفَيْل، وعلى بني عَبَسِ الرِّبِيعُ بن زِيَاد، فاقتتلوا قتالاً شديداً. فانهزمت بنو عَامِرِ وَقُتِلَ مِنْهُمْ صَفْوَانُ بن مُرَّة، قتله الأحنفُ بن مَالِك، وهشيلُ بن عُبَيْدَةَ بن جَعْفَرٍ، قتله أبو زُعْبَةَ بن حَارِثٍ: وَعَبْدُ اللَّهِ بن أَنَسِ بن خَالِدٍ. وَطَعَنَ ضَبِيعَةُ بن الحَارِثِ عَامِرَ بن الطُّفَيْلِ فلم يضره، ونجا عَامِرُ، وهزمت بنو عَامِرِ هَزِيمَةَ قَبِيحَةَ. فقال خِرَاشَةُ بن عمرو العَبْسِيُّ:

مِيَاهَا تَحَامَتَهَا تَمِيمٌ وَعَامِرُ

وَسَارُوا عَلَى أَظْمَانِهِمْ وَتَوَاعَدُوا

إِلَى الْمُنْحَنَى مِنْ ذِي الأَرَاكَةِ حَاضِرِ

كَأَنَّ لَمْ يَكُنْ بَيْنَ الذُّنَابِ وَوِاسِطِ

أَنْتَسَى سَعَادَ اليَوْمِ أَمْ أَنْتَ ذَاكِرِ

أَلَا أَبْلَغَا عَنِّي خَلِيلِي عَامِرًا

وَرُمْتَ أُمُورًا لَيْسَ فِيهَا مَصَادِرِ

وَصَدَّتْكَ أَطْرَافُ الرَّمَّاحِ عَنِ الهَوَى

فَلله عينا عامرٍ مَنْ تُغادر
وَنَجّاك وثأبُ الجَرَاميز ضامر
فلا وَالت نفس عليك تحاذر

وِغادرت هِزَانَ الرَّئيس وَنَهشلاً
وَأسلمتَ عبدَ الله لما عرفتهم
قَدَفَتَهُمْ في الموتِ ثم خَدَلتَهُم

وقال أبو عبيدة: إن عامر بن الطفيل هو الذي طعن ضبيعة بن الحارث، ثم نجا من طعنته، وقال في ذلك:

وَجَدَّكَ لم أعقدُ عليك التَّمائماً

فإن تَنجُ منها يا ضبيع فإنني

يوم شواخط لبني محارب على بني عامر

غَزت سريةً من بني عامر بن صعصعة بلادَ غَطَفان، فأغارت على إبل لبني مُحارب بن خَصَفة، فأدركهم الطلبُ، فقتلوا من بني كلاب سبعةً وأرْتدوا وإبلهم. فلما رجعوا من عندهم وثب بنو كلاب على جَسْر، وهم من بني مُحارب، كانوا حاربوا إخوتهم فخرجوا عنهم وحالفوا بني عامر بن صعصعة، فقالوا: نقتلهم بقتل بني محارب من قتلوا منا. فقام خِدَاش بن زُهَير دُوهم حتى منعهم من ذلك، وقال:

عَقِيلاً وَابْلَغَ إن لَقيتَ أبا بَكْرٍ

أيا رَاكِباً إمّا عَرِضتَ فَبَلِّغْ

إِلَيْكم إِيكم لا سَبِيلَ إلى جَسْرٍ

فيا أَحَويْنَا من أُبينا وَأمنا

لَكم واسِعاً بَين الِيمامةِ والقَهْرِ

دَعُوا جانِبِي إني سَأتُركَ جانِباً

أبي الذَّمِّ واختار الوَفاءَ على الغَدْرِ

أبي فارسُ الضَحِياءِ عمرو بنُ عمرو

يوم حوزة الأول لسليم على غطفان

قال أبو عبيدة: كان بين معاوية بن عمرو بن الشريد وبين هاشم بن حرملة، أحد بني مرة بن غطفان، كلام بعكاظ، فقال معاوية: لوددت والله أبي قد سمعتُ بظعائن يندبنك. فقال هاشم: والله لوددتُ أبي قد تربت الرطبة - وهي حمة معاوية، وكان الدهر تنطف ماءً ودُهنا وإن لم تُدهن - فلما كان بعدُ تمياً معاوية ليغزو هاشماً، فنهاه أخوه صخر. فقال، كأبي بك إن غزوتهم علق بجمتك حسك العرُفط. قال: فأبى معاوية وغزاهم يوم حوزة، فراهم هاشم بن حرملة قبل أن يراه معاوية، وكان هاشماً ناقهاً من مرض أصابه، فقال لأخيه دُرَيْد ابن حرملة: إن هذا إن رأيتُ لم آمن أن يشد عليّ وأنا حديثُ عهد بشكيبية، فاستطرد له دوي حتى تجعله بيني وبينك، ففعل. فحمل عليه معاوية وأردفه هاشم، فاختلغا طعتين، فأردى معاوية هاشماً عن فرسه الشماء، وأنفذ هاشم سنانة من عانة معاوية. قال: وكّر عليه دُرَيْد فظنّه قد أردى هاشماً، فضرب معاوية بالسيف فقتله، وشدّ خفاف بن عمير على مالك ابن حارث الفزاري: قال: وعادت الشماء، فرس هاشم، حتى دخلت في جيش بني سليم، فأخذوها وظنوها فرس الفزاري الذي قتله خفاف، ورجع الجيش حتى دنوا من صخر، أخي معاوية، فقالوا: أنعم صباحاً أبا حسان. فقال: حبيتم بذلك، ما صنع معاوية؟ قالوا: قتل. قال: فما هذه الفرس؟ قالوا: قتلنا صاحبها. قال: إذا قد أدرتكم تأركم، هذه فرس هاشم بن حرملة.

قال: فلما دخل رجب ركب صخر بن عمرو الشماء صبيحة يوم حرام فأتى بني مرة. فلما رأوه، قال لهم هاشم: هذا صخر فحيوه وقولوا له خيراً، وهاشم مريض من الطعنة التي طعنه معاوية، فقال: من قتل أخي؟ فسكتوا. فقال: لمن هذه الفرس التي تحي؟ فسكتوا. فقال هاشم: هلم أبا حسان إلى من يُخبرك. قال: من قتل أخي؟ فقال هاشم: إذا أصبتني أو دريداً فقد أصبت تأرك. قال: فهل كفتتموه؟ قال: نعم، في بُردين، أحدهما بخمس وعشرين بكرة. قال: فأروي قبره. فأروه إياه. فلما رأى القبر جزع عنده، ثم قال: كأنكم قد أنكرتم ما رأيتم من جزعي، فوالله ما بت منذ عقلت إلا واتراً أو موتوراً، أو طالباً أو مطلوباً، حتى قتل معاوية فما ذقت طعم نوم بعده.

يوم حوزة الثاني

قال: قم غزاهم صخر، فلما دنا منهم مضى على السماء، وكانت غزاةً مُحجَّلة، فسودَّ غرَّها وتَحجَّلها، فرأته بنتُ هاشم، فقالت لعمَّها دُرَيْد: أين السماء؟ قال: هي في بني سُليم، قالت: ما أشبهها بهذه الفرس. فاستوى جالساً، فقال: هذه فرس بهيم والسماءُ غزاةً مُحجَّلة، وعاد فاضطجع. فلم يشعر حتى طعنه صخر. قال: فتأروا وتنادروا، وولَّى صخر، وطلبته غطفان عامَّةً يومها، وعارض دونه أبو شجرة بن عبد العُزَّى، وكانت أمه خنساء أخت صخر وصخر خاله، فرد الخيل عنه حتى أراح فرسه ونجا إلى قومه. فقال خُفاف بن ندبه لما قتل مُعاوية: قتلني الله إن برحت من مكاني حتى أثار به، فشدَّ على مالك، سيِّد بني جُمح، فقتله، فقال في ذلك:

فإن تكَّ خيلي قد أصيب صميمُها
فعمداً على عيني على عين تيممت مالكا
نصبت له علوى وقد خام صُحبتني
لأبني مجدداً أو لأثار هالكا
أقول له والرمح ياطر منته
تأمل خفافاً إنني أنا ذلكا

وقال صخر يرثي مُعاوية، وكان قال له قومه، أهجُ بني مُرة. فقال: ما بيننا أجل من القَدْع. وأنشأ يقول:

وعاذلة هبت بليل تلومني
ألا لا تلوميني كفى اللوم مايبا
تقول ألا تهجو فوارس هاشم
ومالي أن أهجوهم ثم ماليا
أبي الذم أني قد أصابوا كريمتي
وأن ليس إهداء الخنا من شماليا
إذا ما أمرؤ أهدى لميت تحية
فحيك رب الناس عني معاويا
وهون وجدي أنني لم أقل له
كذبت ولم أبخل عليه بماليا
وذي إخوة قطعت أقران بينهم
كما تركوني واحداً لا أخاليا

وقال في قتل دريد:

ولقد دفعت إلى دُرَيْد طعنةً
ونجلاء توغر مثل غط المنخر
ولقد قتلنكم ثناءً وموحداً
وتركت مرةً مثل أمس الدابر

قال أبو عبيدة: وأما هاشم بن حرمة فإنه خرج مُتجعاً، فلقى عمرو بن قيس الجشمي فتبعه، وقال هذا قاتلُ مُعاوية، لا وألت نفسي إن وأل فلما نزل هاشم كمن له عمرو بن قيس بين الشجر، حتى إذا دنا منه أرسل عليه مِغلة ففلق قحفه فقتله، وقال في ذلك:

لقد قتلتُ هاشمَ بن حرمله
إذ الملوك حوله مغربله
يقتل ذا الذنب ومن لا ذنب له

يوم ذات الأثل

قال أبو عبيدة: ثم غزا صخر بن عمرو بن الشريد بني أسد بن خزيمه واكتسح إبلهم فأتى الصريحُ بني أسد، فركبوا حتى تلاحقوا بذات الأثل، فاقتلوا قتلاً شديداً، فطعن ربيعة بن ثور الأسدي صخرًا في جنبه، وفات القوم بالنعيم. وجرى صخر من الطعنة، فكان مريضاً قريباً من الحول حتى مله أهله،

فسمع امرأة من جاراته تسأل سلمى امرأته: كيف بعُلك؟ قالت: لا حَيٌّ فِيرجى، ولا مَيّت فِينسى، لقد لقينا منه الأمرين. وكانت تُسأل أمه: كيف صخر؟ فتقول: أرجو له العافية إن شاء الله. فقلل في ذلك:

أرى أمَّ صخر لا تَمَلَّ عِيادتي
فأَيُّ امرئ ساوَى بأمِّ حَلِيلَةٍ
وما كنتُ أخشى أن أكونَ جِنَازةَ عليكِ
لَعمرى لقد نَبَّهتُ مَنْ كان نائماً
أهُمُّ بأمْرِ الحَزْمِ لو أُسْتَطِيعه

ومَلَّتْ سُلَيْمى مَضْجَعى ومَكَانى
فلا عاش إلا فى شَقَى وهَوَانِ
ومَنْ يَغْتَرُّ بالحدَثانِ
وأسمعت مَنْ كانت له أذنانِ
وقد حِيلَ بين العَيْرِ والنَّزوانِ

فلما طال عليه البلاءُ وقد نَتأتَ قِطْعَةٌ من جَنبِه مِثْلُ اليَدِ فى مَوْضِعِ الطَعْنَةِ، قالوا له: لو قَطَعْتها لرجونا أن تَبْرأ. فقال: شَأْنكم. فقطعوها فمات. فقالت الحنساء أخته تربيته

فما بالُ عَيْنِي ما بالها
أمن قَدِّ صَخْرٍ من آلِ الشَّري
فأليت أبكى على هالكِ

لقد اخضل الدمع سرِّباً لها
دَحَلتْ به الأرضِ أثقالها
وأسأل نائحةً ما لها

هممتُ بِنَفْسِي كُلِّ الهمومِ
سأحملُ نفسى على آلةٍ

فأولَى لِنَفْسِي أولى لها
فإمّا عليها وإمّا لها

وقالت تربيته:

وقائلة والنَّعشُ قد فاتَ خطوها
ألا تَكَلَّتْ أمُّ الذينَ غَدَوا به

لَتُدْرِكَه يا لهفَ نَفْسِي على صَخْرٍ
إلى القبرِ ماذا يَحْمِلونَ إلى القَبْرِ

يوم عدنية

وهو يوم ملحان

قال أبو عبيدة: هذا اليوم قبل يوم ذات الأثل، وذلك أن صخرًا غزا بقومه وترك الحيَّ حَلِوًا، فأغارَت عليهم غطفان، فثارَت إليهم غلمانهم ومَنْ كان تخلفَ منهم، فقتل من غطفان نَفْرَ وأهزم الباقون، فقال في ذلك صخر:

جزى الله خيراً قومنا إذ دعاهم
وغلماننا كانوا أسودَ حَفِيَّةٍ
هُم نَفَرُوا أقرانها بمُضَرَّسٍ
كأنهم إذ يُطردون عَشِيَّةٍ

بَعْدُنِيَّةِ الحَيِّ الخُلوْفِ المُصْبِحِ
وَحَقَّ عَلينا أن يُثابوا ويُمدحوا
وسعُرِ وَذوا الجَيْشِ حتى تَرَحَّزوا
بِقُنَّةِ مِلْحانِ نَعامِ مُرُوحِ

يوم اللوى لغطفان على هوازن

قال أبو عبيدة: غزا عبدُ الله بن الصِّمَّة - واسم الصِّمَّة معاوية الأصغر، من بني عزيَّة بن جُشم بن مُعاوية بن بكر بن هوازن، وكان لعبد الله ثلاثة أسماء وثلاثُ كنى، فاسمه عبد الله وخالد ومُعبد، وكُنيتُه أبو فرغان وأبو ذفافة وأبو وفاء، وهو أخو دُرَيْد بن الصِّمَّة لأبيه وأمه - فأغار على عَظفان فأصاب منهم إبلاً عظيمة فأطردوها. فقال له أخوه دُرَيْد: النجاة، فقد ظفرت. فأبى عليه وقال: لا أبرح حتى انتقع نقيعي - والنقيعة: ناقة ينحرها من وسط الابل فيصنع منها طعاماً لأصحابه ويتقسم ما أصاب على أصحابه - فأقام وعصى أخاه، فتبعته فزارة فقاتلوه، وهو بمكان يقال له اللوى، فقتل عبد الله، وارثُ دُرَيْد بقي في القتلى. فلما كان في بعض الليل أتاه فارسان، فقال أحدهما لصاحبه: إني أرى عينيه تبصّ، فأنزل فانظر إلى سبته. فترل فكشف ثوبه فإذا هي ترمز، فطعنه، فخرج دم كان قد أحتقن. قال دُرَيْد: فأفتت عندها، فلما جاوزوني هضت. قال: فما شعرت إلا وأنا عند عُرقوبي جمل امرأة من هوازن. فقالت: من أنت؟ أعوذ بالله من شرك. قلت: لا، بل من أنت؟ ويلك! قالت: امرأة من هوازن سياره. قلت: وأنا من هوازن، وأنا دُرَيْد ابن الصِّمَّة. قال: وكانت في قوم مُجتازين لا يشعرون بالوقعة، فضمته وعالجته حتى أفاق. فقال دُرَيْد يرثي عبد الله أخاه ويذكر عصيانه له وعصيان قومه بقوله:

ولا رزءَ فيما أهلك المرءَ عن يدِ
ورَهطِ بني السوداء والقومِ شهدي
سراتهم في الفارسيّ المُسرِّدِ
فلم يستبينوا الرُّشدَ إلا ضحى الغدِ
غوايتهم وأنني غيرُ مُهتدي
غويتُ وإن ترشُدَ غزيَّةَ أرشُدِ
بني غالب أنا غضاب لمُعبدِ
فقلتُ أعبدُ الله ذلكم الردي
فما كان وقافاً ولا طائشَ اليدِ
برطبِ العِضاه والضريعِ المُعصدِ
صبور على الضراءِ طلاع أنجدِ
من اليوم أعقاب الأحاديث في غدِ
كذبتُ ولم أبخل بما ملكتُ يدي

أعادل إن الرزءَ في مثل خالد
وقلت لعارض وأصحاب عارض
علانيةً ظنوا بألفي مُدجج
أمرتهم أمرِي بمُتقطع اللوى
فلما عَصَوْنِي كنتُ منهم وقد أرى
وما أنا إلا من غزيَّة إن عوتُ
فإن تعقب الأيامُ والدهر تعلموا
تنادوا فقالوا أردت الخيلُ فارساً
فإن يك عبدُ الله خلّى مكانه
ولا برماً إذ ما الرياحُ تناوحتُ
كميشُ الإزار خارجُ نصف ساقه
قليل التشكي للمصائب حافظُ
وهون وجدي أنني لم أقل له

أبو حاتم عن أبي عبيدة قال: خرج دُرَيْد بن الصِّمَّة في فوارس من بني جُشم، حتى إذا كانوا في وادٍ لبني كنانة يقال له الأخرم، وهم يُريدون الغارة على بني كنانة، إذ رُفِع له رجل في ناحية الوادي معه طعينة، فلما نظر إليه قال لفارس من أصحابه: صح به: حل عن الطعينة وأنج بنفسك. فانتهى إليه الفارسُ وصاح به وألح عليه. فألقى زمام الناقة وقال للطعينة:

سير رداح ذات جاش ساكنِ
أبلى بلائي وأخبري وعابني

سيرى على رسلك سير الأمنِ
إن أنثنائي دون قرني شائني

ثم حَمَل عليه فصرعه وأخذ فرسه فأعطاه للظَّعينة. فبعث دُرَيْدَ فارساً آخر لينظرَ ما صنَع صاحِبُه. فلما انتهى إليه ورأى ما صنَع صاح به. فتصامم عنه كأن لم يسمع. فظن أنه لم يسمع، فغشيه. فألقى زِمَامَ الرَّاحلة إلى الظَّعينة، ثم خَرَج وهو يقول:

إنك لاقٍ دونها ربيعه
أولاً فخذها طعنةً سريعه

خَلَّ سبيلَ الحرَّةِ المنبِعة
في كَفِّه خَطِيئَةٌ مطبِعه

والطَّعَنُ مَنِّي في الوغَى شريعه

ثم حَمَل عليه فصرعه. فلما أبطأ على دُرَيْدَ بعث فارساً لينظرَ ما صنعا. فلما انتهى إليهما وجدتهما صريعين، ونظر إليه يقود ظعنته ويجر رُمحه. فقال له الفارس: حل عن الظعينة. فقال للظَّعينة: أقصدي قصدَ البيوت، ثم أقبل عليه فقال:

ألم ترَ الفارسَ بعد الفارسِ

ماذا تُزِيدُ من شَتِيمِ عابِسِ

أرداهما عاملُ رُمحِ يابِسِ

ثم حَمَل عليه فصرعه وانكسر رُمحه. وارتاب دُرَيْدَ فظنَّ أنهم قد أخذوا الظَّعينة وقتلوا الرجل. فلحق دريد ربيعةً، وقد دنا من الحيّ، ووجد أصحابه قد قتلوا، فقال: أيها الفارس، إنَّ مِثْلَكَ لا يُقتل، ولا أرى معك رُمحك والخيلُ نائرةٌ بأصحابها، فدونك هذا الرُمحُ فإني مُنصرفٌ إلى أصحابي ومُثبِّطهم عنك. فانصرف إلى أصحابه، فقال: إنَّ فارسَ الظَّعينة قد حَمَاهَا وقتل أصحابكم وأنتزع رُمحي، ولا مَطْمَعُ لَكُمْ فيه. فانصرف القومُ. فقال دُرَيْدَ في ذلك:

حامي الظَّعينة فارساً لم يُقتل
ثم استمرَّ كأنه لم يفعل
مثل الحسام جَلَّتْه كَفُّ الصيقلِ
مُتوجهاً يميناً نحو المنزلِ
مثل البُعَاثِ خَشِينِ وَقَعِ الأجدلِ
يا صاح مَنْ يَكُ مثله لا يجهل

ما إن رأيتُ ولا سمعتُ بمثله
أردى فوارسَ لم يكونوا نُهْزَةً
مُتهللاً تبدو أسرَّةً وجهه
يُزجِي ظعِينتَه وَيَسحب رُمحه
وترى الفوارسَ من مهابة رُمحه
يا لبيتِ شعري مَنْ أبوه وأمه

وقال ابنُ مُكْدَم:

عني الظعينة يومَ وادي الأخرم
لولا طعانُ ربيعةِ بنِ مُكْدَمِ
خَلَّ الظعينةَ طائِعاً لا تَنْدَمِ
عمداً ليعلمَ بعضَ ما لم يعلمِ
فهوى صريعاً لليدين وللغمِ
نجلاءً فاغرةً كشدقِ الأضجمِ
وأبى الفرارَ عن العُدَاة تَكْرُمِي

إن كان يَنفَعُكِ اليقينُ فسائلي
إذ هي لأوَّلَ مَنْ أتاها نُهْبَةٌ
إذ قال لي أدنى الفوارسِ منهم
فصرفتُ راحلةَ الظَّعينةِ نحوَه
وهتكتُ بالرُمحِ الطَّويلِ إهابه
ومنحتُ آخرَ بعده جِيَّاشَةً
ولقد شفعتُهُما بأخرِ ثالثِ

ثم لم يلبث بنو كنانة أن أغاروا على بني جُشم، فقتلوا، وأسروا دريدَ بن الصِّمة، فأخفى نَسبه. فبينما هو عندهم مَحْبوس إذ جاءت نِسوة يتهاذَّين إليه،

فصاحت إحداهنَّ فقالت: هلكنم وأهلكتم! ماذا جرَّ علينا قومنا؟ هذا والله الذي أعطى ربيعةَ رُحمة يوم الظعينة، ثم أَلقت عليه نُوها، وقالت: يا آل فراس، أنا جارةٌ له منكم، هذا صاحبنا يوم الوادي. فسألوه: من هو؟ فقال: أنا دُرَيْدُ ابن الصِّمة، فمن صاحبي؟ قالوا: ربيعةُ بن مُكَدَّم. قال: فما فعل؟ قالوا: قتلته بنو سليم. قال: فما فعلتُ الظَّعينة؟ قالت المرأة: أنا هي، وأنا امرأته. فحبسه القومُ وأتمروا أنفسهم، فقال بعضهم: لا ينبغي لدُرَيْدٍ أن تُكفر نعمته على صاحبنا، وقال الآخرون: لا والله لا يخرج من أيدينا إلا برضا المخارق الذي أسره. فانبعثت المرأة في الليل. وهي رِبطة بنت جدل الطَّعان، فقالت:

وكلُّ امرئٍ يجزى بما كان قدَّمَا

وإن كان شراً كان شراً مُدَمِّمًا

بإهدائه الرُّمَح الطَّويل المقوما

ولا تركبوا تلك التي تملأ الفَمَا

ذراعاً غنياً كان أو كان مُعدِّمًا

ولا تجعلوا البؤسى إلى الشرِّ سلماً

سنجزى دُرَيْدًا عن ربيعة نعمةً

فإن كان خيراً كان خيراً جزاؤه

سنجزيه نعمةً لم تكن بصغيرةٍ

فلا تكفروه حقَّ نعماه فيكم

فإن كان حياً لم يضق بثوابه

ففكروا دُرَيْدًا من إيسار مخارق

فلما أصبحوا أطلقوه. فكسَّته وجَهَّزته ولحق بقومه. فلم يزل كافا عن حربِ بني فراس حتى هلك.

يوم الصَّلعاء لهوازن على غطفان

فلما كان في العام المقبل غزاهم دُرَيْدُ بن الصِّمة بالصَّلعاء، فخرجت إليه. غطفان. فقال دُرَيْدُ لصاحبه: ما ترى؟ قال: أرى خيلاً عليها رجال كأنهم الصَّبيان، أسنتها عند آذان خيلها. قال: هذه فزارة. ثم قالت: انظر ما ترى؟ قال: أرى قوماً كأن عليهم ثياباً غُمست في الجادي. قال: هذه أشجع. ثم قال: انظر ما ترى؟ قال: أرى قوماً يهزّون رماحهم سوداً يحدون الأرض بأقدامهم. قال: هذه عبس، أتاكم الموت الرُّؤم، فاثبتوا. فالتقوا بالصَّلعاء، فكان الظَّفَر لهوازن على غطفان، وقتل دُرَيْدُ دُوَّابَ بن أسماء بن زيد بن قارب.

حرب قيس وكنانة

يوم الكديد لسليم على كنانة

فيه قتل ربيعة بن مُكَدَّم فارسُ كنانة. وهو من بني فراس بنِ غنم بن مالك بن كنانة، وهم أنجد العرب، كان الرجل منهم يُعدل بعشرة من غيرهم، وفيهم يقول علي بن أبي طالب لأهل الكوفة: وددتُ والله أن لي بجميعكم، وأنتم مائة ألف، ثلثمائة من بني فراس بن غنم. وكان ربيعة بن مُكَدَّم يعقر على قبره في الجاهليَّة، ولم يُعقر على قبر أحد غيره، ومر به حسان بن ثابت. وقتلته بنو سليم يوم الكديد. ولم يحضر يوم الكديد أحد من بني الشريد.

يوم برزة لكنانة على سليم

قال أبو عبيدة: لما قتلت بنو سليم ربيعة بن مُكَدَّم فارسَ كنانة ورجعوا، أقاموا ما شاء الله. ثم إن ذا التاج مالك بن خالد بن صخر بن الشريد - واسم الشريد عمرو، وكانت بنو سليم قد توجوا مالكا وأمره عليهم - غزا بني كنانة، فأغار على بني فراس ببرزة، ورئيسُ بني فراس عبدُ الله بن جدل.

فدعا عبدُ الله إلى البراز، فبرز إليه هندُ بن خالد بن صخر بن الشريد، فقال له عبدُ الله: مَنْ أنت؟ قال: أنا هندُ بن خالد بن صخر. فقال عبدُ الله: أخوك أسن منك، يُريد مالك بن خالد. فرجع فأحضر أخاه، فبرز له، فجعل عبدُ الله ابن جِذَل يرتجز ويقول:

إني إذا الموتُ كَنَعُ

ادنُ بني قِرْف القِمَعُ

لا أستغيثُ بالجرعِ

ثم شدَّ على مالك بن خالد فقتله فبرز إليه أخوه كرز بن خالد بن صخر، فشد عليه عبد الله بن جِذَل فقتله أيضاً. فشدَّ عليه أخوهما عمرو بن خالد بن صخر بن الشريد، فتخالفا طعنتين، فجرح كلُّ واحد منهما صاحبه وتجازا. وكان عمرو قد هُي أخاه مالكا عن غزو بني فراس، فعصاه وانصرف للغزو عنهم. فقال عبدُ الله بن جِذَل:

إلى مالكٍ أعشُو إلى ضوئه مالكٍ

تجنبْتُ هنداً رغبةً عن قتاله

غدائتُذ أو هالكٍ في الهوالكِ

فأيقنتُ أني تائراً ابن مُكَدَّم

مُعانقةً ليست بطعنة باتك

فأنفذته بالرُمح حين طعنته

علتُ جِلده منها بأحمر عاتك

وأنتى لكرز في الغبار بطعنة

فصبراً سليماً قد صبرنا لذلك

قتلنا سليماً غثها وسمينها

كما قد بكت أم لكرز ومالك

فإن تك نسواني بكين فقد بكت

وقال عبد الله بن جِذَل أيضاً:

وهل يُغني من الجزع البكاء؟

قتلنا مالكا فبكوا عليه

تسيل على ترائبه الدماء

وكرزاً قد تركناه صريعاً

فقدوا أبيهم غلب العزاء

فإن تجزع لذاك بنو سليم

وما فيكم لواحدنا كفاء

فصبراً يا سليم كما صبرنا

أخو الهلاك إن ذم الشتاء

فلا تبعد ربيعةً من نديم

تداركها وقد حمس اللقاء

وكم من غارة ورعيل خيل

يوم الفيفاء لسليم على كنانة

قال أبو عبيدة: ثم إن بني الشريد حرّموا على أنفسهم النساء والدّهن، حتى يُدركوا بثأرهم من بني كنانة. فغزا عمرو بن خالد بن صخر بن الشريد بقومه حتى أغار على بني فراس، فقتل منهم نَفراً: منهم عاصم بن المعلّى، ونضلة والمُعارك، وعمرو بن مالك، وحِصن، وشريح، وسبي سبياً فيهم ابنة مُكَدَّم، أخت ربيعة بن مُكَدَّم. فقال عباس بن مرداس في ذلك يرّد على ابن جِذَل في كلمته التي قالها يوم برزة:

فكيف طلبناكم بكرز ومالك

ألا أبلغا عني ابن جِذَل ورهطه

وبابن المعلّى عاصم والمُعارك

غداة فجعناكم بحِصن وبابنه

جميعاً وما كانوا بواءً بمالك
عليكم، شبا حدّ السيوف البواتك
تلاً في داج من الليل حالك
تمر بنا مرّ الرياح السواهك
سمت نحو ملتف من الموت شائك

ثمانية منهم تارناهم به
نذيقكم، والموت بيني سرادقاً
تلوح بأيدينا كما لاح بارق
صبحناكم العجاج بالضحى
إذا خرجت من هبوة بعد هبوة

وقال هند بن خالد بن صخر بن الشريد:

وخلّيت القتام على الخدود
على أثر الفوارس بالكديد
عليه ما وجدنا من مزيد
كطير الماء غلس للورود

قتلت بمالك عمراً وحصناً
وكرزاً قد أبأت به شريحاً
جريناهم بما انتكهوا وزدنا
جلبنا من جنوب الفرد جرداً

قال: فلما ذكر هند بن خالد يوم الكديد، وافتخر به ولم يشهده أحد من بني الشريد، غضب من ذلك نبيشة بن حبيب، فأنشأ يقول:

كمخضوب البنان ولا تصيد
وتزعم أن والدك الشريد
وصاحب المزور به الكديد

تبخل صنعنا في كل يوم
وتأكل ما يعاف الكلب منه
أبي لي أن أقر الضيم قيس

حرب قيس وتميم

يوم السويان لبني عامر على بني تميم

قال أبو عبيدة: أغارت بنو عامر علي بني تميم وصبّة فاقتتلوا. ورئيس صبّة حسّان بن وبرة، وهو أخو النعمان لأمه، فأسره يزيد الصعق، وانهمت تميم. فلما رأى ذلك عامر بن مالك بن جعفر حسده، فشد على ضرار بن عمرو الضبي، وهو الرديم. فقال لابنه أدهم: أغنه عني. فشد عليه فطعنه. فتحول عن سرجه إلى جنب أبدائه. ثم لحقه، فقال لأحد بنيه أغنه عني، ففعل مثل ذلك. ثم لحقه، فقال لابن له آخر: أغنه عني، ففعل مثل ذلك، فقال: ما هذا إلا ملاعب الأسنة، فسّمى عامر من يومئذ ملاعب الأسنة. فلما دنا منه قال له ضرار: إني لأعلم ما تريد، أتريد اللبن؟ قال: نعم. إنك لن تصل إلي ومن هؤلاء عين تطرف، كلهم بني. قال له عامر: فأحلي علي غيرك. فدله على حبيش بن الدلف وقال: عليك بذلك الفارس. فشد عليه فأسره. فلما رأى سواده وقصره جعل يتفكر. وخاف ابن الدلف أن يقتله، فقال: أأست تريد اللبن؟ قال: بلى. قال: فأنا لك به. وفادى حسان بن وبرة نفسه من يزيد بن الصعق على عصافير النعمان بذي ليان، وذو ليان، عن يمين القرينتين.

يوم أقرن لبني عيس على بني دارم

غزا عمرو بن عدس من دارم، وهو فارس بن مالك بن حنظلة، فأغار على بني عبس وأخذ إبلا وشاء، ثم أقبل، حتى إذا كان أسفل من ثنية أقرن نزل فابتنى بجارية من السبي. ولحقه الطلب، فاقتتلوا. فقتل أنس الفوارس بن زياد العبسي عمراً، وانهزمت بنو مالك بن حنظلة. وقتلت بنو عبس أيضاً حنظلة بن عمرو - وقال بعضهم: قُتل في غير هذا اليوم - وارتدوا ما كان في أيدي بني مالك. فنعى ذلك جريراً على بني دارم فقال:

هل تذكرون لدى ثنية أقرن

أنس الفوارس حين يهوي الأسلع

وكان عمرو أسلع، أي أبرص، وكان لسماعة بن عمرو خال من بني عبس، فزاره يوماً فقتله بأبيه عمرو.

يوم المروت لبني الغبير على بني قشير

أغار بحير بن سلمة بن قشير على بني العنبر بن عمرو بن تميم، فأتى الصريح بن عمرو بن تميم، فاتبعوه حتى لحقوه، وقد نزل المروت، وهو يقسم المرباع ويعطى من معه. فتلاحق القوم واقتتلوا. فطعن قعنب بن عتاب الهيثم بن عامر القشيري فصرعه فأسره، وحمل الكدام، وهو يزيد بن أزهر المازني على بحير بن سلمة فطعنه فأرداه عن فرسه، ثم نزل إليه فأسره. فأبصره قعنب بن عتاب، فحمل عليه بالسيف فضره فقتله. فانهزم بنو عامر وقتل رجالهم. فقال يزيد بن الصعق يرثي بحيرا:

أوردة علي بني رياح

فأجابته العوراء، من بني سليط بن يربوع:

بفخرهم وقد قتلوا بحيرا

قعيدك يا يزيد أبا قبيس

وتوضع تخبر الركبان أنا

أتندر كي تلاقينا النذورا

ووجدنا في مراس الحرب خورا

ألم تعلم قعيدك يا يزيد

ونفقا ناظريه ولا نبالي

بأنا نقمع الشيخ الفخورا

ونجعل فوق هامته الذورا

فأبلغ إن عرضت بني كلاب

وضررنا عبدة بالعوالي

بأنا نحن أفحصنا بحيرا

فأصبح موثقا فينا أسيرا

وعند الحرب خورا ضجورا

أفخرا في الخلاء بغير فخر

يوم دارة مأسل لتميم على قيس

غزا عتبة بن شئير بن خالد الكلابي بني ضبة فاستاق نعيمهم، وقتل حصين ابن ضرار الضبي، أبا زيد الفوارس، فجمع أبوه ضرار قومه وخرج نائراً بابنه حصين، وزيد الفوارس، يومئذ حدث لم يدرك، فأغار على بني عمرو بن كلاب، فأفلت منه عتبة بن شئير بن خالد، وأسر أباه شئير بن خالد، وكان شيخاً أعور. فأتى به قومه، فقال: إما أن ترد ابني حصينا. قال: فيني لا أنشر الموتى. قال: وإما أن تدفع إلي ابنك عتبة أقتله به. قال: لا ترضى بذلك بنو عامر أن يدفعوا فارسهم شاباً مقتبلاً بشيخ أعور هامة اليوم أو غد. قال: وإما أن أقتلك. قال: أما هذه فنعم. قال: فأمر ضرار ابنه أدهم أن يقتله، فلما قدّمه ليضرب عنقه نادى شئير: يا آل عامر، صبراً، بصي. كأنه أنف أن يقتل بصي. فقال في ذلك شعلة في كلمة له طويلة:

وخيرنا شئيراً في ثلاث

جعلت السيف بين الليث منه

وما كان الثلاث له خياراً

وبين قصاص لمتته عذاراً

وقال الفرزدق يفخر بأيام ضبة:

وَمَعْبُوقَةٌ قَبْلَ الْقِيَانِ كَأَنَّهَا

عَوَابِسُ مَا تَتَفَكُّ تَحْتَ بَطُونِهَا

تَرَكَنْ ابْنَ ذِي الْجَدَّيْنِ يَنْشِجُ مُسْنَدًا

وَهُنَّ عَلَى خَذِي شَتِيرِ بْنِ خَالِدٍ

إِذَا سَوَّمَتْ لِلْبَاسِ يَعْشَى ظُهُورَهَا

يَهْزُونَ أَرْمَاحًا طَوَالًا مُتُونَهَا

جَرَادٌ إِذَا أَجْلَى عَنِ الْقَرْعِ الْفَجْرِ

سَرَابِيلُ أَبْطَالٍ بِنَاتِقِهَا حُمُرٌ

وَلَيْسَ لَهُ إِلَّا الْأَعَاتُ قَبْرٌ

أَثِيرٌ عَجَاجٍ مِنْ سَنَابِكِهَا كُدْرٌ

أَسْوَدٌ عَلَيْهَا الْبَيْضُ عَادَتِهَا الْهَصْرُ

يَهِنُ الْغِنَى يَوْمَ الْكَرْبِيهَةِ وَالْفَقْرُ

أيام بكر على تميم

يوم الوقيط

قال فراسُ بنِ حنْدَفٍ: جَمَعَتِ اللَّهَازِمُ لِتَغْيِيرِ عَلِيٍّ تَمِيمٍ وَهَمَّ غَارُونَ، فَرَأَى لَكَ نَاشِبَ الْأَعُورِ بْنِ بَشَامَةَ الْعَنْبَرِيِّ، وَهُوَ أَسِيرٌ فِي بَنِي سَعْدِ بْنِ مَالِكِ ابْنِ ضُبَيْعَةَ بْنِ قَيْسِ بْنِ ثَعْلَبَةَ، فَقَالَ لَهُمْ: أَعْطُونِي رَسُولًا أُرْسِلُهُ إِلَى بَنِي الْعَنْبَرِ أَوْصِيهِمْ بِصَاحِبِكُمْ خَيْرًا، لِيُولُوهُ مِثْلَ الَّذِي تُولُونِي مِنَ الرِّبِّ بِهِ وَالْإِحْسَانَ إِلَيْهِ. وَكَانَ حَنْظَلَةُ بْنُ الطُّفَيْلِ الْمُرْتَدِّيُّ أَسِيرًا فِي بَنِي الْعَنْبَرِ. فَقَالُوا لَهُ: عَلَى أَنْ تُوصِيَهُ وَنَحْنُ حَاضِرُونَ. قَالَ نَعَمْ. فَأَتَوْهُ بِغُلَامٍ لَهُمْ. فَقَالَ: لَقَدْ أَتَيْتُمُونِي بِأَحْمَقٍ وَمَا أَرَاهُ مُبْلَغًا عَنِّي. قَالَ الْغُلَامُ: لَا وَاللَّهِ مَا أَنَا بِأَحْمَقٍ، وَقُلْ مَا تَشْتِ فِيَّ مُبْلَغًا. فَمَلَأَ الْأَعُورُ كَفَّهُ مِنَ الرَّمْلِ، فَقَالَ: كَمْ هَذَا الَّذِي فِي كَفِّي مِنَ الرَّمْلِ؟ قَالَ الْغُلَامُ: شَيْءٌ لَا يُحْصَى كَثْرَةً، ثُمَّ أَوْمَأَ إِلَيَّ الشَّمْسُ، وَقَالَ: مَا تَلِكُ؟ قَالَ: هِيَ الشَّمْسُ. قَالَ: فَاذْهَبْ إِلَى قَوْمِي فَاذْهَبْ عَنِّي التَّحِيَةَ وَقُلْ لَهُمْ يُحْسِنُوا إِلَى أَسِيرِهِمْ وَيُكْرِمُوهُ، فَإِنِّي عِنْدَ قَوْمٍ مُحْسِنِينَ إِلَى مُكْرَمِينَ لِي، وَقُلْ لَهُمْ يَقْرَأُوا جَمَلَ الْأَحْمَرِ، وَيَرْكَبُوا نَاقَتِي الْعَيْسَاءَ، بِأَيَّةِ أَكَلْتُمْ مَعَهُمْ حَيْسًا، وَيَرْعُوا حَاجَتِي فِي أَبِي بَنِي مَالِكٍ. وَأَخْبِرْهُمْ أَنَّ الْعَوْسَجَ قَدْ أَوْرَقَ، وَأَنَّ النِّسَاءَ قَدْ اشْتَكَّتْ. وَلْيَعْصُوا هَمَّامَ بْنَ بَشَامَةَ، فَإِنَّهُ مَشْتُمٌ مَحْدُودٌ، وَيُطِيعُوا هُذَيْلَ بْنَ الْأَخْنَسِ، فَإِنَّهُ حَازِمٌ مَيْمُونٌ. قَالَ: فَأَتَاهُمُ الرَّسُولُ فَأَبْلَغَهُمْ. فَقَالَ بَنُو عَمْرٍو بْنِ تَمِيمٍ: مَا نَعْرِفُ هَذَا الْكَلَامَ، وَلَقَدْ جَنَّ الْأَعُورُ بَعْدَنَا، فَوَاللَّهِ مَا نَعْرِفُ لَهُ نَاقَةَ عَيْسَاءَ، وَلَا جَمَلًا أَحْمَرَ. فَشَخَّصَ الرَّسُولُ، ثُمَّ نَادَاهُمْ هُذَيْلُ: يَا بَنِي الْعَنْبَرِ، قَدْ بَيَّنَّ لَكُمْ صَاحِبُكُمْ: أَمَا الرَّمْلُ الَّذِي قَبِضَ عَلَيْهِ، فَإِنَّهُ يُخْبِرُكُمْ أَنَّهُ أَتَاكُمْ عَدُوًّا لَا يُحْصَى؟ وَأَمَا الشَّمْسُ الَّتِي أَوْمَأَ إِلَيْهَا، فَإِنَّهُ يَقُولُ: إِنَّ ذَلِكَ أَوْضَحُّ مِنَ الشَّمْسِ؟ وَأَمَا جَمَلُهُ الْأَحْمَرُ، فَإِنَّهُ هُوَ الصَّمَّانُ يَأْمُرُكُمْ أَنْ تُعْرَوْهُ؟ وَأَمَا نَاقَتُهُ الْعَيْسَاءَ، فَهِيَ الدَّهْنَاءُ يَأْمُرُكُمْ أَنْ تَحْتَرِزُوا فِيهَا، وَأَمَا أَبْنَاءُ مَالِكٍ، فَإِنَّهُ يَأْمُرُكُمْ أَنْ تَنْذَرُوا بَنِي مَالِكِ بْنِ حَنْظَلَةَ ابْنِ مَالِكِ بْنِ زَيْدِ مَنَاةَ مَا حَذَرَكُمْ وَأَنْ تُمَسِّكُوا الْحِلْفَ بَيْنَكُمْ وَبَيْنَهُمْ، وَأَمَا الْعَوْسَجُ الَّذِي أَوْرَقَ، فَيُخْبِرُكُمْ أَنَّ الْقَوْمَ قَدْ لَبَسُوا السَّلَاحَ؛ وَأَمَا تَشْكِي النِّسَاءَ، فَيُخْبِرُكُمْ بِأَنَّ عَمَلَانَ شِكَاةً يَغْزُونَ بِهِ. قَالَ: وَقَوْلُهُ بِأَيَّةِ مَا أَكَلْتُمْ مَعَكُمْ حَيْسًا، يَرِيدُ أَحْلَاطًا مِنَ النَّاسِ قَدْ غَزَوْكُمْ. فَتَحَرَّزَتْ عَمْرٍو فَرَكِبَتْ الدَّهْنَاءَ، وَأَنْذَرُوا بَنِي مَالِكٍ، فَقَالُوا: لَسْنَا نَدْرِي مَا يَقُولُ بَنُو عَمْرٍو وَلَسْنَا مَتَحَوِّلِينَ لِمَا قَالَ صَاحِبُكُمْ: قَالَ فَصَبَّحَتِ اللَّهَازِمُ بَنِي حَنْظَلَةَ، فَوَجَدُوا بَنِي عَمْرٍو قَدْ أَجَلَّتْ، وَإِنَّمَا أَرَادُوهُمْ عَلَى الْوَقَيْطِ، وَعَلَى الْجَيْشِ أَبْجَرِ بْنِ حَابِرِ الْعَجَلِيِّ. وَشَهِدَهَا نَاسٌ مَعَ تَيْمِ اللَّاتِ، وَشَهِدَهَا الْفَزْرُ بْنُ الْأَسْوَدِ بْنِ شَرِيدِ، مِنْ بَنِي سِنَانَ. فَاقْتَتَلُوا، فَأَسْرَ ضِرَارُ بْنُ الْقَعْقَاعِ بْنِ مَعْبَدِ بْنِ زُرَّارَةَ، وَتَنَازَعَ فِي أَسْرِهِ بَشْرُ بْنُ الْعَوْرَاءِ، مِنْ تَيْمِ اللَّاتِ، وَالْفَزْرُ بْنُ الْأَسْوَدِ، فَجَزَا نَاصِيَتَهُ وَخَلِيًّا سَرِبَهُ مِنْ تَحْتِ اللَّيْلِ. وَأَسْرَ عَمْرٍو بْنُ قَيْسِ، مِنْ بَنِي رِبِيْعَةَ، عَثَجَلُ بْنُ الْمَأْمُومِ بْنِ شَيْبَانَ بْنِ عَلْقَمَةَ، مِنْ بَنِي زُرَّارَةَ، وَمَنْ عَلَيْهِ. وَأَسْرَتْ عَمَامَةُ بِنْتُ طَوْقِ بْنِ عُبَيْدِ بْنِ زُرَّارَةَ، وَاشْتَرَكَ فِي أَسْرِهَا الْحَطِيمُ بْنُ هَلَالٍ، وَظَرْبَانَ بْنِ زِيَادٍ، وَقَيْسُ بْنُ خَالِدٍ. وَرَدُّوْهَا إِلَى أَهْلِهَا. وَعَبْرَ جَرِيْرُ الْحَطَفِيِّ بَنِي دَارِمٍ بِأَسْرِ ضِرَارٍ وَعَثَجَلٍ وَعَمَامَةَ، فَقَالَ:

مَا قَيْدٌ يَقْتُلُ عَثَجَلَ وَضِرَارًا

أَغَمَّامٌ لَوْ شَهِدَ الْوَقَيْطَ فَوَارِسِي

وأسر حنظلة بن المأمون بن شيبان بن علقمة، أسره طَيْسلة بن زياد، أحد بني ربيعة. وأسر جُويرية بن بدر، من بني عبد الله بن دارم، فلم يزل في الوفاق حتى قال أبياتاً يمدح فيها بني عجل، وأنشأ يتغنى بها رافعاً عقيرته:

وقائلة ما غاله أن يزورها
وقد أدركتني والحوادثُ جمّةٌ
سراع إلى الداعي بطاء عن الخنا
لعلهم أن يمطروني بنعمية
وقد كنتُ عن تلك الزيارة في شغل
مخالبُ قوم لا ضعافٍ ولا عزّل
رزان لدى النادي من غير ما جهل
كما طاب ماء المزن في البلد المحل
وقد يبئدي الحسنى سراة بني عجل

فلما سمعوه أطلقوه. وأسر نعيم بن القعقاع بن معبد بن زرارة، وعمرو ابن ناشب، وأسر سنان بن عمرو، أخو بني سلامة بن كندة، من بني دارم، وأسر حاضر بن ضمرة، وأسر الهيثم بن صعصعة، وهرب عوف بن القعقاع عن إخوته، وقتل حكيم النهشلي، وذلك أنه لم يزل يُقاتل وهو يرتجز ويقول:

كل امرئ مُصَبِّح في أهله
والموتُ أدنى من شرك نَعْلِهِ

وفيه يقول عنتره الفوارس:

وغادرنا حكيماً في مجال
صريعاً قد سلّبناه الإزاراً

يوم النباج وثبتل لتميم على بكر

الحُشنيّ قال: أخبرنا أبو غَسَّان العَبديّ - واسمه رفيع - عن أبي عبيدة معمر بن المثنى قال: غدا قيس بن عاصم في مُقاعس، وهو رئيس عليها - ومُقاعس هم: صُرَيْم، وريّيع، وعُبَيْد، بنو الحارث بن عمرو بن كعب بن سعد بن زيد مناة ابن تميم - ومعه سلامة بن ظرب بن نمر الحماني في الأجارب، وهم حَمَّان، وربيعة. ومالك، والأعرج، بنو كعب بن سعد بن زيد مناة بن تميم. فعزوا بكر بن وائل. فوجدوا بني ذهل بن ثعلبة بن عكابة واللّهازم - وهم قيس وتيم اللت، ابنا ثعلبة، وعجل بن لجيم، وعنزة بن أسد بن ربيعة - بالنّباج وثبتل، وبينهما رَوْحة. فتنازع قيس بن عاصم وسلامة بن ظرب في الإغارة ثم اتفقا على أن يُغير قيس على أهل النّباج، ويُغير سلامة على أهل الثبتل. قال: فبعث قيس بن عاصم سنان بن سَمي، الأهتم شَيْفَةً له - والشَيْفَة: الطليعة - فاتاه الخبر. فلما أصبح قيس سقى خيله، ثم أطلق أفواه الرّوايا، وقال لقومه: قاتلوا فإن الموت بين أيديكم، والفلاة من ورائكم. فلما دنوا من القوم صُبحاً سمعوا ساقياً من بكر يقول لصاحبه: يا قيس، أورد. ففتاءلوا به. فأغاروا على النّباج قبل الصّبح، فقاتلوهم قتالاً شديداً. ثم إن بكر هزمت وأسر الأهتم حُمّان بن بشر بن عمرو بن مرثد، وأصابوا غنائم كثيرة. فقال قيس لأصحابه لا مقام دون الثبتل، فالتجاء النجاء. فأبوا. ولم يُغير سلامة ولا أصحابه بعد على من بثبتل فأغار عليهم قيس بن عاصم، فقاتلوه ثم هزموا. فأصاب إبلاً كثيرة. فقال سلامة: إنكم أعرثم على ما كان أمره إليّ. فتلاحوا في ذلك. ثم اتفقوا على أن سلّموا إليه غنائم ثبتل. ففي ذلك يقول ربيعة بن ظريف:

فلا يُبعِدُكَ اللهُ قيسَ بن عاصم
وأنت الذي حرّبت بكر بن وائل
غداة دعت يا آل شيبان إذ رأت
وظلت عُقاب الموت تهفو عليهم
فأنت لنا عزٌّ عزيز وموئل
وقد عضلت منها النّباجُ وثبتل
كراديس يهدين ورد محجل
وشعت النواصي لجمهن تصلصل

فما منكم أبناء بكر بن وائل

وقال جرير يصف ما كان من إطلاق قيس بن عاصم أفواه المزاد بقوله:

وفي يوم الكلاب ويوم قيس

وقال فرقة بن قيس بن عاصم:

لغارتنا إلا ركوبٌ مُذَلَّل

هَرَقَ على مُسَلَّحَةِ المَزَادِ

بثبثل أحياء اللهازم حُضْرًا

فلم يَجِدُوا إلا الأَسنة مَصْدَرًا

إذا الماء من أعطافهن تَحَذَّرًا

يُثْرِنَ عَجَاجًا بالسنانك أَكْدَرًا

وكان إذا ما أوردَ الأمرَ أَصْدَرًا

فنازَعَ غَلا من ذِراعِيه أَسْمَرًا

إلى الحَيِّ مَصْفُودِ اليَدَيْنِ مُفَكَّرًا

أنا ابنُ الذي شَقَّ المَزادَ وقد رَأى

وَصَبَّحَهُم بالجيشِ قيسُ بنِ عاصم

على الجُردِ يعلُكُنَ الشكِيمَ عَوايسًا

فلم يَرها الراعون إلا فُجاءَةً

سَقاهم بها الذِّيفانَ قيسُ بنِ عاصم

وحُمران أدته إلينا رِماحُنَا

وجَسَّامةِ الذُّهلي قُدَّناه عَنوَةً

يوم زرود لبني يربوع على بني تغلب

أغار خزيمه بن طارق التغليبي على بني يربوع، وهم يزروود، فنذروا به فالتقوا فاقتتلوا قتالاً شديداً، ثم انهزمت بنو تغلب. وأسر خزيمه بن طارق، أسره أنيف بن جبلة الضبي، وهو فارس الشيط، وكان يومئذٍ معتلاً في بني يربوع، وأسيد بن حناة السليطي، فتنازعا فيه، فحكما بينهما الحارث بن قراد، وأم الحارث امرأة من بني سعد بن ضبة، فحكم بناصية خزيمه لأنيف بن جبلة، على أن لأسيد على أنيف مائة من الإبل. قال: ففدا خزيمه نفسه بمائتي بعير وفرس. وقال أنيف:

ولاقيت مني الموت يوم زرود

فأنزلته بالقاع غير حميد

أخذتك قسراً يا خزيم بن طارق

وعانقتة والخيل تدمى نحورها

أيام يربوع على بكر

وهذه أيام كلها لبني يربوع على بني بكر، من ذلك: يوم ذي طلوح، وهو يوم أود، ويوم الحائر، ويوم ملهم، ويوم الفتح، وهو يوم مالة، ويوم رأس عين، ويوم طخفة. ويوم العبيط، ويوم مخطط، ويوم جدود، ويوم الجبايات ويوم زرود الثاني.

يوم ذي طلوح لبني يربوع على بكر

كان عميرة بن طارق بن حصينة بن أريم بن عبيد بن نعلبة تزوج مرية بنت جابر، أخت أبحر بن جابر العجلي، فخرج حتى ابنتيها في بني عجل. فأتى أبحر أخته مرية، امرأة عميرة يزورها، فقال لها: إني لا أرجو أن أتيك بنت النطف امرأة عميرة التي في قومها. فقال له عميرة: أترضى أن تُحاربني وتُسبيني؟ فندم أبحر، وقال لعميرة: ما كنت لأغزو قومك. ثم غزا أبحر والحوفزان متساندين. هذا فيمن تبعه من بني شيبان، وهذا فيمن تبعه من بني اللهازم، وساروا بعميرة. معهم، قد وكل به أبحر أخاه حُرْفَصَة بن جابر. فقال له عميرة: لو رجعتُ إلى أهلي فاحتملتهم؟ فقال حُرْفَصَة: افعل. فكر

عميرة على ناقته، ثم نكل عن الجيش، فسار يومين وليلة حتى أتى بني يربوع فأندرهم الجيش. فاجتمعوا حتى التقوا بأسفل ذي طلوح. فأول ما كان فارس طلع عليهم عميرة، فنادى: يا أبحر، هلم. فقال: من أنت؟ قال: أنا عميرة. فكذبه، فسفر عن وجهه، فعرفه فأقبل إليه. والتقت الخيل بالخيل. فأسر الجيش إلا أقلهم، وأسر حنظلة بن بشر بن عمرو بن عدس بن زيد بن عبد الله ابن دارم. وكان في بني يربوع الحوفزان بن شريك، وأخذه معه مكبلاً. وأخذ ابن طارق سواده بن يزيد بن بجير بن غنم، عم أبحر وأخذ ابن عنة الضبي الشاعر، وكان مع بني شيبان، فافتكه متمم بن نوبة. فقال ابن عنة يمدح متمم بن نوبة:

جَزَى اللهُ رَبَّ النَّاسِ عَنِّي مُتَمَّمًا
بَخِيرَ جِزَاءِ مَا أَعْفَى وَأَمْجَدًا
أَجِيرْتُ بِهِ آبَاؤَنَا وَبَنَاتَنَا
وَشَارَكَ فِي إِطْلَاقِنَا وَتَفَرَّدَا
أَبَا نَهْشَلٍ إِنِّي لَكُمْ غَيْرُ كَافِرٍ
وَلَا جَاعِلٌ مِنْ دُونَكَ الْمَالِ مُؤْصِدَا

وأسر سويد بن الحوفزان، وأسر أسود وفلحس، وهما من بني سعد بن همام. فقال جرير في ذلك يذكر يوم ذي طلوح:

وَلَمَّا لَقِينَا خَيْلَ أَبَجْرٍ يَدَّعِي
بَدَعَوِي لُجِيمٍ غَيْرِ مِيلِ الْعَوَاتِقِ
صَبَرْنَا وَكَانَ الصَّبْرُ مَنَا سَجِيَّةً
بِأَسْيَافِنَا تَحْتَ الظَّلَالِ الْخَوَافِقِ
فَلَمَّا رَأَوْا أَنْ لَا هَوَادَةَ عِنْدَنَا
دَعَوْا بَعْدَ كَرْبٍ يَا عَمِيرَ بْنَ طَارِقِ

يوم الحائر وهو يوم ملهم. لبني يربوع على بكر

وذلك أن أبا مليح عبد الله بن الحارث بن عاصم بن حميد وعقمة أخاه، انطلقا يطلبان إبلاً لهما حتى وردا ملهم، من أرض اليمامة. فخرج عليهما نفر من بني يشكر، فقتلوا عقمة وأخذوا أبا مليح. فكان عندهم ما شاء الله، ثم خلوا سبيله وأخذوا عليه عهداً وميثاقاً أن لا يُخبر بأمر أخيه أحداً. فأتى قومه فسأله عن أمر أخيه فلم يخبرهم. فقال وبرة بن حمزة: هذا رجل قد أخذ عليه عهد وميثاق. فخرجوا يقصون أثره، ورئيسهم شهاب بن عبد القيس، حتى وردوا ملهم. فلما رأهم أهل ملهم تحصنوا. فحرفت بنو يربوع بعض زرعهم وعقروا بعض نخيلهم. فلما رأى ذلك القوم نزلوا إليهم فقاتلهم، فهزمت بنو يشكر، وقتل عمرو بن صابر صبراً، ضربوا عنقه، وقتل عتيبة بن الحارث بن شهاب مئثم بن عبيد بن عمرو، رجلاً آخر منهم، وقتل مالك بن نوية حمران بن عبد الله، وقال:

طَلَبْنَا بِيَوْمٍ مِثْلَ يَوْمِكَ عَقْمًا
لَعْمَرِي لَمَنْ يَسْعَى بِهَا كَانَ أَكْرَمًا
فَقَتَلْنَا بَجَنْبِ الْعَرِضِ عَمْرَوِ بْنِ صَابِرٍ
وَحُمُرَانَ أَقْصَدِنَاهُمَا وَالْمُتَمَّمَا
فَلَلَّهَ عَيْنًا مَنْ رَأَى مِثْلَ خَيْلِنَا
وَمَا أَدْرَكَتْ مِنْ خَيْلِهِمْ يَوْمَ مَلْهَمَا

يوم القحح وهو يوم مالة. لبني يربوع على بني بكر

أغار بنو أبي ربيعة بن ذهل بن شيبان على بني يربوع، ورئيسهم المحبة ابن أبي ربيعة بن ذهل، فأخذوا إبلاً لعاصم بن قرط، أحد بن عبيد، وانطلقوا. فطلبهم بنو يربوع فناوشوهم، فكانت الدائرة على بني أبي ربيعة. وقتل المنهال بن عصمة المحبة بن ابن ربيعة. فقال في ذلك ابن نمران الرياحي:

وَإِذَا لَقِيتَ الْقَوْمَ فَاطْعَنَ فِيهِمْ
يَوْمَ اللَّقَاءِ كَطَعْنَةِ الْمِنْهَالِ

يوم رأس العين لبني يربوع على بكر

أغارَت طوائفُ من بني يربوع على بني أبي ربيعة برأس العين، فاطردوا النعم. فاتبعهم معاوية بن فراس في بني أبي ربيعة فأدركوهم، فقتل معاوية ابن فراس وفاتوا بالإبل. وقال سحيم في ذلك:

نَمَوْنِي مِنْهُمْ عَمِّي وَخَالِي

أليس الأكرمون بنو رياح

تَنُوحَ عَلَيْهِمَا سُودَ اللَّيَالِي

هُمْ قَتَلُوا الْمَجَبَّةَ وَابْنَ تَيْمٍ

بِرَأْسِ الْعَيْنِ فِي الْحَجَجِ الْخَوَالِي

وَهُمْ قَتَلُوا عَمِيدَ بَنِي فِرَاسٍ

ذِيادَ غَرَائِبِ الْإِبِلِ النَّهَالِ

وَذَاذِ يَوْمِ طَخْفَةَ عَنْ حِمَاهِمُ

يوم العظالي لبني يربوع على بكر

قال أبو عبيدة: وهو يوم أعشاش، ويوم الأفافة، ويوم الإياد، ويوم مليحة.

قال: وكانت بكر بن وائل تحت يد كسرى وفارس، وكانوا يُجبرونهم ويُجهزونهم، فأقبلوا من عند عامل عين التمر في ثلاثمائة فارس مُتساندين يتوقعون انحدار بني يربوع في الحزن، وكانوا يَشْتُونَ خُفَافًا، فإذا انقطع الشتاء انحدروا إلى الحزن. قال: فاحتمل بنو عتيبة وبنو عبيد وبنو زبيد، من بني سليط، من أول الحي حتى أسهلوا بطن مليحة، فطلعت بنو زبيد في الحزن حتى حلوا الحديقة والأفافة، وحلت بنو عتيبة وبنو عبيد بعين بروضة الشمد. قال: وأقبل الجيش حتى نزلوا هضبة الحصي، ثم بعثوا رئيسهم. فصادفوا غلاماً شاباً من بني عبيد، يقال له: قُرط بن أضب، فعرفه بسطام، وقد كان عرف عامة غلمان بني ثعلبة حين أسره عتيبة - قال: وقال سليط: بل هو المطوح بن قرواش - فقال له بسطام: أخبرني ما ذاك السواد الذي أرى بالحديقة؟ قال: هم بنو زبيد. قال: أفيهم أسيد بن حنائة؟ قال: نعم، كم هم؟ قال: خمسون بيتاً، قال: فأين بنو عتيبة وأين بنو أزم؟ قال: نزلوا روضة الشمد. قال: فأين سائر الناس؟ قال: هم مُحْتَجِزُونَ بِخُفَافٍ. قال: فمن هناك من بني عاصم؟ قال: الأحيمر، وقعناب، ومعدان، ابنا عصمة. قال: فمن فيهم من بني الحارث بن عاصم؟ قال: حصين ابن عبد الله. فقال بسطام لقومه: أطيعوني تقبضوا على هذا الحي من بني زبيد وتصبحوا سالمين غانمين. قالوا: وما يعني عنا زبيد، لا يردون رحلتنا. قال: إن السلامة إحدى الغنيمات. فقال له مفروق: انتفخ سحر ك يا أبا الصهباء. وقال له هاني: أجبننا! فقال لهم: ويلكم، إن أسيداً لم يظله بيت قط شاتياً ولا قائظاً، إنما بيته الففر، فإذا أحس بكم أحال على الشقراء فركض حتى يُشرف على مليحة، فينادي: يا ليربوع، فتركب؟ فيلقاكم طعن يُنسيكم الغنيمة، ولا يبصر أحدكم مصرع صاحبه، وقد جئتموني، وأنا أتابعكم، وقد أخبرتكم ما أنتم لا قون غداً. فقالوا: نلتقط بني زبيد ثم نلتقط بني عبيد وبني عتيبة، كما تلتقط الكمأة، ونبعث فارسين فيكونان بطريق أسيد فيحولان بينه وبين يربوع، ففعلوا. فلما أحس بهم أسيد ركب الشقراء، ثم خرج نحو بني يربوع. فابتدره الفارسان، فطعن أحدهما، فألقى نفسه في شق فأخطاه، ثم كر راجعاً حتى أشرف على مليحة، فنادى: يا صباحاه، يا ليربوع، غشيتهم. فتلاحقت الخيل حتى توافوا بالعظالي، فاقتتلوا، فكانت الدائرة على بني بكر، قتل منهم: مفروق بن عمرو، فدفن بثنية يقال لها ثنية مفروق، والمقاسع الشيباني، وزهير بن الحزور الشيباني، وعمور بن الحزور الشيباني، والهيش بن المقعاس، وعمير بن الوداك؟ والضريس. وأما بسطام، فألح عليه فارسان من بني يربوع، وكان دارعاً على ذات التسوع، وكانتا إذا أجدت لم يتعلق بها شيء من خيلهم، وإذا أوعثت كادوا يلحقونها، فلما رأى ثقل درعة وضعها بين يديه على القربوس وكره أن يرمى بها، وخاف أن يلحق في الوعث، فلم يزل ديدنه وديدن طالبه حتى حميت الشمس وخاف اللحاق، فمرّ بو جار ضبع، فرمى الدرع فيه، فمدّ بعضها بعضاً حتى غابت في الوجار. فلما خفف

عن الفرس نَشِطَتْ ففاتت الطَّلَب، وكان آخر مَنْ أتى قومَه، وكان قد رَجَعَ إلى دِرْعِه لما رجع عنه القومُ فأخذها. فقال العوَّام بن شوذب الشيباني في بسْطام وأصحابه:

فيومُ العُظالي كان أخزَى وألوما
وكانوا على الغازين دَعْوَةً أَشْأَمًا
لو الحارث الحَرَّاب يدعى لأَقْدَمًا
لأدَّى إلى الأحياء بالحنو مَغْنَمًا
وألَقَى بأبدان السِّلاح وسلَّمًا
يَعُدُّ غانمًا أو يَمَلأ البيت مَأْتَمًا
مُسوِّمة تدعو عبيدًا وأزْتَمًا

ويومُ العُظالي إن فخرتَ مُكَلِّمًا
وغادرَ في كَرِشَاءٍ لَدُنَّا مَقوِّمًا
مَفَارِقُ مَفْرُوقٍ تَغشَّينَ عِنْدَمَا

ولم يَخْم عن قِتالِ القومِ إذ نَزَلَا
حامِي الذِّمارِ حقيق بالذي فَعَلَا

إنْ يَك في يومِ الغبيطِ مَلَامَةٌ
أناخُوا يريدون الصَّبَّاح فصبَّحُوا
فررتُم ولم تُلُوا على مُجْحِرِكُم
ولو أنْ بسْطامًا أُطِيع لأمره
ففرَّ أبو الصهباء إذ حَمَى الوعى
وأيقن أنَّ الخيلَ إنْ تَلْتَبس به
ولو أنها عُصفورة لحسبها

أبى لك قَيْد بالغبيطِ لقاءهم
فأقلتَ بسطامَ جَرِيضًا بِنَفْسِه
وفاظ أسيرًا هانئًا وكأَنَّمَا

قال: ثم إن هانتاً فدَى نفسه وأسرى قومَه، فقال العوَّام في ذلك:

إنَّ الفتى هانئًا لاقى يشكته
ثمت سارَع في الأسرى فَفَكَّهُم

يوم الغبيط لبني يربوع على بني بكر

قال أبو عُبيدة: يقال لهذا اليوم: يوم الغبيط ويوم الثعالب. والثعالب: أسماء قبائل اجتمعت فيه، ويقال له يوم صحراء فلج، وقال أبو عُبيدة: حدَّثني سَلِيط بن سَعْد وزَبَّان الصُّبيري وجَهْم بن حسان السَّلِيطي، قالوا: غزا بسْطام بن قيس، ومَفْرُوق بن عَمرو، والحارث بن شريك، وهو الحَوْفزان، بلادَ بني تميم - وهذا اليومُ قبلَ يومِ العُظالي - فأغاروا على بني ثعلبة بن يربوع، وثعلبة بن سعد بن ضبة، وثعلبة بن عدي بن فزارة، وثعلبة بن سعد بن ذبيان. فلذلك قيل له يوم الثعالب، وكان هؤلاء جميعاً مُتجاورين بصحراء فلج، فاقتتلوا، فانهزمت الثعالبُ فأصابوا فيهم واستاقوا إبلًا من نَعْمهم. ولم يَشهد عُتَيْبَةُ بن الحارث بن شهاب هذه الوَقعة، لأنه كان نازلًا يومئذ في بني مالك بن حَنْظَلَة، ثم امترأوا على بني مالك، وهم بين صحراء فلج وبين العَبِيط، فاكْتسحوا إيلَهُم. فركبتُ عليهم بنو مالك، فيهم عتبية بن الحارث بن شهاب ومعه فرسان من بني يربوع تَأْتَفُهُم - أي صاروا لهم مثل الأثافي للرماد - وتألَّف إليهم الأحمير بن عبد الله، والأسيد بن حنَّاء، وأبو مَرْحَب، وجزء ابن سعد الرِّياحي، وهو رئيس بني يربوع، وربيع والحليس وعمارة، بنو عُتَيْبَةَ بن الحارث، ومعدان وعِصْمَة، ابنا قعنب، ومالك بن نُويرة، والمنهال بن عِصْمَة، أحد بني رياح بن يربوع، وهو الذي يقول فيه مُتَمَم بن نُويرة في شعره الذي يرثي فيه مالكا أخاه:

فتى غير مِبْطان العَشِيَّة أروعا

لقد غيَّب المنهالُ تحت لوائه

فأدركوهم بغيطة المدرة، فقاتلوهم حتى هزموهم، وأدركوا ما كانوا استاقوا من أموالهم. وألح عُتَيْبَةُ وأَسِيدُ والأَحِمِرُ على بسطام. فلحقه عُتَيْبَةُ، فقال: أَسْتَأْسِرُ لِي يَا أَبَا الصَّهْبَاءِ. فقال: ومن، أنت؟ قال: أنا عُتَيْبَةُ، وأنا خيرٌ لك من الفلاة والعطش. فأسره عُتَيْبَةُ، ونادى القومَ بِجَادًا، أحمًا بسطام: كُرَّ على أخيك، وهم يرجون أن يأسروه. فناده بسطام: إن كررت فأنا خفيف وكان بسطام نصرانيًا، فلحق بجاد بقومه. فلم يزل بسطام عند عُتَيْبَةَ حتى فادى نفسه.

قال أبو عُبَيْدَةَ: فزعم أبو عمرو بن العلاء أنه فدى نفسه بأربعمائة بغير وثلاثين فرسًا - ولم يكن عربي عكاظي أعلى. فداء منه - على أن جز ناصيته وعاهده أن لا يعزو بني شهاب أبداً. فقال عُتَيْبَةُ بن الحارث بن شهاب:

أَبْلَغُ سِرَاةِ بَنِي شَيْبَانَ مَالِكَةً
قَاطِ الشَّرْبَةِ فِي قَيْدٍ وَسِلْسَلَةٍ
أَنِّي أَبَاتُ بَعْدُ اللَّهِ بِسْطَامَا
صَوْتِ الْحَدِيدِ يُغْنِيهِ إِذَا قَامَا

يوم مخطط لبني يربوع على بكر

قال أبو عُبَيْدَةَ غَزَا بِسْطَامُ بَنَ قَيْسِ وَالْحَوْفَرَانَ، وَهُوَ الْحَارِثُ، مُتَسَانِدِينَ يَقُودَانِ بَكْرَ بَنِ وَاثِلٍ حَتَّى وَرَدُوا عَلَى بَنِي يَرْبُوعَ بِالْفَرْدُوسِ، وَهُوَ بَطْنٌ لِإِيَادٍ، وَبَيْنَهُ وَبَيْنَ مُخَطَّطِ لَيْلَةٍ، وَقَدْ نَذَرْتُ بِهِمْ يَبْنُو يَرْبُوعَ، فَالْتَقَوْا بِالْمُخَطَّطِ فَاقْتَتَلُوا. فَاهْزَمَتْ بَكْرُ بَنِ وَاثِلٍ وَهَرَبَ الْحَوْفَرَانُ وَبِسْطَامُ ففَاتَا رَكْضًا. وَقُتِلَ شَرِيكُ ابْنِ الْحَوْفَرَانَ، قَتَلَهُ شِهَابُ بَنِ الْحَارِثِ أَخُو عُتَيْبَةَ، وَأَسَرَ الْأَحِمِرُ بَنَ عَبْدِ اللَّهِ ابْنَ الضَّرِيرِ الشَّيْبَانِيِّ. فَقَالَ فِي ذَلِكَ مَالِكُ بَنِ نُورَةَ، وَلَمْ يَشْهَدْ هَذَا الْيَوْمَ:

إِلَّا أَكُنْ لَأَقِيْتُ يَوْمَ مَخْطَطٍ
بِأَفْنَاءِ حَيٍّ مِنْ قِبَائِلِ مَالِكٍ
فَقَالَ الرَّئِيسُ الْحَوْفَرَانُ تَبَيَّنُوا
فَقَدْ خَبَرَ الرُّكْبَانَ مَا أَتَوَدُّ

فَمَا فَنَّتُوا حَتَّى رَأَوْنَا كَأَنَّنا
بِمَلْمُومَةٍ شَهْبَاءِ يُبْرِقُ جَالِهَا
فَمَا بَرَحُوا حَتَّى عَلَّتْهُمْ كِتَابُ
فَأَقْرَرْتُ عَيْنِي يَوْمَ ظَلُّوا كَأَنَّهُمْ
صَرِيْعٌ عَلَيْهِ الطَّيْرُ يُحْجِلُ فَوْقَهُ
وَكَانَ لَهُمْ فِي أَهْلِهِمْ وَنَسَائِهِمْ
وَقد كَانَ لابنِ الْحَوْفَرَانَ لَوْ انْتَهَى

يوم جدود

غَزَا الْحَوْفَرَانَ، وَهُوَ الْحَارِثُ بَنَ شَرِيكٍ، فَأَغَارَ عَلَى مَنْ بِالْقَاعَةِ مِنْ بَنِي سَعْدِ بَنِ زَيْدِ مَنَاةَ، فَأَخَذَ نَعْمًا كَثِيرًا وَسَبَى فِيهِنَّ الزَّرْقَاءَ، مِنْ بَنِي رَبِيعِ بَنِ الْحَارِثِ، فَأَعْجَبَ بِهَا وَأَعْجَبَتْ بِهِ، وَكَانَتْ حَرَقَاءَ، فَلَمْ يَتَمَالِكْ أَنْ وَقَعَ بِهَا. فَلَمَّا انْتَهَى إِلَى جَدُودِ مَنْعَتَهُمْ بَنُو يَرْبُوعَ بَنَ حَنْظَلَةَ أَنْ يَرِدُوا الْمَاءَ،

ورئيسهم عتيبة ابن الحارث بن شهاب، فقاتلوهم. فلم يكن لبني بكر بهم يد، فصالحوهم على أن يعطوا بني يربوع بعض غنائمهم، على أن يخلوهم يردوا الماء، فقبلوا ذلك وأجازوهم. فبلغ ذلك بني سعد، فقال قيس بن عاصم في ذلك:

إذا ذكرت في النائبات أمورها
وسالمتم والخيل تدمى نحورها

جزى الله يربوعاً بأسوأ سعيها
ويوم حدود قد فضحتم أباكم

فأجابه مالك:

رقاب إماء كيف كان نكيرها

سأسال من لاقى فوارس منقذ

ولما أتى الصريخ بني سعد ركب قيس بن عاصم في إثر القوم حتى أدركهم بالأشيمين، فألح قيس على الحوفزان، وقد حمل الزرقاء. وكان الحوفزان قد خرج في طليعة، فلقبه قيس بن عاصم فسأله: من هو؟ فقال: لا تكأثم اليوم، أنا الحوفزان، فمن أنت؟ قال: أنا أبو علي، ومضى. ورجع الحوفزان إلى أصحابه، فقال: لقيت رجلاً أزرق كأن لحيته ضريبة صوف، فقال: أنا أبو علي. فقالت عجوز من السبي: بأي أبو علي، ومن لنا بأي علي؟ فقال لها: ومن أبو علي؟ قالت: قيس بن عاصم. فقال لأصحابه: النجاء، وأردف الزرقاء خلفه وهو على فرسه الزيد، وعقد شعرها إلى صدره ونجاها. وكانت فرس قيس إذا أوعثت قصرت وتمطرت عليها الزيد. فلما أجدت لحقت بحيث تكلم الحوفزان. فقال قيس له: يا أبا حمار، أنا خير لك من الفلاة والعطش. قالت له الحوفزان: ما شاءت الزيد. فلما رأى قيس أن فرسه لا تلحقه نادي الزرقاء، فقال: ميلي به يا جعار. فلما سمعه الحوفزان دفعها بمرقه وجز قرونها بسيفه. فلما ألقاها عن عجز فرسه. وخاف قيس ألا يلحقه، فنجله بالرمح في خرابة وركه، فلم يقصده وعرج عنها. ورد قيس الزرقاء إلى بني الربيع. فقال سوار بن حيان المنقري:

تمج نجيعاً من دم الجوف أشكلاً

ونحن حفرة الحوفزان بطعنة

يوم سفوان

قال أبو عبيدة: التقت بنو مازن وبنو شيبان على ماء يقال له سفوان، فزعمت بنو شيبان أنه لهم، وأرادوا أن يجلوا تميماً عنه، فاقتلوا قتلاً شديداً، فظهرت عليهم بنو تميم وذادوهم حتى وردوا المحدث، وكانوا يتواعدون بني مازن قبل ذلك، فقال في ذلك وذاك المازني:

تلاقوا غداً خيلي على سفوان
إذا الخيل جالت في القنا المتداني
ليوث طعان كل يوم طعان
على ما جنت فيهم يد الحداث
بكل رقيق الشفرتين يمان
لأية حرب أم لأي مكان

رويداً بني شيبان بعض وعيدكم
تلاقوا جياداً تحيد عن الوعى
عليها الكماة الغر من آل مازن
تلاقوهم فتعرفوا كيف صيرهم
مقاديم وصالون في الروع خطوهم
إذا استجدوا لم يسألوا من دعاهم

يوم السلي

قال أبو عبيدة: كان من حديث يوم السلي أن بني مازن أغارت على بني يشكر فأصابوا منهم، وشد زاهر بن عبد الله بن مالك على تيم بن ثعلبة اليشكري فقتله، فقال في ذلك:

لِلَّهِ تَيْمٌ أَيُّ رُوحِ طِرَادٍ

وَمِحْشٌ حَرْبٌ مُقَدَّمٌ مُتَعَرِّضٌ

وقال حاجب بن ذُيَّان المازني:

لَأَقَى الحِمَامَ وَأَيُّ نَصَلِ جِلَادٍ

للموت غير مُعَرِّد حَيَادٍ

سَلِيٌّ يَشْكُرُ عَنِي وَأَبْنَاءُ وَائِلٍ

أَلَمْ تَعَلِّمِي أَنَا إِذَا الحَرْبُ شَمِرَتْ

عِنَاءُ قُرَاةٍ فِي الشِّتَاءِ مَسَاعِرٌ

بِأَيْدِيهِمْ سُمْرٌ مِنَ الخَطِّ لَدَنَّةٌ

أُولَئِكَ قَوْمٌ إِنْ فخرتُ بَعْزَهُمْ

هُمُ أَنْزَلُوا يَوْمَ السَّلِيِّ عَزِيزَهَا

لَهَازِمَهَا طُرّاً وَجَمَعَ الأَرَاقِمِ

سِمَامٌ عَلَى أَعْدَائِنَا فِي الحَلَاقِمِ

حُمَاةٌ كَمَاةٌ كَاللِّيُوثِ الضَّرَاغِمِ

وَبِيضٌ تُجَلَّى عَن فِرَاحِ الجَمَاجِمِ

فخرتُ بَعْزَ فِي اللّهِى وَالعَلَاصِمِ

بِسُمْرِ العَوَالِيِ وَالسُّيُوفِ الصَّوَارِمِ

يوم نقا الحسن وهو يوم السقيفة - لبني ضبة علي بنى شيبان

قال أبو عبيدة: غزا بسطام بن مسعود بن قيس بن خالد، وقيس بن مسعود، وهو ذو الجدين، وأخوه السليل بن قيس بن ضبة بن أد ابن طابخة، فأغار على ألف بعير لمالك بن المنتفق فيها فحلها قد فقأ عينه، وفي الإبل مالك بن المنتفق. فركب فرساً له ونجا ركضاً، حتى إذا دنا من قومه نادى: يا صباحاه. فركبت بنو ضبة، وتداعت بنو تميم، فتلاحقوا بالنقا. فقال عاصم بن خليفة لرجل من فرسان قومه: أيهم رئيس القوم؟ قال: حاميتهم صاحب الفرس الأدهم - يعني بسطاماً - فعلا عاصم عليه بالرمح، فعارضه، حتى إذا كان بجذائه رمى بالقوس وجمع يديه في رُحْمه فطعنه، فلم تخطئ صمّاح أذنه، حتى خرج الرمح من الناحية الأخرى، وخر على الألاءة - والألاءة: شجرة - فلما رأى ذلك بنو شيبان حلوا سبيلاً بن مسعود، أخوا بسطام، في سبعين من بني شيبان. فقال ابن عَنَمَة الضبي: وهو مجاور يومئذ في بني شيبان، يرثي بسطاماً، وخاف أن يقتلوه، فقال:

لَأَمَّ الأَرْضُ وَيْلٌ مَا أُجِنْتُ

يَقْسِمُ مَالَهُ فِينَا وَيَدْعُو

كَأَنَّكَ لَمْ تَرَيْهِ وَلَنْ نَرَاهُ

حَقِيبَةٌ رَحَلَهَا بَدَنٌ وَسَرَجٌ

إِلَى مِيعَادٍ أُرْعَنَ مَكْفَهْرٌ

لَكَ المَرْبَاعُ مِنْهَا وَالصَّفَايَا

لَقَدْ ضَمِنَتْ بَنُو زَيْدِ بِنِ عَمْرُو

فخر على الألاءة لم يوسد

فإن تجزع عليه بنو أبيه

بمطعم إذا الأشوال راحت

وقال شَمْعَلَةُ بِنِ الأَخْضَرِ بِنِ هُبَيْرَةَ:

بَحِيثٌ أَضَرَ بِالحَسَنِ السَّبِيلِ

أَبَا الصَّهْبَاءِ إِذْ جَنَحَ الأَصِيلِ

تَخَبَّ بِهِ عُدَاوَةٌ دَمُؤُلٌ

تُعَارِضُهَا مُرْبِيبَةٌ دَعُؤُلٌ

تُضْمَرُ فِي جَوَانِبِهِ الخُبُولِ

وَحُكْمُكُ وَالنَّشِيطَةُ وَالفُضُولُ

وَلَا يُوفِي بِبِسطَامِ قَتِيلِ

كَأَنَّ جَبِينَهُ سَيْفٌ صَقِيلِ

فَقَدْ فُجِعُوا وَحَلَّ بِهِمْ جَلِيلِ

إِلَى الحَجَرَاتِ لَيْسَ لَهَا فَصِيلِ

ويم شقائق الحسنيين لاقت

شككنا بالرماح وهن زور

وأوجزناه أسمر ذا كعوب

وقال مُحَرِّزُ بنِ المُكْعَبِ الضُّبِّي:

أطلقت من شيبان سبعين راكباً

إذا كنت في أفناء شيبان مُنعماً

فلا شكرهم أبغي إذا كنت مُنعماً

بنو شيبان آجالاً قصارا

صمّاخي كبشهم حتى استدارا

يُشَبِّه طوله مسداً مُغارا

فأبوا جميعاً كلهم ليس يشكر

فجزّ اللحى إنّ النواصي تكفر

ولا ودّهم في آخر الدهر أضمر

أيام بكر على تميم

يوم الزويرين

قال أبو عبيدة: كانت بكر بن وائل تنتجع أرض تميم في الجاهلية ترعى بها إذا أجدبوا. فإذا أرادوا الرجوع لم يدعوا عورة يُصيبونها ولا شيئاً يظفرون به إلا اكتسحوه. فقالت بنو تميم: امنعوا هؤلاء القوم من رعي أرضكم وما يأتون إليكم. فحشدت تميم وحشدت بكر واجتمعت، فلم يتخلف منهم إلا الحوافران ابن شريك في أناس من بني ذهل بن شيبان، وكان غازياً. فقدّمت بكر عليهم عمراً الأصمّ أبا مَفْرُوق - قال: وهو عمرو بن قيس بن مسعود، أبو عمرو ابن أبي ربيعة بن ذهل بن شيبان - فحسد سائر ربيعة الأصمّ على الرياسة، فأتوه فقالوا: يا أبا مَفْرُوق، إنا قد زحفنا لتميم وزحفوا لنا أكثر ما كنا وكانوا قطّ. قالت: فما تريدون؟ قالوا: نُريد أن نجعل كل حيّ على حياله ونجعل عليهم رجلاً منهم فنعرف غناء كل قبيلة، فإنه أشدّ لاجتهاد الناس. قال: والله إني لأبغض الخلاف عليكم، ولكن يأتي مَفْرُوق فينظر فيما قلتم. فلما جاء مَفْرُوق شاوره أبوه - وذلك أول يوم ذكر فيه مَفْرُوق بن عمرو - فقال له مَفْرُوق: ليس هذا أرادوا، وإنما أرادوا أن يخدعوك عن رأيك وحسدوك على رياستك، والله لئن لقيت القوم فظفرت لا يزال الفضل لنا بذلك أبداً، ولئن ظفرت بك لا تزال لنا رياسة تُعرف بها. فقال الأصم: يا قوم، قد استشرت مَفْرُوقاً فرأيتُه مخالفاً لكم، ولستُ مخالفاً رأيه وما أشار به. فأقبلت تميم بمجملين مجملين مقرونين مُقيدين وقالوا: لا نُؤلي حتى يُؤلي هذان الجمالان، وهما الرُّوَيْران. فأخبرت بكر بقولهم الأصم. وأنا زُوَيْركم، إن حشوهما فحشوني، وإن عقروهما فاعقروني. قال: والتقى القوم فافتتلوا قتالاً شديداً. قال: وأسرت بنو تميم حرّاث بن مالك، أختاً مرة بن همام، فركض به رجل منهم وقد أردفه، وأتبعه ابنه قتادة بن حرّاث حتى لحق الفارس الذي أسر أباه، فطعنه فأراده عن فرسه واستنقذ أباه. ثم استحرّ بين الفريقين القتال، فانهزمت بنو تميم، فقتل منهم مقتلة عظيمة، فممن قُتل منهم: أبو الرئيس التّهشلي. وأخذت بكر الزويرين، أخذتهما بنو سدوس بن شيبان بن ذهل بن ثعلبة؟ فنحروا أحدهما فأكلوه واقتحلوا الآخر، وكان نجيياً، فقال رجل من بني سدوس:

يا سلّم إن تسألني عنا فلا كشف

نحن الذين هزّمتنا يوم صبّنا

ظلّوا وظلّنا نكرّ الخيل وسنطهم

وقال الأغب بن حُشم العجلي:

عنا اللّقاء ولسنا بالمقاريف

جيش الزُوَيْرين في جمع الأحاليف

بالشيب منّا وبالمرّد الغطاريف

شيخ لنا قد كان من عهد إرم

كهمة اللّيث إذا ما اللّيث همّ

جاعوا بزويرهم وجننا بالأصمّ

فكر بالسيف الرّمح انحطم

مُخْلِصَةً مِنَ الْغَلَاصِمِ الْعَظَمِ
وَصَبَرُوا لَوْ صَبَرُوا عَلَى أُمَّمٍ
فَلَمْ تَدَّعِ سَاقًا لَهَا وَلَا قَدَمًا

كَانَتْ تَمِيمٌ مَعْشَرًا ذَوِي كَرَمٍ
قَدْ نَفَخُوا لَوْ يَنْفُخُونَ فِي فَحَمٍ
إِذْ رَكِبْتَ ضَبَّةَ أَعْجَازِ النَّعَمِ

يوم الشيطان لبكر على تميم

قال أبو عبيدة: لما ظهر الإسلام، قبل أن يُسلم أهل نجد والعراق، سارت بكر بن وائل إلى السواد، وقالت: نغير على تميم بالشيطان، فإن في دين ابن عبد المطلب إنه من قتل نفساً قُتل بما. فُغير هذا العام، ثم نُسلم عليها. فارتحلوا من لعل بالذَّراي والأموال، فأتوا الشَّيْطِينَ فِي أَرْبَعٍ، وَبَيْنَهُمَا مَسِيرَةٌ ثَمَانِ أَمْيَالٍ، فَسَبَقُوا كُلَّ خَيْرٍ حَتَّى صَبَّحُوهُمْ وَهُمْ وَلَا يَشْعُرُونَ، وَرَأَيْتُهُمْ يَوْمَئِذٍ بِشَرِّ بْنِ مَسْعُودِ بْنِ قَيْسِ بْنِ خَالِدِ بْنِ ذِي الْجَدَيْنِ، فَقَتَلُوا بَنِي تَمِيمٍ قِتْلًا ذَرِيعًا وَأَخَذُوا أَمْوَالَهُمْ. وَاسْتَحَرَّ الْقَتْلُ فِي بَنِي الْعَنْبَرِ وَبَنِي ضَبَّةَ وَبَنِي يَرْبُوعَ، دُونَ بَنِي مَالِكِ بْنِ حَنْظَلَةَ.
قال أبو عبيدة: حَدَّثَنَا أَوْ الْحَمَاءُ الْعَنْبَرِيُّ، قَالَ: قُتِلَ مِنْ بَنِي تَمِيمٍ يَوْمَ الشَّيْطَانِ وَلَعَلَّ سِتْمِائَةَ رَجُلٍ. قَالَ: فَوَفِدَ وَفْدُ بَنِي تَمِيمٍ عَلَى النَّبِيِّ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ، فَقَالُوا: ادْعِ اللَّهَ عَلَى بَكْرِ بْنِ وَائِلٍ. فَأَبَى رَسُولُ اللَّهِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ. فَقَالَ رُشَيْدُ بْنُ رُمَيْضِ الْعَنْبَرِيُّ:

إِلَّا مَرَاجِعُ أَرْبَعٍ

وَمَا كَانَ بَيْنَ الشَّيْطَانِ وَلَعَلَّ لِنَسْوَتِنَا

يَكَادُ لَهُ ظَهْرُ الْوَرِيعةِ يَظْلَعُ
لَهُ عَارِضٌ فِيهِ الْأَسْنَةُ تَلْمَعُ
فَكَانَ لَهُمْ يَوْمٌ مِنَ الشَّرِّ أَشْنَعُ
حَمِيٌّ مِنْهُمْ لَا يَسْتَطَاعُ مُنْعُ

فَجَبْنَا بِجَمْعٍ لَمْ يَرَ النَّاسُ مِثْلَهُ
بِأَرْعَنَ دَهْمٍ تُتَشَدُّ الْبَلْقُ وَسَطَهُ
صَبَحْنَا بِهِ سَعْدًا وَعَمْرًا وَمَالِكًا
فَخَلَّوْا لَنَا صَحْنُ الْعِرَاقِ فَإِنَّهُ

يوم صعقوق لبكر على تميم

أغارَتِ بَنُو أَبِي رَبِيعَةَ عَلَى بَنِي سَلَيْطِ بْنِ يَرْبُوعِ يَوْمَ صَعْقُوقٍ فَأَصَابُوا مِنْهُمْ أُسْرَى. فَأَتَى طَرِيفُ بْنُ تَمِيمِ الْعَنْبَرِيُّ فِرْوَةَ بْنَ مَسْعُودٍ، وَهُوَ يَوْمَئِذٍ سَيِّدُ بَنِي أَبِي رَبِيعَةَ، فَدَعَى مِنْهُمْ أُسْرَى بَنِي سَلَيْطِ وَرَهْنَهُمْ ابْنَهُ. فَأَبْطَأَ عَلَيْهِمْ، فَقَتَلُوا ابْنَهُ، فَقَالَ:

صَرَمِي الطَّعَائِنِ بَعْدَ الْيَوْمِ صَعْقُوقٍ
ثُمَّ انصَرَفْتُ وَظَنِّي غَيْرَ مَوْثُوقٍ

لَا تَأْمَنَنَّ سَلِيمِي أَنْ أَفَارِقَهَا
أَعْطَيْتَ أَعْدَاءَهُ طَوْعًا بَرْمَتَهُ

يوم مباحض لبكر على تميم

قال أبو عبيدة: كانت الفُرسان إذا كانت أيامُ عُكاظ في الشهر الحرام وأمن بعضهم بعضاً تقنَّعوا كيلاً يُعرفوا، وكان طَريفُ بْنُ تَمِيمِ الْعَنْبَرِيِّ لَا يَتَقَنَّعُ كَمَا يَتَقَنَّعُونَ، فَوَافِيَ عُكَازًا وَقَدْ كَشَفَتْ بَكْرُ بْنُ وَائِلٍ، وَكَانَ طَرِيفُ قَدْ قَتَلَ شَرَّاحِيلَ الشَّيْبَانِيَّ، أَحَدَ بَنِي عَمْرِو بْنِ أَبِي رَبِيعَةَ بْنِ ذُهَلِ بْنِ شَيْبَانَ. فَقَالَ حَصِيصُهُ: أَرُونِي طَرِيفًا. فَأَرَوْهُ إِيَّاهُ. فَجَعَلَ كُلُّمَا مَرَّ بِهِ تَأْمَلُهُ وَنَظَرَ إِلَيْهِ فَفَطِنَ طَرِيفُ، فَقَالَ: مَالِكُ تَنْظُرُ إِلَيَّ؟ فَقَالَ: أَتَوْسَمُكَ لِأَعْرِفَكَ. فَللهِ عَلِيٌّ إِنْ لَقَيْتُكَ أَنْ أَقْتَلَكَ أَوْ تَقْتَلَنِي. فَقَالَ طَرِيفُ فِي ذَلِكَ:

بَعَثُوا إِلَيَّ عَرِيفَهُمْ يَتَوْسَمُ

أَوْ كُلُّمَا وَرَدَتْ عُكَازَ قَبِيلَةٍ

فتوسموني إنني أنا ذلكم

تحتي الأغر وفوق جلدي نثرة

حولي أسيدٌ والهجوم ومازنٌ

شاكبي سلاحي في الحوادث مُعلمٌ

زَعَفَ تَرْدُ السيفِ وهو مُتَلَمٌ

وإذا حللتُ فحولَ بيتي خَصَمٌ

قال: فمضى لذلك ما شاء الله. ثم إن بني عائذة، حلفاء بني أبي ربيعة بن ذهل بن أبي شيبان. وهم يزعمون أنهم من قريش، وأن عائذة ابن لؤي بن غالب-خرج منهم رجلان يصيدان فعرض لهما رجل من بني شيبان فذعر عليهما صيدهما، فوثبا عليه فقتلاه. فثارت بنو مرة بن ذهل بن شيبان يريدون قتلها. فأبت بنو أبي ربيعة عليهم ذلك. فقال هانئ بن مسعود: يا بني أبي ربيعة، إن إخوانكم قد أرادوا ظلمكم، فانمازوا عنهم. قال: ففارقوهم وساروا حتى نزلوا بمبايض ماء، - ومبايض: علم من وراء الدهناء- فأبق عبدٌ لرجل من بني أبي، ربيعة فسار إلى بلاد تميم، فأخبرهم أن حياً جديداً من بني بكر بن وائل نزل على مبايض، وهم بنو أبي ربيعة، أو الحي الجديد المنتقى من قومه. فقال طريف العنبري: هؤلاء تأتي يا آل تميم، إنما هم أكلة رأس. وأقبل في بني عمرو بن تميم، وأقبل معه أبو الجدعاء، أحد بني طهية، وجاءه فدكي بن أعبد المثري في جمع من بني سعد بن زيد مائة، فتدبرت بهم بنو أبي ربيعة، فانحاز بهم هانئ بن مسعود، وهو رئيسهم، إلى علم مبايض، فأقاموا عليه. وشرقوا بالأموال والسرحة، وصبحتهم بنو تميم. فقال لهم طريف: أطيعوني وافرغوا من هؤلاء الأكلب يصف لكم ما وراءهم. فقال له أبو الجدعاء رئيس بني حنظلة، وفدكي رئيس سعد بن زيد مائة: أقتال أكلباً أحرزوا نفوسهم وترك أموالهم ما هذا برأي، وأبوا عليه. فقال هانئ لأصحابه: لا يُقاتل رجل منكم. ولحقت تميم بالتعم والبالغ، فأغاروا عليها. فلما ملئوا أيديهم من الغنيمة، قال هانئ بن مسعود لأصحابه: احمِلوا عليهم. فهزموهم وقتلوهم طريفاً العنبري، قتله حمصيصة الشيباني، وقال:

ولقد دعوتُ طريفَ دعوةَ جاهلٍ

وأنتيتُ حياً في الحروبِ محلهم

فوجدتُ قوماً يمنعونَ ذمارهم

وإذا دُعوا أبني ربيعة شَمروا

سَفَهَا وَأنتَ بعلمٍ قد تعلمُ

والجيشُ باسمِ أبيهم يستقدم

بُئسلاً إذا هابَ الفوارسُ أقدموا

بكتائبِ دونِ السماءِ تَلَمم

حَسَدُوا عليكِ وعَجَلوا بِقراهمُ

سلبوكِ دِرْعَكَ والأغرَّ كليهما

وحَمَوْا ذِمَارَ أبيهم أنْ يُشتموا

وبنو أسيدٍ أسلموكِ وخَصَم

يوم فيحان لبكر على تميم

قال أبو عبيدة: لما فدى نفسه بسطام بن قيس من عتيبة بن الحارث، إذ أسر يوم الغبيط، بأربعمائة بعير، قال: قال: لأدركن عقل إبلي. فأغار بفيحان فأخذ الربيع بن عتيبة وأستاق ماله. فلما سار يومين شغل عن الربيع بالشراب، وقد مال الربيع على قده حتى لان، ثم خلعه وانحل منه، ثم جال في متن ذات النُسوع -فرس بسطام- وهرب. فركبوا في إثره، فلما يتسوا منه ناداه بسطام يا ربيع، هلم طليقاً، فأبى. قال: وأبوه في نادي قومه يحدثهم، فجعل يقول في أثناء. حديثه: إيه يا ربيع، أنج يا ربيع، وكان معه ربي. قال: وأقبل ربيع حتى انتهى إلى أدن بني يربوع، فإذا هو براع، فاستسقاها، وضربت الفرس برأسها فماتت، فسمى ذلك المكان إلى اليوم: هببر الفرس. فقال له أبوه عتيبة: أما إذ نجوت بنفسك فإني مخلف لك مالك.

يوم ذي قار الأول لبكر على تميم

قال أبو عبيدة: فخرج عتبية في نحو خمسة عشر فارساً من بني يربوع، فكمن في حمى ذي قار حتى مرت إبل بني الحُصين بالفداوية، اسم ماء لهم، فصاحوا بمن فيها من الحامية والرعاء، ثم استاقوها. فأخلف للربيع ما ذهب له، وقال:

جلاداً في مباركها وخوراً
بذي قارٍ يرمون الأمورا

ألم ترني أفأت على ربيع
وأني قد تركت بني حصين

يوم الحاجر بكر على تميم

قال أبو عبيدة: خرج وائل بن صُريم اليشكري من اليمامة، فلقيه بنو أُسيّد ابن عمرو بن تميم فأخذوه أسيراً، فجعلوا يغمسونه في الركية ويقولون:

يأيها الماتح دُلّوى دُونكما

حتى قتلوه. فغزاهم أخوه باعث بن صُريم يوم حاجر، فأخذ ثمامة بنِ باعث ابن صُريم رجلاً من بني أُسيّد، كان وجيهاً فيهم، فقتله وقتل على بطنه مائة منهم. فقال باعث بن صُريم:

أم هل شفيت النفس من بلبالها
فملاؤها علّقاً إلى أسبالها
والبدر ليلة نصفها وهلالها
أبدأ فتتظر عينه في مالها

سائل أُسيّد هل ثارت بوائل
إذ أرسلوني ماتحاً لدلائهم
إن الذي سمك السماء مكانها
آليت أنقف منهم ذا لحيّة

وقال:

أم هل أتيتهم بأمرٍ مُبرم
فملاّتهن إلى العراقي بالدم

سائل أُسيّد هل ثارت بوائل
إذ أرسلوني ماتحاً لدلائهم

يوم الشقيق لبكر على تميم

قال أبو عبيدة: أغار أبحر بن جابر العجلي على بني مالك بن حنظلة، فسبى سُلَيْمى بنت محصن، فولدت له أبحر. ففي ذلك يقول أبو النجم:

حتى طرقت نساءها بمساء

ولقد كررت على طهية كرامة

حرب البسوس وهي حرب بكر وتغلب، ابني وائل

أبو المنذر هشام بن محمد بن السائب قال: لم تجتمع معد كلها إلا على ثلاثة رهط من رؤساء العرب، وهم: عامر وربيعه وكليب. فالأول: عامر بن الظرب بن عمرو بن بكر بن يشكر بن الحارث، وهو عدوان بن عمرو بن قيس بن عيلان، وهو الناس بن مضر. وعامر بن الظرب هو قائد معد يوم البيداء، حين تمدّحت مدّحج، وسارت إلى تهامة، وهي أول وقعة كانت بين تهامة واليمن.

والثاني: ربيعة بن الحارث بن مرة بن زهير بن حُشم بن بكر بن حُبيب ابن كعب، وهو قائد معدّ يوم السُلان، وهو يوم كان بين أهل تهامة واليمن. والثالث: كليب بن ربيعة، وهو الذي يُقال فيه: أعزّ من كليب وائل. وقاد معداً كلها يوم خزار، ففصّ جموع اليمن، وهزمهم. فاجتمعت عليه معدّ كلها، وجعلوا له قسم الملك، وتاجه وتحيته وطاعته. فعبر بذلك حيناً من دهره، ثم دخله زهو شديد، وبغى على قومه لما هو فيه من عزّة وانقياد معدّ

له، حتى بلغ من بغيه أنه كان يحمي مواقع السحاب، فلا يُرعى حماه، ويُجير على الدهر فلا تُحفر ذمته، ويقول: وحش أرض كذا في جوارِي فلا يُهاج، ولا تورِد إبلٌ أحدٍ مع إبله، ولا توقد نار مع ناره، حتى قالت العرب: أعزُّ من كليب وائل. وكانت بنو جُشم وبنو شيبان في دار واحدة بتهامة، وكان كُليب بن وائل قد تزوج جلييلة بنت مُرة بن ذهل بن شيبان، وأخوها حسّاس ابن مُرة. وكانت البسوس بنت مُنقذ التميمية خالة حسّاس بن مُرة، وكانت نازلةً في بني شيبان مجاورةً لحسّاس، وكانت لها ناقة يقال لها سَراب، ولها تقول العرب: أشأم من سَراب، وأشأم من البسوس فمرت إبل لكُليب بسَراب، ناقة البسوس، وهي معقولة بفناء بيتها في جوار حسّاس بن مُرة. فلما رأت سَرابُ الإبل نازعت عقالها حتى قطعته، وتبعته الإبل واحتلّطت بها حتى انتهت إلى كُليب، وهو على الحوض معه قوسٌ وكنانة. فلما رآها أنكرها، فانتزع لها سهماً، فخرم ضرعها، فنفرت الناقة وهي ترغو. فلما رأها البسوس قذفت خمارها عن رأسها وصاحت: وأذلاه! واجاراه! وخرجت.

فأحسست حسّاساً. فركب فرساً له مُعروية، فأخذ آتته، وتبعه عمرو ابن الحارث بن ذهل بن شيبان على فرسه ومعه رمحه، حتى دخلا على كليب الحمي، فقال له: أيا أبا الماحدة، عمدت إلى ناقة جاري فعقرتها. فقال له: أترك ما نعي إن أذب عن حماي؟ فأحسسه الغضب، فطعنه حسّاس فقصم صلبه، وطعنه عمرو بن الحارث من خلفه فقطع بطنه، فوقع كُليب وهو يفحص برجله، وقال لحسّاس: أغثني بشربة من ماء. فقال: هيهات، تجاوزت شبيثاً والأحص. ففي ذلك يقول عمرو بن الأهثم:

وإن كليباً كان يظلم قومه
فلما حساه المرحكفُ ابن عمه
وقال لحسّاس أغثني بشربة
فقال تجاوزت الأحصّ وماءه

وقال نابغة بني جعدة:

أبلغ عقلاً أن خطة داحس
كليب لعمرى كان أكثر ناصراً
رمى ضرع ناب فاستمرّ بطعنة
وقال لحسّاس أغثني بشربة
فقال تجاوزت الأحصّ وماءه

بكفّيك فاستأخر لها أو تقدّم
وأيسر ذنباً منك ضرّج بالدّم
كحاشية البرد اليماني المُسهّم
تدارك بها منا عليّ وأنعم
وبطن شبيث وهو ذو مترسّم

فلما قُتل كُليب ارتحلت بنو شيبان حتى نزلوا بماء يقال له النهي. وتسمّر المهلهل أخو كُليب، واسمه عُدي بن ربيعة، وإنما قيل له المهلهل لأنه أول من هلهل الشعر، أي أرقه، واستعد لحرب بكر، وترك النساء والعزل، وحرّم القمار والشراب، وجمع إليه قومه، فأرسل رجالاً منهم إلى بني شيبان يُعذر إليهم فيما وقع من الأمر. فأتوا مُرة بن ذهل بن شيبان، وهو في نادي قومه، فقالوا له: إنكم أتيتم عظيمًا بقتلكم كُليباً بناب من الإبل، فقطعتم الرحم، وانتهكتم الحرمة، وإنا كرهنا العجلة عليكم دون الإعذار إليكم. ونحن نعرض عليكم خلافاً أربع لكم فيها مخرج، ولنا مقنع. فقال مرة: وما هي؟ قال له: تُحّي لنا كليباً، أو تدفع إلينا حسّاساً قاتله فنقتله به، أو همّاماً فإنه كُفء له، أو تُمكننا من نفسك فإن فيك وفاء من دمه؟ فقال: أما إحيائي كُليباً فهذا ما لا يكون؟ وأما حسّاس فإنه غلام طعن طعنة على عجل ثم ركب فرسه فلا أدري أي البلاد أحتوى عليه؛ وأما همّام فإنه أبو عشرة وأخو عشرة وعمّ عشرة كلهم فرسان قومهم، فلن يُسلموه لي فأدفعه إليكم يُقتل بجزيرة غيره، وأما أنا فهل هو إلا أن تجول الخيل جولةً غداً فأكون أول قتيلا بينها، فما أتعجل من الموت؟ ولكن لكم عندي خصّلتان: أما إحداهما، فهؤلاء بيّ الباقون فعلقوا في عنق أيهم شتمت نسعة فانطلقوا به إلى رحالكم فأذبحوه ذبح الجزور، وإلا فألف ناقة سوداء المقلّ أقيم لكم بما كفيلاً من بني وائل. فغضب القوم وقالوا: لقد أسأت، تُرذل لنا ولدك وتسومنا اللبن من

دم كليب. ووقعت الحرب بينهم.

ولحقت جليلة زوجة بأبيها وقومها. ودعت تغلب النمر بن قاسط فانضمت إلى بني كليب وصاروا يداً معهم على بكر، ولحقت بهم غفيلة ابن قاسط، واعتزلت قبائل بكر بن وائل وكرهوا مجامعة بني شيبان ومساعدتهم على قتال إخوانهم، وأعظموا قتل حساس كليباً رئيسهم بناب من الإبل. فظعن لجيم عنهم، وكفت يشكر عن نصرتهم، وأنقبض الحارث بن عباد في أهل بيته. وهو أبو بجير وفارس النعامة. وقال المهلهل يرثي كليباً:

أرقب النجم سهراً أن يزولا

من بني وائل ينسي قتيلا

ر وفيها بنو معد حلولا

بينهم بقتل العزيز الذليلا

يترك الهم وقعه مقلولا

وأخو الحرب من أطاق النزولا

ناكما توعد الفحولا

ثم قالوا ما نخاف عويلا

نسلب الخدر بيضة المحجولا

م ونروي رماحنا والخيولا

بت ليلي بالأنعمين طويلاً

كيف أهدأ ولا يزال قتيلاً

غنيت دارنا تهامة في الده

فتساقوا كأساً أمرت عليهم

فصبحنا بني لجيم بضرب

لم يطيقوا أن ينزلوا ونزلنا

انتضوا معجس القسي وأبرق

قتلوا ربهم كليباً سفاهاً

كذبوا والحرام والحل حتى

ويموت الجنين في عاطف الرح

وقال أيضاً يرثيه:

إذ أنت خليتها فيمن يخلبها

تحت السقائف إذ يعلوك سافبها

مالت بنا الأرض أو زالت رواسيها

ما كل آلائه يا قوم أحصيها

زهواً إذا الخيل لجت في تعاديها

إلا وقد خضبوها من أعاديها

كمتاً أنابيبيها زرقاً عواليها

بيضاً ونصدرها حمراً أعاليها

وانشقت الأرض فانجابت بمن فيها

ما لاحت الشمس في أعلى مجاريها

كليب لا خير في الدنيا ومن فيها

كليب أي فتى عزاً ومكرمة

نعى النعاة كليباً لي فقلت لهم

الحزم والعزم كانا من صنيعته

القائد الخيل تردى في أعنتها

من خيل تغلب ما تلقي أسنتها

يهرهزون من الخطي مدمجة

ترى الرماح بأيدينا فنوردها

ليت السماء على من تحتها وقعت

لا أصلح الله منا من يُصالحكم

يوم النهي

قال أبو المنذر: أحرَبِي حَرَّاشُ أَنْ أَوَّلَ وَقْعَةٍ كَانَتْ بَيْنَهُمْ بِالنَّهْيِ يَوْمَ النَّهْيِ.

فالتقوا بماء يقال له النَّهْيِ كَانَتْ بَنُو شَيْبَانَ نَازِلَهُ عَلَيْهِ. وَرَيْسُ تَغْلِبِ الْمَهْلَهْلِ، وَرَيْسُ شَيْبَانَ الْحَارِثُ بْنُ مُرَّةٍ. فَكَانَتْ الدَّائِرَةُ لِبَنِي تَغْلِبِ، وَكَانَ الشُّوَكَةُ فِي شَيْبَانَ، وَاسْتَحْرَّ الْقَتْلَ فِيهِمْ، إِلَّا أَنَّهُ لَمْ يُقْتَلَ فِي ذَلِكَ الْيَوْمِ أَحَدٌ مِنْ بَنِي مُرَّةٍ.

يوم الذنائب

ثم التقوا بالذنائب، وهي أعظم وقعة كانت لهم، فظفرت بنو تغلب وقتلت بكر مقتلة عظيمة. وفيها قتل شراحيل بن مرة بن همام بن مرة بن ذهل بن شيبان وهو جد الحوفزان، وهو جد معن بن زائدة. والحوفزان هو الحارث ابن شريك بن عمرو بن قيس بن شراحيل، قتله عتاب بن سعد بن زهير بن جشم. وقتل الحارث بن مرة بن ذهل بن شيبان، قتله كعب بن ذهل بن ثعلبة. وقتل من بني ذهل ثعلبة: عمرو بن سدوس بن شيبان بن ذهل بن ثعلبة. وقتل من بني تميم الله. جميل بن مالك بن تميم الله، وعبد الله بن مالك بن تميم الله. وقتل من بني قيس ابن ثعلبة: سعد بن ضبيعة بن قيس، وتميم بن قيس بن ثعلبة، وهو أحد الخرفين. وكان شيخاً كبيراً فحُمِلَ فِي هُودَجٍ، فَلَحِقَهُ عَمْرُو بْنُ مَالِكِ بْنِ الْفَدَوَكْسِ بْنِ جُشْمِ، وَهُوَ جَدُّ الْأَخْطَلِ، فَقَتَلَهُ. هُوَ لِأَنَّ مِنْ رُؤَسَاءِ بَكْرِ يَوْمِ الذَّنَائِبِ.

يوم واردات

ثم التقوا بواردات، وعلى الناس رؤساؤهم الذين سمينا. فظفرت بنو تغلب وأستحرت القتل في بني بكر، فيومئذ قتل الشعثمان، شعثم وعبد شمس، ابنا معاوية بن عامر بن ذهل بن ثعلبة؟ وسيار بن الحارث بن سيار. وفيه قتل همام ابن مرة بن ذهل بن شيبان، أخو حساس لأمه وأبيه، فمر به مهلهل مقتولاً، فقال: والله ما قتل بعد كليب قتيل أعز علي فقداً منك، وقتله ناشرة. وكان همام ربابه وكفله، كما كان ربي حذيفة بن بدر قرواشاً، فقتله يوم الهبابة.

يوم عنيزة

ثم التقوا بعنيزة، فظفرت بنو تغلب. ثم كانت بينهم معاودة ووقائع كثيرة، كل ذلك كانت الدائرة فيه لبني تغلب على بني بكر. فمنها: يوم الحنو، ويوم عويرضات، ويوم أنيق، ويوم ضرية، ويوم القصيات. هذه الأيام لتغلب على بكر. أصيبت فيها بكر حتى ظنوا أن ليس يستقبلون أمرهم. وقال مهلهل يصف هذه الأيام وينعاهها على بكر في قصيدة طويلة أولها:

إذا أنت انقضيت فلا تحوري

فقد أبكي من الليل القصير

لأخبر بالذنائب أي زير

بجنب عنيزة رحيًا مدير

بجيرا في دم مثل العبير

وبعض القتل أشفى للصدور

إذا برزت مخبأة الخدور

أليلتنا بذي حسم أنيري

فإن يك بالذنائب طال ليلى

فلا نبش المقابر عن كليب

كأننا غدوة وبني أبينا

وإني قد تركت بواردات

هتكت به بيوت بني عباد

على أن ليس عدلاً من كليب

وفيها يقول:

ولولا الريح اسمع من بحجر

وقال مهلهل لما أسرف في الدماء:

أكثرت قتل بني بكر برّبهم

آليت بالله لا أرضى بقتلهم

قال أبو حاتم: أهرج: أدهمهم بهرجاً لا يُقتل بهم قتيلاً ولا تُؤخذ لهم دية.

قال: والبهرج من الدراهم، من هذا. وقال المهلهل:

يا لبكر انشروا لي كليباً

تلك شيبان تقول لبكر

وبنو عجل تقول لقيس

وقال:

قتلوا كليباً ثم قالوا اربعوا

حتى تبيد قبائل وقبيلة

وتقوم ربّات الخدور حواسراً

حتى يعرض الشيخ بعد حميمه

صليل البيض تُقرع بالذكور

حتى بكيت وما يبكي لهم أحد

حتى أبهرج بكرأ أينما وجدوا

يا لبكر أين الفرار؟

صرح الشر وبان السرار

ولتيم اللات سيروا فساروا

كذبوا وربّ الحلّ والإحرام

ويعض كل متقف بالهّام

يمسحن عرض ذوائب الأيتام

مما يرى ندماً على الإيهام

يوم قضة

ثم إن مهلهلاً، أسرف في القتل ولم يُيال بأيّ قبيلة من قبائل بكر أوقع، وكان أكثر بكر قعدت عن نصرة بني شيبان لقتلهم كليب بن وائل، فكان الحارث بن عباد قد اعتزل تلك الحروب. حتى قُتل ابنه بجير بن الحارث. ويقال إنه كان ابن أخيه، فلما بلغ الحارث قتله، قال: نعم القتيل قتيلاً اصلح بين ابني وائل، وظن أن المهلهل قد أدرك به ثأر كليب وجعله كُفناً له. فقيل له: إنما قتله بشسع نعل كليب. وذلك أن المهلهل لما قتل بجيراً قال: بؤ بشسع كليب. فغضب الحارث بن عباد، وكان له فرس يقال لها النعام، فركبها وتولّى أمر بكر، فقتل تغلب حتى هرب المهلهل وتفرقت قبائل تغلب، فقال في ذلك الحارث بن عباد:

لَقَحْتُ حَرْبُ وَائِلٍ عَنِ حِيَالِي

وَأِنِّي بَحْرَهَا الْيَوْمَ صَالِي

قرباً مَرَبُطُ النَّعَامَةِ مِنِّي

لَمْ أَكُنْ مِنْ جُنَاتِهَا عِلْمُ اللَّهِ

وكان أول يوم شهده الحارث بن عباد يوم قضة، وهو يوم تحلاق اللّم، وفيه يقول طرفة بن العبد:

مَا لَقُوا فِي يَوْمِ تَحْلَاقِ اللَّمِّ

وَتَلَفَ الْخَيْلُ أَفْوَاجَ النَّعْمِ

سَأَلُوا عَنَّا الَّذِي يَعْرِفُنَا

يَوْمَ نُبْدِي الْبَيْضَ عَنِ أَسْوُقِهَا

وفيه أسر الحارث بن عباد المهلهل وهو لا يعرفه، واسمه عدي بن ربيعة، فقال له: ذلني على عدي بن ربيعة وأخلي عنك. فقال له عدي: عليك العهد بذلك إن دللتك عليه؟ قال: فأنا عدي. فجزّ ناصيته وتركه، وقال فيه:

لَهْفَ نَفْسِي عَلَى عَدِيٍّ وَلَمْ أَعْرِفْ

عَدِيًّا إِذَا أَمَكَّنْتَنِي الْيَدَانِ .

وفيه قُتل عمرو وعامر التَّغْلِبِيَانِ. قتلها جَحْدَرُ بنِ ضُبَيْعَةَ. طَعَنَ أَحَدُهُمَا بَسَنَانَ رُمْحِهِ وَالْآخَرَ بِرُجْحِهِ. ثُمَّ إِنَّ الْمُهَلِّهْلَ فَارَقَ قَوْمَهُ وَنَزَلَ فِي بَنِي حَنْبٍ، وَحَنْبٌ فِي مَدْحَجٍ، فَخَطَبُوا إِلَيْهِ ابْنَتَهُ فَمَنَعَهُمْ. فَأَخْبَرُوهُ عَلَى تَزْوِجِهَا وَسَاقُوا إِلَيْهِ فِي صِدَاقِهَا جُلُودًا مِنْ أَدَمٍ، فَقَالَ فِي ذَلِكَ:

أَعَزَّزَ عَلَى تَغْلِبٍ بِمَا لَقِيْتُ

أَخْتُ بَنِي الْأَكْرَمِينَ مِنْ جُشَمٍ

أَنْكَحَهَا فَقَدَّهَا الْأَرَاقِمَ فِي

جَنْبٍ وَكَانَ الْحِبَاءُ مِنْ أَدَمٍ

لَوْ بِأَبَائِنِي جَاءَ يَخْطُبُهَا

زَمَلُ مَا أَنْفُ خَاطَبَ بَدَمٍ

الكلاب الأول

قال أبو عُبَيْدَةَ: لما تَسَافَهَتِ بَكْرُ بنِ وائلٍ وَغَلَبُهَا سَفْهَؤُهَا، وَتَقَاطَعَتِ أَرْحَامُهَا، ارْتَأَى رُؤُوسَهُمْ فَقَالُوا: إِنَّ سَفْهَاءَنَا قَدْ غَلَبُوا عَلَى أَمْرِنَا فَأَكَلَ الْقَوِيُّ الضَّعِيفَ، وَلَا نَسْتَطِيعُ تَغْيِيرَ ذَلِكَ، فَنَرَى أَنَّ نُمْلِكَ عَلَيْنَا مَلِكًا نُعْطِيهِ الشَّاةَ وَالْبَعِيرَ، فَيَأْخُذُ لِلضَّعِيفِ مِنَ الْقَوِيِّ، وَيُرَدُّ عَلَى الْمَظْلُومِ مِنَ الظَّالِمِ، وَلَا يُمَكِّنُ أَنْ يَكُونَ مِنْ بَعْضِ قِبَالِنَا فَيَأْبَاهُ الْآخَرُونَ، فَتَفْسُدُ ذَاتُ بَيْنِنَا، وَلَكِنَّا نَأْتِي تَبَعًا فَنُمْلِكُهُ عَلَيْنَا. فَأَتَوْهُ فَذَكَرُوا لَهُ أَمْرَهُمْ، فَمَلَّكَ عَلَيْهِمُ الْحَارِثُ بنَ عَمْرٍو أَكَلَ الْمَرَارَ الْكِنْدِيَّ، فَقَدَّمَ فَتَرَلَ عَاقِلَ، ثُمَّ غَزَا بِيَكْرَ بنِ وائلٍ حَتَّى أَنْتَزَعَ عَامَةً مَا فِي أَيْدِي مَلُوكِ الْحِيرَةِ اللَّحْمِيِّينَ، وَمَلُوكِ الشَّامِ الْغَسَّانِيِّينَ، وَرَدَّهُمْ إِلَى أَقْصَايِ أَعْمَالِهِمْ. ثُمَّ طَعَنَ فِي نَيْطِهِ، أَي مَاتَ، فَذُفِنَ بِيَطْنِ عَاقِلٍ. وَاخْتَلَفَ أَبْنَاءُ شُرْحُبِيلَ وَسَلْمَةَ، فِي الْمُهَلِّكِ، فَتَوَاعَدَ الْكُلَّابُ. فَأَقْبَلَ شُرْحُبِيلَ فِي ضَبَّةِ وَالرِّبَابِ كُلِّهَا، وَبَنِي يَرْبُوعَ وَبَكْرَ بنِ وائلٍ. وَأَقْبَلَ سَلْمَةَ فِي تَغْلِبِ وَالنَّمْرِ وَبَهْرَاءِ، وَمَنْ تَبِعَهُ مِنْ بَنِي مَالِكِ بنِ حَنْظَلَةَ، وَعَلَيْهِمْ سُفْيَانُ بنُ مُجَاشِعٍ، وَعَلَى تَغْلِبِ السَّفَاحِ -إِنَّمَا قِيلَ لَهُ السَّفَاحُ، لِأَنَّهُ سَفَحَ أَوْعِيَةَ قَوْمِهِ- وَقَالَ لَهُمْ: أَبَدَرُوا إِلَى مَاءِ الْكِلَابِ، فَسَبَقُوا وَنَزَلُوا عَلَيْهِ. وَإِنَّمَا خَرَجْتُ بِكْرُ بنِ وائلٍ مَعَ شُرْحُبِيلَ لِعِدَاوَتِهَا لِبَنِي تَغْلِبِ. فَالْتَقَوْا عَلَى الْكِلَابِ، وَاسْتَحْرَ الْقَتْلُ فِي بَنِي يَرْبُوعَ، وَشَدَّ أَبُو حَنْشٍ عَلَى شُرْحُبِيلَ فَقَتَلَهُ، وَكَانَ شُرْحُبِيلُ قَتَلَ ابْنَهُ حَنْشًا، فَأَرَادَ أَبُو حَنْشٍ أَنْ يَأْتِيَ بِرَأْسِهِ إِلَى سَلْمَةَ فَخَافَهُ، فَبِعْتَهُ مَعَ عَسِيفٍ لَهُ. فَلَمَّا رَأَى سَلْمَةَ دَمَعَتْ عَيْنَاهُ، وَقَالَ لَهُ: أَنْتَ قَتَلْتَهُ؟ قَالَ: لَا، وَلَكِنَّهُ قَتَلَهُ أَبُو حَنْشٍ. فَقَالَ: إِنَّمَا أَدْفَعُ الثَّوَابَ إِلَى قَاتِلِهِ. وَهَرَبَ أَبُو حَنْشٍ عَنْهُ. فَقَالَ سَلْمَةَ:

أَلَا أَبْلُغُ حَنْشَ رَسُولًا

فَمَا لَكَ لَا تَجِيءُ إِلَى الثَّوَابِ

تَعْلَمُ أَنَّ خَيْرَ النَّاسِ مَيْتًا

قَتِيلٌ بَيْنَ أَحْجَارِ الْكِلَابِ

تَدَاعَتْ حَوْلَهُ جُشَمُ بنِ بَكْرٍ

وَأَسْلَمَهُ جَعَّاسِيْسُ الرِّبَابِ

وَمَا يَدُلُّ عَلَى أَنْ بَكَرًا كَانَتْ مَعَ شُرْحُبِيلَ قَوْلُ الْأَخْطَلِ:

أَبَا غَسَّانِ إِنَّكَ لَمْ تُهْنِي

وَلَكِنْ قَدْ أَهَنْتَ بَنِي شِهَابِ

تَرَقَّوْا فِي النَّخِيلِ وَأَنْسَبُونَا

دِمَاءَ سِرَاتِكُمْ يَوْمَ الْكِلَابِ

يوم الصفقة ويوم الكلاب الثاني

قال أبو عُبَيْدَةَ: أَخْبَرَنَا أَبُو عَمْرٍو بنُ الْعَلَاءِ قَالَ: كَانَ يَوْمَ الْكِلَابِ مُتَّصِلًا بِيَوْمِ الصَّفَقَةِ، وَكَانَ مِنْ حَدِيثِ الصَّفَقَةِ أَنَّ كِسْرَى الْمَلِكِ، كَانَ قَدْ أَوْقَعَ بَيْنِي تَمِيمَ، فَأَخَذَ الْأَمْوَالَ وَسَبَى الذَّرَارِيَّ بِمَدِينَةِ هَجْرٍ، وَذَلِكَ أَنَّهُمْ أَغَارُوا عَلَى لَطِيمَةَ لَهُ فِيهَا مِسْكٌ وَعَنْبَرٌ وَجَوْهَرٌ كَثِيرٌ، فَسُمِّيتَ تِلْكَ الْوَقْعَةُ يَوْمَ الصَّفَقَةِ، ثُمَّ إِنَّ بَنِي تَمِيمٍ أَدَارُوا أَمْرَهُمْ، وَقَالَ ذُو الْحِجَا مِنْهُمْ: إِنَّكُمْ قَدْ أَغْضَبْتُمْ الْمَلِكَ، وَقَدْ أَوْقَعَ بِكُمْ حَتَّى وَهَنْتُمْ، وَتَسَامَعْتُ بِمَا لَقِيتُمُ الْقِبَائِلَ فَلَا تُؤْمِنُونَ دَوْرَانَ الْعَرَبِ. فَجَمَعُوا سَبْعَةَ رُؤُوسٍ مِنْهُمْ وَشَاوَرُوهُمْ فِي أَمْرِهِمْ، وَهُمْ: أَكْثَمُ بنُ صَيْفِيِّ الْأَسِيدِيِّ، وَالْأَعْمِرُ بنُ يَزِيدِ بنِ مُرَّةِ الْمَازِنِيِّ، وَقَيْسُ بنُ عَاصِمِ

الْمُنْقَرِي، وأبِر بن عَصْمَةَ التَّمِيمِي، والثُّعْمَانُ ابْنُ الْحَسْحَاسِ التَّمِيمِي، وأبِير بن عمرو السَّعْدِي، والزُّبَيْرَانُ بن بَدْرِ السَّعْدِي. فقالوا لهم: ماذا تَرَوْنَ؟ فقال أكنتم بن صَيْفِي، وكان يُكْنَى أبا حَشَشٍ: إنَّ النَّاسَ قد بلغهم ما قد لقينا، ونحن نخاف أن يطمعوا فينا، ثم مسح بيده على قلبه، وقال: إني قد تبيّنت على التَّسعين، وإنما قلبي بضعة من جسّمي، وقد نحل كما نحل جسّمي، وإني أخاف أن لا يُدرك ذهني الرأي لكم، وأنتم قومٌ قد شاع في النَّاسِ أمرُكم، وإنما كان قوامكم أسيافاً وَعَسِيفاً - يُريد العبد والأجير - وصِرْتُم اليوم إنما تَرعى لكم بناتكم، فليعرض عليّ كل رجل منكم رأيه وما يَحْضُرُه، فإني متى أسمع الحزْمَ أعرفه. فقال كل رجل منهم ما رأى، وأكنتم ساكتٌ لا يتكلّم حتى قام النعمان بن الحَسْحَاسِ، فقال: يا قوم، انظروا ماءً يجمعكم، ولا يعلم النَّاسُ بأيّ ماء أنتم حتى تَنفِرج الحَلْقَةُ عنكم وقد حَمِمتُم، وصلحت أحوالُكم، وانجر كسيركم، وقوي ضعيفكم. ولا أعلم ماءً يجمعكم إلا قِدَّةً، فارتحلوا ونزلوا قِدَّةً، وهو موضع يُقال له الكلاب. فلما سمع أكنتم ابن صَيْفِي كلام النعمان، قال: هذا هو الرأي. فارتحلوا حتى نزلوا الكلاب. وبين أدناه وأقصاه مسيرة يوم، وأعلاه مما يلي اليمن، وأسفله مما يلي العراق. فترلت سعدُ والرِّبابُ بأعلى الوادي، ونزلت حنظلة بأسفله.

قال أبو عُبَيْدَةَ: وكانوا لا يخافون أن يُعْزَوا يفِي القَيْظِ، ولا يسافر فيه أحد، ولا يستطيع أحدٌ أن يَقْطع تلك الصَّحاري لُبُعد مسافتها، وليس بها ماء، ولشدة حرّها. فأقاموا بقية القَيْظِ لا يعلم أحد بمكانهم، حتى إذا تَهَوَّر القَيْظُ - أي ذهب - بعث الله ذا العَيْنين، وهو من أهل مدينة هَجَرَ، فمرَّ بقِدَّة وصحرائها، فرأى ما بها من النعم، فانطلق حتى أتى أهل هَجَرَ، فقال لهم: هل لكم في جارية عذراء، ومُهْرَة شَوْهَاء، وبِكْرَة حَمْرَاء، ليس دونهما نكبة؟ فقالوا: ومن لنا بذلك؟ قال: تلكم تميم ألقاء مطروحون بقِدَّة. قالوا: إي والله. فمشى بعضهم إلى بعض، وقالوا: اغتنموا من بني تميم. فأخرجوا منهم أربعة أملاك، يقال لهم اليزيديون: يزيد بن هُوَيْر، ويزيد بن عبد المَدَان، ويزيد بن المأمور، ويزيد بن المُخَرَّم، وكلهم حارثيون؟ ومعهم عبد يغوث الحارثي. فكان كل واحد منهم على ألفين، والجماعة ثمانية آلاف. فلا يعلم جيش في الجاهلية كان أكبر منه، ومن جيش كَسَرَى يومَ ذي قار ويوم شِعْبِ جَبَلَة. فمضوا حتى إذا كانوا ببلاد باهلة، قال جزءٌ بن جزءٍ الباهلي لابنه: يا بني، كل لك في أكرومة لا يُصاب أبدأً مثلها؟ قال: وما ذاك؟ قال: هذا الحيّ من تميم قد وُلجوا هناك مخافةً، وقد قصصتُ أثر الجيش يريدونهم، فأركب جملي الأرحبيّ وسرّ سيراً رويداً، عُقبَةً من الليل - يعني ساعة - ثم حل عنه حبله وأنخه وتوسّد ذراعه، فإذا سمعته قد أفاض بجرتّه وبال فاستنعت ثنناته في بوله فشُدَّ عليه حبله، ثم ضَعَّ السوط عليه فإنك لا تسأل جملك شيئاً من السير إلا أعطاك، حتى تصبح القوم ففعل ما أمره به. قال الباهلي: فحللت بالكلاب قبل الجيش وأنا أنظر إلى ابن دُكَاء - يعني الصَّبح - فناديتُ: يا صباحاه! فإنهم لَيَثْبُون إليّ ليسألوني من أنت، إذ أقبل رجل منهم من بني شقيق على مُهْرٍ قد كان في النعم، فنادى: يا صباحاه! قد أتى على النعم. ثم كرّ راجعاً نحو الجيش. فلقى عبد يغوث الحارثي، وهو أول الرعيّل، فطعنه في رأس معدته، فسبق اللبن الدم، وكان قد أصطحب. فقال عبد يغوث: أطيعوني وامضوا بالنعم واخلوا العجائز من تميم ساقطةً أفواهاها. قالوا: أما دون أن ننكح بناتهم فلا. وقال ضمرة بن لبيد الحماسي ثم المذحجي الكاهن: انظروا إذا سقتم النعم، فإن أتتكم الخيلُ عُصباً، العصبية تنتظر الأخرى حتى تلحق بها، فإن أمر القوم هين وإن لحق بكم القوم ولم ينتظر بعضهم بعضاً حتى يردوا وجوه النعم، فإن أمرهم شديد. وتقدمت سعد والرِّبابُ في أوائل الخيل، فالتقوا بالقوم فلم يَلْتَفِتُوا إليهم. واستقبلوا النعم ولم يَنْتَظِر بعضهم بعضاً. ورئيس الرِّبابِ النعمان بن الحَسْحَاسِ، ورئيس بني سعد قَيْسُ بن عاصم. وأجمع العلماء أن قيس بن عاصم كان رئيسَ بني تميم. فالتقى القوم، فكان أول صريع النعمان بن الحَسْحَاسِ. واقتتل القومُ بقية يومهم وثبت بعضهم لبعض حتى حَزَرَ الليلُ بينهم. ثم أصبحوا على راياتهم، فنادى قيسُ بن عاصم: يالسعد، ونادى عبدُ يغوث: يالسعد. قيسُ يدعو سعدَ بنَ زَيْدِ مناة، وعبدُ يغوث يدعو سعدَ العشيّرة. فلما سمع ذلك قيسُ نادى: يالكعب فنادى عبدُ يغوث يالكعب. قيسُ يدعو كعبَ بن سعد، وعبدُ يغوث يدعو كعبَ بن مالك. فلما رأى ذلك قيسُ نادى: يالكعب مُقَاعَس. فلما سمعه وَعَلَّةُ بن عبد الله الجرمي، وكان صاحبَ لواء أهل اليمن، نادى: يالمقاعس، تفاعل به، فطرح اللواء، وكان أول من أهرم. فحملت عليهم بنو سعد والرِّبابِ فهزموهم. ونادى قيسُ بن عاصم: يالتميم، لا تقتلوا إلا فارساً، فإن الرّجالة لكم. ثم جعل يرتجز ويقول:

أقسمتُ أظعنُ إلا راكباً

لما تولّوا عُصباً هوارباً

إني وجدتُ الطعنَ فيهم صائباً

وقال أبو عبيدة: أمر قيس بن عاصم أن يتبعوا المنهزمة ويقطعوا عُرُوقَ مَنْ لَحِقُوا، ولا يَشْتَغَلُوا بِقَتْلِهِمْ عن اتِّباعِهِمْ. فَجَزَّوْا دَوَابِرَهُمْ. فذلك قولُ
وَعَلَّة:

غداة كُلابٍ إذ تُجز الدوابرُ

فدى لكم أهلي وأمي ووالدي

- وسنكتب هذه القصيدة على وجهها-. وحَمَى عبدُ يَغوثِ أصحابه فلم يُوصل إلى الجانب الذي هو فيه، فألظَّ به مَصادُ بنِ ربيعة بن الحارث. فلما
لَحِقَهُ مَصادُ طعنه فألقاه عن الفرس فأسره. وكان مَصادُ قد أصابته طعنة في مَأْبِضِهِ، وكان عِرْقُهُ يَهْمِي - أي يَسِيلُ - فَعَصَبَهُ، وَكَتَفَهُ - يعني عبدُ يَغوثِ -
ثم أَرَدَفَهُ خلفه فترفه الدُمُ، فَمال عن فرسه مَقْلُوبًا. فلما رأى ذلك عبدُ يَغوثِ قطع كِتافَهُ وأجهز عليه وانطلق على فرسه، وذلك أولَ النهار. ثم ظَفِرَ به
بعد في آخره، ونادى مُنادٍ: قُتِلَ اليزيديون. وَشَدَّ قَبِيصَةَ بنِ ضرارِ الضَّبِّي على ضمرة بن لبيدِ الحِماسِيِّ الكاهن، فَطَعَنَهُ فخر صريعًا. فقال له قَبِيصَةُ: ألا
أخبرك تابِعُكَ. مَحْصَرَكَ اليوم؟ وأسر عبدُ يَغوثِ، أسره عَصْمَةُ ابنِ أُبَيْرِ التَّمِيمِي.

قال أبو عبيدة: انتهى عَصْمَةُ بنِ أُبَيْرِ إلى مَصادِ، وقد أَمَعَنُوا في الطلب، فَوَجَدَهُ صريعًا، وقد كان قبل ذلك رأى عبدَ يَغوثِ أسيرًا في يديه فعرف أنه هو
الذي أجهز عليه، فاقْتَصَّ أثره، فلما لَحِقَهُ قال له: ويحك! إني رجل أحب اللبن وأنا خيرٌ لك من الفلاة والعَطَشِ. قال عبدُ يَغوثِ: ومن أنت؟ قال:
عصمة بن أُبَيْرِ. قال عبدُ يَغوثِ: أو عندك مَنَعَةٌ؟ قال: نعم. فألقى يده لا يده. فانطلق به عَصْمَةُ حتَّى خَبَأَهُ عند الأَهِمِ على أن جَعَلَ له من فدائه جُعَلًا.
فَوَضَعَهُ الأَهِمِ عند امرأته العَبْشَمِيَّة. فأعجبها جمالُه وكمائنا خَلَقَهُ. وكان عَصْمَةُ الذي أسره غلامًا نحيفًا. فقالت لعبدِ يَغوثِ: مَنْ أنت؟ قال: أنا سيد
القوم. فضحكت وقالت: قَبِحَكَ اللهُ سيِّد قوم حينَ أسرك مثلُ هذا! ولذلك يقول عبدُ يَغوثِ:

كأن لم تربي قبلي أسيرًا يمانيًا

وتضحك مني شيخخة عبشمية

فاجتمعت الرباب إلى الأَهِمِ، فقالت: ثأرنا عندك، وقد قُتِلَ مَصادُ والنُّعْمان، فأخرجهم إلينا. فأبى الأَهِمِ أن يُخرجهم إليهم، فكاد أن يكون بين الحيين؟
الرباب وسعد، فتنَّه. حتَّى أقبل قيسُ بن عاصمِ المُنْقَرِي، فقال: أيُّتِي قطع حِلْفِ الرباب- من قَبَلِنَا؟ وضرب فمه بقوس فهتَمَهُ، فَسَمِيَ الأَهِمِ. فقال
الأَهِمِ: إنما دَفَعَهُ إليَّ عَصْمَةُ بنِ أُبَيْرِ ولا أدفعه إلا إلى مَنْ دَفَعَهُ إليَّ، فليجئ فليأخذه، فأتوا عَصْمَةَ فقالوا: يا عَصْمَةُ، قُتِلَ سيدنا النُّعْمان وفارسنا مَصادِ،
وثأرنا أسيرُك وفي يدك، فما ينبغي لك أن تَسْتَحْيِيَهُ. فقال: إني مُمَحَلٌ وقد أصبت الغنى في نفسي، ولا تطيب نفسي عن أسيري. فاشتراه بنو
الحَسْحاسِ بمائة بَعِيرٍ - وقال رُوْبَةُ بنِ العجاج: بل أرضوه بثلاثين من حواشي النُّعْمِ - فدفعه إليهم، فحَشُّوا أن يهجوهم، فشَدُّوا على لسانه نِسْعَةً.
فقال: إنكم قاتلي ولا بد، فدُعُوِي أدم أصحابي وأنوح على نفسي. فقالوا: إنك شاعر ونخاف أن تهجونا. فعقد لهم ألا يفعل. فأطلقوا لسانه وأمهله
حتَّى قال قصيدته التي أولها:

فما لكما في اللوم خيرٌ ولا ليا

قليل وما لومي أخي من شماليا

نداماي من نجران أن لا تلاقيا

وقيس بأعلى حصرموت اليمانيا

صريحهم والآخرين المواليا

ترى خلفها الجرد الجياد تواليا

وكاد الرماح يختطفن المحاميا

نشيد الرعاء المعزبين المتاليا

الأ لا تلوماني كفى اللوم ما بيا

ألم تعلم أن الملامة نفعها

فيا راكباً إما عرضت فبلغن

أبا كرب والأيهمين كليهما

جزى الله قومي بالكلاب ملامه

ولو شئت بحتتى من القوم نهدة

ولكنني أحمي ذمار أبيكم

أحقاً عباد الله أن لست سامعاً

أَقُولُ وَقَدْ شَدُّوا لِسَانِي بِنِسْعَةٍ
وَتَضْحَكُ مِنِّي شَيْخَةٌ عَيْشِمِيَّةٌ
أَمْعَشَرَ تَيْمٌ قَدْ مَلَكَتُمْ فَأَسْجِحُوا
وَقَدْ عَلِمْتُ عَرْسِي مُلَيْكَةً أَنْنِي
وَقَدْ كُنْتُ نَحَارَ الْجَزُورِ وَمُعْمَلِ الْمَطِّ

أَمْعَشَرَ تَيْمٌ أَطْلَقُوا عَن لِسَانِيَا
كَأَنَّ لَمْ تَرَى قَبْلِي أَسِيرًا يَمَانِيًا
فَإِنَّ أَخَاكُمْ لَمْ يَكُنْ مِنْ بَوَائِيَا
أَنَا اللَّيْثُ مَعْدُوءًا عَلَيْهِ وَعَادِيَا
ي وَأَمْضِي حَيْثُ لَا حِي مَاضِيَا

وَأَعْقِرِ لِلشَّرْبِ الْكِرَامَ مَطِيَّتِي
وَكُنْتُ إِذَا مَا الْخَيْلَ شَمَّصَهَا الْقَنَا
وَعَادِيَّةٍ سَوْمَ الْجَرَادِ وَزَعْتَهَا
كَأَنِّي لَمْ أَرْكَبْ جَوَادًا وَلَمْ أَقْلُ
وَلَمْ أَسْبَأِ الزَّرْقَ الرَّوِيَّ وَلَمْ أَقْلُ

وَأَصْدَعُ بَيْنَ الْقَيْتَيْنِ رِدَائِيَا
لَبِيقًا بِنَصْرِيفِ الْقَنَاةِ بَنَانِيَا
بِرْمُحِي وَقَدْ أَنَحُوا إِلَيَّ الْعَوَالِيَا
لِخَيْلِي كَرِي قَاتِلِيْعِن رِجَالِيَا
لَأَيْسَارِ صِدْقٍ أَعْظَمُوا ضَوْءَ نَارِيَا

قال أبو عبيدة: فلما ضربت عنقه قالت ابنة مصاد: يؤ بمصاد. فقال بنو النعمان: يا لكاع، نحن نشتره بأموالنا ويوء بمصاد! فوقع بينهم في ذلك الشر، ثم اصطلحوا، وكان الغناء كله يوم الكلاب من الرباب لتميم، ومن بني سعد لمقاعس. وقال وعلة الحرمي، وكان أول منهزم المهزم يوم الكلاب، وكان بيده لواء القوم:

وَمَنْ عَلِيَّ اللهُ مَنَّا شَكَرْتُهُ
وَلَمَّا رَأَيْتُ الْخَيْلَ تَتْرَى أَتَابَجًا
نَجُوتُ نِجَاءً لَيْسَ فِيهِ وَتَيْرَةٌ
خُدَارِيَّةٌ صَقْعَاءُ لَبْدٍ رِيْشَهَا
لَهَا نَاهِضٌ فِي الْوَكْرِ قَدْ مَهَّدَتْ لَهُ
كَأَنَا وَقَدْ حَالَتْ حُدْنَةٌ دُونَنَا
فَمَنْ يَكُ يَرْجُو فِي تَمِيمٍ هَوَادَةٌ
وَلَمَّا سَمِعْتُ الْخَيْلَ تَدْعُو مُقَاعَسًا
فَإِنْ أَسْتَطَعُ لَا تَبْتَنَسُ بِي مُقَاعَسُ
وَلَا أَكُ يَا جَرَّارَةَ مُضْرِيَّةٍ
وَقَدْ قُلْتُ لِلنَّهْدِيِّ هَلْ أَنْتَ مُرْدِفِي
يُذَكِّرُنِي بِالْأَلِّ بَيْنِي وَبَيْنِهِ

غَدَاةَ الْكُلَّابِ إِذْ تُجْزِ الدَّوَابِرُ
عَلِمْتُ بِأَنَّ الْيَوْمَ أَحْمَسُ فَاجِرِ
كَأَنِّي عُقَابٌ عِنْدَ تَيْمَنٍ كَاسِرِ
بَطْخَفَةٌ يَوْمَ ذُو أَهَاضِيْبٍ مَاطِرُ
كَمَا مَهَّدَتْ لِلْبَعْلِ حَسَنَاءُ عَاقِرِ
نَعَامٌ تَلَاهُ فَارِسٌ مُتَوَاتِرِ
فَلَيْسَ لِحَرْمٍ فِي تَمِيمٍ أَوَاصِرِ
تَنَازَعْنِي مِنْ ثُغْرَةِ النَّحْرِ نَاحِرِ
وَلَا تَرْتِي بِيْدَاؤُهُمْ وَالْمَحَاضِرِ
إِذَا مَا غَدَتْ قُوْتُ الْعِيَالِ تُبَادِرِ
وَكَيفَ رِدَافُ الْفَلِّ أَمُّكَ عَاثِرِ
وَقَدْ كَانَ فِي جَرْمٍ وَنَهْدٍ تَدَابِرِ

وقال محرز بن المكعب الضبي، ولم يشهدها، وكان مجاوراً في بني بكر بن وائل لما بلغه الخبر:

فَدَى لِقَوْمِي مَا جَمَعْتَ مِنْ نَشَبٍ
إِذْ حَدَّثْتَ مَدْحَجَ عَنَا وَقَدْ كَذَّبْتَ
دَارَتْ رَحَانًا قَلِيلًا ثُمَّ وَاجَهُمْ
ظَلَّتْ ضِبَاعٌ مُجَبَّرَاتٍ تَجْرُرُهُمْ
حَتَّى حُدُنَةٌ لَمْ نَتْرِكْ بِهَا ضَبْعًا
ظَلَّتْ تَدُوسُ بَنِي كَعْبٍ بِكُلِّهَا

إِذْ سَاقَتْ الْحَرْبُ أَقْوَامًا لِأَقْوَامٍ
أَنْ لَا يُذَبِّعْنَ أَحْسَابَنَا حَامِي
ضَرْبٌ تَصَدَّعَ مِنْهُ جِلْدَةُ الْهَامِ
وَالْحُمُوهُنْ مِنْهُمْ أَيُّ الْإِحَامِ
إِلَّا لَهَا جِزْرٌ مِنْ شَلْوٍ مَقْدَامٍ
وَهُمْ يَوْمَ بَنِي فَهْدٍ بِإِظْلَامٍ

قال أبو عبيدة: حدثني المنتجع بن نبهان قال: وقف رؤبة بن العجاج على التيم بمسجد الحرورية فقال: يا معشر تيم، إني سمعت عند الأمير تلك الليلة فتذاكرنا يوم الكلاب فقال: يا معشر تيم، إن الكلاب ليس كما ذكرتم، فأعفونا من قصيدتي صاحبتنا - يعني عبد يغوث ووعلة الجرمي - ومن قصيدة ابن المكعب صاحبكم وهاتوا غير ذلك، فأنتم أكثر الناس كلاماً وهجاء. قال رؤبة: فأنشدناه في ذلك اليوم شعراً كثيراً. فجعل يقول: هذه إسلامية كلها،

يوم طخفة

كانت الردافة، رداة الملك، لعتاب بن هرمة بن رياح، ثم كانت لقيس بن عتاب، فسأل حاجب بن زرارة التعمان أن يجعلها للحارث بن قُرط بن سفيان بن مجاشع، فسألها التعمان بن يربوع، وقال: أعقبوا إحتوتكم في الردافة. قالوا: إنهم لا حاجة لهم فيها، وإنما سألها حاجب حسداً لنا، وأبوا عليه، فقال الحارث بن شهاب، وهو عند التعمان: إن بني يربوع لا يسلمون ردافتهم إلى غيرهم. وقال حاجب: إن بعث إليهم الملك جيشاً لم يمنعوه ولم يمتنعوا، فبعث إليهم التعمان قابوس ابنه، وحسان بن المنذر. فكان قابوس على الناس وكان حسان على المقدمة، وبعث معهم الصنائع والوضائع - فالصنائع: من كان يأتيه من العرب، والوضائع: المقيمون بالحيرة - فالتقوا بطخفة، فأنزمو قابوساً ومن معه، وضرب طارق بن عمية فرس قابوس فعقره، وأخذه ليجز ناصيته. فقال قابوس: إن الملوك لا تجز نواصيها، فجهزه وأرسله إلى أبيه وأما حسان بن المنذر، فأسره بشر بن عمرو الرياحي، ثم من عليه وأرسله. فقال مالك بن نويرة:

وَنَحْنُ عَقَرْنَا مُهْرَ قَابُوسَ بَعْدَمَا
عَلَيْهِ دَلَاصٌ ذَاتُ نَسْجٍ وَسَيْفُهُ
طَلَبْنَا بِهَا إِنَّا مَدَارِيكَ قَبْلَهَا

رَأَى الْقَوْمُ مِنْهُ الْمَوْتَ وَالْخَيْلَ تُلْحَبُ
جُرَّازٌ مِنَ الْهِنْدِيِّ أَيْبُضٌ مُقْضَبُ
إِذَا طَلَبَ الشَّأْوَ الْبَعِيدَ الْمَغْرَبُ

يوم فيف الريح

قال أبو عبيدة: تجمعت قبائل مدحج، وأكثرها بنو الحارث بن كعب شعب، وقبائل من مراد وجعفي وزبيد وخنعم، وعليهم أنس بن مذكرة، وعلى بني الحارث الحصين. فأغاروا على بني عامر بن صعصعة بفيف الريح، وعلى بني عامر بن مالك ملاعب الأسته. قال: فاقتتل القوم، فكثروهم. وارفضت قبائل من بني عامر. وصبرت بنو ثمير، فما شبهوا إلا بالكلاب المتعاطلة حول اللواء. وأقبل عامر بن الطفيل، وخلفه دعي بن جعفر. فقال: يا معشر الفتيان، من ضرب ضربة أو طعن طعنة فليشهدني. فكان الفارس إذا ضرب ضربة أو طعن طعنة قال عند ذلك: أبا علي. فبينما هو كذلك إذ أتاه مسهر بن يزيد الحارثي، فقال له من ورائه: عندك يا عامر، والرمح عند أذنه. فوهصه - أي طعنه - فأصاب عينه. فوثب عامر عن فرسه ونجا على رجله، وأخذ مسهر رمح عامر. ففي ذلك يقول عامر بن الطفيل بن مالك بن جعفر:

لَعَمْرِي وَمَا عَمْرِي عَلَى بَهِينِ

أَعَاذَلُ لَوْ كَانَ الْبِدَادُ لَقُوتَلُوا

وَلَوْ كَانَ جَمْعٌ مِثْلُنَا لَمْ يَبْرَنَا

أَتُونَا بِبِهْرَاءٍ وَمَذْحَجِ كُلِّهَا

وقال مُسَهِّرٌ، وقد زعم أنهم أخذوا امرأة عامر بن الطفيل:

رَهْصَتْ بِخَرْصِ الرُّمَحِ مُقَلَّةٌ عَامِرِ

وَعَادِرِ فِينَا رُمَحَهُ وَسِلَاحَهُ

وَكُنَّا إِذَا قَيْسِيَّةٌ ذُهَيْتْ بِنَا

مَخَافَةً مَا لَاقَتْ حَلِيلَةَ عَامِرِ

وقال: وامتنّت بنو تُمَيْرِ عَلَى بَنِي كِلَابٍ بِصَبْرِهِمْ يَوْمَ فَيْفِ الرِّيحِ، فقال عامر:

تَمُنُّونَ بِالنُّعْمَى وَلَوْ لَا مَكْرُنَا

وَنَحْنُ تَدَارِكُنَا فَوَارِسَ وَحُوحِ

وحوح، من بني تُمَيْرِ، وكان عامر أَسْتَقْدَهُمْ وَأَسْرَ حَنْظَلَةَ بِنِ الطُّفَيْلِ يَوْمَئِذٍ.

قال أبو عُبيدة: كانت وقعة فيف الرّيح وقد بعث النبي صلى الله عليه وسلم بمكة، وأدرك مُسَهِّرُ بْنُ يَزِيدِ الْإِسْلَامَ فَاسْلَمَ.

يوم تياس

كانت أفناء قبائل من بني سعد بن زيد مناة وأفناء قبائل من بني عمرو بن تميم التقت بتياس، فقطع غيلان بن مالك بن عمرو بن تميم رجل الحارث بن كعب بن سعد بن زيد مناة، فطلبوا القصاص، فأقسم غيلان أن لا يعقلها ولا يقص بها حتى تحشى عيناه تُراباً، وقال:

حَتَّى تَرَوْا دَاهِيَةً تَنْسِيهَا

فالتقوا فاقتتلوا، فجرحوا غيلان حتى ظنوا أنهم قد قتلوه. ورئيس عمرو كعب بن عمرو، ولواؤه مع ابنه ذؤيب، وهو القائل لأبيه:

إِنْ لَمْ يَكُنْ بِكَ مَرَّةً كَعْبُ

تُعَدِّي الصَّاحَ مَبَارِكِ الْجُرْبِ

نَحْوِ الْمَضِيقِ وَدُونِهِ الرَّحْبِ

لَا نَعْقِلُ الرَّجُلَ وَلَا نَدِيهَا

يَا كَعْبُ إِنَّ أَخَاكَ مُنْحَمِقٌ

جَانِبِكَ مَنْ يَجْنِي عَلَيْكَ وَقَدْ

وَالْحَرْبُ قَدْ تَضَطَّرَ صَاحِبَهَا

يوم زرود الأول

غزا الحوفزان حتى انتهى إلى زرود خلف جبل من جبالها، فأغاروا على نعم كثير صادر عن الماء لبني عبس فاحتازوه. وأتى الصريحُ بني عبس فركبوا. ولحق عمارة بن زياد العبسي الحوفزان فعرفه، وكانت أم عمارة قد أرضعت مضر بن شريك، وهو أخو الحوفزان. وقال عمارة: يا بني شريك، قد علمتم ما بيننا وبينكم. قال الحوفزان، وهو الحارث بن شريك: صدقت يا عمارة، فانظر كل شيء هو لك فخذ. فقال عمارة: لقد علمت نساء بني بكر بن وائل أنني لم أملاً أيدي أزواجهن وأبنائهن شفقةً عليهن من الموت. فحمل عمارة ليعارض النعم ليرده، وحال الحوفزان بينه وبين النعم، فعثرت

بعمارة فرسه، فطعنه الحوفران. ولحق به نعامه بن عبد الله بن شريك فطعنه أيضاً. وقال نعامه: ما كرهت الرمح في كفل رجل قط أشد من كفل عمارة. وأسر ابنا عمارة: سنان وشداد. وكان في بني عيس رحلان من طيء ابنا لأوس بن حارثة مجاورين لهم، وكان لهما أخ أسير في بني يشكر، فأصابا رجلاً من بني مرة يقال له: معدان بن محرب، فذهبا به فدفناه تحت شجرة، فلما فقدته بنو شيبان نادوا: يا ثارات معدان فعند ذلك قتلوا ابني عمارة. وهرب الطائيان بأسيرهما. فلما برأ عمارة من جراحه أتى طيئاً فقال: ادفعوا إلي هذا الكلب الذي قتلنا به. فقال الطائي لأوس: أدفع إلى بني عيس صاحبهم. فقال لهم أوس: أتأمروني أن أعطي بني عيس قطرة من دمي، وإن أبي أسير في بني يشكر؟ فوالله ما أرجو فكاكه إلا بهذا. فلما قفل الحوفران من غزوه بعث إلى بني يشكر في ابن أوس. فبعثوا به إليه، فافتك به معدان. وقال نعامه بن شريك:

استنزلت رماحنا سناناً

وشيخه بطخفة عياناً

ثم أخوه قد رأى هواناً

لما فقدنا بيننا معداناً

يوم غول الثاني

هو يوم كنهل

قال أبو عبيدة: أقبل ابنا هجيمة، وهما من بني غسان، في جيش، فنزلا في بني يربوع فجاورا طارق بن عوف بن عاصم بن ثعلبة بن يربوع، فنزلا معه على ماء يقال له كنهل، فأغار عليهما أناس من ثعلبة بن يربوع، فاستاقوا نعامهما وأسروا من كان في النعم، فركب قيس بن هجيمة بجيئه حتى أدرك بني ثعلبة، ففكر عليه عتيبة بن الحارث. فقال له قيس: هل لك يا عتيبة إلى البراز؟ فقال: ما كنت لأسأله وادعه. فبارزه. قال عتيبة: فما رأيت فارساً أملاً لعبي منه يوم رأيت فرمان بقوسه؟ فما رأيت شيئاً كان أكره إلي منه. فطعني. فأصاب قربوس سرجي، حتى وجدت مس السنان في باطن فخذي، فتجنبت. قال: ثم أرسل الرمح وقبض بيدي، وهو يرى أن قد أثبتني، وانصرف. فأتبعته الفرس. فلما سمع زجلها رجع جانحاً على قربوس سرجه، وبدا لي فرج الدرع، ومعى رمح معلق بالقد والعصب كنا نضطاد به الوحش، فرميت بالقوس وطعنته بالرمح، فقتلته وانصرفت، فلحقت النعم. وأقبل الهرماس بن هجيمة فوقف على أخيه قتيلاً ثم أثبني، وقال: هل لك في البراز؟ فقلت لعل الرجعة لك خير. قال: أبعد قيس؟ ثم شد علي فضرني على البيضة، فخلص السيف إلى رأسي. وضربته فقتلته. فقال سحيم بن وثيل يعير طارداً بقتل جاريه:

لقد كنت جار ابني هجيمة قبلها

فلم تغن شيئاً غير قتل المجاور

وقال جرير:

وساق ابني هجيمة يوم غول

إلى أسيفنا قدر الحمام

يوم الجبات

قال أبو عبيدة: خرج بنو ثعلبة بن يربوع فمروا بناس من طوائف بني بكر بن وائل بالجبات، خرجوا سفاراً، فتولوا وسرحوا إبلهم ترعى، وفيها نفر منهم يروحها، منهم سواده بن يزيد بن بجير العجلي، ورجل من بني شيبان، وكان محموماً، فمريت بنو ثعلبة بن يربوع بالإبل فأطردوها، وأخذوا الرجلين فسألوهما: من معكما؟ فقالا: معنا شيخ بن يزيد بن بجير العجلي في عصابة من بني بكر بن وائل خرجوا سفاراً يريدون البحرين. فقال الربيع ودعوموس ابنا عتيبة بن الحارث بن شهاب: لن نذهب بهذين الرجلين وبهذه الإبل ولم يعلموا من أخذها، ارجعوا بنا حتى يعلموا من أخذ إبلهم وصاحبهم ليعينهم ذلك. فقال لهما عميرة: ما وراءكما إلا شيخ ابن يزيد قد أخذتما أخاه وأطردتما ماله، دعاه. فأبيا ورجعا، فوقفا عليهم وأخبراهم

وتسميًا لهم، فركب شيخُ بن يزيد فأتبعهما وقد وليا، فَلَحِقَ دُعُومًا فأسره. ومَضَى ربيع حتى أتى عُميرة فأخبره أن أخاه قد قُتل. فرجع عُميرة على فرس يقال له الخنساء، حتى لَحِقَ القَوْمَ فافتكَّ دُعُومًا على أن يردَّ عليهم أحاهم وإبلهم. فردَّها عليهم. فكفر ابنا عُنَيبة ولم يشكرا عُميرة. فقال:

إذا ما رأني مُقبلاً لم يُسَلِّم
على ساقطِ بين الأسنَّةِ مُسَلِّم
جَهراً ولم أنظرُ له بالتلُوم

ألم ترَ دُعُومًا يصدُّ بوجهه
ألم تَعَلِّمًا يا بني عُنَيبةَ مَقْدَمِي
فعارضتُ فيه القومَ حتى انتزعتُه

يوم إراب

غزا الهذيل بن هُبيرة بن حَسَّان التَّغَلبيِّ فأغار على بني يَرُبوع بإراب، فقتل فيهم قَتِيلاً ذريعاً وأصاب نَعَمًا كثيرةً وسَيًّا سَيِّئاً كثيراً، فيهم زينب بنت حَمير بن الحارث بن هَمَّام بن رياح بن يَرُبوع وهي يومئذ عَقِيلَة نساء بني تَميم. وكان الهذيل يُسمى مجدعا، وكان بنو تَميم يُفزعون به أولادهم وسَيِّ أيضاً طابية بنت جَزء بن سَعَد الرِّياحي، ففداها أبوها وركب عُنَيبة بن الحارث في أسراهم ففكَّهم أجمعين.

يوم الشعب

غزا قيسُ بن شَرَقاء التَّغَلبيِّ، فأغار على بني يَرُبوع بالشَّعب فاقتتلوا، فاهزمت بنو يَرُبوع. فرَعم أبو هُدَبة أهما كانت احتطافا. فأسر سَحيم لا ابن وثيل الرِّياحي، ففي ذلك يقول سَحيم:

ألم تَعَلِّمُوا أَنِّي ابن فارس زَهْدَم

أقول لهم بالشَّعب إذ يأسرُونَنِي

ففدا نفسه، وأسر يومئذ مُتَمَم بن نُويرة. فوفد مالكُ بن نُويرة على قيسَ ابن شَرَقاء في فدائه، فقال:

أو الجَهْدِ إن أعطيتُه أنت قابله

هل أنت يا قيس بن شَرَقاء مُنعمٌ

فلما رأى وسامته وحُسن شارته، قال: بل مُنعم. فأطلقه له.

يوم غول الأول

فيه قُتل طَريف بن شَراحيل وعمرو بن مرثد الحَلبيِّ. غزا طَريف بن تَميم في بني العنبر وطوائف من بني عمرو بن تَميم، فأغار على بني بَكْر بن وائل بغول فاقتتلوا. ثم إن بكراً اهزمت، فقتل طَريف بن شَراحيل، أحدُ بني أبي ربيعة، وقُتل أيضاً عمرو بن مرثد المُحمليِّ وقتل المُحسَّر. فقال في ذلك ربيعة بن طَريف:

بني الخَصيبِ وشِراً المَنطِقِ الفَنْدُ

يا راكباً بلَّغن عني مغلَّة

وسَطَ العَجَاجِ فلم يَغضب له أحد

هَلا شَراحيل إذ مالَ الحِزامُ به

منا فوارسُ هَيجا نَصَرُهم حَشَدُ

أو المُحسَّرِ أو عمرو تَحيفَهم

يُشَقِّي بهنَ الشَّنا والعُجبِ والكَمدِ

إن يَلحظوني بزُرُقٍ من أسننتنا

وقد طَرَدناكم لو يَنفَع الطَّرْدِ

وقد قَتَلناكم صَبِراً ونأسركم

من بَعْد ما مَسَّه الضَّرَاءُ والنَّكدِ

حتى استغاثت بنا أدنى شَرِيدكم

وقال نضلة السُّلميِّ في يوم غُول، وكان حقيراً دَمِيماً، وكان ذا نَجدة وبأس:

بَنْضَلَّةٌ وَهُوَ مَوْتُورٌ مُشِيحٌ
وَيَنْفَعُ أَهْلَهُ الرَّجُلُ الْقَبِيحُ
كَمَا عَضَّ الشَّبَابُ الْفَرَسَ الْجَمُوحَ

أَلَمْ تَسَلِ الْفَوَارِسَ يَوْمَ غَوْلٍ
رَأَوْهُ فَازْدَرَوْهُ وَهُوَ حُرٌّ
فَشَدَّ عَلَيْهِمُ بِالسَّيْفِ صَلْتًا

قَتِيلًا مِنْهُمْ وَنَجَا جَرِيحٌ
وَتَحْتَ الرَّغْوَةِ اللَّبْنِ الصَّرِيحِ

فَأَطْلَقَ غُلَّ صَاحِبِهِ وَأَرْدَى
وَلَمْ يَخْشُوا مَصَالَاتِهِ عَلَيْهِمُ

يوم الخندمة

كان رجلٌ من مُشركي قريش يحدُّ حَرْبَةً يَوْمَ فَتْحِ مَكَّةَ، فقالت له امرأته: ما تصنع بهذه؟ قال: أعددتُها لمحمَّد وأصحابه. قالت: والله ما أرى يقوم لمحمَّد وأصحابه شيء. قال: والله إنِّي لأرجو أن أخدمك بعضَ نسائهم. وأنشأ يقول:

هذا سلاحٌ كاملٌ وألَّهُ

إِنْ تَقْبَلُوا الْيَوْمَ فَمَا بِي عِلَّةٌ
وَذُو غِرَارِينَ سَرِيحُ السَّلَّةِ

فلما لقيهم خالد بن الوليد يوم الخندمة اهزم الرجل لا يلوي على شيء. فلامته امرأته، فقال:

إِذْ فَرَّ صَفْوَانٌ وَفَرَّ عِكْرَمَهُ
يَفْلُقْنَ كُلُّ سَاعِدٍ وَجُمُجْمَهُ
لَمْ تَنْطَقِي فِي اللُّومِ أَدْنَى كَلِمَةٍ

إِنَّكَ لَوْ شَهِدْتَ يَوْمَ الْخَنْدَمَةِ
وَلَقَبْتَنَا بِالسُّيُوفِ الْمُسْلَمَةِ
ضَرْبًا فَلَا تَسْمَعُ إِلَّا غَمْغَمَهُ

يوم اللهيما

قال أبو عبيدة: كان سبب الحرب التي كانت بين عمرو بن الحارث ابن تميم بن سعد بن هذيل، وبين بني عبد بن عددي بن الدليل بن بكر بن عبد مناة، أن قيس بن عامر بن عريب، أخا بني عبد بن عددي، وأخاه سالماً، خرجا يُريدان بني عمرو بن الحارث على فرسين، يقال لإحدهما اللَّعَابُ والأخرى عَفْزَر. فباتا عند رجل من بني نَفَاثَةَ. فقال النَّفَاثِيُّ لَقَيْسٍ وَأَخِيهِ: أَطِيعَانِي وَارْجِعَا، لَا أَعْرِفَنَّ رِمَاحَكُمَا تَكْسُرُ فِي قِتَالِ نُعْمَانَ. قالوا: إِنَّ رِمَاحَنَا لَا تُكْسِرُ إِلَّا فِي صُدُورِ الرَّجَالِ. قال: لَا يَضْرِبُكُمْ، وَسَتَحْمَدَانِ أَمْرِي. فَأَصْبَحَا غَادِيَيْنِ، فَلَمَّا شَارَفَا مَتْنَ اللَّهِيْمَاءِ مِنْ نُعْمَانَ، وَبَنُو عَمْرُو بْنِ الْحَارِثِ فَوْقَ ذَلِكَ مَوْضِعٍ يُقَالُ لَهُ أَدِيمَةُ، أَغَارَا عَلَى غَنَمِ جُنْدَبِ بْنِ أَبِي عُمَيْسٍ، وَفِيهَا جُنْدَبٌ، فَتَقَدَّمَ إِلَيْهِ قَيْسٌ، فَرَمَاهُ جُنْدَبٌ فِي حَلْمَةِ تَدْيِهِ، وَبَعَجَهُ قَيْسٌ بِالسَّيْفِ، فَأَصَابَتْ طَبْعُ السَّيْفِ وَجْهَ جُنْدَبِ، وَخَرَّ قَيْسٌ. وَنَفَرَتِ الْغَنَمُ نَحْوَ الدَّارِ وَأَتْبَعَهَا. وَحَمَلُ سَالِمٌ عَلَى جُنْدَبِ بِفَرَسِهِ عَفْزَرُ، فَضْرَبَ جُنْدَبَ خَطْمَ عَفْزَرِ بِالسَّيْفِ فَقَطَعَهُ، وَضْرَبَهُ سَالِمٌ، فَاتَقَاهُ بِيَدِهِ، فَقَطَعَ أَحَدَ رِئْدَيْهِ، فَخَرَّ جُنْدَبٌ وَذَفَّفَ عَلَيْهِ سَالِمٌ. وَأَدْرَكَ الْعَشِيُّ سَالِمًا فَخَرَجَ وَتَرَكَ سَيْفَهُ فِي الْمَعْرَكَةِ وَثَوْبَهُ بِحَقْوِيهِ لَمْ يَبْنَجْ إِلَّا بِجَفْنِ سَيْفِهِ وَمِثْرِهِ، فَقَالَ فِي ذَلِكَ حَمَادُ بْنُ عَامِرٍ:

وَمَا خَانَ الْقِتَالَ وَمَا أَضَاعَا
أَتَاهُ قَرْنُهُ بِذَلِّ الْمِصَاعَا
سَرُرْتُ بِأَنَّهُ غِبِنُ الْبِيَاعَا

لِعَمْرُكَ مَا وَنَى ابْنُ أَبِي عُمَيْسٍ
سَمًا بِقِرَانِهِ حَتَّى إِذَا مَا
فَإِنْ أَكُّ نَائِبًا عَنْهُ فَإِنِّي

وأقلتَ سالمٌ منها جريصاً

ولو سلمت له يُمنى يديه

وقال حذيفة بن أنس:

ألا بلِّغاً جِلِّ السَّواري وجابراً

كشفتُ غطاءَ الحَرْبِ لما رأيتها

أخو الحَرْبِ إن عَضت به الحرب عضها

ويمشي إذا ما الموتُ كان أمامه

نجا سالمٌ والنفسُ منه بشدِّقه

وطاب عن اللَّعابِ نفساً وربّه

وقد كُلم الذُّبابُ والذُّراعا

لَعَمْرُ أبِيكَ أَطْعَمَكَ السَّبَّاعا

وَبَلِّغْ بني ذِي السَّهْمِ عَنَا وَيَعْمُرَا

تَمِيلُ على صِغورٍ من اللَّيْلِ أَكْدرَا

وإن شَمَرْتَ عن ساقِها الحَرْبُ شَمَرَا

كذي الشَّبَلِ يَحْمِي الأنْفُ أن يَتَأخِرا

ولم يَنْجُ إلا جَفَنَ سِيفٍ ومِنْزِرا

وغادر قيسا في المكر وعفِزرا

يوم خزاز

قال أبو عبيدة: فنازع عامر ومسمع ابنا عبد الملك، وخالد بن جبلة، وإبراهيم بن محمد بن نوح العطاردي، وغسان بن عبد الحميد، وعبد الله بن سلم الباهلي، ونفر من وجوه أهل البصرة كانوا يتجالسون يوم الجمعة ويتفاحرون ويتنازعون في الرياسة يوم خزاز، فقال خالد بن جبلة: كان الأحوص بن جعفر الرئيس. وقال عامر ومسمع: كان الرئيس كليب بن وائل. وقال ابن نوح: كان الرئيس زراراً بن عدس. وهذا في مجلس أبي عمرو بن العلاء. فتحاكموا إلى أبي عمرو، فقال: ما شهدها عامر بن صعصعة، ولا دارم بن مالك، ولا حشتم بن بكر، اليوم أقدم من ذلك، ولقد سألت عنه منذ ستين سنة فما وجدت أحداً من القوم يعلم من رئيسهم ومن الملك، غير أن أهل اليمن كان الرجل منهم يأتي ومعه كاتب وطفنسة يقعد عليها، فيأخذ من أموال نزار ما شاء، كعمال صدقاتهم اليوم، وكان أول يوم امتنعت معد عن الملوك ملوك حمير، وكانت نزار لم تكثر بعد، فأوقدوا ناراً على خزاز ثلاث ليال، ودخنوا ثلاثة أيام. فقليل له: وما خزاز؟ قال: هو جبل قريب من أمر على يسار الطريق، خلفه صحراء متعج، يناوحه كور وكوير إذا قطعت بطن عاقل. ففي ذلك اليوم امتنعت نزار من أهل اليمن أن يأكلوهم، ولولا قول عمرو بن كلثوم ما عرف ذلك اليوم، حيث يقول:

رَفَدْنَا فوق رِفْدِ الرافدينَا

وكانَ الأيسرينِ بنو أبينا

وصلُّنا صولةَ فيمن يلينا

وأبنا بالملوك مصفدينَا

ونحنُ غداةَ أوقد في خزارِ

فكنا الأيمنين إذا التقينا

فصالوا صولةَ فيمن يليهم

فأبوا بالنَّهابِ وبالسبأيا

قال أبو عمر بن العلاء: ولو كان جدّه كليب وائل قائدَهم ورئيسَهم ما ادَّعى الرِّفادةَ وتَرَكَ الرياسةَ، وما رأيتُ أحداً عَرَفَ هذا اليومَ ولا ذكره في شِعْره قبله ولا بعده.

يوم المعاء

قال أبو عبيدة: أغار المنبطح الأسديُّ على بني عبَّاد بن ضبيعة، فأخذ نَعْمًا لبني الحارث بن عبَّاد، وهي ألفٌ بعير، فمر ببني سعد بن مالك بن ضبيعة، وبني عجل بن لجيم، فتبعوه حتى انتزعوها منه، ورئيسُ بني سعد حُمران ابن عبد عمرو، فأسر أقتلُ بن حسان العجلي المنبطح الأسدي، ففداه قومه، ولا أدري كم كان فداؤه، واستنقذوا السبي. فقال حُجر بن خالد بن محمود في يوم المعَا:

بنا عجة المعَا حرَّ الجلاذ

على سكن وجمَع بني عبَّاد

ومُنْبَطِح الفواضِرِ قد أدقنا

تنقذنا أخاذيذاً فردَّت

سكن، ابن باعث بن الحارث بن عبَّاد. والأخاذيذ. من أخذ من النساء. وقال حُمران بن عبد عمرو:

نِعْمَ الفوارسُ من بني سَيَّار
وَحَنِينٌ مُنْهَلَةٌ الضَّرُوعِ عِشَّار
شَعَثٌ تُعَدُّ لِكُلِّ يَوْمِ عَوَّار
وَفَكَكْنَ مِنْهُ القَدِّ بَعْدَ إِسَّار
وَرِدَ العَطَاطُ تَبْلُجَ الأَسْحَار

إِنَّ الفوارسَ يومَ ناعجةِ المعَا
لم يُلْهِمَ عَقْدَ الأَصْرِرةِ خَلْفَهُم
لَحِقُوا على قُبِّ الأيَاطِلِ كَالقَنَا
حتى حَبَّوْنَ أخوا الغواضِرِ طَعْنَةً
سالتُ عليه من الشَّعَابِ خوانِفِ

يوم النَسار

قال أبو عبيدة: تحالفت أسدٌ وطيءٌ وغطفانٌ ولحمت بهم ضبَّةٌ وعدي، فعزَّوا بني عامر، فقتلوهم قتلاً شديداً، فغضبتُ بنو تميم لقتل بني عامر، فتنجموا حتى لحقوا طيئاً وغطفاناً وحلفاءهم من بني ضبَّةٍ وعدي يوم الجفَّار، فقتلت تميمٌ أشدَّ ممَّا قُتلت عامر يوم النَّسار. فقال في ذلك بشر بن أبي حازم:

يوم النَّسارِ فأعْتَبُوا بالصَّيْلِمِ

غضبتُ تميمَ أن تَقْتَلَ عامراً

يوم ذات الشَّقوقِ

فحلف ضمرة بنِ ضَمْرَةَ النَّهْشَلِيِّ فقال: الحَمْرُ علي حرام حتى يكون له يوم يُكافئه. فأغار عليهم ضمرة يوم ذات الشَّقوقِ فقتلهم، وقال في ذلك:

آتي التَّجَارِ ولا أَشَدُّ تَكْلُمِي
كالتَّمْرِ يَنْثُرُ في حَرِيرِ الحَرَمِ

الآنَ سَاغَ الشَّرَابُ ولم أَكُنْ
حتى صَبَحْتُ على الشَّقوقِ بَغارة

وأبأتُ يوماً بالجفَّارِ بمتله
ومشتُ نساءً كَالظَبَاءِ عواطلاً
ذَهَبَ الرِّمَاحُ بزُوجِها فترَكَنه
في صَدْرٍ معتدلِ القَنَاةِ مَقومِ

وأبأتُ يوماً بالجفَّارِ بمتله
ومشتُ نساءً كَالظَبَاءِ عواطلاً
ذَهَبَ الرِّمَاحُ بزُوجِها فترَكَنه
في صَدْرٍ معتدلِ القَنَاةِ مَقومِ

يوم خو

قال أبو عبيدة: أغارت بنو أسد على بني يربوع فاكسحوا إبلهم، فأتى الصريخ الحي، فلم يتلاحقوا إلا مساءً بموضع يُقال له حَوْ. وكان ذؤاب بن ربيعة الأشتر على فرس أنثى، وحصان عتيبة بن الحارث بن شهاب على حصان، فجعل الحصان يستنشق ريح الأنثى في سواد الليل ويتبعها، فلم يعلم عتيبة إلا وقد أقحم فرسه على ذؤاب بن ربيعة الأشتر، وعتيبة غافل لا يبصر ما بين يديه في ظلمة الليل، وكان عتيبة قد لبس درعه وغفل عن جرباتها حتى أتى الصريخ فلم يشده، وراه ذؤاب، فأقبل بالرُمح إلى ثغرة نحره. فخر صريعاً قتيلاً. ولحق الربيع بن عتيبة فشد على ذؤاب فأسره وهو لا يعلم أنه قاتل أبيه، فكان عنده أسيراً حتى فاداه أبوه ربيعة بإبل معلومة قاطعه عليها، وتواعدا سوق عكاظ في الأشهر الحرم أن يأتي هذا بالإبل ويأتي هذا بالأسير. وأقبل أبو ذؤاب بالإبل، وشغل الربيع بن عتيبة فلم يحضر سوق عكاظ. فلما رأى ذلك ربيعة أبو ذؤاب لم يشك أن ذؤابا قد قتلوه بأيهم عتيبة، فرثاه وقال:

ما إن أحاول جعفر بن كلاب
خلق كسحق الريطة المنجاب
أن الرزية كان يوم ذؤاب
بعتيبة بن الحارث بن شهاب
وأشدهم فقداً على الأصحاب

أبلغ قبائل جعفر مخصوصة
إن المودة والهودة بيننا
ولقد علمت على التجلد والأسى
إن يقتلوك فقد هتكت بيوتهم
بأحبهم فقداً إلى أعدائه

فلما بلغهم الشعر قتلوا ذؤاب بن ربيعة. وقالت أمية بنت عتيبة ترثي أباهما:

بشق نواعم البشر الجيوباً
فلا تلقاه يدخر النصيبا
عوان الحرب لا ورعاً هيوباً

على مثل ابن مية فانعياه
وكان أبي عتيبة سمهرياً
ضروباً للكمي إذا اشعلت

أيام الفجار

الفجار الأول

قال أبو عبيدة: أيام الفجار عدّة وهذا أولها. وهو بين كنانة وهوازن، وكان الذي هاجه أن بدر بن معشر، أحد بني غفار بن مليل بن ضميرة بن بكر بن عبد مناة بن كنانة. جعل له مجلس بسوق عكاظ، وكان حدتاً منيعاً في نفسه، فقام في المجلس وقام على رأسه قائم، وأنشأ يقول:

من يطعنوا في عيئه لم يطوف
كأنهم لجة بحر مسدّف

نحن بنو مدركة بن خندف
ومن يكونوا قومه يُغطرف

قال: ومدّ رجله وقال: أنا أعز العرب فمن زعم أنه أعز متي فليضربها. فضرها الأحيمر بن مازن، أحد بني دهمان بن نصر بن معاوية، فأندرها من الرُّكبة، وقال:

خذها إليك أيها المخندف

وقال أبو عبيدة: إنما خرصها خريصة يسيرة، وقال في ذلك:

بحر لبحر زاخر لم ينزف

نحن بنو دهمان ذو التغطرف
نبنني على الأحياء بالمعرف

قال أبو عبيدة: فتجاوز الحَيَّان عند ذلك حتى كاد أن يكون بينهما الدماء، ثم تراجعوا، ورأوا أن الخطب يسير.

الفجار الثاني

كان الفجار الثاني بين قريش وهوازن، وكان الذي هاجه أن فتيةً من قريش قعدوا إلى امرأة من بني عامر بن صعصعة، وضيئة حسانة بسوق عكاظ. وقالوا: بل أطاف بها شباب من بني كنانة وعليها بُرقع وهي في درع فُضِّل، فأعجبهم ما رأوا من هيئتها، فسألوها أن تُسفر عن وجهها. فأبت عليهم. فأتي أحدهم من خلفها فشدد دُبرِ درعها بشوكة إلى ظهرها، وهي لا تدري، فلما قامت تقلص الدرع عن دُبرها. فضحكوا وقالوا: منعتنا النظر إلى وجهها فقد رأينا دُبرها. فنادت المرأة: يا لعامر. فتجاوز الناس، وكان بينهم قتال ودماء يسيرة، فحملها حرب بن أمية وأصلح بينهم.

الفجار الثالث

وهو بين كنانة وهوازن. وكان الذي هاجه أن رجلاً من بني كنانة كان عليه دين لرجل من بني نصر بن معاوية، فأعدم الكناي. فوافى النصرى بسوق عكاظ بقرد فأوقفه في سوق عكاظ، وقال: من يبيعي مثل هذا بمالي على فلان؟ حتى أكثر في ذلك. وإنما فعل ذلك التصري تعبيراً للكناي ولقومه. فمر به رجل من بني كنانة فضرب القرَد بسيفه فقتله. فهتف النصرى: يا لهوازن، وهتف الكناي: يا لكنانة. فتهايح الناس حتى كاد أن يكون بينهم قتال، ثم رأوا الخطب يسيراً فتراجعوا، ولم يقيم الشر بينهم. قال أبو عبيدة: فهذه الأيام تسمى فجاراً لأنها كانت في الأشهر الحرم، وهي الشهور التي يُحرّمونها، ففجروا فيها، فلذلك سُميت فجاراً. وهذه يقال لها: أيام الفجار الأول.

الفجار الآخر

وهو بين قريش وكنانة كلها وبين هوازن، وإنما هاجها البراض بقتله عروة الرجال بن عتبة بن جعفر بن كلاب، فأبت أن تقتل بعروة البراض، لأن عروة سيّد هوازن والبراض خليف من بني كنانة، أرادوا أن يقتلوا به سيّداً من قريش. وهذه الحروب كانت قبل مبعث النبي صلى الله عليه وسلم بست وعشرين سنة، وقد شهدها النبي صلى الله عليه وسلم وهو ابن أربع عشرة سنة مع أعمامه. وقال النبي عليه الصلاة والسلام: كنت أتبل على أعمامي يوم الفجار وأنا ابن أربع عشرة سنة -يعني أنا ولهم التبل- وكان سبب هذه الحرب أن النعمان بن المنذر ملك الحيرة كان يبعث بسوق عكاظ في كل عام لطيمة في حوار رجل شريف من أشرف العرب يُجيرها له حتى تُباع هناك، ويشتري له بئمنها من آدم الطائف ما يحتاج إليه. وكانت سوق عكاظ تقوم في أول يوم من ذي القعدة، فيتسوقون إلى حضور الحج ثم يحجون. وكانت الأشهر الحرم أربعة أشهر: ذا القعدة وذا الحجة والمُحرم ورجب. وعكاظ: بين نخلة والطائف، وبينها وبين الطائف نحو من عشرة أميال. وكانت العرب تجتمع فيها للتجارة والتهيء للحج من أول ذي القعدة إلى وقت الحج، ويأمن بعضها بعضاً. فجهّز النعمان عير اللطيمة، ثم قال: من يُجيرها؟ فقال البراض ابن قيس النمري: أنا أُجيرها على بني كنانة. فقال النعمان: ما أريد إلا رجلاً يُجيرها على أهل نجد وتهامة. -فقال عروة الرحّال، وهو يومئذ رجل هوازن: أكّلب خليف يُجيرها لك؟ أبيت اللعن، أنا أُجيرها لك على أهل الشَّيخ والقيصوم من أهل نجد وتهامة. فقال البراض: أعلى بني كنانة تُجيرها يا عروة؟ قال: وعلى الناس كلهم. فدفعتها النعمان إلى عروة. فخرج بها وتبعه البراض، وعروة لا يخشى منه شيئاً، لأنه كان بين ظهري قوم من غطفان إلى جانب فدك إلى أرض يقال لها أواره. فترل بها عروة فشرب من الخمر وغتته قينة ثم قام فنام. فجاء البراض فدخل عليه، فناشده عروة، وقال: كانت مي زلة، وكانت الفعلة مني ضلة. فقتله وخرج يرتجز ويقول:

قد كانتا الفعلة مني ضلة

هلا على غيري جعلت الزلّة

فسوف أعلو بالحسام القلّة .

وقال:

شددت لها بني بكر ضلوعي
وأرضعت الموالي بالضرع
أفل فخر كالجذع الصريع

وداهية يهال الناس منها
هتكت بها بيوت بني كلاب
جمعت له يدي بنصل سيف

واستاق اللطيمة إلى خبير. وأتبعه المساور بن مالك العطفاني وأسد بن خيثم الغنوي حتى دخل خبير. فكان البرّاض أول من لقيهما، فقال لهما، من الرجلان؟ قال: من غطفان وغني. قال البرّاض: ما شأن غطفان وغني بهذه البلدة؟ قال: ومن أنت؟ قال: من أهل خبير. قال: ألك علم بالبرّاض؟ قال: دخل علينا طريداً خليعاً فلم يؤّوه أحد بخبير ولا أدخله بيتاً. قال: فأين يكون؟ قال: وهل لكما به طاقة إن دلتكما عليه؟ قال: نعم. قال: فانزلا. فترلاً وعقلاً راحلتيهما. قال: فأيكما أجزأ عليه، وأمضى مقدماً، وأحد سيفاً؟ قال العطفاني: أنا. قال البرّاض: فانطلق أدلك عليه، ويحفظ صاحبك راحلتيكما. ففعل. فانطلق البرّاض يمشي بين يدي العطفاني حتى انتهى إلى خربة في جانب خبير خارجة عن البيوت. فقال البرّاض: هو في هذه الخربة وإليها يأوي، فأنظري حتى أنظر أتم هو أم لا. فوقف له ودخل البرّاض، ثم خرج إليه وقال: هو نائم في البيت الأقصى خلف هذا الجدار عن يمينك إذا دخلت، فهل عندك سيف فيه صرامة؟ قال: نعم. قال: هات سيفك أنظر إليه أصرام هو؟ فأعطاه إياه. فهزّه البرّاض ثم ضربه بن حتى قتله، ووضع السيف خلف الباب، وأقبل على الغنوي، فقال: ما وراءك؟ قال: لم أر أجنب من صاحبك، تركته قائماً في الباب الذي فيه الرجل، والرجل نائم لا يتقدم إليه ولا يتأخر عنه. قال الغنوي: يا لهفاه، لو كان أحد ينظر راحلتينا؟ قال البرّاض: هما علي إن ذهبت. فانطلق الغنوي والبرّاض خلفه، حتى إذا جاوز الغنوي باب الخربة أخذ البرّاض السيف من خلف الباب، ثم ضربه حتى قتله وأخذ سلاحيهما وراحلتيهما ثم انطلق. وبلغ قريشاً خبر البرّاض بسوق العكاظ، فحلصوا نجياً. وأتبعتهم قيس لما بلغهم أن البرّاض قتل غروة الرحّال، وعلى قيس أبو براء عامر بن مالك. فأدركوهم، وقد دخلوا الحرم، ونادوهم: يا معشر قريش، إننا نعهد الله أن لا تبطل دم غروة الرحّال أبداً، ونقتل به عظيماً منكم، وميعادنا وإياكم هذه الليالي من العام المقبل. فقال حرب بن أمية لأبي سفيان ابنه: قل لهم: إن موعدهم قابل في هذا اليوم. فقال خدّاش بن زهير، في هذا اليوم، وهو يوم نخلة:

على سخينة لولا البيت والحرم

اساد غيل حمى أشبالها الأجم

يُبدِي من العزل الأكفال ما كتموا

كما تخب إلى أوطانها النعم

كأنها لقوة يحنتها ضرَم

يا شدة ما شددنا غير كاذبة

لما رأوا خيلنا تزجي أوائلها

واستقبلوا بضراب لا كفاء له

ولوا شلالاً وعظم الخيل لاحقة

ولت بهم كل محضار مللمة

وكانت العرب تسمي قريشاً سخينة، لأكلها السخن.

يوم شمطة

وهي من الفجار الآخر، ويوم نخلة منه أيضاً.

قال: فجمعت كنانة قريشها وعبد منافها والأحباش ومن لحق بهم من بني أسد بن خزيمه. وسلح يومئذ عبد الله بن جدعان مائة كمي بأداة كاملة سوى

من سُلِّحَ من قومه. والأحبابُ بنو الحارث بن عبد مَنَاة بن كِنانة: قال: وجمعت سليم وهوازن جموعها وأحلافها غير كلاب وبني كعب، فإلحما لم يشهدا يوماً الفجار غيرَ يوم نَحلة، فاجتمعوا بشمطة من عكاظ في الأيام التي تواعدوا فيها على قرن الحول، وعلى كل قبيلة من قريش وكنانة سيدها، وكذلك على قبائل قيس، غير أن أمر كِنانة كلها إلى حَرْبِ بن أمية، وعلى إحدى مُحَنَّبَتِها عبد الله بن جُدعان. وعلى الأخرى كَرِيز بن ربيعة وحَرْب بن أمية في القلب، وأمرُ هوازن كُلِّها إلى مسعود بن معتب الثقفي. فتناهض الناس ورَحَف بعضهم إلى بعض، فكانت الدائرة في أول النهار لِكِنانة على هوازن، حتى إذا كان آخرُ النهار تداعت هوازن، وصابرت وانقضت كِنانة، فاستحَرَّ القتلُ فيهم، فقتل منهم تحت رايتهم مائة رجل، وقيل ثمانون. ولم يُقتل من قريش يومئذٍ أحدٌ يذكر. فكان يوم شمطة لهوازن على كِنانة.

يوم العباء

ثم جمع هؤلاء وأولئك فالتقوا على قرن الحول في اليوم الثالث من أيام عكاظ والرؤساء على هؤلاء وأولئك الذين ذكرنا في يوم شمطة، وكذلك على المُحَنَّبَتين، فكان هذا اليوم أيضاً لهوازن على كِنانة، وفي ذلك يقول خدش بن زهير:

وحي بني كِنانة إذ أُببروا

فظل لنا بعقوتهم زبير

ألم يبلغك ما لقبت قريش

دهمناهم بأر عن مكفهر

وفي هذا اليوم قتل العوام بن حويلد، والد الزبير بن العوام، قتله مرة ابن مُعَتَّب الثقفي، فقال رجل من ثقيف:

تنتابه الطيرُ لحماً بين أحجار

منا الذي ترك العوام مُنجدلاً

يوم شرب

ثم جمع هؤلاء وأولئك، فالتقوا على قرن الحول في الثالث من أيام عكاظ فالتقوا بشرب، ولم يكن بينهم يومٌ أعظم منه. والرؤساء على هؤلاء وأولئك الذين ذكرنا، وكذلك على المُحَنَّبَتين. وحمل ابن جُدعان يومئذٍ مائة رجل على مائة بعير، ممن لم تكن له حَمولة، فالتقوا. وقد كان لهوازن على كِنانة يومان متواليان: يوم شمطة ويوم العباء. فحميت قريش وكنانة. وصابرت بنو مَحزوم وبنو بكر، فانهزمت هوازن وقتلت قتلاً ذريعاً. وقال عبد الله بن الزُبَيْرِي يمدح بنى المُغيرة:

لدت أُختُ بني سَهْم

منافٍ مدره الخَصْم

من القوة والحزم

وذا من كَثَب يَرْمِي

ألا لله قومٌ و

هشامٌ وأبو عبد

وذو الرُّمحين أشبال

فهذان يذودان

وأبو عبد مناف: قُصي؛ وهشام: ابن المُغيرة؛ وذو الرُّمحين: أبو ربيعة بن المُغيرة، قاتل يوم شرب برُمحين؟ وأمهم رَطة بنت سَعِيد بن لَسَهْم. فقال في ذلك جَدَل الطعان:

بنو سليم فهابوا الموت وانصرفوا

مثل الحريق فما عاجوا ولا عطفوا

جاءت هوازنُ أرسالاً وإخوتها

فاستقبلوا بضرابٍ فضَّ جمعهم

يوم الحريرة

قال: ثم جمع هؤلاء وأولئك، ثم التقوا على رأس الحوّل بالحريرة وهي حرّة إلى جنب عكاظ. والرؤساء على هؤلاء وأولئك هم الذين كانوا في سائر الأيام، وكذلك على المحبّين، إلا أنّ أبا مساحق بلعاء بن قيس اليعمري قد كان مات. فكان من بعده على بكر بن عبد مناة بن كنانة أخوه حُثامة بن قيس. فكان يوم الحريرة لهوازن على كنانة، وكان آخر الأيام الخمسة التي تراحفوا فيها. قال: فقتل يومئذ أبو سفيان بن أمية، أخو حرب بن أمية. وقتل من كنانة ثمانية نفر، قتلهم عثمان بن أسيد بن مالك، صت بني عامر ابن صعصعة. وقتل أبو كنف وابنا إياس وعمرو بن أيوب. فقال خدّاش بن زهير:

أهل السوام وأهل الصخر واللّوب
بكل سمراء لم تعلق ومعلوب
يوم الحريرة ضرباً غير مكذوب
ليسوا بزارة عوج العراقيب
كان تباهاوا فإني غير مغلوب

إني من النفر المحمّر أعينهم
الطاعين نحور الخيل مقبلّة
وقد بلوتم فأبلوكم بلاءهم
لاقتهم منهم أساد ملحمة
فالآن إن تقبلوا نأخذ نحوركم

وقال الحارث بن كلدة الثقفي:

تمجّ عروقه علقاً غبيطاً
سمعت لمتته فيه أطيماً
وقد جسّمتهم أمراً سليطاً
جريحاً قد سمعت له غطيماً

تركت الفارس البدّاخ منهم
دعست لبانه بالرّمح حتى
لقد أرديت قومك يا بن صخر
وكم أسلمت منكم من كمي

مضت أيام الفجار الأخر، وهي خمسة أيام في أربعة سنين، أولها يوم نخلة، ولم يكن لواحد منهما على صاحبه؛ ثم يوم شمطة، لهوازن على كنانة، وهو أعظم أيامهم؛ ثم يوم العبلاء؛ ثم يوم شرب، وكان لكنانة على هوازن؛ ثم يوم الحريرة، لهوازن على كنانة. قال أبو عبيدة: ثم تداعى الناس إلى السلم على أن يذروا الفضل ويتعاهدوا ويتواثقوا.

يوم عين أباغ وبعده يوم ذي قار

قال أبو عبيدة: كان ملك العرب المنذر الأكبر بن ماء السماء، ثم مات. فملك ابنه عمرو بن المنذر، وأمّه هند وإليه يُنسب. ثم هلك فملك أخوه قابوس. وأمّه هند أيضاً، فكان ملكه أربع سنين. وذلك في مملكة كسرى ابن هرمز. ثم مات فملك بعده أخوه المنذر بن المنذر بن ماء السماء، وذلك في مملكة كسرى بن هرمز. فغزا الحارث الغساني، وكان بالشام من تحت يد قيصر، فالتقوا بعين أباغ، فقتل المنذر. فطلب كسرى رجلاً يجعله مكانه. فأشار إليه عدي بن زيد - وكان من تراجمة كسرى - بالتعان بن المنذر، وكان صديقاً له، فأحبّ أن ينفعه وهو أصغر بني المنذر بن ماء السماء، فولاه كسرى على ما كان عليه أبوه. وأتاه عدي بن زيد، فمكّنه النعمان. ثم سعى بينهما فحبسه حتى أتى على نفسه، وهو القاتل:

أنه قد طال حبسي وانتظاري
كنت كالغصان بالماء اعتصاري
أنني غيبت عنهم في إساري
إن أصابته ملّات العتار

أبلغ النعمان عني مالكا
لو يغير الماء حلقي شرق
وعداتي شمت أعجبهم
لامرئ لم يبيل مني سقطه

فلئن دَهْرٌ تَوَلَّى خَيْرُهُ

لَبِمَا مِنْهُ قَضَيْنَا حَاجَةً

وَجَرَتْ بِالنَّحْسِ لِي مِنْهُ الْجَوَارِي

وَحَيَاةَ الْمَرْءِ كَالشَّيْءِ الْمُعَارِ

فلما قُتِلَ النعمانُ عديّ بنَ زَيدِ العباديِّ، وهو من بني امرئ القيس بن سعد بن زيد مناة بن تميم، سار ابنه زيد بن عديّ إلى كسرى، فكان من تراجمته. فكاد النعمانُ عند كسرى حتى حمله عليه. فهرب النعمانُ حتى لحق ببني رَوَاحَةَ من عَبَسَ، واستعمل كسرى على العرب إياسَ بنَ قبيصة الطائي. ثم إنَّ النعمانَ تجوَّلَ حيناً في أحياء العرب، ثم أشارت عليه امرأته المتجرِّدة أن يأتي كسرى ويعتذرَ إليه، ففعل. فحبسه بساباط حتى هلك، ويقال: أوْطَاهُ الفيلة. وكان النعمانُ إذا شخِصَ إلى كسرى أودع حَلَقَتَهُ، وهي ثمانمائة درعٍ وسلاحاً كثيراً، هانئ بن مسعود الشيباني، وجعل عنده ابنته هند التي تُسمَّى حُرْقَةَ. فلما قُتِلَ النعمانُ قالت فيه الشعراء. فقال فيه زهير بن أبي سلمى المزني:

ألم ترَ للنعمانِ كان بنجوة

فلم أرَ مَخْذولاً له مثلُ ملكه

خلا أن حيا من رَوَاحَةَ حافظوا

فقال لهم خيراً وأتَى عليهمُ

من الشرِّ لو أن امرأ كان باقياً

أقلَّ صديقاً أو خليلاً موافياً

وكانوا أناساً يتقون المخازيا

وودَّعهم توديع أن لا تلاقيا

يوم ذي قار

قال أبو عبيدة: يوم ذي قار هو يوم الحنو، ويوم قراقر، ويوم الجبابات، ويوم ذات العجم، ويوم بطحاء ذي قار، وكلهن حوْلَ ذي قار وقد ذكرتهن الشعراء.

قال أبو عبيدة: لم يكن هانئ بن مسعود المستودع حلقة النعمان، وإنما هو ابنُ ابنه، واسمه هانئ بن قبيصة بن هانئ بن مسعود، لأن وقعة ذي قار كانت وقد بعث النبي صلى الله عليه وسلم وخبر أصحابه بها، فقال: اليوم أول يوم انتصفت فيه العرب من العجم وبني نصر. فكتب كسرى إلى إياس بن قبيصة بأمره أن يضم ما كان للنعمان. فأبى هانئ بن قبيصة أن يسلم ذلك إليه، فغضب كسرى وأراد استئصال بكر بن وائل. وقدم عليه النعمان بن زُرعة التَّغَلبي، وقد طمع في هلاك بكر بن وائل، فقال: يا خير الملوك، ألا أدلك على غرة بكر؟ قال: بلى. قال أقرها وأظهر الإضراب عنها حتى يُجلبها القيظ ويدينها منك، فإنهم لو قاطوا تساقطوا بماء لهم، يقال له ذو قار، تساقط الفَراش في النار، فأقرهم، حتى إذا قاطوا جاءت بكر بن وائل حتى نزلوا الحنو حنو ذي قار، فأرسل إليهم كسرى النعمان بن زُرعة يُخبرهم بين ثلاث حصال: إما أن يسلموا الحلقة، وإما أن يعرو الديار. وإما أن يأذنوا بحرب. فتنازعت بكر بينها. فهَمَّ هانئ بن قبيصة برُكوب الفلاة، وأشار به على بكر، وقال: لا طاقة لكم بجموع الملك. فلم تُر من هانئ سقطة قبلها. وقال حنظلة ابن ثعلبة بن سيار العجلي: لا أرى غير القتال، فإننا إن ركبنا الفلاة منّا عطشاً، وإن أعطينا بأيدينا تقتل مقاتلتنا وتُسي ذرارينا. فراسلت بكر بينها وتوافت بذي قار، ولم يشهداها أحد من بني حنيفة. ورؤساء بني بكر يومئذ ثلاثة نفر: هانئ بن قبيصة، ويزيد بن مسهر الشيباني، وحنظلة بن ثعلبة العجلي - وقال مسمع بن عبد الملك العجلي بن لجيم بن صعْب بن علي بن بكر بن وائل: لا والله ما كان لهم رئيس وإنما غزوا في ديارهم - فنار الناس إليهم من بيوتهم. وقال حنظلة بن ثعلبة في هانئ بن قبيصة: يا أبا أمامة، إن ذمتنا عامّة، وإنه لن يوصل إليك حتى تفنى أرواحنا، فأخرج هذه الحلقة ففرقها في قومك، فإن تطرف فسترد عليك، وإن تهلك فأهون مفقود. فأمر بها فأخرجت وفُرقت بينهم، وقال للنعمان: لولا أنك رسول ما أبت إلى قومك سالماً.

قال أبو المنذر: فعقد كسرى للنعمان بن زُرعة على تغلب والتّم، وعقد لخالد بن يزيد البهراي على قضاة وإباد، وعقد لإياس بن قبيصة على جميع

العرب، ومعه كتيبتاه الشهباء والدؤسر، وعقد للهامرز التستري، وكان على مسلحة كسرى بالسواد، على ألف من الأساورة. وكتب إلى قيس بن مسعود ابن قيس بن خالد ذي الجدين، وكان عامله على الطف طف سنوان. وأمره أن يواي إياس بن قبيصة، ففعل. وسار إياس بمن معه من جنده من طيء، ومعه الهامرز والتعمان بن زرة وخالد بن يزيد وقيس بن مسعود، كل واحد منهم على قومه. فلما دنا من بكر انسل قيس إلى قومه ليلاً، فأتى هانئاً فأشار عليهم كيف يصنعون، وأمرهم بالصبر ثم رجع. فلما التقى الزحفان وتقارب القوم قام حنظلة بن ثعلبة بن سيار العجلي، فقال: يا معشر بكر، إن النشاب التي مع هؤلاء الأعاجم تفرقكم، فعاجلوا اللقاء وابدعوا بالشدّة. وقال هانئ بن مسعود: يا قوم، مهلك معدور، خير من منحي مغرور. إن الجرع لا يردّ القدر، وإن الصبر من أسباب الظفر. المنيّة خير من الدنيّة، واستقبال الموت خير من استدباره. فالجدّ الجدّ فما من الموت بد. ثم قام حنظلة بن ثعلبة فقطع ووضن النساء فسقطن إلى الأرض، وقال: ليقاتل كل رجل منكم عن حليلته، فسُمي مُقَطَّع الوضن. قال: وقطع يومئذ سبعمائة رجل من بني شيبان أيدي أقيبتهم من مناكبها لتخف أيديهم لضرب السيوف. وعلى ميمنتهم بكر ابن يزيد بن مسهر الشيباني، وعلى ميسرتهم حنظلة بن ثعلبة العجلي وهانئ بن قبيصة. ويقال: ابن مسعود في القلب. فتجالد القوم، وقتل يزيد بن حارثة اليشكري الهامرز مبارزه، ثم قتل يزيد بعد ذلك. ويقال إن الحوفزان بن شريك شد على الهامرز فقتله. وقال بعضهم: لم يدرك الحوفزان يوم ذي قار وإنما قتله يزيد بن حارثة. وضرب الله وجوهي الفرس فانهموا، فأتبعهم بكر حتى دخلوا السواد في طلبهم يقتلوهم. وأسر التعمان بن زرة التغلبي، ونجا إياس بن قبيصة على فرسه الحمامة، فكان أول من انصرف إلى كسرى بالهزيمة إياس بن قبيصة، وكان كسرى لا يأتيه أحد بهزيمة جيش إلا نزع كتفه. فلما أتاه ابن قبيصة سأله عن الجيش. فقال: هزمنا بكر بن وائل وأتيناك بيناتهم. فأعجب بذلك كسرى وأمر له بكسوة، ثم استأذنه إياس، وقال: إن أخي قيس بن قبيصة مريض بعين التمر، فأردت أن آتيه. فأذن له. ثم أتى كسرى رجل من أهل الحيرة وهو بالخورنق، فسأل: هل دخل على الملك أحد؟ فقالوا: إياس، فظن أنه حدثه الخبر، فدخل عليه وأخبره بهزيمة القوم وقتلهم. فأمر به فترعت كتفاه.

قال أبو عبيدة: لما كان يوم ذي قار كان في بكر أسرى من تميم قريباً من مائتي أسير، أكثرهم من بني رياح بن يربوع. فقالوا: خلوا عنا نقاتل معكم فإنما ندب عن أنفسنا. قالوا: فإننا نخاف ألا تناصحونا. قالوا: فدعونا نعلم حتى تروا مكاننا وغناءنا فذلك قول جرير:

والمعلمون صباحاً يوم ذي قار

منا فوارس ذي بهدي وذي نجب

قال أبو عبيدة: سئل عمرو بن العلاء، وتنافر إليه عجلي ويشكري، فزعم العجلي أنه لم يشهد يوم ذي قار غير شيباني وعجلي. وقال اليشكري: بل شهدتها قبائل بكر وحلفاؤهم. فقال عمرو: قد فصل بينكما التغلبي حيث يقول:

فعصى وضيعها بذات العجرم

ولقد أمرت أخاك عمراً امرأة

غمراتها الأبطال غير تغمغم

في عمرة الموت التي لا تشتكي

سرب تساقط في خليج مفعم

وكأنما أقدامهم وأكفهم

وابني ربيعة في العجاج الأقتم

لما سمعت دُعاء مرة قد علا

والموت تحت لواء آل محلم

ومحلم يمشون تحت لوائهم

في كل سابعة كلون العظم

لا يصدفون عن الوغى بوجوههم

عند اللقاء بحل شاك معلم

ودعت بنو أم الرقاع فأقبلوا

تحت العجاجة وهي تقطر بالدم

وسمعت يشكر تدعي بخبيب

أسد العرين بيوم نحس مظلم

يمشون في حلق الحديد كما مشت

والجمع من ذهل كأن زهاءهم
والخيل من تحت العجاج عوابساً
وقال العديل بن الفرخ العجلي:

ما أوقد الناس من نار لمكرمة
وما يعدون من يوم سمعتُ به
جئنا بأسلابهم والخيل عابسةً

جُرد الجمال يقودها ابنا قشعم
وعلى سناكبها مناسج من دم

إلا اصطلينا وكنا موقدي النارِ
للناس أفضل من يوم بذى قار
لما استلبنا لكسرى كل إسوار

قال: وقالت عجل: لنا يوم ذي قار. فقبل لهم: فمن المستودع ومن المطلوب؟ ومن نائب الملك ومن الرئيس؟ فهو إذا كان لهم كانت الرياسة لهاني، وكان حنظلة يُشير بالرأي. وقال شاعرهم:

إن كنت ساقية يوماً ذوي كرم
واسقي فوارس حاموا عن ذمارهم
وقال أعشى بكر:

فاسقي الفوارس من ذهل بن شيبانا
واعلي مفارقهم منسكاً وريحانا

أما تميم فقد ذاقتُ عداوتنا
وجند كسرى غداة الحنو صبحهم
لقوا ملئمة شهباء يقدمها
فرع نمته فروع غير ناقصة
فيها فوارس محمود لقاؤهم
بيض الوجوه غداة الروح تحسبهم
لما التقينا كشفنا عن جماجمنا
قالوا البقية والهندي يحصدهم
لو أن كل معد كان شاركنا
لما أمالوا إلى النشاب أيديهم
إذا عطفنا عليهم عطفة صبرت
بطارق وبنو ملك مرازبة
من كل مرجانة في البحر أحرزها
كأما الأل في حافات جمعهم
ما في الخدود صدود عن سيوفهم

وقال الأعشى يلموم قيس بن مسعود:

وقيس عيلان مس الخزي والأسف
منا غطاريف تزجي الموت فأنصرفوا
للموت لا عاجز فيها ولا خرف
موفق حازم في أمره أنف
مثل الأسنه لا ميل ولا كشف
جنان عبس عليها البيض والزغف
ليعلموا أننا بكر فينصرفوا
ولا بقية إلا السيف فانكشفوا
في يوم ذي قار ما أخطأهم الشرف
ملنا ببيض فظل الهام يختطف
حتى تولت وكاد اليوم ينتصف
من الأعاجم في آذنها النطف
تيارها ووقاها طينها الصدف
والبيض برق بدا في عارض يكف
ولا عن الطعن في اللبات منحرف

أَقْبِسَ بِنَ مَسْعُودِ بِنِ قَيْسِ بِنِ خَالِدِ
أَطُورَيْنِ فِي عَامٍ: غَزَاةَ وَرَحْلَةَ
لَقَدْ كَانَ فِي شَيْبَانَ لَوْ كُنْتُ رَاضِيًا
وَرَجْرَاجَةَ تُعْشِي النَوَاطِرَ فَحَمَّةُ
رَحِلْتِ وَ تَنْتَظِرُ وَأَنْتِ عَمِيدُهُمْ
وَعُرِّيَّتِ مِنْ أَهْلِ وَمَالِ جَمْعَتِهِ
شَفَى النَّفْسَ قَتْلَى لَمْ تُوسِدْ خُدُودَهَا
بِعَيْنَيْكَ يَوْمَ الْحِنُو إِذْ صَبَّحَتْهُمْ

ولما بلغ كسرى خبر قيس بن مسعود إذ انسل إلى قومه، حبسه حتى مات في حبسه. وفيه يقول الأعشى:

كَمَا عُرِّيَّتِ مِنْ أَهْلِ وَمَالِ جَمْعَتِهِ

وكتب لقيط الإيادي إلى بني شيبان في يوم ذي قار شعراً يقول في بعضه:

ثُمَّ أَفْرَعُوا قَدْ يِنَالُ الْأَمْنِ مِنْ فَرَعَا

قَوْمُوا قِيَامًا عَلَى أَمْشَاطِ أَرْجَلِكُمْ

رَحَبَ الذَّرَاعِ بِأَمْرِ الْحَرْبِ مُضْطَلَعَا

وَقَلَّدُوا أَمْرَكُمْ لِلَّهِ دَرُكُم

وَلَا إِذَا عَضَ مَكْرُوهٌ بِهِ خَشَعَا

لَا مُتْرَفًا إِنْ رَخَاءَ الْعَيْشِ سَاعَدَهُ

يَكُونُ مُتَّبَعًا طَوْرًا وَمُتَّبَعَا

مَا زَالَ يَحْلُبُ هَذَا الدَّهْرَ أَشْطَرَهُ

لَا مُسْتَحْكَمَ الرَّأْيِ لَا قَحْمًا وَلَا ضَرَعَا

حَتَّى اسْتَمَرَّتْ عَلَى شَزْرِ مَرِيرَتِهِ

وهذه الأبيات نظير قول عبد العزيز بن زُرارة:

شَتَى فِصَادَفَتْ مِنْهُ اللَّيْنُ وَالْفَطْعَا

قَدْ عَشْتُ فِي الدَّهْرِ أَطَوَارًا عَلَى طُرُقِ

وَلَا تَخَشَّعَتْ مِنْ لَأَوَائِهِ جَزَعَا

كُلًّا بَلُوتُ فَلَا النِّعْمَاءُ تُبْطِرُنِي

وَلَا أَضْيِيقُ بِهِ ذَرْعًا إِذَا وَقَعَا

لَا يَمْلَأُ الْأَمْرُ صَدْرِي قَبْلَ مَوْقَعِهِ

كتاب الزمردة الثانية في فضائل الشعر

قال الفتيه أبو عمر أحمد بن محمد بن عبد ربه، رحمه الله: قد مضى قولنا في أيام العرب ووقائعها وأخبارها، ونحن قائلون بعون الله وتوفيقه في فضائل الشعر ومقاطعته ومخارجه، إذ كان الشعر ديوان العرب خاصة والمنظوم من كلامها، والمقيّد لأيامها، والشاهد على أحكامها. حتى لقد بلغ من كلف العرب به وتفضيلها له أن عمدت إلى سبع قصائد تَحْيَرُهَا من الشعر القديم، فكتبتها بماء الذهب في القباطي المدرجة، وعلقتها بين أستار الكعبة. فمنه يقال: مذهبة امرئ القيس، ومذهبة زهير. والمذهبات سبع، وقد يقال لها المعلقات. قال بعضُ المحدثين يصف قصيدة له ويُشبهها ببعض هذه القصائد التي ذكرت:

ن من الشعر المعلق

ها له وجه معشوق

برزة تُذكر في الحُس

كل حرف نادر من

المعلقات

لامرئ القيس:

قفا نَبَكٍ من ذكرى حبيب ومنزل .

ولزهير:

أمن أم أوفى دمنة لم تكلم

ولطرفة:

لخولة أطلال ببرقة تهمد

ولعترة:

يا دارَ عيلة بالجواء تكلمي

ولعمرو بن كلثوم

ألا هُبِّي بصحنك فاصبِحينا

وللبيد:

عفت الديار محلها فمقامها

وللحارث بن حلزة:

أَدْنَتْنا ببينها أسماء

اختلاف الناس في أشعر الشعراء

قال النبي صلى الله عليه وسلم، وذكر عنه امرؤ القيس بن حُجر: هو قائد الشعراء وصاحبُ لوائهم. وقال عمرُ بن الخطاب للوفد الذين قدموا عليه من غطفان: من الذي يقول:

حلفت فلم اترك لنفسي ريبه

قالوا: نابغة بني ذبيان. قال لهم: فمن الذي يقول هذا الشعر:

أتيتك عارياً خلقاً ثيابي

فألفيت الأمانة لم نخنها

وليس وراء الله للمرء مذهب

على وجل تطن بي الظنون

كذلك كان نوح لا يخون

قالوا: هو النابغة. قال: هو أشعر شعرائكم. وما أحسب عمر ذهب إلا إلى أنه أشعر شعراء غطفان: ويدل على ذلك قوله: هو أشعر شعرائكم. وقد قال عمر لابن عباس: أشدني لأشعر الناس، الذي لا يُعاضل بين القوافي ولا يتتبع حوشي الكلام. قال: من ذلك يا أمير المؤمنين؟ قال: زهير بن أبي سلمى. فلم يزل يُنشد من شعره حتى أصبح. وكان زهير لا يمدح إلا مُستحقاً، كمدحه لسنان بن أبي حارثة وهرم بن سنان، وهو القائل:

وان أشعر بيت أنت قائله

بيت يُقال إذا أنشدته صدقا

وكذلك أحسن القول ما صدقه الفعل قالت بنو تميم لسلامة بن جندل: مجذنا بشعرك قال: افعلوا حتى أقول. وقيل للبيد: من أشعر الشعراء؟ قال: صاحب القروح - يريد امرأ القيس - قيل له: فبعده من؟ قال: ابن العشرين - يعني طرفه - قيل له: فبعده من؟ قال: أنا. وقيل للحطبية: من أشعر الناس؟ قال: النابغة إذا رهب، وزهير إذا رغب، وجرير إذا غضب. وقال أبو عمرو بن العلاء: طرفه أشعرهم واحدة، يعني قصيدته:

لخولة أطلال ببرقة تهمد

وفيها يقول: سبدي لك الأيام ما كنت جاهلاً ويأتيك بالأخبار من لم تزود وانشد النبي صلى الله عليه وسلم هذا البيت، فقال: هذا من كلام النبوة. وسمع عبد الله بن عمر رجلاً ينشد بيت الحطبية:

متى تأتته تعشو إلى ضوء ناره

تجد خير نار عندها خير موقد

فقال: ذاك رسول الله صلى الله عليه وسلم، إعجاباً بالبيت. يعني أن مثل هذا المدح لا يستحقه إلا رسول الله صلى الله عليه وسلم وسئل الأصمعي عن شعر النابغة، فقال: إن قلت ألين من الحرير صدقت، وإن قلت أشد من الحديد صدقت. وسئل عن شعر الجعدي، فقال: مُطرف بآلاف. وخمار بواف. وسئل حماد الراوية عن شعر ابن أبي ربيعة، فقال: ذلك الفستق المُقشر الذي لا يُشبع منه. وقالوا في عمرو بن الأهتم: كان شعره حلاًلاً مُششرة. وسئل عمرو بن العلاء عن جرير والفرزدق، فقال: هما بازيان يصيدان ما بين الفيل والعنديل. وقال جرير: أنا مدينة الشعر والفرزدق بُعته. وقال بلال بن جرير: قلت لأبي: يا أبت، إنك لم تهج قوماً قط إلا وضعتهم إلا بني لجا. قال: إني لم أحد شرفاً فأضعه ولا بناء فأهدمه. واحتلف الناس في أشعر نصف بيت قالته العرب. فقال بعضهم: قول أبي ذؤيب الهذلي:

والدهر ليس بمعتب من يجزع

وقال بعضهم: قول حميد بن ثور الهذلي:

نوكل بالأدنى وإن جل ما يمضي

وقال بعضهم قول زُميل:

ومن يك رهناً للحوادث يخلق

وهذا ما لا تُدرك غايته، ولا يُوقف على حده. والشعر لا يفوت به أحد، ولا يأتي له بديع إلا أتى ما هو أبعث منه، ولله درّ القائل: أشعر الناس من أبعث في شعره. إلا ترى مروان بن أبي حفصة، على موضعه من الشعر وبعث صيته فيه، ومعرفته بعثه وسمينه، انشدوه لامرئ القيس فقال: هذا أشعر

وقد قالوا: إنَّ لحسَّانَ بنَ ثابتٍ أفخَرَ بيتَ قائلته العرب، وأحكَمَ بيتَ قائلته العرب. فأما أفخر بيت قائلته العرب، فقوله:

وبيوم بَدْرٍ إذ يرد وجوههم

وأما أحكم بيت قائلته العرب، فقوله:

وإنَّ امرأً أمسى وأصبح سالماً

وقالوا: أهجى بيت قائلته العرب قول جرير:

والتغلبى إذا تتحنح للقرى

ولما قال جرير هذا البيت قال: والله لقد هجوتُ بني تغلب بيت لو طعنوا في أستاذهم بالرِّمَّاح ما حكَّوها.

ويقال: إنَّ أبداع بيت قائلته العرب قولُ أبي ذؤيب الهذلي:

والنفسُ رغبةٌ إذا رغبتُها

ويقال: إنَّ أصدق بيت قائلته العرب قولُ لبيد:

ألا كلُّ شيءٍ ما خلا الله باطلٌ

وذكر الشعر عند عبد الملك بن مروان فقال: إذا أردتُم الشعر الجيِّد فعليكم بالزُّرق من بني قيس بن ثعلبة، وهم رهط أعشى بكر، وبأصحاب النُّخل من يثرب، يريد الأوس والخزرج، وأصحاب الشَّعف من هذيل، والشَّعف: رعوس الجبال.

فضائل الشعر

ومن الدليل على عِظَمِ الشَّعر عند العرب، وجليلِ حَظِّهِ في قلوبهم، أنَّه لما بُعث النبيُّ صلى الله عليه وسلم بالقرآن المُعجِزِ نظمهُ، المُحكَمِ تَأليفه، وأعجب قريشاً ما سمعوا منه قالوا: ما هذا إلا سِحْر. وقالوا في النبيِّ صلى الله عليه وسلم: "شاعرٌ تَربصُ به ريبَ المُنون". وكذلك قال النبيُّ صلى الله عليه وسلم في عمرو بن الأَهمم لما أعجبه كلامه: إنَّ من البيان لِسِحْرًا.

لقد خشيت أن تكون ساحراً

روايةً مرّاً ومرّاً شاعراً

وقال النبيُّ صلى الله عليه وسلم: إنَّ من الشعر لحِكمة. وقال كعبُ الأحبار: إنَّا نجد قوماً في التوراة أناجيلهم في صُدورهم، تنطق ألسنتهم بالحِكمة، وأظنهم الشُّعراء. وقال عمرُ بن الخطَّاب رضي الله عنه: أفضلُ صناعات الرِّجل الأبيات من الشَّعر، يُقدِّمها في حاجاته، يَسْتعطف بها قلبَ الكريم، ويستميل بها قلبَ اللئيم.

وقال الحجاجُ للمُساور بن هند: ما لك تقول الشعرَ وقد بلغتَ من العُمر ما بلغت؟ قال. أرعى به الكلاء، وأشرب به الماء، وتقضي لي به الحاجة، فإن كفيَّتي ذلك تركته. وقال عبدُ الملك بن مروان لمؤدِّب ولده: رَوهم الشَّعر يَمجدوا ويَنجدوا. وقالت عائشة: رُووا أولادكم الشعرَ تعذب ألسنتهم. وبعث زياد بولده إلى معاوية، فكاشفه عن فنون من العِلم، فوجده عالماً بكل ما سأله عنه. ثم أسْتَشده الشعر، فقال: لم أرو منه شيئاً. فكتب معاويةً إلى زياد: ما منعك أن تُرويه الشعر؟ فوالله إن كان العاقق لَيرويه فير، وإن كان البخيل لَيرويه فيسخو، وإن كان الجبان لَيرويه فيقاتل. وكان علي رضي الله عنه إذا أراد المُبارزة في الحرب أنشأ يقول:

أيُّ يومٍ من المَوتِ أفرّ

يومٌ لا يُقدر أم يوم قدر

يَوْمَ لَا يُقَدَّرُ لَا أَرْهَبَهُ

وَمِنَ الْمَقْدُورِ لَا يَنْجُو الْحَذِرُ

وقال المقداد بن الأسود: ما كنتُ أعلم أحداً من أصحاب رسول الله صلى الله عليه وسلم أعلم بشعر ولا فريضة من عائشة رضي الله عنها. وفي رواية الحُشَنِيِّ عن أبي عاصمٍ عن عبد الله بن لاحق عن ابن أبي مُليكة قال: قالت عائشة: رحم الله كبيداً كان يقول:

قَضَّ اللَّبَانَةَ لَا أَبَالِكُ وَأَذْهَبِ

وَالْحَقُّ بِأَسْرَتِكَ الْكِرَامِ الْغَيْبِ

ذَهَبَ الَّذِينَ يُعَاشُ فِي أَكْنَافِهِمْ

وَبَقِيَتْ فِي خَلْفِ كَجِلْدِ الْأَجْرِبِ

فكيف لو أدرك زماننا هذا! ثم قالت: إني لأروي ألفَ بيت له، وإنه أقلُّ ما أروي لغيره.

وقال الشعبي: ما أنا لشيء من العلم أقلُّ مني روايةً للشعر، ولو شئتُ أن أنشد شعراً شهراً لا أعيد بيتاً لفعلت. وسمع النبي صلى الله عليه وسلم عائشة وهي تُنشد شعر زهير بن حناب:

أَرْفَعُ ضَعِيفَكَ لَا يَحْرُ بِكَ ضَعْفُهُ

يَوْمًا فَتُدْرِكُهُ عَوَاقِبُ مَا جَنَى

يَجْزِيكَ أَوْ يَثِي عَلَيْكَ فَإِنَّ مَنْ

أَثَى عَلَيْكَ بِمَا فَعَلْتَ كَمَنْ جَزَى

فقال النبي صلى الله عليه وسلم: صدق يا عائشة، لا يشكر الله من لا يشكر الناس.

يزيد بن عمرو بن مسلم الخزاعي، عن أبيه عن جدّه قال: دخلتُ على النبي صلى الله عليه وسلم ومُنشد يُشده قول سُويد بن عامر المصطلق:

لَا تَأْمَنَنَّ وَإِنْ أَمْسَيْتَ فِي حَرَمِ

إِنَّ الْمَنَايَا بِجَنَبِي كُلِّ إِنْسَانِ

فَاسْلُوكَ طَرِيقَكَ تَمَشِي غَيْرَ مُخْتَشِعِ

حَتَّى تَلْقَى الَّذِي مَنَى لَكَ الْمَانِي

فَكُلْ ذِي صَاحِبِ يَوْمًا مَفَارِقَهُ

وَكُلْ زَادٍ وَإِنْ أَبْقَيْتَهُ فَانِي

وَالْخَيْرُ وَالشَّرُّ مَقْرُونَانِ فِي قَرْنِ

بِكُلِّ ذَلِكَ يَأْتِيكَ الْجَدِيدَانِ

فقال النبي صلى الله عليه وسلم: لو أدرك هذا الإسلام لأسلم.

أبو حاتم، عن الأصمعي قال: جاء رجلٌ إلى النبي صلى الله عليه وسلم فقال: أنشدك يا رسول الله؟ قال: نعم. فأنشده:

تَرَكْتُ الْقِيَانَ وَعَزَفُ الْقِيَانَ

وَأَدْمَنْتُ تَصْلِيَةَ وَابْتِهَالًا

وَكَرَّيَ الْمُشَقَّرَ فِي حَوْمَةِ

وَشَنِّي عَلَى الْمُشْرِكِينَ الْقِتَالَ

فِيَارِبَ لَا أَغْبِنُ صَفْقَتِي

فَقَدَّ بَعْتُ مَالِي وَأَهْلِي بَدَالًا

فقال النبي صلى الله عليه وسلم: ربح البيع، ربح البيع. قدم أبو ليلي النابغة الجعدي على رسول الله صلى الله عليه وسلم، فأنشده شعره الذي يقول فيه:

بَلَّغْنَا السَّمَاءَ مَجْدَنَا وَسَنَاوْنَا

وَإِنَّا لَنَرْجُو فَوْقَ ذَلِكَ مَظْهَرًا

فقال له النبي صلى الله عليه وسلم: إلى أين يا أبا ليلي؟ فقال: إلى الجنة يا رسول الله بك.

فقال النبي صلى الله عليه وسلم: إلى الجنة إن شاء الله: فلما انتهى إلى قوله:

وَلَا خَيْرَ فِي حِلْمٍ إِذَا لَمْ تَكُنْ لَهُ

بِوَادِرُ تَحْمِي صَفْوَهُ أَنْ يُكْتَرَا

وَلَا خَيْرَ فِي جَهْلِ إِنْ لَمْ يَكُنْ لَهُ

حَلِيمٍ إِذَا مَا أورد الأَمْرُ اصْدِرَا

قال النبي صلى الله عليه وسلم: لا يفضض الله فاك. فعاش مائة وثلاثين سنة لم تنغص له ثنية.
سفيان الثوري عن ليث عن طاووس عن ابن عباس قال: إنها لكلمة نبي.
يعني قول طرفة:

سَتُبْدِي لَكَ الْأَيَّامَ مَا كُنْتَ جَاهِلًا

وسمع كعب قول الحطيئة:

وَيَأْتِيكَ بِالْأَحْبَارِ مَنْ لَمْ تَزُودِ

مَنْ يَفْعَلُ الْخَيْرَ لَا يَعْدَمُ جَوَازِيَهُ

لَا يَذْهَبُ الْعُرْفُ بَيْنَ اللَّهِ وَالنَّاسِ

قال: إنه في التوراة حرفاً بحرف: يقول الله تعالى: "مَنْ يَفْعَلُ الْخَيْرَ يَجِدْهُ عِنْدِي، لَا يَذْهَبُ الْخَيْرُ بَيْنِي وَبَيْنَ عَبْدِي".
وقال عبد الله بن عباس: أنشدت النبي صلى الله عليه وسلم آياتاً لأمية بن أبي الصلت يذكر فيها حَمَلَةَ الْعَرْشِ، وهي:

رَجُلٌ وَثُورٌ تَحْتَ رِجْلِ يَمِينِهِ

وَالنَّسْرُ لِلْآخِرَى وَلَيْثٌ مُرْصَدٌ

وَالشَّمْسُ تَطْلُعُ كُلَّ آخِرِ لَيْلَةٍ

فَجراً وَيُصْبِحُ لونها يَتَوَقَّدُ

تَبْدُو فَمَا تَبْدُو لَهُمْ فِي وَقْتِهَا

إِلَّا الْمُعَذَّبَةَ وَإِلَّا تُجَدَّدُ

فتبسم النبي صلى الله عليه وسلم كالمصدق له.

ومن حديث ابن أبي شيبَةَ: أن النبي صلى الله عليه وسلم أردف الشريد، فقال له النبي صلى الله عليه وسلم: تَرَوِي مِنْ شَعْرِ أُمِيَّةِ بْنِ أَبِي الصَّلْتِ شَيْئاً؟
قلتُ: نعم. قالت: فَأَنْشِدْنِي. فَأَنْشَدْتَهُ. فجعل يقول بين كل قافيتين: هيه، حتى أنشدته مائة قافية. فقال: هذا رجل آمن لسانه وكفر قلبه.
ولو لم يكن من فضائل الشعر إلا أنه أعظم جُند يجتده رسول الله صلى الله عليه وسلم على المُشْرِكِينَ، يذُلُّ على ذلك قوله لحسان: شَنَّ الْعَطَارِيفَ
على بني عبد مناف، فوالله لشعرك أشدُّ عليهم من وقع السهام في غلس الظلام: وَتَحْفَظُ بَيْنِي فِيهِمْ. قال: والذي بعثك بالحق نبياً لأسلتكم منهم سلَّ
الشَّعْرَةَ مِنَ الْعَجِينِ. ثم أخرج لسانه فضرب به أرنبة أنفه، وقال: وَاللَّهِ يَا رَسُولَ اللَّهِ إِنَّهُ لِيُخَيِّلُ لِي أَنِّي لَوْ وَضَعْتَهُ عَلَى حَجَرٍ لَفَلَقَهُ، أَوْ عَلَى شَعْرٍ لَحَلَقَهُ.
فقال النبي صلى الله عليه وسلم: أيد الله حسناً في هَجْوِهِ بَرُوحِ الْقُدْسِ. وقال ابن سيرين: بلغني أن دَوْساً إنما أسلمت فرقاً من كعب بن مالك صاحب
النبي صلى الله عليه وسلم حيث يقول:

فَضِينَا مِنْ تَهَامَةِ كُلِّ نَحْبٍ

وَخَبِيرٌ ثُمَّ أَعْمَدْنَا السَّبُوقَا

نُخَبِّرُهَا وَلَوْ نَطَقَتْ لَقَالَتْ

قَوَاضِبُهُنَّ دَوْسًا أَوْ تَقِيْفًا

وقال النبي صلى الله عليه وسلم لحسان بن ثابت لقد شكر الله لك قولك حيث تقول:

زَعَمْتُ سَخِينَةً أَنْ سَتَغْلِبَ رَبَّهَا

وَلْيَغْلِبَنَّ مُغَالِبَ الْغَلَابِ

ولو لم يكن من فضائل الشعر إلا أنه أعظم الوسائل عند رسول الله صلى الله عليه وسلم. فمن ذلك أنه قال لعبد الله بن رواحة: أَخْبِرْنِي مَا الشَّعْرُ يَا
عَبْدَ اللَّهِ؟ قال: شَيْءٌ يَخْتَلِجُ فِي صَدْرِي فَيَنْطِقُ بِهِ لِسَانِي. قال: فَأَنْشِدْنِي فَأَنْشَدَهُ شَعْرَهُ الَّذِي يَقُولُ فِيهِ:

فَتَبَّتْ اللَّهُ مَا آتَاكَ مِنْ حَسَنِ

فَفَوَّتَ عَيْسَى بِإِذْنِ اللَّهِ وَالْقَدَرِ

فقال النبي صلى الله عليه وسلم: وإياك تبت الله، وإياك تبت الله ومن ذلك ما رواه ابن إسحاق صاحب المغازي وابن هشام. قال ابن إسحاق: لما نزل
رسول الله صلى الله عليه وسلم الصفراء - قال ابن هشام: الاثيل - أمر علياً فضرب عنق النضر بن الحارث بن كَلْدَةَ بْنِ عَلْقَمَةَ بْنِ عَبْدِ مَنْفٍ، صَبْرًا بَيْنَ
يَدَيْ رَسُولِ اللَّهِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ. فقالت أخته قتيبة بنت الحارث ترضيه:

يَا رَاكِبًا إِنَّ الْأَثِيلَ مَطْنَةٌ

مِنْ صُبْحِ خَامِسَةِ وَأَنْتَ مُوفِقٌ

ما إن تزال بها النجائب تخفق
جادت بواكفها وأخرى تخنق
أم كيف يسمع ميث لا ينطق
في قومنها والفحل فحل مُعرق
منّ الفتى وهو المغيظ المُحنق
وأحقهم إن كان عتق يُعتق
لله أرحام هناك تمزق
رسفَ المُفِيد وهو عانٍ مُوثق

أبلغ بها ميثاً بأن تحيةً
مني عليك وعبرة مسقوحة
هل يسمعني النضر إن ناديتُه
أمحمد يا خيرَ ضيءِ كريمة
ما كان ضرك لو مننت وربما
فالنضر أقرب من أسرت قرابةً
ظلت سيوف بني أبيه تنوشه
صبراً يُقاد إلى المنية متعباً

قال ابن هشام: قال النبي صلى الله عليه وسلم، لما بلغه هذا الشعر: لو بلغني قبل قتله ما قتلتُهُ.

من حديث زياد بن طارق الجشمي قال: حدثني أبو جرول الجشمي، وكان رئيس قومه، قال: أسرنا النبي صلى الله عليه وسلم يوم حنين، فبينما هو يُميز الرجال من النساء إذ وثبت فوقفت بين يديه وأنشدته:

فإنك المرء نرجوه وننتظر
يا أرجح الناس حلماً حين يُختبر
وعندنا بعد هذا اليوم مدخر

امنن علينا رسول الله في حرم
امنن على نشوة قد كنت ترضعها
إننا لنشكر للنعمى إذا كُفرت

فذكرته حين نشأ في هوازن وأرضعوه. فقال عليه الصلاة والسلام: أما ما كان لي ولبي عبد المطلب فهو لله ولكم. فقالت الأنصار: وما كان لنا فهو لله ولرسوله. فردت الأنصار ما كان في أيديها من الدراري والأموال.

فإذا كان هذا مقام الشعر عند النبي صلى الله عليه وسلم، فأى وسيلة تبلغه أو تعشره.

وكان الذي هاج فتح مكة أن عمرو بن مالك الخزاعي، أحد بني كعب، خرج من مكة حتى قدم على رسول الله صلى الله عليه وسلم المدينة، وكانت خزاعة في حلف النبي صلى الله عليه وسلم وفي عهده وعقده، فلما انتقضت عليهم قريش بمكة وأصابوا منهم ما أصابوا، أقبل عمرو بن مالك الخزاعي بأبيات قالها. فوقف على رسول الله صلى الله عليه وسلم وهو جالس في المسجد بين ظهري الناس فقال:

حلف أبينا وأبيه الأتدا
ثمت أسلمنا فلم ننزع يدا
ونقضوا ميثاقك الموكدا
وزعموا أن لست أدعو أحدا
هم بيبتونا بالوتير هجدا
فانصر هداك الله نصرأ أيدا
فيهم رسول الله قد تجردا

يا رب إنني ناشدُ محمداً
قد كنتم ولداً وكنا ولداً
إن قريشاً أخفوك الموعدا
وجعلوا لي في كداء رصداً
وهم أذل وأقل عدداً
وقتلونا روكعاً وسجداً
وأدع عباد الله يأتوا مدداً

إِنْ سِيمِ خَسَفًا وَجْهَهُ تَرَبَّدَا

فِي فَيْلِقِ كَالْبَحْرِ يَجْرِي مُزْبَدَا

قال ابن هشام: فقال رسول الله صلى الله عليه وسلم، نُصرت يا عمرو بن مالك. ثم عَرَضَ عارضٌ من السماء، فقال رسول الله صلى الله عليه وسلم: إن هذه السحابة تستهملُ بَنَصْرَ بني كعب. وقال عمر بن الخطاب: الشعر جَزَلٌ من كلام العرب، يُسَكَّنُ به العَيْظُ، وتُطْفَأُ به الثائِرةُ، ويتبَلَّغُ به القومُ في ناديتهم، ويُعطى به السائل. وقال ابن عباس: الشعر عِلْمُ العرب وديوانها فتعلّموه، وعليكم بشعر الحِجاز. فأحسبه ذهب إلى شعر الحِجاز، وحَضَّ عليه، إذ لغتهم أوسط اللغات.

وقال معاوية لعبد الرحمن بن الحكم: يا بن أخي، إنك شُهرت بالشعر، فإياك والتشبيبُ بالنساء، فإنك تغرّ الشريفة في قومها، والعفيفة في نفسها؛ والهجاء، فإنك لا تُعدو أن تُعادي كريماً أو تستثير به لئيماً. ولكن افخر بماثر قومك، وقُل من الأمثال ما تُوقرُ به نفسك، وتودِّبُ به غيرك. وسئل مالك ابن أنس: من أين شاطر عمرُ بن الخطاب عُماله؟ فقال أموال كثيرة ظهرت عليهم، وإن شاعراً كتب إليه يقول:

فَأَنِّي لَهُمْ وَفَرٌّ وَلَسْنَا بذي وَفَرٍّ

نَحِجُّ إِذَا حَجَّوْا وَنَغْزُوا إِذَا غَزَوْا

من المسك راحت من مقارقم تجري

إذا التاجرُ الهندي جاء بفارة

سيرضون إن شاطرتهم منك بالشطر

فدونك مال الله حيث وجدته

قال: فشاطرهم عُمرُ أموالهم.

وأنشد عمر بن الخطاب قول زهير:

يَمِينٌ أَوْ نَفَارٌ أَوْ جَلَاءُ

فإن الحق مَقْطَعُهُ ثَلَاثُ

فجعل يعجب بمعرفته بمقاطع الحقوق وتفصيلها وإنما أراد: مَقْطَعُ الحقوق يَمِينٌ أَوْ حَكُومَةٌ أَوْ بَيْتَةٌ. وأنشد عُمرُ قول عبدة بن الطبيب:

والعيشُ شح وإشفاقٌ وتأميلُ

فقال: على هذا بُنيت الدنيا.

ولما هاجر النبي صلى الله عليه وسلم إلى المدينة وهاجر أصحابه، مستهم وباء المدينة فمرض أبو بكر وبلال. قالت عائشة: فدخلتُ عليهما، فقلت: يا أبت، كيف تجدك؟ ويا بلال، كيف تجدك؟ قالت: فكان أبو بكر إذا أخذته الحمى يقول:

والموتُ أدنى من شراك نعلِه

كُلُّ امرئٍ مُصَبِّحٌ فِي أَهْلِهِ

وقالت: وكان بلال إذا أقلعت عنه يرفع عقيرته ويقول:

بِوَادٍ وَحَوْلِي إِذْخِرْ وَجَلِيلُ

أَلَا لَيْتَ شِعْرِي هَلْ أَبَيْتَنَ لَيْلَةً

وهل يبدون لي شامةً وطفيلُ

وهل أَرْدَنَ يَوْمًا مِيَاهَ مَجَنَّةٍ

قالت عائشة: وكان عامر بن فهيرة يقول:

إِنَّ الْجَبَانَ حَتْفَهُ مِنْ فَوْقِهِ

وَقَدْ رَأَيْتُ الْمَوْتَ قَبْلَ ذَوْقِهِ

كالثور يَحْمِي جِلْدَهُ بِرَوْقِهِ قالت عائشة: فحنتُ رسول الله صلى الله عليه وسلم فأخبرته. فقال: اللَّهُمَّ حَبِّبْ إِلَيْنَا الْمَدِينَةَ كَحُبِّنَا مَكَةَ وَأَشَدَّ، وَصَحِّحْهَا وَبَارِكْ لَنَا فِي صَاعِهَا وَمُدِّهَا، وَأَنْتَلِ حَمَاهَا فَاجْعَلْهَا بِالْحُحْفَةِ.

ومن حديث البراء بن عازب، قال: لما كان يوم حُنين رأيتُ النبي صلى الله عليه وسلم، والعبّاس وأبا سُفيان بن الحارث بن عبد المطلب وهما آخذان بِلِجَامِ بَغْلَتِهِ، وهو يقول:

أنا النبي لا كذب،

أنا ابن عبد المطلب

ومن حديث أبي بكر بن أبي شيبة عن سُفيان بن عُيينة يرفعه إلى النبي صلى الله عليه وسلم، أنه لما دخل الغار نُكِبَ، فقال.

هل أنت إلا إصبع دميت،

في سبيل الله ما لقيت

فهذا من المنثور الذي يُوافق المنظوم، وإن لم يتعمد به قائله المنظوم. ومثل هذا من كلام الناس كثير يأخذه الوزن، مثل قول عبد مملوك لمواليه: اذهبوا بي إلى الطبيب، وقولوا قد اكتوى. ومثله كثير مما يأخذه الوزن ولا يُراد به الشعر. ولا يُسمى قول النبي صلى الله عليه وسلم وإن كان موزوناً، شعراً، لأنه لا يراد به الشعر. ومثله في أي الكتاب: "ومن الليل فسبحه وإدبار النجوم" ومنه: "وجفان كالجواب وقُدُور راسيات" ومثله "ويخزهم وينصركم عليهم ويشف صدور قوم مؤمنين" ومنه: "فذلك الذي يدع اليتيم". ولو تطلبت في رسائل الناس وكلامهم لوجدت فيه ما يحتمل الوزن كثيراً ولا يُسمى شعراً. من ذلك قول القائل: من يشتري باذنجان. تقطيعه: مستفعلن مفعولات. وهذا كثير.

من قال الشعر من الصحابة والتابعين والعلماء المشهورين

كان شعراء النبي صلى الله عليه وسلم: حسان بن ثابت، وكعب بن مالك، وعبد الله بن رواحة. وقال سعيد بن المسيب: كان أبو بكر شاعراً، وعُمر شاعراً، وعليُّ أشعر الثلاثة. ومن قول عليٍّ كرم الله وجهه بصفين:

لمن راية سوداء يخفق ظلها

إذا قيل قدمها حُضين تقدمًا

يُقدمها في الصف حتى يزيها

حياض المنايا تقطر السمّ والدمًا

جزى الله عني والجزاء بكفه

ربيعة خيراً ما أعف وأكرما

وقال أنس بن مالك خادم النبي صلى الله عليه وسلم: قدم علينا رسول الله صلى الله عليه وسلم، وما في الأنصار بيت إلا وهو يقول الشعر. قيل له: وأنت أبا حمزة؟ قال: وأنا وقال عمرو بن العاص يوم صفين:

شبت الحرب فأعددت لها

مُفرع الحارك محبوبك النّبع

يصل الشدّ بشدّ فإذا

ونت الخيل عن الشدّ معج

جرشع أعظمه جفرتة

فإذا أبتل من الماء خرج

وقال عبد الله بن عمرو بن العاص:

فلو شهدت جمل مقامي ومشهدي

بصفين يوماً شاب منها الذوائب

عشيّة جا أهل العراق كأنهم

سحاب ربيع زعزعتها الجنائب

وجئناهم نردي كأنّ صقوفنا

من البحر مدّ موجُه متراكب

إذا قلت قد ولوا سراعاً بدت لنا

كتائب منهم وأرجحت كتائب

فدارت رحانا واستدارت رحاهم

سراة النهار ما توالى المناكب

وقالوا لنا إنا نرى أن تبايعوا

علياً فقلنا بل نرى أن نصارب

من شعراء التابعين

عبيد الله بن عبد الله بن عتبة بن مسعود، وهو ابن أخي عبد الله بن مسعود، صاحب رسول الله صلى الله عليه وسلم وهو أحد السبعة من فقهاء المدينة، وله يقول سعيد بن المسيب: أنت الفقيه الشاعر. فقال: لا بُد للمصدر أن ينفث. يعني أنه من كان في صدره زكام فلا بد من أن ينفث زكامة صدره. يريد أن كل من أحتلج في صدره شيء من شعر أو غيره، ظهر على لسانه. وقال عمر بن عبد العزيز: وددت لو أن لي مجلساً من عبيد الله بن عبد الله ابن عتبة بن مسعود بدينار. قال عبيد الله بن عبد الله بن عتبة بن مسعود: ما أحسن الحسنات في إثر السيآت، وأقبح السيآت في إثر الحسنات، وأحسن من هذا وأقبح من ذلك: الحسنات في إثر الحسنات، والسيآت في إثر السيآت.

ومن شعراء التابعين

عروة بن أذينة، وكان من ثقات أصحاب حديث رسول الله صلى الله عليه وسلم، يروي عنه مالك. وقال ابن شبرمة: أن عروة بن أذينة يخرج في الثلث الأخير من الليل إلى سلك البصرة فينادي: يا أهل البصرة، "أفأمن أهل القرى أن لأئيمهم بأسنا بيّاتاً وهم نائمون. أو أمن أهل القرى أن يأتيهم بأسنا ضحى وهم يلعبون". الصلاة الصلاة.

من شعراء الفقهاء المبرزين

عبد الله بن المبارك صاحب الرقائق. وقال حبان: خرجنا مع ابن المبارك مرابطين إلى الشام، فلما نظر إلى ما فيه القوم من التعبد والغزو والسرايا كل يوم التفت إلي وقال: إنا لله وإنا إليه راجعون على أعمار أفينائها، وليال وأيام قطعناها في علم الخلية والبرية، وتركانا هنا أبواب الجنة مفتوحة. قال: فينما هو يمشي وأنا معه في أزقة المصيصة إذ لقي سكران قد رفع عقيرته يتغنى ويقول:

وليس إلى الذي أهوى سبيل

أذلني الهوى فأنا الذليل

قال: فأخرج برنامجاً من كُمه، فكتب البيت. فقلنا له: أتكتب بيت. شعر سمعته من سكران؟ قال: أما سمعتم المثل: رُب جوهرة في مزبلة؟ قالوا: نعم. فهذه جوهرة في مزبلة. وبلغ عبيد الله بن عبد الله بن عتبة بن مسعود عن عمر بن عبد العزيز بعض ما يكره فكتب إليه:

فضيقت به وضاق به جوابي

أتاني عنك هذا اليوم قول

تريد بما تحاول أم عتابي

أبا حفص فلا أدري أرغمي

فما عودي إذا بيراع غاب

فإن تك عاتباً تُعتب وإلا

وواريت الأحبّة في التراب

وقد فارقت أعظم منك رزءاً

معاً فلبست بعدهم ثيابي

وقد عزوا علي إذ اسلموني

وقد ذكرنا شعر عبيد الله بن عبد الله بن عتبة وعروة بن أذينة في الباب الذي يتلو هذا الباب، وهو: قولهم في الغزل .

حدّث فرج بن سلام قال: حدّثنا عبد الله بن الحكم الواسطي عن بعض أشياخ أهل الشام قال: استعمل رسول الله صلى الله عليه وسلم أبا سفيان بن حرب على نجران. فولاه الصلاة والحرب. ووجه راشد بن عبد ربه السلمي أميراً على القضاء والمظالم. فقال راشد بن عبد ربه:

وردت عليه ما بعته تماضر

صحا القلب عن سلمى وأقصر شأوه

وللشيب عن بعض الغواية زاجر

وحكمه شيبب القدال عن الصبا

عن اللّهُ لما ابيض مني الغدائر
بمعرض ذي الاجام عيسٌ بواكر
وحلّت ولاقاها سلّيم و عامر
وبين قُرى بُصرى ونجران كافر
كما قرّ عيناً بالإياب المُسافر

وجلدةٌ بين العين والأنف سالم

يوم لا يُقدر أم يوم قدر

ومن المقدور لا يُنجو الحذر

أرضٍ سواءٍ سهلةٌ معروفه

أولى فقد هان لك الإيابُ

ففي لساني وقلبي منهما نُورُ
وفي فمي صارمٌ كالسيف مأثور

قولهم في الغزل

قال رجل ل محمد بن سيرين: ما تقول في الغزل الرقيق يُنشده الإنسان في المسجد، فسكت عنه حتى أقيمت الصلاة وتقدم إلى المحراب فالتفت إليه، فقال:

س في الصيْف رقرقت فيه العبيراً

نباحاً بها الكلبُ إلا هريراً

وتبرد برد رداء العرو

وتسخن ليلة لا يستطيع

ثم قال: الله أكبر.

وقال العجاج. دخلت المدينة فقصدتُ إلى مسجد النبي صلى الله عليه وسلم فإذا بأبي هريرة قد أكب الناس عليه يسألونه، فقلت: أفرجوا لي عن وجهه. فأفرج لي عنه. فقلت له: إني إنما أقول:

خيالُ أروى وخيالُ تكتما

طاف الخيالن فهاجاً سقما

تُريكَ وجهاً ضاحكاً ومِعصماً

فما تقوله فيه؟ قال: قد كان رسولُ الله صلى الله عليه وسلم يُنشِدُ مثلَ هذا في المسجد فلا ينكره. ودخل كعب بن زهير على النبي صلى الله عليه وسلم قبل صلاة الصبح فمثل بيت يديه، وأنشد:

وساعداً عَبَلاً وكَعْباً أدرما

بانئت سعاد فقلبي اليوم متبولٌ

مُنِّيمُ إثرها لم يُفدْ مَكْبُولُ

وما سعاد غداة البين إذ رحلوا

إلا أغنُّ غَضِيضَ الطرف مكحول

هيفاء مقبلة عجزاء مدبرة

لا يشتكي قصرَ منها ولا طول

ما إن تدوم على حال تكون بها

كما تلون في أثوابها الغول

ولا تمسك بالوعد الذي وعدت

إلا كما يمسك الماء الغرابيل

كانت مواعيد عرقوب لها مثلاً

وما مواعيدُها إلا الأباطيل

ولا يغرِّئك ما منت وما وعدت

إن الأمانِي والأحلام تَضليل

ثم خرج من هذا إلى مدح النبي صلى الله عليه وسلم. فكساه بُرداً، اشتراه منه معاويةُ بعشرين ألفاً. ومن قول عبيد الله بن عبد الله بن عتبة بن مسعود في الغزل:

كتمت الهوى حتى أضرت بك الكتم

ولامك أقوامٌ ولومهم ظم

ونم عليك الكاشحون وقبل ذا

عليك الهوى قد تم لو نفع النم

فيامن لنفس لا تموت فينقضي

عناها ولا تحيا حياة لها طعم

تجنبت إتيان الحبيب تأثماً

ألا إن هجران الحبيب هو الإثم

ومن شعر عروة بن أذينة، وهو من فقهاء المدينة وعبَّادها، وكان من أرق الناس تشبيهاً:

قالت وأنبتتها وجدي وبُحت به

قد كنت عندي تحب الستر فاستتر

ألست تبصر من حولي فقلت لها

غطى هواك وما ألقى على بصري

ووقفت عليه امرأة، فقالت له: أنت الذي يقال فيك الرجل الصالح وأنت تقوله:

إذا وجدت أوار الحُبِّ في كيدي

غدوت نحو سقاء الماء أبتري

هبنى بردت ببرد الماء ظاهره

فمن لنار على الأحشاء تنقد

والله ما قال هذا رجل صالح. وكذبت عدوةُ الله عليها لعنة الله، بل لم يكن مُراثياً ولكنه كان مَصْدُوراً فنفت.

وقدم عروة بن أذينة على هشام بن عبد الملك في رجال من أهل المدينة، فلما دخلوا عليه ذكروا حوائجهم فقضاها، ثم التفت إلى عروة فقال له: ألست القائل:

لقد علمت وخير القول أصدقُه

بأن رزقي وإن لم آت يأتيني

أسعى له فيُعِينني تطلبه

ولو قعدت أتاني لا يُعِينني

قال: بلى. قال: فما أراك إلا قد سَعيت له. قال: سأنظر في أمري يا أمير المؤمنين، وخرَج عنه، فجعل وجهته إلى المدينة. وكشف عنه هشام بن عبد الملك، فقبل له: قد توجه إلى المدينة. فبعث إليه بألف دينار. فلما قدم عليه بها الرسول، قال له أبلغ أمير المؤمنين السلام، وقل له: أنا كما قلت، قد سَعيت وعُنيت في طلبه، وقعدتُ عنه فأتاني لا يُعنيني. ومن قول عبد الله بن المبارك، وكان فقيهاً ناسكاً شاعراً رقيق النسيب، مُعجب التَّشبيب، حيث يقول:

زعموها سألتُ جارتها
أكما ينعنتي تبصرني
فتضحكن وقد قلن لها
حسداً حُملنه من شأنها
وتعرت ذات يوم تبترد
عمركن الله لم لا يقتصد
حسن في كل عين من تود
وقديماً كان في الحب الحسد

وقال شريح القاضي، وكان من جملة التابعين، والعلماء المتقدمين، استقضاه عليٌّ رحمه الله ومُعاوية، وكان تزوج امرأة من بني تميم تسمى زَيْنب. فنقم عليها، فضرها ثم ندم، فقال:

رأيتُ رجالاً يضربون نساءهم
أضربها في غير ذنب أتت به
فزينبُ شمس والنساء كواكب
فشلت يميني يوم أضرب زينبا
فما العدل مني ضرب من ليس أذنباً
إذا برزت تُبدٍ منهن كوكبا

قولهم في المدح

قال شراحيل بن مَعْن بن زائدة: حجَّ الرشيد وزميله أبو يوسف القاضي وكنت كثيراً ما أسايره: فبينما أنا أسايره إذ عرض له أعرابي من بني أسد فأنشده شعراً مدحه فيه وقَرطه. فقال له الرشيد: ألم أنهك عن مثل هذا في شعرك يا أبا بني أسد؟ إذا أنت قلت فقل كما قال مروان بن أبي حفصة في أبي هذا، وأشار إليّ، يقول:

بنو مطر يوم اللقاء كأنهم
هم يمنعون الجار حتى كأنما
بها ليل في الإسلام سادوا ولم يكن
هم القوم إن قالوا أصابوا وإن دعوا
وما يستطيع الفاعلون فعالهم
أسود لها في غيل خفان أشبل
لجارهم بين السماكين منزل
كأولهم في الجاهلية أول
أجابوا وإن أعطوا أطابوا وأجزلوا
وإن أحسنوا في النائبات وأجملوا

وقال عُتْبة بن شماس يمدح عُمر بن عبد العزيز رحمه الله تعالى:

إن أولى بالحق في كل حق
من أبوه عبدُ العزيز بن مروا
ردّ أموالنا علينا وكانت
ثم أحرى بأن يكون حقيقاً
ن ومن كان جدّه الفاروقا
في ذراً شاهق تفوت الأنوقا

مَدَحَ عَبَّاسُ بْنُ مَرْدَاسٍ رَسُولَ اللَّهِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ فَكَسَاهُ حُلَّةً. وَمَدَحَهُ كَعَبُ بْنُ زَهِيرٍ كَسَاهُ بُرْدًا اشْتَرَاهُ مِنْهُ مَعَاوِيَةَ بِعِشْرِينَ أَلْفَ دِرْهَمٍ، وَإِنْ ذَلِكَ الْبُرْدُ لَعِنْدَ الْخُلَفَاءِ إِلَى الْيَوْمِ.

وَقَالَ ابْنُ عَبَّاسٍ: قَالَ لِي عُمَرُ بْنُ الْخَطَّابِ: أَنْشِدْنِي قَوْلَ زُهَيْرٍ. فَأَنْشَدْتُهُ قَوْلَهُ فِي هَرَمِ بْنِ سِنَانَ بْنِ حَارِثَةَ حَيْثُ يَقُولُ:

قَوْمٌ أَبُوهُمْ سِنَانٌ حِينَ تَنْسِبُهُمْ
طَائِبُوا وَطَابَ مِنَ الْأَفْلَازِ مَا وَلَدُوا
لَوْ كَانَ يُعْقَدُ فَوْقَ الشَّمْسِ مِنْ كَرَمٍ
قَوْمٌ بِأَوْلِهِمْ أَوْ مَجْدِهِمْ قَعَدُوا
جِنٌّ إِذَا فَرَعُوا إِنْسٌ إِذَا أَمَنُوا
مُرَزَّعُونَ بِهَالِيلٍ إِذَا احْتَشَدُوا
مُحْسَدُونَ عَلَى مَا كَانَ مِنْ نِعَمٍ
لَا يَنْزِعُ اللَّهُ مِنْهُمْ مَالَهُ حُسَدُوا

فَقَالَ لَهُ عُمَرُ: مَا كَانَ أَحَبَّ إِلَيَّ لَوْ كَانَ هَذَا الشَّعْرُ فِي أَهْلِ بَيْتِ رَسُولِ اللَّهِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ. انظُرْ إِلَى ضَنَانَةِ عُمَرَ بِالشَّعْرِ، كَيْفَ يَرَى أَحَدًا يَسْتَحِقُّ مِثْلَ هَذَا الْمَدْحِ إِلَّا أَهْلَ بَيْتِ مُحَمَّدٍ عَلَيْهِ الصَّلَاةُ وَالسَّلَامُ. وَأَسْمَعُ رَجُلَ عَبْدِ اللَّهِ بْنِ عُمَرَ بَيْتَ الْحُطَيْيَةِ:

مَتَى تَأْتِيهِ تَعَشُّوْا إِلَى ضَوْءِ نَارِهِ
تَجِدْ خَيْرَ نَارٍ عِنْدَهَا خَيْرٌ مُوقِدٍ

فَقَالَ ذَلِكَ رَسُولُ اللَّهِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ. فَلَمْ يَرِ أَحَدًا يَسْتَحِقُّ هَذَا الْمَدْحَ غَيْرَ رَسُولِ اللَّهِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ وَاسْتَأْذَنَ نُصَيْبُ بْنُ رَبَاحٍ عَلَى عُمَرَ بْنِ عَبْدِ الْعَزِيزِ فَلَمْ يَأْذَنْ لَهُ، فَقَالَ: أَعْلَمُوا أَمِيرَ الْمُؤْمِنِينَ أَنِّي قَلْتُ شِعْرًا، أَوَّلُهُ الْحَمْدُ لِلَّهِ. فَأَعْلَمُوهُ. فَأْذَنَ لَهُ فَأَدْخَلَ عَلَيْهِ وَهُوَ يَقُولُ:

الْحَمْدُ لِلَّهِ أَمَا بَعْدُ يَا عُمَرَ
فَأَنْتَ رَأْسُ قَرِيْشٍ وَابْنُ سَيِّدِهَا
وَالرَّأْسُ فِيهِ يَكُونُ السَّمْعُ وَالْبَصَرُ
فَقَدْ أَنْتَنَّا بِكَ الْحَاجَاتُ وَالْقَدَرُ

فَأَمَرَ لَهُ بِحُلِيَّةِ سَيْفِهِ.

وَمَدَحَهُ جَرِيرٌ بِشِعْرِهِ الَّذِي يَقُولُ فِيهِ:

هَذِي الْأَرَامِلُ قَدْ قَضَيْتِ حَاجَتَهَا
فَمَنْ حَاجَةٌ هَذَا الْأَرْمَلِ الذِّكْرُ

فَأَمَرَ لَهُ بِثَلَاثَةِ دِرْهَمٍ. وَمَدَحَهُ دُكَيْنُ الرَّاجِزِ، فَأَمَرَ لَهُ بِخَمْسِ عَشْرَ نَاقَةً. وَمَدَحَ نُصَيْبُ بْنُ رَبَاحٍ عَبْدَ اللَّهِ بْنَ جَعْفَرَ، فَأَمَرَ لَهُ بِمَالٍ كَثِيرٍ وَكُسُوةٍ وَرَوَاحِلٍ. فَقِيلَ لَهُ: تَفْعَلُ هَذَا بِمِثْلِ هَذَا الْعَبْدِ الْأَسْوَدِ؟ فَقَالَ: أَمَا وَاللَّهِ لَنْ كَانَ عَبْدًا إِنْ شَعْرَهُ لِحُرٍّ، وَإِنْ كَانَ أَسْوَدَ إِنْ ثَنَاءَهُ لِأَبِيضٍ. وَإِنَّمَا أَخَذَ مَالًا يَفْنَى، وَثِيَابًا تَبْلَى، وَرَوَاحِلَ تَنْضَى، فَأَعْطَى مَدِيحًا يُرْوَى، وَثَنَاءَهُ يَبْقَى.

وَدَخَلَ ابْنُ هَرَمِ بْنِ سِنَانَ عَلَى عُمَرَ بْنِ الْخَطَّابِ، فَقَالَ لَهُ: مَنْ أَنْتَ؟ قَالَ: أَنَا ابْنُ هَرَمِ بْنِ سِنَانَ. قَالَ: صَاحِبُ زَهَيْرٍ؟ قَالَ: نَعَمْ. قَالَ: أَمَا إِنَّهُ كَانَ يَقُولُ فِيكُمْ فَيُحْسِنُ. قَالَ: كَذَلِكَ كُنَّا نَعْطِيهِ فَنُجْزِلُ. قَالَ: ذَهَبَ مَا أَعْطَيْتُمُوهُ بَقِي مَا أَعْطَاكُمْ. وَكَانَ طُرَيْحُ الثَّقَفِيِّ نَاسِكًا شَاعِرًا، فَلَمَّا قَالَ فِي أَبِي جَعْفَرَ الْمَنْصُورِ قَوْلَهُ:

أَنْتَ ابْنُ مُسْلِنِطِحِ الْبِطَاحِ وَلَمْ
تَعْطِفْ عَلَيْكَ الْحَنِيَّ وَالْوَلُجُ
لَوْ قَلْتَ لِلْسَيْلِ دَغَ طَرِيقَكَ وَالْمَوِ
جُ عَلَيْهِ كَاللَّيْلِ يَعْتَلِجُ
لَهُمْ أَوْ كَادَ أَوْ لَكَانَ لَهُ
فِي سَائِرِ الْأَرْضِ عِنكَ مُنْعَرِجُ
طُوبَى لَفَرَعَيْكَ مِنْ هُنَا وَهُنَا
طُوبَى لَأَعْرَافِكَ الَّتِي تَنْشِجُ

قال أبو جعفر: بلغني عن هذا الرجل أنه يتأله، فكيف يقول للسَّيل: دع طريقك. فبلغ ذلك طريحا، فقال: الله يعلم أي إنما أردت: يا رب لو قلت للسَّيل دع طريقك.

وقال الحطيئة لما حبسه عمرُ بن الخطاب في هجائه للزَّبرقان بن بدر أبياتاً يمدح فيها عمر ويستعطفه. فلما قرأها عمرُ عطف له، وأمر بإطلاقه وعفا عما سلف منه. والأبيات:

زُغِبِ الحَوَاصِلُ لا ماء ولا شَجَرُ

فاغفر عليك سلامُ الله يا عمر

ألقى إليك مقاليد النهي البشر

لكن لأنفسهم كانت بها الإثر

ماذا تقول لأفراح بذي مرخ

ألقيت كاسبهم في قعر مظلمة

أنت الإمام الذي من بعد صاحبه

ما أتروك بها إذ قدّموك لها

ودخل ابن دارة على عدي بن حاتم صاحب رسول الله صلى الله عليه وسلم، فقال: إني مدحتك. قال: أمسك حتى آتيك بمالي ثم امدحني على حسبه، فإني أكره ألا أعطيك ثمن ما تقول، لي ألف شاة وألف درهم وثلاثة أعبد وثلاث إماء وفرسي هذا حبيس في سبيل الله، فامدحني على حسب ما أخترتك. فقال:

تُلاقِي الربيعُ في ديار بني ثعل

حُساماً كَنَصَلِ السَّيْفِ سُلِّ مِنَ الخَلِّ

وأنت جواد ليس يُعذر بالعلل

وإن تفعلوا خيراً فمتملكم فعل

تحن قلوبني في معدّ وإنما

وأبقى الليالي من عدي بن حاتم

أبوك جواد لا يُشوق غباره

فإن تفعلوا شراً فمتملكم اتقى

قال عدي: أمسك لا يبلغ مالي إلى أكثر من هذا.

قولهم في الهجاء

قال الله تبارك وتعالى في هجو المشركين: "والشعراء يتبعهم الغاؤون. ألم تر أنهم في كل واد يهيمون. وأنهم يقولون ما لا يفعلون. إلا الذين آمنوا وعملوا الصالحات وذكروا الله كثيراً وانتصروا من بعد ما ظلموا وسيعلم الذين ظلموا أيُّ منقلب ينقلبون" فأرخص الله للشعراء بهذه الآية في هجائهم لمن تعرّض لهم

يزيد بن عمرو بن تميم الخزاعي عن أبيه عن جدّه: أن رجلاً أتى النبي صلى الله عليه وسلم فقال: يا رسول الله، إن أبا سفيان يهجوك. فقال رسول الله صلى الله عليه وسلم: اللهم إنه هجاني وإني لا أقول الشعر، فاهجّه عني. فقام إليه عبد الله بن رواحة فقال: يا رسول الله، إيدن لي فيه. قال: أنت القاتل:

قذبت الله ما آتاك من حسن .

قال: نعم. قال: وإياك فثبت الله. ثم قام إليه كعب بن مالك فقال: يا رسول الله، إيدن لي فيه. فقال: أنت القاتل هممت ؟ قال: نعم. قال: لست له. ثم قام حسّان بن ثابت فقال: يا رسول الله، إيدن لي فيه، وأخرج لسانه فضرب به أرنبة أنفه، وقال: والله يا رسول الله إنه ليخيّل لي أي لو وضعتُه على حجر لفلقه، أو على شعر لحلقه. فقال: أنت له، اذهب إلى أبي بكر يُخبرك بمثالب القوم ثم اهجمهم وجبريل معك. فقال يرد على أبي سفيان:

مغلغلة فقد برح الخفاء

وعند الله في ذاك الجزاء

ألا أبلغ أبا سفيان عني

هجوت محمداً وأجبت عنه

أتهجوه ولست له بندٌ

أمن يهجو رسوله الله منكم

لنا في كل يوم من معدٌ

لساني صارمٌ لا عيبَ فيه

فإن أبي ووالده وعرضي

فشركما لخير كما الفداء

ويطريه ويمدحه سواء

سياب أو قتال أو هجاء

وبحري لا تكدره الدلاء

لِعرض محمد منكم وقاء

وقال رجل من أهل اليمن: دخلت الكوفة فأتيت المسجد فإذا بعمار بن ياسر ورجل يُنشد هجاء معاوية وعمرو بن العاص، وهو يقول: أُلصق بالعجوزين. قلت له: سبحان الله! أتقول هذا وأنتم أصحاب محمد صلى الله عليه وسلم؟ قال: إن شئت فاحلس وإن شئت فاذهب. فجلست، فقال: أتدري ما كان يقول لنا رسول الله صلى الله عليه وسلم لما هجانا أهل مكة؟ قلت: لا أدري. قال: كان يقول لنا: قولوا لهم مثل ما يقولون لكم. وقال النبي صلى الله عليه وسلم لحسان بن ثابت: لقد شكر الله لك بيتاً قلت، وهو:

ز عمت سخينة أن ستغلب ربها

وسألت هذيل رسول الله صلى الله عليه وسلم أن يُحل لها الرثا. فقال حسان في ذلك:

سالت هذيل رسول الله فاحشة

وقال عبد الملك بن مروان: ما هجاني أحدٌ بأوجع من بيت هُجِّي به ابن الزبير وهو:

وليغلبن مغالب الغلاب

ضلت هذيل بما سالت ولم تصب

لم نبك منك على دنيا ولا دين

وقيل لعقيل بن علقمة: ما لك لا تطيل الهجاء؟ قال: يكفيك من القلادة ما أحاط بالعنق. وقال رجل من تقيف لمحمد بن مُناذر: ما بال هجائك أكثر من مدحك؟ قال: ذلك مما أغراني به قومك واضطريني إليه لؤمك. وقال أبو عمرو بن العلاء: قلت لجرير: إنك لعفيف الفرج كثير الصدقة فلم تُسب الناس؟ قال: يبدءوني ثم لا أغفر لهم. وكان جرير يقول: لست بمبتدئ ولكنني مُعتدٍ يريد أنه يُسرف في القصص. ومثله قوله الشاعر:

بني عمنا لا تتطقوا الشعر بعدما

فلسنا كمن قد كنتم تظلمونه

ولكن حكم الصيف فيكم مُسلط

فإن قلتم إنا ظلمنا فلم نكن

دقنتم بأفناء العذيب القوافيا

فيقبل ضيماً أو يحكم قاضيا

فنرضى إذا ما اصبح السيف راضيا

ظلمنا ولكننا أسأنا التقاضيا

وكان عمر بن الخطاب يقول: واحدة بأخرى والبادي أظلم.

أبو الحسن المدائني قال: وفد جرير على عبد الملك بن مروان، فقال عبد الملك للأحطل: أتعرف هذا؟ قال: لا. قال: هذا جرير، قال الأحطل: والذي أعمى رأيك يا جرير ما عرفتك. قال له جرير: والذي أعمى بصيرتك وأدام خزيتك، لقد عرفتك، لسيماك سيما أهل النار. ابن الأعرابي قال: دخل كثير عزة على عبد الملك فأنشده، وعنده رجل لا يعرفه. فقال عبد الملك للرجل: كيف ترى هذا الشعر؟ قال: هذا شعر حجازي، دعني أضعمه لك ضعمه. قال كثير: من هذا يا أمير المؤمنين؟ قال: هذا الأحطل. قال: فالتفت إليه فقال له: هل ضعمت الذي يقول:

والتغليبي إذا تحنح للقرى

تلقاهم حلماً عن أعدائهم

حك أسنّه وتمتل الأمثالاً

وعلى الصديق تراهم جهلاً

حدثنا يحيى بن عبد العزيز قال: حدثنا محمد بن عبد الحكم بمصر، قال: كان رجل له صديق يقال له حُصين، فولى موضعاً يقال له السَّابِين، فطلب إليه حاجةً فاعتلَّ عليه فيها، فكتب له:

مني وليس طلاقَ ذاتِ البينِ
وتُقيمُ ودَّك لي على ثنتين
فيكون تطليقان في حَيَّصين
لم تُغنِ عنك ولايةَ السابِين
حتى أسود وجهَ كل حُصين

عني فأرضُ الله لم تضيقِ
فوطنتني وطناً على حنقِ
فاضربُ بها فُقلاً على غلقِ
فاجمع يدي بها إلى عنقي
إن عدتُ بعد اليوم في الحمقِ
وأدلني بمسالكِ الطُرقِ

تجعلها منك آخرَ الأبدِ
فإن فيها برداً على كيدي
في ناظري حياة على رصدي

هل نلتَ مكرمةً إلا بتأميرِ
أنَّ ابنها من قريش في الجماهيرِ
لا يدفعُ الخلقُ محتومَ المقاديرِ

أقرَّ كإقرارِ الحليَّة للبعْلِ
أذلُّ لأقدامِ الرِّجال من النعلِ

حتى دفعنا إلى يحيى ودينارِ

لا أذهبُ إليك فإنَّ ودَّك طالق
فإذا ارعويتَ فإنها تطليقة
وإذا أبيتَ شفعتها بمثالها
وإنَّ الثلاثَ أتيك مني بتة
لم أرض أن أهجو حُصيناً وحدَه

طلب دِعبلُ بن عليّ حاجةً إلى بعض الملوك فصرَّح بمنعه. فكتب إليه:

أحسبتَ أرضَ الله ضيقةً
وحسبتني فقعاً بقرقرة
فإذا سألتك حاجةً أبداً
وأعدلي غلاً وجامعةً
ثم ارم بي في قعرِ مظلمة
ما أطولَ الدنيا وأوسعها

ومثل هذا قول أبي زُبيدة:

ليتكَ أدبتني بواحدة
تحلف ألا تبرئني أبداً

إن كان رزقي إليك فارم به

وقال زياد: ما هُجيت بيت قطُّ أشدَّ عليّ من قول الشاعر:

فكرٌ ففي ذلك إن فكرتَ مُعتبرِ

عاشت سُميَّة ما عاشت وما علمت

سُبْحان من مُلكِ عبَاد بقدرته

وقال بلالُ بن جرير: سألتُ أبي: أي شيء أشدُّ عليك؟ قال: قولُ البعيت:

ألستَ كليبياً إذا سيم خطَّة

وكل كليبيٍّ صحيفة وجهه

وكان بلالُ بن جرير شاعراً ابنَ شاعرٍ ابنَ شاعرٍ، لأنَّ الحطفي جدُّه كان شاعراً، وهو القائل:

ما زال عصياننا لله يُسلمنا

إلى عُليجين لم تُقطع ثمارُهما قد طالما سجداً للشمس والتَّار ومن أحببت الهجاء قول جميل:

العقد الفريد-ابن عبد ربه الأندلسي

وَجَدِّي يَا شَمَاحَ فَارِسُ شَمَرًا
لَأَبَاءِ سَوْءٍ يَلْقَهُمْ حَيْثُ سَيْرًا
فَلَلَهُ إِذْ لَمْ يُرْضِكُمْ كَانَ أَبْصِرَا

وَلَوْ أَنَّ أَبِي الْحَجَنَاءَ لَوْنُ الْبَهَائِمِ
وَإِنْ كَانَ مَظْلُومًا لَهُ وَجْهُ ظَالِمٍ

وكان يقال لسعد بن أبي وقاص: المستجاب؟ لقول النبي صلى الله عليه وسلم: اتقوا دعوة سعد. فقال رجل بالقادسية فيه:

وَسَعْدٌ بَبَابِ الْقَادِسيَّةِ مُعْصِمٍ
وَنَسْوَةٌ سَعَدٍ لَيْسَ فِيهِنَّ أَيْمٍ

فقال سعد: اللهم اكفني يده ولسانه. فخرس لسانه، وضربت يده فقطعت.

وذكر عند المبرد محمد بن يزيد النحوي رجل من الشعراء، فقال: لقد هجاني بيتين أنضح بهما كبدي. فاستنشده. فأنشدهم هذين البيتين:

فَكُلُّ قَدْ أَجَابَ وَمَنْ تُمَالَهُ
فَقَالُوا الْآنَ زِدْتُهُمَا جَهَالَهُ

سَأَلْنَا عَنْ تُمَالَةَ كُلِّ حَيٍّ
فَقُلْتُ مُحَمَّدُ بْنُ يَزِيدَ مِنْهُمْ

ولم يقل أحدًا في القبيح أحسن من قول أبي نؤاس:

عَلَامَ قَتَلْتِ هَذَا الْمُسْتَهَامَا
أَجْمَعُ وَجْهَهُ هَذَا وَالْحَرَامَا

وَقَائِلَةٌ لَهَا فِي وَجْهِ نَصْحٍ
فَكَانَ جَوَابُهَا فِي حُسْنِ مَيْسٍ

وكان جرير يقول: إذا هجوت فأضحك. وينشد له:

تَلَقَّمْ بَابُ عَصْرِطِهَا التُّرَابَا
كَعَنْفَقَةِ الْفَرَزْدَقِ حِينَ شَابَا

إِذَا سَعَلْتُ فَتَاةُ بَنَى نَمِيرٍ
تَرَى بَرَصًا بِمَجْمَعِ إِسْكَتِهَا

وقوله أيضاً:

هَذِي دَوَاةُ مُعَلِّمِ الْكُتَّابِ

وَتَقُولُ إِذْ نَزَعُوا الْإِزَارَ عَنْ اسْتِهَا

وقوله أيضاً:

وَخَاطَرْتُ بِيَ عَنْ أَحْسَابِهَا مُضْرُ
كَمَا يُهَيِّأُ لَأَسْتِ الْخَارِيَّ الْحَجْرُ

أَحِينِ صَرِيَتْ سَمَامًا يَا بَنِي لَجَا
هَيَأْتُمْ عُمَرَا يَحْمِي دِيَارِكُمْ

وقال علي بن الجهم يهجو محمد بن عبد الملك الزيات وزير المتوكل:

جَمْعُكَ إِيَاهُنَّ فِي بَيْتِ
تَغْسَلُ عَنْهُ وَضَرَ الزَّيْتِ

أَحْسَنُ مِنْ سَبْعِينَ بَيْتًا سُدَى
مَا أَحْوَجَ الْمَلِكَ إِلَى دِيمَةِ

وقالوا: أهجى بيت قالته العرب قولُ الطرمّاح بن حكيم:

تميم بطرق اللؤم أهدى من القطا

ولو أن برغوئا على ظهر قملة

ولو أن عصفوراً يمد جناحه

وقال بعضهم: قول جرير في بني تغلب:

والتغلبى إذا تتحنح للقرى

ويقال: قوله:

قوم إذا استتبح الأضياف كلبهم

ومن أحيث الهجاء قول زياد الأعجم:

قالوا الأشاقر تهجوكم فقلت لهم

وهم من الحسب الذّاكي بمنزلة

لا يكثرّون وإن طالت حياتهم

وقوله أيضاً:

فضى الله خلق الناس ثم خلقتهم

فلم تسمعوا إلا الذي كان قبلكم

وقال فيهم:

قبيلة خيرها شرها

وضيفهم وسط أبياتهم

ونظير هذا قول الطرمّاح:

وما خلقت نيم وزيد مناتها وضبة

ومن أحيث الهجاء قول الطرمّاح في بني تميم:

لو حان ورد تميم ثم قيل لهم

أو أنزل الله وحياً أن يعذبها

وكل لؤم أباد الله أثلته

لو كان يخفى على الرحمن خافية

قوم أقام بدار الذل أولهم

ومثله قول المساور بن هند:

ما سرنى أن قومي من بني أسد

ولو سلكت سبل المكارم ضلّت

رأته تميم يوم زحف لولت

لقامت تميم تحته واستظلت

حك آسته وتمتل الأمثالا

قالوا لأهمم بولي على النار

ما كنت أحسيهم كانوا ولا خلّفوا

كطحلب الماء لا أصل ولا ورق

ولو يبول عليهم تغلب غرقوا

بقية خلق الله آخر آخر

ولم تدرّكوا إلا مدق الحوافر

وأصدقها الكاذب الآثم

وان لم يكن صائماً ضائماً

إلا بعد خلق القبائل

حوض الرسول عليه الأزْد لم ترد

إن لم تعد لقتال الأزْد لم تعد

ولؤم ضبة لم ينقص ولم يزد

من خلقه خفيت عنه بنو أسد

كما أقامت عليه جذمة الوتد

وأن ربي يُنجيني من النار

وأنهم زوّجوني من بناتهم

ومن أحببت الهجاء من غير إقذاع:

بلاد نأى عني الصديق وسبتي

وقال عبيد:

يا أبا جعفر كتبتك سَمْحاً

لا تلمني على الهجاء فلم يه

وأن لي كل يوم ألف دينار

بها عنزي ثم لم أتكلم

فاستطال المداد فالميم لأم

جك إلا المداد والأقلام

وقال سليمان بن أبي شيخ: كان أبو سعيد الرّاني يُماري أهل الكوفة ويفضل أهل المدينة، فهجاه رجل من أهل الكوفة وسماه شرّشيراً. وقال: كلب في جهنم يُسمى شرّشيراً. فقال:

إن سبيل عنها ولا أصحاب شرّشير

إلا حنيفة كوفية الدور

عندي مسائل لا شرّشير يعرفها

وليس يعرف هذا الدين معرفة

إلا عن البمّ والمثنى أو الزبير

وكل أمر إذا ما حمّ مقدور

إلا الغناء وإلا البمّ والزبير

قبر النبي وخير الناس مقبور

لا تسألنّ مدينيًا فتكفّره

فكتب أبو سعيد إلى أهل المدينة: إنكم قد هجيتم فرُدُّوا. فردّ عليه رجل من أهل المدينة يقول:

لقد عجبت لغاوي ساقه قدر

قالوا المدينة أرض لا يكون بها

لقد كذبت لعمر الله إن بها

قال: فما انتصر ولا انتصر به، فليته لم يقل شيئاً.

وقال: فساور الوراق في أهل القياس:

كنا من الدّين قبل اليوم في سعة

قاموا من السوق إذ قلت مكاسبهم

أما العريب فأمسوا لا عطاء لهم

حتى بلينا بأصحاب المقاييس

فاستعملوا الرأي بعد الجهد والبوس

وفي الموالي علامات المفاليس

قال: فلقبه أبو حنيفة، فقال له: هجوتنا، نحن نرضيك، فبعث إليه بدراهم، فكفّ عنه وقال:

إذا ما الناس يوماً قايسوننا

أتيناهم بمقياس صحيح

إذا سمع الفقيه بها وعاها

ومن حيث الهجاء قول الشاعر:

بمسألة من الفتيا طريفة

بديع من طراز أبي حنيفة

وأثبتها بحبر في صحيفه

عجبت لعبدان هجوني سفاهة

بجاء وريسان وفهر وغالب

أن اصطبخوا من شائهم وتقبّلوا

وعون وهدم وابن صفة أخيل

فَأَمَّا الَّذِي يُحْصِيهِمْ فَمُكْتَرٌّ

وقال أبو العتاهية في عبد الله بن معن بن زائدة:

قال ابنُ مَعْنٍ وَجَلَى نَفْسَهُ

هَلْ فِي جَوَارِي الْحَيِّ مِنْ وَائِلٍ

أُكْنَى أبا الْفَضْلِ فَيَا مَنْ رَأَى

قَدْ نَقَطْتَ فِي خَدِّهَا نُقْطَةً

وَأَمَّا الَّذِي يَطْرِيهِمْ فَمُقَلٌّ

على القَرَابَاتِ مِنَ الْأَهْلِ

جَارِيَةٌ وَاحِدَةٌ مِثْلِي

جَارِيَةٌ تُكْنَى أبا الْفَضْلِ

مَخَافَةَ الْعَيْنِ مِنَ الْكُحْلِ

مداراة الشعراء وتقيتهم

أبو جعفر البغدادي قال: مدح قوم من الشعراء بن سليمان بن علي بن عبد الله بن عباس، فمأطلمهم بالجائزة، وكان الخليل بن أحمد صديقه، وكان وقت مدحهم إياه غائباً فلما قدم الخليل أتوه فأخبروه، واستعانوا به عليه، فكتب إليه:

لَا تَقْبَلَنَّ الشَّعْرَ ثُمَّ تَعَقَهُ

وَاعْلَمْ بِأَنَّهُمْ إِذَا لَمْ يُنْصَفُوا

وَجُنَايَةُ الْجَانِي عَلَيْهِمْ تَنْقُضِي

فأجازهم وأحسن إليهم.

وقال النبي صلى الله عليه وسلم، لما مدحه عباس بن مرداس: اقطعوا عني لسانه. قالوا: بماذا يا رسول الله؟ فأمر له بحلقة قطع بها لسانه. ومدح ربيعة الرقي يزيد بن حاتم، وهو والي مصر فتشاغل عنه ببعض الأمور، واستبطأه ربيعة فشحص من مصر، وقال:

أُرَانِي وَلَا كُفْرَانَ لِلَّهِ رَاجِعاً

فبلغ قوله يزيد بن حاتم، فأرسل في طلبه وردّه. فلما دخل عليه قال له: أنت القاتل:

بِخُفْيِ حُنَيْنٍ مِنْ نَوَالِ ابْنِ حَاتِمٍ

بِخُفْيِ حُنَيْنٍ مِنْ نَوَالِ ابْنِ حَاتِمٍ

أُرَانِي وَلَا كُفْرَانَ لِلَّهِ رَاجِعاً

قال: نعم. قال: هل قلت غير هذا؟ قال: لا. قال: والله لترجعن بخفي حنين مملوءتين مالا، فأمر بخلع خفيه، وأن ثملا له مالا. ثم قال: أصلح ما أفسدت من قولك. فقال فيه، لما عُرِل من مصر ووُلي مكانه يزيد بن حاتم السلمي:

غَدَاةٌ غَدَا مِنْهَا الْأَعْرَابُ ابْنِ حَاتِمٍ

يَزِيدُ سَلِيمٍ وَالْأَعْرَابُ ابْنِ حَاتِمٍ

وَهُمُ الْفَتَى الْقَيْسِيُّ إِنْفَاقُ مَالِهِ

وَلَكِنِّي فَضَّلْتُ أَهْلَ الْمَكَارِمِ

بَكَى أَهْلَ مِصْرَ بِالْدمِوعِ السَّوَاجِمِ

لِشْتَانِ مَا بَيْتَ الْيَزِيدِيِّينَ فِي النَّدَى

فَهَمُّ الْفَتَى الْقَيْسِيُّ إِنْفَاقُ مَالِهِ

فَلَا يَحْسِبُ التَّمَتُّامُ أَنِّي هَجَوْتَهُ

وأعلم أن تقيّة الشعراء من حفظ الأعراس التي أمر الله تعالى بحفظها. وقد وضعنا في هذا الكتاب باباً فيمن وضعه الهجاء، ومن رفعه المدح. وكان لزياد عامل على الأهواز يقال له: تيم. فمدحه رجل من الشعراء فلم يعطه شيئاً. فقال له الشاعر: أما إني لا أهجوك، ولكنني سأقول فيك ما هو شرّ عليك من الهجاء فدخل على زياد فأسمعه شعراً مدحه فيه، وقال في بعضه:

وكائن عند تيم من بدور

إذا ما صفت تدعو زياداً

دعته كي يجيب لها وشيكاً

وقد ملئت حنجرها صفاداً

فقال زياد: لبيك يا بدور. ثم أرسل فيه، فأغرمه مائة ألف.

باب في رواة الشعر

قال الأصمعي: ما بلغت الحلم حتى رويت اثني عشر ألفاً أرجوزة للأعراب.

وكان خلف الأحمر أروى الناس للشعر وأعلمهم بجيده.

قال مروان بن أبي حفصة: لما مدحت المهدي بشعري الذي أوله:

طرقتك زائرة فحي خيالها

بيضاء تخط بالحياء دلالها

أردت أن أعرضه على بصراء البصرة، فدخلت المسجد الجامع، فتصفت الحلق، فلم أر حلقة أعظم من حلقة يونس النحوي، فجلست إليه، فقلت له: إني مدحت المهدي بشعر، وأردت ألا أرفعه حتى أعرضه على بصرائكم، وإني تصفت الحلق فلم أر حلقة أحفل من حلقتك، فإن رأيت أن تسمعه مني فافعل. فقال: يا بن أخي، إن هاهنا خلفاً ولا يمكن أحدنا أن يسمع شعراً حتى يحضر، فإذا حضر فأسمعه. فجلست حتى أقبل خلف الأحمر. فلما جلس جلست إليه، ثم قلت له ما قلت ليونس. فقال: أنشد يا بن أخي. فأنشدته حتى أتيت على آخره. فقال لي: أنت والله كأعشى بكر، بل أنت أشعر منه حيث يقول:

رحلت سمية غدوة أجمالها

غضبي عليك فما تقول بدالها

وكان خلف مع روايته وحفظه يقول الشعر فيحسن، وينحله الشعراء. ويقال إن الشعر المنسوب إلى ابن أخت تابط شراً، وهو:

إن بالشعب الذي دون سلع

لقتيلاً دمه ما يطل

لخلف الأحمر، وإنه نحله إياه. وكذلك كان يفعل حماد الرواية، يخلط الشعر القديم بأبيات له. قال حماد: ما من شاعر إلا قد زدت في شعره أبياتاً فجازت عليه إلا الأعشى، أعشى بكر، فإني لم أزد في شعره قط غير بيت أفسدت عليه الشعر. قيل له: وما البيت الذي أدخلته في شعر الأعشى؟ فقال:

وأنكرتني وما كان الذي نكرت

من الحوادث إلا الشيب والصلع

وقال حماد الرواية: أرسل إلي أبو مسلم ليلاً فراعني ذلك، فلبست أكفاني ومضيت. فلما دخلت عليه تركني حتى سكن جأشي، ثم قال لي: ما شعر فيه أوتاد؟ قلت: من قائله أصلح الله الأمير؟ قال: لا أدري. قلت: فمن شعراء الجاهلية أم من شعراء الإسلام؟ قال: لا أدري. قال: فأطرت حيناً أفكر فيه، حتى بدر إلى وهمي شعر الأفوه الأودي حيث يقول:

لا يصلح الناس فوضى لا سراة لهم

ولا سراة إذا جهالهم سادوا

والبيت لا يبتني إلا له عمد

ولا عماد إذا لم ترس أوتاد

فإن تجمع أوتاد وأعمدة

يوماً فقد بلغوا الأمر الذي كادوا

فقلت: هو قول الأفوه الأودي أصلح الله الأمير، وأنشدته الأبيات. فقال: صدقت، انصرف إذا شئت. فقمت، فلما خطوت الباب لحقني أعوان له معهم بدرة، فصحبوني إلى الباب. فلما أردت أن اقبضها منهم، قالوا: لا بد من إدخالها إلى موضع منامك. فدخلوا معي، فعرضت أن أعطيهم منها. فقالوا: لا نقدم على الأمير.

الأصمعيّ قال: أقبل فثيان إلى أبي ضمضم بعد العشاء، فقال: ما جاء بكم؟ قالوا: جئنا نتحدّث إليك. قال: كذبتُم يا خُبثاء، ولكن قُلتُم: كبر الشيخُ فهلم بنا عسى أن نأخذَ عليه سَقطة، قال: فأنشدهم لمائة شاعر كلهم اسمه عمرو. وقال الأصمعيّ: فعددتُ أنا وخلف الأحمَر فلم نَزِد على أكثر من ثلاثين. وقال الشَّعبيّ: لستُ لشيء من العُلوم أقلُّ رِواية مِني للشعر، ولو شئتُ لأنشدتُ شهراً ولا أعيِد بيتاً. وكان الخليل بن أحمد أروى الناس للشعر ولا يقول بيتاً. وكذلك كان الأصمعيّ.

وقيل للأصمعيّ: ما يمنعك من قول الشعر؟ قال: نظري لجيِّده. وقيل للخليل: ما لك لا تقول الشعر؟ قال: الذي أريده لا أجده؟ والذي أجده منه لا أريده.

وقيل لآخر: ما لك تروي الشعر ولا تقوله؟ قال: لأني كالمسنِّ أشحد ولا أقطع. وقال الحسن بن هانئ: رويتُ أربعة آلاف شعر، وقلت أربعة آلاف شعر، فما رزأت الشعراء شيئاً.

القاسم بن محمد السَّلَامي قال: حدَّثنا أحمد بن بشر الأَطروش قال: حدَّثني يحيى بن سعيد قال: أخبرني الأصمعيّ قال: تصرّفتُ بي الأسباب إلى باب الرشيد مؤملاً للظفر، بما كان في الهمةً دفيناً، أترقّب به طالع سعد يكون على الدرك مُعيناً. فاتصل بي ذلك إلى أن كنت للحرس مؤنساً بما استملتُ به مودتهم. فكنتُ كالصَّيف عند أهل الميرة. فطَرقتهم متوجَّهاً بإتحافِي. وطاولتني الغايات بما كدتُ أصير به إلى ملالة، غير أنني لم أزل مُحبيّاً للأمل بمذاكرته عند اعتراض الفترة، وقلتُ في ذلك:

وساع ما تَضيقُ به المَعاني

الأبَل لا تُواتيه الأمانِي

عن الدرك الحميد لدى الرّهان

من الهَمّات مُلتهبَ الجَنان

على العزّمات كالعَضْب اليماني

وأبي فتي أَعير ثباتَ قلب

تجاذبه المواهبُ عن إباء

فربُّ معرّس للناس أجلى

وأبي فتي أناف على سُموّ

بغير توسّع في الصّدّرماض

فلم نَبعد أن خرج علينا خادم في ليلة نثرت السعادة والتوفيق، وذلك أن الرشيد ترعب الأرق بين عينيه، فقال: هل بالحضرة أحدٌ يحسن الشعر؟ فقلت: الله أكبر، ربّ قيّد مُضيق قد فكّه التيسير للإنعام. أنا صاحبك، إن كان صاحبك من طلب فأدمن، أو حَفِظ فأتقن. فأخذ بيدي، ثم قال: ادخل، إن يحتم الله لك بالإحسان لديه والتصويب، فلعلها تكون ليلة تُعوّض صاحبها الغنى. قلت: بشرك الله بالخير. قال: ودخلتُ فواجهتُ الرشيد في البهو جالساً كإتْماء رُكب البدر فوق أزراه جمالاً، والفضل بن يحيى إلى جانبه، والشَّمع يُحْدق به على قضب المنابر، والخدم فوق فرشه وقوف. فوقف بي الخادم حيث يسمع تَسليمي، ثم قال: سلّم. فسَلّمت. فردّ، ثم قال: يُنحَى قليلاً ليسكن روعه إن وجد للرّوعة حساً. فقعدتُ حتى سكن جأشي قليلاً، ثم أقدمتُ، فقلت: يا أمير المؤمنين، إضاءة كرمك، وبهاء مجدك، مُجيران لمن نظر إليك من اعتراض أذية له، أيسألني أمير المؤمنين فأجيب، أم أبتدئ فأصيب، يُيمن أمير المؤمنين وفَضله؟ قال: فتبسّم إليّ الفضلُ ثم قال: ما أحسن ما أستدعى الاختبار، وأسهلّ به المُفاتحة، وأجدر به أن يكون محسناً. ثم قال الفضل: والله يا أمير المؤمنين لقد تقدم مبرزاً محسناً في استشهاده على براءته من الحيرة، وأرجو أن يكون مُمتنعاً. قال: أرجو. ثم قال: اذنُ. فدنوتُ. فقال: أشاعرُ أم رِواية؟ قلت: رِواية يا أمير المؤمنين. قال: لمن؟ قلت: لذى جدِّ وهزل، بعد أن يكون محسناً. قال: والله ما رأيتُ أوعى لعلم ولا أخير بمحاسن بيان قَتقته الأذهان منك. ولئن صرتُ حامداً أترك لتعرفن الإفضال متوجَّهاً إليك سريعاً. قلت: أنا على الميدان يا أمير المؤمنين، فيُطلق أمير المؤمنين من عقالي مُجيباً فيما أحبه. قال: قد أنصف القارة من رامها. ثم قال: ما معنى المثل في هذه الكلمة بدياً؟ قلت: ذكرت العربُ يا أمير المؤمنين أن التّابعة كانت لهم رِماة لا تقع سِهامهم في غير الحدق، وكانت تكون في الموكب الذي يكون فيه الملك على الجياد البُلق، بأيديهم الأسورة، وفي أعناقهم الأطواق، تُسميهم العرب القارة. فخرج من موكب الصُّغد فارس مُعلّم بعدّيات سُود في قلنسوته، قد وضع نُشابته في الوتر ثم

صاح: أين رُماة الحرب؟ قالوا: قد أنصف القارة من راماها. والملك أبو حسَّان إذ ذاك المضاف إليه. قال: أحسنت! أرويت للغجاج ورؤبة شيئاً؟ قلت: هما يا أمير المؤمنين يتناشدان لك بالقوافي، وإن غابا عنك بالأشخاص. فمدَّ يده فأخرج من تحت فراشه رُفعة ينظر فيها، ثم قال: اسمعني:

ارقني طارق هم طرّقا

فمضيتُ فيها مُضَي الجواد في سنن مِيدانه، تَهْدِرُ بها أشداقي، حتى إذا صرْتُ إلى امتداح بني أمية تُنبتُ عنان اللسان إلى امتداحه المنصورَ في قوله.

قلْتُ لزييرٍ لم تصلِّه مريمه

قال: أعن حيرة أم عن عمد؟ قلت: بل عن عمد، تركتُ كذبه إلى صدقه فيما وصف به المنصور من مجده. قال الفضل: أحسنتَ بارك الله فيك، مثلك يُؤمِّل لهذا الموقف. قال الرشيد: أرجع إلى أول هذا الشعر. فأخذتُ من أوله حتى صرت إلى صفة الجمل فأطلتُ. فقال الفضل: ما لك تُضيق علينا كلَّ ما اتسع لنا من مساعدة السَّهر في ليلتنا هذه بذكر جملٍ أجرب؟ صرَّ إلى امتداح المنصور حتى تأتي على آخره. فقال الرشيد: اسكت، هي التي أخرجتُك من دارك، وأزعجتُك من قرارك، وسلبتُك تاج مُلكك ثم ماتت، فعملت جلودها سِياطاً يضرب بها قومك ضربَ العبيد، ثم فهقه. ثم قال: لا تدع نفسك والتعرضَ لما تكره. فقال الفضل: لقد عُوقبتُ على غير ذنب، والحمد لله. قال الرشيد: أخطأت في كلامك يرحمك الله، لو قلت: وأستغفر الله، قلتُ صواباً، وإنما يُحمد الله على النعم. ثم صرَف وجهه إليّ، وقال: ما أحسن ما أدَّيت في قدر ما سئلت؟ اسمعني كلمة عدي بن الرِّقاع في الوليد ابن يزيد بن عبد الملك:

عرَف الدِّيار توهماً فاعتادها

فقال الفضل: يا أمير المؤمنين، ألبسنا ثوبَ السهر ليلتنا هذه لاستماع الكذب، لمْ لا تأمره أن يُسمعك ما قالت الشعراء فيك وفي آباءك؟ قال: ويحك! إنه أدب ما يُخطب أباكراه بالتسبب، وقلما يُعتاض عن مثله. ولأن أسمع الشعر ممن يخبره وشغلته العناية به عُمره أحبُّ إليّ من أن تُشافهني به الرُّسوم. وللمُمتدح بهذا الشعر حركات ترد عليها فلا تصدُر من غير انتفاع بها. ولا أكون أول مُستنٍ طريقة ذُكر لم تؤدها الرواية. قال الفضل: قد والله يا أمير المؤمنين شاركتُك في الشوق، وأعنتُك على التَّوق. ثم التفتَ إليّ الفضل، فقال: أخذُ بنا ليلتك مُنشداً، هذا سيدي أمير المؤمنين قد أصغى إليك مُستمعاً، فمرَّ ويحك في عنان الإنشاد، فهي ليلة دهرِك لن تنصرف إلا غانماً. قال الرشيد: أمّا إذا قطعتَ عليّ فأحلف لتشركتني في الجزاء. فما كان لي في هذا شيء لم تُقاسمنيه. قال الفضل: قد والله يا أمير المؤمنين وطنت نفسي على ذلك متقدماً فلا تجعله عيداً. قال الرشيد: ولا أجعله وعيداً. قال الأصبغي: الآن ألبس رداء التَّيه على العرب كلها، إني أرى الخليفة والوزير وهما يتناظران في المَواهب لي. فمررتُ في سنن الإنشاد، حتى إذا بلغتُ إلى قوله:

قَلَمُ أَصَابَ مِنَ الدَّوَاةِ مِدَادَهَا

تَرْجِي أَغْنَ كَأَنَّ إِبْرَةَ رَوْقَةَ

فاستوى جالساً، ثم قال: أتخفظ في هذا شيئاً؟ قلت: نعم يا أمير المؤمنين. قال الفرزدق: لما قال عدي:

تَرْجِي أَغْنَ كَأَنَّ إِبْرَةَ رَوْقَةَ

قلت لجرير: أيّ شيء تراه يناسب هذا تشبيهاً؟ فقال جرير:

قَلَمُ أَصَابَ مِنَ الدَّوَاةِ مِدَادَهَا

فما رجعتُ الجواب حتى قال عدي:

قَلَمُ أَصَابَ مِنَ الدَّوَاةِ مِدَادَهَا

فقلت لجرير: ويحك! لكأن سمعتُك محبوباً في فواده. فقال جرير: اسكت، شغلني سُبُك عن جيّد الكلام. ثم قال الرشيد: مرَّ في إنشادك. فمضيت حتى بلغتُ إلى قوله:

ولقد أراد الله إذ ولاكها

من أمة إصلاحها ورشادها

قال الفضل: كذب وما برّ. قال الرشيد: ماذا صنع إذ سمع هذا البيت؟ قلت: ذكرت الرواة يا أمير المؤمنين أنه قال: لا حول ولا قوة إلا بالله. قال: مرّ في إنشادك. فمضيت حتى بلغت إلى قوله:

تأتيه أسلاب الأعرزة عنوةً

عُصَبًا وتجمع للحروب عتادها

قال الرشيد: لقد وصفه بحزم وعزم، لا يعرض بينهما وكلّ ولا استدلال.

قال: فماذا صنع؟ قلت: يا أمير المؤمنين ذكرت الرواة أنه قال: ما شاء الله. قال: أحسبك وهمت؟ قلت: يا أمير المؤمنين، أنت أولى بالهداية، فليردني أمير المؤمنين إلى الصواب. قال: إنما هذا عند قوله:

ولقد أراد الله إذ ولاكها

من أمة إصلاحها ورشادها

ثم قال: والله ما قلت هذا عن سمع، ولكنني أعلم أن الرجل لم يمكن يخطئ في مثل هذا. قال الأصمعي: وهو والله الصواب. ثم قال: مرّ في إنشادك. فمضيت حتى بلغت إلى قوله:

وعلمت حتى لا أسائل واحداً

عن حرف واحدة لكي أزدادها

وقال: وكان من خبرهم ماذا؟ قلت: ذكرت الرواة أن جريراً لما أنشد عدي هذا البيت، قال: بلى والله، وعشر مئين. قال عدي: وقرّ في سمعك أثقل من الرصاص. هذا والله يا أمير المؤمنين المديح المنتقى. قال الرشيد: والله إنه لنقي الكلام في مدحه وتشبيهه. قال الفضل: يا أمير المؤمنين، لا يحسن عدي أن يقول:

شمسُ العداوة حتى يُستقاد لهم

وأعظم الناس أحلاماً إذا قدروا

قال الرشيد: بلى. قد أحسن إذ يقول في الوليد:

للحمد فيه مذاهب ما تنتهي

ومكارم يعلون كل مكارم

ثم التفت إلي فقال: ما حفظت له في هذا الشعر شيئاً حين قال:

أطفأت نيران الحروب وأوقدت

ناراً قدحّت براحتيك زنادها

قلت: ذكرت الرواة يا أمير المؤمنين أنه حكّ بيميناً بشمالاً مقتدحاً بذلك، ثم قال: الحمد لله على هبة الإنعام. ثم قال الرشيد: أرويت لذي الرئمة شيئاً؟ قلت: الأكثر يا أمير المؤمنين. قال: والله إني لا أسألك سؤال امتحان، وما كان هذا عليك، ولكنني أجعله سبباً للمذاكرة، فإن وقع عن عرفانك شيء، فلا ضيق عليك بذلك عندي، فما ذا أراد بقوله:

ممرّ أمّرت منته أسديّة

يمانيّة حلالة بالمصانع

قلت: وصف يا أمير المؤمنين حماراً وحشياً أسمنه بقل روضة تشابكت فروعها، ثم تواسجت عروقه، من قطر سحابة كانت في نوء الأسد، ثم في الذراع منه. قال: أصبت. أفترى القوم علموا هذا من النجوم بنظرهم، إذ هو شيء قلما يُستخرج بغير السبب الذي رويت لهم أصوله؟ أو أدّهم إليه الأوهام والظنون؟ فالله أعلم بذلك. قلت: يا أمير المؤمنين، هذا كثير في كلامهم، ولا أحسبه إلا عن أثر ألقى إليهم. قال: قلما أجد الأشياء لا تُثيرها إلا الفكر في القلوب. فإن ذهب إلى أنه هبة الله ذكرهم بها، ذهب إلى ما أدّهم إليه الأوهام. ثم قال: أرويت للشماخ شيئاً؟ قلت: نعم يا أمير المؤمنين. قال: يُعجبني منه قوله:

إذارد من ثني الزمام تنت له

جراناً كخوط الخيزران المموج

قلت: يا أمير المؤمنين، هي عروس كلامه. قال: فأبها الحسن الآن من كلامه؟ قلت: الرائية، وأنشدته أبياتاً منها. قال: أمسك، ثم قال: أستغفر الله ثلاثاً، أرح قليلاً واجلس، فقد أمتعت مُنشداً، ووجدناك مُحسناً في أدبك، مُعبراً عن سرائر حفظك. ثم التفت إلى الفضل، فقال: لكلام هؤلاء، ومن تقدم من الشعراء، ديباجُ الكلام الحُسرواني، يزيد على القَدَمِ جدّة وحُسناً. فإذا جاءك الكلام المزِين بالبديع، جاءك الحرير الصَّيْبِي المَذْهَب، يَبْقَى على المُحادثة في أفواه الرواة. فإذا كان له رَوْنَق صَوَاب، وَعَتَه الأَسْمَاع، وَلَذَّ في القلوب، ولكن في الأقل منه. ثم قال: يُعجبني مثلُ قول مُسلم في أبيك وأخيك الذي افتتحه بمخاطبة حليلته، مفتخراً عليها بطول السرى في اكتساب المغام، حيث قال:

كَأَنَّ دُجَاهَا مِنْ قُرُونِكَ يُنْشَرُ
كَغُرَّةٍ يَحْيَى حِينَ يُذْكَرُ جَعْفَرُ

أَجْدَكَ هَل تَدْرِين أَنْ رُبَّ لَيْلَةٍ
صَبْرَتْ لَهَا حَتَّى تَجَلَّتْ بُغْرَةٌ

أفرايت؟ ما أطف ما جعلهما معدناً لكمال الصفات ومَحاسِنها؟ ثم التفت إليّ، فقال: أجدُ ملالة، ولعلَّ أبا العباس يكون لذلك أنشط، وهو لنا ضيف في ليلتنا هذه، فأقيم معه مُسامراً له، ثم نهض. فتبادر الخدم، فأمسكوا بيده حتى نزل عن فرشه، ثم قَدَّمت النعل، فلما وضع قدمه فيها جعل الخادم يُسَوِّي عَقَب النعل في رجله. فقال له: ارفق ويحك، حَسْبِكَ قد عَقرتني. قال الفضل: لله دَرُّ العجم، ما أحكم صَنعتهم، لو كانت سِنْدِيَّة ما احتجت إلى هذه الكلفة. قال: هذه نعلي ونعل آبائي رحمة الله عليهم، وتلك نعلك ونعل آباءك. لا تزال تُعارضني في الشيء، ولا أدعك بغير جواب يُمضِّك، ثم قال: يا غلام، عليّ بصالح الخادم. فقالت: يُؤمر بتعجيل ثلاثين ألفَ درهم في ليلته هذه. قال الفضل: لولا أنه مجلس أمير المؤمنين ولا يأمر فيه أحد غيره لدعوت لك بمثل ما أمر به أمير المؤمنين. فدعا له بمثل ما أمر به أمير المؤمنين إلا ألفَ درهم. وتصيح من غد فتلقى الخازن إن شاء الله. قال الأصمعيّ: فما صليت الظَّهر إلا وفي منزلي تسعة وخمسون ألفَ درهم. وقال دِعبِل بن علي الخُزاعي:

وَجِيْدُهُ بِيَقَى وَإِنْ مَاتَ قَائِلُهُ

يَمُوتُ رَدِيءَ الشَّعْرِ مِنْ قَبْلِ أَهْلِهِ

وقال أيضاً:

وَمَنْ يُقَالُ لَهُ، وَالْبَيْتُ لَمْ يَمُتْ

إِنِّي إِذَا قُلْتُ بَيْتاً مَاتَ قَائِلُهُ

باب من استعدى عليه من الشعراء

لما هجَا الحُطَيْبَةُ الزُّبَيْرَانِ بِنَ بَدْرٍ بالشَّعْرِ الذي يقول فيه:

واقعد فإنك أنت الطاعم الكاسي

دَع المكارم لا ترحل لبغيتها

إستعدى عليه عمر بن الخطاب، وأنشده البيت. فقال: ما أرى به بأساً. قال الزُّبَيْرَانِ: والله يا أمير المؤمنين، ما هُجيت بيت قط أشدَّ عليّ منه. فبعث إلى حسان بن ثابت وقال: انظر إن كان هجاء. فقال: ما هجاء، ولكن سلح عليه. ولم يكن عُمر يجهل موضع الهجاء في هذا البيت، ولكنه كره أن يتعرض لشأنه، فبعث إلى شاعر مثله، وأمر بالحطِيبَةَ إلى الحبس، وقال: يا حبيبت! لأشغلنك عن أعراض المسلمين. فكتب إليه من الحبس يقول:

زغب الحواصل لا ماء ولا شجر

ماذا تقول لأفراخ بذي مرخ

فاغفر عليك سلام الله يا عمر

ألقيت كاسبهم في قعر مظلمة

ألقت إليك مقاليد النهي البشر

أنت الإمام الذي من بعد صاحبه

لكن لأنفسهم قد كانت الإثر

ما آثروك بها إذ قدّموك لها

فأمر بإطلاقه وأخذ عليه ألا يهجو رجلاً مسلماً.

ولما هجا النجاشي رهط تميم بن مُقبل، استعدوا عليه عمر بن الخطاب رضي الله عنه وقالوا: يا أمير المؤمنين، إنه هجانا. قال: وما قال فيكم؟ قالوا: قال:

إذا الله عادى أهل لؤم ورقة

فعادى بني عجلان رهط ابن مُقبل

قال عمر: هذا رجل دعا، فإن كان مظلوماً استُجيب له، وإن لم يكن مظلوماً لم يُستجب له. قالوا: فإنه قد قال بعد هذا:

قبيلته لا يخفرون بذمة

ولا يظلمون الناس حبة خردل

قال عمر: ليت آل الخطاب مثل هؤلاء. قالوا: فإنه يقول بعد هذا:

ولا يردون الماء إلا عشية

إذا صدر الورد عن كل منهل

قال: فإن ذلك أحّم لهم وأمكن. قالوا: فإنه يقول بعد هذا:

وما سمى العجلان إلا لقولهم

خذ القعب واحلب أيها العبد واعجل

قال عمر: سيد القوم خادهم، فما أرى بهذا بأساً.

ونظير هذا قول معاوية لأبي بُردة بن أبي موسى الأشعري، وكان دخل حماماً فرحمه رجل، فرفع رجل يده فلطم بها أبا بُردة فأثر في وجهه. فقال فيه عَقِيبة الأَسدي:

لا يصرم الله اليمين التي لها

بوجهك يابن الأشعري نوب

قال: فاستعدى عليه معاوية وقال: إنه هجان. قال: وما قال فيك؟ فأنشده البيت. قال معاوية: هذا رجل دعا ولم يقل إلا خيراً. قال: فقد قال غير هذا. قال: وما قال؟ فأنشده:

وأنت أمرؤ في الأشعريين مُقابل

وفي البيت والبطحاء أنت غريب

قال معاوية: وإذا كنت مُقابلاً في قومك فما عليك ألا تكون مقابلاً في غيرهم.

قال: فقد قال غير هذا. قال: وما قال؟ قال قال:

وما أنا من حدّات أمك بالضحي

ولا من يُزكّيها بظهر مغيب

قال: إنما قال: ما أنا من حدّات أمك، فلو قال: إنه من حدّاتها لكان ينبغي لك أن تغضب.

والذي قال لي أشد من هذا. قال: وما قال لك يا أمير المؤمنين؟ قال قال:

معاوي إننا بشرٌ فأسجح

فلسنا بالجبال ولا الحديد

أكلتُم أرضنا وجردتموها

فهل من قائم أو من حصيد

فهبنا أمةً هلكت ضياعاً

يزيدُ أميرها وأبو يزيد

أتطمع بالخلود إذا هلكننا

وليس لنا ولا لك من خلود

ذروا جور الخلافة واستقيموا

وتأمير الأرازل والعبيد

قال: فما منعك يا أمير المؤمنين أن تبعث إليه من يضرب عنقه؟ قال: أو خيّر من ذلك؟ قال: وما هو؟ نجتمع أنا وأنت فترفع أيدينا إلى السماء وندعو عليه. فما زاد على أن أزرى به.

استعدى قومٌ زيادا على الفرزدق، وزعموا أنه هجاهم. فأرسل إليه وعرض له أن يعطيه. فهرب منه وأنشده:

دَعَانِي زِيَادًا لِلْعَطَاءِ وَلَمْ أَكُنْ
وَعِنْدَ زِيَادٍ لَوْ يَرِيدُ عَطَاءَهُمْ
فَلَمَّا خَشِيتُ أَنْ يَكُونَ عَطَاؤُهُ
نَهَضْتُ إِلَى عَنَسٍ تَخَوَّنَ نِيهَا
يَوْمَ بِهَا الْمَوَامَةُ مَنْ لَا تَرَى لَهُ
لَأُقْرِبَهُ مَا سَاقَ ذُو حَسَبٍ وَقَرَأَ
رَجَالٌ كَثِيرٌ قَدْ يَرَى بِهِمْ فَقَرَأَ
أَدَاهُمْ سُودًا أَوْ مُحَدَّرَجَةَ سَمْرًا
سُرَى اللَّيْلِ وَاسْتِعْرَاضُهَا الْبَلَدَ الْقَفْرًا
لَدَى ابْنِ أَبِي سُفْيَانَ جَاهًا وَلَا عُذْرًا

ثم لحق بسعيد بن العاص، وهو والي المدينة، فاستجار به وأنشده شعره الذي يقول فيه:

إِلَيْكَ فَرَرْتُ مِنْكَ وَمَنْ زِيَادٍ
فَإِنْ يَكُنُ الْهَجَاءُ أَحْلَقَ قَتْلِي
تَرَى الْغُرَّ السَّوَابِقَ مِنْ قَرِيشٍ
قِيَامًا يَنْظُرُونَ إِلَى سَعِيدٍ
وَلَمْ أَوْقِعِ التَّهَاجِي بَيْنَ عَبْدِ الرَّحْمَنِ بْنِ حَسَّانَ وَعَبْدِ الرَّحْمَنِ بْنِ أُمِّ الْحَكَمِ أُرْسِلُ يَزِيدُ بْنُ مُعَاوِيَةَ إِلَى كَعْبِ بْنِ جُعَيْلٍ، فَقَالَ لَهُ: إِنَّ عَبْدَ الرَّحْمَنِ بْنَ حَسَّانَ
قَدْ فَضَحَ عَبْدَ الرَّحْمَنِ بْنِ أُمِّ الْحَكَمِ، فَاهْجِ الْأَنْصَارَ. فَقَالَ: أَرَادَيْ أَنْتَ إِلَى الْإِشْرَاقِ بَعْدَ الْإِيمَانِ؟ لَا أَهْجُوا قَوْمًا نَصَرُوا رَسُولَ اللَّهِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ،
وَلَكِنْ أَدْلَكَ عَلَى غُلَامٍ مَنَا نَصْرَانِي. فَدَلَّهُ عَلَى الْأَخْطَلِ. فَأُرْسِلُ إِلَيْهِ فَهَجَا الْأَنْصَارَ، وَقَالَ فِيهِمْ:

ذَهَبَتْ قَرِيشٌ بِالْمَكَارِمِ كُلِّهَا
قَوْمٌ إِذَا حَضَرَ الْعَصِيرَ رَأَيْتَهُمْ
وَإِذَا نَسَبْتَ ابْنَ الْفُرَيْعَةِ خَلْتَهُ
فَدَعُوا الْمَكَارِمَ لَسْتُمْ مِنْ أَهْلِهَا
وَاللُّؤْمُ تَحْتَ عِمَائِمِ الْأَنْصَارِ
حُمْرًا عِيُونُهُمْ مِنَ الْمُسْطَارِ
كَالْجَحْشِ بَيْنَ حِمَارَةٍ وَحِمَارِ
وَخَذُوا مَسَاحِيكُم بَنِي النَّجَارِ

وكان مع معاوية النُّعْمَانُ بْنُ بَشِيرِ الْأَنْصَارِيِّ، فلما بلغه الشعر أقبل حتى دخل على معاوية، ثم حَسَرَ الْعِمَامَةَ عَنْ رَأْسِهِ، وَقَالَ: يَا مُعَاوِيَةَ، هَلْ تَرَى مِنْ لَوْمٍ؟ قَالَ: مَا أَرَى إِلَّا كَرَمًا. قَالَ: فَمَا الَّذِي يَقُولُ فِينَا عَبْدُ الْأَرَاقِمِ:

ذَهَبَتْ قَرِيشٌ بِالْمَكَارِمِ كُلِّهَا
قَالَ: قَدْ حَكَّمْتُكَ فِيهِ. قَالَ: وَاللَّهِ لَا رَضِيْتُ إِلَّا بِقَطْعِ لِسَانِهِ. ثُمَّ قَالَ:

مُعَاوِيَةَ إِلَّا تَعْطِنَا الْحَقَّ تَعْتَرِفُ
أَيْشْتُمْنَا عَبْدُ الْأَرَاقِمِ ضَلَّةً
مَالِي ثَارٌ دُونَ قَطْعِ لِسَانِهِ
لِحَى الْأُرْدِ مَشْدُودًا عَلَيْهَا الْعِمَائِمُ
وَمَا ذَا الَّذِي تَجْدِي عَلَيْكَ الْأَرَاقِمُ
فَدُونُكَ مَنْ تُرْضِيهِ عَنكَ الدَّرَاهِمُ

قال معاوية: قد وهبتك لسانه. وبلغ الأخطل. فلجأ إلى يزيد بن معاوية. فركب يزيد إلى الثُّعْمان فاستوهبه إياه. فوهبه له.
ومن قول عبد الرحمن بن حسان في عبد الرحمن بن أم الحكم:

فهم مَنَعُوا وَرِيدَكَ مِنْ وَدَاجِي
هَوَى فِي مُظْلَمِ الْغَمْرَاتِ دَاجِي

وَأَمَّا قَوْلُكَ الْخُلَفَاءَ مَنَا
وَلَوْلَاهُمْ لَطِحْتَ كَحُوتِ بَحْرِ

كَأَنَّ عُيُونَهُمْ قَطَعَ الزُّجَاجَ

وَهُمْ دُعُجٌ وَوُلْدُ أَبِيكَ زُرُقٌ

وقال يزيد لأبيه: إنَّ عبد الرحمن بن حسان يُشَبِّبُ بابتك رَملة قال: وما يقول فيها؟ قال: يقول:

أَص صِيغَتْ مِنْ لَوْلُو مَكْنُونٍ

هِيَ بِيضَاءٌ مِثْلُ لَوْلُوَةِ الْغَوِّ

قال: صدق. قال: ويقول:

فِي سَنَاءٍ مِنَ الْمَكَارِمِ دُونَ

إِذَا مَا نَسَبْتَهَا لَمْ تَجِدْهَا

قال: صدق أيضاً. قال: ويقول:

ج صِلَاءٌ لَهَا عَلَى الْكَانُونِ

تَجْعَلُ الْمَسْكَ وَالْيَلْنَجُو

قال: وصدق. قال: فإنه يقول:

رَاءَ تَمَشِي فِي مَرْمَرٍ مَسْنُونِ

ثُمَّ خَاصَرَتْهَا إِلَى الْقُبَّةِ الْخَضِ

قال: كذب. قال: ويقول:

عِنْدَ بَرْدِ الشِّتَاءِ فِي قَيْطُونِ

قُبَّةٌ مِنْ مَرَاجِلِ ضَرْبِوَهَا

قال: ما في هذا شيء. قال: تبعث إليه من يأتيك برأسه. قال: يا بُني، لو فعلت ذلك لكان أشدَّ عليك؟ لأنه يكون سبباً للخوض في ذكره، فيكثر مكثر
وزيد زائد، اضرب عن هذا صفحا، واطودونه كَشْحَا.

ومن قول عبد الله بن قيس، المعروف بالرُّفِيَّات. يُشَبِّبُ بعاتكة بنت يزيد بن معاوية:

أَنْبِلِي فَتَى أَمْسَى بِحُبِّكَ هَالِكَا

أَعَاتِكَ يَا بِنْتَ الْخَلَائِفِ عَاتِكَا

كَذَلِكَ يَقْتُلْنَ الرِّجَالَ كَذَلِكَ

تَبَدَّتْ وَأْتْرَابٌ لَهَا فَتَقْتَلَنِي

وَيَحْمَلْنَ مِنْ فَوْقِ النِّعَالِ السِّبَاكَا

يُقَلِّبْنَ أَحَاظًا لَهْنَ فَوَاتِرَا

سَلَكْنَ بِنَا حَيْثُ اسْتَهَبْنَ الْمَسَالِكَا

إِذَا غَفَلْتَ عَنَّا الْعُيُونُ الَّتِي نَرَى

طَبِّيبَانِ مِنَّا عَالِمَانِ بَدَائِكَا

وَقُلْنَا لَنَا لَوْ نَسْتَطِيعُ لَزَارِكُمْ

يُدَاوِي سَقِيمًا هَالِكَا مُتْهَالِكَا

فَهَلْ مِنْ طَبِّيبٍ بِالْعِرَافِ لَعَلَّهُ

فلم يعرض له يزيد للذي تقدّم من وصاية أبيه معاوية في رَملة.

تحدّثت الرواة أن الحجاج، رأى محمد بن عبد الله بن مُيمِرِ الثَّقَفِيِّ، وكان يُشَبِّبُ بزينب بنت يوسف أخت الحجاج، فارتاع من نظر الحجاج إليه. فدعا
به. فلما وقف بين يديه قال:

وَإِنْ كُنْتُ قَدْ طَوَّقْتُ كُلَّ مَكَانِ

فِدَاكَ أَبِي ضَاقَتْ بِي الْأَرْضُ رُحْبُهَا

وإن كنت بالعنقاء أو بتخومها

فقال له: لا عليك، فوالله إن قلت إلا حيراً، إنما قلت هذا الشعر:

يُخْبِئْنَ أَطْرَافَ الْبَنَانِ مِنَ التَّقَى

ولكن احبرني عن قولك:

ظننتك إلا أن تصد تراني

ويخرجن وسط الليل مُعْتَجِرَاتٍ

وكن من أن يلقينه حذرات

ولما رأت ركب النُميري أعرضت

في كم كنت؟ قال: والله إن كنت إلا على حمار هزيل، معي رفيق على اتان مثله. قال: فتبسّم الحجاج ولم يعرض له. والأبيات التي قالها ابن نمير في زَيْنَب بنت يوسف:

ولم تر عيني مثل سرب رأيتُه

مَرَرْنَ بَفَخٍّ ثَم رُحْنٍ عَشِيَّةً

تَضَوَّعَ مِسْكَاً بَطْنُ نَعْمَانَ إِذْ مَشَتْ

ولما رأت ركب النُميري أعرضت

دَعَتْ نِسْوَةً شَمَّ بَدْنًا

فَأَدْنَيْنِ لَمَّا قَمْنَ يَحْجُبْنَ دُونَهَا

أَجَلَ الَّذِي فَوْقَ السَّمَوَاتِ عَرْشُهُ

يُخْبِئْنَ أَطْرَافَ الْبَنَانِ مِنَ التَّقَى

وكان الفرزدق قد عرض بمشام بن عبد الملك في شعره. والبيت الذي عرض به فيه قوله:

يُقَلِّبُ عَيْنًا لَمْ تَكُنْ لَخَلِيفَةَ

مُشَوِّهَةً حَوْلَاءَ جَمَا عِيُوبُهَا

فكتب هشام إلى خالد بن عبد الله القسريّ عامله على العراق يأمره بحجسه، فحجسه حتى دخل جرير على هشام فقال: يا أمير المؤمنين، إن كنت تُريد أن تَبْسُطَ يَدَكَ عَلَى بَادِي مُضَرَ وَحَاضِرِهَا فَأَطْلِقْ لَهَا شَاعِرَهَا وَسَيِّدَهَا الْفَرَزْدَقَ. فقال له هشام: أَوْ مَا يَسُرُّكَ مَا أَخْرَاهُ اللَّهُ؟ قال: ما أريد أن يُخزِيه الله إلا على يديّ. فأمر بإطلاقه.

أي بيت تقوله العرب أشعر

قيل لأبي عمرو بن العلاء: أي بيت تقوله العرب أشعر؟ قال: البيت الذي إذا سمعه سامعه سَوَّلَتْ لَهُ نَفْسُهُ أَنْ يَقُولَ مِثْلَهُ، وَلِأَنَّ يَخْدَشُ أَنْفَهُ بِظَفْرِ كَلْبٍ أَهْوَنَ عَلَيْهِ مِنْ أَنْ يَقُولَ مِثْلَهُ.

وقيل للأصمعيّ: أي بيت تقوله العرب أشعر؟ قال: الذي يُسَاقِ لَفْظُهُ مَعْنَاهُ.

وقيل لخليل: أي بيت تقوله العرب أشعر؟ قال: البيت الذي يكون في أوله دليل على قافيته. وقيل لغيره: أي بيت تقوله العرب أشعر؟ قال: البيت الذي لا يَحْجِبُهُ عَنِ الْقَلْبِ شَيْءٌ.

وأحسن من هذا كله قول زهير:

أحسن ما يجتلب به الشعر

قالت الحكماء: لم يُستدع شار্দ الشعر بأحسن من الماء الجاري، والمكان الحالي، والشرف العالي. وتأول بعضهم الحالي بالحاء. يريد الحالي بالنوَّار، يعني الرياض، وهو توجيه حسن ولقي أبو العتاهية الحسن بن هانئ، فقال له: أنت الذي لا تقول الشعر حتى تُؤتى بالرياحين والزهور فتوضع بين يديك؟ قال: وكيف ينبغي للشعر أن يُقال إلا على هكذا؟ قال: أما إني أقوله على الكنيف. قال: ولذلك توجد فيه الرائحة. وقال عبد الملك بن مروان لأرطاة بن سُهَيْبَة: هل تقول الآن شعراً؟ قال: ما أشرب ولا أطرب ولا أضرب، فلا يقال الشعر إلا بواحدة من هذه. وقيل للحطيطية: من أشعر الناس؟ فأخرج لساناً رقيقاً، كأنه لسان حيّة وقال: هذا إذا طمع. وقيل لكثير عزة: لم تركت الشعر؟ قال: ذهب الشباب فما أعجب، وماتت عزة فما أطرب، ومات ابن أبي ليلى فما أرغب. يريد عبد العزيز بن مروان وقالوا: أشعر الناس النابغة إذا هب، وزهير إذا غضب، وجريز إذا رغب. وقال عمرو بن هند لعبيد بن الأبرص، ولقيته في يوم بؤسه: أنشدني من شعرك. قال: حال الجريض دون القريض. وقد يمتنع الشعر على قائله ولا يسلس حتى يبعثه خاطر يطربه، أو صوت حمامة. وقال الفرزدق: أنا أشعر الناس عند اليأس، وقد يأتي عليّ الحين وقلّ ضرسٌ عندي أهون من قول بيت شعر. وقال الراجز:

بيئته الممتونا

كان غثاً أو سمينا

ثم يستصعب حيناً

إنما الشعر بناءً

فإذا ما نسقوه

ربما وأتاك حيناً

واسلس ما يكون الشعر في أول الليل قبل الكرى، وأول النهار قبل الغداء، وعند مفاجأة النفس واجتماع الفكر. وأقوى ما يكون الشعر عندي على قدر قوة أسباب الرغبة أو الرهبة. قيل للخريمي: ما بال مدائحك لمحمد من منصور بن زياد أحسن من مرثييك؟ قال: كنا حينئذ نعمل على الرجاء، ونحن اليوم نعمل على الوفاء، وبينهما بون بعيد.

والدليل على صحة هذا المعنى وصدق هذا القياس، أن كثير عزة والكميت ابن زيد كانا شيعيين غاليين في التشيع، وكانت مدائحهما في بني أمية أشرف وأجود منها في بني هاشم، وما لذلك علّة إلا قوة أسباب الطمع. وقيل لكثير عزة: يا أبا صخر، كيف تصنع إذا عسر عليك الشعر؟ قال: أطوف في الرباع المحيلة، والرياض المعشبة، فإن نفرت عنك القوافي، وأعيت عليك المعاني، فروح قلبك، وأجمّ ذهنك، وارتصد لقلوبك فراغٌ بالك وسعة ذهنك فإنك تجد في تلك الساعة ما يمتنع عليك يومك الأطول، وليلك الأجمع.

من رفعه المدح ووضع الهجاء

قال بلال بن جرير: سألت أبي جريراً فقلت له: إنك لم تهجُ قوماً قط إلا وضعتهم، غير بني لجأ؟ قال: يا بُني، إني لم أجد شرفاً فأضعه، ولا بناءً فأهدمه.

وقد يكون الشيء مدحاً فيجعل الشعر ذمّاً، ويكون ذمّاً فيجعل الشعر مدحاً. قال حبيب الطائي في هذا المعنى:

بُغاة الندى من أين تؤتى المكارم

ولولا خلال سنّها الشعر ما درى

يُغشون حتى ما تهرّ كلابهم

فقال: ما يُعرف هذا إلا في كلاب الحانات. وأنشده آخر قول الشاعر:

لمن منزل بين المذانب والجسر

فقال: ما يعرف هذا إلا دار الماسيدين.

ومما يُعاب من الشعر وليس يعيب قول الفرزدق:

لا يسألون عن السواد المقبل

ويا بنت ذي البردين والفرس الوردي

أياينة عبد الله وابنة مالك

فقال من جهل المعنى ولم يعرف الخبر: ما في هذا من المدح أن يمدح رجل بلباس بُردين، وركوب فرس ورد. وإنما معناه: ما قال أبو عبيدة: إن وفود العرب اجتمعت عند النعمان، فأخرج إليهم بُردِي مُحَرَّق. وقاد لهم: ليقيم أعزّ العرب قبيلةً فليلبسهما. فقال عامر بن أحيمر بن بهدلة، فائترز بأحدهما وتردّي بالآخر. فقال له النعمان: بم أنت أعزّ العرب قبيلةً؟ قال: العزّ والعدد من العرب في معدّ، ثم في نزار، ثم في مُضَر، ثم في خندف، ثم في تميم، ثم في سعد، ثم في كعب، ثم في عوف، ثم في بهدلة، فمن أنكر هذا من العرب فلينافري، فسكت الناس. فقال النعمان: هذه عشيرتك فكيف أنت كما تزعم، في نفسك وأهل بيتك؟ فقال: أنا أبو عشرة وعم عشرة وحال عشرة، وأما أنا في نفسي فهذا شاهدي. ثم وضع قدمه في الأرض، وقال: من أزالها فله مائة من الإبل. فلم يتعاط ذلك أحد. فذهب بالبردين. فسُمّي: ذا البردين، وفيه يقول الفرزدق:

غلام إذا ما سيل لم يتبهدل

فما تمّ في سعد ولا آل مالك

بمجد معدّ والعديد المحصل

لهم وهب النعمان بُردِي مُحَرَّق

ومما يُعاب من الشعر وليس يعيب قول الأعشى في فرس النعمان، وكان يُسمّى اليحموم:

بقت وتعليق فقد كاد يسنق

ويأمر لليحموم كلّ عشية

فقالوا ما هذا مما يمدح به أحد من السؤفة فضلاً عن الملوك. إنه يقوم بفوس ويأمر له بالعلف حتى كاد يسنق. وليس هذا معناه، وإنما المعنى فيه ما قال أبو عبيدة: إن ملوك العرب بلغ من حزمها ونظرها في العواقب أن أحدهم لا يبيت إلا وفرسه موقوف بسرجه، ولجامه بين يديه، قريباً منه، مخافة عدو يفجؤه، أو حال تنقلب عليه: فكان للنعمان فرس يقال له اليحموم، يتعاهده كلّ عشية. وهذا مما يتمادح به العرب من القيام بالخيال وارتباطها بأفنية البيوت.

ومما عابوه، وليس يعيب، قول زهير:

بلى وغيرها الأرياح والديم

قف بالديار التي لم يعفها القدم

فنفى ثم حقق في معنى واحد. فنقض في عجز هذا البيت ما قال في صدره، لأنه زعم أن الديار لم يعفها القدم. ثم إن انتبه من مرّقه، فقال: بلى عفاها وغيرها أيضاً الأرياح والديم. وليس هذا معناه الذي ذهب إليه، وإنما معناه: أن الديار لم تعف في عينه، من طريق محبته لها وشغفه بمن كان فيها. وقال غيره في هذا المعنى ما هو أبين من هذا، وهو قوله:

فلا يرمين عن شزر حزيناً

ألا ليت المنازل قد بلينا

فقوله ألا ليت المنازل قد بلينا أي بلي ذكراها، ولكنها تتجدد على طول البلى بتجدد ذكرها. وقال الحسن بن هانئ في هذا المعنى، فلخصه وأوضحه، وشتفه وقرطه، حيث يقول:

على طول ما أقوت وحسن رسوم

لمن دمن تزداد طيب نسيم

تجافى البلى عنهن حتى كأنما

لبسن على الإقواء ثوب نعيم

ومما عيب من الشعر وليس بعيب، ما يروى عن مروان بن الحكم أنه قال لخالد بن يزيد بن معاوية، وقد أستشده من شعره، فأشده:

فلو بقيت خلائف آل حرب

ولم يلبسهم الدهر المنونا

لأصبح ماء أهل الأرض عذباً

وأصبح لحم دنياهم سميناً

فقال له مروان: منونا وسمينا، والله إنها لقافية ما اضطررت إليها إلا العجز. وهذا مما لا عجز فيه ولا عابه أحد في قوافي الشعر، وما أرى العيب فيه إلا على من رآه عيباً؟ لأن الباء والواو يتعاقبان في أشعار العرب كلها، قديمها وحديثها. وقال عبيد بن الأبرص:

وكل ذي غيبة يؤوب

وغائب الموت لا يؤوب

من يسأل الناس يحرموه

وسائل الله لا يخيب

ومثله من المحدثين:

أجارة بيتينا أبوك غيور

وميسور ما يرجى لديك عسير

ومما عيب من الشعر وليس بعيب، قول ذي الأمة:

رأيت الناس ينتجعون غيتاً

فقلت لصيدح انتجعي بلالا

ولما أنشدوا هذا الشعر بلال بن أبي بردة، قال: يا غلام مر لصيدح بقى من علف، فإنها هي انتجعتنا. وهذا من التعت الذي لا إنصاف معه، لأن قوله انتجعي بلالا إنما أراد نفسه. ومثله في كتاب الله تعالى: "واسأل القرية التي كنا فيها والعير التي أقبلنا فيها". وإنما أراد أهل القرية وأهل العير. وكان عمر بن الخطاب رضي الله عنه يقول في بعض ما يرتجز به من شعر:

إليك تعدو قلقاً وضيئها

مخالفاً دين النصارى دينها

فجعل الدين للناقة، وإنما أراد صاحب الناقة. ولم تزل الشعراء في مدائحها تصف التوق وزيارتها لمن تمدحه، ولكن من طلب تعنتاً وحده، أو تجتياً على الشاعر أدركه عليه، كما فعل صريع الغواني بالحسن بن هانئ حين لقيه، فقال له: ما يسلم لك بيت عندي من سقط. قال: فأني بيت أسقطت فيه؟ قال: أنشدني أي بيت شئت. فأشده:

ذكر الصبوح بسحرة فارتاحا

وأمله ديك الصباح صياحاً

فقال له: قد ناقضت في قولك، كيف يمله ديك الصباح صياحاً، وإنما يبشره بالصبوح الذي ارتاح له. فقال له الحسن: فأشدي أنت من قولك. فأشده:

عاصى العزاء فراح غير مفند

وأقام بين عزيمة وتجلد

قال له: قد ناقضت في قولك، إنك قلت:

عاصى العزاء فراح غير مفند

ثم قلت:

وأقام بين عزيمة وتجلد

فجعلته رائحاً مُقيماً في مقام واحد، والرائح غير المُقيم. والبيتان جميعاً مؤتلفان. ولكن من طلب عيباً وجاهه. ومما عابه ابنُ قتيبة وليس يعيب، قول المُرْقَش الأصغر:

صحا قلبه عنها على أن ذكرها

إذا ذكرت دارت به الأرض قائماً

فقال له: كيف يصح من كانت هذه صفتها؟ والمعنى صحيح، وإنما ذهب إلى أن حاله هذه، على ما تقدّم من سوء حاله، حال صحو عنده. ومثل هذا في الشعر كثير، لأن بعض الشتر أهون من بعض.

وقال النبي صلى الله عليه وسلم في عمه أبي طالب: إنه أخفُ الناس عذاباً يوم القيامة، يُحذَى نعلين من نار يغلي منها دماغه. وهذا من العذاب الشديد، وإنما صار خفيفاً عندما هو أشد منه، فزعم المُرْقَش أنه عند نفسه صاح، إذ تبدل حاله أسهل مما كان فيه. وقد عاب الناسُ على الحسن بن هانئ قوله:

واخفت أهل الشرك حتى إنه

لتخافك النطف التي لم تخلق

فقالوا: كيف تخافه النطف التي لم تُخلق؟ ومجاز هذا قريب، إذا لحظ أن كل من خاف شيئاً خافه بجوارحه وسمعه وبصره ولحمه ودمه، والنطف داخلة في هذه الجملة، فهو إذا أخاف أهل الشرك أخاف النطف التي في أصلاهما.

وقال الشاعر:

ألا ترثي لمكتتب

يحبك لحمه ودمه

وقال المكفوف:

أحبكم حباً على الله أجره

تضمته الأحشاء واللحم والدم

ولقى العتّابي منصوراً النمرى فسأله عن حاله. فقال: إني لمدهوش، وذلك أبي تركت امرأتي وقد عسر عليها ولاؤها. فقال له العتّابي: ألا أدلك على ما يُسهل عليها. قال: وما هو؟ قال: اكتب على رَحْمها هارون. قال: وما معنك في هذا؟ قال: ألسنت القائل فيه:

إن أخلف القطر لم تخلف مواهبه

أو ضاق أمر ذكرناه فيتسع

فقال: أبا الخلفاء تُعرض، وفيهم تقع، وإياهم تعيب. فيقال: إنه دخل على هارون فأعلمه ما كان من قول العتّابي. فكتب إلى عبد الصمد عمه يأمره بقتله. فكتب إليه عبد الصمد يشفع له. فوهبه إياه.

تقبيح الحسن وتحسين القبيح

سئل بعض علماء الشعر: من أشعر الناس؟ قال الذي يُصورُ الباطل في صورة الحق، والحق في صورة الباطل، بلطف معناه، ورقة فطنته، فيُقبِّح الحسن الذي لا أحسن منه، ويُحسن القبيح الذي لا أقيح منه.

فمن تحسين القبيح قولُ الحارث بن هشام يعتذر من فراره يوم بدر:

الله أعلم ما تركت قتالهم

حتى رموا مهري بأشقر مزبد

وعلمت أنني إن أقاتل واحداً

أقتل ولا يضرر عدوي مشهدي

فصرفت عنهم والأحبة فيهم

طمعاً لهم بعقاب يوم مُفسد

وهذا الذي سمعه صاحب الهند رُئييل، فقال: يا معشر العرب، حسنتم كل شيء فحسُن حتى حسنتم الفرار. ومن تقبيح الحسن: قولُ بشر العقبلي في سليمان بن عليّ، وكان وصل رجلاً وأحسن إليه:

يا سوأةً يُكثر الشيطانُ ما ذُكرت

لا تعجبَنَّ لخَيْرِ زلٍّ عن يده

وقال غيره في تحسِين القبيح:

يقولون لي إِنِّي بَخِيلٌ بنائلي

وقال المُتلمِّس في تَقبيح الحسن:

وحَبَسَ المالَ خَيْرٌ من بُغاه

وإِصلاحُ القليلِ يزيِدُ فيه

وقال محمود الوراق في تحسِين القبيح:

يا عائبَ الفقرِ ألا تزدجرُ

من شَرَفَ الفقرِ ومن فَضله

أَنَّكَ تَعْصِي كِي تَنالَ الغِنَى

ومن تحسِين القبيح، أنه قيل لخدمَةِ الأبرش: ما هذا الوَضح الذي بك؟ قال: سيفُ الله جلاه. وقال ابن حَبَّاء، وكان به برص:

لا تحسبنَ بياضاً فيَّ مَنقُصَةً

وقال محمود الوراق يمدح الشَّيب:

وعائبَ عابني بشيبي

لم يَعدُ لَمَّا ألمَ وقتَه

فقلتُ للعائبي بشيبي

يا عائبَ الشَّيب لا بلغته

وقال آخر:

يقولون هل بعدَ الثلاثين مَلْعَبُ

لقد جَلَّ قدرُ الشَّيبِ إن كان كُلمًا

فقلتُ وهل قبلَ الثلاثين مَلْعَبُ

بدت شبيبةً يعرى من اللّهُو مركب

وقال أعرابي في عجزه:

أبى القلبُ إلا أمَّ عمرو وحُبَّها

كثُوبِ يمانٍ قد تَقادمَ عهدُه

عجوزاً ومن يُحِبُّ عجزاً يَفنِّدِ

ورُقُعتُه ماشيتَ في العينِ واليَدِ

قال بَشَّار العُقيلي في سوداء:

أشبهك المِسكُ وأشبهته

لا شكَّ إذ لَوْنُكُما واحد

قائمةً في لونه قاعدَه

أنكُما من طِينةٍ واحدَه

الاستعارة

لم تنزل الاستعارة قديمةً تُستعمل في المنظوم والمُنثور. وأحسن ما تكون أن يُستعار المنثور من المنظوم، والمنظوم من المنثور. وهذه الاستعارة خفية لا يُؤبه بها، لأنك قد نقلت الكلام من حال إلى حال. وأكثر ما يجتلبه الشعراء ويتصرف فيه البلغاء فإنما يجري فيه الآخر على سنن الأول. وقل ما يأتي لهم معنى لم يسبق إليه أحد، إما في منظوم وإما في منثور؟ لأن الكلام بعضه من بعض، ولذلك قالوا في الأمثال: ما ترك الأول للآخر شيئاً. ألا ترى أن كعب بن زهير، وهو في الرِّعيل الأول والصدر المتقدم، قد قال في شعره:

أَوْ مُعَاداً مِنْ قَوْلِنَا مَكْرُوراً

مَا أَرَانَا نَقُولَ إِلَّا مُعَاراً

ولكن في قولهم إن الآخر إذا أخذ من الأول المعنى فزاد فيه ما يُحسنه وَيَقْرِبُهُ ويوضحه، فهو أولى به من الأول، وذلك كقول الأعشى:

وَأُخْرَى تَدَاوَيْتُ مِنْهَا بِهَا

وَكَأْسٍ شَرِبْتُ عَلَى لَذَّةٍ

فأخذ هذا المعنى الحسن بن هانئ فحسَّنه وَقْرَبَهُ إذ قال:

وَدَاوِنِي بِالَّتِي كَانَتْ هِيَ الدَّاءُ

دَعُ عَنْكَ لَوْمِي فَإِنَّ اللُّومَ إِغْرَاءُ

وقال القطامي:

مَا يَسْتَهَيُّ وَلَأَمَّ المَخْطِئُ الهَيْبُ

وَالنَّاسُ مَنْ يَلْقَى خَيْرًا قَاتِلُونَ لَهُ

أخذه من قول المرقش:

وَمَنْ يَغْوَى لَا يَعْدَمُ عَلَى الغِيِّ لَائِمًا

وَمَنْ يَلْقَى خَيْرًا يَحْمَدُ النَّاسُ أَمْرَهُ

وقال قيس بن الخطيم:

بَدَا حَاجِبٌ مِنْهَا وَضُنَّتْ بِحَاجِبِ

تَبَدَّتْ لَنَا كَالشَّمْسِ تَحْتَ غَمَامَةٍ

أخذه بعضُ المُحدثين فقال:

وَقَدْ سَتَرْتُ خُدا فَأَبَدْتُ لَنَا خُداً

فَشَبَّهْتُهَا بِدَرٍّ بَدَأَ مِنْهُ شِقُّهُ

تَتَأَثَّرُ دَرٌّ أَوْ نَدَى وَقَعَ الوَرْدَا

وَأَذْرَتْ عَلَى الخَدَيْنِ دَمْعًا كَأَنَّهُ

وأخذه آخر فقال:

أَبْدَى ضِيَاءَ لَثْمَانٍ بَقِيْنُ

يَا قَمْرًا لِلنَّصْفِ مِنْ شَهْرِهِ

وأخذه بشَّار فقال:

ثُمَّ انْتَنَتْ كَالنَّفْسِ المُرْتَدِّ

ضُنْتُ بِخَدِّ وَجَلَّتْ عَن خَدِّ

فلم يُفسد الآخر قولَ الأول، ولم يكن الأولُ أولى بالمعنى من الآخر.

وقد قلنا في هذا المعنى ما هو أحسن من كل ما تقدم أو مثله، وهو قولي:

هَلَالٌ بَدَا مَحَقًّا عَلَى أَنَّهُ تَمُّ

كَأَنَّ النَّتِي يَوْمَ الوَدَاعِ تَعَرَّضْتُ

وأما الاستعارة إذا كانت من المنثور في المنظوم، ومن المنظوم في المنثور، فإنها أحسن استعارة.

دخل سهل بن هارون على الرشيد وهو يضاحك ابنة المأمون، فقال سهل: يدعو للمأمون: اللهم زدّه من الخيرات، وابسط له من البركات، حتى يكون

كُلَّ يَوْمٍ مِنْ أَيَّامِهِ مُوفياً عَلَى أَمْسِهِ، مقصراً عن غده. فقال له الرشيد: يا سهل، من روى من الشعر أفصحه، ومن الحديث أوضحه، إذا رام أن يقول لم

يعجزه القول؟ قال: يا أمير المؤمنين، ما أعلم أحداً سبقني إلى هذا المعنى. قال: بلي. سبقك أعشى همدان، حيث يقول:

رَأَيْتَكَ أَمْسَ خَيْرَ بَنِي مَعَدٍّ

وَأَنْتَ الْيَوْمَ خَيْرٌ مِنْكَ أَمْسَ

وَأَنْتَ غَدًا تَزِيدُ الضَّعْفَ خَيْرًا

كَذَلِكَ تَزِيدُ سَادَةَ عَبْدِ شَمْسٍ

وقد يكون مثلُ هذا وما أشبهه عن موافقة.

وقد سُئِلَ الأصمعيُّ عن الشاعرينِ يَتَّفِقانِ في المعنى الواحدِ ولم يَسْمَعْ أحدهما قولَ صاحبه. فقال: عُقول الرجال توافتْ على ألسنتها.

اختلاف الشعراء في المعنى الواحد

وقد تختلف الشعراء في الواحد، وكل واحدٍ منهم مُحسن في مذهبه، جارٍ في توجيهه، وإن كان بعضُهُ أحسنَ من بعض.

ألا ترى أن الشماخ بن ضرار يقول في ناقته:

إِذَا بَلَغْتَنِي وَحَمَلْتِ رَحْلِي

عَرَابَةٌ فَاشْرَقِي بَدَمَ الْوَتِينِ

وقال الحسن بن هانئ في ضِدِّ هذا المعنى ما هو أحسن منه في محمد الأمين:

فَإِذَا الْمَطِيُّ بَنَا بَلْغُنَ مُحَمَّدًا

فَظُهُورَهُنَّ عَلَى الرِّجَالِ حَرَامٌ

وقال أيضاً:

أَقُولُ لِنَاقَتِي إِذْ أَبْلَعْتَنِي

لَقَدْ صَبَحْتَ مِنِّي بِالْيَمِينِ

فَلَمْ أَجْعَلْكَ لِلْغَرْبَانِ نُحْلًا

وَلَا قَلْتُ أَشْرَقِي بَدَمَ الْوَتِينِ

فقد عاب بعضُ الرواة قولَ الشماخ واحتجوا في ذلك بقول النبي صلى الله عليه وسلم للأَنْصَارِيَّةِ الْمَأْسُورَةِ الَّتِي نَجَتْ عَلَى نَاقَةِ النَّبِيِّ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ: إِنِّي نَذَرْتُ يَا رَسُولَ اللَّهِ إِنَّ اللَّهَ لَنْ يُجَايِبِيَ اللَّهَ عَلَيْهَا أَنْ أَنْحَرَهَا قَالَ: بِسَمَا جَزَيْتِهَا. وَلَا نَذَرَ لِأَحَدٍ فِي مَلِكٍ غَيْرِهِ.

وقد قالت الشعراء فلم تزل تمدح حُسن الهيئة وطيب الرائحة وإسبال الثوب.

قال الفرزدق:

بَنُو دَارِمٍ قَوْمِي تَرَى حُجْرَاتِهِمْ

عِتَاقًا حَوَاشِيهَا رِقَاقًا نِعَالُهَا

يَجْرُونَ هُدَابَ الْيَمَانِيِّ كَأَنَّهُمْ

سُيُوفٌ جَلَاءَ الْأَطْبَاطِغِ عَنْهَا صِقَالُهَا

وأول من سبق إلى هذا المعنى النابغة الذبياني في قوله:

رِقَاقُ النَّعَالِ طَيِّبٌ حُجْرَاتِهِمْ

يَحْيُونَ بِالرِّيحَانِ يَوْمَ السَّبَّاسِبِ

وقال طرفة:

ثُمَّ رَاحُوا عَبَقُ الْمَسْكِ بِهِمْ

يُلْحِفِينَ الْأَرْضَ هُدَابَ الْأَزْرُ

وقال كثير عزة في إسبال الذبول بمدح بعض بني أمية:

أَسْمَمَ مِنَ الْغَادِينَ فِي كُلِّ حَلَّةٍ

يَمِيسُونَ فِي صَبْغٍ مِنَ الْعَصَبِ مُنْقِنِ

هَمْ أَزْرُ حَمْرِ الْحَوَاشِيِّ بَطُونِهَا

بِأَقْدَامِهِمْ فِي الْحَضْرَمِيِّ الْمُلْسَنِ

وقال فيه أيضاً:

إِذَا حَلَّلَ الْعَصَبُ الْيَمَانِيَّ أَجَادَهَا

أَكْفُ أَسَاتِيذَ عَلَى النَّسْجِ دُرْبِ

أتاهم بها الجابي فراحوا عليهم

تمائم من فضفاضهن المكعب

لها طرر تحت البنائق أدنيت

إلى مرهفات الحضرمي المعقرب

وقال آخر:

معي كل فضفاض القميص كأنه

إذا ما سرت فيه المدام فنيق

وخالفهم فيه صريع الغواني فقال:

لا يعبق الطيب خديه ومفرقه

ولا يمسح عينيه من الكحل

وقال دريد بن الصمة يرثي أخاه عبد الله بن الصمة ويصفه بتشمير الثوب:

كميش الإزار خارج نصف ساقه

بعيد عن السوات طلاع أنجد

مثل قول الحجاج:

أنا ابن جلا وطلاع الثنايا

متى أضع العمامة تعرفوني

وقد يُحمل معناهم في تشمير الثوب وسحبه واختلافهم فيه على وجهين: أحدهما أن يستحسن بعضهم ما يستقبح بعض. والوجه الثاني، وهو أشبه، أن يكون لتشمير الثوب موضع ولسحبه موضع، كما قال عمرو بن معد يكرب:

فيوماً ترانا في الخزوز نجرها

ويوماً ترانا في الحديد عوابسا

ويوماً ترانا في الثريد ندسه

ويوماً ترانا نكسر الكعك يابسا

وقال أعشى بكر لعمر بن معد يكرب:

وإذا تجيء كتيبة ملمومة

شهباء يجتنب الكمأة نزالها

كتب المقدم غير لابس جنة

بالسيف تضرب معلماً أبطالها

وقال مسلم بن الوليد في يزيد بن يزيد خلاف هذا كله، وهو:

تراه في الأمن في درع مضاعفة

لا يأمن الدهر أن يدعى على عجل

ولما أنشده يزيد بن يزيد، قال له: ألا قلت كما قال الأعشى؟ وأنشده البيهقي.

فقال: قولي أحسن من قوله، إنه وصفه بالحرق، وأنا وصفتك بالحزم.

وقال عبد الملك بن مروان لأسليم بن الأحنف الأسدي: ما أحسن شيء مُدحت به؟ قال: قول الشاعر:

أسليم ذا كم لا خفاً بمكانه

لعين تُرجي أو لأذن تسمع

من النفر الشم الذين إذا اعتزوا

وهاب رجال حلقة الباب قعقعوا

جلا الأذفر الأحرى من المسك فرقه

وطيب الدهان رأسه فهو أنزع

إذا نفر السود اليمانون حاولوا

له حوك بُرديه أدقوا وأوسعوا

فقال عبد الملك: أحسن من هذا قول أبي قيس بن الأسلت:

قد حصت البيضة رأسي فما

أطعم يوماً غير تهجاع

أَسْعَى عَلَى جُلِّ بَنِي مَالِكٍ

وقال بعضهم:

كُلُّ امْرِئٍ فِي شَأْنِهِ سَاعِي

سَأَلْتُ الْمُحِبِّينَ الَّذِينَ تَحَمَّلُوا

فَقَالُوا شَفَاءُ الْحُبِّ حُبُّ يُزِيلُهُ

تَبَارِيحَ هَذَا الْحُبِّ فِي سَالِفِ الدَّهْرِ

لِأُخْرَى وَطَوَّلَ لِلتَّمَادِي عَلَى الْهَجْرِ

وقال الحمَدوني ما هو أحسن من هذا المعنى في ضده؟ وهو قوله:

زَعَمُوا أَنَّ مِنْ تَشَاغَلٍ بِالْح

كَذَبُوا مَا كَذَا بَلَوْنَا وَلَكِنْ

كَيْفَ أَسْلُو بِلَذَّةِ عِنِكَ وَاللَّ

كُلَّمَا رُمْتُ سَلْوَةً تُذْهِبُ الْحُرْقَةَ

بَ سَلَا عَنْ حَبِيبِهِ وَأَفَاقَا

لَمْ يَكُونُوا فِيمَا أَرَى عُشَّاقَا

ذَاتَ يُحَدِّثُن لِي إِلَيْكَ اشْتِيَاقَا

زَادَتْ قَلْبِي عَلَيْكَ احْتِرَاقَا

وقال كثير عزة:

أُرِيدُ لِأَنْسَى ذِكْرَهَا فَكَأَنَّمَا

وقال بعضُ الناس: إن كان يُحبها فلماذا يُحب أن ينسى ذكرها؟ ألا قال كما قال مجنون بني عامر:

تَمَثَّلُ لِي لَيْلِي بِكُلِّ سَبِيلِ

وَلَا قَطَعَ الرَّحْمَنُ عَنْ حُبِّهَا قَلْبِي

وَلَوْ أَنَّ لِي مَا بَيْنَ شَرْقٍ إِلَى غَرْبِ

فَلَا خَفَّفَ الرَّحْمَنُ مَا بِي مِنَ الْهَوَى

فَمَا سَرَّتْنِي أَنِّي خَلَيْتُ مِنَ الْهَوَى

وذهب أكثرهم إلى أن بُعد العهد يسلي المحب عن حبيبه، وقالوا فيه:

فَأَكْثَرَ دُونَهُ عَدَدَ اللَّيَالِي

إِذْ مَا شِئْتَنَ أَنْ تَسْلُو حَبِيبِيًّا

وقال العباس بن الأحنف:

تَتَاءُ وَلَا يَشْفِيكَ طَوْلُ تَلَاقِي

لِمُهْجَةِ نَفْسٍ آذَنْتَ بِفِرَاقِ

إِذَا كُنْتَ لَا يُسْلِيكَ عَمَّنْ تُحِبُّهُ

فَمَا أَنْتَ إِلَّا مُسْتَعِيرٌ حَشَّاشَةٌ

وقال كثير عزة:

فَبِالْيَأْسِ تَسْلُو عِنِكَ لَا بِالتَّجَدِّدِ

مِنْ نَحْوِ بَلَدْتِهَا نَاعٍ فَيَنْعَاهَا

وَتُضْمِرُ النَّفْسُ يَأْسًا ثُمَّ تَسْلَاهَا

فَإِنْ تَسَلَّ عِنِكَ النَّفْسُ أَوْ تَدَعَ الْهَوَى

ومثله قولُ بشر:

وَمِنْ حُبِّهَا أَتَمَّنَى أَنْ يُلَاقِيَنِي

كَيْمَا أَقُولُ فِرَاقٌ لَا لِقَاءَ لَهُ

وهذه المذاهب كلها خارجة من معناها، حائرة في مجراها.

وقال عبد الله بن جندب:

قَتِيلًا فَهَلْ مِنْكُمْ لَهُ الْيَوْمَ وَاتْرُ

مَرِيضَةٌ جَفْنَ الْعَيْنِ وَالطَّرْفُ سَاهِرٌ

أَلَا يَا عِبَادَ اللَّهِ هَذَا أَخُوكُمْ

خَذُوا بِدَمِي إِنْ مِتُّ كُلَّ خَرِيْدَةٍ

وقال صَرِيح الغواني في ضد هذا:

ولا تَطَلُّبا من عند قاتلتني ذَحَلِي

أدبرا عليّ الراح لا تَشْرَبًا قبلي

وقول عبد الله بن جُنْدَب أحسن في هذا المعنى، لأنه إنما أراد أن يدل على موضع ثأره واسم قاتله، ولم يُرد الطلب بالثأر لأنه لا ثأر له. وقد قال عبد الله بن عباس، ونظر إلى رجل مُدْنَفٍ عَشْتَقًا:

هذا قَتِيلُ الحُبِّ لا عَقْل ولا قَوَد

وقال الفرزدق، وأراد مذهب ابن جُنْدَب فلم تُوانه رِقَّة الطَّبَع، فخرج إلى أحف القول وأقبحه، فقال:

أخشى عليك بنيّ إن طلبوا دمي

يا أخت ناجية بن سامة إنني

ولو ارتقيت إلى السماء بسلم

لن يتركوك وقد قتلت أباهم

وقال ابنُ أخت تابط شرًّا يرثي حاله، وقتلته هُذَيْل:

ذَكَتِ الشَّعْرَى فبرُدٍ وظلِّ

شامسٌ في القُرِّ حتى إذا ما

حلَّ حلَّ الحَزْمِ حيث يحلُّ

ظاعنٍ بالحَزْمِ حتى إذا ما

أخذ معنى البيت الأول أعرابيٌّ فسَهَّلَ معناه وحسَّنَ ديباجته، فقال:

وإن نزل المصيف فأنت ظلُّ

إذا نزل الشتاء فأنت شمسٌ

وأخذ معنى البيت الثاني الحسن بن هانئٍ فقال في الخَصِيب:

ولكن يصير الجُود حيث يصيرُ

فما جازه جود ولا حلُّ دونه

وقالوا في الخيال فحيّوه بالسلام ورحّبوا به؛ فمن ذلك قولُ مروان ابن أبي حَفْصَةَ:

طرقتك زائرة فحيّ خيالها

وقال آخر:

طَرَقَ الخيالُ فحيّهُ بسلام

وعلى هذا بُنيت أشعارهم، وخالفهم جرير فطرَدَ الخيال، فقال:

وقت الزيارة فارجعي بسلام

طرقتك صائدة القلوب وليس ذا

وأولُ من طَرَدَ الخيالَ طرفة فقال:

إليها فإنّي واصلٌ من وصلٍ

فَقُلْ لخيالِ الحنظلية يَنقلب

وأعجبُ من هذا قولُ الرَّاعِي الذي هجا الخيال فقال:

أم شذرة زارتني أم الغولُ

طافَ الخيالُ بأصحابي فقلتُ لهم

كأنَّ مَحْجَرها بالقار مَكْحولُ

لا مرحباً بابنة الأقبال إذ طَرقت

وقد يختلف معنى الشاعر أيضاً في شعر واحد يقوله، ألا ترى أن امرأ القيس قال في شعره:

فسلّي ثيابي من ثيابك تَنسَلُ

وإن تك قد ساعتك منّي خليفةً

توصف نفسه بالصبر والجَلَد والقوة على التهالك، ثم أدركته الرقة والاشتياق فقال في البيت الذي بعده:

وأنتك مهما تأمري القلب يفعل

أغرَكَ مني أن حبك قاتلي

مُستدرَكًا قوله في البيت الأول:

فسلني ثيابي من ثيابك تنسل

ولم يزل من تقدم من الشعراء وغيرهم مُجمعين على ذم الغراب والتشاؤم به، وكان اسمه مُشتق من العُربة، فسمّوه غراب البين، وزعموا أنه إذا صاح في الديار أقوت من أهلها. وخالفهم أبو الشَّيْص، فقال ما هو أحسن من هذا، وأصدق من ذلك كله، وهو قوله:

د الله إلا الإبلُ

ما فرق الأحباب بع

ب البين لما جهلوا

والناس يلحون غرا

ب في الديار احتملوا

وما إذا صاح غرا

ب البين تطوى الرحل

وما على ظهر غرا

لا ناقة أو جمل

وما غراب البين إل

وقال آخر في هذا المعنى وذكر الإبل:

ولا زال منها ظالع وكسيرُ

لهنّ الوجى إذ كنّ عوناً على النوى

وما الشؤم إلا ناقة وبَعير

وما الشؤم في نعب الغراب ونعقه

ومن قولنا في هذا المعنى:

إن لم يُصدِّقه رُغاء بَعير

نعب الغراب فقلتُ أكذبُ طائرٍ

بل شرّ أحلاس لهنّ وكور

ردّ الجمال هو المُحقِّق للنوى

وقد يأتي من الشعر ما هو خارج عن طبقة الشعراء، مُنفردٌ في غرائبه وبتديع صنعته ولطيف تشبيهه، كقول جعفر بن جدار، كاتب ابن طولون:

وبين بونٍ إلى ديمًا

كم بين باري وبين بَمًا

أغيدَ ذي غنةٍ أحَمًا

من رشأ أبيض التراقي

ليست تُحلى ولا تُسمى

وطفلة رخصة المداري

يُعجز من يُخرج المعَمَى

إلا بسلك من اللآلى

مثل التعاليل أو أتمًا

صغرى وكبرى إلى ثلاثٍ

وكم برمّ وأرض رمًا

وكم بيم وأرض بَم

تلقاك بالحسن مستمتًا

من طفلة بضّة لعوب

ريا إذا لاقت المشما

منهن ريا وكيف ريا

لخر في التراب أولهما

لو شمها طائر بدو

تَسْحَبُ ثَوْبَيْنِ مِنْ خَلْقٍ

كَأَنَّمَا جَلِيًّا عَلَيْهَا

فَأَلْفِيَا زَعْفَرَانَ قُمْ

فَهِيَ نَظِيرُ اسْمِهَا الْمُعَلَّى

هَيْهَاتَ يَا أُخْتَ آلِ بَمٍّ

لَوْ كَانَ هَذَا وَقِيلَ سَمًّا

قَدْ قَلَّتْ إِذْ أَقْبَلْتَ تَهَادِي

تُومِي بِأَسْرُوعَةٍ وَتُخْفِي

لَوْ كُنْتَ مِمَّنْ لَكُنْتَ مِمَّا

عَاتَبَنِي الدَّهْرُ فِي عِزَارِي

قُوْسٍ مَا كَانَ مُسْتَقِيمًا

وَكَيفَ تَصْبُو الدُّمَى إِلَى مَنْ

بِي عِنَاكَ يَا أُخْتَ أَهْلِ بَمٍّ

فَلَسْتُ مِنْ وَجْهِكَ الْمُفْدَى

أَذْهَلَنِي عِنَاكَ خَوْفُ يَوْمٍ

مَا كَسَبْتَهُ يَدَايَ وَهَنَا

تُحْشِرُ فِيهِ الْجَنَانَ زَفًّا

تَقُولُ هَذَا لِطَالِبِيهَا

نَفْسِي أُولَى بَأْنِ أَدْمَا

يَا نَفْسُ كَمْ تُخَدَعِينَ عَمَّا

رَعِيَتْ مِنْ ذِي الحُطَامِ مَرَعَى

وَيَحْكُ فَاسْتَيْقِظِي لِيَوْمٍ

أَلَمْ تَرِي يُونُسَ بْنَ عَبْدِال

فِي حُفْرَةٍ مَا يُحِيرُ حَرْفًا

وَالْمَزْنِيَّ الَّذِي إِلَيْهِ

قَدْ أَفْنِيَا زَعْفَرَانَ قُمْ

مِنْ طَيِّبٍ مَا بَاشِرًا وَشَمًا

فَانْغَمَسَا فِيهِ وَاسْتَحَمَّا

يَقُوحُ لِامْرِطِهَا المَدَمَّا

غَلَطْتَ فِي الْاسْمِ وَالْمُسَمَى

مَاتَ إِذَا مِنْ يَقُولُ سَمًّا

كَطَلْعَةِ البَدْرِ أَوْ أَمَّمَا

بِالبُرْدِ مِثْلَ القِدَاحِ حُمًّا

لَكُنِّي قَدْ كَبُرْتُ عَمَّا

بِأَحْرَفِ فَارَعَوِيَّتِ لَمَّا

وَأَبْيَضَ مَا كَانَ مُدْلِهِمَّا

كَانَ أَخَا ثُمَّ صَارَ عَمَّا

شُغِلَ بِمَا قَدْ دَنَا مُهَمًّا

وَلَسْتُ مِنْ قَدِّكَ المُحَمَّى

يَحْيَا لَهُ كُلُّ مَنْ أَلَمَّا

خَيْرًا وَشَرًّا أَصَبْتَ ثَمَّا

وَتُحْشِرُ النَّارَ فِيهِ زَمًّا

هَيْتَ وَهَذَا لَهُمْ هَلُمَّ

مِنْ أَمْرِهَا كُلِّ مَا اسْتَدَمَّا

بَلْبَسَ دَاجٍ وَأَكَلَ لَمَّا

جَمَعْتَ أَكْلًا لَهُ وَذَمًّا

يَحْيَا لَهُ كَمِ مِنْ أَرَمَّا

أَعْلَى غَدَا صَامِتًا فَصُمًّا

قَدْ دَكَّ مِنْ فَوْقِهَا وَطَمَا

نَعَشُوا إِذَا دَهَرْنَا ادْلِهِمَا

أخفى فؤادي له عزائي
كأنما خوفاً فخافا
أقبل سَهْم من الرّرايا
دكدك منا ذراً جبال
وَحصنا دون مَنْ عليها
قد قَرُب الموتُ يا بنَ أما
واعلم بأنَّ من عصاك جهلاً
هو الهدى والرّدى فإمّا
ها أنذا فأعتبر بحالي
قد أسكنتني الذنوب بيتاً
فهل إلى توبة سبيلٌ
فَنشكر الله لا سواه
يا نفسَ جدّي ولا تميلي
أو ابحتي عن فُل بن فُل
لبئس عبدٌ يروح بغيّاً
في غمرة العيش لا يُبالي
كم بين هذا وبين عبد
يقطع آناؤه صلاةً
إنّ بهذا الكلام نصحاً
يا رب لي ألفُ ذنب

فأبرد بعفوي غليل قلب كأن فيه رسيس حمى وقال العزال:

لعمري ما ملكت مقودي الصبا
ولا أنا ممن يؤثر اللهو قلبه
ولا قارع باب اليهودي موهناً
وأوتغته الشيطان حتى أصاره
أغذ السرى فيها إذا الشرب أنكروا

لكن زفيرى عليه نما
أو حذراً كاساهما فصما
فخصّ أعلامنا وعمّا
شامخة في السماء شما
وزاد همماً بنا وغما
فبادر الموت يا بن أما
من النقى لم يطعك همّا
أتيت أتى الردى وإما
في طبق مؤصد معمى
يخاله الإلف مستحما
تكون فيها الهموم همّا
لعل نعماء أن تتما
فأفضل البر ما استتما
تريه تحت التراب رما
مع المساوي تراه دوما
أحمده الجار أم أذما
يغدو خميص الحشى هضما
ودهره بالصلاح صوما
إن لم يواف القلوب صما
إن تعف يا رب فاعف جماً

فأمطو للذات في السهل والوعر
فأمسي في سكر وأصبح في سكر
وقد هجع النوم من شهوة الخمر
من الغي في بحر أضل من البحر
ورهنى عند العالج ثوبي من الفجر

كأنّي لم أسمع كتابَ محمد
كفاني من كل الذي أعجبوا به
ففيها شرابي إن عطشتُ وكلّ ما
بخبزُ وبقل ليس لحمًا وإنني
فيا صاحبَ اللّحمان والخمر هل ترى
وبالله لو عمرت تسعين حجةً
ولا طربت نفسي إلا مزهر ولا
وقد حدثوني أن فيها مرارة
أخي عد ما قاسيته وتقلب
فهل لك في الدنيا سوى الساعة التي

فما ساق منها لا يحس ولا يرى
فطوبى لعبد أخرج الله روحه
ولكنني حدثت أن نفوسهم
وأجسادهم لا يأكل التراب لحمها
ففرق الدهر شمالاً كان ملتئمًا
ما زلت أرى نجوم الليل طالعةً
نجم من الحسن ما يجرى به فلّك
ذاك الذي حاز حسناً لا نظير له
وقد تناظرَ والبرجيس في شرفٍ
فذاك يُشبهه في حسن صورته
أشكو إلى الله ما ألقى لفرقة
لو كنت أشكو إلى صمّ الهضاب إذاً
يا غادراً لم يزل بالغدر مُرتدياً
إن غاب جسمك عن عيني وعن نظري
إني سأبكيك ما ناحت مطوقةً

وما جاء في التنزيل فيه من الزجر
قليلة ماء تستقى لي من النهر
يريد عيالي للعجين وللقدّر
عليه كثيرُ الحمد لله والشكر
بوجهي إذا عاينت وجهي من ضر
إلى مثلها ما اشتقتُ فيها إلى خمر
تحنّ قلبي نحو عُود ولا زمر
وما حاجة الإنسان في الشرب للمرّ
عليك به الدنيا من الخير والشر
تكون بها السراء أو حاضر الضرّ

وما لم يكن منها عمي عن الفكر
إليه من الدنيا على عمل البر
هنالك في جاه جليل وفي قدر
هنالك لا تبلى إلى آخر الدهر
منا وجمع شمالاً غير ملتئم
أرجو السلو بها إذ غبت عن نجمي
كأنه الدرّ والياقوت في النظم
كالبدر نوراً علا في منزل النعم
وقارن الزهرة البيضاء في توم
وذا يزيد بحظ الشعر والقلم
شكوى مُحبّ سقيم حافظ الذم
تفطرت للذي أبدية من ألم
أين الوفاء ابن لي غير محتشم
فما يغيب عن الأسرار والوهم
تبكي أليفاً على فرع من النشم

ما يجوز في الشعر مما لا يجوز في الكلام

قال أبو حاتم: أبيح للشاعر ما لم يُحج للمتكلم، من قصر المدود، ومد المقصور، وتحريك الساكن، وتسكين المتحرك، وصرف ما لا ينصرف، وحذف الكلمة ما لم تلبس بأخرى، كقولهم: فل من فلان، وحم من حمام .
قال الشاعر:

يقال لِمَتَلِك: وَيَهَا فُلٌ

وجاءت حوادث من مثلها

وقال مسلم بن الوليد:

وصائنٌ وجهي عن فلان وعن فل

سل الناس إني سائل الله وحده

وقال آخر:

دعاء حمامات تجاوبها حم

ومن المحذوف أيضاً قول الشاعر:

من الثعالي ووخز من أرانيها

لها أثارير مات لحم تتمره

يريد من الثعالب. ومثله قول الشاعر:

ولضفادي جمه نقانق

يريد الضفادع. ومن المحذوف قول كعب بن زهير:

في وعدها أو لو أن النصح مقبول

ويلمها خلّة لو أنها صدقت

يريد ويل لأمها.

ومنه قولهم: لاه أبوك يريدون: لله أبوك. وقال الشاعر:

ف المبديات من العواقب

لاه ابن عمك لا يخأ

وكذلك الزيادة أيضاً إذا احتاجوا إليها في الشعر، فمن ذلك قول زهير:

ماء بشرقي سلمى فيد أوركك

ثم استمروا وقالوا إن موعدكم

قال الأصمعي: سألت بجنات فيد عن ركك. فقيل: ماء هاهنا يسمى ركاً. فعلمت أن زهيراً احتاج فضغف: ومنه قول القطاميّ.

مواضع ليس ينفذها الإبار

وقول المرء ينفذ بعد حين

ومثله قولهم: كلكال، من كلكل. ونظر هذا كثير في الشعر لمن تبعه.

وأما قصرهم الممدود فحائر في أشعارهم، ومد المقصور عندهم قبيح، وقد يستجد في الشعر على قبحه، مثل قوله حسّان بن ثابت:

وأملك خير من المنذر

قفاؤك أحسن من وجهه

وأنشد أبو عبيدة:

ينشب في الحلق وفي اللهاء

يالك من تمر ومن شيشاء

فمد اللهي، هو جمع لهاة: كما قالوا: قطاة وقطي، ونواة ونوي.

أما تحريك الساكن وتسكين المتحرك، فمن ذلك قول لبيد بن ربيعة:

تَرَكَ أَمَكْنَةَ إِذَا لَمْ أَرْضَهَا

ومثله قولُ امرئ القيس:

أَوْ يَرْتَبِطُ بَعْضَ النَّفُوسِ حِمَامُهَا

فَالْيَوْمَ أَشْرَبُ غَيْرَ مُسْتَحَقِّبِ

وقال أمية بن أبي الصلت:

إِنَّمَا مِنْ اللَّهِ وَلَا وَاعِلُ

تَأْبَى فَمَا تَطَّلِعَ لَهُمْ فِي وَقْتِهَا

ومن قولهم في تحريك الساكن:

إِلَّا مُعَذِّبَةٌ وَإِلَّا تُجَلِّدُ

اضْرِبْ عَنكَ الْهُمُومَ طَارِقَهَا

ضَرَبَكَ بِالسَّوْطِ قَوْنَسَ الْفَرَسِ

وأما صَرَفَ مَالًا يَنْصَرِفُ عِنْدَهُمْ فَكَثِيرٌ، وَالْقَبِيحُ عِنْدَهُمْ أَلَّا يُصَرَفَ الْمُنْصَرَفُ، وَقَدْ يُسْتَجَادُ فِي الشَّعْرِ عَلَى قُبْحِهِ. قَالَ عَبَّاسُ بْنُ مُرْدَاسٍ:

وَمَا كَانَ بَذْرٌ وَلَا حَابِسُ

يَفُوقُ مِرْدَاسٍ فِي الْمَجْمَعِ

ومن قولهم في تَسْكِينِ الْمُتَحَرِّكِ، وَقَدْ اسْتَشْهَدَ بِهِ سَبِيوَيْهِ فِي كِتَابِهِ:

عَجِبَ النَّاسُ وَقَالُوا

شِعْرٌ وَضَاحُ الْيَمَانِيِّ

إِنَّمَا شِعْرِي قَنْدٌ

قَدْ خَلَطَ بِجُلْجَلَانِ

ولو حرك خلط اجتمع خمس حركات.

باب ما أدرك على الشعراء

قال أبو عبد الله بن مسلم بن قتيبة: أدركت العلماء بالشعر على امرئ القيس قوله:

وَأَنْكَ مَهْمَا تَأْمُرِي الْقَلْبَ يَفْعَلُ

أَغْرَكَ مِنِّي أَنْ حُبُّكَ قَاتِلِي

وقالوا: إذا لم يُعْرَفْ هَذَا فَمَا الَّذِي يَغْرُو؟ وَمَعْنَاهُ فِي هَذَا الْبَيْتِ يَنْقَاضُ الْبَيْتُ الَّذِي قَبْلَهُ، حَيْثُ يَقُولُ:

فَسَلِّ ثِيَابِي مِنْ ثِيَابِكَ تَنْسَلِ

وَإِنْ كُنْتَ قَدْ سَاعَتِكَ مِنِّي خَلِيقَةٌ

لأنه ادَّعى في هذا البيت فضلاً للتجلد وقوة الصبر بقوله:

فَسَلِّ ثِيَابِي مِنْ ثِيَابِكَ تَنْسَلِ

وزعم في البيت الثاني أنه لا تَحْمُلُ فِيهِ لِلصَّبْرِ، وَلَا قُوَّةَ عَلَى التَّمَالِكِ، بِقَوْلِهِ:

وَأَنْكَ مَهْمَا تَأْمُرِي الْقَلْبَ يَفْعَلُ

وأفصح من هذا عندي قوله:

وَشَحْمٌ كَهْدَابِ الدِّمْقَسِ الْمُفْتَلِّ

فَظَلَّ الْعَدَارَى يَرْتَمِينَ بِلَحْمِهَا

ومما أدرك على زهير قوله في الضفادع:

عَلَى الْجُدُوعِ يَخْفَنُ الْغَمَّ وَالْغَرَقَا

يَخْرُجْنَ مِنْ شَرِيَّاتِ مَائِهَا طَحْلٌ

وقالوا: ليس خروج الضفادع من الماء مخافة الغم والغرق، وإنما ذلك لأنهن يبتن في الشطوط.

ومما أدرك على النابغة قوله يصف الثور:

تَحِيدُ عَنْ أَسْتَنِّ سَوْدٍ أَسَافِلُهُ

مِثْلُ الْإِمَاءِ الْغَوَادِي تَحْمَلُ الْحَزْمَا

قال الأصمعي: إنما تُوصفُ الإماءُ في مثل هذا الموضع بالرَّواحِ لا بالغدو، لأنَّهنَّ يَجْنُنُ بِالْحَطْبِ إِذَا رُحْنَ؟ قال الأَخْنَسُ التَّغْلِي:

تَظَلُّ بِهَا رَبُّدُ النَّعَامِ كَأَنَّهَا

إِمَاءٌ يَرُحْنَ. بِالْعَشِيِّ حَوَاطِبُ

وأخذ عليه في وصف السيف قوله:

يَقْدُ السَّلَوقِيَّ الْمُضَاعَفَ نَسْجِه

وَيُوقِدُ بِالصَّفَاحِ نَارَ الْحَبَابِ

فرعم أنه يَقْدُ الدَّرْعَ الْمُضَاعَفَةَ والفارس والفرس، ثم يقع في الأرض فيقذح النار من الحجارة، وهذا من الإفراط القبيح. وأقبح عندي من هذا في وصف المرأة قوله:

لَيْسَتْ مِنَ السُّودِ أَعْقَابًا إِذَا انصرفتُ

وَلَا تَتَّبِعُ بِأَعْلَى مَكَّةَ الْبُرْمَا

ومما أخذ عليه قوله:

خَطَاطِيفُ حُجْنٍ فِي حِبَالٍ مَتِينَةٍ

تُمَدُّ بِهَا أَيْدِي إِلَيْكَ نَوَازِعُ

فشبه نفسه بالدلو، وشبه الثعمان بخطاطيف حُجْنٍ، يريد خطاطيف مُعْوَجَةٌ تُمدُّ بِهَا الدلو. وكان الأصمعي يُكثر التعجب من قوله:

وَعَيْرَتْنِي بَنُو ذُبْيَانَ خَشِيَّتَهُ

وَهَلْ عَلِيٌّ بَأَنَّ أَحْشَاكَ مِنْ عَارِ

ومما أدبك على المتلمس قوله:

وَقَدْ أَتَنَاسَى الْهَمَّ عِنْدَ احْتِقَارِهِ

بِنَاجٍ عَلَيْهِ الصَّيْعِرِيَّةَ مُكْدَمَ

والصيعرية: سمة للنوق، فجعلها صفة للفتح. وسمعه طرفة وهو صبي يُنشد هذا البيت، فقال: استنوق الجميل. فضحك الناس، وصارت مثلاً. وأخذ عليه أيضاً قوله.

أَحَارَتْ إِنَا لَوْ تُسَاطِ دِمَاؤُنَا

تَرَائِلُنَ حَتَّى لَا يَمَسَّ دَمًا

وهذا من الكذب المحال.

ومما أدرك على طرفة قوله:

أَسَدٌ غَيْلٌ فَإِذَا مَا شَرَبُوا

وَهَبُوا كُلَّ أَمُونٍ وَطِمْرٍ

ثُمَّ رَاحُوا عَبَقَ الْمَسْكَ بِهَمِّ

يَلْحِفُونَ الْأَرْضَ هَدَابَ الْأَزْرِ

فذكر أنهم يُعْطُونَ إِذَا سَكَرُوا، ولم يَشْتَرَطْ لَهُمْ ذَلِكَ إِذَا صَحَّوْا، كما قال عنتره:

وَإِذَا شَرِبْتُ فَإِنِّي مُسْتَهْلِكٌ

مَالِي وَعَرِضِي وَأَفْرٌ لَمْ يُكَلِّمْ

وَإِذَا صَحَوْتُ فَمَا أَقْصَرُ عَنْ نَدَى

وَكَمَا عَلِمْتَ شِمَائِلِي وَتَكَرَّمِي

ومما أدرك على عدي بن زيد قوله في صفة الفرس:

فَصَافٍ يُعَرِّي جُلَّةً عَنْ سَرَاتِهِ

يَبْدُ الْجِيَادَ فَارَهَا مُتَتَابِعًا

ولا يقال للفرس: فاره، وإنما يقال له: جواد وَعَتِيق. ويقال للكودن والبغل والحمار: فاره.

ومما أدرك عليه وصفه الخمر بالحُضْرَة، ولا نعلم أحداً وصفها بذلك، فقال:

المُشْرِفُ الهِنْدِيَّ يُسْقَى بِهِ

ومما أدرك على أعشى بكر قوله:

أخضرَ مَطْمُونًا بماءِ الخَرِيصِ

وقد غَدوتُ إلى الحانوتِ يَتَّبِعُنِي

وهذه الألفاظ الأربعة في معنى واحد. ومما أدرك على لبيد قوله:

شاورٍ مِثْلَ شَلُولٍ شَلْشَلٍ شَوْلٍ

ومُقامِ ضَيْقِ فَرَجْتُهُ

بمُقامي ولساني وجَدَلٍ

لو يَقومُ الفِيلُ أو فَيَّالُهُ

فظن أن الفَيالَ أقوى الناس، كما أن الفِيلَ أقوى البهائم.

زَلٌّ عن مِثْلِ مُقامي وزَحَلٍ

ومما أدرك على عمرو بن أحمر الباهلي قوله يصف المرأة:

وَدِرَاسُ أَعوصِ دَارِسِ مُتَجَدِّدٍ

لم تدر ما نَسَجُ اليرَندَجِ قَبْلَها

اليرَندَج: جلود سُود. فَظَنَّ أنه شيء يُنَسَج. ودراسِ أعوص، يريد أنها لم تُدراس الناس عَوِيس الكلام الذي يخفي أحياناً ويتبين أحياناً.

وقد أتى ابنُ أحمر في شعره بأربعة ألفاظ لم تُعرف في كلام العرب، منها: أنه سَمِيَ الناعر ماموسةً، ولا يُعرف ذلك فقال:

كما تطايح عن ماموسة الشرر

وسمى حُوار الناقة بابوساً، ولا يُعرف ذلك، فقال:

فما حَنِينُكَ أمَ ما أنتِ والذَكَرِ

حَنَنْتُ قَلوَصِي إلى بابولسِها جَزَعاً

وفي بيت آخر يذكر فيه البقرة:

وبنَسَ عنها فرَقَدَ خَصِرٍ

أي تأخر، ولا يُعرف التَّبَس. وقال.

فواكبدي من ذا يهيم بها بعدي

أهيمُ بَدَعْدَ ما حَييتُ فإن أمتُ

تلَهَّف على من يهيم بها بعده.

ومما أدرك على الراعي قوله في المرأة:

من قُصَبَ مُعْتَلَفِ الكافورِ درَاجٍ

تَكسو المِفارِقَ واللِّباتِ ذا أَرَجٍ

أراد المسك. فجعله من قُصَب. والقُصَب: المعى. فجعل المسك من قُصَبِ دابةٍ تعتلِف الكافور فيتولد عنه المسك. ومما أدرك على جرير قوله في بني

الغدوكس رهط الأخطل:

لو شِئْتُ ساقِكمُ إليَّ قَطِيباً

هذا ابنُ عَمِّي في دِمَشقِ خَلِيفَةَ

القطين، في هذا الموضع: العبيد والإماء. وقيل له: أبا حَزْرَةَ، ما وجدتَ في تميم شيئاً تفخر به عليهم حتى فخرت بالخلافة، لا والله ما صنعتَ في

هجائهم شيئاً. ومما أدرك على الفرزدق قوله:

وَعَضَّ زَمَانَ يَابِنَ مَرَوَانَ لَمْ يَدَعْ

وقد أكثر النحويون الاحتيالَ لهذا البيت، ولم يأتوا فيه بشيء يُرضي. ومثل ذلك قوله:

من المال إلا مُسْحَتَا أَوْ مُجَلَّفُ

غَدَاةَ أَحَلَّتْ لَابِنَ أَصْرَمَ طَعْنَةً

كان حُصَيْنُ بنِ أَصْرَمَ قد حلف ألا يأكل لحماً ولا يشرب خمراً حتى يدرك ثأره، فأدركه في هذا اليوم الذي ذكره. فقال "عبيطات السدائف والخمر" وعبيطات السدائف ورفع الخمر هاتما هي معطوفة عليها، وكان وجهها النصب، فكأنه أراد: وحلت له الخمر. ومما أدرك على الأخطلي قوله في عبد الملك بن مروان:

حُصَيْنُ عَبِيَّطَاتِ السَّدَائِفِ وَالْخَمْرِ

وَقَدْ جَعَلَ اللَّهُ الْخِلَافَةَ مِنْهُمْ

لأَبْيَضِ لَا عَارِي الْخَوَانَ وَلَا جَدْبِ

وهذا مما لا يُمدح به خليفة.

وأخذ عليه قوله في رجل من بني أسد يمدحه، وكان يُعرف بالقيين ولم يكن قيناً، فقال فيه:

نِعْمَ الْمَجِيرِ سَمَاكٍ مِنْ بَنِي أَسَدٍ

بِالْمَرْجِ إِذْ قَتَلْتَ جِيرَانَهَا مُضِرُّ

قَدْ كُنْتُ أَحْسَبُهُ قَيْنًا وَأَنْبِؤُهُ

فَالآنَ طَيْرٌ عَنْ أَثْوَابِهِ الشَّرَرُ

وهذا مدح كالمهجاء.

ومما أدرك على ذي الرمة:

تُصْنَعِي إِذَا شَدَّهَا بِالْكُورِ جَانِحَةً

حَتَّى إِذَا مَا اسْتَوَى فِي غَرَزِهَا تَتَبُّ

وسمعه أعرابي يُنشدُه فقالت: صُرِعَ وَاللَّهِ الرَّجُلُ، أَلَا قُلْتَ كَمَا قَالَ عَمُّكَ الرَّاعِي:

وَوَاضِعَةٌ خَدَّهَا لِلزَّمَا

مَ فَالْخَدُّ مِنْهَا لَهُ أَصْعَرُ

وَلَا تُعْجَلِ الْمَرْءَ قَبْلَ الرَّكْوِ

بِ وَهِيَ بِرُكْبَتِهِ أَبْصَرُ

وَهِيَ إِذَا قَامَ فِي غَرَزِهَا

كَمَثَلِ السَّفِينَةِ أَوْ أَوْقَرُ

ومما أدرك عليه قوله:

حَتَّى إِذَا دَوَّمتَ فِي الْأَرْضِ رَاجِعَةً

كَبْرٌ وَلَوْ شَاءَ نَجَّى نَفْسَهُ الْهَرَبُ

قالوا: التَّدْوِيمُ: إنما يكون في الجوّ، يقال: دَوَّمتَ الطائرَ في السماء، إذا حلَّقَ وأستدار؟ ودَوَّمتَ في الأرض، إذا استدارَ فيها.

ومما أدرك على أبي الطَّمْحَانَ الْقَيْنِيِّ قوله:

لَمَّا تَحَمَّلْتَ الْحُمُولَ حَسْبَتْهَا

دَوْمًا بِأَثَلَةٍ نَاعِمًا مَكْمُومًا

الدوم: شجر المقل، وهو لا يُكَمُّ وإنما يُكَمُّ النحل.

ومما أخذ على العجاج قوله:

كَأَنَّ عَيْنِيهِ مِنَ الْغَوُورِ

قَلَّتَانِ أَوْ حَوَّجَلْتَا قَارُورِ

صَيَّرْتَا بِالنَّضْحِ وَالتَّصْيِيرِ

صَلَاصِلَ الزَّيْتِ إِلَى الشَّطُورِ

الحوجلتان: القارورتان. جعل الزجاج ينضح ويرشح. ومما أدرك على رؤبة قوله:

كُنْتُمْ كَمَنْ أَدْخَلَ فِي جُحْرِ يَدَا

جعل الأفعى دون الأسود، وهي فوقه في المضرة.
وأخذ عليه في وصف الظليم قوله:

وَكُلُّ زَجَّاجِ سَخَامِ الْخَمَلِ

فجعل للظليم عدة إناث، كما يكون للحمار، وليس للظليم إلا أنثى واحدة.
وأخذ عليه قوله يصف الرامي:

لَا يَلْتَوِي مِنْ عَاطِسٍ وَلَا نَعَقِ

إنما هو التّعيق والتّعاق، وإنما يصف الرامي. وأدرك عليه قول:

أَقْفَرَتِ الْوَعْتَاءُ وَالْعِنَاعِثُ

إنما هي البراث: جمع برث. وهي الأرض اللينة.
وأدرك عليه قوله: يا ليتنا والدهر جري السُّمَّةِ إنما يقال: ذهب السهمي أي في الباطل وأخذ عليه قوله

أَوْ فِضَّةٌ أَوْ ذَهَبٌ كِبْرِيْتُ

قال: سمع بالكبريت أنه أحمر فظن أنه ذهب.
مما يستقبح من تشبيهه قوله في النساء:

يَلْبَسُنْ مِنْ لَيْنِ الثِّيَابِ نَيْمًا

والنَّيْم: الفرو المغشَّى. وأخذ عليه قوله في قوائم الفرس:

يَرْدِينِ شَتَّى وَبَقَعْنِ وَقَقًا

وأنشده مُسلم بن قُتيبة، فقال له: أخطأت يا أبا الجحَّاف. جعلته مُقيداً.
قال له رؤبة: أدني من ذنب البعير.

ومما أدرك على أبي نُخيلة الراجز قوله في وصف المرأة:

مُرِيَّةٌ لَمْ تَلْبَسِ الْمَرْقَقَا

فجعل الفستق من البقول، وإنما هو شجر.

ومما أدرك على أبي النجم قوله في وصف الفرس:

يَسْبِحُ أَخْرَاهُ وَيَطْفُو أَوْلَهُ

قال الأصمعي: إذا كان كذلك فحمار الكسَّاح أسرع منه، لأن اضطراب مؤخره قبيح. وإنما الوجه فيه ما قال أعرابي في وصف فرس أبي الأعور السلمي:

مَرَّ كَلَمَعِ الْبَرْقِ سَامَ نَاطِرُهُ

فَمَا يَمَسُّ الْأَرْضَ مِنْهُ حَافِرُهُ

وأخذ عليه في الورود قوله:

فَأَخْطَأُ الْأَفْعَى وَلَا قَى الْأَسْوَدَا

تَبْرِي لَه فِي زَعَلَاتِ خَطْلٍ

مِنْ أَهْلِهَا وَالْبُرْقِ الْبَرَارِثُ

وَلَمْ تَذُقْ مِنَ الْبُقُولِ الْفُسْتَقَا

يَسْبِحُ أَوْلَاهُ وَيَطْفُو آخِرُهُ

جاءت تسمى في الرعي الأول

فوصف أهما وردت في الهاجرة. وإنما خير الورود غلساً، والماء بارد. كما قال الآخر:

فوردت قبل الصباح الفاتق

وكقول لبيد بن ربيعة العامري:

إن من وردي لتغليس النهل

وقال آخر:

فوردن قبل تبين الألوان

وأنشد بشار الأعمى قول كثير عزة:

ألا إنما ليلى عصا خيزرانة

فقال: لله أبو صخر! جعلها عصا خيزرانة. فوالله لو جعلها عصا زيد لهجنها بالعصا، ألا قال كما قلت:

إذا غمزوها بالأكف تلين

كأن حديثها قطع الجمان

كأن عظامها من خيزران

وبيضاء المحاجر من معد

إذا قامت لحاجتها تننت

ودخل العتايي على الرشيد فأنشدته في وصف الفرس:

كأن أذنيه إذا تشوفا

فعلم الناس أنه لحن، ولم يهتد أحد منهم إلى إصلاح البيت غير الرشيد، فإنه قال: قل:

تخال أذنيه إذا تشوفا

والراجز وإن كان لحن فإنه أصاب التشبيه. حدث أبو عبد الله بن محمد بن عرفة بواسط، قال: حدثني أحمد بن محمد بن يحيى عن الزبير بن بكار عن سليمان بن عياش السمدي عن السائب، رواية كثير عزة، قال: قال لي كثير عزة يوماً: قم بنا ابن أبي عتيق نتحدث عنده. قال: فحجنا فوجدنا عنده ابن معاذ المغني. فلما رأى كثيراً قال لابن أبي عتيق: ألا أغنيك بشعر كثير عزة؟ قال: بلى فغناه:

كما انبت من جبل القرين قرين

وصاح غراب البين أنت حزين

تفرق ألف لهن حين

وليس لمن خان الأمانة دين

أبائنة سعدى نعم سنيين

أن زم أجمال وفارق جيرة

كأنك لم تسمع ولم تر قبلها

فأخلفن ميعادي وخن أمانتي

فالتفت ابن أبي عتيق إلى كثير، فقال: أولدئين صحبتين يا بن أبي جمعة؟ ذلك والله أشبه بهن، وأدعى للقلوب إليهن؟ وإنما يوصفن بالبخل والامتناع، وليس بالوفاء والأمانة. وذو الرقيات أشعر منك حيث يقول:

والتي في طرفها دعج

والتي في ثغرها فلج

عاشق في قبلة حرج

حبذا الإدلال والغنج

والتي إن حدثت كذبت

خبروني هل على رجل

فقال كُثَيْبٌ: قُمْ بنا من عند هذا، ومَضَى.

عُمارة بن عَقِيل بن بِلَال بن جَرِير، قال: إني بِيَاب المأمون إذ خرج عبد الله ابن أبي السَّمْط، فقال لي: علمتُ أن أمير المؤمنين على كماله لا يعرف الشَّعر.

قلت له: وبِم علمتَ ذلك؟ قال: أسمعُته الساعة بيتاً لو شاطري مُلكه عليه لكان قليلاً. فنظر إلي نظراً شَريراً كاد يَصْطَلِمني. قلت له: وما البيت؟ فأنشد:

أضحى إمامُ الهدى المأمون مُشتغلاً **بالدِّين والناسُ بالدنيا مشاغيلُ**

قلت له: والله لقد حلَم عليك إذ لم يؤدِّبك عليه. وبلك! وإذا لم يشتغل هو بالدنيا فمن يدبّر أمرها؟ ألا قلت كما قال جدِّي في عبد العزيز بن مروان:

فلا هو في الدنيا مُضِيع نصيبه **ولا عَرَضُ الدُّنيا عن الدِّين شاعِلُ**

فقال: الآن علمتُ أنني أخطأت.

المهشم بن عَدِيّ قال: دخل رجل من أصحاب الوليد بن عبد الملك عليه، فقال: يا أمير المؤمنين، لقد رأيتُ ببابك جماعةً من الشعراء لا أحسبهم اجتمعوا بباب أحد من الخلفاء، فلو أذنتَ لهم حتى يُنشدوك؟ فأذن لهم فأنشدوه وكان فيهم الفرزدق، وجرير، والأخطل، والأشهب بن رُميلة. وترك البَعِيث فلم يأذن له. فقال الرجل المُستأذن لهم: لو أذنتَ للبَعِيث يا أمير المؤمنين، إنه لشاعر. فقال: إنه ليس كهؤلاء إنما قال من الشعر يسيراً. قال: والله يا أمير المؤمنين إنه لشاعر. فأذن له فلما مَثَل بين يديه، قال: يا أمير المؤمنين، إن هؤلاء ومن ببابك قد ظنَّوا أنك إنما أذنتَ لهم دوني لفضْلهم عليّ. قال: أولستَ تعلم ذلك؟ قال: لا والله، ولا علّمه الله لي. قال: فأنشدني من شعرك. قال: أما والله حتى أنشدك من شعر كل رجل منهم ما يفضحه فأقبل على الفرزدق، فقال: قال هذا للشيخ الأحمق لعبد بني كُليب:

بأي رِشاءٍ يا جريرُ وماتِح **تدلّيت في حومات تلك القمام**

فجعله يتدلّى عليه وعلى قومه من علّ، وإنما يأتيه من تحته لو كان يعقل. وقد قال هذا، كَلْبُ بني كُليب:

لقومٍ أحمى للحقيقة منكم **وأضربُ للجبار والنقع ساطع**

وأوثقُ عند المردفات عشية **لحاقاً إذا ما جرّد السيف لامع**

فجعل نساءه لا يثقرن بلحاقه إلا عشية، وقد نُكح وفُضِح. وقال هذا النصراني، ومدح رجلاً يسمى قيناً فهجاه، ولم يشعر، فقال:

قد كنتُ أحسبه قيناً وأنبؤه **فالآن طيرٌ عن أثوابه الشررُ**

وقال ابن رُميلة ودفع أحاه إلى مالك بن رُبَيع بن سَلَمي فقتل، فقال:

مددنا وكان ضلّة من حلومنا **بنّدي إلى أولاد ضمرة أقطعا**

فمن يرجو خيره وقد فعل بأخيه ما فعل. فجعل الوليد يُعجب من حفظه لمثالب القوم وقوة قلبه، وقال له: قد كشفت عن مساوئ القوم، فأنشدني من شعرك. فأنشده فاستحسن قوله ووصله وأجزل له.

ومما عيب على الحسن بن هانئ قوله في بعض بني العباس:

كيف لا يدينك من أمل **من رسول الله من نفره**

فقالوا: إن حق الرسول صلى الله عليه وسلم أن يُضاف إليه ولا يُضاف هو إلى غيره. ولو اتسع فأجازه لكان له مجاز حسن. وذلك أن يقول القاتل من بني هاشم لغيره من أفتاء قريش: منّا رسول الله صلى الله عليه وسلم. يريد أنه من القبيلة التي نحن منها، كما قال حسّان بن ثابت:

وما زال في الإسلام من آل هاشم **دعائمُ عزٍّ لا ترام ومفخرُ**

بهاليل منهم جعفرٌ وابنُ أمه **عليّ ومنهم أحمدُ المتخيرُ**

فقال: منهم، كما قال هذا: من نفر.

ومما أدرك عليه قوله في البعير:

أخنس في مثل الكظام مخطمه

والأخنس: القصير المشافر، وهو عيب له، وإنما تُوصف المشافر بالسبوة. ومما أدرك على أبي ذؤيب قوله في وصف الدرّة:

يدُورُ الفُراتِ فوقها وتموجُ

فجاء بها ما شئت من لطمية

قالوا: والدرّة لا تكون في الماء الفُرات، إنما تكون في الماء المالح.

واجتمع جريرُ بن الحطّفي وعُمَرُ بن لُجَأَ التيمي عند المهاجر بن عبد الله والي البمامة، فانشده عُمرُ بن لُجَأَ أرجوزته التي يقول فيها:

تلاطمُ الأزْدِ على عَطاياها

تصطكُ ألحياها على دلائها

حتى انتهى إلى قوله:

جرّ العجوز الثني من خفائها

تجرّ بالأهون من إدنائها

فقال جرير: ألا قلت:

جرّ الفتاة طرفي ردائها

فقال: والله ما أردت إلا ضعف العجوز. وقد قلت أنت أعجب من هذا، وهو قولك:

لحاقاً إذا ما جرّد السيف لامع

وأوثق عند المرذفات عشيّة

والله لمن لم يلحقن إلا عشيّة ما لحقن حتى نكحن وأجلن. ووقع الشرُّ بينهما.

وقدم عمرُ بن أبي ربيعة المدينة، فأقبل إليه الأحوصُّ ونُصيب، فجعلوا يتحدثون. ثم سألهما عمرُ عن كثير عزة، فقالوا: هو هاهنا قريب. قال: فلو

أرسلنا إليه؟ قال: هو أشدُّ بأوا من ذلك. قال: فاذهبا بنا إليه. فقاموا نحوه، فألفوه جالساً في خيمة له. فوالله ما قام للقرشي، ولا وسع له. فجعلوا

يتحدثون ساعة. فالتفت إلى عمر بن أبي ربيعة، فقال له: إنك لشاعر لولا أنك تُشَبَّبُ بالمرأة، ثم تدعها وتُشَبَّبُ بنفسك. أخبرني عن قولك:

تسأل أهل الطواف عن عمر

ثم اسبّطرت تشدّ في أثري

والله لو وصفت بهذا هرة أهلك لكان كثيراً! ألا قلت كما قال هذا، يعني الأحوص:

بأبياتكم ما دُرتُ حيثُ أدورُ

أدور ولولا أن أرى أم جعفر

وإن لم يزر لا بد أن سيزور

وما كنت زواراً ولكن ذا الهوى

قال: فانكسرت نحوه عمر بن أبي ربيعة ودخلت الأحوص زهوة ثم ألثفت إلى الأحوص، فقالت: أخبرني عن قولك:

فإن تصلي أصلك وإن تبنيبهجرك بعد وصلك، ما أبالي أما والله لو كنت حرّاً لبأيت ولو كُسر أنفك. ألا قلت كما قال هذا الأسود، وأشار إلى

نصيب:

بزينب ألم قبل أن يرحل الركبُ وقُلْ إن تملينا فما ملك القلبُ

قال: فانكسر الأحوص ودخلت نصيباً زهوة. ثم التفت إلى نصيب، فقال له: أخبرني عن قولك:

فواكبدي من ذا يهيم بها بعدي

أهيم بدعد ما حييت فإن أمت

أَهْمَكَ وَيَحْك مَنْ يَفْعَلُ بِهَا بَعْدَكَ. فَقَالَ الْقَوْمُ: اللَّهُ أَكْبَرُ اسْتَوَتْ الْفِرْقُ قَوْمُوا بِنَا مِنْ عِنْدِ هَذَا.
وَدَخَلَ كَثِيرٌ عَزَّةَ عَلَى سُكَيْنَةَ بِنْتِ الْحُسَيْنِ عَلَيْهِ السَّلَامُ، فَقَالَتْ لَهُ: يَا بْنَ أَبِي جُمُعَةَ، أَحْبَبْتَنِي عَنْ قَوْلِكَ فِي عَزَّةَ:

يَمُجُّ النَّدَى جَنْجَاتُهَا وَعَرَارُهَا

وَمَا رَوْضَةٌ بِالْحَزَنِ طَيِّبَةٌ الثَّرَى

وَقَدْ أَوْقَدْتَ بِالْمَنْدَلِ الرَّطْبَ نَارُهَا

بِأَطْيَبِ مَنْ أَرْدَانَ عَزَّةَ مَوْهِنًا

ويحك! وهل على الأرض زنجية مُتْنَنَةُ الإبطين، تُوقد بالمندل الرطب نارها إلا طاب ريحها. ألا قلت كما قال عمك امرؤ القيس:

وَجَدْتُ بِهَا طَيِّبًا وَإِنْ لَمْ تَطْيَبْ

أَلَمْ تَرَيَانِي كُلَّمَا جِئْتُ طَارِقًا

سمر عبد الملك بن مروان ذات ليلة وعنده كُثَيْرٌ عَزَّةَ، فقال له: أنشدني بعض ما قلت في عَزَّةَ. فأنشده، حتى إذا أتى على هذا البيت:

حَيَاءٌ وَمِثْلِي بِالْحَيَاءِ حَقِيقُ

هَمَمْتُ وَهَمَّتْ ثُمَّ هَابَتْ وَهَيْبَتُهَا

قال له عبد الملك: أما والله لولا بيت أنشدتني قبل هذا لحرمتك جائرتك.

قال: لم يا أمير المؤمنين؟ قال: لأنك شركتها معك في الهيبة، ثم استأثرت بالحياء دونها. قال: فأبي بيت عفوت به يا أمير المؤمنين؟ قال قولك:

دَعُونِي هَائِمًا فِيمَنْ يَهِيمُ

دَعُونِي لَا أُرِيدُ بِهَا سِوَاهَا

ومما أدرك على الحسن بن هانئ قوله في وصف الأسد، حيث يقول:

بَارِزَةُ الْجَفْنِ عَيْنٌ مَخْنُوقِ

كَأَنَّمَا عَيْنُهُ إِذَا تَنَقَّتْ

وإنما يُوصف الأسد بغرور العينين، كما قال العجاج:

قَلَّتَانِ أَوْ حَوَّجَلْتَا قَارُورِ

كَأَنَّ عَيْنَيْهِ مِنَ الْغُورِ

وقال أبو زيد:

كَأَنَّ عَيْنَيْهِ نَقْبَاوَانِ فِي حَجَرِ

ومن قولنا في وصف الأسد ما هو أشبه به من هذا:

مَعْقُودَةٌ بِلِوَانِهِ الْمَنْصُورِ

وَلِرُبِّ خَافِقَةِ الذَّوَابِّ قَدْ غَدَتْ

كَفَاهُ غَيْرُ مُقَلِّمِ الْأُظْفُورِ

يَرْمِي بِهَا الْأَفَاقَ كُلَّ شَرِّ نَبْتِ

مِنْ بَيْنِ هَمَمَةٍ لَهُ وَزَيْبِ

لَيْثٍ تَطِيرُ لَهُ الْقُلُوبُ مَخَافَةَ

عَنْ جَمْرَتَيْنِ بَجَلْمَدٍ مَنقُورِ

وَكَأَنَّمَا يُومِي إِلَيْكَ بِطَرْفَةِ

باب من أخبار الشعراء

حدّث دِجْبَلُ الشَّاعِرِ أَنَّهُ اجْتَمَعَ هُوَ وَمُسْلِمٌ وَأَبُو الشَّيْصِ وَأَبُو نُؤَاسٍ فِي مَجْلِسٍ، فَقَالَ لَهُمْ أَبُو نُؤَاسٍ: إِنَّ مَجْلِسَنَا هَذَا قَدْ شُهِرَ بِاجْتِمَاعِنَا فِيهِ، وَهَذَا الْيَوْمَ مَا بَعْدَهُ، فَلَيَاتُ كُلُّ وَاحِدٍ مِنْكُمْ بِأَحْسَنِ مَا قَالَ، فَلْيَنْشُدْهُ. فَأَنْشَدَ أَبُو الشَّيْصِ، فَقَالَ:

مَتَأَخَّرَ عَنْهُ وَلَا مُتَقَدِّمَ

وَقَفَّ الْهَوَى بِي حَيْثُ أَنْتَ فَلَيسَ لِي

حُبًّا لَذِكْرِكَ فَلْيَلْمَنِي اللَّوَمَ

أَجْدُ الْمَلَامَةَ فِي هَوَاكِ لَذِيذَةَ

مَا مَنْ يَهُونَ عَلَيْكَ مِمَّنْ أَكْرَمَ

وَأَهْنَتِنِي فَأَهْنَتِ نَفْسِي صَاغِرًا

أشبهت أعدائي فصرت أحبهم

إذ كان حظي منك حظي منهم

قال: فجعل أبو نواس يعجب من حُسن الشعر حتى ما كاد ينقضي عَجْبُهُ. ثم أنشد مسلم أبياتاً من شعره الذي يقول فيه:

فاقسم أنسى الداعيات إلى الصبا

وقد فاجأتها العين والسنن وأقع

فغطت بأيديها ثمار نحرها

كأيدي الأسرى أتقلتها الجوامع

قال دعبل: فقال لي أبو نواس: هات أبا عليّ، وكأني بك قد جئتنا بأَم القلادة. فقلت: يا سيدي، ومن يُباهيك، بما غيري. فنشدته:

أين الشباب وأية سلكا

أم أين يُطلب ضلّ أم هلّكا

يا ليت شعري كيف صبركما

يا صاحبي إذا دمي سفكا

لا تطلبا بظلامتي أحداً

قلبي وطرفي لا دمي اشتركا

ثم سأله أن ينشد. فأنشد أبو نواس:

لا تَبْكِ هندا ولا تطرب إلى دعد

واشرب على الورد من حمراء كالورد

كأساً إذا انحدرت في حلق شاربها

وجدت حمرتها في العين والخد

فالخمر ياقوتة والكأس لؤلؤة

في كفّ جارية ممشوقة القد

تسقيك من عينها خمراً ومن يدها

خمراً فما لك من سكرين من بد

لي نشوتان وللندمان واحدة

شيء خصصت به من بينهم وحدي

فقاموا كلهم فسجدوا له. فقال: أفعلموها أعجمية، لا كلمتكم ثلاثاً ولا ثلاثاً ولا ثلاثاً. ثم قال: تسعة أيام في هجر الإخوان كثير، وفي هجر بعض

يوم استصلاح للفساد وعقوبة على المفوة. ثم التفت إلينا فقال: أعلمتم أنّ حكيماً عتب على حكيم فكتب المعتوب عليه إلى العاتب: يا أخي، إنّ أيام

العمر أقلّ من أن تحتمل الحجر، محمد بن الحسن المدينيّ، قال: أحرني الزبير بن أبي بكر، قال: دخلت على المعتز بالله أمير المؤمنين فسلمت عليه،

فقال: يا أبا عبد الله، إني قد قلت في ليلتي هذه أبياتاً وقد أعيا عليّ إجازة بعضها. قلت: أنشدني. فأنشدني، وكان محموراً:

إني عرفت علاج القلب من وجع

وما عرفت علاج الحُبّ والخدع

جزعت للحبّ والحمى صبرت لها

إني لأعجب من صبري ومن جزعي

من كان يشغله عن حبه وجع

فليس يشغلني عن حُبكم وجعي

قال أبو عبد الله: فقلت:

وما أمل حبيبي ليلة أبداً

مع الحبيب ويا ليت الحبيب معي

فأمر لي على البيت بألف دينار.

اجتمع الحسن بن هانئ وصريع الغواني وأبو العتاهية في مجلس بالكوفة، فقيل لأبي العتاهية: أنشدنا. فأنشد:

أسيدتي هاتي فديتك ما جرّمي

فانزل فيما تشتهين من الحكم

كفالك بحق الله ما قد ظلّمتني

فهذا مقام المستجير من الظلم

وقيل لصريع الغواني: أنشدنا. فأنشأ يقول:

فاذهب لشانك ليس الجهل من شاني
أعطت رضاً وأطاعت بعد عصيان

قد اطلعت على سرِّي وإعلاني
إن التي كنت أنحو قصد شرتها

ثم قيل للحسن بن هاني: أنشدنا، فأنشد:

ما الذي تنتظريناً
ء فأجرِي الخمر فينا

يا بنة الشيخ اصبحينا
قد جرى في عوده الما

قيل: هذا الهزل، فهات الجد. فأنشأ:

عفا عهدُه إلا روائمُ جُونُ
غريبات مُمسي ما لهن وكون
فحلُو وأما مسها فيلين
بوجهي وأما وجهها فمَصُون

لمن طلل عاري المحل دفين
كما افترقت عند المبيت حمائم
ديارُ التي أما جنى رشفاتها
وما أنصفت أما الشحوبفظاهر

فقام صريع الغواني يجرّ ذيله وخرج وهو يقول: إن هذا مجلس ما جلسته أبداً.

هشام بن عبد الملك الخزاعي قال: كنا بالرقعة مع هارون الرشيد فكتب إليه صاحب الخير بموت الكسائي وإبراهيم الموصلي والعباس ابن الأحنف في وقت واحد. فقال لابنه المأمون: اخرج فصلّ عليهم. فخرج المأمون في وجوه قواده وأهل خاصته، وقد صُفوا له. فقالوا له: من ترى أن يُقدم؟ قال: الذي يقول:

هائماً يبكي على شجنه
زادت الأسقام في بدنه

يا بعيدَ الدار عن وطنه
كلما جدّ البكاء به

قيل له: هذا، وأشاروا إلى العباس بن الأحنف. فقال: قدّموه، فقدّم عليهم.

أبو عمرو بن العلاء قال: نزل جرير، وهو مُقبل من عند هشام بن عبد الملك، فبات عندي إلى الصبح، فلما أصبح شخّص وخرجت معه أشيعه. فلما خرجنا عن أطناب البيوت التفت إليّ فقال: أنشدني من قول مجنون بني عامر قيس ابن الملوّح، فأنشدته:

بقول يُحلّ العصم سهل الأباطح
وغادرت ما غادرت بين الجوانح

وأدنيّتي حتى إذا ما سبيّتي
تجافيت عني حين لا لي حيلة

فقال: والله لولا أنه لا يحسن لشيخ مثلي الصراخ لصرخت صرخة يسمعها هشام على سريره. وهذا من أرق الشعر كله وألطفه، لولا التضمين الذي فيه. والتضمين أن يكون البيت معلقاً بالبيت الثاني لا يتم معناه إلا به. وإنما يُحمد البيت إذا كان قائماً بنفسه. وقال العباس بن الأحنف نظير قول المجنون بلا تضمين، وهو قوله:

حتى إذا أيقظوني بالهوى رقدوا

أشكو الذين أذاقوني مودتهم

وقال الأصمعيّ: دخلت على هارون الرشيد، فوجدته منغمساً في الفراش فقال: ما أبطأ بك يا أصمعيّ؟ قلت: احتججت يا أمير المؤمنين. قال: فما أكلت عليها؟ قلت: سكباجة وطباهجة قال: رميتها بحجرها. أنشرب؟ فقلت: نعم، وقلت:

وترى عمران ديني قد خرب

اسقني حتى تراني مائلاً

قال: يا مسرور، أي شيء معك؟ قال: ألف درهم. قال: ادفعها للأصمعي.

وكان يصحب علي بن داود الهاشمي يهودي ظريف مؤنس أديب شاعر أريب، فلما أراد الحج أراد أن يستصحبه، فكتب إليه اليهودي يقول:

من أن أحج بكره يا بن داود
عن النبيذ وما عيشي بتصريد
فيما علمت ولا ديني بمحمود
وأنت أشبه خلق الله بالجود
إذا تعصّب في أثوابه السود

إني أعوذ بداود وحفرته
نبتت أن طريق الحج مُصدرة
والله ما في من أجر فتطلبه
أما أبوك فذاك الجود يعرفه
كأن ديباجتي خديه من ذهب

حدّث أبو إسحاق يحيى بن محمد الحواري، قال: سمعتُ شيخاً من أهل البصرة يقول: قال إبراهيم السويقي، مولى المهالبة: تابعت علي سنون ضيقة، وألح علي العسر وكثرة العيال وقلة ذات اليد، وكنت مشتتاً بالشعر أقصد به الإخوان وأهل الأقدار وغيرهم، حتى جفاني كل صديق، وملني من كنت أقصده، فأضرتني ذلك جداً. فبينما أنا ذات يوم جالس مع امرأتي في يوم شديد البرد، إذ قالت: يا هذا، قد طال علينا الفقر وأضرت بنا الجهد، وقد بقيت في بيتي كأنك زمن، هذا مع كثرة الولد، فاخرج عني واكفي نفسك ودعني مع هؤلاء الصبيان أقوم بهم مرة وأقعد بهم أخرى. وألحت علي في الخصومة، وقالت لي: يا مشووم، تعلمت صناعة لا تُجدي عليك شيئاً. فضجرت منها ومن قولها وخرجت علي وجهي في ذلك البرد والرياح، وليس علي إلا فرو خلق ليس فوقه دثار ولا تحته شعار، وعلى عنقي إزار، ثم جاءت ريحٌ شديدة فذهبت به عن بدني، وتفرقت أجزاؤه عني، من بلاه وكثرة رقاعه. وعلى عنقي طيلسان ليس علي منه إلا رسمه. فخرجت والله متحيراً لا أدري أين أقصد ولا حيث أذهب. فبينما أنا أجيل الفكرة إذ اخذتني سماء بقطر متدارك. فدفعت إلى دار علي بأها روشن مطل ودكان نظيف وليس عليه أحد، فقلت: أستتر بالروشن إلى أن يسكن المطر. فقصدت قصد الدار. فإذا بجارية قاعدة قد لزمتم باب الدار كالحافظة عليه، فقالت لي: إليك يا شيخ عن بابنا. فقلت لها: ويحك، لست بسائل، ولا أنا ممن تُتخوف ناحيته. فجلست على الدكان. فلما سكنت نفسي سمعتُ نغمة رخيمة من وراء الباب تدل علي نغمة امرأة. فأصغيت، فإذا بكلام يدل علي عتاب. ثم سمعت نغمة أخرى مثل ذلك، وهي تقول: فعلت وفعلت. والأخرى تقول: بل أنت فعلت وفعلت. إلى أن قالت إحداهما: أنا، جعلت فداك إن كنتُ أسأتُ فاغفري واحفظي عنه أشعار ظريفة. فأنشدتها تقول:

وبالهجران قبلكم بدأت
علي إذا أسأت كما أسأت

هبيني يا مُعذبتني أسأت
فأين الفضل منك فدتك نفسي

فقلت: تما. ثم قالت: يا أبا إسحاق، ما لي أراك بهذه الهيئة الرثة والبزة الخلقة؟ فقلت: يا مولاتي، تعدى علي الدهر، ولم يُصغني الزمان، وجفاني الإخوان، وكسدت بضاعتي. فقالت: عز علي ذلك. وأومات إلى الأخرى، فضربت بيدها علي كُمها. فسَلت دملجاً من ساعدها، ثم تَنّت باليد الأخرى، فسَلت منها دملجاً آخر. فقالت: يا أبا إسحاق، خذ هذا واقعد على الباب مكائك وانتظر الجارية تأتيك. ثم قالت: يا جارية، سَكَن المطر؟ قالت: نعم. فقامتا وخرجتا وقعدتُ مكاني. فما شعرت إلا والجارية قد وافت. بمنديل فيه خمسة أثواب وصرّة فيها ألف درهم، وقالت لي: تقول مولاتي: أنفق هذه، فإن احتجت فصر إلينا حتى نزيدك إن شاء الله. فأخذت ذلك وقمت وقلت في نفسي: إن ذهبت بالدملجين إلى امرأتي قالت: هذا لبناتي، وكابرتني عليهما. فدخلت السوق فبعتهما بخمسين ديناراً، وأقبلتُ. فلما فتحت الباب صاحب امرأتي، وقالت: قد جئت أيضاً بشؤمك! فطرحتُ الدنانير والدراهم بين يديها والثياب، فقالت: من أين هذا؟ قلت: من الذي تشاءمت به وزعمت بضاعتي التي لا تُجدي. فقالت: قد كانت عندي في غاية الشؤم، وهي اليوم في غاية البركة.

نوادير من الشعر

وقال المأمون لمحمد بن الجهم: أنشدني بيتاً أوله دَمٌ وآخره مَدَحٌ أولك له كُورَةٌ فأنشده:

حَسَنْتُ مَنَازِرَهُمْ لِحَسَنِ الْمَخْبَرِ

قَبَحْتُ مَنَازِرَهُمْ فَحِينَ خَبَرْتُهُمْ

فَطِيبُ تَرَابِ الْقَبْرِ دَلٌّ عَلَى الْقَبْرِ

أَرَادُوا الْيُخْفُوا قَبْرَهُ عَنْ عَدُوِّهِ

فولاه الدينور. وقال هارون الرشيد للمفضل الضبي: أنشدنا بيتاً أوله أعرابي في شملته، هبَّ من نومته، وآخره مدي رقيق، غذي بماء العقيق. قال المفضل: هَوَّلْتَ عَلَيَّ يَا أَمِيرَ الْمُؤْمِنِينَ، فليت شعري، بأيِّ مَهْرٍ تُفْتَضُّ عَرُوسَ هَذَا الْخَذِرِّ؟ قال هارون: هو بيت جميل حيث يقول:

أَسْأَلُكُمْ هَلْ يَقْتُلُ الرَّجُلَ الْحَبُّ

أَلَا أَيُّهَا النَّوَامُ وَيَحْكُمُ هُبُوبًا

فقال له المفضل: فأخبرني يا أمير المؤمنين عن بيت أوله أكنتم بن صيفي في إصابة الرأي، وآخره يُقْرَأُ الطَّيِّبُ في معرفته بالداء والدواء؟ قال له هارون: ما هو؟ قال: هو بيت الحسن بن هانئ حيث يقول:

وَدَاوَنِي بِالَّتِي كَانَتْ هِيَ الدَّوَاءُ

دَعِ عَنكَ لَوْمِي فَإِنَّ اللُّومَ إِغْرَاءُ

قال: صدقت. وقال الربيع: خرجنا مع المنصور مُنْصَرَفِينَ مِنَ الْحَجِّ، فَتَرَلْنَا الرِّضْمَةَ، ثُمَّ رَاحَ الْمَنْصُورُ وَرُحْنَا مَعَهُ فِي يَوْمٍ شَدِيدِ الْحَرِّ، وَقَدْ قَابَلَتْهُ الشَّمْسُ، وَعَلَيْهِ جُبَّةٌ وَشَيْءٌ. فَالْتَفَتَ إِلَيْنَا، وَقَالَ: إِنِّي أَقُولُ بَيْتًا مِنَ الشَّعْرِ، فَمَنْ أَحَازَهُ مِنْكُمْ فَلَهُ جُبِّي هَذِهِ قَلْنَا: يقول أمير المؤمنين. فقال:

يُقَطِّعُ حَرُّهَا ظَهَرَ الْعِظَايِهِ

وَهَاجِرَةٌ نَصَبْتُ لَهَا جَبِيْنِي

فبدره بشار الأعمى فقال:

عَلَى خَدِّي وَأُسْعِدْ وَأَعْظَايِهِ

وَقَفْتُ بِهَا الْقُلُوصَ فَفَاضَ دَمْعِي

فخرج له من الجبة. فلقيته بعد ذلك، فقلت له: ما فعلت بالجبة؟ قال: بعثتها بأربعة آلاف درهم. خرج رسول عائشة بنت المهدي، وكانت شاعرة، إلى الشعراء وفيهم صريع الغواني، فقال: تُقْرئكم سيدي السلام وتقول لكم: من أحاز هذا البيت فله مائة دينار. فقالوا: هاته. فأنشدهم:

فَقَدْ بَلَغْتَ نَفْسِي التَّرْقُوهُ

أَنْبِلِي نَوَالًا وَجُودِي لَنَا

فقال صريع:

هَوَيْتُ إِذَا انْقَطَعَتْ عَرَقُوهُ

وَإِنِّي كَالدَّلْوِ فِي حُبِّكُمْ

قال الحسن: صدقت. ثم أقبل إليه رجل آخر، فقال: يا أبا سعيد، ما تقول في الرجل يشك في الشخص يبدو له فيقول: والله هذا فلان، ثم لا يكون هو، ما ترى في يمينه؟ فقال الفرزدق: وقد قلت أنا في مثل هذا. قال: الحسن، وما قلت؟ قال: قلت:

إِذَا لَمْ تُعْنَهُ عَاقِدَاتُ الْعِزَائِمِ

وَلَسْتَ بِمَأْخُوذٍ بِقَوْلِ تَقْوَلُهُ

قال الحسن: صدقت. فأخذ المائة الدينار.

وكان الفرزدق يجلس إلى الحسن البصري، وجرير يجلس إلى ابن سيرين، لتباعد ما بين الرجلين، وكان موثهما في عام واحد، وذلك سنة عشر ومائة. فبينما الفرزدق جالس عند الحسن إذ جاءه رجل فقال: يا أبا سعيد: إننا نكون في هذه البعوث والسرأيا فنصيب المرأة من العدو وهي ذات زوج، أفتحل لنا من غير أن يُطَلَّقَها زوجها؟ قالت الفرزدق: قد قلت أنا في مثل هذا في شعري. قال له الحسن: وما قلت؟ قال: قلت:

حَلَالًا لِمَنْ بَيْنِي بِهَا لَمْ تُطَلَّقِ

وَدَاتٍ حَلِيلٍ أَنْكَحْتَهَا رَمَحْنَا

واستعدت امرأة على زوجها عبادة بن منصور وزعمت أنه لا يُنْفَقُ عليها.

فقال لرؤبة: احكم بينهما. فقال:

فَطَلَّقَ إِذَا مَا كُنْتَ لَسْتَ بِمُنْفِقٍ

وكان رجل يدعى الشعرَ ويستبرده قومه، فقال لهم: إنما تستردوني من طريق الحسد. قالوا: فبيننا وبينك بشار العقيلي. فارتفعوا إليه. فقال له: أنشدني. فأنشده فلما فرغ، قال له بشار: إني لأظنك من أهل بيت النبوة؟ قال له: وما ذلك؟ قال: إن الله تعالى يقول: وَمَا عَلَّمْنَاهُ الشَّعْرَ وَمَا يَنْبَغِي لَهُ فـضـحـك القومُ وخرجوا عنه. وقال أبو ذؤف:

جوابها يهلك الداهي من الغيظ

وخاتمي والمدى فيها إلى القيظ

أنا أبو ذؤف المبدى بقافية

من زاد فيها له رحلي وراحتي

فأجابه ابن عبد ربه.

قد زدت فيها وإن أضحي أبو ذؤف

سمر الفرزدق والأخطل وجريز عند سليمان بن عبد الملك ليلة، فبينما هم حوله إذ خفق. فقالوا: نَعَسَ أمير المؤمنين، وهموا بالقيام. فقال لهم سليمان: لا تقوموا حتى تقولوا في هذا شعراً. فقال الأخطل:

صريع تروى بين أصحابه حمرا

يرى في سواد الليل قنبرة حمرا

أميم جلاميد تركزن به وقرا

رماه الكرى في رأسه فكأنه

فقال له: ويحك! سكران جعلتني ثم قال جريز بن الخطفي:

رماه الكرى في رأسه فكأنما

فقال له: ويحك! أجعلتني أعمى. ثم قال الفرزدق بعد هذا:

رماه الكرى في رأسه فكأنما

قال له: ويحك! جعلتني مشجوجاً. ثم أذن لهم فانقلبوا، فحيّاهم وأعطاهم.

كان عمر بن أبي ربيعة القرشي غزلاً مثبباً بالنساء الحوارج رقيق الغزل، وكان الأصمعي يقول في شعره: الفستق المقشّر الذي لا يُشبع منه. وكان جريز يستبرده، ويقول: شعر حجازي لو أجد في تموز لوجد البرد فيه. فلما أنشد:

كملت الذي بي حدوك النعل بالنعل

فلما تلاقينا عرفت الذي بها

فقال: ما زال يهذي حتى قال الشعر.

وقالت العلماء: ما عصى الله بشعر ما عصى بشعر عمر بن أبي ربيعة. وولد عمر بن أبي ربيعة، يوم مات عمر بن الخطاب فسُمي باسمه، فقالت العلماء: أي خير رُفِع، وأي شر وُضِع. ثم إنه تاب في آخر أيامه وتَنَسَكَ ونذر لله أن يُعتق رقبة بكل بيت يقوله، وإنه حَجَّ، فبينما هو يطوف بالبيت إذ نَظَرَ إلى فتى من نُمير يلاحظ جارية في الطواف، فلما رأى ذلك منه مراراً أتاه، فقال له: يا فتى، أما رأيت ما تصنع؟ فقال له الفتى: يا أبا الخطاب، لا تعجل عليّ، فإن هذه ابنة عمي، وقد سُميت لي ولست أقدر على صداقتها، ولا أظفر منها بأكثر مما ترى، وأنا فلان بن فلان، وهذه فلانة بنت فلان. ففرههما عمر، فقال له: أقعد يا بن أخي عند هذه الجارية حتى يأتيك رسولي. ثم ركب دابته حتى أتى منزل عم الفتى، ففَرَعَ الباب، فخرج إليه الرجل، فقال: ما جاء بك يا أبا الخطاب في مثل هذه الساعة؟ قال: حاجة عَرَضت قبلك في هذه الساعة. قال: هي مَقْضِيَةٌ. قال عمر: كائنة ما كانت؟ قال: نعم. قال: فإني قد زوّجت ابنتك فلانة من ابن أخيك فلان. قبل: فإني قد أجزت ذلك. فترل عمر عن دابته، ثم أرسل غلاماً إلى داره، فأتاه بألف درهم، فساقها عن الفتى، ثم أرسل إلى الفتى فأتاه، فقال لأبي الجارية: أقسمت عليك إلا ما ابنتي بها هذه الليلة. قال له: نعم. فلما أدخلت على الفتى انصرف عمر إلى داره مسروراً بما صنع، فرمى بنفسه على فراشه وجعل يتململ، ووليدة له عند رأسه، فقالت له: يا سيدي، أرقت هذه الليلة أرقاً لا أدري ما ذمك؟ فأنشأ يقول:

تقول وليدتي لما رأتي

أراك اليوم قد أحدثت شوقاً

وكنت زعمت وإن تعزي

ثم ذكر يمينه فاستغفر الله وأعتق رقبة لكل بيت.

دعا الأعورُ بنُ بنانِ التَّغَلبي الأخطل الشاعر إلى منزله، فأدخله بيتاً قد نجد بالفُرش الشريفة والوطاء العجيب، وله امرأة تُسمى برة، في غاية الحسن والجمال، فقال له: أبا مالك، إنك رجل تدخل على الملوك في مجالسهم فهل ترى في بيتي عيباً؟ فقال له ما أرى في بيتك عيباً غيرك. فقال له: إنما أعجب من نفسي إذ كنت أدخل مثلك بيتي، أخرج عليك لعنة الله. فخرج الأخطل وهو يقول:

وبرة عند الأعور بن بنان

إلى بطن خرد دائم الخفان

وكيف يُداويني الطبيب من الجوى

ويُلصق بطناً منتن الريح مجزراً

باب من الشعر يخرج معناه في المدح والهجاء

قال الشاعر في خياط أعور يسمي عمراً:

ليت عينيه سواء

أمدح أم هجاء

خاط لي عمرو قباء

فاسأل الناس جميعاً

ومثله قول حبيب في مَرثية بني حُميد، حيث يقول:

ما كان إلا على هاماتهم يقع

ونترك أخرى مرة ما تذوقها

لو خر سيف من العيوق مُنصلاً

فلو هُجي بهذا رجل على أنه أنجس خلق الله لجاز فيه، ولو مُدح به على مذهب قول الشاعر:

وإن لتستحلي المنايا نفوسنا

وقول الآخر:

إذا ما رأته عامرٌ وسلول

وتكرهه آجالهم فتطول

ولا طل منا حيث كان قتيل

وليس على غير السيوف تسيل

ونحن أناس ما نرى القتل سبباً

يُقرّب حبّ الموت آجالنا لنا

وما مات منا سيّد في فراشه

تسيل على حدّ السيوف دماؤنا

لجاز ذلك. ومثله لحبيب:

أبدأ ففوق رؤوسهم تتألق

انظر فحيث ترى السيوف لوامعاً

ما قالوه في تثنية الواحد وجمع الاثنين والواحد وإفراد الجمع والأثنين

وقال الفرزدق في تثنية الواحد:

وعندي حُساماً سيفه وحمائله

العقد الفريد-ابن عبد ربه الأندلسي

وقال جرير:

صوتُ الدجاجِ وقَرَعُ بالنواقيسِ

لما تَذَكَّرْتَ بالدَّيْرَيْنِ أرقني

وإنما هو دَيْرُ الوليد، معروف بالشام، وأراد بالدجاج: الديكة.

وقال قيس بن الخطيم في الدرّ:

كأن قَتِيرِيهَا عُيُونُ الجَنَادِبِ

مُضَاعَفَةٌ يَغْشَى الأَنَامِلَ رِيْعُهَا

يريد: قَتِيرُهَا. وقال آخر:

وسُدًّا خِصَاصَ البَابِ عَن كُلِّ مَنْظِرٍ

وقال لبؤائبيّه لا تُدْخِلْنَه

وقال أهلُ التفسير في قول الله عزّ وجلّ: "أَلْقِيَا فِي جَهَنَّمَ كُلَّ كَفَّارٍ عَنِيدٍ" إنه إنما أراد واحداً فثناه. وكذلك قولُ معاويةَ للجَلُوازِ الذي كان وكلّه بروح

بن زُبَاع، لما اعتذر إليه رُوحٌ واستعطفه: حَلْبًا عَنْهُ.

قولهم في جمع الاثنين والواحد

قال الله تبارك وتعالى: "إِنَّ كَانَ لَهُ إِخْوَةٌ فَلَأَمَّهُ السُّدُسُ". يريد أخوين فصاعداً. وقوله: "إِنَّ الَّذِينَ يُنَادُونَكَ مِنْ وَرَاءِ الْحُجُرَاتِ أَكْثَرُهُمْ لَا يَعْقِلُونَ"

وإنما ناداه رجلٌ من بني تميم، وقوله: "وَأَلْقَى الْأَلْوَاخَ" وإنما هما لَوْحَان.

وقال الشاعر:

خَلَقَ سِوَاكَ لَمَّا دَلَّتْ لَكُمْ عُنُقِي

لَوْ الرِّجَاءُ لِأَمْرٍ لَيْسَ يَعْلَمُه

ومثل هذا كثير في الشعر القديم والمحدث.

وأما قولهم في أفراد الجمع فهو أقل من هذا الذي ذكرنا.

وكذلك في أفراد الاثنين. فمن ذلك قول الله تعالى: "أَنْتُمْ يُخْرِجُكُمْ طِفْلاً" وقوله: "فَأْتِيَاهُ فَقُولَا إِنَّا رَسُولُ رَبِّ الْعَالَمِينَ" وقوله: "فَمَا مِنْكُمْ مِنْ أَحَدٍ عَنْهُ

حَاجِزِينَ" وقال جرير:

فَمَنْ لِحَاجَةٍ هَذَا الأَرْمَلُ الذِّكْرِ

هَذِي الأَرَامِلُ قَدْ قَضَيْتِ حَاجَتَهَا

وقال آخر:

أَوْ فُلْفُلٍ كَحَلَّتْ بِهِ فَاثَلَّتْ

وَكَأَنَّ بِالْعَيْنَيْنِ حَبَّ قَرَنْفُلٍ

وَلَمْ يَقُلْ: فَاثَلَّتْنَا. وقال مُسْلِمُ بنُ الوَلِيدِ:

غَدَاةٌ بَدَأَ لَهَا شَيْبُ القَدَالِ

أَلَا أَنْفِ الكَوَاعِبُ عَن وَصَالِي

وقال جرير:

وَقَلْنَا لِلنِّسَاءِ بِهِ أَقِيمِي

قولهم في تذكير المؤنث وتأنيث المذكر

قال مالك بن أسماء بن خارجة الفزاري في شعره الذي أوله:

حَبِّدَا لِيْلُنَا بَتْلٌ بَوْنَا

ومررنا بنسوة عطرات

ما لهم لا يبارك الله فيهم

وقال آخر: وقد استشهد به سيبويه في كتابه.

فلا ديمة ودقت ودقها

فذكر الأرض. وقال نصيب:

أن الساحة والمروءة ضمنا

وقالت أعرابية:

قامت تكيه على قبره

تركنتني في الدار وحشية

وقال أبو نواس:

كمن الشنان فيه لنا

وإنما ذكرت هذا الباب في كتاب الشعر، لاحتياج الشاعر إليه في شعره واتساعه فيه

باب ما غلط فيه على الشعراء

وأكثر ما أدرك على الشعراء له مجاز وتوجيه حسن، ولكن أصحاب اللغة لا يُنصفونهم، وربما غلطوا عليهم، وتأولوا غير معانيهم التي ذهبوا إليها. فمن ذلك قول سيبويه، واستشهد بيت في كتابه في إعراب الشيء على المعنى لا على اللفظ وأخطأ فيه:

معاوي إنا بشر فأسجج

كذا رواه سيبويه على التَّصَب، وزعم أن إعرابه على معنى الخبر الذي في ليس. وإنما قاله الشاعر على الحَفْض، والشعر كله مخفوض، فما كان يضطره أن ينصب هذا البيت ويحتال على إعرابه بهذه الحيلة الضعيفة، وإنما الشعر:

معاوي إنا بشر فأسجج

أكلتم أرضنا فجردتموها

أطعم في الخلود إذا هلكننا

فهبتنا أمة هلكت ضياعاً

فلسنا بالجبال ولا الحديد

فهل من قائم أو من حصيد

وليس لنا ولا لك من خلود

يزيد أميرها وأبو يزيد

ونظير هذا البيت، ما ذكره في كتابه أيضاً واحتج به في باب النون الخفيفة:

نبتم نبات الخيزراني في الثرى

حديثاً متى ما يأتك الخير ينفعاً

وهذا البيت للنَّحاشي. وقد ذكره عمرو بن بحر الجاحظ في فخر قحطان على عدنان. في شعر كُله مخفوض، وهو:

أياراكباً إما عرضت فبلغن

بني عامر عني يزيد بن صعصع

نبتم نبات الخيزراني في الثرى

حديثاً متى ما يأتك الخير ينفع

ومثله: قولُ محمد بن يزيد النحويّ المعروف بالمُبرّد، في كتاب الروضة، وأدرك.
على الحسن بن هانئ قوله:

إلا بحمقائها وكاذبها

وما لبكر بن وائل عَصَم

فرعم أنه أراد بحمقائها هَبْنَقَة القَيْسِيّ. ولا يقال في الرجل حَمَقَاء. وإنما أراد دُغَة العَجَلِيَّة، وعَجَلٌ في بكر، وبها يُضرب المثل في الحُمق.

باب من مقاطع الشعر ومخارجه

اعلم بأنك متى ما نظرتَ بعين الإنصاف، وقطعت بحجة العقل، علمتَ أنّ لكل ذي فضل فضله. ولا ينفع المتقدم تقدّمه، ولا يضرّ المتأخّر تأخّره. فأما من أساء النظم ولم يحسن التأليف فكثير، كقول القائل:

ركبتَ عَنزَ بِحْدَجٍ جَمَلًا

شَرَ يَوْمِيهَا وَأَغْوَاهُ لَهَا

شَرَّ يَوْمِيهَا نصب على المحلّ. وإنما معناه ركبت عتْرَ جَمَلًا بِحْدَجٍ في شرّ يوميها. وكقول الفرزدق:

أبو أمه حيّ أبوه يقاربه

وما مثله في الناس إلا مُمَلَّكًا

معناه: ما مثل هذا الممدوح في الناس إلا الخليفة الذي هو خاله، فقال: أبو أمه حيّ أبوه يقاربه. فبعد المعنى القريب، ووَعَرَ الطريق السهل، ولَبَسَ المعنى بتوعر اللفظ وقُبِحَ البنية، حتى ما يكاد يُفهم. ومثل هذا، إلا أنه أقرب منه إلى الفهم، قولُ القائل:

طلعتُ شمس عليه فاضمحلّ

بينما ظلّ ظليلٌ ناعم

يريد: حتى طلعت شمس عليه. . ومثله قول الآخر:

إن لم يجد يوماً على من يتكلّ

إنّ الكريم وأبيك يعتمل

يريد: على من يتكل عليه. ولله درّ الأعشى حيث قال في المخبأة:

ولم تر الشمس إلا دونها الكلال

لم تَمْشُ ميلاً ولم تَرْكَبْ على جَمَلٍ

وأبين منه قول النابغة:

ولا تبيع بأعلى مكة البرمما

ليست من السود أعقاباً إذا انصرفت

وقد حذا على مثال قول النابغة بعضُ المُبرزين من أهل العصر، فقال:

ولا تبيع بقوق الصخرة الرغفا

ليست من الرمص أشفارا إذا نظرت

فقيل له: ما معنك في هذا؟ قال: هو مثل قول النابغة، وأنشد البيت، وقال: ما الفرق بين أن تبيع البرم أو تبيع الرغف، وبين أن تكون رمضاء العينين أو سوداء العقبين. وانظر إلى سهولة معنى الحسن بن هانئ وعذوبة ألفاظه في قوله:

كالدّهر فيه شراسةٌ وليان

حذر امرئ ضربت يدها على العدا

وإلى حُشونة ألفاظ حبيب الطائي في هذا المعنى حيث يقول:

فأنت لا شك فيك السهل والجبل

شرسنت بل لنت بل قابلت ذاك بذا

وقد يأتي من الشعر ما لا فائدة له ولا معنى كقول القائل:

والأرض فيها الماء والأشجار

الليل ليل والنهار نهار

إِنَّ مَحَلًّا وَإِنْ مُرْتَحَلًا

وقال إبراهيم الشيباني الكاتب: قد تكون الكلمة إذا كانت مفردة حوشية بشعة، حتى إذا وضعت في موضعها وقرنت مع إحوالها حسنت، كقول الحسن بن هانئ:

ذُو حَصْرٍ أَفْلَتَ مِنْ كَرِّ الْقَبْلِ

والكر: كلمة حسيية، ولاسيما في الرقيق والغزل والنسيب، غير أنها لما وضعت في موضعها حسنت، وكذلك الكلمة الرقيقة العذبة ربما عقببت ونفرت إذا لم توضع في موضعها، مثل قول الشاعر:

رَأَتْ رَائِحًا جَوْنًا فَقَامَتْ غَرِيرَةً

بِمِسْحَاتِهَا جُنْحَ الظَّلَامِ تُبَادِرُهُ

فأوقع الجافي الجلف هذه اللفظة غير موضعها، وبخسها حقها حين جعلها في غير مكانها حقاً، لأن المساحي لا تصلح للفرائز.

واعلم أنه لا يصلح لك شيء من المنثور والمنظوم إلا أن يجري منه على عرق، وأن يتمسك منه بسبب، فأما إن كان غير مناسب لطبيعتك، وغير ملائم لقرينتك. فلا تئض مطيتك في التماسه، ولا تئعب نفسك في ابتغائه، باستعارتك ألفاظ الناس وكلامهم، فإن ذلك غير مثمر لك ولا مُجد عليك، ما لم تكن الصناعة ممازجةً لذهنك، وملتحمة بطبعك. واعلم أن من كان مرجعه اغتصاب نظم من تقدمه، واستضاءته بكوكب من سبقه، وسحب ذيل حلة غيره، ولم تكن معه أداة تُؤد له من بنات ذهنه ونتائج فكره، الكلام الجزل، والمعنى الحفل، لم يكن من الصناعة في غير ولا نفي، ولا ورد ولا صدر، على أن سماع كلام الفصحاء المطبوعين، ودرس رسائل المتقدمين، هو على كل حال ما يفتق اللسان، ويقوي البيان، ويحد الذهن، ويشحد الطبع، إن كانت فيه بقية، وهناك خيبة. واعلم أن العلماء شبهت المعاني بالأرواح، والألفاظ بالأجساد واللباب. فإذا كتب الكاتب البليغ المعنى الجزل، وكساه لفظاً حسناً، وأعاره مخرجاً سهلاً، ومنحه ذلاً مؤنقاً، كان في القلب أحلى، وللصدر أملاً. ولكنه بقي عليه أن يؤلفه مع شقائقه وقرنائه، ويجمع بينه وبين أشباهه ونظائره، وينظمه في سلكه كالجوهر المنثور، الذي إذا تولى نظمه الناظم الحاذق، وتعاطى تأليفه الجوهرى العالم، اظهر له بإحكام الصنعة، ولطيف الحكمة، حسناً هو فيه، وكشاه ومنحه بهجة هي له. وكذلك كلما احلولى الكلام، وعذب وراق، وسهلت مخارجه، كان أسهل ولوجاً في الأسماع، وأشد اتصلاً بالقلوب، وأخف على الأفواه، لا سيما إذا كان المعنى البديع مترجماً بلفظ مؤنق شريف، لم يسمه التكلف بميسمه، ولم يفسده التعقيد باستهلاكه، كقول ابن أبي كريمة:

قَفَاهُ وَجَةً وَالَّذِي وَجَهُهُ

مِثْلُ قَفَاهُ يُشْبِهُ الشَّمْسَا

فهجن المعنى بتعقيد مخارج الألفاظ. وأخذ الحسن بن هانئ فأوضحه وسهله حيث قال:

بِأَبِي أَنْتَ مِنْ غَزَالٍ غَرِيرٍ

بِزِّ حُسْنِ الْوُجُوهِ حُسْنُ قَفَاكَ

وكلاهما أخذه من حسنان بن ثابت حيث يقول:

قَفَاؤُكَ أَحْسَنُ مِنْ وَجْهِهِ

وَأَمُّكَ خَيْرٌ مِنَ الْمُنْذِرِ "

وقد يأتي من الشعر في طريق المدح ما الذم أولى به من المدح، ولكنه يُحمل على محمل ما قبله وما بعده، ومثله قول حبيب:

لَوْ خَرَّ سَيْفٌ مِنَ الْعِيُوقِ مُنْصَلِتًا

مَا كَانَ إِلَّا عَلَى هَامَاتِهِمْ يَقَعُ

وهذا لا يجوز ظاهره في شيء من المدح، وإنما يجوز في الذم والتعجب، لأنك لو وصفت رجلاً بأنه أنحس الخلق لم تصفه بأكثر من هذا. وليس للشجاعة فيه وجه، لأن قولهم: لو خر سيف من السماء لم يقع إلا على رأسه هذا رأس كل نحس.

قولهم في رقة التشبيب

ومن الشعر المطبوع الذي يجري مع النفس رقةً، ويُؤدِّي عن الضمير إبانة، مثل قول العباس بن الأحنف:

وليلة ما مثلها ليلة
ليلة جئناها على موعِدِ
لما خبت نيرانها وانكفأ الس
قامت تننّي وهي مرعوبةٌ
حتى إذا ما حاولت خطوةً
بكى وشأحها على منتها
فانتبه الهادون من أهلها
يا ذا الذي نم علينا لقد
لا تشغليني أبداً بعدها
ما بال خلخالك ذا خرسة
عاذلتني في حُبها أقصري

وفي معناه لبشار بن برد:

سيدي لا تأت في قمر
وتوق الطيب ليلتنا

وله أيضاً:

يقولان لو غربت قلبك لا رعوى

الأصمعي قال: سمع كثير عزة مُنشداً ينشد شعرَ جميل بن معمر، الذي يقول فيه:

ما أنت والوعد الذي تعديني
تقضى الديون وليس يقضى عاجلاً
يا ليتني ألقى المنية بغتةً
يهواك ما عشت الفؤاد وإن أمت

فقال كثير: هذا والله الشعر المطبوع، ما قال أحد مثل قول جميل، وما كنت إلا راويةً لجميل، ولقد أبقى للشعراء مثلاً يحتذى عليه.

وسمع الفرزدق رجلاً ينشد شعر عمر بن أبي ربيعة الذي يقول فيه:

فقلت وأرخت جانب الستر إنما
معي فتحدثت غير ذي رقة أهلي

فقلتُ لها مالي بهم من تَرَقُّبٍ

حتى انتهى إلى قوله:

ولكنّ سري ليس يحمله مثلي

فلما تواقفنا عرفتُ الذي بها

كمثل الذي بي حذوك النعل بالنعل

فقال الفرزدق: هذا والله الذي أرادت الشعراء أن تقولوه فأخطأته، وبكت على الطلول. وإنما عارض بهذا الشعر جميلاً في شعره الذي يقول فيه:

خَلِيلِي فِيمَا عَشْتُمَا هَلْ رَأَيْتُمَا

قتيلاً بكى من حُبِّ قاتله قبلي

فلم يصنع عمر مع جميل شيئاً.

ومن قولنا في رقة النَّسِيب والشعر المطبوع، الذي ليس بدون ما تقدّم ذكره:

صحا القلبُ إلا خَطْرَةً تَبْعَتْ الأَسَى

لها زفرةٌ موصولة بحنين

بلى ربّما حلت عرى عزماته

سوالف آرام وأعين عِين

لواقط حبات القلوب إذا رنت

ثمارُ صُدور لا ثمارُ غُصون

بُرودٌ كأنوار الربيع لسنها

ثيابُ تصاب في ثياب مجون

قرين أديم الليل عن نور أوجه

تجن بها الألبابُ أي جنون

وجوه جرى فيها النعيم فكلت

بورْدُ خُدود يُجتنى بعيون

سألّبس للأيام درعاً من العزّاء

وإن لم يكن عند اللقا بحصين

فكيف ولي قلبٌ إذا هبت الصبا

أهاب بشوق في الضلوع دفين

ويحتاج منه كل ما كان ساكناً

دُعاء حمامٍ لم يبيت بوكون

وإن ارتياحي من بكاء حمامة

كذي شجن داويته بشجون

كأن حمام الأيك حين تجاوبت

حزين بكى من رحمة لحزين

ومما عارضتُ به صريع الغواني في قوله:

أديرا عليّ الرّاح لا تشرباً قبلي

ولا تطلباً من عند قاتلتي ذحلي

فيا حزني أنّي أموت صباية

ولكنّ على من يحل له قتلي

فديتُ التي صدت وقالت لتربيها

دعيه، الثريا منه أقرب من وصلي

فقلت على رويّه:

أتقتلني ظلماً وتجدني قتلي

وقد قام من عينيك لي شاهدا عدل

أطلب ذحلي ليس بي غير شادن

بعينيهِ سحر فاطلبوا عنده ذحلي

أغار على قلبي فلما أتيتهُ

أطالبه فيه أغار على عقلي

بنفسي التي صننت برد سلامها

ولو سألت قتلي وهبت لها قتلي

فتهجُرني هَجْرًا أَلذَّ من الوَصْلِ
ولكنَّ ذاكَ الجَوْرَ أَشهى من العَدْلِ
بماء البِكا هذا يَخْطُ وذا يُملي
فلا شيءَ أَشهى في فؤادي من العَدْلِ
إِذا ما أُبَيِّتَ العِزَّ فاصبرِ على الذُّلِّ
وأمرِك لا أمري وفِعْلِك لا فِعْلي

فجردته ثم اتكأتُ على النصلِ
فأنتِ التي عَرَضتِ نفسي للقتلِ

فمن نَظر إلى سُهولة هذا الشعر مع بديع معناه ورقة طبعه، لم يُفضِّله شعرُ صريع الغواني عنده إلا بفضل التقدم ولا سيما إذا قرن قوله في هذا الشعر:

فلم يَدْر ما بي فاسترحتُ من العَدْلِ

فلا شيءَ أَشهى في فؤادي من العَدْلِ
بماء البِكا هذا يَخْطُ وذا يُملي
إِذا ما أُبَيِّتَ فاصبرِ على الذلِّ

فأصاره ورَدًا على وجناته

ورَشًا بِنَقْطِيعِ القلوبِ رَفِيقًا
دُرًّا يَعود من الحِياءِ عَقِيقًا

ونظيرُ هذا من قولنا في رقة التشبيب وحُسن التشبيه البديع الذي لا نظير له، والغريب الذي لم يُسبق إليه:

حكمتُ لواحظها على المَقْدورِ
وتلَفَّتت بسؤالِ اليَعفورِ
حتى أتاك بلؤلؤُ مَنثورِ

يا مَنْ يَضُرُّ بناظريه وَيَنْفَعُ
والوردُ عندك كُلَّ حينٍ يَطْلَعُ

إِذا جُنْتُها صَدَّتْ حِياءً بوجْهها
وإن حكمتُ جارتُ عليَّ بحُكمها
كتمتُ الهوى جَهدي فجرده الأسي
وأحببتُ فيها العَدْلَ حُبًّا لذكرها
أقول لقلبي كلما ضامَه الأسي
برأيك لا رأيي تعرَضتُ للهوى

وجدتُ الهوى نَصلاً من المَوْتِ مُغَمِّدًا
فإن كُنْتُ مَقْتولًا على غيرِ رِيبَةٍ

كتمتُ الذي ألقى من الحُبِّ عاذلي

يقولي في هذا الشعر:

وأحببتُ فيها العَدْلَ حُبًّا لذكرها
كتمتُ الهوى جهدي فجرده الأسي
أقول لقلبي كلما ضامه الأسي

ومن قولنا في رقة النسيب وحُسن التشبيب:

كم سوسنٍ لَطْفِ الحِياءِ بلونه

ومثله:

يا لؤلؤًا يَسْبِي العقولَ أنيقًا
ما إن رأيتُ ولا سمعتُ بمثله

حوارء داعبها الهوى في حورِ
نظرتُ إليَّ بمقلتي أمانة
فكأنما غاض الأسي بجفونها

ونظير هذا من قولنا:

أدعو إليك فلا دُعاءٌ يُسمعُ
للوردِ حينٍ ليس يطلُعُ دونه

لم تتصدع كيدي عليك لضعفها
من لي بأحور ما يبين لسانه
منع الكلام سوى إشارة مقلّة

ومثله:

لكنها ذابت فما تتصدع
خجلاً وسيف جفونه ما يقطع
فيها يكلمني وعنّها يسمع

جمال يفوت الوهم في غاية الفكر
ووجه أعار البدر حلة حاسد
وقال بشر بن بُرد:

وطرف إذا ما فاه ينطق بالسحر
فمنه الذي يسود في صفحة البدر

ويح قلبي في حبها مما يجنّ
لا تلم فيها وحسن حبها

وله:

ضاق من كتمانها حتى علن
كل ما قرت به العين حسن

كأنها روضة منورة

ولبشار، وهو أشعر بيت قاله المولدون في الغزل:

تنفست في أواخر السحر

أنا والله أشتهي سحر عيني

وله:

ك وأخشى مصارع العشاق

حوراء إن نظرت إلي

وكأنها برد الشرا

ولأبي نواس:

ك سفتك بالعينين خمرا

ب صفا ووافق منك فطرا

وذات خد مورّد

تأمل العين منها

فبعضه في انتهاء

وكلما عدت فيه

وله أيضاً:

فوهية المتجرّد

محاسناً ليس تنفد

وبعضه يتولد

يكون في العود أحمد

ضعيفة كرت الطرف تحسب أنّها

قريبة عهد في الإفاقة من سقم

قولهم في النحول

قال عمر بن أبي ربيعة القرشي يصف نحول جسمه وشحوب لونه في شعره الذي يقول فيه:

رأت رجلاً أيما إذا الشمس عارضت

أخا سقر جواب أرض تقاذفت

فيضحي وأيما بالعشي فيخصر

به فلوات فهو أشعث أغبر

قليلاً على ظهر المطية شخصه

وفي هذا الشعر يقول:

فلما فقدت الصوت منهم وأطفئت

وغاب قمير كنت أرجو غيوبه

وحفض في الصوت أقبلت مشية ال

فحييت إذ فاجأتها فتلهفت

وقالت وعضت بالبنان فضحتني

أريتك إذ هنا عليك ألم تخف

فوالله ما أدري أتعجيل حاجة

فقلت لها بل قاذني الشوق والهوى

فيالك من ليل تقاصر طوله

ويا لك من ملهى هناك ومجلس

يمج ذكي المسك منها مفلج

يرف إذا تفتت عنه كأنه

وترنو بعينها إلي كما رنا

فلما تقضى الليل إلا أقله

أشارت بأن الحي قد حان منهم

فما راعني إلا مناد برحلة

فلما رأت من قد تنور منهم

فقلت أباديهم فإما أفتهم

فقلت أتحقيقاً لما قال كاشح

فإن كان ما لا بد منه فغيره

أقص على أختي بدء حديثنا

لعلهما أن يبغي لك مخرجاً

فقلت لأختيها أعينا على فتى

فأقبلنا فارتاعنا ثم قالنا

خلاً ما نفى عنه الرداء المحبر

مصابيح شبت بالعشاء وأنور

وروح رعيان ونوم سمر

حباب وركني خيفة القوم أزور

وكادت بمكتوم التحية تجهر

وأنت امرؤ ميسور أمرك أعسر

رقيباً وحولي من عدوك حضر

سرت بك أم قد نام من كنت تحذر

إليك وما عين من الناس تنظر

وما كان ليلى قبل ذلك يقصر

لنا لم يكره علينا مكدّر

رقيق الحواشي ذو غروب مؤشر

حصى برد أو أقحوان منور

إلى ربرب وسط الخميعة جودر

وكادت توالي نجمه تتغور

هبوب ولكن موعدك عزور

وقد لاح مقتوق من الصبح أشقر

وأيقاظهم قالت أشر كيف تأمر

وإما ينال السيف ثأراً فيثأر

علينا وتصديقاً لما كان يؤثر

من الأمر أدنى للخفاء وأستر

ومالي من أن يعلم متأخر

وأن يرحباً صدرًا بما كنت أحصر

أتى زائراً والأمر للأمر يقدر

أقلي عليك اللوم فالخطب أيسر

يقوم فيمشي بيننا متكرراً

فلا سرنا يفشو ولا هو يبصر

فكان مجنيّ دون من كنت أتقي

ثلاثُ شخوص كاعبان ومُعصر

فلمّا أجزنا ساحة الحيّ قلن لي

ألم تتقّ الأعداء والليل مُقمر

وقلن أهذا دأبك الدهر سادراً

أما تستحي أم ترعوي أم تفكر

ويروى أن يزيد بن معاوية لما أراد توجيه مسلم بن عقبة إلى المدينة اعترض الناس، فمرّ به رجل من أهل الشام معه تُرس قبيح، فقال له: يا أبا أهل الشام، محن ابن أبي ربيعة كان أحسن من مجنك هذا- يريد قول عمر ابن أبي ربيعة:

فكان مجنيّ دون من كنت أتقي

ثلاثُ شخوص كاعبان ومُعصر

وقال أعراي في النحول "

ولو أنّ ما أبقيت مني مُعلق

بعودُ ثمام ما تأوّد عودها

وقال آخر:

إن تسألوني عن تباريح الهوى

فأنا الهوى وأبو الهوى وأخوه

فانظر إلى رجل أضرب به الأسي

لولا تقلّب طرفه دفنوه

وقال مجنون بني عامي في النحول:

ألا إنما غادرت يا أم مالك

صدى أينما تذهب به الريح يذهب

وللحسن بن هانئ:

كما لا ينقضي الأرب

كذا لا يفتر الطلّب

ولم يبق الهوى إلا

أقلي وهو مُحْتَسَب

وسوى أنني إلى الحيوا

ن بالحركات أنتسب

وقال آخر، وهو خالد الكاتب:

هذا مُحَبِّك نضو لا حراك به

لم يبق من جسمه إلا توهمه

ومن قولنا في هذا المعنى:

سبيلُ الحبّ أوله اغترار

وأخره هُمومٌ وادّكار

وتلقى العاشقين لهم جسوم

براها الشوق لو نفخوا لطاروا

ومثله من قولنا:

لم يبق من جثمانه

إلا حشاشة مُبْنَس

قد رقّ حتى ما يرى

بل ذاب حتى ما يحسّ

وقال الحسن بن هانئ في هذا المعنى فأرّب على الأولين والآخرين:

يا من تموت عمداً

فكان للعين أملى

فكان أشهى وأحلى

عيون هيهات كلاً

هلا تذكرت حلاً

من القليل أفلا

أقل في اللفظ من لا

على مرّكب بي المنية والسقم

ألا مُسعد حتى أنوح على جسّمي

أحسبها تترك الذي بقيا

وفي الشعوثة أربى

أردت أن تزديك الـ

يا عاقد القلب مني

تركت مني قليلاً

يكاد لا يتجزأ

ولأبي العناهية:

تلاعبت بي يا عتّب ثم حملتني

ألا في سبيل الله جسّمي وقوتي

وله:

ولم تبق مني إلا القليل وما

قولهم في التوديع

قال لسعيد بن حميد الكاتب، وكان على الخراج بالرقّة: ودّعت جارية لي تُسمّى شفيع، وأنا أضحك وهي تبكي، وأقول لها: إنما هي أيام قلائل. قال: إن كنت تقدر أن تُخلف مثل شفيع فنعم. فلما طال بي السفرُ واتصلت بي الأيام كتبتُ إليها كتاباً وفي أسفله:

وكذاك كل مُلذّع بفراقٍ

ويمينها مشغولة بعناقي

قال: فكتبتُ إليّ في طومار كبير ليس فيه إلا بسم الله الرحمن الرحيم وفي آخره: يا كذاب - وسائر الكتاب أبيض. قال: فوجهتُ الكتب إلى ذي الرياستين الفضل بن سهل، وكتبتُ إليها كتاباً على نحو ما كتبتُ، ليس فيه إلا بسم الله الرحمن الرحيم، وفي آخره أقول:

إليها ولم أعلم بأن لا تلاقيا

بكيّت وأبكيّت الحبيب المصافيا

قال: فكتبتُ إليّ كتاباً آخر ليس فيه إلا بسم الله الرحمن الرحيم في أوله، وفي آخره: أعيدك بالله أن يكون ذلك. فوجهته إلى ذي الرياستين الفضل بن سهل، فأشخصني إلى بغداد وصيرني إلى ديوان الضياع.

محمد بن يزيد الرّبعيّ عن الزبير عن عبيد الله بن يحيى بن خاقان، وزير المتوكل قال: إنه لما نفاه المتوكل إلى جزيرة أقریطش، فطال مُقامه بها، ثمّع بجارية رائعة الجمال، بارعة الكمال، فأنسته ما كان فيه من رونق الخلافة وتديبرها. وكان قبل ذلك مُتيمماً بجارية حلّفها بالعراق، فسلا عنها. فبينما هو مع الأقریطشيّة في سرور وحبور يحلف لها أنه لا يُفارق البلد ما عاش، إذ قدّم عليه كتابُ جاريته من العراق، وفيه مكتوب:

خبّروني مذ بنتُ عنكم وبنّتُم

بين ووردِ الخُدودِ بعدي فننّتُم

ن من الشوقِ عندكم حيثُ كنّتُم

فالمنايا عليّ وحدي وعشتُم

كيف بعدي لا دقّتُم النومَ أنتم

بمراض الجفون من خردِ الع

يا أخلاي إن قلبي وإن با

فإذا ما أبى الإله اجتماعاً

أخذتُ هذا المعنى من قول حاتم:

إذا ما أتى يومٌ يُفَرِّقُ بيننا

بموتِ فكن أنتَ الذي تتأخَّرُ

فلم يباشر لذةً بعد كتابها، حتى رضي عنه المتوكل وصرفه إلى أحسن حالاته. الزُّبَيْرِيُّ قال: حدَّثني ابنُ رجاء الكاتب قالت: أخذ مني الخليفة المعتزُ جاريةً كنتُ أحبُّها وتُحِبُّني، فشرَّبنا معاً في بعض الليالي، فسكر قبلها وبقيتُ وحدها ولم تُبرح من المجلس هيبَةً له، فذكرتُ ما كتنا فيه من أيامنا، فأخذتُ العودَ فغَنَّتْ عليها صوتاً حزيناً من قلب قريح، وهي تقول:

لا كان يومُ الفِراقِ يوماً

لم يُبِقِ للمُفَلِّتَيْنِ يوماً

شَتَّتْ مني ومنك شَمَلاً

فسرَّ قوماً وساءَ قوماً

يا قوم من لي بوجَدِ قلبٍ

يسؤمني في العذابِ سوماً

ما لامني الناسُ فيه إلا بكيتُ

كيما أزد لوماً

فلما فرغت من صوتها، رفع المعتزُ رأسه إليها والدمعُ يجري على خديها كالفريد انقطع سلكه، فسألها عن الخبر وحلف لها أن يُبلغها أملاًها. فأعلمتهُ القصة. فردّها إليّ وأحسن إليها وألحقتني في ندمائه وخاصته.

وكان لأبي أحمد، صاحب حرب المعتمد، جارية، فكتبتُ إليه وهو مُقيم على العلويِّ بالبصرة، تقول:

لنا عبراتٌ بعدكم تَبَعَتْ الأسي

وأفاسُ حُزنِ جَمَّةٍ وزَفِيرُ

ألا ليتَ شِعْري بعدنا هل بكيتُم

فأما بُكائِي بعدكم فكثيرُ

قال أبو أحمد: فلم يكن لي همٌّ غيرها حتى قفلتُ من غزاتي.

وكتب مروان بن محمد، وهو مُنهزم نحو مصر، إلى جارية له خلفها بالرملة:

وما زال يدعوني إلى الصدا ما أرى

فأنأى ويثني الذي لك في صدري

وكان عزيزاً أن بيني وبينها

حجاباً فقد أمسيتُ منك على عشر

وأناهما والله للقلبِ فاعلمي

إذا ازددتُ مثلها فصرتُ على شهر

وأعظم من هذين والله أنني

أخافُ بالآ نلتقي آخرَ الدهر

سأبكيك لا مُستَبقياً فيضَ عبرةٍ

ولا طالباً بالصبرِ عاقبةَ الصبر

الزبير بن بكار قال: رأيتُ رجلاً بالثغر وعليه ذلّةٌ واستكانةٌ وخضوعٌ، وكان يُكثر التنفّس، ويُخفي الشكوى، وحركاتُ الحب لا تخفي، فسألته وقد خلوتُ به، فقال وقد تحدّر دمعُه:

أنا في أمرِي رَشادٍ

بين غزوٍ وجهادٍ

بَدَنِي يَغْزُو الأَعادي

والهوى يَغْزُو فؤادي

يا عليماً بالعبادِ

رُدِّ إليّ ورقادي

وقال أعرابي يصف البيّن:

أدمتُ أناملها عصاً على البيّن

لما انتنتُ فرأنتني مع العين

وردعتي إيماء وما نطقت
وجدي كوجدك بل أضعافه فإذا
وان سمعت بموتي فاطلبي بدمي

وقال الآخر،

إلا بسبابة منها وعينين
عني تواريت قاب الرمح وحيثي
هواك والبين واستعدي على البين

مالت تودعني والدمع يغلبها
ثم استمرت وقالت وهي باكية

وقال آخر:

كما يميل نسيم الريح بالغصن
يا ليت معرفتي إياك لم تكن

أنين فاقد إلف أن في الغلس
فكلما أن من شوق أجال يداً

وقال آخر:

حتى تضايق منه مخرج النفس
على فؤاد له بالبين مختلس

أمتكر للبين أم أنت رائح
الآن تبكي والنوى مطمئنة
فإنك لم تبرح ولا شطت النوى

وقال آخر:

وقلبك ملهوف ودمعك سافح
فكيف إذا بارحت من لا تبارح
ولكن صبري عن فؤادي نازح

إذا انفتحت قيود البين عني
أبت حلقاته إلا انقفاً
ومن لي بالبقاء وكل يوم

وقال محمد بن أبي أمية الكاتب:

وقيل أتيح للنائي سراح
ويأبى الله والقدر المتاح
لسهم البين في كبدي جراح

يا غريباً يبكي لكل غريب
عزه البين فاستراح إلى الدم
خنته حوادث الدهر حتى
أي يوم أراك فيه كما كن

وقال أبو الطيامير:

لم يدق قلبها فراق حبيب
ع وفي الدمع راحة للقلوب
أفصدته منها بسهم مصيب
ت قريباً فأشتكي من قريب

أقول له يوم ودعته
لئن رجعت عنك أجسامنا

وقال أبو العتاهية:

وكل بعبرته مئس
لقد سافرت معك الأنفس

أبيت مسهداً قلقاً وسادي

أروح بالدموع عن الفؤاد

فِرَاقُكَ كَانَ آخِرَ عَهْدِ نَوْمِي

فَلَمْ أَرَ مِثْلَ مَا سَلَّيْتَهُ نَفْسِي

وقال محمد بن يزيد التُّسْتَرِيُّ:

رَفَعْتَ جَانِباً إِلَيْكَ مِنَ الْكَلِّ

نَظَرْتُ نَظْرَةَ الصَّبَابَةِ لَا تَمُ

ثَمَ وَلَّتْ وَقَدْ تَغَيَّرَ ذَاكَ الصَّبِّ

وقال يزيدُ بن عثمان:

دَمْعَةٌ كَاللُّؤْلُؤِ الرَّطِّ

وَجُفُونَ تَتَفَثُ السَّحْبِ

إِنَّمَا يَفْتَضِحُ الْعَا

وقال عليُّ بن الجهم:

يَا وَحِشْتَا لِلْغَرِيبِ فِي الْبَلَدِ النَّ

فَارِقَ أَحِبَّابِهِ فَمَا انْتَفَعُوا

يَقُولُ فِي نَأْيِهِ وَغُرْبَتِهِ

وقال آخر:

بَانُوا فَأَضْحَى الْجِسْمُ مِنْ بَعْدِهِمْ

يَا أَسْفِي مِنْهُمْ وَمَنْ قَوْلِهِمْ

بِأَيِّ وَجْهِ أَتَلَقَّاهُمْ

وقال آخر:

أَتْرَحَلُ عَنْ حَبِيبِكَ ثَمَ تَبْكِي

وقال هُدْبَةُ الْعَذْرِي:

أَلَا لَيْتَ الرِّيَّاحَ مُسَخَّرَاتٍ

فَتُخْبِرُنَا الشَّمَالَ إِذَا أَتَتْنَا

عَسَى الْكَرْبُ الَّذِي أَمْسَيْتُ فِيهِ

فِيأَمِّنْ خَائِفٌ وَيُفَكِّ غَانٍ

وقال آخر:

لَا بَارِكَ اللَّهُ فِي الْفِرَاقِ وَلَا

وَأَوَّلَ عَهْدِ عَيْنِي بِالسُّهَادِ

وَمَا رَجَعْتُ بِهِ مِنْ سُوءِ زَادِي

لَهُ قَدْ قَابَلْتَهُ طَرْفًا كَحِيَلًا

لَكَ لِلْبَيْنِ دَمْعُهَا أَنْ يَجُولَا

حَ مِنْ خَذِّهَا فَعَادَ أَصِيلَا

بِ عَلَى الْخَذِّ الْأَسِيلِ

رَمِنَ الطَّرْفِ الْكَحِيلِ

شَقِ فِي يَوْمِ الرَّحِيلِ

نَازِحَ مَاذَا بِنَفْسِهِ صَنَعَا

بِالْعَيْشِ مِنْ بَعْدِهِ وَمَا انْتَفَعَا

عَدَلُ مِنَ اللَّهِ كُلُّ مَا صَنَعَا

مَا تُبْصِرُ الْعَيْنُ لَهُ فَيَا

مَا ضَرَكَ الْفَقْدُ لَنَا شَيْئًا

إِنْ وَجَدُونِي بَعْدَهُمْ حَيًّا

عَلَيْهِ فَمَنْ دَعَاكَ إِلَى الْفِرَاقِ

بِحَاجَتِنَا تَبَاكُرُ أَوْ تَوُوبُ

وَتُخْبِرُ أَهْلَنَا عَنَّا الْجُنُوبُ

يَكُونُ وَرَاءَهُ فَرَجٌ قَرِيبٌ

وَيَأْتِي أَهْلَهُ النَّائِي الْغَرِيبُ

بَارَكَ فِي الْهَجْرِ مَا أَمْرُهُمَا

لو ذُبِحَ الهَجْرُ والفِرَاقُ كَمَا
شربت كأسَ الفِرَاقِ مُتْرَعَةً
يا سَيِّدِي والذي أُوْمَلَهُ

وقال حبيب الطائي:

الموتُ عِنْدِي والفِرَا
يَتَعَاوَنانَ على النَفْوِ
لو لم يَكُنْ هذا كذا

وقال آخر:

شَتَّانَ ما قُبْلَةُ التَّلَاقِ
هذي حياةٌ وتلك موت

وقال سعيد بن حميد:

موقفُ البَنِّ ما نَمَّتْ العاشِقِينا
إِنَّ في البينِ فَرَحَتينِ فأما
فاعتاقَ لمن أَحَبَّ وتَقَبِّي
ثم لي فَرِحَةٌ إذا قَدِمَ الن

وقال أعرابي:

ليلُ الشَّجِيِّ على الخَلِيِّ قَصارِ
بانَ الذينَ أَحَبُّهُم فَتَحَمَّلُوا
فلا بَعَثنَ نياحَةً لفرأقهم
ولألبسَنَ مَدارَ عاَ مُسودَةَ
ولأذكَرَنكَ بعد موتي خالِياً
ولأطلبَنَّكَ في القِيامَةِ جاهداً
فبِجَنَّةٍ إن صرتَ صرتَ بِجَنَّةٍ
والمُسْتَهامُ بِكُلِّ ذاكِ جَديد

ومن قولنا في البين:

هِجَّجَ البينُ دَواعِي سَقَمِي
أَيُّها البينُ أَقلني مَرَّةً

يُذْبِحُ ظَبِي لَمَّا رَحِمْتُهُما
فَطارَ عن مُقَلَّتِي نَوْمُهُما
ناشِدُكَ اللهُ أَنْ تَذوقَهُما

قُ كِلاهُما ما لا يُطَاقُ
سَ فِذا الحِمامِ وذا السِّياقِ
ما قِيلَ موتِ أو فِرَاقِ

وقُبْلَةُ ساعَةَ الفِرَاقِ
بينَهُما راحَةُ العِناقِ

لا تَرى العِينُ فيه إلا حَزِيناً
فَرَحَتِي بالوداعِ لِلظَّاعِنِنا
لِ ولَمَسَ بِمَحضَرِ الكاشِحِنا
ناسَ لِتَسْلِيمِهِم على القادِمِنا

وَبَلا المُحِبِّ على الحَبِيبِ يَسِيرُ
وفِرَاقُ مَنْ تَهوى عَليكَ عَسِيرُ
فيها تَلَطَّمَ أوجهُ وصدورُ
لُبْسُ الثَّواكلِ إِذ دَهاكَ مَسِيرُ
في القَبْرِ عِندي مُنكَرٌ وَنَكِيرُ
بينَ الخلائِقِ والعِبادِ نَشورُ
ولئن حَواكَ سَعيرُها فَسَعِيرُ
والذَّنَبُ يُغفِرُ والإلهُ شَكورُ

وكَسا جِسمِي ثوبَ الألمِ
فإذا عُدَّتْ فقد حلَّ دَمِي

يا خَلِيَّ الذَّرْعِ نَمَّ فِي غِبْطَةِ

وَلَقَدْ هَاجَ لِقَلْبِي سَقَمًا

ومن قولنا في المعنى:

وَدَعَنْتِي بَزْفَرَةَ وَاعْتَنَاقِ

وَتَصَدَّتْ فَأَشْرَقَ الصَّبِيحُ مِنْهَا

يا سَقِيمَ الْجَفُونِ مِنْ غَيْرِ سَقَمٍ

إِنَّ يَوْمَ الْفِرَاقِ أَفْطَحَ يَوْمَ

ومن قولنا فيه:

فَرَرْتُ مِنَ اللَّقَاءِ إِلَى الْفِرَاقِ

سَقَانِي الْبَيْنُ كَأَسَّ الْمَوْتِ صَرِفًا

فِيَا بَرْدَ اللَّقَاءِ عَلَى فُؤَادِي

وقال مجنون بني عامر:

وَإِنِّي لَمُفْنٍ دَمَعِ عَيْنِي مِنَ الْبُكَاءِ

وَقَالُوا غَدًا أَوْ بَعْدَ ذَلِكَ بَلِيلَةٌ

وَمَا كُنْتُ أَخْشَى أَنْ تَكُونَ مَنِيَّتِي

وقال أبو هشام الباهلي:

خَلِيلِي غَدًا لَا شَكَّ فِيهِ مَوَدَّعٍ

فَوَاحِزَنِي إِنْ لَمْ أُوَدِّعْهُ غُدْوَةَ

فَإِنْ لَمْ أُوَدِّعْهُ غَدًا مِتُّ بَعْدَهُ

أَنَا الْيَوْمَ أَبْكِيهِ فَكَيْفَ بِهِ غَدًا

لَقَدْ سَخُنْتُ عَيْنِي وَجَلَّتْ مُصِيبَتِي

فِيَا يَوْمَ لَا أُدْبِرْتُ هَلْ لَكَ مَحْبِسُوِيَا

وقال بشر بن بُرْد:

نَبَّتْ عَيْنِي عَنِ التَّغْمِيضِ حَتَّى

أَقُولُ وَلَيْلَتِي تَزْدَادُ طُولًا

وقال المعتصم، لما دخل مصر وذكر جارية له:

غَرِيبٌ فِي قُرَى مِصْرٍ

إِنَّ مَنْ فَارَقْتَهُ لَمْ يَنْمَ

ذِكْرُ مَنْ لَوْ شَاءَ دَاوَى سَقَمِي

ثُمَّ نَادَتْ مُتَى يَكُونُ التَّلَاقِ

بَيْنَ تِلْكَ الْجُيُوبِ وَالْأَطْوَاقِ

بَيْنَ عَيْنَيْكَ مَصْرَعُ الْعُشَاقِ

لَيْتَنِي مِتَّ قَبْلَ يَوْمِ الْفِرَاقِ

فَحَسْبِي مَا لَقِيتُ وَمَا أَلَاقِي

وَمَا ظَنِّي أَمُوتُ بِكَفِّ سَاقِي

أَجْرَتِي الْيَوْمَ مِنْ حَرِّ الْفِرَاقِ

حِذَارًا لِأَمْرٍ لَمْ يَكُنْ وَهُوَ كَائِنٌ

فِرَاقُ حَبِيبٍ لَمْ يَبِينْ وَهُوَ بَائِنٌ

بِكَفِّي إِلَّا أَنْ مَا حَانَ حَائِنٌ

فَوَاللَّهِ مَا أُدْرِي غَدًا كَيْفَ أَصْنَعُ

وَيَا أَسْفًا إِنْ كُنْتُ فَيَمَنْ يُودِّعُ

سَرِيعًا وَإِنْ وَدَّعْتُ فَالْمَوْتُ أَسْرَعُ

أَنَا فِي غَدٍ وَاللَّهِ أَبْكِي وَأَجْزَعُ

غَدَاةً غَدٍ إِنْ كَانَ مَا أُنْتَوِّعُ

غَدًا لَا أَقْبَلْتَ هَلْ لَكَ مَدْفَعُ

كَأَنَّ جَفُونَهَا عَنْهَا قِصَارُ

أَمَّا لِلَّيْلِ بَعْدَكُمْ نَهَارُ

يُقَاسِي الْهَمَّ وَالسَقَمَا

لَلَّيْلُ كَانَ بِالْمَيْدَا

نِ أَقْصَرُ مِنْهُ بِالْفَرَمَا

وقال آخر:

وَدَاعِكِ مِثْلُ وِدَاعِ الرَّبِيعِ

وَفَقْدُكَ مِثْلُ افْتِقَادِ الدَّيْمِ

عَلَيْكَ سَلَامُ فَكَمْ مِنْ نَدَى

فَفَدِنَاهُ مِنْكَ وَكَمْ مِنْ كَرَمِ

قولهم في الحمام

قال أبو الحسن الأخفش: قالت جَحْدَرُ العُكْلِيّ، وكان لَصًا:

وَقَدِّمًا هَاجَنِي فَازِدَدْتُ شَوْقًا

بِكَاءِ حَمَامَتَيْنِ تَجَاوَبَانِ

تَجَاوَبَتَا بَلَحْنَ أَعْجَمِيًّا

عَلَى عُوْدَيْنِ مِنْ غَرْبِ وَبَانِ

فَكَانَ الْبَانُ أَنْ بَانَتِ سُلَيْمِي

وَفِي الْغَرْبِ اغْتِرَابٌ غَيْرُ دَانِي

وقال آخر:

وَتَفَرَّقُوا بَعْدَ الْجَمِيعِ لِأَنَّهُ

لَا بُدَّ أَنْ يَنْفَرِقَ الْجِيرَانُ

لَا تَصْبِرِ الْإِبِلُ الْجَلَادُ تَفَرَّقَتْ

بَعْدَ الْجَمِيعِ وَيَصْبِرُ الْإِنْسَانُ

وقال آخر:

فَهَلْ رَيْبَةٌ فِي أَنْ تَحْنِ نَجِيبَةٌ

إِلَى الْإِفْهَاءِ أَوْ أَنْ يَحْنِ نَجِيبٌ

وَإِذَا رَجَعَتْ الْإِبِلُ الْحَنِينَ كَانَ ذَلِكَ أَحْسَنَ صَوْتٍ يَهْتَاجُ لَهُ الْمَفَارِقُونَ، كَمَا يَهْتَاجُونَ لَصَوْتِ الْحَمَامِ. وَقَالَ عَوْفُ بْنُ مُحَلِمٍ:

أَلَا يَا حَمَامَ الْأَيْكَ الْإِفْكَ حَاضِرٌ

وَغَصْنُكَ مَيَّادُ فَفِيمَ تَنُوحُ

وَكُلُّ مُطَوَّقَةٍ عِنْدَ الْعَرَبِ حَمَامَةٌ، كَالدُّبْسِيِّ وَالْقُمْرِيِّ وَالْوَرِشَانِ، وَمَا أَشْبَهَ ذَلِكَ، وَجَمْعُهَا حَمَامٌ، وَيُقَالُ حَمَامَةٌ، لِلذِّكْرِ وَالْأُنْثَى، كَمَا يُقَالُ بَطَّةٌ، لِلذِّكْرِ وَالْأُنْثَى. وَلَا يُقَالُ حَمَامٌ إِلَّا فِي الْجَمْعِ. وَالْحَمَامَةُ تَبْكِي وَتَغْنِي وَتَنُوحُ وَتُغَرِّدُ وَتَسْجَعُ وَتُفَرِّقُ وَتَتَرْتَّمُ، وَإِنَّمَا لَهَا أَصْوَاتٌ سَجَعٌ لَا تُفْهَمُ فَيَجْعَلُهُ الْحَزِينُ بَكَاءً وَيَجْعَلُهُ الْمَسْرُورُ غِنَاءً. وَقَالَ حُمَيْدُ بْنُ ثَوْرٍ:

وَمَا هَاجَ هَذَا الشُّوقَ إِلَّا حَمَامَةٌ

دَعَتْ سَاقَ حُرٍّ تَرَحَّةً وَتَرْتَّمًا

مُطَوَّقَةٌ خَطْبَاءُ تَسْجَعُ كُلَّمَا

دَنَا الصَّيْفُ وَانزَاحَ الرَّبِيعُ فَأَنْجَمًا

تَغَنَّتْ عَلَى غُصْنِ عِشَاءٍ فَلَمْ تَدْعِ

لِنَائِحَةٍ فِي نَوْحِهَا مُتْلُوَمَا

فَلَمْ أَرْ مِثْلِي شَاقَهُ صَوْتُ مِثْلِهَا

وَلَا عَرَبِيَا شَاقَهُ صَوْتُ أَعْجَمًا

وقال مَحْنُونُ بَنِي عَامِرٍ فِي الْحَمَامِ:

أَلَا يَا حَمَامَاتِ اللَّوَى عُدْنَ عَوْدَةً

فَإِنِّي إِلَى أَصْوَاتِكِنَّ حَزِينٌ

فَعُدْنَ فَلَمَا عُدْنَ كِدْنَ يُمْتَنَّنِي

وَكَدْتُ بِأَشْجَانِي لَهْنًا أَبِينِ

لم ترَ عَيْني مثلهن بواكياً

بكيْنٍ فلمَ تَدْرِفِ لهن عيون

وقال حبيب في هذا المعنى:

هُنَّ الحمامُ فإن كَسَرْتَ عِيافَةً

من حائهنَّ فإنهنَّ حِمَامٌ

وقال:

كما كاد يُنسى عهدَ ظمياءَ باللوى

ولكنَّ أملتُهُ عليَّ الحِمامُ

بَعَثنَ الهوى في قلبٍ من ليس هائماً

فقل في فؤادٍ رُعبه وهو هائم

لها نغمٌ ليست دُموعاً فإن علتُ

مَضتُ حيث لا تمضي الدموعُ السَّواحِم

ومن قولنا في الحمام:

فكيف ولي قلبٌ إذا هبَّت الصبا

أهاب بشوقٍ في الضلوعِ مَكِين

ويحتاج منه كلما كان ساكناً

دُعاءُ حمامٍ لم تبتِ بوكونٍ

وكان ارتياحي من بُكاءِ حمامةٍ

كذي شَجَنٍ داويته بشجون

كأنَّ حمامَ الأيكِ لما تجاوبتُ

حزين بكى من رحمةٍ لحزين

ومن قولنا في المعنى:

ونائحٍ في غُصون الأيكِ أرقتني

وما عنيت بشيء ظلَّ يعنيه

مُطوَّقٍ بخِصابٍ ما يُزايله

حتى تُفارقَه إحدى تراقبيه

قد بات بيكي بشجوى ما دريت به

وبت أبكي بشجوى ليس يدريه

ومن قولنا فيه:

أناحت حماماتُ اللوى أم تغتت

فأبدت دواعي قلبه ما أجنَّت

فديتُ التي كانت ولا شيءَ غيرها

مُنَى النَّفسِ لو يُقضى لها ما تمَّت

ومن قولنا:

لقد سجعت في جُنح ليل حمامة

فأيَّ أسى هاجتُ على الهائمِ الصبِّ

لك الويلُ كم هيَّجتُ شجواً بلا جوى

وشكوى بلا شكوى وكرباً بلا كرب

وأسكبت دمعاً من جُفونٍ مُسهَّدٍ

وما رقرقت منك المدامع بالسَّكب

وقال ذو الرُّمة:

رأيتُ غراباً ناعباً فوق بانه

من القضب لم يَنْبت لها ورقٌ نَضْرُ

فقلتُ غراباً لا غتراب وبانة

لبين النوى هذي العِيافة والزَّجر

قولهم في طيب الحديث

قال عديّ بن زيّد العباديّ:

في سَمَاعِ يَأْذَنَ الشَّيْخُ لَهُ

وقال القُطاميّ:

فَهَنَ يَبْذُنُ مِنْ قَوْلِ يُصِيبُنْ بِهِ

وقال جِران العَوْد:

فَنَلْنَا سِقَاطاً مِنْ حَدِيثِ كَأَنَّهُ

وقال آخَر:

وَإِنَّا لِيَجْرِي بَيْنَنَا حِينَ نَلْتَقِي

وقال بَشَّار:

وَكَأَنَّ نَشْرَ حَدِيثِهَا

وله:

لِئِنْ عَشِقْتَ أُذُنِي كَلَاماً سَمِعْتُهُ

وَكَيفَ تَنَاسَى مَنْ كَانَ كَلَامَهُ

وقال بَشَّار أيضاً:

وَبَكَرَ كُنُوزَ الرَّبِيعِ حَدِيثُهَا

وقال آخَر:

كَأَنَّمَا عَسَلَ رُجْعَانُ مَنْطِقِهَا

وقال آخَر:

وَحَدِيثِ كَأَنَّهُ زَهْرَ الرَّوِّ

قولهم في الرياض

أنشد أحمدُ بن جِدَارٍ للمعلّى الطائيّ:

كَأَنَّ عَيْونَ الرُّوضِ يَدْرِفُنْ بِالنَّدَى

وقال البُحترّيّ:

شَقَائِقُ يَحْمَلُنْ النَّدَى فَكَأَنَّهُ

وَمِنْ لَوْلَوْ كَالْأَقْحَوَانِ مُنْضِدٍ

وقال أيضاً:

وَقَدْ نَبَّهَ النِّيروزُ فِي غَلَسِ الدُّجَى

وَحَدِيثِ مِثْلِ مَاذِي مِشَارُ

مَوَاقِعَ الْمَاءِ مِنْ ذِي الْعُلَّةِ الصَّادِي

جَنَى النَّحْلِ أَوْ أَبْكَارَ كَرَمٍ تَقْطِفُ

حَدِيثِ لَهُ وَشِيٍّ كَوَشِيٍّ الْمَطَارِفِ

قَطَعَ الرَّيَاضِ كُسَيْنِ زَهْرًا

رَخِيماً فَقَلْبِي إِذَا لَا شَكَّ بِاللَّحْظِ أُعْشِقُ

بِأُذُنِي وَلَوْ عَرَّيْتُ قُرْطُ مُعْلَقِ

يَرُوقُ بِوَجْهِ وَاضِحٍ وَقَوَامِ

إِنْ كَانَ رَجَعَ كَلَامٌ يُشْبِهُ الْعَسَلًا

ضَ وَفِيهِ الصَّقْرَاءُ وَالْحَمْرَاءُ

عَيْونُ يُرَاسِلُنَ الدَّمُوعَ عَلَى عَدَلِ

دُمُوعُ النَّصَابِي فِي خُدُودِ الْخَرَائِدِ

عَلَى نَكْتِ مُصْفَرَّةٍ كَالْفَرَائِدِ

أَوَائِلَ وَرَدٍ كُنَّ بِالْأَمْسِ نَوْمًا

يُفْتَقِّهَا بَرْدُ النَّدى فَكَأَنَّهُ

يُنْتُ حَدِيثًا كَانَ قَبْلُ مَكْتَمًا

وَمِنْ شَجَرٍ رَدَّ الرَّبِيعُ لِبِاسِهِ

عَلَيْهِ كَمَا نَشَرْتُ وَشَيْئًا مِنْمَنَّمَا

وَقَالَ أَعشى بَكْرٌ:

مَا رَوْضَةٌ مِنْ رِيَاضِ الْحَزَنِ مُعْشِبَةٌ

خَضْرَاءُ جَادَ عَلَيْهَا مُسْبِلٌ هَطْلٌ

يُضَاكِكُ الشَّمْسَ مِنْهَا كَوَكَبِ شَرْقٍ

مَوْزَّرٌ بِعَمِيمِ النَّبْتِ مُكْتَهَلٌ

يَوْمًا بِأَطْيَبِ مِنْهَا نَشْرٌ رَائِحَةٌ

وَلَا بِأَحْسَنَ مِنْهَا إِذْ دَنَا الْأَصْلُ

وَأَنشَدَ ابْنُ أَبِي طَاهِرٍ لِنَفْسِهِ:

فَتَقَّتْ جُيُوبَ الرَّوْضِ مِنْهَا دِيمَةٌ

حَلَّتْ عَزَّالِيهَا صَبَاً وَقَبُولُ

وَلَهَا عُيُونٌ كَالْعُيُونِ نَوَاطِرُ

تَبْدُو فَمِنْهَا أَمْرُهُ وَكَحِيلُ

وَقَالَ الْأَحْطَلُ الصَّغِيرُ:

خَلَعَ الرَّبِيعُ عَلَى الثَّرَى مِنْ وَشِيهِ

حَلَلًا يَظَلُّ بِهَا الثَّرَى يَتَخَيَّلُ

نَوْرٌ إِذَا مَرَّتِ الصَّبَا فِيهِ النَّدى

خَلَّتْ الزَّبْرَجِدَ بِالْفَرِيدِ يُفْصَلُ

فَكَأَنَّهُا طَوْرًا عُيُونٌ كُحَلُ

وَكَأَنَّهُا طَوْرًا عُيُونٌ هُمَلُ

وَقَالَ أَبُو نُؤَاسٍ:

يَوْمَ تَقَاصِرُ وَاسْتَتَبَّ نَعِيمُهُ

فِي ظِلِّ مُلْتَفِّ الْحَدَائِقِ أَخْضَرَا

وَإِذَا الرِّيَّاحُ تَنَسَّمتْ فِي رَوْضَةٍ

نَثَرَتْ بِهِ مِسْكَاً عَلَيْهِ وَعَنْبَرَا

وَأَنشَدَ ابْنُ مُسَهَّرٍ لَابْنَ أَبِي زُرْعَةَ الدَّمَشْقِيِّ يَقُولُ:

وَقَدْ لَبِستُ زُهْرُ الرِّيَّاحِ حُلِيِّهَا

وَتَجَلَّتْ الْأَرْضَ الْفَصَاءَ الزَّخَارِفُ

لَجِينِ وَعَقْبَانِ وَدُرٍّ وَجَوْهَرِ

تُوَلَّفُهُ أَيَدِي الرَّبِيعِ اللَّطَائِفُ

وَأَنشَدَ الْبُحْتَرِيُّ لِنَفْسِهِ:

قَطْرَاتٌ مِنَ السَّحَابِ وَرَوْضُ

نَثَرَتْ وَرَدَهَا عَلَيْهَا الْخُدُودُ

فَكَأَنَّ الْحَوْدَانَ وَالْأَفْحَوَانَ ال

غَضَّ نَظْمَانَ لَوْلُوَ وَقَرِيدُ

وَأَنشَدَ ابْنُ جِدَارٍ لِلْمُعَلَّى:

تَرَى لِلنَّدى فِيهِ مَجَالًا كَأَنَّمَا

نَثَرْتَ عَلَيْهِ لَوْلُوَ فَتَبَدَّدَا

وَأَنشَدَ ابْنُ الْحَارِثِيِّ لِنَفْسِهِ:

وَمَا رَوْضَةٌ غُلُوبِيَّةٌ أُسْدِيَّةٌ

مُنْمَنَةٌ زَهْرَاءُ ذَاتُ ثَرَى جَعْدِ

سَقَاهَا النَّدى فِي عَقَبِ جَنَحِ مِنَ الدُّجَى

فَنَوَّارَهَا يَهْتَزُّ بِالْكَوَكَبِ السَّعْدِ

العقد الفريد-ابن عبد ربه الأندلسي

بأحسن من حرٍّ تضمّن حاجةً

وأنشد محمد بن عمّار للحسن بن وهب، يقول:

طلعت أوائلُ للربيعِ فبشّرتُ

وغدا السحابُ مكلّلاً جوَّ الثرى

فترى السماء إذا أجدّ ربابها

وترى الغُصون إذا الريّاح تتاوتت

وقال حبيب بن أوس الطائي:

الروض ما بين مغبوق ومُصطبّح

وطُف إذا وكفت في روضة طفقت

وأنشد البُحترى في دمشق:

إذا أردت ملأت العين من بلد

يمسي السحابُ على أجبالها فرقاً

فلست تبصر إلا واكفاً خضلاً

كأنما القيظ ولّى بعد جيئته

أنشد ابن أبي طاهر لأشجع:

بين الكنائس والأرواح مُطرّد

في رُقعة من رقاد الأرض يعمرها

وأنشد عليّ بن الحميم لعلّي بن الخليل:

وروضة في ظلال دسكرة

تستنّ في روضة منورة

كأن فيها الحلّي والحلل ال

وقال إبراهيم بن العباس الكاتب:

تأمل سماء أطلت علي

وأرضاً تقابلها كالعرو

ومسحب نور الرّبي

خلال شقائقه أصفر

لحرٍّ فأوفى بالنجاح مع الوعد

نورَ الريّاض بجدة وشباب

أذيال أسحم حالك الجلباب

فكأنما التحفت جناح غراب

ملتفة كتعانق الأحباب

من ريق مكثفات بالثرى دُح

عيون نوارها تبكي من الفرح

مُستحسن وزمان يُشبه البُدا

ويُصبح النبت في صحرائها بددا

أو يانعا خضراً أو طائراً غردا

أو الربيع دنا من بعد ما بعدا

للعين يلعب فيه الطرف والبصر

قوم على أبايهم أجمعت مضر

جداول الماء في جوانبها

يُغرّد الطير في مشاربها

يمنة تُهدى إلى مرابها

ك فيها مصابحها تزه

س والموج بينهما جعفر

ع أنفاسه المسك والعنبر

وأضعاف أصفره أحمر

والماء مُطَّرَد بينه

يُشارفه البرّ من جانب

مَجَالٌ وَحُوشٌ وَمَرَفَا سَفِين

ويا حُسْنٌ ذُنْيَا وَيَا عَزَّ مَل

وقال ابن أبي عيينة في بُستانه:

يُذْكَرُنِي الْفِرْدُوسُ طَوْرًا فَأَنْتَنِي

بِغَرْسِ كَأَبْكَارِ الْعَدَارَى وَتُرْبَةِ

كَأَنَّ قِصُورَ الْأَرْضِ يَنْظُرُنْ حَوْلَهُ

يُدَلِّ عَلَيْهَا مُسْتَطِيلًا بِحُسْنِهِ

وقال فيه أيضاً:

يَا جَنَّةَ فَاقَتْ الْجَنَانَ فَمَا

أَفْتَهَا فَاتَّخَذَتْهَا وَطَنًا

زَوْجَ حَيْتَانِهَا الضَّبَابِ بِهَا

فَانظُرْ وَفَكِّرْ فِيمَا تَمُرُّ بِهِ

مِنْ سَفْنٍ كَالنَّعَامِ مَقْبَلَةً

وقال الخليل بن أحمد:

يَا صَاحِبَ الْقَصْرِ نِعْمَ الْقَصْرُ وَالْوَادِي

تَرَقَى بِهِ السَّفْنُ وَالظَّلْمَانُ وَاقْفَةً

وقال إسماعيل بن إبراهيم الحمّودي:

بِرُوضَةِ صَنَعَتْ أَيْدِي الرَّبِيعِ لَهَا

عَاجَتْ عَلَيْهَا مَطَايَا الْغَيْثِ مَسْبِلَةً

كَأَنَّمَا الْبَيْتُ يُبْكِيهَا وَيُضْحِكُهَا

فَوَلَدَتْ صُفْرًا أَثْوَابَهَا خُضْرًا

مِنْ كُلِّ عَسْجَدَةٍ فِي خَدْرِهَا اِكْتَمَّتْ

وأُشِدَّ عَمْرُو بْنُ بَحْرِ الْجَاحِظِ:

أَيْنَ إِخْوَانُنَا عَلَى السَّرَّاءِ

جَاوَرُونَا وَالْأَرْضُ مُلْبَسَةٌ نَوَ

يُصْفَقُ بَادِيهِ وَالْمَصْدَرُ

وَمِنْ جَانِبِ بَحْرِهِ الْأَخْضَرُ

فِيَا عُرْفٍ لَهْوٍ وَيَا مَنظَرَ

لِكَ يَسُوسُهُمَا السَّائِسُ الْأَكْبَرُ

وَطَوْرًا يُوَاتِنِينِي إِلَى الْقَصْفِ وَالْفَتَكِ

كَأَنَّ ثَرَاهَا مَاءٌ وَرَدَّ عَلَى مِسْكَ

إِلَى مَلِكٍ أَوْفَى عَلَى مَنِيرِ الْمَلِكِ

وَيَضْحَكُ مِنْهَا وَهِيَ مُطْرَقَةٌ تَبْكِي

تَبْلُغُهَا قِيَمَةٌ وَلَا تَمَنُّ

لَأَنَّ قَلْبِي لِأَهْلِهَا وَطَنُ

هَذَا لَذَا كَنَّةٌ وَذَا خَتَنُ

إِنَّ الْأَرِيْبَ الْمُفَكِّرُ الْفَطْنُ

وَمِنْ نَعَامٍ كَأَنَّهَا سَفْنُ

بِمَنْزَلٍ حَاضِرٍ إِنْ شَتَّتَ أَوْ بَادِي

وَالنَّوْنَ وَالضَّبَّ وَالْمَلَّاحَ وَالْحَادِي

بُرُودَهَا وَكَسَتْهَا وَشَبَّهَا عَدَنُ

لَهْنٌ فِي ضَحِكَاتٍ أَدْمَعٌ هُتْنُ

وَصَلَّ حَبَاهَا بِهِ مِنْ بَعْدِهِ سَكَنُ

أَحْشَاؤُهُنَّ لِأَحْشَاءِ النَّدَى وَطَنُ

عَدْرَاءُ فِي بَطْنِهَا الْيَاقُوتُ مُكْتَمِنُ

أَيْنَ أَهْلُ الْقِيَابِ وَالذَّهْنَاءِ

رَ الْأَقَاحِي تُجَادُ بِالْأَنْوَاءِ

كُلَّ يَوْمٍ بِأَقْحَوَانٍ جَدِيدٍ

ومن قولنا في هذا المعنى:

وَرَوْضَةٌ عَقَدَتْ أَيْدِي الرَّبِّيعِ بِهَا
بِمُلْقَحٍ مِنْ سَوَارِيهَا وَمُلْقَحَةٌ
تَوْشَحَتْ بِمِلَّةٍ غَيْرِ مُلْحَمَةٍ
فَأَلْبَسَتْ حُلَّ الْمَوْشِيِّ زَهْرَتَهَا

ومن قولنا:

وَمَوْشِيَّةٌ يَهْدِي إِلَيْكَ نَسِيمُهَا
سَدَاوَتُهَا مِنْ نَاصِعِ اللَّوْنِ أَبْيَضٍ
تُلَاحِظُ لِحْظًا مِنْ عَيْونِ كَأَنَّهَا

ومثله قولنا:

وَمَارَوْضَةٌ بِالْحَزَنِ حَاكٍ لَهَا النَّدَى
يُقِيمُ الدُّجَى أَعْنَاقَهَا وَيُمِيلُهَا
إِذَا ضَاكَّتْهَا الشَّمْسُ تَبْكِي بِأَعْيُنِ
حَكَتْ أَرْضُهَا لَوْنَ السَّمَاءِ وَزَانَهَا
بِأَطْيَبِ نَشْرًا مِنْ خَلَائِقِهِ الَّتِي

تَضْحَكُ الْأَرْضُ مِنْ بُكَاءِ السَّمَاءِ

نُورًا بِنُورٍ وَتَزْوِيجًا بِتَزْوِيجِ
وَنَاتِجٍ مِنْ غَوَادِيهَا وَمَنْتَوِجِ
مِنْ نُورِهَا وَرَدَاءٍ غَيْرِ مَنْسُوجِ
وَجَلَّتْهَا بِأَنْمَاطِ الدِّيَابِيجِ

عَلَى مَفْرَقِ الْأَرْوَاحِ مِسْكَاً وَعَنْبِرًا
وَلُحْمَتُهَا مِنْ نَاقِعِ اللَّوْنِ أَصْفَرًا
فَصُوصٍ مِنَ الْيَاقُوتِ كَلَّلْنَ جَوْهَرًا

بِرُودًا مِنَ الْمَوْشِيِّ حُمْرَ الشَّقَائِقِ
شِعَاعُ الضَّحَى الْمُسْتَنِّ فِي كُلِّ شَارِقِ
مُكَلَّلَةَ الْأَجْفَانِ صَفْرَ الْحَمَالِقِ
نُجُومٌ كَأَمْثَالِ النُّجُومِ الْخَوَافِقِ
لَهَا خَضَعَتْ فِي الْحُسْنِ زَهْرُ الْخَلَائِقِ

كتاب الجوهرة الثانية في أعراب الشعر

فرش الكتاب

قال أبو عمر أحمد بن محمد بن عبد ربّه:

قد مضى قولنا في فضائل الشعر ومقاطعته ومخارجه، ونحن قائلون بعون الله وتوفيقه في أعرابيه وعِلله، وما يحسن ويقبح من زحافه، وما ينفك من الدوائر الخمس من الشطور التي قالت عليها العرب والتي لم تقل، وتلخيص جميع ذلك. يمتدح من الكلام يقرب معناه من الفهم، ومنظوم من الشعر يسهل حفظه على الرواة. فأكملت جميع هذه العروض في هذا الكتاب الذي هو جزآن، فجزء للفرش، وجزء للمثال، مختصراً مبيّناً مفسراً. فاختصرت للفرش أرجوزة، وجمعت فيها كل ما يدخل العروض ويجوز في حشو الشعر من الزحاف. وبيّنت الأسباب والأوتاد، والتعاقب والتراقب، والخروم، والزيادة على الأجزاء، وفك الدوائر في هذا الجزء. واختصرت المثال في الجزء الثاني في ثلاث وستين قطعة، على ثلاثة وستين ضرباً من ضروب العروض. وجعلت المقطعات رقيقة غزلة، ليسهل حفظها على ألسنة الرواة. وضمنت في آخر كل مقطعة منها بيتاً قديماً متصلاً بها وداخلاً في معناها، من الأبيات التي استشهد بها الخليل في عروضه، لتقوم به الحجة لمن روى هذه المقطعات واحتج بها.

مختصر الفرش

اعلم أن أول ما ينبغي لصاحب العروض أن يتدبّر به، معرفة الساكن والمتحرك، فإن الكلام كله لا يعدو أن يكون ساكناً أو متحركاً. واعلم أن كل ألف خفيفة، أو ألف ولام خفيفتين، لا يظهران على اللسان ويثبتان في الكتابة فإنهما يسقطان في العروض وفي تقطيع الشعر، نحو ألف: قال ابنك أو ألف ولام نحو: قال الرجل. وإنما يعدّ في العروض ما ظهر على اللسان. واعلم أن كل حرف مشدّد فإنه يعدّ في العروض حرفين، أولهما ساكن والثاني متحرك، نحو ميم محمد ولام سلام. واعلم أن التنوين كله يعدّ في العروض نوناً ساكنة، ليست من أصل الكلمة.

باب الأسباب والأوتاد

اعلم أن مدار الشعر وفواصل العروض على ثمانية أجزاء، وهي: فاعلن فاعلن، مفاعيلن، مفاعيلن، متفاعلن، متفاعلن، مفعولات. وإنما ألقت هذه الأجزاء من الأسباب والأوتاد. فالسبب سببان: خفيف وثقيل. فالسبب الخفيف حرفان: متحرك وساكن، مثل: من وعن، وما أشبههما. والسبب الثقيل، حرفان متحركان، مثل: بك ولك، وما أشبههما. والوتد وتدان: مفروق وجموع. فالوتد الجموع ثلاثة أحرف: متحركان وساكن؟ مثل: على وإلى وما أشبههما. والوتد المفروق ثلاثة أحرف: ساكن بين متحركين، مثل أين وكيف، وما أشبههما. وإنما قيل للسبب سبب؟ لأنه يضطرب فيثبت مرة ويسقط أخرى، وإنما قيل للوتد وتد، لأنه يثبت فلا يزول.

باب الزحاف

اعلم أن الزحاف زحافان، فزحاف يسقط ثاني السبب الخفيف، وزحاف يسكن ثاني السبب الثقيل، وربما أسقطه. ولا يدخل الزحاف في شيء من الأوتاد وإنما يدخل في الأسباب خاصة. وإنما يدخل من الجزء في ثاني الجزء ورابعه وخامسه وسابعه. فإذا أردت أن تعرف موضع الزحاف من الجزء فانظر إلى جزء من الأجزاء الثمانية التي سميت لك. فإن رأيت الوتد في أول الجزء، فإنما يزحف خامسه وسابعه. وإن كان الوتد في آخر الجزء، فإنما

يُزحف ثانيه ورابعه. وإن كان الوتد في وسط الجزء، فإنما يزحف ثانيه وسابعه. وللزحاف الذي يدخل في ثاني الجزء ثلاثة أسماء: الحنّ، والإضمار، والوقص. فالمحبون: ما ذهب ثانيه الساكن. والمضمر: ما سكن ثانيه المتحرك. والموقوص: ما ذهب ثانيه المتحرك. وللزحاف الذي يدخل في رابع الجزء اسم واحد: المطوي، وهو ما ذهب رابعه الساكن. وللخامس منها ثلاثة أسماء: القَبْض، والعَصْب، والعَقْل: فالمقبوض: ما ذهب خامسه الساكن. والمعصوب: ما سكن خامسه المتحرك. والمعقول: ما ذهب خامسه المتحرك. وللسابع اسم واحد: المكفوف، وهو ما ذهب سابعه الساكن.

باب الزحاف المزدوج

المحبول: هو ما ذهب ثانيه ورابعه الساكنان. والمخزول: هو ما سكن ثانيه وذهب رابعه الساكن. والمنقوص: هو ما سكن خامسه وذهب سابعه الساكن. والمشكول: هو ما ذهب ثانيه وسابعه الساكنان.

علل الأعراب والضروب

المخدوف: هو ما ذهب من آخر الجزء بسبب خفيف. والمقطوف: هو ما ذهب من آخر الجزء سبب خفيف وسكن آخر ما بقي. والمقصور: ما ذهب آخر سواكنه وسكن آخر متحركاته من الجزء الذي في آخره وتُد. والأبتر: ما حُدْف ثم قُطِع، فكان فاعل من فاعلاتن وقع من فعولن. والأخذ: ما ذهب من آخر الجزء وتُد مجموع. والأصلم ما ذهب من آخر الجزء وتُد مفروق. والموقوف: ما سكن سابعه المتحرك. والمكسوف: ما ذهب سابعه المتحرك. والمجزوء: ما ذهب من آخر الصدر جزء ومن آخر العجز جزء. والمشطور: ما ذهب منه أربعة أجزاء وبقي جزآن. والزيادة على الأجزاء ثلاثة أشياء: المُدال: وهو ما زاد على اعتدال جزئه حرف ساكن، مما يكون في آخره، وتُد؟ والمُسبغ: ما زاد على اعتداله حرف ساكن، مما يكون في آخره سبب؟ والمُرقل: ما زاد على اعتداله حرفان: متحرك وساكن، مما يكون في آخره وتُد: واعلم أن كل جزء من أجزاء العروض يكون مخالفاً لأجزاء حشوه بزحاف أو سلامة، فهو المعتل. وما كان معتلاً فإنما هو أربعة أشياء: ابتداء، وفصل، وغاية، واعتماد. هذا قول الخليل. وأنا أقول: إن المعتل كله ثلاثة أشياء: ابتداء، وفصل، وغاية: وإن الاعتماد ليس علة، لأنه غير مخالف لأجزاء الحشو، إذ جاز فيه القبض والسلامة، ولذلك يجوز في أجزاء الحشو كلها، وإنما خالفها في الحسن والقبح، وليس اختلاف الحسن والقبح عله. ونحن نجد الاعتماد الشعر كثيراً، من ذلك البيت الذي جاء به الخليل:

وإلا تقيموا صاغرين الرؤوسا

أقيموا بني النعمان عنا صدوركم

ومنه قول امرئ القيس:

يضئ حبياً في شَمَارِيخٍ بِيضٍ

أعني على برق أراه وميض

أكف تَلَقَّى الفوزَ عند المفيض

وتخرج منه لامعات كأنها

وإنما زعم الخليل أن المعتل ما كان مخالفاً لأجزاء حشوه بزحاف أو سلامة، ولم يُقل بـجُسن أو قُبْح. ألا ترى أن القَبْض في مفاعيلن في الطويل حَسَن، والكَفْ فيه قبيح. والقبض في مفاعيلن في المخرج قبيح، والكف فيه حسن. والاعتماد في المتقارب على ضد ما هو في الطويل السالم فيه حسن، والقبض فيه قبيح.

فإذا اعتلَّ أول البيت سُمي ابتداءً، وإذا اعتلَّ وسطه، وهو العروض، سُمي فصلاً، وإذا اعتلَّ الطرف، وهو في القافية، سُمي غاية. وإذا لم يعتلَّ أوله ولا

وسطه ولا آخره سُمي حشواً كُلّه: وما كان من الأنصاف مستوفياً لدائرته، وآخرُ جزءٍ منه بمتزلة الحشو من الآخر، فهو التام. وما كان من الأنصاف لم يذهب به الانتقاص بجزء من الأجزاء أجمع، فهو وافٍ، وإذا ذهب به الانتقاص، فهو مجزوء. وما كان من الأنصاف مُقفى، فهو مُصرَّع: فإن كانت الكلمة كلها كذلك، فهو مشطور. فإذا لم يبق منه إلا جزآن فهو المنهوك. وإذا اختلفت القوافي واختلطت وكانت حيزاً حيزاً من كلمة واحدة هو المُحمَّس. وإذا كانت أنصاف على قوافٍ تجمعها قافية واحدة، ثم تعاد لمثل ذلك حتى تنقضي القصيدة، فهو المُسمَّط.

باب الخرم

اعلم أن الخرم لا يدخل إلا في كل جزء أوله وتد. وذلك ثلاثة أجزاء: فعولن، مفاعلتن، مفاعيلن. وهو سقوط حركة من أول الجزء. وإنما منعه أن يدخل في السبب، لأنك لو أسقطت من السبب حركة بقي ساكن. ولا يبدأ بساكن، أبداً. ولا يدخل الخرم إلا في أول البيت. فإذا أدخل الخرم فعولن قيل له أثلم. فإذا دخل القبض مع الخرم قيل له أترم. فإذا دخل الخرم مفاعلتن قيل له أعصب. فإذا دخله العصب مع الخرم قيل له أقصم. فإذا دخله القبض مع الخرم، قيل له أعقص. فإذا دخله العقل مع الخرم قيل له أحم. فإذا دخل الخرم مفاعيلن قيل له أخرم. فإذا دخله الكف مع الخرم قيل له أخرب. فإذا دخله القبض مع الخرم قيل له أشرت. وكل ما لم يدخله الخرم فهو الموفور.

باب التعاقب والتراقب

اعلم أن التعاقب يدخل بين السبيين المتقابلين في حشو الشعر حيثما كانا، ولا يكونان من جميع العروض إلا في أربعة أشطار: في المديد، والرمل، والخفيف، والمجتث. وقد بينا جميع ذلك في موضعه. فما عاقبه ما قبله فهو صدر. وما عاقبه ما بعده فهو عجز. وما عاقبه ما قبله وما بعده فهو طرفان. وما لم يُعاقبه ما قبله ولا ما بعده فهو بريء. والتراقب بين السبيين المتقابلين مع فاصلة واحدة. ولا يدخل التراقب من جميع العروض إلا في المضارع والمقتضب. وقد فسّرناه هنالك. وقد نظمنا جميع ما ذكرناه من هذه الأبواب في أرجوزة ليسهل حفظها على المتعلم، إذ كان حفظ المنظوم أسهل من حفظ المشور، وذكرنا فيها كل الدوائر الخمس، وما ينفك في كل دائرة من عدد الشطور التي قالت عليها العرب، والتي لم تقل عليها، وموضع الزحاف منها. واعلم أن الدائرة الأولى مؤلفة من أربعة أجزاء، سباعيين مع خماسيين، وهي: فعولن مفاعيلن، فعولن مفاعيلن. والدائرة الثانية من ثلاثة أجزاء سباعية، وهي: مفاعلتن مفاعلتن مفاعلتن. والدائرة الثالثة مؤلفة من ثلاثة أجزاء سباعية، وهي: مفاعيلن مفاعيلن مفاعيلن. والدائرة الرابعة مؤلفة من ثلاثة أجزاء سباعية، وهي: مستفعلن مفعولات مستفعلن. والدائرة الخامسة مؤلفة من أربعة أجزاء خماسية، وهي: فعولن فعولن فعولن فعولن. واعلم أن كل دائرة من هذه الدوائر ينفك من رأس كل سبب وكل وتد فيها شطر. وقد بينا جميع ذلك في الدوائر وأسماء الشطور التي تنفك عنها.

أرجوزة العروض

وباسمه يُفْتَتَحُ الكلامُ

قد كَثُرَتْ من دونه الفِجَاجُ

وكلُّ فنٍّ فله عُيونُ

وأصلها معرفة اللسان

بأنه نبداً وبه التمامُ

يا طالبَ العِلْمِ هو المنهاجُ

وكلُّ عِلْمٍ فله فُنونُ

أولها جوامعُ البيانِ

ضلّت أساطيرُ ذوي العقول
واحدها وجمعها والتثنية
ما بين منثور إلى منظوم
داعك في الأمال والقريض
واللفظ من لحن به وكسر
وصاحب القانون بطليموس
وصاحب الأركان والإقليدس
وفي صحيح الشعر والمريض
إلى نظام منه قد أحكمت
والبعض قد يكفي عن الجميع

فإن في المجاز والتأويل
حتى إذا عرفت تلك الأبنية
طلبت ما شئت من العلوم
فداو بالأعراب والعروض
كلاهما طب لداء الشعر
ما فلسف النيطس جالينوس
ولا الذي يدعونه بهرمس
فلسفة الخليل في العروض
وقد نظرت فيه فاختصرت
مُلخَص مُختصر بديع

اختصار الفرش

وبعدَه أقولُ في المثال
أن يُعرف التحريكُ والسكونُ
لا كل ما تخطه اليدان
تعدّه حرفين في التفصيل
كنون كُنا وكراء سركا

هذا اختصار الفرش من مقالي
أوله والله أستعينُ
من كل ما يبدو على اللسان
ويظهر التضعيفُ في الثقيلِ
مُسكناً وبعده مُحركاً

باب الأسباب والأوتاد

فإنها لقولنا عمادُ
محرّك وساكن لا يعدّو
حركتان غير ذي تتوين
كلاهما في حشوه ممنوعُ
في الفصل والغائي والابتداءِ
حركتان قبل حرف قد سكنَ
مُسكناً بين مُحركين
لها نَبات ولها ذهابُ

وبعد ذا الأسباب والأوتادُ
فالسببُ الخفيف إذ يعدّ
والسببُ الثقيلُ في التبیینِ
والوَتد المَفروق والمجموعُ
وإنما اعتلّ من الأجزاء
فالوَتد المَجْموع منها فافهمنُ
والوَتد المَفروق من هذينِ
فهذه الأوتاد والأسبابُ

وإنما عَرَوْض كُلِّ قَافِيَه

وَهَاكِهَآ بَيِّنَةٌ مَّصَوَّرَه

جَار عَلَي أَجْزَائِه الثَّمَانِيَه

لِكُلِّ مَن عَايَنَهَا مَفْسَّرَه

الفواصل

فاعلن، فعولن، مستفعلن، فاعلاتن، مفاعيلن، مفاعلتن، متفاعلن مفعولات.

هذي التي بها يقول المُنشد

كُلُّ عَرَوْضٍ يَعْتَزِي إِلَيْهَا

فِي كُلِّ مَا يَرَجُزُ أَوْ يُقَصِّدُ

وإنما مداره عليها

منها خماسيات في الهجاء

يدخلها النقصان بالزحاف

وإنما تدخل في الأسباب

وغيرها مُسَبَّعِ البناءِ

في الحشو والعروض والقوافي

لأنها تُعرف باضطرابِ

باب الزحاف في موضعين

فكُلُّ جِزءٍ زَالَ مِنْهُ الثَّانِي

وَكَانَ حَرْفًا شَانَهُ السُّكُونُ

وَإِنْ وَجَدْتَ الثَّانِيَّ الْمَنْقُوصَا

وَإِنْ يَكُنْ مُحَرَّكًا فَسُكِّنَا

وَالرَّابِعَ السَّاكِنَ إِذْ يَزُولُ

وَإِنْ يَزُلْ خَامِسُهُ الْمَسْكُونُ

وَإِنْ يَكُنْ هَذَا الَّذِي يَزُولُ

وَإِنْ يَكُنْ مُحَرَّكًا سَكِّنْتَهُ

وَإِنْ أزلت سابعَ الحُرُوفِ

باب الزحاف الذي يكون في موضعين من الجزء

كُلُّ زَحَافٍ كَانَ فِي حَرَفَيْنِ

فَإِنَّهُ يُجَحِّفُ بِالْأَجْزَاءِ

فَكُلُّ مَا سُكِّنَ مِنْهُ الثَّانِي

فَذَلِكَ الْمَخْزُولُ وَهُوَ يَفُحُّ

مِنْ كُلِّ مَا يَبْدُو عَلَى اللِّسَانِ

فَإِنَّهُ عِنْدِي اسْمُهُ مَخْبُونٌ

مُحَرَّكًا سَمِيَّتَهُ الْمَوْقُوصَا

فَذَلِكَ الْمُضْمَرُ حَقًّا بَيِّنًا

فَذَلِكَ الْمَطْوِيُّ لَا يَحُولُ

فَذَلِكَ الْمَقْبُوضُ فَهُوَ يَحْسُنُ

مُحَرَّكًا فَإِنَّهُ الْمَعْقُولُ

فَسَمُّهُ الْمَعْصُوبُ إِنْ سَمِيَّتَهُ

سَمِيَّتَهُ إِذْ ذَاكَ بِالْمَكْفُوفِ

حَلٌّ مِنْ الْجِزءِ بِمَوْضِعَيْنِ

وَهُوَ يُسَمَّى أَفْبَحَ الْأَسْمَاءِ

وَأَسْقَطَ الرَّابِعَ فِي اللِّسَانِ

فَحَيْثَمَا كَانَ فَلَيْسَ يَصْلُحُ

وإن يزل رابعه والثاني
فإنه عندي اسمه المخبولُ
وكل جزء في الكتاب يُدركُ
وأسقط السابع وهو يسكنُ
وسابع الجزء وثانيه إذا
فأسقطا بأقبح الزحافِ
هذا الزحاف لا سواه فاسمع

ذاك وذا في الجزء ساكنانِ
يُقصّر الجزء الذي يطولُ
يسكنُ منه الخامس المُحركُ
فذلك المنقوص ليس يحسنُ
كان يُعد ساكناً ذاك وذا
سُمي مشكولاً بلا اختلاف
يُطلق في الأجزاء ما لم يُمنع

باب العلل

والعلل التي تجوز أجمعُ
ثلاثة تدعى بالابتداءِ
والاعتماد خارجٌ عن شكلها
لأنهم قد تركوا التزامه
ومثل ذلك جائزٌ في الحشوِ
وكل مُعتلٌ فغيرُ جائزِ
وإنما أجازهُ الخليلُ
وكل حيٍّ من بني حواءِ
فأول البيت إذا ما اعتلا
وغاية الضرب تسمى غاية
وكل ما يدخل في العروض
فهي تسمى الفصل عند ذاكَا

وليس في الحشو لهنّ موضعُ
والفصل والغاية في الأجزاء
وفعله مُخالف لفعالها
وجاز فيه القبضُ والسلامة
فَنحو هذا غير ذلك النحوِ
في الحشو والقصيد والأراجزِ
مُجازفاً إذ خانهُ الدليلُ
فغيرُ معصوم من الخطأِ
سميته بالابتداء كلاً
وليس في الحشو لها حكاية
من علة تجوزُ في القريض
وقلّ من يعرفه هناكَا

باب الخرم

والخرم في أوائل الأبياتِ
نقصان حَرف من أوائل العَدَدِ
خَمسة أشطار من الشطورِ
منها الطويل أول الدوائرِ

يُعرف بالأسماء والصفاتِ
في كل ما شَطِر يُفكُّ من وتَدِ
يُحزم منها أول الصُّثورِ
وأطول البناء عند الشاعرِ

يَدْخُلُهُ الْخَرَمُ فَيُدْعَى أُنْثَمًا
وَالْوَافِرُ الَّذِي مَدَارُ الثَّانِيَةِ
يَدْخُلُهُ الْخَرَمُ فِي الْإِبْتِدَاءِ
وَهُوَ يُسَمَّى أَعْضِبًا فَكُلَّمَا
وَإِنْ يَكُنْ أَعْصَبٌ ثَمَّ يُعْقَلُ

وَالهَزَجُ الَّذِي هُوَ السَّوَارُ
يَدْخُلُهُ الْخَرَمُ فَيُدْعَى أُخْرَمًا
حَتَّى إِذَا مَا كَفَّ بَعْدَ الْخَرَمِ
وَالْأَشْتَرُ الْمُهَجَّنُ الْعَرُوضَا
هَذَا وَفِي الرَّابِعَةِ الْمُضَارِعُ

كَمِثْلُ مَا يَدْخُلُ فِي شَطْرِ الهَزَجِ
وَلَا يَجُوزُ الْخَرَمُ فِيهِ وَحْدَهُ
لَعَلَّةُ التَّرَاقِبِ الْمَذْكُورِ

وَالْمُتَقَارِبِ الَّذِي فِي الْآخِرِ
يَدْخُلُهُ مَا يَدْخُلُ الطَّوِيلَا
هَذَا جَمِيعُ الْخَرَمِ لَا سِوَاهُ

يَدْخُلُ فِي أَوَائِلِ الْأَشْعَارِ
لَأَنَّ فِي أَوَّلِ كُلِّ شَطْرِ
وَإِنَّمَا يَنْفَكُ فِي الْأَوْتَادِ

لِقُوَّةِ الْأَوْتَادِ فِي أَجْزَائِهَا
سَالِمَةً مِنْ أَجْمَعِ الزَّحَافِ
وَالْجُزْءِ مَا لَمْ تَرَفِ فِيهِ خَرَمًا

فَإِنْ تَلَاهُ الْقَبْضُ سُمِّيَ أَنْثَمًا
عَلَيْهِ قَدْ تَعَيَّه أُذُنٌ وَاعِيَةٌ
فِي أَوَّلِ الْجُزْءِ مِنَ الْأَجْزَاءِ
ضَمٌّ إِلَيْهِ الْعَصَبُ سُمِّيَ أَقْصَمًا
فَذَلِكَ الْأَجْمُ لَيْسَ يُجْهَلُ

عَلَيْهِ لِلثَّلَاثَةِ الْمَدَارِ
وَهُوَ قَبِيحٌ فَاعْلَمَنَّ وَأَفْهَمَا
سَمِيَّتُهُ أُخْرَبٌ إِذْ تُسَمَّى
مَا كَانَ مِنْهُ آخِرٌ مَقْبُوضًا
يَدْخُلُ فِيهِ الْخَرَمُ لَا يُدَافِعُ

وَهُوَ يُسَمَّى بِاسْمِهِ بِلَا حَرَجٍ
إِلَّا بِقَبْضٍ أَوْ بِكَفٍّ بَعْدَهُ
خُصَّ بِهِ مِنْ أَجْمَعِ الشُّطُورِ
تَحَلُّوْهُ بِهَ خَامِسَةُ الدَّوَائِرِ
مِنْ خَرْمِهِ وَلَيْسَ مُسْتَحْيِلًا

وَهُوَ قَبِيحٌ عِنْدَ مَنْ سَمَّاهُ
مَا قِيلَ فِي ذِي الْخَمْسَةِ الْأَشْطَارِ
حَرَكَتَيْنِ فِي ابْتِدَاءِ الصَّدْرِ
فَلَمْ يَضُرَّهَا الْخَرَمُ فِي التَّمَادِي
وَأَنَّهَا تَبْرَأُ مِنْ أَدْوَانِهَا

فِي كُلِّ مَجْزُوءٍ وَكُلِّ وَافِي
فَإِنَّهُ الْمَوْفُورُ قَدْ يُسَمَّى

تُعْرَفُ بِالْفُصُولِ وَالْغَايَاتِ
وَلَيْسَ فِي الْحَشْوِ مِنَ الْقَرِيضِ

باب علل الأعرىض والضروب

تُعْرَفُ بِالْفُصُولِ وَالْغَايَاتِ
وَلَيْسَ فِي الْحَشْوِ مِنَ الْقَرِيضِ

وَالْعِلَلُ الْمَسْمِيَّاتُ اللَّاتِي
تَدْخُلُ فِي الضَّرْبِ وَفِي الْعَرُوضِ

منها الذي يُعرف بالمَحذوفِ
في آخر الجزء الذي في الضربِ
ومثله المَعروف بالمَقطوفِ
وكل جزء في الضروب كائنٍ
وسكن الآخر من باقيه
فذلك المقصورُ حين يُوصفُ
من وتَد يكون حين لا سببُ
وكل ما يحذف ثم يُقطعُ
وإن يزل من آخر الجزء وتَدُ
أو كان مفروقاً فذاك الأصلُ
وأن يسكن سابع الحروفِ
وأن يكن محرّكاً فاذهباً
وبعده التّشعيث في الخفيفِ
يُقطع منه الوتد المُوسّطُ

وهو سُقوط السبب الخفيفِ
أو في العروض غير قول الكذبِ
لولا سكون آخر الحروفِ
اسقط منه آخر السواكنِ
ما يجيزون الزحاف فيه
وإن يكن آخره لا يُزحفُ
فذلك المقطوع حين يتنسبُ
فذلك الأبتَرُ وهو أشنعُ
إن كان مجموعاً فذلك الأحذُ
كلاهما للجزء حقاً صيْلُمُ
فإنه يُعرف بالموقوفِ
فذلك المكسوف حقاً موجباً
في ضربه السالم لا المحذوفِ
وكل شيء بعده لا يسقطُ

باب التعاقب والتراقب

وبعد ذا تعاقب الجزأينِ
لا يسقطان جملةً في الشعرِ
ويثبتان أيما ثباتِ
وأن ينل بعضهما إزالةً
فكل ما عاقبه ما قبله
وكل ما عاقبه ما بعده
وإن يكن هذا وذا مُعاقباً
يدخل في المديد والخفيفِ
ويدخل المجتث أيضاً أجمعه
والجزء إذ يخلو من التعاقبِ
وهكذا إن قسّنه التعاقبُ

في السببين المتقابلينِ
فإنّ ذلك من أشدّ الكسرِ
وذاك من سلامة الأبياتِ
عاقبه الآخر لا محالةً
سُمّي صدرأ فافهمن أصله
فهو يُسمّى عَجْراً فعده
فهو يُسمى طرفين واجباً
والرَّمْل المَجزوء والمَحذوفِ
ولا يكون في سوى ذي الأربعة
فهو بريء غير قول الكاذبِ
وليس مثل ذلك التراقبُ

لأنه لم يأت من جزأين
لكنه جاء بجزء واحد
والسببان غير مَرحوفين
إن زال هذا كان ذا مكانه
فهكذا التراقب الموصوف
يدخل أول المضارع السبب

في السببين المتجاورين
في أول الصدر من القصائد
في جزئه وغير سالمين
فاسمع مقالي وافهم بيانه
وكله في شطره معروف
وبعدَه يدخل صدر المقتضب

الزيادات على الأجزاء

ثم الزيادات على الأجزاء
وإنما تكون في الغايات
وكلها في شطره موجود
حرفين في الجزء على اعتداله
وذلك فيما لا يجوز الزحف
وفيه أيضاً يدخل المدال
وهو الذي يزيد حرفاً ساكناً
ومثله المسبغ من هذي العلل

موجودة تُعرف بالأسماء
تُزاد في أواخر الأبيات
منها المرفل الذي يزيد
مُحركاً وساكناً في حاله
فيه ولا يُعزى إليه الضعف
مُقيداً في كل ما يُقال
على اعتدال جزئه مُبايناً
حرف تزيده على شطر الرمل

باب نقصان الأجزاء

فإن رأيتَ الجزء لم يذهب معا
وإن يكن أذهب النقصان
فذلك المجزوء في النصفين
والبيت إن نقصت منه شطره
وإن نقصت منه بعد الشطر
وكان ما يبقى على جزأين

بالانتقاص فهو واف فاسمعا
فافهم ففي قولي لك البيان
إذا انتقصت منهما جزأين
فذلك المشطور فافهم أمره
جزءاً صحيحاً من أخير الصدر
فذلك المنهوك غير ميين

صفة الدوائر وصورهما

وَصَفَ عَلِيمَ بِالْعَرُوضِ خَابِرٍ
خَمْسَ عَلَيْهِنَ الْخُطُوطِ وَالْحَلْقَ
دَلَائِلَ عَلَى الْحُرُوفِ السَّاكِنَةِ
عَلَامَةً لِلْمُتَحَرِّكَاتِ
عَلَامَةً تُعَدُّ لِلسُّقُوطِ
تَسْكُنُ أحياناً وَحِيناً تَسْقُطُ
لِمَبْتَدَأِ السُّطُورِ مِنْهَا يُخْتَرَقُ
مَكْتُوبَةٌ قَدْ وُضِعَتْ إِزَاءَهَا
وَمِثْلُ ذَلِكَ مَوْضِعَ التَّرَاقِبِ
مِنْهَا وَمَعْنَى فَسْرُهَا عَلَى حَدِّهِ
وَهِيَ ثَمَانٍ لَذَوِي التَّفْضِيلِ
بَيْنَ خُمَاسِيٍّ إِلَى سُبَاعِيٍّ
قَدْ بَيَّنَّوْا لِكُلِّ حَرْفٍ مَوْضِعَهُ
يَقْصِلُهَا التَّفْعِيلُ وَالتَّقْدِيرُ
ثُمَّ البَّسِيطُ يُحْكَمُونَ سَرْدَهُ
وَاثْنَانِ صَدَّوْا عَنْهَا وَنَكَّبُوا
وَذَكَرَهَا مَبِيناً مَفْسَراً

الأولى دائرة المختلف

بِالسَّبَبِ الثَّقِيلِ وَالْمَنْقُوصَةِ
قَدْ كَرَّهُوا أَنْ يَجْعَلُوهَا أَرْبَعَةً
فِي جُمْلَةِ المَوْزُونِ مِنْ أَشْعَارِهِمْ
مِنْ الْحُرُوفِ مَا بَعْدَهَا مِنْ زَائِدٍ
وَثَالِثٌ قَدْ حَارَ فِيهِ الجَاهِلُ

فَاسْمِعْ فَهَذِي صِفَةَ الدَّوَائِرِ
دَوَائِرٌ تَعْيَا عَلَى ذَهْنِ الحَدِيقِ
فَمَا لَهَا مِنَ الخُطُوطِ البَائِنَةِ
وَالْحَلَقَاتِ الْمُتَجَوِّفَاتِ
وَالنُّقْطِ التي عَلَى الخُطُوطِ
وَالْحَلْقِ التي عَلَيْهَا يُنْقَطُ
وَالنُّقْطِ التي بِأَجْوَافِ الحَلْقِ
فَانظُرْ تَجِدُ مِنْ تَحْتِهَا أَسْمَاءَهَا
وَالنُّقْطَتَانِ مَوْضِعَ التَّعَاقِبِ
وَهَذِهِ صُورَةٌ كُلُّ وَاحِدَةٍ
أُولَاهَا دَائِرَةُ الطَّوِيلِ
مُقَسَّمٌ الشَّطْرُ عَلَى أَرْبَاعٍ
حُرُوفُهُ عَشْرُونَ بَعْدَ أَرْبَعِهِ
تَتَفَكُّ مِنْهَا خَمْسَةٌ شُطُورٌ
مِنْهَا الطَّوِيلُ وَالمَدِيدُ بَعْدَهُ
ثَلَاثَةٌ قَالَتْ عَلَيْهَا العَرَبُ
وَهَذِهِ صُورَتُهَا كَمَا تَرَى

الطويل: مبني على فعولن مفاعيلن. ثمان مرات.
المديد: مبني على فاعلات فاعلن. ست مرات، بعد الحذف.
البيسط: مبني على مستفعلن فاعلن. ثمان مرات.

وهذه الثانية المخصوصة
أحزأؤها ثلاثة مسبعة
لأنها تخرج عن مقدارهم
فهي على عشرين بعد واحد
تتفك منها وافرٌ وكاملٌ

الثانية دائرة المؤلف

الوافر: مبني على مفاعلتن. ست مرات. فقطفوا ضربه وعروضه. الكامل: مبني على متفاعلتن. ست مرات.

والدائرة الثالثة التي حكت
في عدة الأجزاء والحروف
ينفك منها مثل ما ينفك
ترفل من ديباجها في حُلل
وهذه صورتها مبينة

في قدرها الثانية التي مضت
وليس في الثقيل والخفيف
من تلك حقاً ليس فيه شك
من هزج أو رجز أو رمل
بحليها ووشبها مزيّنة

الثالثة دائرة المجتلب

الهزج: مبني على مفاعيلن. بعد الحذف. أربع مرات.
الرجز: مبني على مستفعلتن. ست مرات.
الرمل: مبني على فاعلاتن. ست مرات.

ورابع الدوائر المسرودة
عجبية قد حار فيها الوصف
مثل التي تقدّمت من قبلها
بديعة أحكم في تدبيرها
ينفك منها ستة مقولة
وكل هذه الستة المشطورة
أولها السريع ثم المنسرخ
وبعده مضارع ومقتضب
وبعدها المجتلب أحلى شطر

أجزاءها ثلاثة معدودة
عشرون حرفاً عدّها وحرف
وشكلها مخالف لشكلها
بالوتد المفروق في شطورها
من بينها ثلاثة مجهولة
معروفة لأهلها مخبورة
ثم الخفيف بعده ثم وضح
شطران مجزوان في قول العرب
يُوجد مجزوءاً لأهل الشعر

الرابعة دائرة المشتبه

السريع: مبني على مستفعلتن مستفعلتن مفعولات. ست مرات.
المنسرخ: مبني على مستفعلتن مفعولات مستفعلتن. ست مرات.
الخفيف: مبني على فاعلاتن مستفعلتن فاعلاتن. ست مرات.

المضارع: مبني على مفاعيلن فاعلاتن. ست مرات. فحذفوا منه جزأين فصار مربعاً. المقتضب: مبني على مفعولات مستفعلن مستفعلن. ست مرات. فربعوه كما تقدم. المحتث: مبني على فاعلاتن فاعلاتن. ست مرات. فربعوه كما تقدم.

للمتقارب الذي في الآخر
لم يأت في الأشعار منه الذكرُ
حُرُوفه عِشْرُونَ في التَّقْدِيرِ
مخمسات أربَع مَوَائِلِ
من كُلِّ ما قالت عليه العربُ
فإننا لم نلتفت إليه
لأنه من قولنا مُحالُ
خلافها لجاز في اللغاتِ
ولا أقول فيه ما يقولُ
والسيفُ قد يَنبُو وفيه ماه
ثم أجاز ذا وليس مثله
والحبرُ قد يَخُونه التَّحْبِيرُ
في كُلِّ ما يَأْتِي من الأمورِ
ما مثله من قبله وبعده
حمداً كثيراً وعلى الآئه
ليس له في ملكه شريكُ
واعطفه بالفضل على رعيته

بعدها خامسة الدوائر

ينفكَّ منها شَطْرُه
من أقصر الأجزاء والشُّطُورِ
مؤلَّف الشطر على فواصل
هذا الذي جَرَّبه المُجَرَّبُ
فكلُّ شيءٍ لم تَقُلْ عليه
ولا نقول غيرَ ما قد قالوا
وإنه لو جاز في الأبياتِ
وقد أجاز ذلك الخليلُ
لأنه ناقض في معناه
إذ جعل القول القديم أصله
وقد يزلِّ العالم النحريرُ
وليس للخليل من نظير
لكنه فيه نسيحٌ وحده
فالحمدُ لله على نعمائه
يا ملكاً ذلَّت له الملوئُ
نبتت لعبد الله حُسن نيته

الخامسة دائرة المتفق

المتقارب: مبني على فعولن. ثماني مرات

إبتداء الأمثال

شطر الطويل

الطويل مُثَمَّن، له عروض واحد مقبوض وثلاثة ضروب: ضرب سالم، وضرب مقبوض، وضرب محذوف معتمد.

العروض المقبوض والضرب السالم

تحلت بلون السام والذهب المحض

وروضة ورد حف بالسوسن الغض

رأيتُ بها بَدراً على الأرض ماشياً

ولم أر بَدراً قطُّ يمشي على الأرض

إلى مثله فَلتَصَبُّ إن كنتَ صابياً
وكُلُّ وَرَدٍ خَدْيِهِ ورْمَانٌ صَدْرُهُ
وقُلْ للذي أَفْنَى الفُؤَادِ بِحُبِّهِ
أبا مُنذرٍ أَفْنَيْتَ فاستنْبِقْ بعضنا

فقد كان منه البَعْضُ يَصْبُو إلى البعض
بِمَصٍّ على مَصٍّ وَعَضٌّ على عَضٍّ
على أنه يَجْزِي المَحَبَّةَ بالبِغْضِ
حَنَانِيكَ بعضُ الشَّرِّ أهونُ من بَعْضِ

تقطيعه

فعلولن، مفاعيلن، فعولن، مفاعلن فعولن، مفاعيلن، فعولن، مفاعلن الضرب المقبوض

وحاملةٍ راحاً على راحةِ اليَدِ
متى ما ترى الإبريقَ للكأسِ راعياً
على ياسمينِ كاللَّجينِ ونَرْجِسِ
بتلكِ وهذي فاله ليلكِ كُلُّه
ستُبدي لك الأيامُ ما كنتَ جاهلاً

مُورِّدةٌ تَسَعَى بلونِ مُورِّدِ
تُصلُّ له من غيرِ طُهرٍ وتَسْجُدِ
كأقراطِ دُرٍّ في قَضيبِ زَبَرْجَدِ
وعنها فَسَلُّ لا تَسألُ النَّاسَ عن غَدِ
ويأتِيكَ بالأخبارِ من لم تُزودِ

تقطيعه

فعلولن، مفاعيلن، فعولن، مفاعلن فعولن، مفاعيلن، فعولن، مفاعلن الضرب المحذوف المعتمد

أيقنُتني دائي وأنتَ طيبي
لئن خنْتَ عَهدي إنني غيرُ خائِنِ
وساحبةِ فَضْلِ الذِّيولِ كأنها
إذا ما بدتُ من خَدْرِها قال صاحبي
وما كُلُّ ذي لُبٍّ بمؤتِيكَ نُصْحَهُ

قريبٍ وهل من لا يرى بقَريبِ
وأَيُّ مُحَبٍّ خانَ عَهْدَ حَبِيبِ
قَضيبِ من الرِيحانِ فوقَ كَثيبِ
أطعُني وخذُ من وَصَلْها بنَصيبِ
وما كلُّ مُؤْتٍ نُصْحَهُ بلبيبِ

تقطيعه

فعلولن، مفاعيلن، فعولن، مفاعلن فعولن، مفاعيلن، فعولن، مفاعلن الضرب المحذوف المعتمد. فإذا دخله القبض مع الخرم قيل له: أئتم.

والخرم: سقوط حركة من أول البيت، ولا يكون إلا في وتد. والقبض: ما ذهب خامسه الساكن. والكف: ما ذهب سابعه الساكن. والاعتماد: سقوط الخامس من فعولن التي قبل القافية، اعتمد به فقبض. ولم تجر فيه السلامة إلا على قبح. ولم يأت في الشعر إلا شاذاً قليلاً. والاعتماد في المتقارب: سلامة الجزء الذي قبل القافية. والمحذوف: ما ذهب من آخره سبب خفيف.

شطر المديد هو مجزوء كله

له ثلاثة أعاريض وستة ضروب: فالعروض الأول منها مجزوء، وله ضرب مثله. والعرض الثاني محذوف لازم الثاني، له ثلاثة ضروب لازمة الثاني: ضرب مقصور لازم الثاني، وضرب محذوف لازم الثاني، وضرب أتر لازم الثاني. والعروض الثالث محذوف مخبون. له ضربان: ضرب مثله، وضرب أتر لازم الثاني. العروض المجزوء والضروب المجزوء

واشتغالي بك عن كل شغل
وقضيباً تحته دِعْصُ رَمَلْ
أكثرِي في حُبِّه أو أَقْلِي
مائس فاتن بحُسن ودل
فَتَكَلَّمْ فيحجبك بعقل

يا طويلِ الهَجْرِ لا تنسِ وَصَلِي
يا هلالاً فوق جيدِ غزالِ
لا سَلْتُ عادلتِي عنه نَفْسِي
شادنِ يُزْهِي بخدِّ وجيدِ
ومتى مايع منك كلاماً

تقطيعه

فعالتن، فعلن، فعالتن فعالتن، فعلن، فعالتن العروض المحذوف اللازم الثاني والضرب المقصور اللازم الثاني

لا عليها بلى عليك السلام
وجهها يهتك ستر الظلام
وترى الوصل عليها حرام
ولشعب شت بعد التتام
ضلةً مثل حديث المنام

يا وميضَ البرق بين الغمام
إن في الأحداج مقصورة
تحسب الهجر حلالاً لها
ما تأسيك لدار خلّت
إنما ذكرك ما قد مضى

تقطيعه

فعالتن، فعلن، فاعلن فاعلاتن، فعلن، فاعلان الضرب المحذوف اللازم الثاني

رُبَّ مَطْلُوبِ غداً طالبا

عائِبَ ظَلَّتْ له عاتِباً

لست عن حُبِّي له تائباً
كيف أعصي القدر الغالبا
أصبح القلبُ بكم ذاهباً
شاهداً ما عشتُ أو غائباً

من يتب عن حُبِّ معشوقه
فالهوى لي قدرٌ غالبٌ
ساكنِ القصرِ ومن حلّه
اعلموا أنني لكم حافظٌ

تقطيعه

فاعلاتن، فاعلن، فاعلن فاعلاتن، فاعلن، فاعلن الضرب الأبتري

يُجْتَنَى مِنْ خُوطِ رِيحَانِ
مَسْتَتِيراً بَيْنَ سُوْسَانَ
صَيْغٍ مِنْ دُرٍّ وَمَرْجَانِ
لَمْ يَرِ الْحَدَّ عَلَى الزَّانِي
أَخْرَجَتْ مِنْ كَيْسِ دِهْقَانَ

أَيُّ تَفَاحٍ وَرُمَانِ
أَيُّ وَرْدٍ فَوْقَ خَدِّ بَدَا
وَتُنَّ يُعْبَدُ فِي رَوْضَةٍ
مَنْ رَأَى الذَّلْفَاءَ فِي خَلْوَةٍ
إِنَّمَا الذَّلْفَاءُ يَا قَوْتَةَ

تقطيعه

فاعلاتن، فاعلن، فاعلن فاعلاتن، فاعلن، فعلن العروض المجزوء المحذوف والمخبون ضربه

وَتَلَاشَى لَحْمَهُ وَدَمَهُ
وَبَكَى مِنْ رَحْمَةِ قَلْمِهِ
يَنْجَلِي عَنْ وَجْهِهِ ظُلْمَهُ
وَلَلْمَعِ الْبَرَقِ مَبْتَسِمَهُ
إِنْ عَقَلِي لَسْتُ أَنْتَهُمَهُ
حَيْثُ تُهْدِي لِسَاقَهُ قَدْمَهُ

مِنْ مُحِبِّ شَفِّهِ سَقْمَهُ
كَاتِبِ حَنْثِ صَحِيفَتِهِ
يَرْفَعُ الشُّكُورَى إِلَى قَمَرِ
مَنْ لَقَرْنَ الشَّمْسُ جَبَّهَتَهُ
خَلَّ عَقَلِي يَا مُسْفَهَهُ
لِلْفَتَى عَقْلٌ يَعِيشُ بِهِ

تقطيعه

فاعلاتن، فاعلن، فعلن فاعلاتن، فاعلن، فعلن الضرب الأبتري اللازم الثاني

إِنَّ لِي فِي الْحُبِّ أَنْصَارَا
لَوْ دَنَا لِلْقَلْبِ مَا طَارَا
إِنَّ بَحْرَ الْحُبِّ قَدْ فَارَا
وَدُمُوعِي تُطْفِئُ النَّارَا
تَقْضِمُ الْهِنْدِيَّ وَالْغَارَا

زَادَنِي لَوْمُكَ إِضْرَارَا
طَارَ قَلْبِي مِنْ هَوَى رَشَا
خُذْ بِكَفِّي لَا أُمْتُ غَرَقَا
أَنْضَجْتَ نَارُ الْهَوَى كَبْدِي
رُبَّ نَارٍ بَتُّ أَرْمَقَهَا

تقطيعه

فاعلاتن، فاعلن، فعلن فاعلاتن، فاعلن، فعلن يجوز في حشو المديد: الحين والكف والشكل. فالمخبون: ما ذهب ثانيه الساكن. والمكفوف: ما ذهب
سابعه الساكن. والمشكول: ما ذهب ثانيه وسابعه الساكنان، وهو اجتماع الحين والكف في فاعلاتن.

ويدخله التعاقب في السببين المتقابلين، بين النون من فاعلاتن والألف من فاعلن لا يسقطان جميعاً، وقد يثبتان. فما عاقبه ما قبله فهو صدر، وما عاقبه

ما بعده فهو عجز، وما عاقبه ما قبله وما بعده فهو طرفان، وما لم يعاقبه شيء فهو بريء. والمقصود: كما ذهب آخر سواكنه وسكن آخر متحركاته من السبب. والأبتر: ما حذف ثم قطع.

شطر البسيط

البسيط له ثلاثة أعرىض وستة أضرب: فالعروض الأول مخبون تام، له ضربان: ضرب مثله، وضرب مقطوع لازم الثاني. والعروض الثاني مجزوء، له ثلاثة أضرب: ضرب مزال، وضرب مجزوء، وضرب مقطوع ممنوع من الطي. والعروض الثالث مقطوع ممنوع من الطي، له ضرب مثله. العروض المخبون والضرب المخبون

قلبي له سلّم والوجه مُشتركُ

وَدَلَّ قَلْبِي لِعَيْنِيهِ فِينْتَهَكُ

فخَانَنِي فَعَلَى مَنْ يَرْجِعُ الدَّرَاكُ

فكلها لفؤادي كله شرك

لم يَلْقَهَا سُوقَةٌ قَبْلِي وَلَا مَلَكُ

بين الأهله بدر ماله فلكُ

إذا بدا انتهبت عيني محاسنه

أبتعت بالدين والدنيا مودته

كفوا بني حارث الحاظ ريمكم

يا حار لا أرمين منكم بدهية

تقطيعه

مستفعلن، فاعلن، مستفعلن، فعِلن مستفعلن، فاعلن، مستفعلن، فعِلن الضرب المقطوع اللازم الثاني

إلا وُجوهاً تُضاهيها الدنانيرُ

ماذا سَقَتْنِيهِ تَلِكُ الأَعِينُ الحُورُ

وإن نَطَقَن فدر اللفظ منثور

فإن خاتمة الأعمال تكفيرُ

فالخبر مُتَّبِع والشر محذور

يا ليلة ليس في ظلمائها نورُ

حُورٌ سَقَتْنِي بِكأس الموت أعينها

إذا ابتسمن فدر الثغر منتظم

خَلَّ الصَّبَا عنك واحتم بالنهي عملاً

والخير والشر مقرونان في قرن

تقطيعه

مستفعلن، فاعلن، مستفعلن، فعِلن مستفعلن، فعِلن، مستفعلن فعِلن العروض المجزوء والضرب المزال

وسائلاً لم يعف ذل السؤال

لو أنها رجعت تلك الليال

بالهجر لما رأيت شيب القذال

ولا تكن طالبا ما لا يُنال

يا طالبا في الهوى ما لا يُنال

ولت ليالي الصبا محمودة

وأعقبتها التي واصلتها

لا تلتمس وصلة من مخلف

يا صاح قد أخلفت أسماء ما

كانت تمنيك من حُسن الوصال

تقطيعه

مستفعلن، فاعلن، مستفعلن مستفعلن، فاعلن، مستفعلان الضرب المجزوء

ظالمتي في الهوى لا تظلمي

أهكذا باطلاً عاقبتني

قتلت نفساً بلا نفس وما

لمثل هذا بكت عيني ولا

ماذا وقوفي على رسم عفا

وتصرمي حبل من لم يصرم

لا يرحم الله من لم يرحم

ذنب بأعظم من سفك الدم

للمنزل القفر وللأرسم

مخلولق دارس مستعجم

قطيعه

مستفعلن، فاعلن، مستفعلن مستفعلن، فاعلن، مستفعلن الضرب المقطوع الممنوع من الطي

ما أقرب اليأس من رجائي

يا مُذكي النار في فؤادي

من لي بمخلفة في وعدها

سألتها حاجة فلم تفه

قلت استجيبني فلما لم تجب

وأبعد الصبر من بكائي

أنت دوائي وأنت دائي

تخلط لي اليأس بالرجاء

فيها بنعم ولا بلاء

سالت دموعي على ردائي

تقطيعه

مستفعلن، فاعلن، مستفعلن مستفعلن، فاعلن، فعولن العروض المقطوع الممنوع من الطي ضربه مثله

كأبة الذل في كتابي

قتلت نفساً بغير نفس

خلقت من بهجة وطيب

ولت حمياً الشباب عني

أصبحت والشيب قد علاني

ونخوة العز في جوابي

فكيف تنجو من العذاب

إذ خلق الناس من تراب

فلهف نفسي على الشباب

يدعو حثيثاً إلى الخضاب

تقطيعه

مستفعلن، فاعلن، فعولن مستفعلن، فاعلن، فعولن يجوز في حشو البسيط: الحَين والطي والخيل. فالخين: ما ذكرناه في المديد. والطي: ما ذهب رابعه الساكن. والمخبول: ما ذهب ثانيه ورابعه الساكنان، وهو اجتماع الخين والطي في مستفعلن. والخين فيه حسن، والطي فيه صالح. والخيل فيه قبيح. والمقطوع: ما ذهب آخر سواكنه وسكن آخر متحركاته من الوتد. والمذال: ما زاد على اعتداله حرف ساكن. تمت الدائرة الأولى.

شطر الوافر

له عروضان وثلاثة ضروب فالعرض الأول مقطوف، له ضرب مثله. والعروض الثاني مجزوء ممنوع من العقل، له ضربان: ضرب سالم، وضرب معصوب.

العروض المقطوف الضرب المقطوف

ولكن ليس يجفوها الدموعُ
وأنت به يطيب لك الهجوعُ
ويحكي لي تورّدك الربيع
ولكن ليس تتركه الضلوع
فليس لها على الدنيا طلوع
ودون لقائك الحصن المنيع
وجاوزه إلى ما تستطيع

تجافى النومُ بعدك عن جفوني
يطيب لي السُّهاد إذا افترقنا
يذكرني تبسمك الأفاحي
يطير إليك من شوقٍ فؤادي
كأنَّ الشمسَ لما غبَّتْ غابت
فما لي عند لذكرك امتناع
إذا لم تستطع شيئاً فدعه

تقطيعه

مفاعلتن، مفاعلتن، فعولن مفاعلتن، مفاعلتن، فعولن العروض المجزوء الممنوع من العقل

الضرب السالم

وساعد طرّفه القدر
حكاه الشمس والقمر
فلا جنّ ولا بشر
وقفت عليه تعنّبر

غزال زانه الحور
يُريك إذا بدا وجهاً
براه الله من نور
فذاك هم لا ظلل

وغير آيه الغير

أهاج منزل أقوى

تقطيعه

من العقيان مخلوق
مَزَجْتُ بِرِيقِهِ رِيقِي
بِقِيَّةِ كَأْسِ مَعْشُوقِ
وَلَا أَبْكِي بِتَشْهِيْقِ
كُ أُمْتَالِ الْمَهَارِيْقِ

وَبَدْرٍ غَيْرِ مَحْجُوقِ
إِذَا أَسْقَيْتُ فَضْلْتَهُ
فِيَالِكَ عَاشِقًا يَسْقِي
بِكَيْتٍ لِنَأْيِهِ عَنِّي
لِمَنْزِلَةِ بِهَا الْأَفْلَا

تقطيعه

مفاعلتين، مفاعلتين مفاعلتين، مفاعلتين يجوز في حشو الوافر: العصب والعقل والنقص. فالعصب فيه حسن، والنقص فيه صالح، والعقل فيه قبيح. ويدخله الخرم في الابتداء، فتستقط حركة من أول البيت، ويسمى أعصب. فإذا دخله العصب مع الخرم، قيل له: أقصم. فإذا دخله النقص مع الخرم، قيل له: أعقص. فإذا دخله العقل مع الخرم، قيل له: أجم. والمعصوب: ما سكن خامسه المتحرك. والمنقوص: ما سكن خامسه المتحرك وذهب سابعه الساكن. والمقطوف: ما ذهب من آخره سبب خفيف وسكن آخر ما بقي. ولا يدخل القطف إلا في العروض والضرب من تام الوافر.

شطر الكامل

الكامل له ثلاثة أعاريض وتسعة ضروب. فالعروض الأول تام، له ثلاثة ضروب: ضرب تام مثله، وضرب مقطوع ممنوع إلا من سلامة الثاني وإضماره، وضرب أحد مضمّر. والعروض الثاني أحد، له ضربان: ضرب مثله، وضرب مضمّر. والعروض الثالث مجزوء، له أربعة ضروب: ضرب مرفّل، وضرب مُذال، وضرب مجزوء، وضرب مقطوع ممنوع، إلا من سلامة الثاني وإضماره. العروض التام الضرب التام

كَمْ مِنْ دَمٍ ظُلْمًا سَفَكَتْ بِلَا دَمٍ
وَوَجَدْتُ قَتْلِي فِيهِ غَيْرَ مُحْرَمٍ
مُنْتَفِكَةً فِي لَذَّةٍ وَتَتَعَمَّ
فَإِذَا انْتَشَيْتِ أَجُودَ جُودِ الْمِرْزَمِ
وَكَمَا عَلِمْتَ شِمَائِلِي وَتَكَرَّمِي

يَا وَجْهَ مُعْتَذِرٍ وَمُقَلَّةِ ظَالِمٍ
أَوْجَدْتُ وَصَلِي فِي الْكِتَابِ مُحْرَمًا
كَمْ جَنَّةٌ لَكَ قَدْ سَكَنْتُ ظِلَالَهَا
وَشَرِبْتُ مِنْ خَمْرِ الْعِيُونِ تَعَلَّلًا
وَإِذَا صَحَوْتُ فَمَا أَقْصَرَ عَنْ نَدَى

تقطيعه

متفاعلتين، متفاعلتين متفاعلتين، متفاعلتين الضرب المقطوع ممنوع إلا من الإضمار والسلامة

وَكَسَا الْمَشْيِبُ مَفَارِقًا وَقَدَا
طَلَعْتُ عَلَيْكَ أَكْلَةً وَحَجَالًا

حَالَ الزَّمَانُ فَبَدَّلَ إِلَّا مَا لَا
غَنِيْتُ غَوَانِي الْحَيِّ عَنكَ وَرَبَّمَا

أَضْحَى عَلَيْكَ حَلَالُهُنَّ مُحْرَمًا
إِنْ الْكَوَاعِبَ إِنْ رَأَيْتُكَ طَاوِيًا
وَإِذَا دَعَوْنَاكَ عَمَّهِنَّ فَإِنَّهُ

ولقد يكون حرامهن حلالا
ووصل الشباب طوين عنك وصالا
نسب يزيدك عندهن خبالا

تقطيعه

متفاعِلن، متفاعِلن، متفاعِلن متفاعِلن، متفاعِلن، متفاعِلن الضرب الأُخذ المضمَر

والشهر يحسب أنه دهر
سحر وبين جفونها سحر
والبدر يحسب أنها البدر
فسل القفار يجيبك القفر
درست وغير أيها القطر

يوم المُحب لِطوله شهر
بأبي وأمي غادة في خدّها
الشمس تُحسب أنها شمس الضحى
فسل الهوى عنها يجيب إن نأت
لمن الديار برامتئين فعائل

تقطيعه

متفاعِلن، متفاعِلن، متفاعِلن متفاعِلن، متفاعِلن، متفاعِلن الضرب الثالث ضربه مثله

بانوا ولم يقضوا الذي يجب
يا دار فيك وفيهم العجب
من فضة شيبت بها ذهب
لا مثل ما قالوا ولا ندبوا
هطل أجش وبارح ترب

أما الخليط فشد ما ذهبوا
فالدار بعدهم كوشم يد
أين التي صيغت محاسنها
ولى الشباب فقلت أندبه
دمن عفت ومحا معالمها

تقطيعه

متفاعِلن، متفاعِلن، متفاعِلن، متفاعِلن، متفاعِلن الضرب الأُخذ المضمَر

وأباحتماه لوعة الحب
نارا قضيت بحرّها نحبي
حسبي مكابدة الجوى حسبي
ما لا دواء له على قلبي
تُعدي الصحاح مبارك الجرب

عيني كيف غررتما قلبي
يا نظرة أذكت على كبدي
خلوا جوى قلبي أكابده
عيني جنت من شوم نظرتها
جانيك من يجني عليك وقد

قطيعة

متفاعِلن، متفاعِلن، متفاعِلن، متفاعِلن، فعلن العرُوض المَجزُوء والضرب المَجزُوء المرفل

طَرَفَ بِهِ تُبَلَى السَّرَائِرُ
بَ كَأَنَّهُ فِي القَلْبِ نَاطِرُ
رَفَ قَبْلَهُ فِي النَاسِ سَاحِرُ
أَدْنَيْتِي فَالْقَلْبُ طَائِرُ
كُ لَابِنِ بِالصَّيْفِ تَامِرُ

هَنَكَ الحَبَابَ عَنِ الضَّمَائِرِ
يَرِنُو فَيَمْتَحِنُ القُلُوبِ
يَا سَاحِرًا مَا كُنْتُ أَعُ
أَقْصَيْتَنِي مِنْ بَعْدِ مَا
وَعَرَّرْتَنِي وَزَعَمْتَ أَنَّ

تقطيعه

متفاعِلن، متفاعِلن متفاعِلن، متفاعِلن الضرب المذال

رِ وَشُقَّةَ القَمَرِ المَنِيرِ
بَيْنِ الأَكَلَةِ وَالسُّتُورِ
قَلْبِي مَخَافَةً أَنْ يَطِيرِ
ةَ وَاسْتَمَعَ قَوْلَ النَّذِيرِ
ةَ لَا الصَّغِيرِ وَلَا الكَبِيرِ

يَا مَقْلَةَ الرِّشَاءِ الغَرِيِّ
مَا رَنَقْتَ عَيْنَاكَ لِي
إِلَّا وَضَعْتَ يَدِي عَلَى
هَبْنِي كِبْعُضِ حَمَامِ مَكِ
أَبْنِي لَا تَطْلَمْ بِمَكِ

تقطيعه

متفاعِلن، متفاعِلن متفاعِلن، متفاعِلن الضرب المَجزُوء

وَاقطَعُ حِبَالَكَ أَوْصِلْ
وَانزِلْ بِأَكْرَمِ مَنزَلِ
فَإِذَا كَرِهْتَ فَبَدِّلْ
أَوْ مَسْكَنَ فَتَحَوَّلْ
مُتَخَشِعًا وَتَجَمَّلْ

قُلْ مَا بَدَأَ لَكَ وَافْعَلْ
هَذَا الرِّبِيْعُ فَحِيْهِ
وَصِلِ الذِّي هُوَ وَاصِلٌ
وَإِذَا نَبَا بِكَ مَنزَلٌ
وَإِذَا افْتَقَرْتَ فَلَا تَكُنْ

تقطيعه

متفاعِلن، متفاعِلن متفاعِلن، متفاعِلن الضرب المَقطُوع الممنوع إلا من سلامة الثاني وإضماره

وَأَنْتِ غَيْرِ مُوَاتِ
كَدَّرْتَ صَفْوَةَ حَيَاتِي

يَا دَهْرُ مَالِي أَصْفِي
جَرَّعْتَنِي غُصَصًا بِهَا

في المجد للغايات
ة ترد في الأموات
ة أكثرها الحسنات

أين الذين تسابقوا
قوم بهم رُوح الحيا
وإذا هم ذكروا الإسأ

تقطيعه

متفاعِلن، متفاعِلن متفاعِلن فعلاَتن يجوز في الكامل من الزحاف: الإضمار والوفص والخزل. فالإضمار فيه حسن، والوفص فيه صالح. والخزل فيه قبيح.
فالمضمر: ما سكن ثانيه المتحرك.
والموقوص: ما ذهب ثانيه المتحرك.
والمخزول: ما سكن ثانية المتحرك وذهب رابعه الساكن.
ويدخله من العلل القطع والخذ. فالمقطوع، ما تقدم ذكره. والأخذ: ما ذهب من آخر الجزء وتد مجموع.

شطر الهزج

الهزج له عَرُوض: واحد مجزوء ممنوع من القبض. وضريان: ضرب سالم، وضرب محذوف.
العروض المجزوء الممنوع من القبض ضربه مثله

ولم يَعْلَم جَوَى قَلْبِي
ولا أَعْوَى من القَلْبِ
مُحِبًّا صادِقِ الحُبِّ
بشَرِّق لا ولا غَرَبِ
وهنْدِ مِثْلُها يَصْبِي

أيا مَنْ لَامَ في الحُبِّ
مِلامُ الصَّبِّ يُغْوِيه
فَأني لَمَتَ في هِنْدِ
وهِنْدِ ما لها شِبِه
إلى هِنْدِ صَبًّا قَلْبِي

تقطيعه

مفاعيلن، مفاعيلن مفاعيلن، مفاعيلن الضرب المجزوء المحذوف

بنيل من بَخِيلِ
سوى الحُزْنِ الطويلِ
من الصَّبْرِ الجَمِيلِ
من حَسودِ وعَدُولِ
م بالظَهْرِ الذَّلُولِ

مَتى أَشْفِي غِليْلِي
غَزالِ ليس لي مِنْه
جَميلِ الوجهِ أَخلاني
قَد حَمَلتِ الضَمِيمِ فيهِ
وما ظَهري لباغي الضَيِّ

تقطيعه

مفاعيلن، مفاعيلن مفاعيلن، فعولن يجوز في الهزج من الزحاف القبض والكف. فالكف فيه حسن. والقبض فيه قبيح. وقد فسرنا المقبوض والمكفوف في الطويل أيضاً.

ويدخله الخرم في الابتداء، فيكون آخرم. فإذا دخله الكف مع الخرم، قيل له: أخرج إذا دخله القبض مع الخرم، قيل له: أشرت. والخرم كله قبيح.

شطر الرجز

الرجز له أربعة أعاريض وخمسة ضروب. فالعروض الأول تام، له ضربان: ضرب تام مثل عروضه، وضرب مقطوع ممنوع من الطي. والعروض الثاني مجزوء، له ضرب مثله مجزوء. والعروض الثالث مشطور، له ضرب مثله. والعروض الرابع منهوك، له ضرب مثله. والعروض التام الضرب التام

لم أدرَ جَنِيَّ سَبَانِي أَمْ بَشْرُ
أَمْ نَاطِرٍ يَهْدِي المَنَايَا طَرْفُهُ
يُحْيِي قَتِيلًا مَا لَهُ مِنْ قَاتِلِ
مَا بَالِ رَسْمِ الوَصْلِ أَضْحَى دَائِرًا
دَارًا لَسَلِمَى إِذْ سَلِمَى جَارَةٌ
أَمْ شَمْسٍ ظَهَرَ أَشْرَقَتْ لِي أَمْ قَمَرُ
حَتَّى كَأَنَّ المَوْتَ مِنْهُ فِي النِّظَرِ
إِلَّا سِهَامِ الطَّرْفِ رِيثَتْ بِالحَوَرِ
حَتَّى لَقَدْ أَذْكَرْتَنِي مِمَّا دَثَرَ
قَفَرًا تُرَى آيَاتُهَا مِثْلَ الزَّبَرِ

تقطيعه

مستفعلن، مستفعلن، مستفعلن مستفعلن، مستفعلن، مستفعلن الضرب المقطوع الممنوع من الطي

قَلْبٌ بِلِوَعَاتِ الهَوَى مَعْمُودُ
مَا ذَقْتُ طَعْمَ المَوْتِ فِي كَأْسِ الأَسَى
مَنْ ذَا يَدَاوِي القَلْبَ مِنْ دَاءِ الهَوَى
أَمْ كَيْفَ أَسْلُو غَادَةَ مَا حَبَّهَا
القَلْبُ مِنْهَا مُسْتَرِيحٌ سَالِمٌ
حَيَّ كَمَيْتٍ حَاضِرٌ مَقْفُودُ
حَتَّى سَقَتْنِيهِ الطَّبَاءُ الغَيْدُ
إِذْ لَا دَوَاءَ لِلهَوَى مَوْجُودُ
إِلَّا قَضَاءٌ مَا لَهُ مَرْدُودُ
وَالقَلْبُ مِنْي جَاهِدٌ مَجْهُودُ

تقطيعه

مستفعلن، مستفعلن، مستفعلن، مستفعلن، مستفعلن العروض المجزوء الضرب المجزوء

أَعْطَيْتَهُ مَا سَأَلَا
وَهَبْتَهُ رَوْحِي فَمَا
حَكَّمْتَهُ لَوْ عَدَلَا
أَدْرِي بِهِ مَا فَعَلَا

عَيْشَهُ أَمْ قَتَلَا
لَا مَلَّ ذَاكَ الشُّغْلَا
قَيْدَ رَاعٍ جَمَلًا

أَسْلَمْتَهُ فِي يَدِهِ
قَلْبِي بِهِ فِي شُغْلِي
قَيْدَهُ الْحُبِّ كَمَا

تقطيعه

كَمْ أَنْتِ فِي تَقَرُّبِ مَا لَا يَفْتَرِبُ
وَمَنْ إِذَا عَاتَبْتَهُ يَوْمًا عَتَبَ

بِأَيِّهَا الْمَشْغُوفُ بِالْحُبِّ التَّعَبُ
دَعُودٌ مِنْ لَا يَرَعُوي إِذَا غَضِبَ

إِنَّكَ لَا تَجْنِي مِنَ الشُّوْكَ الْعِنَبِ

تقطيعه

رَفَعْتُهُ فَمَا ارْتَفَعَ
مِنْ بَيْنِ يَأْسٍ وَطَمَعٍ
يَا لَيْتَنِي فِيهَا جَذَعُ أُخْبُ فِيهَا وَأَضَعُ

مُسْتَفْعَلُنْ، مُسْتَفْعَلُنْ، مُسْتَفْعَلُنْ الْعُرُوضِ الْمَنْهُوكِ الضَّرْبِ الْمَنْهُوكِ

بِيَاضُ شَيْبٍ قَدْ نَصَعُ
إِذَا رَأَى الْبَيْضَ انْقَمَعَ
لِلَّهِ أَيَّامُ النَّخَعِ

تقطيعه

مُسْتَفْعَلُنْ، مُسْتَفْعَلُنْ وَيَجُوزُ فِي حَشْوِ الرَّجْزِ: الْخَبْنُ، وَالطِّي، وَالخَبْلُ. فَالْخَبْنُ فِيهِ حَسَنٌ. وَالطِّي فِيهِ صَالِحٌ. وَالخَبْلُ فِيهِ قَبِيحٌ. وَقَدْ مَضَى تَفْسِيرُ الطِّي وَالخَبْنِ وَالخَبْلِ فِي الْبَسِيطِ. وَيَدْخُلُهُ مِنَ الْعَلَلِ: الْقَطْعُ، وَقَدْ ذَكَرْنَاهُ. وَيَكُونُ مَجْزُوعًا. وَالْمَجْزُوعُ: مَا ذَهَبَ مِنْ آخِرِ الصَّدْرِ جِزَاءً، وَمِنْ آخِرِ الْعَجْزِ جِزَاءً. وَيَأْتِي مَشْطُورًا. وَالْمَشْطُورُ: مَا ذَهَبَ شَطْوُهُ. وَيَأْتِي مَنْهُوكًا. وَالْمَنْهُوكُ: مَا ذَهَبَ مِنْ شَطْرِهِ جِزَاءً وَبَقِيَ عَلَى جِزَاءً.

شطر الرمل

الرمل له عروضان وستة ضروب. فالعروض الأول محذوف جائر فيه الخبن. له ثلاثة ضروب: ضرب متمم وضرب مقصور جائر فيه الخبن، وضرب محذوف مثل عروضه.

والعروض الثاني مجزوء، له ثلاثة ضروب: ضرب مسبع، وضرب مجزوء مثل عروضه الجائر فيه الخبن، وضرب محذوف جائر فيه الخبن. العروض المحذوف الجائر فيه الخبن الضرب المتمم

هَائِمٌ فِي حَبِّ ظَبِّي ذِي أَحْوَارٍ
جَمَعْتُ رَوْضَةَ وَرَدٍ وَبَهَارٍ
تَنْتَنِي بَيْنَ حِجْلٍ وَسِوَارٍ

وَأَنَا فِي اللَّذَاتِ مَخْلُوعُ الْعِدَارِ
صَفْرَةٌ فِي حُمْرَةٍ فِي خَدِّهِ
بِأَبِي طَاقَةَ آسٍ أَقْبَلْتُ

قادني طرفي وقلبي للهوى
لو بغير الماء حلقي شرقي

كيف من طرفي ومن قلبي حذاري
كنت كالغصان بالماء اعتصاري

تقطيعه

فاعلاتن، فاعلاتن، فاعلن فاعلاتن، فاعلاتن، فاعلاتن الضرب المقصور

يا مُدير الصُدغ في الخدِّ الأَسيلُ
هل لمحزون كَنيب قُبلة
وقليل ذاك إلا أنه
بأبي أحور غنى موهناً
يا بني الصيِّداء رثوا فرسي

ومُجبل السّحر بالطرف الكحيلُ
منك يشفي برّدها حرّ الغليل
ليس من مثلك عندي بالقليل
بغناء قصر الليل الطويل
إنما يفعل هذا بالذليل

تقطيعه

فاعلاتن، فاعلاتن، فاعلن فاعلاتن، فاعلاتن، فاعلان الضرب المحذوف

شادن يسحب أذيال الطرب
بجبين مفرغ من فضة
كتب الدمع بخدي عهده
ما لجهلي ما أراه ذاهباً
قالت الخنساء لما جنتها

ينتنى بين لهو ولعب
فوق خدّ مشرب لون الذهب
للهوى والشوق يُملي ما كتب
وسواد الرأس مني قد ذهب
شاب بعدي رأس هذا واشتهب

تقطيعه

فاعلاتن، فاعلاتن، فاعلن فاعلاتن، فاعلاتن، فاعلن العروض الجزوء الضرب المسبغ

يا هلالاً في تجنيه
والذي لست أسميه
شادن ما تقدر العين
كلما قابله شخص
لان حتى لو مشى الذّ

وقضياً في تننيه
ولكني أكنيه
تراه من تلاليه
رأى صورته فيه
ر عيله كاد يدميه

تقطيعه

فاعلاتن، فاعلاتن فاعلاتن، فاعلاتان الضرب المجزوء

في ثياب من حريرٍ
قاهرًا كلَّ أمير
حُمْرة الورد النضير
بستها ثوبَ دُثور
مثل آيات الزبور

يا هلالاً قد تجلَّى
وأميراً بهواه
ما لخدك استعاراً
ورُسوم الوصل قد ألُّ
مُقفرات دارسات

تقطيعه

فاعلاتن، فاعلاتن فاعلاتن، فاعلاتن الضرب المجزوء المحذوف الجائز فيه الخين

ميتاً من كمدَه
عينه في كبدَه
رحمةً نو حسده
مستعيذ من غده
بائن عن جسده

يا قتيلاً من يده
قدحت للشوق ناراً
هائم بيكي عليه
كل يوم هو فيه
قلبه عند الثريا

تقطيعه

فاعلاتن، فاعلاتن فاعلاتن، فعلى يجوز في الرمل من الزحاف: الخين والكف والشكل. فالخين فيه حسن. والكف فيه صالح. والشكل فيه قبيح. وقد فسرنا المكفوف والمخبون.

فأما المشكول: فهو ما ذهب ثانيه وسابعه الساكنان.

ويدخله التعاقب في السيبين المتقابلين، على حسب ما يدخل في المديد.

ويدخله من العلل الحذف والقصر والإسباغ. وقد فسرنا المحذوف والمقصور.

وأما المسبغ: فهو ما زاد على اعتدال جزئه حرف ساكن، مما يكون في آخره سبب خفيف، وذلك فاعلاتن يزداد عليها حرف ساكن فيكون فاعلاتان.

شطر السريع

السريع له أربعة أعاريض وسبعة أضرب: فالعروض الأول مكسوف مطوي لازم الثاني، له ثلاثة ضروب: ضرب موقوف مطوي لازم الثاني، وضرب مكسوف مطوي لازم الثاني مثل عروضه، وضرب أصلم سالم.

والعروض الثاني مخبول مكسوف، له ضربان: ضرب مثل عروضه، وضرب أصلم سالم.

والعروض الثالث مشطور موقوف ممنوع من الطي، ضربه مثله.

والعروض الرابع مشطور مكسوف ممنوع من الطي، ضربه مثله.

العروض المكسوف المطوي اللازم الثاني الضرب الموقوف المطوي اللازم الثاني

بكيته حتى لم أدع عبرةً
بُكاءَ يَعقوبَ على يوسفٍ
لا تأسفِ الدهرَ على ما مضى
قد يدرك المبطئ من حظه

إذ حملوا الهودج فوق القلوص
حتى شفى غلته بالقميص
والق الذي ما دونه من محيص
والخيرُ قد يسبق جهد الحريص

تقطيعه

مستفعلن، مستفعلن، فاعلن مستفعلن، مستفعلن، فاعلن الضرب المكسوف المطوي اللازم الثاني

لله درُّ البين ما يفعلُ
يقتل من شاء ولا يقتلُ

بانوا بمن أهواه في ليلة
يا طولَ ليل المُبتلي بالهوى
الدارُ قد ذكرني رسمها
هاج الهوى رسم بذات الغضى

ردّ على آخرها الأوّل
وصبّحه من ليله أطول
ما كدتُ عن تذكاره أذهل
مُخلوق مستعجم مُحول

تقطيعه

مستفعلن، مستفعلن، فاعلن مستفعلن، مستفعلن، فاعلن الضرب الأصلم السالم

قلبي رهين بين أضلاعي
من حيثُ ما يدعوه داعي الهوى
من لسقيم ماله عائدُ
لما رأته عاذلتني ما رأته
قالت ولم تقصد لقيّل الخلني

من بين إيناسٍ وإطماع
أجابه لبيك من داعي
وميت ليس له ناعي
وكان لي من سمعها واعي
مهلاً لقد أبلغت أسماعي

تقطيعه

مستفعلن، مستفعلن، فاعلن مستفعلن، مستفعلن، فاعلن العروض المخبول المكسوف ضربه مثله

شمس تجلّت تحت ثوب ظلم
ضاقت عليّ الأرضُ مذ صرمتُ
شمس وأقمارٌ يطوف بها
النشر مسك والوجوه دنا

سقيمة الطرف بغير سقم
حبلي فما فيها مكان قدم
طوف النصرارى حول بيت صنم
نير وأطراف الأكف عنم

تقطيعه

مستفعلن، مستفعلن، فعلن مستفعلن، مستفعلن، فعلن الضرب الأصلم السالم

فاحكُم بما أحببتَ أن تَحكُمُ
مَكْتُومِهِ والحبَّ لا يُكْتَم
نفساً بلا نَفْسٍ ولم تَنْظَم
ما بال قلبي هائم مغرم
قد قلتَ فيه غير ما تعلم

أنتَ بما في نفسه أعلمُ
أحاطهُ في الحبِّ قد هتكت
يا مُقلّة وحشيّة قتلت
قالت تسليّت فقلتُ لها
بأيها الزاري على عمر

تقطيعه

مستفعلن، مستفعلن، فعلن مستفعلن، مستفعلن، فعلن العروض المشطور الموقوت الممنوع من الطي ضربه مثله

مصفدا مقيّدا في الأغلالُ
يا صاح ما هاجك من ربّع خال

خليتُ قلبي في يديّ ذات الخالُ
قد قلتُ للباكي رسومَ الأطلال

تقطيعه

مستفعلن، مستفعلن، مفعولان العروض المشطور المكسوف الممنوع من الطي ضربه مثله

بشادن يهتّر مثل النّصل
لا تعدّ لاني إنني في شغل

ويحي قتيلاً ماله من عقل
مكحلّ ما مسّه من كحل

يا صاحبي رحلي أقلا عدلي

تقطيعه

مستفعلن، مستفعلن، مفعولن ويجوز في السريع من الزحاف: الخين والطي والخيل. فالخين فيه حسن. والطي صالح، والخيل فيه قبيح. ويدخله من العلل: الكسف والوقف والصلم. فالمكسوف: ما ذهب سابعه المتحرك. والموقوف: ما سكن سابعه. والأصلم: ما ذهب من آخره وتد مفروق. والمشطور: ما ذهب شطره.

شطر المنسرح

المنسرح له ثلاثة أعراب وثلاثة ضروب: فالعروض الأول ممنوع من الخيل، له ضرب مطوي. والعروض الثاني منهوك موقوف ممنوع من الطي، له ضرب مثله. والعروض الثالث منهوك مكسوف ممنوع من الطي، له ضرب مثله. العروض الممنوع من الخيل الضرب المطوي

بَيْضَاءَ مَضْمُومَةٍ مُقْرَطَقَةٍ
كَأَنَّمَا بَاتَ نَعْمًا جَدَلًا
وَأَيُّ شَيْءٍ أَلَذَّ مِنْ أَمَلٍ
دَعْنِي أُمَّتٌ مِنْ هَوَى مَخْدَرَةٍ
مَنْ لَمْ يَمُتْ غِبْطَةً يَمُتْ هَرَمًا

يَنْقَدَّ عَنْ نَهْدِهَا قَرَّاطِقُهَا
فِي جَنَةِ الْخُلْدِ مَنْ يُعَانِقُهَا
نَالَتْهُ مَعْشُوقَةٌ وَعَاشِقُهَا
تَعْلُقُ نَفْسِي بِهَا عَلَانِقُهَا
الْمَوْتُ كَأَسُّ وَالْمَرءُ ذَائِقُهَا

تقطيعه

مستفعلن، مفعولات، مستفعلن مستفعلن، مفعولات، مفتعلن العروض المنهوك الموقوف الممنوع من الطي ضربه مثله

أَقْصَرْتُ بَعْضَ الْإِقْصَارِ
صَبَّرَنِي لَمَّا سَارَ
وَقَالَ لِي بِاسْتِعْبَارِ

عَنْ شَادِنِ نَائِي الدَّارِ
وَلَمْ أَكُنْ بِالصَّبَارِ
صَبْرًا بَنِي عَبْدِ الدَّارِ

تقطيعه

مستفعلن، مفعولات العروض المنهوك المكسوف الممنوع من الطي ضربه مثله

عَاضَتَ بُوَصْلٍ صَدَا
لَمَّا رَأَتْنِي فَرْدَا
قَالَتْ وَأَبَدْتُ دُرًّا

تُرِيدُ قَتْلِي عَمْدًا
أَبْكِي وَأَلْقَى جَهْدًا
وَيَلْمُ سَعْدَ سَعْدًا

تقطيعه

مستفعلن، مفعولن يجوز في المنسرح من الزحاف. الخبن والطي والخبيل. فالخبين فيه حسن. والطي فيه صالح. والخبيل فيه قبيح. ويدخله من العلل: الوقف والكسف. وقد فسرناهما في السريع. والمنهوك: ما ذهب شطره، ثم ذهب منه شطر بعد الشطر.

شطر الخفيف

الخفيف له ثلاثة أعاريض وخمسة ضروب. فالعروض الأول منه تام، له ضربان: ضرب يجوز فيه التشعيب، وضرب محذوف يجوز فيه الخبن. والعروض الثاني جائز فيه الخبن، له ضرب مثله. والعروض الثالث مجزوء، له ضربان: ضرب مثله مجزوء، وضرب مجزوء مقصور مخبون. العروض التام الضرب التام الجائز فيه التشعيب

يا شفائي من الجوى وبلائي
في عناء أعظم به من عناء
مات صبري به ومات عزائي
أن تعيشوا وأن أموت بدائي
إنما الميت ميت الأحياء

أنت دائي وفي يديك دوائي
إن قلبي يحب من لا أسمي
كيف لا كيف أن ألد بعيش
أيها اللائمون ماذا عليكم
ليس من مات فاستراح بميت

تقطيعه

فاعلاتن، مستفعلن، فاعلاتن فاعلاتن، متفعلن، مفعولن الضرب المحذوف يجوز فيه الخين

من ضمور وحجلها شرق
لحظ عينيه شادن خرق
وسوى ذاك كله ورق
وفؤادي من الهوى حرق
كل حي برهنها غلق

ذات دل وشاحها قلق
بزت الشمس نورها وحبها
ذهب خذها يذوب حياء
إن أمت ميتة المحبين وجدا
فالمنايا من بين غاد وسار

تقطيعه

فاعلاتن، مستفعلن، فاعلاتن فاعلاتن، متفعلن، فعلن العروض المحذوف الجائز فيه الخين ضربه مثله

واغتراب الفؤاد عن جسدي
وتبيع الرقاد بالسهد
زقرات الهوى على كبدي
وكلنتي بلوعة الكمد
ما به غير الجن من أحد

يا غليلا كالنار في كبدي
وجفونا تدرى الدموع أسي
ليت من شفني هواه رأى
غادة نازح محلتها
رب خرق من دونها قذف

تقطيعه

فاعلاتن، مستفعلن، فعلن فاعلاتن، مستفعلن، فعلن العروض المجزوء والضرب المجزوء

بعدنا ود غيرنا
بعد إيضاح عذونا
وتسلت عن ذكرنا
واستهلت بهجرنا

ما لليلي تبدلت
أرهقتنا ملامة
فسلونا عن ذكرها
لم نقل إذ تحرمت

تقطيعه

فاعلاتن، مستفعلن، فاعلاتن، مستفعلن

الضرب المجزوء المقصور المخبون

في ظلام تُنيرُ

مَنْ لَقَلْبِ يَطِيرُ

هر عانٍ أسير

ت فموتي حَقِير

نوا غَضِبْتُمْ يَسِير

أشْرقت لي بُدور

طار قلبي بحُبِّها

يا بُدوراً أنا بها الد

إنْ رَضِيتُمْ بأنْ أمُو

كُلْ خطب إن لم تَكُو

تقطيعه

فاعلاتن، مستفعلن فاعلاتن، فعولن يجوز في الخفيف من الزحاف: الحين والكف والشكل. فالحين فيه حسن، والكف فيه صالح، والشكل فيه قبيح. ويدخله التعاقب بين السببين المتقابلين من مستفعلن و فاعلاتن لا يسقطان معاً، وقد يثبتان. وذلك أن وتد مستفعلن لن في الخفيف والمجث كله مفروق في وسط الجزء. وقد بينا التعاقب في المديد. ويدخله من العلل: التشعيت والحذف والقصر. وقد بينا المحذوف والمقصور. وأما التشعيت، فهو دخول القطع في الوند من فاعلاتن التي من الضرب الأول من الخفيف فيعود مفعولن.

شطر المضارع

المضارع له عروض واحد مجزوء ممنوع من القبض، وضرب مجزوء ممنوع من القبض مثل عروضه، وهو:

وما يذكر اجتماعاً

بحفظ الذي أضعاً

ولم يلهنا سماعاً

متى تعصه أطاعاً

يقرّبك منه باعاً

أرى للصبأ وداعاً

كأن لم يكن جديراً

ولم يُصبنا سُوراً

فجدد وصال صبّ

إن تدن منه شبراً

تقطيعه مفاعلين، فاعلاتن مفاعلين، فاعلاتن يجوز في حشو المضارع من الزحاف: القبض والكف في مفاعلين، ولا يجتمعان فيه لعلّة التراقب: ولا يخلو من واحد منهما. وقد فسرنا التراقب مع التعاقب. وبدخله في فاعلاتن الكف. فأما القبض فهو ممنوع منه وتد فاع لاتن في المضارع، لأنه مفروق وهو فاع. والتراقب في المضارع بين السببين من مفاعلين في الياء والنون لا يثبتان معاً ولا يسقطان معاً، وهو في المقتضب بين الفاء والواو من مفعولات.

شطر المقتضب

المقتضب له عروض واحد مجزوء مطوي وضرب مثل عروضه، وهو:

هل لديك من فرج
بالدلال والغنج
سوء فعلك السمج
قد غرقت في لجج
إن لهوت من حرج

يا مليحة الدّعج
أم تراك قاتلتني
من أحسن وجهك من
عاذلي حسبكما
هل عليّ ويحكما

تقطيعه فاعلاتن، مفتعلن فاعلاتن، مفتعلن يدخل التراقب في أول البيت في السبيين المتقابلين. على حسب ما ذكرناه في المضارع.

شطر المجتث

مُعصب بالجمال
معي ظلام الليلي
خياله مع خيالي
يختال كل اختيال
والوجه مثل الهلال

له عروض واحد مجزوء ضربه مثله
وشادن ذي دلال
يضمن أن يحتويه
أو يلتقي في منامي
غصنن نما فوق دعص
البطن منها خميص

تقطيعه مستفع لن، فاعلاتن مستفع لن، فاعلاتن يجوز في المجتث: الزحاف والخين والكف والشكل. فالخين فيه حسن، والكف فيه صالح، والشكل فيه قبيح.

ويدخله التعاقب بين السبيين المتقابلين من مستفع لن وفاعلاتن على حسب ما يدخل الخفيف، وذلك لأن وتد مستفع لن في المجتث مفروق، كما هو في الخفيف مفروق، وذلك يقع.

شطر المتقارب

المتقارب له عروضان وخمسة أضرب. فالعروض الأول منها تام يجوز فيه الحذف والقصر. له أربعة ضروب: ضرب تام مثل عروضه، وضرب مقصور، وضرب محذوف معتمد، وضرب أبتري. والعروض الثاني مجزوء محذوف معتمد، له ضرب مثله معتمد. العروض التام الجائز فيه الحذف والقصر الضرب التام

وزال الأحيّة عنه فزالاً
وتحكي الجنوب عليه الشمالا
وربع الحبيب فحط الرحالا
خرست فما أستطيع السؤال

حال عن العهد لما أحالا
محلّ تحلّ غراها السحاب
فيا صاح هذا مقام المحبّ
سل الربع عن ساكنيه فإني

تقطيعه

فعولن، فعولن، فعولن فعولن، فعولن فعولن، فعولن الضرب المقصور

وَدَمَعِي مَرَيْتَ وَنَوْمِي نَفَيْتَ
وَيَنَأَى عَزَائِي إِذَا مَا نَأَيْتَ
وَمَا تَحْتَ ذَلِكَ مِمَّا كُنَيْتَ
وَمَجْنَاهُمَا خَيْرُ شَيْءٍ جَنَيْتَ
فَمَثَلُكَ لَمَّا بَدَأَ لِي بَنَيْتَ
وَمِنْ ذَكَرَ عَهْدَ الْحَبِيبِ بَكَيْتَ

فُؤَادِي رَمَيْتَ وَعَقْلِي سَبَيْتَ
يَصُدُّ اصْطِبَارِي إِذَا مَا صَدَدْتِ
عَزَمْتَ عَلَيْكَ بِمَجْرَى الْوِشَاحِ
وَتَفَاحُ خَدِّ وَرُمَانِ صَدْرٍ
تَجَدَّدَ وَصَلًا عَفَا رَسْمُهُ
عَلَى رَسْمِ دَارِ قَفَارٍ وَقَفَّتِ

تقطيعه

فعولن، فعولن، فعولن، فعولن فعولن، فعولن، فعولن الضرب المحذوف المعتمد

لَمَّا لَقَيْتُ مِنْ جَوَى هَمَّهَا
وَلَمْ تَنْقُ اللَّهُ فِي دَمَّهَا

أَيَا وَيْحَ نَفْسِي وَوَيْلَ أَمَّهَا
فَدَيْتُ الَّتِي قَتَلْتُ مُهْجَتِي

وَأَكْنِي إِذَا قِيلَ لِي سَمَّهَا
وَأَرْصُدُ غَفْلَةَ قَيْمَمِهَا
غَدَاةَ رَمَتْنِي بِأَسْهَمِهَا

أَغْضُ الْجُفُونَ إِذَا مَا بَدَتْ
أُدَارِي الْعَيُونَ وَأَخْشَى الرَّقِيبِ
سَبْتُنِي بِجِيدٍ وَخَدِّ وَنَحْرِ

تقطيعه

فعولن، فعولن، فعولن، فعل فعولن، فعولن، فعولن، فعل الضرب الأبتري

وَلَا تَتَدَبَّنْ رَاكِبًا نِيَّهَ
فَلَا أَحَدٌ نَاشِرٌ طِيَّهَ
وَلَا تَارِكٌ أَبَدًا غِيَّهَ
فَلَيْسَ الرُّسُومُ بِمَيْكِيَّهَ
خَلَّتْ مِنْ سُلَيْمِي وَمِنْ مِيَّهَ

لَا تَبِكْ لِيَلَى وَلَا مِيَّهَ
وَبِكِّ الصَّبَا إِذْ طَوَى ثَوْبَهُ
وَلَا الْقَلْبَ نَاسٍ لَمَّا قَدَّمَ مَضَى
وَدَعَ قَوْلَ بَاكِ عَلَى أَرْسَمِ
خَلِيلِي عُوْجًا عَلَى رَسْمِ دَارِ

تقطيعه

فعولن، فعولن، فعولن، فعولن فعولن، فعولن، فعولن، فعولن، فع العروض المجزوء المحذوف المعتمد ضربه مثله

وتذكر ما قد مضى

أبى عنك أن يُعرضا

فصبراً على ما قضى

تركت به منهضاً

ونبلك جمر الغضا

أأحرم منك الرضا

وتعرض عن هائم

قضى الله بالحُب لي

رميت فؤادي فما

فقوسك شريانة

تقطيعه

فعولن، فعولن، فعل فعولن، فعولن، فعل يجوز في المتقارب من الزحاف: القبض. وهو فيه حسن. ويدخله الحزم في الابتداء، على حاسب ما يدخل الطويل.

وقد أكملنا في هذا الجزء مختصر المثال في ثلاث وستين مقطعة، وهي عدد ضروب العروض، والتزمنا فيها ذكر الزحاف والعلل التي يقوم ذكرها في الجزء الأول الذي احتصرنا فيه فرش العروض، ليكون هذا الكتاب مكتفياً بنفسه، لمن قد تأدى إليه معرفة الأسباب والأوتاد ومواضعها من الأجزاء الثمانية التي ذكرناها في مختصر الفرش.

واحتجنا بعد هذا إلى اختلاف الأبيات التي استشهد بها الخليل في كتابه، لتكون حجة لمن نظر في كتابنا هذا. فاجتلبنا جملة الأبيات السالمة والمعتلة، وما لكل شطر منها.

أبيات الطويل

العروض المقبوض

الضرب السالم

حنانئك بعض الشر أهون من بعض

أبا منذر أفنيت فاستبق بعضنا

ضرب مقبوض

ويأتيك بالأخبار من لم تزود

ستبدي لك الأيام ما كنت جاهلاً

أثلم مكفوف

فعيناك للبين يجودان بالدمع

شافتك أحداج سليمي بعافل

أثرم

لأسماء عفى المزن والقطر

هاجك ربع دارس باللوى

محذوف معتمد

وما كل مؤت نصحه بلبيب

وما كل ذي لب بمؤتيك نصحه

أَقِيمُوا بَنِي النُّعْمَانِ عِنَّا صُدُورَكُمْ

وإِلَّا تُقِيمُوا صَاغِرِينَ الرَّعُوسَا

أبيات المديد

عروض مجزوء

ضرب مجزوء

يَا لِبَكْرٍ انشُرُوا لِي كُتَيْبًا

يَا لِبَكْرٍ أَيْنَ أَيْنَ الْفِرَارُ

ضرب مجزوء

مخبون صدر

وَمَتَى مَائِعَ مِنْكَ كَلَامًا

يَتَكَلَّمُ فَيَجِبُكَ بَعْقَلُ

مكفوف عجز

لَنْ يَزَالَ قَوْمَنَا مَخْصِبِينَ

صَالِحِينَ مَا انْتَقَوْا وَاسْتَقَامُوا

مشكول عجز

لَمَنْ الدِّيَارُ غَيْرَهُنَّ

كُلُّ جَوْنٍ الْمُزْنِ دَانِي الرَّيَابِ

مشكول طرفاه

لَيْتَ شِعْرِي هَلْ لَنَا ذَاتَ يَوْمٍ

بِجُنُونِ فَارِعٍ مِنْ تَلَاقٍ

العروض المحذوف اللزوم الثاني

الضرب المقصور، اللزوم الثاني

لَا يَضُرُّنَّ امْرَأً عَيْشُهُ

كُلُّ عَيْشٍ صَائِرٍ لِلزَّوَالِ

الضرب المحذوف، وواللزوم الثاني

وَاعْلَمُوا أَنِّي لَكُمْ حَافِظٌ

شَاهِدًا مَا كُنْتُ أَوْ غَائِبًا

الضرب الأبتري، اللزوم الثاني

إِنَّمَا الذَّلْفَاءُ يَأْقُوتَةُ

أُخْرِجَتْ مِنْ كَيْسٍ دِهْقَانُ

العروض المحذوف المخبون

الضرب المحذوف المخبون

للفتى عقل يعيش به

حيث تهدي ساقه قدمه

الضرب الأبتري

رب نارٍ بتُّ أرمقها

تقضم الهندي والغارا

أبيات البسيط

العروض المخبون

الضرب المخبون

يا حارٍ لا أرمين منكم بدهية

لم يلقها سوقة قبلي ولا ملك

مخبون

لقد حلت صروفها عجب

فأحدثت عبراً وأعقت دولا

مطوي

ارتحلوا غداة وانطلقوا بكراً

في زمرٍ منهم تتبعها زمرٌ

الضرب المقطوع

اللازم الثاني

قد أشهد الغارة الشعواء تحملني

جرداء معروقة اللحين سرحوبٌ

والخير والشر مقرونان في قرن

فالخير متبع والشر محذورٌ

العروض المجزوء

الضرب المذال

إننا ذمنا على ما خيلت

سعد بن زيدٍ وعمراً من تميم

مخبون

قد جاءكم أنكم يوماً إذا

فارقتم الموت سوف تبعثون

مطوي

يا صاح قد أخلفت أسماء ما

كانت تمنيك من حُسن الوصال

الضرب المحذوف

ماذا وقوفي على ربع خلا

مُخلوق دارس معجم

مخبون

إِنِّي لَمُتُّنِ، عَلَيْهَا اسْتَمَعُوا

مطوي

فِيهَا خِصَالٌ تُعَدُّ أَرْبَعُ

تَلَقَى الْهَوَىٰ عَنْ بَنِي صَادِقٍ

نَفْسِي فِدَاهُ وَأُمِّي وَأَبِي

الضرب المقطوع الممنوع من الطي

سَبِّرُوا مَعًا إِنَّمَا مِيعَادُكُمْ

يَوْمُ الثَّلَاثَاءِ بِيْطْنِ الْوَادِي

قَلْتُ اسْتَجِيبِي فَلَمَّا لَمْ تُجِبْ

سَالَتْ دُمُوعِي عَلَى رِدَائِي

العروض المقطوع الممنوع من الطي

مَا هَيَّجَ الشُّوقَ مِنْ أَطْلَالٍ

أَضَحَتْ قَفَارًا كَوَحْيِ الْوَاحِي

أبيات الوافر

العروض المقطوف

الضرب المقطوف

لَنَا غَنَمٌ نُسَوِّقُهَا غَزَارَ

كَأَنَّ قُرُونَ جَلَّتْهَا الْعِصِيَّ

إِذَا لَمْ تَسْتَطِعْ شَيْئًا فَدَعَهُ

وَجَاوَزَهُ إِلَى مَا تَسْتَطِيعُ

معقول

مَنَازِلَ لِفَرْتَتِي قِفَارُ

كَأَنَّمَا رَسُومُهَا شُطُورُ

أعصب

إِذَا نَزَلَ الشِّتَاءُ بَدَارِ قَوْمٍ

تَجَنَّبَ جَارَ بَيْتِهِمُ الشِّتَاءُ

أقصم

مَا قَالُوا لَنَا سَيِّدًا وَلَكِنْ

تَفَاحَشَ قَوْلُهُمْ فَأَتُوا بِهَجْرٍ

وَإِنَّكَ خَيْرٌ مِّنْ رَّكَبِ الْمَطَايَا

وَأَكْرَمُهُمْ أَبًا وَأَخًا وَنَفْسًا

العروض المجزوء الممنوع من العقل

ضربه مثله

لَقَدْ عَلِمْتَ رَبِيعَةَ أَنْ

حَبْلَكَ وَاهِنَ خَلْقُ

أَهَاجِكَ مَنزَلَ أَقْوَى

وَوَغَيْرَ آيَةِ الْغَيْرِ

عجبتُ لمعشر عدلوا

بمُعتمر أبا عمرو

أبيات الكامل

العروض التام الضرب التام

وإذا صحوتُ فما أقصر عن ندى

وكما علمتِ شمائلي وتكرمي

المضمر

إنِّي امرؤٌ من خير عبس منصبي

شَطْرِي وأحمي سائري بالمنصل

موقوص

يَذُبُّ عن حَرِيمِهِ بِنَبْلِهِ

وسيفه ورُمحه ويحتمي

مخزول

مَنْزِلَةٌ صَمٌّ صَدَاها وَعَفَا

رسمها إن سئلت لم تُجِبْ

الضرب المقطوع

ممنوع إلا من الإضمار

وإذا دعوتُكَ عَمَّهَنَ فَإِنَّهُ

نسب يَزِيدُكَ عِنْدَهُنَّ خَبَالًا

وإذا افتقرت إلى الذخائر لم تجد

ذُخْرًا يَكُونُ كصَالِحِ الأَعْمَالِ

الضرب الأحذ المضمر

لَمَنْ الدِيَارُ بِرَامَتَيْنِ فَعَاقِلٌ

دَرَسَتْ وَغَيَّرَ آيَهَا القَطْرُ

العروض الأحذ السالم

الضرب الأحذ المضمر

لَمَنْ الدِيَارُ عَفَا مَعَالِمَهَا

هَطَلُ أَجَشُّ وَبَارِحُ تَرَبُّ

الضرب الأحذ المضمر

وَلَأَنْتِ أَشْجَعُ مِنْ أُسَامَةَ إِذْ

دُعِيَتْ نَزَالٌ وَلُجَّ فِي الذَّعْرِ

العروض المجزوء

الضرب المرفل

لَقَدْ سَبَقْتُمْ إِلِ

ي فَلَإِنْ نَزَعْتِ وَأَنْتِ آخِرِ

المضمر	و غرتني وزعت إن	ك لابن في الصَّيف تامر
موقوص	ذَهَبُوا إِلَى أَجْلِ وَك	ل مؤجل حيّ كذاهب
الضرب المذال	جَدَّثَ يَكُونُ مَقَامَهُ	أبدأ بمُختلف الرِّيح
مضمر	إِذَا اغْتَبَطْتَ أَوْ ابْتَأَسُ	تُ حمدت ربَّ العالمين
موقوص	كُتِبَ الشَّقَاءُ عَلَيْهِمَا	فهما له مُتيسرٌ إن
مخزول	جاوبت إذ دعاك	معالنا غير مخاف
الضرب المجزوء	وَإِذَا افْتَقَرْتَ فَلَا تَكُنْ	متخشعاً وتَجَمَّلِ
مضمر	إِذَا الْهَوَى كَرِهَ الْهُدَى	وَأبَى التَّقَى فَاعصِ الْهَوَى
موقوص	ولو أنها وزنت شمام	بحلمه شالت له
مخزول	خطت مرارتها	بحلاوة كالعسل
الضرب المقطوع الممنوع إلا من إضمار	وَإِذَا هُمْ ذَكَرُوا الْإِسَاءَ	ءة أكثروا الحَسَنَاتِ
مضمر	وَأَبُو الْحَلِيسِ وَرَبِّ مَكْ	ة فارغ مشغول

أبيات الهزج

العروض المجزوء الممنوع من القبض

ضربه مثله

إلى هند صبا قلبي

وهند مثلها يصبي

مكفوف

فهذان يدودان

وذا من كذب يرمي

مقبوض

فقالَت لا تخف شيئاً

فما عندك من باس

أثرم

أعادُوا ما استعاروه

كذاك العيش عاريه

أخرب

ولو كان أبو بشر

أميراً ما رَضِينَاهُ

أبتر

وفي الذين ماتُوا

وفيما جَمَعُوا عِبْرَهُ

الضرب المحذوف

وما ظهري لباغي الض

يم بالظَّهْر الذَّلُول

مثله

قتلنا سيّد الخزر

ج سعد بن عبّاده

أبيات الرجز العروض التام

الضرب التام

دار لسلمى إذ سلمى جارةٌ

قفّر ترى آياتها مثل الزُّبر

محبون

وطالما وطالما سقى

بكفّ خالدٍ وأطعما

مطوى

فأرسل المهر على آثارهم

وهيّا الرُّمَحَ لَطَعْنَ فَطَعْنَ

أكرم من عبد مناف حسبا

والقلبُ مني جاهد مجهودُ
إذ كان لا يرجى ليوم خيرُهُ

من أم عمروا مقفر

إذ مات عبد ربه

تَهوى وَمَنْ لا تَمَقُهُ

ما أنت وابنة مَطَر

وشَجَواً قد شجا

ي ابنُ أختكم

يخك إلا عمله

طللا وخيماً

أخب فيها وأضع

ر وامق

فيما غضبوا

ما ولدتُ والدة من وِددٍ

الضرب المقطوع الممنوع من الطي

القلب منها مُستريح سالمٌ

لا خيرَ فيمن كفَّ عنا شرُّه

العروض المجزوء الضرب المجزوء

قد هاج قلبي منزل

مات الفَعَال كُلُّه

هل يَسْتوي عندك مَنْ

لا متك بنت مَطَر

العروض المشطور الضرب المشطور

ما هاج أحزانا

إنك لا تَجني من الشوك العنب مخبون

قد تعلمون أنن

ما كان من ش

هلا سألت

مطوى العروض المنهوك

يا ليتني فيها جَدع

فارقَت غي

يا صاح

أبيات الرمل

قطر مَغْنَاهُ وتَأْوِيْبُ الشَّمَالِ

مِثْلُ سَحَقِ البُرْدِ عَفَى بَعْدَكَ ال

مخبون صدر

نَهَضَ الصَّلَاتُ إِلَيْهَا فَحَوَّاهَا

وَإِذَا رَايَةً مَجْدَ رُفِعَتْ

مكفوف عجز

ثُمَّ جَدَّ فِي طِلَابِهَا قَضَاهَا

لَيْسَ كُلُّ مَنْ أَرَادَ حَاجَةً

مشكول عجز

وَعَلَيْكُمْ أَخَاهُ فَاضْرِبُوهُ

فَدَعُوا أَبَا سَعِيدٍ عَامِرًا

مشكول طرفان

صَابِرٌ مَحْتَسِبٌ لَمَّا أَصَابَهُ

إِنْ سَعِدًا بَطَلَ مُمَارَسٌ

الضرب المقصور

إِنَّمَا يُفْعَلُ هَذَا بِالذَّلِيلِ

يَا بَنِي الصَّيْدَاءِ رُدُّوا فَرَسِي

مُغْلَقًا مِنْ دُونِهِ بَابُ الْحَدِيدِ

أَحْمَدْتُ كِسْرَى وَأَمْسَى قَيْصَرَ

الضرب المحذوف الجائز فيه الخبن

شَابَ بَعْدِي رَأْسُ هَذَا وَاشْتَهَبُ

قَالَتْ الْخَنَسَاءُ لَمَّا جِئْتُهَا

مخبون

لَفَعَ الرَّأْسَ مَشِيبٌ وَصَلَعَ

كَيْفَ تَرَجُونَ سُقُوطِي بَعْدَمَا

الضرب المشبع

خَبِرَا رَسْمًا بَعْسَفَانِ

يَا خَلِيلِيَّ أَرْبَعَا فَاسْتِ

مخبون

تِ وَأَدَمَ عَرِيَّاتِ

وَاضْحَاتِ فَارَسِيًّا

الضرب المحزوء

مِثْلُ آيَةِ الزَّبُورِ

مُقْفَرَاتِ دَارِسَاتِ

الضرب المشبع

لَانَ حَتَّى لَوْ مَشَى الذَّ

الضرب المحذوف الجائز فيه الخبن

مَا لَمَّا قَرَّتْ بِهِ الْعِي

مخبون

قَلْبِهِ عِنْدَ الثَّرِيَا

أبيات السريع

قَدْ يُدْرِكُ الْمُبْطِئُ مِنْ حَظِّهِ

رَّ عَلَيْهِ كَادَ يُدْمِيهِ

نَانَ مِنْ هَذَا ثَمِينِ

بِائْتُنَّ مِنْ جِسْدِهِ

وَالْخَيْرُ قَدْ يَسْبِقُ جُهْدَ الْحَرِيصِ

العروض المكفوف

المطوي اللازم الثاني الضرب الموقوف اللازم الثاني

أَزْمَانَ سَلَّمَى لَا يَرَى مِثْلَهَا أَل

مخبول

قَالَهَا وَهُوَ بِهَا عَارِفٌ

مخبون

أَرْدُ مِنَ الْأُمُورِ مَا يَنْبَغِي

الضرب المكسوف اللازم الثاني

لَا تَكْشَعُ الشَّوْلَ بِأَغْبَارِهَا

هَاجَ الْهَوَى رَسْمَ بَدَاتِ الْغَضَى

الضرب الأصلم السالم

قَالَتْ وَلَمْ تَقْصِدِ لِقِيلَ الْخَنَى

الضرب المخبون المكسوف

النَّشْرَ مَسْكٌ وَالْوَجُوهَ دَنَا

يَأْيِهَا الزَّارِي عَلَى عَمْرُو

العروض المشطور الموقوف الممنوع من الطي

يَا صَاحَ مَا هَاجَكَ مِنْ رَبْعِ خَالٍ

مخبون

لَا بَدَّ مِنْهُ فَاحٌ

مشطور

نِيرِ وَأَطْرَافِ الْأَكْفِ عَنَّمِ

قَدْ قُلْتَ فِيهِ غَيْرَ مَا تَعْلَمُ

يَنْضَحْنَ فِي حَافَاتِهِ بِالْأَبْوَالِ

ذَرْنَ وَإِنْ فَتَنَ

يا صاحبي رحلي

محبون الضرب المشطور المكسوف الممنوع من الطي

يا رب إن أخطأتُ أو نسيت

أقلأً عدلي

وبلدةٍ بعي

أبيات المنسرح العروض الممنوع من الخبل الضرب المطوى

إنَّ ابنَ زَيْدٍ ما زال مستعملاً

من لم يَمُتْ عِبْطَةً يَمُتْ هَرَمًا

دة النياط

للخير يُهدي في مِصرَ العرفا

الموت كأس والمرء ذائقها

ومثله

إنَّ سُمَيْرًا أرى عَشيرته

قد حَدَبوا دونه وقد أنفوا

المطوى

منازلَ عفاهنَّ بذِي الأراك

كُلُّ وابلٍ مسبلٍ هَطَلِ

محبون

في بَلَدٍ معروفةٍ سمته

قَطَّعه عابرٌ على جَمَلِ

محبول

صبراً بني عبد الدار

العروض المنهوك المكسوف الممنوع من الطي

ضربه مثله

ويل أم سعد سعدا

أبيات الخفيف

العروض التام

الضرب التام الجائز فيه التشعيث

حلَّ أهلي بطنَ الغميس فبادوا

ليس من مات فاستراح بميت

لَي وحلَّتْ علوية بالسخال

إنما الميتُ ميِّت الأحياءِ

محبون صدر

وفؤادي كعهده بسليمي

بهوى لم يزل ولم يتغيَّر

مكسوف عجز

وأقلّ ما يظهر من هَواكا

مشكول عجز

ونحن نستكثر حين يبدو

إنّ قومي جاحجة كرم

مشكول طرفان

مُتقادم مجدهم أختيارُ

الضرب المحذوف الجائز فيه الخين

إنّ قدرنا يوماً على عامر

مخبون

نمّتل منه أو ندعه لكم

رُبّ خرّق من دونها قذّف

ما به غيرُ الجنّ من أحد

العروض المجزوء

الضرب المجزوء

ليت شعري ماذا ترى

مثله

أم عمرو في أمرنا

اسلمي أم خالد

الضرب المقصور المخبون كلّ خطب إن لم تكونوا غَضِبْتُمْ يسيرُ أبيات المضارع

رُبّ ساعٍ لقاعد

العروض المجزوء الممنوع من القبض

وإن تدن منه شبراً

مقبوض

يُقربك منه باعاً

دعاني إلى سعادٍ

أحرب

دواعي هوى سعاد

وقد رأيت مثل الرجال

أشتر

فما أرى مثل زيّد

قلنا لهم وقالوا

كلُّ له مقال

أبيات المقتضب

الضرب المجزوء المنطوي

هل علي ويحكما

إنّ لهوت من حرج

أعرضتُ فلاح لها

أبيات المحدث

عارضان كالبرد

العروض المجزوء

البطن منها خميصٌ

الضرب المجزوء

والوجه مثل الهلال

ولو علقت بسلمي

علمت أن ستموت

أولئك خير قومي

إذ ذكر الخيار

أنت الذي ولدتك أس

ماء بنت الحباب

أبيات المتقارب العروض التام الجائز فيه الحذف والقصر الضرب التام

فأما تميم تميم بن مرّ

فألقاها القوم روبي نيماً

ومثله

فلا تعجلني هداك المليك

فإن لكل مقام مقالاً

مقبوض

أفاد فجاد وساد وزاد

وذاد وعاد وقاد وأفضل

أثلم

رَمينا قِصاصاً وكان النَّقاصُ

حقاً وعدلاً على المسلمينا

أثرم

قلت سداداً لمن جاعني

فأحسنْتُ قولاً وأحسنْتُ رأياً

مثل الأول

ولولا خِداش أخذت دوا

ب سعد ولم أعطه ما عليها

الضرب المقصور

ويأوى إلى نسوة بئسات

وشعت مراضيع مثل السعالي

مثله

على رسم دارِ قفارٍ وقفتُ

ومن ذكّر عهدَ الحبيب بكيت

مثله مقصور الضرب المحذوف المعتمد

وأبني من الشعر شعراً عويصاً

يُنسي الرواة الذي قد رَووا

العقد الفريد-ابن عبد ربه الأندلسي

سَبَبْتَنِي بَخْدٌ وَجِيدٌ وَنَحْرٌ

غَدَاةَ رَمْتَنِي بِأَسْهَمِهَا

الضرب الأبتري

غير معتمد الاعتماد في المتقارب بإثبات النون في فعولن التي قبل القافية

خَلِيلِي عَوْجاً عَلَى رَسْمِ دَارِ

خَلَّتْ مِنْ سُلَيْمِي وَمِنْ مِيَّه

مثله

صَفِيَّةٌ قَوْمِي وَلَا تَعْجِزِي

وَبِكِّي النَّسَاءَ عَلَى حَمَزَةٍ

الضرب المحذوف

أَمِنْ دِمْنَةٍ أَقْفَرْتُ

لِسُلَيْمِي بَذَاتِ الْغَضَا

المخروء المعتمد

وَرُوحَكَ النَّادِي وَتَعْلَمُ مَا فِي غَدَا

علل القوافي

القافية حرف الروي الذي يُبني عليه الشعر، ولا بد من تكريره فيكون في كل بيت والحروف التي تلزم حرف الروي أربعة: التأسيس، والردف، والوصل، والخروج: فأما التأسيس، فألف يكون بينها وبين حرف الروي حرف متحرك بأي الحركات كان، وبعض العرب يسميه الدخيل، وذلك نحو قول الشاعر:

كَلِينِي لَهُمْ يَا أَمِيمَةَ نَاصِبِ

فالألف من ناصب تأسيس. والصاد، دخيل. والباء، روي. والياء المتولدة من كسرة الباء، وصل. أما الردف، فإنه أحد حروف المد واللين، وهي الياء والواو والألف. يدخل قبل حرف الروي. وحركة ما قبل الردف بالفتح إذا كان الردف ألفاً، وبالضم إذا كان واواً، وبالكسر إذا كان ياءاً. والأرداف ثلاثة: فردف يكون ألفاً مفتوحاً ما قبلها. وردف يكون واواً مضموماً ما قبلها، وردف يكون ياءً مكسوراً ما قبلها. وقد تجتمع الياء والواو في شعر واحد، لأن الضمة والكسرة أختان، كما قال الشاعر:

وَمَيْسُورٌ مَا يُرْجَى لَدَيْكَ عَسِيرٌ

أَجَارَةٌ بَيْتِنَا أَبُوكَ غَيْرٌ

فجاء بغيور مع عسير ولا يجوز مع الألف غيرها، كما قال الشاعر:

بَانَ الْخَلِيطُ وَلَوْ طُوعَتْ مَا بَانَ

وجنس ثالث من الردف، وهو أن يكون الحرف مفتوحاً، ويكون الردف ياء أو واو، نحو قول الشاعر:

يَشْمُ رَأْسِي وَيَشْمُ جِيبي

كُنْتُ إِذَا مَا جِئْتَهُ مِنْ غَيْبِ

وأما الوصل. فهو إعراب القافية وإطلاقها. ولا تكون القافية مطلقاً، إلا بأربعة أحرف: ألف ساكنة مفتوح ما قبلها من الروي، وياء ساكنة مكسور ما قبلها من الروي، وهاء متحركة أو ساكنة مكنية.

ولا يكون شيء من حروف المعجم وصلاً غير هذه الأحرف الأربعة: الألف والواو والياء والهاء المكنية. وإنما جاز لهذه أن تكون وصلاً ولم يجز لغيرها

من حروف المعجم، لأنّ الألف والياء والواو حُرُوفُ إعرابٍ ليست أصليّات، وإنما تتولّد مع الإعراب، وتشبّهت الماء بمن لألها زائدة مثلهن. ووجدوها تكون خلفاً منهن في قولهم: أُرقت الماء، وهرقت الماء، وأيا زيد، وهيازيد. ونحو قول الشاعر:

من هاهنا وهاهنا ومن هُنه

قد جمعت من مكن وأمكنه

وهو يريد هنا، فجعل الماء خلفاً من الألف.

وأما الخروج فإنّ هاء الوصل إذا كانت متحرّكة بالفتح تبتّها ألف ساكنة وإذا كانت متحرّكة بالكسر تبعثها ياء ساكنة، وإذا كانت متحرّكة بالضم تبعثها واو ساكنة. فهذه الألف والياء والواو يقال لها الخروج. وإذا كانت هاء الوصل ساكنةً لم يكن لها خروج، نحو قول الشاعر:

ثارَ عَجَاجٌ مستطيلٌ قَسَطُهُ

وأما الحركات اللوازم للقوافي فخمس، وهي: الرس والحذو والتّوجيه والمجرى والتّفاذ. فأما الرّس، ففتحة الحرف الثاني قبل التأسيس.

وأما الحذو، ففتحة الحرف الذي قبل الرّدف أو ضمته أو كسرتة. وأما التّوجيه، فهو ما وجه الشاعرُ عليه قافيته، من الفتح والضم والكسر، يكون مع الروي المطلق أو المقيد، إذا لم يكن في القافية ردف ولا تأسيس.

وأما المجرى: ففتح حرف الروي المطلق أو ضمته أو كسرتة.

وأما النفاذ، فإنه فتحة هاء الوصل أو كسرتها أو ضمته. ولا تجوز الفتحة مع الكسرة، ولا الكسرة مع الضمة، ولكن تنفرد كل حركة منها على حالها وقد يجتمع في القافية الواحدة الرّس، والتأسيس، والدخيل، والروي، والمجرى، والوصل، والنفاذ، والخروج، كما قال الشاعر:

في بعض غراته يوافقها

يوشك من فرّ من منيته

فحركة الواو الرس، والألف تأسيس، والفاء دخيل، والقاف رويّ، وحركته المجرى، والهاء هاء الوصل، وحركتها النفاذ، والألف الخروج. ونحو قول الشاعر:

عفت الديار محلها فمقامها

فحركة القاف الحذو، والألف الردف، والميم الروي، وحركتها المجرى، والهاء وصل، وحركتها النفاذ، والألف الخروج. وكل هذه الحروف والحركات لازمة للقافية.

ما يجوز أن يكون تأسيساً وما لا يجوز أن يكون

إذا كانت ألف التأسيس في كلمة وكان حرف الروي في كلمة أخرى منفصلة عنها فليس بحرف تأسيس، لانفصاله من حرف الروي وتباعده منه، لأنّ بين حرف الروي والتأسيس حرفاً متحرّكاً. وليس كذلك الرّدف، لأنّ الرّدف قريب من الروي ليس بينهما شيء، فهو يجوز أن يكون في كلمة ويكون الروي في كلمة أخرى منفصلة عنها، نحو قول الشاعر:

إليه تجرّ أذيالها

أنته الخلافة منقادة

ولم يك يصلح إلا لها

فلم تك تصلح إلا له

فألف: إلا ردف. واللام، حرف الروي، وهي في كلمة منفصلة من الردف، فجاز ذلك لقرب ما بين الردف والروي، ولم يجز في التأسيس، لتباعده من الروي، نحو قول الشاعر:

عكف النبيت يلعبون الفنّزجا

فهن يعكفن به إذا حجا

فلم يجعلها تأسيساً لتباعدها عن الروي، وانفصالها منه. ومثله قول الراجز:

وطالماً وطالماً وطالماً

غلبتُ عاداً وغلّبتُ الأعجماء

فلم يجعل الألف تأسيساً. وقد يجوز أن تكون تأسيساً إذا كان حرف الروي مضمراً، كما قال زهير:

ألا ليت شعري هل يرى الناس ما أرى

من الأمر أو يبدو لهم ما بداليا

فجعل ألف بداليا تأسيساً، وهي كلمة منفصلة من القافية لما كانت القافية في مضمراً. وكذلك قول الشاعر:

وقد يَنْبُت المرعى على دمن الثرى

وتبقى حزازات النفوس كما هيأ

وأما غلامك وسلامك في قافية فلا تكون الألف إلا تأسيساً، لأن الكاف التي هي حرف الروي لا تنفصل من الغلام.

ما يجوز أن يكون حرف روي وما لا يجوز أن يكون

اعلم أن حروف الوصل كلها لا يجوز أن تكون رويًا، لأنها دخلت على القوافي بعد تمامها، فهي زوائد عليها، ولأنها تسقط في بعض الكلام. فإذا كان ما قبل حرف الوصل ساكنًا فهو حرف الروي، لأنه لا يكون ما قبل حرف الروي ساكنًا، نحو قول الشاعر:

أصبحت الدنيا لأربابها

ملهى وأصبحت لها ملهى

كأنني أحرّم منها على

قدر الذي نال أبي منها

وإذا حُرّكت ياء الوصل أو واو الوصل جاز لها أن تكون رويًا، كما قال زهير:

ألا ليت شعري هل يرى الناس ما أرى

من الأمر أو يبدو لهم ما بداليا

وقال عبد الله بن قيس الرقيات:

إن الحوادث بالمدينة قد

شيبنتي وقرعن مروتيه

وكذلك الهاء من طلحة وحمزة وما أشبههما لا تكون رويًا أو وصلًا لما قبلها. وجعلها أبو النجم رويًا فقال:

أقول إذ جنن مدبجات

ما أقرب الموت من الحياة

وكذلك التاء نحو اقشعرت واستهلت، والكاف نحو: مالكا وفعالكا فقد يجوز أن تكون رويًا وقد يجوز أن تكون وصلًا. وإنما جاز أن دون رويًا لأنها أقوى من حرف الوصل، وجاز أن تكون وصلًا لأنها دخلت على القوافي بعد تمامها. وقد جعلت الخنساء التاء وصلًا ولزمت ما قبلها، فقالت:

أعيني هلا تبكيان أخاكما

إذا الخيل من طول الوجيف اقشعرت

فلزمت الراء في الشعر كله وجعلت التاء صلة. وقال آخر فجعل، التاء رويًا

الحمد لله الذي استقلت

بإذنه السماء واطمأنت

وقال حسان فجعل الكاف رويًا:

دعوا فلجات الشام قد حيل بينها

بطعن كأفواه المخاض الأوارك

بأيدي رجال هاجروا نحو ربهم

بأسيافهم حقًا وأيدي الملائك

ثم قال:

إذا سلكت بالرمل من بطن عالج

فقولاً لها ليس الطريق هُنالك

وهنالكَ كافها زائدة، تقول للرجل: هنالك، وللمرأة: هنالك. ، وقال غيره:

أبا خالد يا خيرَ أهل زمانِكَ

فجعل الكاف رويًا. وقد يجوز أن تكون وصلًا ويُلزم ما قبلها.

وكذلك فعالكم وسلامكم الميم الآخرة حرف الروي، كما قال الشاعر:

بنو أمية قومٌ من عَجيبهم

أنَّ المَنونَ عليهم والمَنونُ هُمُ

الميم، حرف الروي. وقد جعلها بعضُ الشعراء وصلًا مع الهاء والكاف التي قبلها، لأنهما حرفا إضمار كالهاء والكاف، ولحقت الاسم بعد تمامه كما لحقت الهاء والكاف، في نحو قوله:

زرُّ والديكُ وقفٌ على قبريهِما

فكأنني بكَ قد نُقلتَ إليهِما

ومثله لأمية بن أبي الصلت:

لبيكُما لبيكُماها

ها أنذا لَدَيْكُما

وأما النسبة مثل ياء قرشيٍّ وثقفيٍّ وما أشبه ذلك، إذا كانت خفيفةً فأنت فيها بالخيار، إن شئت جعلتها رويًا وإن شئت وصلًا، نحو قول الشاعر:

إني لمن أنكرني ابنُ اليَربِبي

قتلتُ علباءَ وهندَ الجملي

فجعل الياء الخفيفة رويًا، وإذا كانت النسبة مثقلة مثل قرشيٍّ وثقفيٍّ لم تكن إلا رويًا. وإذا قال شعراً على حصاها ورمائها لم تكن الهاء إلا حرف الروي.

ومن بني شعرا على اهتدى فجعل الدال رويًا جاز له أن يجعل مع ذلك أحدا. وإن جعل الألف من اهتدى حرف الروي لم يجز معها أحدا وجاز له معها بشرى وحُبلى وعَصا وأفعى، ومن ذلك قولُ الشاعر:

داينتُ أروي والديونُ تقضى

فمطلتُ بعضاً وأدتُ بعضاً

فلزم الضاد من تقضى وجعل الياء وصلًا، فشبهها بحرف المد الذي في القافية. ومثله:

ولأنت تقري ما خلقت وبع

ض القوم يخلق ثم لا يفري

ومثله:

هجرتك بعد توأصل دَعُدُ

وبدا لدَعُد بعض ما يبُدُّو

ويرمي، مع يقضي جاز إذا كانت الياء حرف الروي، لأنها من أصل الكلمة.

ومما لا يجوز أن يكون رويًا الحروف المضمرّة كلها، لدخولها على القوافي بعد تمامها، مثل اضربا، واضربوا، واضربي، لأن ألف اضربا لحقت اضرب وواو اضربوا لحقت اضرب، وياء اضربي لحقت اضرب بعد تمامها: فلذلك كانت وصلًا، لأنها زائدة مع هذا الفعل، في نحو قول الشاعر:

لا يُبعد الله جيراناً تركتهم

لم أدِر بعد غداةِ البين ما صنعوا

ومثله:

يا دار عَبلَة بالجواء تكلمي

وعمي صباحا دار عبلَة واسلمي

فجعل الياء وصلاً، وبعضهم جعلها رويّاً على فُح.

وأما ياء غلامي فهي أضعف من ياء اسلمي لأنها قد تُحذف في بعض المواضع تقول: هذا غلام، تريد غلامي. وقالوا. يا غلام أقبِل: في النداء وواغلاماه، فحذفوا الياء، وبعضهم يجعلها رويّاً على ضعفها، كما قال:

إني امرؤٌ أحميّ نمار إخوتي

إذا رأوا كريبهً يرمون بي

ومثله:

إذا تغدّيت وطابت نفسي

فليس في الحيّ غلامٍ مثلي

قال الأخفش: وقد كان الخليل يُجيز إخواني مع أصحابي. ويأبي عليه العلماء، ويحتجّ بقول الشاعر:

بازل عامين حديثٌ سنّي

لمثل هذا ولدتني أمّي

وحرف الإضمار إذا كان ساكناً كان ضعيفاً. فإذا تحرّك قَويّ وجاز أن يكون رويّاً، كقول زهير:

ألا ليت شعري هل يرى الناس ما أرى

من الأمر أو يبّدو لهم ما بدّالياً

وإنما جاز الكاف أن تكون رويّاً ولم يجز ذلك للهاء، وكلاهما حرف إضمار، لأن الكاف أقوى عندهم من الهاء وأثبت في الكلام. وإذا خاطبت المذكر والمؤنث لا تبدل صورتها كما تُبدل الهاء، في: غلامه وغلّامها. وإذا قلت: مررت بغلّامك، ورأيت غلامك، فالكاف في حال واحدة، والهاء مضطربة في قولك. رأيت غلامه، ومررت بغلّامه. وإنما جاز فيها أن تكون وصلاً أيضاً كما تكون الهاء، لأنها تشبهت بالهاء إن كانت حرف إضمار كالهاء، ودخلت على الاسم كدخول الهاء، وكانت اسماً للحرف كما تكون الهاء، وإنما خالفتها بالشيء اليسير. وأما قولك: ارمه، واغزه، فلا تكون الهاء هنا رويّاً، لأنها لحقت الاسم بعد تمامه، ولأنها زوائد فيه، وإنما دخلت لتبيّن الحركة من اغزه والميم من ارمه. وقد تدخل للوقف أيضاً. وإذا كانت الهاء أصلية لم تكن إلّا رويّاً: مثل قول الشاعر:

قالت أبيليّ لي ولم أسبّه

ما السنّ إلا غفلة المدلّه

ومن بنى شعراً على حيّ جاز له فيه طيّ وميّ، لأن الياء الأولى من حي ليست بردف، لأنها من حرف مثقل قد ذهب مجده ولينه.

قال سيبويه: إذا قال الشاعر: تعالى أو تعالوا، لم تكن الياء والواو إلّا رويّاً، لأنّ ما قبلها انفتح. فلما صارت الحركة التي قبلها غير حركتهما ذهبت قوتهما في المدّ وأكثر لينهما.

وكذلك: احشي واحشوا. وكل ياء أو واو انفتح ما قبلها. وكذلك قوله: رأيت قاضياً ورامياً، وأريد أن يغزو وتدعو، في قافيتين من قصيدة. وأما الميم من غلامهم وسلامهم فقد تكون رويّاً وقد تكون وصلاً، ويلزم ما قبلها، كما قال الشاعر:

يا قاتل الله عصابةً شهدوا

خيف مني لي ما كان أسرعهم

إن نزلوا لم يكن لهم لبثٌ

أو رحلوا أعجلوا مؤدعهم

لا غفر الله للحجيج إذا

كان حبيبي إذا نأوا معهم

فالعين، هنا حرف الرويِّ، والهاء والميم صلة لحروف الإضمار كلها التي تقدّم ذكرها. ولا يحسن أن يكون رويّاً إلا ما كان منها مُحركاً، لأنّ المتحرك أقوى من الساكن، وذلك مثل ياء الإضافة التي ذكرنا، أو ما كان منها حرفاً قوياً مثل الكاف والميم والنون، فإنها تكون رويّاً، ساكنةً كانت أو متحركة، وذلك مثل قول الشاعر:

قفي لا يكن هذا تعله وصلنا

لبيّن ولا ذا حظنا من نوالك

ثم قال:

إذا ووزنت شمّ الذرى بالحوارك

أبرّ وأوفى ذمّةً بعهدوه

وقال آخر:

ك وإن كان قد ملك

قل لمن يملك الملو

وبعثنا إليك بك

قد شربناك مرّة

وقال آخر في الميم:

فقلت وأنكرت الوجوه هم هم

رقوني وقالوا يا خويلد لا ترع

ولآخر:

فروعي وأصلي قريش العجم

نمت في الكرام بني عامر

كما أنا في الناس فخر لهم

فهم لي فخر إذا عدّوا

وقال آخر في النون:

فلو قد رحلتُم صبح الموت بعضنا

طرحتم من الترحال أمراً فعمنا

وقال آخر:

د من حدّر الموت أن يأتين

فهل يمنعني ارتيادي البلاء

علي وإن قلت قد أنسان

أليس أخو الموت مستوثقاً

وأما الهاء. فقد أجمعوا ألا تكون رويّاً لضعفها، إلا أن يكون ما قبلها ساكناً، كما قد ذكرنا. ومن بني شعراً على اخشوا جاز له معها: طغوا، وبغوا، وعصوا، فتكون الواو رويّاً لانفتاح ما قبلها وظهورها مع القبح، لأنها مع الضمة صلة، ولا تكون هذه إلا رويّاً.

عيوب القوافي

السناد، والإيطاء، والإقواء، والإكفاء، والإجازة، والتضمين، والإصراف.

السناد على ثلاثة أوجه: فالوجه الأول منها اختلاف الحرف الذي قبل الرّدْف بالفتح والكسر، نحو قول الشاعر:

جبال معاقل ما يرتقينا

الم تر أنّ تغلب أهل عزّ

بأطراف القنا حتى رويناً

شربنا من دماء بني تميم

والوجه الثاني اختلاف التوجيه في الروي المقيّد، وهو اجتماع الفتحّة التي قبل الروي مع الكسرة والضمة، كهيئتها في الحدو، وذلك كقوله:

وقاتم الأعماق خاوي المخرق

ثم قال:

ألف شتى ليس بالراعي الحمق

ومثله:

تَمِيمَ بْنِ مُرٍّ وَأَشْيَاعُهَا

وَكِنْدَةَ حَوْلِي جَمِيعاً صَبْرٌ

إِذَا رَكِبُوا الْخَيْلَ وَاسْتَلَامُوا

تَحَرَّفَتِ الْأَرْضُ وَالْيَوْمُ قُرٌّ

والوجه الثالث من السناد أن يُدخل حرف الرّدف ثم يدعه، نحو قول الشاعر:

وَبِالطَّوْفِ نَالَا خَيْرَ مَا أَصْبَحَا بِهِ

وَمَا الْمَرْءُ إِلَّا بِالتَّقَلُّبِ وَالطَّوْفِ

فِرَاقِ حَبِيبٍ وَانْتِهَاءِ عَنِ الْهَوَى

فَلَا تَعَذِّلْنِي قَدْ بَدَأَ لَكَ مَا أَخْفَى

وأما القافية المطلقة فليس اختلاف التوجيه فيه سناداً.

وأما الإقواء والإكفاء فهما عند بعض العلماء شيء واحد، وبعضهم يجعل الإقواء في العروض خاصة دون الضرب، ويجعلون الإكفاء والإيطاء في الضرب دون العروض.

فالإقواء عندهم أن تنقص قوة العروض، فيكون: مفعولن في الكامل، ويكون في الضرب متفاعلن فيزيد العجز على الصدر زيادة قبيحة. فيقال: أقوى في العروض، أي أذهب قوته، نحو قول الشاعر:

لَمَّا رَأَتْ مَاءَ السَّلَى مَشْرُوبًا

وَالْفَرْتِ يُعْصِرُ فِي الْإِنَاءِ أَرَنْتِ

ومثله:

أَفْبَعْدَ مَقْتَلِ مَالِكِ بْنِ زُهَيْرٍ

تَرْجُو النِّسَاءَ عَوَاقِبَ الْأَطْهَارِ

والخليل يُسمى هذا المُعَرَّ. وزعم يونس أن الإكفاء عند العرب هو الإقواء. وبعضهم يجعله تبديل القوافي، مثل أن يأتي بالعين مع الغين لشبههما في الهجاء، وبالذال مع الطاء، لتقارب مخرجيهما، ويحتج بقول الشاعر:

جَارِيَةٌ مِنْ ضَبَّةِ بْنِ أَدِّ

كَأَنَّهَا فِي دِرْعِهَا الْمَنْعَطِ

والخليل يُسمى هذا الإجازة. وأبو عمرو يقول: الإقواء: اختلاف إعراب القوافي بالكسر، والضم، والفتح. وكذلك هو عند يونس وسيبويه. والإجازة عند بعضهم اجتماع الفتح مع الضم أو الكسر في القافية. ولا تجوز الإجازة إلا فيما كان فيه لوصل هاء ساكنة، نحو قول الشاعر:

الْحَمْدُ لِلَّهِ الَّذِي

يَعْفُو وَيَسْتَدِ انْتِقَامُهُ

فِي كَرَاهِمِهِمْ وَرِضَاهُمُ

لَا يَسْتَطِيعُونَ اهْتِزَامَهُ

ومثله:

فَدَيْتُ مِنْ أَنْصَفَنِي فِي الْهَوَى

حَتَّى إِذَا أَحْكَمَهُ مَلَّهُ

أَيْنَمَا كُنْتُ وَمَنْ ذَا الَّذِي

قَبْلِي صَفَا الْعَيْشُ لَهُ كُلَّهُ

والإكفاء: اختلاف القوافي بالكسر والضم، عند جميع العلماء بالشعر، إلا ما ذكر يونس. وأما المُضْمَن، فهو أن لا تكون القافية مُسْتغْنِيَةً عن البيت الذي يليها، نحو قول الشاعر:

وَهُمْ وَرَدُوا الْجَفَارَ عَلَى تَمِيمٍ

وَهُمْ أَصْحَابُ يَوْمِ عُكَاظِ إِنِّي

شَهِدْتُ لَهُمْ مَوَاطِنَ صَالِحَاتٍ

تُنَبِّئُهُمْ بَوَدِّ الصِّدْرِ مِنِّي

وهذا قبيح، لأن البيت الأول متعلق بالبيت الثاني لا يستغني عنه، وهو كثير في الشعر. وأما الإيطاء، وهو أحسن ما يُعَابَ به الشعر، فهو تكرير القوافي. وكلما تباعد الإيطاء كان أحسن، وليس في المعرفة مع النكرة إيطاء.

وكان الخليل يزعم أن كل ما اتفق لفظه من الأسماء والأفعال، وإن اختلف معناه فهو إيطاء، لأن الإيطاء عنده إنما هو ترديد اللفظتين المتفتحتين من الجنس الواحد، إذا قلت للرجل تخاطبه: أنت تضرب، وفي الحكاية عن المرأة: هي تضرب، فهو إيطاء. وكذلك في قافية: أمر جلال، وأنت تريد تعظيمه، وهو في قافية أخرى جلال وأنت تريد تهوينه، فهو إيطاء. حتى إذا كان اسم مع فعل، اسم، وإن اتفقا في الظاهر فليس بإيطاء، مثل يزيد، وهو ويزيد، وهو فعل،

ما يجوز في القافية من حروف اللين

اعلم أن القوافي التي تدخلها حروف المد، وهي حروف اللين، فهي كل قافية حُذِفَ منها حرف ساكن وحركة، فتقوم المدة مقام ما حذف. وهو من الطويل فعولن المخدوف، ومن المديد فاعلان المقصور، وفعلن الأبتز. ومن البسيط فعلن المقطوع، ومفعولن المقطوع. فأما مستفعلان المذال، فاختلف فيه، فأجازه قوم بغير حرف مد، لأنه قد تم وزيد عليه حرف بعد تمامه. وألزمه قوم المد لالتقاء الساكنين، وقالوا: المدة بين الساكنين تقوم مقام الحركة. وإجازته بغير حرف مد أحسن لتمامه. وأما الوافر فلا يلزم شيء منه حرف مد.

وأما الكامل فيدخل فيه حرف اللين في فعالتن المقطوع، وفي متفاعلان المذال. وأما الهزج فلا يلزمه حرف مد.

وأما الرجز فيلزم مفعولن منه المقطوع حرف المد.

وأما الرمل فيلزم فاعلان وحدها لالتقاء الساكنين.

وأما السريع فيلزم فاعلان الموقوف لالتقاء الساكنين. وكذلك مفعولان. وأما المنسرح فيلزم مفعولات، كما يلزم السريع.

وأما الخفيف فإنه يلزم فعولن المقصور، وإن كان قد نقص منه حرفان، ليس في المدة خلف من حرفين. ولكن لما نقص من الجزء حرف، وهو سين مستفعلن قام ما تخلف بالمدة مقام ما نقص من آخر الجزء، لأنه بعد المدة.

وأما المضارع والمقتضب والمجتث فليس فيها حرف مد لتمام أواخرها.

وأما المتقارب فألزموا فعولن المقصور حرف المد لالتقاء الساكنين.

قال سيبويه: وكل هذه القوافي قد يجوز أن تكون بغير حرف المد، لأن رويها تام صحيح على مثل حاله بحرف المد، وقد جاء مثل ذلك لا أشعارهم، ولكنه شاذ قليل، وأن يكون بحرف المد أحسن لكثرة ولزوم الشعراء إياه. ومما قيل بغير حرف مد.

قَدْماً وَقَلْتُ عَلَيْكَ خَيْرَ مَعَدَّ

وَلَقَدْ رَحَلْتُ الْعَيْسَ ثُمَّ زَجَرْتُهَا

وقال آخر:

إِنْ تَمْنَعِ النَّوْمَ النَّسَاءَ يُمْنَعَنَّ

مقطعات على تأليف حروف الهجاء وضروب العروض

الضرب الأول من الطويل

لَنَا مِنْهُمَا دَاءٌ وَبُرٌّ مِنْ الدَّاءِ

وَأَزْهَرَ كَالْعَيْقُوقِ يَسْعَى بَزَاهِرَاءِ

وشاربُ مسكٍ قد حكى عطفة الرءاء
ولكن قثور اللّحظ من طرف حوراء
بمذهبة في راحة الكف صقراء

الضرب الثاني من الطويل

وان كان يُرضيك العذابُ فعذبني
كما أنني قربتُ غير مُقرب
وشمس متى تطلع إلى الشمس تغرب
لما قال: مرا بي على أم جندب

الضرب الثالث من الطويل

وإنسانُ عين خاض في غمرات
وفي في عيديه ميّتي وحياتي
كأنّي لها تربُّ وهن لداتي
سماء لها تنهلّ بالعبرات

الضرب الأول من المديد

لا ارتجاع لي بعد الثلاث
بدل التشبيب لي بالمراثي
وأراني صابراً لا نتكائي
وذكور في صفات إناث

الضرب الثاني من المديد

ماله من حيلة أو علاج

ألا بأبي صدعُ حكى العين عطفه
فما السحر ما يُعزّي إلى أرض بابل
وكفّ أدارت فذهب اللون أصفراً

معدبتي رفقا بقلبٍ مُعدب
لعمري لقد باعدت غير مُباعد
بنفسي بدر أخلم البدر نوره
لو أن امرأ القيس بن حُجر بدت له

محب طوى كشحاً على الزفرات
فيا من بعينه سقامي وصحتي
بحبك عاشرت الهوم صبابة
فخدي أرض. للدموع ومقلتي

طلق اللهوّ فؤادي ثلاثاً
وبياض في سواد عذاري
غير أنني لا أطيق اصطباراً
بإناث في صفات ذكور

صدعت قلبي صدع الزجاج

مقبوض

المحذوف المعتمد

السالم

المقصود اللازم الثاني

مزجتُ رُوحِي أَلحَاطُهَا
يا قَضِيباً فُوقِ دِعْصِ نَقَاً
أنتُ نُورِي فِي ظَلَامِ الدُّجَى

بالهوى فهو لروحي مزاج
وكثيباً تحت تمثال عاج
وسراجي عند فقد السراج

الضرب الثالث من المديد

المخدوف اللازم الثاني

مستهام دَمَعه سَابِحُ
كُلِّمًا أَمْ سَبِيلِ الهُدَى
حَلْ فِيمَا بَيْنَ أَعْدَائِهِ
أَيُّهَا القَادِحِ نَارَ الهَوَى

بين جنبيه هوى فادح
عافه السائح والبارح
وهو عن أحبابه نازح
أصلها يأبها القادح

الضرب الرابع من المديد

المقطوع المخدوف

عَادَ مِنْهَا كُلُّ مَطْبُوحِ
وَاعْتَقَدَ مِنْ وَدِ أَهْلِ الحِمَى

غير داذي ومفضوخ
كلُّ ود غير مشدوخ

وَانتَشَقُّ رِيَاكُ مِنْ مُلْتَقَى
إِنَّ فِي العِلْمِ وَآثَارِهِ

ضارب بالمسك مطوخ
ناسخاً من بعد منسوخ

الضرب الخامس من المديد

المخدوف المخيون

يا مُجِيلِ الرُّوحِ فِي جَسَدِي
وَقَرِيدِ الحُسْنِ وَاحِدَهُ
خُذْ بِكَفِّي إِنْني غَرِقُ
وَرِيَاخُ الهَجْرِ قَدْ هَدَمَتْ

والذي يفتر عن برد
منتهاه منتهى العدد
في بحار جمّة المدد
ما أقام الوصل من أودي

الضرب السادس من المديد

الأبتر

فَقُرَى الكَرَّخِ ببغداد
لا ولا بَتَعِ ولا داذي
بِأبي ذلك من هاذي
والمعاني دأب أستاذي

ذكرت من طيزَ تَابَادِ
فَهْوَة لَيْسَتْ بباذقة
مرة يهذي الحليمُ بها
فهي أستاذُ الشَّرَابِ بنا

الضرب الأول من البسيط

المخبون

في طرفه قَدْرُ أمضى من القَدْرِ
لم يُبْقِ من مُهْجَتِي شَيْئاً ولم يَذَرِ
وما بخديهِ من وِرْدٍ ومن طُرُرِ
ولا عفا الشوقُ عني عَفْوَ مُقْتَدِرِ

نُورٌ تَوْلَدُ من شَمْسٍ ومن قَمَرِ
أصلَّى فؤادي بلا ذَنْبٍ جَوَى حُرْقِ
لا والرحيقُ المُصَفَّى من مَرِاشِفِهِ
ما أنصفَ الحُبُّ قَلْبِي في حُكُومَتِهِ

الضرب الثاني من البسيط

المقطوع

فصادني أشهل العَيْنين كالبَازِي
ذا فوق بَغْلٍ وهذا فوق قَفَازِ
لو انه مَوْعِدٌ يَقْضِي بِإِنجَازِ
نَفْسِي الفِدَاءِ لَذَاكَ الضاحكِ الهَازِي

خَرَجْتُ أَجْتَازُ قَفراً غيرَ مُجْتَازِ
صَقَرٌ على كَفِّهِ صَقَرٌ يُولِّفُهُ
كم موعِدٍ لي من أَلْحَاطِ مُقْلَتِهِ
أَبْكِي وَيَضْحَكُ مِنِّي طَرْفُهُ هُزْواً

الضرب الثالث من البسيط

المجزوء المذال

مالي بعدك بالعيش اغتباط
وَدَدْتُ أَنْ له خَدْيِي بِسَاطِ
مُخْتَلِطاً عقله كُلَّ اختِلاطِ
قال غداً نَلْتَقِي عند الصراطِ

يا غُصْنَا مائساً بين الرِّياطِ
يا مَنْ إذا ما بدا لي ماشياً
تَتَرَكُ عِناهُ مَنْ أبصره
قلتُ متى نَلْتَقِي يا سيدي

الضرب الرابع من البسيط

المجزوء السالم

وفاتناً لفظه إذ يلفظُ
وجهك من كل عين يحفظ
من طرفه ناعسٌ مستيقظ
تجرحها مقلتي إذ تلحظ

يا ساحراً طرفه إذ يلحظ
يا غصنا ينثني من لينه
أيقظ طرفي إذ بدا من نعسة
ظبي له وجنة من رقة

الضرب الخامس من البسيط

المقطوع

وكل حرٌّ له مملوكُ
أو ذهبٌ خالص مَسْبُوكُ
عن عاجل كُله متروك
ولا طريق له مَسْلُوكُ

يا من دمي دونه مسفوك
كانه فضة مسبوكة
ما أطيب العيش إلا أنه
والخير مسدودة أبوابه

العروض المجزوء المقطوع

ضربه مثله

وبدعة الحسن والجمال
فأين كفي من الهلال
فلم ترق ولم تبال
حالاً من السقم مثل حالي

إليك يا غرة الهلال
مددت كفاً بها انقباض
شكوت ما بي إليك وجداً
أعاضك الله عن قريب

العروض الأول من الوافر

ضربه مثله

ومن لحظات مقلته سهامُ
خفي من حسنه البدر التمام
فلا لفظ إلي ولا ابتسام
ولا يمحو محاسنك السلام

بنفسي من مرآشفه مدام
ومن هو إن بدا والبدر تم
أقول له وقد أبدى صدودا
تكلم ليس يوجعك الكلام

العروض الثاني من الوافر

مجزوء سالم ضربه مثله

سلبتَ الرُّوحَ من بَدَنِي

فلي بَدَنٍ بلا رُوحٍ

قرنتَ مع الرَّدَى نَفْسِي

فليتَ السَّحَرُ من عَيْنِي

ورُعتَ القلبَ بِالْحَزَنِ

ولي رُوحٍ بلا بَدَنٍ

فنفسي وهو في قَرْنٍ

ك لم أره ولم يَرَنِي

العروض الثالث من الوافر

المجزوء المعصوب

غزالٌ من بني العاصِ

فأتلَع جيبه ذعرا

أيا مَنْ أخلصتُ نَفْسِي

أطاعك من صَمِيمِ القلِ

أحسَّ بصوتِ قَنَاصِ

وأشخصَ أيَّ إِنْشِخاصِ

هواه كُلَّ إِنْخِلاصِ

ب عَفْواً كلِّ مُعْتاصِ

العروض الأول من الكامل التام

ضربه مثله

في الكَلَّةِ الصَّقْرَاءِ رِيحٌ أبيضُ

لَمَّا غدا بينَ الحُمُولِ مُقَوِّضاً

صَدَّ الكَرَى عن جَفَنِ عَيْنِكَ مُعْرِضاً

أَدَيْتُ من حُبِّي إِلَيْكَ فَرِيضَةً

يَسْبِي القلوبَ بِمُقْلَتِيهِ وَيَمْرَضُ

كاد الفؤاد عن الحَيَاةِ يُقَوِّضُ

لما رآه يَصْدُ عنكَ وَيُعْرِضُ

إن كان حُبَّ الخَلْقِ مما يُفْرِضُ

الضرب الثاني

المقطوع

أومتُ إِلَيْكَ جُفُونُهَا بودَاعِ

بِيضاءِ أنماها النَّعِيمِ بصُفْرَةٍ

أما الشَّبَابِ فودَّعتُ أيامه

لله أيام الصَّبَا لو أنها

خودَ بَدَتِ لكَ من وراءِ قِنَاعِ

فكأنها شَمْسٌ بغيرِ شُعاعِ

ووداعهنَّ موكلٌ بوداعي

كَرَّتْ عَلَيَّ بِلَذَّةِ وَسَمَاعِ

الضرب الثالث

الأخذ المضمر

صَلَّتِ الْجَبِينِ مُعْقَرِبِ الصُّدُغِ
طَوْرًا وَتَنْزَغِ أَيَّمَا نَزَغِ
وَالشَّمْسِ فِي دَرَجِ مِنَ الْفَرَعِ
لِلْقَلْبِ مِنْكَ مُمَيِّتَةِ اللَّدْغِ

الضرب الرابع

بَلْ ظَبِيَّةٍ أَوْفَتْ عَلَى شَرْفِ
بَحْرًا وَلَا اِكْتَنَفَتْ ذَرًا صَدَفِ
وَسَمِعَتْ قَوْلَ اللَّهِ فِي السَّرْفِ
إِنْ كُنْتَ تَقْبَلُ تَوْبَ مُعْتَرِفِ

الضرب الخامس

مَا بَيْنَهَا وَالْمَوْتِ مِنْ فَرَقِ
يَفْتَرُّهُ مِبْسَمَهَا عَنِ الْبَرْقِ
لِلشَّمْسِ مُطَّلَعًا سِوَى الشَّرْقِ
لَوْ فِي يَدَيْهِ مَفَاتِحِ الرِّزْقِ

الضرب السادس

شَمْسٌ تَجَلَّتْ فِي حَنَادِسِ
سِدِّ بَيْنِ حَارِسَةِ وَحَارِسِ
يَسْتَأْسِرُ الْبَطْلُ الْمُمَارِسِ
رَسْمٌ تَغْيِيرُ فَهُوَ دَارِسِ

الضرب السابع

أَصْغَى إِلَيْكَ بِكَأْسِهِ مُصْغِي
كَأْسٌ تَوْلَّفَ بِالْمَحَبَةِ بَيْنَنَا
فِي رَوْضَةِ دَرَجَتِ بَزَهْرَتِهَا الصَّبَا
فَانشَرَبَ بِكَفِّ أَغْنَى عَقْرَبِ صَدْغِهِ

الأخذ الممنوع من الإضمار العروض الثاني

يَا دَمِيَّةُ نُصِبْتَ لِمُعْتَكِفِ
بَلْ دُرَّةُ زَهْرَاءِ مَا سَكَنْتِ
أَسْرَفْتَ فِي قَتْلِي بِلَا تَرَةِ
إِنِّي أَتُوبُ إِلَيْكَ مُعْتَرِفًا

الأخذ المضمر

يَا فِتْنَةَ بُعِثْتَ عَلَى الْخَلْقِ
شَمْسٌ بَدَتْ لَكَ مِنْ مَغَارِبِهَا
مَا كُنْتُ أَحْسِبُ قَبْلَ رُؤْيَتِهَا
يَا مَنْ يَضَنَّ بِفَضْلِ نَائِلِهِ

المجزوء المرفل العروض الثالث - له أربعة ضروب

طَلَعَتْ لَهُ وَاللَّيْلِ دَامِسِ
تَخْتَالُ فِي لَيْنِ الْمَجَا
يَا مَنْ بِبَهْجَةِ وَجْهِهِ
لَمْ يَبْقَ مِنْ قَبْلِي سِوَى

المجزوء المذيل

دَعَّ قَوْلَ وَاثِيَةِ وَوَاثِي
وَاشْرَبَ مُعْتَقَةً تَسَلُّ

وَاجْعَلْهُمَا كَلْبِي هِرَاشٍ
سَلُّ فِي الْعِظَامِ وَفِي الْمَشَاشِ

الضرب الثامن

المجزوء الصحيح

أَلْحَاطُ عَيْنِي تَلْتَهِي
رَتَعْتَ بِهَا وَتَنْزَهْتَ
يَا أَيُّهَا الْخَنْثُ الْجُفُو
وَالْمَكْتَسِي غَنْجَا أَمَا

فِي رَوْضٍ وَرَدَّ يَزْدَهِي
فِيهَا أَلَذُّ تَنْزَهَ
نَ بِنَخْوَةٍ وَتَكَرَهَ
تَرْثِي لِأَشْعَثِ أَمْرِهِ

الضرب التاسع

المجزوء المقطوع إلا من سلامة الثاني

أَطْفَتِ شَرَارَةَ لَهْوِي
شَعَلُ عَلُونِ مَفَارِقِي
لَمَّا سَلَكْتَ عَرَوْضَهَا
يَا أَيُّهَا الشَادِي صَهْ

وَلَوْتُ بِشِدَّةِ عَدْوِي
وَمَضْتُ بِبَهْجَةِ سَرْوِي
ذَهَبَ الزَحَافُ بِحَدْوِي
لَيْسَتْ بِسَاعَةِ شَدْوِي

الهزج

له عروض واحد وضربان

أَلَا يَا وَيْحَ قَلْبِي لِلشَّ
جَعَلْتَ الْغِيَّ سَرِبَالِي

بَابِ الْغَضِّ إِذْ وَكَلِي
وَكَانَ الرَّشْدُ بِي أَوْلِي

بِنَفْسِي جَائِرٌ فِي الْحُكِّ
وَلَيْسَ الشَّهْدُ فِي فِيهِ

مَ يُؤَلِّفِي جَوْرَهُ عَدَلَا
بِأَحْلَى عِنْدِهِ مِنْ لَا

الضرب الثاني

المحذوف

هُنَا تَفَنَّى قَوَافِي الشَّعِّ
قَوَافٍ أُلْبَسْتَ حَلِيًّا

رَفِي هَذَا الرَّوِي
مِنَ الْحُسْنِ الْبَدِي

كتاب الياقوتة الثانية في علم الألحان واختلاف الناس فيه

قال أبو عمر أحمد بن محمد بن عبد ربه: قد مضى قولنا في أعاريض الشعر، وعلل القوافي، وفسرنا جميع ذلك بالمنظوم والمنثور، ونحن قائلون بعون الله وإذنه في علم الغناء واختلاف الناس فيه، ومن كرهه ولأبي وجه كرهه، ومن استحسنته ولأبي وجه استحسنته. وكرهنا أن يكون كتابنا هذا بعد اشتماله على فنون الآداب والحكم والنوادر والأمثال، عطلا من هذه الصناعة التي هي مراد السمع، ومرتع النفس، وربيع القلب، ومجال الهوى، ومسلاة الكئيب، وأنس الوحيد، وزاد الراكب؛ لعظم موقع الصوت الحسن من القلب، وأخذة بمجامع النفس. قال أبو سعيد بن مسلم: قلت لابن دأب: قد أخذت من كل شيء بطرف غير شيء واحد، فلا أدري ما صنعت فيه؟ فقال: لعلك تريد الغناء؟ قلت: أجل. قال: أما إنك لو شهدتني وأنا أترنم بشعر كثير عزة حيث يقول:

وإن عظمت أيام أخرى وجلت

وما مر من يوم علي كيومها

لاسترخت تكتكتك. قال: قلت: أتقول لي هذا؟ قال: إي والله، وللمهدي أمير المؤمنين كنت أقوله.

فضل الصوت الحسن

قال بعض أهل التفسير في قول الله تبارك وتعالى: "يزيد في الخلق ما يشاء": هو الصوت الحسن. وقال النبي صلى الله عليه وسلم لأبي موسى الأشعري، لما أعجبه حسن صوته: لقد أوتيت مزمارة من مزامير آل داود. وزعم أهل الطب أن الصوت الحسن يسري في الجسم ويجري في العروق، فيصفو له الدم، ويرتاح له القلب، وقمش له النفس، وتهتم الجوارح، وتخف الحركات. ومن ذلك كرهوا للطفل أن ينوم على أثر البكاء حتى يرقص ويطرب. وقالت ليلي الأخيلية للحجاج حين سألها عن ولدها، وأعجبه ما رأى من شبابه: إني والله ما حملته سهوا، ولا وضعته يتنأ، ولا أرضعته غيلا ولا أمتته مثقأ. يعني لم أنومه مستوحشا باكياً. ما حملته سهوا. تعني في بقايا الحيض. ويقال: حملت المرأة وضعا وتضعا، إذا حملت في استقبال الحيض. وقولها ولا وضعته يتنأ تعني منكسا. وقولها: ولا أرضعته غيلا تعني لبناً فاسداً. وزعمت الفلاسفة أن النغم فضل بقي من المنطق لم يقدر اللسان على استخراجها، فاستخرجته الطبيعة بالألحان على الترجيع لا على التقطيع، فلما ظهر عشقته النفس، وحن إليه الروح. ولذلك قال أفلاطون: لا ينبغي أن تمنع النفس من معايشة بعضها بعضا. ألا ترى أن أهل الصناعات كلها إذا خافوا المالة والفتور على أبدانهم ترنمو بالألحان فاستراحت لها أنفسهم. وليس من أحد كائنا من كان إلا وهو يطرب من صوت نفسه، ويعجبه طنين رأسه. ولو لم يكن من فضل الصوت إلا أنه ليس في الأرض لذة تكتسب من مأكلا أو ملبس أو مشرب أو نكاح أو صيد، إلا وفيها معاناة على البدن وتعب على الجوارح، ما خلا السماع؛ فإنه لا معاناة فيه على البدن ولا تعب على الجوارح وقد يتوصل بالألحان الحسان إلى خير الدنيا والآخرة. فمن ذلك أنها تبعث على مكارم الأخلاق صلى الله عليه وسلم اصطناع المعروف، وصلة الأرحام، والذب عن الأعراض، والتجاوز عن الذنوب. وقد يبكي الرجل بما على خطيئته، ويرقق القلب من قسوته، ويتذكر نعيم الملكوت ويمتله في ضميره. وكان أبو يوسف القاضي ربما حضر مجلس الرشيد وفيه الغناء، فيجعل مكان السرور به بكاء؛ كأنه يتذكر به نعيم الآخرة. وقال أحمد بن أبي داود: إن كنت لأسمع الغناء من محارق عند المعتصم فيقع علي البكاء. حتى إن البهائم لتحن إلى الصوت الحسن وتعرف فضله. وقال العتابي وذكر رجلا فقال: والله إن جلسه لطيب عشرته لأطرب من الإبل على الهداء، والنحل على الغناء. وكان صاحب الفلاحات يقول بأن النحل أطرب الحيوان كله إلى الغناء، وأن أفراحها لا تستترل بمثل الرجل والصوت الحسن. قال الراجز:

والطير قد يسوقه للموت

إصغاره إلى حنين الصوت

وبعد: فهل خلق الله شيئاً أوقع بالقلوب، وأشد اختلاساً للعقول من الصوت الحسن، لا سيما إذا كان من وجه حسن، كما قال الشاعر:

سمعته من حسن

رب سماع حسن

مبعد من حزن

مقرب من فرح

في صحة من بدني

لا فارقاني أبداً

وهل على الأرض رعديد مستطار الفؤاد يغني بقول جرير بن الخطفي:

هل أنت من شرك المنية ناجي

قل للجبان إذا تأخر سرجه

إلا ثاب إليه روحه، وقوي قلبه. أم هل على الأرض بخيل قد تقفعت أطرافه لوماً؟ ثم غني بقول حاتم الطائي:

إن الجواد يرى في ماله سبلا

يرى البخيل سبيل المال واحدة

إلا انبسطت أنامله، ورشحت أطرافه؟ أم هل على الأرض غريب نازح الدار بعيد المحل يغني بشعر علي بن الجهم:

ازح ماذا بنفسه صنعا

يا وحشتا للغريب في البلد الن

بالعيش من بعده ولا انتفعا

فارق أحبابه فما انتفعا

عدل من الله كل ما صنعا

يقول في نأيه وغربته

إلا انقطعت كبده حينئذ إلى وطنه، وتشوقاً إلى سكنه.

اختلاف الناس في الغناء

اختلاف الناس في الغناء، فأجازه عامة أهل الحجاز، وكرهه عامة أهل العراق. فمن حجة من أجازوه أن أصله الشعر الذي أمر النبي صلى الله عليه وسلم، وحض عليه، وندب أصحابه إليه، وتجدد به على المشركين. فقال لحسان: شن الغارة على بني عبد مناف، فوالله لشعرك أشد عليهم من وقع السهام في غلس الظلام.

وهو ديوان العرب، ومقيد أحكامهم، والشاهد على مكارمها. وأكثر شعر حسان بن ثابت يغني به.

قال فرج بن سلام: حدثني الرياشي عن الأصمعي قال: شهد حسان بن ثابت مآذبة لرجل من الأنصار، وقد كف بصره، ومعه ابنه عبد الرحمن، فكلما قدم شيء من الطعام قال حسان لابنه: أطعام يد أم طعام يدين؟ فيقول له: طعام يد. حتى قدم الشواء. فقال له: هذا طعام يدين. فقبض الشيخ يده. فلما رفع الطعام اندفعت قينة لهم تعني بشعر حسان:

تبصر دون البلقاء من أحد

انظر خليلي بباب جلق هل

محبس بين الكتبان فالسند

جمال شعناء قد هبطن من ال

قال: فجعل حسان يبكي، وجعل عبد الرحمن يومئ إلى القينة أن تردده. قال الأصمعي: فلا أدري ما الذي أعجب عبد الرحمن من بكاء أبيه.

وقالت عائشة، رضي الله عنها: علموا أولادكم الشعر تعذب ألسنتهم.

وأردف النبي صلى الله عليه وسلم الشريد، فايتنشه من شعر أمية، فأنشده مائة قافية وهو يقول: هيه، استحساناً لها.

فلما أعياهم القدح في الشعر والقول فيه، قالوا: الشعر حسن ولا نرى أن يؤخذ بلحن حسن. وأجازوا ذلك في القرآن وفي الأذان. فإن كانت الألحان

مكروهة، فالقرآن والأذان أحق بالتزويه عنه. وإن كانت غير مكروهة فالشعر أحوج إليها لإقامة الوزن وإخراجه عن حد الخبر. وما الفرق بين أن ينشد الرجل:

أتعرف رسماً كاطراد المذانب

مترسلاً، أم يرفع بها صوته مرتجلاً. وإنما جعلت العرب الشعر موزوناً لمد الصوت فيه والدنانة. ولولا ذلك لكان الشعر المنظوم كالخبر المنشور. واحتجوا في إباحة الغناء واستحسانه بقول النبي صلى الله عليه وسلم لعائشة: أهديتم الفتاة إلى بعلها؟ قالت: نعم. قال: ويعتتم معها من يغني؟ قالت: لا، قال: أو ما علمتم أن الأنصار قوم يعجبهم الغزل؟ ألا بعثتم معها من يقول:

نحييكم نحييكم

ء لم نحلل بوادكم

أتيناكم أتيناكم

ولولا الحبة السمرا

واحتجوا بحديث عبد الله بن أوس، ابن عم مالك، وكان من أفضل رجال الزهري قال: مر النبي صلى الله عليه وسلم بجارية في ظل فارع وهي تغني:

إن لهوت من حرج

هل علي ويحكم

فقال النبي صلى الله عليه وسلم لا حرج إن شاء الله. والذي لا ينكره أكثر الناس غناء النصب، وهو غناء الركبان.

حدث عبد الله بن المبارك عن أسامة بن زيد عن زيد بن أسلم، عن أبيه عن عبد الله بن عمر عن أبيه، قال: مر بنا عمر بن الخطاب وأنا وعاصم بن عمر نغني غناء النصب، فقال: أعبدا علي. فأعدنا عليه. فقال: أنتما كحماري العبادي، وقيل له: أي حماريك شر؟ قال: هذا ثم هذا.

وسمع أنس بن مالك أخاه البراء بن مالك يغني، فقال: ما هذا؟ قال: أبيات عربية أنصبتها نصبا.

ومن حديث الحماني عن حماد بن زيد بن يسار قال: رأيت سعد بن أبي وقاص في منزل بين مكة والمدينة قد ألقى له مصلي، فاستلقى عليه ووضع إحدى رجله على الأخرى وهو يتغنى. فقلت: سبحان الله أبا إسحاق، أتفعل مثل هذا وأنت محرم؟ فقال: يا بن أخي، وهل تسمعي أقول هجرا؟ ومن حديث المفضل عن قررة بن خالد بن عبد الله بن يحيى، قال: قال عمر بن الخطاب للنابغة الجعدي: أسمعني بعض ما عفا الله لك عنه من هناتك. فأسمعه كلمة له. قال: وإنك لقاتلها؟ قال: نعم. قال: لطالما غنيت بها خلف جمال الخطاب.

عاصم عن ابن جريج قال: سألت عطاء عن قراءة القرآن على ألحان الغناء والحداء. قال: وما بأس ذلك يا ابن أخي؟ قال: وحدث عبيد بن عمير الليثي أن داود النبي عليه السلام كانت له معزفة يضرب بها إذا قرأ الزبور، لتجتمع عليه الجن والإنس والطير، فيبكي ويبكي من حوله. وأهل الكتاب يجدون هذا في كتبهم.

ومن حجة من كره الغناء أن قال: إنه ينفر القلوب، ويستفز العقول، ويستخف الحليم، ويبعث على اللهو، ويحض على الطرب، وهو باطل في أصله. وتأولوا في ذلك قول الله عز وجل: "ومن الناس من يشتري لهو الحديث ليضل عن سبيل الله بغير علم ويتخذها هزوا". وأخطأوا في التأويل. إنما نزلت هذه الآية في قوم كانوا يشترون الكتب من أخبار السمر والأحاديث القديمة ويضاهون بها القرآن، ويقولون إنها أفضل منه. وليس من سمع الغناء يتخذ آيات الله هزوا. وأعدل الوجوه في هذا أن يكون سبيله سبيل الشعر، فحسنه حسن وقبيحه قبيح.

وقد حدث إبراهيم بن المنذر الحزامي أن ابن جامع السهمي قدم مكة بمال كثير، ففرقه في ضعفاء أهلها، فقال سفيان بن عيينة: بلغني أن هذا السهمي قدم بمال كثير. قالوا: نعم. قال: فعلام يعطى؟ قالوا: يغني الملوك فيعطونه. قال: وبأي شيء يغنيهم؟ قالوا: بالشعر. قال: فكيف يقول؟ فقال له فتى من تلاميذه: يقول:

وأرفع من منزري المسبل

أطوف بالبيت مع من يطوف

قال: بارك الله عليه، ما أحسن ما قال! قال: ثم ماذا؟ قال:

وأسجد بالليل حتى الصباح

قال: وأحسن أيضاً، أحسن الله إليه؛ ثم ماذا؟ قال:

عسى فارح الهم عن يوسف

قال: أمسك أمسك. أفسد آخرًا ما أصلح أولاً.

ألا ترى سفيان بن عيينة رحمه الله حسن الحسن من قوله وقبح القبيح.

وكره الغناء قوم على طريق الزهد في الدنيا ولذاهما، كما كره بعضهم الملاذ ولبس العباء، وكره الحواري وأكل الكشكار، وترك البر وأكل الشعير، لا على طريق التحريم، فإن ذلك وجه حسن ومذهب جميل. وإنما الحلال ما أحل الله والحرام ما حرم الله. يقول الله تعالى: "ولا تقولوا لما تصف ألسنتكم الكذب هذا حلال وهذا حرام لتفتروا على الله الكذب. إن الذين يفترون على الله الكذب لا يفلحون".

وقد يكون الرجل أيضاً جاهلاً بالغناء أو متجاهلاً به، فلا يأمر به ولا ينكره. قال رجل للحسن البصري: ما تقول في الغناء يا أبا سعيد؟ قال: نعم

العون على طاعة الله! يصل الرجل به رحمه، ويواسي به صديقه. قال الرجل: ليس عن هذا أسألك. قال: وعم سألتني؟ قال: أن يغني الرجل. قال:

وكيف يغني؟ فجعل الرجل يلوي شذقيه وينفخ منخريه. قال الحسن: والله يا بن أخي، ما ظننت أن عاقلاً يفعل هذا بنفسه أبداً.

وإنما أنكر عليه الحسن تشويهه وتعويج فمه، وإن كان أنكر الغناء فإنما هو من طريق أهل العراق، وقد ذكرنا أنهم يكرهونه.

قال إسحاق بن عمار: حدثني أبو المغلس عن أبي الحارث، قال: اختلف في الغناء عند محمد بن إبراهيم والي مكة، فأرسل إلى ابن جريج وإلى عمرو

ابن عبيد فأتياه فسألتهما، فقال ابن جريج: لا بأس به، شهدت عطاء بن أبي رباح في ختان ولده، وعنده ابن سريج المغني، فكان إذا غنى لم يقل له:

اسكت، وإذا سكت لم يقل له: غن، وإذا لحن رد عليه. وقال عمرو بن عبيد: أليس الله يقول: "ما يلفظ من قول إلا لديه رقيب عتيد". فأيهما يكتب

الغناء؟ الذي عن اليمين أو الذي عن الشمال؟ فقال ابن جريج: لا يكتبه واحد منهما، لأنه لغو كحديث الناس فيما بينهم، من أخبار جاهليتهم

وتناشد أشعارهم.

وقال إسحاق: وحدثني إبراهيم بن سعد الزهري، قال: قال لي أبو يوسف القاضي: ما أعجب أمركم بأهل المدينة في هذه الأغاني! ما منكم من شريف

ولا ديني يتحاشى عنها. قال: فغضبت وقلت: قاتلكم الله أهل العراق! ما أوضح جهلكم وأبعد من السداد رأيكم! متى رأيت أحداً سمع الغناء فظهر

منه ما يظهر من سفهائكم هؤلاء الذين يشربون المسكر، فيترك أحدهم صلاته، ويطلق امرأته، ويقذف المحصنة من جاراته، ويكفر بربه، فأين هذا من

هذا؟ من اختار شعراً جيداً ثم اختار له جرماً حسناً فردده عليه، فأطربه وأبهجه، فعفا عن الجرائم، وأعطى الرغائب. فقال أبو يوسف: قطعني، ولم يجر

جواباً.

قال إسحاق: وحدثني إبراهيم بن سعد الزهري قال: قال لي الرشيد: من بالمدينة ممن يجرم الغناء؟ قال: قلت: من أتبعه الله حزيتته. قال: بلغني أن مالك

بن أنس يجرمه. قلت: يا أمير المؤمنين، أو لمالك أن يجرم ويحلل! والله ما كان ذلك لابن عمك محمد صلى الله عليه وسلم إلا بوحي من ربه، فمن جعل

هذا لمالك؟ فشهادتي على أبي أنه سمع مالكا في عرس ابن حنظلة الغسيل يتغنى:

فأين تظنها أيننا

سليمى أزمعت بينا

ولو سمعت مالكا يجرمه ويدي تناله لأحسنت أديه. قال فتبسم الرشيد.

وعن أبي شعيب الحراني عن جعفر بن صالح بن كيسان عن أبيه، قال: كان عبد الله بن عمر يحب عبد الله بن جعفر حباً شديداً. فدخل عليه يوماً وبين

يديه جارية في حجرها عود، فقال: ما هذا يا أبا جعفر؟ قال: وما تظن به يا أبا عبد الرحمن؟ فإن أصاب ظنك فلك الجارية. قال: ما أراي إلا قد

أخذتها، هذا ميزان رومي. فضحك ابن جعفر، وقال: صدقت. هذا ميزان يوزن به الكلام، والجارية لك. ثم قال: هايتي. فغنت:

وحي بين ززمم والجحون

أيا شوقا إلى البلد الأمين

ثم قال: هل ترى بأساً؟ قال: لا. قال: فما أرى بهذا بأساً.
وسمع عبد الله بن عمر ابن محرز يغني:

سفلاً وأصبح سفلهما يعلو
مني الضلوع لأهلها قبل

لو بدلت أعلى منازلها
لعرفت مغناها بما احتملت

فقال عبد الله بن عمر: قل: إن شاء الله. قال: يفسد المعنى. قال: لا خير في كل معنى يفسده إن شاء الله.
حدث محمد بن زكريا الغلابي بالبصرة، قال: حدثني الشرقي عن الأصمعي، قال: سمع عمر بن عبد العزيز راكباً يغني في سفره:

وجدك لم أحفل متى قام عودي
كميت متى ما تعل بالماء تزبد
كسيد الغضا في الطخية المتورد
ببهكنة تحت الطراف المدد

فلولا ثلاث هن من عيشة الفتى
فمنهن سبق العاذلات بشرية
وكري إذا نادى المضاف محبباً
وتقصير يوم الدجن والدجن معجب

فقال عمر بن عبد العزيز: وأنا لولا ثلاث لم أحفل متى قام عودي: لولا أن أنفر في السرية، وأقسم بالسوية، وأعدل في القضية.
قال جرير المدني: مررت بالأسلمي العابد، وهو في مسجد رسول الله صلى الله عليه وسلم لي، فسلمت عليه، فأوما إلى وأشار بالجلوس، فجلست.
فلما سلم أخذ بيدي، وأشار إلى حلقي، وقال: كيف هو؟ قلت: أحسن ما كان قط. قال: أما والله لوددت أنه خلا لي وجهك وأنتك أسمعني:

يوم شطوا وأنت غير ملوم
غير مغنى معارف ورسوم

يا لقومي لحبك المصروم
أصبح الربع من أمامة فقراً

قلت: إذا شئت. قال: في غير هذا الوقت إن شاء الله.

وحدث أبو عبد الله المروزي، بمكة في المسجد الحرام، قال: حدثنا حبان بن موسى وسويد، صاحب ابن المبارك، قالوا: لما خرج ابن المبارك إلى الشام
مرابطاً خرجنا معه، فلما نظر القوم إلى ما فيه من النفير والغزو والسرايا في كل يوم التفت إلينا، فقال: إنا لله وإنا إليه راجعون على أعمار أفينائها،
وأيام وليال قد قطعناها في علم الشعر، وتركنا هاهنا أبواب الجنة مفتوحة. قال: فبينما هو يمشي ونحن معه في أرقعة المصيصة إذا نحن بسكران قد رفع
صوته يغني:

وليس إلى الذي أهوى سبيل

أذني الهوى فأنا الذليل

فأخرج رزنا بما من كمه، فكتب البيت. فقلنا له: أتكتب بيت شعر سمعته من سكران؟ قال: أما سمعتم المثل: رب جوهرة في مزيلة؟
قال: وولي الأوقص المخزومي قضاء مكة، فما رئي مثله في العفاف والنبيل. فبينما هو نائم ذات ليلة في عليه له، إذ مر به سكران يتغنى ويلحن في
غنائه. فأشرف المخزومي عليه، فقال: يا هذا، شربت حراماً، وأيقظت نياماً، وغنيت خطأ، خذه عني، فأصلحه عليه.
قال: الأوقص المخزومي: قالت لي أُمِّي: أي بني، إنك خلقت في صورة لا تصلح معها لمجاعة الفتيان في بيوت القيان، فعليك بالدين فإن الله يرفع به
الخشيسة ويتم به النقيصة. فنفعني الله بقولها.

وحدث عباس بن الفضل قاضي المدينة، قال: حدثني الزبير بن بكار: قاضي مكة عن مصعب بن عبد الله، قال: دخل الشعبي على بشر بن مروان، وهو
والي العراق لأخيه عبد الملك بن مروان، وعنده جارية في حجرها عود. فلما دخل الشعبي أمرها فوضعت العود. فقال له الشعبي: لا ينبغي للأمير أن
يستحي من عبده. قال: صدقتم. ثم قال للجارية: هاتي ما عندك، فأخذت العود وغنت:

تولت وماء العين في الجفن حائر

ومما شجاني أنها يوم ودعت

فلما أعادت من بعيد بنظرة

إلى التفاتاً أسلمته المحاجر

فقال الشعبي: الصغير أكيسهما، يريد الزير. ثم قال: يا هذه، أرخي من بكم، وشدي من زيرك. فقال له بشر بن مروان: وما علمك؟ قال: أظن العمل فيهما. قال: صدقت، ومن لم ينفعه يقينه.

وحدث عن أبي عبد الله البصري قال: غنى رجل في المسجد الحرام، وهو مستلق على قفاه صوتاً، ورجل من قريش يصلي في جواره، فسمعه خدام المسجد، فقالوا: يا عدو الله، أتغني في المسجد الحرام! ورفعوه إلى صاحب الشرطة. فتجوز القرشي في صلاته، ثم سلم وأتبعه، فقال لصاحب الشرطة: كذبوا عليه أصلحك الله، إنما كان يقرأ. فقال: يا فساق، أتأتوني برجل قرأ القرآن تزعمون أنه غنى! خلوا سبيله. فلما خلوه، قال له القرشي: والله لولا أنك أحسنت وأجدت ما شهدت لك، اذهب راشداً.

وكان لأبي حنيفة جار من الكياليين مغرم بالشراب. وكان أبو حنيفة يحيي الليل بالقيام ويحييه جاره الكيال بالشراب ويغني على شرابه:

أضاعوني وأي فتى أضاعوا

ليوم كريهة وسداد ثغر

فأخذه العسس ليلة فوق في الحبس، وفقد أبو حنيفة صوته، واستوحش له. فقال لأهله: ما فعل جارنا الكيال؟ قالوا: أخذه العسس فهو الحبس. فلما أصبح أبو حنيفة وضع الطويلة على رأسه وخرج حتى أتى باب عيسى بن موسى، فاستأذن عليه. فأسرع في إذنه. وكان أبو حنيفة قليلاً ما يأتي الملوك. فأقبل عليه عيسى بوجهه، وقال: أمر ما جاء بك يا أبا حنيفة؟ قال: نعم، أصلح الله الأمير، جارُّي من الكياليين أخذه عسس الأمير ليلة كذا، فوقع في حبسك. فأمر عيسى بإطلاق كل من أخذ في تلك الليلة إكراماً لأبي حنيفة. فأقبل الكيال على أبي حنيفة متشكراً له. فلما رآه أبو حنيفة، قال: أضعناك يا فتى؟ يعرض له بقصيدته. قال: لا والله، ولكنك بررت وحفظت.

الأصمعي قال: قدم عراقي بعدل من خمر العراق إلى المدينة فباعها كلها إلا السود. فشكا ذلك إلى الدارمي، وكان قد تنسك وترك الشعر ولزم المسجد. فقال: ما تجعل لي على أن احتال لك بجيلة حتى تبيعها كلها على حكمك؟ قال: ما شئت، قال: فعمد الدارمي إلى ثياب نسكه، فألقاها عنه وعاد إلى مثل شأنه الأول، وقال: شعراً ورفعته إلى صديق له من المغنين فغنى به، وكان الشعر:

قل للمليحة في الخمار الأسود

ماذا فعلت بزاهد متعبد

قد كان شمر للصلاة ثيابه

حتى خطرت له بباب المسجد

ردي عليه صلاته وصيامه

لا تقتليه بحق دين محمد

فشاع هذا الغناء في المدينة وقالوا: قد رجع الدارمي وتعشق صاحبه الخمار الأسود. فلم تبق مليحة بالمدينة إلا اشترت خماراً أسود، وباع التاجر جميع ما كان معه. فجعل إخوان الدارمي من النساك يلقون الدارمي فيقولون: ماذا صنعت؟ فيقول: ستعلمون نبأه بعد حين. فلما أنفذ العراقي ما كان معه رجع الدارمي إلى نسكه ولبس ثيابه.

وحدث عبد الله بن مسلمة بن قتيبة ببغداد قال: حدثني سهل عن الأصمعي قال: كان عروة بن أذينة يعد ثقةً ثبتاً في الحديث، روى عنه مالك ابن أنس، وكان شاعراً بليغاً في شعره غزلاً، وكان يصوغ الألحان والغناء على شعره في حدائته وينحلها المغنين، فمن ذلك قوله، وغنى به الحجازيون:

يا ديار الحي بالأجمه

لم يبين رسمها كلمه

وهو موضع صوته. ومنه قوله:

قالت وأبنتتها وجدي وبحت به

قد كنت عندي تحت الستر فاستتر

ألست تبصر من حولي فقلت لها

غطى هوك وما ألقى على بصري

قال: فوفقت عليه امرأة وحوله التلامذة، فقالت: أنت الذي يقال فيك الرجل الصالح؟ وأنت القائل:

إذا وجدت أوار الحب في كبدي

هبني بردت ببرد الماء ظاهره

لا والله، ما قال هذا رجل صالح قط.

قال: وكان عبد الرحمن بن عبد الله الملقب بالقس عند أهل مكة بمترلة عطاء بن أبي رباح في العبادة، وأنه مر يوماً بسلامة وهي تغني، فقام يستمع غناءها. فرآه مولاه فقال له: هل لك أن تدخل فتسمع؟ فأبى. فلم يزل به حتى دخل. فقال له: أوقفك في موضع بحيث تراها ولا تراك، فغنته فأعجبته، فقال له مولاه: هل لك في أن أحولها إليك؟ فأبى ذلك عليه، فلم يزل به حتى أجابه. فلم يزل يسمعها ويلاحظها النظر حتى شغف بها. ولما شعرت للحظه إياها غنته:

رب رسولين لنا بلغا

لم يعملوا خفاً ولا حافراً

حتى استقلا بجوابيهما

الطرف والطرف بعثناهما

رسالة من قبل أن يبرحا

ولا لساناً بالهوى مفصحا

بالطائر الميمون قد أنجحا

فقضيا حاجاً وما صرحا

قال: فأغمي عليه وكاد أن يهلك. فقالت له يوماً: إني والله أحبك. قال لها: وأنا والله أحبك. قالت: وأحب أن أضع فمي على فمك. قال: وأنا والله. قالت فما يمنعك من ذلك؟ قال: أخشى أن تكون صداقة ما بيني وبينك عداوة يوم القيامة، أما سمعت الله تعالى يقول: "الأخلاء يومئذ بعضهم لبعض عدو إلا المتقين". ثم نهض وعاد إلى طريقته التي كان عليها، وأنشأ يقول:

قد كنت أعذل في السفاهة أهلها

فاللوم أعزهم وأعلم أنما

وله فيها:

فاعجب لما تأتي به الأيام

سبل الضلالة والهدى أقسام

أفقدتني تجلدي

حين يبدو وتبتدي

ض وللقرم معبد

والدساتين واليد

إن سلامة النبي

لو تراها وعودها

لجرير وللغري

خلتهم بين عودها

أخبار عبد الله بن جعفر

حدث سعيد بن محمد العجلي بعمان، قال: حدثني نصر بن علي عن الأصمعي، قال: كان معاوية يعيب على عبد الله بن جعفر سماع الغناء. فأقبل معاوية عاماً من ذلك حاجاً، فزل المدينة، فمر ليلة بدار عبد الله بن جعفر، فسمع عنده غناء على أوتار، فوقف ساعة يستمع ثم مضى وهو يقول: أستغفر الله، أستغفر الله. فلما انصرف من آخر الليل مر بداره أيضاً، فإذا عبد الله قائم يصلي، فوقف ليستمع قراءته، فقال: الحمد لله، ثم نهض وهو يقول: "خلطوا عملاً صالحاً وآخر سيئاً عسى الله أن يتوب عليهم" فلما بلغ ابن جعفر ذلك أعد له طعاماً، ودعاه إلى منزله، وأحضر ابن صياد المغني، ثم تقدم إليه يقول: إذا رأيت معاوية واضعاً يده في الطعام فحرك أوتارك وغن. فلما وضع معاوية يده في الطعام حرك ابن صياد أوتاره وغنى بشعر عدي ابن زيد، وكان معاوية يعجب به:

يا لبيني أوقدي النارا

رب نار بت أرمقها

ولها ظبي يؤججها

إن من تهوين قد حارا

تقضم الهندي والغارا

عاقدا في الخصر زنارا

قال: فأعجب معاوية غناؤه حتى قبض يده عن الطعام، وجعل يضرب برجله الأرض طرباً. فقال له عبد الله بن جعفر: يا أمير المؤمنين، إنما هو مختار الشعر يركب عليه مختار الألحان، فهل ترى به بأساً؟ قال: لا بأس بحكمة الشعر مع حكمة الألحان.

قال: وقدم عبد الله بن جعفر على معاوية بالشام، فأنزله في دار عياله، وأظهر من إكرامه وبره ما كان يستحقه. فغاض ذلك فاختة بنت قرظة، زوجة معاوية، فسمعت ذات ليلة غناءً عند عبد الله بن جعفر، فجاءت إلى معاوية فقالت: هلم فاسمع ما في منزل هذا الذي جعلته بين لحمك ودمك، وأنزلته في دار محرمك. فجاء معاوية فسمع شيئاً حركه وأطربه، وقال: والله إني لأسمع شيئاً تكاد الجبال تخزله، وما أظنه إلا من تلقين الجن، ثم انصرف. فما كان من آخر الليل سمع معاوية قراءة عبد الله وهو قائم يصلي. فأنبه فاختة، وقال لها: اسمعي مكان ما أسمعني، هؤلاء قومي، ملوك بالنهار رهبان بالليل.

ثم إن معاوية أرق ذات ليلة فقال لخادمه خديج: اذهب فانظر من عند عبد الله، وأخبره بخروجه إليه فذهب فأخبره. فأقام كل من كان عنده، ثم جاء معاوية، فلم ير في المجلس غير عبد الله فقال: مجلس من هذا؟ قال: مجلس فلان. قال معاوية: مره يرجع إلى مجلسه ثم قال: مجلس من هذا؟ قال: مجلس فلان. قال: مره يرجع إلى مجلسه، حتى لم يبق إلا مجلس رجل. فقال: مجلس من هذا؟ قال: مجلس رجل يداوي الأذان، يا أمير المؤمنين. قال له معاوية: فإن أذني عليلة، فمره فليرجع إلى موضعه، وكان موضع بديح المغني. فأمره ابن جعفر، فرجع إلى موضعه. فقال له معاوية: داو أذني من علتها. فتناول العود ثم غنى:

أمن أم أوفى دمنة لم تكلم

بحومانة الدارج فالمتلّم

فحرك عبد الله بن جعفر رأسه. فقال معاوية: لم حركت رأسك يا بن جعفر؟ قال: أرى حية أجدتها يا أمير المؤمنين، لو لقيت عندها لأبليت، ولت سئلت عندها لأعطيت وكان معاوية قد خضب فقال ابن جعفر لبديح: هات غير هذا، وكانت عند معاوية جارية أعز جواريه عنده، كانت متولية خضابه. فغناه بديح:

أليس عندك شكر للتي جعلت

ما ابيض من قادمات الشعر كالحمم

وجدت منك ما كان أخلقه

صرف الزمان وطول الدهر والقدم

فطرب معاوية طرباً شديداً، وجعل يحرك رجله. فقال ابن جعفر: يا أمير المؤمنين، سألتني عن تحريك رأسي، فأخبرتكم، وأنا أسألكم عن تحريك رجلك. فقال معاوية: كل كريم طروب. ثم قام وقال: لا يرح أحد منكم حتى يأتيه أذني. فبعث إلى جعفر بعشرة آلاف دينار، ومائة ثوب من خاص ثيابه، وإلى كل رجل منهم بألف دينار وعشرة أثواب.

وعن ابن الكلبي والهيثم بن عدي، قالوا: بينا عبد الله بن جعفر في بعض أزقة المدينة إذ سمع غناءً، فأصغى إليه، فإذا بصوت شجي رقيق لقينة تغني:

قل للكرام ببابنا يلجوا

ما في التصابي على الفتى حرج

فتزل عبد الله عن دابته ودخل على القوم بلا إذن. فلما رأوه قاموا إليه إجلالاً له ورفعوا مجلسه. ثم أقبل عليه صاحب المنزل، فقال: يا بن عم رسول الله، دخلت منزلنا بلا إذن وما كنت لهذا بخلق. فقال عبد الله: لم أدخل إلا بإذن. قال: ومن أذن لك: قال: قينتك هذه سمعتها تقول:

قل للكرام ببابنا يلجوا

فولجنا، فإن كنا كراماً فقد أذن لنا، وإن كنا لثاماً خرجنا مذمومين. فضحك صاحب المنزل، وقال: صدقت جعلت فداك، ما أنت إلا من أكرم الأكرمين. ثم بعث عبد الله إلى جارية من جواريه فجاءت، فقال لها: غني. فغنت. فطرب القوم وطرب عبد الله. فدعا بئيب وطيب، فكسا القوم وصاحب المنزل وطيبهم، ووهب له الجارية، وقال له: هذه أحذق بالغناء من جاريتك.

أخبار ابن أبي عتيق

ذكر رجل من أهل المدينة أن ابن أبي تيق - وهو عبد الله بن محمد بن عبد الرحمن بن أبي بكر الصديق - دخل على عائشة أم المؤمنين، وهي عمته، فوضع رأسه في حجرها أو على ركبته، ثم رفع عقيرته يتغنى:

بعد الهدوء له قوائم أربع

ومقيد حجل جررت برجله

وانزع إذا قالوا أبي لك منزع

فاطرب زمان اللهو من زمن الصبا

يبكى عليك مقنعاً لا تسمع

فليأتين عليك يوماً مرة

قالت له عائشة: يا بني، فتق ذلك اليوم.

حدث أبو عبد الله محمد بن عرفة بواسط قال؛ حدثني أحمد بن يحيى عن الزبير بن بكار عن سليمان بن عباس السعدي عن السائب رواية كثير، قال: قال لي كثير يوماً: قم بنا إلى ابن أبي عتيق نتحدث عنده. قال: فحجناه، فوجدنا عنده ابن معاذ المغني، فلما رأى كثيراً قال لابن أبي عتيق: ألا أغنيك بشعر كثير؟ فاندفع يغني بشعره حيث يقول:

كما انبت من حبل القرين قرين

أبائنة سعدى نعم ستبين

وصاح غراب البين أنت حزين

إن ذم أجمال وفارق جيرة

وليس لمن خان الأمانة دين

فأخلفن ميعادي وخن أمانتي

فالتفت ابن أبي عتيق إلى كثير فقال: وللدين صحبتهن يا بن أبي جمعة؟ ذاك والله أشبه بمن، وأدعى للقلوب إيهن؛ وإنما يوصفن بالبخل والامتناع، وليس بالأمانة والوفاء. وابن قيس الرقيات أشعر منك حيث يقول:

والتي في طرفها دعج

حبذا الإدلال والغنج

والتي في ثغرها فلج

والتي إن حدثت كذبت

عاشق في قبلة حرج

خبروني هل على رجل

فقال كثير: قم بنا من عند هذا، ثم هض.

وقال عبد الله بن جعفر لابن أبي عتيق: لو غنتك فلانة جاريتي صوتاً ما أدركتك ذكاتك. قال ابن أبي عتيق: قل لها تفعل وليس عليك إن مت ضمان. فأخذه بيده عبد الله بن جعفر وأدخله منزله، ثم أمر الجارية فخرجت، وقال لها: هات، فغنت:

وجد السبيل إلى المقال فقالوا

بهواك صيرني العذول نكالا

وأمرت ليلى أن يطول فطالا

ونهيته نومي عن جفوني فأنتهى

قال: فرمى بنفسه ابن أبي عتيق إلى الأرض وقال: فإذا وجبت جنوبها فكلوا منها وأطعموا القانع والمغتر.

أبو القاسم جعفر بن محمد قال: لما وصف عبد الله بن جعفر لعبد الملك بن مروان ابن أبي عتيق وحدثه عن إقلاله وكثرة عياله، أمره عبد الملك بن

مروان أن يعث به إليه. فأعلمه ابن جعفر بما دار بينه وبين عبد الملك وبعثه إليه. فدخل ابن أبي عتيق على عبد الملك فوجده جالساً بين جاريتين قائمتين عليه يمسان كغصني بان، بيد كل جارية مروحة تروح بها عليه، مكتوب بالذهب على المروحة الأولى:

ح وبى يلعب الخجل

يب ثنى الرأس للقبل

م تغنى أو ارتجل

إنني أجلب الريا

وحجاب إذا الحب

وغياث إذا الندي

وفي المروحة الأخرى:

مسكني قصر الخليفة

لظريف أو ظريفه

شبيه بالوصيفه

أنا في الكف لطيفة

أنا لا أصلح إلا

أو وصيف حسن القد

قال ابن أبي عتيق: فلما نظرت إلى الجاريتين هونتا الدنيا علي، وأنستاني سوء حالي، وقلت: إن كانتا من الإنس فما نساؤنا إلا من البهائم. فكلما كررت بصري فيهما تذكرت الجنة، فإذا تذكرت امرأتي، وكنت لها محباً، تذكرت النار. قال: فبدأ عبد الملك يتوجع إلي بما حكى له ابن جعفر عني ويخبرني بما لي عنده من جميل الرأي. فأكذبت له كل ما حكاها له ابن جعفر عني، ووصفت له نفسي بغاية الملاء والجدة. فامتأ عبد الملك سروراً بما ذكرت له، وغما بتكذيب ابن جعفر. فلما عاد إليه ابن جعفر عاتبه عبد الملك على ما حكاها عني وأخبره بما حليت به نفسي. فقال: كذب والله يا أمير المؤمنين، وإنه أحوج أهل الحجاز إلى قليل فضلك، فضلاً عن كثيره. ثم خرج عبد الله فلقيني فقال: ما حملك أن كذبتني عند أمير المؤمنين؟ قلت: أفكنت تراني تجلسني بين شمس وقمر، ثم أتفاقر عنده! لا والله ما رأيت ذلك لنفسي وإن رأيت له لي. فلما أعلم بذلك عبد الله بن جعفر عبد الملك بن مروان، قال: فالجاريتان له. قال: فلما صارتا إلي زرت عبد الله بن جعفر فوجدته قد امتأ فرحاً، وهو يشرب وبين يديه عس فيه عسل ممزوج بمسك وكافور. فقال: مهيم. قلت: قد والله قبضت الجاريتين. قال: فاشرب. فتناولت العس فجرعت منه جرعة. فقال لي: زد. فأبيت عليه. فقال لجارية له عنده تغنيه: إن هذا قد حاز اليوم غزالتين من عند أمير المؤمنين، فخذي في نعتهما، فإنهما كما فلكت صدورهما. فحركت الجارية العود ثم غنت.

زهراء مثل القمر الضامر

في مشرف ذي بهجة ناضر

قام ولم ينقل إلى قابر

يا عجباً للميت الناشر

عهدي بها في الحي قد جردت

قد حجم الثدي على نحرها

لو أسند ميتاً إلى صدرها

حتى يقول الناس مما رأوا

قال: فلما سمعت الأبيات طربت، ثم تناولت العس فشربت عللاً بعد نهل، ورفعت عقيرتي أغني:

جبال حنين ما سقوني لغنت

سقوني وقالوا لا تغني ولو سقوا

قال: وخرج أبو السائب وابن أبي عتيق يوماً يتترهان في بعض نواحي مكة، فترل أبو السائب لبيول وعليه طويلته، فانصرف دونها. فقال له ابن أبي عتيق: ما فعلت طويلتك؟ قال: ذكرت قول كثير:

إن الإزار على ما ضم محسود

أرى الإزار على لبني فأحسده

فتصدقت بها على الشيطان الذي أجرى هذا البيت على لسانه. فأخذ ابن أبي عتيق طويلته فرمى بها وقال: أتسبقي أنت إلى بر الشيطان؟ سمع سليمان بن عبد الملك مغنيا في عسكره فقال: اطلبوه. فجاؤوا به. فقال: أعد علي ما تغنيت به. فغنى واحتفل. وكان سليمان أغبر الناس، فقال لأصحابه:

وكأما والله جرجرة الفحل في الشول. وما أحسب أننى تسمع هذا إلا صبت. وأمر به فخصي.
وقالوا: إن الفرزدق قدم المدينة على الأحول بن محمد بن عبد الله ابن عاصم بن ثابت بن أبي الأقلح، صاحب النبي صلى الله عليه وسلم، وهو الذي
حمت لحمه الدبر، فقال الأحوص: ألا أسمعك غناء؟ قال: تغن. فغناه:

بعود بشامة سقي البشام

علي ومن زيارته لمام

ويطرقني إذا هجع النيام

وشلاً بعينك ما يزال معيناً

ماذا لقيت من الهوى ولقينا

شيئاً ألد من الخيال الطارق

فانقع فؤادك من حديث الومق

أنتسى إذ تودعنا سليمانى

بنفسي من تجنبه عزيز

ومن أمسي وأصبح لا أراه

فقال الفرزدق: لمن هذا الشعر؟ قال: لجرير. ثم غناه:

إن الذين غدوا بلبك غادروا

غيبض من عبراتهن وقلن لي

فقال: لمن هذا الشعر؟ فقال: لجرير ثم غناه:

أسرى لخالدة الخيال ولا أرى

إن البلية من يمل حديثه

فقال: لمن هذا الشعر؟ فقال: لجرير. فقال: ما أحوجه مع عفافه إلى خنوثة شعري، وما أحوجني مع فسوقي إلى رقة شعره.

وقال جرير: والله لولا ما شغلت به من هذه الكلاب لشببت تشبيهاً تحن منه العجوز إلى أيام شبابه، حين الجمال إلى عطنه.

وقال: الأحوص يوماً لمعبد: امض بنا إلى عقيلة حتى نتحدث إليها ونسمع من غنائها وغناء جواربها. فمضيا فألفيا على باهما معاذاً الأنصاري، وابن
صياد. فاستأذنا عليها، فأذنت لهم إلا الأحوص، فإنها قالت: نحن على الأحوص غضاب. فانصرف الأحوص وهو يلوم أصحابه على استبدادهم بها،
وقال:

وآثرت حاجة الساري على الغادي

وللعقيق ألا حبيبت من وادي

لمعبد ومعاذ وابن صياد

شنت عقيلة عنك اليوم بالزاد

قولا لمنزلها حبيبت من طلل

إذا وهبت نصيبي من مودتها

وجعل رجل يترنم في مسجد المدينة ورجل من قريش يسمع، فأخذه بعض القومة، فقالوا: يا عدو الله، أتغني في المسجد الحرام! وذهبوا به إلى صاحب
الحكم. وأتبعهم القرشي، فقال لصاحب الحكم: أصلحك الله، إنما كان يقرأ. فأطلق سبيله. فقال له القرشي: والله لولا أنك أحسنت في غنائك،
وأقمت دارات معبد لكنت عليك أشد من الأعوان.
والصوت المنسوب إلى دارات معبد قول أعشى بكر:

غداة غد أم أنت للبين واجم

هريرة ودعها وإن لام لائم

ويروى أن معبداً دخل على قتيبة بن مسلم والي خراسان، وقد فتح خمس مدائن، فجعل يفخر بها عند جلسائه. فقال له معبد: والله لقد صغت بعدك
خمس أصوات إنها لأكثر من خمس المدائن التي فتحت. والأصوات هي: الأول:

وهل تطيق وداعاً أيها الرجل

ودع هريرة إن الركب مرتحل

والثاني:

هريرة ودعها وإن لام لائم

والثالث:

غداة غد أم أنت للبين واجم

ودع لبانة قبل أن ترتحلا

والرابع:

واسبل فإن سبيله أن يسبلا

لعمرى لئن شطت بعثمة دارها

والخامس:

لقد كدت من وشك الفراق أليح

تغذ بي الشهباء نحو ابن جعفر

سواء عليها ليلها ونهارها

أصل الغناء ومعدنه

قال أبو المنذر هشام بن الكلبي: الغناء على ثلاثة أوجه: النصب والسناد والمزج. فأما النصب فغناء الركبان والقينات. وأما السناد فالتقيل الترجيع الكثير النغمات. وأما المزج فالخفيف كله، وهو الذي يثير القلوب ويهيج الحليم. وإنما كان أصل الغناء ومعدنه في أمهات القرى من بلاد العرب ظاهراً فاشياً، وهي المدينة والطائف وخيبر ووادي القرى ودومة الجندل واليمامة، وهذه القرى مجامع أسواق العرب. وقيل إن أول من صنع العود لامك بن قابيل بن آدم، وبكى به على والده. ويقال: إن صانعه بطليموس صاحب كتاب الموسيقى، وهو كتاب اللحن الثمانية.

وكان أول من غنى في العرب قيتان لعاد، يقال لهما الجرادتان، ومن غنائهما:

لعل الله يصبحنا غماما

ألا يا قيل ويحك قم فهينم

وإنما غنتا بهذا حين حبس عنهما المطر. وكانت العرب تسمي القينة الكرينة، والعود الكران. والمزهر أيضاً هو العود، وهو البريط، وكان أول من غنى في الإسلام الغناء الرقيق طويس، وهو علم ابن سريج، والدلال، ونومة الضحى، وكان يكنى أبا عبد النعيم، ومن غنائه وهو أول صوت غنى به في الإسلام:

كدت من شوقي أدوب

قد براني الشوق حتى

أخبار المغنين

أولهم: طويس، وكان في أيام عثمان رضي الله عنه.

حدثنا جعفر بن محمد قال: لما ولي أبان بن عثمان بن عفان المدينة لمعاوية بن أبي سفيان قعد في بهو له عظيم، واصطف له الناس، فجاءه طويس المغني، وقد خضب يديه غمساً واشتمل على دف له، وعليه ملاءة مصقولة، فسلم، ثم قال: بأبي وأمي يا أبان، الحمد لله الذي أرايتك أميراً على المدينة، إنني نذرت لله فيك نذراً إن رأيتك أن أخضب يدي غمساً واشتمل على دفي وآتي مجلس إمارتك وأغنيك صوتاً. قال: فقال: يا طويس، ليس هذا موضع ذلك. قال: بأبي أنت وأمي يا بن الطيب، أبحني. قال: هات يا طويس. فحسر عن ذراعيه وألقى رداءه ومشى بين السماطين وغنى:

خزراً كأنهم غضاب

ما بال أهلك يا رباب

قال: فصفق أبان بيديه ثم قام عن مجلسه، فاحتضنه وقبل بين عينيه، وقال: يلوموني على طويس! ثم قال له: من أسن، أنا وأنت؟ قال: وعيشك لقد شهدت زفاف أمك المباركة إلى أبيك الطيب. انظر إلى حدقه ورقة أدبه، كيف لم يقل: أمك الطيبة إلى أبيك المبارك.

وعن ابن الكلبي قال: خرج عمر بن عبد العزيز إلى الحج، وهو والي المدينة، وخرج الناس معه، وكان فيمن خرج بكر بن إسماعيل الأنصاري وسعيد بن عبد الرحمن بن حسان بن ثابت، فلما انصرفا راحعين مرا بطويس المغني، فدعاهما إلى التزول عنده. فقال بكر بن إسماعيل: قد البعير إلى منزلك. فقال له سعيد بن عبد الرحمن: أتزل على هذا المخنث؟ فقال: إنما هو منزل ساعة ثم نذهب. فاحتمل طويس الكلام على سعيد. فأتيا منزله، فإذا هو قد نظفه ونجده، فأتاهما بفاكهة الشام، فوضعها بين أيديهما، فقال له بكر بن إسماعيل: ما بقي منك يا طويس؟ قال: بقي كلي يا أبا عمرو. قال: أفلا تسمعنا من بقاياك؟ قال: نعم. ثم دخل خيمته فأخرج خريطة، وأخرج منها دف، ثم نقر وغنى:

لم تتم عيني ولم تكد

مؤنس تلتذته كبدي

ليس بالزميلة النكد

خامل نكس ولا جدد

بعده عيني إلى أحد

يا خليلي نابني سهدي

كيف تلحوني على رجل

مثل ضوء البدر صورته

من بني آل المغيرة لا

نظرت عيني فلا نظرت

ثم ضرب بالدف الأرض والتفت إلى سعيد بن عبد الرحمن، فقال: يا أبا عثمان، أتدري من قائل هذا الشعر؟ قال: لا. قال: قالته خوله بنت ثابت عمتك في عمارة بن الوليد بن المغيرة، ونهض. فقال له بكر: لو لم تقل ما قلته لم يسمعك ما أسمعك. وبلغت القصة عمر بن عبد العزيز فأرسل إليهما فسألتهما فأخبراه، فقال: واحدة بأخرى والبادي أظلم.

الأصمعي قال: حدثني رجل من أهل المدينة قال: كان طويس يتغنى في عرس رجل من الأنصار، فدخل النعمان بن بشير العرس وطويس يتغنى:

فتهجر أم شاننا شانها

ء تنفح بالمسك أردانها

ء تنفح بالمسك أردانها

أجد بعمره غنيانها

وعمره من سروات النساء

وعمره من سروات النساء

فقيل له: اسكت اسكت - لأن عمرة أم النعمان بن بشير - فقال النعمان: إنه لم يقل بأسا، إنما قال:

وكان مع طويس بالمدينة ابن سريج والدلال ونومة الضحى، ومنه تعلموا. ثم نجم بعد هؤلاء سلم الخاسر، وكان في صحبة عبد الله بن جعفر. وعنه أخذ معبد الغناء.

ثم كان ابن أبي السمع الطائي، وكان يتيماً في حجر عبد الله بن جعفر، وأخذ الغناء عن معبد، وكان لا يضرب بعود، إنما يغني مرتجلاً. فإذا غنى لمعبد صوتاً حقيقه، ويقول: قال الشاعر فلان، ومططه معبد وحففته أنا. ومن غنائه.

لخيال بنا ألم

كحلت مقلتي بدم

وكان معبد والغريض بمكة. ولما قدمت سكينه بنت الحسين عليهما السلام مكة أتاهما الغريض ومعبد فغنياها:

إنك إلا تفعلني تحرجي

نام صحبي ولم أنم

إن نام في القصر غادة

عوجي علينا ربة الهودج

قالت: والله ما لكما مثل إلا الجدي الحار والبارد، ولا يدرى أيهما أطيب.

قال إسحاق بن إبراهيم: شهد الغريض ختناً لبعض أهله، فقال له بعض القوم: غن. فقال: هو ابن الزانية إن غنى. قال له مولاه: فأنت والله ابن الزانية، فغن. قال: أكذلك أبا عبدل؟ قال: نعم: قال: أنت أعلم. فغنى:

بمكة مكحولاً أسياً مدامعه

وما أنس م الأشياء لا أنس شادناً

تشرب لون الرازقي بياضه

فلوت الجن عنقه فمات. وقال غير إسحاق: بل غنى:

وبالزعفران خالط المسك رادعه

أمن مكتومة الطلل

لقد نزلوا قريباً من

تحاولني لتقتلني

يلوح كأنه خلل

ك لو نفعوك إذ نزلوا

وليس بعينها حول

ثم نجم ابن طنبورة، وأصله من اليمن، وكان أهزج الناس وأخفهم غناء، ومن غنائه:

وفتيان على شرف جميعاً

كأني لم أصد فيهم بباز

فلا تشرب بلا لهو فإني

دلفت لهم بباطية تدور

ولم أطمع بعرصتهم صقوري

رأيت الخيل تشرب بالصفير

ويقال إنه حضر مجلساً لرجل من الأشراف إلى أن دخل عليهم صاحب المدينة. فقيل له: غن، فغنى:

ويلي من الحية ويل ليه

فضحك صاحب المدينة ووصله.

ومنهم: حكم الوادي، وكان في صحبة الوليد بن يزيد ويغني بشعره، ومن غنائه:

خف من دار جيرتي

قد دنا الصبح أو بدا

فمتى تخرج العرو

خرجت بين نسوة

باين داود أنسها

وهي لم يقض لبسها

س لقد طال حبسها

أكرم الجنس جنسها

وكان بالشام أيام الوليد بن يزيد مغن، يقال له الغزيل، ويكنى أبا كامل، وفيه يقول الوليد بن يزيد:

من مبلغ عني أبا كامل

ومن غنائه:

أني إذا ما غاب كالهامل

واهج قوماً قتلونا بالعطش

فإذا ما لم نذقها لم نعش

أمدح الكأس ومن أعملها

إنما الكأس ربيع باكر

وكان لهارون الرشيد جماعة من المغنين، منهم إبراهيم الموصلي، وابن جامع السهمي، ومخارق، وطبقة أخرى دونهم؛ منهم: زلزل، وعمرو الغزال، وعلوية. وكان له زامر يقال له برصوما. وكان إبراهيم أشدهم تصرفاً في الغناء. وابن جامع أحلاهم نغمة. فقال الرشيد يوماً لبرصوما: ما تقول في ابن جامع؟ فقال: يا أمير المؤمنين، وما أقول في العسل الذي حيثما ذقته فهو طيب؟ قال: فإبراهيم الموصلي؟ قال: هو بستان فيه جميع الثمار والرياحين. قال: فعمرو الغزال؟ قال: هو حسن الوجه يا أمير المؤمنين.

قال إسحاق: قلت ليوسف: من أحسن الناس غناء؟ قال: ابن محرز. قلت: وكيف ذلك؟ قال: إن شئت أحملت وإن شئت فصلت. قلت: أحمل قال:

كان يغني كل إنسان بما يشتهي، كأنه خلق من قلب كل إنسان.

وكان إبراهيم أول من وقع بالقضيب.

وحدث يحيى بن محمد قال: بينا نحن على باب الرشيد ننتظر الإذن إذ خرج الآذن، فقال لنا: أمير المؤمنين يقرئكم السلام. قال: فانصرفنا. فقال لنا إبراهيم: تصيرون إلى منزلي؟ قال: فانصرفنا معه. قال: فدخلت دارا لم أر أشرف منها ولا أوسع، وإذا أنا بأفرشة خز مظهرة بالسنباب. قال: ففعدنا، ثم دعا بقدر كبير فيه نبيذ، وقال:

إنما يشرب الصغير صغير

اسقني بالكبير إني كبير

ثم قال:

ودع الماء كله للحمير

اسقني قهوة بكوب كبير

ثم شرب به، وأمر به فملئ، وقال لنا: إن الخليل لا تشرب إلا بالصغير. ثم أمر بجوارٍ فأحطن بالدار. فما شبهت أصواتهم إلا بأصوات طير من أجمه يتجاوبن.

وقال إسحاق بن إبراهيم الموصلي: لما أفضت الخلافة إلى المأمون أقام عشرين شهراً لم يسمع حرفاً من الغناء، ثم كان أول من تغنى بحضرتة أبو عيسى. ثم واطب على السماع وسأل عني، فخرجني عنده بعض من حسدني، فقال: ذلك رجل يتبه على الخلافة. فقال المأمون: ما أبقى هذا من التيه شيئاً، وأمسك عن ذكره. وجفاني كل من كان يصلني، لما ظهر من سوء رأيه. فأضر ذلك بي، حتى جاءني يوماً علوية فقال لي: أتأذن لي اليوم في ذكرك؟ فإني اليوم عنده. فقلت: لا، ولكن غنه بهذا الشعر، فإنه سيبعثه على أن يسألك: من أين هذا؟ فيفتح لك ما تريد، ويكون الجواب أسهل عليك من الابتداء. فمضى علوية. فلما استقر به المجلس غناه الشعر الذي أمرته به، وهو:

أما إليك سبيلٌ غير مسدود

يا مشرع الماء قد سدت مسالكه

مشرد عن طريق الماء مطرود

لحائمٍ حار حتى لا حياة به

فلما سمعه المأمون قال: ويلك! لمن هذا؟ قال: يا سيدي، لعبد من عبيدك جفوته واطرحته؟ قال: إسحاق؟ قلت: نعم. قال: ليحضر الساعة. قال إسحاق: فجاءني الرسول، فسرت إليه. فلما دخلت، قال: ادن، فدنوت. فرفع يديه مادهما، فاتكأت عليه، فاحتضني بيديه، وأظهر من إكرامي وبري ما لو أظهره صديقٌ لي مواس لسرين.

قال: وحدثني يوسف بن عمر المدني قال: حدثني الحارث بن عبيد الله قال: سمعت إسحاق الموصلي يقول: حضرت مسامرة الرشيد ليلةً عثراً المغني، وكان فصيحاً متأدباً، وكان مع ذلك يغني الشعر بصوت حسن. فتذاكروا رقة شعر المدنيين، فأنشد بعض جلسائه أبياتاً لابن الدمينية حيث يقول:

على كبدي من خشية أن تصدعا

وأذكر أيام الحمى ثم أنتني

عليك ولكن خل عينيك تدمعا

وليست عشيات الحمى برواجع

عن الجهل بعد اللحم أسبلنا معا

بكت عيني اليمنى فلما زجرتها

فأعجب الرشيد برقة الأبيات. فقال له عبث: يا أمير المؤمنين، إن هذا الشعر مدني رقيق، قد غذي بماء العقيق، حتى رق وصفا، فصار أصفى من الهواء؛ ولكن إن شاء أمير المؤمنين أنشدته ما هو أرق من هذا وأحلى، وأصلب وأقوى، لرجل من أهل البادية. قال: فإني أشاء. قال: وأترنم به يا أمير المؤمنين؟ قال: وذلك لك. فغنى لجرير:

وشلا بعينك لا يزال معينا

إن الذين غدوا بلبك غادروا

ماذا لقيت من الهوى ولقينا

غيضن من عبراتهم وقلن لي

إن حرن حرننا أو هدينا هدينا

روحوا العشية روحةً مذكورة

إن متن متنا أو حيين حيينا

فرموا بهن سواهماً عرض الفلا

قال: صدقت يا عبثر، وخلع عليه وأجازه.

وكان لإبراهيم الموصلي عبداً أسود يقال له زرياب، وكان مطبوعاً على الغناء، علمه إبراهيم، فدخل على زيادة الله بن إبراهيم بن الأغلب، فغناه بأبيات عنتره الفوارس، حيث يقول:

من أبناء حامٍ بها عبتني

وسمر العوالي إذا جئتني

لقدتكَ في الحرب أو قدتني

فإن تك أُمي غرابيةٌ

فإنني لطيفٌ ببيضِ الطبا

ولو لا فرارك يوم الوغى

فغضب زيادة الله، فأمر بصفع قفاه وإخراجه، وقال له: إن وجدتك في شيء من بلدي بعد ثلاثة أيام ضربت عنقك. فجاز البحر إلى الأندلس، فكان عند الأمير عبد الرحمن بن الحكم.

وكان في المدينة في الصدر الأول مغن يقال له: قند، وهو مولى سعد بن أبي وقاص. وكانت أم المؤمنين رضي الله عنها تستظرفه، فضربه سعد، فحلفت عائشة لا تكلمه حتى يرضى عنه قند فدخل عليه سعد وهو وجع من ضربه، فاسترضاه، فرضي عنه، وكلمته عائشة.

وكان معاوية يعقب بين مروان بن الحكم وسعيد بن العاص على المدينة يستعمل هذا سنةً وهذا سنة، وكانت في مروان شدة وغلظة، وفي سعد لين عريكة وحلم وصفح. فلقي مروان بن الحكم قنداً المغني، وهو معزول عن المدينة ويده عكازة، فلما رآه قال:

ربما سر عيننا وكفانا

قل لقدن يشيع الأظعانا

قال له قند: لا إله إلا الله، ما أسمعك والياً ومعزولاً.

وروى ابن الكلبي عن أبيه قال: كان ابن عائشة من أحسن الناس غناءً وأنبههم فيه وأضيقهم خلقاً، إذا قيل له عن يقول: أو لمثلي يقال هذا؟ علي عتق رقبة إن غنيت يومي هذا. فإن غنى وقيل له: أحسنت. قال: لمثلي يقال أحسنت؟ علي عتق رقبة إن غنيت سائر يومي هذا. فلما كان في بعض الأيام سال وادي العقيق، فجاء بالعجب، فلم يبق بالمدينة محباًة ولا شابة ولا شاب ولا كهل إلا خرج يبصره، وكان فيمن خرج ابن عائشة المغني، وهو معتجر بفضل رداءه، فنظر إليه الحسن بن الحسن بن علي بن أبي طالب عليهم السلام، وكان فيمن خرج إلى العقيق، وبين يديه أسودان كأنهما ساريتان، يمشيان بين يديه أمام دابته، فقال لهما: أنتما حران لوجه الله. إن تفعلما ما أمركما به، وإلا أقطعكما إرباً إرباً، اذهبا إلى ذلك الرجل المعتجر بفضل رداءه، فخذنا بضبعيه، فإن فعل ما أمره به، وإلا فاقدفا به في العقيق. قال: فمضيا والحسن يقفوهما. فلم يشعر ابن عائشة إلا وهما آخذان بضبعيه. فقال: من هذا؟ فقال له الحسن: أنا هذا يا بن عائشة. قال: لبيك وسعديك، وبأبي أنت وأمي. قال: اسمع مني ما أقول، واعلم أنك مأسور في أيديهما، هما حران أن لم تغن مائة صوت أن يطرحاك في العقيق، ولئن لم يفعل ذلك لأقطعن أيديهما. فصاح ابن عائشة: يا ويلاه! واعظيم مصيبتاه! قال: دع من صياحك وخذ فيما ينفعنا. قال: اقترح وأقم من يحصي، وأقبل يغني. فترك الناس العقيق وأقبلوا عليه. فلما تمت أصواته مائة كبر الناس بلسان واحد تكبيرة واحدة ارتجت لها أقطار المدينة، وقالوا للحسن: صلى الله على روحك حيا وميتاً، فما اجتمع لأهل المدينة سرور قط إلا بكم أهل البيت. فقال له الحسن: إنما فعلت هذا بك يا بن عائشة لأخلاقك الشكسة. قال له ابن عائشة: والله ما مرت علي مصيبة أعظم منها. لقد بلغت أطراف أعضائي. فكان بعد ذلك إذا قيل له: ما أشد ما مر بك؟ قال: يوم العقيق.

وكان إبراهيم بن المهدي؛ وهو الذي يقال به ابن شكلة، داهياً عاقلاً عالماً بأيام الناس، شاعراً مفلحاً، وكان يصوغ فيجيد.

ويروى عن إبراهيم أنه قد كان خالف على المأمون ودعا إلى نفسه، فظفر به المأمون فعفا عنه، وقال لما ظفر به المأمون:

هوى الدهر بي عنها وهوى بها عني

وإن أحتسبها أحتسبها على صن

ذهبت من الدنيا كما ذهبت مني

فإن أبك نفسي أبك نفساً عزيزةً

فلما فتحت له أبواب الرضا من المأمون غنى بما بين يديه. فقال له المأمون: أحسنت والله يا أمير المؤمنين. فقام إبراهيم رهبةً من ذلك، وقال: قتلني والله يا أمير المؤمنين، لا والله لا أجلس حتى تسميني باسمي. قال: اجلس يا إبراهيم. فكان بعد ذلك آثر الناس عند المأمون، ينادمه ويسامره ويغنيه فحدثه يوماً فقال: بينا أنا مع أبيك يوماً يا أمير المؤمنين بطريق مكة إذ تخلفت عن الرفقة وانفردت وحدي وعطشت، وجعلت أطلب الرفقة، فأتيت إلى بئر فإذا حبشي نائم عندها، فقلت له: يا نائم، قم فاسقني. فقال: إن كنت عطشان فانزل واستق لنفسك. فخطر صوتٌ بيالي، فترنمت به وهو:

كفناني إن مت في درع أروى

واسقاني من بئر عروة مائي

فلما سمعني قام نشيطاً مسروراً وقال: والله هذه بئر عروة، وهذا قبره. فعجبت يا أمير المؤمنين لما خطر بيالي في ذلك الموضع. ثم قال: أسقيك على أن تغنيني؟ قلت: نعم. فلم أزل أغنيه وهو يجذب الحبل، حتى سقاني وأروى دابتي، ثم قال: أدلك على موضع العسكر على أن تغنيني؟ قلت: نعم. فلم يزل يعدو بين يدي وأنا أغنيه حتى أشرفنا على العسكر فانصرف. وأتيت الرشيد فحدثته بذلك فضحك. ثم رجعنا من حجنا، فإذا هو قد تلقاني وأنا عديل الرشيد، فلما رأيته قال: مغن والله! قيل له: أتقول هذا لأخي أمير المؤمنين؟ قال: إي لعمر الله، لقد غناني، وأهدى إلي أقطاً وتمراً. فأمرت له بصلة وكسوة، وأمر له الرشيد بكسوة أيضاً. فضحك المأمون، وقال: غني الصوت، فغنيت، فافتتن به. فكان لا يقترح علي غيره.

وكان مخارق وعلوية قد حرفا القديم كله، وصيرا فيه نغماً فارسية، فإذا أتاهما الحجازي بالغناء الأول الثقيل قالوا: يحتاج غناؤك إلى قصار. واسم علوية علي بن عبد الله بن سيف بن يوسف، مولى لبني أمية. وكان زلزل أضرب الناس بوتر، لم يكن قبله ولا بعده مثله. ولم يكن يغني، وإنما كان يضرب على إبراهيم وابن جامع وبرصوما. ومن غنائه في المأمون:

ألا إنما المأمون للناس عصمة

مميزة بين الضلالة والرشد

رأى الله عبد الله خير عباده

فملكه والله أعلم بالعبد

حدث سعيد بن محمد العجلي عن الأصمعي قال: كان أبو الطمحان القيبي، حنظلة بن الشرقي شاعراً مجيداً، وكان مع ذلك فاسقاً، وكان قد انتجع يزيد بن عبد الملك، فطلب الإذن عليه أياماً، فلم يصل، فقال لبعض المغنين: ألا أعطيك بيتين من شعري تغني بهما أمير المؤمنين؟ فإن سألك من قائلهما فأخبره أبي بالباب، وما رزقني الله منه فهو بيني وبينك. قال: هات. فأعطاه هذين البيتين:

يكاد الغمام الغر يرعد إن رأى

محيا ابن مروان وينهل بارقه

يظل فتيت المسك في رونق الضحى

تسيل به أصداعه ومفارقة

قال: فغني بهما في وقت أريحية، فطرب لهما طرباً شديداً، وقال: لله در قائلهما، من هو؟ قال: أبو الطمحان القيبي، وهو بالباب يا أمير المؤمنين. قال: ما أعرفه فقال له بعض جلسائه: هو صاحب الدير يا أمير المؤمنين. قال: وما قصة الدير؟ قال: قيل لأبي الطمحان: ما أيسر ذنوبك؟ قال: ليلة الدير. قيل له: وما ليلة الدير؟ قال: نزلت ذات ليلة بدير نصرانية فأكلت عندها طفيشلاً بلحم خنزير. وشربت من خمرة، وزنيت بها، وسرقت كساءها ومضيت. فضحك يزيد وأمر له بألفي درهم، وقال: لا يدخل علينا. فأخذها أبو الطمحان وانسل بها وخيب المغني. أبو جعفر البغدادي قال: حدثني عبد الله بن محمد كاتب بعا عن أبي عكرمة قال: خرجت يوماً إلى المسجد الجامع ومعني قرطاساً لأكتب فيه بعض ما أستفيدة من العلماء. فممرت بباب أبي عيسى بن المتوكل، فإذا باباه المسدود، وكان من أحذق الناس بالغناء، فقال: أين تريد يا أبا عكرمة؟ قلت: إلى المسجد الجامع لعلي أستفيد في حكمة أكتبها. فقال: ادخل بنا على أبي عيسى. قال: فقلت: مثل أبي عيسى في قدره وجلالته يدخل عليه بغير إذن! قال: فقال للحاجب: أعلم الأمير بمكان أبي عكرمة. قال: فما لبث إلا ساعة حتى خرج الغلمان فحملوني حملاً. فدخلت إلى دار لا والله ما رأيت أحسن منها بناء، ولا أطرف فرشاً، ولا صباحة وجوه. فحين دخلنا نظرت إلى أبي عيسى. فلما أبصرني قال لي: يا بغيض، متى تحتشم؟ اجلس، فجلست. فقال: ما هذا القرطاس بيدك؟ قلت: يا سيدي حملته لأستفيد فيه شيئاً وأرجو أن أدرك حاجتي في هذا المجلس فمكثنا حيناً، ثم أتينا بطعام ما

رأيت أكثر منه ولا أحسن فأكلنا. وحانت مني التفاتة، فإذا أنا بزنين ودييس، وهما من أحذق الناس بالغناء، قال: فقلت: هذا مجلس قد جمع الله فيه كل شيء مليح. قال: ورفع الطعام وحيء بالشراب، وقامت جارية تسقينا شرباً ما رأيت أحسن منه، في كأس لا أقدر على وصفها. فقلت: أعزك الله. ما أشبه هذا بقول إبراهيم بن المهدي يصف جارية بيدها خمر:

يسعى بها نحونا خود من الحور

حمرأ صافية في جوف صافية

صاف من الراح في صافي القوارير

حسنا تحمل حسناوين في يدها

وقد جلس المسدود وزنين ودييس. ولم يكن في ذلك الزمان أحذق من هؤلاء الثلاثة بالغناء، فابتدأ المسدود فغنى:

وأخضر فوق نظام الدر شاربته

لما استقل بأرداف تجاذبه

ومازجت بدعا فيها غرائبه

وتم في الحسن والتأمت محاسنه

واهتز أعلاه وارتجت حقائبه

وأشرق الورد في نسرين وجنته

فكان من رده ما قال حاجبه

كلمته بجفون غير ناطقة

ثم سكت فغنى زنين:

وصاحب الحب صب القلب ذائبه

الحب حلو أمرته عواقبه

يوم الفراق ودمع العين ساكبه

استودع الله من بالطرف ودعني

ارفق بقلبك قد عزت مطالبه

ثم انصرف وداعي الشوق يهتف بي

ثم سكت وغنى ديبس:

إذا ازداد ذلاً جانبي عز جانبه

وعاتبته دهرأ فلما رأيته

وخليت عنه منهما لا أعاتبه

عقدت له في الصدر مني مودة

ثم سكت فغنى زنين:

قد لاح عارضه واخضر شاربته

بدر في الإنس حفته كواكبه

أو ينطق القول يوماً فهو كاذبه

إن يعد الوعد يوماً فهو مخلفه

فقام يشدو وقد مالت جوانبه

عاطيته كدم الأوداج صافية

قال أبو عكرمة: فعجبت أنهم غنوا بلحن واحد وقافية واحدة. قال أبو عيسى: يعجبك من هذا شيء يا أبا عكرمة؟ فقلت: يا سيدي، المنى دون هذا. ثم إن القوم غنوا على هذا إلى انقضاء المجلس، إذا ابتدأ المسدود بشيء تبعه الرجلان بمثل ما غنى. فكان مما غنى المسدود:

من يصح عنك فإني لست بالصاحي

يا دير حنة من ذات الأكيراح

من الدهان عليها سحق أمساح

يعتاده كل محفو مفارقه

إلا اغترافاً من الغدران بالراح

ما يدلفون إلى ماء بآنية

ثم سكت فغنى زنين:

واعدل هديت إلى ذات الأكيراح

دع البساتين من آسٍ وتفاح

واعدل إلى فتية ذابت لحومهم

وخمرة عتقت في دنها حقباً

ثم سكت فغنى ديبس:

لا تحفلن بقول اللائم اللاحي

كأساً إذا انحدرت في حلق شاربها

ما زلت أسقي نديمي ثم أئتمه

فقام يشدو وقد مالت سوائفه

ثم ابتداء المسدود فغنى:

باحورار العين والدعج

وبتفاح الخدود وما

كن رقيق القلب إنك من

ثم سكت وغنى زين:

كسروي التيه معتدل

وله صدغان قد عطفاً

وإذا ما افتر مبتسماً

ما لما بي منك من فرج

ثم سكت وغنى ديبس:

يعمل الأجفان بالدعج

بأبي ظبي كلفت به

مر بي في زي خنث

قلت قلبي قد فتكت به

ثم سكت وغنى المسدود:

ما يبالي اليوم من صنعا

كنت ذا نسك وذا ورع

كم زجرت القلب عنك فلم

لا تدعني للهوى غرضاً

ثم سكت وغنى ديبس:

من العبادة إلا نضو أشباح

كأنها دمعة من جفن سياح

واشرب على الورد من مشمولة الراح

أغناك لألالؤها عن كل مصباح

والليل ملتحف في ثوب سياح

يا دير حنة من ذات الأكيراح

وابيضاض الثغر والفلج

ضم من مسك ومن أرج

قتل من يهواك في حرج

هاشمي الدل والغنج

ببياض الخد كالسبيج

أطلق الأسرى من المهج

لا ابتلاني الله بالفرج

عمل الصهباء بالمهج

واضح الخدين والفلج

بين ذات الضال من أمج

قال ما في الدين من حرج

من بقلبي بيدع البدعا

فتركت النسك والورعا

يصغ لي يوماً ولا نزعا

إن ورد الموت قد شرعا

اسقني كأساً مصردة

قد شربت الحب شرب فتى

ثم ابتداءً أيضاً دببس فغنى:

يقولون في البستان للعين لذة

إذا شئت أن تلقى المحاسن كلها

إن نجم الليل قد طلعا

لم يدع في كأسه جرعا

وفي الخمر والماء الذي غير آسن

ففي وجه من تهوى جميع المحاسن

فغضب المسدود لما قطع عليه دببس وقال: عن على غير هذه القافية واللحن، ثم نرجع إلى حالنا الأولى. فقال أبو عكرمة: قد أصبت.

فابتداءً المسدود فغنى:

أدعوك من قلبي إذا لم أرك

قضى لك الله فسبحان من

لست بناسيك على حالة

صيرني الله على ما أرى

يا غاية الطرف إذا أبصرك

أحلك القلب ومن قدرك

يا لبيت ما تذكرني أذكرك

منك من الهجر كما صيرك

قال: فقال زين: وأنا فلا بد أن أسلك سبيلكما. قال أبو عكرمة: ثم التفت إلي، فقال: ما ترى؟ فقلت: أحسنت والله. فابتداءً يغنى:

يا هائم القلب عاص من عدلك

ما نلت ممن هويته أملك

دعاك داعي الهوى بخدعته

فاحتل لداء الهوى وسطوته

حتى إذا ما أجبته خذلك

إنك إن لم تداه قتلك

ثم ابتداءً المسدود يغنى:

شقتت جيبى عليك شقاً

أردت قلبي فصادفته

مالك رقى أبيت عتقي

وما لجيبى أردت شقا

يдай بالجيب قد توقي

لولاك ما كنت مسترقا

ثم سكت وغنى زين:

قد ذبت شوقاً وامت عشقاً

ثكلت نفسي وزرت رمسي

يا زفرات المحب رفقا

إن كنت للهجر مستحقا

ثم سكت وغنى دببس:

ظمئت شوقاً وبحر عشقي

أنا الذي صرت من غرامي

يفييض عذاباً ولست أسقى

على فراش السقام ملقى

ومن دموع تجود سبقا

فمن زفير ومن شهيق

ثم ابتداءً المسدود فغنى:

ماذا على نجل العيون لو أنهم

أمنا مقاساة الهموم وأيقنوا

ثم سكت وغنى دبب:

هيا فقد بدأ الصباح الأبلج

بانوا ولم أفض اللبانة منهم

ثم سكت وغنى زين:

السحر والغنج في عينيك والدعج

الدر ثغرك لولا أن ذا برد

أنضجت قلبي ولو أن الورى لقيت

ثم سكت وابتدأ المسدود فغنى:

يا صاحب المقل المراض

إن تجفني متعمداً

فطالما أمكنتني

ثم سكت وغنى زين:

هائم مدنف من الإعراض

موثق النوم مطلق الدمع ما يع

ما برى جسمه سوى لحظات

ثم سكت وغنى دبب:

كن ساخطاً واطهر بأنك راضي

وانظر إلي بمقلة غضبانية

وارحم جفوناً ما تجف من البكا

واحكم فديتك بين جسمي والهوى

ثم ابتدأ المسدود فغنى:

يا ذا الذي حال عن العهد

بسمرة الخال وما قد حوى

ألا تعطف على عاشقٍ

ثم سكت وغنى زين:

أوموا إليك فسلموا أو عرجوا

أن المحب إلى الأحبة يدلج

قد ضم مشبهة الغزال الهودج

وكذا الكريم إذا تصابى يلهج

والشمس والبدر في خديك والضرع

والحبر صدغك لولا أن ذا سبج

قلوبهم منك ما لاقبت ما لهجوا

انظر إلي بعين راض

لتذيقني جرع الحياض

منك المراشف عن تراض

لا سبيل له إلى الإغماض

رف ملجأ من الحتوف القواضي

أمرضته من العيون المراض

لا تبدين تكره الإعراض

إن كنت لم تنظر بمقلة راض

في ليلة مسلوقة الإغماض

فالحكم منك على الجوارح ماض

ومن براني منه بالصد

من حمرة في سالف الخد

منفرد بالبت والوجد

أظل بكتمان الهوى وكأنما
فلا الدمع أطفى حرقه البين والبكا
ثم سكت وغنى دبیس:

تهزأت بي لما خلوت من الوجد
وعبت علي الشوق والوجد والبكا
صددت بلا جرم إليك أتيته
ألا إنني عبدٌ لطرفك خاضع

ثم غنى المسدود:

أقمت ببلدةٍ ورحلت عنها
أقل الناس في الدنيا نصيبا

ثم سكت وغنى زین:

خليلي ما للعاشقين قلوب
فيا معشر العشاق ما أوجع الهوى

ثم سكت وغنى دبیس:

ذلت لوجهك أعين وقلوب
يا واحد الحسن الذي لحظاته
من وجهه القمر المنير وقده
ألناظريك على العيون رقيب

ثم ابتداء المسدود فغنى:

قلق لم يزل وصبر يزول
لم تسل دمعتي علي من الرح
جال في جسمي السقام فجسمي
ينقضي للقتيل حول فينسى

ثم سكت وغنى زین:

ويقنعني ممن أحب كتابه
كفى حزناً ألا أطيق وداعكم

ثم سكت وغنى دبیس:

العقد الفريد-ابن عبد ربه الأندلسي

ألاقي الذي لاقاه غيري من الوجد
ولا أنا بالشكوى أنفس من جهدي

ولم ترث لي لا كان عندك ما عندي
وأنت الذي أجريت دمعي على خدي
أكان عجيباً لو صدت عن الصد
وطرفك مولى لا يرق على عبد

كلانا عند صاحبه غريب
محب قد نأى عنه الحبيب

ولا للعيون الناظرات ذنوب
إذا كان لا يلقى المحب حبيب

بين المخافة والرجاء تذوب
تدعو النفوس إلى الهوى فتجيب
غصن نصيرٌ مشرق وكثيب
أم هل لطرفك في القلوب نصيب

ورضى لم يطل وسخط يطول
مة حتى رأيت نفسي تسيل
مدنف ليس فيه روح تجول
وأنا فيك كل يوم قتيل

ويمنعني إنه لبخيل
وقد حان مني يا ظلوم رحيل

ليس إلى تركك من حيلة

فكيفما شئت فكن سيدي

إن كنت أزمعت على هجرنا

قال أبو عكرمة: فأقبل أبو عيسى على المسدود، فقال له: عن صوتاً. فغنى:

ولا إلى الصبر لقلبي سبيل

فإن وجدي بك وجدّ طويل

فحسبنا الله ونعم الوكيل

بعقرب الصدغ من مولاي ملسوع

فألقلب من حرق الهجران مصدوع

ثوب الجمال على خديه مخلوع

ما حيلتي وفؤادي هائمٌ أبداً

لا والذي تلفت نفسي بفرقته

ما أرق العين إلا حب مبتدع

قال أبو عكرمة: فوالله الذي لا إله إلا هو لقد حضرت من المجالس ما لا أحصي، ما رأيت مثل ذلك اليوم. ثم إن أبا عيسى أمر لكل واحد بجائزة وانصرفنا ولولا أن أبا عيسى قطعهم ما انقطعوا.

من سمع صوتاً فوافقه معناه واستخفه الطرب

حكى إسحاق بن إبراهيم الموصلي عن أبيه، قال: دخلت على هارون الرشيد، فلما رأيته قد أخذ في حديث الجوارى وغلبتهن على الرجال، غنيته بأبياته التي يقول فيها:

وحللن من قلبي بكل مكان

وأطيعهن وهن في عصياني

وبه قوين أعز من سلطاني

ملك الثلاث الأنسات عناني

مالي تطاوعني البرية كلها

ما ذاك إلا أن سلطان الهوى

فارتاح وطرب وأمر لي بعشرة آلاف درهم.

وغنى إبراهيم الموصلي محمد بن زبيدة الأمين بقول الحسن بن هانئ فيه:

خلت الدنيا من الفتن

حسنه عبداً بلا ثمن

دم على الأيام والزمن

فإذا أفنيتنا فكن

فكأن البخل لم يكن

رشاً لولا محاسنه

كل يوم يسترق له

يا أمين الله عش أبداً

أنت تبقى والفناء لنا

سن للناس القرى فقروا

قال: فاستخفه الطرب حتى قام من مجلسه، وأكب على إبراهيم يقبل رأسه. فقام إبراهيم من مجلسه يقبل أسفل رجليه، وما وطئنا من البساط. فأمر له

بثلاثة آلاف درهم. فقال إبراهيم: يا سيدي، قد أجزيتني إلى هذه الغاية بعشرين ألف ألف درهم. فقال الأمين: وهل ذلك إلا خراج بعض الكور؟!

الرياشي عن الأصمعي، قال: قدم جرير المدينة فأتاه الشعراء وغيرهم، وأتاه أشعب فيهم. فسلموا عليه وحادثوه ساعةً وخرجوا، وبقي أشعب. فقال له

جرير: أراك قبيحاً وأراك لثيم الحسب، فميم قعودك وقد خرج الناس؟ فقال له: أصلحك الله، إنه لم يدخل عليك اليوم أحدٌ أنفع لك مني، قال: وكيف

ذلك؟ قال: لأني أخذ رقيق شعرك فأزينه بحسن صوتي. فقال له جرير: فقل. فاندفع يغنيه:

قبل الرحيل وقبل لوم العذل

يا أخت ناجية السلام عليكم

لو كنت أعلم أن آخر عهدكم

يوم الرحيل فعلت ما لم أفعل

قال: فاستخف جريراً الطرب لغنائه بشعره حتى زحف إليه واعتنقه وقبل بين عينيه، وسأله عن حوائجه فقضاها له. الزبير بن بكار قال: كان المسور بن مخزومة ذا مال كثير، فأسرع فيه على إخوانه، فذهب. فسأل امرأته، وكانت موسرة، فمنعته وبخلت عليه. فخرج يريد بعض خلفاء بني أمية منتجعاً. فلما كان ببعض الطريق نزل ماءً يقال له بلاكت. فقال له غلامه: كيف يقال لهذا الماء؟ قال: يقال له بلاكت. فقال:

بينما نحن من بلاكت بالقا

ع سراعاً والعيس تهوي هويًا

خطرت خطرة على القلب من ذلك

راك وهنا فما استطعت مضياً

قلت لبيك إذ دعاني لك الشو

ق وللحاديين كرا المطيا

فقال: هن بدن إن لم تكرها رواجع. قال له: قد أشرفن على أمير المؤمنين. قال: هن بدن إن لم تكرها رواجع. فانصرف ودخل المصلى ليلاً. فوجد رجال قريش حلقتا يتحدثون، فقالوا له: زاد خير. فقال: زاد خير. حتى انتهى إلى داره. فقالت له امرأته: زاد خير. فأنشدها الأبيات. قالت: كل ما أملك في سبيل الله إن لم أشاطرك مالي. فشاطرته مالها. وروى أبو العباس قال: حدثت أن عمر الوادي قال: أقبلت من مكة أريد المدينة فجعلت أسير في صمد من الأرض، فسمعت غناء من الهواء لم أسمع مثله، فقلت: والله لأتوصلن إليه. فإذا هو عبد أسود. فقلت له: أعد ما سمعت فقال: والله لو كان عندي قرى أقريكه ما فعلت، ولكن أجعله قراك. فإني والله ربما غنيت بهذا الصوت وأنا جائع فأشبع، وربما غنيت وأنا كسلان فأنشط، وربما غنيت وأنا عطشان فأروى. ثم ابتدأ فغنى:

وكنت متى ما زرت سعدى بأرضها

أرى الأرض تطوى لي ويدنو بعيدها

من الخفرات البيض ود جليسيها

إذ ما انقضت أحوثةً لو تعيدها

قال عمر: فحفظته منه. ثم تغنيت به على الحالات التي وصف، فإذا هو كما ذكره.

وتحدث الزبيريون عن خالد صامة بأنه كان من أحسن الناس ضرباً بعود، قال: قدمت على الوليد بن يزيد في مجلس ناهيك به مجلساً، فألفيته على سريره وبين يديه معبد ومالك بن أبي السمح وابن عائشة وأبو كامل غزير الدمشقي، فجعلوا يغنون حتى بلغت النوبة إلي. فغنيت:

سرى همي وهم المرء يسري

وغاب النجم إلا قيد فتر

لهم ما أزال له قرينا

كأن القلب أودع حر جمر

على بكر أخي فارقت بكراً

وأبي العيش يصلح بعد بكر

فقال: أعد يا صامة. ففعلت. فقال لي: من يقول هذا الشعر؟ قلت: يقوله عروة بن أذينة يرثي أخاه بكراً. قال الوليد: وأي عيش يصلح بعد بكر. والله لقد حجر واسعاً. هذا والله العيش الذي نحن فيه يصلح على رغم أنفه. وقد قيل إن سكينه بنت الحسين غنيت بهذا الشعر فقالت: ومن بكر هذا؟ فوصف لها. فقالت: هو ذاك الأسد الذي كان يأتينا، لقد طاب كل شيء بعده حتى الخبز والزيت.

وعن عبد الصمد بن المعدل قال: سمعت إسحاق الموصلي يتحدث قال: حججت مع الرشيد، فلما نزلت المدينة آخيت بها رجلاً كانت له مروءة ومعرفة وأدب، وكان يغني. فإني ذات ليلة في منزلي إذا أنا بصوته يستأذن علي، وظننت أمراً قد حدث ففرع فيه إلي. فأسرعت نحو الباب، فقلت: ما جاء بك؟ قال: دعاني صديق إلى طعام عتيق ومجلس شراب قد التقى طرفاه، وشواء شراش، وحديث ممتع وغناء مشبع، فأجبتته وأقمت معه إلى هذا الوقت، فأخذت مني حمياً الكأس مأخذها، ثم غنيت بقول نصيب:

بزينب ألم قبل أن يرحل الراكب

فكدت أطير طرباً. ثم وجدت في الطرب تنغيصاً إذ لم يكن معي من يفهم هذا كما فهمته. ففرغت إليك لأصف لك هذه الحال، ثم أرجع إلى صاحبي. وضرب بغلته مولياً. فقلت: قف أكلمك. فقال: ما بي إلى الوقوف إليك من حاجة. وحدث أن معاوية بن أبي سفيان استمع على يزيد ذات ليلة فسمع عنده غناء أعجبه، فلما أصبح قال له: من كان ملهيك البارحة؟ قال: سائب خاتر، قال: فأكثر له العطاء.

وكان ابن أبي عتيق من نبلاء قريش وظرفائهم. فمن ظريف أخباره أن عثمان بن حيان المري لما دخل المدينة والياً عليها اجتمع إليه الأشراف من قريش والأنصار، فقالوا له: إنك لا تعمل عملاً أحرى ولا أولى من تحريم الغناء والزنا. ففعل وأجلهم ثلاثاً. فقدم ابن أبي عتيق في الليلة الثالثة وكان غائباً. فحط رحله بباب سلامة الزرقاء، وقال لها: بدأت بك قبل أن أصير إلى منزلي. قالت: أو ما تدري ما حدث بعدك؟ وأخبرته الخبر. فقال: أقيمي إلى السحر حتى ألقاه. فلقيه فأخبره أنه إنما أقدمه حب التسليم عليه، وقال له: إن أفضل ما عملت تحريم الغناء والزنا. فقال: إن أهلك أشاروا علي بذلك. فقال: إنهم وفقوا ووقفوا، ولكني رسول امرأة إليك تقول: قد كانت هذه صناعتني فتبت إلى الله منها. وأنا أسألك أيها الأمير ألا تحول بينها وبين مجاورة قبر النبي صلى الله عليه وسلم. فقال عثمان: إذا أدعها فقال: إذا لا يدعك الناس، ولكن تدعو بها فتنظر إليها، فإن كان يجوز تركها تركتها. قال: فادع بها. فأمر بها ابن أبي عتيق. فتنقبت وأخذت سبحة في يدها وصارت إليه، فحدثته عن مآثر آبائه، ففككها. فقال ابن أبي عتيق: أريد أن أسمع الأمير قراءتها. ففعلت، فحركه حداؤها. ثم قال له ابن أبي عتيق: فكيف لو سمعتها في صناعتها التي تركتها. فقال له: قل لها فلتنغن. فغنت:

بكل بنان واضح وجبين

سددن خصاص البيت لما دخلته

فترل عثمان عن سريره ثم جلس بين يديها، وقال: لا والله ما مثلك يخرج عن المدينة. فقال ابن أبي عتيق: يقول الناس أذن لسلامة ومنع غيرها. فقال له: قد أذنت لهم جميعاً.

وذكر لابن أبي عتيق أن المختنئين خصوا. وأنه خصي فلان فيهم، لواحد منهم كان يعرفه. فقال ابن أبي عتيق: إنا لله! لئن خصي لقد كان يحسن:

ش أمسى دارساً خلقاً

لمن ربع بذات الجي

ثم استقبل ابن أبي عتيق القبلة، فلما كبر وسلم، ثم قال لأصحابه: أما إنه كان يحسن خفيفه، فأما ثقيله فلا والله، ثم كبر.

وكان سليمان بن عبد الملك مفرط الغيرة، فسمع مغنياً في عسكره، فقال: اطلبوه، فجاءوا به. فقال له: أعد ما تغنيت به. فأعاد واحتفل. فقال:

لأصحابه: والله لكأما جرجرة الفحل في الشول، وما أحسب أننى تسمع هذا إلا صبت إليه. ثم أمر به فخصي.

وقال أبو العباس محمد بن يزيد النحوي: روي لنا أن رجلاً من الصالحين كان عند إبراهيم بن هشام، فأنشده إبراهيم قول الشاعر:

وإذ أجر إليكم سادراً رسني

إذ أنت فينا لمن ينهك عاصية

فقام الرجل فرمى بشق رداءه وأقبل يسحبه حتى خرج من المجلس، ثم رجع إلى موضعه فجلس. فقال له إبراهيم: ما بالك؟ قال: إني كنت سمعت هذا الشعر فاستحسنته، فأليت ألا أسمعها إلا جررت رداي كما جر هذا الرجل رسنه.

ووقف رجل من الشعراء من المغنين فأنشده:

في حاجة يسعى لها مثلي

إني أتيت إليك من أهلي

حي الحمول بجانب الرمل

لا أبتغي شيئاً لديك سوى

قال له: انزل فك ما طلبت مر دحمان المغني يقوم وعليه رداء عدني يثري. فقالوا له: بكم أخذت الرداء؟ فقال:

ما ضر جيراننا إذا انتجعوا

وحدث أبو العباس أحمد بن بكر ببغداد قال: حدثني إسحاق بن إبراهيم الموصلي قال: كان يقال قديماً: إذا قسا عليك قلب القرشي من تمامة فغنه بشعر عمر بن أبي ربيعة وغناء ابن سريج. وكذا فعل أشعب برجل من أهل مكة من بني هاشم، وكان أشعب قد انتجع أهل مكة من المدينة. قال أشعب: فلما دخلت عليه غنيتته بغناء أهل المدينة وأهل العقيق. فلم ينجع ذلك فيه ولم يحرك من طيبه ولا أريحته. فلما عيل صبري غنيتته بغناء ابن سريج المكي وقول ابن أبي ربيعة القرشي:

ولي نظر لولا التخرج عارم

بدت لك تحت السجف أم أنت هائم

أبوها وإما عبد شمس وهاشم

نظرت إليها بالمحصب من منى

فقلت أشمس أم مصابيح راهب

بعيدة مهوى القرط إما لنوفل

قال: فحركت والله من طربه، وكان الذي أردت. ثم غنيتته لابن أبي ربيعة القرشي أيضاً:

مقال الناصح الأدنى الشفيق

وإن كنا بقارعة الطريق

ولولا أن تقول لنا قريش

لقلت إذا التقينا قبليني

فقال: أحسن والله. هكذا يطيب التلقي، لا بالخوف والتوقي. قال: فلما رأيته قد طرب للصوتين ولم يند لي بشيء. قلت: هو الثالث وإلا فعليه السلام. قال: فغنيتته الثالث من غناء ابن سريج وقول عمر بن أبي ربيعة، ويقال إنها لجميل:

حتى ولجت على خفي المولج

فتنفست نفساً ولم تتلهج

لأنبهن الحي إن لم تخرج

فعلمت أن يمينها لن تخرج

رشف النزيف ببرد ماء الحشرج

ما زلت أمتحن الدساكر دونها

فوضعت كفي عند مقطع خصرها

قالت وحق أخي وحرمة والدي

فخرجت خيفة قولها فتبسمت

فرشفت فاها آخذاً بقرونها

فصاح الهاشمي: أواه! أحسن والله وأحسنت! وأمر لي بألف درهم وثلاثين حلة وخلعة كانت عليه.

وغنى ابن سريج رجلاً من بني هاشم بقول جرير:

بأسهم أعداء وهن صديق

وما ساغ لي بين الجوانح ريق

بعثن الهوى ثم آرتمين قلوبنا

وما ذقت طعم العيش منذ نأيتم

قال: فخطب من ثوبه ذراعاً، وقال: هذا والله العقيان في نحر القيان.

قال: وصحب شيخاً من أهل المدينة شاباً في سفينة، ومعهم جارية تغني، فقال له: إن معنا جارية تغني ونحن نجلك، فإذا أذنت لنا فعلنا؟ قال: فأنا أعتزل وافعلوا ما شئتم. فتنحى وغنت الجارية:

وغابت الجوزاء والمرزم

ينساب من مكمته الأرقم

حتى إذا الصبح بدا ضوءه

أقبلت والوطء خفي كما

فرمى الناسك بنفسه في الفرات وجعل يجبظ بيديه طربا ويقول: أنا الأرقم. فأخرجوه وقالوا: ما صنعت بنفسك؟ فقال: والله إني أعلم من تأويله ما لا تعلمون.

وقال أحمد بن جعفر: حضر قاضي مكة مأدبةً لرجل من الأشراف. فلما انقضى الطعام اندفعت جاريةً تغني:

إلى خالد حتى أنخنا بخالد فنعم الفتى برجى ونعم المؤمل

فلم يدر القاضي ما يصنع من الطرب حتى أخذ نعليه فعلقهما في أذنيه، ثم جثى على ركبتيه، قال: اهدوني فيني بدنة. كان رجل من الهاشميين يحب السماع، فبعث إلى رجل من المغنين فاقترح عليه صوتاً كان كلفاً به، فغناه إياه. فطرب الهاشمي وشق ثوبا كان عليه، ثم قال للمغني: افعل بنفسك مثل ما فعلت بنفسي: قال: أصلحك الله، إنك تجد خلفاً من ثوبك، وإني لا أجد خلفاً من ثوبي. قال: أنا أخلف لك. قال: فافعل ونفعل. قال: أخرجتنا من حد الطيب إلى حد السوم.

من قرع قلبه صوت فمات منه أو أشرف

حدث أبو القاسم إسماعيل بن عبد الله المأمون في طريق الحج من العراق إلى مكة قال: حدثني أبي، قال: كانت بالمدينة قينة من أحسن الناس وجهاً وأكملهم عقلاً وأفضلهم أدباً، قرأت القرآن وروت الأشعار وتعلمت العربية، فوعدت عند يزيد بن عبد الملك فأخذت بمجامع قلبه، فقال لها ذات يوم: ويحك! أما لك فرابةٌ أو أحد يحسن أن أصطنعه أو أسدي إليه معروفاً؟ قالت: يا أمير المؤمنين، أما قرابة فلا، ولكن بالمدينة ثلاثة نفر كانوا أصدقاء لمولائي، كنت أحب أن ينالهم شيء مما صرت إليه. فكتب إلى عامله بالمدينة في إشخاصهم وأن يعطى كل رجل منهم عشرة آلاف درهم، وأن يعجل بسراحتهم إليه. ففعل عامل المدينة ذلك. فلما وصلوا إلى باب يزيد استؤذن لهم، فأذن لهم وأكرمهم وسألهم حوائجهم. فأما الإثنان فذكرا حوائجهما، فقضاها لهما. وأما الثالث فسأله عن حاجته، فقال: يا أمير المؤمنين، ولكن حاجتي لا أحسبك تقضيها. قال: ويحك؟ فسألني حاجة أقدر عليها إلا قضيتها. قال: ولي الأمان يا أمير المؤمنين؟ قال: نعم وكرامة. قال: إن رأيت أن تأمر جاريتك فلانة التي أكرمتنا لها أن تغنيني ثلاثة أصوات، أشرب عليها ثلاثة أرطال، فافعل. قال: فتغير وجه يزيد وقام من مجلسه، فدخل على الجارية فأعلمها. قالت: وما عليك يا أمير المؤمنين، افعل ذلك. فلما كان من الغد أمر بالفتى فأحضر وأمر بثلاثة كراسي من ذهب فألقيت. فقعد يزيد على أحدها، وقعدت الجارية على الآخر وقعد الفتى على الثالث، ثم دعا بطعام فتغدوا جميعاً، ثم دعا بصنوف الرياحين والطيب فوضعت، ثم أمر بثلاثة أرطال فملئت. ثم قال للفتى: قل ما بدا لك وسل حاجتك. قال: تأمرها تغني:

لا أستطيع سلواً عن مودتها أو يصنع الحب بي فوق الذي صنعا

أدعو إلى هجرها قلبي فيسعدني حتى إذا قلت هذا صادق نزعا

فأمر فغنت. فشرب يزيد وشرب الفتى ثم شربت الجارية. ثم أمر بالأرطال فملئت، ثم قال للفتى: سل حاجتك قال: تأمرها تغني:

تخيرت من نعمان عود أراكة لهند ولكن من يبلغه هنداً

ألا عرجا بي بارك الله فيكما وإن لم تكن هند لأرضكما قصداً

قال: فغنت بهما وشرب يزيد ثم الفتى ثم الجارية. ثم أمر بالأرطال فملئت، ثم قال للفتى: سل حاجتك. قال: يا أمير المؤمنين، مرها تغني:

منا الوصال ومنكم الهجر حتى يفرق بيننا الدهر

والله ما أسلوكم أبداً ما لاح نجم أو بدا فجر

قال: فلم تأت علي آخر الأبيات حتى خر الفتى مغشياً عليه. فقال: يزيد للجارية: انظري ما حاله. فقامت إليه فحركته فإذا هو ميت. فقال لها: ابكيه. قال: لا أبكيه يا أمير المؤمنين وأنت حي. قال لها: ابكيه، فوالله لو عاش ما انصرف إلا بك. فبكته، وأمر بالفتى فأحسن جهازه ودفنه. قال: وحدث أبو يوسف بالمدينة قال: حدثنا إبراهيم بن المنذر الحزامي عن أبيه، أن عبد الله بن جعفر وفد على عبد الملك بن مروان، فأقام عنده حيناً، فبينما هو ذات ليلة في سمره إذ تذكروا الغناء. فقال عبد الملك: قبح الله الغناء، ما أوضعه للمروءة، وأجرحه للعرض، وأهدمه للشرف، وأذهب للبهاء. وعبد الله ساكت، وإنما عرض لعبد الله، وأعانه عليه من حضر من أصحابه. فقال عبد الملك: ما لك أبا جعفر لا تتكلم؟ قال: ما أقول ولحمي يتمزع وعرضي يتمزق. قال: أما إني نبئت أنك تغني؟ قال: أجل يا أمير المؤمنين. قال: أف لك وتف. قال: لا أف ولا تف، فقد تأتي أنت بما هو أعظم من ذلك. قال: وما هو؟ قال: يأتيك الأعرابي الجافي الزور ويقذف المحصنات، فتأمر لها بألف دينار، وأشتري أنا الجارية الحسناء من مالي فأختار لها من الشعر أجوده، ومن الكلام أحسنه، ثم تردده علي بصوت حسن، فهل بذلك بأس؟ قال: لا بأس، ولكن أحريري عن هذه الأغاني ما تصنع؟ قال: نعم، اشتريت جارية باثني عشر ألف درهم مطبوعة، فكان بديح وطويس يأتيانها فيطرحان عليها أغانيهما، فعلقتهما منهنما حتى غلبت عليهما، فوصفت ليزيد بن معاوية، فكتب إلي: إما أهديتها إلي وإما بعتهما بحكمك. فكتبت إليه: إنما لا تخرج عن ملكي ببيع ولا هبة فبذل لي فيها ما كنت أحسب أن نفسه لا تسخو به، فأبيت عليه. فبينما هي عندي على تلك الحال إذ ذكرت لي عجوز من أهل المدينة يسمع غناها، فعلقها وشغف بها، وأنه يجيء في كل ليلة مستتراً يقف بالباب حتى يسمع غناها ثم ينصرف. فراعيت مجيئه، فإذا الفتى قد أقبل مقنع الرأس، فأشرفت عليه وقد قعد مستخفياً. فلم أدع بها تلك الليلة وجعلت أتأمل موضعه. فبات مكانه الذي هو فيه. فلما انشق الفجر اطلعت عليه فإذا هو في موضعه، فدعوت قيمة الجواري فقلت لها: انطلقني الساعة فزينين هذه الجارية واعجلي بها إلي فلما جاءت بها نزلت وفتحت الباب وحركته. فانتبه مدعوراً، فقلت له: لا بأس عليك، خذ هذه الجارية فهي لك، وإن هممت ببيعها فردها إلي. فدهش وأخذه الخبل ولبط به. فدنوت من أذنه فقلت: ويحك! قد أظفرك الله ببيعتك، فقم فانطلق بها إلى منزلك. فإذا الفتى قد فارق الدنيا. فلم أر شيئاً قط أعجب منه.

قال عبد الملك: وأنا ما سمعت شيئاً قط أعجب من هذا، ولولا أنك عاينته ما صدقت به، فما صنعت بالجارية؟ قال: تركتها عندي وكنت إذا ذكرت الفتى لم أحد لها مكاناً من قلبي، وكرهت أن أوجه بها إلى يزيد فيبلغه حالها فيحقد علي، فما زالت تلك حالها حتى ماتت.

ووقف رجل يقال له طريفة على أيوب المغني فقال:

في حاجة يسعى لها مثلي

حي الحمول بجانب الرمل

إذ لا يلائم شكلها شكلي

فلبط بطريفة، فإذا هو في الأرض منجدل. فلما أفاق قام بمسح التراب عن وجهه. فقيل له: ويحك! ما كانت قصتك؟ قال: ارتفع والله من رجلي شيء حار وهبط من رأسي شيء بارد فالتقيا وتصادما، فوقعت بينهما لا أدري ما كانت حالي.

إني قصدت إليك من أهلي

لا أبتغي شيئاً لديك سوى

حي الحمول بجانب العزل

أخبار عنان وغيرها من القيان

حدث محمد بن زكريا الغلابي بالبصرة: قال: حدثنا إبراهيم بن عمر قال: كان هارون الرشيد قد استعرض عنان جارية الناطفي ليشتريها، وقال لها: أنا والله أحبك. ثم أمسك عن شرائها. فجلس ليلة معه سماره، فغناه بعض من حضر من المغنين بأبيات جرير حيث يقول:

وشلاً بعينك لا يزال معيننا

إن الذين غدوا بلبك غادروا

قال: فطرب الرشيد لها طرباً شديداً وأعجب بالأبيات، وقال لجلسائه: هل منكم أحد يحيز هذه الأبيات بمثلهن، وله هذه البدره؟ وبين يديه بدره من دنانير. فقالوا فلم يصنعوا شيئاً. فقال خادم على رأسه: أنا بها لك يا أمير المؤمنين. قال: شأنك. فاحتمل البدره ثم أتى الناطفي، فقال له: استأذن لي على عنان. فأذنت له. فدخل وأخبرها الخبر. فقالت: ويحك! وما الأبيات؟ فأنشدها إياها. فقالت له: اكتب:

داء بقلبي ما يزال كميناً

وسقين من ماء الهوى فروينا

إن القلوب إذا هوين هويها

هيجت بالقول الذي قد قلته

قد أينعت ثمراته في حينها

كذب الذين تقولوا يا سيدي

فقالت له: دونك الأبيات، فدفعت إليها البدره ورجع إلى هارون. فقال له: ويحك! من قالها! قال: عنان، جارية الناطفي. فقال: خلعت الخلفة من عنقي إن باتت إلا عندي. قال: فبعث إلى مولاها فاشتراها منه بثلاثين ألفاً، وباتت بقية تلك الليلة عنده. وقال الأصمعي: ما رأيت الرشيد متبدلاً قط إلا مرة، كتبت إليه عنان، جارية الناطفي رقعة فيها:

أمناً منك لا أخاف جفاكا

ت عيون الوشاة بي فهناكا

بك في الحق يا جعلت فداكا

كنت في ظل نعمة بهواكا

فسعى بيننا الوشاة فأقرر

ولعمري لغير ذا كان أولى

قال: فأخذ الرقعة بيده، وعنده أبو حفص الشطرنجي، فقال: أيكم يشير إلى المعنى الذي في نفسي فيقول فيه شعراً، وله عشرة آلاف درهم؟ فظننت أنه وقع بقلبه أمر عنان، فبدر أبو حفص فقال:

لمحب ريحانه ذكراكا

س أعارته صبوةً فبكاكا

وتجافت أمنيته عن سواكا

مجلس ينسب السرور إليه

فقال: يا غلام، بدره.

فقال حرير:

كلما دارت الزجاجة والكا

فقال: يا غلام، بدره. قال الأصمعي: فقلت:

لم ينلك الرجاء أن تحضريني

قال: أحسنت والله يا أصمعي، لها ولك بهذا البيت عشرون ألفاً.

وقال غير أبي أشعركم حيث أقول:

قد تمنيت أن يغشيني الله نعاساً لعل عيني تراكا

قلنا له: صدقت والله يا أمير المؤمنين.

وقال بكر بن حماد الباهلي: لما انتهى إلي خبر عنان وأنها ذكرت لهارون، وقيل له إنها أشعر الناس، خرجت متعريضاً لها، فما راعني إلا الناطفي مولاها قد ضرب على عضدي، فقال لي: هل لك فيما سنح من طعام وشراب ومجالسة عنان؟ فقلت: ما بعد عنان مطلب. ومضينا حتى أتينا منزله، فعقل دابته ثم دخل، فقال: هذا بكر شاعر باهلة يريد مجالستك اليوم. فقالت: لا والله، إني كسلانة. فحمل عليها بالسوط، ثم قال لي: ادخل، فدخلت ودعمها يتحدر كالجمان في خدها، فطمعت بما فقلت:

كالدر إذ ينسل من خيطه

هذي عنان أسبلت دمعها

ثم قلت لها: أجيزي. فقال:

فليت من يضربها ظالماً

فقلت لها: إن لي حاجة. فقالت: هاها، فمن سببك أودينا. قلت لها: بيت وجدته على ظهر كتابي لم أقرضه ولم أقدر على إجازته. قالت: قل. فأنشدتها.

تجف يمناه على سوطه

فما زال يشكو الحب حتى حسبته

قال: فأطرت ساعة ثم أنشدت:

تنفس في أحشائه أو تكلما

ويبكي فأبكي رحمة لبكائه

قلت لها: فما عندك في إجازة هذا البيت:

جعلت خدي له ملاذا

بديع حسن بديع صد

فأطرت ساعة ثم قالت:

فأودوه فكان ماذا

فعاتبوه فعنفوه

وجلس أبو نواس إلى عنان فقالت: كيف علمك بالعروض وتقطيع الشعر يا حسن؟ قال: جيد. قالت: قطع هذا البيت:

أكلت الخردل الشامي في قصعة خباز

فلما ذهب يقطعه ضحكت به وأضحكت. فأمسك عنها وأخذ في ضروب من الأحاديث، ثم عاد سائلاً لها، فقال: كيف علمك بالعروض؟ قالت: حسن يا حسن. فقال: قطعي هذا البيت:

يا بني حمالة الحطب

حولوا عنا كنيستكم

فلما ذهبت تقطعه ضحك أبو نواس. فقالت له: قبحك الله! ما برحت حتى أخذت بثأرك.

حدث أبو عبد الله بن عبد البر المدني قال: حدثني إسحاق بن إبراهيم الموصلي قال: كان للمأمون جماعة من المغنين وفيهم مغن يسمى سوسناً، عليه وسم جمال. قال: فبينما هو عنده إذ تطلعت جارية من جواريه فنظرت إليه فعلقته. فكانت إذ حضر سوسن تسوى عودها وتغني:

كان دمعي لمقلتي نديما

ما مررنا بالسوسن الغض إلا

ت وإن كنت منه أذكى نسيما

حبذا أنت والمسمى به أن

فإذا غاب سوسن أمسكت عن هذا الصوت وأخذت في غيره. فلم تزل تفعل ذلك حتى فطن المأمون. فدعا بها ودعا بالسيف والنطع، ثم قال: اصديقي أمرك قال: يا أمير المؤمنين، ينفعني عندك الصدق؟ قال لها: إن شاء الله. قالت: يا أمير المؤمنين، اطلعت من وراء الستارة فرأيتته فعلقته. فأمسك المأمون عن عقوبتها، وأرسل إلى المغني فوهبها له، وقال: لا تقربنا.

قال أبو الحسن: كان الواثق إذا شرب وسكر رقد في موضعه الذي سكر فيه، ومن سكر من ندمائه ترك ولم يخرج. فشرب يوماً فسكر وركد وانقلب أصحابه، إلا مغنياً أظهر التراقد، وبقيت معه مغنية للواثق. فلما خلا المجلس وقع المغني في سحابة ودفعها إليها:

مترشف من ريق فيك البارد

إني رأيتك في المنام كأنني

بتنا جميعاً في فراش واحد

وكان كفك في يدي وكأنما

في راحتي وتحت خدك ساعدي

ثم انتبهت ومنكباك كلاهما

فأجابته:

خير أرايت وكل ما أبصرته

ستتاله مني برغم الحاسد

وتبيت بين خلاخي ودمالجي

وتحل بين مراشفي ومجاسدي

فنكون أنعم عاشقين تعاطيا

ملح الحديث بلا مخافة راصد

فلما مدت يدها لترمي إليه بالسحاة، رفع الوثائق رأسه فأخذ السحاة من يدها، وقال لهما: ما هذه؟ فحلفا له أنه لم يجر بينهما قبل هذا كلام ولا كتاب ولا رسول غير اللحظ، إلا أن العشق قد خامرهما. فأعتقها وزوجها منه. فلما أشهد له وتم النكاح، أقامها الوثائق بمحضر المغني إلى بيت من بعض البيوت، فوقع عليها ثم خرج إليه، فقال له: أردت أن تكشفني فيها وهي خادمي، فقد كشختك فيها وهي زوجتك. قال: ولما كلف يزيد بحبابة واشتغل بها وأضاع الرعية، دخل عليه مسلمة أخوه، قال: يا أمير المؤمنين، تركت الظهور للعامة والشهود للجمعة وأضعت أمر المسلمين واحتجبت مع هذه الأمة. فارعوى قليلاً وظهر للناس. فأوحت حبابة إلى الأحوص أن يقول أبياتاً يهون فيها على يزيد ما قال مسلمة فقال، وغنت بها حبابة:

ألا لا تلمه اليوم أن يتبلدا

فقد منع المحزون أن يتجلدا

إذا أنت لم تعشق ولم تدر ما الهوى

فكن حجرا من يابس الصخر جلدا

هل العيش إلا ما تلذ وتشتهي

وإن لام فيه ذو الشنان وفندا

فلما سمعها ضرب بجيزرانتها الأرض وقال: صدقت! صدقت! على مسلمة لعنة الله. ثم عاد إلى سيرته الأولى. وحدث ابن الغاز قال: حدثنا أبو سعيد عبد الله بن شبيب قال: حدثنا الهيثم ابن أبي بكر قال: كان يزيد بن عبد الملك كلفا بحبابة كلفاً شديداً. فلما توفيت أكب عليها أياماً يترشفها ويتشممها حتى أتت، فقام عنها وأمر بجهازها، ثم خرج بين يدي نعشها، حتى إذا بلغ القبر نزل فيه، حتى إذا فرغ من دفنها وانصرف، لصق إليه مسلمة أخوه يعزيه ويؤنسه. فلما أكثر عليه قال له: قاتل الله ابن أبي جمعة حيث يقول:

فإن تسل عنك النفس أو تدع الهوى

فبالياس تسلو عنك لا بالتجلد

وكل خليل زارني فهو قائل

من أجلك هذا هامة اليوم أو غد

قال: وطعن في جنازتها، فدفناه إلى سبعة عشر يوماً.

وذكر المعتصم جارية كانت غلبت عليه وهو بمصر، ولم يكن خرج بها معه، فدعا مغنيا له فقال له: ويحك! إنني ذكرت جارية، فأقلقني الشوق إليها، فهات صوتاً يشبه ما ذكرت لك. فأطرق ملياً ثم غنى:

وددت من الشوق المبرح أنني

أعار جناحي طائر فأطير

فما لنعيم لست فيه بشاشة

وما لسرور لست فيه سرور

وإن امرأ في بلدة نصف قلبه

ونصف بأخرى غيرها لصبور

فقال: والله ما عدوت ما في نفسي، وأمر له بجائزة، ورحل من ساعته. فلما بلغ الفرما قال:

غريب في قرى مصر

يقاسي الهم والسدما

لليلك كان بالميدا

ن أقصر منه بالفرما

وقال المأمون في قبينة له:

لها في لحظها لحظات حتف

فإن غضبت رأيت الناس قتلى

وتسبي العالمين بمقلنتيها

وأنشد البحري في قينة له:

أمازحها فتغضب ثم ترضى

فإن تغضب فأحسن ذات دل

وقال ابن المعتز في قينة له:

سقتني في ليل شببه بشعرها

فأمسيت في ليلين للشعر والدجا

وقال هارون الرشيد في قينة له:

تبدي صدودا وتخفي تحته مقة

يا من وضعت له خدي فذلل

وقال إبراهيم الشيباني: القينة لا تخلص محبة لأحد، ولا تؤتى إلا من باب الطمع. وقال علي بن الجهم: قلت لقينة:

هل تعلمين وراء الحب منزلة

فقلت: تأتي من باب الذهب، وأنشدت:

اجعل شفيحك منقوشاً تقدمه

فلم يزل مدنياً من ليس بالداني

وكان أشعب يختلف إلى قينة بالمدينة، فجلس عندها يوماً يطارحها الغناء، فلما أراد الخروج قال لها: ناولينني خاتمك أذكرك به. قالت: إنه ذهب، وأحاف أن تذهب، ولكن خذ هذا العود فلعلك تعود. وناولته عوداً من الأرض.

وكان أشعب يختلف إلى قينة بالمدينة يكلف بها وينقطع إليها إذا نظر إليها. فطلبت منه أن يسلفها دراهم. فانقطع عنها وتجنب دارها، فعملت له دواء ولقيته به. فقال لها: ما هذا؟ قالت: دواء عملته لك تشربه لهذا الفزع الذي بك. قال: اشربه أنت للطمع، فإن انقطع طعمك انقطع فزعي، وأنشأ يقول:

أنا والله أهواك

ولكن ليس لي نفقة

فإما كنت تهويني

فقد حلت لي الصدقه

وقعد أبو الحارث حمير إلى قينة بالمدينة صدر نهاره، فجعلت تحذته ولا تذكر الطعام. فلما طال ذلك به، قال: ما لي لا أسمع للطعام ذكراً؟ قالت: سبحان الله، أما تستحي، أما في وجهي ما يشغلك عن هذا؟ فقال لها: جعلت فداك، لو أن جميلاً وبثينة قعدا ساعة واحدة لا يأكلان لبصق كل واحد منهما في وجه صاحبه وافترقا.

وقال الشيباني: كانت بالعراق قينة وكان أبو النواس يختلف إليها، فتظهر له أنها لا تحب غيره، وكان كلما جاءها وجد عندها فتى يجلس عندها ويتحدث إليها، فقال فيها:

ومظهرة لخلق الله ودا

وتلقي بالتحية والسلام

أتيت فؤادها أشكو إليه

فيا من ليس يكفيها صديقٌ

أراك بقية من قوم موسى

فلم أخلص إليه من الزحام

ولا خمسون ألفا كل عام

فهم لا يصبرون على الطعام

وقال الشيباني: حضر أبو النواس مجلساً فيه قيان، فقلن له: ليتنا بناتك. قال: نعم، ونحن على الجوسية.

وقال العتيبي: حضرت قينة مجلساً فغنت فأحادت، فقام إليها شيخ من القوم فجلس بن يديها وقال: كل مملوك لي حر، وكل امرأة لي طالق، لو كانت الدنيا كلها صرارا في كمي لقطعتها لك، فأما إذ لم يكن، فجعل الله كل حسنة لي لك، وكل سيئة عليك علي. قالت: جزاك الله خيراً، فوالله ما يقوم الولد لولده بما قمت به لنا. فقام شيخ آخر وقعد بين يديها وقال لها: كل مملوك لي حر وكل امرأة لي طالق، إن كان وهب لك شيئاً ولا حمل عنك ثقلاً، لأنه ما له حسنة يهبها لك، ولا عليك سيئة يحملها عنك، فأأي شيء تحمدينه؟

حدث أحمد بن عمر المكي قال حدثني أبي قال: سمعت إسحاق بن إبراهيم الموصلي يقول: كان بالمدينة رجل جعفري من ولد جعفر بن أبي طالب، وكان يحب الغناء، وكان بالمدينة قينة يقال لها بصبص، وكان الجعفري يتعشقها فقال يوماً لإخوانه: قوموا معي إلى هذه الجارية حتى نكاشفها فقد والله أيتمت ولدي وأرملت نسائي وأخرجت ضيعتي. فقاموا معه حتى إذا جاءوا إلى بابها دقه، فخرجت إليه فإذا هي أملح الناس دلا وشكلاً، فقال لها: يا جارية، أتغنين؟

وكنت أحبكم فسلوت عنكم

عليكم في دياركم السلام

فاستحيت وخجلت وبكت وقالت: يا جارية، هاتي عودي. والله ما أحسن هذا ولكن أحسن غيره، فغنت:

تحمل أهلها منها فبانوا

على آثار من ذهب العفاء

قال: فاستحيا والله صاحبنا حتى تصبب عرقاً ثم قال لها: يا سيدي أفتحسنين أن تغني:

وأخضع للعتبي إذا كنت ظالماً

وإن ظلموا كنت الذي أتفضل؟

قالت: والله ما أعرف هذا ولكن غيره، فغنت:

فإن تقبلوا بالود أقبل بمثله

وأنزلكم منا بأكرم منزل

قال: فدفع الباب ودخل وأرسل غلامه يحمل إليه حوائجه. وقال: لعن الله الأهل والولد والضيعة.

خبر الذلفاء

قال أبو سويد: حدثني أبو زيد الأسدي قال: دخلت على سليمان بن عبد الملك بن مروان، وهو جالس على دكان مبلط بالرحام الأحمر، مفروش بالبياج الأخضر، في وسط بستان ملتف قد أثمر وأينع، وإذا بإزاء كل شق من البستان ميدان بنبت الربيع قد أزهر. وعلى رأسه وصائف، كل واحدة منهن أحسن من صاحبته. وقد غابت الشمس فنضرت الخضرة، وأضعفت في حسنها الزهرة، وغنت الأطيبار فتجاوبت، وسفت الرياح على الأشجار فتمايلت، بأثمار فيه قد شققت، ومياه قد تدفقت. فقلت: السلام عليك يا أيها الأمير ورحمة الله وبركاته. وكان مطرقاً، فرفع رأسه وقال: أبا زيد، في مثل هذا الحين يصاب أحد حيا؟ قلت: أصلح الله الأمير، أو قد قامت القيامة بعد. قال: نعم، على أهل الحجة سرراً والمراسلة بينهم خفية. ثم أطرق ملياً، ثم رفع رأسه فقال: أبا زيد، ما يطيب في يومنا هذا؟ قلت: أعز الله الأمير، قهوة صفراء في زحاجة بيضاء، تناولها مقدودة هيفاء، مضمومة لفاء دعجاء. أشربها من كفها، وأمسخ فمي بغمها. فأطرق سليمان ملياً لا يحير جواباً، تنحدر من عينه عبرات بلا شهيق. فلما رأى الوصائف ذلك تنحين عنه. ثم رفع رأسه فقال: أبا زيد، حللت في يوم فيه انقضاء أجلك، ومنتهى مدتك، وتصرم عمرك، والله لأضربن عنقك أو لتخبرني ما أثار هذه الصفة من قلبك. قلت: نعم أصلح الله الأمير، كنت جالساً عند باب أحيك سعيد بن عبد الملك، فإذا أنا بجارية قد خرجت إلى باب القصر كالغزال انفلت من

شبكة الصياد، عليها قميصٌ سكبٌ يتبين منه بياض بدنها، وتدوير سرتها، ونقش تكتتها، وفي رجليها نعلان صراران، قد أشرق بياض قدميها على حمرة نعليها، مضمومة بفرد ذؤابة تضرب إلى حقويها، وتسيل كالعثاكيل على منكييها، وطرة قد أسبلت على متني جبينها، وصدغان قد زينا كأثما نونان على وجنتيها، وحاجبان قد قوسا على محجري عينيها، وعينان مملوءتان سحراً، وأنف كأنه قصبه در، وفم كأنه جرح يقطر دما. وهي تقول: عباد الله، من لي بدواء ما لا يشتكي؟ وعلاج ما لا يسمي؟ طال الحجاب، وأبطأ الجواب، فالغواد؟ طائر، والقلب عازب، والنفس والهة، والفؤاد مختلس، والنوم محتبس، رحمة الله على قوم عاشوا تجلداً، وماتوا تبلداً، ولو كان إلى الصبر حيلة، وإلى العزاء سبيل، لكان أمراً جميلاً، ثم أطرقت طويلاً، ثم رفعت رأسها. فقلت: أيتها الجارية، إنسية أنت أم جنية؟ سمانية أم أرضية؟ فقد أعجبتني ذكاء عقلك، وأذهلني حسن منطقتك. فسترت وجهها بكمها كأنها لم تربي، ثم قالت: اعذر أيتها المتكلم الأريب، فما أوحش الساعة بلا مساعد، والمقاساة لصب معاند، ثم انصرفت. فوالله، أصلح الله الأمير، ما أكلت طيباً إلا غصصت به لذكراها، ولا رأيت حسناً إلا سمح في عيني لحسنها. قال سليمان: أبا زيد، كاد الجهل أن يستفزي، والصبا أن يعاودني، والحلم أن يعزب عني؛ لحسن ما رأيت وشجو ما سمعت، تلك هي الذلفاء التي يقول فيها الشاعر:

أخرجت من كيس دهقان

إنما الذلفاء ياقوتة

شراؤها على أخير ألف ألف درهم. وهي عاشقة لمن باعها، والله إني من لا يموت إلا بجزئها، ولا يدخل القبر إلا بغصتها، وفي الصبر سلوة، وفي توقع الموت نهيمة، قم أبا زيد فآتكم المفاوضة. يا غلام ثقله ببدرة. فأخذتها وانصرفت. قال أبو زيد: فلما أفضت الخلافة إلى سليمان صارت الذلفاء إليه، فأمر بفسطاط، فأخرج على دهناء الغوطة وضرب في روضة خضراء، مونقة زهراء، ذات حدائق بهجة، تحتها أنواع الزهر الغض، من بين أصفر فاقع، واحمر ساطع، وأبيض ناصع، فهي كالثوب الحرمي. وحواشي البرد الأحمي، يثير منها مر الرياح نسيماً يري على رائحة العنبر، وفتيت المسك الأذفر. وكان له مغن وندم وسمير يقال له سنان، به يأنس وإليه يسكن. فأمر أن يضرب فسطاسه بالقرب منه. وقد كانت الذلفاء خرجت مع سليمان إلى ذلك المنتزه، فلم يزل سنان يومه ذلك عند سليمان في أكمل سرور، وأتم حبور، إلى أن انصرف مع الليل إلى فسطاسه. فترل به جماعة من إخوانه فقالوا له: قرانا، أصلحك الله. قال: وما قراكم؟ قالوا: أكل وشرب وسماع. قال: أما الأكل والشرب فمباحان لكم، وأما السماع فقد عرفتم شدة غيرة أمير المؤمنين ونهيه إياي عنه، إلا ما كان في مجلسه. قالوا: لا حاجة لنا بطعامك وشرابك إن لم تسمعنا. قال: فاختراروا صوتاً واحداً أغنيكموه. قالوا: غننا صوت كذا. قال: فرفع عقيره يتغنى بهذه الأبيات:

من آخر الليل لما طلها السحر

محبوبة سمعت صوتي فأرقها

والحلي بادٍ على لباتها خصر

تثنى على الخد منها من معصفرة

أوجهها عنده أبهى أم القمر

في ليلة لا يدري مضاجعها

فدمعها لطروق الصوت منحدر

لم يحجب الصوت أحراسٍ ولا غلق

تكاد من لينها للمشي تنفطر

لو خلّيت لمشت نحوي على قدم

فسمعت الذلفاء صوت سنان فخرجت إلى وسط الفسطاط تستمع، فجعلت لا تسمع شيئاً من حسن خلق ولطافة قد إلى الذي وافق المعنى، من وقت الليل واستماعها الصوت إلا رأت ذلك كله في نفسها وهيئتها فحرك ذلك ساكناً في قلبها، فهملت عيناها وعلا نشيجها. فانتبه سليمان فلم يجدها معه، فخرج إلى صحن الفسطاط فرآها على تلك الحال، فقال لها: ما هذا يا ذلفاء؟ فقالت:

قبيح المحيا واضع الأب والجد

الأرب صوت رائع من مشوه

إلى أمة يعزى معاً وإلى عبد

يروعك منه صوته ولعله

فقال سليمان: دعيني من هذا، فوالله لقد خامر قلبك منه ما خامر. يا غلام، علي بسنان. فدعت الذلفاء خادما لها فقالت: إن سبقت رسول أمير المؤمنين إلى سنان فحذره ولك عشر آلاف درهم، وأنت حر لوجه الله. فخرج الرسول. فسبق رسول سليمان. فلما أتى به قال: يا سنان، ألم أنك عن مثل هذا؟ قال: يا أمير المؤمنين، حملني الثمل وأنا عبد أمير المؤمنين وغذي نعمته، فإن رأى أمير المؤمنين أن لا يضيع حظه من عبده فليفعل. قال: أما حظي منك فلن أضيعه، ولكن ويلك! أما علمت أن الرجل إذا تغنى أصغت المرأة إليه، وأن الحصان إذا صهل استودقت له الفرس، وأن الجمل إذا هدر ضيبت له الناقة، وأن التيس إذا نب استحرمت له الشاة؟ إياك والعود إلى ما كان منك فيطول غمك.

قال إسحاق: حدثني أبو السمراء قال: حججت فبدأت بالمدينة، فإني لمنصرف من قبر رسول الله صلى الله عليه وسلم وإذا امرأة بفناء المسجد تتبع من طرائف المدينة، وإذا هي في ناحية وحدها وعليها ثوبان خلجان، وإذا هي ترجع بصوت خفي شجي، فالتفت فرأيتها. فوفقت فقالت: هل من حاجة؟ قلت: تريد في السماع، قالت: وأنت قائم؟ لو قعدت. فقعدت كالخجل. فقالت: علمك بالغناء؟ قلت: علم لا أحمده. قالت: فعلام أنفخ بغير نار، ما منعك من معرفته؟ فوالله أنه لسحوري وفطوري، قلت: وكيف وضعته بهذا الموضع العالي؟ قالت: يا هذا، وهل له موضع يوضع به وهو من علوه في السماء الشاهقة؟ فكل هؤلاء النسوة اللاتي أرى على مثل رأيك وفي مثل حالك؟ قالت: فيهن وفيهن، ولي بينهن قصة. قلت: وما هي؟ قالت: كنت أيامي شبابي وأنا في مثل هذه الحلقة التي ترى من القبح والدمامة، وكنت أشتهي الجماع شهوة شديدة، وكان زوجي شاباً وضيعاً، وكان لا ينتشر علي حتى أتخفه وأطيبه وأسكره. فأضر ذلك بي، وكان قد علقته امرأة قصار تجاورني، فزاد ذلك في غمي. فشكوت إلى جارة لي ما أنا فيه وغلبة امرأة القصار على زوجي. فقالت: أدلك على ما ينهضه عليك ويرد قلبه إليك؟ قلت: وأبأي أنت، إذاً تكونين أعظم الخلق منة علي. قالت: اختلفي إلى مجمع مولى الزبير، فإنه حسن الغناء، فاعلقي من أغانيه أصواتاً عشرة ثم غني بها زوجك، فإنه سيجمعك بجوارحه كلها. قالت: فألظظت بمجمع، فلم أفرقه حتى رضيني حذاقة ومعرفة. فكنت إذا أقبل زوجي اضطجعت ورفعت عقيرتي ثم تغنيت. فإذا غنيت صوتاً بت على زب، وإن غنيت صوتين بت على زين، وإن غنيت ثلاثة فثلاثة.

فكنا كندماني جذيمة حقة

من الدهر حتى قيل لن يتصدعا

قال: فضحكت والله حتى أمسكت على بطني، وقلت: يا هذه، ما أظن الله خلق مثلك. قالت: اخفض من صوتك. قلت: ما كان أعظم منة صاحبة المشورة. قالت: حسبك بما منة وحسبك بي شاكرة. قلت: ففي قلبك من تلك الشهوة شيء قالت: لذع في الفؤاد، وأما تلك الغلظة التي كانت تنسيني الفريضة وتقطعني عن النافلة فقد ذهب تسعة أعشارها. فوفقت عليها وقلت: ألك حاجة أن أرم بعض حالك؟ قالت: لا، أنا في فائت من العيش فلما نهضت لأقوم، قالت: على رسلك، لا تنصرف حائباً، ثم ترمت بصوت تخفيه من جارها.

ولي كبدٌ مقروحة من يبيعي

بها كبداً ليست بذات قروح

أبى الناس كل الناس لا يشترونها

ومن يشتري ذا علة بصحيح

أبو بكر بن جامع عن الحسين بن موسى قال: كتب علي بن الجهم إلى قينة كان يتعشقها:

خفي الله فيمن قد تبلت فؤاده

وتيمته دهرأ كأن به سحرا

دعى الهجر لا أسمع به منك إنما

سألتك أمراً ليس يعري لكم ظهرا

فكتبت إليه: صدقت، جعلت فداك. ليس يعري لنا ظهراً، ولكنه بمألاً لنا بطناً.

وكان أبو بكر الكاتب، مفتتناً بقينة محمد بن حماد، فاهدى إليها قميصاً، فقال فيه بعض الكتاب:

أهدى إليها قميصاً

بينكها فيه غيره

فللسعادة حرها

وللشقاوة أيره

حدث أبو عبد الله بن عبد البر المدني بمصر قال: حدثني إسحاق بن إبراهيم عن الهيثم بن عدي قال: كان بالمدينة رجل من بني هاشم وكان له قينتان يقال لإحدهما رشاً وللأخرى جودر، وكان يحب الغناء. وكان بالمدينة مضحك لا يكاد يغيب عن مجالس المتظرفين. فأرسل الهاشمي إليه ذات يوم ليضحك به. فلما أتاه قال: ما الفائدة فيك وفي لذتك ولا لذة لي؟ قال له: وما لذتك؟ قال: تحضر لي نبيذاً، فإنه لا يطيب لي عيش إلا به. فأمر الهاشمي بإحضار نبيذ وأمر أن يطرح فيه سكر العشر. فلما شربه المضحك تحركت عليه بطنه، وتناوم الهاشمي وغمز جواريه عليه. فلما ضاق عليه الأمر واضطر إلى التبرز قال في نفسه: ما أظن هاتين المغنيتين إلا بمانيتين، وأهل اليمن يسمون الكنف المراحيض. فقال لهما: يا حبيبي، أين المرحاض؟ قالت إحدهما لصاحبتها: ما يقول؟ قالت يقول غنياني:

رحضت فؤادي فخليتني

أهيم من الحب في كل واد

فاندفعتا تغنيانه. فقال في نفسه: ما أراهما فهمتا عني، أظنهما مكيتين وأهل مكة يسمونها المخارج. قال: يا حبيبي، أين المخارج؟ قالت إحدهما للأخرى: ما يقول؟ قالت: يقول غنياني:

خرجت بها من بطن مكة بعدما

أصات المنادي للصلاة فأعلما

فاندفعتا تغنيانه. فقال في نفسه: لم يفهما والله عني، أظنهما شاميتين وأهل الشام يسمونها المذاهب. فقال لهما: يا حبيبي، أين المذاهب؟ قالت إحدهما لصاحبتها: ما يقول؟ قال: يقول غنياني:

ذهبت من الهجران في غير مذهب

ولم يك حقا كل هذا التجنب

فغنتاه الصوت. فقال في نفسه: لم يفهما عني، وما أظنهما إلا مدنيتين، وأهل المدينة يسمونها بيت الخلاء، فقال لهما: يا حبيبي، أين بيت الخلاء؟ قالت إحدهما لصاحبتها: ما يقول؟ قالت: يسأل أن نغني:

خلي علي جوى الأشواق إذ ظعنا

من بطن مكة والتسويد والحزنا

قال: فغنتاه. فقال: إنا لله وإن إليه راجعون، وما أحسب الفاسقتين إلا بصريتين، وأهل البصرة يسمونها الحشوش، فقال لهما: أين الحشوش؟ فقالت إحدهما لصاحبتها: ما يقول؟ قالت يسأل أن نغنيه:

أوحش الحشان فالربع منها

فمناها فالمنزل المعمور

فاندفعتا تغنيانه. فقال: ما أراهما إلا كوفيتين، وأهل الكوفة يسمونها الكنف. قال: يا حبيبي، أين الكنف؟ قالت إحدهما لصاحبتها: يعيش سيدنا هل رأيت أكثر اقتراحاً من هذا الرجل! ما يقول؟ قالت: يسأل أن نغني:

تكفني الهوى طفلا

فشيبيني وما اكتهلا

قال: فغلبه بطنه وعلم أنهما تولعان به، والهاشمي يتقطع ضحكاً، فقال لهما: كذبتما يا زانيتان، ولكني أعلمكما ما هو، فرفع ثيابه فسلح عليهما، وانتبه الهاشمي: فقال له: سبحان لله! أتسلح على وطائي! قال: والذي خرج من بطني أعز علي من وطائك، إن هاتين الزانيتين إنما حسبتا أي أسأل عن الحش للضراط، فأعلمتهما ما هو.

قولهم في العود

قال يزيد بن عبد الملك يوماً وذكر عنده الربيط فقال: ليت شعري ما هو؟ فقال له عبيد الله بن عبد الله بن عتبة بن مسعود: أنا أخيرك ما هو، محدودب الظهر، أرسح البطن، له أربعة أوتار، إذا حركت لم يسمعها أحد إلا حراك أعطافه وهز رأسه. مر إسحاق بن إبراهيم الموصلي برجل ينحت عوداً فقال له: لمن ترهف هذا السيف؟ وقال بعض الكتاب في العود:

وناطق بلسان لا ضمير له

كأنه فخذ نيطت إلى قدم

بيدي ضمير سواء في الكلام كما

ومن قولنا في هذا المعنى:

يا مجلساً أينعت منه أزهره
لم يدر هل بات فيه ناعماً جذلاً
والعود يخفق مثناه ومثلته
وللحجارة أهزاج إذا نطقت
وحن من بينها الكئيبان عن نغم
كأنما العود فيما بيننا ملك
كأنه إذا تمطى وهي تتبعه
ذاك المصون الذي لو كان مبتذلاً
صوت رشيق وضرب لو يراجعه
لو كان زرياب حياً ثم أسمعاه

وقال الحمدوني فيه:

وسجعت رجع عودٍ بين أربعة
فولدت للندامى بين نغمتها
فما تلعثم عنها لفظ مزهرها
تهدي إلى كل جزء من طبائعها
وترتعي العين منها روض وجنتها

وقال عكاشة بن الحصين:

من كف جارية كأن بنانها
وكان يمانها إذا ضربت بها

ومن قولنا في العود:

يا رب صوتٍ يصوغه عصبٌ
جوفاء مضمومة أصابعها
أربعة جزئت لأربعة

أصغرها في القلوب أكبرها

بيدي ضمير سواء منطلق القلم

ينسيك أوله في الحسن آخره
أو بات في جنة الفردوس سامره
والصبح قد غردت فيه عصافره
أجابها من طيور البر ناقره
تبدي عن الصب ما تخفي ضمائره
يمشي الهوينى وتتلوه عساكره
كسرى بن هرمز تقفوه أساوره
ما كان يكسر بيت الشعر كاسره
سجع القريض إذا ضلت أساطره
لمات من حسد إذ لا يناظره

سر الضمائر فيما بينها علن
وكفها فرحاً تفصيله حزن
ولا تحير في ألحانها لحن
بنانها نغماً أثمارها فتن
طوراً وتسرح في ألفاظها الأذن

من فضة قد طرفت عنابا
تلقي على يدها الشمال حسابا

نيطت بساق من فوقها قدم
في ساكنات تحريكها نغم
أجزاؤها بالنفوس تلتحم

يبعث منه الشفاء والسقم

إذا أرنت بغمز لافظها

لها لسان بكف ضاربها

قلت حمام يجيبهن حم

يعرب عنها وما لهن فم

قولهم في المبردين في الغناء

قال أبو نواس:

قل لزهير إذا شدا وحدا

سخنت من شد البرودة حتى

لا يعجب السامعون من صفتي

أقلل أو أكثر فأنت مهذار

صرت عندي كأنك النار

كذلك الثلج بارد حار

وقال أيضاً:

قد نضجنا ونحن في الجيش طرا

فأصيبوا لنا حسينا ففيه

لو يغني وفوه ملآن خمراً

أنضجتنا كواكب الجوزاء

عوض من جليد برد الشتاء

لم يضره من برد ذاك الغناء

وله:

كأن أبا المغلس إذ يغني

يميل بشدقه طوراً وطوراً

يحاكي عاطساً في عين شمس

كأن بشدقه ضربان ضرس

وقال دعبل:

ومغن إن تغنى

أحسن الأقوام حالاً

أورث الندمان هما

فيه من كان أصماً

وقال الحمدوني:

بينما نحن سالمون جميعاً

فتغنى صوتاً فكان خطأ

سألنا خلعة على ما تغنى

إذ أتانا ابن سالم مختالاً

ثم تنى أيضاً فكان محالاً

فخلعنا على قفاه النعالاً

ولعباس الخياط:

رأيت يوماً سائباً يضرب

لأنه ينيح من عوده

كأنما تسمع في حلقه

ما عجبني منه ولكنني

فقمت من مجلسنا أهرب

عليك من أوتاره أكلب

دجاجة يخنقها ثعلب

من الذي يسمعه أعجب

وقال آخر:

ومغن يخرى على جلسائه

وقال مؤمن في ربيع المعنى وكان يتغنى وينقر في الدواة:

غناؤك يا ربيع أشد برداً

ونقرك في الدواة أشد منه

أغثنا في المصيف إذا تلظى

ضرب الله شدقه بغنائته

إذا حمى الهجير من الصقيع

فما يصبو إليه سوى رقيع

ودعنا في الشتاء وفي الربيع

باب في الرقائق

قد جبل أكثر الناس على سوء الاختيار وقلة التحصيل والنظر، مع لؤم الغرائز وضعف الهمم، فقل من يختار من الصنائع أرفعها، ويطلب من العلوم أنفعها، ولذلك كان أثقل الأشياء عليهم وأبغضها إليهم، مؤنة التحفظ، وأخفها عندهم وأمهلهما عليهم إسقاط المروءة. وقيل لبعضهم: ما أحلى الأشياء كلها؟ قال: الارتكاس وقيل لعبد الله ابن جعفر: ما أطيب العيش؟ قال: هتك الحياء واتباع الهوى. وقيل لعمر بن العاص: ما أطيب العيش؟ قال: ليقم من هنا من الأحداث. قال: فلما قاموا. قال: العيش كله إسقاط المروءة، وأي شيء أثقل على النفس من مجاهدة الهوى ومكابدة الشهوة. ومن ذلك كان سوء الاختيار أغلب على طبائع الناس من حسن الاختيار. ألا ترى أن محمد بن يزيد النحوي، على علمه باللغة ومعرفته باللسان، وضع كتاباً سماه بالروضة وقصد فيه إلى أخبار المحدثين، فلم يختار لكل شاعر إلا أبرد ما وجد له، حتى انتهى إلى الحسن بن هانئ، وقلما يأتي له بيت ضعيف لرفة فطنته وسبوبة بنيته وعدوبة ألفاظه، فاستخرج له من البرد أبياتاً ما سمعناها ولا رويناها، ولا ندري من أين وقع عليها، وهي:

ألا لا تلمني في العقار جليسي

تعشقتها قلبي فبغض عشقتها

ولا تلحني في شربها بعبوس

إلي من الأشياء كل نفيس

وأين هذا الاختيار من اختيار عمرو بن بحر الجاحظ حين اجتلب ذكره في كتاب الموالى، فقال: ومن الموالى الحسن بن هانئ، وهو من أقدر الناس على الشعر، وأطبعهم فيه. ومن قوله:

فجاء بها صفراء بكرة يزفها

فلما جلتها الكأس أبدت لناظري

إلي عروساً ذات دل معشوق

محاسن لبيت بالجمان مطوق

ومن قوله:

ساع بكاس إلى ناس على طرب

قامت تريك وشمل الليل مجتمع

كلاهما عجب في منظر عجب

صباحا تولد بين الماء والعنب

حصباء در على أرض من الذهب

كأن صغرى وكبرى من فقاقتها

وجل أشعاره الخمريات بديعة لا نظير لها، فخطر به أكلها وتخطاها إلى التي جانسته في برده، فما أحسبه لحقه هذا الاسم أعني المبرد، إلا لبرده. وقد تخير لأبي العتاهية أشعاراً تقتل من بردها، وشفها وقرظها بكلامه، فقال: ومن شعر أبي العتاهية المستظرف عند الظرفاء المخير عند الخلفاء قوله:

يا قرة العين كيف أمسيت

أعزز علينا بما تشكيت

آه من وجدي وكربي

ما أشد الحب يا سبحانك اللهم ربي

ونظير هذا من سوء الاختيار ما تخيره أهل الحذق بالغناء والصانعون للألحان من الشعر القديم والحديث، فإنهم تركوا منه الذي هو أرق من الماء، وأصفى من رقة الهواء، وكل مدني رقيق، قد غذي بماء العقيق، وغنوا بقول الشاعر:

فلا أنسى حياتي ما

وقلت لها أنيليني

ولو تعلم ما بي لم

عبدت الله لي ربا

فقالته أفرق الدبا

تهب دبا ولا كلبا

وأقل ما كان يجب في هذا الشعر أن يضرب قائله خمسمائة سوط، وصانعه أربعمائة، والغنى به ثلثمائة، والمصغي إليه مائتين. ومثله:

كأنما الشمس إذا ما بدت

تلك سليمي إذا ما بدت

كأن في النفس لها ساحراً

يعني بالمذهب الجني. ومثله:

تلك التي قلبي لها يضرب

وما أنا في ودها أرغب

ذاك الذي علمه المذهب

يا خليلي أنتما عللاني

خبراني أين حلت مناي

إنما حلت بواد خصيب

أحلف بالله لو وجداني

بين كرم ومزهر وجنان

يا عباد الله لا تكتماني

ينبت الورس مع الزعفران

غرقا في البحر ما أنقذاني

ومثله:

أبصرت سلمى من منى

يا درة البحر متى

يوماً فراجعت الصبا

تشهد سوقاً تشتري

ومثله:

يا معشر الناس هذا

لا تعنفى يا فلانه

أمرٌ وربى شديد

فإني لا أريد

ومثله:

أرقت فأمسيت لا أرقد

فصرت لظبي بني هاشم

أقلب أمري لدى فكرتي

وأصعد طوراً ولا علم لي

وقد شفنى البيض والخود

كأنني مكتحل أرمد

وأهبط طوراً فما أصعد

على أنني قبلكم أرشد

ومثله:

ما أرجى من حبيبٍ
لو بكفيه سحب
أنا في واد ويمسى
ليته إذ لم يجد لي
ضن عني بالمداد
ما ارتوت منه بلادي
هو لي في غير واد
بالهوى رد فؤادي

ومثله:

ما لسلمى تجنبت
إن تكن قد تغضبت
أصلح الله حالها
ما لها اليوم مالها

باب من رقائق الغناء

قال الزبير بن بكار: سألت إسحاق هل تعني من شعر الراعي شيئاً؟ قال: وأين أنت من قوله:

فلم أر مظلوماً على حال عزة
سوى ناظرٍ ساجٍ بعين مريضة
أقل انتصاراً باللسان وباليد
جرت عبرة منها ففاضت بإثم

ومن شعر ابن الدمينه وهو عبيد الله بن عبد الله، والدمينة أمه، وهو من أرق شعراء المدينة بعد كثير عزة، وقيس بن الخطيم:

بنفسي وأهلي من إذا عرضوا له
ولم يعتذر عذر البريء ولم تزل
جرى السيل فاستبكاني السيل إذ جرى
وما ذاك إلا أن تيقنت أنه
يبعض الأذى لم يدر كيف يجيب
له بهتة حتى يقال مريب
وفاضت له من مقلتي غروب
يمر بوادٍ أنت منه قريب
إليكم تلقى طيبكم فيطيب
إلى القلب من أجل الحبيب حبيب

ومن قول يزيد بن الطثرية، وغنى به ابن صياد المغني وغيره:

بنفسي من لو مر برد بنابه
ومن هابني في كل شيء وهبته
على كبدي كانت شفاءً أنامله
فلا هو يعطيني ولا أنا سائله

ومما يغنى به قول جرير:

أتذكر إذ تودعنا سليمي
بعود بشامة سقي البشام

بنفسي من تجنبه عزيزاً
ومن أمسى وأصبح لا أراه
علي ومن زيارته لمام
ويطرقني إذا هجع النيام

متى كان الخيام بذى طلوح

ومما غني به نومة الضحى:

يا موقد النار قد أعيت قوادحه

وما أوحش الناس في عيني وأفبحهم

ومما يغني به معبد ذي الرمة. وهو من أرق شعر يغني به قوله:

لئن كانت الدنيا علي كما أرى

وأكثر ما كان يغني معبد بشعر الأحوص، ومن جيد ما غني به له قوله:

كأني من تذكر أم حفص

صريع مدامة غلبت عليه

سلام الله يا مطرٌ عليها

فإن يكن النكاح أحل شيئاً

ومن شعر المتوكل بن عبد الله بن هُشَل وكان كوفياً في عصر معاوية، وهو القائل:

لأنته عن خلق وتأتي مثله

قفي قبل التفرق يا أماما

ترجيها وقد شطت نواها

فلا وأبيك لا أنساك حتى

ومما يغني به من شعر عدي بن الرقاع:

ترجي أغن كأن إبرة روقه

ولقد أصبت من المعيشة لذة

وعلمت حتى ما أسائل عالماً

سقيت الغيث أيتها الخيام

اقبس إذا شئت من قلبي بمقباس

إذا نظرت فلم أبصرك في الناس

تباريح من ذكراك فالموت أروح

وحبل وصالها خلق رمام

تموت لها المفاصل والعظام

وليس عليك يا مطر السلام

فإن نكاحها مطراً حرام

وردي قبل بينكم السلاما

ومنتك المنى عاماً فعاما

تجاوب هامتي في القبر هاما

قلمٌ أصاب من الدواة مدادها

ولقيت من شطف الخطوب شدادها

عن حرف واحدة لكي أزدادها

كتاب المرجانة الثانية في النساء وصفاتهن

كتاب المرجانة الثانية

قال أبو عمر أحمد بن محمد بن عبد ربه رحمه الله: قد مضى في قولنا فيالغناء واختلاف الناس فيه، ونحن قائلون بعون الله وتوفيقه في النساء وصفاتهن وما يحمد ويذم من عشرتهن، إذ كان العيش كله مقصوراً على الخليفة الصالحة والزوجة الموافقة، والبلاء كله موكلاً بالقرينة السوء التي لا تسكن النفس إلى كريم عشرتها، ولا تقر العين برؤيتها.

قال الأصمعي: حدثني ابن أبي الزناد عن عروة بن الزبير قال: ما رفع أحد نفسه بعد الإيمان بالله بمثل منكح صدق، ولا وضع أحد نفسه بعد الكفر بالله بمثل منكح سوء. ثم قال: لعن الله فلانة، ألفت بني فلان بيضا طوالاً فقلبتهم سوداً قصاراً.

وفي حكمة سليمان بن داود عليهما السلام: المرأة العاقلة تبني بيتها والسفيرة تدمه.

وقال: الجمال كاذب والحسن مختلف، وإنما تستحق المدح المرأة الموافقة.

مكحول، عن عطية بن بشر، عن عكاف بن وداعة الهلالي، أن رسول الله صلى الله عليه وسلم قال له: يا عكاف، ألك امرأة؟ قال: لا. قال: فأنت إذاً من إخوان الشياطين، إن كنت من رهبان النصراري فالحق بهم، وإن كنت منا فانكح فإن من سنتنا النكاح.

وقالت عائشة: النكاح رق فلينظر أحدكم عند من يرق كريمته.

وقال صلى الله عليه وسلم: "أوصيكم بالنساء فإنهن عندكم عوان" يعني أسيرات.

قولهم في المناكح

خطب صعصعة بن معاوية إلى عامر بن الظرب حكيم العرب ابنته عمرة، وهي أم عامر بن صعصعة فقال: يا صعصعة، إنك أتيتني تشتري مني كبدي، فارحم ولدي قبلتك أو رددتك. والحسيب كفاء الحسيب، والزوج الصالح أب بعد أب. وقد أنكحتك خشية أن لا أجد مثلك أفر من السر إلى العلانية. يا معشر عدوان، خرجت من بين أظهركم كريمتكم من غير رغبة ولا رهبة، أقسم لولا قسم الحظوظ على الجدود ما ترك الأول للأخر ما يعيش به.

العباس بن خالد السهمي قال: خطب عمرو بن حجر إلى عوف بن محلم الشيباني ابنته أم إياس، فقال: نعم، أزوجهها على أن أسمى بניהا وأزوج بنتها. فقال عمرو بن حجر: أما بنونا فنسميهم بأسمائنا وأسماء آبائنا وعمومتنا، وأما بناتنا فينكحن أكفاؤهن من الملوك، ولكني أصدقها عقاراً في كندة وأمنحها حاجات قومها، لا ترد لأحد منهم حاجة. فقبل ذلك منه أبوها، وأنكحه إياها. فلما كان بناؤه بها خلعت بها أمها فقالت: أي بنية، إنك فارقت بيتك الذي منه خرجت، وعشك الذي فيه درجت، إلى رجل لم تعرفه، وقرين لم تألفه، فكوني له أمة يكن لك عبداً، واحفظي له خصلاً عشرين عاماً لا تفر. أما الأولى والثانية: فالخشوع له بالقناعة، وحسن السمع له والطاعة. وأما الثالثة والرابعة: فالتفقد لموضع عينه وأنفه، فلا تقع عينه منك على قبيح، ولا يشم منك إلا الطيب ريح. وأما الخامسة والسادسة: فالتفقد لوقت منامه وطعامه، فإن تواتر الجوع ملهبة، وتنغيص النوم مغضبة. وأما السابعة والثامنة: فالاحتراس بماله، والإرعاء على حشمة وعاليه، وملاك الأمر في المال حسن التقدير، وفي العيال حسن التدبير. وأما التاسعة والعاشرة: فلا تعصين له أمراً ولا تفشين له سراً، فإنك إن خالفت أمره أو غرت صدره، وإن أفشيت سره لم تأمني غدره. ثم إياك والفرح بين يديه إذا كان مهتماً، والكآبة بين يديه إذا كان فرحاً. فولدت له الحارث بن عمرو، جد امرئ القيس الشاعر.

الشيباني قال: حدثنا بعض أصحابنا أن زرارة بن عدس نظر إلى ابنه لقيط فقال: ما لي أراك مختلاً كأنك جئتني بابنة ذي الجدين، أو مائة من هجائن

النعمان؟ فقال: والله لا يمس رأسي دهن حتى آتيك بهما، أو ابلي عذراً. فانطلق حتى أتى ذا الجدين، وهو قيس بن مسعود الشيباني، فوجده جالساً في نادي قومه شيبان، فخطب إليه بنته علانية، فقال له: هلا ناحيتني؟ قال: علمتي أي إن ناحيتك لم أهدعك، وإن عالنتك لم أفضحك، قال: ومن أنت؟ قال: لقيط بن زرارة. قال: لا جرم، ولا تبيتين فينا عزبا ولا محروما. فزوجه وساق عنه المهر، وبنى بها من ليلته تلك. ثم خرج إلى النعمان فحاجه بمائتين من هجائه، وأقبل إلى أبيه، وقد وفى نذره. فبعث إليه قيس بن مسعود بابنته مع ولده بسطام بن قيس، فخرج لقيط يتلقاها في الطريق ومعه ابن عم له، يقال له قراد، فقال لقيط:

واستقبلوا من نوى الجيران قربانا

إحدى نساء بني ذهل بن شيبانا

عرض الشقائق هل بينت أظعانا

تكسى ترائبها دراً ومرجانا

وكننت عندي نؤوم الليل وسنانا

هاجت عليك ديار الحي أشجانا

تامت فؤادك لم تقض التي وعدت

فانظر قراد وهل في نظرة جزع

فيهن جارية نضح العبير بها

كيف اهتديت ولا نجم ولا علم

ولما رحل بها بسطام بن قيس قالت: مروا بي على أبي أودعه، فلما ودعته قال لها: يا بنية، كوني له أمةً يكن لك عبداً، وليكن أطيب طيبك الماء، ثم لا أذكرت ولا أيسرت، فإنك تلدين الأعداء وتقربين البعداء، إن زوجك فارس من فرسان مضر، فإذا كان ذلك فلا تخمشي وجهاً ولا تحلقي شعراً. فلما قتل لقيط تحملت إلى أهلها ثم مالت إلى مجلس عبد الله بن دارم، فقالت: نعم الأحماء كنتم يا بني دارم، وأنا أوصيكم بالقرائب خيراً، فلم أر مثل لقيط. ثم لحقت بقومها. فتزوجها ابن عم لها، فكانت لا تسلو عن ذكر لقيط فقال لها زوجها: أي يوم رأيت فيه لقيطاً أحسن في عينك؟ قالت: خرج يوماً يصطاد، فطرد البقر فصرع منها، ثم أتاني محتضباً بالدماء، فضمني ضمة، ولثمني لثمة، فليتي مت ثمة. فخرج زوجها ففعل مثل ذلك، ثم أتاه، فضمها ولثمها، ثم قال لها: من أحسن أنا أم لقيط عندك؟ قالت: مرعى ولا كالسعدان.

أبو الفضل: عن بعض رجاله قال: قدم قيس بن زهير بعدما قتل أهل الهبأة على النمر بن قاسط فقال: يا معشر النمر، نزعت إليكم غريباً حزيناً فانظروا لي امرأة أتزوجها، قد أذلها الفقر، وأدها الغنى، لها حسب وجمال. فزوجوه على هيئة ما طلب. فقال: إني لا أقيم فيكم حتى أعلمكم أخلاقي: إني غيور فخور ضجور، ولكني لا أغار حتى أرى، ولا أفخر حتى أفعل، ولا آنف حتى أظلم. فأقام فيهم حتى ولد له غلام سماه خليفة، ثم بدا له أن يرتحل عنهم، فجمعهم ثم قال: يا معشر النمر، إن لكم علي حقاً، وأنا أريد أن أوصيكم فأمركم بخصال، وأنها كما عن خصال: بالإبل، فإن بها تنال الفرصة، وسودوا من لا تعابون بسؤده، وعليكم بالوفاء فإن به عيش الناس، وإعطاء ما تريدون إعطاءه قبل المسألة، ومنع ما تريدون منعه قبل القسم، وإحارة الجائر على الدهر، وتنفيس المنازل. وأنها كم عن الرهان، فإن بها ثكلت مالكا، وأنها كم عن البغي فإنه صرع زهيراً، وعن السرف في الدماء فإن يوم الهبأة أورثني الذل، ولا تعطوا في الفضول فتعجزوا عن الحقوق، ولا تردوا الأكفاء عن النساء فتحوجنهن إلى البلاء، فإن لم تجدوا الأكفاء فخبر أزواجهن القبور. واعلموا أي أصبحت ظالماً مظلوماً، ظلمي بنو بدر بقتلهم مالكا، وظلمت بقتلي من لا ذنب له.

كان الفاكه بن المغيرة المخزومي أحد فتيان قريش، وكان قد تزوج هند بنت عتبة، وكان له بيت للضيافة يغشاه الناس فيه بلا إذن، فقام يوماً في ذلك البيت، وهند معه، ثم خرج عنها وتركها نائمة، فجاء بعض من كان يغشى البيت فلما وجد المرأة نائمةً ولى عنها. فاستقبله الفاكه بن المغيرة، فدخل على هند وأنبهها، وقال: من هذا الخارج من عندك؟ قالت: والله ما انتبهت حتى أنبتهني، وما رأيت أحداً قط. قال: الحق بأبيك. وخاض الناس في أمرهم. فقال لها أبوها: يا بنية: أنبئي شأنك، فإن كان الرجل صادقاً دسست عليه من يقتله فينقطع عنك العار، وإن كان كاذباً حاكمته إلى بعض كهان اليمن: قالت: والله يا أبت إنه لكاذب. فخرج عتبة، فقال: إنك رميت ابنتي بشيء عظيم، فيما أن تبين ما قلت، وإلا فحاكمني إلى بعض كهان اليمن. قال: ذلك لك. فخرج الفاكه في جماعة من رجال قريش، ونسوة من بني مخزوم، وخرج عتبة في رجال ونسوة من بني عبد مناف، فلما شارفوا بلاد الكاهن تغير وجه هند، وكسف بالها. فقال لها أبوها: أي بنية، ألا كان هذا قبل أن يشتهر في الناس خروجنا؟ قالت: يا أبت، والله ما ذلك

لمكروه قبلي، ولكنكم تأتون بشراً يخطئ ويصيب، ولعله أن يسمي بسمه تبقى على السنة العرب. فقال لها أبوها: صدقت، ولكني سأخبره لك. فصفر بفرسه، فلما أدلى، عمد إلى حبة بر فأدخلها في إحليله، ثم أوكى عليها وسار. فلما نزلوا على الكاهن أكرمهم ونحر لهم. فقال له عتبه: إنا أتيناك في أمر قد خباناً لك خبية، فما هي؟ قال: ثمرة في كمره. قال: أريد أئين من هذا. قال: حبة بر في إحليل مهر. قال: صدقت فانتظر في أمر هؤلاء النسوة، فجعل يمسح رأس كل واحدة منهن، ويقول: قومي لشأنك، حتى إذا بلغ إلى هند مسح يده على رأسها، وقال: قومي غير رسحاء ولا زانية، وستلدين ملكاً سمي معاوية. فلما خرجت أخذ الفاكه بيدها فنترت يده من يدها، وقالت: والله لأحرصن أن يكون ذلك الولد من غيرك. فتزوجها أبو سفيان فولدت معاوية.

وذكروا أن هند بنت عتبه بن ربيعة قالت لأبيها: يا أبت، إنك زوجتني من هذا الرجل ولم تؤامري في نفسي، فعرض لي معه ما عرض فلا تزوجني من أحد حتى تعرض علي أمره، وتبين لي خصاله. فخطبها سهيل بن عمرو وأبو سفيان بن حرب، فدخل عليها أبوها وهو يقول:

رضاً لك يا هند الهندود ومقنع

وما منهما إلا يضر وينفع

وما منهما إلا أغر سميع

ولا تخدعي إن المخادع يخدع

أتاك سهيل وابن حرب وفيهما

وما منهما إلا يعاش بفضله

وما منهما إلا كريم مرزأ

فدونك فاختراري فأنت بصيرة

قالت: يا أبت، والله ما أصنع بهذا شيئاً، ولكن فسر لي أمرهما وبين لي خصالهما، حتى أختار لنفسي أشدهما موافقة لي. فبدأ يذكر سهيل بن عمرو، فقال: أما أحدهما ففي سطة من العشيرة وثروة من العيش، إن تابعته تابعك، وإن ملت عنه حط عليك، تحكمن عليه في أهله وماله. وأما الآخر فموسع عليه منظور إليه، في الحسب والحسب، والرأي الأريب، مدره أرومته، وعز عشيرته، شديد الغيرة، كثير الطيرة، لا ينام على ضعة، ولا يرفع عصاه عن أهله. فقالت: يا أبت، الأول سيد مضياح للحره، فما عست أن تلين بعد إباتها، وتصنع تحت جناحه، إذا تابعها بعلها فأشرت، وخافها أهلها فأمنت، فسأدت عند ذلك حالها، وقبح عند ذلك دلالها، فإن جاءت بولد أحقت، وإن أنجبت فعن خطأ ما أنجبت، فاطو ذكر هذا عني ولا تسمه لي. وأما الآخر فبعل الفتاة الخريده، الحره العفيفة، وإني للتي لا أريب له عشيرة فتغيره، ولا تصيبه بذعر فتضيره، وإني لأخلاق مثل هذا الموافقة، فزوجنيه. فزوجها من أبي سفيان. فولدت له معاوية، وقبله يزيد، فقال في ذلك سهيل بن عمرو:

تأبئت وقالت وصف أهوج مائق

أجر لها ذيلي بحسن الخلائق

ولا طمت بالبطحاء في كل شارق

ورافعت عنها الذم عند الخلائق

صبرت عليها صبر آخر عاشق

وأقلل بترك من حبيب مفارق

وإن أبعدوني كنت في رأس حالق

لمن لم تمقني فاعلمي غير وامق

فبلغ أبا سفيان، فقال: والله لو أعلم شيئاً يرضي أبا زيد سوى طلاق هند لفعلته. وألح سهيل في تنقص أبي سفيان. فقال أبو سفيان:

وفرط في العلياء كل عنان

نبئت هنداً تبر الله سعيها

وما هوجي يا هند إلا سجية

ولو شئت خادعت الفتى عن قلوبه

ولكنني أكرمت نفسي تكراً

وإني إذا ما حره ساء خلقها

فإن هي قالت خل عنها تركتها

فإن سامحوني قلت أمري إليكم

فلم تتكحي يا هند مثلي وإنني

رأيت سهيلاً قد تفاوت سأوه

وأصبح يسمو للمعالي وإنه

وشرب كرام من لؤي بن غالب

ولكنه يوماً إذا الحرب شمردت

تطأطأ فيها ما استطاع بنفسه

فأكفبه ما لا يستطيع دفاعه

لذو جفنة مغشية وقيان

عراض المساعي عرضة الحدثنان

وأبرز فيها وجه كل حصان

وقنع فيها رأسه ودعاني

وألقيت فيها كلكلي وجراني

قال: وتزوج سهيل بن عمر امرأة فولدت له ولداً، فبينما هو سائر معه إذ نظر إلى رجل يركب ناقه ويقود شاة، فقال لأبيه: يا أبت، هذه ابنة هذه؟ يريد الشاة ابنة الناقه، فقال أبوه: يرحم الله هنداً، يعني ما كان من فراستها فيه.

وعن علي بن أبي طالب رضي الله عنه أنه قال: يا رسول الله، لو تزوجت أم هانئ بنت أبي طالب؟ فقد جعل الله لها قرابة فتكون صهرًا أيضاً. فخطبها رسول الله صلى الله عليه وسلم فقالت: والله هو أحب إلي من سمعي وبصري، ولكن حقه عظيم وأنا مومنة، فإن قمت بحقه خفت أن أضيع أيتامي، وإن قمت بأمرهم قصرت عن حقه فقال النبي صلى الله عليه وسلم: خير نساء ركب الإبل نساء قريش، أحناها على ولد في صغره، وأرعاها على بعل في ذات يده. لو علمت أن مريم بنت عمران ركبت حملاً لاستثنيتهما.

ولما توفيت زينب بنت رسول الله صلى الله عليه وسلم عن عثمان بن عفان عرض عليه عمر ابنته حفصة، فسكت عنه عثمان. وقد كان بلغه أن رسول الله صلى الله عليه وسلم يريد أن يزوجه ابنته الأخرى. فشكا عمر إلى رسول الله صلى الله عليه وسلم سكوت عثمان عنه، فقال له: سيزوج الله ابنتك خيراً من عثمان ويزوج عثمان خيراً من ابنتك. فتزوج رسول الله صلى الله عليه وسلم حفصة وتزوج عثمان ابنته.

ولما خطب رسول الله صلى الله عليه وسلم خديجة بنت خويلد بن عبد العزى ذكرت ذلك لورقة بن نوفل. وهو ابن عمها، فقال: هو الفحل لا يقدر أنفه، تزوجه.

زخطب عمر بن الخطاب أم كلثوم بنت أبي بكر، وهي صغيرة، فأرسل إلى عائشة، فقالت له: الأمر إليك. فلما ذكرت ذلك عائشة لأم كلثوم قالت: لا حاجة لي فيه. فقالت عائشة: أرغبين عن أمير المؤمنين؟ قالت: نعم. إنه حشن العيش شديد على النساء، فأرسلت عائشة إلى المغيرة بن شعبه، فأخبرته، فقال لها: أنا أكفيك. فأتى عمر، فقال: يا أمير المؤمنين، بلغني عنك أمر أعيدك بالله منه. قال: ما هو؟ قال: بلغني أنك خطبت أم كلثوم بنت أبي بكر. قال: نعم. أفرغبت بها عني، أم رغبت بي عنها؟ قال: لا واحدة منهما، ولكنها حدثت نشأت تحت كنف خليفة رسول الله في لين ورفق، وفيك غلظة، ونحن نمابك وما نقدر أن نردك على خلق من أخلاقك فكيف بها إن خالفتك في شيء فسطوت بها، كنت قد خلفت أبا بكر في ولده بغير ما يحق عليك؟ فقال: كيف لي بعائشة وقد كلمتها؟ قال: أنا لك بها، وأدلك على خير لك منها، أم كلثوم بنت علي، من فاطمة بنت رسول الله، تتعلق منها بسبب من رسول الله صلى الله عليه وسلم. وكان علي قد عزل بناته لولد جعفر بن أبي طالب. فلقية عمر فقال: يا أبا الحسن، أنكحني ابنتك أم كلثوم بنت فاطمة بنت رسول الله صلى الله عليه وسلم. قال: قد حسبته لابن جعفر. قال: إنه والله ما على الأرض أحد يرضيك من حسن صحبتها بما أرضيك به، فأنكحني يا أبا الحسن. قال: قد أنكحتكها يا أمير المؤمنين. فأقبل عمر، فجلس على الروضة بين القبر والمنبر واجتمع إليه المهاجرون والأنصار. فقال: زفوني. قالوا: بمن يا أمير المؤمنين؟ قال: بأم كلثوم، فإني سمعت رسول الله صلى الله عليه وسلم يقول: كل سبب ونسب ينقطع يوم القيامة إلا سببي ونسبي" وقد تقدمت لي صحبة فأحببت أن يكون لي معها سبب. فولدت له أم كلثوم زيد بن عمر، ورقية بنت عمر. وزيد بن عمر هو الذي لطم سمرة بن جندب عند معاوية إذا تنقص علياً فيما يقال.

وخطب سليمان الفارسي إلى عمر ابنته، فوعده بما فشق ذلك على عبد الله بن عمر فلقي عمرو بن العاص فشكا ذلك إليه. فقال له: سأكفيكه. فلقي سلمان، فقال له: هنيئاً لك يا أبا عبد الله، هذا أمير المؤمنين يتواضع لله عز وجل في تزويجك ابنته. فغضب سلمان، وقال: لا والله لا تزوجت إليه أبداً. وخرج بلال بن رباح مؤذن رسول الله صلى الله عليه وسلم مع أخيه إلى قوم من بني ليث، يخطب إليهم لنفسه ولأخيه، فقال: أنا بلال وهذا أخي،

كنا ضالين فهدانا الله، وكنا عبيدين فأعتقنا الله، وكنا فقيرين فأغنانا الله، فإن تزوجونا فالحمد لله، وإن تردونا فالمستعان الله. قالوا: نعم وكرامة. فزوجوهما.

قالت تماضر امرأة عبد الرحمن بن عوف لعثمان بن عفان: هل لك في ابنة عم لي بكر، جميلة ممتلئة الخلق، أسيلة الخد، أصيلة الرأي، تزوجها؟ قال: نعم. فذكرت له نائلة بنت الفرافصة الكلبية، فتزوجها وهي نصرانية فتحنفت وحملت إليه من بلاد كلب، فلما دخلت عليه قال لها: لعلك تكرهين ما ترين من شيبي؟ قالت: والله يا أمير المؤمنين إني من نسوة أحب أزواجهن إيهن الكهل. قال: إني قد جزت الكهول، وأنا شيخ، قالت: أذهبت شبابك مع رسول الله صلى الله عليه وسلم في خير ما ذهب فيه الأعمار. قال: أتقومين إلينا أم نقوم إليك؟ قالت: ما قطعت إليك أرض السماوة وأريد أن أنثني إلى عرض البيت، وقامت إليه. فقال لها: انزعي ثيابك، فترعتها. فقال: حلي مرطك. قالت: أنت وذاك. قال أبو الحسن: فلم تنزل نائلة عند عثمان حتى قتل، فلما دخل إليه وقته بيدها، فجذمت أناملها، فأرسل إليها معاوية بعد ذلك بخطبها، فأرسلت إليه: ما ترجو من امرأة جذماء. وقيل: إنها قالت لما قتل عثمان: إني رأيت الحزن يبلى كما يبلى الثوب، وقد خشيت أن يبلى حزن عثمان من قلبي، فدعت بفهر فهتمت فاهها، وقالت: والله لا قعد أحدٌ مني مقعد عثمان أبداً.

وكانت فاطمة بنت الحسين بن علي عند حسن بن حسن بن علي، فلما احتضر قال لبعض أهله: كأني بعبد الله بن عمرو بن عثمان بن عفان إذا سمع بموتي قد جاء يتهادى في إزار له مورد قد أسبله، فيقول: جئت أشهد ابن عمي، وليس يريد إلا النظر إلا فاطمة، فإذا جاء فلا يدخلن. قال: فوالله ما هو إلا أن غمضوه. فجاء عبد الله بن عمرو في تلك الصفة التي وصفها، فمنع ساعة، فقال بعض القوم: لا يدخل، وقال بعضهم: افتحوا له، فإن مثله لا يرد. ففتحو له ودخل. فلما صرنا إلى القبر قامت عليه فاطمة تبكي، ثم اطلعت إلى القبر، فجعلت تصك وجهها بيديها حاسرة. قال: فدعا عبد الله بن عمرو وصيفاً له فقال: انطلق إلى هذه المرأة وقل لها: يقرئك ابن عمك السلام، ويقول لك: كفي عن وجهك، فإن لنا به حاجة. فلما بلغها الرسالة أرسلت يديها، فأدخلتهما في كميها حتى انصرف الناس. فتزوجها عبد الله بن عمرو بعد ذلك، فولدت له محمد بن عبد الله، وكان يسمى المذهب لجماله. وكانت ولدت من حسن بن عبد الله بن حسن الذي حارب أبو جعفر ولديه إبراهيم ومحمداً، ابني عبد الله بن الحسن بن الحسن، حتى قتلها.

وعن مسلمة بن محارب قال: ما رأيت قرشياً قط كان أكمل ولا أجمل من محمد بن عبد الله بن عمرو الذي ولدته فاطمة بنت الحسين، وكانت له ابنة ولدها محمد، وأبو بكر، وعمر، وعثمان، وعلي، وطلحة، والزبير، كانت أمها خديجة بنت عثمان بن عروة بن الزبير، وأم عروة أسماء بنت أبي بكر الصديق، وأم محمد فاطمة بنت الحسين بن فاطمة بنت رسول الله صلى الله عليه وسلم، وأم فاطمة بنت الحسين أم إسحاق بن طلحة بن عبد الله، وأم عبد الله بن عمرو بن عثمان سودة بنت عبد الله بن عمر بن الخطاب.

وعن الهيثم بن عدي الطائي قال: حدثنا مجالد عن الشعبي قال: لقيني شريح فقال: يا شعبي، عليك بنساء بني تميم، فإني رأيت لهن عقولا. قال: وما رأيت من عقولهن؟ قال: أقبلت من جنازة ظهرها، فمررت بدورهم، فإذا أنا بعجوز على باب دار، وإلى جنبها جارياً كأحسن ما رأيت من الجوارى، فعدلت فاستسقيت، وما بي عطش. فقالت: أي الشراب أحب إليك؟ فقلت: ما تيسر، قال: ويحك، يا جارياً إيتيه بلبن، فإني أظن الرجل غريباً، قلت: من هذه الجارية؟ قالت: هذه زينب بنت جرير إحدى نساء بني حنظلة، قلت: فارغة هي أم مشغولة؟ قالت: بل فارغة. قلت: زوجينها. قالت: إن كنت لها كفواً، وهي لغة تميم. فمضيت إلى المنزل، فذهبت لأقيل. فامتنت مني القائلة، فلما صليت الظهر أخذت بأيدي إخواني من القراء الأشراف: علقمة، والأسود، والمسيب، وموسى بن عرفطة، ومضيت أريد عمها. فاستقبل فقال: يا أبا أمية، حاجتك؟ قلت: زينب بنت أخيك، قال: ما بها رغبة عنك. فأنكحنيها. فلما صارت في حبالي ندمت، وقلت: أي شيء صنعت بنساء بني تميم؟ وذكرت غلظ قلوبهن، فقلت: أطلقها، ثم قلت: لا، ولكن أضمها إلي، فإن رأيت ما أحب وإلا كان ذلك. فلو رأيتني يا شعبي وقد أقبلت نساؤهم يهدينها حتى أدخلت علي، فقلت: إن من السنة إذا دخلت المرأة على زوجها أن يقوم فيصلي ركعتين، فيسأل الله من خيرها ويعوذ به من شرها، فصليت وسلمت، فإذا هي من خلفي تصلي بصلاحي، فلما قضيت

صلاقي أتتني جواريتها، فأخذن ثيابي وألبسني ملحفة قد صبغت في عكر العصفور، فلما خلا البيت دنوت منها، فمددت يدي إلى ناصبتها فقالت: على رسلك أبا أمية كما أنت، ثم قالت: الحمد لله، أحمده وأستعينه، وأصلي على محمد وآله، إني امرأة غريبة لا علم لي بأحلافك، فبين لي ما تحب فأتته، وما تكره فأزجر عنه. وقالت: إنه قد كان لك في قومك منكم، وفي قومي مثل ذلك، ولكني إذا قضى الله أمراً كان، وقد ملكت فاصنع ما أمرك الله به: "إمسك بمعروف أو تسريح بإحسان" أقول قولي هذا وأستغفر الله لي ولك. قال: فأخرجتني والله يا شعبي إلى الخطبة في ذلك الموضع، فقلت: الحمد لله، أحمده وأستعينه، وأصلي على النبي وآله وسلم. وبعد، فإنك قد قلت كلاماً إن تثبتي عليه يكن ذلك حظك، وإن تدعيه يكن حجة عليك، أحب كذا وأكره كذا، ونحن جميع فلا تفرقي، وما رأيت من حسنة فانشريها وما رأيت من سيئة فاستريها؛ وقالت شيئاً لم أذكره: كيف محبتك لزيارة الأهل؟ قلت: ما أحب أن يملني أصهاري. قالت: فمن تحب من جيرائك أن يدخل دارك آذن له، ومن تكرهه أمنعه؟ قلت: بنو فلان قوم صالحون وبنو فلان قوم سوء. قال: فبت يا شعبي بأنعم ليلة، ومكنت معي حولاً لا أرى إلا ما أحب. فلما كان رأس الحول جئت من مجلس القضاء، فإذا بعجوز تأمر وتنهى في الدار. فقلت: من هذه؟ قالوا: فلانة حنتتك، فسري عني ما كنت أجد، فلما جلست أقبلت العجوز، فقالت: السلام عليك أبا أمية. قلت: وعليك السلام، من أنت؟ قالت: أنا فلانة حنتتك، قلت: قريك الله، قالت: كيف رأيت زوجتك؟ قلت: خير زوجة، فقالت لي: أبا أمية، إن المرأة لا تكون أسوأ حالاً منها في حالين، إذا ولدت غلاماً أو حظيت عند زوجها، فإن ربك ريبٌ فعليك بالسوط، فوالله ما حاز الرجال في بيوتهم شراً من المرأة المدللة. قلت: أما والله لقد أدبت فأحسنت الأدب، ورضت فأحسنت الرياضة. قالت: تحب أن يزورك أحتامك؟ قلت: متى شاؤوا. قال: فكانت تأتيني في رأس كل حول توصيني تلك الوصية، فمكنت معي عشرين سنة لم أعتب عليها في شيء إلا مرة واحدة، وكنت لها ظالماً، أخذ المؤذن في الإقامة بعدما صليت ركعتي الفجر، وكنت إمام الحي، فإذا بعقرب تدب، فأخذت الإناء فأكفأته عليها، ثم قلت: يا زينب، لا تحركي الإناء حتى آتي. فلو شهدتني يا شعبي، وقد صليت ورجعت فإذا أنا بالعقرب قد ضربتها. فدعوت بالقسط والملح، فجعلت أمغث إصبعها وقرأ عليها بالحمد والمعوذتين.

وكان لي جار من كندة يقرع امرأته ويضربها، فقلت في ذلك:

فشلت يميني حين أضرب زينبا

رأيت رجالاً يضربون نساءهم

فما العدل مني ضرب من ليس مذنباً

أضربها في غير ذنب أنت به

إذا طلعت لم تبد منهن كوكبا

فزينب شمس والنساء كواكب

وقال أبو عبيدة: نكح الفرزدق أمةً له زنجية، فولدت له بنتاً فسمها مكية، وكان يكنى بها، ويقول: أنا أبو مكية. فكتبت النوار يوماً إلى الفرزدق تشكو مكية فكتب إليها:

كذبتكم وبيت الله بل تظلمونها

كنتم زعمتم أنها ظلمتكم

فإن أباهما والد لن يشينها

فإن لا تعدوا أمها من نسائكم

وشيخاً إذا شئتم تأيم دونها

وإن لها أعمام صدق وإخوة

قالت النوار فينا لا نشاء.

وقال الفرزدق في أمته الزنجية:

تنقل تنورا شديد الوهج

يارب خود من بنات الزنج

يزداد طيباً بعد طول الهرج

أعسن مثل القدح الخننج

وعن الهيثم بن عدي: عن ابن عياش قال: حدثنا سلمى الهذلي قال: كنت بسجستان مع طلحة الطلحات، فلم أر أحداً كان أسخى منه ولا أشرف نفساً، فكتب إلي عمي من البصرة: إني قد كبرت ومالي كثير، وأكره أن أوكله غيرك، فأقدم أزوجك ابنتي، وأصنع بك ما أنت أهل له. قال: فخرجت على بغلة لي تركية، فأتيت البصرة في ثلاثين يوماً، ووافيته في صلاة العصر، فوجدته قاعداً على دكانه فسلمت عليه، فقال لي: من أنت؟ قلت له: ابن أخيك سلمى. قال: وأين ثقلك؟ قلت: تعجلت إليك حين أتاني كتابك وطرت نحوكم. قال: يا ابن أخي، أتدري ما قالت العرب؟ قلت: لا. قال: قالت العرب: شر الفتيان المفلس الطروب. قال: فقممت إلى بغلتي فأعدت سرجي عليها، فما قال لي شيئاً. ثم قال لي: إلى أين؟ قلت: إلى سجستان. قال: في كنف الله. قال: فخرجت فبت في الجسر، ثم ذكرت أم طلحة، فانصرفت أسأل عنها، وكان طلحة أبر الناس بها. فقلت: رسول طلحة، فقالت: ويحك! كيف ابني؟ قلت: على أحسن حال. قالت: فله الحمد. وإذا بعجوز قد تحدرت، قالت: فما جاء بك؟ قلت: كيت وكيت. قالت: يا جارية. إيتيني بأربعة آلاف درهم، ثم قالت: إيت عمك فابتن بابتنه، ولك عندنا ما تحب. قلت: لا أعود إليه أبداً. قالت: يا جارية إيتيني ببغلة ورحالة، ثم قالت: رواح بين هذه وبغلتك حتى تأتي سجستان. قلت: اكنني بالوصاة بي والحالة التي استقبلتها. فكتبت بوجعها التي كانت فيه وبعافية الله إياها وبالوصاة بي، فلم تدع شيئاً، ثم دفعت حتى أتيت سجستان، فأتيت باب طلحة، وقلت للحاجب: رسول صغية بنت الحارث، وأنا عابس باسر. فدخل فخرج طلحة متوشحاً وخلفه وصيف يسعي بكرسي، فقممت بين يديه، فقال: ويلك! وكيف أُمي؟ قلت: بأحسن حال. قال: انظر كيف تقول؟ قلت: هذا كتابها، قال: فعرف الشواهد والعلامات، قلت: اقرأ كتاب وصيتها. قال: ويحك، ألم تأتي بسلامتها؟ حسبك. فأمر لي بخمسين ألف درهم، وقال لحاجبه: اكتبه في خاصة أهلي. قال: فوالله ما أتى علي الحول حتى أتم لي مائة ألف. قال ابن عياش: فقلت له: هل لقيت عمك بعد ذلك؟ قال: لا والله ولا ألقاه أبداً.

وعن الهيثم بن عدي عن ابن عياش قال: أخبرني موسى السلاماني، مولى الحضرمي، وكان أيسر تاجر بالبصرة، قال: بينا أنا جالس إذ دخل علي غلام لي، فقال: هذا رجل من أهل أمك يستأذن عليك. وكانت أمه مولاة لعبد الرحمن بن عوف. فقلت: إيذن له، فدخل شاب حلو الوجه، يعرف في هيئته أنه قرشي، في طمرين، فقلت: من أنت يرحمك الله؟ قال: أنا عبد المجيد بن سهل بن عبد الرحمن بن عوف الزهري، خال رسول الله صلى الله عليه وسلم، قلت: في الرحب والقرب، ثم قلت: يا غلام، بره وأكرمه وألطفه، وادخله الحمام، واكسه قميصاً رقيقاً، ومبطناً قريها، ورداء عمرياً، وخذونا له نعلين حضرميين، فلما نظر الشاب في عطفه وأعجبته نفسه. قال: يا هذا، ابغني أشرف أيم بالبصرة أو أشرف بكر بها. قلت: يا بن أخي، معك مال؟ قال: أنا مال كما أنا. قلت: يا بن أخي، كف هن هذا. قال: انظر ما أقول لك. قلت: فإن أشرف أيم بالبصرة هند بنت أبي صفرة. وأشرف بكر بالبصرة الملاءة بنت زرارة بن أوفى الحرشي، قاضي البصرة. قال: احطبها علي. قلت: يا هذا إن أباه قاضي البصرة. قال: انطلق بنا إليه. فانطلقنا إلى المسجد، فتقدم فجلس إلى القاضي، فقال له: من أنت يا بن أخي؟ قال له: عبد المجيد بن سهل بن عبد الرحمن بن عوف، خال رسول الله صلى الله عليه وسلم قال: مرحباً، ما حاجتك؟ قال: جئت خاطباً. قال: ومن ذكرت؟ قال: الملاءة ابنتك. قال: يا بن أخي، ما بنا عنك رغبة، ولكنها امرأة لا يفتات عليها أمرها، فاحطبها إلى نفسها. فقام إلي. فقلت: ما صنعت؟ قال: كذا وكذا. قلت: ارجع بنا ولا تحطبها. قال: اذهب بنا إليها، فدخلنا دار زرارة، فإذا دار فيها مقاصير. فأستأذنا على أمها، فلقيننا بمثل كلام الشيخ، ثم قالت: ها هي تلك في تلك الحجرة. قلت له: لا تأتيها. قال: أليست بكراً؟ قلت: بلى. قال: ادخل بنا إليها، فأستأذنا، فأذنت لنا، فوجدناها جالسة وعليها ثوبٌ قوهي رقيق معصفر، تحته سراويل يرى منه بياض جسدها، ومرط قد جمعته على فخذيها، ومصحف على كرسي بين يديها، فأشرجت المصحف ثم نحتته، فسلمنا، فردت، ثم رحبت بنا، ثم قالت: من أنت؟ قال: أنا عبد المجيد بن سهل بن عبد الرحمن بن عوف الزهري، خال رسول الله صلى الله عليه وسلم ومد بها صوته، قالت: يا هذا، إنما يمد هذا الصوت للساسانيين. قال موسى: فدخل بعض في بعض. قالت: ما حاجتك؟ قال: جئت خاطباً. قالت: ومن ذكرت؟ قال: ذكرتك. قالت: مرحباً بك يا أخا أهل الحجاز، وما الذي بيدك؟ قال: لنا سهمان بجير أعطاناهما رسول الله صلى الله عليه وسلم، ومد بها صوته، وعين بمصر، وعين باليمامة، ومال باليمن قالت: يا هذا كل هذا عنا غائب، ولكن ما الذي يحصل بأيدينا منك. فإني أظنك تريد أن تجعلني كشاة عكرمة. أترري من عكرمة؟ قال لا، قالت: عكرمة بن ربيعي، فإنه كان نشأ بالسواد ثم انتقل إلى البصرة، وقد تعدى باللبن، فقال لزوجته: اشتريني لنا شاة نخلبها وتصنعين لنا من لبنها

شراًباً وكامخاً، ففعلت. وكانت عندهم الشاة إلى أن استحرمت. فقالت: يا جارية: خذي بأذن الشاة وانطقي بها إلى التياس، فأنزري عليها، ففعلت، فقال التياس: آخذ منك على الزوة درهما. فانصرفت إلى سيدتها فأعلمتها، فقالت: إنما رأينا من يرحم ويعطي، وأما من يرحم ويأخذ فلم نره، ولكن يا أبا أهل المدينة. أردت أن تجعلني كشاة عكرمة. فلما خرجنا قلت له: ما كان أغناك عن هذا! قال: ما كنت أظن أن امرأة تجترئ على مثل هذا الكلام.

وعن الأصمعي قال: كان عقيل بن علفة المري غيوراً فخوراً، وكان يصهر إليه خلفاء بني أمية، فخطب إليه عبد الملك بن مروان ابنته لبعض ولده، فقال: جنبني هجاء ولدك.

وكان إذا خرج يمتار خرج بابنته الجرباء معه، فخرج مرة فزلوا ديراً من أديرة الشام يقال له دير سعد، فلما ارتحلوا قال عقيل:

غلا عرض ناطحنه بالجمامج

قضت وطراً من دير سعد وربما

ثم قال لابنته: أجز يا عميس. فقال:

نشأوى من الإدلاج ميل العمائم

فأصبحن بالموماة يحلمن فتية

ثم قال لابنته: يا جرباء، أجزني. فقالت:

عقارا تمشت في المطا والقوائم

كأن الكرى أسقاهم صرخدية

فقال لها: وما يدريك أنت ما نعت الخمر؛ ثم سل السيف ونهض إليها، فاستغاثت بأخيها عملس، فانتزعه بسهم فأصاب فخذه فبرك، ومضوا وتركوه، حتى إذا بلغوا أدنى المياه منهم قالوا لهم: إنا أسقطنا جزوراً لنا فادر كوه، وخذوا معكم الماء. ففعلوا، وإذا عقيل بارك وهو يقول:

من يلق أبطال الرجال يكلم

إن بني زملوني بالدم

شنشنة أعرفها من أخزم

ومن يكن درء به يقوم

الشنشنة: الطبيعة، وأخزم: فحل كريم، وهذا مثل للعرب.

الشيبياني عن عوانة قال: خطب عبد الملك بن مروان بنت عبد الرحمن بن الحارث بن هشام. فأبت أن تتزوجه. وقالت: والله لا تزوجني أبا الذبان. فتزوجها يحيى بن الحكم. فقال عبد الملك: والله لقد تزوجت أفوه أشوه. فقال يحيى. أما إنما أحببت مني ما كرهت منك، وكان عبد الملك رديء الفم يدمى، فيقع عليه الذباب، فسمي أبا الذبان.

وعن العتيبي قال: خطب قرية بنت حرب أخت أبي سفيان بن حرب، أربعة عشر رجلاً من أهل بدر فأبتهم، وتزوجت عقيل بن أبي طالب، وقالت: إن عقيلاً كان مع الأجابة يوم قتلوا، وإن هؤلاء كانوا عليهم. ولاحته يوماً فقالت: يا عقيل، أين أخوالي؟ أين أعمامي؟ كأن أعناقهم أباريق الفضة، قال لها: إذا دخلت النار فخذني على يسارك.

وكتب زياد إلى سعيد بن العاص يخطب إليه ابنته، وبعث إليه بمال كثير وهدايا، فلما قرأ الكتاب أمر حاجبه بقبض المال والهدايا، وأن يقسمها بين جلسائه. فقال الحاجب: إنما أكبر من ظنك. قال سعيد: أنا أكبر منها، ثم وقع إلى زياد في أسفل كتابه: "كلا إن الإنسان ليطغى. أن رآه استغنى.

وقال رجل للحسن: إن لي بنية، فمن ترى أن أزوجه؟ قال: زوجها ممن يتقي الله، فإن أحبها أكرمها، وإن أبغضها لم يظلمها.

وقال عبد الملك بن مروان لعمر بن عبد العزيز: قد زوجك أمير المؤمنين ابنته فاطمة. فقال عمر: وصلك الله يا أمير المؤمنين، فقد كفيت المسألة، وأجزلت في العطية.

قيل للحسن: فلان خطب إلينا فلانة، قال: أهو موسر من عقل ودين؟ قالوا: نعم، قال: فزوجوه.

وقال رجل لحيوه بن شريح: إني أريد أن أتزوج، فماذا ترى؟ قال: كم المهر؟ قال مائة. قال: فلا تفعل. تزوج بعشرة وأبق تسعين. فإن وافقتك رحمت التسعين وإن لم توافقك تزوجت عشراً، فلا بد في عشرة نسوة من واحدة توافقك.

وقال رجل: أردت النكاح فقلت: لأستشيرن أول من يطلع علي، ثم أعمل برأيه، فكان أول من طلع هبنقة القيسي، وتحتة قصبه، فقلت له: أريد النكاح فما تشير علي؟ قال البكر لك والثيب عليك، وذات الولد لا تقرها، واحذر جوادي لا ينفحك. وعن الأصمعي قال: أخبرني رجل من بني العنبر عن رجل من أصحابه، وكان مقلاً، فخطب إليه مكثر من مال، مقل من عقل، فشاور فيه رجلاً يقال له أبو يزيد. فقال: لا تفعل ولا تزوج إلا عاقلاً ديناً، فإنه إن لم يكرمها لم يظلمها. ثم شاور رجلاً آخر يقال له أبو العلاء، فقال له: زوجه فإن ماله لها وحقه علي نفسه. فزوجه فرأى منه ما يكره في نفسه وابنته، فقال:

ولهفي إذ أطعت أبا العلاء

ألهمي إذ عصيت أبا يزيد

وكانت زلفة من غير ماء

وكانت هفوة من غير ريح

الفضل بن محمد الضبي قال: أخبرني مسعر بن كدم عن معبد بن خالد الجدي قال: خطبت امرأة من بني أسد في زمن زياد، وكان النساء يجلسن لخطابهن، قال: فجئت لأنظر إليها، وكان بيني وبينها رواق، فدعت بجفنة عظيمة من الثريد مكللة باللحم، فأنت علي آخرها وألقت العظام نقية، ثم دعت بشنٍ عظيم مملوء لبناً، فشربته حتى أكفأته علي وجهها، وقالت: يا جارية، ارفعي السحف، فإذا هي جالسة علي جلد أسد وإذا امرأة جميلة، فقالت: يا عبد الله، أنا أسدة من بني أسد وعلي جلد أسد، وهذا طعامي وشرابي، فعلام ترى؟ فإن أحببت أن تتقدم فتقدم، وإن أحببت أن تتأخر فتأخر. فقلت: أستخير الله في أمري وانظر. قال: فخرجت ولم أعد. قال: وحدثنا بعض أصحابنا أن جارية لأمية بن عبد الله بن خالد بن أسيد ذات ظرف وجمال مرت برجل من بني سعد، وكان شجاعاً فارساً، فلما رآها قال: طوبى لمن كانت له امرأة مثلك! ثم إنه أتبعها رسول يسألها: أها زوج؟ ويذكره لها. فقالت للرسول: ما حرفته؟ فأبلغه الرسول قولها. فقال: ارجع إليها فقل لها:

مقارعة الأبطال في كل شارق

وسائلة ما حرفتي قلت حرفتي

أمام رجيل الخيل يوماً رأيتني

إذا عرضت لي الخيل يوماً رأيتني

على ألم البيض الرقاق البوارق

وأصبر نفسي حين لا حر صابر

فأنشدها الرسول ما قال. فقالت له: ارجع إليه وقل له: أنت أسد فاطلب لنفسك لبوة، فليست من نساتك، وأنشدت هذه الأبيات:

كريماً محياه قليل الصدائق

إلا إنما أبغي جواداً بماله

يعانقها بالليل فوق النمارق

فتى همه مذ كان خود كريمة

نداماه فيها كل خرق موافق

ويشربها صرفاً كميئاً مدامة

يجي بن عبد العزيز عن محمد بن الحكم عن الشافعي قال: تزوج رجل امرأة حديثة علي امرأة له قديمة، فكانت جارية الحديثة تمر علي باب القديمة فتقول:

ورجل رمى فيها الزان فشلت

وما تستوي الرجلان رجل صحيحة

ثم تعود فتقول:

وثوب بأيدي البائعين جديد

وما يستوي الثوبان ثوب به البلى

فمرت جارية القديمة علي الحديثة فأنشدت:

ما القلب إلا للحبيب الأول

نقل فؤادك حيث شئت من الهوى

وحنيه أبدأ لأول منزل

كم منزل في الأرض يألفه الفتى

وعن الشعبي قال: سمعت المغيرة بن شعبة يقول: ما غلبني أحد قط إلا غلام من بني الحارث بن كعب، وذلك أني خطبت امرأة من بني الحارث، وعندي شاب منهم، فأصغى إلي فقال: أيها الأمير، لا خير لك فيها. قلت: يا بن أخي، وما لها؟ قال: إني رأيت رجلاً يقبلها. قال: فبرئت منها. فبلغني أن الفتى تزوجها فأرسلت إليه فقلت: ألم تخبرني أنك رأيت رجلاً يقبلها؟ قال: نعم. رأيت أباها يقبلها. أبو سعيد الشحام قال: صحبت ابن سيرين عشرين سنة، فقال لي يوماً: يا أبا سعيد، إن تزوجت فلا تتزوج امرأة تنظر في يدها ولكن تزوج امرأة تنظر في يدك.

صفات النساء وأخلاقهن

قال أبو عمرو بن العلاء: أعلم الناس بالنساء عبدة بن الطبيب حيث يقول:

عليماً بأدواء النساء طبيب

فإن تسألوني بالنساء فإنني

فليس له في ودهن نصيب

إذا شاب رأس المرء أو قل ماله

وشرخ الشباب عندهن عجيب

يردن ثراء المال حيث علمنه

وهذه الأبيات للعقمة بن عبدة المعروف بالفحل، وأول القصيدة:

طحا بك قلب في الحسان طروب

وعن رجاء بن حيوة عن معاذ بن جبل قال: إنكم ابتليت بفتنة الضراء فصبرتم، وإني أخاف عليكم فتنة السراء، وهي النساء إذا تحلين بالذهب، ولبسن ريط الشام وعصب اليمن، فأتعن الغني، وكلفن الفقير ما لا يطال.

وقال عبد الملك بن مروان: من أراد أن يتخذ جارية للمتعة فليتخذها بربرية، ومن أرادها للولد فليتخذها فارسية، ومن أرادها للخدمة فليتخذها رومية.

وعن أبي الحسن المدائني قال: قال يزيد بن عمر بن هبيرة: اشتروا لي جارية شقاء مقاء رسحاء، بعيدة ما بين المنكين، ممسوحة الفخذين.

قوله: شقاء: يريد كأنها شقة جبل. مقاء: طويلة. رسحاء: صغيرة العجيزة؛ وإنما أراد للولد، ويقال: إن الأرسح أفرس من العظيم العجيزة.

وقال عمر بن هبيرة لرجل: ما أنت بعظيم الرأس فتكون سيداً، ولا بأرسح فتكون فارساً.

وقال الأصمعي، وذكر النساء: بنات العم أصبر، والغرائب أنجب، وما ضرب رؤوس الأبطال كابن الأعجمية.

أبو حاتم عن الأصمعي عن يونس بن مصعب عن عثمان بن إبراهيم بن محمد قال: أتاني رجل من قريش يستشيرني في امرأة يتزوجها، فقلت: يا بن أخي، أقصيرة النسب أم طويلة؟ فلم يفهم عني. فقلت: يا بن أخي، إني أعرف في العين إذا عرفت وأنكر فيها إذا أنكرت، وأعرف فيها إذا لم تعرف ولم تنكر. أما إذا عرفت فتحاوص، أما إذا أنكرت فتجحظ، وأما إذا تعرف ولم تنكر فتسجج، وقد رأيت عينك ساجية، فالقصيرة النسب التي إذا ذكرت أباها اكتفت به، والطويلة النسب التي لا تعرف حتى تطيل في نسبتها، فإياك أن تقع في قوم قد أصابوا كثيراً من الدنيا مع دناءة فيهم فتضع نفسك بهم.

وعن العتيبي قال: كان عند الوليد بن عبد الملك أربع عقائل: لبابة بنت عبد الله بن عباس، وفاطمة بنت يزيد بن معاوية، وزينب بنت سعيد بن العاص،

وأما جحش بنت عبد الرحمن بن الحارث، فكان يجتمعن على مائدته ويفترقن فيفخرن. فاجتمعن يوماً، فقالت لبابة: أما والله إنك لتسوييني بهن، وإنك

تعرف فضلي عليهن. وقالت بنت سعيد: ما كنت أرى أن للفخر علي مجازاً، وأنا ابنة ذي العمامة إذ لا عمامة غيرها. وقالت بنت عبد الرحمن بن

الحارث: ما أحب بأبي بدلاً، ولو شئت لقلت فصدقت وصدقت. وكانت بنت يزيد بن معاوية جارية حديثة السن فلم تتكلم. فتكلم عنها الوليد،

فقال: نطق من احتاج إلى نفسه وسكت من اكتفى بغيره. أما والله لو شاءت لقاتلت: أنا ابنة قادتكم في الجاهلية، وخلفائكم في الإسلام. فظهر

الحديث حتى تحدث به في مجلس ابن عباس، فقال: الله أعلم حيث يجعل رسالته.

الشيبياني عن عوانة قال: ذكرت النساء عند الحجاج فقال: عندي أربع نسوة، هند بنت المهلب، وهند بنت أسماء بن خارجة، وأم الجلاس بنت عبد الرحمن بن أسيد، وأمة الله بنت عبد الرحمن بن جرير بن عبد الله البجلي. فأما ليلتي عند هند بنت المهلب فليلة فتى بين فتیان، يلعب ويلعبون. وأما ليلتي عند هند بنت أسماء، فليلة ملك بين الملوك، وأما ليلتي عند أم الجلاس فليلة أعرابي مع أعراب في حديثهم وأشعارهم. وأما ليلتي عند أمة الله بنت عبد الرحمن بن جرير، فليلة عالم بين العلماء والفقهاء.

وعن العتيبي قال: حدثني رجل من أهل المدينة قال: كان بالمدينة مخنث يدل على النساء يقال له أبو الحر، وكان منقطعاً إلي، فدلني على غير ما امرأة أتزوجها، فلم أرض عن واحدة منهن، فاستقصرت يوماً فقال: والله يا مولاي لأدلك على امرأة لم تر مثلها قط، فإن لم ترها كما وصف فاحلق لحيتي. فدلني على امرأة، فتزوجها. فلما زفت إلي وجدتها أكثر مما وصف. فلما كان في السحر إذا إنسانا يدق الباب، فقلت: من هذا؟ قال: أبو الحر، وهذا الحجم معه. فقلت: قد وفر الله لحيتك أبا الحر، الأمر كما قلت.

ابن بكير بن مالك بن هشام بن عروة عن أبيه، أن مخنثاً كان عند أم سلمة زوج النبي صلى الله عليه وسلم، فقال لعبد الله بن أبي أمية، ورسول الله صلى الله عليه وسلم يسمع: أبا عبد الله، إن فتح الله لكم الطائف غداً فأنا أدلك على بنت غيلان، إنها تقبل بأربع، وتدبر بثمان. فقال رسول الله صلى الله عليه وسلم: لا يدخلن عليكن هذا.

قوله: تقبل بأربع وتدبر بثمان، يريد: عكن البطن، فإنها إذا أقبلت أربع وإذا أدبرت ثمان.

وضرب البعث على رجل من أهل الكوفة فخرج إلى أذربيجان، فأفاد جارية وفرساً، وكان مملكا بانية عمه، فكتب إليها ليغيرها:

غنيبا وأغنتنا الغطارفة المرد

وبيضاء كالتمثال زينها العقد

لحاجة نفسي حين ينصرف الجند

ألا أبلغوا أم البنين بأننا

بعيد مناظ المنكبين إذا جرى

فهذا لأيام العدو وهذه

فلما ورد كتابه قرأته وقالت: يا غلام، هات الدواة. فكتبت إليه تحية:

غنيبا وأغنتنا غطارفة المرد

شباباً وأغزاكم خوالف في الجند

ونازعته من ماء معتصر الورد

إلى الكبد ملساء أو كفل نهد

شهوداً قضيناها على النأي والبعد

منانا ولا ندعو لك الله بالرد

وزادك رب الناس بعداً إلى بعد

ألا أقره منا السلام وقل له

بحمد أمير المؤمنين أقرهم

إذا شئت غناني غلاماً مرجل

وإن شاء منهم ناشئاً مد كفه

فما كنتم تقضون من حاج أهلكم

فعجل علينا بالسراج فإنه

فلا قفل الجند الذي أنت فيهم

فلما ورد كتابها لم يزد على أن ركب فرسه وأردف الجارية ولحق بها، فكان أول شيء بدأها به بعد السلام أن قال: بالله هل كنت فاعلة؟ قالت: الله أجل في قلبي وأعظم، وأنت في عيني أذل وأحق من أن أعصى الله فيك، فكيف ذقت طعم الغيرة؟ فوهب لها الجارية وانصرف إلى بعته.

وقال معاوية لصعصعة بن صوحان: أي النساء أشهى إليك؟ قال: المواتية لك فيما تهوى. قال: فأيهن أبغض؟ قال: أبعدهن مما ترضى، قال: هذا النقد العاجل. فقال صعصعة: بالميزان العادل.

وقال صعصعة لمعاوية: يا أمير المؤمنين، كيف ننسبك إلى العقل وقد غلب عليك نصف إنسان. يريد غلبة امرأته فاخته بنت قرظة عليه؟ فقال معاوية: إنهن يغلبن الكرام ويغلبهن اللثام.

وعن سفيان بن عيينة قال: شكا جرير بن عبد الله البجلي إلى عمر بن الخطاب ما يلقي من النساء، فقال: لا عليك، فإن التي عندي ربما خرجت من عندها فتقول: إنما تريد أن تتضع لفتيات بني عدي. فسمع كلامهما ابن مسعود، فقال: لا عليكم، فإن إبراهيم الخليل شكل إلى ربه رداءة في خلق سارة فأوحى الله إليه: أن ألبسها لباسها ما لم تر في دينها وصماً. فقال عمر: إن بين جوانحك لعلماً.

وكتب إلى الحجاج إلى أيوب بن القرية: أن احطب على عبد الملك بن الحجاج امرأة، جميلة من بعيد، مليحة من قريب، شريفة في قومها، ذليلة في نفسها، مواتية لبعلها. فكتب إليه: قد أصبتها لولا عظم ثدييها. فكتب إليه: لا يكمل حسن المرأة حتى يعظم ثدياها، فتدفع الضجيع، وتروي الرضيع. وقال أبو العباس السفاح أمير المؤمنين لخالد بن صفوان: يا خالد، إن الناس قد أكثروا في النساء، فأيهن أعجب إليك؟ قال: أعجبهن يا أمير المؤمنين التي ليست بالضرع الصغيرة، ولا الفانية الكبيرة. وحسبك من جمالها أن تكون فخمة من بعيد، مليحة من قريب، أعلاها قضيب، وأسفلها كتيب، كانت في نعمة ثم أصابتها فاقة، فأترفها الغنى وأدبها الفقر.

ونظر خالد بن صفوان إلى جماعة في المسجد بالبصرة فقال: ما هذه الجماعة؟ قالوا: على امرأة تدل على النساء فأتاها فقال لها: أبغني امرأة: قالت: صفها لي. قال: أريدها بكراً كتيب، أو ثيباً كبيراً، حلوة من قريب، فخمة من بعيد. كانت في نعمة فأصابتها فاقة، فمعها أدب النعمة وذل الحاجة، فإذا اجتمعنا كنا أهل دنيا، وإذا افرقنا كنا أهل آخرة. قال: قد أصبتها لك قال: وأين هي؟ قال: في الرفيق الأعلى من الجنة فاعمل لها. وسئل أعرابي عن النساء، وكان ذا تجربة وعلم بمن، فقال: أفضل النساء أطولهن إذا قامت، وأعظمن إذا قعدت، وأصدقهن إذا قالت، التي إذا غضبت حلمت، وإذا ضحكت تبسمت، وإذا صنعت شيئاً جودت، التي تطيع زوجها، وتلزم بيتها، العزيزة في قومها، الذليلة في نفسها، الودود الولود، وكل أمرها محمود.

وقال عبد الملك بن مروان لرجل من غطفان: صف لي أحسن النساء، فقال، خذها يا أمير المؤمنين ملساء القدمين، درماء الكعبين، مملوءة الساقين، جماء الركبتين، لفاء الفخذين، مقرمدة الرغفين، ناعمة الأليتين، منيفة المآكمتين بداء الوركين، مهضومة الخصرين، ملساء المتنين، مشرقة، فعمدة العضدين، فخمة الذراعين، رخصة الكفين، ناهدة الثديين حمراء الخدين، كحلاء العينين، زجاء الحاجبين، لمياء الشفتين، بلحاء الجبين، شماء العينين، شنباء الثغر، حالكة الشعر، غيداء العنق، عيناء العينين، مكسرة البطن، ناتئة الركب. فقال: ويحك! وأين توجد هذه؟ قال: تجدها في خالص العرب، أو في خالص الفرس.

وقال رجل لخاطب: أبغني امرأة لا تؤنس جاراً، ولا توهن داراً، ولا تثقب ناراً. يريد لا تدخل على الجيران، ولا يدخل عليها الجيران، ولا تغري بينهم بالشر.

وفي نحو هذا يقول الشاعر:

في ساحة لا بعل ولا جار

من الأوانس مثل الشمس لم يرها

وقال الأعشى:

ولا ترى الشمس إلا دونها الكلل

لم تمش ميلاً ولم تركب على جمل

وقال آخر: أبغني امرأة بيضاء، مديدة فرعاء، جعدة، تقوم فلا يصيب قميصها منها إلا مشاشة منكبيها، وحلمتي ثدييها، ورائفتي أليتيها. وقال الشاعر:

مس البطون وإن تمس ظهورا

أبت الروادف والثدي لقمصها

نبهن حاسدة وهجن غيورا

وإذا الرياح مع العشي تناوحت

ولآخر:

إذا انبطحت فوق الأثافي رفعنها

بثديين في نحر عريض وكعشب

ونظر عمران بن حطان إلى امرأته. وكانت من أجمل النساء، وكان من أقبح الرجال، فقال: إني وإياك في الجنة إن شاء الله. قالت له: كيف ذاك؟ قال: إني أعطيت مثلك فشكرت، وأعطيت مثلي فصبرت.

ونظر أبو هريرة إلى عائشة بنت طلحة، فقال: سبحان الله! ما أحسن ما غذاك أهلك! والله ما رأيت وجهاً أحسن منك إلا وجه معاوية على منبر رسول الله صلى الله عليه وسلم وكان معاوية من أحسن الناس.

ونظر ابن أبي ذئب إلى عائشة بنت طلحة تطوف بالبيت، فقال لها: من أنت؟ فقالت:

من اللاء لم يحجن بيغين حسبةً

ولكن ليقتلن البريء المغفلا

فقال لها: صان الله ذلك الوجه عن النار. فقيل له: أفتنتك يا عبد الله؟ قال: لا، ولكن الحسن مرحوم.

وقال يونس: أخبرني محمد بن إسحاق، قال: دخلت على عائشة بنت طلحة فوجدتها متكئة، ولو أن بختية نوحت خلفها ما ظهرت. السري بن إسماعيل عن الشعبي، قال: إني لفي المسجد نصف النهار، إذ سمعت باب القصر يفتح، فإذا بمصعب بن الزبير ومعه جماعة. فقال: يا شعبي، اتبعني. فاتبعته. فأتى دار موسى بن طلحة، فدخل مقصورةً ثم دخل أخرى، ثم قال: يا شعبي، اتبعني، فاتبعته. فإذا امرأة جالسة، عليها من الحلوى والجواهر ما لم أر مثله، وهي أحسن من الحلوى الذي عليها. فقال: يا شعبي، هذه ليلى التي يقول فيها الشاعر:

وما زلت في ليلى لدن طر شاري

إلى اليوم أخفي حبها وأداجن

وأحمل في ليلى لقوم ضغينةً

وتحمل في ليلى علي الضغائن

هذه عائشة بنت طلحة. فقالت له: أما إذا حلوتني عليه فأحسن إليه. فقال: يا شعبي. رح العشية، فرحت. فقال: يا شعبي، ما ينبغي لمن جليت عليه عائشة بنت طلحة أن ينقص عن عشرة آلاف. فأمر لي بكسوة وقارورة غالية. فقيل للشعبي في ذلك اليوم: كيف الحال؟ قال: وكيف حال من صدر عن الأميرة ببدرة وكسوة، وقارورة غالية، ورؤية وجه عائشة بنت طلحة.

وكان عمرو بن حجر ملك كندة، وهو جد امرئ القيس، أراد أن يتزوج ابنة عوف من محلم الشيباني الذي يقال فيه: لا حر بوادي عوف؛ لإفراط عزه. وهي أم إياس، وكانت ذات جمال وكمال. فوجه إليها امرأة يقال لها عصام، ذات عقل وبيان وأدب - لتنظر إليها، وتمتحن ما بلغه عنها.

فدخلت على أمها أمامة بنت الحارث، فأعلمتها ما قدمت له. فأرسلت إلى ابنتها: أي بنية، هذه خالتك، أتت إليك لتنظر إلى بعض شأنك، فلا تستري عنها شيئاً أرادت النظر إليه من وجه وخلق، وناطقها فيما استنطقتك فيه. فدخلت عصام عليها، فنظرت إلى ما لم تر عينها مثله قط، بمجةً

وحسناً وجمالاً. فإذا هي أكمل الناس عقلاً، وأفصحهم لساناً. فخرجت من عندها وهي تقول: ترك الخداع من كشف القناع. فذهبت مثلاً. ثم أقبلت إلى الحارث، فقال لها: ما وراءك يا عصام؟ فأرسلها مثلاً. قالت: صرح المخض عن الزبدة. فذهبت مثلاً. قال: أخبريني، قالت: أخبرك صدقاً وحقاً،

رأيت جبهة كالمراة الصقيلة، يزينها شعر حالك كأذئاب الخيل المصفورة، إن أرسلته خلته السلاسل، وإن مشطته قلت عنقايد كرم جلاه الوابل، ومع ذلك حاجبان كأنهما خطا بقلم، أو سودا بحمم، قد تقوسا على مثل عين العبيرة التي لم يرعها قانص ولم يدعها قسورة، بينهما أنف كحد السيف

المصقول، لم يخنس به قصر، ولم يجمع به طول، حفت به وجنتان كالأرجوان، في بياض محض كالجمان، شق فيه فم كالخاتم، لذيد المتسم، فيه ثنانيا غر، ذوات أشر، وأسنان تعد كالدر، وريق تنم إليك منه ريح الخمر، أم نشر الروض بالسحر، يتقلب فيه لسان ذو فصاحة وبيان، يقبله عقل وافر،

وجواب حاضر، يلتقي دونه شفتان حمران كالورد، يجلبان ريقاً كالشهد، تحت ذاك عنق كإبريق الفضة، ركب في صدر تمثال دمية، يتصل به عضدان ممتلئان لحماً مكتتران شحماً، وذراعان ليس فيهما عظم يحس، ولا عرق يحبس، ركبت فيهما كفان رقيق قصبهما لين عصبهما، تعقد إن شئت

منها الأنامل، وتركب الفصوص في حفر المفاصل، وقد تربع في صدرها حقان كأنهما رمانتان. من تحت ذلك بطن طوي كطي القباطي المدججة، كسي عكنا كالقراطيس المدرجة. تحيط تلك العكن بسرة كمدهن العاج المجلو، خلف ظهر كالجداول ينتهي إلى حصر لولا رحمة الله لانخزل، تحته كفل

يقعدها إذا مُضت، وبنهضها إذا قعدت، كأنه دعص رمل، لبدته سقوط الطل، يحمله فخذان لفاوان كأنهما نضيد الجمار، تحملهما ساقان خدجتان كالبردى وشيا بشعر أسود، كأنه حلق الزرد، ويحمل ذلك قدمان كحد السنان تبارك الله في صغرهما كيف تطبيقان حمل ما فوقهما، فأما سوى ذلك فتركت أن أصفه، غير أنه أحسن ما وصفه واصف بنظم أو نثر. قال: فأرسل إلى أبيها يخطبها. فكان من أمرهما ما تقدم ذكره في صدر هذا الكتاب.

صفة المرأة السوء

قال النبي صلى الله عليه وسلم: "إياكم وحضراء الدمن". يريد الجارية الحسناء في المنبت السوء. وفي حكمة داود: المرأة السوء مثل شرك الصياد. لا ينجو منها إلا من رضي الله عنه. الأصمعي عن أبي عمرو بن العلاء قال: قال عمر بن الخطاب النساء ثلاثة: هينة عفيفة مسلمة، تعين أهلها على العيش ولا تعين العيش على أهلها، وأخرى وعاء للولد، وثالثة غل قمل يلقيه الله في عنق من يشاء من عباده. وقيل لأعرابي عالم بالنساء: صف لنا شر النساء. قال: شرهن النحيفة الجسم، القليلة اللحم، الطويلة السقم، الحياض، الصفراء، المشؤومة العسراء، السليطة الذفراء، السريعة الوثبة، كأن لسانها حربة، تضحك من غير عجب، وتقول الكذب، وتدعو على زوجها بالحرب. أنف في السماء وآست في الماء. وفي رواية محمد بن عبد السلام الخشني قال: إياك وكل امرأة مذكرة منكورة، حديدة العرقوب، بادية الظنوب، منتفخة الوريد، كلاهما وعيد، وصوتها شديد؛ تدفن الحسنات، وتفشي السيئات؛ تعين الزمان على بعلمها، ولا تعين بعلمها على الزمان؛ ليس في قلبها له رافة، ولا عليها منه مخافة إن دخل خرجت، وإن خرج دخلت، وإن ضحك بكت، وإن بكى ضحكت؛ وإن طلقها كان حريته، وإن أمسكها كانت مصيبته، سعفاء ورهاء، كثيرة الدعاء، قليلة الإرعاء؛ تأكل لما، وتوسع ذمًا؛ صخوب غضوب، بذية دنية؛ ليس تطفأ نارها، ولا يهدأ إعصارها، ضيقة الباع، مهتوكة القناع؛ صبيها مهزول، وبيتها مزبول؛ إذا حدثت تشير بالأصابع، وتبكي في الجامع؛ بادية من حجاجها نباحة على باهما، تبكي وهي ظالمة، وتشهد وهي غائبة؛ قد ذل لسانها بالزور، وسال دمعها بالفجور. نافرت امرأة فضالة زوجها إلى سلم بن قتيبة، وهو والي خراسان، فقالت: أبضعه والله لخلال فيه. قال: وما هي؟ قالت: هو والله قليل الغيرة، سريع الطيرة؛ شديد العتاب، كثير الحساب؛ قد أقبل بخره، وأدبر ذفره؛ وهجمت عيناه، واضطربت رجلاه؛ يفيق سريعاً، وينطق رجيعاً؛ يصبح حبسا، ويمسي رجسا، إن جاع جزع، وإن شبع جشع. ومن صفة المرأة السوء يقال: امرأة سمعنة نظرنه. وهي التي إذا سمعت أو تبصرت فلم تر شيئاً تظننت تظنناً. قال أعرابي:

سمعنه نظرنه

إن لنا لكننه

كالذئب وسط العنه

مفنة معنة

إلا تراه تظنه

وقال يزيد بنعمر بن هبيرة: لا تنكحن برشاء ولا عمشاء، ولا وقصاء، ولا لثغاء، فتجيتك بولد ألثغ. فوالله لولد أعمى أحب إلي من ولد ألثغ. وقالوا: آخر عمر الرجل خير من أوله، يثوب حلمه، وتثقل حصاته، وتحمد شرارته، وتكمل تجارته. وآخر عمر المرأة شر من أوله، يذهب جمالها، ويذوب لسانها، ويعقم رحمها، ويسوء خلقها.

وعن جعفر بن محمد عليهما السلام: إذا قال لك أحد: تزوجت نصفًا، فاعلم أن شر النصفين ما بقي في يده وأنشد:

فإن أطيب نصفها الذي ذهب

وإن أتوك وقالوا إنها نصف

وقال الخطيئة في امرأته:

إلى بيت قعيدته لكاع

أطوف ما أطوف ثم أوي

وقال في أمه:

أراح الله منك العالمينا

تتحي فاجلسي مني بعيداً

وكانونا على المتحدثينا

أغربالاً إذا استودعت سراً

وموتك قد يسر الصالحينا

حياتك ما علمت حياة سوء

وقال زيد بن عمير في أمته:

أبى الله إلا خزيها فتعود

أعاتبها حتى إذا قلت أقلعت

فهي أبدأ يزنى بها وتقود

فإن طمئت قادت وإن طهرت زنت

ويقال إن المرأة إذا كانت مبغضة لزوجها، فعلامة ذلك أن تكون عند قربه منها مرتدة الطرف عنه، كأنها تنظر إلى إنسان غيره؛ وإذا كانت محبة له لا تقلع عن النظر إليه.

وقال آخر يصف امرأة لثغاء:

تذكيرها الأنثى وتأنيث الذكر

أول ما أسمع منها في السحر

والسواة السواء في ذكر القمر

ولآخر في زوجته:

ولكن قرين السوء باق معمر

لقد كنت محتاجاً إلى موت زوجتي

وعذبها فيه نكير ومنكر

فيا ليتها صارت إلى القبر عاجلاً

وكان روح بن زباع أثيراً عند عبد الملك، فقال له يوماً: رأيت امرأتى العبسية؟ قال: نعم قال: فيم شبهتها؟ قال: بمشجب بال، وقد أسيئت صنعته. قال: صدقت. وما وضعت يدي عليها قط إلا كأني أضعها على الشكاعي، وأنا أحب أن تقول ذلك لابنيها الوليد وسليمان. فقام إليه فرعاً، فقبل يده ورجله، وقال: أنشدك الله يا أمير المؤمنين أن لا تعرضني لهما. قال: ما من ذلك بد، وبعث من يدعوهما. فاعتزل روح، وجلس ناحية من البيت كأنه حلس، وجاء الوليد وسليمان فقال لهما: أتدريان لم بعثت إليكما؟ إنما بعثت لتعرفا لهذا الشيخ حقه وحرمة. ثم سكت. أبو الحسن المدائني: كان عند روح بن زباع هند بنت النعمان بن بشير، وكان شديد الغيرة، فأشرفت يوماً تنظر إلى وفد من جذام، كانوا عنده، فزجرها. فقالت: والله لأبغض الحلال من جذام، فكيف تخافني على الحرام فيهم. وقالت له يوماً: عجباً منك كيف يسودك قومك؟ وفيك ثلاث خلال: أنت من جذام، وأنت جبان، وأنت غيور؟ فقال لها: أما جذام فأني في أرومتها، وحسب الرجل أن يكون في أرومة قومه. وأما الجبن فأنا لي نفس واحدة، فأنا أحوطها، فلو كانت لي نفس أخرى جدت بها. وأما الغيرة فأمر لا أريد أن أشارك فيه، وحقيق بالغيرة من كانت عنده حمقاء مثلك مخافة أن تأتيه بولد من غيره فتقذف به في حجره. فقالت:

سليلة أفراس تجللها بعل

وهل هند إلا مهرة عربية

وإن يك إقرارف فما أنجب الفحل

فإن أنجبت مهرا عريقاً فبالحري

وعن الأصمعي قال: قال أبو موسى: جاءت امرأة إلى رجل تدله على امرأة يتزوجها فقال:

على امرأة موصوفة بجمال
إن احتملت منه ثلاث خصال
ورقة إسلام وقلة مال

أقول لها لما أتتني تدلني
أصبت لها والله زوجاً كما اشتيت
فمنهن عجز لا ينادي وليده

صفة الحسن

عن أبي الحسن المدائني قال: الحسن أحمر، وقد تضرب فيه الصفرة مع طول المكث في الكن، والتضخم بالطيب، كما تضرب في بيضة الأدهى واللؤلؤة المكنونة. وقد شبه الله عز وجل بها في كتابه فقال: "كأنهن بيض مكنون"، وقال: "كأنهم لؤلؤ مكنون". وقال الشاعر:

إذا اجتلاهن فيظ ليله ومد

كأن بيض نعام في ملاحفها

وقال آخر:

رة حيناً لا يستحق اصفرارا

مروزي الأديم تغمره الصف

لون ورد كسا البياض احمرارا

وجرى من دم الطبيعة فيه

وقالت امرأة خالد بن صفوان له: لقد أصبحت جميلاً. فقال لها: وما رأيت من جمالي! وما في في رداء الحسن ولا عموده ولا برنسه؟ قالت: وكيف ذلك؟ قال: عمود الحسن الشطاط، ورداؤه البياض، وبرنسه سواد الشعر.

وقالوا: إن الوجه الرقيق البشرة الصافي الأديم إذا حجل يحمر. وإذا فرق يصفر. ومنه قولهم: ديباج الوجه. يريدون تلونه، من رفته. وقال عدي بن زيد يصف لون الوجه:

مثل ما حاك حائك ديباجاً

حمره خلط صفرة في بياض

وقالوا: إن الجارية الحسنة تتلون بلون الشمس، فهي بالضحى بيضاء، وبالعشي صفراء. وقال الشاعر:

بيضاء ضحوتها وصفراء العشية كالعراره

وقال ذو الرمة:

لونان من فضة ومن ذهب

بيضاء صفراء قد تنازعا

ومن قولنا في هذا المعنى:

كما جرى ذهب في صفحتي ورق

بيضاء يحمر خذاها إذا خجلت

ومن قولنا أيضاً:

ورشاً بتقطيع القلوب رفيقا

يا لؤلؤاً يسبي العقول أنيقاً

درأ يعود من الحياء عقيقا

ما إن رأيت ولا سمعت بمثله

ومن قولنا:

فدر ولكن الخدود عقيق

عطابيل كالآرام أما وجوها

قولهم في الجارية

جميلة من بعيد، مليحة من قريب. فالجميلة التي تأخذ بصرك جملة على بعد، فإذا دنت لم تكن كذلك. والمليحة التي كلما كررت فيها بصرك زادتك حسنا.

وقال بعضهم: السمينة الجميلة، من الجميل، وهو الشحم. والمليحة أيضاً من الملح، وهو البياض. والصبوحة مثل ذلك، يشبهونها بالصبح في بياضه.

المنجيات من النساء

قالوا: أنجب النساء الفروك. وذلك أن الرجل يغلبها على الشبق لزهدها في الرجل.

أبو حاتم عن الأصمعي قال: النجبية التي تترع بالولد إلى أكرم العريقين.

وقال عمر بن الخطاب: يا بني السائب، إنكم قد أضويتم فانكحوا في الترائع.

وقالت العرب: بنات العم أصبر، والغرائب أنجب.

والعرب تقول: اغتربوا لا تزواوا. أي انكحوا في الغرائب، فإن القرائب يضيون البنين.

وقالوا: إذا أرادت أن يصلب ولد المرأة فأغضبها ثم قع عليها، وكذلك الفرعة. وقال الشاعر:

حبك النطاق فشب غير مهبل

ممن حملن به وهن عواقد

كرها وعقد نطاقها لم يحلل

حملت به في ليلة مزؤودة

قالت أم تأبط شراً: والله ما حملته تضعا ولا وضعاً، ولا وضعت يتي ولا أرضعته غيلاً، ولا أتمته منقاً. حملته وضعا وتضعا وهي أن تحمله في مقبل الحيض. ووضعت يتيلاً، وضعت منكساً تخرج رجلاه قبل رأسه وأرضعته غيلاً، أرضعته لبناً فاسداً وذلك أن ترضعه وهي حامل، وأتمته منقاً، أي مغضباً مغتاضاً.

ومن أمثال العرب قولهم: أنا مثق وأنت ثق فلا نتفق. المثق: المغضب المغتاض. والتثق: الذي ريجتمل شيئاً.

من أخبار النساء

لما قتل مصعب بن الزبير بنت النعمان بن بشير الأنصارية، زوجة المختار ابن أبي عبيد، أنكر الناس ذلك عليه وأعظموه، لأنه أتى بما نهي رسول الله " عنه في نساء المشركين، فقال عمر بن أبي ربيعة:

قتل حسناء غادة عطبول

إن من أعظم الكبائر عندي

إن الله درها من قتيل

قتلت باطلاً على غير ذنب

وعلى الغانيات جر الذبول

كتب القتل والقتال علينا

ولما خرجت الخوارج بالأهواز، أخذوا امرأة فهموا بقتلها، فقالت لهم: أتقتلون من ينشأ في الحلية وهو في الخصام غير ميين؟ فأمسكوا عنها.

باب الطلاق

محمد بن الفار قال: حدثني عبد الرحمن بن محمد بن أخي الأصمعي قال: سمعت عمي يقول: توصلت بالملح وأدركت بالغريب.

وقال عمي للرشيد، في بعض حديثه: بلغني يا أمير المؤمنين أن رجلاً من العرب طلق في يوم خمس نسوة. قال: إنما يجوز ملك الرجل على أربع نسوة، فكيف طلق خمساً؟ قال: كان لرجل أربع نسوة فدخل عليهن يوماً فوجدهن متلاحيات متنازعات، وكان شنظيراً. فقال: إلى متى هذا التنازع؟ ما

إحبال هذا الأمر إلا من قبلك، يقول ذلك لامرأة منهن، اذهبي فأنت طالق. فقالت له صاحبتها: عجلت عليها الطلاق، ولو أدبتها بغير ذلك لكنت حقيقاً. فقال لها: وأنت أيضاً طالق. فقالت الثالثة: قبحك الله، فوالله لقد كانتا إليك محسنتين، وعليك مفضلتين. فقال: وأنت أيتها المعددة أيديهما طالق أيضاً. فقالت له الرابعة، وكانت هلالية وفيها أناة شديدة: ضاق صدرك عن أن تؤدب نساءك إلا بالطلاق. فقال لها: وأنت طالق أيضاً. وكان ذلك بمسمع جارة له، فأشرفت عليه وقد سمعت كلامه، فقالت: والله ما شهدت العرب عليك وعلى قومك بالضعف إلا لما بلوه منكم ووجدوه فيكم، أبيت إلا طلاق نساءك في ساعة واحدة. قال: وأنت أيضاً أيتها المؤنبة المتكلفة طالق إن أجاز زوجك. فأجابه من داخل بيته: هيه، قد أجزت، قد أجزت.

ودخل المغيرة بن شعبة على زوجته فارعة الثقفية، وهي تتخلل، حين انفتلت من صلاة الغداة، فقال لها: إن كنت تتخللين من طعام اليوم إنك لخشعة، وإن كنت تتخللين من طعام البارحة إنك لبشعة، كنت فبنت. فقالت: والله ما اغتبطنا إذا كنا ولا أسفنا إذ بنا، وما هو لشيء مما ذكرت، ولكنني استكتت فتخللت للسواك. فخرج المغيرة نادماً على ما كان منه. فلقيه يوسف بن أبي عقيل، فقال له: إني نزلت الآن عن سيدة نساء ثقيف، فتزوجها فإلها ستنجب فتزوجها. فولدت له الحجاج.

وقال الحسن بن علي بن الحسن لامرأته عائشة بنت طلحة: أمرك بيدك. فقالت: قد كان عشرين سنة بيدك فأحسنت حفظه، فلن أضيعه إذ صار بيدي ساعة واحدة، وقد صرفته إليك. فأعجبه ذلك منها وأمسكها. وقال أبو عبيدة: طلق رجل امرأته وقال في ذلك:

طلاقاً ما أظن له ارتداداً

لقد طلقت أخت بني غلاب

إذا ما طلقاً ندماً فعاداً

ولم أك كالمعدل أو أويس

قال أبو عبيدة: وطلاق المعدل وأويس يضرب به المثل.

ونكح رجل امرأة من العرب، فلما اهتداها رأته ريع داره أحسن ريع، وشمل عياله أجمع شمل، فقالت: أما والله لمن بقيت لهم لأشتتن أمرهم، وقالت في ذلك:

وأترك أهلها شتى عزيزنا

أرى ناراً سأجعلها إرينا

فلما انتهى ذلك إلى زوجها طلقها، وقال في ذلك:

أرى ناراً سأجعلها إرينا

الأقالت هدي بني عدي

ويصبح أهلنا شتى عزيزنا

فبينني قبل أن تلحي عصانا

وقيل لابن عباس: ما تقول في رجل طلق امرأته عدد نجوم السماء؟ فقال: يكفيه من ذلك عدد كوكب الجوزاء.

وقيل لأعرابي: هل لك في النكاح؟ قال: لو قدرت أن أطلق نفسي لطلقتها.

وعن الزهري قال: قال أبو الدرداء لامرأته: إذا رأيتني غضبت ترضيني، وإن رأيتك غضبت ترضيتك، وإلا لم نصطحب. قال الزهري: وهكذا يكون الإخوان.

قال الأصمعي: كنت أختلف إلى أعرابي أقتبس منه الغريب، فكنت إذا استأذنت عليه يقول: يا أمامة، ائذني له. فتقول: ادخل. فاستأذنت عليه مراراً، فلم أسمع يذکر أمامة، فقلت: يرحمك الله، ما أسمعك تذكر أمامة؟ قال: فوجم وجهه. فندمت على ما كان مني، ثم أنشأ يقول:

ونجوت من غل الوثاق

ظعننت أمامة بالطلاق

قلبي ولم تبك المآقي

باننت فلم يآلم لها

ودواء ما لا تشتهييه

النفس تعجيل الفراق

والعيش ليس يطيب من

إلفين من غير اتفاق

وعن الشيباني قال: طلق أبو موسى امرأته وقال فيها:

تجهزي للطلاق وارتحلي

فذا دواء المجانب الشرس

ما أنت بالحنة الولود ولا

عندك نفعٌ يرجى لملتمس

لليتي حين بنت طالقة

ألذ عندي من ليلة العرس

بت لديها بشر منزلة

لا أنا في لذة ولا أنس

تلك على الخسف لا نظير لها

وإنني ما يسوغ لي نفسي

أقبل منظور بن زبان بن سيار الفزاري إلى الزبير فقال: إنما زوجناك ولم نزوج عبد الله. قال: مالك؟ قال: إنها تشكوه. قال: يا عبد الله طلقها. قال عبد الله: هي طالق. قال منظور: أنا ابن قهدم. قال الزبير: أنا ابن صافية. أتريد أن يطلق المنذر أختها؟ قال: لا، تلك راضية بموضعها.

وتزوج محمد بن عبد الله بن عمرو بن عثمان بن عفان خديجة بنت عروة بن الزبير، فذكر لها جماله، وكان يقال له المذهب من حسنه، وكان رجلاً مطلقاً. فقالت: محمد هو الدنيا لا يدوم نعيمها. فلما طلقها خطبها إبراهيم بن هشام بن إسماعيل المخزومي فكتب إليها:

أعيذك بالرحمن من عيش شقوة

وأن تطعمي يوماً إلى غير مطمع

إذا ما ابن مطعون تحدر وسقه

عليك فبئني بعد ذلك أو دعي

فردته ولم تتزوجه.

وعن العتيبي عن أبيه قال: أمهر الحجاج ابنة عبد الله بن جعفر تسعين ألف دينار، فبلغ ذلك خالد بن يزيد بن معاوية، فأمهله عبد الملك، حتى إذا أطبق الليل دق عليه الباب، فأذن له عبد الملك. فدخل عليه. فقال له: ما هذا الطروق أبا يزيد؟ قال: أمرٌ والله لم ينتظر له الصبح، هل علمت أن أحداً كان بينه وبين من عادى ما كان بين آل أبي سفيان وآل الزبير بن العوام؟ فإني تزوجت إليهم، فما في الأرض قبيلة من قريش أحب إليهم منهم، فكيف تركت الحجاج وهو سهم من سهامك يتزوج إلى بني هاشم؟ وقد علمت ما يقال فيهم في آخر الزمان. قال: وصلتك رحم. وكتب إلى الحجاج يأمره بطلاقها ولا يراجعه في ذلك. فطلقها. فأتاه الناس يعزونه، وفيهم عمرو بن عتبة. فجعل الحجاج يقع بخالد وينتقصه، ويقول: إنه صير الأمر إلى من هو أولى به منه، وإنه لم يكن لذلك أهلاً. فقال له عمرو بن عتبة: إن خالداً أدرك من قبله، وأتعب من بعده، وعلم علماً فسلم الأمر أهله، ولو طلب بقدوم لم يغلب عليه، أو بحديث لم يسبق إليه. فلما سمعه الحجاج استحى، فقال: يا بن عتبة، إنا نسترضيكم بأن نعتب عليكم، ونستعطفكم بأن ننال منكم، وقد غلبتم على الحلم فوثقنا لكم به، وعلمنا أنكم تحبون أن تحملوا فتعرضنا للذي تحبون.

من طلق امرأته ثم تبعته نفسه

الهيثم بن عدي قال: كانت تحت العربان بن الهيثم بن الأسود بنت عم له، فطلقها، فتبعته نفسه، فكتب إليها يعرض لها بالرجوع فكتبت إليه:

إن كنت ذا حاجة فاطلب لها بدلاً

إن الغزال الذي ضيعت مشغول

فكتب إليها:

من كان ذا شغل فأنه يكلؤه

وقد لهونا به والحبل موصول

وقد قضينا من استطرافه طرفاً

وفي الليالي وفي أيامها طول

وطلق الوليد بن يزيد امرأته سعدى. فلما تزوجت اشتد ذلك عليه وندم على ما كان منه. فدخل عليه أشعب، فقال له: أبلغ سعدى عني رسالةً، ولك مني خمسة آلاف درهم. فقال: عجلها. فأمر له بما. فلما قبضها قال: هات رسالتك، فأنشدها:

ولا حتى القيامة من تلاق

أسعدى ما إليك لنا سبيلٌ

بموت من خليلك أو فراق

بلى، ولعل دهرًا أن يواتي

فأتاها فاستأذن فدخل عليها. فقالت له: ما بدا لك من زيارتنا يا أشعب؟ فقال: يا سيدي. أرسلني إليك الوليد برسالة، وأنشدها الشعر. فقالت لجواريتها: خذن هذا الخبيث. فقال: يا سيدي، إنه جعل لي خمسة آلاف درهم. قالت: والله لأعاقبك أو لتبلغن إليه ما أقول لك. قال: سيدي اجعلي لي شيئاً. قالت لك بساطي هذا. قال: قومي عنه. فقامت عنه وألقاه على ظهره. وقال: هاتي رسالتك، فقالت: أنشده:

فقد ذهبتم سعدى فما أنت صانع

أتبكي على سعدى وأنت تركتها

فلما بلغه وأنشده الشعر سقط في يده، وأخذته كظمة ثم سرى عنه، فقال: اختر واحدةً من ثلاث: إما أن نقتلك، وإما أن نطرحك من هذا القصر، وإما أن نلقيك إلى هذه السباع. فتحير أشعب وأطرق حيناً، ثم رفع رأسه فقال: يا سيدي، ما كنت لتعذب عينين نظرنا إلى سعدى. فتبسم وحلى سبيله.

وممن طلق امرأته فتبعها نفسه عبد الرحمن بن أبي بكر الصديق، أمره أبوه بطلاقها ثم دخل عليه فسمعه يتمثل:

ولا مثلها في غير شيء تطلق

فلم أر مثلي طلق اليوم مثلها

وممن طلق امرأته فتبعها نفسه: الفرزدق الشاعر. طلق النوار ثم ندم في طلاقها وقال:

غدت مني مطلقةً نوار

ندمت ندامة الكسعي لما

كأدم حين أخرجه الضرار

وكانت جنتي فخرجت منها

بأمر ليس لي فيه خيار

فأصبحت الغداة ألوم نفسي

وكانت النوار بنت عبد الله قد خطبها رجل رضىته، وكان وليها غائباً، وكان الفرزدق وليها إلا أنه كان أبعد من الغائب، فجعلت أمرها إلى الفرزدق، وأشهدت له بالتفويض إليه. فلما توثق منها بالشهود أشهدهم أنه قد زوجها من نفسه، فأبت منه ونافرته إلى عبد الله بن الزبير، وهي بنت منظور بن زبان. فكان كلما أصلح حمزة من شأن الفرزدق هماراً أفسدته المرأة ليلاً، حتى غلبت المرأة وقضى ابن الزبير على الفرزدق. فقال:

وشفعت بنت منظور بن زبانا

أما البنون فلم تقبل شفاعتهم

مثل الشفيع الذي يأتيك عربانا

ليس الشفيع الذي يأتيك مؤتزرا

وقال الفرزدق في مجلس ابن الزبير:

كورهاء مشنوءٍ إليها خليلها

وما خاصم الأقوام من ذي خصومة

ملعنة يوهي الحجارة قيلها

فدونكها يا بن الزبير فإنها

فقال ابن الزبير: إن هذا شاعر وسيهجو، فإن شئت ضربت عنقه، وإن كرهت ذلك فاخترني نكاحه وقري. فقرت واختارت نكاحه، ومكنت عنده زماناً ثم طلقها وندم في طلاقها.

وعن الأصمعي عن المعتمر بن سليمان عن أبي مخزوم عن راوية الفرزدق قال: قال لي الفرزدق يوماً: امض بنا إلى حلقة الحسن، فإني أريد أن أطلق النوار. فقلت له: إني أخاف أن تتبعها نفسك، ويشهد عليك الحسن وأصحابه. قال: امض بنا. فجتنا حتى وقفنا على الحسن، فقال: كيف أصبحت

أبا سعيد؟ قال: بخير، كيف أصبحت يا أبا فراس؟ فقال: تعلمن أي طلقت النوار ثلاثاً. قال الحسن وأصحابه: قد سمعنا. فانطلقنا، فقال لي الفرزدق: يا هذا، إن في نفسي من النوار شيئاً. فقلت قد حذرتك، فقال:

غدت مني مطلقة نوار

ندمت ندامة الكسعي لما

كأدم حين أخرجه الضرار

و كانت جنتي فخرجت منها

لكان علي للقدر الخيار

ولو أني ملكت بها يميني

ومن طلق امرأته وتبعته نفسه قيس بن ذريح. وكان أبوه أمره بطلاقها فطلقها وندم، فقال في ذلك:

فكان فراق لبني كالخداع

فوا كبدي على تسريح لبني

فيا للناس للواشي المطاع

تكنفني الوشاة فأزعجوني

على أمر وليس بمستطاع

فأصبحت الغداة ألوم نفسي

تبين غبنة بعد البياع

كمغبون يعرض على يديه

وطلق رجل امرأته فقالت: أبعده صحبة خمسين سنة؟ فقال: ما لك عندنا ذنب غيره.

العتبي قال: جاء رجل بامرأة كأنها برج فضة إلى عبد الرحمن بن أم الحكم، وهو على الكوفة، فقال: إن امرأتي هذه شجتي. فقال لها: أنت فعلت به؟ قالت: نعم، غير متمعدة لذلك كنت أعالج طبيباً، فوقع الفهر من يدي على رأسه، وليس عندي عقل، ولا تقوى يدي على القصاص. فقال عبد الرحمن للرجل: يا هذا، علام تحبسها وقد فعلت بك ما أرى؟ قال: أصدقتها أربعة آلاف درهم، ولا تطيب نفسي بفراقها. قال: فإن أعطيتها لك أتفارقها؟ قال: نعم. قال: فهي لك. قال: هي طالق إذا، فقال عبد الرحمن: احبسي علينا نفسك، ثم أنشأ يقول:

قد كنت يا شيخ عن هذا بمعزل

يا شيخ ويحك من دلاك بالغزل

فاعمد بنفسك نحو الجلة الذلل

رضت الصعاب فلم تحسن رياضتها

مكر النساء وغدرهن

في حكمة داود عليه السلام. وجدت من الرجال واحداً في ألف، ولم أجد واحدة في النساء جميعاً.

قال الهيثم بن عدي: غزا ابن هبولة الغساني الحارث بن عمرو أكل المرار الكندي فلم يصبه في منزله، فأخذ ما وجد له وآستاق امرأته. فلما أصابها أعجبت به، فقالت له: انج، فوالله لكأني أنظر إليه يتبعك، فاغراً فاه كأنه بعير أكل مرار. وبلغ الحارث، فأقبل يتبعه حتى لحقه، فقتله وأخذ ما كان معه وأخذ امرأته، فقال له: هل أصابك؟ قالت: نعم والله ما اشتملت النساء على مثله قط. فأمر بها فأوثقت بين فرسين، ثم استحضرهما حتى تقطعت. ثم قال:

آية الود حبها خيتعور

كل أنثى وأن بدا لك منها

بعد هند لجاهل مغرور

إن من غره النساء بود

وقالت الحكماء: لا تتق بامرأة، ولا تغتر بمال وإن كثر. وقالوا: النساء حبال الشيطان. وقال الشاعر:

جزوعاً إذا باننت فسوف تبين

تمتع بها ما ساعفتك ولا تكن

وخنها وإن كانت تقي لك إنها

وإن هي أعطتك اللبان فإنها

وإن حلفت لا ينقض النأي عهدا

وإن أسلبت يوم الفراق دموعها

وقالت الحكماء: لم تنه امرأة قط عن شيء إلا فعلته. وقال طفيل الغنوي:

على مدد الأيام سوف تخون

لآخر من طلابها ستلين

فليس لمخضوب البنان يمين

فليس لعمر الله ذاك يقين

إن النساء متى ينهين عن خلق

فإنه واقع لا بد مفعول

وعن الهيثم بن عدي عن ابن عياش قال: أرسل عبد الله بن همام السلوي شاباً إلى امرأة ليخطبها عليه، فقالت له: فيما يمنعك أنت؟ فقال لها: ولي طمع فيك؟ قالت: ما عنك رغبة. فتزوجها ثم انصرف إلى ابن همام، فقال له: ما صنعت؟ فقال: والله ما تزوجتني إلا بعد شرط. فقال أو لهذا بعثتك؟ فقال ابن همام في ذلك:

رأت غلاماً علا شرب الطلاء به

يعيا بإر قاص بردي الخلاخيل

مبطناً بدخيس اللحم تحسبه

مما يصور في تلك التماثيل

أكفى من الكفاء في عقد النكاح وما

يعيا به حل هميان السراويل

تركتها والأيامي غير واحدة

فاحبسه عن بيها يا حابس الفيل

وعن الهيثم بن عدي عن ابن عياش قال: كان النساء يجلسن لخطاهن، فكانت امرأة من بني سلول تخطب، وكان عبد بن عاصم السلوي يخطبها، فإذا دخل عليها بقول له: فداك أبي وأمي، وتقبل عليه تحذته، وكان شاب من بني سلول يخطبها. فإذا دخل عليها الشاب وعندها عبد الله بن هند قالت للشاب: قم إلى النار، وأقبلت بوجهها وحديثها على عبد الله، ثم إن الشاب تزوجها، فلما بلغ ذلك عبد الله بن هند قال:

أودى بحب سليمي فاتك لئن

كحبة برزت من بين أحجار

إذا رأنتني تفديني وتجعله

في النار يا ليتني المجعل في النار

وله فيها:

ما تظن سليمي إن ألم بها

مرجل الرأس ذو بردين مزاح

حلو فكاوته خز عمامته

في كفه من رقي الشيطان مفتاح

السراري

تسرر الخليل إبراهيم عليه الصلاة والسلام هاجر، فولدت له إسماعيل عليه السلام. وتسرر النبي عليه الصلاة والسلام مارية القبطية، فولدت له إبراهيم. ولما صارت إليه صفية بنت حيي كان أزواجه يعبرنها باليهودية، فشكت ذلك إليه. فقال لها: أما إنك لو شئت لقلت فصدقت وصدقت: أبي إسحاق، وجدتي إبراهيم، وعمي إسماعيل، وأخي يوسف.

ودخل زيد بن علي على هشام بن عبد الملك، فقال له: بلغني أنك تحدث نفسك بالخلافة، ولا تصلح بها، لأنك بن أمة، فقال به: أما قولك إني أحدث نفسي بالخلافة فلا يعلم الغيب إلا الله، وأما قولك إني ابن أمة، فإسماعيل ابن أمة، أخرج الله من صلبه خير البشر محمداً صلى الله عليه وسلم، إسحاق

ابن حرة أخرج الله من صلبه القردة والخنزير.

قال الأصمعي: وكان أكثر أهل المدينة يكرهون الإماء، حتى نشأ منهم علي بن الحسين، والقاسم بن محمد، وسالم بن عبد الله، ففاقوا أهل المدينة فقهاً وعلماً وورعاً. فرغب الناس في السراري.

وتزوج علي بن الحسين جارية له وأعتقها، فبلغ ذلك عبد الملك، فكتب إليه يؤنبه. فكتب إليه علي: إن الله رفع بالإسلام الخسيسية، وأتم به النقيصة، وأكرم به من اللؤم، فلا عار على مسلم. وهذا رسول الله صلى الله عليه وسلم، قد تزوج أمته وامرأة عبده. فقال عبد الملك: إن علي بن الحسين يشرف من حيث يتضع الناس.

وقال الشاعر:

أم من الروم، أو سوداء عجماء

لا تشتمن امرأ من أن تكون له

مستودعات وللأحساب آباء

فإننا أمهات القوم أو عية

وقال بعضهم: عجبت لمن لبس القصير كيف يلبس الطويل؟ ولمن أحفى شعره كيف أعفاه؟ وعجباً لمن عرف الإماء، كيف يقدم على الحرائر؟ وقالوا: الأمة تشتري بالعين وترد بالعيب، والحرة غل في عنق من صارت إليه.

الهجناء

العرب تسمى العجمي إذا أسلم: المفرج، وهو المسلماني. ومنه يقال: مسالة السواد. والمهجين، عندهم؛ الذي أبوه عربي وأمه أعجمية. والمذرع: الذي أمه عربية وأبوه أعجمي. وقال الفرزدق:

له ولدأ منها فذاك المذرع

إذا باهلي أنجبت حظلية

والعجمي: النصراني ونحوه، وإن كان فصيحاً. والأعجمي: الأخرس اللسان، وإن كان مسلماً. ومنه قيل: زياد الأعجم، وكان في لسانه لكنتة. والفرس تسمى المهجين: واشن، والعبد: واش ونجاش. ومن تزوج أمة: نغاش، وهو الذي يكون العهد دونه، وسمي أيضاً: بوركان والعرب تسمى العبد الذي لا يخدم إلا ما دامت عليه عين مولاه: عبد العين. وكانت العرب في الجاهلية لا تورث المهجين.

وكانت الفرس تطرح المهجين ولا تعده، ولو وجدوا أماً أمةً على رأس ثلاثين أماً ما أفلح عندهم، ولا كان آزاد مرد، ولو كان بيده مزاد. والآزاد عندهم: الحر، والمرد: الرجحان.

وقال ابن الزبير لعبد الرحمن بن أم الحكم:

وفي أرضنا أنت الهمام القلمس

تبلغت لما أن أتيت بلادهم

أبوه حمار أدبر الظهر ينخس

ألست ببغل أمه عربية

وشبه المذرع بالبغل، إذا قيل له: من أبوك قال: أمي الفرس.

مما احتجت به الهجناء

أن النبي صلى الله عليه وسلم، زوج ضباعة بنت الزبير بن عبد المطلب من المقداد بن الأسود وزوج خالدة بنت أبي لهب من عثمان بن أبي العاص الثقفي. وبذلك احتج عبد الله بن جعفر، إذ زوج ابنته زينب من الحجاج بن يوسف. فعيه الوليد بن عبد الملك، فقال عبد الله بن جعفر: سيف أبيك وزوجه. والله ما فديت بما إلا حيط رقبتي.

وأخرى: أن النبي صلى الله عليه وسلم قد زوج ضباعة من المقداد، وخالدة من عثمان بن أبي العاص، ففيه قدوة وأسوة.
وزوج أبو سفيان ابنته أم الحكم بالطائف في ثقيف: وقال لهدم الكاتب في عبد الله بن الأهم، وسأله فحرمه:

لا شيء إلا أنهم لحم ودم

وما بنو الأهم إلا كالرخم

أهم سلاح على ظهر القدم

جاءت به حذلم ومن أرض العجم

مقابل في اللؤم من خال وعم وكانت بنو أمية لا تستخلف بني الإمام. وقالوا: لا تصلح لهم العرب.

زياد بن يحيى قال: حدثنا جبلة بن عبد الملك قال: سابق عبد الملك بين سليمان ومسلمة، فسبق سليمان مسلمة، فقال عبد الملك:

على خيلكم يوم الرهان فتدرك

ألم أنهمكم أن تحملوا هجناكم

وهذا ابن أخرى ظهرها متشرك

وما يستوي المرآن، هذا ابن حرة

وتقصر رجلاه فلا يتحرك

وتضعف عضده ويقصر سوطه

ألا إن عرق السوء لا بد يدرك

وأدركنه خالاته فنز عنه

ثم أقبل عبد الملك على مصقلة بن هبيرة الشيباني فقال: أتدري من يقول هذا؟ قال: لا أدري. قال: يقوله أخوك الشني. قال مسلمة: يا أمير المؤمنين. ما هكذا قال حاتم الطائي. قال عبد الملك: وماذا قال حاتم؟ فقال مسلمة: قال حاتم:

ولكن خطبناهم بأسيا فقسرا

وما أنكونا طائعين بناتهم

ولا كلفت خبزاً ولا طبخت قدرا

فما زادها فينا السباء مذلة

فجاءت بهم بيضاً وجوههم زهرا

ولكن خلطانها بخير نساننا

إذا لقي الأبطال يطعنهم شزرا

وكائن ترى فينا من ابن سبية

فيوردها بيضا ويصدرها حمرا

ويأخذ رايات الطعان بكفه

إذا سرى ليل الدجى قمراً بداراً

أغر إذا غبر اللئام رأيت

فقال عبد الملك كالمستحي:

بصاحبك الذي لا تصبحينا

وما شر الثلاثة أم عمرو

قال الأصمعي: كانت بنو أمية لا يتابع لبني أمهات الأولاد، فكان الناس يرون أن ذلك لاستهانة بهم، ولم يكن لذلك، ولكن لما كانوا يرون أن زوال ملكهم على يد ابن أم ولد، فلما ولي الناقص ظن الناس أنه الذي يذهب ملك بني أمية على يديه، وكانت أمه بنت يزيد جرد بن كسرى، فلم يلبث إلا سبعة أشهر حتى مات، ووثب مكانه مروان بن محمد، وأممه كردية، فكانت الرواية عليه. ولم يكن لعبد الملك بن مروان ابن أسد رأياً، ولا أذكى عقلاً، ولا أشجع قلباً، ولا أسمع نفساً، ولا أسخى كفاً من مسلمة، وإنما تركوه لهذا المعنى.

وكان يحيى بن أبي حفصة، أخو مروان بن أبي حفصة يهودياً، أسلم على يد عثمان بن عفان فكثر ماله، فتزوج خولة بنت مقاتل بن قيس بن عاصم ونقدها خمسين ألفاً. وفيه يقول القلاخ:

حلى نحور بناته كمر الموالي

رأيت مقاتل الطلبات

خريتم فوق أعظمه البوالي

فلا تفخر بقيس إن قيساً

لطالما كنت منك العار أنتظر
في فيك مما رجوت الترب والحجر
برذنتها وبها التحجيل والغرر

نبتت خولة قالت حين أنكحها
أنكحت عبيد ترجو فضل مالهما
لله در جواد أنت سائسها

فقال مقاتل يرد عليها:

عليك فلا تحفل مقالة لائم
به سنة قبلي، وحب الدراهم

وما تركت خمسون ألفاً لقائل
فإن قلتم زوجت مولى، فقد مضت

ويقال إن غيره قال ذلك.

باب في الأدياء

أول دعي كان في الإسلام واشتهر: زياد بن عبيد، دعي معاوية. وكان من قصته أنه وجهه بعض عمال عمر بن الخطاب رضي الله عنه على العراق إلى عمر بفتح كان. فلما قدم وأخبر عمر بالفتح في أحسن بيان وأفصح لسان، قال له عمر: أتقدر على مثل هذا الكلام في جماعة الناس على المنبر؟ قال: نعم، وعلى أحسن منه، وأنا لك أهيب. فأمر عمر بالصلاة جامعة، فاجتمع الناس. ثم قال لزياد: قم فاخطب، وقص على الناس ما فتح الله على إخوانهم المسلمين. ففعل وأحسن وجود. وعند أصل المنبر علي بن طالب، وأبو سفيان بن حرب. فقال أبو سفيان لعلي: أيعجبك ما سمعت من هذا الفتى؟ قال: نعم. قال: أما إنه ابن عمك! قال: فكيف ذلك؟ قال: أنا قذفته في رحم أمه سمية. قال: فما بمنعك أن تدعيه؟ قال: أخاف هذا الجالس على المنبر، يعني عمر، أن يفسد علي إهابي. فلما ولي معاوية استلحقه بهذا الحديث، وأقام له شهودا عليه. فلما شهد الشهود قام زياد على أعقابهم خطيباً، فحمد الله وأثنى عليه، ثم قال: هذا أمر لم أشهد أوله ولا علم لي بآخره، وقد قال أمير المؤمنين ما بلغكم، وشهد الشهود بما قد سمعتم، والحمد لله الذي رفع منا ما وضع الناس، وحفظ منا ما ضيعوا، فأما عبيد فإنما هو والد مروان، أو ربيب مشكور. ثم جلس.

فقال فيه عبد الرحمن بن حسان بن ثابت:

فقد ضاقت بما يأتي اليدان
وترضى أن يقال أبوك زان

ألا أبلغ معاوية بن حرب
أتعضب أن يقال أبوك عف

كقرب الفيل من ولد الأتان

وأشهد أن قربك من زياد

وقال زياد: ما هجيت بيت قط أشد علي من قول يزيد بن مفرغ الحميري:

هل نلت مكرمة إلا بتأمير
أن ابنها من قريش في الجماهير
لا يدفع الناس محتوم المقادير

فكرا ففي ذلك إن فكرت معتبر
عاشت سمية ما عاشت وما علمت
سبحان من ملك عباد بقدرته

وكان ولد سمية ثلاثاً: زياداً وأبا بكرة ونافعا. فكان زياد ينسب في قريش، وأبو بكرة في العرب، ونافع في الموالي. فقال فيهم يزيد بن مفرغ:

بكرة عندي من أعجب العجب

إن زياداً ونافعاً وأبا

إن رجالاً ثلاثةً خلقوا

ذا قرشي، فيما يقول، وذا

وقال بعض العراقيين في أبي مسهر الكاتب:

حمار في الكتابة يدعيها

فدع عنك الكتابة لست منها

وقال آخر في دعي:

لعين يورث الأبناء لعناً

من رحم أنثى محالفي النسب

مولى وهذا ابن عمه عربي

كدعوى آل حرب في زياد

ولو غرقت ثوبك بالمداد

ويلطخ كل ذي نسب صحيح

ولما طالت خصومة عبد الرحمن بن خالد بن الوليد ونصر بن حجاج عند معاوية في عبد الله بن حجاج، مولى خالد بن الوليد، أمر معاوية حاجبه أن يؤخر أمرهما حتى يحتفل بمجلسه. فجلس معاوية وقد تلفع بمطرف خز أخضر، وأمر بحجر فأدب منه، وألقى عليه طرف المطرف، ثم أذن لهما، وقد احتفل المجلس. فقال نصر بن حجاج: أخي وابن أبي، عهد إلي أنه منه. وقال عبد الرحمن: مولاي وابن عبد أبي وأمته، ولد على فراشه. قال معاوية: يا حرسي، خذ هذا الحجر - وكشف عنه - فادفعه إلى نصر بن حجاج. وقال: يا نصر، هذا مالك في حكم رسول الله صلى الله عليه وسلم. فإنه قال: الولد للفراش وللعاهر الحجر. فقال نصر: أفلا أجزيت هذا الحكم في زياد أمير المؤمنين؟ قال: ذاك حكم معاوية وهذا حكم رسول الله صلى الله عليه وسلم وليس في الأرض أحقى من الأديعاء، لتستحق بذلك العروبية. قال الشاعر:

دعي واحداً أجدى عليهم

ككلب السوء يحرس جانبيه

من ألفي عالم مثل ابن داب

وليس عدوه غير الكلاب

وقال الأصمعي: استمشى رجل من الأديعاء، فدخل عليه رجل من أصحابه فوجد عنده شيحاً وقيصوماً، فقال له: ما هذا؟ فقال، ورفع صوته: الطبيعة تتوق إليه. يريد أن طبيعته من طباع العرب. فقال فيه الشاعر:

يشم الشيح والقيصو

وليس ضميره في الصد

م كي يستوجب النسب

ر إلا التين والعنبا

وعن إسماعيل بن أحمد قال: رأيت على أبي سعيد الشاعر المخزومي كردوانياً مصبوغاً بتوريد، فقلت: أبا سعيد، هذا خز؟ قال: لا. ولكنه دعي على دعي. وكان أبو سعيد دعياً في بني مخزوم. وفيه قال الشاعر:

لم يته قط على النا

فته ما شئت إذ كن

وإذ حظك في النس

وإذ قاذفك المفتح

س شريف يا أبا سعيد

ت بلا أب ولا جد

بة بين الحر والعبد

ش في أمن من الحد

وعن أحمد بن عبد العزيز قال: نزلت في دار رجل من بني عبد القيس بالبحرين، فقال لي: بلغني أنك خاطب؟ قلت: نعم. قال: فأنا أزوجك. قلت له: إني مولى. قال: اسكت وأنا أفعل. فقال أبو بجزر فيهم:

أمن قلة صرتم إلى أن قبلتم

وأصهب رومي وأسود فاحم

دعلاوة زراع وآخر تاجر

وأبيض جعد من سراة الأحامر

شكولهم شتى وكل نسيبكم

متى قال إني منكم فمصدق

أكلهم وافى النساء جدوده

وكلكم قد كان في أولية

على علمكم أن سوف ينكح فيكم

فهلاً أبيتم عفةً وتكرما

تعييون أمراً ظاهراً في بناتكم

متى شاء منكم مفرج كان جده

وحصن بن بدر أو زرارة دارم

فقد صرت لا أدري وإن كنت ناسياً

وعلى رجال الترك من آل مذحج

وعلى رمال العجم من رمل عالج

زعتم بأن الهند أولاد خندق

وديلم من نسل ابن ضبة ناسل

بنو الأصفر الأملاك أكرم منكم

أطمع في صهري دعياً مجاهراً

ويشتم لؤماً عرضه وعشيرته

وقال زرارة بن ثروان، أحد بني عامر بن ربيعة بن عامر:

قد اختلط الأسافل بالأعالي

وصار العبد مثل أبي قبيس

وإنك لن يضيرك بعد حول

وقال عقيل بن علفة:

وكنا بني غليظ رجالاً فأصبحت

لحا الله دهرأ زعزع المال كله

لقد جئتم في الناس إحدى المناكر

وإن كان زنجياً غليظ المشافر

وكلهم أوفى بصدق المعاذر

له نسبة معروفة في العشائر

فجدعاً ورغماً للأنوف الصواغر

وهلاً وجلتم من مقالة شاعر

وفخركم قد جاز كل المفخر

عمارة عبس خير تلك العمائر

وزبان زبان الرئيس ابن جابر

لعل نجاراً من هلال بن عامر

وعلى تميماً عصبية من يحابر

وعلى البوادي بدلت بالحواضر

وبينكم قربي وبين البرابر

وبرجان من أولاد عمرو بن عامر

وأولى بقربانا ملوك الأكاسر

ولم نر شراً من دعي مجاهر

ويمدح جهلاً ظاهراً وابن طاهر

وماج الناس واختلط النجار

وسيق مع المعلهجة العشار

أطرف كان أمك أم حمار

بنو مالك غيظاً وصرنا لمالك

وسود أستاؤه الإماء الفوارك

وذكر جعفر بن سليمان بن علي يوماً ولده، وأهم ليسوا كما يجب. فقال له ولده أحمد بن جعفر. عمدت إلى فاسقات المدينة ومكة وإماء الحجاز فأوعيت فيهم نطفك، ثم تريد أن ينجن، ألا فعلت في ولدك ما فعل أبوك فيك حين اختار لك عقيلة قومها؟ ودخل الأشعث بن قيس على علي بن أبي

طالب، فوجد بين يديه صببية تدرج، فقال: من هذه يا أمير المؤمنين؟ قال: هذه زينب بنت أمير المؤمنين. قال: زوجنيها يا أمير المؤمنين. قال: اغرب، بفيك الكنكث، ولك الأثلب، أغرك ابن أبي قحافة حين زوحتك أم فروة؟ إنها لم تكن من الفواطم، ولا العواتك من سليم. فقال: قد زوجتكم أحمل مني حسبا، وأوضع مني نسباً: المقداد بن عمرو، وإن شئت فالمقداد بن الأسود. قال علي: ذلك رسول الله صلى الله عليه وسلم فعله، وهو أعلم بما فعل، ولئن عدت إلى مثلهما لأسوأئك. وفي هذا المعنى قال الكميت بن زيد:

حلائل أسودين وأحمرينا

مطهمة فيلفوا مبغلينا

وبالآباء سميننا البنينا

وما وجدت بنات بني نزار

وما حملوا الحمير على عتاق

بني الأعمام أنكحنا الأيامي

أراد تزويج أبرهة الحبشي في كندة.

عن العتيبي قال: أنشدني أبو إسحاق إبراهيم بن خداح لخالد النجار.

مولى وبعد غد حلف من العرب

يا هاشمي ويا مولى ويا عربي

في كل يوم له رحل على حسب

فلم ينيلوه عداهم إلى نسب

إلى النصرى وأحياناً إلى العرب

فقدم الدال قبل العين في النسب

اليوم من هاشم بخ وأنت غداً

إن صح هذا، فأنت الناس كلهم

قال: وكان الهيثم بن عدي، فيما زعموا دعياً. فقال فيه الشاعر:

الهيثم بن عدي من تنقله

إذا اجتدى معشراً من فضل نسبتهم

فما يزال له حلٌّ ومرتحل

إذا نسب عدياً في بني ثعل

وقال بشار العقيلي:

عربي من زجاج

رف إلا بالسراج

فإنه عربي من قوارير

حتى بدا عربياً مظلم النور

يدخل بعد العشاء في العرب

بين ستوقهم من الذهب

أعلم شيء بزائف الحساب

لست منها ولا قلاماً ظفر

إن عمراً فاعرفوه

مظلم النسبة لا يع

وقال فيه:

ارفق بنسبة عمرو حين تنسبه

ما زال في كير حداد يردده

وقال أيضاً في أدياء:

هم قعدوا فانتقوا لهم حسباً

حتى إذا ما الصباح لاح لهم

والناس قد أصبحوا صيارفةً

وقال أبو نواس في أشجع بن عمرو:

قل لمن يدعي سليماً سفاهاً

إنما أنت من سليم كواوٍ

وقال فيه:

أيا متحيراً فيه

لأسماء تعلمهن

ولأحمد بن أبي الحارث الخراز في حبيب الطائي:

لو أنك إذ جعلت أباك أوساً

وسميت التي ولدتك سعدى

وله فيه:

أنت عندي عربي

شعر فخذيك وساقِي

وضلوع الصدر من

وقذى عينيك صمغ

لو تحركت كذا لان

وظباء سانحات

وحمام يتغنى

أنا ما ذنبي إن ك

اللقفا يشهد إذ ما

كذبوا ما أنت إلا

وقال في المعلى الطائي:

معلى، لست من طي

وابنك فارم في أجاً

كأن دماملاً جمعت

ولآخر:

تعلمها وإخوته

لقد ربوا عجوزهم

فيا لك عصبية إن ح

ألحقت في الهجاء ظلماً بعمرو

لمن يتعجب العجب

أشجع حين ينتسب

جعلت الجد حارثة بن لام

فكنت مقابلاً بين الكرام

ليس في ذلك كلام

ك خزامى وثمان

جسمك نبع وبشام

ونواصيك ثغام

جفالت منك نعام

ويرابيع عظام

حبذا ذلك الحمام

ذنبني فيك الكرام

عرفت فيك الأنام

عربي والسلام

فإن قبلتك فارهنها

فلا ترغب به عنها

فصور وجهه منها

فكلهم بها درب

ولو زينتها غضبوا

دثوا عن أصلهم كذبوا

وفي وسط الملا نسب

وتخفى حين تنتقب

وعند كرائم العرب الشفاء

وفي الإسلام ما كره السباء

فليس لنا على ذاكم بقاء

فليس له على حالٍ وفاء

ونسبته إذا اتصل الدعاء

لهم في بيتهم نسب

كما لم تخف سافرة

وقال خلف بن خليفة الأقطع في الأدعياء:

فقل للأكرمين بني نزار

آخر مرتين سبيتمونا

إذا استحللتم هذا وهذا

فلا تأمن على حالٍ دعياً

وكيف يفى لأبعد من أبيه

الباه وما قيل فيه

ذكر عند مالك بن أنس الباه، فقال: هو نور وجهك، ومخ ساقك، فأقل منه أو أكثر.

وقال معاوية: ما رأيت نهما في النساء إلا عرفت ذلك في وجهه.

وقال الحجاج لابن شماس العكلي: ما عندك للنساء؟ قال: أطيل الظماء، وأرد فلا أشرب.

وقيل للمدائني: ما عندك يا أبا الجحاف؟ قال: بمتد ولا يشتد، ويرد ولا يشرب. وقيل لآخر: ما عندك لهن؟ قال: ما يقطع حجتها، ويشفي غلمتها.

وقال كسرى كنت أراي إذا كبرت أنهن لا يجيبني، فإذا أنا لا أحبهن. وأنشد الرياشي لأعرابي من بني أسد:

ومن ذا على الدهر يعطى المنى

فلا شيء عندي لها ممكنا

وأما القباح فأبى أنا

تمنيت لو عاد شرخ الشباب

وكنت مكيناً لدى الغانيات

فأما الحسان فيأبينني

ودخل عيسى بن موسى على جارية، فلم يقدر على شيء، فقال:

والنفس تهلك بين اليأس والطمع

النفس تطمع والأسباب عاجزة

وخلا ثمامة بن أشرس بجارية له، فعجز، فقال: ويحك، ما أوسع حرك؟ فقالت:

ويشتكي الضيق منه حين يلقاه

أنت الفداء لمن قد كان يملؤه

وقال آخر لجاريته:

حياة الكلام وموت النظر

ويعجبني منك عند الجماع

وقال آخر:

وسبح بالبطون على البطون

شفاء الحب تقبيل ولمس

وأخذ بالذوائب والقرون

ورهب تذرف العينان منه

وقالت امرأة كوفية: دخلت على عائشة بنت طلحة، فسألت عنها، فقيل هي مع زوجها في القيطون، فسمعت زفيراً ونخيراً لم يسمع قط مثله، ثم خرجت وجبينها يتفصد عرقاً، فقلت لها: ما ظننت أن حرة تفعل مثل هذا؟ فقالت: إن الخيل العتاق تشرب بالصفير. وقيل لأعرابي: ما عندك للنساء؟ فأشار إلى متاعه، وقال:

نظر المؤذن شكَّ يوم سحاب

وتراه بعد ثلاث عشرة قائماً

وقال الفرزدق:

تراودني على ما لا يجوز

أنا شيخٌ ولي امرأةٌ عجوز

فقلت لها بل اتسع القفيز

وقالت رق أيرك مذكبرنا

وقال الراجز:

ولا يداوي من صميم الحب

لا يعقب التقبيل إلا زبي

ينزع منه الأير نزع الضب

إلا احتضان الركب الأرب

روى زياد عن مالك عن محمد بن يحيى بن حبان أن جدته عاتبت جده في قلة إتيانه إياها، فقال لها: أنا وأنت على قضاء عمر بن الخطاب رضي الله عنه. قالت: وما قضاء عمر؟ قال: قضى أن الرجل إذا أتى امرأته عند كل طهر فقد أدى حقها. قالت: أفتترك الناس كلهم قضاء عمر، وأقمت أنا وأنت عليه. فقال:

تراودني على ما لا يجوز

أنا شيخٌ ولي امرأةٌ عجوز

وذلك عند أمثالي عزيز

تريدني أنيكها في كل يوم

فقلت لها: بل اتسع القفيز

وقالت رق أيرك مذكبرنا

وقال أعرابي حين كبر وعجز:

أدفعه بإصبعي ويرجع

عجبت من أيري وكيف يصنع

يقوم بعد النشر ثم يصرع

ودخلت عزة صاحبة كثير على أم البنين، زوج عبد الملك بن مروان، فقالت لها: أخبريني عن قول كثير:

وعزة ممطول معنى غريمها

قضى كل ذي دين فوقى غريمه

ما هذا الدين الذي طلبك به؟ قالت: وعدته بقبلة، فخرجت منها. قالت: وعدته بقبلة، فخرجت منها. قالت أنجزها وعلي إثمها.

علي بن عبد العزيز قال: كان أبو البيداء رجلاً عنيماً، وكان يتجلد ويقول لقومه: زوجوني امرأتين. فقالوا له: إن في واحدة كفاية. قال: أما لي فلا. فقالوا: نزوجك واحدة فإن كفتك وإلا نزوجك أخرى فزوجوه أعرابية فلما دخل بها أقام معها أسبوعاً، فلما كان في اليوم السابع أتوه فقالوا له: ما كان من أمرك في اليوم الأول؟ قال: عظيم جداً. فقالوا: ففي اليوم الثالث؟ قال: لا تسألوني. فاستجابت امرأته من وراء الستر فقالت:

حتى إذا أدخل في بيت أنق

كان أبو البيداء ينزو في الوهق

مارسه حتى إذا ارفض العرق

فيه غزالٌ حسن الدل خرق

انكسر المفتاح وانسد الغلق

أهديت جاريةً إلى حماد عجرد، وهو جالس مع أصحابه على لذة، فتركهم وقام بها إلى مجلس له فافتضحها، وكتب إليهم:

قد فتحت الحصن بعد امتناع

ظفرت كفي بتفريق جمع

وإذا شملي وشمل خليلي

آخر:

بسنان فاتح للقلاع

جاءنا تفريقه باجتماع

إنما يلتام بعد انصداع

لم يوافق طباع هذا طباعي

وتحريرت أن أنال رضاها

فتفكرت لم بليت بهذا

فأنا وهي دهرنا في صراع

فأبت غير جفوة وامتناع

فإذا أن ذا لضعف المتاع

وقع بين رجل وامرأته شر، فجعل يحيل عليها بالجماع، فقالت: فعل الله بك، كلما وقع بيننا شيء جئتني بشفيح لا أقدر على رده.

وأقبل رجل إلى علي بن أبي طالب رضي الله عنه، فقال: إن لي امرأة كلما غشيتها تقول: قتلتني قتلتني. قال: اقتلها وعلي ائمةا.

وقال هشام بن عبد الملك للأبرش الكلبي: زوجني امرأة من كلب. ففعل وصارت عنده. فقال له هشام، ودخل عليه: لقد وجدنا في نساء كلب سعة.

فقال له الأبرش: إن نساء كلب خلقن لرجال كلب.

وقالوا: من ناك لنفسه لم يضعف أبداً ولم ينقطع، ومن فعل ذلك لغيره فذاك الذي يصفي وينقطع. يعنون من فعل ذلك ليبلغ أقصى شهوة المرأة ويطلب

الذكر عندها. وقال الشاعر:

من ناك للذكر أصفى قبل مدته

لا يقطع النيك إلا كل منهوم

وقالوا: من قل جماعه فهو أصح بدنًا وأطول عمراً، ويعتبرون ذلك بذكور الحيوان. وذلك أنه ليس في الحيوان أطول عمراً من البغل، ولا أقصر عمراً

من العصافير، وهي أكثر سفاداً. والله أعلم.

كتاب الجمانة الثانية في المتنبيين والممرورين والبخلاء والطفيليين

قال الفقيه أبو عمر أحمد بن محمد بن عبد ربه: قد مضى قولنا في النساء والأدعياء، وما قيل في ذلك من الشعر، ونحن قائلون بعون الله وتوفيقه في كتابنا هذا ذكر المتنبيين والممرورين والبخلاء والطفيليين، فإن أخبارهم حدائق موقنة، ورياض زاهرة، لما فيها من كل طرفة ونادرة، فكأنها أنوار مزخرقة، أو حلال منشرة، دائية القطوف من جاني ثمرتها، قريبة المسافة لمن طلبها. فإذا تأملها الناظر، وأصغى إليها السامع وجدها ملهى للسمع، ومرتعاً للنظر، وسكناً للروح، ولقاحاً للعقل، وسميراً في الوحدة، وأنيساً في الوحشة، وصاحباً في السفر، وأنيساً في الحضر.

قال أبو الطيب اليزيدي: أخذ رجل ادعى النبوة أيام المهدي فأدخل عليه، فقال له: أنت نبي؟ قال: نعم. قال: وإلى من بعثت؟ قال: أو تركموني أذهب إلى أحد؟ ساعة بعثت وضعتوني في الحبس. فضحك منه المهدي، وخلق سبيله.

أدعى رجل النبوة بالبصرة. فأتي به سليمان بن علي مقيداً، فقال له: أنت نبي مرسل؟ قال: أما الساعة، فإنني نبي مقيد. قال: ويحك، من بعثك؟ قال: أهدأ يخاطب الأنبياء يا ضعيف؟ والله لولا أنني مقيد لأمرت جبريل يدممها عليكم. قال: فالمقيد لا تجاب له دعوة؟ قال: نعم، الأنبياء خاصة، إذا قيدت لم يرتفع دعاؤها. فضحك سليمان: فقال له: أنا أطلقك، وأمر جبريل فإن أطاعك آمنأ بك وصدقناك. قال: صدق الله "فلا يؤمنوا حتى يروا العذاب الأليم". فضحك سليمان وسأل عنه، فشهد عنده أنه ممرور، فخلق سبيله.

قال ثمامة بن أشرس: شهدت المأمون أتي برجل ادعى النبوة، وأنه إبراهيم الخليل. فقال المأمون: ما سمعت أجراً على الله من هذا. قلت: أكلمه؟ قال: شأنك به. فقلت له: يا هذا، إن إبراهيم كانت له براهين. قال: وما براهينه؟ قلت: أضرمت له نار وألقي فيها فصارت برداً وسلاماً، فنحن نضرم لك ناراً ونطرحك فيها، فإن كانت عليك برداً كما كانت على إبراهيم آمنأ بك وصدقناك. قال: هات ما هو ألين علي من هذا. قال: براهين موسى.

قال: وما كانت براهين موسى؟ قال: عصاه التي ألقاها، فصارت حية تسعى، تلقف ما يأفكون، وضرب بها البحر فانفلق، وبياض يده من غير سوء.

قال: هذا أصعب. هات ما هو ألين من هذا. قلت: براهين عيسى. قال: وما براهين عيسى؟ قلت: كان يحيي الموتى، ويمشي على الماء، ويرى الأكمة والأبرص. فقال: في براهين عيسى جئت بالطامة الكبرى. قلت: لا بد من برهان. فقال ما معي شيء من هذا، قد قلت لجبريل: إنكم توجهوني إلى شياطين، فاعطوني حجة أذهب بها إليهم، وأحتج عليهم. فغضب وقال: بدأت أنت بالشر قبل كل شيء، أذهب الآن فانظر ما يقول لك القوم، وقال: هذا من الأنبياء لا يصلح إلا للحمر. فقلت: يا أمير المؤمنين، هذا هاج به مرار وأعلام ذلك فيه. قال: صدقت، دعه.

أدعى رجل النبوة في أيام المهدي، فأدخل عليه فقال له: أنت نبي؟ قال: نعم. قال: ومتى نبئت؟ قال: وما تصنع بالتاريخ؟ قال: ففي أي الموضع جاءتك النبوة؟ قال: وقعنا والله في شغل، ليس هذا من مسائل الأنبياء، إن كان رأيك أن تصدقني في كل ما قلت لك فاعمل بقولي. وإن كنت عزمت على تكذيب فدعني أذهب عنك. فقال المهدي: هذا ما لا يجوز. إذ كان فيه فساد الدين. قال: واعجباً لك، تغضب لدينك لفساده، ولا أغضب أنا لفساد نبوتي، أنت والله ما قويت علي إلا بمعن بن زائدة والحسن بن قحطبة وما أشبههما من قوادك. وعلى يمين المهدي شريك القاضي، قال: ما تقول في هذا النبي يا شريك؟ قال: شاورت هذا في أمري وتركت أن تشاورني. قال: هات ما عندك؟ قال: أحاكمك فيما جاء به من قبلي من الرسل. قال: رضيت. قال: أكافر أنا عندك أم مؤمن؟ قال: كافر. قال: فإن الله يقول: "ولا تطع الكافرين والمنافقين ودع أذاهم" فلا تطعني ولا تؤذني، ودعني أذهب إلى الضعفاء والمساكين فإنهم أتباع الأنبياء، وأدع الملوك والجبابرة فإنهم حطب جهنم. فضحك المهدي وخلق سبيله.

قال خلف بن خليفة: أدعى رجل النبوة في زمن خالد بن عبد الله القسري، وعارض القرآن. فأنتى به خالد، فقال له: ما تقول؟ قال: عارضت في القرآن ما يقول الله تعالى: "إننا أعطيناك الكوثر. فصل لربك وانحر. إن شأنك هو الأبر" فقلت أنا ما هو أحسن من هذا: إننا أعطيناك الجماهر، فصل لربك وجاهر، ولا تطع كل ساحر وكافر. فأمر به خالد فضربت عنقه وصلب على خشبة. فمر به خلف بن خليفة الشاعر، وقال: إننا أعطيناك

العمود، فصل لربك على عود، وأنا ضامن عنك ألا تعود.

قال: وإني لقاعد في مجلس عبد الله بن خازم وهو على الجسر ببغداد، فإذا جماعة قد أحاطت برجل ادعى النبوة، فقدم إلى عبد الله فقال له: أنت نبي؟ قال: نعم. قال: وإلى من بعثت؟ قال: وما عليك؟ بعثت إلى الشيطان فضحك عبد الله بن خازم وقال: دعوه يذهب إلى الشيطان الرحيم. وقال ثمامة بن أشرس: كنت في الحبس فأدخل علينا رجل ذو هيئة وبزة ومنظر، فقلت له: من أنت؟ جعلت فداك، وما ذنبك؟ وفي يدي كأس دعوت بها لأشربها. قال: جاء بي هؤلاء السفهاء لأني جئت بالحق من عند ربي، أنا نبي مرسل. قلت: جعلت فداك، معك دليل؟ قال: نعم، معي أكبر الأدلة، ادفعوا إلي امرأة أحبها لكم، فتأتي بمولود يشهد بصدقني. قال ثمامة: فناولته الكأس وقلت له: اشرب صلى الله عليك. محمد بن عتاب قال: رأيت بالرقعة أيام الرشيد جماعة أحاطت برجل فأشرفت عليه، فإذا رجل له جهارة وبنية، قلت: ما قصة هذا؟ قالوا: ادعى النبوة. قلت: كذبتم عليه. مثل هذا لا يدعي الباطل. فرفع رأسه إلي فقال: وما علمك أنهم قالوا علي الباطل؟ قلت له: وأنت نبي؟ قال: نعم. قلت له: ما دليلك؟ قال: دليلي أنك ولد زنا. قلت: نبي يقذف المحصنات؟ قال: بهذا بعثت. قلت: أنا كافر بما بعثت به. قال: ومن كفر فعليه كفره. فإذا حصاة عائرة جاءت حتى صكت صلعته، قال: ما رماها إلا ابن الزانية؛ ثم رفع رأسه إلى السماء، فقال: ما أردتم بي خيراً حيث طرحتموني في أيدي هؤلاء الجهال.

ادعى رجل النبوة في أيام المأمون، فقال ليحيى بن أكثم: امض بنا مستترين حتى ننظر إلى هذا المتنبئ وإلى دعواه. فركبنا متنكرين، ومعنا خادم حتى صرنا إليه، وكان مستتراً بمذهبه. فخرج آذنه وقال: من أنتم؟ قلنا: رجلان يريدان أن يسلمنا على يديه. فأذن لهما ودخلا. فجلس المأمون عن يمينه ويحيى عن يساره. فالتفت إليه المأمون فقال له: إلى من بعثت؟ قال: إلى الناس كافة. قال: فيوحى إليك، أم ترى في المنام، أم ينفت في قلبك، أم تناجي، أم تكلم؟ قال: بل أناحي وأكلمك. قال: ومن يأتيك بذلك؟ قال: جبريل. قال: متى كان عندك؟ قال: قبل أن تأتي بساعة. قال: فما أوحى إليك؟ قال: أوحى إلي أنه سيدخل علي رجلان فيجلس أحدهما على يميني والآخر عن يساري، فالذي عن يساري ألوط خلق الله. قال المأمون: أشهد أن لا إله إلا الله. وأنت رسول الله، وخرجا يتضحكان.

تنبأ رجل بالكوفة وأحل الخمر ولقي ابن عياش، وكان مغرمًا بالشراب، فقال له: أشعرت أنه بعث نبي يحل الخمر؟ قال: إذا لا يقبل منه حتى يبرئ الأكمة والأبرص. وأني به عامل الكوفة فاستتابه. فأبى أن يتوب ويرجع. فأنته أمه تبكي، فقال لها: تنحي، ربط الله على قلبك كما ربط على قلب أم موسى. وأتاه أبوه يطلب إليه أن يرجع. فقال له: تنح يا أزر، فأمر به العامل فقتل وصلب.

وذكر بعض الكوفيين قال: بينا أنا جالس بالكوفة في منزلي إذ جاءني صديق لي، فقال لي: إنه ظهر بالكوفة رجل يدعي النبوة، فقم بنا إليه نكلمه، ونعرف ما عنده. فقمتم معه: فصرنا إلى باب داره، فقرعنا الباب، وسألنا الدخول عليه. فأخذ علينا العهود والمواثيق إذا دخلنا عليه وكلمناه وسألناه إن كان على حق اتبعناه، وإن كان على غير ذلك كتمنا عليه، ولم نؤده. فدخلنا فإذا شيخ خراساني أحبب من رأيت على وجه الأرض، وإذا هو أصلع، فقال صاحبي وكان أعور: دعني حتى أسأله. قلت: دونك. قال: جعلت فداك، ما أنت؟ قال: نبي. قلت: ما دليلك؟ قال: أنت أعور عينك اليمنى، فاقلع عينك اليسرى حتى تصير أعمى، ثم ادعوا الله فيرد عليك بصرك، فقلت لصاحبي: أنصفك الرجل، قال: فاقلع أنت عينيك جميعاً، وخرجنا نضحك.

وأتى المأمون بإنسان متنبئ فقال له: ألك علامة؟ قال: نعم، علامتي أني أعلم ما في نفسك. قال: قربت علي ما في نفسي؟ قال له: في نفسك أني كذاب. قال: صدقت، وأمر به إلى الحبس. فأقام به أياماً، ثم أخرجه. فقال: أوحى إليك بشيء؟ قال: لا. قال: ولم؟ قال: لأن الملائكة لا تدخل الحبس. فضحك المأمون وأطلقه.

وتنبأ إنسان وسمى نفسه نوحاً صاحب الفلك، وذكر أنه سيكون طوفان على يديه إلا من اتبعه، ومعه صاحب له قد آمن به وصدقه، فأتى به الوالي، فاستتابه فلم يتب، فأمر به فصلب، واستتاب صاحبه فتاب. فناداه من الخشبة: يا فلان. أتسلمني الآن في مثل هذه الحالة؟ فقال: يا نوح، قد علمت أنه لا يصحبك من السفينة إلا الصاري.

قال: وحمل إلى المأمون من أذربيجان رجل قد تنبأ، فقال: يا ثمامة ناظره. فقال: ما أكثر الأنبياء في دولتك يا أمير المؤمنين. ثم التفت إلى المتنبي، فقال له: ما شاهدك على النبوة؟ قال: تحضر لي ثمامة امرأتك أنكحها بين يديك فتلد غلاماً ينطق في المهدي ويحرك أي نبي فقال ثمامة: أشهد أن لا إله إلا الله وأنت رسول الله. فقال المأمون: ما أسرع ما آمنت به؟ قال: وأنت يا أمير المؤمنين ما أهون عليك أن تتناول امرأتي على فراشك فضحك المأمون وأطلقه.

أخبار الممرورين والمجانين

قال أبو الحسن: كان بالبصرة ممرور يقال له عليان بن أبي مالك، وكانت العلماء تستنطقه لتسمع جوابه وكلامه، وكان راويةً للشعر بصيراً بجيده، فذكر عن عبد الله بن إدريس صاحب الحديث قال: أخرجه الصبيان مرة حتى هجم علينا في الدار، فقال لي الخادم: هذا عليان قد هجم علينا، والصبيان في طلبه. فقلت: ادفع الباب في وجه الصبيان، وأخرج إليه طعاماً وطبقاً عليه رطب مشان وملبقات وأرغفة. فلما وضعه بين يديه حمد الله وأثنى عليه، وقال: هذا من رحمة الله، وأشار إلى الطعام، كما أن أولئك من عذاب الله، وأشار إلى الصبيان. ثم جعل يأكل والصبيان يرجون الباب، وهو يقول: "فضرب بينهم بسور له باب باطنه فيه الرحمة وظاهره من قبله العذاب". قال ابن إدريس: فلما انقضى طعامه قلت له: يا عليان، ما لك تروي الشعر ولا تقوله؟ قال: إني كالمسن أشحذ ولا أقطع. وكان بصيراً بالشعر. فقلت: أي بيت تقوله العرب أشعر؟ قال: البيت الذي لا يحجب عن القلب. قلت: مثل ماذا؟ قال: مثل قول جميل:

أسائلكم هل يقتل الرجل الحب

ألا أيها النوم ويحكم هبو

قال: فأنشد النصف الأول بصوت ضعيف وأنشد النصف الآخر بصوت رفيع. ثم قال: ألا ترى النصف الأول كيف استأذن على القلب فلم يأذن له، والنصف الثاني استأذن على القلب فأذن له؟ قلت: وماذا؟ قال: مثل قول الشاعر:

كما ندم المغبون حين يبيع

ندمت على ما كان مني فقدتني

ثم قال أتستطيب قوله "فقدتني" بالله يا بن إدريس؟ قلت: بلى. فضرب بيده على فخذي وقال: قم، شيب الله قرنك. وابن إدريس يومئذ ابن ثمانين سنة.

وحكى عنه عبد الله بن إدريس قال: مررت به في مربعة كندة وهو جالس على رماد ويده قطعة من حص، وهو يخط بها في الرماد، فقلت له: ما تصنع هاهنا يا بن أبي مالك؟ قال: ما كان يصنع صاحبنا. قلت: ومن صاحبك؟ قال: مجنون بني عامر. قلت: وما كان يصنع؟ قال: أما سمعته يقول:

بلقط الحصى والخط في الدار مولع

عشية ما لي حيلة غير أنني

قلت: ما سمعته. فرفع رأسه إلي متضحكاً، فقال: أما يقول الله عز وجل "ألم تر إلى ربك كيف مد الظل ولو شاء لجعله ساكناً" فأنت سمعته أو رأيته؟ هذا كلام من كلام العرب لا علم لك به. قلت: يا بن أبي مالك، متى تقوم القيامة؟ قال: ما المسؤول عنها بأعلم سائل، غير أنه من مات فقد قامت قيامته. قلت له: فالصلوب يعذب عذاب القبر؟ قال: إن حقت عليه كلمة العذاب يعذب، وما يدريك لعل جسده في عذاب من عذاب الله لا تدركه أبصارنا ولا أسمعنا، فإن الله لطفاً لا يدرك. قلت: ما تقول في النبيذ، حلال أم حرام؟ قال: حلال. قلت: أتشربه؟ قال: إن شربته فقد شربه وكيع، وهو قدوة، قلت: أتقتري بوكيع في تحليله ولا تقتدي بي في تحريمه، وأنا أسن منه؟ قال: إن قول وكيع ما اتفاق أهل البلد عليه أحب إلي من قولك مع اختلاف أهل البلدة عليك. قلت: فما تقول في الغناء؟ قال: قد غنى البراء بن عازب، وعبد الله بن رواحة، وسمع الغناء عبد الله بن عمر، وكان عبد الله بن جعفر. قلت له: أيش كان عبد الله بن جعفر؟ إنما سألتني عن الغناء ولم تسألني عن ضرب العيدان.

وكان بلبصرة مجنون يأوي إلى دكان خياط، وفي يده قصبه قد جعل في رأسها أكرة ولف عليها خرقة، لئلا يؤذي بها الناس، فكان إذا أحرده الصبيان التفت إلى الخياط وقال له: قد حمي الوطيس، وطاب اللقاء، فما ترى؟ فيقول: شأنك بهم، فيشده عليهم، ويقول:

أشد على الكتيبة لا أبالي

إذا أدرك منهم صبياً رمى بنفسه إلى الأرض وأبدى له عورته، فيتركه وينصرف ويقول: عورة المؤمن حمى، ولولا ذلك لتلفت نفس عمرو بن العاص يوم صفين. ثم يقول وينادي:

أحتقي كان فيها أم سواها؟

خشاش كراس الحية المتوقد

أنا الرجل الضرب الذي تعرفونني

ثم يرجع إلى دكان الخياط، ويلقي العصا من يده ويقول:

كما قر عيناً بالإياب المسافر

فألقت عصاها واستقر بها النوى

وكان بالبصرة رجل من التجار يكنى أبا سعيد، وكانت له جارية تدعى خيزران، وكان بها كلفا، فمر يوماً بعليان، وقد أحاط به الناس، فقالوا له: هذا أبو سعيد صاحب خيزران، فناداه: أبا سعيد. قال: نعم. قال: أتحب خيزران؟ قال: نعم قال: وتحبك؟ قال: نعم. فأنشأ يقول:

ما يعشق الحش إلا كل كناس

نبئتها عشقت حشاً فقلت لهم

فضحك الناس من أبي سعيد ومضى.

ومر ابن أبي الزرقاء صاحب شرطة ابن أبي هبيرة بصباح الموسوس فقال له: يا بن أبي الزرقاء، أسمنت بردونك وأهزلت دينك، أما والله إن أمامك عقبة لا يجاوزها إلا المخف. فوقف ابن أبي الزرقاء. فقيل له: هو صباح الموسوس، قال: ما هذا بموسوس.

وقال إبراهيم الشيباني: مررت بهلول الجنون وهو يأكل خبيصا، فقلت: أطعمني. قال: ليس هو لي، إنما هو لعاتكة بنت الخليفة بعثته إلي لأكله لها. وكان بهلول هذا يتشيع. فقيل له: اشتم فاطمة وأعطيك درهما. فقال: بل أشتم عائشة وأعطني نصف درهم.

وقال ابن عبد الملك: يعرف حمق الرجل في أربع: لحيته، وشناعة كنيته، وإفراط شهوته، ونقش خاتمه. فدخل عليه شيخ طويل العنثون فقال: أما هذا فقد أتاكم بواحدة، فانظروا أين هو من الثلاث. فقيل له: ما كنيته؟ قال: أبو الياقوت. قيل: فنقش خاتمك؟ قال: "وتفقد الطير فقال مالي لا أرى المدهد". قيل: أي الطعام تشتتهي؟ قال: حلنجبين.

وسمع عمر بن عبد العزيز رجلاً ينادي: يا أبا العمرين، فقال: لو كان عاقلاً لكفاه أحدهما.

وقيل لداود المصاب في مصيبة نزلت به: لا تنتهم الله في قضائه. قال: أقول لك شيئاً على الأمانة؟ قال: قل. قال: والله ما بي غيره.

ودخل أبو عتاب على عمرو بن هداك وقد كف بصره والناس يعزونه فقال له: أبا زيد، لا يسوءك فقد هما فإنك لو دريت بثواهما تمنيت أن الله قطع يديك ورجليك ودق عنقك. ودخل على قوم يعود مريضاً لهم فبدأ يعزيهم. قالوا: إنه لم يمت. فخرج وهو يقول: يموت إن شاء الله، يموت إن شاء الله.

ووقع بين أبي عتاب وبين ابنه كلام، قال: لولا أنك أبي وأنتك أسن مني لعرفت.

أبو حاتم عن الأصمعي عن نافع قال: كان الغاضري من أحمق الناس، فقيل له: ما رأيت من حمقه؟ فسكت. فلما أكثر عليه قال: قال لي مرة: البحر من حفره؟ وأين تراه الذي خرج منه؟ وهل يقدر الأمير أن يحفر مثله في ثلاثة أيام؟

ودخل رجل من النوكى على الشعبي وهو جالس مع امرأته، فقال: أيكما الشعبي؟ فقال: هذه. فقال: ما تقول أصلحك الله في رجل شتمني أول يوم من رمضان، هل يؤجر؟ قال: إن كان قال لك: يا أحمق، فإني أرجو له.

وسأل رجل آخر الشعبي فقال: ما تقول في رجل أدخل أصبعه في الصلاة في أنفه فخرج عليها دم، أترى له أن يحتجم؟ قال الشعبي: الحمد لله الذي نقلنا من الفقه إلى الحجامة.

وقال له آخر: كيف كانت تسمى امرأة إبليس؟ قال: ذاك نكاح ما شهدناه.

العتبي قال: سمعت أبا عبد الرحمن بشراً يقول: كان في زمن المهدي رجل صوفي، وكان عاقلاً عالماً ورعاً، فتحقق ليجد السبيل إلى الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر، وكان يركب قصبه في كل جمعة يومين: الإثنين والخميس، فإذا ركب في هذين اليومين فليس لمعلم على صبيانه حكم ولا طاعة.

فيخرج ويخرج معه الرجال والنساء والصبيان، فيصعد تلاً وينادي بأعلى صوته: ما فعل النبيون والمرسلون، أليسوا في أعلى عليين؟ فيقولون: نعم. قال: هاتوا أبا بكر الصديق. فأخذ غلام فأجلس بين يديه، فيقول: جزاك الله خيراً أبا بكر عن الرعية. فقد عدلت وقيمت بالقسط وخلفت محمداً عليه الصلاة والسلام فأحسنن الخلافة، ووصلت حبل الدين بعد حل وتنازع، ونزعت فيه إلى أوثق عروة وأحسن ثقة، اذهبوا به إلى أعلى عليين. ثم ينادي: هاتوا عمر. فأجلس بين يديه غلام. فقال: جزاك الله خيراً أبا حفص عن الإسلام، قد فتحت الفتوح، ووسعت الفتي، وسلكت سبيل الصالحين، وعدلت في الرعية وقسمت بالسوية، اذهبوا به إلى أعلى عليين بجذاء أبي بكر. ثم يقول: هاتوا عثمان. فأني بغلام فأجلس بين يديه. فيقول له: خلطت في تلك الست السنين، ولكن الله تعالى يقول: "خلطوا عملاً صالحاً وآخر سيئاً عسى الله أن يتوب عليهم". وعسى من الله موجبة. ثم يقول: اذهبوا به إلى صاحبيه في أعلى عليين. ثم يقول: هاتوا علي بن أبي طالب. فأجلس غلام بين يديه. فيقول: جزاك الله عن الأمة خيراً أبا الحسن، فأنت الوصي وولي النبي، بسطت العدل، وزهدت في الدنيا، واعتزلت الفتي، فلم تخمش فيه بناب ولا ظفر وأنت أبو الذرية المباركة، وزوج الزكية الطاهرة، اذهبوا به إلى أعلى عليين من الفردوس، ثم يقول: هاتوا معاوية. فأجلس بين يديه صبي. فقال له: أنت القاتل عمار بن ياسر، وخزيمة بن ثابت ذا الشهادتين، وحجر بن الأديب الكندي الذي أحلقت وجهه العبادة، وأنت الذي جعل الخلافة ملكاً، واستأثر بالفتي، وحكم بالهوى، واستنصر بالظلمة، وأنت أول من غير سنة رسول الله صلى الله عليه وسلم، ونقض أحكامه، وقام بالبغي. اذهبوا به فأوقفوه مع الظلمة، ثم قال: هاتوا يزيد. فأجلس بين يديه غلام. فقال له: يا قواد، أنت الذي قتلت أهل الحرة، وأبجث المدينة ثلاثة أيام، وانتهكت حرم رسول الله صلى الله عليه وسلم، وآويت للملحدين، وبؤت باللعنة على لسان رسول الله صلى الله عليه وسلم، وتمثلت بشعر الجاهلية:

جزع الخزرج من وقع الأسل

ليت أشياخي ببدر شهدوا

وقتل حسيناً، وحملت بنات رسول الله صلى الله عليه وسلم سبايا على حقائق الإبل، اذهبوا به إلى الدرك الأسفل من النار. ولا يزال يذكر والياً بعد وال حتى بلغ إلى عمر بن عبد العزيز فقال: هاتوا عمر. فأني بغلام، فأجلس بين يديه، فقال: جزاك الله يا عمر خيراً عن الإسلام، فقد أحييت العدل بعد موته، وأنت القلوب القاسية، وقام بك عمود الدين على ساق، بعد شقاق ونفاق. اذهبوا به فألحقوه بالصدقيين. ثم ذكر من كان بعده من الخلفاء إلى أن بلغ دولة بني العباس، فسكت فقيل له: هذا أبو العباس أمير المؤمنين. قال: بلغ أمرنا إلى بني هاشم، ارفعوا حساب هؤلاء جملة واقذفوا بهم في النار جميعاً.

ومن مجانين الكوفة: عيناوة وطاق البصل. قيل لعيناوة: من أحسن، أنت أو طاق البصل؟ قال: أنا شيء وطاق البصل شيء. وكان طاق البصل يغني بقرائط ويسكت بدائق. وكان عيناوة جيد القفا، فرما مر به من يعبث فيصفعه، فحشا ففاه خراء، وقعد على قارعة. فإذا صفعه أحد قال: شم يدك يا فتى، فلم يصفعه أحد بعد ذلك.

ووعد رجل رجلاً من الحمقى أن يهدي له نعلًا حضرمية، فطال عليه انتظارها، فبال في قارورة وأتى الطبيب وقال: انظر في هذا الماء إن كان يهدي إلي بعض إخواني نعلًا حضرمية.

وكان بالكوفة امرأة حمقاء يقال لها مجيبة، فققد عيناوة فتى كانت أرضعته مجيبة، فقال له لما وجدته: كيف لا تكون أرعن ومجيبة أرضعتك؟ فوالله لقد زقت لي فرحاً فما زلت أرى الرعونة في طيرانه.

ومن المجانين هبنقة القيسي، وجرنفش السدوسي، واسم هبنقة يزيد بن ثروان، وكنيته أبو نافع، وكان يحسن من إبله إلى السمان ويسيء إلى المهازيل. فسئل عن ذلك فقال: أما أكرم ما أكرم الله وأهين ما أهان الله! وشرذ بعير له فجعل بعيرين لمن دل عليه، فقيل له: أتجعل بعيرين في بعير؟ قال: إنكم لا تعرفون فرحة من وجد ضالته.

وافترس الذئب له شاة، فقال لرجل: خلصها من الذئب وخذها، فإن فعلت فأنت والذئب واحد. وسام رجل هبنقة بشاة، فقال: اشتريتها بستة، وهي خير من سبعة، وأعطيت فيها ثمانية وإن أردتها بتسعة وإلا فزن عشرة. وكان باقل الذي يضرب به المثل في العي اشتري شاة بأحد عشر درهماً، فسئل: بكم اشتريت الشاة؟ ففتح يديه جميعاً وأشار بأصابعه وأخرج لسانه،

ليتم العدد أحد عشر.

ولما قرب الفرزدق رأس بخلته من الماء قال له الجرنفش: نح رأس بخلتك حلق الله شأفتك. قال: لماذا عافاك الله؟ قال له: لأنك كذوب الحجر، زاني الكمرة فصاح الفرزدق. يا بني سدوس، فاجتمعوا إليه. فقال: سودوا الجرنفش عليكم، فما رأيت فيكم أعقل منه.

قال الأصمعي: سوبق بين الجرنفش وهنبة أيهما أجن وأحمق. فجاء جرنفش بحجارة خفاف من حص، وجاء هنبة بحجارة ثقلا وترس، فبدأ الجرنفش، فقبض على حجر، ثم قال: دري عقاب، بلبن وأشخاب. ثم رفع صوته وقال: الترس فرمى الترس فأصابه، فانهزم هنبة، فقيل له: لم انهزمت؟ فقال إنه قال: الترس. فرمى الترس فلم يخطئه، فلو أنه قال العين ورمائها، أما كان يصيب عيني.

وتبع داود بن المعتمة امرأة ظنها من الفوائد، فقال لها: لولا ما رأيت عليك من سيما الخير ما تبعتك، فضحكت المرأة وقالت: إنما يعتصم مثلي من مثلك بسيما الخير، فأما إذ صارت سيما الخير من سيما الشر فالله المستعان.

ووقع داود هذا بجارية فلما أمعن في الفعل قال لها: أثيب أم بكر؟ فقالت له: سل المحرب.

قالت أم غزوان الرقاشي لابنها، وهو يقرأ في المصحف: يا غزوان، لعلك تجد في هذا المصحف حمراً كان أبوك في الجاهلية فقده. فقال: يا أماه. بل أجد فيه وعداً حسناً ووعيداً شديداً.

ونظر رجل من النوكي إلى شيخ في الحمام وعليه سرّة كأنها مدهن عاج. فقال له: يا شيخ، دعني أجعل ذكري في سرتك. فقال له: يا بن أخي، وأين يكون آستك حينئذ؟

مجاني القصاص

قال أبو دحية القاص: ليس في خير ولا فيكم. فتبلغوا بي حتى تجدوا خيراً مني.

وقال في قصصه يوماً: كان اسم الذئب الذي أكل يوسف هملاج. قالوا: إن يوسف لم يأكله الذئب. قال: فهذا اسم الذئب الذي لم يأكل يوسف.

وقال ثمامة بن أشرس: سمعت قاصاً ببغداد يقول: اللهم ارزقني الشهادة أنا وجميع المسلمين. ووقع الذباب على وجهه فقال: ما لكم كثر الله بكم القبور.

قال: ورأيت قاصاً يحدث الناس بقتل حمزة فقال: ولما بقرت هند عن كبد حمزة استخرجتها فعضتها ولاكتها ولم تزدردها. فقال النبي صلى الله عليه وسلم: لو ازدردتها ما مسها النار. ثم رفع القاص يديه إلى السماء وقال: اللهم أطمعنا من كبد حمزة.

باب نوكي الأشراف

من النوكي المتقدمين: مالك بن زيد مناة بن تميم، دخل على امرأته ناجية مغضباً، فلما رأت ما به من الجهل والجفاء قالت له: ضع شملتك. قال: جسدي أحفظ لها. قالت: احلع نعليك. قال: رجلاي أحق بهما. فلما رأت ذلك قامت وجلست إليه. فلما شم رائحة الطيب وثب عليها.

ومن النوكي عجل بن لجيم. قال أبو عبيدة: أرسل ابن لعجل بن لجيم فرساً في حلبة فجاء سابقاً، فقال لأبيه: كيف ترى أن أسميه يا أبت؟ قال: افقأ إحدى عينيه وسمه الأعور. قال الشاعر:

وأبي عباد الله أنوك من عجل

رمتي بنو عجل بداء أبيهم

فأضحت به الأمثال تضرب في الجهل

أليس أبوهم عار عين جواده

ومن بني عجل دغة التي يضرب به المثل في الحمق. وقد ذكرنا نسيها وخبرها في كتاب الأمثال.

ومن نوكي الأشراف: عبيد الله بن مروان، عم الوليد بن عبد الملك. بعث إلى الوليد قطيفة حمراء، وكتب إليه: إني قد بعثت إليك قطيفة حمراء حمراء،

فكتب إليه قد وصلت القطيفة، وأنت والله يا عم أحق أحق.

ومنهم معاوية بن مروان وقف على باب طحان، فرأى حمراً يدور بالرحا في عنقه جلجل، فقال للطحان: لم جعلت الجلجل في عنق الحمارة؟ قال: ربما أدركتني سامة أو نعاس، فإذا لم أسمع صوت الجلجل علمت أنه واقف فصحت به، فانبعث. قال: أفرأيت إن وقف وحرك رأسه بالجلجل وقال هكذا وهكذا - وحرك رأسه - فقال له: ومن لي بحمار يكون عقله مثل عقل الأمير؟ وهو القائل، وضاع له بازي: اغلقوا أبواب المدينة حتى لا يخرج البازي. وأقبل إليه قوم من جيرانه فقالوا: مات جارك أبو فلان، فمر له بكفن. فقال: ما عندنا اليوم شيء ولكن عودوا إلينا إذا نبش.

وأقبل إليه رجل أحق منه، فقال له: تعيرنا أصلحك الله ثوباً نكفن فيه ميتاً؟ قال: أحشى أنه ينجسه فلا تلبسه إياه حتى يغسل ويظهر. ومن النوكي الأشراف: عيينة بن حصن، دخل على عثمان بغير إذن، وكانت عنده ابنته، فقال له عثمان: ألا استأذنت؟ قال: ما ظننت أن هنا من أحتاج أن استأذن عليه. قال: ادن فتعش. فقال: أنا صائم. قال: تصوم الليل وتفطر النهار. وكان النبي صلى الله عليه وسلم يسميه السفية المطاع. ومن حمقى قريش: أبان بن عثمان بن عفان. قال الشعبي: قدم أبان على معاوية. فقال: يا أمير المؤمنين، زوجني ابنتك. قال: يا بن أخي هما اثنتان. إحداها عند ابن عامر والأخرى عند أخيك عمرو. قال: كنت أظن أن لك ثالثة. قال: يا بن أخي، نخطب إلي ولا تدري لي بنت أم لا، رحم الله أباك.

ومر معاوية بن مروان بحقل له فلم ير فيها ما يعجبه، فقال: ما كذب من قال: كل حقل لا ترى آست صاحبها لا تفلح أبداً. ثم نزل عن دابته وأحدث فيها ثم ركب. وهو الذي يقول لأبي امرأته: ملأني البارحة ابنتك دمماً. قال: إنما من نسوة يخبان ذلك لأزواجهن، فلو كنت خصياً ما زوجناك، وعلى الذي غرنا بك لعنة الله.

وكان أبو العجاج والياً بواسط فأثاب صاحب شرطته بقوادة، فقال: ما هذه؟ قال: قوادة. قال: وما تصنع؟ قال: تجمع بين الرجال والنساء قال: إنما جئتني بها لتعرفها بداري، حل عنها لعنك الله ولعنها.

وكان الربيع العامري والياً باليمامة، فأتي بكلب قد عقر كلباً فأفاده فقال فيه الشاعر:

شهدت بأن الله حقاً لقأوه

أقاد لنا كلباً بكلب فلم يدع

وأن الربيع العامري رقيع

دماء كلاب المسلمين تضيع

وقال عوانة: أستعمل معاوية رجلاً من كلب، فذكر يوماً المحوس وعنده النار.

فقال: لعن الله المحوس ينكحون أمهاتهم، والله لو أعطيت مائة ألف درهم ما نكحت أمة.

وكان بالبصرة ثلاثة إخوة من بني عتاب بن أسيد، كان أحدهم يحج عن حمزة ويقول: استشهد قبل أن يحج. وكان الآخر يضحى عن أبي بكر وعمر، ويقول: أخطأ السنة في ترك الأضحية، وكان الثالث يفطر أيام التشريق عن عائشة، ويقول: غلطت رحمها الله في صومها أيام التشريق.

ولعب رجل من النوكي بين يدي الرشيد بالشطرنج. فلما رآه وقد استجاد لعبه قال له: يا أمير المؤمنين، ولني نهر بوق. فقال له: وملك أوليك نصفه. اكتبوا عهده علي بوق. قال: فولني أرمينية. قال: إذا يبطن على أمير المؤمنين خبرك.

أهل العي والجهل المشبهون بالمجانين

خطب وكيع بن أبي سود وهو والي خراسان فقال في خطبته: إن الله خلق السموات والأرض في ستة أشهر. فقالوا له: بل في ستة أيام. فقال: والله لقد قتلها وأنا أستقلها.

وخطب علي بن زياد الإيادي فقال في خطبته: أقول لكم ما قال العبد الصالح لقومه: "ما أريكم إلا ما أرى وما أهديكم إلا سبيل الرشاد". فقالوا له: إن هذا ليس من قول العبد الصالح إنما هو من قول فرعون. فقال: من قاله فقد أحسن.

وخطب عتاب بن ورقاء الرياحي فقال: أقول لكم كما قال الله في كتابه:

وخطب وال باليمامة فقال في خطبته: إن الله تبارك وتعالى لا يعاون عباده على المعاصي. وقد أهلك أمة عظيمة على ناقة ما كانت تساوي مائتي درهم، فسمي مقوم الناقة.

وبكى حول ابن سنان أولاده وأهله حين ودعوه وهو يريد مكة حاجاً، فقال: لا تبكوا فإنني أرجو أن أضحى عندكم. ودخل قوم دار كردم السدوسي فقالوا له: أين القبلة في دارك هذه؟ فقال: إنما سكنها منذ ستة أشهر. ودخل كردم السدوسي على رجل فدعاه إلى الغذاء فقال: قد أكلت. قال: وما أكلت؟ قال: قليل أرز فأكثر منه. وقيل لأبي عبد الملك عناق: بأي شيء تزعمون أن أبا علي الأسواري أفضل من سلام بن سليمان أبي المنذر؟ قال: لأنه لما مات سلام بن سليمان أبو المنذر مشى أبو علي في جنازته، فلما مات أبو علي لم يمش سلام في جنازته. ومرض كردم فقال له عمه: أي شيء تشتهي؟ فقال: رأس كبشين قال: لا يكون. قال: فرأسي كبش قال: لا يكون. فقال: لست أشتهي شيئاً. وقال مسعدة بن طارق الذراع: إن لوقوف على حدود دار نقسمها إذ أقبل عيص، سيد بني تميم والمصلي على جنازتهم. ونحن في خصومة لنصلح بينهم، فقال: خبروني عن هذه الدار، هل ضم بعضها إلى بعض أحد، فأنا منذ ستين سنة أفكر في كلامه فما أدرك له معنى ولا مجازاً. وأقبل كردم الذراع إلى قوم ليكسر لهم دوراً، فوجد داراً منها فيه زنقة. فقال: ليست هذه الدار لكم فقالوا: بلى والله ما نازعنا أحد قط فيها. قال: فليست الزنقة لكم. قالوا: فكسر ما صح عندك أنه لنا ودع الزنقة. فكسر صحن الدار. فقال: عشرون في عشرين مائتان. قالوا: من هذا المعنى لم تكن الزنقة عندك لنا؛ إذ عشرون في عشرين مائتان.

وسئل آخر كان ينظر في الفرائض عن فريضة لم يعرفها، فالتمسها في كتابه فلم يجدها. فقال: لم يمت هذا الرجل بعد، ولو مات لوجدت فريضته في كتابي.

وعزى قوماً فقال: أجركم الله وأعظم أجوركم وأجركم. فقيل له في ذلك، فقال: مثل قول مروان بن الحكم: بارك الله فيكم وبارك لكم وبارك عليكم.

وكان أبو إدريس السمان يكتب: فلا أصبحك الله إلا بالعافية، ولا حيا وجهك إلا بالكرامة.

العتي قال: بعث رجل وكيهه إلى رجل من الوجوه يقتضيه ما عليه، فرجع إليه مضروباً فقال: ما لك ويلك؟ قال: سبك فسببته فضررتني. قال: وبأي شيء سبني؟ قال: هن الحمار في حر أم الذي أرسلك. قال له: دعني من افترائه علي. أخبرني أنت كيف جعلت لأير الحمار من الحرمة ما لم تجعل لحر أمي؟ هلا قلت: أير الحمار في هن أم من أرسلك؟ وقال أبو نواس: قلت لأحد الوراقين الذين يكتبون بباب البطوني: أيما أسن أنت أم أخوك؟ قال: إذا جاء رمضان استويننا.

قال ثمامة بن أشرس للمأمون: مررت في غب مطر والأرض ندية والسماء مغيمة والرياح شمال، وإذا بشخص أصفر كأنه جراد، وقد قعد على قارعة الطريق، وحجام يحجمه على كاهله وأخدعيه بمحاجم كأنها قعاب، وقد مص دمه حتى كاد يستفرغه، فقلت: يا شيخ، لم تحتجم في هذا البرد؟ قال: لهذا الصفار الذي بي.

وقيل لأبي عتاب: كيف برك بأمك؟ قال: والله ما قرعتها بسوط قط.

النوكى من نساء الأشراف

دغة العجلية، وجهيزة، وشولة، ودراعة، وسارية الليل، وريطة بنت كعب، وهي التي نقضت غزلها أنكاثاً. وفيها يقال في المثل: "حرقاء وجدت صوفة".

وقال عمرو بن عثمان: شيعت القاضي عبد العزيز بن المطلب المخزومي قاضي مكة إلى منزله وباب المسجد حمقاء تصفق بيديها وتقول: أرق عيني

فقال لي: يا أبا حفص، أترأها تعني قاضي مكة؟ وقد يأتي لهؤلاء المجانين كلام نادر محكم لا يسمع بمثله، كما قالوا: رب رمية من غير رام. قيل لدغة: أي بنيك أحب إليك؟ قالت: الصغير حتى يكبر، والمريض حتى يفيق، والغائب حتى يرجع.

ومن أخبار أهل العي المشبهين بالمجانين: دخل أبو طالب صاحب الطعام على هاشمية جارية حمدونة بنت الرشيد ليشتري طعاماً من طعامهم، فقال لها: قد رأيت متاعك وقلبتك. قالت له: هلا قلبت طعامك يا أبا طالب؟ قال: وقد أدخلت يدي فيه فوجدته قد حمي وصار مثل الجيفة. قالت: يا أبا طالب، ألسنت قد قلبت الصغير، فأعطينا به ما شئت وإن كان فاسداً.

قال الأصمعي: كان بين رجلين من النوكي عبد فقام أحدهما يضربه، فقال له شريكه: ما تصنع؟ قال: أنا أضرب نصيبي منه. قال: وأنا أضرب حصتي فيه، وقام يضربه. فكان من رأي العبد أن سلح عليهما، وقال: اقتسما هذه على قدر الحصص.

ومر بعضهم بامرأة قاعدة على قبر وهي تبكي، فقال لها: ما هذا الميت منك؟ قالت: زوجي. قال: وما كان عمله؟ قالت: كان يحفر القبور، قال: أبعده الله، أما علم أنه من حفر حفرة وقع فيها.

وطلب رجل من النوكي من ثمامة بن أشرس أن يسلفه مالا ويؤخره به. فقال: هاتان حاجتان وأنا أقضي لك إحداهما. قال: رضيت. قال: أنا أوخرك ما شئت ولا أسلفك.

وكان أبو رافع مولى رسول الله صلى الله عليه وسلم وآل أبي رافع من فضلاء أهل المدينة وخيارهم، مع بله فيهم وعي شديد - فمن ذلك أن امرأة أبي رافع رأت في نومها بعد موته، فقال لها: أتعرفين فلاناً الصيرفي؟ قالت له: نعم. قال: فإن لي عليه مائتي دينار. فلما انتهت من نومها غدت إلى الصيرفي فأخبرته الخبر وسألته عن المائتي دينار. فقال: رحم الله أبا رافع، والله ما جرت بيني وبينه معاملة قط. فأقبلت إلى مسجد المدينة، فوجدت مشايخ من آل أبي رافع كلهم مقبول القول، جازر الشهادة، فقصت عليهم الرؤيا، وأخبرتهم خبرها مع الصيرفي وإنكاره لما ادعاه أبو رافع. قالوا: ما كان أبو رافع ليكذب في نوم ولا يقظة، قومي بصاحبك إلى السلطان ونحن نشهد لك عليه. فلما رأى الصيرفي عزم القوم على الشهادة لها وعلم أنهم إن شهدوا عليه لم يبرح حتى يؤديها، قال لهم: إن رأيتم أن تصلحوا بيني وبين هذه المرأة على ما ترونه فافعلوا. قالوا: نعم والصلح خير، ونعم الصلح الشطر، فأد إليها مائة دينار من المائتين. فقال لهم: أفعال، ولكن اكتبوا بيني وبينها كتاباً يكون وثيقة لي. قالوا: وكيف تكون هذه الوثيقة؟ قال: تكتبون لي عليها أنها قبضت مني مائة دينار صلحاً على المائتي دينار التي ادعاها أبو رافع علي في نومها، وأنها قد أبرأتني منها وشرطت على نفسها ألا ترى أبا رافع في نومها مرة أخرى، فيدعي علي بغير هذه المائتين، فتجيء بفلان وفلان يشهدان علي لها. فلما سمعوا الوثيقة فطن القوم لأنفسهم، وقالوا: قبحك الله وقبح ما جئت به.

ومنهم عامر بن عبد الله بن الزبير، أتى بعطائه وهو في المسجد، فقام ونسيه في موضعه، فلما صار إلى بيته ذكره، فقال: يا غلام، اتني بعطائي الذي نسيت في المسجد. قال: وأين يوجد، وقد دخل المسجد بعدك جماعة؟ قال: وبقي أحد يأخذ ما ليس له؟ وسرقت نعله مرة فلم يلبس نعلًا بعدها حتى مات، وقال: أكره أن أتخذ نعلًا فيجيء من يسرقها فيأثم. وفي هذا الضرب يقول أبو أيوب السخيتاني: في أصحابي من أرجو بركته ودعاءه، ولا أقبل شهادته.

قال الأصمعي: كان الشعبي يحدث أنه كان في بني إسرائيل عابد جاهل قد ترهب في صومعته، وله حمار يرعى حول الصومعة، فاطلع عليه من الصومعة فراه يرعى فرفع يديه إلى السماء، فقال: يا رب، لو كان لك حمار كنت أرعيه مع حماري، وما كان يشق علي. فهم به نبي كان فيهم في ذلك الزمان، فأوحى الله إليه دعه، فإننا أثيب كل إنسان على قدر عقله.

هشام بن حسان قال: أقبل رجل إلى محمد بن سيرين فقال: ما تقول في رؤيا رأيتها؟ قال: وما رأيت؟ قال: كنت أرى أن لي غنماً، فكنت أعطيها ثمانية دراهم، فأبيت من البيع، ففتحت عيني فلم أر شيئاً، فأغلقتها ومددت يدي، وقلت: هاتوا أربعة، فلم أعط شيئاً. فقال له ابن سيرين: لعل القوم اطلعوا على عيب في الغنم فكهوها. قال: يمكن الذي ذكرت.

شعراء المجانين

منهم أبو ياسين الحاسب، وجعيفران، وجرتفش، وأبو حية النميري، وريسيموس، وصالح بن شيرزاد الكاتب.

وكان أبو حية أجن الناس وأشعر الناس، وهو القائل:

لبسن البلى مما لبسن اللياليا

تقاضاه أمر لا يمل التقاضيا

الأحي أطلال الرسوم البواليا

إذا ما تقاضى المرء يوم وليلة

وهو القائل أيضاً:

مني مغلغلة إلى القعقاع

في القوم بين تمتع وسماع

فلأبعثن مع الرياح قصيدة

ترد المناهل لا تزال غريبة

وهو القائل أيضاً:

بأحسن موصولين كف ومعصم

فأبدت قناعاً دونه الشمس وانتقت

وأما جعيفران الموسوس الشاعر، وهو من مجانين الكوفة، فإنه لقي رجلاً فأعطاه درهماً وقال له: قل شعراً على الجيم. فقال:

كل هم إلى فرج

كاس والراح تنفرج

عادني الهم فاعتلج

سل عنك الهموم بال

وهو القائل:

ولا له بشبيه

فكلهم يدعيه

وذا يخاصم فيه

لعلمها بأبيه

ما جعفر لأبيه

أضحى لقوم كثير

هذا يقول بنبي

والأم تضحك منهم

قال أبو الحسن: استأذن جعيفران على بعض الملوك فأذن له، وحضر غداؤه، فتغدى معه، فلما كان من الغد استأذن فحجبه، ثم أتاه في الثالثة فحجبه. فنادى بأعلى صوته:

لسنا نعود وإن عدنا تعدينا

داءً بقلبك ما صمنا وصلينا

العتي قال: قال أبو وائل لأبي: إن في حماقة، ولكن إن طلبت الشعر وجدت عندي منه علما. قال: وهل تقول منه شيئاً؟ قال: نعم، أقول أجود من قولك، وأنا الذي أقول:

عليك إذن فإننا قد تعدينا

يا أكلة ذهب أبقت حرارتها

نسيت نواحي البكاء وأقبر

أو أن باليها الرميم سينشر

لو أن جومل كلمتني بعدما

لحسبت ميت أعظمي سيجيبها

قال له أبي: أما الشعر فحسن إلا أن اسم المرأة قبيح. قال: ألا إن اسم المرأة جميل، ولكنني ملحته بجمول. فقال له: إن هذا من الحماسة التي برئ إلينا منها.

قال العتيبي: قال أبي: وأنشدني أبو وائل:

فكيف إن كان من حبيب

ما أوجع البين من غريب

إذا تذكرته يموت

يكاد من شوقه فؤادي

فقال له أبي: إن هذا باء وهذا تاء. قال: لا تنقط أنت شيئاً. قلت: يا هذا، إن البيت الأول مخفوض وهذا مرفوع. قال: أنا أقول لا تنقط وهو يشكل. ولما توفيت أم سليمان بن وهب الكاتب، أخي الحسن بن وهب، دخل عليه رجل من نوحي الكتاب يسمى صالح بن شيرزاد، بشعر يرثيها فيه، فأنشده:

مغلغلة مثل الحسام البواتر

لأم سليمان علينا مصيبة

فأمسى سراج البيت وسط المقابر

وكنت سراج البيت يا أم سالم

فقال سليمان: ما نزل بأحد من خلق الله ما نزل بي، ماتت أمي ورثت بمثل هذا الشعر، ونقل اسمي من سليمان إلى سالم. ومن قول صالح بن شيرزاد هذا:

كان الضراط فذاك الأذريطوس

لا تعدلن دواء بالفساء فإن

ودخل بعض شعراء الجاهل على أبي الواسع، وحوله بنوه، فاستأذنه في الذنبة في الإنشاد فاستعفى. فلم يزل به حتى أذن له. فأنشده شعراً، فلما انتهى فيه إلى قوله:

وحولك الغر من أبنائك الصيد

وكيف تنفي وأنت اليوم رأسهم

قال له: ليتك، تركتنا رأساً برأس. وقيل: وفد أعرابي من شعراء الجاهل إلى نصر بن سيار بشعر تغزل فيه بمائة بيت ومدحه ببيتين، فقال له: والله ما تركت قافية لطيفة ولا معنى إلا شغلت به نسيك دون مدحك. قال: سأقول غير هذا. فغدا عليه بشعر يقول فيه:

دع وحبر مدحة في نصر

هل تعرف الدار لأم الغمر

فقال له نصر: لا ذا ولا ذاك.

وقال بعض العلماء: ما شبهت تأويل الرافضة في قبح مذهبهم إلا بتأويل رجل من الجاهل بمجانين أهل مكة في الشعر، فإنه قال: ما سمعت بكاذب من بني تميم، زعموا أن قول القائل:

ومجاشع وأبو الفوارس نهشل

بيت زرارة محتب بفنائنه

فزعموا أن هذه أسماء رجال منهم. قال بعض أهل الأدب: قلت له: وما عندك أنت فيه؟ قال: البيت بيت الله، والزرارة الحجر زررت حول البيت، ومجاشع زمزم تجشعت بالماء، وأبو الفوارس هو أبو قبيس جبل مكة. قلت له: فنهشل؟ قال: نهشل؟ وفكر فيه ساعة، ثم قال: قد أصبته، هو مصباح الكعبة طويل أسود فذاك النهشل.

قال المبرد محمد بن يزيد النحوي: خرجنا من بغداد نريد واسطاً، فملنا إلى دير هزقل ننظر في الجاهل، فإذا بالجاهل كلهم قد رأونا، ونظرنا إلى فتى منهم قد غسل ثوبه ونظفه، وجلس ناحية عنهم، فقلنا: إن كان فهذا، فوقفنا به، فسلمنا عليه فلم يرد السلام، فقلنا له: ما تجدد؟ فقال:

لا أستطيع أثبت ما أجد

الله يعلم أنني كمد

بلد وأخرى حازها بلد

نفسان لي نفس تضمنها

وأرى المقيمة ليس ينفعها

صبر وليس يفوقها جلد

وأظن غائبتي كشاهدتي

بمكانها تجد الذي أجد

فقلت له: أحسنت والله. فأوما بيده إلى شيء ليرميناه به. وقال: أمثلي يقال له أحسنت. قال: فولينا عنه هارين. فقال: أسألكم بالله إلا ما رجعتم حتى أنشدكم، فإن أحسنت قلت لبي: أحسنت، وإن أسأت قلت لبي: أسأت. قال: فرجعنا ووقفنا وقلنا له: قل، فأنشأ يقول:

لما أناخوا قبيل الصبح عيسهم

ورحلوها وسارت بالدجى الإبل

وقلبت من خلال السجف ناظرها

ترنو إلي ودمع العين ينهمل

وودعت ببنان عقده عنم

ناديت: لا حملت رجلاك يا جمل

ويلي من البين ما ذا حل بي وبها

من نازل البين حل البين وارتلوا

ياراحل العيس عرج كي نودعهم

ياراحل العيس في ترحالك الأجل

إني على العهد لم أنقض مودتهم

يا ليت شعري لطول العهد ما فعلوا

قال: فقلنا له: ماتوا. فصاح وقال: وأنا والله أموت، وتربع وتمدد، فمات فما برحنا حتى دفناه.

وقال محمد بن يزيد المبرد: دخلنا دير هزقل، فإذا بمجنون بيده حجر، وقد تفرق الناس عنه وهو يقول: يا معشر إخواني اسمعوا مني. ثم أنشأ يقول:

وذي نفس صاعد

يئن بلا عائد

يكر على جحفل

ويضعف عن واحد

وأنشد أبو العباس لماني الموسوس:

له وجنات في بياض وحمرة

فحافاتها بيض وأوساطها حمر

رقاق يجول الماء فيها كأنها

زجاج أجيلت في جوانبها الخمر

وقال محمد بن يزيد: أصابتنا سحابة جود، ثم أقلعت سريعاً، فمر بي ماني الموسوس فقال:

لا تظن الذي جرى

مطراً كان ممطراً

إنما ذاك كله

دمع عيني تحدرا

وتوالت غيومها

من همومي تفكرا

هكذا حال من يرى

من حبيب تغيرا

وقف ماني الموسوس على أبي دلف فأنشده:

كرات عينك في العدا

تغنيك عن سل السيوف

وقال أبو دلف: والله ما مدحت قط. يمثل هذا البيت، وأمر له بعشرة آلاف درهم، فأبى أن يقبضها وقال: نقتع من هذا بنصف درهم في هريسة.

ولماني الموسوس:

من الأطباء ظباء همها السحب

ترعى القلوب وفي قلبي لها عشب

وحليها الدر والياقوت والذهب
والعين تسرق أحياناً وتنتهب
قلبي لو قبلت مني أهب
فإن تأبنت فما لي فيهما أرب
والحد في سرق العينين لا يجب

ومر علي بن الجهم بمسرح، قد اجتمع الناس عليه، وتحلقوا حوله، فلما رآه المبرسم قصد نحوه، وأخذ بعنانه، ثم أنشأ يقول:

همج الذين أراهم
نفسي ومن عافاهم
كانوا هم موتاهم

قد صار بي أشقاهم

قال أبو البختري الشاعر: كان يبلغني أن ببغداد مجنوناً يكنى أبا فحمة، له بديهة حسنة، فتعرضت له، فأتيت لي لقاءه في بعض سكك بغداد، فقلت له: كيف أصبحت أبا فحمة؟ فأشأ يقول:

متعرضاً لموارد التلف
متحرفاً عن غير منحرف
أسفي عليك أشد من كلفي

قال أبو البختري: فأخرجت له قبضة نرجس كانت في كمي، فحييته بها، فجعل يشمها ملياً، ثم أنشأ يقول:

جون هتون زبرج دلاح
فاستتقلت حملاً بغير نكاح
فأنت بولدان بلا أرواح
بيد الندى وأنامل الأرواح
تبر على ورق من الأوضاح

نحو الغزالة ناظراً بملاح
صار بين الحياة والموت وقفاً
كاد عن أعين البرية يخفى

أفدى الظباء اللواتي لا قرون لها
يا حسن ما سرقت عيني وما انتهب
فتلك من حسن عينيها وهبت لها
وما أريدهما إلا لرؤيتهما
إذا يد سرقت فالحد يقطعها

ثم نظر حوله فرأى غلاماً جميل الهيئة حسن الوجه، فشق ثيابه وقال:

هذا السعيد لديهم

أصبحت منك على شفا جرف
وأراك نحوي غير ملتفت
يا من أطال بهجره كلفي

لما تزوجت الجنوب بهاطل
أضحى يلحقها بوسمي الصبا
حتى إذا حان المخاض تفجرت
حاك الربيع لها ثياباً وشيت
من أصفر في أزهر قد زانه

ركبن في عمد الزبرجد فاغتندي

قال الحسن بن هانئ: لقيت ماني الموسوس، فأنشدني:

شعر حي أتاك من لفظ ميت
قد برت جسمه الحوادث حتى

لو تأملتني لتبصر شخصي

ثم مضيت، فأتيت جعيفران الموسوس، وهو شيخ من بني هاشم أرت اللسان، وعليه قيد من فضة، وفي عنقه غل من ذهب، فقال لي: من أين دببت يا حسن؟ قلت: من بيت مانويه. فقال: في حر أم مانويه! فدعا بدواة وقرطاس، وقال لي اكتب:

إلا حثت إليك السير مجهودا

ما غرد الديك ليلاً في دجنته

بنومة في لذيذ العيش ممهودا

ولا هدت كل عين لذراقدها

أصبحت في حلق الأقياد مصفودا

إلا امتطيت الدجى شوقاً إليك ولو

والليل مدرع أثوابه السوداء

أسعى مخاطرةً بالنفس يا أملي

زودته حرقات القلب تزويدا

فلم ترق ولم ترث لمكتتب

إلا يخال معداً فيك موجودا

هيهات لا غدر في جن ولا بشر

ثم قال: حرق رقعة مانويه. فخرقتها ثم مضيت، فلقيت عدرد المصاب، وحوله الصبيان، وهو يلطم وجهه ويكي، وينادي: أيها الناس، الفراق مر المذاق. فقلت له: أبا محمد، من أين أقيت؟ قال: شيعت الحاج. قلت: وما الذي حملك على تشييعهم؟ فقال: لي فيهم سكن. قلت: فهل قلت فيهم شيئاً؟ قال: نعم، وأنشدني:

فودعتهم لما استقلوا وودعوا

هم رحلوا يوم الخميس غديةً

فقلت ارجعي قالت إلى أين أرجع

فلما تولوا ولت النفس معهم

وما هو إلا أعظم تتقعقع

إلى جسد ما فيه لحم ولا دم

وأذن عصت عدالها ليس تسمع

وعينان قد أعماههما الحزن والبكا

أبو بكر الوراق قال: حدثني صديق لي، قال: رأيت رجلاً من أهل الأدب قد ذهب عقله بالحنة، وخلفه دابة له تدور معه، فاستوقفته وقلت له: يا فلان، ما حالك وأين النعمة؟ قال: تغير قلبي فتغيرت النعمة. قلت: بم تغير؟ قال: بالحب، ثم بكى وأنشأ يقول:

وكيف أخفي الهوى والدمع يعلنه

أرى التحمل شيئاً لست أحسنه

الهجري ينحله والشوق يحزنه؟

أم كيف صبر محب قلبه دنف

يهوى السلو ولكن ليس يمكنه

وإنه حين لا وصل يساعفه

وفترة اللحظ من عينيك تفتنه

وكيف ينسى الهوى من أنت همته

فقلت: أحسنت والله. فقال: قف قليلاً، فوالله لأطرحن في أذنك أنقل من الرصاص، وأخف على الفؤاد من ريش الحواصل، وأنشد:

لم تبلغ النار منها عشر معشار

للحب ناراً على قلبي مضرمة

يا للرجال لماء فاض من نار

الماء ينبع منها من محارها

ثم وقف وأنشد:

وأبدى الجفاء فصبراً جميلاً

أعاد الصدود فأحيا الغليلاً

لئلا أرد إليه الرسولا

ورد الكتاب ولم يقره

وأحسب نفسي على ما ترى

سنلقى من الهم هجراً طويلاً

وأحسب قلبي على ما أرى

سيذهب مني قليلاً قليلاً

ثم ترك يدي ومضى.

وحكى أبو العباس المبرد قال: دخل عمرو بن مسعدة على المأمون، وبين يديه جام زجاج فيه سكر طبرزد وملح جريش. قال: فسلمت. فرد، وعرض علي الأكل. فقلت: ما أريد شيئاً، هناك الله يا أمير المؤمنين، فلقد باكرت بالغداء، فإني بت جائعاً. ثم أطرق ورفع رأسه وهو يقول:

أعرض طعامك وابدله لمن دخلا

واحلف على من أبي واشكر لمن أكلا

فلا تكن سابري العرض محتثما

من القليل فلست الدهر محتقلا

ودعا برطل، ودخل رجل من أجلة الفقهاء، فمد يده إليه، فقال: والله يا أمير المؤمنين ما شربتها ناشئاً فلا تسقنيها شيئاً. فرد يده إلى عمرو بن مسعدة، فأخذها منه، وقال: كنت يا أمير المؤمنين، الله الله، إني عاهدت الله في الكعبة إلا أشربها أبداً. ففكر طويلاً، والكأس في يد عمرو بن مسعدة، حتى لقد ظن أنه سيأمر فيها. ثم قال:

ردا علي الكأس إنكما

لا تعلمان الكأس ما تجدي

لو ذقتما ما ذقت ما امتزجت

إلا بدمعكما من الوجد

خوفتماني الله ربكما

وكخيفتني رجأؤه عندي

إن كنتما لا تشربان معي

خوف العقاب شربتها وحدي

محمد بن يزيد الأسدي قال: حدثني حبيب بن أوس قال: كنت في غرفة لي على شاطئ دجلة في وقت السحر أيام الخريف، فإذا بغلام كنت أعرفه بجمال، قد تجرد من ثيابه وألقى نفسه في الدجلة يسبح فيها، وقد احمر جلده من برد الماء، وإذا ماني الموسوس يرمقه ببصره، فلما خرج من الماء قال:

خمش الماء جلده الرطب حتى

خلته لابساً غلالة خمر

قلت له: لعنك الله يا ماني، أبعث الجهاد والغزو تخمش غلاماً قد بات مؤاجرا في الحمامات؟ فقال لي: مثلك يخاطب يا أحمق، وأنا يخاطب هذا، وأشار إلى السماء، وقال:

يكفيك تغليب القلوب وإنني

لفي ترح مما ألقى فما ذنبي

خلقت وجوهاً كالمصاييح فتنة

وقلت اهجروها عز ذلك من خطب

فإما أبحت الصب ما قد خلقت

وإما زجرت القلب عن لوعة الحب

أخذ هذا المعنى يزيد بن عثمان فقال:

أيارب تخلق ما تخلق

وتنتهي عبادك أن يعشقوا

إذا هكذا صغت حسن الوجوه

فأي البرية لا يفسق

خلقت الملاح لنا فتنة

وقلت اعبدوا ربكم واتقوا

وقال أبو بكر الموسوس في نصراني:

أبصرت شخصك في نومي تعانقني

كما تعانق لام الكاتب الألفا

زناؤه في خصره معقود

كأنه من كبدي مقدود

أخبار البخلاء

أجمع الناس على بخل أهل مرو ثم أهل خراسان.

قال ثمامة بن أشرس: ما رأيت الديك قط في بلدة إلا وهو يدعو الدجاج، ويثير الحب إليها، ويلطف بها، إلا في مرو، فإني رأيت ياكل وحده، فعلمت أن لومهم في الماكل. ورأيت فيمرو طفلاً صغيراً في يده بيضة، فقلت له: أعطني هذه البيضة، فقال: ليس تسع يدك. فعلمت أن اللوم والمنع فيهم بالطبع المركب، والجبلة المفطورة.

واشتكى رجل مروزي ضرراً من سعال، فدلوه على سويق اللوز، فاستثقل النفقة، ورأى الصبر على الوجع أخف عليه، فلم يزل يماطل الأيام ويدافع الألم حتى أتيت له بعض الموفقين، فدلوه على ماء النخالة، وقال له: إنه يجلو الصدر. فأمر بالنخالة، فطبخت له وشرب ماءها، فحلا صدره. ووجده بعضهم، فلما حضر غداؤه أمر به فرفع إلى العشاء، وقال لأم عياله: اطبخي لأهل بيتنا النخالة، فإني وجدت ماءها يعصم ويجلي الصدر. فقالت له زوجته: قد جمع الله في هذا الدواء دواء وغذاء.

وقال خاقان بن صبيح: دخلت على رجل ليلاً من أهل خراسان، فإذا هو قد أتى بمسرجة فيها فتيل دقيق، وقد ألقى في دهن المسرجة شيئاً من ملح، وقد علق فيها عوداً يحيط معقود إلى المسرجة، فإذا عشي المصباح أخرج به رأس الفتيل، فقلت: ما بال هذا العود مربوطاً؟ فقال: هذا عود قد شرب الدهن، فإذا لم نحفظه وضاع احتجنا إلى غيره فلا نجد إلا عطشان، فإذا كان هذا دأبنا ضاع من دهننا في الشهر بقدر كفايتنا ليلة. قال: فبينما أنا أتعجب وأسأل الله العافية إذ دخل علينا شيخ من أهل مرو، ونظر إلى العود، فقال: أبا فلان، فررت من شيء ووقعت فيما هو شر منه، أما علمت أن الشمس والرياح تأخذان من سائر الأشياء، أو ليس كان البارحة هذا العود عند إطفاء السراج وأروى، وهو عند إسراجك الليلة أعطش؟ قد كنت أنا جاهلاً مثلك زماناً، حتى وفقني الله إلى ما هو أرشد، اربط عافاك الله مكان العود إبرة كبيرة، أو مسلة صغيرة، فإن الحديد أبقى، وهو مع ذلك غير نشاف، والعود والقصبه ربما تعلقت بهما الشعرة من قطن الفتيلة فتشخص لها، وربما كان ذلك سبباً لإفائها. قال الخراساني: ألا وإنك تعلم أنك من المسرفين حتى تعمل بأعمال المصلحين.

قال الأصمعي: قال لي أبو محمد الخزامي، واسمه عبد الله بن كاسب، ونحن في العسكر، إن الشيب سهك، وبياض الشعر الأسود هو موته كما أن سواده حياته، ألا ترى أن موضع دبيرة الحمار الأسود لا ينبت فيها إلا شعر أبيض؟ والناس لا يرضون منا في هذا العسكر إلا بالعناق والمشامة، والطيب غال ممتنع الجانب، فلست أرى شيئاً هو أحسن بنا من اتخاذ مشط صندل، فإن ريحه طيبة والشعر سريع القبول، وأقل ما يصنع أن ينفي سهك الشيب حتى تكون حاله لا لنا ولا علينا.

وكان ثمامة بن أشرس يقول: إياكم وأعداء الخبز أن تأتمموا بها، واعلموا أن أعدى عدو له المملوح، فلولا أن الله أعان عليه بالماء لأهلك الحرث والنسل. وكان يقول: كلوا الباقلاء بقشرها، فإن الباقلاء، تقول: من أكلني بقشري فقد أكلني، ومن أكلني بغير قشري فقد أكلته.

ومن البخلاء هشام بن عبد الملك. قال خالد بن صفوان: دخلت على هشام. فأطرفته وحدثته. فقال: سل حاجتك، فقلت: يا أمير المؤمنين، تزيد في عطائي عشرة دنانير. فأطرق حيناً، وقال: فيم؟ ولم؟ وبم؟ العبادة أحدثتها؟ أم لبلاء حسن أبلتته في أمير المؤمنين؟ ألا لا يا بن صفوان، ولو كان لكثير السؤال، ولم يحتمله بيت المال، فقلت: وفقك الله يا أمير المؤمنين وسددك. فأنت والله كما قال أخو خزاعة:

إذا المال لم يوجب عليك عطاءه

صنيعة قربي أو صديق توافقه

منعت وبعض المنع حزم وقوة

ولم يفتلنك المال إلا حقائقه

قيل لخالد بن صفوان: ما حملك على تزيين البخل له؟ قلت: أحببت أن يمنع غيري فيكثر من يلومه. وخرج هشام بن عبد الملك متزهاً، ومعه الأبرش الكلبى، فمر براهب في دير، فعدل إليه، فأدخله الراهب بستاناً له، وجعل يجتني له أطيب الفاكهة. فقال له هشام: يا راهب، يعني بستانك. فسكت عنه الراهب. ثم أعاد عليه، فسكت عنه. فقال له: ما لك لا تجيبني؟ فقال: وددت أن الناس كلهم ماتوا غيرك. قال: لماذا ويحك؟ قال: لعلك أن تشبع. فالتفت هشام إلى الأبرش، فقال: ما سمعت ما قال هذا؟ قال: والله إن لقيك حر غيره. ومن البخلاء: عبد الله بن الزبير، وكانت تكفيه أكلة لأيام، ويقول: إنما بطني شبر في شبر، فما عسى أن يكفيه. وقال فيه أبو وجرة مولى آل الزبير:

لو كان بطنك شبراً قد شبعت وقد

أبقيت خبزاً كثيراً للمساكين

فإن تصبك من الأيام جائحة

لم نبك منك على دنيا ولا دين

ما زلت في سورة الأعراف تدرسها

حتى فؤادك مثل الخز في اللين

إن امرأ كنت مولاه فضيعني

يرجو الفلاح لعندي حق مغبون

وابن الزبير هو الذي قال: أكلتم تمرى وعصيتم أمرى. فقال فيه الشاعر:

رأيت أبا بكر وربك غالب

على أمره، يبغى الخلافة بالتمر

وأقبل إليه أعرابي فقال: أعطني وأقاتل عنك أهل الشام. فقال له: اذهب فقاتل، فإن أغنيت أعطينك. قال: أراك تجعل روحي نقداً ودراهمك نسيئة. وأتاه أعرابي يسأله حملاً، ويذكر أن ناقته نقت. فقال: انعلها من النعال السبتية، واخصفها بلب. قال الأعرابي: إنما أتيتك مستوصلاً ولم آتك مستوصفاً، فلا حملت ناقه حملتي إليك. قال: إن وصاحبها.

ومن رؤساء أهل البخل: محمد بن الجهم، وهو الذي قال: وددت أن عشرة من الفقهاء وعشرة من الشعراء، وعشرة من الخطباء، وعشرة من الأدباء توطأوا على ذمي، واستهلوا بشتمي حتى ينشر ذلك عنهم في الآفاق، حتى لا يمتد إلي أمل أمل، ولا ينسط نحوى رجاء راج. وقال له أصحابه: إنما نخشى أن نقعد عندك فوق مقدار شهوتك، فلو جعلت لنا علامة نعرف بها وقت استحسانك لقيامنا؟ قال: علامة ذلك أن أقول: يا غلام هات الغداء.

وذكر ثمامة بن أشرس محمد بن الجهم فقال: لم يطمع أحداً قط في ماله إلا ليشغله عن الطمع في غيره، ولا شفع في صديق ولا تكلم في حاجة محترم إلا ليلقن المسؤول حجة المنع، ويفتح على السائل باب الحرمان.

ومن البخلاء اللثام مروان بن أبي حفصة الشاعر. قال أبو عبيدة عن جهم قال: أتيت اليمامة فتزلت على مروان بن أبي حفصة، فقدم إلي تمراً، وأرسل غلامه بفلس وسكرجة يشتري زيتاً. فأتى الغلام بالزيت. فقال له: خنتني وسرقتني. قال: وفيم كنت أخونك وأسرقك في فلس؟ قال: أخذت الفلس لنفسك واستوهبت الزيت.

ومن البخلاء: زبيدة بن حميد الصيرفي. استلف من بقال على بابه درهمين وقيراطاً، فمطله بما ستة أشهر، ثم قضاه درهمين وثلاث حبات. فاغتناظ البقال وقال: سبحان الله! أنت صاحب مائة ألف دينار، وأنا بقال لا أملك مائة فلس، وإنما أعيش بكدي، واستقضي الحبة على بابك والحببتين، صاح على بابك حمال، ولا يحضر تلك الساعة وكيلك، فأعنتك وأسلفتك درهمين وأربع شعيرات، فقضيتني بعد ستة أشهر درهمين وثلاث شعيرات. فقال زبيدة: يا مجنون، أسلفتني في الصيف وقضيتك في الشتاء، وثلاث شعيرات شتوية أوزن من أربعة صيفية، لأن هذه ندية وتلك يابسة، وما أشك أن معك بعد هذا كله فضلاً.

قال الأصمعي: كنت عند رجل من الأم الناس وأبخلهم، وكان عنده لبن كثير، فسمع به رجل ظريف، فقال: لا أموت أو أشرب من لبنه. فأقبل مع صاحب له حتى إذا كان بباب صاحب اللبن، تغاشى وتماوت، فقعده صاحبه عند رأسه يسترجع، فخرج إليه صاحب اللبن، فقال: ما باله يا سيدي؟ قال: هذا سيد بني تميم، أتاه أمر الله هاهنا، وكان قال لي: اسقني لبناً. قال صاحب اللبن: هذا هين موجود، اتني يا غلام بعلبة من لبن. فأتاه بها. فأسند صاحبه إلى صدره وسقاه، حتى أتى عليها، ثم تجشأ. فقال صاحبه لصاحب اللبن: أترى هذه الجشأة راحة الموت؟ قال: أماتك الله وإياه ووطن بأنه خدعة.

ومن أمثال العرب في البخل قولهم: ما هو إلا أبنه عصا أو عقدة رشا. لأن عقدة الرشا المبلول لا تكاد تنحل. قيل لبختي المدينة: ما الجرح الذي لا يندمل؟ قالت: حاجة الكرم إلى اللثيم ثم يرده. قيل لها: فما الذل؟ قالت: وقوف الشريف بباب الدينء ثم لا يؤذن له. قيل لها: فما الشرف؟ قالت: اتخاذ المنن في رقاب الرجال. والعرب تقول لمن لم يظفر بحاجته وجاء خائباً: "جاء فلان على غيراء الظهر" و"جاء على حاجبه صوفة". و"جاء بخفي حنين". وقال أبو عطاء السندي، في يزيد بن عمر بن هبيرة:

طلبت بها الأخوة والثناء

وعند الله نحتسب الجزاء

ثلاث حكتهن لقوم قيس

رجعن على حواجبهن صوف

طعام البخلاء

قال الأصمعي: كان يقول المروزي لزواره إذا أتوه: هل تغذيتم اليوم؟ فإن قالوا نعم، قال: والله لولا أنكم تغذيتم لأطعمتكم لونا ما أكلتم مثله، ولكن ذهب أول الطعام بشهوتكم وإن قالوا: لا قال: لولا أنكم لم تتغذوا لسقيتكم أقداحاً من نبيذ الزبيب ما شربتم مثله، فلا يصير في أيديهم منه شيء. وكان ثمامة بن أشرس إذا دخل عليه أصحابه وقد تشبوا عنده قال لهم: كيف كان مبيتكم ومنامكم؟ فإن قال أحدهم إنه نام ليلته في هدوء وسكون، قال النفس إذا أخذت قوتها اطمأنت. وإذا قال أحدهم إنه لم ينم ليلته قال: إنه من إفراط الكظة والإسراف من البطنة. ثم يقول: كيف كان شربكم للماء؟ فإن قال أحدهم: كثيراً قال: التراب الكثير لا يبيله إلا الماء الكثير. وإن قالوا قليلاً. قال: ما تركت للماء مدخلاً. وكان إذا أطمع أصحابه استلقى على قفاه، ثم يتلو قوله تعالى: "إنما نطعمكم لوجه الله لا نريد منكم جزاءً ولا شكوراً". ودخل عليه رجل، وبين يديه طبق فراريج، فغطى الطبق بذيله، وأدخل رأسه في جيبه، وقال للرجل الداخل: أدخل في البيت الآخر حتى أفرغ من بخوري. وشوي لأبي جعفر الهاشمي دجاج، ففقد فخذاً من دجاجة، فأمر فنودي في منزله: من هذا الذي تعاطى فعقر؟ والله لا أحبز في التنور شهراً أو ترد. فقال ابنه الأكبر: يا أبت، لا تؤاخذنا بما فعل السفهاء منا.

وقال دعبل الشاعر: كنا يوماً عند سهل بن هارون، فأطلنا الحديث، حتى أضر به الجوع، فدعا بغذائه، فإذا بصفحة عدملية فيها مرق لحم ديك قد هرم، لا تحز فيها سكين، ولا تؤثر فيه الضرس، فأخذ قطعة خبز فقلب بها جميع ما في الصفحة، ففقد الرأس، فأطرق ساعة، ثم رفع رأسه إلى الغلام وقال: أين الرأس؟ قال: رميت به. قال: لم؟ قال: لم أظنك تأكله ولا تسأل عنه. قال: ولأي شيء ظننت ذلك؟ فوالله إني لأبغض من يرمي برجله فضلاً عن رأسه، والرأس رئيس الأعضاء، وفيه الحواس الخمس، ومنه يصيح الديك، وفيه العين التي يضرب فيها المثل في الصفاء، فيقال: شراب مثل عين الديك. ودماغه عجيب لوجع الكلية، ولم ير قط عظم أهش من عظم رأسه، فإن كان بلغ من جهلك ألا تأكله فعندنا من يأكله، انظر أين هو؟ قال: والله ما أدري أين رميته. قال: لكني والله أدري أنك رميت به في بطنك.

وأهدى رجل من قريش لزياد بن عبيد الله، وهو على المدينة، طعاماً، فنقل عليه ذلك. فقال: اجمعوا المساكين وأطعموهم إياه، فجمعوا، وكشف عن الطعام، فإذا طعام له بال، فندم على الإرسال للمساكين، وقال للغلام: انطلق إلى هؤلاء المساكين، وقل لهم: إنكم تجتمعون في المسجد فتفسون فيه

فتؤذون الناس، لا أعلم أنه اجتمع فيه منكم اثنان.

وقال: دخلت على يحيى بن عبد الله بن خالد بن أمية، وقوم يأكلون عنده، فمد يده إلى رغيف الخوان فرفعه، وجعل يرطله بيده ويقول: يزعمون أن خبزي صغير، فمن هذا الزاني ابن الزانية الذي يأكل نصف رغيف منه؟ قال: ودخلت عليه يوماً والمائدة موضوعة، والقوم يأكلون، وقد رفع بعضهم يده، فمددت يدي لأكل، فقال أجهز على الجرحى، لا تتعرض للأصحاء يقول: تعرض للدجاجة التي قد نيل منها، والفرخ المتزوع الفخذ، فأما الصحيح فلا تتعرض له. فهذا معناه في الجرحى.

وسأل يحيى بن خالد أبا الحارث جمين عن طعام رجل، فقال: أما مائدته فمقيبة، وأما صحافه فمخروطة من حب الخردل، وبين الرغيف والرغيف فترة نبي. قال: فمن يحضرها؟ قال: الكرام الكانبون. قال: فمن يأكل معه؟ قال: الذباب. قال له يحيى: وأرى ثوبك مخرقاً فلا يكسوك ثوباً وأنت في صحبته؟ قال: جعلت فداك، والله لو ملك بيتاً من بغداد إلى الكوفة مملوءاً إبراً وفي كل إبرة منه خيط، وجاءه يعقوب يسأله إبرة منها يخيط بها قميص يوسف ابنه الذي قد من دبر، ومعه جبريل وميكائيل يضمنان عنده لم يفعل. أخذ هذا المعنى محمد بن مسلمة فقال: يهجو ابن الأغلب:

إبر يضيق بهن رحب المنزل

لو أن قصرك يا ابن أغلب كله

ليخيط قد قميصه لم تفعل

وأذاك يوسف يستعيرك إبرة

وقيل لحصين: أتغديت عند فلان؟ قال: لا، ولكني مررت به يتغدى. قيل: فكيف علمت أنه يتغدى؟ قال رأيت غلماناً ببابه في أيديهم قسي البندق يرمون الذباب به في الهواء.

وقال أبو الحارث جمين: دخلت على فلان، فوضع بين أيدينا مائدة كنا أشوق إلى الطعام إذا رفعت منا إليه إذا وضعت.

وحضر أعرابي سفرة هشام بن عبد الملك، فبينما هو يأكل إذ تعلقت شعرة في لقمة الأعرابي، فقال له هشام: عندك شعرة في لقمته يا أعرابي. قال: وإنك لتلاحظني ملاحظة من يرى الشعرة في لقمته! والله لا أكلت عندك أبداً. وخرج وهو يقول:

يلاحظ أطراف الأكيل على عمد

وللموت خير من زيارة باخل

وقال آخر:

لكنت أول مقتول من الجوع

ولو عليك اتكالي في الغداء إذا

صوت ضعيف وداع غير مسموع

يقول عند دعاء الضيف مبتدئاً

قال المدائني: كان للمغيرة بن أبي عبد الله الثقفي، وهو والي الكوفة، جدي. يوضع على مائدته بعد الطعام، لا يمسه هو ولا أحد ممن يحضر. فحضر مائدته أعرابي، فبسط يده وأسرع في الأكل. فقال: يا أعرابي، إنك لتأكل الجدي مجرد كأن أمه نظحتك. فقال له الأعرابي: أصلحك الله، وأنت تشفق عليه كأن أمه أرضعتك. ثم بسط الأعرابي يده إلى بيضة بين يديه، فقال: خذها فإنها بيضة العقر. فلم يحضر طعامه بعد ذلك.

ودخل أشعب على والي المدينة، فحضر طعامه، وكان له جدي على مائدته يتحاماه كل من حضر، فبدر إليه أشعب فمزقه، فقال له: يا أشعب، إن أهل السجن ليس لهم إمام يصلي بهم فإن رأيت أن تكون لهم إماماً تصلي بهم، فإن في ذلك أجراً. فقال: والله ما أحب هذا الأجر ولك زوجتي طالق إن أكلت لحم جدي عندك حتى ألقى الله.

قال عمرو بن ميمون: تغديت يوماً عند الكندي، فدخل عليه رجل كان جاراً وصديقاً لي، فلم يعرض عليه الطعام، ونحن نأكل، فاستحيت أنا منه فقلت: سبحان الله، لو دنوت فأصبت معنا. قال: قد والله فعلت. قال الكندي: ما بعد الله شيء. قال: فكثف كثافاً لو بسط يده إلى أكل بعد لكان كافراً.

قال: ومررت ببعض طرق الكوفة، فإذا أنا برجل يخاصم جاراً له. فقلت: ما بالكما؟ فقال أحدهما: إن صديقاً لي زارني واشتهى علي رأساً، فاشترته

له وتغدينا، فأخذت عظامه، فوضعتها عند باب داري أتجمل بها عند جبراني، فجاء هذا وأخذها، ووضعها على باب داره، يوهم الناس أنه هو الذي أكل الرأس.

قال رجل من البخلاء لولده: اشتروا لي لحماً فاشتروا له، وأمر بطبخه حتى تهرأ، فأكل منه حتى انتهت نفسه، وشرعت إليه عيون ولده، فقال: ما أنا مطعمه أحداً منكم إلا من أحسن صفة أكله. فقال الأكبر أتعرقه يا أبت حتى لا أدع للذرة فيه مقيلاً؟ قال: لست بصاحبه. فقال الأوسط: أتعرقه يا أبت حتى لا يدرى ألعامه هو أم لعام أول؟ قال: لست بصاحبه. فقال الأصغر: أتعرقه يا أبت ثم أدقه دقاً، وأسفه سفافاً؟ قال: أنت صاحبه، وهو لك دونهم.

وقال عمرو بن بحر الجاحظ: كان أبو عبد الرحمن الثوري يعجبه الرؤوس ويصفها، ويسميها العرس، لما فيها من الألوان الطيبة، وربما سماه الكامل، والجامع، ويقول: الرأس شيء واحد، وهو ذو ألوان عجيبة وطعوم مختلفة، والرأس فيه الدماغ، وطعمه مفرد، وفيه العينان، وطعمهما مفرد، والشحمة التي بين أصل الأذن ومؤخر العين، وطعمها مفرد، على أن هذه الشحمة خاصة أطيب من المخ وأرطب من الزبد، وأدسم من السلاء. وفي الرأس اللسان، وطعمه مفرد، والخيشوم، والغضروف، ولحم الخدين، وكل شيء من هذه طعمه مفرد. والرأس سيد البدن، والدماغ هو معدن العقل، وخاصة الحواس، وبه قوام البدن، وفيه يقول الشاعر

وغودر عند الملتقى ثم سائري

إذا نزعوا رأسي وفي الرأس أكثرني

وقيل لأعرابي: أنتحسن أن تأكل كل الرأس؟ قال: نعم أبخس عينيه، وأفك لحبيبه، وأسحى خدييه، وأرمي بالدماغ إلى من هو أحق به مني. وكانوا يكرهون أكل الدماغ، ولذا يقول قائلهم:

ولا أبتغي المخ الذي في الجماجم

وكان أبو عبد الرحمن يجلس مع ابنه يوم الرأس ويقول له: إيام ونهم الصبيان، وبغر السباع، وأخلاق النوايح، ونهش الأعراب، وكل ما بين يديك، فإنما حظك منه ما قبلك. وأعلم أنه إذا كان في الطعام شيء طريف، من لقمة كريمة أو مضغة شهية، فإنما ذلك للشيخ المعظم، والصبي المدلل، ولست بواحد منهما. وقد قالوا مدمن اللحم كمدمن الخمر. أي بني، لا تخضم خضم البراذين، ولا تدمن الأكل إدمان النعاج، ولا تلقم لقم الجمال، ولا تنهش نهش السباع، وعود نفسك الأثرة، ومجاهدة الهوى والشهوة، فإن الله جعلك إنساناً فلا تجعل نفسك بهيمة، وأحذر صرعة الكظة وسرف البطننة، فقد قال بعض الحكماء: إذا كنت تُهما فعد نفسك من الزمنى. واعلم أن الشبع داعية البشم، والبشم داعية السقم، والسقم داعية الموت، ومن مات هذه الميتة فقد مات ميتة لثيمة، لأنه قاتل نفسه، وقاتل نفسه الأثم من غيره. أي بني، والله ما أدى حق الركوع والسجود ذو الكظة، ولا خشع لله ذو بطنة، والصوم مصححة، والوجبات عيش الصالحين. أي بني، لأمر ما طالت أعمار الرهبان، وصحت أبدان الأعراب، والله در الحارث بن كلدة حيث زعم أن الدواء هو الأزم، وأن الداء كله هو في فضول الطعام، فكيف لا يرغب في شيء يجمع لك في صحة البدن، وذكاء الذهن، وصلاح الدين والدنيا، والقرب من عيش الملائكة؟ أي بني، ما صار الضب أطول شيء عمراً إلا أنه يتبلغ بالنسيم، وما زعم الرسول أن الصوم وجاءً إلا أنه جعله حجازاً دون الشهوات، فافهم تأديب الله، وتأديب الرسول. أي بني، قد بلغت تسعين عاماً ما نقص لي سن، ولا انتشر لي عصب، ولا عرفت وكف أنف، ولا سيلان عين، ولا سلس بول، وما لذلك علة إلا التخفف من الزاد. فإن كنت تحب الحياة فهذه سبيل الحياة، وإن كنت تحب الموت، فلا أبعد الله غيرك.

ومن البخلاء أبو الأسود الدؤلي، وقفت عليه امرأة وهو في فسطاط، وبين يديه طبق تمر، فقالت: السلام عليك، قال أبو الأسود كلمة مقبولة. ووقف عليه أعرابي، وهو يأكل، فقال الأعرابي: أدخل؟ قال: وراءك أوسع لك. قال: الرمضاء أحرقت رجلي. قال: بل عليهما يردان. قال: أتأذن لي أن أكل معك؟ قال: سيأتيك ما قدر لك. قال: تالله ما رأيت رجلاً ألام منك. قال: بلى قد رأيت إلا أنك نسيت. ثم أقبل أبو الأسود يأكل حتى إذا لم يبق في الطبق إلا تمرات يسيرة نبذها له، فوقع تمره منها فأخذها الأعرابي ومسحها بكسائه. فقال أبو الأسود: يا هذا إن الذي تمسحها به أقدر من

الذي تمسحها منه. قال: كرهت أن أدعها للشيطان. قال: لا والله ولا لجبريل وميكائيل ما كنت لتدعها. الأصمعي قال: قال مر رجل بأبي الأسود الدؤلي، وهو يقول: من يعشي الجائع؟ فقال أبو الأسود: علي به، فأتاه بعشاء كثير. وقال: كل حتى تشبع، فلما أكد ذهب ليخرج، قال: أين تريد؟ قال: أريد أهلي. قال: لا أدعك تؤذي المسلمين الليلة بسؤالك، اطرحوه في الأدهم، فبات عنده مكبولاً، حتى أصبح.

قال الهيثم بن عدي: نزل بابن أبي حفصة ضيف باليمامة، فأخلى له المنزل، ثم هرب عنه مخافة أن يلزمه قراه تلك الليلة، فخرج الضيف، فاشترى ما يحتاجه، ثم رجع وكتب له:

وهارباً من شدة الخوف

فارجع تكن ضيفاً على الضيف

يأيها الخارج من بيته

ضيفك قد جاء بزادٍ له

وقال آخر:

في شرابي وطعامي

ي في داجي الظلام

بز ولا غير الحرام

بت ضيفاً لهشام

وسراجي الكوكب الدر

لا حراماً أجد الخ

وله:

فشكا الجوع عدمته

له حتى رحمته

بت ضيفاً لهشام

وبكى لا صنع الله

وكان شيخ من البخلاء يأتي ابن المقفع، فأخ عليه أن يتغدى عنده في منزله، فيمطله ابن المقفع، فيقول: أتراني أتكلف لك شيئاً؟ لا والله لا أقدم لك إلا ما عندي، فلا تتناقل علي. فلم يزل به حتى أحابه، وأتى به إلى منزله، فإذا ليس عند إلا كسر يابسة وملح جريش، فقدمه له. ووقف سائل بالباب، فقال له: بورك فيك، فأخ في السؤال، فقال: والله لئن خرجت إليك لأدقن ساقيك. فقال ابن المقفع، للسائل، أرح نفسك وانج، والله لو علمت من صدق وعيده ما علمت أنا من صدق وعده ما وقفت ساعة ولا راجعته كلمة.

وانتقل رجل من البخلاء إلى دار ابتاعها، فلما حلها وقف سائل، فقال له: صنع الله لك، ثم وقف ثان، فقال له مثل ذلك، ثم وقف ثالث، فقال له مثل ذلك. فقال لابنته: ما أكثر السؤال في هذا المكان. فقالت له: يا أبت. ما تمسكت لهم بهذا القول، فما تبالي كثروا أم قلوا؟ الأصمعي قال: تقول العرب: ما علمتك إلا برما قروناً.

البرم: الذي يأكل مع أصحابه، ولا يجعل شيئاً، والقرون: الذي يأكل تمرتين تمرتين.

وَألم اللثام كلهم وأبخل البخلاء حميد الأرقط الذي يقال له: هجاء الأضياف، وهو القائل في ضيف نزل به وأكله:

وبين أخرى تليها قيد أظفور

ما بين لقمته الأولى إذا انحدرت

وله:

إلى الزور ما ضمت عليه الأنامل

بياناً وعلماً بالذي هو قائل

من العي لما أن تكلم باقل

تجهز كفاح ويحدر حلقة

أتانا وما ساواه سحبان وائل

فما زال عنه اللقم حتى كأنه

دسم العمائم تحيكها الشياطين
كأن أيديهم فيها السكاكين
وليس كل النوى تلقى المساكين

لا مرحباً بوجوه القوم إذ دخلوا
ألفيت جلتنا الشهريز بينهم
فأصبحوا والنوى عالي معرسهم

ما قالت الشعراء في طعام البخلاء

فمن أهدى ما قيل في طعام البخلاء قول جرير في بني تغلب:

حك أسته وتمثل الأمثالا

والتغليبي إذا تتحنح للقرى

وقوله فيهم:

واستوثقوا من رتاج الباب والدار
قالوا لأهمهم بولي على النار

قوم إذا أكلوا أخفوا كلامهم
قوم إذا نبج الأضياف كلبهم

وقال الراعي:

مجت كوادن دهم في مخالباها

اللاقطين النوى تحت الثياب كما

فأين هؤلاء من الذين يقول فيهم الشاعر:

إذا تغدى رفعت ستوره

أبلج بين حاجبيه نوره

لآخر:

فغداني برائحة الطعام
أكلناه على طبق الكلام
كؤوساً حشوها ريح المدام
وكننت كمن تغدى في المنام

أبو نوح أتيت إليه يوماً
وقدم بيننا لحماً سميناً
فلما أن رفعت يدي سقاني
فكان كمن سقى ظمآن آلا

ولآخر:

يصلون الصلاة بلا أذان

تراهم خشية الأضياف خرساً

ولحماد عجرد:

بما يصلح المعدة الفاسدة
فعودهم أكلة واحدة

حريث أبو الصلت ذو خبرة
تخوف تخمة إخوانه

ولآخر:

كمثل الدراهم في رفته
تطاير في البيت من خفته

أتانا بخبز له حامض
إذا ما تنفس حول الخوان

فنحن كظوم له كلنا

فيكلمه اللحظ من رقة

نزل رجل من العرب ببخيل، فقد إليه جرادا فعافه، وأمر برفعه وقال:

لحا الله بيتاً ضمنى بعد هجعة

فأبصرت شيخاً قاعداً بفنائنه

أتانا ببرقان الدبي في إنائه

فقلت له غيب إناءك واعتزل

ضاف القطامي الشاعر في ليلة ريح ممطرة إلى عجوزٍ من محارب، فلم تقره شيئاً فرحل عنها وقال:

تضيفت في برد وريح تُلْفني

إلى حيزبون توقد النار بعدما

تصلى بها برد العشاء ولم تكن

فما راعها إلا بغام مطيتي

فجنت جنوناً من دلائث مناخة

سرى في جليد الليل حتى كأنما

تقول وقد قربت كوري وناقتي

فسلمت والتسليم ليس يسرها

فردت سلاماً كارهاً ثم أعرضت

فلما تنازنا الحديث سألتها

من المشتوين القد في كل شتوة

فلما بدا حرمانها الضيف لم يكن

وقمت إلى مهريّة قد تعودت

إلا إنما نيران قيس إذا شتوا

وقال الخليل بن أحمد:

كفاه لم تخلقا للندى

فكف عن الخر مقبوضه

وكف ثلاثة آلافها

يرد التنفس من خشيته

ويأكله الوهم من قلته

إليه دجوجي من الليل مظلم

هو العير إلا أنه يتكلم

ولم يك برقان الدبي لي مطعم

فما ذاق هذا لا أبا لك مسلم

وفي طرمساء غير ذات كواكب

تلفعت الظلماء من كل جانب

تخال وميض النار يبدو لراكب

تريح بمحسور من الصدر لاغب

ومن رجل عاري الأشاجع شاحب

تخزم بالأطراف شوك العقارب

إليك فلا تذعر علي ركائبي

ولكنه حق على كل جانب

كما انحاشت الأفعى مخافة ضارب

من الحي قالت معشر من محارب

وإن كان عام الناس ليس بناصب

علي مبيت السوء ضربة لازب

يذاها ورجلاها حثيث المواكب

لطارق ليل مثل نار الحباب

ولم بك بخلهما بدعه

كما نقصت مائة سبعة

وتسع مئيتها لها شرعه

إذا يكون لهم عيدٌ وإفطار
وليس يبلغنا ما تنضج النار

وجيرة لا ترى في الناس مثلهم
إن يوقدوا يوسعونا من دخانهم

وقال أحمد بن نعيم السلمي في بني حسان:

جراديم أشباه النخامة تبلع
ويصبح من عين أسنّه يتطلع
قري الجن أو أدنى لجوعٍ وأبشع
لدى القوم نارٌ يشتوى لك ضفدع

إذا احتقلوا لضيف لهوج قدرهم
تبل ختان الضيف حتى تريبه
ويقريبك من أكرهته من سوادهم
عظاماً وأرواثاً وبعراً وإن يكن

ولآخر:

على ميت مستودع بطن ملحد
ويأمر بعضٌ بعضنا بالتجلد

فبتنا كأننا بينهم أهل مأم
يحدث بعضٌ بعضنا بمصابه

ولآخر:

وبقي العضاريط اللئام
ل ولا يشم له طعام

ذهب الكرام فلا كرام
من لا يقيل ولا يني

ولآخر:

لا والرغيف، فذاك البر من قسمه
فإن موقعها من لحمه ودمه
على جرادقه كانت على حرمة

صدق أليته إن قال مجتهدا:
فإن هممت به، فافتك بخيزته
قد كان يعجبني لو أن غيرته

ولآخر:

ما إليه لناظر من سبيل
ئف في سلتين في منديل
والمفاتيح عند ميكائيل

إن هذا الفتى يصون رغيماً
هو في سفرتين من أدم الطا
في جراب في جوف تابوت موسى

وقال أبو نواس في فضل الرقاشي:

وقدر الرقاشيين زهراء كالبدر
ويخرج ما فيه على طرف الظفر
أمامهم الحولي من ولد الذر

رأيت قدور الناس سوداً من الصلى
يضيق بحيزوم البعوضة صدرها
إذا ما تتادوا للرحيل سعى بها

وقال في إسماعيل الكاتب:

ي إذا ما انشق يرفا
عة فيه كيف يخفى
ألطف الأمة كفا
ف من الجردق نصفا
ما يرى مغرز إشفى

إن كنت ترغب في كلامه
أو كسر عظم من عظامه

حسبت الخبز في جو السحاب
ولكن خفت مرزئة الذباب

له حباء وله خير
إن أذى التخمة محذور
بالصوم والصائم مأجور

دق كما دق بأن يذكرنا
لكنه صوم لمن أفطرا
يكفي به الشاهد أن يخبرا
قط كما لم ينكر المنكرا

عى دهره إن الكريم معين
مخافة أن يرجى نداء حزين
ولم يدر أن المكرمات تكون

وفي كل معروف عليك يمين
فلم تلقه إلا وأنت كمين

خبز إسماعيل كالوش
عجباً من أثر الصن
إن رفاعك هذا
فإذا قابل بالنص
أحكم الصنعة حتى

ارفع يمينك من طعامه
سيان كسر رغيفه

رأيت الخبز عز لديك حتى
وماروحتنا لتذب عنا

زرت امرأ في بيته مرة
يحذر أن يتخم إخوانه
ويشتهي أن يؤجروا عنده

طعام من لست له ذاكرنا
لا يفطر الصائم من أكله
في وجهه من لؤمه شاهد
لم تعرف المعروف أفعاله

خليلي من كعب أعينا أذاكما
ولا تبخلا بخل ابن قزعة إنه
كأن عبيد الله لم يلق ماجداً

فقل لأبي يحيى متى تدرك العلا
إذا جننته في حاجة سد بابيه

ولآخر:

ولآخر:

ولآخر:

ومن قولنا في نحوه:

وقال آخر:

باب من أخبار البخلاء

الرياشي قال: صاحب رجل رجلا من البخلاء، فقال له: احملني. فقال: ما كنت لأنزل وأحملك. قال: ما أنت بجاتمٍ حيث يقول:

فذاك وإن كان العقاب فعاقب

أنخها فأردفه فإن حملتكما

قال: ما فيها محمل، ولا بي طاقة على المشي. وقد قال شاعرهم حاتم:

وإما عطاء لا ينهنه الزجر

أماوي إما مانع فمبين

وقال كثير عزة:

منوع إذا مانعته كان أحزما

مهين تلاد المال فيما ينوبه

سأل عبد الرحمن بن حسان بن ثابت من بعض الولاة حاجة، فلم يقضها، فتشفع إليه برجل فقضاها، فقال:

تولى سواكم أجرها واصطناعها

ذممت ولم تحمد وأدركت حاجتي

ونفس أضاق الله بالخير باعها

أبى لك كسب المجد رأي مقصر

عصاها، وإن همت بشر أطاعها

إذا هي حثته على الخير مرة

احتاج أبو الأسود الدؤلي مرة، فبعث إلى جار له موسر يستسلفه، وكان حسن الظن به، فاعتل عليه ورده، فقال:

يعيش بجد حازمٌ وبليد

لا تشعرن النفس ياساً فإنما

فكل قريب لا ينال بعيد

ولا تطمعن في مال جارٍ لقربه

وكتب إلى آخر يستسلفه، فكتب إليه: المؤونة كثيرة، والفائدة قليلة، والمال مكذوب عليه. فكتب إليه أبو الأسود: إن كنت كاذباً فجعلك الله صادقاً، وإن كنت صادقاً فجعلك الله كاذباً.

وقال بعض الشعراء في بخيل:

ش مقيم في ظل عيش ظليل

ميت مات، وهو في كنف العي

أبو جعفر أخي وخليبي

في عداد الموتى وفي عامر الدني

مات عن كل صالح وجميل

لم يمت ميته الحياة ولكن

ولآخر:

ومال يزيد كله ليزيد

فأما قراه كله فلنفسه

ولآخر:

يسل السيف فيه من القراب

له يومان يوم ندى ويوم

وأما بأسه فعلى الكلاب

فأما جوده فعلى النصارى

ولآخر:

فصادفت جلموداً من الصخر أملسا

كدحت بأظفاري وأعملت معولي

وأطرق حتى قلت قد مات أو عسى

تجهم لما جئت في وجه حاجتي

فأجمعت أن أنعاه لما رأيته

وأنشد أبو جعفر البغدادي للجلودي:

جاء بدينارين لي صالحٌ

أدناهما تحمله ذرةٌ

بل لو وزنالك ظليهما

لكان لا كانا ولا أقلحا

ولحماد عجرد:

أورق بخير تؤمل للجزيل فما

إن الكريم ترى في الناس عفته

وللبخيل على أمواله علل

وأنشد:

جاد ابن موسى من دنائيره

كلاهما في الكف من خفة

قلت وقلبي لهما منكر

فكان هذا عنده بهرجا

ثم وزنا واحداً منهما

فكان في كفة ميزانه

يفوق فواق الموت حتى تنفسا

أصلحه الله وأخزاهما

وتلعب الريح بأوفاهما

ثم عمدنا فوزناهما

عليهما يرجح ظلاهما

ترجى الثمار إذا لم يورق العود

حتى يقال غني وهو مجهود

زرر العيون عليها أوجهٌ سود

لنا بدينارين أسرارا

لو نفخا من فرسخ طارا

أريهما للحين قسطارا

وكان هذا عنده بارا

كان له القسطار مختارا

ينقص قيراطاً ودينارا

باب ما قيل في البخلاء

سمع رجل أبا العتاهية ينشد:

فارمي بطرفك حيث شئت فلن تري إلا بخيلا

فقال له: بخلت الناس كلهم. قال: فأردني واحداً سمحاً! وقال ابن حازم:

وقالوا لو مدحت فتى كريماً

بلوت ومر بي خمسون عاماً

فلا أحدٌ يعد ليوم خير

ولآخر:

لما رأنا فر بوابه

فقلت وأين لي بفتى كريم؟

وحسبك بالمجرب من عليم

ولا أحد يعود على عديم

وانسد من غير يد بابه

كلب له من بعضه حاجب

ومن قولنا:

يحجبه إن غاب حجابيه

لي بكف لبعض من لا أسمى
لمديح ولا يبالي بدم
راشح الخد والجبين بسم
لي حتى حسبته سيدمي
معرفةً فيه بين خال وعم
بأبي أنت من نصيح وأمي

جعل الله رزق كل عدوٍ
كف من لا يهز عطفه يوماً
يتلقى الرجاء منه بوجه
جنته زائراً فما زال يشكو
ألف اللوم فيه من كل طرف
قد نهاني النصيح عنه مراراً

ومن قولنا:

حتى مددت إليه الكف مقتبسا
من لؤمه بعضاً موسى لما انبجسا
فكان ذاك له روحاً وذا نفسا
حتى إذا جاء مهدي تحفة نبسا

يراعة غرني منها وميض سني
فصادفت حجراً لو كنت تضربه
كأنما صيغ من بخل ومن كذب
كلب يهر إذا ما جاء زائره

ومن قولنا:

عنوانها بالبخل مختوم
والمطل والتسويق واللوم
رجس ومن عرفانه شوم
فخبزه في الجوف هاضوم
فهو بلحظ العين مكلوم
فإنه بالجوع مأدوم

صحيفة طابعتها اللوم
أهداها والخلف في طيها
من وجهه نحس ومن قربه
لا تهتضم إن كنت ضيفاً له
تكلمه الألاحظ من رقة
لا تأتدماً شيئاً على أكله

احتجاج البخلاء

الأصمعي: قال أبو الأسود الدؤلي: لو أطعمنا المساكين أموالنا لكنا أسوأ حلاً منهم. وقال لبيد: لا تطيعوا المساكين في أموالكم، فإنهم لا يقنعون منكم حتى يروكم مثلهم. وقال لهم أيضاً: لا تجاودوا الله، فإنه لو شاء أن يغني الناس كلهم لفعّل، ولكنه علم أن قوماً لا يصلحهم الغنى ولا يصلح لهم إلا الفقر، وقوماً لا يصلحهم الفقر ولا يصلح لهم إلا الغنى.

وقال سهل بن هارون: لو قسمت في الناس مائة ألف لكان الأكثر لائمي.

ونحوه قول ابن الجهم: منع الجميع أرضي للجميع.

وقال رجل من تغلب: أتيت رجلاً من كندة أسأله، فقال: يا أبا بني تغلب، إني لن أصلك حتى أحرم من هو أقرب إلي منك، وإني والله لو مكنت من داري لنقضوها طوبة طوبة. والله يا أبا بني تغلب، ما بقي بيدي من مالي وأهلي وعرضي إلا ما منعت من الناس.

وهذا نظير قول لآخر: من أعطى في الفضول قصر في الحقوق.

وقال رجل لسهل بن هارون: هبني ما لا مرزئة عليك فيه. قال: وما ذاك يا بن أخي؟ قال: درهماً واحداً. قال: يا بن أخي. لقد هونت الدرهم، وهو طاب الله في أرضه الذي لا يعصى، والدرهم ويحك عشر العشرة، والعشرة عشر المائة، والمائة عشر الألف، والألف دية المسلم. ألا ترى يا ابن أخي إلى أين انتهت الدرهم الذي هونت؟ وهل بيوت المال إلا درهم على درهم.

وروي عن لقمان الحكيم أنه قال لابنه: يا بني، أوصيك باتنتين ما تزال بخير ما تمسكت بهما: درهمك لمعاشك، ودينك لمعادك.

وقال أبو الأسود: إمساكك ما بيدك خير من طلبك ما بيد غيرك. وأنشد في المعنى:

وللبخل خير من سؤال بخيل

يلومونني في البخل جهلاً وضلةً

ونظيره قول المتلمس:

وضرب في البلاد بغير زاد

وحبس المال خير من بغاه

ولا يبقى الكثير مع الفساد

وإصلاح القليل يزيد فيه

وقيل لخالد بن صفوان: ما لك لا تنفق فإن مالك عريض؟ قال: الدهر أعرض منه. قيل له: كأنك تؤمل أن تعيش الدهر كله؟ قال: لا، ولكن أخاف ألا أموت في أوله.

وقال الجاحظ للحزامي: أترضى أن يقال لك بخيل؟ قال: لا أعدمني الله هذا الاسم، لا يقال لي بخيل إلا وأنا ذو مال، فسلم لي المال وسمي بأي اسم شئت. قلت: ولا يقال لك سخى إلا وأنت ذو مال، فقد جمع الله لاسم السخاء المال والحمد، وجمع لاسم البخل المال والدم. قال: بينهما فرقٌ عجيب وبون بعيد، إن في قولهم بخيل سبباً لمكث المال في ملكي، وفي قولهم سخى سبباً لخروج المال عن ملكي، واسم البخيل فيه حزم، واسم السخى فيه تضييع وحمد، والمال ناض نافع وكرم لأهله، والحمد ربح وسخرية وسمعة وطمذة، وما أقل غناء الحمد عنه إذا جاع بطنه، وعرى ظهره، وضاع عياله، وشمت به عدوه.

وقال محمد بن الجهم: من شأن من استغنى عنك ألا يقيم عليك، ومن احتاج إليك ألا يزول عنك، فمن حبك لصديقك وضمنك بمودته ألا تبذل له ما يغنيه عنك، وأن تتلطف له فيما يجوجه إليك. وقد قيل في مثل هذا: أجمع كلبك يتبعك وسمنه يأكلك. فمن أغنى صديقه فقد أعانته على الغدر، وقطع أسبابه من الشكر، والمعين على الغدر شريك الغادر، كما أن مزين الفجور شريك الفاجر.

وقال يزيد بن عمر الأسدي لبنيه: يا بني، تعلموا الرد فإنه أسد من العطاء، ولأن تعلم بنو تميم أن عند أحدكم مائة ألف درهم أعظم له في أعينهم من أن يقسمها عليهم، ولأن يقال لأحدكم بخيل وهو غني، خيرٌ له من أن يقال له سخى وهو فقير.

وقال الجذامي: يقولون: ثوبك على صاحبك أحسن منه عليك، فما ظنك إن كان أقصر مني؟ أليس يتخيل في قميصي؟! وإن كان أطول مني، أليس يصير آيةً للسائلين؟ فمن أسوأ أثراً على صديقه ممن جعله ضحكة، فما ينبغي لي أن أكسوه حتى أعلم أنه فيه مثلي، فمتى يتفق هذا؟ وقال أبو نواس: كان معنا في السفينة، ونحن نريد بغداد، رجل من أهل خراسان، وكان من فقهاءهم وعقلائهم، وكان يأكل وحده، فقلت له: لم تأكل وحدك؟ فقال: ليس علي في هذا مسألة. إنما المسألة على من أكل مع الجماعة لأنه يتكلف، وأكلي وحدي هو الأصل، وأكلي مع الجماعة تكلف ما ليس علي. ووقع درهم بيد سليمان بن مزاحم، فجعل يقلبه ويقول: في شق: لا إله إلا الله محمد رسول الله، وفي شق آخر: قل هو الله أحد، ما ينبغي لهذا أن يكون إلا تعويذاً ورقية. ورمى به في الصندوق.

وكان أبو عيسى بخيلاً، وكان إذا وقع الدرهم بيده طنه بظفره، وقال: يا درهم، كم من مدينة دخلتها، وأيد دوختها، فالآن استقر بك القرار،

واطمأنت بك الدار. ثم رمى به في الصندوق.

وقال رجل لثمامة بن أشرس: إن لي إليك حاجة. قال: وأنا لي إليك حاجة. قال: وما حاجتك إلي؟ قال: لا أذكرها حتى تضمن قضاءها. قال: قد فعلت. قال: فإن حاجتي إليك ألا تسألني حاجة. فانصرف الرجل عنه.

وكان ثمامة يقول: ما بال أحدكم إذا قال له الرجل: اسقني، أتى بإناء على قدر الري أو أصغر؟ وإذا قال: أطعمني، أتاه من الخبز بما يفضل عن الجماعة، والطعام والشراب أخوان؟ أما إنه لولا رخص الماء وغلاء الخبز ما كلبوا على الخبز وزهدوا في الماء. الناس أرغب شيء في المأكول إذا كثر ثمنه أو كان قليلاً في منبته، ألا ترى الباقلاء الأخضر أطيب من الكمثري، والبادنجان أطيب من الكمأة، ولكن أهل التحصيل والنظر قليل، وإنما يشتهون على قدر الثمن.

وكان يقول: إياكم وأعداء الخبز أن تأندموا بها، وأعدى عدو له المالح، فلولا أن الله أعان عليه بالماء لهلك الحرث والنسل. وكان يقول: كلوا الباقلاء بقشره؛ فإن الباقلاء يقول: من أكلني بقشري فقد أكلني، ومن أكلني بغير قشري فقد أكلته، فما حاجتكم أن تصيروا طعاماً إلى طعامكم؟ الأصمعي قال: جاء رجل من بني عقيل إلى عمر بن هبيرة فمت إليه بقرابة وسأله أن يعطيه، فلم يعطه شيئاً، ثم عاد إليه بعد أيام، فقال: أنا العقيلي الذي سألتك منذ أيام. فقال له ابن هبيرة: وأنا الفزاري الذي منعك منذ أيام. فقال: معذرة إليك؛ إني سألتك وأنا أظنك يزيد بن هبيرة المحاربي. قال: ذلك الأم لك عندي، وأهون بشأنك علي. نشأ في قومك مثلي فلم تعرفه، ومات مثل يزيد ولم تعلم به، يا حرسى، اسفع بيده. ومن أشعار البخلاء الذين يتمثلون بها:

إلى الناس ما جربت من قلة الشكر

وزهدني في كل خير صنعته

ولآخر:

فإذا أضلك جيبه فاستبدل

ارقع قميصك ما اهتديت لجيبه

ولابن هرمة:

خلق وجيب قميصه مرقوع

قد يدرك الشرف الفتى ورداؤه

ومن أمثالهم في البخل وخلف الوعد قولهم: تختلف الأقوال إذا اختلفت الأحوال. وقولهم:

كلام الليل يمحوه النهار

وقولهم:

بروق الصيف كاذبة الرعود

رسالة سهل بن هارون في البخل

بسم الله الرحمن الرحيم. أصلح الله أمركم، وجمع شملكم، وعلمكم الخير، وجعلكم من أهله.

قال الأحنف بن قيس: يا معشر بني تميم، لا تسرعوا إلى الفتنة فإن أسرع الناس إلى القتال أقلهم حياء من الفرار، وقد كانوا يقولون: إذا أردت أن ترى العيوب حمة فتأمل عياباً، فإنه إنما يعيب الناس بفضل ما فيه من العيب، ومن أعيب العيب أن تعيب ما ليس بعيب، وقبيح أن تنهى مرشداً وأن تغري بمشفق، وما أردنا بما قلنا إلا هدايتكم وتقويمكم وإصلاح فاسدكم وإبقاء النعمة عليكم، ولئن أخطأنا سبيل إرشادكم فما أخطأنا سبيل حسن النية فيما بيننا وبينكم. وقد تعلمون أنا ما أوصيناكم إلا بما اخترناه لكم ولأنفسنا قبلكم، وشهرنا به في الآفاق دونكم. ثم نقول في ذلك ما قال العبد الصالح لقومه: "وما أريد أن أخالفكم إلى ما أمركم عنه إن أريد إلا الإصلاح ما استطعت وما توفيقي إلا بالله عليه توكلت". فما كان أحقكم في

كريم حرمتنا بكم أن ترعوا قصدنا بذلك إليكم على ما رعيناه من واجب حقكم، فلا العذر المبسوط بلغتم، ولا بواجب الحرمة قمتم. ولو كان ذكر العيوب يراد به فخراً لرأينا في أنفسنا عن ذلك شغلاً.

عبتموني بقولي لخادمي: أجيدي العجين، فهو أطيب لطعمه، وأزيد في ريعه. وقد قال عمر بن الخطاب رضي الله عنه: املكوا العجين، فإنه أحد الريعين.

وعبتموني حين ختمت على سد عظيم وفيه شيء ثمين من فاكهة رطبة نفيسة، ومن رطبة غريبة على عبدٍ نهم، وصبي جشع، وأمة لكعاء، وزوجة مضيفة، وليس من أصل الأدب، ولا في ترتيب الحكم، ولا في عادات القادة، ولا في تدبير السادة أن يستوي في نفيس المأكول، وغريب المشروب، وثمين الملبوس، وخطير المركوب، التابع والمتبوع، والسيد والمسود، كما لا تستوي مواضعهم في المجالس، ومواقع أسمائهم في العنوان، ومن شاء أطمع كلبه الدجاج السمين، وعلف حماره السمسم المقشر.

وعبتموني بالختم، وقد ختم بعض الأئمة على مزود سويق وعلى كيس فارغ وقال: طينة خير من ظنة. فأمسكنم عن ختم على لا شيء، وعبتم من ختم على شيء.

وعبتموني أن قلت للغلام: إذا زدت في المرق فزد في الإنضاج ليجتمع مع التأدم باللحم طيب المرق، وقد قال رسول الله صلى الله عليه وسلم: إذا طبخ أحدكم لحماً فليزد من الماء، فمن لم يصب لحماً أصاب مرقاً.

وعبتموني بخصف النعل وبتصدير القميص، حين زعمت أن المخصوصة من النعل أبقى وأقوى وأشبه بالنسك، وأن الترقيع من الخزم، والتفريق من التضييع، والاجتماع من الحفظ. وقد كان رسول الله صلى الله عليه وسلم يخصف نعله، ويرقع ثوبه، ويلطع أصابعه، ويقول: لو أهدى إلي ذراع لقبلت، ولو دعيت إلى كراع لأجبت. وقال عليه الصلاة والسلام: من لم يشبع من الحلال خفت مؤنته وقل كبيره. وقال الحكماء: لا جديد لمن لا يلبس الخلق.

وبعث زياد رجلاً يرتاد له محدثاً، واشترط عليه أن يكون عاقلاً. فأتاه به موافقاً، فقال له: أكنت به ذا معرفة؟ قال: لا، ولكن رأيت في يوم قاتظ يلبس خلقاً، ويلبس الناس جديداً، فتفرست فيه العقل والأدب. وقد علمت أن الخلق في موضعه مثل الجديد في موضعه. وقد جعل الله لكل شيء قدراً، وسمى له موضعاً، كما جعل لكل زماناً رجلاً، ولكل مقام مقالاً. وقد أحيا الله بالسهم، وأمات بالدواء، وأغص بالماء. وقد زعموا أن الإصلاح أحد الكاسيين، كما زعموا أن قلة العيال أحد اليسارين. وقد جبر الأحنف بن قيس يد عتر، وأمر مالك بن أنس بفرك البعر. وقال عمر بن الخطاب: من أكل بيضة فقد أكل دجاجة. ولبس سالم بن عبد الله جلد أضحية. وقال رجل لبعض الحكماء: أريد أن أهدي إليك دجاجة. فقال: إن لا بد فاجعلها بيوضاً.

وعبتموني حين قلت: من لم يعرف مواضع السرف في الموجود الرخيص لم يعرف مواضع الاقتصاد في الممتنع الغالي. ولقد أتيت بماء للوضوء على مبلغ الكفاية وأشد من الكفاية، فلما صرت إلى تفريق أجزائه على الأعضاء وإلى التوفير عليها من وظيفة الماء وجدت في الأعضاء فضلاً عن الماء، فعلمت أن لو كنت سلكت الاقتصاد في أوائله لخرج آخره على كفاية أوله، ولكان نصيب الأول كنصيب الآخر، فعبتموني بذلك وشنعتم علي. وقد قال الحسن، وذكر السرف: أما إنه ليكون في الماء والكلاء. فلم يرض بذكر الماء حتى أردفه الكلاء.

وعبتموني أن قلت: لا يغترن أحدكم بطول عمره، وتقويس ظهره، ورقة عظمه، ووهن قوته، وأن يرى نحوه أكثر من رزقه فيدعوه ذلك إلى إخراج ماله من يده، وتحويله إلى ملك غيره، وإلى تحكّم السرف فيه، وتسليط الشهوات عليه، فلعله أن يكون معمرًا، وهو لا يدري، ومدوداً له في السن وهو لا يشعر، ولعله أن يرزق الولد على اليأس، ويحدث عليه من آفات الدهر ما لا يخطر على باله ولا يدركه عقله، فيسترده ممن لا يردده، ويظهر الشكوى إلى من لا يرحمه، أصعب ما كان عليه الطلب، وأقبح ما كان له أن يطلب. فعبتموني بذلك، وقد قال عمرو بن العاص: اعمل لندياك كأنك تعيش أبداً، واعمل لآخرتك كأنك تموت غداً.

وعبتموني بأن قلت: إن السرف والتبذير إلى مال الموارث وأموال الملوك، وإن الحفظ إلى المال المكتسب، والغنى المحتلب، وإلى ما يعرض فيه بذهاب

الدين، واهتمام العرض، ونصب البدن، واهتمام القلب أسرع، ومن لم يحسب نفقته لم يحسب دخله، ومن لم يحسب الدخل فقد أضاع الأصل، ومن لم يعرف للغنى قدره فقد أذن بالفقر، وطاب نفساً بالذل.

وعبتموني أن قلت: إن كسب الحلال مضمنٌ بالإنفاق في الحلال، وأن الخبيث يتزع إلى الخبيث، وإن الطيب يدعو إلى الطيب، وأن الإنفاق في الهوى حجاب دون الهوى، فعبتم علي هذا القول، وقد قال معاوية: لم أر تبديراً قط إلا وإلى جنبه حق مضيع. وقد قال الحسن: إن أردتم أن تعرفوا من أين أصاب الرجل ماله، فانظروا فيماذا ينفقه، فإن الخبيث إنما ينفق في السرف. وقلت لكم بالشفقة عليكم وحسن النظر مني لكم، وأنتم في دار الآفات، والجوائح غير مأمونات، فإن أحاطت بمال أحدكم آفة لم يرجع إلى نفسه، فاحذروا النقم واحتلاف الأمكنة، فإن البلية لا تجري في الجميع إلا بموت الجميع. وقال عمر بن الخطاب رضي الله عنه في العبد والأمة والشاة والبعير: فرقوا بين المنايا، واجعلوا الرأس رأسين، وقال ابن سيرين: كيف تصنعون بأموالكم؟ قالوا: نفرقها في السفن، فإن عطب بعض سلم بعض. ولولا أن السلامة أكثر ما حملنا أموالنا في البحر. قال ابن سيرين: تحسبها حرقاء وهي صناع.

وعبتموني أن قلت لكم عند إشفاقني عليكم: إن للغنى لسكراً، وللمال لثروة، فمن لم يحفظ الغنى من سكره فقد أضاعه، ومن لم يرتبط المال بخوف الفقر فقد أهمله، فعبتموني بذلك، وقد قال زيد بن جبلة: ليس أحد أقصر عقلاً من غني أمن الفقر، وسكر الغني أكثر من سكر الخمر. وقال الشاعر: في يحيى بن خالد بن برمك.

منوع إذا ما منعه كان أحزماً

وهوب تلاد المال فيما ينوبه

وعبتموني حين زعمتم أني أقدم المال على العلم، لأن المال به يفاد العلم، وبه تقوم النفس قبل أن تعرف فضل العلم، فهو أصل والأصل أحق بالترتيب من الفرع. فقلتم: كيف هذا؟ وقد قيل لرئيس الحكماء: الأغنياء أفضل أم العلماء؟ قال: العلماء. قيل له: فما بال العلماء يأتون أبواب الأغنياء أكثر ما يأتي الأغنياء أبواب العلماء؟ قال: ذلك لمعرفة العلماء بفضل المال، وجهل الأغنياء بحق العلم. فقلت: حالهما هي القاضية بينهما، وكيف يستوي شيء حاجة العامة إليه، وشيء يغني فيه بعضهم عن بعض. وكان النبي صلى الله عليه وسلم يأمر الأغنياء باتخاذ الغنم، والفقراء باتخاذ الدجاج. وقال أبو بكر الصديق رضي الله عنه: إني لأبغض أهل البيت ينفقون نفقة الأيام في اليوم الواحد. وكان أبو الأسود الدؤلي يقول لولده: إذا بسط الله لك الرزق فابسط، وإذا قبض فاقبض.

وعبتموني حين قلت: فضل الغنى على القوت إنما هو كفضل الآلة تكون في البيت أن احتيج إليها استعملت، وإن استغني عنها كانت عدة. وقد قال الحصين بن المنذر: وددت أن لي مثل أحد ذهباً لا أنتفع منه شيء. قيل له: فما كنت تصنع به؟ قال: لكثرة من كان يخدمني عليه، لأن المال مخدم. وقد قال بعض الحكماء: عليك بطلب الغنى، فلو لم يكن فيه إلا أنه عز في قلبك، وذل في قلب عدوك، لكان الحظ فيه جسيماً، والنفع فيه عظيماً. ولسنا ندع سيرة الأنبياء، وتعليم الخلفاء، وتأديب الحكماء لأصحاب اللهو، ولستم علي تردون، ولا رأيي تفندون، فقدموا النظر قبل العزم، وأدركوا ما عليكم قبل أن تدركوا ما لكم، والسلام عليكم. ومن اللوم التطفيل، وهو التعرض للطعام من غير أن يدعى إليه.

أخبار الطفيليين

أولهم طفيل العرائس، وإيه نسب الطفيليين، وقال لأصحابه: إذا دخل أحدكم عرساً فلا يلتفت تلفت المريب، ويتخير المجالس، وإن كان العرس كثير الزحام فليمض، ولا ينظر في عيون الناس، لظن أهل المرأة أنه من أهل الرجل ويظن أهل الرجل أنه من أهل المرأة، فإن كان البواب غليظاً وقاحاً فتبدأ به وتأمره وتنهائه، من غير تعنف عليه، ولكن بين النصيحة والإدلال.

القحذمي قال: يقول الطفيليون: ليس في الأرض عود أكرم من ثلاثة أعود: عصا موسى، وخشب منبر الخليفة، وخوان الطعام. وكان أبو العرقين الطفيلي قد نقش في خاتمه: اللوم شؤم. فقيل له: هذا رأس التطفيل.

أحمد بن علي الحاسب قال: مر طفيلي بسكة النخع بالبصرة على قوم وعندهم وليمة، فاقتحم عليهم وأخذ مجلسه مع من دعي، فأنكره صاحب المجلس. فقالوا له: لو تأنيت أو وقفت حتى يؤذن لك أو يبعث إليك؟ قال: إنما اتخذت البيوت ليدخل فيها، ووضعت الموائد ليؤكل عليها، وما وجهت بهدية، فأتوقع الدعوة، والحشمة قطيعة، واطراحها صلة، وقد جاء في الأثر: "صل من قطعك، وأعط من حرمك". وأنشد:

ر أشم القطار شم الذباب

أو دخاناً أو دعوة الأصحاب

هب طعناً أو لكزة البواب

غير مستأذن ولا هيب

كل ما قدموه لف العقاب

كل يوم أدور في عرصة الدا

فإذا ما رأيت آثار عرس

لم أعرج دون التقم لا أر

مستهيناً بمن دخلت عليهم

فتراني ألف بالرغم منهم

ومنهم أشعب الطماع، قيل له: ما بلغ من طمعك؟ قال: لم أنظر إلى اثنين يتساران إلا ظننتهما يأمران لي بشيء. وفيه يقال: أطمع من أشعب. وقف أشعب إلى رجل يعمل طبقاً، فقال له: أسأل بالله إلا ما زدت في سعته طوقاً أو طوقين. فقال له: وما معنك في ذلك؟ قال: لعله يوماً أن يهدى إلي فيه شيء.

ساوم أشعب رجلاً في قوس عربية، فسأله ديناراً، فقال له: والله لو أهما إذا رمي بها طائر في جو السماء وقع مشوياً بين رغيفين ما أعطيتك بما ديناراً. وبينما قوم جلوس عند رجل من أهل المدينة يأكلون عنده حينئذ إذ استأذن عليهم أشعب، فقال أحدهم: إن من شأن أشعب البسط إلى أجل الطعام، فاجعلوا كبار هذه الحيتان في قصعة بناحية، ويأكل معنا الصغار، ففعلوا. وأذن له، فقالوا له: كيف رأيتك في الحيتان؟ فقال: والله إن لي عليها لجرداً شديداً وحنقاً، لأن أبي مات في البحر وأكلته الحيتان. قالوا له: فدونك خذ بثأر أبيك. فجلس ومد يده إلى حوت منها صغير، ثم وضعه عند أذنه، وقد نظر إلى القصعة التي فيها الحيتان في زاوية المجلس، فقال: أتدرون ما يقول لي هذا الحوت؟ قالوا: لا ندري. قال: إنه يقول: إنه لم يحضر موت أبي ولم يدركه لأن سنه يصغر عن ذلك، ولكن قال لي: عليك بتلك الكبار التي في زاوية البيت، فهي أدركت أباك وأكلته. وكان رجل من الأمراء يستظرف طفيلياً يحضر طعامه وشرابه، وكان الطفيلي أكلواً شروباً، فلما رأى الأمير كثرة أكله وشربه اطرحه وجفاه، فكتب إليه الطفيلي:

وصرت من بابة الأمير

أن أشرب الراح بالكبير

قد قل أكلي وعقل شربي

فليدع بي وهو في أمان

وأقبل طفيلي إلى صنيع فوجد باباً قد أرتج، ولا سبيل إلى الوصول، فسأل عن صاحب الصنيع: إن كان له ولد غائب أو شريك في سفر؟ فأخبر عنه أن له ولداً يبلى كذا. فأخذ رقا أبيض وطواه وطبع عليه، ثم أقبل متدلاً، فقعقع الباب قعقعة شديدة، واستفتح، وذكر أنه رسول من عند ولد الرجل. ففتح له الباب، وتلقاه الرجل فرحاً، وقال: كيف فارقت ولدي؟ قال له: بأحسن حال، وما أقدر أن أكلمك من الجوع. فأمر بالطعام فقدم إليه، وجعل يأكل، ثم قال له الرجل: ما كتب كتاباً معك؟ قال: نعم، ودفع إليه الكتاب. فوجد الطين طرياً. فقال له: أرى الطين طرياً، قال: نعم. وأزيدك أنه من الكد ما كتب فيه شيئاً. فقال: أطفيلي أنت؟ قال: نعم أصلحك الله. قال: كل: لا هنالك الله. وقيل لأشعب: ما تقول في ثريدة مغمورة بالزبدة، مشقفة باللحم؟ قال: فأضرب كم؟ قيل له: بل تأكلها من غير ضرب. قال: هذا ما لا يكون، ولكن كم الضرب، فأقدم على بصيرة؟ وقيل لمزبد المدني، وقد أكل طعاماً كظه: قى. قال: أقى خبزاً نقياً ولحم جدي؟ امرأتي طالق: لو وجدتهما قيتاً لأكلتهما.

وقيل لطفيلي: ما أبغض الطعام إليك؟ قال: القرص. قيل له: ولم ذا؟ قال: لأنه يؤخر إلى يوم آخر.

ومر طفيلي بقوم من الكتبة في مشربة لهم، فسلم ثم وضع يده يأكل معهم. قالوا له: أعرفت منا أحداً؟ قال: نعم، عرفت هذا، وأشار إلى الطعام. فقالوا: قولوا بنا فيه شعراً. فقال الأول:

لم أر مثل سرطة ومطة

وقال الثاني:

ولفة دجاجة ببطة

وقال الثالث:

كأن جالينوس تحت إبطه

فقال الإثنان للثالث: أما الذي وصفناه من فعله فمفهوم، فما يصنع جالينوس تحت إبطه؟ قال: يلقيه الجوارشن كلما خاف عليه التخمة يهضم بها طعامه.

ومر طفيلي على الجماز، فقال له: ما تأكل؟ قال: كلب في قحف خنزير.

ودخل طفيلي على قوم يأكلون فقال: ما تأكلون؟ فقالوا من بغضه: سماً. فأدخل يده وقال: الحياة حرام بعدكم.

ومر طفيلي على قوم كانوا يأكلون، وقد أغلقوا الباب دونه، فتسور عليهم من الجدار، وقال: منعموني من الأرض فحنتكم من السماء.

وقيل لطفيلي: كم اثنان في اثنين؟ قال أربعة أرغفة.

وقيل لآخر: كم كان أصحاب النبي صلى الله عليه وسلم يوم بدر؟ قال: كانوا ثلثمائة وثلاثة عشر درهما.

قال محمد بن أحمد الكوفي حدثنا الحسين بن عبد الرحمن عن أبيه قال: أمر المأمون أن يحمل إليه عشرة من الزنادقة سموه بالبصرة، فجمعوا وأبصرهم

طفيلي، فقال: ما اجتمع هؤلاء إلا لصنيع، فانسئل فدخل وسطهم، ومضى بهم المتوكلون حتى انتهوا بهم إلى زورق قد أعد لهم، فدخل الزورق، فقال

الطفيلي: هي نزهة. فدخل معهم، فلم يكن بأسرع من أن قيدوا وقيد معهم الطفيلي، ثم سير بهم إلى بغداد، فأدخلوا على المأمون، فجعل يدعو

بأسمائهم رجلاً رجلاً، فيأمر بضرب رقابهم، حتى وصل إلى الطفيلي، وقد استوفى العدة، فقال للموكلين: ما هذا؟ قالوا: والله ما ندري، غير أنا وجدناه

مع القوم، فحنتنا به. فقال له المأمون: ما قصتك؟ وملك! قال: يا أمير المؤمنين. امرأته طالق إن كان يعرف من أحوالهم شيئاً، ولا مما يدينون الله به، إنما

أنا رجل طفيلي رأيتهم مجتمعين فظننتهم ذاهبين لدعوة. فضحك المأمون، وقال: يؤدب. وكان إبراهيم بن المهدي قائماً على رأس المأمون، فقال: يا

أمير المؤمنين، هب لي ذنبه، وأحدثك عن حديث عجيب عن نفسي. قال: قل يا إبراهيم. قال: خرجت يا أمير المؤمنين من عنك يوماً، فطفت في

سكك بغداد مطرباً، فانتهيت إلى موضع، فشمت روائح أبا زير قدور قد فاح طيبها، فتاقت نفسي إليها وإلى طيب ريجها، فوقف على خياط،

فقلت: لمن هذه الدار؟ قال: لرجل من التجار البزازين، قلت: ما اسمه؟ قال: فلان بن فلان، فنظرت إلى الدار، فإذا بشباك فيها مطل، فنظرت إلى كف

قد خرجت من الشباك قابضة على عضد ومعصم، فشغلني يا أمير المؤمنين حسن الكف والمعصم عن رائحة القدور، وبقيت باهتاً ساعة، ثم أدركني

ذهني، فقلت للخياط: أهو ممن يشرب النبيذ؟ قال: نعم، وأحسب أن عنده اليوم دعوة، وليس ينادم إلا تجاراً مثله مستورين، فبينما أنا كذلك إذا أقبل

رجلان نبيان راكبان من رأس الدرب، فقال الخياط: هؤلاء منادموه. فقلت: ما اسمهما وما كناهما؟ قال: فلان وفلان. فحركت دابتي ودخلتهما،

وقلت: جعلت فداكما. قد استبطنكم أبو فلان أعزه الله، وسايرتكما حتى بلغا الباب، فأجلاني وقدماني، فدخلنا. فلما رأي صاحب المنزل لم يشك أي

منهما بسبيل، أو قادم قدمت عليهما من موضع، فرحب بي وأجلست في أفضل المواضع، فجيء بالمائدة وعليها خبز نظيف، وأتينا بتلك الألوان، فكان

طعمها أطيب من ريجها، فقلت في نفسي: هذه الألوان قد أكلتها وبقي الكف والمعصم، كيف أصل إلى صاحبتهما، ثم رفع الطعام وجاءونا بوضوء،

فتوضأنا وصرنا إلى بيت المنادمة، فإذا أشكل بيت يا أمير المؤمنين، وجعل صاحب المنزل يلطف بي ويميل علي بالحديث، وجعلوا لا يشكون أن ذلك

منه على معرفة متقدمة، حتى إذا شربنا أقداحاً خرجت علينا جارية كأنها جان تثنى كالخيزران، فأقبلت فسلمت غير حجلة، وثبت لها وسادة

فجلست، وأتي بالعود، فوضع في حجرها، فحسته، فاستبتت في جسها حذقها، ثم اندفعت تغني:

توهما طرفي فأصبح خدها

وفيه مكان الوهم من نظري أثر

وصافحها كفي فألم كفها

فمن مس كفي في أناملها عقر

فهيجت يا أمير المؤمنين بلابلي، وطربت لحسن شعرها، ثم اندفعت تعني:

أشرت إليها هل عرفت مودتي

فردت بطرف العين إني على العهد

فحدت عن الإظهار عمداً لسرها

وحادت عن الإظهار أيضاً على عمد

فصحت: يا أمير المؤمنين: السلاح، وجاءني من الطرب ما لم أملك نفسي، ثم اندفعت فغنت الصوت الثالث:

أليس عجباً أن بيناً يضمني

وأياك لا نخلو ولا نتكلم

سوى أعين تشكو الهوى بجفونها

وتقطيع أنفاس على النار تضرم

إشارة أفواه وغمز حواجب

وتكسير أجفان وكف تسلّم

فحسدتها يا أمير المؤمنين على حذقها ومعرفتها بالغناء، وإصابتها لمعنى الشعر، وأنها لم تخرج من الفن الذي ابتدأت به، فقلت: بقي عليك يا جارية. فضربت بعودها الأرض وقالت: متى كنتم تحضرون مجالسكم البغضاء؟ فندمت على ما كان مني، ورأيت القوم كأنهم تغيروا لي، فقلت: أما عندكم عود غير هذا؟ قالوا: بلى. فأتيت بعود، فأصلحت من شأنه؛ ثم غنيت:

ما للمنازل لا يجبن حزناً

أصمن أم قدم المدى فلبينا

راحوا العشيّة روحةً مذكورة

إن متن متنا أو حيين حيينا

فما أتممتها حتى قامت الجارية فأكبت على رجلي تقبلها، وقالت: معذرةً إليك، فوالله ما سمعت أحد يغني هذا الصوت عناءك، وقام مولاها وأهل المجلس ففعلوا كفعالها، وطرب القوم والله، واستحثوا الشراب، فشرّبوا بالكاسات والطاسات، ثم اندفعت أعني:

أفي الحق أن تمسي ولا تذكريني

وقد سفحت عينا من ذكرك الدما

فردني مصاب القلب أنت قتلته

ولا تتركه ذاهل العقل مغرماً

إلى الله أشكو بخلها وسماحتي

لها غسل مني وتبذل علقما

إلى الله أشكو أنها مادرية

وأني لها بالود ما عشت مكرماً

فطرب القوم حتى خرجوا من عقولهم، فأمسكت عنهم ساعة حتى تراجعوا، ثم اندفعت أعني الثالث:

هذا محبك مطوي على كمده

حري مدامعه تجري على جسده

له يد تسأل الرحمن راحته

مما جنى ويد أخرى على كبده

فجعلت الجارية تصيح: هذا الغناء والله يا سيدي لا ما كنا فيه، وسكر القوم. وكان صاحب المنزل حسن الشرب الصحيح العقل، فأمر غلماناً أن يخرجوهم ويحفظوهم إلى منازلهم وخلوت معه، فلما شربنا أقداحاً قال: يا هذا، ذهب ما مضى من أيامي ضياعاً إذ كنت لا أعرفك، فمن أنت يا مولاي؟ ولم يزل يلح حتى أخبرته الخبر، فقام وقبل رأسي، وقال: وأنا أعجب يا سيدي أن يكون هذا الأدب إلا لملك، وأني لجالس مع الخلافة ولا أشعر؟ ثم سألتني عن قصتي فأخبرته حتى بلغت خبر الكف والمعصم، فقال للجارية: قومي فقولي لفلانة تتزل، ثم لم يزل يتزل حواريه واحدة بعد أخرى وأنظر إلى كفها ومعصمها، وأقول: ليست هي، حتى قال: والله ما بقي غير زوجتي وأختي، ووالله لأنزلنهما إليك، فعجبت من كرمه وسعة صدره، فقلت: جعلت فداك، ابدأ بالأخت قبل الزوجة، فغساها هي، فبرزت، فلما رأيت كفها ومعصمها قلت: هي هذه، فأمر غلماناً فمضوا إلى عشرة

مشايخ من جلة حيرانه، فأقبلوا بهم، وأمر ببدرتين فيهما عشرون ألف درهم، فقال للمشايخ: هذه أختي فلانة، أشهدكم أي زوجتها من سيدي إبراهيم بن المهدي، وأمهرتها عنه عشرين ألفاً، فرضيت النكاح. فدفع إليها البدره وفرق الأخرى على المشايخ، وقال لهم: انصرفوا. ثم قال: يا سيدي، أهد لك بعض البيوت، ففنام مع أهلِكَ. فأحشمني ما رأيت من كرمه، فقلت: بل أحضر عمارية وأحملها إلى منزلي. قال: ما شئت، فأحضرت عمارية وحملتها إلى منزلي، فوالله يا أمير المؤمنين لقد أتبعها من الجهاز ما ضاق عنه بعض بيوتنا، فأولدتها هذا القائم على رأس أمير المؤمنين. فعجب المأمون من كرم الرجل، وأطلق الطفيلي وأجازته وألحق الرجل في أهل خاصته.

ومر طفيلي يقوم يتغدون فقال: سلام عليكم معشر اللثام. فقالوا: لا والله، بل كرام. فثنى رجله وجلس، وقال: اللهم اجعلهم من الصادقين، واجعلني من الكاذبين.

ودخل طفيلي من أهل المدينة على الفضل بن يحيى، وبيده تفاعحة، فألقاها إليه، وقال: حياك الله يا مدني، فلزمها وأكلها. فقال له: شؤم عليك يا مدني، أتأكل التحيات؟ قال: إي والله، والزواكيات الطيبات كنت أكلها.

وقال إبراهيم الموصلي في طفيلي كان يصحبه:

ذبح الدجاج ولا ذبح الفراريج

نعم النديم نديم لا يكلفني

ولو يشاء فزيتون بطسوج

يكفيه لونان من كشك ومن عدس

وقال طفيلي في نفسه:

ومتى ننس يدعنا التطفيل

نحن قوم إذا دعينا أجبنا

وأنا فلم نجدنا الرسول

ونقل علنا دعينا فغبنا

وقال آخر، وأتى طعاماً لم يدع إليه، فقيل له: من دعاك؟ فأنشأ:

فالحمد لي لا لك في الدعوة

دعوت نفسي حين لم تدعني

مخلفه يدعو إلى الجفوة

وكان ذا أحسن من موعد

ودخل طفيلي في صنيع رجل من القبط، فقال له: من أرسل لك؟ فأنشأ:

إن المحب إذا ما لم يزر زارا

أزورك لا أكافيكم بجفوتكم

فقال له القبطي: زر زارا، ليس ندري، من هو؟ اخرج من بيتي.

ونظر رجل من الطفيليين إلى قوم من الزنادقة يسار بهم إلى القتل، فرأى لهم هيئة حسنة وثياباً نقية، فظنهم يدعون إلى وليمة، فتلطف حتى دخل في ليفهم وصار واحداً منهم، فلما بلغ صاحب الشرطة قال: أصلحك الله، لست والله منهم، وإنما أنا طفيلي ظننتهم يدعون إلى صنيع فدخلت في جملتهم. فقال: ليس هذا مما ينحيك مني، اضربوا عنقه. فقال: أصلحك الله، إن كنت ولا بد فاعلاً فأمر السيف أن يضرب بطني بالسيف، فإنه هو الذي ورطني هذه الورطة. فضحك صاحب الشرطة وكشف عنه، فأخبروه أنه طفيلي معروف، فخلى سبيله.

وقال طفيلي:

وخياً من البرني فرسانها الزبد

ألا ليت لي خبزاً تسربل رائباً

بموت كريم لا يشق له لحد

فأطلب فيما بينهن شهادة

وكان أشعب يختلف إلى ينة بالمدينة يطارحها الغناء، فلما أراد الخروج إلى مكة قال لها: ناوليني هذا الخاتم الذي في إصبعك لأذكرك به. قالت: إنه ذهب وأخاف أن تذهب، ولكن خذ هذا العود لعلك تعود.

اصطحب شيخ وحدث من الأعراب، فكان لهما قرص في كل يوم، وكان الشيخ متخلع الأضراس بطيء الأكل، فكان الحدث يبطش بالقرص، ثم يقعد يشتهي العشق، ويتصور الشيخ جوعاً، وكان اسم الحدث جعفرأ. فقال الشيخ فيه:

يطيش بقرصي ثم بيكي على جمل
سميناً وأنساك الهوى شدة الأكل

لقد رابني من جعفر أن جعفرأ
فقلت له لو مسك الحب لم تبت

وقال الحدث:

وإن جعت يوماً لم تكن لي على ذكر
وإن جعت غابت عن فؤادي وعن فكري

إذا كان في بطني طعامٌ ذكرتها
ويزداد حبي إن شبعت تجددأ

وكان أشعب يختلف إلى جارية في المدينة، ويظهر لها التعاشق، إلى أن سأله سلفة نصف درهم، فانقطع عنها وكان إذا لقيها في طريق سلك طريقاً أخرى، فصنعت له نشوقاً وأقبلت به إليه، فقال لها: ما هذا؟ قالت: نشوق عملته لك لهذا الفرع الذي بك. فقال: اشربيه أنت للطمع، فلو انقطع طمعك انقطع فرعي، وأنشأ يقول:

وامنحيني كل صدأ

أخلفي ما شئت وعدي

فاعشق من شئت بعدي

قد سلا بعدك قلبي

شق من يعشق نقدي

إنني آليت لا أع

وقيل لأشعب: ما أحسن الغناء؟ قال: نشيش المقلي. قيل له: فما أطيب الزمان؟ قال: إذا كان عندك ما تنفق. وكان أشعب يعني:

أنت في زمن الشدة

ألا أخبرت أخبارأ

فصار الحب في المعده

وكان الحب في القلب

وقال آخر في طفيلي من أهل الكوفة:

وأوفى عليه منجل بحصاد

زرعنا فلما تمم الله زرعنا

أضر بزراع من دبي وجراد

بلينا بكوفي حليف مجاعة

وقال هشام أخو ذي الرمة لرجل أراد سفراً: إن لكل رفقة كلباً يشركهم في فضلة الزاد، فإن استطعت أن تكون كلب الرفاق فافعل. وخرج أبو نواس مترهاً مع شطار من أصحابه، فتزلوا روضة ووضعوا شراباً، فمر بهم طفيلي، فتطرح عليهم، فقال أبو نواس: ما اسمك؟ قال: أبو الخير. فرحب به وقعد معهم. ثم مرت بهم جارية فسلمت، فرد عليها، وقال لها: ما اسمك؟ قالت: زانة. قال أبو نواس لأصحابه: اسرقوا البياء من أبي الخير، فأعطوها زانة، فتكون زانية، ويكون أبو الخير أبا الخراء، كما هو. ففعلوا.

الجاحظ قال: دعي أبو عبد الله الواسطي إلى صنيع، فدعاني فدعوت أبا الفلوسكي. فلما كان من الغد صبح الفلوسكي الجاحظ، فقال له: أما تذهب بنا هناك يا أبا عثمان؟ قال: نعم. قال: فذهبا حتى أتينا دار صاحب الصنيع، فلم يكن علينا كسوة رائحة ولا تحتنا دواب، فتدخل تجاهنا، فوجدنا البواب ذا غلظ وجفا، فمنعنا فأنحدرنا في جانب الإيوان ننتظر أحداً يعلم أبا عبد الله الواسطي بحالنا. فمكثنا حيناً حتى أتى من نعرفه، فسألناه أن يعلم أبا عبد الله الواسطي بنا، فلما أحبر خرج إلينا يتلقانا، فتقدمني الفلوسكي وتقدمه حتى أتى صدر المجلس، فقعد فيه، ثم قال لي: ها هنا عندنا يا أبا عثمان. فلما حلونا ثلاثتنا قلت للفلوسكي: كيف تسمي العرب من أمالت أنفسها؟ قال الفلوسكي: تسميه ضيفاً، فقال له الجاحظ: وكيف تسمي من

أماله الضيف؟ قال: تسميه ضيفاً. قال الجاحظ: وكيف تسمي من أماله الضيفان؟ قال: ما لمثل هذا عند العرب تسمية، قال الجاحظ: فقلت: قد رضيت أن تكون في منزلة من التطفيل لم تجد لها العرب اسماً، ثم تتحكم تحكم صاحب البيت؟

باب من أخبار المحارفين الظرفاء

منهم أبو الشمقمق الشاعر، وكان أديباً طريفاً محارفاً، وكان صعلوكاً متبرماً بالناس، وقد لزم بيته في أطمار مسحوقة، وكان إذا استفتح عليه أحد بابه خرج، فينظر من فوج الباب، فإن أعجبه الواقف فتح له وإلا سكت عنه. فأقبل إليه يوماً بعض إخوانه اللطفين له، فدخل عليه، فلما رأى سوء حاله، قال له: أبشر أبا الشمقمق، فإننا روينا في بعض الحديث: إن العارين في الدنيا هم الكاسون يوم القيامة. فقال: إن صح والله هذا الحديث كنت أنا في ذلك اليوم بزازاً، ثم أنشأ يقول:

ربي أي حال

ل لمن ذا قلت ذا لي

محت الشمس خيالي

حل أكلي لعيالي

أنا في حال تعالى الله

ليس لي شيء إذا قي

ولقد أفلست حتى

ولقد أفلست حتى

وله:

لي فيه مطية غير رجلي

قربوا للرحيل قربت نعلي

من رأني فقد رأني ورحلي

أتراني أرى من الدهر يوماً

كلما كنت في جميع فقالوا

حيث كنت لا أخاف رحيلاً

وقال أبو الشمقمق أيضاً:

الله يعلم ما لي فيه تليس

إلا الحصيرة والأطمار والديس

فلم يعسر على أحد حجابي

سما الله أو قطع السحاب

علي مسلماً من غير باب

يكون من السحاب إلى التراب

أؤمل أن أشد به ثيابي

ولا خفت الهلاك على دوابي

محاسبة فأغلط في حسابي

فدأب الدهر ذا أبداً ودابي

لو قد رأيت سريري كنت ترحمني

والله يعلم ما لي فيه شادكة

برزت من المنازل والقباب

فمنزلي الفضاء وسقف بيتي

فأنت إذا رأت دخلت بيتي

لأنني لم أجد مصراع باب

ولا انشق الثرى عن عود تخت

ولا خفت الإباق على عبيدي

ولا حاسبت يوماً قهرماني

وفي ذا راحة و فراغ بال

وقال أيضاً:

وقال أيضاً:

لو ركبت البحار صارت فجاجاً
ولو أني وضعت ياقوتة حم
ولو أني وردت عذباً فراتاً
فإلى الله اشتكى وإلى الفض

وقال عمرو بن الهدير:

وقفت فلا أدري إلى أين أذهب
عجبت لأقدار علي تتابعت
ولما التمست الرزق فانجد حبله
خطبت إلى الإعدام إحدى بناته
فزوجنيها ثم جاء جهازها
فأولدتها الحرف النقي فما له
فلو تهت في البيداء والليل مسبل

ولو خفت شراً فاستترت بظلمة
ولو جاد إنسان علي بدرهم
ولو يمطر الناس الدنانير لم يكن
ولو لمست كفاي عقداً منظماً
وإن يقترف ذنباً ببرقة مذنب
وإن أر خيراً في المنام فنازح
ولم أغد في أمرٍ أريد نجاحه
أمامي من الحرمان جيشٌ عرمرم

وقال آخر:

ليس إغلاقي لبابي أن لي
إنما أغلقتة كيلا يرى
منزل أوطنه الفقر فلو

وقال الحسن بن هانئ في هذا المعنى:

لا نرى في متونها أمواجاً
راء في راحتي لصارت زجاجا
عاد لا شك فيه ملحاً أجاجاً
ل فقد أصبحت بزاتي دجاجا

وأي أموري بالعزيمة أركب
بنحس، فأفنى طول عمري التعجب
ولم يصف لي في بحر العذب مشرب
لرفع الغنى إياي إذ جئت أخطب
وفيه من الحرمان تخت ومشجب
على الأرض غيري والد حين ينسب
علي جناحيه لما لاح كوكب

لأقبل ضوء الشمس من حيث تغرب
لرحت إلى رحلي وفي الكف عقرب
بشيء سوى الحصباء رأسي يحصب
من الدر أضحى وهو ودع منقب
فإن برأسي ذلك الذنب يعصب
وإن أر شراً فهو مني مقرب
فقابلني إلا غراب وأرنب
ومنه ورائي جحفل حين أركب

فيه ما أخشى عليه السرقا
سوء حالي من يمر الطرقا
يدخل السارق فيه سرقا

فخف ظهري وقل زواري
أحاط علماً بما حوت داري
مدرجة الرائحين أسراري

أبدأ حتى أوارى في الجدث
تستجد الدهر والطوق يرث

الحمد لله ليس لي نسب
من نظرت عينه إلي فقد
جهري في البيت كامنٌ وعلى

وقال بعض المحارفين:

لزمنتني حرفةً ما تتقضي
كلزوم الطوق إلا أنها

كتاب الزبرجدة الثانية في بيان طبائع الإنسان وسائر الحيوان "وتفاضل البلدان"

"فرش" الكتاب

قال أحمد بن محمد بن عبد ربه رحمه الله: قد مضى قولنا في المتنبين والمرورين، والبخلاء، والطفيليين، والمحدودين. ونحن قائلون بعون الله وتوفيه في طبائع الإنسان وسائر الحيوان، وتفاضل البلدان، والنعمة والسرور، إذ لم يكن مدار الدنيا إلا عليها، ولا قوام الأبدان إلا بها، وإذ هي ثمرة الفراسة، وتركيب الغريزة، واختلاف الهمم، وطيب الشيم، وتفاضل الطعوم. وقد تكلم الناس في النعمة والسرور على تباين أحوالهم، واختلاف همهم، وتفاوت عقولهم، وما يجانس كل رجل منهم في طبعه، ويؤلفه في نفسه، ويميل إليه في وهمه. وإنما اختلف الناس في هذا المذهب لاختلاف أنفسهم، فمنهم من نفسه غضبية، فإنما هم منافسة الأكفاء، ومغالبة الأقران، ومكاثرة العشيرة. ومنهم من نفسه ملكية فإنما هم التفتن في العلوم، وإدراك الحقائق، والنظر في العواقب. ومنهم من نفسه بهيمية، فإنما هم طلب الراحة، وإهمال النفس على الشهوة من الطعام والشراب والنكاح، وعلى هذه الطبيعة البهيمية قسمت الفرس دهرها كله، فقالوا: يوم المطر للشرب، ويوم الريح للنوم، ويوم الدجن للصيد، ويوم الصحو للجلوس. وهي أغلب الطبائع على الإنسان، لأخذها بمجامع هواه، وإيثار الراحة، وقلة العمل، فمنه قولهم: الرأي نائم والهوى يقظان. وقولهم: الهوى إله معبود. وقولهم: ربيع القلب ما اشتهى. وقولهم: لا عيش كطيب نفس.

النفس الملكية

قيل لضرار بن عمرو: ما السرور؟ قال: إقامة الحجة، وإيضاح الشبهة. وقيل لآخر: ما السرور؟ قال: إحياء السنة، وإماتة البدعة. وقيل لآخر: ما السرور؟ قال: إدراك الحقيقة، واستنباط الدقيقة. وقال الحجاج بن يوسف لحريم الناعم: ما النعمة؟ قال: الأمن، فإن رأيت الخائف لا ينتفع بعيش. قال له: زدي. قال: فالصحة، فإن رأيت المريض لا ينتفع بعيش. قال له: زدي. قال له: الغنى، فإن رأيت الفقير لا ينتفع بعيش. قال له: زدي. فالشباب، فإن رأيت الشيخ لا ينتفع بعيش. قال له: زدي. قال: ما أجد مزيداً. وقيل لأعرابي: ما السرور؟ قال: الأمن والعافية.

النفس الغضبية

قيل لحضين بن المنذر: ما السرور؟ قال: لواء منشور، والجلوس على السرير، والسلام عليك أيها الأمير. وقيل للحسن بن سهل: ما السرور؟ قال: توقيع جوائز، وأمر نافذ. وقيل لعبد الله بن الأهمم: ما السرور؟ قال: رفع الأولياء، ووضع الأعداء، وطول البقاء، مع الصحة والنماء. وقيل لزياد: ما السرور؟ قال: من طال عمره، ورأى في عده ما يسره. وقيل لأبي مسلم صاحب الدعوة: ما السرور؟ قال: ركوب الهماجة، وقتل الجبابرة.

وقيل له: م اللذة؟ قال: إقبال الزمان، وعز السلطان.

النفس البهيمية

قيل لامرئ القيس: ما السرور؟ قال: بيضاء رعبوبة، بالطيب مشبوبة، باللحم مكروبة. وكان مفتوناً بالنساء.
وقيل لأعشى بكر: ما السرور؟ قال: صهباء صافية، تمزجها ساقية، من صوب غادية. وكان مغرماً بالشراب.
وقيل لطرفة: ما السرور؟ فقال: مطعم هني، ومشرب روي، وملبس دفي، ومركب وطى. وكان يؤثر الخفض والدعة.
وقال طرفة:

وجدك لم أحفل متى قام عودي
كميت متى ما تعل بالماء تزبد
كسيد الغضا في الطخية المتورد
ببهكنة تحت الخباء الممدد

فلولا ثلاث هن من عيشة الفتى
فمنهن سبق العاذلات بشرية
وكري إذا نادى المضاف محنباً
وتقصير يوم الدجن، والدجن معجب

وسمع بهذه الأبيات عمر بن عبد العزيز رضي الله عنه، فقال: وأنا والله لولا ثلاث لم أحفل متى قام عودي: لولا أن أعدل في الرعية، وأقسم بالسوية، وأنفر في السرية.

وقال عبد الله بن نمير على مذهب طرفة:

وربك لم أحفل متى قام رامس
كأن أهاها مطلع الشمس ناعس
إذ ابتدر الشخص الكمي الفوارس
إذا ابتز عن أكفالهن الملابس

فلولا ثلاث هن من عيشة الفتى
فمنهن سبق العاذلات بشرية
ومنهن تقريظ الجواد عنانه
ومنهن تجريد الكواكب كالدمى

وقيل ليزيد بن مزيد: ما السرور؟ قال: قبة على غفلة. وكان صاحب وصائف.

وقيل لحرقه بنت النعمان: ما كانت لذة أبيك؟ قالت: شرب الجريال، ومحادثة الرجال.

وقيل لحضين بن المنذر: ما السرور؟ قال: دار قوراء، وجارية حوراء، وفرس مرتبط بالفناء.

وقيل للحسن بن هانئ: ما السرور؟ قال: مجالسة الفتيان، في بيوت القيان، ومنادمة الإخوان، على قضب الريحان وأنشأ يقول:

ونداماي نيام
ليس لي عنه فطام
ومدام وندام
فعلى الدنيا السلام

قلت بالقفص لموسى
يا رضيعي ثدي أم
إنما العيش سماع
فإذا فاتك هذا

وقال معاوية لعبد الله بن جعفر: ما أطيب العيش؟ قال: ليس هذا من مسائلك يا أمير المؤمنين. قال: عزمت عليك لتقولن. قال: هتك الحياء، واتباع الهوى.

وقال معاوية لعمر بن العاص: ما العيش؟ قال: ليخرج من ها هنا من الأحداث، فخرجوا. فقال: العيش كله في إسقاط المروءة.

وقال هشام بن عبد الملك: الذ الأشياء كلها جليس مساعد، يسقط عني مؤونة التحفظ.

وقيل لأعرابي: ما السرور؟ قال: لبس البالي في الصيف، والجديد في الشتاء.

وقيل لآخر: ما النعيم؟ قال: الماء الحار في الشتاء، والبارد في الصيف

البنيان

قال النبي صلى الله عليه وسلم: من بني بنيانا فليتيقنه.

وقالت الحكماء: لذة الطعام والشراب ساعة، ولذة الثوب يوم، ولذة المرأة شهر، ولذة البنيان دهر. كلما نظرت إليه تجددت لذته في قلبك، وحسنه في عينك.

وقالوا: دار الرجل جنته في الدنيا.

وقالوا: ينبغي للدار أن تكون أول ما تتباع وآخر ما يباع.

وقال يحيى بن خالد لابنه جعفر بن يحيى، حين اختط داره لبيئتها: هي قميصك، إن شئت فضيق، وإن شئت فوسع.

وقال هارون الرشيد لعبد الملك بن صالح: كيف منزلك بمنج؟ قال: دون منازل أهلي، وفوق منازل أهلها. قال: وكيف ذلك، وقدرك فوق أقدارهم؟ قال: ذلك خلق أمير المؤمنين أحتذي مثاله.

ولما دخل هارون منبجاً قال لعبد الملك بن صالح: هذا منزلك؟ قال: هو لأمر المؤمنين، ولي به. قال: كيف ماؤه؟ قال: أطيّب ماء. قال: كيف هواؤه؟ قال: أفسح هواء.

وذكر عند جعفر بن يحيى الدار الفسيحة الجو، الطيبة النسيم، فقال رجل عنده: لقد دخلت الطائف فكأني كنت أبشر، وكأن قلبي ينضح بالسرور، ولا أجد لذلك علة إلا طيب نسيمها، وانفساح هوائها.

وقيل للحسن بن سهل: كيف نزلت الأطراف؟ قال: لأنها منازل الأشراف، ينالون فيها ما أرادوا بالقدر، وينالهم فيها من أرادهم بالحاجة.

قولهم في الدار الضيقة

ما هي إلا قوارة حافر، وما هي إلا وجارضيع، وما هي إلا قبرة قانص، وما هي إلا مفحص قطة.

وقالوا: ما هي إلا محلة يعسوب برأس سنان.

ومن مات في دار ضيقة قيل فيه: خرج من قبر إلى قبر.

من كره البنيان

كتب سعد بن أبي وقاص إلى عمر بن الخطاب يستأذنه في بناء بيته، فقال: ابن ما يكتك عن الهواجر، وأذى المطر.

وكتب عامل لعمر بن عبد العزيز يستأذنه في بناء مدينة، فكتب إليه: ابنها بالعدل ونق طرقها من الظلم.

ومر عمر بن الخطاب ببناء يبني بأجر وجص، فقال: لمن هذا؟ فقيل: لعامل من عمالك. فقال: أبت الدراهم إلا أن تخرج أعناقها. وأرسل إليه من يشاطره ماله.

وقيل ليزيد بن المهلب: ما لك لا تبني؟ قال: مترلي دار الإمارة أو الحبس.

ومر رجل من الخوارج بدار تبني فقال: من هذا الذي يقيم كفيلاً؟ والخوارج تقول: كل مال لا يخرج بخروجك ويرجع برجوعك، وإنما هو كفييل بك.

ولما بنى أبو جعفر داره بالأنبار دخلها مع عبد الله بن الحسن، فجعل يريه بنيانه فيها، وما شيد من المصانع والقصور، فتمثل عبد الله بن السحن بهذه الأبيات:

قصوراً نفعها لبني بقبيله

وأمر الله يحدث كل ليلة

ألم تر حوشباً أضحى يبني

يؤمل أن يعمر عمر نوح

وقالوا في الحجاج بن يوسف، إذ بنى مدينة واسط: بناها في غير بلده، وأورثها غير ولده.

اللباس

إسماعيل بن عبد الله بن جعفر عن أبيه قال: رأيت النبي صلى الله عليه وسلم وعليه ثوبان مصبوغان بالزعفران: رداء وعمامة.

علي بن عاصم عن أبي إسحاق الشيباني قال: مررت بمحمد بن الحنفية واقفاً بعرفات، وعليه برد ومطرف خز أصفر.

الشيباني عن ابن جريح، أن ابن عباس كان يرتدي رداء بألف.

أبو حاتم عن الأصمعي أن ابن عون اشترى برنسا، فمرت عليه معادة العدوية، فقالت: مثلك يلبس هذا؟ قال: فذكرت ذلك لابن سيرين، فقال: ألا

أخبرتما أن نميماً الداري اشترى حلة بألف يصلي فيها.

وقال معمر: رأيت قميص أيوب السخيتي كاد يمس الأرض، فسألته عن ذلك، فقال: إن الشهرة كانت فيما مضى في تذييل القميص، وإها اليوم في

تشميره.

وفي موطأ مالك بن أنس رضي الله عنه، أن جابر بن عبد الله قال: خرجت مع رسول الله صلى الله عليه وسلم في غزوة بني أمار، فبينما أنا نازل تحت

شجرة إذا رسول الله، فقلت: هلم يا رسول الله إلى الظل. فترسل رسول الله صلى الله عليه وسلم قال جابر: وعندنا صاحب له تجهزه يذهب يرعى

ظهرنا. قال: فجهزته، ثم أدبر يذهب في الظهر، وعليه ثوبان. قد أحلقا، فنظر إليه رسول الله صلى الله عليه وسلم فقال: ما له ثوبان غير هذين؟ قلت:

بلى يا رسول الله، له ثوبان في العيبة كسوته إياهما. قال: فادعه، فمره يلبسهما. قال: فدعوته فلبسهما ثم ولي. فقال رسول الله صلى الله عليه وسلم:

ماله، ضرب الله عنقه، أليس خيراً له؟ فسمعه الرجل فقال: في سبيل الله يا رسول الله، قال رسول الله صلى الله عليه وسلم: في سبيل الله. فقتل الرجل

في سبيل الله.

العتي قال: أصابت الربيع بن زياد الحارثي نشابة على جبينه، فكانت تنتفض عليه في كل عام، فأتاه علي بن أبي طالب عائداً، فقال: كيف تجردك يا أبا

عبد الرحمن؟ قال: أجدني لو كان لا يذهب ما بي إلا ذهاب بصري لتمنيت ذهابه. قال له: وما قيمة بصرك عندك؟ قال: لو كانت لي الدنيا فديته بها

قال: لا جرم ليعطيك الله على قدر ذلك إن شاء الله، إن الله يعطي على قدر الألم والمصيبة، وعنده تعالى تضعيف كثير. قال له الربيع: يا أمير المؤمنين،

ألا أشكو إليك عاصم بن زياد؟ قال: وماله؟ قال: لبس العباء، وترك الملاء، وغم أهله، وأحزن ولده. فقال: علي عاصماً فلما أتاه عبس في وجهه،

وقال: ويلك يا عاصم، أترى الله أباح لي اللذات وهو يكره أخذك منها؟ لأنت أهون على الله من ذلك، أو ما سمعته يقول: "مرج البحرين يلتقيان.

بينهما برزخ لا يبغيان"، ثم قال: "يخرج منهما اللؤلؤ والمرجان" وقوله: "ومن كل تأكلون لحماً طرياً وتستخرجون حلية تلبسونها". أما والله إن ابتذل

نعم الله بالفعال أحب إليه من ابتذالها بالمقال. وقد سمعته عز وجل يقول: "وأما بنعمة ربك فحدث". وإن الله عز وجل خاطب المؤمنين بما خاطب به

المرسلين فقال: "يأيها الذين آمنوا كلوا من طيبات ما رزقناكم" وقال: "يأيها الرسل كلوا من الطيبات واعملوا صالحاً إني بما تعملون عليم". فقال

عصام: فعلام اقتصرت أنت يا أمير المؤمنين؟ قال: على لبس الخشن وأكل الخشن. قال: إن الله افترض على أئمة العدل أن يقدروا أنفسهم بالعوام للئلا

يتسع على الفقير فقره. قال: فما برج حتى لبس الملاء ونبذ العباء.

لباس الصوف

قدم حماد بن سلمة البصرة فجاء فرقد السبخي وعليه ثياب صوف، فقال له حماد: ضع عنك نصرانيتك هذه، فلقد رأيتنا ننتظر إبراهيم، فخرج علينا

معصفرة، ونحن نرى أن الميتة قد حلت له.

قال أبو الحسن المدائني: دخل محمد بن واسع على قتبية بن مسلم، وإلى خراسان، وعليه مدرعة صوف، فقال له قتبية: ما يدعوك إلى لباس هذه؟

فسكت عنه فقال له قتبية: أكلمك فلا تجيبني؟ قال: أكره أن أقول زهداً فأزكي نفسي، أو أقول فقراً فأشكو ربي.

وقال ابن السماك لأصحاب الصوف: والله لئن كان لباسكم وفقاً لسرايركم لقد أحببتهم أن يطلع الناس عليها، ولئن كان مخالفاً لها لقد هلكتم. وكان القاسم بن محمد يلبس الخنز، وسالم بن عبد الله يلبس الصوف، ومقعدهما واحد في مسجد المدينة، فلا ينكر بعضهما على بعض شيئاً. وقال محمود الوراق في أصحاب الصوف:

وما يعني التصوف والأمانة

أراد به الطريق إلى الخيانة

تصوف كي يقال له أمينٌ

ولم يرد الإله به ولكن

التزين والتطيب

دخل رجل على محمد بن المنكدر يسأله عن التزين والتطيب، فوجده قاعداً على فرش حشايا مصبغة، وجارية تغلفه بالغالية، فقال له: يرحمك الله، جئت أسألك عن شيء فوجدتك فيه. قال: على هذا أدركت الناس.

وفي حديث أن النبي صلى الله عليه وسلم قال: إياكم والشعث، حتى لو لم يجد أحدكم إلا زيتونة فليعصرها وليدهن بها. وقال عليه الصلاة والسلام لعائشة: ما لي أراك شعثاء، مرهءاء، سلنءاء؟ قالت: يا رسول الله، أو لسنا من العرب؟ قال: بلى، وربما أنسييت العرب الكلمة فيعلمنيها جبريل.

الشعثاء: التي لا تدهن. والمرهءاء: التي لا تكتحل. والسلنءاء: التي لا تحتضب.

وقال صلى الله عليه وسلم ما نلت من دنياكم إلا النساء والطيب.

وروى مالك عن يحيى بن سعيد أن أبا قتادة الأنصاري قال: يا رسول الله إن لي جمعة أفأرجلها يا رسول الله؟ قال: نعم وأكرمها. قال: فكان أبو قتادة ربما دهنها في اليوم مرتين.

وروى مالك عن زيد بن أسلم أن عطاء بن يسار أخبره قال: كان رسول الله صلى الله عليه وسلم في المسجد، فدخل رجل ثائر الرأس واللحية، فأشار إليه رسول الله صلى الله عليه وسلم: أن اخرج فأصلح رأسك ولحيتك. ففعل ثم رجع. فقال رسول الله صلى الله عليه وسلم أليس هذا خيراً من أن يأتي أحدكم ثائر الرأس كأنه شيطان؟ وقد تبادحت العرب بحسن الهيئة وطيب الرائحة، فقال النابغة:

يحيون بالريحان يوم السباب

وأكسية الإضريح فوق المشاجب

بخالصة الأردن خضر المناكب

عتاقاً حواشيها رفاقاً نعالها

سيوف جلا الأطباع عنها صقالها

غير أنكاس ولا هوج هذر

وهبوا كل أمون وطمر

يلحفون الأرض هداً الأزر

رقاق النعال طيبٌ حجاتهم

يحييهم بيض الولائد بينهم

يصونون أجساداً قديماً نعيمها

وقال الفرزدق:

بنو دارم قومي ترى حجاتهم

يجرون هداً اليماني كأنهم

وقال طرفة:

أسد غيل فإذا ما فزعوا

فإذا ما شربوا وانتشوا

ثم راحو عقب المسك بهم

وقال كثير عزة:

يميسون في صبغ من العصب متقن
بأقدامهم في الحضرمي الملسن

أشم من الغادين في كل حلة
لهم أزر حمر الحواشي يطونها

وقال آخر:

وهاب الرجال حلقة الباب قعقعوا
وطيب الدهان رأسه فهو أنزع
له حوك برديه أرقوا وأوسعوا

من النفر الشم الذين إذا اعتزوا
جلا الأذفر الأحوى من المسك فرقه
إذا النفر السود اليمانون حاولوا

وقال آخر:

وطول أنضية الأعناق واللمم
راحو كأنهم مرضى من الكرم

يشبهون ملوكاً في مجلتهم
إذا غدا المسك يجري في مفارقتهم

وقال آخر في علي بن داود الهاشمي:

وأنت أشبه خلق الله بالجود
إذا تعصب في أثوابه السود

أما أبوك فذاك الجود نعرفه
كأن ديباجتي خديه من ذهب

الرحلة والركوب

سمع عمرو بن العاص رجلاً يقول: الرحلة قطعة من العذاب. فقال له: لم تحسن، بل العذاب قطعة من الرحلة. ولما مشى هارون إلى مكة ومشت معه زبيدة كانت تبسط الدرانك أمامهم وتطوي خلفهم، فلما أعيا دعا بخادم له، فألقى ذراعاه عليه وتأوه، وقال: والله لركوب حمار شמוש خير من المشي على الدرانك. قال الشاعر:

ولكن من يمشي سيرضى بما ركب

وما عن رضاً صار الحمار مطيتي

وقال أعرابي:

كل الحذاء يحتذي الحافي الوقع

يا ليت لي نعلين من جلد الضبع

الخيل

قد مضى من قولنا في وصف الخيل وفضائلها في كتاب الحروب ما كفى عن إعادتها هنا.

البغال

قال مسلمة بن عبد الملك: ما ركب الناس مثل بغلة طويلة العنان، قصيرة العذار، سفواء العرف، حصاء الذنب، سوطها عنانها، وهمها أمامها. وعاتب الفضل بن الربيع بعض الهاشميين في ركوب بغلة فقال: هذا مركب تظامن عن خيلا الفرس، وارتفع عن ذلة الحمار، وخير الأمور أوسطها.

الحمير

قيل للفضل الرقاشي: إنك لتؤثر الحمير على سائر الدواب. قال: لأنها أرفق وأوفق. قيل: ولم ذلك؟ قال: لا تستبدل بالمكان على طول الزمان، ثم هي أقل داءً وأيسر دواءً، وأخفص مهوى، وأسلم صريعاً، وأقل جماحاً، وأشهر فارهاً، وأقل نظيراً، يزهي راكبه وقد تواضع بركوبه، ويعد مقتصدًا وقد أسرف في ثمنه.

وقال جرير بن عبد الله: لا تركب حماراً، إن كان حديداً أتعب يديك، وإن كان بليداً أتعب رجلك.

طبائع الإنسان وسائر الحيوان

زعم علماء الطب أن في الجسد من الطبائع الأربع اثني عشر رطالاً: فللدم منها ستة أرطال، وللمرة الصفراء والسوداء والبلغم ستة أرطال. فإن غلب الدم الثلاث الطبائع تغير منه الوجه وورم، ويخرج ذلك إلى الجذام. وإن غلبت الثلاث الطبائع الدم أحدث المد، فإذا خاف الإنسان غلبة هذه الطبائع بعضها على بعض فليعدل جسده بالاقتصاد، وينقيه بالمشي، فإن لم يفعل اعتراه ما وصفنا: إما جذام وإما مد. أسأل الله العافية ولا بأس بعلاج الجسد في جميع الأزمان إلا من النصف من تموز إلى النصف من آب، فذلك ثلاثون يوماً لا يصلح فيها علاج، إلا أن يتزل مرض لا بد من مداواته. جعفر بن محمد بن علي بن أبي طالب رضوان الله عليهم قال: الغلام كل سنة مقدار أربع أصابع من أصابعه.

حدثني عبد الرحمن بن عبد المنعم عن أبيه عن وهب بن منبه، أنه قرأ في التوراة: إن الله عز وجل حين خلق آدم ركب جسده من أربعة أشياء، ثم جعلها وراثه في ولده تنمو في أجسادهم، وينمون عليها إلى يوم القيامة: رطب، ويابس، وسخن، وبارد. قال: وذلك أي خلقت من تراب وماء، وجعلت فيه يبساً، فيبوسة كل جسد من قبل التراب، ورطوبته من قبل الماء، وحرارته من قبل النفس، وبرودته من قبل الروح. ثم خلقت للجسد بعد هذا الخلق الأول أربعة أنواع أخرى، وهي ملاك الجسد وقوامه، لا يقوم الجسد إلا بهن، ولا تقوم واحدة إلا بالأخرى: المرة السوداء، والمرة الصفراء، والدم الرطب الحار، والبلغم البارد. ثم أسكنت بعض هذا الخلق في بعض، فجعلت مسكن اليبوسة في المرة السوداء، ومسكن الرطوبة في الدم، ومسكن البرودة في البلغم، ومسكن الحرارة في المرة الصفراء، فأما جسد اعتدلت فيه هذه الفطر الأربع وكانت كل واحدة فيها وفقاً لا تزيد ولا تنقص كملت صحته، واعتدل نباته. وإن زادت بقدر ما زادت. وإن كانت ناقصة عنهن ملن بها وعلوها وأدخلن عليها السقم من نواحيهن لقلتها عنهن، حتى تضعف عن طاقتهن، وتعجز عن مقارنتهن.

قال وهب بن منبه: وجعل عقله في دماغه، وشره في كليته، وغضبه في كبده، وصرامته في قلبه، ورعبه في رثته، وضحكه في طحاله، وحزنه وفرحه في وجهه، وجعل فيه ثلثمائة وستين مفصلاً.

الأصمعي: من لم يخف شعره قبل الثلاثين لم يصلح أبداً، ومن لم يحمل اللحم قبل الثلاثين لم يحمله أبداً.

حدث زيد بن أنحزم قال: حدثني بشر بن عمر عن أبي الزناد عن الأعرج عن أبي هريرة عن النبي صلى الله عليه وسلم قال: كل ابن آدم تأكله الأرض إلا عجب الذنب، منه خلق ومنه يركب.

وقالت الحكماء: الخنث يعترى الأعراب والأكراد والزنج والمجانين وكل صنف، إلا الخصيان، فإنه لا يكون خصي مختثاً.

وقالوا: كل ذي ريح منتنة وذفر كالتييس وما أشبهه، إذا خصي نقص ريحه وذهب صنانه، غير الإنسان، فإنه إذا خصي زاد تنته واشتد صنانه، وخبث عرقه وريحه. وقالوا: وكل شيء من الحيوان يخصى فإن عظمه يرق، وإذا رق عظمه استرخى لحمه، إلا الإنسان، فإنه إذا خصي طال عظمه وعرض. وقالوا: الخصي والمرأة لا يصلعان أبداً، والخصي تطول قدمه وتعظم.

وبلغني أنه كان لمحمد بن الجهم بردون رقيق الحافر، فخصاه فجاد حافره وحسن.

قالوا: والخصي تلين معاقده عصبه وتسترخي، ويعتريه الاعوجاج والقدح في أصابعه، وتسرع دمعه، ويوجد جلده، ويسرع غضبه ورضاه، ويضيق صدره عن كتمان السر.

وزعم قوم أن أعمارهم تطول لترك الجماع، كما تطول أعمار البغال.

وقالوا: إن على قصر أعمار العصافير من كثرة الجماع.

وقالوا: في الغلمان من لا يحتلم أبداً، وفي النساء من لا تحيض أبداً، وذلك عيب. ومن الناس من لا يسقط شعره ولا يتبدل سنه، فمنهم عبد الصمد بن علي ذكروا أنه دخل قبره برواحه.

وقالوا: الضب والخزير لا يلقيان شيئاً من أسنانهما أبداً.

وقالت الحكماء: إن الجنين يغتذي بدم الحيض يقبل إليه من قبل السرة، ولذلك لا تحيض الحوامل إلا القليل. وقد رأينا من الحوامل من تحيض. وذلك لكثرة الدم.

وتقول العرب: حملت المرأة سهواً، إذا حاضت عليه. وقال الهذلي:

ومبرأ من كل غير حيضة

يعني أنها لم تر عليه دم حيض في حملها به.

وقالوا: فإذا خرج الولد من الرحم دفعت الطبيعة ذلك الدم الذي كان الجنين يغتذيه إلى الثديين، وهما عضوان باردان عصبيان يغيرانه لبناً خالصاً سائغاً للشاربين.

وقالوا: يعيش الإنسان حيث تعيش النار ويتلف حيث لا تبقى النار.

وأصحاب المعادن والحفائر إذا هجموا على فنت في بطن الأرض أو مغارة قدموا شمعة في طرف قناة، فإن عاشت بالنار وثبتت دخلوا في طلبها، وإلا أمسكوا.

والعرب تتشامم ببيكر ولد الرجل إذا كان ذكراً.

وكان قيس بن زهير أزرق بكرةً، ابن بكرين.

وحدث محمد بن عائشة عن حماد عن قتادة عن عبد الله بن حارث بن نوفل قال: بكر البكرين شيطان مخلد لا يموت إلى يوم القيامة. يعني من الشياطين.

قالوا: وابن المذكرة من النساء والمؤنث من الرجال أحب ما يكون، لأنه يأخذ بأحب حصال أبيه وحصال أمه. والعرب تذكر أن الغيرة لا تنجب. وقال عمرو بن معد يكرب:

ألست تصير إذا ما نسب

ت بين المغارة والأحمق

قالت الحكماء: كل امرأة أو دابة تبطن عن الحمل إن واقعها الفحل في الأيام التي يجري فيها الماء في العود فإنها تحمل بإذن الله.

وقالت الحكماء: الزنج شرار الخلق وأردؤهم تركيباً، لأن بلادهم سخنت جداً فأحرقتهم في الأرحام. وكذلك من بردت بلادهم فلم تنضجهم الرحم. وإنما فضل أهل بابل لعله الاعتدال. وقالوا: الشمس هي التي شيطت شعر الزنج وقبضته، والشعر إن أدنيت من النار تقبض، فإذا زدته شيئاً تغفل، فإن زدته احترق.

وقالوا: أطيب الأمم أفاها الزنج وإن لم تستن، وذلك لرطوبة أفواها وكثرة الريق فيها، وكذلك الكلاب من سائر الحيوان أطيبها أفواها، لكثرة الماء فيها وخلوف فم الصائم يكون لقلة الريق، وكذلك الخلوف في آخر الليل.

وقالت الحكماء أيضاً: كل الحيوان إذا ألقى في الماء سبح. إلا الإنسان والقرود والفرس الأعسر، فإن هذه تغرق ولا تسبح.

قالوا: وليس في الأرض هارب من حرب أو غيرها يستعمل الحضر إلا إذا أخذ على يساره، ولذلك قالوا: فمال على وحشية، وأنحى على شؤمي يديه.

وقالوا: كل ذي عين ذوات الأربع: السباع والبهائم الوحشية والإنسية، وإنما الأشفار منها بجفنها الأعلى، إلا الإنسان، فإن الأشفار، يعني الهدب، بجفنيه معاً، الأعلى والأسفل.

وقالوا: كل جلد ينسلخ إلا الإنسان، فإن جلده لا ينسلخ.

وحدث أبو حاتم عن الأصمعي قال: اختصم رجلان إلى عمر رضي الله عنه في غلام، كلاهما يدعيه، فسأل عمر أمه فقالت: غشيني أحدهما ثم أهرقت دماً، ثم غشيني الآخر. فدعا عمر بالرجلين فسألتهما، فقال أحدهما: أعلن أم سر؟ قال: أسر. قال: اشتركتنا فيه. فضربه عمر حتى اضطجع. ثم سأل الآخر، فقال مثل ذلك. فقال عمر: ما كنت أرى مثل هذا يكون، ولقد علمت أن الكلبة يسفدها الكلاب، فتؤدي إلى كل كلب نجله. وركب الناس في أرجلهم، وركب ذات الأربع في أيديها، وكل طائر كفه رجله. الليث بن سعد عن ابن عجلان أن امرأة حملت، فأقامت حاملاً خمس سنين ثم ولدت، وحملت مرة أخرى فأقامت حاملاً ثلاث سنين ثم ولدت. وولد الضحاك بن مزاحم، وهو ابن ثلاثة عشر شهراً. وقال جرير: ولد الضحاك لسنتين، وشعبة لسنتين.

ما نقص من خلقه الحيوان

حدث أبو حاتم عن أبي عبيدة، والأصمعي، وأبو زيد قالوا: الفرس لا طحال له. والبعير لا مرارة له، والظليم لا مخ له. وقال زهير:

من الظلمان جؤجؤه هواء

وكذلك طير الماء. والحيتان لا ألسنة لها ولا أدمغة لها، وصفن البعير لا بيضة فيه، والسكة لا رئة لها ولا تنفس، وكل ذي رئة يتنفس.

المشتركات من الحيوان

الراعي بين الورشان والحمامة. والجوامز من الإبل، بين العراب والفواج. والحمير الأخرية، من الأخدر، فرس كان لأردشير كسرى. توحش وحمى عانات حمير فضرب بها. وأعمارها كأعمار الخيل. والزرافة بين الناقة من نوق الحبش وبين البقرة الوحشية وبين الضبعان، واسمها "اشتركا وبلناك"، وذلك أن الضبعان ببلاد الحبشة يسفد الناقة فتجيء بولد خلقه بين خلق الناقة والضبعان، فإن كان ولد تلك الناقة ذكراً عرض للمهاة فألقحها زرافة. وسميت زرافة لأنها جماعة وهي واحدة، كأنها جمل وبقرة وضبع. والزرافة في كلام العرب: الجماعة. وقال صاحب المنطق: الكلاب تسفدها الذئاب في أرض سلوقية، فتكون منها الكلاب السلوقية.

الأنعام

حديث يزيد بن عمرو عن عبد العزيز الباهلي عن الأسود بن عبد الرحمن عن أبيه عن جده قال: قال رسول الله صلى الله عليه وسلم: ما خلق الله دابة أكرم من النعجة وذلك أنه ستر حياها دون حيا غيرها.

وحدث أبو حاتم عن الأصمعي عن إهاب بن عمير قال: كان لنا جمل يعرف فسج الحامل، قبل أن يشمها.

وقيل لأبنة الخس: ما تقولين في مائة من المعز؟ قالت: قتي. قيل: فمائة من الضأن؟ قال: غني. قيل: فمائة من الإبل؟ قالت: مني. والعرب تضرب المثل في الصرد بالمعز فتقول: أصرد من عتر جرباء.

سئل دغفل العلامة عن بني مخزوم، فقال: معزى مطيرة، عليها قشعريرة، إلا بني المغيرة، فإن فيهم تشادق الكلام، ومصاهرة الكرام. ومما تقول الأعراب على ألسنة البهائم، تقول المعزى: الاست جهوى، والذنب ألوى، والجلد زقاق، والشعر رفاق.

والضأن تضع مرة في السنة وتفرد ولا تنثم، والمعز قد تلد مرتين في السنة وتضع الثلاثة وأكثر وأقل، والنماء والعدد والبركة في الضأن. ونحو هذا الخنازير ربما تضع الأنثى عشرين حنزيراً، لا نمة فيها ولا بركة.

ويقال: الجواميس ضأن البقر، والبخت ضأن الإبل، والبراذين ضأن الخيل، والحردان ضأن الفأر، والدلدل ضأن القنافظ، والنمل ضأن الذر.

وتقول الأطباء: في لحم المعز: إنه يورث الهم، ويحرك السوداء، ويورث النسيان، ويخبل الأولاد، ويفسد الدم. ولحم الضأن يضرب عن يصرع من المرة

إضراراً شديداً، حتى يصرعهم في غير أوان الصرع: الأهله وأنصاف الشهور. وهذان الوقتان هما وقت مد البحر وزيادة الماء، ولزيادة القمر إلى أن يصير بدرأ بين في زيادة الدماغ والدم وجميع الرطوبات. قال الشاعر:

فهم نعجون قد مالت طلاهم

كأن القوم عشوا لحم ضأن

وفي الماعز أيضاً أنها ترضع من خلفها وهي محفلة حتى تأتي على كل ما في ضرعها. وقال ابن أحر:

كالعنز تعطف روقها فتحتفل

إنني وجدت بني أعياء وجاملهم

وإذا رعت الماعزة في فضل نبت ما تأكله الضائنة ولم ينبت ما تأكله الماعزة، لأن الضائنة تقرض بأسنانها والماعزة تقلعه وتجذبه من أصله. وإذا حملت الماعزة أنزلت اللبن في أول الحمل إلى الصرع، والضائنة لا تتزل اللبن إلا عند الولادة، ولذلك تقول العرب: رمدت المعزى فربق ربق، ورمدت الضأن فربق ربق.

وذكور كل شيء أحسن من إناثه إلا التيوس، فإن الصفايا أحسن منها، وأصوات ذكور كل شيء أجهر وأغلظ إلا إناث البقر، فإنها أجهر أصواتاً من ذكورها.

وقرأت في كتاب للروم: إذا أردت أن تعرف ما لون جنين النعجة، فانظر إلى لسانها فإن الجنين يكون على لونه.

وقرأت فيه: إن الإبل تتحامي أمهاتها فلا تسفدها.

وقالوا: كل ثور أفتس، وكل بعير أعلم، وكل ذباب أفرح. وقالوا: البعير إذا صعب وخافوه استعانوا عليه حتى يبرك ويعقل ثم يكومه فحل آخر فيذل، وقد يفعل ذلك بالثور.

وقال بعض القصاص: مما فضل الله به الكبيش أن جعله مستور العورة من قبل ومن دبر، ومما أهان به النيس أن جعله مهتوك الستر، مكشوف القبل والدبر.

وفي مناجاة عزيز: اللهم إنك اخترت من الأنعام الضائنة، ومن الطير الحمامة، ومن النبات الحبة، ومن البيوت مكة وإيلياء، ومن إيلياء بيت المقدس. وفي الحديث "إن الغنم إذا أقبلت وإذا أدبرت أقبلت، والإبل إذا أدبرت أدبرت، ولا يأتي نفعها إلا من جانبها الأشأم". والأقط قد يكون من المعزى. قال امرؤ القيس:

كأن قرون جلتها عصي

لنا غنم نسوقها غزار

وحسبك من غنى شبع وري

فتملاً بيتنا أقطاً وسمنا

النعام

قالوا في الظليم: إن الصيف إذا أقبل وابتدأ البسر بالحمرة ابتدأ لون وظيفيه بالحمرة فلا يزالان يتلونان ويزدادان حمرة إلى أن تنتهي حمرة البسرة. لذلك قيل له خاضب، وللنعام خواضب. وفي الظليم أن كل ذي رجلين إذا انكسرت إحدى رجليه فحضر على الأخرى، والظليم إذا انكسرت إحدى رجليه جثم، ولذا قال الشاعر في نفسه وأخيه:

على أختها نهضا ولا دونها صبيرا

إذا انكسرت رجل النعام لم تجد

قالوا: وعلة ذلك أنه لا مخ في عظمه.

وكل عظم كسر يجبر إلا عظما لا مخ فيه.

والظليم يغتذي المدر والصخر، فتذيبه قانصته بطبعها حتى يصير كالماء. وفي النعام أنها أخذت من البعير المنسم، والوظيف والعنق والخدمة، ومن الطير الريش والجناحين والمناقير، فهي لا يعير ولا طائر.

وقال الأحيمر السعدي: كنت ممن خلعتني قومي وأطل السلطان دمي، وهربت وترددت في البوادي حتى ظننت أني قد جرت نخل وبار أو قريباً من ذلك، وإني كنت أرى النوى في رجيع الذئاب، وكنت أغشى الذئاب وغيرها من بهائم الوحش، ولا تنفر مني لأنها لم تر أحداً قبلي، وكنت أمشي إلى الظلي السمين فأخذه، إلا النعام فإني لم أره قط إلا نافرأً فرعاً.

الطير

بلغني عن مكحول أنه قال: كان من دعاء داود النبي عليه السلام: يا رازق النعاب في عشه. وذلك أن الغراب إذا فقس عن فراخه خرجت بيضاء فإذا رآها كذلك نفر عنها، وتفتح أفواهها فيرسل الله ذباباً يدخل في أفواهها فيكون ذلك غذاءها حتى تسود، فإذا اسودت عاد الغراب فغذاها ودفع الله الذباب عنها.

قال الرياشي: ليس شيء تغيب أذناه من جميع الحيوان إلا وهو يبيض، وليس شيء تظهر أذناه إلا وهو يلد. قال: هذا يروى عن علي بن أبي طالب كرم الله وجهه. وقد نهي رسول الله صلى الله عليه وسلم عن قتل أربعة من الطير: الصرد، والهدهد، والذرة، والنحلة. وقالوا: الطير ثلاثة أضرب: بهائم الطير وهو ما لقط الحبوب والبرور، وسباع الطير وهي التي تتغذى باللحم، ومشترك وهو مثل العصفور يشارك بهائم الطير، فإنه ليس بذئ مخلب ولا منسر. وإذا سقط الطير على عود قدم أصابعه الثلاثة وأخر الدابة. وسباع الطير تقدم إصبعين وتؤخر إصبعين. ويشترك سباع الطير فإنه يلتم فراخه ولا يزقها، وإنه يأكل اللحم ويصطاد الجراد والنمل. وقالوا: العصفور شديد الوطء والفيل خفيف الوطء.

وقال صاحب الفلاحة: العقاب والحدأة يتبدلان فيصير العقاب حدأة والحدأة عقاباً، والأرنب يتبدل فتصير الأثنى ذكراً والذكر أنثى. وذكر الغربان لا يحضن، وكذلك ذكر الأوز وذكر الدجاج. وقال كعب الأحبار: ما ذهب طائر في السماء قط أكثر من اثني عشر ميلاً. ومن حديث سفيان الثوري عن أنس بن مالك قال: عمر الذباب أربعون يوماً، والبعوضة ثلاثة أيام، والبرغوث خمسة أيام. قال: والحمام تعجب بالكمون وتألف الموضع الذي يكون فيه، وكذلك العدس ولا سيما إذا نقع في عصير حلو. ومما يصلح عليه ويكثر أن تدخن بيوتهم بالعلك.

وأمن مواضعها وأصلحها أن يبني لها بيت على أساطين خشب ويجعل فيه ثلاث كوى: كوة في سمك البيت، وكوة من قبل المغرب، وباب من قبل الجنوب.

قال: والسذاب إذا ألقى في اللبن تحامته السنانير البرية.

هشام بن محمد قال: حدثني ابن الكلبي قال: أسماء نساء بني نوح، "إذا كتبتين في زوايا بيت البرج سلمت الفراخ ونمت وسلمت من الآفات. قال هشام: فجرته أنا وغيري فوجدناه كما قال، واسم امرأة سام بن نوح محلت محم، واسم امرأة حام نف نسا، واسم امرأة يافث فالر. والطير الذي يخرج من وكره بالليل البومة، والصدى، والهامة، والضوع، والوطواط، والخفاش، وغراب الليل.

قالوا: وإذا خرج فرخ الحمامة نفخ أبواه في حلقه لتتسع الحوصلة بعد التحامها وتفتق، فإذا اتسعت زقاه عند ذلك اللعاب ثم زقاه بعد ذلك الحب. قال المثني بن زهير: لم أرق قط في رجل أو امرأة إلا رأيت في الحمام، رأيت حمامة لا تريد إلا ذكرها، وذكراً لا يريد إلا أنثاه إلا أن يهلك أحدهما أو يفقد، ورأيت حمامة لا تمنع شيئاً من الذكور، ورأيت حمامة لا تقمط إلا بعد شدة الطلب، ورأيت حمامة تزيف للذكر ساعة يريدتها، ورأيت حمامة تقمط الذكر، ورأيت ذكراً يقمط ما لقي ولا يزواج، ورأيت ذكراً له أنثيان يحضن مع هذه وهذه.

قالوا: ومن عجائب الخفاش أنه لا يبصر في الضوء الشديد ولا في الظلمة الشديدة، وتجل وتلد، وتحيض، وترضع، وتطير بلا ريش، وتحمل ولدها تحت

جناحها، وربما قبضت عليه بفيها، وربما ولدت وهي تطير، ولها أذنان وأسنان، وجناحان متصلان برجليها. قالوا: والخطاف يتبع الربيع حيث كان، وتقلع إحدى عينيه وترجع.

البيض

قالوا: والبيض يكون من أربعة أشياء: منه ما يتكون من السفاد، ومنه ما يتكون من التراب، ومنه ما يتكون من نسيم ريح يصل إلى أرحامها، وهو شيء يعتري الحجل وما شاكلها في الطبيعة، فربما كانت الأنتى على قبالة الريح التي تهب في بعض الزمان فتحثشي لذلك بيضاً. وكذلك النخلة التي تكون تحت الفحال وتحت ريجه فتلقح بتلك الريح وتكتفي بذلك. والدحاجة إذا هرمت لم يكن لبيضها مخ، وإذا لم يكن لها مخ لم يكن لبيضها فرخ، لأن الفرخ يخلق من بياض البيض وغذاؤه الصفرة.

السباع

يقال: إنه ليس في السباع أطيب أفواها من الكلاب، ولا في الوحش أطيب أفواها من الطباء. ويقال: ليس أشد بخرًا من الأسد والصرقر، ولا في السباع أسبح من كلب. وليس في الأرض فحل من سائر الحيوان لذكره حجم إلا الإنسان والكلب. والأسد لا يأكل الحار ولا الحامض ولا يدنو من النار، وكذلك أكثر السباع. وتقول الروم: الأسد يذعر لصوت الذئب ولا يدنو من المرأة الطامث. والأسد إذا بال شجر كما يشجر الكلب، وهو قليل الشرب، ونحوه كنجو الكلب، ودواء عضته كدواء عضه الكلب. قالوا: والعيون التي تضيء بالليل: عيون الأسد والنمور والأفاعي والسنانير.

وقالوا: ثلاثة من الحيوان ترجع في قيمتها: الأسد والكلب والسنور. وقالوا: أيام حمل الكلبة ستون يوماً، فإن وضعت قبل ذلك لم تكد أولادها تعيش. وأناث الكلاب تحيض كل سبعة أيام يوماً، وعلامة ذلك إن يرم ثفر الكلبة، ولا تريد السفاد في ذلك الوقت. وذكر السلوقية تعيش عشرين سنة وتعيش أُنثى اثنتي عشرة سنة. وليس يلقي الكلب من أسنانه إلا النايين. والذئب تسفد الكلاب في أرض سلوقية فتكون منها الكلاب السلوقية. والكلب من الحيوان يحتلم كما يحتلم الإنسان. وقالوا: في طبع الذئب محبة الدم، ويبلغ بطبعه أن يرى ذئباً مثله قد دمي، فيثب عليه فيمزقه. قال الشاعر:

بصاحبه يوماً أحال على الدم

وكنا كذئب السوء لما رأى دمًا

ويقولون: ربما ينام الذئب بإحدى عينيه ويفتح الأخرى، قال حميد بن ثور:

بأخرى الأعادي فهو يقظان نائم

ينام بإحدى مقلتيه ويتقي

قالوا: والذئب أشد السباع مطالبةً، وإذا عجز عوى عواء استغاثة فتسامعت به الذئب، فأقبلت حتى تجتمع على الإنسان أو غيره فتأكله، وليس في السباع من يفعل ذلك غيرها.

وقضيب الذكر من الأرناب من عظم، وكذلك قضيب الثعلب.

والأرناب تنام مفتوحة العين، وتحيض.

وليس لشيء من ذكور الحيوان ثدي في صدره إلا الإنسان والفيل.
ولسان الفيل مقلوب على طرفه داخل.
وزعمت الهند أن ناي الفيل قرناه، يخرجان مستبطين حتى يخرجوا الحنك. ويخرجان منكسين.
وقال صاحب المنطق: ظهر فيل عاش أربع مائة سنة.
وحدثني شيخ لنا عن الزياتي قال: رأيت فيلاً أيام أبي جعفر قيل إنه سجد لسابور ذي الأكتاف، ولأبي جعفر.
والفيلة تضع في سبع سنين.

الحيوان الذي لا يصلح إلا بأمير

الناس، والفأرة، والغرائق، والكراسي، والنحل، والحشرات.
قتادة عن ابن عمر قال: الفأرة يهودية، ولو سقيتها ألبان الإبل ما شربته. والفأرة أصناف: منها الزباب، وهو أصم لا يسمع، والخلد وهو أعمى. وتقول العرب: هو أسود من زبابة، وفأرة البش، والبش سم قاتل يقال: هو قرون السنبل، وله فأرة تغتذيه لا تأكل غيره. وفأرة المسك من غير هذا. وفأرة الإبل: أرواحها إذا عرقت.
قالوا: والأفعى إذا نفثت في فيها الأتراج وأطبقت لحبيها الأعلى على الأسفل لم تقتل بعضها أياماً.
قالوا: الثوم والملح وبعير الغنم نافع جداً إذا وضع على موضع لسعة الحية، والحيات تقتل بريح السذاب والشيخ، وتعجب باللفاح والبسباس، والبطيخ والخردل والحرف، واللبن والخمر.
وليس في الأرض حيوان أصبر على الجوع من الحية، ثم الضب بعدها. وإذا هرمت الحية صغر بدنها، وقنعت بالنسيم.
قالوا: وكل شيء يأكل فهو يحرك فكه الأسفل، ما عدا التمساح فإنه يحرك فكه الأعلى.
وعمصر سمكة يقال لها الرعادة، من اصطادها لم تزل يده ترعد ما دامت في شبكته.
والجمل إذا دفنته في الورد سكنت حركته حتى تسحبه ميتاً، فإذا أدنيت من الروث تحركت ورجعت نفسه.
والبعير إذا ابتلع في علفه خنفساء قتلتها إذا وصلت إلى جوفه حية.
والضب يذبح ثم يمكث ليلة، ثم يقرب من النار فيتحرك.
والأفعى تذب فتبقى أياماً تتحرك وإذا وطئها أحد نهشته، ويقطع ثلثها الأسفل فتعيش، وينبت ذلك المقطوع.
قالوا: وللضب ذكران وللضب حران. حكاه أبو حاتم عن الأصمعي. ويقال لذلك الترك. وأنشد:

على كل حافٍ في الأنام وناعل

سبحل له نركان كانا فضيلة

وسام أبرص لا يدخل بيتاً فيه زعفران.
ومن عضه كلب كلب احتاج أن يستر وجهه من الذباب لئلا تسقط عليه.
وخرطوم الذباب يده، ومنه يغني، وفيه يجري الصوت كما يجري الزامر الصوت في القصب بالنفخ.
والسلاحفة إذا أكلت أفعى أكلت سعترًا جلياً.
وابن عرس إذا قاتل الحية أكل السذاب. والكلاب إذا كان في أجوافها داء أكلت سنبل القمح. والإيل إذا مهشته الحية أكل السراطين.
قال ابن ماسويه: فلذلك يظن أن السراطين صالحة لمن نهشته الحية.
قال صاحب المنطق: الحية إذا اشتكت كبدها من رفع الأرانب والتعالب في الهواء تعالجت بأكل الأكباد حتى تبرأ.
وبعض الناس يعملون من الأوزاع سمّاً أنفذ من البيش ومن ريق الأفاعي.
وإذا زرع في نواحي الزرع خردل تجنبتة دبي الجراد، وإذا أخذ المر داسنج وخلط بعجين الدقيق ثم طرح للفأر وأكل منه مات، وكذلك برادة الحديد.

وإذا أخذ الأفيون والشونيز والبازرند وقرن الإيل وبابونج وظلف من أظلاف العنز، فخلط ذلك جميعاً، ثم يدق وينخل نخلًا جيداً ويعجن بخل ثقيف، ثم يقطع قطعاً، فيدخن قطعة منه، هربت الحيات والهوام والنمل والعقارب من ربحه. والبعوض تهرب من دخان الكبريت والعلك. وقالت الحكماء: لحم ابن عرس نافع من الصرع، ولحم القنفذ نافع من الجذام والسل والشنج ووجع الكلى، يجفف ويشوى ويطعمه العليل مطبوخاً ومشوياً ويضمده به الشنج.

وعين الأفعى وعين الجراد لا تدوران.

وليس ينسج من العناكب إلا الأثني، وهي الخدرنق، وولد العنكب ينسج ساعة تولد.

والقمل يتخلق في الرؤوس على لون الشعر، إن كان أسود أو أبيض أو مخضوباً.

وأم حيين لا تقيم بمكان تكون فيه السرقة، وهي دويبة يضرب بها المثل في الصنعة، فيقال: أصنع من سرفة.

أبو حاتم: عن الأصمعي، قال: قال أبو بكر المهجري: ما من شيء يضرب إلا وفيه منفعة.

وقيل لبعض الأطباء: إن فلاناً يقول إنما أنا مثل العقرب أضرب ولا أنفع. فقال: ما أقل علمه بما، إنما لتتفع إذا شق بطنها ووضعت على مكان اللسعة،

وقد تجعل في جوف فخار مسدود الرأس مطين الجوانب ثم يوضع الفخار في تنور. فإذا صارت العقرب رماداً سقي من ذلك الرماد مثل نصف دانق

من به حصاة من غير أن يضرب سائر الأعضاء. وقد تلسع من به حمى عتيقة فتقلع عنه، وقد تلسع المفلوج فيذهب عنه الفالج. وقد تلقى العقرب في

الدهن وتترك فيه حتى يأخذ الدهن منها، ويجتذب قواها فيكون ذلك الدهن مفراً للأورام الغليظة.

وقال المأمون: قلت لبختيشوع وسلمويه، وابن ماسويه: إن الذباب إذا ذلك على موضع لسعة الزنبور سكن المها، فلسعني زنبور، فحككت على

موضع لسعته عشرين ذبابة، فما سكن إلا في قدر الحين الذي يسكن فيه من غير علاج، فلم يبق في يدي منهم، إلا أن قالوا: كان هذا الزنبور حتماً

قاضياً، ولولا هذا العلاج له لقتلك.

وقال محمد بن الجهم: لا تنهونوا بكثير مما ترون من علاج العجائز، فإن كثيراً منه وقع إليهن من قدماء الأطباء، كالذباب يلقي في الإثم فيسحق معه،

ليزيد ذلك من نور البصر، ويشد مراكز شعر الأحناف، في حافات الجفون.

قالوا: وللسع الأفاعي والحيات ينفع ورق الآس الرطب، يعصر ويسقى من مائه قدر نصف رطل.

مصايد الطير

قال صاحب الفلاحة: من أراد أن يحتال للطير والدجاج حتى يتحيرن ويعشى عليهن فيصيدهن عمد إلى الحلتيت، فدافه بالماء ثم جعل في ذلك شيئاً من

عسل، ثم نقع فيه برا يوماً وليلة، ثم ألقى ذلك البر إلى الطير فإذا لقطه تحير وغشى عليه، فلا يقدر على الطيران إلا أن يسقى لبناً خالطه سمن.

قال: وإن عمد إلى طحين بر غير منخول فعجن بجير ثم طرح للطير والحجل فأكل منه، تحيرت وأخذت.

ومما يصاد به الكراكي وغيرها من الطير أن يوضع لهن في مواقعهن إناء فيه خمر ويجعل فيه خريق أسود، وينقع فيه شعير، ثم يلقي لهن، فإذا أكلن منه

أخذهن الصائد كيف شاء.

وقال غيره: تصاد العصافير بأيسر حيلة، تؤخذ سلة في صورة المحبرة المنكوسة، ويجعل في جوفها عصفور، فتنقض عليه العصافير وتدخل عليه، فما دخل

لم يقدر على الخروج، فيصيد الرجل منها من يومه ما شاء وهو وادع.

وقال: ويصاد طير الماء الساكن بالقرعة، وذلك أن تأخذ قرعة يابسة صحيحة فيرمي بها في الماء فإنها تتحرك بتحرك الماء فإذا أبصرها الطير تحرك وفرغ،

فإذا كثر ذلك عليه أنس حتى ربما سقط عليها، ثم تأخذ قرعة مثلها فتقطع رأسها، ويفتح فيها موضع عينين ثم يدخل الصائد رأسه فيها، ويدخل الماء

وبمشي رويداً، وكلما دنا من الطائر مد يده تحت الماء حتى يقبض على رجله ويغمس يده به تحت الماء ويكسر جناحيه، ويخلبه فيبقى طافياً على الماء

يسبح برجليه ولا يطيق الطيران، وسائر الطير لا تنكر انغماسه في الماء، فإذا فرغ من صيد ما أراد بالقرعة لقطها وحملها.

مصايد السباع

السباع العادية تصاد بالزبي والمغويات، وهي آبار تحفر في أنشاز الأرض، ولذلك يقال: قد بلغ السيل الزبي.

قال صاحب الفلاحة: ومما يصاد به السباع العادية أن يؤخذ سمك من سمك البحر الكبار السمان فيقطع قطعاً، ثم تشدخ وتكتل كتلاً، ثم توجج نار في غائط من الأرض تقرب من السباع، ثم تقذف تلك الكتل فيها واحدة بعد أخرى حتى ينتشر دخان تلك النار، وقتار تلك الكتل في تلك الأرض، ثم يطرح حول تلك النار قطع من لحم قد جعل فيه الخربق الأسود والأفيون، وتكون تلك النار في موضع لا ترى فيه حتى تقبل السباع لريح القطار وهي آمنة، فتأكل من قطع ذلك اللحم، ويخرج عليه فيصيدها الكامنون لها كيف شاءوا.

تفاضل البلدان

الأصمعي يرفعه إلى قتادة قال: الدنيا كلها أربعة وعشرون ألف فرسخ، فبلد السودان منها اثنا عشر ألف فرسخ، وبلد الروم ثمانية آلاف فرسخ، وبلد الفرس ثلاثة آلاف فرسخ، وبلد العرب ألف.

الأصمعي قال: جزيرة العرب ما بين نجران إلى العذيب، وقال غيره: أرض العرب ما بين بحر القلزم وبحر الهند.

قالوا: وسواد البصرة: الأهواز، وفارس. وسواد الكوفة: كسكر إلى الزاب إلى عمل حلوان إلى القادسية، وهذه كلها من عمل العراق.

وعمل العراق من هيث إلى الصين، والهند، والسند، ثم كذلك إلى الري، وخراسان كلها إلى بلد الديلم، والجبال. وأصفهان سرة العراق، وافتتحها أبو موسى الأشعري. والجزيرة ليست من عمل العراق. وهي ما بين الدجلة والفرات والموصل من الجزيرة. ومكة والمدينة ومصر ليست من عمل العراق.

الأصمعي قال: البصرة كلها عثمانية، والكوفة كلها علوية، والشام كلها أموية، والجزيرة خارجية، والحجاز سنية. وإنما صارت البصرة عثمانية من يوم الجمل، إذ قاموا مع عائشة وطلحة والزبير فقتلهم علي بن أبي طالب رضي الله عنه.

وقيل لرجل من أهل البصرة: أتحب علياً؟ قال: كيف أحب رجلاً قتل من قومي من لدن كانت الشمس هكذا إلى أن صارت هكذا ثلاثين ألفاً.

والكوفة علوية؛ لأنها وطن علي رضي الله عنه وداره. والشام أموية؛ لأنها مركز ملك بني أمية وبيضتهم. والجزيرة خارجية؛ لأنها مسكن ربيعة. وهي رأس كل فتنة، وأكثرها نصارى وخوارج، ومنازلهم الخابور وهو واد، بالجزيرة.

قال علي بن أبي طالب رضي الله عنه لبني تغلب: يا خنازير العرب. والله لئن صار هذا الأمر إلي لأضعفن عليكم الجزية.

وقال هارون الرشيد ليزيد بن يزيد: ما أكثر الخلفاء في ربيعة. قال: بلى، ولكن منا برهم الجذوع.

الأعمش عن سليم: قال: ذكر عمر بن الخطاب الكوفة، فقال: حجمة العرب، وكثر الإيمان، ورمح الله في الأرض، ومادة الأمصار.

علي بن محمد المدني قال: الكوفة جارية حسناء تصنع لزوجها، فكلما رآها سرتة.

وقال محمد بن عمير بن عطارد: الكوفة سفلت عن الشام ورباها. وارتفعت عن البصرة وعمقها، فهي مريّة مريّة عذبة بريّة، وإذا أتتها الشمال هبت

على مسيرة شهر على مثل رضراض الكافور، وإذا هبت الجنوب جاعها بريح السواد وورده ويأسمينه وأتراجه، فماؤها عذب، وعيشها خصب.

قال ابن عياش الهمداني لأبي بكر الهذلي عن أبي العباس، وذكرت عنده الكوفة والبصرة، فقال: إنما مثل الكوفة مثل اللهاة من البدن يأتيها الماء ببردته وعذوبته، ومثل البصرة مثل المثانة يأتيها الماء بعد تغير وفساد.

وقال الحجاج: الكوفة بكر حسناء، والبصرة عجوز بخراء، أوتيت من كل حلى وزينة.

وقال جعفر بن سليمان: العراق عين الدنيا، والبصرة عين العراق، والمربد عين البصرة، وداري عين المربد.

وقال الأصمعي: تذاكروا عند زياد الكوفة والبصرة. فقال زياد: لو أضللت البصرة لجعلت الكوفة لمن دلي عليها.

وقال حذيفة: أهل البصرة لا يفتحون باب هدي، ولا يغلقون باب ضلالة، وقد رفع الطاعون عن جميع أهل الأرض إلا عن أهل البصرة.

ومما نقم على أهل الكوفة أنهم أغدر الناس. طعنوا الحسن بن علي، وانتهبوا عسكره، وخذلوا الحسين بن علي بعد أن استدعوه حتى قتل.

وشكوا سعد بن أبي وقاص إلى عمر بن الخطاب، وزعموا أنه لا يحسن أن يصلي، فدعا عليهم أن لا يرضيهم الله عن والٍ، ولا يرضي والياً عنهم. وقد دعا عليهم علي بن أبي طالب فقال: اللهم ارمهم بالغلام الثقفي. يعني الحجاج بن يوسف.

وشكوا عمار بن ياسر والمغيرة بن شعبة، وطرردوا سعيد بن العاص، وخذلوا زيد بن علي. وادعى النبوة منهم غير واحد، منهم المختار بن أبي عبيد. وكتب إلى الأحنف: بلغني أنكم تكذبونني وتكذبوا رسلي، وقد كذبت الأنبياء من قبلي ولست بخير من كثير منهم. وقيل لعبد الله بن عمر: إن المختار يزعم أنه يوحى إليه. قال: صدق، الشياطين يوحون إلى أوليائهم. ولما أرادت سكينه بنت الحسين بن علي رضي الله عنهم الرحيل من الكوفة إلى المدينة بعد قتل زوجها المصعب حف بها أهل الكوفة، وقالوا: أحسن الله صحابتك يا ابنة رسول الله ". فقالت: لا جزاكم الله خيراً من قوم، ولا أحسن الخلافة عليكم، قتلتم أبي وجددي وأخي وعمي وزوجي، أيتتموني صغيرة وأيتتموني كبيرة. ولما دخل عبد الملك بن مروان الكوفة بعد قتل المصعب، أقبل إليه جماعة من هؤلاء، قالوا: أمراؤك أهل الكوفة. قال: قتلة عثمان؟ قالوا: نعم وقتلة علي! قال: هذه بهذه.

قدم عبد الله بن الكواء على معاوية، فقال: أخبرني عن أهل البصرة، قال: يقبلون معاً ويدبرون شتى. قال: فأخبرني عن أهل الكوفة. قال: أنظر الناس في صغيرة وأوقفهم في كبيرة. قال: فأخبرني عن أهل المدينة. قال: أحرص الناس على الفتنة وأعجزهم عنها. قال: فأخبرني عن أهل مصر. قال: لقمة آكل. قال: فأخبرني عن أهل الجزيرة. قال: كناسة بين حشين. قال: فأخبرني عن أهل الشام، قال: جند أمير المؤمنين، ولا أقول فيهم شيئاً. قال: لتقولن. قال: أطوع خلق الله لمخلوق وأعصاهم للخالق، ولا يخشون في السماء ساكناً. قتادة قال: فيست البصرة في زمن خالد بن عبد الله القسري، فوجدوا طوها فرسخين وعرضها فرسخين. الأصمعي قال: قال ابن شهاب الزهري: من قدم أرضاً فأخذ من ترابها فجعله في مائها ثم شربه عوفي من وبائها. الأصمعي قال: دخلت الطائف فكأنني كنت أبشر، وكان قلبي ينضح بالسرور، وما أجد لذلك علةً إلا انفساح جوها، وطيب نسيمها. ودخل سليمان بن عبد الملك الطائف، فنظر إلى بيادر الزبيب فقال: ما تلك الجرار السود؟ قيل له: ليست بجرار يا أمير المؤمنين، ولكنها بيادر الزبيب. فقال: لله در قسي، في أي عش أودع أفراخه؟ يريد بقسي ثقيفاً. كذلك كان اسمه. الأصمعي قال: من أمثال العامة يقولون: حمى خبير، وطحال البحرين، ودمامل الجزيرة، وطواعين الشام. الأصمعي قال: ذكروا أن في باب سمرقند مكتوباً: بين هذه المدينة وبين صنعاء ألف فرسخ. قال الأصمعي: وبين بغداد وأفريقية ألف فرسخ، وبين الكوفة والبصرة ثمانون فرسخاً، وواسط بينهما متوسطة، ولذلك سميت واسطاً.

الشامات

أول حد الشام من طريق مصر أمج، ثم يليها غزة، ثم الرملة رملة فلسطين، ومدينتها العظمى فلسطين وعسقلان، وبها بيت المقدس. وفلسطين هي الشام الأولى. ثم الشام الثانية، هي الأردن، ومدينتها العظمى طبرية، وهي التي على شاطئ البحيرة، والغور واليرموك. وبيسان فيما بين فلسطين والأردن. ثم الشام الثالثة الغوطة، ومدينتها العظمى دمشق، ومن سواحلها طرابلس. ثم الشام الرابعة وهي أرض حمص. ثم الشام الخامسة وهي قيسرين، ومدينتها العظمى - حيث السلطان - حلب. وبين قيسرين وحلب أربعة فراسخ، وساحلها أنطاكية مدينة عظيمة على شاطئ البحر، في داخلها البساتين والأثمار والمزارع، وهي مدينة حبيب النجار، الذي جاء من أقصى المدينة يسعى. وبها مسجد ينسب إلى حبيب

الجزيرة

ثم الجزيرة، وهي ما بين دجلة والفرات، وبهما نهران يقال لهما الخابور والبليخ، ومخرجهما من رأس العين، مدينة عظيمة بالجزيرة في داخلها عين هي عنصر الخابور والبليخ. وعلى الخابور منازل ربيعة أكثرها نصارى، وخوارج. ونصيين من الجزيرة، وهي مدينة عظيمة مطلة على جبل الجودي. والموصل من الجزيرة أيضاً. والرقعة وحران من الجزيرة أيضاً. ومن ثغور الجزيرة في جهة عمورية من أرض الروم بطرة وملطية. وفي جوف الفرات جزائر فيها مدن يقال لها عانة وعانات. وعلى شط الفرات مما يلي الجزيرة قرقيسيا، ومما يلي الشام الرحبة رحبة مالك بن طوق.

العراقان

العراقان: هما البصرة والكوفة، وقد تقدم ذكرهما واختلاف الناس فيهما. ومما أحدث الخلفاء بالعراق خلفاء بني هاشم من المدن الأنبار، وهي مدينة أبي العباس، أول من ولي الخلافة ابتناها واتخذها دار خلافته. ثم ولي أخوه أبو جعفر المنصور، فانتقل إلى بغداد وابتنى بها الكرخ، وهي مدينة السلام في جوف بغداد، وهي دار خلافة بني هاشم. حتى قام المعتصم محمد بن هارون فانتقل منها إلى سامرا. وتفسير سامرا أن سام بن نوح عليه السلام بناها. وإنما هو بالسريانية، وهي دار الخلافة إلى الآن.

فارس

منها الأهواز مدينة عظيمة وبلدها واسع جداً، وهي من سواد البصرة. وتستمر مدينة يعمل فيها التستري من الملاحف. ومدينة يقال لها جور وإليها ينسب ماء الورد الجوري. ومدينة يقال لها السوس بما تعمل الثياب السوسية من الخز وغيره. ومدينة يقال لها العسكر وإليها تنسب الثياب العسكرية ومدينة يقال لها الأفساسار وبها تعمل الأكسية الأفساسارية الجياد. ومدينة يقال لها دستوا، وبها تعمل الثياب الدستوائية. ومدينة يقال لها ميسان، وبها يعمل الوطاء الميساني. ومدينة يقال لها الدسكرة دسكرة الملك، كانت لكسرى. ومدينة يقال لها حلوان، وهي أول الجبال من خراسان وآخر العراق.

خراسان

أول مدنها الري، وهي آخر الجبال من خراسان، وإليها ينسب من الرجال الرازي، ومن خراسان مرو، وهي دار خلافة المأمون، ومنها خرج أبو مسلم صاحب الدعوة. ومن ينسب إليها من الرجال يقال له مروزي، ومن الثياب مروزي. ومدينة يقال لها قومس، وإليها تنسب الطبقان القومسية. ومدينة يقال لها سابور بما ملك بني طاهر. ومدينة يقال لها هراة إليها ينسب الهروي من الرجال والمتاع. ومدينة يقال لها بلخ وإليها ينسب البلخي، وبها معادن الجهادي العتيق، وهو جنس من الفصوص تسميه العامة البزادي. ومدينة يقال لها خوارزم وإليها ينسب الخوارزمي، وهي على شط البحر المحيط. وبلخ على شط النهر العظيم، الذي يقال له جيحان بخراسان. ثم جرجان، وهي مدينة عظيمة على شط البحر المحيط، وإليها ينسب الوشي الجرجاني والمتاع. ثم قوهى وهي مدينة عظيمة إليها ينسب القوهي من الثياب. ثم كابل، وهي مدينة يؤتى منها بالإهليلج الكابلي. ثم سمرقند، وهي مدينة عظيمة إليها ينسب السمرقندي من الثياب. وبين بغداد وبينها مسيرة ستة أشهر ومما يليها كرمان، وهي على بطائح السند وبلاد السند من آخر خراسان، ما بين المغرب والمشرق من جهة القبلة. وآخر مدن خراسان مدينة يقال لها تبت، وهي من أرض الترك وبها مجمع المسك وإليها ينسب المسك التبتى. ومدينة يقال لها فرغانة وأهلها جنس من العجم يقال لهم الصغد، وهم الذين يقطعون آذانهم من الحزن، إذا مات لهم كبير.

ومن المدن التي في صدر خراسان مع الجبال مدينة يقال لها قرميسين. ثم الدينور، وإليها ينسب الدينوري. ومدينة همدان مدينة عظيمة، وطبرستان مدينة عظيمة فيها تعمل الأكسية الطرية، ثم قم وهي مدينة عظيمة، منها يؤتى بالزعفران. ثم أصبهان وهي مدينة عظيمة، ثم طوس وهي من ثغور الجبال.

مصر

من ناحية الشام الفسطاط، وهي مدينة بها منبران ومسجدان يجمع فيهما العسكر حيث السلطان. وعين شمس، بها منبر، وهي كانت مدينة فرعون، وفيها بنيانه قائم. والفرما لها منبر، والعريش الذي يقال له عريش مصر له منبر، وهي آخر مصر وأول الشام. ومن أسفل الأرض بوصير، لها منبر. وتيس لها منبر، وإليها تنسب الثياب التنيسية، وبها طراز للخليفة. وشطا لها منبر وإليها ينسب الشطوي، وديق، لها منبر وإليها ينسب الديقي من الثياب. والإسكندرية لها منبر. من ناحية الحجاز. القلزم لها منبر. وأيلة لها منبر. ومن ناحية الصعيد القس، وإليها ينسب القسي من الثياب. والصفن، وإليها تنسب الأكسية الصفنية الحمر. ودلاص لها منبر، وهي مجمع سحر مصر. والفيوم مدينة لها منبر تؤدي كل يوم ألف دينار، وخلف ذلك بوق، وبها تكون معادن الذهب والجواهر والزرجد.

صفة المسجد الحرام

صحته كبير واسع، ذرعه طولاً من باب بني جمح إلى باب بني هاشم الذي يقابل دار العباس بن عبد المطلب أربعمئة ذراع وأربع أذرع. وذرعه عرضاً من باب الصفا إلى دار الندوة لاصقاً بوجه الكعبة الشرقي ثلثمائة ذراع وأربع أذرع. وله ثلاث بلاطات محدقة به من جهاته كلها، منتظم بعضها ببعض. وهي داخله في الذرع الذي ذكرت، فوقها سماواتها مذهبة، وحافاتها على عمد رخام بيض عددها في طوله من الشرق إلى الغرب مع وجه الصحن خمسون عموداً، وفي عرضه ثلاثون عموداً، طول كل عمود منها عشرة أذرع ودوره ثلاث أذرع. والمذهبة من رؤوس العمود ثلثمائة وعشرون رأساً. وسور المسجد كله من داخله مزخرف بالفسيفساء. وأبوابه على عمد رخام ما بين الأربعة إلى الثلاثة إلى الاثنين، وهي ثلاثة وعشرون باباً لا غلق عليها، يصعد عليها في عدة من درج.

صفة الكعبة

وبيت الله الحرام بوسط المسجد، كان ارتفاعه في عهد إبراهيم عليه السلام فيما يقال والله أعلم تسع أذرع، وطوله في الأرض ثلاثون ذراعاً، وعرضه اثنتان وعشرون ذراعاً. وكان له ثلاثة سقوف ثم بنته قريش في الجاهلية فاقتصرت على قواعد إبراهيم ورفعتها ثمان عشرة ذراعاً، ونقصت من طوله في الأرض ست أذرع وشيراً تركته في الحجر، فلما هدمه ابن الزبير رده على قواعد إبراهيم ورفعه سبعة وعشرين ذراعاً، وفتح له بابين: باباً إلى الشرق وباباً إلى الغرب يدخل من الشرقي ويخرج من الغربي. فكان كذلك حتى قتل. فلما تغلب الحجاج على مكة استأذن عبد الملك بن مروان في هدم ما كان ابن الزبير زاده من الحجر في الكعبة. فأذن له فرده على قواعد قريش وسد الباب الغربي ولم ينقص من ارتفاعه شيئاً. فذرع وجهه القبلي اليوم من الركن الأسود إلى الركن اليماني عشرون ذراعاً، ووجهه الجنوبي من الركن العراقي إلى الركن الشامي، وهو الذي يلي الحجر إحدى وعشرون ذراعاً. ووجهه الشرقي من الركن الأسود إلى الركن العراقي خمس وعشرون ذراعاً. ووجهه الغربي من الركن اليماني إلى الركن الشامي خمس وعشرون ذراعاً.

وحول البيت كله إلا موضع الركن الأسود درجة محصصة، يكون ارتفاعها عظم الذراع في عرض مثله، وقاية للبيت من السيل. وباب البيت في وجهه الشرقي على قدر القامة من الأرض، طوله ست أذرع وعشر أصابع، وعرضه ثلاث أذرع وثمان عشرة إصبعاً. والبابان من ساج، غلظ كل باب ثلاث أصابع، ظاهرهما ملبس بالذهب وباطنهما بالفضة، في كل باب ست عوارض، ولها عروتان يضرب فيهما قفل من ذهب وحواجه كلها مذهبة ما عدا الحاجب الأيمن، فإن العلوي الثائر لما تغلب على مكة قلع ذهبه فترك على حاله. وتحت العتبة العليا عتبة مذهبة والبابان

من ورائهما، والعتبة السفلى مستورة بالديباج إلى الأرض.

وبين الركن الأسود والباب خمس أذرع أو نحوها، وهو الملتزم فيما يذكر عن ابن عباس.

والحجر الأسود على رأس صخرتين من وجه الأرض قد نحت من الصخر مقدار ما أدخل فيه الحجر وشقت الصخرة الثالثة عليهما مثل إصبعين. والحجر أملس مجزع حالك السواد في قدر الكف المحنية، قد لزم من جوانبه بمسامير الفضة. وفيه صدوع، وفي جانب منه صفيحة فضة تحسبها شظية منه شظيت فجبرت بها. وصخر الركن الأسود أحرش أكبر من صخرنا قليلاً.

وللبيت سقفان سقف دون سقف، وفيهما أربع روازن ينفذ بعضها إلى بعض للضوء، وللسقف الأسفل ثلاث جوائز من ساج منقشة مذهبة. وفي داخل البيت في الحائط الغربي قبالة الباب الجزعة، على ست أذرع من قاع البيت وهي سوداء مخططة ببياض، طولها اثنتا عشرة إصباعاً في مثل ذلك، وحولها طوق من ذهب عرضه ثلاث أصابع. ذكر أن النبي " جعلها على حاجبه الأيمن حين صلى في البيت.

والحجر بجوفي البيت محجور من الركن العراقي إلى الركن الشامي تحجيراً محجياً غير مرتفع. قد انقطع طرفاه دون الركنين اللذين يليانه بمثل ذراعين للدخول والخروج، يكون ما بين موسطة جنبي التحجير والبيت كما بين الركنين، وارتفاع التحجير مثل نصف قامة. وهو ملبس بالرخام من داخله وخارجه وأعلاه، وجعل بين كل رخامتين عمود من رصاص لزازاً لهما، وقاع الحجر كله مفروش بالرخام، ومصوب الميزاب فيه، وقبلتنا إليه. والميزاب موسطة أعلى جدار الكعبة خارجاً عنه مثل أربع أذرع في سعته، وارتفاع حيطانه ثمان أصابع، ملبس ظاهره وباطنه بصفائح الذهب. والصفائح مسمرة بمسامير مروسة من ذهب.

والبيت كله مستور إلا الركن الأسود، فإن الأستار تفرج عنه مثل القامة ونصف، وإذا دنا وقت الموسم كسي القباطي، وهو ديباج أبيض خراساني، فيكون بتلك الكسوة ما كان للناس محرمين. فإذا حل الناس وذلك يوم النحر، حل البيت، فكسى الديباج الأحمر الخراساني. وفيه دارات مكتوبة فيها حمد الله وتسبيحه وتكبيره وتعظيمه، فيكون كذلك إلى العام القابل. ثم يكسى أيضاً على حال ما وصفت. فإذا كثرت الكسوة فخشي على البيت من ثقلها خفف منها، فأخذ ذلك سدنة البيت، وهم بنو شيبه.

وذكر بعض المصريين أنه حضر كشف البيت سنة خمس وستين فرأى بلاطه الزعفران واللوبان.

وذكر أيضاً عن بعض المكيين حديثاً يرفعونه إلى مشايخهم، أنهم نظروا إلى الحجر الأسود إذ هدم ابن الزبير البيت وزاد فيه، فقدروا طولته ثلاث أذرع، وهو ناصع البياض فيما ذكروا إلا وجهه الظاهر. واسوداده فيما ذكروا، والله أعلم لاستلام أهل الجاهلية إياه، ولطخه بالدم.

والمقام بشرفي البيت على سبع وعشرين ذراعاً منه، وجه المصلي خلفه مستقبل البيت إلى الغرب، والركن العراقي على يمينه، والباب والركن الأسود على يساره، وهو فيما ذكر من رآه حجر غير مرفوع يكون ذراعاً في ذراع، وفيه أثر قدم إبراهيم عليه السلام، وطول القدم مثل عظم الذراع.

والحجر موضوع على منبر لثلاثين ذراعاً به السيل، فإذا كان وقت الموسم وضع عليه تابوت حديد مثقب لثلاثين الأيدي. وحول البيت كله سوار ست غلاظ مربعة من حديد مذهبة ورؤوسها مذهبة أيضاً، يوقد عليها بالليل لللطائفين، بين كل عمود منها والبيت نحو ما بين المقام والبيت. وزمزم بشرفي

الركن الأسود بينهما مثل الثلاثين ذراعاً، وهي بئر واسعة تنورها من حجر مطوق أعلاه بالخشب، وسقفها قبو مزخرف بالفسيفساء على أربعة

أركان، تحت كل ركن منها عمودا رخام متلاصقان، قد سد ما بين كل ركنين منها بشرحب خشب، ورد إلى باب من جهة المشرق. وحول القبو

كله رف مثل البرطلة، وبشرفي زمزم بيت مقدر سقفه قبو مزخرف بالفسيفساء أيضاً مقل عليه، وشرقي هذا البيت بيت كبير مربع له ثلاثة أقباء،

وفي كل وجه منه باب.

وحمام المسجد كثير أنيس، يكاد الإنسان أن يطأه بقدمه لأنسه بالناس، وهو في لون حمام الأبرجة عندنا إلا أنه أقدر منه، وليس منها حمامة تجلس على

البيت ولا تطير عليه. ولقد همي ذلك فرأيتها حين تكاد أن تحاذي البيت، وهي مستعلية في طيرانها ذلك، عكست حتى تصير دونه، وأخذت عن يمينه

أو يساره، وذرقها ظاهر بارز على البيوت التي في المسجد إلا بيت الله الحرام فإنه نقي ليس فيه ولا عليه منه أثر، فسبحان معظمه ومقدسه ومطهره

وتعالى علواً كبيراً.

وبين باب الصفا - وهو قبلي البيت - والصفاء الشارع وهو بطن الوادي، وبعد الشارع فناء غير كبير فيه الباعة، ثم الصفا في أصل جبل أبي قبيس قد أحرق بها البناء إلا من الوجه الذي يرقى إليها منه، والرقي إليها على ثلاث درج مبنية بالصخر. والواقف على الصفا مستقبل الجوف بنظر إلى البيت من باب الصفا. والمروة بشرقي المسجد وهي من الصفا بين المشرق والمغرب، قد أحرق بها البناء أيضاً إلا من وجه المصعد إليها، وهو من أعلى القصور، بينها وبين المسجد الحرام الزقاق الضيق، فالواقف على المروة مستقبل البيت تجاه الفرجة يرى الميزاب وما اتصل به من البيت، وبين الصفا والمروة شبيه بما بين السقاية والمسجد الجامع. والساعي بينهما إذا هبط من الصفا يريد المروة سلك في الشارع وهو مبطن الوادي، عن يمينه القصور، وعن يساره المسجد، ثم يتعرض بطن وادٍ إذ انصبت قدماءه فيه أرقل حتى يخرج عن آخره، وله علمان أحضران في جانبي الوادي، أحدهما وهو الأول خلف باب الصفا لاصقاً بالسور، والثاني أمامه بائن عن السور، جعلاً ليفهم بما حد الوادي الذي يرمل فيه.

ومنى قرية بشرقي مكة تنحو إلى القبلة قليلاً، خارجة عن الحرم على نحو الفرسخ منها، وفيها بنيان وسقايات، وأول ما يلتقى منها الخارج من مكة إليها جمرة العقبة ثم الجمرتين اللتين ترميان مع جمرة العقبة بعد يوم النحر أيام التشريق. وبها مسجد أكبر من جامع قرطبة، وهو مسجد الخيف، له مما يلي الحراب أربع بلاطات معترضة، سقفها من جرائد النخل، وعمدها محصنة، والمنبر عن يسار الحراب، والباب الذي يخرج منه الإمام عن يمينه، وفي موسطة صحن المسجد منارة، وفي كل جانب منها سقيفة.

والمزدلفة وهي المشعر الحرام بين منى وعرفة، وهي من منى على نحو الميلين، ولها مسجد مصحر لا بناء فيه إلا الحائط الذي فيه الحراب، وليس بها ساكن.

وعرفة بشرقي منى على نحو الفرسخين منها، ليس بها ساكن ولا بناء إلا سقايات وقنوات يجري فيها الماء، وليس بمسجدها بنيان إلا الحائط الذي فيه الحراب، وموقف الناس يوم عرفة بعرفة في الجبل وما يليه مما تحته، والجبل بين المشرق والجوف من مسجدها، وفي الموضع الذي يقف فيه الإمام ماء جارٍ. ومحراب منة وعرفة والمزدلفة إلى نحو المغرب.

صفة مسجد النبي صلى الله عليه وسلم

بلاطاته في قبلته معترضة من المشرق إلى المغرب، في كل صف من صفوف عمدتها سبعة عشر عموداً، ما بين كل عمودين منها فجوة كبيرة واسعة، والعمد التي في البلاطات القبليّة بيض محصنة شاطئة جداً، وسائر عمد المسجد رخام، والعمد المحصنة على قواعد عظيمة مربعة ورؤوسها مذهبة عليها نجف منقشة مذهبة، ثم السموات على النجف وهي أيضاً منقشة مذهبة. وقبلالة الحراب موسطة البلاطات، بلاط مذهب كله شقت به البلاطات من الصحن إلى أن ينتهي إلى البلاط الذي بالحراب ولا يشقه، وفي البلاط الذي يلي الحراب تذهيب كثير، وفي موسطته سماء كالترس المقدر مجوف كالخار، مذهب، وقد أخذ وجه السور القبلي من داخل المسجد بإزار رخام من أساسه إلى قدر القامة منه، وكف على الإزار بطوق رخام في غلظ الأصبع، ثم من فوقه إزار دونه في العرض مخلق بالخلوق، ثم فوقه إزار مثل الأول فيه أربعة عشر باباً في صف من الشرق إلى الغرب في تقدير كوى المسجد الجامع بقرطبة منقشة مذهبة، ثم فوقه إزار رخام أيضاً فيه صنيعة سماوية فيها خمسة سطور مكتوبة بالذهب بكتاب ثخين، غلظه قدر أصبع، من سور قصار المفصل، ثم فوقه إزار رخام مثل الأول الأسفل، فيه ترسة من ذهب منقشة وبين كل ترسين منها عمود أخضر في حافته قضبان من ذهب، ثم فوقه إزار رخام فيه صنيعة منقشة عرضها مثل عظم الذراع، لها قضبان وأوراق من ذهب ثم فوقه إزار فسيفساء عريض، ثم السماوات عليه.

والحراب في موسطة السور القبلي، على قوسه قصة من ذهب نائنة غليظة، في وسطها مرآة مربعة ذكر أنها كانت لعائشة رضي الله عنها.

قو الحراب مقدر جداً، وفيه دارات بعضها مذهبة وبعضها حمر وسود، وتحت القبو صنيعة ذهب منقشة، تحتها صفائح ذهب مثمنة، فيها جزعة في مثل جمجمة الصبي الصغير مسمرة، ثم تحتها إلى الأرض إزار رخام مخلق بالخلوق، فيه الوند الذي كان النبي صلى الله عليه وسلم يتوكأ عليه في الحراب الأول، عند قيامه من السجود فيما ذكر. والله أعلم. وعن يمين الحراب باب يدخل منه الإمام ويخرج، وعن يساره باب صغير شطرنجي قد سد بعوارض من حديد، وبها هذين البابين والحراب ممشى مسطح لطيف.

والمقصورة من السور الغربي لاصقة بالباب إلى الفصيل اللاصق بالسور الشرقي، ومن هذا الفصيل يصعد إلى ظهر المسجد، وهي قديمة مختصرة العمل، لها شرفات وأربعة أبواب، وخارج المقصورة قريباً منها عن يسار الخراب سرب في الأرض يهبط فيه على درج فيفضي منها إلى دار عمر بن الخطاب رضي الله عنه.

والمنبر على يمين الخراب في أول البلاط الثالث من الخراب في روضة مفروشة بالرخام محجور حولها به. وله درج، وسمر في أعلاه لوح لثلاثين يجلس أحد على الدرجة التي كان رسول الله صلى الله عليه وسلم يجلس عليها، وهو مختصر ليس فيه من النقوش ودقة العمل ما في مناير زماننا الآن، والجذع أمام المنبر، وبشرقي المنبر تابوت يستر به مقعد رسول الله صلى الله عليه وسلم.

وقبره صلوات الله عليه وسلامه بشرقي المسجد في آخر مسقفه القبلي مما يلي الصحن بينه وبين السور الشرقي مثل عشر أذرع، قد حفر حوله بحائط بينه وبين السقف مثل ثلاث أذرع، وله ستة أركان، ولبس بإزار رخام أكثر من قامة، وما فوق الرخام مخلوق بالخلوق. قال رسول الله صلى الله عليه وسلم: "ما بين قبري ومنبري روضة من رياض الجنة، ومنبري على ترعة من ترع الجنة".

وعلى ظهر المسجد حذاء القبر حجر محجور لثلاثين يمشى عليه، والبلاطات الجوفية خمسة والغربية أربعة، منتظم بعضها ببعض في طولها مع وجه الصحن من القبلة إلى الجوف ثمانية عشر عموداً، وحنايا المسجد كلها مما يلي الصحن مشدودة من جهاتها الأربع إلى مناكب العمود من داخله، مزخرفة بخشب منقش، وللمسجد ثلاث منارات اثنتان في الجوف وواحدة في الشرق، وحيطان المسجد كلها من داخله مزخرفة بالرخام والذهب والفضة وألوانها وآجرها، وله ثمانية عشر باباً عتبتها مذهبة، وهي أبواب عظيمة لا غلق عليها، أربعة منها في الجوف، وسبعة في الشرق وسبعة في الغرب. وقاع المسجد كله مفروش بالحصى وليس له حصر، ووجه سور المسجد كله من خارج منقش بالكذان، وكذلك الشرفات.

فينبغي للدخل في المسجد أن يأتي الروضة التي قال فيها رسول الله صلى الله عليه وسلم: "إنها روضة من رياض الجنة" فيصلي فيها ركعتين، ثم يأتي قبر النبي صلى الله عليه وسلم من قبل وجهه فيستدبر القبلة ويستقبل القبر، ويسلم عليه صلى الله عليه وسلم، وعلى أبي بكر وعمر، رضي الله عنهما، ولا يلصق بالقبر فإنه من فعل الجهال، وقد كره ذلك، فإذا فعل ما ذكر استقبال القبلة ودعا بما أمكنه بعد الصلاة على النبي صلى الله عليه وسلم، وعرفنا به، ورزقنا شفاعته برحمته، آمين.

صفة مسجد بيت المقدس وما فيه من آثار الأنبياء عليهم الصلاة والسلام

طول المسجد سبعمائة ذراع وأربع وثمانون ذراعاً، وعرضه أربع مائة ذراع وخمس وخمسون ذراعاً بالإمام، ويسرج في المسجد ألف قنديل وخمسمائة قنديل، وعدة ما فيه من الخشب ستة آلاف خشبية وتسعمائة خشبية، وعدد ما فيه من الأبواب خمسون باباً، وعدد ما فيه من العمود ستمائة وأربعة وثمانون عموداً، والعمود التي داخل الصخرة ثلاثون عموداً، والعمود التي خارج الصخرة ثمانية عشر عموداً، وفيه الصخرة الملبسة صفائح الرصاص عليها ثلاثة آلاف صفيحة وثلثمائة واثنتان وتسعون صفيحة، ومن فوق ذلك صفائح النحاس مطلية بالذهب يكون عليها عشرة آلاف صفيحة، ومائتان وعشر صفائح، وجميع ما يسرج في الصخرة من القناديل أربع مائة قنديل وأربعة وستون قنديلاً بمعاليق النحاس وسلاسل النحاس، وكان طول صخرة بيت المقدس في السماء اثني عشر ميلاً، وكان أهل أريحاء، يستظلون بظلها، وأهل عمواس مثل ذلك. وكان عليها ياقوتة حمراء تضيء لأهل البلقاء، وكان يغزل في ضوءها نساء أهل البلقاء. وفي المسجد ثلاث مقاصير للنساء، طول كل مقصورة ثمانون ذراعاً في عرض خمسين ذراعاً، وفيه من السلاسل لتعليق القناديل ستمائة سلسلة، طول كل سلسلة ثمان عشرة ذراعاً، وفيه من غرابيل النحاس سبعون غرابلاً، وفيه من الصنوبر التي للقناديل سبع صنوبرات، وفيه من المصاحف الجامعة سبعون مصحفاً، وفيه من الكبار التي في الورقة منها جلد ستة مصاحف على كراسي تجعل فيها، وفيه من المخاريب عشرة، ومن القباب خمس عشرة قبة، وفيه أربعة وعشرون جباً للماء، وفيه أربعة مناور للمؤذنين، وجميع سطوح المسجد والقباب والمنارات ملبسة صفائح مذهبة، وله من الخدم بعيالاتهم مائتا مملوك وثلثون مملوكاً، يقبضون الرزق من بيت مال المسلمين، ووظيفته في كل شهر من الزيت سبعمائة قسط بالإبراهيمي، وزن القسط رطل ونصف بالكبير، ووظيفته في كل عام من الحصر ثمانية آلاف ووظيفته في كل

عام من السراقة لفتائل القناديل اثنا عشر ديناراً ولزجاج القناديل ثلاثة وثلاثون ديناراً، ولصناع يعملون في سطوح المسجد في كل عام خمسة عشر ديناراً.

آثار الأنبياء عليهم الصلاة والسلام

بيت المقدس

مربط البراق الذي ركبه النبي صلى الله عليه وسلم تحت ركن المسجد، وفي المسجد باب داود عليه الصلاة والسلام، وباب سليمان عليهما الصلاة والسلام، وباب حطة التي ذكرها الله تعالى في قوله تعالى "وقولوا حطة" وهي قول لا إله إلا الله، فقالوا: حنطة، وهم يسخرون فلعنهم الله بكفرهم، وباب محمد صلى الله عليه وسلم، وباب التوبة الذي تاب الله فيه على داود، وباب الرحمة التي ذكرها الله تعالى في كتابه "له باب باطنه فيه الرحمة وظاهره من قبله العذاب" يعني وادي جهنم الذي بشرقي بيت المقدس، وأبواب الأسباط أسباط بني إسرائيل وهي ستة أبواب، وباب الوليد، وباب الهاشمي وباب الخضر، وباب السكينة. وفيه محراب مريم ابنة عمران رضي الله عنها التي كانت الملائكة تأتيها فيه بفاكهة الشتاء في الصيف وفاكهة الصيف في الشتاء، ومحراب زكريا الذي بشرته فيه الملائكة بيحيى وهو قائم يصلي في المحراب، ومحراب يعقوب، وكرسي سليمان صلوات الله عليه الذي كان يدعو الله عليه، ومغارة إبراهيم خليل الرحمن عليه الصلاة والسلام الذي كان يتخلى فيها للعبادة، والقبة التي عرج النبي "منها إلى السماء، والقبة التي صلى فيها النبي بالنبين، والقبة التي كانت السلسلة تمبط فيها زمان بني إسرائيل للقضاء بينهم، ومصلى جبريل عليه السلام، ومصلى الخضر عليه السلام. فإذا دخلت الصخرة فصل في أركانها وصل على البلاطة التي تسامى الصخرة، فإنها على باب من أبواب الجنة. ومولد عيسى بن مريم على ثلاثة أميال من المسجد. ومسجد إبراهيم عليه السلام وقبره على ثمانية عشر ميلاً من المدينة. ومحراب المسجد بغريبه.

فضائل بيت المقدس ينصب الصراط ببيت المقدس، ويؤتى بهمهم -نعوذ بالله منها- إلى بيت المقدس، وتزف الجنة يوم القيامة زفاً مثل العروس إلى بيت المقدس، وتزف الكعبة بحاجها إلى بيت المقدس، ويقال لها: مرحباً بالزائرة والمزورة. ويزف الحجر الأسود إلى بيت المقدس، والحجر يومئذ أعظم من جبل أبي قبيس.

ومن فضائل بيت المقدس، أن الله رفع نبيه صلى الله عليه وسلم إلى السماء من بيت المقدس، ورفع عيسى بن مريم عليه السلام إلى السماء من بيت المقدس، ويغلب المسيح الدجال على الأرض كلها إلا بيت المقدس، وحرم الله على يأجوج ومأجوج أن يدخلوا بيت المقدس، والأنبياء كلهم من بيت المقدس، والأبدال كلهم من بيت المقدس. وأوصى آدم وموسى ويوسف وجميع أنبياء بني إسرائيل صلوات الله عليهم أن يدفنوا ببيت المقدس.

نتف من الأخبار

فرج بن سلام قال: حدثني سليمان بن المغيرة قال: كنت أحد من أبي أيوب المازني رائحة طيبة ليست برائحة شراب ولا رائحة طيب، فقلت له: أخبرني عن هذه الرائحة، فقال: عصف أمر به، فيدق وينخل، فألته بقطران شامي، ثم أخذ منه كل غداة على إصبعي، فأدلك به أسناني وعمورها، فتطيب نكهتها، وتشتد ثنها وعمورها.

الرياشي قال: كانوا إذا أرادوا جارية مضغت نصف جوزة وأكلتها. فلا تزال طيبة النكهة سائر ليلتها. عبد الصمد بن همام قال: كتب عامل عمان إلى عمر بن عبد العزيز: إنا أتينا بساحرة فألقيناها في الماء، فطفت على الماء. فكتب إليه: لسنا من الماء في شيء، إن قامت عليها بينة وإلا خل عنها.

وقال رجل للحسن: أبا سعيد، الملائكة خير أم الأنبياء؟ فقال: قال الله جل ثناؤه: "قل لا أقول لكم عندي خزائن الله ولا أعلم الغيب ولا أقول لكم إني ملك". وقال: "لن يستنكف المسيح أن يكون عبداً لله ولا الملائكة المقربون". وقال: "ما لها كما ربكما عن هذه الشجرة إلا أن تكونا ملكين أو

تكونا من الخالدين".

العتبي قال: حدثني أبو النصر عن جوير عن الضحاك، قال: من سمع الأذان في بيته فقام يصلي فقد أجاب. أبو حاتم: عن العتبي قال: سمى المحرم لأنه جعل حراماً. وصفر لإصفار مكة من أهلها. والربيعان للخصب فيهما. والجماديان لجمود الماء فيهما من شدة البرد. ورجب لترجيح العرب أستها. وشعبان لأنه شعب بين رجب ورمضان. ورمضان لإرماض الأرض من الحر. وشوال لأن الإبل شالت بأذناها فيه لحمها. وذو القعدة لعودهم فيه عن الغزو من أجل الحج. وذو الحجة للحج.

الرياشي عن محمد بن سلام عن يونس النحوي، قال: قال لي رؤية وأنا أسأله عن الغريب: حتى متى سألني عن هذه الأباطيل، وأزوقها لك؟ أما ترى الشيب قد أخذ في عارضيك ولحيتك؟

وقال الخليل بن أحمد: إنك لا تعرف خطأ معلمك حتى تجلس عند غيره.

الرياشي عن الأصمعي، قال: لا تكون حطمة، حتى يكون قبلها بريق تأتي فتحطم.

ومن حديث أبي رافع، عن أبي ذر: قال قلت: يا رسول الله: صلى الله عليك، كم عدد النبيين؟ قال: مائة ألف وأربعة وعشرون ألفاً.

أبو بكر بن عياش: عن العجلي، عن قتادة. قال: طول الدنيا مائة ألف وأربعة وعشرون ألف فرسخ.

ومن حديث عبد الله بن عمرو، قال: العرش مطوق بحية، والوحي يتل في السلاسل.

ومن حديث ابن أبي شيبه، أن العباس بن عبد المطلب، كان أقرب شحمة أذن إلى السماء، وكان إذا طاف بالبيت يشبهه بالفسطاط العظيم، وإذا مشى بين قوم تحسبه راكباً.

ومن حديث عروة بن الزبير عن عائشة عن النبي"، قال: خلق الله الملائكة من نور، والجان من نار، وآدم من تراب.

وسأل أعرابي رسول الله صلى الله عليه وسلم: متى القيامة؟ فقال له: وما أعددت لها؟ لا شيء والله غير أبي أحب الله ورسوله. قال: المرء مع من أحب.

زياد عن مالك أن النبي صلى الله عليه وسلم: قال: "إياكم والشرك الأصغر". قالوا: وما الشرك الأصغر يا رسول الله؟ قال: "الرياء".

زياد عن مالك، قال: إذا لم يكن في الرجل خير لنفسه لم يكن فيه خير لغيره، وإذا رأيت الرجل يستحل مال عدوه فلا تأمنه على مال صديقه.

وقال بعضهم: سمعت حذيفة يحلف لعثمان في شيء بلغه عنه ما قاله، ولقد سمعته يقول فسألته عن ذلك، فقال: يا بن أخي، اشترى ديني بعضه ببعض لئلا يذهب كله.

أخذه الشاعر فقال:

نرقع دنيانا بتمزيق ديننا

فلا ديننا ولا ما نرقع

زياد عن مالك أن النبي صلى الله عليه وسلم، قال: "الغيرة من الإيمان، والمرء من النفاق".

الأصمعي قال: سألت علي بن أبي طالب الحسن ابنه رضوان الله عليهم: كم بين الإيمان واليقين؟ قال: أربع أصابع. قال، وكيف ذلك؟ قال: الإيمان كل ما سمعته إذناك وصدقه قلبك، واليقين ما رأته عينك فأيقن به قلبك، وليس بين العين والأذنين إلا أربع أصابع.

الرياشي قال: ضرب علي كرم الله وجهه بيده زانياً، فأوجعه إيجاعاً شديداً. فقال له عم المضروب: بعض هذا الضرب، فقد قتلته. فقال علي رضي الله عنه: إنه وتر من ولدها من قبل أبيها وأمها من النبيين والصالحين إلى آدم.

قال الرياشي: فكنت أعجب من شحنة حد الرجم، فلما سمعت شحنة الذنب هان علي الحد.

الأصمعي عن أبي عمرو قال: دم الحيض غذاء المولود.

أقبل أعرابي إلى النبي صلى الله عليه وسلم ينشد ضالة له، فقال له النبي صلى الله عليه وسلم: "لا وجدتها لا وجدتها، إنما المساجد لما بنيت له".

الأصمعي عن أبي عمرو قال: أعرق الناس في الخلافة عاتكة بنت يزيد بن معاوية، أبوها خليفة، وجدها خليفة، وأخوها معاوية بن يزيد خليفة، وزوجها عبد الملك بن مروان خليفة، وولدها يزيد بن عبد الملك خليفة، وأربابها الوليد وسليمان وهشام خلفاء.

قتادة عن أنس بن مالك قال: أمن النبي صلى الله عليه وسلم الناس يوم فتح مكة إلا أربعة، فإنه قال: اقتلوهم وإن وجدتموهم معلقين بأستار الكعبة: وهم عبد العزى بن يزيد بن حطل، ومقيس بن صبابة الكندي، وعبد الله بن أبي سرح، وأم سارة. فأما عبد العزى فإنه قتل وهو معلق بأستار الكعبة. وأما عبد الله بن أبي سرح فإنه كان أخوا عثمان بن عفان من الرضاعة، فأتى به النبي صلى الله عليه وسلم فباعه وشفع له عنده. وأما مقيس، فإنه كان له أخ مع رسول الله صلى الله عليه وسلم فقتل خطأ، فبعث معه رسول الله صلى الله عليه وسلم رجلاً من بني فهر، ليأخذ له عقله من الأنصار، فلما اجتمع له العقل أخذه وانصرف مع الفهري، فنام في بعض الطريف فوثب عليه مقيس فقتله، ثم أقبل وهو يقول:

يضرخ ثوبيه دماء الأخادع

سراة بني النجار أرباب فارع

وكننت إلى الأوتار أول راجع

شنى النفس من قد بات بالقاع مسندا

قتلت به فهرا، وأغرمت عقله

حللت به نذري وأدركت ثؤرتي

وأما سارة: فإنها كانت مولاة لقريش، فأتت رسول الله صلى الله عليه وسلم واشتكت إليه الحاجة، فأعطاهما شيئاً، ثم أتتها رجل فبعث معها كتاباً إلى أهل مكة يتقرب به إليهم ليحفظ في عياله، وكان عياله بمكة، فأخبر جبريل النبي صلى الله عليه وسلم، فبعث النبي صلى الله عليه وسلم في إثرها عمر بن الخطاب وعلي بن أبي طالب فلحقها، ففتشها، فلم يقدر على شيء، فأقبلا راجعين، ثم قال أحدهما لصاحبه: والله ما كذبنا ولا كذبتنا، ارجع بنا إليها. فرجعا إليها، فسلا سيفيهما، ثم قالوا: لتدفعن إلينا الكتاب أو لنذيقنك الموت. فأنكرته، ثم قالت: أذفعه إليكما على أن لا تؤدياني إلى رسول الله صلى الله عليه وسلم. فقبلا منها ذلك، فحلت عقاص رأسها، وأخرجت الكتاب من قرن من قرونها، فرجعا بالكتاب إلى النبي صلى الله عليه وسلم، فدفعاه إليه، فدعا الرجل وقال له: ما هذا الكتاب؟ فقال له: أخبرك يا رسول الله، إنه ليس ممن معك أحد إلا وله بمكة من يحفظه في عياله غيري، فكتبت بهذا الكتاب ليكافوني في عيالي، فأنزل الله تعالى: "يا أيها الذين آمنوا لا تتخذوا عدوي وعدوكم أولياء تلقون إليهم بالمودة". أمر المصعب بن الزبير رجلاً من بين أسد بن خزيمه بقتل مرة بن مكان السعدي، فقال مرة:

تميماً إذا الحرب العوان اشمعلت

ببائك على الدنيا إذا ما تولت

وكان ابن سعد الأسدي قد تولى صدقات الأعراب لعمر بن عبد العزيز وأعطياهم، فقال فيه جرير يشكو عمر:

وعند ابن سعد سكر وزبيب

وما الظن إلا مخطئ ومصيب

متاع ليالٍ والأداء قريب

وليس لداء الركبتين طبيب

بني أسد، إن تقتلوني تحاربوا

ولست وإن كانت إلي حبيبة

حرمت عيالاً لا فواكه عندهم

وقد كان ظني بابن سعد سعادة

فإن ترجعوا رزقي إلي فإنه

تحيا العظام الراجفات من البلى

لما توجه رسول الله صلى الله عليه وسلم إلى تبوك كان أبو خيشمة فيمن تخلف عنه، فأقبل وكانت له امرأتان، وقد أعدت كل واحدة منهما من طيب ثم بستاتها، ومهدت له في ظل حائط. فقال: أظل ممدود، وثمره رطبة طيبة، وماء بارد، وامرأة حسناء، ورسول الله صلى الله عليه وسلم، في الضح والريح، ما هذا بخير. ثم ركب ناقته ومضى في إثره. فقالوا: يا رسول الله، نرى رجلاً يرفعه الآل، فقال: كن أبا خيشمة. فكانه. الضح: الشمس، تقول العرب في أمثالها: "جاء فلان بالضح والريح"، إذا أقبل بخير كثير.

نتف من الطيب

قال عمر بن الخطاب رضي الله عنه: "لا تزالون أصحاب ما نزعتم ونزوتم". يريد ما نزعتم عن القسي، ونزوتم على ظهور الخيل، وإنما أراد الحركة والله أعلم، كما قال النبي صلى الله عليه وسلم: "سافروا تصحوا".

وقال بعض الحكماء: لا ينبغي للعاقل أن يخلي نفسه من ثلاث في غير إفراط: الأكل، والمشي، والجماع. فأما الأكل فإن الأعماء تضيق لتركه. وأما المشي فإن من لم يتعاهده أو شك أن يطلبه فلا يجده. وأما الجماع فإنه كالبئر، إن نزحت، حمت، وإن تركت تخثر ماؤها، وحق هذا كله القصد فيه. قال النبي صلى الله عليه وسلم: "من استقل برأيه فلا يتداوى. فرب دواء يورث الداء".

وقال الحكماء: إياك وشرب الدواء ما حملتك الصحة.

وقالوا: مثل الدواء في البدن مثل الصابون في الثوب، ينقيه ويخلقه.

الأصمعي عن رجل عن عمه قال: لقيت طبيب كسرى شيخاً كبيراً قد شد حاجبيه بخرقه، فسألته عن دواء المشي، فقال: سهم يرمى به في جوفك أصاب أم أخطأ.

وفي كتاب التفصيل للهند: الدواء من فوق والدواء من تحت، والدواء لا من فوق ولا من تحت.

تفسيره: من كان داؤه فوق سرته سقي الدواء، ومن كان داؤه تحت سرته حقن بالدواء، ومن لم يكن له داء لا من فوق ولا من تحت لم يسق الدواء ولم يحقن به.

وقال النبي صلى الله عليه وسلم لأسماء بنت عميس: "م كنت تستمشين في الجاهلية؟ قالت: بالشبرم. قال: حار بار، ثم قالت: استمشيت بالسنا. قال: لو أن شيئاً يرد القدر لرده السنا.

ومن حديث أبي هريرة: أن النبي صلى الله عليه وسلم خرج عليهم، وهم يتذاكرون الكمأة، ويقولون فيها: حدري الأرض، فقال: إن الكمأة من المن، وماؤها شفاء للعين، وهي شفاء من السم.

وأهدى تميم الداري إلى النبي صلى الله عليه وسلم زيباً، فلما وضعه بين يديه قال لأصحابه: "كلوا فنعم الطعام الزيب، يذهب النصب، ويشد العصب، ويطفيئ الغضب، ويصفي اللون، ويطيب النكهة، ويرضي الرب".

وقال طلحة بن عبد الله: دخلت على النبي صلى الله عليه وسلم، وهو جالس في جماعة من أصحابه، وفي يده سفرجلة يقلبها، فلما جلست إليه دحرج بها نحوي، وقال: دونكها أبا محمد، فإنها تشد القلب، وتطيب النفس، وتذهب بطخاء الصدر".

وقال النبي صلى الله عليه وسلم: "أربع من النشر: شرب العسل نشرة، والنظر إلى الماء نشرة، والنظر إلى الخضرة نشرة، والنظر إلى الوجه الحسن نشرة".

وقال عثمان بن عفان: سمعت النبي صلى الله عليه وسلم يقول: "من بلغ الخمسين أمن الأدواء الثلاث: الجنون، والجذام، والبرص".

ومن حديث زيد بن أسلم: أن النبي صلى الله عليه وسلم قال: ما أنزل الله من داء إلا أنزل له دواء، علمه من جهله وجهله من جهله".

ومن حديث أبي سعيد الخدري: أن النبي صلى الله عليه وسلم قال: "أنزل الدواء الذي أنزل الداء".

ومن حديث زيد بن أسلم أن رجلاً أصابه جرح في بعض مغازي رسول الله صلى الله عليه وسلم، فدعا له رجلين من بني أعمار، فقال: أيكما أطل؟ فقال له رجل من أصحابه: في الطب خير؟ قال: "إن الذي أنزل الداء أنزل الدواء" وقال النبي صلى الله عليه وسلم: "عليكم بهذا العود الهندي، فإن فيه سبعة أشفية يسعط به من العذرة، ويلد به من ذات الجنب".

يريد القسط الهندي، وهو الذي تسميه العامة الكست.

وقال النبي صلى الله عليه وسلم: "عليكم بهذه الحبة السوداء؛ فإن فيها دواء من كل داء إلا السام" يعني الشونيز.

وفي مسند ابن أبي شيبة: أن النبي صلى الله عليه وسلم قال: "عليكم بالإثم عند النوم، فإنه يحد البصر، وينبت الشعر".

وفيه: أن عبد الله بن مسعود قال: عليكم بالشفاءين: القرآن والعسل.

الأصمعي قال: ثلاث ربما صرعت أهل البيت عن آخرهم: الجراد، ولحوم الإبل، والفطر، وهو الفقع. ويقول أهل الطب: إن أردأ الفطر في ظلال الشجر، ولا سيما في ظلال الزيتون، فإنه قتال. وقال وهب بن منبه: إذا صام الرجل زاغ بصره، فإذا أفطر على الحلوى رجع إليه البصر. وأقبل رجل على النبي صلى الله عليه وسلم فقال: يا رسول الله، إني كنت في الجاهلية ذا فطنة وذا ذهن، وأنكرت نفسي في الإسلام. فقال له: أكنت تنام في القائلة؟ قال: نعم. قال: "فعد إلى ما كنت عليه من نوم القائلة".

وقال النبي صلى الله عليه وسلم: "عليكم بالشجرة التي كلم الله منها موسى بن عمران، زيت الزيتون فادهنوا به، فإن فيه شفاء من الباسور". وقال: في الزيتون يقول الله: "وشجرة تخرج من طور سيناء تنبت بالدهن وصبغ للاكلين".

ويقول الأطباء: إذا خرج الطعام من قبل ست ساعات فهو من ضرر، وإذا أقام في الجوف أكثر من أربع وعشرين ساعة فهو من ضرر. دخل المغيرة بن شعبه على معاوية، فقال له معاوية: أنكرت من نفسي حصلتين: قل طعمي، ورق عظمي. فإن تدرت بالثقل أثقلني، وإن تدرت بالخفيف أصابني البرد. قال: نعم يا أمير المؤمنين بين جاريتين سميتين يدفنانك بشحومهما، ويحملان عنك ثقل الدثار بمناكبهما. وأكثر من الألوان، وكل من كل لون ولو لقمة، فإن ذلك إذا اجتمع نفع. فدخل عليه بعد ذلك فقال له معاوية: يا أعور، قد جربنا ما قلت فوجدناه موافقاً.

التعويد والرقى

أبو بكر بن أبي شيبة عن عقبة عن شعبة عن أبي عصمة قال: سألت سعيد بن المسيب عن تعليق التعويد؟ قال: لا بأس به. وكان مجاهد يكتب للصبيان التعويد ويعلقه عليهم.

وقال النبي صلى الله عليه وسلم من قال إذا أصبح: أعوذ بكلمات الله التامة، من كل عين لامة، ومن كل شيطان وهامة، لم يضره عين ولا حية ولا عقرب.

وفي مسند ابن أبي شيبة: إن خالد بن الوليد كان يفرع في نومه، فشكا ذلك إلى النبي صلى الله عليه وسلم، فقال له: "أخبرني جبريل أن عفريتاً من الجن يكيدك، فقل: أعوذ بكلمات الله التامة المباركات التي لا يجاوزهن بر ولا فاجر من شر ما يتزل من السماء، وما يعرج فيها، ومن شر ما ذرأ في الأرض وما يخرج منها، ومن شر كل ذي شر". فقلهن خالد، فذهب ذلك عنه.

وفي مسند ابن أبي شيبة أن النبي صلى الله عليه وسلم قال: "ولا رقية إلا من عين أو حمة". والحمة: السم.

سفيان بن عيينة قال: بينا عبد الله بن مسعود جالساً تعرض عليه المصاحف، إذ أقبلت أعرابية فقالت: أبا فلان، لرجل جالس إليه: لقد لدغ مهرك، وتركته كأنه يدور في فلك، فقم واسترق له. فقال له ابن مسعود: لا تسترق له، واذهب فانفت في منخره الأيمن أربعاً وفي الأيسر ثلاثاً، وقل: أذهب الباس، يا رب الناس، فإنه لا يذهبه إلا أنت. ففعل، فلم يبرح حتى أكل وشرب وبال وراث. دخل أبو بكر على عائشة وهي تشتكي، ويهودية ترقيها، فقال لها: ارقئها بكتاب الله.

الحجامة والكي

قال عبد الله بن عباس: احتجم النبي صلى الله عليه وسلم في رأسه من أذى كان به.

وفي مسند ابن أبي شيبة: أن عيينة بن حصن دخل على رسول الله صلى الله عليه وسلم وهو يحجم في فأس رأسه، فقال: ما هذا؟ قال: "هذا خير ما تداويتم به".

وفي مسند ابن أبي شيبة أن النبي صلى الله عليه وسلم قال: "خير ما تداويتم به الحجامة والقسط العربي، ولا تعذبوا صبيانكم بالغمز من العذرة".

وفيه أن النبي صلى الله عليه وسلم قال: خير يوم تحتجمون فيه سبعة عشر، وتسعة عشر، وأحد وعشرون.
وفيه أنه قال: "إن كان في شيء مما تعالجون به خير ففي شرطة من محجم أو لدعة من نار تواقع الماء، أو شربة من عسل، وما أحب أن أكتوي".

السم والسحر

في مسند ابن أبي شيبة: أن يهود خيبر أهدوا إلى رسول الله صلى الله عليه وسلم شاة مسمومة فقال رسول الله صلى الله عليه وسلم: "اجمعوا لي من هاهنا من اليهود". فجمعوا له. فقال لهم: هل جعلتم في هذا الشاة سمًا؟ قالوا: نعم. قال: ما حملكم على ذلك؟ قالوا: أردنا إن كنت كاذبًا أن نستريح منك، وإن كنت نبيًا لم يضرك السم.
وقال النبي صلى الله عليه وسلم: "ما زالت أكلة خيبر تعادني، فهذا أوان قطعت أبري".
الليث بن سعد عن الزهري قال: أهدى لأبي بكر طعام، وعنده الحارث ابن كلدة طبيب العرب، فأكلا منه، فقال الحارث، لأبي بكر: لقد أكلنا والله في هذا الطعام سم سنة، وإني وإياك لمتان عند رأس الحول، فماتا جميعاً عند انقضاء السنة.
وفي مسند ابن أبي شيبة: أن رجلاً من اليهود سحر النبي صلى الله عليه وسلم، فاشتكى لذلك أياماً، فأتاه جبريل فقال له: إن رجلاً من اليهود سحرك، عقد لك عقداً وجعلها في مكان كذا وكذا. فأرسل علياً رضي الله عنه فاستخرجها، وجاء بها، فجعل يخلها، فكلما حل عقدة وجد رسول الله صلى الله عليه وسلم، خفة، ثم قام رسول الله صلى الله عليه وسلم، كأنما أنشط من عقال.
وفي مسند ابن أبي شيبة عن عبد الرحمن بن أبي ليلى أنه قال: "طب رسول الله صلى الله عليه وسلم -والطب: السحر- فبعث إلى رجل فرقاه".

العين

تقول العرب: رجل معين، إذا أخذ بالعين.
وقال النبي صلى الله عليه وسلم: لو سبق القدر شيء لسبقته العين.
وتقول العرب: إن العين تسرع بالإبل إلى أوصامها، وبالرجال إلى أسقامها.
ونظر عامر بن أبي ربيعة إلى سهل بن حنيف يستحم، فقال: ما رأيت كالיום ولا جلد مخبأة، قال: فلبط به، فأمر النبي صلى الله عليه وسلم عامر ابن أبي ربيعة أن يتوضأ له ثم يطهره بمائه، ففعل، فقام سهل بن حنيف كأنما أنشط من عقال.

أبيات في الطب وجدناها في كتاب فرج بن سلام

فيه شفاء للرياح مميت

تسقيه مصطحبا وحين يبيت

ح من الأنجدان والمحروث

مون فيما قيل ستونا

فلا تدع حرفاً وكمونا

النافجاء بشيرج ملتوت

يغلى لذلك حلبة في مائها

ليس شيء أنفى عن الجسم للري

في الحرف سبعون دواء وفي الكم

قد قاله هرمس في كتبه

وقال:

وقال:

وقال:

وذا المرة الصفراء بالرازيانق

تعاهد فصد العرق من كف حاذق

فما غيرها شيء له بموافق

بسعتر بر داو كل مبلغ

وذو المرة السوداء ذاك علاجه

وذو الدم فليكثر حمامة

وقال:

ودخول الحمام تشرب ماء

لم تخف ما حبيت في الجوف داء

لا تكن عند أكل سخن وبهر

فإذا ما اجتبت ذلك منه

وقال:

قطنة عندها على الأذنين

إن أردت الرقاد في الليل فاجعل

نين مما يضر بالعينين

فيه تظهر السلامة للأذ

وقال:

ولا تبت أبداً من غير منتفض

ومن رياح دعا كلا إلى مرض

لا تشرب الماء بعد النوم من ظمأ

فجوف من بات من ماء ومن ثقل

وقال:

وليكن ذلك في البيت سخن

يعتريه وجع طول الزمن

احس في الحمام ماء سخنا

يسلم البطن من الداء ولا

وقال:

سك بالماء سخن سبع مرات

ل صداع بقدره الجبار

إن دخلت الحمام فاضرب على رأ

فيه تظهر السلامة من كل

وقال:

خل إذا ما شبع في الحمام

مرء من فالج وكل سقام

لا تجامع ولا تمطى ولا تد

فهو دفع لكل ما يتقيه ال

وقال:

فالقيء يخرج ما في الصدر من عفن

يسئل إلا بإخلاق من الحقن

ما كان في الرأس أخرجه بخرغرة

وكل ما كان في الصلب فذلك لا

وقال:

وفي الصيف ماء بارداً حين تصبح

وذاك على إيمانه الجسم يصلح

على الريق في البرد احس ماء مسخناً

وذلك فيما قيل فيه مصحة

وقال:

عصر منه تعاهد للعشاء
سالمًا في الحياة من كل داء

إن من باكر الغداء وبعد ال
فبإذن الإله يبقى صحيحاً

وقال:

لك بالزنبق دلكا
نوم ينفى السقم عنكا

إن رأس الطب إن تد
باطني رجلك عند الن

وقال:

يبيري بإذن الله من داء الحبن

شجر البراغيث الكريه مشمه

وقال:

ولأنه مما يطيب به الفم
وبه يسيل من اللهاة البلغم

إن السواك ليستحب لسنة
لم تخش من حفر إذا أدمنته

وقال:

ف على أثرة من الأيام
م تبديه قبل كل طعام
ق أمان له من الأسقام

احتجم بين كل شهرين ولتل
سبعة منك للزبيب بلا عج
فهو للعين وللهاة وللحل

وقال:

تخرج من الحمام واخش الضرر
وصفته داءً يصيب البصر

ولا تغط الرأس في وقت ما
إن بخار الرأس في وقت ما

وقال:

ولذاذة تاهت على اللذات

إن الجماع على الحمام مصحة

وقال:

بد من الأكل له فانعم
من قبل مأدوماً من المطعم

السمك المالح إن لم يكن
بالطبخ أكثر زيتته ثم كل

وقال:

ل أربعاً لا تدور
رد منه والطهور
شعر الجسم الكثير
هله الناس خبير

اطل منك الشعر في كل
وليكن غسلك بالبا
إنه يزعر منه
إنني طب بما يج

وحدث محمد بن إبراهيم الوراق قال: حدثني محمد بن عبيد الله بن الحارث بن إسحاق بمصر قال: حدثنا محمد بن داود بن أبي ناجية قال: حدثنا زياد بن يونس الحضرمي، عن محمد بن هلال المدني عن أبيه عن أبي هريرة قال: جاءت امرأة إلى رسول الله صلى الله عليه وسلم تشتكي زوجها. فقال: إنما تذكر كثرة الجماع. قال: يا رسول الله، أفأزني؟ قال: لا، ولكن إذا جاءنا سبي، ففعال حتى نعطيك جارية. فقدم عليه سبي، فجاء إليه، فقال له: يا رسول الله، وعدي! فقال له: اختر. فقال له: اختر لي. فقال: "خذ هذه، فإني أراها زرقاء، فلعلها". قال: فما لبثنا أن جاءت المرأة، فقالت: يا رسول الله، ما زاده الأمر إلا تجدداً. فقال له النبي صلى الله عليه وسلم: ما هذا؟ فقال: يا رسول الله، أفأزني؟ قال: لا. ثم قال له رسول الله صلى الله عليه وسلم: لعلك تسكثر الأطلاء. قال: نعم. قال: "فأقل اطلاءك يقل جماعك".

قال محمد: قال لي ابن أبي ناجية: وأنا كما تراني شيخ كبير، قد أتى علي ثمانون سنة، إذا أحببت الوطاء اطلبت في كل خمس عشرة ليلة.

الهدايا

كتب سعيد بن حميد إلى بعض أهل السلطان في يوم النيروز:

أيها السيد الشريف، عشت أطول الأعمار، بزيادة من العمر، موصولة بقرائنها من الشكر، لا ينقضي حق نعمة حتى تجدد لك أخرى، ولا يمر بك يوم إلا كان مقصراً عما بعده، موفياً على ما قبله. إني تصفحت أحوال الأتباع الذين تحب عليهم الهدايا إلى السادة، فالتمست التأسى بهم في الإهداء، وإن قصرت بي الحال عن الواجب، وإني وإن أهديت نفسي فهي ملك لك، لا حظ فيها لغيرك، ورميت بطرفي إلى كرائم مالي، فوجدتها منك. فكنت إن أهديت منها شيئاً كمهدي مالك إليك، وفزعت إلى مودتي، فوجدتها خالصة لك قديمة غير مستحدثة، فرأيت إن جعلتها هديتي لم أجدد لهذا اليوم الجديد براً ولطفاً، ولم أميز منزلة من الشكر بمنزلة من نعمتك، إلا كان الشكر مقصراً عن الحق والنعمة زائدة على ما تبلغه الطاقة، فجعلت الاعتراف بالتقصير عن حقك هدية إليك، والإقرار بما يجب لك براً أتوصل به إليك، وقلت في ذلك:

وهو الحقيق عليه بالشكر

بجميل فعلك آخر الدهر

أن تستضيء بسنة البدر

إن أهد مالاً، فهو واهبه

أو أهد شكراً، فهو مرتهن

والشمس تستغني إذا طلعت

وكتب بعض الكتاب إلى بعض الملوك: النفس لك، والمال منك، والرجاء موقوف عليك، والأمل مصروف نحوك، فما عسى أن أهدي إليك في هذا اليوم، وهو يوم سهلت فيه العادة سبيل الهدايا للسادة، وكرهت أن نخلية من سنته، فنكون من المقصرين، أو أن ندعي أن في وسعنا ما يفي بحقك علينا، فنكون من الكاذبين، فاقصرنا على هدية تقضي بعض الحق، وتنفي بعض الحقد، وتقوم عندك مقام أجمل البر. ولا زلت أيها الأمير دائم السرور والغبطة، في أتم أحوال العافية، وأعلى منازل الكرامة، تمر بك الأعياد الصالحة، والأيام المفرحة، فتخلقها وأنت جديد، تستقبل أمثالها، فتلقاك ببهائها، وجمالها. وقد بعثت الرسول بالسكر لطيبه وحلاوته، والسفرجل لفضله وبركته، والدرهم لبقائه عند كل من ملكه، ولا زلت حلوا المذاق على أوليائك، مرأً على أعدائك، متقدماً عند خلفاء الله الذين تليق بهم خدمتك وتحسن أفتيتهم بمثلك. وقد جمعنا في هذه القصيدة ثناء ومسرةً واعتذاراً وتهنئة. وهي:

وأطعني ولا تطيعن عذولا

ر يحلونه محلاً جليلاً

وأراك الشتاء وجهاً جميلاً

ر فكانت من كل شيء بديلاً

ن وطرف الزمان عنك كليلاً

يك شكري لما أتيت عديلاً

غاد في المهرجان كأساً شمولاً

فهو يوم قد كان آباؤك الغ

إن للصيف دولة قد تقضت

وتجلت لك الرياض عن النو

فتمتع باللهو، لا زلت جذلاً

يعدل الشكر والثناء، وإن لم

فجعلت الذي أطيق من الشكر

على ما عجزت عنه دليلاً

يا لها من هدية تقنع المه

دى إليه ولا تعني الرسولا

وكتب بعض الشعراء إلى بعض أهل السلطان في المهرجان: هذه الأيام جرت فيها العادة، بإلطف العبيد للسادة، وإن كانت الصناعة تقصر عما تبلغه
الهمة، فكرهت أن أهدي فلا أبلغ مقدار الواجب، فجعلت هديتي هذه الأبيات، وهي:

ولما أن رأيت ذوي التصافي

تباروا في هدايا المهرجان

جعلت هديتي وداً مقيماً

على مر الحوادث والزمان

وعبداً حين تكرمه ذليلاً

ولكن لا يقر على الهوان

يزيدك حين تعطيه خضوعاً

ويرضى من نوالك بالأمانى

وأهدى أبو العتاهية إلى بعض الملوك نعلًا وكتب معها:

نعل بعثت بها لتلبسها

تسعى به قدم إلى المجد

لو كان يصلح أن أشركها

خدي جعلت شراكها خدي

وأهدى علي بن الجهم كلباً، وكتب:

استوص خيراً به فإن له

عندي يداً لا أزال أحدها

يدل ضيفي علي في غسق ال

ليل إذا النار نام موقدها

أهدى أحمد بن يوسف ملحاً طيباً إلى إبراهيم بن المهدي، وكتب إليه: الثقة بك سهلت السبيل إليك، فأهديت هدية من لا يحتشم، إلى من لا يغتتم.

وأهدى إبراهيم بن المهدي إلى إسحاق بن إبراهيم الموصلي جراب ملح، وجراب أشنان، وكتب إليه:

لولا إن القلة قصرت عن بلوغ الهمة لأتعبت السابقين إلى برك، ولكن البضاعة قعدت بالهمة، وكرهت أن تطوى صحيفة البر وليس لي فيها ذكر،

فبعثت بالمتبدأ به ليمنه وبركته، والمختوم به لطيبه ونظافته. وأما ما سوى ذلك فالمعبر عنا فيه كتاب الله تعالى إذ يقول: "ليس على الضعفاء ولا على

المرضى ولا على الذين لا يجدون ما ينفقون حرج". إلى آخر الآية.

وكتب إبراهيم بن المهدي إلى صديق له: لو كانت التحفة على حسب ما يوجه حقك لأجحف بنا أدنى حقوقك، ولكنه على قدر ما يخرج الوحشة،

ويوجب الأناج وقد بعثت بكذا وكذا.

وكتب رجل إلى المتوكل على الله وقد أهدى إليه قارورة من دهن الأترج: إن الهدية يا أمير المؤمنين، إذا كانت من الصغير إلى الكبير فكلما لطفت

ودقت كانت أهى وأحسن، وإذا كانت من الكبير إلى الصغير فكلما عظمت وجلت كانت أنفع وأوقع. وأرجو أن لا تكون قصرت بي همة أصارتني

إليك، ولا أخربي إرشاد دلي عليك، وأقول:

ما قصرت همة بلغت بها

بابك يا ذا الندى وذا الكرم

حسبي بوديك أن ظفرت به

نخراً وعزاً يا واحد الأمم

أهدى حبيب بن أوس الطائي إلى الحسن بن وهب قلماً، وكتب معه إليه هذه الأبيات:

قد بعثنا إليك أكرمك الل

ه بشيء فكن له ذا قبول

لا تقسه إلى ندى كفك الغم

ر ولا نيلك الكثير الجزيل

فاستجز قلة الهدية مني

ومن قولنا في هذا المعنى وقد أهديت سلي عنب ومعهما:

أهديت بيضاً وسداً في تلونها

عذراء تؤكل أحياناً وتشرب أح

وأهديت حوتين وكتبت معهما:

أهديت أزرق مقروناً بزرقاء

ذكاتها الاخذ ما تنفك طاهرة

وأهديت طبق ورد ومعها:

رياحين أهديتها لريحانة المجد

وورد به حبيت غرة ما جد

ووشي ربيع مشرق اللون ناضر

بعثت بها زهراء من فوق زهرة

وكتبت على كأس:

اشرب على منظر أنيق

واحلل وشاح الكعاب رفقاً

وقل لمن لاعم في التصابي

وأشند أحمد بن أبي طاهر في هذا المعنى:

ما ترى في هدية من فقير

يغرب الناس في الهدايا إلى النا

محكمات كأنها قطع الرو

وأشند يزيد بن المهلب في المعتمد:

سببى فيك ما يهدي لساني

قصائد تملأ الآفاق مما

وقال آخر:

جعلت فداك، للنيروز حق

ولو أهديت فيه جميع ملكي

وأهديت الثناء بنظم شعر

إن جهد المقل غير قليل

كأنها من بنات الروم والحبش

يانا فتعصم من جوع ومن عطش

كالماء لم يغذها شيء سوى الماء

بالبر والبحر أمواتاً كأحياء

جنتها يد التخجيل من حمرة الخد

شمائله أذكى نسيماً من الورد

يلوح عليه ثوب وشي من الحمد

كتركيب معشوقين خدأ على خد

وامزج بريق الحبيب ريقي

واحذر على خصرها الرقيق

إليك خل عن الطريق

حيل ما بينه وبين اليسار

س، ويهدي غرائب الأشعار

ض تحلت أنوارها بالبهار

إذا فنيت هدايا المهرجان

أحل الله من سحر البيان

وأنت علي أوجب منه حقا

لكان جميعه لك مسترقا

وكنت لذاك مني مستحقا

لأن هدية الألفاظ تفنى

وقال حبيب:

فوالله لا أنفك أهدي شوارداً

ألذ من السلوى وأطيب نفحةً

وقال مروان بن أبي حفصة:

بدولة جعفر حمد الزمان

جعلت هديتي لك فيه وشياً

وقال أحمد بن أبي طاهر:

من سنة الأملاك فيما مضى

هدية العبد إلى ربه

فقلت ما أهدي إلى سيدي

إن أهد نفسي فهي من نفسه

فليس إلا الحمد والشكر والم

وقال الحمدوني، وأهدى إليه سعيد بن حميد أضحية مهزولة، فقال فيها:

لسعيد شويهة

فتغنت وأبصرت

"بأبي من بكفه

فأتاها مطعماً

ثم ولى فأقبلت

"ليته لم يكن وقف

وقال الحمدوني: كتبت إلى الحسن بن إبراهيم، وكان كل سنة يبعث إلي بأضحية، فتأخر عني سنة فكتبت إليه:

سيدي أعرض عني

مر بي أضحي وأضحى

لا يراني فيهما أه

فتعزيت بيأس

واصطحبت الراح يوماً

وأن هدية الأشعار تبقى

إليك يحملن الشتاء المنخلا

من المسك مفتوقاً وأيسر محملاً

لنا بك كل يوم مهرجان

وخر الوشي ما نسج اللسان

من سالف الدهر وإقباله

في جدة الدهر وأحواله

حالي وما خولت من حاله

أو أهد مالي فهو من ماله

دح الذي يبقى لأمثاله

نالها الضر والعجف

رجلاً حلاماً علف

برء دائي من الدنف"

وأنته لتعتلف

تتغنى من الأسف

عذب القلب وانصرف "

وتناسى الود مني

أخلفاني فيه ظني

لا لظلف ولقرن

ثم ضحيت بجني

ثم أنشدت أغني

لا يجرم صد عني

أهدت جارية من جواري المأمون تفاحة له، وكتبت إليه: إني يا أمير المؤمنين لما رأيت تنافس الرعية في الهدايا إليك، وتواتر أطفاهم عليك، فكرت في هدية تخف مؤونتها، وتهمون كلفتها، ويعظم خطرهما، ويجل موقعها، فلم أجد ما يجتمع فيه هذا النعت، ويكمل فيه هذا الوصف إلا التفاح، فأهديت إليك منها واحدة في العدد، كثير في التصرف، وأحببت يا أمير المؤمنين أن أعرب لك عن فضلها، وأكشف لك عن محاسنها، وأشرح لك لطيف معانيها، ومقالة الأطباء فيها، وتفنن الشعراء في وصفها، حتى ترمقها بعين الجلالة، وتلحظها بمقلة الصيانة، فقد قال أبوك الرشيد رضي الله عنه: أحسن الفاكهة التفاح، اجتمع فيه الصفرة الدرية، والحمرة الخمرية، والشقرة الذهبية، وبياض الفضة، ولون التبر، يلذ بها من الحواس العين بيهجتها، والأنف بريحتها، والفم بطعمها. وقال أرسطو طاليس الفيلسوف، عند حضوره الوفاة، واجتمع إليه تلاميذه: التمسوا لي تفاحة أعتصم بريحتها، وأقضي وطري من النظر إليها. وقال إبراهيم بن هانئ: ما علل المريض المبتلى، ولا سكنت حرارة الثكلى ولا ردت شهوة الحبل، ولا جمعت فكرة الحيران، ولا سلت حسيفة الغضبان ولا تحيت الفتيان في بيوت القيان، يمثل التفاح. والتفاحة يا أمير المؤمنين إن حملتها لم تؤذك، وإن رميت بها لم تؤلك، وقد اجتمع فيها ألوان قوس قزح من الخضرة والحمرة والصفرة، وقال فيها الشاعر:

أقرب الأشياء من قوس قزح

واسقنيها بنشاط وفرح

طرفك الفتان قلبي قد جرح

حمرة التفاح مع خضرته

فعلى التفاح فاشرب قهوة

ثم غن الآن كي تطربني

فإذا وصلت إليك يا أمير المؤمنين فتناولها بيمينك، واصرف إليها يقينك، وتأمل حسنها بطرفك، ولا تحدشها بظفرك، ولا تبعدها عن عينك، ولا تبدلها لخدمك، فإذا طال لبثها عندك، ومقامها بين يديك، وخفت أن يرميها الدهر بسهمه، ويقصدها بصرفه، فيذهب بمجتها، ويجيل نضرها، فكلها.

هنيئاً مريئاً غير داء مخامر

والسلام عليك يا أمير المؤمنين ورحمة الله وبركاته.

فقال المأمون: احموا إليها من كل ما أهدي لنا في هذا اليوم.

وكتب العباس المنداني إلى المأمون في يوم نيروز:

كب والوصائف والذهب

ئد والمدائح والخطب

ن من الحوادث والعطب

أهدى لك الناس المرا

وهديتي حلو القصا

فاسلم سلمت على الزما

كتاب الفريدة الثانية في الطعام والشراب

فرش الكتاب

قال الفقيه أبو عمر أحمد بن محمد بن عبد ربه: قد مضى قولنا في بيان طبائع الإنسان وسائر الحيوان والنتف، ونحن قائلون بعون الله وتوفيقه في الطعام والشراب اللذين بهما نمو الغراس، وهما قوم الأبدان، وعليهما بقاء الأرواح. قال المسيح عليه الصلاة والسلام في الماء: هذا أبي، وفي الخبز، هذا أمي. يريد أنهما يغذيان الأبدان كما يغذيها الأبوان.

وهذا الكتاب جزآن، جزء في الطعام، وجزء في الشراب. فالذي في الطعام منهما متقص جميع ما يتم ويتصرف به أغذية الطعام، من المنافع والمضار، وتعاهد الأبدان بما يصلحها من ذلك في أوقاته، وضروب حالاته واختلاف الأغذية مع اختلاف الأزمنة بما لا يخلي المعدة وما لا يكظها، فقد جعل الله لكل شيء قدراً.

والذي في الشراب منهما مشتمل على صفوف الأشربة، وما اختلف الناس فيه من الأنبذة، ومحمود ذلك ومذمومه، فإننا نجد النبيذ قد أجازته قوم صالحون، وكرهه قوم صالحون.

وقد وضعنا لكل شيء من ذلك باب، فيحتاط كل رجل لنفسه بمبلغ تحصله، ومنتهى نظره، فإن الرائد لا يكذب أهله.

أطعمة العرب

الوشيقة من اللحم، وهو أن يغلى إغلاءً ثم يرفع، يقال منه وشقت أشق وشقا، قال الحسن بن هانئ:

واللحم بين موزم وموشق

حتى رفعنا قدرنا بضر امها

والصفيق مثله، ويقال: هو القديد، يقال: صففته أصفة صفاً.

والربيكة: شيء يطبخ من بر وتمر، ويقال: منه ربكته أربكه ربكاً.

والبسيصة: كل شيء خلطته بغيره، مثل السويق بالأقط، ثم تلتته بالسمن أو بالزيت، أو مثل الشعير بالنوى للإبل، يقال: بسسته أبسه بساً.

والعبيثة: بالعين غير معجمة: طعام يطبخ ويجعل فيه جراد، وهو الغنيمة أيضاً.

والبعيث والعليث: الطعام المخلوط بالشعير. فإذا كان فيه الزؤان فهو المعلوث.

والبكيلة والبكالة جميعاً: وهي الدقيق يخلط بالسويق، ثم يبل بماء أو سمن أو زيت، يقال: بكلته أو أبكله، بكلاً.

والفريقة: شيء يعمل من اللبن.

فإذا قطعت اللحم صغاراً قلت: كتفته تكتيفاً.

أبو زيد قال: إذا جعلت اللحم على الجمر قلت: حسسته، وهو أن تقشر عنه الرماد بعد أن يخرج من الجمر. فإذا أدخلته النار ولم تبالغ في طبخه

قلت: ضهبته، وهو مضهب.

والمضيرة سميت بذلك لأنها طبخت باللبن الماضر، وهو الحامض والهريسة لأنها تهرس. والعصيدة لأنها تعصد أي تلوى، واللفيثة لأنها تلفت.

والفالوذ: وهو السرطراط. ومن أسماء الفالوذ أيضاً: السريط، لأنه يسترط مثل يزدرد. ويقال: "لا تكن حلوا فتسترط، ولا مرأ فتعقي".

يقال: أعقى الشيء: اشتدت مرارته.

الريغيدة: اللبن الحليب يغلى ثم يذر عليه الدقيق حتى يختلط فيلحق لعقاً.

الحريرة: الحساء من الدسم والدقيق.

والسخينة: حساء كانت تعمله قريش في الجاهلية، فسميت به، قال حسان:

وليغلبن مغالب الغلاب

زعمت سخينة أن ستغلب ربها

والعكيس: الدقيق يصب عليه الماء ثم يشرب: قال منظور الأسدي:

خصوصا زدادا رشحا ويردها

ولما سقيناها العكيس تمذحت

تمذحت، أي انتفخت.

أسماء الطعام

الوليمة: طعام العرس. والنقعة: طعام الإملاك. والإعذار: طعام الختان. والحرس: طعام الولادة. والعقيقة: طعام سابع الولادة. والنقعة: طعام يصنع عند قود الرجل من سفره؛ يقال: أنقعت إنقاعاً. والكيرة: طعام يصنع عند البناء بينه الرجل في داره. والمأدبة: كل طعام يصنع لدعوة، يقال: أدبت أودب إيداباً. وأدبت أدباً. قال طرفة:

لا ترى الأدب فينا ينتقر

نحن في المشتاة ندعو الجفلى

الأدب: صاحب الأدبة. والجفلى: دعوة العامة. والنقري: دعوة الخاصة.

والسلفة: طعام يتعلل به قبل الغداء. والقفي: الطعام الذي يكرم به الرجل، يقال منه: قفوته فأنا أقفوه قفواً. والقفاوة: ما يرفع من المرق للإنسان، قال الشاعر:

ونحسبه إن كان ليس بجائع

ونقفي وليد الحي إن كان جائعاً

صفة الطعام

قال النبي صلى الله عليه وسلم: أكرموا الخبز فإن الله سخر له السموات والأرض. واكلوا سقط المائدة.

وقال الحسن البصري: ليس في الطعام سرف، وتلا قوله تعالى: "ليس على الذين آمنوا وعملوا الصالحات جناح فيما طعموا".

وقال الأصمعي: الكبادات أربعة: العصيدة، والهريسة، والحيس، والسميد.

أبو حاتم: والسويق طعام المسافر، والعجلان، والحزين والنفساء، وطعام من لا يشتهي الطعام.

أبو حاتم، عن الأصمعي قال: قال أبو صوارة: الأرز الأبيض بالسمن المسلي والسكر الطبرزد ليس من طعام أهل الدنيا.

وقال مالك بن أنس، عن ربيعة بن أبي عبد الرحمن: أكل الخبيص يزيد في الدماغ.

وقال الحسن لفرقد السبخي: بلغني أنك لا تأكل الفالوذج! قال: يا أبا سعيد أخاف أن لا أؤدي شكره! قال: يا لكع، وهل تؤدي شكر الماء البارد في

الصيف، والحر في الشتاء؟ أما سمعت قول الله تعالى: "يا أيها الذين آمنوا كلوا من طيبات ما كسبتم".

وسمع الحسن رجلاً يعيب الفالوذج، فقال: لباب البر بلعاب النحل بخالص السمن، ما عاب هذا مسلم.

وقال رجل في مجلس الأحنف: ما شيء أبغض إلي من الزبد والكمأة. فقال الأحنف: "رب ملوم لا ذنب له".

وقيل لشريح القاضي: أيهما أطيب، اللوزينق أو الجوزينق؟ فقال: لا أحكم على غائب! ولد لعبد الرحمن بن أبي ليلى غلام فصنع الأخبصة، ودعا

الناس، وفيهم مساور الوراق، فلما أكلوا قال مساور الوراق:

من لم يدمم بالثرید سبالنا

بعد الخبيص فلاهناه الفارس

الرقاشي قال: أخبرنا أبو هفان أن رقية بن مصقلة طرح نفسه بقرب حماد الراوية في المسجد، فقال له حماد: ما لك؟ قال: صريع فالودج. قال له حماد: عند من؟ فظالما كنت صريع ستمك مملوح خبيث. قال: عند حكم في الفرقة وفصل في الجماعة. قال: وما أكلتم عنده؟ قال: أتانا بالأبيض المنضود، والملوز المعقود، والذليل الرعديد، والماضي المودود.

محمد بن سلام الجمحي قال: قال بلال بن أبي بردة، وهو أمير على البصرة للجواود بن أبي سيرة الهذلي: أتخضر طعام هذا الشيخ؟ يعني عبد الأعلى بن عبد الله بن عامر، قال: نعم. قال: فصفه لي. قال: نأتيه فنجدته متصحباً، يعني نائماً، فنجلس حتى يستيقظ، فيأذن لنا فنساقطه الحديث، فإن حدثناه أحسن الاستماع، وإن حدثنا أحسن الحديث، ثم يدعو بمائدته، وقد تقدم إلى جواريه وأمهات أولاده أن لا تلتطفه واحدة منهن إلا إذا وضعت مائدته، ثم يقبل حبابه، فيمثل بين يديه، فيقول: ما عندك اليوم؟ فيقول: عندي كذا عندي كذا، فيعدد كل ما عنده، ويصفه، يريد بذلك أن يجبس كل رجل نفسه وشهوته على ما يريد من الطعام، وتقبل الألفاظ من هاهنا وهاهنا، وتوضع على المائدة، ثم يؤتى بشريدة شهباء من الفلفل، رقطاع من الحمص، ذات حفايين من العراق، فنأكل معه، حتى إذا ظن أن القوم قد كادوا يمتثلون جثا على ركبتيه، ثم استأنف الأكل معهم. فقال أبو بردة: لله در عبد الأعلى، ما أربط جأشه على وقع الأضراس.

وحضر أعرابي طعام عبد الأعلى، فلما وقف الحباب بين يديه ووصف ما عنده قال: أصلحك الله، أتأمر غلامك يسقيني ماء؟ فقد شبع من وصف هذا الحباب.

وقال له عبد الأعلى يوماً: ما تقول يا أعرابي لو أمرت الطباخ فعمل لون كذا، ولون كذا؟ قال: أصلحك الله لو كانت هذه الصفة في القرآن لكانت موضع سجود.

أبو عبيدة قال: مر الفرزدق يبيحى بن المنذر الرقاشي فقال له: هل لك أبا فراس في جدي رضيع، ونبيد صليب منشراب الزبيب؟ قال: وهل يأبى هذا إلا ابن المراغة.

وقال الأصوصي لجرير لما قدم المدينة: ماذا ترى أن نعد لك؟ قال: شواء وطلاء، وغناء. قال: قد أعد لك. وقال مساور الوراق في وصف طعام:

فيما سمعت كميت الأحياء

يستأثرون به على الفقراء

والعيش ليس لذيله بسواء

صفة الطعام لشهوة الحلواء

شهد تباكره بماء سماء

فجمعت بين مبارك وشفاء

حضروا اليوم تتعم أكفاء

فيما يكون بلفظة عوراء

بين النخيل بغرفة فيحاء

متشمر يسعى بغير رداء

قلص القميص مشمر سعاء

اسمع بنعتي للملوك ولا تكن

إن الملوك لهم طعام طيب

إني نعت لذيق عيشي كله

ثم اختصت في اللذيذ وعيشه

فبدأت بالعسل الشديد بياضه

إني سمعت لقول ربك فيهما

أيام أنت هناك بين عصابة

لا ينطقون إذا جلست إليهم

منتسمين رياح كل هبوبة

فقعدت ثم دعوت لي بمبذرف

قد لف على عضلاته

فأتى بخبز كالملاء منقط
حتى مالاها ثم ترجم عندها
فإذا القصاع من الخنج لديهم

ارفع وضع وهنا وهالك وهاهنا
يؤتون ثم بلون كل طريفة
من كل فرني وجدي راضع
ومصوص دراج كثير طيب
وثريدة ملمومة قد سققت
وتزينت بتوابل معلومة
هذا الثريد وما سواه تغل
ولقد كلفت بنعت جدي راضع
قال نال من لبن كثير طيب
من كل أحمر لا يقر إذا ارتوى
متعكن الجنين صاف لونه
فإذا مرضت فداوني بلحومها
ودع الطبيب ولا تثق بدوائه
إن الطبيب إذا حباك بشربة
وإذا تتطع في دواء صديقه
نعت الطبيب هليلجاً وبليلجاً
رطب المشان مجزعا يؤتى به
وبنائياً زرقاً كأن بطونها
ليست بأكلة الحشيش ولا التي

فبناه فوق أخاون الشيزاء
بالفارسية داعياً بوحاء
تبدن جوانبها مع الوصفاء

قصف الملوك ونهمة القراء
قد خالفته موائد الخلفاء
ودجاجة مربوبة عشواء
ونواهض يؤتى بهن شواء
من فوقها بأطايب الأعضاء
وخبيصات كالجمان نفاء
ذهب الثريد بنهمتي وهوائي
قد صننته شهرين بين رعاء
حتى تفتق من رضاع الشاء
من بين رقص دائم ونزاء
عبل القوائم من غذاء رخاء
إني وجدت لحومهن دوائي
ما خالفتك رواضع الجزاء
تركنتك بين مخافة ورجاء
لم يعد ما في جونة الرقاء
ونعت غيرهما من الحلواء
والرازقي فما هما بسواء
قطع الثلوج نقيه الأمعاء
يبتاها الخناق في الظلماء

باب آداب الأكل والطعام

قال النبي صلى الله عليه وسلم: "الأكل في السوق دناءة".

وقال صلى الله عليه وسلم: "إذا أكل أحدكم فليأكل بيمينه، ويشرب بيمينه، فإن الشيطان يأكل بشماله ويشرب بشماله".

وقال صلى الله عليه وسلم: "سموا إذا أكلتم، واحمدوا إذا فرغتم". وكان يقطع أصابعه بعد الطعام.
 وقال صلى الله عليه وسلم: "الوضوء قبل الطعام ينفي الفقر، وبعد الطعام ينفي اللبس."
 ومن الأدب في الوضوء أن يبدأ صاحب البيت فيغسل يديه قبل الطعام، ويقدم أصحابه بعد الطعام.
 قال النبي صلى الله عليه وسلم: طعام الاثنين كافي الثلاثة، وطعام الثلاثة كافي الأربعة.
 وقال صلى الله عليه وسلم: "املكوا العجين فإنه أحد الربيعين".
 وكان فرقد يقول لأصحابه: إذا أكلتم فشدوا الإزار على أوساطكم، وصغروا اللقم، وشدوا المضغ، ومصوا الماء، ولا يحل أحدكم إزاره فيتسع معاه،
 ويأكل كل واحد ما بين يديه.
 وقالوا: كان ابن هبيرة يباكر الغداء، فسئل عن ذلك فقال: إن فيه ثلاث حصال: أما الواحدة: فإنه ينشف المرة، والثانية: أنه يطيب النكهة، والثالثة: أنه يعين على المروءة. فقيل له: وكيف يعين على المروءة؟ قال: إذا خرجت من بيتي وقد تغديت، لم أتطلع إلى طعام أحدٍ من الناس.

البطنة وقولهم فيها

قالوا: البطنة تذهب الفطنة.
 وقال مسلمة بن عبد الملك لأبيون، ملك الروم: ما تعدون الأحمق فيكم؟ قال: الذي يملأ بطنه من كل ما وجد.
 وحضر أبو بكره سفره معاوية ومعه ولده عبد الرحمن، فرآه يلقم لقمًا شديدًا، فلما كان بالعشي راح إليه أبو بكره، فقال له معاوية: ما فعل ابنك التلقامة؟ قال: اعتل. قال: مثله لا يعدم العلة.
 ورأى أبو الأسود الدؤلي رجلاً يلقم لقمًا منكرًا، فقال: كيف اسمك؟ قال: لقمان، قال: صدق الذي سماك.
 ورأى أعرابي رجلاً سمينًا، فقال له: أرى عليك قطيفة من نسج أضراسك.
 وقعد أعرابي على مائدة المغيرة، فجعل ينهش ويتعرق، فقال المغيرة: يا غلام، ناوله سكينًا. قال الأعرابي: كل امرئ سكينه في رأسه.
 قال أعرابي: كنت أشتهي ثريدة دكنا من الفلفل، رقطاء من الحمص، ذات جفافين من العراق، فأضرب فيها كما يضرب الولي السوء في ما اليتيم.
 وقال أعرابي:

وخيلاً من البرني فرسانها الزبد

بموت كريم لا يعد له لحد

ألا ليت لي خبزاً تسربل رائباً

فأطلب فيما بينهن شهادة

واصطحب شيخ وحدث من الأعراب في سفر، وكان لهما قرص في كل يوم، وكان الشيخ مخلص الأضراس، وكان الحدث يبطش بالقرص ثم يقعد يشكو العشق، والشيخ يتضور جوعاً، وكان يسمى جعفرًا، فقال الشيخ فيه:

يطيش بقرصي ثم يبكي على جمل

بطيناً ونسائك الهوى شدة الأكل

لقد رابني من جعفر أن جعفرًا

فقلت له لو مسك الحب لم تبت

الأصمعي قال: تقول العرب في الرجل الأكل: إنه برم قرون.

البرم: الذي يأكل مع الجماعة ولا يجعل شيئاً. والقرون: الذي يأكل تمرتين تمرتين ويأكل أصحابه تمره تمره. وقد نهي النبي صلى الله عليه وسلم عن القرآن.

وكان عبد الله بن الزبير إذا قدم التمر إلى أصحابه قال عبد الله بن عمر: إياكم والقران، فإن النبي صلى الله عليه وسلم نهي عنه.

وقيل لبسرة الأحول: كم تأكل كل يوم؟ قال: من مالي أو من مال غيري؟ قيل له: من مالك. قال: مكوكاً. قيل: فمن مال غيرك، قال: احبزوا

فيها خصالٌ عشره

وجهاً قبيح المنظره

أوسع منها القنطره

ثوراً وتخرى بقره

قبينة حفص ويلها

أولها أن لها

ودارها في وهدة

تأكل في مقعدها

قال تأبط شراً: ما أحببت شيئاً قط حيي ثلاثة: أكل اللحم، وركوب اللحم، وحك اللحم باللحم. وقال أبو اليقظان: كان هلال بن الأسعر التميمي أكولاً، فيزعمون أنه أكل جملاً، وأكلت امرأته فصيلاً، فلما أراد أن يجامعها لم يصل إليها، فقالت له: وكيف تصل إلي وبينك وبينك بعيران.

وكان لوثاق واسمه هارون بن محمد بن هارون أكولاً، وكان مفتوناً بحب الباذنجان، وكان يأكل في أكلة واحدة أربعين باذنجاناً، فأوصى إليه أبوه - وكان ولي عهده - وملك متى رأيت خليفة أعمى؟ فقال للرسول: أعلم أمير المؤمنين أني تصدقت بعيني جميعاً على الباذنجان. وكان سليمان بن عبد الملك من الأكلة، حدث العتيبي عن أبيه عن المشردل وكيل عمرو بن العاص قال: لما قدم سليمان الطائف دخل هو وعمر بن عبد العزيز وأيوب وابنه بستاناً لعمرو بن العاص فجال فيه ساعة، ثم قال: ناهيكم بمالككم هذا مالا، ثم ألقى صدره على غصن، وقال: وملك يا شمردل ما عندك شيء تطعمني؟ قال: بلى إن عندي جدياً كانت تغدو عليه بقرة وتروح عليه أخرى. قال: عجل به. قال: فأتيته به كأنه عكة سمن، فأكله وما دعا عمر ولا ابنه، حتى إذا بقي الفخذ قال: هلم أبا حفص. قال: إني صائم. فأتى عليه، ثم قال: وملك يا شمردل، ما عندك شيء تطعمني؟ قال: بلى والله عندي خمس دجاجات هنديات كأنهن رثلان النعام. قال: فأتيته بمن فكان يأخذ برجلي الدجاجة فيلقي عظامها نقيه حتى أتى عليهن، ثم قال: يا شمردل، ما عندك شيء تطعمني؟ قلت: بلى والله، إن عندي حريرة كأنها قراضة الذهب. فقال: عجل بها. فأتيته بعس يغيب فيه الرأس، فجعل يلاطمها بيديه ويشرب، فلما فرغ تجشأ فكأتما صاح في جب، ثم قال: يا غلام، أفرغت من غدائي؟ قال: نعم. قال: وما هو؟ قال: ثمانون قدراً، قال: اثني بها قدراً قدراً، قال: فأكثر ما أكل من كل قدر ثلاث لقم، وأقل ما أكل لقمة، ثم مسح يده واستلقى على فراشه، ثم أذن للناس ووضعت المائدة وقعد فأكل مع الناس، فما أنكرت من أكله شيئاً.

وقال الأصمعي: كنت يوماً عند هارون الرشيد، فقدمت إليه فالوذجة، فقال: يا أصمعي. قلت: لبيك يا أمير المؤمنين. قال: حدثني بحديث مزرد أخي الشماخ. قلت: نعم يا أمير المؤمنين، إن مزرداً كان رجلاً جشعاً هماً، وكانت أمه تؤثر عيالها بالزاد عليه، وكان ذلك مما يضره ويحفظه، فذهبت يوماً في بعض حقوق أهلها وخلفت مزرداً في بيتها ورحلها، فدخل الخيمة فأخذ صاعين من دقيق، وصاعاً من عجوة، وصاعاً من سمن، فضرب بعضه ببعض فأكله، ثم أنشأ يقول:

أغرث على العكم الذي كان يمنع

إلى صاع سمن فوقه يتريع

رؤوس رخال قطعت لا تجمع

حمى أمانا مما تفيد وتجمع

وإن كنت غرثاناً فذا يوم تشبع

ولما مضت أمة تزور عيالها

خلطت بصاعي حنطة صاع عجوة

ودبلت أمثال الأثافي كأنها

وقلت لبطني أبشري اليوم إنه

فإن كنت مصفوراً فهذا دواؤه

قال: فاستضحك هارون حتى أمسك على بطنه واستلقى على ظهره، ثم قعد فمد يده، وقال: خذ، فذا يوم تشيع يا أصمعي.
وقال حميد الأرقط، وهو الذي يقال له: "هجاء الأضياف"، يصف أكل الضيف:

تجهز كفاه ويحدر حلقة
إلى الزور ما ضمت عليه الأنامل
أتانا وما ساواه سبحان وائل
بياناً وعلماً بالذي هو قائل
فما زال عنه اللقم حتى كأنه
من العي لما أن تكلم باقل

وقال:

لا أبغض الضيف ما بي جل مأكله
إلا تنفجه حولي إذا قعد
ما زال ينفخ جنبه وحبوته
حتى أقول لعل الضيف قد ولدا

وقال:

لا مرحباً بوجوه القوم إذ نزلوا
دسم العمائم تحكيها الشياطين
ألقيت جلتنا الشهر يز بينهم
كأن أظفارهم فيها سكاكين
فأصبحوا والنوى عالي معرسهم
وليس كل النوى يلقي المساكين

أبو الحسن المدائني قال: أقبل نصراني إلى سليمان بن عبد الملك، وهو بدابق، بسلين، أحدهما مملوء بيضاً، والآخر مملوء تيناً، فقال: اقشروا، فجعل يأكل بيضة وتينة حتى فرغ من السلين، ثم أتوه بقصعة مملوءة مخاً بسكر فأكله، فأتخم ومرض فمات.
والأكلة كلهم يعييون الحمية، ويقولون: الحمية إحدى العلتين.
وقالوا: من احتسمى فهو على يقين من المكروه، وفي شك من العافية.
وقالوا: الحمية للصحيح ضارة، وللعليل نافعة.

الحمية وقولهم فيها

قيل لبقرط: مالك تقل الأكل جداً؟ قال: إني إنما أكل لأحيا، وغيري يحيا ليأكل.
وأجمعت الأطباء على أن رأس الداء كله إدخال الطعام على الطعام، وقالوا: احذروا إدخال اللحم على اللحم، فإنه ربما قتل السباع في القفر. وأكثر العلل كلها إنما يتولد من فضول الطعام.
والحمية مأخوذة عن النبي صلى الله عليه وسلم: رأى صهيياً يأكل تمرأً وبه رمد، فقال: "أتأكل تمرأً وأنت أرمد؟".
ودخل على علي رضي الله عنه، وهو عليل ويده عنقود عنب، فترعه من يده.
وقال عليه الصلاة والسلام: "لا تكرهوا مرضاكم على الطعام والشراب فإن الله يطعمهم ويسقيهم".
وقيل للحارث بن كلدة طبيب العرب: ما أفضل الدواء؟ قال: الأزم. يريد قلة الأكل. ومنه قيل للمجاعة: الأزمة، وللكثير أزمات.
وقيل لآخر: ما أفضل الدواء؟ قال: أن ترفع يدك عن الطعام وأنت تشتهييه.
أبو الأشهب عن أبي الحسن قال: قيل للمنذر بن جندب: إن ابنك أكل طعاماً كظله حتى كاد يقتله. قال: لو مات ما صليت عليه.
ودعا عبد الملك بن مروان رجلاً إلى الغداء، فقال: ما في فضل يا أمير المؤمنين. قال: لا خير في الرجل يأكل حتى لا يكون فيه فضل.
وقال الأحنف بن قيس: جنبوا مجالسنا ذكر النساء والطعام، فإني أبغض الرجل أن يكون وصافاً لبطنه وفرجه.

وقيل لبعض الحكماء: أي الأدواء أطيب؟ قال: الجوع ما ألقىت إليه من شيء قبله.
 وقال رجل من أهل الشام، لرجل من أهل المدينة: عجبت منكم، أن فقهاءكم أظرف من فقهاءنا، ومجانينكم أظرف من مجانينا، قال: أوتدري من أين ذلك؟ قال: لا أدري. قال: من الجوع، ألا ترى أن العود إنما صفا صوته لما خلا جوفه.
 وقال الجاحظ: كان أبو عثمان الثوري يجلس ابنه معه يوم الرأس، وكان له يوم معروف يأكل فيه رأساً لا محالة، وكان يجلس ابنه معه: ويقول: إياك يا بني وهم الصبيان، وأخلاق النوائح، ونهش الأعراب، وكل مما يليك، واعلم أنه إذا كان في الطعام لقمة كريمة، أو مضغعة شهية، أو شيء مستطرف، فإنما ذلك للشيخ المعظم، أو للصبي المدلل، ولست بواحد منهما. وقد قالوا: مدمن اللحم كمدن الخمر. أي بني، عود نفسك الأثرة ومجاهدة الهوى والشهوة، ولا تنهش نمش السباع، ولا تحضم خضم البراذين، ولا تدمن الأكل إدمان النعاج، ولا تلقم لقم الجمال، فإن الله جعلك إنساناً، فلا تجعل نفسك بميمة. واحذر صرعة الكظة، وسرف البطننة، فقد قال بعض الحكماء: إذا كنت نهماً فعد نفسك من الزمى، واعلم أن الشيع داعية البشم، والبشم داعية السقم، وأن السقم داعية الموت، ومن مات هذه الميتة فقد مات ميتة لثيمة لأنه قاتل نفسه، وقاتل نفسه ألام من قاتل غيره.
 أي بني، والله ما أدى الركوع والسجود ذو كظة، ولا خشع لله ذو بطننة، والصوم مصحة، والوجبات عيش الصالحين.

أي بني؛ لأمر ما طالت أعمار أهل الهند، وصحت أبدان العرب، والله در الحارث بن كلدة، إذ زعم أن الدواء هو الأزم، فالداء كله من فضول الطعام، فكيف لا ترغب في شيء يجمع لك صحة البدن، وذكاء الذهن، وصلاح الدين والدنيا، والقرب من عيش الملائكة؟ أي بني، لم صار الضب أطول عمراً، إلا لأنه يتبلغ بالنسيم؟ ولم قال الرسول عليه الصلاة والسلام: إن الصوم وجاء؟ إلا لأنه جعله حجازاً دون الشهوات؟ فافهم تأديب الله عز وجل، وتأديب رسوله عليه الصلاة والسلام.
 أي بني، قد بلغت تسعين عاماً ما نقص لي سن، ولا انتشر لي عصب، ولا عرفت ذنين أنف، ولا سيلان عين، ولا سلس بول، ما لذلك علة إلا التخفيف من الزاد. فإن كنت تحب الحياة فهذه سبيل الحياة، وإن كنت تحب الموت فلا أبعد الله غيرك.

سياسة الأبدان بما يصلحها

قال الحجاج بن يوسف للباذون طبيبه: صف لي صفةً أخذ بها نفسي ولا أعدوها. قال له: لا تتزوج من النساء إلا شابة، ولا تأكل اللحم إلا فتياً، ولا تأكله حتى تنعم طبخه، ولا تشرب دواء إلا من علة، ولا تأكل من الفاكهة إلا نضيجها، ولا تأكل طعاماً إلا أجدت مضغه، وكل ما أحببت من الطعام، واشرب عليه، فإذا شربت فلا تأكل، ولا تجبس الغائط ولا البول، وإذا أكلت بالنهار فتم، وإذا أكلت بالليل فامش قبل أن تنام ولو مائة خطوة.

قيل ليهود خير: بم صححتهم على وباء خير؟ قالوا: بأكل الثوم، وشرب الخمر، وسكنى اليفاع، وتجنب بطون الأودية، والخروج من خير عند طلوع النجم وعند سقوطه.

وقال قيصر لقس بن ساعدة: صف لي مقدار الأطعمة. فقال: الإمساك عن غاية الإكثار، والبقيا على البدن عند الشهوة. قال: فما أفضل الحكمة؟ قال: معرفة الإنسان قدره. قال: فما أفضل العقل؟ قال: وقوف الإنسان عند منتهى علمه.

وسأل عبد الملك بن مروان أبا المفوز: هل أتخمت قط؟ قال: لا. قال: وكيف ذلك؟ قال: لأننا إذا طبخنا أنضجنا، وإذا مضغنا دققنا، ولا نكظ المعدة ولا نخلجها.

وقيل ليزر جمهر: أي وقت فيه الطعام أصلح؟ قال: أما لمن قدر فإذا جاع ولمن لم يقدر فإذا وجد.
 وقال: أربع يهدمن العمر، وربما قتلن: الحمام على البطننة، والجماعة على الامتلاء، وأكل القديد الجاف، وشرب الماء البارد على الريق.

وقال إبراهيم النظام: ثلاثة أشياء تفسد العقل: طول النظر في المرآة، والاستغراق في الضحك، ودوام النظر في البحر.
 الأصمعي قال: جمع هارون من الأطباء أربعة: عراقياً، ورومياً، وهندياً، ويونانياً، فقال: ليصف لي كل واحد منكم الدواء الذي لا داء معه. فقال

العراق: الدواء الذي لاداء معه حب الرشاد الأبيض. وقال الهندي: الإهليلج الأسود. وقال الرومي: الماء الحار، وقال اليوناني -وكان أطبهم- حب الرشاد الأبيض يولد الرطوبة، والماء الحار يرخي المعدة، والإهليلج الأسود يرق المعدة، لكن الدواء الذي لا داء معه أن تقعد على الطعام وأنت تشتهييه، وتقوم عنه وأنت تشتهييه.

تدبير الصحة

ثم نذكر بعد هذا من وصف الطعام وحالاته، وما يدخل على الناس من ضروب آفاته، باباً في تدبير الصحة التي لا تقوم الأبدان إلا به، ولا تنمى النفوس إلا عليه.

وقد قال الشافعي: العلم علمان: علم الأديان وعلم الأبدان.

ولم نجد بدأً -إذ كانت جملة هذه المطاعم التي بها نمو الغرسة، وعليها مدار الأغذية تضر في حالة، وتنفع في أخرى- من ذكر ما ينفع منها ومقدار نفعه، وما يضر منها ومبلغ ضره، وأن نحكم على كل ضرب منها بالأغلب عليه من طباعه، وقلما نجد شيئاً ينفع في حالة إلا وهو يضر في الأخرى، ألا ترى أن الغيث الذي جعله الله رحمة لخلقه، وحياء لأرضه، قد يكون منه السيول المهلكة، والخراب المححف؟ وأن الرياح التي سخرها الله مبشرات بين يدي رحمته، قد أهلك باه قوماً وانتقم بها من قوم؟ وفي هذا المعنى قال حبيب الطائي:

ولم تر ضراً عند من ليس ينفع

ولم تر نفعاً عند من ليس ضائراً

قال خالد بن صفوان لخادمه: أطعمينا جنباً، فإنه يشهي الطعام، ويهيج المعدة، وهو حمض العرب. قال: ما عندنا منه شيء. فقال: لا عليك، فإنه يقدر الأسنان، ويشد البطن.

ولما كانت أبدان الناس دائمة التحلل، لما فيها من الحرارة الغريزية من داخل، وحرارة الهواء المحيط بها من خارج، احتاجت إلى أن يخلف عليها ما تحلل، واضطرت بذلك إلى الأطعمة والأشربة، وجعلت فيها قوة الشهوة ليعلم بها وقت الحاجة منها إليها، ومقدار ما يتناول منها، والنوع الذي يحتاج إليه، ولأنه لا يخلف الشيء الذي يتحلل ولا يقوم مقامه إلا مثله، وليس تستطيع القوة التي تحيل الطعام والشراب في بدن الإنسان أن تحيل إلا ما شاكل البدن وقاربه. فإذا كان هذا هكذا، فلا بد لمن أراد حفظ الصحة أن يقصد لوجهين: أحدهما أن يدخل على البدن الأغذية الموافقة لما يتحلل منه، والآخر أن ينفي عنه ما يتولد فيه من فضول الأغذية.

ما يصلح لكل طبيعة من الأغذية

وينبغي لك أن تعرف اختلاف طبائع الأبدان وحالاتها، لتعرف بذلك موافقة كل نوع من الأطعمة لكل صنف الناس. وذلك أن الأغذية مختلفة، فمنها معتدلة، كالتي يتولد منها الدم الخالص النقي، ومنها غير معتدلة، كالتي يتولد منها البلغم والمرة الصفراء والسوداء، والرياح الغليظة، ومنها لطيفة، ومنها غليظة، ومنها ما يتولد منه كيموس لزج، وكيموس غير لزج ومنها ما له خاصة منفعة أو مضرّة في بعض الأعضاء دون بعض. فقد يجب متى كان المستولي على البدن الدم النقي أن تكون أغذيته قصداً في قدرها، معتدلة في طبائعها. ومتى كان الغالب عليه البلغم، فيجب أن تكون مسخنة أو يغتذي بما يزيد في الحرارة، ويقمع الرطوبة. ومتى كان الغالب عليه المرة السوداء، فينبغي له أن يغتذي بالأغذية الحارة الرطبة. ومتى كان الغالب عليه المرة الصفراء، فيغتذى بالأغذية الباردة الرطبة، ومتى كان البدن مستحسفاً عسر التحلل، فينبغي أن يغتذى بأغذية يسيرة لطيفة جافة، ومتى كان متخلخلاً فينبغي له أن يتغذى بأغذية لزجة، لكثرة ما يتحلل من البدن.

فهذا التدبير ينبغي أن يلتزم، ما لم يكن في بعض أعضاء البدن ألم، فينبغي أن يستعمل النظر في الأغذية الموافقة للعضو الألم، لأننا ربما اضطررنا إلى استعمال ما يوافق العضو الألم إن كان مخالفاً لسائر البدن، كما أنه لو كانت الكبد باردة ضيقة المجاري، احتجنا إلى استعمال الأغذية اللطيفة، وتجنب

الأغذية الغليظة، وإن كان سائر البدن غير محتاج إليها لضعف أو نحافة، لئلا تحدث الطبيعة في الكبد سداداً، وربما كانت الكبد حارة فتحذر الأذية الحلوة، وإن احتاج إليها، لسرعة استحالتها إلى المرة الصفراء. وربما كانت المعدة ضعيفة، فتحتاج إلى ما يقويها من الأغذية، وربما كان يولد الطعام فيها بلغمًا، فتحتاج إلى ما يجمع الصفراء، وإلى تجنب الأشياء المولد لها. وربما كان الطعام يبقى على رأس المعدة طافياً، فيستعمل الأغذية الغليظة الراسية ليتثقل بثقلها إلى أسفل المعدة، وتأمرة بحركة يسيرة بعد الطعام، لينحط الطعام عن رأس المعدة. وربما كان رأس المعدة حاراً قابلاً للحرار فيتجنب الأغذية الحارة، وإن احتاج إليها سائر البدن.

الحركة والنوم مع الطعام

وينبغي ألا يقتصر على ما ذكرنا دون النظر في مقدار الحركة قبل الطعام، والنوع بعده، فمتى كانت الحركة قبل الطعام كثيرة، غذيها بأغذية كثيرة غليظة لزجة إلى اليبس ما هي، بطيئة التحلل، ولم تأمره بالحمية، لقلّة الحاجة إليها. ومتى لم تكن قبل الطعام حركة، أو كانت يسيرة، فينبغي ألا يقتصر على الحمية، بقلّة الطعام ولطافته، دون أن يستعين على تخفيف ما يتولد في البدن من الفضول باستفراغ الأدوية المسهلة، وبالحمّام، وبإخراج الدم. ومتى كانت الحركة كافية، استعملنا الأغذية المعتدلة في كثيرها، وقد لطافتها وغلظها. ومتى كان النوم بعد الطعام كثيراً احتجنا إلى استعمال أغذية كثيرة غزيرة الغذاء، لطول الليل، وكثرة النوم، ومتى كان النوم قليلاً احتجنا إلى الطعام القليل الخفيف اللطيف، كالذي يعتدي به في الصيف، لقصر الليل وقلة النوم.

تقدير الطعام وما يقدر منه وما يؤخر

ويجب في الطعام أن يقدر فيه أربعة أنحاء: أولها ملاءمة الطعام لبدن المعتدي به في الوقت الذي يعتدي به فيه، كما ذكرنا آنفاً: أنه متى كان الغالب على البدن الحرارة احتاج إلى الأغذية الباردة. ومتى كان الغالب عليه البرد احتاج إلى الأغذية الحارة، ومتى كان معتدلاً احتاج إلى الأغذية المعتدلة المشاكلة له.

والنحو الثاني: تقدير الطعام بأن يكون على مقدار قوة الهضم، لأنه وإن كان في نفسه محموداً وكان ملائماً للبدن، وكان أكثر من قد احتمال قوة الهضم، ولم يستحكم هضمه، تولد منه غذاء رديء. والنحو الثالث: تقديم ما ينبغي أن يقدم من الطعام، وتأخير ما ينبغي أن يؤخر منه، ومثل ذلك أنه ربما جمع الإنسان في أكلة واحدة طعاماً يلين البطن، وطعاماً يجبس. فإن هو قدم الملين وأتبعه الآخر سهل انحدار الطعام منه، ومتى قدم الطعام الحابس وأتبعه الملين لم ينحدر وفسداً جميعاً. وذلك أن الملين حال فيما بينه وبين التزول الطعام الحابس، فبقي في المعدة بعد انهضامه، ففسد به الطعام الآخر. ومتى كان الطعام الملين قبل الحابس انحدر الملين بعد انهضامه، وسهل الطريق لانحدار الحابس. وكذلك أيضاً إن جمع أحد في أكلة واحدة طعاماً سريع الانهضام وآخر بطيء الانهضام، فينبغي له أن يقدم البطيء الانهضام ويتبعه السريع الانهضام، ليصير البطيء في قعر المعدة؛ لأن قعر المعدة أسخن، وهو أقوى على الهضم، لكثرة ما فيه من أجزاء اللحم المخاطلة له، وأعلى المعدة عصبي بارد لطيف ضعيف الهضم. ولذلك إذا طفا الطعام على رأس المعدة لم ينهضم. والنحو الرابع: أن من يتناول الطعام الثاني بعد انحدار الأول، وقد قدم قبله حركة كافية، وأتبعه بنوم كاف، استمرأه. ومن أخذ وقد بقي في معدته أو أمعائه بقية من الطعام الأول غير منهضمة، فسد الطعام الثاني ببقية الأول.

باب الحركة والنوم مع الطعام

ومن أكل الطعام بعد حركة كافية، وأخذ على حاجة من البدن إليه، وافى الطعام الحرارة الغريزية بمتزلة النار إذا اشتعلت. ومن تناول طعاماً من غير حركة وأخذ على غير حاجة من البدن إليه وافى الطعام الحرارة الغريزية حامدة، بمتزلة النار الكامنة في الزناد. ومن اتبع الطعام بنوم بطن الحرارة

الغريزية فيه، فاجتمعت في باطن البطن، فهضمت طعامه. ومن اتبع الطعام بحركة انحدر عن معدته غير منهضم، وابنت في العروق غير مستحکم، فأحدث سداداً وعللاً في الكبد والكلى وسائر الأعضاء. وربما كانت الأطعمة لضعف المعدة تطفو فيها وتصير في أعلاها، فلا نأمره بالنوم حتى ينحدر الطعام على المعدة بعض الانحدار، حتى يصير في قعر المعدة. وربما أمرنا بحركة يسيرة كما ذكرنا آنفاً لانحدار الطعام عن المعدة بعض الانحدار. وإن أكثر الشراب منع الطعام من الانهضام، لأنه يحول فيما بين جرم المعدة وبين الطعام، وإذا لم تلق المعدة الطعام لم تحله إلى مشاكلة البدن وموافقته، فيبقى فيها غير منهضم، فيجب لذلك على من أخذ الطعام أن يتناول معه من الشراب ما يسكن به جل العطش ويصبر على قدر احتماله من العطش، ويصبر حتى ينهضم، ثم يتناول بعد ذلك من الشراب ما أحب، فإنه عند ذلك يعين على انحدار الطعام وترقيقه، لتنفيذه في المجاري الدقاق. ويجب أيضاً أن يكون أحذه للطعام في وقت حركة الشهوة. وذلك أنه إذا تحركت الشهوة ولم يبادر بأخذ الطعام اجتذبت المعدة من فضول البدن ما صار في المعدة أبطل الشهوة، وأفسد الطعام إذا حاله.

الأوقات التي يصلح فيها الطعام

أجود الأوقات كلها الطعام: الأوقات الباردة، لجمعها الحرارة في باطن البدن، فأما الأوقات الحارة فينبغي أن يتجنب أخذ الطعام فيها، لأن حرارة الهواء تجذب الحرارة الباطنة الغريزية إلى ظاهر البدن ويخلو منها باطنه، فتضعف الحرارة في باطن البدن عن هضمه، فلذلك كانت القدماء تفضل العشاء على الغداء، لما يلحق العشاء من اجتماع الحرارة في باطن البدن، لبرد الليل والنوم، ولأن الحرارة في النوم تبطن وتسخن باطن البدن ويرد ظاهره، واليقظة على خلاف ذلك، لأن الحرارة تنتشر في ظاهر البدن وتضعف في باطنه.

والذي يحتاج إلى كثرة الغذاء من الناس من كان الغالب على بدنه الحرارة، وكانت كبده لحرارتها سريعة التوليد للمرة الصفراء، فلذلك يحتاج إلى الأطعمة الغليظة البطيئة الانهضام ويستمرئها، ويستمرئ لحم البقر، ولا يستمرئ لحم الدجاج وما أشبهه من الأطعمة الخفيفة. ولا يصلح شيء من هذه إلا في وقت تحرك الشهوة، فإنه أفضل وقت يؤخذ فيه الطعام. وللعادة في هذا حظ عظيم، ألا ترى أنه من اعتاد الغداء فتركه واقتصر على العشاء عظم ضرر ذلك عليه، ومن كانت عادته أكلة واحدة فجعلها أكلتين لم يستمرئ طعامه؟ ومن كانت عادته أن يجعل طعامه في وقت من الأوقات، فنقله إلى غير ذلك الوقت أضر ذلك به، وإن كان قد نقله إلى وقت محمود. فيجب لذلك أن يتبع العادة إذا تقادمت فطالت، وإن كانت ليست بصواب، إذا لم يحدث شيء اضطره إلى نقلها، لأن العادة طبيعة ثانية، كما ذكر الحكيم أبقراط. فإن حدث شيء يدعو إلى الانتقال عنها فأوفق الأمور في ذلك أن ينتقل عنها قليلاً قليلاً. وللشهوة أيضاً في استمرار الطعام أعظم الحظ، لأنها دليل على الموافقة والملاءمة، فمتى كان طعامان مستويان في الجودة، وكانت شهوة المحتاج إليهما أميل إلى أردئهما، اخترناه على الأجود، إذا لم نخف منه ضرراً أكثر مما ينال منه من المنفعة، لحسن قبول المعدة له واستمرائها إياه. فقد بان أنه يحتاج في حسن استعمال الأغذية وجودة تخير الأطعمة إلى معرفة اختلاف الطبائع وحالاتها.

فقد بينت اختلاف طبائع الأبدان وحالاتها، وما يجب على كل واحد منها من أنواع الأطعمة والأشربة. وبقي أن نبقي اختلاف قوى الأطعمة والأشربة، وأن أصف أنواع الأغذية، وأسمي ما في كل صنف منها، إن شاء الله تعالى.

أنواع الأطعمة

الأطعمة اللطيفة

هي التي يتولد منها دم لطيف. فمنها لباب خبز الحنطة، والحب المقشور، ولحم الفراريج، ولحم الدراج والطيهوج، والحجل، وأجنحة جميع الطيور، وما لان لحمه من صغار السمك ولم تكن فيه لزوجة، والقرع، والماش، وما أشبهه. وهذا الجنس من الأطعمة نافع لمن ليست له حركة، وكانت الحرارة

الغريزية في بدنه ضعيفة، ولم يأمن أن يتولد في بدنه كيموس غليظ، ويتولد في كبده أو طحاله سدد، أو في كلاه، أو في صدره، أو في دماغه، أو في شيء من مفاصله من البلغم.

الأطعمة اللطيفة في نفسها الملتفة لغيرها

هي التي يكون ما يتولد منها لطيفاً، وتلطف ما تلقاه من الكيموس اللزج الغليظ في البدن. وهذا الجنس من الأطعمة أربعة أصناف: صنف منها حلو لطيف، لما فيه من قوة الجلاء، مثل ماء الشعير، والبطيخ، والتين اليابس، والجوز، والقسطل، والعسل، ما يعمل منه من الناظف. وهذا الجنس في منفعته من جنس الأول من الأطعمة اللطيفة، إلا أنه أبلغ في تلطيف البدن. والصنف الثاني حار حريف: كالحرف، والثوم، والكراث، والكرفس، والكرنب والجرجير، والصعتر، والنعنع، والرازيانج، والشراب الأصفر اللطيف العتيق الحار.

وهذا كله نافع لمن احتاج إلى فتح السدد التي في الكبد والطحال والصدر والدماغ، وتقطيع البلغم وترقيقه. ولا ينبغي لأحد أن يكثر استعماله لأنه يرقق الدم أولاً ويصيره مائياً، فيقل لذلك غذاء البدن. ويضعف ثم إنه يسخن البدن سخونة مفطرة، فيصير أكثره مرة صفراء، ثم إنه بعد ذلك إذا تمادى مستعمله في استعماله حلل لطيف الدم وترك غليظه، فصار أكثر مرة سوداء، وربما تولد من ذلك حجارة في الكلى. ومضرة هذا الصنف أشد ما تكون على من كانت المرة الصفراء غالبية عليه.

والصنف الثالث: يذيب ويلطف بملوحته، كالمرى، وما لان لحمه وقل شحمه من السمك إذا ملح، والسلق، وماء الجبن، وكل ما جعل فيه من الأطعمة الملح والمرى والبورق. ومنافع هذا النصف ومضاره قريبة من منافع الأشياء الحريفة ومضارها، إلا أن هذا الصنف في تنقية المعدة والأمعاء وتلين الطبيعة أبلغ.

والصنف الرابع: يقطع ويلطف بجموضته، كالخل، والسكنجيين، وحمض الأترج، وماء الرمان الحامض، وكل ما يتخذ بها من الأطعمة. وهذا الصنف نافع لمن كان معدته وسائر بدنه حاراً إذا تولد فيها البلغم من غلظ ما يتناول من الأغذية ومن كثرتها.

الأطعمة الغليظة في نفسها الملتفة لغيرها

منها البصل، والجزر، والفجل، والسلجم، وما أشبه ذلك. فهذه الأطعمة في نفسها غليظة وتلطف ما تلقى من الشيء الغليظ، بما فيها من الحدة والحرافة، وهي تولد كيموساً غليظاً. ومتى ما طبخ شيء منها أو شوي ذهب عنه قوة الحرافة والتقطيع، وبقي حرمه غليظاً رديئاً، وقد يتناول للمنفعة بتقطيع هذه الأطعمة وتلطيفها، ويسلم من غلظ حرمها على إحدى ثلاث جهات: إما أن تطبخ فتلطف، كالذي يفعل بالبصل، وإما أن تعصر أو تطبخ ثم يستعمل ماؤها، وإما أن تؤكل نيئة فتقطع البلغم، كالذي يفعل بها جميعاً.

الأطعمة الغليظة

الغالب على الأطعمة الغليظة كلها اليبس واللزوجة. فمنها شيء يكون اليبس واللزوجة من طبعه. ومنها ما يكتسب اليبس من غيره. فالذي يكون اليبس من طبعه العدس، ولحم الأرنب، والبلوط، والشاه بلوط، والكمأة، والباقلي المقلو. هذه كلها غليظة، لأن اليبس في طبائعها. وأما الذي يكتسب اليبس من غيره فالكبود والبيض المسلوق والمشوي وما قلي منه، واللبن المطبوخ طبخاً كثيراً، والضروع، وعصير العنب المطبوخ، لا سيما إن كان العصير غليظاً. فهذه كلها غليظة، لأن الحرارة بالطبخ أحدثت لها ييساً وانعقاداً. وأما لحوم الإبل، ولحوم التيوس، ولحوم البقر، والكروش والأمعاء، فإنها غليظة بصلابتها. وكذلك الترمس، وثمر الصنوبر، والسلجم، واللويبا، وما خبز على الفرن، فإن ظاهره غليظ لما أحدثت له النار من اليبس، وباطنه غليظ لما فيه من اللزوجة. وكذلك كل ما لم يوجد عجنه أو خبزه أو إنضاجه من خبز التنور، وكل ما خبز على الطابق بدهن أو غيره، والسمن

والفطر والشهد واللبن والأدمغة، فإنها كلها غليظة للزوجة فيها طبيعية. وأما الفالوذج فإنه غليظ للزوجته، والانعقاد الحادث له من الطبخ. وأما الباذنجان فإنه غليظ للبيس وللزوجة في طبعه. وأما الخبز فإنه غليظ لاجتماع الحالات الثلاث فيه. فأما السمك الصلب اللزج فإنه غليظ، لاجتماع الصلابة واللزوجة فيه. وأما الآذان والشفاه وأطراف العضل، فإنها تولد كيموساً لزجاً ليس بالغليظ، وقد تولد ما يعرض من الأغذية الباردة عن هضمها وتلطيفها، كالذي يعرض من أكل الفاكهة قبل نضجها، ومن أكل الخيار والقثاء، وشحم الأترج واللبن الحامض. فهذه الأطعمة الغليظة كلها إن صادفت بدنناً حاراً كثيراً التعب قليل الطعام كثير النوم بعد الطعام، انهضمت وغذت البدن غذاء كثيراً نافعاً، وقوته تقوية كثيرة. وأحمد ما تستعمل هذه الأغذية في الشتاء، لاجتماع الحرارة في باطن البدن وطول النوم، ومتى أحس أحد في بدنه نقصاناً بيناً. وإن أكلها من يجد الحرارة في بدنه قليلة ولا سيما في معدته، وتعبه قليل، ونومه بعد الطعام قليل، لم يستحكم انهضامها، وتولد منها في البدن كيموس غليظ حار يابس يتولد منه سد في الكبد والطحال. فلذلك ينبغي لمن أكل طعاماً غليظاً من غير حاجة إليه لعله أو شهوة أن يقل منه ولا يفرد، ولا يدمنه. وما كان من الأطعمة الغليظة له مع غلظه لزوجة فهو أعذاها للبدن، فإن لم تنهضم فهو أكثرها توليداً للسدد.

الأطعمة المتوسطة

المتوسطة بين الغلظة واللطيفة، تصلح لمن كان بدنه معتدلاً صحيحاً، ولم يكن تعبته كثيراً. وأجود الأغذية له المتوسط، لأنها لا تنهكه ولا تضعفه كاللطيفة، ولا تولد خاماً ولا سدداً كالغليظة، وهي كل ما أحكم صنعه من الخبز، ولحوم البقر، والدجاج، والجداء، والحولية من الماعز. وأما لحوم الخرفان والضأن كلها فرطية لزجة. وأما لحم فراخ الحمام والقطا فهي تولد دمماً سخناً، وأغلظ من الدم المعتدل. وأما فراخ الوراشين فإنها مثل فراخ الحمام والقطا والإوز، فأجنتها معتدلة، وسائر البدن كثير الفضول. وكل ما كثرت حركته من الطير وكان مرعاه في موضع جيد الغذاء، صافي الهواء، كان أجود غذاء وألطف. وكل ما كان على خلاف ذلك فهو أردأ غذاء وأوسخ.

وكل ما لم يستحكم نضجه من البيض، وخاصة ما ألقى على الماء الحر، وأخذ من قبل أن يشتد، فهو معتدل. وكل ما كان من لحم السمك ليس بصلب ولا كثير اللزوجة والزهومة، وكان مرعاه ماء نقياً من الأوساخ والحماة فهو معتدل جيد الغذاء. ومن الفواكه التين والعنب، إذا استحكم نضجها على الشجر وأسرعت الانحدار إلى الجوف، كان ما يتولد منها معتدلاً، فإن لم تسرع الانحدار فلا خير فيها. ومن البقول الهندبا، والخس، والهليون.

ومن الأشربة ما كان لونه باقوتياً صافياً، ولم يكن عتيقاً جداً.

الأطعمة الحارة

يحتاج إليها من كان الغالب عليه البرودة، وفي الأوقات الباردة والبلاد الباردة. وينبغي أن يجتنبها من كان حار البدن، وفي الأوقات الحارة، وفي البلاد الحارة. منها الحنطة المطبوخة، والخبز المتخذ من الحنطة، والحمص، والحلبة، والسهم، والشهدانج، والعنب الحلو، والكرفس، والجرجير، والفجل، والسلجم، والخردل، والثوم، والبصل، والكراث، والخمر العتيق. وأسخن الأشربة الحارة العتيق الأصفر.

الأطعمة الباردة

ينبغي أن يستعملها من كان حار البدن، وفي الأوقات الحارة، والبلد الحار. وهي الشعير وكل ما يتخذ منه، والجاورس، والدخن، والقرع، والبطيخ، والخيار، والقثاء، والإحاص، والخوخ، والجمار، وما بين الحموضة والعفوصة، من العنب والزبيب، والطلع، والبلح، والخس والهندبا، والبقلة الحمقاء،

والخشخاش، والتفاح، والكمثرى، والرمان. فما كان من الرمان عفصاً فهو بارد غليظ، وما كان حامضاً فهو بارد لطيف. فأما الخل فهو بارد لطيف، وهو ضار بالعصب. وما كان أيضاً من الشراب عفصاً هو أقل حرارة، وما كان من ذلك حديثاً غليظاً فهو بارد.

الأطعمة اليابسة

يحتاج إلى الأطعمة اليابسة من كان الغالب على بدنه الرطوبة، وفي الأوقات الرطبة، وللبلد الرطب. منها العدس، والكرنب، والسويق، وكل ما يشوى ويطبخ ويقلى، وكل ما أكثر فيه السذاب والمري والخل والأبزار والخردل، ولحم المسن من جميع الحيوان.

الأطعمة الرطبة

يحتاج إلى الأطعمة الرطبة من أفرط عليه اليبس، وفي الأوقات اليابسة والبلد اليابس. وهي: الشعير، والقرع، والبطيخ، والقثاء، والخيار، والجوز الرطب، والعنب، والنبق، والإحاص، والتوت، والجمار، والحس، والبقلة اليمانية، والقطف، والبقلاء الرطب، والحمص الرطب، واللوبياء الرطبة، وكل ما يطبخ بالماء ويسلق به وثقل فيه الأبزار والخل والمري والسذاب، وجميع لحوم صغار الحيوان.

الأطعمة القليلة الفضول

أجنحة الطيور، وأكارع المواشي، ورقابها، وما يربى في البر من الحيوان في المواضع الجافة.

الأطعمة الكثيرة الفضول

منها لحم الأوز خلا الأجنحة، والأكباد كلها من جميع الحيوان، والنخاع والدماع، والطيور التي في الفياقي والآجام، والحمص الطري، والبقلاء الطري، ولحم الضأن، ولحم المراضع من كل الحيوان، ولحم كل ساكن غير سريع النهوض، وما كان من السمك على ما ذكرنا صلباً لرجاً.

الأطعمة التي غذاؤها كثير

كل ما غلظ من الأطعمة إذا هضم غذى غذاءً كثيراً. وكل ما كان له فضول كان غذاؤه كثيراً. وقد يحتاج إلى الأطعمة الكثيرة الغذاء من احتاج إلى أن يأخذ طعاماً قليلاً يغذي غذاءً كثيراً، كالناقة والمسافر، وكالذي يثقل معدته الكثير من الطعام وبدنه يحتاج إلى غذاء كثير.

فمن ذلك لحم البقر، والأدمغة، والأفتدة، وحواصل الطير كلها، والسمك الغليظ اللوح، والسميد والبقلاء، والحمص، واللوبياء، والترمس، والعدس، والتمر، والبلوط، والشاه بلوط، والسلجم، تغذو غذاءً كثيراً لغلظها. واللبن الحليب والشراب الأحمر. وغذاء اللبن كله أغلظه وأرقه، ل غداء. وأغلظ اللبن لبن البقر ولبن النعاج، وأرقه لبن الأتن وألبان اللقاح. وألبان الماعز متوسطة بين ذلك. وأغذى الأشربة النبيذ الغليظ الحلو، ثم الغليظ الأسود الحلو، ثم الغليظ الأبيض الحلو، ثم بعد هذه الأشربة العفصة الحلوة. وكلما مال إلى الحمرة والحلاوة كان أغذى. والأبيض أقلها غذاء.

الأطعمة التي غذاؤها قليل

كل ما كان من الأطعمة لطيفاً كان غذاؤه قليلاً، وكل ما أفرط فيه اليبس أو الرطوبة، أو كثرة الفضل قل غذاؤه، كالأكارع، والكروش، والمصارين، والشحم، والأذان، والرئة، ولحم الطير كله. وما ملح من الحيوان قليل الغذاء، لليبس الذي فيه. وكذلك الزيتون، والفسق، والجوز، واللوز، والبنق، والغبيراء والزعرور، والخروب، والبطم، والكمثرى العفص، والزبيب العفص، فإنما قل غذاؤه للعفوصة.

وأما السمك والقرع، والرمان والتوت، والإحاص والمشمش، فإنما قل غذاؤها لكثرة رطوبتها. وغذؤها غير باقي سريع التحلل.

وأما خبز الشعير والخشكار، والباقلاء الرطب، وجميع البقول، مثل الكرنب، والسلق، والحماض، والبقلة الحمقاء، والفجل، والخردل، والحرف، والجزر، فقليلة الغذاء، لكثرة الفضل فيها. وأما البصل والثوم والكرات فإنها إذا أكلت نيئة لم تغذ. وإذا طبخت غدت غذاءً يسيراً. وأما التين والعنب فإنهما بين ما قل غذاؤه وما كثر غذاؤه.

الأطعمة التي تولد كيموساً جيداً

كل ما كان معتدلاً من الأطعمة لم تفرط فيه قوة ولا تجاوزت القدرة فيه ولد دماً خالصاً نقياً صحيحاً. وكل ما كان كذلك فهو موافق لجميع الأبدان، وفي جميع الأوقات، وهو لجميع الأبدان المعتدلة في الأوقات المعتدلة أوفق، لأن ما تجاوز الاعتدال من الأبدان يحتاج من الأطعمة إلى ما فيه قوة تجاوز الاعتدال، وكذلك الأبدان المعتدلة التي ليست بمعتدلة.

وفي الأطعمة المعتدلة ما هو غليظ، وما هو لطيف، وما هو بين ذلك. وأجودها لجميع الناس ما كان معتدلاً منها، بين الغليظ واللطيف. وقد وصفنا الأطعمة الغليظة واللطيفة والمتوسطة، ومتى يصلح كل صنف منها. فبقي علينا أن نخبر بجملة الأطعمة المولدة الكيموس الجيد، وقسمتها على ما قسمناها.

فمن ذلك: خبز الحنطة النقي المحكم الصنعة إن كان من يومه، ولحم الدجاج والجداء، وحولية الماعز، وما كان من السمك ليس بصلب ولا كثير اللزوجة، وما لم يكن له زهومة، وما لم يكن له سمن كثير، وما كان مرعاه في ماء ليس فيه أوساخ ولا حمأة، ولم يكن سريع العفونة، وكل ما اشتد واستحكمت نضجه من البيض، وكل شراب طيب الريح، ياقوتي اللون، ليس فيه حلاوة، وكل ذلك يولد كيموساً معتدلاً بين اللطيف والغليظ. وأما لدراج والفراريج، وأجنحة جميع الطير، وما صغر من السمك وكان مرعاه على ما وصفنا، وما ألقى عليه من السمك الملح فصار رخصاً، وذهبت لزوجته، وأما كشك الشعير، والشراب الطيب الرائحة، الأحمر. فكل ذلك جيد الكيموس لطيف. وأما اللبن الحليب فإنه جيد الكيموس، إلا أن فيه غلظاً. ولذلك ربما تجبن في المعدة. فلهذه العلة يخلط به العسل والملح ويرق بالماء. وأجود اللبن وأعدله لبن الماعز، لأنه أطف من لبن الضأن والبقر، وأغلظ من لبن الأتن واللقاح.

وينبغي اللبن أن يؤخذ من حيوان صحيح شاب، جيد الغذاء. ولا يستحب في وقت ما يضع الحيوان، ولا بعد ذلك بزمان طويل؛ لأن اللبن من الحيوان في وقت ما يضع غليظ، ثم يرق بعد ذلك قليلاً قليلاً حتى يصير مائياً، فلذلك كان أوله وآخره رديئاً. وأجود ما يؤخذ اللبن ساعة يحلب، قبل أن يغيره الهواء، لأنه سريع الاستحالة. وأما الخشكار من الخبز الرطب، وكل ما لم تحكم صنعته من خبز السميد، وخبز القرن، ولحم العجل، ومن أجزاء الغنم: الضرع والكبد والفؤاد، ومن الحبوب الباقلاء، ومن الشراب ما كان طيب الرائحة حلواً، فكل ذلك يولد كيموساً غليظاً جداً.

الأطعمة التي تولد كيموساً رديئاً

كل ما لم يكن معتدلاً من الأغذية لم يولد دماً خالصاً صافياً.

والأطعمة الرديئة الكيموس ثلاثة أصناف: منها ما يزيد في البلغم، ومنها ما يزيد في الصفراء، ومنها ما يزيد في السوداء.

وينبغي لجميع الناس أن يتجنبوا الإكثار منها، وإدمان استعمالها، وإن كانوا لها مستمرين، لأنها وإن لم يتبين لها ضرر في عاجل الأمر يجتمع منها في بدن مدمن استعمالها مع طول الزمان كيموس رديء، يولد أمراضاً رديئة. وأولى الناس بتجنب كل صنف من أصنافها من كان الغالب على بدنه ما يزيد فيه ذلك الصنف.

فأقول: إن كل ما يتخذ من الخبز من دقيق كثير النخالة، أو ما عتق من الحنطة، رديء الكيموس، يزيد في السوداء.

ولحم الضأن كله يزيد في البلغم، ولحم الماعز المسن كله يزيد في السوداء، وأردؤه لحم التيوس. ولحم البقر والجزور والأرانب والظباء والأيايل كل هذا

يزيد في السوداء، وشر هذه اللحوم لحم الجزور، وبعده لحم التيوس، لا سيما ما لم يخص منها، وبعده لحم المسن من الضأن، وبعده لحم البقر. وكل ما حصي من هذه كان أجود غذاء.

وأما لحوم الأرانب والظباء والأيايل فهو دون جميع ما ذكرنا في الرداءة. ومن أعضاء جميع الحيوان الكلى رديئة الكيموس، لزهومتها وما استفادت من رداءة البول.

والدماغ يزيد في البلغم، وكل البطون تزيد في البلغم، لكثرة الفضول فيها. والبيض المطحن يولد غذاء غليظاً فاسداً، وكذلك الجبن، ولا سيما ما عتق منه. والعدس يزيد في السوداء. والدخن والجاورس يولدان دماً غليظاً. وما صلب لحمه من السمك وغلبت عليه الزوجة يولد البلغم، فإن ملح وعتق ولد السوداء.

والتين اليابس إن أكثر أكله ولد فضلاً عنفاً يكثر منه القمل. والكمثرى والتفاح إن أكلا غير نضيجين ولدا كيموساً رديئاً بارداً. كذلك القثاء والخيار. فأما البطيخ والقرع فرما أهضما ولم يحدثا في البدن حدثاً رديئاً، وربما فسداً في المعدة، فولدا كيموساً رديئاً، ولا سيما إن صادفا في المعدة فضلاً رديئاً، فلذلك تعرض الهیضة كثيراً لمن أكل البطيخ.

والبقول كلها رديئة الكيموس، لكثرة الفضل فيها، وقلة الغذاء. وأما البصل والثوم والكرات والفجل والجزر والسلجم فردية، لما فيها من الحرارة والحرافة، وربما زادت في الصفراء، وربما زادت في السوداء أيضاً، كما ذكرت آنفاً، إلا أنها أن طبخت وصب ماؤها وطبخت بماءٍ ثاب ذهببت الحرافة والرداءة عنها.

والبادروج يسخن الدم ويجففه تحفيماً شديداً. والكرنب يولد السوداء وكذلك جميع البقول الرديئة.

الأطعمة المتوسطة الكيموس

وهي بين ما يولد الكيموس الجيد، وما يولد الكيموس الردي، فمنها خبز الخشكار، ولحم الخصبان من المعز والضأن. ومن الأعضاء: اللسان، والأمعاء والذنب. ومن الفاكهة: العنب، والبطيخ، والمعلق من العنب أجود والتين اليابس مع الجوز، والشاهبلوط، ومن البقول الخس وبعده الهندبا، وبعده الخبازي، وبعده القطف، والبقلة الحمقاء اليمانية، والحماض، وما لم يكن فيه حدة كثيرة من الأصول.

الأطعمة السريعة الانهضام

وإنما يسرع الانهضام لأحد وجهين: فالوجه الأول منهما إذا كانت الأطعمة غير يابسة كالعدس، ولا صلبة كالترمس، ولا لزجة كالحنطة، ولا خشنة كالسمسم، ولا كريهة كالسذاب، ولا كثيرة الفضول كالأرز، ولا يغلب عليها برد شديد كاللبن الحامض، ولا حر شديد كالعسل.

والوجه الثاني: لطبيعة البطن المستمرئ لها، وذلك لأحد وجهين: الأول موافقة الأغذية، ومشاكله الأبدان الطبيعية، كالأطعمة التي يشتهيها ويلذها الإنسان، فقد تجد الناس يختلفون في شهورهم ويستمرئ كل واحد منهم ما شهوته إليه أميل، وإن كان الذي لا يشتهييه أحمد من الذي يشتهييه.

والوجه الثاني: لمزاج عارض يصادف من الطعام مضادة كالذي ترى، أن من غلب عليه الحر لعل من العلل كان للأطعمة الباردة أسد استمراء، لما تطفئ من حرارة البدن وتعده. ومن غلب عليه البرد استمراء الحار ولم يستمرئ البارد. ومن رطب بدنه أو معدته استمراء الأطعمة الجافة ولم يستمرئ الرطبة، ومن عرض له اليبس خلاف ذلك.

فقد بان بما ذكرناه أن الأطعمة اللطيفة والمتوسطة في نفسها، سريعة الانهضام. وقد يجوز أن تكون الأطعمة الغليظة أسرع انهضاماً في بعض الأبدان أيضاً. ففشر الخبز المحكم، ولحم الدجاج والفراريج والدراج والحجل، وكبود الإوز وأجنحتها، سريعة الانهضام. وفي الجملة: الجناح من كل طائر أسرع انهضاماً من سائرته. وليس الطير كله بأسرع انهضاماً من المواشي.

وكل ما كان من الحيوان يابساً فصغيره أسرع انهضاماً. وكذلك لحم العجاجيل أسرع انهضاماً من لحم البقر، ولحم الجدي الحولي أسرع انهضاماً من

لحم المسن من الماعز.

وكل ما كان من الحيوان أرطب فكبيره من قبل أن يشتد أسرع انهضاماً من صغيره. ألا ترى أن الحولي من الضأن أسرع انهضاماً من الخروف؟ وكل ما كان مرعاه في المواضع اليابسة أسرع انهضاماً مما كان مرعاه في المواضع الرطبة. وكل ما كان جرمه متخلخلاً فهو أسرع انهضاماً مما كان جرمه متلزماً. ولذلك كان الجوز أسرع انهضاماً من البندق. والبيض الحار أسرع من البيض البارد. والشراب الحلو أسرع من العفص.

الأطعمة البطيئة الانهضام

وإنما يعسر الانهضام من الطبيعة في الطعام إذا كان يابساً، أو صلباً، أو لزجاً، أو ملتزماً، أو كثير الدسم، أو كثير الفضول، أو كره الطعم، أو الحرافة فيه مفرطة أو البرد أو الحر، أو مخالفاً للمزاج الطبيعي إذا لم يشتهه. فلهذا البقر ولحم الإبل، والكروش والأمعاء، والأوز، والآذان من جميع الحيوان، والجن، والبيض البارد، عسرة الانهضام ليسها وصلابتها. وكذلك من الطير الوراشين والفواخت والطواويس. والقوانص من جميع الطير عسرة الانهضام.

ومن الحبوب: الأرز، والتمس، والعدس، والدخن، والجاورس، والبلوط والشاهبلوط. وأما لحم التيوس، وأكارع البقر، فعسرة الانهضام، لزهومتها وكراحتها. وأما لحم الضأن، والكبود من جميع الحيوان والإوز، فلكثرة الفضول فيها وأما الجن الحامض فليرده. وأما الحنطة المسلوقة فللزوجتها وتلززها. وأما الباقلاء واللوبياء -كثرة النفخ فيها. وأما السمسم فلكثرة دهنه. وأما العنب والتين وسائر الفواكه إذا لم يستحكم نضجها، والأترج والبادروج والسلجم والجوز والشراب الحديث الغليظ، فلكثرة الفضول فيه.

الأطعمة الضارة للمعدة

السلق رديء، للذعه أيها، ولما فيه من الحدة البورقية، والبادروج والسلجم ما لم يستقص طبخهما للذع فيهما. والبقلة اليمانية والقطف للزوجتهما، فلذلك ينبغي أن يؤكلا بالخل، والمرى. والحلبة رديئة للمعدة، للذعه أيها، والسمسم رديء للمعدة للزوجته وكثرة دهنه، والبن لسرعة استحالته في المعدة والعسل ما أكثر منه لذع المعدة وأعناها. والبطيخ أيضاً يغثي، وإذا لم ينضج في المعدة ولد كيموساً رديئاً، فينبغي بعد أكل البطيخ أن يأكل طعاماً كثيراً جيد الكيموس. والأدمغة أيضاً كلها رديئة للمعدة، فلذلك ينبغي أن تؤكل بالصعتر، والفودنج البري، والخردل، والملح. وكذلك أيضاً المخاخ. والنبيد الحديث الغليظ الأسود العفص يسرع الحموضة في المعدة ويغثي.

الأطعمة التي تفسد في المعدة

المشمش، والسمسم، والنون، والبطيخ، إذا لم يسرع انحذارها عن المعدة وصادفت فيها كيموساً رديئاً أسرع إليها الفساد. فيجب أن تؤكل قبل الطعام والمعدة نقية، ليسرع انحذارها عنها، ويسهل الطريق لما يؤكل بعدها من الطعام، فإن أكلت بعد الطعام فسدت لبقائها في المعدة، وأفسدت سائر الطعام بفسادها، وربما بلغ الفساد بها إلى أن تصير بمنزلة السم القاتل.

الأطعمة التي لا يسرع إليها الفساد في المعدة

من كان يفسد طعامه في معدته فأجود الأطعمة له ما كان غليظاً بطئ الانحذار، مثل لحم البقر، وأكارعها، وما أشبه ذلك، مما قد ذكرناه في الأطعمة الغليظة.

الأطعمة المليئة المسهلة للبطن

كل ما كان من الأطعمة فيه حلاوة أو حدة أو لزوجة. فمن ذلك ماء العدس، وماء الكرنب يلينان البطن، وجرهما بمسك البطن، وكذلك مرقة الديوك العتيقة، وخبز الخشكار، وماء الحلبة مع العسل، وزيتون الماء إذا كان قبل الطعام مع مري لين البطن، فإن كان أيضاً بعد الطعام بلا مري فإنه يقوي المعدة على دفع الطعام لعفوصته. وكذلك ما عمل منه بالخل.

وكل طعام عفص فإنه دايع للمعدة مقو لها.

فأما اللبن وماء الجبن فيلينان البطن، ولا سيما إذا خلط به الملح.

ولحم الصغير من الحيوان، والسلق، والقطف، والبقلة اليمانية، والقرع والبطيخ، والتين، والزبيب الحلو، والتوت الحلو، والجوز الرطب، والإحاص الرطب، والسكنجيين والنبيد الحلو، ملين للبطن.

الأطعمة التي تحبس البطن

إذا كان الطعام ينحدر عن المعدة قبل انهضامه احتجنا إلى الأطعمة المسككة الحابسة للبطن.

وكل ما غلب عليه من الأطعمة اليبس أو العفوصة أو الغلظ، كالسفرجل والكمثرى، وحب الآس، وثمر العوسج، وجرم العدس، والبلوط، والشاهبلوط. والنبيد العفص، بمسك البطن، لعفوصته وقبضه. والجاورس، والدخن وسويق الشعير، تمسك البطن بيبوستها. ولحم الأرناب، والكرنب المطبوخ بعد صب مائه الأول عنه، ثم يطبخ بماء ثان، فإنه يمسك البطن بيبسه. واللبن المطبوخ، والجبن كلاهما يمسك البطن لغلظه. وذلك أن يطبخ اللبن حتى تفني مائته، ويبقى جرمه، وربما ولد سداً في الكبد، وحجارة في الكلى.

وأما الأشياء الحامضة كالتفاح الحامض، والرمان الحامض، فإن صادفت في المعدة كيموساً غليظاً قطعته وحادته، ولينت البطن، وإن صادفت المعدة نقية أمسكت البطن.

الأطعمة التي تولد السدد

اللبن الغليظ والجبن ربما أحدثا سداً في الكبد، وحجارة في الكلى، لمن أكثر استعمالها، وكان كلاه وكبده مستعدة لقبول الآفات. وجميع الأطعمة الحلوة رديئة للكبد والطحال، فإذا أكل معها الفودنج الجبلي، والصعتر، والفلفل، فتح سد الكبد والطحال. والرطب، والتمر، وجميع ما يتخذ من الحنطة سوى الخبز الجيد الصنعة، والأشربة الحلوة أيضاً تولد سداً في الكبد، وحجارة في الكلى، وتغلظ الطحال.

الأطعمة التي تجلو المعدة وتفتح السدد

ماء الكشك كشك الشعير يجلو المعدة، ويفتح السدد. والحلبة، والبطيخ، والزبيب الحلو، والباقلاء، والحمص الأسود، ينقي الكلى، ويفتت الحجارة المتولدة فيها. والكبير بالخل، والعسل إذا أكل قبل الطعام فإنه يجلو وينقي المعدة والأمعاء، ويفتح السدد. والسلق أيضاً يجلو ويفتح السدد في الكبد، ولا سيما إذا أكل بالخردل. والبصل، والثوم، والكرات، والفجل يقطع ويلطف الكيموس الغليظ. والتين رطبه ويابسه يجلو وينقي الكلى. واللوز كله، ولا سيما المر منه فإنه يجلو ويلطف، ويفتح سد الكبد والطحال، ويعين على نفض الرطوبة من الصدر والرئة. والفسق يقوي الكبد ويفتح سدها. وعسل النحل حار يابس وماء العسل يلطف البصاق الغليظ، ويعين على نفضه. والسكنجيين يلطف ويقطع الرطوبة الغليظة. ويفتح سد الكبد والطحال، وينقي الصدر والرئة.

والنبيد اللطيف إذا كانت له حدة وحرافة يصفي اللون، وينقي العروق من الكيموس الغليظ، وينتفع به من كان يجد في بدنه كيموساً غليظاً بارداً. وأما النبيد الرقيق المائي فإنه يعين على نفض الرطوبة من الرئة، بتقويته الأعضاء وتلطيفه لما بها من الفضل الغليظ، وقد يفعل ذلك النبيد الحلو.

الأطعمة التي تنفخ

الحمص والبقلاء، ولا سيما إن طبخ بقشره، فإن طبخ مقشراً أو مسحوقاً كان أقل نفخاً، وإن قلي أيضاً كان أقل نفخاً. وبعد هذه اللوبياء، والماش، والعدس، والشعير إذا لم ينعم طبخها.

والنعناع، والأنجذان، والحلتيت، والتين الرطب، يولد نفخاً إلا أنه يتحلل سريعاً لسرعة انحداره.

وما استحکم نضجه من التين والعنب كان أقل نفخاً. ويابس التين أقل نفخاً من رطبه.

واللبن يولد رياحاً في المعدة. والعسل إذا طبخ ونزعت رغوته قل نفخه. والنبيد الحلو العفص يولد نفخاً.

ما يذهب النفخ من الأطعمة

كل الطعام نافخ إذا أحكمت صنعته، وأجيد طبخه وإنضاجه قل نفخه. وكل ما قلي منه قل نفخه. وكل ما خلط به الأبخار المحللة للرياح كالكمون والذاب، والأنيسون والكاشم يقل نفخه. والخل الممزوج بالعسل يلطف الرياح، ويذهب بالنفخ.

كتاب إسحاق بن عمران إلى بعض إخوانه

كتب إسحاق بن عمران المعروف بسم ساعة إلى رجل من إخوانه: اعلم رحمك الله أن الخام والبلغم يظهران على الدم والمرة بعد الأربعين سنة فيأكلانهما، وهما عدوا الجسد وهادماه. ولا ينبغي لمن خلف الأربعين سنة أن يحرك طبيعة من طباعه غير الخام والبلغم، ويقوي الدم جاهداً، غير أنه ينبغي له في كل سبع سنين أن يفجر من دمه شيئاً، ومن المرة مثل ذلك، لقلة صبره على الطعام اللذيذ، والمشروب الروي.

فتعاهد أصلحك الله ذلك من نفسك، واعلم أن الصحة خير من المال والأهل والولد، ولا شيء بعد تقوى الله سبحانه وتعالى خير من العافية. وما تأخذ به نفسك، وتحفظ به صحتك أن تلزم ما أكتب به إليك: في شهر يناير تشرب شراباً شديداً كل غداة. وفي شهر فبراير لا تأكل السلوق. وفي مارس لا تأكل الحلواء كلها وتشرب الأفستين في الحلاوة. وفي أبريل لا تأكل شيئاً من الأصول التي تنبت في الأرض ولا الفجل. وفي مايو لا تأكل رأس شيء من الحيوان. وفي يونيو تشرب الماء البارد بعد ما تطبخه وتبرده، على الريق. وفي يوليو تجنب الوطاء. وفي أغسطس لا تأكل الحيتان. وفي سبتمبر تشرب اللبن البقري. وفي أكتوبر لا تأكل الكراث نيئاً ولا مطبوخاً. وفي نوفمبر لا تدخل الحمام. وفي ديسمبر لا تأكل الأرنب.

زعم علماء الطب أن الجسد من الطبائع الأربع اثني عشر رطلاً: فللدم منها ستة أرطال، وللمرة الصفراء والسوداء والبلغم ستة أرطال، فإن غلب الدم الطبائع تغير منه الوجه وورم، وخرج ذلك إلى الجذام، وإن غلبت الثلاث الطبائع الدم أنبتت المد. قال: فإذا خاف الإنسان غلبة هذه الطبائع بعضها بعضاً فليعدل جسده بالاقتصاد، وينقه بالمشي، فإنه إن لم يفعل اعتراه ما وصفنا: إما جذام، وإما مد. نسأل الله العافية.

ولا بأس بعلاج الجسد في جميع الأزمان إلا أيام السموم، إلا أن يتزل فيها مرض شديد لا بد من مداواته، أو يظهر فيها موم، أو ذات الجنب، فإنه ينبغي للطبيب أن يعانیه بفساد، أو شيء خفيف، فإنها أيام ثقيلة. وهي خمسة عشر يوماً من تموز إلى النصف من آب، فذلك ثلاثون يوماً لا يصلح فيها علاج، وكان بقراطيس يجعلها تسعة وأربعين يوماً، ويقطع الغرر والخطر في أيام القيظ، فإذا مضى لأيلول ثلاثة أيام طاب التداوي كله. وأمر جالينوس في الربيع بالحجامة، والنورة، وأكل الحلاوة وشرها، ونهى عن القطاني واللبن الرائب، وعتيق الحين، والمالح، والفاكهة اليابسة، إلا ما كان مسلوفاً.

وفي القيظ وهو زمان المرة الصفراء بأكل البارد الرطب على قدر قوة الرجل في طبعه وسنه، وترك الجماع، وأكل الحوت الطري، والفاكهة الرطبة والبقول ولحم البقر والمعز، ومن القطاني العدس، ومن الأشربة المربب بالورد، والسكركة من الشعير، والسكر بالماء المطبوخ، وأكل الكزبرة الخضراء في الأطعمة وأكل الخيار والبطيخ، ولزوم دهن الورد، وماء الورد، ورش الماء، وبسط البيت بورق الشجر، ومن الدواء السكر بالمصطكى، يسحقهما مثلاً

بمثل، ويأخذ منهما على الريق قدر الدرهم أو أكثر قليلاً.

وفي زمان الخريف وهو زمان السوداء، وهو أثقل الأزمنة على أهل تلك الطبيعة، من الطعام والشراب بالحر الرطب، مثل الأحساء بالحلاوة، وأكل العسل وشربه. ونهي فيه عن الجماع، وأكل لحم المعز والبقر، وأمر بأكل صيود البر والبحر، وحسو البيض والدهن قبل الحمام، وإيتان النساء على غير شبع في آخر الليل وفي أول النهار، والتماس الولد على الريق من الرجل والمرأة، فإن أولاد ذلك الزمان أسد وأقوى تركيباً من غيرهم، كما قالت الحكماء.

الخمير المحرمة في الكتاب

أجمع الناس على أن الخمير المحرمة في الكتاب خمير العنب، وهي ما غلا وقذف الزبد من عصير العنب، من غير أن تمسه نار. ولا تزال خميراً حتى تصير خللاً، وذلك إذا غلبت عليها الحموضة، وفارقتها النشوة؛ لأن الخمير ليست محرمة العين، كما حرمت عين الخنزير، وإنما حرمت لعرض دخلها، فإذا زايلها ذلك العرض عادت حلالاً، كما كانت قبل الغليان حلالاً، وعينها في كل ذلك واحدة، وإنما انتقلت أعراضها من حلاوة إلى مرارة، ومن مرارة إلى حموضة، كما ينتقل طعم الثمرة إذا أبنعت من حموضة إلى حلاوة، والعين قائمة، وكما ينتقل طعم الماء بطول المكث فيتغير طعمه ويرجحه، والعين قائمة.

ونظير الخمير فيما يجل ويحرم بعرض: المسك، الذي هو دم عبيط حرام، ثم يجف وتوجد رائحته فيصير حلالاً طيباً. فهذه الخمير بعينها المجمع على تحريمها. وأصحاب النبيذ إنما يدورون حولها ويتعللون بأنهم يشربون ما دون المسكر، ولا لذة لهم دون موقعة السكر، كما قال الشاعر:

بأشربة شتى هي الخمير تطلب

يدورون حول الشيخ يلتمسونه

وكقول القائل:

إياك أعني فاسمعي يا جاره

قيل للأحنف بن قيس: أي الشراب أطيب؟ فقال: الخمير. قيل له: وكيف علمت ذلك، وأنت لم تشربها؟ قال: إني رأيت من حلت له لا يتعدها، ومن حرمت عليه إنما يدور حولها.

وقال ابن شبرمة:

فهو للخمر والطلاء نسيب

ونبيذ الزبيب ما اشتد منه

وقال عبد الله بن القعقاع:

زبيب فصدقناه وهو كذوب

أتانا بها صفراء يزعم أنها

أصلي لربي بعدها وأتوب

فهل هي إلا ساعة غاب نحسها

وقال ابن شبرمة: أتانا الفرزدق، فقال: اسقوني. فقلنا: وما تريد أن نسقيك؟ قال: "أقربه إلى الثمانين"، ويعني حد الخمير.

وقال قيصر لقس بن ساعدة: أي الأشربة أفضل عاقبة في البدن؟ قال: "ما صفا في العين، واشتد على اللسان، وطابت رائحته في الأنف، من شراب الكرم". قيل له: فما تقول في مطبوخه؟ فقال: "مرعى ولا كالسعدان!". قيل له: فما تقول في نبيذ الزبيب؟ قال: ميت أحجى، فيه بعض المتعة، ولا يكاد يحيا من مات مرة. قيل له: فما تقول في العسل؟ قال: نعم شراب الشيخي ذي الإبردة، والمعدة الفاسدة.

علي بن عياش قال: إني عند الوليد بن يزيد في خلافته، إذ أتى بابين شراعة من الكوفة، فوالله ما سأله عن نفسه ولا سفره، حتى قال له: يا ابن شراعة،

إني والله ما بعثت فيك لأسألك عن كتاب الله، ولا سنة رسول. قال: والله لو سألتني عنهما لأصبتني فيهما حماراً. قال: فإنا أرسلت إليك لأسألك عن القهوة. قال: فأنا دهقانها الخبير، وطبيها العليم. قال: فأخبرني عن الطعام؟ قال: ليس لصاحب الشراب على الطعام حكم، غير أن أنفعه أدمه، وأشهاه أمرؤه. قال: فما تقول في الشراب؟ قال: ليسأل أمير المؤمنين عما بدا له. قال: فما تقول في الماء؟ قال: لا بد لي منه، والحمار شريك في فيه. قال: فما تقول في السويق؟ قال: شراب الحزين والمستعجل والمريض. قال: فما تقول في اللبن؟ قال: ما رأيته قط إلا استحيت من أمي، من طول ما أرضعتني به. قال: فنبيد التمر؟ قال: سريع الامتلاء، سريع الانفشاء. قال: فنبيد الزبيب؟ قال: حاموا به على الشراب. قال: فما تقول في الخمر؟ قال: أوه، تلك صديقة روجي. قال: وأنت والله صديق روجي. قال: وأي المجالس أحسن؟ قال: ما شرب الناس على وجه قط أحسن من النساء. قال الأصمعي: دخلت على هارون الرشيد، وهو في الفرش منغمس كما ولدته أمه، فقال لي: يا أصمعي، من أين طرقت اليوم؟ قال: قلت احتجمت. قال: وأي شيء أكلت عليها؟ قلت: سكباجة وطباهجة. قال: رميتها بحجرها. قال: هل تشرب؟ قلت: نعم يا أمير المؤمنين:

وترى عمران ديني قد خرب

اسقني حتى تراني مائلاً

قال: يا مسروق، أي شيء معك؟ قال: ألف دينار. قال: ادفعها إليه.

آفات الخمر وجنباياتها

أول ذلك أنها تذهب العقل -وأفضل ما في الإنسان عقله- وتحسن القبيح، وتقبح الحسن. قال أبو نواس:

حسنٌ عندي القبيح

اسقني حتى تراني

وقال أيضاً:

تترك الشيخ صبياً

اسقني صرفاً حمياً

وتريه الرشد غياً

وتريه الغي رشداً

وقال أيضاً:

فهي في رقة ديني

عنقت في الدن حولاً

وقال الناطق بالحق:

وصرت خدينا لمن عابه

تركت النبيذ وشرابه

ويفتح للشر أبوابه

شراب يضل سبيل الرشاد

وإنما قيل لمشارب الرجل "نديم" من الندامة، لأن معاقرة الكأس إذا سكر تكلم بما يندم عليه، وفعل ما يندم عليه، فقيل لمن شاربه نادمه، لأنه فعل مثل ما فعله، فهو نديم له، كما يقال جالسسه فهو جليس له. والمعاقرة: المدمن، كأنه لزم عقر الشيء، أي فناءه. وقال أبو الأسود الدؤلي:

رأيت أخاها مغنياً بمكانها

دع الخمر يشربها الغواة فإنني

أخوها غذته أمه بلبانها

فإلا يكنها أو تكنه فإنه

وقد شهر أصحاب الشراب بسوء العهد، وقلة الحفاظ، وأهم صديقك ما استغنيت حتى تفتقر، وما عوفيت حتى تنكب، وما غلت ذنانك حتى تزرف، وما رأوك بعيونهم حتى يفقدوك. قال الشاعر:

وليس لأصحاب النبيذ حريم

أرى كل قوم يحفظون حريمهم

إذا جنّتهم حيوك ألفاً ورحبوا

إخاؤهم ما دارت الكأس بينهم

فهذا ثنائي لم أقل بجهالة

وإن غبت عنهم ساعة فذميم

وكلهم رث الوصال سنوم

ولكنني بالفاسقين عليم

وقال قصي بن كلاب لبنيه: اجتنبوا الخمر، فإنها تصلح الأبدان، وتفسد الأذهان.

وقيل لعدي بن حاتم: مالك لا تشرب الخمر؟ قال: لا أشرب ما يشرب عقلي.

وقيل له: مالك لا تشرب النبيذ؟ قال: معاذ الله أن أصبح حكيم قومي وأمسي سفيهم.

وقيل لأعرابي: مالك لا تشرب النبيذ؟ قال: لا أشرب ما يشرب عقلي. وقال يزيد بن الوليد: النشوة تحل الحبوة.

وقيل لعثمان بن عفان رضي الله عنه: ما منعك من شرب الخمر في الجاهلية، ولا حرج عليك فيها؟ قال: إني رأيتها تذهب العقل جملة، وما رأيت شيئاً يذهب جملةً ويعود جملةً.

وقال أيضاً: ما تغنيت، ولا تفتيت، ولا شربت خمراً، ولا مسست فرجي بيدي بعد أن خططت بها المفصل.

وقال عبد العزيز بن مروان لنصيب بن رباح: هل لك فيما يثمر الحادثة؟ تريد المندامة؟ قال: أصلح الله الأمير، الشعر مفلفل، واللون مرمد، ولم أقعد إليك بكرم عنصر، ولا بجسن منظر، وإنما هو عقلي ولساني، فإن رأيت ألا تفرق بينهما فافعل.

وربما أذهبت الكأس البيان، وغيرت الحلقة، فيعظم أنف الرجل ويحمر ويترهل.

وقال جرير في الأخطل:

وشربت بعد أبي ظهير وابنه

شبه أنفه بالدمل في ورمه وحمرته.

وقال آخر في حماد الراوية:

سكر الدنان كأن أنفك دمل

ويقيم وقت صلته حماد

مثل القدوم يسنها الحداد

فبياضه يوم الحساب سواد

نعم الفتى، لو كان يعرف ربه

هدلت مشافره الدنان، فأنفه

وأبيض من شرب المدامة وجهه

ودخل أمية بن عبد الله بن أسيد على عبد الملك بن مروان وبوجهه أثر، فقال: ما هذا؟ فقال: قمت بالليل فأصاب الباب وجهي. فقال عبد الملك:

وللشاربيها المدمنيها مصارع

رأنتي صريع الخمر يوماً فسوتها

فقلت: لا واحذك الله يا أمير المؤمنين بسوء ظنك. فقال: بل واحذك الله بسوء مصرعك.

وقال حسان بن ثابت.

كأس لأصبحت مثري العدد

صبح وصوت المسامر الغرد

يخشى نديمي إذا انتشيت يدي

م لم يساموا كلبدة الأسد

تقول شعثناء لو صحوت عن ال

أنسى حديث الندمان في فلق ال

لا أخذش الخدش بالجليس ولا

يأبى لي السيف واللسان وقو

وقال ابن الموصلي:

العقد الفريد-ابن عبد ربه الأندلسي

سلام على سير القلاص مع الركب

سلام أمي لم تبق منه بقية

لعمرى لئن نكبت عن منهل الصبا

ليالي أمشي بين بردي لاهباً

ووصل الغواني والمدامة والشرب

سوى نظر العينين أو شهوة القلب

لقد كنت وراداً لمشربه العذب

أميس كغصن البانة الناعم الرطب

ويروى أن الحسن بن زيد لما ولي المدينة قال لإبراهيم بن هرمة: لا تحسبني كمن باع لك دينه رجاء مدحك، وخوف ذمك، فقد رزقني الله بولادة نبيه الممدوح، وجنبي المقابح، وإن من حقه علي ألا أغضي على تقصير في حقه، وإني أقسم لئن أتيت بك سكران لأضربك حدين: حد الخمر، وحد السكر ولأزيدنك لموضع حرمتك، فليكن تركك لها لله تعن عليه، ولا تدعها للناس فتوكل إليهم. فنهض ابن هرمة وهو يقول:

نهاني ابن الرسول عن المدام

وقال لي اصطبر عنها ودعها

وكيف تصبرني عنها وحيي

أرى طيب الحلال علي خبتاً

وأدبني بأداب الكرام

لخوف الله لا خوف الأنام

لها حب تمكن في العظام

وطيب النفس في خبت الحرام

وذكروا أن حارثة بن بدر الغداني كان فارس بني تميم وشريفها، وكان قد غلب على زياد، وكان الشراب قد غلب عليه، فقيل لزياد: إن هذا قد غلب عليك، وهو رجل مستهتر بالشراب. فقال لهم: كيف باطراح رجل ما راكبي قط فمست ركبي ركبتك، ولا تقدمني فنظرت إلى قفاه، ولا تأخر عني فلويت إليه عنقي، ولا سألته عن شيء قط إلا وجدت علمه عنده. فلما مات زياد جفاه ولده عبيد الله بن زياد، فقال له حارثة: أيها الأمير: ما هذا الجفاء مع معرفتك بحالي عند أبي المغيرة؟ فقال له عبيد الله: إن أبا المغيرة قد برع بروعاً لم يلحقه معه عيب؛ وأنا حدث، وإنما أنسب إلى من تغلب علي، وأنت رجل ندم الشراب، فدع النبيذ وكن أول داخلٍ وآخر خارج. فقال حارثة: أنا لا أدعه لله، أفادعه لك؟ قال: فاحتر من عملي ما شئت! قال: ولني رامهرمز، فإنها عذبة، وسرق، فإن بها شراباً وصف لي عنه فولاه إياها، فلما خرج شيعه الناس. وكتب إليه أنس بن أبي أنيس:

أحار بن بدر قد وليت ولايةً

ولا تحقرن يا حار شيئاً تخونه

فكن جرذاً فيها تخون وتسرق

فحظك من ملك العراقين سرق

وبادر تميماً بالغنى إن للغنى

فإن جميع الناس إما مكذب

يقولون أقوالاً ولا يعلمونها

فوقع حارثة في أسفل كتابه "لا بعد عنك الرشيد".

ولما خرجت الأزارقة على أهل البصرة لاقاهم حارثة بن بدر، وتولى حرهم في أصحابه في فرسانٍ من بني يربوع، حتى أصيب في تلك الحروب. وقال فيه الشاعر:

فلولا ابن بدر للعراقين لم يقم

إذا قيل من حامي الحقيقة أو مات

لما قام فيه للعراقين إنسان

إليه معد بالأكف وقحطان

وقال الشاعر:

شربنا من الداذي حتى كأننا

ملوك لهم في كل ناحية وفر

فلما علت شمس النهار رأيتنا

تخلى الغنى عنا وعاودنا الفقر

وكان أبو الهندي من ولد شيبث بن ربعي الرياحي، من بني يربوع، وكان قد غلب عليه الشراب، على كريم منصبه، حتى كاد يطله، وكان قد ضاف إلى راع يسمى سالماً، فسقاه قدحاً من لبن، فكرهه وقال:

سيغني أبا الهندي عن وطب سالم

أباريق كالغزلان بيض نحورها

مقدمة قرأ كأن رقابها

رقاب كراك أفرعتها صقورها

فما ذر قرن الشمس حتى كأنما

أرى قريةً حولي تزلزل دورها

ولقيه نصر بن سيار، والي خراسان، وهو يميد سكرًا فقال له: أفسدت مروءتك وشرفك. قال: لو لم أفسد مروءتي لم تكن أنت والي خراسان. ومرض أبو الهندي، فلما وجد فقد الشراب جعل يبكي ويقول:

رضيع المدام فارق الراح روحه

فظل عليها مستهل المدامع

أديرا علي الكأس إني فقدتها

كما فقد المفطوم در المراضع

وكان يشرب مع قيس بن أبي الوليد الكناني، وكان أبو الوليد ناسكاً، فاستعدى عليه وعلى ابنه، فهرب معه، وقال فيه أبو الهندي:

قل للسري أبي قيس أتوعدنا

ودارنا أصبحت من داركم صددا

أبا الوليد أما والله لو علمت

فيك الشمول لما حرمتها أبدا

ولا نسيت حماها ولذتها

ولا عدلت بها مالا ولا ولدا

وشرب أبو الهندي في غرفة مع نديم له، فاطلع منها فإذا بعيت يزف به على شرع، فالتفت إلى صاحبه فقال:

اصبب علي قلبك من بردها

إني أرى الناس يموتونا

فكان هذا القول منه "دليلاً" على "عدم" اتعاضه بالموت.

وكان أبو الهندي عجيب الجواب، وجلس إليه رجل كان صلب أبوه في جنافية، فجعل يعرض له بالشراب، فقال أبو الهندي: أحدهم يبصر القذى في عين أخيه، ولا يبصر الجذع المعترض في أست أبيه! وقال عبد الرحمن بن أم الحكم:

وكأس ترى بين الإناء وبينها

قذى العين قد نازعت أم أبان

ترى شاربها حين يعثورانها

يميلان أحياناً ويعتدلان

فما ظن ذا الواشي بأروع ماجد

وعذراء خود حين يلتقيان

دعنتي أخاها أم عمرو ولم أكن

أخاها ولم أرضع لها بلبان

دعنتي أخاها بعد ما كان بيننا

من الأمر ما لا يفعل الأخوان

وقال:

لا هنيئاً بما شربت مريباً

ثم قم صاغراً وغير كريم

لا أحب النديم يومض بالعي

ن إذا ما انتشى لعرس النديم

وقال أبو العباس المبرد: ودخل عمرو بن مسعدة على المأمون، وبين يديه جام زجاج، فيه سكر طبرزد، وملح جريش، قال: فسلمت عليه، فرد وعرض علي الأكل، فقلت: ما أريد شيئاً. هناك الله يا أمير المؤمنين، فلقد باكرت الغداء. قال: بت جائعاً! ثم أطرق ورفع رأسه وهو يقول:

واعزم على من أبي واشكر لمن أكلا

اعرض طعامك وابدله لمن دخلا

من القليل فلست الدهر محتقلا

ولا تكن سابري العرض محتشماً

ودعا برطل، ودخل شيخ من جلة الفقهاء فمد يده إليه، فقال: والله يا أمير المؤمنين، ما شربتها ناشئاً، فلا تسقنيها شيخاً. فرد يده إلى عمرو بن مسعدة، فأخذها منه وقال: يا أمير المؤمنين، فإني عاهدت الله في الكعبة ألا أشربها أيضاً. ففكر طويلاً والكأس في يد عمرو بن مسعدة، فقال:

لا تعلمان الكأس ما تجدي

ردا علي الكأس إنكما

إلا بدمعكما من الوجد

لو ذقتما ما ذقت ما امتزجت

وكخيفتيه رجاؤه عندي

خوفتماني الله ربكما

خوف العقاب شربتها وحدي

إن كنتما لا تشربان معي

شرب المأمون ويحيى بن أكنم القاضي وعبد الله بن طاهر، فتغامز المأمون وعبد الله على سكر يحيى، فغمز يد الساقى فأسكره، وكان بين أيديهم رزم من ورد ورياحين، فأمر المأمون فشق له لحد في الورد والرياحين، وصبروه فيه، وعمل بيبي شعر، ودعا قينة، فجلست عند رأسه وحركت العود وغنت:

مكفٌ في ثياب من رياحين

دعوته وهو حي لا حراك به

فقلت خذ قال كفي لا تواتيني

فقلت قم قال رجلي لا تطاوعني

فانتبه يحيى لرنة العود، وقال مجيباً لها:

قد جار في حكمه من كان يسقيني

يا سيدي وأمير الناس كلهم

كما تراني سليب العقل والدين

إني غفلت عن الساقى فصيرني

ولا أجيّب المنادي حين يدعوني

لا أستطيع نهوضاً قد وهى جسدي

الراح تقتلني والعود يحييني

فاختر لبغداد قاضٍ إنني رجلٌ

حدثنا أبو جعفر البغدادي قال: كان بالجزيرة رجل يبيع نبيذاً في ماخور له، وكان بيته من قصب، وكان يأتيه قوم يشربون عنده، فإذا عمل فيهم الشراب قال بعضهم لبعض: أما ترون بيت هذا النباذ من قصب؟ فيقول بعضهم: علي الأجر، ويقول الآخر: علي الحص، ويقول الآخر: علي أجرة العامل. فإذا أصبحوا لم يعملوا شيئاً، فلما طال ذلك على النباذ قال فيهم:

ويصبح حين يصبح جذم خص

لنا بيت يهدم كل يوم

غداً نبني بأجر وجص

إذا ما دارت الأقداح قالوا

يمرون الشتاء بغير قمص

وكيف يشيد البنيان قومٌ

ودخل حارثة بن بدر على زياد، وبوجهه أثر، فقال: ما هذا؟ قال: ركبت فرسي الأشقر فصرعني. قال: أما إنك لو ركبت الأشهب ما صرعتك. أراد حارثة بالأشقر النبيذ، وأراد زياد بالأشهب اللبن.

وكان قيس بن عاصم يأتيه في الجاهلية تاجر خمر، فيبتاع منه، ولا يزال الخمار في جواره حتى ينفذ ما عنده. فشرب قيس ذات يوم فسكر سكرًا قبيحًا، فجذب ابنته وتناول قرنها، ورأى القمر فتكلم بشيء، ثم نهب ماله ومال الخمار، وأنشأ يقول:

كأن لحيته أذنان أجمال

صحبي وأهلي بلا عقل ولا مال

من تاجر فاجر جاء الإله به

جاء الخبيث ببيسانية تركت

فلما صحا أخبر بما صنع وما قال، فألى ألا يدوق خمرًا أبدًا. -وربما بلغت جناية الكأس إلى عقب الرجل ونجله. قال المأمون: "يا نطف الخمار، ونزاع الظهور، وأشباه الخولة".

وقال الشاعر:

ولم أر المغبون غير العاقل

فبت من عقلي على مراحل

لما رأيت الحظ حظ الجاهل

رحلت عنسًا من كروم بابل

وقال آخر يصف السكر:

أجر رجلي بخط مختلف

بأطراف الزجاج من العصير

نرى العصفور أعظم من بعير

أمير المؤمنين على السرير

بنات الروم في قمص الحرير

ينلن أنامل الرجل القصير

وألثم لبة القمر المنير

أقبلت من عند زياد كالخرف

كأنما يكتبان لام ألف

وقال آخر يصف السكر:

شربنا شربةً من ذات عرق

وأخرى بالمروح، ثم رحنا

كأن الديك ديك بني تميم

كأن دجاجهم في الدار رقطا

فبت أرى الكواكب دانيات

أدفعهن بالكفين مني

وقال الشاعر:

فيك العيوب، وقل ما شئت يحتمل

يخفى على الناس ما قالوا وما فعلوا

من دونها ستر الأبواب والكلل

ما يستسر لها سهل ولا جبل

أفريت بياعه يعطون ما سألوا

دع النبيذ تكن عدلاً، وإن كثرت

هو المشيد بأخبار الرجال فما

كم زلة من كريم ظل يسترها

أضحت كنار على علياء موقدة

والعقل علق مصون لو يباع لقد

أن يذهبها بعل بعده نهل

عن الصواب ولم يصبح بها علل

فاعجب لقوم منا هم في عقولهم

قد عقدت بخمار الكأس ألسنهم

وزررت بسنات النوم أعينهم

تخال رائحهم من بعد غدوته

فإن تكلم لم يقصد لحاجته

وقال:

أخو الشراب ضائع الصلاة

وحاله من أفبح الحالات

أف له أف إلى أفات

كأن أحداقها حول وما حولوا

حبلى أضرب بها في مشيها الحبل

وإن مشى قلت مجنون به خبل

وضائع الحرمة والحاجات

في نفسه والعرس والبنات

خمسة آلاف مؤلفات

من حد من الأشراف في الخمر وشهر بها

منهم يزيد بن معاوية، وكان يقال له: يزيد الخمور، وبلغه أن مسور بن مخزومة يرميه بشرب الخمر، فكتب إلى عامله بالمدينة: أن يجلد مسوراً حد القذف، ففعل. فقال مسور:

أيشربها صرفاً بطين دنانها

ومن حد في لشراب الوليد بن عقبة بن أبي معيط، أخو عثمان بن عفان لأمه. شهد أهل الكوفة عليه أنه صلى بهم الصبح ثلاث ركعات وهو سكران. ثم التفت إليهم فقال: إن شئتم زدكم! فجلده علي بن أبي طالب بين يدي عثمان. وفيه يقول الحطيئة، وكان ندبه أبو زيد الطائي:

أبو خالد ويضرب الحد مسور

أن الوليد أحق بالعدر

ليزيدهم خيراً ولا يدري

لقرنت بين الشفع والوتر

تركوا عنانك لم تزل تجري

شهدت الحطيئة يوم يلقي ربه

نادى وقد تمت صلاتهم

ليزيدهم خيراً ولو قبلوا

كبحوا عنانك إذ جريت ولو

ومنهم عبيد الله بن عمر بن الخطاب، شرب بمصر، فحده هناك عمرو بن العاص سراً، فلما قدم إلى عمر جلده حداً آخر علانية.

ومنهم العباس بن عبد الله بن عباس، كان ممن شهر بالشراب ومنادمة الأخطل الشاعر. وفيه يقول الأخطل:

هرت عواذله هرير الأكلب

من كل مرتقب عيون الربرب

ولقد غدوت على التجار بمسح

لباس أردية الملوك تروقه

ومنهم قدامة بن مظعون، من أصحاب رسول الله "، حده عمر بن الخطاب بمشادة علقمة الخصي وغيره، في الشراب.

ومنهم عبد الرحمن بن عمر بن الخطاب المعروف بأبي شحمة، حده أبوه في الشراب، وفي أمر أنكره عليه.

ومنهم عبد الله بن عروة بن الزبير، حده هشام بن إسماعيل المخزومي في الشراب.

ومنهم عاصم بن عمر بن الخطاب، حده بعض ولاة المدينة في الشراب.

ومنهم عبد العزيز بن مروان، حده عمرو الأشدق.

ومن فضح بالشراب بلال بن أبي بردة الأشعري، وفيه يقول يحيى ابن نوفل الحميري:

يميل الشراب به حيث مالا

وأما بلال فذاك الذي

ببيت يمص عتيق الشراب

ويصبح مضطرباً ناعساً

ويمشي ضعيفاً كمشي النزيف

كمص الوليد يخاف الفصالا

تخال من السكر فيه احوالاً

تخال به حين يمشي شكالا

ومن شهر بالشراب عبد الرحمن بن عبد الله الثقفي، القاضي بالكوفة. وفضح بمنادمة سعد بن هبار. وفيه يقول حارثة بن بدر:

نهاره في قضايا غير عادلة

ما يسمع الناس أصواتاً لهم عرضت

يدين أصحابه فيما يدينهم

فأصبح الناس أطلاقاً أضربهم

وليله في هوى سعد بن هبار

إلا دويماً، دوي النحل في الغار

كأساً بكأس وتكراراً بتكرار

حث المطي وما كانوا بسفار

ومنهم أبو محجن الثقفي، وكان مغرمًا بالشراب، وقد حده سعد بن أبي وقاص في الخمر مراراً. وشهد القادسية مع سعد، وأبلى فيها بلاء حسناً. وهو القائل:

إذا مت فادفني إلى ظل كرمة

ولا تدفني بالفلاة فإنني

ثم حلف بالقادسية ألا يشرب خمراً أبداً، وأنشأ يقول:

تروي عظامي بعد موتي عروقتها

أخاف إذا مامت ألا أدوقها

وحال من دونها الإسلام والخرج

طوراً وأشربها صرفاً وأمتزج

إن كانت الخمر قد عزت وقد منعت

فقد أبكرها صهباء صافية

فيها إذا رفعت من صوتها غنج

كما يطن ذباب الروضة الهزج

وقد تقوم على رأسي مغنية

فتخفض الصوت أحياناً وترفعه

ومنهم عبد الملك بن مروان، وكان يسمى "حمامة المسجد"، لاجتهاده في العبادة قبل الخلافة. فلما أفضت إليه الخلافة شرب الطلاء، وقال له سعيد بن المسيب: بلغني يا أمير المؤمنين أنك شربت بعدي الطلاء؟ فقال: إي والله، والدماء! ومنهم الوليد بن يزيد، ذهب به الشراب كل مذهب حتى خلع، وقتل. وهو القائل:

خذوا ملككم لا تثبت الله ملككم

دعوالي سلمى والنبيذ وقينة

أبالمك أرجو أن أخلد فيكم

ثباتاً يساوي ما حييت عقالا

وكأساً ألا حسبي بذلك مالا

ألا رب ملك قد أزيل فزالا

وسقى قوم أعرابية مسكراً، فقالت: أيشرب نساؤكم هذا الشراب؟ قالوا: نعم. قالت: فما يدري أحدكم من أبوه! ومنهم إبراهيم بن هرمة، وكان مغرمًا بالشراب، وحده عليه جماعة من عمال المدينة؛ فلما ألحوا عليه وضاق ذرعه بهم، دخل إلى المهدي بشعره الذي يقول فيه:

له لحظات عن حفافي سريره

لهم طينة بيضاء من آل هاشم

إذا كرها فيها عقاب ونائل

إذا اسود من لؤم التراب القبائل

إذا ما أتى شيئاً مضى كالذي أتى

وإن قال إني فاعل فهو فاعل

فأعجب المهدي بشعره، وقال له: سل حاجتك. قال: تأمر لي بكتاب إلى عامل المدينة أن لا يحدني على شراب. فقال له: ويلك، كيف تأمر بذلك؟ لو سألتني عزل عامل المدينة وتوليتك مكانه لفعلت. قال: يا أمير المؤمنين: ولو عزلت عامل المدينة ووليتني مكانه، أما كنت تعزلي أيضاً وتولي غيري؟ قال: بلى. قال: فكنت أرجع إلى سيرتي الأولى. فقال المهدي لوزرائه: ما تقولون في حاجة ابن هرمة وما عندكم فيها من التلطف؟ قالوا: يا أمير المؤمنين، إنه يطلب مالا سبيل إليه: إسقاط حد من حدود الله. قال المهدي: إن عندي له حيلة، إذ أعيتكم الحيل فيه، اكتبوا له إلى عامل المدينة: من أتاك بابن هرمة سكران فيضرب ابن هرمة ثمانين، ويضرب الذي يأتيك به مائة. فكان ابن هرمة إذا مشى في أزقة المدينة يقول: من يشتري مائه بثمانين؟ وكان بأمج رجل يقال له: حميد، وكان مفتوناً بالخمير، فهجاه ابن عم له، وقال فيه:

حميد الذي أمج داره

أخو الخمر ذو الشيبية الأصلع

علاه المشيب على شربها

وكان كريماً، فما ينزع

ودخل حميد يوماً على عمر بن عبد العزيز، فقال له: من أنت؟ قال: أنا حميد. قال: "حميد الذي"؟ قال: والله يا أمير المؤمنين ما شربت مسكراً منذ عشرين سنة. فصدقه بعض جلسائه فقال له: إنما داعبتك.

الفرق بين الخمر والنبيذ

أول ذلك أن تحريم الخمر مجمع عليه لا اختلاف فيه بين اثنين من الأئمة والعلماء. وتحريم النبيذ مختلف فيه بين الأكابر من أصحاب النبي " والتابعين بإحسان. حتى لقد اضطر محمد بن سيرين في علمه وورعه أن يسأل عبيدة السلماني عن النبيذ. فقال له عبيدة: اختلف علينا في النبيذ. وعبيدة ممن أدرك أبا بكر وعمر. فما ظنك بشيء اختلف فيه الناس وأصحاب النبي عليه الصلاة والسلام متوافرون، فمن بين كطلق له ومحظر عليه؟ وكل واحد منهم يقيم الحجج لمذهبه، والشواهد على قوله. والنبيذ كل ما نبذ في الدباء والمزفت، فاشتد حتى يسكر كثيره. وما لم يشتد فليس يسمى نبيذاً، كما أنه ما لم يغل من عصير العنب حتى يشتد فليس يسمى خمراً، كمال قال الشاعر:

نبيذ إذا مر الذباب بدنه

تقطر أو خر الذباب وقبذا

وقيل لسفيان الثوري، وقد دعا بنبيذٍ فشرب منه، ووضع بين يديه: يا أبا عبد الله، أخشى الذباب أن يقع في النبيذ. قال: قبحه الله، إذا لم يذب عن نفسه.

وقال حفص بن غياث: كنت عند الأعمش وبين يديه نبيذ، فاستأذن عليه قومٌ من طلبه الحديث، فسترته، فقال لي: لم سترته؟ فكرهت أن أقول: لئلا يراه من يدخل، فقلت: كرهت أن يقع فيه الذباب. فقال لي: هيهات، إنه أمتع من ذلك جانباً. ولو كان النبيذ هو الخمر التي حرمها الله في كتابه ما اختلف في تحريمه اثنان من الأمة.

حدث محمد بن وضاح قال: سألت سحنون، فقلت: ما تقول فيمن حلف بطلاق زوجته، إن المطبوخ من عصير العنب هو الخمر، التي حرمها الله في كتابه؟ قال: بانت زوجته منه.

وذكر ابن قتيبة في كتاب الأشربة: إن الله تعالى حرم علينا الخمر بالكتاب، والمسكر بالسنة، فكان فيه فسحة، فما كان محرماً بالكتاب فلا يحل منه لا قليل ولا كثير، وما كان محرماً بالسنة فإن فيه فسحةً أو في بعضه، كالقليل من الديباج والحرير يكون في الثوب، والحرير محرم بالسنة. وكالتفريط في صلاة الوتر، وركعتي الفجر، وهما سنة. فلا تقول: إن تاركهما كتارك الفرائض من الظهر والعصر. وقد استأذن عبد الرحمن بن عوف رسول الله " في

لباس الحرير لبلية كانت به، وأذن لعرفجة بن سعد، وكان أصيب أنفه يوم الكلاب، باتخاذ أنف من الذهب. وقد جعل الله فيما أحل عوضاً مما حرم، فحرم الربا وأحل البيع، وحرم السفاح وأحل النكاح، وحرم الدياج وأحل الوشي، وحرم الخمر وأحل النبيذ غير المسكر. والمسكر منه ما أسكر.

مناقضة ابن قتيبة في قوله في الأشربة

قال في كتابه: فإن قال قائل: إن المنكر هو الشربة المسكرة، أكذبه النظر. لأن القدح الأخير إنما أسكر بالأول، وكذلك القمة الأخيرة إنما أشبعت بالأولى. ومن قال: السكر حرام، فإنما ذلك مجازٌ من القول، وإنما يريد ما يكون منه السكر حرام. وكذلك التخمة حرام. وهذا الشاهد الذي استشهد به في تحريمه "قليل ما أسكره كثيره" وتشبيهه ذلك بالتخمة شاهد عليه لا شاهد له؛ لأن الناس مجتمعون أن قليل الطعام الذي تكون منه التخمة حلال، وكثيره حرام. وكذلك ينبغي أن يكون قليل النبيذ الذي يسكر كثيره حلالاً، وكثيره حرام، وأن الشربة الآخرة المسكرة هي الحزمة. ومثل الأربعة الأقداح التي يسكر منها القدح الرابع، مثل أربعة رجال اجتمعوا على رجل، فشحه أحدهم موضحة، ثم شحه الثاني منقلة، ثم شحه الثالث مأمومة، ثم أقبل الرابع فأجهز عليه. فلا نقول: إن الأول هو قاتله، ولا الثاني، ولا الثالث، وإنما قتله الرابع الذي أجهز عليه. وعليه القود.

وذكر ابن قتيبة في كتابه، بعد أن ذكر اختلاف الناس في النبيذ، وما أدلى به كل قومٍ من الحجة. فقال: وأعدل القول عندي أن تحريم الخمر بالكتاب وتحريم النبيذ بالسنة، وكراهية ما أفتى وأحدر من الأشربة تأديب. ثم زعم في هذا الباب بعينه أن الخمر نوعان: فنوع منهما مجتمع على تحريمه، وهو خمر العنب من غير أن تمسه نار، لا يحل منه لا قليل ولا كثير. ونوع آخر مختلف فيه، وهو نبيذ الزبيب إذا اشتد، ونبيذ التمر إذا صلب، وهو يسمى السكر، ولا يسمى السكر إلا نبيذ التمر خاصة. وقال بعض الناس: ليس نبيذ التمر خمراً. ويحتجون بقول عمر: ما انتزع بالماء فهو حلال، وما انتزع بغير الماء فهو حرام. وقال ابن قتيبة: وقال آخرون: هو خمر حرام كله. وهذا هو القول عندي، لأن تحريم الخمر نزل وجهور الناس مختلفة، وكلها يقع عليها هذا الاسم في ذلك الوقت.

وذكر أن أبا موسى قال: خمر المدينة من البسر والتمر، وخمر أهل فارس من العنب، وخمر أهل اليمن من البتع، وهو نبيذ العسل. وخمر الحبشة السكرية وهي من الذرة، وخمرة التمر يقال له: البتع والفضيخ. وذكر أن عمر قال: الخمر من خمسة أشياء: من البر، والشعير، والتمر، والزبيب، والعسل. والخمر ما خامر العقل. ولأهل اليمن أيضاً شراب من الشعير، يقال له المزر. فزعم ها هنا ابن قتيبة أن هذه الأشربة كلها خمرة. وقال: هذا هو القول وقد تقدم له في صدر الكتاب أن النبيذ لا يسمى نبيذاً حتى يشتد ويسكر كثيره، كما أن عصير العنب لا يسمى خمراً حتى يشتد، وأن صدر هذه الأمة وأئمة الدين لم يختلفوا في شيء اختلافهم في النبيذ، وكيفيته. ثم قال فيما حكم به بين الفريقين: أما الذين يذهبون إلى تحريمه كله ولم يفرقوا بين الخمر وبين نبيذ التمر، وبين ما طبخ وبين ما نقع، فإنهم غلوا في القول جداً، ونحلوا قوماً من أصحاب رسول الله "البدرين، وقوماً من خيار التابعين، وأئمة من السلف المتقدمين شرب الخمر. وزينوا ذلك بأن قالوا: شربوها على التأويل. وغلطوا في ذلك، فأثموا القوم، ولم يتهموا نظرهم، ونحلوهم الخطأ، وبرعوا أنفسهم منه.

فعجبت منه، كيف يعيب هذا المذهب ثم يتقلده، ويطعن على قائله ثم يقول به. إلا أني نظرت في كتابه فرأيت أنه قد طال جداً، فأحسبه أنسي في آخره ما ذهب إليه في أوله.

والقول الأول من قوله هو المذهب الصحيح الذي تأنس إليه القلوب، وتقبله العقول، لا قوله الآخر الذي غلط فيه.

احتجاج المحرمين لقليل النبيذ وكثيره

ذهبوا أجمعوا أن جميع ما أسكر كثيره من الشراب فقليله حرام، كتحریم الخمر. وقال بعضهم: بل هو الخمر بعينها، ولم يفرقوا بين ما طبخ وبين ما نفع. وقضوا عليه كله أنه حرام. وذهبوا من الأثر إلى حديث رواه عبد الله ابن قتيبة عن محمد بن خالد بن خدّاش، عن أبيه، عن حماد بن زيد، عن أيوب، عن نافع، عن ابن عمر: أن رسول الله صلى الله عليه وسلم قال: "كل مسكر حرام وكل مسكر خمّر". وحديث رواه ابن قتيبة عن إسحاق بن راهويه، عن المعتمر بن سليمان، عن ميمون بن مهدي، عن أبي عثمان الأنصاري، عن القاسم عن عائشة، أن النبي صلى الله عليه وسلم قال: "كل مسكر حرام. وما أسكر منه الفرق فالحسوة منه حرام". والفرق: ستة عشر رطلاً. وللغرب أربعة مكييل مشهورة: فأصغرها المد، وهو رطل وثلث في قول الحجازيين، ورتلان في قول العراقيين. وكان رسول الله صلى الله عليه وسلم يتوضأ بالمد.

والصاع: أربعة أمداد، خمسة أرتال وثلث، في قول الحجازيين، وثمانية أرتال في قول العراقيين. وكان رسول الله صلى الله عليه وسلم يغتسل بالصاع. والقسط وهو رطلان وثلثان، في قول الناس جميعاً. والفرق، وهو ستة عشر رطلاً، ستة أقساط في قول الناس جميعاً.

وذهبوا إلى حديث رواه ابن قتيبة عن محمد بن عبيد عن ابن عيينة عن الزهري عن أبي سلمة، عن اعائشة؛ أن رسول الله صلى الله عليه وسلم قال: "كل شراب أسكر فهو حرام"، مع أشباه لهذا من الحديث يطول الكتاب باستقصائها، إلا أن هذه أغلظها في التحريم، وأبعدها من حيلة المتأول. قالوا: والشاهد على ذلك من النظر: أن الخمر إنما حرمت لإسكارها وجنابتها على شاربها، ولأنها رجس، كما قال الله.

ثم ذكروا من جنابيات الخمر ما قد ذكرناه في صدر كتابنا هذا، في باب آفات الخمر وجناباتها.

ثم قالوا: فالعلة التي لها حرمت الخمر من الإسكار، ومن الصداع والصدع عن ذكر الله وعن الصلاة، قائمة بعينها في النبيذ كله المسكر. فسيبيله الخمر، لا فرق بينهما في الدليل الواضح، والقياس الصحيح. كما أن حديث النبي صلى الله عليه وسلم في الفأرة إذا وقعت في السمن، إنه كان جامداً ألقيت وألقي ما حولها، وإن كان ذائباً أريق السمن. فحملت العلماء الزيت وغيره محمل السمن، بالدليل الواضح.

وعلمت أن النبي صلى الله عليه وسلم لم يقصد إلى السمن خاصة بنجس الفأرة، وإنما سئل عن الفأرة تقع في السمن فأفتى به، ففاس العلماء الزيت وغيره بالسمن. وكما أمر في الاستنجاء بثلاثة أحجار، فعلم أهل العلم أنه إنما أراد صلى الله عليه وسلم بثلاثة الأحجار للتنقية من الأذى، فأجازوا كل ما أنقى: من الخزف، والخزق، وغير ذلك، وحملوه حمل ثلاثة الأحجار. ولما حرمت الخمر لعلة قائمة في النبيذ المسكر حمل النبيذ محمل الخمر في التحريم.

قالوا: ووجدناهم يقولون لمن غلب عليه غنث النفس وصداع الرأس من الخمر: مخمور وبه خمّار. ويقولون مثل ذلك في شارب النبيذ، ولا يقولون: منبوذ، ولا به نباذ. والخمار مأخوذ من الخمر، كما يقال: الكباد في وجع الكبد، والصدار في وجع الصدر.

وذهبوا في تحريم النبيذ إلى حديث أبي هريرة عن النبي صلى الله عليه وسلم، "أنه نهي عن أن ينبذ في الدباء والمزفت"، وقالوا: لمن أجاز قليل ما أسكر كثيره: إنه ليس بين شارب المسكر وموافقته السكر حد ينتهي إليه، ولا يوقف عنده، ولا يعلم شارب من شارب المسكر متى يسكر حتى يسكر كما لا يعلم الناعس متى يرقد حتى يرقد. وقد يشرب الرجل من الشراب المسكر قدحين وثلاثة أقداح ولا يسكر. ويشرب من غيره قدحاً واحداً فيسكر، لا، بل قد يختلف طبع الرجل في نفسه، فيسكر مرة من القدحين ويشرب مرة أخرى ثلاثة أقداح فلا يسكر.

رسالة عمر بن عبد العزيز إلى أهل الأمصار في الأنبذة

"أما بعد فإن الناس كان منهم في هذا الشراب المحرم أمر ساءت فيه رغبة كثير منهم، حتى سفه أحلامهم، وأذهب عقولهم، فاستحل به الدم الحرام، والفرج الحرام، وإن رجلاً منهم ممن يصيب ذلك الشراب يقولون: شربنا طلاء، فلا بأس علينا في شربه. ولعمري إن فيما قرب مما حرم الله بأساً، وإن في الأشربة التي أحل الله: من العسل، والسويق، والنبيذ من الزبيب والتمر لمنذوحة عن الأشربة الحرام، غير أن كل ما كان من النبيذ العسل والتمر والزبيب فلا ينبذ إلا في أسقية الأدم التي لا زفت فيها، ولا يشرب منها ما يسكر؛ فإنه بلغنا أن رسول الله صلى الله عليه وسلم نهي عن شرب ما جعل في الجرار، والدباء، والظروف المزفتة. وقال: "كل مسكر حرام". فاستغنوا بما أحل الله لكم عما حرم عليكم. وقد أردت بالذي نهيته عنه من شرب الخمر وما ضارح الخمر من الطلاء، وما جعل في الدباء والجرار والظروف المزفتة، وكل مسكر -اتخاذ الحجّة عليكم. فمن يطع منكم فهو خير له.

ومن يخالف إلى ما نهي عنه نعاقيه على العلانية، ويكفنا الله ما أسر. فإنه على كل شيء رقيب. ومن استخفى بذلك عنا فإن الله أشد بأساً وأشد تنكيلاً".

احتجاج المحللين للنبيذ

قال المحللون لكل ما أسكر كثيره من النبيذ: إنما حرمت الخمر بعينها خمر العنب خاصة بالكتاب، وهي معقولة مفهومة، لا يمتري فيها أحد من المسلمين، وإنما حرّمها الله تعيداً لا لعله الإسكار كما ذكرتم، ولا لأنها رجس كما زعمتم. ولو كان ذلك كذلك لما أحلها الله للأتبياء المتقدمين، والأمم السالفين، ولا شربها نوح بعد خروجه من السفينة، ولا عيسى ليلة رفع، ولا شربها أصحاب محمد صلى الله عليه وسلم في صدر الإسلام. وأما قولكم: إنها رجس، فقد صدقتم في اللفظ، وغلطتم في المعنى، إذ كنتم أردتم أنه منتنة؛ فإن الخمر ليست بمننتة ولا قدرة، ولا وصفها أحد بنتن ولا قدر، وإنما جعلها الله رجساً بالتحريم، كما جعل الزنا فاحشة ومقتاً، أي معصية وإثماً، بالتحريم، وإنما هو جماع كجماع النكاح، وهو عن تراضٍ وبذل، كما أن النكاح عن تراضٍ وبذل. وقد يبذل في السفاح ما يبذل في النكاح، ولذلك سمي الله تبارك وتعالى المحرمات كلها حباث. فقال تعالى: "ويحرم عليهم الحباث". وسمى المحللات كلها طيبات، فقال: "يسألونك ماذا أحل لهم قل أحل لكم الطيبات"، وسمى كل ما جاوز أمره أو قصر عنه سرفاً، وإن اقتصد فيه. وقد ذكر الخمر فيما امتن به على عباده قبل تحريمها، فقال تعالى: "ومن ثمرات التخييل والأعناب تتخذون منه سكرًا ورزقًا حسنًا". ولو أنها رجس على ما تأولتم ما جعلها الله في جنته، وسماها لذة للشاربين. وإن قلتهم: إن خمر الجنة ليست كخمر الدنيا؛ لأن الله نفى عنها عيوب خمر الدنيا، فقال تعالى: "لا يصدعون عنها ولا يترفون"، وكذلك قوله في فاكهة الجنة: "لا مقطوعة ولا ممنوعة"، فنفى عنها عيوب فواكه الدنيا؛ لأنها تأتي في وقت وتنقطع في وقت، ولأنها ممنوعة إلا بالثمن، ولها آفات كثيرة، وليس في فواكه الجنة آفة. وما سمعنا أحداً وصف الخمر إلا بضد ما ذكرتم من طيب النسيم، وذكاء الرائحة. قال الأخطل:

وقد تزوع من ناجودها الجاري

كأنما المسك نهبي بين أرحلنا

وقال آخر:

كنتفس الريحان في الأنف

فتفتفت في البيت إذ مزجت

وقال أبو نواس:

طيب ريح فتفوح

نحن نخفيها ويأبى

وإنما قوله فيها "رجس" كقوله تعالى: "وأما الذين في قلوبهم مرض فزادهم رجساً إلى رجسهم". أي كفرة إلى كفرهم. وأما منافعها التي ذكرها الله تعالى في قوله: "يسألونك عن الخمر والميسر قل فيهما إثم كبير ومنافع للناس وإثمهما أكبر من نفعهما"، فإنها كثيرة لا تحصى: فمنها أنها تدر الدم، وتقوي المنة وتصفى اللون، وتبعث النشاط، وتفتق اللسان، ما أخذ منها بقدر الحاجة، ولم يجاوز المقدار. فإذا جاوز ذلك عاد نفعها ضراً.

وقال ابن قتيبة، في كتاب الأشربة: كانت الأوائل تقول: الخمر حبيبة الروح، ولذلك اشتق لها اسم من الروح فسميت راحاً، وربما سميت روحاً. وقال إبراهيم النظام:

وأستبيح دماً من غير مذبوح

ما زلت أخذ روح الزق في لطف

والزق مطرح جسم بلا روح

حتى انثنيت ولي روحان في جسدي

وقد تسمى دماً لأنها تزيد في الدم. قال مسلم بن الوليد الأنصاري:

فأظهر في الألوان منا الدم

مزجنا دماً من كرمه بدمائنا

قال ابن قتيبة: وحدثني الرياشي أن عبيداً راوية الأعشى قال: سألت الأعشى عن قوله:

كدم الذبيح سلبتها جريالها

وسلافة مما تعنق بابل

فقال: "شربتها حمراء، وبلتها بيضاء". يريد أن حمرتها صارت دماً.

ومن منافع الخمر أنها تزيد في الهمة، وتولد الجرأة، وتهيج الأنفة، وتسخي البخيل، وتشجع الجبان. قال حسان بن ثابت:

وأسداً ما ينهنها اللقاء

ونشر بها ففتركتنا ملوكاً

وقال طرفة:

وهبوا كل أمون وطمر

فإذا ما شربوها وانتشوا

يلحفون الأرض هداًب الأزر

ثم راحوا عقب المسك بهم

وقال مسلم بن الوليد:

وتتطق بالمعروف السنة البخل

تصد بنفس المرء عما يغمه

وقال الحسن بن هانئ:

دعا همه من صدره برحيل

إذا ما أتت دون اللهاة من الفتى

ومن تسخيتها للبخيل على البذل قول بعض المحدثين:

وينزعه مني إذا كان صاحباً

كساني قميصاً مرتين إذا انتشى

وفي الصحو روعات تشيب النواصيا

فلي فرحة في سكره بقميصه

ومن جوده ألا علي ولا ليا

فياليت حظي من سروري وترحتي

قالوا: ولولا أن الله تعالى حرم الخمر في كتابه لكانت سيده الأشرية. وما ظنك بشراب الشربة الثانية منه أطيب من الأولى، والثالثة أطيب من الثانية،

حتى يؤدبك إلى أرفق الأشياء وهو النوم. وكل شراب سواها فالشربة الأولى أطيب من الثانية، والثانية أطيب من الثالثة حتى تمله وتكرهه.

وسقى قومٌ أعرابياً كؤوساً، ثم قالوا: كيف تجدك؟ قال أحديني أبشر وأجدكم تحبون إلي.

وقالوا: ما حرم الله شيئاً إلا عوضنا ما هو خير منه أو مثله، وقد جعل الله النبيذ عوضاً عن الخمر نأخذ منه ما يطيب النفس، ويصفي اللون، ويهضم

الطعام، ولا نبلغ منه إلى ما يذهب العقل، ويصدع الرأس، ويغثي النفس، ويشرك الخمر في آفاتهما وعظيم جناياتهما.

قالوا: وأما قولكم: إن الخمر كل ما خمر، والنبيذ كله يخمر، فهو خمر - فإن الأسماء قد تتشاكل في بعض المعاني، فتسمى ببعضها لعلها فيها، وهي في

آخر ولا يطلق ذلك الاسم على الآخر. ألا ترى أن اللبن قد يخمرونه بروبة تلقى فيه ولا يسمى خمرًا، وأن العجين قد يخمر فيسمى خميراً ولا يسمى

خمرًا، وأن نقيع التمر يسمى سكرًا لإسكاره ولا يسمى غيره من النبيذ سكرًا وإن كان مسكرًا. وهذا أكثر في كلام العرب من أن يحاط به.

ورائب اللبن يسكر إسكاراً كسكر النبيذ. ويقال: قوم ملبونون، وقوم روبي، إذا شربوا الرائب فسكروا منه. وقال بشر بن أبي حازم:

فألفاهم القوم روبي نياما

فأما تميم تميم بن مرٍ

وأما قولكم للرجل: مخمور، وبه خمار، إذا أصابه صداع من الخمر، وقد يقال مثل ذلك لمن أصابه صداع من النبيذ، فيقال: به خمار، ولا يقال به نباذ- فإن حجتنا في ذلك أن الخمار إنما يعرض مما أسكر من النبيذ، وذلك حرام لا فرق بينه وبين الخمر عندنا، فيقال فيه ما يقال في الخمر. وإنما كان شربة النبيذ من أسلافنا يشربون منه اليسير على الغذاء والعشاء ومما لا يعرض منه خمار. وقد فرقت الشعراء بين النبيذ والخمر، فقال الأقيشر، وكان مغرماً بالشراب:

وصهباء جرجانية لم يطف بها
أتاني بها يحيى، وقد نمت نومةً
فقلت: اصطحبها أو لغيري فاسقها
إذا المرء وافى الأربعين، ولم يكن
فدعه، ولا تتكر عليه الذي أنى

حنيف، ولم تنغر بها ساعةً قدر
وقد غارت الشعري، وقد خفق النسر
فما أنا بعد الشيب، ويحك، والخمر
له دون ما يأتي حياءً ولا ستر
وأن جر أرسان الحياة له الدهر

فأعلمك أن الخمر هي التي لم تغل به القدور.

وأما قول بعض الشعراء في شاري النبيذ، وما عابوهم به من قلة الوفاء، ونقض العهود فقد قالوا أفتح من ذلك في تارك النبيذ، وقال ابن بيط:

ألا لا يغرناك ذو سجدةٍ
يظل بها دائماً يخدع

وما لللقى لزمت وجهه
ثلاثون ألفاً حواها السجود
ورد أخو الكأس ما عنده

ولكن ليأتي مستودع
فليست إلى ربها ترجع
وما كنت في رده أطمع

وقال آخر:

أما النبيذ فلا يذعرك شاربته
قوم يورون عما في نفوسهم
مشمريين إلى أنصاف سوقهم

واحفظ ثيابك ممن يشرب الماء
حتى إذا استمكنوا كانوا هم الداء
هم الذئاب وقد يدعون قراء

وقال أعرابي:

صلى فأعجبني وصام فرابني

نح القلوص عن المصلي الصائم

وقال غيره:

شمر ثيابك واستعد لقائل
وامش الدبيب إذا مشيت لحاجةٍ

واحكك جبينك للقضاء بثوم
حتى تصيب وديعةً لثيم

وقال بعض الظرفاء:

أظهروا لله سمناً
وله صلوا وصاموا

وعلى المنقوش داروا
وله حجوا وزاروا

وهؤلاء المراءون بأعمالهم، العاملون للناس والتاركون للناس، هم شرار الخلق وأراذل البرية. وقد فضل شربة النبيذ عليهم بإرسال الأنفس على السجية، وإظهار المروءة. ولسنا نصف بهذا منهم إلا الأذنياء، فليس في الناس صنف إلا ولهم حشوة.

ومن احتجاج المخللين للنبيذ ما رواه مالك وأثبتته في موطنه، من حديث أبي سعيد الخدري: أنه قدم من سفر فقدم إليه لحم من لحوم الأضاحي، فقال: ألم يكن من رسول الله صلى الله عليه وسلم فيها أمر. فخرج إلى الناس فسألهم، فأخبروه أن رسول الله صلى الله عليه وسلم قال: "كنت هيتكم عن لحوم الأضاحي بعد ثلاثة أيام، فكلوا وادخروا وتصدقوا. وكنت هيتكم عن الانتباز في الدباء والمزفت، فانتبذوا، وكل مسكر حرام. وكنت هيتكم عن زيارة القبور، فزوروها ولا تقولوا هجرًا".

والحديثان صحيحان رواهما مالك بن أنس وأثبتهما في موطنه، وإنما هو ناسخ ومنسوخ، وإنما كان نهي عن الانتباز في الدباء والمزفت نهيًا عن النبيذ الشديد؛ لأن الأشربة التي تعتمل فيها تشتد. ولا معنى للدباء والمزفت غير هذا.

وقوله بعد هذا: "كنت هيتكم عن الانتباز فانتبذوا، وكل مسكر حرام"، إباحة لما كان حظر عليه من النبيذ الشديد.

وقوله صلى الله عليه وسلم: "كل مسكر حرام" فهاهم بذلك أن يشربوا حتى يسكروا. وإنما المسكر ما أسكر، ولا يسمى القليل الذي لا يسكر مسكراً. ولو كان ما يسكر كثيره يسمى قليله مسكراً ما أباح لنا منه شيئاً. والدليل على ذلك أن النبي صلى الله عليه وسلم إذ شرب من سقاية العباس، فوجده شديداً. قطب بين حاجبيه، ثم دعا بذنوب من ماء زمزم فصب عليه، ثم قال: "إذا اغتلمت أشربتكم فاكسروها بالماء". ولو كان حراماً لأراقه وما صب عليه ماء ثم شربه.

واحتجوا: في قول رسول الله صلى الله عليه وسلم: "كل مسكر حرام وما أسكر الفرق منه فملاء الكف حرام، فإن هذا كله منسوخ، نسخته شربه للصلب يوم حجة الوداع.

قالوا: ومن الدليل على ذلك أنه كان نهي وفد عبد القيس عن شرب المسكر، ثم وفدوا إليه بعد، فرآهم مصفرة ألوانهم، سيئة حالهم، فسألهم عن قصتهم فأعلموه أنه كان لهم شراب فيه قوام أبدانهم فمنعهم من ذلك، فأذن لهم في شربه. وأن ابن مسعود قال: "شهدنا التحريم وشهدتم، وشهدنا التحليل وغبتم". وأنه كان يشرب الصلب من نبيذ الجر حتى كثرت الروايات به عنه وشهرت وأذيعت، واتبعه عليه عامة التابعين من الكوفيين، وجعلوه أعظم حججهم، وقال في ذلك شاعرهم:

من ذا يحرم ماء المزن خالطه

في جوف خابية ماء العناقيد

إني لأكره تشديد الرواة لنا

فيه، ويعجبني قول ابن مسعود

وإنما أراد: أنهم كانوا يعمدون إلى الرب الذي قد ذهب ثلثاه وبقي ثلثه، فيردون عليه من الماء قدر ما ذهب منه، ثم يتركونه حتى يغلي ويسكن جأشه ثم يشربونه. وكان عمر يشرب على طعامه الصلب، ويقول: يقطع هذا اللحم في بطوننا.

واحتجوا بحديث زيد بن أحزم، عن أبي داود، عن شعبة، عن مسعر بن كدام، عن ابن عون الثقفي، عن عبد الله بن شداد، عن ابن عباس، أنه قال: "حرمت الخمر بعينها، والسكر من كل شراب".

وبحديث رواه عبد الرحمن بن سليمان، عن يزيد بن أبي زياد، عن عكرمة عن ابن عباس: "أن النبي صلى الله عليه وسلم طاف وهو شاك على بعير، ومعه محجن، كلما مر بالحجر استلمه بالمحجن، حتى إذا انقضى طوافه نزل فصلى ركعتين، ثم أتى السقاية فقال: "اسقوني من هذا". فقال له العباس "ألا نسقيك مما يصنع في البيوت؟ قال: "لا، ولكن اسقوني مما يشرب الناس". فأتي بقدر من نبيذ، فذاقه فقطب، وقال: "هلموا فصبوا فيه الماء". ثم قال: "زد فيه" مرة، أو مرتين، أو ثلاثة. ثم قال: "إذا صنع بكم هذا فاصنعوا به هكذا".

وبحديث رواه يحيى بن اليمان، عن الثوري، عن منصور بن خالد، عن سعيد بن مسعود الأنصاري: أن النبي صلى الله عليه وسلم عطش وهو يطوف

بالبیت، فأتی بنبیذٍ من السقایة فشمه فقطب، ثم دعا بذنوب من ماء زمزم فصب علیه وشرب، فقال له رجل: أحرام هو یا رسول الله؟ فقال: "لا". وقال الشعبي: شرب أعراي من إداوة عمر، فانتشی، فحده عمر. وإنما حده للسكر لا للشراب. ودخل عمر بن الخطاب رضي الله عنه على قوم يشربون ويوقدون في الأخصاص، فقال: نهيتمكم عن معاقرة الشراب فعاقرتهم، وعن الإيقاد في الأخصاص فأوقدتهم". وهم بتأديهم، فقالوا: مهلاً يا أمير المؤمنين، هناك الله عن التحسس، وهناك عن الدخول بغير إذنٍ فدخلت فقال: هاتان بهاتين. وانصرف، وهو يقول: "كل الناس أفاقه منك يا عمر". وإنما نهاهم عن المعاقرة وعن إدمان الشراب حتى يسكروا، ولم ينههم عن الشراب. وأصل المعاقرة من عقر الخوض، وهو مقام الشاربة. ولو كان عنده ما شربوا خمرًا لحدهم. وبلغه عن عامل بميسان أنه قال:

بميسان يسقى في زجاج وحنتم

وصناجة تجذو على كل منسم

ولا تسقني بالأصغر المتلم

تتادمننا في الجوسق المتهدم

ألا أبلغ الحسنة أن حليلها

إذا شئت غنتي دهاقين قرية

فإن كنت ندماني فبالأكبر اسقني

لعل أمير المؤمنين يسوؤه

فقال: إي والله، إنه ليسوؤني ذلك. فعزله وقال: والله لا عمل لي عملاً أبداً. وإنما أنكر عليه المدام، وشربه بالكبير، والصنح والرقص، وشغله باللهو عما فوض إليه من أمور الرعية. ولو كان ما شرب عنده خمرًا لحده. حدث محمد بن داود، عن سعيد بن نصير، عن يسار، عن جعفر قال: سمعت مالك بن دينار، وسئل عن النبيذ، أحرام هو؟ فقال: انظر ثمن التمر، من أين هو، ولا تسئل عن النبيذ أحلال هو أم حرام؟ وعوتب سعيد بن زيد في النبيذ، فقال: أما أنا فلا أدعه حتى يكون شر عملي. وقيل لمحمد بن واسع: أتشرب النبيذ؟ قال: نعم. فقيل: وكيف تشربه؟ فقال: على غدائي وعشائي، وعند ظمئي. قيل: فما تركت منه؟ قال: التكاة ومحادثة الإخوان.

قال المأمون: "اشرب النبيذ ما استبشعته، فإذا سهل عليك فدعه". وإنما أراد به أنه يسهل على شاربه إذا أخذ في الإسكار.

وقيل لسعيد بن أسلم: أتشرب النبيذ؟ فقال: لا. قيل: ولم؟ قال: تركت كثيره لله، وقليله للناس.

وكان سفيان الثوري يشرب النبيذ الصلب الذي تحمر منه وجنتاه.

واحتجوا من جهة النظر أن الأشياء كلها مباحة إلا حرم الله قالوا: فلا نزيل نفس الحلال بالاختلاف، ولو كان المحللون فرقة من الناس، فكيف وهم أكثر الفرق؟ وأهل الكوفة أجمعون على التحليل، لا يختلفون فيه. وتلوا قول الله عز وجل: "قل أرأيتم ما أنزل الله لكم من رزق فجعلتم منه حراماً وحلالاً قل الله أذن لكم أم على الله تفترون".

حدث إسحاق بن راهويه قال: سمعت وكيعاً يقول: "النبيذ أحل من الماء".

وعابه بعض الناس في ذلك، وقالوا: كيف يكون أحل من الماء؟ وهو وإن كان حلالاً فهو بمنزلة الماء. وليس على وكيع في هذا الموضع عيب، ولا يرجع عليه فيه كذب، لأن كلمته خرجت مخرج كلام العرب في مبالغتهم، كما يقولون: "هو أشهر من الصباح"، و"أسرع من البرق"، و"أبعد من النجم"، و"أحلى من العسل"، و"أحر من النار". ولم يكن أحدٌ من الكوفيين يجرم النبيذ غير عبد الله بن إدريس. وكان بذلك معيياً. وقيل لابن إدريس: من خيار أهل الكوفة؟ فقال: هؤلاء الذين يشربون النبيذ. قيل: وكيف وهم يشربون ما يجرم عندك؟ قال: ذلك مبلغهم من العلم. وكان ابن المبارك يكره شرب النبيذ، ويخالف فيه رأي المشايخ وأهل البصرة.

قال أبو بكر بن عياش: من أين جئت بهذا القول في كراهيتك النبيذ، ومخالفتك أهل بلدك؟ قال: هو شيء اخترته لنفسي قلت: فتعيب من شربه؟ قال: لا. قلت: فأنت وما اخترت.

وكان عبد الله بن داود يقول: ما هو عندي وماء الفرات إلا سواء. وكان يقول: أكره إدارة القدح، وأكره نقيع الزبيب، وأكره المعتق. وقال: من أدار القدح لم تجز شهادته.

وشهد رجل عند سوار القاضي، فرد شهادته لأنه كان يشرب النبيذ. فقال:

ولا شهادة لي ما عاش سوار

أما النبيذ فإني غير تاركه

حدث شبابة قال: حدثني غسان بن أبي الصباح الكوفي، عن أبي سلمة يحيى بن دينار، عن أبي المطهر الوراق قال: بينما زيد بن علي في بعض أزقة الكوفة إذ بصر به رجل من الشيعة، فدعاه إلى منزله، فأحضره طعاماً، فتسامعت به الشيعة، فدخلوا عليه حتى غص المجلس بهم، فأكملوا معه، ثم استسقى، فقيل له: أي الشراب نسقيك يا ابن رسول الله؟ قال: أصلبه أو أشده. فأتوه بعس من نبيذ فشرب، ودار العس عليهم فشربوا. ثم قالوا: يا ابن رسول الله لو حدثنا في هذا النبيذ بحديثٍ رويته عن أبيك عن جدك، فإن العلماء يختلفون فيه؟ قال: نعم، حدثني أبي عن جدي أن النبي صلى الله عليه وسلم قال: "التركيب طبقة بني إسرائيل خذو القذة بالقذة، والنعل بالنعل. ألا وإن الله ابتلى بني إسرائيل بنهر طالوت، أحل منه الغرفة والغرفتين، وحرم منه الري، وقد ابتلاكم بهذا النبيذ، أحل منه القليل وحرم منه الكثير". وكان أهل الكوفة يسمون النبيذ "نهر طالوت". وقال فيه شاعرهم:

حمراء صافيةً في لون ياقوت

اشرب على طرب من نهر طالوت

تربي على سحر هاروتٍ وماروت

من كف ساحرة العينين شاطرة

فنار قلبك من تلك التماويت

لها تماوت ألاحظ إذا نظرت

قصة الحارث بن كدة طبيب العرب مع كسرى أنوشروان الفارسي

حكى الفرغاني عن بعض رجاله قال: وفد على كسرى ملك الفرس الحارث بن كدة طبيب العرب، فأذن له بالدخول، فمثل بين يديه فقال له كسرى: من أنت؟ قال: أنا الحارث بن كدة. قال: أعرابي أنت؟ قال: نعم من صميمها. قال: فما صناعتك؟ قال: طبيب. قال: فما تصنع العرب بالطبيب مع جهلها، وضعف عقولها، وقلة قبولها، وسوء غذائها؟ فقال: ذلك أجدر أيها الملك، إذ كانت بهذه الصفة، ان تحتاج إلى من يصلح جهلها، ويقيم عوجها، ويسوس أبدانها، ويعدل أمشاجها. قال الملك: كيف لها أن تعرف ما نزوره عليها، لو عرفت الحق لم تنسب إلى الجهل. قال الحارث: أيها الملك، إن الله جل اسمه قسم العقول بين العباد كما قسم الأرزاق، وأخذ القوم نصيبهم، ففيهم ما في الناس من جاهل وعالم، وعاجز وحازم. قال الملك: فما الذي يحمد من أخلاقهم ويحفظ من مذاهبهم؟ قال الحارث: لهم أنفوس سخية، وقلوب جرية، وعقول صحيحة مرضية، وأحساب نقية، يبرق الكلام من أفواههم مروق السهم العائر، ألين من الماء، وأعذب من الهواء، يطعمون الطعام، ويضربون الهام، وعزهم لا يرام، وجارهم لا يضام، ولا يروع إذا نام، ولا يقرون بفضل أحدٍ من الأنام، ما خلا الملك الهمام، الذي لا يقاس به أحد من الأنام.

قال: فاستوى كسرى جالساً، ثم التفت إلى من حوله؛ فقال: أطرى قومه، فلولا أن تداركه عقله لدم قومه، على أبي أراه راجحاً. ثم أذن له بالجلوس فقال: كيف بصرك بالطب؟ قال: ناهيك. قال: فما أصل الطب؟ قال: ضبط الشفتين، والرفق باليدين. قال: أصبت الدواء، فما الداء؟ قال: إدخال الطعام على الطعام، هو الذي أفنى البرية، وقتل السباع في البرية. قال: أصبت. ثم قال: فما الجمرة التي تلتهب منها الأدوية؟ قال: هي التخمة، إن بقيت في الجوف قتلت، وإن تحللت أسقمت. قال: فما تقول في الحجامة؟ قال: في نقصان الهلال، في يوم صحو لا غيم فيه، والنفس طيبة، والسرور حاضر. قال: فما تقول في الحمام؟ قال: لا تدخل الحمام شعبان، ولا تغش أهلك سكران، ولا تتم بالليل عريان، وارفق بجسمك يكن أرجى لنسلك. قال: فما

تقول في شرب الدواء؟ قال: اجتنب الدواء ما لزمته الصحة، دعه فإذا أحسست بحركة الداء فاحبسه بما يردعه من الدواء؛ فإن البدن بمتلة الأرض، إن أصلحتها عمرت، وإن أفسدتها حربت. قال: فما تقول في الشراب؟ قال: أطيبه أهناه، وأرقه أمراه، ولا تشرب صرفاً يورثك صداعاً ويثر عليك من الداء أنواعاً. قال: فأبي اللحمان أحمد؟ قال: الضأن الفتي وأدسمه أمرؤه، واجتنب أكل القديد المالح، من الجزور والبقر. قال: فما تقول في الفاكهة؟ قال: كلها في إقبال دولتها، وحين أوامها، واتركها إذا أدبرت وتولت وانقضى زمانها. وأفضل الفاكهة الرمان والأترج، وأفضل البقول الهندبا والخس، وأفضل الرياحين الورد والبنفسج. قال: فما تقول في شرب الماء؟ قال: هو حياة البدن، وبه قوته، وينفع ما شرب منه بقدر، وشربه بعد النوم ضرر، وأفضل المياه مياه الأنهار العظام، أبرده وأصفاه. قال: فما طعمه؟ قال: شيء لا يوصف، مشتق من الحياة. قال: فما لونه؟ قال: اشتهبه على الأبصار لونه، يحكي لون كل شيء يكون فيه. قال: فأخبرني عن أصل الإنسان ما هو؟ قال: أصله من حيث يشرب الماء. يعني رأسه.

قال: فما هذا النور الذي تبصر به الأشياء؟ قال: العين مركبة من أشياء، فالبياض شحمة، والسواد ماء. قال: فعلى كم طبع هذا البدن؟ قال: على أربع طبائع: على المرة السوداء، وهي باردة يابسة؛ والمرة الصفراء، وهي حارة يابسة؛ والدم، وهو حار رطب؛ والبلغم، وهو بارد رطب. قال: فلم لم يكن من طبع واحد؟ قال: لو خلق من شيء واحد لم ينحل ولم يمرض ولم يموت. قال: فمن طبعين ما حال الاقتصار عليهما؟ قال: لو اقتصر عليهما لم يجز؛ لأنهما ضدان يقتتلان، ولذلك لم يجز من ثلاثة: موافقان ومخالف. قال: فأجمل لي الحار والبارد في أحرف جامعة. قال: كل حلو حار، وكل حامض بارد، وكل حريف حار، وكل مز معتدل، وفي المر حار وبارد. قال: فما أفضل ما عولج به المرة السوداء؟ قال: بكل حار لين. قال: فالرياح؟ قال: الحقن اللينة والأدهان الحارة اللينة. قال: أفنأمر بالحقن؟ قال: نعم، قرأت في بعض الكتب: أن الحقنة تنقي الجوف، وتكسح الدواء عنه، وعجبا لمن احتقن كيف يهرم أو يعدم الولد، وإن الجاهل كل الجاهل من أكل ما قد عرف مضرته، فيؤثر شهوته على راحة بدنه. قال: فما الحمية؟ قال: الاقتصاد في كل شيء؛ فإنه إذا أكل فوق المقدار ضيق على الروح ساحته.

قال: فما تقول في إبتان النساء؟ قال: كثرة غشيانهم رديء، وإبتان المرأة المولية فإنها كالشن البالي، تسقم بدنك، وتجذب قوتك، ماؤها سم قاتل، ونفسها موت عاجل، تأخذ منك ولا تعطيك. عليك إبتان الشباب، فإن الشابة ملؤها عذب زلال، ومعانقتها غنج ودلال، فوها بارد، وريحها طيب، ورحمها حرج، تزيدك قوة ونشاطاً. قال: فأبي النساء القلب لها أبسط، والعين برؤيتها أنس وأقصد؟ قال: إن أصبتها مديدة القامة، عظيمة الهامة، واسعة الجبين، عريضة الصدر، مليحة النحر، ناهدة الثديين، لطيفة الخصر والقدمين، بيضاء فرعاء، جعدة غضة، حسنة الثغر، تخالها في الظلمة بدرأ زهراً، تبسم عن أقحوان باهر، وإن تكشف تكشف عن بيضة مكنونة، وإن تعانق تعانق ما هو ألين من الزبد، وأحلى من الشهد، وأعذب من القند، وأبرد من الفردوس والخلد، وأذكى ريجاً من الياسمين والورد.

قال: فاستضحك كسرى حتى اختلجت كتفاه، قال: فأبي الأوقات أفضل؟ قال: عند إدبار الليل يكون الجوف أخلى، والنفس أشهى، والرحم أدا. قال: فأبي الأوقات ألد وأطرب؟ قال: نهاراً، يزيدك النظر انتشاراً. قال كسرى: لله درك من أعراي، لقد أعطيت علماً، وخصصت بفتنة وفهم. ثم أمر له بجائزة وكسي، وقضى حوائجه.

وحضر ابن أبي الحوارى بالشام - وكان معروفاً بالرفائق والزهد - مائدة صالح العباسي، مع فقهاء البلد، فحدثني البحري بن عباد، وكان ممن حضر المجلس: أنه بعث إليه بقدر نبيذ فشربه، ثم بعث إليه بثان فامتنع من شربه، فأخذه الناس بألسنتهم، وقالوا: شربت المسكر على أعين هؤلاء وصرت لهم حجة. قال: أحسبكم أردتم أن أكون ممن قال الله تعالى فيه "يستخفون من الناس ولا يستخفون من الله وهو معهم"، فكيف كنت أدعه لكم وأشربه بعين الله.

وقال بعض القضاة لرجل كان يعذله: بلغني أنك تشرب المسكر. فقال: ما أشرب المسكر، ولكني أشرب النبيذ الصلب.

فأين هؤلاء في ترك الرياء والتصنع من رجل سرقت نعله فلم يشتر نعلًا حتى مات، فعوتب في ذلك فقال: أخشى أن أشتري نعلًا فيسرقها أحد فيأثم. وآخر لما نظر إلى أهل عرفات قال: ما أظن الله إلا وقد غفر لهم، لولا أي كنت فيهم.

وآخر أمر له عمر بن الخطاب بكيس، فقال: آخذ الكيس والخيط؟ فقال له عمر: دع الكيس.

ورجل سأل ابن المبارك فقال: إني قاسمت إخوتي، وبيننا مبرز غير مقسوم، وفي بطر، أفترى لي أن ادخله أكثر مما يدخله شركائي؟ وآخر قال: أفطرت البارحة على رغيف وزيتونة ونصف، أو زيتونة وثلاث، أو زيتونة وربيع، أو ما علم الله من زيتونة أخرى. فقال له بعض من حضر المجلس: يا فتى، إنه بلغنا أن من الورع ما يبغضه الله، وأحسبه ورعك هذا.

الأعمش قال: أتاني عبد الله بن سعد فقال لي: ألا تعجب؟ جاعني رجل فقال: دلني على شيء إذا أكلته أمرضني، فقد اتسبأت العلة، وأحببت أن أعتل فأوجر. فقلت له: سل الله العافية، واستدم النعمة؛ فإن من شكر على النعمة كمن صبر على البلية. فألح علي فقلت له: كل السمك، واشرب نبيذ الزبيب، ونم في الشمس، واستمرض الله بمرضك إن شاء الله! هارون بن داود قال: شرب رجل عند خمير نصرايين، فأصبح ميتاً، فاجتمع عليه الناس، وقالوا للخمار: أنت قتلته. قال: لا والله، ولكن قتله استعماله قوله:

وأخرى تداويت منها بها

كتاب اللؤلؤة الثانية في النتف والهدايا والفكاهات والملح

قال الفقيه أبو عمر أحمد بن محمد بن عبد ربه، رحمه الله: قد مضى قولنا في الطعام والشراب وما يتولد منهما، وينسب إليهما. ونحن قائلون بما ألفناه في كتابنا هذا، من الفكاهات والملح التي هي نزهة النفس، وربيع القلب، ومرتع السمع، ومجلب الراحة، ومعدن السرور. وقال النبي صلى الله عليه وسلم: "روحوا القلوب ساعة بعد ساعة، فإن القلوب إذا كلت عميت". وقال علي بن أبي طالب رضوان الله عليه: أجموا هذه القلوب، والتمسوا لها طرف الحكمة، فإنها تمل كما تمل الأبدان. والنفس مؤثرة للهوى، آخذة بالهويين، جانحة إلى اللهو، أمارة بالسوء، مستوطنة للعجز، طالبة للراحة، نافرة عن العمل، فإن أكرهتها أنضيتها، وإن أهملتها أرديتها. ودخل عبد الملك بن عمر بن عبد العزيز على أبيه عمر، وهو ينام نومة الضحى، فقال: يا أبت، أتنام وأصحاب الحوائج راكدون ببابك؟ قال: يا بني، إن نفسي مطيبي، فإن أنضيتها قطعتها، ومن قطع المطي لم يبلغ الغاية. وكان النبي صلى الله عليه وسلم يضحك حتى تبدو نواجذه. وكان محمد بن سيرين يضحك حتى يسيل لعابه. وقال صلى الله عليه وسلم: "لا خير فيمن لا يطرب". وقال: "كل كريم طروب".

وقال هشام بن عبد الملك: أكلت الحلو والحامض حتى ما أجد لواحد منهما طعاماً، وشممت الطيب حتى ما أجد له رائحة، وأتيت النساء حتى ما أبالي امرأة أتيت أم حائطاً، ما وجدت شيئاً ألد إلي من جليس تسقط بيبي وبينه مؤونة التحفظ. وقيل لعمر بن العاصي: ما ألد الأشياء؟ قال: ليخرج من ها هنا من الأحداث. فخرجوا، فقال: ألد الأشياء إسقاط المروءة. وقيل لمسلمة بن عبد الملك: ما ألد الأشياء؟ فقال: هتك الحياء، واتباع الهوى.

وهذه المترلة من إهمال النفس وهتك الحياء قبيحة، كما أن المترلة الأخرى من الغلو في الدين، والتكشف في الهيئة قبيحة أيضاً، وإنما الحمود منها التوسط، وأن يكون لهذا موضعه وهذا موضعه.

وقال مطرف بن عبد الله لولده: "يا بني إن الحسنه بين السيئتين، -يريد بين المحاوزه والتقصير- وخير الأمور أوسطها، وشر السير الحقيقه". وقال النبي صلى الله عليه وسلم: "إن هذا الدين متين فأوغل فيه برفق، فإن المنبت لا أرضاً قطع، ولا ظهراً أبقى".

وفي بعض الكتب المترجمة: إن يحننا وشمعون، كان من الحوارين، وكان يحننا لا يجلس مجلساً إلا ضحك وأضحك من حوله، وكان شمعون لا يجلس مجلساً إلا بكى وأبكى من حوله، فقال شمعون ليحننا: ما أكثر ضحكك، كأنك قد فرغت من عملك؟ فقال له يحننا: ما أكثر بكاءك، كأنك قد يئست من ربك؟ فأوحى الله إلى المسيح: أن أحب السيرتين إلي سيرة يحننا.

وفي بعض الكتب أيضاً أن عيسى بن مريم لقي يحيى بن زكريا فتبسم إليه يحيى، فقال له عيسى: إنك لتبسم تبسم آمن! فقال له يحيى: إنك لتعبس عبوس قانط! فأوحى الله إلى عيسى: "إن الذي يفعل يحيى أحب إلي".

وقال النبي صلى الله عليه وسلم دخل نعيمان الجنة ضاحكاً، لأنه كان يضحكني". وذلك أن النبي صلى الله عليه وسلم دخل عليه وهو أرمداً، فوجده وهو يأكل تمراً، فقال له: أتاأكل تمراً وأنت أرمداً؟ فقال: إنما أكل من الجانب الآخر. فضحك النبي صلى الله عليه وسلم حتى بدت نواجذه.

وكانت سويداء لبعض الأنصار تختلف على عائشة، فتلعب بين يديها وتضحكها، وربما دخل النبي صلى الله عليه وسلم على عائشة فيجدها عندها فيضحكان جميعاً، ثم إن النبي صلى الله عليه وسلم فقدها، فقال: يا عائشة، ما فعلت السويداء؟ قالت له: إنها مريضة. فجاءها النبي صلى الله عليه وسلم يعودها، فوجدها في الموت، فقال لأهلها: إذا توفيت فأذنوني. فلما توفيت آذنوني. فشدها وصلى عليها، وقال: "اللهم إنها كانت حريصة على

أن تضحكني، فأضحكها فرحاً".

وقيل لأبي نواس: قد بعثوا إلى أبي عبيدة والأصمعي ليجمعوا بينهما، فقال؛ أما أبو عبيدة فإن خلوه وسفره قرأ عليهم أساطير الأولين والآخرين، وأما الأصمعي فلبيل في قفص يطربهم بصفيهه.

قال ابن إسحاق: وقد طرب الصالحون وضحكوا ومزحوا. وإذا مدحت العرب رجلاً قالوا: هو ضحوك السن، بسام الهشيات، هش إلى الضيف. وإذا ذمته قالت: هو عبوس الوجه، جهم الحيا، كرية المنظر، حامض الوجنة كأنما وجهه بالخل منضوح، وكأنما أسقط خيشومه بالخردل.

وكتب يحيى بن خالد إلى الفضل ابنه وهو بخراسان: "يا بني، لا تغفل نصيبك من الكسل".

وهذا حرف جامع لما قصدناه من هذا المعنى، لأن بالكسل تكون الراحة، وبالراحة يثوب النشاط والنشاط يصفو الذهن، ويصدق الحس ويكثر الصواب.

قال الشاعر:

إنما للناس منا

حسن خلق ومزاح

ولنا ما كان فينا

من فساد وصلاح

الميثم بن عدي قال: رأيت هشام بن عروة قد اجتمع إليه أصحاب الحديث يسألونه، فقال لهم: يا قوم، أما ما كان عندي من الحلال والحرام والسنة فإني لا أستحل أن أمنعكموه، وأما ملحي فلا أعطيكموها ولا كرامة.

باب من المفاكهاات

حديث عباس بن الأحنف

حدث أبو العباس النحوي المعروف بالمررد قال: حدثنا محمد بن عامر الحنفي، وكان من سادات بكر بن وائل، وأدركته شيخاً كبيراً مملقاً، وكان إذا أفاد على إملاقه شيئاً جاد به، وقد كان قديماً ولي شرطة البصرة، فحدثني هذا الحديث الذي نذكره. ووقع إلي من غير ناحيته، ولا أذكر ما بينهما من الزيادة والنقصان، إلا أن معاني الحديث مجموعة فيما أذكر لك:

ذكر أن فتيناً كانوا مجتمعين في نظام واحد، كلهم ابن نعمة، وكلهم قد شرد عن أهله، وقنع بأصحابه، فذكر ذاكر منهم قال: كنا قد اكرتينا داراً شارعاً على أحد طرق بغداد المعمورة بالناس، فكنا نفلس أحياناً ونوسر أحياناً، على مقدار ما يمكن الواحد من أهله، وكنا لا نستكثر أن تقع مؤونتنا على واحد منا إذا أمكنه، ويبقى الواحد منا لا يقدر على شيء فيقوم به أصحابه الدهر الأطول. وكنا إذا أيسرنا أكلنا من الطعام ألبينه، ودعونا الملهين والملهيات. وكان جلوسنا في أسفل الدار، فإذا عدنا الطرب فمجلسنا غرفة لنا تتمتع منها بالنظر إلى الناس، وكنا لا نخل بالنبيذ في عسر ولا يسر. فإنا لكذلك يوماً إذا بفتى يستأذن علينا، فقلنا له: اصعد. فإذا رجل نظيف حلو الوجه، سري الهيئة، ينبئ رواؤه على أنه من أبناء النعم، فأقبل علينا فقال:

إني سمعت مجتمعكم، وحسن منادمتكم، وصحة ألفتكم، حتى كأنكم أدرجتم جميعاً في قالب واحد، فأحببت أن أكون واحداً منكم، فلا تحتشموا. قال: وصادف ذلك منا إقتاراً من القوت، وكثرة من النبيذ. وقد كان قال لغلام له أول ما يأذنون لي أن أكون كأحدكم: هات ما عندك، فغاب الغلام عنا غير كثير، ثم إذا هو قد أتانا بسلة خيزران، فيها طعام المطبخ: من جدي، ودجاج، وفراغ، ورقاق، وأشنان، ومحلب، وأحلة، فأصبنا من ذلك ثم أفضنا في شرابنا؛ وانبسط الرجل؛ فإذا أحلى خلق الله إذا حدث؛ وأحسنهم استماعاً إذا حدث، وأمسكهم عن ملاحاة إذا حولف. ثم أفضينا منه إلى أكرم محالفة، وأجمل مساعدة. وكنا ربما امتحناه بأن ندعوه إلى الشيء الذي نعلم أنه يكرهه، فيظهر لنا أنه لا يحب غيره، ويرى ذلك في إشراق وجهه، فكنا نغني به عن حسن الغناء، وتندارس أخباره وآدابه، فشغلنا ذلك عن تعرف اسمه ونسبه، فلم يكن منا إلا تعرف الكنية، فإنا سألناه عنها فقال: "أبو الفضل".

فقال لنا يوماً بعد اتصال الأنس: ألا أخبركم كيف عرفتمكم؟ قلنا: نعم إنا لنحب ذلك. قال: أحببت جارية في جواركم، وكانت سيدتها ذات حبايب،

فكنت أجلس لها في الطريق أنتمس اجتيازها فأراها، حتى أخلقني الجلوس على الطريق، ورأيت غرفتكم هذه، فسألت عن خيرها، فخبرت عن اثتلافكم ومساعدة بعضكم بعضاً، فكان الدحول فيما أنتم فيه أثر عندي من الجارية. فسألناه عنها فخيرنا، فقلنا له: فإننا نخدعها حتى نظفرك بها. فقال: يا إخواني إني والله، على ما ترون مني من شدة الشغف والكلف بها، ما قدرت فيها حراماً قط، ولا تقديري إلا مطاولتها ومصابرتها إلى أن يمن الله بثروة فأشترتها. فأقام معنا شهرين ونحن على غاية الاحتياط بقربه، والسرور بصحبته، إلى أن احتلس منا، فنالنا بفراقه ثكل ممض، ولوعة مؤلمة، ولم نعرف له منزلاً نلتسمه فيه. ففكر علينا من العيش ما كان طاب لنا به، وقبح عندنا ما كان حسن بقربه وجعلنا لا نرى سروراً ولا غمماً إذا ذكرنا؛ لاتصال السرور بصحبته وحضوره، والغم بمفارقتة، فكنا فيه كما قال القائل:

وشر، فما أنفك منهم على ذكر

يذكرنيهم كل خير رأيت

فغاب عنا زهاء عشرين يوماً، ثم بينا نحن مجتازون يوماً من الرصافة إذا به قد طلع في مركب نبيل، وزى جليل، فحيث بصر بنا انحط عن دابته، وانحط غلامانه، ثم قال: يا إخواني، والله ما هنأني عيش بعدكم، ولست أماطلكم بخبري حتى آتي المتزل، ولكن ميلوا بنا إلى المسجد. فملنا معه، فقال: أعرفكم أولاً بنفسي، أنا العباس بن الأحنف، وكان من خبري بعدكم أي خرجت إلى متزلي من عندكم، فإذا المسودة محيطة بي، فمضي بي إلى دار أمير المؤمنين، فصرت إلى يحيى بن خالد، فقال لي: ويحك يا عباس، إنما اخترتك من ظرفاء الشعراء لقرب مأخذك، وحسن تأتيك، وإن الذي ندبتك له من شأنك، وقد عرفت خطرات الخلفاء، وإني أخبرك أن "ماردة" هي الغالبة على أمير المؤمنين، وأنه جرى بينهما عتب، فهي بدالة المعشوق تأتي أن تعتذر، وهو بعز الخلافة وشرف الملك يأبي ذلك، وقد رمت الأمر من قبلها فأعياي، وهو أحرى أن تستعزه الصبابة، فقل شعراً يسهل عليه هذه السبيل. ففرضي كلامه، ثم دعاه أمير المؤمنين فصار إليه، وأعطيت قرطاساً ودواة، فاعتراي الزمع، وأذهب عني ما أريد الاستحاث، فتعذرت علي كل عروض، ونفرت عني كل قافية، ثم انفتح لي شيء والرسول تعنتني، فجاءتني أربعة أبيات رصبتها، وقعت صحيحة المعنى، سهلة الألفاظ، ملائمة لما طلب مني، فقلت لأحد الرسل: ابغ الوزير أي قلت أربعة أبيات، فإن كان فيها مقنع وجهت بها. فرجع إلي الرسول بأن هاتما، ففي أقل منها مقنع. وفي ذهاب الرسول وردوعه قلت بيتين ثم غير ذلك الروي، فكتبت الأبيات الأربعة في صدر الرقعة، وعقبت بالبيتين، فقلت:

وكلاهما متوجد متعتب

العاشقان كلاهما متغضب

وكلاهما مما يعالج متعب

صدت مغاضبة وصد مغاضباً

إن المتيم قلما يتجنب

راجع أحببتك الذي هجرتهم

دب السلو فعز منه المطلب

إن التجنب إن تطاول منكما

ثم كتبت تحت ذلك:

تكون بين الهجر والصرم

لا بد للعاشق من وقفة

راجع من يهوى على رغم

حتى إذا الهجر تمادى به

ثم وجهت بالكتاب إلى يحيى بن خالد، فدفعه إلى الرشيد، فقال: والله ما رأيت شعراً أشبه بما نحن فيه من هذا، والله لكأني قصدت به. فقال له يحيى: فأنت والله يا أمير المؤمنين المقصود به، هذا يقوله العباس بن الأحنف في هذه القصة. فلما قرأ البيتين وأفضى إلى قوله:

راجع من يهوى على رغم

استغرب ضحكاً حتى سمعت ضحكته، ثم قال: إي والله، أراجع على رغم، يا غلام هات نعلي. فنهض وأذهله السرور عن أن يأمر لي بشيء، فدعاني يحيى، وقال: إن شعرك قد وقع بغاية الموافقة، وأذهل أمير المؤمنين السرور عن أن يأمر لك بشيء. قلت: لكن هذا الخبر ما قوع مني بغاية الموافقة. ثم جاء غلام فساره فنهض وثبت مكاني، ثم نمضه بنهوضه، فقال لي: يا عباس، أمسيت أملاً الناس، أتدري ما سارني به هذا الرسول؟ قلت: لا. وقال:

ذكر لي أن "ماردة" تلقت أمير المؤمنين لما علمت بمجيئه ثم قالت له: يا أمير المؤمنين، كيف كان هذا؟ فأعطاها الشعر وقال: هذا الذي أتى بي إليك. قالت: فمن يقوله: عباس بن الأحنف. قالت: فبم كوفعي؟ قال: ما فعلت شيئاً بعد. قالت: إذاً والله لا أجلس حتى يكافأ. قال: فأمر المؤمنين قائم لقيامها، وأنا قائم لقيام أمير المؤمنين، وهما يتناظران في صلتك، فهذا كله لك. قلت: ما لي من هذا إلا الصلة. ثم قال: هذا أحسن من شعرك. قال: فأمر لي أمير المؤمنين بمال كثير، وأمرت لي ماردة بمال دونه. وأمر لي الوزير بمال دون ما أمرت به، وحملت على ما ترون من الظهر. ثم قال الوزير: من تمام اليد عندي ألا تخرج من الدار حتى نؤثل لك بهذا المال ضياعاً. فاشترت لي ضياع بعشرين ألف درهم، ودفع إلي بقية المال. فهذا الخبر الذي عاقني عنكم، فهللوا حتى أقاسمكم الضياع، وأفرق فيكم المال. قلنا له: هنأك الله ما لك، فكل من يرجع إلى نعمة من أبيه وأهله. فأقسم وأقسمنا، قال: فأنتم فيه أسوي. فقلنا: أما هذا فنعم، قال: فامضوا بنا إلى الجارية حتى نشترها. فمشينا إلى صاحبها وكانت جارية جميلة حلوة، لا تحسن شيئاً، أكثر ما فيها ظرف اللسان، وتأدية الرسائل، وكانت تساوي على وجهها خمسين ومائة دينار. فلما رأى مولاهما ميل المشتري استام بها خمسمائة، فأجابه بالعجب فحط مائة، ثم حط مائة. فقال العباس يا فتيان، إني والله احتشم أن أقول بعد ما قلتم، ولكنها حاجة في نفسي بما يتم سروري، فإن ساعدتم فعلت. قلنا له: قل. قال: هذه الجارية أنا أعينها منذ دهر، وأريد إيثار نفسي بها، فأكره أن تنظر إلي بعين من قد ماكس في ثمنها، دعوني أعطه بها خمسمائة دينار، كما سأل. قلنا له: وإنه قد حط مائتين، قال: وإن فعل. قال: فصادفت من مولاهما رجلاً حراً، فأخذ ثلاثمائة وجعلها بالمائتين. فما زال إلينا محسناً حتى فرق الموت بيننا.

حدث المجرّد

قال إسحاق بن إبراهيم: قال لي ابن وهب الشاعر: والله لأحدثنك حديثاً ما سمعه مني أحد قط، وهو بأمانة أن يسمعه أحد منك ما دمت حياً. قلت: "إننا عرضنا الأمانة على السموات والأرض والجبال فأبين أن يحملنها وأشفقن منها وحملها الإنسان إنه كان ظلوماً جهولاً". قال: يا أبا محمد، إنه حديث ما طن في أذنك أعجب منه. قلت: كم هذا التعقيد بالأمانة؟ أخذه على ما أحببت. قال:

بينما أنا بسوق الكيل بمكة بعد أيام الموسم، إذا أنا بامرأة من نساء مكة، معها صبي يبكي، وهي تسكته فيأبى أن يسكت، فسفرت وأخرت من فيها كسرة درهم، فدفعته إلى الصبي، فسكت؛ فإذا وجهه رقيق كأنه كوكب دري، وإذا شكله رطب، ولسان فصيح، فلما رأته أحد النظر إليها قالت: اتبعني. فقالت: إن شريطي الحلال. قالت: ارجع في حرامك، ومن يريدك على حرام؟ فحججت وغلبتني نفسي على رأيي، فتبعته فدخلت زقاق العطارين، فصعدت درجة وقالت: اصعد. فصعدت، فقال: أنا مشغولة وزوجي رجل من بني مخزوم، وأنا امرأة من زهرة، ولكن عندي حر ضيق عليه وجه أحسن من العافية، في مثل خلق ابن سريج، وترنم معبد، وتيه ابن عائشة. أجمع لك هذا كله في بدن واحد بأصفر سليم! قلت: وما أصفر سليم؟ قالت: بدينار واحد يومك وليلتك، فإذا قمت جعلت الدينار وظيفة وتزويجاً صحيحاً. قلت: فذلك لك إن اجتمع لي ما ذكرت. قال: فصفقت بيدها إلى جاريته فاستحابت لها. قالت: قولي لفلانة: البسي ثيابك وعجلي، وبجياتي لا تمسي غمراً، ولا طيباً، فحسبنا بدلالك، وعطرك. قال: فإذا جارية أقبلت ما أحسب الشمس وقعت عليها، كأنها دمية، فسلمت وقعدت كالخجلة. فقالت لها الأولى: إن هذا الذي ذكرت لك له، وهو في هذه الهيئة التي ترين. قالت: حياه الله، وقرب داره. قال: لا، والله يا بنية، لقد أنسيتها. ثم نظرت إلي فغمزتي، وقالت: أتدري ما شريطها؟ قلت: لا. أقول لك بحضرتها ما إخالها تكرهه، هي والله أفتك من عمرو بن معد يكرب، وأشجع من ربيعة من مكدم، ولست بواصل إليها حتى تسكر وتغلب على عقلها، فإذا بلغت تلك الحال ففيها مطمع. فقلت: ما أهون هذا وأسهله. قالت الجارية: وتركت شيئاً أيضاً. قالت: نعم والله، اعلم أنك لن تصل إليها حتى تتجرد لها فتراك مجرداً، مقبلاً ومدبراً. قلت: وهذا أيضاً أفعله. قالت: هلم ديناراً. فأخرجت ديناراً فنبذته إليها، فصفقت صفقة أخرى فأجابتها امرأة، قالت: قولي لأبي الحسن وأبي الحسين: هلما الساعة. فقلت في نفسي: أبو الحسن وأبو الحسين هو علي بن أبي طالب. قال: فإذا شيخان خاضبان نبيلان قد أقبلا فصعدا، فقصت المرأة عليهما القصة، فخطب أحدهما وأجاب الآخر. وأقررت بالتزويج وأقرت المرأة، فدعوا بالبركة، ثم نهضا فاستحييت أن أحمل المرأة شيئاً من المؤونة، فأخرجت ديناراً آخر فدفعته إليها. وقلت: اجعلي هذا لطيبك. قالت: يا أخي، ليست ممن يمس طيباً لرجل، إنما أتطيب نفسي إذا خلوت. قلت: فاجعلي هذا الغدائنا اليوم. قالت: أما هذا فنعم. فنهضت الجارية، وأمرت بإصلاح ما يحتاج إليه، ثم عادت

وتغدينا، وجاءت بدواة وقضيب، وقعدت تجاهي، ودعت بنبيد، فأعدته واندفعت تغني بصوت لم أسمع مثله قط، فإني ألفت بيوت القنان نحواً من ثلاثين سنة، فما سمعت مثل ترنمها قط، فكدت أحن سروراً وطرباً، فجعلت أريغ أن تدنو مني فتأبى، إلى أن غنت بشعر لم أعرفه، وهو:

راحوا يصيدون الطباء، وإنني

لأرى تصيدها علي حراما

أعزز علي بأن أروع شبيهها

أو أن تذوق على يدي حماما

فقلت: جعلت فداك، من تغني بهذا؟ قالت: اشترك فيه جماعة، هو لمعبد، وتغني به ابن سريح وابن عائشة. فلما نعي إلينا النهار وجاءت المغرب، تغنت بصوت لم أفهمه، للشقاء الذي كتب علي، فقالت:

كأني بالمجرد قد علتة

نعال القوم أو خشب السواري

قلت: جعلت فداك، ما أفهم هذا البيت، ولا أحسبه مما يتغني به. قال: أنا أول من تغني به. قلت: فإنما هو بيت عائر لا صاحب له. قالت: معه آخر ليس هذا وقته، وهو آخر ما أتغني به. قال: فجعلت لا أنازعها في شيء إجلالاً لها. فلما أمسينا وصلينا المغرب، وجاءت العشاء الآخرة، وضعت القضيب، فقممت وصليت العشاء وما أدري كم صليت عجلة وشوقاً، فلما سلمت قلت: تأذنين جعلت فداك أشق ثيابي عجلة للخروج عنها، فتجردت وقيمت بين يديها مكفراً لها. قالت: امض إلى زاوية البيت، وأقبل وأدير حتى أراك مقبلاً مديراً. قال: وإذا حصير في الغرفة عليه طريق إلى زاوية البيت، فأحطرت عليه، وإذا تحته حرق إلى السوق، فإذا أنا في السوق قائماً متجرداً منعظاً، وإذا الشيخان الشاهدان قد أعدا لي نعالها، وكمننا لي في ناحية، فلما هبطت عليهما بادراً إلي فقطعا نعالها على قفائي، واستعانا بأهل السوق، فضربت والله يا أبا محمد حتى نسيت اسمي، فينا أنا أضرب بنعال مخصوفة وأيد شديدة، فإذا صوت من فوق البيت يغني به، وهو:

ولو علم المجرّد ما أردنا

لخاض لنا المجرّد بالصحاري

فقلت في نفسي: هذا والله وقت هذا البيت، فنجوت إلى رحلي، وما في عظم صحيح، فلما انقضى حجنا وانصرفنا جعلت طريقي على ذلك الموضع فسألت عنها فقيل لي: إنها امرأة من آل أبي لهب. فقلت: لعننا الله ولعن الذي هي منه.

حديث صاحبة الزب

قال إسحاق: حدثني أبو السمراء قال: حججت فبدأت بالمدينة، فإني لمنصرف من قبر رسول الله صلى الله عليه وسلم إذا امرأة بفناء المسجد تتبع من طرائف المدينة، وإذا هي في ناحية وحدها، قد قام عنها من كان يجلس إليها، وإذا هي ترجع بصوت خفي شجي، فالتفت فرأيتها، فقالت: هل من حاجة؟ قلت: تزيدني في السماع. قالت: وأنت قائم؟ لو قعدت! فقعدت كالخجل فقالت: كيف علمك بالغناء؟ قلت: علم لا أحمدته. قالت: فعلام أنفخ بلا نار؟ وما منعك من معرفته، فوالله إنه لسحوري وفطوري. قلت: وكيف وضعته بهذا الموضع العالي؟ قالت: يا غير، وله موضع يوضع به وهو من علوه في السماء الشاهقة؟ قلت: وكل هؤلاء النسوة التي أرى على مثل رأيك وفي مثل حالك؟ قالت: فيهن وفيهن، ولي من بينهن قصة. قلت: وما هي؟ قالت: كنت أيام شبابي وأنا في مثل هذه الحلقة التي من القبح والدمامة والأدمة، وكنت أشتهي النيك شهوة شديدة، وكان زوجي شاباً وضياً، وكان لا ينتشر علي حتى أتخفه وأطيبه وأسكره، فأصر ذلك بي، وكان علقته امرأة قصار تجاورني، فزاد ذلك في غمي، فشكوت إلى جارة لي ما أنا فيه وغلبة امرأة القصار على زوجي فقالت: أدلك على ما ينهضه عليك ويرد قلبه إليك؟ قلت: وا بأبي أنت، إذا تكوني أعظم الخلق منة علي. قالت: اختلفي إلي "بجمع" مولى آل الزبير فإنه حسن الغناء، فاعلقي من أغانيه أصواتاً عشرة، ثم غني بما زوجك فإنه ينيكك بجوارحه كلها. قالت: فألظظت بجمع فلم أفارقه حتى رضيتي حذاقة ومعرفة، فكنت إذا أقبل زوجي من مهنته اضطجعت فرفعت عقيرتي، فإذا غنيت صوتاً بت علي زب، وإن غنيت صوتين بت علي زبين، وإن ثلاثة فتلاثة.

فكنا كندمانى جذيمة حقبة

قال: فضحكت والله حتى أمسكت على بطني وقلت: يا هذه، ما أظن الله خلق مثلك. قالت: اخفض من صوتك. قلت: ما كان أعظم منة صاحبة الشوري عليك. قالت: حسي بما منة، وحسبك بي شاكرة. قلت: ففي قلبك من تلك اللوعة شيء؟ قالت لذع في الفؤاد، فأما تلك الغلظة التي كانت تنسيني الفريضة وتقطعني عن النافلة، فقد ذهب تسعة أعشارها. قال؛ فوقفت عليها وقلت: ألك حاجة أن أرم بعض حالك؟ قالت: أنا في قانت من العيش. فلما نهضت لأقوم قالت: على رسلك، لا تنصرف خائباً. ثم ترنمت بصوت تخفيه من جاراتها:

بها كبداً ليست بذات قروح

ومن يشتري ذاعرة بصحيح

ولي كبد مقروحة من يبيعي

أبى الناس أن يرضوا بها يشترونها

ثم قالت: انطلق لطبتك، صحبتك السلامة.

خبر الهاشمي مع المضحك

وحدث أبو عبد الله بن عبد البر المزني بمصر، قال: حدثني إسحاق بن إبراهيم الموصلي، عن الهيثم بن عدي، قال: كان بالمدينة رجل من بني هاشم، وكان له قيتان يقال لإحدهما جؤذر، وللأخرى رشأ، وكان يعجبه السماع، وكان بالمدينة مضحك يغيب مجالس المتطرفين، ومواقع المهين، فأرسل إليه الهاشمي ذات يوم ليضحك منه، فلما جاءه قال له المضحك: إنك أصلحك الله في لذتك، ولا لذة لي. قال له: وما لذتك؟ قال تحضري نبياً فإنه لا يطيب لي عيش إلا به. فأمر الهاشمي بإحضار نبيذ، وأمر أن يطرح فيه سكر العشر، فلما شربه المضحك تحرك عليه بطنه وتناوم الهاشمي وغمز جواريه عليه، فلما ضاق عليه الأمر واضطر إلى التبرز قال في نفسه: ما أظن هاتين المغنيتين إلا يمانيتين، وأهل اليمن يسمون الكنف المراحيض. قال لهما: يا حبيبي أين المرحاض؟ قالت إحدهما لصاحبتها: ما يقول؟ قالت: يقول: غنياني:

أهيم من الحب في كل واد

رحضت فؤادي فعنيتني

فاندفعتا فغنتاه فقال في نفسه: لم تفهما والله عني، أنظهما شاميتين، وأهل الشام يسمونها المذاهب. قال: يا حبيبي، أين المذاهب؟ فقالت إحدهما لصاحبتها: ما يقول؟ قالت: يسأل أن يغني:

ولم يك حقاً كل هذا التجنب

ذهبت من الهجران في كل مذهب

فغنتاه الصوت فقال في نفسه: لم يفهما عني، ما أظنهما إلا مدينتين، وأهل المدينة يسمونها بيت الخلاء. قال: يا حبيبي، أين بيت الخلاء؟ قالت إحدهما لصاحبتها: ما يقول؟ قالت: يسأل أن يغني:

من بطن مكة والتسويد والحرنا

خلى علي جوى الأحزان إذ ظعنا

قال: فغنتاه فقال في نفسه: إنا لله وإنا إليه راجعون، ما أحسبهما الفاسقتين إلا بصريتين، وأهل البصرة يسمونها الحشوش. قال: يا حبيبي أين بيت الحشوش؟ قالت إحدهما للأخرى: ويملك ما يقول؟ قالت: يسأل أن يغني:

فمناها فالمنزل المعمور

أوحش الحشان فالربع منها

فرفعا عقيرتيهما تغنيانه فقال: ما أراهما إلا كوفيتين، وأهل الكوفة يسمونها الكنف. فقال: يا حبيبي، أين يكون الكنيف، قالت إحدهما للأخرى: يعيش سيدنا، هل رأيت أكثر اقتراحاً من هذا الرجل أفهميني ما يقول؟ قالت: يقول غنياني:

فشيبيني وما اكتهلا

تكفني الهوى طفلاً

قال: فغلبه بطنه، وعلم أنهما تولعان به، والهاشمي يتقطع ضحكاً، فقال: كذبتما يا زانيتان، ولكني أعلمكما ما هو؟ فرفع ثيابه فسلح عليهما، فانتبه الهاشمي فقال: سبحان الله، أتحدث على وطائي؟ فقال: الذي خرج من جوفي أعز علي من وطائك، إن هاتين القبيحتين حسبنا أما أسأل عن الحش للضراط، فأردت أن أعلمهما ما هو؟

يوم دارة جلجل

قال الفرزدق: وأصابنا بالبصرة ليلاً مطر جود، فلما أصبحت ركبت بغلة لي وسرت إلى المربد، فإذا أنا بآثار دواب قد خرجت إلى ناحية البرية، فظننت أنهم قوم خرجوا للترهة، وهم حلقاء أن تكون معهم سفرة، فاتبع آثارهم حتى انتهيت إلى بغال عليها رحائل، موقوفة على غدير، فأسرعت إلى الغدير، فإذا فيه نوسة مستتعات في الماء، فقلت: لم أر كاليوم قط، ولا يوم دارة جلجل. وانصرفت مستحياً، فناديني: يا صاحب البغلة، ارجع نسألك عن شيء. فرجعت إليهن فقعدن في الماء إلى حلو قهن، ثم قلن: بالله إلا ما أخبرتنا ما كان من حديث دارة جلجل. قلت: حدثني جدي، وأنا يومئذ غلام حافظ، أن امرأة القيس كان عاشقاً لابنة عمه، ويقال لها: عنيزة، وأنه طلبها زماناً فلم يصل إليها، حتى كان يوم الغدير، وهو يوم دارة جلجل. وذلك أن الحمي تحمّلوا، فتقدم الرجال، وتخلف النساء والخدم والثقل. فلما رأى امرؤ القيس تخلف بعد ما سار مع رجال قومه غلوة، فكن في غيابه من الأرض، حتى مر به النساء وفيهن عنيزة، فلما وردن الغدير قلن: لو نزلنا فاغتسلنا في هذا الغدير، فيذهب عنا بعض الكلال! فترن في الغدير، ونحين العبيد ثم تجردن فوقهن فيه، فأتاهن امرؤ القيس فأخذ ثيابهن، فجمعها وقد عليها، وقال: والله لا أعطي جارية منكن ثوباً، ولو قعدت في الغدير يومها، حتى تخرج متجردة فتأخذ ثوباً. فأبين ذلك عليه حتى تعالى النهار، وحشين أن يقصرن عن المنزل الذي يردنه فخرجن جميعاً، غير عنيزة: فناشدته الله أن يطرح ثوبها فأبى، فخرجت فنظر إليها مقبلة ومدبرة، وأقبلن عليه، فقلن له: إنك عذبتنا وحبستنا وأجعتنا. قال: فإن نخرت لكن ناقتي أتأكلن منها؟ قلن: نعم. فجرد سيفه فعرقيها ونحرها ثم كسطنها، وجمع الخدم حطباً كثيراً، فأجحن ناراً عظيمة فجعل يقطع أطايبها ويلقي على الجمر، ويأكلن ويأكل معهن، ويشرب من فضلة كانت معه ويسقيهن، وينبذ إلى العبيد من الكباب. فلما أرادوا الرحيل قالت إحداهن: أنا أحمل طنفتي. وقالت الأخرى: أنا أحمل رحله وأنساعه، فتنقسمن متاعه وزاده. وبقيت عنيزة لم تحمل له شيئاً. فقال لها: يا ابنة الكرام، لا بد أن تحمليني معك، فإني لا أطيق المشي. فحملته على غارب بعيرها، فكان يجنح إليها فيدخل رأسه في صدرها فيقبلها، فإذا امتنعت مال حدجها، فتقول: قعرت بعيري فانزل! ففي ذلك يقول:

فيا عجا من رحلها المتحمل

وشحم كهداب الدمقس المفتل

فقال لك الويلات إنك مرجلي

قعرت بعيري يا امرأ القيس فانزل

ولا تبعديني من جناك المعلل

ويوم عقرت للعداري مطيتي

فظل العداري يرتمين بلحمها

ويوم دخلت الخدر خدر عنيزة

تقول وقد مال الغبيط بنا معاً

فقلت لها سيرني وأرخي زمامه

وكان الفرزدق أروى الناس لأخبار امرئ القيس وأشعاره. وذلك أن امرأ القيس رأى من أبيه جفوة، فلحق بعمه شرحبيل بن الحارث، وكان مسترضعاً في بني دارم، فأقام فيهم، وهم رهط الفرزدق.

خبر دعبل وصريع الغواني

حدثنا أبو سويد بن أبي عتاهية، عن دعبل بن علي الشاعر، قال: بينا أنا ذات يوم بباب الكرخ وأنا سائر، وقد احتوى الفكر على قلبي في أبيات شعري، قد نطق بها اللسان، على غير اعتقاد جنان، فقلت:

دموع عيني لها انبساط

ونوم عيني به انقباض

فإذا أنا بجارية رائعة الجمال فاتق الكمال، حوراء الطرف، يقصر عن نعتها الوصف؛ لها وجه زاهر، ونور باهر، فهي كما قال الشاعر:

كأنما أفرغت في قشر لؤلؤة

في كل جراحة منها لها قمر

وهي تسمع قولي، فاعترضت فقالت:

هذا قليل لمن دهنه

بلحطها الأعين المراض

فأجبتها فقلت:

فهل لمولاي عطف قلب

أو للذي في الحشا انقراض

فأجابتي، فقالت:

إن كنت تبغي الوداد منا

فالود في ديننا قراض

قال دعبل: فلا أعلمني خاطبت جارية تقطع الأنفاس بعذوبة ألفاظها، وتختلس الأرواح ببراعة منطقتها، وتذهل الألباب برحيم نغمتها؛ مع ملاحظة حد، ورشاقة قد، وكمال عقل، وبراعة شكل، واعتدال خلق. فحار البصر. وذهب اللب، وجل الخطب، وتلجلج اللسان، وتعلقت الرجلان، وما ظنك بالحلفاء إذ دنت من النار. ثم تاب إلي عقلي، وراجعني حلمي، فذكرت قول بشار:

لا يمنعك من مخدرة

قول تغلظه وإن جرحا

عسر النساء إلى مياسرة

والصعب يمكن بعدما جمحا

هذا لمن حاول ما دون الطمع فيه اليأس منه، فكيف بمن وعد قبل المسألة، وبذل قبل الطلبة. فقلت مسمعاً لها:

أترى الزمان يسرنا بتلاق

ويضم مشتاقاً إلى مشتاق

فقلت مجيبة لي في أسرع من نفس:

ما للزمان يقال فيه وإنما

أنت الزمان فسرنا بتلاق

قال دعبل: فلحظتها فتبعني وذلك في أيام إملاقي، فقلت: ما لي إلا مترل مسلم صريع الغواني، فسرت إلى بابه، فاستوقفتها وناديتها، فخرج، فقلت له: أجمل لك الخبر: معي وجه صبيح يعدل الدنيا بما فيها، وقد حصل علي ضيقة وعسر. فقال: لقد شكوت ما كدت أبادرك بشكواه، ايت بها. فلما دخلت قال: لا والله ما أملك غير هذا المندبل. فقلت: هو البغية فناولنيه. فقال: خذه لا بارك الله لك فيه. فأخذته، فبعته بدينار عين وكسر، فاشترت لحماً وخبزاً ونيبداً، وصرت غليه، فإذا هما يتساقطان حديثاً كأنه قطع الروض المطور. قال: ما صنعت؟ فأخبرته. قال: كيف يصلح طعام وشراب وجلوس مع وجه نظيف بلا نقل ولا ريجان ولا طيب؟ اذهب فألطف لتمام ما جئت به. قال: فخرجت فاضطربت في ذلك حتى أتيت به، فألفيت باب الدار مفتوحاً، فدخلت فإذا لا أرى لهما ولا لشيء مما أتيت به أثراً، فسقط في يدي وقلت: أرى صاحب الربع أخذهما. فبقيت متلهفاً حائراً أرحم الظنون، وأجبل الفكر سائر يومي. فلما أمسيت، قلت يا نفسي: أفلا أدور في البيت لعل الطلب يوقني على أثر؟ ففعلت، فوقفت على باب سرداب له، وإذا هما قد هبطا فيه، وأنزلا معهما جميع ما يحتاجان إليه، فأكلا وشربا وتنعما. فلما أحسستهما دليت رأسي، ثم ناديت: مسلم، ويلك! فلم يجيني حتى ناديت ثلاثاً. فكان من إجابته لي أن غرد بصوت يقول فيه:

بت في درعها وبات رفيقي

جنب القلب طاهر الأطراف

ثم قال دعبل: ويلك! من يقول هذا؟ قلت:

من له في حرامه ألف قرن

قد أنافت على علو مناف

قال: فضحكا ثم سكتا، واستجلبت كلامهما فلم يجيباني، وأخذا في لذتكما، وبت بليلة يقصر عمر الدهر عن ساعة منها طولاً وغماً وهمماً، حتى إذا أصبحت ولم أكد خرج إلي مسلم، فجعلت أؤنبه، فقال لي: يا صفيق الوجه، متزلي ومندبلي وطعامي وشرابي، فما شأنك في الوسط؟ قلت له: حق القيادة والفضول والله لا غير! فولى وجهه إليها، وقال: بحياتي إلا أعطيتك حق قيادته وفضوله. فقالت: أما حق قيادته فعرك أذنه، وأما حق فضوله فصنع قفاه. فاستقبلني مسلم فعرك أذني وصفعني. فقلت: ما هذا؟ فقال: جرى الحكم عليك بما جرى لك من العذل والاستحقاق.

حدثنا عيسى بن أحمد الكاتب قال: قال لي الحسين بن الضحاك: دخلت على جعفر المتوكل، وشفيع الخادم ينضد ورداً بين يديه، ولم نعرف في ذلك الزمان خادماً كان أحسن منه ولا أجمل، وعليه ثياب موردة، فأمره أن يسقيني ويغمز كفي. ثم قال لي: يا حسين، قل في شفيع. وكان قد حيا المتوكل بوردة، فجعل المتوكل يشرب ويشم الوردة، فقلت:

فيا وردة جاءت إلينا بحمرة

من الورد تمشي في قراطق كالورد

ويغمز كفي عند كل تحية

بكفيه يستدعي الشجي إلى الورد

سقاني بكفيه وعينه شربة

فأذكرني ما قد نسيت من العهد

سقى الله دهرًا لم أبت فيه ليلة

من الدهر إلا من حبيب على وعد

فأمر المتوكل شفيعاً أن يسقيني وخاصة، وبعث معه إلى بتحايا في عبير وشمات.

وذكروا أن محمد بن عبد الملك الزيات وزير المتوكل كان يعشق خادماً للمتوكل يقال له شفيع، وكان الحسن بن وهب كاتبه كلفاً بذلك الخادم، فلقيه الحسن بن وهب يوماً، فسأله عن خبره، فأخبره أنه يريد أن يحتجم، فلم تبق بالعراق غريبة إلا بعث بها إليه، ولا طريفاً من الأشربة إلا أدخله عليه، وكتب إليه بهذه الأبيات:

ليت شعري يا أملح الناس عندي

هل تعالجت بالحجامة بعدي

دفع الله عنك لي كل سوء

باكر رائح وإن خنت عهدي

قد كتمت الهوى بمبلغ جهدي

ففشا منه بعض ما كنت أبدي

وخلعت العذار فليعلم النا

س بأنني إياك أصفى بودي

من عذيري من مقلتيك ومن إيش

راق وجه من حول حمرة خد

فصادف رسوله رسول محمد بن الزيات الوزير، فرأى رقعة الحسن، فاحتال حتى أخذها، وأوصلها إلى الوزير محمد بن عبد الملك. فلما قرأها كتب إلى كاتبه الحسن بن وهب:

ليت شعري عن ليت شعرك هذا

أبهزل تقوله أم بجد

فلئن كان تقول بجد

يا ابن وهب لقد تفتيت بعدي

وتشبهت بي وكنت أرى أن

ي أنا الهائم المتيم وحدي

أترك القصد في الأمور ولولا

غمرات الصبا لأبصرت قصدي

سيدي سيدي ومولاي ومن أل

بسني ذلك وأضرع خدي

ن حريصاً على صلاحي ورشدي
وإن لم يكن به مثل وجددي
لصديقي من مثل شقوة جددي
شؤم جددي لكان مولاي عبدي

لا أحب الذي يلوم وإن كا
وأحب الأخ المشارك في الحب
كصديقي أبي علي وحاشي
إن مولاي عبد غيري ولولا

فلما التقى ابن الزيات لوزير وكاتبه الحسن بن وهب في بيت الديوان تداعبا في ذلك، وسأله ابن الزيات أن يتجافى له عنه، فقال له الحسن: طاعتك واجبة في المحبوب والمكروه، لكن الرئيس أدام الله عزه كان أولى بالفضل. فقال له ابن الزيات: هيهات، هذه علة نفسانية تؤدي إلى التلف، ففتح عن نصيبك مني. فقال الحسن: إن كان هذا هكذا سمعنا وأطعنا. وأنشد:

دموع تباري المستهل من القطر
وصار الهوى عوناً علي مع الدهر

شهيدي على ما في فؤادي من هوى
وأسلمني من كان بالأمس مسعدي

قال علي بن الجهم: دخلت يوماً على المتوكل، فقال لي، يا علي. قلت: لبيك يا أمير المؤمنين. قال: دخلت الساعة على قبيحة، وقد كتبت بالمسك في خدها اسمي، فوالله ما رأيت سواداً في بياض أحسن منه في ذلك الخد، فقل فيه شعراً. فقلت: يا أمير المؤمنين، أمظومة معي؟ قال: نعم، ومظلومة خلف ستارة، فدعت بدواة وبردت بالقول، فقالت:

بنفسي خط المسك من حيث أثرا
لقد أودعت قلبي من الحب أسطرا
مطيعاً له فيما أسر وأظهرا
سقى الله من صوب الغمامة جعفرا

وكاتبة بالمسك في الخد جعفرا
لئن أودعت سطرأ من المسك خدها
فيا من لملوك تملك مالكا
ويا من مناها في السرائر جعفر

قال: فأفحمت فلم أنطق، وتغلبت علي خواطري فما قدرت علي حرف أقوله، وضحك أمير المؤمنين. الأصمعي قال: دخلت على هارون الرشيد، وبين يديه جارية حسناء، عليها لمة جعدة، وذؤابة تضرب الحقو منها، وهلال بين عينيها مكتوب عليه بالذهب: "هذا ما عمل في طراز الله". فقال: يا أصمعي، صفها. فأنشأت أقول:

هلالية العينين طائفة الفم
ونعمة داود وعفة مريم

كنازية الأطراف سعيدة الحشا
لها حكم لقمان وصورة يوسف

فقال: أحسنت والله يا أصمعي. فعلت اسمها؟ فقلت: لا يا أمير المؤمنين. فقال: اسمها دنيا. قال: فأطرق ساعة ثم قلت:

تسحر العين سافره
فهي دنيا وآخره

إن دنيا هي التي
ظلموها شطر اسمها

قال الأصمعي: فأمر لي بعشرة آلاف درهم.

إسحاق بن إبراهيم الموصلي قال: دخلت على الرشيد، وعنده جارية قد أهديت إليه، ماجنة شاعرة أدبية، وبين يديه طبق فيه ورد، فقال: يا إسحاق، أما ترى، ما أحسن هذا الورد ونضرة لونه! قلت: بك والله حسن ذلك يا أمير المؤمنين. فقال: قل فيه بيتاً يشبهه. فأطرق ساعة، ثم قلت:

فم الحبيب وقد أبدى به خجلا

كأنه خد موموق يقبله

فاعترضني الجارية فقالت:

يا من يصبرني لأصبر بعده

الصبر ليس يطيقه العشاق

فقال: لا والله ما نكأهما. ثم التفت إلى جليس له آخر، فقال له: ويحك أتدري؟ قال: نعم يا أمير المؤمنين ذكرت قول ابن الأحنف:

تذكرت بالريحان منك شمائلاً

وبالراح عذباً من مقبلك العذب

فقال: لا والله ما نكأهما، ثم التفت إلى كوثر الخادم، فقال له: ويحك! أتدري؟ فقال: نعم يا أمير المؤمنين، ذكرت قول ابن نفيلة الغساني:

إن كان دهر بني ساسان فرقمهم

فإنما الدهر أطوار دهارير

وربما أصبحوا يوماً بمنزلة

تهاب صولهم الأسد المهاصير

قال: صدقت.

وكتبت جارية إلى علي بن الجهم رقعة، فأجاب فيها:

ما رقعة جاعتك مكتوبة

كأنها خد على خد

تبدو سواداً في بياض كما

ذو فتيت المسك في الورد

ساهمة الأسطر مصروفة

عن جهة الهزل إلى الجد

يا كاتباً أسلمني عتبه

إليه حسبي منك ما عندي

وكتبت أيضاً:

قلب يمل على لسان ناطق

ويد تخط رسالة من عاشق

مزج المداد بعبرة شهدت له

من كل جارحة بحب صادق

فيمينه تحت الوساد وخده

ويساره فوق الفؤاد الخافق

أهدت جارية من حواري المهدي تفاحة إلى المهدي وطبتها. وكتبت فيها:

هدية مني إلى المهدي

تفاحة تقطف من خدي

محمرة مصفرة طيبت

كأنها من جنة الخلد

فأجاب المهدي:

تفاحة من عند تفاحة

جاءت فماذا صنعت بالفؤاد

والله ما أدري أبصرتها

يقظان أم أبصرتها في الرقاد

وكتب بعض الكتاب إلى مدام، جارية المازني، وبعث إليها بقنين من مدام:

قل لمن يملك الملو

ك وإن كان قد ملك

قد شربناك مرة

وبعثنا إليك بك

وقال علي بن الجهم: دخلت على أبي عثمان المازني، وعنده جارية له كأنها شقة قمر، ويدها تفاحة معضوطة، فقالت: عرفت ما أراد الشاعر بقوله:

خبريني من الرسول إليك

واجعليه من لا ينم عليك

قلت: ما أعرفه. قالت: هو هذه، ورمت إلي بالتفاحة، فوالله ما وجدت لها جواباً من نظير كلامها.
وقال شيخ من أهل البصرة: لقيت الحسن بن وهب، فأردت أن أمتحن سلامة طبعه، ومعى تفاحة، فأريته إياها وسألته أن يصفها، فقال لي: نحن على الطريق، ولكن مل إلى المسجد. فملنا إليه، فأخذها وقلبها بيده شيئاً، وقال:

تشعل نار الهوى على كبدي
أشكو إليها طاول الكمد
من رحمة هذه التي بيدي

يا رب تفاحة خلوت بها
قد بت في ليلتي أقلبها
لو أن تفاحة بكت لبكت

وعد المأمون جارية أن يبني عندها، وأخلفها الوعد، فكتبت إليه:

عين من هنت عليه
أصبحت في راحتيه
دل عيني عليه

أرقت عيني ونامت
إن نفسي فاعذرنا
رحم الله رحيماً

فلما قرأ رقعتها ضحك، ولم يبت ليلته إلا عندها.

عتب المأمون على جارية من جواريه، وكان كلفاً بما فأعرض عنها، وأعرضت عنه، ثم أسلمه العزاء، وأقلقه الشوق، حتى أرسل يطلب مراجعتها وأبطأ عليه الرسول فلما رجع إليه أنشأ يقول:

وأغفلتني حتى أسأت بك الظنا
فيا ليت شعري عن دنوك ما أغنى
ومتعت باستظراف نغمتها أذنا
لقد سرقت عينك من وجهها حسنا

بعثتك مرتاداً ففزت بنظرة
وناجيت من أهوى وكنت مقرباً
ونزهت طرفاً في محاسن وجهها
أرى أثراً منها بعينيك لم يكن

ثم إن المأمون أقبل مسترضياً لها فسلم عليها، فلم ترد عليه، وكلمها فلم تجبه، فأنشأ يقول:

ولا يؤذي محاسنك السلام
ولكني بحبك مستهام
فيبقى الناس ليس لهم إمام

تكلم ليس يوجعك الكلام
أنا المأمون والملك الهمام
يقح عليك ألا تقتلني

كتبت امرأة عمر بن عبد العزيز إلى عمر، لما اشتغل عنها بالعبادة:

سبى عقلي وهام به فؤادي
وجرت علي من بين العباد
وما أعطيتني غير السهاد

ألا أيها الملك الذي قد
أراك وسعت كل الناس عدلاً
وأعطيت الرعية كل فضل

فصرف وجهه إليها.

وقعد الرشيد يوماً عند زبيدة، وعندها جواريتها، فنظر إلى جارية واقفة عند رأسها فأشار إليها أن تقبله، فاعتلت بشفتيها، فدعا بدواة وقرطاس فوقع فيه:

قبلته من بعيد

ثمناولها القرطاس فووقت فيه:

فاعتل من شفتيه

حتى وثبت عليه

فلما قرأ ما كتبت استوهبها من زبيدة، فوهبتها له. فمضى بها وأقام معها أسبوعاً لا يدري مكاهما، فكتبت إليه زبيدة:

فما برحت مكاني

وعاشق صب بمعشوقه

كأنما قلباهما قلب

روحاهما روح ونفساهما

نفس، كذا فليكن الحب

حدث أبو جعفر قال: بينا محمد بن زبيدة الأمين يطوف في قصر له، إذ مر بجارية له سكرى، وعليها كساء خز تسحب أذياله، فراودها عن نفسها، فقالت: يا أمير المؤمنين، أنا على حال ما ترى، ولكن إذا كان من غد إن شاء الله. فلما كان من الغد مضى إليها، فقال لها: الوعد. فقالت له: يا أمير المؤمنين: أما علمت أن كلام الليل يمحوه النهار؟ فضحك، وخرج إلى مجلسه، فقال: من بالباب من شعراء الكوفة؟ فقبل له: مصعب والرقاشي وأبو نواس. فأمر بهم فأدخلوا عليه، فلما جلسوا بين يديه قال: ليقبل كل واحد منكم شعراً يكون آخره:

كلام الليل يمحوه النهار

فأنشأ الرقاشي يقول:

وقد منع القرار فلا قرار

فتاة لا تزور ولا تزار

كلام الليل يمحوه النهار

متى تصحو وقلبك مستطار

وقد تركتك صيباً مستهماً

إذا استجزت منها الوعد قالت

وقال مصعب:

كئيب لا يقر له قرار

بأحاط يخالطها احوار

لألمسها بدا منها نفار

فقالت في غد منك المزار

كلام الليل يمحوه النهار

أتعدلني وقلبك مستطار

بحب مليحة صادت فؤادي

ولما أن مددت يدي إليها

فقلت لها عديني منك وعداً

فلما جئت مقتضياً أجابت

وقال أبو نواس:

ولكن زين السكر الوقار

وغصنا فيه رمان صغار

من التجميش وانحل الإزار

كلام الليل يمحوه النهار

وخود أقبلت في القصر سكرى

وهز المشي أردافاً ثقلاً

وقد سقط الردا عن منكبيها

فقلت: الوعد سيدتي. فقالت:

فقال له: أحزاك الله، أكنت معنا ومطلعاً علينا؟ فقال: يا أمير المؤمنين عرفت ما في نفسك فأعربت عما في ضميرك. فأمر له بأربعة آلاف درهم، ولصاحبيه بمثلها.
وقال بعض العراقيين:

فها أنا جئت فاقتصيه أضعافاً

غضبت من قبلة بالكره جدت بها

تستجوري ما رآه الله إنصافاً

لم يأمر الله إلا بالقصاص فلا

عبت ماردة على هارون الرشيد، فكانت تظهر الكراهة وتضمر له المحبة، فقال فيها:

فالنفس راضية والطرف غضبان

تبدي صدوداً وتخفي تحته صلة

وليس فوقي سوى الرحمن سلطان

يا من وضعت له خدي فذللته

خبر الحسن بن هانئ مع الأسود

أبو بكر الوراق قال: قال لي الحسن بن هانئ: حججت مع الفضل بن الربيع حتى إذا كنا ببلاد فزارة، وذلك إبان الربيع، نزلنا منزلاً بإزاء ماء لبني تميم، ذا روض أريض، ونبت غريض، تخضع لهجته الزراي المشوثة، والنمارق المصفوفة، فقرت بنضرتها العيون، وارتاحت إلى حسنها القلوب، وانفرجت ببهائتها الصدور، فلم نلبث أن أقبلت السماء، فأسف غمامها وتدانى من الأرض ركامها، حتى إذا كان كما قال أوس بن حجر حيث يقول:

يكاد يدفعه من قام بالراح

دان مسف فويق الأرض هيدبه

همت برداذ، ثم بطش، ثم برش، ثم بوابل، ثم أقلعت وقد غدرت الغدران مترعة تتدفق، والقيعان تتألف، رياض موقنة، ونوافح من ريحها عبقرة، فسرحت طرفي راتعاً منها في أحسن منظر، وانتشقت من رياها أطيّب من المسك الأذفر. قال: فلما انتهينا إلى أوائلها. إذا نحن بجبناء على بابه جارية متبرقة، ترنو بطرف مريض الجفون، وسنان النظر، قد أشعرت حماليقه فتوراً وملئت سحراً، فقلت لزميلي: استنطقها. قال: وكيف السبيل إلى ذلك؟ قلت: استسقيها ماء. فاستسقاها فقالت: نعم ونعمي عين، وإن نزلتم فني الرحب والسعة. ثم مضت تتهادى كأنها حوط بان، أو قضيب خيزران، فراعني ما رأيت منها، ثم أتت بالماء فشربت منه، وصببت باقيه على يدي، ثم قلت: وصاحبي أيضاً عطشان. فأخذت الإناء فذهبت، فقلت لصاحبي: من الذي يقول:

فلا بارك الله في البرقع

إذا بارك الله في ملابس

ويكشف عن منظر أشنع

يريك عيون الدمى غرة

قال: وسمعت كلامي، فأنت وقد نزعت البرقع، ولبست خماراً أسود، وهي تقول:

أطالا ولما يعرفا مبتغاهما

الأحي ركبى معشر قد أراهما

ليستقيا باللحظ ممن سقاها

هما استسقيا ماء على غير ظمأ

فشبهت كلامها بعقد در وهي سلكه فانثر، بنغمة عذبة رقيقة رخيمة، لو حوطب بما الصم الصلاب لانجست، مع وجه يظلم لنوره ضياء العقول، وتتلّف في روعته مهج النفوس، وتخف في محاسنه رزانة الحليم، ويحار في بهائه طرف البصير.

فلو جن إنسان من الحسن جنت

فدقت وجلت واسبطرت وأكملت

فلم أتمالك أن سجدت وخررت ساجداً فأطلت من غير تسييح، فقالت: ارفع رأسك غير مأجور، ولا تدم من بعدها برقعاً، فلربما انكشف عما يصرف الكرى ويحل القوى، ويطيّل الجوى، من غير بلوغ إرادة، ولا درك طلبه، ولا قضاء وطر، ليس إلا للحين المحلوب، والقدر المكتوب، والأمل

الكذوب، فبقيت والله معقول اللسان عن الجواب حيران لا أهتدي لصواب، فالتفت إلي صاحبي، فقال لما رأى هلمي، كالمسلي لي عن بعض ما أذهلني: ما هذه الخفة لوجه برقت لك منه بارقة لا تدري ما تحته؟ أما سمعت قول ذي الرمة:

وتحت الثياب العار لو كان باديا

على وجه مي مسحة من ملاحه

فقلت: أما ما ذهبت إليه لا أبالك، فلا والله، لأنا بقول الشاعر:

على كشح مرتج الروادف أهضم

منعمة حوراء يجري وشاحها

وأحسن إيماء بأحسن معصم

لها بشر صاف وعين مريضة

فزارية العينين طائية الفم

خزاعية الأطراف سعدية الحشا

أشبه من قولك الآخر. ثم رفعت ثيابها حتى بلغت نحرها، وجاوزت منكبيها فإذا قضيب فضة قد شيب بماء الذهب، يهتز على مثل كتيب النقا، وصدر كالوذيلة، عليه كالرمانتين، وخصر لو رمت عقدة لانعقد، مطوي الاندماج، على كفل رجراج، وسرة مستديرة، يقصر فهمي عن بلوغ نعتها، من تحتها أرنب جاثم، أو جبهة أسد حادر، وفخذان لفاوان، وساقا خدلجان يخرسان الخلاخيل، وقدمان كأثمنا لسانا. ثم قالت: أعاراً ترى لا أبالك؟ قلت: لا والله، ولكن سبب القدر المتاح، ومقربي من الموت الذباح، يطبق علي الضريح، ويتركني جسداً بغير روح. فخرجت عجوز من الخباء، فقالت له: امض لشأنك، فإن قتيلاها مطلول لا يودي، وأسيرها مكبول لا يفدى. فقلت لها: دعيه فإن له مثل قول غيلان:

قليلاً فإنني نافع لي قليلها

فإلا يكن إلا تعلل ساعة

فولت العجوز وهي تقول:

بعينيك عينيها وأيرك جانب

وما لك منها غير أنك نائك

فنحن كذلك حتى ضرب الطبل للرحيل، فانصرفت بكمد قاتل، وكرب خابل، وأنا أقول:

أزف الرحيل بغربتي وبعادي

يا حسرتي مما يجن فؤادي

فلما قضينا حجنا وانصرفنا راجعين، ممرنا بذلك المنزل، وقد تضاعف حسنه وتمت بهجته، فقلت لصاحبي: امض بنا إلى صاحبتنا. فلما أشرفنا على الخيام، فصعدنا ربوة ونزلنا وهدة، إذا هي تتهادى بين خمس ما تصلح أن تكون خادماً لأدناهن، وهن يجنين من نور ذلك الزهر، فلما رأينا وقفن فقلنا: السلام عليكن. فقلت من بينهن: وعليك السلام، ألسنت صاحبي؟ قلت: بلى. قلن: وتعريفه؟ قالت: نعم، وقصت عليهن القصة ما حرمت حرفاً. قلن لها: ويحك، فما زودته شيئاً يتعل به؟ قالت: بلى، زودته لخدماً ضامراً، وموتاً حاضراً. فانبرت لها أنضرن خدماً، وأرشقهن قدماً، وأسحرهن طرفاً، وأبرعهن شكلاً، فقالت: والله ما أحسنت بدءاً، ولا أجملت عوداً، ولقد أسأت في الرد، ولم تكافئني في الود، فما عليك لو اسعفته بطلبته، وأنصفته في مودته، وإن المكان لخال، وإن معك من لا ينم عليك. فقالت: أما والله لا أفعل من ذلك شيئاً أو تشركيني في حلوه ومره. قالت لها: تلك إذا قسمة ضيزى، أتعشقين أنت وأنا؟ قالت أخرى منهن: قد أطلتن الخطاب في غير أرب، فسلن الرجل عن نيته، وقصده وبغيته، فلعله لغير ما أنتن فيه قصد.

فقلن: حياك الله، وأنهم بك علينا، من تكون، وممن أنت، وما تعاني، وإلام قصدت؟ فقلت: أما الاسم فالحسن بن هانئ، رجل من اليمن، ثم من سعد العشيرة، وأحد شعراء السلطان الأعظم، ومن يدي مجلسه، ويتقى لسانه، ويرهب جانبه. وأما قصدي فتبريد غلة، وإطفاء لوعة، قد أحرقت الكبد وأذابتها. قالت: لقد أضفت إلى حسن المنظر كرم المخبر، وأرجو أن يبلغك الله أمنيته، وتنال بغيته. ثم أقبلت عليهن، فقالت: ما بواحدة منكن عن مثله مرغ، فتعالين نشترك فيه، ونقترع عليه، فمن واقعتها القرعة منا تكون هي البادية. فاقترعن فوقعت القرعة على المليحة التي قامت بأمرى، فعلقن إزاراً على باب مغار يجاورهن وأدخلت فيه، وأبطأن عني وجعلت أتشوف لدخول إحداهن علي، إذ دخل علي أسود كأنه سارية، ويده شيء كالمهراوة، قد أنعظ. بمثل رأس الخفيدد، قلت: ما تريد؟ قال: أنيكك. فهمني والله نفسي ثم صحت بصاحبي، وكان أيداً، فبالحري والله ما تخلصت منه

حتى خرجنا من الغار، وإذا هن يتضحكن ويتهادين إلى الخيمات؛ فقلت لصاحبي: من أين أقبل الأسود؟ قال: كان يرعى غنماً إلى جانب الغار فدعونه، فوسوسن إليه شيئاً فدخل عليك. فقلت أبا علي: أترأه كان يفعل في شيئاً؟ فقال: أترك خلصت منه. فانصرفت وأنا أحرى الناس. قال إسماعيل: فقلت: ناكك والله الأسود. فقال: ما لك أبعدك الله، فوالله لقد كتمت هذا الحديث مخافة هذا التأويل حتى ضاق به ذرعي، ورأيتك موضعاً له، فبحقي عليك إن أذعته. قال إسماعيل: فما فهت به حتى مات.

خبر ذي الرمة

قال أبو صالح الفزاري: ذكرنا ذا الرمة، فقال عصمة بن عبد الملك شيخ منا، قد بلغ عشرين ومائة سنة: لإيائي فاسألوا عنه، كان من أظرف الناس، آدم خفيف العارضين، حسن المضحك، حلو المنطق، وإذا أنشد بربر وجش صوته، وإذا راجعك لم تسأم من حديثه وكلامه، وكان له إخوة يقولون الشعر، منهم مسعود، وهشام، وأوفى، كانوا يقولون القصيدة فيزيد عليها الأبيات، فيغلب عليها فتذهب له، فجمعني وإياه مربع فأتاني يوماً، فقال لي يا عصمة: إن مية منقرية وبنو منقر أخبث حي، وأقوفه لأثر، وأعطفه بشر، فهل عندك ناقة نزار عليها مية؟ قلت: والله إن عندي للجؤذر قال: علي بها. فركبنا جميعاً وخرجنا حتى أشرفنا على بيوت الحي فإذا هم حلوف، وإذا بيت مية ناحية، فعرفن ذا الرمة فتقوض النساء إلى مي، وجئنا حتى أئخنا، ثم دوننا فسلمنا وقعدنا نتحدث، فإذا هي جارية أملود واردة الشعر بيضاء تغمرها صفرة، وعليها ثوب أصفر، وطاق أخضر، فقلن: أنشدنا يا ذا الرمة. فقال: أنشدهن يا عصمة. فأنشدهن:

ذرى النخل أو أثل تميل ذوائبه

بمغرورق نمت عليه سواكبه

جوائله أسرار ه ومغايبه

فقال ظريفه منهن: لكن الآن فلتجل قال: فنظرت إليها مية متكreme، ثم مضيت في القصيدة، حتى انتهيت إلى قوله:

على القلب لبته جميعاً عوازه

إذا سرحت من حب مي سوارح

فقال الظريفه: قتلته قتلك الله. قالت مية: ما أصحه وهنيئاً له. فتنفس ذو الرمة تنفساً ظننت معه أن فواده قد انصدع، ومضيت فيها حتى انتهيت إلى قوله:

أقول لها إلا الذي أنا كاذبه

ولا زال في أرضي عدو أحاربه

وقد حلفت بالله مية ما الذي

إذا فرماني الله من حيث لا أرى

فالتفتت إليه فقالت: حف عواقب الله. ومضيت في القصيدة حتى انتهيت إلى قوله:

لك الوجه منها أو نضا الثوب سالبه

رخيم ومن خلق تعلل جادبه

إذا راجعتك القول مية أو بدا

فيا لك من خد أسيل ومنطق

فقال الظريفه: ها هي ذه قد راجعتك، وقد بدا لك الوجه منها، فمن لك بأن ينضو الدرع سالبه؟ فالتفتت مية إليها فقالت: قاتلك اله، ما أنكر ما تجيبين به. فتحدث ساعة، ثم قالت الظريفه للنساء: إن لهدين لشأناً، فقمنا بنا وقمت معهن، فجلست في بيت أراهما منه، فما رأيته برح من مقعده، ولا فقدته، فسمعتها قالت له: كذبت والله. ولا أدري ما قال لها، فلبثت قليلاً، ثم جاعني معه قارورة فيها دهن ومعه قلائد للجؤذر، فقال: هذا دهن طيب أئخنا به، وهذه قلائد للجؤذر، ولا والله ما أقلدهن بغيراً أبداً! وشد بمن ذوائب سيفه وانصرفنا. فكنا نختلف إليها حتى انقضى الربيع، ودعا الناس المصيف، فأتاني فقال: هيا عصمة، قد رحلت مي ولم يبق إلا الآثار، ورسوم الديار. وأنشدني:

ألا يا اسملي يا دار مي على البلى

خرج المأمون في يوم عيد وقد ركب الجند أمامه، ومعه يحيى بن أكثم يضاحكه ويمجده، إذ نظر إلى غلام من الجند في غاية الفراهة، عليه ثوب حرير أخضر، وثوب موشى مزرر بالذهب، فالتفت إلى يحيى بن أكثم فقال له: يا يحيى، ما تقول في هذه البضاعة؟ فقال: يا أمير المؤمنين، إن هذا لقبيح من إمام مثلك مع فقيه مثلي. قال: فمن الذي يقول:

قاض يرى الحد في الزناء ولا

فقال: دعبل، الذي يقول:

ولا أرى الجور ينقضي وعلى ال

قال: ينفي إلى السنند، وإنما داعبتك. ثم أنشأ المأمون يقول:

أيها الراكب ثوبا

جئت للعيد وفي وج

أنت جندي ولكن

الفضل بن الربيع قال: قعد المخلوح للناس يوماً وعليه طيلسان أزرق، وتحت لبد أبيض، فوقع في ثمانمائة قصة، فوالله لقد أصاب فما أخطأ، وأسرع فما أبطأ، ثم قال لي: يا فضل، أتاني لا أحسن التدبير والسياسة، ولكنني وجدت شم الآس، وشرب الكاس، والاستلقاء من غير نعاس، أشهى إلي من ذلك.

قال ابن قتيبة: خرج أبو عيسى جبريل بن أبي عيسى إلى متزّه بالقفص، ومعه الحسن بن هانئ، في آخر شعبان، فلما كان اليوم الذي أوفى به الشهر ثلاثين يوماً قيل له: إن هذا يوم شك، وبعض أهل العلم يصومه، فقال: لا عليك، ليس الشك حجة على اليقين. حدثنا أبو جعفر عن النبي صلى الله عليه وسلم قال: "صوموا لرؤيته وأفطروا لرؤيته". ثم قال أبو عيسى:

لو شئت لم نبرح من القفص

نسرق هذا اليوم من شهرنا

وذكروا أن أبا عيسى خرج إلى القفص متزهاً ومعه الحسن بن هانئ، فحمله وخلع عليه، فأقام فيها أسبوعاً، ثم قال: بحياتي صف مجلسنا والأيام كلها. فقال في ذلك:

يا طيبنا بقصور القفص مشرقة

لما أخذنا بها الصهباء صافية

جاءتك من دن خمار بطينتها

وقام كالبدر مشدوداً قراطقه

فسلها من فم الإبريق فانبعثت

فلم نزل في صباح السبت نأخذها

واستشرقت غرة الاثنين واضحة

يوفي الثلاثاء أعملنا المطي بها

نشربها حمراء كالحص

والله قد يعفو عن اللص

بها الدساكر والأنهار تطرد

كأنها النار وسط الكأس تنقد

صفراء مثل شعاع الشمس ترتعد

ظبي يكاد من التهيف ينعد

مثل اللسان جرى واستمسك الجسد

والليل يأخذنا حتى بدا الأحد

والجدي معترض والطالع الأسد

صهباء ما قرعتها بالمزاج يد

والكأس يضحك في حافاتها الزبد
قصفاً وتم لنا بالجمعة العدد
في لجة الليل والأوتار تجتلد
وفي جوانبه الأطيّار تغترد
ولا يرد عليه حكمه أحد
أخلاقه فهي كالأوراق تنتقد

والأربعاء صفا فيه النعيم لنا
ثم الخميس وصلناه بليته
يا حسنا وبحار القفص تغمرنا
في مجلس حوله الأشجار محدقة
لا نستخف بساقينا لعزته
عند الهام أبي عيسى الذي كملت

أبو جعفر البغدادي قال: حدثنا أبو محمد الدمشقي قال: مررت ذات ليلة، أيام فتنة المستعين، والقمر يزهر بباب الشام، فإذا أنا بشيخ غليظ، أصلع نشوان، قد توشح في إزار أحمر، ومال على شقه الأيمن، وفي يده حوصة يشمها ويقول:

إلا كألف فتى مقدامة بطل
ففرغوها وأوكوها إلى الأمل

عشرون ألف فتى ما منهم أحد
أضحت مز اودهم مملوءة نشباً

فقلت له: أحسنت، لله أنت. فقال: آحب رقيقة؟ فقلت: ما أحوجني إليها.
فقال:

حين عض السفرجلا
ه فأبدى التخجلا
ل إذا البدر أكمل
ني على القلب بالقللا

إنما هيح البلا
وعلا الورد وجنتي
يفضح البدر في الكما
ولقد قام لحظ عي

قلت له: أبو من أعزك الله؟ قال: ابو عيشونة الخياط، شهدت حروب ابن زبيدة كلها، وجاريت الفتيان في غاية كل ميدان، واعترف لي كل فاتك، وأذعن لي كل شاطر، ونزلت تلك الدار عشرين سنة. وأوماً إلى سجن بغداد، ثم تنفس الصعداء. وقال: أنا الذي أقول:

وجفون ما تنام
ر بعيني سجام
طبته قال سلام
قال لي ذاك حرام

لي فؤاد مستهام
ودموع آخر الده
وحبيب كلما خا
فإذا ما قلت: صلني

ثم بكى تخالجاً، فلما افاق قلت: ما يبكيك؟ قال: وكيف لا أبكي، ولي حبيب بالبصرة علقته وهو ابن سبع عشرة سنة، ثم غبت عنه ثلاثاً وثلاثين سنة، فلما عيل صبري خرجت إلى البصرة فطفت في شوارعها حتى رأيت، فما رأيت وجهاً أحسن منظرًا ولا أزهى منه. ثم أنشأ يقول:

معذب في سهده
أسرعه في جسده
من ضره ذو حسده

مردد في كمده
خلا به السقم فما
يرحمه لما به

ثم ودعني ومضيت.

وحدثني أبو الفضل قال: إني لنفي الطواف أمام الحجر، إذ سمعت حينئذ يخرج من بين الأستار، وإذا قائل يقول:

ولا كان عفو الله للناقض العهد

عفا الله عمن يحفظ الود جهده

ليجمعني مع من وضعت له خدي

وضعت على الأستار خدي ليلة

قال: فرفعت الأستار فإذا جارية منفردة، كأنها شمس تجلت عنها غمامة.

فقلت: يا هذه لو سألت الله الجنة مع هذا التضرع والبكاء ما حرمتك إياها. قال: فسترت وجهها، وقالت: سبحان من خلق فسوى، ولم يهتك العلانية والنجوى. أما والله إني لفقيرة إلى رحمة ربي، وقد سألته أكبر الأمرين عندي، رجاء فضله، واتكألاً على عفوهِ. ثم ولت عني، فاستعدت بالله من الشيطان الرجيم.

حدث مسلم بن عبد الله بن مسلم بن جندب قال: خرجت أنا وزبان السواق إلى العقيق، فلقينا نسوة نازلات من العقيق، لهن جمال وشارة، وفيهن جارية حسانة العينين، فلما رآها زبان قال لي: يا بن الكرام دم أبيك والله في ثيابها، فلا تطلب أثراً بعد عين. وأنشد قول أبي مسلم بن جندب:

قتيلاً فهل منكم له اليوم تائر

ألا يا عباد الله هذا أخوكم

مريضة جفن العين والطرف ساحر

خذوا بدمي إن مت كل مليحة

قال: فقالت لي الجارية: أنت ابن جندب؟ قلت: نعم. قالت: فاعتنم نفسك واحتسب أباك، فإن قتلنا لا يودي، وأسيرنا لا يفدى.

الزبير بن بكار، عن عبد الله بن مسلم بن جندب قال: قلت:

على كل عين لا تنام طويل

تعالوا أعينوني على الليل إنه

قال: فطرقني عيسى بن طلحة قال: إني سمعت قولك فجئت أعينك. فقلت: يرحمك الله، أغفلت الإجابة حتى أتى الله بالفرج.

أبو المهلهل الخزاعي قال: ارتحلت إلى الدهناء، فسألت عن مي صاحبة ذي الرمة، فدفعت إلى خيمة فيها عجوز هيفاء، فسلمت عليها، وقلت: أين منزل مي؟ فقالت: ها أنا مي. فقلت: عجباً من ذي الرمة وكثرة قوله فيك. قالت: لا تعجب، فإني سأقوم بعذره. ثم قالت: فلانة! فخرجت من الخيمة جارية ناهدي عليها برقع، فقالت لها: أسفري. فلما تحيرت لما رأيت من حسنها وجمالها، فقالت: علقني ذو الرمة وأن في سن هذه، وكل جديد إلى بلي. قلت: عذرتة والله. واستشدها من شعره فأشددتني.

ما يكتب على العصائب وغيرها

أبو الحسن قال: دخلت على هارون الرشيد وعلى رأسه حوار كالتماثيل، فرأيت عصابة منظمة بالدر والياقوت، مكتوباً عليها في صفائح الذهب:

والله فيما بيننا الحاكم

ظلمتني في الحب يا ظالم

قال: ورأيت في عصابة أخرى:

ورميتني فأصبتني يا رامي

ما لي رميت فلم تصبك سهامي

قال: ورأيت في عصابة أخرى: "وضع الخد للهوى عز". قال: ورأيت في صدر أخرى هلالاً مكتوباً عليه:

وخلقت فتنة من يراني

أقلت من حور الجنان

قال إسحاق بن إبراهيم: دخلت على الأمين محمد بن زبيدة، وعلى رأسه وصائف في قراطق مفروجة، بيد وصيفة منهن مروحة مكتوب عليها:

بي طالب العيش في الصبي

ممسكي ينفي أذى الح

الندى والجود في وج

ملك أسلمه الشب

وفي عصابتها:

ف وبى طاب السرور

ر إذا اشتد الحرور

ه أمين الله نور

ه وأخلاه النظير

ألا بالله قولوا يا رجال

وفي أخرى:

أشمس في العصابة أم هلال

فكفوا عن ملاحظة العيون

أتهوون الحياة بلا جنون

وكتب "ورد" جارية الماهاني على عصابتها، وكانت تجيد الغناء مع فصاحتها وبراعتها:

فكل شيء ما سواها محال

تمت وتم الحسن في وجهها

في وجهها كل صباح هلال

للناس في الشهر هلال ولي

وكتب في عصابتها بيتين من شعر الحسن بن هانئ، وهما:

عليك عقلي فإن السهم قد قتلا

يا رامياً ليس يدري ما الذي فعلا

فالنفس في تعب والقلب قد شغلا

أجريتته في مجاري الروح من بدني

وقال علي بن الجهم: خرجت علينا "عالمج" جارية خالصة، كأنها حوط بان، وهي تميم في روفة، وعلى طرفها مكتوب بالغالية، وكانت من بجان أهل بغداد مع علمها بالغناء:

صام قلبي لمقلتيه وصلى

يا هلالاً من القصور تجلى

كيف يدري بذاك من ينقلى

لست أدري أطل ليلي أم لا

ولرعى النجوم كنت مخلا

لو تفرغت لاستطالة ليلي

قال: وخرجت إلينا "منال" وعليها درع خام، على جانبها الأيمن مكتوب:

هو بالشوق والهوى مختوم

كتب الطرف في فؤادي كتاباً

وعلى الأيسر مكتوب:

إن طرفي على فؤادي مشوم

كان طرفي على فؤادي بلاء

قال: وكان على عصابة "ظي" جارية سعيد الفارسي مكتوب بالذهب:

في وجنتي أنامل الشجن

العين قارئة لما كتبت

قال: وحدثني الحسن بن وهب قال: كتبت "شعب" على قلنسوة جاريته "شكل":

إلا حسبك ذلك المحبوبا

لم ألق ذا شجن يبوح بحبه

حذراً عليك وإني بك واثق

وكتب "شفيح" خادم المتوكل على عاتق قبائه الأيمن:

بدر على غصن نضير

وعلى عاتقه الأيسر:

خطت محاسن وجهه

وكتبت "وصيف" جارية الطائي على عصابتها:

الكفر والسحر في عيني إذا نظرت

فإن لي سيف لحظ لست أغمده

وكان على عصابة "مزاج"، وهي من مواجن أهل بغداد وفتاكها:

قالوا عليك دروع الصبر قلت لهم

ما يرجع الطرف عنها حين يبصرها

وكتبت "عنان" جارية الناطفي على عصابتها من قولها:

فما زال يشكو الحب حتى حسبته

فأبكي لديه رحمة لبكائه

وكتبت "حدائق" في كفها بالحناء:

ليس حسن الخضاب زين كفي

قال: وخرجت علينا جارية حمدان، وقد تقلدت سيفاً محلي، وعلى رأسها قلنسوة مكتوب عليها:

تأمل حسن جارية

مؤنثة مذكرة

وعلى حمائل سيفها مكتوب الذهب:

لم يكفه سيف بعينيه

حتى تردى مرهفاً صارماً

فلو تراه لابساً درعه

علمت أن السيف من طرفه

وكتب "واحد" على منطقة جارتها "منصف" الكوفية:

تكتي من غمزة العي

وفؤادي رق حتى

بعض ما بي يصدع القل

العقد الفريد-ابن عبد ربه الأندلسي

أن لا ينال سواي منك نصيباً

شرق الترائب بالعبير

في صفحة القمر المنير

فاغرب بعينك يا مغرور عن عيني

من صنعة الله لا من صنعة القين

هيهات إن سبيل الصبر قد ضاقا

حتى يعود إليها الطرف مشتاقا

تنفس في أحشائه وتكلما

إذا ما بكى دمعاً بكيت له دما

حسن كفي زين لكل خضاب

يحار بوجهها البصر

فهي أنثى وهي ذكر

يقتل من يشاء بحديه

فكيف أبقى بين سيفيه

يخطر فيها بين صفيه

أقتل من سيف بكفيه

ن إذا ما مست تتحل

كاد من صدري ينسل

ب فما ظنك بالكل

ومن قولي فيما كتبت على كأس مذهبية:

وامزج بريق الحبيب ريقي
واحذر على خصرها الدقيق
إليك خل عن الطريق

اشرب على منظر أنيق
واحلل وشاح الكعاب رفقاً
وقل لمن لام التصابي

وقف صريع الغواني باب محمد بن منصور فاستسقى، فأمر وصيفاً له فأخرج إليه خمراً في كأس مذهبية، فلما نظر إليها في راحته قال:

ح بها غصن لجين
من يدي قررة عين
نهما طائر بين
أبدأ ملتقين
لم نبع نقداً بدين

ذهب في ذهب را
فأنت قررة عين
لا جرى ببني ولا بي
وبقينا ما بقينا
في غبوق وصبوح

محمد بن إسحاق قال: حدثني محمد بن عبد الله قال: رأيت على مروحة مكتوباً:

وللخليفة بعده
حبيبه بات عنده

الحمد لله وحده
وللمحب إذا ما

وقال: ورأيت في مجلس سريراً مكتوباً عليه بالذهب:

إفان قد وضعا خدّاً على خد
حتى كأنهما للقرب في عقد
وذاك يظهر ما يخفي من الوجد

أشهى وأعذب من راح ومن ورد
تضم إحداهما أحشاء صاحبه
هذا يبوح بما لاقاه من حرق

وفي عصابة أخرى:

بأن يحجبوا بالليل عني خيالها

فإن يحجبوها بالنهار فما لهم

قال أبو عبيدة: ورأيت على "عصابة" حسناء مكتوباً:

بعبير على قمر
لعن الله من غدر

كتبت في جبينها
في سطور ثلاثة:

ثم قلت اسمعي الخبر
نة في الحب يغتفر
ب فذره إلى سقر

وتناولت كفها
كل شيء سوى الخيا
فإذا خانك الحبي

قال الأصمعي: رأيت على باب الرشيد وصائف على عصابة كل واحدة منهن مكتوب:

نحن حور نواعم

أحسن الله رزقنا

فاتق الله يا فتى

من أراض مقدسه

ليس فينا منحسه

لا تدعني موسوسة

وقال أبو جعفر الكرمانى يوماً للمأمون: أتأذن لي في دعابة؟ قال: هاتها ويحك فما العيش إلا فيها؟ قال: يا أمير المؤمنين، إنك ظلمتني وظلمت غسان بن عباد.

قال: وكيف ذلك ويحك؟ قال: رفعت غسان فوق قدره، ووضعتني، دون قدري، إلا أنك لغسان أشد ظلاماً. قال: وكيف؟ قالت: لأنك أقمته مقام هر، وأقمته مقام رحمة. فاستظرف ذلك منه ورفع درجته.

أبو زيد قال: كان عطاء بن أبي رباح مع ابن الزبير، وكان أملح الناس جواباً، فلما قتل ابن الزبير أمنه عبد الملك بن مروان، فقدم عليه، فسأل الإذن، فقال عبد الملك: لا أريده يضحكني، قد أمنته فلينصرف. قال أصحابه: فنحن نتقدم إليه أن لا يفعل. فأذن له عبد الملك، فدخل وسلم عليه، وبايعه، ثم ولى، فلم يصير عبد الملك أن صاح به: يا عطاء، أما وجدت أمك اسماً إلا عطاء؟ قال: وقد والله استنكرت من ذلك ما استنكرته يا أمير المؤمنين، لو كانت سميتني بأمي المباركة صلوات الله عليها مريم. فضحك عبد الملك، وقال: اخرج.

لعب رجل بين يدي هارون بالشطرنج، فلما رآه قد استجاد لعبه وفاوضه الكلام قال له: ولني نهر بوق. قال: بل أوليك نصفه، اكتبوا عهده على بوق. قال: فولني على أرمينية. قال: أخشى أن يبطئ علي خبرك. قال: فغيرها. قال: لا أريد أن أبعدك من نفسي.

واختصم إلى زيادة بنو راسب وبنو طفارة في غلام ادعوه، وأقاموا جميعاً البينة عند زياد. فأشكل على زياد أمره، فقال سعد الراية، من بني عمرو بن يربوع: أصلح الله الأمير، قد تبين لي في هذا الغلام القضاء، ولقد شهدت البينة لبني راسب والطفافة، فولني الحكم بينهم. قال: وما عندك في ذلك؟ قال: أرى أن يلقي في النهر، فإن رسب فهو لبني راسب، وإن طفا فهو للطفافة. فأخذ زيادة نعليه وقام وقد غلبه الضحك، ثم أرسل إليه فقال: ألم أملك عن المزاح في مجلسي؟ قال: أصلح الله الأمير، حضرتني أمر خفت أن أنساه. فضحك زياد وقال: لا تعودن.

أبو زيد قال: لم يكن بالبصرة أفصح لساناً ولا أظهر جمالاً من الحسن بن أبي الحسن البصري، وزرعة بن أبي حمزة الهلالي.

قال: وأخبرني الوليد بن عبيد البحر الشاعر قال: كنا عند المتوكل على الله يوماً، وبين يديه عبادة المخنت، فأمر به فألقي في بعض البرك في أيام الشتاء، فابتل وكاد يموت برداً، قال: ثم أخرج من البركة وكسي، وجعل في ناحية من المجلس. فقيل له: يا عبادة، كيف أنت وما حالك؟ قال: يا أمير المؤمنين، جئت من الآخرة. فقال له: كيف تركت أخي الواثق؟ قال: لم أجز بجهنم. فضحك المتوكل وأمر له بصلة.

نوادير أشعب

قال أشعب: في وفي أبي الزناد عجب، كنت أنا وهو في كفالة عائشة بنت عثمان فما زال يعلو وأسفل حتى بلغنا غايتنا هذه.

قيل لأشعب: لو أنك حفظت الحديث حفظك هذه النوادر، لكان أولى بك. قال: قد فعلت. قالوا: فما حفظت من الحديث؟ قال: حدثني نافع عن ابن عمر عن النبي صلى الله عليه وسلم قال: "من كان فيه خصلتان كتب عن الله خالصاً مخلصاً". قالوا: إن هذا حديث حسن فما هاتان الخصلتان؟ قال: نسي نافع واحدة ونسيت أنا الأخرى.

وقال أشعب: رأيت رؤيا نصفها حق ونصفها باطل. قالوا له: كيف ذلك؟ قال: رأيتني أحمل بدرة، فمن شدة ثقلها علي كنت أسلح في ثيابي، ثم انتبهت فإذا أنا بالسلاح ولا بدرة.

ساوم أشعب رجلاً بقوس، فقال له: أقل ثمنها دينار. قال أشعب: والله أنك رميت بها طائراً في جو السماء فوق مشويماً بين رغيفين ما اشتريتها منك بدينار أبداً.

وقيل لأشعب: خفت صلاتك. قال: إن لم يخالطها رياء.

وضرب الحجاج أعرابياً سبعمئة سوط، وهو يقول عند كل سوط. شكراً لك يا رب. فلقبه أشعب، فقال: أتدري لم ضربك الحجاج سبعمئة سوط؟ قال: ما أدري. قال: لكثرة شكرك الله. يقول الله: "لئن شكرتم لأزيدنكم" فقال الأعرابي:

يا رب لا شكراً فلا تزدني

أسأت في شكرك فاعف عني

باعد ثواب الشاكرين مني

وسأل رجل من أشعب أن يسلفه ويؤخره فقال: هاتان حاجتان، فإذا قضيت إحداهما فقد أنصفت. قال له الرجل: رضيت قال: فأنا أو حرك ما شئت ولا أسلفك.

أبو حاتم عن الأصمعي عن أبي القعقاع. قال: رأيت أشعب في السوق يبيع قطيفة، ويقول للمشتري: أريد أن أبرأ إليك من عيب. قال: وما ذاك؟ قال: يحترق تحتها من دفن فيها.

قال أشعب: من بال ولم يضطر كتب من الكاظمين الغيظ.

وقيل لأشعب: هل خلق أطعم منك؟ قال: بلى، أمي؛ فإني كنت إذا جئتها بفائدة قد أعطيتها قالت: ما جئت به؟ فأهجمي لها الشيء حرفاً حرفاً. ولقد أهدي لنا مرة غلام قالت: ما جئت به؟ قلت: غين. قالت: ثم ماذا؟ قلت: لام ألف ميم. فأغمي عليها، وجعلت تضطر. ولو أحرمتها به جملة لطار قلبها فرحاً.

وقيل له: ما بلغ من طمعك؟ قال: لم أنظر إلى اثنين يتساران إلا حسبت أنهما يأمران لي بشيء.

ونظر أشعب إلى رجل قبيح الوجه، فقال: ألم ينهكم سليمان بن داود أن تخرجوا بالنهار.

ومر أشعب برجل نجار يعمل طبقاً فقال له: زد فيه طوقاً واحداً تفضل به علي. قال: وما يدخل عليك من ذلك؟ قال: لعل يوماً يهدى إلي فيه شيء.

قال الأصمعي: أخبرني هارون بن زكريا عن أشعب قال: أدركت الناس يقولون: قتل عثمان. قال الأصمعي: وعاش أشعب إلى زمان المهدي ورأيته.

دخل رجل على الأعمش يسأله عن مسألة، فرد عليه فلم يسمع، قال له: زدني في السماع يرحمك الله. قال ما ذلك لك، ولا كرامة. قال: فبيني وبينك رجل من المسلمين. قال: فخرجا إلى الطريق، فمر بهما شريك القاضي فقال: إني حدثت هذا بحديث فلم يسمع، فسألني أن أزيده في السماع لأنه ثقيل السمع وزعم أن ذلك واجب له، فأبيت. قال له شريك: عليك أن تزيده، لأنك تقدر أن تزيد في صوتك، ولا يقدر أن يزيد في سمعه.

أت ليلة الشك من رمضان، فكثرت الناس على الأعمش يسألونه عن الصوم، فضجر، ثم بعث إلى بيته في رمانة فشققها ووضعها بين يديه، فكان إذا نظر إلى رجل قد أقبل يريد أن يسأله تناول حبة فأكلها، فكفى الرجل السؤال ونفسه الرد.

قال رقية بن مصقلة: سفه علينا الأعمش يوماً، فقالت امرأته من وراء الستر: احملوا عنه، فوالله ما يمنعه من الحج منذ ثلاثة سنة إلا مخافة أن يلطم كربه، أو يشتم رفيقه.

طلبت بنت الأعمش من الأعمش حاجة، فحججها بالرد، فقالت: والله ما أعجب منك، ولكني أعجب من قوم زوجوك.

ودخل رقية بن مصقلة على الأعمش، فقال: إنا والله لنأتينك فما تنفعنا، وتختلف عنك فما تضرنا، وإن الوقوف إليك لذل، وإن تركك لحسرة، تسأل الحكمة فكأنما تسعط الخردل، وما أشبهك إلا بالصماخيون، فإنه كربه الشربة، نافع للمعدة. فرفع رأسه الأعمش وقال: من هذا المتكلم؟ فقيل له: رقية بن مصقلة. فنكس رأسه.

وقال رجل من تلاميذ الأعمش: صنعت للأعمش طعاماً، ثم دعوته، فمضى معي وأنا أقوده، حتى سقطت رجله في حفرة يعملها الصبيان للكرة، فقال:

ما هذا؟ قلت: حفرة يعملها الصبيان للكرة. قال: لا، ولكنك حفرتها لتقع رجلي فيها. والله لا أكلت عندك يومي هذا طعاماً. قال: فحملت الطعام

إليه، ثم صنعت له بعد ذلك طعاماً ودعوته إليه، فقال: ادخل بنا الحمام قبل ذلك؟ فأدخلته الحمام، فلما جئت أن أصب الماء الحار على رأسه قال: ما

دعاك إلى هذا؟ أردت أن تسلق قفائي، والله لا أكلت عندك يومي هذا طعاماً! قال: فحملت الطعام إليه.

وكثر الشعر على الأعمش فقلنا له: لو أخذت من شعرك؟ قال: لا جد حجماً يسكت حتى يفرغ. قلنا له: فإننا نأتيك بحجام ونتقدم إليه أن يسكت حتى يفرغ. قال: فافعلوا. قال: فأتيناه بحجام وأعدنا إليه أن لا يتكلم حتى ينقضي أمره، فبدأ الحجام بجلقه، فلما أمعن في حلقه سأله عن مسألة، فنفض ثيابه وقام بنصف رأسه مخلوقاً، حتى دخل بيته؛ ثم جثنا بغيره، فقال: لا والله لا أخرج إليه حتى تصوموه أو تحلفوه. فحلفناه ألا يسأله عن شيء. فخرج إليه.

ولمحمد بن مطروح الأعرج من التبرم المليح، والضجر الموقع، ما هو أحسن من هذا وأوقع. وسأله رجل يوماً: ما تقول يرحمك الله في رجل مات يوم الجمعة، أيعذب عذاب القبر؟ قال: يعذب يوم السبت. وقال له آخر: أتجد في بعض الحديث أن جهنم تخرب؟ قال: ما أشقاك إن اتكلت على خراجها.

واستسقى بالناس يوماً، فأسرع بالصلاة قبل أن يتوائى الناس، فلما انصرف تلقاه بعض الوزراء، فقال له: أسرعت أبا عبد الله. قال: ليس علينا أن ننتظر حتى تشربوا وتأكلوا.

وكانت لقومس الكاتب منه مثزلة وجوار، وكان يتحفه بما أمكنه من الهدايا، وكانت صلاته معه في الجامع والأعرج صاحب الصلاة، فإذا حضرت الصلاة ولم يحضر قومس قال بعض القومة: أنت يا شيطان، كلم هؤلاء الكلاب لا يقيموا الصلاة حتى يأتي ذا الختير. فكان بره في حبس الصلاة عليه براً العقوق خير منه.

وكان يجلس إليه خصي لزياب، وقد حجج وتنسك ولزم الجامع، فيتحدث في مجلسه بأخبار زرياب، ويقول: كان أبو الحسن رحمه الله يقول كذا وكذا. فقال له الأعرج: من أبو الحسن هذا؟ قال: زرياب. قال: بلغني عنه أنه كان أحرق الناس لاست خصي.

وسأله مرة وقال له: ما تقول في الكبش الأعرج. أيجوز في الأضحية؟ قال: نعم والخصي أيضاً مثلك.

وسمع أبو يعقوب الخريمي منصور بن عمار صاحب المجالس، يقول في دعائه: "اللهم اغفر لأعظمتنا ذنباً، وأقسناً قلباً، وأقربنا بالخطيئة عهداً، وأشدنا على الدنيا حرصاً". فقال له: امرأتي طالق إن كنت دعوت إلا لإبليس.

الأصمعي قال: حدثنا بعض شيوخنا عن ابن طاوس قال: أقبلت إلى عبد الله بن الحسن، فأدخلني بيتاً قد نجد بالرهاوي والميساني، وكل فرشة شريفة. قال: فبسطت نطعاً وجلست عليه، وابناه محمد وإبراهيم صبيان يلعبان، فلما نظرا إلي قال أحدهما لصاحبه: ميم. فقال الآخر: جيم. فقلت أنا: نون واو نون. فاستغرا ضحكا وخرجا إلى أبيهما.

أبو زيد قال: سكر حائك من الزط، فحلف بالطلاق ليغنيه أبو علي الأشرس، فمضى معه جماعة إلى أبي علي، فأخبروه، وقالوا: سكر وامتألاً وحلف بالطلاق لتغنيه. فأقبل على الحائك، فقال: يا مرد سبز، يا مرد خش يا مرد تر، إياك أن تعود.

قال أبو زيد: تفسيره: ياسمين أخضر، ياسمين طيب، ياسمين رطب.

وكان شيخ من البخلاء يأتي إلى ابن المقفع، فألح عليه يسأله الغداء عنده، وفي كل ذلك يقول له: أترى أنك تراني أتكلف لك شيئاً؟ لا والله، لا أقدم لك إلا ما عندي. فأجابه يوماً، فلما أتاه إذا ليس عند ولا في منزله إلا كسرة يابسة وملح جريش. ووقف سائل بالباب، فقال له: بورك فيك. فألح عليه في السؤال، فقال له: لئن خرجت إليك لأدقن ساقيك! فقال ابن المقفع للسائل: أنك والله لو علمت من صدق وعيده ما علمت من صدق وعده لم تراده كلمة، ولا وقفت طرفة عين.

مر بركة بن مصقلة رجل زاهد غليظ الرقبة، فقال: هذا رجل زاهد، والعلامات فيه بخلاف ذلك. فقال له رجل: أكلمه بذلك أصلحك الله، لئلا تكون غيبة؟ قال: كلمه حتى تكون نغمة.

قال شريك بن عبد الله القاضي: سبغ من العجائب: عمياء منتقبة، وسوداء مختنبة، وخصي له امرأة، ومخنت يؤم قوماً، وأموي شيعي، ومخعي مرجي، وعربي أشقر. ثم قال شريك: من المحال عربي أشقر.

قالوا: كانت في أبي عمرو ضرار بن عمرو ثلاثة من المحال: كان كوفياً معتزلاً، وكان من بني عبد الله بن غطفان، ويرى رأي الشعوبية، ومحال أن

يكون عربي شعوبياً. ومات وهو ابن سبعين سنة.

وقيل لشريح القاضي: أيهما أطيب: اللوز ينق أو الجوز ينق؟ فقال: لا أحكم عن غائب.

وسأل رجل عمر بن قيس عن الحصاة من حصى المسجد يجدها الإنسان في ثوبه أو خفه أو جبهته؟ فقال له: ارم بها. قال الرجل: زعموا أنها تصيح

حتى ترد إلى المسجد. قال: دعها تصيح حتى ينشق حلقها. قال الرجل: أولها حلق؟ قال: فمن أين تصيح.

وسئل عامر الشعبي عن المسجد الحزب أجماع فيه؟ قال: نعم، ويخراً فيه.

الأصمعي قال: ولي رجل مقل قضاء الأهواز، فأبطأت عليه أرزاقه، وحضر الأضحى ليس عنده ما يضحي به ولا ما ينفق، فشكا ذلك إلى امرأته،

وأخبرها بما هو فيه من الضيق، وأنه لا يقدر على الأضحى. فقالت له: لا تغتم، فإن عندي ديكاً جليلاً قد سمنته، فإذا كان يوم الأضحى ذبحناه. فبلغ

جيرانه الخبر، فأهدوا له ثلاثين كبشاً وهو في المصلى لا يعلم، فلما صار إلى منزله ورأى ما فيه من الأضحى، قال لا مرأته: من أين هذا؟ قالت: أهدى

لنا فلان وفلان وفلان. حتى سمت جماعتهم. فقال لها: يا هذه تحفظي بديكنا هذا، فهلو أكرم على الله من إسحاق بن إبراهيم، إنه فدي بكبش واحد،

قد فدي ديكنا هذا بثلاثين كبشاً.

خرج أبو دلامة مع المهدي في مصاد لهم، فعن لهم ظي فرماه المهدي فأصابه، ورمى علي بن سليمان فأخطأ وأصاب الكلب، فضحك المهدي وقال

لأبي دلامة: قل. فقال:

شك بالسهم فؤاده

ن رمى كلباً فصاده

ل امرئ يأكل زاده

قد رمى المهدي ظيباً

وعلي بن سليما

فهنيئاً لهما ك

وكتب أبو دلامة إلى عيسى بن موسى، وهو والي الكوفة، رقعة فيها هذه الأبيات:

عليك ورحمة الله الرحيم

من الأنصار قبح من غريم

لزوم الكلب أصحاب الرقيم

ونصف النصف في صك قديم

حبوت بها شيوخ بني تميم

إذا جننت الأمير فقل سلام

وأما بعد ذلك فلي غريم

لزوم ما علمت بباب داري

له مائة علي ونصف أخرى

دراهم ما انتفعت بها ولكن

ودخل أبو دلامة على المهدي، وعنده محمد بن الجهم وزيره، وكان المهدي يستثقله فقال له: أبا دلامة، والله لا تبرح مكانك حتى تهجو أحد الثلاثة.

فهم أبو دلامة بهجاء ابن الجهم، خاف شره، فرأى أن هجاء نفسه أقل ضرراً عليه، فقال:

فليس من الكرام ولا كرامه

وخنزيراً إذا وضع العمامه

كقرد ما تفارقه الدمامه

بقرى العراق وأنت ذو وفر

ألا أبلغ لديك أبا دلامة

إذا لبس العمامة كان قرداً

وإن لزم العمامة كان فيها

وعرض أبو دلامة ليزيد بن مزيد، وهو قادم من الري، فأخذ بعنان فرسه وأنشده:

إني حلفت لئن رأيتك سالماً

فقال له: أما الصلاة على النبي صلى الله عليه وسلم، وأما الدراهم فيألى أن أرجع إن شاء الله. فقال له: لا تفرق بينهما، لا فرق الله بينك وبين محمد في الجنة! فاستسلفها من أصحابه وصبها في حجره حتى أثقله.

ودخل أبو دلامة على المهدي فأسمعه مديحاً له فيه، فأعجبه وقال له: سل حاجتك. قال: كلب صيد أصطاد به. قال: قد أمران لك بكلب تصطاد به. قال: وغلام يقود الكلب. قال: وغلام يقود الكلب. قال: وخادم تطبخ لنا الصيد. قال: وخادم. قال: ودار نسكنها. قال: وداراً تسكنها. قال: وجارية أوي إليها. قال: وجارية. قال: بقي الآن المعاش. قال: قد أقطعناك ألف جريب عامر، وألف جريب غامرة. قال: وما الغامرة؟ قال: التي لا تعمّر. قال: فأنا أقطع أمير المؤمنين خمسين ألفاً من فيافي بني أسد. قال: فإننا نجعلها عامرة كلها. قال: فيأذن أمير المؤمنين في تقبيل يده. قال: أما هذه فدعها. قال: ما منعني شيئاً أيسر على أم عيالي فقدأ منه.

المضحكات

أبو الحسن المدائني قال: خطب رجل من بني كلاب امرأة فقالت أمها: دعني حتى أسأل عنك. فانصرف الرجل فسأل عن أكرم الحي عليها، فدل على شيخ منهم كان يحسن المحضر في الأمر، فسأله عنه، فأتاه فسأل أن يحسن عليه الثناء، وانتسب له، فعرفه. ثم إن العجوز غدت عليه فسألته عن الرجل، فقال: أنا أعرف الناس به. قالت له: فكيف لسانه؟ قال: مدره قومه وخطيبهم. قالت: فكيف شجاعته؟ قال: منيع الجار، حامي الذمار. قالت: فكيف سماحته؟ قال: ثمال قوم وربيعهم. وأقبل الفتى فقال الشيخ: ما أحسن والله ما أقبل، ما اتثنى ولا انحنى. ودنا الفتى فسلم، فقال الشيخ ما أحسن والله ما سلم، ما فار ولا ثار. ثم جلس فقال الشيخ: ما أحسن والله ما جلس، ما دنا ولا نأى. ثم ذهب الفتى ليتحرك فضرك، فقال الشيخ: ما أحسن والله ما شرط، ما أطنها ولا أغنها، ولا بربرها ولا قرقرها. ونهض الفتى حجلاً، فقال: ما أحسن والله ما نهض، ما ارقد ولا اقطوطى. فقالت العجوز: حسبك يا هذا، وجه إليه من يرده، فوالله ولو سلح في ثيابه لزوجناه.

وخطب رجل امرأة فجعل يخطبها وينعظ، فضرب رأس ذكره بيده وقال: مه إليك يساق الحديث.

أبو سويد قال: كان لحبيب بن أوس حمار حصان، وغلام مؤنث، فإذا نزل أخذ الحمار ينهق والغلام يمجج في كلامه. قلنا له: إنما أنت فضيحة، فهل قلت فيهما شيئاً؟ فقال:

وهما مختلفان

لي حمار وغلام

لك وذا رخو العنان

أير ذا ينعظ للنني

لاستراح النقلان

لو بهذا عف هذا

محمد بن الحجاج البزار، وكان راوية بشار قال: قال بشار ذات يوم يعبث، وكان مات له حمار قبل ذلك، قال: رأيت حماري البارحة في النوم، فقلت له: ويلك ما لك مت؟ قال: إنك ركبتني يوم كذا وكذا فمررنا على باب الأصبهاني، فرأيت أتاناً عند بابه، فعشقتها فمت. وأنشدني:

نحو باب الأصبهاني

سيدي مل بعناني

بثناياها الحسان

تيممتي يوم رحنا

سل جسمي وبراني

وبغنج ودلال

مثل خد الشيقران

ولها خد أسيل

فقال له رجل من القوم: يا أبا معاذ. ما الشيقران؟ قال: هذا من غريب الحمير. فإذا لقيتم حمراً فسلوه. وقيل لأعرابي وهو واقف على ركية مالحة: كيف هذا الماء؟ قال: يخطئ القلب، ويصيب الاست. وأخذ رجل شرب، فأتي به الوالي فقال: استنكهوه. فقالوا: إن نكته لا تبين عنه. قال: فقيتوه. فقال الشارب: فإن لم أقم نبياً فمن يضمن لي عشائي؟ ورافق رجل أعرابياً في سفر فقال له: أنا والله أشتي كشكية! ومد بها صوته فضرط. فقال له صاحبه: ما أسرع ما نفختك يا ابن أم. أبو الخطاب قال: كان عندنا رجل أحذب فسقط في بئر فذهبت حدبته وصار آدر، فدخلوا يهنتونه، فقال: الذي جاء شر من الذي ذهب!. أبو حاتم قال: رمي رجل أعور بنشابة، فأصاب عينه الصحيحة فقال: أمسينا وأمس الملك لله. وقال رجل للحجاز: ولدت امرأتى لستة أشهر. فقال: لقد كان أنأؤها ضارباً.

قالوا: أتي الحجاج بسقط قد أصيب في بعض خزائن كسري مقفل، فأمر بالقفل فكسر فإذا فيه سقط آخر مقفل، فقال الحجاج: من يشتري مني هذا السقط بما فيه ولا أدري ما فيه؟ فتزايد به أصحابه، حتى بلغ خمسة آلاف دينار، فأخذ الحجاج ونظر فيه، فقال: ما عسى أن يكون فيه إلا حماقة من حماقات العجم! ثم أنفذ البيع وعزم المشتري أن يفتحه ويريه ما فيه، ففتحه بين يديه فإذا فيه رقعة مكتوب فيها: من أراد أن تطول ليحته فليمشطها من أسفل.

الزبير بن بكار قال: جاءت امرأة إلى ابن الزبير تستعدي على زوجها، وتزعم أنه يصيب جاريتها، فأمر به فأحضر، فسأله عما ادعت، فقال: هي سوداء، وخادمها سوداء، وفي بصري ضعف، ويضرب الليل برواقه وإنما أخذ من دنا مني. قال: وخطب رجل خطبة نكاح، وأعرابي حاضر، فقال: الحمد لله، أحمده وأستعينه، وأتوكل عليه، وأشهد أن لا إله إلا الله وحده لا شريك له، وأن محمداً عبده ورسوله، حي على الصلاة، حي على الفلاح. فقال الأعرابي: لا تقم الصلاة فإني على غير وضوء. وقال: سمعت أبا موسى عيسى الضمري يقول: دخلت الحمام فإذا بأعمى قد ركب أعمى فقال له: ما هذا؟ قال: ظلمات بعضها فوق بعض. وقال العوام بن حوشب: قال لي عيسى بن موسى: من أرضعتك؟ قلت: ما أرضعني خلق سوى أُمي. قال: قد علمت أن ذلك الوجه القبيح لا يصبر عليه سوى أمك.

كان رجل مقيت قد تنسك، وتشبه بالحسن البصري، فشهد جنازة، فوقف على القبر وإلى جنبه رجل مليح، فضحك، فقال له الناسك: ما أعددت لهذه الحفرة يا فلان؟ قال: قذفت فيها الساعة.

ودخل أعرابي الحمام فضرط، فقال نبطي كان في الحمام: جبحان الله! فقال له الأعرابي: يا ابن اللخناء لكن ضرطتي أفصح من تسبيحك. وقيل لأعرابي: مالك لا تجاهد؟ قال: والله إني لأبغض الموت على فراشي، فكيف أن أسعى إليه راكضاً. واستشهدوا أعرابياً على رجل وامرأة زنياً فقيل له: رأيتك داخلاً وخارجاً كالمرود في المكحلة؟ فقال: والله ما كنت أرى هذا لو كنت جلدته استه. وجد منبوذ بصفة العراق وعند رأسه مائة دينار ورقعة مكتوب فيها: "أنا الشقي ابن الشقية، وابن القدح والرطلية، وابن البغي والبغية، وابن الأبقال الطرية، من كلفني فله هذه المائة".

السندي بن شاهك قائد الخليفة، قال: بعث إلي المأمون بريداً وأنا بخراسان، فطويت المراحل حتى أتيت باب أمير المؤمنين وقد هاج بي الدم وانصرفت إلى منزلي، فقلت: أحضروا إلي الحجام. قالوا: هو محموم. قلت: فهاتوا حجماً غيره ولا يكون فضولياً. فأتوني به، فما هو إلا أن دارت يدها على وجهي حتى قال: جعلت فداك، هذا وجه ما أعرفه، فمن أنت؟ قلت: السندي بن شاهك. قال: قال: ومن أين قدمت فإني أرى أثر السفر عليك؟ قلت: من خراسان. قال: وأي شيء أقدمك؟ قلت: وجه إلي أمير المؤمنين بريداً، ولكن إذا فرغت سأخبرك بالقصة على وجهها. قلت: وتعرفني بالمنازل والسكك التي جئت عليها؟ قلت: نعم. قال: فما كان إلا أن فرغ ودخل رسول أمير المؤمنين ومعه كركي، فقال: إن أمير المؤمنين يقرئك السلام، وهو يعذرك فيما هاج بك من الدم، وقد أمرك بالتخلف في منزلك هذا إلى أن تغدوا عليه إن شاء الله. ويقول: ما أهدي إلينا اليوم غير هذا

الكركي، شأنك به. قال: فالتفت السندي إلى جلسائه فقال: ما يصنع بهذا الكركي؟ فقال الحجام: يطبخ سكباجا. قال السندي: يصنع كما قال. وحلف على الحجام أن لا يبرح، فحضر الغداء فتغدينا وهو ينظر، ثم قدم الشراب فلما دارت الأقداح قلت: يعلق الحجام في العقابين. ثم قلت: جعلت فداك، إنك سألتني عن المنازل والسكك التي قدمت عليها، وأنا مشغول في ذلك الوقت وأنا أقصها عليك فاسمع: خرجت من خراسان وقت كذا، فترلت بمكان كذا، يا غلام: اضرب. فضربه عشرة أسواط، ثم قلت: وخرجت منه إلى مكان كذا، يا غلام أوجع. فضربه عشرة أسواط أخرى، ولم يزل يضربه لكل سكة عشرة حتى انتهى إلى سبعين سوطاً، فالتفت إلي الحجام وقال: يا سيدي: سألتك بالله إلى أين تريد أن تبلغ؟ قلت: إلى بغداد. قال: لست تبلغ بغداد حتى تقتلني، قلت: فأتركك على ألا تعود؟ قال: والله لا عدت أبداً. قال: فتركته وأمرت له بسبعين ديناراً، فلما دخلت على المأمون أخبرته الخبر فقال: وددت أنك بلغت به إلى أن تأتي على نفسه.

أنت جارية أبا ضمضم فقالت: إن هذا قبلي. قال لها: قبليه، فإن الله يقول: "والجروح قصاص". وارتفع رجلان إلى أبي ضمضم، فقال أحدهما: أبقاك الله، إن هذا قتل ابني. قال: هل لابنك أم؟ قال: نعم، قال: ادفعها إليه حتى يولدها لك ولداً مثل ولدك، ويرببه حتى يبلغ ولدك ويرأ به إليك.

وكان بالمدينة أعمى يكنى أبا عبد الله، أتى يوماً يغتسل من عين، فدخل بثيابه فقيل له: بللت ثيابك. قال: تبتل علي أحب إلي من أن تحف علي غيري. وفي كتاب للهند أن ناسكاً كان له سمن في جرة معلقة على سريره، ففكر يوماً وهو مضطجع على السرير وبيده عكاز، فقال: أبيع الجرة بعشرة دراهم، وأشتري بها خمسة أعتر، فأولدهن في كل سنة مرتين، فيبلغ النتائج في عشر سنين مائتين وأبيعهن فأبتاع بكل عشرة بقرة، ثم ينمي المال بيدي، فأبتاع العبيد والإماء، ويولد لي ولد فأخذ به في الأدب. فإن عصاني ضربته بهذه العصا. وأشار بالعصا، فأصاب الجرة فانكسرت، وصب السمن على وجهه ورأسه.

الزبير قال: حدثنا بكار بن رباح قال: وكان بمكة رجل يجمع بين الرجال والنساء ويحمل لهم الشراب فشكى إلى عامل مكة فغربه إلى عرفات فبني بها منزلاً، وأرسل إلى إخوانه، فقال: ما يمنعكم أن تعاودوا ما كنتم فيه؟ قالوا: وأين بك وأنت في عرفات؟ فقال: حمار بدرهم، وقد صرتم على الأمن والتهمة. ففعلوا فكانوا يركبون إليه حتى فسدت أحداث مكة، فعادوا بشكايتهم إلى والي مكة، فأرسل فيه فأتي به فقال: يا عدو الله، طردتك من حرم الله فصرت بفسادك إلى المشعر الأعظم. فقال: يكذبون علي أصلح الله الأمير. فقال: دليلنا أصلحك على ما نقول أن تأمر بحمير مكة فتجمع وترسل بها أمناء إلى عرفات ويرسلونها، فإن لم تقصد لمتزلة من بين المنازل كعادتها إذ ركبها السفهاء فنحن غير مبطلين. فقال الوالي: إن في هذا دليلاً وشاهداً عدلاً. فأمر بحمير من حمير الكراء فجمعت ثم أرسلت، فصارت إلى منزله كما هي من غير دليل، فأعلمه بذلك أمناؤه فقال: ما بعد هذا شيء، جردوه. فلما نظر إلى السباط قال: لا بد أصلحك الله من ضربي؟ قال: نعم يا عدو الله. قال: والله ما في ذلك من شيء هو أشد علي من أن يشمت بنا أهل العراق ويضحكوا منا ويقولوا: أهل مكة يجيزون شهادة الحمير. قال: فضحك الوالي وخلق سبيله.

ولقي رجل امرأة جميلة فجعل يعرضها، وألح عليها، فدخلت درباً وكشفت عن وجهه قد شاكر البدر حسنه وقالت له: انظر ما يسخن عينك، ويقوم له أيرك، وينيكه غيرك.

وهنا رجل رجلاً في عرسه، فقال: باليمن والبركة، وشدة الحركة، والظفر في المعركة. الهيثم بن عدي قال: بينا أنا بكناسة الكوفة إذا برجل مكفوف البصر قد وقف على نخاس من نخاسي الدواب، فقال له: أبغي حماراً ليس بالصغير المختقر، ولا بالكبير المشتهر، إذا خلا له الطريق تدفق، وإذا كثرت الزحام ترفق، وإن أقللت علفه صبر، وإن أكثرته شكر، وإذا ركبته هام، وإن ركبته غيري نام. قال له النخاس، يا عبد الله، اصبر فإذا مسخ الله القاضي حماراً أصبت به حاجتك إن شاء الله.

قال: ودخل رجل السوق في شراء فرس، فقال له النخاس: صفه لي. فقال: أريده حسن القميص، جيد الفصوص، وثيق العصب، نقي القصب، يشير بأذنيه، ويتشوف برأسه، ويخطر بيديه، ويدحو برجليه، كأنه موج في لجة، أو سيل في حدور، أو منحط من جبل. فقال له النخاس: نعم كذلك كان

صلوات الله عليه. قال: إنما أصف لك فرساً، قال: ما حسبتك إلا في وصف نبي منذ اليوم.
قال: ودخل أبو نخيلة اليمن فلم ير بها أحداً حسناً، ورأى نفسه وكان قبيحاً أحسن من بها، فقال:

منذ دخلت اليمن

أحسن من فيها أنا

محمد بن إسحاق قال: قال سفيان بن عيينة: دخلت الكوفة في يوم فيه رذاذ من مطر، فإذا أنا بكناس قد فتح كنيفاً، ووقف على رأس البئر، وهو يقول:

لم أر غيري حسناً

ففي حر أم بلدة

هذه روضة وهذا غدير

بلد طيب ويوم مطير

ثم قال لصاحبه: انزل فيها. فأبى عليه، فترل وهو يقول:

وأخو الحرب من أطاق النزولا

لم يطيقوا أن ينزلوا ونزلنا

الأصمعي قال: بينا أنا سائر بالفيفاء، إذ سمعت صوتاً يقول:

ليس مثلي يحل دار الهوان

جنبوني ديار هند وسعدى

قال: فالتفت يمنة ويسرة فإذا أنا بالصوت يخرج من حش، فأقبلت حتى وقفت عليه، فإذا بحشاش وبيده كأس، فقلت: يا سبحان الله، أنت في بيت عذرة وتقول:

ليس مثلي يحل دار الهوان

فإني لك، وأي هوان أكثر مما أنت فيه؟ قال: فرفع رأسه إلي وقال:

أنا في الملك ما سقتني الدنان

لا تلمني فإنني نشوان

فقلت: ما هو إلا كقول الآخر:

من قر عيناً بعيشه نفعه

ولعلي بن الجهم:

فليت هذا ذنبكم عندي

أعظم ذنبي عندكم ودي

لا يعرف الشكوى من الوجد

يا حسرتاً أهلك وجداً بمن

حماد الرواية قال: أتيت مكة فجلست في حلقة منها، فيها عمر بن أبي ربيعة القرشي، وإذا هم يتذاكرون العذريين وعشقتهم وصباتهم، فقال عمر بن أبي ربيعة: أحدثكم عن بعض ذلك، كان لي خليل من عذرة يكنى أبا مسهر وكان مستهتراً بأحاديث النساء، يصبو بهن وينشد فيهن، على أنه كان لا عاهر الخلوة، ولا حديث السلوة، وكان يوافي الموسم في كل سنة، فإذا أبطأ ترجمت له الأخبار، واستوقفت له السفار.

وإيه راث عني سنة من ذلك خبره، حتى قدم وفد عذرة، فأتيت القوم أنشد صاحبي فإذا رجل يتنفس الصعداء، فقال: أعن أبي مسهر تسأل؟ قلت: نعم. قال: هيهات هيهات! أصبح والله أبو مسهر لا حياً فيرجى ولا ميتاً فينسى، ولكنه كما قال الشاعر:

صحيحاً ولا أقضي به فأموت

لعمرك ما حبي لأسماء تاركي

فقلت: وما لذي به؟ قال: كمثل الذي بك، من الهماك كما في الضلال، وجركما أذيال الخسار، كأنكما لم تسمعا بجنة ولا انز. قلت: فما أنت منه يا ابن أخي؟ قال: أخوه. قلت: والله إنك وأحاك كالوشى والبجاد، لا يرقعك ولا ترقععه. ثم انطلقت وأنا أقول:

ولما يرح في القوم قيس بن مهجع
ومهما يقل أسمع وإن قلت يسمع
أمن زفرات هجن من بين أضلع
سألقي كما لاقيت في الحب مصرعي

أرائحة حجاج عذرة روحة
خليلي يشكو ما يلاقي من الهوى
الأليت شعري أي شيء أصابه
فلا يبعدنك الله خلاً فإنني

قال: فلما حججت ووقفت بعرفات إذا به قد أقبل، وقد تغير لونه وساءت هيئته، وما عرفته إلا بناقته، فأقبل "فأدنى ناقته من ناقتي" حتى خالف بين أعناقهما، ثم اعتنقني، وجعل يبكي فقلت له: ما الذي دهاك؟ قال: برح الخفاء، وكشف الغطاء. ثم أنشد يقول:

لقد علمت بأن الحب داء
لزال الظلم وانكشف الغطاء
حتوفهم الصبابة واللقاء
فذاك العبد يبكيه الرشاء

لئن كانت عذيلة ذات مطل
وإنك لو تكلفت الذي بي
فإن معاشرتي ورجال قومي
إذا العذري مات بحتف أنف

فقلت: يا أبا مسهر، إنها ساعة عظيمة تضرب فيها أكباد الإبل من شرق الأرض وغربها، فلو دعوت الله كنت قمناً أن تظفر بجأجتك، وتنصر علي عدوك فجعل يدعو حتى إذا مالت الشمس للغروب، وهم الناس أن يفيضوا سمعته يهينهم بشيء، فأصغيت إليه مستمعاً فجعل يقول:

من محرم يشكو الصبا ونوحه

يارب كل غدوة وروحه

أنت حسيب الخلق يوم الدوحة

فقلت له: وما يوم الدوحة؟ قال: سأخبرك إن شاء الله، ولو لم تسألني فيمنا نحو المزدلفة فأقبل علي وقال: إني رجل ذو مال كثير، ونعم وشاء، وإني خشيت على مالي عام أول التلف، فأتيت أحوالي كلباً، فأوسعوا لي عن صدر المجلس، وسقوني حمة البئر وكنت منهم في خير أحوال، ثم إني عزمتم على مرافقة أهل ماء لهم يقال له الحوادث، فركبت يوماً فرسي، وعلقت معي شراباً أهدها إلي بعض الكلبيين، فانطلقت حتى إذا كنت بين الحبي ومرعى النعم، رفعت لي دوحه عظيمة، فقلت: لو نزلت تحت هذه الشجرة ثم تروحت مبرداً! ففعلت فشددت فرسي بغصن من أغصانها، ثم جلست تحتها، فإذا بغبار قد سطع من ناحية الحبي، ثم تبينت فبلدت لي شخوص ثلاثة فإذا فارس يطرد مسحلاً وأتانا، فلما قرب مني إذا عليه درع أصفر، وعمامة خز سوداء، فما لبث أن لحق المسحل فطعنه فصرعه، ثم ثني طعنة للأتان، وأقبل وهو يقول:

كرك لأمين على نابل

نطعنهم سلكى ومخلوجة

فقلت له: إنك قد تعبت وأتعبت، فلو نزلت، فثنى رجله فتزل، فشد فرسه بغصن من أغصان الشجرة، ثم أقبل حتى جلس معي، فجعل يحدثني حديثاً ذكرت به قول الشاعر:

جنى النحل في ألبان عود مطافل

وإن حديثاً منك لو تبدلنيه

فبينما هو كذلك، إذ نكت بالسوط على ثنيتيه، فما ملكت نفسي أن قبضت على السوط، فقلت: مه. قال: ولم؟ قلت: إني أخاف أن تكسرهما، إلهما رقيقتان عذبتان.

قال: فرفع عقريته وجعل يتغنى:

ثناياه لم يأتهم وكان له اجرا

إذا قبل الإنسان آخر يشتهي

وقال: ما الذي تعلقت في سرجك؟ قلت: شراب أهدها إلي بعض أهلك، فهل لك فيه؟ قال: ما نكرهه إذا كرهه. فأتيته به، فوضعته بيني وبينه، فلما شرب منه شيئاً نظرت إلى عينيه كأنهما عينا مهابة قد أضلت ولدها، ثم رفع عقيرته يتغنى:

إن العيون التي في طرفها مرض

قتلنا ثم لم يحيين قتلانا

يصرعن ذا اللحم حتى لا حراك به

وهن أضعف خلق الله أركاننا

ثم قمت لأصلح من أمر فرسي، فرجعت وقد حسر العمامة عن رأسه، وإذا غلام كأن وجهه دينار هرقلي، فقلت: سبحانك اللهم ما أعظم قدرتك. قال: كيف؟ قلت: ذلك لما راعني من نورك وبهري من جمالك. قال: وما الذي يروعك من رزق الدواب ونبيش التراب، ثم لا يدري أينعم أم يبؤس؟ قلت: لا يصنع الله بك إلا خيراً. ثم قام إلى فرسه، فلما أقبل برقت لي بارقة من تحت الدرع، فإذا ثدي كأنه حق عاج. قلت: نشدتك الله، امرأة؟ قالت: إي والله، امرأة، تكره العهر، وتحب الغزل. قلت: وأنا والله كذلك. قال: فجلست والله تحدثني ما أفقد من أسها شيئاً، حتى مالت على "الدوحة" سكرى. فاستحسننت والله يا بن أبي ربيعة الغدر، وزين في عيني، ثم إن الله عصمني منه، فما لبثت أن انتهيت معذورة، فلاثت عمامتها برأسها، وأخذت الرمح، وجالت في متن فرسها، فقلت: مضيت ولم تزوديني منك زاداً. فأعطيتي بناهما فتمسحت والله منها كالنبات المطور زهر الثلج. ثم قلت: أين الموعد؟ قالت: إن لي إخوة شوساً وأباً غيوراً، والله لأن أسرك أحب إلي من أضررك. ثم مضت، فكان والله آخر العهد بها إلى يومي هذا، وهي التي بلغتني هذا المبلغ، وأحلتني هذا الحل.

قال: فدخلتني له رقة. فلما انقضى الموسم شددت على ناقتي وشدت على ناقته وحملت غلاماً لي على بعير، وحملت عليه قبة حمراء من آدم كانت لأبي ربيعة، وأخذت معي ألف دينار، ومطرف خز، ثم خرجنا حتى أتينا بلاد كلب، فإذا الشيخ في نادي قومه، فسلمت عليه، فقال: وعليك السلام، من أنت؟ فقلت: عمر بن أبي ربيعة بن المغيرة المخزومي. قال: أنت الكفاء الكفي، الذي لا يرغب عن وصله، والرجل الذي لا يرد عن حاجته. قال: قلت: إني لم آتك لنفسي وإن كنت في موضع الرغبة، ولكنني أتيتكم لابن أختكم العذري. قال: والله إنه لكفاء الحسب، كريم النسب، غير أن بناقي لم يعرفن هذا الحي من قريش. قال: فعرف الجزع من ذلك في وجهي، فقال: أما إني أصنع بك ما لم أصنع لغيرك، أخيرها في نفسها، فهي وما اختارت. فقلت: خيرها. فأرسل إليها أن من الأمر كذا وكذا، فري رأيك. فقالت: ما كنت لأستبد برأي دون رأي القرشي، خيار ما اختار. قال: قدر ردت الأمر إليك. قال: فحمدت الله وصليت على النبي صلى الله عليه وسلم، وقلت: قد زوجتها العذري، وأصدققتها هذه الألف الدينار، وجعلت تكرمتها العبد والبعير والقبة، وكسوت الشيخ المطرف، فسر به، وسألته أن يبني بها من ليلته، فأجابني إلى ذلك، فضربت القبو في وسط الحي، وهديت إليه ليلاً، وبت عند الشيخ في خير مبيت، فلما أصبحت غدوت فقامت بباب القبة، فخرج إلي وقد تبين الجدل فيه، فقلت: كيف كنت بعددي أبا مسهر؟ قال: أبدت لي كثيراً مما كانت أخفته يوم رأيتها فقلت: أقم على أهلك بارك الله لك. ثم انطلقت إلى أهلي وأنا أقول:

كفيت الفتى العذري ما كان نابه

ومتلي لأنتقال النوائب أحمل

أما استحسنت مني المكارم والعلا

إذا صرحت أني أقول وأفعل

حدث أبو محمد الشعبي الوراق، وكان عند باب خراسان على رأس الجسر الأول، عن حماد بن إسحاق عن أبيه إسحاق بن إبراهيم من ميمون الموصلي، قال: بينا أنا ذات يوم عند المأمون، وقد خلل وجهه، وطابت نفسه، إذ قال لي: يا إسحاق، هذا يوم خلوة وطيب. فقلت: طيب الله عيش أمير المؤمنين، وأدام سروره وفرحه. فقال: يا غلمان خذوا علينا الباب، وأحضروا الشراب. قال: ثم أخذ بيدي وأدخلني في مجالس غير المجالس التي كنا فيها، وإذا قد نصبت الموائد، وأصلح كل ما كان يحتاج إليه الحال، حتى كأنه شيء قد كان تقدم فيه. قال: فأكلنا وأخذنا في لذتنا وشربنا، فأقبلت الستيرات من كل ناحية بضروب من الغناء، وصنوف من اللهو، فلم نزل على ذلك إلى آخر النهار، فلما غربت الشمس قال لي: يا إسحاق، خير أيام الفتى أيام الطرب. قلت: هو والله ذاك يا أمير المؤمنين. قال: فإني قد فكرت في شيء، فهل لك فيه؟ قلت: يا سيدي أو أتأخر عن رأي أمير المؤمنين، أطال الله بقاءه. قال: لعلنا نباكر الصبوح في غدوتنا هذه، وقد عزمت على دخلة إلى دار الحرم، فكن بمكانك ولا ترم، فإني أوافيك عن قريب. قال:

قلت: السمع والطاعة يا أمير المؤمنين. ثم هض إلى دار النساء، فما عرفت له خيراً إلى أن ذهب من الليل عامته.
قال إسحاق: وكان المأمون من أشغف خلق الله بالنساء، وأشدهم ميلاً إليهن واستهتاراً بهن، وعلمت أن النبيذ قد غلب عليه، وأهن قد أنسينه أمري، وما كان تقدم إلي ووعدي من سرعة رجوعه، فقلت في نفسي: هو أعزه الله في لذته وأنا هنا هنا في غير شيء، وفي بقية، وعندى صبية كنت قد اشتريتها، وكانت نفسي متطلعة إلى افتضاها، فنهضت مسرعاً عند ذكرها فقال الخادم: على أي شيء عزمتم؟ وإلى أين تريد؟ قلت: أريد الانصراف. قالوا: فإن طلبك أمير المؤمنين؟ قلت: إنه أدام الله سروره قد شغله الطرب ولذة ما هو فيه عن طلبه، وقد كان بيني وبينه موعد قد جاوز وقته، ولا وجه للجلوسي.

قال إسحاق: وكنت مقدم الأمر في دار المأمون، مقبول القول فيه، لا أعارض في الشيء إذا أوامت إليه، فخرجت مبادراً إلى باب الدار، فلقيني غلمان الدار، وأصحاب النوبة. فقالوا: يا سيدنا، إن غلمانك قد انصرفوا وكانوا قد جاءوك بداية، فلما علموا بمبيتك انصرفوا. قلت: لا ضير، فأنا أتمشى إلى البيت وحدي. قالوا: نخضرك دابة من دواب النوبة. قلت: لا حاجة لي في ذلك. قالوا: فمضي بين يديك بمشعل. قلت: لا، ولا أريد أيضاً ذلك. وأقبلت وحدي نحو البيت، حتى إذا صرت ببعض الطريق أحسست بحركة البول، فعدلت إلى بعض الأزقة، لئلا يجوز بي أحد ممن العوام فيراني أبول على الطريق، فبلت حتى إذا قمت للتمسح ببعض الحيطان إذا أنا بشيء معلق من تلك الدور إلى الزقاق فما تمالك أن تمسحت حتى دنوت إلى ذلك الشيء لأعرف ما هو، فإذا بزنبيل كبير معلق بأربع آذان، وإذا هو ملبس ديباجاً، وفيه أربعة أحبل إبريسم، فلما نظرت إليه وتبينته قلت: والله إن لهذا لسبباً، وإن له لأمرأ. فأمت ساعة أروي في أمره وأفكر فيه، حتى إذا طال ذلك بي قلت: والله لأتجاسرن ولأجلسن فيه كائناً في ذلك ما كان. ثم لففت رأسي بردائي وجلست في جوف الزنبيل، فلما أحس من كان على ظهر الحائط ينقله جذبوا الزنبيل إليهم، حتى انتهوا إلى رأس الحائط، فإذا بأربع جوار، وإذا هن يقلن: انزل بالحرب والسعة، أصديق أم حديد؟ فقلت: لا بل حديد. فقلت: أنت يا حرية بين يديه الشمعة. فابتدرت إحداهن إلى طست فيه شمعة وأقبلت بين يدي، حتى نزلت إلى دار نظيفة بها من الحسن والظرف والنظافة ما حرت له، ثم أدخلتني إلى مجالس مفروضة، ومناص مرصوص، بصنوف من الفرش الذي لم أر مثله إلا في دار ملك أو خليفة، فجلست في أدبي مجلس من تلك المجالس، فما شعرت بعد ساعة إلا بضجة وجلبة وستور قد رفعت من ناحية من نواحي الدار، وإذا بوصائف يتسعين في أيدي بعضهن الشمع، وبعضهن الجامر، يسجر فيها العود والند، وإذا بينهن جارية كأنها تمثال عاج، تتهادى بينهم كالبدر الطالع، بقدر يزرى على الغصون، ودل وشكل، فما تمالكت عند رؤيتها أن نهضت فقالت: مرحباً بك من زائر أتي، وليست تلك عادته. وجلست ورفعت مجلس عن الموضوع الذي كنت فيه. فقالت: كيف كان ذا والله لي ولك، ولا علم كان وقع لي، فما السبب؟ قال: قلت: انصرفت من عند بعض إخواني وظننت أنني على وقت، فخرجت في وقت ضيق وأخذني البول، فأخذت إلى هذا الطريق، فعدلت إلى هذا الزقاق، فوجدت زنبيلاً معلقاً، فحملني النبيذ على أن جلست فيه، فإن كان خطأ فالنبيذ أكسبنيه، وإن كان صواباً فوالله ألهمنيه. قالت: لا ضير إن شاء الله، وأرجوا أن تحمد عواقب أمرك، فما صناعتك؟ قلت: بزاز. قالت: وأين مولدك؟ قلت: بغداد. قالت: ومن أي الناس أنت؟ قلت: من أفنائهم وأوساطهم. قالت: حياك الله وقرب دارك، فهل رويت من الأشعار شيئاً؟ قلت: شيئاً يسيراً. قالت: فذاكرنا بشيء مما حفظت. قلت: جعلت فداك إن للدخل دهشة، وفي انقباض، ولكن تتدني بشيء من ذلك، فالشيء يأتي بالذاكرة. قالت: لعمرى لقد صدقت، فهل تحفظ لفلان قصيدته التي يقول فيها كذا وكذا؟ ثم أنشدتني لجماعة من الشعراء القدماء والمحدثين من أحسن أشعارهم، وأجود أقوالهم، وأنا مستمع أنظر من أي أحوالها أعجب: من ضبطها، أم من حسن لفظها، أم من حسن أدبها، أم من حسن جودة ضبطها للغريب، أم من اقتدارها على النحو معرفة أوزان الشعر؟ ثم قالت: أرجو أن يكون ذهب عنك بعض ما كان من الحصر والانقباض والحشمة. فقلت: إن شاء الله، لقد كان ذلك. قالت: فإن رأيت أن نشدنا من بعض ما تحفظ فافعل. قال: فاندفعت أنشد لجماعة من الشعراء، فاستحسنت نشيدي، وأقبلت تسألني عن أشياء تمر في شعري كالمختبرة لي، وأنا أجيبها بما أعرف في ذلك، وهي مصغية إلي، ومستحسنة لما آتي به، حتى إذا أتيت على ما فيه مقنع قالت: والله ما قصرت، وما توهمت فيك ما ألفت، وما رأيت في أبناء التجار وأبناء السوق مثل ما معك، فكيف معرفتك بالأخبار وأيام الناس؟ قلت: قد نظرت في شيء من ذلك. فقالت: يا جارية أحضرينا ما عندك. فما غابت عنا شيئاً حتى قدمت إلينا مائدة لطيفة، قد جمع عليها غرائب الطعام السري، فقالت: إن المألحة أول الرضاع،

فدونك. فتقدمت، فأقبلت أعتذر بعض الاعتذار وهي مع ذلك تحثني وتضع بين يدي، وإن لمتقسم القلب لما أرى من ظرفها وعقلها، وحسن خفرها، وكثرة أدبها، حتى رفعت المائدة، وأحضرت آنية النبيذ، فوضعت بين يدي صينية وقبينة وقدر ومغسل، وبين يديها مثل ذلك، وفي وسط المجلس من صنوف الرياحين وغرائب الفواكه ما لم أره اجتمع لأحد، إلا لولي عهد أو سلطان؛ قد عبئ أحسن تعبئة، وهيء بأحسن تهيئة.

قال إسحاق: فتناقلت عن الشرب لتكون هي التي تبتدىء. فقالت: ما لي أراك متوقفاً عن الشرب؟ قلت: انتظارك لك. جعلت فداك. فسكبت قدحاً فشربت ثم سكبت قدحاً آخر فشرب، ثم قالت: هذا أوان المذاكرة فإن المذاكرة بالأخبار وذكر أيام الناس مما يطرب. قلت: لعمري أن هذا لمن أوقاته. فاندفعت فقلت: بلغني أنه كان كذا وكذا، وكان رجل من الملوك يقال له فلان بن فلان، وكان من قصته كذا وكذا، حتى مررت بعد أخبار حسان من أخبار الملك وما لا يتحدث به إلا عند ملك أو خليفة، فسرت بذلك سروراً شديداً، ثم قالت: والله لقد حدثني بأحاديث حسان، ولقد كنت تعجبي من أن يكون أحد من التجار يحفظ مثلها، وإنما هي من أحاديث الملوك، وما لا يتحدث به إلا عن ملك أو خليفة. فقلت لها: جعلت فداك، إنه كان لي جار ينادم بعض الملوك، وكان حسن المعرفة، كثير الحفظ، فكان ربما تعطل عن نوبته التي كان يذهب فيها إلى دار صاحبه لشغل يمنعه من ذلك، أو لأمر يقطع، فأمضي إليه، وأعزم عليه وأصير به إلى منزلي، فرمما أخبرني من هذه الأحاديث شيئاً، إلى أن صرت من خاصة أجدانه، ومن كان لا يفارقه. ما سمعت مني فمته أخذته، وعنه استفدته. فقالت: يجب أن يكون هذا كذا. ولعمري لقد حفظت فأحسنت الحفظ، وما هذا إلا لقرينة جيدة، وطبع كريم.

قال إسحاق: وأخذنا في شيء من الشراب والمذاكرة ابتدىء الحديث فإذا فرغت ابتدأت هي في آخر أحسن به حتى قطعنا بذلك عامة الليل، والند والعود وفائق البخور في المجلس يجدد ويسجر، وأنا في حالة لو توهمها المأمون وتأملمها لاستطار فرحاً وسروراً. ثم قالت لي: يا أبا فلان -وكنت قد غيرت عليها اسمي وكنيتي- والله إني لأراك كاملاً، وفي الرجال فاضلاً وإنك لوضئ الوجه، ملبح الشكل، بارع الأدب، وما كان بقي عليك إلا شيء واحد حتى تكون قد برعت وبرزت. فقلت: وما هو يا سيدتي دفع الله عنك الأسوء؟ قالت: لو كنت تحرك بعض الملاهي، أو تترنم ببعض الأشعار. فقلت: والله لقدما اشتهيته، وطالما كلفت به، وحرصت عليه، فلم أرزقه، ولا وجدتني ممن تعلق بشيء منه، فلما طال عنائي به، وكلما تقدمت في طلبه كنت منه أبعد وعنه أذهب، تركته وأعرضت عنه، وإن في قلبي من ذلك لحرقة وحرارة، وإني لمستهتر به مائل إليه، وما أكره أن أسمع في مجلسي هذا من جیده شيئاً لتكمل ليلتي، ويطيب عيشي. قالت: كأنك قد عرضت بنا. فقلت: لا والله، ما هو تعريض، ولا هو إلا تصريح، وقد بدأت بالفضل، وأنت حرية باستتمام ما بدأت به، فقالت: يا جارية، عود. فأحضرت العود فأخذته، فما هو إلا أن حسسته حتى ظننت أن الدار قد سارت بي وبمن فيها، واندفعت تغني بصوت ما ظننت أحداً يغني به، مع صحة إيماء، وجودة ضرب، فقلت: والله لقد أكمل الله فيك خلال الفضل، وحبك بالكمال الرائع، والعقل الوافر، والأخلاق المرضية، والأفعال السنية فقالت: هل تعرف لمن هذا الصوت، ومن غنى به؟ فقلت: لا والله. قالت: الغناء لفلان، والشعر لفلان، وكان من سببه كذا وكذا. فقلت: هذا والله أحسن من الغناء. فلم تزل تلك حالها في كل صوت تغنيه، وهي مع ذلك تشرب وأشرب حتى إذا كان عند انشقاق الفجر أو قبله جاءت عجوز كأنها داية لها، فقالت: أي بنية، إن الوقت قد حضر، فإذا شئت فانهضي.

قال: فلما سمعت مقالها نهضت فقالت: عزمت؟ قلت: إي والله. فقالت: مصاحباً، عليك بستر ما كنت فيه، فإن المجالس بالأمانة. فقلت: جعلت فداك، أو أحتاج إلى وصية في ذلك؟ فودعتها، وودعتني، وقالت: يا جارية، بين يدي. فأتي بي باب في ناحية الدار، ففتح لي وخرجت منه إلى طريق مختصرة، وبادرت البيت، فصليت الصبح ووضعت رأسي، فما انتبهت إلا برسلة الخليفة على الباب، فقممت وقد أسرج لي، فركبت إلى الدار، فسرت إليه فلما مثلت بين يدي المأمون، قال لي: يا إسحاق، جفونك ما كنا ضمنا لك، وتشاغلنا عنك. فقلت: يا سيدتي، ليس شيء أثر عندي ولا أسر إلا قلبي من سرور يدخل على أمير المؤمنين، فإذا كمل سروره وطاب عيشه، فعيشنا طيب وسرورنا بسروره متصل. ثم قال: ما كانت حالك؟ قلت: يا سيدتي، كنت قد اشترت صببة من السوق، وكنت معلق القلب بها، فلما تشاغل أمير المؤمنين أطال الله بقاء، وخلوت وقد كانت في بقية، طالبتني نفسي بها، فمضيت مسرعاً فأحضرتها وأحضرت نبيداً، فسقيتها وشربت معها، وغلب علي السكر، ففقطعتني عما أردت، وذهب بي النوم إلى أن

أصبحت. فقال: لي: ما أكثر ما يتهيأ على الناس من هذا، فهل لك في مثل ما كنا فيه أمس؟ فقلت: يا أمير المؤمنين، وهل أحد يتمتع من ذلك؟ قال: فإذا شئت. فنهض ونهضت، فصرنا إلى المجلس الذي كنا فيه بالأمس، على مثل حالنا تلك وأفضل، حتى إذا كان في الوقت وثب قائماً، فقال: يا إسحاق، لا ترم فيني أحييتك، وقد عزمت على الصبحة، فما هو إلا أن توارى عني حتى ضرب بي، وتأملت ما كنت فيه فإذا هو شيء لا يصبر عنه غلام جاهل ولو بزوال نعمته. قال: فنهضت فقال لي الغلمان: الله الله، فإن البارحة قد أنكر علينا نخليتك، وطالبنا بك، وقال: لم تركتموه؟ ولا نحسبك إلا تحب الإيقاع بنا. فقلت: والله لا نال أحدكم بسبي مكروه أبداً، ولكن أبادر الحاجة، والله لا كان لي حبس ولا لبث، وأمير المؤمنين أطال الله بقاءه إذا دخل أبطاً، وأنا موافيكم قبل خروجه إن شاء الله. قال: فنهضت، فما شعرت إلا وأنا في الزقاق، فوافيت الزنبيل على ما كان عليه، فقعدت فيه، وصعدت، وصرت إلى الموضع الذي أعرف، فلم ألبث إلا هنيهة وإذا بها قد طلعت، فقالت: ضيفنا؟ قلت: إي والله. قالت: أو قد عاودت؟ قلت: نعم، ولا أظن إلا أبن قد ثقلت. فقالت: مادح نفسه يقرتك السلام. فقلت: هفوة، فمني بالصفح. قالت: قد فعلنا فلا تعد. قلت: إن شاء الله. قال: ثم جلسنا وأخذنا فيما كنا فيه من المذاكرة والإنشاد وأحضرنا النبيذ، ولم نزل على تلك الحال وأفضل، وقد أنست وانبسبت بعض الانبساط، وهي مع ذلك لا تزال تقول لي: أوه، لو كنت الآن على ما أنت عليه وأحكمت من تلك الصنعة شيئاً، لقد تناهيت وبرعت. فقلت: والله لقد حرصت على ذلك وجهدت فيه فما رزقت، ولا قدرت عليه. ثم قلت: يا جعلت فداك، لا تخلينا مما كان من فضلك البارحة، لا تخلينا منه. فتأخذ في الأغاني، وكلمة مر صوت حسن طيب وجيد بالغ قالت: يا فتى، أتدري لمن هذا؟ فأقول: لا. فتقول: لإسحاق. فأقول هكذا جعلت فداك في الخدق؟ فتقول: بخ، إسحاق تاريخ هذا الشأن بديع الصوت، وعتيق الغناء! فأقول: سبحانك الله، لقد أعطى إسحاق ما لم يعطه أحد. فتقول: ولو سمعت هذا منه لكنت أشد استحساناً له، وبه أشد كلفاً. حتى إذا كان الوقت، وجاءت العجوز نهضت وودعتها، وبادرت بين يدي جارية ففتحت الباب، فخرجت منه. وبادرت المنزل، فتوضأت للصلاة وصليت الصبح، ووضعت رأسي فتمت، فما انتبهت إلا برسول الخليفة يطلبوني، فقممت وقد أسرج لي فركبت إلى الدار، فما هو إلا أن مثلت بين يدي المأمون حتى قال: يا إسحاق أبيت إلا مكافأة لنا، ومعاملة بمثل ما استعملناه معك! قلت: لا والله يا أمير المؤمنين، ما إلى ذلك ذهبت، ولا إليه قصدت، ولكني ظننت أن يكون أمير المؤمنين قد تشاغل عني بلذته، وأغفل أمري. وجاءني الشيطان فأذكرني أمر الجارية فبادرت إلى البيت. قال: وكان من أمرك ماذا؟ قلت: قضيت الحاجة. وفرغ الأمر. فقال: قد انقضى ما كان بقلبك منها، وواحدة بواحدة، والبادي أظلم. فقلت: بل أنا يا أمير المؤمنين أظلم، وإليك المذرة. فقال: لا تتريب عليك، هل لك في مثل حالنا الأول؟ قلت: إي والله. قال: فانهض بنا. وقام وقمت، حتى إذا صرنا إلى الموضع الذي كنا فيه أخذنا في لذتنا وشرابنا، حتى إذا كان في الوقت قال لي: يا إسحاق، ما عزمك؟ قلت: لا عزم لي يا أمير المؤمنين. قال: فعزمت إليك لتجلسن حتى أخرج إليك لنصطحب، فيني عازم على الصبح، وقد نغصت علي ذلك مذ يومان. قلت: فالليلة إن شاء الله. وطرحنا الستارات ودخل إلى الحرم، فما هو إلا أن توارى عني حتى ضرب بي وقمت وقعدت، وجالت وساوسي، وجعل أفكر في مجلس معها ومكانها ومحادثتها والنظر إليها، وفي الخروج عن طاعة المأمون، وما يلحقني في ذلك من سخطه وموجدته، فيسهل علي كل صعب إذا فكرت في أمرها. قال: فوثبت مبادراً، فاجتمع علي جند الدار، فقالوا لي: أين تريد؟ فقلت: الله، فإن لي قصة، وأنا معلق القلب ببعض من في منزلي، وأحتاج إلى مطالعتهم في بعض الأمر. فقالوا: ليس إلى تركك من سبيل. قال: فلم أزل أرفق بهذا، وأطلب إلى هذا، وأقبل رأس هذا، ووهبت خاتمي لواحد، وردائي لآخر، حتى تركوني، فلما خرجت عن جملتهم وأنا لا أصدق فلم أزل أعدوا حاسراً، حتى وافيت الزنبيل فجلست فيه، وصعدت السطح، وصرت إلى الموضع، وأقبل علي مثل حالتها تلك، فلما رأني قالت: ضيفنا؟ قلت: إيهاً الله. قالت: جعلتها دار مقام؟ قلت: جعلت فداك حق الضيافة ثلاث، ثم إن رجعت بعدها فأنت في حل من دمي. قالت: والله لقد أتيت بحجة. قال: ثم جلسنا، فأخذنا في مثل حالنا الأول من الشرب والإنشاد والمذاكرة والمحادثة والغناء حتى إذا علمت أن الوقت قد قارب فكرت في قضيتي، وعلمت أن المأمون لا يقارني على هذا، وأني لا أتخلص منه إلا بأن أشرح له قصتي، وأكشف له عن حالي، وعلمت أني إن قلت له ذلك طالبني بمعرفة الموضع والمسير به إليه، مع ما كان غلب عليه من الميل إلى النساء، والاستهتار بهن. فقلت لها: أتأذنين في ذكر شيء خطر بيالي؟ قالت: قل ما بدا لك. قلت: جعلت فداك، إنني أراك ممن يقول بالغناء، ويعجب به وبالآداب، ولي ابن عم هو أحسن مني وجهاً، وأظرف قداً، وأكثر أدباً، وأغزر معرفة، وإنما أنا تلميذ من تلاميذه، وحسنة من حسناته، وهو أعرف الناس بغناء إسحاق وأحفظهم له. قالت: "طفيلي ويقترح"، لم ترض أن أتيتنا ثلاثة أيام، حتى احتجت أن

تأتي معك بآخر. فقلت لها: جعلت فداك، ذكرته لتكوي أنت المحكمة، فإن أذنت وأردت ذلك، وإلا فلا إكراه. قالت: فإن كان ابن عمك هذا على ما ذكرت فما نكره أن نعرفه ونشاهده. فقلت: هو والله على أكثر مما وصفت. قالت: فإذا شئت. قلت: فالليلة. قالت: واللييلة. ثم حضر الوقت فنهضت وصرت إلى البيت، فما وصلت حتى وافيت منزلي قد هجم عليه، وإذا برسول الخليفة وأصحاب الشرط قد ركبوا إلى بابي، فلما بصروا بي سحبت سحبا على حالي تلك، حتى انتهوا بي إلى الدار، فإذا المأمون جالس وسط الدار على كرسي، وإذا هو مغتاط حرد، فقال: يا إسحاق، أخرجوا عن الطاعة؟ قلت: لا والله يا أمير المؤمنين. قال: فما قصتك وما الذي أظهر ما أرى من الانحراف، وكثرة الخلاف؟ فاصدقني حالك. قلت: يا أمير المؤمنين، إنه كانت لي قصة أحتاج فيها إلى حلوة. فأومأ إلى من كان واقفاً بين يديه ففتحوا، حتى إذا خلونا قلت: كان من خبري كيت وكيت، وفعلت وصنعت ورأيت كذا. فوالله ما فرغت من حديثها حتى قال: يا إسحاق، أتدري ما تقول؟ فقلت: إي والله، إني لأدري. فقال: ويحك، فكيف لي بمشاهدة ما شاهدت؟ قلت: ما إلى ذلك من سبيل. قال: والله لا بد تلطف لي وتوصلني إليها، فهذا ما لا صبر لعاقل عنه. قلت: إي والله، قد تفكرت في قصتي وفيما قدمت عليه من عصيانك، وعلمت أنه لا ينحني إلا الصدق والكشف الحال، وعلمت أنك تطالبني به أشد المطالبة، فقدمت إليها ذكراً من ذلك، وقلت لها كيت وكيت، ووعدتها في أمرك كذا وكذا. قال: قد والله أحسنت، ولولا ذلك لنتك بكل مكروه. قلت: فالحمد لله الذي سلم. قال: ثم نهض ونهضت حتى صرنا إلى مجلسنا، وأخذنا في لذتنا وشرابنا، وهو مع ذلك يقول: يا إسحاق، حدثني عنها، وصف لي حالها، وشرح لي أمرها. فوالله ما قطعنا يومنا ذلك إلا بذكرها، وما وصلنا إلى آخر النهار إلا والمأمون لا يصدق من شدة تعلق قلبه بها، وبما قربت عنده من حالها، حتى إذا كان بعد هداة من الليل وهو يقول في كل ساعة: ما جاء الوقت؟ وأنا أقول: بقي قليل، والسعة. والقلق غالب عليه، حتى إذا جاء الوقت نهضنا فخرجنا من بعض أبواب القصر، ومعنا غلام، وهو على حمار وأنا على حمار. فلما صرنا بالقرب من منزلنا ثم قلنا للغلام: يجب أن تظهر

بري بحضرتها وإكرامي، وتطرح نحوه الخلافة، وتجر الملك، وكن كأنك تبع لي. وهو يقول: نعم، أوترى أي أجهل وتحتاج إلى أن توصيني؟ قال لي: ويحك يا إسحاق، فإن قالت لي: عن، فكيف أصنع؟ قال: قلت: أنا أكفيك وأدفعها عن ذلك، وأصدها برفق وحسن مس. ثم صرنا إلى الزقاق، فإذا بزنبيلين معلقين بثمانية أحبل. فقعدت في واحد وقعدت في آخر، ثم جذب الجواري وإذا نحن في السطح وبأذن بين أيدينا حتى انتهين بنا إلى المجلس. قال: فأقبل المأمون يتأمل الفرش والدار والزي، ويعجب بذلك إعجاباً شديداً، وقعدت في موضعي الذي كنت أقعد فيه، وقعد المأمون دوني في المرتبة. ثم أقبلت فسلمت، فما تمالك أن نظر إليها فبهت من حسننها، فقالت: حيا الله ضيفنا بالسلام، والله ما أنصفت ابن عمك، ألا رفعت مجلسه؟ فقلت: ذلك إليك جعلت فداءك. فقالت: ارتفع فديتك، فأنت جديد، وهذا قد صار من أهل البيت ولكل جديد لذة فنهض المأمون حتى قعد في صدر المجلس، ثم أقبلت عليه تذاكره وتناشده وتمازحه، وهو أخذ معها في كل فن، فكستها وأفحمها. قال: فالتفتت إلي وقالت: وفيت بوعدك، وصدقت في قولك، ووجب شكرك على صنعك. قال: ثم أحضرنا النبيذ وأخذنا في الشراب، وهي مع ذلك مقبلة عليه، وهو مقبل عليها، ومسرورة به ومسرور بها. قال: فالتفتت إلي فقالت: وابن عمك هذا من أبناء التجار؟ قلت لها: نعم، فديتك، نحن لا نعرف إلا التجارة. قالت: وإنكما فيها لغريان. ثم قالت: موعدك. فقلت: لعمري إنه ليوجب، ولكن حتى يسمع شيئاً. قال: وذاك. وأخذت العود، وغنت صوتاً، فشرابنا عليه رطلاً، ثم غنت بصوت كان المأمون يقتصره علي، فشرابنا عليه رطلاً، قال: فلما شرب المأمون ثلاثة أرطال وغلب عليه الفرح، وتداخله السرور وارتاح وطرب، قال: يا إسحاق، فوالله لقد رأيته نظر إلي نظر الأسد إلى فريسته، فنهضت وقلت: لبيك يا أمير المؤمنين. قال: غنني هذا الصوت. فلما رأيتني أخذت العود ووقف بين يديه أغنيه، علمت أنه الخليفة وأني إسحاق. فنهضت وقال: ها هنا. وأومأ إلى كل مضروبة فدخلتها ثم فرغت من ذلك الصوت وشراب رطلاً وقال لي: ويحك يا إسحاق؛ انظر هذه الدار ومن رباها؟ فخرجت فلقيت تلك العجوز، فقلت لها: من صاحب المنزل؟ ومن مولاكم؟ قالت: الحسن بن سهل. قلت: ومن هذه منه؟ قالت: ابنته بوران. فرجعت وأعلمته فقال: علي به الساعة. قال: فقلت لها: امضي فأحضره وأعلمه أن أمير المؤمنين يطلبه. قال: فغابت عني هنيهة ثم جاءت وهو في إثرها فوقف بين يديه فقال: ألك بنت؟ قال: نعم يا أمير المؤمنين. قال: أزوجتها؟ قال: لا والله. قال: وما اسمها؟ قال: بوران. قال: فإني أخطبها إليك. قال: هي يا أمير المؤمنين أمتك، وأمرها إليك. قال: فإني قد زوجتها على نقد ثلاثين ألف دينار نحملها إليك في صبيحة ليلتنا هذه، فإذا قبضت المال فاحملها إلينا من ليلتها. قال: نعم يا أمير المؤمنين. قال: ثم نهض وفتح لنا الباب وخرجنا، فلما

صرنا إلى الدار قال: يا إسحاق، لا يقفن أحد على ما وقفت عليه، فإن المجالس بالأمانة. قلت: يا أمير المؤمنين، ومثلي يحتاج إلى وصية بهذا الأمر.

قال إسحاق: فما أصبحنا حتى أمر بحمل المال، ونقلت إليه من يومها، وكانت أحظى نسائه عنده وآثرهن لديه. وأقمت أستر هذا الحديث إلى أن مات المأمون، فما اجتمع لأحد ما اجتمع لي في تلك الأربعة الأيام التي كنت أنصرف من مجلس أمير المؤمنين في خلافته إلى مجلسها. ووالله ما رأيت من الرجال في ملوكهم ولا خلفائهم ولا سوقهم أحداً يفني بالمأمون، ولا شاهدت من النساء امرأة تقاربها فهماً وعقلاً، وحلاوة وشكلاً، وأما معرفتها وأدبها فما أظن أن في الأرض امرأة كان يتهيأ لها أن تقف من العلوم على مثل ما وقفت عليه. ولقد سألت بعض من كان يتولى خدمتها من عجائزها فقلت لها: وما حملها على ما أرى؟ فقالت: والله إنما لتفعل هذا منذ كذا وكذا سنة. ولقد عاشرة من الظرفاء والأدباء والملاح أكثر من أن يقع عليه إحصاء، وما جرى بينها وبين أحد مكروه ولا حناً، ولا لفظة قبيحة، ولم يكن مذهبها في ذلك إلا حب الأدب والمذاكرة لأهلها، والمعايشة لأهل المروءة والأقدار، وذوي النبل والأخطار لا لريبة تظهر، ولا لحالة تنكر.

قال: فوالله لقد تضاعف قدرها عندي، وعظم خطرها في نفسي، وعلمت شرف همتها وفضلها. فهذا خبر بوران صحيحاً على الحقيقة، والسبب الذي تزوجها المأمون به.

قال هشام بن الكلبي والهيثم بن عدي: إن ناساً من بني حنيفة خرجوا يتزهون إلى جبل لهم، فرأى فتى منهم في طريقه جارية، فرمقها فقال لأصحابه: لا أنصرف والله حتى أرسل إليها وأخبرها بحج لها. فطلبوا إليه أن يكف عن ذلك فأبى أن يكف، وأقبل يراسل الجارية، وتمكن جيبها من قلبه، فانصرف أصحابه، وأقام الفتى في ذلك الجبل، فمضى ليلة متقلداً سيفاً وهي بين أخوين لها نائمة، فأيقظها فقالت: انصرف لا ينتبه أخواي فيقتلناك. فقال: الموت والله أهون مما أنا فيه، ولكن إن أعطيتني يدك حتى أضعها على قلبي انصرفت. فأعطته يدها، فوضعها على قلبه وصدوره وانصرف. فلما كانت الليلة الثانية أتاها وهي على مثل تلك الحال فأيقظها، فقالت له مثل مقالها الأول، فقال: لك الله إن أمكنتني من شفيتك أرشفهما أن انصرفت. فأمكنته فرشفهما ساعة ثم انصرف، فوقع في قلبها من حبه مثل الذي كان بقلبه منها وفشا خبرهما في الحي، فقال أهل الجارية: ما مقام هذا الفاسق في هذا الجبل؟ امضوا بنا إليه حتى نخرجه منه. فبعثت إليه الجارية آخر النهار: إن القوم سيأتونك الليلة فاحذر على نفسك. فلما أمسى قعد على مرقب ومعه قوسه وسهمه، ووقع بالحي في بعض الليل مطر، فاشتغلوا عنه، فما كان في آخر الليل وانقشع السحاب وطلع القمر، اشتاقت إليه الجارية، فخرجت تريده، ومعها صاحبة لها من الحي كانت تثق بها، فنظر الفتى إليهما فظن أنهما ممن يطلبه، فرمى فما أخطأ قلب الجارية، فوقع ميتة وصاحت الأخرى ورجعت. وانحدر الفتى من الجبل فإذا الجارية ميتة، فقال:

ت ولا إزالة للقدر

فاصبر وإلا فانحدر

نعب الغراب بما كره

تبكي وأنت قتلتها

ثم وجأ بمشاقصه أوداجه حتى مات، فجاء أهل المرأة فوجدوهما ميتين فدفنوهما في قبر واحد.

باب الغز

كانت في أبي عطاء السندي لثغة قبيحة فاجتمع يوماً في مجلس بالكوفة حماد الراوية، وحماد عجرد، وحماد بن الزبيرقان، وبكر بن مصعب، فنظر بعضهم إلى بعض، فقالوا: ما بقي شيء إلا قد تمياً في مجلسنا هذا، فلو بعثنا إلى أبي عطاء السندي. فأرسلوا إليه، فأقبل يقول: مرهبا مرهبا، هياكم الله. وقد كان قال أحدهم: من يجتال لأبي عطاء حتى يقول: جرادة وزج وشيطان. فقال حماد الراوية: أنا. فقال: يا أبا عطاء، كيف علمك بالغز؟ قال: حسن - يريد حسن - فقال له:

كأن سويقتها منجلان

فما صفراء تكني أم عوف

قال: زرادة. فقال: أصبت. ثم قال:

أُتعرّف مسجداً لبني تميم

قال: هو في بني سيتان، قال: أصبت. ثم قال:

فما اسم حديدة في الرمح تسمى

فقال: زز. فقال: أصبت.

وقال المأمون يصف خاتماً:

وأبيض أما جسمه فمدور

ولم يكتسب إلا لتسكن وسطه

لها أخوات أربع هن مثلها

وقال آخر في أرنب:

لهوت بذات رأس ذي التيات

إذا السبابة ارتفعت مع الخن

لهوت بها تطير بلا جناح

وقال:

رب ثور رأيت في جحر نمل

ونسور تمشي بغير رؤوس

وعجوز رأيت في بطن كلب

وغلام رأيته صار كلباً

وأتان رأيت واردة الما

وعقاب تطير من غير ريش

فويق الميل دون بني أبان

دوين الصدر ليست بالسنان

نقي وأما رأسه فمعار

مؤنثة لم تكس قط خمار

ولكنها الصغرى وهن كبار

كرفع الإصبعين على الثلاث

صر اجتمع الثلاث بلا انتكاث

وتتسب في الذكور وفي الإناث

وقطاة تحمل الأتقالا

لا ولا ريش تحمل الأبطالا

جعل الكلب للأمير جمالا

ثم من بعد ذلك صار غزالا

ء زماناً وما تذوق بلالا

وعقاب مقيمة أحوالها

الثور: النمل الذي يخرج من التراب من الحجر العظيم بفيه. والقطاة: موضع الردف من الفرس. والنسور: بطون الخوافر. والعجوز: السيف. وبطن الكلب: الجلد الذي يعمل منه غمد السيف. وصار كلباً: ضم كلباً، أخذه من صار يصور، من قول الله عز وجل "فصرهن إليك". والأتان: الصخرة. والعقاب التي تطير من غير ريش: البكرة. والمقيمة أحوالاً: اللواء. وقال آخر في البيضة:

ألا قل لأهل الرأي والعلم والأدب

ألا أخبروني أي شيء رأيتم

قديم حديث وهو باد وحاضر

ويؤكل أحياناً طبيخاً وتارة

وليس له لحم وليس له دم

وكل بصير بالأمر أخي أرب

من الطير في أرض الأعاجم والعرب

يصاد بلا صيد وإن جد في الطلب

قلياً ومشوياً إذا دس في اللهب

وليس له عظم وليس له عصب

وليس له رجل وليس له يد

ولا هو حي لا ولا هو ميت

وقال آخر:

إني رأيت عجوزاً بين حاجبها

له ثلاثون عيناً بين مرفقه

في ظهره حية حمراء قانية

وليس له رأس وليس له ذنب

ألا خبروني إذا هذا هو العجب

ونابها حبشي قائم رجل

وبين عاتقه في رجله قزل

في ظهرها رجل في ظهره رجل

العجوز: الناقة. والحبشي الذي بين حاجبها ونابها: الأسود الحابس بالخطام. وقوله: له ثلاثون عيناً بين عاتقه وبين مرفقه: مثاقيل كانت مصورة في عضده. وقوله: في ظهره حية حمراء قانية: كان عليه برنس فيه تصاوير بعضها داخل في بعض.

وقال آخر في القلم:

فلا هو يمشي لا ولا هو مقعد

ولا هو حي لا ولا هو ميت

يزيد على سم الأفاعي لعبه

يفرق أوصالاً بصمت يجيبه

إذا ما رأته العين تحقر شأنه

وما إن له رأس ولا كف لأمس

ولكنه شخص يرى في المجالس

يدب ديبياً في الدجى والحناس

وتقرى به الأوداج تحت القلانس

وهيئات يبدو النقس عند الكرداس

وقال آخر فيه:

ضئيل الرواء كبير الغناء

عليه كهيئة مر الشجا

إذا رأسه صح لم ينبعث

وإن مدية صدعت رأسه

يقضي لبانته مقبلاً

جريء بكف فتى كفه

من البحر في المنصب الأخضر

ع في دعص محنية أعر

وحار السبيل ولم يبصر

جری جري لا هائب مقصر

ويحسمها هيئة المزبر

تسوق الثراء إلى المقتر

أبيات من الشعر المحدث

ماء النعيم بوجهه متحير

وكأنما نهكت قوى أجفانه

لو باشر الماء القراح بكفه

والصدغ منه كعطفة للراء

بالراح أو قد شيب بالإغفاء

لجرت أنامله بنبع الماء

وقال المؤمل:

عجب لمن يطيبني بمسك

العقد الفريد-ابن عبد ربه الأندلسي

خلاخيل النساء لها وجيب

ولو أن النساء غنين يوماً

لأصبح كل عطار فقيراً

الفهرس

2	كتاب اللؤلؤة في السلطان
3	نصيحة السلطان ولزوم طاعته
3	ما يصحب به السلطان
6	اختيار السلطان لأهل عمله
7	حسن السياسة وإقامة المملكة
8	بسط المعدلة ورد المظالم
10	صلاح الرعية بصلاح الإمام
10	قولهم في الملك وجلسائه ووزرائه
11	صفة الإمام العادل
11	هيبة الإمام في تواضعه
13	حسن السيرة والرفق بالرعية
14	ما يأخذ به السلطان من الحزم والعزم
17	التعرض للسلطان والرد عليه
18	تحلم السلطان على أهل الدين
18	والفضل إذا اجترعوا عليه
20	المشورة
22	حفظ الأسرار
23	الإذن
24	الحجاب
27	باب من الوفاء والغدر
28	الولاية والعزل
29	باب من أحكام القضاء
31	كتاب الفريدة في الحروب ومدار أمرها
31	صفة الحرب
33	العمل في الحرب
34	الصبر والإقدام في الحرب
40	فرسان العرب في الجاهلية والإسلام
42	المكيدة في الحرب
44	وصايا أمراء الجيوش
46	الحماية عن العشيرة ومنع المستجير

47	الجبن والفرار
53	فضائل الخيل
53	صفة جياذ الخيل
57	سوابق الخيل
61	الحلبة والرهان
62	وصف السلاح
64	الترع بالقوس
66	مشاورة المهدي لأهل بيته
66	في حرب خراسان
72	باب في مداراة العدو
73	التحفظ من العدو إن أبدى لك المودة
74	باب من أحبار الأزارقة
77	كتاب الزبرجدة في الأجواد والأصفاد
77	مدح الكرم وذم البخل
79	الترغيب في حسن الثناء
79	واصطناع المعروف
81	الجود مع الإقلال
82	العطية قبل السؤال
83	استنجاح الحوائج
85	استنجاز المواعيد
89	لطيف الاستمناح
98	الأخذ من الأمراء
99	التفضيل في العطاء
99	تفضيل بعض الناس على بعض في العطاء
100	شكر النعمة
101	قلة الكرام في كثرة اللثام
101	من جاد أولاً وضمن آخرأ
102	من ضمن أولاً ثم جاد آخرأ
103	من مدح أميرأ فحبيبه
104	أجود أهل الجاهلية
107	أجود أهل الإسلام
107	جود عبيد الله بن عباس
108	جود عبد الله بن جعفر

- 109.....جود سعيد بن العاص
- 110.....جود عبيد الله بن أبي بكرة
- 110.....جود عبيد الله بن معمر القرشي التيمي
- 110.....الطبقة الثانية من الأجداد
- 110.....الحكم بن حنطب
- 111.....معن بن زائدة
- 111.....يزيد بن المهلب
- 112.....يزيد بن حاتم
- 113.....أبو دلف
- 114.....أخبار معن بن زائدة
- 114.....خالد بن عبد الله القسري
- 114.....عدي بن حاتم
- 114.....أصفاد الملوك على المدح
- 122.....كتاب الجمانة في الوفود
- 122.....وفود العرب على كسرى
- 126.....وفود حاجب بن زرارة على كسرى
- 127.....وفود أبي سفيان إلى كسرى
- 127.....وفود حسان بن ثابت على النعمان بن المنذر
- 127.....وفود قريش على سيف بن ذي يزن بعد قتله الحبشة
- 129.....وفود عبد المسيح على سطيح
- 130.....الوفود على رسول الله
- 130.....وفود همدان على النبي صلى الله عليه وسلم
- 130.....وفود النخع على النبي صلى الله عليه وسلم
- 131.....وفود ثقيف على النبي صلى الله عليه وسلم
- 131.....وفود مذحج على النبي صلى الله عليه وسلم
- 131.....وفود لقيط بن عامر بن المنتفق على النبي صلى الله عليه وسلم
- 132.....وفود قبيلة على النبي صلى الله عليه وسلم
- 133.....كتاب رسول الله لأكيذر دومة صلى الله عليه وسلم لأكيذر دومة
- 134.....كتابه لوائيل بن حجر الحضرمي صلى الله عليه وسلم لوائيل بن حجر الحضرمي
- 134.....حديث جرير بن عبد الله البجلي
- 134.....حديث عياش بن أبي ربيعة
- 134.....حديث راشد بن عبد ربه السلمي
- 134.....وفود نابغة بني جعدة على النبي صلى الله عليه وسلم

- 135.....وفود طهفة بن أبي زهير على رسول الله صلى الله عليه وسلم.
- 135.....الوفود على عمر بن الخطاب
- 135.....وفود جبلة بن الأيهم على عمر بن الخطاب رضي الله عنه
- 137.....وفود الأحنف على عمر بن الخطاب رضي الله عنه
- 138.....وفود الأحنف وعمرو بن الأهتم على عمر بن الخطاب رضي الله عنه
- 138.....وفود عمرو بن معد يكرب على عمر بن الخطاب رضي الله عنه
- 139.....وفود أهل اليمامة على أبي بكر الصديق رضي الله عنه
- 139.....وفود عمرو بن معد يكرب على مجاشع بن مسعود
- 139.....الوفود على معاوية
- 139.....وفود الحسن بن علي رضي الله عنهما على معاوية رضي الله عنه
- 139.....وفود زيد بن منية على معاوية رحمه الله
- 140.....وفود عبد العزيز بن زرارة على معاوية رحمه الله
- 140.....وفود عبد الله جعفر على يزيد بن معاوية
- 140.....الوفود على عبد الملك بن مروان
- 140.....وفود عبد الله بن جعفر على عبد الملك بن مروان
- 142.....وفود الشعبي على عبد الملك بن مروان
- 143.....وفود الحجاج بإبراهيم بن محمد بن طلحة على عبد الملك بن مروان
- 144.....وفود رسول المهلب على الحجاج بقتل الأزارقة
- 144.....وفود جرير على عبد الملك بن مروان
- 145.....الوفود على عمر بن عبد العزيز
- 145.....وفود جرير عن أهل الحجاز على عمر بن عبد العزيز رضي الله عنه
- 145.....وفود دكين الراجز على عمر بن عبد العزيز رضي الله عنه
- 146.....وفود كثير والأحوص على عمر بن العزيز رضي الله عنه
- 148.....وفود الشعراء على عمر بن عبد العزيز رضي الله عنه
- 150.....الوفود على ابن الزبير
- 150.....وفود نابغة بني جعدة على ابن الزبير رحمه الله تعالى:
- 150.....وفود أهل الكوفة على ابن الزبير رحمه الله تعالى
- 151.....وفود رؤبة على أبي مسلم
- 151.....وفود العتابي على المأمون
- 151.....وفود أبي عثمان المازني على الواثق
- 152.....الوافدات على معاوية
- 152.....وفود سودة بنت عمار على معاوية
- 153.....وفود بكارة الهلالية على معاوية

- 154..... وفود الزرقاء على معاوية
- 154..... وفود أم سنان بنت خيثمة على معاوية رحمه الله
- 155..... وفود عكرشة بنت الأطرش على معاوية رحمه الله تعالى
- 156..... قصة دارمية الحجونية مع معاوية رحمه الله تعالى
- 156..... وفود أم الخير بنت الحريش على معاوية
- 157..... وفود أروى بنت عبد المطلب على معاوية رحمه الله
- 159..... كتاب المرجانة في مخاطبة الملوك
- 159..... البيان
- 159..... تبجيل الملوك وتعظيمهم
- 160..... قبلة اليد
- 161..... من كره من الملوك تقبيل اليد
- 161..... حسن التوفيق في مخاطبة الملوك
- 162..... مدح الملوك والتزلف إليهم
- 164..... التنصل والاعتذار
- 167..... الاستعطاف والاعتراف
- 174..... تذكير الملوك بذمام متقدم
- 175..... حسن التخلص من السلطان
- 182..... فضيلة العفو والترغيب فيه
- 182..... بعد الهمة وشرف النفس
- 187..... مراسلات الملوك
- 189..... فنون العلم
- 190..... الحض على طلب العلم
- 191..... فضيلة العلم
- 193..... ضبط العلم والتثبت فيه
- 193..... انتحال العلم
- 194..... شرائط العلم وما يصلح له
- 195..... حفظ العلم واستعماله
- 195..... رفع العلم وقولهم فيه
- 196..... تحامل الجاهل على العالم
- 196..... تبجيل العلماء وتعظيمهم
- 196..... عويص المسائل
- 197..... التصحيف
- 197..... طلب العلم لغير الله

198.....	باب من أخبار العلماء والأدباء
201.....	قولهم في حملة القرآن
202.....	العقل
208.....	الحكمة
208.....	نوادير من الحكمة
210.....	البلاغة وصفتها
212.....	وجوه البلاغة
213.....	فصول من البلاغة
216.....	آفات البلاغة
216.....	باب الحلم ودفع السيئة بالحسنة
217.....	صفة الحلم وما يصلح له
222.....	باب السواد
223.....	سواد الرجل بنفسه
224.....	المروءة
225.....	طبقات الرجال
225.....	الغوغاء
225.....	الثقلاء
229.....	التفاؤل بالأسماء
230.....	باب الطيرة
231.....	اتخاذ الإخوان وما يجب لهم
232.....	أصناف الإخوان
234.....	معاينة الصديق واستيقاء مودته
235.....	ما يستجلب الإخاء والمودة ولين الكلمة
236.....	فضل الصداقة على القرابة
238.....	التحجب إلى الناس
238.....	صفة المحبة
239.....	مواصلتك لمن كان يواصل أباك
240.....	الحسد
243.....	محاسدة الأقارب
244.....	المشاكلة ومعرفة الرجل لصاحبه
245.....	السعاية والبغي
247.....	الغيبية
248.....	مدارة أهل الشر

249	ذم الزمان
251	فساد الإخوان
255	باب في الكبير
256	التسامح مع النعمة والتذلل مع المصيبة
257	ما جاء في ذم الحمق والجهل
258	باب في التواضع
258	الرفق والأناة
259	استراحة الرجل بمكنون سره إلى صديقة
259	الاستدلال باللحظ على الضمير
260	الاستدلال بالضمير على الضمير
260	الإصابة بالظن
261	تقديم القرابة وتفضيل المعارف
262	فضل العشيبة
262	الدَّين
262	مجانبة الخُلف والكذب
263	التتره عن استماع الخنا والقول به
263	باب في الغلو في الدَّين
265	القول في القدر
268	رد المأمون على الملحدين وأهل الأهواء
269	باب من أخبار الخوارج
273	رد عمر بن عبد العزيز رضي الله عنه على شوذب الخارجي
274	القول في أصاب الأهواء
274	الرافضة
277	قولهم في الشيعة
277	باب من كلام المتكلمين
278	باب في الحياء
279	باب جامع الآداب
279	أدب الله لنبيه صلى الله عليه وسلم
279	باب أدب النبي لأُمَّته صلى الله عليه وسلم لأُمَّته
280	باب في آداب الحكماء والعلماء
285	باب في تأديب الصغير
286	باب في حب الولد
288	باب الاعتضاد بالولد

288.....	باب في التجارب والتأدب بالزمان
289.....	باب في صحة الأيام بالموادعة
290.....	باب التحفظ من المقالة القبيحة وإن كانت باطلاً
291.....	باب الأدب في تشميت العاطس
291.....	باب الإذن في القبلة
292.....	باب الأدب في العيادة
296.....	الأدب في الاعتناق
296.....	باب الأدب في إصلاح المعيشة
296.....	باب الأدب في المؤاكلة
297.....	أدب الملوك
298.....	باب الكناية والتعريض
299.....	الكناية يورى بها عن الكذب والكفر
300.....	الكناية عن الكذب في طريق المدح
301.....	باب في الكناية والتعريض في طريق الدعابة
302.....	باب في الصمت
303.....	باب في المنطق
304.....	باب في الفصاحة
304.....	آفات المنطق
305.....	باب في الإعراب واللحن
307.....	باب في اللحن والتصحيح
307.....	نوادير من الكلام
307.....	باب نوادر من النحو
310.....	باب في الغريب والتعريب
311.....	باب في تكليف الرجل ما ليس من طبعه
312.....	باب في ترك المشاركة والممارسة
312.....	باب في سوء الأدب
314.....	باب في تحنك الفتى
316.....	باب في الرجل النفاع الضرار
317.....	باب في طلب الرغائب واحتمال المغارم
320.....	باب في الحركة والسكون
322.....	باب التماس الرزق وما يعود على الأهل والولد
323.....	باب في فضل المال
325.....	صنوف المال

- 326.....تدبير المال
- 326.....الإقلال
- 328.....السؤال
- 329.....سؤال السائل من السائل
- 330.....الشيب
- 333.....الشباب والصحة
- 335.....الخضاب
- 336.....فضيلة الشيب
- 337.....كبر السن
- 340.....من صحب من ليس من نظرائه لخصال فيه
- 342.....قولهم في القرآن
- 343.....كتاب الجوهرة في الأمثال
- 343.....أمثال رسول الله صلى الله عليه وسلم
- 344.....أمثال روتها العلماء
- 344.....مثل في الرياء
- 345.....من ضرب به المثل من الناس
- 345.....من يضرب به المثل من النساء
- 345.....ما تمثلوا به من البهائم
- 345.....ما ضرب به المثل من غير الحيوان
- 346.....مما ضربوا به المثل
- 346.....أمثال أكنم بن صَيْفِيٍّ وَبُزْرَجِمَهْرَ الفارسي
- 347.....من أمثال العرب مما روى أبو عبيد
- 350.....أمثال الرجال واختلاف نوعهم
- 353.....الأمثال في القربى
- 354.....الأمثال في مكارم الأخلاق
- 354.....الحلم
- 354.....العفو عند المقدرة
- 355.....المساعدة وترك الخلاف
- 355.....مداراة الناس
- 355.....مفاكهة الرجل أهله
- 355.....الحض على الكرم
- 355.....الكريم لا يجد
- 369.....كتاب الزمردة في المواعظ والزهد

- 370..... مواعظ الأنبياء عليهم السلام
- 371..... من وحي الله تعالى إلى أنبيائه
- 371..... مواعظ الحكماء
- 372..... مكاتبة جرت بين الحكماء
- 373..... مواعظ الآباء للأبناء
- 375..... مقامات العباد عند الخلفاء
- 376..... مقام صالح بن عبد الجليل
- 376..... مقام رجل من العباد عند المنصور
- 377..... مقام الأوزاعي بين يدي المنصور
- 377..... كلام أبي حازم لسليمان بن عبد الملك
- 378..... مقام ابن السمّك عند الرشيد
- 378..... كلام عمرو بن عبيد عند المنصور
- 378..... خبر سفيان الثوري مع أبي جعفر
- 378..... كلام شبيب بن شيبة للمهدي
- 378..... من كره الموعدة لبعض ما يكون فيها من الغلظ أو الخرق
- 379..... باب كلام الزهاد وأخبار العباد
- 381..... كيف يكون الزهد
- 381..... صفة الدنيا
- 384..... قولهم في الخوف
- 385..... قولهم في الرجاء
- 385..... قولهم في التوبة
- 386..... المبادرة بالعمل الصالح
- 387..... العجز عن العمل
- 388..... قولهم في الموت
- 392..... قولهم في الطاعون
- 394..... من أحب الموت ومن كرهه
- 394..... التهجد
- 395..... البكاء من خشية الله عز وجل
- 395..... النهي عن كثرة الضحك
- 395..... النهي عن خدمة السلطان وإتيان الملوك
- 397..... القول في الملوك
- 397..... بلاء المؤمن في الدنيا
- 397..... كتمان البلاء إذا نزل

- 398.....القناعة
- 402.....الرضا بقضاء الله
- 402.....من قتر على نفسه وترك المال لوارثه
- 403.....نقصان الخير وزيادة الشر
- 403.....العزلة عن الناس
- 404.....إعجاب الرجل بعلمه
- 404.....الرياء
- 406.....الدعاء
- 407.....كيف يكون الدعاء
- 407.....دعاء النبي صلى الله عليه وسلم وأبي بكر الصديق وعمر رضوان الله عليهما
- 407.....الدعاء عند الكرب
- 408.....الكلمات التي تلقى آدم بها ربه
- 408.....اسم الله الأعظم
- 408.....الاستغفار
- 408.....دعاء المسافر
- 408.....الدعاء عند الدخول على السلطان
- 409.....الدعاء على الطعام
- 409.....الدعاء عند الأذان
- 409.....الدعاء عند الطيرة
- 409.....الساعة التي يستجاب فيها الدعاء
- 409.....التعويد
- 411.....كتاب الدرّة في التعازي والمراثي
- 411.....القول عند الموت
- 413.....الجزع من الموت
- 413.....البكاء على الميت
- 414.....القول عند المقابر
- 414.....الوقوف على القبور وتأيين الموتى
- 417.....المراثي
- 417.....من رثي نفسه ووصف قبره وما يكتب على القبر
- 430.....من رثي إخوته
- 438.....من رثت زوجها
- 439.....من رثي جاريتيه
- 442.....من رثي ابنه

- 442.....مراثي الأشراف
- 455.....التعازي
- 456.....كتاب تعزية
- 457.....تعازى الملوك
- 460.....كتاب اليتيمة في النسب
- 460.....كتاب اليتيمة في النسب وفضائل العرب
- 460.....أصل النسب
- 461.....فضل بني هاشم وبني أمية
- 463.....فضل قریش
- 464.....مكان العرب من قریش
- 464.....فضل العرب
- 465.....علماء النسب
- 467.....البيوتات
- 467.....بيوتات مضر وفضائلها
- 468.....بيوتات اليمن وفضائلها
- 469.....تفسير القبائل والعماير والشعوب
- 469.....أسماء ولد نزار
- 470.....أنساب مضر
- 470.....بطون هذيل وجماهيرها
- 470.....بطون كنانة وجماهيرها
- 471.....بطون أسد وجماهيرها
- 472.....بطون تميم وجماهيرها
- 474.....بطون قيس وجماهيرها
- 475.....قبائل هوازن
- 476.....نسب ربيعة بن نزار
- 477.....النمر بن قاسط
- 478.....تغلب بن وائل
- 478.....بكر بن وائل
- 480.....إياد بن نزار
- 480.....القبائل المشتبهة
- 481.....مفاخرة ربيعة
- 481.....حجرات العرب
- 482.....أنساب اليمن

482.....	حمير
485.....	كهلان بن سبأ
485.....	الخزرج
487.....	خزاعة
488.....	بارق والمجن
488.....	بطون الأزدي
490.....	همدان
491.....	كندة
492.....	مدحج
494.....	طيء
495.....	الأشعر
495.....	لخم
495.....	جذام
496.....	عاملة
496.....	خولان
496.....	جرهم
496.....	حضر موت
496.....	قول الشعوبية وهم أهل التسوية
498.....	رد ابن قتيبة على الشعوبية
499.....	رد الشعوبية على ابن قتيبة
500.....	باب المتعصبين للعرب
503.....	قول الأعراب في الدعاء
505.....	قولهم في الرقائق
506.....	قولهم في الإستطعام
510.....	قولهم في المواعظ والزهد
514.....	قولهم في المدح
516.....	قولهم في الدم
520.....	قولهم في الغزل
522.....	قولهم في الخيل
523.....	قولهم في الغيث
524.....	قولهم في البلاغة والإيجاز
524.....	قولهم في حسن التوقيع وحسن التشبيه
525.....	قولهم في المناكح

- 528..... قولهم في الدين.....
- 529..... قولهم في النوادر والملح.....
- 531..... قولهم في التلصص.....
- 531..... قولهم في الطعام.....
- 533..... أخبار أبي مهدية الأعرابي.....
- 534..... خبر أبي الزهراء.....
- 537..... عودة إلى كلام الأعراب.....
- 538..... كتاب المجنب في الأجوبة.....
- 538..... جواب عقيل بن أبي طالب معاوية وأصحابه.....
- 539..... جواب ابن عباس معاوية رضي الله عنهما معاوية وأصحابه.....
- 542..... مجاوبة بني هاشم وبني عبد شمس لابن الزبير.....
- 543..... مجاوبة الحسن بن علي لمعاوية وأصحابه.....
- 544..... مجاوبة بين معاوية وأصحابه.....
- 545..... مجاوبة بين بني أمية.....
- 545..... الجواب القاطع.....
- 546..... مجاوبة الأمراء والرد عليهم.....
- 551..... جواب في هزل.....
- 553..... جواب في فخر.....
- 554..... جواب ابن أبي دواد.....
- 555..... جواب في تفحش.....
- 557..... كتاب الواسطة في الخطب.....
- 558..... خطبة رسول الله في حجة الوداع صلى الله عليه وسلم في حجة الوداع.....
- 558..... وخطب أبو بكر يوم السقيفة.....
- 559..... وخطب أيضاً.....
- 559..... وخطب أخرى.....
- 559..... وخطب أيضاً فقال.....
- 559..... خطبة أخرى رضي الله عنه.....
- 560..... خطب عمر بن الخطاب رضي الله عنه.....
- 560..... وخطب أيضاً.....
- 560..... وخطب أيضاً.....
- 560..... وخطبة له أيضاً.....
- 561..... وخطب أيضاً فقال.....
- 561..... خطب عام الرمادة بالعباس.....

- 561..... رحمه الله:
- 561..... خطب إذ ولي الخلافة
- 561..... خطبة لعثمان بن عفان رضي الله عنه
- 562..... خطبة أمير المؤمنين علي بن أبي طالب رضوان الله عليه
- 562..... وخطبة له أيضاً
- 562..... وخطبة له أيضاً
- 563..... وخطبة له رضي الله عني
- 563..... وخطبة له أيضاً
- 563..... وخطبة له رضي الله عنه
- 564..... خطب إذ استنفر أهل الكوفة لحرب الجمل
- 564..... مما حفظ عنه بالكوفة على المنبر
- 565..... خطبة الغراء رضي الله عنه:
- 566..... خطبة الزهراء
- 567..... وخطب أيضاً فقال
- 567..... من كلامه رضوان الله عليه:
- 568..... خطب معاوية
- 568..... خطبة أيضاً لمعاوية
- 568..... خطبته أيضاً لمعاوية
- 568..... خطبة لمعاوية أيضاً
- 568..... ذكر لعبيد الله بن زياد عند معاوية
- 569..... خطبة لمعاوية أيضاً
- 570..... خطبة أيضاً لمعاوية
- 570..... ليزيد بن معاوية بعد موت أبيه
- 571..... وخطبة أيضاً ليزيد
- 571..... خطب بني مروان
- 571..... خطبة عبد الملك بن مروان
- 571..... خطبة الوليد بن عبد الملك
- 571..... خطب سليمان بن عبد الملك
- 571..... خطب عمر بن عبد العزيز رحمه الله ورضي عنه:
- 572..... وخطبة له رحمه الله
- 572..... خطبة لعمر بن عبد العزيز أيضاً
- 572..... خطبة ابن الأهمم بين يدي عمر بن عبد العزيز
- 573..... وخطبة أيضاً لعمر بن عبد العزيز

- 573.....خطبة يزيد بن الوليد حين قتل الوليد بن يزيد
- 573.....خطب بني العباس
- 573.....خطبة أبي العباس السفاح بالشام
- 574.....خطب المنصور
- 574.....وخطب أيضاً
- 574.....خطبة للمتصور بمكة
- 574.....خطبة لسليمان بن عليّ
- 575.....خطبة عبد الملك بن صالح بن عليّ
- 575.....خطب صالح بن عليّ
- 575.....خطب داود بن علي بالمدينة
- 575.....خطبة للمهديّ
- 576.....خطبة هارون الرشيد
- 577.....خطبة المأمون في يوم الجمعة
- 578.....خطبة عبد الله بن الزبير حين قام بفتح افريقية:
- 578.....خطبة عبد الله بن الزبير لما بلغه قتل مصعب
- 579.....خطبة زياد البتراء
- 580.....خطبة لزياد
- 580.....خطبة لزياد
- 580.....وخطبة لزياد
- 580.....خطبة الجامع الحاربي
- 580.....خطبة للحجاج بن يوسف
- 581.....خطبة للحجاج
- 581.....خطبة للحجاج بعد دير الجماجم
- 581.....خطبة للحجاج
- 581.....خطبة للحجاج بالبصرة
- 582.....خطبة للحجاج بالبصرة
- 582.....خطبة للحجاج
- 582.....خطبة للحجاج حين أراد الحج
- 582.....خطبة للحجاج
- 583.....خطبة الحجاج فلما مات عبد الملك
- 583.....خطبة الحجاج لما أصيب بولده محمد وأخيه محمد:
- 584.....خطبة للحجاج
- 584.....وخطبة للحجاج

- 584.....خطبة لطاهر بن الحسين
- 584.....خطبة لعبد الله بن طاهر
- 585.....خطبة لقتيبة بن مسلم
- 585.....خطبة لقتيبة بن مسلم
- 585.....وخطبة لقتيبة بن مسلم
- 585.....خطبة ليزيد بن المهلب
- 585.....خطبة لقس بن ساعدة الأيادي
- 586.....خطبة لعائشة أم المؤمنين رحمها الله يوم الحمل:
- 586.....خطبة لعبد الله بن مسعود
- 586.....خطبة لعتبة بن غزوان بعد فتح الأبله
- 587.....خطبة لعمر بن سعيد الأشرق
- 587.....خطبة لعمر بن سعيد بالمدينة
- 587.....خطبة لعمر بن مكة
- 588.....خطبة للأحنف بن قيس
- 588.....خطبة ليوسف بن عمر
- 588.....خطبة لشداد بن أوس الطائي
- 588.....خطبة لخالد بن عبد الله القسري
- 588.....خطبة لمصعب بن الزبير
- 588.....خطبة للنعمان بن بشير بالكوفة
- 589.....خطبة شبيب بن شيبه
- 589.....خطبة لعتبة بن أبي سفيان
- 589.....خطبة لعتبة بن أبي سفيان
- 589.....خطبة لعتبة بن أبي سفيان
- 589.....وخطبة لعتبة
- 590.....خطبة لعتبة في الموسم
- 590.....وخطبة لعتبة بن أبي سفيان
- 590.....خطبة لعتبة
- 590.....خطب الخوارج
- 590.....خطبة قطري بن الفجاءة في ذم الدنيا
- 591.....خطبة لأبي حمزة بمكة
- 592.....وخطبة لأبي حمزة
- 593.....من أرتج عليه في خطبته
- 593.....خطب النكاح

594.....	خطبة نكاح.....
594.....	وخطبة نكاح.....
594.....	خطبة نكاح.....
594.....	وخطبة نكاح.....
594.....	خطبة نكاح.....
594.....	نكاح العبد.....
594.....	خطب الأعراب.....
595.....	خطبة لأعرابي.....
595.....	خطبة أعرابي لقومه.....
597.....	كتاب المجنب الثانية في التوقيعات والفصول.....
597.....	والصدور وأخبار الكتبة.....
597.....	أول من وضع الكتابة.....
598.....	استفتاح الكتب.....
598.....	ختم الكتاب وعنوانه.....
598.....	تأريخ الكتاب.....
599.....	تفسير الأمي.....
599.....	شرف الكتاب وفضلهم.....
600.....	أيام أبي بكر رضي الله عنه.....
600.....	أيام عمر بن الخطاب رضي الله عنه.....
600.....	أيام عثمان بن عفان.....
600.....	أيام علي بن أبي طالب.....
600.....	أيام بني أمية.....
601.....	أيام الدولة العباسية.....
601.....	أسماء من كتب لغير الخليفة.....
602.....	أشراف الكتاب.....
602.....	كتاب النبي صلى الله عليه وسلم.....
602.....	من نبل بالكتابة وكان قبل حاملاً.....
603.....	من أدخل نفسه في الكتابة ولم يستحقها.....
603.....	صفة الكتاب.....
604.....	ما ينبغي للكاتب أن يأخذ به نفسه.....
605.....	خبر حائك الكلام.....
606.....	فضائل الكتابة.....
606.....	ما يجوز في الكتابة وما لا يجوز فيها.....

610.....	البلاغة.....
611.....	تضمين الأسرار في الكتب.....
611.....	قولهم في الأقلام.....
616.....	قولهم في الخبر.....
616.....	الأقلام.....
616.....	قولهم في الصحف.....
620.....	توقيعات الخلفاء.....
620.....	عمر بن الخطاب رضي الله عنه.....
620.....	عثمان بن عفان رضي الله عنه.....
620.....	علي بن أبي طالب كرم الله وجهه.....
620.....	معاوية بن أبي سفيان.....
620.....	يزيد بن معاوية.....
620.....	عبد الملك بن مروان.....
621.....	الوليد بن عبد الملك.....
621.....	سليمان بن عبد الملك.....
621.....	عمر بن عبد العزيز.....
621.....	يزيد بن عبد الملك.....
621.....	هشام بن عبد الملك.....
622.....	يزيد بن الوليد بن عبد الملك بن مروان.....
622.....	مروان بن محمد.....
622.....	توقيعات بني العباس.....
624.....	توقيعات الأمراء والكبراء.....
624.....	زياد وقع إلى بعض عماله.....
624.....	الحجاج بن يوسف.....
624.....	أبو مسلم.....
625.....	جعفر بن يحيى.....
625.....	الفضل بن سهيل.....
625.....	الحسن بن سهل ذو الرياستين.....
626.....	طاهر بن الحسين.....
626.....	توقيعات العجم.....
626.....	فصول في المودة.....
627.....	فصول في الزيارة.....
628.....	فصول في وصاة.....

628.....	فصول في عتاب.....
630.....	فصول في التنصل.....
630.....	فصول في حسن التواصل.....
631.....	فصول في الشكر.....
631.....	فصول في البلاغة.....
631.....	فصول في المدح.....
632.....	فصول في الذم.....
633.....	فصول في الأدب.....
633.....	فصول إلى عليل.....
633.....	فصول إلى خليفة وأمير.....
634.....	فصول لعمر بن بحر الجاحظ.....
637.....	كتاب العسجدة الثانية في الخلفاء.....
637.....	وتواريخهم وأيامهم.....
637.....	أخبار الخلفاء.....
637.....	نسب المصطفى صلى الله عليه وسلم.....
637.....	مولد النبي صلى الله عليه وسلم.....
637.....	هيئة النبي وقعدته صلى الله عليه وسلم - كان صلى الله عليه وسلم يأكل على الأرض، ويجلس على الأرض،.....
638.....	أبو النبي صلى الله عليه وسلم - عبدُ الله بن عبد المطلب.....
638.....	ولد النبي صلى الله عليه وسلم -.....
638.....	أزواجه.....
639.....	كتاب النبي صلى الله عليه وسلم وخدامه.....
639.....	وفاة النبي صلى الله عليه وسلم.....
639.....	نسب أبي بكر الصديق وصفته رضي الله عنه.....
640.....	سقيفة بني ساعدة.....
642.....	وفاة أبي بكر الصديق رضي الله عنه.....
643.....	استخلاف أبي بكر لعمر.....
644.....	نسب عمر بن الخطاب وصفته.....
644.....	فضائل عمر بن الخطاب.....
645.....	مقتل عمر.....
645.....	أمر الشورى في خلافة عثمان بن عفان.....
649.....	نسب عثمان وصفته.....
649.....	فضائل عثمان.....
650.....	مقتل عثمان بن عفان.....

- 652..... القواد الذين أقبلوا إلى عثمان
- 653..... ما قالوا في قتل عثمان
- 654..... مقتل عثمان بن عفان
- 656..... تبرؤ علي من دم عثمان
- 657..... ما نقم الناس على عثمان
- 659..... خلافة علي بن أبي طالب رضي الله عنه
- 659..... نسب علي بن أبي طالب وصفته
- 659..... فضائل علي بن أبي طالب كرم الله وجهه
- 660..... يوم الجمل
- 662..... مقتل طلحة
- 663..... مقل الزبير بن العوام
- 664..... من حديث الجمل
- 666..... أخبار علي ومعاوية
- 668..... يوم صفين
- 669..... مقتل عمار بن ياسر
- 670..... من حرب صفين
- 671..... خبر عمرو بن العاص مع معاوية
- 672..... أمر الحكمين
- 673..... احتجاج علي وأهل بيته في الحكمين
- 674..... احتجاج علي على أهل النهروان
- 675..... خروج عبد الله بن عباس على علي
- 677..... مقتل علي بن أبي طالب رضي الله عنه
- 678..... خلافة الحسن بن علي
- 678..... خلافة معاوية
- 679..... فضائل معاوية
- 679..... أخبار معاوية
- 680..... طلب معاوية البيعة ليزيد
- 682..... وفاة معاوية
- 683..... خلافة يزيد بن معاوية ونسبه وصفته
- 683..... مقتل الحسين بن علي
- 687..... وقعة الحرة
- 688..... وفاة يزيد بن معاوية
- 689..... خلافة معاوية بن يزيد بن معاوية

- 689..... فتنة ابن الزبير
- 690..... دولة بني مروان ووقعة مرج راهط
- 691..... ولاية عبد الملك بن مروان
- 697..... مقتل عبد الله بن الزبير
- 699..... ولاية الوليد بن عبد الملك
- 700..... ولاية سليمان بن عبد الملك
- 703..... خلافة عمر بن عبد العزيز
- 706..... خلافة يزيد بن عبد الملك
- 708..... خلافة هشام بن عبد الملك بن مروان
- 710..... خلافة الوليد بن يزيد بن عبد الملك
- 715..... ولاية يزيد الناقص
- 716..... ولاية إبراهيم بن الوليد المخلوع
- 717..... ولاية مروان بن محمد بن مروان
- 719..... أخبار الدولة العباسية
- 722..... مقتل زيد بن علي
- 722..... أيام هشام بن عبد الملك
- 724..... خلفاء بني أمية بالأندلس
- 724..... عبد الرحمن بن معاوية بن هشام
- 725..... هشام بن عبد الرحمن
- 725..... الحكم بن هشام
- 726..... عبد الرحمن بن الحكم
- 726..... محمد بن عبد الرحمن
- 728..... المنذر بن محمد
- 728..... عبد الله بن محمد
- 728..... عبد الرحمن بن محمد أمير المؤمنين
- 732..... سنة إحدى وثلاثمائة
- 733..... سنة اثنتين وثلاثمائة
- 733..... سنة ثلاث وثلاثمائة
- 733..... سنة أربع وثلاثمائة
- 734..... سنة خمس وثلاثمائة
- 735..... سنة ست وثلاثمائة
- 737..... سنة سبع وثلاثمائة
- 738..... سنة ثمان وثلاثمائة

740.....	سنة تسع وثلثمائة
740.....	سنة عشر وثلثمائة
740.....	سنة إحدى عشرة وثلثمائة
741.....	سنة اثني عشرة وثلثمائة
743.....	سنة ثلاث عشرة وثلثمائة
744.....	سنة أربع عشرة وثلثمائة
744.....	سنة خمس عشرة وثلثمائة
745.....	سنة ست عشرة وثلثمائة
745.....	سنة سبع عشرة وثلثمائة
746.....	سنة ثماني عشرة وثلثمائة
746.....	سنة تسع عشرة وثلثمائة
746.....	سنة عشرين وثلثمائة
747.....	سنة إحدى وعشرين وثلثمائة
747.....	سنة اثنتين وعشرين وثلثمائة
749.....	والطالبين والبرامكة
749.....	أخبار زياد
752.....	أخبار الحجاج
763.....	قولهم في الحجاج
764.....	من زعم أن الحجاج كان كافراً
765.....	موت الحجاج
766.....	أخبار البرامكة
773.....	من أخبار الطالبين
779.....	باب من فضائل علي بن أبي طالب رضي الله عنه
784.....	باب من أخبار الدولة العباسية
787.....	ذكر خلفاء بني العباس وصفاتهم ووزرائهم
787.....	أبو العباس السفاح
787.....	المنصور
788.....	المهدي
788.....	المهدي
788.....	هارون الرشيد
789.....	الأمين
789.....	المأمون
790.....	المتنصم بالله

790.....	الوائق.....
790.....	المتوكل.....
791.....	المنتصر.....
791.....	المستعين.....
791.....	المعتز.....
792.....	المهتدي.....
792.....	المعتمد.....
792.....	المعضد.....
792.....	المكتفي.....
793.....	المقتدر.....
793.....	القاهر.....
793.....	الراضي.....
793.....	المتقي.....
794.....	المستكفي.....
794.....	المطيع.....
795.....	كتاب الدرّة الثّانية في أيام العرب ووقائعهم.....
795.....	فرش الكتاب.....
795.....	حروب قيس في الجاهلية.....
795.....	يوم منّع.....
796.....	يوم النفراوات.....
796.....	لبنى عامر على بني عبس.....
796.....	يوم بطن عاقل.....
796.....	لذبيان على عامر.....
797.....	يوم رحرحان.....
797.....	لعامر على تميم.....
798.....	يوم شعب جبلة.....
798.....	لعامر وعبس على ذبيان وقيم.....
800.....	يوم مقتل الحارث بن ظالم.....
802.....	حرب داحس والغبراء.....
803.....	يوم المريقب لبني عبس على فزارة.....
803.....	يوم ذي حسي لذبيان على عبس.....
804.....	يوم اليعمرية لعبس على ذبيان.....
804.....	يوم الهبأة لعبس على ذبيان.....

- 805..... يوم الفروق
- 805..... يوم قَطَنَ
- 806..... يوم غدِيرَ قَلْهَى
- 806..... يوم الرِّقْمَ لِعُظْفَانَ عَلَى بَنِي عَامِرٍ
- 806..... يوم التُّنَاةَ لِعَبْسِ عَلِيِّ بْنِ عَامِرٍ
- 807..... يوم شَوَاحِطِ لَبْنِي مُحَارِبِ عَلِيِّ بْنِ عَامِرٍ
- 807..... يوم حَوْزَةَ الْأَوَّلِ لِسُلَيْمِ عَلَى غُظْفَانَ
- 808..... يوم حَوْزَةَ الثَّانِي
- 808..... يوم ذَاتِ الْأَثَلِ
- 809..... يوم عَدْنِيَّةَ
- 809..... وهو يوم مَلْحَانَ
- 809..... يوم اللوى لِعُظْفَانَ عَلَى هَوَازِنَ
- 812..... يوم الصَّلْعَاءِ لِهَوَازِنَ عَلَى غُظْفَانَ
- 812..... حرب قَيْسٍ وَكِنَانَةَ
- 812..... يوم الكَدِيدِ لِسُلَيْمِ عَلَى كِنَانَةَ
- 812..... يوم بَرْزَةَ لِكِنَانَةَ عَلَى سَلِيمِ
- 813..... يوم الْفِيضَاءِ لِسُلَيْمِ عَلَى كِنَانَةَ
- 814..... حرب قَيْسٍ وَتَمِيمِ
- 814..... يوم السُّوبَانَ لِبَنِي عَامِرِ عَلَى بَنِي تَمِيمِ
- 814..... يوم أَقْرَنَ لِبَنِي عَبْسِ عَلَى بَنِي دَارِمِ
- 815..... يوم المَرَوْتَ لِبَنِي الْغَيْرِ عَلَى بَنِي قَشِيرِ
- 815..... يوم دَارَةَ مَأْسَلِ لَتَمِيمِ عَلَى قَيْسِ
- 816..... أيام بَكَرِ عَلَى تَمِيمِ
- 816..... يوم الْوَقِيطِ
- 817..... يوم النَّبَاجِ وَتَيْتَلِ لَتَمِيمِ عَلَى بَكَرِ
- 818..... يوم زُرُودِ لِبَنِي يَرْبُوعِ عَلَى بَنِي تَغْلِبِ
- 818..... أيام يَرْبُوعِ عَلَى بَكَرِ
- 818..... يوم ذِي طَلُوحِ لِبَنِي يَرْبُوعِ عَلَى بَكَرِ
- 819..... يوم الْخَائِرِ وَهُوَ يَوْمُ مَلْهَمِ. لِبَنِي يَرْبُوعِ عَلَى بَكَرِ
- 819..... يوم الْقَحْقَحِ وَهُوَ يَوْمُ مَالَةَ. لِبَنِي يَرْبُوعِ عَلَى بَنِي بَكَرِ
- 820..... يوم رَأْسِ الْعَيْنِ لِبَنِي يَرْبُوعِ عَلَى بَكَرِ
- 820..... يوم الْعِظَالِي لِبَنِي يَرْبُوعِ عَلَى بَكَرِ
- 821..... يوم الْغَبِيطِ لِبَنِي يَرْبُوعِ عَلَى بَنِي بَكَرِ

- 822..... يوم مخطط لبني يربوع على بكر
- 822..... يوم حدود
- 823..... يوم سفوان
- 823..... يوم السلي
- 824..... يوم نقا الحسن وهو يوم السَّقِيفَة - لبني ضبة علي بني شيبان
- 825..... أيام بكر على تميم
- 825..... يوم الزُّورين
- 826..... يوم الشَّيْطِين لبكر على تميم
- 826..... يوم صَعْفُوق لبكر على تميم
- 826..... يوم مبايض لبكر على تميم
- 827..... يوم فيحان لبكر على تميم
- 827..... يوم ذي قار الأول لبكر على تميم
- 828..... يوم الحاجر بكر على تميم
- 828..... يوم الشَّقِيق لبكر على تميم
- 828..... حرب البسوس وهي حرب بكر وتغلب، ابني وائل
- 830..... يوم النهي
- 831..... يوم الذَّنَاب
- 831..... يوم واردات
- 831..... يوم عُنيزة
- 832..... يوم قِضَة
- 833..... الكلاب الأول
- 833..... يوم الصفقة ويوم الكلاب الثاني
- 837..... يوم طِخْفَة
- 837..... يوم فيف الريح
- 838..... يوم تِيَّاس
- 838..... يوم زرود الأول
- 839..... يوم غول الثاني
- 839..... هو يوم كِنَهْل
- 839..... يوم الجُبَّات
- 840..... يوم إرَاب
- 840..... يوم الشَّعْب
- 840..... يوم غول الأول
- 841..... يوم الحَنْدَمَة

- 841..... يوم اللّهُمَّاء
- 842..... يوم خَزَّاز
- 842..... يوم المَعَا
- 843..... يوم النَّسَّار
- 843..... يوم ذات الشُّقُوق
- 843..... يوم خَوَّ
- 844..... أيام الفجَّار
- 844..... الفجَّار الأوَّل
- 845..... الفجَّار الثَّاني
- 845..... الفجَّار الثَّالث
- 845..... الفجَّار الآخَر
- 846..... يوم شَمِطَة
- 847..... يوم العَبَّلاء
- 847..... يوم شَرَب
- 847..... يوم الحَرِيرَة
- 848..... يوم عين أباغ وبعده يوم ذي قار
- 849..... يوم ذي قار
- 853..... كتاب الزمرَّة الثانية في فضائل الشعر
- 853..... المعلقات
- 853..... اختلاف الناس في أشعر الشعراء
- 855..... فضائل الشعر
- 860..... مَنْ قال الشعر من الصحابة والتابعين والعلماء المشهورين
- 860..... من شعراء التابعين
- 861..... ومن شعراء التابعين
- 861..... من شعراء الفقهاء المبرزين
- 862..... قولهم في الغزل
- 864..... قولهم في المدح
- 866..... قولهم في الهجاء
- 872..... مداراة الشعراء وتقيتهم
- 873..... باب في رِوَاة الشعر
- 877..... باب مَنْ استعدى عليه من الشعراء
- 881..... أي بيت تقوله العرب أشعر
- 882..... أحسن ما يجتلب به الشعر

- 882..... من رفعه المدح ووضع الهجاء
- 883..... ما يعاب من الشعر وليس يعيب
- 886..... تقبيح الحسن وتحسين القبيح
- 887..... الاستعارة
- 889..... اختلاف الشعراء في المعنى الواحد
- 897..... ما يجوز في الشعر مما لا يجوز في الكلام
- 898..... باب ما أدرك على الشعراء
- 906..... باب من أحبار الشعراء
- 909..... نوادر من الشعر
- 912..... باب من الشعر يخرج معناه في المدح والهجاء
- 912..... ما قالوه في تثنية الواحد وجمع الاثنين والواحد وإفراد الجمع الاثنين
- 913..... قولهم في جمع الاثنين والواحد
- 913..... قولهم في تذكير المؤنث وتأنيث المذكر
- 914..... باب ما غلط فيه على الشعراء
- 915..... باب من مقاطع الشعر ومخارجه
- 917..... قولهم في رقة التشبيب
- 920..... قولهم في النحول
- 923..... قولهم في التوديع
- 929..... قولهم في الحمام
- 930..... قولهم في طيب الحديث
- 931..... قولهم في الرياض
- 936..... كتاب الجوهرة الثانية في أعاريض الشعر
- 936..... فرش الكتاب
- 936..... مختصر الفرش
- 936..... باب الأسباب والأوتاد
- 936..... باب الزحاف
- 937..... باب الزحاف المزدوج
- 937..... علل الأعاريض والضروب
- 938..... باب الحرم
- 938..... باب التعاقب والتراقب
- 938..... أرجوزة العروض
- 939..... اختصار الفرش
- 939..... باب الأسباب والأوتاد

940.....	الفواصل
940.....	باب الزحاف في موضعين
941.....	باب العلل
941.....	باب الخرم
942.....	باب علل الأعاريض والضروب
943.....	باب التعاقب والتراقب
944.....	الزيادات على الأجزاء
944.....	باب نقصان الأجزاء
944.....	صفة الدوائر وصورهما
945.....	الأولى دائرة المختلف
946.....	الثانية دائرة المؤلف
946.....	الثالثة دائرة المحتلب
946.....	الرابعة دائرة المشتبه
947.....	الخامسة دائرة المتفق
947.....	إبتداء الأمثال
947.....	شطر الطويل
948.....	تقطيعه
948.....	تقطيعه
948.....	تقطيعه
949.....	شطر المديد هو مجزوء كله
949.....	تقطيعه
949.....	تقطيعه
949.....	تقطيعه
950.....	تقطيعه
950.....	تقطيعه
950.....	تقطيعه
951.....	شطر البسيط
951.....	تقطيعه
951.....	تقطيعه
952.....	تقطيعه
952.....	قطيعه
952.....	تقطيعه
952.....	تقطيعه

953.....	شطر الوافر
953.....	تقطيعه
953.....	الضرب السالم
953.....	تقطيعه
954.....	تقطيعه
954.....	شطر الكامل
954.....	تقطيعه
955.....	تقطيعه
955.....	تقطيعه
955.....	تقطيعه
956.....	قطيعه
956.....	تقطيعه
956.....	تقطيعه
956.....	تقطيعه
957.....	تقطيعه
957.....	شطر الهزج
957.....	تقطيعه
957.....	تقطيعه
958.....	شطر الرجز
958.....	تقطيعه
958.....	تقطيعه
959.....	تقطيعه
959.....	تقطيعه
959.....	تقطيعه
959.....	شطر الرمل
960.....	تقطيعه
960.....	تقطيعه
960.....	تقطيعه
960.....	تقطيعه
961.....	تقطيعه
961.....	تقطيعه
961.....	شطر السريع
962.....	تقطيعه

962.....	تقطيعه
962.....	تقطيعه
963.....	تقطيعه
963.....	تقطيعه
963.....	تقطيعه
963.....	تقطيعه
963.....	شطر المنسرح
964.....	تقطيعه
964.....	تقطيعه
964.....	تقطيعه
964.....	شطر الخفيف
965.....	تقطيعه
965.....	تقطيعه
965.....	تقطيعه
966.....	تقطيعه
966.....	الضرب المجزوء المقصور المخبون
966.....	تقطيعه
966.....	شطر المضارع
967.....	شطر المقتضب
967.....	شطر المحتث
967.....	شطر المتقارب
968.....	تقطيعه
968.....	تقطيعه
968.....	تقطيعه
968.....	تقطيعه
969.....	تقطيعه
969.....	أبيات الطويل
969.....	العروض المقبوض
969.....	محذوف معتمد
970.....	أبيات المديد
970.....	عروض مجزوء
970.....	ضرب مجزوء
970.....	مكفوف عجز

970.....	مشكول عجز
970.....	العروض المحذوف اللازم الثاني
970.....	العروض المحذوف المحبون
971.....	الضرب الأبتري
971.....	أبيات البسيط
971.....	العروض المحبون
971.....	الضرب المقطوع
971.....	العروض المجزوء
972.....	الضرب المقطوع الممنوع من الطي
972.....	العروض المقطوع الممنوع من الطي
972.....	أبيات الوافر
972.....	العروض المقطوف
972.....	الضرب المقطوف
972.....	العروض المجزوء الممنوع من العقل
973.....	أبيات الكامل
973.....	العروض التام الضرب التام
973.....	الضرب المقطوع
973.....	العروض الأحذ السالم
973.....	العروض المجزوء
974.....	أبيات الهزج
974.....	العروض المجزوء الممنوع من القبض
975.....	مكفوف
975.....	مقبوض
975.....	أثرم
975.....	أخرب
975.....	أبتري
975.....	الضرب المحذوف
975.....	أبيات الرجز العروض التام
976.....	أبيات الرمل
977.....	العروض المحذوف والجائز فيه الخبن
977.....	مخبون صدر
977.....	مكفوف عجز
977.....	مشكول عجز

977	مشكول طرفان
978	العروض المكفوف
979	العروض المنهوك المكسوف الممنوع من الطي
979	أبيات الخفيف
979	العروض التام
979	مخبون صدر
980	الضرب المحذوف الجائز فيه الخين
980	العروض المجزوء
980	العروض المجزوء الممنوع من القبض
980	أبيات المقتضب
980	الضرب المجزوء المنطوي
981	العروض المجزوء
982	الضرب الأبتري
982	علل القوافي
983	ما يجوز أن يكون تأسيساً وما لا يجوز أن يكون
984	ما يجوز أن يكون حرف روي وما لا يجوز أن يكون
987	عيوب القوافي
989	ما يجوز في القافية من حروف الدين
989	مقطعات على تأليف حروف الهجاء وضروب العروض
989	الضرب الأول من الطويل
990	الضرب الثاني من الطويل
990	الضرب الثالث من الطويل
990	الضرب الأول من المديد
990	الضرب الثاني من المديد
991	الضرب الثالث من المديد
991	الضرب الرابع من المديد
991	الضرب الخامس من المديد
991	الضرب السادس من المديد
992	الضرب الأول من البسيط
992	الضرب الثاني من البسيط
992	الضرب الثالث من البسيط
992	الضرب الرابع من البسيط
993	الضرب الخامس من البسيط

993.....	العروض المجزوء المقطوع
993.....	العروض الأول من الوافر
993.....	العروض الثاني من الوافر
994.....	العروض الثالث من الوافر
994.....	العروض الأول من الكامل التام
994.....	الضرب الثاني
994.....	الضرب الثالث
995.....	الضرب الرابع
995.....	الضرب الخامس
995.....	الضرب السادس
995.....	الضرب السابع
996.....	الضرب الثامن
996.....	الضرب التاسع
996.....	الهنج
996.....	الضرب الثاني
998.....	كتاب الباقوتة الثانية في علم الألحان واختلاف الناس فيه
998.....	فضل الصوت الحسن
999.....	اختلاف الناس في الغناء
1004.....	أخبار عبد الله بن جعفر
1006.....	أخبار ابن أبي عتيق
1009.....	أصل الغناء ومعدنه
1009.....	أخبار المغنين
1020.....	من سمع صوتاً فوافقه معناه واستخفه الطرب
1024.....	من قرع قلبه صوت فمات منه أو أشرف
1025.....	أخبار عنان وغيرها من القيان
1030.....	خير الذلفاء
1033.....	قولهم في العود
1035.....	قولهم في المردين في الغناء
1036.....	باب في الرقائق
1038.....	باب من رقائق الغناء
1040.....	كتاب المرجانة الثانية في النساء وصفاهن
1040.....	كتاب المرجانة الثانية
1040.....	قولهم في المناكح

1049	صفات النساء وأخلاقهن
1053	صفة المرأة السوء
1055	صفة الحسن
1055	قولهم في الجارية
1056	المنجبات من النساء
1056	من أخبار النساء
1056	باب الطلاق
1058	من طلق امرأته ثم تبعها نفسه
1060	مكر النساء وغدرهن
1061	السراري
1062	المهجناء
1062	مما احتجت به المهجناء
1064	باب في الأدعياء
1069	الباه وما قيل فيه
1072	كتاب الجمانة الثانية في المتبئين والمرورين والبخلاء والطفيليين
1074	أخبار المرورين والمجانين
1077	مجانين القصاص
1077	باب نوكى الأشراف
1078	أهل العي والجهل المشبهون بالمجانين
1079	النوكى من نساء الأشراف
1081	شعراء المجانين
1087	أخبار البخلاء
1089	طعام البخلاء
1093	ما قالت الشعراء في طعام البخلاء
1097	باب من أخبار البخلاء
1098	باب ما قيل في البخلاء
1099	احتجاج البخلاء
1101	رسالة سهل بن هارون في البخل
1103	أخبار الطفيليين
1109	باب من أخبار المخارفين الظرفاء
1112	كتاب الزبرجدة الثانية في بيان طبائع الإنسان وسائر الحيوان "وتفاضل البلدان"
1112	"فرش" الكتاب
1112	النفس الملكية

- 1112..... النفس الغضبية..... النفس الغضبية
- 1112..... النفس البهيمية..... النفس البهيمية
- 1114..... البنيان..... البنيان
- 1114..... قولهم في الدار الضيقة..... قولهم في الدار الضيقة
- 1114..... من كره البنيان..... من كره البنيان
- 1115..... اللباس..... اللباس
- 1115..... لباس الصوف..... لباس الصوف
- 1116..... التزين والتطيب..... التزين والتطيب
- 1117..... الرحلة والركوب..... الرحلة والركوب
- 1117..... الخيل..... الخيل
- 1117..... البغال..... البغال
- 1118..... الحمير..... الحمير
- 1118..... طبائع الإنسان وسائر الحيوان..... طبائع الإنسان وسائر الحيوان
- 1120..... ما نقص من خلقه الحيوان..... ما نقص من خلقه الحيوان
- 1120..... المشتركات من الحيوان..... المشتركات من الحيوان
- 1120..... الأنعام..... الأنعام
- 1121..... النعام..... النعام
- 1122..... الطير..... الطير
- 1123..... البيض..... البيض
- 1123..... السباع..... السباع
- 1124..... الحيوان الذي لا يصلح إلا بأمر..... الحيوان الذي لا يصلح إلا بأمر
- 1125..... مصايد الطير..... مصايد الطير
- 1126..... مصايد السباع..... مصايد السباع
- 1126..... تفاضل البلدان..... تفاضل البلدان
- 1127..... الشامات..... الشامات
- 1128..... الجزيرة..... الجزيرة
- 1128..... العراقان..... العراقان
- 1128..... فارس..... فارس
- 1128..... خراسان..... خراسان
- 1129..... مصر..... مصر
- 1129..... صفة المسجد الحرام..... صفة المسجد الحرام
- 1129..... صفة الكعبة..... صفة الكعبة
- 1131..... صفة مسجد النبي صلى الله عليه وسلم..... صفة مسجد النبي صلى الله عليه وسلم

- 1132..... صفة مسجد بيت المقدس وما فيه من آثار الأنبياء عليهم الصلاة والسلام
- 1133..... آثار الأنبياء عليهم الصلاة والسلام
- 1133..... بيت المقدس
- 1133..... نتف من الأخبار
- 1135..... نتف من الطيب
- 1137..... التعويذ والرقي
- 1137..... الحجامة والكلي
- 1138..... السم والسحر
- 1138..... العين
- 1138..... آيات في الطب وجدناها في كتاب فرج بن سلام
- 1141..... الهدايا
- 1146..... كتاب الفريدة الثانية في الطعام والشراب
- 1146..... فرش الكتاب
- 1146..... أطعمة العرب
- 1147..... أسماء الطعام
- 1147..... صفة الطعام
- 1149..... باب آداب الأكل والطعام
- 1150..... البطنة وقولهم فيها
- 1152..... الحمية وقولهم فيها
- 1153..... سياسة الأبدان بما يصلحها
- 1154..... تدبير الصحة
- 1154..... ما يصلح لكل طبيعة من الأغذية
- 1155..... الحركة والنوم مع الطعام
- 1155..... تقدير الطعام وما يقدر منه وما يؤخر
- 1155..... باب الحركة والنوم مع الطعام
- 1156..... الأوقات التي يصلح فيها الطعام
- 1156..... أنواع الأطعمة
- 1156..... الأطعمة اللطيفة
- 1157..... الأطعمة اللطيفة في نفسها الملقحة لغيرها
- 1157..... الأطعمة الغليظة في نفسها الملقحة لغيرها
- 1157..... الأطعمة الغليظة
- 1158..... الأطعمة المتوسطة
- 1158..... الأطعمة الحارة

- 1158.....الأطعمة الباردة
- 1159.....الأطعمة اليابسة
- 1159.....الأطعمة الرطبة
- 1159.....الأطعمة القليلة الفضول
- 1159.....الأطعمة الكثيرة الفضول
- 1159.....الأطعمة التي غذاؤها كثير
- 1159.....الأطعمة التي غذاؤها قليل
- 1160.....الأطعمة التي تولد كيموساً جيداً
- 1160.....الأطعمة التي تولد كيموساً رديئاً
- 1161.....الأطعمة المتوسطة الكيموس
- 1161.....الأطعمة السريعة الانهضام
- 1162.....الأطعمة البطيئة الانهضام
- 1162.....الأطعمة الضارة للمعدة
- 1162.....الأطعمة التي تفسد في المعدة
- 1162.....الأطعمة التي لا يسرع إليها الفساد في المعدة
- 1162.....الأطعمة المليئة المسهلة للبطن
- 1163.....الأطعمة التي تحبس البطن
- 1163.....الأطعمة التي تولد السدد
- 1163.....الأطعمة التي تجلو المعدة وتفتح السدد
- 1164.....الأطعمة التي تنفخ
- 1164.....ما يذهب النفخ من الأطعمة
- 1164.....كتاب إسحاق بن عمران إلى بعض إخوانه
- 1165.....الخمر المحرمة في الكتاب
- 1166.....آفات الخمر وجنبايتها
- 1172.....من حد من الأشراف في الخمر وشهر بها
- 1174.....الفرق بين الخمر والنبذ
- 1175.....مناقضة ابن قتيبة في قوله في الأشربة
- 1175.....احتجاج المحرمين لقليل النبيذ وكثيره
- 1177.....احتجاج المحللين للنبيذ
- 1182.....قصة الحارث بن كلدة طبيب العرب مع كسرى أنوشروان الفارسي
- 1185.....كتاب اللؤلؤة الثانية في النتف والهدايا والفكاهات والملح
- 1186.....باب من المفاكهاة
- 1186.....حديث عباس بن الأحنف

1188	حدث المجرد
1189	حديث صاحبة الزب
1190	خبر الهاشمي مع المضحك
1191	يوم دارة جلجل
1191	خبر دعبل وصرع الغواني
1199	خبر الحسن بن هانئ مع الأسود
1201	خبر ذي الرمة
1204	ما يكتب على العصائب وغيرها
1208	نوادير أشعب
1212	المضحكات
1222	باب اللغز
1224	أبيات من الشعر المحدث
1226	الفهرس

To PDF: www.al-mostafa.com